الملخصات النورانية لمؤلفات ابن تيمية

بقلم : عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي

المجلد الثالث

باب السيرة النبوية وأحوال الصحابة والرسل والأنبياء

حقوق الطبع مسجلة ومحفوظة

الملخصات النورانية
لمؤلفات ابن تيمية

بقلم : عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي

حقوق الطبع مسجلة ومحفوظة

نبذة عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية

الإمام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تميمة الحراني الدمشقي المتوفى 728 هـ
ولد الإمام العلامة ابن تميمة (1) سنة 661 هـ في أيام الملك الظاهر بيبرس والذي كان حاكما على مصر والشام آنذاك، وقد كان من أقوى الملوك المسلمين بعد صلاح الدين الأيوبي.
وقد ولد ابن تيمية بعد تدمير بغداد بخمس سنوات، ودخل التتار حلب ودمشق قبل مولده بثلاث سنوات فلما شب وكبر وحكى له معاصر وهذه الحملات الضارية الوحشية من التتار، حتى أن مسقط رأسه (حران) لم تسلم من أذى هؤلاء القوم المجرمين الذين لم يراعوا الله ولا الإنسانية في هذه البلاد الآمنة.
وسمع ابن تيمية ورأى وهو صبي أنهار الدماء المسفوك المسفوح تجري حوله من كل مكان وهو ابن سبع سنين تقريبا في بلدته حران التي نشأت فيها أسرته وبيته.
وفي هذا الجو المشحون بالكمد والإحن نهض لفيف من العلماء والأئمة الكبار والفقهاء أمثال ابن الصلاح والنووي والعز بن عبد السلام والمزي والذهبي، كما نبغ في عصر ابن تيمية أيضا قاضي القضاة كمال الدين الزملكاني، والقزويني والسبكي وابن حيان التوحيدي.

---

(1) راجع ترجمة شيخ الأسلام ابن تيمية في فوات الوفيات (1 / 35 - 45) والدرر الكامنة (1 / 144) والبداية والنهاية (14 / 135) وابن الوردي (2 / 284) وآداب اللغة (3 / 234) والنجوم الزاهرة (9 / 271) وتهذيب ابن عساكر (2 / 28) ودائرة المعارف الإسلامية (1 / 109) (*)

ورغم وجود هؤلاء العلماء الأفذاذ إلا أن العلماء كان مقسما بالبساطة والسطحية وقلة التعمق في المسائل الفقهية والشرعية.
واتسم الفقه آنئذ بالجمود والتحجر وليس ثمة أضر على الإسلام والمسلمين من تحجر الفكر وجمود القرائح وهذا ما حدث إبان الحروب التترية والصليبية في عصر ابن تيمية.
وإذا احتدمت الحروب لجأ الناس إلى الدين، وما أضر الناس ولا أضر المسلمين مثل القضايا الجدلية والمسائل الكلامية والفلسفة السفسطائيه التي تظهر فصاحة وبيانا وتضمر جهلا مشينا بحقائق الدين وفطرته الجميلة.
وقد كانت أسرة العلامة الفقيه الحافظ ابن تيمية أسرة علم وفضل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل بل كانت زعيمة للمذهب الحنبلي في تلك الديار إذ كان جده إماما للمذهب الحنبلي في عصره قال الذهبي: - (قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه أن الشيخ ابن مالك كان يقول: لقد ألان الله الفقه لممجد الدين بن تيمية كما ألان الحديد لداود عليه السلام) ا.
وقد درس ابن تيمية العلوم المعروفة في عصره وعني عناية خاصة باللغة العربية والنحو والصرف كما اهتم بدراسة الحساب والرياضية والحظ وأبدي اهتماما خاصا بالفقه وعلم الأصول والحديث والتفسير وعلم الفرائض، ولعل علم التفسير كان من أحب العلوم وآثرها عند ابن تيمية حتى قيل إنه كان يقرأ في الآية الواحدة نحو مائة تفسير، تأمل قوله في ذلك: - (ربما طالعت

على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم وأقول يا معلم آدم وابراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني) ا.

وقد كان ابن تيمية رحمه الله متوقد الذكاء كثير الزكانة والفطنة سريع الفهم والاستيعاب فقد كان يفتي في أمور الدين وهو ابن الثانية والعشرين من عمره.

ومصنفاف ابن تيمية ومؤلفاته تدل على سعة اطلاعه وعمق ثقافته وقوة شخصية فهو عند ما يعرض لمسائلة من المسائل أو قضية من القضايا يحشد لك كل البراهين والأدلة العقلية والعلمية ليقوى بها حجته ويؤكد بها رأيه وهو لا ينفك يستشهد بآيات القران الكريم في كل ما يتعرض له من أدلة وأثباتات فقهية أو شرعية وهو بذلك لا يترك القارئ حتى يقنعه تماما بوجهة نظره وصلابة رأيه.

ولا يخفى على أحد أن ابن تيمية حمل لواء بعث الفكر الأسلامي وتجديد العلوم الشرعية ورفع لواء التوحيد ومحاربة البدع والأهواء والردود العنيفة القوية على الفرق الهالكة التي كادت للإسلام ونقده العنيف المر للفلسفة والميتا فيزيقا وعلم الكلام وترجيح منهج الكتاب والسنة وأسلوبهما على كل أسلوب ومنهج.

لقد كان ابن تيمية حربا حامية الوطيس لم يخمد لظاها وما أخبى سعيرها على رعونة المبتدعين في عصرة إنما كان سيفا مصلتا على رقاب الخارجين والمارقين المرجفين.

وقد أورد الحافظ ابن كثير في كتابه التاريخي المشهور (البداية والنهاية)

كثيرا من مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره.

وقد كانت ثمة صراعات شتى بين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية من ناحية وبين الصوفية من ناحية أخرى وقد شدد على أقطابهم ولا سيما الذين قالوا بالحلول وبالوحدة أمثال محيى الدين بن عربي والحلاج ورماهم بالزندقة والكفر والإلحاد.

ولقاء إخلاصه في دعوته كابد ابن تيمية رحمه الله وعانى من البطش والتعذيب فقد كادله خصومه وأعداؤه ودخل السجن مرات عديدة، وقد توفي وهو في السجن رحمه الله وجزاه عن الإسلام خيرا وألحقنا به في دار كرامته.

آمين.

<u>السيد الجميلي</u>

المجلد الثالث

باب: السيرة النبوية وأحوال الصحابة

باب: الرسل والأنبياء

\1 باب: السيرة النبوية وأحوال الصحابة

الكتاب: قاعدة تتضمن ذكر ملابس النبي صلى الله عليه وسلم وسلاحه ودوابه - القرمانية

جواب فتيا: في لبس النبي صلى الله عليه وسلم

المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي)
(المتوفى: 728هـ)
المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود

تلخيص وتوضيب: عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي
(من 68 صفحة إلى 24 ص)
بعنوان: الملخص الأبي في ذكر ملابس وسلاح ودواب النبي
(صلى الله عليه وسلم)

بسم الله الرحمن الرحيم.
رب يسر يا كريم

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل الله ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

نص الأسئلة المقدمة للمصنف

ما يقول أئمة الدين علماء المسلمين في رجلين تكلما في: * لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
* وفي آلته؟ وفي آلة حربه مثل الحياصة (1) التي تحزم في الوسط والسيف والتركاش وهي الكنانة والقوس والنشاب (2) والحمال والبغال والخيل والغنم؟

(1) الحياصة: اسم لما يسميه الناس المنطقة، والمنطق بكسر ما شددت به وسطك، والنطاق والمنطق واحد (المصباح المنير) (نطق) .

(2) والكنانة: ويقال لها: الجعبة، وهي بكسر الكاف، وهي ظرف السهام، وتكون تارة من جلد، وتارة من خشب. (صبح الأعشى (1580/2)) .
وأما: (القوس) : فالقسي على ضربين:
أحدهما: العربية، وهي التي من خشب فقط، ثم إن كانت من عود واحد قيل لها (قضيب) وإن كانت من فلقين قيل لها (فلق) .
الثاني: الفارسية، وهي التي تركب من أجزاء من الخشب والقرن والعقب والغراء.
ولأجزائها أسماء يخص كل جزء منها اسم، فموضع إمساك الرامي من القوس يسمى: المقبض، ومجرى السهم فوق قبض الرامي يسمى: كبد القوس، وما يعطف من القوس يسمى: سية القوس، وما فوق المقبض من القول وهو ما على يمين الرامي يسمى: رأس القوس، وأما أسفله وهو على يسار الرامي يسمى: رجل القوس. (صبح الأعشى) (150/2.) .
وأما: (النشاب) : النشاب: النبل واحدته نشابة. =

<u>* وملابسه من القماش مثل الجوشن والخف والمهماز (1) وغيره من آلة الحرب هل كان يتخذ ذلك؟</u>
<u>* وهل كان يجمع من ذلك شيئا كثيرا؟</u>
<u>* وفي لباسة أصحابه أيضا؟</u>
<u>* وما يباح ويحرم من ذلك؛ من الذهب والفضة والحرير؟</u>

= والناشب ذو النشاب ومنه سمي الرجل ناشبا والناشبة قوم يرمون بالنشاب. والنشاب: السهام وقوم نشابة يرمون بالنشاب. (لسان العرب) (نشب) .
(1) (الجوشن) : اسم الحديد الذي يلبس من السلاح.
والجوشن: الدرع، وقيل الجوشن من السلاح: زرد يلبسه الصدر.
(لسان العرب) (جشن)
(المهماز) :المهمزة، وهي عصا في رأسها حديدة ينخس فيها الحمار.
والمهامز: مقارن النخاسين التي يهمزون بها الدواب لتسرع، واحدتها: مهمزة وهي المقرعة والمهمزة والمهماز: حديدة تكون في مؤخر خف الرائض. وسيأتي الكلام عليها ص57.
(لسان العرب) (همز) .

<u>الحمد لله وحده</u>
<u>وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم</u>
<u>الحمد لله رب العالمين</u>

<u>ما كان يتخذه النبي صلى الله عليه وسلم من أسلحة للحرب</u>

1- كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخذ:
(1) "السيف".
(2) و"الرمح".
(3) و"القوس".
(4) و"الكنانة"؛ التي هي الجعبة للنشاب وهي من جلود.

<u>ما كان يلبسه النبي صلى الله عليه وسلم في الحرب</u>

2- وكان يلبس على رأسه:
- "البيضة" (1) ؛ التي هي الخوذة.
- و"المغفر" (2) .

---

(1) (البيضة) : البيضة وهي آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه وليس فيه ما يرسل على القفا والآذان وربما كان ذلك من زرد. (صبح الأعشى) (150/2) .

(2) (المغفر) : بكسر الميم وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافا مسدوله على قفا الابس وأذنيه وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضا، وقد تكون من زرد أيضا.
(صبح الأعشى) (150/2) .

3- وعلى بدنه: "الدرع" التي يقال لها السردية والزردية (1) .

ما كان يلبسه النبي صلى الله عليه وسلم من أنواع اللباس

4- ويلبس:
(1) "القميص".
(2) و"الجبة" (2) .
(3) و"الفروج" (3) الذي هو نحو القباء، والفرجية.
5- ولبس: "القباء" أيضا.
6- ولبس في السفر: "جبة" (4) ضيقة الكمين.
7- ولبس: "الإزار" و"الرداء".
8- واشترى: "رجل سراويل" (5) .

---

(1) (الدرع) : هو جبة من الزرد المنسوج يلبسها المقاتل لوقاية السيوف والسهام وهي تذكر وتؤنث (صبح الأعشى) (151/2) .
(الزرد) : حلق المغفر، والدرع الزردة حلقة الدرع والسرد ثقبها، والجمع زرود.
والزرد مثل السرد، وهو تداخل حلق الدرع بعضها في بعض. (لسان العرب) (زرد) .
(2) (الجبة) : ضرب من مقطعات الثياب تلبس، وجمعها جبب وجباب.
والجبة: من أسماء الدرع، وجبة الرمح: ما دخل فيه من السهام.
(لسان العرب) (جبب) .
(3) (الفروج) : بفتح الباء: القباء، وقيل: الفروج قباء فيه شق من خلفه.
(لسان العرب) (الفرج) .
(4) ، (5) يأتي تخريج ذلك ص (40) .

9- وكانوا يلبسون: "السراويلات" أيضا بإذنه.
10- وكان يلبس: "الخفين"، ويمسح عليهما (1) .
11- ويلبس: "النعال" التي تسمى: التواسم (2) .
ما كان يتخذه النبي صلى الله عليه وسلم من دواب للركوب وغيره
12- وكان يركب:
(1) "الخيل".
(2) و"الإبل".
(3) و"الحمير".
13- وركب:
(4) "البغلة" أيضا.

صفة ركوبه صلى الله عليه وسلم للدواب

14- وكان يركب: "الفرس":
- تارة عريا (3) .
- وتارة مسرجا، ويطرده.

---

(1) يأتي تخرج ذلك ص (38) .

(2) مفردها: "تاسومة". وراجع: "زاد المعاد" (139/1) .
(3) البخاري (2866) . واللفظ له ومسلم (2307) . (48) عن أنس رضي الله عنه: استقبله النبي صلى الله عليه وسلم على فرس عري ما عليه سرج في عنقه سيف. =

15- وكان:
- يردف خلفه.
- وتارة: يردف خلفه وقدامه؛ فيكونون ثلاثة على دابة (1) .
ما كان يملكه النبي من دواب وسلاح في حياته وبعد مماته
16- وكان يتخذ: "الغنم" أيضا.
17- وكان له: "الرقيق" أيضا.
18- ولم يكن يجتمع في ملكه في الوقت الواحد من هذه الأمور شيء كثير.
19- بل لما مات لم يكن عنده من ذلك إلا شيء يسير؛ خلف درعه؛ وكانت مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقا من شعير ابتاعها لأهله.

= فائدة: قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "العري: بضم المهملة وسكون الراء، أي: ليس عليه سرج ولا أداة ولا يقال في الآدميين إنما يقال عريان، قاله ابن فارس: قال وهي من النوادر..
وفيه: ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من التواضع والفروسية البالغة، فإن الركوب المذكور لا يفعله إلا من أحكم الرموب وأدمن على الفروسية
وفيه تعليق السيف في العنق إذا احتاج إلى ذلك حيث يكون أعون له.
وفي الحديث ما يشير إلى أنه ينبغي للفارس أن يتعاهد الفروسية ويروض طباعه عليها، لألا يفجأه شدة فيكون قد استعد لها" (فتح الباري) (70/6) .
(1) راجع: "زاد المعاد" (159/1) وللحافظ ابن منده جزء فيمن أردفهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو مطبوع وقد أوردهم وزاد عليهم الصالحي في "سبل الهدي والرشاد" (617-606/7) .

الأحاديث الواردة في ذلك

20- وفي "صحيح البخاري" (1) عن عمرو بن الحارث -ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخي جويرية بنت الحارث- قال:
"ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما، ولا عبدا ولا أمة، ولا شيئا إلا بغلته البيضاء وسلاحه، وأرضا جعلها صدقة".
21- وفي "صحيح مسلم" (2) عن عائشة قالت: "ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارا ولا درهما، ولا شاة ولا بعيرا، ولا أوصى بشيء".
22- وعن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ودرعه رهن عند يهودي بثلاثين.
وروي: "بعشرين صاعا من شعير؛ أخذه لأهله".
رواه أهل السنن، وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح" (3) .

---

(1) البخاري (4461) .
(2) مسلم (1635) (18) .
(3) الترمذي (1214) وعنده: "بعشرين صاعا من طعام"، والنسائي (303/7) وابن ماجة (2439) وأحمد (361،236/1) والدارمي (2585) .
وعندهم: "بثلاثين صاعا من شعير".
وهو بهذا اللفظ أيضا: عند البخاري (4467) من حديث عائشة رضي الله عنها.

23- وفي الصحيحين (1) عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودي طعاما إلى أجل، ورهنه درعا له من حديد.
24- وكذلك في البخاري (2) عن أنس بن مالك: قد رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعه بشعير.
ما في الأحاديث من فوائد
25- فهذه الأحاديث تبين:
أنه حين الموت لم يكن عنده خيل ولا إبل ولا غنم ولا رقيق وإنما ترك البغلة والسلاح وبعض السلاح مرهون.
26- ولكن ملك هذه الأمور في أوقات متفرقة.
27- والمعروف: أنه كان يكون عنده الواحد من ذلك، فيكون له فرس واحد، وناقة واحدة.
28- ولم يملك من "البغال" إلا بغلة واحدة، أهداها له بعض الملوك، ولم تكن البغال مشهورة بأرض العرب.
بل لما أهديت له البغلة، قيل له: ألا ننزي الخيل على الحمر؟

---

(1) البخاري (2068) ومسلم (1603) (126) .
(2) البخاري (2508) .

فقال: "إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون" (1) .
29- وكذلك: آلات السلاح كـ:
"السيف" و"الرمح" و"القوس".
لم يذكر عنه أنه كان يقتني لنفسه أكثر من واحد.
30- وأما "الغنم":
فقد روي (2) : أنه اقتنى مائة شاة؛ وقال: "إن لنا مائة شاة، لا نريد أن تزيد، فكلما ولد الراعي بهمة ذبحنا مكانها أخرى".

---

(1) أحمد (766، 785، 1359) ، وأبو داود (2565) ، والنسائي () 2241/6 وابن حبان (4682) والبيهقي (22/10) .
وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على "المسند."
"الذين لا يعلمون": قال الطحاوي رحمه الله: "أي أنهم يتركون بذلك لإنتاج ما في ارتباطه الأجر، وينتجون ما لا أجر في ارتباطه".
"شرح معاني الآثار" (271/3) .
(2) رواه أحمد (211،33/4) ، وأبو داود (1472) ، والبخاري في "الأدب المفرد" (166) والحاكم (123/4) وابن حبان (332/3) والبيهقي (303/7) .
وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" (131،130)
"بهمة": قال الخطابي رحمه الله: "البهمة ولد الشاة أول ما يولد، يقال للذكر والأنثى: بهمة". "معالم السنن" (105/1) .

آلات الحرب في القرآن الكريم
31- وقد ذكر الله تعالى: آلات الحرب في كتابه:
السيف
32- فقال في "السيف":
{سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان} (الأنفال: من الآية12) .
33- وقال: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب} (محمد: من الآية4) . وهذا الضرب للأعناق وبنان الأصابع هو بـ"السيف".
القوس والنشاب
34- وقال في "القوس والنشاب":
{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل} (الأنفال: من الآية60) .
35- وفي "صحيح مسلم" (1) عن عقبة بن عامر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ وهو على المنبر: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل} (الأنفال: من الآية60) .

ثم قال: "ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي".

---

(1) مسلم (1918) (167) . وللحافظ أبي يعقوب القراب رحمه الله (ت429هـ) جزء في "فضائل الرمي في سبيل الله" وهو مطبوع.

36- وفي "صحيح مسلم" (1) عنه أيضا أنه قال: "ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا، ومن تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا".
وفي رواية: "فهي نعمة جحدها" (2) .

الرماح

37- وكذلك "الرماح":
قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم} (المائدة: من الآية94) .
وقد فسرت بالرماح المتصلة باليد.
وفسرت بالنشاب أيضا.

الدرع

38- وكذلك "الدرع":
39- قال تعالى في قصة داود: {وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم} (الأنبياء: من الآية80) .

---

(1) الذي في مسلم عنه (1919) (169) هي الجملة الأخيرة بلفظ: "من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى". وأكمل اللفظ الذي ذكره المصنف فهو عند أحمد (144/4، 146، 148) وأبي داود (2513) والترمذي (1637) وقال: "حديث حسن صحيح" وابن ماجة (2811) والدارمي (2405) والطيالسي (1007) .
(2) الطبراني في "المعجم الصغير" (543) وفي الأوسط (4177) بلفظ: "فهي نعمة كفرها".

40- وقال: {ولقد آتينا داود منا فضلا, يا جبال أوبي معه والطير، وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر في السرد} (سبأ: 9، 10) . فكان الحديد بيده بمنزلة العجين.
والسابغات: هي الدروع الكاملة التي تكون لها أيدي وأفخاذ.
41- وقال تعالى: {والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون} (النحل:81) .

آلات الحرب في السنة المطهرة

42- وقد جاء ذكر هذه الأمور في الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا:

السيف

43- فأما "السيف":
44- ففي "الصحيحين" (1) عن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس.
ولقد فزع أهل المدينة فزعا ذات ليلة، فخرجوا نحو الصوت. فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد سبق الناس إلى الصوت، وقد استبرأ الخبر، وهو يقول: "لم تراعوا، لم تراعوا".
ثم قال: "إن وجدناه لبحرا" أو قال: "إنه لبحر".
45- وعن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفل سيفه "ذا الفقار" يوم بدر.
رواه الإمام أحمد، وابن ماجه والترمذي، وقال: "حديث حسن" (2) .

---

(1) البخاري (6033) ومسلم (2307) (48) .
"لم تراعوا": أي روعا مستقرا أو روعا يضركم.
"وجدناه بحرا": أي واسع الجري. "شرح النووي لمسلم" (67/15، 68) .

(2) رواه أحمد (271/1) والترمذي (1561) ، وقال: "حديث حسن غريب"، وابن ماجه (2808) ، وصححه الحاكم (141/2، 42/3) .

أشياء لا أصل لها بين الناس

46- وأما ما يذكره بعض الناس:

- أن "ذا الفقار" (1) كان سيفا منزلا من السماء!

- وأنه كان لـ"علي"، وكان يطول إذا قاتل به!

فكل هذا كذب باتفاق أهل المعرفة بهذه الأمور.

47- وكذلك: ما يذكره بعض الناس من أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم سبعة أسياف؛ لا أصل له (2) .

---

(1) قال المصنف رحمه الله: "وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد قال: رأيت في سيفي ذي الفقار فلا فأولته فلا يكون فيكم، ورأيت أني مردف كبشا، فأولته كبش الكتيبة، ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة ورأيت بقرا تذبح فبقر والله خير. فكان الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا الكذب المذكور في ذي الفقار من جنس كذب بعض الجهال أنه كان له سيف يمتد إذا ضرب به كذا وكذا دراعا وهذا مما يعلم العلماء أنه لم يكن قط لا سيف علي ولا غيره، ولو كان سيفه يمتد لمده يوم قاتل معاوية" "منهاج السنة النبوية" (103/8) .

(2) ذكر الحافظ ابن القيم رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له تسعة أسياف فقال:

"كان له تسعة أسياف: "مأثور"، وهو أول سيف ملكه ورثه من أبيه و"العضب" و"ذو الفقار" بكسر الفاء وفتح الفاء وكان لا يكاد يفارقه، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من فضة، و"القلعي"، و"البتار"، و"الحتف" و"الرسوب"، و"المخذم" و"القضيب"" "زاد المعاد" (130/1) .

وكذا عده تسعا: ابن جماعة في "مختصر السيرة".

ونقله عنه التلمساني في "تخريج الدلالات السمعية" (409) .

وكذا عدها تسعا: الحافظ العراقي رحمه الله في ألفيته للسيرة (268- بشرح المناوي) .

وعدها الصالحي أحد عشرة سيفا "سبل الهدى والرشاد" (581/7-584) .

الرمح

48- وأما "الرمح" (1) :

49- فقال البخاري في "صحيحه" (2) : ويذكر عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: "جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري".

50-[و] رواه الإمام أحمد (3) ، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل "رمحي"، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم".

51- وروى أبو داود بعضه (4) .

---

(1) ذكر الحافظ ابن القيم رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له خمسة أرماح "زاد المعاد" (131/1) وكذا عدها خمسا: ابن جماعة في "مختصر السيرة". ونقلها عنه التلمساني في "تخريج الدلالات السمعية" (415) . وأيضا: الحافظ العراقي رحمه الله في ألفيته للسيرة (267 - بشرح المناوي) . والصالحي في "سبل الهدى والرشاد" (585/7) .

(2) البخاري (98/6 - الجهاد والسير - الفتح) باب ما قيل في الرماح.

(3) رواه أحمد (50/2، 92) وابن أبي شيبة في المصنف (313/5، 351/12) بإسناد جيد، كما قال المصنف في "اقتضاء الصراط" ص (82) وحسن إسناده الحافظ في "الفتح" (98/6) ، وللحافظ ابن رجب شرح مفرد لهذا الحديث بعنوان "الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بالسيف بين يدي الساعة". وما بين المعكوفتين زيادة ليستقيم بها السياق.

(4) أبو داود (4031) .

حديث جامع في أسماء آلاته

52- وقد روى الطبراني في "معجمه" (1) حديثا جامعا في: أسماء آلاته؛ عن ابن عباس قال:
كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سيف قائمته من فضة، وقبيعته من فضة وكان يسمى: "ذا الفقار".
وكان له قوس يسمى: "السداد".
وكانت له كنانة تسمى: "الجمع".
وكانت له درع موشحة بالنحاس تسمى: "ذات الفضول".
وكانت له حربة تسمى: "النبعاء" (2) .
وكان له مجن (أ) يسمى: "الدقن" (ب) .

---

(1) "المعجم الكبير" (111/11) برقم (11208) .
وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (272/5) : "وفيه علي بن عروة متروك"، قال ابن حبان في "المجروحين" (107/2) : "شيخ يروي عن ابن المنكدر روى عنه العراقيون، كان ممن يضع الحديث على قلته" ثم أورد له هذا الحديث. وقد حكم بوضعه أيضا ابن الجوزي كما في "ميزان الإعتدال" (176/5) .
وراجع: الكلام على أسماء دوابه وسلاحه في: "سبل الهدى والرشاد" (7/581-675) و"تهذيب الأسماء" للنووي (60/1) .
(2) "النبع": شجر ينبت في قلة الجبل تتخذ منه القسي والسهام.
"النبات" للأصمعي (36) .

(أ) هكذا في الأصل كما في الطبراني وجاءت في "زاد المعاد": "محجن".
(ب) في الطبراني "الذقن" وفي "مجمع الزوائد": "الدفن".

وكان له ترس أبيض يسمى: "الموجز".
وكان له فرس أدهم يسمى: "السكب".
وكان له سرج يسمى: "الداج" (أ) .
وكانت له بغلة شهباء يقال لها: "دلدل".
وكانت له ناقة تسمى: "القصواء".
وكان له حمار يسمى: "يعفور".
وكان له بساط يسمى: "الكر" (ب) .
وكانت له عنزة (1) تسمى: "النمر" (ج) .
وكانت له ركوة تسمى: "الصادر".
وكانت له مرآة تسمى: "المرآة".
وكان له مقراض يسمى: "الجامع".
وكان له قضيب شوحط (2) يسمى: "المشوق".

---

(1) العنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئا، وفيها سنان مثل سنان الرمح، والعكازة قريب منها. "النهاية" لابن الأثير (308/3) .
(2) قال المبرد: "النبع وشوحط والشريان في الشجر التي تعمل منه القسي، شجرة واحدة وتختلف أسماؤها باختلاف أماكنها" راجع: "تخريج الدلالات" ص (418) .

(أ) في مجمع الزوائد "الداح".
(ب) في الأصل: "الكرد" وما أثبته من الطبراني والمجمع، وفي الزاد: "الكن"!!
(ج) في الزاد: القمرة.

الدرع

53- وفي "صحيح البخاري" (1) عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وهو في قبة: "اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم".
فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك، وهو في "الدرع".
فخرج وهو يقول: {سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} (القمر:45، 46) .
54- وروى "أهل السنن" (2) : أن النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر يوم أحد بين درعين.
55- وفي "الصحيحين" (3) عن سهل بن سعد (أ) أنه سئل عن جرح النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد؟ فقال: جرح وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته، وهشمت "البيضة" على رأسه.

---

(1) البخاري (2915) .
(2) أحمد (449/3) وأبو داود (2590) والنسائي في الكبرى (8583) والبيهقي (46/9) وأبو يعلى (660) والطبراني في الكبير (6669) من حديث السائب بن يزيد. "ظاهر يوم أحد بين درعين": أي لبس أحدهما فوق الآخر، والتظاهر بمعنى التعاون والتساعد" "عون المعبود" (253/7) وذكر ابن القيم "في الزاد" (130/1) أنه صلى الله عليه وسلم كان له سبعة أدرع.
(3) البخاري (2911) ومسلم (1790) (101) . =

(أ) في الأصل: "أسعد" والتصويب من الصحيحين.

فكانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تغسل الدم، وكان علي يسكب عليها بالمجن.
فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير، فأحرقته حتى صار رمادا، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم. أخرجاه في "الصحيحين".

المغفر

56- وعن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عام الفتح وعلى رأسه "المغفر".
فلما نزعه، جاء رجل فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة؟! فقال: "اقتلوه". أخرجاه في "الصحيحين" (1) .

القميص

57- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القميص". رواه أهل السنن، وقال الترمذي: "حديث حسن" (2) .

= "وكسرت رباعيته": هي بتخفيف الياء، وهي السن التي تلي الثنية من كل جانب وللإنسان أربع رباعيات، وفي هذا وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا جزيل الأجر ولتعرف أممهم وغيرهم ما أصابهم ويتأسوا بهم..
"يسكب عليها بالمجن": أي يصب عليها بالترس، وهو بكسر الميم. "شرح النووي لمسلم" (148/12) .
(1) البخاري (1846) ومسلم (1357) (450) .
(2) رواه أحمد (317/6) وأبو داود (4025) والترمذي (1762، 1763، 1764) وابن ماجه (3575) والحاكم (192/4) وصححه الألباني في مختصر الشمائل (46) .

58- وروى أهل السنن (1) أيضا عن أسماء بنت يزيد قالت: كان يد كم قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرسغ.
قال الترمذي: "حديث حسن".

القباء

59- وفي "الصحيحين" (2) وغيرهما عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه أنه قال:
قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم "أقبية"، ولم يعط مخرمة شيئا.
قال مخرمة: يا بني انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقت معه.
قال: ادخل فادعه لي.

قال: فدعوته، فخرج إليه وعليه "قباء" منها.
فقال: خبأت هذا لك.
قال: فنظر إليه.
قال: رضي مخرمة.

---

(1) أبو داود (4027) والترمذي (1765) وفي "الشمائل" (57) والنسائي في الكبرى (9666) وقال: "حديث حسن غريب"، وضعفه الألباني في "ضعيف الترمذي" (295) .
(2) البخاري (2599) ومسلم (1058) (129) .
قوله: "رضي مخرمة": قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "قال ابن التين: يحتمل أن يكون من قول مخرمة. قلت (أي ابن حجر) : وهو المتبادر للذهن" "فتح الباري " (223/5) .

الإزار والرداء والقميص
60- وذكر: "الإزار والرداء" له في أحاديث كثيرة مشهورة. وكذلك ذكر "القميص" (1) .
61- مثل ما في "الصحيحين" (2) عن جابر بن عبد الله قال: "أتى النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي، بعد ما أدخل قبره، فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه، ونفث عليه من ريقه وألبسه "قميصه". والله أعلم.
62- وفيهما (3) عن عبد الله بن عمر قال:
لما توفي عبد الله بن أبي؛ جاء ابنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! أعطني "قميصك" أكفنه فيه، وصل عليه، واستغفر له.
فأعطاه "قميصه" وقال: إذا فرغت فآذنا.
فلما فرغ آذنه به، فجاء ليصلي عليه.
فجذبه عمر فقال: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة

---

(1) راجع: "سبل الهدى والرشاد" (164-463/7، 476-482) .
(2) البخاري (5795) ومسلم (2774) (3) .
(3) البخاري (1269) ومسلم (2400) (25) .

فلن يغفر الله لهم} (أ) (التوبة: من الآية80) .
فنزلت: {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره} (التوبة: من الآية84) ، فترك الصلاة عليهم.
الجبة الضيقة الكمين
63- وأما "الجبة الضيقة الكمين":
64- ففي "الصحيحين" (2) عن المغيرة بن شعبة قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة في سفر، فقال أمعك ماء؟
قلت: نعم.
فنزل عن راحلته فمشى حتى توارى عني في سواد الليل.
ثم جاء، فأفرغت عليه الإداوة، فغسل وجهه ويديه وعليه جبة من صوف فلم يستطع أن يخرج ذراعيه منها.
وفي رواية (3) : جبة شامية - فذهب يخرج يديه من كميه فكانا ضيقين، فأخرج يديه من أسفل الجبة، فغسل ذراعيه ثم مسح برأسه، ثم أهويت لأنزع خفيه.
فقال: "دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين" فمسح عليهما.

---

(1) البخاري (5799) ومسلم (274) (79) .
(2) مسلم (274) (77) .

(أ) تكررت في الأصل جملة {إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} .

(38/1)

الفروج

65- وأما "الفروج":

ففي "الصحيحين" (1) عن عقبة بن عامر أنه قال:

أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فروج حرير، فلبسه ثم صلى فيه. ثم انصرف فنزعه نزعا شديدا كالكاره له.

ثم قال: "لا ينبغي هذا للمتقين".

وإنما نزعه لكونه حريرا.

قال البخاري: "الفروج هو القباء" (2) .

ويقال: هو الذي له شق من خلفه.

السراويل

66- وأما "السراويل" وغيره:

ففي "الصحيحين" (3) عن ابن عمر قال:

سئل رسول الله: ما يلبس المحرم من الثياب؟

فقال: "لا يلبس القميص، ولا العمائم، ولا البرانس، ولا السراويلات، ولا الخفاف".

---

(1) البخاري (375) ومسلم (2075) (23) .

(2) البخاري: كتاب اللباس (269/10 - الفتح) : باب القباء وفروج الحرير وهو القباء، ويقال هو الذي له شق من خلفه.

(3) البخاري (1543) ومسلم (1177) (2) .

67- وفي "سنن أبي داود" (1) أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى رجل سراويل وزان يزن بالأجر، فقال: "زن وأرجح".

قال: "خير الناس أحسنهم قضاء".

وفي لفظ: أنه اشترى سراويل.

الأفضل في لبس القميص والرداء

68- وقد قال العلماء: الأفضل أن يلبس:

مع "القميص": "السراويل".

ومع "الرداء" الذي يكون على المنكبين: يلبس "الإزار".

لأن: "السراويل" تبدي حجم الأعضاء.

و"القميص" يستر ذلك، ولا يستره "الرداء".

---

(1) رواه أحمد (18620) وأبو داود (3336) والترمذي (1305) والنسائي (4592، 4593) وابن ماجه (2220، 2221) وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح وأهل العلم يستحبون الرجحان في الوزن".

وقد صححه الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (272/10) . ونقل عن ابن القيم رحمه الله قوله: "اشترى صلى الله عليه وسلم السراويل، والظاهر أنه إنما اشتراه ليلبسه" ثم قال: "وروي في حديث أنه لبس السراويل، وكانوا يلبسونه في زمانه وبإذنه" اهـ. وراجع: "زاد المعاد" (139/1) .

هديه صلى الله عليه وسلم في اللباس وغالب ما كان يلبسه

69- وكان أغلب ما يلبسه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما ينسج من القطن. وربما لبسوا ما ينسج من الصوف وغيره (1) .

70- كما روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناد صحيح (2) ، عن جليس لأيوب (أ) قال: دخل الصلت بن راشد على محمد بن سيرين وعليه جبة صوف وإزار صوف وعمامة صوف فاشمأز منه محمد (ب) وقال: "أظن أن أقواما يلبسون الصوف يقولون

قد لبسه عيسى بن مريم، وقد حدثني من لا أتهم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد لبس الكتان والقطن واليمنية وسنة نبينا أحق أن تتبع".

ذم الغلو في باب اللباس والأكل

71- ومقصود ابن سيرين بهذا:
أن أقواما يرون أن لبس الصوف دائما أفضل من غيره فيتحرون ذلك؛ تزهدا أو تعبدا.
كما أن أقواما يرون أن ترك أكل اللحم وغيره من الطيبات دائما....

---

(1) نقل هذه الفقرة وما بعدها ابن القيم "زاد المعاد" (143/1) .
وعن ابن القيم: الشوكاني في "نيل الأوطار" (110/2) .
(2) "أخلاق النبي وآدابه" ص (123) وفي رواية لابن المبارك في الزهد (64 - زوائد نعيم بن حماد) قال: نا حماد بن زيد قا حدثني رجل أن الصلت دخل على ابن سيرين فذكره.

(أ) في الأصل: "جليس بن أيوب" وفي "زاد المعاد" ونقله عنه في "نيل الأوطار": جابر بن أيوب!! وما أثبته من أخلاق النبي.
(ب) في الأصل: "محمد بن "!!

أفضل من غيره فيتحرون ذلك.
ويحرمون على أنفسهم طيبات ما أحل الله لهم، حتى يروا التبتل أفضل من التأهل ونحو ذلك.
وهذا خطأ وضلال!!
بل يجب أن يعلم: أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد.
72- كما ثبت في الصحيح (1) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة بهذا فيقول: "إن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة".
73- وفي مثل هؤلاء أنزل الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} (المائدة:78، 88) .
74- وفي "الصحيحين" عن أنس بن مالك قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها.

---

(1) مسلم (867) (43) .

فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟!
فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا.
وقال الآخر: أنا أصوم الدهر أبدا.
وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.
فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "أنتم الذين (أ) قلتم كذا وكذا، أما والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".
رواه البخاري (1) ، وهذا لفظه.
75- ومسلم أيضا (2) ، ولفظه: عن أنس: أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر؟
فقال بعضهم: لا أتزوج النساء.
وقال بعضهم: لا آكل اللحم.

---

(1) البخاري (5063) .
(2) مسلم (1401) (5) .

(أ) في الأصل: "الذي" والتصويب من الصحيحين وهو الموافق للسياق.

وقال بعضهم: لا أنام على فراش.
فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: "ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".
76- وفي "الصحيحين" (1) عن سعد بن أبي وقاص قال: رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا.
تعريف الراغب عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم
77- والراغب عن سنته: هو الذي يعدل عنها إل غيرها تفضيلا لذلك الغير عليها؛ ولهذا تبرأ منه النبي صلى الله عليه وسلم.
78- كما قال: "من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا" (2) .
79- وأما إذا لم يرغب عنها بل فعل المفضول مع كونه مفضلا لهدي النبي صلى الله عليه وسلم باعتقاده ومحبته، فهذا لا يأثم إلا أن يترك واجبا أو يفعل محرما.

---

(1) البخاري (5074) مسلم (1402) (6) .
(2) مسلم (101) (164) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مع تقديم الجملة الثانية على الأولى. وهو بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف في "مسند الشهاب" برقم (352) ، وقد جاءت كل جملة منه في روايات كثيرة.

80- وقد ثبت عنه في الصحيح (1) أنه قال: "أفضل القيام قيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأفضل الصيام صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما".
81- وكذلك ثبت عنه في الصحيح (2) أنه نهى عبد الله بن عمرو (أ) عن سرد الصيام والمداومة على قيام الليل كله، وأخبره أن أفضل الصوم وأعدله صيام يوم وفطر يوم.
82- فيجب أن يعلم:
أن هذا أفضل مما فعله كثير من السلف والخلف بصلاة الصبح بوضوء العشاء الآخرة كذا كذا سنة، ومن صيام الدهر حتى لا يفطروا إلا الأيام الخمسة، ومن التبتل ونحو ذلك (3) .

---

(1) البخاري (1131) ومسلم (1159) (189) .
(2) البخاري (1131) ومسلم (1159) (186) .
(3) فائدة: قال الحافظ الذهبي رحمه الله:
في ترجمة أبي بكر بن عياش رحمه الله: "وقد روي من وجوه متعددة أن أبا بكر بن عياش مكث نحوا من أربعين سنة يختم القرآن في كل يوم وليلة مرة، وهذه عبادة يخضع لها، ولكن متابعة السنة أولى فقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عبد الله بن عمرو أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، وقال عليه السلام: لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث" "سير أعلام النبلاء" (503/8) وقال في ترجمة الإمام وكيع بن الجراح رحمه الله: "وعن يحيى بن أكثم قال: صحبت وكيعا في الحضر والسفر وكان يصوم الدهر ويختم القرآن كل ليلة. =

(أ) في الأصل: "عبد الله بن عمر" والتصويب من مصادر التخريج.

83- وإن كان كثير من فقهائنا وعبادنا يرون هذا أفضل من غيره فهذا غلط منهم!
84- والصواب: أن أفضل الطريق طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم التي سنها وأمر بها ورغب فيها وأمر بها، والتي داوم عليها.
85- وكان هديه في اللباس: أن يلبس ما تيسر من اللباس من قطن أو صوف أو غيرهما (1) .
86- فالذي رغب عما أباحه الله من لباس القطن والكتان وغيرهما تزهدا أو تعبدا آثم، نظير الذين يمتنعون عن لباس الصوف ونحوه ولا يلبسون إلا أعلى الثياب ترفها وتكبرا كلاهما مذموم.

ذم ثوب الشهرة
87- ولهذا قال بعض السلف: "كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب: العالي والمنخفض" (2) .

____

= قلت: هذه عبادة يخضع لها ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة فقد صح: نهيه عليه السلام عن صوم الدهر، وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، والدين يسر ومتابعة السنة أولى فرضي الله عن وكيع وأين مثل وكيع". "سير أعلام النبلاء" (142/9، 143) .
(1) راجع: "زاد المعاد" (142/1، 143) حيث نقل ابن القيم معظم هذه الفقرات.
(2) فمن ذلك: ما رواه ابن أبي الدنيا في "التواضع والخمول" (64) ، وفي "إصلاح المال" (400) عن سفيان الثوري قال: "كانوا يكرهون الشهرتين: الثياب الجياد التي يشتهر فيها ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم، والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ويستذل دينه".
وراجع أيضا: "تلبيس إبليس" (238) .

____

88- وقد روى أبو داود والنسائي وابن ماجه (1) عن ابن عمر يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من لبس ثوب شهرة؛ ألبسه الله يوم القيامة ثوبا مثله".
89- وفي رواية: "ثوب مذلة ثم تلتهب فيه النار" (2) .

ذم ثوب الخيلاء

90- وهذا لأنه قصد به الاختيال والفخر؛ فعاقبه الله بنقيض ذلك فأذله كما يعاقب الذي يطيل ثوبه خيلاء بأن خسف به الأرض ونحو ذلك كما فعل بـ"قارون".
91- وفي "الصحيحين" (3) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بينما رجل يجر إزاره خيلاء خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة".
92- وفي "الصحيحين" (4) عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من جر ثوبه خيلاء؛ لم ينظر الله إليه يوم القيامة".

____

(1) أبو داود (4029) واللفظ له، وابن ماجه (3606) وأحمد (92/2و139) والنسائي في الكبرى (9560) بلفظ "ثوب مذلة".
(2) ابن ماجه (3607) . وحسنه الألباني في "صحيح ابن ماجه" (201/3) .
(3) البخاري (5452) ومسلم (2088) (49) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بينما رجل يمشي قد أعجبته جمته وبرداه إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة".
واللفظ المذكور: عند البخاري (3297) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(4) البخاري (3656) ومسلم (2085) (44) .

____

الإسبال في الإزار

93- وقد روى أبو داود والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الإسبال في القميص والإزار والعمامة، من جر منها شيئا خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة" (1) .
94- وروى أبو داود (2) عن ابن عمر قال: ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في القميص فهو في الإزار.

حكم لبس الدني والرفيع من الثياب

95- وكذلك لبس الدني من الثياب مكروه، ولبسه تواضعا محمود كما أن لبس الرفيع تكبرا مذموم، ولبسه إظهارا لنعمة الله وتجملا محمود.
96- ففي "صحيح مسلم" (3) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال خردل من إيمان".
قال رجل: يا رسول الله إني أحب أن يكون ثوبي حسنا ونعلي حسنا أفمن الكبر ذلك؟

____

(1) أبو داود (4094) والنسائي في الكبرى (491/5) برقم (9720) وفي المجتبى (208/8) برقم (5334) وابن ماجه (3576) .
(2) أبو داود (4095) وأحمد (137/2) والبيهقي (244/2) .
(3) مسلم (91) (147) .

فقال: "لا. إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس".
97- وقد ذكرنا الحديث الصحيح الذي في "البخاري" (1) وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم لبس في السفر "جبة" من صوف.
98- وعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال:
قال أبي: يا بني لو رأيتنا ونحن مع نبينا وقد أصابتنا السماء؛ حسبت أن ريحنا ريح الضأن.
رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي (2) وقال: "صحيح".
الشعر
99- وكذلك "الشعر":
100- فعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [ذات غداة] ، وعليه مرط مرحل من شعر أسود.
رواه مسلم وغيره (3) .

---

(1) راجع ما تقدم ص (8) .
(2) رواه أبو دود (4033) وابن ماجه (3562) والترمذي (2479) وأحمد (407/4، 419) وصححه ابن حبان (1235) والحاكم (208/4) .
وقال الترمذي: "ومعنى هذا الحديث: أنه كان ثيابهم الصوف، فإذا أصابهم مطر يجيء من ثيابهم ريح".
(3) مسلم (2081) وأحمد (24767) وما بين المعقوفتين زيادة منهما.

101- وفي "الصحيحين" (1) عن أبي بردة قال:
دخلت على عائشة؛ فأخرجت إلينا إزارا غليظا مما يصنع باليمن، وكساء من التي يسمونها الملبدة (أ) .
فأقسمت بالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض في هذين الثوبين.
أحب الثياب إلى النبي صلى الله عليه وسلم
102- لكن كان المنسوج من القطن ونحوه أحب إليه من الصوف.
103- كما أخرجاه في "الصحيحين" (3) عن قتادة قال:
قلنا لأنس: أي اللباس كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أعجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
قال: الحبرة.
104- و"الحبرة" (4) : برود اليمن؛ فإن غالب لباسهم كان من

---

(1) البخاري (5818) ومسلم (2080) (34) .
"ملبدا": أي ثخن وسطه وصفق حتى صار يشبه اللبد، ويقال هنا المرقع.
"فتح الباري" (214/6) .
(2) البخاري (5812) ومسلم (2079) (32) .
(3) "الحبرة": "قال الجوهري: الحبرة بوزن عنبة برد يمان. وقال الهروي: موشية مخططة. وقال الداودي: لونها أخضر لأنها لباس أهل الجنة. كذا قال. وقال ابن بطال: هي من برود اليمن تصنع من قطن وكانت أشرف الثياب عندهم. وقال القرطبي: سميت حبرة لأنها تحبر أي تزين والتحبير: التزيين والتحسين" "فتح الباري" (277/10) .

(أ) في الأصل: "المبلدة" والتصويب من مصادر التخريج.

نسج اليمن؛ لأنها قريبة منهم، وربما لبسوا ما يجلب من الشام ومصر؛ كالقباطي (1) المنسوجة من الكتان التي ينسجها القبط.
105- وقد روي ذلك في "السنن" (2) .

(1) "القباطي": ثياب بيض تصنع بمصر، واحدها قبطية وقبطية بضم القاف وكسرها.
"الإملاء المختصر في شرح غريب السير" (33/3) .
وقال في" عون المعبود" (174/11) : "القباطي": بفتح القاف وموحدة وكسر طاء مهملة وتحتية مشددة جمع قبطية، وهي على ما في "النهاية": ثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء كأنه منسوب إلى القبط، وهم أهل مصر، وضم القاف من تغيير النسب، وهذا في الثياب، فأما في الناس فقبطي بالكسر وفي "المصباح": والقبطي ثوب من كتان رقيق يعمل بمصر نسبة إلى القبط".
(2) أبو داود (4060) ، والترمذي (1787) ، والنسائي في "الكبرى" (9646) وفي "المجتبى" (203/8) برقم (5315) ، وأحمد (134/3، 184، 251، 291) .
وقال الترمذي: "حسن صحيح غريب".

هديه صلى الله عليه وسلم في الطعام وما كان يأكله

106- وكذلك: كانت سيرته في الطعام: لا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا.
107- فما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله إلا أن تعافه نفسه.
108- وما عاب طعاما قط؛ إن اشتهاه أكله وإلا تركه.
109- كما ترك الضب؛ لأنه لم يكن قد اعتاد أكله ولم يحرمه على الناس بل أكل على مائدته، وقال: "ليس بحرام ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه" (1) .
110- وكان: يحب: الحلواء والعسل.
- ويأكل: القثاء بالرطب.
- ويأكل: لحم الدجاج وغيره.
111- وكان أحيانا:
- يربط على بطنه الحجر من الجوع.
- ويرى الهلال فالهلال فالهلال، [و] (أ) لا يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم نار (2) .

(1) البخاري (5400) ومسلم (1945) (43) عن ابن عباس عن خالد بن الوليد.
(2) راجع: "زاد المعاد" (147/1، 148) حيث نقل هذا الفصل بكامله.

(أ) ما بين المعقوفتين زيادة من "زاد المعاد" يستقيم بها السياق.

هديه صلى الله عليه وسلم في لبس العمامة

112- وكان أيضا صلى الله عليه وسلم يلبس "العمامة" على "القلنسوة" (1) وكذلك أصحابه؛ وكانوا مع ذلك يركبون الخيل، ويطردونها ويقاتلون في سبيل الله (2) ؛ ولهذا كانوا يديرون العمائم تحت أذقانهم، ويسمى ذلك "التلحي".

معنى الاقتعاط

113- وفي "غريب أبي عبيد" (3) : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتلحي ونهى عن الاقتعاط. وفسر أبو عبيد "الاقتعاط" عن أبي نعيم: ولا يدير عمامته تحت ذقنه.
114- وقد روي عن غير واحد من الصحابة والتابعين كراهة هذه العمة (4) .
115- وكان أهل الشام لمحاربتهم للعدو ومقاتلتهم إياه محافظين على هذه السنة؛ كما ذكر ذلك الإمام أحمد وغيره.

(1) راجع: "زاد المعاد" (135/1) .
(2) راجع: "المصنف لابن أبي شيبة" (181/5) و"مسند ابن الجعد" (448/1) و"المعجم الكبير" (104/4) .

(3) "غريب الحديث" لأبي عبيد (120/3) : وقال أبو عبيد: "أصل هذا في لبس العمائم وذلك أن العمامة يقال لها المقعطة، فإذا لاثها المعتم على الرأس ولم يجعلها تحت حنكه قيل اقتعطها فهو المنهي عنه، فإذا أدارها تحت الحنك قيل تلحاها تلحيا وهو المأمور به".
وراجع أيضا: "غريب الحديث" لابن الجوزي (256/2) ، و"النهاية" لابن الأثير (88/4، 243) و"الفائق" للزمخشري (310/3) .
(4) راجع: "الجامع" لمعمر بن راشد (80/11) ، و"شعب الإيمان" (176/5) و"أحكام أهل الذمة" (1280/3) .

تفسير التلحي

116- و"التلحي": ليس هو التلثم على الفم والأنف، فإن ذلك مكروه في الصلاة؛ ولكن "التلحي": أن يشد العمامة ويربطها على الحنك؛ بحيث تثبت العمامة على الرأس وهي نظير الكلاليب والخيوط التي تتخذها الأجناد في زماننا لشد عمائمهم على رؤسهم.

المسح على العمامة

117- وقد استفاضت الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه: مسح على عمامته، ورخص في المسح على العمامة" (1) .

118- حتى قال عمر بن الخطاب: "من لم يطهره المسح على العمامة فلا طهره الله" (2) .

---

(1) قال المصنف رحمه الله: "المسح على العمامة: إجماع الصحابة؛ ذكره أبو إسحاق والترمذي عن أبي بكر وعمر، وقال أبو إسحاق الشالنجي: روي المسح على العمامة عن ثمانية من الصحابة وهم: أبو بكر وعمر وعلي وسعد بن أبي وقاص وأبو موسى الأشعري وأنس بن مالك وعبد الرحمن بن عوف وأبو الدرداء" "شرح العمدة" (263/1) .
(2) عزاه المصنف في "شرح العمدة" (263/1) للخلال ثم قال: "ولو كان المسح على العمامة وجوده كعدمه في حصول الإجزاء به وأن الفرض إنما هو مسح بعض الرأس لم يكن في حكاية هذا عن الصحابة فائدة، ولكان الواجب أن يقال مذهبهم جواز مسح بعض الرأس ثم لم يذكروا مسح بعض الرأس أصلا فكيف ينسب إليهم ما لم يقولوه ولاستحال قول عمر: "من لم يطهره المسح على العمامة فلا طهره الله"، فإن المخالف يقول: إنما طهره مسح بعض الرأس" اهـ.
وقد أورده في "كنز العمال" (26999) بلفظ: "من لم يطهره المسح على الخمار فلا طهره الله" وعزاه لعباس الرافعي في "جزئه".

119- فظن طائفة/ من العلماء أن ذلك كان مع مسح الناصية، ولكن قد جاءت الأحاديث الصحيحة بمسح العمامة بلا ناصية.

120- وقال طائفة منهم الإمام أحمد: إن ذلك في العمائم التي على السنة، وهي العمائم التي تدار تحت الذقن؛ لأنها السنة؛ ولأنه يشق خلعها (1) .

121- وفي ذات الذؤابة بلا تلحي خلاف (2) .

122- وقال طائفة منهم إسحاق بن راهويه: إن ذلك في العمائم مطلقا.

من السنة إرخاء الذؤابة بين الكتفين

123- وإرخاء الذؤابة بين الكتفين معروف في السنة (3) .

---

(1) راجع: "شرح العمدة" لابن تيمية (267/1-272) و"الإنصاف" للمرداوي (185/1، 186) .
(2) قال ابن قدامة رحمه الله: "وإن كانت ذات ذؤابة ولم تكن محنكة ففي المسح عليها وجهان: أحدهما: جوازه؛ لأنه لا تشبه عمائم أهل الذمة، إذ ليس من عادتهم الذؤابة، والثاني: لا يجوز؛ لأنها داخلة في عموم النهي ولا يشق نزعها المغني (381/1) .

(3) فائدة: قال العلامة ابن القيم رحمه الله:
"كان شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه في الجنة يذكر في سبب الذؤابة شيئا بديعا وهو أن النبي إنما اتخذها صبيحة المنام الذي رآه في المدينة لما رأى رب العزة تبارك وتعالى فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري. فوضع يده بين كتفي فعلمت ما بين السماء والأرض.. الحديث، وهو في الترمذي، وسئل عنه البخاري؟ فقال: صحيح. قال: فمن تلك الحال

أرخى الذؤابة بين كتفيه، وهذا من العلم الذي تنكره ألسنة الجهال وقلوبهم، ولم أر هذه الفائدة في إثبات الذؤابة لغيره". "زاد المعاد" (136/1، 137) .

124- كما روى مسلم في "صحيحه" وأهل السنن الأربعة (1) عن عمرو بن حريث قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر وعليه عمامة سوداء، قد أرخى طرفها بين كتفيه.
125- ورووا أيضا عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عام الفتح مكة وعليه عمامة سوداء (2) .
لبسه صلى الله عليه وسلم في كل موطن ما يناسبه
126- ولم يذكر في هذا الحديث ذؤابة، وذلك أنه يوم الفتح كان قد دخل وعليه أهبة القتال و"المغفر" على رأسه (3) .
فلبس في كل موطن ما يناسبه (4) .
شد الوسط
127- وأما "شد الوسط":
فقد كان من الصحابة من يشد وسطه بطرف عمامته.
ومنهم من كان يقاتل بلا شد وسط.
128- وقد جاء ذكر "المنطقة" في آثار.

---

(1) مسلم (1359) (453) وأبو داود (4077) والنسائي (211/8) والترمذي في الشمائل (115، 116) وابن ماجه (3587) . وراجع: "غذاء الألباب" للسفاريني (253/2) .
(2) مسلم (1358) (451) وأبو داود (4076) والنسائي (201/5، 211/8) والترمذي (1735) وابن ماجه (2822، 3585) .
(3) تقدم تخريجه .
(4) نقل هذه الفقرة وما قبلها ابن القيم في "زاد المعاد" (135/1، 136) .

129- و"المنطقة": هي الحياصة ، ولكن لم يبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشد وسطه بمنطقة.
<u>المهاميز</u>
130- وأما "المهاميز" :
فما كانوا يحتاجون إليها؛ فإن الخيل العربية مع الراكب الخبير بالركوب لا يحتاج مهماز.
131- ولهذا لم ينقل في الحديث / أنهم كانوا يركبون بمهاميز، وإنما اتخذها من اتخذها للحاجة إليها.
<u>الأكمام الواسعة والضيقة</u>
132- وكذلك أيضا: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتخذون الأكمام الطوال ولا الواسعة سعة كبيرة.
133- بل قد تقدم أن كم قميص النبي صلى الله عليه وسلم كان إلى الرسغ، وهذه الزيادة سرف (1) .
134- وأيضا: فالمقاتل لا يتمكن من القتال بذلك.
125- وبعض الناس يقول: إنما اتخذها بعض المنتمين إلى العلم؛ لأجل حمل الكتب فيها.

---

(1) قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "وأما هذه الأكمام الواسعة الطوال التي هي كالأخراج، فلم يلبسها هو ولا أحد من الصحابة البتة، وهي مخالفة لسنته، وفي جوازها نظر؛ فإنها من جنس الخيلاء" "زاد المعاد" (140/1) .

136- وما يروى عن بعض الأئمة: أن أحد كميه كان واسعا والأخر ضيقا فهو كذب.
إطالة الذؤابة من الإسبال المنهي عنه
137- وكذلك إطالة الذؤابة كثيرا هو من الإسبال المنهي عنه.
138- واعتياد لبس الطيالسة (1) على العمائم لا أصل له في السنة؛ ولم يكن من فعل النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة.
139- بل قد ثبت في "صحيح مسلم" (2) عن النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الدجال أنه يخرج معه سبعون ألف مطيلس من يهود أصبهان.

الطيالسة من شعار اليهود

140- وكذلك جاء في غير هذا الحديث أن الطيالسة من شعار اليهود (3) .

141- ولهذا كره من كره لبسها؛ لما رواه أبو داود وغيره (4) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من تشبه بقوم فهو منهم".

---

(1) قال السفاريني: "والمراد بالطيلسان الطيلسان المقور كما صححه علماؤنا" "غذاء الألباب" (256/2) .

(2) مسلم (2944) (124) .

(3) راجع: في حكم لبس الطيالسة: "غذاء الألباب" للسفاريني (256/2) وقارن بـ"سبل الهدى والرشاد" (7/455-462) .

(4) تقدم تخريجه.

142- وفي الترمذي (1) أنه قال: "ليس منا من تشبه بغيرنا".

التقنع للحاجة

143- وأما "التقنع": الذي جاء ذكره في حديث الهجرة (2) : أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى أبي بكر متقنعا بالهاجرة، فذاك فعله صلى الله عليه وسلم تلك الساعة ليختفي بذلك.

ففعله للحاجة، ولم تكن عادته "التقنع".

144- وليس "التقنع" هو "التطيلس" بل "التقنع" لغير حاجة ينهى عنه الرجال؛ لأنه تشبه بالنساء.

145- وقد ثبت في الصحاح (3) عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه: لعن الرجال المتشبهين بالنساء، ولعن النساء المتشبهات بالرجال.

---

(1) الترمذي (2696) والطبراني في الأوسط (7376) وإسناده ضعيف إلا أن له شواهد تقويه وراجع "الصحيحة" للألباني (2194) .

(2) البخاري (3906) .

(3) أحمد (1/330، 339) والبخاري (5885) وأبو داود (4097) والترمذي (2784) وقال: "حسن صحيح" وابن ماجه (1904) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فصل

وأما الحلية بالذهب والفضة ولبس الحرير

146- ففي "الصحيحين" (1) عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها؛ فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة".

147- وفي "الصحيحين" (2) عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الذي يشرب في إناء الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم".

أمرنا بسبع ونهينا عن سبع

148- وفي "الصحيحين" (3) عن البراء بن عازب قال:

"أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع، ونهانا عن سبع: أمرنا بـ:

- بعيادة المريض.
- وإتباع الجنازة.

---

(1) البخاري (5426) ومسلم (2067) (4) .

(2) البخاري (5634) ومسلم (2065) (1) .

"يجرجر": بضم التحتانية وفتح الجيم وسكون الراء ثم جيم مكسورة ثم راء، من الجرجرة، وهو صوت يردده البعير في حنجرته إذا هاج نحو صوت اللجام في فك الفرس. "فتح الباري" (97/10) .

(3) البخاري (1239) ومسلم (2066) (3) .

- وتشميت العاطس.
- وإبرار القسم أو المقسم.
- ونصر المظلوم.
- وإجابة الداعي.
- وإفشاء السلام.
ونهانا عن:
- خواتيم أو تختم بالذهب.
- وعن شرب بالفضة.
- وعن المياثر.
- وعن القسي (1) .
- وعن لبس: الحرير، والإستبرق، والديباج.
149- وفي "الصحيحين" (2) عن عمر بن الخطاب قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم / يقول: "لا تلبسوا الحرير فإنه من يلبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة".

(1) "القسي": ثياب منسوجة من كتان وإبريسيم مضلعة كانت تجيء مصر من قرية تسمى القس، فنسبت إليها. "جامع الأصول" لابن الأثير (529/6) .
(2) البخاري (5834) ومسلم (2069) (11) .

150- وعن حذيفة بن اليمان قال: نهانا النبي صلى الله عليه وسلم أن نشرب في آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه. رواه البخاري (1) .
151- وعن علي عليه السلام قال: نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جلوس على المياثر. و"المياثر": شيء كانت تجعله النساء لبعولتهن على الرحل كالقطائف الأرجوان. رواه مسلم (2) .
152- وعن علي بن أبي طالب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حريرا فجعله في يمينه وأخذ ذهبا فجعله في شماله، ثم قال: "إن هذين حرام على ذكور أمتي".
رواه أبو داود والنسائي وغيرهما (3) .
153- وعن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أحل الذهب والحرير لإناث أمتي وحرم على ذكورها".
رواه النسائي والترمذي، وقال: "حديث حسن صحيح" (4) .

(1) البخاري (5837) .
(2) مسلم (2078) (64) .
(3) أبو داود (4057) ، والنسائي (160/8) ، وابن ماجة (3595) ، وأحمد (96/1، 115) وصححه ابن حبان (5434) .
(4) النسائي (160/8، 190) والترمذي (1720) وراجع "الإرواء " (277) .

154- وقد ثبت في الصحيح (1) عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن لبس الحرير إلا موضع إصبعين أو ثلاث أو أربع.

ما رخص في لبسه من الحرير

155- فلهذا رخص العلماء في مقدار أربع أصابع مضمومة كالسجاف ولبنة الجيب والعلم والأزرار والخيوط ونحوهما.
156- وثبت أيضا في الصحيح (2) أنه أرخص للزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف لبس الحرير من حكة كانت بهما.
157- فلهذا رخصوا في أصح القولين لبسه للحاجة كالتداوي به ونحو ذلك، وثبت عن جماعة من الصحابة.
158- وروي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم الرخصة في لبس الخز وهو صوف ينسج بالحرير (3) .

(1) مسلم (2069) (15) .
(2) البخاري (2919) ومسلم (2076) (24) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(3) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:
واحتج أيضا من أجاز لبس المختلط بحديث ابن عباس: إنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الثوب المصمت من الحرير، فأما العلم من الحرير وسدى الثوب فلا بأس به. أخرجه الطبراني بسند حسن. هكذا، وأصله عند أبي داود.
وأخرجه الحاكم بسند صحيح بلفظ: إنما نهى عن المصمت إذا كان حريرا.
وللطبراني من طريق ثالث: نهى عن مصمت الحرير فأما ما كان سداه من قطن أو كتان فلا بأس به.
واستدل ابن العربي للجواز أيضا بأن: النهي عن الحرير حقيقة في الخالص، والإذن في القطن =

حكم ما نسج في الحرير

159- فلهذا قال العلماء: إذا نسج في الحرير غيره، وكان ذلك الغير أظهر وأكثر جاز، وإن كان الحرير أقل وأظهر ففيه نزاع بين العلماء.

160- وتنازع العلماء في لبس الحرير حين القتال؟
ومن رخص به احتج بأن عمر بن الخطاب أذن في ذلك.
قالوا: ولأنه في حال الحرب يحب الله الاختيال.

= ونحوه صريح، فإذا خلطا بحيث لا يسمى حريرا بحيث لا يتناوله الاسم ولا تشمله علة التحريم خرج عن الممنوع فجاز.
وقد ثبت لبس الخز عن جماعة من الصحابة وغيرهم، قال أبو داود: لبسه عشرون نفسا من الصحابة وأكثر، وأورده ابن أبي شيبة عن جمع منهم وعن طائفة من التابعين بأسانيد جياد. وأعلى ما ورد في ذلك ما أخرجه أبو داود والنسائي من طريق عبد الله بن سعد الدشتكي عن أبيه قال: رأيت رجلا على بغلة وعليه عمامة خز سوداء وهو يقول: كسانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأخرج ابن أبي شيبة من طريق عمار ابن أبي عمار قال: أتت مروان بن الحكم مطارف خز فكساها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.
والأصح في تفسير الخز: أنه ثياب سداها من حرير ولحمتها من غيره.
وقيل: تنسج مخلوطة من حرير وصوف أو نحوه.
وقيل: أصله اسم دابة يقال لها الخز؛ سمي الثوب المتخذ من وبره خزا لنعومته، ثم أطلق على ما يخلط بالحرير لنعومة الحرير.
وعلى هذا: فلا يصح الاستدلال بلبسه على جواز لبس ما يخالطه الحرير ما لم يتحقق أن الخز الذي لبسه السلف كان من المخلوط بالحرير. والله أعلم.
وأجاز الحنفية والحنابلة: لبس الخز ما لم يكن فيه شهرة، وعن مالك: الكراهة" اهـ. "فتح الباري" (294/10، 259) .

161- كما في "سنن أبي داود" (1) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"إن من الخيلاء ما يحبها الله، ومن الخيلاء ما يبغضها الله. فأما الخيلاء التي يحبها الله: فاختيال الرجل نفسه في الحرب والصدقة.
وأما الخيلاء التي يبغضها الله: فالخيلاء في الفخر والبغي".

162- واختال أبو دجانة يوم أحد بين الصفين، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا المقام" (2) .

---

(1) أبو داود (2659) والنسائي (79/5) وأحمد (445/5) وصححه ابن حبان (295) (4762) وابن خزيمة (2478) عن جابر بن عتيك.
وفي الباب عن عقبة بن عامر: رواه أحمد (154/4) وصححه الحاكم (579/1) .
(2) الطبراني في الكبير (104/7) برقم (6508) .

وأما "الحلية"

ما يباح من حلية الذهب والفضة

163- فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ خاتما من فضة (1) .
164- وعن عرفجة بن أسعد أنه قطع أنفه يوم الكلاب فاتخذ أنفا من ورق، فأنتن عليه، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفا من ذهب (2) .
165- وعن أنس بن مالك قال: كانت قبيعة سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فضة (3) .
رواهما أبو داود والنسائي والترمذي، وقال عن كل منهما: "حديث حسن".

---

(1) البخاري (5877) ومسلم (2092) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(2) أبو داود (4232) والنسائي في المجتبى (164/8) وفي الكبرى (9463) والترمذي (1771) وأحمد (23/5) وصححه ابن حبان (5462) .
وراجع: شرح معاني الآثار (2588/4) .
(3) أبو داود (2583) ، والنسائي في الكبرى (9815) ، وفي المجتبى (219/8) والترمذي (1691) وإسناده صحيح كما قال الألباني في "مختصر الشمائل" (63) . وراجع "الإرواء" (822) .
فائدة: في مواضع الحلية من السيف:
"قائمة السيف: مقبضه، وقبيعة السيف: بفتح القاف ما على رأس أعلى القائم، والشاربان: طرفا حديدة في أسفل القائم معترضة تقع -إذا أغمد السيف- على فم الغمد، والنصل: حديدة يلبسها طرف الغمد. والبكرات التي في طرف السيف".
راجع "الدلالات السمعية" (413) .

166- وفي السنن (1) أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الذهب إلا مقطعا.
167- وعن أنس بن مالك أن قدح رسول الله صلى الله عليه وسلم انكسر فاتخذ مكان الشعب سلسلة من فضة. رواه البخاري هكذا (2) .
168- ثم رواه عن عاصم قال: رأيت قدح النبي صلى الله عليه وسلم عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع فسلسله بفضة (3) .
فقيل: إن الذي سلسله أنس بن مالك.
169- فلهذه الآثار قال العلماء:
- يباح من الذهب ما تدعوا إليه الضرورة كاتخاذ أنف منه.
- ويباح خاتم الفضة.
- وتباح حلية السيف بالفضة.

---

(1) أبو داود (4239) والنسائي في الكبرى (9461) وفي المجتبى (161/8، 163) من وأحمد (92/4، 98) من حديث معاوية رضي الله عنه.
قال المصنف رحمه الله: "ذكر القاضي في اللباس قال في رواية صالح وعبد الله وأبي طالب وأبي الحارث واللفظ له: أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الذهب إلا مقطعا. قال: الشيء اليسير كشد أسنانه وما كان مثله مما لا يتزين به الرجل، فأما الخاتم ونحوه فلا، وذلك لأنه قد دل ذلك على أن القطع من الذهب وهو اليسير منه مباح مطلقا لكن لا بد أن يكون لحاجة؛ لأنه قد دلت النصوص على تحريم خاتم الذهب ونحوه" "شرح العمدة" (3029/2 - الصلاة) .
(2) البخاري (3109) .
(3) البخاري (5638) .

<u>وأما حلية المنطقة بالفضة والخوذة والجوشن والخودة والران</u> (1)

<u>حلية المنطقة بفضة والخوذة</u>

170- ونحو ذلك من لباس الحرب: ففيه قولان للعلماء بخلاف لباس الخيل كالسرج واللجام.
171- وكذلك تنازعوا في "حلية الذهب":
فقيل: لا يباح منه شيء.
وقيل: يباح كسير الذهب مطلقا.

وقيل: يباح في السلاح.
وقيل: في السيف خاصة.
172- وهذه الأقوال الأربعة في مذهب أحمد وغيره (2) .
173- وفي الترمذي (3) حديث غريب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان في سيفه ذهب وفضة.

---

(1) "الران": "قال الجوهري: شيء يلبس تحت الخف معروف ولم أره ولا الخوذة في كلام العرب". "المطلع على أبواب المقنع" للبعلي (136) .
(2) راجع: "شرح العمدة" (2/307-312) و"مجموع الفتاوى" (2/87، 88) .
(3) رواه الترمذي (1683) عن هود بن عبد الله بن سعد عن جده قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وعلى سيفه ذهب وفضة، وضعفه بقوله: "حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه"، وقد تكلم يحيى القطان في عثمان بن سعيد الكاتب وضعفه من قبل حفظه، وضعفه الألباني في "مختصر الشمائل" ص (64) .

174- وكذلك عثمان بن حنيف أحد أجلاء الصحابة كان في سيفه مسمار من ذهب (1) .
175- ونهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الذهب إلا مقطعا (2) يدل على جواز ذلك؛ فلذلك جوزه كثير من العلماء كأحمد في الأرجح عنه وغيره (3) . والله سبحانه أعلم.

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (8/287) .
(2) تقدم تخريجه ص (67) .
(3) قال المصنف رحمه الله: "قال الآمدي: فأما استعمال الذهب في سلاحه كالمسمار في السيف والسبائك فيه وقبيعة السيف ونعله فيجوز، وهذا أبين في كلام أحمد، قال في رواية الأثرم وإبراهيم بن الحارث: في الفص يخاف أن يسقط يجعل فيه مسمار من ذهب، قال: إنما رخص في الأسنان يعني وما كان للضرورة، قيل له: قد كان في سيف عثمان بن حنيف مسمار من ذهب، قال: ذاك الآن سيف، وذلك لأن المقصود من السلاح قتال العدو وإرهابه، فجاز أن يحلى بما يفيد إرهاب العدو، وخيلاء المسلم تكميلا لهذا المقصود، ولذلك جاز لبس الحرير حين القتال.." "شرح العمدة" (2/311-312) .

تمت بحمد الله وعونه ومنه وكرمه

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

24\68

الكتاب: حقوق آل البيت

المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي)
(المتوفى: 728هـ)
المحقق: عبد القادر عطا

تلخيص وتوضيب: عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي
(من 68 صفحة إلى 24 ص)
بعنوان: ملخص الحديث حول حقوق آل البيت

آل البيت النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

هم على وجه التحقيق: علي وفاطمة وأولادهما, وتناسل منهما حتى تقوم الساعة.
وآل البيت النبي مفروض على المسلمين حبهما ومودتها بأمر الله تعالى في كتابه العزيز: {قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى} 1.
وحب آل البيت النبوي إنما كان من أجل رأس هذا البيت وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ...
وقضية الحب هذه شغلت أذهان الكثيرين من السابقين واللاحقين ... وكان الانحراف فيها تبعا لعدم التفرقة بين الحب النفسي, والحب العقلي القلبي.
فالحب النفسي انفعال ظاهري بظاهر الأشياء دون التعمق في بواطنها وفي أسرار جمالها الذي اقتضى هذا الإنفعال.
الحب النفسي لا يعني إلا بالظواهر وحدها, ومن ثم قد يحب الإنسان شيئا جميلا في ظاهره وباطنه, كأن يعجب بجوهر نفيس كالذهب والماس ... وقد يحب شيئا جميلا في ظاهره دون باطنه, كأن يحب نمطا من المجوهرات الصناعية البراقة الأخاذة بمجامع النفس ... ولكنه في كلا الحالين لا يتجاوز الظاهر إلى الباطن, ولا البريق إلى القيمة..فكل نصيب المحب هو الانفعال الفوري, والإعجاب الذي يجترف الأحاسيس من غير هوادة.

1-سورة الشورى, آية: 23.

أما الحب العقلي فلا يعني بشيء إلا البواطن والقيم, حتى ولو لم يكن في ظاهر الشيء محبوب شيء مما اصطلح على تسميته بالجمال ...
يحب الإنسان الرجل الصالح وإن كان فقيرا في ظاهره, كما يحبه وإن كان غنيا جميل الظاهر سواء بسواء.
ويحب المرأة العفيفة الصالحة وإن قل جمال ظاهرها, وافتقرت من المال, كما يحبها غنية جميلة الظاهر سواء بسواء.
ويحب الزهرة الجميلة لا لأنها تزين الموائد والمحافل, ولكن لأن دلالاتها على إبداع الخالق أكثر من أن تحصى ...
ويحب المال لا لأنه وسيلة ترف وزينة, ولكن لأنه يستطيع أن يغني به فقيرا, ويحافظ على إيمان مؤمن ويحمي عرض مضيع من أهله وقومه.
هذا هو الفرق بين حب النفس وحب العقل والقلب.
ومن هنا اختلف التعبير عن هذا الحب تبعا لقدرات النفس المنفصلة عن العقل, أو لقدراتها مقترنة وممتزجة بقدرات العقل والوجدان القلبي العميق ...
ولقد نجح الرسول صلى الله عليه وسلم في وصل نفوس أصحابه بعقولهم وهم يعبرون عن حبهم له.
وردهم في بعض الحالات التي عبروا فيها نفسيا عن هذا الحب حين قال له بعضهم: ألا نسجد لك؟ فأعلن أنه عبد ولا شيء غير الله ورسوله, وأن المستحق للسجود هو الله وحده ...
وكان اجتماعه بهم, واقتداؤهم به في العمل عاملا رئيسيا في تحويل حبهم النفسي إلى حب عقلي وجداني بلغ قمته في قول الأنصار: " والله يا رسول الله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك".

وكانت عهودهم معه تنص على: أن يحموه مما يحمون به أنفسهم وأهليهم ... وبذلوا دماءهم تعبيرا صادقا عن حب الله ورسوله, وطاعة الله ورسوله.
{من يطع الرسول فقد أطاع الله} 1.
عبروا عن حبهم بالعمل على مقتضى سنته ومقتضى القرآن لا يحيدون ولا يكسلون.
وعلموا: أن الحب هو الموافقة في القول والعمل والسمت والحلية, وداسوا في سبيل العمل كل زينة وكل بهرج تهواه النفس بخداعها وضلالها, ومحاولتها الحيدة بصاحبها عن المنهاج السوي.
ومضت السنون, وكان آل البيت قادة في العمل, وأعجب بهم بعض الناس إعجابا نفسيا ظهرت صورته في الصراخ والهتاف وتكثير الجموع, وإشاعة الخرافة, حتى قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين لبعض غلاة الشيعة: " أحببتمونا حتى صار حبكم علينا عارا".
ويستحيل أن يكون حبهم عليهم عارا وهم يقتدون بهم في القول والعمل. اللهم إلا أن يكونوا قد انحرفوا إلى نوع من الخرافة النفسية الخادعة هو الذي دفع الإمام إلى هذا القول.
لقد ردد غلاة الشيعة أقوالا حول عصمة الإمام, وحول استقلال الإمام, بحساب شيعته يوم البعث, وتلك نحلة نضجت تماما على يد حسن الصباح زعيم الحشاشين في " الموت".

1-سورة النساء, آية: 80.

وبدأت صفات الربوبية تتسلل إلى الأئمة والدعاة والأبواب, تعبيرا نفسيا خالصا عن الحب الممزوج بخداع النفس مركب الشيطان.
ولهذا سألوا الإمام زين العابدين: متى يبعث الإمام؟ يعنون عليا رضي الله عنه - فقال: "يبعث يوم القيامة وتهمه نفسه وحدها, ولا شأن له بغيره أمام أحكم الحاكمين".
وتطور خداع النفس, وتطور صرفها لأصحابها عن العمل تعبيرا عن الحب إلى مظاهر أخرى بعيدة عن العمل المشروع ... فنصبت الأضرحة على مقابر آل البيت والصالحين بشكل معين يكاد يكون واحدا في كل صقع من الأصقاع, وأوقدت القناديل, وأحرق البخور ونحرت الذبائح, وأقام المنتفعون حولهم يذيعون الخرافة, ويبتزون الأموال, ويصطنعون كل ما يثير شوق النفس إلى عالم الأسرار.
والحق أن هذا السلوك كان عجزا عن العمل, عجزا من العقل عن تلك الرحلة المضنية التي يصل من خلالها إلى اليقين بالله, فصنعت له النفس مصدرا سهلا من اليقين المتسلسل من عالم الغيب. وما على الإنسان إلا أن يوقن بسر العالم المادي, فإذا اليقين بالغيب مكتوب ومحكوم به لهذا العبد لا يخطئه ولا يتخطاه.
ولست أول من قال بذلك.
ولكن الإمام الناقد الجليل الحارث بن أسد المحاسبي أفاض في القول بذلك في كتابه "آداب النفوس"1 وأقام الأدلة المحسوسة على ضلال الحب في أي مظهر إلا في العمل الموافق لمرضاة الله عز وجل.

1-انظر: آداب النفوس للمحاسبي. من تحقيقنا.

فهذا يقول: إن الجائع يحب الطعام, والعطشان يحب الماء, ولا يكتفي الجائع بوضع الطعام أمامه, ولا العطشان بتعليق الماء في رقبته, حتى ينال من الطعام ويشرب من الماء, فإذا قرب الطعام والشراب إلى الجائع والعطشان فلم ينل أحدهما من أحدهما شيئا, كان كاذبا من دعواه الجوع والعطش.
وهكذا فالذي يحب الله ورسوله, وهو كاذب في دعواه إن لم يعمل وفق أمر الله ورسوله.
بل إن هذا هو المشهود في عالم الدنيا ممن يحب بعضهم من الناس, فنجد من يحب إنسانا يسعى بكل جهوده ليرضيه ويعمل بما يريد حتى يرضى.
فكيف إذا كان الحب لله ورسوله تحولت الرغبة من الإرضاء إلى صراخ وعويل وشموع ونذور باطلة؟!!.
وكما يقول المحاسبي: ستقرب على الله بما يسخط الله".

ونحن لا نرمي كل المحبين بهذا السفه في الرأي, والعته في الفكر ... وإنما هم شراذم من الخلق أعماهم الجهل, وأصمهم العجز, وأبوا أن يعترفوا بعجز وجهل, فراحوا يشيعون حول أنفسهم وحول من أحبهم عالما من الأسرار ربما كان المحبون منه براء, وادعوا لأنفسهم للمحبوبين بمثل ما تقرب به أولئك السدنة في هيكل الأسرار, وحذروهم من الاعتراض على أعمالهم خوفا من أن يصيبهم المحبوبون بالدمار والبوار.
لقد أصبحنا نسمع في عالم الأسرار أقوالا ما كانت في أقوال السلف, وما نزل بها قرآن, وما نطقت بها سنة, نتيجة لهذا الانحراف في المسلك حين يحب الإنسان الجاهل ربه ورسوله وصالحي أهل دينه.
ومنها: المحبوب منسوب ولو كله عيوب"!!؟.
"من اعترض انطرد"!!؟
"احذر من الاعتراض على شيخك ولو وجدته على كبيرة من الكبائر, فإن له حالا لا تعلمه"!!؟
وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بذلك حينما اعترض عليه عمر رضي الله عنه لما توجه للصلاة على عبد الله بن أبي سلول رأس النفاق حين مات, ولم ينهه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاعتراض, بل رد عليه مبينا وجهة نظره في هدوء المعلم الحكيم الهين اللين.
تلك هي قضية هذا الكتاب التي عالجها الإمام ابن تيمية علاجا عقليا وفقهيا, مبينا ضلال غلاة الشيعة عن مذهب الإمام علي رضي الله عنه, وضلال الجهلة من المحبين عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

<u>الصراع بين ابن تيمية وخصومه:</u>

عاش الإمام ابن تيمية في عصر تبدلت فيه أحوال الأمة الإسلامية فكرا وسلوكا, وكان ذلك منذ أن بعدت عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم, وبذلك تخلفت عن الدور القيادي الذي قدره الله لها, وأمرها بأن تسير إليه على طريق الجهاد ... وكان أن أخذت الأمة من فكر غيرها مما لا يحكمه كتاب ولا سنة بقدر ما تركت من هذين المصدرين الرئيسين في شرعة الإسلام.
وارتفعت الصيحات المخلصة تدعو الأمة حكاما ومحكومين وعلماء وعامة إلى الأخذ بمنهج الإصلاح الذي صلحت به حال هذه الأمة من قبل, وهو العودة إلى الكتاب والسنة والاسترشاد بمفهوم السلف الصالح وتطبيقهم لما في الكتاب والسنة من المبادئ والمقومات البناءة للنهضة والإصلاح.
كان المرض لذي أصاب الأمة هو الزيف الفكري, والابتداع الزائف لشرع الله وسنة رسوله.
وقد أدى هذا الابتداع الزائف إلى صراع مرير بين دعاة الإصلاح عن طريق العودة إلى سلوك السلف من الصحابة والتابعين وبين أولئك الذين أعطوا أنفسهم حتى الإضافة والحذف كما يحلو لهم, وفيما ليس فيه حق.
واقتضى هذا الصراع ظهور مدارس متعددة تدور حول العقيدة والسلوك وهما حركة الإسلام.
وكانت أبين هذه المعارك وأظهرها صيحات شيخ الإسلام ابن تيمية في القرن الثامن الهجري في وجه التصوف والصوفية إذ حمله ابن تيمية تبعة كثير من مظاهر الفساد في الأفكار والابتداع في السلوك.
ولئن كان الحوار بين ابن تيمية وخصومه ساخنا وحادا ولاذعا باعتبار أن ابن تيمية كان يمثل الهجوم الذي يعني ببيان الحق ويميزه عن الباطل, ومع ذلك فلم يمنع خصومه من أن يوافقوه على هجماته على الصوفية في عصره.
ومن يدمن مطالعة مؤلفات ابن تيمية يمكن أن يدرك بسهولة أنه كان يميل إلى الزهاد الأوائل, ويمدح شيوخ التصوف المشروع, وفي الوقت نفسه كان ينعي على ابن عربي وأتباعه, ويربط بين الإشراقية والصابئة.
لقد رمي شيخ الإسلام ابن تيمية بالغلظة وتحجر القلب من جانب الصوفية ...
والحق أنه لم يكن غليظ القلب ولا متحجرا, ولكن طبيعة الحوار الساخن الذي دار بينه وبين خصومه وهو يدعو إلى وحدة الفكر والسلوك تحت لواء السلفية قد غطى على كثير من جوانب الرقة والروحية في شخصيته بل إنه كان يفيض رقة حين كان يأوي إلى المساجد المهجورة يناجي ربه أن يفتح عليه مغاليق الفكر في مسألة قائلا: "يا معلم إبراهيم علمني".
والحق أن ابن تيمية ركز هجومه على المدارس التي ظهر فيها إيهام الحلول والاتحاد كمدرسة ابن عربي, وابن سبعين, وابن الفارض, والحلاج.
وقد تتبع ابن تيمية الأفكار التي أثرت في الحلاج من معاصريه أو من قريبي العهد من عصره كابن بسكويه "369هـ" والحافظ البغدادي "463هـ".
وأثبت باطنية الحلاج وادعاءاته الباطلة مثل فتوى إبليس, وبما جرى على لسانه من قوله: "أنا الحق" وهاجم اعتذار الصوفية عن الحلاج, وكشف أن الحلاج حاول خداعهم بمثل قوله: عليك بنفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل".

ولم يكن أن تيمية يعبر عن فكره في قضية الحلاج بل إنه حكم الشرع في أمره حيث حاول أن يسقط ركن الحج من الإسلام.
نأسف أشد الأسف لما أصاب التصوف على أيدي أهله من موبقات نرى أنها تمثل خطرا على العقيدة ذاتها, ويمكن إجمال تلك الأخطار فيما يلي:
1-فقد تطورت المصطلحات الصوفية الأساسية تطورا خطيرا نظرا للاستهواء الذي يفوح من أرجاء عالم التصوف, ونظرا لما يتبع الصفاء الروحي من شفافية قد حجبت الكثافة المادية إلى ما وراءها من المعاني كل ذلك أدى إلى تطور خطير في المصطلح ابتعد به عن أصله الصحيح إلى تفريعات باطلة لا أصل لها من دين, في الوقت الذي تتضح فيه بالابتداع.
فمثلا مصطلح "المريد". وهو من الإرادة: والإرادة في المصطلح العلمي السلوكي الذي يمكن أن نسميه بالمصطلح الصوفي هي عملية تسبق النية في العمل, إذ يحدد العامل إرادته من عمله, لماذا يعمل هذا العمل, وحينما يحدد إرادة الله يبدأ في تصفية إرادة الله من كل شائبة ومن كل خاطر يختلط بتلك الإرادة فيفسدها.
هذا التحديد هو الإرادة, وفاعله هو المريد. ولكن هذا المصطلح تطور فأصبح المريد هو مريد الطريقة, ثم تطور فأصبح المريد هو مريد شيخ بعينه..فمن إرادة الله إلى الشيخ كانت بلايا لا يعرف مداها إلا الله والراسخون في العلم.
2-وترتب على فساد المصطلح هكذا عدوان على العقيدة ذاتها. فالشيخ الجاهل قد استهواه اجتماع مريديه من حوله, وأصبح مشغولا بالحفاظ على المجد الدنيوي الذي يجمع الناس من حوله طائعين لأمره, مبجلين, خاضعين لسلكانه ومن ثم ابتدعت تعليمات وقواعد لآداب المريد شيخه منها:
أ-ألا يسيء الظن بشيخه ولو رآه على كبيرة من الكبائر!!؟ وهنا اختلفت التعليلات.
فمن قائل: إن الشيخ له حال مع الله لا يعلمها إلا الله فلا يجوز الاعتراض عليه.
ومن قائل إن الشيخ مرشد وليس بمعصوم ...
ولكننا في كلا الحالتين لا ندري علة شرعية لتعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, ولأصل النصح لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم.
وكيف يمتنع الاعتراض على شيخ مرتكب للكبيرة, ولم يمتنع الاعتراض على رسوله صلى الله عليه وسلم من عمر حين ذهب للصلاة على زعيم المنافقين ومنه ومن غيره في صلح الحديبية.
ب-ألا يجلس على سجادته ولا يأكل في حضرته ولا يستعمل ما يستعمله الشيخ من وسائل الحياة لئلا يلحقه المقت من الله!!؟
وعللوا هذا بأن حال الشيخ في سجادته فربما كان حالا لا يطيقه المريد فيضطرب أمره!!؟
وتلك فرية ما علمنا لها أصل من شرع الله ولا في سنة رسوله أبدا.
ج-أن يصور شيخه بين عينيه حين الذكر ولا يدع صورته أبدا حتى يغيب في الذكر ... وهذا شرك واضح لا يحتاج إلى بيان.
د-أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله لا يتحرك ولا يتكلم!!؟
هـ-أن يطيع شيخه طاعة عمياء ولو لم يعلم لأمره إياه حكمة ظاهرة!!؟
وغير هذا كثير مدون في آداب المريد مع شيخه في كتب السلوك الصوفي خلاصتها ... "عبادة الفرد" أو إذلال المسلم والحجر على فكره ولو كان أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر.
تلك بعض البلايا التي تطور إليها السلوك الصوفي, والتي كان بعضها أو كلها موجودا في عصر ابن تيمية, مما يعطي هذا الإمام حقه كاملا في الدفاع عن الإسلام, وفي شجب كل ما يهدده من الأوهام من قريب أو من بعيد سدا للذريعة, منعا للجريمة قبل وقوعها ...
ومع كل ذلك فلم نعلم التصوف قد تطور في عصرنا الحاضر إلى شيء نافع للإسلام والمسلمين ... اللهم إلا حشد من جهلاء المشايخ ضاع بينهم المخلصون ... وطقوس وثنية من الطبل والزمر والبكاء والتعرية أثناء ذكر الله..ثم الرقص والشبع, ثم الاختلاط المزري بين الجنسين, ثم دنيا المجاذيب بما فيها من الأحوال المزعومة التي لا يجوز الاعتراض عليها من مخلوق وإلا حاقت بالمعترض لعنة الله!!؟
نسأل الله تبارك وتعالى السلامة في ديننا ودنيانا, المغفرة من كل ذنب, والعصمة من كل أمر.
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أول كتاب حقوق آل البيت

...

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم العامل فريد عصره, مفتي الفرق, شيخ الإسلام, تقي الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ الإمام العالم شهاب الدين عبد الحليم ابن الشيخ الإمام العلامة مجد الدين عبد السلام بن تيمية رضي الله عنه وأرضاه, وأعلى درجته:

هذا الكتاب إلى من يصل إليه من الإخوان المؤمنين الذين يتولون الله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون, ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون. الذين يحبون الله ورسوله, فإن من محبة الله وطاعته محبة رسوله وطاعته, ومن محبة رسوله وطاعته محبة من أحبه الرسول وطاعة من أمر الرسول بطاعته.

كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا} 1.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " من أطاعني فقد أطاع الله, ومن أطاع أميري فقد أطاعني, ومن عصاني فقد عصى الله, ومن عصى أميري فقد عصاني" 2.

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إنما

1-سورة النساء, آية:59.

2-الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد باب 109. وكتاب الاعتصام باب=

الطاعة في المعروف" 1.

وقال: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" 2.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته, فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو, وهو للحمد أهل, وهو على كل شيء قدير, ونصلي على إمام المتقين, وخاتم النبيين محمد عبده ورسوله, صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا, أما بعد:

=2, وكتاب الأحكام باب1. ومسلم في صحيحه ي كتاب الإمارة حديث 32, والنسائي في سننه في كتاب البيعة باب27. وابن ماجة في سننه في المقدمة باب1, وفي كتاب الجهاد باب39, والإمام أحمد في المسند 511,471,467,416,382,342,313,270,252,244,93/2.

1-أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأحكام باب4, وفي الآحاد باب1, وفي المغازي باب 59. ومسلم في صحيحه في كتاب الإمارة حديث 39,40 وأبو داود في سننه في كتاب الجهاد باب87. والنسائي في سننه في البيعة باب34. والإمام أحمد في المسند 82/1-94-124. وأشار السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم 9902 إلى أنه حديث صحيح.

2-الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند والحاكم في مستدركه عن عمران بن الحصين, وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: " رجال أحمد رجال الصحيح, ورواه البغوي عن النواس, وابن حبان عن علي بلفظ " لا طاعة لبشر في معصية الله" وله شواهد في الصحيحين. وأورده الإمام السيوطي في الجامع الصغير وصححه.

وحدة المسلمين بالكتاب والسنة:

إن الله سبحانه وتعالى بعث محمدا بالكتاب والحكمة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

وقال الله تعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} 1.

وقال تعالى: {واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم} 2.

وقال لأزواج نبيه: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} 3.

والذي كان يتلوه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيوت أزواجه: كتاب الله والحكمة.

فكتاب الله هو القرآن, والحكمة هي ما كان يذكره من كلامه, وهي سنته. فعلى المسلمين أن يتعلموا هذا وهذا.....

1-سورة آل عمران, آية 164.

2-سورة البقرة, آية: 231
3-سورة الأحزاب, آية:34.

.....وفي الحديث المشهور الذي رواه الترمذي وغيره عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ستكون فتنة. قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله, فيه نبأ ما قبلكم, وخبر ما بعدكم, وحكم ما بينكم, وهو الفصل ليس بالهزل, من تركه من جبار قصمه الله, ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله, وهو حبل الله المتين, وهو الذكر الحكيم, وهو الصراط المستقيم, وهو الذي لا تزيغ به الأهواء, ولا تلتبس به الألسن, ولا يخلق على كثرة الرد, ولا تنقضي عجائبه, من قال به صدق, ومن عمل به أجر, ومن حكم به عدل, ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم 1.
وقال الله تعالى في كتابه: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا} 2.
وقال في كتابه: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء} 3.
فذم الذين تفرقوا فصاروا أحزابا وشيعا, وحمد الذين اتفقوا وساروا جميعا معتصمين بحبل الله الذي هو كتابه شيعة واحدة للأنبياء.
كما قال تعالى: {وإن من شيعته لإبراهيم} 4 وإبراهيم هو إمام الأنبياء كما قال تعالى:

1-الحديث أخرجه الترمذي في ثواب القرآن باب 14. والدارمي في المسند, في كتاب فضائل القرآن باب1. والإمام أحمد في المسند 9111.
2-سورة آل عمران, آية:103.
3-سورة الأنعام, آية:159.
4-سورة الصافات, آية:83.

{وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين} 1.
وقال تعالى: {إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين} 2.
إلى أن قال: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} 3.
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أمته أن يقولوا إذا أصبحوا: "أصبحنا على فطرة الإسلام, وكلمة الإخلاص, ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين" 4.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه, فلا ألفين رجلا شبعان على أريكته يقول: بيننا وبينكم هذا القرآن, فما وجدنا فيه من حلال حللناه, ما وجدنا فيه من حرام حرمناه, ألا إني أوتيت الكتاب ومثله ومعه" 5.
فهذا الحديث موافق لكتاب الله, فإن ذكر في كتابه أنه "صلى الله عليه وسلم"6 يتلو الكتاب والحكمة, وهي التي أوتيها مع الكتاب.

1-سورة البقرة, آية:124.
2-سورة النحل, آية:120.
3-سورة النحل, آية:123.
4-أخرجه الدارمي في مسنده, كتاب الاستئذان باب 54. والنسائي في سننه, كتاب السهو باب 62. والإمام أحمد في المسند 4/1, 123/406,407,5/63,3.
5-أخرجه ابن ماجة في سننه, في المقدمة باب2, والترمذي في العلم باب10, والإمام أحمد 132/4.
6-مابين المعقوفتين سقطت من الأصل.

وقد أمر في كتابه بالاعتصام بحبله جميعا, ونهى عن التفريق, الاختلاف, و"أمر"1 أن نكون شيعة واحدة, لا شيعا متفرقين, وقال الله تعالى في كتابه: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي

حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين, إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون} 2.
فجعل المؤمنين إخوة, وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل مع وجود الاقتتال والبغي.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر" 3.
وقال: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" 4 وشبك بين أصابعه.
فهذه أصول الإسلام التي هي الكتاب والحكمة, والاعتصام بحبل الله جميعا "واجب" على أهل الإيمان للاستمساك بها.

1- مابين المعقوفتين سقطت من الأصل.
2- سورة الحجرات, آية: 9,10.
3- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب باب 27. ومسلم في صحيحه في كتاب البر حديث 66-67. والإمام أحمد في المسند4/268-270-274-276-278-375. وأورده الإمام السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم 8155 وعزاه إلى الإمام أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير, وأشار إلى صحته.
4-أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة باب88, وفي كتاب الأدب باب36,=

أهل البيت وخصائصهم:

من هم أهل البيت؟

ولا ريب أن الله قد أوجب فيهم من حرمة خلفائه وأهل بيته والسابقين الأولين, والتابعين لهم بإحسان ما أوجب.
قال الله تعالى: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما} 1.
وقدر روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أم سلمة: أن هذه الآية لما نزلت أدار النبي صلى الله عليه وسلم كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم فقال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا" 2.
وسنته تفسر كتاب الله تبينه, وتدل عليه, وتعبر عنه.....

= وفي المظالم باب 5. ومسلم في صحيحه في كتاب البر حديث 65, والترمذي في البر باب 18. النسائي في الزكاة باب 67. والإمام أحمد في المسند 4/104-405-409. وأورده السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم 9143 وأشار إلى صحته بعد عزوه للشيخين والترمذي والنسائي.
1-سورة الأحزاب: آية:28.
2-الحديث أخرجه الترمذي في المناقب باب 60, والإمام أحمد في مسنده 1/331, 3/259,285,6/292-298-304.

.....فلما قال: "هؤلاء أهل بيتي" مع أن سياق القرآن يدل على أن الخطاب مع أزواجه, علمنا أن أزواجه وإن كن من أهل بيته كما دل عليه القرآن, فهؤلاء أحق بأن يكونوا أهل بيته, لأن صلة النسب أقوى من صلة الصهر1.
والعرب تطلق هذا البيان للاختصاص بالكمال لا للاختصاص بأصل الحكم, كقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان, والتمرة والتمرتان, وإنما المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه, ولا يتفطن له فيتصدق عليه, ولا يسأل الناس إلحافا"2.
بين بذلك: أن هذا مختص بكمال المسكنة, بخلاف الطواف فإنه لا تكمل فيه المسكنة, لوجود من يعطيه أحيانا, مع أنه مسكين أيضا.
ويقال: هذا هو العالم, وهذا هو العدو, وهذا هو مسلم لمن كمل فيه ذلك وإن شاركه غيره في ذلك وكان دونه.
ونظير هذا "في"3 الحديث ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال: " مسجدي هذا" يعني: مسجد المدينة. مع سياق القرآن في قوله عن مسجد الضرار: {لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه, فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين} 1 يقتضي أنه مسجد قباء

1-المصاهرة: هي القرابة الناشئة بسبب الزواج.
2-أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير سورة رقم 2, وفي الزكاة باب 53, وأبو داود في سننه في كتاب الزكاة باب 24. النسائي في سننه في كتاب الزكاة باب 76. والدارمي في مسنده كتاب الزكاة باب2. ومالك في الموطأ في كتاب صفة النبي حديث 7. والإمام أحمد في المسند 384/1-446,2/260-316-393-395-449-457-469. وأورده السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم 7585 وعزاه إلى الشيخين وأبو داود والنسائي والإمام أحمد, وأشار إلى صحته.
3-ما بين المعقوفتين سقطت من الأصل.

فإنه قد تواتر أنه قال لأهل قباء: " ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟ " فقالوا: لأننا نستنجي بالماء2".
لكن مسجده أحق بأن يكون مؤسسا على التقوى من مسجد قباء, وإن كان كل منهما مؤسسا على التقوى, وهو أحق أن يقوم فيه من مسجد الضرار.
فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم: إنه كان يأتي قباء كل سبت راكبا وماشيا, فكان يقوم في مسجده القيام الجامع يوم الجمعة, ثم يقوم يوم السبت 3. وفي كل منهما قد قام في المسجد المؤسس على التقوى.
ولما بين سبحانه أنه يريد أن يذهب الرجس عن أهل بيته ويطهرهم تطهيرا, دعا النبي صلى الله عليه وسلم أقرب أهل بيته وأعظمهم اختصاصا به, وهم: علي, وفاطمة رضي الله عنهما, وسيدي شباب أهل الجنة, جمع الله لهم بين أن قضى لهم بالتطهير, وبين أن قضى لهم بكمال دعاء النبي صلى الله عليه وسلم فكان من ذلك ما دلنا على أن إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم نعمة من الله, ليسبغها عليهم, ورحمة من الله وفضل لم يبلغوهما بمجرد حولهم وقوتهم, إذ لو كان كذلك.....

1-سورة التوبة آية:108.
2-أخرجه الإمام أحمد في المسند 6/422,6/3. وابن ماجة في سننه في كتاب الطهارة باب28.
3-أخرجه البخاري في صحيحه في فضل الصلاة في مسجد مكة باب3,6 وفي الاعتصام باب16. ومسلم في صحيحه في كتاب الحج حديث 515-519-521. وأبو داود في سننه في كتاب المناسك باب 95. والنسائي في سننه في كتاب المساجد باب9. ومالك في الموطأ كتاب السفر حديث 71. والإمام أحمد في المسند 5/2-30-57-58-65-72-80-101-108-155.

.....لاستغنوا بهما عن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم, كان يظن من يظن أنه قد استغنى في هدايته وطاعته عن إعانة الله تعالى له, وهدايته إياه.
وقد ثبت أيضا بالنقل الصحيح: أن هذه الآيات لما نزلت قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أزواجه, وخيرهن كما أمره الله, فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة, ولذلك أقرهن, ولم يطلقهن, حتى مات عنهن. ولو أردن الحياة الدنيا وزينتها لكان يمتعهن ويسرحهن كما أمره الله تعالى, فإنه صلى الله عليه وسلم أخشى الأمة لربه وأعلمهم بحدوده.
ولأجل ما دلت عليه هذه الآيات من مضاعفة للأجور والوزر بلغنا عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين وقرة عين الإسلام أنه قال: "إني لأرجو أن يعطي الله للمحسن منا أجرين, وأخاف أن يجعل على المسيء منا وزرين".
وثبت في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغدير "خم" بين مكة والمدينة فقال: "وأهل بيتي, أذكركم الله في أهل بتي, أذكركم الله في أهل بتي". قيل لزيد بن أرقم: ومن أهل بيته؟ قال: الذين حرموا الصدقة: آل علي, وآل جعفر, وآل عقيل, وآل عباس. قيل لزيد: آكل هؤلاء أهل بيته؟ قال: نعم" 1.
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه صحاح أن الله لما أنزل عليه: {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما} .
سأل الصحابة: كيف يصلون عليه, فقال: " قولوا: اللهم صلي على محمد, وعلى آل محمد, كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم, إنك حميد مجيد".....

1-الحديث أخرجه مسلم في الصحيح. الدارمي في فضائل القرآن باب1. والإمام أحمد في المسند 367/114,4/2. والترمذي. النسائي. الحاكم في المستدرك. وهو حديث صحيح.

.....وفي حديث صحيح: " اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته" 1.
ما لهم وما عليهم:
وثبت عنه أن ابنه الحسن لما تناول تمرة من تمر الصدقة قال "له"2: "كخ, كخ أما علمت أنا آل بيت لا تحل لنا الصدقة"؟ 3.
وقال: "إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد" 4.
وهذا- والله أعلم- من التطهير الذي شرعه الله لهم, فإن الصدقة أوساخ الناس, فطهرهم الله من الأوساخ, وعوضهم بما يقيتهم من خمس الغنائم ومن الفيء الذي جعل منه رزق محمد حيث قال صلى الله عليه وسلم فما رواه أحمد وغيره: "بعثت بالسيف بين يدي الساعة, حتى يعبد الله وحده لا شريك له, وجعل رزقي تحت ظل رمحي, وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري, ومن تشبه.....

1-أخرجه البخاري في صحيحه في تفسير سورة رقم 33, وفي كتاب الأنبياء باب 10, وفي الدعوات باب 31-32. ومسلم في الصحيح في كتاب الصلاة حديث 65-66-69. الترمذي في تفسير سورة رقم 33, وفي الوتر باب 2, وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة باب 179. والنسائي في السنن من كتاب السهو باب 49-50-54 والدارمي في المسند في كتاب الصلاة باب 85. ومالك في الموطأ كتاب السفر حديث رقم 66-67 والإمام أحمد بن حنبل في مسنده 162/1-47/3-118/4-241-243-224-274/5-374-324.
وآية الحديث: سورة الأحزاب آية:56.
2-مابين المعقوفتين سقطت من الأصل.
3-الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الزكاة باب 60, وفي الجهاد باب 188. والدارمي في المسند في كتاب الزكاة باب 16. والإمام أحمد بن حنبل في المسند 409/2-444-476. وأورده الإمام السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم 6226 عزاه للشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه.
4-الحديث أخرجه الدارمي في المسند كتاب الزكاة باب16. والنسائي في سننه في كتاب الزكاة باب98 في الترجمة. ومالك في الموطأ في كتاب الصدقة حديث 13. والإمام أحمد ابن حنبل في المسند 279/2.
(29/1)

.....بقوم فهو منهم" 1.
ولهذا ينبغي أن يكون اهتمامهم بكفاية أهل البيت الذين حرمت عليهم الصدقة أكثر من اهتمامهم بكفاية الآخرين من الصدقة, لا سيما إذا تعذر أخذهم من الخمس والفيء, إما لقلة ذلك, وإما لظلم من يستولي على حقوقهم, فيمنعهم إياها من ولاة الظلم, فيعطون من الصدقة المفروضة ما يكفيهم إذ لم تحصل كفايتهم من الخمس والفيء.

1-الحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده 50/2-92 والبخاري في صحيحه في كتاب الجهاد باب 88 تعليقا. وأورده السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم 3152 وغزاه إلى الإمام أحمد والطبراني وعبد الرزاق عن ابن عمر رضي الله عنه. وعزاه المناوي في شرح الجامع الصغير إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبيهقي في شعب الإيمان. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد.

صفات أهل الفيء:
وعلى الآخذين من الفيء من ذوي القربى وغيرهم أن يتصفوا بما وصف الله به أهل الفيء في كتابه حيث قال: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل} 2 الآيات.
فجعل أهل الفيء ثلاثة أصناف: المهاجرين, والأنصار, والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.
وذلك أن الفيء إنما حصل بجهاد المهاجرين والأنصار وإيمانهم وهجرتهم ونصرتهم, فالمتأخرون إنما يتناولونه مخلفا عن أولئك, مشبها بتناول الوارث ميراث أبيه, فإن لم يكن مواليا له لم يستحق الميراث " فلا يرث المسلم.....

2-سورة الحشر, آية:7.

.....الكافر" 1.
فمن لم يستغفر لأولئك بل كان مبغضا لهم خرج عن الوصف الذي وصف الله به أهل الفيء, حتى يكون قلبه مسلما لهم, ولسانه داعيا لهم, ولو فرض أنه صدر من واحد منهم ذنب محقق فإن الله يغفره له بحسناته العظيمة, أو بتوبة تصدر منه, أو يبتليه ببلاء يكفر به سيئاته, أو يقبل فيه شفاعة نبيه وإخوانه المؤمنين, أو يدعو الله بدعاء يستجيب له.

1-لانقطاع الموالاة بينهما. لحديث أسامة بن زيد الذي أخرجه الإمام أحمد 201/5-202-209 والبخاري ومسلم والأربعة. وقال السيوطي: حديث صحيح.

سب الصحابة ... حرام على آل البيت وغيرهم:
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح من رواية أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه أن حاطب بن أبي بلتعة كاتب كفار مكة لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يغزوهم غزوة الفتح, فبعث إليهم امرأة معها كتاب يخبرهم فيه بذلك, فجاء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذلك, فبعث عليا والزبير فأحضرا الكتاب, فقال: "ما هذا يا حاطب"؟ فقال: والله يا رسول الله ما فعلت ذلك أذى ولا كفرا, ولكن كنت امرءا ملصقا من قريش, ولم أكن من أنفسهم, وكان من معك من أصحابك لهم قرابات يحمون بها أهليهم, فأردت أن أتخذ عندهم يدا أحمي بها قرابتي, فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال: "إنه شهد بدرا, وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" وأنزل الله تعالى في ذلك: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} الآيات2.

2-سورة الممتحنة, آية:1.

وثبت في صحيح مسلم أن غلام حاطب هذا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله والله ليدخلن حاطب النار, وكان حاطب يسيء إلى مماليكه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كذبت, إنه قد شهد بدرا والحديبية". وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل النار واحد بايع تحت الشجرة" 1.
فهذا حاطب قد تجسس على رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فتح مكة التي كان صلى الله عليه وسلم يكتمها عن عدوه, وكتمها عن أصحابه, وهذا من الذنوب الشديدة جدا, وكان يسيء إلى مماليكه.
وفي الحديث المرفوع. " لن يدخل الجنة سيء الملكة" 2.
ثم مع هذا لما شهد بدرا والحديبية غفر الله له ورضي عنه, فإن الحسنات يذهبن السيئات.
فكيف بالذين هم أفضل من حاطب وأعظم إيمانا وعلما وهجرة وجهارا, فلم يذنب أحد قريبا من ذنوبه؟!
ثم إن أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه روى هذا الحديث في خلافته, ورواه عنه كاتبه عبيد الله بن أبي رافع, وأخبر فيه أنه هو الزبير ذهبا لطلب الكتاب من المرأة الظعينة, وأن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لأهل بدر مما شهد, مع علم أمير المؤمنين بما جرى, ليكف القلوب والألسنة عن أن تتكلم فيهم إلا بالحسنى, فلم يأت أحد منهم بأشد مما جاء به حاطب, بل كانوا في غالب ما يأتون به مجتهدون.
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران, وإذا اجتهد.....

1-وأخرجه أيضا الترمذي في المناقب باب 57-58 وغيرهما.
2-أخرجه ابن ماجة في سننه في الأدب باب 10, والإمام أحمد بن حنبل في المسند 4,7/1-12.

.....فأخطأ فله أجر" 1 وهذا حديث حسن مشهور.
وثبت عنه أيضا أنه لما كان في غزوة الأحزاب فرد الله الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيرا, وأمر بقصد بني قريظة قال لأصحابه: "لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة".

فأدركتهم الصلاة في الطريق, فمنهم قوم قالوا: لا نصليها إلا في نبي قريظة, ومنهم قوم قالوا: لم يرد منا تفويت الصلاة, إنما أراد المسارعة, فصلوا في الطريق, فلم يعنف النبي صلى الله عليه وسلم واحدة من الطائفتين.
وكانت سنة رسول الله صلى الله عليه ولم هذه موافقة لما ذكره الله تعالى في كتابه حيث قال: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين, ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما} 2.
فأخبر سبحانه وتعالى أنه خص أحد النبيين بفهم الحكم في تلك القضية وأثنى على كل منهما بما آتاه من العلم والحكم.
فهكذا السابقون والأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه "كانوا"3 فيما تنازعوا فيه مجتهدين طالبين للحق.

1-الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في الاعتصام باب 20-21 ومسلم في الأقضية حديث رقم 15,وأبو داود في سننه في الأقضية باب 2, والنسائي في سننه في كتاب الأحكام باب2, وفي القضاة باب3, والإمام أحمد في المسند 198/4-204-205.
2-سورة الأنبياء, آية:78.
3-ما بين المعقوفتين سقطت من الأصل.

جهل الشيعة بمذهب الإمام علي:
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " من يعش منك بعدي فسيرى اختلافا كثيرا, فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ, وإياكم ومحدثات الأمور, فإن كل بدعة ضلالة" 1.
وروى عنه مولاه سفينة أنه قال: "الخلافة ثلاثون سنة, ثم تصبر ملكا" 2, فكان الثلاثين حين سلم سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحسن بن علي رضي الله عنهما الأمر إلى معاوية.
وكان معاوية أول الملوك, وفيه ملك ورحمة, كما روي في الحديث: "ستكون خلافة نبوة, ثم يكون ملك ورحمة, ثم يكون ملك وجبرية, ثم يكون ملك عضوض" 3.
وقد ثبت عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من وجوه أنه لما قاتل أهل الجمل لم يسب لهم ذرية, ولم يغنم لهم مالا, ولا أجهز على جريح, ولا اتبع مدبرا, ولا قتل أسيرا, وأنه صلى على قتلى الطائفتين بالجمل وصفتين, وقال: "إخواننا بغوا علينا"......

1-أخرجه أبو داود في سننه في كتاب السنة باب5. والترمذي في العلم باب 16. وابن ماجة في سننه في المقاومة باب 2. والدارمي في مسنده في المقاومة باب16. والإمام أحمد في مسنده 126,127/4.
2-أخرجه الإمام أحمد في المسند 220/5-221.
3-أخرجه أبو داود في سننه في كتاب السنة باب8. والترمذي في الفتن باب 48. والإمام أحمد 273,5/4-44-50-404.

.....وأخبر أنهم ليسوا بكفار ولا منافقين, واتبع فيما قاله كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم, فإن الله سماهم إخوة, وجعلهم مؤمنين في الاقتتال والبغي كما ذكر في قوله: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا} 1.
وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح أنه قال: "تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين, تقتلهم أولى الطائفتين بالحق" 2.
وهذه المارقة هم أهل حروراء, الذين قتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأصحابه لما مرقوا عن الإسلام, وخرجوا عليه فكفروه, وكفروا سائر المسلمين, واستحلوا دماءهم وأموالهم.
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من طرق متواترة أنه وصفهم وأمر بقتالهم, فقال: "يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم, صيامه مع صيامهم, وقرآنه مع قرآنهم, ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم, يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية, ولو يعلم الذين يقتلونهم ما لهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم لنكلوا عن العمل" 3. .....

1-سورة الحجرات, آية:9.
2-أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة حديث 150-152. وأبو داود في سننه في كتاب السنة باب 12. وأحمد في المسند 32/3-48.

3-أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء باب2, وفي المناقب باب25, والمغازي باب61, وفضائل القرآن باب 36, والأدب باب95, وفي التوحيد باب 23-57-وفي الاستتابة باب95. ومسلم في كتاب الزكاة حديث رقم 142-143-144-147-148-154-156-159. وأبو داود في سننه في كتاب الزكاة باب 79, وفي كتاب التحريم باب 26. وابن ماجة في المقدمة باب 12. الدارمي في المسند من المقدمة باب21. ومالك في الموطأ في مس القرآن حديث10. والإمام أحمد في المسند 88/1-92-131-147-151-156-160-256-404-5/3-15-33-52-56-60-64-65-68-73-159-183-189-224-353-354-355—486-4-145-422-425-42/5-176.

.....فقتلهم علي رضي الله عنه وأصحابه, وسر أمير المؤمنين بقتلهم سرورا شديدا وسجد لله شكرا, لما ظهر فيهم علامتهم وهو المخدج اليد, الذي على يده مثل البضعة من اللحم, عليها شعرات, فاتفق جميع الصحابة على استحلال قتالهم, وندم كثير منهم كابن عمر وغيره على ألا يكونوا شهدوا قتالهم مع أمير المؤمنين, بخلاف ما جرى في وقعة الجمل وصفين, فإن أمير المؤمنين كان متوجعا لذلك القتال, مشتكيا مما جرى, ويتراجع هو وابنه الحسن القول فيه, ويذكر له الحسن أن رأيه ألا يفعله.
فلا يستوي ما سر قلب أمير المؤمنين وأصحابه وغبطه به من لم يشهده, مع ما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم, وساء قلب أفضل أهل بيته, حب النبي صلى الله عليه وسلم, الذي قال فيه: "اللهم إني أحبه فأحبه, وأحب من يحبه".
وإن كان أمير المؤمنين هو أولى بالحق ممن قاتله في جميع حروبه.
ولا يستوي القتلى الذين صلى عليهم وسماهم وإخواننا, والقتلى الذين لم يصل عليهم, بل قيل له: من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؟ فقال: هم أهل حروراء.
فهذا الفرق بين أهل حروراء وبين غيرهم الذي سماه أمير المؤمنين في خلافته بقوله وفعله موافقا فيه لكتاب الله وسنة نبيه هو الصواب الذي لا معدل عنه لمن هدى رشده, وإن كان كثير من علماء السلف والخلف لا يهتدون لهذا الفرقان, بل يجعلون السيرة في الجميع واحدة.
فإما أن يقصروا بالخوارج عما يستحقونه من البعض واللعنة والعقوبة والقتل, وإما أن يزيدوا على غيرهم ما يستحقونه من ذلك.

عوامل الضلال

وسبب ذلك قلة العلم والفهم لكتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه, وسيرة خلفائه الراشدين المهديين, وإلا فمن استهدى الله واستعانه, وبحث عن ذلك, طلب الصحيح من المنقول, وتدبر كتاب الله, وسنة نبيه, وسنة خلفائه, ولا سيما أمير المؤمنين الهادي المهدي التي جرى فيها ما اشتبه على خلق كثير فضلوا بسبب ذلك, إما غلوا فيه, وإما جفاء عنه.
كما روي عنه قال: " يهلك في رجلان: محب غال يقرظني بما ليس في, ومبغض قال يرميني بما نزهني الله منه" 1.
وحد ذلك وملاك ذلك شيئان:
طلب الهدى, مجانبة الهوى حتى لا يكون الإنسان ضالا وغاويا, بل مهتديا راشدا.
قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم: {والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى} 2.
فوصفه بأنه ليس بضال وهو الجاهل, ولا هو غاو, وهو الظالم, فإن صلاح العبد في أنه يعلم الحق ويعمل به, فمن لم يعلم الحق فهو ضال عنه. ومن علمه فخالفه واتبع هواه فهو غاو, ومن علمه وعمل به كان من أولي الأيدي عملا, ومن أولي الأبصار علما, وهو الصراط المستقيم الذي أمرنا الله سبحانه.....

1-أخرجه الإمام أحمد في المسند 160/1.
2-سورة النجم آية:3.

.....في كل صلاة أن نقول: {اهدنا الصراط المستقيم, صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} 1.
فالمغضوب عليهم: الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه كاليهود, والضالون الذين يعملون أعمال القلوب والجوارح بلا علم كالنصارى. ولهذا وصف الله اليهود بالغواية في قوله تعالى: {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا} 2.

ووصف العالم الذي لم يعمل بعلمه بذلك في قوله تعالى: {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه} 3.
ووصف النصارى بالضلال في قوله تعالى: {ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} 4.
ووصف بذلك من يتبع هواه بغير علم حيث قال: {وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين} 5. .....

1-سورة الفاتحة, آية:6-7.
2-سورة الأعراف, آية:146.
3-سورة الأعراف, آية: 175.
4-سورة المائدة, آية:77.
5-سورة الأنعام, آية: 119.
(38/1)

.....وقال: {ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله} 1.
وأخبر أن من اتبع هداه المنزل فإنه لا يضل كما ضل الضالون, ولا يشقى كما شقي المغضوب عليهم فقال: {فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى} 2.
قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.
ومن تمام الهداية: أن ينظر المستهدي في كتاب الله, وفيما تواتر من سنة نبيه, وسنة الخلفاء, وما نقله الثقات الأثبات, ويميز بين ذلك وبين ما نقله من لا يحفظ الحديث, أو يتهم فيه الكذب, أو يكذب خطأ لسوء حفظه أو نسيانه, أو لقلة فهمه وضبطه.
ثم إذا حصلت "للمستهدي"3 المعرفة بذلك تدبر ذلك, وجمع بين المتفق منه, وتدبر المختلف فيه, حتى يتبين له أنه متفق في الحقيقة وإن كان الظاهر مختلفا, أو أن بعضه راجح يجب اتباعه, والآخر مرجوح ليس بدليل في الحقيقة, وإن كان الظاهر دليلا.
أما غلط الناس فلعدم التمييز بين ما يعقل من النصوص والآثار, أو يعقل بمجرد القياس والاعتبار, ثم إذا خالط الظن الغلط في العلم هوى النفوس ومناها في العمل صار لصاحبها نصيب من قوله تعالى: .....

1-سورة القصص, آية:50.
2-سورة طه, آية:123.
3-ما بين المعقوفتين سقطت من الأصل.

.....{إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى} 1.
وهذا سبب ما خلق الإنسان عليه من الجهل في نوع العلم, والظلم في نوع العمل, فبجهله يتبع الظن, وبظلمه يتبع ما تهوى الأنفس. ولما بعث الله رسله وأنزل كتبه, لهدى الناس وإرشادهم, صار أشدهم إتباعا للرسل أبعدهم عن ذلك كما قال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} 2.
ولهذا صار ما وصف الله به الإنسان لا يخص غير المسلمين دونهم, ولا يخص طائفة من الأمة, لكن غير المسلمين أصابهم ذلك في أصول الإيمان التي صار جهلهم وظلمهم فيها كفرانا وخسرانا مبينا, ولذلك من ابتدع في أصول الدين بدعة جليلة أصابه من ذلك أشد مما يصيب من أخطأ في أمر دقيق أو أذنب فيه, والنفوس لهجة بمعرفة محاسنها, ومساوئ غيرها.
وأما العالم العادل فلا يقول إلا الحق, ولا يتبع إلا إياه, ولهذا من يتبع المنقول الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وأصحابه وأئمة أهل بيته, مثل الإمام علي بن الحسين زين العابدين, وابنه الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر, وابنه الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق شيخ علماء الأمة, ومثل: أنس بن مالك, والثوري, وطبقتهما, وجد ذلك جميعه متفقا

مجتمعا في أصول دينهم, وجماع شرائعهم, ووجد في ذلك ما يشغله وما يغنيه عما أحدثه كثير من المتأخرين من أنواع المقالات التي تخالف ما كان عليه أولئك .....

1-سورة النجم, آية:23.
2-سورة البقرة, آية: 213.

.....السلف "وهؤلاء المتأخرون"1 ممن ينتصب لعداوة آل البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم, ويبخسهم حقوقهم, ويؤذيهم, أو ممن يغلوا فيهم غير الحق ويفتري عليهم الكذب, ويبخس السابقين والطائعين حقوقهم, ورأى أن في المأثور عن أولئك السلف في باب التوحيد والصفات, وباب العدل والقدر, وباب الإيمان والأسماء والأحكام, وباب الوعيد والثواب, والعذاب, باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, ما يتصل به حكم الأمراء أبرارهم وفجارهم, وحكم الرعية معهم, والكلام في الصحابة والقرابة ما يبين لكل عاقل عادل أن السلف المذكورين لم يكن بينهم من النزاع في هذه الأبواب إلا من جنس النزاع الذي أقرهم عليه الكتاب والسمة كما تقدم ذكره, وأن البدع الغليظة المخالفة للكتاب والسنة, واتفاق أولي الأمر الهداة المهتدين إنما حدثت من الأخلاف, وقد يعزون بعض ذلك إلى بعض الأسلاف, تارة بنقل غير ثابت, وتارة بتأويل لشيء من كلامهم متشابه.
ثم إن من رحمة الله قل أن ينقل عنهم شيء من ذلك إلا وفي النقول الصحيحة الثابتة عنهم للقول المحكم الصريح ما يبين غلط الغالطين عليهم في النقل أو التأويل, وهذا لأن الصراط المستقيم في كل الأمة بمنزلة الصراط في الملك, فكمال الإسلام هو الوسط في الأديان والملك, كما قال تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} 2.
ولم ينحرفوا انحراف اليهود والنصارى والصابئين.
فكذلك أهل الاستقامة, ولزوم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم, وما عليه السلف, تمسكوا بالوسط, ولم ينحرفوا إلى الإطلاق.
فاليهود مثلا جفوا في الأنبياء والصديقين حتى قتلوهم وكذبوهم, كما قال الله تعالى:

1-ما بين المعقوفتين سقطت من الأصل.
2-سورة البقرة, آية: 143.

{ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون} 1.
والنصارى غلوا فيهم عبدوهم كما قال تعالى: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق} 2.
واليهود انحرفوا في النسخ حتى زعموا أنه لا يقع من الله أو لا يجوز عليه, كما ذكر الله عنهم إنكاره في القرآن حيث قال: {سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها} 3.
والنصارى قابلوهم, فجوزوا للقسيسين والرهبان أن يوجبوا ما شاءوا, ويحرموا ما شاءوا, وكذلك تقابلهم في سائر الأمور.
فهدى الله المؤمنون إلى الوسط فاعتقدوا في الأنبياء ما يستحقونه, ووقروهم, وعزروهم, وأحبوهم, وأطاعوهم واتبعوهم ولم يردوهم كما فعلت اليهود, ولا أطروهم ولا غلوا فيهم فنزلوهم منزلة الربوبية كما فعلت النصارى.
وكذلك في النسخ, جوزوا أن ينسخ الله, ولم يجوزوا لغيره أن ينسخ, فإن الله له الخلق والأمر, فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره.
وهكذا أهل الاستقامة في الإسلام المعتصمون بالحكمة النبوية, والعصبة الجماعية, متوسطون في باب التوحيد والصفات بين النفاة المعطلة وبين الشبهة الممثلة.
وفي باب القدر والعدل والأفعال بين القدرية والجبرية والقدرية المجوسية.
وفي باب الأسماء والأحكام بين من أخرج أهل المعاصي من الإيمان بالكلية

1-سورة البقرة, آية:87.
2-سورة النساء, آية:171.
3-سورة البقرة, آية:142.

كالخوارج وأهل المنزلة, وبين من جعل إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والصديقين كالمرجئة والجهمية.

وفي باب الوعيد والثواب والعقاب بين الوعيد بين الذين لا يقولون بشفاعة نبينا لأهل الكبائر, وبين المرجئة الذين يقولون بنفوذ الوعيد.
وفي باب الإمامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, بين الذين يوافقون الولاة على الإثم والعدوان, ويركنون إلى الذين ظلموا, وبين الذين لا يرون أن يعاونوا أحدا على البر والتقوى, لا على جهاد ولا جمعة ولا أعياد إ أن يكون معصوما, ولا يدخلون فيما أمر الله به ورسوله إلا في طاعة من لا وجود له.
فالأولون يدخلون في المحرمات, وهؤلاء يتركون واجبات الدين, وشرائع الإسلام, غلاتهم يتركونها لأجل موافقة من يظنونه ظالما, وقد يكون كاملا في علمه وعدله.

أهل الاستقامة ... عند المصيبة:

وأهل الاستقامة والاعتدال يطيعون الله ورسوله بحسب الإمكان, فيتقون الله ما استطاعوا, وإذا أمرهم الرسول بأمر أتوا منه ما استطاعوا, ولا يتركون ما أمروا به لفعل غيرهم ما نهى عنه, بل كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم} 1.
ولا يعانون أحدا على معصية, ولا يزيلون المنكر بما هو أنكر منه, ولا يأمرون بالمعروف إلا بالمعروف, فهم وسط في عامة الأمور, ولهذا وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم الطائفة الناجية لما ذكر اختلاف أمته وافتراقهم.
ومن ذلك أن اليوم الذي هو يوم عاشوراء الذي أكرم الله فيه سبط نبيه, وأحد سيدي شباب أهل الجنة بالشهادة على أيدي من قتله من الفجرة الأشقياء, وكان ذلك مصيبة عظيمة من أعظم المصائب الواقعة في الإسلام.
وقد روى الإمام أحمد وغيره عن فاطمة بنت الحسين وقد كانت قد شهدت مصرع أبيها, الحسين بن علي رضي الله عنهم, عن جده رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما من رجل يصاب بمصيبة فيذكر مصيبته وإن قدمت, فيحدث لها استرجاعا إلا أعطاه الله من الأجر مثل أجره يوم أصيب بها" 2.
فقد علم أن الله أن مثل هذه المصيبة العظيمة سيتجدد ذكرها مع تقادم.

1-سورة المائدة, آية:105.
2-أخرجه الإمام أحمد في المسند 201/1. وابن ماجة في السنن في الجنائز باب55.

العهد, فكان من محاسن الإسلام أن روى هذا الحديث صاحب المصيبة والمصاب به أولا ولا ريب أن ذلك فعله الله كرامة للحسين رضي الله عنه, ورفعا لدرجته ومنزلته عند الله, تبليغا له منازل الشهداء, وإلحاقا له بأهل بيته الذين ابتلوا بأصناف البلاء, ولم يكن الحسن والحسين حصل لهما من الابتلاء ما حصل لجدهما ولأمهما وعمهما, لأنهما ولدا في عز الإسلام, تربيا في حجور المؤمنين, فأتم الله نعمته عليهما بالشهادة, أحدهما مسموما, والآخر مقتولا, لأن الله عنده من المنازل العالية في دار كرامته ما لا ينالها إلا أهل البلاء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل: أي الناس بلاء؟ فقال: "الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل, وابتلى الرجل حسب دينه, فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه, وإن كان في دينه رقة خفف عنه وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس خطيئة" 1.
وشقي بقتله من أعان عله, أو رضي به, فالذي شرعه الله للمؤمنين عند الإصابة بالمصائب وإن عظمت أن يقولوا: {إنا لله وإنا إليه راجعون} 2.
وقد روى الشافعي في مسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات, وأصاب أهل بيته من المصيبة ما أصابهم, سمعوا قائلا يقول: "يا آل بيت رسول الله, إن في الله عزاء من كل مصيبة, وخلفا من كل هالك, ودركا من كل فائت, فبالله فثقوا, وإياه فارجوا المصاب من حرم الثواب ... ".
فكانوا يرونه الخضر جاء يعزيهم بالنبي صلى الله عليه وسلم.

1-الحديث أخرجه الترمذي في الزهد باب 57. وابن ماجة في سننه في الفتن باب23.والدارمي في مسنده في كتاب الرقاق باب 67. والإمام أحمد في المسند 1/172-174-180-185.
2-سورة البقرة, آية:156.

فأما اتخاذ المآتم في المصائب, واتخاذ أوقاتها مآتم, فليس من دين الإسلام, وهو أمر لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم, ولا أحد من السابقين الأولين, ولا من التابعين لهم بإحسان, ولا من قادة أهل البيت, ولا غيرهم.
وقد شهد مقتل علي أهل بيته, وشهد مقتل الحسين من شهده من أهل بيته, وقد مرت على ذلك سنون كثيرة, وهم متمسكون بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم, لا يحدثون مأتما, ولا نياحة, بل يصبرون ويسترجعون كما أمر الله ورسوله, أو يفعلون ما لا بأس به من الحزن والبكاء عند قرب المصيبة.
قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما كان من العين والقلب فمن الله, وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان" 1.
وقال: "ليس منا من لطم الخدود, وشق الجيوب, ودعا بدعوى الجاهلية" 2. يعني: مثل قول المصاب "يا سنداه, يا ناصراه, يا عضداه".
وقال: " إن النائحة إذا لم تتب قبل موتها فإنها تلبس يوم القيامة درعا من جرب, وسربالا من قطران " 3.
وقال: "لعن الله النائحة والمستمعة إليها" 4.

1-أخرج أبو نعيم عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما كان من حزن في قلب أو عين فهو من قبل الرحمة وما كان من حزن يد أو لسان فهو من قبل الشيطان" انظر جمع الجوامع للسيوطي 709/1.
2-أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز باب 36-38-39, وفي المناقب باب8. ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان حديث 165. والترمذي في كتاب الجنائز باب22. وابن ماجة في سننه باب الجنائز باب52. والإمام أحمد في مسنده 386/1-432-456-442-465-131/4.
3-أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز حديث رقم 29. وابن ماجة في سننه في الجنائز باب51. والإمام أحمد في مسنده 342/5-343-344.
4-أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الجنائز باب25. والإمام أحمد في المسند 65/3.

وقد قال في تنزيله: {يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم} 1.
وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم قوله: {ولا يعصينك في معروف} بأنها النياحة.
وتبرأ النبي صلى الله عليه وسلم من الحالقة والصالقة.
"والحالقة"2: التي تحلق شعرها عند المصيبة.
والصالقة: التي ترفع صوتها عند المصيبة.
وقال جرير بن عبد الله: كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعتهم الطعام للناس من النياحة.
وإنما السنة أن يصنع لأهل الميت طعام, لأن مصيبتهم تشغلهم.
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما نعى جعفر بن أبي طالب لما استشهد بمؤتة فقال: "اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد جاءهم ما يشغلهم" 3.
وهكذا ما يفعل قوم آخرون يوم عاشوراء من الاكتحال والانخضاب, أو المصافحة, والاغتسال, فهو بدعة أيضا لا أصل لها, ولم يذكرها أحد من الأئمة المشهورين.
وإنما روي فيها حديث: " من اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض تلك السنة ومن اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام" نحو ذلك.

1-سورة الممتحنة, آية:12.
2-ما بين المعقوفتين سقطت من الأصل.
3-الحديث أخرجه الترمذي في الجنائز باب21. وابن ماجة في الجنائز باب59.

ولكن الذي ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه صام يوم عاشوراء, وأمر بصيامه وقال: "صومه يكفر سنة" 1.

وقرر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله أنجى فيه موسى وقومه, وأغرق فرعون وقومه, وروى انه كان فيه حوادث الأمم..فمن كرامة الحسين أن الله جعل استشهاده فيه.
وقد يجمع الله في الوقت شخصا أو نوعا من النعمة التي توجب شكرا, أو المحنة التي توجب صبرا.
كما أن سابع عشر شهر رمضان فيه كانت وقعة بدر, وفيه مقتل علي ...
وأبلغ من ذلك: أن يوم الاثنين في ربيع الأول فيه مولد النبي صلى الله عليه وسلم, وفيه هجرته وفيه وفاته.
والعبد المؤمن يبتلي بالحسنات التي تسره, والسيئات التي تسوءه في الوقت الواحد, ليكون صبارا شكورا, فكيف إذا وقع مثل ذلك في وقتين متعددين من نوع واحد.
ويستحب صوم التاسع والعاشر, ولا يستحب الكحل, والذين يصنعونه من الكحل من أهل الدين لا يقصدون به مناصبة أهل البيت وإن كانوا مخطئين في فعلهم, ومن قصد منهم أهل البيت بذلك أو غيره, أو فرح, أو استشفى بمصائبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.
فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم من أجلي" 2 لما شكى إليه العباس أن بعض قريش يجفون بني هاشم.

1-أخرجه الإمام أحمد في مسنده 295/5-297-304-307.
2-انظر الحديث في مسند: الإمام أحمد, وسنن الترمذي, وسنن النسائي, والمستدرك للحاكم 75/4, وسنن ابن ماجة. مع اختلاف في الألفاظ. قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح".

وقال: "إن الله اصطفى قريشا من بني كنانة, اصطفى بني هاشم من قريش, واصطفاني من بني هاشم" 1.
وروي أنه قال: "أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة, وأحبوني لحب الله, وأحبوا أهل بيتي لحبي" 2.
وهذا باب واسع يطول القول فيه.

1-أول حديث: " إن الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل, واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة, واصطفى من بني كنانة قريشا" ...
أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل حديث رقم 1. والترمذي في المناقب باب1. والإمام أحمد في المسند 107/4 وأورده السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم 1683 وعزاه إلى الترمذي عن وائلة بن الأسقع وصححه وقال الترمذي: حيث صحيح".
2-أخرجه الترمذي في لمناقب, والحاكم في مستدركه في فضائل أهل البيت, وصححه كل منها, وأقره الذهبي في التلخيص. وأورده السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم 224 وعزاه إلى الترمذي والحاكم, ورمز له بالصحة.

<u>بدع وضلالات:</u>
وكان سبب هذه المواصلة أن بعض الإخوان قدم بورقة فيها ذكر النبي صلى الله عليه وسلم, وذكر سادة أهل البيت, وقد أجرى فيها ذكر النذور لمشهد المنتظر, فخوطب من فضائل أهل البيت وحقوقهم بما سر قلبه, وشرح صدره, وكان ما ذكر بعض الواجب, فإن الكلام في هذا طويل, ولم يحتمل هذا الحامل أكثر من ذلك.
وخوطب فيما يتعلق بالأنساب والنذور بما يوجب في دين الله, فسأل المكاتبة بذلك إلى من يذهب إليه من الإخوان, فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الدين النصيحة, قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله, ولكتابة, ولرسوله, والأئمة المسلمين وعامتهم" 1.
أما ورقة الأنساب والتواريخ ففيها غلط في مواضع متعددة, مثل: ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي في صفر, وأنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عمرو ابن العلاء بن هاشم, وأن جعفر الصادق توفي في خلافة الرشيد, وغير ذلك.
فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي في شهر ربيع الأول شهر مولده وشهر هجرته, وأنه توفي يوم الاثنين, وفيه ولد, وفيه أنزل عليه, وجده هاشم بن عبد مناف, وإنما كان هاشم يسمى عمر, ويقال له:

1-أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان باب42 ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان حديث 95. وأبو داود في السنن في كتاب الأدب باب 59.والترمذي في البر باب17. والنسائي في البيعة باب 31, و41. والدارمي في المسند كتاب الرقاق باب41. والإمام أحمد في المسند 351/1-297/2-102/4-103.

عمرو العلا, كما قال الشاعر:

عمر العلا هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مستنون عجاف

وأن جعفر أبا عبد الله توفي في سنة ثمان وأربعين في إمارة أبي جعفر المنصور.

وأما المنتظر فقد ذكر طائفة من أهل العلم بأنساب أهل البيت: أن الحسن ابن علي العسكري لما توفي بعسكر سامراء لم يعقب ولم ينسل, وقال من أثبته: إن أباه لما توفي سنة ستين ومائتين كان عمره سنتين أو أكثر من ذلك بقليل, وإنه غاب من ذلك الوقت, وإنه من ذلك الوقت حجة الله على أهل الأرض, لا يتم الإيمان إلا به, وإنه هو المهدي الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم, وإنه يعلم لكل ما يفتقر إليه في الدين.

وهذا موضع ينبغي للمسلم أن يتثبت فيه, ويستهدي الله ستعينه, فإن الله قد حرم القول بغير علم, وذكر أن ذلك من خطوات الشيطان وحرم القول بغير علم, وذكر أن ذلك من خطوات الشيطان وحرم القول المخالف للحق, ونصوص التنزيل شاهدة بذلك, ونهى عن اتباع الهوى.

فأما المهدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم فقد رواه أهل العلم العالمون بأخبار النبي صلى الله عليه وسلم, والحافظون لها, الباحثون عنها وعن رواتها, مثل أبي داود, والترمذي, وغيرهما, ورواه الإمام أحمد في مسنده.

فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا من أهل بيتي يوطئ اسمه اسمي, واسم أبيه اسم أبي, يملأ الأرض قسطا وعدلا, كما ملئت ظلما

وجورا" 1.

وروي هذا المعنى من حديث أم سلمة وغيرها.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "المهدي من ولد ابني هذا" وأشار إلى الحسن2.

وقال صلى الله عليه وسلم: "يكون في آخر الزمان خليفة يحثو المال حثوا" 3. وهو حديث صحيح.

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه اسمه محمد بن عبد الله, ليس محمد بن الحسن. ومن قال: إن أباه جده الحسين, وأن كنيته الحسين أبو عبد الله فقد جعل النية اسمه, فما يخفى على من يخشى الله أن هذا تحريف للكلم عن مواضعه, وأنه من جنس تأويلات القرامطة.

1-الحديث أخرجه الترمذي ولفظه: " لا تذهب الدنيا حتى يملك رجل من أهل بيتي" الحديث. وأخرجه الإمام أحمد وأبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه. وأوردوه السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم 7490. وقال الترمذي: "حسن صحيح".
قال المناوي في شرح الجامع الصغير في الكلام عن هذا الحديث: فيه رد لقول الرافضة إن المهدي هو الإمام أبو القاسم محمد الحجة ابن الإمام أبي محمد الحسن الخالص وأنه المهدي المنتظر لأنه وإن وافق اسمه لكن اسم أبيه ليس موافقا لاسم أبيه, "انظر فيض القدير 332/5".

2-لم أقف عليها بهذا اللفظ فيما أتيح لي من مصادر. ووجدت معناه من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " المهدي من عترتي من ولد فاطمة" أخرجه ابن ماجة.
وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة" أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

3-أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن باب 18 أحاديث رقم 67-68-69 من أحاديث الباب.

وقول أمير المؤمنين صريح في أنه حسني لا حسيني, لأن الحسن والحسين مشبهان من بعض الوجوه بإسماعيل وإسحاق, وإن لم يكونا نبيين.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهام: "أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة, ومن كل عين لامة" 1.

ويقول: "إن إبراهيم كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق".

وكان إسماعيل هو الأكبر والأحلم.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب على المنبر: "إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين" 2.
فكما أن غالب الأنبياء كانوا من ذرية إسحاق, فهكذا كان غالب السادة الأئمة من ذرية الحسين, وكما أن خاتم الأنبياء الذي طبق أمره مشارق الأرض ومغاربها كان من ذرية إسماعيل, فكذلك الخليفة الراشد المهدي الذي هو آخر الخلفاء يكون من ذرية الحسن.
وأيضا فإن من كان ابن سنتين كان في حكم الكتاب والسنة مستحقا أن يحجر عليه في بدنه, ويحجر عليه في ماله, حتى يبلغ ويؤنس منه الرشد, فإنه يتيم, وقد قال الله تعالى: {وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم} 3.

1-أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب 10. وأبو داود في تاب السنة باب 20. والترمذي في الطب باب 18 وابن ماجة في الطب باب 36. وأحمد 1/236-270.
2-أخرجه البخاري في كتاب الصلح باب9, وفي فضائل أصحاب النبي باب22, وفي الفتن باب20, وفي المناقب باب 25. وأبو داود في كتاب السنة باب 12, وفي المهدي باب8. والترمذي في المناقب باب25. وأبو داود في كتاب السنة باب12, وفي المهدي باب 8. والترمذي في المناقب باب30. والنسائي في كتاب الجمعة باب27.
3-سورة النساء, آية:6.

فمن لم تفوض الشريعة إليه أمر نفسه كيف تفوض إليه أمر الأمة؟
وكيف يجوز أن يكون إماما على الأمة من لا يرى ولا يسمع له خبر؟ مع أن الله لا يكلف العباد بطاعة من لا يقدرون على الوصول إليه, وله أربعمائة وأربعون سنة ينتظره من ينتظره وهو لم يخرج, إذ لا وجود له.
وكيف لم يظهر لخواصه وأصحابه المأمون عليه كما ظهر آباؤه, وما الموجب لهذا الاختفاء الشديد دون غيره من الآباء؟
وما زال العقلاء قديما وحديثا يضحكون بمن يثبت هذا, ويعلق دينه به, حتى جعل الزنادقة هذا وأمثاله طريقا إلى القدح في الملة, وتسفيه عقول أهل الدين إذا كانوا يعتقدون مثل هذا.
لهذا قد اطلع أهل المعرفة على خلق كثير منافقين زنادقة يتسترون بإظهار هذا وأمثاله, ليستميلوا قلوب وعقول الضعفاء وأهل الأهواء, ودخل بسبب ذلك من الفساد ما الله به عليم, ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم, والله يصلح أمر هذه الأمة ويهديهم ويرشدهم.
النذور للمشاهد والمساجد:
وكذلك ما يتعلق بالنذور للمساجد والمشاهد, فإن الله في كتابه وسنة نبيه التي نقلها السابقون والتابعون من أهل بيته وغيرهم قد أمر بعمارة المساجد, وإقامة الصلوات فيها بحسب الإمكان, ونهى عن بناء المساجد على القبور, ولعن من يفعل ذلك, قال الله تعالى: {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين} 1.

1-سورة التوبة, آية:18.

قال تعالى: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين} 1.
وقال تعالى: {في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة} 2.
وقال: {وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا} 3.
وقال: {ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا} 4.
قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة" 5.
وقال: "وبشر المشائين في ظلم الليل إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة " 6.

1-سورة البقرة, آية:114.

2-سورة النور, آية:36.
3-سورة الجن, آية:18.
4-سورة الحج: آية:40.
5-أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد حديث 34-35, وفي المسافرين حديث 103, وفي الزهد حديث حديث 43-44. والبخاري في كتاب الصلاة باب 65. وأبو داود في كتاب التطوع باب1. والترمذي في كتاب الصلاة باب120-189-204 والنسائي في كتاب المساجد باب 1, وفي قيام الليل باب66-67. وابن ماجة في الإقامة باب 100, 185, وفي المساجد باب1-9-وفي التجارات باب 40 والدارمي في الصلاة باب 113. والإمام أحمد في المسند 20/1, 53-61-70-241-2-221/2-296-386-413-498-326/6-428-461.
6-أخرجه ابن ماجة في سننه في كتاب المساجد باب 14.

وقال: "من غدا إلى المسجد أو راح, أعد الله له نزلا كلما غدا أو راح" 1.
وقال: "صلاة الرجل في المسجد تفضل على صلاته في بيته وسوقه بخمس وعشرين درجة" 2.
وقال: "من تطهر في بيته فأحسن الطهور, وخرج إلى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة, كانت خطوتاه إحداهما ترفع درجة, والأخرى تضع خطيئة" 3.
وقال: "صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده, وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل, وما كان أكثر أحب إلى الله" 4.
وقال: "سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها, فصلوا الصلاة لوقتها ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة" 5.

1-أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الآذان باب37. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده 509/2.
2-أخرجه البخاري ف صحيحه في كتاب الأذان باب30-31. والترمذي في المواقيت باب47.والنسائي في كتاب الصلاة باب21, وفي الإمامة باب42. وابن ماجة في كتاب المساجد باب16 ومالك في الموطأ في كتاب الجماعة حديث 1. وأحمد 376/1-452-102/2-112-233-328-454-520-525-55/3.
3-أخرجه البخاري في كتاب البيوع باب49, ومسلم في كتاب الطهارة حديث 12, وفي المساجد حديث 272, وأبو داود من الصلاة باب48. والنسائي في المساجد باب 6.وابن ماجة في الطهارة باب 6, وفي المساجد باب14. والإمام أحمد 176/2-252.
4-أخرجه الإمام أحمد في مسنده 145/5. وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة باب 47. والنسائي في كتاب الإمامة باب 45.
5-أخرجه مسلم في كتاب المساجد حديث 241-243. والنسائي في كتاب الإمامة وابن ماجة في كتاب الإقامة باب 150. والدارمي في كتاب الصلاة باب 25. والإمام أحمد 7/6.

وقال: "يصلون لكم, فإن أحسنوا فلكم, وإن أساءوا فلكم وعليهم".
وهذا الباب واسع جدا.
وقال أيضا: "لعن الله اليهود, اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". ويحذر مما فعلوا قالوا: ولولا ذلك لأبرز قبره, ولكن كره أن يتخذ مسجدا. وهذا قاله في مرضه.
وقال قبل موته بخمس: "إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد, ألا فلا تتخذون القبور مساجد, فإني أنهاكم عن ذلك" 1.
ولما ذكر كنيسة الحبشة قال: "أولئك إذا مات الرجل فيهم بنوا على قبره مسجدا, وصوروا فيه تلك التصاوير, أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة" 2.
وكل هذه الأحاديث في الصحاح المشاهير.
وقال أيضا: "لعن الله زوارات القبور, والمتخذين عليها المساجد والسرج" 3. رواه الترمذي وغيره وقال: حديث حسن.

1- أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب 48-52 وفي كتاب الجنائز باب 96, وفي الأنبياء باب 50, وفي اللباس باب19, وفي المغازي باب 83 ومسلم في المساجد حديث 19-20-21-22-23. وأبو داود في كتاب الجنائز باب 72-78 والترمذي في

الصلاة باب121. والنسائي في المساجد باب 13, وفي الجنائز باب 106. ومالك في الموطأ في كتاب السفر حديث85, وفي المدينة حديث 17. والدارمي في كتاب الصلاة باب 120. وأحمد 195/1-218-405-435-454-229/2-246-284-285-287-324-337-366-396-454-518-184,186/5-204-34/6-80-121-149-229-252-255-274-275.
2- أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب48-54, وفي الجنائز باب 70, وفي مناقب الأنصار باب37. ومسلم في المساجد حديث 16, وفي الفتن حديث 110-116-131. والنسائي في المساجد باب13.
3- أخرجه الترمذي في كتاب الجنائز باب 61. وابن ماجة في كتاب الجنائز باب 49.=

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد لعن الذين يتخذون على القبور المساجد ويسرجون عليها الضوء, فكيف يستحيل مسلم أن يجعل هذا طاعة وقربة؟!!
وفي صحيح مسلم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرني ألا أدع قبر مشرفا إلا سويته, ولا تمثالا إلا طمسته" 1.
وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد" 2.
وقال: "لا تتخذوا قبري عبدا, وصلوا علي حيثما كنتم, فإن صلاتكم تبلغني" 3.
فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاجتماع عند قبره.
وأمر بالصلاة عليه في جميع المواضع, فإن الصلاة عليه تصل إليه من جميع المواضع.
وهذه الأحاديث رواها أهل بيته, مثل: علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي, ومثل عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. فكانوا هم وجيرانهم من علماء أهل المدينة ينهون عن البدع التي عند قبره أو غير قبر غيره, امتثالا لأمره, ومتابعة لشريعته.

=وأحمد 337/2-356 و443/3.
1-أخرجه مسلم في كتاب الجنائز حديث 93, وأبو داود في كتاب الجنائز باب68. والترمذي في كتاب الجنائز باب56 والنسائي في كتاب الجنائز باب99. والإمام أحمد 87/1-96-129-138-145.
2-أخرجه مالك في الموطأ في كتاب السفر حديث 85 والإمام أحمد 246/2.
3-أخرجه أبو داود في كتاب المناسك باب 96, والإمام أحمد في المسند 367/2.

فإن من مبدأ عبادة الأوثان: العكوف على الأنبياء والصالحين, والعكوف على تماثيلهم, وإن كانت وقعت بغير ذلك.
وقد ذكر الله في كتابه عن المشركين أنهم قالوا:
{لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا} 1.
وقد روى طائفة من علماء السلف أن هؤلاء كانوا قوما صالحين, فلما ماتوا بنوا على قبورهم, ثم صوروا تماثيلهم.
وكذلك قال ابن عباس في قوله: {أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى} 2. قال ابن عباس: كان اللات رجلا يلت السويق للحجاج, فلما مات عكفوا على قبره, ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد" نهى أن يصلى عند قبره.
ولهذا لما بنى المسلمون حجرته حرفوا مؤخرها, وسنموه لئلا يصلي إليه "أحد"3. فإنه صلى الله عليه وسلم قال: "لا تجلسوا على القبور, ولا تصلوا إليها" 4. رواه مسلم.
وكان صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى أهل البقيع يسلم عليهم, ويدعو لهم.

1-سورة: نوح, آية:23.
2-سورة النجم, آية:19.
3-ما بين المعقوفتين سقطت من الأصل.
4-أخرجه مسلم في الجنائز حديث 97-98. وأبو داود في الجنائز باب 73. والترمذي في الجنائز باب 57. والنسائي في القبلة باب11. والإمام أحمد 135/4. وأورده السيوطي في الجامع الصغير حديث 47-97 وصححه.

وعلم أصحابه أن يقولوا إذا زاروا القبور: "سلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين, وإن شاء الله بكم لاحقون, يرحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين, نسأل لكم العافية, اللهم آجرهم, ولا تفتنا بعدهم, واغفر. لنا ولهم" 1.
هذا مع أن في البقيع إبراهيم وبناته أم كلثوم ورقية, وسيدة نساء العالمين فاطمة, وكانت إحداهن دفنت فيه قديما قريبا من غزوة بدر, ومع ذلك فلم يحدث على أولئك السادة شيئا من هذه المنكرات, بل المشروع التحية لهم, والدعاء بالاستغفار وغيره.
وكذلك في حقه, أمر بالصلاة والسلام عليه من القرب والبعد, وقال: "أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة, فإن صلاتكم معروضة علي. قالوا: كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يعني: بليت. قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء" 2.
وقال: "ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام" 3.

1-أخرجه مسلم في كتاب الجنائز حديث 102. وأبو داود في كتاب الجنائز باب79. والنسائي في كتاب الطهارة باب 109, وفي الجنائز باب103. وابن ماجة في الجنائز باب 36. وفي الزهد باب36. ومالك في الموطأ في كتاب الطهارة حديث رقم 28.
2-أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب201, وفي الوتر باب26. والنسائي في كتاب الجمعة باب5. وابن ماجة في كتاب الإقامة باب79, وفي الجنائز باب65. والدارمي في كتاب الصلاة باب206. والإمام احمد 8/4.
3-أخرج أبو داود في سننه في كتاب المناسك باب 96 عن أبي هريرة رضي الله عنه قالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من أحد يسلم علي رد علي روحي حتى أرد عليه السلام"ز وأورده السيوطي في الجماع الصغير حديث 86,79 وضعفه.

وكل هذه الأحاديث ثابتة عن أهل المعرفة بحديث النبي صلى الله عليه وسلم.
فالدعاء والاستغفار يصل إلى الميت عند قبره, وهو الذي ينبغي للمسلم أن يعامل به موتى المسلمين من الدعاء لهم بأنواع الدعاء, كما كان حياته يدعو لهم.
وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرنا أن نصلي عليه ونسلم تسليما في حياته ومماته, وعلى آل بيته.
وأمرنا أن ندعو للمؤمنين والمؤمنات في محياهم ومماتهم, عند قبورهم وغير قبورهم.
ونهانا الله أن نجعل لله أندادا, أو نشبه بيت المخلوق الذي هو قبره ببيت الله الذي هو الكعبة البيت الحرام, فإن الله أمرنا أن نحج ونصلي إليه, ونطوف به, وشرع لنا أن نستلم أركانه, ونقبل الحجر الأسود الذي جعله الله بمنزلة يمينه.
قال ابن عباس: " الحجر الأسود يمين الله في الأرض, فمن استلمه وصافحه فكأنما صافح الله وقبل يمينه".
وشرع كسوة الكعبة, وتعليق الأستار عليها, وكان يتعلق من يتعلق بأستار الكعبة كالمتعلق بأذيال المستجير به, فلا يجوزان تضاهى بيوت المخلوقين ببيت الخالق.
ولهذا كان السلف ينهون من زار قبر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقبله, بل يسلم عليه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم, ويصلى عليه كما كان السلف يفعلون.
فإذا كان السلف أعرف بدين الله وسنة نبيه وحقوقه, وحقوق السابقين والتابعين من أهل البيت وغيرهم, ولم يفعلوا شيئا من هذه البدع التي تشبه

الشرك وعبادة الأوثان, لأن الله ورسوله نهاهم عن ذلك, بل يعبدون الله وحده لا شريك له, مخلصين له الدين كما أمر الله به ورسوله, ويعمرون بيوت الله بقلوبهم وجوارحهم من الصلاة والقراءة, والذكر والدعاء وغير ذلك.
فكيف يحل للمسلم أن يعدل عن كتاب الله, وشريعة رسوله, وسبيل السابقين من المؤمنين, إلى ما أحدثه ناس آخرون, إما عمدا وإما خطأ.
فخوطب حامل هذا الكتاب بان جميع هذه البدع التي على قبور الأنبياء والسادة من آل البيت والمشايخ المخالفة للكتاب والسنة, ليس للمسلم أن يعين عليها, هذا إذا كانت القبور صحيحة, فكيف وأكثر هذه القبور مطعون فيها؟
وإذا كانت هذه النذور للقبور معصية قد نهى الله عنها ورسوله والمؤمنون والسابقون, فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من نذر أن يعطي الله فليطعمه, ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه" 1.
وقال صلى الله عليه وسلم: "كفارة النذر كفارة اليمين" 2. وهذا الحديث في الصحاح.
فإذا كان النذر طاعة الله ورسوله, مثل أن ينذر صلاة أو صوما أو حجا أو صدقة أو نحو ذلك, فهذا عليه أن يعني به.

1-أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب28, 31 وأبو داود في كتاب الإيمان باب 19. والترمذي في كتاب النذور باب2. والنسائي كتاب الإيمان باب27-28 وابن ماجة في كتاب الكفارات باب 16. والدارمي في النذور باب3. ومالك في الموطأ كتاب النذور حديث 8. والإمام أحمد في المسند 36/9 -41-208-224.
2-أخرجه مسلم في النذر حديث 12. وأبو داود في كتاب الإيمان باب 25. والترمذي في النذور باب 4. والنسائي في الأيمان باب 41. وأحمد في المسند 144/4-136-147.

وإذا كان المنذر معصية كفرا أو غير كفر, مثل, أن ينذر للأصنام كالنذور التي بالهند, ومثلما كان المشركون ينذرون لآلهتهم, مثل: اللات التي كانت بالطائف, والعزى التي كانت بعرفة قريبا من مكة, مناة الثالثة الأخرى التي كانت لأهل المدينة.
وهذه المدائن الثلاث هي مدائن أرض الحجاز, كانوا ينذرون لها النذور, ويتعبدون لها, ويتوسلون بها إلى الله في حوائجهم, كما أخبر عنهم بقوله:
{ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} 1 ومثلما ينذر الجهال من المسلمين لعين ماء, أو بئر من الآبار, أو قناة ماء أو مغارة, أو حجر, أو شجرة من الأشجار, أو قبر من القبور, وإن كان قبر نبي أو رجل صالح, أو ينذر زيتا أو شمعا أو كسوة أو ذهبا, أو فضة لبعض هذه الأشياء, فإن هذا كله نذر معصية لا يوفى به.
لكن من العلماء من يقول: على صاحبه كفارة يمين, لما روى أهل السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم: " لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين" 2.
وفي الصحيح عنه أنه قال: "كفارة النذر كفارة يمين" 3.
وإذا صرف من ذلك المنذور شيء في قربة من القربات المشروعة كان حسنا, مثل أن يصرف الدهن إلى تنوير بيوت الله, ويصرف المال والكسوة إلى من يستحقه من المسلمين ومن آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم, وسائر المؤمنين, وفي سائر المصالح التي أمر الله بها ورسوله.

1-سورة الزمر, آية:3.
2-أخرجه مسلم في النذر حديث 8. وأبو داود في الأيمان باب12-19 والترمذي في النذور باب1. والنسائي في الأيمان باب17-31-41. وابن ماجة في الكفارات باب 16. والإمام أحمد 207/2-429-432-247/6.
3-سبق تخريجه.

وإذا اعتقد بعض الجهال أن بعض هذه النذور المحرمة قد قضت حاجته يجلب المنفعة من المال والعافية ونحو ذلك, أو بدفع المضرة من العدو ونحو, فقد غلط في ذلك.
فقد صح عن النبي صلى لله عليه وسلم أنه نهى عن النذر وقال: "إنه لا يأتي بخير, ولكنه يستخرج به من البخيل" 1.
فعد النذر مكروها, وإن كان الوفاء به واجبا إذا كان المنذور طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن النذر لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من بخيل, وهذا المعنى قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه, فيما كان قربة محضة لله, فكيف بنذر شرك؟ فإنه لا يجوز نذره ولا الوفاء به.
وهذا وإن كان قد عمر الإسلام, وكثر العكوف على القبور التي هي للصالحين من أهل البيت وغيرهم, فعلى الناس أن يطيعوا الله ورسوله, ويتبعون دين الله الذي بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم, ولا يشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله, فإن الله إنما أرسل الرسل, وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله, وليعبدوا الله وحده لا شريك له.
كما قال تعالى: {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} 2.

1-أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب26,وفي القدر باب6.ومسلم في كتاب القدر حديث 2-3-4-5-6-وأبو داود في كتاب الأيمان باب18. والترمذي في كتاب النذور باب11. والنسائي في كتاب الأيمان 24-26. وابن ماجة في كتاب الكفارات باب15. والإمام أحمد 61/2-235-242-401-314-412-436.
2-سورة الزخرف, آية:45.

وقال تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب} 1.
وقال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة} 2.
وقال تعالى: {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا} 3.
وقال تعالى في حق الذين كانوا يدعون الملائكة والنبيين: {ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون} 4.
ورد على من اتخذ شفعاء من دونه فقال: {أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون} 5.

1-سورة الشورى, آية:13.
2-سورة النحل, آية:36.
3-سورة الإسراء, آية: 56.
4-سورة آل عمران:8.
5- سورة الزمر, آية:43.

وقال: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} 1.
وقال تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} 2.
وقال: {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} 3.
وقال تعالى: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} 4.
قال: {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} 5.
وكتب الله من أولها إلى آخرها تأمر بإخلاص الدين لله, ولا سيما الكتاب الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أو الشريعة التي جاء بها فإنها كملت الدين.
قال تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم} 6.
وقال: {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين

1-سورة التوبة, آية: 31.
2-سورة البقرة, آية: 255.
3-سورة النجم, آية:26.
4-سورة الأنبياء, آية:28.
5-سورة سبأ, آية: 23.
6-سورة المائدة, آية:3.

لا يعلمون} 1.
وقد جعل قوام الأمر بالإخلاص لله والعدل في الأمور كلها, كما قال تعالى: {قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة} 2.
ولقد خلص النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد من دقيق الشرك وجليله, حتى قال: "من حلف بغير الله فقد أشرك" 3 رواه الترمذي وصححه.

وقال: "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم, فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت" 4. وهذا مشهور في الصحاح.
وقال: "ولا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء محمد, ولكن قولوا: ما شاء الله, ثم شاء محمد" 5.
وقال له رجل: "ما شاء الله وشئت, فقال: " أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده" 6.
وروي عنه أنه قال: "الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل" 7.

1-سورة الجاثية, آية: 18.
2-سورة الأعراف, آية:29.
3-أخرجه الترمذي في النذور باب9 والنسائي في الأيمان باب 4. وابن ماجة في الكفارات باب 2. والدارمي في النذور باب6. والإمام أحمد 47/1-34/2-67-69-87-98-125-142.
4-أخرجه الإمام أحمد في المسند 7/2. والترمذي في النذور باب8 وغيرهما.
5-أخرجه الدارمي في الاستئذان باب63. وابن ماجة في الكفارات باب13. والإمام أحمد 72/5-393.
6-أخرجه الإمام أحمد في المسند 214/1-224-283-347.
7-أخرجه الإمام أحمد 403/4.

وروي عنه أن الرياء شرك1.
وقال تعالى: {فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} 2.
وعلم بعض أصحابه أن يقول: "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم, واستغفرك لما لا أعلم".
ومن هذا الباب الذين يسألون الصدقة أو يعطونها لغير الله, مثل من يقول: لأجل فلان, إما بعض الصحابة, أو بعض أهل البيت, حتى يتخذ السؤال بذلك ذريعة إلى أكل أموال الناس بالباطل, ويصير قوم ممن ينتسب إلى السنة يعطي الآخرين والشيطان قد استحوذ على الجميع, فإن الصدقة وسائر العبادات لا يشرع أن تفعل إلا لله, كما قال تعالى: {وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى} 3.
وقال تعالى: {وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون} 4.
وقال: {ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل

1-أخرجه الترمذي في النذور باب 9. وابن ماجة في الفتن باب 16. والإمام أحمد 428/5.
2-سورة الكهف, آية: 110.
3-سورة الليل, آية: 18.
4-سورة الروم, آية: 39.

جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل} 1.
وقال: {ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا} 2.
وقال تعالى كلمة جامعة: {وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} 3.
وعبادته تجمع الصلاة وما يدخل فيها من الدعاء والذكر, وتجمع الصدقة والزكاة بجميع الأنواع, ومن الطعام اللباس والنقد وغير ذلك.
والله يجعلنا وسائر إخواننا المؤمنين مخلصين له الدين, تعبده ولا نشرك به شيئا, معتصمين بحبله, متمسكين بكتابه, متعلمين لما أنزل من الكتاب والحكمة, ويصرف عنا شياطين الجن والإنس, ويعيذنا أن تفرق بنا عن سبيله, ويهدينا الصراط المستقيم, صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.
والحمد لله رب العالمين, وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما كثيرا.

1-سورة البقرة, آية:256.
2-سورة الإنسان, آية:8. 3-سورة البينة, آية:4.

الكتاب: الصارم المسلول على شاتم الرسول

المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي) (المتوفى: 728هـ)
المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد

قام بالتوضيب والإختزال: عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي
(من 585 صفحة إلى 196 ص)
بعنوان: مختزل الصارم المسلول على شاتم الرسول (صلى الله عليه وسلم)

مقدمة
...
بسم الله الرحمن الرحيم.
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.
قال الشيخ الإمام العالم العامل العلامة شيخ الإسلام ومفتي الأنام أوحد دهره وفريد عصره تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام العالم العلامة مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن عبد الله بن تيمية الحراني قدس الله روحه ونور ضريحه:
الحمد لله الهادي النصير فنعم النصير ونعم الهاد الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ويبين له سبل الرشاد كما هدى الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق وجمع لهم الهدى والسداد والذي ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد كما وعده في كتابه وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تقيم وجه صاحبها للدين حنيفا وتبرئه من الإلحاد وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل المرسلين وأكرم العباد أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره أهل الشرك والعناد ورفع له ذكره ولا يذكره إلا ذكر معه كما في الأذان والتشهد والخطب والمجامع والأعياد وكبت محاده واهلك مشاقه وكفاه المستهزئين به ذوي الأحقاد وبتر شانئه ولعن مؤذيه في الدنيا والآخرة وجعل هوانه بالمرصاد واختصه من بين إخوانه المرسلين بخصائص تفوق التعداد فله الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود ولواء الحمد الذي تحته كل حماد وعلى آله أفضل الصلوات وأعلاها وأكملها وأنماها كما يحب سبحانه أن يصلى عليه وكما ينبغي أن يصلى على سيد البشر والسلام على النبي ورحمة الله وبركاته أفضل تحية وأحسنها وأولاها وأبركها وأطيبها وأزكاها صلاة وسلاما دائمين إلى يوم التناد باقيين بعد ذلك أبدا رزقا من الله ما له من نفاد.
أما بعد فان الله تعالى هدانا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأخرجنا به من الظلمات إلى النور وآتانا ببركة رسالته ويمن سفارته خير الدنيا والآخرة وكان من ربه بالمنزلة العليا التي تقاصرت العقول والألسنة عن معرفتها ونعتها وصارت غايتها من ذلك بعد التناهي في العلم والبيان الرجوع إلى عيها وصمتها فاقتضاني لحادث حدث أدنى ماله من الحق علينا بل هو ما أوجب الله من تعزيزه ونصره بكل طريق وإيثاره بالنفس والمال في كل موطن وحفظه وحمايته من كل موذ وإن كان الله قد أغنى رسوله عن نصر الخلق ولكن ليبلوا بعضكم ببعض وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ليحق الجزاء على الأعمال كما سبق في أم الكتاب أن أذكر ما شرع من العقوبة لمن سب النبي صلى الله عليه وسلم من مسلم وكافر وتوابع ذلك ذكرا يتضمن الحكم والدليل وأنقل ما حضرني في ذلك من الأقاويل وأردف القول بحظه من التعليل وبيان ما يجب أن يكون عليه التعويل وأما ما يقدره الله عليه من العقوبات فلا يكاد يأتي عليه التفصيل وإنما المقصد هاهنا بيان الحكم الشرعي الذي يفتى به المفتي ويقضي به القاضي ويجب على كل واحد من الأئمة والأمة القيام بما أمكن منه والله هو الهادي إلى سواء السبيل.
وقد رتبته على أربع مسائل:
المسألة الأولى: في أن الساب يقتل سواء كان مسلما أو كافرا.
المسألة الثانية: في أنه يتعين قتله وإن كان ذميا فلا يجوز المن عليه ولا مفاداته.
المسألة الثالثة: في حكمه إذا تاب.
المسألة الرابعة: في بيان السب وما ليس بسب والفرق بينه وبين الكفر.

المسألة الأولى: أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم من مسلم أو كافر فإنه يجب قتله.

هذا مذهب عليه عامة أهل العلم قال ابن المنذر: "أجمع عوام أهل العلم على أن حد من سب النبي صلى الله عليه وسلم القتل" وممن قاله مالك والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي قال: "وحكي عن النعمان لا يقتل" يعني الذي هم عليه من الشرك أعظم وقد حكى أبو بكر الفارسي من أصحاب الشافعي إجماع المسلمين على أن حد من يسب النبي صلى الله عليه وسلم القتل كما أن حد من سب غيره الجلد وهذا الإجماع الذي حكاه هذا محمول على إجماع الصدر الأول من الصحابة والتابعين أو أنه أراد به إجماعهم على أن ساب النبي صلى الله عليه وسلم يجب قتله إذا كان مسلما وكذلك قيده القاضي عياض فقال: "أجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابه" وكذلك حكي عن غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره وقال الإمام إسحاق بن راهويه أحد الأئمة الأعلام: "أجمع المسلمون على أن من سب الله أو سب رسوله صلى الله عليه وسلم أو دفع شيئا مما أنزل الله عز وجل أو قتل نبيا من أنبياء الله عز وجل: "أنه كافر بذلك وان كان مقرا بكل ما أنزل الله" قال الخطابي: "لا أعلم أحدا من المسلمين اختلف في وجوب قتله" وقال محمد بن سحنون: "أجمع العلماء على أن شاتم النبي صلى الله عليه وسلم المتنقص له كافر والوعيد جار عليه بعذاب الله له وحكمه عند الأمة القتل ومن شك في كفره وعذابه كفر".

وتحرير القول فيه: أن الساب إن كان مسلما فإنه يكفر ويقتل بغير خلاف وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم وقد تقدم ممن حكى الإجماع على ذلك إسحاق بن راهوية وغيره وان كان ذميا فإنه يقتل أيضا في مذهب مالك وأهل المدينة وسيأتي حكاية ألفاظهم وهو مذهب أحمد وفقهاء الحديث.

وقد نص أحمد على ذلك في مواضع متعددة قال حنبل: "سمعت أبا عبد الله يقول: "كل من شتم النبي صلى الله عليه وسلم أو تنقصه مسلما كان أو كافرا فعليه القتل وأرى أن يقتل ولا يستتاب" قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: "كل من نقض العهد وأحدث في الإسلام حدثا مثل هذا رأيت عليه القتل ليس على هذا أعطوا العهد والذمة" وكذلك قال أبو الصفراء: "سألت أبا عبد الله عن رجل من أهل الذمة شتم النبي ماذا عليه؟ قال: إذا قامت عليه البينة يقتل من شتم النبي صلى الله عليه وسلم مسلما كان أو كافرا" رواهما الخلال.

وقال في رواية عبد الله وأبي طالب وقد سئل عن شتم النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقتل قيل له: فيه أحاديث؟ قال: نعم أحاديث منها: حديث الأعمى الذي قتل المرأة قال: سمعتها تشتم النبي صلى الله عليه وسلم وحديث حصين أن ابن عمر قال: "من شتم النبي صلى الله عليه وسلم قتل" وعمر ابن عبد العزيز يقول: "يقتل" وذلك أنه من شتم النبي صلى الله عليه وسلم فهو مرتد عن الإسلام ولا يشتم مسلم النبي صلى الله عليه وسلم زاد عبد الله: "سألت أبي عمن شتم النبي صلى الله عليه وسلم يستتاب قال: "قد وجب عليه القتل ولا يستتاب لأن خالد بن الوليد قتل رجلا شتم النبي صلى الله عليه وسلم ولم يستتبه" رواهما أبو بكر في الشافي وفي رواية أبي طالب: سئل أحمد عمن شتم النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقتل قد نقض العهد" وقال حرب: سألت أحمد عن رجل من أهل الذمة شتم النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقتل إذا شتم النبي صلى الله عليه وسلم" رواهما الخلال وقد نص على هذا في غير هذه الجوابات.

فأقواله كلها نص في وجوب قتله وفي أنه قد نقض العهد وليس عنه في هذا اختلاف.

وكذلك ذكر عامة أصحابه متقدمهم ومتأخرهم لم يختلفوا في ذلك إلا أن القاضي في المجرد ذكر الأشياء التي يجب على أهل الذمة تركها وفيها ضرر على المسلمين وآحادهم في نفس أو مال وهي: الإعانة على قتال المسلمين وقتل المسلم أو المسلمة وقطع الطريق عليهم وأن يؤوي للمشركين جاسوسا وأن يعين عليهم بدلالة مثل أن يكاتب المشركين بأخبار المسلمين وأن يزنى بمسلمة أو يصيبها باسم نكاح وأن يفتن مسلما عن دينه قال: "فعليه الكف عن هذا شرط أو لم يشرط فإن خالف انتقض عهده" وذكر نصوص أحمد في بعضها مثل نصه في الزنا بالمسلمة وفي التجسس للمشركين وقتل المسلم وإن كان عبدا كما ذكره الخرقي ثم ذكر نصه في قذف المسلم على أنه لاينتقض عهده بل يحد حد القذف قال: فتخرج المسألة على روايتين ثم قال: "وفي معنى هذه الأشياء ذكر الله وكتابه ودينه ورسوله بما لا ينبغي فهذه أربعة أشياء الحكم فيها كالحكم في الثمانية التي قبلها ليس ذكرها شرطا في صحة العقد فإن أتوا واحدة منها نقضوا الأمان سواء كان مشروطا في العهد أو لم يكن" وكذلك قال في الخلاف بعد ذكر أن المنصوص انتقاض العهد بهذه الأفعال والأقوال.

قال: وفيه رواية أخرى لا ينتقض عهده إلا بالامتناع من بذل الجزية وجرى أحكامنا عليهم.

ثم ذكر نصه على أن الذمي إذا قذف المسلم يضرب قال: فلم يجعله ناقضا للعهد بقذف المسلم مع ما فيه من الضرر عليه بهتك عرضه.

وتبع القاضي جماعة من أصحابه ومن بعدهم مثل الشريف أبي جعفر وابن عقيل وأبي الخطاب والحلواني فذكروا أنه لا خلاف أنهم إذا امتنعوا من أداء الجزية أو التزام أحكام الملة انتقض عهدهم وذكروا في جميع هذه الأفعال والأقوال التي فيها ضرر على المسلمين وآحادهم في نفس أو مال أو فيها غضاضة على المسلمين في دينهم مثل سب الرسول وما مثله روايتين إحداهما: ينتقض العهد بذلك والأخرى: لا ينتقض عهده وتقام فيه حدود ذلك مع أنهم كلهم متفقون على أن المذهب انتقاض العهد بذلك.

ثم إن القاضي والأكثرين لم يعدوا قذف المسلم من الأمور المضرة الناقضة مع أن الرواية المخرجة إنما خرجت من نصه في القذف.
وأما أبو الخطاب ومن تبعه فنقلوا حكم تلك الخصال إلى القذف كما نقلوا حكم القذف إليها حتى حكوا في انتقاض العهد بالقذف روايتين.
ثم إن هؤلاء كلهم وسائر الأصحاب ذكروا مسألة سب النبي صلى الله عليه وسلم في موضع آخر وذكروا أن سابه يقتل وأن كان ذميا وأن عهده ينتقض وذكروا نصوص أحمد من غير خلاف في المذهب إلا أن الحلواني قال: "ويحتمل أن لا يقتل من سب الله ورسوله إذا كان ذميا".
وسلك القاضي أبو الحسين في نواقض العهد طريقة ثانية توافق قولهم هذا فقال: "أما الثمانية التي فيها ضرر على المسلمين وآحادهم في مال أو في نفس فإنها تنقض العهد في أصح الروايتين" وأما ما فيه إدخال غضاضة ونقص على الإسلام وهي ذكر الله وكتابه ودينه ورسوله بما لا ينبغي فإنه ينقض العهد نص عليه ولم يخرج في هذا رواية أخرى كما ذكرها أولئك في أحد الموضعين وهذا أقرب من تلك الطريقة وعلى الرواية التي تقول: "لا ينتقض العهد بذلك" فإنما ذلك إذا لم يكن مشروطا عليهم في العقد فأما إن كان مشروطا ففيه وجهان أحدهما: ينتقض قاله الخرقي قال أبو الحسن الآمدي: "وهو الصحيح في كل ما شرط عليهم تركه" صحح قول الخرقي بانتقاض العهد إذا خالفوا شيئا مما شرط عليهم والثاني: لا ينتقض قاله القاضي وغيره صرح أبو الحسين بذلك هنا كما ذكره الجماعة فيما إذا أظهروا دينهم وخالفوا هيئتهم من غير إضرار كإظهار الأصوات بكتابهم والتشبه بالمسلمين مع أن هذه الأشياء كلها يجب عليهم تركها بخصوصها.
وهاتان الطريقتان ضعيفتان والذي عليه عامة المتقدمين من أصحابنا ومن تبعهم من المتأخرين إقرار نصوص أحمد على حالها وقد نص في مسائل سب الله ورسوله على انتقاض العهد في غير موضع وعلى أنه يقتل وكذلك فيمن جسس على المسلمين أو زنى بمسلمة على انتقاض عهده وقتله في غير موضع وكذلك نقله الخرقي فيمن قتل مسلما وقطع الطريق أولى وقد نص أحمد على أن قذف المسلم وسحره لا يكون نقضا للعهد في غير موضع هذا هو الواجب لأن تخريج حكم المسألتين إلى الأخرى وجعل المسألتين على روايتين مع وجود الفرق بينهما نصا واستدلالا أو مع وجود معنى يجوز أن يكون مستندا للفرق غير جائز وهذا كذلك وكذلك قد وافقنا على انتقاض العهد بسب النبي صلى الله عليه وسلم جماعة لم يوافقوا على الانتقاض ببعض هذه الأمور.
وأما الشافعي فالمنصوص عنه نفسه أن عهده ينتقض بسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه يقتل هكذا حكاه ابن المنذر والخطابي وغيرهما والمنصوص عنه في الأم أنه قال: "إذا أراد الإمام أن يكتب كتاب صلح على الجزية كتب" وذكر الشروط إلى أن قال: "وعلى أن أحدا منكم إن ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره فقد برئت منه ذمة الله ثم ذمة أمير المؤمنين وجميع المسلمين ونقض ما أعطى من الأمان وحل لأمير المؤمنين ماله ودمه كما تحل أموال أهل الحرب ودماؤهم وعلى أن أحدا من رجالهم إن أصاب مسلمة بزنا أو اسم نكاح أو قطع الطريق على مسلم أو فتن مسلما عن دينه أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال أو دلالة على عورات المسلمين أو إيواء لعيونهم فقد نقض عهده وحل دمه وماله وإن نال مسلما بما دون هذا في ماله أو عرضه لزمه فيه الحكم".
ثم قال: فهذه الشروط اللازمة إن رضيها فبها وإن لم يرضها فلا عقد له ولا جزية.
ثم قال: ولو فعل شيئا مما وصفته نقضا للعهد وأسلم لم يقتل إذا كان ذلك قولا وكذلك إذا كان فعلا لم يقتل إلا أن يكون في دين المسلمين أن من فعله قتل حدا أو قصاصا فيقتل بحد أو قصاص لا نقض عهد.
وإن فعل مما وصفنا وشرط أنه نقض لعهد الذمة فلم يسلم ولكنه قال: "أتوب وأعطي الجزية كما كنت أعطيها أو على صلح أجدده" عوقب ولم يقتل إلا أن يكون فعل فعلا يوجب القصاص أو الحد فأما ما دون هذا من الفعل أو القول فكل قول يعاقب عليه ولا يقتل.
قال: فإن فعل أو قال ما وصفنا وشرط أنه يحل دمه فظفر به فامتنع من أن يقول: "أسلم أو أعطى جزية" قتل وأخذ ماله فيئا.
ونص في الأم أيضا أن العهد لا ينتقض بقطع الطريق ولا بقتل المسلم ولا بالزنا بالمسلمة ولا بالتجسس بل يحد فيما فيه الحد ويعاقب عقوبة مكملة فيما فيه العقوبة ولا يقتل إلا أن يجب عليه القتل.
قال: ولا يكون النقض للعهد إلا بمنع الجزية أو الحكم بعد الإقرار والامتناع بذلك.
قال: ولو قال "أؤدي الجزية ولا أقر بالحكم" نبذ إليه ولم يقتل على ذلك مكانه وقيل: قد تقدم لك أمان فأمانك كان للجزية وإقرارك بها وقد أجلناك في أن تخرج من بلاد الإسلام ثم إذا خرج فبلغ مأمنه قتل إن قدر عليه.
فعلى كلامه المأثور عنه يفرق بين ما فيه غضاضة على الإسلام وبين الضرر بالفعل أو يقال: يقتل الذمي بسببه وإن لم ينقض عهده كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وأما أصحابه فذكروا فيما إذا ذكر الله أو كتابه أو رسوله بسوء وجهين:
أحدهما: ينتقض عهده بذلك سواء شرط عليه تركه أو لم يشرط بمنزلة ما إذا قاتلوا المسلمين وامتنعوا من التزام الحكم كطريقة أبي الحسين من أصحابنا وهذه طريقة أبي إسحاق المرزوي.
ومنهم من خص سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده بأنه يوجب القتل.
والثاني: أن السب كالأفعال التي على المسلمين فيها ضرر من قتل المسلم والزنا بالمسلمة والجس وما ذكر معه وذكروا في تلك الأمور وجهين أحدهما: أنه إن لم يشرط عليهم تركها بأعيانها ففي انتقاض العهد بفعلها وجهان والثاني: لم ينتقض العهد بفعلها مطلقا.
ومنهم من حكى هذه الوجوه أقوالا وهي أقوال مشار إليها فيجوز أن تسمى أقوالا ووجوها هذه طريقة العراقيين وقد صرحوا بأن المراد شرط تركها لا شرط انتقاض العهد بفعلها كما ذكره أصحابنا.
وأما الخراسانيون فقالوا: "المراد بالاشتراط هنا شرط انتقاض العهد بفعلها لا شرط تركها" قالوا: "لأن الترك موجب لنفس العقد" ولذلك ذكروا في تلك الخصال المضرة ثلاثة أوجه أحدها: ينتقض بفعلها والثاني: لا ينتقض والثالث: إن شرط في العقد انتقاض العهد بفعلها انتقض وإلا فلا.
ومنهم من قال: إن شرط نقض وجها واحدا وإن لم يشرط فوجهان وحسبوا أن مراد العراقيين بالاشتراط هذا فقالوا حكاية عنهم: إن لم يجر شرط لم ينتقض العهد وإن جرى فوجهان ويلزم من هذا أن يكون العراقيون قائلين بأنه إن لم يجر شرط الانتقاض بهذه الأشياء لم ينتقض بها وجها واحدا وإن صرح بشرط تركها وهذا غلط عليهم والذي نصروه في كتب الخلاف أن سب النبي صلى الله عليه وسلم ينقض العهد ويوجب القتل كما ذكرنا عن الشافعي نفسه.
وأما أبو حنيفة وأصحابه فقالوا: لا ينتقض العهد بالسب ولا يقتل الذمي بذلك لكن يعزر على إظهار ذلك كما يعزر على إظهار المنكرات التي ليس لهم فعلها من إظهار أصواتهم بكتابهم ونحو ذلك وحكاه الطحاوي عن الثوري ومن أصولهم أن ما لا قتل فيه عندهم مثل القتل بالمثقل والجماع في غير القبل إذا تكرر فللإمام أن يقتل فاعله وكذلك له أن يزيد على الحد المقدر إذا رأى المصلحة في ذلك ويحملون ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من القتل في مثل هذه الجرائم على أنه رأى المصلحة في ذلك ويسمونه القتل سياسة وكان حاصله أن له أن يعزر بالقتل في الجرائم التي تغلظت بالتكرار وشرع القتل في جنسها ولهذا أفتى أكثرهم بقتل من أكثر من سب النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة وإن أسلم بعد أخذه وقالوا: يقتل سياسة وهذا متوجه على أصولهم.
والدلائل على انتقاض عهد الذمي بسب الله أو كتابه أو دينه أو رسوله ووجوب قتله وقتل المسلم إذا أتى ذلك: الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين والاعتبار.
أما الكتاب فيستنبط ذلك منه من مواضع:
أحدها: قوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر} إلى قوله تعالى: {من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} فأمرنا بقتالهم إلى أن يعطوا الجزية وهم صاغرون ولا يجوز الإمساك عن قتالهم إلا إذا كانوا صاغرين حال إعطائهم الجزية ومعلوم أن إعطاء الجزية من حين بذلها والتزامها إلى حين تسليمها وإقباضها فإنهم إذا بذلوا الجزية شرعوا في الإعطاء ووجب الكف عنهم إلى أن يقبضوناها فيتم الإعطاء فمتى لم يلتزموها أو التزموها أولا وامتنعوا من تسليمها ثانيا لم يكونوا معطين للجزية لأن حقيقة الإعطاء لم توجد وإذا كان الصغار حالا لهم في جميع المدة فمن المعلوم أن من أظهر سب نبينا في وجوهنا وشتم ربنا على رؤوس الملإ منا وطعن في ديننا في مجامعنا فليس بصاغر لأن الصاغر الذليل الحقير وهذا فعل متعزز مراغم بل هذا غاية ما يكون من الإذلال لنا والإهانة قال أهل اللغة: الصغار الذل والضيم يقال: صغر الرجل بالكسر يصغر بالفتح صغرا وصغرا والصاغر: الراضي بالضيم ولا يخفى على المتأمل أن إظهار السب والشتم لدين الأمة التي اكتسب شرف الدنيا والآخرة ليس فعل راض بالذل والهوان وهذا ظاهر لا خفاء به.
وإذا كان قتالهم واجبا علينا إلا أن يكونوا صاغرين وليسوا بصاغرين كان القتال مأمورا به وكل من أمرنا بقتاله من الكفار فإنه يقتل إذا قدرنا عليه.
وأيضا فإنا إذا كنا مأمورين أن نقاتلهم إلى هذه الغاية لم يجز أن نعقد لهم عهد الذمة بدونها ولو عقد لهم كان عقدا فاسدا فيبقون على الإباحة.
ولا يقال فيهم: فهم يحسبون أنهم معاهدون فتصير لهم شبهة أمان وشبهة الأمان كحقيقة فإن من تكلم بكلام يحسبه الكافر أمانا كان في حقه أمانا وإن لم يقصده المسلم.

لأنا نقول: لا يخفى عليهم أنا لم نرض بأن يكونوا تحت أيدينا مع إظهار شتم ديننا وسب نبينا وهم يدرون أنا لا نعاهد ذميا على مثل هذه الحال فدعواهم أنهم اعتقدوا أنا عاهدناهم على مثل هذا مع اشتراطنا عليهم أن يكونوا صاغرين تجري عليهم أحكام الملة دعوى كاذبة فلا يلتفت إليها.
وأيضا فإن الذين عاهدوهم أول مرة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عمر وقد علمنا أنه يمتنع أن يعاهدهم عهدا خلاف ما أمر الله به في كتابه.
وأيضا فإنا سنذكر شروط عمر رضي الله عنه وأنها تضمنت أن من أظهر الطعن في ديننا حل دمه وماله.
<u>الموضع الثاني</u>: قوله تعالى: {كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام} إلى قوله: {وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون} نفى سبحانه أن يكون لمشرك عهد ممن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عاهدهم إلا قوما ذكرهم فإنه جعل لهم عهدا ما داموا مستقيمين لنا فعلم أن العهد لا يبقى للمشرك إلا ما دام مستقيما ومعلوم أن مجاهرتنا بالشتيمة والوقيعة في ربنا ونبينا وكتابنا وديننا يقدح في الاستقامة كما تقدح مجاهرتنا بالمحاربة في العهد بل ذلك أشد علينا إن كنا مؤمنين فإنه يجب علينا أن نبذل دماءنا وأموالنا حتى تكون كلمة الله هي العليا ولا يجهر في ديارنا بشيء من أذى الله ورسوله فإذا لم يكونوا مستقيمين لنا بالقدح في أهون الأمرين كيف يكونون مستقيمين مع القدح في أعظمهما؟.
يوضح ذلك قوله تعالى: {كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة} أي كيف يكون لهم عهد ولو ظهروا عليكم لم يرقبوا الرحم التي بينكم ولا العهد الذي بينكم وبينهم؟ فعلم أن من كانت حاله أنه إذا ظهر لم يرقب ما بيننا وبينه من العهد لم يكن له عهد من جاهرنا بالطعن في ديننا كان ذلك دليلا على أنه لو ظهر لم يرقب العهد الذي بيننا وبينه فإنه إذا كان مع وجود العهد والذلة يفعل هذا فكيف يكون مع العزة والقدرة؟ وهذا بخلاف من لم يظهر لنا مثل هذا الكلام فإنه يجوز أن يفي لنا بالعهد لو ظهر.
وهذه الآية وإن كانت في أهل الهدنة الذين يقيمون في دارهم فإن معناها ثابت في أهل الذمة المقيمين في دارنا بطريق الأولى.
<u>الموضع الثالث</u>: قوله تعالى: {وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر} وهذه الآية تدل من وجوه:
<u>أحدها</u>: أن مجرد نكث الأيمان مقتض للمقاتلة وإنما ذكر الطعن في الدين وأفرده بالذكر تخصيصا له بالذكر وبيانا لأنه من أقوى الأسباب الموجبة للقتال ولهذا يغلظ على الطاعن في الدين من العقوبة ما لا يغلظ على غيره من الناقضين كما سنذكره إن شاء الله تعالى أو يكون ذكره على سبيل التوضيح وبيان سبب القتال فان الطعن في الدين هو الذي يجب أن يكون داعيا إلى قتالهم لتكون كلمة الله هي العليا وأما مجرد نكث اليمين فقد يقاتل لأجله شجاعة وحمية ورياء أو يكون ذكر الطعن في الدين لأنه أوجب القتال في هذه الآية بقوله تعالى: {فقاتلوا أئمة الكفر} وبقوله تعالى: {ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم} فيفيد ذلك أن من لم يصدر منه إلا مجرد نكث اليمين جاز أن يؤمن ويعاهد وأما من طعن في الدين فإنه يتعين قتاله وهذه كانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان يهدر دماء من آذى الله ورسوله وطعن في الدين وإن أمسك عن غيره وإذا كان نقض العهد وحده موجبا للقتال وإن تجرد عن الطعن علم أن الطعن في الدين إما سبب آخر أو سبب مستلزم لنقض العهد فإنه لابد أن يكون له تأثير في وجوب المقاتلة وإلا كان ذكره ضائعا.
فان قيل: هذا يفيد أن من نكث عهده وطعن في الدين يجب قتاله أما من طعن في الدين فقط فلم تتعرض الآية له بل مفهومها أنه وحده لا يوجب هذا الحكم لأن الحكم المعلق بصفتين لا يجب وجوده عند وجود إحدهما.
قلنا: لا ريب أنه لابد أن يكون لكل صفة تأثير في الحكم وإلا فالوصف العديم التأثير لا يجوز تعليق الحكم به كمن قال: من زنى وأكل جلد ثم قد يكون كل صفة مستقلة بالتأثير لو انفردت كما يقال: يقتل هذا لأنه مرتد زان وقد يكون مجموع الجزاء مرتبا على المجموع ولكل وصف تأثير في البعض كما قال: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر} الآية وقد تكون تلك الصفات متلازمة كل منها لو فرض تجرده لكان مؤثرا على سبيل الاستقلال أو الاشتراك فيذكر إيضاحا وبيانا للموجب كما يقال: كفروا بالله وبرسوله وعصى الله ورسوله وقد يكون بعضها مستلزما للبعض من غير عكس كما قال: {إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق} الآية وهذه الآية من أي الأقسام فرضت كان فيها دلالة لأن أقصى ما يقال أن نقض العهد هو المبيح للقتال والطعن في الدين مؤكد له وموجب له فنقول: إذا كان الطعن يغلظ قتال من ليس بيننا وبينه عهد ويوجبه فأن يوجب قتال من بيننا وبينه ذمة وهو ملتزم للصغار أولى وسيأتي تقرير ذلك على أن المعاهد له أن يظهر في داره ما شاء من أمر دينه الذي لا يؤذينا والذمي ليس له أن يظهر في دار الإسلام شيئا من دينه الباطل وإن لم يؤذنا فحاله أشد وأهل مكة الذين نزلت فيهم هذه الآية كانوا معاهدين لا أهل ذمة فلو فرض أن مجرد طعنهم ليس نقضا للعهد لم يكن الذمي كذلك.

الوجه الثاني: أن الذمي إذا سب الرسول أو سب الله أو عاب الإسلام علانية فقد نكث يمينه وطعن في ديننا لأنه لا خلاف بين المسلمين أنه يعاقب على ذلك ويؤدب عليه فعلم أنه لم يعاهد عليه لأنا لو عاهدناه عليه ثم فعله لم تجز عقوبته عليه وإذا كنا قد عاهدناه على أن لا يطعن في ديننا ثم يطعن في ديننا فقد نكث في دينه من بعد عهده وطعن في ديننا فيجب قتله بنص الآية وهذه دلالة قوية حسنة لأن المنازع يسلم لنا أنه ممنوع من ذلك بالعهد الذي بيننا وبينه لكن نقول: ليس كل ما منع منه نقض عهده كإظهار الخمر والخنزير ونحو ذلك فنقول: قد وجد منه شيئان: ما منعه منه العهد وطعن في الدين بخلاف أولئك فإنه لم يوجد منهم إلا فعل ما هم ممنوعون منه بالعهد فقط والقرآن يوجب قتل من نكث يمينه من بعد عهده وطعن في الدين ولا يمكن أن يقال "لم ينكث" لأن النكث هو مخالفة العهد فمتى خالفوا شيئا مما صولحوا عليه فهو نكث مأخوذ من نكث الحبل وهو نقض قواه ونكث الحبل يحصل بنقض قوة واحدة كما يحصل بنقض جميع القوى ولكن قد بقى من قواه ما يستمسك الحبل به وقد يهن بالكلية وهذه المخالفة من المعاهد قد تبطل العهد بالكلية حتى تجعله حربيا وقد شعث العهد حتى تبيح عقوبتهم كما أن نقض بعض الشروط في البيع والنكاح ونحوهما قد يبطل البيع بالكلية كما لو وصفه بأنه فرس فظهر بعيرا وقد يبيح الفسخ كالإخلال بالرهن والضمين هذا عند من يفرق في المخالفة وأما من قال: "ينتقض العهد بجميع المخالفات" فالأمر ظاهر على قوله وعلى التقديرين قد اقتضى العقد أن لا يظهروا شيئا من عيب ديننا وأنهم متى أظهروا فقد نكثوا وطعنوا في الدين فيدخلون في عموم الآية لفظا ومعنى ومثل هذا العموم يبلغ درجة النص.

الوجه الثالث: أنه سماهم أئمة الكفر لطعنهم في الدين وأوقع الظاهر موقع المضمر لأن قوله {أئمة الكفر} إما أن يعنى به الذين نكثوا أو طعنوا أو بعضهم والثاني لا يجوز لأن الفعل الموجب للقتال صدر من جميعهم فلا يجوز تخصيص بعضهم بالجزاء إذا العلة يجب طردها إلا لمانع ولا مانع ولأنه علل ذلك ثانيا بأنهم لا أيمان لهم وذلك يشمل جميع الناكثين الطاعنين ولان النكث والطعن وصف مشتق مناسب لوجوب القتال وقد رتب عليه بحرف الفاء ترتيب الجزاء على شرطه وذلك نص في أن ذلك الفعل هو الموجب للثاني فثبت أنه عنى الجميع فيلزم أن الجميع أئمة كفر وإمام الكفر هو الداعي إليه المتبع فيه وإنما صار إماما في الكفر لأجل الطعن فإن مجرد النكث لا يوجب ذلك وهو مناسب لأن الطعن في الدين يعيبه ويذمه ويدعو إلى خلافه وهذا شأن الإمام فثبت أن كل طاعن في الدين فهو إمام في الكفر فإذا طعن الذمي في الدين فهو إمام في الكفر فيجب قتله لقوله تعالى: {فقاتلوا أئمة الكفر} ولا يمين له لأنه عاهدنا على أن لا يظهر عيب الدين وخالف واليمين هنا المراد بها العهود لا القسم بالله فيما ذكره المفسرون وهو كذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يقاسمهم بالله عام الحديبية وإنما عاقدهم عقدا ونسخة الكتاب معروفة ليس فيها قسم وهذا لأن اليمين يقال: إنما سميت بذلك لأن المعاهدين يمد كل منهما يمينه إلى الآخر ثم غلبت حتى صار مجرد الكلام بالعهد يسمى يمينا ويقال: سميت يمينا لأن اليمين هي القوة والشدة كما قال الله تعالى: {لأخذنا منه باليمين} فلما كان الحلف معقودا مشددا سمي يمينا فاسم اليمين جامع للعقد الذي بين العبد وبين ربه وإن كان نذرا ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم "النذر حلفة" وقوله: "كفارة النذر كفارة اليمين" وقول جماعة من الصحابة للذي نذر نذر اللجاج والغضب: "كفر يمينك" وللعهد الذي بين المخلوقين ومنه قوله تعالى: {ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها} والنهي عن نقض العهود وإن لم يكن فيها قسم وقال تعالى: {ومن أوفى بما عاهد عليه الله} وإنما لفظ العهد "بايعناك على أن لا نفر" ليس فيه قسم وقد سماهم معاهدين لله وقال تعالى: {واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام} قالوا: معناه يتعاهدون ويتعاقدون لأن كل واحد من المعاهدين إنما عاهده بأمانة الله وكفالته وشهادته فثبت أن كل من طعن في ديننا بعد أن عاهدناه عهدا يقتضي أن لا يفعل ذلك فهو إمام في الكفر لا يمين له فيجب قتله بنص الآية وبهذا يظهر الفرق بينه وبين الناكث الذي ليس بإمام وهو من خالف بفعل شيء مما صولحوا عليه من غير الطعن في الدين.

الوجه الرابع: أنه قال تعالى: {ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة} فجعل همهم بإخراج الرسول من المحضضات على قتالهم وما ذاك إلا لما فيه من الأذى وسبه أغلظ من الهم بإخراجه بدليل أنه صلى الله عليه وسلم عفا عام الفتح عن الذين هموا بإخراجه ولم يعف عمن سبه فالذمي إذا أظهر سبه فقد نكث عهده وفعل ما هو أعظم من الهم بإخراج الرسول وبدأ بالأذى فيجب قتاله.

الوجه الخامس: قوله تعالى: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم

ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم} أمر سبحانه بقتال الناكثين الطاعنين في الدين وضمن لنا إن فعلنا ذلك أن يعذبهم بأيدينا ويخزيهم وينصرنا عليهم ويشفي صدور المؤمنين الذين تأذوا من نقضهم وطعنهم وأن يذهب غيظ قلوبهم لأنه رتب ذلك على قتالهم ترتيب الجزاء على الشرط والتقدير: إن تقاتلوهم يكن هذا كله فدل على أن الناكث الطاعن مستحق هذا كله وإلا فالكفار يدالون علينا المرة وندال عليهم الأخرى وإن كانت العاقبة للمتقين وهذا تصديق ما جاء في الحديث: "ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو" والتعذيب بأيدينا هو القتل فيكون الناكث الطاعن مستحقا للقتل والساب لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ناكث طاعن كما تقدم فيستحق القتل وإنما ذكر سبحانه النصر عليهم وأنه يتوب من بعد ذلك على من يشاء لأن الكلام في قتال الطائفة الممتنعة فأما الواحد المستحق للقتل فلا ينقسم حتى يقال فيه "يعذبه الله ويتوب الله من بعد ذلك على من يشاء" على أن قوله {من يشاء} يجوز أن يكون عائدا إلى من لم يطعن بنفسه وإنما أقر الطاعن فسميت الفئة طاعنة لذلك وعند التمييز فبعضهم دون بعضهم مباشر ولا يلزم من التوبة على الردء التوبة على المباشر ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر عام الفتح دم الذين باشروا الهجاء ولم يهدر دم الذين سمعوه وأهدر دم بني بكر ولم يهدر دم الذين أعاروهم السلاح.

الوجه السادس: أن قوله تعالى: {ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم} دليل على أن شفاء الصدور من ألم النكث والطعن وذهاب الغيظ الحاصل في صدور المؤمنين من ذلك أمر مقصود للشارع مطلوب الحصول وأن ذلك يحصل إذا جاهدوا كما جاء في الحديث المرفوع: " عليكم بالجهاد فإنه باب من أبواب الله يدفع الله به عن النفوس الهم والغم " ولا ريب أن من أظهر سب الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة وشتمه فإنه يغيظ المؤمنين ويؤلمهم أكثر مما لو سفك دماء بعضهم وأخذ أموالهم فإن هذا يثير الغضب لله والحمية له ولرسوله وهذا القدر لا يهيج في قلب المؤمن غيظا أعظم منه بل المؤمن المسدد لا يغضب هذا الغضب إلا لله والشارع يطلب شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم وهذا إنما يحصل بقتل الساب لأوجه:

أحدها: أن تعزيره وتأديبه يذهب غيظ قلوبهم إذا شتم واحدا من المسلمين أو فعل نحو ذلك فلو أذهب غيظ قلوبهم إذا شتم الرسول لكان غيظهم من شتمه مثل غيظهم من شتم واحد منهم وهذا باطل.

الثاني: أن شتمه أعظم عندهم من أن يؤخذ بعض دمائهم ثم لو قتل واحدا منهم لم يشف صدورهم إلا قتله فأن لا تشفى صدورهم إلا بقتل الساب أولى وأحرى.

الثالث: أن الله تعالى جعل قتالهم هو السبب في حصول الشفاء والأصل عدم سبب آخر يحصله فيجب أن يكون القتل والقتال هو الشافي لصدور المؤمنين من مثل هذا.

الرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتحت مكة وأراد أن يشفي صدور خزاعة وهم القوم المؤمنين من بني بكر الذين قاتلوهم مكنهم منهم نصف النهار أو أكثر مع أمانه لسائر الناس فلو كان شفاء صدورهم وذهاب غيظ قلوبهم يحصل بدون القتل للذين نكثوا وطعنوا لما فعل ذلك مع أمانه للناس.

الموضع الرابع: قوله سبحانه: {ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم} فإنه يدل على أن أذى النبي صلى الله عليه وسلم محادة لله ولرسوله لأنه قال هذه الآية عقب قوله تعالى: {ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن} ثم قال: {يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله} فلو لم يكونوا بهذا الأذى محادين لم يحسن أن يوعدوا بأن للمحاد نار جهنم لأنه يمكن حينئذ أن يقال: قد علموا أن للمحاد نار جهنم لكنهم لم يحادوا وإنما آذوا فلا يكون في الآية وعيد لهم فعلم أن هذا الفعل لا بد أن يندرج في عموم المحادة ليكون وعيد المحاد وعيدا له ويلتئم الكلام.

ويدل على ذلك أيضا ما روى الحاكم في صحيحه بإسناد صحيح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان فإذا أتاكم فلا تكلموه فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: علام تشتمني أنت وفلان وفلان فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا بالله واعتذروا إليه " فأنزل الله تعالى: {يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون} ثم قال بعد ذلك: {إن الذين يحادون الله ورسوله} فعلم أن هذا داخل في المحادة.

وفي رواية أخرى صحيحة أنه نزل قوله: {يحلفون لكم لترضوا عنهم} وقد قال: {يحلفون بالله لكم ليرضوكم} ثم قال عقبه: {ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله} فثبت ان هؤلاء الشاتمين محادون وسيأتي إن شاء الله زيادة في ذلك.

وإذا كان الأذى محادة لله ورسوله فقد قال الله تعالى: {إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز} والأذل أبلغ من الذليل ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله إن أظهر المحادة لأنه إن كان دمه وماله معصوما لا يستباح فليس بأذل يدل عليه قوله تعالى: {ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس} فبين سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد فعلم أن من له عهد وحبل لا ذلة عليه وان كانت عليه المسكنة فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة وقد جعل المحادين في الأذلين فلا يكون لهم عهد إذ العهد ينافي الذلة كما دلت عليه الآية وهذا ظاهر فإن الأذل هو الذي ليس له قوة يمتنع بها ممن أرداه بسوء فإذا كان له من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل فثبت أن المحاد لله ولرسوله لا يكون له عهد يعصمه والمؤذي للنبي صلى الله عليه وسلم محاد فالمؤذي للنبي ليس له عهد يعصم دمه وهو المقصود.

وأيضا فإنه قال تعالى: {إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم} والكبت: الإذلال والخزي والصرع قال الخليل: "الكبت هو الصرع على الوجه" وقال النضر بن شميل وابن قتيبة: "هو الغيظ والحزن وهو في الاشتقاق الأكبر من كبده كأن الغيظ والحزن أصاب كبده" كما يقال: أحرق الحزن والعداوة كبده وقال أهل التفسير: "كبتوا أهلكوا وأخزوا وحزنوا" فثبت أن المحاد مكبوت مخزي ممتل غيظا وحزنا هالك وهذا إنما يتم إذا خاف إن أظهر المحادة أن يقتل وإلا فمن أمكنه إظهار المحادة وهو آمن على دمه وماله فليس بمكبوت بل مسرور جذلان ولأنه قال: {كبتوا كما كبت الذين من قبلهم} والذين من قبلهم ممن حاد الرسل وحاد رسول الله إنما كبته الله بأن أهلكه بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين والكبت وإن كان يحصل منه نصيب لكل من لم ينل غرضه كما قال سبحانه: {ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم} لكن قوله تعالى: {كما كبت الذين من قبلهم} يعني محادى الرسل دليل على الهلاك أو كتم الأذى يبين ذلك أن المنافقين هم من المحادين فهم مكبوتون بموتهم بغيظهم لخوفهم أنهم إن أظهروا ما في قلوبهم قتلوا فيجب أن يكون كل محاد كذلك.

وأيضا فقوله تعالى: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} عقب قوله: {إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين} دليل على أن المحادة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المتحادين غالبا والآخر مغلوبا وهذا إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم فعلم أن المحاد وليس بمسالم والغلبة للرسل بالحجة والقهر فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوه وهذا أحسن من قول من قال: إن الغلبة للمحارب بالنصر ولغير المحارب بالحجة فعلم أن هؤلاء المحادين محاربون مغلوبون.

أيضا فإن المحادة من المشاقة لأن المحادة من الحد والفصل والبينونة وكذلك المشاقة من الشق وهو بهذا المعنى فهما جميعا بمعنى المقاطعة والمفاصلة ولهذا يقال: إنما سميت بذلك لأن كل واحد من المتحادين والمتشاقين في حد وشق من الآخر وذلك يقتضي انقطاع الحبل الذي بين أهل العهد إذا حاد بعضهم بعضا فلا حبل لمحاد لله ورسوله.

وأيضا فإنها إذا كانت بمعنى المشاقة فإن الله سبحانه قال: {فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب} فأمر بقتلهم لأجل مشاقتهم ومحادتهم فكل من حاد وشاق يجب أن يفعل به ذلك لوجود العلة.

وأيضا فإنه تعالى قال: {ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله} والتعذيب هنا والله أعلم القتل لأنهم قد عذبوا بما دون ذلك من الإجلاء وأخذ الأموال فيجب تعذيب من شاق الله تعالى ورسوله ومن أظهر المحادة فقد شاق الله ورسوله بخلاف من كتمها فإنه ليس بمحاد ولا مشاق.

وهذه الطريقة أقوى في الدلالة يقال: هو محاد وإن لم يكن مشاقا ولهذا جعل جزاء المحاد مطلقا أن يكون مكبوتا كما كبت من قبله وأن يكون في الأذلين وجعل جزاء المشاق القتل والتعذيب في الدنيا ولن يكون مكبوتا كما كبت من قبله في الأذلين إلا إذا لم يمكنه إظهار محادته فعلى هذا تكون المحادة أعم ولهذا ذكر أهل التفسير في قوله تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله} الآية: إنها نزلت فيمن قتل من المسلمين أقاربه في الجهاد وفيمن أراد أن يقتل لمن تعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذى من كافر أو منافق قريب له فعلم أن المحاد يعم المشاق وغيره.

ويدل على ذلك أنه قال سبحانه: {ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم} الآيات إلى قوله: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله} وإنما نزلت في المنافقين الذين تولوا اليهود المغضوب عليهم وكان أولئك اليهود أهل عهد من النبي صلى الله عليه وسلم ثم إن الله سبحانه بين أن المؤمنين لا يوادون من حاد الله ورسوله فلا بد أن يدخل في ذلك عدم المودة لليهود وإن كانوا أهل ذمة لأنه سبب النزول وذلك يقتضي أن أهل الكتاب محادون لله ورسوله وان كانوا معاهدين.

ويدل على ذلك أن الله قطع الموالاة بين المسلم والكافر وإن كان له عهد وذمة وعلى هذا التقدير يقال: عوهدوا على أن لا يظهروا المحادة ولا يعلنوا بها بالإجماع كما تقدم وكما سيأتي فإذا أظهروا صاروا محادين لا عهد لهم مظهرين للمحادة وهؤلاء مشاقون فيستحقون خزي الدنيا من القتل ونحوه وعذاب الآخرة.

فإن قيل: إذا كان كل يهودي محادا لله ورسوله فمن المعلوم أن العهد يثبت لهم مع التهود وذلك ينقض ما قدمتم من أن المحاد لا عهد له.

قيل: من سلك هذه الطريقة قال: المحاد لا عهد له على إظهار المحادة فأما إذا لم يظهر لنا المحادة فقد أعطيناه العهد وقوله تعالى: {ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس} يقتضي أن الذلة تلزمه فلا تزول إلا بحبل من الله وحبل من الناس وحبل المسلمين معه على أن لا يظهر المحادة بالاتفاق فليس معه حبل مطلق بل حبل مقيد فهذا الحبل لا يمنعه أن يكون أذل إذا فعل ما لم يعاهد عليه أو يقول صاحب هذا المسلك: الذلة لازمة لهم بكل حال كما أطلقت في سورة البقرة وقوله: ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله} يجوز أن يكون تفسيرا للذلة أي ضربت عليهم أنهم أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس فالحبل لا يرفع الذلة وإنما يرفع بعض موجباتها وهو القتل فإن من كان لا يعصم دمه

إلا بعهد فهو ذليل وإن عصم دمه بالعهد لكن على هذا التقدير تضعف الدلالة الأولى من المحادة والطريقة الأولى أجود كما تقدم وفي زيادة تقريرها طول.

الموضع الخامس: قوله سبحانه: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة} وهذه الآية توجب قتل من آذى الله ورسوله كما سيأتي إن شاء الله تعالى تقريره والعهد لا يعصم من ذلك لأنا لم نعاهدهم على أن يؤذوا الله ورسوله.

ويوضح ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم " من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله " فندب المسلمين إلى يهودي كان معاهدا لأجل أنه آذى الله ورسوله فدل ذلك على أنه لا يوصف كل ذمي بأنه يؤذي الله ورسوله وإلا لم يكن فرق بينه وبين غيره ولا يصح أن يقال: اليهود ملعونون في الدنيا والآخرة مع إقرارهم على ما يوجب ذلك لأنا لم نقرهم على إظهار أذى الله ورسوله وإنما أقررناهم على أن يفعلوا بينهم ما هو من دينهم.

فصل.

وأما الآيات الدالات على كفر الشاتم وقتله أو على أحدهما إذا لم يكن معاهدا وإن كان مظهرا للإسلام فكثيرة مع أن هذا مجمع عليه كما تقدم حكاية الإجماع عن غير واحد.

منها قوله تعالى: {ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم} إلى قوله: {والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم} إلى قوله {ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله} فعلم أن إيذاء رسول الله محادة لله ولرسوله لأن ذكر الإيذاء هو الذي اقتضى ذكر المحادة فيجب أن يكون داخلا فيه ولولا ذلك لم يكن الكلام مؤتلفا إذا أمكن أن يقال: إنه ليس بمحاد ودل ذلك على أن الإيذاء والمحادة كفر لأنه أخبر أن له نار جهنم خالدا فيها ولم يقل "هي جزاؤه" وبين الكلامين فرق بل المحادة هي المعاداة والمشاقة وذلك كفر ومحاربة فهو أغلظ من مجرد الكفر فيكون المؤذي لرسول الله صلى الله عليه وسلم كافرا عدوا لله ورسوله محاربا لله ورسوله لأن المحادة اشتقاقها من المبيانة بأن يصير كل واحد منهما في حد كما قيل "المشاقة: أن يصير كل منهما في شق والمعاداة: أن يصير كل منهما في عدوة".

وفي الحديث أن رجلا كان يسب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " من يكفيني عدوي " وهذا ظاهر قد تقدم تقريره وحينئذ فيكون كافرا حلال الدم لقوله تعالى: {إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين} ولو كان مؤمنا معصوما لم يكن أذل لقوله تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} وقوله: {كبتوا كما كبت الذين من قبلهم} والمؤمن لا يكبت كما كبت مكذبو الرسل قط ولأنه قد قال تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله} الآية فإذا كان من يواد المحاد ليس بمؤمن فكيف بالمحاد نفسه؟ وقد قيل: إن من سبب نزولها أن أبا قحافة شتم النبي صلى الله عليه وسلم فأراد الصديق قتله أو أن ابن أبي تنقص النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذن ابنه النبي صلى الله عليه وسلم في قتله لذلك فثبت أن المحاد كافر حلال الدم.

وأيضا فقد قطع الله الموالاة بين المؤمنين وبين المحادين لله ورسوله والمعادين لله ورسوله فقال تعالى {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم} الآية وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} فعلم أنهم ليسوا من المؤمنين.

وأيضا فإنه قال سبحانه: {ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب} فجعل سبب استحقاقهم العذاب في الدنيا ولعذاب النار في الآخرة هو مشاقة الله ورسوله والمؤذي للنبي صلى الله عليه وسلم مشاق لله ورسوله كما تقدم والعذاب هنا هو الإهلاك بعذاب من عنده أو بأيدينا وإلا فقد أصابهم ما دون ذلك من ذهاب الأموال وفراق الأوطان.

وقال سبحانه: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم} إلى قوله: {سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله} فجعل إلقاء الرعب في قلوبهم والأمر بقتلهم لأجل مشاقتهم لله ورسوله فكل من شاق الله ورسوله يستوجب ذلك.

وقولهم: {هو أذن} قال مجاهد: "هو أذن" يقولون: سنقول ما شئنا ثم نحلف له فيصدقنا".

وقال الوالبي عن ابن عباس: "يعني أنه يسمع من كل أحد".

قال بعض أهل التفسير: كان رجال من المنافقين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون ما لا ينبغي فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس: "بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا فإنما محمد أذن سامعة فأنزل الله هذه الآية".

وقال ابن إسحاق: كان نبتل بن الحارث الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه: " من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث " ينم حديث النبي إلى المنافقين فقيل له: لا تفعل فقال: إنما محمد أذن من حدثه شيئا صدقه نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا عليه فأنزل الله هذه الآية.

وقولهم: "أذن" قالوا: ليتبينوا أن كلامهم مقبول عنده فأخبر الله أنه لا يصدق إلا المؤمنين وإنما يسمع الخبر فإذا حلفوا له فعفا عنهم كان ذلك لأنه أذن خير لا لأنه صدقهم قال سفيان بن عيينة: "أذن خير يقبل منكم ما أظهرتم من الخير ومن القول ولا يؤاخذكم بما في قلوبكم ويدع سرائركم إلى الله تعالى وربما تضمنت هذه الكلمة نوع استهزاء واستخفاف".
فإن قيل: فقد روى نعيم بن حماد ثنا محمد بن ثور عن يونس عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم لا تجعل لفاجر ولفاسق عندي يدا ولا نعمة فإني وجدت فيما أوحيته {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله} " قال سفيان: "يرون أنها أنزلت فيمن يخالط السلطان" رواه أبو أحمد العسكري وظاهر هذا أن كل فاسق لا يبغي مودته فهو محاد لله ورسوله مع أن هؤلاء ليسوا منافقين النفاق المبيح للدم.
قيل: المؤمن الذي يحب الله ورسوله ليس على الإطلاق بمحاد لله ورسوله كما أنه ليس على الإطلاق بكافر ولا منافق وإن كانت له ذنوب كثيرة إلا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لنعيمان وقد جلد في الخمر غير مرة "إنه يحب الله ورسوله" لأن مطلق المحادة يقتضي مطلق المقاطعة والمصارمة والمعاداة والمؤمن ليس كذلك لكن قد يقع اسم النفاق على من أتى بشعبة من شعبه ولهذا قالوا: "كفر دون كفر" و"ظلم دون ظلم" و"فسق دون فسق" وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كفر بالله تبرأ من نسب وإن دق " و" من حلف بغير الله فقد أشرك " و"آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ".
وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه.
فوجه هذا الحديث أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم عنى بالفاجر المنافق فلا ينقض الاستدلال أو يكون عنى كل فاجر لأن الفجور مظنة النفاق فما من فاجر إلا يخاف أن يكون فجوره صادرا عن مرض في القلب أو موجبا له فإن المعاصي بريد الكفر فإذا أحب الفاسق فقد يكون محبا للمنافق فحقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا يواد من أظهر من الأفعال ما يخاف معها أن يكون محادا لله ورسوله فلا ينقض الاستدلال أيضا أو أن تكون الكبائر من شعب المحادة لله ورسوله فيكون مرتكبها محادا من وجه وإن كان مواليا لله ورسوله من وجه آخر ويناله من الذلة والكبت بقدر قسطه من المحادة كما قال الحسن: "وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل المعصية لفي رقابهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه فالعاصي يناله من الذلة والكبت بحسب معصيته وإن كان له من عزة الإيمان بحسب إيمانه كما يناله من الذم والعقوبة وحقيقة الإيمان أن لا يواد المؤمن من حاد الله بوجه من وجوه المودة المطلقة وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها فإذا اصطنع الفاجر إليه يدا أحبه المحبة التي جبلت القلوب عليها فيصير موادا له مع أن حقيقة الإيمان توجب عدم مودته من ذلك الوجه وإن كان معه من أصل الإيمان ما يستوجب به أصل المودة التي تستوجب أن يخص بها دون الكافر والمنافق وعلى هذا فلا ينقض الاستدلال أيضا لأن من آذى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه أظهر حقيقة المحادة ورأسها الذي يوجب جميع أنواع المحادة فاستوجب الجزاء المطلق وهو جزاء الكافرين كما أن من أظهر حقيقة النفاق ورأسه استوجب ذلك وإن لم يستوجبه من أظهر شعبة من شعبه والله سبحانه أعلم.
<u>الدليل الثاني</u>: قوله سبحانه: {يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين} وهذا نص في أن الاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر فالسب المقصود بطريق الأولى وقد دلت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله صلى الله عليه وسلم جادا أو هازلا فقد كفر.
وقد روى عن رجال من أهل العلم منهم ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة دخل حديث بعضهم في بعض أنه قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك: "ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا اكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء" يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القراء فقال له عوف بن مالك: "كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قد سبقه فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق".
قال ابن عمر: "كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الحجارة لتنكب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم {أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون} ما يلتفت إليه ولا يزيده عليه ".
وقال مجاهد: "قال رجل من المنافقين: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا وما يدريه ما الغيب فأنزل الله عز وجل هذه الآية".
وقال معمر عن قتادة: "بينا النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا: أيظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها؟ فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم " علي بهؤلاء النفر" فدعا بهم فقال: أقلتم كذا وكذا؟ فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب ".

قال معمر: قال الكلبي: "كان رجل منهم لم يماثلهم في الحديث يسير عائبا لهم فنزلت {إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة} فسمي طائفة وهو واحد".
فهؤلاء لما تنقصوا النبي صلى الله عليه وسلم حيث عابوه والعلماء من أصحابه واستهانوا بخبره أخبر الله أنهم كفروا بذلك وإن قالوه استهزاء فكيف بما هو أغلظ من ذلك؟ وإنما لم يقم الحد عليهم لكون جهاد المنافقين لم يكن قد أمر به إذ ذاك بل كان مأمورا بأن يدع أذاهم ولأنه كان له أن يعفو عمن تنقصه وآذاه.
الدليل الثالث: قوله سبحانه: {ومنهم من يلمزك في الصدقات} واللمز: العيب والطعن قال مجاهد: "يتهمك ويزريك" وقال عطاء: "يغتابك" وقال تعالى: {ومنهم الذين يؤذون النبي} الآية وذلك يدل على أن كل من لمزه أو آذاه كان منهم لأن {الذين} و {من} اسمان موصولان وهما من صيغ العموم والآية وإن كانت نزلت بسبب لمز قوم وإيذاء آخرين فحكمها عام كسائر الآيات اللواتي نزلن على أسباب وليس بين الناس خلاف نعلمه أنها تعم الشخص الذي نزلت بسببه ومن كان حاله كحاله ولكن إذا كان اللفظ أعم من ذلك السبب فقد قيل: أنه يقتصر على سببه والذي عليه جماهير الناس أنه يجب الأخذ بعموم القول ما لم يقم دليل يوجب القصر على السبب كما هو مقرر في موضعه.
وأيضا فإن كونه منهم حكم معلق بلفظ مشتق من اللمز والأذى وهو مناسب لكونه منهم فيكون ما منه الاشتقاق هو علة لذلك الحكم فيجب اطراده.
وأيضا فإن الله سبحانه وإن كان قد علم منهم النفاق قبل هذا القول لكن لم يعلم نبيه بكل من لم يظهر نفاقه بل قال: {وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم} ثم أنه سبحانه ابتلى الناس بأمور تميز بين المؤمنين والمنافقين كما قال سبحانه: {وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين} وقال تعالى: {ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب} وذلك لأن الإيمان والنفاق أصله في القلب وإنما الذي يظهر من القول والفعل فرع له ودليل عليه فإذا ظهر من الرجل شيء من ذلك ترتب الحكم عليه فلما أخبر سبحانه أن الذين يلمزون النبي صلى الله عليه وسلم والذين يؤذونه من المنافقين ثبت أن ذلك دليل على النفاق وفرع له ومعلوم أنه إذا حصل فرع الشيء ودليله حصل أصله المدلول عليه فثبت أنه حيثما وجد ذلك كان صاحبه منافقا سواء كان منافقا قبل هذا القول أو حدث له النفاق بهذا القول.
فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون هذا القول دليلا للنبي صلى الله عليه وسلم على نفاق أولئك الأشخاص الذين قالوه في حياته بأعينهم وإن لم يكن دليلا من غيرهم؟.
قلنا: إذا كان دليلا للنبي صلى الله عليه وسلم الذي يمكن أن يغنيه الله بوحيه عن الاستدلال فأن يكون دليلا لمن لا يمكنه معرفة البواطن أولى وأحرى.
وأيضا فلو لم تكن الدلالة مطردة في حق كل من صدر منه ذلك القول لم يكن في الآية زجر لغيرهم أن يقول مثل هذا القول ولا كان في الآية تعظيم لذلك القول بعينه فإن الدلالة على عين المنافق قد تكون مخصوصة بعينه وإن كانت أمرا مباحا كما لو قيل: من المنافقين صاحب الجمل الأحمر وصاحب الثوب الأسود ونحو ذلك فلما دل القرآن على ذم عين هذا القول والوعيد لصاحبه علم أنه لم يقصد به الدلالة على المنافقين بأعيانهم فقط بل هو دليل على نوع من المنافقين.
وأيضا فإن هذا القول مناسب للنفاق فإن لمز النبي صلى الله عليه وسلم وأذاه لا يفعله من يعتقد أنه رسول الله حقا وأنه أولى به من نفسه وأنه لا يقول إلا الحق ولا يحكم إلا بالعدل وأن طاعته لله وأنه يجب على جميع الخلق تعزيره وتوقيره وإذا كان دليلا على النفاق نفسه فحيثما حصل حصل النفاق.
وأيضا فإن هذا القول لا ريب أنه محرم فإما أن يكون خطيئة دون الكفر أو يكون كفرا والأول باطل لأن الله سبحانه قد ذكر في القرآن أنواع العصاة من الزاني والقاذف والسارق والمطفف والخائن ولم يجعل ذلك دليلا على نفاق معين ولا مطلق فلما جعل أصحاب هذه الأقوال من المنافقين علم أن ذلك لكونها كفرا لا لمجرد كونها معصية لأن تخصيص بعض المعاصي يجعلها دليلا على النفاق دون بعض لا يكون حتى يختص دليل النفاق بما يوجب ذلك وإلا كان ترجيحا بلا مرجح فثبت أنه لا بد أن يختص هذه الأقوال بوصف يوجب كونها دليلا على النفاق وكلما كان كذلك فهو كفر.
وأيضا فإن الله سبحانه كما ذكر بعض الأقوال التي جعلهم بها من المنافقين وهو قوله تعالى: {ائذن لي ولا تفتني} قال في عقب ذلك: {لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر} إلى قوله: {إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون} فجعل ذلك علامة مطردة على عدم الإيمان وعلى الريب مع أنه رغبة عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد استنفاره وإظهار من القاعد أنه معذور بالقعود وحاصله عدم إرادة الجهاد فلمزه وأذاه أولى أن يكون دليلا مطردا لأن الأول خذلان له وهذا محاربة له وهذا ظاهر.
وإذا ثبت أن كل من لمز النبي صلى الله عليه وسلم أو آذاه منهم فالضمير عائد على المنافقين والكافرين لأنه سبحانه لما قال: {انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} قال: {لو كان عرضا قريبا وسفرا

قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله} وهذا الضمير عائد إلى معلوم غير مذكور وهم الذين حلفوا {لو استطعنا لخرجنا معكم} وهؤلاء هم المنافقون بلا ريب ولا خلاف ثم أعاد الضمير إليهم إلى قوله: {قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله} فثبت أن هؤلاء الذين أضمروا كفروا بالله ورسوله وقد جعل منهم من يلمز ومنهم من يؤذي وكذلك قوله: {وما هم منكم} إخراج لهم عن الإيمان.
وقد نطق القرآن بكفر المنافقين في غير موضع وجعلهم أسوأ حالا من الكافرين وأنهم في الدرك الأسفل من النار وأنهم يوم القيامة يقولون للذين آمنوا: {انظرونا نقتبس من نوركم} الآية إلى قوله: {فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا} وأمر نبيه في آخر الأمر بأن لا يصلي علي أحد منهم وأخبر أنه لن يغفر لهم وأمره بجهادهم والإغلاظ عليهم وأخبر أنهم إن لم ينتهوا ليغرين الله نبيه بهم حتى يقتلوا في كل موضع.
<u>الدليل الرابع</u> على ذلك أيضا: قوله سبحانه وتعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه في الخصومات التي بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقا من حكمه بل يسلموا لحكمه ظاهرا وباطنا وقال قبل ذلك: {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا} فبين سبحانه أن من دعي إلى التحاكم إلى كتاب الله وإلى رسوله فصد عن رسوله كان منافقا وقال سبحانه: {ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا} فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين وليس بمؤمن وأن المؤمن هو الذي يقول: سمعنا وأطعنا فإذا كان النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره مع أن هذا ترك محض وقد يكون سببه قوة الشهوة فكيف بالتنقص والسب ونحوه؟.
ويؤيد ذلك ما رواه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دحيم في تفسيره: حدثنا شعيب بن شعيب حدثنا أبو المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة حدثني أبي: "أن رجلين اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى للمحق على المبطل فقال المقضي عليه: لا أرضى فقال صاحبه: فما تريد؟ قال: أن نذهب إلى أبي بكر الصديق فذهبا إليه فقال الذي قضي له: قد اختصمنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى لي عليه فقال أبو بكر: فأنتما على ما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم فأبى صاحبه أن يرضى وقال: نأتي عمر بن الخطاب فأتياه فقال المقضي له: قد اختصمنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى لي عليه فأبى أن يرضى ثم أتينا أبا بكر الصديق فقال: أنتما على ما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أن يرضى فسأله عمر فقال كذلك فدخل عمر منزله فخرج والسيف في يده قد سله فضرب به رأس الذي أبى أن يرضى فقتله" فأنزل الله تبارك وتعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم} الآية.
وهذا المرسل له شاهد من وجه آخر يصلح للاعتبار.
قال ابن دحيم: حدثنا الجوزجاني حدثنا أبو الأسود حدثنا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير قال: "اختصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان فقضى لأحداهما فقال الذي قضى عليه: ردنا إلى عمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نعم انطلقوا إلى عمر" فانطلقا فلما أتيا عمر قال الذي قضي له: يا ابن الخطاب إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى لي وإن هذا قال: ردنا إلى عمر فردنا إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر: أكذلك؟ للذي قضي عليه قال: نعم فقال عمر: مكانك حتى أخرج فأقضي بينكما فخرج مشتملا على سيفه فضرب الذي قال "ردنا إلى عمر" فقتله وأدبر الآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قتل عمر صاحبي ولولا ما أعجزته لقتلني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما كنت أظن أن عمر يجتري على قتل مؤمن" فأنزل الله تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم} فبرأ الله عمر من قتله".
وقد رويت هذه القصة من غير هذين الوجهين قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: "ما أكتب حديث ابن لهيعة إلا للاعتبار والاستدلال وقد أكتب حديث هذا الرجل على هذا المعنى كأني أستدل به مع غيره يشده لا أنه حجة إذا انفرد".
الدليل الخامس مما استدل به العلماء على ذلك: قوله سبحانه تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا} ودلالتها من وجوه:
أحدها: أنه قرن أذاه بأذاه كما قرن طاعته بطاعته فمن آذاه فقد آذى الله تعالى وقد جاء ذلك منصوصا عنه ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم يبين ذلك أن الله تعالى جعل محبة الله ورسوله وإرضاء الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئا واحدا فقال تعالى: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها

أحب إليكم من الله ورسوله} الآية وقال تعالى: {وأطيعوا الله والرسول} في مواضع متعددة وقال تعالى: {والله ورسوله أحق أن يرضوه} فوحد الضمير وقال أيضا: {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله} وقال أيضا: {يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول} .

وجعل شقاق الله ورسوله ومحادة الله ورسوله وأذى الله ورسوله ومعصية الله ورسوله شيئا واحدا فقال: {ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله} وقال: {إن الذين يحادون الله ورسوله} وقال تعالى: {ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله} وقال: {ومن يعص الله ورسوله} الآية.

وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين وأن جهة حرمه الله تعالى ورسوله جهة واحدة فمن آذى الرسول فقد آذى الله ومن أطاعه فقد أطاع الله لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول ليس لأحد منهم طريق غيره ولا سبب سواه وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه وإخباره وبيانه فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

وثانيها: أنه فرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين والمؤمنات فجعل على هذا أنه {فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا} وجعل على ذلك اللعنة في الدنيا والآخرة وأعد له العذاب المهين ومعلوم أن أذى المؤمنين قد يكون من كبائر الإثم وفيه الجلد وليس فوق ذلك إلا الكفر والقتل.

الثالث: أنه ذكر أنه لعنهم في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا واللعن: الإبعاد عن الرحمة ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافرا فإن المؤمن يقرب إليها بعض الأوقات ولا يكون مباح الدم لأن حقن الدم رحمة عظيمة من الله فلا يثبت في حقه.

ويؤيد ذلك قوله: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا} فإن أخذهم وتقتيلهم والله أعلم بيان صفة لعنهم وذكر لحكمة فلا موضع له من الإعراب وليس بحال ثانية لأنهم إذا جاوروه ملعونين ولم يظهر أثر لعنهم في الدنيا لم يكن في ذلك وعيد لهم بل تلك اللعنة ثابتة قبل هذا الوعيد وبعده فلا بد أن يكون هذا الأخذ والتقتيل من آثار اللعنة التي وعدوها فثبت في حق من لعنه الله في الدنيا والآخرة.

ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لعن المؤمن كقتله" متفق عليه فإذا كان الله قد لعن هذا في الدنيا والآخرة فهو كقتله فعلم أن قتله مباح.

قيل: واللعن إنما يستوجبه من هو كافر لكن ليس هذا جيدا على الإطلاق.

ويؤيده قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا} ولو كان معصوم الدم يجب على المسلمين نصره لكان له نصير.

ويوضح ذلك أنه قد نزل في شأن ابن الأشرف وكان من لعنته أن قتل لأنه كان يؤذي الله ورسوله.

وأعلم أنه لا يرد على هذا أنه قد لعن من لا يجوز قتله لوجوه:

أحدها أن هذا قيل فيه "لعنه الله في الدنيا والآخرة" فبين أنه سبحانه أقصاه عن رحمته في الدارين وسائر الملعونين إنما قيل فيهم "لعنه الله" أو "عليه لعنة الله" وذلك يحصل بإقصائه عن الرحمة في وقت من الأوقات وفرق بين من لعنه الله أو عليه لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعنا مطلقا.

<u>الثاني</u>: أن سائر الذين لعنهم الله في كتابه مثل الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ومثل الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ومثل من يقتل مؤمنا متعمدا إما كافر أو مباح الدم بخلاف بعض من لعن في السنة.

الثالث: أن هذه الصيغة خبر عن لعنة الله له ولهذا عطف عليه {وأعد لهم عذابا مهينا} وعامة الملعونين الذين لا يقتلون أو لا يكفرون إنما لعنوا بصيغة الدعاء مثل قوله صلى الله عليه وسلم: " لعن الله من غير منار الأرض " و" لعن الله السارق " و" لعن الله آكل الربا ومؤكله " ونحو ذلك.

لكن الذي يرد على هذا قوله تعالى: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم} فإن في هذه الآية ذكر لعنتهم في الدنيا والآخرة مع أن مجرد القذف ليس بكفر ولا يبيح الدم.

والجواب عن هذه الآية من طريقين مجمل ومفصل.

<u>أما المجمل</u> فهو أن قذف المؤمن المجرد هو نوع من أذاه وإذا كان كاذبا فهو بهتان عظيم كما قال سبحانه: {ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم} والقرآن قد نص على الفرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين فقال تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا} فلا يجوز أن يكون مجرد أذى المؤمنين بغير حق موجبا للعنة الله في الدنيا

والآخرة وللعذاب المهين إذ لو كان كذلك لم يفرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين ولم يخصص مؤذي الله ورسوله باللعنة المذكورة ويجعل جزاء مؤذي المؤمنين أنه احتمل بهتانا وإثما مبينا كما قال في موضع آخر: {ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا} كيف والعليم الحكيم إذا توعد على الخطيئة زاجرا عنها فلا بد أن يذكر أقصى ما يخاف على صاحبها فإذا ذكر خطيئتين إحداهما أكبر من الأخرى متوعدا عليهما زاجرا عنهما ثم ذكر في إحداهما جزاء عنها وذكر في الأخرى ما هو دون ذلك ثم ذكر هذه الخطيئة في موضع آخر متوعدا عليها بالعذاب الأدنى بعينه علم أن جزاء الكبرى لا يستوجب بتلك التي هي أدنى منها.

فهذا دليل يبين لك أن لعنة الله في الدنيا والآخرة وإعداده العذاب المهين لا يستوجب بمجرد القذف الذي ليس فيه أذى لله ورسوله وهذا كاف في اطراد الدلالة وسلامتها عن النقض.

وأما الجواب المفصل فمن ثلاثة أوجه:

أحدها: أن هذه الآية في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة في قول كثير من أهل العلم.

فروى هشيم عن العوام بن حوشب ثنا شيخ من بني كاهل قال: فسر ابن عباس سورة النور فلما أتى على هذه الآية {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات} إلى آخر الآية قال: "هذه في شأن عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وهي مبهمة ليس فيها توبة ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء} إلى قوله: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا} فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة" قال: فهم رجل أن يقوم فيقبل رأسه من حسن ما فسر.

وقال أبو سعيد الأشج: ثنا عبد الله بن خراش عن العوام عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: " {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات} نزلت في عائشة رضي الله عنها خاصة واللعنة في المنافقين عامة".

فقد بين ابن عباس أن هذه الآية إنما نزلت فيمن يقذف عائشة وأمهات المؤمنين لما في قذفهن من الطعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيبه فإن قذف المرأة أذى لزوجها كما هو أذى لابنها لأنه نسبة له إلى الدياثة وإظهار لفساد فراشه فإن زناء امرأته يؤذيه أذى عظيما ولهذا جوز له الشارع أن يقذفها إذا زنت ودرأ الحد عنه باللعان ولم يبح لغيره أن يقذف امرأة بحال.

ولعل ما يلحق بعض الناس من العار والخزي بقذف أهله أعظم مما يلحقه لو كان هو المقذوف ولهذا ذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين المنصوصتين عنه إلى أن من قذف امرأة غير محصنة كالأمة والذمية ولها زوج أو ولد محصن حد لقذفها لما ألحقه من العار بولدها وزوجها المحصنين.

والرواية الأخرى عنه وهي قول الأكثرين أنه لا حد عليه لأنه أذى لهما لا قذف لهما والحد التام إنما يجب بالقذف وفي جانب النبي صلى الله عليه وسلم أذاه كقذفه ومن يقصد عيب النبي صلى الله عليه وسلم بعيب أزواجه فهو منافق وهذا معنى قول ابن عباس: "اللعنة في المنافقين عامة".

وقد وافق ابن عباس على هذا جماعة فروى الإمام أحمد والأشج عن خصيف قال: سالت سعيد بن جبير فقلت: الزنا أشد أو قذف المحصنة؟ قال: لا بل الزنا قال: قلت: وإن الله تعالى يقول: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة} فقال: إنما كان هذا في عائشة خاصة.

وروى أحمد بإسناده عن أبي الجوزاء في هذه الآية {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة} قال: "هذه لأمهات المؤمنين خاصة".

وروى الأشج بإسناده عن الضحاك في هذه الآية قال: "هن نساء النبي صلى الله عليه وسلم".

وقال معمر عن الكلبي: إنما عنى بهذه الآية أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فأما من رمى امرأة من المسلمين فهو فاسق كما قال تعالى أو يتوب.

ووجه هذا ما تقدم من أن لعنة الله في الدنيا والآخرة لا تستوجب بمجرد القذف فتكون اللام في قوله: {المحصنات الغافلات المؤمنات} لتعريف المعهود والمعهود هنا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لأن الكلام في قصة الإفك ووقوع من وقع في أم المؤمنين عائشة أو تقصير اللفظ العام على سببه للدليل الذي يوجب ذلك.

ويؤيد هذا القول أن الله سبحانه رتب هذا الوعيد على قذف محصنات غافلات مؤمنات وقال في أول السورة {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة} الآية فرتب الجلد ورد الشهادة والفسق على مجرد قذف المحصنات فلا بد أن تكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات وذلك والله أعلم لأن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مشهود لهن بالإيمان لأنهن أمهات المؤمنين وهن أزواج نبيه في الدنيا والآخرة وعوام المسلمات إنما يعلم منهن في الغالب ظاهر الإيمان ولأن الله سبحانه قال في قصة عائشة: {والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم} فتخصيصه بتولي كبره دون غيره دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم وقال: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم

فيه عذاب عظيم} فعلم أن العذاب العظيم لا يمس كل من قذف وإنما يمس متولي كبره فقط وقال هنا {ولهم عذاب عظيم} فعلم أنه الذي رمى أمهات المؤمنين ويعيب بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وتولى كبر الإفك وهذه صفة المنافق ابن أبي.
وأعلم أنه على هذا القول تكون هذه الآية حجة أيضا موافقة لتلك الآية لأنه لما كان رمي أمهات المؤمنين أذى للنبي صلى الله عليه وسلم لعن صاحبه في الدنيا والآخرة ولهذا قال ابن عباس: "ليس فيها توبة" لأن مؤذي النبي صلى الله عليه وسلم لا تقبل توبته إذا تاب من القذف حتى يسلم إسلاما جديدا وعلى هذا فرميهن نفاق مبيح للدم إذا قصد به أذى النبي صلى الله عليه وسلم أو أذاهن بعد العلم بأنهن أزواجه في الآخرة فإنه ما بغت امرأة نبي قط.
ومما يدل على أن قذفهن أذى للنبي صلى الله عليه وسلم ما خرجاه في الصحيحين في حديث الإفك عن عائشة قالت: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول قالت: فقال رسول صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر "يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي" فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت.
وفي رواية أخرى صحيحة قالت: "لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمت به قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطيبا وما علمت به فتشهد وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "أما بعد أشيروا علي في أناس أبنوا أهلي وايم الله ما علمت على أهلي سوءا قط وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ولا دخل بيتي قط إلا وأنا حاضر ولا كنت في سفر إلا غاب معي فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله مرني أن أضرب أعناقهم ".
فقوله "من يعذرني" أي: من ينصفني ويقيم عذري إذا انتصفت منه لما بلغني من أذاه في أهل بيتي والله لهم فثبت أنه صلى الله عليه وسلم قد تأذى بذلك تأذيا استعذر منه وقال المؤمنون الذين لم تأخذهم حمية: " مرن نضرب أعناقهم فإنا نعذرك إذا أمرتنا بضرب أعناقهم " ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على سعد استئماره في ضرب أعناقهم وقوله: " إنك معذور إذا فعلت ذلك
بقى أن يقال: فقد كان من أهل الإفك مسطح وحسان وحمنة ولم يرموا بنفاق ولم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم أحدا بذلك السبب بل قد اختلف في جلدهم.
<u>وجوابه</u>: أن هؤلاء لم يقصدوا أذى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يظهر منهم دليل على أذاه بخلاف ابن أبي الذي إنما كان قصده أذاه ولم يكن إذ ذاك قد ثبت عندهم أن أزواجه في الدنيا هن أزواج له في الآخرة وكان وقوع ذلك من أزواجه ممكنا في العقل ولذلك توقف النبي صلى الله عليه وسلم في القصة حتى استشار عليا وزيدا وحتى سأل بريرة فلم يحكم بنفاق من لم يقصد أذى النبي صلى الله عليه وسلم لإمكان أن يطلق المرأة المقذوفة فأما بعد أن ثبت أنهن أزواجه في الآخرة وأنهن أمهات المؤمنين فقذفهن أذى له بكل حال ولا يجوز مع ذلك أن تقع منهن فاحشة لأن في ذلك جواز أن يقيم الرسول مع امرأة بغي وأن تكون أم المؤمنين موسومة بذلك وهذا باطل ولهذا قال سبحانه: {يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين} وسنذكر إن شاء الله تعالى في آخر الكتاب كلام الفقهاء فيمن قذف نساءه وأنه معدود من أذاه.
<u>الوجه الثاني</u>: أن الآية عامة قال الضحاك:" قوله تعالى: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات} يعني به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة" ويقول آخرون: يعني أزواج المؤمنين عامة وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: قذف المحصنات من الموجبات ثم قرأ: {إن الذين يرمون المحصنات} الآية وعن عمرو بن قيس قال: "قذف المحصنة يحبط عمل تسعين سنة" رواهما الأشج وهذا قول كثير من الناس ووجه ظاهر الخطاب فإنه عام فيجب إجراءه على عمومه إذ لا موجب لخصوصه وليس هو مختصا بنفس السبب بالاتفاق لأن حكم غير عائشة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم داخل في العموم وليس هو من السبب ولأنه لفظ جمع والسبب في واحدة ولأن قصر عمومات القرآن على أسباب نزولها باطل فإن عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك وقد علم أن شيئا منها لم يقصر على سببه والفرق بين الآيتين أنه في أول السورة ذكر العقوبات المشروعة على أيدي المكلفين من الجلد ورد الشهادة والتفسيق وهنا ذكر العقوبة الواقعة من الله سبحانه وهي اللعنة في الدارين والعذاب العظيم.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجهه وعن أصحابه أن قذف المحصنات من الكبائر وفي لفظ في الصحيح "قذف المحصنات الغافلات المؤمنات" وكان بعضهم يتأول على ذلك قوله: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات} ثم اختلف هؤلاء:
فقال أبو حمزة الثمالي: بلغنا أنها نزلت في مشركي أهل مكة إذ كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فكانت المرأة إذا خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة وقالوا: "إنما خرجت تفجر" فعلى هذا يكون فيمن قذف المؤمنات قذفا يصدهن به عن الإيمان ويقصد بذلك ذم المؤمنين لينفر الناس عن الإسلام كما فعل كعب ابن الأشرف وعلى هذا فمن فعل ذلك فهو كافر وهو بمنزلة من سب النبي صلى الله عليه وسلم وقوله: "إنها نزلت زمن العهد" يعني والله أعلم أنه عنى بها مثل أولئك المشركين المعاهدين وإلا فهذه الآية نزلت ليالي الإفك وكان الإفك في غزوة بني المصطلق قبل الخندق والهدنة كانت بعد ذلك بسنتين.
ومنهم من أجراها على ظاهرها وعمومها لأن سبب نزولها قدف عائشة وكان فيمن قذفها مؤمن ومنافق وسبب النزول لا بد أن يندرج في العموم ولأنه لا موجب لتخصيصها.
والجواب على هذا التقدير أنه سبحانه قال هنا: {لعنوا في الدنيا والآخرة} على بناء الفعل للمفعول ولم يسم اللاعن وقال هناك: {لعنهم الله في الدنيا والآخرة} وإذا لم يسم الفاعل جاز أن يلعنهم غير الله من الملائكة والناس وجاز أن يلعنهم الله في وقت ويلعنهم بعض خلقه في وقت وجاز أن يتولى الله لعنة بعضهم وهو من كان قذفه طعنا في الدين ويتولى خلقه لعنة الآخرين وإذا كان اللاعن مخلوقا فلعنته قد تكون بمعنى الدعاء عليهم وقد تكون بمعنى أنهم يبعدونهم عن رحمة الله.
ويؤيد هذا أن الرجل قذف امرأته تلاعنا وقال الزوج في الخامسة: {أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين} فهو يدعو على نفسه إن كان كاذبا في القذف أن يلعنه الله كما أمر الله رسوله أن يباهل من حاجه في المسيح بعد ما جاءه من العلم بأن يبتهلوا فيجعل لعنة الله على الكاذبين فهذا مما يلعن به القاذف ومما يلعن به أن يجلد وإن ترد شهادته ويفسق فإنه عقوبة له وإقصاء له عن مواطن الأمن والقبول وهي من رحمة الله وهذا بخلاف من أخبر الله أنه لعنه في الدنيا والآخرة فإن لعنة الله له توجب زوال النصر عنه من كل وجه وبعده عن أسباب الرحمة في الدارين.
ومما يؤيد الفرق أنه قال هنا: {وأعد لهم عذابا مهينا} ولم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله تعالى: {الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا} وقوله: {وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا} وقوله {فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين} وقوله: {إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين} وقوله: {والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين} وقوله: {وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين} وقوله: {وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين} وقوله: {اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين} وأما قوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين} فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض واستخف بها على أنه لم يذكر أن العذاب أعد له.
وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين في قوله: {لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم} وقوله: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم} وفي المحارب: {ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم} وفي القاتل: {وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما} وقوله: {ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم} وقد قال سبحانه: {ومن يهن الله فما له من مكرم} وذلك لأن الإهانة إذلال وتحقير وخزي وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان.
فلما قال في هذه الآية: {وأعد لهم عذابا مهينا} علم أنه من جنس العذاب الذي توعد به الكفار والمنافقين ولما قال هناك: {ولهم عذاب عظيم} جاز أن يكون من جنس العذاب في قوله: {لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم} .
ومما يبين الفرق أيضا أنه سبحانه وتعالى قال هنا: {وأعد لهم عذابا مهينا} والعذاب إنما أعد للكافرين فإن جهنم لهم خلقت لأنهم لا بد أن يدخلوها وما هم منها بمخرجين وأهل الكبائر من المؤمنين يجوز أن لا يدخلوها إذا غفر الله لهم وإذا دخلوها فإنهم يخرجون منها ولو بعد حين.
قال سبحانه: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين} فأمر سبحانه المؤمنين أن لا يأكلوا الربا وأن يتقوا الله وأن يتقوا النار التي أعدت للكافرين فعلم أنهم يخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا الربا وفعلوا المعاصي مع أنها معدة للكافرين لا لهم وكذلك جاء في الحديث "أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون وأما أقوام لهم ذنوب يصيبهم سفع من نار ثم يخرجهم الله منها" وهذا كما أن الجنة أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء وإن كان يدخلها الأبناء بعمل آبائهم ويدخلها قوم بالشفاعة وقوم بالرحمة وينشئ الله لما فضل منها خلقا آخر في الدار الآخرة فيدخلهم إياها وذلك لأن الشيء إنما يعد لمن يستوجبه ويستحقه ولمن هو أولى الناس به ثم قد يدخل معه غيره بطريق التبع أو لسبب آخر.

الدليل السادس: قوله سبحانه: {لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} أي حذر أن تحبط أعمالكم أو خشية أن تحبط أعمالكم أو كراهة أن تحبط أو منع أن تحبط هذا تقدير البصريين وتقدير الكوفيين لئلا تحبط.
فوجه الدلالة أن الله سبحانه نهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته وعن الجهر له كجهر بعضهم لبعض لأن هذا الرفع والجهر قد يفضي إلى حبوط العمل وصاحبه لا يشعر فإنه علل نهيهم عن الجهر وتركهم له بطلب سلامة العمل عن الحبوط وبين أن فيه من المفسدة جواز حبوط العمل وانعقاد سبب ذلك وما قد يفضي إلى حبوط العمل يجب تركه غاية الوجوب والعمل يحبط بالكفر قاله سبحانه: {ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم} وقال تعالى: {ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله} وقال: {ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون} وقال: {لئن أشركت ليحبطن عملك} وقال: {ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم} وقال: {ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم} كما أن الكفر إذا قارنه عمل لم يقبل لقوله تعالى: {إنما يتقبل الله من المتقين} وقوله: {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم} وقوله: {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله} وهذا ظاهر ولا يحبط الأعمال غير الكفر لأن من مات على الإيمان فإنه لابد من أن يدخل الجنة ويخرج من النار إن دخلها ولو حبط عمله كله لم يدخل الجنة قط ولأن الأعمال إنما يحبطها ما ينافيها ولا ينافي الأعمال مطلقا إلا الكفر وهذا معروف من أصول أهل السنة نعم قد يبطل بعض الأعمال بوجود ما يفسده كما قال تعالى: {لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى} ولهذا لم يحبط الله الأعمال في كتابه إلا بالكفر.
فإذا ثبت أن رفع الصوت فوق صوت النبي والجهر له بالقول يخاف منه أن يكفر صاحبه وهو لا يشعر ويحبط عمله بذلك وأنه مظنة لذلك وسبب فيه فمن المعلوم أن ذلك لما ينبغي له من التعزير والتوقير والتشريف والتعظيم والإكرام والإجلال ولما أن رفع الصوت قد يشتمل على أذى له أو استخفاف به وإن لم يقصد الرافع ذلك فإذا كان الأذى والاستخفاف الذي يحصل في سوء الأدب من غير قصد صاحبه يكون كفرا فالأذى والاستخفاف المقصود المتعمد كفرا بطريق الأولى.
الدليل السابع على ذلك: قوله سبحانه: {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم} أمر من خالف أمره أن يحذر الفتنة والفتنة: الردة والكفر قال سبحانه: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة} وقال: {والفتنة أكبر من القتل} وقال: {ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها} وقال: {ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا} .
قال الإمام أحمد في رواية الفضل بن زياد: "نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعا ثم جعل يتلوا: {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة} الآية وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة؟ الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه وجعل يتلوا هذه الآية: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم} ".
وقال أبو طالب المشكاني وقيل له: إن قوما يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره قال الله: {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم} وتدري ما الفتنة؟ الكفر قال الله تعالى: {والفتنة أكبر من القتل} فيدعون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك أو من العذاب الأليم دل على أنه قد يكون مفضيا إلى الكفر أو إلى العذاب الأليم ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب هو مجرد فعل المعصية فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما قد يقترن به من استخفاف بحق الآمر كما فعل إبليس فكيف لما هو أغلظ من ذلك كالسب والإنتقاص ونحوه؟.
وهذا باب واسع مع أنه بحمد الله مجمع عليه لكن إذا تعددت الدلالات تعاضدت على غلظ كفر الساب وعظم عقوبته وظهر أن ترك الاحترام للرسول وسوء الأدب معه مما يخاف معه الكفر المحبط كان ذلك أبلغ فيما قصدنا له.
ومما ينبغي أن يتفطن له أن لفظ الأذى في اللغة هو لما خف أمره وضعف أثره من الشر والمكروه ذكره الخطابي وغيره وهو كما قال واستقراء موارده يدل على ذلك مثل قوله تعالى: {لن يضروكم إلا أذى} وقوله: {ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض} .
وفيما يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " القر بؤس والحر أذى " وقيل لبعض النسوة العربيات: القر أشد أم الحر؟ فقالت: من يجعل البؤس كالأذى؟ والبؤس خلاف النعم وهو ما يشقي البدن ويضره بخلاف الأذى فإنه لا يبلغ ذلك ولهذا قال: {إن الذين يؤذون الله ورسوله} وقال سبحانه فيما يروي عنه رسوله: "يؤذيني ابن آدم يسب الدهر" وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟ " وقال: " ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يجعلون له ولدا وشريكا وهو يعافيهم ويرزقهم " وقد قال سبحانه فيما يروي عنه رسوله: "يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني" وقال سبحانه في كتابه: {ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا} فبين أن الخلق

لا يضرونه سبحانه بكفرهم لكن يؤذونه تبارك وتعالى إذا سبوا مقلب الأمور وجعلوا له سبحانه ولدا أو شريكا وآذوا رسله وعباده المؤمنين ثم إن الأذى لا يضر المؤذى إذا تعلق بحق الرسول فقد رأيت عظم موقعه وبيانه أن صاحبه من أعظم الناس كفرا وأشدهم عقوبة فتبين بذلك أن قليل ما يؤذيه يكفر به صاحبه ويحل دمه.

ولا يرد على هذا قوله تعالى: {لا تدخلوا بيوت النبي} إلى قوله: {إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم} فإن المؤذي له هنا إطالتهم الجلوس في المنزل واستئناسهم للحديث لا أنهم هم آذوا النبي صلى الله عليه وسلم والفعل إذا آذى النبي من غير أن يعلم صاحبه أنه يؤذيه

ولم يقصد صاحبه أذاه فإنه ينهى عنه ويكون معصية كرفع الصوت فوق صوته فأما إذا قصد أذاه وكان مما يؤذيه وصاحبه يعلم أنه يؤذيه وأقدم عليه مع استحضاره هذا العلم فهذا الذي يوجب الكفر وحبوط العمل والله سبحانه أعلم.

الدليل الثامن على ذلك: أن الله سبحانه قال: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما} فحرم على الأمة أن تنكح أزواجه من بعده لأن ذلك يؤذيه وجعله عظيما عند الله تعظيما لحرمته وقد ذكر أن هذه الآية نزلت لما قال بعض الناس: لو قد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجت عائشة ثم إن من نكح أزواجه أو سراريه فإن عقوبته القتل جزاء له بما انتهك من حرمته فالشاتم له أولى.

والدليل على ذلك ما روى مسلم في صحيحه عن زهير عن عفان عن حماد عن ثابت عن أنس أن رجلا كان يتهم بأم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: " اذهب فاضرب عنقه " فأتاه علي فإذا هو ركن يتبرد فقال له علي: اخرج فناوله يده فأخرجه فإذا هو مجبوب ليس له ذكر فكف علي ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنه لمجبوب ماله ذكر فهذا الرجل أمر النبي صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه لما قد استحل من حرمته ولم يأمر بإقامة حد الزنا لأن إقامة حد الزنا ليس هو ضرب الرقبة بل إن كان محصنا رجم وإن كان غير محصن جلد ولا يقام عليه الحد إلا بأربعة شهداء أو بالإقرار المعتبر فلما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه من غير تفصيل بين أن يكون محصنا أو غير محصن علم أن قتله لما انتهكه من حرمته ولعله قد شهد عنده شاهدان أنهما رأياه يباشر هذه المرأة أو شهدا بنحو ذلك فأمر بقتله فلما تبين أنه كان مجبوبا علم أن المفسدة مأمونة منه أو أنه بعث عليا ليرى القصة فإن كان ما بلغه عنه حقا قتله ولهذا قال في هذه القصة أو غيرها: أكون كالسكة المحماة أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

ويدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج قيلة بنت قيس بن معدي كرب أخت الأشعث ومات قبل أن يدخل بها وقبل أن تقدم عليه وقيل: إنه خيرها بين أن يضرب عليها الحجاب وتحرم على المؤمنين وبين أن يطلقها فتنكح من شاءت فاختارت النكاح قالوا: فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها عكرمة بن أبي جهل بحضرموت فبلغ أبا بكر فقال: لقد هممت أن أحرق عليهما بيتهما فقال عمر: ما هي من أمهات المؤمنين ولا دخل بها ولا ضرب عليها الحجاب وقيل: إنها ارتدت فاحتج عمر على أبي بكر أنها ليست من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بارتدادها.

فوجه الدلالة أن الصديق رضي الله عنه عزم على تحريقها وتحريق من تزوجها لما رأى أنها من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حتى ناظره عمر أنها ليست من أزواجه فكف عنهما لذلك فعلم أنهم كانوا يرون قتل من استحل حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يقال: إن ذلك حد الزنا لأنها كانت تكون محرمة عليه ومن تزوج ذات محرمة حد حد الزنا أو قتل لوجهين:

<u>أحدهما</u>: أن حد الزنا الرجم

<u>الثاني</u>: أن ذلك الحد يفتقر إلى ثبوت الوطء ببينة أو إقرار فلما أراد تحريق البيت مع جواز ألا يكون غشيها علم أن ذلك عقوبة لما انتهكه من حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

<u>فصل.</u>

وأما السنة فأحاديث:

<u>الحديث الأول</u>: ما رواه الشعبي عن علي أن يهودية كانت تشتم النبي صلى الله عليه وسلم وتقع فيه فخنقها رجل حتى ماتت فأطل رسول الله صلى الله عليه وسلم دمها هكذا رواه أبو داود في سننه وابن بطة في سننه وهو من جملة ما استدل به الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله وقال: ثنا جرير عن مغيرة عن الشعبي قال: كان رجل من المسلمين أعني أعمى يأوي إلى امرأة يهودية فكانت تطعمه وتحسن إليه فكانت لا تزال تشتم النبي صلى الله عليه وسلم وتؤذيه فلما كان ليلة من الليالي خنقها فماتت فلما أصبح ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنشد الناس في أمرها فقام الأعمى فذكر أمرها فأطل النبي صلى الله عليه وسلم دمها.

وهذا الحديث جيد فإن الشعبي رأى عليا وروى عنه حديث شراحة الهمداني وكان على عهد علي قد ناهز العشرين سنة وهو كوفي فقد ثبت لقاؤه فيكون الحديث متصلا ثم إن كان فيه إرسال لأن الشعبي يبعد سماعه من علي فهو حجة وفاقا لأن الشعبي

عندهم صحيح المراسيل لا يعرفون له مرسلا إلا صحيحا ثم هو من أعلم الناس بحديث علي وأعلمهم بثقات أصحابه وله شاهد حديث ابن عباس الذي يأتي فإن القصة إما أن تكون واحدة أو يكون المعنى واحدا وقد عمل به عوام أهل العلم وجاء ما يوافقه عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومثل هذا المرسل لم يتردد الفقهاء في الاحتجاج به.
وهذا الحديث نص في جواز قتلها لأجل شتم النبي صلى الله عليه وسلم ودليل على قتل الرجل الذمي وقتل المسلم والمسلمة إذا سبا بطريق الأولى لأن هذه المرأة كانت موادعة مهادنة لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وادع جميع اليهود الذين كانوا بها موادعة مطلقة ولم يضرب عليهم جزية وهذا مشورع عند أهل العلم بمنزلة المتواتر بينهم حتى قال الشافعي: لم أعلم مخالفا من أهل العلم بالسير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل المدينة وادع يهود كافة على غير جزية وهو كما قال الشافعي.
وذلك أن المدينة كان فيما حولها ثلاثة أصناف من اليهود وهم: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وكان بنو قينقاع والنضير حلفاء الخزرج وكانت قريظة حلفاء الأوس فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم هادنهم ووادعهم مع إقراره لهم ولمن كان حول المدينة من المشركين من حلفاء الأنصار على حلفهم وعهدهم الذي كانوا عليه حتى أنه عاهد اليهود على أن يعينوه إذا حارب ثم نقض العهد بنوقينقاع ثم النضير ثم قريظة.
قال محمد بن إسحاق يعني في أول ما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة: وكتب رسول الله كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم.
قال ابن إسحاق: حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب هذا الكتاب كان مقرونا بكتاب الصدقة الذي كتب عمر للعمال كتب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي بين المسلمين والمؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ثم ذكر لبطون الأنصار بني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني النجار وبني عمرو ابن عوف وبني الأوس وبني النبيت مثل هذا الشرط.
ثم قال: وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا منهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه إلى أن قال: وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم فإن المؤمنين بعضهم مولى بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم وإن سلم المؤمنين واحدة إلى أن قال: وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وإن ليهود بني عوف ذمة من المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وإن اليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وإن لحقه بطن من ثعلبة مثله وإن لبني الشطبة مثل ما ليهود بني عوف وإن موالي ثعلبه كأنفسهم وإن بطانة يهود كأنفسهم ثم يقول فيها: وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حرث أو أشجار يخشى فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد صلى الله عليه وسلم وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم على مثل ما في هذه الصحيفة مع البار المحسن من أهل هذه الصحيفة وفيها أشياء آخر.
وهذه الصحيفة معروفة عند أهل العلم روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: كتب رسول الله على كل بطن عقوله ثم كتب أنه لا يحل أن يتوالى رجل مسلم بغير إذنه وقد بين فيها أن كل من تبع المسلمين من اليهود فإن له النصر ومعنى الإتباع مسالمته وترك محاربته لا الإتباع في الدين كما بينه في أثناء الصحيفة فكل من أقام بالمدينة ومخالفيها غير محارب من يهود دخل في هذا.
ثم بين أن ليهود كل بطن من الأنصار ذمة من المؤمنين ولم يكن بالمدينة أحد من اليهود إلا وله حلف إما مع الأوس أو مع بعض بطون الخزرج وكان بنو قينقاع وهم المجاورون بالمدينة وهم رهط عبد الله بن سلام حلفاء بني عوف بن الخزرج رهط ابن أبي رهم البطن الذين بدئ بهم في هذه الصحيفة.
قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوا فيما بين بدر وأحد فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه فقام عبد الله بن أبي سلول إلى رسول الله حين أمكنه الله منهم فقال: يا محمد أحسن في موالي فأعرض عنه فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسلني وغضب حتى إن لوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلالا وقال: "

ويحك أرسلني " فقال: والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله لامرؤ أخشى الدوائر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هم لك".
وأما النضير وقريظة فكانوا خارجا من المدينة وعهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهر من أن يخفى على عالم.
وهذه المقتولة والله أعلم كانت من قينقاع لأن ظاهر القصة أنها كانت بالمدينة وسواء كانت منهم أو من غيرهم فإنها كانت ذمية لأنه لم يكن بالمدينة من اليهود إلا ذمي فإن اليهود كانوا ثلاثة أصناف وكلهم معاهد.
وقال الواقدي: حدثني عبد الله بن جعفر عن الحارث بن الفضيل عن محمد بن كعب القرظي قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وادعته يهود كلها فكتب بينه وبينها كتابا وألحق رسول الله صلى الله عليه وسلم كل قوم بحلفائهم وجعل بينه وبينهم أمانا وشرط عليهم شروطا فكان فيما شرط أن لا يظاهروا عليه عدوا.
فلما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب بدر وقدم المدينة بغت يهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فجمعهم ثم قال: "يا معشر يهود أسلموا فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش" فقالوا: يا محمد لا يغرنك من لقيت إنك لقيت أقواما أغمارا وإنا والله أصحاب الحرب ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا.
ثم ذكر حصارهم وإجلاءهم إلى أذرعات وهم بنو قينقاع الذي كانوا بالمدينة فقد ذكر ابن كعب مثل ما في الصحيفة وبين أنه عاهد جميع اليهود وهذا مما لا نعلم فيه تردد بين أهل العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومن تأمل الأحاديث المأثورة والسيرة كيف كانت معهم علم ذلك ضرورة.
وإنما ذكرنا هذا لأن بعض المصنفين في الخلاف قال: يحتمل أن هذه المرأة ما كانت ذمية وقائل هذا ممن ليس له بالسنة كثير علم وإنما يعلم منها في الغالب ما يعلمه العامة ثم إنه أبطل هذا الاحتمال فقال: لو لم تكن ذمية لم يكن للإهدار معنى فإذا نقل السب والإهدار تعلق به كتعلق الرجم بالزنا والقطع بالسرقة وهذا صحيح وذلك أن في نفس الحديث ما يبين أنها كانت ذمية من وجهين.
أحدهما: أنه قال: إن يهودية كانت تشتم النبي صلى الله عليه وسلم فخنقها رجل فأبطل دمها فرتب علي رضي الله عنه إبطال الدم على الشتم بحرف الفاء فعلم أنه هو الموجب لإبطال دمها لأن تعليق الحكم بالوصف المناسب بحرف الفاء يدل على العلية وإن كان ذلك في لفظ الصحابي كما لو قال: زنا ماعز فرجم ونحو ذلك إذ لا فرق فيما يرويه الصحابي عن النبي صلى الله عليه وسلم من أمر ونهي وحكم وتعليل في الاحتجاج به بين أن يحكي لفظ النبي صلى الله عليه وسلم أو يحكي بلفظ معنى النبي صلى الله عليه وسلم فإذا قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا أو نهانا عن كذا أو حكم بكذا أو فعل لأجل كذا كان حجة لأنه لا يقدم على ذلك إلا بعد أن يعلمه الذي يجوز له معه أن ينقله وتطرق الخطأ إلى مثل ذلك لا يلتفت إليه كتطرق النسيان والسهو في الرواية وهذا مقرر في موضعه.
ومما يوضح ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر له أنها قتلت نشد الناس في أمرها فلما ذكر له ذنبها أبطل دمها وهو صلى الله عليه وسلم إذا حكم بأمر عقب حكاية حكيت له دل ذلك على أن ذلك المحكي هو الموجب لذلك الحكم لأنه حكم حادث فلا بد له من سبب حادث ولا سبب إلا ما حكي له وهو مناسب فتجب الإضافة إليه.
الوجه الثاني: أن نشد النبي صلى الله عليه وسلم الناس في أمرها ثم إبطال دمها دليل على أنها كانت معصومة وأن دمها كان قد انعقد سبب ضمانة وكان مضمونا لو لم يبطله النبي صلى الله عليه وسلم لأنها لو كانت حربية لم ينشد الناس فيها ولم يحتج أن يبطل دمها ويهدره لأن الإبطال والإهدار لا يكون إلا لدم قد انعقد له سبب الضمان ألا ترى أنه لما رأى امرأة مقتولة في بعض مغازيه أنكر قتلها ونهى عن قتل النساء ولم يبطله ولم يهدره فإنه كان في نفسه باطلا هدرا والمسلمون يعلمون أن دم الحربية غير مضمون بل هو هدر لم يكن لإبطاله وإهداره وجه وهذا ولله الحمد ظاهر.
فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عاهد المعاهدين اليهود عهدا بغير ضرب جزية عليهم ثم إنه أهدر دم يهودية منهم لأجل سب النبي صلى الله عليه وسلم فأن يهدر دم يهودية من اليهود الذين ضربت عليهم الجزية وألزموا أحكام الملة لأجل ذلك أولى وأحرى ولو لم يكن قتلها جائزا لبين للرجل قبح ما فعل فإنه قد قال صلى الله عليه وسلم:" من قتل نفسا معاهدة بغير حقها لم يرح رائحة الجنة" ولأوجب ضمانها أو الكفارة كفارة قتل المعصوم فلما أهدر دمها علم أنه كان مباحا.
<u>الحديث الثاني</u>: ما روى إسماعيل بن جعفر عن إسرائيل عن عثمان الشحام عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي صلى الله عليه وسلم وتقع فيه فينهاها فلا تنتهي ويزجرها فلا تنزجر فلما كان ذات ليلة جعلت تقع في النبي صلى الله عليه وسلم وتشتمه فأخذ المغول فوضعه في بطنها واتكأ عليها فقتلها فلما أصبح ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فجمع الناس فقال: " أنشد الله رجلا فعل ما فعل لي عليه حق إلا قام" قال: فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتدلدل حتى قعد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أنا صاحبها كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي وأزجرها

فلا تنزجر ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين وكانت بي رفيقة فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتكأت عليه حتى قتلتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا اشهدوا أن دمها هدر " رواه أبو داود والنسائي.
والمغول بالغين المعجمة قال الخطابي: شبيه المشمل ونصله دقيق ماض وكذلك قال غيره: هو سيف رقيق له قفا يكون غمده كالسوط والمشمل: السيف القصير سمي بذلك لأنه يشتمل عليه الرجل أي يغطيه بثوبه واشتقاق المغول من غاله الشيء واغتاله إذا أخذه من حيث لم يدر.
وهذا الحديث مما استدل به الإمام أحمد في رواية عبد الله قال: حدثنا روح ثنا عثمان الشحام ثنا عكرمة مولى ابن عباس أن رجلا أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي صلى الله عليه وسلم فقتلها فسأله عنها فقال: يا رسول الله إنها كانت تشتمك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا إن دم فلانة هدر ".
فهذه القصة يمكن أن تكون هي الأولى ويدل كلام الإمام أحمد لأنه قيل له في رواية عبد الله: في قتل الذمي إذا سب أحاديث؟ قال: نعم منها حديث الأعمى الذي قتل المرأة قال سمعها تشتم النبي صلى الله عليه وسلم ثم روى عنه عبد الله كلا الحديثين ويكون قد خنقها وبعج بطنها بالمغول أو يكون كيفية القتل غير محفوظة في إحدى الروايتين.
ويؤيد ذلك أن وقوع قصتين مثل هذه لأعميين كل منهما كانت المرأة تحسن إليه وتكرر الشتم وكلاهما قتلها وحده وكلاهما نشد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها الناس بعيد في العادة وعلى هذا التقدير فالمقتولة يهودية كما جاء مفسرا في تلك الرواية وهذا قول القاضي أبي يعلي وغيره استدلوا بهذا الحديث على قتل الذمي ونقضه العهد وجعلوا الحديثين حكاية واقعة واحدة.
ويمكن أن تكون هذه القصة غير تلك قال الخطابي: فيه بيان أن ساب النبي صلى الله عليه وسلم يقتل وذلك أن السب منها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارتداد عن الدين وهذا دليل على أنه اعتقد أنها كانت مسلمة وليس في الحديث دليل على ذلك بل الظاهر أنها كانت كافرة وكان العهد لها بملك المسلم إياها فإن رقيق المسلمين ممن يجوز استرقاقه لهم حكم أهل الذمة وهم أشد في ذلك من المعاهدين أو بتزوج المسلم بها فإن أزواج المسلمين من أهل الكتاب لهم حكم أهل الذمة في العصمة لأن مثل هذا السب الدائم لا يفعله مسلم إلا عن ردة واختيار دين غير الإسلام ولو كانت مرتدة منتقلة إلى غير الإسلام لم يقرها سيدها على ذلك أياما طويلة ولم يكتف بمجرد نهيها عن السب بل يطلب منها تجديد الإسلام لا سيما إن كان يطؤها فإن وطء المرتدة لا يجوز والأصل عدم تغير حالها وأنها كانت باقية على دينها يوضح ذلك إن الرجل لم يقل كفرت ولا ارتدت وإنما ذكر مجرد السب والشتم فعلم أنه لم يصدر منها قدر زائد على السب والشتم من انتقال من دين إلى دين أو نحو ذلك وهذه المرأة إما أن تكون زوجة لهذا الرجل أو مملوكه له وعلى التقديرين فلو لم يكن قتلها جائزا لبين النبي صلى الله عليه وسلم له أن قتلها كان محرما وأن دمها كان معصوما ولأوجب عليه الكفارة بقتل المعصوم والدية إن لم تكن مملوكه له فلما قال: " اشهدوا أن دمها هدر " والهدر الذي لا يضمن بقود ولا دية ولا كفارة علم أنه كان مباحا مع كونها كانت ذمية فعلم أن السب أباح دمها لا سيما والنبي صلى الله عليه وسلم إنما أهدر دمها عقب إخباره بأنها قتلت لأجل السب فعلم أنه الموجب لذلك والقصة ظاهرة الدلالة في ذلك.
<u>الحديث الثالث</u>: ما احتج به الشافعي على أن الذمي إذا سب قتل وبرئت منه الذمة وهو قصة كعب بن الأشرف اليهودي.
قال الخطابي: قال الشافعي: يقتل الذمي إذا سب النبي صلى الله عليه وسلم وتبرأ منه الذمة واحتج في ذلك بخبر ابن الأشرف وقال الشافعي في الأم: لم يكن بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ولا قربه مشرك من أهل الكتاب إلا يهود أهل المدينة وكانوا حلفاء الأنصار ولم تكن الأنصار أجمعت أول ما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إسلاما فوادعت يهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يخرج إلى شيء من عداوته بقول يظهر ولا فعل حتى كانت وقعة بدر فتكلم بعضها بعداوته والتحريض عليه فقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ومعلوم أنه إنما أراد بهذا الكلام كعب بن الأشرف.
والقصة مشهورة مستفيضة وقد رواها عمر بن دينار عن جابر بن عبد الله قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟ " فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم قال: فأذن لي أن أقول: شيئا قال قل قال: فأتاه وذكره ما بينهم قال: إن هذا الرجل قد أراد الصدقة وعنانا فلما سمعه قال: وأيضا والله لتملنه قال: إنا قد تبعناه الآن ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره قال: وقد أردت أن تسلفني سلفا قال: فما ترهنوني؟ نساءكم قال: أنت أجمل العرب أنرهنك نساءنا؟ قال: ترهنوني أولادكم قال: يسب ابن أحدنا فيقال: رهنت في وسقين من تمر ولكن نرهنك الأمة يعني السلاح قال: نعم وواعده أن يأتيه بالحرب وأتى عبس بن حبر وعباد بن بشر فجاءوا فدعوه ليلا فنزل إليهم قال سفيان: قال غير عمرو: قالت له امرأته: إني لأسمع صوتا كأنه صوت دم قال: إنما هذا محمد ورضيعه أبو نائلة إن الكريم لو دعي إلى طعنة ليلا لأجاب قال محمد: إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه فإذا استمكنت منه فدونكم قال: فلما نزل نزل وهو متوشح قالوا: نجد منك ريح الطيب قال: نعم تحتي فلانة أعطر نساء العرب قال: أفتأذن لي أن أشم منه؟ قال: نعم فشم ثم قال: أتأذن لي أن أعود؟ قال: فاستمكن منه ثم قال: دونكم فقتلوه " متفق عليه.

وروى ابن أبي أويس عن إبراهيم بن جعفر بن محمد بن مسلمه عن أبيه عن جابر بن عبد الله أن كعب بن الأشرف عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعين عليه ولا يقاتله ولحق بمكة ثم قدم المدينة معلنا لمعاداة النبي صلى الله عليه وسلم فكان أول ما خزع خزع عنه قوله:

أذاهب أنت لم تحلل بمرقبة ... وتارك أنت أمر الفضل بالحرم

في أبيات يهجوه بها فعند ذلك ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتله وهذا محفوظ عن ابن أبي أويس رواه الخطابي وغيره وقال: قوله "خزع" معناه قطع عهده وفي رواية غير الخطابي فخزع منه هجاؤه له فأمر بقتله والخزع: القطع يقال: خزع فلان عن أصحابه يخزع خزعا أي انقطع وتخلف ومنه سميت خزاعة لأنهم انخزعوا عن أصحابهم وأقاموا بمكة فعلى اللفظ الأول يكون التقدير أن قوله هذا هو أول خزعه عن النبي صلى الله عليه وسلم أي أول غضاضة عنه بنقض العهد وعلى الثاني قيل: معناه قطع هجاه للنبي صلى الله عليه وسلم منه بعني أنه نقض عهده وذمته وقيل: معناه خزع من النبي صلى الله عليه وسلم معناه هجاه: أي نال منه وشعث منه ووضع منه.

وذكر أهل المغازي والتفسير مثل محمد بن إسحاق أن كعب بن الأشرف كان موادعا للنبي صلى الله عليه وسلم في جملة من وادعه من يهود المدينة وكان عربيا من بني طي وكانت أمه من بني النضير قالوا: فلما قتل أهل بدر شق ذلك عليه وذهب إلى مكة ورثاهم لقريش وفضل دين الجاهلية على دين الإسلام حتى أنزل الله فيه: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا} .

ثم لما رجع إلى المدينة أخذ ينشد الأشعار يهجو بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟ " وذكر قصة قتله مبسوطة.

وقال الواقدي: حدثني عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن رمان ومعمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك وإبراهيم بن جعفر عن أبيه عن جابر وذكر القصة إلى قتله قال: ففزعت يهود ومن معها من المشركين فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين أصبحوا فقالوا: قد طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنه لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان للسيف " ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يكتب بينهم كتابا ينتهون إلى ما فيه فكتبوا بينهم وبينه كتابا تحت العذق في دار رملة بنت الحارث فحذرت يهود وخافت وذلت من يوم قتل ابن الأشرف.

والاستدلال بقتل كعب بن الأشرف من وجهين:

أحدهما: أنه كان معاهدا مهادنا وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم بالمغازي والسير وهو عندهم من العلم العام الذي يستغنى فيه عن نقل الخاصة.

ومما لا ريب فيه عند أهل العلم ما قدمناه من أن النبي صلى الله عليه وسلم عاهد لما قدم المدينة جميع أصناف اليهود بني قينقاع والنضير وقريظة ثم نقضت بنو قينقاع عهده فحاربهم ثم نقض عهده كعب بن الأشرف ثم نقض عهده بنو النضير ثم بنو قريظة وكان ابن الأشرف من بني النضير وأمرهم ظاهر في أنهم كانوا مصالحين للنبي صلى الله عليه وسلم وإنما نقضوا العهد لما خرج إليهم يستعينهم في دية الرجلين اللذين قتلهما عمر بن أمية الضمري وكان ذلك بعد مقتل كعب بن الأشرف وقد ذكرنا الرواية الخاصة أن كعب بن الأشرف كان معاهد للنبي صلى الله عليه وسلم ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم جعله ناقضا للعهد بهجائه وأذاه بلسانه خاصة والدليل على أنه إنما نقض العهد بذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟ " فعلل ندب الناس له بأذاه والأذى المطلق هو باللسان كما قال تعالى: {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا} وقال تعالى: {لن يضروكم إلا أذى} وقال: {ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن} وقال: {لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا} الآية وقال: {ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي} إلى قوله: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا} الآية ثم ذكر الصلاة عليه والتسليم خبرا وأمرا وذلك من أعمال اللسان ثم قال: {إن الذين يؤذون الله ورسوله} إلى قوله: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات} وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: " يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر " وهذا كثير.

وقد تقدم أن الأذى اسم لقليل الشر وخفيف المكروه بخلاف الضرر فلذلك أطلق على القول لأنه لا يضر المؤذي في الحقيقة.

وأيضا فإنه جعل مطلق أذى الله ورسوله موجبا لقتل رجل معاهد ومعلوم أن سب الله وسب ورسوله أذى لله ولرسوله وإذا رتب الوصف على الحكم بحرف الفاء دل على أن ذلك الوصف علة لذلك الحكم لا سيما إذا كان مناسبا وذلك يدل على أن أذى الله ورسوله علة لندب المسلمين إلى قتل من يفعل ذلك من المعاهدين وهذا دليل ظاهر على انتقاض عهده بأذى الله ورسوله والسب من أذى الله ورسوله باتفاق المسلمين بل هو أخص أنواع الأذى.

وأيضا فقد قدمنا في حديث جابر أن أول ما نقض به العهد قصيدته التي أنشأها بعد رجوعه إلى المدينة يهجو بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هجاه بهذه القصيدة ندب إلى قتله وهذا وحده دليل على أنه إنما نقض العهد بالهجاء لا بذهابه إلى مكة.
وما ذكره الواقدي عن أشياخه يوضح ذلك ويؤيده وإن كان الواقدي لا يحتج به إذا انفرد لكن لا ريب في علمه بالمغازي واستعلام كثير من تفاصيلها من جهته ولم نذكر عنه إلا ما أسندناه عن غيره.
فقوله: " لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان للسيف " نص في أنه إنما انتقض عهد ابن الأشرف بالهجاء ونحوه وأن من فعل هذا من المعاهدين فقد استحق السيف وحديث جابر المسند من الطريقين يوافق هذا وعليه العمدة في الاحتجاج.
وأيضا فإنه لما ذهب إلى مكة ورجع إلى المدينة لم يندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى قتله فلما بلغه عنه الهجاء ندبهم إلى قتله والحكم الحادث يضاف إلى السبب الحادث فعلم أن ذلك الهجاء والأذى الذي كان بعد قفوله من مكة موجب لنقض عهده ولقتاله وإذا كان هذا في المهادن الذي لا يؤدي جزية فما الظن بالذمي الذي يعطي الجزية ويلزم أحكام الملة؟.
فإن قيل: إن ابن الأشرف كان قد أتى بغير السب والهجاء.
فروى الإمام أحمد قال: ثنا محمد بن أبي عدي عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى إلى هذا الصنبر المنتبر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية قال: أنتم خير قال: فنزلت فيهم {إن شانئك هو الأبتر} قال: وأنزلت فيه: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا} إلى قوله: {نصيرا} .
وقال: ثنا عبد الرازق قال: قال معمر: أخبرني أيوب عن عكرمة أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبي صلى الله عليه وسلم وأمرهم أن يغزوه وقال لهم: إنا معكم فقالوا: إنكم أهل كتاب وهو صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون مكرا منكم فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل ثم قالوا له: أنحن أهدى أم محمد؟ نحن نصل الرحم ونقري الضيف ونطوف بالبيت وننحر الكوماء ونسقي اللبن على الماء ومحمد قطع رحمه وخرج من بلده قال: بل أنتم خير وأهدى قال: فنزلت فيه {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا} .
وقال: ثنا عبد الرزاق ثنا إسرائيل عن السدي عن أبي مالك قال: "إن أهل مكة قالوا لكعب بن الأشرف لما قدم عليهم: ديننا خير أم دين محمد؟ قال: أعرضوا علي دينكم قالوا: نعمر بيت ربنا وننحر الكوماء ونسقي الحاج الماء ونصل الرحم ونقري الضيف قال: دينكم خير من دين محمد فأنزل الله تعالى هذه الآية".
قال موسى بن عقبة عن الزهري: كان كعب بن الأشرف اليهودي وهو أحد بني النضير أو هو فيهم قد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء وركب إلى قريش فقدم عليهم فاستعان بهم على رسول الله فقال أبو سفيان: أناشدك أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق فإنا نطعم الجزور الكوماء ونسقي اللبن على الماء ونطعم ما هبت الشمال قال ابن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلا ثم خرج مقبلا حتى أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنا بعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبهجائه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من لنا من ابن الأشرف؟ فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا وقد خرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا وقد أخبرني الله بذلك ثم قدم على أخبث ما كان ينتظر قريشا أن تقدم فيقاتلنا معهم " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ما أنزل فيه إن كان كذلك والله أعلم قال الله عز وجل: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب} إلى قوله: {سبيلا} وآيات معها فيه وفي قريش.
وذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت " فقال له محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله أقاتله وذكر القصة في قتله إلى آخرها ثم قال: فقتل الله ابن الأشرف بعداوته لله ورسوله وهجائه إياه وتأليبه عليه قريشا وإعلانه بذلك.
وقال محمد بن إسحاق: كان من حديث كعب بن الأشرف أنه لما أصيب أصحاب بدر وقدم زيد بن حارثه إلى أهل السافلة وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية بشيرين بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله تعالى عليه وقتل من قتل من المشركين كما حدثني عبد الله ابن المغيث بن أبي بردة الظفري وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وصالح بن أبي أمامه بن سهل كل واحد قد حدثني بعض حديثه قالوا: كان كعب بن الأشرف من طيء ثم أحد بني نبهان وكانت أمه من بني النضير فقال حين بلغه الخبر: أحق هذا الذي يروون أن محمدا قتل هؤلاء الذين سمى هذان الرجلان؟ يعني زيدا وعبد الله بن رواحة فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمدا أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة ونزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي وعنده عاتكة بنت أبي العيص

بن أمية فأنزلته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر وذكر شعرا وما رد عليه حسان وغيره ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدثني عبد الله بن أبي المغيث: "من لي بابن الأشرف؟ " فقال محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله أنا أقتله وذكر القصة.

وقال الواقدي: حدثني عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن رومان ومعمرعن الزهري عن ابن كعب بن مالك وإبراهيم بن جعفر عن أبيه عن جابر بن عبد الله فكل قد حدثني منه بطائفة فكان الذي اجتمعوا عليه قالوا: ابن الأشرف كان شاعرا وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويحرض عليهم كفار قريش في شعره وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الإسلام فيهم أهل الحلقة والحصون ومنهم حلفاء للحيين جميعا الأوس والخزرج فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم وموادعتهم وكان الرجل يكون مسلما وأبوه مشركا فكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أذى شديدا فأمر الله نبيه والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم وفيهم أنزل: {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور} وفيهم أنزل الله: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم} الآية.

فلما أبى ابن الأشرف أن يمسك عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيذاء المسلمين وقد بلغ منهم فلما قدم زيد بن حارثة بالبشارة من بدر بقتل المشركين وأسر من أسر منهم ورأى الأسرى مقرنين كبت وذل ثم قال لقومه: ويلكم والله لبطن الأرض خير لكم من ظهرها اليوم هؤلاء سراة الناس قد قتلوا وأسروا فما عندكم؟ قالوا: عداوته ما حيينا قال: وما أنتم وقد وطئ قومه وأصابهم؟ ولكني أخرج إلى قريش فأحضها وأبكي قتلاها لعلهم ينتدبون فأخرج معهم فخرج حتى قدم مكة ووضع رحلة عند أبي وداعة بن أبي صبرة السهمي وتحته عاتكة بنت أسد بن أبي العيص فجعل يرثي قريشا وذكر ما رثاهم به من الشعر وما أجابه به حسان فأخبره بنزول كعب على من نزل فقال حسان فذكر شعرا هجا به أهل البيت الذين نزل فيهم قال: فلما بلغها هجاؤه نبذت رحله وقالت: ما لنا ولهذا اليهودي؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسان؟ فتحول فكلما تحول عند قوم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حسانا فقال: ابن الأشرف نزل على فلان فلا يزال يهجوهم حتى نبذ رحلة فلما لم يجد مأوى قدم المدينة فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم قدوم ابن الأشرف قال: "اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشر وقوله الأشعار" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من لي من ابن الأشرف فقد آذاني؟ " فقال محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله وأنا أقتله قال: فافعل وذكر الحديث.

فقد اجتمع لابن الأشرف ذنوب: أنه رثى قتلى قريش وحضهم على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم وواطأهم على ذلك وأعانهم على محاربته بإخباره أن دينهم خير من دينه وهجا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

قلنا: الجواب من وجوه:

أحدها: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يندب إلى قتله لكونه ذهب إلى مكة وقال ما قال هناك وإنما ندب إلى قتله لما قدم وهجاه كما جاء ذلك مفسرا في حديث جابر المتقدم بقوله: "ثم قدم المدينة معلنا لعداوة النبي صلى الله عليه وسلم" ثم بين أن أول ما قطع به العهد تلك الأبيات التي قالها بعد الرجوع وأن النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ ندب إلى قتله وكذلك في حديث موسى بن عقبة: " من لنا من ابن الأشرف فإنه قد استعلن بعداوتنا وهجائنا؟ ".

ويؤيد ذلك شيئان:

أحدهما: أن سفيان بن عيينة روى عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام وننحر الكوماء ونسقي الماء على اللبن ونفك العناة ونسقي الحجيج ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج بنو غفار فنحن خير أم هو؟ فقالوا: بل أنتم خير وأهدى سبيلا فأنزل الله تعالى: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب} إلى قوله: {أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا} .

وكذلك قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب رجلين من اليهود من بني النضير لقيا قريشا في الموسم فقال لهما المشركون: نحن أهدى أم محمد وأصحابه؟ فإنا أهل السدانة وأهل السقاية وأهل الحرم فقالا: أنتم أهدى من محمد وأصحابه وهما يعلمان أنهما كاذبان إنما محلهما على ذلك حسد محمد وأصحابه فأنزل الله تعالى فيهم: {أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا} فلما رجعا إلى قومهما قال لهما قومهما: إن محمدا يزعم أنه قد نزل فيكما كذا وكذا قالا: صدق والله ما حملنا على ذلك إلا حسده وبغضه.

وهذان مرسلان من وجهين مختلفين فيهما أن كلا الرجلين ذهبا إلى مكة وقالا ما قالا ثم إنهما قدما فندب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قتل ابن الأشرف وأمسك عن ابن أخطب حتى نقض بنو النضير العهد فأجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم فلحق

بخيبر ثم جمع عليه الأحزاب فلما انهزموا دخل مع بني قريظة حصنهم حتى قتله الله معهم فعلم أن الأمر الذي أتياه بمكة لم يكن هو الموجب للندب إلى قتل ابن الأشرف وإنما هو ما اختص به ابن الأشرف من الهجاء ونحوه وإن كان ما فعله بمكة مؤيدا عاضد لكن مجرد الأذى لله ورسوله موجب للندب إلى قتله كما نص عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟ " وكما بينه جابر في حديثه.

الوجه الثاني: أن ابن أبي أويس قال حدثني إبراهيم بن جعفر الحارثي عن أبيه عن جابر قال: لما كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم وبني قريظة كذا فيه: وأحسبه بني قينقاع اعتزل كعب بن الأشرف ولحق بمكة وكان منها: وقال: لا أعين عليه ولا أقاتله فقيل له بمكة: أديننا خير أم دين محمد وأصحابه؟ قال: دينكم خير وأقدم من دين محمد ودين محمد حديث فهذا دليل على أنه لم يظهر محاربته.

الجواب الثاني: أن جميع ما أتاه ابن الأشرف إنما هو أذى باللسان فإن مرثيته لقتلى المشركين وتحضيضه وسبه وهجاءه وطعنه في دين الإسلام وتفضيل دين الكفار عليه كله قول باللسان ولم يعمل عملا فيه محاربة ومن نازعنا في سب النبي صلى الله عليه وسلم ونحوه فهو في تفضيل دين الكفار وحضهم باللسان على قتل المسلمين أشد منازعة لأن الذمي إذا تجسس لأهل الحرب وأخبرهم بعورات المسلمين ودعا الكفار إلى قتالهم انتقض عهده أيضا عندنا كما ينتقض عهد الساب ومن قال إن الساب لا ينتقض عهده فإنه يقول لا ينتقض العهد بالتجسس للكفار ومطالعتهم بأخبار المسلمين بطريق الأولى عندهم وهو مذهب أبي حنيفة والثوري والشافعي على خلاف بين أصحابه وابن الأشرف لم يوجد منه إلا الأذى باللسان فقط فهو حجة على من نازع في هذه المسائل ونحن نقول: إن ذلك كله نقض للعهد.

والجواب الثالث: أن تفضيل دين الكفار على دين المسلمين هو دون سب النبي صلى الله عليه وسلم بلا ريب فإن كون الشيء مفضولا أحسن حالا من كونه مسبوبا مشتوما فإن كان ذلك ناقضا للعهد فالسب بطريق الأولى وأما مرثيته للقتلى وحضهم على أخذ ثأرهم فأكثر ما فيه تهييج قريش على المحاربة وقريش كانوا قد أجمعوا على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم عقب بدر وأرصدوا العير التي كان فيها أبو سفيان للنفقة على حربه فلم يحتاجوا في ذلك إلى كلام ابن الأشرف نعم مرثيته وتفضيله ربما زادهم غيظا ومحاربة لكن سبه للنبي صلى الله عليه وسلم وهجاءه له ولدينه أيضا مما يهيجهم على المحاربة ويغريهم به فعلم أن الهجاء فيه من الفساد ما في غيره من الكلام وأبلغ فإذا كان غيره من الكلام نقضا فهو أن يكون نقضا أولى ولهذا قتل النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من النسوة اللواتي كن يشتمنه ويهجونه مع عفوه عما كانت تعين عليه وتحض على قتاله.

الجواب الرابع: أن ما ذكره حجة لنا من وجوه أخر وذلك أنه قد اشتهر عند أهل العلم من وجوه كثيرة أن قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب} نزلت في كعب بن الأشرف بما قاله لقريش وقد أخبر الله سبحانه أنه لعنه وأن من لعنه فلن تجد له نصيرا وذلك دليل على أنه لا عهد له لأنه لو كان له عهد لكان يجب نصره على المسلمين فعلم أن مثل هذا الكلام يوجب انتقاض عهده وعدم ناصره فكيف بما هو أغلظ منه من شتم وسب؟ وإنما لم يجعله النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم بمجرد ذلك ناقضا للعهد لأنه لم يعلن بهذا الكلام ولم يجهر به وإنما أعلم الله به رسوله وحيا كما تقدم بالأحاديث ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليأخذ أحدا من المسلمين والمعاهدين إلا بذنب ظاهر فلما رجع إلى المدينة وأعلن الهجاء والعداوة استحق أن يقتل لظهور أذاه وثبوته عند الناس نعم من خيف منه الخيانة فإنه ينبذ إليه العهد أما إجراء حكم المحاربة عليه فلا يكون حتى تظهر المحاربة وتثبت عليه.

فإن قيل: كعب بن الأشرف سب النبي صلى الله عليه وسلم بالهجاء والشعر كلام موزون يحفظ ويروى وينشد بالأصوات والألحان ويشتهر بين الناس وذلك له من التأثير في الأذى والصد عن سبيل الله ما ليس للكلام المنثور ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر حسان أن يهجوهم ويقول: "لهو أنكى فيهم من النبل" فيؤثر هجاءه فيهم أثرا عظيما يمتنعون به من أشياء لا يمتنعون عنها لو سبوا بكلام منثور أضعاف الشعر.

وأيضا فإن كعب بن الأشرف وأم الولد المتقدمة تكرر منهما سب النبي صلى الله عليه وسلم وأذاه وكثر والشيء إذا كثر واستمر صار له حال أخرى ليست له إذا انفرد وقد حكيتم أن الحنفية يجيزون قتل من كثر منه مثل هذه الجريمة وإن لم يجيزوا قتل من لم يتكرر منه فإذا ما دل عليه الحديث يمكن المخالف أن يقول به.

قلنا أولا: إن هذا يفيدنا أن السب في الجملة من الذمي مهدر لدمه ناقض لعهده ويبقى الكلام في الناقض للعهد: هل هو نوع خاص من السب وهو ما كثر أو غلظ أو مطلق السب؟ هذا نظر آخر فما كان مثل هذا السب وجب أن يقال إنه مهدر لدم الذمي حتى لا يسوغ لأحد أن يخالف نص السنة فلو زعم زاعم أن شيئا من كلام الذمي وأذاه يبيح دمه كان مخالفا للسنة الصحيحة الصريحة خلافا لا عذر فيه لأحد.

وقلنا ثانيا: لا ريب أن الجنس الموجب للعقوبة قد يتغلظ بعض أنواعه صفة أو قدرا أو صفة وقدرا فإنه ليس قتل واحد من الناس مثل قتل والد أو ولد عالم صالح ولا ظلم بعض الناس مثل ظلم يتيم فقير بين أبوين صالحين وليست الجناية في الأوقات

والأماكن الأحوال المشرفة كالحرم والإحرام والشهر الحرام كالجناية في غير ذلك وكذلك مضت سنة الخلفاء الراشدين بتغليظ الديات إذا تغلظ القتل بأحد هذه الأسباب وقال النبي صلى الله عليه وسلم وقد قيل له: أي الذنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله ندا وهو خلقك" قيل له: ثم أي؟ قال: "أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك" قيل له: ثم أي؟ قال: "ثم أن تزاني حليلة جارك " ولا شك أن من قطع الطريق مرات متعددة وسفك دماء خلق من المسلمين وكثر منه أخذ الأموال كان جرمه أعظم من جرم من لم يقطعه إلا مرة واحدة ولا ريب أن من أكثر من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو نظم القصائد في سبه فإن جرمه أغلظ من جرم من سبه بالكلمة الواحدة المنثورة بحيث يجب أن تكون إقامة الحد عليه أوكد والانتصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب وإن المقل لو كان أهلا أن يعفى عنه لم يكن هذا أهلا لذلك.

ولكن هذا الحديث كغيره من الأحاديث يدل على أن جنس الأذى لله ورسوله ومطلق السب الظاهر مهدر لدم الذمي ناقض لعهده وإن كان بعض الأشخاص أغلظ جرما من بعض لتغلظ سبه نوعا أو قدرا وذلك من وجوه:

أحدها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟ " فجعل علة الندب إلى قتله أنه آذى الله ورسوله وأذى الله ورسوله اسم مطلق ليس مقيدا بنوع ولا بقدر فيجب أن يكون مطلق أذى الله ورسوله علة للانتداب إلى قتل من فعل ذلك من ذمي وغيره وقليل السب وكثيره ومنظومه ومنثوره أذى بلا ريب فيتعلق به الحكم وهو أمر الله ورسوله بقتله ولو لم يرد هذا المعنى لقال: من لكعب فإنه قد بالغ في أذى الله تعالى ورسوله أو قد أكثر من أذى الله ورسوله أو قد داوم على أذى الله ورسوله وهو صلى الله عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلم وهو الذي لا ينطق عن الهوى ولم يخرج من بين شفتيه صلى الله عليه وسلم إلا حق في غضبه ورضاه.

وكذلك قوله في الحديث الآخر: "إنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر ولا يفعل هذا أحد منكم إلا كان للسيف " ولم يقيده بالكثره.

الثاني: أنه آذاه بهجائه المنظوم واليهودية بكلام منثور وكلاهما أهدر دمه فعلم أن النظم ليس له تأثير في أصل الحكم إذ لم يخص ذلك الناظم والوصف إذا ثبت الحكم بدونه كان عديم التأثير فلا يجعل جزاء من العلة ولا يجوز أن يكون هذا من باب تعليل الحكم بعلتين لأن ذلك إنما يكون إذا لم تكن إحداهما مندرجة في الأخرى كالقتل والزنا أما إذا اندرجت إحداهما في الأخرى فالوصف الأعم هو العلة والأخص عديم التأثير.

الوجه الثالث: أن الجنس المبيح للدم لا فرق بين قليله وكثيره وغليظه وخفيفه في كونه مبيحا للدم سواء كان قولا أو فعلا كالردة والزنا والمحاربة ونحو ذلك وهذا هو قياس الأصول فمن زعم أن من الأقوال أو الأفعال ما يبيح الدم إذا كثر ولا يبيحه مع القلة فقد خرج عن قياس الأصول وليس له ذلك إلا بنص يكون أصلا بنفسه ولا نص يدل على إباحة القتل في الكثير دون القليل وما ذهب إليه المنازع من جواز قتل من كثر منه القتل بالمثقل والفاحشة في الدبر دون القبل إنما هو حكاية مذهب والكلام في الجميع واحد ثم إنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رضخ رأس يهودي بين حجرين لأنه فعل ذلك بجارية من الأنصار فقد قتل من قتل بالمثقل قودا مع أنه لم يتكرر منه وقال في الذي يعمل عمل قوم لوط: " اقتلوا الفاعل والمفعول به " ولم يعتبر التكرر وكذلك أصحابه من بعده قتلوا فاعل ذلك إما رجما أو حرقا أو غير ذلك مع عدم التكرر.

وإذا كانت الأصول المنصوصة أو المجمع عليها مستوية في إباحة الدم بين المرة الواحدة والمرات المتعددة كان الفرق بينهما في إباحة الدم إثبات حكم بلا أصل ولا نضير له بل على خلاف الأصول الكلية وذلك غير جائز.

يوضح ذلك: أن ما ينقض الإيمان من الأقوال يستوي فيه واحده وكثيره وإن لم يصرح بالكفر كما لو كفر بآية واحدة أو بفريضة ظاهرة أو بسب الرسول مرة واحدة فإنه كما لو صرح بتكذيب الرسول وكذلك ما ينقض الإيمان من الأقوال لو صرح به وقال: "قد نقضت العهد وبرئت من ذمتك" انتقض عهده بذلك وإن لم يكرره فكذلك ما يستلزم ذلك من السب والطعن في الدين ونحو ذلك لا يحتاج إلى تكرير.

الوجه الرابع: أنه إذا أكثر من هذه الأقوال والأفعال فإما أن يقتل لأن جنسها مبيح للدم أو لأن المبيح قدر مخصوص فإن كان الأول فهو المطلوب وإن كان الثاني فما حد ذلك المقدار المبيح للدم؟ وليس لأحد أن يحد في ذلك حدا إلا بنص أو إجماع أو قياس عند من يرى القياس في المقدرات والثلاثة منفية في مثل هذا فإنه ليس في الأصول قول أو فعل يبيح الدم منه عدد مخصوص فلا يبيحه أقل منه ولا ينتقض هذا بالإقرار في الزنا فإنه لا يثبت إلا بأربع مرات عند من يقول به أو القتل بالقسامة فإنه لا يثبت إلا بعد خمسين يمينا عند من يرى القود بها أو رجم الملاعنة فإنه لا يثبت إلا بعد أن يشهد الزوج أربع مرات عند من يرى أنها ترجم بشهادة الزوج إذا نكلت لأن المبيح للدم ليس هو الإقرار ولا الأيمان وإنما المبيح فعل الزنا أو فعل القتل وإنما الإقرار والأيمان حجة ودليل على ثبوت ذلك ونحن لم ننازع في أن الحجج الشرعية لها نصب محدودة وإنما قلنا: "إن نفس القول أو العمل المبيح للدم لا نصاب له في الشرع وإنما الحكم معلق بجنسه".

الوجه الخامس: أن القتل عند كثرة هذه الأشياء إما أن يكون حدا يجب فعله أو تعزيزا يرجع إلى رأي الإمام فإن كان الأول فلا بد من تحديد موجبه ولا حد له إلا تعليقه بالجنس إذ القول بما سوى ذلك تحكم وإن كان الثاني فليس في الأصول تعزير بالقتل

فلا يجوز إثباته إلا بدليل يخصه والعمومات الواردة في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم: " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث " تدل على ذلك أيضا.
الوجه الثاني من الاستدلال به: أن النفر الخمسة الذين قتلوه من المسلمين: محمد بن مسلمة وأبا نائلة وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأبا عبس بن جبر قد أذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يغتالوه ويخدعوه بكلام يظهرون به أنهم قد آمنوه ووافقوه ثم يقتلوه ومن المعلوم أن من أظهر لكافر أمانا لم يجز قتله بعد ذلك لأجل الكفر بل لو اعتقد الكافر الحربي أن المسلم آمنه وكلمه على ذلك صار مستأمنا قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه عمرو بن الحمق: "من آمن رجل على دمه وماله ثم قتله فأنا منه بريء وإن كان المقتول كافرا " رواه الإمام أحمد وابن ماجه.
وعن سليمان بن صرد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا آمنك الرجل على دمه فلا تقتله " رواه ابن ماجه.
وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الأمان قيد الفتك لا يفتك مؤمن " رواه أبو داود وغيره.
وقد زعم الخطابي أنهم إنما فتكوا به لأنه كان قد خلع الأمان ونقض العهد قبل هذا وزعم أن مثل هذا جائز في الكافر الذي لا عهد له كما جاز البيات والإغارة عليهم في أوقات الغرة لكن يقال: هذا الكلام الذي كلموه به صار مستأمنا وأدنى أحواله أن يكون له شبهة أمان ومثل ذلك لا يجوز قتله بمجرد الكفر فإن الأمان يعصم دم الحربي ويصير مستأمنا بأقل من هذا كما هو معروف في مواضعه وإنما قتلوه لأجل هجائه وأذاه لله ورسوله ومن حل قتله بهذا الوجه لم يعصم دمه بأمان ولا عهد كما لو آمن المسلم من وجب قتله لأجل قطع الطريق ومحاربة الله ورسوله والسعي في الأرض بالفساد الموجب للقتل أو آمن من وجب قتله لأجل زناه أو آمن من وجب قتله لأجل الردة أو لأجل ترك أركان الإسلام ونحو ذلك ولا يجوز أن يعقد له عقد عهد سواء كان عقد أمان أو عقد هدنة أو عقد ذمة لأن قتله حد من الحدود وليس قتله لمجرد كونه كافرا حربيا كما سيأتي وأما الإغارة والبيات فليس هناك قول أو فعل صاروا به آمنين ولا اعتقدوا أنهم قد أومنوا بخلاف قصة كعب بن الأشرف فثبت أن أذى الله ورسوله بالهجاء ونحوه لا يحقن معه الدم بالأمان فأن لا يحقن معه بالذمة المؤبدة والهدنة المؤقتة بطريق الأولى فإن الأمان يجوز عقده لكل كافر ويعقده كل مسلم ولا يشرط على المستأمن شيء من الشروط والذمة لا يعقدها إلا الإمام أو نائبه ولا يعقد إلا بشروط كثيرة تشترط على أهل الذمة: من التزام الصغار ونحوه وقد كان عرضت لبعض السفهاء شبهة في قتل ابن الأشرف فظن أن دم مثل هذا يعصم بذمة متقدمة أو بظاهر أمان وذلك نظير الشبهة التي عرضت لبعض الفقهاء حتى ظن أن العهد لا ينتقض بذلك فروى ابن وهب: أخبرني سفيان بن عيينة عن عمر بن سعيد أخي سفيان بنى سعيد الثوري عن أبيه عن عباية قال: ذكر قتل ابن الأشرف عند معاوية فقال ابن يامين: كان قتله غدرا فقال محمد بن مسلمة: يا معاوية أيغدر عندك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا تنكر؟ والله لا يظلني وإياك سقف بيت أبدا ولا يخلوا لي دم هذا إلا قتلته.
وقال الواقدي: حدثني إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: قال مروان بن الحكم وهو على المدينة وعنده ابن يامين النظري: كيف كان قتل ابن الأشرف؟ قال ابن يامين: كان غدرا ومحمد بن مسلمة جالس شيخ كبير فقال: يا مروان أيغدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عندك؟ والله ما قتلناه إلا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا يؤويني وإياك سقف بيت إلا المسجد وأما أنت يا ابن يامين فالله علي إن أفلت وقدرت عليك وفي يدي سيف إلا ضربت به رأسك فكان ابن يامين لا ينزل من بني قريظة حتى يبعث له رسولا ينظر محمد بن مسلمة فإن كان في بعض ضياعه نزل فقضى حاجته ثم صدر وإلا لم ينزل فبينا محمد في جنازة وابن يامين في البقيع فرأى محمد يغشى عليه جرائد يظنه لا يراه فعاجله فقام إليه الناس فقالوا: يا أبا عبد الرحمن ما تصنع؟ نحن نكفيك فقام إليه فلم يزل بضربه به جريدة جريدة حتى كسر ذلك الجريد على وجهه ورأسه حتى لم يترك به مصحا ثم أرسله ولا طباخ به ثم قال: والله لو قدرت على السيف لضربتك به.
فإن قيل: فإذا كان هو وبنو النضير قبيلته موادعين فما معنى ما ذكره ابن إسحاق قال: حدثني مولى لزيد بن ثابت حدثتني ابنة محيصة عن أبيها محيصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه" فوثب محيصة بن مسعود على ابن سنينة رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان حويصة بن مسعود إذا ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول: أي عدو الله قتلته؟ أما والله لرب شحم في بطنك من ماله فوالله إن كان لأول إسلام حويصة فقال محيصة: فقلت له: والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك فقال حويصة: والله إن دينا بلغ منك هذا لعجب.
وقال الواقدي بالأسانيد المتقدمة: قالوا: فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليلة التي قتل فيها ابن الأشرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه " فخافت يهود فلم يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطلقوا وخافوا أن يبيتوا كما بيت ابن الأشرف وذكر قتل ابن سنينة إلى أن قال: وفزعت يهود ومن معها من المشركين وساق القصة كما تقدم عنه.

فإن هذا يدل على أنهم لم يكونوا موادعين وإلا لما أمر بقتل من صودف منهم ويدل هذا على أن العهد الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين اليهود كان بعد قتل بن الأشرف وحينئذ فلا يكون ابن الأشرف معاهدا.
قلنا: إنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل من ظفر به منهم لأن كعب بن الأشرف كان من ساداتهم وقد تقدم أنه قال: ما عندكم؟ يعني في النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: عداوته ما حيينا وكانوا مقيمين خارج المدينة فعظم عليهم قتله وكان مما يهيجهم على المحاربة وإظهار نقض العهد نقض العهد انتصارهم للمقتول وذبهم عنه واما من قر فهو مقيم على عهده المتقدم لأنه لم يظهر العداوة ولهذا لم يحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحاربهم حتى أظهروا عداوته بعد ذلك وأما هذا الكتاب فهو شيء ذكره الواقدي وحده.
وقد ذكر هو أيضا أن قتل ابن الأشرف في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأن غزوة بني قنيقاع كانت قبل ذلك في شوال سنة اثنتين بعد بدر بنحو شهر.
وذكر أن الكتاب الذي وادع فيه النبي صلى الله عليه وسلم اليهود كلها كان لما قدم المدينة قبل بدر وعلى هذا فيكون هذا كتابا ثانيا خاصا لبني النضير تجدد فيه العهد الذي بينه وبينهم غير الكتاب الأول الذي كتبه بينه وبين جميع اليهود لأجل ما كانوا قد أرادوا من إظهار العداوة.
وقد تقدم أن ابن الأشرف كان معاهدا وتقدم أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب الكتاب لما قدم المدينة في أوائل الأمر والقصة تدل على ذلك وإلا لما جاء اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم وشكوا إليه قتل صاحبهم ولو كانوا محاربين لم يستنكروا قتله وكلهم ذكر أن قتل ابن الأشرف كان بعد بدر وأن معاهدة النبي صلى الله عليه وسلم كانت قبل بدر كما ذكره الواقدي.
قال ابن إسحاق: "وكان فيما بين ذلك من غزو النبي صلى الله عليه وسلم أمر بني قينقاع يعني فيما بين بدر وغزوة الفرع من العام المقبل في جمادى الأولى وقد ذكر أن بني قينقاع هم أول من حارب ونقض العهد".
<u>الحديث الرابع:</u> ما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سب نبيا قتل ومن سب أصحابه جلد " رواه أبو محمد الخلال وأبو القاسم الأرجي ورواه أبو ذر الهروي ولفظه: " من سب نبيا فاقتلوه ومن سب أصحابي فاجلدوه ".
وهذا الحديث قد رواه عبد العزيز بن الحسن بن زبالة قال: ثنا عبد الله بن موسى بن جعفر عن علي بن موسى عن أبيه عن جده عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن الحسين بن علي عن أبيه وفي القلب منه حزازة فإن هذا الإسناد الشريف قد ركب عليه متون نكرة والمحدث به عن أهل البيت ضعيف فإن كان محفوظا فهو دليل على وجوب قتل من سب نبيا من الأنبياء وظاهره يدل على أنه يقتل من غير استتابة وأن القتل حد له.
<u>الحديث الخامس:</u> ما روى عبد الله بن قدامى عن أبي برزة قال: أغلظ رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فقلت: أقتله؟ فانتهرني وقال: ليس هذا لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه النسائي من حديث شعبة عن توبة العنبري عنه.
وفي رواية لأبي بكر عبد العزيز بن جعفر الفقيه عن أبي برزة: "أن رجلا شتم أبا بكر فقلت: يا خليفة رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال: ويحك أو ويلك ما كانت لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم".
ورواه أبو داود في سننه بإسناد صحيح عن عبد الله بن مطرف عن أبي برزة قال: "كنت عند أبي بكر رضي الله عنه فتغيظ على رجل فاشتد عليه فقلت: تأذن لي يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أضرب عنقه قال: فأذهبت كلمتي غضبه فقام فدخل فأرسل إلي فقال: ما الذي قلت آنفا؟ قلت: ائذن لي أضرب عنقه قال: أكنت فاعلا لو أمرتك؟ قلت: نعم قال: لا والله ما كانت لبشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم".
قال أبو داود في مسائله: سمعت أبا عبد الله يسال عن حديث أبي بكر: "ما كانت لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم" فقال: لم يكن لأبي بكر أن يقتل رجلا إلا بإحدى ثلاث وفي رواية: بإحدى الثلاث التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان وقتل نفس بغير نفس والنبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يقتل".
وقد استدل به على جواز قتل ساب النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من العلماء منهم أبو داود وإسماعيل بن إسحاق القاضي وأبو بكر عبد العزيز والقاضي أبو يعلى وغيرهم من العلماء وذلك لأن أبا برزة لما رأى الرجل قد شتم أبا بكر وأغلظ له حتى تغيظ أبو بكر استأذنه في أن يقتله بذلك وأخبره أنه لو أمره لقتله فقال أبو بكر: ليس هذا لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم.
فعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يقتل من سبه ومن أغلظ له وأن له أن يأمر بقتل من لا يعلم الناس منه سببا يبيح دمه وعلى الناس أن يطيعوه في ذلك لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا يأمر بمعصية الله قط بل من أطاعه فقد أطاع الله.
فقد تضمن الحديث خصيصتين لرسول الله صلى الله عليه وسلم:
<u>إحداهما:</u> أنه يطاع في كل من أمر بقتله.

والثانية: أن له أن يقتل من شتمه وأغلظ عليه.
وهذا المعنى الثاني الذي كان لله باقي في حقه بعد موته فكل من شتمه أو أغلظ في حقه كان قتله جائزا بل ذلك بعد موته أوكد وأوكد لأن حرمته بعد موته أكمل والتساهل في عرضه بعد موته غير ممكن.
وهذا الحديث يفيد أن سبه في الجملة يبيح القتل ويستدل بعمومه على قتل الكافر والمسلم.
الحديث السادس: قصة العصماء بنت مروان ما روى عن ابن عباس قال: هجت امرأة من خطمة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "من لي بها؟ " فقال رجل من قومها: أنا يا رسول الله فنهض فقتلها فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "لا ينتطح فيها عنزان ".
وقد ذكر بعض أصحاب المغازي وغيرهم قصتها مبسوطة.
قال الواقدي: حدثني عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه أن عصماء بنت مروان من بني أمية بنت زيد كانت تحت يزيد بن زيد ابن حصن الخطمي وكانت تؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وتعيب الإسلام وتحرض على النبي صلى الله عليه وسلم وقالت:

فباست بني مالك والنبيت ... وعوف وباست بني الخزرج
أطعتم أتاوي من غيركم ... فلا من مراد ولا مذحج
ترجونه بعد قتل الرؤوس ... كما يرتجى مرق المنضج

وقال عمير بن عدي الخطمي حين بلغه قولها وتحريضها: " اللهم إن لك علي نذرا لئن رددت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لأقتلنها" ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من بدر جاء عمير بن عدي في جوف الليل حتى دخل عليها في بيتها وحولها نفر من ولدها نيام منهم من ترضعه في صدرها فحسها بيده فوجد الصبي ترضعه فنحاه عنها ثم وضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها ثم خرج حتى صلى الصبح مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى عمير فقال: أقتلت بنت مروان؟ قال: نعم بأبي أنت يا رسول الله وخشي عمير أن يكون أفتات على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها فقال: هل علي في ذلك شيء يا رسول الله؟ قال: لا ينتطح فيها عنزان فإن أول ما سمعت هذه الكلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمير: فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى من حوله فقال: "إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدي" فقال عمر بن الخطاب: "انظروا إلى هذا الأعمى الذي تسرى في طاعة الله" فقال: "لا تقل الأعمى ولكنه البصير ".
فلما رجع عمير من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد بنيها في جماعة يدفنونها فأقبلوا إليه حين رأوه مقبلا من المدينة فقالوا: يا عمير أنت قتلتها؟ فقال: نعم فيكدوني جميعا ثم لا تنظرون والذي نفسي بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم فيومئذ ظهر الإسلام في بني خطمة وكان منهم رجال يستخفون بالإسلام خوفا من قومهم فقال حسان بن ثابت يمدح عمير بن عدي.
قال الواقدي: أنشدنا عبد الله بن الحارث:

بني وائل وبني واقف ... وخطمة دون بني الخزرج
متى ما ادعت أختكم ويحها ... بعولتها والمنايا تجي
فهزت فتى ماجدا عرقه ... كريم المداخل والمخرج
فضرجها من نجيع الدما ... قبيل الصباح ولم تخرج
فأورده الله برد الجنا ... ن جذلان في نعمة المولج

قال عبد الله بن الحارث عن أبيه: وكان قتلها لخمس ليال بقين من رمضان مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من بدر.
وروى هذه القصة أخصر من هذا أبو أحمد العسكري ثم قال: كانت هذه المرأة تهجو النبي صلى الله عليه وسلم وتؤذيه.
وإنما خص النبي صلى الله عليه وسلم العنز لأن العنز تشام العنز ثم تفارقها وليس كنطاح الكباش وغيرها.
وذكر هذه القصة مختصرة محمد بن سعد في الطبقات.
وقال أبو عبيد في الأموال: وكذلك كانت قصة عصماء اليهودية إنما قتلت لشتمها النبي صلى الله عليه وسلم وهذه المرأة ليست هي التي قتلها سيدها الأعمى ولا اليهودية التي قتلت لأن هذه المرأة من بني أمية بن زيد أحد بطون الأنصار ولها زوج من بني خطمة ولهذا والله أعلم نسبت في حديث ابن عباس إلى بني خطمة والقاتل لها غير زوجها وكان لها بنون كبار وصغار نعم كان القاتل من قبيلة زوجها كما في الحديث.

وقال محمد بن إسحاق: أقام مصعب بن عمير عند أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف وتلك أوس الله وهم من الأوس بن حارثة وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت كان شاعرهم يسمعون منه ويعظمونه.
فهذا الذي ذكره ابن إسحاق يصدق ما رواه الواقدي من تأخر ظهور الإسلام ببني خطمة والشعر المأثور عن حسان يوافق ذلك.
وإنما سقنا القصة من راوية أهل المغازي مع ما في الواقدي من الضعف للشهرة هذه القصة عندهم مع أنه لا يختلف اثنان أن الواقدي من أعلم الناس بتفاصيل أمور المغازي وأخبرهم بأحوالها وقد كان الشافعي وأحمد وغيرهما يستفيدون علم ذلك من كتبه نعم هذا الباب يدخله خلط الروايات بعضها ببعض حتى يظهر أنه سمع مجموع القصة من شيوخه وإنما سمع من كل واحد بعضها ولم يميزه ويدخله أخذ ذلك من الحديث المرسل والمقطوع وربما حدس الراوي بعض الأمور لقرائن استفادها من عدة جهات ويكثر من ذلك إكثارا ينسب لأجله إلى المجازفة في الرواية وعدم الضبط فلم يمكن الاحتجاج بما ينفرد به فأما الاستشهاد بحديثه والاعتضاد به فمما لا يمكن المنازعة فيه لا سيما في قصة تامة يخبر فيها باسم القاتل والمقتول وصورة الحال فإن الرجل وأمثاله أفضل ممن ارتفعوا في مثل هذا في كذب ووضع على أنا لم يثبت قتل الساب بمجرد هذا الحديث وإنما ذكرناه للتقوية والتوكيد وهذا مما يحصل ممن هو دون الواقدي.
ووجه الدلالة أن هذه المرأة لم تقتل إلا لمجرد أذى النبي صلى الله عليه وسلم وهجوه وهذا بين في قول ابن عباس: "هجت امرأة من خطمة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من لي بها " فعلم أنه أنما ندب إليها لأجل هجوها وكذلك في الحديث الآخر "فقال عمير حين بلغه قولها وتحريضها: اللهم إن لك علي نذرا لئن رددت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لأقتلنها" وفي الحديث لما قال له قومه: "أنت قتلتها؟ " فقال: "نعم فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون فوالذي نفسي بيده لو قلتم جميعا ما قالت لضربتكم بسيفي حتى أموت أو أقتلكم" فهذه مقدمة ومقدمة أخرى وهو أن شعرها ليس فيه تحريض على قتال النبي صلى الله عليه وسلم حتى يقال: التحريض على القتال قتال وإنما فيه تحريض على ترك دينه وذم له ولمن اتبعه وأقصى غاية ذلك أن لا يدخل في الإسلام من لم يكن دخل أو أن يخرج عنه من دخل فيه وهذا شأن كل ساب.
يبين ذلك أنها هجته بالمدينة وقد أسلم أكثر قبائلها وصار المسلم بها أعز من الكافر ومعلوم أن الساب في مثل هذه الحال لا يقصد أن يقاتل الرسول وأصحابه وإنما يقصد إغاظتهم وأن لا يتابعوا.
وأيضا فانها لم تكن تطمع في التحريض على القتال فإنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن جميع قبائل الأوس والخزرج لم يكن فيهم من يقاتل النبي صلى الله عليه وسلم بيد ولا لسان ولا كان أحد بالمدينة يتمكن من إظهار ذلك وإنما غاية الكافر أو المنافق منهم أن يثبط الناس عن إتباعه أو أن يعين على رجوعه من المدينة إلى مكة ونحو ذلك مما فيه تخذيل عنه وحض على الكفر به لا على قتاله على أن الهجاء إن كان من نوع القتال فيجب انتقاض العهد به ويقتل به الذمي فإنه إذا قاتل انتقض عهده لأن العهد اقتضى الكف عن القتال فإذا قاتل بيد أو لسان فقد فعل ما يناقض العهد وليس بعد القتال غاية في نكث العهد.
إذا تبين ذلك فمن المعلوم من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم الظاهر علمه عند كل من له علم بالسيرة أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم بالمدينة لم يحارب أحدا من أهل المدينة بل وادعهم حتى اليهود خصوصا بطون الأوس والخزرج فإنه كان يسالمهم ويتألفهم بكل وجه وكان الناس إذ قدمها على طبقات: منهم المؤمن وهم الأكثرون ومنهم الباقي على دينه وهو متروك لا يحارب ولا يحارب وهو والمؤمنون من قبيلته وحلفائهم أهل سلم لا أهل حرب حتى حلفاء الأنصار أقرهم النبي صلى الله عليه وسلم على حلفهم.
قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فيها دار من دور الأنصار إلا فيها رهط من المسلمين إلا بني خطمة وبني واقف وبني وائل كانوا آخر الأنصار إسلاما وحول المدينة حلفاء الأنصار كانوا يستظهرون بهم في حربهم فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلوا حلف حلفائهم للحرب التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين من عادى الإسلام.
وكذلك قال الواقدي فيما رواه عن يزيد بن رومان وابن كعب بن مالك عن جابر بن عبد الله في قصة ابن الأشرف قال: فكان الذي اجتمعوا عليه قالوا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الإسلام فيهم أهل الحلقة والحصون ومنهم حلفاء للحيين جميعا الأوس والخزرج فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم وموادعتهم وكان الرجل يكون مسلما وأبوه مشركا ومن المعلوم أن قبائل الأوس كانوا حلفاء بعضهم لبعض.
فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أقرهم كانت هذه المرأة من المعاهدين وكان فيهم المظهر للإسلام المبطن لخلافه يقول بلسانه ما ليس في قلبه وكان الإسلام والإيمان يفشوا في بطون الأنصار بطنا بعد بطن حتى لم يبق فيهم مظهر للكفر بل

صاروا إما مؤمنا أو منافقا وكان من لم يسلم منهم بمنزلة اليهود موادع مهادن أو هو أحسن حالا من اليهود لما يرجى فيه من العصبية لقومه وأن يهوى هواهم ولا يرى أن يخرج عن جماعتهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعاملهم من الكف عنهم واحتمال أذاهم بأكثر مما يعامل به اليهود لما كان يرجوه منهم ويخاف من تغيير قلوب من أظهر الإسلام من قبائلهم لو أوقع بهم وهو في ذلك متبع قوله تعالى: {لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور} .

ثم إنه مع ندب الناس إلى قتل المرأة التي هجته وقال فيمن قتلها: "إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى هذا" فثبت بذلك أن هجاءه وذمه موجب للقتل غير الكفر وثبت أن الساب يجب قتله وإن كان من الحلفاء والمعاهدين ويقتل في الحال التي يحقن فيها دم من ساواه في غير السب لا سيما ولو لم تكن معاهدة فقتل المرأة لا يجوز إلا أن تقاتل لأنه صلى الله عليه وسلم رأى امرأة في بعض مغازيه مقتولة فقال: "ما كانت هذه لتقاتل" ونهى عن قتل النساء والصبيان ثم إنه أمر بقتل هذه المرأة ولم تقاتل بيدها فلو لم يكن السب موجبا للقتل لم يجز قتلها لأن قتل المرأة لمجرد الكفر لا يجوز ولا نعلم قتل المرأة الكافرة الممسكة عن القتال أبيح في وقت من الأوقات بل القرآن وترتيب نزوله دليل على أنه لم يبح قط لأن أول آية نزلت في القتال: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم} الآية فأباح للمؤمنين القتال دفعا عن نفوسهم وعقوبة لمن أخرجهم من ديارهم ومنعهم من توحيد الله وعبادته وليس للنساء في ذلك حظ.

ثم إنه كتب عليهم القتال مطلقا وفسره بقوله: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم} الآية فمن ليس من أهل القتال لم يؤذن في قتاله والنساء لسن من أهل القتال فإذا كان قد أمر بقتل هذه المرأة فإما أن يقال: "هجاؤها قتال" فهذا يفيدنا أن هجاء الذمي قتال فينقض العهد ويبيح الدم أو يقال: "ليس بقتال" وهو الأظهر لما قدمناه من أنه لم يكن فيه تحريض على القتال ولا كان لها رأي في الحرب فيكون السب جناية مضرة بالمسلمين غير القتال موجبة للقتل بمنزلة قطع الطريق عليهم ونحو ذلك يفيد أن السب موجب للقتل بوجوه.

<u>أحدها</u>: أنه لو لم يكن موجبا للقتل لما جاز قتل المرأة وإن كانت حربية لأن الحربية إذا لم تقاتل بيد ولا لسان لم يجز قتلها إلا بجناية موجبة للقتل وهذا ما أحسب فيه مخالفا لا سيما عند من يرى قتالها بمنزلة قتال الصائل.

<u>الثاني</u>: أن هذه السابة كانت من المعاهدين ممن هو أحسن حالا من المعاهدين في ذلك الوقت فلو لم يكن السب موجبا لدمها لما قتلت ولما جاز قتلها ولهذا خاف الذي قتلها أن تتولد فتنة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم "لا ينتطح فيها عنزان" مع أن انتطاحهما إنما هو كالتشام فبين صلى الله عليه وسلم أنه لا يتحرك لذلك قليل من الفتن ولا كثير رحمة من الله بالمؤمنين ونصرا لرسوله ودينه فلو لم يكن هناك ما يحذر معه قتل هذه لولا الهجاء لما خيف هذا.

<u>الثالث</u>: أن الحديث مصرح بأنها إنما قتلت لأجل ما ذكرته من الهجاء وأن سائر قومها تركوا إذ لم يهجوا وأنهم لو هجوا لفعل بهم كما فعل بها فظهر بذلك أن الهجاء موجب بنفسه للقتل سواء كان الهاجي حربيا أو مسلما أو معاهدا حتى يجوز أن يقتل لأجله من لا يقتله بدونه وإن كان الحربي المقاتل يجوز قتله من وجه آخر وذلك في المسلم ظاهر وأما في المعاهد فلأن الهجاء إذا أباح دم المرأة فهو كالقتال أو أسوأ حالا من القتال.

<u>الرابع</u>: أن المسلمين كانوا ممنوعين قبل الهجرة وفي أوائل الهجرة من الابتداء بالقتال وكان قتل الكفار حينئذ محرما وهو من قتل النفس بغير حق كما قال تعالى: {ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم} إلى قوله: {فلما كتب عليهم القتال} ولهذا أول ما أنزل من القرآن فيه نزل بالإباحة بقوله: {أذن للذين يقاتلون} وهذا من العلم العام بين أهل المعرفة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخفى على أحد منهم أنه صلى الله عليه وسلم كان قبل الهجرة وبعيدها ممنوعا عن الابتداء بالقتل والقتال ولهذا قال للأنصار الذين بايعوه ليلة العقبة لما استأذنوه في أن يميلوا على أهل منى "إنه لم يؤذن لي في القتال" وذلك حينئذ بمنزلة الأنبياء الذين لم يؤمروا بالقتال كنوح وهود وصالح وإبراهيم وعيسى بل كأكثر الأنبياء غير أنبياء بني إسرائيل.

ثم إنه لم يقاتل أحدا من أهل المدينة ولم يأمر بقتل أحد من رؤوسهم الذين كانوا يجمعونهم على الكفر ولا من غيرهم والآيات التي نزلت إذ ذاك إنما تأمر بقتال الذين أخرجوهم وقاتلوهم ونحو ذلك وظاهر هذا أنه لم يؤذن لهم إذ ذاك في ابتداء قتل الكافرين من أهل المدينة فإن دوام إمساكه عنهم يدل على استحبابه أو وجوبه وهو في الوجوب أظهر لما ذكرنا لأن الإمساك كان واجبا والمغير لحاله لم يشمل أهل المدينة فيبقى على الوجوب المتقدم مع فعله صلى الله عليه وسلم.

قال موسى بن عقبة عن الزهري: كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدوه قبل أن تنزل براءة يقاتل من قاتله ومن كف يده وعاهده كف عنه قال الله تعالى: {فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا} وكان القرآن ينسخ بعضه بعضا فإذا نزلت آية نسخت التي قبلها وعمل بالتي أنزلت وبلغت الأولى منتهى العمل بها وكان ما قد عمل بها قبل ذلك طاعة لله حتى نزلت براءة وإذا أمر بقتل هذه المرأة التي هجته ولم يؤذن له في قتل قبيلتها الكافرين علم أن السب موجب للقتل وإن كان هناك ما يمنع القتال لولا السبب كالعهد والأنوثة ومنع قتل الكافر الممسك أو عدم إباحته.

وهذا وجه حسن دقيق فإن الأصل أن دم الآدمي معصوم لا يقتل إلا بالحق وليس القتل للكفر من الأمر الذي اتفقت عليه الشرائع ولا أوقات الشريعة الواحدة كالقتل قودا فإنه مما لا تختلف فيه الشرائع ولا العقول وكان دم الكافر في أول الإسلام معصوما بالعصمة الأصلية وبمنع الله المؤمنين من قتاله ودماء هؤلاء القوم كدم القبطي الذي قتله موسى وكدم الكافر الذي لم تبلغه الدعوة في زماننا أو أحسن حالا من ذلك وقد عد موسى ذلك ذنبا في الدنيا والآخرة مع أن قتله كان خطأ شبه عمد أو خطأ محضا ولم يكن عمدا محضا.

فظاهر سيرة نبيا وظاهر ما أذن له فيه أن حال أهل المدينة إذ ذاك ممن لم يسلم كانت كهذه الحال فإذا قتل المرأة التي هجته من هؤلاء وليسوا عنده محاربين بحيث يجوز قتالهم مطلقا كان قتل المرأة التي تهجوه من أهل الذمة بهذه المثابة وأولى لأن هذه قد عاهدناها على أن لا تسب وعلى أن تكون صاغرة وتلك لم نعاهدها على شيء.

<u>الحديث السابع</u>: قصة أبي عفك اليهودي ذكرها أهل المغازي والسير.

قال الواقدي: ثنا شعبة بن محمد عن عمارة بن غزية وحدثناه أبو مصعب إسماعيل بن مصعب بن إسماعيل بن زيد بن ثابت عن أشياخه قالا: إن شيخا من بني عمرو بن عوف يقال له أبو عفك وكان شيخا كبيرا قد بلغ عشرين ومائة سنة حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كان يحرض على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يدخل في الإسلام فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر ظفره الله بما ظفره فحسده وبغى فقال وذكر قصيدة تتضمن هجو النبي صلى الله عليه وسلم وذم من اتبعه أعظم ما فيها قوله:

فيسلبهم أمرهم راكب ... حراما حلالا لشتى معا

قال سالم بن عمير: علي نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه فأمهل فطلب له غرة حتى كانت ليلة صائفة فنام أبو عفك بالفناء في الصيف في بني عمرو بن عوف فأقبل سالم بن عمير فوضع السيف على كبده حتى خش في الفراش وصاح عدو الله فثاب إليه أناس ممن هم على قوله فأدخلوه منزله وقبروه وقالوا: من قتله؟ والله لو نعلم من قتله لقتلناه.

وبه ذكر محمد بن سعد أنه كان يهوديا وقد ذكرنا أن يهود المدينة كلهم كانوا قد عاهدوا ثم إنه لما هجا وأظهر الذم قتل.

قال الواقدي عن ابن رقش: قتل أبو عفك في شوال على رأس عشرين شهرا وهذا قديم قبل قتل ابن الأشرف وهذا فيه دلالة واضحة على أن المعاهد إذا أظهر السب ينتقض عهده ويقتل غيلة لكن هو من رواية أهل المغازي وهو يصلح أن يكون مؤيدا مؤكدا بلا تردد.

<u>الحديث الثامن</u>: حديث أنس بن زنيم الديلي وهو مشهور عند أهل السيرة ذكره ابن إسحاق والواقدي وغيرهما.

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن عمرو بن زهير عن محجن بن وهب قال: كان آخر ما كان بين خزاعة وبين كنانة أن أنس بن زنيم الديلي هجا رسول الله عليه الصلاة والسلام فسمعه غلام من خزاعة فوقع به فشجه فخرج إلى قومه فأراهم شجته فثار الشر مع ما كان بينهم وما تطلب بنو بكر من خزاعة من دمائها.

قال الواقدي: حدثني حرام بن هشام بن خالد الكعبي عن أبيه قال: وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكبا من خزاعة يستنصرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخبرونه بالذي أصابهم وذكر قصة فيها إنشاد القصيدة التى أولها:

لا هم إني ناشد محمدا ... ...

قال: فلما فرغ الركب قالوا: يا رسول الله إن أنس بن زنيم الديلي قد هجاك فندر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه فبلغ ذلك أنس بن زنيم فقدم معتذرا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما بلغه عنه فقال وذكر قصيدة فيها مدح لرسول الله صلى الله عليه وسلم أولها:

أنت الذي تهدى معد بأمره ... بل الله يهديها وقال لك: اشهد
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبر وأوفى ذمة من محمد
تعلم رسول الله أنك مدركي ... وأن وعيدا منك كالأخذ باليد
تعلم رسول الله أنك قادر ... على كل سكن من تهام ومنجد
ونبي رسول الله أني هجوته ... فلا رفعت سوطي إلي إذا يدي
سوى أنني قد قلت: يا ويح فتية ... أصيبوا بنحس يوم طلق وأسعد

ويقول فيها:

فإني لا عرضا خرقت ولا دما ... هرقت ففكر عالم الحق واقصد

قال الواقدي: أنشدنيها حرام وبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته هذه واعتذاره وكلمه نوفل بن معاوية الديلي فقال: يا رسول الله أنت أولى الناس بالعفو ومن منا من لم يعادك ويؤذك؟ ونحن في جاهلية لا ندري ما نأخذ وما ندع حتى هدانا الله بك وأنقذنا بك من الهلك وقد كذب عليه الركب وأكثروا عندك فقال دع الركب عنك فإنا لم نجد بتهامة أحدا من ذي رحم قريب ولا

بعيد كان أبر من خزاعة فأسكت نوفل بن معاوية فلما سكت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عفوت عنه قال نوفل: فداك أبي وأمي.
وقال ابن إسحاق: وقال أنس بن زنيم يعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان قال فيهم عمرو بن سالم حين قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنصره ويذكر أنهم قد نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشد تلك القصيدة وفيها:
وتعلم أن الركب ركب عويمر ... هم الكاذبون المخلفو كل موعد
فوجه الدلالة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد صالح قريشا وهادنهم عام الحديبية عشر سنين ودخلت خزاعة في عقده وكان أكثرهم مسلمين وكانوا عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمهم وكافرهم ودخلت بنو بكر في عهد قريش فصار هؤلاء كلهم معاهدين وهذا مما تواتر به النقل ولم يختلف فيه أهل العلم.
ثم إن هذا الرجل المعاهد هجا النبي صلى الله عليه وسلم على ما قيل عنه فشجه بعض خزاعة ثم أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم أنه هجاه يقصدون بذلك إغراءه ببني بكر فندر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه أي أهدره ولم يندر دم غيره فلولا أنهم علموا أن هجاء النبي صلى الله عليه وسلم من المعاهدة مما يوجب الانتقام منه لم يفعلوا ذلك.
ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم ندر دمه لذلك مع أن هجاءه كان حال العهد وهذا النص في أن المعاهد الهاجي يباح دمه.
ثم إنه لما قدم أسلم في شعره ولهذا عدوه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقوله: "تعلم رسول الله" "تعلم رسول الله" "ونبي رسول الله" دليل على أنه أسلم قبل ذلك أو هذا وحده إسلام منه فإن الوثني إذا قال: "محمد رسول الله" حكم بإسلامه ومع هذا فقد أنكر أن يكون هجا النبي صلى الله عليه وسلم ورد شهادة أولئك بأنهم أعداء له لما بين القبيلتين من الدماء والحرب فلو لم يكن ما فعله مبيحا لدمه لما احتاج إلى شيء من ذلك.
ثم إنه بعد إسلامه واعتذاره وتكذيب المخبرين ومدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنما طلب العفو من النبي صلى الله عليه وسلم عن إهدار دمه والعفو إنما يكون مع جواز العقوبة على الذنب فعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يعاقبه بعد مجيئه مسلما معتذرا وإنما عفا عنه حلما وكرما.
ثم إن في الحديث أن نوفل بن معاوية هو الذي شفع له إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكر عامة أهل السير أن نوفلا هذا هو رأس المتكبرين الذين عدوا على خزاعة وقتلوهم وأعانتهم قريش على ذلك وبسبب ذلك انتقض عهد قريش وبني بكر ثم إنه أسلم قبل الفتح حتى صار يشفع في الذي هجا النبي صلى الله عليه وسلم فعلم أن الهجاء أغلظ من نقض العهد بالقتال بحيث إذا نقض قوم العهد بالقتال وآخر هجا ثم أسلما عصم دم الذي قاتل وجاز الانتقام من الهاجي ولهذا قرن هذا الرجل خرق العرض بسفك الدم فعلم أن كليهما موجب للقتل وأن خرق عرضه كان أعظم عندهم من سفك دماء المسلمين والمعاهدين.
ومما يوضح هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يهدر دم أحد من بني بكر الناقضين العهد بعينه وإنما مكن منهم بني خزاعة يوم الفتح أكثر النهار وأهدر دم هذا بعينه حتى أسلم واعتذر هذا مع أن العهد كان عهد هدنة وموادعة لم يكن عهد جزية وذمة والمهادن المقيم ببلده يظهر ببلده ما شاء من منكرات الأقوال والأفعال المتعلقة بدينه ودنياه ولا ينتقض بذلك عهده حتى يحارب فعلم أن الهجاء من جنس الحرب وأغلظ منه وأن الهاجي لا ذمة له.
<u>الحديث التاسع</u>: قصة ابن أبي سرح وهي مما اتفق عليها أهل العلم واستفاضت عندهم استفاضة تستغنى عن رواية الآحاد وذلك أثبت وأقوى مما رواه الواحد العدل فنذكرها مشروحة ليتبين وجه الدلالة منها:
عن مصعب بن سعد عن سعد بن أبي وقاص قال: " لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان فجاء به حتى أوقفه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله بايع عبد الله فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى فبايعه بعد ثلاث ثم أقبل على أصحابه فقال: "أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله" فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك إلا أومأت إلينا بعينك قال: "إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين " رواه أبو داود بإسناد صحيح.
وراوه النسائي كذلك بأبسط من هذا عن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة آمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أربعة نفر وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطل ومقيس بن حبابة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.
فأما عبد الله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حارث وعمار بن ياسر فسبق سعيد عمارا وكان أشب الرجلين فقتله.
وأما مقيس بن حبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه.

وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصف فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا هاهنا فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص لا ينجني في البر غيره اللهم لك علي عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمد حتى أضع يدي في يده ولأجدنه عفوا كريما فجاء وأسلم.
وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الباقي كما رواه أبو داود.
وعن عبد الله بن عباس قال: كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل يوم الفتح فاستجار له عثمان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه أبو داود.
وروى محمد بن سعد في الطبقات عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل ابن أبي سرح يوم الفتح وفرتني وابن الزبعري وابن خطل فأتاه أبو بردة وهو متعلق بأستار الكعبة فبقر بطنه وكان رجل من الأنصار قد نذر إن رأى ابن أبي سرح أن يقتله فجاء عثمان وكان أخاه من الرضاعة فشفع له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذ الأنصاري بقائم السيف ينظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم متى يومئ إليه أن يقتله فشفع له عثمان حتى تركه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصاري: "هلا وفيت بنذرك" فقال: يا رسول الله وضعت يدي على قائم السيف أنتظر متى تومئ فأقتله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس لنبي أن يومئ".
وقال محمد بن إسحاق في رواية ابن بكير عنه: قال أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر وعبد الله بن أبي بكر بن حزم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة وفرق جيوشه أمرهم أن لا يقتلوا أحدا إلا من قاتلهم إلا نفرا قد سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "اقتلوهم وإن وجدتموهم تحت أستار الكعبة " عبد الله بن خطل وعبد الله بابن أبي سرح وإنما أمر بابن أبي سرح لأنه كان قد أسلم فكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي فرجع مشركا ولحق بمكة فكان يقول: لهم إني لأصرفه كيف شئت أنه ليأمرني أن أكتب له الشيء فأقول له: أو كذا أو كذا فيقول: نعم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "عليم حليم" فيقول له: أو أكتب "عزيز حكيم" فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلاهما سواء.
قال ابن إسحاق: حدثني شرحبيل بن سعد أن فيه نزلت: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله} فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فر إلى عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمن له فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا وهو واقف عليه ثم قال: " نعم" فانصرف به فلما ولى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما صمت إلا رجاء أن يقوم إليه بعضكم فيقتله" فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله ألا أومأت إلي فأقتله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن النبي لا يقتل بالإشارة ".
وقال ابن إسحاق في رواية إبراهيم بن سعد عنه: حدثني بعض علمائنا أن ابن أبي سرح رجع إلى قريش فقال: والله لو أشاء لقلت كما يقول محمد وجئت بمثل ما يأتي به إنه ليقول الشيء وأصرفه إلى شيء فيقول: أصبت ففيه أنزل الله تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء} فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله.
قال ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقاتلوا إلا أحدا قاتلهم إلا أنه قد عهد في نفر سماهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإنما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان أسلم وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي فارتد مشركا راجعا إلى قريش فقال: والله إني لأصرفه حيث أريد إنه ليملي علي فأقول أو كذا أو كذا فيقول: نعم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يملي عليه فيقول: "عزيز حكيم" أو "حكيم حليم" فكان يكتبها على أحد الحرفين فيقول: "كل صواب".
وروينا في مغازي معمر عن الزهري في قصة الفتح قال: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أصحابه بالكف وقال: "كفوا السلاح" إلا خزاعة من بكر ساعة ثم أمرهم فكفوا فأمن الناس كلهم إلا أربعة: ابن أبي سرح وابن خطل ومقيس الكناني وامرأة أخرى ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لم أحرم مكة ولكن الله حرمها وإنها لم تحل لأحد من قبلي ولا تحل لأحد بعدي إلى يوم القيامة وإنما أحلها الله لي ساعة من نهار" قال ثم جاء عثمان بن عفان بابن أبي سرح فقال: بايعه يا رسول الله فأعرض عنه ثم جاءه من ناحية أخرى فقال: بايعه يا رسول الله فأعرض عنه ثم جاءه أيضا فقال: بايعه يا رسول الله فمد يده فبايعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد أعرضت عنه واني لأظن بعضكم سيقتله" فقال رجل من الأنصار: فهلا أومضت إلي يا رسول الله فقال: "إن النبي لا يومض" فكأنه رآه غدرا.

وفي مغازي موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفوا أيديهم فلا يقاتلوا أحدا إلا من قاتلهم وأمرهم بقتل أربعة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح والحويرث بن نقيد وابن خطل ومقيس بن حبابة أحد بني ليث وأمر بقتل قينتين لابن خطل تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: ويقال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل النفر وأن يقتل عبد الله بن أبي سرح وكان ارتد بعد الهجرة كافرا فاختبأ حتى اطمأن الناس ثم أقبل يريد أن يبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه ليقوم رجل من أصحابه فيقتله فلم يقم إليه أحد ولم يشعروا بالذي في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم: لو أشرت إلي يا رسول الله ضربت عنقه فقال "إن النبي لا يفعل ذلك" ويقال: أجاره عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة وقتلت إحدى القينتين وكمنت الأخرى حتى استؤمن لها.

وذكر محمد بن عائد في مغازيه هذه القصة مثل ذلك.

وذكر الواقدي عن أشياخه قالوا: وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فربما أملى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم "سميع عليم" فيكتب "عليم حكيم" فيقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: كذاك قال الله ويقرأه فافتتن وقال: ما يدري محمد ما يقوله إني لأكتب له ما شئت هذا الذي كتبت يوحى إلي كما يوحى إلى محمد وخرج هاربا من المدينة إلى مكة مرتدا فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم الفتح فلما كان يومئذ جاء ابن أبي سرح إلى عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فقال: يا أخي إني والله أستجير بك فاحبسني ها هنا واذهب إلى محمد فكلمه في فإن محمدا إن رآني ضرب الذي فيه عيناي إن جرمي أعظم الجرم وقد جئت تائبا فقال عثمان: بل اذهب معي قال عبد الله: والله لئن رآني ليضربن عنقي ولا ينظرني قد أهدر دمي وأصحابه يطلبونني في كل موضع فقال عثمان: انطلق معي فلا يقتلك إن شاء الله فلم يرع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عثمان آخذا بيد عبد الله بن سعد ابن أبي سرح واقفين بين يديه فأقبل عثمان على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أمه كانت تحملني وتمشيه وترضعني وتفطمه وكانت تلطفني وتتركه فهبه لي فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل عثمان كلما أعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه استقبله فيعيد عليه هذا الكلام وإنما أعرض النبي صلى الله عليه وسلم إرادة أن يقوم رجل فيضرب عنقه لأنه لم يؤمنه فلما رأى أن لا يقوم أحد وعثمان قد أكب على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه وهو يقول: يا رسول الله بايعه فداك أبي وأمي فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم ثم التفت إلى أصحابه فقال: ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الكلب فيقتله أو قال الفاسق فقال عباد بن بشر: ألا أومأت إلي يا رسول الله فوالذي بعثك بالحق إني لأتبع طرفك من كل ناحية رجاء أن تشير إلي فأضرب عنقه ويقال: قال هذا أبو اليسر ويقال: عمر بن الخطاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني لا أقتل بالإشارة ".

وقائل يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال يومئذ: " إن النبي لا تكون له خائنة الأعين ".

فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يفر من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما رآه فقال عثمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم: بأبي وأمي لو ترى ابن أم عبد الله يفر منك كلما رآك فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ألم أبايعه وأومنه؟ " قال: بلى يا رسول الله ولكنه يتذكر عظيم جرمه في الإسلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الإسلام يجب ما كان قبله" فرجع عثمان إلى ابن أبي سرح فأخبره فكان يأتي فيسلم على النبي صلى الله عليه وسلم مع الناس.

فوجه الدلالة أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح افترى على النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يتمم له الوحي ويكتب له ما يريد فيوافقه عليه وأنه يصرفه حيث شاء ويغير ما أمره به من الوحي فيقره على ذلك وزعم أنه سينزل مثل ما أنزل الله إذ كان قد أوحي إليه في زعمه كما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الطعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى كتابه والافتراء عليه بما يوجب الريب في نبوته قدر زائد على مجرد الكفر به والردة في الدين وهو من أنواع السب.

وكذلك ما افترى عليه كاتب آخر مثل هذه الفرية قصمه الله وعاقبه عقوبة خارجة عن العادة ليتبين لكل أحد افتراؤه إذ كان مثل هذا يوجب في القلوب المريضة ريبا بأن يقول القائل: كاتبه أعلم الناس بباطنه وبحقيقة أمره وقد أخبر عنه بما أخبر فمن نصر الله لرسوله أن أظهر فيه آية يبين بها أنه مفتر.

روى البخاري في صحيحه عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال: "كان رجلا نصرانيا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فعاد نصرانيا فكان يقول: لا يدري محمد إلا ما كتبت له فأماته الله فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا فألقوه فحفروا له واعمقوا في الأرض ما استطاعوا فأصبح وقد لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه".

ورواه مسلم من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: "كان منا رجل من بني النجار قد قرأ البقرة وآل عمران وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فانطلق هاربا حتى لحق بأهل الكتاب قال: فرفعوه قالوا: هذا قد كان يكتب لمحمد فأعجبوا به فما لبث أن قصم الله عنقه فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها فتركوه منبوذا".

فهذا الملعون الذي افترى على النبي صلى الله عليه وسلم أنه ما كان يدري إلا ما كتب له قصمه الله وفضحه بأن أخرجه من القبر بعد أن دفن مرارا وهذا أمر خارج عن العادة يدل كل أحد على أن هذا عقوبة لما قاله وأنه كان كاذبا إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا وأن هذا الجرم أعظم من مجرد الارتداد إذ كان عامة المرتدين يموتون ولا يصيبهم مثل هذا وأن الله منتقم لرسوله ممن طعن عليه وسبه ومظهر لدينه ولكذب الكاذب إذا لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد.
ونظير هذا ما حدثناه أعداد من المسلمين العدول أهل الفقه والخبرة عما جربوه مرات متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية لما حصر المسلمون فيها بني الأصفر في زماننا قالوا: كنا نحن نحصر الحصن أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنع علينا حتى نكاد نيأس منه حتى إذ تعرض أهله لسب رسول الله صلى الله عليه وسلم والوقيعة في عرضه فعجلنا فتحة وتيسر ولم يكد يتأخر إلا يوما أو يومين أو نحو ذلك ثم يفتح المكان عنوة ويكون فيهم ملحمة عظيمة قالوا: حتى إن كنا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه مع امتلاء القلوب غيظا عليهم بما قالوا فيه.
وهكذا حدثني بعض أصحابنا الثقات أن المسلمين من أهل المغرب حالهم مع النصارى كذلك ومن سنة الله أن يعذب أعداءه تارة بعذاب من عنده وتارة بأيدي عباده المؤمنين.
وكذلك لما تمكن النبي صلى الله عليه وسلم من ابن أبي سرح أهدر دمه لما طعن في النبوة وافترى عليه الكذب مع أنه قد آمن جميع أهل مكة الذين قاتلوه وحاربوه أشد المحاربة ومع أن السنة في المرتد أنه لا يقتل حتى يستتاب إما وجوبا أو استحبابا.
وسنذكر إن شاء الله أن جماعة ارتدوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثم دعوا إلى التوبة وعرضت عليهم حتى تابوا وقبلت توبتهم.
وفي ذلك دليل على أن جرم الطاعن على الرسول صلى الله عليه وسلم الساب له أعظم من جرم المرتد ثم إن إباحة النبي صلى الله عليه وسلم دمه بعد مجيئه تائبا مسلما وقوله: "هلا قتلتموه" ثم عفوه عنه بعد ذلك دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يقتله وأن يعفو عنه ويعصم دمه وهو دليل على أن له صلى الله عليه وسلم أن يقتل من سبه وإن تاب وعاد إلى الإسلام.
يوضح ذلك أشياء:
منها: أنه قد روي عن عكرمة أن ابن أبي سرح رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة وكذلك ذكر آخرون أن ابن أبي سرح رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة إذ نزل النبي صلى الله عليه وسلم بها وقد تقدم عنه أنه قال لعثمان قبل أن يقدم به على النبي صلى الله عليه وسلم: إن جرمي أعظم الجرم وقد جئت تائبا وتوبة المرتد إسلامه.
ثم إنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح وهدوء الناس وبعد ما تاب فأراد النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين أن يقتلوه حينئذ وتربص زمانا ينتظر فيه قتله ويظن أن بعضهم سيقتله وهذا دليل واضح على جواز قتله بعد إسلامه.
وكذلك لما قال له عثمان: إنه يفر منك كلما رآك قال: "ألم أبايعه وأومنه" قال: بلى ولكنه يتذكر عظيم جرمه في الإسلام فقال: "الإسلام يجب ما قبله" فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن خوف القتل سقط بالبيعة والأمان وأن الإثم زال بالإسلام فعلم أن الساب إذا عاد إلى الإسلام جب الإسلام إثم السب وبقي قتله جائزا حتى يوجد إسقاط القتل ممن يملكه إن كان ممكنا.
وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر هذا في موضعه فإن غرضنا هنا أن نبين أن مجرد الطعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوقيعة فيه يوجب القتل في الحال التي لا يقتل فيه لمجرد الردة وإذا كان ذلك موجبا للقتل استوى فيه المسلم والذمي ولأن كل ما يوجب القتل سوى الردة يستوي فيه المسلم والذمي.
وفي كتمان الصحابة لابن أبي سرح ولإحدى القينتين دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوجب قتلهم وإنما أباحه مع جواز عفوه عنهم وفي ذلك دليل على أنه كان مخيرا بين القتل والعفو وهذا يؤيد أن القتل كان لحق النبي صلى الله عليه وسلم.
واعلم أن افتراء ابن أبي سرح والكاتب الآخر النصراني على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه كان يتعلم منهما افتراء ظاهر.
وكذلك قوله: "إني لأصرفه كيف شئت إنه ليأمرني أن أكتب له الشيء فأقول له أو كذا أو كذا فيقول نعم" فرية ظاهرة فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يكتبه إلا ما أنزله الله ولا يأمره أن يكتب قرآنا إلا ما أوحاه الله إليه ولا ينصرف له كيف شاء بل ينصرف كما يشاء الله.
وكذلك قوله: "إني لأكتب له ماشئت هذا الذي كتبت يوحى إلي كما يوحى إلى محمد وإن محمدا إذا كان يتعلم مني فإني سأنزل مثل ما أنزل الله" فرية ظاهرة فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتبه ما شاء ولا كان يوحى إليه شيء.
وكذلك قول النصراني: "ما يدري محمد إلا ما كتبت له" من هذا القبيل وعلى هذا الافتراء حاق به العذاب واستوجب العقاب.
ثم اختلف أهل العلم: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم أقره على أن يكتب شيئا غير ما ابتدأه النبي صلى الله عليه وسلم بإكتابه؟ وهل قال له شيئا؟ على قولين:

أحدهما: أن النصراني وابن أبي سرح افتريا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك كله وأنه لم يصدر منه قول فيه إقرار على كتابة غير ما قاله أصلا وإنما لما زين لهما الشيطان الردة افتريا عليه لينفرا عنه الناس ويكون قبول ذلك منهما متوجها لأنهما فارقاه بعد خبرة وذلك أنه لم يخبر أحد أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول له: هذا الذي قلته أو كتبته صواب وإنما هو حال الردة أخبر أنه قال له ذلك وهو إذ ذاك كافر عدو يفتري على الله ما هو أعظم من ذلك.

يبين ذلك أن الذي في الصحيح أن النصراني كان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له نعم ربما كان هو يكتب غير ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم ويغيره ويزيده وينقصه فظن أن عمدة النبي صلى الله عليه وسلم على كتابته مع ما فيه من التبديل ولم يدر أن كتاب الله آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وأنه لا يغسله الماء وأن الله حافظ له وأن الله يقرئ نبيه فلا ينسى إلا ما شاء الله مما يريد رفعه ونسخ تلاوته وأن جبريل كان يعارض النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل عام وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه آية أقرأها لعدد من المسلمين يتواتر نقل الآية بهم وأكثر من نقل هذه القصة من المفسرين ذكر أنه كان يملي عليه {سميعا عليما} فيكتب هو {عليما حكيما} وإذا قال: {عليما حكيما} كتب {غفورا رحيما} وأشباه ذلك ولم يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له شيئا.

قالوا: وإذا كان الرجل قد علم أنه من أهل الفرية والكذب حتى أظهر الله كذبه آية بينة والروايات الصحيحة المشهورة لم تتضمن إلا أنه قال عن النبي صلى الله عليه وسلم ما قال أو أنه كتب ما شاء فقط علم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل له شيئا.

قالوا: وما روي في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فهو منقطع أو معلل ولعل قائله قاله بناء على أن الكاتب هو الذي قال ذلك ومثل هذا قد يلتبس الأمر فيه حتى يشتبه ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وما قيل إنه قاله رد على هذا القول فلا سؤال.

القول الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له شيئا فروى الإمام أحمد وغيره من حديث حماد بن سلمة أخبرنا ثابت عن أنس أن رجلا كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أملى عليه {سميعا عليما} يقول: كتبت {سميعا بصيرا} قال: دعه وإذا أملى عليه "عليما حكيما" كتب "عليما حليما" قال حماد نحو ذا.

قال: وكان قد قرأ البقرة وآل عمران وكان من قرأهما فقد قرأ قرآنا كثيرا فذهب فتنصر وقال: لقد كنت أكتب لمحمد ما شئت فيقول: "دعه" فمات فدفن فنبذته الأرض مرتين أو ثلاثا قال أبو طلحة: فلقد رأيته منبوذا فوق الأرض رواه الإمام أحمد.

حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حميد عن أنس أن رجلا كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قرأ البقرة وآل عمران وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا يعني عظم فكان النبي صلى الله عليه وسلم يملي عليه {غفورا رحيما} فيكتب {عليما حكيما} فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: اكتب كذا وكذا اكتب كيف شئت ويملي عليه {عليما حكيما} فيكتب {سميعا بصيرا} فيقول: اكتب كيف شئت فارتد ذلك الرجل عن الإسلام فلحق بالمشركين وقال: أنا أعلمكم بمحمد إن كنت لأكتب ما شئت فمات ذلك الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الأرض لا تقبله" قال أنس: فحدثني أبو طلحة "أنه أتى الأرض التي مات فيها ذلك الرجل فوجده منبوذا قال أبو طلحة: ما شأن هذا الرجل؟ قالوا: قد دفناه مرارا فلم تقبله الأرض" فهذا إسناد صحيح.

وقد قال من ذهب إلى القول الأول: أعل البزار حديث ثابت عن أنس قال: رواه عنه ولم يتابع عليه ورواه حميد عن أنس قال وأظن حميدا إنما سمعه من ثابت قالوا: ثم إن أنسا لم يذكر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم أو شهده يقول ذلك ولعله حكى ما سمع.

وفي هذا الكلام تكلف ظاهر والذي ذكرناه في حديث ابن إسحاق والواقدي وغيرهما موافق لظاهر هذه الرواية وكذلك ذكر طائفة من أهل التفسير وقد جاءت آثار فيها بيان صفة الحال على هذا القول ففي حديث ابن إسحاق: وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: {عليم حكيم} فيقول: "أو أكتب عزيز حكيم" فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم كلاهما سواء" وفي الرواية الأخرى: وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يملي عليه فيقول "عزيز حكيم أو حكيم عليم" فكان يكتبها على أحد الحرفين فيقول: "كل صواب".

ففي هذا بيان لأن كلا الحرفين كان قد نزل وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأهما ويقول له: "اكتب كيف شئت من هذين الحرفين فكل صواب" وقد جاء مصرحا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف إن قلت عزيز حكيم أو غفور رحيم فهو كذلك ما لم يختم آية رحمة بعذاب أو آية عذاب برحمة " وفي حرف جماعة من الصحابة: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم} والأحاديث في ذلك منتشرة تدل على أن من الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن أن تختم الآية الواحدة بعدة أسماء من أسماء الله على سبيل البدل يخير القارئ في القراءة بأيها شاء وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخيره أن يكتب ما شاء من تلك الحروف وربما قرأها النبي صلى الله عليه

وسلم بحرف من الحروف فيقول له: "أو أكتب كذا وكذا" لكثرة ما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخير بين الحرفين فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: "نعم كلاهما سواء" لأن الآية نزلت بالحرفين وربما كتب هو أحد الحرفين ثم قرأه على النبي صلى الله عليه وسلم فأقره عليه لأنه قد نزل كذلك أيضا وختم الآي بمثل {سميع عليم} و {عليم حكيم} و {غفور رحيم} أو بمثل {سميع بصير} أو {عليم حكيم} أو {عليم حليم} كثير في القرآن وكان نزول الآية على عدة من هذه الحروف أمرا معتادا ثم إن الله نسخ بعض تلك الحروف لما كان جبريل يعارض النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن في كل رمضان وكانت العرضة الأخيرة هي حرف زيد بن ثابت الذي يقرأ الناس به اليوم وهو الذي جمع عثمان والصحابة رضي الله عنهم أجمعين عليه الناس ولهذا ذكر ابن عباس هذه القصة في الناسخ والمنسوخ وكذلك ذكرها الإمام أحمد في كتابه الناسخ والمنسوخ لتضمنها نسخ بعض الحروف.

وروى فيها وجه آخر رواه الإمام أحمد في الناسخ والمنسوخ: حدثنا مسكين ابن بكير ثنا معان قال: وسمعت أبا خلف يقول: كان ابن أبي سرح كتب للنبي صلى الله عليه وسلم القرآن فكان ربما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن خواتم الآي {يعملون} و {يفعلون} ونحو ذا فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: "اكتب أي ذلك شئت" قال: فيوفقه الله للصواب من ذلك فأتى أهل مكة مرتدا فقالوا: يا ابن أبي سرح كيف كنت تكتب لابن أبي كبشة القرآن؟ قال: أكتبه كيف شئت قال: فأنزل الله في ذلك {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء} الآية كلها.

قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: "من أخذ ابن أبي سرح فليضرب عنقه حيثما وجده وإن كان متعلقا بأستار الكعبة ".

ففي هذا الأثر أنه كان يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن حرفين جائزين فيقول له: "اكتب أي ذلك شئت" فيوفقه الله للصواب فيكتب أحب الحرفين إلى الله وكان كلاهما منزلا أو يكتب ما أنزله الله فقط إن لم يكن الآخر منزلا وكان هذا التخيير من النبي صلى الله عليه وسلم إما توسعة إن كان الله قد أنزلهما أو ثقة بحفظ الله وعلما منه بأنه لا يكتب إلا ما أنزل وليس هذا ينكر في كتاب تولى الله حفظه وضمن أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وذكر بعضهم وجها ثالثا وهو أنه ربما كان يسمع النبي صلى الله عليه وسلم يمله الآية حتى لم يبق منها إلا كلمة أو كلمتان فيستدل بما قرأ منها على باقيها كما يفعله الفطن الذكي فيكتبه ثم يقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: "كذلك أنزلت" كما اتفق مثل ذلك لعمر في قوله: {فتبارك الله أحسن الخالقين} .

وقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثل هذا في هذه القصة وإن كان هذا الإسناد ليس بثقة قال: عن ابن أبي سرح أنه كان تكلم بالإسلام وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحايين فإذا أملى عليه {عزيز حكيم} كتب {غفور رحيم} فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا أو ذاك سواء" فلما نزلت {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين} أملاها عليه فلما انتهى إلى قوله: {خلقا آخر} عجب عبد الله بن سعد فقال: {فتبارك الله أحسن الخالقين} فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كذا أنزلت علي فاكتبها" فشك حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقا لقد أوحي إلي كما أوحي إليه ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال فنزلت هذه الآية.

ومما ضعفت به هذه الرواية أن المشهور أن الذي تكلم بهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومن الناس من قال قولا آخر قال: الذي ثبت في رواية أنس أنه كان يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم ما كتبه بعدما كتبه فيملي عليه {سميعا عليما} فيقول: كتبت {سميعا بصيرا} فيقول: "دعه" أو "اكتب كيف شئت" وكذلك في حديث الواقدي أنه كان يقول: "كذاك أنزل الله" ويقره.

قالوا: وكان النبي صلى الله عليه وسلم به حاجة إلى من يكتب لقلة الكتاب في الصحابة وعدم حضور الكتاب منهم في وقت الحاجة إليهم فإن العرب كان الغالب عليهم الأمية حتى إن كان الجو العظيم يطلب فيه كاتب فلا يوجد وكان أحدهم إذا أراد كتابة أو شقة وجد مشقة حتى يحصل له كاتب فإذا اتفق للنبي صلى الله عليه وسلم من يكتب له انتهز الفرصة في كتابته فإذا زاد كاتب أو نقص تركه لحرصه على كتابة ما يمليه ولا يأمره بتغيير ذلك خوفا من ضجره وأن يقطع الكتابة قبل إتمامها ثقة منه صلى الله عليه وسلم بأن تلك الكلمة أو الكلمتين تستدرك فيما بعد بالإلقاء إلى من يتلقنها منه أو بكتابتها تعويلا على المحفوظ عنده وفي قلبه كما قال الله تعالى: {سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى} .

والأشبه والله أعلم هو الوجه الأول وأن هذا كان فيما أنزل القرآن فيه على حروف عدة فإن القول المرضي عند علماء السلف الذي يدل عليه عامة الأحاديث وقراءات الصحابة أن المصحف الذي جمع عثمان الناس عليه هو أحد الحروف السبعة وهو العرضة الأخيرة وأن الحروف الستة خارجة عن هذا المصحف وأن الحروف السبعة كانت تختلف الكلمة مع أن المعنى غير مختلف ولا متضاد.

الحديث العاشر: حديث القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم ومولاة بني هاشم وذلك مشهور مستفيض عند أهل السير وقد تقدم في حديث سعيد بن المسيب أنه صلى الله عليه وسلم "أمر بقتل فرتني".
وقال موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري: وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفوا أيديهم فلا يقاتلوا أحدا إلا من قاتلهم وأمر بقتل أربعة نفر قال: وأمر بقتل قينتين لابن خطل تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: وقتلت إحدى القينتين وكمنت الأخرى حتى استؤمن لها.
وكذلك ذكر محمد بن عائد القرشي في مغازيه.
وقال ابن إسحاق في رواية ابن بكير عنه قال أبو عبيدة بن محمد ابن عمار بن ياسر وعبد الله بن أبي بكر بن حزم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة وفرق جيوشه أمرهم أن لا يقتلوا أحدا إلا من قاتلهم إلا نفرا قد سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " اقتلوهم وإن وجدتموهم تحت أستار الكعبة: عبد الله بن خطل" ثم قال: وإنما أمر بقتل ابن خطل لأنه كان مسلما فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقا وبعث معه رجلا من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلما فنزل منزلا وأمر المولى يذبح له تيسا ويصنع له طعاما فنام واستيقظ ولم يصنع له شيئا فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا وكانت له قينة صاحبتها قينة كانتا تغنيان بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم فأمر بقتلهما معه قال: ومقيس بن حبابة بقتله الأنصاري الذي قتل أخاه وسارت مولاة لبني عبد المطلب وكانت ممن يؤذيه بمكة.
وقال الأموي: حدثني أبي قال: وقال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى المسلمين في قتل نفر ونسوة وقال: "إن وجدتموهم تحت أستار الكعبة فاقتلوهم" وسماهم بأسمائهم ستة: ابن أبي سرح وابن خطل والحويرث بن معبد ومقيس بن حبابة ورجل من بني تيم بن غالب.
قال ابن إسحاق: وحدثني أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر أنهم كانوا ستة فكتم اسم رجلين وأخبرني بأربعة قال: والنسوة قنيتا ابن خطل وسارة مولاة لبني عبد المطلب ثم قال: والقينتان كانتا تغنيان بهجائه وسارة مولاة أبي لهب كانت تؤذيه بلسانها.
وقال الواقدي عن أشياخه: ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتال وأمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة ثم عددهم قال: ابن خطل وسارة مولاة عمرو بن هشام وقينتين لابن خطل فرتني وقريبة ويقال: فرتني وأرنب.
ثم قال: وكان جرم ابن خطل أنه أسلم وهاجر إلى المدينة وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعيا وبعث معه رجلا من خزاعة وكان يصنع طعامه ويخدمه فنزل في مجمع فأمره أن يصنع له طعاما ونام نصف النهار فاستيقظ والخزاعي نائم ولم يصنع له شيئا فاغتاظ عليه فضربه فلم يقلع عنه حتى قتله فلما قتله قال: والله ليقتلني محمد به إن جئته فارتد عن الإسلام وساق ما أخذه من الصدقة وهرب إلى مكة فقال له أهل مكة: ما ردك إلينا؟ قال: لم أجد دينا خيرا من دينكم فأقام على شركه فكانت له قينتان وكانتا فاسقتين وكان يقول الشعر يهجو فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمرهما تغنيان به فيدخل عليه وعلى قينتيه المشركون فيشربون الخمر وتغني القينتان بذلك الهجاء.
وكانت سارة مولاة عمرو بن هاشم مغنية نواحة بمكة فيلقى عليها هجاء النبي صلى الله عليه وسلم فتغني به وكانت قد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلب أن يصلها وشكت الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما كان لك في غنائك ونياحتك ما يكفيك؟ " فقالت: يا محمد إن قريشا منذ قتل من قتل منهم ببدر تركوا استماع الغناء فوصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوقر لها بعيرا طعاما فرجعت إلى قريش وهي على دينها فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أن تقتل فقتلت يومئذ.
وأما القينتان فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهما فقتلت إحداهما أرنب أو قريبة وأما فرتنى فاستؤمن لها حتى آمنت وعاشت حتى كسر ضلع من أضلاعها زمن عثمان رضي الله عنه فماتت فقضى فيه عثمان رضي الله عنه ثمانية آلاف درهم ديتها وألفين تغليظا للجرم.
وحديث القينتين مما اتفق عليه علماء السير واستفاض نقله استفاضة يستغنى بها عن رواية الواحد وحديث مولاة بني هاشم ذكره عامة أهل المغازي ومن له مزيد خبرة واطلاع وبعضهم لم يذكره.
فوجه الدلالة أن تعمد قتل المرأة لمجرد الكفر الأصلي لا يجوز بالإجماع وقد استفاضت بذلك السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ففي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان.
وفي حديث آخر أنه مر على امرأة مقتولة في بعض مغازيه فأنكر قتلها وقال: "ما كانت هذه لتقاتل " ثم قال لأحدهم: " ألحق خالدا فقل له لا تقتل ذرية ولا عسيفا " رواه أبو داود وغيره.

وقد روى الإمام أحمد في المسند عن كعب بن مالك عن عمه أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعث إلى ابن أبي الحقيق بخيبر " نهى عن قتل النساء والصبيان" وهذا مشهور عند أهل السير.
وفي الحديث من رواية الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك: "ثم صعدوا إليه في علية فقرعوا عليه الباب فخرجت إليهم امرأته فقالت: من أنتم؟ فقالوا: حي من العرب نريد الميرة ففتحت لهم فقالت: ذاك الرجل عندكم في البيت فغلقنا علينا وعليها باب الحجرة ونوهت بنا فصاحت وقد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثنا عن قتل النساء والولدان فجعل الرجل منا يحمل عليها السيف ثم يذكر نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء فيمسك يده فلولا ذلك فرغنا منها بليل" وذكر الحديث.
وكذلك روى يونس بن بكير عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: حدثني عبد الله بن أنيس قال في الحديث: فقامت ففتحت فقلت لعبد الله بن عقيل: دونك فشهر عليها السيف فذهبت امرأته فشهرت عليها السيف وأذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهانا عن قتل النساء والصبيان فأكف.
وكذلك رواه غير واحد عن ابن أنيس قال: فصاحت امرأته فهم بعضنا أن يخرج إليها ثم ذكرنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا عن قتل النساء.
وهذه القصة كانت قبل فتح مكة بل قبل فتح خيبر أيضا بلا خلاف بين أهل العلم وذكر الواقدي أنها كانت في ذي الحجة من السنة الرابعة من الهجرة قبل الخندق وذكر ابن إسحاق أنها كانت عقب الخندق وهما جميعا يزعمان أن الخندق في شوال في سنة خمس وأما موسى بن عقبة فقال: في شوال سنة أربع وحديث ابن عمر يدل عليه وكان فتح مكة في رمضان سنة ثمان.
وإنما ذكرنا هذا رفعا لوهم من قد يظن أن قتل النساء كان مباحا عام الفتح ثم حرم بعد ذلك وإلا فلا ريب عند أهل العلم أن قتل النساء لم يكن مباحا قط بأن آيات القتال وترتيب نزولها كلها دليل على أن قتل النساء لم يكن جائزا هذا مع أن أولئك النساء اللاتي كن في حصن ابن أبي الحقيق إذ ذاك لم يطمع هؤلاء النفر في استرقاقهن بل هن ممتنعات عند أهل خيبر قبل فتحها بمدة مع أن المرأة قد صاحت وخافوا الشر بصوتها ثم أمسكوا عن قتلها لرجائهم أن ينكف شرها بالتهويل عليها.

نعم المحرم إنما هو قصد قتلهن فأما إذا قصدنا قصد الرجال بالإغارة أو نرمي منجنيق أو فتح شق أو إلقاء نار فتلف بذلك نساء أو صبيان لم نأثم بذلك لحديث الصعب بن جثامة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل الدار من المشركين يبيتون فيصاب الذرية فقال "هم منهم" متفق عليه ولأن النبي صلى الله عليه وسلم رمى أهل الطائف بالمنجنيق مع أنه قد يصيب المرأة والصبي وبكل حال فالمرأة الحربية غير مضمونة بقود ولا دية ولا كفارة لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر من قتل المرأة في مغازيه بشيء من ذلك فهذا ما تفارق به المرأة الذمية وإذا قاتلت المرأة الحربية جاز قتلها بالاتفاق لأن النبي صلى الله عليه وسلم علل المنع من قتلها بأنها لم تكن تقاتل فإذا قاتلت وجد المقتضى لقتلها وارتفع المانع لكن عند الشافعي تقاتل كما يقاتل المسلم الصائل فلا يقصد قتلها بل دفعها فإذا قدر عليها لم يجز قتلها وعند غيره إذا قاتلت صارت بمنزلة الرجل المحارب.
إذا تقرر هذا فنقول: هؤلاء النسوة كن معصومات بالأنوثة ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتلهن لمجرد كونهن كن يهجينه وهن في دار حرب فعلم أن من هجاه وسبه جاز قتله بكل حال.
ومما يؤكد ذلك وجوه:
<u>أحدها</u>: أن الهجاء والسب إما أن يكون من باب القتال باللسان فيكون كالقتال باليد وتكون المرأة الهاجية التي يستعان برأيها على حرب المسلمين كالملكة ونحوها مثل ما كانت هند بنت عتبة أو تكون بنفساه موجبة للقتل لما فيه من أذى الله ورسوله والمؤمنين وإن كان من جنس المحاربة أو لا يكون شيء من ذلك فإن كان من القسم الأول أو الثاني جاز قتل المرأة الذمية إذا سبت لأنها حينئذ تكون قد حاربت أو ارتكبت ما يوجب القتل فالذمية إذا فعلت ذلك انتقض عهدها وقتلت ولا يجوز أن تخرج عن هذين القسمين لأنه يلزم منه قتل المرأة من أهل الحرب من غير أن تقاتل بيد ولا لسان ولا أن ترتكب ما هو بنفسه موجب للقتل وقتل مثل هذه المرأة حرام بالسنة والإجماع.
<u>الوجه الثاني</u>: أن هؤلاء النسوة كن من أهل الحرب وقد آذين النبي صلى الله عليه وسلم في دار الحرب ثم قتلن بمجرد السب كما نطقت به الأحاديث فقتل المرأة الذمية بذلك أولى وأحرى كالمسلمة لأن الذمية بيننا وبينها من العهد ما يكفها عن إظهار السب ويوجب عليها التزام الذل والصغار ولهذا تؤخذ بما تصيبه للمسلم من دم أو مال أو عرض والحربية لا تؤخذ بشيء من ذلك.
فإذا جاز قتل المرأة لأنها سبت الرسول وهي حربية تستبيح ذلك من غير مانع فقتل الذمية الممنوعة عن ذلك بالعهد أولى.
ولا يقال: عصمة الذمي أوكد لأنه مضمون والحربي غير مضمون.

لأنا نقول: الذمي أيضا ضامن لدم المسلم والحربي غير ضامن فهو ضامن مضمون لأن العهد الذي بيننا اقتضى ذلك وأما الحربية فلا عهد بيننا وبينها يقتضي ذلك فليس كون الذمي مضمونا يجب علينا حفظه بالذي يهون عليه ما ينتهكه من عرض الرسول بل ذلك أغلظ لجرمه وأولى بأن يؤاخذ بما يؤذينا به ولا نعلم شيئا تقتل به المرأة الحربية قصدا إلا وقتل الذمية به أولى.

الوجه الثالث: أن هؤلاء النسوة لم يقاتلن عام الفتح بل كن متذللات مستسلمات والهجاء إن كان من جنس القتال فقد كان موجودا قبل ذلك والمرأة الحربية لا يجوز قتلها في غزوة هي فيها مستسلمة لكونها قد قاتلت قبل ذلك فعلم أن السب بنفسه هو المبيح لدمائهن لا كونهن قاتلن.

الوجه الرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلم آمن جميع أهل مكة إلا أن يقاتلوا مع كونهم قد حاربوه وقتلوا أصحابه ونقضوا العهد الذي بينهم وبينه ثم إنه أهدر دماء هؤلاء النسوة فيمن استثناه وإن لم يقاتلن لكونهن كن يؤذينه فثبت أن جرم المؤذي لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالسب ونحوه أغلظ من جرم القتال وغيره وأنه يقتل في الحال التي نهي فيها عن قتال من قتل وقاتل.

الوجه الخامس: أن القينتين كانتا أمتين مأمورتين بالهجاء وقتل الأمة أبعد من قتل الحرة فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل العسيف وكونها مأمورة بالهجاء أخف لجرمها حيث لم تقصده ابتداء ثم مع هذا أمر بقتلهما فعلم أن السب من أغلظ الموجبات للقتل.

الوجه السادس: أن هؤلاء النسوة إما أن يكن قتلن بالهجاء لأنهن فعلنه مع العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة فيكون من جنس هجاء الذمي أو قتلن لمجرد الهجاء مع عدم العهد فإن كان الأول فهو المطلوب وإن كان الثاني فإذا جاز أن تقتل السابة التي لا عهد بيننا وبينها يمنعها فقتل الممنوعة بالعهد أولى لأن مجرد كفر المرأة وكونها من أهل الحرب لا يبيح دمها بالاتفاق على ما تقدم لاسيما والسب لم يكن بمنزلة القتال على ما تقدم.

فإن قيل: ما وجه الترديد وأهل مكة قد نقضوا العهد وصاروا كلهم محاربين.

قيل: لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستبح أخذ الأموال وسبي الذرية والنساء بذلك النقض العام: إما لأنه عفا عن ذلك كما عفا عن قتل من لم يقاتل أو لأن النقض الذي وجد من بعض الرجال بمعاونة بني بكر ومن بعضهم بإقرارهم على ذلك لم يسر حكمه إلى الذرية.

ومما يوضح ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم آمن الناس إلا بني بكر من خزاعة وإلا النفر المسمين إما عشرة أو أقل من عشرة أو أكثر لأن بني بكر هم الذين باشروا نقض العهد وقتلوا خزاعة فعلم أنه فرق بين من نقض العهد وفعل ما يبيح الدم وبين من لم يفعل شيئا غير الموافقة على نقض العهد فبكل حال لم يقتل هؤلاء النسوة للحراب العام والنقض العام بل لخصوص جرمهن من السب الناقض لعهد فاعله سواء ضم إليه كونه من ذي عهد أو لم يضم.

واعلم أن ما تقدم من قتل النسوة اللاتي سببن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل اليهودية وأم الولد وعصماء لو لم يثبت أنهن كن معاهدات لكان الاستدلال به جائزا فإن كل ما جاز أن تقتل به المرأة التي ليست مسلمة ولا معاهدة من فعلها وقولها فأن تقتل به المرأة المعاهدة أولى وأحرى فإن موجبات القتل في حق الذمية أوسع من موجباته في حق التي ليست ذمية.

ومما يدل على مثل هذه الدلالة ما روى أن امرأة كانت تسب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "من يكفيني عدوي؟ " فخرج إليها خالد بن الوليد فقتلها.

الحديث الحادي عشر: ما استدل به بعضهم من قصة ابن خطل وفي الصحيحين من حديث الزهري عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر فلما نزعه جاء رجل فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال: "اقتلوه" وهذا مما استفاض نقله بين أهل العلم واتفقوا عليه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر ذم ابن خطل يوم الفتح فيمن أهدره وأنه قتل.

وقد تقدم عن ابن المسيب أن أبا برزة أتاه وهو متعلق بأستار الكعبة فبقر بطنه.

وكذلك روى الواقدي عن أبي برزة قال: في نزلت هذه الآية: {لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد} أخرجت عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام.

وذكر الواقدي أن ابن خطل أقبل من أعلى مكة مدججا في الحديد ثم خرج حتى انتهى إلى الخندمة فرأى خيل المسلمين ورأى القتال ودخله رعب حتى ما يستمسك من الرعدة حتى انتهى إلى الكعبة فنزل عن فرسه وطرح سلاحه فأتى البيت فدخل بين أستاره.

وقد تقدم عن أهل المغازي أن جرمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمله على الصدقة وأصحبه رجل يخدمه فغضب على رفيقه لكونه لم يصنع له طعاما أمره بصنعه فقتله ثم خاف أن يقتل فارتد واستاق إبل الصدقة وأنه كان يقول الشعر يهجو به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمر جاريتيه أن تغنيا به فهذا له ثلاث جرائم مبيحة للدم: قتل النفس والردة والهجاء.
فمن احتج بقصته يقول: لم يقتل لقتل النفس لأن أكثر ما يجب على من قتل ثم ارتد أن يقتل قودا والمقتول من خزاعة له أولياء فكان حكمه لو قتل قودا أن يسلم إلى أولياء المقتول فإما أن يقتلوا أو يعفوا أو يأخذوا الدية ولم يقتل لمجرد الردة لأن المرتد يستتاب وإذا استنظر أنظر وهذا ابن خطل قد فر إلى البيت عائذا به طالبا للأمان تاركا للقتال ملقيا للسلاح حتى نظر في أمره وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد علمه بذلك كله أن يقتل وليس هذا سنة من يقتل لمجرد الردة فثبت أن هذا التغليظ في قتله إنما كان لأجل السب والهجاء وأن الساب وإن ارتد فليس بمنزلة المرتد المحض يقتل قبل الاستتابة ولا يؤخر قتله وذلك دليل على جواز قتله بعد التوبة.
وقد استدل بقصة ابن خطل طائفة من الفقهاء على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين يقتل وإن أسلم حدا.
واعترض عليهم بأن ابن خطل كان حربيا فقتل لذلك وصوابه أنه كان مرتدا بلا خلاف بين أهل العلم بالسير وحتم قتله بدون استتابة مع كونه مستسلما منقادا قد ألقى السلم كالأسير فعلم أن من ارتد وسب يقتل بلا استتابة بخلاف من ارتد فقط.
يؤيده أن النبي صلى الله عليه وسلم آمن عام الفتح جميع المحاربين إلا ذوي جرائم مخصوصة وكان ممن أهدر دمه دون غيره فعلم أنه لم يقتل لمجرد الكفر والحراب.
<u>السنة الثانية عشرة</u>: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل جماعة لأجل سبه وقتل جماعة لأجل ذلك مع كفه وإمساكه عمن هو بمنزلتهم في كونه كافرا حربيا فمن ذلك ما قدمناه عن سعيد بن المسيب أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر يوم الفتح بقتل ابن الزبعرى وسعيد بن المسيب هو الغاية في جودة المراسيل ولا يضره أن لا يذكره بعض أهل المغازي فإنهم مختلفون في عدد من استثني من الأمان وكل أخبر بما علم ومن أثبت الشيء وذكره حجة على من لم يثبته.
وقد ذكر ابن إسحاق قال: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة منصرفا عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه كعب ابن زهير يخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وأن من بقي من شعراء قريش عبد الله بن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه ففي هذا بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل كل من كان يهجوه ويؤذيه بمكة من الشعراء مثل ابن الزبعرى وغيره.
ومما لا خفاء فيه أن ابن الزبعرى إنما ذنبه أنه كان شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه فإنه كان من أشعر الناس وكان يهاجي شعراء الإسلام مثل حسان وكعب بن مالك وما سوى ذلك من الذنوب قد شركه فيه وأربى عليه عدد كثير من قريش.
ثم إن ابن الزبعرى فر إلى نجران ثم قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مسلما وله أشعار حسنة في التوبة والاعتذار فأهدر دمه للسب مع أمانه لجميع أهل مكة إلا من كان له جرم مثل جرمه ونحو ذلك.
ومن ذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قصته في هجائه للنبي صلى الله عليه وسلم وفي إعراض النبي صلى الله عليه وسلم عنه لما جاءه مسلما مشهورة ومستفيضة وقد ذكر الواقدي قال: حدثني سعيد بن مسلم بن قماذ عن عبد الرحمن بن سابط وغيره قال: "كان أبو سفيان بن الحارث أخا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة أرضعته حليمة أياما وكان يألف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له تربا فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده عداوة لم يعادها أحدا قط ولم يكن دخل الشعب وهجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجا أصحابه وذكر الحديث إلى أن قال: ثم إن الله ألقى في قلبه الإسلام قال أبو سفيان: فقلت: من أصحب؟ ومع من أكون؟ قد ضرب الإسلام بجرانه فجئت زوجتي وولدي فقلت: تهيئوا للخروج فقد أقبل قدوم محمد قالوا: قد آن لك أن تنصر محمدا إن العرب والعجم قد تبعت محمدا وأنت توضع في عداوته وكنت أولى الناس بنصرته فقلت لغلامي مذكور: عجل بأبعرتي وفرسي قال: ثم سرنا حتى نزلنا بالأبواء وقد نزلت مقدمته الأبواء فتنكرت وخفت أن أقتل وكان قد أهدر دمي فخرجت واحد ابن جعفر على قدمي نحوا من ميل في الغداة التي صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأبواء فأقبل الناس رسلا رسلا أي قطيعا قطيعا فتنحيت فرقا من أصحابه فلما طلع موكبه تصديت له تلقاء وجهه فلما ملأ عينيه مني أعرض عني بوجهه إلى الناحية الأخرى فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى فأعرض عني مرارا فأخذني ما قرب وما بعد وقلت: أنا مقتول قبل أن أصل إليه وأتذكر بره ورحمه وقرابتي فيمسك ذلك مني وقد كنت لا أشك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه سيفرحون بإسلامي فرحا شديدا لقرابتي برسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى المسلمون إعراض رسول الله صلى الله عليه وسلم عني أعرضوا عني جميعا فلقيني ابن أبي قحافة معرضا عني ونظرت إلى عمر يغري بي رجلا

من الأنصار فألزبى رجل يقول: يا عدو الله أنت الذي كنت تأذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتؤذي أصحابه؟ قد بلغت مشارق الأرض ومغاربها في عداوته فرددت بعض الرد عن نفسي فاستطال علي ورفع صوته حتى جعلني في مثل الحرجة من الناس يسرون بما يفعل بي قال: فدخلت على عمي العباس فقلت: يا عباس قد كنت أرجوا أن سيفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامي لقرابتي وشرفي وقد كان منه ما رأيت فكلمه ليرضى عني قال: لا والله لا أكلمه كلمة فيك أبدا بعد الذي رأيت منه ما رأيت إلا أن أرى وجها إني أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهابه فقلت: يا عم إلى من تكلني؟ قال: هو ذاك فلقيت عليا فكلمته فقال لي مثل ذلك وذكر الحديث إلى أن قال: فخرجت فجلست على باب منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى راح إلى الجحفة وهو لا يكلمني ولا أحد من المسلمين وجعلت لا ينزل منزلا إلا أنا على بابه ومعي ابني جعفر قائم فلا يراني إلا أعرض عني فخرجت على هذه الحال حتى شهدت معه فتح مكة وأنا في خيله التي تلازمه حتى هبط من أذاخر حتى نزل الأبطح فنظر إلي نظرا هو ألين من ذلك النظر قد رجوت أن يتبسم ودخل عليه نساء بني عبد المطلب ودخلت معهن زوجتي فرققته علي وخرج إلى المسجد وأنا بين يديه لا أفارقه على حال حتى خرج إلى هوازن فخرجت معه" وذكر قصته بهوازن وهي مشهورة.

قال الواقدي: وقد سمعت في إسلام أبي سفيان بن الحارث بوجه آخر قال: لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بثنية العقاب وذكر الحديث نحوا مما ذكره ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: وكان أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك فقال: "لا حاجة لي بهما أما ابن عمي فهتك عرضي وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال".

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له فقال: والله ليأذنن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا أو جوعا فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لهما فدخلا عليه فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه فقال:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أهدى واهتدى
هداني هاد غير نفسي ودلني ... على الله من طردت كل مطرد

وذكر باقي الأبيات.

وفي رواية الواقدي قال: فطلبا الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يدخلهما عليه فكلمته أم سلمة زوجته فقالت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم صهرك وابن عمتك وابن عمك وأخوك من الرضاعة وقد جاء الله بهما مسلمين لا يكونا أشقى الناس بك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا حاجة لي بهما أما أخوك فالقائل لي بمكة ما قال: لن يؤمن لي حتى أرقى في السماء" فقالت: يا رسول الله إنما هو من قومك وكل قريش قد تكلم ونزل القرآن فيه بعينه وقد عفوت عمن هو أعظم جرما منه ابن عمك قرابتك به قريبة وأنت أحق الناس عفا عنه جرمه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هو الذي هتك عرضي فلا حاجة لي بهما " فلما خرج إليهما الخبر قال أبو سفيان بن الحارث ومعه ابنه: ليقبلن مني أو لآخذن بيد ابني هذا فلأذهبن في الأرض حتى أهلك عطشا وجوعا وأنت أحلم الناس وأكرم الناس مع رحمي بك فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته فرق له وقال عبد الله ابن أبي أمية إنما جئت لأصدقك ولي من القرابة ما لي من الصهر بك وجعلت أم سلمة تكلمه فيهما فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما فأذن لهما ودخلا فأسلما وكانا جميعا حسنى الإسلام.

قتل عبد الله بن أبي أمية بالطائف ومات أبو سفيان بن الحارث بالمدينة في خلافة عمر رضي الله عنه لم يغمص عليه بشيء ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر دمه قبل أن يلقاه.

فوجه الدلالة: أنه أهدر دم أبي سفيان بن الحارث دون غيره من صناديد المشركين الذين كانوا أشد تأثيرا في الجهاد باليد والمال وهو قادم إلى مكة لا يريد أن يسفك دماء أهلها بل يستعطفهم على الإسلام ولم يكن لذلك سبب يختص بأبي سفيان إلا الهجاء ثم جاء مسلما وهو يعرض عنه هذا الإعراض وكان من شأنه أن يتألف الأباعد على الإسلام فكيف بعشيرته الأقربين؟ كل ذلك بسبب هتكه عرضه كما هو مفسر في الحديث.

ومن ذلك أنه أمر يوم الفتح بقتل الحويرث بن نقيد وهو معروف عند أهل السير قال موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري وهي من أصح المغازي كان مالك يقول: من أحب أن يكتب المغازي فعليه بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة قال:
وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفوا أيديهم فلا يقاتلوا أحد إلا من قاتلهم وأمرهم بقتل أربعة نفر: منهم الحويرث بن نقيد.

وقال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه: حدثني أبي قال: وقال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى المسلمين في قتل نفر ونسوة وقال: إن وجدتموهم تحت أستار الكعبة فاقتلوهم وسماهم بأسمائهم ستة وهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح وعبد الله بن خطل والحويرث بن نقيد ومقيس بن حبابة ورجل من بني تيم بن غالب.

قال ابن إسحاق: وحدثني أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر أنهم كانوا ستة فكنم اسم رجلين وأخبرني بأربعة وزعم أن عكرمة بن أبي جهل أحدهم.

قال: وأما الحويرث بن نقيد فقتله علي بن أبي طالب وكذلك ذكر ابن إسحاق في رواية ابن بكير وغيره عنه من نفر الذين استثناهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: " اقتلوهم وإن وجدتموهم تحت أستار الكعبة ": الحويرث بن نقيد وكان ممن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي عن أشياخه: إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن القتال وأمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة: عكرمة بن أبي جهل وهبار بن الأسود وابن أبي سرح ومقيس بن حبابة والحويرث بن نقيد وابن خطل.

قال: وأما الحويرث بن نقيد فإنه كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم فأهدر دمه فبينا هو في منزلته يوم الفتح قد أغلق عليه وأقبل علي رضي الله عنه يسأل عنه فقيل: هو في البادية فأخبر الحويرث أنه يطلب وتنحى علي عن بابه فخرج الحويرث يريد أن يهرب من بيت إلى بيت آخر فتلقاه علي فضرب عنقه.

ومثل هذا مما يشتهر عند هؤلاء مثل الزهري وابن عقبة وابن إسحاق والواقدي والأموي وغيرهم أكثر ما فيه أنه مرسل والمرسل إذا روى من جهات مختلفة لا سيما ممن له عناية بهذا الأمر ويتبع له كان كالمسند بل بعض ما يشتهر عند أهل المغازي ويستفيض أقوى مما يروى بالإسناد الواحد ولا يوهنه أنه لم يذكر في الحديث المأثور عن سعد وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده لأن المثبت مقدم على النافي ومن أخبر أنه أمر بقتله فمعه زيادة علم ولعل النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بقتله ثم أمر بقتله وذلك أنه يمكن أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أصحابه أن يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا النفر الأربعة ثم أمرهم أن يقتلوا هذا وغيره ومجرد نهيه عن القتال لا يوجب عصمة المكفوف عنهم لكنه بعد ذلك آمنهم الأمان العاصم للدم وهذا الرجل قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله لمجرد أذاه له مع أنه قد آمن أهل البلد الذين قاتلوه وأصحابه وفعلوا بهم الأفاعيل.

ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما قفل من بدر راجعا إلى المدينة قتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ولم يقتل من أسارى بدر غيرهما وقصتهما معروفة.

قال ابن إسحاق: وكان في الأسارى عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفراء قتل النضر بن الحارث قتله علي بن أبي طالب كما أخبرت ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط قتله عاصم بن ثابت.

وقال موسى بن عقبة عن الزهري: ولم يقتل من الأسارى صبرا غير عقبة ابن أبي معيط قتله عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح ولما أبصره عقبة مقبلا إليه استغاث بقريش فقال: يا معشر قريش علام أقتل من بين ها هنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "على عداوتك لله ورسوله" وكذلك ذكر محمد بن عائد في مغازيه.

وهذا والله أعلم لأن النضر قتل بالصفراء عند بدر فلم يعد من الأسرى عند هذا القائل لقتله قريبا من مصارع قريش وإلا فلا خلاف علمناه أن النضر وعقبة قتلا بعد الأسر.

وقد روى البزار عن ابن عباس أن عقبة بن أبي معيط نادى: يا معشر قريش مالي أقتل من بينكم صبرا؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " بكفرك وافترائك على رسول الله ".

وقال الواقدي: كان النضر بن الحارث أسره المقداد بن الأسود فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر فكان بالأثيل عرض عليه الأسرى فنظر إلى النضر بن الحارث فأبد النظر فقال لرجل إلى جنبه: محمد والله قاتلي لقد نظر إلي بعينين فيهما آثار الموت فقال الذي إلى جنبه: "والله ما هذا منك إلا رعب" فقال النضر لمصعب بن عمير: يا مصعب أنت أقرب من ها هنا بي رحما كلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي هو والله قاتلي إن لم تفعل قال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا وكنت تقول في نبيه كذا وكذا قال: يا مصعب ويجعلني كأحد أصحابي: إن قتلوا قتلت وإن من عليهم من علي قال مصعب: إنك كنت تعذب أصحابه وذكر الحديث إلى أن قال: فقتله علي بن أبي طالب صبرا بالسيف.

قال الواقدي: وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسرى حتى إذا كانوا بعرق الظبية أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أن يضرب عنق عقبة ابن أبي معيط فجعل عقبة يقول: "يا ويلي علام أقتل يا قريش من بين من ها هنا؟ " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لعداوتك لله ورسوله " قال: "يا محمد منك أفضل فاجعلني كرجل من قومي إن قتلتهم قتلتني وإن مننت عليهم مننت علي وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم يا محمد من للصبية؟ " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "النار قدمه يا

عاصم فاضرب عنقه" فقدمه عاصم فضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بئس الرجل كنت والله ما علمت كافرا بالله وبكتابه وبرسوله مؤذيا لنبيه فأحمد الله الذي هو قتلك وأقر عيني منك ".
ففي هذا بيان أن السبب الذي أوجب قتل هذين الرجلين من بين سائر الأسرى أذاهم لله ورسوله بالقول والفعل فإن الآيات التي نزلت في النضر معروفة وأذى ابن أبي معيط له مشهور بلسانه ويده حين خنقه بأبي هو وأمي بردائه خنقا شديدا يريد قتله وحين ألقى السلا على ظهره وهو ساجد وغير ذلك.
ومن ذلك أنه أمر بقتل من كان يهجوه بعد فتح مكة من قريش وسائر العرب مثل كعب بن زهير وغيره.
قال الأموي: حدثني أبي قال: قال ابن إسحاق وذكره يونس بن بكير والبكائي وغيرهما عن ابن إسحاق قال: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة منصرفا من الطائف كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب في قتل رجال بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه.
ولفظ يونس والبكائي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل رجلا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة ابن أبي وهب قد هربوا في كل وجه فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض وكان كعب قد قال أبياتا نال فيها من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رويت وعرفت وكان الذي قال:

إلا ابلغا بجيرا رسالة ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
لتخبرني أن كنت ليس بفاعل ... على أي شيء غير ذلك دلكا
على خلق لم يلق يوما أبا له ... ولا أنت لم تعرف عليه أبا لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بفاعل ... ولا قائل إما عثرت لعا لكا
سقاك بها المأمون كاسا روية ... فأنهلك المأمون منها وعلكا

وإنما قال كعب "المأمون" لقول قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم "الأمين" الذي كانت تقول له.
فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان في حاضره من عدوه فقالوا: هو مقتول فلما لم يجد من شيء بدا قال قصيدة يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة كما ذكر لي فغدا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى الصبح فلما صلى مع الناس أشار له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقم إليه فذكر لنا أنه قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده في يده وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفه فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كعب ابن زهير استأمن منك تائبا مسلما فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم" قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.
قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " دعه عنك قد جاء تائبا نازعا " قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير فقال قصيدته التي قال حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أنشد ابن إسحاق قصيدته المشهورة "بانت سعاد" وفيها:

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الله الذي أعطاك نافلة ال ... فرقان فيه مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت في الأقاويل

وفي حديث آخر: وذلك أنه بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم ندر دمه بقول بلغه عنه فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما ودخل مسجده وأنشد القصيدة فقد أخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كت في قتل رجال بمكة لأجل هجائهم وأذاهم حتى فر من فر منهم إلى نجران ثم رجع ابن الزبعرى تائبا مسلما وأقام هبيرة بنجران حتى مات مشركا ثم إنه أهدر دم كعب لما قاله مع أنه ليس من بليغ الهجاء لكونه طعن في دين الإسلام وعابه وعاب ما يدعو إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ثم إنه تاب قبل القدرة عليه وجاء مسلما وكان حربيا ومع هذا فهو يلتمس العفو ويقول:
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ... ...
ومن ذلك: ما نقل أنه كان يتوجه صلى الله عليه وسلم إلى قتل من يهجوه ويقول: "من يكفيني عدوي؟ ".
قال الأموي سعد بن يحيى بن سعيد في مغازيه: حدثنا أبي قال: أخبرني عبد الملك بن جريج عن عكرمة عن عبد الله بن عباس أن رجلا من المشركين شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يكفيني عدوي؟ " فقام

الزبير بن العوام فقال: أنا فبارزه فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سلبه ولا أحسبه إلا في خيبر حين قتل ياسر ورواه عبد الرزاق أيضا.
وروى أن رجلا كان يسب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "من يكفيني عدوي؟ " فقال خالد: أنا فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم إليه فقتله.
ومن ذلك: أن أصحابه كانوا إذا سمعوا من يسبه ويؤذيه صلى الله عليه وسلم قتلوه وإن كان قريبا فيقرهم على ذلك ويرضاه وربما سمى من يفعل ذلك ناصرا لله ورسوله.
فروى أبو إسحاق الفزاري في كتابه المشهور في السير عن سفيان الثوري عن إسماعيل بن سميع عن مالك بن عمير قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني لقيت أبي في المشركين فسمعت منه مقاله قبيحة لك فما صبرت أن طعنته بالرمح فقتلته فما شق ذلك عليه.
قال: وجاءه آخر فقال: إني لقيت أبي في المشركين فصفحت عنه فما شق ذلك عليه.
وقد رواه الأموي وغيره من هذه الطريق.
وروى أبو إسحاق الفزاري أيضا في كتابه عن الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا فيهم عبد الله بن رواحة وجابر فلما صافوا المشركين أقبل رجل منهم يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام رجل من المسلمين فقال: أنا فلان ابن فلان وأمي فلانة فسبني وسب أمي وكف عن سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزده ذلك إلا إغراء فأعاد مثل ذلك وعاد الرجل مثل ذلك فقال في الثالثة: لئن عدت لا رحلنك بسيفي فعاد فحمل عليه الرجل فولى مدبرا فاتبعه الرجل حتى خرق صف المشركين فضربه بسيفه وأحاط به المشركون فقتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أعجبتم من رجل نصر الله ورسوله؟ " ثم إن الرجل برئ من جراحته فأسلم فكان يسمى الرحيل ورواه الأموي في مغازيه من هذا الوجه.
وقد تقدم حديث عمير بن عدي لما قال حين بلغه أذى بنت مروان للنبي صلى الله عليه وسلم: اللهم إن علي نذرا لئن رددت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لأقتلنها فقتلها بدون إذن النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدي ".
وكذلك حديث اليهودية وأم الولد فإن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دمها لما قتلت لأجل سبه.
وقد تقدم أيضا حديث الرجل الذي نذر أن يقتل ابن أبي سرح لما افتراه على النبي صلى الله عليه وسلم وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمسك عن مبايعته ليقوم إليه ذلك الرجل فيقتله ويفي بنذره.
وقد ذكروا أن الجن الذي آمنوا به كانت تقصد من سبه من الجن الكفار فتقتله قبل الهجرة وقبل الإذن في القتال له وللإنس فيقرها على ذلك ويشكر ذلك لها.
قال سعد بن يحيى الأموي في مغازيه: حدثني محمد بن سعيد يعني عمه قال: قال محمد بن المنكدر: إنه ذكر له عن ابن عباس أنه قال: هتف هاتف من الجن على جبل أبي قبيس فقال:

قبح الله رأيكم آل فهر ... ما أدق العقول والأحلام
حين تغضي لمن يعيب عليها ... دين آبائها الحماة الكرام
حالف الجن جن بصرى عليكم ... ورجال النخيل والآطام
يوشك الخيل أن تروها نهارا ... تقتل القوم في حرام تهام
هل كريم منكم له نفس حر ... ماجد الجدتين والأعمام
ضاربا ضربة تكون نكالا ... ورواحا من كربة واغتنام

قال ابن عباس: فأصبح هذا الشعر حديثا لأهل مكة يتناشدونه بينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا شيطان يكلم الناس من الأوثان يقال له مسعر والله مخزيه" فمكثوا ثلاثة أيام فإذا هاتف يهتف على الجبل يقول:

نحن قتلنا في ثلاث مسعرا ... سفه الحق وسن المنكرا
قنعته سيفا حساما مبترا ... بشتمه نبيا المطهرا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا عفريت من الجن اسمه سمحج آمن بي سميته عبد الله أخبرني أنه في طلبه منذ ثلاثة أيام فقال علي: جزاه الله خيرا يا رسول الله.
وممن ذكر أنه قتل لأجل أذى النبي صلى الله عليه وسلم أبو رافع بن ابن الحقيق اليهودي وقصته معروفة مستفيضة عند العلماء فنذكر منها وضع الدلالة.

عن البراء بن عازب قال: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي رافع اليهودي رجالا من الأنصار وأمر عليهم عبد الله بن عتيك وكان أبو رافع يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه وكان في حصن له بأرض الحجاز فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته وقد دخل الناس فهتف به البواب يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب قال: فدخلت فكمنت فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على وتد قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب وكان أبو رافع يسمر عنده وكان في علية له فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت علي من داخل قلت: إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت قلت: أبا رافع قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئا وصاح فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ثم رجعت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل إن رجلا في البيت ضربني قبل بالسيف قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلي وأنا أرى أن قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء قد قتل الله أبا رافع فانتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال: ابسط رجلك فبسطت رجلي فمسحها فكأنما لم اشتكها قط رواه البخاري في صحيحه".

وقال ابن إسحاق: حدثني الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن هذين الحيين من الأنصار الأوس والخزرج كانا يتصاولان معه تصاول الفحلين لا يصنع أحدهما شيئا إلا صنع الآخر مثله يقولون: لا يعدون ذلك فضلا علينا في الإسلام وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قتل الأوس كعب بن الأشرف تذكرت الخزرج رجلا هو في العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مثله فتذاكروا ابن أبي الحقيق بخيبر فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتله فأذن لهم وذكر الحديث إلى أن قال: ثم صعدو إليه في علية له فقرعوا عليه الباب فخرجت إليهم امرأته فقالت: من أنتم؟ فقالوا: حي من العرب نريد الميرة ففتحت لهم فألقت ذا كم الرجل عندكم في البيت وذكر تمام الحديث في قتله.

فقد تبين في حديث البراء وابن كعب إنما تسرى المسلمين بقتله بإذن النبي صلى الله عليه وسلم لأذاه للنبي ومعاداته له وأنه كان نضير ابن الأشرف لكن ابن الأشرف كان معاهدا فآذى الله ورسوله فندب المسلمين إلى قتله وهذا لم يكن معاهدا.

فهذه الأحاديث كلها تدل على أن من كان يسب النبي صلى الله عليه وسلم ويؤذيه من الكفار فإنه كان يقصد قتله ويحض عليه لأجل ذلك وكذلك أصحابه بأمره يفعلون ذلك مع كفه عن غيره ممن هو على مثل حاله في أنه كافر غير معاهد بل مع أمانه لأولئك أو إحسانه إليهم من غير عهد بينه وبينهم ثم من هؤلاء من قتل ومنهم من جاء مسلما تائبا فعصم دمه لثلاثة أسباب:

أحدها: أنه جاء تائبا قبل القدرة عليه والمسلم الذي وجب عليه حد لو جاء تائبا قبل القدرة عليه لسقط عنه فالحربي أولى.

الثاني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من خلقه أن يعفو عنه.

الثالث: أن الحربي إذا أسلم لم يؤخذ بشيء مما عمله في الجاهلية لا من حقوق الله ولا من حقوق العباد من غير خلاف نعلمه لقوله تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} ولقوله صلى الله عليه وسلم: " الإسلام يجب ما قبله " رواه مسلم ولقوله صلى الله عليه وسلم: " من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية " متفق عليه.

ولهذا أسلم خلق كثير وقد قتلوا رجالا يعرفون فلم يطلب أحدا منه بقود ولا دية ولا كفارة.

أسلم وحشي قاتل حمزة وابن العاص قاتل ابن قوقل وعقبة بن الحارث قاتل خبيب بن عدي ومن لا يحصى ممن ثبت في الصحيح أنه أسلم وقد علم أنه قتل رجلا بعينه من المسلمين فلم يوجب النبي صلى الله عليه وسلم على أحد منهم قصاصا بل قال صلى الله عليه وسلم: " يضحك الله تعالى إلى رجلين يقتل أحدهما صاحبه كلاهما يدخل الجنة يقتل هذا في سبيل الله فيدخل الجنة ثم يتوب الله على القاتل فيسلم ويقتل في سبيل الله فيدخل الجنة " متفق عليه.

وكذلك أيضا لم يضمن النبي صلى الله عليه وسلم أحدا منهم مالا أتلفه للمسلمين ولا أقام على أحد حد زنا أو سرقة أو شرب أو قذف سواء كان قد أسلم بعد الأسر أو قبل الأسر وهذا مما لا نعلم بين المسلمين فيه خلافا لا في روايته ولا في الفتوى به.

بل لو أسلم الحربي وبيده مال مسلم قد أخذه من المسلمين بطريق الاغتنام ونحوه مما لا يملك به مسلم من مسلم لكونه محرما في دين الإسلام كان له ملكا ولم يرده إلى المسلم الذي كان يملكه عند جماهير العلماء من التابعين ومن بعدهم وهو معنى ما جاء عن الخلفاء الراشدين وهو مذهب أبي حنيفة ومالك ومنصوص قول أحمد وقول الجماهير من أصحابه بناء على أن الإسلام أو العهد قرر ما بيده من المال الذي كان يعتقده ملكا له لأنه خرج ع مالكه المسلم في سبيل الله ووجب أجره على الله وآخذه هذا مستحلا له وقد غفر له بإسلامه ما فعله في دماء المسلمين وأموالهم فلم يضمنه بالرد إلى مالكه كما لم يضمن ما

أتلفه من النفوس والأموال ولا يقضي ما تركه من العبادات لأن كل ذلك كان تابعا للاعتقاد فلما رجع عن الاعتقاد غفر له ما تبعه من الذنوب فصار ما بيده من المال لا تبعة عليه فيه فلم يؤخذ منه كجميع ما بيده من العقود الفاسدة التي كان يستحلها من ربا وغيره.
ومن العلماء من قال: يرده على مالكه المسلم وهو قول الشافعي وأبي الخطاب من الحنبلية بناء على أن اغتنامهم فعل محرم فلا يملكون به مال المسلم كالغصب ولأنه لو أخذه المسلم منهم أخذا لا يملك به مسلم من مسلم بأن يغنمه أو يسرقه فإنه يرد إلى مالكه المسلم لحديث ناقة النبي صلى الله عليه وسلم وهو مما اتفق الناس فيما نعلمه عليه ولو كانوا قد ملكوه كملكه الغانم منهم ولم يرده.
والأول أصح لأن المشركين كانوا يغنمون من أموال المسلمين الشيء الكثير من الكراع والسلاح وغير ذلك وقد أسلم عامة أولئك المشركين فلم يسترجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد منهم مالا مع أن بعض تلك الأموال لا بد أن يكون باقيا.
ويكفي في ذلك أن الله سبحانه قال: {للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا} وقال: {أذن للذين يقاتلون} إلى قوله: {الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق} وقال: {وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه} وقال: {إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم} .
فبين الله سبحانه أن المسلمين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق حتى صاروا فقراء بعد أن كانوا أغنياء.
ثم إن المشركين استولوا على تلك الديار والأموال وكانت باقية إلى حين الفتح وقد أسلم من استولى عليها في الجاهلية ثم لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم على أحد منهم أخرج من داره بعد الفتح والإسلام دارا ولا مالا بل قيل للنبي يوم الفتح: ألا تنزل في دارك؟ فقال: "وهل ترك لنا عقيل من دار؟ ".
وسأله المهاجرون أن يرد عليهم أموالهم التي استولى عليها أهل مكة فأبى ذلك صلى الله عليه وسلم وأقرها بيد من استولى عليها بعد إسلامه.
وذلك أن عقيل بن أبي طالب بعد الهجرة استولى على دار النبي صلى الله عليه وسلم ودور إخوته من الرجال والنساء مع ما ورثه من أبيه أبي طالب قال أبو رافع: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا تنزل منزلك من الشعب؟ قال: "فهل ترك لنا عقيل منزلا؟ " وكان عقيل قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة.
وقد ذكر أهل العلم بالسيرة منهم أبو الوليد الأزرقي أن رباع عبد المطلب بمكة صارت لبني عبد المطلب فمنها شعب ابن يوسف وبعض دار ابن يوسف لأبي طالب والجو الذي بينه وبين دار ابن يوسف دار المولد مولد النبي صلى الله عليه وسلم وما حوله لأبي النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد المطلب ولا ريب أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له هذه الدار ورثها من أبيه وبها ولد وكان له دار ورثها هو وولده من خديجة رضي الله تعالى عنها.
قال الأزرقي: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسكنيه كليهما مسكنه الذي ولد فيه ومسكنه الذي ابتنى فيه بخديجة بنت خويلد وولد فيه ولده جميعا.
قال: وكان عقيل بن أبي طالب أخذ مسكنه الذي ولد فيه وأما بيت خديجة فأخذه معتب بن أبي لهب وكان أقرب الناس إليه جوارا فباعه بعد من معاوية وقد شرح أهل السير ما ذكرنا في دور المهاجرين.
قال: الأزرقي: دار جحش بن رئاب الأسدي التي بالمعلى لم تزل في يد ولد جحش فلما أذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الهجرة إلى المدينة خرج آل جحش جميعا الرجال والنساء إلى المدينة مهاجرين وتركوا دارهم خالية وهم حلفاء حرب بني أمية فعمد أبو سفيان إلى دارهم هذه فباعها بأربعمائة دينار من عمرو بن علقمة العامري فلما بلغ آل جحش أن أبا سفيان باع دارهم أنشأ أبو أحمد يهجو أبا سفيان ويعيره ببيعها وذكر أبياتا.
فلما كان يوم فتح مكة أتى أبو أحمد بن جحش وقد ذهب بصره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه فيها فقال: يا رسول الله إن أبا سفيان عمد إلى داري فباعها فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فساره بشيء فما سمع أبو أحمد ذكرها بعد ذلك فقيل لأبي أحمد بعد ذلك: ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: قال لي " إن صبرت كان خيرا وكان لك بها دار في الجنة " قال: قلت: فأنا أصبر فتركها أبو أحمد.
قال: وكان لعتبة بن غزوان دار تسمى ذات الوجهين فلما هاجر أخذها يعلي بن أمية وكان استوصاه بها حين هاجر فلما كان عام الفتح وكلم بنو جحش رسول الله صلى الله عليه وسلم في دارهم فكره أن يرجعوا في شيء من أموالهم أخذت منهم في الله تعالى وهجروه لله أمسك عتبة بن غزوان عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في داره هذه ذات الوجهين وسكت المهاجرون فلم يتكلم أحد منهم في دار هجرها لله ورسوله وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسكنه الذي ولد فيه ومسكنه الذي ابتنى فيه بخديجة وهذه القصة معروفة عند أهل العلم.

قال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر ببن حزم والزهير بن عكاشة بن أبي أحمد قال: أبطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح عليهم في دورهم فقالوا لأبي أحمد يا أبا أحمد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره لكم أن ترجعوا في شيء من أموالكم مما أصيب في الله.
وقال ابن إسحاق أيضا في رواية زياد بن عبد الله البكائي عنه: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق أحد منهم بمكة إلا مفتون أو محبوس ولم يوعب أهل هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله والى رسوله إلا أهل دور مسمون: بنو مظعون من بني جمح وبنو جحش بن رئاب حلفاء بني أمية وبنو البكير من بني سعد بن ليث حلفاء عدي بن كعب فإن دورهم غلقت بمكة ليس فيها ساكن.
ولما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخي بني عامر بن لؤي فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارا خيرا منها في الجنة؟ " فقال: بلى فقال: "ذلك لك " فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة كلمه أبو أحمد في دارهم فأبطأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال الناس لأبي أحمد: يا أبا أحمد إن النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله فأمسك عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قال الواقدي عن أشياخه قالوا: وقام أبو أحمد بن جحش على باب المسجد على جمل له حين فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من خطبته يعني الخطبة التي خطبها وهو واقف بباب الكعبة حين دخل الكعبة فصلى فيها ثم خرج يوم الفتح فقال أبو أحمد وهو يصيح: أنشد بالله يا بني عبد مناف حلفي أنشد بالله يا بني عبد مناف داري قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان فسار عثمان بشيء فذهب عثمان إلى أبي أحمد فساره فنزل أبو أحمد عن بعيره وجلس مع القوم فما سمع أبو أحمد ذكرها حتى لقي الله.
فهذا نص في أن المهاجرين طلبوا استرجاع ديارهم فمنعهم النبي صلى الله عليه وسلم وأقرها بيد من استولى عليها ومن اشتراها منه وجعل صلى الله عليه وسلم ما أخذه منهم الكفار بمنزلة ما أصيب من ديارهم وما أنفقوه من أموالهم وتلك دماء وأموال اشتراها الله وسلمت إليه ووجب أجرها على الله فلا رجعة فيها وذلك لأن المشركين يستحلون دماءنا وأموالنا وأصابوا ذلك كله استحلالا وهم آثمون في هذا الاستحلال فإذا أسلموا جب الإسلام ذلك الإثم وصاروا كأنهم ما أصابوا دما ولا مالا فما بأيديهم لا يجوز انتزاعه منهم.
فإن قيل: ففي الصحيحين عن الزهري عن علي بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله ألا تنزل في دارك بمكة؟ قال: "وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور" وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ولم يرث جعفر ولا علي شيئا لأنهما كانا مسلمين وكان عقيل وطالب كافرين.
وفي رواية للبخاري أنه قال: يا رسول أين تنزل غدا؟ وذلك زمن الفتح فقال: "وهل ترك لنا عقيل من منزل؟ " ثم قال: " لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر " قيل للزهري: ومن ورث أبا طالب؟ قال: ورثه عقيل وطالب وفي رواية معمر عن الزهري أين منزلك غدا في حجتك؟ رواه البخاري.
وظاهر هذا أن الدور انتقلت إلى عقيل بطريق الإرث لا بطريق الاستيلاء ثم باعها.
قلنا: أما دار النبي صلى الله عليه وسلم التي ورثها من أبيه وداره التي هي له ولولده من زوجته المؤمنة خديجة فلا حق لعقيل فيها فعلم أنه استولى عليها وأما دور أبي طالب فإن أبا طالب توفي قبل الهجرة بسنين والمواريث لم تفرض ولم يكن نزل بعد منع المسلم من ميراث الكافر بل كل من مات بمكة من المشركين أعطي أولاده المسلمون نصيبهم من الإرث كغيرهم بل كان المشركون ينكحون المسلمات الذي هو أعظم من الإرث وإنما قطع الله الموالاة بين المسلمين والكافرين بمنع النكاح والإرث وغير ذلك بالمدينة وشرع الجهاد القاطع للعصمة.
قال ابن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة نظر إلى تلك الرباع فما أدرك منها قد اقتسم على أمر الجاهلية تركه لم يحركه وما وجده لم يقسم قسمه على قسمة الإسلام.
وهذا الذي رواه ابن أبي نجيح يوافق الأحاديث المسندة في ذلك مثل حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل قسم قسم في الجاهلية فهو على ما قسم وكل قسم أدركه الإسلام فإنه على ما قسم الإسلام " رواه أبو داود وابن ماجه.
وهذا أيضا يوافق ما دل عليه كتاب الله ولا نعلم فيه خلافا فإن الحربي لو عقد عقدا فاسدا من ربا أو بيع خمر أو خنزير أو نحو ذلك ثم أسلم بعد قبض العوض لم يحرم ما بيده ولم يجب عليه رده ولو ولم يكن قبضة لم يجز له أن يقبض منه إلا ما يجوز للمسلم كما دل عليه قوله تعالى: {اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين} فأمرهم بترك ما بقي في ذمم الناس ولم يأمرهم برد ما قبضوه.

وكذلك وضع النبي صلى الله عليه وسلم لما خطب الناس كل دم أصيب في الجاهلية وكل ربا في الجاهلية حتى ربا العباس ولم يأمر برد ما كان قبض فكذلك الميراث: إذا مات الميت في الجاهلية واقتسموا تركته أمضيت القسمة فإن أسلموا قبل الاقتسام أو تحاكموا إلينا قبل القسمة قسم على قسم الإسلام فلما مات أبو طالب كان الحكم بينهم أن يرثه جميع ولده فلم يقتسموا رباعه حتى هاجر جعفر وعلي إلى المدينة فاستولى عقيل عليها وباعها فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لم يترك لنا عقيل منزلا إلا استولى عليه وباعه " وكان معنى هذا الكلام أنه استولى على دور كنا نستحقها إذ ذاك ولولا ذلك لم تضف الدور إليه وإلى بني عمه إذا لم يكن لهم فيها حق ثم قال بعد ذلك: "لا يرث المؤمن الكافر ولا الكافر المؤمن" يريد والله أعلم لو أن الرباع باقية بيده إلى الآن لم يقسم لكنا نعطي رباع أبي طالب كلها له دون إخوته لأنه ميراث لم يقسم فيقسم الآن على قسم الإسلام ومن قسم الإسلام أن لا يرث المسلم الكافر فكان نزول هذا الحكم بعد موت أبي طالب وقبل قسمة تركته بمنزله نزوله قبل موته فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن عليا وجعفرا ليس لهما المطالبة بشيء من ميراث أبي طالب لو كان باقيا فكيف إذا أخذ منهم في سبيل الله؟ فإذا كان المشرك الحربي لا يطالب بعد إسلامه بما كان أصابه من دماء المسلمين وأموالهم وحقوق الله ولا ينتزع ما بيده من أموالهم التي غنمها منهم لم يؤاخذ أيضا بما أسلفه من سب وغيره فهذا وجه العفو عن هؤلاء.

وهذا الذي ذكرناه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحتم قتل من كان يسبه من المشركين مع العفو عمن هو مثله في الكفر كان مستقرا في نفوس أصحابه على عهده وبعد عهده يقصدون قتل الساب ويحرضون عليه وإن أمسكوا عن غيره ويجعلون ذلك هو الموجب لقتله ويبذلون في ذلك نفوسهم كما تقدم من حديث الذي قال: "سبني وسب أبي وأمي وكف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم" ثم حمل عليه حتى قتل وحديث الذي قتل أباه لما سمعه يسب النبي صلى الله عليه وسلم وحديث الأنصاري الذي نذر أن يقتل العصماء فقتلها وحديث الذي نذر أن يقتل ابن أبي سرح وكف النبي صلى الله عليه وسلم عن مبايعته ليوفي بنذره.

وفي الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: إني لواقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال: أي عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم فما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا قال: فتعجبت لذلك قال وغمزني الآخر فقال لي مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت لهما: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه فقال: " أيكما قتله؟ " فقال كل واحد منهما أنا قتلته فقال: "هل مسحتما سيفيكما" فقالا: لا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السيفين فقال: "كلاكما قتله " وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح والرجلان: معاذ ابن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء.

والقصة مشهورة في فرح النبي صلى الله عليه وسلم بقتله وسجوده شكرا وقوله: " هذا فرعون هذه الأمة " هذا مع نهيه عن قتل أبي البختري ابن هشام مع كونه كافرا غير ذي عهد لكفه عنه وإحسانه بالسعي في نقض صحيفة الجور ومع قوله: " لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى يعني الأسرى لأطلقتهم له " يكافئ المطعم بإجارته له بمكة والمطعم كافر غير معاهد فعلم أن مؤذي الرسول صلى الله عليه وسلم يتعين إهلاكه والانتقام منه بخلاف الكاف عنه وإن اشتراكا في الكفر كما كان يكافئ المحسن إليه بإحسانه وإن كان كافرا.

يؤيد ذلك أن أبا لهب كان له من القرابة ما له فلما آذاه وتخلف عن بني هاشم في نصره نزل القرآن فيه بما نزل من اللعنة والوعيد باسمه خزيا لم يفعل بغيره من الكافرين كما روي عن ابن عباس أنه قال: "ما كان أبو لهب إلا من كفار قومه حتى خرج منا حين تحالفت قريش علينا فظاهرهم فسبه الله وبنو المطلب مع مساواتهم لعبد شمس ونوفل في النسب لما أعانوه ونصروه وهم كفار شكر الله ذلك لهم فجعلهم بعد الإسلام مع بني هاشم في سهم ذوي القربى وأبو طالب لما أعانه ونصره وذب عنه خفف عنه العذاب فهو من أخف أهل النار عذابا".

وقد روي أن أبا لهب يسقى في نقرة الإبهام لعتقه ثويبة إذ بشرته بولادته.

ومن سنة الله أن من لم يمكن المؤمنون أن يعذبوه من الذين يؤذون الله ورسوله فإن الله سبحانه ينتقم منه لرسوله ويكفيه إياه كما قدمنا بعض ذلك في قصة الكاتب المفترى وكما قال سبحانه: {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين}

والقصة في إهلاك الله واحدا واحدا من هؤلاء المستهزئين معروفة قد ذكرها أهل السير والتفسير وهم على ما قيل نفر من رؤوس قريش منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسودان ابن المطلب وابن عبد يغوث والحارث بن قيس.

وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم لكن قيصر أكرم كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وأكرم رسوله فثبت ملكه فيقال: إن الملك باق في ذريته إلى اليوم وكسرى مزق كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستهزأ

برسول الله صلى الله عليه وسلم فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للأكاسرة ملك وهذا والله أعلم تحقيق لقوله تعالى: {إن شانئك هو الأبتر} فكل من شنأه أو أبغضه وعاداه فإن الله يقطع دابره ويمحق عينه وأثره وقد قيل: إنها نزلت في العاص بن وائل أو في عقبة بن أبي معيط أو في كعب بن الأشرف وقد رأيت صنيع الله بهم.
ومن الكلام السائر "لحوم العلماء مسمومة" فكيف بلحوم الأنبياء عليهم السلام؟.
وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة " فكيف بمن عادى الأنبياء؟ ومن حارب الله تعالى حرب وإذا استقصيت قصص الأنبياء المذكورة في القرآن تجد أممهم إنما أهلكوا حين آذوا الأنبياء وقابلوهم بقبيح القول أو العمل وهكذا بنو إسرائيل إنما ضربت عليهم الذلة وباءوا بغضب من الله ولم يكن لهم نصير لقتلهم الأنبياء بغير حق مضموما إلى كفرهم كما ذكر الله ذلك في كتابه ولعلك لا تجد أحدا آذى نبيا من الأنبياء ثم لم يتب إلا ولا بد أن تصيبه قارعة وقد ذكرنا ما جر به المسلمون من تعجيل الانتقام من الكفار إذا تعرضوا لسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغنا مثل ذلك في وقائع متعددة وهذا باب واسع لا يحاط به ولم نقصد قصده هنا وإنما قصدنا بيان الحكم الشرعي.
وكان سبحانه يحميه ويصرف عنه أذى الناس وشتمهم بكل طريق حتى في اللفظ ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا ترون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وأنا محمد " فنزه الله اسمه ونعته عن الأذى وصرف ذلك إلى من هو مذمم وإن كان المؤذي إنما قصد عينه.
فإذا تقرر بما ذكرناه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه وغير ذلك أن الساب للرسول يتعين قتله فنقول: إنما يكون تعين قتله لكونه كافرا حربيا أو للسبب المضموم إلى ذلك والأول باطل لأن الأحاديث نص في أنه لم يقتل لمجرد كونه كافرا حربيا بل عامتها قد نص فيه على أن موجب قتله إنما هو السب فنقول: إذا تعين قتل الحربي لأجل أنه سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذلك المسلم والذمي أولى لأن الموجب للقتل هو السب لا مجرد الكفر والمحاربة كما تبين فحيثما وجد هذا الموجب وجب القتل وذلك لأن الكفر مبيح للدم لا موجب لقتل الكافر بكل حال فإنه يجوز أمانه ومهادنته والمن عليه ومفاداته لكن إذا صار للكافر عهد عصم العهد دمه الذي أباحه الكفر فهذا هو الفرق بين الحربي والذمي فأما ما سوى ذلك من موجبات القتل فلم يدخل في حكم العهد.
وقد ثبت بالسنة أن النبي صلى الله عليه وسلم "كان يأمر بقتل الساب لأجل السب فقط" لا لمجرد الكفر الذي لا عهد معه فإذا وجد هذا السب وهو موجب للقتل والعهد لم يعصم من موجبه تعين القتل ولأن أكثر ما في ذلك أنه كافر حربيا سابا والمسلم إذا سب يصير مرتدا سابا وقتل المرتد أوجب من قتل الكافر الأصلي والذمي إذا سب فإنه يصير كافرا محاربا سابا بعد عهد متقدم وقتل مثل هذا أغلظ.
وأيضا فإن الذمي لم يعاهد على إظهار السب بالإجماع ولهذا إذا أظهره فإنه يعاقب عليه بإجماع المسلمين إما بالقتل أو بالتعزير وهو لا يعاقب على فعل شيء مما عوهد عليه وإن كان كفرا غليظا ولا يجوز أن يعاقب على فعل شيء قد عوهد على فعله وإذا لم يكن العهد مسوغا لفعله وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالقتل لأجله فيكون قد فعل ما يقتل لأجله وهو غير مقر عليه بالعهد ومثل هذا يجب قتله بلا تردد.
وهذا التوجيه يقتضي قتله سواء قدر أنه نقض العهد أو لم ينقضه لأن موجبات القتل التي لم نقره على فعلها يقتل بها وإن قيل لا ينتقض عهده كالزنا بذمية وكقطع الطريق على ذمي وكقتل ذمي وكما فعل هذه الأشياء مع المسلمين وقلنا إن عهده لا ينتقض فإنه يقتل.
وأيضا فإن المسلم قد امتنع من السب بما أظهره من الإيمان والذمي قد امتنع منه بما أظهره من الذمة والتزام الصغار ولو لم يكن ممتنعا منه بالصغار لما جاز عقوبته بتعزير ولا غيره إذا فعله فإذا قتل لأجل السب الكافر الذي يستحله ظاهرا وباطنا ولم يعاهدنا عهدا يقتضي تركه فلأن يقتل لأجله من التزم أن لا يظهره وعاهدنا على ذلك أولى وأحرى.
وأيضا فقد تبين بما ذكرناه من هذه الأحاديث أن الساب يجب قتله فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الساب في مواضع والأمر يقتضي الوجوب ولم يبلغه عن أحد السب إلا ندر دمه وكذلك أصحابه هذا مع ما قد كان يمكنه من العفو عنه فحيث لا يمكنه العفو عنه يجب أن يكون قتل الساب أوكد والحرص عليه أشد وهذا الفعل منه هو نوع من الجهاد والإغلاظ على الكافرين والمنافقين وإظهار دين الله وإعلاء كلمته ومعلوم أن هذا واجب فعلم أن قتل الساب واجب في الجملة وحيث جاز العفو له صلى الله عليه وسلم فإنما هو فيمن كان مقدورا عليه من مظهر الإسلام مطيع له أو ممن جاءه مستسلما أما الممتنعون فلم يعف عن أحد منهم ولا يرد على هذا أن بعض الصحابة آمن إحدى القينتين وبعضهم آمن ابن أبي سرح لأن هذين كانا مستسلمين مريدين للإسلام والتوبة ومن كان كذلك فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم له أن يعفو عنه فلم يتعين قتله فإذا ثبت أن الساب كان قتله واجبا والكافر الحربي الذي لم يسب لا يجب قتله بل يجوز قتله فمعلوم أن الذمة لا تعصم دم من يجب قتله وإنما تعصم دم من يجوز قتله ألا ترى أن المرتد لا ذمة له وأن القاطع والزاني لما وجب قتلهما لم تمنع الذمة قتلهما.

وأيضا فلا مزية للذمي على الحربي إلا بالعهد والعهد لم يبح له إظهار السب بالإجماع فيكون الذمي قد شرك الحربي في إظهار السب الموجب للقتل وما اختص به من العهد لم يبح له إظهار السب فيكون قد أتى بما يوجب القتل وهو لم يقر عليه فيجب قتله بالضرورة.
وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من كان يسبه مع أمانه لمن كان يحاربه بنفسه وماله فعلم أن السب أشد من المحاربة أو مثلها والذمي إذا حارب قتل فإذا سب قتل بطريق الأولى.
وأيضا فإن الذمي وإن كان معصوما بالعهد فهو ممنوع بهذا العهد من إظهار السب والحربي ليس له عهد يعصمه ولا يمنعه فيكون الذمي من جهة كونه ممنوعا أسوأ حالا من الحربي وأشد عداوة وأعظم جرما وأولى بالنكال والعقوبة التي يعاقب بها الحربي على السب والعهد الذي عصمه لم يف بموجبه فلا ينفعه لأنا إنما نستقيم له ما استقام لنا وهو لم يستقم بالاتفاق وكذلك يعاقب والعهد يعصم دمه وبشره إلا بحق فلما جازت عقوبته بالاتفاق علم أنه قد أتى ما يوجب العقوبة.
وقد ثبت بالسنة أن عقوبة هذا الذنب القتل وسر الاستدلال بهذه الأحاديث أنه لا يقتل الذمي لمجرد كون عهده قد انتقض فإن مجرد نقض العهد يجعله ككافر لا عهد له وقد ثبت بهذه السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بقتل الساب لمجرد كونه كافرا غير معاهد وإنما قتله لأجل السب مع كون السب مستلزما للكفر والعداوة والمحاربة وهذا القدر موجب للقتل حيث كان وسيأتي الكلام إن شاء الله على تعين قتله.
<u>السنة الثالثة عشرة</u>: ما رويناه من حديث أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي قال: ثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني ثنا علي بن مسهر عن صالح بن حيان عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم [بلغه أن رجلا قال لقوم: إن النبي صلى الله عليه وسلم] "أمرني أن أحكم فيكم برأيي وفي أموالكم كذا وكذا" وكان خطب امرأة منهم في الجاهلية فأبوا أن يزوجوه ثم ذهب حتى نزل على المرأة فبعث القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "كذب عدو الله" ثم أرسل رجلا فقال: إن وجدته حيا فاقتله وإن أنت وجدته ميتا فحرقه بالنار فانطلق فوجده قد لدغ فمات فحرقه بالنار فعند ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ".
ورواه أبو أحمد بن عدي في كتابه الكامل قال: ثنا الحسن بن محمد بن عنبر ثنا حجاج بن يوسف الشاعر ثنا زكريا بن عدي ثنا علي بن مسهر عن صالح بن حيان عن ابن بريدة عن أبيه قال: كان حي من بني ليث من المدينة على ميلين وكان رجل قد خطب منهم في الجاهلية فلم يزوجوه فأتاهم وعليه حلة فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كساني هذه الحلة وأمرني أن أحكم في أموالكم ودمائكم ثم انطلق فنزل على تلك المرأة التي كان يحبها فأرسل القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "كذب عدو الله" ثم أرسل رجلا فقال: إن وجدته حيا وما أراك تجده حيا فاضرب عنقه وإن وجدته ميتا فاحرقه بالنار قال: فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " هذا إسناد صحيح على شرط الصحيح لا نعلم له علة.
وله شاهد من وجه آخر رواه المعافى بن زكريا الجريري في كتاب الجليس قال: ثنا أبو حامد الحصري ثنا السري ابن مرثد الخراساني ثنا أبو جعفر محمد بن علي الفزاري ثنا داود ابن الزبرقان قال: أخبرني عطاء بن السائب عن عبد الله بن الزبير أنه قال يوما لأصحابه: أتدرون ما تأويل هذا الحديث: " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار "؟ قال: كان رجل عشق امرأة فأتى أهلها مساء فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني إليكم أن أتضيف في أي بيوتكم شئت قال: وكان ينتظر بيتوتة المساء قال: فأتى رجل منهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلانا أتانا يزعم أنك أمرته أن يبيت في أي بيوتنا شاء فقال: "كذب يا فلان انطلق معه فإن أمكنك الله منه فاضرب عنقه واحرقه بالنار ولا أراك إلا قد كفيته " فلما خرج الرسول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ادعوه" فلما جاء قال: " إني كنت أمرتك أن تضرب عنقه وأن تحرقه بالنار فإن أمكنك الله منه فاضرب عنقه ولا تحرقه بالنار فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار ولا أراك إلا قد كفيته " فحانت السماء بصيب فخرج الرجل يتوضأ فلسعته أفعى فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: " هو في النار ".
وقد روى أبو بكر بن مردويه من حديث الوازع عن أبي سلمة عن أسامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من يقل علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار " وذلك أنه بعث رجلا فكذب عليه فوجد ميتا قد انشق بطنه ولم تقبله الأرض.
وروي أن رجلا كذب عليه فبعث عليا والزبير إليه ليقتلاه.
وللناس في هذا الحديث قولان:
<u>أحدهما</u>: الأخذ بظاهره في قتل من تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هؤلاء من قال: يكفر بذلك قاله جماعة منهم أبو محمد الجويني حتى قال ابن عقيل عن شيخه أبا الفضل الهمداني: "مبتدعة الإسلام والكذابون والواضعون للحديث أشد من الملحدين لأن الملحدين قصدوا إفساد الدين من خارج وهؤلاء قصدوا إفساده من داخل فهم كأهل بلد سعوا في فساد أحواله والملحدون كالمحاصرين من خارج فالدخلاء يفتحون الحصن فهم شر على الإسلام من غير الملابسين له".

ووجه هذا القول أن الكذب عليه كذب على الله ولهذا قال: " إن كذبا علي ليس ككذب على أحدكم " فإن ما أمر به الرسول فقد أمر الله به يجب إتباعه كوجوب إتباع أمر الله وما أخبر به وجب تصديقه كما يجب تصديق ما أخبر الله به.
ومن كذبه في خبره أو امتنع من التزام أمره ومعلوم أن من كذب على الله بأن زعم أنه رسول الله أو نبيه أو أخبر عن الله خبرا كذب فيه كمسيلمة والعنسي ونحوهما من المتنبئين فإنه كافر حلال الدم فكذلك من تعمد الكذب على رسوله ويبين ذلك أن الكذب عليه بمنزلة التكذيب له ولهذا جمع الله بينهما بقوله تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه} بل ربما كان الكاذب عليه أعظم إثما من المكذب له ولهذا بدأ الله به كما أن الصادق عليه أعظم درجة من المصدق بخبره فإذا كان الكاذب مثل المكذب أو أعظم والكاذب على الله كالمكذب له فالكاذب على الرسول كالمكذب له.
يوضح ذلك أن تكذيبه نوع من الكذب فإن مضمون تكذيبه الإخبار عن خبره أنه ليس بصدق وذلك إبطال لدين الله ولا فرق بين تكذيبه في خبر واحد أو في جميع الأخبار وإنما صار كافرا لما يتضمنه من إبطال رسالة الله ودينه والكاذب عليه يدخل في دينه ما ليس منه عمدا ويزعم أنه يجب على الأمة التصديق بهذا الخبر وامتثال هذا الأمر لأنه دين الله مع العلم بأنه ليس لله بدين.
والزيادة في الدين كالنقص منه ولا فرق بين من يكذب بآية من القرآن أو يضيف كلاما يزعم أنه سورة من القرآن عامدا لذلك.
وأيضا فإن تعمد الكذب عليه استهزاء به واستخفاف لأنه يزعم أنه أمر بأشياء ليست مما أمر به بل وقد لا يجوز الأمر بها وهذه نسبة له إلى السفه أو أنه يخبر بأشياء باطلة وهذه نسبة له إلى الكذب وهو كفر صريح.
وأيضا فإنه لو زعم زاعم أن الله فرض صوم شهر آخر غير رمضان أو صلاة سادسة زائدة ونحو ذلك أو أنه حرم الخبز واللحم عالما بكذب نفسه كفر بالاتفاق.
فمن زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم أوجب شيئا لم يوجبه أو حرم شيئا لم يحرمه فقد كذب على الله كما كذب عليه الأول وزاد عليه بأن صرح بأن الرسول قال ذلك وأنه أعنى القائل لم يقله اجتهادا واستنباطا.
وبالجملة فمن تعمد الكذب الصريح على الله فهو كالمتعمد لتكذيب الله وأسوأ حالا وليس يخفى أن من كذب على من يجب تعظيمه فإنه مستخف به مستهين بحقه.
وأيضا فإن الكاذب عليه لا بد أن يشينه بالكذب عليه وينقصه بذلك ومعلوم أنه لو كذب عليه كما كذب عليه ابن أبي سرح في قوله: "كان يتعلم مني" أو رماه ببعض الفواحش الموبقة أو الأقوال الخبيثة كفر بذلك فكذلك الكاذب عليه لأنه إما أن يأثر عنه أمرا أو خبرا أو فعلا فإن أثر عنه أمرا لم يأمر به فقد زاد في شريعته وذلك الفعل لا يجوز أن يكون مما يأمر به لأنه لو كان كذلك لأمر به صلى الله عليه وسلم لقوله: "ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا أمرتكم به ولا من شيء يبعدكم عن النار إلا نهيتكم عنه " فإذا لم يأمر به فالأمر به غير جائز منه فمن روى عنه أنه قد أمر به فقد نسبه إلى الأمر بما لا يجوز له الأمر به وذلك نسبة له إلى السفه.
وكذلك أن يقل عنه خبرا فلو كان ذلك الخبر مما ينبغي له الإخبار به لأخبر به لأن الله تعالى قد أكمل الدين فإذا لم يخبر به فليس هو مما ينبغي له أن يخبر به وكذلك الفعل الذي ينقله عنه كاذبا فيه لو كان مما ينبغي فعله ويترجع لفعله فإذا لم يفعله فتركه أولى. فحاصله أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكمل البشر في جميع أحواله فما تركه من القول والفعل فتركه أكمل من فعله وما فعله ففعله أكمل من تركه فإذا كذب الرجل عليه متعمدا أو أخبر عنه بما لم يكن فذلك الذي أخبر عنه نقص بالنسبة إليه إذ لو كان كمالا لوجد منه ومن انتقص الرسول فقد كفر.
واعلم أن هذا القول في غاية القوة كما تراه لكن يتوجه أن يفرق بين الذي يكذب عليه مشافهة وبين الذي يكذب عليه بواسطة مثل أن يقول: حدثني فلان بن فلان عنه بكذا فهذا إنما كذب علي ذلك الرجل ونسب إليه ذلك الحديث فأما إن قال: "هذا حديث صحيح" أو ثبت عنه أنه قال ذلك عالما بأنه كذب فهذا قد كذب عليه أما إذا افتراه ورواه رواية ساذجة ففيه نظر لا سيما والصحابة عدول بتعديل الله لهم.
فالكذب لو وقع من أحد ممن يدخل فيهم لعظم ضرره في الدين فأراد صلى الله عليه وسلم قتل من كذب عليه وعجل عقوبته ليكون ذلك عاصما من أن يدخل في العدول من ليس منهم المنافقين ونحوهم.
وأما من روى حديثا يعلم أنه كذب فهذا حرام كما صح عنه أنه قال: " من روى عني حديثا يعلم أنه كذب فهو أحد الكاذبين " لكن لا يكفر إلا أن ينضم إلى روايته ما يوجب الكفر لأنه صادق في أن شيخه حدثه به لكن لعلمه بأن شيخه كذب فيه لم تكن تحل له الرواية فصار بمنزلة أن يشهد على إقرار أو شهادة أو عقد وهو يعلم أن ذلك باطل فإن هذه الشهادة حرام لكنه ليس بشاهد زور.
وعلى هذا القول فمن سبه فهو أولى بالقتل ممن كذب عليه فإن الكاذب عليه قد زاد في الدين ما ليس منه وهذا قد طعن في الدين بالكلية وحينئذ فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل الذي كذب عليه من غير استتابة فكذلك الساب له أولى.

فإن قيل: الكذب عليه فيه مفسدة وهو أن يصدق في خبره فيزاد في الدين ما ليس منه أو ينتقص منه ما هو منه والطاعن عليه قد علم بطلان كلامه بما أظهر الله من آيات النبوة.
قيل: والمحدث عنه لا يقبل خبره إن لم يكن عدلا ضابطا فليس كل من حدث عنه قبل خبره لكن قد يظن عدلا وليس كذلك والطاعن عليه قد يؤثر طعنه في نفوس كثير من الناس ويسقط حرمته من كثير من القلوب فهو أوكد على أن الحديث عنه له دلائل يميز بها بين الكذب والصدق.
القول الثاني: أن الكاذب عليه تغلظ عقوبته لكن لا يكفر ولا يجوز قتله لأن موجبات الكفر والقتل معلومة وليس هذا منها فلا يجوز أن يثبت ما لا أصل له ومن قال هذا فلا بد أن يقيد قوله بأنه لم يكن الكذب عليه متضمنا لعيب ظاهر فأما إن أخبر أنه سمعه يقول كلاما يدل على نقصه وعيبه دلالة ظاهرة مثل حديث عرق الخيل ونحوه من الترهات فهذا مستهزئ به استهزاء ظاهرا ولا ريب أنه كافر حلال الدم.
وقد أجاب من ذهب إلى هذا القول عن الحديث بأن النبي صلى الله عليه وسلم علم أنه كان منافقا فقتله لذلك لا للكذب.
وهذا الجواب ليس بشيء لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن من سننه أنه يقتل أحد من المنافقين الذين أخبر الثقة عنهم بالنفاق أو الذين نزل القرآن بنفاقهم فكيف يقتل رجلا بمجرد علمه بنفاقه؟ ثم إنه سمى خلقا من المنافقين لحذيفة وغيره ولم يقتل منهم أحدا.
وأيضا فالسبب المذكور في الحديث إنما هو كذبه على النبي صلى الله عليه وسلم كذبا له فيه غرض وعليه رتب القتل فلا تجوز إضافة القتل إلى سبب آخر.
وأيضا فإن الرجل إنما قصد بالكذب نيل شهوته ومثل هذا قد يصدر من الفساق كما يصدر من الكفار.
وأيضا فإما أن يكون نفاقه لهذه الكذبة أو لسبب ماض فإن كان لهذه فقد ثبت أن الكذب عليه نفاق والمنافق كافر وإذا كان النفاق متقدما وهو المقتضي للقتل لا غيره فعلام يؤخر الأمر بقتله إلى هذا الحين؟ وعلام لم يؤاخذه الله تعالى بذلك النفاق حتى فعل ما فعل.
وأيضا فإن القوم أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله فقال: "كذب عدو الله" ثم أمر بقتله إن وجده حيا ثم قال: "ما أراك تجده حيا" لعلمه صلى الله عليه وسلم بأن ذنبه يوجب تعجيل العقوبة.
والنبي صلى الله عليه وسلم إذا أمر بالقتل أو غيره من العقوبات والكفارات عقب فعل وصف له صالح لترتب ذلك الجزاء عليه كان ذلك الفعل هو المقتضي لذلك الجزاء ولا غيره كما أن الأعرابي لما وصف له الجماع في رمضان أمره بالكفارة ولما أقر عنده ماعز والغامدية وغيرهما بالزنا أمر بالرجم وهذا مما لا خلاف فيه بين الناس نعلمه نعم قد يختلفون في نفس الموجب هل هو مجموع تلك الأوصاف أو بعضها وهو نوع من تنقيح المناط فأما أن يجعل ذلك الفعل عديم التأثير والموجب لتلك العقوبة غيره الذي لم يذكر وهذا فاسد بالضرورة لكن يمكن أن يقال فيه ما هو أقرب من هذا وهو أن هذا الرجل كذب على النبي صلى الله عليه وسلم كذبا يتضمن انتقاصه وعيبه لأنه زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم حكمه في دمائهم وأموالهم وأذن له أن يبيت حيث شاء من بيوتهم ومقصوده بذلك أن يبيت عند تلك المرأة ليفجر بها ولا يمكنهم الإنكار عليه إذا كان محكما في الدماء والأموال.
ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يحلل الحرام ومن زعم أنه أحل المحرمات من الدماء والأموال والفواحش فقد انتقصه وعابه ونسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أنه يأذن له أن يبيت عند امرأة أجنبية خاليا بها وأنه يحكم بما شاء في قوم مسلمين وهذا طعن على النبي صلى الله عليه وسلم وعيب له وعلى هذا التقدير فقد أمر بقتل من عابه وطعن عليه من غير استتابة وهو المقصود في هذا المكان فثبت أن الحديث نص في قتل الطاعن عليه من غير استتابة على كلا القولين.
ومما يؤيد القول الأول أن القوم لو ظهر لهم أن هذا الكلام سب وطعن لبادروا إلى الإنكار عليه ويمكن أن يقال: رابهم أمره فتوقفوا حتى استثبتوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم لما تعارض وجوب طاعة الرسول وعظم ما أتاهم به هذا اللعين ومن نصر القول الأول قال: كل كذب عليه فإنه متضمن للطعن عليه كما تقدم ثم إن هذا الرجل لم يذكر في الحديث أنه قصد الطعن والإزراء وإنما قصد تحصيل شهوته بالكذب عليه وهذا شأن كل من تعمد الكذب عليه فإنه إنما يقصد تحصيل غرض له إن لم يقصد الاستهزاء به والأغراض في الغالب إما مال أو شرف كما أن المسيء إنما يقصد إذا لم يقصد مجرد الإضلال إما الرياسة بنفاذ الأمر وحصول التعظيم أو تحصيل الشهوات الظاهرة وبالجملة فمن قال أو فعل ما هو كفر كفر بذلك وإن لم يقصد أن يكون كافرا إذ لا يقصد الكفر أحد إلا ما شاء الله.
السنة الرابعة عشرة: حديث الأعرابي الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم لما أعطاه: ما أحسنت ولا أجملت فأراد المسلمون قتله ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو تركتكم حين قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار " وسيأتي ذكره في ضمن الأحاديث المتضمنة لعفوه عمن آذاه فإن هذا الحديث يدل على أن من آذاه إذا قتل دخل النار وذلك دليل على كفره وجواز قتله

وإلا كان يكون شهيدا وكان قاتله من أهل النار وإنما عفا النبي صلى الله عليه وسلم عنه ثم استرضاه بعد ذلك حتى رضي لأنه كان له أن يعفو عمن آذاه كما سيأتي إن شاء الله.

ومن هذا الباب: أن الرجل الذي قاله له لما قسم غنائم حنين: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله فقال عمر: "دعني يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقتل هذا المنافق" فقال: " معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي " ثم أخبر أنه يخرج من ضئضه أقوام يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم وذكر حديث الخوارج رواه مسلم فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع عمر من قتله إلا لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ولم يمنعه لكونه في نفسه معصوما كما قال في حديث حاطب بن أبي بلتعة فإنه لما قال: "ما فعلت ذلك كفرا ولا رغبة عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام" فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إنه قد صدقكم " فقال عمر: "دعني أضرب عنق هذا المنافق" فقال: " إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " فبين صلى الله عليه وسلم أنه باق على إيمانه وأنه صدر منه ما يغفر له به الذنوب فعلم أن دمه معصوم وهنا علل بمفسدة زالت.

فعلم أن قتل مثل هذا القائل إذا أمنت هذه المفسدة جائز وكذلك لما أمنت هذه المفسدة أنزل الله قوله: {جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} بعد أن كان قد قال له: {ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم} قال زيد بن أسلم: "قوله: {جاهد الكفار والمنافقين} نسخت ما كان قبلها".

ومما يشبه هذا أن عبد الله بن أبي لما قال: {لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل} وقال: {لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا} استأمر عمر في قتله فقال: "إذن ترعد له أنوف كثيرة بالمدينة" وقال: " لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه " والقصة مشهورة وهي في الصحيحين وستأتي إن شاء الله تعالى.

فعلم أن من آذى النبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذا الكلام جاز قتله كذلك مع القدرة وإنما ترك النبي صلى الله عليه وسلم قتله لما خيف في قتله من نفور الناس عن الإسلام لما كان ضعيفا.

ومن هذا الباب: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال: " من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي " قال له سعد بن معاذ: "أنا أعذرك إن كان من الأوس ضربت عنقه" والقصة مشهورة فلما لم ينكر ذلك عليه دل على أن من آذى النبي صلى الله عليه وسلم وتنقصه يجوز ضرب عنقه والفرق بين ابن أبي وغيره ممن تكلم في شأن عائشة أنه كان يقصد بالكلام فيها عيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والطعن عليه وإلحاق العار به ويتكلم بكلام ينتقصه به فلذلك قالوا نقتله بخلاف حسان ومسطح وحمنة فإنهم لم يقصدوا ذلك ولم يتكلموا بما يدل على ذلك ولهذا إنما استعذر النبي صلى الله عليه وسلم من ابن أبي دون غيره ولأجله خطب الناس حتى كاد الحيان يقتتلون.

الحديث الخامس عشر: قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه: حدثني أبي عن المجالد بن سعيد عن الشعبي قال: "لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دعا بمال العزى فنثره بين يديه ثم دعا رجلا قد سماه فأعطاه منها ثم دعا أبا سفيان بن حرب فأعطاه منها ثم دعا سعد ابن حريث فأعطاه منها ثم دعا رهطا من قريش فأعطاهم فجعل يعطي الرجل القطعة من الذهب فيها خمسون مثقالا وسبعون مثقالا ونحو ذلك فقام رجل فقال: إنك لبصير حيث تضع التبر ثم قام الثانية فقال مثل ذلك فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ثم قام الثالثة فقال: إنك لتحكم وما نرى عدلا قال: "ويحك إذا لا يعدل أحد بعدي " ثم دعا نبي الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فقال: "اذهب فاقتله" فذهب فلم يجده فقال: " لو قتلته لرجوت أن يكون أولهم وآخرهم ".

فهذا الحديث نص في قتل مثل هذا الطاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير استتابة وليست هي قصة قسم غنائم حنين ولا قسم التبر الذي بعث به علي من اليمن بل هذه القصة قبل ذلك في قسم مال العزى وكان هدم العزى قبل الفتح في أواخر شهر رمضان سنة ثمان وغنائم حنين قسمت بعد ذلك بالجعرانة في ذي القعدة وحديث علي في سنة عشر.

وهذا الحديث مرسل ومخرجه عن مجالد وفيه لين لكن له ما يؤيد معناه فإنه قد تقدم أن عمر قتل الرجل الذي لم يرض بحكم النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن بإقراره على ذلك وجرمه أسهل من جرم هذا.

وأيضا فإن في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الذي لمزه في قسمة الذهيبة التي أرسل بها علي من اليمن وقال: " يا رسول الله اتق الله" أنه قال: "أنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد ".

وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة ".

وروى النسائي عن أبي برزة قال: "أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال فقسمه فأعطى من عن يمينه ومن عن شماله ولم يعط من وراءه شيئا فقام رجل من وراءه فقال: يا محمد ما عدلت في القسمة رجل أسود مطموم الشعر عليه ثوبان أبيضان فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا وقال: " والله لا تجدون بعدي رجلا هو أعدل مني" ثم قال: "يخرج في آخر الزمان قوم كان هذا منهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال فإذا لقيتموهم فاقتلوهم هم شر الخلق والخليقة ".
فهذه الأحاديث كلها دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل طائفة هذا الرجل العائب عليه وأخبر أن في قتلهم أجرا لمن قتلهم وقال: "لئن أدركتم لأقتلنهم قتل عاد" وذكر أنهم شر الخلق والخليقة.
وفيما رواه الترمذي وغيره عن أبي أمامة أنه قال: "هم شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه" وذكر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذلك مرات متعددة وتلا فيهم قوله تعالى: {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم} وقال: "هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم" وتلا فيهم قوله تعالى: {فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه} وقال: "زاغوا فزيغ بهم" ولا يجوز أن يكون أمر بقتلهم لمجرد قتالهم الناس كما يقاتل الصائل من قاطع الطريق ونحوه وكما يقاتل البغاة لأن أولئك إنما يشرع قتالهم حتى تنكسر شوكتهم ويكفوا عن الفساد ويدخلوا في الطاعة ولا يقتلون أينما لقوا ولا يقتلون قتل عاد وليسوا شر قتلى تحت أديم السماء ولا يؤمر بقتلهم وإنما يؤمر في آخر الأمر بقتالهم فعلم أن هؤلاء أوجب قتلهم مروقهم من الدين لما غلوا فيه حتى مرقوا منه كما دل عليه قوله في حديث علي: "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم" فرتب الأمر بالقتل على مروقهم فعلم أنه الموجب له ولهذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم الطائفة الخارجة وقال: "لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضي لهم علي لسان محمد لنكلوا عن العمل وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد ليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعيرات بيض" وقال: " إنهم يخرجون على خير فرقة من الناس يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق " وهذا كله في الصحيح فثبت أن قتلهم لخصوص صفتهم لا لعموم كونهم بغاة أو محاربين وهذا القدر موجود في الواحد منهم كوجوده في العدد منهم وإنما لم يقتلهم علي رضي الله عنه أول ما ظهروا لأنه لم يبن له أنهم الطائفة المنعوتة حتى سفكوا دم ابن خباب وأغاروا على سرح الناس فظهر فيهم قوله: " يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان " فعلم أنهم المارقون ولأنه لو قتلهم قبل المحاربة لربما غضبت لهم قبائلهم وتفرقوا على علي رضي الله عنه وقد كان حاجته إلى مداراة عسكره واستئلافهم كحال النبي صلى الله عليه وسلم في حاجته في أول الأمر إلى استئلاف المنافقين.
وأيضا فإن القوم لم يعترضوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بل كانوا يعظمونه ويعظمون أبا بكر وعمر ولكن غلوا في الدين غلوا جازوا به حده لنقص عقولهم فصاروا كما تأوله علي فيهم من قوله عز وجل: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا} .
وأوجب ذلك لهم عقائد فاسدة ترتب عليها أفعال منكرة كفرهم بها كثير من الأمة وتوقف فيها آخرون فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الطاعن عليه في القسمة الناسب له عدم العدل بجهله وغلوه وظنه أن العدل هو ما يعتقده من التسوية بين جميع الناس دون النظر إلى ما في تخصيص بعض الناس وتفضيله من مصلحة التأليف وغيرها من المصالح علم أن هذا أول أولئك فإنه إذا طعن عليه في وجهه على سنته فهو بعد موته وعلى خلفائه أشد طعنا.
وقد حكى أرباب المقالات عن الخوارج أنهم يجوزون على الأنبياء الكبائر ولهذا لا يلتفتون إلى السنة المخالفة في رأيهم لظاهر القرآن وإن كانت متواترة فلا يرجمون الزاني ويقطعون يد السارق فيما قل أو كثر زعما منهم على ما قيل أن لا حجة إلا القرآن وأن السنة الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ليست حجة بناء على ذلك الأصل الفاسد قال من حكى ذلك عنهم: إنهم لا يطعنون في النقل لتواتر ذلك وإنما يبنونه على هذا الأصل ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في صفتهم: "إنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم" يتأولونه برأيهم من غير استدلال على معانيه بالسنة وهم لا يفهمونه بقلوبهم إنما يتلونه بألسنتهم والتحقيق أنهم أصناف مختلفة فهذا رأي طائفة منهم وطائفة قد يكذبون النقلة وطائفة لم يسمعوا ذلك ولم يطلبوا علمه وطائفة يزعمون أن ما ليس له ذكر في القرآن بصريحه ليس حجة على الخلق: إما لكونه منسوخا أو مخصوصا بالرسول أو غير ذلك وكذلك ما ذكر من تجويزهم الكبائر فأظنه والله أعلم قول طائفة منهم وعلى كل حال فمن كان يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم جائر في قسمه يقول إنه يفعلها بأمر الله فهو مكذب له ومن زعم أن يجور في حكم أو قسمة فقد زعم أنه جائر وأن إتباعه لا يجب وهو مناقض لما تضمنته الرسالة من أمانته ووجوب طاعته وزوال الحرج عن الجنس من قضائه بقوله وفعله فإنه قد بلغ عن الله أنه أوجب طاعته والانقياد لحكمه وأنه لا يحيف على أحد فم طعن في هذا فقد طعن في صحة تبليغه وذلك طعن في نفس الرسالة وبهذا يتبين صحة رواية من روى الحديث "ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل" لأن هذا الطاعن يقول: أنه رسول الله وأنه يجب عليه تصديقه وطاعته فإذا قال إنه لم يعدل فقد لزم أنه صدق غير عدل ولا

أمين ومن اتبع مثل ذلك فهو خائب خاسر كما وصفهم الله بأنهم من الأخسرين أعمالا وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعا ولأنه من لم يؤتمن على المال يؤتمن على ما هو أعظم منه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساء " وقال صلى الله عليه وسلم لما قال له اتق الله: "أولست أحق أهل الأرض أن يتق الله" وذلك لأن الله قال فيما بلغه إليهم الرسول: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} بعد قوله: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول} الآية فبين سبحانه أنه ما نهى عنه من مال الفيء فعلينا أن ننتهي عنه فيجب أن يكون أحق أهل الأرض أن يتق الله إذ لولا ذلك لكانت الطاعة له ولغيره إن تساويا أو لغيره دونه إن كان دونه وهذا كفر بما جاء به وهذا ظاهر.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "شر الخلق والخليقة" وقوله: "شر قتلى تحت أديم السماء" نص في أنهم من المنافقين لأن المنافقين أسوأ حالا من الكفار كما ذكر أن قوله تعالى: {ومنهم من يلمزك في الصدقات} نزلت فيهم.

وكذلك في حديث أبي أمامة أن قوله تعالى {أكفرتم بعد إيمانكم} نزلت فيهم هذا مما لا خلاف فيه إذا صرحوا بالطعن في الرسول والعيب عليه كفعل أولئك اللامزين له.

فإذا ثبت بهذه الأحاديث الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من كان من جنس ذلك الرجل الذي لمزه أينما لقوا وأخبر أنهم شر الخليقة وثبت أنهم من المنافقين كان ذلك دليلا على صحة معنى حديث الشعبي في استحقاق أصلهم للقتل.

يبقى أن يقال: ففي الأحاديث الصحيحة أنه نهى عن قتل ذلك اللامز.

فنقول: حديث الشعبي هو أول ظهور هؤلاء كما تقدم فالأشبه والله أعلم أن يكون أمر بقتله أولا طمعا في انقطاع أمرهم وإن كان قد كان يعفو عن أكثر المنافقين لأنه خاف من هذا انتشار الفساد من بعده على الأمة ولهذا قال: "لو قتلته لرجوت أن يكون أولهم وآخرهم" وكان ما يحصل لقتله من المصلحة العظيمة أعظم مما يخاف من نفور بعض الناس بقتله فلما لم يوجد وتعذر قتله ومع النبي صلى الله عليه وسلم بما أوحاه الله إليه من العلم ما فضله الله به فكأنه علم أنه لا بد من خروجهم أنه لا مطمع في استئصالهم كما أنه لما علم أن الدجال خارج لا محالة نهى عمر عن قتل ابن صياد وقال: "إن يكنه فلن تسلط عليه وإن لا يكنه فلا خير لك في قتله" فكان هذا مما أوجب نهيه بعد ذلك عن قتل ذي الخويصرة لما لمزه في غنائم حنين وكذلك لما قال عمر: "ائذن لي فاضرب عنقه" قال: "دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية" إلى قوله: "يخرجون على حين فرقة من الناس " فأمر بتركه لأجل أن له أصحابا خارجين بعد ذلك فظهر أن علمه بأنهم لا بد أن يخرجوا منعه من أن يقتل منهم أحدا فيتحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه الذين يصلون معه وتنفر بذلك عن الإسلام قلوب كثيرة من غير مصلحة تعمر هذه المفسدة هذا مع أنه كان له أن يعفو عمن آذاه مطلقا بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم.

وبهذا يتبين سبب كونه في بعض الحديث يعلل بأنه يصلي وفي بعضه بأن لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه وفي بعضه بأن له أصحابا سيخرجون وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر بعض هذه الأحاديث وإن كان هذا الموضع خليقا بها أيضا.

فثبت أن كل من لمز النبي صلى الله عليه وسلم في حكمه أو قسمه فإنه يجب قتله كما أمر به في حياته وبعد موته وأنه إنما عفا عن ذلك اللامز في حياته كما قد كان يعفو عمن يؤذيه من المنافقين لما علم أنهم خارجون في الأمة لا محالة وأن ليس في قتل ذلك الرجل كثير فائدة بل فيه من المفسدة ما في قتل سائر المنافقين وأشد.

ومما يشهد لمعنى هذا الحديث قول أبو بكر رضي الله عنه في الحديث المشهور لما أراد أبو برزة أن يقتل الرجل الذي أغلظ لأبي بكر وتغيظ عليه أبو بكر وقال له أبو برزة أقتله فقال أبو بكر: "ما كانت لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل أحدا" فإن هذا كما تقدم من دليل على أن الصديق علم أن النبي صلى الله عليه وسلم يطاع أمره في قتل من أمر بقتله ممن أغضب النبي صلى الله عليه وسلم.

فلما كان في حديث الشعبي أنه أمر أبا بكر بقتل ذلك الذي لمزه حتى أغضبه كانت هذه القصة بمنزلة العمدة لقول الصديق وكان قول صديق رضي الله عنه دليلا على صحة معناها.

ومما يدل على أنهم كانوا يرون قتل من علموا أنه من أولئك الخوارج وإن كان منفردا حديث صبيغ بن عسل وهو مشهور قال أبو عثمان النهدي: "سأل رجل من بني يربوع أو من بني تميم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الذاريات والمرسلات والنازعات أو عن بعضهن فقال عمر: ضع عن رأسك فإذا له وفرة فقال عمر: أما والله لو رأيتك محلوقا لضربت الذي فيه عيناك ثم قال: ثم كتب إلى أهل البصرة أو قال إلينا أن لا تجالسوه قال: فلو جاء ونحن مئة تفرقنا" رواه الأموي وغيره بإسناد صحيح فهذا عمر يحالف بين المهاجرين والأنصار أنه لو رأى العلامة التي وصف بها النبي صلى الله عليه وسلم الخوارج لضرب عنقه مع أنه هو الذي نهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل ذي الخويصرة فعلم أنه فهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أينما لقيتموهم فاقتلوهم" القتل مطلقا وأن العفو عن ذلك كان في حال الضعف والاستئلاف.

فإن قيل: فما الفرق بين قول هؤلاء اللامزين في كونه نفاقا موجبا للكفر وحل الدم حتى صار جنس هذا القائل شر الخلق وبين ما ذكر من موجدة قريش والأنصار؟.
ففي حديث أبي سعيد الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قسم الذهيبة بين أربعة غضبت قريش والأنصار وقالوا: تعطيه صناديد أهل نجد وتدعنا؟ فقال: "إنما أتألفهم" فأقبل رجل غائر العينين وذكر حديث اللامز.
وفي رواية لمسلم: فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء قال فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحا ومساء " فقام رجل غائر العينين.
وذكر موجدة الأنصار في غنائم حنين فعن أنس بن مالك أن ناسا من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي رجالا من قريش المائة من الإبل فقالوا: "يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ " وفي رواية: لما فتحت مكة قسم الغنائم في قريش فقالت الأنصار: "إن هذا لهو العجب إن سيوفنا تقطر من دمائهم وإن غنائمنا ترد عليهم" وفي رواية: فقال الأنصار: "إذا كانت الشدة فنحن ندعى ويعطى الغنائم غيرنا" قال أنس: فحدثت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من قولهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم ولم يدع معهم غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ما حديث بلغني عنكم؟ " فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فإني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به" قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا قال: "فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض" قالوا: "سنصبر ".
قيل: إن أحدا من المؤمنين من قريش والأنصار وغيرهم لم يكن في شيء من كلامه تجوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تجويز ذلك عليه ولا اتهام له أنه حابى في القسمة لهوى النفس وطلب الملك ولا نسبة له إلى أنه لم يرد بالقسمة وجه الله تعالى ونحو ذلك مما جاء مثله في كلام المنافقين.
وذوو الرأي من القبيلتين وهم الجمهور لم يتكلموا بشيء أصلا بل قد رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا: "حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله" كما قالت فقهاء الأنصار: "أما ذوو رأينا فلم يقولوا شيئا" وأما الذين تكلموا من أحداث الأسنان ونحوهم فرأوا أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يقسم المال لمصالح الإسلام ولا يضعه في محل إلا لأن وضعه فيه أولى من وضعه في غيره هذا مما لا يشكون فيه.
وكان العلم بجهة المصلحة قد تنال بالوحي وقد تنال بالاجتهاد ولم يكونوا علموا أن ذلك مما فعله النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إنه بوحي من الله فإن من كره ذلك أو اعترض عليه بعد أن يقول ذلك فهو كافر مكذب.
وجوزوا أن يكون قسمه اجتهادا وكانوا يراجعونه بالاجتهاد في الأمور الدنيوية المتعلقة بمصالح الدين وهو باب يجوز له العمل فيه باجتهاده باتفاق الأمة وربما سألوه عن الأمر لا لمراجعته فيه لكن ليتثبتوا وجهه ويتفقهوا في سننه ويعلموا علته.
وكانت المراجعة المشهورة منهم لا تعدو هذين الوجهين: إما لتكميل نظره صلى الله عليه وسلم في ذلك إن كان من الأمور السياسة التي للاجتهاد فيها مساغ أو ليتبين لهم وجه ذلك إذا ذكر ويزدادوا علما وإيمانا وينفتح لهم طريق التفقه فيه.
فالأول كمراجعة الحباب بن المنذر له لما نزل ببدر منزلا قال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل الذي نزلته أهو منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتعداه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة" فقال: إن هذا ليس بمنزل قتال فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه وتحول إلى غيره.
وكذلك أيضا لما عزم أن يصالح غطفان عام الخندق على نصف تمر المدينة ثم جاء سعد بن معاذ في طائفة من الأنصار فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي هذا الذي تعطيهم أشيء من الله أمرك فسمع وطاعة لله ولرسوله أم شيء من قبل رأيك؟ قال: " لا بل من قبل رأيي أني رأيت القوم أعطوا الأموال فجمعوا لكم ما رأيتم من القبائل وإنما أنتم قبيل واحد فأردت أن أدفع بعضهم ونعطيهم شيئا وننصب لبعض أشتري بذلك ما قد نزل بكم معشر الأنصار " فقال سعد: والله يا رسول الله لقد كنا في الشرك وما يطمعون منا في أخذ النصف أو كما قال وفي رواية: ما يأكلون منها تمرة إلا بشرى أو قرى فكيف اليوم والله معنا وأنت بين أظهرنا لا نعطيهم ولا كرامة لهم ثم تناول الصحيفة فتفل فيها ثم رمى بها.
وما كان من قبل الرأي والظن في الدنيا فقد قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن التلقيح: " ما أظن يعني ذلك شيئا إنما ظننت فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به فإني لن أكذب على الله " رواه مسلم.
وفي حديث آخر: "أنتم أعلم بأمر دنياكم فما كان من أمر دينكم فإلي ".

ومن هذا الباب حديث سعد بن أبي وقاص قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطا وأنا جالس فترك رجلا منهم هو أعجبهم إلي فقمت فقلت له: يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا وتركت فلانا وهو مؤمن فقال: "أو مسلم" ذكر ذلك سعد له ثلاثا وأجابه بمثل ذلك ثم قال: "إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب في النار على وجهه" متفق عليه.

فإنما سأله سعد رضي الله عنه ليذكر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الرجل لعله يرى أنه ممن ينبغي إعطاؤه أو ليتبين لسعد وجه تركه مع إعطاء من هو دونه فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم عن المقدمتين فقال: إن العطاء ليس لمجرد الإيمان بل أعطي وأمنع والذي أترك أحب إلي من الذي أعطيه لأن الذي أعطيه لو لم أعطه لكفر فأعطيه لأحفظ عليه إيمانه ولا أدخله في زمرة من يعبد الله على حرف والذي أمنعه معه من اليقين والإيمان ما يغنيه عن الدنيا وهو أحب إلي وعندي أفضل وهو يعتصم بحبل الله ورسوله ويعتاض بنصيبه من الدين عن نصيبه من الدنيا كما اعتاض به أبو بكر وغيره وكما اعتاضت الأنصار حين ذهب الطلقاء وأهل نجد بالشاة والبعير وانطلقوا هم برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لو كان العطاء لمجرد الإيمان فمن أين لك أن هذا مؤمن؟ بل يجوز أن يكون مسلما وإن لم يدخل الإيمان في قلبه فإن النبي صلى الله عليه وسلم أعلم من سعد بتمييز المؤمن من غيره حيث أمكن التمييز.

ومن ذلك أيضا ما ذكره ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث أن قائلا قال: يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة من الإبل مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع ولكني تألفتهما على إسلامهما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه ".

وقد ذكر بعض أهل المغازي في حديث الأنصار: وددنا أن نعلم من أين هذا إن كان من قبل الله صبرنا وإن كان من رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم استعتبناه.

فهذا يبين أن من وجد منهم جوز أن يكون القسم وقع باجتهاد في المصلحة فأحب أن يعلم الوجه الذي أعطى به غيره ومنع هو مع فضله على غيره في الإيمان والجهاد وغير ذلك.

وهذا في بادي الرأي هو الموجب للعطاء وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعطيه كما أعطى غيره وهذا معنى قولهم: "استعتبناه" أي طلبنا منه أن يعتبنا أي يزيل عتبنا: إما ببيان الوجه الذي به أعطى غيرنا أو بإعطائنا وقد قال صلى الله عليه وسلم: "" فأحب النبي صلى الله عليه وسلم أن يعذره في ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين ما فعل فبين لهم ذلك فلما تبين لهم الأمر بكوا حتى أخضلوا لحاهم ورضوا حق الرضاء والكلام المحكي عنهم يدل على أنهم رأوا القسمة وقعت اجتهادا وأنهم أحق بالمال من غيرهم فتعجبوا من إعطاء غيرهم وأرادوا أن يعلموا هل هو وحي أو اجتهاد يتعين إتباعه لأنه المصلحة أو اجتهاد يمكن النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ بغيره إلى رأي أنه أصلح وإن كان هذا القسم إنما يمكن فيما لم يستقر أمره ويقره عليه ربه ولهذا قالوا: "يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ " وقالوا: "إن هذا لهو العجب إن سيوفنا لتقطر من دمائهم وإن غنائمنا لترد عليهم" وفي رواية: "إذا كانت الشدة فنحن ندعى ويعطي الغنائم غيرنا".

واختلف الناس في العطايا: هل كانت من أصل الغنيمة أو من الخمس؟.

فروي عن سعد بن إبراهيم ويعقوب بن عتبة قالا: كانت العطايا فارغة من الغنائم وعلى هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذ نصيبهم من المغنم لطيب أنفسهم.

وقد قيل: إنه أراد أن يقطعهم بدل ذلك قطائع من البحرين فقالوا: لا حتى يقطع إخواننا من المهاجرين مثله ولهذا لما جاء مال البحرين وافوه صلاة الفجر وقال لجابر: لو قد جاء مال البحرين أعطيتك كذا وكذا لكن لم يستأذنهم النبي صلى الله عليه وسلم قبل القسم لعلمه بأنهم يرضون بما يفعل وإذا علم الرجل من حال صديقه أنه تطيب نفسه بما يأخذ من ماله فله أن يأخذ وإن لم يستأذنه نطقا وكان هذا معروفا بين كثير من الصحابة والتابعين كالرجل الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم كبة من شعر فقال: " أما ما كان لي ولبني هاشم فهو لك " وعلى هذا فلا حرج عليهم إذا سألوا نصيبهم.

وقال موسى بن إبراهيم عن أبيه: "كانت من الخمس".

قال الواقدي: وهو أثبت القولين وعلى هذا فالخمس إما أن يقسمه الإمام باجتهاد كما يقوله مالك أو يقسمه خمسة أقسام كما يقوله الشافعي وأحمد وإذا قسمه خمسة أقسام فإذا لم يوجد يتامى أو مساكين أو ابن سبيل أو استغنوا ردت أنصباؤهم في مصارف سهم الرسول.

وقد كان اليتامى والمساكين وأبناء السبيل إذ ذاك مع قلتهم مستغنين بنصيبهم من الزكاة لأنه لما فتحت خيبر واستغنى أكثر المسلمين رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار منائح النخل التي كانوا قد منحوها للمهاجرين فاجتمع للأنصار أموالهم التي كانت والأموال التي غنموها بخيبر وغيرها فصاروا مياسير ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته: "ألم

أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟ " فصرف النبي صلى الله عليه وسلم عامة الخمس في مصارف سهم الرسول؟ فإن أولى المصالح تأليف أولئك القوم ومن زعم أن مجرد خمس الخمس قام بجميع ما أعطي المؤلفة فإنه لم يدر كيف القصة ومن له خبرة بالقصة يعلم أن المال لم يكن يحتمل هذا.
وقد قيل: إن الإبل كانت أربعة وعشرين ألف بعير والغنم أربعين ألفا أو أقل أو أكثر والورق أربعة آلاف أوقية والغنم كانت تعدل
عشرة منها ببعير فهذا يكون قريبا من ثلاثين ألف بعير فخمس الخمس منه ألف ومئتا بعير وقد قسم في المؤلفة أضعاف ذلك على ما لا خلاف فيه بين أهل العلم.
وأما قول بعض قريش والأنصار في الذهيبة التي بعث بها علي من اليمن: أيعطي صناديد أهل نجد ويدعنا؟ فمن هذا الباب أيضا إنما سألوا على هذا الوجه.
وها هنا جوابان آخران:
الجواب الأول: أن بعض أولئك القائلين قد كان منافقا يجوز قتله مثل الذي سمعه ابن مسعود يقول في غنائم حنين: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله وكان في ضمن قريش والأنصار منافقون كثيرون فما ذكر من كلمة لا مخرج لها فإنما صدرت من منافق والرجل الذي ذكر عنه أبو سعيد أنه قال: "كنا أحق بهذا من هؤلاء" ولم يسمه منافقا والله أعلم.
الجواب الثاني: أن الاعتراض قد يكون ذنبا ومعصية يخاف على صاحبه النفاق وإن لم يكن نفاقا مثل قوله تعالى: {يجادلونك في الحق بعد ما تبين} ومثل مراجعتهم له في فسخ الحج إلى العمرة وإبطائهم عن الحل وكذلك كراهتهم للحل عام الحديبية وكراهتهم للصلح ومراجعة من راجع منهم فإن من فعل ذلك فقد أذنب ذنبا كان عليه أن يسغفر الله منه كما أن الذين رفعوا أصواتهم فوق صوته أذنبوا ذنبا تابوا منه وقد قال تعالى: {واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم} .
قال سهل بن حنيف: "اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لفعلت".
فهذه أمور صدرت عن شهوة وعجلة لا عن شك في الدين كما صدر عن حاطب التجسس لقريش مع أنها ذنوب ومعاص يجب على صاحبها أن يتوب وهي بمنزلة عصيان أمر النبي صلى الله عليه وسلم.
ومما يدخل في هذا حديث أبي هريرة في فتح مكة قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن " فقالت الأنصار: أما الرجل فقد أدركته رغبة في قرابته ورأفة في بعشيرته.
قال أبو هريرة: وجاء الوحي وكان إذا جاء لا يخفى علينا فإذا جاء فليس أحدا منا يرفع طرفه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينقضي الوحي.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا معشر الأنصار" قالوا: لبيك يا رسول الله قال: "قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته ورأفة بعشيرته؟ " قالوا: قد كان ذلك قال: "كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم المحيا محياكم والممات مماتكم" فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا إلا لظن بالله وبرسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم " رواه مسلم.
وذلك أن الأنصار لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم قد آمن أهل مكة وأقرهم على أموالهم ودمائهم مع دخوله عليهم عنوة وقهرا وتمكنه من قتلهم وأخذ أموالهم لو شاء خافوا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يستوطن مكة ويستبطن قريشا لأن البلد بلده والعشيرة عشيرته وأن يكون نزاع النفس إلى الوطن والأهل يوجب انصرافه عنهم فقال من قال منهم ذلك ولم يقله الفقهاء وأولو الألباب الذين يعلمون أنه لم يكن له سبيل إلى استيطان مكة فقالوا ذلك لا طعنا ولا عيبا ولكن ضنا بالله وبرسوله والله ورسوله قد صدقاهم أنما حملهم على ذلك الضن بالله ورسوله وعذراهم فيما قالوا لما رأوا وسمعوا ولأن مفارقة الرسول شديد على مثل أولئك المؤمنين الذين هم شعار وغيرهم دثار والكلمة التي تخرج عن محبة وتعظيم وتشريف وتكريم تغفر لصاحبها بل يحمد عليها وإن كان مثلها لو صدر بدون ذلك استحق صاحبها النكال.
وكذلك الفعل ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لأبي بكر حين أراد أن يتأخر عن موقعه في الصلاة لما أحس بالنبي صلى الله عليه وسلم: "مكانك" فتأخر أبو بكر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ما منعك أن تثبت مكانك وقد أمرتك" فقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم.
وكذلك أبو أيوب الأنصاري لما استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في أن ينتقل إلى السفل وأن يصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العلو وشق عليه أن يسكن فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكث في

مكانه وذكر له أن سكناه أسفل أرفق به من أجل دخول الناس عليه فامتنع أبو أيوب من ذلك أدبا مع النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيرا له فكلمة الأنصار رضي الله عنهم من هذا الباب.
وبالجملة فالكلمات في هذا الباب ثلاثة أقسام:
إحداهن: ما هو كفر مثل قوله: "إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله".
الثاني: ما هو ذنب ومعصية يخاف على صاحبه أن يحبط عمله مثل رفع الصوت فوق صوته ومثل مراجعة من راجعه عام الحديبية بعد ثباته على الصلح ومجادلة من جادله يوم بدر بعد ما تبين له الحق وهذا كله يدخل في المخالفة عن أمره.
الثالث: ما ليس من ذلك بل يحمد عليه صاحبه أو لا يحمد كقول عمر: "ما بالنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ " وكقول عائشة: "ألم يقل الله: {فأما من أوتي كتابه بيمينه} " وكقول حفصة: "ألم يقل الله: {وإن منكم إلا واردها} " وكمراجعة الحباب في منزل بدر ومراجعة سعد في صلح غطفان على نصف تمر المدينة ومثل مراجعتهم له لما أمرهم بكسر الآنية التي فيها لحوم الحمر فقالوا: "أو لا نغسلها" فقال: "اغسلوها" وكذلك رد عمر لأبي هريرة لما خرج مبشرا ومراجعته للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك وكذلك مراجعته له لما أذن له في نحر الظهر في بعض المغازي وطلبه منه أن يجمع الأزواد ويدعو الله ففعل ما أشار به عمر ونحو ذلك مما فيه سؤال عن إشكال ليتبين لهم أو عرض لمصلحة قد يفعلها الرسول صلى الله عليه وسلم.
فهذا ما اتفق ذكره من السنن المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل من سبه من معاهد وغير معاهد وبعضها نص في المسألة وبعضها ظاهر وبعضها مستنبط مستخرج استنباطا قد يقوى في رأي من فهمه وقد يتوقف عنه من لم يفهمه أو لم يتوجه عنده أو رأى أن الدلالة منه ضعيفة ولن يخفى الحق على من توخاه وقصده ورزقه الله تعالى بصيرة وعلما والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل.

وأما إجماع الصحابة رضي الله عنهم فلأن ذلك نقل عنهم في قضايا متعددة ينتشر مثلها ويستفيض ولم ينكرها أحد منهم فصارت إجماعا.
واعلم أنه لا يمكن ادعاء إجماع الصحابة على مسالة فرعية بأبلغ من هذا الطريق.
فمن ذلك ما ذكره سيف بن عمر التميمي في كتاب "الردة والفتوح" عن شيوخه قال: "ورفع إلى المهاجر يعني المهاجر بن أبي أمية وكان أميرا على اليمامة ونواحيها امرأتان مغنيتان غنت إحداهما بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فقطع يدها ونزع ثنيتيها وغنت الأخرى بهجاء المسلمين فقطع يدها ونزع ثنيتيها فكتب إليه أبو بكر: بلغني الذي سرت به في المرأة التي تغنت وزمرت بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فلولا ما قد سبقتني لأمرتك بقتلها لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر".
وكتب إليه أبو بكر في التي تغنت في بهجاء المسلمين: "أما بعد فإنه بلغني أنك قطعت يد امرأة في أن تغنت بهجاء المسلمين ونزعت ثنيتيها فإن كانت ممن تدعي الإسلام فأدب وتقدمة دون المثلة وإن كانت ذمية فلعمري لما صفحت عنه من الشرك أعظم ولو كنت تقدمت إليك في مثل هذا لبلغ مكروهك فاقبل الدعة وإياك في المثلة في الناس فإنها مأثم ومنفرة إلا في قصاص.
وقد ذكر هذه القصة غير سيف وهذا يوافق ما تقدم عنه أن من شتم النبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يقتله وليس ذلك لأحد بعده وهو صريح في وجوب قتل من سب النبي صلى الله عليه وسلم من مسلم ومعاهد وإن كان امرأة وأنه يقتل بدون استتابة بخلاف من سب الناس وأن قتله حد للأنبياء كما جلد من سب غيرهم حد له وإنما لم يأمر أبو بكر بقتل تلك المرأة لأن المهاجر سبق منه فيها حد باجتهاده فكره أبو بكر أن يجمع عليها حدين مع أنه لعلها أسلمت أو تابت فقبل المهاجر توبتها قبل كتاب أبي بكر وهو محل اجتهاد سبق منه فيه حكم فلم يغيره لأن الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد وكلامه يدل على أنه إنما منعه من قتلها ما سبق من المهاجر.
وروى حرب في مسائله عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: أتي عمر برجل سب النبي صلى الله عليه وسلم فقتله ثم قال عمر: "من سب الله أو سب أحدا من الأنبياء فاقتلوه" قال ليث: وحدثني مجاهد عن ابن عباس قال: "أيما مسلم سب الله أو سب أحدا من الأنبياء فقد كذب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ردة يستتاب فإن رجع وإلا قتل وأيما معاهد عاند فسب الله أو سب أحدا من الأنبياء أو جهر به فقد نقض العهد فاقتلوه".
وعن أبي مشجعه بن ربعي قال: "لما قدم عمر بن الخطاب الشام قام قسطنطين بطريق الشام وذكر معاهدة عمر له وشروطه عليهم قال: اكتب بذلك كتابا قال عمر: نعم فبينما هو يكتب الكتاب إذ ذكر عمر فقال: إني استثني عليك معرة الجيش مرتين قال: لك ثنتان وقبح الله من أقالك فلما فرغ عمر من الكتاب قال له: يا أمير المؤمنين قم في الناس فأخبرهم الذي جعلت لي وفرضت علي ليتناهوا عن ظلمي قال عمر: نعم فقام في الناس فحمد الله وأثنى عليه فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له فقال النبطي: إن الله لا يضل أحدا فقال عمر: ما يقول؟ قال: لا شيء وعاد النبطي لمقالته

فقال: أخبروني ما يقول قالوا: يزعم أن الله لا يضل أحدا قال عمر: إنا لم نعطك الذي أعطيناك لتدخل علينا في ديننا والذي نفسي بيده لئن عدت لأضربن الذي فيه عيناك وعاد عمر ولم يعد النبطي فلما فرغ عمر أخذ النبطي الكتاب" رواه حرب.
فهذا عمر رضي الله عنه بمحضر من المهاجرين والأنصار يقول لمن عاهده: إنا لم نعطك العهد على أن تدخل علينا في ديننا وحلف لئن عاد ليضربن عنقه فعلم بذلك إجماع الصحابة على أن أهل العهد ليس لهم أن يظهروا الاعتراض علينا في ديننا وأن ذلك منهم مبيح لدمائهم.
وإن من أعظم الاعتراضات سب نبينا صلى الله عليه وسلم وهذا ظاهر لا خفاء به لأن إظهار التكذيب بالقدر من إظهار شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وإنما لم يقتله عمر لأنه لم يكن قد تقرر عنده أن هذا الكلام طعنا في ديننا لجواز أن يكون اعتقد أن عمر قال ذلك من عنده فلما تقدم إليه عمر وبين له أن هذا ديننا قال له: "لئن عدت لأقتلنك".
ومن ذلك ما استدل به الإمام أحمد ورواه عنه هشيم: ثنا حصين عمن حدثه عن ابن عمر قال: مر به راهب فقيل له: هذا يسب النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابن عمر: "لو سمعته لقتلته إنا لم نعطهم الذمة على أن يسبوا نبينا صلى الله عليه وسلم".
ورواه أيضا من حديث الثوري عن حصين عن الشيخ أن ابن عمر أصلت على راهب سب النبي صلى الله عليه وسلم بالسيف وقال: "إنا لم نصالحهم على سب النبي صلى الله عليه وسلم".
والجمع بين الروايتين أن يكون ابن عمر أصلت عليه السيف لعله يكون مقرا بذلك فلما أنكر كف عنه وقال: "لو سمعته لقتلته" وقد ذكر حديث ابن عمر غير واحد.
وهذه الآثار كلها نص في الذمي والذمية وبعضها عام في الكافر والمسلم أو نص فيهما.
وقد تقدم حديث الرجل الذي قتله عمر من غير استتابة حين أبى أن يرضى بحكم النبي صلى الله عليه وسلم وحديث كشفه عن رأس صبيغ بن عسل وقوله: "لو رأيتك محلوقا لضربت الذي فيه عيناك" من غير استتابة وإنما ذنب طائفته الاعتراض على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.
وقد تقدم عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات} الآية: "هذه في شأن عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ليس فيها توبة ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة" وقال: نزلت في عائشة خاصة واللعنة للمنافقين عامة ومعلوم أن ذاك إنما هو لأن قذفها أذى للنبي صلى الله عليه وسلم ونفاق والمنافق يجب قتله إذا لم تقبل توبته.
وروى الإمام أحمد بإسناده عن سماك بن الفضل عن عروة بن محمد عن رجل من بلقين أن امرأة سبت النبي صلى الله عليه وسلم فقتلها خالد بن الوليد وهذه المرأة مبهمة.
وقد تقدم حديث محمد بن مسلمة في ابن يامين الذي زعم أن قتل كعب ابن الأشرف كان غدرا وحلف محمد بن مسلمة لئن وجده خاليا ليقتلنه لأنه نسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الغدر ولم ينكر المسلمون عليه ذلك.
ولا يرد على ذلك إمساك الأمير إما معاوية أو مروان عن قتل هذا الرجل لأن سكوته لا يدل على مذهب وهو لم يخالف محمد بن مسلمة ولعل سكوته لأنه لم ينظر في حكم هذا الرجل أو نظر فلم تتبين له حكمة أو لم تنبعث داعيته لإقامة الحد عليه أو ظن أن الرجل قال ذلك معتقدا أنه قتل دون أمر النبي صلى الله عليه وسلم أو لأسباب أخر.
وبالجملة فمجرد كفه لا يدل على أنه مخالف لمحمد بن مسلمة فيما قاله وظاهر القصة أن محمد بن مسلمة رآه مخطئا بترك إقامة الحد على ذلك الرجل ولذلك هجره لكن هذا الرجل إنما كان مسلما فإن المدينة لم يكن بها يومئذ أحد من غير المسلمين.
وذكر ابن المبارك: أخبرني حرملة بن عثمان حدثني كعب بن علقمة أن غرفة ابن الحارث الكندي وكانت له صحبة من النبي صلى الله عليه وسلم سمع نصرانيا شتم النبي صلى الله عليه وسلم فضربه فدق أنفه فرفع ذلك إلى عمرو بن العاص فقال له: "إنا قد أعطيناهم العهد" فقال له غرفة: "معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبي صلى الله عليه وسلم وإنما أعطيناهم العهد على أن نخلي بينهم وبين كنائسهم يعملون فيها ما بدا لهم وأن لا نحملهم على ما لا يطيقون وإن أرادهم عدو قاتلنا دونهم وعلى أن نخلي بينهم وبين أحكامهم إلا أن يأتونا راضين بأحكامنا فنحكم فيهم بحكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم وإن غابوا عنا لم نتعرض لهم" فقال عمرو: "صدقت".
فقد اتفق عمرو وغرفة بن الحارث على أن العهد الذي بيننا وبينهم لا يقتضي إقرارهم على إظهار شتم الرسول صلى الله عليه وسلم كما اقتضى إقرارهم على ما هم عليه من الكفر والتكذيب فمتى أظهروا شتمه فقد فعلوا ما يبيح الدم من غير عهد عليه فيجوز قتلهم وهذا كقول ابن عمر في الراهب الذي شتم النبي صلى الله عليه وسلم: "لو سمعته لقتلته فإنا لم نعطهم العهد على أن يشتموا نبينا صلى الله عليه وسلم".

وإنما لم يقتل هذا الرجل والله أعلم لأن البينة لم تقم عليه بذلك وإنما سمعه غرفة ولعل غرفة قصد قتله بتلك الضربة ولم يمكن من إتمام قتله لعدم البينة بذلك ولأن فيه افتئاتا على الإمام والإمام لم يثبت عنده ذلك.
وعن خليد أن رجلا سب عمر بن عبد العزيز فكتب عمر: "إنه لا يقتل إلا من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن اجلده على رأسه أسواطا ولولا أني أعلم أن ذلك خير له لم أفعل" رواه حرب وذكره الإمام أحمد وهذا مشهور عن عمر بن عبد العزيز وهو خليفة راشد عالم بالسنة متبع لها.
فهذا قول أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان لا يعرف عن صاحب ولا تابع خلاف لذلك بل إقرار عليه واستحسان له.
وأما الاعتبار فمن وجوه:
أحدها: أن عيب ديننا وشتم نبينا مجاهدة لنا ومحاربة فكان نقضا للعهد كالمجاهدة والمحاربة بالأولى.
يبين ذلك أن الله سبحانه قال في كتابه: {وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله} والجهاد بالنفس يكون باللسان كما يكون باليد بل قد يكون أقوى منه قال النبي صلى الله عليه وسلم: "جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم" رواه النسائي وغيره.
وكان صلى الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت: "اغزهم وغازهم" وكان ينصب له منبرا في المسجد ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره وهجائه للمشركين وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم أيده بروح القدس" وقال: "إن جبريل معك ما دمت تنافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم" وقال: "هي أنكى فيهم من النبل".
وكان عدد من المشركين يكفون عن أشياء مما يؤذي المسلمين خشية هجاء حسان حتى إن كعب بن الأشرف لما ذهب إلى مكة كان كلما نزل عند أهل بيت هجاهم حسان بقصيدة فيخرجونه من عندهم حتى لم يبقى له بمكة من يؤويه.
وفي الحديث: " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " و" أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل تكلم بحق عند سلطان جائر فأمر به فقتل ".
وإذا كان شان الجهاد باللسان هذا الشأن في شتم المشركين وهجائهم وإظهار دين الله والدعاء إليه علم أن من شتم دين الله ورسوله وأظهر ذلك وذكر كتاب الله بالسوء علانية فقد جاهد المسلمين وحاربهم وذلك نقض للعهد.
الوجه الثاني؟ : أنا وإن أقررناهم على ما يعتقدونه من الكفر والشرك فهو كإقرارنا لهم على ما يضمرونه لنا من العداوة وإرادة السوء بنا وتمني الغوائل لنا فإننا نحن نعلم أنهم يعتقدون خلاف ديننا ويريدون سفك دمائنا وعلو دينهم ويسعون في ذلك لو قدروا عليه فهذا القدر أقررناهم عليه فإذا عملوا بموجب هذه الإرادة بأن حاربونا وقاتلونا نقضوا العهد كذلك إذا عملوا بموجب تلك العقيدة من إظهار السب لله ولكتابه ولدينه ولرسوله نقضوا العهد إذ لا فرق بين العمل بموجب الإرادة وموجب الاعتقاد.
الوجه الثالث: أن مطلق العهد الذي بيننا وبينهم يقتضي أن يكفوا ويمسكوا عن إظهار الطعن في ديننا وشتم رسولنا كما يقتضي الإمساك عن دمائنا ومحاربتنا لأن معنى العهد أن كل واحد من المتعاهدين يؤمن الآخر مما يحذره منه قبل العهد ومن المعلوم أنا نحذر منهم إظهار كلمة الكفر وسب الرسول وشتمه كما نحذر إظهار المحاربة بل أولى لأنا نسفك الدماء ونبذل الأموال في تعزيز الرسول وتوقيره ورفع ذكره وإظهار شرفه وعلو قدره وهم جميعا يعلمون هذا من ديننا فالمظهر منهم لسبه ناقض للعهد فاعل لما كنا نحذره ونقاتله عليه قبل العهد وهذا واضح.
الوجه الرابع: أن العهد المطلق لو لم يقتض ذلك فالعهد الذي عاهدهم عليه عمر بن الخطاب وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قد تبين فيه ذلك وسائر أهل الذمة إنما جروا على مثل ذلك العهد.
روى حرب بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتب لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى أهل الشام: "هذا كتاب لعبد الله أمير المؤمنين من مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا على أن لا نحدث وذكر الشروط إلى أن قال: ولا نظهر شركا ولا ندعوا إليه أحدا وقال في آخره: شرطنا ذلك على أنفسنا وأهلينا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا عن شيء شرطنا لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما حل من أهل المعاندة والشقاق".
وقد تقدم قول عمر له في مجلس العقد: "إنا لم نعطك الذي أعطيناك لتدخل علينا في ديننا والذي نفسي بيده لئن عدت لأضربن عنقك" وعمر صاحب الشروط عليهم.
فعلم بذلك أن شروط المسلمين عليهم أن لا يظهروا كلمة الكفر وأنهم متى أظهروها صاروا محاربين وهذا الوجه يوجب أن يكون السب نقضا للعهد عند من يقول: لا ينتقض العهد به إلا إذا شرط عليهم تركه كما خرجه بعض أصحابنا وبعض الشافعية في المذهبين.
وكذلك يوجب أن يكون نقضا للعهد عند من يقول: إذا شرط عليهم انتقاض العهد بفعله انتقض كما ذكره بعض أصحاب الشافعي فإن أهل الذمة إنما هم جارون على شروط عمر لأنه لم يكن بعده إمام عقد عقدا يخالف عقده بل كل الأئمة جارون على حكم عقده والذي سعى أن يضاف إلى من خالف

في هذه المسألة أنه لا يخالف إذا شرط عليهم انتقاض العهد بإظهار السب فإن الخلاف حينئذ لا وجه له البتة مع إجماع الصحابة على صحة هذا الشرط وجريانه على وفق الأصول فإذا كان الأئمة قد شرطوا عليهم ذلك وهو شرط صحيح لزم العمل به على كل قول.
الوجه الخامس: أن العقد مع أهل الذمة على أن تكون الدار لنا تجري فيها أحكام الإسلام وعلى أنهم أهل صغار وذلة على هذا عوهدوا وصولحوا فإظهار شتم الرسول صلى الله عليه وسلم والطعن في الدين ينافي كونهم أهل صغار وذلة فإن من أظهر سب الدين والطعن فيه لم يكن من الصغار في شيء فلا يكون عهده باقيا.
الوجه السادس: أن الله فرض علينا تعزيز رسوله وتوقيره وتعزيزه: نصره ومنعه وتوقيره: إجلاله وتعظيمه وذلك يوجب صون عرضه بكل طريق بل ذلك أولى درجات التعزيز والتوقير فلا يجوز أن نصالح أهل الذمة على أن يسمعونا شتم نبينا ويظهروا ذلك فإن تمكينهم من ذلك ترك للتعزيز والتوقير وهم يعلمون أنا لا نصالحهم على ذلك بل الواجب علينا أن نكفهم عن ذلك ونزجرهم عنه بكل طريق وعلى ذلك عاهدناهم فإذا فعلوه فقد نقضوا الشرط الذي بيننا وبينهم.
الوجه السابع: أن نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض علينا لأنه من التعزيز المفروض ولأنه من أعظم الجهاد في سبيل الله ولذلك قال سبحانه: {ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض} إلى قوله: {إلا تنصروه فقد نصره الله} وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله} الآية بل نصر آحاد المسلمين واجب بقوله صلى الله عليه وسلم: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" وبقوله: "المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه" فكيف لا ينصر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.
ومن أعظم النصر حماية عرضه ممن يؤذيه ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "من حمى مؤمنا من منافق يؤذيه حمى الله جلده من نار جهنم يوم القيامة".
ولذلك سمى من قابل الشاتم بمثل شتمه منتصرا وسب رجل أبا بكر عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساكت فلما أخذ لينتصر قام فقال: يا رسول الله كان يسبني وأنت قاعد فلما أخذت لأنتصر قمت فقال: "كان الملك يرد عليه فلما انتصرت ذهب الملك فلم أكن لأقعد وقد ذهب الملك" أو كما قال صلى الله عليه وسلم.
وهذا كثير معروف في كلامهم يقولون لمن كافى الساب والشاتم "منتصرا" كما يقولون لمن كافى الضارب والقاتل "منتصرا".
وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم قال للذي قتل بنت مروان لما شتمته: "إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى هذا" وقال للرجل الذي خرق صف المشركين حين ضرب بالسيف ساب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أعجبتم من رجل نصر الله ورسوله؟ ".
وحماية عرضه صلى الله عليه وسلم في كونه نصرا أبلغ من ذلك في حق غيره لأن الوقيعة في عرض غيره قد لا تضر مقصودة بل تكتب له بها حسنات.
أما انتهاك عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه مناف لدين الله بالكلية فإن العرض متى انتهك سقط الاحترام والتعظيم فسقط ما جاء به من الرسالة فبطل الدين فقيام المدحة والثناء عليه والتعظيم والتوقير له قيام الدين كله وسقوط ذلك سقوط الدين كله وإذا كان كذلك وجب علينا أن ننتصر له ممن انتهك عرضه والانتصار له بالقتل لأن انتهاك عرضه انتهاك لدين الله.
ومن المعلوم أن من سعى في دين الله بالإفساد استحق القتل بخلاف انتهاك عرض غيره معينا فإنه لا يبطل الدين والمعاهد لم نعاهده على ترك الانتصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم منه ولا من غيره كما لم نعاهده على ترك استيفاء حقوق المسلمين ولا يجوز أن نعاهده على ذلك وهو يعلم أنا لم نعاهده على ذلك فإذا سبه فقد وجب علينا أن ننتصر له بالقتل ولا عهد معه على ترك ذلك فيجب قتله وهذا بين واضح لمن تأمله.
الوجه الثامن: أن الكفار قد عوهدوا على أن لا يظهروا شيئا من المنكرات التي تختص بدينهم في بلاد الإسلام فمتى أظهروها استحقوا العقوبة على إظهارها وإن كان إظهارها دينا لهم فمتى أظهروا سب رسول الله صلى الله عليه وسلم استحقوا عقوبة ذلك وعقوبة ذلك القتل كما تقدم.
الوجه التاسع: أنه لا خلاف بين المسلمين علمناه أنهم ممنوعون من إظهار السب وأنهم يعاقبون عليه إذا فعلوه بعد النهي فعلم أنهم لم يقروا عليه كما أقروا على ما هم عليه من كفر وإذا فعلوا ما لم يقروا عليه من الجنايات استحقوا العقوبة بالاتفاق وعقوبة السب إما أن تكون جلدا وحبسا أو قطعا أو قتلا والأول باطل فإن مجرد سب الواحد من المسلمين وسلطان المسلمين يوجب الجلد والحبس فلو كان سب الرسول كذلك استوى من سب الرسول ومن سب غيره من الأمة وهو باطل بالضرورة والقطع لا معنى له فتعين القتل.
الوجه العاشر: أن القياس الجلي يقتضي أنهم متى خالفوا شيئا مما عوهدوا عليه انتقض عهدهم كما ذهب إليه طائفة من الفقهاء فإن الدم مباح بدون العهد والعهد عقد من العقود وإذا لم يف أحد المتعاقدين بما عاقد عليه فإما أن يفسخ العقد بذلك أو يتمكن

العاقد الآخر من فسخه هذا أصل مقرر في عقد البيع والنكاح والهبة وغيرها من العقود والحكمة فيه ظاهرة فإنه إنما التزم ما التزمه بشرط أن يلتزم الآخر بما التزمه فإذا لم يلتزمه الآخر صار هذا غير ملتزم فإن الحكم المعلق بشرط لا يثبت بعينه عند عدمه باتفاق العقلاء وإنما اختلفوا في ثبوت مثله.
إذا تبين هذا فإن كان المعقود عليه حقا للعاقد بحيث له أن يبذله بدون الشرط لم ينفسخ العقد بفوات الشرط بل له أن يفسخه كما إذا شرط رهنا أو كفيلا أو صفة في المبيع وإن كان حقا لله أو لغيره ممن يتصرف له بالولاية ونحوها لم يجز له إمضاء العقد بل ينفسخ العقد بفوات الشرط أو يجب عليه فسخه كما إذا شرط أن تكون الزوجة حرة فظهرت أمة وهو ممن لا يحل له نكاح الإماء أو شرط أن يكون الزوج مسلما فبان كافرا أو شرط أن تكون الزوجة مسلمة فبانت وثنية وعقد الذمة ليس حقا للإمام بل هو حق لله ولعامة المسلمين فإذا خالفوا شيئا مما شرط عليهم فقد قيل: يجب على الإمام أن يفسخ العقد وفسخه: أن يلحقه بمأمنه ويخرجه من دار الإسلام ظنا أن العقد لا ينفسخ بمجرد المخالفة بل يجب فسخه وهذا ضعيف لأن المشروط إذا كان حقا لله لا للعاقد انفسخ العقد بفواته من غير فسخ.
وهنا الشروط على أهل الذمة حق لله لا يجوز للسلطان ولا لغيره أن يأخذ منهم الجزية ويعاهدهم على المقام بدار الإسلام إلا إذا التزموها وإلا وجب عليه قتالهم بنص القرآن ولو فرضنا جواز إقرارهم بدون هذا الشروط فإنما ذاك فيما لا ضرر على المسلمين فيه فأما ما يضر المسلمين فلا يجوز إقرارهم عليه بحال ولو فرض إقرارهم على ما يضر المسلمين في أنفسهم وأموالهم فلا يجوز إقرارهم على إفساد دين الله والطعن على كتابه ورسوله.
ولهذه المراتب قال كثير من الفقهاء: إن عهدهم ينتقض بما يضر المسلمين من المخالفة دون ما لا يضرهم وخص بعضهم ما يضرهم في دينهم دون ما يضرهم في دنياهم والطعن على الرسول أعظم المضرات في دينهم.
إذا تبين هذا فنقول: قد شرط عليهم أن لا يظهروا سب الرسول وهذا الشرط ثابت من وجهين:
أحدهما: أنه موجب عقد الذمة ومقتضاه كما أن سلامة المبيع من العيوب وحلول الثمن وسلامة المرأة والزوج من موانع الوطء وإسلام الزوج وحريته إذا كانت الزوجة حرة مسلمة هو موجب العقد المطلق ومقتضاه فإن موجب العقد هو ما يظهر عرفا أن العاقد شرطه وإن لم يتلفظ به كسلامة المبيع.
ومعلوم أن الإمساك عن الطعن في الدين وسب الرسول من ما يعلم أن المسلمين يقصدونه بعقد الذمة ويطلبونه كما يطلبون الكف عن مقاتلتهم وأولى فإنه من أكبر المؤذيات والكف عن الأذى العام موجب عقد الذمة وإذا كان ظاهر حال المشترى أنه دخل على أن السلعة سليمة من العيوب حتى يثبت له الفسخ بظهور العيب وإن لم يشرطه فظاهر حال المسلمين الذين عاقدوا أهل الذمة أنهم دخلوا على أن المشركين يكفون عن إفساد دينهم والطعن فيه بيد أو لسان وأنهم لو علموا أنهم يظهرون الطعن في دينهم لم يعاهدوهم على ذلك وأهل الذمة يعلمون ذلك كعلم البائع أن المشتري إنما دخل معه على أن المبيع سالم بل هذا أظهر وأشهر ولا خفاء به.
<u>الوجه الثاني</u>: في ثبوت هذا الشرط أن الذين عاهدوهم أولا هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر ومن كان معه وقد نقلنا العهد الذي بيننا وبينهم وذكرنا أقوال الذين عاهدوهم وهو عهد متضمن أنه شرط عليهم الإمساك عن الطعن في دين المسلمين وأنهم إذا فعلوا ذلك حلت دمائهم وأموالهم ولم يبق بيننا وبينهم عهد وإذا ثبت أن ذلك مشروط عليهم في العقد فزواله يوجب انفساخ العقد لأن الانفساخ أيضا مشروط عليهم ولأن الشرط حق الله كاشتراط إسلام الزوج والزوجة فإذا فات هذا الشرط بطل العقد كما يبطل إذا ظهر الزوج كافرا أو المرأة وثنية أو المبيع غصبا أو حرا أو تجدد بين الزوجين صهر أو رضاع يحرم أحدهما على الآخر أو تلف المبيع بعد القبض فإن هذه الأشياء كما لم يجز الإقدام على العقد مع العلم بها أبطل العقد مقارنتها له أو طروءها عليه فكذلك وجود هذه الأقوال والأفعال من الكافر لما لم يجز للإمام أن يعاهده مع إقامته عليها كان وجودها موجبا لفسخ عقده من غير إنشاء فسخ على أنا لو قدرنا أن العقد لا ينفسخ إلا بفسخ الإمام فإنه يجب عليه فسخه بغير تردد لأنه عقده للمسلمين فإنه لو اشترى الوالي سلعة لليتيم فبانت معيبة وجب عليه استدراك ما فات من مال اليتيم وفسخه يكون بقوله وبفعله وقتله له فسخ لعقده.
نعم لا يجوز له أن يفسخه بجرد القول فإن فيه ضررا على المسلمين وليس للسلطان فعل ما فيه ضرر على المسلمين مع القدرة على تركه وقولنا:
"إن الذمي انتقض عهده" أي لم يبق له عهد يعصم دمه والأول هو الوجه فإن بقاء العقد مع وجود ما ينافيه محال.
نعم هنا اختلف الفقهاء فيما ينافي العقد فقائل يقول: جميع المخالفات تنافيه بناء على أنه ليس للإمام أن يصالحهم بدون شيء من الشروط التي شرط عمر.
وقائل يقول: التي تنافيه هي المخالفات المضرة بالمسلمين بناء على جواز مصالحتهم على ما هو دون ذلك كما صالحهم النبي صلى الله عليه وسلم أولا حال ضعف الإسلام.

وقائل يقول: التي تنافيه هي ما يوجب الضرر العام في الدين أو الدنيا كالطعن على الرسول ونحوها.
وبالجملة فكل ما لا يجوز للإمام أن يعاهدهم مع كونهم يفعلونه فهو مناف للعقد كما أن ما لا يجوز للمتبايعين والمتناكحين أن يتعاقدا مع وجوده فهو مناف للعقد.
وإظهار الطعن في الدين لا يجوز للإمام أن يعاهدهم مع وجوده منهم أعني مع كونهم ممكنين من فعله إذا أرادوا وهذا مما أجمع المسلمون عليه ولهذا بعضهم يعاقبون على فعله بالتعزير وأكثرهم يعاقبون عليه بالقتل.
وهو مما لا يشك فيه المسلم ومن شك فيه فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه.
وإذا كان العقد لا يجوز عليه كان منافيا للعقد ومن خالف شرطا مخالفة تنافي ابتداء العقد فإن عقده ينفسخ بذلك بلا ريب كأحد الزوجين إذا أحدث دينا يمنع ابتداء العقد مثل ارتداد المسلم أو إسلام المرأة تحت الكافر فإن العقد ينفسخ بذلك: إما في الحال أو عقب انقضاء العدة أو بعد عرض القاضي كما هو مقرر في مواضعه.
فإحداث أهل الذمة الطعن في الدين مخالفة بموجب العقد مخالفة تنافي ابتداءه فيجب انفساخ عقدهم بها وهذا بين لما تأمله وهو يوجب انفساخ العقد بما ذكرناه عند جميع الفقهاء ويتبين أن ذلك هو مقتضى قياس الأصول.
واعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها من جهة المعنى في الذمي فأما المسلم إذا سب فلم يحتج أن يذكر فيه شيئا من جهة المعنى لظهور ذلك في حقه ولكون المحل محل وفاق ولكن سيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق الأمر فيه هل سبه ردة محضة كسائر الردد الخالية عن زيادة مغلظة أو هو نوع من الردة متغلظ بقتله على كل حال؟ وهل يقتل للسب مع الحكم بإسلامه أم لا؟ والله سبحانه أعلم.
فإن قيل: فقد قال تعالى: {لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور} فأخبر أنا نسمع منهم الأذى الكثير ودعانا إلى الصبر على أذاهم وإنما يؤذينا أذى عاما الطعن في كتاب الله ودينه ورسوله وقوله تعالى: {لن يضروكم إلا أذى} من هذا الباب.
قلنا: <u>أولا</u>: ليس في الآية بيان أن ذلك مسموع من أهل الذمة والعهد وإنما هو مسموع في الجملة من الكفار.
<u>وثانيا</u>: إن الأمر بالصبر على أذاهم وبتقوى الله لا يمنع قتالهم عند المكنة وإقامة حد الله عليهم عند القدرة فإنه لا خلاف بين المسلمين أنا إذا سمعنا مشركا أو كتابيا يؤذي الله ورسوله فلا عهد بيننا وبينه وجب علينا أن نقاتله ونجاهده إذا أمكن ذلك
<u>وثالثا</u>: أن هذه الآية وما شابهها منسوخ من بعض الوجوه وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كان بها يهود كثير ومشركون وكان أهل الأرض إذ ذاك صنفين: مشركا أو صاحب كتاب فهادن رسول الله صلى الله عليه وسلم من بها من اليهود وغيرهم وأمرهم الله إذ ذاك بالعفو والصفح كما في قوله تعالى: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره} فأمره الله بالعفو والصفح عنهم إلى أن يظهر الله دينه ويعز جنده فكان أول العز وقعة بدر فإنها أذلت رقاب أكثر الكفار الذين بالمدينة وأرهبت سائر الكفار.
وقد أخرجا في الصحيحين عن عروة عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ركب حمارا على إكاف على قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر فسار حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول وذلك قبل أن يسلم عبد الله بي أبي وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر ابن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون
فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب؟ يريد عبد الله بن أبي قال كذا وكذا قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح فوالذي نزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البحرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك فذلك الذي فعل به ما رأيت فعفا عنه رسول الله.
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله تعالى ويصبرون على الأذى قال الله تعالى: {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور} وقال الله عز وجل: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير} .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو ما أمره الله تعالى حتى أذن الله عز وجل فيهم فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا فقتل الله تعالى به من قتل من صناديد قريش وقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منصورين غانمين مع أسارى من صناديد الكفار وسادة قريش فقال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام فأسلموا اللفظ للبخاري.
وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى: {وأعرض عن المشركين} {لست عليهم بمصيطر} {فاعف عنهم واصفح} {وإن تعفوا وتصفحوا} {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره} {قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله} ونحو هذا في القرآن مما أمر الله به المؤمنين بالعفو والصفح عن المشركين فإنه نسخ ذلك كله قوله تعالى: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} وقوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر} إلى قوله: {وهم صاغرون} فنسخ هذا عفوه عن المشركين.
وكذلك روى الإمام أحمد وغيره عن قتادة قال: أمر الله نبيه أن يعفو عنهم ويصفح حتى يأتي الله بأمره وقضائه ثم أنزل الله عز وجل براءة فأتى الله بأمره وقضائه فقال تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله} الآية قال: فنسخت هذه الآية ما كان قبلها وأمر الله فيها بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يقروا بالجزية صغارا ونقمة لهم.
وكذلك ذكر موسى بن عقبة عن الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقاتل من كف عن قتاله كقوله تعالى: {فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا} إلى أن نزلت براءة.
وجملة ذلك أنه لما نزلت براءة أمر أن يبتدئ جميع الكفار بالقتال وثنيهم وكتابيهم سواء كفوا عنه أو لم يكفوا وإن ينبذ إليهم تلك العهود المطلقة التي كانت بينه وبينهم وقيل له فيها: {جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} بعد أن كان قد قيل له: {ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم} .
ولهذا قال زيد بن أسلم: نسخت هذه الآية ما كان قبلها فأما قبل براءة وقبل بدر فقد كان مأمورا بالصبر على أذاهم والعفو عنهم وأما بعد بدر وقبل براءة فقد كان يقاتل من يؤذيه ويمسك عمن سالمه كما فعل بابن الأشرف وغيره ممن كان يؤذيه فبدر كانت أساس عز الدين وفتح مكة كانت كمال عز الدين فكانوا قبل بدر يسمعون الأذى الظاهر ويؤمرون بالصبر عليه وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم فيؤمرون بالصبر عليه وفي تبوك أمروا بالإغلاظ للكفار والمنافقين فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من أذاهم في مجلس خاص ولا عام بل مات بغيظه لعلمه بأنه يقتل إذا تكلم وقد كان بعد بدر لليهود استطالة وأذى للمسلمين إلى أن قتل كعب بن الأشرف.
قال محمد بن إسحاق في حديثه عن محمد بن مسلمة قال: فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعد والله فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه.
وروى بإسناده عن محيصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه" فوثب محيصة بن مسعود على ابن سنينة رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان حويصة ابن مسعود إذ ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضر به ويقول: أي عدو الله قتلته أما والله لرب شحم في بطنك من ماله فوالله إن كان لأول إسلام حويصة فقال محيصة: فقلت له: والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك فقال: لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟
فقال محيصة: نعم والله فقال حويصة: والله إن دينا بلغ هذا منك لعجب.
وذكر غير ابن إسحاق أن اليهود حذرت وذلت وخافت من يوم قتل ابن الأشرف فلما أتى الله بأمره الذي وعده من ظهور الدين وعز المؤمنين أمر رسوله بالبراءة إلى المعاهدين وبقتال المشركين كافة وبقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.
فكان ذلك عاقبة الصبر والتقوى اللذين أمرهم بهما في أول الأمر وكان إذ ذاك لا يؤخذ من أحد من اليهود الذين بالمدينة ولا غيرهم جزية وصارت تلك الآيات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه وصارت آية الصغار على المعاهدين في حق كل مؤمن قوي يقدر على نصر الله ورسوله بيده أو لسانه وبهذه الآية ونحوها كان المسلمون يعملون في آخر عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهده خلفائه الراشدين وكذلك هو إلى قيام الساعة لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمين على الحق ينصرون الله ورسوله النصر التام فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

فإن قيل: قد قال الله تعالى: {ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى} إلى قوله: {وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} فأخبر أنهم يحيون الرسول تحية منكرة وأخبر أن العذاب في الآخرة يكفيهم عليها فعلم أن تعذيبهم في الدنيا ليس بواجب.
وعن أنس بن مالك قال: مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: السام عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وعليك" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتدرون ما يقول؟ " قالوا: لا قال: يقول "السام عليك" قالوا: يا رسول الله ألا نقتله قال: "لا إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم " رواه البخاري.
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك قالت عائشة: ففهمتها فقلت: عليكم السام واللعنة قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مهلا يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله" فقلت: يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال: "قد قلت: وعليكم " متفق عليه.
وعن جابر قال: " سلم ناس من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم فقال "وعليكم" فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: "بلى قد سمعت فرددت عليهم وإنا نجاب ولا يجابون علينا " رواه مسلم.
ومثل هذا الدعاء أذى للنبي صلى الله عليه وسلم وسب له ولو قاله المسلم لصار به مرتدا لأنه دعاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته بأنه يموت وهذا فعل كافر ومع هذا فلم يقتلهم بل نهى عن قتل اليهودي الذي قال ذلك لما استأمره أصحابه في قتله.
قلنا: عن هذا أجوبة:
أحدها: أن هذا كان في حال ضعف الإسلام ألا ترى أنه قال لعائشة: "مهلا يا عائشة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله" وهذا الجواب كما ذكرناه في الأذى الذي أمر الله بالصبر عليه إلى أن أتى الله بأمره.
ذكر هذا الجواب طوائف من المالكية والشافعية والحنبلية: منهم القاضي أبو يعلى وأبو إسحاق الشيرازي وأبو الوفاء بن عقيل وغيرهم ومن أجاب بهذا جعل الأمان كالإيمان في انتقاضه بالشتم ونحوه.
وفي هذا الجواب نظر لما روي ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن اليهود إذا سلم أحدهم فإنما يقول السام عليكم فقولوا: عليك ".
وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم " متفق عليهما.
فعلم أن هذا سنة قائمة في حق أهل الكتاب مع بقائهم على الذمة وأنه صلى الله عليه وسلم حال عز الإسلام لم يأمر بقتلهم لأجل هذا وقد ركب إلى بني النضير فقال: "إذا سلموا عليكم فقولوا: وعليكم" وكان ذلك بعد قتل ابن الأشرف فعلم أنه كان بعد قوة الإسلام.
نعم قد قدمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع من الكفار والمنافقين في أول الإسلام إذا كثيرا وكان يصبر عليه امتثالا لقوله تعالى: {ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم} لأن إقامة الحدود عليهم كان يفضي إلى فتنة عظيمة ومفسدة أعظم من مفسدة الصبر على كلاماتهم.
فلما فتح الله مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا وأنزل الله براءة قال فيها: {جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} وقال تعالى: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض} إلى قوله: {أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا} .
فلما رأى من بقي من المنافقين ما صار الأمر إليه من عز الإسلام وقيام الرسول بجهاد الكفار والمنافقين أضمروا النفاق فلم يكن يسمع من أحد من المنافقين بعد غزوة تبوك كلمة سوء وماتوا بغيظهم حتى بقي منهم أناس بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم يعرفهم صاحب السر حذيفة فلم يكن يصلي عليهم هو ولا يصلي عليهم من عرفهم بسبب آخر مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
فهذا يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحتمل من الكفار والمنافقين قبل براءة ما لم يكن يحتمل فهم بعد ذلك كما قد كان يحتمل من أذى الكفار وهو بمكة ما لم يكن يحتمل بدار الهجرة والنصرة لكن هذه الكلمة ليست من هذا الباب كما قد بيناه.
الجواب الثاني: أن هذا ليس من السب الذي ينتقض به العهد لأنهم إنما أظهروا التحية الحسنة والسلام المعروف ولم يظهروا سبا ولا شتما وإنما حرفوا السلام تحريفا خفيا لا يظهر ولا يفطن له أكثر الناس ولهذا لما سلم اليهودي على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ السام لم يعلم به أصحابه حتى أعلمهم وقال: "إن اليهود إذا سلم أحدهم فإنما يقول السام عليكم" وعهدهم لا ينتقض بما يقولونه سرا من كفر أو تكذيب فإن هذا لا بد منه وكذلك لا ينتقض العهد بما يخفونه من السب وإنما ينتقض بما يظهرونه.
وقد ذكر غير واحد أن اليهود كانوا يدخلون على النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: السام عليك فيرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "وعليكم"

ولا يدري ما يقولون فإذا خرجوا قالوا: لو كان نبيا لعذبنا واستجيب فينا وعرف قولنا فدخلوا عليه ذات يوم وقالوا: السام عليك ففطنت عائشة إلى قولهم وقالت: وعليكم السام والذام والداء واللعنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مه يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله ولا يحب الفحش ولا التفحش " فقالت: يا رسول الله ألم تسمع إلى ما قالوا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم ".

فهذا دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يظهر له أنه سب ولذلك نهى عائشة عن التصريح بشتمهم وأمرها بالرفق بأن ترد عليهم تحيتهم فإن كانوا قد حيوا تحية سيئة استجيب لنا فيهم ولم يستجب لهم فينا ولو كان ذلك من باب شبهم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الذي هو السب لكان فيه العقوبة ولو بالتعزير والكلام.

فلما لم يشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذه التحية تعزيرا ونهى من أغلظ عليهم لأجلها علم أن ذلك ليس من السب الظاهر لكونهم أخفوه كما يخفي المنافقون نفاقهم ويعرفون في لحن القول فلا يعاقبون بمثل ذلك وسيأتي تمام الكلام إن شاء الله تعالى في ذلك.

<u>الجواب الثالث</u>: أن قول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم له ألا نقتله لما أخبرهم أنه قال السام عليكم دليل على أنه كان مستقرا عندهم قتل الساب من اليهود لما رأوه قتل ابن الأشرف والمرأة وغيرهما فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن قتله وأخبرهم أن مثل هذا الكلام حقه أن يقابل بمثله لأنه ليس إظهارا للسب والشتم من جنس ما فعلت تلك اليهودية وابن الأشرف وغيرهما وإنما هو إسرار به كإسرار المنافقين بالنفاق.

<u>الجواب الرابع</u>: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يعفو عمن شتمه وسبه في حياته وليس للأمة أن يعفو عن ذلك.

يوضح ذلك أنه لا خلاف أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه بعد موته من المسلمين كان كافرا حلال الدم وكذلك من سب نبيا من الأنبياء ومع هذا فقد قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا} وقال تعالى: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم} فكان بنو إسرائيل يؤذون موسى في حياته بما لو قاله اليوم أحد من المسلمين وجب قتله ولم يقتلهم موسى عليه السلام وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يقتدى به في ذلك فربما سمع أذاه أو بلغه فلا يعاقب المؤذي على ذلك قال الله تعالى: {ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن} الآية وقال تعالى: {ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون} .

وعن الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يقسم إذ جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله قال: "ويلك من يعدل إذا لم اعدل؟ " قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه قال: "دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " وذكر الحديث وفيه نزلت {ومنهم من يلمزك في الصدقات} .

هكذا رواه البخاري وغيره من حديث معمر عن الزهري وأخرجاه في الصحيحين من وجوه أخرى عن الزهري عن أبي سلمة والضحاك الهمداني عن أبي سعيد قال: "بينا نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بن تميم فقال: يا رسول الله اعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ويلك من يعدل إذا لم اعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل " فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ائذن لي فيه فأضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم " وذكر حديث الخوارج المشهور ولم يذكر نزول الآية.

وتسمينة ذي الخويصرة هو المشهور في عامة الحديث كما رواه عامة أصحاب الزهري عنه والأشبه أن ما انفرد به معمر وهم منه فإن له مثل ذلك وقد ذكروا أن اسمه حرقوص بن زهير.

وفي الصحيحين أيضا من حديث عبد الرحمن بن أبي نعم عن أبي سعيد قال: بعث علي رضي الله عنه وهو باليمن إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهيبة في تربتها فقسمها بين أربعة نفر وفيه: فغضب قريش والأنصار وقالوا: يعطيه صناديد أهل نجد ويدعنا فقال: إنما أتألفهم فأقبل رجل غائر العينين ناتيء الجبين كث اللحية مشرف الوجنتين محلوق الرأس فقال: يا محمد اتق الله قال: " فمن يطع الله إذا عصيته؟ أفيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني " فسأل رجل من القوم قتله أراه خالد بن الوليد فمنعه

فلما ولى قال: إن من ضئضئ هذا قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم" وذكر الحديث في صفة الخوارج وفي آخره " يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد ".

وفي رواية لمسلم: " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساء " وفيها فقال: يا رسول الله اتق الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟ " قال: ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد: يا

رسول الله ألا أضرب عنقه فقال: "لا لعله أن يكون يصلي " قال خالد بن الوليد: "وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟ " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم ".
وفي رواية في الصحيح: فقام إليه عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: "لا" فقام إليه خالد سيف الله فقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: "لا".
فهذا الرجل قد نص القرآن أنه من المنافقين بقوله: {ومنهم من يلمزك في الصدقات} أي يعيبك ويطعن عليك وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم: اعدل واتق الله بعدما خص بالمال أولئك الأربعة نسب للنبي صلى الله عليه وسلم إلى أنه جار ولم يتق الله ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟ ".
ومثل هذا الكلام لا ريب أنه يوجب القتل لو قاله اليوم أحد وإنما لم يقتله النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان يظهر الإسلام وهو الصلاة التي يقاتل الناس حتى يفعلوها وإنما كان نفاقه بما يخص النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى وكان له أن يعفو عنه وكان يعفو عنهم تأليفا للقلوب لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه وقد جاء ذلك مفسرا في هذه القصة أو في مثلها.
فروى مسلم في صحيحه عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: "أتى رجل بالجعرانة منصرفه من حنين وفي ثوب بلال فضة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقبض منها يعطي منها الناس فقال: يا محمد اعدل فقال: "ويحك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل " فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم: " معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية ".
وروى البخاري منه عن عمرو عن جابر رضي الله عنهما: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنيمة بالجعرانة إذ قال له رجل: اعدل فقال: " لقد شقيت إن لم أعدل ".
وجاء من كلامه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أغلظ من هذا قال ابن إسحاق في رواية ابن بكير عنه: حدثني أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث قال: خرجت أنا وتيلد بن كلاب الليثي فلقينا عبد الله بن عمرو بن العاص يطوف بالكعبة معلقا نعليه في يديه فقلنا له: هل حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ذو الخويصرة التميمي يكلمه؟ قال: نعم ثم حدثنا فقال: أتى ذو الخويصرة التميمي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم المغانم بحنين فقال: يا محمد قد رأيت ما صنعت قال: "فكيف رأيت؟ " فقال: لم أرك عدلت فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ " فقال عمر: يا رسول الله ألا أقوم إليه فأضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية " وذكر تمام الحديث.
قال ابن إسحاق: حدثني أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين قال: أتى ذو الخويصرة التميمي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم المقاسم بحنين وذكر مثل هذا سواء.
ورواه الإمام أحمد عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن ابن إسحاق نحو هذا.
وقال الأموي عن ابن إسحاق وذكر الحديث عن أبي عبيدة وعن محمد بن علي وعن ابن أبي نجيح عن أبيه: أن رجلا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم قال: ولم يسمه إلا محمد بن علي فإنه قال: هو ذو الخويصرة التميمي.
وكذلك ذكر غيره أن ذا الخويصرة هو الذي اعترض على النبي صلى الله عليه وسلم في قسم غنائم حنين وكذلك المنافق الذي سمعه ابن مسعود فإنه في غنائم حنين أيضا.
وأما الذي في حديث ابن أبي نعم عن أبي سعيد فإنه كان بعد هذه المرة لأن فيه أن عليا بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو باليمن بذهيبة فقسمها بين أربعة من أهل نجد ولا خلاف بين أهل العلم أن عليا كان في غزوة حنين مع النبي صلى الله عليه وسلم ولم تكن اليمن فتحت يومئذ ثم إنه استعمل عليا على اليمن سنة عشر بعد تبوك وبعد أن بعثه مع أبي بكر إلى الموسم بنبذ العهود ووافى النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع منصرفه من اليمن وكان النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة لما بعث علي بالصدقة ومما يبين ذلك أن غنائم حنين نفل النبي صلى الله عليه وسلم منها خلقا كثيرا من قريش وأهل نجد وهذه الذهيبة إنما قسمها بين أربعة نجديين وإذا كان كذلك فإما أن يكون المعترض في هذه المرة غير ذي الخويصرة ويكون أبو سعيد قد شهد القصتين وعلى هذا فالذي في رواية معمر أن آية الصدقات نزلت في قصة ذي الخويصرة ليس بجيد بل هو مدرج في الحديث من كلام الزهري أو كلام معمر لأن ذا الخويصرة إنما أنكر عليه قسم الغنائم وليست هي الصدقات التي جعلها الله لثمانية أصناف ولا التفات إلى ما ذكره بعض المفسرين من أن الآية نزلت في قسم غنائم حنين وإما أن يكون المعترض في ذهيبة علي رضي الله عنه هو ذو الخويصرة أيضا وعلى هذا فتكون أحاديث أبي سعيد كلها في هذه القصة لا في قسم الغنائم وتكون الآية قد نزلت في ذلك أو يكون قد شهد القصتين معا والآية نزلت في إحداهما.

وقد روى عن أبي برزة الأسلمي قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال فقسمه فأعطى من عن يمينه ومن عن شماله ولم يعط من وراءه شيئا فقام رجل من ورائه فقال: يا محمد ما عدلت في القسمة رجل أسود مطموم الشعر عليه ثوبان أبيضان فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا وقال: " والله لا تجدون بعدي رجلا هو أعدل مني" ثم قال: "يخرج في آخر الزمان قوم كان هذا منهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال فإذا لقيتموهم فاقتلوهم هم شر الخلق والخليقة " رواه النسائي.
ومن هذا الباب ما خرجاه في الصحيحين عن أبي وائل عن عبد الله قال: لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا في القسمة فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطي عيينة بن حصن مثل ذلك وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها أو ما أريد بها وجه الله قال: فقلت والله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه صلى الله عليه وسلم حتى كان كالصرف ثم قال: " فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ " ثم قال: "يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر " قال: فقلت لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثا.
وفي رواية للبخاري قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله.
وذكر الواقدي أن المتكلم بهذا كان معتب بن قشير وهو معدود من المنافقين.
فهذا الكلام مما يوجب القتل بالاتفاق لأنه جعل النبي صلى الله عليه وسلم ظالما مرائيا وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بأن هذا من أذى المرسلين ثم اقتدى في العفو عن ذلك بموسى عليه السلام ولم يستتب لأن القول لم يثبت فإنه لم يراجع القائل ولا تكلم في ذلك بشيء.
ومن ذلك ما رواه ابن أبي عاصم وأبو الشيخ في الدلائل بإسناد صحيح عن قتادة عن عقبة بن وساج عن عمر قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقليد من ذهب وفضة فقسمه بين أصحابه فقام رجل من أهل البادية فقال: يا محمد والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل فقال: " ويحك من يعدل عليك بعدي؟ " فلما ولى قال: "ردوه علي رويدا".
ومن ذلك قول الأنصاري الذي حاكم الزبير في شراج الحرة لما قال له صلى الله عليه وسلم " اسق يا زبير ثم سرح الماء إلى جارك" فقال: أن كان ابن عمتك؟
وحديث الرجل الذي قضى عليه فقال: لا أرضى ثم ذهب إلى أبي بكر ثم إلى عمر فقتله.
ولهذا نظائر في الحديث إذا تتبعت مثل الحديث المعروف عن بهز ابن حكيم عن أبيه عن جده أن أخاه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: جيراني على ماذا أخذوا فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن الناس يزعمون أنك تنهى عن الفيء وتستحل به فقال: "لئن كنت أفعل ذلك إنه لعلي وما هو عليهم خلوا له جيرانه " رواه أبو داود بإسناد صحيح.
فهذا وإن كان قد حكى هذا القذف عن غيره فإنما قصد به انتقاصه وإيذاءه بذلك ولم يحكه على وجه الرد على من قاله وهذا من أنواع السب.
ومثل حديث ابن إسحاق عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: ابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم جزورا من أعرابي بوسق من تمر الذخيرة فجاء به إلى منزله فالتمس التمر فلم يجده في البيت قال: فخرج إلى الأعرابي فقال: "يا عبد الله إنا ابتعنا منك جزورك هذا بوسق من تمر الذخيرة ونحن نرى أنه عندنا فلم نجده" فقال الأعرابي: واغدراه واغدراه فوكزه الناس وقالوا: لرسول الله صلى الله عليه وسلم تقول هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعوه" رواه ابن أبي عاصم وابن حبان في الدلائل.
فهذا الباب كله مما يوجب القتل ويكون به الرجل كافرا منافقا حلال الدم كان النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء عليهم السلام يعفون ويصفحون عمن قاله امتثالا لقوله تعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} وكقوله تعالى: {ادفع بالتي هي أحسن} وقوله تعالى: {ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم} وكقوله تعالى: {ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر} وكقوله تعالى: {ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم} وذلك لأن درجة الحلم والصبر على الأذى والعفو عن الظلم أفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة يبلغ الرجل بها ما لا يبلغه بالصيام والقيام قال تعالى: {والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} وقال تعالى: {وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله} وقال تعالى: {إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا} وقال: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين} .
والأحاديث في هذا الباب كثيرة مشهورة ثم الأنبياء أحق الناس بهذه الدرجة لفضلهم وأحوج الناس إليها لما ابتلوا به من دعوة الناس ومعالجتهم وتغيير ما كانوا عليه من العادات هو أمر لم يأت به أحد إلا عودي فالكلام الذي يؤذيهم يكفر به الرجل

فيصير به محاربا إن كان ذا عهد ومرتدا أو منافقا إن كان ممن يظهر الإسلام ولهم فيه أيضا حق الآدمي فجعل الله لهم أن يعفوا عن مثل هذا النوع ووسع عليهم ذلك لما فيه من حق الآدمي تغليبا لحق الآدمي على حق الله كما جعل لمستحق القود وحد القذف أن يعفو عن القاتل والقاذف وهم أولى لما في جواز عفو الأنبياء ونحوهم من المصالح العظيمة المتعلقة بالنبي وبالأمة وبالدين وهذا معنى قول عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا انتقم لنفسه قط وفي لفظ: ما نيل منه شيء فانتقمه من صاحبه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبة شيء حتى ينتقم لله متفق عليه.
ومعلوم أن النيل منه أعظم من انتهاك المحارم لكن لما دخل فيها حقه كان الأمر إليه في العفو أو الانتقام فكان يختار العفو وربما أمر بالقتل إذا رأى المصلحة في ذلك بخلاف ما لا حق له فيه من زنا أو سرقة أو ظلم لغيره فإنه يجب عليه القيام به.
وقد كان أصحابه إذا رأوا من يؤذيه أرادوا قتله لعلمهم بأنه يستحق القتل فيعفو هو عنه صلى الله عليه وسلم ويبين لهم أن عفوه أصلح مع إقراره لهم على جواز قتله ولو قتله قاتل قبل عفو النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرض له النبي صلى الله عليه وسلم لعلمه بأنه قد انتصر لله ورسوله بل يحمده على ذلك ويثني عليه كما قتل عمر رضي الله عنه الرجل الذي لم يرضى بحكمه وكما قتل رجل بنت مروان وآخر اليهودية السابة فإذا تعذر عفوه بموته صلى الله عليه وسلم بقي حقا محضا لله ولرسوله وللمؤمنين لم يعف عنه مستحقه فتجب إقامته.
ويبين ذلك ما روى إبراهيم بن الحكم بن أبان: حدثني أبي عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستعينه في شيء فأعطاه شيئا ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت قال: فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام فدخل منزله ثم أرسل إلى الأعرابي فدعاه إلى البيت يعني فأعطاه فرضي فقال: "إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت وفي أنفس المسلمين شيء من ذلك فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك" قال: نعم فلما كان الغد أو العشي جاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن صاحبكم هذا جاء فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وإنا دعوناه إلى البيت فأعطيناه فزعم أنه قد رضي أكذلك؟ " قال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " ألا إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فناداهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فجاءت فاستناخت فشد عليها رحلها واستوى عليها وإني لو تركتكم حين قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار ".
ورواه أبو أحمد العسكري بهذا الإسناد قال: "جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد أعطني فإنك لا تعطيني من مالك ولا من مال أبيك فأغلظ للنبي صلى الله عليه وسلم فوثب إليه أصحابه فقالوا: يا عدو الله تقول هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ".
وذكره بهذا يبين لك أن قتل ذلك الرجل لأجل قوله ما قال كان جائزا قبل الاستتابة وأنه صار كافرا بتلك الكلمة ولولا ذلك لما كان يدخل النار إذا قتل على مجرد تلك الكلمة بل كان يدخل الجنة لأنه مظلوم شهيد وكان قاتله دخل النار لأنه قتل مؤمنا متعمدا ولكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين أن قتله لم يحل لأن سفك الدم بغير حق من أكبر الكبائر وهذا الأعرابي كان مسلما ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في حقه لفظ "صاحبكم" ولهذا جاءه الأعرابي يستعينه ولو كان كافرا محاربا لما جاء يستعينه في شيء ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه ليسلم لذكر في الحديث أنه أسلم فلما لم يجر للإسلام ذكر دل على أنه كان ممن دخل الإسلام وفيه جفاء الأعراب وممن دخل في قوله تعالى: {فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون} .
ومما يوضح ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعفو عن المنافقين الذين لا يشك في نفاقهم حتى قال: لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت حتى نهاه الله عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وأمره بالإغلاظ عليهم فكثير مما كان يحتمله من المنافقين من الكلام وما يعاملهم من الصفح والعفو والاستغفار كان قبل نزول براءة لما قيل له: {ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم} لاحتياجه إذ ذاك إلى استعطافهم وخشية نفور العرب عنه إذا قتل أحدا منهم وقد صرح صلى الله عليه وسلم لما قال ابن أبي: {لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل} ولما قال ذو الخويصرة: اعدل فإنك لم تعدل وعند غير هذه القضية أنه أنما لم يقتلهم لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه فإن الناس ينظرون إلى ظاهر الأمر فيرون واحدا من أصحابه قد قتل فيظن الظان أنه يقتل بعض أصحابه على غرض أو حقد أو نحو ذلك فينفر الناس عن الدخول في الإسلام وإذا كان من شريعته أن يتألف الناس على الإسلام بالأموال العظيمة ليقوم دين الله وتعلو كلمته فلأن يتألفهم بالعفو أولى وأحرى.

فلما أنزل الله براءة ونهاه عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم وأمره أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم نسخ جميع ما كان المنافقون يعاملون به من العفو كما نسخ ما كان الكفار يعاملون به من الكف عمن سالم ولم يبق إلا إقامة الحدود وإعلاء كلمة الله في حق الإنسان.

فإن قيل: فقد قال تعالى: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة} إلى قوله: {من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين} .

وقولهم: {واسمع غير مسمع} مثل قولهم: اسمع لا سمعت واسمع غير مقبول منك لأن من لا يقصد إسماعه لا يقبل كلامه.

وقولهم {راعنا} قال قتادة وغيره: كانت اليهود تقول للنبي صلى الله عليه وسلم راعنا سمعك يستهزئون بذلك وكانت في اليهود قبيحة.

وروى الإمام أحمد عن عطية قال: كان يأتي ناس من اليهود فيقولون: راعنا سمعك حتى قالها ناس من المسلمين فكره الله لهم ما قالت اليهود.

وقال عطاء الخرساني: كان الرجل يقول: أرعنا سمعك ويلوي بذلك لسانه ويطعن في الدين.

وذكر بعض أهل التفسير أن هذه اللفظة كانت سبا قبيحا بلغة اليهود.

فهؤلاء قد سبوه صلى الله عليه وسلم بهذا الكلام ولووا ألسنتهم به واستهزءوا به وطعنوا في الدين ومع ذلك فلم يقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم.

قلنا: عن ذلك أجوبة:

أحدها: أن ذلك كان في حال ضعف الإسلام في الحال التي أخبر الله عن رسوله والمؤمنين أنهم يسمعون من الذين أوتوا الكتاب والمشركين أذى كثيرا وأمرهم بالصبر والتقوى ثم إن ذلك نسخ عند القوة بالأمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون والصاغر لا يفعل شيئا من الأذى في الوجه ومن فعله فليس بصاغر.

ثم إن من الناس من يسمي ذلك نسخا لتغير الحكم ومنهم من لا يسميه نسخا لأن الله تعالى أمرهم بالعفو والصفح إلى أن يأتي الله بأمره وقد أتى الله بأمره من عز الإسلام وإظهاره والأمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وهذا مثل قوله تعالى: {فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا} وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قد جعل الله لهن سبيلا" فبعض الناس يسمي ذلك نسخا وبعضهم لا يسميه نسخا والخلاف لفظي.

ومن الناس من يقول: الأمر بالصفح باق عند الحاجة إليه بضعف المسلم عن القتال بأن يكون في وقت أو مكان لا يتمكن منه وذلك لا يكون منسوخا إذ المنسوخ ما ارتفع في جميع الأزمنة المستقبلة.

وبالجملة فلا خلاف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مفروضا عليه لما قوي أن يترك ما كان يعامل به أهل الكتاب والمشركين ومظهري النفاق من العفو والصفح إلى قتالهم وإقامة الحدود عليهم سمي نسخا أو لم يسم.

الجواب الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان له أن يعفو عمن سبه وليس للأمة أن تعفو عمن سبه كما قد كان يعفو عمن سبه من المسلمين مع أنه لا خلاف بين المسلمين في وجوب قتل من سبه من المسلمين.

الجواب الثالث: أن هذا ليس بإظهار للسب وإنما هو إخفاء له بمنزلة "السام عليكم" وبمنزلة ظهور النفاق في لحن القول لأنهم كانوا يظهرون أنهم يقصدون مسألته أن يسمع كلامهم وأن يراعيهم فينتظرهم حتى يقضوا كلامهم وحتى يفهموا كلامه ويأتونه على هذا الوجه ثم إنهم يلوون ألسنتهم بالكلام وينوون به الاستهزاء والسب والطعن في الدين كما يلوون ألسنتهم بالسام وينوون به الدعاء عليه بالموت واليهود أمة معروفة بالنفاق والخبث وأن تظهر خلاف ما تبطن ولكن ذلك لا يوجب إقامة الحد عليهم.

ولو كان هذا سبا ظاهرا لما كان المسلمون يخاطبون بمثل ذلك قاصدين به الخير حتى نهوا عن التكلم بكلام يحتمل الاستهزاء ويوهمه بحيث يصير سبا بالنية ودلالة الحال.

وذلك أن هذه اللفظة كانت العرب تتخاطب بها لا تقصد سبا قال عطاء: كانت لغة في الأنصار في الجاهلية وقال أبو العالية: إن مشركي العرب إذا حدث بعضهم بعضا يقول أحدهم لصاحبه: أرعني سمعك فنهو عن ذلك وكذلك قال الضحاك وذلك أن العرب تقول: أرعيته سمعي إرعاء إذا فرغته لكلامه لأنك جعلت السمع يرعى كلامه وتقول "راعيته سمعي" بهذا المعنى لكن كانت اليهود تعتقدها سبا بينها: إما لما فيه من الاشتراك فإنها كما تستعمل في استرعاء السمع تستعمل بمعنى المفاعلة كأنه قيل: راعني حتى أراعيك وهذا إنما يكون بين الأمثال والنظراء ومرتبة الرئيس أعلى من ذلك أو أن اليهود ينوون بها معنى الرعونة أو فيها طلب حفظ الكلام والاهتمام به وهذا إنما يكون من الأعلى للأسفل لأن الرعاية هي الحفظ والكلاءة ومنه استرعاء الشاة.

وقد غلبت في عرفهم ولغتهم على معنى رديء كما قيل: إنهم ينوون بها اسمع لا سمعت وبالجملة إنما يصير مثل هذا سبا بالنية ولي اللسان ونحوه فنهي المسلمون عنها حسما لمادة التشبه باليهود وتشبه اليهود بهم وجعل ذلك ذريعة إلى الاستهزاء به ولما يحتمله لفظها من قلة الأدب في مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

الجواب الرابع: ما ذكره بعض أهل التفسير الذي ذكر أنها كانت سبا قبيحا بلغة اليهود قال: كان المسلمون يقولون راعنا يا رسول الله وأرعنا سمعك يعنون من المراعاة وكانت هذه اللفظة سبا قبيحا بلغة اليهود فلما سمعتها اليهود اغتنموها وقالوا فيما بينهم: كنا نسب محمدا سرا فأعلنوا له الآن بالشتم وكانوا يأتونه ويقولون: راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها وكان يعرف لغتهم فقال لليهود: عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده يا معشر اليهود لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه فقالوا: أولستم تقولنها؟ فأنزل الله: {يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا} لكيلا يتخذ اليهود ذلك سبيلا إلى شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهذا القول دليل على أن اللفظة مشتركة في لغة العرب ولغة العبرانيين وأن المسلمين لم يكونوا يفهمون من اليهود إذا قالوها إلا معناها في لغتهم فلما فطنوا لمعناها في اللغة الأخرى نهوهم عن قولها وأعلموهم أن ذلك ناقض لعهدهم ومبيح لدمائهم وهذا أوضح دليل على أنهم إذا تكلموا بما يفهم منه السب حلت دماؤهم وإنما لم يستحلوا دماءهم لأن المسلمين لم يكونوا يفهمون السب والكلام في السب الظاهر وهو ما يفهم منه السب.

فإن قيل: أهل الذمة قد أقررناهم على دينهم ومن دينهم استحلال سب النبي صلى الله عليه وسلم فإذا قالوا ذلك لم يقولوا غير ما أقررناهم عليه وهذه نكتة المخالف.

قلنا: ومن دينهم استحلال قتال المسلمين وأخذ أموالهم ومحاربتهم بكل طريق ومع هذا فليس لهم أن يفعلوا ذلك بعد العهد ومتى فعلوه نقضوا العهد وذلك لأنا وإن كنا نقرهم على أن يعتقدوا ما يعتقدونه ويخفوا ما يخفونه فلم نقرهم على أن يظهروا ذلك ويتكلموا به بين المسلمين ونحن لا نقول بنقض عهد الساب حتى نسمعه يقول ذلك أو يشهد به المسلمون ومتى حصل ذلك كان قد أظهره وأعلنه.

وتحرير الجواب أن كلتا المقدمتين باطلة.

أما قوله "أقررناهم على دينهم" فيقال: لو أقررناهم على كل ما يدينون به لكانوا منزلة أهل ملتهم المحاربين ولو أقررناهم على كل ما يدينون به لم يعاقبوا على إظهار دينهم وإظهار الطعن في ديننا ولا خلاف أنهم يعاقبون على ذلك ولو أقررناهم على دينهم مطلقا لأقررناهم على هدم المساجد وإحراق المصاحف وقتل العلماء والصالحين فإن ما يدينون به مما يؤذي المسلمين كثيرة والخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ثم لا خلاف أنهم لا يقرون على شيء من ذلك وإنما أقررناهم كما قال غرفة بن الحارث على أن نخليهم يفعلون بينهم ما شاءوا مما لا يؤذي المسلمين ولا يضرهم ولا نعترض عليهم في أمور لا تظهر فإن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة وشرطنا عليهم أن لا يفعلوا شيئا يؤذينا ولا يضرنا سواء كانوا يستحلونه أو لا يستحلونه فمتى آذوا الله ورسوله فقد نقضوا العهد وشرطنا عليهم التزام حكم الإسلام وإن كانوا يرون أن ذلك لا يلزمهم في دينهم وشرطنا عليهم أداء الجزية وإن اعتقدوا أن أخذها منهم حرام وشرطنا عليهم إخفاء دينهم فلا يظهرون الأصوات بكتابهم ولا على جنائزهم ولا ضرب ناقوس وشرطنا عليهم أن لا يرتفعوا على المسلمين وأن يخالفوا بهيآتهم هيئة المسلمين على وجه يتميزون به ويكونون أذلاء في تميزهم إلى غير ذلك من الشروط التي يعتقدون أنها ذا تجب عليهم في دينهم.

فعلم أنا شرطنا عليهم ترك كثير مما يعتقدون دينا لهم إما مباحا أو واجبا وفعل كثير مما يعتقدونه ليس من دينهم فكيف يقال: أقررناهم على دينهم مطلقا.

وأما المقدمة الثانية فنقول: هب أنا أقررناهم على دينهم فقوله: "استحلال السب من دينهم" جوابه أن يقال: أهو من دينهم قبل العهد أو من دينهم وإن عاهدوا على تركه.

الأول مسلم لكن لا ينفع لأن هؤلاء قد عاهدوا فإن لم يكن هذا من دينهم في هذه الحال لم يكن لهم أن يفعلوه لأنه من دينهم في حال أخرى وهذا كما أن المسلم من دينه استحلال دمائهم وأموالهم وأذاهم بالهجاء والسب إذا لم نعاهدهم وليس من دينه استحلال ذلك إذا عاهدهم فليس لنا أن نؤذيهم وتقول: قد عاهدناكم على ديننا ومن ديننا استحلال أذاكم فإن المعاهدة التي بين المتحاربين تحرم على كل واحد منهما في دينه ما كان يستحله من ضرر الآخر وأذاه قبل العهد.

وأما الثاني فممنوع فإنه ليس من دينهم استحلال نقض العهد ولا مخالفة من عاهده في شيء مما عاهده بل من دين جميع أهل الأرض الوفاء بالعهد وإن لم يكن هذا معتقدهم فنحن إنما عاهدناهم على أن يدينوا بوجوب الوفاء بالعهد فإن لم يكن دينهم وجوب الوفاء به فلم نعاهدهم على دين يستحل صاحبه نقض العهد ولو عاهدناهم على هذا الدين لكنا قد عاهدناهم على أن يدينوا بنقض العهد فينقضوه ونحن موفون بالعهد وبطلان هذا واضح.

وإذا لم يكن فعل ما عوهدوا على تركه من دينهم فنحن قد عاهدناهم على أن يكفوا عن أذانا بألسنتهم وأيديهم وأن لا يظهروا شيئا من أذى الله ورسوله وأن يخفوا دينهم الذي هو باطل في حكم الله ورسوله وإذا عاهدوا على ترك هذا وإخفاء هذا كان فعله حراما عليهم في دينهم لأن ذلك غدر وخيانة وترك للوفاء بالعهد ومن دينهم أن ذلك حرام ولو أن مسلما عاهده قوم من الكفار طائعا غير مكره على أن يمسك عن ذكر صليبهم لوجب عليه في دينه أن يمسك ما دام العهد قائما.
فقول القائل: "من دينهم استحلال سب نبيا" باطل إذ ذلك مع العهد المقتضي لتركه حرام في دينهم كما يحرم عليهم في دينهم استحلال دمائنا وأموالنا لأجل العهد وهم يعتقدون عند أنفسهم أنهم إذا آذوا الله ورسوله بألسنتهم أو ضروا المسلمين بعد العهد فقد فعلوا ما هو حرام في دينهم كما أن المسلم يعلم أنه إذا آذاهم بعد العهد فقد فعل ما هو حرام في دينه ويعلمون أن ذلك مخالفة للعهد وإن ظنوا أن لا عهد بيننا وبينهم وإنما هم مغلوبون تحت يد الإسلام فذلك أبعد لهم عن العصمة وأولى بالانتقام فإنه لا عاصم لهم منا إلا العهد فإن لم يعتقدوا الوفاء بالعهد فلا عاصم أصلا وهذا كله بين لمن تأمله يتبين به بعض فقه المسألة.
ومن الفقهاء من أجاب عن هذا بأنا أقررناهم على ما يعتقدونه ونحن إنما نقول بنقض العهد إذا سبوه بما لا يعتقدونه من القذف ونحوه وهذا التفصيل
ليس بمرض وسيأتي إن شاء الله تحقيق ذلك.
فإن قيل: فهب أنهم صولحوا على أن لا يظهروا ذلك لكن مجرد إظهار دينهم كيف ينقض العهد؟ وهل ذلك إلا بمثابة ما لو أظهروا أصواتهم بكتابهم أو صليبهم أو أعيادهم؟ فإن ذلك موجب لتنكيلهم وتعزيرهم دون نقض العهد.
قلنا: وأي ناقض للعهد أعظم من أن يظهروا كلمة الكفر ويعلوها ويخرجوا عن حد الصغار ويطعنوا في ديننا ويؤذونا أذى هو أبلغ من قتل النفوس وأخذ الأموال.
وأما إظهار تلك الأشياء بعد شرط عمر المعروف ففيها وجهان عندنا: أحدهما: ينتقض العهد فلا يلزمنا والآخر: لا ينتقض العهد.
والفرق بينهما من وجهين:
أحدهما: أن ظهور تلك الأشياء ليس فيه ظهور كلمة الكفر وعلوها وإنما فيه ظهور لدين المشركين وبين البابين فرق فإن المسلم لو تكلم بكلمة الكفر كفر ولو لم يفعل إلا مجرد مشاركة الكافر في هدية عوقب ولم يكفر وكان ذلك كإظهار المعاصي من المسلم يوجب عقوبته ولا يبطل إيمانه والمتكلم بكلمة الكفر يبطل إيمانه كذلك أهل العهد: إذا أظهروا الكفر ونحوه نقضوا أمانهم وإذا أظهروا زيهم عصوا ولم ينقضوا أمانهم.
وهذا جواب من يقول من أصحابنا وغيرهم: إنهم لو أظهروا التثليث ونحوه مما هو دينهم نقضوا العهد.
الجواب الثاني: أن ظهور تلك الأشياء ليس فيها ضرر عظيم على المسلمين ولا معرة في دينهم ولا طعن في ملتهم وإنما فيه أحد أمرين: إما اشتباه زيهم بزي المسلمين أو إظهار لمنكرات دينهم في دار الإسلام كإظهار الواحد من المسلمين لشرب الخمر ونحوه وأما سب الرسول والطعن في الدين ونحو ذلك فهو مما يضر المسلمين ضررا يفوق قتل النفس وأخذ المال من بعض الوجوه فإنه لا أبلغ في إسفال كلمة الله ولا إذلال كتاب الله وإهانة كتاب الله من أن يظهر الكافر المعاهد السب والشتم لمن جاء بالكتاب.
ولأجل هذا الفرق فصل أصحابنا وأصحاب الشافعي الأمور المحرمة عليهم في العهد الذي بيننا وبينهم إلى ما يضر المسلمين في نفس أو مال أو دين وإلى ما لا يضر وجعلوا القسم الأول ينقض العهد حيث لا ينقضه القسم الثاني لأن مجرد العهد ومطلقه يوجب الإمتناع عما يضر المسلمين ويؤذيهم فحصوله تفويت لمقصود العقد فيفسخه كما لو فات مقصود البيع بتلف العوض قبل القبض أو ظهوره مستحقا ونحوه بخلاف غيره ولأن تلك المضرات يوجب جنسها عقوبة المسلم بالقتل فلأن يوجب عقوبة المعاهد بالقتل أولى وأحرى لأن كلاهما ملتزم إما بإيمانه أو بأمانة أن لا يفعلها ولأن تلك المضرات من جنس المحاربة والقتال وذلك لإبقاء العهد معه بخلاف المعاصي التي فيها مراغمة ومصارمة.
فإن قيل: فقد أقروا على ما هم عليه من الشرك الذي هو أعظم من سب الرسول عليه الصلاة والسلام فيكون إقرارهم على سب الرسول أولى بل قد أقروا على سب الله تعالى وذلك لأن النصارى يعتقدون التثليث ونحوه وهو شتم لله تعالى لما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد ".
وروى في صحيحه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه.
وكان معاذ ابن جبل يقول إذا راى النصارى لا ترحموهم فلقد سب الله سبه ما سبه اياها أحد من البشر.

وقد قال الله تعالى {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا} الآية.
وقد أقر اليهود على مقالتهم في عيسى عليه السلام وهي من أبلغ القذف.
قلنا: الجواب من وجوه:
أحدها: أن هذا السؤال فاسد الاعتبار فإن كون الشيء في نفسه أعظم إثما من غيره يظهر أثره في العقوبة عليه في الآخرة لا في الإقرار عليه في الدنيا ألا ترى أن أهل الذمة يقرون على الشرك ولا يقرون على الزنا ولا على السرقة ولا على قطع الطرق ولا على قذف المسلم ولا على محاربة المسلمين وهذه الأشياء دون الشرك بل سنة الله في خلقه كذلك فإنه عجل لقوم لوط العقوبة وفي الأرض مدائن مملوءة من الشرك لم يعاجلهم بالعقوبة لا سيما والمحتج بهذا الكلام يرى أن قتل الكفار إنما هو لمجرد المحاربة سواء كان كفره أصليا أو طارئا حتى أنه لا يرى قتل المرتد ويقول: الدنيا ليست دار الجزاء على الكفر وإنما الجزاء على الكفر في الآخرة وإنما يقاتل من يقاتل فقت لدفع أذاه.
ثم لا يجوز أن يقال: إذا أقررناهم على الكفر فلأن نقرهم على المحاربة التي هي دون الكفر بطريق الأولى وسبب ذلك أن ما كان من الذنوب يتعدى ضرره فاعله عجلت لصاحبه العقوبة في الدنيا تشريعا وتقديرا ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: " ما من ذنب أحرى أن تعجل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم " لأن تأخير عقوبته فساد لأهل الأرض بخلاف ما لا يتعدى ضرره فاعله فإنه قد تؤخر عقوبته وإن كان أعظم كالكفر ونحوه فإذا أقررناهم على الشرك أكثر ما فيه تأخير العقوبة عليه وذلك لا يستلزم تأخير عقوبة ما يضر بالمسلمين لأنه دونه كما قدمناه.
الوجه الثاني: أن يقال: لا خلاف أنهم إذا أقروا على ما هم عليه من الكفر غير مضارين للمسلمين لا يجوز أذاهم لا في دمائهم ولا في أبشارهم ولو أظهروا السب ونحوه عوقبوا على ذلك إما في الدماء أو في الأبشار.
ثم إنه لا يقال: إذا لم يعاقبوا بالعزير على الشرك لم يعاقبوا على السب الذي هو دونه وإذا كان هذا السؤال معترضا على الإجماع لم يجب جوابه كيف والمنازع قد سلم أنهم يعاقبون على السب فعلم أنه لم يقرهم عليه فلا يقبل منه السؤال.
والجواب عن هذه الشبهة مشترك فلا يجب علينا الانفراد به.
الوجه الثالث: أن الساب ينضم السب إلى شركه الذي عوهد عليه بخلاف المشرك الذي لم يسب ولا يلزم من الإقرار على ذنب مفرد الإقرار عليه مع ذنب آخر وإن كان دونه فإن اجتماع الذنبين يوجب جرما مغلظا لا يحصل حال الانفراد.
الوجه الرابع: قوله: "ما هم عليه من الكفر أعظم من سب الرسول" ليس بجيد على الإطلاق وذلك لأن أهل الكتاب طائفتان:
أما اليهود فأصل كفرهم تكذيب الرسول وسبه أعظم من تكذيبه فليس لهم كفر أعظم من سب الرسول فإن جميع ما يكفرون به من الكفر بدين الإسلام وبعيسى وبما أخبر الله به من أمور الآخرة وغير ذلك متعلق بالرسول فسبه كفر بهذا كله لأن ذلك إنما علم من جهته وليس عند أهل الأرض في وقتنا هذا علم موروث يشهد عليه أنه من عند الله إلا العلم الموروث عن محمد صلى الله عليه وسلم وما سوى ذلك مما يؤثر عن غيره من الأنبياء فقد اشتبه واختلط كثير منه أو أكثره والواجب فيما لا نعلم حقيقته منه أن لا يصدق ولا يكذب.
وأما النصارى فسبهم للرسول طعنا فيما جاء به من التوحيد وأنباء الغيب والشرائع وإنما ذنبه الأعظم عندهم أن قال: أن عيسى عبد الله ورسوله كما أن ذنبه الأعظم عند اليهود أن غير شريعة التوراة وإلا فالنصارى ليسوا محافظين على شريعة مورثة بل كل برهة من الدهر تبتدع لهم الأحبار شريعة من الدين لم يأذن الله بها ثم لا يرعونها حق رعايتها فسبهم له متضمن للطعن في التوحيد وللشرك وللتكذيب بالأنبياء والدين ومجرد شركهم ليس متضمنا لتكذيب جميع الأنبياء ورد جميع الدين فلا يقال: ما هم عليه من الشرك أعظم من سب الرسول بل سب الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ما هم عليه من الشرك وزيادة.
وبالجملة فينبغي للعاقل أن يعلم أن قيام دين الله في الأرض إنما هو بواسطة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلولا الرسل لما عبد الله وحده لا شريك له ولما علم الناس أكثر ما يستحقه سبحانه من الأسماء الحسنى والصفات العلى ولا كانت له شريعة في الأرض.
ولا تحسبن أن العقول لو تركت وعلومها التي تستفيدها بمجرد النظر عرفت الله معرفة مفصلة بصفاته وأسمائه على وجهه اليقين فإن عامة من تكلم في هذا الباب بالعقل فإنما تكلم بعد أن بلغه ما جاءت به الرسل واستصغى بذلك واستأنس به سواء أظهر الانقياد للرسل أو لم يظهر وقد اعترف عامة الرؤوس منهم أنه لا ينال بالعقل علم جازم في تفاصيل الأمور الإلهية وإنما ينال به الظن والحسبان.
والقدر الذي يمكن العقل إدراكه بنظره فإن المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم نبهوا الناس عليه وذكروهم به ودعوهم إلى النظر فيه حتى فتحوا أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا.

والقدر الذي يعجز العقل عن إدراكه علموهم إياه وأنبأوهم به فالطعن فيهم طعن في توحيد الله وأسمائه وصفاته وكلامه ودينه وشرائعه وأنبيائه وثوابه وعقابه وعامة الأسباب التي بينه وبين خلقه بل يقال: إنه ليس في الأرض مملكة قائمة إلا في بنبوة أو أثر نبوة وإن كل خير في الأرض فمن آثار النبوات ولا يستريبن العاقل في هذا الباب الذين درست النبوة فيهم مثل البراهمة والصابئة والمجوس ونحوهم فلا سفتهم وعامتهم قد أعرضوا عن الله وتوحيده وأقبلوا على عبادة الكواكب والنيران والأصنام وغير ذلك من الأوثان والطواغيت فلم يبق بأيديهم لا توحيد ولا غيره.

وليست أمة مستمسكة بالتوحيد إلا أتباع الرسل قال الله سبحانه: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه} فأخبر أن دينه الذي يدعوا إليه المرسلون كبر على المشركين فما الناس إلا تابع لهم أو مشرك وهذا حق لا ريب فيه فعلم أن سب الرسل والطعن فيهم ينبوع جميع أنواع الكفر وجماع جميع الضلالات وكل كفر ففرع منه كما أن تصديق الرسل أصل جميع شعب الإيمان وجماع مجموع أسباب الهدى.

الوجه الخامس: أن نقول: قد ثبت بالسنة ثبوتا لا يمكن دفعه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر بقتل من سبه وكان المسلمون يحرضون على ذلك مع الإمساك عمن هو مثل هذا الساب في الشرك أو هو أسوأ منه من محارب أو معاهد فلو كانت هذه الحجة مقبولة لتوجه أن يقال: إذا أمسكوا عن المشرك فالإمساك عن الساب أولى وإذا عوهد الذمي على كفره فمعاهدته على السب أولى وهذا لو قبل معارضة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل قياس عارض السنة فهو رد.

الوجه السادس: أن يقال: ما هم عليه من الشرك وإن كان سبا لله فهم لا يعتقدونه سبا وإنما يعتقدونه تمجيدا وتقديسا فليسوا قاصدين به قصد السب والاستهانة بخلاف سب الرسول فلا يلزم من إقرارهم على شيء لا يقصدون به الاستخفاف إقرارهم على ما يقصدون به الاستخفاف وهذا جواب من يقتلهم إذا أظهروا سب الرسول ولا يقتلهم إذا أظهروا ما يعتقدونه من دينهم.

الوجه السابع: أن إظهار سب الرسول طعن في دين المسلمين وإضرار بهم ومجرد التكلم بدينهم ليس فيه إضرار بالمسلمين فصار إظهار سب الرسول بمنزلة المحاربة يعاقبون عليها وإن كانت دون الشرك وهذا أيضا جواب هذا القائل.

الوجه الثامن: منع الحكم في الأصل المقيس عليه فإنا نقول: متى أظهروا كفرهم وأعلنوا به نقضوا العهد بخلاف مجرد رفع الصوت بكتابهم فإنه ليس كل ما فيه كفر ولسنا نفقه ما يقولون وإنما فيه إظهار شعار الكفر وفرق بين إظهار الكفر وبين إظهار شعار الكفر.

أو نقول: متى أظهروا الكفر الذي هو طعن في دين الله نقضوا به العهد بخلاف كفر لا يطعنون به في ديننا وهذا لأن العهد إنما اقتضى أن يقولوا ويفعلوا بينهم ما شاءوا مما لا يضر المسلمين فأما أن يظهروا كلمة الكفر أو أن يؤذوا المسلمين فلم يعاهدوا عليه البتة وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذين القولين والذين قبلهما.

قال كثير من فقهاء الحديث وأهل المدينة من أصحابنا وغيرهم: "لم نقرهم على أن يظهروا شيئا من ذلك ومتى أظهروا شيئا من ذلك نقضوا العهد".

قال أبو عبد الله في رواية حنبل: "كل من ذكر شيئا يعرض بذكر الرب تبارك وتعالى فعليه القتل مسلما كان أو كافرا" وهذا مذهب أهل المدينة.

وقال جعفر بن محمد: سمعت أبا عبد الله يسأل عن يهودي مر بمؤذن وهو يؤذن فقال له: كذبت فقال: يقتل لأنه شتم.

ومن الناس من فرق بين ما يعتقدونه وما لا يعتقدونه ومن الناس من فرق بين ما يعتقدونه وإظهاره يضر بنا لأنه قدح في ديننا وبين ما يعتقدونه وإظهاره ليس بطعن في نفس ديننا وسيأتي إن شاء الله تعالى ذلك فإن فروع المسألة تظهر مأخذها.

وقد قدمنا عن عمر رضي الله عنه أنه قال بمحضر من المهاجرين والأنصار للنصراني الذي قال إن الله لا يضل أحدا: إنا لم نعطك ما أعطيناك على أن تدخل علينا في ديننا فوالذي نفسي بيده لأن عدت لآخذن الذي فيه عيناك.

وجميع ما ذكرناه من الآيات والاعتبار يجئ أيضا في ذلك فإن الجهاد واجب حتى تكون كلمة الله هي العليا وحتى يكون الدين كله لله وحتى يظهر دين الله على الدين كله وحتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

والنهي عن إظهار المنكر واجب بحسب القدرة فإذا أظهروا كلمة الكفر وأعلنوها خرجوا عن العهد الذي عاهدونا عليه والصغار الذي التزموه ووجب علينا أن نجاهد الذي أظهروا كلمة الكفر وجهادهم بالسيف لأنهم كفار لا عهد لهم والله سبحانه أعلم.

المسألة الثانية: أنه يتعين قتله ولا يجوز استرقاقه ولا المن عليه ولا فداءه.

أما إن كان مسلما فبالإجماع لأنه نوع من المرتد أو من الزنديق والمرتد يتعين قتله وكذلك الزنديق وسواء كان رجلا أو امرأة وحيث قتل يقتل مع الحكم بإسلامه فإن قتله حد بالاتفاق فيجب إقامته وفيما قدمناه دلالة واضحة على قتل السابة المسلمة من

السنة وأقاويل الصحابة فإن في بعضها تصريحا بقتل السابة المسلمة وفي بعضها تصريحا بقتل السابة الذمية وإذا قتلت الذمية للسب فقتل المسلمة أولى كما لا يخفى على الفقيه.
ومن قال من أهل الكوفة: "إن المرتدة لا تقتل" فقياس مذهبه أن لا تقتل السابة لأن الساب عنده مرتد وقد كان يحتمل مذهبه أن تقتل السابة حدا كقتل الساحرة عند بعضهم وقتل قاطعة الطريق ولكن أصوله تأبى ذلك.
والصحيح الذي عليه العامة قتل المرتدة فالسابة أولى وهو الصحيح لما تقدم وإن كان الساب معاهدا فإنه يتعين أيضا قتله سواء كان رجلا أو امرأة عند عامة الفقهاء من السلف ومن تبعهم.
وقد ذكرنا قول ابن المنذر فيما يجب على من سب النبي صلى الله عليه وسلم قال: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم فحده القتل وممن قاله مالك والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي.
قال: وحكى عن النعمان: لا يقتل من سبه من أهل الذمة وهذا لفظ دليل على وجوب قتله عند العامة وهذا مذهب مالك وإسحاق وسائر فقهاء المدينة وكلام أصحابه يقتضي أن لقتله مأخذين:
<u>أحدهما:</u> انتقاض عهده.
<u>والثاني:</u> أنه حد من الحدود وهو قول فقهاء الحديث.
قال إسحاق بن راهويه: إن أظهروا سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع منهم ذلك أو تحقق عليهم قتلوا وأخطأ هؤلاء الذين قالوا: "ما هم فيه من الشرك أعظم من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم" قال إسحاق: "يقتلون لأن ذلك نقض العهد" وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز ولا شبهة في ذلك لأنه يصير في ذلك ناقضا للصلح وهو كما قتل ابن عمر الراهب الذي سب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "ما على هذا صالحناهم".
وكذلك نص الإمام أحمد على وجوب قتله وانتقاض عهده وقد تقدم بعض نصوصه في ذلك وكذلك نص عامة أصحابه على وجوب قتل هذا الساب ذكروه بخصوصه في مواضع وهكذا ذكروه أيضا في جملة ناقضي العهد من أهل الذمة.
ثم المتقدمون منهم وطوائف من المتأخرين قالوا: إن هذا وغيره من ناقضي العهد يتعين قتلهم كما دل عليه كلام أحمد.
وذكر طوائف منهم أن الإمام مخير فيمن نقض العهد من أهل الذمة كما يخير في الأسير بين الاسترقاق والقتل والمن والفداء ويجب عليه فعل الأصلح للأمة من هذه الأربعة بعد أن ذكروه في الناقضين للعهد فدخل هذا الساب في عموم هذا الكلام وإطلاقه وإلا وجب أن يقال فيه بالتخيير إذا قيل به في غيره من ناقضي العهد لكن قيد محققو أصحاب هذه الطريقة ورؤوسهم مثل القاضي أبي يعلي في كتبه المتأخرة وغيره هذا الكلام وقالوا: التخيير هو غير ساب الرسول وأما سابه فيتعين قتله وإن كان غيره كالأسير وعلى هذا فإما أن لا يحكى في تعين قتله خلاف لكون الذين أطلقوا التخيير في موضع قد قالوا في موضع آخر بأن الساب يتعين قتله وصرح رأس أصحاب هذه الطريقة بأنه مستثنى من ذلك الإطلاق أو يحكى فيه وجه ضعيف لأن الذين قالوا به في موضع نصوا على خلافه في موضع آخر.
واختلف أصحاب الشافعي أيضا فيه فمنهم من قال: يجب قتل الساب حتما وإن خير في غيره.
ومنهم من قال: هو كغيره من الناقضين للعهد وفيه قولان: أضعفهما أنه يلحق بمأمنه والصحيح منهما جواز قتله قالوا: ويكون كالأسير يجب على الإمام أن يفعل فيه الأصلح للأمة من القتل والاسترقاق والمن والفداء.
وكلام الشافعي في موضع يقتضي أن حكم الناقض للعهد حكم الحربي فلهذا قيل: إنه كالأسير وفي موضع آخر أمر بقتله عينا من غير تخيير.
وتحريم الكلام في ذلك يحتاج إلى تقديم مقدمة فيما ينتقض به العهد وفي حكم ناقض العهد على سبيل العموم ثم نتكلم في خصوص مسألة السب.
أما الأول فإن ناقض العهد قسمان: ممتنع لا يقدر عليه إلا بقتال ومن هو في أيدي المسلمين.
أما الأول فأن يكون لهم شوكة ومنعة فيمتنعوا بها على الإمام من أداء الجزية والتزام أحكام الملة الواجبة عليهم دون ما يظلمهم به الوشاة أو يلحقوا بدار الحرب مستوطنين بها فهؤلاء قد نقضوا العهد بالإجماع فإذا أسر الرجل منهم فحكمه عند الإمام أحمد في ظاهر مذهبه حكم أهل الحرب إذا أسروا يفعل بهم الإمام ما يراه أصلح.
قال في رواية أبي الحارث وقد سئل عن قوم من أهل العهد نقضوا العهد وخرجوا بالذرية إلى دار الحرب فبعث في طلبهم فلحقوهم فحاربوهم قال أحمد: إذا نقضوا العهد فمن كان منهم بالغا فيجري عليه ما يجري على أهل الحرب من الأحكام إذا أسروا فأمرهم إلى الإمام يحكم فيهم بما يرى وأما الذرية فما ولد بعد نقضهم العهد فهو بمنزلة من نقض العهد ومن كان ممن ولد قبل نقض العهد فليس عليه شيء وذلك أن امرأة علقمة بن علاثة قالت: إن كان علقمة ارتد فأنا لم أرتد وكذلك روى عن الحسن فيمن نقض العهد: ليس على النساء شيء.

وقال في رواية صالح وقد سئل عن قوم من أهل العهد في حصن ومعهم مسلمون فنقضوا العهد والمسلمون معهم في الحصن: ما السبيل فيهم؟ قال: ما ولد لهم من بعد نقض العهد فالذرية بمنزلة من نقض العهد يسبون ومن كان قبل ذلك لا يسبون فقد نص على أن ناقض العهد إذا أسر بعد المحاربة بخير الإمام فيه وعلى أن الذرية الذين ولدوا بعد ما نقضوا العهد بمنزلة من نقض العهد يسبون فعلم أن ناقض العهد يجوز استرقاقه وهذا هو المشهور من مذهبه.
وعنه: أنهم إذا قدر عليهم فإنهم لا يسترقون بل يردون إلى الذمة قال في رواية أبي طالب في رجل من أهل العهد لحق بالعدو هو وأهله وولده وولد له في دار العدو قال: يسترق أولادهم الذين ولدوا في دار العدو ويردون هم وأولادهم الذين ولدو في دار الإسلام إلى الجزية قيل له: لا يسترق أولادهم الذين ولدوا في دار الإسلام؟ قال: لا قيل له: فإن كانوا أدخلوهم صغارا ثم صاروا رجالا قال: لا يسترقون أدخلوهم مأمنهم.
وكذلك قال في رواية ابن إبراهيم وقد سأله عن رجل لحق بدار الحرب هو وأهله وولد له في بلاد العدو وقد أخذه المسلمون قال: ليس على ولده وأهله شيء ولكن ما ولد له وهو في أيديهم يسترقون ويردون هم إلى الجزية.
فقد نص على أن الرجل الذي نقض العهد يرد إلى الجزية هو وولده الذين كانوا موجدين وأنهم لا يسترقون وأن ولده الذين حدثوا بعد المحاربة يسترقون وذلك لأن صغار ولده سبي من أولاد أهل الحرب وهم يصيرون رقيقا بنفس السبي فلا يدخلون في عقد الذمة أولا ولا آخرا وأما أولاده الذين ولدوا قبل النقض فلهم حكم الذمة المتقدمة.
فعلى الرواية الأولى المشهورة يخير الإمام في الرجال إذا أسروا فيفعل ما هو الأصلح للمسلمين من قتل واسترقاق ومن فداء وإذا جاز أن يمن عليهم جاز أن يطلقهم على قبول الجزية منهم وعقد الذمة لهم ثانيا لكن لا يجب عليه ذلك كما لا يجب عليه في الأسير الحربي الأصلي إذا كان كتابيا وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرى بني قريظة وأسرى من أهل خيبر ولم يدعهم إلى إعطاء الجزية ولو دعاهم إليها لأجابوا.
وعلى الرواية الثانية يجب دعائهم إلى العود إلى الذمة كما كانوا كما يجب دعاء المرتد إلى أن يعود إلى الإسلام أو يستحب كما يستحب دعاء المرتد ومتى بذلوا العود إلى الذمة وجب قبول ذلك منهم كما يجب قبول الإسلام من المرتد وقبول الجزية من الحربي الاصلي إذا بذلها قبل الأسر ومتى امتنعوا فقياس هذه الرواية وجوب قتلهم دون استرقاقهم جعلا لنقض الأمان كنقض الإيمان ولو تكرر النقض منهم فقد يقال فيهم ما يقال فيمن تكررت ردته.
وبنحو من هذه الرواية قال أشهب صاحب مالك في مثل هؤلاء قال: "لا يعود الحر قنا ولا يسترق أبدا بحال بل يردون إلى ذمتهم بكل حال".
وكذلك قال الشافعي في الأم وقد ذكر نواقض العهد وغيرها قال: "وأيهم قال أو فعل شيئا مما وصفته نقضا للعهد وأسلم لم يقتل إذا كان ذلك قولا وكذلك إذا كان ذلك فعلا لم يقتل إلا أن يكون في دين المسلمين أن من فعله قتل حدا أو قصاصا فيقتل بحد أو قصاص لا بنقض عهد".
وإن فعل مما وصفنا وشرط أنه نقض لعهد الذمة فلم يسلم ولكنه قال: "أتوب وأعطي الجزية كما كنت أعطيها أو على صلح أجدده" عوقب ولم يقتل إلا أن يكون قد فعل فعلا يوجب القصاص أو الحد فإن فعل أو قال مما وصفنا وشرط أنه يحل دمه فظفرنا به فامتنع من أن يقول: "أسلم أو أعطي جزية" قتل وأخذ ماله فيئا.
فقد نص على وجوب قبول الجزية منه إذا بذلها وهو في أيدينا وأنه إذا امتنع منها ومن الإسلام قتل وأخذ ماله ولم يخير فيه.
ولأصحابه في وجوب قبول الجزية من أسير الحربي الأصلي وجهان.
وعن الإمام أحمد رواية ثالثة: أنهم يصرون رقيقا إذا أسروا.
وقال في رواية ابن إبراهيم: إذا أسر الروم من اليهود ثم ظهر المسلمون عليهم فإنهم لا يتبعونهم وقد وجبت لهم الجزية إلا من ارتد منهم عن جزيته فهو بمنزلة المملوك.
وهذا هو المشهور من مذهب مالك قال ابن القاسم وغيره من المالكية: "إذا خرجوا ناقضين للعهد ومنعوا الجزية وامتنعوا منا من غير أن يظلموا ولحقوا بدار الحرب فقد انتقض عهدهم وإذا انتقض عهدهم ثم أسروا فهم فيء ولا يردون إلى ذمتنا فأوجبوا استرقاقهم ومنعوا أن يعقد لهم الذمة ثانيا كأنه جعل خروجهم من الذمة مثل ردة المرتد يمنع إقراره بالجزية لكن هؤلاء لا يسترقون لكون كفرهم أصليا.
وقال أصحاب أبي حنيفة: من نقض العهد فإنه يصير كالمرتد إلا أنه يجوز استرقاقه والمرتد لا يجوز استرقاقه.
فأما إن لم يقدر عليهم حتى بذلوا الجزية وطلبوا العود إلى الذمة فإنه يحوز عقدها لهم لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عقدوا الذمة لأهل الكتاب من أهل الشام مرة ثانية وثالثة بعد أن نقضوا العهد والقصة في ذلك مشهورة في فتوح الشام وما أحسب في هذا خلافا فإن مالكا وأصحابه قالوا: إذا منعوا الجزية وقاتلوا المسلمين والإمام عدل فإنهم يقاتلون حتى يردوا

إليه مع أن المشهور عندهم أن الأسير منهم لا يرد إلى الذمة بل يكون فيئا فإذا كان مالك لا يخالف في هذه المسألة فغيره أولى أن لا يخالف فيها لأنه هو الذي اشتهر عنه القول بمنع عود الأسير منهم إلى الذمة.
فإن بذل هؤلاء العود إلى الذمة فهل يجب قبول ذلك منهم كما يجب قبوله من الحربي الأصلي؟ إن قلنا إنه يجب رد الأسير منهم إلى ذمته فهؤلاء أولى وإن قلنا لا يجب هناك فيتوجه أن لا يجب هنا أيضا لأن بني قينقاع لما نقضوا العهد الذي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم أراد قتلهم حتى ألح عليه عبد الله بن أبي في الشفاعة فيهم فأجلاهم إلى أذرعات ولم يقرهم بالمدينة مع أن القوم كانوا حراصا على المقام بالمدينة بعهد يجددونه وكذلك بنو قريظة لما حاربت أرادوا الصلح والعود إلى الذمة فلم يجبهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ وكذلك بنو النضير لما نقضوا العهد فحاصرهم أنزلهم على الجلاء من المدينة مع أنهم كانوا أحرص شيء على المقام بدارهم بأن يعودوا إلى الذمة وهؤلاء الطوائف كانوا أهل ذمة عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم أن الدار دار الإسلام يجري فيها حكم الله تعالى ورسوله وأنه مهما كان بين أهل العهد من المسلمين ومن هؤلاء المعاهدين من حدث فأمره إلى النبي صلى الله عليه وسلم هكذا في كتاب الصلح فإذا كانوا نقضوا العهد فبعضا قتل وبعضا أجلى ولم يقبل منهم ذمة ثانية مع حرصهم على بذلها علم أن ذلك لا يجب ولا يجوز أن يكون ذلك لكون أرض الحجاز لا يقر فيها أهل دينين ولا يمكن الكفار من المقام بها لأن هذا الحكم لم يكن شرع بعد بل قد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند أبي شحمة اليهودي بالمدينة وبالمدينة غيره من اليهود وبخيبر خلائق منهم وهي من الحجاز ولكن عهد النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه أن يخرج اليهود والنصارى من جزيرة العرب وأن لا يبقى بها دينان فأنفذ عهده في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
والفرق بين هؤلاء وبين المرتدين أن المرتد إذا عاد إلى الإسلام فقد أتى بالغاية التي يقاتل الناس حتى يصلوا إليها فلا يطلب منه غير ذلك وإن ظننا أن باطنه خلاف ظاهره فإنا لم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس وأما هؤلاء فإن الكف عنهم إنما كان لأجل العهد ومن خفنا منه الخيانة جاز لنا أن ننبذ إليه العهد وإن لم يجز نبذ العهد إلى من خفنا منه الردة فإذا نقضوا العهد فقد يكون ذلك أمارة على عدم الوفاء وإن إجابتهم إلى العهد إنما فعلوه خوفا وتقية ومتى قدروا غدروا فيكون هذا الخوف مجوزا لترك معاهدتهم على أخذ الجزية كما كان يجوز نبذ العهد إلى أهل الهدنة بطريق الأولى.
وفي هذا دليل على أنه لا يجب رد الأسير الناقض للعهد إلى الذمة بطريق الأولى فإن النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يردهم إلى الذمة وقد طلبوها ممتنعين فإن لا يردهم إليها إذا طلبوها موثقين أولى وقد أسر بني قريظة بعد نقض العهد فقتل مقاتلتهم ولم يردهم إلى العهد ولأن الله تعالى قال: {فمن نكث فإنما ينكث على نفسه} فلو كان الناكث كلما طلب العهد منا وجب أن نجيبه لم يكن للنكث عقوبة يخافها بل ينكث إذا أحب لكن يجوز أن نعيدهم إلى الذمة لأن النبي صلى الله عليه وسلم وهب الزبير بن باطا القرظي لثابت بن قيس بن شماس هو وأهله وماله على أن يسكن أرض الحجاز وكان من أسرى بني قريظة الناكثين فعلم جواز إقرارهم في الدار بعد النكث وإجلاء بني قينقاع بعد القدرة عليهم إلى أذرعات فعلم جواز المن عليهم بعد النكث وإذا جاز المن على الأسير الناكث وإقراره في دار الإسلام فالمفاداة به أولى.
وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في هؤلاء الناقضين تدل على جواز القتل والمن على أن يقيموا بدار الإسلام وأن يذهبوا إلى دار الحرب إذا كانت المصلحة في ذلك وفي ذلك حجة على من أوجب إعادتهم إلى الذمة وعلى من أوجب استرقاقهم.
فإن قيل: إنما أوجبنا إعادتهم إلى الذمة لأن خروجهم عن الذمة ومفارقتهم لجماعة المسلمين كخروجهم عن الإسلام ومفارقة جماعة المسلمين أو نقض الأمان كنقض الإيمان فإذا كان المرتد عن الإسلام لا يقبل منه ما يقبل من الكافر الأصلي بل إما الإسلام أو السيف فكذلك المرتد عن العهد لا يقبل منه ما يقبل من الحربي الأصلي بل إما الإسلام أو العهد وإلا فالسيف ولأنه قد صارت لهم حرمة العهد المتقدم فمنعت استرقاقهم كما منع استرقاق المرتد حرمة إسلامه المتقدم.
قلنا: المرتد بخروجه عن الدين الحق بعد دخوله فيه تغلظ كفره فلم يقر عليه بوجه من الوجوه فتحتم قتله إن لم يسلم عصمه للدين كما تحتم غيره من الحدود حفظا للفروج وغير ذلك ولم يجز استرقاقه لأن فيه إقرارا له على الردة لا لتشرفه بدين قد بدله وناقض العهد قد نقض عهده الذي كان يرعى به فزالت حرمته وصار بأيدي المسلمين من غير عقد ولا عهد فصار كحربي أسرناه وأسوء حالا منه ومثل ذلك لا يجب المن عليه بجزية ولا بغيرها لأن الله تعالى إنما أمرنا أن نقاتلهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فمن أخذناه قبل أن يعطي الجزية لم يدخل في الآية لأنه لا قتال معه بل قد خيرنا الله إذا شددنا الوثاق بين المن والفداء ولم يوجب المن في حق ذمي ولا كتابي ولأن الأسير قد صار للمسلمين فيه حق بإمكان استبعاده والمفاداة به فلا يجب عليهم بذل حقهم منه مجانا وجاز قتله لأنه كافر لا عهد له وإنما هو باذل للعهد في حال لا تجب معاهدته وذلك لا يعصم دمه.
فإن قال من منع من إعادته إلى الذمة وجعله فيئا: هذا من على الأسير مجانا وذلك إضاعة لحق المسلمين فلم يجز إتلاف أموالهم.

قلنا: هذا مبني على أنه لا يجوز المن على الأسير والمرضي جوازه كما دل عليه الكتاب والسنة ومدعي النسخ يفتقر إلى دليل.
فإن قيل: خروجه عن العهد موجب للتغليظ عليه فينبغي إما أن يقتل أو يسترق كما أن المرتد يغلظ حاله بتعين قتله فإذا جاز في هذا ما يجوز في الحربي الأصلي لم يبق بينهما فرق.
قلنا: إذا جاز استرقاقه جاز إقراره بالجزية إذا لم يكن المانع حقا لله لأنه ليس في ذلك إلا فوات ملك رقبته وقد يرى الإمام أن في إقراره بالجزية أو في المن عليه والمفاداة به مصلحة أكبر من ذلك بخلاف المرتد فإنه لا سبيل في استبقائه وبخلاف الوثني إذا جوزنا استرقاقه فإن المانع من إقراره بالجزية حق لله وهو دينه وناقض العهد دينه قبل النقض وبعده سواء ونقضه إنما يعود ضرره على من يحاربه من المسلمين فكان الرأي فيه إلى أميرهم.
فإن قيل: فهلا حكيتم خلافا أنه يتعين قتل هذا الناقض للعهد كما يتعين قتل غيره من الناقضين كما سيأتي وقد قال أبو الخطاب: إذا حكمنا بنقض عهد الذمي فظاهر كلام الإمام أحمد أنه يقتل في الحال قال: وقال شيخنا: يخير الإمام فيه بين أربعة أشياء فأطلق الكلام فيمن نقض العهد مطلقا وتبعه طائفة على الإطلاق ومن قيده قيده بأن ينقضه بما فيه ضرر على المسلمين مثل قتالهم ونحوه فأما إن نقضه بمجرد اللحاق بدار الحرب فهو كالأسير ويؤيد هذا ما رواه عبد الله بن أحمد قال: سألت أبي عن قوم نصارى نقضوا العهد وقاتلوا المسلمين قال: "أرى أن لا يقتل الذرية ولا يسبون ولكن يقتل رجالهم" قلت لأبي: فإن ولد لرجالهم أولاد في دار الحرب قال: "أرى أن يسبوا أولئك ويقتلوا" قلت لأبي: فإن هرب من الذرية إلى دار الحرب أحد فسباهم المسلمون ترى لهم أن يسترقوا؟ قال: "الذرية لا يسترقون ولا يقتلون لأنهم لم ينقضوا هم إنما نقض العهد رجالهم وما ذنب هؤلاء؟ " فقد أمر رحمه الله بقتل المقاتلة من هؤلاء إما لمجرد النقض أو للنقض والقتال.
قلنا: قد ذكرنا فيما مضى نص أحمد على أن من نقض العهد وقاتل المسلمين فإنه يجري عليه ما يجري على أهل الحرب من الأحكام وإذا أسر حكم فيه الإمام بما رأى.
ونص رحمه الله فيمن لحق بدار الحرب على أنه يسترق في رواية وعلى أن يعاد إلي ذمته في رواية أخرى فلم يجز أن يقال: ظاهر كلامه في هذه الصورة يدل على وجوب قتله مع تصريحه بخلاف ذلك كيف والذين قالوا ذلك إنما أخذوا من كلامه في مسائل شتى ليست هذه الصورة منها؟ على أن أبا الخطاب وغيره لم يذكروا هذه الصورة ولم يدخل في كلامهم أعني صورة اللحاق بدار الحرب وإنما ذكروا من نقض العهد بأن ترك ما يجب عليه في العهد أو فعل ما ينتقض به عهده وهو في قبضة المسلمين.
وذكروا أن ظاهر كلام أحمد يعين قتله وهو صحيح ممن فهم من كلامهم عموم الحكم في كل من انتقض عهده فمن فهمه أتي لا من كلامهم ومن ذكر اللحاق بدار الحرب وقتال المسلمين والامتناع من أداء الجزية وغير ذلك في النواقض فإنه احتاج أن يفرق بين اللحاق بدار الحرب وبين غيره كما ذكرناه من نصوص الإمام أحمد وغيره من الأئمة على الناقض الممتنع.
والفرق بينهما أنه من لم يوجد منه إلا اللحاق بدار الحرب فإنه لم يجن جناية فيها ضرر على المسلمين حتى يعاقب عليها بخصوصها وإنما ترك العهد الذي بيننا وبينه فصار ككافر لا عهد له كما سيأتي إن شاء الله تعالى تقريره.
ويجب أن يعلم أن من لحق بدار الحرب صار حربيا فما وجد منه من الجنايات بعد ذلك فهي كجنايات الحربي لا يؤخذ بها إن أسلم أو عاد إلى الذمة ولذلك قال الخرقي: "ومن هرب من ذمتنا إلى دار الحرب ناقضا للعهد عاد حربيا" وكذلك أيضا إذا امتنعوا بدار الإسلام من الجزية أو الحكم ولهم شوكة ومنعة قاتلوا بها عن أنفسهم فإنهم قد قاتلوا بعد أن انتقض عهدهم وصار حكمهم حكم المحاربين فلا يتعين قتل من استرق منهم بل حكمه إلى الإمام ويجوز استرقاقه كما نص الإمام أحمد على هذه الصورة بعينها لأن المكان الذي تحيزوا فيه وامتنعوا بمنزلة دار الحرب ولم يجنوا على المسلمين جناية ابتدءوا بها للمسلمين وإنما قاتلوا عن أنفسهم بعد أن تحيزوا وامتنعوا وعلم أنهم محاربون فمن قال من أصحابنا إن من قاتل المسلمين يتعين قتله ومن لحق بدار الحرب خير الإمام فيه فإنما ذاك إذا قاتلهم ابتداء قبل أن يظهر نقض العهد ويظهر الامتناع بأن يعين أهل الحرب على قتال المسلمين ونحو ذلك فأما إذا قاتل بعد أن صار في شوكة ومنعة يمتنع بها عن أداء الجزية فإنه يصير كالحربي سواء كما تقدم ولهذا قلنا على الصحيح: إن المرتدين إذا أتلفوا دما أو مالا بعد الامتناع لم يضمنوه وما أتلفوه قبل الامتناع ضمنوه وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في الفرق.
وأما ما ذكره الإمام أحمد في رواية عبد الله فإنما أراد به الفرق بين الرجال والذرية ليتبين أن الذرية لا يجوز قتلهم وأن الرجال يقتلون كما يقتل أهل الحرب ولهذا قال في الذرية الذين ولدوا بعد النقض "يسبون ويقتلون" وإنما أراد أنهم يسبون إذا كانوا صغارا ويقتلون إذا كانوا رجالا أي يجوز قتلهم كأهل الحرب الأصليين ولم يرد أن القتل يتعين لهم فإنهم على خلاف الإجماع والله أعلم.
<u>القسم الثاني</u>: إذا لم يكن ممتنعا عن حكم الإمام فمذهب أبي حنيفة أن مثل هذا لا يكون ناقضا للعهد ولا ينقض عهد أهل الذمة عنده إلا أن يكونوا أهل شوكة ومنعة فيمتنعوا بذلك على الإمام ولا يمكنه إجراء أحكامنا عليهم أو تخلفوا بدار الحرب لأنهم إذا

لم يكونوا ممتنعين أمكن الإمام أن يقيم عليهم الحدود ويستوفي منهم الحقوق فلا يخرجون بذلك عن العصمة الثابتة كمن خرج عن طاعة الإمام من أهل البغي ولم تكن له شوكة.
وقال الإمام: مالك لا ينتقض عهدهم إلا أن يخرجوا ناقضين للعهد ومنعا للجزية وامتنعوا منا من غير أن يظلموا أو يلحقوا بدار الحرب فقد انتقض عهدهم لكن يقتل عنده الساب والمستكره للمسلمة على الزنى وغيرهما.
وأما مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد فإنهم قسموا الأمور المتعلقة بذلك قسمين أحدهما يجب عليهم فعله والثاني يجب عليهم تركه.
فأما الأول فإنهم قالوا: إذا امتنع الذمي مما يجب عليه فعله وهو أداء الجزية أو جريان أحكام الملة عليه إذا حكم بها حاكم المسلمين انتقض العهد بلا تردد قال الإمام أحمد في الذي يمنع الجزية: إن كان واجدا أكره عليها وأخذت منه وإن لم يعطها ضربت عنقه وذلك لأن الله تعالى أمر بقتالهم إلى أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون والإعطاء له مبتدأ وتمام فمبتدأه الالتزام والضمان ومنتهاه الأداء والإعطاء ومن الصغار جريان أحكام المسلمين عليهم فمتى لم يتم إعطاء الجزية أو أعطوها وليسوا بصاغرين فقد زالت الغاية التي أمرنا بقتالهم إليها فيعود القتال ولأن حقن دمائهم إنما ثبت ببذل الجزية والتزام جريان أحكام الإسلام عليهم فمتى امتنعوا منه وأتوا بضده صاروا كالمسلم الذي ثبت حقن دمه بالإسلام إذا امتنع منه وأتى بكلمة الكفر.
وعلى ما ذكره الإمام أحمد فلا بد أن يمتنع من ذلك على وجه لا يمكن استيفاؤه منه مثل أن يمتنع من حق بدني لا يمكن فعله ونيابة عنه دائما أو يمتنع من أداء الجزية ولعيب ماله كما قلنا في المسلم إذا امتنع من الصلاة أو الزكاة فأما إن قاتل الإمام على ذلك فذلك هو الغاية في انتقاض العهد كمن قاتل على ترك الصلاة أو الزكاة.
وأما القسم الثاني وهو ما يجب عليهم تركه فنوعان: أحدهما ما فيه ضرر على المسلمين والثاني ما لا ضرر فيه عليهم والأول قسمان أيضا: أحدهما ما فيه ضرر على المسلمين في أنفسهم وأموالهم: مثل أن يقتل مسلما أو يقطع الطريق على المسلمين أو يعين على قتال المسلمين أو يتجسس للعدو بمكاتبه أو كلام أو إيواء عين من عيونهم أو يزني بمسلمة أو يصيبها باسم نكاح والقسم الثاني ما فيه أذى وغضاضة عليهم: مثل أن يذكر الله أو كتابه أو رسوله أو دينه بالسوء والنوع الثاني ما لا ضرر فيه عليهم: مثل إظهار أصواتهم بشعائر دينهم من الناقوس والكتاب ونحو ذلك ومثل مشابهة المسلمين في هيآتهم ونحو ذلك وقد تقدم القول في انتقاض العهد بكل واحد من هذه الأقسام فإذا نقض الذمي العهد ببعضها وهو في قبضة الإمام مثل أن يزني بمسلمة أو يتجسس للكفار فالمنصوص عن الإمام أحمد أنه يقتل قال في رواية حنبل: كل من نقض العهد أو أحدث في الإسلام حدثا مثل هذا يعني مثل سب النبي صلى الله عليه وسلم رأيت عليه القتل ليس على هذا أعطوا العهد والذمة فقد نص على أن من نقض العهد وأتى بمفسدة مما ينقض العهد قتل عينا وقد تقدمت نصوصه أن من لم يوجد منه إلا نقض العهد بالامتناع فإنه كالحربي.
وقال في مواضع متعددة في ذمي فجر بامرأة مسلمة: يقتل ليس على هذا صولحوا والمرأة إن كانت طاوعته أقيم عليها الحد وإن كان استكرهها فلا شيء عليها.
وقال في يهودي زنى بمسلمة: يقتل: لأن عمر رضي الله عنه أتي بيهودي نخس بمسلمة ثم غشيها فقتله فالزنى أشد من نقض العهد قيل: فعبد نصراني زنى بمسلمة قال: "يقتل أيضا وإن كان عبدا".
وقال في مجوسي فجر بمسلمة: يقتل هذا نقض العهد وكذلك إن كان من أهل الكتاب يقتل أيضا قد صلب عمر رجلا من اليهود فجر بمسلمة هذا نقض العهد فقيل له: ترى عليه الصلب مع القتل؟ قال: إن ذهب رجل إلى حديث عمر كأنه لم يعب عليه.
وقال مهنا: سالت أحمد عن يهودي أو نصراني فجر بامرأة مسلمة: ما يصنع به؟ قال: "يقتل" فأعدت عليه قال: "يقتل" قلت: إن الناس يقولون غير هذا قال: "كيف يقولون؟ " فقلت: يقولون عليه الحد قال: "لا ولكن يقتل" فقلت له: في هذا شيء؟ قال: "نعم عن عمر أنه أمر بقتله".
وقال في رواية جماعة من أصحابه في ذمي فجر بمسلمة: يقتل قيل: فإن أسلم قال: يقتل هذا قد وجب عليه.
فقد نص رحمه الله على وجوب قتله بكل حال سواء كان محصنا أو غير محصن وأن القتل واجب عليه وإن أسلم وأنه لا يقام عليه حد الزنا الذي يفرق فيه بين المحصن وغير المحصن واتبع ذلك ما رواه خالد الحذاء عن ابن أشوع عن الشعبي عن عوف بن مالك أن رجلا نخس بامرأة فتجللها فأمر به عمر فقتل وصلب ورواه المروزي عن مجالد عن الشعبي عن سويد بن غفلة: "أن رجلا من أهل الذمة نخس بامرأة من المسلمين بالشام وهي على الحمار فصرعها وألقى نفسه عليها فرآه عوف بن مالك فضربه فشجه فانطلق إلى عمر يشكو عوفا فأتى عوف عمر فحدثه حديثه فأرسل إلى المرأة يسألها فصدقت عوفا فقال: قد شهدت أختنا فأمر به عمر فصلب قال: فكان أول مصلوب في الإسلام ثم قال عمر: "أيها الناس اتقوا الله في ذمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا تظلموهم فمن فعل هذا فلا ذمة له".

وروى سيف في الفتوح هذه القصة عن عوف بن مالك مبسوطة وذكر فيها أن الحمار صرع المرأة وأن النبطي أرادها فامتنعت واستغاثت قال عوف: "فأخذت عصاي فمشيت في أثره فأدركته فضربت رأسه ضربة ذا عجر ورجعت إلى منزلي" وفيه: "فقال للنبطي: "أصدقني فأخبره".
وقال الإمام أحمد أيضا في الجاسوس: إذا كان ذميا قد نقض العهد يقتل وقال في الراهب: لا يقتل ولا يؤذى ولا يسأل عن شيء إلا أن نعلم منه أنه يدل على عورات المسلمين ويخبر عن أمرهم عدوهم فيستحل حينئذ دمه.
وقد نص الإمام أحمد على أنه من نقض العهد بسب الله أو رسوله فإنه يقتل ثم اختلف أصحابنا بعد ذلك فقال القاضي وأكثر أصحابه مثل أبيه أبي الحسين والشريف أبي جعفر وأبي المواهب العكبري وابن عقيل وغيره وطوائف بعدهم: إن من نقض العهد بهذه الأشياء وغيرها فحكمه كحكم الأسير يخير الإمام فيه كما يخير بالأسير بين القتل والمن والاسترقاق والفداء وعليه أن يختار من الأربعة ما هو أصلح للمسلمين قال القاضي في المجرد: "إذا قلنا قد انتقض عهده فإنا نستوفي منه الحقوق والقتل والحد والتعزير لأن عقد الذمة على أن تجري أحكامنا عليه وهذه أحكامنا فإذا استوفينا منه فالإمام مخير فيه بين القتل والاسترقاق ولا يرد إلى مأمنه لأنه بفعل هذه الأشياء قد نقض العهد وإذا نقض عاد بمعناه الأول فكأنه رجل نصراني بدار الإسلام".
ثم إن القاضي في الخلاف قال: "حكم ناقض العهد حكم الأسير الحربي يتخير الإمام فيه بين أربعة أشياء: القتل والاسترقاق والمن والفداء" لأن الإمام أحمد قد نص في الأسير على الخيار بين أربعة أشياء وحكم الأسير لأنه كافر حصل في أيدينا بغير أمان قال: ويحمل كلام الإمام أحمد إذا رآه الإمام صلاحا واستثنى في الخلاف وهو الذي صنفه آخرا ساب النبي صلى الله عليه وسلم خاصة قال: فإنه لا تقبل توبته ويتحتم قتله ولا يخير الإمام في قتله وتركه لأن قذف النبي صلى الله عليه وسلم حق لميت فلا يسقط بالتوبة كقذف الآدمي.
وقد يستدل لهؤلاء من المذهب بعموم كلام الإمام أحمد وتعليله حيث قال في قوم من أهل العهد نقضوا العهد وخرجوا بالذرية إلى دار الحرب فبعث في طلبهم فلحقوهم فحاربوهم قال: إذا نقضوا العهد فمن كان منهم بالغا فيجري عليه ما يجري على أهل الحرب من الأحكام إذا أسروا فأمرهم إلى الإمام يحكم فيهم بما يرى وعلى هذا نقول:
فللإمام أن يعيدهم إلى الذمة إذا رأى المصلحة في ذلك كما له مثل ذلك في الأسير الحربي الأصلي.
وهذا القول في الجملة هو الصحيح من قولي الإمام الشافعي والقول الآخر للشافعي أن من نقض العهد من هؤلاء يرد إلى مأمنه ثم من أصحابه من استثنى سب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة فجعله موجبا للقتل حتما دون غيره ومنهم من عمم الحكم هذا هو الذي ذكره أصحابه وأما لفظه فإنه قال في الأم: "إذا أراد الإمام أن يكتب كتاب صلح على الجزية كتب وذكر الشروط" إلى أن قال: "وعلى أن أحدا منكم إن ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به فقد برئت منه ذمة الله ثم ذمة أمير المؤمنين وجميع المسلمين ونقض ما أعطي من الأمان وحل لأمير المؤمنين ماله ودمه كما يحل أموال أهل الحرب ودمائهم وعلى أن أحدا من رجالهم إن أصاب مسلمة بزنى أو اسم نكاح أو قطع الطريق على مسلم أو فتن مسلما عن دينه أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال أو دلالة على عورات المسلمين أو إيواء لعيونهم فقد نقض عهده وأحل دمه وماله وإن نال مسلما بما دون هذا في ماله أو عرضه لزمه فيه الحكم".
ثم قال: فهذه الشروط اللازمة إن رضيها فإن لم يرضها فلا عقد له ولا جزية.
ثم قال: وأيهم قال أو فعل شيئا مما وصفته نقضا للعهد وأسلم لم يقتل إذا كان ذلك قولا وكذلك إذا كان فعلا لم يقتل إلا أن يكون في دين المسلمين أن من فعله قتل حدا أو قصاصا فيقتل بحد أو قصاص لا نقض عهد وإن فعل مما وصفنا وشرط أنه نقض لعهد الذمة فلم يسلم ولكنه قال "أتوب وأعطي الجزية كما كنت أعطيها أو على صلح أجدده" عوقب ولم يقتل إلا أن يكون فعل فعلا
يوجب القصاص أو الحد فأما ما دون هذا من الفعل أو القول فكل قول فيعاقب عليه ولا يقتل.
قال: فإن فعل أو قال ما وصفنا وشرط أنه يحل دمه فظفر به فامتنع من أن يقول "أسلم أو أعطى جزية" قتل وأخذ ماله فيئا وهذا اللفظ يعطى وجوب قتله إذا امتنع من الإسلام والعود إلى الذمة.
وسلك أبو الخطاب في "الهداية" والحلواني وكثير من متأخري أصحابنا مسلك المتقدمين في إقرار نصوص الإمام أحمد بحالها وهو الصواب فإن الإمام أحمد قد نص على القتل عينا فيمن زنى بمسلمة حتى بعد الإسلام وجعل هذا أشد من نقض العهد باللحاق بدار الحرب ثم إنه نص هناك على أن الأمر إلى الإمام كالأسير ونص هنا على أن على الإمام يخير أن يقتل ولا يخفى لمن تأمل نصوصه أن القول بالتخيير مطلقا مخالف لها.
وأما أبو حنيفة فلا تجئ هذه المسألة على أصوله لأنه لا ينتقض عهد أهل الذمة عنده إلا أن يكونوا أهل شوكة ومنعة فيمتنعون بذلك على الإمام ولا يمكنه إجراء أحكامنا عليهم.

ومذهب مالك لا ينتقض عهدهم إلا أن يخرجوا ممتنعين منا مانعين للجزية من غير ظلم أو يلحقوا بدار الحرب لكن مالكا يوجب قتل ساب الرسول صلى الله عليه وسلم عينا وقال: "إذا استكره الذمي مسلمة على الزنى قتل إن كانت حرة وإن كانت أمة عوقب العقوبة الشديدة" فمذهبه إيجاب القتل لبعض أهل الذمة الذين يفعلون ما فيه ضرر على المسلمين فمن قال؟: "إنه يرد إلى مأمنه" قال: لأنه حصل في دار الإسلام بأمان فلم يجز قتله حتى يرد إلى مأمنه كما لو دخلها بأمان صبي وهذا ضعيف جدا لأن الله تعالى قال في كتابه: {وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم} الآية, فهذه الآية وإن كانت نزلت في أهل الهدنة فعمومها لفظا ومعنى يتناول كل ذي عهد على ما لا يخفى وقد أمر سبحانه بالمقاتلة حيث وجدناهم فعم ذلك مأمنهم وغير مأمنهم ولأن الله تعالى أمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فمتى لم يعطوا الجزية أو لم يكونوا صاغرين جاز قتالهم من غير شرط على معنى الآية ولأنه قد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من رأوه من رجال يهود صبيحة قتل ابن الأشرف وكانوا معه معاهدين ولم يأمر بردهم إلى مأمنهم وكذلك لما نقضت بنو قينقاع العهد قاتلهم ولم يردهم إلى مأمنهم ولما نقضت بنو قريظة العهد قاتلهم وأسرهم ولم يبلغهم مأمنهم وكذلك كعب بن الأشرف نفسه أمر بقتله غيلة ولم يشعره أنه يريد قتله فضلا عن أن يبلغه مأمنه وكذلك بنو النضير أجلاهم على أن لا ينقلوا إلا ما حملته الإبل إلا الحلقة وليس هذا بإبلاغ للمأمن لأن من بلغ مأمنه يؤمن على نفسه وأهله وماله حتى يبلغ مأمنه وكذلك سلام ابن أبي الحقيق وغيره من يهود لما نقضوا العهد قتلهم نوبة خيبر ولم يبلغهم مأمنهم ولأنه قد ثبت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر وأبا عبيدة ومعاذ ابن جبل وعوف بن مالك قتلوا النصراني الذي أراد أن يفجر بالمسلمة وصلبوه ولم ينكره منكر فصار إجماعا ولم يردوه إلى مأمنه ولأن في شروط عمر التي شرطها على النصارى "فإن نحن خالفا عن شيء شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما حل لأهل المعاندة والشقاق" رواه حرب بإسناد صحيح وقد تقدم عن عمر وغيره من الصحابة مثل أبي بكر وعمر وابن عباس وخالد بن الوليد وغيرهم رضوان الله عليهم أنهم قتلوا وأمروا بقتل ناقض العهد ولم يبلغوه مأمنه ولئن دمه كان مباحا وإن عصمته الذمة فمتى ارتفعت الذمة بقي على الإباحة ولأن الكافر لو دخل دار الإسلام بغير أمان وحصل في أيدينا جاز قتله في دارنا وأما من دخل بأمان صبى فإنما ذاك لأنه يعتقد أنه مستأمن

فصارت له شبهة أمان وذلك يمنع قتله كمن وطء فرجا يعتقد أنه حلال لا حد عليه وكذلك لا ينسب في دخوله دار الإسلام إلى تفريط وأما هذا فإنه ليس له أمان ولا شبهة أمان لأن مجرد حصوله في الدار ليس بشبهة أمان بالاتفاق بل هو مقدم على ما ينتقض به العهد مفرط في ذلك عالم أنا لم نصالحه على ذلك فأي عذر له في حقن دمه حتى يلحقه بمأمنه؟ نعم لو فعل من نواقض العهد ما لم يعلم أنه يضرنا مثل أن يذكر الله تعالى أو كتابه أو رسوله بشيء يحسبه جائزا عندنا كان معذورا بذلك فلا ينقض العهد كما تقدم ما لم يتقدم إليه كما فعل عمر بقسطنطين النصراني.

وأما من قال أنه كالأسير الحربي إذا حصل في أيدينا فقال: لأنه كافر حلال الدم حصل في أيدينا وكل من كان كذلك فإنه مأسور فلنا أن نقتله كما قتل النبي صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث ولنا أن نمن عليه كما من النبي صلى الله عليه وسلم على ثمامه بن أثال الحنفي وعلى أبي عزة الجمحي ولنا أن نفادي به كما فادى النبي صلى الله عليه وسلم بعقيل وغيره ولنا أن نسترقه كما استرق المسلمون خلقا من الأسرى مثل أبي لؤلؤة قاتل عمر ومماليك العباس وغيرهم أما قتل الأسير واسترقاقه فما أعلم فيه خلافا لكن قد اختلف العلماء في المن عليه والمفادة هل هو باق أو منسوخ؟ على ما هو معروف في مواضعه وهذا لأنه إذا نقض العهد عاد كما كان والحربي الذي لا عهد له إذا قدر عليه جاز قتله واسترقاقه ولأنه ناقض للعهد فجاز قتله واسترقاقه كاللاحق بدار الحرب والمحارب في طائفة ممتنعة إذا أسر بل هذا أولى لأن نقض العهد بذلك متفق عليه فهو أغلظ فإذا جاز أن يحكم فيه بحكم الأسير ففي هذا أولى نعم إذا انتقض العهد بفعل له عقوبة تخصه مثل أن يقتل مسلما أو يقطع الطريق عليه ونحو ذلك أقيمت عليه تلك العقوبة سواء كانت قتلا أو جلدا ثم إن بقي حيا بعد إقامة حد تلك الجريمة عليه صار كالكافر الحربي الذي لا حد عليه.

ومن فرق بين سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين سائر النواقض قال: لأن هذا حق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعف عنه فلا يجوز إسقاطه بالاسترقاق ولا بالتوبة كسب غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيأتي إن شاء الله تحرير مأخذ السب.

وأما من قال إنه يتعين قتله إذا نقضه بما فيه مضرة على المسلمين دون ما إذا لم يوجد منه إلا مجرد اللحاق بدار الحرب والامتناع عن المسلمين فلأن الله تعالى قال: {وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة} إلى قوله: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين} فأوجب سبحانه قتال الذين نكثوا العهد وطعنوا في الدين ومعلوم أن مجرد نكث العهد موجب للقتال الذي كان واجبا قبل العهد وأوكد فلا بد أن يفيد هذا زيادة توكيد وما ذاك إلا لأن الكافر الذي

ليس بمعاهد يجوز الكف عنى قتاله إذا اقتضت المصلحة ذلك إلى وقت فيجوز استبقائه بخلاف هذا الذمي نقض وطعن فإنه يجب قتاله من غير استتابة وكل طائفة وجب قتالها من غير استئناف لفعل يبيح دم آحادها فإنه يجب قتل الواحد منهم إذا فعله وهو في أيدينا كالردة والقتل في المحاربة والزنى ونحو ذلك بخلاف البغي فإنه لا يبيح دم الطائفة إلا إذا كانت ممتنعة وبخلاف الكفر الذي لا عهد معه فإنه يجوز الاستيناء بقتل أصحابه بالجملة وقوله سبحانه: {يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم} دليل على أن الله تعالى يريد الانتقام منهم وذلك لا يحصل من الواحد إلا إذا قتل ولا يحصل إن من عليه أو فودي به أو استرق نعم دلت الآية على أن الطائفة الناقضة الممتنعة يجوز أن يتوب الله على من يشاء منها بعد أن يعذبها ويخزيها بالغلبة لأن ما حاق بهم من العذاب والخزي يكفي في ردعهم وردع أمثالهم عما فعلوه من النقض والطعن أما الواحد فلو لم يقتل بل من عليه لم يكن هناك رادع قوي عن قوله عن فعله.

وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما سبى بني قريظة قتل المقاتلة واسترق الذرية إلا امرأة واحدة كانت قد ألقت رحى من فوق الحصن على رجل من المسلمين فقتلها لذلك وحديثها مع عائشة رضي الله عنها معروف ففرق صلى الله عليه وسلم بين من اقتصر على نقض العهد وبين من آذى المسلمين مع ذلك وكان لا يبلغه عن أحد من المعاهدين أنه آذى المسلمين إلا ندب إلى قتله وقد أجلى كثير ومن على كثير ممن نقض العهد فقط.

وأيضا فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهدوا أهل الشام من الكفار ثم نقضوا العهد فقاتلوهم ثم عاهدوهم مرتين أو ثلاثا وكذلك مع أهل مصر ومع هذا فلم يظفروا بمعاهد آذى المسلمين بطعن في الدين أو زنى بمسلمة ونحو ذلك إلا قتلوه وأمروا بقتل هؤلاء الأجناس عينا من غير تخيير فعلم أنهم فرقوا بين النوعين.

وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل مقيس بن حبابة وعبد الله بن خطل ونحوهما مما ارتد وجمع إلى ردته قتل مسلم ونحوه من الضرر ومع هذا فقد ارتد في عهد أبي بكر رضي الله عنه خلق كثير وقتلوا من المسلمين عددا بعد الامتناع مثل ما قتل طليحة الأسدي عكاشة بن محصن وغيره ولم يؤخذ أحد منهم بقصاص بعد ذلك فإذا كان المرتد يؤخذ بما أصابه قبل الامتناع من الجنايات ولا يؤخذ بما فعله بعد الامتناع فكذلك الناقض للعهد لأن كليهما خرج عما عصم به دمه: هذا نقض إيمانه وهذا نقض أمانه وإن كان في هذا خلاف بين الفقهاء في المذهب وغيره فإنما قسنا على أصل ثبت بالسنة وإجماع الصحابة نعم المرتد إذا عاد إلى الإسلام عصم دمه إلا من حد يقتل بمثله المسلم والمعاهد يقتل على ما فعله من الجنايات المضرة بالمسلمين لأنه يصير مباحا بالنقض ولم يعد إلى شيء يعصم دمه فيصير كحربي يغلظ قتله يبين ذلك أن الحربي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا آذى المسلمين وضرهم قتله عقوبة له على ذلك ولم يمن عليه بعد القدرة عليه فهذا الذي نقض عهده بضرر المسلمين أولى بذلك ألا ترى أنه لما من على أبي عزة الجمحي وعاهده أن لا يعين عليه فغدر به ثم قدر عليه بعد ذلك وطلب أن يمن عليه فقال: "لا تسمح سبلاتك بمكة وتقول: سخرت بمحمد مرتين" ثم قال: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" فلما نقض يمينه منعه ذلك من المن عليه لأنه ضره بعد أن كان عاهده على ترك ضراره فكذلك من عاهد من أهل الذمة أنه لا يؤذي المسلمين ثم أذاهم لو أطلقوا للدغوا من جحر واحد مرتين ولمسح المشرك سبلاته وقال: سخرت بهم مرتين.

وأيضا فلأنه إذا لحق بدار الحرب وامتنع لم يضر المسلمين وإنما أبطل العقد الذي بينهم وبينه فصار كحربي أصلي أما إذا فعل ما يضر بالمسلمين من مقاتلة أو زنى بمسلمه أو قطع طريق أو حبس أو نحو ذلك فإنه يتعين قتله لأنه لو لم يقتل لخلت هذه المفاسد عن العقوبة عليها وتعطلت حدود هذه الجرائم ومثل هذه الجرائم لا يجوز العفو عن عقوبتها في حق المسلم فلأن لا يجوز العفو عن عقوبتها في حق الذمي أولى وأحرى ولا يجوز أن يقام عليه حدها منفردا كما يقام على من بقيت ذمته الحد لأن صاحبها صار حربيا والحربي لا يقام عليه إلا القتل فتعين قتله وصار هذا كالأسير اقتضت المصلحة قتله لعلمنا أنه متى أفلت كان فيه ضرر على المسلمين أكثر من ضرر قتله فإنه لا يجوز المن عليه ولا المفاداة به اتفاقا ولأن الواجب في مثل هذا إما القتل أو المن أو الاسترقاق أو الفداء فأما الاسترقاق فإنه أبقى له على ذمته بنحو مما كان فإنه كان تحت ذمتنا نأخذ منه الجزية بمنزلة العبد ولهذا قال بعض الصحابة لعمر في مسلم قتل ذميا: أتقيد عبدك من أخيك؟ بل ربما كان استبعاده أنفع له من جعله ذميا واستبعاد مثل هذا لا تؤمن عاقبته وسوء مغبته وأما المن عليه والمفاداة به فأبلغ في المفسدة وإعادته إلى الذمة ترك لعقوبته بالكلية فتعين قتله.

يوضح ذلك أنا على هذا التقرير لا نعاقبه إذا عاد إلى الذمة إلا بما يعاقب فيه المسلم أو الباقي على ذمته وهذا في الحقيقة يؤول إلى قول من يقول: إن العهد لا ينقض بهذه الأشياء فلا معنى لجعل هذه الأشياء ناقضه للعهد وإيجاب إعادة أصحابها إلى العهد وأن لا يعاقبوا إذا عادوا إلا بما يعاقب به المسلم.

ويؤيد ذلك أن هذه الجرائم إذا رفعت العهد وفسخته فلأن يمنع ابتداء بطريق الأولى لأن الدوام أقوى من الابتداء ألا ترى أن العدة والردة تمنع ابتداء عقد النكاح دون دوامه فأما إن كان وجود هذه المضرات يمنع دوام العقد فمنعه ابتداءه أولى وأحرى وإذا لم يجز ابتداء عقد الذمة فلأن لا يجوز المن عليه أولى ولأن الله تعالى أمر بقتل جميع المشركين إلا أن المشدود وثاقه من

المحاربين جعل لنا أن نعامله بما نرى والخارج عن العهد وليس بمنزلة الذي لم يدخل فيه كما أن الخارج عن الدين ليس بمنزلة الذي لم يدخل فيه فإن الذي لم يدخل فيه باق على حاله والذي خرج من الإيمان والأمان قد أحدث فسادا فلا يلزم من احتمال الفساد الباقي المستصحب احتمال الفساد المحدث المتجدد لأن الدوام أقوى من الابتداء.
يبين ذلك أن كل أسير كان يؤذي المسلمين مع كفره فإن النبي صلى الله عليه وسلم قتله مثل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ومثل أبي عزة الجمحي في المرة الثانية.
وأيضا فإنه إذا امتنع بطائفة أو بدار الحرب كان ما يتوقى من ضرره متعلقا بعزة ومنعته كالحربي الأصلي فإذا زالت المنعة بأسره لم يبق منه ما يبقى إلا من جهة كونه كافرا فقط فلا فرق بينه وبين غيره أما إذا ضر المسلمين وآذاهم بين ظهرانيهم أو تمرد عليهم بالامتناع مما أوجبته الذمة عليه كان ضرره بنفسه من غير طائفة تمنعه وتنصره فيجب إزهاق نفسه التي لا عصمة لها وهي منشأ الضرر وينبوع لأذى المسلمين ألا ترى أن الممتنع ليس فيما فعله إغراء للآحاد غير ذوي المنعة بخلاف الواحد فإن فيما يفعله فتح باب الشر فإن لم يعاقب فعل ذلك غيره وغيره ولا عقوبة لمن لا عهد له من الكفار إلا السيف.
وأيضا فإن الممتنع منهم قد أمرنا بقتاله إلى أن يعطي الجزية عن يد وهو صاغر وأمرنا بقتاله حتى إذا أثخناه فشدوا الوثاق فكل آية فيها ذكر القتال دخل فيها فينتظمه حكم غيره من الكفار الممتنعين ويجوز إنشاء عقد ثان لهم واسترقاقهم ونحو ذلك أما من فعل جناية انتقض بها عهده وهو في أيدينا فلم يدخل في هذه العمومات لأنه لا يقاتل وإنما يقتل إذ القتال للممتنع وإذا كان أخذ الجزية والمن والفداء إنما هو لمن قوتل هذا لم يقاتل فيبقى داخلا في قوله: {فاقتلوا المشركين} غير داخل في آية الجزية والفداء.
وأيضا فإن الممتنع يصير بمنزلة الحربي والحربي يندرج جميع شأنه تحت الحراب بحيث لو أسلم لم يؤاخذ بضمان شيء من ذلك بخلاف الذي في أيدينا وذلك أنه ما دام تحت أيدينا في ذمتنا فإنه لا تأويل له في ضرر المسلمين وإيذائهم أما اللحاق بدار الحرب فقد يكون له معه شبهة في دينه يرى أنه إذا تمكن من الهرب هرب لا سيما وبعض فقهائنا يبيح له ذلك فإذا فعل ذلك بتأويل كان بمنزلة ما يتلفه أهل البغي والعدل حال القتال لا ضمان فيه وما أتلفوه في غير حال الحرب ضمنته كل طائفة للأخرى فليس حال من تأول فيما فعله من النقض كحال من لم يتأول.
وأيضا فإن ما يفعله بالمسلمين من الضرر الذي ينتقض به عهده لا بد له من عقوبة لأنه لا يجوز إخلاء الجرائم التي تدعو إليها الطباع من عقوبة زاجرة وشرع الزواجر شاهد لذلك ثم لا يخلو إما أن تكون عقوبته من جنس عقوبة من يفعل ذلك من مسلم أو ذمي بامرأة ذميه أو دون ذلك أو فوق ذلك والأول باطل لأنه يلزم أن يكون عقوبة المعصوم والمباح سواء ولأن الذي نقض العهد يستحق العقوبة على كفره وعلى ما فعله من الضرر الذي نقض به العهد وإنما أخرت عقوبة الكفر لأجل العهد فإذا ارتفع العهد استحق العقوبة على الأمرين وبهذا يظهر الفرق بينه وبين من فعل ذلك وهو معصوم وبين مباح دمه لم يفعل ذلك لأن هذه المعاصي إذا فعلها المسلم فإنها منجبرة بما يلتزمه من نصر المسلمين ومنفعتهم وموالاتهم فلم يتمحض مضرا للمسلمين لأن فيه منفعة ومضرة وخيرا وشرا بخلاف الذمي فإنه إذا ضر المسلمين تمحض ضررا لزوال العهد الذي هو مظنة منفعته ووجود هذه الأمور المضرة وإذا لم يجز أن يعاقب بمثل ما يعاقب به المسلم فأن لا يعاقب بما هو دونه أولى وأحرى فوجب أن يعاقب بما هو فوق عقوبة المسلم ثم المسلم يتحتم قتله إذا فعل مثل هذه الأشياء فتحتم عقوبة ناقض العهد أولى لكن يختلفان في جنس العقوبة فهذا عقوبته القتل فيجب أن يتحتم وذلك عقوبته تارة القتل وتارة القطع وتارة الرجم أو الجلد.

فصل.

إذا تلخصت هذه القاعدة فيمن نقض العهد على العموم فنقول: شاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعين قتله كما قد نص عليه الأئمة.
أما على قول من يقول: يتعين قتل كل من نقض العهد وهو في أيدينا أو يتعين قتل كل من نقض العهد بما فيه ضرر على المسلمين وأذى لهم كما ذكرناه في مذهب الإمام أحمد وكما قد دل عليه كلام الشافعي الذي نقلناه أو نقول: يتعين قتل من نقض العهد بسب الرسول صلى الله عليه وسلم وحده كما قد ذكره القاضي أبو يعلي وغيره من أصحابنا وكما ذكره طائفة من أصحاب الشافعي وكما نص عليه عامة الذين ذكروه في نواقض العهد وذكروا أن الإمام يتخير فيمن نقض العهد على سبيل الإجمال فإنهم ذكروا في مواضع أخر أنه يقتل من غير تخيير فظاهر.
وأما على قول من يقول: إن كل ناقض للعهد فإن الإمام يتخير فيه كالأسير فقد ذكرنا أنهم قالوا: إنه يستوفى منه الحقوق كالقتل والحد والتعزير لأن عقد الذمة على أن تجري أحكامنا عليه وهذه أحكامنا ثم إذا استوفينا منه ذلك فالإمام مخير فيه كالأسير وعلى هذا القول فيمكنهم أن يقولوا: إنه يقتل لأن سب رسول الله صلى الله عليه وسلم موجب للقتل حدا من الحدود كما لو نقض العهد بزنى أو قطع طريق فإنه يقام عليه حد ذلك فيقتل إن أوجب القتل بل قد يقتل الذمي حدا من الحدود وإن لم ينتقض عهده

كما لو قتل ذميا آخر أو زنى بذمية فإنه يستوفي منه القود وحد الزنى وعهده باق ومذهب مالك يمكن أن يوجه على هذا المأخذ إن كان فيهم من يقول لم ينتقض عهده.
وبالجملة فالقول بأن الإمام يتخير في هذا إنما يدل عليه كلام بعض الفقهاء أو إطلاقه وكذلك القول بأنه يلحق بمأمنه وأخذ مذاهب الفقهاء من الإطلاقات من غير مراجعة لما فسروا به كلامهم وما تقتضيه أصولهم يجر إلى مذاهب قبيحة فإن تقرر في هذا خلاف فهو ضعيف نقلا لما قدمناه وتوجيها لما سنذكره والدليل على أنه يتعين قتله ولا يجوز استرقاقه ولا المن عليه ولا المفاداة به من طريقين.
أحدهما: ما تقدم من الأدلة على وجوب قتل ناقض العهد إذا نقضه بما فيه ضرر على المسلمين مطلقا.
الثاني: ما يخصه وهو من وجوه:
أحدها: ما تقدم من الآيات الدالة على وجوب قتل الطاعن في الدين.
الثاني: حديث الرجل الذي قتل المرأة اليهودية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمها وقد تقدم من حديث على بن أبي طالب وابن عباس فلو كان سب النبي صلى الله عليه وسلم يرفع العهد فقط ولا يوجب القتل لكانت هذه المرأة بمنزلة كافرة أسيرة وبمنزلة كافرة دخلت إلى دار الإسلام ولا عهد لها ومعلوم أنه لا يجوز قتلها وأنها تصير رقيقة للمسلمين بالسبي وهذه المرأة المقتولة كانت رقيقة والمسلم إذا كانت له أمة كافرة حربية لم يجز له ولا لغيره قتلها لمجرد كونها حربية بل تكون ملكا لسيدها ترد عليه إذا أخذها المسلمون ولا نعلم بين المسلمين خلافا أن المرأة لا يجوز قتلها لمجرد الكفر إذا لم تكن معاهدة كما يقتل الرجل لذلك ولا نعلم أيضا خلافا في أن المرأة إذا ثبت في حقها حكم نقض العهد فقط مثل أن تكون من أهل الهدنة وقد نقضوا العهد فإنه لا يجوز قتل نسائهم وأولادهم بل تسترق النساء والأولاد وكذلك الذمي إذا نقض العهد ولحق بدار الحرب فمن ولد له بعد نقض العهد لم يجز قتل النساء منهم والأطفال بل يكونون رقيقا للمسلمين وكذلك أهل الذمة إذا امتنعوا بدار الحرب ونحوها.
فمن الفقهاء من قال: العهد باق في ذريتهم ونسائهم كما هو المعروف عن الإمام أحمد وقال أكثرهم: ينتقض العهد في الذرية والنساء أيضا ثم لا يختلفون أن النساء لا يقتلن وأصل ذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: في كتابه {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} فأمر بقتال الذين يقاتلون فعلم أن شرط القتال كون المقاتل مقاتلا.
وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان.
وعن رباح بن ربيع أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد فمر رباح وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون إليها يعني ويتعجبون من قتلها حتى لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته فانفرجوا عنها فوقف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " ما كانت هذه لتقاتل " فقال لأحدهم: "الحق خالدا فقل له: لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا " رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة.
وعن ابن كعب بن مالك عن عمه أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعث إلى ابن أبي الحقيق بخيبر "نهى عن قتل النساء والصبيان " رواه الإمام أحمد.
وفي الباب أحاديث مشهورة على أن هذا من العلم العام الذي تناقلته الأمة خلفا عن سلف وذلك لأن المقصود بالقتال أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله وأن لا تكون فتنة أي لا يكون أحد يفتن أحدا عن دين الله فإنما نقاتل من كان ممانعا عن ذلك وهم أهل القتال فأما من لا يقاتل عن ذلك فلا وجه لقتله كالمرأة والشيخ الكبير والراهب ونحو ذلك ولأن المرأة تصير رقيقة للمسلمين ومالا لهم ففي قتلها تفويت لذلك عليهم من غير حاجة وإضاعة المال لغير حاجة نعم لو قاتلت المرأة جاز أن تقتل بالاتفاق لوجود المعنى فيها الذي جعل الله ورسوله عدمه مانعا من قتلها بقوله صلى الله عليه وسلم: " ما كانت هذه لتقاتل " لكن هل يجوز أن تقصد بالقتل كما يقصد الرجل أو يقصد كفها كما يقصد كف الصائل؟ ففيه خلاف بين الفقهاء فإذا كان الحكم في المرأة مثل ذلك وقد أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دم امرأة ذمية لأجل سبها مع أن قتلها لو كان حراما لأنكره النبي صلى الله عليه وسلم كما أنكر قتل المرأة التي وجدها مقتولة في بعض مغازيه وإن لم تكن مضمونة بدية ولا كفارة فإنه صلى الله عليه وسلم لا يسكت عن إنكار المنكر بل إقراره دليل على الجواز والإباحة علم أن السابة ليست بمنزلة الأسيرة الكافرة لأن تلك لا يجوز قتلها وعلم أن السب أوجب قتلها بنفسه كما يجب قتلها بالإجماع إذا قطعت الطريق وقتلت فيه وإذا زنت وكما يجب قتلها بالردة عند جماهير العلماء.
فإن قيل: يجوز أن يكون سبها للنبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة قتالها والمرأة إذا قاتلت وكانت معاهدة انتقض عهدها كالرجل إذا فعل ذلك ويجوز أن تكون حينئذ بمنزلة المرأة المقاتلة إذا أسرت يتخير الإمام فيها بين أربعة أشياء كما يتخير في الرجل المقاتل إذا أسر.

قلنا: الجواب من وجوه:
أحدها: أن هذه المرأة لم يصدر عنها إلا مجرد شتم النبي صلى الله عليه وسلم بحضرة سيدها المسلم ولم تحض أحدا من المشركين للقتال ولا أشارت على الكفار برأي تعين فيه على قتال المسلمين ومعلوم أن من لم يقاتل بيده ولا أعان على القتال بلسانه لم يجز أن ينسب إليه القتال بوجه من الوجوه ونحن لا ننكر أن من لا يجوز قتله كالراهب والأعمى والشيخ الفاني والمقعد ونحوهم إذا كان لهم رأي في القتال وكلام يعينون به على قتال المسلمين كانوا بمنزلة المقاتلين لكن مجرد سب المرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند قوم مسلمين ليس من هذا القبيل وإنما هو أذى لله ولرسوله أبلغ من القتال من بعض الوجوه فلو لم يكن موجبا للقتل لكانت المرأة الكافرة قد قتلت لأنها مقاتلة وهي لم تقاتل وذلك غير جائز فعلم أنه موجب للقتل وإن لم يكن قتالا وقد يكون قتالا إذا ذكر في معرض الحض على قتال المسلمين وإغراء الكفار بحربهم فأما في هذه الواقعة فلم يكن من القتال المعروف.
الجواب الثاني: أنا نسلم أن سب النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة محاربة المسلمين ومقاتلهم من بعض الوجوه كما كتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك يعني سب الأنبياء من مسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر بل هو من أبلغ أنواع الحراب كما تقدم تقريره لكن الجواب نوعان:
أحدهما: ما ينقطع مفسدته بالقتل تارة وبالاسترقاق أخرى وبالمن أو الفداء أخرى وهو حراب الكافر بالقتال يدا ولسانا فإن الحربي والحربية المقاتلة إذا أسرا فاسترقا انقطع عن المسلمين ضررهما كما قد يزول بالقتل وكذلك لو من عليهما رجاء أن يسلما إذا بدت مخائل الإسلام أو رجاء أن يكفا عن المسلمين شر من خلفهما أو فودي بهما فهنا مفسدة المحاربة قد تزول بهذه الأمور.
الثاني: ما لا تزول مفسدته إلا بإقامة الحد فيه مثل حراب المسلم أو المعاهدة في دار الإسلام بقطع الطريق ونحوه فإن ذلك يتحتم إقامة الحد فيه باتفاق الفقهاء.
فهذه الأمة التي كانت تسب النبي صلى الله عليه وسلم قد حاربت في دار الإسلام فإن قيل "تعاقب بالاسترقاق" فهي رقيقة لا يتغير حالها وإن قيل "يمن عليها أو يفادي بها" لم يجز لوجهين:
أحدهما: أنها ملك مسلم ولا يجوز إخراجها عن ملكه مع حياتها
الثاني: أن ذلك إحسان إليها وإزالة للرق عنها فلا يجوز أن يكون جزاء لسبها وحرابها فتعين قتلها.
الجواب الثالث: أن مفسدة السب لا تزول إلا بالقتل لأنها متى استبقيت طمعت هي وغيرها في السب الذي هو من أعظم الفساد في الأرض كقاطع الطريق سواء بخلاف المرأة المقاتلة إذا أسرت فإن مفسدة مقاتلتها قد زالت بأسرها ولا يمكنها مع استرقاقها أن تقاتل ويمكنها أن تظهر السب والشتم فصار سبها من جنس الجنايات التي توجب العقوبات لا تزول مفسدتها إلا بإقامة الحد فيها وعلم أن الذمية التي تسب ليست بمنزلة الحربية التي تقاتل إذا أسرت بل هي بمنزلة الذمية التي تقطع الطريق وتزني.
الجواب الرابع: أن الحديث فيه حكم وهو القتل وسبب القتل هو السب فيجب إضافة الحكم إلى السبب والأصل إيجاد الحكم فمن زعم أن السبب حكم آخر احتاج إلى دليل وقياسه على الأسيرة لا يصح لما سيأتي إن شاء الله تعالى.
الجواب الخامس: أنها لو كانت بمنزلة الأسيرة لكان النظر فيها للإمام لا يجوز لآحاد الرعية تخير واحدة من الخصال الأربع فيها ومن قتلها ضمنها بقيمتها للمسلمين إن كانت فيئا وللغانمين إن كانت مغنما فعلم أن القتل كان واجبا فيها عينا.
يبقى أن يقال: الحدود لا يقيمها إلا الإمام أو نائبه وجوابه من وجوه:
أحدها: أن السيد له أن يقيم الحد على عبده بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: "أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم " وقوله: " إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها " ولا أعلم خلافا بين فقهاء الحديث أن له أن يقيم عليه الحد مثل حد الزنا والقذف والشرب ولا خلاف بين المسلمين أن له أن يعزره واختلفوا هل له أن يقيم عليه قتلا أو قطعا مثل قتله لردته أو لسبه النبي صلى الله عليه وسلم وقطعه للسرقة؟ وفيه عن الإمام أحمد روايتان:
إحداهما يجوز وهو منصوص عن الشافعي والأخرى: لا يجوز كأحد الوجهين لأصحاب الشافعي وهو قول مالك وقد صح عن ابن عمر أنه قطع يد عبد له سرق وصح عن حفصة أنها قتلت جارية لها اعترفت بالسحر وكان ذلك برأي ابن عمر فيكون الحديث حجة لمن يجوز للسيد أن يقيم الحد على عبده مطلقا وعلى هذا القول فالسيد له أن يقيم الحد على عبده بعلمه في المنصوص عن الإمام أحمد هو إحدى الروايتين عن مالك والنبي صلى الله عليه وسلم لم يطلب من سيد الأمة بينة على سبه بل صدقة في قوله: "كانت تسبك وتشتمك" ففي الحديث حجة لهذا القول أيضا.
الوجه الثاني: أن ذلك أكثر ما فيه أنه افتئات على الإمام والإمام له أن يعفو عمن أقام حدا واجبا دونه.
الوجه الثالث: أن هذا وإن كان حدا فهو قتل حربي أيضا فصار بمنزلة قتل حربي تحتم قتله وهذا يجوز قتله لكل أحد وعلى هذا يحمل قول ابن عمر في الراهب الذي قيل له إنه يسب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لو سمعته لقتلته.

الوجه الرابع: أن مثل هذا قد وقع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل المنافق الذي قتله عمر بدون إذن النبي صلى الله عليه وسلم لما لم يرض بحكمه فنزل القرآن بإقراره ومثل بنت مروان التي قتلها ذلك الرجل حتى سماه النبي صلى الله عليه وسلم ناصرا لله ورسوله وذلك أن من وجب قتله لمعنى يكيد به الدين ويفسده ليس بمنزلة من قتل لأجل معصية من زنى ونحوه.

الجواب السادس: أن الفقهاء قد اختلفوا في المرأة المقاتلة إذا أسرت هل يجوز قتلها؟ ومذهب الشافعي أنها لا تقتل فلو كانت هذه إنما قتلت لكونها قد قاتلت لم يجز أن تقتل بعد الأسر عنده فلا يصح أن يورد هذا السؤال على أصله.

الدليل الثالث: أن الساب لو صار بمنزلة الحربي فقط لكان دمه معصوما بأمان يعقد له أو ذمة أو هدنة ومعلوم أن شبهة الأمان كحقيقته في حقن الدم والنفر الذين أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى كعب بن الأشرف جاؤا إليه على أن يستلفوا منه وحادثوه وماشوه وقد آمنهم على دمه وماله وكان بينه وبينهم قبل ذلك عهد وهو يعتقد بقاءه ثم إنهم استأذنوه في أن يشموا ريح الطيب من رأسه فأذن لهم مرة بعد أخرى وهذا كله يثبت الأمان فلو لم يكن في السب إلا مجرد كونه كافرا حربيا لم يجز قتله بعد أمانة إليهم وبعد أن أظهروا له أنهم مؤمنون له واستئذانهم إياه في إمساك يديه فعلم بذلك أن إيذاء الله ورسوله موجب للقتل لا يعصم منه أمان ولا عهد وذلك لا يكون إلا فيما أوجب القتل عينا من الحدود كحد الزنى وحد قطع الطريق وحد المرتد ونحو ذلك فإن عقد الأمان لهؤلاء لا يصح ولا يصيرون مستأمنين بل يجوز اغتيالهم والفتك بهم لتعين قتلهم فعلم أن ساب النبي صلى الله عليه وسلم كذلك.

يؤيد هذا ما ذكره أهل المغازي من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه لو قر كما قر غيره ما اغتيل ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف" فإن ذلك دليل على أن لا جزاء له إلا القتل.

الدليل الرابع: قوله صلى الله عليه وسلم إن كان ثابتا "من سب نبيا قتل ومن سب أصحابه جلد" فأوجب القتل عينا على كل ساب ولم يخير بينه وبين غيره وهذا ما يعتمد في الدلالة إن كان محفوظا.

الدليل الخامس: أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى قتل ابن الأشرف لأنه كان يؤذي الله ورسوله وكذلك كان يأمر بقتل من يسبه أو يهجوه إلا من عفا عنه بعد القدرة وأمره صلى الله عليه وسلم للايجاب فعلم وجوب قتل الساب وإن لم يجب قتل غيره من المحاربين وكذلك كانت سيرته لم يعلم أنه ترك قتل أحد من السابين بعد القدرة عليه إلا من تاب أو كان من المنافقين وهذا يصلح أن يكون امتثالا للأمر بالجهاد وإقامة الحدود فيكون على الإيجاب يؤيد ذلك أن في ترك قتله تركا لنصر الله ورسوله وذلك غير جائز.

الدليل السادس: أقاويل الصحابة فإنها نصوص في تعيين قتله مثل قول عمر رضي الله عنه: "من سب الله أو سب أحدا من الأنبياء فاقتلوه" فأمر بقتله عينا ومثل قول ابن عباس رضي الله عنهما: "أيما معاهد عاند فسب الله أو سب أحدا من الأنبياء عليهم السلام أو جهر به فقد نقض العهد فاقتلوه" فأمر بقتل المعاهد إذا سب عينا ومثل قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيما كتب به إلى المهاجر في المرأة التي سبت النبي صلى الله عليه وسلم: "لولا ما قد سبقتني فيها لأمرتك بقتلها لأن حد الأنبياء لا يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد ومعاهد فهو محارب غادر" فبين أن الواجب كان قتلها عينا لولا فوات ذلك ولم يجعل فيه خيرة إلى الإمام لا سيما والسابة امرأة وذلك وحده دليل كما تقدم ومثل قول ابن عمر في الراهب الذي بلغه أنه يسب النبي صلى الله عليه وسلم: "لو سمعته لقتلته" ولو كان كالأسير الذي يخير فيه الإمام لم يجز لابن عمر اختيار قتله وهذا الدليل واضح.

الدليل السابع: أن ناقض العهد بسب النبي صلى الله عليه وسلم ونحوه حاله أغلظ من حال الحربي الأصلي وخروجه عما عاهدنا عليه بالطعن في الدين وأذى الله ورسوله ومثل هذا يجب أن يعاقب عقوبة يزجر أمثاله عن مثل حاله والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى: {إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون} فأمر الله رسوله إذا صادف الناكثين بالعهد في الحرب أن يشرد بهم غيرهم من الكفار بأن يفعل بهم ما يتفرق به أولئك وقال تعالى: {ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة} فحض على قتال من نكث اليمين وهم بإخراج الرسول وبدأ بنقض العهد ومعلوم أن من سب الرسول صلى الله عليه وسلم فقد فعل ما هو أعظم من الهم بإخراج الرسول وبدئنا أول مرة ثم قال تعالى: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم} فعلم أن تعذيب هؤلاء وإخزاءهم ونصر المؤمنين عليهم وشفاء صدورهم بالانتقام منهم وذهاب غيظ قلوبهم مما آذوهم به أمر مقصود للشارع مطلوب في الدين ومعلوم أن هذا المقصود لا يحصل ممن سب النبي صلى الله عليه وسلم وآذى الله تعالى ورسوله وعباده المؤمنين إلا بقتله لا يحصل بمجرد استرقاقه ولا بالمن عليه والمفادة به.

وكذلك أيضا تنكيل غيره من الكفار الذين قد يريدون إظهار السب لا يحصل على سبيل التمام إلا بذلك ولا يعارض هذا من نقض العهد في طائفة ممتنعة إذا أسرنا واحدا منهم لأن قتال أولئك والظهور عليهم يحصل هذا المقصود بخلاف ما كان في أيدينا قبل السب وبعده فإن لم نحدث فيه قتالا لم يحصل هذا المقصود.
وجماع ذلك أن ناقض العهد لا بد له من قتال أو قتل إذ لا يحصل المقصود إلا بذلك وهذا الوجه وإن كان فيه عموم لكل من نقض العهد بالأذى لكن ذكرناه هنا لخصوص الدلالة أيضا فإنها تدل عموما وخصوصا.
الدليل الثامن: أن الذمي إذا سب النبي صلى الله عليه وسلم فقد صدر منه فعل تضمن أمرين أحدهما: انتقاض العهد الذي بيننا وبينه الثاني: جنايته على عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهاكه حرمته وإيذاء الله ورسوله والمؤمنين وطعنه في الدين وهذا معنى زائد على مجرد كونه كافرا قد نقض العهد.
ونظير ذلك أن ينقضه بالزنى بمسلمة أو بقطع الطريق على المسلمين وقتلهم وأخذ أموالهم أو بقتل مسلم فإن فعله مع كونه نقضا للعهد قد تضمن جناية أخرى فإن الزنى وقطع الطريق والقتل من حيث هو هو جناية ونقض العهد جناية كذلك هنا سب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث هو هو جناية منفصلة عن نقض العهد له عقوبة تخصه في الدنيا والآخرة زائدة على مجرد عقوبة التكذيب بنبوته والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا} فعلق اللعنة في الدنيا والآخرة والعذاب المهين بنفس أذى الله ورسوله فعلم أنه موجب ذلك وكذلك قوله تعالى: {وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون} وقد تقدم تقريره.
يوضح ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة آمن الناس الذين كانوا يقاتلونه قبل ذلك والذين نقضوا العهد الذي كان بينه وبينهم وخانوه إلا نفرا منهم القينتان اللتان كانتا تغنيان بهجائه وسارة مولاة بني عبد المطلب التي كانت تؤذيه بمكة فإذا كان قد أمر بقتل التي كانت تهجوه من النساء مع أن قتل المرأة لا يجوز إلا إذا قاتلت وهو صلى الله عليه وسلم قد آمن جميع أهل مكة من كان قد قاتل ونقض العهد من الرجال والنساء علم بذلك أن الهجاء جناية زائدة على مجرد القتال والحراب لأن التفريق بين المتماثلين لا يقع من النبي صلى الله عليه وسلم كما أنه أمر بقتل ابن خطل لأنه كان قد قتل مسلما ولأنه كان مرتدا ولأنه كان يأمر بهجائه وكل واحد من القتل والردة والأمر بهجائة جناية زائدة على مجرد الكفر والحراب ومما يبين ذلك أنه قد كان أمر بقتل من كان يؤذيه بعد فتح مكة مثل ابن الزبعرى وكعب بن زهير والحويرث بن نقيد وابن خطل وغيرهم مع أمانه لسائر أهل البلد وكذلك أهدر دم أبي سفيان بن الحارث وامتنع من إدخاله عليه وإدخال عبد الله بن أبي أمية لما كانا يقعان في عرضه وقتل ابن أبي معيط والنضر بن الحارث دون غيرهما من الأسرى وسمى من يبذل نفسه في قتله ناصرا لله ورسوله وكان يندب إلى قتل من يؤذيه ويقول: "من يكفيني عدوي" وكذلك أصحابه يسارعون إلى قتل من آذاه بلسانه وإن كان أبا أو غيره وينذرون قتل من ظفروا به من هذا الضرب وقد تقدم من بيان ذلك ما فيه بلاغ ومن المعلوم أن هؤلاء لو كانوا بمنزلة سائر الكفار الذين لا عهد لهم لم يقتلهم ولم يأمر بقتلهم في مثل هذه الأوقات التي آمن فيها الناس وكف عمن هو مثلهم فعلم أن السب جناية زائدة على الكفر وقد تقدم تقرير ذلك في المسألة الأولى على وجه يقطع العاقل أن سب الرسول صلى الله عليه وسلم جناية لها موقع يزيد على سائر الجنايات بحيث يستحق صاحبها من العقوبة ما لا يستحقه غيره وإن كان كافرا حربيا مبالغا في محاربة المسلمين وأن وجوب الانتصار ممن كان هذه حاله كان مؤكدا في الدين والسعي في إهدار دمه من أفضل الأعمال وأوجبها وأحقها بالمسارعة إليه وابتغاء رضوان الله تعالى فيه وأبلغ الجهاد الذي كتبه الله على عباده وفرضه عليهم ومن تأمل الذين أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم يوم الفتح واشتد غضبه عليهم حتى قتل بعضهم في نفس الحرم وأعرض عن بعضهم وانتظر قتل بعضهم وجد لهم جرائم زائدة على الكفر والحراب من ردة وقتل ونحو ذلك وجرم أكثرهم إنما كان من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذاه بألسنتهم فأي دليل أوضح من هذا على أن سبه وهجاءه جناية زائدة على الكفر والحراب لا يدخل في ضمن الكفر كما يدخل سائر المعاصي في ضمن الكفر وعلى أن المعاهدين إذا نقضوا العهد وفيهم من سب النبي صلى الله عليه وسلم كان للسب عقوبة زائدة على عقوبة مجرد نقض العهد؟.
ومما يدل على أن السب جناية زائدة على كونه كفرا وحرابا وإن كان متضمنا لذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان يعفو عمن يؤذيه من المنافقين كما تقدم بيانه وقد كان له أن يقتلهم كما تقدم ذكره في حديث أبي بكر وغيره ولو كان السب مجرد ردة لوجب قتله كالمرتد يجب قتله فعلم أنه قد تغلب في السب حق النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يجوز له العفو عنه.
ومما يدل على أن السب جناية مفردة أن الذمي لو سب واحدا من المسلمين أو المعاهدين ونقض العهد لكان سب ذلك الرجل جناية عليه يستحق بها من العقوبة ما لا يستحقه بمجرد نقض العهد فيكون سب رسول الله صلى الله عليه وسلم دون سب واحد من البشر.

ومما يدل على ذلك أن ساب النبي صلى الله عليه وسلم وشاتمه يؤذيه شتمه وهجائه كما يؤذيه التعرض لدمه وماله قال الله تعالى لما ذكر الغيبة: {أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه} فجعل الغيبة التي هي كلام صحيح بمنزلة أكل لحم المغتاب ميتا فكيف ببهتانه؟ وسب النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا بهتانا.
وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لعن المؤمن كقتله" وكما يؤذي ذلك غيره من البشر.
وأيضا فإن ذلك يؤذي جميع المؤمنين ويؤذي الله سبحانه وتعالى ومجرد الكفر والمحاربة لا يحصل بهما من أذاه ما يحصل بالوقيعة في العرض مع المحاربة فلو قيل: "إن الواقع في عرضه ممن انتقض عهده بمنزلة غيره ممن انتقض عهده" لكانت الوقيعة في عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذاه بذلك جرما لا جزاء له من حيث خصوص النبي صلى الله عليه وسلم وخصوص أذاه كما لو قتل رجل نبيا من الأنبياء فإن لقتله من العقوبة ما لا يستحق على مجرد الكفر والمحاربة وهذا كله ظاهر لا خفاء به فإن دماء الأنبياء وأعراضهم أجل من دماء المؤمنين وأعراضهم فإذا كان دماء غيرهم وأعراضهم لا تندرج عقوبتها في عقوبة مجرد نقض العهد فأن لا تندرج عقوبة دمائهم وأعراضهم في عقوبة نقض العهد بطريق الأولى.
ومما يوضح ذلك أن سب النبي صلى الله عليه وسلم تعلق به عدة حقوق: حق الله سبحانه من حيث كفر برسوله وعادى أفضل أوليائه وبارزه بالمحاربة ومن حيث طعن في كتابه ودينه فإن صحتهما موقوفة على صحة الرسالة ومن حيث طعن في ألوهيته فإن الطعن في الرسول طعن في المرسل وتكذيبه تكذيب لله تبارك وتعالى وإنكار لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته وتعلق به حق جميع المؤمنين من هذه الأمة ومن غيرها من الأمم فإن جميع المؤمنين مؤمنون به خصوصا أمته فإن قيام أمر دنياهم ودينهم وآخرتهم به بل عامة الخير الذي يصيبهم في الدنيا والآخرة بواسطته وسفارته فالسب له أعظم عندهم من سب أنفسهم وآباءهم وأبناءهم وسب جميعهم كما أنه أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم وآبائهم والناس أجمعين وتعلق به حق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث خصوص نفسه فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله وأكثر مما يؤذيه الضرب بل ربما كانت عنده أعظم من الجرح ونحوه خصوصا من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة فإن هتك عرضه قد يكون أعظم عنده من قتله فإن قتله لا يقدح عند الناس في نبوته ورسالته وعلو قدره كما أن موته لا يقدح في ذلك بخلاف الوقيعة في عرضه فإنها قد تؤثر في نفوس بعض الناس من النفره عنه وسوء الظن به ما يفسد عليهم إيمانهم ويوجب لهم خسارة الدنيا والآخرة فكيف يجوز أن يعتقد عاقل أن هذه الجناية بمنزلة ذمي كان في ديار المسلمين فلحق ببلاد الكفار مستوطنا لها مع أن ذلك اللحاق ليس في خصوصه حق لله ولا لرسوله ولا لأحد من المسلمين؟ أكثر ما فيه أن الرجل كان معتصما بحبلنا فخرق تلك العصمة فإنما أضر بنفسه لا بأحد من المؤمنين.
فعلم بذلك أن السب فيه من الأذى لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ما ليس في الكفر والمحاربة وهذا ظاهر إن شاء الله.
إذا ثبت ذلك فنقول: هذه الجناية جناية السب موجبها القتل لما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم: "من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله" فعلم أن من آذى الله ورسوله كان حقه أن يقتل ولما تقدم من إهدار النبي صلى الله عليه وسلم دم المرأة السابة مع أنها لا تقتل لمجرد نقض العهد ولما تقدم من أمره صلى الله عليه وسلم بقتل من كان يسبه مع إمساكه عمن هو بمنزلته في الدين وندبه الناس إلى ذلك والثناء على من سارع في ذلك ولما تقدم من الحديث المرفوع ومن أقوال الصحابة رضي الله عنهم أن من سب نبيا قتل ومن سب غير نبي جلد.
والذي يختص بهذا الموضع أن نقول: هذه الجناية إما أن يكون موجبها بخصوصها القتل أو الجلد أو لا عقوبة لها بل تدخل عقوبتها في ضمن عقوبة الكفر والحراب.
وقد أبطلنا القسم الثالث والقسم الثاني أيضا باطل لوجوه.
أحدها: أنه لو كان الأمر كذلك لكان الذمي إذا نقض العهد بسب النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يجلد لسب النبي صلى الله عليه وسلم لأنه حق آدمي ثم يكون كالكافر الحربي يقتل للكفر ومعلوم أن هذا خلاف ما دلت عليه السنة وإجماع الصحابة فإنهم اتفقوا على القتل فقط فعلم أن موجب كلا الجنايتين القتل والقتل لا يمكن تعدده وكذلك كان ينبغي أن يجلد المرتد لحق النبي صلى الله عليه وسلم ثم يقتل لردته كمرتد سب بعض المسلمين فإنه يستوفى منه حق الآدمي ثم يقتل ألا ترى أن السارق يقطع لسرقته التي هي حق لله ويرد المال المسروق إذا كان باقيا بالاتفاق ويغرم بدله إن كان تالفا عند أكثر الفقهاء ولا يدخل حق الآدمي في حق الله مع ايجاد السبب.
الثاني: أنه لو لم يكن موجبه القتل وإنما القتل موجب كونه ردة لم يجز للنبي صلى الله عليه وسلم العفو عنه لأن إقامة الحد على المرتد واجبة بالاتفاق لا يجوز العفو عنه فلما عفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم في جناية دل على أن السب نفسه يوجب القتل حقا للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه حق الله تعالى ويكون سابه وقاذفه بمنزلة ساب غيره وقاذفه قد اجتمع في سبه حقان: حق لله وحق لآدمي فلو أن المسبوب والمقذوف عفا عن حقه لم يعزر القاذف والساب على حق الله بل دخل في العفو كذلك

النبي صلى الله عليه وسلم إذا عفا عمن سبه دخل في عفوه عنه حق الله فلم يقتل لكفره كما لا يعزر ساب غيره لمعصيته مع أن المعصية المجردة عن حق آدمي توجب التعزير.
يوضح ذلك أنه قد ثبت أنه كان له أن يقتل من سبه كما في حديث أبي بكر وحديث الذي أمر بقتله لما كذب عليه وحديث الشعبي في قتل الخارجي وكما دلت عليه أحاديث قد تقدم ذكرها وثبت له أن يعفو عنه كما دل عليه حديث ابن مسعود وأبي سعيد وجابر وغيرهم فعلم أن سبه يوجب القتل كما أن سب غيره يوجب الجلد وإن تضمن سبه الكفر بالله كما تضمن سب غيره المعصية لله ويكون الكفر والحراب نوعين: أحداهما حق لله خالص والثاني ما فيه حق لله وحق لآدمي كما أن المعصية قسمان: أحدهما حق خالص لله والثاني حق لله ولآدمي ويكون هذا النوع من الكفر والحراب بمنزلة غيره من الأنواع في استحقاق فاعله القتل ويفارقه في الاستيفاء فإنه إلى الآدمي كما أن المعصية بسب غير النبيين بمنزلة غيرها من المعاصي في استحقاق فاعلها الجلد ويفارق غيرها في أن الاستيفاء فيها إلى الآدمي.
يوضح هذا أن الحق الوجب على الإنسان قد يكون حقا محضا لله وهو ما إذا كفر أو عصى على وجه لا يؤذي أحدا من الخلق فهذا إذا وجب فيه حد لم يجز العفو عنه بحال وقد يكون حقا محضا لآدمي بمنزلة الديون التي تجب للإنسان على غيره من ثمن مبيع أو بدل قرض ونحو ذلك من الديون التي تثبت بوجه مباح فهذا لا عقوبة فيه بوجه وإنما يعاقب على الدين إذا امتنع عن وفائه والامتناع معصية وقد يكون حقا لله ولآدمي مثل حد القذف والقود وعقوبة السب ونحو ذلك فهذه الأمور فيها العقوبة من الحد والتعزير والاستيفاء فيها مفوض إلى اختيار الآدمي: إن أحب استوفى القود وحد القذف وإن شاء عفا فسب النبي صلى الله عليه وسلم لو كان من القسم الثاني لم يكن فيه عقوبة بحال فتعين أن يكون من القسم الثالث وقد ثبت أن عقوبته القتل فعلم أن سب النبي صلى الله عليه وسلم من حيث هو سب له وحق لآدمي عقوبته القتل كما أن سب غيره من حيث هو سب له وحق لآدمي عقوبته الجلد إما حدا أو تعزيرا وهذا معنى صحيح واضح.
وسر ذلك أنه إذا اجتمع الحقان فلا بد من عقوبة لأن معصية الله توجب العقوبة إما في الدنيا أو في الآخرة فإذا كان الاستيفاء جعل الله ذلك إلى المستحق من الآدميين لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيره فهو كله للذي أشرك كذلك من عمل عملا لغيره فيه عقوبة جعل عقوبته كلها لذلك الغير وكانت عقوبته على معصية الله تمكين ذلك الإنسان من عقوبته.
وتمام هذا المعنى أن يقال: بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم يتعين القتل لأن المستحق لا يمكن منه المطالبة والعفو كما أن من سب أو شتم أحدا من أموات المسلمين عزر على ذلك الفعل لكونه معصية لله وإن كان في حياته لا يؤدى حتى يطلب إذا علم.
الوجه الثالث: أن سب النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يكون من حيث هو سب بمنزلة سب غيره من المؤمنين لأنه عليه الصلاة والسلام يباين سائر المؤمنين من أمته في عامة الحقوق فرضا وخطرا وغيرهما مثل وجوب طاعته ووجوب محبته وتقديمه في المحبة على جميع الناس ووجوب تعزيره وتوقيره على وجه لا يساويه فيه أحد ووجوب الصلاة عليه والتسليم إلى غير ذلك من الخصائص التي لا تحصى وفي سبه إيذاء لله ولرسوله ولسائر المؤمنين من عباده وأقل ما في ذلك أن سبه كفر ومحاربة وسب غيره ذنب ومعصية ومعلوم أن العقوبات على قدر الجرائم فلو سوى بين سبه وسب غيره لكان تسوية بين السبين المتباينين وذلك لا يجوز فإذا كان سب غيره مع كونه معصية يوجب الجلد وجب أن يكون سبه مع كونه كفرا يوجب القتل ويصير ذلك نوعا من أنواع الكفر من وجه ونوعا من أنواع السب من وجه فمن حيث هو من جنس الكفر أوجب القتل ومن حيث هو من جنس السب كان حقا لآدمي.
الوجه الرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعاقب أحدا منهم إلا بالقتل ولو كان هو بانفراده لا يوجب القتل وإنما يوجب ما دونه وهو صلى الله عليه وسلم قد عفا عن عقوبته فيما دونه وآمن من فعل ذلك لكان صاحب ذلك لا ينبغي قتله لأن ذنبه الذي يختصه لا يقتضي القتل.
فإن قيل: فقتله بمجموع الأمرين.
قلنا: وهذا المقصود لأن السب حيث كان فإنه مستلزم لكفر لا عهد له.
الدليل التاسع: أن سب رسول الله عليه الصلاة والسلام مع كونه من جنس الكفر والحراب أعظم من مجرد الردة عن الإسلام فإنه من المسلم ردة وزيادة كما تقدم تقريره فإذا كان كفر المرتد قد تغلظ لكونه قد خرج عن الدين بعد أن دخل فيه فأوجب القتل عينا فكفر الساب الذي آذى الله ورسوله وجميع المؤمنين من عباده أولى أن يتغلظ فيوجب القتل عينا لأن مفسدة السب في أنواع الكفر أعظم من مفسدة مجرد الردة.

وقد اختلف الناس في قتل المرتدة وإن كان المختار قتلها ونحن قد قدمنا نصوصا عن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم وأصحابه في قتل السابة الذمية وغير الذمية والمرتد يستتاب من الردة ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قتلوا الساب ولم يستتيبوه فعلم أن كفره أغلظ فيكون تعيين قتله أولى.
الدليل العاشر: أن تطهير الأرض من إظهار سب رسول الله صلى الله عليه وسلم واجب حسب الإمكان لأنه من تمام ظهور دين الله وعلو كلمة الله وكون الدين كله لله فحيث ما ظهر سبه ولم ينتقم ممن فعل ذلك لم يكن الدين ظاهرا ولا كلمة الله عالية وهذا كما يجب تطهيرها من الزناة والسراق وقطاع الطريق بحسب الإمكان بخلاف تطهيرها من أصل الكفر فإنه ليس بواجب وجواز إقرار أهل الكتابين على دينهم بالذمة ملتزمين جريان حكم الله ورسوله عليهم لا ينافي إظهار الدين وعلو الكلمة وإنما تجوز مهادنة الكافر وأمانه عند العجز أو المصلحة المرجوة في ذلك وكل جناية وجب تطهير الأرض منها بحسب القدرة يتعين عقوبة فاعلها العقوبة المحدودة في الشرع إذا لم يكن لها مستحق معين فوجب أن يتعين قتل هذا لأنه ليس لهذه الجناية مستحق معين لأنه تعين بها حق الله ورسوله وجميع المؤمنين وبهذا يظهر الفرق بين الساب وبين الكافر لجواز إقرار ذلك على كفره مستخفيا به ملتزما حكم الله ورسوله بخلاف المظهر للسب.
الدليل الحادي عشر: أن قتل ساب النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان قتل كافر فهو حد من الحدود ليس قتلا على مجرد الكفر والحراب لما تقدم من الأحاديث الدالة على أنه جناية زائدة على مجرد الكفر والمحاربة ومن أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أمروا فيه بالقتل عينا وليس هذا موجب الكفر والمحاربة ولما تقدم من قول الصديق رضي الله عنه في التي سبت النبي صلى الله عليه وسلم: "إن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود" ومعلوم أن قتل الأسير الحربي ونحوه من الكفار والمحاربين لا يسمى حدا ولأن ظهور سبه في ديار المسلمين فساد عظيم أعظم من جرائم كثيرة فلا بد أن يشرع له حد يزجر عنه من يتعاطاه فإن الشارع لا يهمل مثل هذه المفاسد ولا يخليها من الزواجر وقد ثبت أن حده القتل بالسنة والإجماع وهو حد لغير معين حي لأن الحق فيه لله تعالى ولرسوله وهو ميت ولكل مؤمن وكل حد يكون بهذه المثابة فإنه يتعين إقامته بالاتفاق.
الدليل الثاني عشر: أن نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزيره وتوقيره واجب وقتل سابه مشروع كما تقدم فلو جاز ترك قتله لم يكن ذلك نصرا له ولا تعزيزا ولا توقيرا بل ذلك أقل نصره لأن الساب في أيدينا ونحن متمكنون منه فإن لم نقتله مع أن قتله جائز لكان ذلك غاية في الخذلان وترك التعزيز له والتوقير وهذا ظاهر.
واعلم أن تقرير هذه المسألة له طرق متعددة غير ما ذكرناه ولم نطل الكلام هنا لأن عامة الدلائل المذكورة في المسألة الأولى تدل على وجوب قتله لمن تأملها فاكتفينا بما ذكرناه هناك وإن كان القصد في المسألة الأولى بيان جواز قتله مطلقا وهنا بيان وجوب قتله مطلقا وقد أجبنا هناك عمن ترك النبي صلى الله عليه وسلم قتله منم أهل الكتاب والمشركين السابين وبينا أن ذلك إنما كان في أول الأمر حين كان مأمورا بالعفو والصفح قبل أن يؤمر بقتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية ويجاهد الكفار والمنافقين وأنه كان له أن يعفو عمن سبه لأن هذه الجريمة غلب فيها حقه وبعد موته لا عافي عنها والله أعلم
<u>المسألة الثالثة</u>: أنه يقتل ولا يستتاب سواء كان مسلما أو كافرا.
قال الإمام أحمد في رواية حنبل: "كل من شتم النبي صلى الله عليه وسلم وتنقصه مسلما كان أو كافرا فعليه القتل وأرى أن يقتل ولا يستتاب".
وقال: "كل من نقض العهد وأحدث في الإسلام حدثا مثل هذا رأيت عليه القتل ليس على هذا أعطوا العهد والذمة".
وقال عبد الله: سألت أبي عمن شتم النبي صلى الله عليه وسلم يستتاب؟ قال: "قد وجب عليه القتل ولا يستتاب خالد بن الوليد قتل رجلا شتم النبي صلى الله عليه وسلم ولم يستتبه".
هذا مع نصه أنه مرتد إن كان مسلما وأنه قد نقض العهد إن كان ذميا وأطلق في سائر أجوبته أنه يقتل ولم يأمر فيه باستتابة هذا مع أنه لا يختلف نصه ومذهبه أن المرتد المجرد يستتاب ثلاثا إلا أن يكون ممن ولد على الفطرة فقد روي عنه أنه يقتل ولا يستتاب والمشهور عنه استتابة جميع المرتدين واتبع في استتابته ما صح في ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي موسى وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أنهم أمروا باستتابة المرتد في قضايا متفرقة وقدرها عمر رضي الله عنه ثلاثا وفسر الإمام أحمد قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من بدل دينه فاقتلوه" بأنه المقيم على التبديل الثابت عليه فإذا تاب لم يكن مبدلا وهو راجع يقول: قد أسلمت.
وهل استتابة المرتد واجبة أو مستحبة؟ فيه عن الإمام أحمد روايتان وكذلك الخرقي أطلق القول بأن من قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم قتل مسلما كان أو كافرا وأطلق أبو بكر أنه يقتل من سب النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك غيرهما مع أنهم في المرتد يذكرون أنه لا يقتل حتى يستتاب فإن تاب من السب بأن يسلم أو يعود إلى الذمة إن كان كافرا أو يعود إلى الإسلام إن كان مسلما ويقلع عن السب فقال القاضي في المجرد وغيره من أصحابنا: "والردة تحصل بجحد الشهادتين وبالتعريض بسب الله تبارك وتعالى وبسب النبي صلى الله عليه وسلم" إلا أن الإمام أحمد قال: "لا تقبل توبة من سب النبي صلى الله عليه وسلم

لأن المعرة تلحق النبي صلى الله عليه وسلم بذلك" وكذلك وقال ابن عقيل: قال أصحابنا في سب النبي عليه الصلاة والسلام: إنه لا تقبل توبته من ذلك لما تدخل من المعرة من السب على النبي عليه الصلاة والسلام وهو حق لآدمي لم يعلم إسقاطه.
وقال القاضي في خلافه وابنه أبو الحسين: "إذا سب النبي صلى الله عليه وسلم قتل ولم تقبل توبته مسلما كان أو كافرا ويجعله ناقضا للعهد" نص عليه أحمد.
وذكر القاضي النصوص التي قدمناها عن الإمام أحمد في أنه يقتل ولا يستتاب وقد وجب عليه القتل قال القاضي: لأن حق النبي صلى الله عليه وسلم يتعلق به حقان حق لله وحق للآدمي والعقوبة إذا تعلق بها حق لله وحق لآدمي لم تسقط بالتوبة كالحد في المحاربة فإنه لو تاب قبل القدرة لم يسقط حق الآدمي من القصاص ويسقط حق الله.
وقال أبو المواهب العكبري: يجب لقذف النبي صلى الله عليه وسلم الحد المغلظ وهو القتل تاب أو لم يتب ذميا كان أو مسلما.
وكذلك ذكر جماعات آخرون من أصحابنا أنه يقتل ساب النبي صلى الله عليه وسلم ولا تقبل توبته سواء كان مسلما أو كافرا ومرادهم بأنه لا تقبل توبته أن القتل لا يسقط عنه بالتوبة والتوبة اسم جامع للرجوع عن السب بالإسلام وبغيره فلذلك أتوا بها وأرادوا أنه لو رجع عن السب بالإسلام أو بالإقلاع عن السب والعود إلى الذمة إن كان ذميا لم يسقط عنه القتل لأن عامة هؤلاء لما ذكروا هذه المسألة قالوا: خلافا لأبي حنيفة والشافعي في قولهما: إن كان مسلما يستتاب فإن تاب وإلا قتل كالمرتد وإن كان ذميا فقال أبو حنيفة: لا ينتقض عهده واختلف أصحاب الشافعي فيه فعلم أنهم أرادوا بالتوبة توبة المرتد وهي الإسلام ولأنهم قد حكموا بأنه مرتد وقد صرحوا بأن توبة المرتد أن يرجع إلى الإسلام وهذا ظاهر فيه فإن كل من ارتد بقول فتوبته أن يرجع إلى الإسلام ويتوب من ذلك القول وأما الذمي فإن توبته لها صورتان:
إحداهما: أن يقلع عن السب ويقول: لا أعود إليه وأنا أعود إلى الذمة وألتزام موجب العهد.
والثانية: أن يسلم فإن إسلامه توبة من السب.
وكلا الصورتين تدخل في كلام هؤلاء الذين قالوا: لا تقبل توبته مسلما كان أو كافرا وإن كانت الصورة الثانية أدخل في كلامهم في الأولى لكن إذا لم يسقط عنه القتل بتوبة هي الإسلام فأن لا يسقط بتوبة هي العود إلى الذمة أولى وإنما كانت أدخل لأنه قد علم أن التوبة من المسلم إنما هي الإسلام فكذلك من الكافر لذكرهم توبة الاثنين بلفظ واحد ولأن تعليلهم بكونه حق آدمي وقياسه على المحارب دليل على أنه لا يسقط بالإسلام ولأنهم قد صرحوا في مواضع يأتي بعضها أن التوبة من الكافر هنا إسلامه.
وقد صرح بذلك جماعة غيرهم فقال القاضي الشريف أبو علي بن أبي موسى في "الإرشاد" وهو ممن يعتمد نقله: "ومن سب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل ولم يستتب ومن سبه صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة قتل وإن أسلم".
وقال أبو علي بن البناء في "الخصال والأقسام" له: "ومن سب النبي صلى الله عليه وسلم وجب قتله ولا تقبل توبته وإن كان كافرا فأسلم فالصحيح من المذهب أنه يقتل أيضا ولا يستتاب" قال: ومذهب مالك كمذهبنا.
وعامة هؤلاء لم يذكروا خلافا في وجوب قتل المسلم والكافر وأنه لا يسقط بالتوبة من إسلام وغيره وهذه طريقة القاضي في كتبه المتأخرة من "التعليق الجديد" وطريقة من وافقه وكان القاضي في "التعليق القديم" وفي "الجامع الصغير" يقول: "إن المسلم يقتل ولا تقبل توبته وفي الكافر إذا أسلم روايتان" قال القاضي في "الجامع الصغير" الذي ضمنه مسائل التعليق القديم: "ومن سب أم النبي صلى الله عليه وسلم قتل ولم تقبل توبته فإن كان كافرا فأسلم ففيه روايتان" إحداهما: "يقتل أيضا" والثانية: "لا يقتل ويستتاب" قياسا على قوله في الساحر: "إذا كان كافرا لم يقتل وإن كان مسلما قتل" وكذلك ذكر من نقل من "التعليق القديم" مثل الشريف أبي جعفر قال إذا سب أم النبي عليه الصلاة والسلام قتل ولم تقبل توبته وفي الذمي إذا سب أم النبي صلى الله عليه وسلم روايتان إحداهما: يقتل والأخرى: لا يقتل.
قال: وبهذا التفصيل قال مالك وقال أكثرهم: تقبل توبته في الحالين.
لنا أنه حد وجب كقذف آدمي فلا يسقط بالتوبة كقذف غير أم النبي صلى الله عليه وسلم.
وكذلك قال أبو الخطاب في رؤوس المسائل: "إذا قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم لا تقبل التوبة منه وفي الكافر إذا سبها ثم أسلم روايتان" وقال أبو حنيفة والشافعي: "تقبل توبته في الحالين".
لنا أنه حد وجب لقذف آدمي فلا يسقط بالتوبة دليله قذف غير أم النبي صلى الله عليه وسلم.
وإنما ذكرت عبارة هؤلاء ليتبين أن مرادهم بالتوبة هنا من الكافر الإسلام ويظهر أن طريقتهم هي بعينها طريقة ابن البناء في أن المسلم إذا سب لم تقبل توبته وأن الذمي إذا سب ثم أسلم قتل أيضا في الصحيح من المذهب.
فإن قيل: فقد قال القاضي في خلافه "فإن قيل: أليس قد قلتم لو نقض العهد بغير سب النبي صلى الله عليه وسلم مثل أن نقضه بمنع الجزية أو قتال المسلمين أو أذيتهم ثم تاب قبلتم توبته وكان الإمام فيه بالخيار بين أربعة أشياء كالحربي إذا حصل أسيرا في أيدينا هلا قلتم في سب النبي صلى الله عليه وسلم إذا تاب منه كذلك قيل: لأن سب النبي صلى الله عليه وسلم قذف لميت فلا

يسقط بالتوبة كما لو قذف ميتا" وهذا من كلامه يدل على أن التوبة غير الإسلام لأنه لو نقض العهد بغير السب ثم أسلم لم يتخير الإمام فيه.
قلنا: لا فرق في التخيير بين الأربعة قبل التوبة التي هي الإقلاع وبعده عند من يقول به وإنما أراد المخالف أن يقيس على صورة تشبه صور النزاع وهي الحكم فيه بعد التوبة إذا كان قبل التوبة قد ثبت جواز قتله.
على أن توبة الذمي الناقض للعهد لها صورتان:
إحداهما: أن يسلم فإن إسلامه توبة من الكفر وتوابعه.
والثانية: أن يرجع إلى الذمة تائبا من الذنب الذي أحدثه حتى انتقض عهده فهذه توبة من نقض العهد فإذا تاب هذه التوبة وهو مقدور عليه جاز للإمام أن يقبل توبته حيث يكون حكمه حكم الأسير كما أن الأسير إذا طلب أن تعقد له الذمة جاز أن يجاب إلى ذلك.
فألزم المخالف القاضي على طريقته أن الناقض التائب من الناقض يخير الإمام فيه فهلا خيرتموه في الساب إذا تاب توبة يمكن التخيير بعدها بأن يقلع عن السب ويطلب عقد الذمة له ثانيا فلذلك قيل في هذه الصورة: هلا خير الإمام فيه بعد التوبة وإن كان في صورة أخرى لا يمكن التخيير بعد توبة هي الإسلام.
وقد تقدم ذكر ذلك وقد قدمنا أيضا أن الصحيح أنه لا يخير فيمن نقض العهد بما يضر المسلمين بحال وقد ظهر أن الرواية الأخرى التي حكوها في الفرق بين المسلم والكافر مخرجة من نصه على الفرق بين الساحر الكافر والساحر المسلم وذلك أنه قد قال في الساحر الذمي: لا يقتل ما هو عليه من الكفر أعظم واستدل بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتل لبيد بن أعصم لما سحره والساحر المسلم يقتل عنده لما جاء في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وعمر وعثمان وابن عمر وحفصة رضي الله عنهم من الأحاديث ووجه الترجيح أن ما الكافر عليه من الشرك أعظم مما هو عليه من السب والسحر فنسبة السب والسحر إليه واحدة بخلاف المسلم فإذا قتل الساحر المسلم دون الذمي فكذلك الساب الذمي دون المسلم لكن السب ينقض العهد فيجوز قتله لأجل نقض العهد فإذا أسلم امتنع قتله لنقض العهد وهو لا يقتل لخصوص السب كما لا يقتل لخصوص السحر فيبقى دمه معصوما.
وقد حكى هذه الرواية الخطابي عن الإمام أحمد نفسه فقال: قال مالك بن أنس: "من شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى قتل إلا أن يسلم" وكذلك قال أحمد بن حنبل وحكى آخرون من أصحابنا رواية عن الإمام أحمد أن المسلم تقبل توبته من السب بأن يسلم ويرجع عن السب كذلك ذكر أبو الخطاب في "الهداية" ومن احتذى حذوه من متأخري أصحابنا في ساب الله ورسوله من المسلمين: هل تقبل توبته أم يقتل بكل حال؟ روايتان.
فقد تلخص أن أصحابنا حكوا في الساب إذا تاب ثلاث روايات.
إحداهن: يقتل بكل حال وهي التي نصروها كلهم ودل عليها كلام الإمام أحمد في نفس هذه المسألة وأكثر محققيهم لم يذكروا سواها.
والثانية: تقبل توبته مطلقا.
والثالثة: تقبل توبة الكافر ولا تقبل توبة المسلم وتوبة الذمي التي تقبل إذا قلنا بها أن يسلم فأما إذا أقلع وطلب عقد الذمة له ثانيا لم يعصم ذلك دمه رواية واحدة كما تقدم.
وذكر أبو عبد الله السامري أن من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين فهل تقبل توبته؟ على روايتين قال: "ومن سبه من أهل الذمة قتل وإن أسلم" ذكره ابن أبي موسى فعلى ظاهر كلامه يكون الخلاف في المسلم دون الذمي عكس الرواية التي حكاها جماعة من الأصحاب وليس الأمر كذلك فإن ابن أبي موسى قال: "ومن سب النبي صلى الله عليه وسلم قتل ولم يستتب ومن سبه من أهل الذمة قتل وإن أسلم" فلم يذكر خلافا في شيء من ذلك كما دل عليه المأثور عن الإمام أحمد وكتاب أبي عبد الله السامري تضمن نقل أبي الخطاب ونقل ابن أبي موسى كما اقتضى شرطه أن يضمنه عدة كتب صغار فلما ذكر ما حكاه أبو الخطاب من الروايتين في المسلم وما ذكره ابن أبي موسى في الذمي إذا أسلم ظهر نوع خلل وإلا فلا ريب أنا قبلنا توبة المسلم بإسلامه فتوبة الذمي بإسلامه أولى فإن كل ما يفرض. في الكافر من غلظ السب فهو في المسلم وزيادة فإنهما يشتركان في أذى النبي صلى الله عليه وسلم وينفرد سب المسلم بأنه يدل على زندقته وأن سابه منافق ظهر نفاقه بخلاف الذمي فإن سبه مستند إلى اعتقاد وذلك الاعتقاد زال بالإسلام.
نعم قد يوجه ما ذكره السامري بأن يقال: السب قد يكون غلطا من المسلم لا اعتقادا فإذا تاب منه قبلت توبته إذ هو عثرة لسان وسوء أدب أو قلة علم والذمي سبه أذى محض لا ريب فيه فإذا وجب الحد عليه لم يسقط بإسلامه كسائر الحدود وقد ينزع هذا إلى قول من يقول: إن السب لا يكون كفرا في الباطن إلا أن يكون استحلالا وهو قول مرغوب عنه كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

واعلم أن أصحابنا ذكروا أنه لا تقبل توبته لأن الإمام أحمد قال: لا يستتاب ومن أصله أن كل من قبلت توبته فإنه يستتاب كالمرتد ولهذا لما اختلفت الرواية عنه في الزنديق والساحر والكاهن والعراف ومن ارتد وكان مسلم الأصل هل يستتابون أم لا؟ على روايتين فإن قلنا: "لا يستتابون" قتلوا بكل حال وإن تابوا.
وقد صرح في رواية عبد الله بأن من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجب عليه القتل ولا يستتاب فتبين أن القتل قد وجب وما وجب من القتل لم يسقط بحال.
يؤيد هذا أنه قد قال في ذمي فجر بمسلمة: يقتل قيل له: فإن أسلم؟ قال: يقتل هذا قد وجب عليه فتبين أن الإسلام لا يسقط القتل الواجب وقد ذكر في الساب أنه قد وجب عليه القتل.
وأيضا فإنه أوجب على الزاني بمسلمة بعد الإسلام القتل الذي وجب عقوبة على الزنى بمسلمة حتى إنه يقتله سواء كان حرا أو عبدا أو محصنا أو غير محصن كما قد نص عليه في مواضع ولم يسقط ذلك القتل بالإسلام ويوجب عليه مجرد حد الزنا لأنه أدخل على المسلمين من الضرر والمعرة ما أوجب قتله ونقض عهده فإذا أسلم لم تزل عقوبة ذلك الإضرار عنه كما لا تزول عنه عقوبة قطعه للطريق لو أسلم ولم يجز أن يقال: هو بعد الإسلام كمسلم فعل ذلك يفعل به ما يفعل بالمسلم لأن الإسلام يمنع ابتداء العقوبة ولا يمنع دوامها لأن الدوام أقوى كما لو قتل ذمي ذميا ثم أسلم قتل ولو قتله وهو مسلم لم يقتل.
ولهذا ينتقض عهد الذمي بأشياء: مثل الزنا بالمسلمة وإن لم يكن محصنا وقتل أي مسلم كان والتجسس للكفار وقتال المسلمين واللحاق بدار الحرب وإن كان المسلم لا يقتل بهذه الأشياء على الإطلاق فإذا وجب قتل الذمي بها عينا ثم أسلم كان كما لو وجب قتله بذمي ثم أسلم إذ لا فرق بين أن يجب عليه حد لا يجب على المسلم فيسلم أو يجب عليه قصاص لا يجب على المسلم فيسلم فإن القصاص في اندرائه بالإسلام كالحدود وهو يسقط بالشبهة حكما يمنع الإسلام ابتداءه دون دوامه فكذلك العقوبات الواجبة على المعاهد وهذا ينبني على قولنا: يتعين قتل الذمي إذا فعل هذه الأشياء وأن لخصوص هذه الجنايات أثرا في قتله وراء كونه كافرا غير ذي عهد ويقتضي أن قتله حد من الحدود التي تجب على أهل دار الإسلام من مسلم ومعاهد ليس بمنزلة رجل من أهل دار الحرب أخذ أسيرا إذ ذاك المقصود بقتله تطهير دار الإسلام من فساد هذه الجنايات وحسم مادة جناية المعاهدين وإذا كان قد نص على أن لا تزول عنه عقوبة ما أدخله على المسلمين من الضرر في زناه بالمسلمة فأن لا تزول عنه عقوبة إضراره بسب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى لأن ما يلحق المسلمين من المضرة في دينهم بسب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما يلحق بالزنا بمسلمة إذا أقيم على الزاني الحد.
ونصه هذا يدل على أن الذمي إذا قذف رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سبه ثم أسلم قتل بذلك ولم يقم عليه مجرد حد قذف واحد من الناس وهو ثمانون أو سب واحد من الناس وهو التعزير كما أنه لم يوجب على من زنى بمسلمة إذا أسلم حد الزنا وإنما أوجب القتل الذي كان واجبا وعلى الرواية الأخرى التي خرجها القاضي في كتبه القديمة ومن اتبعه فإن الذمي يستتاب من السب فإن تاب وإلا قتل.
وكذلك يستتاب المسلم على الرواية التي ذكر أبو الخطاب وغيره كما يستتاب الزنديق والساحر ولم أجد للاستتابة في كلام الإمام أحمد أصلا فأما استتابة المسلم فظاهرة كاستتابة من ارتد بكلام تكلم به وأما استتابة الذمي فإن يدعى إلى الإسلام فأما استتابة بالعود إلى الذمة فلا يكفي على المذهب لأن قتله متعين.
فأما على الوجه المضطرب الذي يقال فيه: "أن الإمام يخير فيه" فيشرع استتابته بالعود إلى الذمة لأن إقراره بها جائز بعد هذا لكن لا تجب هذه الاستتابة رواية واحدة وإن أوجبنا الاستتابة بالإسلام على إحدى الروايتين وأما على الرواية التي ذكرها الخطابي فإنه إذا أسلم الذمي سقط عنه القتل مع أنه لا يستتاب كالأسير الحربي وغيره من الكفار يقتلون قبل الاستتابة ولو أسلموا سقط عنهم القتل وهذا أوجه من قول من يقول بالاستتابة فإن الذمي إذا نقض العهد جاز قتله لكونه كافرا محاربا وهذا لا يجب استتابته بالاتفاق اللهم إلا أن يكون على قول من يوجب دعوة كل كافر قبل قتاله فإذا أسلم جاز أن يقال: عصم دمه كالحربي الأصلي بخلاف المسلم فإنه إذا قبلت توبته فإنه يستتاب ومع هذا فمن تقبل توبته فقد يجوز استتابته كما يجوز استتابة الأسير لأنه من جنس دعاء الكافر إلى الإسلام قبل قتله لكن لا يجب لكن المنصوص عن أصحاب هذا القول أنه لا يقال له: أسلم ولا لا تسلم لكن إن أسلم سقط عنه القتل فتلخص من ذلك أنهما لا يستتابان في المنصوص المشهور فإن تابا لم تقبل توبتهما في المشهور أيضا.
وحكي عنه في الذمي أنه إذا أسلم سقط عنه القتل وإن لم يستتب.
وحكي عنه أن المسلم يستتاب وتقبل توبته وخرج عنه في الذمي أنه يستتاب وهو بعيد.
واعلم أنه لا فرق بين سبه بالقذف وغيره كما نص عليه الإمام أحمد وعامة أصحابه وعامة العلماء.

وفرق الشيخ أبو محمد المقدسي رحمه الله بين القذف والسب فذكر الروايتين في المسلم وفي الكافر في القذف ثم قال: وكذلك سبه بغير القذف إلا أن سبه بغير القذف يسقط بالإسلام لأن سب الله تعالى يسقط بالإسلام فسب النبي صلى الله عليه وسلم أولى وسيأتي إن شاء الله تعالى تحرير ذلك إذا ذكر بأنواع السب فهذا مذهب الإمام أحمد.
وأما مذهب مالك رضي الله عنه فقال مالك في رواية ابن القاسم ومطرف: "ومن سب النبي صلى الله عليه وسلم قتل ولم يستتب" قال ابن القاسم: "من سبه أو شتمه أو عابه أو تنقصه فإنه يقتل كالزنديق" وقال أبو مصعب وابن أبي أويس: سمعنا مالكا يقول: "من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل مسلما كان أو كافرا ولا يستتاب" وكذلك قال محمد بن عبد الحكم: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: "من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من النبيين من مسلم كان أو كافر قتل ولم يستتب" قال: وروى لنا مالك إلا أن يسلم الكافر قال أشهب عنه: "من سب النبي صلى الله عليه وسلم من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب" فهذه نصوصه نحو من نصوص الإمام أحمد والمشهور من مذهبه أنه لا تقبل توبة المسلم إذا سب النبي صلى الله عليه وسلم وحكمه حكم الزنديق عندهم ويقتل عندهم حدا لا كفرا إذا أظهر التوبة من السب وروى الوليد بن مسلم عن مالك أنه جعل سب النبي صلى الله عليه وسلم ردة قال أصحابه: فعلى هذا يستتاب فإن تاب نكل وإن أبى قتل ويحكم له بحكم المرتد وأما الذمي إذا سب النبي صلى الله عليه وسلم ثم أسلم فهل يدرأ عنه الإسلام القتل؟ على الروايتين ذكرهما القاضي عبد الوهاب وغيره إحداهما: يسقط عنه قال مالك في رواية جماعة منهم ابن القاسم: "من شتم نبينا من أهل الذمة أو أحدا من الأنبياء قتل إلا أن يسلم" وفي رواية: "لا يقال له أسلم ولا لا تسلم ولكن إن أسلم فذلك له توبة" وفي رواية مطرف عنه: "من سب النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين أو أحدا من الأنبياء أو انتقصه قتل وكذلك من فعل ذلك من اليهود والنصارى قتل ولا يستتاب إلا أن يسلم قبل القتل" قال ابن حبيب: وسمعت ابن الماجشون يقوله وقال لي ابن عبد الحكم: وقال لي أصبغ عن ابن القاسم فعلى هذه الرواية قال ابن القاسم: قال مالك: "إن شتم النصراني النبي صلى الله عليه وسلم شتما يعرف فإنه يقتل إلا أن يسلم قاله مالك غير مرة ولم يقل: يستتاب قال ابن القاسم ومحمد: قوله عندي إن أسلم طائعا وعلى هذا فإذا أسلم بعد أن يؤخذ وثبت عليه السب ويعلم أنهم يريدون قتله إن لم يسلم لم يسقط عنه القتل لأنه مكره في هذه الحال والرواية الثانية: لا يدرأ عنه إسلامه القتل قال محمد بن سحنون: وحد القذف وشبهه من حقوق العباد لا يسقط عن الذمي بإسلامه وإنما تسقط عنه بإسلامه حدود الله فأما حد القذف فحد للعباد كان ذلك من نبي أو غيره.
وأما مذهب الشافعي رضي الله عنه فلهم في ساب النبي صلى الله عليه وسلم وجهان أحدهما: هو كالمرتد إذا تاب سقط عنه القتل وهذا قول جماعة منهم وهو الذي يحكيه أصحاب الخلاف عن مذهب الشافعي والثاني: أن حد من سبه القتل فكما لا يسقط حد القذف بالتوبة لا يسقط القتل الواجب بسب النبي صلى الله عليه وسلم بالتوبة قالوا: ذكر ذلك أبو بكر الفارسي وادعى فيه الإجماع ووافقه الشيخ أبو بكر القفال وقال الصيدلاني قولا ثالثا وهو أن الساب بالقذف مثلا يستوجب القتل للردة لا للسب فإن تاب زال القتل الذي هو موجب الردة وجلد ثمانين للقذف ولهذا الوجه لو كان السب غير قذف عزر بحسبه ثم منهم من ذكر هذا الخلاف في المسلم إذا سب ثم أسلم ولم يتعرض للكلام في الذمي إذا سب ثم أسلم ومنهم من ذكر الخلاف في الذمي كالخلاف في المسلم إذا جدد الإسلام بعد السب ومنهم من ذكر في الذمي إذا سب ثم أسلم أنه يسقط عنه القتل وهو الذي حكاه أصحاب الخلاف عن مذهب الشافعي وعليه يدل عموم كلام الشافعي في موضع من "الأم" فإنه قال بعد أن ذكر نواقض العهد وذكر فيها سب النبي صلى الله عليه وسلم: وأيهم قال أو فعل شيئا مما وصفته نقضا للعهد وأسلم لم يقتل إذا كان ذلك قولا وكذلك إذا كان فعلا لم يقتل إلا أن يكون في دين المسلم أن من فعله قتل حدا أو قصاص فيقتل بحد أو قصاص لا نقض عهد وإن فعل مما وصفنا وشرط أنه نقض لعهد الذمة فلم يسلم ولكنه قال: "أتوب وأعطي الجزية كما كنت أعطيها أو على صلح أجدده" عوقب ولم يقتل إلا أن يكون فعل فعلا يوجب القصاص أو القود فأما ما دون هذا من الفعل أو القول فكل قول فيعاقب عليه ولا يقتل قال: فإن فعل أو قال مما وصفنا وشرط أنه يحل دمه فظفرنا به فامتنع من أن يقول: "أسلم أو أعطي الجزية" قتل وأخذ ماله فيئا فقد ذكر أن من نقض العهد فإنه تقبل توبته إما بأن يسلم أو بأن يعود إلى الذمة.
وذكر الخطابي قال: قال مالك بن أنس: "من شتم النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى قتل إلا أن يسلم" وكذلك قال أحمد بن حنبل وقال الشافعي: "يقتل الذمي إذا سب النبي صلى الله عليه وسلم وتبرأ منه الذمة" واحتج في ذلك بخبر كعب بن الأشرف وظاهر هذا القتل والاستدلال يقتضي أن لا يكف عنه إذا أظهر التوبة لأنه لم يحك عنه شيئا ولأن ابن الأشرف كان مظهرا للذمة مجيبا إلى إظهار التوبة لو قبلت منه.
والكلام في فصلين:
أحدهما: في استتابة المسلم وقبول توبة من سب النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكرنا أن المشهور عن مالك وأحمد أنه لا يستتاب ولا تسقط القتل عنه توبته وهو قول الليث بن سعد وذكر القاضي عياض أنه المشهور من قول السلف وجمهور العلماء وهو أحد الوجهين لأصحاب الشافعي وحكى مالك وأحمد أنه تقبل توبته وهو قول أبي حنيفة وأصحابه وهو المشهور من

مذهب الشافعي بناء على قبول توبة المرتد فنتكلم أولا في قبول توبته والذي عليه عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين أنه تقبل توبة المرتد في الجملة وروي عن الحسن البصري أنه يقتل وإن أسلم جعله كالزاني والسارق وذكر عن أهل الظاهر نحو ذلك أن توبته تنفعه عند الله ولكن لا يدرأ القتل عنه وروي عن أحمد أن من ولد في الإسلام قتل ومن كان مشركا فاسلم استتيب وكذلك روي عن عطاء وهو قول إسحاق بن راهويه والمشهور عن عطاء وأحمد الاستتابة مطلقا وهو الصواب ووجه عدم قبول التوبة قوله صلى الله عليه وسلم: "من بدل دينه فاقتلوه" رواه البخاري ولم يستثن ما إذا تاب وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة" متفق عليه فإذا كان القاتل والزاني لا يسقط عنهما القتل بالتوبة فكذلك التارك لدينه المفارق للجماعة وعن حكيم بن جماعة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يقبل الله توبة عبد كفر بعد إسلامه" رواه الإمام أحمد ولأنه لا يقتل لمجرد الكفر والمحاربة لأنه لو كان كذلك لما قتل المترهب والشيخ الكبير الأعمى والمقعد والمرأة ونحوهم فلما قتل هؤلاء علم أن الردة حد من الحدود والحدود لا تسقط بالتوبة.

والصواب ما عليه الجماعة لأن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين} إلى قوله تعالى: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم} فأخبر الله أنه غفور رحيم لمن تاب بعد الردة وذلك يقتضى مغفرته له في الدنيا والآخرة ومن هذه حاله لم يعاقب بالقتل.

يبين ذلك ما رواه الإمام أحمد قال: حدثنا على بن عاصم عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا من الأنصار ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين فأنزل الله تعالى: {كيف يهدي الله قوما كفروا} إلى آخر الآية فبعث بها قومه إليه فرجع تائبا فقبل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منه وخلى عنه ورواه النسائي من حديث داود مثله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي عن خالد عن عكرمة بمعناه وقال: "والله ما كذبني قومي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الله والله أصدق الثلاثة فرجع تائبا فقبل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منه وخلى عنه.

وقال: ثنا حجاج عن ابن جريج حديثا عن عكرمة مولى ابن عباس في قول الله تعالى: {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق} في أبي عامر بن النعمان ووحوح بن الأسلت والحارث بن سويد بن الصامت في اثني عشر رجلا رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش ثم كتبوا إلى أهليهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك} في الحارث بن سويد بن الصامت.

وقال: ثنا عبد الرزاق نا جعفر عن حميد عن مجاهد قال: "جاء الحارث ابن سويد فأسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه القرآن: {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم} إلى قوله: {غفور رحيم} قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث: والله إنك ما علمت لصادق وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك وإن الله لأصدق الثلاثة قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه".

وكذلك ذكر غير واحد من أهل العلم أنها نزلت في الحارث بن سويد وجماعة معه ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة كهيئة البدء ولحقوا بمكة كفارا فأنزل الله فيهم هذه الآية فندم الحارث وأرسل إلى قومه: أن سلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لي توبة؟ ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم} فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث: إنك والله ما علمت لصدوق وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك وإن الله عز وجل لأصدق الثلاثة فرجع الحارث إلى المدينة وأسلم وحسن إسلامه.

فهذا رجل قد ارتد ولم يقتله النبي صلى الله عليه وسلم بعد عوده إلى الإسلام ولأن الله تعالى قال في إخباره عن المنافقين: {أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة} فدل على أن الكافر بعد إيمانه قد يعفى عنه وقد يعذب وإنما يعفى عنه إذا تاب فعلم أن توبته مقبولة.

وذكر أهل التفسير أنهم كانوا جماعة وأن الذي تاب منهم رجل واحد يقال له مخشي بن حمير وقال بعضهم: كان قد أنكر عليهم بعض ما سمع ولم يمالئهم عليه وجعل يسير مجانبا لهم فلما نزلت هذه الآيات برئ من نفاقه وقال: "اللهم إني لا أزال أسمع آية تقر عيني تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك" وذكروا القصة.

وفي الاستدلال بهذا نظر ولأنه قال تعالى: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} إلى قوله: {يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير} .

وذلك دليل على قبول توبة من كفر بعد إسلامه وأنهم لا يعذبون في الدنيا ولا في الآخرة عذابا أليما: بمفهوم الشرط ومن جهة التعليل ولسياق الكلام والقتل عذاب أليم فعلم أن من تاب منهم لم يعذب بالقتل لأن الله سبحانه قال: {من كفر بالله من بعد إيمانه

إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم} فبين أن الذين هاجروا إلى دار الإسلام بعد أن فتنوا عن دينهم بالكفر بعد الإسلام وجاهدوا وصبروا فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ومن غفر له ذنبه مطلقا لم يعاقبه عليه في الدنيا ولا في الآخرة.
وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة: خرج ناس من المسلمين يعني المهاجرين فأدركهم المشركون ففتنوهم فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم: {ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله} الآية ونزل فيهم: {من كفر بالله من بعد إيمانه} الآية ثم إنهم خرجوا مرة أخرى فانقلبوا حتى أتوا المدينة فأنزل الله فيهم: {ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا} إلى آخر الآية ولأنه سبحانه قال: {ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة} فعلم أن من لم يمت وهو كافر من المرتدين لا يكون خالدا في النار وذلك دليل على قبول التوبة وصحة الإسلام فلا يكون تاركا لدينه فلا يقتل ولعموم قوله تعالى: {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين} إلى قوله: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} فإن هذا الخطاب عام في قتال كل مشرك وتخلية سبيله إذا تاب من شركه وأقام الصلاة وآتى الزكاة سواء كان مشركا أصليا أو مشركا مرتدا.
وأيضا فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد ارتد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولحق بمكة وافترى على الله ورسوله ثم إنه بعد ذلك بايعه النبي صلى الله عليه وسلم وحقن دمه وكذلك الحارث بن سويد وكذلك جماعة من أهل مكة أسلموا ثم ارتدوا ثم عادوا إلى الإسلام فحقنت دماؤهم وقصص هؤلاء وغيرهم مشهورة عند أهل العلم بالحديث والسيرة.
وأيضا فالإجماع من الصحابة رضي الله عنهم على ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما توفى ارتد أكثر العرب إلا أهل مكة والمدينة والطائف واتبع قوم منهم من تنبأ فيهم مثل مسيلمة والعنسي وطليحة الأسدي فقاتلهم الصديق وسائر الصحابة رضي الله عنهم حتى رجع أكثرهم إلى الإسلام فأقروهم على ذلك ولم يقتلوا واحدا ممن رجع إلى الإسلام ومن رؤوس من كان قد ارتد ورجع طليحة الأسدي المتنبي والأشعث بن قيس وخلق كثير لا يحصون والعلم بذلك ظاهر لا خفاء به على أحد وهذه الرواية عن الحسن فيها نظر فإن مثل هذا لا يخفى عليه ولعله أراد نوعا من الردة كظهور الزندقة ونحوها أو قال ذلك في المرتد الذي ولد مسلما ونحو ذلك مما قد شاع فيه الخلاف.
وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "من بدل دينه فاقتلوه" فنقول بموجبه فإنما يكون مبدلا إذا دام على ذلك واستمر عليه فأما إذا رجع إلى الدين الحق فليس بمبدل وكذلك إذا رجع إلى المسلمين فليس بتارك لدينه مفارق للجماعة بل هو متمسك بدينه ملازم للجماعة وهذا بخلاف القتل والزنى فإنه فعل صدر عنه لا يمكن دوامه عليه بحيث إذا تركه يقال إنه ليس بزان ولا قاتل فمتى وجد منه ترتب حده عليه وإن عزم على أن لا يعود إليه لأن العزم على ترك العود لا يقطع مفسدة ما مضى من الفعل.
على أن قوله: "التارك لدينه المفارق للجماعة" قد يفسر بالمحارب قاطع الطريق كذلك رواه أبو داود في سننه مفسرا عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد إحصان فإنه يرجم ورجل خرج محاربا لله ورسوله فإنه يقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض أو يقتل نفسا فيقتل بها" فهذا المستثنى هنا هو المذكور في قوله: "التارك لدينه المفارق للجماعة" ولهذا وصفه بفراق الجماعة وإنما يكون هذا بالمحاربة.
يؤيد ذلك أن الحديثين تضمنا أنه لا يحل دم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والمرتد لم يدخل في هذا العموم فلا حاجة إلى استثنائه وعلى هذا فيكون ترك دينه عبارة عن خروجه عن موجب الدين ويفرق بين ترك الدين وتبديله أو يكون المراد به من ارتد وحارب كالعرنيين ومقيس بن حبابة ممن ارتد وقتل وأخذ المال فإن هذا يقتل بكل حال إن تاب بعد القدرة عليه ولهذا والله أعلم استثني هؤلاء الثلاثة الذين يقتلون بكل حال وإن أظهروا التوبة بعد القدرة ولو كان أريد المرتد المجرد لما احتيج إلى قوله: "المفارق للجماعة" فإن مجرد الخروج من الدين يوجب القتل وإن لم يفارق جماعة الناس فهذا وجه يحتمله الحديث وهو والله أعلم مقصود هذا الحديث.
وأما قوله: "لا يقبل الله توبة عبد أشرك بعد إسلامه" فقد رواه ابن ماجه من هذا الوجه ولفظه: "لا يقبل الله من مشرك أشرك بعد إسلامه عملا حتى يفارق المشركين إلى المسلمين" وهذا دليل على قبول إسلامه إذا رجع إلى المسلمين وبيان أن معنى الحديث أن توبته لا تقبل ما دام مقيما بين ظهراني المشركين مكثرا لسوادهم كحال الذين قتلوا ببدر ومعناه أن من أظهر الإسلام ثم فتن عن دينه حتى ارتد فإنه لا تقبل توبته وعمله حتى يهاجر إلى المسلمين وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى: {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم} الآية وأيضا فإن ترك الدين وتبديله وفراق الجماعة يدوم ويستمر لأنه تابع للاعتقاد والاعتقاد دائم فمتى قطعه وتركه عاد كما كان ولم يبق لما مضى حكم أصلا ولا فيه فساد ولا يجوز أن يطلق عليه القول بأنه

مبدل للدين ولا أنه تارك لدينه كما يطلق على الزاني والقاتل بأن هذا زان وقاتل فإن الكافر بعد إسلامه لا يجوز أن يسمى كافرا عند الإطلاق ولأن تبديل الدين وتركه في كونه موجبا للقتل بمنزلة الكفر الأصلي والحراب في كونهما كذلك فإذا كان زوال الكفر بالإسلام أو زوال المحاربة بالعهد يقطع حكم الكفر فكذلك زوال تبديل الدين وتركه بالعود إلى الدين وأخذه يقطع حكم ذلك التبديل والترك.

فصل.

إذا تقرر ذلك فإن الذي عليه جماهير أهل العلم أن المرتد يستتاب ومذهب مالك وأحمد أنه يستتاب ويؤجل بعد الاستتابة ثلاثة أيام وهل ذلك واجب أو مستحب؟ على روايتين عنهما أشهرهما عنهما: أن الاستتابة واجبة وهو قول إسحاق بن راهويه.

وكذلك مذهب الشافعي هل الاستتابة واجبة أو مستحبة على قولين لكن عنده في أحد القولين يستتاب فإن تاب في الحال وإلا قتل وهو قول ابن المنذر والمزني وفي القول الآخر يستتاب كمذهب مالك وأحمد.

وقال الزهري وابن القاسم في رواية: "يستتاب ثلاث مرات".

ومذهب أبي حنيفة أنه يستتاب أيضا فإن لم يتب وإلا قتل والمشهور عندهم أن الاستتابة مستحبة وذكر الطحاوي عنهم: لا يقتل المرتد حتى يستتاب وعندهم يعرض عليه الإسلام فإن أسلم وإلا قتل مكانه إلا أن يطلب أن يؤجل فإنه يؤجل ثلاثة أيام.

وقال الثوري: "يؤجل ما رجيت توبته وكذلك معنى قول النخعي".

وذهب عبيد بن عمير وطاوس إلى أنه يقتل ولا يستتاب لأنه صلى الله عليه وسلم أمر بقتل المبدل دينه والتارك لدينه المفارق للجماعة ولم يأمر باستتابته كما أمر الله سبحانه بقتال المشركين من غير استتابة مع أنهم لو تابوا لكففنا عنهم.

يؤيد ذلك أن المرتد أغلظ كفرا من الكافر الأصلي فإذا جاز قتل الأسير الحربي من غير استتابة فقتل المرتد الأولى.

وسر ذلك أنا لا نجيز قتل كافر حتى نستتيبه بأن يكون قد بلغته دعوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فإن قتل من لم تبلغه الدعوة غير جائز والمرتد قد بلغته الدعوة فجاز قتله كالكافر الأصلي الذي بلغته وهذا هو علة من رأى الاستتابة مستحبة فإن الكفار يستحب أن ندعوهم إلى الإسلام عند كل حرب وإن كانت الدعوة قد بلغتهم فكذلك المرتد ولا يجب ذلك فيهما.

نعم لو فرض المرتد من يخفى عليه جواز الرجوع إلى الإسلام فإن الاستتابة هنا لا بد منها.

ويدل على ذلك أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر يوم الفتح مكة دم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ودم مقيس بن حبابة ودم عبد الله بن خطل وكانوا مرتدين ولم يستتبهم بل قتل ذانك الرجلان وتوقف صلى الله عليه وسلم عن مبايعة بن أبي سرح لعل بعض المسلمين يقتله فعلم أن قتل المرتد جائز ما لم يسلم وأنه لا يستتاب.

وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم عاقب العرنيين الذين كانوا في اللقاح ثم ارتدوا عن الإسلام بما أوجب موتهم ولم يستتبهم ولأنه فعل شيئا من الأسباب المبيحة للدم فقتل قبل استتابته كالكافر الأصلي وكالزاني وكقاطع الطريق ونحوهم فإن كل هؤلاء من قبلت توبته ومن لم تقبل يقتل قبل الاستتابة ولأن المرتد لو امتنع بأن يلحق بدار الحرب أو بأن يكون المرتدون ذوي شوكة يمتنعون بها عن حكم الإسلام فإنه يقتل قبل الاستتابة بلا تردد فكذلك إذا كان في أيدينا.

وحجة من رأى الاستتابة إما واجبة أو مستحبة قوله سبحانه وتعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} أمر الله ورسوله أن يخبر جميع الذين كفروا أنهم إن انتهوا غفر لهم ما سلف وهذا معنى الاستتابة والمرتد من الذين كفروا والأمر للوجوب فعلم أن استتابة المرتد واجبة ولا يقال: "فقد بلغهم عموم الدعوة إلى الإسلام" لأن هذا الكفر أخص من ذلك الكفر فإنه يوجب قتل كل من فعله ولا يجوز استبقاؤه وهو لم يستتب من هذا الكفر.

وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعث بالتوبة إلى الحارث بن سويد ومن كان قد ارتد معه إلى مكة كما قدمناه بعد أن كانت قد نزلت فيهم آية التوبة فيكون استتابته مشروعة ثم إن هذا الفعل منه خرج امتثالا للأمر بالدعوة إلى الإسلام والإبلاغ لدينه فيكون واجبا.

وعن جابر رضي الله عنه: "أن امرأة يقال لها "أم مروان" ارتدت عن الإسلام فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرض عليها الإسلام فإن رجعت وإلا قتلت".

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ارتدت امرأة يوم أحد فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تستتاب فإن تابت وإلا قتلت" رواهما الدارقطني.

وهذا إن صح أمر بالاستتابة والأمر للوجوب والعمدة فيه إجماع الصحابة عن محمد بن عبد الله بن عبد القاري قال: "قدم على عمر بن الخطاب رجل من قبل أبي موسى الأشعري فسأله عن الناس فأخبره ثم قال: هل من مغربة خبر؟ قال: نعم رجل كفر بعد إسلامه قال: فما فعلتم به؟ قال: قربناه فضربنا عنقه قال عمر: فهلا حبستموه ثلاثا وأطعمتوه كل يوم رغيفا واستتبتموه لعله يتوب ويرجع إلى أمر الله اللهم إني لم أحضر ولم آمر ولم أرض إذ بلغني" رواه مالك والشافعي وأحمد وقال: أذهب إلى حديث عمر وهذا يدل على أن الاستتابة واجبة وإلا لم يقل عمر: "لم أرض إذ بلغني".

وعن أنس بن مالك قال: لما افتتحنا تستر بعثني الأشعري إلى عمر بن الخطاب فلما قدمت عليه قال: ما فعل البكريون؟ قال: فلما رأيته لا يقطع قلت: يا أمير المؤمنين ما فعلوا؟ إنهم قتلوا ولحقوا بالمشركين ارتدوا عن الإسلام قاتلوا مع المشركين حتى قتلوا قال: فقال: "لأن أكون أخذتهم سلما كان أحب إلي مما على وجه الأرض من صفراء أو بيضاء" وقال: فقلت: وما كان سبيلهم لو أخذتهم سلما؟ قال: "كنت أعرض عليهم الباب الذي خرجوا منه فإن أبوا استودعتهم الحبس".

وعن عبد الله بن عتبة قال: أخذ ابن مسعود قوما ارتدوا عن الإسلام من أهل العراق قال: فكتب فيهم إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فكتب إليه أن أعرض عليهم دين الحق وشهادة أن لا إله إلا الله فإن قبلوا فخل عنهم وإن لم يقبلوا فاقتلهم فقبلها بعضهم فتركه ولم يقبلها بعضهم فقتله رواهما الإمام أحمد بسند صحيح.

وعن العلاء أبي محمد أن عليا رضي الله عنه أخذ رجلا من بني بكر بن وائل قد تنصر فاستتابه شهرا فأبى فقدمه ليضرب عنقه فنادى: يا لبكر فقال علي: "أما إنك واجده أمامك في النار" رواه الخلال وصاحبه أبو بكر.

وعن أبي موسى رضي الله عنه أنه أتى برجل قد ارتد عن الإسلام فدعاه عشرين ليلة أو قريبا منها فجاء معاذ فدعاه فأبى فضرب عنقه رواه أبو داود.

وروى من وجه آخر أن أبا موسى استتابه شهرا ذكره الإمام أحمد.

وعن رجل عن ابن عمر قال: "يستتاب المرتد ثلاثا" رواه الإمام أحمد.

وعن أبي وائل عن أبي معين السعدي قال: "مررت في السحر بمسجد بني حنيفة وهم يقولون: إن مسيلمة رسول الله فأتيت عبد الله فأخبرته فبعث الشرط فجاءوا بهم فاستتابهم فتابوا فخلى سبيلهم وضرب عنق عبد الله بن النواحة فقالوا: أحدث قوم في أمر فقتلت بعضهم وتركت بعضهم فقال: "إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم إليه هذا وابن أثال فقال: أتشهد أني رسول الله؟ فقالا: أتشهد أنت أن مسيلمة رسول الله؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "آمنت بالله ورسله ولو كنت قاتلا وفدا لقتلتكما" قال: فلذلك قتلته رواه عبد الله بن أحمد بإسناد صحيح.

فهذه أقوال الصحابة في قضايا متعددة لم ينكرها منكر فصارت إجماعا.

والفرق بين هذا وبين الكافر الأصلي من وجوه:

أحدها: أن توبة هذا أقرب لأن المطلوب منه إعادة الإسلام والمطلوب من ذاك ابتداؤه والإعادة أسهل من الابتداء فإذا أسقط عنا استتابة الكافر لصعوبتها لم يلزم سقوط استتابة المرتد.

الثاني: أن هذا يجب قتله عينا وإن لم يكن من أهل القتال وذاك لا يجوز أن يقتل إلا أن يكون من أهل القتال ويجوز استبقاؤه بالأمان والهدنة والذمة والإرقاق والمن والفداء فإذا كان حده أغلظ فلم يقدم عليه إلا بعد الإعذار إليه بالاستتابة بخلاف من يكون جزاؤه دون هذا.

الثالث: أن الأصلي قد بلغته الدعوة وهي استتابة عامة من كل كفر وأما هذا فإنما نستتيبه من التبديل وترك الدين الذي كان عليه ونحن لم نصرح له بالاستتابة من هذا ولا بالدعوة إلى الرجوع.

وأما ابن أبي سرح وابن خطل ومقيس بن حبابة فإنه كانت لهم جرائم زائدة على الردة وكذلك العرنيون فإن أكثر هؤلاء قتلوا مع الردة وأخذوا الأموال فصاروا قطاع طريق محاربين لله ورسوله وفيهم من كان يؤذي بلسانه أذى صار به من جنس المحاربين فلذلك لم يستتابوا على أن
الممتنع لا يستتاب وإنما يستتاب المقدور عليه ولعل بعض هؤلاء قد استتيب فنكل.

<u>فصل.</u>

ذكرنا حكم المرتد استطرادا لأن الكلام في الساب متعلق به تعلقا شديدا فمن قال: "إن ساب النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين " قال: إنه نوع من الكفر فإن من سب الرسول أو جحد نبوته أو كذب بآية من كتاب الله أو تهود أو تنصر ونحو ذلك كل هؤلاء قد بدلوا دينهم وتركوه وفارقوا الجماعة فيستتابون وتقبل توبتهم كغيرهم.

يؤيد ذلك أن في كتاب أبي بكر رضي الله عنه إلى المهاجر في المرأة السابة "أن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: "أيما مسلم سب الله أو سب أحدا من الأنبياء فقد كذب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ردة يستتاب منها فإن رجع وإلا قتل".

والأعمى الذي كانت له أم ولد تسب النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهاها فلا تنتهي ويزجرها فلا تنزجر فقتلها بعد ذلك فإن كانت مسلمة فلم يقتلها حتى استتابها وإن كانت ذمية وقد استتابها فاستتابة المسلم أولى.

وأيضا فإما أن يقتل الساب لكونه كفر بعد إسلامه أو لخصوص السب والثاني لا يجوز لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إسلام أو زني بعد إحصان أو قتل نفس فيقتل بها".
وقد صح ذلك عنه من وجوه متعددة وهذا الرجل لم يزن ولم يقتل فإن لم يكن قتله لأجل الكفر بعد الإسلام امتنع قتله فثبت أنه إنما يقتل لأنه كفر بعد إسلامه وكل من كفر بعد إسلامه فإن توبته تقبل لقوله تعالى: {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم} إلى قوله: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا} الآية ولما تقدم من الأدلة الدالة على قبول توبة المرتد.
وأيضا فعموم قوله تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} وقوله صلى الله عليه وسلم: "الإسلام يجب ما قبله والإسلام يهدم ما كان قبله" رواه مسلم يوجب أن من أسلم غفر له كل ما مضى.
وأيضا فإن المنافقين الذين نزل فيهم قوله تعالى: {ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم} إلى قوله: {لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} وقد قيل فيهم: {إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة} مع أن هؤلاء قد آذوه بألسنتهم وأيديهم أيضا ثم العفو مرجو لهم وإنما يرجى العفو مع التوبة فعلم أن توبتهم مقبولة ومن عفى عنه لم يعذب في الدنيا ولا في الآخرة.
وأيضا فقوله سبحانه وتعالى: {جاهد الكفار والمنافقين} إلى قوله: {فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما} الآية فإنها تدل على أن المنافق إذا كفر بعد إسلامه ثم تاب لم يعذب عذابا أليما في الدنيا ولا في الآخرة والقتل عذاب أليم فعلم أنه لا يقتل.
وقد ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في رجال من المنافقين اطلع أحدهم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا فأنزل الله هذه الآية.
وعن الضحاك قال: "خرج المنافقون مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وطعنوا في الدين فنقل ما قالوا حذيفة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أهل النفاق ما هذا الذي بلغني عنكم؟ " فحلفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوا شيئا من ذلك فأنزل الله هذه الآية إكذابا لهم.
وأيضا فلا ريب أن توبتهم فيما بينهم وبين الله وإن تضمنت التوبة من حقوق الآدميين لأوجه:
أحدها: أنه قد قيل كفارة الغيبة الاستغفار لمن استغيبه وقد ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى مثل ذلك فجاز أن يكون ما أتى به من الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم الموجب لأنواع الثناء عليه والتعظيم له موجبا لما ناله من عرضه.
الثاني: أن حق الأنبياء تابع لحق الله وإنما عظمت الوقيعة في أعراضهم لما يتضمن ذلك من الكفر والوقيعة في دين الله وكتابه ورسالته فإذا تبعت حق الله في الوجوب تبعته في السقوط لئلا ليكون أعظم منه ومعلوم أن الكافر تصح توبته من حقوق الله فكذلك من حقوق الأنبياء المتعلقة بنبوتهم بخلاف التوبة من الحقوق التي تجب للناس بعضهم على بعض.
الثالث: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد علم منه أنه يدعو للتأسي به وإتباعه ويخبرهم أن من فعل ذلك فقد غفر الله له كل ما أسلفه في كفره فيكون قد عفا لمن قد أسلم عما ناله من عرضه.
وبهذه الوجوه يظهر الفرق بين سب الرسول صلى الله عليه وسلم وبين سب واحد من الناس فإنه إذا سب واحدا من الناس لم يأت بعد سبه ما يناقض موجب السب وسبه حق آدمي محض لم يعف عنه والمقتضى للسب هو موجود بعد التوبة والإسلام كما كان موجودا قبلهما إن لم يزجر عنه بالحد وهنا كان الداعي إليه الكفر وقد زال بالإيمان وإذا ثبت أن توبته وإيمانه مقبول منه فيما بينه وبين الله فإذا أظهرها وجب أن يقبلها منه لما روى أبو سعيد في حديث ذي الخويصرة التميمي الذي اعترض على النبي صلى الله عليه وسلم في القسمة فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال: "لا لعله أن يكون يصلي" قال خالد: "وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه" فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم" رواه مسلم.
وقال لأسامة في الرجل الذي قتله بعد أن قال لا إله إلا الله: "كيف قتلته بعد أن قال لا إله إلا الله" قال: إنما قالها تعوذا قال: "فهلا شققت عن قلبه".
وكذلك في حديث المقداد نحو هذا وفي ذلك نزل قوله تعالى: {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا} ولا خلاف بين المسلمين أن الحربي إذا أسلم عند رؤية السيف وهو مطلق أو مقيد يصح إسلامه وتقبل توبته من الكفر وإن كانت دلالة الحال تقتضي أن باطنه بخلاف ظاهره.
وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل من المنافقين علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله مع إخبار الله له أنهم اتخذوا أيمانهم جنة وأنهم: {يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا} فعلم أن من أظهر

الإسلام والتوبة من الكفر قبل ذلك منه فهذا قول هؤلاء وسيأتي إن شاء الله تعالى الاستدلال على تعين قتله من غير استتابة والجواب عن هذه الحجج.

الفصل الثاني

في الذمي إذا سبه ثم تاب.

وقد ذكرنا فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: يقتل بكل حال وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد ومذهب مالك إذا تاب بعد أخذه وهو وجه لأصحاب الإمام الشافعي.

الثاني: يقتل إلا أن يتوب بالإسلام وهو ظاهر الرواية الأخرى عن مالك وأحمد.

والثالث: يقتل إلا أن يتوب بالإسلام أو بالعودة إلى الذمة كما كان وعليه يدل ظاهر عموم كلام الشافعي إلا أن يتأول وعلى هذا فإنه يعاقب إذا عاد إلى الذمة ولا يقتل.

فمن قال: "إن القتل يسقط عنه بالإسلام" فإنه يستدل بمثل ما ذكرناه في المسلم فإنه كله يدل على أن الكافر أيضا إذا أسلم سقط عنه موجب السب ويدل على ذلك أيضا أن الصحابة ذكروا أنه إذا فعل ذلك فهو غادر محارب وأنه ناقض للعهد ومعلوم أن من حارب ونقض العهد إذا أسلم عصم دمه وماله وقد كان كثير من المشركين مثل ابن الزبعرى وكعب بن زهير وأبي سفيان بن الحارث وغيرهم يهجون النبي صلى الله عليه وسلم بأنواع الهجاء ثم أسلموا فعصم الإسلام دماءهم وأموالهم وهؤلاء وإن كانوا محاربين لم يكونوا من أهل العهد فهو دليل على أن حقوق الآدميين التي يستحلها الكافر إذا فعلها ثم أسلم سقطت عنه كما تسقط عنه حقوق الله ولهذا أجمع المسلمون إجماعا مستنده كتاب الله وسنة نبيه الظاهرة أن الكافر الحربي إذا أسلم لم يؤخذ بما كان أصابه من المسلمين من دم أو مال أو عرض والذمي إذا سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه معتقد حل ذلك وعقد الذمة لم يوجب عليه تحريم ذلك فإذا أسلم لم يؤخذ به بخلاف ما يصيبه من دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم فإن عقد الذمة يوجب تحريم ذلك عليه منا كما يوجب تحريم ذلك علينا منه وإن كان يوجب علينا الكف عن سب دينهم والطعن فيه فهذا أقرب ما يتوجه به الاستدلال بقصص هؤلاء وإن كان الاستدلال به خطأ.

وأيضا فإن الذمي إما أن يقتل إذا سب لكفره أو حرابه كما يقتل الحربي الساب أو يقتل حدا من الحدود كما يقتل لزناه بذمية وقطع الطريق على ذمي والثاني باطل فتعين الأول وذلك لأن السب من حيث هو سب ليس فيه أكثر من انتهاك العرض وهذا القدر لا يوجب إلا الجلد بل لا يوجب على الذمي شيئا لاعتقاده حل ذلك نعم إنما صولح على الكف عنه والإمساك فمتى أظهر السب زال العهد وصار حربيا ولأن كون السب موجبا للقتل حدا حكم شرعي فيفتقر إلى دليل ولا دليل على ذلك إذا أكثر ما يذكر من الأدلة إنما يفيد أنه يقتل وذلك متردد بين كون القتل لكفره وحرابه أو لخصوص السب ولا يجوز إثبات الأحكام بمجرد الاستحسان والاستصلاح فإن ذلك شرع للدين بالرأي وذلك حرام لقوله تعالى: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} والقياس في المسألة متعذر لوجهين:

أحدهما: أن كثيرا من النظار يمنع جريان القياس في الأسباب والشروط والموانع لأن ذلك يفتقر إلى معرفة نوع الحكمة وقدرها وذلك متعذر لأن ذلك يخرج السب عن أن يكون سبا وشرط القياس بقاء حكم الأصل ولأنه ليس في الجنايات الموجبة للقتل حدا ما يمكن إلحاق السب بها لاختلافهما نوعا وقدرا واشتراكهما في عموم المفسدة لا يوجب الإلحاق بالاتفاق وكون هذه المفسدة مثل هذه المفسدة يفتقر إلى دليل وإلا كان شرعا بالرأي ووضعا للدين بالمعقول وذلك انحلال عن معاقد الدين وانسلال عن روابط الشريعة وانخلاع من ربق الإسلام وسياسة للخلق بالآراء الملكية والأنحاء العقلية وذلك حرام بلا ريب فثبت أنه إنما يقتل لأجل كفره وحرابه ومعلوم أن الإسلام يسقط القتل الثابت للكفر والحراب بالاتفاق.

وأيضا فالذمي لو كان يسب النبي صلى الله عليه وسلم فيما بينه وبين الله تعالى ويقول فيه ما عسى أن يقول من القبائح ثم أسلم واعتقد نبوته ورسالته لمحا ذلك عنه جميع تلك السيئات ولا يجوز أن يقال: "إن النبي صلى الله عليه وسلم يطالبه بموجب سبه في الدنيا ولا في الآخرة" ومن قال ذلك علم أنه مبطل في مقالته للعلم بأن الكافرين يقولون في الرسول شر المقالات وأشنعها وقد أخبر الله تعالى عنهم في القرآن ببعضها مثل قولهم ساحر وكاهن ومجنون ومفتر وقول اليهود في مريم بهتانا عظيما ونسبتها إلى الفاحشة وأن المسيح لغير رشدة وهذا هو القذف الصريح ثم لو أسلم اليهودي وأقر بنبوة المسيح وأنه عبد الله ورسوله وأنه بريء مما رمته به اليهود لم يبقى للمسيح عليه تبعة.

ونحن نعلم أن من الكفار من يعتقد نبوة نبينا إلى الأميين ومنهم من يعتقد نبوته مطلقا لكن إلف الدين وعادته وأغراض أخرتمنع الدخول في الإسلام ومنهم المعرض عن ذلك الذي لا ينظر إليه ولا يتفكر فهؤلاء قد لا يسبونه ومنهم من يعتقد فيه العقيدة الردية ويكف عن سبه وشتمه أو يسبه ويشتمه بما يعتقده فيه مما يكفر به ولا يظهر ذلك ومنهم من يظهر ذلك عند المسلمين ومنهم من يسبه بما لم يكفر به مما يكون سبا للنبي صلى الله عليه وسلم وغير النبي كالقذف ونحوه وإذا أسلم الكفار غفر لهم

جميع ذلك ولم يجئ في كتاب ولا سنة أن الكافر إذا أسلم يبقى عليه تبعة من التبعات بل الكتاب والسنة دليلان على أن الإسلام يجب ما قبله مطلقا وإذا كان إثم السب مغفورا له لم يجز أن يعاقب عليه بعد الإسلام.
وأيضا فلو سب الله سبحانه ثم أسلم لم يؤخذ بموجب ذلك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عنه ربه تبارك وتعالى: "شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك أما شتمه إياي فقوله: إني اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد" ثم لو تاب النصراني ونحوه من شتم الله سبحانه لم يعاقب على ذلك في الدنيا ولا في الآخرة بالاتفاق قال تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم} فسب النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون أعظم من سب الله فإنه إنما عظم وصار موجبا للقتل لكون حقه تابعا لحق الله فإذا سقط المتبوع بالإسلام فالتابع أولى وبهذا يظهر الفرق بين سب الأنبياء وسب غيرهم من المؤمنين فإن سب الواحد من الناس لا يختلف بين ما قبل الإسلام وما بعده والأذى والغضاضة التي تلحق المسبوب قبل الإسلام الساب وبعده سواء بخلاف سب النبي صلى الله عليه وسلم فإنه قد زال موجبه بالإسلام وتبدل بالتعزير له والتوقير والثناء عليه والمدحة له كما تبدل السب لله بالإيمان وتوحيده وتقديسه وتحميده وعبادته.
يوضح ذلك أن الرسول له نعت البشرية ونعت الرسالة كما قال: {سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا} فمن حيث هو بشر له أحكام البشر ومن حيث هو رسول قد ميزه الله سبحانه وفضله بما خصه به فسبه موجب للعقوبة من حيث هو بشر كغيره من المؤمنين وموجب للعقوبة من حيث هو رسول بما خصه الله به لكن إنما أوجب القتل من حيث هو رسول فقط لأن السب المتعلق بالبشرية لا يوجب قتلا وسبه من حيث هو رسول حق لله فقط فإذا أسلم الساب انقطع حكم السب المتعلق برسالته كما انقطع حكم السب المتعلق بالمرسل فسقط القتل الذي هو موجب ذلك السب ويبقى حق بشريته من هذا السب وحق البشرية إنما يوجب جلد ثمانين.
فمن قال: "إنه يجلد لقذفه بعد إسلامه ويعزر لسبه لغير القذف" قال: إن الإسلام يسقط حق الله وحق الرسالة ويبقى حق خصوص الآدمية كغيره من الآدميين فيؤدب سابه كما يؤدب ساب جميع المؤمنين بعد إسلامه.
ومن قال: "إنه لا يعاقب بشيء" قال: هذا الحق اندرج في حق النبوة وانغمر في حق الرسالة فإن الجريمة الواحدة إذا أوجبت القتل لم توجب معه عقوبة أخرى عند أكثر الفقهاء ولهذا اندرج حق الله المتعلق بالقتل والقذف في حق الآدمي فإذا عفي للجاني عن القصاص وحد القذف لم يعاقب على ما انتهكه من الحرمة كذلك اندرج هنا حق البشرية في حق الرسالة وفي هذين الأصلين المقيس عليهما خلاف بين الفقهاء فإن مذهب مالك أن القاتل يعزره الإمام إذا عفا عنه ولي الدم.
وعند أبي حنيفة أن حد القذف لا يسقط بالعفو وكذلك تردد من قال: "إن القتل يسقط بالإسلام" هل يؤدب حدا أو تعزيرا على خصوص القذف والسب؟ ومن قال هذا القول قال: لا يستدل علينا بأن الصحابة قتلوا سابه أو أمروا بقتل سابه أو أرادوا قتل سابه من غير استتابة فإن الذمي إذا سبه لا يستتاب بلا تردد فإنه يقتل لكفره الأصلي كما يقتل الأسير الحربي ومثل ذلك لا يستتاب كاستتابة المرتد إجماعا لكن لو أسلم عصم دمه.
كذلك يقول فيمن شتمه من أهل الذمة فإنه يقتل ولا يستتاب كأنه حربي آذى المسلمين وقد أسرناه فإنا نقتله فإن أسلم سقط عنه القتل.
وكذلك أكثر نصوص مالك وأحمد وغيرهما إنما هي أنه يقتل ولا يستتاب وهذا لا تردد فيه إذا سبه الذمي.
ومن قال: "إن الذمي يستتاب" فقد يقول: إنه قد لا يعلم أنه إذا أسلم سقط عنه القتل فيستتاب كما يستتاب المرتد وأولى فإن قتل الكفار قبل الإعذار إليهم وتبليغهم رسالات الله غير جائز.
ومن لم يستتبه قال: هذا هو القياس لما جاء في الكتب في قتل كل كافر أصلي أسير وقد ثبت ثبوتا لا يمكن دفعه أن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين كانوا يقتلون كثيرا من الأسرى من غير عرض للإسلام عليهم وإن كانوا ناقضين للعهد وذلك في قصة قريظة وخيبر ظاهر لا يختلف فيه اثنان من أهل العلم بالسيرة فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخذهم أسرى بعد أن نقضوا العهد وضرب رقابهم من غير أن يعرض عليهم الإسلام وقد أمر بقتل ابن الأشرف من غير عرض للإسلام عليه وإنما قتله لأنه كان يؤذي الله ورسوله وقد نقض العهد.
ومن قال: "إذا تاب بالعود إلى الذمة قبلت توبته أو خير الإمام فيه" قال: إنه في هذه الحال بمنزلة حربي قد بذل الجزية عن يد وهو صاغر فيجب الكف عنه.
واعلم أن هنا معنى لا بد من التنبيه عليه وهو أن الأسير الحربي الأصل لو أسلم فإن إسلامه لا يزيل عنه حكم الأسر بل إما أن يصير رقيقا للمسلمين بمنزلة النساء والصبيان كأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد أو يخير الإمام فيه بين الثلاثة غير القتل على القول الآخر في المذهبين.

والدليل على ذلك ما روى مسلم في صحيحه عن عمران بن حصين قال: "كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأسر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بني عقيل وأصابوا معه العضباء فأتى عليه صلى الله عليه وسلم وهو في الوثاق فقال: يا محمد فأتاه فقال: ما شأنك؟ فقال: بم أخذتني وأخذت سابقة الحاج؟ يعني العضباء فقال: أخذتك بجريرة حلفائك من ثقيف ثم انصرف عنه فناداه: يا محمد يا محمد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيما رقيقا فرجع إليه فقال: ما شأنك؟ قال: إني مسلم قال: لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح ثم انصرف فناداه: يا محمد يا محمد فأتاه فقال: ما شأنك؟ فقال: إني جائع فأطعمني وظمآن فاسقني قال: هذه حاجتك ففدى بالرجلين فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا أسلم بعد الأسر لم يفلح كل الفلاح كما إذا أسلم قبل الأسر وأن ذلك الإسلام لا يوجب إطلاقه".

وكذلك العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أظهر الإسلام بعد الأسر بل أخبر أنه قد أسلم قبل ذلك فلم يطلقه النبي صلى الله عليه وسلم حتى فدى نفسه والقياس يقتضي ذلك فإنه لو أسلم رقيق للمسلمين لم يمنع ذلك دوام رقه فكذلك إسلام الأسير لا يمنع دوام أسره لأنه نوع رق ومجوز للاسترقاق كما أن إسلامه لا يوجب أن يرد عليه ما أخذ من ماله قبل الإسلام فإذا كان هذا حال من أسلم بعد أن أسر ممن هو حربي الأصل فهذا الناقض للعهد حاله أشد بلا ريب فإذا أسلم بعد أن نقض العهد وهو في أيدينا لم يجز أن يقال: إنه يطلق بل حيث قلنا قد عصم دمه فإما أن يصير رقيقا وللإمام أن يبيعه بعد ذلك وثمنه لبيت المال أو أنه يتخير فيه وهذا قياس قول من يجوز استرقاق ناقض العهد ومن لم يجوز استرقاقهم فإنه يجعل هذا بمنزلة المرتد ويقول: إذا عاد إلى الإسلام لم يسترق ولم يقتل ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام: "لو أسلمت وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح" دليل على أن من أسلم ولا يملك أمره لم يكن حاله كحال من أسلم وهو مالك أمره فلا تجوز التسوية بينهما بحال وفي هذا أيضا دليل على أنه إذا بذل الجزية لم يجب إطلاقه فإنه إذا لم يجب إطلاقه بالإسلام فببذل الجزية أولى لكن ليس في الحديث ما ينفي استرقاقه.

<u>فصل.</u>

والدليل على أن المسلم يقتل من غير استتابة وإن أظهر التوبة بعد أخذه كما هو مذهب الجمهور قوله سبحانه: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا} .

وقد تقدم أن هذا يقتضي قتله ويقتضي تحتم قتله وإن تاب بعد الأخذ لأنه سبحانه ذكر الذين يؤذون الله ورسوله والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات فإذا كانت عقوبة أولئك لا تسقط إذا تابوا بعد الأخذ فعقوبة هؤلاء أولى وأحرى لأن عقوبة كليهما على الأذى الذي قاله بلسانه لا على مجرد كفر هو باق عليه.

وأيضا فإنه قال: {لئن لم ينته المنافقون} إلى قوله: {ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا} وهو يقتضي أن من لم ينته فإنه يؤخذ ويقتل فعلم أن الانتهاء العاصم ما كان قبل الأخذ.

وأيضا فإنه جعل ذلك تفسيرا للعن فعلم أن الملعون متى أخذ قتل إذا لم يكن انتهى قبل الأخذ وهذا ملعون فدخل في الآية.

يؤيد ذلك ما قدمناه عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم} قال: "هذه في شأن عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ليس فيها توبة ثم قرأ: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء} إلى قوله: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا} فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة" قال: فهم رجل أن يقوم فيقبل رأسه من حسن ما فسر فهذا ابن عباس قد بين أن من لعن هذه اللعنة لا توبة له واللعنة الأخرى أبلغ منها.

يقرره أن قاذف أمهات المؤمنين إنما استحق هذه اللعنة على قوله لأجل النبي صلى الله عليه وسلم فعلم أن مؤذيه لا توبة له.

وأيضا قوله سبحانه: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا} الآية.

وهذا الساب محارب لله ورسوله كما تقدم تقريره من أنه محاد لله ورسوله وأن المحاد لله ورسوله مشاق لله ورسوله محارب لله ورسوله ولأن المحارب ضد المسالم والمسالم الذي تسلم منه ويسلم منك ومن آذاه لم يسلم منه فليس بمسالم فهو محارب وقد تقدم من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم سماه عدوا له ومن عاداه فقد حاربه وهو من أعظم الساعين في الأرض بالفساد قال الله تعالى في صفة المنافقين: {وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون} .

وكل ما في القرآن من ذكر الفساد مثل قوله: {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها} وقوله: {وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها} إلى قوله: {والله لا يحب الفساد} وغير ذلك فإن السب داخل فيه فإنه أصل لكل فساد في الأرض إذ هو إفساد للنبوة التي هي عماد صلاح الدين والدنيا والآخرة.

وإذا كان هذا الساب محاربا لله ورسوله ساعيا في الأرض بفساد وجب أن يعاقب بإحدى العقوبات المذكورة في الآية إلا أن يتوب قبل القدرة عليه وقد قدمنا الأدلة على أن عقوبته متعينة بالقتل كعقوبة من قتل في قطع الطريق فيجب أن يقام ذلك عليه إلا أن يتوب قبل القدرة عليه وهذا الساب الذي قامت عليه البينة ثم تاب بعد ذلك إنما تاب بعد القدرة فلا تسقط العقوبة عنه ولهذا كان الكافر الحربي إذا أسلم بعد الأخذ لم تسقط عنه العقوبة مطلقا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للعقيلي: "لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح" بل يعاقب بالاسترقاق أو بجواز الاسترقاق وغيره ولكن هذا مرتد محارب فلم يمكن استرقاقه كالعرنيين إذ المحاربة باللسان كالمحاربة باليد فتعين عقوبته بالقتل.

وأيضا فسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم دلت من غير وجه على قتل الساب من غير استتابة فإنه أمر بقتل الذي كذب عليه من غير استتابة وقد ذكرنا أن ذلك يقتضي قتل الساب سواء أجرينا الحديث على ظاهره أو حملناه على من كذب عليه كذبا يشينه وكذلك في حديث الشعبي أنه أمر بقتل الذي طعن عليه في قسم مال العزى من غير استتابة.

وفي حديث أبي بكر لما استأذنه أبو برزة أن يقتل الرجل الذي شتمه من غير استتابة قال: "إنها لم تكن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم" فعلم أنه كان له قتل من شتمه من غير استتابة وعمر رضي الله عنه قتل الذي لم يرض بحكمه صلى الله عليه وسلم من غير استتابة أصلا فنزل القرآن بإقراره على ذلك وهو من أدنى أنواع الاستخفاف به فكيف بأعلاها؟.

وأيضا فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح لما طعن عليه وافترى افتراء عابه به بعد أن أسلم أهدر دمه وامتنع عن مبايعته وقد تقدم تقرير الدلالة منه على أن الساب يقتل وإن أسلم وذكرنا أنه كان قد جاءه مسلما تائبا قد أسلم قبل أن يجيء إليه كما رويناه عن غير واحد أو قد جاء يريد الإسلام وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد جاء يريد الإسلام ثم كف عنه انتظار أن يقوم إليه رجل فيقتله.

وهذا نص في أن مثل هذا المرتد الطاعن لا يجب قبول توبته بل يجوز قتله وإن جاء تائبا وإن تاب وقد قررنا هذا فيما مضى وهنا من وجوه أخرى أن الذي عصم دمه عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه لا مجرد إسلامه وأن بالإسلام والتوبة انمحى الإثم وبعفو رسول الله صلى الله عليه وسلم احتقن الدم والعفو بطل بموته صلى الله عليه وسلم وليس للأمة أن يعفوا عن حقه وامتناعه من بيعته حتى يقوم إليه بعض القوم فيقتله نص في جواز قتله وإن جاء تائبا.

وأما عصمة دمه بعد ذلك فليس دليلا لنا على أن نعصم دم من سب وتاب بعد أن قدرنا عليه لأنا قد بينا من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان يعفو عمن سبه ممن لا خلاف بين الأمة في وجوب قتله إذا فعل ذلك وتعذر عفو النبي صلى الله عليه وسلم عنه وقد ذكرنا أيضا أن حديث عبد الله بن خطل يدل على قتل الساب لأنه كان مسلما فارتد وكان يهجوه فقتل من غير استتابة.

وأيضا فما تقدم من حديث أنس المرفوع وأثر أبي بكر في قتل من آذاه في أزواجه وسراريه من غير استتابة وما ذاك إلا لأجل أنه نوع من الأذى ولذلك حرمه الله ومعلوم أن السب أشد أذى منه بدليل أن السب يحرم منه ومن غيره ونكاح الأزواج لا يحرم إلا منه صلى الله عليه وسلم وإنما ذاك مبالغة في تحريم ما يؤذيه ووجوب قتل من يؤذيه أي أذى كان من غير استتابة.

وأيضا فإنه صلى الله عليه وسلم أمر بقتل النسوة اللاتي كن يؤذينه بألسنتهن بالهجاء مع أمانه لعامة أهل البلد ومع أن قتل المرأة لا يجوز إلا أن تفعل ما يوجب القتل ولم يستتب واحدة منهن حين قتل من قتل والكافرة الحربية من النساء لا تقتل إن لم تقاتل والمرتدة لا تقتل حتى تستتاب وهؤلاء النسوة قتلن من غير أن يقاتلن ولم يستتبن فعلم أن قتل من فعل مثل فعلهن جائز بدون استتابة فإن صدور ذلك عن مسلمة أو معاهدة أعظم من صدوره عن حربية.

وقد بسطنا بعض هذه الدلالات فيما مضى بما أغنى عن إعادته هنا وذكرنا أن السنة تدل على أن السب ذنب مقتطع عن عموم الكفر وهو من جنس المحاربة والتوبة التي تحقن الدم دم المرتد إنما هي التوبة عن الكفر فأما إن ارتد بمحاربة مثل سفك الدم وأخذ المال كما فعل العرنيون وكما فعل مقيس بن حبابة حيث قتل الأنصاري واستاق المال ورجع مرتدا فهذا يتعين قتله كما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم مقيس بن حبابة وكما قيل له في مثل العرنيين "إنما جزاؤهم أن يقتلوا" فلذلك من تكلم بكلام من جنس المحادة والمحاربة لم يكن بمنزلة من ارتد فقط.

وأيضا ما اعتمده الإمام أحمد من أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقوا بين الساب وبين المرتد المجرد فقتلوا الأول من غير استتابة واستتابوا الثاني وأمروا باستتابته وذلك أنه قد ثبت أنهم قتلوا سابه وقد تقدم ذكر بعض ذلك مع أنه قد تقدم عنهم أنهم كانوا يستتيبون المرتد ويأمرون باستتابته فثبت بذلك أنهم كانوا لا يقبلون توبة من يسبه من المسلمين لأن توبته لو قبلت لشرعت استتابته كالمرتد فإنه على هذا القول نوع من المرتدين ومن خص المسلم بذلك قال: لا يدل ذلك على أن الكافر الساب لا يسقط عنه إسلامه القتل فإن الحربي يقتل من غير استتابة مع أن إسلامه يسقط عنه القتل إجماعا ولم يبلغنا عن أحد من الصحابة أنه أمر باستتابة الساب إلا ما روى عن ابن عباس وفي إسناد الحديث عنه مقال ولفظه: "أيما مسلم سب الله أو سب أحدا من الأنبياء فقد كذب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ردة يستتاب فإن رجع وإلا قتل" وهذا والله أعلم فيمن كذب

بنبوة شخص من الأنبياء وسبه بناء على أنه ليس بنبي ألا ترى إلى قوله: "فقد كذب برسول الله عليه الصلاة والسلام" ولا ريب أن من كذب بنبوة بعض الأنبياء وسبه بناء على ذلك ثم تاب قبلت توبته كمن كذب ببعض آيات القرآن فإن هذا أظهر أمره فهو كالمرتد أما من كان يظهر الإقرار بنبوة النبي ثم أظهر سبه فهذا هو مسألتنا.
يؤيد هذا أنا قد روينا عنه أنه كان يقول: "ليس لقاذف أزواج النبي صلى الله عليه وسلم توبة وقاذف غيرهن له توبة" ومعلوم أن ذلك رعاية لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلم أن مذهبه أن ساب النبي صلى الله عليه وسلم وقاذفه لا توبة له وأن وجه الرواية الأخرى عنه إن صحت ما ذكرناه أو نحوه.
وأيضا فإن سبه أو شتمه ممن يظهر الإقرار بنبوته دليل على فساد اعتقاده وكفره به بل هو دليل على الاستهانة به والاستخفاف بحرمته فإن من وقر الإيمان في قلبه والإيمان موجب لإكرامه وإجلاله لم يتصور منه ذمه وسبه والنقص به وقد كان من أقبح المنافقين نفاقا من يستخف بشتم النبي صلى الله عليه وسلم كما روي عن ابن عباس قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل حجرة من حجر نسائه في نفر من المسلمين قد كان تقلص عنهم الظل فقال: سيأتيكم إنسان ينظر بعين شيطان فلا تكلموه فجاء رجل أزرق فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علام تشتمني أنت وفلان وفلان؟ دعاهم بأسمائهم فانطلق فجاء بهم فحلفوا له واعتذروا إليه فأنزل الله تبارك وتعالى: {يحلفون لكم لترضوا عنهم} الآية رواه أبو مسعود بن الفرات ورواه الحاكم في صحيحه وقال: فأنزل الله تعالى {يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له} الآية وإذا ثبت أنه كافر مستهين به فإظهار الإقرار برسالته بعد ذلك لا يدل على زوال الكفر والاستهانة لأن الظاهر إنما يكون دليلا صحيحا معتمدا إذا لم يثبت أن الباطن بخلافه فإذا قام دليل على الباطن لم يلتفت إلى ظاهر قد علم أن الباطن بخلافه.
ولهذا اتفق العلماء على أنه لا يجوز للحاكم أن يحكم بخلاف علمه وإن شهد عنده بذلك العدول ويجوز له أن يحكم بشهادتهم إذا لم يعلم خلافها وكذلك أيضا لو أقر إقرارا علم أنه كاذب فيه مثل أن يقول لمن هو أكبر منه "هذا ابني" لم يثبت نسبه ولا ميراثه باتفاق العلماء وكذلك الأدلة الشرعية مثل خبر العدل الواحد ومثل الأمر والنهي والعموم والقياس يجب إتباعها إلا أن يقوم دليل أقوى منها يدل على أن باطنها مخالف لظاهرها ونظائر هذا كثيرة.
فإذا علمت هذا فنقول: هذا الرجل قد قام الدليل على فساد عقيدته وتكذيبه به واستهانته له فإظهاره الإقرار برسالته الآن ليس فيه أكثر مما كان يظهره قبل هذا وهذا القدر بطلت دلالته فلا يجوز الاعتماد عليه وهذه نكتة من لا يقبل توبة الزنديق وهو مذهب أهل المدينة ومالك وأصحابه والليث بن سعد وهو المنصور من الروايتين عن أبي حنيفة وهو إحدى الروايات عن أحمد نصرها كثير من أصحابه وعنهما أنه يستتاب وهو المشهور عن الشافعي.
وقال أبو يوسف آخرا: أقتله من غير استتابة لكن إن تاب قبل أن أقتله قبلت توبته وهذا أيضا الرواية الثالثة عن أحمد.
وعلى هذا المأخذ فإذا كان الساب قد تكرر منه السب ونحوه مما يدل على الكفر اعتضد السبب بدلالات أخر من الاستخفاف بحرمات الله والاستهانة بفرائض الله ونحو ذلك من دلالات النفاق والزنديق كان ذلك أبلغ في ثبوت زندقته وكفره وفي أن لا يقبل منه مجرد ما يظهر من الإسلام مع ثبوت هذه الأمور وما ينبغي أن يتوقف في قتل مثل هذا وفي أن لا يسقط عنه القتل بما يظهر من الإسلام إذ توبة هذا بعد أخذه لم تجدد له حالا لم تكن قبل ذلك فكيف تعطل الحدود بغير موجب؟ نعم لو أنه قبل رفعه إلى السلطان ظهر منه من الأقوال والأعمال ما يدل على حسن الإسلام وكف عن ذلك لم يقتل في هذه الحال وفيه خلاف بين أهل هذا القول سيأتي إن شاء الله تعالى ذكره.
وعلى مثل هذا ومن هو أخف منه ممن لم يظهر نفاقه قط تحمل آيات التوبة من النفاق وعلى الأول تحمل آيات إقامة الحد.
ثم من أسقط القتل عن الذمي إذا أسلم قال: بهذا يظهر الفرق بينه وبين الكافر إذا أسلم فإنه كان يظهر لدين يبيح سبه أو لا يمنعه من سبه فأظهر دين الإسلام الذي يوجب تعزيره وتوقيره فكان ذلك دليلا على صحة انتقاله ولم يعارضه ما يخالف فوجب العمل به وهذه الطريقة مبنية على عدم قبول توبة الزنديق كما قررناه من ظهور دليل الكفر مع عدم ظهور دليل الإسلام وهو من القياس الجلي.
ويدل على جواز قتل الزنديق والمنافق من غير استتابة قوله وتعالى: {ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني} إلى قوله: {قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا} .
قال أهل التفسير: {أو بأيدينا} بالقتل: إن أظهرتم ما في قلبوكم قتلناكم وهو كما قالوا: لأن العذاب على ما يبطنونه من النفاق بأيدينا لا يكون إلا القتل لكفرهم ولو كان المنافق يجب قبول ما يظهره من التوبة بعد ما ظهر نفاقه وزندقته لم يمكن أن نتربص بهم أن يصيبهم الله تعالى بعذاب من عنده أو بأيدينا لأنا كلما أردنا أن نعذبهم على ما أظهروه أظهروا التوبة.
وقال قتادة وغيره: قوله {وممن حولكم من الأعراب منافقون} إلى قوله: {سنعذبهم مرتين} قالوا: "في الدنيا القتل وفي البرزخ عذاب القبر".

ومما يدل على ذلك أيضا قوله تعالى: {يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه} وقوله سبحانه: {سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم} إلى قوله: {يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين} وكذلك قوله تعالى: {يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم} وقوله سبحانه: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا إيمانهم اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون} وقوله تعالى: {ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون} إلى قوله تعالى: {اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين} إلى قوله: {يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون} .
دلت هذه الآيات كلها على أن المنافقين كانوا يرضون المؤمنين بالأيمان الكاذبة وينكرون أنهم كفروا ويحلفون أنهم لم يتكلموا بكلمة الكفر.
وذلك دليل على أنهم يقتلون إذا ثبت ذلك عليهم بالبينة لوجوه.
أحدها: أنهم لو كانوا إذا أظهروا التوبة قبل ذلك منهم لم يحتاجوا إلى الحلف والإنكار ولكانوا يقولون: قلنا وقد تبنا فعلم أنهم كانوا يخافون إذا ظهر ذلك عليهم أنهم يعاقبون من غير استتابة.
الثاني: أنه قال تعالى: {اتخذوا أيمانهم جنة} واليمين إنما تكون جنة إذا لم نأت ببينة عادلة تكذبها فإذا كذبتها بينة عادلة انخرقت الجنة فجاز قتلهم ولا يمكنه أن يجتن بعد ذلك إلا بجنة من جنس الأولى وتلك جنة مخروقة.
الثالث: أن الآيات دليل على أن المنافقين إنما عصم دماءهم الكذب والإنكار ومعلوم أن ذلك إنما يعصم إذا لم تقم البينة بخلافه ولذلك لم يقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم.
ويدل على ذلك قوله سبحانه: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر} الآية وقوله تعالى في موضع آخر: {جاهد الكفار والمنافقين} قال الحسن وقتادة: "بإقامة الحدود عليهم" وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه" وعن ابن عباس وابن جريج: "باللسان وتغليظ الكلام وترك الرفق".
ووجه الدليل أن الله أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بجهاد المنافقين كما أمره بجهاد الكافرين وأن جهادهم إنما يمكن إذا ظهر منهم من القول أو الفعل ما يوجب العقوبة فإنه ما لم يظهر منه شيء البتة لم يكن لنا سبيل عليه فإذا ظهر منه كلمة الكفر فجهاده القتل وذلك يقتضي أن لا يسقط عنه بتجديد الإسلام له ظاهرا لأنا لو أسقطنا عنهم القتل بما أظهروه من الإسلام لكانوا بمنزلة الكفار وكان جهادهم من حيث هم كفار فقط لا من حيث هم منافقون والآية تقتضي جهادهم لأنهم صنف غير الكفار لا سيما قوله تعالى: {جاهد الكفار والمنافقين} يقتضي جهادهم من حيث هم منافقون لأن تعليق الحكم باسم مشتق مناسب يدل على أن موضع الاشتقاق هو العلة فيجب أن يجاهد لأجل النفاق كما يجاهد الكافر لأجل الكفر.
ومعلوم أن الكافر إذا أظهر التوبة من الكفر كان تركا له في الظاهر ولا يعلم ما يخالفه.
أما المنافق فإذا أظهر الإسلام لم يكن تركا للنفاق لأن ظهور هذه الحال منه لا ينافي النفاق ولأن المنافق إذا كان جهاده بإقامة الحد عليه كجهاد الذي في قلبه مرض وهو الزاني إذا زنى لم يسقط عنه حده إذا أظهر التوبة بعد أخذه لإقامة الحد عليه كما عرفت ولأنه لو قبلت علانيتهم دائما مع ثبوت ضدها لم يكن إلى الجهاد على النفاق سبيل فإن المنافق إذا ثبت عنه أنه أظهر الكفر فلو كان إظهار الإسلام حينئذ ينفعه لم يمكن جهاده.
ويدل على ذلك قوله: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل} دلت هذه الآية على أن المنافقين إذا لم ينتهوا فإن الله يغري نبيه بهم وأنهم لا يجاورونه بعد الإغراء بهم إلا قليلا وأن ذلك في حال كونهم ملعونين أينما وجدوا وأصيبوا أسروا وقتلوا وإنما يكون ذلك إذا أظهروا النفاق لأنه ما دام مكتوما لا يمكن قتلهم.
وكذلك قال الحسن: أراد المنافقون أن يظهروا ما في قلوبهم من النفاق
فأوعدهم الله في هذه الآية فكتموه وأسروه وقال قتادة: ذكر لنا أن المنافقين أرادوا أن يظهروا ما في قلوبهم من النفاق فأوعدهم الله في هذه الآية فكتموا ولو كان إظهار التوبة بعد إظهار النفاق مقبولا لم يمكن أخذ المنافق ولا قتله لتمكنه من إظهار التوبة لا سيما إذا كان كلما شاء أظهر النفاق ثم أظهر التوبة وهي مقبولة منه.
يؤيد ذلك أن الله تبارك وتعالى جعل جزاءهم أن يقتلوا ولم يجعل جزاءهم أن يقاتلوا ولم يستثن حال التوبة كما استثناه من قتل المحاربين وقتل المشركين فإنه قال: {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} وقال في المحاربين: {إنما جزاء الذين يحاربون الله

ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا} إلى قوله تعالى: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم} فعلم أنهم يقتلون من غير استتابة وأنه لا يقبل منهم ما يظهرونه من التوبة.
يوضح ذلك أنه جعل انتهاءهم النافع قبل الإغراء بهم وقبل الأخذ والتقتيل وهناك جعل التوبة بعد ذكر الحصر والأخذ والقتل فعلم أن الانتهاء بعد الإغراء بهم لا ينفعهم كما لا تنفع المحارب التوبة بعد القدرة عليه وإن نفعت المشرك من مرتد وأصلي التوبة بعد القدرة عليه وقد أخبر سبحانه أن سنته فيمن لم يتب عن النفاق حتى قدر عليه أن يؤخذ ويقتل وأن هذه السنة لا تبديل لها والانتهاء في الآية إما أن يعنى به الانتهاء عن النفاق بالتوبة الصحيحة أو الانتهاء عن إظهاره عند شياطينه وعند بعض المؤمنين.
والمعنى الثاني أظهر فإن من المنافقين من لم ينته عن إسرار النفاق حتى مات النبي صلى الله عليه وسلم وانتهوا عن إظهاره حتى كان في آخر الأمر لا يكاد أحد يجترئ على إظهار شيء من النفاق نعم الانتهاء يعم القسمين فمن انتهى عن إظهاره فقط أو عن إسراره وإعلانه خرج من وعيد هذه الآية ومن أظهره لحقه وعيدها.
ومما يشبه ذلك قوله تعالى: {يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر} إلى قوله تعالى: {فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة} فإنه دليل على أن المنافق إذا لم يتب عذبه الله في الدنيا والآخرة وكذلك قوله تعالى: {وممن حولكم من الأعراب منافقون} إلى قوله تعالى: {سنعذبهم مرتين} وأما قوله: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة} فقد قال أبو: "هذا شيء واحد هم المنافقون" وكذلك قال مجاهد: "كل هؤلاء منافقون فيكون من باب عطف الخاص على العام" كقوله تعالى: {وجبريل وميكال} وقال سلمة بن كهيل وعكرمة: "الذين في قلوبهم مرض أصحاب الفواحش والزناة ومعلوم أن من أظهر الفاحشة لم يكن بد من إقامة الحد عليه فكذلك من أظهر النفاق".
ويدل على جواز قتل الزنديق المنافق من غير استتابة ما خرجاه في الصحيحين في قصة حاطب بن أبي بلتعة فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" فدل على أن ضرب عنق المنافق من غير استتابة مشروع إذ لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على عمر استحلال ضرب عنق المنافق ولكن أجاب بأن هذا ليس بمنافق ولكنه من أهل بدر المغفور لهم فإذا أظهر النفاق الذي لا ريب أنه نفاق فهو مبيح للدم.
وعن عائشة رضي الله تعالى عنها في حديث الإفك قالت: "فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: "من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي فقام سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه: إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد يعني ابن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت" متفق عليه.
وفي الصحيحين عن عمر وعن جابر بن عبد الله قال: "غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصاريا فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا وقال الأنصاري: يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ ثم قال: ما شأنهم؟ فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري قال: فقال النبي عليه الصلاة والسلام: دعوها فإنها خبيثة وقال عبد الله بن أبي بن سلول: أقد تداعوا علينا؟ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال عمر: ألا نقتل يا نبي الله هذا الخبيث لعبد الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه".
وذكر أهل التفسير وأصحاب السير أن هذه القصة كانت في غزوة بني المصطلق: اختصم رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار حتى غضب عبد الله بن أبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السن وقال عبد الله بن أبي: أفعلوها؟ قد نافرونا وكابرونا في بلادنا والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لئن أمسكتم عنهم فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحولوا عن بلادكم ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فقال زيد بن ابن أرقم: أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد في عز من الرحمن ومودة من المسلمين والله لا أحبك بعد كلامك هذا فقال عبد الله:

اسكت فإنما كنت ألعب فمشى زيد بن أرقم بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بعد فراغه من الغزوة وعنده عمر بن الخطاب فقال: دعني أضرب عنقه يا رسول الله فقال: "إذا ترعد له آنف كثيرة بيثرب" فقال عمر: فإن كرهت يا رسول الله أن يقتله رجل من المهاجرين فمر سعد بن معاذ أو محمد بن مسلمة أو عباد بن بشر فليقتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فكيف يا عمر؟ إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه لا ولكن أذن بالرحيل" وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبي فأتاه فقال: أنت صاحب هذا الكلام؟ فقال عبد الله: والذي أنزل عليك الكتاب بالحق ما قلت من هذا شيئا وإن زيدا لكاذب فقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار عسى أن يكون هذا الغلام وهم في حديثه ولم يحفظ ما قال فعذره رسول الله صلى الله عليه وسلم وفشت الملامة في الأنصار لزيد وكذبوه قالوا: وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان من فضلاء الصحابة ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي لما بلغك عنه فإن كنت فاعلا فمرني فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالديه مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا" وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه ولكن بر أباك وأحسن صحبته" وذكروا القصة قالوا: وفي ذلك نزلت سورة المنافقين.

وقد أخرجا في الصحيحين عن زيد بن أرقم قال: "خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر أصاب الناس فيه شدة فقال عبد الله بن أبي: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقالوا: كذب زيد يا رسول الله قال: فوقع في نفسي مما قالوه شدة حت أنزل الله تصديقي: {إذا جاءك المنافقون} قال: ثم دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم.

ففي هذه القصة بيان أن قتل المنافق جائز من غير استتابة وإن أظهر إنكار ذلك القول وتبرأ منه وأظهر الإسلام وإنما منع النبي صلى الله عليه وسلم من قتله ما ذكره من تحدث الناس أنه يقتل أصحابه لأن النفاق لم يثبت عليه بالبينة وقد حلف أنه ما قال وإنما علم بالوحي وخبر زيد ابن أرقم.

وأيضا لما خافه من ظهور فتنة بقتله وغضب أقوام يخاف افتتانهم بقتله.

وذكر بعض أهل التفسير أن النبي صلى الله عليه وسلم عد المنافقين الذين وقفوا له على العقبة في غزوة تبوك ليفتكوا به فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم فقال: "أكره أن يقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله بالرسالة".

وذكر بعضهم أن رجلا من المنافقين خاصم رجلا من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى النبي صلى الله عليه وسلم لليهودي فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال: انطلق بنا إلى عمر بن الخطاب فأقبل إلى عمر فقال اليهودي: اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصم إليك وتعلق بي فجئت معه فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم فقال لهما: رويدكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر البيت فأخذ السيف وأشتمل عليه ثم خرج إليهما فضرب به المنافق حتى برد فقال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزل قوله: {ألم تر إلى الذين يزعمون} الآية وقال جبريل: إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق وقد تقدمت هذه القصة مروية من وجهين.

ففي هذه الأحاديث دلالة على أن قتل المنافق كان جائزا إذ لولا ذلك لأنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من استأذنه في قتل المنافق ولأنكر على عمر إذ قتل من قتل من المنافقين ولأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الدم معصوم بالإسلام ولم يعلل ذلك بكراهية غضب عشائر المنافقين لهم وإن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه وأن يقول القائل: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم لأن الدم إذا كان معصوما كان هذا الوصف عديم التأثير في عصمة دم المعصوم ولا يجوز تعليل الحكم بوصف لا أثر له ونزل تعليله بالوصف الذي هو مناط الحكم وكما أنه دليل على القتل فهو دليل على القتل من غير استتابة على ما لا يخفى.

فإن قيل: فلم لم يقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم مع علمه بنفاق بعضهم وقبل علانيتهم؟.

قلنا: إنما ذاك لوجهين:

أحدهما: أن عامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة بل كانوا يظهرون الإسلام ونفاقهم يعرف تارة بالكلمة يسمعها منهم الرجل المؤمن فينقلها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيحلفون بالله أنهم ما قالوها أو لا يحلفون وتارة بما يظهر من تأخرهم عن الصلاة والجهاد واستثقالهم للزكاة وظهور الكراهية منهم لكثير من أحكام الله وعامتهم يعرفون في لحن القول كما قال الله: {أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول} فأخبر سبحانه أنه لو شاء لعرفهم رسوله بالسيماء في وجوههم ثم قال: {ولتعرفنهم في لحن القول} فأقسم أنه لا بد أن يعرفهم في لحن القول ومنهم من كان يقول القول أو يعمل العمل فينزل القرآن يخبر أن صاحب ذلك القول

والعمل منهم كما في سورة براءة ومنهم من كان المسلمون أيضا يعلمون كثيرا منهم بالشواهد والدلالات والقرائن والأمارات ومنهم من لم يكن يعرف كما قال تعالى: {وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم} ثم جميع هؤلاء المنافقين يظهرون الإسلام ويحلفون أنهم مسلمون وقد اتخذوا أيمانهم جنة وإذا كانت هذه حالهم فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقيم الحدود بعلمه ولا بخبر الواحد ولا بمجرد الوحي ولا بالدلائل والشواهد حتى يثبت الموجب للحد ببينة أو إقرار ألا ترى كيف أخبر عن المرأة الملاعنة أنها إن جاءت بالولد على نعت كذا وكذا فهو للذي رميت به وجاءت به على النعت المكروه فقال: "لولا الإيمان لكان لي ولها شأن".

وكان بالمدينة امرأة تعلن الشر فقال: "لو كنت راجما أحدا من غير بينة لرجمتها".

وقال للذين اختصموا إليه: "إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار" فكان ترك قتلهم مع كونهم كفارا لعدم ظهور الكفر منهم بحجة شرعية.

ويدل على هذا أنه لم يستتبهم على التعيين ومن المعلوم أن أحسن حال من ثبت نفاقه وزندقته أن يستتاب كالمرتد فإن تاب وإلا قتل ولم يبلغنا أنه استتاب واحدا بعينه منهم فعلم أن الكفر والردة لم تثبت على واحد بعينه ثبوتا يوجب أن يقتل كالمرتد ولهذا كان يقبل علانيتهم ونكل سرائرهم إلى الله فإذا كانت هذه حال من ظهر نفاقه بغير البينة الشرعية فكيف حال من لم يظهر نفاقه؟ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم" لما استؤذن في قتل ذي الخويصرة ولما استؤذن أيضا في قتل رجل من المنافقين قال: "أليس يشهد أن لا إله إلا الله" قيل: بلى قال: "أليس يصلي؟ " قيل: بلى قال: "أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم" فأخبر عليه الصلاة والسلام أنه نهي عن قتل من أظهر الإسلام من الشهادتين والصلاة وإن ذكر بالنفاق ورمي به وظهرت عليه دلالته إذا لم يثبت بحجة شرعية أنه أظهر الكفر وكذلك قوله في الحديث الآخر: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" معناه إني أمرت أن أقبل منهم ظاهر الإسلام وأكل بواطنهم إلى الله والزنديق والمنافق إنما يقتل إذا تكلم بكلمة الكفر وقامت عليه بذلك بينة وهذا حكم بالظاهر لا بالباطن وبهذا الجواب يظهر فقه المسألة.

الوجه الثاني: أنه صلى الله عليه وسلم كان يخاف أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما في استبقائهم وقد بين ذلك حيث قال: "لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه" وقال: "إذا ترعد له آنف كثيرة بيثرب" فإنه لو قتلهم بما يعلمه من كفرهم لأوشك أن يظن الظان أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد وإنما قصده الاستعانة بهم على الملك كما قال: "أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه

أقبل يقتلهم" وأن يخاف من يريد الدخول في الإسلام أن يقتل مع إظهاره الإسلام كما قتل غيره.

وقد كان أيضا يغضب لقتل بعضهم قبيلته وناس آخرون فيكون ذلك سببا للفتنة واعتبر ذلك بما جرى في قصة عبد الله بن أبي لما عرض سعد بن معاذ بقتله خاصم له أناس صالحون وأخذتهم الحمية حتى سكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استأذنه عمر في قتل ابن أبي قال أصحابنا: ونحن الآن إذا خفنا مثل ذلك كففنا عن القتل.

فحاصله أن الحد لم يقم على واحد بعينه لعدم ظهوره بالحجة الشرعية التي يعلمه بها الخاص والعام أو لعدم إمكان إقامته إلا مع تنفير أقوام عن الدخول في الإسلام وارتداد آخرين عنه وإظهار قوم من الحرب والفتنة ما يربى فساده على فساد ترك قتل منافق وهذان المعنيان حكمهما باق إلى يومنا هذا إلا في شيء واحد وهو أنه صلى الله عليه وسلم ربما خاف أن يظن الظان أنه يقتل أصحابه لغرض آخر مثل أغراض الملوك فهذا منتف اليوم.

والذي يبين حقيقة الجواب الثاني أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان بمكة مستضعفا هو وأصحابه عاجزين عن الجهاد أمرهم الله بكف أيديهم والصبر على أذى المشركين فلما هاجروا إلى المدينة وصار له دار عز ومنعة أمرهم بالجهاد وبالكف عمن سالمهم وكف يده عنهم لأنه لو أمرهم إذ ذاك بإقامة الحدود على كل منافق لنفر عن الإسلام أكثر العرب إذ رأوا أن بعض من دخل فيه يقتل وفي مثل هذه الحال نزل قوله: {ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا} وهذه السورة نزلت بالمدينة بعد الخندق فأمره الله في تلك الحال أن يترك أذى الكافرين والمنافقين له فلا يكافئهم عليه لما يتولد في مكافأتهم من الفتنة ولم يزل الأمر كذلك حتى فتحت مكة ودخلت العرب في دين الله قاطبة ثم أخذ النبي صلى الله عليه وسلم في غزو الروم وأنزل الله تبارك وتعالى سورة براءة وكمل شرائع الدين من الجهاد والحج والأمر بالمعروف فكان كمال الدين حين نزل قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم} قبل الوفاة بأقل من ثلاثة أشهر ولما أنزل براءة أمره بنبذ العهود التي كانت للمشركين وقال فيها: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} وهذه ناسخة لقوله تعالى: {ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم} وذلك أنه لم يبق حينئذ للمنافق من يعينه لو أقيم عليه الحد ولم يبق حول المدينة من الكفار من يتحدث

بأن محمد يقتل أصحابه فأمره الله بجهادهم والإغلاظ عليهم وقد ذكر أهل العلم أن آية الأحزاب منسوخة بهذه الآية ونحوها وقال في الأحزاب: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا} الآية فعلم أنهم كانوا يفعلون أشياء إذ ذاك إن لم ينتهوا عنها أقبلوا عليها في المستقبل لما أعز الله دينه ونصر رسوله فحيث ما كان للمنافق ظهور وتخاف من إقامة الحد عليه فتنة أكبر من بقائه عملنا بآية {ودع أذاهم} كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح وحيث ما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله: {جاهد الكفار والمنافقين} .

فهذا يبين أن الإمساك عن قتل من أظهر نفاقه بكتاب الله على عهد رسوله عليه الصلاة والسلام إذ لا نسخ بعده ولم ندع أن الحكم تغير بعده لتغيرالمصلحة من غير وحي نزل فإن هذا تصرف في الشريعة وتحويل لها بالرأي ودعوى أن الحكم المطلق كان لمعنى وقد زال وهو غير جائز كما قد نسبوا ذلك إلى من قال: إن حكم المؤلفة انقطع ولم يأت على انقطاعه بكتاب ولا سنة سوى ادعاء تغير المصلحة.

ويدل على المسألة ما روى أبو إدريس قال: أتى على رضي الله عنه بناس من الزنادقة ارتدوا عن الإسلام فسألهم فجحدوا فقامت عليهم البينة العدول قال: فقتلهم ولم يستتبهم وقال: وأتى برجل كان نصرانيا وأسلم ثم رجع عن الإسلام قال: فسأله فأقر بما كان منه فاستتابه فتركه فقيل له: كيف تستتيب هذا ولم تستتب أولئك؟ قال: إن هذا أقر بما كان منه وإن أولئك لم يقروا وجحدوا حتى قامت عليهم البينة فلذلك لم أستتبهم رواه الإمام أحمد.

وروى عن أبي إدريس قال: أتى علي برجل قد تنصر فاستتابه فأبى أن يتوب فقتله وأتى برهط يصلون القبلة وهم زنادقة وقد قامت عليهم بذلك الشهود العدول فجحدوا وقالوا: ليس لنا دين إلا الإسلام فقتلهم ولم يستتبهم ثم قال: "أتدرون لم استتبت هذا النصراني؟ استتبته لأنه أظهر دينه وأما الزنادقة الذين قامت عليهم البينة وجحدوني فإنما قتلتهم لأنهم جحدوا وقامت عليهم البينة".

فهذا من أمير المؤمنين على رضي الله عنه بيان أن كل زنديق كتم زندقته وجحدها حتى قامت عليه البينة قتل ولم يستتب وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتل من جحد زندقته من المنافقين لعدم قيام البينة.

ويدل على ذلك قوله تعالى {وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة} إلى قوله: {وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا} فعلم أن من لم يعترف بذنبه كان من المنافقين ولهذا الحديث قال الإمام أحمد في الرجل يشهد عليه بالبدعة فيجحد: "ليست له توبة إنما التوبة لمن اعترف فأما من جحد فلا توبة له".

قال القاضي أبو يعلي وغيره: وإذا اعترف بالزندقة ثم تاب قبلت توبته لأنه باعترافه يخرج عن حد الزندقة لأن الزنديق هو الذي يستبطن الكفر ولا يظهره فإذا اعترف به ثم تاب خرج عن حده فلهذا قبلنا توبته ولهذا لم يقبل علي رضي الله عنه توبة الزنادقة لما جحدوا.

وقد يستدل على المسألة بقوله تعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات} الآية وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبي العالية في قوله تعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب} قال: "هذه في أهل الإيمان" {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن} قال: "هذه في أهل النفاق" {ولا الذين يموتون وهم كفار} قال: "هذه في أهل الشرك" هذا مع أنه الراوي عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيما أظن أنهم قالوا: "كل من أصاب ذنبا فهو جاهل بالله وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب".

ويدل على ما قال أن المنافق إذا أخذ ليقتل ورأى السيف فقد حضره الموت بدليل دخول مثل هذا في عموم قوله تعالى: {كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت} وقوله تعالى: {شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت} وقد قال حين حضره الموت {إني تبت الآن} فليست له توبة كما ذكره الله سبحانه نعم إن تاب توبة صحيحه فيما بينه وبين الله لم يكن ممن قال {إني تبت الآن} بل يكون ممن تاب من قريب لأن الله سبحانه إنما نفى التوبة عمن حضره الموت وتاب بلسانه فقط ولهذا قال في الأول {ثم يتوبون}

وقال هنا {إني تبت الآن} فمن قال: "إني تبت" قبل حضور الموت أو تاب توبة صحيحة بعد حضور أسباب الموت صحت توبته.

وربما استدل بعضهم بقوله تعالى: {فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده} الآيتين وبقوله تعالى: {حتى إذا أدركه الغرق} الآية وقوله سبحانه: {فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها} الآية فوجه الدلالة أن عقوبة الأمم الخالية بمنزلة السيف للمنافقين ثم أولئك إذا تابوا بعد معاينة العذاب لم ينفعهم فكذلك المنافق ومن قال هذا فرق بينه وبين الحربي بأنا لا نقاتله عقوبة على كفره بل نقاتله ليسلم فإذا أسلم فقد أتى بالمقصود والمنافق إنما يقاتل عقوبة لا ليسلم فإنه لم يزل مسلما والعقوبات لا تسقط بالتوبة بعد مجيء البأس وهذا كعقوبات سائر العصاة فهذه طريقة من يقتل الساب لكونه منافقا.

وفيه طريقة أخرى وهي أن سب النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه موجب للقتل مع قطع النظر عن كونه مجرد ردة فإنا قد بينا أنه موجب للقتل وبينا أنه جناية غير الكفر إذ لو كان ردة محضة وتبديلا للدين وتركا له لما جاز للنبي صلى الله عليه وسلم العفو عمن كان يؤذيه كما لا يجوز العفو عن المرتد ولما قتل الذين سبوه وقد عفا عمن قاتل وحارب.
وقد ذكرنا أدلة أخرى على ذلك فيما تقدم ولأن التنقص والسب قد يصدر عن الرجل مع اعتقاد النبوة والرسالة لكن لما وجب تعزير الرسول وتوقيره بكل طريق غلظت عقوبة من انتهك عرضه بالقتل فصار قتله حدا من الحدود لأن سبه نوع من الفساد في الأرض كالمحاربة باليد لا لمجرد كونه بدل الدين وتركه وفارق الجماعة وإذا كان كذلك لم يسقط بالتوبة كسائر الحدود غير عقوبة الكفر وتبديل الدين قال الله تعالى: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم} .
فثبت بهذه الآية أن من تاب بعد أن قدر عليه لم تسقط عنه العقوبة وكذلك قال سبحانه: {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم} فأمر بقطع أيديهم جزاء على ما مضى ونكالا عن السرقة في المستقبل منهم ومن غيرهم وأخبر أن الله يتوب على من تاب ولم يدرأ القطع بذلك لأن القطع له حكمتان: الجزاء والنكال والتوبة تسقط الجزاء ولا تسقط النكال فإن الجاني متى علم أنه إذا تاب لم يعاقب لم يردع ذلك الفساق ولم يزجرهم عن ركوب العظائم فإن إظهار التوبة والإصلاح لمقصود حفظ النفس والمال سهل.
ولهذا لم نعلم خلافا يعتمد في أن السارق أو الزاني لو أظهر التوبة بعد ثبوت الحد عليه عند السلطان لم يسقط الحد عنه وقد رجم النبي صلى الله عليه وسلم ماعزا والغامدية وأخبر بحسن توبتهما وحسن مصيرهما وكذلك لو قيل: "إن سب النبي صلى الله عليه وسلم يسقط بالتوبة وتجديد الإسلام" لم يردع ذلك الألسن عن انتهاك عرضه ولم يزجر النفوس عن الاستحلال حرمته بل يؤذيه الإنسان بما يريد ويصيب من عرضه ما شاء من أنواع السب والأذى ثم يجدد إسلامه ويظهر إيمانه وقد ينال المرء من عرضه ويقع منه تنقص له واستهزاء ببعض أقواله أو أعماله وإن لم يكن منتقلا من دين إلى دين فلأنه لا يصعب على من هذه سبيله كلما نال من عرضه واستخف بحرمته أن يجدد إسلامه بخلاف الردة المجردة عن الدين فإن سقوط القتل فيها بالعود إلى الإسلام لا يوجب اجتراء الناس على الردة أو الانتقال لأن الانتقال عن الدين لا يقع إلا عن شبهة قادحة في القلب أو شهوة قامعة للعقل فلا يكون قبول التوبة من المرتد محرضا للنفوس على الردة ويكون ما يتوقعه من خوف القتل زاجرا له عن الكفر فإنه إذا أظهر ذلك لا يتم مقصوده لعلمه بأنه يجبر على العود إلى الإسلام وهنا من فيه استخفاف أو اجتراء أو سفاهة تمكن من انتقاص النبي صلى الله عليه وسلم وعيبه والطعن عليه كلما شتم يجدد الإسلام ويظهر التوبة وبهذا يظهر أن السب والشتم يظهر الفساد في الأرض الذي يوجب الحد اللازم من الزنى وقطع الطريق والسرقة وشرب الخمر فإن مريد هذه المعاصي إذا علم أنه تسقط عنه العقوبة إذا تاب فعلها كلما شاء كذلك من يدعوه ضعف عقله أو ضعف دينه إلى الانتقاص برسول الله صلى الله عليه وسلم إذا علم أن التوبة تقبل منه أتى ذلك متى شاء ثم تاب منه وقد حصل مقصوده بما قاله كما حصل مقصود أولئك بما فعلوه بخلاف مريد الردة فإن مقصوده لا يحصل إلا بالمقام عليها وذلك لا يحصل له إذا قتل إن لم يرجع فيكون ذلك رادعا له وهذا الوجه لا يخرج السب عن أن يكون ردة لكن حقيقته أنه نوع من الردة تغلظ بما فيه من انتهاك عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قد تتغلظ ردة بعض الناس بأن ينضم إليها قتل وغيره فيتحتم القتل فيها دون الردة المجردة كما يتحتم القتل في قتل من قطع الطريق لتغلظ الجرم وإن لم يتحتم قتل من قتل لغرض آخر فعوده إلى الإسلام يسقط موجب الردة المحضة ويبقى خصوص السب ولا بد من إقامة حده كما أن توبة القاطع قبل القدرة عليه تسقط تحتم القتل ويبقى حق أولياء المقتول من القتل الدية أو العفو وهذه مناسبة ظاهرة وقد تقدم نص الشارع وتنبيهه على اعتبار هذا المعنى.
فإن قيل: تلك المعاصي يدعو إليها الطمع مع صحة الاعتقاد فلو لم يشرع عنها زاجر لتسارعت النفوس إليها بخلاف سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الطبع لا يدعوا إليه إلا بخلل في الاعتقاد أكثر ما يوجب الردة فعلم أن مصدره أكثر ما يكون الكفر فيلزمه عقوبة الكافر وعقوبة الكافر مشروطة بعدم التوبة وإذا لم يكن إليه مجرده باعث طبيعي لم يشرع ما يزجر عنه وإن كان حراما كالاستخفاف في الكتاب والدين ونحو ذلك.
قلنا: بل قد يكون إليه باعث طبيعي غير الخلل في الاعتقاد من الكبر الموجب للاستخفاف ببعض أحواله وأفعاله والغضب الداعي إلى الوقيعة فيه إذا خالف الغرض بعض أحكامه والشهوة الحاملة على ذم ما يخالف الغرض من أموره وغير ذلك فهذه الأمور قد تدعو الإنسان إلى نوع من السب له وضرب من الأذى والانتقاص وإن لم يصدر إلا مع ضعف الإيمان به كما أن تلك المعاصي لا تصدر أيضا إلا مع ضعف الإيمان وإذا كان كذلك فقبول التوبة ممن هذه حاله يوجب اجتراء أمثاله على أمثال كلماته فلا يزال العرض منهوكا والحرمة محفورة بخلاف قبول التوبة ممن يريد انتقالا عن الدين إما إلى دين آخر أو إلى تعطيل فإنه إذا علم أنه يستتاب على ذلك فإن تاب وإلا قتل لم ينتقل بخلاف ما إذا صدر السب عن كافر به ثم آمن به فإن علمه

بأنه إذا أظهر السب لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف يردعه عن هذا السب إلا أن يكون مريدا للإسلام ومتى أراد الإسلام فالإسلام يجب ما كان قبله فليس في سقوط القتل بإسلام الكافر من الطريق إلى الوقيعة في عرضه ما في سقوطه بتجديد إسلام من يظهر الإسلام.
وأيضا فإن سب النبي صلى الله عليه وسلم حق لآدمي فلا يسقط بالتوبة كحد القذف وكسب غيره من البشر.
ثم من فرق بين المسلم والذمي قال: المسلم قد التزم أن لا يسب ولا يعتقد سبه فإذا أتى ذلك أقيم عليه حده كما يقام عليه حد الخمر وكما يعزر على أكل لحم الميت والخنزير والكافر لم يلتزم تحريم ذلك ولا يعتقده فلا تجب عليه إقامة حده كما لا تجب عليه إقامة حد الخمر ولا يعزر على الميت والخنزير.
نعم إذا أظهره نقض العهد الذي بيننا وبينه فصار بمنزلة الحربي فنقتله لذلك فقط لا لكونه أتى حدا يعتقد بحرمته فإذا أسلم سقط عنه العقوبة على الكفر ولا عقوبة عليه لخصوص السب فلا يجوز قتله.
وحقيقة هذه الطريقة أن سب النبي صلى الله عليه وسلم لما فيه من الغضاضة عليه يوجب القتل تعظيما لحرمته وتعزيرا له وتوقيرا ونكالا عن التعرض له والحد إنما يقام على الكافر فيما يعتقد تحريمه خاصة لكنه إذا أظهر ما يعتقد حله من المحرمات عندنا زجر عن ذلك وعوقب عليه كما إذا أظهر الخمر والخنزير فإظهار السب إما أن يكون كهذه الأشياء كما زعمه بعض الناس أو يكون نقضا للعهد كمقاتلة المسلمين وعلى التقديرين فالإسلام يسقط تلك العقوبة بخلاف ما يصيبه المسلم مما يوجب الحد عليه.
وأيضا فإن الردة على قسمين: ردة مجردة وردة مغلظة شرع القتل على خصوصها وكل منهما قد قام الدليل على وجوب قتل صاحبها والأدلة الدالة على سقوط القتل بالتوبة لا تعم القسمين بل إنما تدل على القسم الأول كما يظهر لمن ذلك تأمل الأدلة على قبول توبة المرتد فيبقى القسم الثاني وقد قام الدليل على وجوب قتل صاحبه ولم يأت نص ولا إجماع لسقوط القتل عنه والقياس متعذر مع وجود الفرق الجلي فانقطع الإلحاق.
والذي يحقق هذه الطريقة أنه لم يأت في كتاب ولا سنة ولا إجماع أن كل من ارتد بأي قول أو أي فعل كان فإنه يسقط عنه القتل إذا تاب بعد القدرة عليه بل الكتاب والسنة والإجماع قد فرق بين أنواع المرتدين كما سنذكره وإنما بعض الناس يجعل برأيه الردة جنسا واحدا على تباين أنواعه ويقيس بعضها ببعض فإذا لم يكن معه عموم نطقي يعم أنواع المرتدين لم يبق إلا القياس وهو فاسد إذا فارق الفرع الأصل بوصف له تأثير في الحكم وقد دل على تأثيره نص الشارع وتنبيهه والمناسبة المشتملة على المصلحة المعتبرة.
وتقرير هذا من ثلاثة أوجه:
أحدها: أن دلائل قبول توبة المرتد مثل قوله تعالى: {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم} إلى قوله: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا} وقوله تعالى: {من كفر بالله من بعد إيمانه} ونحوها ليس فيها إلا توبة من كفر بعد الإيمان فقط دون من انضم إلى كفره مزيد أذى وإضرار وكذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما فيها قبول توبة من جرد الردة فقط وكذلك سنة الخلفاء الراشدين إنما تضمنت قبول توبة من جرد الردة وحارب بعد ارتداده كمحاربة الكافر الأصلي على كفره فمن عزم أن في الأصول ما يعم توبة كل مرتد سواء جرد الردة أو غلظها بأي شيء كان فقد أخطأ وحينئذ فقد قامت الأدلة على وجوب قتل الساب وأنه مرتد ولم تدل الأصول على أن مثله يسقط عنه القتل فيجب قتله بالدليل السالم عن المعارض.
الثاني: أن الله سبحانه قال: {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون} فأخبر سبحانه أن من ازداد كفرا بعد إيمانه لن تقبل توبته وفرق بين الكفر المزيد كفرا والكفر المجرد في قبول التوبة من الثاني دون الأول فمن زعم أن كل كفر بعد الإيمان تقبل منه التوبة فقد خالف نص القرآن.
وهذه الآية إن كان قد قيل فيها إن ازدياد الكفر المقام عليه إلى حين الموت وإن التوبة المنفية هي توبته عند الغرغرة أو يوم القيامة فالآية أعم من ذلك.
وقد رأينا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقت بين النوعين فقبل توبة جماعة من المرتدين ثم إنه أمر بقتل مقيس بن حبابة يوم الفتح من غير استتابة لما ضم إلى ردته قتل المسلم وأخذ المال ولم يتب قبل القدرة عليه وأمر بقتل العرنيين لما ضموا ردتهم نحوا من ذلك وكذلك أمر بقتل ابن خطل لما ضم إلى ردته السب وقتل المسلم وأمر بقتل ابن أبي سرح لما ضم إلى ردته الطعن عليه والافتراء وإذا كان الكتاب والسنة قد حكما في المرتدين بحكمين ورأينا أن من ضر وآذى بالردة أذى يوجب القتل لم يسقط عنه القتل إذا تاب بعد القدرة عليه وإن تاب مطلقا دون من بدل دينه فقط لم يصح القول بقبول توبة المرتد مطلقا وكان الساب من القسم الذي لا يجب أن تقبل توبته كما دلت عليه السنة في قصة ابن أبي سرح ولأن السب إيذاء عظيم للمسلمين

أعظم عليهم من المحاربة باليد كما تقدم تقريره فيجب أن يتحتم عقوبة فاعله ولأن المرتد المجرد إنما نقتله لمقامه على التبديل فإذا عاود الدين الحق زال المبيح لدمه كما يزول المبيح لدم الكافر الأصلي بإسلامه وهذا الساب أتى من الأذى لله ورسوله بعد المعاهدة على ترك ذلك بما أتى به وهو لا يقتل لمقامه عليه فإن ذلك ممتنع فصار قتله كقتل المحارب باليد.

وبالجملة فمن كانت ردته محاربة لله ورسوله بيد أو لسان فقد دلت السنة المفسرة للكتاب أنه من كفر كفرا مزيدا لا تقبل توبته منه.

الوجه الثالث: أن الردة قد تتجرد عن السب فلا تتضمنه ولا تستلزمه كما تتجرد عن قتل المسلمين وأخذ أموالهم إذ السب والشتم إفراط في العداوة وإبلاغ في المحادة مصدره شدة سفه الكافر وحرصه على فساد الدين وإضرار أهله ولربما صدر عمن يعتقد النبوة والرسالة لكن لم يأت بموجب هذا الاعتقاد من التوقير والانقياد فصار بمنزلة إبليس حيث اعتقد ربوبية الله سبحانه بقوله (رب) وقد أيقن أن الله أمره بالسجود ثم لم يأت بموجب هذا الاعتقاد من الاستسلام والانقياد بل استكبر وعاند معاندة معارض طاعن في حكمة الآمر.

ولا فرق بين من يعتقد أن الله ربه وأن الله أمره بهذا الأمر ثم يقول: إنه لا يطيعه لأن أمره ليس بصواب ولا سداد وبين من يعتقد أن محمدا رسول الله وأنه صادق واجب الإتباع في خبره وأمره ثم يسبه أو يعيب أمره أو شيئا من أحواله أو تنقصه انتقاصا لا يجوز أن يستحقه الرسول وذلك أن الإيمان قول وعمل فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى والرسالة لعبده ورسوله ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام والذي هو حال في القلب يظهر أثره على الجوارح بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والازدراء بالقول أو بالفعل كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه وكان ذلك موجبا لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلا لما فيه من المنفعة والصلاح إذ الاعتقادات الإيمانية تزكي النفوس وتصلحها فمتى لم توجب زكاة النفس ولا صلاحا فما ذاك إلا لأنها لم ترسخ في القلب ولم تصر صفة ونعتا للنفس وصلاحا وإذا لم يكن علم الإيمان المفروض صفة لقلب الإنسان لازمة لم ينفعه فإنه يكون بمنزلة حديث النفس وخواطر القلب والنجاة لا تحصل إلا بيقين في القلب ولو أنه مثقال ذرة.

هذا فيما بينه وبين الله وأما في الظاهر فتجري الأحكام على ما يظهره من القول والفعل.

والغرض بهذا التنبيه على أن الاستهزاء بالقلب والانتقاص ينافي الإيمان الذي في القلب منافاة الضد ضده والاستهزاء باللسان ينافي الإيمان الظاهر باللسان كذلك.

والغرض بهذا التنبيه على أن السب الصادر عن القلب يوجب الكفر ظاهرا وباطنا.

هذا مذهب الفقهاء وغيرهم من أهل السنة والجماعة خلاف ما يقوله بعض الجهمية والمرجئة القائلين بأن الإيمان هو المعرفة والقول بلا عمل من أعمال القلب من أنه إنما ينافيه في الظاهر وقد يجامعه في الباطن وربما يكون لنا إن شاء الله تعالى عودة إلى هذا الموضع.

والغرض هنا أنه كما أن الردة تتجرد عن السب فكذلك قد تتجرد عن قصد تبديل الدين وإرادة التكذيب بالرسالة كما تجرد كفر إبليس عن قصد التكذيب بالربوبية وإن كان عدم هذا القصد لا ينفعه كما لا ينفع من قال: الكفر أن لا يقصد أن يكفر.

وإذا كان كذلك فالشارع إذا أمر بقبول توبة من قصد تبديل دينه الحق وغير اعتقاده وقوله فإنما ذاك لأن المقتضى للقتل الاعتقاد الطارىء وإعدام الاعتقاد الأول فإذا عاد ذلك الاعتقاد الإيماني وزال هذا الطارئ كان بمنزلة الماء والعصير: يتنجس بتغيره ثم يزول التغير فيعود حلالا لأن الحكم إذا ثبت بعلة زول بزوالها وهذا الرجل لم يظهر مجرد تغير الاعتقاد حتى يعود معصوما بعوده إليه وليس هذا القول من لوازم تغير الاعتقاد حتى يكون حكمه كحكمه إذ قد يتغير الاعتقاد كثيرا ولا يكون به أذى لله ورسوله.

وإضرار بالمسلمين يزيد على تغيير الاعتقاد ويفعله من يظن سلامة الاعتقاد وهو كاذب عند الله ورسوله والمؤمنين في هذه الدعوة والظن ومعلوم أن المفسدة في هذا أعظم من المفسدة في مجرد تغير الاعتقاد من هذين الوجهين: من جهة كونه إضرارا زائدا ومن جهة كونه قد يظن أو يقال إن الاعتقاد قد يكون سالما معه فيصدر عمن لا يريد الانتقال من دين إلى دين ويكون فساده أعظم من فساد الانتقال إذ الانتقال قد علم أنه كفر فنزع عنه ما نزع عن الكفر وهذا قد يظن أنه ليس بكفر إلا إذا صدر استحلالا بل هو معصية وهو من أعظم أنواع الكفر فإذا كان الداعي إليه غير الداعي إلى مجرد الردة والمفسدة فيه مخالفة لمفسدة الردة وهي أشد منها لم يجز أن يلحق التائب منه بالتائب من الردة بالردة لأن من شروط القياس قياس المعنى استواء الفرع والأصل في حكمة الحكم باستوائهما في دليل الحكمة إذا كانت خفية فإذا كان في الأصل معان مؤثرة يجوز أن تكون التوبة إنما قبلت لأجلها وهي معدومة في الفرع لم يجز إذا لا يلزم من قبول توبة من خففت مفسدة جنايته أو انتفت قبول توبة من تغلظت مفسدته أو بقيت.

وحاصل هذا الوجه أن عصمة دم هذا بالتوبة قياسا على المرتد متعذر لوجود الفرق المؤثر فيكون المرتد المنتقل إلى دين آخر ومن أتى من القول بما يضر المسلمين ويؤذي الله ورسوله وهو موجب للكفر نوعين تحت جنس الكافر بعد إسلامه وقد شرعت

التوبة في حق الأول فلا يلزم شرع التوبة في حق الثاني لوجود الفارق من حيث الإضرار ومن حيث إن مفسدته لا تزول بقبول التوبة.

فصل.

قد تضمن هذه الدلالة على وجوب قتل الساب من المسلمين وإن تاب وأسلم ويوجبه قول من فرق بينه وبين الذمي إذا أسلم وقد تضمن الدلالة على أن الذمي إذا عاد إلى الذمة لم يسقط عنه القتل بطريق الأولى فإن عود المسلم إلى الإسلام أحقن لدمه من عود الذمي إلى ذمته ولهذا عامة العلماء الذين حقنوا دم هذا وأمثاله بالعود إلى الإسلام لم يقولوا مثل ذلك في الذمي إذا عاد إلى الذمة.

ومن تأمل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتله لبني قريظة وبعض أهل خيبر وبعض بني النضير وإجلائه لبني النضير وبني قينقاع بعد أن نقض هؤلاء الذمة وحرصوا على أن يجيبهم إلى عقد الذمة ثانيا فلم يفعل ثم سنة خلفائه وصحابته في مثل هذا المؤذي وأمثاله مع العلم بأنه كان أحرص شيء على العود إلى الذمة لم يسترب في أن القول بوجوب إعادة مثل هذا إلى الذمة قول مخالف للسنة ولإجماع خير القرون وقد تقدم التنبيه على ذلك في حكم ناقض العهد مطلقا ولولا ظهوره لأشبعنا القول فيه وإنما أحلنا على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته من له بها علم فإنهم لا يستريبون أنه لم يكن الذي بين النبي صلى الله عليه وسلم وهؤلاء اليهود هدنة مؤقتة وإنما كانت ذمة مؤبدة على أن الدار دار الإسلام وأنه يجري عليهم حكم الله ورسوله فيما يختلفون فيه إلا أنهم لم يضرب عليهم جزية ولم يلزموا بالصغار الذي ألزموه بعد نزول براءة لأن ذلك لم يكن شرع بعد.

وأما من قال: "إن الساب يقتل وإن تاب وأسلم وسواء كان كافرا أو مسلما" فقد تقدم دليله على أن المسلم يقتل بعد التوبة وأن الذمي يقتل وإن طلب العود إلى الذمة.

وأما قتل الذمي إذا وجب عليه القتل بالسب وإن أسلم بعد ذلك فلهم فيه طرق وهي دالة على تحتم قتل المسلم أيضا كما تدل على تحتم قتل الذمي:

الطريقة الأولى: قوله تعالى: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم} فوجه الدلالة أن هذا الساب المذكور من المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فسادا الداخلين في هذه الآية سواء كان مسلما أو معاهدا وكل من كان من المحاربين الداخلين في هذه الآية فإنه يقام عليه الحد إذا قدر عليه قبل التوبة سواء تاب بعد ذلك أو لم يتب فهذا الذمي أو المسلم إذا سب ثم أسلم بعد أن كل واحد قد قدر عليه قبل التوبة فيجب إقامة الحد عليه وحده القتل فيجب قتله سواء تاب أو لم يتب.

والدليل مبني على مقدمتين:

إحداهما: أنه داخل في هذه الآية.

والثانية: أن ذلك يوجب قتله إذا أخذ قبل التوبة.

أما المقدمة الثانية فظاهرة فإنا لم نعلم مخالفا في أن المحاربين إذا أخذوا قبل التوبة وجب إقامة الحد عليهم وإن تابوا بعد الأخذ وذلك بين في الآية فإن الله أخبر أن جزاءهم أحد هذه الحدود الأربعة إلا الذين تابوا قبل أن تقدروا عليهم فالتائب قبل القدرة ليس جزاؤه شيئا من ذلك وغيره هذه أحد هذه جزاؤه وجزاء أصحاب الحدود تجب إقامته على الآية لأن جزاء العقوبة إذا لم يكن حقا لآدمي حي بل كان حدا من حدود الله وجب استيفاؤه باتفاق المسلمين وقد قال تعالى في آية السرقة: {فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا} فأمر بالقطع جزاء على ما كسباه فلو لم يكن الجزاء المشروع المحدود من العقوبات واجبا لم يعلل وجوب القطع به إذ العلة المطلوبة يجب أن تكون أبلغ من الحكم وأقوى منه والجزاء اسم للفعل واسم لما يجازى به ولهذا قرأ قوله تعالى: {فجزاء مثل ما قتل} بالتنوين وبالإضافة وكذلك الثواب والعقاب وغيرهما فالقتل والقطع قد يسمى جزاء ونكالا وقد يقال فعل هذه ليجزيه وللجزاء.

ولهذا قال الأكثرون: إنه نصب على المفعول له والمعنى أن الله أمر بالقطع ليجزيهم ولينكل عن فعلهم.

وقد قيل: إنه نصب على المصدر لأن معنى "اقطعوا" اجزوهم ونكلوا.

وقيل: إنه على الحال أي فاقطعوهم مجزين منكلين هم وغيرهم أو جازين منكلين.

وبكل حال فالجزاء مأمور به أو مأمور لأجله فثبت أنه واجب الحصول شرعا وقد أخبر أن جزاء المحاربين أحد الحدود الأربعة فيجب تحصيلها إذ الجزاء هنا يتحد فيه معنى الفعل ومعنى المجزي به لأن القتل والقطع والصلب وهي أفعال وهي عين ما يجزي به وليست أجساما بمنزلة المثل من النعم.

يبين ذلك أن لفظ الآية خبر عن أحكام الله سبحانه التي يؤمر الإمام بفعلها ليست عن الحكم الذي يخير بين فعله وتركه إذا ليس لله أحكام في أهل ذنوب يخير الإمام بين فعلها وترك جميعها.
وأيضا فإنه قال: {ذلك لهم خزي في الدنيا} والخزي لا يحصل إلا بإقامة الحدود لا بتعطيلها.
وأيضا فإنه لو كان هذا الجزاء إلى الإمام له إقامته وتركه بحسب المصلحة لندب إلى العفو كما في قوله تعالى: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين} وقوله: {والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له} وقوله: {ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا} .
وأيضا فالأدلة على وجوب إقامة الحدود على السلطان من السنة والإجماع ظاهرة ولم نعلم مخالفا في وجوب جزاء المحاربين ببعض ما ذكر الله في كتابه وإنما اختلفوا في هذه الحدود: هل يخير الإمام بينها بحسب المصلحة أو لكل جرم جزاء محدود شرعا؟ كما هو مشهور فلا حاجة إلى الإطناب في وجوب الجزاء لكن نقول: جزاء الساب القتل عينا بما تقدم من الدلائل الكثيرة ولا يخير الإمام فيه بين القتل والقطع بالإنفاء وإذا كان جزاؤه القتل من هذه الحدود وقد أخذ قبل التوبة وجب إقامة الحد عليه إذا كان من المحاربين بلا تردد.
فلنبين المقدمة الأولى وهي أن هذا من المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فسادا وذلك من وجوه:
أحدها: ما رويناه من حديث عبد الله بن صالح كاتب الليث قال: ثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "وقوله {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا} قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض فخير الله رسوله صلى الله عليه وسلم إن شاء الله أن يقتل وإن شاء أن يصلب وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأما النفي فهو أن يهرب في الأرض فإن جاء تائبا فدخل في الإسلام قبل منه ولم يؤاخذ بما سلف منه ثم قال في موضع آخر وذكر هذه الآية من شهر السلاح في قبة الإسلام وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله وإن شاء صلبه وإن شاء قطع يده ورجله ثم قال: {أو ينفوا من الأرض} يخرجوا من دار الإسلام إلى دار الحرب {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم} .
وكذلك روى محمد بن يزيد الواسطي عن جويبر عن الضحاك قوله تعالى: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا} قال: "كان ناس من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد وميثاق فقطعوا الميثاق وأفسدوا في الأرض فخير الله رسوله أن يقتل إن شاء أو يصلب أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأما النفي أن يهرب في الأرض ولا يقدر عليه فإن جاء تائبا داخلا في الإسلام قبل منه ولم يؤاخذ بما عمل".
وقال الضحاك: "أيما رجل مسلم قتل أو أصاب حدا أو مالا لمسلم فلحق بالمشركين فلا توبة له حتى يرجع فيضع يده في يد المسلمين فيقر بما أصاب قبل أن يهرب من دم أو غيره أقيم عليه أو أخذ منه".
ففي هذين الأثرين أنها نزلت في قوم معاهدين من أهل الكتاب لما نقضوا العهد وأفسدوا في الأرض وكذلك في تفسير الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وإن كان لا يعتمد عليه إذا انفرد أنها نزلت في قوم موادعين وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وادع هلال بن عويمر وهو أبو بردة الأسلمي على ألا يعينه ولا يعين عليه ومن أتاه من المسلمين فهو آمن أن يهاج ومن أتى المسلمين منهم فهو آمن أن يهاج ومن مر بهلال بن عويمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو آمن أن يهاج.
قال: "فمر قوم من بني كنانة يريدون الإسلام بناس من أسلم من قوم هلال بن عويمر ولم يكن هلال يومئذ شاهدا فنهدوا إليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل عليه جبريل بالقصة فيهم" فقد ذكر أنها نزلت في قوم معاهدين لكن من غير أهل الكتاب.
وروى عكرمة عن ابن عباس وهو قول الحسن أنها نزلت في المشركين ولعله أراد الذين نقضوا العهد كما قال هؤلاء فإن الكافر الأصلي لا ينطبق عليه حكم الآية.
والذي يحقق أن ناقض العهد بما يضر المسلمين داخل في هذه الآية من الأثر ما قدمناه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أتى برجل من أهل الذمة نخس بامرأة من المسلمين بالشام حتى وقعت فتجللها فأمر به عمر فقتل وصلب فكان أول مصلوب في الإسلام وقال: "يا أيها الناس اتقوا الله في ذمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا تظلموهم فمن فعل هذا فلا ذمة له" وقد رواه عنه عوف بن مالك الأشجعي وغيره كما تقدم.
وروى عبد الملك بن حبيب بإسناده عن عياض بن عبد الله الأشعري قال: "مرت امرأة تسير على بغل فنخس بها علج فوقعت من البغل فبدا بعض عورتها فكتب بذلك أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر رضي الله عنه فكتب إليه عمر: "أن اصلب العلج في ذلك المكان فإنا لم نعاهدهم على هذا إنما عاهدناهم على أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".

وقد قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل في مجوسي فجر بمسلمة: "يقتل هذا قد نقض العهد وكذلك إن كان من أهل الكتاب يقتل أيضا قد صلب عمر رجلا من اليهود فجر بمسلمة هذا نقض العهد" قيل له: ترى عليه الصلب مع القتل؟ قال: "إن ذهب رجل إلى حديث عمر كأنه لم يعب عليه".

فهؤلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عمر وأبو عبيدة وعوف بن مالك ومن كان في عصرهم من السابقين الأولين قد استحلوا قتل هذا وصلبه وبين عمر أنا لم نعاهدهم على مثل هذا الفساد وأن العهد انتقض بذلك فعلم أنهم تأولوا فيمن نقض العهد بمثل هذا أنه من محاربة الله ورسوله والسعي في الأرض فسادا فاستحلوا لذلك قتله وصلبه وإلا فصلب مثله لا يجوز إلا لمن ذكره الله في كتابه.

وقد قال آخرون منهم ابن عمر وأنس بن مالك ومجاهد وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن جبير ومكحول وقتادة وغيرهم رضي الله عنهم: "إنها نزلت في العرنيين الذين ارتدوا عن الإسلام وقتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم واستاقوا إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم" وحديث العرنيين مشهور ولا منافاة بين الحديثين فإن سبب النزول قد يتعدد مع كون اللفظ عاما في مدلوله وكذلك كان عامة العلماء على أن الآية عامة في المسلم والمرتد والناقض كما قال الأوزاعي في هذه الآية: هذا حكم حكمه الله في هذه الأمة على من حارب مقيما على الإسلام أو مرتدا عنه وفيمن حارب من أهل الذمة.

وقد جاءت آثار صحيحة عن علي وأبي موسى وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم تقتضي أن حكم هذه الآية ثابت فيمن حارب المسلمين بقطع الطريق ونحوه مقيما على إسلامه لهذا يستدل جمهور الفقهاء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على حد قطع الطريق بهذه الآية.

والمقصود هنا أن هذا الناقض للعهد والمرتد عن الإسلام بما فيه الضرر داخل فيها كما ذكرنا دلائله عن الصحابة والتابعين وإن كان يدخل فيها بعض من هو على الإسلام وهذا الساب ناقض للعهد بما فيه ضرر على المسلمين ومرتد بما فيه ضرر على المسلمين فيدخل في الآية.

ومما يدل على أنه قد عنى بها ناقضو العهد في الجملة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفى بني قينقاع والنضير لما نقضوا العهد إلى أرض الحرب وقتل بني قريظة وبعض أهل خيبر لما نقضوا العهد والصحابة قتلوا وصلبوا بعض من فعل ما ينقض العهد من الأمور المضرة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه في أصناف ناقض العهد كحكم الله في هذه الآية مع صلاحه لأن يكون امتثالا لأمر الله فيها دليل على أنهم مرادون منها.

الوجه الثاني: أن ناقض العهد والمرتد المؤذي لا ريب أنه محارب لله ورسوله فإن حقيقة نقض العهد محاربة المسلمين ومحاربة المسلمين محاربة لله ورسوله وهو أولى بهذا الاسم من قاطع الطريق ونحوه لأن ذلك مسلم لكن لما حارب المسلمين على الدنيا كان محاربا لله ورسوله فالذي يحاربهم على الدين أولى أن يكون محاربا لله ورسوله ثم لا يخلو إما أن لا يكون محاربا لله ورسوله حتى يقاتلهم ويمتنع عنهم أو يكون محاربا إذا فعل ما يضرهم مما فيه نقض العهد وإن لم يقاتلهم والأول لا يصح لما قدمناه من أن هذا قد نقض العهد وصار من المحاربين ولأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: أيما معاهد تعاطى سب الأنبياء فهو محارب غادر.

وعمر وسائر الصحابة قد جعلوا الذمي الذي تجلل المسلمة بعد أن نخس بها الدابة محاربا بمجرد ذلك حتى حكموا فيه بالقتل والصلب فعلم أنه لا يشترط في المحاربة المقاتلة بل كل ما نقض العهد عندهم من الأقوال والأفعال المضرة فهو محارب داخل في هذه الآية.

فإن قيل: فيلزم من هذا أن يكون كل من نقض العهد بما فيه ضرر يقتل إذا أسلم بعد القدرة عليه.

قيل: وكذلك نقول وعليه يدل ما ذكرناه في سبب نزولها فإنها إذا نزلت فيمن نقض العهد بالفساد وقد قيل فيها: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم} علم أن التائب بعد القدرة مبقى على حكم الآية.

الوجه الثالث: أن كل ناقض للعهد فقد حارب الله ورسوله ولولا ذلك لم يجز قتله ثم لا يخلوا إما أن يقتصر على نقض العهد بأن يلحق بدار الحرب أو يضم إلى ذلك فسادا فإن كان الأول فقد حارب الله ورسوله فقط فهذا لم يدخل في الآية وإن كان الثاني فقد حارب وسعى في الأرض فسادا مثل أن يقتل مسلما أو يقطع الطريق على المسلمين أو يغصب مسلمة على نفسها أو يظهر الطعن في كتاب الله ورسوله ودينه أو يفتن مسلما عن دينه فإن هذا قد حارب الله ورسوله بنقضه العهد وسعى في الأرض فسادا بفعله ما يفسد على المسلمين إما دينهم أو دنياهم وهذا قد دخل في الآية فيجب أن يقتل أو يقتل ويصلب أو ينفى من الأرض حتى يلحق بأرض الحرب إن لم يقدر عليه أو تقطع يده ورجله إن كان قد قطع الطرق وأخذ المال ولا يسقط عنه ذلك إلا أن يتوب من قبل أن يقدر عليه وهو المطلوب.

الوجه الرابع: أن هذا الساب محارب الله ورسوله ساع في الأرض فسادا فيدخل في الآية وذلك لأنه عدو لله ولرسوله ومن عادى الله ورسوله فقد حارب الله ورسوله وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال للذي سبه: "من يكفنني عدوي؟ " وقد تقدم

ذكر ذلك من غير وجه إذا كان عدوا له فهو محارب وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله تبارك وتعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة".
وفي الحديث عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اليسير من الرياء شرك ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة" فإذا كان من عادى واحدا من الأولياء قد بارز الله بالمحاربة فكيف من عادى صفوة الله من أوليائه؟ فإنه يكون أشد مبارزة له بالمحاربة وإذا كان محاربا لله لأجل عداوته للرسول فهو محارب للرسول بطريق الأولى فثبت أن الساب للرسول محارب لله ورسوله.
فإن قيل: فلو سب واحدا من أولياء الله غير الأنبياء فقد بارز الله بالمحاربة فإنه إذا سبه فقد عاداه كما ذكرتم وإذا عاداه فقد بارز الله بالمحاربة كما نصه الحديث الصحيح ومع هذا لا يدخل في المحاربة المذكورة في الآية فقد انتقض الدليل وذلك يوجب صرف المحاربة إلى المحاربة باليد.
قيل: هذا باطل من وجوه:
أحدها: أن ليس كل من سب غير الأنبياء يكون قد عاداهم إذ لا دليل يدل على ذلك وقد قال الله سبحانه وتعالى: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا} بعد أن أطلق أنه من آذى الله ورسوله فقد لعنه الله في الدنيا والآخرة فعلم أن المؤمن قد يؤذى بما اكتسب ويكون أذاه بحق كإقامة الحدود والانتصار في الشتمة ونحو ذلك مع كونه وليا لله وإذا كان واجبا في بعض الأحيان أو جائزا لم يكن مؤذيه في تلك الحال عدوا له لأن المؤمن يجب عليه أن يوالي المؤمن ولا يعاديه وإن عاقبه عقوبة شرعية كما قال تعالى: {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا} وقال تعالى: {ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا} .
الثاني: أن من سب غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد يكون مع السب مواليه من وجه آخر فإن سباب المسلم إذا لم يكن بحق كان فسوقا والفاسق لا يعادي المؤمنين بل يواليهم ويعتقد مع السب للمؤمن أنه تجب موالاته من وجه آخر أما سب النبي صلى الله عليه وسلم فإنه ينافي اعتقاد نبوته ويستلزم البراءة منه والمعاداة له لأن اعتقاد عدم نبوته وهو يقول "إنه نبي" يوجب أن يعامل معاملة المتنبيين وذلك يوجب أبلغ العداوات له.
الثالث: لو فرض أن سب غير النبي صلى الله عليه وسلم عداوة له لكن ليس أحد بعينه يشهد له أنه ولي لله شهادة توجب أن ترتب عليها الأحكام المبيحة للدماء بخلاف الشهادة للنبي بالولاية فإنها بعينه نعم لما كان الصحابة قد يشهد لبعضهم بالولاية خرج في قتل سابهم خلاف مشهور ربما نبينه أن شاء الله تعالى عليه.
الرابع: أنه لو فرض أنه عادى وليا علم أنه ولي فإنما يدل على أنه بارز الله بالمحاربة وليس فيه ذكر محاربة الله ورسوله والجزاء المذكور في الآية إنما هو لمن حارب الله ورسوله ومن سب الرسول فقد عاداه ومن عاداه فقد حاربه وقد حارب الله أيضا كما دل عليه الحديث فيكون محاربا لله ورسوله ومحاربة الله ورسوله أخص من محاربة الله والحكم المعلق بالأخص لا يدل على أنه معلق بالأعم وذلك أن محاربة الرسول تقتضي مشاقته على ما جاء به من الرسالة وليس في معاداة ولي بعينه مشاقة في الرسالة بخلاف الطعن في الرسول.
الخامس: أن الجزاء في الآية لمن حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادا والطاعن في الرسول قد حارب الله ورسوله كما تقدم وقد سعى في الأرض فسادا كما سيأتي وهذا الساب للولي وإن كان قد حارب الله فلم يسع في الأرض فسادا لأن السعي في الأرض فسادا إنما يكون بإفساد عام لدين الناس أو دنياهم وهذا إنما يتحقق في الطعن في النبي صلى الله عليه وسلم ولهذا لا يجب على الناس الإيمان بولاية الولي ويجب عليهم الإيمان بنبوة النبي.
السادس: أن ساب الولي لو فرض أنه محارب لله ورسوله فخروجه من اللفظ العام لدليل أوجبه لا يوجب أن يخرج هذا الساب للرسول لأن الفرق بين العداوتين ظاهر والقول العام إذا خصت منه صورة لم تخص منه صورة أخرى لا تساويها إلا بدليل آخر.
السابع: أن حمله على المحاربة باليد متعذر أيضا في حق الولي لأن من عاداه بيده لم يوجب ذلك أن يدخل في حكم الآية على الإطلاق مثل أن يضربه ونحو ذلك فلا فرق إذا في حقه بين المعاداة باليد واللسان بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لا فرق بين أن يعاديه بيد أو لسان فإنه يمكن دخوله في الآية وذلك مقرر الاستدلال كما تقدم.
وإذا ثبت أن هذا الساب محارب لله ورسوله فهو أيضا ساع في الأرض فسادا لأن الفساد نوعان: فساد الدنيا من الدماء والأموال والفروج وفساد الدين والذي يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقع في عرضه يسعى ليفسد على الناس دينهم ثم بواسطة ذلك يفسد عليهم دنياهم وسواء فرضنا أنه أفسد على أحد دينه أو لم يفسد لأنه سبحانه وتعالى إنما قال: {ويسعون في الأرض فسادا} قيل أنه نصب على المفعول له أي ويسعون في الأرض للفساد وكما قال: {وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد} والسعي هو العمل والفعل فمن سعى ليفسد أمر الدين فقد سعى في الأرض

فسادا وإن خاب سعيه وقيل: إنه نصب على المصدر أو على الحال تقديره سعى في الأرض مفسدا كقوله: {ولا تعثوا في الأرض مفسدين} أو كما يقال: جلس قعودا وهذا يقال لكل من عمل عملا يوجب الفساد وإن لم يؤثر لعدم قبول الناس له وتمكينهم إياه بمنزلة قاطع الطريق إذا لم يقتل أحدا ولم يأخذ مالا على أن هذا العمل لا يخلو من فساد في النفوس قط إذا لم يقم عليه الحد.

وأيضا فإنه لا ريب أن الطعن في الدين وتقبيح حال الرسول في أعين الناس وتنفيرهم عنه من أعظم الفساد كما أن الدعاء إلى تعزيره وتوقيره من أعظم الصلاح والفساد ضد الصلاح فكما أن كل قول أو عمل يحبه الله فهو من الصلاح فكل قول أو عمل يبغضه الله فهو من الفساد قال سبحانه وتعالى: {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها} يعني الكفر والمعصية بعد الإيمان والطاعة ولكن الفساد نوعان: لازم وهو مصدر فسد يفسد فسادا ومتعد وهو اسم مصدر أفسد يفسد إفسادا كما قال تعالى: {سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد} وهذا هو المراد هنا لأنه قال: {ويسعون في الأرض فسادا} وهذا إنما يقال لمن أفسد غيره لأنه لو كان الفساد في نفسه فقط لم يقل سعى في الأرض فسادا وإنما يقال في الأرض لما انفصل عن الإنسان كما قال سبحانه وتعالى: {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب} وقال تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم} وقال تعالى: {وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم} .

وأيضا فإن الساب ونحوه انتهك حرمة الرسول ونقص قدره وآذى الله ورسوله وعباده المؤمنين وأجرأ النفوس الكافرة والمنافقة على اصطلام أمر الإسلام وطلب إذلال النفوس المؤمنة وإزالة عز الدين وإسفال كلمة الله وهذا من أبلغ السعي فسادا.

ويؤيد ذلك أن عامة ما ذكر في القرآن من السعي في الأرض فسادا والإفساد في الأرض فإنه قد عنى به إفساد الدين فثبت أن هذا الساب محارب لله ورسوله ساع في الأرض فسادا فيدخل في الآية.

الوجه الخامس: أن المحاربة نوعان: محاربة باليد ومحاربة باللسان والمحاربة باللسان في باب الدين قد تكون أنكى من المحاربة باليد كما تقدم تقريره في المسألة الأولى ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقتل من كان يحاربه باللسان مع استبقائه بعض من حاربه باليد خصوصا محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته فإنها إنما تمكن باللسان وكذلك الإفساد قد يكون باليد وقد يكون باللسان وما يفسده اللسان من الأديان أضعاف ما تفسده اليد كما أن ما يصلحه اللسان من الأديان أضعاف ما تصلحه اليد فثبت أن محاربة الله ورسوله باللسان أشد والسعي في الأرض لفساد الدين باللسان أوكد فهذا الساب لله ورسوله أولى باسم المحارب المفسد من قاطع الطريق.

الوجه السادس: أن المحاربة خلاف المسألة والمسألة: أن يسلم كل من المتسالمين من أذى الآخر فمن لم تسلم من يده أو لسانه فليس بمسالم لك بل هو محارب ومعلوم أن محاربة الله ورسوله هي المغالبة على خلاف ما أمر الله ورسوله إذ المحاربة لذات الله ورسوله محال فمن سب الله ورسوله لم يسالم الله ورسوله لأن الرسول لم يسلم منه بل طعنه في رسول الله صلى الله عليه وسلم مغالبة لله ورسوله على خلاف ما أمر الله به على لسان رسوله وقد أفسد في الأرض كما تقدم فيدخل في الآية.

وقد تقدم في المسألة الأولى أن هذا الساب محاد لله ورسوله مشاق لله تعالى ورسوله وكل من شاق الله ورسوله فقد حارب الله ورسوله لأن المحاربة والمشاقة سواء فإن الحرب هو الشق ومنه سمي المحارب محاربا وأما كونه مفسدا في الأرض فظاهر.

واعلم أن كل ما دل على أن السب نقض للعهد فقد دلل على أنه محاربة لله ورسوله لأن حقيقة نقض العهد أن يعود الذمي محاربا فلو لم يكن بالسب يعود محاربا لما كان ناقضا للعهد وقد قدمنا في ذلك من الكلام ما لا يليق إعادته لما فيه من الإطالة فليراجع ما مضى في هذا الموضوع فبقى أنه سعى في الأرض فسادا وهذا أوضح من أن يحتاج إلى دليل فإن إظهار كلمة الكفر والطعن في المرسلين والقدح في كتاب الله ودينه ورسله وكل سبب بينه وبين خلقه لا يكون شيء أشد منه فسادا وعامة الآي في كتاب الله التي تنهى عن الإفساد في الأرض فإن من أكثر المراد بها الطعن في الأنبياء كقوله سبحانه عن المنافقين الذين يخادعون الله والذين آمنوا: {وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون} قال تعالى: {ألا إنهم هم المفسدون} وإنما كان إفسادهم نفاقهم وكفرهم وقوله: {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها} وقوله سبحانه: {والله لا يحب الفساد}

وقوله: {وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين} وإذا كان هذا محاربا لله ورسوله ساعيا في الأرض فسادا تناولته الآية وشملته.

ومما يقرر الدلالة من الآية أن الناس فيها قسمان: منهم من يجعلها مخصوصة بالكفار من مرتد وناقض عهد ونحوها ومنهم من يجعلها عامة في المسلم المقيم على إسلامه وفي غيره ولا أعلم أحدا خصها بالمسلم المقيم على إسلامه فتخصيصها به خلاف الإجماع ثم الذين قالوا إنها عامة قال كثير منهم قتادة وغيره: قوله: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم} "هذا لأهل الشرك خاصة فمن أصاب من المشركين شيئا من المسلمين وهو لهم حرب فأخذ مالا أو أصاب دما ثم تاب من قبل أن يقدر عليه أهدر عنه ما مضى" لكن المسلم المقيم على إسلامه محاربته إنما هي باليد لأن لسانه موافق مسالم للمسلمين غير محارب أما المرتد

والناقض للعهد فمحاربته تارة باليد وباللسان أخرى ومن زعم أن اللسان لا تقع به محاربة فالأدلة المتقدمة في أول المسألة مع ما ذكرناه هنا تدل على أنه محاربة على أن الكلام في هذا المقام إنما هو بعد أن تقرر أن السب محاربة ونقض للعهد.
واعلم أن هذه الآية آية جامعة لأنواع من المفسدين والدلالة منها ظاهرة قوية لمن تأملها لا أعلم شيئا يدفعها.
فإن قيل: مما يدل على أن المحاربة هنا باليد فقط أنه قال: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم} وإنما يكون هذا فيمن يكون ممتنعا والشاتم ليس ممتنعا.
قيل: الجواب من وجوه:
أحدها: أن المستثنى إذا كان ممتنعا لم يلزم أن يكون المستبقى ممتنعا لجواز أن تكون الآية تعم كل محارب بيد أو لسان ثم استثنى منهم الممتنع إذا تاب قبل القدرة فيبقى المقدور عليه مطلقا والممتنع إذا تاب بعد القدرة.
الثاني: أن كل من جاء تائبا قبل أخذه فقد تاب قبل القدرة عليه.
سئل عطاء عن الرجل يجيء بالسرقة تائبا قال: ليس عليه قطع وقرأ: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم} وكل من لم يؤخذ فهو ممتنع لا سيما إذا لم يؤخذ ولم تقم عليه حجة وذلك لأن الرجل وإن كان مقيما فيمكنه الاستخفاء والهرب كما يمكن المصحر فليس كل من فعل جرما كان مقدورا عليه بل يكون طلب المصحر أسهل من طلب المقيم إذا كان لا يواريه في الصحراء خمر ولا غابة بخلاف المقيم في المصر وقد يكون المقيم له من يمنعه من إقامة الحد عليه فكل من تاب قبل أن يؤخذ ويرفع إلى السلطان فقد تاب قبل القدرة عليه.
وأيضا فإذا تاب قبل أن يعلم به ويثبت الحد عليه فإن جاء بنفسه فقد تاب قبل القدرة عليه لأن قيام البينة وهو في أيدينا قدرة عليه فإذا تاب قبل هذين فقد تاب قبل القدرة عليه قطعا.
الثالث: أن المحارب باللسان كالمحارب باليد قد يكون ممتنعا وقد يكون المحارب باليد مستضعفا بين قوم كثيرين وكما أن الذي يخاطر بنفسه بقتال قوم كثيرين قليل فكذلك الذي يظهر الشتم ونحوه من الضرر بين قوم كثيرين قليل وإن الغالب أن القاطع بسيفه إنما يخرج على من يستضعفه فكذلك الذي يظهر الشتم ونحوه من الساب ونحوه إنما يفعل ذلك في الغالب مستخفيا مع من لا يتمكن من أخذه ورفعه إلى السلطان والشهادة عليه.
ومما يقرر الدلالة الاستدلال بالآية من وجهين آخرين:
أحدهما: أنها قد نزلت في قوم ممن كفر وحارب بعد سلمه باتفاق الناس فيما علمناه وإن كانت نزلت أيضا فيمن حارب وهو مقيم على إسلامه فالذمي إذا حارب إما بأن يقطع الطريق على المسلمين أو يستكره مسلمة على نفسها ونحو ذلك يصير به محاربا وعلى هذا إذا تاب بعد القدرة عليه لم يسقط عنه القتل الواجب عليه وإن كان هذا قد اختلف فيه فإن العمدة على الحجة فالساب للرسول أولى ولا يجوز أن يخص بمن قاتل لأخذ المال فإن الصحابة جعلوه محاربا بدون ذلك وكذلك سبب النزول الذي ذكرناه ليس فيه أنهم قتلوا أحدا لأخذ مال ولو كانوا قتلوا أحدا لم يسقط القود عن قاتله إذا تاب قبل القدرة وكان قد قتله وله عهد كما لو قتله وهو مسلم.
وأيضا فقطع الطرق إما أن يكون نقضا للعهد أو يقام عليه ما يقام على المسلم مع بقاء العهد فإن كان الأول فلا فرق بين قطع الطريق وغيره من الأمور التي تضر المسلمين وحينئذ فمن نقض العهد بها لم يسقط حده وهو القتل إذا تاب بعد القدرة وإن كان الثاني لم ينتقض عهد الذمي بقطع الطريق وقد تقدم الدليل على فساده ثم إن الكلام هنا إنما هو تفريع عليه فلا يصح المنع بعد التسليم.
الثاني: أن الله سبحانه فرق بين التوبة قبل القدرة وبعدها لأن الحدود إذا رفعت إلى السلطان وجبت ولم يمكن العفو عنها ولا الشفاعة فيها بخلاف ما قبل الرفع ولأن التوبة قبل القدرة عليه توبة اختيار والتوبة بعد القدرة توبة إكراه واضطرار بمنزلة توبة فرعون حين أدركه الغرق وتوبة الأمم المكذبة لما جاءها البأس وتوبة من حضره الموت فقال: إني تبت الآن فلم يعلم صحتها حتى يسقط الحد الواجب ولأن قبول التوبة بعد القدرة لو أسقطت الحد لتعطلت الحدود وانبثق سد الفساد فإن كل مفسد يتمكن إذا أخذ أن يتوب بخلاف التوبة قبل القدرة فإنها تقطع دابر الشر من غير فساد فهذه معان مناسبة قد شهد لها الشارع بالاعتبار في غير هذا الأصل فتكون أوصافا مؤثرة أو ملائمة فيعلل الحكم بها وهي بعينها موجودة في الساب فيجب أن لا يسقط القتل عنه بالتوبة بعد الأخذ لأن إسلامه توبة منه وكذلك توبة كل كافر قال سبحانه وتعالى: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة} في موضعين والحد قد وجب بالرفع وهذه توبة إكراه أو اضطرار وفي قبولها تعطيل للحد ولا ينتقض هذا علينا بتوبة الحربي الأصلي فإنه لم يدخل في هذه الآية ولأنه إذا تاب بعد الأسر لم يخل سبيله بل يسترق ويستعبد وهو إحدى العقوبتين اللتين كان يعاقب بإحداهما قبل الإسلام والساب لم يكن عليه إلا عقوبة واحدة فلم يسقط كقاطع الطريق والمرتد المجرد لم يسع في الأرض فسادا فلم يدخل في الآية ولا يرد نقضا من جهة المعنى لأنا إنما نعرضه للسيف ليعود إلى الإسلام وإنما نقتله لمقامه على تبديل الدين فإذا أظهر الإعادة إليه حصل المقصود الذي يمكننا تحصيله وزال المحذور الذي يمكننا إزالته وإنما تعطيل هذا الحد أن

يترك على ردته غير مرفوع إلى الإمام ولم يقدح كونه مكرها بحق في غرضنا لأنا إنما طلبنا منه أن يعود إلى الإسلام طوعا أو كرها كما لو قاتلناه على الصلاة أو الزكاة فبذلها طوعا أو كرها حصل مقصودنا والساب ونحوه من المؤذين إنما نقتلهم لما فعلوه من الأذى والضرر لا لمجرد كفرهم فإنا قد أعطيناهم العهد على كفرهم فإذا أسلم بعد الأخذ زال الكفر الذي لم يعاقب عليه بمجرده.

وأما الأذى والضرر فهو إفساد في الأرض قد مضى منه كالإفساد بقطع الطريق لم يزل إلا بتوبة اضطرار لم تطلب منه ولم يقتل ليفعلها بل قوتل أو لا ليبذل واحدا من الإسلام أو إعطاء الجزية طوعا أو كرها فبذل الجزية كرها على أنه لا يضر المسلمين فضرهم فاستحق أن يقتل فإذا تاب بعد القدرة عليه وأسلم كانت توبة محارب مفسد مقدور عليه.

الطريق الثانية: قوله سبحانه: {وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون} الآيات.

وقد قرأ ابن عامر والحسن وعطاء والضحاك والأصمعي وغيرهم عن أبي عمر (لا إيمان لهم) بكسر الهمزة وهي قراءة مشهورة.

وهذه الآية تدل على أنه لا يعصم دم الطاعن إيمان ولا يمين ثانية.

أما على قراءة الأكثرين فإن قوله {لا أيمان لهم} أي لا وفاء بالأيمان ومعلوم أنه إنما أراد لا وفاء في المستقبل بيمين أخرى إذ عدم اليمين في الماضي قد تحقق بقوله: {وإن نكثوا أيمانهم} فأفاد هذا أن الناكث الطاعن إمام في الكفر لا يعقد له عهد ثان أبدا.

وأما على قراءة ابن عامر فقد علم أن الإمام في الكفر ليس له إيمان ولم يخرج هذا مخرج التعليل لقتالهم لأن قوله تعالى: {فقاتلوا أئمة الكفر} أبلغ في انتفاء الإيمان عنهم من قوله تعالى: (لا إيمان لهم) وأدل على علة الحكم ولكن يشبه والله أعلم أن يكون المقصود أن الناكث الطاعن إمام في الكفر لا يوثق بما يظهره من الإيمان كما لم يوثق بما كان عقده من الأيمان لأن قوله تعالى: {لا إيمان} نكرة منفية بلا التي تنفي الجنس فتقتضي نفي الإيمان عنهم مطلقا فثبت أن الناكث الطاعن في الدين إمام في الكفر لا إيمان له من هؤلاء وأنه يجب قتله وإن أظهر الإيمان.

يؤيد ذلك أن كل كافر فإنه لا إيمان له في حال الكفر فكيف بأئمة الكفر؟ فتخصيص هؤلاء بسلب الإيمان عنهم لا بد أن يكون له موجب ولا موجب له إلا نفيه مطلقا عنهم.

والمعنى أن هؤلاء لا يرتجى إيمانهم فلا يستبقون وأنهم لو أظهروا إيمانا لم يكن صحيحا وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شرخهم" لأن الشيخ قد عسا في الكفر وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لأمراء الأجناد شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص: "ستلقون أقواما محوفة رؤوسهم فاضربوا معاقد الشيطان منها بالسيوف فلأن أقتل رجلا منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله تعالى قال: {فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون} والله أصدق القائلين" فإنه لا يكاد يعلم أحدا من الناقضين للعهود الطاعنين في الدين أئمة الكفر حسن إسلامه بخلاف من لم ينقض العهد أو نقضه ولم يطعن في الدين أو طعن ولم ينقض عهدا فإن هؤلاء قد يكون لهم إيمان.

يبين ذلك أنه قال: {لعلهم ينتهون} أي عن النقض والطعن كما سنقرره وإنما يحصل الانتهاء إذا قوتلت الفئة الممتنعة حتى تغلب أو أخذ الواحد الذي ليس بممتنع فقتل لأنه متى استحيي بعد القدرة طمع أمثاله في الحياة فلا ينتهون.

ومما يوضح ذلك أن هذه الآية قد قيل: إنها نزلت في اليهود الذين كانوا قد غدروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ونكثوا ما كانوا أعطوا من العهود والأيمان على أن لا يعينوا عليه أعداء من المشركين وهموا بمعاونة الكفار والمنافقين على إخراج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة فأخبر أنهم بدأوا بالغدر ونكث العهد فأمر بقتالهم.

ذكر ذلك القاضي أبو يعلى فعلى هذا يكون سبب نزول الآية مثل مسألتنا سواء.

وقد قيل: إنها نزلت في مشركي قريش ذكره جماعة وقالت طائفة من العلماء: وبراءة إنما نزلت بعد تبوك وبعد فتح مكة ولم يكن حينئذ بقي بمكة مشرك يقاتل فيكون المراد من أظهر الإسلام من الطلقاء ولم يبق قتله من الكفر إذا أظهروا النفاق.

ويؤيد هذا قراءة مجاهد والضحاك: {نكثوا إيمانهم} بكسر الهمزة فتكون دالة على أن من نكث عهده الذي عاهد عليه من الإسلام وطعن في الدين فإنه يقاتل وإنه لا إيمان له قال من نصر هذا لأنه قال: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين} ثم قال: {وإن نكثوا إيمانهم} فعلم أن هذا نكث بعد هذه التوبة لأنه قد تقدم الإخبار عن نكثهم الأول بقوله تعالى: {لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة} وقوله تعالى: {كيف وإن يظهروا عليكم} الآية وقد تقدم أن الأيمان من العهود فعلى هذا تعم الآية من نكث عهد الإيمان ومن نكث عهد الأيمان أنه إذا طعن في الدين قوتل وأنه لا إيمان له حينئذ فتكون دالة على أن الطاعن في الدين بسب الرسول ونحوه من المسلمين وأهل الذمة لا إيمان له ولا يمين له فلا يحقن دمه بشيء بعد ذلك.

فإن قيل: قد قيل قوله تعالى: {لا إيمان لهم} أي لا أمان لهم مصدر آمنت الرجل أومنه إيمانا ضد أخفته كما قال تعالى: {وآمنهم من خوف} .
قيل: إن كان هذا القول صحيحا فهو حجة أيضا لأنه لم يقصد لا أمان لهم في الحال فقط للعلم بأنهم قد نقضوا العهد وإنما يقصد لا أمان لهم بحال في الزمان الحاضر والمستقبل وحينئذ فلا يجوز أن يؤمن هذا بحال بل يقتل بكل حال.
فإن قيل: إنما أمر في الآية بالمقاتلة لا بالقتل وقد قال بعدها: {ويتوب الله على من يشاء} فعلم أن التوبة منه مقبولة قيل لما تقدم ذكر طائفة ممتنعة أمر بالمقاتلة وأخبر سبحانه أنه يعذبهم بأيدي المؤمنين وينصر المؤمنين عليهم ثم بعد ذلك يتوب الله على من يشاء لأن ناقضي العهد إذا كانوا ممتنعين فمن تاب منهم قبل القدرة عليه سقطت عنه الحدود ولذلك قال: {على من يشاء} وإنما يكون هذا في عدد تتعلق المشيئة بتوبة بعضهم.
يوضح ذلك أنه قال: {ويتوب الله} بالضم وهذا كلام مستأنف ليس داخلا في حيز جواب الأمر وذلك يدل على أن التوبة ليست مقصودة من قتالهم ولا هي حاصلة بقتالهم وإنما المقصود بقتالهم انتهاؤهم عن النكث والطعن والمضمون بقتالهم تعذيبهم وخزيهم والنصر عليهم وفي ذلك ما يدل على أن الحد لا يسقط عن الطاعن الناكث بإظهار التوبة لأنه لم يقتل ويقاتل لأجلها.
يؤيد هذا أنه قال: {كيف يكون للمشركين عهد عند الله} إلى قوله: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين} ثم قال: {وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر} فذكر التوبة الموجبة للأخوة قبل أن يذكر نقض العهد والطعن في الدين وجعل للمعاهد ثلاثة أحوال:
أحدها: أن يستقيم لنا فنستقيم له كما استقام فيكون مخلى سبيله لكن ليس أخا في الدين.
الحالة الثانية: أن يتوب من الكفر ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة فيصير أخا في الدين ولهذا لم يقل هنا فخلوا سبيلهم كما قال في الآية قبلها لأن الكلام هناك في توبة المحارب وتوبته توجب تخلية سبيله وهنا الكلام في توبة المعاهد وقد كان سبيله مخلى وإنما توبته توجب أخوته في الدين قال سبحانه: {ونفصل الآيات لقوم يعلمون} .
وذلك أن المحارب إذا تاب وجب تخلية سبيله إذ حاجته إنما هي إلى ذلك وجاز أن يكون قد تاب خوف السيف فيكون مسلما لا مؤمنا فأخوته الإيمانية تتوقف على ظهور دلائل الإيمان كما قال تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا} والمعاهد إذا تاب فلا ملجأ له إلى التوبة ظاهرا فإنا لم نكرهه على التوبة ولا يجوز إكراهه فتوبته دليل على أنه تاب طائعا فيكون مسلما مؤمنا والمؤمنون إخوة فيكون أخا.
الحالة الثالثة: أن ينكث يمينه بعد عهده ويطعن في ديننا فأمر بقتاله وبين أنه ليس له أيمان ولا إيمان والمقصود من قتاله أن ينتهي عن النقض والطعن لا عن الكفر فقط لأنه قد كان معاهدا مع الكفر ولم يكن قتاله جائزا فعلم أن الانتهاء من مثل هذا عن الكفر ليس هو المقصود بقتاله وإنما المقصود بقتاله انتهاؤه عن ما أضر به المسلمين من نقض العهد والطعن في الدين وذلك لا يحصل إلا بقتل الواحد الممكن وقتال الطائفة الممتنعة قتالا يعذبون به ويخزون وينصر المؤمنون عليهم إذ تخصيص التوبة بحال دليل على انتفائها في الحال الأخرى.
وذكره سبحانه التوبة بعد ذلك جملة مستقلة بعد أن أمر بما يوجب تعذيبهم وخزيهم وشفاء الصدور منهم دليل على أن توبة مثل هؤلاء لا بد معها من الانتقام منهم بما فعلوا بخلاف توبة الباقي على عهده فلو كان توبة المأخوذ بعد الأخذ تسقط القتل لكانت توبة خالية عن الانتقام وللزم أن مثل هؤلاء لا يعذبون ولا يخزون ولا تشفى الصدور منهم وهو خلاف ما أمر به في الآية وصار هؤلاء الذين نقضوا العهد وطعنوا في الدين كمن ارتد وسفك الدماء فإن كان واحدا فلا بد من قتله وإن عاد إلى الإسلام وإن كانوا ممتنعين قوتلوا فمن تاب بعد ذلك منهم لم يقتل والله سبحانه أعلم.
الطريقة الثالثة: قوله سبحانه: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن} وقوله تعالى: {فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا} وقوله تعالى: {حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين} وقوله تعالى: {فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس} وقد تقدم تقرير الدلالة من هذه الآيات في قتل المنافق وذكرنا الفرق بين توبة الحربي والمرتد المجرد وتوبة المنافق والمفسد من المعاهدين ونحوهما وفرقنا بين التوبة التي تدرأ العذاب والتوبة التي تنفع في المآب.
الطريقة الرابعة: قوله سبحانه: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة} الآيات وقد قررنا فيما مضى أن هذه الآية تدل على قتل المؤذي من المسلمين مطلقا وهي تدل على قتل من أظهر الأذى من أهل الذمة لأن اللعنة المذكورة موجبة للقتل كما في تمام الكلام وقد تقدم تقرير هذا.
وقد ذكرنا أن قوله تعالى: {أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا} نزلت في ابن الأشرف لما طعن في دين الإسلام وقد كان عاهد النبي صلى الله عليه وسلم فانتقض عهده بذلك وأخبر الله أنه ليس له نصير ليبين أن لا ذمة له إذ الذمي

له نصر والنفاق له قسمان: نفاق المسلم استبطان الكفر ونفاق الذمي استبطان المحاربة وتكلم المسلم بالكفر كتكلم الذمي بالمحاربة فمن عاهدنا على أن لا يؤذي الله ورسوله ثم نافق بأذى الله ورسوله فهو من منافقي المعاهدين فمن لم ينته من هؤلاء المنافقين أغرى الله نبيه بهم فلا يجاورونه {إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا} ففي الآية دلالتان.

إحداهما: أن هذا ملعون والملعون هو الذي يؤخذ أين وجد ويقتل فعلم أن قتله حتم لأنه لم يستثن حالا من الأحوال كما استثنى في سائر الصور ولأنه قال (قتلوا) وهذا وعد من الله لنبيه يتضمن نصره والله لا يخلف الميعاد فعلم أنه لا بد من تقتيلهم إذا أخذوا ولو سقط عنهم القتل بإظهار الإسلام ولم يتحقق الوعد مطلقا.

الثانية: أنه يجعل انتهاءهم النافع قبل الأخذ والتقتيل كما جعل توبة المحاربين النافعة لهم قبل القدرة عليهم فعلم أنهم إن انتهوا عن إظهار النفاق من الأذى ونحوه النفاق في العهد والنفاق في الدين وإلا أغراه الله بهم حتى لا يجاورونه في البلد ملعونين يؤخذون ويقتلون وهذا الطاعن الساب لم ينته حتى أخذ فيجب قتله.

وفيها دلالة ثالثة وهو أن الذي يؤذي المؤمنين من مسلم أو معاهد إذا أخذ أقيم عليه حد ذلك الأذى ولم تدرأه عنه التوبة الآن فالذي يؤذي الله ورسوله بطريق الأولى لأن الآية تدل على أن حاله أقبح في الدنيا والآخرة.

الطريقة الخامسة: أن ساب النبي صلى الله عليه وسلم يقتل حدا من الحدود لا لمجرد الكفر وكل قتل وجب حدا لا لمجرد الكفر فإنه لا يسقط بالإسلام.

وهذا الدليل مبني على مقدمتين:

إحداهما: أنه يقتل لخصوص سب رسول الله صلى الله عليه وسلم المستلزم للردة ونقض العهد وإن كان ذلك متضمنا للقتل لعموم ما تضمنه من مجرد الردة ومجرد نقض العهد في بعض المواضع والدليل على ذلك أنه قد تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دم المرأة الذمية التي كانت تسبه صلى الله عليه وسلم عند الأعمى الذي كان يأوي إليها ولا يجوز أن يكون قتلها لمجرد نقض العهد لأن المرأة الذمية إذا انتقض عهدها فإنها تسترق ولا يجوز قتلها ولا يجوز قتل المرأة للكفر الأصلي إلا أن تقاتل وهذه المرأة لم تكن تقاتل ولم تكن معينة على قتال كما تقدم ثم إنها لو كانت تقاتل ثم أسرت صارت رقيقة ولم تقتل عند كثير من الفقهاء منهم الشافعي رضي الله عنه لاسيما إن كانت رقيقة فإن قتلها يمتنع لكونها امرأة ولكونها رقيقة لمسلم فثبت أن قتلها كان لخصوص السب للنبي صلى الله عليه وسلم وأنه جناية من الجنايات الموجبة للقتل كما لو زنت المرأة الذمية أو قطعت الطريق على المسلمين أو قتلت مسلما أو كما لو بدلت دين الحق عند أكثر الفقهاء الذين يقتلون المرتدة بل هذا أبلغ لأنه ليس في قتل المرتدة من السنة المأثورة الخاصة في كتب السنن المشهورة مثل الحديث الذي في قتل السابة الذمية.

يوضح ذلك أن بني قريظة نقضوا العهد ونزلوا على حكم سعد ابن معاذ فحكم فيهم بأن تقتل مقاتليهم وتسبى الذرية من النساء والصبيان فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة" ثم قتل النبي صلى الله عليه وسلم الرجال واسترق النساء والذرية ولم يقتل من النساء إلا امرأة واحدة كانت قد ألقت رحى من فوق الحصن على رجل من المسلمين ففرق صلى الله عليه وسلم بين الذرية التي لم يثبت في حقهم إلا مجرد انتقاض العهد وبين الذرية الذين نقضوا العهد بما يضر المسلمين وهذه المرأة الذمية لم ينتقض عهدها بأنها لحقت بدار الحرب وامتنعت عن المسلمين وإنما نقضت العهد بأن ضرت المسلمين وآذت الله ورسوله وسعت في الأرض فسادا بالصد عن سبيل الله والطعن في دين الله كما فعلت المرأة الملقية للرحى فعلم أنها لم تقتل لمجرد انتقاض العهد وهي لم تكن مسلمة حتى يقال: إنها قتلت للردة ولا هي أيضا بمنزلة امرأة قاتلت ثم أسرت حتى يقال: تصير رقيقة بنفس السبي لا تقتل أو يقال: يجوز قتلها كما يجوز قتل الرجل إذا أسلمت عصم الإسلام الدم وبقيت رقيقة لوجهين:

أحدهما: أن هذا السب الذي كانت تقوله لم تكن تقوله للمشركين ولا لعموم المسلمين حتى يقال: هو بمنزلة إعانة الكفار على القتال من كل وجه.

الثاني: أنها لم تكن ممتنعة حين السب بل هي حين السب ممكنة مقدور عليها وحالها قبله وبعده سواء.

فالسب وإن كان حرابا لكنه لم يصدر من ممتنعة أسرت بعد ذلك بل من امرأة ملتزمة للحكم بيننا وبينها العهد على الذمة ومعلوم أن السب من الأمور المضرة بالمسلمين وأنه من أبلغ الفساد في الأرض لما فيه من ذل الإيمان وعز الكفر وإذا ثبت أنها لم تقتل للكفر ولا لنقض العهد ولا لحراب أصلي متقدم على القدرة عليها ثبت أن قتلها حد من الحدود والقتل الواجب حدا لا لمجرد الكفر لا يسقط بالإسلام كحد الزاني والقاطع والقاتل وغيرهم من المفسدين.

ومما يقرر الأمر أن السب إما أن يكون حرابا أو جناية مفسدة ليست حرابا فإن كان حرابا فهو حراب من ذمي أو مسلم وسعي في الأرض فسادا والذمي إذا حارب وسعى في الأرض فسادا وجب قتله وإن أسلم بعد القدرة عليه حيث يكون حرابا موجبا للقتل وحراب هذه المرأة موجب للقتل كما جاءت به السنة وإن كانت جناية مفسدة ليست حرابا وهي موجبة للقتل قتلت أيضا

بعد الأخذ بطريق الأولى كسائر الجنايات الموجبة للقتل وهذا كلام مقرر ومداره على حرف واحد وهو أن السب وإن كان من أعمال اللسان فقد دلت السنة بأنه بمنزلة الفساد والمحاربة بعمل الجوارح وأشد ولذلك قتلت هذه المرأة.
وتمام ذلك أن قياس مذهب من يقول: "إن الساب إذا قتل إنما يقتل لأنه نقض العهد" أن لا يجوز قتل هذه بل لو كانت قد قتلت باليد واللسان ثم أخذت لم تقتل عنده فإذا دلت السنة على فساد هذا القول علم صحة القول الآخر إذ لا ثالث بينهما ولا ريب عند أحد أن من قتل لحدث أخذ به أوجب نقض عهده ولم يقتل لمجرد أن انتقض عهده فقط فإن قتله لا يسقط بالإسلام لأن فساد ذلك الحدث لا يزول بالإسلام.
ألا ترى أن الجنايات الناقضة للعهد مثل قطع الطريق وقتل المسلم والتجسس للكفار والزنى بمسلمة واستكراهها على الفجور ونحو ذلك إذا صدر من ذمي فمن قتله لنقض العهد قال: "متى أسلم لم آخذه إلا بما يوجب القتل إذا فعله المسلم باقيا على إسلامه مثل أن يكون قد قتل في قطع الطريق فأقتله أو زنى فأحده أو قتل مسلما فأقيده لأنه بالإسلام صار بمنزلة المسلمين فلا يقتل كفرا" ومن قال: "أقتله لمحاربة الله ورسوله وسعيه في الأرض فسادا" قال: أقتله وإن أسلم وتاب بعد أخذه كما أقتل المسلم إذا حارب ثم تاب بعد القدرة لأن الإسلام الطارئ لا يسقط الحدود الواجبة قبله لآدمي بحال وإن منع ابتداء وجوبها كما لو قتل ذمي ذميا أو قذفه ثم أسلم فإن حده لا يسقط ولو قتله أو قذفه ابتداء لم يجب عليه قود ولا حد ولا يسقط ما كان منها لله إذا تاب بعد القدرة كما لو قتل في قطع الطريق فإنه لا يسقط عنه بالإسلام وفاقا فيما أعلم وكذلك لو زنى ثم أسلم فإن حده القتل الذي كان يجب عليه قبل الإسلام عند أحمد وعند الشافعي حده حد المسلم فحد السب إن كان حقا لآدمي لم يسقط بالإسلام وإن كان حقا لله فليس حدا على الكفر الطارئ والمحاربة الأصلية كما دلت عليه السنة ولا على مجرد الكفر الأصلي بالاتفاق فيكون حدا لله على محاربة موجبة كقتل المرأة وكل قتل وجب حدا على محاربة ذمية لم يسقط بالإسلام بعد القدرة بالاتفاق فإن الذمية إذا لم تقتل في المحاربة لم يقتلها من يقول: "قتل الذمي المحارب إنما هو لنقض العهد" ومن قتلها كما دلت علية السنة فلا فرق في هذا الباب بين أن تسلم بعد القدرة أو لا تسلم.
واعلم أن من قال: "إن هذه الذمية تقتل فإذا أسلمت سقط عنها القتل لم يجد هذا في الأصول نظيرا أن ذمية تقتل وهي في أيدينا ويسقط عنها القتل بالإسلام بعد الأخذ ولا أصلا يدل على المسألة والحكم إذا لم يثبت بأصل ولا نظير كان تحكما ومن قال "إنها تقتل بكل حال" فله نظير يقيس به وهو المحاربة باليد والزانية ونحوهما.
الطريقة السادسة: الاستدلال من قتل بنت مروان وهو كالاستدلال من هذه القصة لأنا قد قدمنا أنها كانت من المهادنين الموادعين وإنما قتلت للسب خاصة والتقرير كما تقدم.
الطريقة السابعة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله" وقد كان معاهدا قبل ذلك ثم هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتله الصحابة غيلة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونه قد أمنهم على دمه وماله باعتقاده بقاء العهد ولأنهم جاءوه مجيء من قد آمنه ولو كان كعب بمنزلة كافر محارب فقط لم يجز قتله إذا أمنهم كما تقدم لأن الحربي إذا قلت له أو عملت معه ما يعتقد أنه أمان صار له أمانا وكذلك كل من يجوز أمانه فعلم أن هجاءه للنبي عليه الصلاة والسلام وأذاه لله تعالى ورسوله لا ينعقد معه أمان ولا عهد وذلك دليل على أن قتله حد من الحدود كقتل قاطع الطريق إذ ذلك يقتل وإن أومن كما يقتل الزاني والمرتد وإن أومن وكل حد وجب على الذمي فإنه لا يسقط بالإسلام وفاقا.
الطريقة الثامنة: أنه قد دل هذا الحديث على أن أذى الله ورسوله علة للانتداب إلى قتل كل أحد فيكون ذلك علة أخرى غير مجرد الكفر والردة فإن ذكر الوصف بعد الحكم بحرف الفاء دليل على أنه علة والأذى لله ورسوله يوجب القتل ويوجب نقض العهد ويوجب الردة.
يوضح ذلك أن أذى الله ورسوله لو كان إنما أوجب قتله لكونه كافرا غير ذي عهد لوجب تعليل الحكم بالوصف الأعم فإن الأعم إذا كان مستقلا بالحكم كان الأخص عديم التأثير فلما علل قتله بالوصف الأخص علم أنه مؤثر في الأمر بقتله لا سيما في كلام من أوتي جوامع الكلم وإذا كان المؤثر في قتله أذى الله ورسوله وجب قتله وإن تاب كما ذكرناه فيمن سب النبي عليه الصلاة والسلام من المسلمين فإن كلاهما أوجب قتله أنه آذى الله ورسوله وهو مقر للمسلمين بأن لا يفعل ذلك فلو كان عقوبة هذا المؤذي تسقط بالتوبة سقطت عنهما ولأنه قال سبحانه: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا} وقال في خصوص هذا المؤذي: {أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا} وقد أسلفنا أن هذه اللعنة توجب القتل إذا أخذ ولأنه سبحانه ذكر الذين يؤذون الله ورسوله ثم قال: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا} ولا خلاف علمناه أن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات لا تسقط عقوبتهم بالتوبة فالذين يؤذون الله ورسوله أحق وأولى لأن القرآن قد بين أن هؤلاء أسوأ حالا في الدنيا والآخرة فلو أسقطنا عنهم العقوبة بالتوبة لكانوا أحسن حالا.

وليس للمنازع هنا إلا كلمة واحدة وهو أن يقول: هذا قد تغلظت عقوبته بالقتل لأنه نوع من المرتدين وناقض العهد والكافر تقبل توبته من الكفر وتسقط عنه العقوبة بخلاف المؤذي بالفسق.
فيقال له: هذا لو كان الموجب لقتله إنما هو الكفر وقد دلت السنة على أن الموجب لقتله إنما هو أذى الله ورسوله وهذا أخص من عموم الكفر وكما أن الزنا والسرقة والشرب وقطع الطريق أخص من عموم المعصية والشارع رتب الأمر بالقتل على هذا الوصف الأخص الذي نسبته إلى سائر أنواع الكفر نسبة أذى المؤمنين إلى سائر أنواع المعاصي فإلحاق هذا النوع بسائر الأنواع جمع بين ما فرق الله بينه ورسوله وهو من القياس الفاسد كقياس الذين قالوا: إنما البيع مثل الربا وإنما الواجب أن يوفر على كل نوع حظه من الحكم بحسب ما علقه به الشارع من الأسماء والصفات المؤثرة الذي دل كلامه الحكيم على اعتبارها وتغلظ عقوبته ابتداء لا يوجب تخفيفها انتهاء بل يوجب تغلظها مطلقا إذا كان الجرم عظيما وسائر الكفار لم تغلظ عقوبتهم ابتداء ولا انتهاء مثل هذا فإنه يجوز إقرارهم بجزية واسترقاقهم في الجملة ويجوز الكف عنهم مع القدرة لمصلحة ترتقب وهذا بخلاف ذلك.
وأيضا فإن الموجب لقتله إذا كان هو أذى الله ورسوله كان محاربا لله ورسوله وساعيا في الأرض فسادا وقد أومأ النبي عليه الصلاة والسلام إلى ذلك في حديث ابن الأشرف كما تقدم وهذا الوصف قد رتب عليه من العقوبة ما لم يرتب على غيره من أنواع الكفر وتحتمت عقوبة صاحبه إلا أن يتوب قبل القدرة.
الطريقة التاسعة: أنا قد قدمنا عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه أهدر عام الفتح دماء نسوة لأجل أنهن كن يؤذينه بألسنتهن منهن القينتان لابن خطل اللتان كانتا تغنيان بهجائه ومولاة لبني عبد المطلب كانت تؤذيه وبينا بيانا واضحا أنهن لم يقتلن لأجل حراب ولا قتال وإنما قتلن لمجرد السب وبينا أن سبهن لم يجر مجرى قتالهن بل كان أغلظ لأن النبي عليه الصلاة والسلام آمن عام الفتح المقاتلة كلهم إلا من له جرم خاص يوجب قتله ولأن سبهن كان متقدما على الفتح ولا يجوز قتل المرأة في بعض الغزوات لأجل قتال متقدم قد كفت عنه وأمسكت في هذه الغزوة وبينا بيانا واضحا أن قتل هؤلاء النسوة أدل شيء على قتل المرأة السابة من مسلمة ومعاهدة وهو دليل قوي على جواز قتل السابة وإن تابت من وجوه:
أحدها: أن هذه المرأة الكافرة لم تقتل لأجل أنها مرتدة ولا لأجل أنها مقاتلة كما تقدم فلم يبق ما يوجب قتلها إلا أنها مفسدة في الأرض محاربة لله ورسوله وهذه يجوز قتلها بعد التوبة إذا كان قتلها جائزا قبلها بالكتاب والسنة والإجماع.
الثاني: أن سب أولئك النسوة إما أن يكون حرابا أو جناية موجبة للقتل غير الحراب إذ قتلهن لمجرد الكفر غير جائز كما تقدم فإن كان حرابا فالذمي إذا حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادا يجب قتله بكل حال كما دل عليه القرآن وإن كان جناية أخرى مبيحة للدم فهو أولى وأحرى وقد قدمنا فيما مضى ما يبين أن هؤلاء النسوة لم يقتلن لحراب كان موجودا منهن في غزوة الفتح وإنما قتلن جزاء على الجرم الماضي نكالا عن مثله وهذا يبين أن قتلهن بمنزلة قتل أصحاب الحدود من المسلمين والمعاهدين.
الثالث: أن اثنتين منهن قتلتا والثالثة أخفيت حتى استؤمن لها النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فآمنها لأنه كان له أن يعفوا عمن سبه كما تقدم وله أن يقتله ولم يعصم دم أحد ممن أهدر دمه عام الفتح إلا أمانه فعلم أن مجرد الإسلام لم يعصم دم هذه المرأة وإنما عصم دمها عفوه.
وبالجملة فقصة قتله لأولئك النسوة من أقوى ما يدل على جواز قتل السابة بكل حال فإن المرأة الحربية لا يبيح قتلها إلا قتالها وإذا قاتلت ثم تركت القتال في غزوة أخرى واستسلمت وانقادت لم يجز قتلها في هذه المرة الثانية ومع هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتلهن.
وللحديث وجهان:
أحدهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان عاهد أهل مكة والظاهر أن عهده انتظم الكف عن الأذى باللسان فإن في كثير من الحديث ما يدل على ذلك وحينئذ فهؤلاء اللواتي هجونه نقضن العهد نقضا خاصا بهجائهن فكان للنبي عليه الصلاة والسلام قتلهن بذلك وإن تبن وهذه ترجمة المسألة.
الثاني: أنه كان له أن يقتل من هجاه إذا لم يتب حتى قدر عليه وإن كان حربيا لكن سقط هذا بموته كما يسقط بموته العفو عن المسلم والذمي الساب ويكون قد كان أمر الساب هو مخير فيه مطلقا لكونه أعلم بالمصلحة فإذا مات تحتم قتل من التزم أن لا يسب وكان الحربي الساب كغيره من الحربيين إذا تاب.
وهذا الوجه ضعيف فإنه إثبات حكم باحتمال والأول جار على القياس ومن تأمل قصة الذين أهدرت دمائهم عام الفتح علم أنهم كلهم كانوا محاربين لله ورسوله ساعين في الأرض فسادا.

الطريقة العاشرة: أنه صلى الله عليه وسلم أمر في حال واحدة بقتل جماعة ممن كان يؤذيه بالسب والهجاء مع عفوه عمن كان أشد منهم في الكفر والمحاربة بالنفس والمال فقتل عقبة بن أبي معيط صبرا بالصفراء وكذلك النضر بن الحارث لما كانا يؤذيانه ويفتريان عليه ويطعنان فيه مع استبقائه عامة الأسرى.
وقد تقدم أنه قال: يا معشر قريش مالي أقتل من بينكم صبرا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بكفرك وافترائك على رسول الله صلى الله عليه وسلم" ومعلوم أن مجرد الكفر يبيح القتل فعلم أن الافتراء على النبي صلى الله عليه وسلم سبب آخر أخص من عموم الكفر موجب للقتل فحيث ما وجد وجد معه وجوب القتل وأهدر عام الفتح دم الحويرث بن نقيد ودم أبي سفيان بن الحارث ودم ابن الزبعرى وأهدر بعد ذلك دم كعب ابن زهير وغيرهم لأنهم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أهدر دم من ارتد وحارب ودم من ارتد وافترى على النبي صلى الله عليه وسلم ودم من ارتد وحارب وآذى الله ورسوله مع أمانه لجميع الذين حاربوا ونقضوا عهده فعلم أن أذاه سبب منفرد بإباحة القتل وراء الكفر والحراب بالأنفس والأموال كقطع الطريق وقتل النفس.
وقد تقدم ما كان يأمر به ويقر عليه إذا بلغه وما كان يحرض عليه المسلمين من قتل الساب دون غيره من الكافرين حتى إنه لا يحقن دم الساب إلا عفوه بعد ذلك فعلم أنه كان يلحق الساب بذوي الأفعال الموجبة للقتل من قطع طريق ونحوه وهذا ظاهر لمن تأمله فيما مضى من الأحاديث وما لم نذكره ومثل هذا يوجب قتل فاعله من مسلم ومعاهد وإن تاب بعد القدرة وإذا ضم هذا الوجه إلى الذي قبله وعلم أن الأذى وحده سبب يوجب القتل لا لكونه من جنس القتال لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد آمن الذين قاتلوه بالأنفس والأموال من الرجال.
فأمان المرأة التي أتت بما يشبه القتال أولى لو كان جرمها من جنس القتال ولأن المرأة إذا قاتلت في غزوة من الغزوات ثم غزا المسلمون غزوة وعلموا أنها لم تقاتل فيها بيد ولا لسان لم يجز قتلها عند أحد من المسلمين علمناه وهؤلاء النسوة كان أذاهن متقدما على فتح مكة ولم يكن لهن في غزو الفتح معرة بيد ولا لسان بل كن مستسلمات منقادات لو علمن أن إظهار الإسلام يعصم دماءهن لبادرن إلى إظهاره فهل يعتقد أحد أن مثل هذه المرأة تقتل لكونها محاربة خصوصا عند الشافعي فإن منصوصه أن قتل المرأة والصبي إذا قاتلا بمنزلة قتل الصائل من المسلمين يقصد به دفعهما وإن أفضى إلى قتلهما فإذا انكفا بدون القتل كأسر أو ترك للقتال ونحو ذلك لم يجز قتلهما كما لا يجوز قتل الصائل.
وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بقتل من كان يؤذيه ويهجوه من النساء وقد تركن ذلك واستسلمن وربما كن يوددن أن يظهرن الإسلام إن كان عاصما وقد آمن المقاتلين كلهم علم أن السب سبب مستقل موجب يحل دم كل أحد وأن تركه ذلة وعجز.
يؤيد ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام آمن أهل مكة إلا من قاتل إلا هؤلاء النفر فإنه أمر بقتلهم قاتلوا أو لم يقاتلوا فعلم أن هؤلاء النسوة قتلن لأجل السب لا لأجل أنهن يقاتلن.
الطريقة الحادية عشرة: أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد ارتد وافترى على النبي صلى الله عليه وسلم أنه يلقنه الوحي ويكتب له ما يريد فأهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه ونذر رجل من المسلمين ليقتلنه ثم حبسه عثمان أياما حتى اطمأن أهل مكة ثم جاء تائبا ليبايع النبي عليه الصلاة والسلام ويؤمنه فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا رجاء أن يقوم إليه الناذر أو غيره فيقتله ويوفي بنذره.
ففي هذا دلالة على أن المفتري على النبي صلى الله عليه وسلم الطاعن عليه قد كان له أن يقتله وأن دمه مباح وإن جاء تائبا من كفره وفريته لأن قتله لو كان حراما لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم ما قال ولا قال للرجل: هلا وفيت بنذرك بقتله.
ولا خلاف بين المسلمين علمناه أن الكافر إذا جاء تائبا مريدا للإسلام مظهرا لذلك لم يجز قتله لذلك ولا فرق في ذلك بين الأصلي والمرتد إلا ما ذكرناه من الخلاف الشاذ في المرتد مع أن هذا الحديث يبطل ذلك الخلاف بل لو جاء الكافر طالبا لأن يعرض عليه الإسلام ويقرأ عليه القرآن لوجب أمانه لذلك.
قال الله تعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه} .
وقال تعالى في المشركين: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} .
وعبد الله بن سعد إنما جاء تائبا ملتزما لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بل جاء بعد أن أسلم كما تقدم ذكر ذلك ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم بين أنه كان مريدا لقتله وقال للقوم: "هلا قام بعضكم إليه ليقتله" و"هلا وفيت بنذرك في قتله" فعلم أنه قد كان جائزا له أن يقتل من يفتري عليه ويؤذيه من الكفار وإن جاء مظهر للإسلام والتوبة بعد القدرة عليه وفي ذلك دلالة ظاهرة على أن الافتراء عليه وأذاه يجوز له قتل فاعله وإن أظهر الإسلام والتوبة.

ومما يشبه هذا إعراضه عن أبي سفيان بن الحارث وابن أبي أمية وقد جاءا مهاجرين يريدان الإسلام أو قد أسلما وعلل ذلك بأنهما كانا يؤذيانه ويقعان في عرضه مع أنه لا خلاف علمناه أن الحربي إذا جاء يريد الإسلام وجبت المسارعة إلى قبوله منه وكان الاستئناء به حراما وقد عده بعض الناس كفرا.
وقد كانت سيرته صلى الله عليه وسلم في المسارعة إلى قبول الإسلام من كل من أظهره وتأليف الناس عليه بالأموال وغيرها أشهر من أن يوصف فلما أبطأ عن هذين وأراد أن لا يلتفت إليهما البتة علم أنه كان له أن يعاقب من كان يؤذيه ويسبه وإن أسلم وهاجر وأن لا يقبل منه من الإسلام والتوبة ما يقبل من الكافر الذي لم يكن يؤذيه وفي هذا دلالة على أن السب وحده موجب للعقوبة.
يوضح ذلك ما ذكره أهل المغازي أن علي بن أبي طالب قال لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: {تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين} فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولا منه ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين}
.
ففي هذا دلالة على أن ما ناله من عرضه كان له أن يعاقب عليه وأن يعفو كما كان ليوسف عليه الصلاة والسلام أن يعاقب إخوته على ما فعلوا به من الإلقاء في الجب وبيعه للسيارة ولكن لكرمه عفا صلى الله عليه وسلم ولو كان الإسلام يسقط حقه بالكلية كما يسقط حقوق الله لم يتوجه شيء من هذا.
وقد تقدم تقرير هذا الوجه في أول الكتاب وبينا أنه نص في جواز قتل المرتد الساب بعد إسلامه فكذلك قتل الساب المعاهد لأن المأخذ واحد.
ومما يوضحه أن المسلمين قد كان استقر عندهم أن الكافر الحربي إذا أظهر الإسلام حرم عليهم قتله لا سيما عند السابقين الأولين مثل عثمان ابن عفان ونحوه وقد علموا قوله تعالى: {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا} وقصة أسامة بن زيد وحديث المقداد فلما كان أولئك الذين أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم: منهم من قتل ومنهم من أخفي حتى اطمأن أهل مكة وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبايعه دل على أن عثمان رضي الله عنه وغيره من المسلمين علموا أن إظهار عبد الله ابن سعد بن أبي سرح ونحوه الإسلام لا يحقن دماءهم دون أن يؤمنهم النبي صلى الله عليه وسلم وإلا فقد كان يمكنهم أن يأمروهم بإظهار الإسلام والخروج من أول يوم.
والظاهر والله أعلم أنهم قد كانوا أسلموا وإنما تأخرت بيعتهم للنبي عليه الصلاة والسلام على الإسلام حتى يؤمنهم النبي صلى الله عليه وسلم وذلك دليل على أنه قد كان للنبي عليه الصلاة والسلام قتلهم لأجل سبه مع إظهار التوبة.
وقد روي عن عكرمة أن ابن أبي سرح رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة وكذلك ذكر آخرون أن ابن أبي سرح رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة إذ نزل النبي صلى الله عليه وسلم بمر الظهران.
وهذا الذي ذكروه نص في المسألة وهو أشبه بالحق فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل بمر الظهران شعرت به قريش حينئذ وابن أبي سرح قد علم ذنبه فيكون قد أسلم حينئذ ولما بلغه أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أهدر دمه تغيب حتى استؤمن له والحديث لمن تأمله دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يقتله وأن يؤمنه وأن الإسلام وحده لم يعصم دمه حتى عفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فمن ذلك أن عثمان جاء ليشفع له إلى النبي صلى الله عليه وسلم فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا وأعرض عنه مرة بعد مرة وعثمان يأتيه من كل وجهة وهو معرض عنه رجاء أن يقوم بعضهم فيقتله وعثمان في ذلك يكب على النبي صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويطلب منه أن يبايعه ويذكر أن لأمه عليه حقوقا حتى استحيا النبي صلى الله عليه وسلم من عثمان فقضى حاجته ببيعته مع أنه كان يود أن لا يفعل فعلم أن قتله كان حقا له أن يعفو عنه ويقبل فيه شفاعة شافع وله أن لا يفعل ولو كان ممن يعصم الإسلام دمه لم يحتج إلى شافع ولم يجز رد الشفاعة.
ومنها: أن عثمان لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنه يفر منك قال: "ألم أبايعه وأومنه" قال: بلى ولكنه يتذكر عظيم جرمه فقال: "الإسلام يجب ما قبله" وفي هذا بيان لأن خوفه من النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتله إنما زال بأمانه وبيعته لا لمجرد الإسلام فعلم أن الإسلام يمحو إثم السب وأما سقوط القتل فلا يحصل بمجرد الإسلام لأن النبي صلى الله عليه وسلم أزال خوفه من القتل بالأمان وأزال خوفه من الذنب بالإسلام.
ومما يدل على أن الأنبياء لهم أن يعاقبوا من آذاهم بالهلاك وإن أظهر التوبة والندم ما رواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن عبد الله بن الحارث بن نوفل أن قارون كان يؤذي موسى وكان ابن عمه فبلغ من أذاه إياه أن قال لامرأة بغي: إذا اجتمع الناس عندي غدا فتعالي وقولي: إن موسى راودني عن نفسي فلما كان الغد واجتمع الناس جاءت فسارت قارون ثم قالت للناس: إن قارون قال لي كذا وكذا وإن موسى لم يقل لي شيئا من هذا فبلغ ذلك موسى عليه الصلاة والسلام وهو قائم يصلي

في المحراب فخر ساجدا فقال: أي رب إن قارون قد آذاني وفعل وفعل وبلغ من أذاه إياي أن قال ما قال فأوحى الله إلى موسى: أن يا موسى إني قد أمرت الأرض أن تطيعك وكان لقارون غرفة قد ضرب عليها صفائح الذهب فأتاه موسى ومعه جلساؤه فقال لقارون: قد بلغ من أذاك أن قلت كذا وكذا يا أرض خذيهم فأخذتهم الأرض إلى كعبهم فهتفوا: يا موسى ادع لنا ربك أن ينجينا مما نحن فيه فنؤمن بك ونتبعك ونطيعك فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أنصاف سوقهم فهتفوا وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك أن ينجينا مما نحن فيه فنؤمن بك ونتبعك ونطيعك فقال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم فلم يزل يقول: يا أرض خذيهم حتى تطابقت عليهم وهم يهتفون فأوحى الله إليه يا موسى ما أفظك أما إنهم لو كانوا إياي دعوا لخلصتهم".
ورواه عبد الرزاق قال: حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا علي بن زيد ابن جدعان فذكره أبسط من هذا وفيه: "أن المرأة قالت: إن قارون بعث إلي فقال: هل لك إلى أن أمولك وأعطيك وأخلطك بنسائي على أن تأتيني والملأ من بني إسرائيل عندي تقولين: يا قارون ألا تنهى موسى عن أذاي.
وإني لم أجد اليوم توبة أفضل من أن أكذب عدو الله وأبرئ رسول الله قال: فنكس قارون رأسه وعرف أنه قد هلك وفشا الحديث في الناس حتى بلغ موسى عليه الصلاة والسلام وكان موسى صلى الله عليه وسلم شديد الغضب فلما بلغه ذلك توضأ فسجد وبكى وقال: يا رب عدوك قارون كان لي مؤذيا فذكر أشياء ثم لم يتناه حتى أراد فضيحتي يا رب فسلطني عليه فأوحى الله إليه أن مر الأرض بما شئت تطع قال: فجاء موسى يمشي إلى قارون فلما رآه قارون عرف الغضب في وجهه فقال: يا موسى ارحمني فقال موسى: يا أرض خذيهم فاضطربت داره وخسف به وبأصحابه إلى ركبهم وساخت داره على قدر ذلك وجعل يقول: يا موسى ارحمني ويقول موسى: يا أرض خذيهم" وذكر القصة.
فهذه القصة مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن مسعود رضي الله عنه لما بلغه قول القائل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله "دعنا منك لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر".
فهذا مع ما ذكرناه من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لهم أن يعاقبوا من آذاهم وإن تاب ولهم أن يعفوا عنه كما ذلك لغيرهم من البشر لكن لهم أن يعاقبوا من يؤذيهم بالقتل والإهلاك وليس لغيرهم أن يعاقبه بمثل ذلك.
وذلك دليل على أن عقوبة مؤذيهم حد من الحدود لا لمجرد الكفر فإن عقوبة الكافر تسقط بالتوبة بلا ريب وقارون قد كان تاب في وقت تنفع فيه التوبة ولهذا في الحديث: "أما إنهم لو كانوا إياي دعوا لخلصتهم" وفي لفظ "لرحمتهم" وإنما كان يرحمهم سبحانه والله أعلم بأن يستطيب نفس موسى من أذاهم له كما يستوهب المظالم لمن رحمه من عباده ممن هي له ويعوضه منها.
الطريقة الثانية عشرة: ما تقدم من حديث أنس بن زنيم الديلي الذي ذكر عنه أنه هجا النبي صلى الله عليه وسلم ثم جاءه وأنشده قصيدة تتضمن إسلامه وبراءته مما قيل عنه وكان معاهدا فتوقف النبي صلى الله عليه وسلم فيه وجعل يسأل العفو عنه حتى عفا عنه فلو لم تكن العقوبة بعد الإسلام على السب من المعاهد جائزة لما توقف النبي صلى الله عليه وسلم في حقن دمه ولا احتاج إلى العفو عنه ولولا أن للرسول صلى الله عليه وسلم حقا يملك استيفاءه بعد الإسلام لما عفا عنه كما لم يكن يعفو عمن أسلم ولا تبعه عليه وحديثه لمن تأمله دليل واضح على جواز قتل من هجا النبي صلى الله عليه وسلم من المعاهدين ثم أسلم كما أن حديث ابن أبي سرح دليل واضح على جواز قتل من سبه مرتدا ثم أسلم وذلك أنه لما بلغه أنه هجاه وقد كان مهادنا موادعا وكان العهد الذي بينهم يتضمن الكف عن إظهار أذاه وكان على ما قيل عنه قد هجاه قبل أن يقتل بنو بكر خزاعة وقبل أن ينقضوا العهد فلذلك نذر النبي صلى الله عليه وسلم دمه ثم أنشد قصيدة تتضمن أنه مسلم يقول فيها "تعلم رسول الله" و"هبني رسول الله" وينكر فيها أن يكون هجاه ويدعو على نفسه بذهاب اليد إن كان هجاه وينسب الذين شهدوا عليه إلى الكذب وبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته واعتذاره قبل أن يجئ إليه وشفع له كبير قبيلته نوفل بن معاوية وكان نوفل هذا هو الذي نقض العهد وقال: يا رسول الله أنت أولى الناس بالعفو ومن منا لم يعادك ويؤذك ونحن في جاهلية لا ندري ما نأخذ وما ندع حتى هدانا الله بك وأنقذنا بك عن الهلك وقد كذب عليه الركب وكثروا عندك فقال: "دع الركب عنك فإنا لم نجد بتهامة أحدا من ذي رحم قريب ولا بعيد كان أبر من خزاعة" فأسكت نوفل بن معاوية فلما سكت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد عفوت عنه" قال نوفل: فداك أبي وأمي.
فلو كان الإسلام المتقدم قد عصم دمه لم يحتج إلى العفو كما لم يحتج إليه من أسلم ولا حد عليه ولكان قال: الإسلام يجب ما قبله كما قاله لغيره من الحربيين كما يقول له من يقول: ألا نقتل هذا بعد إسلامه؟ فيقول: "الإسلام يجب ما قبله" وصاحب الشريعة بين أن ما أسقط قتله عفوه وذلك أن قوله: "عفوت عنه" إما أن يكون أفاده سقوط ما كان أهدره من دمه أو لم يفده ذلك فإن لم يفده فلا معنى لقوله: "عفوت عنه" وإن كان قد أفاده سقوط ذلك الإهدار فقبل ذلك لو قتله بعض المسلمين بعد أن أسلم وقبل أن عفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم لكان جائزا لأنه متبع لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله أمرا مطلقا إلى حين عفا عنه كما أن أمره بقتل ابن أبي سرح كان باقيا حكمه إلى أن عفا عنه وكذلك عتبهم إذ لم يقتلوه قبل عفوه وهذا بين في

هذه الأحاديث بيانا واضحا ولو كان عند المسلمين أن من هجاه من معاهد ثم أسلم عصم دمه لكان نوفل وغيره من المسلمين علموا ذلك وقالوا له كما قالوا لكعب بن زهير ونحوه ممن هجاه وهو حربي: إنه لا يقتل من جاءه مسلما ألا ترى أنهم لم يظهروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عفا عنه كما لم يظهروا ابن أبي سرح حتى عفا عنه بخلاف كعب بن زهير وابن الزبعرى فإنهما جاءا بأنفسهما لثقتهما بأنه لا يمكن قتل الحربي إذا جاء مسلما وإمكان أن يقتل الذمي الساب والمرتد الساب وإن جاءا مسلمين وإن كانا قد أسلما ثم إنه في قصيدته قال:

فإني لا عرضا خرقت ولا دما

هرقت ففكر عالم الحق واقصد

فجمع بين خرق العرض وسفك الدم فعلم أنه مما يؤخذ به وإن أسلم ولولا أن قتله كان ممكنا بعد إسلامه لم يحتج إلى هذا الإنكار والاعتذار.

ويؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينذر دم واحد بعينه من بني بكر الناقضي العهد إلا هذا مع أنهم فعلوا تلك الأفاعيل فعلم أن خرق عرضه كان أعظم من نقض العهد بالمقاتلة والمحاربة باليد وقد تقدم الحديث بدلالته وإنما نبهنا عليه هنا إحالة على ما مضى.

الطريقة الثالثة عشرة: أنه قد تقدم أنه كان له عليه الصلاة والسلام أن يقتل من أغلظ له وآذاه وكان له أن يعفو عنه فلو كان المؤذي له إنما يقتل للردة لم يجز العفو عنه قبل التوبة وإذا كان هذا حقا له فلا فرق فيه بين المسلم والذمي فإنه قد أهدر دم من آذاه من أهل الذمة وقد تقدم أن ذلك لم يكن لمجرد نقض العهد فعلم أنه كان لأذاه وإذا كان له أن يقتل من أذاه وسبه من مسلم ومعاهد وله أن يعفو عنه علم أنه بمنزلة القصاص وحد القذف وتعزير السب لغير الأنبياء من البشر وإذا كان كذلك لم يسقط عن مسلم ولا معاهد بالتوبة كما لا تسقط هذه الحدود بالتوبة وهذه طريقة قوية وذلك أنه إذا كان صلى الله عليه وسلم قد أباح الله له أن يعفو عنه كان المغلب في هذا الحد حقه بمنزلة سب غيره من البشر إلا أن حد سابه القتل وحد ساب غيره الجلد وإذا كان المغلب حقه وكان الأمر في حياته مفوضا إلى اختياره لينال بالعفو علي الدرجات تارة ويقيم بالعقوبة من الحدود ما ينال به أيضا على الدرجات فإنه صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ونبي الملحمة وهو الضحوك القتال والذمي قد عاهده على أن لا يخرق عرضه وهو لو أصاب لواحد من المسلمين أو المعاهدين حقا من دم أو مال أو عرض ثم أسلم لم يسقط عنه فأولى أن لا يسقط عنه هذا.

وإذ قد قدمنا أن قتله لم يكن لمجرد نقض العهد وإنما كان لخصوص السب وإذا كان يجوز له أن يقتل هذا الساب بعد مجيئه مسلما وله أن يعفو عنه فبعد موته تعذر العفو عنه وتمحضت العقوبة حقا لله سبحانه فوجب استيفاؤها على ما لا يخفى؟ إذا القول بجواز عفو أحد عن هذا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضي إلى أن يكون الإمام مخيرا بين قتل هذا واستبقائه وهو قول لم نعلم له قائلا ثم إنه خلاف قواعد الشريعة وأصولها وقد تقدم فيما مضى الفرق بين حال حياته وحال مماته.

الطريقة الرابعة عشرة: أنه قد تقدم الحديث المرفوع إن كان ثابتا: "من سب نبيا قتل ومن سب أصحابه جلد" فأمر بالقتل مطلقا كما أمر بالجلد مطلقا فعلم أن السب للنبي عليه الصلاة والسلام موجب بنفسه للقتل كما أن سب غيره موجب للجلد وأن ذلك عقوبة شرعية على السب وكما لا يسقط هذا الجلد بالتوبة بعد القدرة فكذلك لا يسقط هذا القتل.

الطريقة الخامسة عشرة: أقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم.

فمن ذلك: أن أبا بكر رضي الله عنه كتب إلى المهاجر بن أبي ربيعة في المرأة التي غنت بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم: "لولا ما سبقتني فيها لأمرتك بقتلها لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر" فأخبره أبو بكر أنه لولا الفوت لأمره بقتلها من غير استتابة ولا استيناء حال توبة مع أن غالب من تقدم ليقتل على مثل هذا يبادر إلى التوبة أو الإسلام إذا علم أنه يدرأ عنه القتل ولم يستفصله الصديق عن السابة: هل هي مسلمة أو ذمية؟ بل ذكر أن القتل حد من سب الأنبياء وأن حدهم ليس كحد غيرهم مع أنه فصل في المرأة التي غنت بهجاء المسلمين بين أن تكون مسلمة أو ذمية.

وهذا ظاهر في أن عقوبة الساب حد للنبي واجبة عليه له أن يعفو عنها في بعض الأحوال وأن يستوفيها في بعض الأحوال كما أن عقوبة ساب غيره حد له واجبة على الساب.

وقوله: "فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد" ليس فيه دلالة على قبول توبته لأن الردة جنس تحتها أنواع: منها ما تقبل فيه التوبة ومنها ما لا تقبل كما تقدم التنبيه على هذا ولعله أن تكون لنا إليه عودة وإنما غرضه أن يبين الأصل الذي يبيح دم هذا وكذلك قوله: "فهو محارب غادر" فإن المحارب الغادر جنس يباح دمه ثم منهم من يقتل وإن أسلم كما لو حارب بقطع الطريق أو باستكراه مسلمة على الزنا ونحو ذلك.

قال تعالى: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا} الآية ثم إنه لم يرفع العقوبة إلا إذا تابوا قبل القدرة عليهم وقد قدمنا أن هذا محارب مفسد فيدخل في هذه الآية.
وعن مجاهد قال: أتى عمر برجل يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتله ثم قال عمر: "من سب الله أو سب أحدا من الأنبياء فاقتلوه".
هذا مع أن سيرته في المرتد أنه يستتاب ثلاثا ويطعم كل يوم رغيفا لعله يتوب فإذا أمر بقتل هذا من غير استتابة علم أن جرمه أغلظ عنده من جرم المرتد المجرد فيكون جرم سابه من أهل العهد أغلظ من جرم من اقتصر على نقض العهد لا سيما وقد أمر بقتله مطلقا من غير ثنيا.
وكذلك المرأة التي سبت النبي صلى الله عليه وسلم فقتلها خالد بن الوليد ولم يستتبها دليل على أنها ليست كالمرتدة المجردة.
وكذلك حديث محمد بن مسلمة لما حلف ليقتلن ابن يامين لما ذكر أن قتل ابن الأشرف كان غدرا وطلبه لقتله بعد ذلك مدة طويلة ولم ينكر المسلمون ذلك عليه مع أنه لو قتله لمجرد الردة لكان قد عاد إلى الإسلام بما أتى به بعد ذلك من الشهادتين والصلوات ولم يقتل حتى يستتاب.
وكذلك قول ابن عباس في الذمي يرمي أمهات المؤمنين: "إنه لا توبة له" نص في هذا المعنى وهذه القضايا قد اشتهرت ولم يبلغنا أن أحدا أنكر شيئا من ذلك كما أنكر عمر رضي الله عنه قتل المرتد الذي لم يستتب وكما أنكر ابن عباس رضي الله عنهما تحريق الزنادقة وأخبر أن حدهم القتل فعلم أنه كان مستفيضا بينهم أن حد الساب أن يقتل إلا ما روي عن ابن عباس: "من سب نبيا من الأنبياء فقد كذب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ردة يستتاب فإن تاب وإلا قتل" وهذا في سب يتضمن جحد نبوة نبي من الأنبياء فإنه يتضمن تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ريب أن من قال عن بعض الأنبياء أنه ليس بنبي وسبه بناء على أنه ليس بنبي فهذه ردة محضة ويتعين حمل حديث ابن عباس على هذا أو نحوه إن كان محفوظا عنه لأنه أخبر أن قاذف أمهات المؤمنين لا توبة له فكيف تكون حرمتهن لأجل سب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من حرمة نبي معروف مذكور في القرآن؟.
الطريقة السادسة عشرة: أن الله سبحانه وتعالى أوجب لنبينا صلى الله عليه وسلم على القلب واللسان والجوارح حقوقا زائدة على مجرد التصديق بنبوته كما أوجب سبحانه على خلقه من العبادات على القلب واللسان والجوارح أمورا زائدة على مجرد التصديق به سبحانه وحرم سبحانه لحرمة رسوله مما يباح أن يفعل مع غيره أمورا زائدة على مجرد التكذيب بنبوته.
فمن ذلك: أنه أمر بالصلاة عليه والتسليم بعد أن أخبر أن الله وملائكته يصلون عليه والصلاة تتضمن ثناء الله عليه ودعاء الخير له وقربته منه ورحمته له والسلام عليه يتضمن سلامته من كل آفة فقد جمعت الصلاة عليه والتسليم جميع الخيرات ثم إنه يصلي سبحانه عشرا على من يصلي عليه مرة واحدة حضا للناس على الصلاة عليه ليسعدوا بذلك وليرحمهم الله بها.
ومن ذلك: أنه أخبر أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن حقه أنه يجب أن يؤثره العطشان بالماء والجائع بالطعام وأنه يجب أن يوقى بالأنفس والأموال كما قال سبحانه وتعالى: {ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه} .
فعلم أن رغبة الإنسان بنفسه أن يصيبه ما يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشقة معه حرام.
وقال تعالى مخاطبا للمؤمنين فيما أصابهم من مشقات الحصر والجهاد: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا} .
ومن حقه: أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه وولده وجميع الخلق كما دل على ذلك قوله سبحانه: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم} إلى قوله: {أحب إليكم من الله ورسوله} الآية مع الأحاديث الصحيحة المشهورة كما في الصحيح من قول عمر رضي الله عنه: "يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي" فقال: "لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك" قال: "فأنت والله يا رسول الله أحب إلي من نفسي" قال: "الآن يا عمر" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين" متفق عليه.
ومن ذلك: أن الله أمر بتعزيره وتوقيره فقال: {وتعزروه وتوقروه} والتعزير: اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه والتوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار.
ومن ذلك: أنه خصه في المخاطبة بما يليق به فقال: {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا} فنهى أن يقولوا: يا محمد أو يا أحمد أو يا أبا القاسم ولكن يقولوا: يا رسول الله يا نبي الله وكيف لا يخاطبونه بذلك والله سبحانه وتعالى أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرم به أحدا من الأنبياء فلم يدعه باسمه في القرآن قط بل يقول: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها} {يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين} {يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك} {يا أيها النبي اتق

الله} {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء} {يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك} {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك} {يا أيها المزمل قم الليل} {يا أيها المدثر قم فأنذر} {يا أيها النبي حسبك الله} مع أنه سبحانه قد قال: {وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك} الآية {يا آدم أنبئهم بأسمائهم} {يا نوح إنه ليس من أهلك} {يا إبراهيم أعرض عن هذا} {يا موسى إني اصطفيتك على الناس} {يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض} {يا يحيى خذ الكتاب بقوة} {يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس} {يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك} .

ومن ذلك: أنه حرم التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن وحرم رفع الصوت فوق صوته وأن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل وأخبر أن ذلك سبب حبوط العمل فهذا يدل على أنه قد يقتضي الكفر لأن العمل لا يحبط إلا به وأخبر أن الذين يغضون أصواتهم عنده هم الذين امتحنت قلوبهم للتقوى وأن الله يغفر لهم ويرحمهم وأخبر أن الذين ينادونه وهو في منزله لا يعقلون لكونهم رفعوا أصواتهم عليه ولكونهم لم يصبروا حتى يخرج ولكن أزعجوه إلى الخروج.

ومن ذلك: أنه حرم على الأمة أن يؤذوه بما هو مباح أن يعامل به بعضهم بعضا تمييزا له مثل نكاح أزواجه من بعده فقال تعالى: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما} .

وأوجب على الأمة لأجله احترام أزواجه وجعلهن أمهات في التحريم والاحترام فقال سبحانه وتعالى: {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم} .

وأما ما أوجبه من طاعته والانقياد لأمره والتأسي بفعله فهذا باب واسع لكن ذاك قد يقال: هو من لوازم الرسالة وإنما الغرض هنا أن ننبه على بعض ما أوجبه الله من الحقوق الواجبة والمحرمة على الأمة مما يزيد على لوازم الرسالة بحيث يجوز أن يبعث الله رسولا ولا يوجب له هذه الحقوق.

ومن كرامته المتعلقة بالقول: أنه فرق بين أذاه وأذى المؤمنين فقال تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا}

وقد تقدم في هذه الآية ما يدل على أن حد من سبه القتل كما أن حد من سب غيره الجلد.

ومن ذلك: أن الله رفع له ذكره فلا يذكر الله سبحانه إلا ذكر معه ولا تصح للأمة خطبة ولا تشهد حتى يشهدوا أنه عبده ورسوله وأوجب ذكره في كل خطبة وفي الشهادتين اللتين هما أساس الإسلام وفي الأذان الذي هو شعار الإسلام وفي الصلاة التي هي عماد الدين إلى غير ذلك من المواضع.

هذا إلى خصائص له أخر يطول تعدادها.

وإذا كان كذلك فمعلوم أن سابه ومنتقصه قد ناقض الإيمان به وناقض تعزيره وتوقيره وناقض رفع ذكره وناقض الصلاة عليه والتسليم وناقض تشريفه في الدعاء والخطاب بل قابل أفضل الخلق بما لا يقابل به أشر الخلق.

يوضح ذلك أن مجرد إعراضه عن الإيمان به يبيح الدم مع عدم العهد وإعراضه عن هذه الحقوق الواجبة يبيح العقوبة فهذا بمجرد سكوته عن تشريفه وتكريمه فإذا أتى بضد ذلك من الذم والسب والانتقاص والاستخفاف فلا بد أن يوجب ذلك زيادة على الذم والعقاب فإن مقادير العقوبات على مقادير الجرائم ألا ترى أن الرجل لو قتل رجلا اعتباطا لكن عقوبته القود وهو التسليم إلى ولي المقتول فإن انضم إلى ذلك قتله لأخذ المال مجاهرة صارت العقوبة تحتم القتل فإن انضم إلى ذلك أخذ المال عوقب مع ذلك بالصلب وعوقب عند بعض العلماء أيضا بقطع اليد والرجل حتما مع أن أخذ المال سرقة لا يوجب إلا قطع اليد فقط وكذلك لو قذف عبدا أو ذميا أو فاجرا لم يجب عليه إلا التعزير فلو قذف حرا مسلما عفيفا لوجب عليه الحد التام فلو قيل: "إنه لا يجب عليه مع ذلك إلا ما يجب على من ترك الإيمان به أو ترك العهد الذي بيننا وبينه" لسوى بين الساكت عن ذمه وسبه والمبالغ في ذلك وهذا غير جائز كما أنه غير جائز التسوية بين الساكت عن مدحه والصلاة عليه والمبالغ في ذلك ولزم من ذلك أن لا يكون لخصوص سبه وذمه وأذاه عقوبة مع أنه من أعظم الجرائم وهذا باطل قطعا.

ومعلوم أن لا عقوبة فوق القتل ثم ليس سوى الزيادة على ذلك إلا تعين قتله وتحتمه تاب أو لم يتب كحد قاطع الطريق إذ لا يعلم أحد وجب أن يجلد لخصوص السب ثم يقتل للكفر إذا كانت العقوبة لخصوص السب كانت حدا من الحدود وهذه مناسبة ظاهرة قد دل على صحتها دلالات النصوص السالفة من كون السب موجبا للقتل والعلة إذا ثبت بالنص أو بالإيماء لم يحتج إلى أصل يقاس عليه الفرع وبهذا يظهر أنا لم نجعل خصوص السب موجبا للقتل إلا بما دل عليه من الكتاب والسنة والأثر لا بمجرد الاستحسان والاستصلاح كما زعمه من لم يحظ بمآخذ الأحكام على أن الأصل الذي يقاس به هذا الفرع ثابت وهو:

الطريقة السابعة عشرة: وذلك أنا وجدنا الأصول التي دل عليها الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة حكمت في المرتد وناقض العهد حكمين فمن لم يصدر منه إلا مجرد الردة أو مجرد نقض العهد ثم عاد إلى الإسلام عصم دمه كما دل عليه كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم ذكر بعض ما يدل على ذلك في المرتد وهو في ناقض العهد أيضا موجود بقوله في بعض من نقض العهد: {ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء} وبأن النبي صلى الله عليه وسلم قبل إسلام من أسلم من

بني بكر وكانوا قد نقضوا العهد وعدوا على خزاعة فقتلوهم وقبل إسلام قريش الذين أعانوهم على قتال المسلمين حتى انتقض عهدهم بذلك ودلت سنته على أن مجرد إسلامهم كان عاصما لدمائهم وكذلك في حصره لقريظة والنضير مذكر أنهم لو أسلموا لكف عنهم وقد جاء نفر منهم مسلمين فعصموا دماءهم وأموالهم منهم ثعلبة بن سعية وأسد بن سعية وأسد ابن عبيد أسلموا في الليلة التي نزل فيها بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخبرهم مشهور ومن تغلظت ردته أو نقضه بما يضر المسلمين إذا عاد إلى الإسلام لم تسقط عنه العقوبة مطلقا بل يقتل إذا كان جنس ما فعله موجبا للقتل أو يعاقب بما دونه إن لم يكن كذلك كما دل عليه قوله تعالى: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا} الآية وكما دلت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة ابن أبي سرح وابن زنيم وفي قصة ابن خطل وقصة مقيس بن حبابة وقصة العرنيين وغيرهم وكما دل عليه الأصول المقررة فإن الرجل إذا اقترن بردته قطع طريق أو قتل مسلم أو زنى أو غير ذلك ثم رجع إلى الإسلام أخذت منه الحدود وكذلك لو اقترن بنقض عهده الإضرار بالمسلمين من قطع طريق أو قتل مسلم أو زنى بمسلمة فإن الحدود تستوفى منه بعد الإسلام: إما الحد الذي يجب على المسلم لو فعل ذلك أو الحد الذي كان واجبا قبل الإسلام وهذا الرجل الساب قد وجد منه قدر زائد على مجرد نقض العهد كما قدمنا من الإضرار بالمسلم الذي صار به أغلظ جرما من مجرد نقض العهد أو فعل ما هو أعظم من أكثر الأمور المضرة كما تقدم فصار بمنزلة من قرن بنقض عهده أذى المسلمين في دم أو مال أو عرض وأشد وإذا كان كذلك فإسلامه لا يزيل عنه عقوبة هذا الإضرار كما دلت عليه الأصول في مثله وعقوبة هذا الإضرار قد ثبت أنه القتل بالنص والإسلام الطارئ لا يمنع ابتداء هذه العقوبة فإن المسلم لو ابتدأ بمثل هذا قتل قتلا لا يسقط بالتوبة كما تقدم.

وإذا لم يمنع الإسلام ابتداءها فأن لا يمنع بقاءها ودوامها أولى وأحرى لأن الدوام والبقاء أقوى من الابتداء والحدوث في الحسيات والعقليات والحكميات.

ألا ترى أن العدة والإحرام والردة تمنع ابتداء النكاح ولا تمنع دوامه والإسلام يمنع ابتداء الرق ولا يمنع دوامه ويمنع ابتداء وجوب القود وحد القذف على المسلم إذا قتل أو قذف ذميا ولا يمنع دوامه عليه إذا أسلم بعد القتل والقذف.

ولو فرض أن الإسلام يمنع ابتداء قتل هذا فلا يجب أن يسقط القتل بإسلامه لأن الدوام أقوى من الابتداء وجاز أن يكون بمنزلة القود وحد القذف فإن الإسلام يمنع ابتداءه دون دوامه لا سيما والسب فيه حق لآدمي ميت وفيه جناية متعلقة بعموم المسلمين فهو مثل القتل في المحاربة ليس حقا لمعين وإذا كان كذلك وجب استيفاؤه كغيره من المحاربين المفسدين.

يحقق ذلك أن الذمي إذا قطع الطريق وقتل مسلما فهو يعتقد في دينه جواز قتل المسلم وأخذ ماله وإنما حرمه عليه العهد الذي بيننا وبينه كما أنه يعتقد جواز السب في دينه وإنما حرمه عليه العهد وقطع الطريق قد يفعل استحلالا وقد يفعل استخفافا بالحرمة لغرض كما أن سب الرسول قد يفعل استخفافا بالحرمة لغرض فهو مثله من كل وجه إلا أن مفسدة ذلك في الدنيا ومفسدة هذا في الدين وهي أعظم من مفسدة الدنيا عند المؤمنين بالله العالمين به وبأمره فإذا أسلم قاطع الطريق فقد تجدد منه إظهار اعتقاد تحريم دم المسلم وماله مع جواز أن لا يفي بموجب هذا الاعتقاد وكذلك إذا أسلم الساب فقد تجدد إظهار اعتقاد تحريم عرض الرسول مع جواز أن لا يفي بموجب هذا الاعتقاد فإذا كان هناك يجب قتله بعد إسلامه فكذلك يجب قتله هنا بعد إسلامه ويجب أن يقال: إذا كان ذلك لا يسقط حده بالتوبة بعد القدرة فكذلك هذا لا يسقط حده بالتوبة بعد القدرة.

ومن أمعن النظر لم يسترب في أن هذا محارب مفسد كما أن قاطع الطريق محارب مفسد.

ولا يرد على هذا سب الله تعالى لأن أحدا من البشر لا يسبه اعتقادا إلا بما يراه تعظيما وإجلالا كزعم أهل التثليث أن له صاحبة وولدا فإنهم يعتقدون أن هذا من تعظيمه والتقرب إليه ومن سبه لا على هذا الوجه فالقول فيه كالقول فيمن سب الرسول على أحد القولين وهو المختار كما سنقرره ومن فرق قال: إنه تعالى لا تلحقه غضاضة ولا انتقاص بذلك ولا يكاد أحد يفعل ذلك أصلا إلا أن يكون وقت غضب ونحو ذلك بخلاف سب الرسول فإنه يسبه انتقاصا له واستخفافا به سبا يصدر عن اعتقاد وقصد إهانة وهو من جنس تلحقه الغضاضة ويقصد بذلك وقد يسب تشفيا وغيظا وربما حل منه في النفوس خبائل ونفر عنه بذلك خلائق ولا تزول نفرتهم عنه بإظهار التوبة كما لا تزول مفسدة الزنا وقطع الطريق ونحو ذلك بإظهار التوبة وكما لا يزول العار الذي يلحق بالمقذوف بإظهار القاذف التوبة فكانت عقوبة الكفر يندرج فيها ما يتبعه من سب الله سبحانه بخلاف سب الرسول.

فإن قيل: قد تكون زيادة العقوبة على عقوبة مجرد الناقض للعهد تحتم قتله ما دام كافرا بخلاف غيره من الكافرين فإن عقد الأمان والهدنة والذمة واسترقاقهم والمن عليهم والمفاداة بهم جائز في الجملة فإذا أتى مع حل دمه لنقض العهد أو لعدمه بالسب تعين قتله كما قررتموه وهكذا الجواب عن المواضع التي قتل النبي صلى الله عليه وسلم فيها من سبه أو أمر بقتله أو أمر أصحابه بذلك فإنها تدل على أن الساب يقتل وإن لم يقتل من هو مثله من الكافرين.

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ليهود في قصة ابن الأشرف: "إنه لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ولكنه نال منا وهجانا بالشعر ولم يفعل هذا أحدا منكم إلا كان السيف".
وإذا كان كذلك فيكون القتل وجب لأمرين: للكفر ولتغلظه بالسب كما يجب قتل المرتد للكفر ولتغلظه بترك الدين الحق والخروج منه فمتى زال الكفر زال الموجب للذم فلم يستقل بقاء أثر السب بإحلال الدم وتبع الكفر في الزوال كما تبعه في الحصول فإنه فرع للكفر ونوع منه فإذا زال الأصل زالت جميع فروعه وأنواعه.
وهذا السؤال قد يمكن تقريره في سب من يدعي الإسلام بناء على أن السب فرع للردة ونوع منها وقد لا يمكن لأنه لم يتجدد من هذا بعد السب ما لم يكن موجودا حال السب بخلاف الكافر.
قلنا: وهذا أيضا دليل على أن قتل الساب حد من الحدود فإنه قد تقدم أنه يجب قتله إن كان معاهدا ولا يجوز استبقاؤه بعد السب بأمان ولا استرقاق ولو كان إنما يقتل لكونه كافرا محاربا لجاز أمانه واسترقاقه والمفاداة به فلما كان جزاؤه القتل علم أن قتله حد من الحدود ليس بمنزلة قتل سائر الكفار.
ومن تأمل الأدلة الشرعية نصوصها ومقاييسها مما ذكرناه ومما لم نذكره ثم ظن بعد هذا أن قتل الساب لمجرد كونه كافرا غير معاهد كقتل الأسير فليس على بصيرة من أمره ولا ثقة من رأيه.
وليس هذا من المسالك المحتملة بل من مسالك القطع فإن من تأمل دلالات الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وما توجبه الأصول الشرعية علم قطعا أن للسب تأثيرا في سفح الدم زائدا على تأثير مجرد الكفر الخالي عن عهد.
نعم قد يقال: هو مقتول بمجموع الأمرين بناء على أن كفر الساب نوع مغلظ لا يحتمل الاستبقاء ككفر المرتد فيكون مقتولا لكفره وسبه ويكون القتل حدا بمعنى أنه يجب إقامته ثم يزول موجبه بالتوبة كقتل المرتد فهذا ليس بمساغ فيما تقدم ما يضعف هذا الوجه ومع هذا فإنه لا يقدح في كون قتل الساب حدا من الحدود وجب لما فيه خصوص ظهور سب الرسول من المفسدة.
وإنما يبقى أن يقال: هذا الحد هل يسقط بالإسلام أم لا؟
فنقول: جميع ما ذكرناه من الدلالات وإن دلت على وجوب قتله بعد إظهار التوبة فهي دالة على أن قتله حد من الحدود وليس لمجرد الكفر وهي دالة على هذا بطريق القطع لما ذكرناه من تفريق الكتاب والسنة والإجماع بين من اقتصر على الكفر الأصلي أو الطارىء أو نقض العهد وبين من سب الرسول من هؤلاء وإذا لم يكن القتل لمجرد الكفر لم يبق إلا أن يكون حدا وإذا ثبت أنه يقتل لخصوص السب لكونه حدا من الحدود لا لعموم كونه كافرا غير ذي عهد أو لعموم كونه مرتدا فيجب أن لا يسقط بالتوبة والإسلام لأن الإسلام والتوبة لا يسقط شيئا من الحدود الواجبة قبل ذلك إذا كانت التوبة بعد الثبوت والرفع إلى الإمام بالاتفاق.
وقد دل القرآن أن حد قاطع الطريق والزاني والسارق والقاذف لا يسقط بالتوبة بعد التمكن من إقامة الحد.
ودلت السنة على مثل ذلك في الزاني وغيره ولم يختلف المسلمون فيما علمناه أن المسلم إذا زنى أو سرق أو قطع الطريق أو شرب الخمر فرفع إلى السلطان وثبت عليه الحد ببينة ثم تاب من ذلك أنه تجب إقامة الحد عليه إلا أن يظن أحد في ذلك خلافا شاذا لا يعتد به فهذه حدود الله وكذلك لو وجب عليه قصاص أو حد أو قذف أو عقوبة سب لمسلم أو معاهد ثم تاب من ذلك لم تسقط عنه العقوبة وكذلك أيضا لم يختلفوا فيما علمناه أن الذمي لو وجب عليه حد قطع الطريق أو حد السرقة أو قصاص أو حد قذف أو تعزير ثم أسلم وتاب من ذلك لم تسقط عنه عقوبة ذلك وكذلك أيضا لو زنى فإنه إذا وجب عليه حد الزنا ثم أسلم لم يسقط عنه بل يقام عليه حد الزنا عند من يقول بوجوبه قبل الإسلام ويقتل حتما عند الإمام أحمد إن كان زنى نقض عهده.
هذا مع الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما قبلها فيغفر للتائب ذنبه مع إقامة الحد عليه تطهيرا له وتنكيلا للناس عن مثل تلك الجريمة فتحصل بإقامة الحد المصلحة العامة وهي زجر الملتزمين للإسلام أو الصغار عن مثل ذلك الفساد فإنه لو لم يقم الحد عند إظهار التوبة لم يتأت إقامة حد في الغالب فإنه لا يشاء المفسد في الأرض إذا أخذ أن يظهر التوبة إلا أظهرها وأوشك كل من هم بعظيمة من العظائم من الأقوال والأفعال أن يرتكبها ثم إذا أحيط به قال: إني تائب.
ومعلوم أن ذلك لو درأ الحد الواجب لتعطلت الحدود وظهر الفساد في البر والبحر ولم يكن في شرع العقوبات والحدود كبير مصلحة وهذا ظاهر لا خفاء به.
ثم الجاني لو تاب توبة نصوحا فذلك نافعة فيما بينه وبين الله يغفر له ما سلف ويكون الحد تطهيرا له وتكفيرا لسيئته وهو من تمام التوبة كما قال ماعز بن مالك للنبي صلى الله عليه وسلم "طهرني" وقد جاء تائبا وقال تعالى لما ذكر كفارة قتل الخطأ: {فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما} وقال تعالى في كفارة الظهار: {ذلكم توعظون به} .
فيشتمل الحد مع التوبة على مصلحتين عظيمتين:

مصلحة زجر النفوس عن مثل تلك الجريمة وهي أهم المصلحتين فإن الدنيا في الحقيقة ليست دار كمال الجزاء وإنما كمال الجزاء في الآخرة وإنما الغالب في العقوبات الشرعية الزجر والنكال وإن كان فيها مقاصد أخر كما أن غالب مقصود العدة براءة الرحم وإن كان فيها مقاصد أخر ولهذا كانت هذه المصلحة مقصودة في كل عقوبة مشروعة.
والمصلحة الثانية: تطهير الجاني وتكفير خطيئته إن كان له عند الله خير أو عقوبة والانتقام منه إن لم يكن كذلك وقد يكون زيادة في ثوابه ورفعه في درجاته.
ونظير ذلك المصائب المقدرة في النفس والأهل والمال فإنها تارة تكون كفارة وطهورا وتارة تكون زيادة في الثواب وعلوا في الدرجات وتارة تكون عقابا وانتقاما.
لكن إذا تاب الإنسان سرا فإن الله يقبل توبته سرا ويغفر له من غير إحواج له إلى أن يظهر ذنبه حتى يقام حده عليه أما إذا أعلن الفساد بحيث يراه الناس ويسمعونه حتى شهدوا به عند السلطان أو اعترف هو به عند السلطان فإنه لا يطهره مع التوبة بعد القدرة إلا إقامته منه عليه إلا أن في التوبة إذا كان الحد لله وثبت بإقراره خلافا سنذكره إن شاء الله تعالى ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب" وقال النبي عليه الصلاة والسلام لما شفع إليه في السارقة: "تطهر خيرا لها" وقال: "من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره" وقال: "من ابتلى من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله فإنه من يبدلنا صفحته نقم عليه كتاب الله".
إذا تبين ذلك فنقول: هذا الذي أظهر سب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسلم أو معاهد قد أتى بهذه المفسدة التي تضمنت مع الكفر ونقض العهد أذى الله ورسوله وانتهاك تلك الحرمة التي هي أفضل حرمة المخلوقين والوقيعة في عرض لا يساوي غيره من الأعراض والطعن في صفات الله وأفعاله وفي دين الله وكتابه وجميع أنبيائه والمؤمنين من عباده فإن الطعن في واحد من الأنبياء طعن في جميع الأنبياء كما قال سبحانه وتعالى: {أولئك هم الكافرون حقا} وطعن في كل من آمن بنبينا من الأنبياء والمؤمنين المتقدمين والمتأخرين وقد تقدم تقرير هذا.
ثم هذه العظيمة صدرت ممن التزم بعقد إيمانه أو أمانه أنه لا يفعل ذلك فإذا وجبت عقوبته على تلك الجريمة لخصوصها كما تقدم امتنع أن يسقط بما يظهره من التوبة كما تقدم أيضا.
ثم هنا مسلكان:
المسلك الأول: وهو مسلك طائفة من أصحابنا وغيرهم أن يقتل حدا لله كما يقتل لقطع الطريق وللردة وللكفر لأن السب للرسول عليه الصلاة والسلام قد تعلق به حق الله وحق كل مؤمن فإن أذاه ليس مقصورا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط كمن سب واحدا من عرض الناس بل هو أذى لكل مؤمن كان ويكون بل هو عندهم من أبلغ أنواع الأذى ويود كل منهم أن يفتدي هذا العرض بنفسه وأهله وماله وعرضه كما تقدم ذكره عن الصحابة من أنهم كانوا يبذلون دماءهم في صون عرضه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدح من فعل ذلك سواء قتل أو غلب ويسميه ناصر الله ورسوله ولو لم يكن السب أعظم من قتل بعض المسلمين لما جاز بذل الدم في صون عرض واحد من الناس وقد قال حسان بن ثابت يخاطب أبا سفيان بن الحارث:
هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
وذلك أنه انتهاك للحرمة التي نالوا بها سعادة الدنيا والآخرة وبها ينالها كل واحد سواهم وبها يقام دين الله ويرضى الله عن عباده ويحصل ما يحبه وينتفي ما يبغضه كما أن قاطع الطريق وإن قتل واحدا فإن مفسدة قطع الطريق تعم جميع الناس فلم يفوض الأمر فيه إلى ولي المقتول.
نعم كان الأمر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم مفوضا إليه فيمن سبه: إن أحب عفا عنه وإن أحب عاقبه وإن كان في سبه حق الله ولجميع المؤمنين لأن الله سبحانه يجعل حقه في العقوبة تبعا لحق العبد كما ذكرناه في القصاص وحقوق الآدميين تابعة لحق الرسول فإنه أولى بهم من أنفسهم ولأن في ذلك تمكينه صلى الله عليه وسلم من أخذ العفو والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين الذي أمره الله تعالى به في كتابه وتمكينه من العفو والإصلاح الذي يستحق به أن يكون أجره على الله وتمكينه من أن يدفع بالتي هي أحسن السيئة كما أمره الله وتمكينه من استعطاف النفوس وتأليف القلوب على الإيمان واجتماع الخلق عليه وتمكينه من ترك التنفير عن الإيمان وما يحصل بذلك من المصلحة يغمر ما يحصل باستبقاء الساب من المفسدة كما دل عليه قوله تعالى: {ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر} .
وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم نفس هذه الحكمة حيث قال: "أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه" وقال فيما عامل به ابن أبي من الكرامة "رجوت أن يؤمن بذلك ألف من قومه" فحقق الله رجاءه ولو عاقب كل من آذاه بالقتل لخامر القلوب عقدا أو وسوسة أن ذلك لما في النفس من حب الشرف وأنه من باب غضب الملوك وقتلهم على ذلك ولو لم يبح له عقوبته لانتهك العرض واستبيحت الحرمة وانخل رباط الدين وضعفت العقيدة في حرمة النبوة فجعل الله له الأمرين فلما انقلب

إلى رضوان الله وكرامته ولم يبق واحدا مخصوص من الخلق إليه استيفاء هذه العقوبة والعفو عنها والحق فيها ثابت لله سبحانه ورسول الله عليه الصلاة والسلام ولعباده المؤمنين وعلم كل ذي عقل أن المسلمين إنما يقتلونه لحفظ الدين وحفظ حمى الرسول ووقاية عرضه فقط كما يقتلون قاطع الطريق لأمن الطرقات من المفسدين وكما يقطعون السارق لحفظ الأموال وكما يقتلون المرتد صونا للداخلين في الدين عن الخروج عنه ولم يبق هنا توهم مقصود جزوي كما قد كان يتوهم في زمانه أن قتل الساب كذلك وتقرير ذلك بالساب له من المسلمين فإنه قد كان له أن يعفو عنه مع أنه لا يحل للأمة إلا إراقة دمه فحاصله أنه في حياته قد غلب في هذه الجناية حقه ليتمكن من الاستيفاء والعفو وبعد موته فهي جناية على الدين مطلقا ليس لها من يمكنه العفو عنها فوجب استيفاؤها وهذا مسلك جيد لمن تدبر غوره.

ثم هنا تقريران:

أحدهما: أن يقال: الساب من جنس المحارب المفسد وقد تقدم في ذلك زيادة بيان ومما يؤيده أنه سبحانه وتعالى قال: {من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا} فعلم أن كل ما أوجب القتل حقا لله كان فسادا في الأرض وإلا لم يبح.

وهذا السب قد أباح الدم فهو فساد في الأرض وهو أيضا محاربة لله ورسوله على ما لا يخفى لأن المحاربة هنا والله أعلم إنما عني بها المحاربة بعد المسالمة لأن المحاربة الأصلية لم يدخل حكمها في هذه الآية وسبب نزولها إنما كان فعل مرتد وناقض عهد فعلم أنهما جميعا دخلا فيها وهذا قد حارب بعد المسالمة وأفسد في الأرض فيتعين إقامة الحد عليه.

الثاني: أن يكون السب جناية من الجنايات الموجبة للقتل كالزنى وإن لم يكن حرابا كحراب قاطع الطريق فإن من الفساد ما يوجب القتل وإن لم يكن حرابا وهذا فساد قد أوجب القتل فلا يسقط بالتوبة كغيره من أنواع الفساد إذ لا يستثنى من ذلك إلا القتل للكفر الأصلي أو الطارىء وقد قدمنا أن هذا القتل ليس هو كقتل سائر الكفار.

فإن قيل: فإذا كان السب حدا لله فيجب أن يسقط بالإسلام كما يسقط حد المرتد بالإسلام وكما يسقط قتل الكافر بالإسلام وذلك أن مجرد تسميته حدا لا يمنع سقوطه بالتوبة أو بالإسلام فإن قتل المرتد حد فإن الفقهاء يقولون: باب حد المرتد ثم إنه يسقط بالإسلام ثم إن هذا أمر لفظي لا تناط به الأحكام وإنما تناط بالمعاني وكل عقوبة لمجرم فهي حد من حيث تزجره وتمنعه عن تلك الجريمة وإن لم تسم حدا لكن لا ريب أنه إنما يقتل للكفر والسب والسب لا يمكن تجريده عن الكفر والمحاربة حتى يفرض ساب قد وجب قتله وهو مؤمن أو معاهد باق على عهده كما يفرض مثل ذلك في الزاني والسارق والقاذف فإن أولئك وجبت عقوباتهم لتلك الجرائم وهي قبل الإسلام وبعده سواء وهذا إنما وجب عقوبته بجرم هو من فروع الكفر وأنواعه فإذا زال الأصل تبعته فروعه فيكون الموجب للقتل أنه كافر محارب وأنه مؤذ لله ولرسوله كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لعقبة بن أبي معيط لما قال "مالي أقتل من بينكم صبرا" فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "بكفرك وافترائك على رسول الله" والعلة إذا كانت ذات وصفين زال الحكم بزوال أحدهما.

ونحن قد نسلم أنه يتحتم قتله إذا كان ذميا كما يتحتم قتل المرتد لتغلظ كفره بأذى الله ورسوله كتغلظ كفر المرتد بترك الدين لكن الإسلام يسقط كل حد تعلق بالكفر كما يسقط حد المرتد فلم ألحقتم هذا الحد بقاطع الطريق والزاني والسارق ولم تلحقوه بالمرتد؟ فهذا نكتة هذا الموضع.

فنقول لا يسقط شيء من الحدود بالإسلام ولا فرق بين المرتد وغيره في المعنى بل كل عقوبة وجبت لسبب ماض أو حاضر فإنها تجب لوجود سببها وتعدم لعدمه فالكافر الأصلي والمرتد لم يقتل لأجل ما مضى من كفره فقط وإنما يقتل للكفر الذي هو الآن موجود إذ الأصل بقاؤه على ما كان عليه فإذا تاب زال الكفر فزال المبيح للدم لأن الدم لا يباح بالكفر إلا حال وجود الكفر إذ المقصود بقتله أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله فإذا انقاد لكلمة الله ودان بدين الله حصل مقصود القتال ومطلوب الجهاد وكذلك المرتد إنما يقتل لأنه تارك للدين مبدل له فإذا هو عاد لم يبقى مبدلا ولا تاركا وبذلك يحصل حفظ الدين فإنه لا يترك مبدلا له.

أما الزاني والسارق وقاطع الطريق فإنه سواء كان مسلما أو معاهدا لم يقتل لدوامه على الزنا والسب وقطع الطريق فإن هذا غير ممكن ولم يقتل لمجرد اعتقاده حل ذلك أو إرادته له فإن الذمي لا يباح دمه بهذا الاعتقاد ولا يباح دم مسلم ولا ذمي بمجرد الإرادة فعلم أن ذلك وجب جزاء على ما مضي وزجرا عما يستقبل منه ومن غيره فمن أظهر سب الرسول من أهل الذمة أو سبه من المسلمين ثم ترك السب وانتهى عنه فليس هو مستديما للسب كما يستديم الكافر المرتد وغيره على كفره بل أفسد في الأرض كما أفسد غيره من الزناة وقطاع الطريق ونحن نخاف أن يتكرر مثل هذا الفساد منه ومن غيره كما نخاف مثل ذلك في الزاني وقاطع الطريق لأن الداعي له إلى ما فعله من السب ممكن منه ومن غيره من الناس فوجب أن يعاقب جزاء بما كسب ونكالا من الله له ولغيره وهذا فرق ظاهر بين قتل المرتد والكافر الأصلي وبين قتل الساب والقاطع والزاني.

وبيانه لأن السب من جنس الجريمة الماضية لا من جنس الجريمة الدائمة لكن مبناه على أن السب يوجب الحد لخصوصه لا لكونه كافرا وقد تقدم بيان ذلك.
يوضح ذلك أن قتل المرتد والكافر الأصلي إلا أن يتوب يزيل مفسدة الكفر لأن الهام بالردة متى علم أنه لا يترك حتى يقتل أو يتوب لم يأتها لأنه ليس له غرض في أن يرتد ثم يعود إلى الإسلام وإنما غرضه في بقائه على الكفر واستدامته.
فأما الساب من المسلمين والمعاهدين فإن غرضه من السب يحصل بإظهاره وينكأ المسلمين بأذاه كما يحصل غرض القاطع من القتل والزاني من الزنا وتسقط حرمة الدين والرسول بذلك كما تسقط حرمة النفوس والأموال في قطع الطريق والسرقة ويؤذي عموم المسلمين أذى يخشى ضرره كما يؤذيهم مثل ذلك من فعل القاطع والسارق ونحوهما ثم إنه إذا أخذ فقد يظهر الإسلام والتوبة مع استبطانه العود إلى مثل ذلك عند القدرة كما يظهر القاطع والسارق والزاني العود إلى مثل هذه الجرائم عند إمكان الفرصة بل ربما يتمكن من هذا السب بعد إظهار الإسلام عند شياطينه ما لم يتمكنه قبل ذلك ويتنوع في أنواع التنقص والطعن غيظا على ما فعل به من القهر والضغط حتى أظهر الإسلام بخلاف من لم يظهر شيئا من ذلك حتى أسلم فإنه لا مفسدة ظهرت لنا منه وبخلاف المحارب الأصلي إذا قتل وفعل الأفاعيل فإنه لم يكن قد التزم الأمان على أنه لا يفعل شيئا من ذلك.
وهذا قد كان التزم لنا بعقد الذمة أن لا يؤذينا بشيء من ذلك ثم لم يف بعهده فلا يؤمن إليه أن يلتزم بعقد الأيمان أن لا يؤذينا بذلك ولا يفي بعقده وذلك لأنه واجب عليه في دينه أن يفي بالعهد فلا يظهر الطعن علينا في ديننا وعالم أن ذلك من التزام الأمور التي عاهدناه على أن لا يؤذينا بها وهو خائف من سيف الإسلام إن خالف كما أنه واجب عليه في دين الإسلام أن لا يتعرض للرسول بسوء وهو خائف من سيف الإسلام إن هو خالف فلم يتجدد له بإظهار الإسلام جنس العاصم الزاجر بخلاف الحربي في ذلك وإن كان في ضمن ذلك زجر لغيره من الناس عن الردة ألا ترى أنه لا يشرع الستر عليه ولا يستحب التعريض للشهود بترك الشهادة عليه وتجب إقامة الشهادة عليه عند الحاكم ولا يستحب العفو عنه قبل الرفع إلى الحاكم وإن كان قد ارتد سرا لأنه متى رفع إلى الحاكم استتابه فنجاه من النار وإن لم يتب قتله فقصر عليه مدة الكفر فكان رفعه مصلحة له محضة بخلاف من استتر لقاذورة من القاذورات فإنه لا ينبغي التعرض إليه لأنه إذا رفع يقتل حتما وقد يتوب إذا لم يرفع فلم يكن الرفع له مصلحة محضة وإنما المصلحة للناس فإذا لم تظهر الفاحشة لم تضرهم.
ومن سب الرسول فإنما يقتله لأذاه لله ولرسوله وللمؤمنين ولطعنه في دينهم فكان بمنزلة من أظهر قطع الطريق والزنى ونحوه المغلب فيه جانب الردع والزجر وإن تضمن مصلحة الجاني وكان قتله لأنه أظهر الفساد في الأرض وكذلك لو سب الذمي سرا لم يتعرض له وكذلك لم ينبغي الستر عليه لأن من أظهر الفساد لا يستر عليه بحال.
وقوله: "السب مستلزم للكفر والحراب بخلاف تلك الجرائم" قلنا: ليس لنا سب خال عن كفر حتى تجرد العقوبة له بل العقوبة على مجموع الأمرين وهذه الملازمة لا توهن أمر السب فإن كونه مستلزما للكفر يوجب تغلظ عقوبته فإذا انفصل الكفر عنه فيما بعد لم يلزم أن لا يكون موجبا للعقوبة إذا كان هو في نفسه يتضمن من المفسدة ما يوجب العقوبة والزجر كما دل عليه الكتاب والسنة والأثر والقياس.
ثم نقول: أقصى ما يقال أنه حد على كفر مغلظ فيه ضرر على المسلمين صدر عن مسلم أو معاهد فمن أين لهم أن مثل هذا تقبل منه التوبة بعد القدرة؟ فإنا قد قدمنا أن التوبة إنما شرعت في حق من تجردت ردته أو تجرد نقضه للعهد فأما من تغلظت ردته أو نقضه بكونه مضرا بالمسلمين فلا بد من عقوبته بعد التوبة.
وقولهم: "إن السب من فروع الكفر وأنواعه" فإن عنوا أن الكفر يوجب ذلك فليس بصحيح وإن عنوا أن الكفر يبيح ذلك فنقول: لكن عقد الذمة حرم عليه في دينه إظهار ذلك كما حرم قتل المسلمين وسرقة أموالهم وقطع طريقهم وافتراش نسائهم وكما حرم قتالهم وإن كان دينه يبيح له ذلك كله فإذا هو آذى المسلمين بما يقتضيه الكفر المجرد عن عهد فإنه يعاقب على ذلك وإن زال الكفر الموجب لذلك فيقتل ويقطع ويعاقب كذلك هنا يعاقب على ما آذى به الله ورسوله والمؤمنين مما يخالف عهده وإن كان دينه يبيحه.
وقولهم: "إن الزاني والسارق وقاطع الطريق قبل الإسلام وبعده سواء" قلنا: هو مثل الساب لأنه قبل الإسلام يعتقد استحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم لولا العهد الذي بينهم وبينه وبعد الإسلام إنما يعتقد تحريمها لأجل الدين وكذلك انتهاكه لعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتقد حله لولا العهد الذي بيننا وبينه وبعد الدين إنما يمنعه منه الدين ولا فرق بين أن يضر المسلمين في دينهم أو دنياهم.
وأما قولهم: "إنما وجب قتله لأجل الأمرين فيسقط بزوال أحدهما" فنقول: بل اجتمع فيه سببان كل منهما يوجب نوعا من القتل يخالف لنوع الآخر وإن كان أحدهما يستلزم الآخر فالكفر يوجب القتل للكفر الأصلي أو للكفر الارتدادي وله أحكام معروفة والسب يوجب القتل لخصوصه حتى يندرج فيه قتل الكفر وقتل الردة وهذا القتل هو المغلب في حق مثل هذا حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم له القتل والعفو وله القتل مع امتناع القتل بالكفر والردة وله القتل بعد سقوط القتل بالكفر والردة كما

قدمنا من الدلائل على ذلك أثرا ونظرا وبينا أن في خصوص السب ما يقتضي القتل لو فرض تجرده عن الكفر والردة فإذا انفصل عنه في أثناء الحال فسقط موجب الكفر والردة لم يسقط موجب السب وقد قدمنا في المسألة الثانية دلائل على ذلك.
ثم نقول: هب أنه وجب لأجل الأمرين فالقتل الواجب لكفر متغلظ بالإضرار إذا زال لا تسقط عقوبة فاعله فوجب أن لا تسقط عقوبة فاعل هذا والعقوبة التي استحقها هي القتل.
وأيضا فإن الإسلام الطارىء لا يمنع ما وجب من العقوبة وإن كان الإسلام يمنع وجوبها ابتداء كالقتل قودا وكحد القذف فإنه إنما يجب بشرط كون الفاعل ذميا ولا يسقط بإسلامه بعد ذلك إذا كان المقتول والمقذوف ذميا.
وأيضا فإن الإسلام لا يمنع قتل الساب ابتداء فأن لا يمنع قتله دواما بطريق الأولى فقوله: "اجتمع سببان فزال أحدهما" ممنوع بل الموجب لقتل هذا لم يزل.
المسلك الثاني: أن يقتل حدا للنبي صلى الله عليه وسلم كما يقتل قودا وكما يجلد القاذف والساب لغيره من المؤمنين وقد تقدمت الدلالة على أن عقوبة شاتم النبي صلى الله عليه وسلم القتل كما أن عقوبة شاتم غيره الجلد وهذا مسلك كثير من أصحابنا وغيرهم.
ومن المعلوم الذي لا ريب فيه أن الرجل لو سب واحدا من المؤمنين أو سب واحدا من أعيان الأمة وهو ميت أو غائب لوجب على من حضره من المسلمين أن ينتصروا له وإذا بلغ الأمر إلى السلطان فإنه يعاقب هذا الجريء بما يزعه عن أذى المؤمنين ثم إن كان حيا وعلم فله أن يعفو عن سابه وأما إن تعذر علمه لموته أو غيبته لم يجز للمسلمين الإمساك عن عقوبة هذا وإذا رفع إلى السلطان عاقبه وإن أظهر التوبة لأن هذا من المعاصي والذنوب المتعلقة بحق آدمي لا يمكن قيامه بطلب هذا الحد وكل ما كان كذلك لم تحتج العقوبة عليه إلى طلب أحد ولا تسقط بالتوبة إذا رفع إلى السلطان ولهذا قلنا: إن من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجب أن يعزر ويؤدب أو يقتل وإن لم يطالب بحقهم معين لأن نصر المسلم واجب على كل مسلم بيده ولسانه فكيف على ولي الأمر؟.
وعلى هذا التقدير فنقول: إن سب النبي صلى الله عليه وسلم كان موجبا للقتل في حياته كما تقدم تقريره وكان إذا علم بذلك تولى هذا الحق فإن أحب استوفى وإن أحب عفا فإذا تعذر إعلامه لغيبته أو موته وجب على المسلمين القيام بطلب حقه ولم يجز العفو عنه لأحد من الخلق كما لا يجوز العفو عن من سب غيره من الأموات والغياب.
وقد قدمنا الدلائل على القتل بخصوص سبه وأن المغلب فيه حقه حتى كان له أن يقتل من سبه أو يعفو عنه كما للرجل أن يعاقب سابه وأن يعفو عنه.
فإن قيل: هذا ينبني على مقدمتين:
إحداهما: أن قذف الميت موجب للحد وقد ذهب أبو بكر بن جعفر صاحب الخلال إلى أنه لا حد لقذف ميت لأن الحي وارثه لم يقذف وإنما قذف الميت وحد القذف لا يستوفى إلا بعد المطالبة وقد تعذرت منه والحد لا يورث إلا بمطالبة الميت وهي منتفية والأكثرون يثبتون الحد لقذف الميت لكن من الفقهاء من يقول: إنما يثبت إذا تضمن القدح في نسب الحي وهو قول الحنفية وبعض أصحابنا وقيل عن الحنفية: لا يأخذ به إلا الوالد أو الولد ومن الفقهاء من يقول: يثبت مطلقا ثم هل يرثه جميع الورثة أو من سوى الزوجين لبقاء سبب الإرث أو العصبة فقط لمشاركتهم له في عمود نسبه؟ فيه ثلاثة أقوال في مذهب الشافعي وأحمد.
الثانية أن حد قذف الميت لا يستوفي إلا بطلب الورثة وذلك أنهم لا يختلفون أنه لا يستوفي إلا بمطالبة الورثة أو بعضهم ومتى عفوا سقط عند الأكثرين.
فعلى هذا ينبغي أن يسقط الحد لقذف النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لا يورث ويكون كقذف من لا وارث له وهذا ليس فيه حد قذف عند أكثر الفقهاء أو يقال: لا يستوفي حتى يطالب بعض الهاشميين أو بعض القرشيين.
فنقول: الجواب من ثلاثة أوجه:
أحدها: أنا لم نجعل سب النبي صلى الله عليه وسلم وقذفه من حد القذف الذي لا يستوفى حتى يطلبه المستحق فإن ذاك إنما هو إذا علم به وإنما هو من باب السب والشتم الذي يعلم أنه حرام باطل وقد تعذر علم المسبوب به كما لو رمى رجل بعض أعيان الأمة بالكفر أو الكذب أو شهادة الزور أو سبه سبا صريحا فإنا لا نعلم مخالفا في أن هذا الرجل يعاقب على ذلك كما يعاقب على ما ينتهكه من المحارم انتصارا لذلك الرجل الكريم في الأمة وزجرا عن معصية الله كمن يسب الصحابة أو العلماء أو الصالحين.
الوجه الثاني: أن سبه سب لجميع أمته وطعن في دينهم وهو سب تلحقهم به غضاضة وعار بخلاف سب الجماعة الكثيرة بالزنا فإنه يعلم كذب فاعله وهذا يوقع في بعض النفوس ريبا وإذا كان قد آذى جميع المؤمنين أذى يوجب القتل وهو حق تجب عليهم المطالبة به من حيث وجب عليهم إقامة الدين فيكون شبيها بقذف الميت الذي فيه قدح في نسب الحي إذا طالب به وذاك يتعين إقامته.

وبهذا يظهر الفرق بينه وبين غيره من الأموات على قول أبي بكر فإن ذلك الميت لا يتعدى ضرر قذفه في الأصل إلى غيره فإذا تعذرت مطالبته أمكن أن يقال: لا يستوفي حد قذفه وهنا ضرر السب في الحقيقة إنما يعود إلى الأمة بفساد دينها وذل عصمتها وإهانة مستمسكها وإلا فالرسول صلوات الله عليه وسلامه في نفسه لا يتضرر بذلك.
وبه يظهر الفرق بينه وبين غيره في أن حد قذف الغير إنما يثبت لورثته أو لبعضهم وذلك لأن العار هناك إنما يلحق الميت أو ورثته وهنا العار يلحق جميع الأمة لا فرق في ذلك بين الهاشميين وغيرهم بل أي الأمة كان أقوى حبا لله ورسوله وأشد إتباعا له وتعزيرا وتوقيرا كان حظه من هذا الأذى والضرر أعظم وهذا ظاهر لا خفاء به وإذا كان هذا ثابتا لجميع الأمة فإنه مما يجب عليهم القيام به ولا يجوز لهم العفو عنه بوجه من الوجوه لأنه وجب لحق دينهم لا لحق دنياهم بخلاف حد قذف قريبهم فإنه وجب لحظ نفوسهم ودنياهم فلهم أن يتركوه وهذا يتعلق بدينهم فالعفو عنه عفو عن حدود الله وعن انتهاك حرماته فظهر الجواب عن المقدمتين المذكورتين.
الوجه الثالث: أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث فلا يصح أن يقال: إن حق عرضه يختص به أهل بيته دون غيرهم كما أن ماله لا يختص به أهل بيته دون غيرهم بل أولى لأن تعلق حق الأمة بعرضه أعظم من تعلق حقهم بماله وحينئذ فيجب المطالبة باستيفاء حقه على كل مسلم لأن ذلك من تعزيره ونصره وذلك فرض على كل مسلم.
ونظير ذلك أن يقتل مسلم أو معاهد نبيا من الأنبياء فإن قتل ذلك الرجل متعين على الأمة ولا يجوز أن يجعل حق دمه إلى من يكون وارثا له لو كان يورث: إن أحب قتل وإن أحب عفا على الدية أو مجانا ولا يجوز تقاعد الأمة عن قتل قاتله فإن ذلك أعظم من جميع أنواع الفساد ولا يجوز أن يسقط حق دمه بتوبة القاتل أو إسلامه فإن المسلم أو المعاهد لو ارتد أو نقض العهد وقتل مسلما لوجب عليه القود ولا يكون ما ضمه إلى القتل من الردة ونقض العهد مخففا لعقوبته وما أظن أحدا يخالف في مثل هذا مع أن مجرد قتل النبي ردة ونقض للعهد باتفاق العلماء وعرضه كدمه فإن عقوبته القتل كما أن عقوبة دمه وعرضه ممنوع من المسلم بإسلامه ومن المعاهد بعهده فإذا انتهكا حرمته وجبت عليهما العقوبة لذلك.
الطريقة الثامنة عشرة: وهي طريقة القاضي أبي يعلى أبي يعلى أن سب النبي صلى الله عليه وسلم يتعلق به حقان: حق لله وحق لآدمي.
فأما حق الله فهو ظاهر وهو القدح في رسالته وكتابه ودينه.
وأما حق الآدمي فظاهر أيضا فإنه أدخل المعرة على النبي صلى الله عليه وسلم بهذا السب وأناله بذلك غضاضة وعارا.
والعقوبة إذا تعلق فيها حق لله وحق لآدمي لم تسقط بالتوبة كالحد في المحاربة فإنه يتحتم قتله ثم لو تاب قبل القدرة عليه سقط حق الله من انحتام القتل والصلب ولم يسقط حق الآدمي من القود كذلك هنا.
فإن قيل: المغلب هنا حق الله ولهذا لو عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك لم يسقط بعفوه.
قلنا: قد قال القاضي أبو يعلى: في هذا نظر على أنه إنما لم يسقط بعفوه لتعلق حق الله به فهو كالعدة إذا أسقط الزوج حقه منها لم تسقط لتعلق حق الله بها ولم يدل هذا على أنه لا حق لآدمي فيها كذلك هنا فقد تردد القاضي أبو يعلى في جواز عفو النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموضع وقطع في موضع آخر أنه كان له أن يسقط حق سبه لأنه حق له وذكر في قول الأنصاري للنبي صلى الله عليه وسلم: "أن كان ابن عمتك" وقد عرض للنبي بما يستحق به العقوبة ولم يعاقبه لأنه حمل قول النبي صلى الله

عليه وسلم للزبير اسق بأنه قضى له على الأنصاري للقرابة وفي الرجل الذي أغلظ لأبي بكر ولم يعزره فقال القاضي: التعزير هنا وجب لحق آدمي وهو افتراؤه على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أبي بكر وله أن يعفو عنه وكذلك ذكر ابن عقيل عنه أن الحق كان للنبي صلى الله عليه وسلم وله تركه وقال ابن عقيل: قد عرض هذا للنبي صلى الله عليه وسلم بما يقتضي العقوبة والتهجم على النبي صلى الله عليه وسلم يوجب التعزير لحق الشرع دون أن يختصه في نفسه قال: وقد عزره النبي صلى الله عليه وسلم بحبس الماء عن زرعه وهو نوع ضرر وكسر لعرضه وتأخير لحقه وعندنا أن العقوبات بالمال باقية غير منسوخة وليس يختص التعزير بالضرب في حق كل أحد.
وقول ابن عقيل هذا يضمن ثلاثة أشياء:
أحدها: أن هذا القول إنما كان يوجب التعزير لا القتل.
والثاني: أن ذلك واجب لحق الشرع ليس له أن يعفو عنه.
الثالث: أنه عزره بحبس الماء.
والثلاثة ضعيفة جدا والصواب المقطوع به أنه كان له العفو كما دلت عليه الأحاديث السابقة لما ذكرناه من المعنى فيه وحينئذ فيكون ذلك مؤيدا لهذه الطريقة.
وقد دل على ذلك ما ذكرناه من أن النبي صلى الله عليه وسلم عاقب من سبه وآذاه في الموضع الذي سقطت فيه حقوق الله نعم صار سب النبي صلى الله عليه وسلم سبا لميت وذلك لا يسقط بالتوبة البتة.

وعلى هذه الطريقة فالفرق بين سب الله وسب رسوله ظاهر فإن هناك الحق لله خاصة كالزنى والسرقة وشرب الخمر وهنا الحق لهما فلا يسقط حق الآدمي بالتوبة كالقتل في المحاربة.
الطريقة التاسعة عشرة: أنا قد ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد من المسلمين قتل ابن أبي سرح وقد جاء مسلما تائبا ونذر دم أنس بن زنيم إلى أن عفا عنه بعد الشفاعة وأعرض عن أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية وقد جاءا مسلمين مهاجرين وأراق دماء من سبه من النساء من غير قتال وهن منقادات مستسلمات وقد كان هؤلاء حربيين لم يلتزموا ترك سبه ولا عاقدونا على ذلك فالذي عقد الأيمان أو الأمان على ترك سبه إذا جاء يريد الإسلام ويرغب فيه إما أن يجب قبول الإسلام منه والكف عنه أو لا يجب فإن قيل "يجب" فهو خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن قيل "لا يجب" فهو دليل على أنه إذا جاء ليتوب ويسلم جاز قتله وكل من جاز قتله وقد جاء مسلما تائبا مع علمنا بأنه قد جاء كذلك جاز قتله وإن أظهر الإسلام والتوبة لا نعلم بينهما فرقا عند أحد من الفقهاء في جواز القتل فإن إظهار إرادة الإسلام هي أول الدخول فيه كما أن التكلم بالشهادتين هو أول الالتزام له ولا يعصم الإسلام إلا دم من يجب قبوله منه فإذا أظهر أنه يريده فقد بذل ما يجب قبوله فيجب قبوله كما لو آداه.
وهنا نكتة حسنة وهي أن ابن أبي أمية وأبا سفيان لم يزالا كافرين وليس في القصة بيان أنه أراد قتلهما بعد مجيئهما وإنما فيها الإعراض عنهما وذلك عقوبة من النبي صلى الله عليه وسلم.
وأما حديث ابن أبي سرح فهو نص في إباحة دمه بعد مجيئه لطلب البيعة وذلك لأن ابن أبي سرح كان مسلما فارتد وافترى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان يتمم له القرآن ويلقنه ما يكتبه من الوحي فهو ممن ارتد بسب النبي صلى الله عليه وسلم ومن ارتد بسببه فقد كان له أن يقتله من غير استتابة وكان له أن يعفو عنه وبعد موته تعين قتله.
وحديث ابن زنيم فإنه أسلم قبل أن يقدم على النبي صلى الله عليه وسلم مع بقاء دمه مندورا مباحا إلى أن عفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن روجع في ذلك.
وكذلك النسوة اللاتي أمر بقتلهن إنما وجهه والله أعلم أنهن كن قد سببنه بعد المعاهدة فانتقض عهدهن فقتلت اثنتان والثالثة لم يعصم دمها حتى استؤمن لها بعد أيام ولو كان دمها معصوما بالإسلام لم يحتج إلى الأمان وهذه الطريقة مبناها على أن من جاز قتله بعد أن أظهر أنه جاء ليسلم جاز قتله بعد أن أسلم فإن من لم يعصم دمه إلا عفو وأمان لم يكن الإسلام هو العاصم لدمه وإن كان قد تقدم ذكر هذا لكن ذكرناه لخصوص هذا المأخذ.
الطريقة الموفية عشرين: أن الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مطلقة بقتل سابه لم يؤمر فيها باستتابة ولم يستثن منها من تاب وأسلم كما هي مطلقة عنهم في قتل الزاني المحصن ولو كان يستثني منها حال دون حال لوجب بيان ذلك فإن سب النبي صلى الله عليه وسلم قد وقع منه وهو الذي علق القتل عليه ولم يبلغنا حديث ولا أثر يعارض ذلك وهذا بخلاف قوله صلى الله عليه وسلم: "من بدل دينه فاقتلوه" فإن المبدل للدين هو المستمر على التبديل دون من عاد وكذلك قوله: "التارك لدينه المفارق للجماعة" فإن من عاد إلى دينه لم يجز أن يقال: هو تارك لدينه ولا مفارق للجماعة وهذا المسلم أو المعاهد إذا سب الرسول ثم تاب لم يكن أن يقال: ليس بساب للرسول أو لم يسب الرسول فإن هذا الوصف واقع عليه تاب أو لم يتب كما يقع على الزاني والسارق والقاذف وغيرهم.
الطريقة الحادية والعشرون: أنا قد قررنا أن المسلم إذا سب الرسول يقتل وإن تاب بما ذكرناه من النص والنظر والذمي كذلك فإن أكثر ما يفرق به إما كون المسلم تبين بذلك أنه منافق أو أنه مرتد قد وجب عليه حد من الحدود فيستوفى منه ونحو ذلك وهذا المعنى موجود في الذمي فإن إظهاره للإسلام بمنزلة إظهاره للذمة فإذا لم يكن صادقا في عهده وأمانه لم نعلم أنه صادق في إسلامه وإيمانه وهو معاهد قد وجب عليه حد من الحدود فيستوفي منه كسائر الحدود.
وقول من يقول "قتل المسلم أولى" يعارضه قول من يقول "قتل الذمي أولى" وذلك أن الذمي دمه أخف حرمة والقتل إذا وجب عليه في حال الذمة لسبب لم يسقط عنه بالإسلام.
يبين ذلك أنه لا يبيح دمه إلا إظهار السب وصريحه بخلاف المسلم فإن دمه محقون وقد يجوز أنه غلظ بالسب فإذا حقق الإسلام والتوبة من السب ثبت العاصم مع ضعف المبيح والذمي المبيح محقق والعاصم لا يرفع ما وجب فيكون أقوى من هذا الوجه.
ألا ترى أن المسلم لو كان منافقا لم يقتصر على السب فقط بل لا بد أن تظهر منه كلمات مكفرة غير ذلك بخلاف الذمي فإنه لا يطلب على كفره دليل وإنما يطلب على محاربته وإفساده والسب من أظهر الأدلة على ذلك كما تقدم.
الطريقة الثانية والعشرون: أنه سب لمخلوق لم يعلم عفوه فلا يسقط بالإسلام كسب سائر المؤمنين وأولى فإن الذمي لو سب مسلما أو معاهدا ثم أسلم لعوقب على ذلك بما كان يعاقب به قبل أن يسلم فكذلك إذا سب الرسول وأولى وكذلك يقال في المسلم إذا سبه.

تحقيق ذلك أن القاذف والشاتم إذا قذف إنسانا فرفعه إلى السلطان فتاب كان له أن يستوفي منه الحد وهذا الحد إنما وجب لما ألحق به من العار والغضاضة فإن الزنا أمر يستخفى منه فقذف المرء به يوجب تصديق كثير من الناس به وهو من الكبائر التي لا يساويها غيرها في العار والمنقصة إذا تحقق ولا يشبهه غيره في لحوق العار إذا لم يتحقق فإنه إذا قذفه بقتل كان الحق لأولياء المقتول ولا يكاد يخلو غالبا من ظهور كذب الرامي به أو براءة المرمي به من الحق بإبراء أهل الحق أو بالصلح أو بغير ذلك على وجه لا يبقي عليه عار وكذلك الرمي بالكفر فإن ما يظهره من الإسلام يكذب هذا الرامي به فلا يضر إلا صاحبه ورمي الرسول صلى الله عليه وسلم بالعظائم يوجب إلحاق العار به والغضاضة لأنه بأي شيء رماه من السب كان متضمنا للطعن في النبوة وهي وصف خفي فقد يؤثر كلامه أثرا في بعض النفوس فتوبته بعد أخذه قد يقال: إنما صدرت عن خوف وتقية فلا يرتفع العار والغضاضة الذي لحقه به كما لا يرتفع العار الذي يلحق بالمقذوف بإظهار القاذف التوبة ولذلك كانت توبته توجب زوال الفسق عنه وفاقا وتوجب قبول شهادته عند أكثر الفقهاء ولا يسقط الحد الذي للمقذوف فكذلك شاتم الرسول.

فإن قيل: ما أظهره الله لنبيه من الآيات والبراهين المحققة لصدقه في نبوته تزيل عار هذا السب وتبين أنه مبرأ بخلاف المقذوف بالزنا.

قيل: فيجب على هذا أن لو قذفه أحد بالزنا في حياته أن لا يجب عليه حد قذف وهذا ساقط وكان يجب على هذا أن لا يعبأ بمن يسبه ويهجوه بل يكون من يخرج عن الدين والعهد بهذا وبغيره على حد واحد وهو خلاف الكتاب والسنة وما كان عليه السابقون ويجب إذا قذف رجل سفيه معروف بالسفه والفرية من هو مشهور عند الخاصة والعامة بالعفة مشهود له بذلك أن لا يحد وهذا كله فاسد وذلك لأن مثل هذا السب والقذف لا يخاف من تأثيره في قلوب أولي الألباب وإنما يخاف من تأثيره في عقول ضعيفة وقلوب مريضة ثم سمع العالم بكذبه له من غير نكير يصغر الحرمة عنده وربما طرق له شبهة وشك فإن القلوب سريعة

التقلب وكما أن حد القذف شرع صونا للعرض من التلطخ بهذه القاذورات وسترا للفاحشة وكتما لها فشرع ما يصون عرض الرسول من التلطيخ بما قد ثبت أنه بريء منه أولى وستر الكلمات التي أوذي بها في نيل منه فيها أولى لما في ذكرها من تسهيل الاجتراء عليه إلا أن حد هذا السب والقذف القتل لعظم موقعه وقبح تأثيره فإنه لو لم يؤثر إلا تحقيرا لحرمته أو فساد قلب واحد أو إلقاء شبهة في قلب كان بعض ذلك يوجب القتل بخلاف عرض الواحد من الناس فإنه لا يخاف منه مثل هذا وسيجيء الجواب عما يتوهم فرقا بين سب النبي صلى الله عليه وسلم وسب غيره في سقوط حده بالتوبة دون حد غيره.

الطريقة الثالثة والعشرون: أن قتل الذمي إذا سب إما أن يكون جائزا غير واجب أو يكون واجبا والأول باطل بما قدمناه من الدلائل في المسألة الثانية وبينا أنه قتل واجب وإذا كان واجبا فكل قتل يجب على الذمي بل كل عقوبة وجبت على الذمي بقدر زائد على الكفر فإنها لا تسقط بالإسلام أصلا جامعا وقياسا جليا فإنه يجب قتله بالزنا والقتل في قطع الطريق وبقتل المسلم أو الذمي ولا يسقط الإسلام قتلا واجبا وبهذا يظهر الفرق بين قتله وقتل الحربي الأصلي أو الناقض المحض فإن القتل هناك ليس واجبا عينا وبه يظهر الفرق بين هذا وبين سقوط الجزية عنه بالإسلام عند أكثر الفقهاء غير الشافعي فإن الجزية عند بعضهم عقوبة للمقام على الكفر وعند بعضهم عوض عن حقن الدماء وقد يقال: أجرة سكنى الدار ممن لا يملك السكنى فليست عقوبة وجبت لقدر زائد على الكفر.

الطريقة الرابعة والعشرون: أنه قتل لسبب ماض فلم يسقط بالتوبة والإسلام كالقتل للزنى وقطع الطريق وعكسه القتل لسبب حاضر وهو القتل لكفر قديم باق أو محدث جديد باق أعني الكفر الأصلي والطارئ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله" فأمر بقتله للأذى ماض ولم يقل "فإنه يؤذي الله ورسوله" وكذلك ما تقدم من الآثار فيها دلالة على أن السب أوجب القتل والسب كلام لا يدوم ويبقى بل هو كالأفعال المنصرمة من القتل والزنى وما كان هكذا فالحكم فيه عقوبة فاعله مطلقا بخلاف القتل للردة أو للكفر الأصلي فإنه إنما يقتل لأنه حاضر موجود حين القتل لأن الكفر اعتقاد والاعتقاد يبقى في القلب وإنما يظهر أنه اعتقاد بما يظهر من قول ونحوه فإذا ظهر فالأصل بقائه فيكون هذا الاعتقاد حاصلا في القلب وقت القتل وهذا وجه محقق ومبناه على أن قتل الساب ليس لمجرد الردة ونقض العهد فقط كغيره ممن جرد الردة وجرد نقض العهد بل لقدر زائد على ذلك وهو ما جاء به من الأذى والإضرار وهذا أصل قد تمهد على وجهه لا يستريب فيه لبيب.

الطريقة الخامسة والعشرون: أن هذا قتل تعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم فلم يسقط بإسلام الساب كما لو قتل نبيا وذلك أن المسلم أو المعاهد إذا قتل نبيا ثم أسلم بعد ذلك لم يسقط عنه القتل فإنه لو قتل بعض الأمة لم يسقط عنه القتل بإسلامه فكيف يسقط عنه إذا قتل النبي؟ ولا يجوز أن يتخير فيه خليفة بعد الإسلام بين القتل والعفو على الدية أو أكثر منها كما يتخير في قتل قاتل من لا وارث له لأن قتل النبي أعظم أنواع المحاربة والسعي في الأرض فسادا فإن هذا حارب الله ورسوله وسعى في

الأرض فسادا بلا ريب وإذا كان من قاتل على خلاف أمره محاربا له ساعيا في الأرض فسادا فمن قاتله أو قتله فهو أعظم محاربة وأشد سعيا في الأرض فسادا وهو من أكبر أنواع الكفر ونقض العهد وإن زعم أنه لم يقتله مستحلا كما ذكره إسحاق بن راهويه من أن هذا إجماع من المسلمين وهو ظاهر وإذا وجب قتله عينا وإن أسلم وجب قتل سابه أيضا وإن أسلم لأن كلاهما أذى له يوجب القتل لا لمجرد كونه ردة أو نقض عهد ولا تمثيلا له بقتل غيره أو سبه فإن سب غيره لا يوجب القتل وقتل غيره إنما فيه القود الذي يتخير فيه الوارث أو السلطان بين القتل أو أخذ الدية وللوارث أن يعفو عنه مطلقا بل لكون هذا محاربة لله ورسوله وسعيا في الأرض فسادا ولا يعلم شيء أكثر منه فإن أعظم الذنوب الكفر وبعده قتل النفس وهذا أقبح الكفر وقتل أعظم النفوس قدرا ومن قال: "إن حد سبه يسقط بالإسلام" لزمه أن يقول: إن قاتله إذا أسلم يصير بمنزلة قاتل من لا وارث له من المسلمين لأن القتل بالردة ونقض العهد سقط ولم يبق إلا مجرد القود كما قال بعضهم: إن قاذفه إذا أسلم جلد ثمانين أو أن يقول: يسقط عنه القود بالكلية كما أسقط حد قذفه وسبه بالكلية وقال: انغمر حد السب في موجب الكفر لا سيما على رأيه إن كان السب من كافر ذمي يستحل قتله وعداوته ثم أسلم بعد ذلك وأقبح بهذا من قول ما أنكره وأبشعه وأنه لا يقشعر منه الجلد أن تطل دماء الأنبياء في موضع تثأر فيه دماء غيرهم وقد جعل الله عامة ما أصاب بني إسرائيل من الذلة والمسكنة والغضب حتى سفك منهم من الدماء ما شاء الله ونهبت الأموال وزال الملك عنهم وسبيت الذرية وصاروا تحت أيدي غيرهم إلى يوم القيامة إنما هو بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق وكل من قتل نبيا فهذا حاله وإنما هذا بقوله: {وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم} عطف خاص على عام وإذا كان هذا باطلا فنظيره باطل مثله فإن أذى النبي إما أن يندرج في عموم الكفر والنقض أو يسوى بينه وبين أذى غيره فيما سوى ذلك أو يوجب القتل لخصوصه فإذا بطل القسمان الأولان تعين الثالث ومتى أوجب القتل لخصوصه فلا ريب أنه يوجبه مطلقا.

واعلم أن منشأ الشبهة في هذه المسألة القياس الفاسد وهو التسوية في الجنس بين المتباينين تباينا لا يكاد يجمعهما جامع وهو التسوية بين النبي وغيره في الدم أو في العرض إذا فرض عود المنتهك إلى الإسلام وهو مما يعلم بطلانه ضرورة ويقشعر الجلد من التفوه به فإن من قتله للردة أو للنقض فقط ولم يجعل لخصوص كونه أذى له أثرا وإنما المؤثر عنده عموم وصف الكفر إما أن يهدر خصوص الأذى أو يسوى فيه بينه وبين غيره زعما منه أن جعله كفرا ونقضا هو غاية التعظيم وهذا كلام من لم ير للرسول حقا يزيد على مجرد تصديقه في الرسالة وسوى بينه وبين سائر المؤمنين فيما سوى هذا الحق.

وهذا كلام خبيث يصدر عن قلة فقه ثم يجر إلى شعبة نفاق ثم يخاف أن يخرج إلى النفاق الأكبر وأنه لخليق به ومن قال هذا القول من الفقهاء لا يرتضي أن يلتزم مثل هذا المحذور ولا يفوه به فإن الرسول أعظم في صدورهم من أن يقولوا فيه مثل هذا لكن هذا لازم قولهم لزوما لا محيد عنه وكفى بقول فسادا أن يكون هذا حقيقته بعد تحريره وإلا فمن تصور أن له حقوقا كثيرة عظيمة مضافة إلى الإيمان به وهي زيادة في الإيمان به كيف يجوز أن يهدر أذاه إذا فرض عريا عن الكفر أو يسوى بينه وبين غيره؟ أرأيت لو أن رجلا سب أباه وآذاه كانت عقوبته المشروعة مثل عقوبة من سب غير أبيه أم يكون أشد لما قابل الحقوق بالعقوق؟ وقد قال سبحانه وتعالى: {فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة} الآية

وفي مراسيل أبي داود عن ابن المسيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من ضرب أباه فاقتلوه" وبالجملة فلا يخفى على لبيب أن حقوق الوالدين لما كانت أعظم كان النكال على أذاهما باللسان وغيره أشد مع أنه ليس كفرا فإذا كان قد أوجب له من الحقوق ما يزيد على التصديق وحرم من أنواع أذاه ما لا يستلزم التكذيب فلا بد لتلك الخصائص من عقوبات على الفعل والترك ومما هو كالإجماع من المحققين امتناع أن يسوى بينه وبين غيره في العقوبة على خصوص أذاه وهو ظاهر لم يبق إلا أن يكون القتل جزاء ما قوبل به من حقوقه بالعقوق جزاء وفاقا وأنه لقليل له ولعذاب الآخرة أشد وقد لعن الله مؤذيه في الدنيا والآخرة وأعد له عذابا مهينا.

الطريقة السادسة والعشرون: أنا قد قدمنا من السنة وأقوال الصحابة ما دل على قتل من آذاه بالتزوج بنسائه والتعرض بهذا الباب لحرمته في حياته أو بعد موته وأن قتله لم يكن حد الزنا من وطء ذوات المحارم وغيرهن بل لما في ذلك من أذاه فإما أن يجعل هذا الفعل كفرا أو لا يجعل فإن لم يجعل كفرا فقد ثبت قتل من آذاه مع تجرده عن الكفر وهو المقصود فالأذى بالسب ونحوه أغلظ وإن جعل كفرا فلو فرض أنه تاب منه لم يجز أن يقال: يسقط القتل عنه لأنه يستلزم أن يكون من الأفعال ما يوجب القتل ويسقط بالتوبة بعد القدرة وثبوته عند الإمام وهذا لا عهد لنا به في الشريعة ولا يجوز إثبات مالا نضير له إلا بنص وهو لعمري سمح فإن إظهار التوبة باللسان من فعل تشتهيه النفوس سهل على ذي الغرض إذا أخذ فيسقط مثل هذا الحد بهذا وإذا لم يسقط القتل الذي أوجبه هذا الأذى عنه فكذلك القتل الذي أوجبه أذى اللسان وأولى لأن القرآن قد غلظ هذا على ذاك والتقدير أن كلاهما كفر فإذا لم يسقط قتل من أتى بالأدنى فأن لا يسقط قتل من أتى بالأعلى أولى.

الطريقة السابعة والعشرون: أنه سبحانه وتعالى قال: {إن شانئك هو الأبتر} فأخبر سبحانه أن شانئه هو الأبتر والبتر: القطع يقال: بتر يبتر بترا وسيف بتار إذا كان قاطعا ماضيا ومنه في الاشتقاق الأكبر تبره تتبيرا إذا أهلكه والتبار: الهلاك والخسران وبين سبحانه أنه هو الأبتر بصيغة الحصر والتوكيد لأنهم قالوا: إن محمدا ينقطع ذكره لأنه لا ولد له فبين الله أن الذي يشنأه هو الأبتر لا هو والشنآن منه ما هو باطن في القلب لم يظهر ومنه ما يظهر على اللسان وهو أعظم الشنآن وأشده وكل جرم استحق فاعله عقوبة من الله إذا أظهر ذلك الجرم عندنا وجب أن نعاقبه ونقيم عليه حد الله فيجب أن نبتر من أظهر شنآنه وأبدى عداوته وإذا كان ذلك واجبا وجب قتله وإن أظهر التوبة بعد القدرة وإلا لما انبتر له شانئ بأيدينا في غالب الأمر لأنه لا يشاء شانئ أن يظهر شنآنه ثم يظهر المتاب بعد رؤية السيف إلا فعل فإن ذلك سهل على من يخاف السيف.
تحقيق ذلك أنه سبحانه رتب الانبتار على شنآنه والاسم المشتق المناسب إذا علق به حكم كان ذلك دليلا على أن المشتق منه علة لذلك الحكم فيجب أن يكون شنآنه هو الموجب لانبتاره وذلك أخص مما تضمنه الشنآن من الكفر المحض أو نقض العهد والانبتار يقتضي وجوب قتله بل يقتضي انقطاع العين والأثر فلو جاز استحياؤه بعد إظهار الشنآن لكان في ذلك إبقاء لعينه وأثره وإذا اقتضى الشنآن قطع عينه وأثره كان كسائر الأسباب الموجبة لقتل الشخص وليس شيء يوجب قتل الذمي إلا هو موجب لقتله بعد الإسلام إذ الكفر المحض مجوز للقتل لا موجب له على الإطلاق وهذا لأن الله سبحانه لما رفع ذكر محمد عليه الصلاة والسلام فلا يذكر إلا ذكر معه ورفع ذكر من اتبعه إلى يوم القيامة حتى أنه يبقى ذكر من بلغ عنه ولو حديثا وإن كان غير فقيه قطع أثر من شنأه من المنافقين وإخوانهم من أهل الكتاب وغيرهم فلا يبقى له ذكر حميد وإن بقيت أعيانهم وقتا ما إذا لم يظهروا الشنآن فإذا أظهروه محقت أعيانهم وآثارهم تقديرا وتشريعا فلو استبقى من أظهر شنآنه بوجه ما لم يكن مبتورا إذ البتر يقتضي قطعه ومحقه من جميع الجوانب والجهات فلو كان له وجه إلى البقاء لم يكن مبتورا.
يوضح ذلك أن العقوبات التي شرعها الله نكالا مثل قطع السارق ونحوه لا تسقط بإظهار التوبة إذ النكال لا يحصل بذلك فما شرع لقطع صاحبه وبتره ومحقه كيف يسقط بعد الأخذ فإن هذا الفظ يشعر بأن المقصود اصطلام صاحبه واستئصاله واجتياحه وقطع شنآنه وما كان بهذه المثابة كان عما يسقط عقوبته أبعد من كل أحد وهذا بين لمن تأمله والله أعلم.
والجواب عن حججهم: أما قولهم "هو مرتد فيستتاب كسائر المرتدين" فالجواب أن هذا مرتد بمعنى أنه تكلم بكلمة صار بها كافرا حلال الدم مع جواز أن يكون مصدقا للرسول معترفا بنوبته لكن موجب التصديق توقيره في الكلام فإذا انتقصه في كلامه ارتفع حكم التصديق وصار بمنزلة اعتراف إبليس لله بالربوبية فإنه موجب للخضوع له فلما استكبر عن أمره بطل حكم ذلك الاعتراف فالإيمان بالله وبرسوله قول وعمل أعني بالعمل ما ينبعث عن القول والاعتقاد من التعظيم والإجلال فإذا عمل ضد ذلك من الاستكبار والاستخفاف صار كافرا وكذلك كان قتل النبي كفرا باتفاق العلماء فالمرتد: كل من أتى بعد الإسلام من القول أو العمل بما يناقض الإسلام بحيث لا يجتمع معه وإذا كان كذلك فليس كل من وقع عليه اسم المرتد يحقن دمه بالإسلام فإن ذلك لم يثبت بلفظ علم عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه وإنما جاء عنه وعن أصحابه في ناس مخصوصين أنهم استتابوهم أو أمروا باستتابتهم ثم إنهم أمروا بقتل الساب وقتلوه من غير استتابة.
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قتل العرنيين من غير استتابة وأنه أهدر دم ابن خطل ومقيس بن حبابة وابن أبي سرح من غير استتابة فقتل منهم اثنان وأراد من أصحابه أن يقتلوا الثالث بعد أن جاء تائبا.
فهذه سنة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين وسائر الصحابة تبين لك أن من المرتدين من يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته ومنهم من يستتاب وتقبل توبته فمن لم يوجد منه إلا مجرد تبديل الدين وتركه وهو مظهر لذلك فإذا تاب قبلت توبته كالحارث بن سويد وأصحابه والذين ارتدوا في عهد الصديق رضي الله عنه ومن كان مع ردته قد أصاب ما يبيح الدم من قتل مسلم وقطع الطريق وسب الرسول والافتراء عليه ونحو ذلك وهو في دار الإسلام غير ممتنع بفئة فإنه إذا أسلم يؤخذ بذلك الموجب للدم فيقتل للسب وقطع الطريق مع قبول إسلامه هذه طريقة من يقتله لخصوص السب وكونه حدا من الحدود أو حقا للرسول فإنه يقول: الردة نوعان: ردة مجردة وردة مغلظة والتوبة إنما هي مشروعة في الردة المجردة فقط دون الردة المغلظة وهذه ردة مغلظة وقد تقدم تقرير ذلك في الأدلة.
ثم الكلمة الوجيزة في الجواب أن يقال: جعل الردة جنسا واحدا تقبل توبة أصحابه ممنوع فلا بد له من دليل ولا نص في المسألة والقياس متعذر لوجود الفرق.
ومن يقتله لدلالة السب على الزندقة فإنه يقول: هذا لم يثبت إذا لا دليل يدل على صحة التوبة كما تقدم.
وبهذا حصل الجواب عن احتجاجهم بقول الصدق وتقدم الجواب عن قول ابن عباس وأما استتابة الأعمى أم ولده فإنه لم يكن سلطانا ولم تكن إقامة الحدود واجبة عليه وإنما النظر في جواز إقامته للحد ومثل هذا لا ريب أنه يجوز له أن ينهى الساب ويستتيبه فإنه ليس عليه أن يقيم الحد ولا يمكنه أن يشهد به عند السلطان وحده فإنه لا ينفع ونظيره في ذلك من كان يسمع من المسلمين كلمات من المنافقين توجب الكفر فتارة ينقلها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتارة ينهي صاحبها ويخوفه ويستتيبه

وهو بمثابة من ينهى من يعلم منه الزنا أو السرقة أو قطع الطريق عن فعله لعله يتوب قبل أن يرفع إلى السلطان ولو رفع قبل التوبة لم يسقط حده بالتوبة بعد ذلك.
وأما الحجة الثانية فالجواب عنها من وجوه:
أحدها: أنه مقتول بالكفر بعد الإسلام وقولهم "كل من كفر بعد إسلامه فإن توبته تقبل".
قلنا: هذا ممنوع والآية إنما دلت على قبول توبة من كفر بعد إيمانه إذا لم يزدد كفرا أما من كفر وزاد على الكفر فلم تدل الآية على قبول توبته بل قوله: {إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا} قد يتمسك بها من خالف ذلك على أنه إنما استثنى من تاب وأصلح وهذا لا يكون فيمن تاب بعد أخذه وإنما استفدنا سقوط القتل عن التائب لمجرد توبته من السنة وهي إنما دلت على من جرد الردة مثل الحارث بن سويد ودلت على أن من غلظها كابن أبي سرح يجوز قتله بعد التوبة والإسلام.
الوجه الثاني: أنه مقتول لكونه كفر بعد إسلامه ولخصوص السب كما تقدم تقريره فاندرج في عموم الحديث مع كون السب مغلظا لجرمه ومؤكدا لقتله.
الوجه الثالث: أنه عام قد خص منه تارك الصلاة وغيرها من الفرائض عند من يقتله ولا يكفره وخص منه قتل الباغي وقتل الصائل بالسنة والإجماع فلو قيل "إن السب موجب للقتل بالأدلة التي ذكرناها وهي أخص من هذا الحديث" لكان كلاما صحيحا.
وأما من يحتج بهذا الحديث في الذمي إذا سب ثم أسلم فيقال له: هذا وجب قتله قبل الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم إنما يريد إباحة الدم بعد حقنه بالإسلام ولم يتعرض لمن وجب قتله ثم أسلم أي شيء حكمه ولا يجوز أن يحمل الحديث عليه فإنه إذا حمل على حل الدم بالأسباب الموجودة قبل الإسلام وبعده لزم من ذلك أن يكون الحربي إذا قتل أو زنى ثم شهد شهادتي الحق أن يقتل بذلك القتل والزنى لشمول الحديث على هذا التقدير له وهو باطل قطعا ولا يجوز أن يحمل على أن كل من أسلم لا يحل دمه إلا بإحدى الثلاث إن صدر عنه بعد ذلك لأنه يلزمه أن لا يقتل الذمي لقتل أو زنى صدر منه قبل الإسلام فعلم أن المراد أن المسلم الذي تكلم بالشهادتين يعصم دمه لا يبيحه بعد هذا إلا إحدى الثلاث ثم لو اندرج هذا في العموم لكان مخصوصا بما ذكرناه من أن قتله حد من الحدود وذلك أن كل من أسلم فإن الإسلام يعصم دمه فلا يباح بعد ذلك إلا بإحدى الثلاث وقد يتخلف الحكم عن هذا المقتضى لمانع من ثبوت حد قصاص أو زنى أو نقض عهد فيه ضرر وغير ذلك ومثل هذا كثيرا في العمومات.
وأما الآية على الوجهين الأولين فنقول: إنما تدل على أن من كفر بعد إيمانه ثم تاب وأصلح فإن الله غفور رحيم ونحن نقول بموجب ذلك أما من ضم إلى الكفر انتهاك عرض الرسول والافتراء عليه أو قتله أو قتل واحد من المسلمين أو انتهك عرضه فلا تدل الآية على سقوط العقوبة عن هذا على ذلك والدليل على ذلك قوله سبحانه: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا} فإن التوبة عائدة إلى الذنب المذكور والذنب المذكور هو الكفر بعد الإيمان وهذا أتى بزيادة على الكفر توجب عقوبة بخصوصها كما تقدم والآية لم تتعرض من للتوبة من غير الكفر ومن قال "هو زنديق" قال: أنا لا أعلم أن هذا تاب ثم إن الآية إنما استثنى فيها من تاب وأصلح وهذا الذي رفع إلي لم يصلح وأنا لا أؤخر العقوبة الواجبة عليه إلى أن يظهر صلاحه نعم الآية قد تعم من فعل ذلك ثم تاب وأصلح قبل أن يرفع إلى الإمام وهذا قد يقول كثير من الفقهاء بسقوط العقوبة على أن الآية التي بعدها قد تشعر بأن المرتد قسمان: قسم تقبل توبته وهو من كفر فقط وقسم لا تقبل توبته وهو من كفر ثم ازداد كفرا قال سبحانه وتعالى: {إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم} وهذه الآية وإن كان قد تأولها أقوام على من ازداد كفرا إلى أن عاين الموت فقد يستدل بعمومها على هذه المسألة فقال: من كفر بعد إيمانه وازداد كفرا بسب الرسول ونحوه لم تقبل توبته خصوصا من استمر به ازدياد الكفر إلى أن ثبت عليه الحد وأراد السلطان قتله فهذا قد يقال: إنه ازداد كفرا إلى أن رأى أسباب الموت وقد يقال فيه: {فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده} إلى قوله: {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا} وأما قوله سبحانه وتعالى {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} فإنه يغفر لهم ما قد سلف من الآثام وأما من الحدود الواجبة على مسلم مرتد أو معاهد فإنه يجب استيفاؤها بلا تردد على أن سياق الكلام يدل أنها في الحربي.
ثم نقول: الانتهاء إنما هو الترك قبل القدرة كما في قوله تعالى: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض} إلى قوله: {أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا} فمن لم يتب حتى أخذ فلم ينته ويقال أيضا: إنما تدل الآية على أنه يغفر لهم وهذا مسلم وليس كل من غفر له سقطت العقوبة عنه في الدنيا فإن الزاني أو السارق لو تاب توبة نصوحا غفر الله له ولا بد من إقامة الحدود عليه وقوله صلى الله عليه وسلم: "الإسلام يجب ما قبله" كقوله: "التوبة تجب ما قبلها" ومعلوم أن التوبة بعد القدرة لا تسقط الحد كما دل عليه القرآن وذلك أن الحديث خرج جوابا لعمرو بن العاص لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي فقال: "يا عمرو أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن التوبة تهدم ما كان قبلها وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله" فعلم أنه عنى بذلك أنه يهدم الآثام الذنوب التي سأل عمرو مغفرتها ولم يجر للحدود ذكر وهي لا تسقط بهذه الأشياء بالاتفاق وقد بين صلى الله عليه وسلم في حديث ابن أبي سرح أن ذنبه سقط بالإسلام وأن القتل إنما سقط

عنه يعفو النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم ولو فرض أنه عام فلا خلاف أن الحدود لا تسقط عن الذمي بإسلامه وهذا منها كما تقدم.
وأما قوله سبحانه وتعالى: {إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة} فالجواب عنها من وجوه:
أحدها: أنه ليس في الآية دليل على أن هذه الآية نزلت فيمن سب النبي صلى الله عليه وسلم وشتمه وإنما فيها أنها نزلت في المنافقين وليس كل منافق يسبه ويشتمه فإن الذي يشتمه من أعظم المنافقين وأقبحهم نفاقا وقد ينافق الرجل بأن لا يعتقد النبوة وهو لا يشتمه كحال كثير من الكفار ولو أن كل منافق بمنزلة من شتمه لكان كل مرتد شاتما ولاستحالت هذه المسألة وليس الأمر كذلك فإن الشتم قدر زائد على النفاق والكفر على ما لا يخفى وقد كان ممن هو كافر من يحبه ويوده ويصطنع إليه المعروف خلق كثير وكان ممن يكف عنه أذاه من الكفار خلق أكثر من أولئك وكان ممن يحاربه ولا يشتمه خلق آخرون بل الآية تدل على أنها نزلت في منافقين غير الذين يؤذونه فإنه سبحانه وتعالى قال: {ومنهم الذين يؤذون النبي} إلى قوله: {يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين}
فليس في هذا ذكر سب وإنما فيه ذكر استهزاء ومن الاستهزاء بالدين ما لا يتضمن سبا ولا شتما للرسول.
وفي هذا الوجه نظر كما تقدم في سبب نزولها إلا أن يقال: تلك الكلمات ليست من السب المختلف فيه وهذا ليس بجيد.
الوجه الثاني: أنهم قد ذكروا أن المعفو عنه هو الذي استمع أذاهم ولم يتكلم وهو مخشي بن حمير هو الذي تيب عليه وأما الذين تكلموا بالأذى فلم يعف عن أحد منهم.
يحقق هذا أن العفو المطلق إنما هو ترك المؤاخذة بالذنب وإن لم يتب صاحبه كقوله تعالى: {إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم} والكفر لا يعفى عنه فعلم أن الطائفة المعفو عنها كانت عاصية لا كافرة إما بسماع الكفر دون إنكاره والجلوس مع الذين يخوضون في آيات الله أو بكلام هو ذنب وليس هو كفرا أو غير ذلك وعلى هذا فتكون الآية دالة على أنه لا بد من تعذيب أولئك المستهزئين وهو دليل على أنه لا توبة لهم لأن من أخبر الله بأنه يعذب وهو معين امتنع أن يتوب توبة تمنع العذاب فيصلح أن يجعل هذا دليلا في المسألة.
الوجه الثالث: أنه سبحانه وتعالى أخبر أنه لا بد أن تعذب طائفة من هؤلاء إن عفا عن طائفة وهذا يدل على أن العذاب واقع بهم لا محالة وليس فيه ما يدل على وقوع العفو لأن العفو معلق بحرف الشرط فهو محتمل وأما العذاب فهو واقع بتقدير وقوع العفو وهو بتقدير عدمه أوقع فعلم أنه لا بد من التعذيب: إما عاما أو خاصا لهم ولو كانت توبتهم كلهم مرجوة صحيحة لم يكن كذلك لأنهم إذا تابوا لم يعذبوا وإذا ثبت أنهم لا بد أن يعذبهم الله لم يجز القول بجواز قبول التوبة منهم وإنه يحرم تعذيبهم إذا أظهروها وسواء أراد بالتعذيب التعذيب بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين لأنه سبحانه وتعالى أمر نبيه فيما بعد بجهاد الكفار والمنافقين فكان من أظهره عذب بأيدي المؤمنين ومن كتمه عذبه الله بعذاب من عنده وفي الجملة فليس في الآية دليل على أن العفو واقع وهذا كاف هنا.
الوجه الرابع: أنه إن كان في هذه الآية دليل على قبول توبتهم فهو حق وتكون هذه التوبة إذا تابوا قبل أن يثبت النفاق عند السلطان كما بين ذلك قوله تعالى: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض} الآيتين فإنها دليل على أن من لم ينته حتى أخذ فإنه يقتل وعلى هذا فلعله والله أعلم عنى: {إن نعف عن طائفة منكم} وهم الذين أسروا النفاق حتى تابوا منه: {نعذب طائفة} وهم الذين أظهروه حتى أخذوا فتكون دالة على وجوب تعذيب من أظهره.
الوجه الخامس: أن هذه الآية تضمنت أن العفو عن المنافق إذا أظهر النفاق وتاب أو لم يتب فذلك منسوخ بقوله تعالى: {جاهد الكفار والمنافقين} كما أسلفناه وبيناه.
ويؤيده أنه قال: {إن نعف} ولم يبت وسبب النزول يؤيد أن النفاق ثبت عليهم ولم يعاقبهم النبي صلى الله عليه وسلم وذلك كان في غزوة تبوك قبل أن تنزل براءة وفي عقبها نزلت سورة براءة فأمر فيها بنبذ العهود إلى المشركين وجهاد الكفار والمنافقين.
فالجواب عما احتج به منها من وجوه:
أحدها: أنه سبحانه وتعالى إنما ذكر أنهم قالوا كلمة الكفر وهموا بما لم ينالوا وليس في هذا ذكر للسب والكفر أعم من السب ولا يلزم من ثبوت الأعم ثبوت الأخص لكن فيما ذكر من سبب نزولها ما يدل على أنها نزلت فيمن سب فيبطل هذا.
الوجه الثاني: أنه سبحانه وتعالى إنما عرض التوبة على الذين يحلفون بالله ما قالوا وهذا حال من أنكر أن يكون تكلم بكفر وحلف على إنكاره فأعلم الله نبيه أنه كاذب في يمينه وهذا كان شأن كثير ممن يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم عنه الكلمة من النفاق ولا تقوم عليه به بينة ومثل هذا لا يقام عليه حد إذ لم يثبت عليه في الظاهر شيء والنبي صلى الله عليه وسلم إنما يحكم في الحدود ونحوها بالظاهر والذي ذكروه في سبب نزولها من الوقائع كلها إنما فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بما

قالوه بخبر واحد إما حذيفة أو عامر بن قيس أو زيد بن أرقم أو غير هؤلاء أو أنه أوحي إليه وحي بحالهم وفي بعض التفاسير أن المحكي عنه هذه الكلمة الجلاس بن سويد اعترف بأنه قالها وتاب من ذلك من غير بينة قامت عليه فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه وهذا كله دلالة واضحة على أن التوبة من مثل هذا مقبولة وهي توبة من ثبت عليه نفاق وهذا لا خلاف فيه إذا تاب فيما بينه وبين الله سرا كما نافق سرا أنه تقبل توبته ولو جاء مظهرا لنفاقه المتقدم ولتوبته منه من غير أن تقوم عليه بينه بالنفاق قبلت توبته أيضا على القول المختار كما تقبل توبة من جاء مظهرا للتوبة من زنى أو سرقة ولم يثبت عليه على الصحيح وأولى من ذلك وأما من ثبت نفاقه بالبينة فليس في الآية ولا فيما ذكر من سبب نزولها ما يدل على قبول توبته بل وليس في نفس الآية ما يدل على ظهور التوبة بل يجوز أن يحمل على توبته فيما بينه وبين الله فإن ذلك نافع وفاقا وإن أقيم عليه الحد كما قال تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله} وقال تعالى: {ومن يعمل

سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما} وقال تعالى: {يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا} وقال تعالى: {ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده} وقال تعالى: {غافر الذنب وقابل التوب} إلى غير ذلك من الآيات مع أن هذا لا يوجب أن يسقط الحد الواجب بالبينة عمن أتى فاحشة موجبة للحد أو ظلم نفسه بشرب أو سرقة فلو قال من لم يسقط الحد عن المنافق سواء ثبت نفاقه ببينه أو إقرار "ليس في الآية ما يدل على سقوط الحد عنه" لكان لقوله مساغ.

الوجه الثالث: أنه قال سبحانه وتعالى: {جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} إلى قوله: {يحلفون بالله ما قالوا} الآية وهذا تقرير لجهادهم وبيان لحكمته وإظهار لحالهم المقتضي لجهادهم فإن ذكر الوصف المناسب بعد الحكم يدل على أنه علة له وقوله: {يحلفون بالله ما قالوا} وصف لهم وهو مناسب لجهادهم فإن كونهم يكذبون في أيمانهم ويظهرون الإيمان ويبطنون الكفر موجب للإغلاظ عليهم بحيث لا يقبل منهم ولا يصدقون فيما يظهرونه من الإيمان بل ينتهرون ويرد ذلك عليهم.

وهذا كله دليل على أنه لا يقبل ما يظهره من التوبة بعد أخذه إذ لا فرق بين كذبه فيما يخبر به عن الماضي أنه لم يكفر وفيما يخبره من الحاضر أنه ليس بكافر فإذا بين سبحانه وتعالى من حالهم ما يوجب أن لا يصدقوا وجب أن لا يصدق في إخباره أنه ليس بكافر بعد ثبوت كفره بل يجري عليه حكم قوله تعالى: {والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} لكن بشرط أن يظهر كذبه فيها فأما بدون ذلك فإنا لم نأمر أن ننقب عن قلوب الناس ولا نشق بطونهم وعلى هذا فقوله تعالى: {فإن يتوبوا يك خيرا لهم} أي قبل ظهور النفاق وقيام البينة به عند الحاكم حتى يكون للجهاد موضع وللتوبة موضع وإلا فقبول التوبة الظاهرة في كل وقت يمنع الجهاد لهم بالكلية.

الوجه الرابع: أنه سبحانه وتعالى قال بعد ذلك: {وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة} وفسر ذلك في قوله تعالى: {ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا} وهذا يدل على أن هذه التوبة قبل أن نتمكن من تعذيبهم بأيدينا لأن من تولى عن التوبة حتى أظهر النفاق وشهد عليه به وأخذ فقد تولى عن التوبة التي عرضها الله عليه فيجب أن يعذبه الله عذابا أليما في الدنيا والقتل عذاب أليم فيصلح أن يعذب به لأن المتولي أبعد أحواله أن يكون ترك التوبة إلى أن لا يتركه الناس لأنه لو كان المراد به تركها إلى الموت لم يعذب في الدنيا لأن عذاب الدنيا قد فات فلا بد أن يكون التولي ترك التوبة وبينه وبين الموت مهل يعذبه الله فيه كما ذكره سبحانه فمن تاب بعد الأخذ ليعذب فهو ممن لم يتب قبل ذلك بل تولى فيستحق أن يعذبه الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة ومن تأمل هذه الآية والتي قبلها وجدهما دالتين على أن التوبة بعد أخذه لا ترفع عذاب الله عنه.

وأما كون هذه التوبة مقبولة فيما بينه وبين الله وإن تضمنت التوبة من عرض الرسول فنقول أولا وإن كان حق هذا الجواب أن يؤخر إلى المقدمة الثانية: هذا القدر لا يمنع إقامة الحد عليه إذا رفع إلينا ثم أظهر التوبة بعد ذلك كما أن الزاني والشارب وقاطع الطريق إذا تاب فيما بينه وبين الله قبل أن يرفع إلينا قبل الله توبته وإذا اطلعنا عليه ثم تاب فلا بد من إقامة الحد عليه ويكون ذلك من تمام توبته وجميع الجرائم من هذا الباب.

وقد يقال: إن المنتهك لأعراض الناس إذا استغفر لهم ودعا لهم قبل أن يعلموا بذلك رجي أن يغفر الله له على ما في ذلك من الخلاف المشهور ولو ثبت ذلك عند السلطان ثم أظهر التوبة لم تسقط عقوبته وذلك أن الله سبحانه لا بد أن يجعل للمذنب طريقا إلى التوبة فإذا كان عليه تبعات للخلق فعليه أن يخرج منها جهده ويعوضهم عنها ما يمكنه ورحمة الله من وراء ذلك ثم ذلك لا يمنع أن نقيم عليه الحد إذا ظهرنا عليه ونحن إنما نتكلم في التوبة المسقطة للحد والعقوبة لا في التوبة الماحية للذنب.

ثم نقول ثانيا: إن كان ما أتاه من السب قد صدر عن اعتقاد يوجبه فهو بمنزلة ما يصدر من سائر المرتدين وناقضي العهد من سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم وانتهاك أعراضهم فإنهم يعتقدون في المسلمين اعتقادا يوجب إباحة ذلك ثم إذا تابوا توبة نصوحا من ذلك الاعتقاد غفر لهم موجبه المتعلق بحق الله وحق العباد كما يغفر للكافر الحربي موجب اعتقاده إذا تاب منه مع

أن المرتد أو الناقض متى فعل شيئا من ذلك قبل الامتناع أقيم عليه حده وإن عاد إلى الإسلام سواء كان لله أو لآدمي فيحد على الزنا والشرب وقطع الطريق وإن كان في زمن الردة ونقض العهد يعتقد حل ذلك الفرج لكونه وطئه بملك اليمين إذا قهر مسلمة على نفسها ويعتقد حل دماء المسلمين وأموالهم كما يؤخذ منه القود وحد القذف وإن كان يعتقد حلهما ويضمن ما أتلفه من الأموال وإن اعتقد حلها.
والحربي الأصل لا يؤخذ بشيء من ذلك بعد الإسلام فكان الفرق أن ذاك كان ملتزما بأيمانه وأمانه أن لا يفعل شيئا من ذلك فإذا فعله لم يعذر بفعله بخلاف الحربي الأصل ولأن في إقامة هذه الحدود عليه زجرا له عن فعل هذه الموبقات كما فيها زجر للمسلم المقيم على إسلامه بخلاف الحربي الأصل فإن ذلك لا يزجره بل هو منفر له عن الإسلام ولأن الحربي الأصل ممتنع وهذان ممكنان.
وكذلك قد نص الإمام أحمد على أن الحربي إذا زنى بعد الأسر أقيم عليه الحد لأنه صار في أيدينا كما أن الصحيح عنه وعن أكثر أهل العلم أن المرتد إذا امتنع لم تقم عليه الحدود لأنه صار بمنزلة الحربي إذ الممتنع يفعل هذه الأشياء باعتقاد وقوة من غير زاجر له ففي إقامة الحدود عليهم بعد التوبة تنفير وإغلاق لباب التوبة عليهم وهو بمنزلة تضمين أهل الحرب سواء وليس هذا موضع استقصاء هذا وإنما نبهنا عليه وإذا كان هذا هنا هكذا فالمرتد والناقض إذا آذيا الله ورسوله ثم تابا من ذلك بعد القدرة توبة نصوحا كانا بمنزلتهما إذا حاربا باليد في قطع الطريق أو زنيا وتابا بعد أخذهما وثبوت الحد عليهما ولا فرق بينهما وذلك لأن الناقض للعهد قد كان عهده يحرم عليه هذه الأمور في دينه وإن كان دينه المجرد عن عهد يبيحها له.
وكذلك المرتد قد كان يعتقد أن هذه الأمور محرمة فاعتقاده إباحتها إذا لم يتصل به قوة ومنعه ليس عذرا له في أن يفعلها لما كان ملتزما له من الدين الحق ولما هو به من الضعف ولما في سقوط الحد عنه من الفساد وإن كان السب صادرا عن غير اعتقاد بل سبه مع اعتقاد نبوته أو سبه بأكبر مما يوجبه اعتقاده أو بغير ما يوجبه اعتقاده فهذا من أعظم الناس كفرا بمنزلة إبليس وهو من نوع العناد أو السفه وهو بمنزلة من شتم بعض المسلمين أو قتلهم وهو يعتقد أن دمائهم وأعراضهم حرام.
وقد اختلف الناس في سقوط حد المشتوم بتوبة الشاتم قبل العلم به سواء كان نبيا أو غيره فمن اعتقد أن التوبة لا تسقط حق الآدمي له أن يمنع هنا أن توبة الشاتم في الباطن صحيحة على الإطلاق وله أن يقول: إن للنبي صلى الله عليه وسلم أن يطالب هذا بشتمه مع علمه بأنه حرام كسائر المؤمنين لهم أن يطالبوا شاتمهم وسابهم بل ذلك أولى وهذا القول قوي في القياس وكثير من الظواهر تدل عليه.
ومن قال "هذا من باب السب والغيبة ونحوهما مما يتعلق بأعراض الناس وقد فات الاستحلال فليأت للمشتوم من الدعاء والاستغفار بما يزن حق عرضه ليكون ما يأخذه المظلوم من حسنات هذا بقدر ما دعا له واستغفر فيسلم له سائر عمله فكذلك من صدرت منه كلمة سب أو شتم فليكثر من الصلاة والتسليم ويقابلها بضدها" فمن قال: "إن ذلك يوجب قبول التوبة ظاهرا وباطنا" أدخله في قوله تعالى: {إن الحسنات يذهبن السيئات} "وأتبع السيئة الحسنة تمحها" ومن قال: "لا بد من القصاص" قال: قد أعد له من الحسنات ما يقوم بالقصاص وليس لنا غرض في تقرير واحد من القولين هنا وإنما الغرض أن الحد لا يسقط بالتوبة لأنه إن كان عن اعتقاد فالتوبة منه صحيحة مسقطة لحق الرسول في الآخرة وهي لا تسقط الحد عنه في الدنيا كما تقدم وإن كانت من غير اعتقاد ففي سقوط حق الرسول بالتوبة خلاف.
فإن قيل: "لا يسقط" فلا كلام وإن قيل: "يسقط الحق ولم يسقط الحد كتوبة الأول وأولى" فحاصله أن الكلام في مقامين:
أحدهما: أن هذه التوبة إذا كانت صحيحة نصوحا فيما بينه وبين الله هل يسقط معها حق المخلوق؟ وفيه تفصيل وخلاف فإن قيل: "لم يسقط" فلا كلام وإن قيل: "يسقط" فسقوط حقه بالتوبة كسقوط حق الله بالتوبة فتكون كالتوبة من سائر أنواع الفساد وتلك التوبة إذا كانت بعد القدرة لم تسقط شيئا من الحدود وإن كانت تجب الإثم في الباطن.
وحقيقة هذا الكلام أن قتل الساب ليس لمجرد الردة ومجرد عدم العهد حتى تقبل توبته كغيره بل لردة مغلظة ونقض مغلظ بالضرر ومثله لا يسقط موجبه بالتوبة لأنه من محاربة الله ورسوله والسعي في الأرض فسادا أو هو من جنس الزنا والسرقة أو هو من جنس القتل والقذف فهذه حقيقة الجواب وبه يتبين الخلل فيما ذكر من الحجة.
ثم نبينه مفصلا فنقول: أما قولهم: "إن ما جاء به من الإيمان به ماح لما أتى به من هتك عرضه" فنقول: إن كان السب مجرد موجب اعتقاد فالتوبة من الاعتقاد توبة من موجبه وأما من زاد على موجب الاعتقاد أو أتى بضده وهم أكثر السابين فقد لا يسلم أن ما يأتي به من التوبة ماح إلا بعد عفوه بل يقال: له المطالبة وإن سلم ذلك فهو كالقسم الأول وهذا القدر لا يسقط الحدود كما تقدم غير مرة.
وأما قولهم: "حقوق الأنبياء من حيث النبوة تابعة لحق الله في الوجوب فتبعته في السقوط" فنقول: هذا مسلم إن كان السب موجب اعتقاد وإلا ففيه الخلاف وأما حقوق الله فلا فرق في باب التوبة بين ما موجبه اعتقاد أو غير اعتقاد فإن التائب من

اعتقاد الكفر وموجباته والتائب من الزنا سواء ومن لم يسو بينهما قال: ليست أعظم من حق الله إذا لم يسقط في الباطن بسقوطه ولكن الأمر إلى مستحقها: إن شاء جزى وإن شاء عفا ولم يعلم بعد ما يختاره الله سبحانه قد أعلمنا أنه يغفر لكل من تاب.
وأيضا فإن مستحقها من جنس تلحقهم المضرة والمعرة بهذا ويتألمون به فجعل الأمر إليهم والله سبحانه وتعالى إنما حقه راجع إلى مصلحة المكلف خاصة فإنه لا ينتفع بالطاعة ولا يستضر بالمعصية فإذا عاود المكلف الخير فقد حصل ما أراده ربه منه فلما كان الأنبياء عليهم السلام فيهم نعت البشر ولهم نعت النبوة صار حقهم له نعت حق الله ونعت حق سائر العباد وإنما يكون حقهم مندرجا في حق الله إذا صدر عن اعتقاد فإنهم لما وجب الإيمان بنبوتهم صار كالإيمان بوحدانية الله فإذا لم يعتقد معتقد نبوتهم كان كافرا كما إذا لم يقر بوحدانية الله وصار الكفر بذلك كفرا برسالات الله ودينه وغير ذلك فإذا كان السب موجبا بذا الاعتقاد فقط مثل نفي الرسالة أو النبوة ونحو ذلك وتاب منه توبة نصوحا قبلت توبته كتوبة المثلث وإذا زاد على ذلك مثل قدح في نسب أو وصف لمساوي الأخلاق أو فاحشة أو غير ذلك مما يعلم هو أنه باطل أو لا يعتقد صحته أو كان مخالفا للاعتقاد مثل أن يحسد أو يتكبر أو يغضب لفوات غرض أو حصول مكروه مع اعتقاد النبوة فيسب فهنا إذا تاب لم يتجدد له اعتقاد أزال موجب السب إنما غير نيته وقصده وهو قد آذاه فهذا السب إذا يتألم به البشر ولم يكن معذورا بعدم اعتقاد النبوة فهو لحق الله من حيث جنى على النبوة التي هي السبب الذي بين الله وبين خلقه فوجب قتله وهو كحق البشر من حيث أنه آذى آدميا يعتقد أنه لا يحل أذاه فلذلك كان له أن يطالبه بحق أذاه وأن يأخذ من حسناته بقدر أذاه وليست له حسنة تزن ذلك إلا ما يضاد السب من الصلاة والتسليم ونحوهما وبهذا يظهر أن التوبة من سب صدر من غير اعتقاد من الحقوق التي تجب للبشر ثم هو حق متعلق بالنبوة لا محالة فهذا قول هذا القائل وإن كنا لم نرجح واحدا من القولين.
ثم إذا كانت حقوقهم تابعة لحق الله فمن الذي يقول: إن حقوق الله تسقط عن المرتد وناقض العهد بالتوبة؟ فإنا قد بينا أن هؤلاء تقام عليهم حدود الله بعد التوبة وإنما تسقط بالتوبة عقوبة الردة المجردة والنقض المجرد وهذا ليس كذلك.
وأما قوله: "إن الرسول يدعوا الناس إلى الإيمان به ويخبرهم أن الإيمان يمحو الكفر فيكون قد عفا لمن كفر عن حقه" فنقول: هذا جيد إذا كان السب موجب الاعتقاد فقط لأنه هو الذي اقتضاه ودعاه إلى الإيمان به فإنه من أزال اعتقاد الكفر به باعتقاد الإيمان به زال موجبه أما من زاد على ذلك وسبه بعد أن آمن به أو عاهده فلم يلتزم أن يعفو عنه وقد كان له أن يعفو وله أن لا يعفو والتقدير المذكور في السؤال إنما يدل على سب أوجبه الاعتقاد ثم زال باعتقاد الإيمان لأنه هو الذي كان يدعو إليه الكفر وقد زال بالإيمان وأما ما سوى ذلك فلا فرق بينه وبين سب سائر الناس من هذه الجهة وذلك أن الساب إن كان حربيا فلا فرق بين سبه للرسول أو لواحد من الناس من هذه الجهة وإن كان مسلما أو ذميا فإذا سب الرسول سبا لا يوجبه اعتقاده فهو كما لو سب غيره من الناس فإن تجدد الإسلام منه كتجدد التوبة منه يزعه عن هذا الفعل وينهاه عنه وإن لم يرفع موجبه فإن موجب هذا السب لم يكن الكفر به إذ كلامنا في سب لا يوجبه الكفر به مثل فريه عليه يعلم أنها فرية ونحو ذلك لكن إذا أسلم الساب فقد عظم في قلبه عظمة تمنعه أن يفتري عليه كما أنه إذا تاب من سب المسلم عظم الذنب في قلبه عظمة تمنعه من مواقعته وجاز ألا يكون هذا الإسلام وازعا لكون موجب السب كان شيئا غير الكفر وقد يضعف هذا الإسلام عن دفعه كما يضعف هذه التوبة عن موجب الأذى وفرق بين ارتفاع الأمر بارتفاع سببه أو بوجود ضده فإن ما أوجبه الاعتقاد إذا زال الاعتقاد زال سببه فلم يخش عوده إلا بعود السبب وما لم يوجبه الاعتقاد من الفرية ونحوها على النبي صلى الله عليه وسلم وغيره يرفعها الإسلام والتوبة رفع الضد للضد إذ قبح هذا الأمر وسوء عاقبته والعزم الجازم على فعل ضده وتركه ينافي وقوعه لكن لو ضعف هذا الدافع عن مقاومة السبب المقتضي عمل عمله فهذا يبين أنه لا فرق في الحقيقة بين أن يتوب من سب لم يوجبه مجرد الكفر بالإيمان به الموجب لعدم ذلك السب وبين أن يتوب من سب مسلم بالتوبة الموجبة لعدم ذلك السب.
واعتبر هذا برجل له غرض في أمر فزجر عنه وقيل له: هذا قد حرمه النبي صلى الله عليه وسلم فلا سبيل إليه فحمله فرط الشهوة وقوة الغضب لفوات المطلوب على أن لعن وقبح فيما بينه وبين الله مع أنه لا يشك في النبوة ثم إنه جدد إسلامه وتاب وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ولم يزل باكيا من كلمته ورجل أراد أن يأخذ مال مسلم بغير حق فمنعه منه فلعن وقبح سرا ثم إنه تاب من هذا واستغفر لذلك الرجل ولم يزل خائفا من كلمته أليست توبة هذا من كلمته كتوبة هذا من كلمته؟ وإن كانت توبة هذا يجب أن تكون أعظم لعظم كلمته لكن نسبة هذه إلى هذه كنسبة هذه إلى هذه بخلاف من إنما يلعن ويقبح من يعتقده كذابا ثم تبين له أنه كان ضالا في ذلك الاعتقاد وكان في مهواة التلف فتاب ورجع من ذلك الاعتقاد توبة مثله فإنه يندرج فيه جميع ما أوجبه.
ومما يقرر هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بلغه سب مرتد أو معاهد سئل أن يعفو عنه بعد الإسلام ودلت سيرته على جواز قتله بعد إسلامه وتوبته ولو كان مجرد التوبة يغفر لهم بها ما في ضمنها مغفرة تسقط الحد لم يجز ذلك فعلم أنه كان يملك العقوبة على من سبه بعد التوبة كما يملكها غيره من المؤمنين.

فهذا الكلام في توبة الساب فيما بينه وبين الله هل تسقط حق الرسول أم لا؟ وبكل حال سواء أسقطت أم لم تسقط لا يقتضي ذلك أن إظهارها مسقط للحد إلا أن يقال: هو مقتول لمحض الردة أو محض نقض العهد فإن توبة المرتد مقبولة وإسلام من جرد نقض العهد مقبول مسقط للقتل.
وقد قدمنا فيما مضى بالأدلة القاطعة أن هذا مقتول لردة مغلظة ونقض مغلظ بمنزلة من حارب وسعى في الأرض فسادا.
ثم من قال: "يقتل حقا لآدمي" قال: العقوبة إذا تعلق بها حقان حق لله وحق لآدمي ثم تاب سقط حق الله وبقي حق الآدمي من القود وهذا التائب إذا تاب سقط حق الله وبقي حق الآدمي.
ومن قال: "يقتل حدا لله" قال: هو بمنزلة المحارب وقد يسوى بين من سب الله وبين من سب الرسول على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.
وقولهم في المقدمة الثانية: "إذا أظهر التوبة وجب أن نقبلها منه" قلنا: هذا مبني على أن هذه التوبة مقبولة مطلقا وقد تقدم الكلام فيه.
ثم الجواب هنا من وجهين:
أحدهما: القول بموجب ذلك فإنا نقبل منه هذه التوبة ونحكم بصحة إسلامه كما نقبل توبة القاذف ونحكم بعدالته ونقبل توبة السارق وغيرهم لكن الكلام في سقوط القتل عنه ومن تاب بعد القدرة عليه لم يسقط عنه شيء من الحدود الواجبة بقدر زائد على الردة أو النقض ومن تاب قبلها لم تسقط عنه حقوق العباد إذا قبلنا توبته أن يطهر بإقامة الحد عليه كسائر هؤلاء وذلك أنا نحن لا ننازع في صحة توبته ومغفرة الله له مطلقا فإن ذلك إلى الله وإنما الكلام في: هل هذه التوبة مسقطة للحد عنه وليس في الحديث ما يدل على ذلك فإنا قد نقبل إسلامه وتوبته ونقيم عليه الحد تطهيرا له وهذا جواب من يقتله حدا محضا مع الحكم بصحة إسلامه.
الثاني: أن هذا الحديث في قبول الظاهر إذا لم يثبت خلافه بطريق شرعي وهنا قد ثبت خلافه وهذا جواب من يقتله لزندقته وقد يجيب به من يقتل الذمي أيضا بناء على أنه زنديق في حال العهد فلا يوثق بإسلامه.
وأما إسلام الحربي والمرتد ونحوهما عند معاينة القتل فإنما جاز لأنا إنما نقاتلهم لأن يسلموا ولا طريق إلى الإسلام إلا ما يقولونه بألسنتهم فوجب قبول ذلك منهم وإن كانوا في الباطن كاذبين وإلا لوجب قتل كل كافر أسلم أو لم يسلم ولا تكون المقاتلة حتى يسلموا بل يكون القتال دائما وهذا باطل ثم إنه قد يسلم الآن كارها ثم إن الله يحبب إليه الإيمان ويزينه في قلبه كذلك أكثر من يسلم لرغبته في المال ونحوه أو لرهبته من السيف ونحوه ولا دليل يدل على فساد الإسلام إلا كونه مكرها عليه بحق وهذا لا يلتفت إليه.
أما هنا فإنما نقتله لما مضى من جرمه من السب كما نقتل الذمي لقتله النفس أو لزناه بمسلمة وكما نقتل المرتد لقتله مسلما ولقطعه الطريق كما تقدم تقريره فليس مقصودنا بإرادة قتله أن يسلم ولا تجب مقاتلته على أن يسلم بل نحن نقتله جزاء له على ما آذانا ونكالا لأمثاله على مثل هذه الجريمة فإذا أسلم فإن صححنا إسلامه لم يمنع ذلك وجوب قتله كالمحارب المرتد أوالناقض إذا أسلم بعد القدرة وقد قتل فإنه يقتل وفاقا فيما علمناه وإن حكم بصحة إسلامه وإن لم يصحح إسلامه فالفرق بينه وبين الحربي والمرتد من وجهين:
أحدهما: أن الحربي والمرتد لم يتقدم منه ما دل على أن باطنه بخلاف ظاهره بل إظهاره للردة لما ارتد دليل على أن ما يظهره من الإسلام صحيح وهذا ما زال مظهر للإسلام وقد أظهر ما دل على فساد عقده فلم يوثق بما يظهره من الإسلام بعد ذلك وكذلك ناقض العهد قد عاهدنا على أن لا يسب وقد سب فثبتت جنايته وغدره فإذا أظهر الإسلام بعد أن أخذ ليقتل كان أولى أن يخون ويغدر فإنه كان ممنوعا من إظهار السب فقط وهو لم يف بذلك فكيف إذا أصبح ممنوعا من إظهاره وإسراره؟ ولم يكن له عذر فيما فعله من السب بل كان محرما عليه في دينه فإذا لم يف به صار من المنافقين في العهد.
الثاني: أن الحربي أو المرتد نحن نطلب منه أن يسلم فإذا أعطانا ما أردناه بحسب قدرته وجب قبوله منه والحكم بصحته والساب لا نطلب منه إلا القتل عينا فإذا أسلم ظهر أنما أسلم ليدرأ عن نفسه القتل الواجب عليه كما إذا تاب المحارب بعد القدرة عليه أو أسلم أو تاب سائر الجناة بعد أخذهم فلا يكون الظاهر صحة هذا الإسلام فلا يسقط ما وجب من الحد قبله.
وحقيقة الأمر أن الحربي والمرتد يقتل لكفر حاضر ويقاتل ليسلم فلا يمكن أن يظهر وهو مقاتل أو مأخوذ الإسلام إلا مكرها فوجب قبوله منه إذ لا يمكن بذله إلا هكذا وهذا الساب والناقض لم يقتل لمقامه على الكفر أو كونه بمنزلة سائر الكفار غير المعاهدين لما ذكرناه من الأدلة الدالة على أن السب مؤثر في قتله ويكون قد بذل التوبة التي لم تطلب منه في حال الأخذ للعقوبة فلا تقبل منه.
وعلى هذين المأخذين ينبني الحكم بصحة إسلام هذا الساب في هذه الحال مع القول بوجوب قتله.
أحدهما: لا يحكم بصحة إسلامه وهو مقتضى قول ابن القاسم وغيره من المالكية.

والثاني: يحكم بصحة إسلامه وعليه يدل كلام الإمام أحمد وأصحابه في الذمي مع وجوب إقامة الحد وأما المسلم إذا سب ثم قتل بعد أن أسلم فمن قال: "يقتل عقوبة على السب لكونه حق آدمي أو حدا محضا لله" قال بصحة هذا الإسلام وقبله وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم وهو قول من قال يقتل من أصحاب الشافعي.
وكذلك من قال: "يقتل من سب الله" ومن قال: "يقتل لزندقته" أجرى عليه إذا قتل بعد إظهار الإسلام أحكام الزنادقة وهو قول كثير من المالكية وعليه يدل كلام بعض أصحابنا وعلى ذلك ينبني الجواب عما احتج به من قبول النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر الإسلام من المنافقين فإن الحجة إما أن تكون في قبول ظاهر الإسلام منهم في الجملة فهذا لا حجة فيه من أربعة أوجه قد تقدم ذكرها.
أحدها: أن الإسلام إنما قبل منهم حيث لم يثبت عنهم خلافه وكانوا ينكرون أنهم تكلموا بخلافه فأما أن البينة تقوم عند رسول الله عليه الصلاة والسلام على كفر رجل بعينه فيكف عنه فهذا لم يقع قط إلا أن يكون في بادئ الأمر.
الثاني: أنه كان في أول الأمر مأمورا في مبادئ الأمر أن يدع أذاهم ويصبر عليهم لمصلحة التأليف وخشية التنفير إلى أن نسخ ذلك بقوله تعالى: {جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} .
الثالث: أنا نقول بموجبه فنقبل من هذا الإسلام ونقيم عليه حد السب كما لو أتى حدا غيره وهذا جواب من يصحح إسلامه ويقتله حدا لفساد السب.
الرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستتب أحدا منهم ويعرضه على السيف ليتوب ممن مقالة صدرت منه مع أن هذا مجمع على وجوبه فإن الرجل منهم إذا شهد عليه بالكفر والزندقة فإما أن يقتل عينا أو يستتاب فإن لم يتب وإلا قتل.
وأما الاكتفاء منه بمجرد الجحود فما أعلم به قائلا بل أقل ما قيل فيه أنه يكتفي منهم بالنطق بالشهادتين والتبري من تلك المقالة فإذا لم تكن السيرة في المنافقين كانت هكذا علم أن ترك هذا الحكم لفوات شرطه وهو إما ثبوت النفاق أو العجز عن إقامة الحد أو مصلحة التأليف في حال الضعف حتى قوي الدين فنسخ ذلك.
وإن كان الاحتجاج بقبول ظاهر الإسلام ممن سب فعنه جواب خامس وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان له أن يعفو عمن شتمه في حياته وليس هذا العفو لأحد من الناس بعده.
وأما تسمية الصحابة الساب غادرا محاربا فهو بيان لحل دمه وليس كل من نقض العهد وحارب سقط القتل عنه بإسلامه بدليل ما لو قتل مسلما أو قطع الطريق عليه أو زنى بمسلمة بل تسميته محاربا مع كون السب فسادا يوجب دخوله في حكم الآية كما تقدم.
وأما الذين هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبوه ثم عفا عنهم فالجواب عن ذلك كله قد تقدم في المسألة الأولى لما ذكرنا قصصهم وبينا أن السب غلب فيه حق الرسول إذا علم فله أن يعفو وأن ينتقم وليس في هؤلاء ما يدل على أن العقوبة إنما سقطت عنهم مع عفوه وصفحه لمن تأمل أحوالهم معه والتفريق بينهم وبين من لم يهجه ولم يسبه.
وأيضا فهؤلاء كانوا محاربين والحربي لا يؤخذ بما أصابه من المسلمين من دم أو مال أو عرض والمسلم والمعاهد يؤخذ بذلك.
وقولهم: "الذمي يعتقد حل السب كما يعتقده الحربي وإن لم يعتقد حل الدم والمال" غلط فإن عقد الذمة منعهم من الطعن في ديننا وأوجب عليهم الكف عن أن يسبوا نبينا كما منعهم دماءنا وأموالنا وأبلغ فهو إن لم يعتقد تحريمه للدين فهو يعتقد تحريمه للعهد كاعتقادنا نحن في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ونحن لم نعاهد على أن نكف عن سب دينهم الباطل وإظهار معايبهم بل عاهدناهم على أن يظهروا في دارنا ما شئنا وأن يلتزموا جريان أحكامنا عليهم وإلا فأين الصغار؟.
وأما قولهم: "الذمي إذا سب فإما أن يقتل لكفره وحرابه كما يقتل الحربي الساب أو يقتل حدا من الحدود" قلنا: هذا تقسيم منتشر بل يقتل لكفره وحرابه بعد الذمة وليس من حارب بعد الذمة بمنزلة الحربي الأصلي فإن الذمي إذا قتل مسلما اجتمع عليه أنه نقض العهد وأنه وجب عليه القود فلو عفا ولي الدم قتل لنقض العهد بهذا الفساد وكذلك سائر الأمور المضرة بالمسلمين يقتل بها الذمي إذا فعلها وليس حكمه فيها كحكم الحربي الأصلي إجماعا وإذا قتل لحرابه وفساده بعد العهد فهو حد من الحدود فلا تنافي بين الوصفين حتى يجعل أحدهما قسيما للآخر وقد بينا بالأدلة الواضحة أن قتله ليس لمجرد كونه كافرا غير ذي عهد بل حد أو عقوبة على سب نبينا الذي أوجبت عليه الذمة تركه والإمساك عنه مع أن السب مستلزم لنقض العهد العاصم لدمه وأنه يصير بالسب محاربا غادرا وليس هو كحد الزنا ونحوه مما لا مضرة علينا فيه وإنما أشبه الحدود به حد المحاربة.
وأما قولهم "ليس في السب أكثر من انتهاك العرض وهذا القدر لا يوجب إلا الجلد" ففي الكلام عنه ثلاثة أجوبة:
أحدها: أن هذا كلام في رأس المسألة فإنه إذا لم يوجب إلا الجلد والأمور الموجبة للجلد لا تنقض العهد لم ينتقض العهد به كسب بعض المسلمين وقد قدمنا الدلالات التي لا تحل مخالفتها على وجوب قتل الذمي إذا فعل ذلك وأنه لا عهد له يعصم دمه مع ذلك وبينا أن انتهاك عرض عموم المسلمين يوجب الجلد وأما انتهاك عرض الرسول فإنه يوجب القتل وقد صولح على

الإمساك عن العرضين فمتى انتهك عرض الرسول فقد أتى بما يوجب القتل مع التزامه أن لا يفعله فوجب أن يقتل كما لو قطع الطريق أو زنى والتسوية بين عرض الرسول وعرض غيره في مقدار العقوبة من أفسد القياس.
والكلام في الفرق بينهما يعد تكلفا فإنه عرض قد أوجب الله على جميع الخلق أن يقابلوه من الصلاة والسلام والثناء والمدحة والمحبة والتعظيم والتعزير والتوقير والتواضع في الكلام والطاعة للأمر ورعاية الحرمة في أهل البيت والأصحاب بما لا خفاء به على أحد من علماء المؤمنين عرض به قام دين الله وكتابه وعباده المؤمنون به وجبت الجنة لقوم والنار لآخرين به كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس عرض قرن الله ذكره بذكره وجمع بينه وبينه في كتابة واحدة وجعل بيعته بيعة له وطاعته
طاعة له وأذاه أذى له إلى خصائص لا تحصى ولا يقدر قدرها أفيليق لو لم يكن سبه كفرا أن تجعل عقوبة منتهك هذا العرض كعقوبة منتهك عرض غيره؟.
ولو فرضنا أن لله نبينا بعثه إلى أمة ولم يوجب على أمة أخرى أن يؤمنوا به عموما ولا خصوصا فسبه رجل ولعنه عالما بنبوته إلى أولئك أفيجوز أن يقال: إن عقوبته وعقوبة من سب واحدا من المؤمنين سواء؟ هذا أفسد من قياس الذين قالوا: إنما البيع مثل الربا.
قولهم: "الذمي يعتقد حل ذلك" قلنا: لا نسلم فإن العهد الذي بيننا وبينه حرم عليه في دينه السب كما حرم عليه دماءنا وأموالنا وأعراضنا فهو إذا أظهر السب يدري أنه قد فعل عظيمة من العظائم التي لم نصالحه عليها ثم إن كان يعلم أن عقوبة ذلك عندنا القتل فبها وإلا فلا يجب لأن مرتكب الحدود يكفيه العلم بالتحريم كمن زنى أو سرق أو شرب أو قذف أو قطع الطريق فإنه إذا علم تحريم ذلك عوقب العقوبة المشروعة وإن كان يظن أن لا عقوبة على ذلك وأن عقوبته دون ما هو مشروع.
وأيضا فإن دينهم لا يبيح لهم السب واللعنة للنبي وإن كان دينا باطلا أكثر ما يعتقدون أنه ليس بنبي أو ليس عليهم إتباعه أما أن يعتقدوا أن لعنته وسبه جائزة فكثير منهم أو أكثرهم لا يعتقدون ذلك على أن السب نوعان أحدهما: ما كفروا به واعتقدوه والثاني: ما لم يكفروا به فهذا الثاني لا ريب أنهم لا يعتقدون حله.
وأما قولهم: "صولح على ترك ذلك فإذا فعله انتقض العهد" فإنه إذا فعله انتقض عهده وعوقب على نفس تلك الجريمة وإلا كان يستوي حال من ترك العهد ولحق بدار الحرب من غير أذى لنا وحال من قتل وسرق وقطع الطريق وشتم الرسول مع نقض العهد وهذا لا يجوز.
وأما قولهم: "كون القتل حدا حكم شرعي يفتقر إلى دليل شرعي" فصحيح وقد تقدمت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والأثر والنظر الدالة على أن نفس السب من حيث خصوصيته موجب للقتل ولم يثبت ذلك استحسانا صرفا واستصلاحا محضا بل أثبتناه بالنصوص وآثار الصحابة وما دل عليه إيماء الشارع وتنبيهه وبما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة من الخصوصية لهذا السب والحرمة لهذا العرض التي يوجب أن لا يصونه إلا القتل لا سيما إذا قوي الداعي على انتهاكه وخفة حرمته بخفة عقابه وصغر في القلوب مقدار من هو أعظم العالمين قدرا إذا ساوى في قدر العرض زيدا وعمروا وتمضمض بذكره أعداء الدين من كافر غادر ومنافق ماكر فهل يستريب من قلب الشريعة ظهرا لبطن أن محاسنها توجب حفظ هذه الحرمة التي هي أعظم حرمات المخلوقين وحرمتها متعلقة بحرمة رب العالمين بسفك دم واحد من الناس؟ مع قطع النظر عن الكفر والارتداد فإنهما مفسدتان اتحادهما في معنى التعداد ولسنا الآن نتكلم في المصالح المرسلة فإنا لم نحتج إليها في هذه المسألة لما فيها من الأدلة الخاصة الشرعية وإنما ننبه على عظم المصلحة في ذلك بيانا لحكمة الشرع لأن القلوب إلى ما فهمت حكمته أسرع انقيادا والنفوس إذا ما تطلع على مصلحته أعطش أكبادا ثم لو لم يكن في المسألة نص ولا أثر لكان اجتهاد الرأي يقضي بأن يجعل القتل عقوبة هذا الجرم لخصوصه لا لعموم كونه كفرا أو ردة حتى لو فرض تجرده عن ذلك لكان موجبا للقتل أخذا له من قاعدة العقوبات في الشرع فإنه يجعل أعلى العقوبات في مقابلة أرفع الجنايات وأوسطها في مقابلة أوسطها وأدناها في مقابلة أدناها فهذه الجناية إذا انفردت تمتنع أن تجعل في مقابلة الأذى فتقابل بالجلد أو الحبس تسوية بينها وبين الجناية على عرض زيد وعمرو فإنه لا يخفى على من له أدنى نظر بأسباب الشرع أن هذا من أفسد أنواع الاجتهاد ومثله في الفساد خلوها من عقوبة تخصها وأما جعله في الأوسط كما اعتقده المهاجر بن أبي أمية حتى قطع يد الجارية السابة وقلع ثنيتها فباطل أيضا كما أنكره عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأن الجناية جناية على أشرف الحرمات ولأنه لا مناسبة بينها وبين أوسط العقوبات من قطع عضو من الأعضاء فتعين أن تقابل بأعلى العقوبات وهو القتل.
ولو نزلت بنا نازلة السب وليس معنا فيها أثر يتبع ثم استراب مستريب في أن الواجب إلحاقها بأعلى الجنايات لما عد من بصراء الفقهاء ومثل هذه المصلحة ليست مرسلة بحيث أن لا يشهد لها الشرع بالاعتبار فإذا فرض أنه ليس لها أصل خاص تلحق به ولا بد من الحكم فيها فيجب أن يحكم فيها بما هو أشبه بالأصول الكلية وإذا لم يعمل بالمصلحة لزم العمل بالمفسدة والله لا يحب الفساد.

ولا شك أن العلماء في الجملة من أصحابنا وغيرهم قد يختلفون في هذا الضرب من المصالح إذا لم يكن فيها أثر ولا قياس خاص والإمام أحمد قد يتوقف في بعض أفرادها مثل قتل الجاسوس المسلم ونحوه إن جعلت من أفرادها وربما عمل بها وربما تركها إذا لم يكن معه فيها أثر أو قياس خاص ومن تأمل تصاريف الفقهاء علم أنهم يضطرون إلى رعايتها إذا لم يخالف أصلا من الأصول ولم يخالف في اعتبارها الطوائف من أهل الجدل والكلام من أصحابنا وغيرهم ولو أنهم خاضوا مخاض الفقهاء لعلموا أنه لا بد من اعتبارها وذوق الفقه ممن لجج فيه شيء والكلام على حواشيه من غير معرفة أعيان المسائل شيء آخر وأهل الكلام والجدل إنما يتكلمون في القسم الثاني فيلزمون غيرهم ما لا يقدرون على التزامه ويتكلمون في الفقه كلام من لا يعرف إلا أمورا كلية وعمومات إحاطية وللتفاصيل خصوص نظر ودلائل يدركها من عرف أعيان المسائل.

وأثبتناه أيضا بالقياس الخاص وهو القياس على كل من ارتد ونقض العهد على وجه يضر المسلمين مضرة فيها العقوبة بالقتل وبينا أن هذا أخص من مجرد الردة ومجرد نقض العهد وأن الأصول فرقت بينهما.

وأثبتناه أيضا بالنافي لحقن دمه وبينا أن هذا حل دمه بما فعله والأدلة العاصمة لم أسلم من مرتد وناقض لا تتناوله لفظا ولا معنى.

وقولهم: "القياس في الأسباب لا يصح" خلاف ما عليه الفقهاء وهو قول باطل قطعا لكن ليس هذا موضع الاستقصاء في ذلك.

وقولهم: "معرفة نوع الحكمة وقدرها متعذر" قلنا: لا نسلم هذا على الإطلاق بل قد يمكن وقد يتعذر بل ربما علم قطعا لأن الفرع مشتمل على الحكمة الموجودة في الأصل وزيادة.

وقولهم: "هو يخرج السبب عن أن يكون سببا" ليس كذلك فإن سبب السبب لا يمنعه أن يكون سببا والإضافة إلى السبب لا تقدح في الإضافة إلى سبب السبب والعلم بها ضروري.

وأما قولهم: "ليس في الجنايات الموجبة للقتل حدا ما يجوز إلحاق السب بها" قلنا: بل هو يلحق بالردة المقترنة بما يغلظها والنقض المقترن بما يغلظه وإن الفساد الحاصل في السب أبلغ من الفساد الحاصل بتلك الأمور المغلظة كما تقدم بيانه بشواهده من الأصول الشرعية على أن هذا الحكم مستغن عن أصل يقاس به بل هو أصل في نفسه كما تقدم ثم إن هذا الكلام يقابل بما هو أنور منه بيانا وأبهر منه برهانا وذلك أن القول بوجوب الكف عن هذا الساب بعد الاتفاق على حل دمه قول لا دليل عليه إلا قياس له على بعض المرتدين وناقضي العهد مع ظهور الفرق بينهما ومن قاس الشيء على ما يخالفه ويفارقه كان قياسه فاسدا فإن جعل هذا سببا عاصما قياس لسبب على سبب مع تباينهما في نوع الحكمة وقدرها ثم إنه إخلاء للسب الذي هو أعظم الجناية على الأعراض من العقوبات ولا عهد لنا بهذا في الشرع فهو إثبات حكم خارج عن القياس وجعل لكونه موجبا للقتل موجبا لكونه أهون من أعراض الناس في باب السقوط وهذا تعليق على العلة ضد مقتضاها وخروج عن موجب الأصول فإن العقوبات لا يكون تغلظها في الوجوب سببا لتخفيفها في السقوط قط لكن إن كان جنسها مما يسقط سقطت خفيفة كانت أو غليظة كحقوق الله في بعض المواضع ولم تسقط خفيفة كانت أو غليظة كحقوق العباد.

ثم إن القول باستتابة الساب قول يخالف كتاب الله ويخالف صريح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه وأصحابه والقول بأن لا حق للرسول على الساب إذا أسلم الذمي أو المسلم ولا عقوبة له عليه قول يخالف المعروف من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخالف أصول الشريعة ويثبت حكما ليس له أصل ولا نظير إلا أن يلحق بما ليس مثلا له.

الجواب الثاني: أنا لم ندع أن مجرد السب موجب للقتل وإنما بينا أن كل سب فهو محاربة ونقض للعهد بما يضر المسلمين فيقتل بمجموع الأمرين السب ونقض العهد ولا يجوز أن يقال: خصوص السب عديم التأثير فإن فساد هذا معلوم قطعا بما ذكرناه من الأدلة القاطعة على تأثيره وإذا كان كذلك فلم نثبته سببا خارجا عن الأسباب المعهودة وإنما هو مغلظ للسبب المعروف وهو الكفر كما أن قتل النفس موجب لحل دمه ثم إن كان قد قتله في المحاربة تغلظ بتحتم القتل وإلا بقي الأمر فيه إلى الأولياء ومعلوم أن المقتول من قطاع الطريق لا يقال فيه "قتل قودا ولا قصاصا" حتى يرتب عليه أحكام من يجب عليه القود وإنما يضاف القتل إلى خصوص جنايته وهو القتل في المحاربة كذلك هنا الموجب هو خصوص المحاربة.

وقولهم: "الأدلة مترددة بين كون القتل لمجرد المحاربة أو لخصوص السب" قلنا: هي نصوص في أن السب مؤثر تأثيرا زائدا على مطلق تأثير الكفر الخالي عن عهد فلا يجوز إهمال خصوصه بعد اعتبار الشرع له وأن يقال: إنما المؤثر مجرد ما في ضمنه وطيه من زوال العهد ولذلك وجب قتل صاحبه عينا من غير تخيير كما قررنا دلالته فيما مضى وإذا كان كذلك فليس مع المخالف ما يدل على أن القتل المباح يسقط بالإسلام وإن كان هذا من فروع الكفر كما أن الذمي إذا استحل دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم فانتهكها لاعتقاده أنهم كفار وأن ذلك حلال له منهم ثم أسلم فإنه يعاقب على ذلك: إما بالقتل إن كان فيها ما يوجب القتل أو بغيره ولذلك لو استحل ذلك ذمي من ذمي مثل أن يقتل نصراني يهوديا أو يأخذ ماله لاعتقاده أن ذلك حلال له أو يقذفه أو يسبه فإنه يعاقب على ذلك عقوبة مثله وإن أسلم وكذلك لو قطع الطريق على قافلة فيهم مسلمون ومعاهدون فقتل بعض أولئك المسلمين أو المعاهدين قتل لأجل ذلك حتما وانتقض عهده وإن أسلم بعد ذلك وإن كان هذا من فروع الكفر فهذا

رجل انتقض عهده بأمر يعتقد حله قبل العهد ولو فعله مسلم لم يقتل عند كثير من الفقهاء إذا كان المقتول ذميا وكل واحد من الكفر ومن القتل مؤثر في قتله وإن كان عهده إنما زال بهذا القتل فهذا نظير السب ثم لو أسلم هذا لم يسقط عنه القتل بل يقتل إما حدا أو قصاصا سواء كان ذلك القتل مما يقتل به المسلم بأن يكون المقتول مسلما أو لا يقتل به بأن يكون المقتول ذميا وعلى التقديرين يقتل هذا الرجل بعد إسلامه لقطعه الطريق مثلا وقتله ذلك المعاهد من غير أهل دينه وإن كان إنما فعل هذا مستحلا له لكفره وهو قد تاب من ذلك الكفر فتكون التوبة منه توبة من فروعه وذلك لأن هذا الفرع ليس من لوازم الكفر بل هو محرم عليه في دينه لأجل الذمة كما أن تلك الدماء والأموال محرمة عليه لأجل الذمة.

ومنشأ الغلط في هذه المسألة اعتقاد أن الذمي يستبيح هذا السب فإن هذا غلط إذ لا فرق بالنسبة إليه بين إظهار الطعن في دين المسلمين وبين سفك دمائهم وأخذ أموالهم إذ الجميع إنما حرمه عليه العهد لا الدين المجرد فكيف لم يندرج أخذه لعرض بعض الأمة أو لعرض واحد من غير أهل دينه من أهل الذمة في ضمن التوبة من كفره مع أنه فرعه واندرج أخذه لعرض نبينا عليه الصلاة والسلام في ضمن التوبة من كفره؟.

الجواب الثالث: هب أنه إنما يقتل للكفر والحراب فقوله: "الإسلام يسقط القتل الثابت للكفر والحراب بالاتفاق" غلط وذلك أنا إنما اتفقنا على أنه يسقط القتل الثابت للكفر والحراب الأصلي فإن ذلك إذا أسلم لم يؤخذ بما أصاب في الجاهلية من دم أو مال أو عرض للمسلمين أما الحراب الطارىء فمن الذي وافق على أن القتل الثابت بجميع أنواعه يسقط بالإسلام؟ نعم نوافق على ما إذا نقض العهد بما لا ضرر على المسلمين فيه ثم أسلم أما إذا أسلم ثم حارب وأفسد بقطع طريق أو زنى بمسلمة أو قتل مسلم أو طعن في الدين فهذا يقتل بكل حال كما دل عليه الكتاب والسنة وهو يقتل في مواضع بالإجماع كما إذا قتل في المحاربة وحيث لم يكن مجمعا عليه فهو كمحل النزاع والقرآن يدل على أنه يقتل لأنه إنما استثنى من تاب قبل القدرة في الجملة فهذه المقدمة ممنوعة والتمييز بين أنواع الحراب يكشف اللبس.

وأما ما ذكروه من أن الكافر أو المسلم إذا سب فيما بينه وبين الله وقذف الأنبياء ثم تاب قبل الله توبته ولم يطالبه النبي بموجب قذفه في الدنيا ولا في الآخرة وأن الإسلام يجب قذف اليهود لمريم وابنها وقولهم في الأنبياء والرسل فهو كما قالوا ولا ينبغي أن يستراب في مثل هذا وقد صرح به بعض أصحابنا وغيرهم وقالوا: إنما الخلاف في سقوط القتل عنه أما توبته وإسلامه فيما بينه وبين الله فمقبولة فإن الله يقبل التوبة عن عباده من الذنوب كلها وعموم الحكم في توبة المسلم والذمي فأما توبة المسلم فقد تقدم القول فيها وأما توبة الذي من ذلك فإن كان ذلك السب ليس ناقضا للعهد بأن يقوله سرا فتوبته منه كتوبة الحربي من جميع ما يقوله ويفعله وتوبة الذمي من جميع ما يقر عليه من الكفر فإن هذا لم يكن ممنوعا منه بعقد الذمة وليس كلامنا فيه وبه يخرج الجواب عما ذكروه فإن السب الذي قامت الأدلة على مغفرته بالإسلام ليس هو السب الذي ينتقض به عهد الذمي إذا فعله وإنما فرق في الذمي بين الجهر بالسب والإسرار به بخلاف المسلم لأن ما يسره من السب لا يمنعه منه إيمان ولا أمان ألا ترى أنه لو قذف واحدا من المسلمين سرا مستحلا لذلك ثم أسلم كما لو قذفه وهو حربي ثم أسلم ومعلوم أن الكافر الذي لا عهد معه يمنعه من شيء متى أسلم سقط عنه جميع الذنوب تبعا للكفر نعم لو أتى من السب بما يعتقده حراما في دينه ثم أسلم ففي سقوط حق المسبوب هنا نظر ونظيره أن يسب الأنبياء بما يعتقده محرما في دينه وأما إن كان السب ناقضا للعهد فإظهاره له مستحلا له في الأصل وغير مستحل كقتله المسلم مستحلا أو غير مستحل فالتوبة هنا تسقط حق الله في الباطن وأما إسقاطها لحق الآدمي

ففيه نظر والذي يقتضيه القياس أنه كتوبة المسلم: إن كان قد بلغ المشتوم فلا بد من استحلاله وإن لم يبلغه ففيه خلاف مشهور وذلك لأنه حق آدمي يعتقده محرما عليه وقد انتهكه فهو كما لو قتل المعاهد مسلما سرا ثم أسلم وتاب أو أخذ له مالا سرا ثم أسلم فإن إسلامه لم يسقط عنه حق الآدمي الذي كان يعتقده محرما بالعهد لا ظاهرا ولا باطنا وهذا معنى قول من قال من أصحابنا: "إن توبته فيما بينه وبين الله مقبولة" فإن الله يقبل التوبة من الذنوب كلها وإن الله يقبل التوبة من حقوقه مطلقا أما من حقوق العباد فإن التوبة لا تبطل حقوقهم بل إما أن يستوفيها صاحبها ممن ظلمه أو يعوضه الله عنها من فضله العظيم.

وجماع هذا الأمر أن التوبة من كل شيء كان يستحله في كفره تسقط حقوق الله وحقوق العباد ظاهرا وباطنا لكن السب الذي نتكلم فيه هو السب الذي يظهره الذمي وليس هذا مما كان يستحله كما لم يكن يستحل دماءنا وأموالنا وإن كان ذلك مما يستحله لولا العهد.

وقد تقدم ذكر هذا وبينا أن العهد يحرم عليه في دينه كثيرا مما كان يعتقده حلالا لولا العهد ونظير هذا توبة المرتد من السب الذي يعتقد صحته وأما ما لم يكن يستحله وهو إظهار السب ففيه حقان: حق الله وحق للآدمي فتوبته تسقط فيما بينه وبين الله حقه لكن لا يلزم أن تسقط حق الآدمي في الباطن فهذا الكلام على قبول التوبة فيما بينه وبين الله.

وحينئذ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن الموضع الذي ثبت فيه قبول توبته فيما بينه وبين الله من حق الله وحق عباده ليس هو الموضع الذي ينتقض فيه عهده ويقتل وإن تاب فإن ادعى أنه يسقط حق العباد في جميع الصور فهذا محل منع لما فيه من الخلاف فلا بد من إقامة الدلالة على ذلك والأدلة المذكورة لم تتناول السب الظاهر الذي ينتقض به العهد.
الوجه الثاني: أن صحة التوبة فيما بينه وبين الله لا تسقط حقوق العباد من العقوبة المشروعة في الدنيا فإن من تاب من قتل أو قذف أو قطع طريق أو غير ذلك فيما بينه وبين الله فإن ذلك لا يسقط حقوق العباد من القود وحد القذف وضمان المال وهذا السب فيه حق لآدمي فإن كانت التوبة يغفر له بها ذنبه المتعلق بحق الله وحق عباده فإن ذلك لا يوجب سقوط حقوق العباد من العقوبة.
الوجه الثالث: أن من يقول بقبول التوبة من ذلك في الباطن بكل حال يقول: إن توبة العبد فيما بينه وبين الله ممكنه من جميع الذنوب حتى إنه لو سب سرا آحادا من الناس موتى ثم تاب واستغفر لهم بدل سبهم لرجي أن يغفر الله له ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها فكذلك ساب الأنبياء والرسل لو لم تقبل توبته وتغفر زلته لانسد باب التوبة وقطع طريق المغفرة والرحمة وقد قال تعالى لما نهى عن الغيبة: {أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم} فعلم أن المغتاب له سبيل إلى التوبة بكل حال وإن كان الذي اغتيب ميتا أو غائبا بل على أصح الروايتين ليس عليه أن يستحله في الدنيا إذا لم يكن علم فإن فساد ذلك أكثر من صلاحه وفي الأثر: "كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته" وقد قال تعالى: {إن الحسنات يذهبن السيئات} أما إذا كان الرسول حيا وقد بلغه السب فقد يقول هنا: إن التوبة لا تصح حتى يستحل الرسول ويعفو الرسول عنه كما فعل أنس بن زنيم وأبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وابن الزبعرى وإحدى القينتين وكعب بن زهير وغيرهم كما دلت عليه السيرة لمن تدبرها وقد قال كعب بن زهير:
نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
وإنما يطلب العفو في شيء يجوز فيه العفو والانتقام وإنما يقال "أوعده" إذا كان حكم الإيعاد باقيا بعد الإسلام وإلا فلو كان الإيعاد معلقا ببقائه على الكفر لم يبق إيعاد.
إذا تقرر هذا فصحة التوبة فيما بينه وبين الله وسقوط حق الرسول بما أبدله من الإيمان به الموجب لحقوقه لا يمنع أن يقيم عليه حد الرسول إذا ثبت عند السلطان وإن أظهر التوبة بعد ذلك كالتوبة من جميع الكبائر الموجبة للعقوبات المشروعة سواء كانت حقا لله أو حقا لآدمي فإن توبة العبد فيما بينه وبين الله بحسب الإمكان صحيحة مع أنه إذا ظهر عليه أقيم عليه الحد وقد أسلفنا أن سب الرسول فيه حق لله وحق لآدمي وأنه من كلا الوجهين يجب استيفاؤه إذا رفع إلى السلطان وإن أظهر الجاني التوبة بعد الشهادة عليه.
وأما ما ذكره من كون سب الرسول ليس بأعظم من سب الله وأن ما فيه من الشرف فلأجله ففي الجواب عنه طريقان:
أحدهما: أنه لا فرق بين البابين فإن ساب الله أيضا يقتل ولا تسقط التوبة القتل عنه إما لكونه دليلا على الزندقة في الإيمان والأمان أو لكونه ليس مجرد ردة ونقض وإنما هو من باب الاستخفاف بالله والاستهانة ومثل هذا لا يسقط القتل عنه إذا تاب بعد الشهادة عليه كما لا يسقط القتل عنه إذا انتهك محارمه فإن انتهاك حرمته أعظم من انتهاك محارمه وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر ذلك ومن قاله من أصحابنا وغيرهم ومن أجاب بهذا لم يورد عليه صحة إسلام النصراني ونحوه وقبول توبتهم لأنه لا خلاف في قبول التوبة فيما بينه وبين الله وفي قبول التوبة مطلقا إذا لم يظهروا السب وإنما الخلاف فيما إذا أظهر النصراني ما هو سب وطعن ودعاؤهم إلى التوبة لا يمنع إقامة الحدود عليهم إذا كانوا معاهدين كقوله سبحانه وتعالى: {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا} وكانت فتنتهم أنهم ألقوهم في النار حتى كفروا ولو فعل هذا معاهد بمسلم فإنه يقتل وإن أسلم بالاتفاق وإن كانت توبته فيما بينه وبين الله مقبولة.
وأيضا فإن مقالات الكفار التي يعتقدونها ليست من السب المذكور فإنهم يعتقدون هذا تعظيما لله ودينا له وإنما الكلام في السب الذي هو السب عند الساب وغيره من الناس وفرق بين من يتكلم في حقه بكلام يعتقده تعظيما له وبين من يتكلم بكلام يعلم أنه استهزاء به واستخفاف به ولهذا فرق في القتل والزنى والسرقة والشرب والقذف ونحوهن بين المستحل لذلك المعذور وبين من يعلم التحريم.
وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر" وقوله فيما يروي عن ربه عز وجل: "يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار" فإن من سب الدهر من الخلق لم يقصد سب الله سبحانه وإنما يقصد أن يسب من فعل به ذلك الفعل مضيفا له إلى الدهر فيقع السب على الله لأنه هو الفاعل في الحقيقة وسواء قلنا أنه الدهر اسم من أسماء الله تعالى كما قال نعيم بن حماد أو قلنا إنه ليس باسم وإنما قوله: "أنا الدهر" أي أنا الذي أفعل ما ينسبونه إلى الدهر ويوقعون السب عليه كما قاله أبو عبيدة والأكثرون ولهذا لا يكفر من سب الدهر ولا يقتل لكن يؤدب ويعزر لسوء منطقه والسب المذكور في قوله تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم} قد قيل: إن المسلمين كانوا إذا

سبوا آلهة الكفار سب الكفار من يأمرهم بذلك وإلههم الذين يعبدونه معرضين عن كونه ربهم وإلههم فيقع سبهم على الله لأنه إلهنا ومعبودنا فيكونوا سابين لموصوف وهو الله سبحانه ولهذا قال سبحانه: {عدوا بغير علم} وهو شبيه بسب الدهر من بعض الوجوه وقيل: كانوا يصرحون بسب الله عدوا وغلوا وفي الكفر قال قتادة: "كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله بغير علم فانزل الله: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم} " وقال أيضا: "كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله تعالى أن يستسبوا لربهم قوما جهلة لا علم لهم بالله" وذلك أنه في اللجاجة أن يسب الجاهل من يعظمه مراغمة لعدوه إذا كان يعظمه أيضا كما قال بعض الحمقى:

سبوا عليا كما سبوا عتيقكم ... كفرا بكفر وإيمانا بإيمان

وكما يقول بعض الجهال: مقابلة الفاسد بمثله وكما قد تحمل بعض جهال المسلمين الحمية على أن يسب عيسى إذا جاهره المحاربون بسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا من الموجبات للقتل.

الطريقة الثانية: طريقة من فرق بين سب الله وسب رسوله وذلك من وجوه:

أحدها: أن سب الله حق محض لله وذلك يسقط بالتوبة كالزنى والسرقة وشرب الخمر وسب النبي صلى الله عليه وسلم فيه حقان: لله وللعبد فلا يسقط حق الآدمي بالتوبة كالقتل في المحاربة هذا فرق القاضي أبي يعلى في خلافه.

الوجه الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم تلحقه المعرة بالسب لأنه مخلوق وهو من جنس الآدميين الذين تلحقهم المعرة والغضاضة بالسب والشتم وكذلك يثابون على سبهم ويعطيهم الله من حسنات الشاتم أو من عنده عوضا على ما أصابهم من المصيبة بالشتم فمن سبه فقد انتقص حرمته والخالق سبحانه لا تلحقه معرة ولا غضاضة بذلك فإنه منزه عن لحوق المنافع والمضار كما قال سبحانه فيما يرويه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني" وإذا كان سب النبي صلى الله عليه وسلم قد يؤثر انتقاصه في النفوس وتلحقه بذلك معرة وضيم وربما كان سببا للتنفير عنه وقلة هيبته وسقوط حرمته شرعت العقوبة على خصوص الفساد الحاصل بسببه فلا تسقط بالتوبة كالعقوبة على جميع الجرائم وأما ساب الله سبحانه فإنه يضر نفسه بمنزلة الكافر والمرتد فمتى تاب زال ضرر نفسه فلا يقتل.

وهذا الفرق ذكره طوائف من المالكية والشافعية والحنابلة منهم القاضي عبد الوهاب بن نصر والقاضي أبو يعلي في "المجرد" وأبو علي بن البناء وابن عقيل وغيرهم وهو يتوجه مع قولنا: إن سب النبي صلى الله عليه وسلم حد لله كالزنى والسرقة.

يؤيد ذلك أن القذف بالكفر أعظم من القذف بالزنا ثم لم يشرع عليه حد مقدر كما شرع على الرمي بالزنا وذلك لأن المقذوف بالكفر لا يلحقه العار الذي يلحقه بالرمي بالزنا لأنه بما يظهر من الإيمان يعلم كذب القاذف وبما يظهره من التوبة تزول عنه تلك المعرة بخلاف الزنا فإنه يستسر به ولا يمكنه إظهار البراءة منه ولا تزول معرته في عرف الناس عند إظهار التوبة فكذلك ساب الرسول يلحق بالدين وأهله من المعرة ما لا يلحقهم إذا سب الله لكون المنافي لسب الله ظاهرا معلوما لكل أحد يشترك فيه كل الناس.

الوجه الثالث: أن عليه الصلاة والسلام إنما يسب على وجه الاستخفاف به والاستهانة وللنفوس الكافرة والمنافقة إلى ذلك داع: من جهة الحسد على ما آتاه الله من فضله ومن جهة المخالفة في دينه ومن جهة الانقهار تحت حكم دينه وشرعه ومن جهة المراغمة لأمته وكل مفسدة يكون إليها داع فلا بد من شرع العقوبة عليها حدا وكل ما شرعت العقوبة عليه لم يسقط بالتوبة كسائر الجرائم وأما سب الله سبحانه فإنه لا يقع في الغالب استخفافا واستهانة وإنما يقع تدينا واعتقادا وليس للنفوس في الغالب داع إلى إلقاء السب إلا عن اعتقاد يرونه تعظيما وتمجيدا وإذا كان كذلك لم يحتج خصوص السب إلى شرع زاجر بل هو نوع من الكفر فيقتل الإنسان عليه كردته وكفره إلا أن يتوب.

وهذا الوجه من نمط الذي قبله والفرق بينهما أن ذلك بيان لأن مفسدة السب لا تزول بإظهار التوبة بخلاف مفسدة سب الله تعالى والثاني بيان لأن سب الرسول إليه داع طبعي فيشرع الزجر عليه لخصوصه كشرب الخمر وسب الله تعالى ليس إليه داع طبعي فلا يحتاج خصوصه إلى زجر آخر كشرب البول وأكل الميتة والدم.

والوجه الرابع: أن سب النبي عليه الصلاة والسلام حد وجب لسب آدمي ميت لم يعلم أنه عفا عنه وذلك لا يسقط بالتوبة بخلاف سب الله تعالى فإنه قد علم أنه قد عفا عمن سبه إذا تاب وذلك أن سب الرسول متردد في سقوطه حده بالتوبة بين سب الله وسب سائر الآدميين فيجب إلحاقه بأشبه الأصلين به ومعلوم أن سب الآدمي إنما لم تسقط عقوبته بالتوبة لأن حقوق الآدميين لا تسقط بالتوبة لأنهم ينتفعون باستيفاء حقوقهم ولا ينتفعون بتوبة التائب فإذا تاب من للآدمي عليه حق قصاص أو قذف فإن له أن يأخذه منه لينتفع به تشفيا ودرك ثأر وصيانة عرض وحق الله قد علم سقوطه بالتوبة لأنه سبحانه إنما أوجب الحقوق لينتفع بها العباد فإذا رجعوا إلى ما ينفعهم حصل مقصود الإيجاب وحينئذ فلا ريب أن حرمة الرسول ألحقت بحرمة الله من جهة التغليظ لأن الطعن فيه طعن في دين الله وكتابه وهو من الخلق الذين لا تسقط حقوقهم بالتوبة لأنهم ينتفعون باستيفاء الحقوق ممن هي عليه وقد ذكرنا ما دل على ذلك من أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان له أن يعاقب من آذاه وإن جاءه تائبا وهو عليه الصلاة

والسلام كما أنه بلغ الرسالة لينتفع بها العباد فإذا تابوا ورجعوا إلى ما أمرهم به فقد حصل مقصوده فهو أيضا يتألم بأذاهم له فله أن يعاقب من آذاه تحصيلا لمصلحة نفسه كما أنه يأكل ويشرب فإن تمكين البشر من استيفاء حقه ممن بغى عليه من جملة مصالح الإنسان ولولا ذلك لماتت النفوس غما ثم إليه الخيرة في العفو والانتقام فقد تترجح عنده مصلحة الانتقام فيكون فاعلا لأمر مباح وحظ جائز كما له أن يتزوج النساء وقد يترجح العفو والأنبياء عليهم السلام منهم من كان قد يترجح عنده أحيانا الانتقام ويشدد الله قلوبهم فيه حتى تكون أشد من الصخر كنوح وموسى ومنهم من كان يترجح عنده العفو فيلين الله قلوبهم فيه حتى تكون ألين من اللبن كإبراهيم وعيسى فإذا تعذر عفوه عن حقه تعين استيفاؤه وإلا لزم إهدار حقه بالكلية.
قولهم: "إذا سقط المتبوع بالإسلام فالتابع أولى".
قلنا: هو تابع من حيث تغلظت عقوبته لا من حيث إن له حقا في الاستيفاء لا ينجبر بالتوبة.
قولهم: "ساب الواحد من الناس لا يختلف حاله بين ما قبل الإسلام وبعده بخلاف ساب الرسول".
عنه جوابان:
أحدهما: المنع فإن سب الذمي للمسلم جائز عنده لأنه يعتقد كفره وضلاله وإنما يحرمه عنده العهد الذي بيننا وبينه فلا فرق بينهما وإن فرض الكلام في سب خارج عن الدين مثل الرمي بالزنا والافتراء عليه ونحو ذلك فلا فرق في ذلك بين سب الرسول وسب الواحد من أهل الأمة ولا ريب أن الكافر إذا أسلم صار أخا للمسلمين يؤذيه ما يؤذيهم وصار معتقدا لحرمة أعراضهم وزال المبيح لانتهاك أعراضهم ومع ذلك لا يسقط حق المشتوم بإسلامه وقد تقدم هذا الوجه غير مرة.
الثاني: أن شاتم الواحد من الناس لو تاب وأظهر براءة المشتوم وأثنى عليه ودعا له بعد رفعه إلى السلطان كان له أن يستوفي حده مع ذلك فلا فرق بينه وبين شاتم الرسول إذا أظهر اعتقاد رسالته وعلو منزلته وسبب ذلك أن إظهار مثل هذه التوبة لا يزيل ما لحق المشتوم من الغضاضة والمعرة بل قد يحمل ذلك على خوف العقوبة وتبقى آثار السب الأول جارحة فإن لم يمكن المشتوم من أخذ حقه بكل حال لم يندمل جرحه.
قولهم: "القتل حق الرسالة وأما البشرية فإنما لها حقوق البشرية والتوبة تقطع حق الرسالة".
قلنا: لا نسلم ذلك بل هو من حيث هو بشر مفضل في بشريته على الآدميين تفضيلا يوجب قتل سابه ولو كان القتل إنما وجب لكونه قدحا في النبوة لكان مثل غيره من أنواع الكفر ولم يكن خصوص السب موجبا للقتل وقد قدمنا من الأدلة ما يدل على أن خصوص السب موجب للقتل وأنه ليس بمنزلة سائر أنواع الكفر ومن سوى بين الساب للرسول وبين المعرض عن تصديقه فقط في العقوبة فقد خالف الكتاب والسنة الظاهرة والإجماع الماضي وخالف المعقول وسوى بين الشيئين المتباينين وكون القاذف له لم يجب عليه مع القتل جلد ثمانين أوضح دليل على أن القتل عقوبة لخصوص السب وإلا كان قد اجتمع حقان: حق لله وهو تكذيب رسوله فيوجب القتل وحق لرسوله وهو سبه فيوجب الجلد على هذا الرأي فكان ينبغي قبل التوبة على هذا أن يجتمع عليه الحدان كما لو ارتد وقذف مسلما وبعد التوبة يستوفى منه حد القذف فكان إنما للنبي عليه الصلاة والسلام أن يعاقب من سبه وجاء تائبا بالجلد فقط كما أنه ليس للإمام أن يعاقب قاطع الطريق إذ جاء تائبا إلا بالقود ونحوه مما هو خالص حق الآدمي ولو سلمنا أن القتل حق الرسالة فقط فهو ردة مغلظة بما فيه ضرر أو نقض مغلظ بما فيه ضرر كما لو اقترن بالنقض حراب وفسادا بالفعل من قطع طريق وزنى بمسلمة وغير ذلك فإن القتل هنا حق لله ومع هذا لم يسقط بالتوبة والإسلام وهذا متحقق سواء قلنا إن ساب الله يقتل بعد التوبة أو لا يقتل كما تقدم تقريره.
قولهم: "إذا أسلم سقط القتل المتعلق بالرسالة".
قلنا: هذا ممنوع أما إذا سوينا بينه وبين سب الله فظاهر وإن فرقنا فإن هذا شبه من باب فعل المحارب لله ورسوله الساعي في الأرض فسادا والحاجة داعية إلى ردع أمثاله كما تقدم وإن سلمنا سقوط الحق المتعلق بالكفر بالرسالة لكن لم يسقط الحق المتعلق بشتم الرسول وسبه فإن هذه جناية زائدة على نفس الرسول مع التزام تركها فإن الذمي يلتزم لنا أن لا يظهر السب وليس ملتزما لنا أن لا يكفر به فكيف يجعل ما التزم تركه من جنس ما أقررناه عليه؟ وجماع الأمر أن هذه الجناية على الرسالة له نقض يتضمن حرابا وفسادا أو ردة تضمنت فسادا وحرابا وسقوط القتل عن مثل هذا ممنوع كما تقدم.
قولهم: "حق البشرية انغمر في حق الرسالة وحق الآدمي انغمر في حق الله".
قلنا: هذه دعوة محضة ولو كان كذلك لما جاز للنبي عليه الصلاة والسلام العفو عمن سبه ولا جاز عقوبته بعد مجيئه تائبا ولا احتيج خصوص السب أن يفرد بذكر العقوبة لعلم كل أحد أن سب الرسول أغلظ من الكفر به فلما جاءت الأحاديث والآثار في خصوص سب الرسول بالقتل علم أن ذلك لخاصة في السب وإن اندرج في عموم الكفر.
وأيضا فحق العبد لا ينغمر في حق الله قط نعم العكس موجود كما تندرج عقوبة القاتل والقاذف على عصيانه لله في القود وحد القذف أما أن يندرج حق العبد في حق الله فباطل فإن من جنى جناية واحدة تعلق بها حقان لله ولآدمي ثم سقط حق الله لم يسقط حق الآدمي سواء كان من جنس أو جنسين كما لو جنى جنايات متفرقة كمن قتل في قطع الطريق فإنه إذا سقط عنه تحتم القتل

لم يسقط عنه القتل ولو سرق سرقة ثم سقط عنه القطع لم يسقط عنه الغرم بإجماع المسلمين حتى عند من قال "إن القطع والغرم لا يجتمعان" نعم إذا جنى جناية واحدة فيها حقان لله ولآدمي: فإن كان موجب الحقين من جنس واحد تداخلا وإن كانا من جنسين ففي التداخل خلاف معروف مثال الأول قتل المحارب فإنه يوجب القتل حقا لله وللآدمي والقتل لا يتعدد فمتى قتل لم يبق للآدمي حق في تركته من الدية وإن كان له أن يأخذ الدية إذا قتل عدة مقتولين فيقتل ببعضهم عند الشافعي وأحمد وغيرهما أما إن قلنا: "إن موجب العمد القود عينا" فظاهر وإن قلنا: "إن موجبه أحد شيئين" فإنما ذاك حيث يمكن العفو وهنا لا يمكن العفو وصار موجبه القود عينا وولي استيفائه الإمام لأن ولايته أعم ومثال الثاني أخذ المال سرقة وإتلافه فإنه موجب للقطع حدا لله وموجب للغرم حقا للآدمي ولهذا قال الكوفيون: إن حد الآدمي يدخل في القطع فلا يجب وقال الأكثرون: بل يغرم للآدمي ماله وإن قطعت يده وأما إذا جنى جنايات متفرقة لكل جناية حد فإن كانت لله وهي من جنس واحد تداخلت بالاتفاق وإن كانت من أجناس وفيها القتل تداخلت عند الجمهور ولم تتداخل عند الشافعي وإن كانت للآدمي لم تتداخل عند الجمهور وعند مالك تتداخل في القتل إلا حد القذف فهنا هذا الشاتم الساب لا ريب أنه يتعلق بسببه حق لله وحق لآدمي ونحن نقول: إن موجب كل منهما القتل ومن ينازعنا إما أن يقول: اندرج حق الآدمي في حق الله أو موجبه الجلد فإذا قتل فلا كلام إلا عند من يقول: إن موجبه الجلد فإنه يجب أن يخرج على الخلاف وأما إذا أسقط حق الله في بالتوبة فكيف يسقط حق العبد؟ فإنا لا نحفظ لهذا نظيرا بل النظائر تخالفه كما ذكرناه والسنة تدل على خلافه وإثبات حكم بلا أصل ولا نظير غير جائز بل مخالفته للأصول دليل على بطلانه.

وأيضا فهب أن هذا حد محض لله لكن لم يقال: "إنه يسقط بالتوبة"؟ وقد قدمنا أن الردة ونقض العهد نوعان: مجرد ومغلظ فما تغلظ منه بما يضر المسلمين يجب قتل صاحبه بكل حال وإن تاب وبينا أن السب من هذا النوع.

وأيضا فأقصى ما يقال أن يلحق هذا السب بسب الله وفيه من الخلاف ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وأما ما ذكر من الفرق بين سب المسلم وسب الكافر فهو وإن كان له توجه كما للتسوية بينهما في السقوط توجه أيضا فإنه معارض بما يدل على أن الكافر أولى بالقتل لكل حال من المسلم وذلك أن الكافر قد ثبت المبيح لدمه وهو الكفر وإنما عصمه العهد وإظهاره السب لا ريب أنه محاربة لله ورسوله وإفساد في الأرض ونكاية في المسلمين فقد تحقق الفساد من جهته وإظهاره التوبة بعد القدرة عليه لا يوثق بها كتوبة غيره من المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فسادا بخلاف من علم منه الإسلام وصدرت منه الكلمة من السب مع إمكان أنها لم تصدر عن اعتقاد بل خرجت سفها أو غلطا فإذا عاد إلى الإسلام مع أنه لم يزل يتدين به لم يعلم منه خلافه كان أولى بقبول توبته لأن ذنبه أصغر وتوبته أقرب إلى الصحة.

ثم إنه يجاب عنه بأن إظهار المسلم تجديد الإسلام بمنزلة إظهار الذمي الإسلام لأن الذمي كان يزعه عن إظهار سبه ما أظهره من الأمان كما يزع المسلم ما أظهره من عقد الإيمان فإذا كان المسلم الآن إنما يظهر عقد إيمان قد ظهر ما يدل على فساده فكذلك الذمي إنما يظهر عقد إيمان قد ظهر ما يدل على فساده فإن من يتهم في أمانه يتهم في إيمانه ويكون منافقا في الإيمان كما كان منافقا في الأمان بل ربما كان حال هذا الذي تاب بعد معاينة السيف أشد على المسلمين من حاله قبل التوبة فإنه كان في ذلة الكفر والآن فإنه قد يشرك المسلمين في ظاهر العز مع ما ظهر من نفاقه وخبثه الذي لم يظهر ما يدل على زواله على أن في تعليل سبه بالزندقة نظرا فإن السب أمر ظاهر أظهره ولم يظهر منه ما يدل على استبطانه إياه قبل ذلك ومن الجائز أن يكون قد حدث له ما أوجب الردة.

نعم إن كان ممن تكرر ذلك منه أو له دلالات على سوء العقيدة فهنا الزندقة ظاهرة لكن يقال: نحن نقتله لأمرين لكونه زنديقا ولكونه سابا كما نقتل الذمي لكونه كافرا غير ذي عهد ولكونه سابا فإن الفرق بين المسلم والذمي في الزندقة لا يمنع اجتماعهما في علة أخرى تقضي كون السب موجبا للقتل وإن أحدث الساب اعتقادا صحيحا بعد ذلك بل قد يقال: إن السب إذا كان موجبا للقتل قتل صاحبه وإن كان صحيح الاعتقاد في الباطن حال سبه كسبه لله تعالى وكالقذف في إيجابه للجلد وكسب جميع البشر.

وأما الفرق الثاني الذي مبناه على أن السب يوجب قتل المسلم حدا لأن مفسدته لا تزول بسقوطه بتجديد الإسلام بخلاف سب الكافر فمضمونه أنا نرخص لأهل الذمة في إظهار السب إذا أظهروا بعده الإسلام ونأذن لهم أن يشتموا ثم بعد ذلك يسلمون وما هذا إلا بمثابة أن يقال: على الذمي بأنه إذا زنى بمسلمة أو قطع الطريق أخذ فقتل إلا أن يسلم يزعه عن هذه المفاسد إلا أن يكون من يريد الإسلام وإذا أسلم فالإسلام يجب ما كان قبله ومعلوم أن معنى هذا أن الذمي يحتمل منه ما يقوله ويفعله من أنواع المحاربة والفساد إذا قصد أن يسلم بعده وأسلم ومعلوم أن هذا غير جائز فإن الكلمة الواحدة من سب النبي صلى الله عليه وسلم لا تحتمل بإسلام ألوف من الكفار ولأن يظهر دين الله ظهورا يمنع أحدا أن ينطق فيه بطعن أحب إلى الله ورسوله من أن يدخل فيه أقوام وهو منتهك مستهان وكثير ممن يسب الأنبياء من أهل الذمة قد يكون زنديقا لا يبالي إلى أي دين انتسب فلا يبالي أن ينال غرضه من السب ثم يظهر الإسلام كالمنافق سواء ثم هذا يوجب الطمع منهم في عرضه فإنه ما دام العدو يرجو

أن يستبقى ولو بوجه لم يزعه ذلك عن إظهار مقصوده في وقت ما ثم إن ثبت ذلك عليه ورفع إلى السلطان وأمر بقتله أظهر الإسلام وإلا
فقد حصل غرضه وكل فساد قصد إزالته بالكلية لم يجعل لفاعله سبيل إلى استبقائه بعد الأخذ كالزنى والسرقة وقطع الطريق فإن كان مقصود الشارع من تطهير الدار من ظهور كلمة الكفر والطعن في الدين أبلغ من مقصوده من تطهيرها من وجود هذه القبائح ابتغى أن يكون تحتم عقوبة من فعل ذلك أبلغ من تحتم عقوبة هؤلاء.
وفقه هذا الجواب أن تعلم أن ظهور الطعن في الدين من سب الرسول ونحوه فسادا عريض وراء مجرد الكفر فلا يكون حصول الإسلام ماحيا لذلك الفساد.
وأما الفرق الثالث قولهم: "إن الكافر لم يلتزم تحريم السب" فباطل فإنه لا فرق بين إظهاره لسب النبي صلى الله عليه وسلم وبين إظهاره لسب آحاد من المسلمين وبين سفك دمائهم وأخذ أموالهم فإنه لولا العهد لم يكن فرق عنده بيننا وبين سائر من يخالفه في دينه من المحاربين له ومعلوم أنه يستحل ذلك كله منهم ثم إنه بالعهد صار بذلك محرما عليه في دينه منا لأجل العهد فإذا فعل شيئا من ذلك أقيم عليه حده وإن أسلم سواء انتقض عهده بما يفعله أو لم ينتقض فتارة يجب عليه الحد مع بقاء العهد كما لو سرق أو قذف مسلما وتارة ينتقض عهده ولا حد عليه فيصير بمنزلة المحاربين وتارة يجب عليه الحد وينتقض عهده كما إذا سب الرسول أو زنى بمسلمة أو قطع الطريق على المسلمين فهذا يقتل وإن أسلم وعقوبة هذا النوع من الجنايات القتل حتما كعقوبة القاتل في المحاربة من المسلمين جزاء له على ما فعل من الفساد الذي التزم بعقد الإيمان أن لا يفعله مع كون مثل ذلك الفساد موجبا للقتل ونكالا لأمثاله عن فعل مثل هذا إذا علموا أنه لا يترك صاحبه حتى يقتل.
فهذا هو الجواب عما ذكر من الحجج للمخالف مع أن فيما تقدم من كلامنا ما يغني عن الجواب لمن تبينت له المآخذ والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل:

في مواضيع التوبة.

وذلك مبني على التوبة من سائر الجرائم فنقول:
لا خلاف علمناه أن قاطع الطريق إذا تاب قبل القدرة عليه سقط عنه ما كان حدا لله من تحتم القتل والصلب والنفي وقطع الرجل وكذلك قطع اليد عند عامة العلماء إلا في وجه لأصحاب الشافعي وقد نص الله على ذلك بقوله: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم} ومعنى القدرة عليهم إمكان الحد عليهم لثبوته بالبينة أو الإقرار وكونهم في قبضة المسلمين فإذا تابوا قبل أن يؤخذوا سقط ذلك عنهم.
وأما من لم يوجد منه إلا مجرد الردة وقد أظهرها فذلك أيضا تقبل توبته عند العامة إلا ما يروى عن الحسن ومن قيل إنه وافقه.
وأما القاتل والقاذف فلا أعلم مخالفا أن توبتهم لا تسقط عنهم حق الآدمي بمعنى أنه إذا طلب بالقود وحد القذف فله ذلك وإن كانوا قد تابوا قبل ذلك.
وأما الزاني والسارق والشارب فقد أطلق بعض أصحابنا أنه إذا تاب قبل أن يقام عليه الحد فهل يسقط عنه الحد؟ على روايتين:
أصحهما: أنه يسقط عنه الحد بمجرد التوبة ولا يعتبر مع ذلك إصلاح العمل.
والثانية: لا يسقط ويكون من توبته تطهيره بالحد.
وقيد بعضهم إذا تاب قبل ثبوت حده عند الإمام وليس بين الكلامين خلاف في المعنى فإنه لا خلاف أنه لا يسقط في الموضع الذي لا يسقط حد المحارب بتوبته وإن اختلفت عباراتهم: هل ذلك لعدم الحكم بصحة التوبة أو لإفضاء سقوط الحد إلى المفسدة؟ فقال القاضي أبو يعلى وغيره وهو ممن أطلق الروايتين: التوبة غير محكوم بصحتها بعد قدرة الإمام عليه لجواز أن يكون أظهرها تقية من الإمام والخوف من عقوبته قال: ولهذا نقول في توبة الزاني والسارق والشارب: لا يحكم بصحتها بعد علم الإمام بحدهم وثبوته عنده وإنما يحكم بصحتها قبل ذلك قال: وقد ذكره أبو بكر في "الشافي" فقال: "إذا تاب يعني الزاني بعد أن قدر عليه فمن توبته أن يطهر بالرجم أو الجلد وإذا تاب قبل أن يقدر عليه قبلت توبته" فمأخذ القاضي أن نفس التوبة المحكوم بصحتها مسقطة للحد في كل موضع فلم يحتج إلى التقييد هو ومن سلك طريقته من أصحابه مثل الشريف أبي جعفر وأبي الخطاب ومأخذ أبي بكر وغيره الفرق بين ما قبل القدرة وبعدها في الجميع مع صحة التوبة بعد القدرة ويكون الحد من تمام التوبة فلهذا قيدوا فلا فرق في الحكم بين القولين والتقييد بذلك موجود في كلام الإمام أحمد نقل عنه أبو الحارث في سارق جاء تائبا ومعه السرقة فردها قبل أن يقدر عليه قال: "لم يقطع" وقال: قال الشعبي: "ليس على تائب قطع" وكذلك نقل حنبل ومهنا في السارق إذا جاء إلى الإمام تائبا: "يدرأ عنه القطع".

ونقل عنه الميموني في الرجل إذا اعترف بالزنا أربع مرات ثم تاب قبل أن يقام عليه الحد: إنه تقبل توبته ولا يقام عليه الحد وذكر قصة ماعز إذ وجد مس الحجر فهرب قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فهلا تركتموه" قال الميموني: وناظرته في مجلس آخر قال: إذا رجع عما أقر به لم يرجم قلت: فإن تاب؟ قال: من توبته أن يطهر بالرجم قال: ودار بيني وبينه الكلام غير مرة أنه إذا رجع لم يقم عليه وإن تاب فمن توبته أن يطهر بالجلد قال القاضي: والمذهب الصحيح أنه يسقط بالتوبة كما نقل أبو الحارث وحنبل ومهنا.
فتلخص من هذا أنه إذا أظهر التوبة بعد أن ثبت عليه الحد عند الإمام بالبينة لم يسقط عنه الحد وأما إن تاب قبل أن يقدر عليه بأن يتوب قبل أخذه وبعد إقراره الذي له أن يرجع عنه ففيه روايتان وقد صرح بذلك غير واحد من أئمة المذهب منهم الشيخ أبو عبد الله بن حامد قال: "فأما الزنا فإنه لا خلاف أنه فيما بينه وبين الله تصح توبته منه".
فأما إذا تاب الزاني وقد رفع إلى الإمام فقول واحد: لا يسقط الحد فأما إن تاب بحضرة الإمام فإنه ينظر فإن كان بإقرار منه ففيه روايتان وإن كان ذلك ببينه فقول واحد: لا يسقط لأنه إذا قامت البينة عليه بالزنا فقد وجب القضاء بالبينة والإقرار بخلاف البينة لأنه إذا رجع عن إقراره قبل منه.
وقال في السرقة: لا خلاف أن الحق الذي لله يسقط بالتوبة سواء تاب قبل القطع أو بعده وإنما الخلاف فيمن تاب قبل إقامة الحد فإن كان ذلك قبل أن يرفع إلى الإمام سقط الحد سواء رفع إلى الإمام أو لم يرفع وأما إذا تاب بعد أن رفع إلى الإمام فلا يسقط الحد عنه لأنه حق يتعلق بالإمام فلا يجوز تركه.
قال: وكذلك المحارب إذا تاب من حق الله وقد قدمنا أنا إذا قلنا يسقط الحد عن غير قطاع الطريق بالتوبة فإنه يكفي مجرد التوبة وهذا هو المشهور من المذهب كما يكفي ذلك في قطاع الطريق.
وفيه وجه ثان: أنه لا بد من إصلاح العمل مع التوبة وعلى هذا فقد قيل: يعتبر مضي مدة يعتبر بها صدق توبته وصلاح نيته وليست مقدرة بمدة معلومة لأن التوقيت يفتقر إلى توقيف ويتحرج أن يعتبر مضي سنة كما نص عليه الإمام أحمد في توبة الداعي إلى البدعة أنه يتعين فيه مضي سنة إتباعا لما أمر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قضية صبيغ بن عسل فإنه تاب عنده ثم نفاه إلى البصرة وأمر المسلمين بهجره فلما حال الحول ولم يظهر منه إلا خير أمر المسلمين بكلامه وهذه قضية مشهورة بين الصحابة هذه طريقة أكثر أصحابنا.
وظاهر طريقة أبي بكر أنه يفرق بين التوبة قبل أن يقر بأن يجيء تائبا وبين أن يقر ثم يتوب لأن أحمد رضي الله عنه إنما أسقط الحد عمن جاء تائبا فأما إذا أقر ثم تاب فقد رجع أحمد عن القول بسقوط الحد.
وللشافعي أيضا في سقوط سائر الحدود غير حد المحارب بالتوبة قولان أصحهما أنه يسقط لكن حد المحارب يسقط بإظهار التوبة قبل القدرة وحد غيره لا يسقط بالتوبة حتى يقترن بها الإصلاح في زمن يوثق بتوبته وقيل: مدة ذلك سنة.
هكذا ذكر العراقيون من أصحابه وذكر بعض الخراسانيين أن في توبة المحارب وغيره بعد الظفر قولين إذا اقترن بها الإصلاح واستشكلوا ذلك فيما إذا أنشأ التوبة حيث أخذ لإقامة الحد فإنه لا يؤخر حتى يصلح العمل.
ومذهب أبي حنيفة ومالك أنه لا يسقط بالتوبة وذكر بعضهم أن ذلك إجماع وإنما هو إجماع في التوبة بعد ثبوت الحد.

فصل.

إذا تلخص ذلك فمن سب الرسول صلى الله عليه وسلم ورفع إلى السلطان وثبت ذلك عليه بالبينة ثم أظهر التوبة لم يسقط عنه الحد عند من يقول: "إنه يقتل حدا" سواء تاب قبل أداء البينة أو بعد أداء البينة لأن هذه توبة بعد أخذه والقدرة عليه فهو كما لو تاب قاطع الطريق والزاني والسارق في هذه الحال وكذلك لو تاب بعد أن أريد رفعه إلى السلطان والبينة بذلك ممكنة وهذا لا ريب فيه والذمي في ذلك كالملي إذا قيل: "إنه يقتل حدا" كما قررناه.
وأما إن أقر بالسب ثم تاب أو جاء تائبا منه فذهب المالكية أنه يقتل أيضا لأنه حد من الحدود والحدود لا تسقط عندهم بالتوبة قبل القدرة ولا بعدها ولهم في الزنديق إذا جاء تائبا قولان لكن قال القاضي عياض: "مسألته أقوى لا يتصور فيها الخلاف لأنه حق يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته بسببه لا تسقطه التوبة كسائر حقوق الآدميين" وكذلك يقول من يرى أنه يقتله حدا كما يقرر الجمهور ويرى أن التوبة لا تسقط الحد بحال كأحد قولي الشافعي وإحدى الروايتين عن أحمد وأما على المشهور في المذهبين من أن التوبة قبل القدرة تسقط الحد فقد ذكرنا أنما ذاك في حدود الله فأما حدود الآدميين من القود وحد القذف فلا تسقط بالتوبة فعلى هذا لا يسقط القتل عنه وإن تاب قبل القدرة كما لا يسقط القتل قودا عن قاطع الطريق إذا تاب قبل القدرة لأنه حق آدمي ميت فأشبه القود وحد القذف وهذا قول القاضي أبي يعلى وغيره وهو مبني على أن قتله حق لآدمي وأنه لم يعف عنه ولا يسقط إلا بالعفو وهو قول من يفرق بين من سب الله ومن سب رسوله وأما من سوى بين من سب الله ومن سب رسوله وقال: "إن الحدود تسقط بالتوبة قبل القدرة" فإنه يسقط القتل هنا لأنه حد من الحدود الواجبة لله تعالى إذا تاب صاحبه قبل القدرة عليه وهذا موجب قول من قال: "إن توبته تنفعه فيما بينه وبين الله ويسقط عنه حق الرسول في الآخرة" وبه صرح بذلك غير

واحد من أصحابنا وغيرهم لأن التوبة المسقطة لحق الله وحق العبد وجدت قبل أخذه لإقامة الحد عليه وذلك أن هذا الحد ليس له عاف عنه فإن لم تكن التوبة مسقطة له لزم أن يكون من الحدود ما لا تسقطه توبة قبل القدرة ولا عفو وليس لهذا نظير نعم لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم حيا لتوجه أن يقال: لا يسقط الحد إلا عفوه بكل حال.
وأما إن أخذ وثبت السب بإقراره ثم تاب أو جاء فأقر بالسب غير مظهر للتوبة ثم تاب فذلك مبني على جواز رجوعه عن هذا الإقرار: فإذا لم يقبل رجوعه أقيم عليه الحد بلا تردد وإن قبل رجوعه وأسقط الحد عمن جاء تائبا ففي سقوطه عن هذا الوجهان المتقدمان وإن أقيم الحد على من جاء تائبا فعلى هذا أولى والقول في الذمي إذا جاء مسلما معترفا أو أسلم بعد إقراره كذلك.
فهذا ما يتعلق بالتوبة من السب ذكرنا ما حضرنا ذكره كما يسره الله سبحانه وتعالى.
وقد حان أن نذكر المسألة الرابعة فنقول:
المسألة الرابعة: في بيان السب المذكور والفرق بينه وبين مجرد الكفر.
وقبل ذلك لا بد من تقديم مقدمة وقد كان يليق أن تذكر في أول المسألة الأولى وذكرها هنا مناسب أيضا لينكشف سر المسألة.
وذلك أن نقول: إن سب الله أو سب رسوله كفر ظاهرا وباطنا وسواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم أو كان مستحلا له أو كان ذاهلا عن اعتقاده هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل.
وقد قال الإمام أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه وهو أحد الأئمة يعدل بالشافعي وأحمد: قد أجمع المسلمون أن من سب الله أو سب رسوله عليه الصلاة والسلام أو دفع شيئا مما أنزل الله أو قتل نبيا من أنبياء الله أنه كافر بذلك وإن كان مقرا بما أنزل الله.
وكذلك قال محمد بن سحنون وهو أحد الأئمة من أصحاب مالك وزمنه قريب من هذه الطبقة: "أجمع العلماء أن شاتم النبي صلى الله عليه وسلم المنتقص له كافر والوعيد جار عليه بعذاب الله وحكمه عند الأمة القتل ومن شك في كفره وعذابه كفر".
وقد نص على مثل هذا غير واحد من الأئمة قال أحمد في رواية عبد الله في رجل قال لرجل يا ابن كذا وكذا أعني أنت ومن خلقك: "هذا مرتد عن الإسلام يضرب عنقه" وقال في رواية عبد الله وأبي طالب: "من شتم النبي صلى الله عليه وسلم قتل وذلك أنه إذا شتم فقد ارتد عن الإسلام ولا يشتم مسلم النبي صلى الله عليه وسلم" فبين أن هذا مرتد وأن المسلم لا يتصور أن يشتم وهو مسلم.
وكذلك نقل عن الشافعي أنه سئل عمن هزل بشيء من آيات الله تعالى أنه قال: "هو كافر" واستدل بقول الله تعالى: {قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} .
وكذلك قال أصحابنا وغيرهم: من سب الله كفر سواء كان مازحا أو جادا لهذه الآية وهذا هو الصواب المقطوع به.
وقال القاضي أبو يعلى في "المعتمد": "من سب الله أو سب رسوله فإنه يكفر سواء استحل سبه أو لم يستحله" فإن قال: "لم أستحل ذلك" لم يقبل منه في ظاهر الحكم رواية واحدة وكان مرتدا لأن الظاهر خلاف ما أخبر لأنه لا غرض له في سب الله وسب رسوله إلا لأنه غير معتقد لعبادته غير مصدق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ويفارق الشارب والقاتل والسارق إذا قال: "أنا غير مستحل لذلك" أنه يصدق في الحكم لأن له غرضا في فعل هذه الأشياء مع اعتقاد تحريمها وهو ما يتعجل من اللذة قال: وإذا حكمنا بكفره فإنما نحكم به في ظاهر الحكم فأما في الباطن فإن كان صادقا فيما قال فهو مسلم كما قلنا في الزنديق: لا تقبل توبته في ظاهر الحكم.
وذكر القاضي عن الفقهاء أن ساب النبي صلى الله عليه وسلم إن كان مستحلا كفر وإن لم يكن مستحلا فسق ولم يكفر كساب الصحابة وهذا نظير ما يحكى أن بعض الفقهاء من أهل العراق أفتى هارون أمير المؤمنين فيمن سب النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلده حتى أنكر ذلك مالك ورد هذه الفتيا مالك وهو نظير ما حكاه أبو محمد ابن حزم أن بعض الناس لم يكفر المستخف به.
وقد ذكر القاضي عياض بعد أن رد هذه الحكاية عن بعض فقهاء العراق والخلاف الذي ذكره ابن حزم بما نقله من الإجماع عن غير واحد وحمل الحكاية على أن أولئك لم يكونوا ممن يوثق بفتواه لميل الهوى به أو أن الفتيا كانت في كلمة اختلف في كونها سبا أو كانت فيمن تاب ذكر أن الساب إذا أقر بالسب ولم يتب منه قتل كفرا لأن قوله إما صريح كفر كالتكذيب ونحوه أو هو من كلمات الاستهزاء أو الذم فاعترافه بها وترك توبته منها دليل على استحلاله لذلك وهو كفر أيضا قال: فهذا كافر بلا خلاف.
وقال في موضع آخر: إن من قتله بلا استتابة فهو لم يره ردة وإنما يوجب القتل فيه حدا وإنما يقول ذلك مع إنكاره ما شهد عليه به أو إظهاره الإقلاع عنه والتوبة ونقتله حدا كالزنديق إذا تاب قال: ونحن وإن أثبتنا له حكم الكافر في القتل فلا نقطع عليه بذلك لإقراره بالتوحيد والنبوة وإنكاره ما شهد به عليه أو زعمه أن ذلك كان منه ذهولا ومعصية وأنه مقلع عن ذلك نادم عليه

قال: وأما من علم أنه سبه معتقدا لاستحلاله فلا شك في كفره بذلك وكذلك إن كان سبه في نفسه كفرا كتكذيبه أو تكفيره ونحوه فهذا ما لا إشكال فيه وكذلك من لم يظهر التوبة واعتراف بما شهد به وصمم عليه فهو كافر بقوله واستحلاله هتك حرمة الله أو حرمة نبيه وهذا أيضا تثبيت منه بأن السب يكفر به لأجل استحلاله له إذا لم يكن في نفسه تكذيبا صريحا.

وهذا موضع لا بد من تحريره ويجب أن يعلم أن القول بأن كفر الساب في نفس الأمر إنما هو لاستحلاله السب زلة منكرة وهفوة عظيمة ويرحم الله القاضي أبا يعلي قد ذكر في غير موضع ما يناقض ما قاله هنا وإنما وقع من وقع في هذه المهواة ما تلقوه من كلام طائفة من متأخري المتكلمين وهم الجهمية الإناث الذين ذهبوا مذهب الجهمية الأولى في أن الإيمان هو مجرد التصديق الذي في القلب وإن لم يقترن به قول اللسان ولم يقتض عملا في القلب ولا في الجوارح وصرح القاضي أبو يعلى بذلك هنا قال عقب أن ذكر ما حكيناه عنه: وعلى هذا لو قال الكافر: "أنا معتقد بقلبي معرفة الله وتوحيده لكني لا آتي بالشهادتين كما لا آتي غيرها من العبادات كسلا" لم يحكم بإسلامه في الظاهر ويحكم به باطنا قال: وقول الإمام أحمد: "من قال إن المعرفة تنفع في القلب من غير أن يتلفظ بها فهو جهمي" محمول على أحد وجهين أحدهما: أنه جهمي في ظاهر الحكم والثاني: على أنه يمتنع من الشهادتين عنادا لأنه احتج أحمد في ذلك بأن إبليس عرف ربة بقلبه ولم يكن مؤمنا ومعلوم أن إبليس اعتقد أنه لا يلزم امتثال أمره تعالى بالسجود لآدم وقد ذكر القاضي في غير موضع أنه لا يكون مؤمنا حتى يصدق بلسانه مع القدرة وبقلبه وأن الإيمان قول وعمل كما هو مذهب الأئمة كلهم: مالك وسفيان والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وإسحاق ومن قبلهم وبعدهم من أعيان الأمة.

وليس الغرض هنا استيفاء الكلام في هذا الأصل وإنما الغرض البينة على ما يختص هذه المسألة وذلك من وجوه.

أحدها: أن الحكاية المذكورة عن الفقهاء أنه إن كان مستحلا كفر وإلا فلا ليس لها أصل وإنما نقلها القاضي من كتاب بعض المتكلمين الذين نقلوها عن الفقهاء وهؤلاء نقلوا قول الفقهاء بما ظنوه جاريا في أصولهم أو بما قد سمعوه من بعض المنتسبين إلى الفقه ممن لا يعد قوله قولا وقد حكينا نصوص أئمة الفقهاء وحكاية إجماعهم ممن هو أعلم الناس بمذاهبهم فلا يظن ظان أن في المسألة خلافا يجعل المسألة من مسائل الخلاف والاجتهاد وإنما ذلك غلط لا يستطيع أحد أن يحكي عن واحد من الفقهاء أئمة الفتوى هذا التفصيل البتة.

الوجه الثاني: أن الكفر إذا كان هو الاستحلال فإنما معناه اعتقاد أن السب حلال فإنه لما اعتقد أن ما حرمه الله تعالى حلال كفر ولا ريب أن من اعتقد في المحرمات المعلوم تحريمها أنها حلال كفر لكن لا فرق في ذلك بين سب النبي وبين قذف المؤمنين والكذب عليهم والغيبة لهم إلى غير ذلك من الأقوال التي علم أن الله حرمها فإنه من فعل شيئا من ذلك مستحلا كفر مع أنه لا يجوز أن يقال: من قذف مسلما أو اغتابه كفر ويعنى بذلك إذا استحله.

الوجه الثالث: أن اعتقاد حل السب كفر سواء اقترن به وجود السب أو لم يقترن فإذا لا أثر للسب في التكفير وجودا وعدما وإنما المؤثر هو الاعتقاد وهو خلاف ما أجمع عليه العلماء.

الوجه الرابع: أنه إذا كان المكفر هو اعتقاد الحل فليس في السب ما يدل على أن الساب مستحل فيجب أن لا يكفر لا سيما إذا قال: "أنا اعتقد أن هذا حرام وإنما أقول غيظا وسفها أو عبثا أو لعبا" كما قال المنافقون: {إنما كنا نخوض ونلعب} كما إذا قال: إنما قذفت هذا أو كذبت عليه لعبا وعبثا فإن قيل لا يكونون كفارا فهو خلاف نص القرآن وإن قيل يكونون كفارا فهو تكفير بغير موجب إذا لم يجعل نفس السب مكفرا وقول القائل أنا لا أصدقه في هذا لا يستقيم فإن التكفير لا يكون بأمر محتمل فإذا كان قد قال: "أنا أعتقد أن ذلك ذنب ومعصية وأنا أفعله" فكيف يكفر إن لم يكن ذلك كفرا؟ ولهذا قال سبحانه وتعالى: {لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} ولم يقل قد كذبتم في قولكم إنما كنا نخوض ونلعب فلم يكذبهم في هذا العذر كما كذبهم في سائر ما أظهروه من العذر الذي يوجب براءتهم من الكفر كما لو كانوا صادقين بل بين أنهم كفروا بعد إيمانهم بهذا الخوض واللعب.

وإذا تبين أن مذهب سلف الأمة ومن اتبعهم من الخلف أن هذه المقالة في نفسها كفر استحلها صاحبها أو لم يستحلها فالدليل على ذلك جميع ما قدمناه في المسألة الأولى من الدليل على كفر الساب مثل قوله تعالى: {ومنهم الذين يؤذون النبي} وقوله تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله} وقوله تعالى: {لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} وما ذكرناه من الأحاديث والآثار فإنها أدلة بينة في أن نفس أذى الله ورسوله كفر مع قطع النظر عن اعتقاد التحريم وجودا وعدما فلا حاجة إلى أن نعيد الكلام هنا بل في الحقيقة كل ما دل على أن الساب كافر وأنه حلال الدم لكفره فقد دل على هذه المسألة إذ لو كان الكفر المبيح هو اعتقاد أن السب حلال لم يجز تكفيره وقتله حتى يظهر هذا الاعتقاد ظهورا تثبت بمثله الاعتقادات المبيحة للدماء ومنشأ هذه الشبهة التي أوجبت هذا الوهم من المتكلمين ومن حذا حذوهم من الفقهاء أنهم رأوا أن الإيمان هو تصديق الرسول فيما أخبر به ورأوا أن اعتقاد صدقة لا ينافي السب والشتم بالذات كما أن اعتقاد إيجاب طاعته لا ينافي معصيته فإن الإنسان قد يهين من يعتقد وجوب إكرامه كما يترك ما يعتقد وجوب فعله ويفعل ما يعتقد وجوب تركه ثم رأوا أن الأمة قد كفرت الساب فقالوا: إنما كفر لأن سبه دليل على أنه لم يعتقد أنه حرام واعتقاد حله تكذيب للرسول فكفر بهذا التكذيب لا بتلك الإهانة وإنما الإهانة دليل على التكذيب

فإذا فرض أنه في نفس الأمر ليس بمكذب كان في نفس الأمر مؤمنا وإن كان حكم الظاهر إنما يجري عليه بما أظهره فهذا مأخذ المرجئة ومعتضديهم وهو الذين يقولون: "الإيمان هو الاعتقاد والقول" وغلاتهم وهم الكرامية الذين يقولون: "هو مجرد القول وإن عري عن الاعتقاد" وأما الجهمية الذين يقولون: "هو مجرد المعرفة والتصديق بالقلب فقط وإن لم يتكلم بلسانه" فلهم مأخذ آخر وهو أنه قد يقول بلسانه ما ليس في قلبه فإذا كان في قلبه التعظيم والتوقير للرسول لم يقدح إظهار خلاف ذلك بلسانه في الباطن كما لا ينفع المنافق إظهار خلاف ما في قلبه في الباطن.

وجواب الشبهة الأولى من وجوه:

أحدها: أن الإيمان وإن كان أصله تصديق القلب فذلك التصديق لا بد أن يوجب حالا في القلب وعملا له وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته وذلك أمر لازم كالتألم والتنعم عند الإحساس بالمؤلم والمنعم وكالنفرة والشهوة عند الشعور بالملائم والمنافي فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق ولم يغن شيئا وإنما يمتنع حصوله إذا عارضه معارض من حسد الرسول أو التكبر عليه أو الإهمال له وإعراض القلب عنه ونحو ذلك كما أن إدراك الملائم والمنافي يوجب اللذة والألم إلا أن يعارضه معارض ومتى حصل المعارض كان وجود ذلك التصديق كعدمه كما يكون وجود ذلك كعدمه بل يكون ذلك المعارض موجبا لعدم المعلول الذي هو حال في القلب وبتوسط عدمه يزول التصديق الذي هو العلة فينقلع الإيمان بالكلية من القلب وهذا هو الموجب لكفر من حسد الأنبياء أو تكبر عليهم أو كره فراق الإلف والعادة مع علمه بأنهم صادقون وكفرهم أغلظ من كفر الجهال.

الثاني: أن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق وإنما هو الإقرار والطمأنينة وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر وكلام الله خبر وأمر فالخبر يستوجب تصديق المخبر والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر وإن لم يفعل المأمور به فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد وإذا كان كذلك فالسب إهانة واستخفاف والانقياد للأمر إكرام وإعزاز ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف به فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة امتنع أن يكون فيه انقياد أو استسلام فلا يكون فيه إيمان وهذا هو بعينه كفر إبليس فإنه سمع أمر الله له فلم يكذب رسولا ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافرا وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف: تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق ثم يرون مثل إبليس وفرعون ممن لم يصدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون ولم أنهم هدوا لما هدي إليه السلف الصالح لعلموا أن الإيمان قول وعمل أعني في الأصل قولا في القلب وعملا في القلب فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته وكلام الله ورسالته يتضمن إخباره وأوامره فيصدق القلب إخباره تصديقا يوجب حالا في القلب بحسب المصدق به والتصديق هو من نوع العلم والقول وينقاد لأمره ويستسلم وهذا الانقياد والاستسلام هو نوع من الإرادة والعمل ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين فمتى ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإذا كان مصدقا فالكفر أعم من التكذيب يكون تكذيبا وجهلا ويكون استكبارا وظلما ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالا وهو الجهل ألا ترى أن نفرا من اليهود جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن أشياء فأخبرهم فقالوا: نشهد أنك نبي ولم يتعبوه وكذلك هرقل وغيره فلم ينفعهم هذا العلم وهذا التصديق؟ ألا ترى أن من صدق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله وقد تضمنت خبرا وأمرا فإنه يحتاج إلى مقام ثان وهو تصديقه خبر الله وانقياد لأمر الله فإذا قال: "أشهد أن لا إله إلا الله" فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره فإذا قال: "وأشهد أن محمدا رسول الله" تضمنت تصديق الرسول فيما جاء به من عند الله فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار فلما كان التصديق لا بد منه في كلا الشهادتين وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان وغفل عن أن الأصل الآخر لا بد منه وهو الانقياد وإلا فقد يصدق الرسول ظاهرا وباطنا ثم يمتنع من الانقياد للأمر إذ غايته في تصديق الرسول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه وتعالى كإبليس وهذا مما يبين لك أن الاستهزاء بالله وبرسوله ينافي الانقياد له لأنه قد بلغ عن الله أنه أمر بطاعته فصار الانقياد له من تصديقه في خبره فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذب له أو ممتنع عن الانقياد لربه وكلاهما كفرا صريح ومن استخف به واستهزأ بقلبه امتنع أن يكون منقادا لأمره فإن الانقياد إجلال وإكرام والاستخفاف إهانة وإذلال وهذان ضدان فمتى حصل في القلب أحدهما انتفى الآخر فعلم أن الاستخفاف والاستهانة به ينافي الإيمان منافاة الضد للضد.

الوجه الثالث: أن العبد إذا فعل الذنب مع اعتقاد أن الله حرمه عليه واعتقاد انقياده لله فيما حرمه وأوجبه فهذا ليس بكافر فأما إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند ولهذا

قالوا: من عصى مستكبرا كإبليس كفر بالاتفاق ومن عصى مشتهيا لم يكفر عند أهل السنة والجماعة وإنما يكفره الخوارج فإن العاصي المستكبر وإن كان مصدقا بأن الله ربه فإن معاندته له ومحادته تنافي هذا التصديق.
وبيان هذا أن من فعل المحارم مستحلا لها فهو كافر بالاتفاق فإنه ما آمن بالقرآن من استحل محارمه وكذلك لو استحلها بغير فعل والاستحلال اعتقاد أن الله لم يحرمها وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرمها وهذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبية أو لخلل في الإيمان بالرسالة ويكون جحدا محضا غير مبني على مقدمة وتارة يعلم أن الله حرمها ويعلم أن الرسول إنما حرم ما حرمه الله ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند المحرم فهذا أشد كفرا ممن قبله وقد يكون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله وعذبه ثم إن هذا الامتناع والإباء إما لخلل في اعتقاد حكمة الآمر وقدرته فيعود هذا إلى عدم التصديق بصفة من صفاته وقد يكون مع العلم بجميع ما يصدق به تمردا أو إتباعا لغرض النفس وحقيقته كفر هذا لأنه يعترف لله ورسوله بكل ما أخبر به ويصدق بكل ما يصدق به المؤمنون لكنه يكره ذلك ويبغضه ويسخطه لعدم موافقته لمراده ومشتهاه ويقول: أنا لا أقر بذلك ولا ألتزمه وأبغض هذا الحق وأنفر عنه فهذا نوع غير النوع الأول وتكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع بل عقوبته أشد وفي مثله قيل: "أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه" وهو إبليس ومن سلك سبيله وبهذا يظهر الفرق بين العاصي فإنه يعتقد وجوب ذلك الفعل عليه ويحب أنه يفعله لكن الشهوة والنفرة منعته من الموافقة فقد أتى من الإيمان بالتصديق والخضوع والانقياد وذلك قول وعمل لكن لم يكمل العمل.
وأما إهانة الرجل من يعتقد وجوب كرامته كالوالدين ونحوهما فلأنه لم يهن ما كان الانقياد له والإكرام شرطا في إيمانه وإنما أهان من إكرامه شرط في بره وطاعته وتقواه وجانب الله والرسول إنما كفر فيه لأنه لا يكون مؤمنا حتى يصدق تصديقا يقتضي الخضوع والانقياد فحيث لم يقتضه لم يكن ذلك التصديق إيمانا بل كان وجوده شرا من عدمه فإن من خلق له حياة وإدراك ولم يرزق إلا العذاب كان فقد تلك الحياة والإدراك أحب إليه من حياة ليس فيها إلا الألم وإذا كان التصديق ثمرته صلاح حاله وحصول النعيم له واللذة في الدنيا والآخرة فلم يحصل معه إلا فساد حاله والبؤس والألم في الدنيا والآخرة كان أن لا يوجد أحب إليه من أن يوجد.
وهنا كلام طويل في تفصيل هذه الأمور ومن حكم الكتاب والسنة على نفسه قولا وفعلا ونور الله قلبه تبين له ضلال كثير من الناس ممن يتكلم برأيه في سعادة النفوس بعد الموت وشقاوتها جريا على منهاج الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ونبذوا الكتاب الله وراء ظهورهم وإتباعا لما تتلوه الشياطين.
وأما الشبهة الثانية فجوابها من ثلاثة أوجه:
أحدها: أن من تكلم بالتكذيب والجحد وسائر أنواع الكفر من غير إكراه على ذلك فإنه يجوز أن يكون مع ذلك في نفس الأمر مؤمنا ومن جوز هذا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه.
الثاني: أن الذي عليه الجماعة أن من لم يتكلم بالإيمان بلسانه من غير عذر لم ينفعه ما في قلبه من المعرفة وأن القول من القادر عليه شرط في صحة الإيمان حتى اختلفوا في تكفير من قال: "إن المعرفة تنفع من غير عمل الجوارح" وليس هذا موضع تقرير هذا.
وما ذكره القاضي رحمه الله من التأويل لكلام الإمام أحمد فقد ذكر هو وغيره خلاف ذلك في غير موضع وكذلك ما دل عليه كلام القاضي عياض فإن مالكا وسائر الفقهاء من التابعين ومن بعدهم إلا من نسب إلى بدعة قالوا: "الإيمان قول وعمل" وبسط هذا له مكان غير هذا.
الثالث: أن من قال: "إن الإيمان مجرد معرفة القلب من غير احتياج إلى المنطق باللسان" يقول: لا يفتقر الإيمان في نفس الأمر إلى القول الذي يوافقه باللسان لكن لا يقول إن القول الذي ينافي الإيمان لا يبطله فإن القول قولان: قول يوافق تلك المعرفة وقول يخالفها فهب أن القول الموافق لا يشترط لكن القول المخالف ينافيها فمن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة عامدا لها عالما بأنها كلمة كفر فإنه يكفر بذلك ظاهرا وباطنا ولا يجوز أن يقال: إنه في الباطن يجوز أن يكون مؤمنا ومن قال ذلك فقد مرق من الإسلام قال سبحانه: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالأيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم} .
ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط لأن ذلك لا يكره الرجل عليه وهو قد استثنى من أكره ولم يرد من قال واعتقد لأنه استثنى المكره وهو لا يكره على العقد والقول وإنما يكره على القول فقط فعلم أنه أراد من تكلم بكلمة الكفر فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم وأنه كافر بذلك إلا من أكره وهو مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا من المكرهين فإنه كافر أيضا فصار كل من تكلم بالكفر كافرا إلا من أكره فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان وقال تعالى في حق المستهزئين: {لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} فبين أنهم كفار بالقول مع أنهم لم يعتقدوا صحته وهذا باب واسع والفقه فيه ما تقدم من أن التصديق بالقلب يمنع إرادة التكلم وإرادة فعل فيه استهانة واستخفاف كما أنه يوجب المحبة والتعظيم واقتضاؤه

وجود هذا وعدم هذا أمر جرت به سنة الله في مخلوقاته كاقتضاء إدراك الموافق للذة وإدراك المخالف للألم فإذا عدم المعلول كان مستلزما لعدم العلة وإذا وجد الضد كان مستلزما لعدم الضد الآخر فالكلام والفعل المتضمن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التصديق النافع ولعدم الانقياد والاستسلام فلذلك كان كفرا.

واعلم أن الإيمان وإن قيل هو التصديق فالقلب يصدق بالحق والقول يصدق في القلب والعمل يصدق القول والتكذيب بالقول مستلزم للتكذيب بالقلب ورافع للتصديق الذي كان في القلب إذ أعمال الجوارح تؤثر في القلب كما أن أعمال القلب تؤثر في الجوارح فإنما قام به كفر تعدى حكمه إلى الآخر والكلام في هذا واسع وإنما نبهنا على هذه المقدمة.

فصل.

ثم نعود إلى مقصود المسألة فنقول:

قد ثبت أن كل سب وشتم يبيح الدم فهو كفر وإن لم يكن كل كفر سبا ونحن نذكر عبارات العلماء في هذه المسألة:

قال الإمام أحمد: "كل من شتم النبي صلى الله عليه وسلم أو تنقصه مسلما كان أو كافرا فعليه القتل وأرى أن يقتل ولا يستتاب".

وقال في موضع آخر: "كل من ذكر شيئا يعرض بذكر الرب سبحانه وتعالى فعليه القتل مسلما كان أو كافرا وهذا مذهب أهل المدينة".

وقال أصحابنا: "التعرض بسب الله وسب رسوله صلى الله عليه وسلم ردة وهو موجب للقتل كالتصريح ولا يختلف أصحابنا أن قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم من جملة سبه الموجب للقتل وأغلظ لأن ذلك يفضي إلى القدح في نسبه وفي عبارة بعضهم إطلاق القول بأن من سب أم النبي صلى الله عليه وسلم يقتل مسلما كان أو كافرا وينبغي أن يكون مرادهم بالسب هنا القذف كما صرح به الجمهور لما فيه من سب النبي صلى الله عليه وسلم".

وقال القاضي عياض: "جميع من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض به أو شبهة بشيء على طريق السب له والإزراء عليه أو البغض منه والعيب له فهو ساب له والحكم فيه حكم الساب: يقتل ولا نستثن فصلا من فصول هذا الباب عن هذا المقصد ولا تمتر فيه تصريحا كان أو تلويحا وكذلك من لعنه أو تمنى مضرة له أو دعا عليه أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عيبه في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور أو عيره بشيء مما يجري من البلاء والمحنة عليه أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه قال: هذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن أصحابه وهلم جرا".

وقال ابن القاسم عن مالك: "من سب النبي صلى الله عليه وسلم قتل ولم يستتب" قال ابن القاسم: "أو شتمه أو عابه أو تنقصه فإنه يقتل كالزنديق وقد فرض الله توقيره".

وكذلك قال مالك في رواية المدنيين عنه: "من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل مسلما كان أو كافرا ولا يستتاب".

وروى ابن وهب عن مالك من قال: "إن رداء النبي صلى الله عليه وسلم ويروى برده "وسخ" وأراد به عيبه قتل".

وذكر بعض المالكية إجماع العلماء على أن من دعا على نبي من الأنبياء بالويل أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة.

وذكر القاضي عياض أجوبة جماعة من فقهاء المالكية المشاهير بالقتل بلا استتابة في قضايا متعددة أفتى في كل قضية بعضهم:

منها: رجل سمع قوما يتذاكرون صفة النبي صلى الله عليه وسلم إذ مر بهم رجل قبيح الوجه واللحية فقال: تريدون تعرفون صفته؟ هذا المار في خلقه ولحيته.

ومنها: رجل قال: النبي صلى الله عليه وسلم أسود.

ومنها: رجل قيل له: "لا وحق رسول الله" فقال: فعل الله برسول الله كذا وكذا ثم قيل له: ما تقول يا عدو الله فقال أشد من كلامه الأول ثم قال: إنما أردت برسول الله العقرب قالوا: لأن ادعاء للتأويل في لفظ صراح لا يقبل لأنه امتهان وهو غير معزر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا موقر له فوجبت إباحة دمه.

ومنها: عشار قال: أدوا شك إلى النبي أو قال: إن سألت أو جهلت فقد سأل النبي وجهل.

ومنها: متفقه كان يستخف بالنبي صلى الله عليه وسلم ويسميه في أثناء مناظرته اليتيم وختن حيدره ويزعم أن زهده لم يكن قصدا ولو قدر على الطيبات لأكلها وأشباه هذا.

قال: فهذا الباب كله مما عده العلماء سبا وتنقصا يجب قتل قائله لم يختلف في ذلك متقدمهم ومتأخرهم وإن اختلفوا في حكم قتله.

وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه فيمن تنقصه أو برئ منه أو كذبه: "إنه مرتد" وكذلك قال أصحاب الشافعي: "كل من تعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما فيه استهانة فهو كالسب الصريح" فإن الاستهانة بالنبي كفر وهل يتحتم فيه قتله أو يسقط بالتوبة؟ على الوجهين وقد نص الشافعي على هذا المعنى.
فقد اتفقت نصوص العلماء من جميع الطوائف على أن التنقص به كفر مبيح للدم وهم في استتابته على ما تقدم من الخلاف ولا فرق في ذلك بين أن يقصد عيبه لكن المقصود شيء آخر حصل السب تبعا له أو لا يقصد شيئا من ذلك بل يهزل ويمزح أو يفعل غير ذلك.
فهذا كله يشترك في هذا الحكم إذا كان القول نفسه سبا فإن الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب ومن قال ما هو سب وتنقص له فقد آذى الله ورسوله وهو مأخوذ بما يؤذي به الناس من القول الذي هو في نفسه أذى وإن لم يقصد أذاهم ألم تسمع إلى الذين قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب فقال الله تعالى: {أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} .
وهذا مثل من يغضب فيذكر له حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أو حكم من حكمه أو يدعى لما سنه فيلعن ويقبح ونحو ذلك وقد قال تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} فأقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه ثم لا يجدوا في نفوسهم حرجا من حكمه فمن شاجر غيره في حكم وحرج لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحش في منطقه فهو كافر بنص التنزيل ولا يعذر بأن مقصوده رد الخصم فإن الرجل لا يؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما وحتى يكون الرسول أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين.
ومن هذا الباب قول القائل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله وقول الآخر: اعدل فإنك لم تعدل وقول ذلك الأنصاري: أن كان ابن عمتك فإن هذا كفر محض حيث زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما حكم للزبير لأنه ابن عمته ولذلك أنزل الله تعالى هذه الآية وأقسم أنهم لا يؤمنون حتى لا يجدوا في أنفسهم حرجا من حكمه وإنما عفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم كما عفا عن الذي قال: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله وعن الذي قال: اعدل فانك لم تعدل وقد ذكرنا عن عمر رضي الله عنه أنه قتل رجلا لم يرض بحكم النبي صلى الله عليه وسلم فنزل القرآن بموافقته فكيف بمن طعن في حكمه؟ وقد ذكر طائفة من الفقهاء منهم ابن عقيل وبعض أصحاب الشافعي أن هذا كان عقوبته التعزير ثم منهم من قال: لم يعزره النبي صلى الله عليه وسلم لأن التعزير غير واجب ومنهم من قال: عفا عنه لأن الحق له ومنهم من قال: عاقبه بأن أمر الزبير أن يسقي ثم يحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر وهذه أقوال ردية لا يستريب من تأمل في أن هذا كان يستحق القتل بعد نص القرآن أن من هو بمثل حاله ليس بمؤمن.
فإن قيل: ففي رواية صحيحة أنه كان من أهل بدر وفي الصحيحين عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" ولو كان هذا القول كفرا للزم أن يغفر الكفر والكفر لا يغفر ولا يقال عن بدري: إنه كفر.
فقيل: هذه الزيادة ذكرها أبو اليمان عن شعيب ولم يذكرها أكثر الرواة فيمكن أنها وهم كما وقع في حديث كعب وهلال بن أمية أنهما لم يشهدا بدرا وكذلك لم يذكره ابن إسحاق في روايته عن الزهري لكن الظاهر صحتها.
فنقول: ليس في الحديث أن هذه القصة كانت بعد بدر فلعلها كانت قبل بدر وسمي الرجل بدريا لأن عبد الله بن الزبير حدث بالقصة بعد أن صار الرجل بدريا فعن عبد الله بن الزبير عن أبيه أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج الحرة التي يسقون بها النخل فقال الأنصاري: سرح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: "اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك" فغضب الأنصاري ثم قال: يا رسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجه النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال للزبير: "اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر" فقال الزبير: والله لأني أحسب هذه الآية نزلت في ذلك {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم} متفق عليه وفي رواية للبخاري من حديث عروة قال: فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قد أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري فلما أحفظ الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم وهذا يقوي أن القصة متقدمة قبل بدر لأن النبي صلى الله عليه وسلم قضى في سيل مهزور أن الأعلى يسقى ثم يحبس حتى يبلغ الماء إلى الكعبين فلو كانت قصة الزبير بعد هذا القضاء لكان قد علم وجه الحكم فيه وهذا القضاء الظاهر أنه متقدم من حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم لأن الحاجة إلى الحكم فيه من حين قدم ولعل قصة الزبير أوجبت هذا القضاء.

وأيضا فإن هؤلاء الآيات قد ذكر غير واحد أن أولها نزل لما أراد بعض المنافقين أن يحاكم يهوديا إلى ابن الأشرف وهذا إنما كان قبل بدر لأن ابن الأشرف ذهب عقب بدر إلى مكة فلما رجع قتل فلم يستقر بعد بدر بالمدينة استقرارا يتحاكم إليه وإن كانت القصة بعد بدر فإن القائل لهذه الكلمة يكون قد تاب واستغفر وقد عفا له النبي صلى الله عليه وسلم عن حقه فغفر له والمضمون لأهل بدر إنما هو المغفرة: إما بأن يستغفروا إن كان الذنب مما لا يغفر إلا بالاستغفار أو لم يكن كذلك وإما بدون أن يستغفروا ألا ترى أن قدامة بن مظعون وكان بدريا تأول في خلافة عمر ما تأول في استحلال الخمر من قوله تعالى: {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا} الآية حتى أجمع رأي عمر وأهل الشورى أن يستتاب هو أصحابه فإن أقروا بالتحريم جلدوا وإن لم يقروا به كفروا ثم إنه تاب وكاد ييأس لعظم ذنبه في نفسه حتى أرسل إليه عمر رضي الله عنه بأول سورة غافر فعلم أن المضمون للبدريين أن خاتمتهم حسنة وأنهم مغفور لهم وإن جاز أن يصدر عنهم قبل ذلك ما عسى أن يصدر فإن التوبة تجب ما قبلها.

وإذا ثبت أن كل سب تصريحا أو تعريضا موجب للقتل فالذي يجب أن يعتني به الفرق بين السب الذي لا تقبل منه التوبة والكفر الذي تقبل منه التوبة فنقول:

هذا الحكم قد نيط في الكتاب والسنة باسم أذى الله ورسوله وفي بعض الأحاديث ذكر الشتم والسب وكذلك جاء في ألفاظ الصحابة والفقهاء ذكر السب والشتم والاسم إذا لم يكن له حد في اللغة كاسم الأرض والسماء والبر والبحر والشمس والقمر ولا في الشرع كاسم الصلاة والزكاة والحج والإيمان والكفر فإنه يرجع في حده إلى العرف كالقبض والحرز والبيع والرهن والكرى ونحوها فيجب أن يرجع في الأذى والشتم إلى العرف فما عده أهل العرف سبا أو انتقاصا أو عيبا أو طعنا ونحو ذلك فهو من السب وما لم يكن كذلك فهو كفر به فيكون كفرا ليس بسب حكم صاحبه حكم المرتد إن كان مظهرا له وإلا فهو زندقة والمعتبر أن يكون سبا وأذى للنبي عليه الصلاة والسلام وإن لم يكن سبا وأذى لغيره فعلى هذا كل ما لو قيل لغير النبي صلى الله عليه وسلم أوجب تعزيرا أو حدا بوجه من الوجوه فإنه من باب سب النبي صلى الله عليه وسلم كالقذف واللعن وغيرهما من الصورة التي تقدم التنبيه عليها وأما ما يختص بالقدح في النبوة فإن لم يتضمن إلا مجرد عدم التصديق بنبوته فهو كفر محض وإن كان فيه استخفاف واستهانة مع عدم التصديق فهو من السب وهنا مسائل اجتهادية يتردد الفقهاء هل هي من السب أو من الردة المحضة ثم ما ثبت أنه ليس بسب فإن استسر به صاحبه فهو زنديق حكمه حكم الزندقة وإلا فهو مرتد محض واستقصاء الأنواع والفرق بينها ليس هذا موضعه.

<u>فصل.</u>

فأما الذمي فيجب التفريق بين مجرد كفره به وبين سبه فإن كفره به لا ينقض العهد ولا يبيح دم المعاهد بالاتفاق لأنا صالحناهم على هذا وأما سبه له فإنه ينقض العهد ويوجب القتل كما تقدم.

قال القاضي أبو يعلى: "عقد الأمان يوجب إقرارهم على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم لا على شتمهم وسبهم له".

وقد تقدم أن هذا الفرق أيضا معتبر في المسلم حيث قتلناه بخصوص السب وكونه موجبا للقتل حدا من الحدود بحيث لا يسقط بالتوبة وإن صحت وأما حيث قتلناه لدلالته على الزندقة أو لمجرد كونه مرتدا فلا فرق حينئذ بين مجرد الكفر وبين ما تضمنه من الأنواع فنقول:

الآثار عن الصحابة والتابعين والفقهاء مثل مالك وأحمد وسائر الفقهاء القائلين بذلك كلها مطلقة في من شتم النبي صلى الله عليه وسلم من مسلم أو معاهد فإنه يقتل ولم يفصلوا بين شتم وشتم ولا بين أن يكرر الشتم أو لا يكرره أو يظهره أو لا يظهره وأعني بقولي لا يظهره: أن لا يتكلم به في ملأ من المسلمين وإلا فالحد لا يقام عليه حتى يشهد مسلمان أنهما سمعاه يشتمه أو حتى يقر بالشتم وكونه يشتمه بحيث يسمعه المسلمون إظهارا له اللهم إلا أن يفرض أنه شتمه في بيته خاليا فسمعه جيرانه المسلمون أو من استرق السمع منهم.

قال مالك وأحمد: "كل من شتم النبي صلى الله عليه وسلم أو تنقصه مسلما كان أو كافرا فإنه يقتل ولا يستتاب" فنصا على أن الكافر يجب قتله بتنقصه له كما يقتل بشتمه وكما يقتل المسلم بذلك وكذلك أطلق سائر أصحابنا أن سب النبي صلى الله عليه وسلم من الذمي يوجب القتل.

وذكر القاضي وابن عقيل وغيرهما أن ما أبطل الإيمان فإنه يبطل الأمان فإنه إذا أظهروه فإن الإسلام أوكد من عقد الذمة فإذا كان من الكلام ما يبطل حق الإسلام فأن يبطل حقن الذمة أولى مع الفرق بينهما من وجه آخر فإن المسلم إذا سب الرسول دل على سوء اعتقاده في رسول الله صلى الله عليه وسلم فلذلك كفر والذمي قد علم أن اعتقاده ذلك وأقررناه على اعتقاده وإنما أخذ عليه كتمه وأن لا يظهره فبقي تفاوت ما بين الإظهار والإضمار.

قال ابن عقيل: "فكما أخذ على المسلم أن لا يعتقد ذلك أخذ على الذمي أن لا يظهره فإظهار هذا كإضمار ذاك وإضماره لا ضرر على الإسلام ولا إزراء فيه وفي إظهاره ضرر وإزراء على الإسلام ولهذا ما بطن من الجرائم لا يتبعها في حق المسلم ولو أظهرها أقمنا عليهم حد الله".
وطرد القاضي وابن عقيل هذا القياس في كل ما ينقض الإيمان من الكلام مثل التثنية والتثليث كقول النصارى: "إن الله ثالث ثلاثة" ونحو ذلك: أن الذمي متى أظهر ما يعلمه من دينه من الشرك نقض العهد كما أنه إن أظهر ما نعلمه بقوله في نبينا عليه الصلاة والسلام نقض العهد.
قال القاضي: وقد نص أحمد على ذلك فقال في رواية حنبل: "كل من ذكر شيئا يعرض به الرب فعليه القتل مسلما كان أو كافرا هذا مذهب أهل المدينة".
وقال جعفر بن محمد: سمعت أبا عبد الله يسأل عن يهودي مر بمؤذن وهو يؤذن فقال له: كذبت فقال: "يقتل لأنه شتم" فقد نص على قتل من كذب المؤذن في كلمات الأذان وهي قول "الله أكبر" أو "أشهد أن لا إله إلا الله" أو "أشهد أن محمدا رسول الله" وقد ذكرها الخلال والقاضي في سب الله بناء على أنه كذبه فيما يتعلق بذكر الرب سبحانه والأشبه أنه عام في تكذيبه فيما يتعلق بذكر الرب وذكر الرسول بل هو في هذا أولى لأن اليهودي لا يكذب من قال "لا إله إلا الله" ولا من قال "الله أكبر" وإنما يكذب من قال أن محمدا رسول الله وهذا قول جمهور المالكيين قالوا: إنه يقتل بكل سب سواء كانوا يستحلونه أو لا يستحلونه لأنهم وإن استحلوه فإنا لم نعطهم العهد على إظهاره وكما لا يحصن الإسلام من سبه كذلك لا تحصن منه الذمة وهو قول أبي مصعب وطائفة من المدنيين.
قال أبو مصعب في نصراني قال: "والذي اصطفى عيسى على محمد": "اختلف العلماء فيه فضربته حتى قتلته أو عاش يوما وأمرت من جر برجله وطرح على مزبلة فأكلته الكلاب".
قال أبو مصعب في نصراني قال: "عيسى خلق محمدا" قال: "يقتل".
وأفتى سلف الأندلسيين بقتل نصرانية استهلت بنفي الربوبية وبنوة عيسى لله.
وقال ابن القاسم فيمن سبه فقال: "ليس بنبي أو لم يرسل أو لم ينزل عليه قرآن وإنما هو شيء يقوله" ونحو هذا: فيقتل وإن قال: "إن محمدا لم يرسل إلينا وإنما أرسل إليكم وإنما نبينا موسى أو عيسى" ونحو هذا: لا شيء عليهم لأن الله أقرهم على مثله.
قال ابن القاسم: وإذا قال النصراني "ديننا خير من دينكم إنما دينكم دين الحمير" ونحو هذا من القبيح أو سمع المؤذن يقول "أشهد أن محمدا رسول الله" فقال: كذلك يعطكم الله ففي هذا الأدب الموجع والسجن الطويل وهذا قول محمد بن سحنون وذكره عن أبيه ولهم قول آخر فيما إذا سبه بالوجه الذي به كفروا أنه لا يقتل.
قال سحنون عن ابن القاسم: "من شتم الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا ضربت عنقه إلا أن يسلم".
وقال سحنون في اليهودي يقول للمؤذن إذا تشهد "كذبت": "يعاقب العقوبة الموجعة مع السجن الطويل".
وقد تقدم نص الإمام أحمد في مثل هذه الصورة على القتل لأنه شتم.
وكذلك اختلف أصحاب الشافعي في السب الذي ينتقض به عهد الذمي ويقتل به إذا قلنا بذلك على الوجهين: أحدهما: ينتقض بمطلق السب لنبينا والقدح في ديننا إذا أظهروه وإن كانوا يعتقدون ذلك دينا وهذا قول أكثرهم والثاني: أنهم إذا ذكروه بما يعتقدونه فيه دينا من أنه ليس برسول والقرآن ليس بكلام الله فهو كإظهارهم قولهم في المسيح ومعتقدهم في التثليث قالوا: وهذا لا ينقض العهد بلا تردد بل يعزرون على إظهاره وأما ما ذكروه بما لا يعتقدونه دينا كالطعن في نسبه فهو الذي قيل فيه: ينقض العهد وهذا اختيار الصيدلاني وأبي المعالي وغيرهما.
وحجة من فرق بين ما يعتقدونه فيه دينا وما لا يعتقدونه كما اختاره بعض المالكية وبعض الشافعية أنهم قد أقروا على دينهم الذي يعتقدونه لكن منعوا من إظهاره فإذا أظهروه كان كما لو أظهروا سائر المناكير التي هي من دينهم كالخمر والخنزير والصليب ورفع الصوت بكتابهم ونحو ذلك وهذا إنما يستحقون عليه العقوبة والنكال بما دون القتل.
يؤيد ذلك أن إظهار معتقدهم في الرسول ليس بأعظم من إظهار معتقدهم في الله وقد علم هؤلاء أن إظهار معتقدهم لا يوجب القتل واستبعدوا أن ينتقض عهدهم بإظهار معتقدهم إذا لم يكن مذكورا في الشرط وهذا بخلاف ما إذا سبوه بما لا يعتقدونه دينا فإنا لم نقرهم على ذلك ظاهرا ولا باطنا وليس هو من دينهم فصار بمنزلة الزنا والسرقة وقطع الطريق وهذا القول مقارب لقول الكوفيين وقد ظن من سلكه أنه خلص بذلك من سؤالهم وليس الأمر كما اعتقده فإن الأدلة التي ذكرناها من الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار كلها تدل على السب بما يعتقده فيه دينا وما لا يعتقده فيه دينا وأن مطلق السب موجب للقتل ومن تأمل كل دليل بانفراده لم يخف عليه أنها جميعا تدل على السب المعتقد دينا كما تدل على السب الذي لا يعتقده دينا ومنها ما هو نص في السب الذي يعتقد دينا بل أكثرها كذلك فإن الذين كانوا يهجونه من الكفار الذين أهدر دماءهم لم يكونوا يهجونه إلا بما يعتقدونه دينا مثل نسبته إلى الكذب والسحر وذم دينه ومن اتبعه وتنفير الناس عنه إلى غير ذلك من الأمور فأما الطعن في نسبه أو خلقه

أو أمانته أو وفائه أو صدقه في غير دعوى الرسالة فلم يكن أحدا يتعرض لذلك في غالب الأمر ولا يتمكن من ذلك ولا يصدقه أحد في ذلك لا مسلم ولا كافر لظهور كذبه وقد تقدم ذلك فلا حاجة إلى إعادته.
ثم نقول: هنا هذا الفرق متهافت من وجوه:
أحدها: أن الذمي لو أظهر لعنة الرسول أو تقبيحه أو الدعاء عليه بالسخط وجهنم والعذاب أو نحو ذلك فإن قيل: "ليس من السب الذي ينتقض به العهد" كان هذا قولا مردودا سمجا فإنه من لعن شخصا وقبحه لم يبق من سبه غاية وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لعن المؤمن كقتله" ومعلوم أن هذا أشد من الطعن في خلقه وأمانته أو وفائه وإن قيل: "هو سب له" فقد علم أن من الكفار من يعتقد ذلك دينا ويرى أنه من قرباته كتقريب المسلم بلعن مسيلمة والأسود العنسي.
الوجه الثاني: أنه على القول بالفرق المذكور إذا سبه بما لا يعتقده دينا مثل الطعن في نسبه أو خلقه أو خلقه ونحو ذلك فمن أين ينتقض عهده ويحل دمه؟ ومعلوم أنه قد أقر على ما هو أعظم من ذلك من الطعن في دينه الذي هو أعظم من الطعن في نسبه ومن الكفر بربه الذي هو أعظم الذنوب ومن سب الله بقوله: إن له صاحبة وولدا وأنه ثالث ثلاثة فإنه لا ضرر يلحق الأمة في دينها بإظهار ما لا يعتقد صحته من السب إلا ويلحقهم بإظهار ما كفر به أعظم من ذلك فإذا أقر على أعظم السببين ضررا فإقراره على أدناهما ضررا أولى نعم بينهما من الفرق أنه إذا طعن في نسبه أو خلقه فإنه يقر لنا بأنه كاذب أو أهل دينه يعتقدون أنه كاذب آثم بخلاف السب الذي يعتقده دينا فإنه وأهل دينه متفقون على أنه ليس بكاذب فيه ولا آثم فيعود الأمر إلى أنه قال كلمة أثم بها عندهم وعندنا لكن في حق من لا حرمة له عنده بل مثاله عنده أن يقذف الرجل مسيلمة أو العنسي أو ينسبه إلى أنه كان أسود أو أنه كان دعيا أو كان يسرق أو كان قومه يستخفون به ونحو ذلك من الوقيعة في عرضه بغير حق ومعلوم أن هذا لا يوجب القتل بل ولا يوجب الجلد أيضا فإن العرض يتبع الدم فمن لم يعصم دمه لم يصن عرضه فلو لم يجب قتل الذمي إذا سب الرسول لكونه قد قدح في ديننا لم يجب قتله بشيء من السب أيضا فإن خطب ذلك يسير.
يبين ذلك أن المسلم إنما قتل إذا سبه بالقذف ونحوه لأن القدح في نسبه قدح في نبوته فإذا كنا بإظهار القدح في النبوة لا نقتل الذمي فأن لا نقتله بإظهار القدح فيما لا يقدح في النبوة أولى إذ الوسائل أضعف من المقاصد.
وهذا البحث إذا حقق اضطر المنازع إلى أحد الأمرين: إما موافقة من قال من أهل الرأي إن العهد لا ينقض من السب وإما موافقة الدهماء في أن العهد ينتقض بكل سب وأما الفرق بين سب وسب في انتقاض العهد واستحلال الدم فمتهافت.
ثم إنه إذا فرق لم يمكنه إيجاب القتل ولا نقض العهد بذلك أصلا ومن ادعى وجوب القتل بذلك وحده لم يمكنه أن يقيم عليه دليلا.
الثالث: أنا إذا لم نقتلهم بإظهار ما يعتقدونه دينا لم يمكنا أن نقتلهم بإظهار شيء من السب فإنه ما من أحد منهم يظهر شيئا من ذلك إلا ويمكنه أن يقول: إني معتقد لذلك متدين به وإن كان طعنا في النسب كما يتدينون بالقدح في عيسى وأمه عليهما السلام ويقولون على مريم بهتانا عظيما ثم إنهم فيما بينهم قد يختلفون في أشياء من أنواع السب: هل هي صحيحة عندهم أو باطلة؟ وهم قوم بهت ضالون فلا يشاءون أن يأتوا ببهتان ونوع من الضلال الذي لا راد للقلوب منه ثم يقولون "هو معتقدنا" إلا فعلوه فحينئذ لا يقتلون حتى يثبت أنهم لا يعتقدونه دينا وهذا القدر هو محل اختلاف وبعضه لا يعلم إلا من جهتهم وقول بعضهم في بعض غير مقبول ونحن وإن كنا نعرف أكثر عقائدهم فيما تخفي صدورهم أكبر وتجدد الكفر والبدع منهم غير مستنكر فهذا الفرق مفضاة إلى حتم القتل بسب الرسول وهو لعمري قول أهل الرأي ومستندهم ما أبداه هؤلاء وقد قدمنا الجواب عن ذلك وبينا أنا إنما أقررناهم على إخفاء دينهم لا على إظهار باطل قولهم والمجاهرة بالطعن في ديننا وإن كانوا يستحلون ذلك فإن المعاهدة على تركه صيرته حراما في دينهم كالمعاهدة على الكف عن دمائنا وأموالنا وبينا أن المجاهرة بكلمة الكفر في دار الإسلام كالمجاهرة بضرب السيف بل أشد على أن الكفر أعم من السب فقد يكون الرجل كافرا ولا يسب وهذا هو سر المسألة فلا بد من بسطه فنقول:
التكلم في تمثيل سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر صفته ذلك مما يثقل على القلب واللسان ونحن نتعاظم أن نتفوه بذلك ذاكرين لكن الاحتياج إلى الكلام في حكم ذلك نحن نفرض الكلام في أنواع السب مطلقا من غير تعيين والفقيه يأخذ حظه من ذلك فنقول: السب نوعان دعاء وخبر أما الدعاء فمثل أن يقول القائل لغيره: لعنه الله أو قبحه الله أو أخزاه الله أو لا رحمه الله أو لا رضي الله عنه أو قطع الله دابره فهذا وأمثاله سب للأنبياء ولغيرهم وكذلك لو قال عن نبي: لا صلى الله عليه أو لا سلم أو لا رفع الله ذكره أو محا الله اسمه ونحو ذلك من الدعاء عليه بما فيه ضرر عليه في الدنيا أو في الدين أو في الآخرة.
فهذا كله إذا صدر من مسلم أو معاهد فهو سب فأما المسلم فيقتل به بكل حال وأما الذمي فيقتل بذلك إذا أظهره.
فأما إن أظهر الدعاء للنبي وأبطن الدعاء عليه إبطانا يعرف من لحن القول بحيث يفهمه بعض الناس دون البعض مثل قوله: السام عليكم إذا أخرجه مخرج التحية وأظهر أنه يقول السلام ففيه قولان:

أحدهما: أنه من السب الذي يقتل به وإنما كان عفو النبي صلى الله عليه وسلم عن اليهود الذين حيوه بذلك حال ضعف الإسلام بالبقاء عليه لما كان مأمورا بالعفو عنهم والصبر على أذاهم وهذا قول طائفة من المالكية والشافعية والحنبلية مثل القاضي عبد الوهاب والقاضي أبي يعلي وأبي إسحاق الشيرازي وأبي الوفاء بن عقيل وغيرهم وممن ذهب إلى أن هذا سب من قال قال لم يعلم أن هؤلاء كانوا أهل عهد وهذا قول ساقط لأنا قد بينا فيما تقدم أن اليهود الذين بالمدينة كانوا معاهدين وقال آخرون: كان الحق له وله أن يعفو عنهم فأما بعده فلا عفو.

والقول الثاني: أنه ليس من السب الذي ينتقض العهد لأنهم لم يظهروا السب ولم يجهروا به وإنما أظهروا التحية والسلام لفظا وحالا وحذفوا اللام حذفا خفيا يفطن له بعض السامعين وقد لا يفطن له الأكثرون ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن اليهود إذا سلموا فإنما يقول أحدهم: السام عليكم فقولوا: وعليكم" فجعل هذا شرعا باقيا في حياته وبعد موته حتى صارت السنة أن يقال للذمي إذا سلم: وعليكم وكذلك لما سلم عليهم اليهودي قال: "أتدرون ما قال؟ إنما قال: السام عليكم" ولو كان هذا من السب الذي هو سب لوجب أن يشرع عقوبة اليهودي إذا سمع منه ذلك ولو بالجلد فلما لم يشرع ذلك علم أنه لا يجوز مؤاخذتهم بذلك وقد أخبر الله عنهم بقوله تعالى {وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} فجعل عذاب الآخرة حسبهم يدل على أنه لم يشرع على ذلك عذابا في الدنيا وهذا لو أنهم قد قرروا على ذلك لقالوا إنما قلنا السلام وإنما السمع يخطئ وأنتم تتقولون علينا فكانوا في هذا مثل المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويعرفون في لحن القول ويعرفون بسيماهم فإنه لا يمكن عقوبتهم باللحن والسيما فإن موجبات العقوبات لا بد أن تكون ظاهرة الظهور الذي يشترك فيه الناس وهذا القدر وإن كان كفرا من المسلم فإنما يكون نقضا للعهد إذا أظهره الذمي وإتيانه به على هذا الوجه غاية ما يكون من الكتمان والإخفاء ونحن لا نعاقبهم على ما يسرونه ويخفونه من السب وغيره وهذا قول جماعات من العلماء من المتقدمين ومن أصحابنا والمالكيين وغيرهم وممن أجاز هذا القول ممن زعم أن هذا دعاء بالسام وهو الموت على أصح القولين أو دعاء بالسامة وأما الذين قالوا إن الموت محتوم على الخليقة قالوا: وهذا تعريض بالأذى لا بالسب وهذا القول ضعيف فإن الدعاء على الرسول والمؤمنين بالموت وترك الدين من أبلغ السب كما أن الدعاء بالحياة والعافية والصحة والثبات على الدين من أبلغ الكرامة.

النوع الثاني: الخبر فكل ما عده الناس شتما أو سبا أو تنقصا فإنه يجب به القتل كما تقدم فإن الكفر ليس مستلزما للسب وقد يكون الرجل كافرا ليس بساب والناس يعلمون علما عاما أن الرجل قد يبغض الرجل ويعتقد فيه العقيدة القبيحة ولا يسبه وقد يضم إلى ذلك مسبة وإن كانت المسبة مطابقة للمعتقد فليس كل ما يحتمل عقدا يحتمل قولا ولا ما يحتمل أن يقال سرا يحتمل أن يقال جهرا والكلمة الواحدة تكون في حال سبا وفي حال ليست بسب فعلم أن هذا يختلف باختلاف الأقوال والأحوال وإذا لم يكن للسب حد

معروف في اللغة ولا في الشرع فالمرجع فيه إلى عرف الناس فما كان في العرف سبا للنبي فهو الذي يجب أن ننزل عليه كلام الصحابة والعلماء وما لا فلا ونحن نذكر من ذلك أقساما فنقول:

لا شك أن إظهار التنقص والاستهانة عند المسلمين سب كالتسمية باسم الحمار أو الكلب أو وصفه بالمسكنة والخزي والمهانة أو الإخبار بأنه في العذاب وأن عليه آثام الخلائق ونحو ذلك وكذلك إظهار التكذيب على وجه الطعن في المكذب مثل وصفه بأنه ساحر خادع محتال وأنه يضر من اتبعه وأن ما جاء به كله زور وباطل ونحو ذلك فإن نظم ذلك شعرا كان أبلغ في الشتم فإن الشعر يحفظ ويروى وهو الهجاء وربما يؤثر في نفوس كثيرة مع العلم ببطلانه أكثر من تأثير البراهين فإن غني به بين ملأ من الناس فهو الذي قد تفاقم أمره وأما من أخبر عن معتقده بغير طعن فيه مثل أن يقول: أنا لست متبعه أو لست مصدقه أو لا أحبه أو لا أرضى دينه ونحو ذلك فإنما أخبر عن اعتقاد أو إرادة لم يتضمن انتقاصا لأن عدم التصديق والمحبة قد يصدر عن الجهل والعناد والحسد والكبر وتقليد الأسلاف وإلف الدين أكثر مما يصدر عن العلم بصفات النبي خلاف ما إذا قال من كان ومن هو رأى كذا وكذا هو ونحو ذلك وإذا قال: لم يكن رسولا ولا نبيا ولم ينزل عليه شيء ونحو ذلك فهو تكذيب صريح وكل تكذيب فقد تضمن نسبته إلى الكذب ووصفه بأنه كذاب لكن بين قوله: "ليس بنبي" وقوله: "هو كذاب" فرق من حيث إن هذا إنما تضمن التكذيب بواسطة علمنا أنه كان يقول: إني رسول الله وليس من نفى عن غيره بعض صفاته نفيا مجردا كمن نفاها عنه ناسبا له إلى الكذب في دعواها والمعنى الواحد قد يؤدى بعبارات بعضها يعد سبا وبعضها لا يعد سبا وقد ذكرنا أن الإمام أحمد نص على أن من قال للمؤذن "كذبت" فهو شاتم وذلك لأن ابتداءه بذلك للمؤذن معلنا بذلك بحيث يسمعه المسلمون طاعنا في دينهم مكذبا للأمة في تصديقها بالوحدانية والرسالة لا ريب أنه شتم.

فإن قيل: ففي الحديث الصحيح الذي يرويه الرسول عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك فأما شتمه إياي فقوله إني اتخذت ولدا وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني" فقد قرن بين التكذيب والشتم.

فيقال قوله: "لن يعيدني كما بدأني" يفارق قول اليهودي للمؤذن "كذبت" من وجهين:
أحدهما: أنه لم يصرح بنسبته إلى الكذب ونحن لم نقل: إن كل تكذيب شتم إذ لو قيل ذلك لكان كل كافر شاتما وإنما قيل: إن الإعلان بمقابلة داعي الحق بقوله: "كذبت" سب للأمة وشتم لها في اعتقاد النبوة وهو سب للنبوة كما أن الذين هجوا من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم على إتباعهم إياه كانوا سابين للنبي صلى الله عليه وسلم مثل شعر بنت مروان وشعر كعب بن زهير وغيرهما وأما قول الكافر: "لن يعيدني كما بدأني" فإنه نفي لمضمون خبر الله بمنزلة سائر أنواع الكفر.
الثاني: أن الكافر المكذب بالبعث لا يقول: إن الله أخبر أنه سيعيدني ولا يقول: إن هذا الكلام تكذيب لله وإن كان تكذيبا بخلاف القائل للرسول أو لمن صدق الرسول "كذبت" فإنه مقر بأن هذا طعن على المكذب وعيب له وانتقاص به وهذا ظاهر وكل كلام تقدم ذكره في المسألة الأولى من نظم ونحوه عده النبي صلى الله عليه وسلم سبا حتى رتب على قائله حكم الساب فإنه سب أيضا وكذلك ما كان في معناه وقد تقدم ذكر ذلك والكلام على أعيان الكلمات لا ينحصر وإنما جماع ذلك أن ما يعرف الناس أنه سب فهو سب وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والاصطلاحات والعادات وكيفية الكلام ونحو ذلك وما اشتبه فيه الأمر ألحق بنظيره وشبهه والله سبحانه أعلم.

فصل.

وكل ما كان من الذمي سبا ينقض عهده ويوجب قتله فإن التوبة توبته منه لا تقبل على ما تقدم هذا هو الذي عليه عامة أهل العلم من أصحابنا وغيرهم.
وقد تقدم عن الشيخ أبي محمد المقدسي رضي الله عنه أنه قال: إن الذمي إذا سب النبي صلى الله عليه وسلم ثم أسلم سقط عنه القتل وإنه إذا قذفه ثم أسلم ففي سقوط القتل عنه روايتان وينبغي أن يبنى كلامه على أنه إن سبه بما يعتقده فيه دينا سقط عنه القتل بإسلامه كاللعن والتقبيح ونحوه وإن سبه بما لا يعتقده فيه كالقذف لم يسقط عنه لأن ما يعتقده فيه كفر محض سقط حده بالإسلام باطنا فيجب أن يسقط ظاهرا أيضا لأن سقوط الأصل الذي هو الاعتقاد يستتبع سقوط فروعه وأما ما لا يعتقده فهو فرية يعلم هو أنها فرية فهي بمنزلة سائر حقوق الآدميين وإن حمل الكلام على ظاهره في أنه يستثنى القذف فقط من بين سائر أنواع السب فيمكن أن يوجه بأن قذف غيره لما تغلظ بأن جعل على صاحبه الحد المؤقت وهو ثمانون بخلاف غيره من أنواع السب فإن عقوبته التعزير المفوض إلى اجتهاد ذي السلطان كذلك يفرق في حقه بين القذف وغيره فيجعل على قاذفه الحد مطلقا وهو القتل وإن أسلم ويدرأ عن الساب الحد إذا تاب لكن هذا الفرق ليس بمرضي فإن قذفه إنما أوجب القتل ونقض العهد لما قدح في نسبه وكان ذلك قدحا في نبوته وهذا معنى يستوي فيه السب بالقذف وبغيره من أنواع الأكاذيب بل قد توصف من الأفعال أو الأقوال المنكرة بما يلحق بالموصوف شيئا وغضاضة أعظم من هذا وإنما فرق في حق غيره بين القذف وغيره لأنه لا يمكن تكذيب القاذف به كما يمكن تكذيب غيره فصار العار به أشد.
وهنا كلمات السب القادحة في النبوة سواء في العلم ببطلانها ظهورا وخفاء فإن العلم بكذب القاذف كالعلم بكذب الناسب له إلى منكر من القول وزور لا فرق بينهما.
وبالجملة فالمنصوص عن الإمام أحمد وعامة أصحابه وسائر أهل العلم أنه لا فرق في هذا الباب بين السب بالقذف وغيره بل من قال: "إنه ينتقض عهده ويتحتم قتله" لم يفرق بين القذف وغيره ومن قال: "يسقط عنه القتل بإسلامه" لم يفرق بين القذف وغيره ومن فرق من الفقهاء بين ما يعتقده وما لا يعتقده فإنما فرق في انتقاض العهد لا في سقوط القتل عنه بالإسلام لكن هو يصلح أن يكون معاضدا لقول الشيخ أبي محمد لأنه فرق بين النوعين في الجملة وأما الإمام أحمد وسائر العلماء المتقدمين فإنما خلافهم في السب مطلقا وليس في شيء من كلام الإمام أحمد رضي الله عنه تعرض للقذف لخصوصه وإنما ذكره أصحابه في القذف لأنهم تكلموا في أحكام القذف مطلقا فذكروا هذا النوع من القذف أنه موجب للقتل وأنه لا يسقط القتل بالتوبة لنص الإمام على أن السب الذي هو أعم من القذف موجب للقتل لا يستتاب صاحبه ثم منهم من ذكر المسألة بلفظ السب كما هي في لفظ أحمد وغيره ومنهم من ذكرها بلفظ القذف لأن الباب باب القذف فكان ذكرها بالاسم الخاص أظهر تأثيرا في الفرق بين هذا القذف وغيره ثم علل الجميع وأدلتهم تعم أنواع السب بل هي في غير القذف أنص منها في القذف وإنما تدل على القذف بطريق العموم أو بطريق القياس والدليل يوافق ما ذكره الجمهور من التسوية كما تقدم ذكره نفيا وإثباتا ولا حاجة إلى الإطناب هنا فإن من سلم أن جميع أنواع السب من القذف وغيره ينقض العهد ويوجب القتل ثم فرق بين بعضهما وبعض في السقوط بالإسلام فقد أبعد جدا لأن السب لو كان بمنزلة الكفر عنده لم ينقض العهد ولوجب قتل الذمي وإذا لم يكن بمنزلة الكفر فإسلامه إما أن يسقط الكفر فقط أو يسقط الكفر وغيره من الجناية على عرض الرسول فأما إسقاطه لبعض الجنايات دون بعض مع استوائهما في مقدار العقوبة فلا يتبين له وجه محقق.
والاحتجاج بأن الإسلام يسقط عقوبة من سب الله فإسقاطه عقوبة من سب النبي أولى إن صح فإنما يدل على أن الإسلام يسقط عقوبة الساب مطلقا قذفا كان السب أو غير قذف ونحن في هذا المقام لا نتكلم إلا في التسوية بين أنواع السب لا في صحة هذه

الحجة وفسادها إذ قد تقدم التنبيه على ضعفها وذلك لأن سب النبي إن جعل بمنزلة سب الله مطلقا وقيل بالسقوط في الأصل فيجب أن يقال بالسقوط في الفرع وإن جعل بمنزلة سب الخلق أو جعل موجبا للقتل حدا لله أو سوي بين السبين في عدم السقوط ونحو ذلك من المآخذ التي تقدم ذكرها فلا فرق في هذا الباب بين القذف وغيره في السقوط بالإسلام فإن الذمي لو قذف مسلما أو ذميا أو شتمه بغير القذف ثم أسلم لم يسقط عنه التعزير المستحق بالسب كما لا يسقط الحد المستحق بالقذف فعلم أنهما سواء في الثبوت والسقوط وإنما يختلفان في مقدار العقوبة بالنسبة إلى غير النبي أما بالنسبة إلى النبي فعقوبتهما سواء فلا فرق بينهما بالنسبة إليه البتة.

وإذ قد ذكرنا حكم الساب للرسول عليه الصلاة والسلام فنردفه بما هو من جنسه مما قد تقدم في الأدلة المذكورة بأصل حكمه فإن ذلك من تمام الكلام في هذه المسألة على ما لا يخفى ونفصله فصولا.

فصل:

فيمن سب الله تعالى.

فإن كان مسلما وجب قتله بالإجماع لأنه بذلك كافر مرتد وأسوأ من الكافر فإن الكافر يعظم الرب ويعتقد أن ما هو عليه من الدين الباطل ليس باستهزاء بالله ولا مسبة له.

ثم اختلف أصحابنا وغيرهم في قبول توبته بمعنى أنه هل يستتاب كالمرتد ويسقط عنه القتل إذا أظهر التوبة من ذلك بعد رفعه إلى السلطان وثبوت الحد عليه؟ على قولين:

أحدهما: أنه بمنزلة ساب الرسول فيه الروايتان في ساب الرسول هذه طريقة أبي الخطاب وأكثر من احتذى حذوه من المتأخرين وهو الذي يدل عليه كلام الإمام أحمد حيث قال: كل من ذكر شيئا يعرض بذكر الرب تبارك وتعالى فعليه القتل مسلما كان أو كافرا وهذا مذهب أهل المدينة فأطلق وجوب القتل عليه ولم يذكر استتابته وذكر أنه قول أهل المدينة ومن وجب عليه القتل يسقط بالتوبة وقول أهل المدينة المشهور أنه لا يسقط القتل بتوبته ولو لم يرد هذا لم يخصه بأهل المدينة فإن الناس مجمعون على أن من سب الله تعالى من المسلمين يقتل وإنما اختلفوا في توبته فلما أخذ بقول أهل المدينة في المسلم كما أخذ بقولهم في الذمي علم أنه قصد محل الخلاف بإظهار التوبة بعد القدرة عليه كما ذكرناه في ساب الرسول.

وأما الرواية الثانية فإن عبد الله قال: سئل أبي عن رجل قال: "يا ابن كذا وكذا أنت ومن خلقك" قال أبي: "هذا مرتد عن الإسلام" قلت لأبي: تضرب عنقه؟ قال: "نعم نضرب عنقه" فجعله من المرتدين.

والرواية الأولى قول الليث بن سعد وقول مالك روى ابن القاسم عنه قال: "من سب الله تعالى من المسلمين قتل ولم يستتب إلا أن يكون افترى على الله بارتداده إلى دين دان به وأظهره فيستتاب وإن لم يظهره لم يستتب وهذا قول ابن القاسم ومطرف وعبد الملك وجماهير المالكية.

والثاني: أنه يستتاب وتقبل توبته بمنزلة المرتد المحض وهذا قول القاضي أبي يعلى والشريف أبي جعفر وأبي علي بن البناء وابن عقيل مع قولهم: "إن من سب الرسول لا يستتاب" وهذا قول طائفة من المدنيين: منهم محمد بن مسلمة والمخزومي وابن أبي حازم قالوا: "لا يقتل المسلم بالسب حتى يستتاب وكذلك اليهودي والنصراني فإن تابوا قبل منهم وإن لم يتوبوا قتلوا ولا بد من الاستتابة" وذلك كله كالردة وهو الذي ذكره العراقيون من المالكية.

وكذلك ذكر أصحاب الشافعي رضي الله عنه قالوا: سب الله ردة فإذا تاب قبلت توبته وفرقوا بينه وبين سب الرسول على أحد الوجهين وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة أيضا.

وأما من استتاب الساب لله ولرسوله فمأخذه أن ذلك من أنواع الردة ومن فرق بين سب الله وسب الرسول قالوا: سب الله تعالى كفر محض وهو حق لله وتوبة من لم يصدر منه إلا مجرد الكفر الأصلي أو الطارئ مقبولة مسقطة للقتل بالإجماع ويدل على ذلك أن النصارى يسبون الله بقولهم: هو ثالث ثلاثة وبقولهم: إن له ولدا كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل أنه قال: "شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك فأما شتمه إياي فقوله: إن لي ولدا وأنا الأحد الصمد" وقال سبحانه: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} إلى قوله: {أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه} وهو سبحانه قد علم منه أنه يسقط حقه عن التائب فإن الرجل لو أتى من الكفر والمعاصي بملء الأرض ثم تاب تاب الله عليه وهو سبحانه لا تلحقه بالسب غضاضة ولا معرة وإنما يعود ضرر السب على قائله وحرمته في قلوب العباد أعظم من أن يهتكها جرأة الساب وبهذا يظهر الفرق بينه وبين الرسول فإن السب هناك قد تعلق به حق آدمي والعقوبة الواجبة لآدمي لا تسقط بالتوبة والرسول تلحقه المعرة والغضاضة بالسب فلا تقوم حرمته وتثبت في القلوب مكانته إلا باصطلام سابه لما أن هجوه وشتمه ينقص من حرمته عند كثير من الناس ويقدح في مكانه في قلوب كثيرة فإن لم يحفظ هذا الحمى بعقوبة المنتهك وإلا أفضى الأمر إلى فساد.

وهذا الفرق يتوجه بالنظر إلى أن حد سب الرسول حقا لآدمي كما يذكره كثير من الأصحاب وبالنظر إلى أنه حق لله أيضا فإن ما انتهكه من حرمة الله لا ينجبر إلا بإقامة الحد فأشبه الزاني والسارق والشارب إذا تابوا بعد القدرة عليهم.

وأيضا فإن سب الله ليس له داع عقلي في الغالب وأكثر ما هو سب في نفس الأمر إنما يصدر عن اعتقاد وتدين يراد به التعظيم لا السب ولا يقصد الساب حقيقة الإهانة لعلمه أن ذلك لا يؤثر بخلاف سب الرسول فإنه في الغالب إنما يقصد به الإهانة والاستخفاف والدواعي إلى ذلك متوفرة من كل كافر ومنافق وصار من جنس الجرائم التي تدعوا إليها الطباع فإن حدودها لا تسقط بالتوبة بخلاف الجرائم التي لا داعي إليها.

ونكتة هذا الفرق أن خصوص سب الله تعالى ليس إليه داع غالب الأوقات فيندرج في عموم الكفر بخلاف سب الرسول فإن لخصوصه دواعي متوفرة فناسب أن يشرع لخصوصه حد والحد المشروع لخصوصه لا يسقط بالتوبة كسائر الحدود فلما اشتمل سب الرسول على خصائص من جهة توفر الدواعي إليه وحرص أعداء الله عليه وأن الحرمة تنتهك به انتهاك الحرمات بانتهاكها وأن فيه حق لمخلوق تحتمت عقوبته لا لأنه أغلظ إثما من سب الله بل لأن مفسدته لا تنحسم إلا بتحتم القتل.

ألا ترى أنه لا ريب أن الكفر والردة أعظم إثما من الزنا والسرقة وقطع الطريق وشرب الخمر ثم الكافر والمرتد إذا تابا بعد القدرة عليهما سقطت عقوبتهما ولو تاب أولئك الفساق بعد القدرة لم تسقط عقوبتهم مع أن الكفر أعظم من الفسق ولم يدل ذلك على أن الفاسق أعظم إثما من الكافر؟ فمن أخذ تحتم العقوبة سقوطها من كبر الذنب وصغره فقد نأى عن مسالك الفقه والحكمة.

ويوضح ذلك أنا نقر الكفار بالذمة على أعظم الذنوب ولا نقر واحدا منهم ولا من غيرهم على زنى ولا سرقة ولا كبير من المعاصي الموجبة للحدود وقد عاقب الله قوم لوط من العقوبة بما لم يعاقبه بشرا في زمنهم لأجل الفاحشة والأرض مملوءة من المشركين وهم في عافية وقد دفن رجل قتل رجلا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرات والأرض تلفظه في كل ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الأرض لتقبل من هو شر منه ولكن الله أراكم هذا لتعتبروا" ولهذا يعاقب الفاسق الملي من الهجر والإعراض والجلد وغير ذلك بما لا يعاقب به الكافر الذمي مع أن ذلك أحسن حالا عند الله وعندنا من الكافر.

فقد رأيت العقوبات المقدورة المشروعة تتحتم حيث تؤخر عقوبة ما هو أشد منها وسبب ذلك أن الدنيا في الأصل ليست دار الجزاء وإنما الجزاء يوم الدين يجزي الله العباد بأعمالهم: إن خبرا فخير وإن شرا فشر لكن ينزل الله سبحانه من العقاب ويشرع من الحدود بمقدار ما يزجر النفوس عما فيه فساد عام لا يخص فاعله أو ما يطهر الفاعل من خطيئته أو لتغلظ الجرم أو لما يشاء سبحانه فالخطيئة إذا خيف أن يتعدى ضررها فاعلها لم تنحسم مادتها إلا بعقوبة فاعلها فلما كان الكفر والردة إذا قبلت التوبة منه بعد القدرة لم تترتب على ذلك مفسدة تتعدى التائب وجب قبول التوبة لأن أحدا لا يريد أن يكفر أو يرتد ثم إذا أخذ أظهر التوبة لعلمه أن ذلك لا يحصل مقصوده بخلاف أهل الفسوق فإنه إذا أسقطت العقوبة عنهم بالتوبة كان ذلك فتحا لباب الفسوق فإن الرجل يعمل ما اشتهى ثم إذا أخذ قال: إني تائب وقد حصل مقصوده من الشهوة التي اقتضاها فكذلك سب الله هو أعظم من سب الرسول لكن لا يخاف أن النفوس تتسرع إلى ذلك إذا استتيب فاعله وعرض على السيف فإنه لا يصدر غالبا إلا عن اعتقاد وليس للخلق اعتقاد يبعثهم على إظهار السب لله تعالى وأكثر ما يكون ضجرا وبرما وسفها وروعه بالسيف والاستتابة تكف عن ذلك بخلاف إظهار سب الرسول فإن هناك دواعي متعددة تبعث عليه متى علم صاحبها أنه إذا أظهر التوبة كف عنه لم يزعه ذلك عن مقصوده.

ومما يدل على الفرق من جهة السنة أن المشركين كانوا يسبون الله بأنواع السب ثم لم يتوقف النبي صلى الله عليه وسلم في قبول إسلام أحد منهم ولا عهد بقتل واحد منهم بعينه وقد توقف في قبول توبة من سبه مثل أبي سفيان وابن أبي أمية وعهد بقتل من كان يسبه من الرجال والنساء مثل الحويرث بن نقيد والقينتين وجارية لبني عبد المطلب ومثل الرجال والنساء الذين أمر بقتلهم بعد الهجرة وقد تقدم الكلام على تحقيق الفرق عند من يقول به بما هو أبسط من هذا في المسألة الثالثة.

وأما من قال: "لا تقبل توبة من سب الله سبحانه وتعالى كما لا تقبل توبة من سب الرسول" فوجهه ما تقدم من عمر رضي الله تعالى عنه من التسوية بين سب الله وسب الأنبياء في إيجاب القتل ولم يأمر بالاستتابة مع شهرة مذهبه في استتابة المرتد لكن قد ذكرنا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يستتاب لأنه كذب النبي صلى الله عليه وسلم فيحمل ذلك على السب الذي يتدين به.

وأيضا فإن السب ذنب منفرد عن الكفر الذي يطابق الاعتقاد فإن الكافر يتدين بكفره ويقول: إنه حق ويدعوا إليه وله عليه موافقون وليس من الكفار من يتدين بما يعتقده استخفافا واستهزاء وسبا لله وإن كان في الحقيقة سبا كما أنهم لا يقولون: إنهم ضلال جهال معذبون أعداء الله وإن كانوا كذلك وأما الساب فإنه مظهر للتنقص والاستخفاف والاستهانة بالله منتهك لحرمته انتهاكا يعلم من نفسه أنه منتهك مستخف مستهزئ ويعلم من نفسه أنه قد قال عظيما وأن السماوات والأرض تكاد تنفطر من مقالته وتخر الجبال وأن ذلك أعظم من كل كفر وهو يعلم أن ذلك كذلك ولو قال بلسانه: "إني كنت لا أعتقد وجود الصانع ولا عظمته والآن فقد رجعت عن ذلك" علمنا أنه كاذب فإن فطرة الخلائق كلها مجبولة على الاعتراف بوجود الصانع وتعظيمه فلا شبهة تدعوه إلى هذا السب ولا شهوة له في ذلك بل هو مجرد سخرية واستهزاء واستهانة وتمرد على رب العالمين تنبعث عن نفس شيطانية ممتلئة من الغضب أو من سفيه لا وقار لله عنده كصدور قطع الطريق والزنى عن الغضب والشهوة وإذا كان

كذلك وجب أن يكون للسب عقوبة تخصه حدا من الحدود وحينئذ فلا تسقط تلك العقوبة بإظهار التوبة كسائر الحدود. ومما يبين أن السب قدر زائد على الكفر قوله تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم} .
ومن المعلوم أنهم كانوا مشركين مكذبين معادين لرسوله ثم نهى المسلمون أن يفعلوا ما يكون ذريعة إلى سبهم لله فعلم أن سب الله أعظم عنده من أن يشرك به ويكذب رسوله ويعادي فلا بد له من عقوبة تختصه لما انتهكه من حرمة الله كسائر الحرمات التي تنتهكها بالفعل وأولى فلا يجوز أن يعاقب على ذلك بدون القتل لأن ذلك أعظم الجرائم فلا يقابل إلا بأبلغ العقوبات.
ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا} فإنها تدل على قتل من يؤذي الله كما تدل على قتل من يؤذي رسوله والأذى المطلق إنما هو باللسان وقد تقدم تقرير هذا.
وأيضا فإن إسقاط القتل عنه بإظهار التوبة لا يرفع مفسدة السب لله تعالى فإنه لا يشاء شاء أن يفعل ذلك ثم إذا أخذ أظهر التوبة إلا فعل كما في سائر الجرائم الفعلية.
وأيضا فإنه لم ينتقل إلى دين يريد المقام عليه حتى يكون الانتقال عنه تركا له وإنما فعل جريمة لا تستدام بل هي مثل الأفعال الموجبة للعقوبات فتكون العقوبة على نفس تلك الجريمة الماضية ومثل هذا لا يستتاب عند من يعاقب على ذنب مستمر من كفر أو ردة.
وأيضا فإن استتابة مثل هذا توجب أن لا يقام حد على ساب لله فإنا نعلم أن ليس أحد من الناس مصرا على السب لله الذي يرى أنه سب فإن ذلك لا يدعو إليه عقل ولا طبع وكل ما أفضى إلى تعطيل الحدود بالكلية كان باطلا ولما كان استتابة الفساق بالأفعال يفضي إلى تعطيل الحدود لم يشرع مع أن أحدهم قد لا يتوب من ذلك لما يدعوه إليه طبعه وكذلك المستتاب من سب الرسول فلا يتوب لما يستحله من سبه فاستتابة الساب لله الذي يسارع إلى إظهار التوبة منه كل أحد أولى أن لا يشرع إذا تضمن تعطيل الحد وأوجب أن تمضمض الأفواه بهتك حرمة اسم الله والاستهزاء به.
وهذا كلام فقيه لكن يعارضه أن ما كان بهذه المثابة لا يحتاج إلى تحقيق إقامة الحد ويكفي تعريض قائله للقتل حتى يتوب.
ولمن ينصر الأول أن يقول: تحقيق إقامة الحد على الساب لله ليس لمجرد زجر الطباع عما تهوى بل تعظيما لله وإجلالا لذكره وإعلاء لكلمته وضبطا للنفوس أن تتسرع إلى الاستهانة بجناية وتقييدا للألسن أن تتفوه بالانتقاص لحقه.
وأيضا فإن حد سب المخلوق وقذفه لا يسقط بإظهار التوبة فحد سب الخالق أولى.
وأيضا فحد الأفعال الموجبة للعقوبة لا تسقط بإظهار التوبة فكذلك حد الأقوال بل شأن الأقوال وتأثيرها أعظم.
وجماع الأمر أن كل عقوبة وجبت جزاء ونكالا على فعل أو قول ماض فإنها لا تسقط إذا أظهرت التوبة بعد الرفع إلى السلطان فسب الله أولى بذلك ولا ينتقض هذا بتوبة الكافر والمرتد لأن العقوبة هناك إنما هي على الاعتقاد الحاضر في الحال المستصحب من الماضي فلا يصلح نقضا لوجهين:
أحدهما: أن عقوبة الساب لله ليست كذنب استصحبه واستدامه فإنه بعد انقضاء السب لم يستصحبه ولم يستدمه وعقوبة الكافر والمرتد إنما هي الكفر الذي هو مصر عليه مقيم على اعتقاده.
الثاني: أن الكافر إنما يعاقب على اعتقاد هو الآن في قلبه وقوله وعمله دليل على ذلك الاعتقاد حتى لو فرض أنا علمنا أن كلمة الكفر التي قالها خرجت من غير اعتقاد لموجبها لم نكفره بأن يكون جاهلا بمعناها أو مخطئا قد غلط وسبق لسانه إليها مع قصد خلافها ونحو ذلك والساب إنما يعاقب على انتهاكه لحرمة الله واستخفافه بحقه فيقتل وإن علمنا أنه لا يستحسن السب لله ولا يعتقده دينا إذ ليس أحد من البشر يدين بذلك ولا ينتقض هذا أيضا بتارك الصلاة والزكاة ونحوهما فإنهم إنما يعاقبون على دوام الترك لهذه الفرائض فإذا فعلوها زال الترك وإن شئت أن تقول: إن الكافر والمرتد وتاركي الفرائض يعاقبون على عدم فعل الإيمان والفرائض أعني على دوام هذا العدم فإذا وجد الإيمان والفرائض امتنعت العقوبة لانقطاع العدم وهؤلاء يعاقبون على وجود الأقوال والأفعال الكبيرة لا على دوام وجودها فإذا وجدت مرة لم يرتفع ذلك بالترك بعد ذلك.
وبالجملة فهذا القول له توجه وقوة وقد تقدم أن الردة نوعان: مجردة ومغلظة وبسطنا هذا القول فيما تقدم في المسألة الثالثة ولا خلاف في قبول التوبة فيما بينه وبين الله سبحانه وسقوط الإثم بالتوبة النصوح.
ومن الناس من سلك في ساب الله تعالى مسلكا آخر وهو أنه جعله من باب الزنديق كأحد المسلكين اللذين ذكرناهما في ساب الرسول لأن وجود السب منه مع إظهاره للإسلام دليل على خبث سريرته لكن هذا ضعيف فإن الكلام هنا إنما هو في سب لا يتدين به فإن السب الذي يتدين به كالتثليث ودعوى الصاحبة والولد فحكمه حكم أنواع الكفر وكذلك المقالات المكفرة مثل مقالة الجهمية والقدرية وغيرهم من صنوف البدع.
وإذا قبلنا توبة من سب الله سبحانه فإنه يؤدب أدبا وجيعا حتى يردعه عن العود إلى مثل ذلك هكذا ذكره بعض أصحابنا وهو قول أصحاب مالك في كل مرتد.

فصل.

وإن كان الساب لله ذميا فهو كما لو سب الرسول وقد تقدم نص الإمام أحمد على أن من ذكر شيئا يعرض بذكر الرب سبحانه فإنه يقتل سواء كان مسلما أو كافرا وكذلك أصحابنا قالوا: من ذكر الله أو كتابه أو دينه أو رسوله بسوء فجعلوا الحكم فيه واحدا وقالوا: الخلاف في ذكر الله وفي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم سواء وكذلك مذهب مالك وأصحابه وكذلك أصحاب الشافعي ذكروا لمن سب الله أو رسوله أو كتابه من أهل الذمة حكما واحدا لكن هنا مسألتان:
إحداهما: أن سب الله تعالى على قسمين أحدهما: أن يسبه بما لا يتدين به مما هو استهانة به عند المتكلم وغيره مثل اللعن والتقبيح ونحوه فهذا هو السب الذي لا يرب فيه.
والثاني: أن يكون مما يتدين به ويعتقده تعظيما ولا يراه سبا ولا انتقاصا مثل قول النصراني: إن له ولدا وصاحبة ونحوه فهذا مما اختلف فيه إذا أظهره الذمي فقال القاضي وابن عقيل من أصحابنا: ينتقض به العهد كما ينتقض إذا أظهروا اعتقادهم في النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقتضى ما ذكره الشريف أبو جعفر وأبو الخطاب وغيرهما فإنهم ذكروا أن ما ينقض الإيمان ينقض الذمة ويحكى ذلك عن طائفة من المالكية ووجه ذلك أنا عاهدناهم على أن لا يظهروا شيئا من الكفر وإن كانوا يعتقدونه فمتى أظهروا مثل ذلك فقد آذوا الله ورسوله والمؤمنين بذلك وخالفوا العهد فينتقض العهد بذلك كسب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم عن عمر رضي الله عنه أنه قال للنصراني الذي كذب بالقدر: لئن عدت إلى مثل ذلك لأضربن عنقك وقد تقدم ما تقرر ذلك.
والمنصوص عن مالك أن من شتم الله من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي كفروا به قتل ولم يستتب قال ابن القاسم: إلا أن يسلم تطوعا فلم يجعل ما يتدين به الذمي سبا وهذا قول عامة المالكية وهو مذهب الشافعي ذكره أصحابه وهو منصوصه قال في "الأم" في تحديد الإمام ما يأخذه من أهل الذمة وعلى أن لا يذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بما هو أهله ولا يطعنوا في دين الإسلام ولا يعيبوا من حكمه شيئا فإن فعلوه فلا ذمة لهم ويأخذ عليهم أن لا يسمعوا المسلمين شركهم وقولهم في عزير وعيسى فإن وجدوهم فعلوا بعد التقدم في عزير وعيسى إليهم عاقبهم على ذلك عقوبة لا يبلغ بها حدا لأنهم قد أذن لهم بإقرارهم على دينهم مع علم ما يقولون وهذا ظاهر كلام الإمام أحمد لأنه سئل عن يهودي مر بمؤذن فقال له: "كذبت" فقال: يقتل لأنه شتم فعلل قتله بأنه شتم فعلم أن ما يظهره به من دينه الذي ليس بشتم ليس كذلك قال رضي الله عنه: من ذكر شيئا يعرض بذكر الرب تعالى فعليه القتل مسلما كان أو كان كافرا وهذا مذهب أهل المدينة وإنما مذهب أهل المدينة فيما هو سب عند القائل وذلك أن هذا القسم ليس من باب السب والشتم الذي يلحق بسب الله وسب النبي صلى الله عليه وسلم لأن الكافر لا يقول هذا طعنا ولا عيبا وإنما يعتقده تعظيما وإجلالا وليس هو ولا أحد من الخلق يتدين بسب الله تعالى بخلاف ما يقال في حق النبي صلى الله عليه وسلم
من السوء فإنه لا يقال إلا طعنا وعيبا وذلك أن الكافر يتدين بكثير من تعظيم الله وليس يتدين بشيء من تعظيم الرسول ألا ترى أنه إذا قال: "محمد عليه الصلاة والسلام ساحر أو شاعر" فهو يقول: إن هذا نقص وعيب وإذا قال: "إن المسيح أو عزيرا ابن الله" فليس يقول: إن هذا نقص وعيب وإن كان هذا عيبا ونقصا في الحقيقة وفرق بين قول يقصد به قائله العيب والنقص وقول لا يقصد به ذلك ولا يجوز أن يجعل قولهم في الله كقولهم في الرسول بحيث يجعل الجميع نقضا للعهد إذ يفرق في الجميع بين ما يعتقدونه وبين ما لا يعتقدونه لأن قولهم في الرسول كله طعن في الدين وغضاضة على الإسلام وإظهار لعداوة المسلمين يقصدون به عيب الرسول ونقصه وليس مجرد قولهم الذي يعتقدونه في الله مما يقصدون به عيب الله ونقصه ألا ترى أن قريشا كانت تقار النبي صلى الله عليه وسلم على ما كان يقوله من التوحيد وعبادة الله وحده ولا يقارونه على عيب آلهتهم والطعن في دينهم وذم آبائهم وقد نهى الله المسلمين أن يسبوا الأوثان لئلا يسب المشركون الله مع كونهم لم يزالوا على الشرك فعلم أن محذور سب الله أغلظ من محذور الكفر به فلا يجعل حكمهما واحدا.
المسألة الثانية.

<u>في استتابة الذمي من هذا وقبل توبته.</u>

أما القاضي وجمهور أصحابه مثل الشريف وابن والبناء وابن عقيل ومن تبعهم فإنهم يقبلون توبته ويسقطون عنه القتل بها وهذا ظاهر على أصلهم فإنهم يقبلون توبة المسلم إذا سب الله فتوبة الذمي أولى وهذا هو المعروف من مذهب الشافعي وعليه يدل عموم كلامه حيث قال في شروط أهل الذمة: وعلى أن أحدا منكم إن ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله ودينه بما لا ينبغي فقد برئت منه ذمة الله ثم قال: وأيهم قال أو فعل شيئا مما وصفته نقضا للعهد وأسلم لم يقتل إذا كان قولا إلا أنه لم يصرح بالسب لله فقد يكون عنى إذا ذكروا ما يعتقدونه وكذلك قال ابن القاسم وغيره من المالكية: إنه يقتل إلا أن يسلم وقال ابن مسلمة وابن أبي حازم والمخزومي: إنه لا يقتل حتى يستتاب فإن تاب وإلا قتل والمنصوص عن مالك أنه يقتل ولا يستتاب كما تقدم وهذا معنى قول أحمد رضي الله عنه في إحدى الروايتين.

قال في رواية حنبل: من ذكر شيئا يعرض بذكر الرب فعليه القتل مسلما كان أو كافرا وهذا مذهب أهل المدينة وظاهر هذه العبارة أن القتل لا يسقط عنه بالتوبة كما لا يسقط القتل عن المسلم بالتوبة فإنه قال مثل هذه العبارة في شتم النبي صلى الله عليه وسلم في رواية حنبل أيضا قال: "كل من شتم النبي صلى الله عليه وسلم مسلما كان أو كافرا فعليه القتل" وكان حنبل يعرض عليه مسائل المدنيين ويسأله عنها.
ثم إن أصحابنا فسروا قوله في شاتم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه لا يسقط عنه القتل بالتوبة مطلقا وقد تقدم توجيه ذلك وهذا مثله وهذا ظاهر إذا قلنا إن المسلم الذي يسب الله لا يسقط عنه القتل بالتوبة لأن المأخذ عندنا ليس هو الزندقة فإنه لو أظهر كفرا غير السب استتبناه وإنما المأخذ أن يقتل عقوبة على ذلك وحدا عليه مع كونه كافرا كما يقتل لسائر الأفعال.
ويظهر الحكم في المسألة بأن يرتب هذا السب ثلاث مراتب:
المرتبة الأولى: أن من شان الرب بما يتدين به وليس فيه سب لدين الإسلام إلا أنه سب عند الله تعالى مثل قول النصارى في عيسى ونحو ذلك فقد قال الله تعالى فيما يرويه عنه رسوله: "شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك" ثم قال: "وأما شتمه إياي فقوله إني اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد" فهذا القسم حكمه حكم سائر أنواع الكفر سميت شتما أو لم تسم وقد ذكرنا الخلاف في انتقاض العهد بإظهار مثل هذا وإذا قيل بانتقاض العهد به فسقوط القتل عنه بالإسلام متوجه وهو في الجملة قول الجمهور.
المرتبة الثانية: أن يذكر ما يتدين به وهو سب لدين المسلمين وطعن عليهم كقول اليهودي للمؤذن "كذبت" وكرد النصراني على عمر رضي الله عنه وكما لو عاب شيئا من أحكام الله أو كتابه ونحو ذلك فهذا حكمه حكم سب الرسول في انتقاض العهد به وهذا القسم هو الذي عناه الفقهاء في نواقض العهد حيث قالوا: إذا ذكر الله أو كتابه أو رسوله أو دينه بسوء ولذلك اقتصر كثير منهم على قوله: أو ذكر كتاب الله أو دينه أو رسوله بسوء وأما سقوط القتل عنه بالإسلام فهو كسب الرسول إلا أن في ذلك حقا لآدمي فمن سلك ذلك المسلك في سب الرسول فرق بينه وبين هذا وهي طريقة القاضي وأكثر أصحابه ومن قتله لما في ذلك من الجناية على الإسلام وأنه محارب لله ورسوله فإنه يقتل بكل حال وهو مقتضى أكثر الأدلة التي تقدم ذكرها.
المرتبة الثالثة: أن يسبه بما لا يتدين به بل هو محرم في دينه كما هو محرم في دين الله تعالى كاللعن والتقبيح ونحو ذلك فهذا النوع لا يظهر بينه وبين سب المسلم فرق بل ربما كان فيه أشد لأنه يعتقد تحريم مثل هذا الكلام في دينه كما يعتقد المسلمون تحريمه وقد عاهدناه على أن نقيم عليه الحد فيما يعتقد تحريمه فإسلامه لم يجدد له اعتقادا لتحريمه بل هو فيه كالذمي إذا زنى أو قتل أو سرق ثم أسلم سواء ثم هو مع ذلك مما يؤذي المسلمين كسب الرسول بل أشد فإذا قلنا لا تقبل توبة المسلم من سب الله فأن نقول لا تقبل توبة الذمي أولى بخلاف الرسول فإنه يتدين بتقبيح من يعتقد كذبه ولا يتدين بتقبيح خالقه الذي يقر أنه خالقه وقد يكون من هذا الوجه أولى بأن لا يسقط عنه القتل ممن سب الرسول ولهذا لم يذكر عن مالك نفسه وأحمد استثناء فيمن سب الله تعالى كما ذكر عنهما الاستثناء لمن سب الرسول وإن كان كثير من أصحابهما يرون الأمر بالعكس وإنما قصدا هذا الضرب من السب ولهذا قرنا بين المسلم والكافر فلا بد أن يكون سبا منهما وأشبه شيء بهذا الضرب من الأفعال زناه بمسلمة فإنه محرم في دينه مضر بالمسلمين فإذا أسلم لم يسقط عنه بل إما أن يقتل أو يحد حد الزنا كذلك سب الله تعالى حتى لو فرض أن هذا الكلام لا ينقض العهد لوجب أن يقام عليه حده لأن كل أمر يعتقده محرما فإنا نقيم عليه فيه حد الله الذي شرعه في دين الإسلام وإن لم يعلم مأخذه في كتابه مع أن الأغلب على القلب أن أهل الملل كلهم يقتلون على مثل هذا الكلام كما أن حده في دين الله القتل ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أقام على الزاني منهم حد الزنا قال: "اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه" ومعلوم أن ذلك الزاني منهم لم يكن يسقط عنه لو أسلم فإقامة الحد على من سب الرب تبارك وتعالى سبا هو سب في دين الله ودينهم عظيم عند الله وعندهم أولى أن يحيا فيه أمر الله ويقام عليه حده.
وهذا القسم قد اختلف الفقهاء فيه على ثلاثة أقوال:
أحدها: أن الذمي يستتاب منه كما يستتاب المسلم منه هذا قول طائفة من المدنيين كما تقدم وكأن هؤلاء لم يروه نقضا للعهد لأن ناقض العهد يقتل كما يقتل المحارب ولا معنى لاستتابة الكافر الأصلي المحارب وإنما رأوا حده القتل فجعلوه كالمسلم وهو يستتيبون المسلم فكذلك يستتاب الذمي وعلى قول هؤلاء فالأشبه أن استتابته من السب لا تحتاج إلى إسلامه بل تقبل توبته مع بقائه على دينه.
القول الثاني: أنه لا يستتاب لكن إن أسلم لم يقتل وهذا قول ابن القاسم وغيره وهو قول الشافعي وهو إحدى الروايتين عن أحمد وعلى طريقة القاضي لم يذكر فيه خلاف بناء على أنه قد نقض عهده فلا يحتاج قتله إلى استتابة لكن إذا أسلم سقط عنه القتل كالحربي.
القول الثالث: أنه يقتل بكل حال وهو ظاهر كلام مالك وأحمد لأن قتله وجب على جرم محرم في دين الله وفي دينه فلم يسقط عنه موجبه بالإسلام كعقوبته على الزنا والسرقة والشرب وهذا القول هو الذي يدل عليه أكثر الأدلة المتقدم ذكرها.

فصل.

السب الذي ذكرنا حكمه من المسلم هو: الكلام الذي يقصد به الانتقاص والاستخفاف وهو ما يفهم منه السب في عقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم كاللعن والتقبيح ونحوه وهو الذي دل عليه قوله تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم} .

فهذا أعظم ما تفوه به الألسنة فأما ما كان سبا في الحقيقة والحكم لكن من الناس من يعتقده دينا ويراه صوابا وحقا ويظن أن ليس فيه انتقاص ولا تعييب فهذا نوع من الكفر حكم صاحبه إما حكم المرتد المظهر للردة أو المنافق المبطن للنفاق والكلام في الكلام الذي يكفر به صاحبه أو لا يكفر وتفصيل الاعتقادات وما يوجب منها الكفر أو البدعة فقط أو ما اختلف فيه من ذلك ليس هذا موضعه وإنما الغرض أن لا يدخل هذا في قسم السب الذي تكلمنا في استتابة صاحبه نفيا وإثباتا والله أعلم.

فصل.

فإن سب موصوفا بوصف أو مسمى باسم وذلك يقع على الله سبحانه أو بعض رسله خصوصا أو عموما لكن قد ظهر أنه لم يقصد ذلك: إما لاعتقاده أن الوصف أو الاسم لا يقع عليه أو لأنه وإن كان يعتقد وقوعه عليه لكن ظهر أنه لم يرده لكون الاسم في الغالب لا يقصد به ذلك بل غيره فهذا القول وشبهه حرام في الجملة يستتاب صاحبه منه إن لم يعلم أنه حرام ويعزر مع العلم تعزيرا بليغا لكن لا يكفر بذلك ولا يقتل وإن كان يخاف عليه الكفر.

مثال الأول: أن يسب الدهر الذي فرق بينه وبين الأحبة أو الزمان الذي أحوجه إلى الناس أو الوقت الذي أبلاه بمعاشرة من ينكد عليه ونحو ذلك مما يكثر الناس قوله نظما ونثرا فإنه إنما يقصد أن يسب من يفعل ذلك به ثم إنه يعتقد أو يقول إن فاعل ذلك هو الدهر الذي هو الزمان فيسبه وفاعل ذلك إنما هو الله سبحانه فيقع السب عليه من حيث لم يعتمده المرء وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر بيده الأمر" وقوله فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى يقول: "يا ابن آدم تسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار" فقد نهى رسول الله عليه الصلاة والسلام عن هذا القول وحرمه ولم يذكر كفرا ولا قتلا والقول المحرم يقتضي التعزيز والتنكيل.

ومثال الثاني: أن يسب مسمى باسم عام يندرج فيه الأنبياء وغيرهم لكن يظهر أنه لم يقصد الأنبياء من ذلك العام مثل ما نقل الكرماني قال: سألت أحمد قلت: رجل افترى على رجل فقال: يا ابن كذا وكذا إلى آدم وحواء فعظم ذلك جدا وقال: نسأل الله العافية لقد أتى هذا عظيما وسئل عن الحد فيه فقال: لم يبلغني في هذا شيء وذهب إلى حد واحد وذكر هذا أبو بكر عبد العزيز أيضا فلم يجعل أحمد رضي الله عنه بهذا القول كافرا مع أن اللفظ يدخل فيه نوح وإدريس وشيث وغيرهم من النبيين لأن الرجل لم يدخل آدم وحواء في عمومه وإنما جعلهما غاية وحدا لمن قذفه وإلا لو كانا من المقذوفين تعين قتله بلا ريب ومثل هذا العموم في مثل هذا الحال لا يكاد يقصد به صاحبه من يدخل فيه من الأنبياء فعظم الإمام أحمد ذلك لأن أحسن أحواله أن يكون قذف خلقا من المؤمنين ولم يوجب إلا حدا واحدا لأن الحد هنا ثبت للحي ابتداء على أصله وهو واحد وهذا قول أكثر المالكية في مثل ذلك.

وقال سحنون وأصبغ وغيرهما في رجل قال له غريمه: صلى الله على النبي محمد فقال له الطالب: لا صلى الله على من صلى عليه قال سحنون: "ليس هو كمن شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شتم الملائكة الذين يصلون عليه إذا كان على ما وصف من الغضب لأنه إنما شتم الناس" وقال أصبغ وغيره: "لا يقتل إنما شتم الناس" وكذلك قال ابن أبي زيد فيمن قال: "لعن الله العرب ولعن الله بني إسرائيل ولعن الله بني آدم وذكر أنه لم يرد الأنبياء وإنما أردت الظالمين منهم": إن عليه الأدب بقدر اجتهاد السلطان.

وذهب طائفة منهم الحارث بن مسكين وغيره إلى القتل في مسألة المصلي ونحوها وكذلك قال أبو موسى بن مياس فيمن قال: "لعنه الله إلى آدم" إنه يقتل وهذه مسألة الكرماني بعينها وهذا قياس أحد الوجهين لأصحابنا فيمن قال: عصيت الله في كل ما أمرني به فإن أكثر أصحابنا قالوا: ليس ذلك بيمين لأنه إنما التزم المعصية كما لو قال: محوت المصحف أو شربت الخمر إن فعلت كذا ولم يظهر قصد إرادة الكفر من هذا العموم لأنه لو أراده لذكره باسمه الخاص ولم يكتف بالاسم الذي يشركه فيه جميع المعاصي.

ومنهم من قال: هو يمين لأن مما أمره الله به الإيمان ومعصيته فيه كفر ولو التزم الكفر بيمينه بأن قال: هو يهودي أو نصراني أو هو برئ من الله أو من الإسلام أو هو يستحل الخمر والخنزير أو لا يراه الله في مكان كذا إن فعل كذا ونحوه كان يمينا في المشهور عنه ووجه هذا القول أن اللفظ عام فلا يقبل منه دعوى الخصوص ولعل من يختار هذا يحمل كلام الإمام أحمد على أن القائل كان جاهلا بأن في النسب أنبياء.

ووجه الأول أن أبا بكر رضي الله عنه كتب إلى المهاجر بن أبي أمية في المرأة التي كانت تهجو المسلمين يلومه على قطع يدها ويذكر له أنه كان الواجب أن يعاقبها بالضرب مع أن الأنبياء يدخلون في عموم هذا اللفظ ولأن الألفاظ العامة قد كثرت

وغلب إرادة الخصوص بها فإذا كان اللفظ لفظ سب وقذف وللأنبياء ونحوهم من الخصائص والمزايا ما يوجب ذكرهم بأخص أسمائهم إذا أريد ذكرهم والغضب يحمل الإنسان على التجوز في القول والتوسع فيه كان ذلك قرائن عرفية ولفظية وحالية في أنه لم يقصد دخولهم في العموم لا سيما إذا كان دخول ذلك الفرد في العموم لا يكاد يشعر به.
ويؤيد هذا أن يهوديا قال في عهد النبي صلى الله عليه وسلم: "والذي اصطفى موسى على العالمين" فلطمه المسلم حتى اشتكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفضيله على موسى لما فيه من انتقاص المفضول بعينه والغض منه ولو أن اليهودي أظهر القول بأن موسى أفضل من محمد لوجب التعزير عليه إجماعا بالقتل أو بغيره كما تقدم التنبيه عليه.

فصل.

والحكم في سب سائر الأنبياء كالحكم في سب نبينا فمن سب نبيا مسمى باسمه من الأنبياء المعروفين كالمذكورين في القرآن أو موصوفا بالنبوة مثل ما يذكر حديثا أن نبيا فعل كذا أو قال كذا فيسب ذلك القائل أو الفاعل مع العلم بأنه نبي وإن لم يعلم من هو أو يسب نوع الأنبياء على الإطلاق فالحكم في هذا كما تقدم لأن الإيمان بهم واجب عموما وواجب الإيمان خصوصا بمن قصه الله علينا في كتابه وسبهم كفر وردة إن كان من مسلم ومحاربة إن كان من ذمي.
قد تقدم في الأدلة الماضية ما يدل على ذلك بعمومه لفظا أو معنى وما أعلم أحدا فرق بينهما وإن كان أكثر كلام الفقهاء إنما فيه ذكر من سب نبيا فإنما ذلك لمسيس الحاجة إليه وأنه وجب التصديق له والطاعة له جملة وتفصلا ولا ريب أن جرم سابه أعظم من جرم ساب غيره كما أن حرمته أعظم من حرمة غيره وإن شاركه سائر إخوانه من النبيين والمرسلين في أن سابهم كافر محارب حلال الدم.
فأما إن سب نبيا غير معتقد لنبوته فإنه يستتاب من ذلك إذا كان ممن علمت نبوته بالكتاب والسنة لأن هذا جحد لنبوته إن كان ممن يجهل أنه نبي فإنه سب محض ولا يقبل قوله: إني لم أعلم أنه نبي.
فصل.
فأما من سب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فقال القاضي أبو يعلى: "من قذف عائشة بما برأها الله منه كفر بلا خلاف" وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم.
فروي عن مالك: "من سب أبا بكر جلد ومن سب عائشة قتل قيل له: لم؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن لأن الله تعالى قال: {يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين} ".
وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: سمعت القاسم بن محمد يقول لإسماعيل بن إسحاق: أتى المأمون بالرقة برجلين شتم أحدهما فاطمة والآخر عائشة فأمر بقتل الذي شتم فاطمة وترك الآخر فقال إسماعيل: "ما حكمهما إلا أن يقتلا لأن الذي شتم عائشة رد القرآن وعلى هذا مضت سيرة أهل الفقه والعلم من أهل البيت وغيرهم".
قال أبو السائب القاضي: كنت يوما بحضرة الحسن بن زيد الداعي بطبرستان وكان يلبس الصوف ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويوجه في كل سنة بعشرين ألف دينار إلى مدينة السلام يفرق على سائر ولد الصحابة وكان بحضرته رجل ذكر عائشة بذكر قبيح من الفاحشة فقال: "يا غلام اضرب عنقه" فقال له: العلويون: هذا رجل من شيعتنا فقال: "معاذ الله هذا رجل طعن على النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: {الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم} فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي خبيث فهو كافر فاضربوا عنقه" فضربوا عنقه وأنا حاضر رواه اللالكائي.
وروي عن محمد بن زيد أخي الحسن بن زيد أنه قدم عليه رجل من العراق فذكر عائشة بسوء فقام إليه بعمود فضرب به دماغه فقتله فقيل له: هذا من شيعتنا ومن بني الآباء فقال: "هذا سمى جدي قرنان ومن مسمي جدي قرنان استحق القتل فقتله".
وأما من سب غير عائشة من أزواجه ففيه قولان:
أحدهما: أنه كساب غيرهن من الصحابة على ما سيأتي.
والثاني: وهو الأصح أن من قذف واحدة من أمهات المؤمنين فهو كقذف عائشة رضي الله عنها وقد تقدم معنى ذلك عن ابن عباس وذلك لأن هذا فيه عار وغضاضة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذى له أعظم من أذاه بنكاحهن بعده وقد تقدم التنبيه على ذلك فيما مضى عند الكلام على قوله: {إن الذين يؤذون الله ورسوله} الآية والأمر فيه ظاهر.

فصل.

فأما من سب أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بيته وغيرهم فقد أطلق الإمام أحمد أنه يضرب ضربا نكالا وتوقف عن قتله وكفره.
قال أبو طالب: سألت أحمد عمن شتم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: "القتل أجبن عنه ولكن أضربه ضربا نكالا".

وقال عبد الله: سألت أبي عمن شتم رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أرى أن يضرب" قلت له: حد فلم يقف على الحد إلا أنه قال: "يضرب" وقال: "ما أراه على الإسلام".
وقال: سألت أبي من الرافضة؟ فقال: "الذين يشتمون أو يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما".
وقال في الرسالة التي رواها أبو العباس أحمد بن يعقوب الإصطخري وغيره: وخير الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر بعد أبي بكر وعثمان بعد عمر وعلي بعد عثمان ووقف قوم وهم خلفاء راشدون مهديون ثم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الأربعة خير الناس لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساويهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا نقص فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته ليس له أن يعفو عنه بل يعاقبه ويستتيبه فإن تاب قبل منه وإن ثبت أعاد عليه العقوبة وخلده الحبس حتى يموت أو يراجع.
وحكى الإمام أحمد هذا عمن أدركه من أهل العلم وحكاه الكرماني عنه وعن إسحاق والحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم.
وقال الميموني: سمعت أحمد يقول: "ما لهم ولمعاوية؟ نسأل الله العافية" وقال لي: "يا أبا الحسن إذا رأيت أحدا يذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء فاتهمه على الإسلام".
فقد نص رضي الله عنه على جواب تعزيره واستتابة حتى يرجع بالجلد وإن لم ينته حبس حتى يموت أو يراجع وقال: "ما أراه على الإسلام" وقال: "واتهمه على الإسلام" وقال: "أجبن عن قتله".
وقال إسحاق بن راهويه: "من شتم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعاقب ويحبس.
وهذا قول كثير أصحابنا منهم ابن أبي موسى قال: "ومن سب السلف من الروافض فليس بكفؤ ولا يزوج ومن رمى عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه فقد مرق من الدين ولم ينعقد له نكاح على مسلمة إلا أن يتوب ويظهر توبته وهذا في الجملة قول عمر بن عبد العزيز وعاصم الأحول وغيرهما من التابعين.
قال الحارث بن عتبة: "إن عمر بن عبد العزيز أتى برجل سب عثمان فقال: ما حملك على أن سببته؟ قال: أبغضه قال: وإن أبغضت رجلا سببته؟ قال: فأمر به فجلد ثلاثين سوطا".
وقال إبراهيم بن ميسرة: "ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنسانا قط إلا رجل شتم معاوية فضربه أسواطا.
رواهما اللالكائي وقد تقدم أنه كتب في رجل سبه: "لا يقتل إلا من سب النبي صلى الله عليه وسلم ولكن اجلده فوق رأسه أسواطا ولولا أني رجوت أن ذلك خير له لم أفعل".
وروى الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا عاصم الأحول قال: "أتيت برجل قد سب عثمان قال: فضربته عشرة أسواط قال: ثم عاد لما قال فضربته عشرة أخرى قال: فلم يزل يسبه حتى ضربته سبعين سوطا".
وهو المشهور من مذهب مالك قال مالك: "من شتم النبي صلى الله عليه وسلم قتل ومن سب أصحابه أدب".
وقال عبد الملك بن حبيب: "من غلا من الشيعة إلى بغض عثمان والبراءة منه أدب أدبا شديدا ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد ويكرر ضربه ويطال سجنه حتى يموت ولا يبلغ به القتل إلا في سب النبي صلى الله عليه وسلم".
وقال ابن المنذر: "لا أعلم أحدا يوجب قتل من سب من بعد النبي صلى الله عليه وسلم".
وقال القاضي أبو يعلى: "الذي عليه الفقهاء في سب الصحابة: إن كان مستحلا لذلك كفر وإن لم يكن مستحلا فسق ولم يكفر سواء كفرهم أو طعن في دينهم مع إسلامهم".
وقد قطع طائفة من الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم بقتل من سب الصحابة وكفر الرافضة قال محمد بن يوسف الفريابي "وسئل عمن شتم أبا بكر قال: كافر قيل: فيصلى عليه؟ قال: لا وسأله: كيف يصنع به وهو يقول لا إله إلا الله؟ قال: لا تمسوه بأيديكم ادفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرته".
وقال أحمد بن يونس: "لو أن يهوديا ذبح شاة وذبح رافضي لأكلت ذبيحة اليهودي ولم آكل ذبيحة الرافضي لأنه مرتد عن الإسلام".
وكذلك قال أبو بكر بن هاني: "لا تؤكل ذبيحة الروافض والقدرية كما لا تؤكل ذبيحة المرتد مع أنه تؤكل ذبيحة الكتابي لأن هؤلاء يقامون مقام المرتد وأهل الذمة يقرون على دينهم وتؤخذ منهم الجزية".
وكذلك قال عبد الله بن إدريس من أعيان أئمة الكوفة: "ليس لرافضي شفعة إلا لمسلم".
وقال فضيل بن مرزوق: سمعت الحسن بن الحسن يقول لرجل من الرافضة: "والله إن قتلك لقربة إلى الله وما امتنع من ذلك إلا بالجوار وفي رواية قال: رحمك الله قذفت إنما تقول هذا تمزح قال: لا والله ما هو بالمزاح ولكنه الجد قال: وسمعته يقول: لئن أمكننا الله منكم لنقطعن أيديكم وأرجلكم".
وصرح جماعات من أصحابنا بكفر الخوارج المعتقدين البراءة من علي وعثمان وبكفر الرافضة المعتقدين لسب جميع الصحابة الذين كفروا الصحابة وفسقوهم وسبوهم.

وقال أبو بكر عبد العزيز في المقنع: "فأما الرافضي فإن كان يسب فقد كفر فلا يزوج".
ولفظ بعضهم وهو الذي نصره القاضي أبو يعلى أنه إن سبهم سبا يقدح في دينهم وعدالتهم كفر بذلك وإن سبهم سبا لا يقدح مثل أن يسب أبا أحدهم أو يسبه سبا يقصد به غيظه ونحو ذلك لم يكفر.
قال أحمد في رواية أبي طالب في الرجل يشتم عثمان: هذه زندقة وقال في رواية المروزي: من شتم أبا بكر وعمر وعائشة ما أراه على الإسلام.
قال القاضي أبو يعلى: فقد أطلق القول فيه أنه يكفر بسبه لأحد من الصحابة وتوقف في رواية عبد الله وأبي طالب عن قتله وكمال الحد وإيجاب التعزير يقتضي أنه لم يحكم بكفره.
قال: فيحتمل أن يحمل قوله: "ما أراه على الإسلام" إذا استحل سبهم بأنه يكفر بلا خلاف ويحمل إسقاط القتل على من لم يستحل ذلك بل فعله مع اعتقاده لتحريمه كمن يأتي المعاصي قال: ويحتمل قوله: "ما أراه على الإسلام" على سب يطعن في عدالتهم نحو قوله: ظلموا وفسقوا بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأخذوا الأمر بغير حق ويحمل قوله في إسقاط القتل على سب لا يطعن في دينهم نحو قوله: كان فيهم قلة علم وقلة معرفة بالسياسة والشجاعة وكان فيهم شح ومحبة للدنيا ونحو ذلك قال: ويحتمل أن يحمل كلامه على ظاهره فتكون في سابهم روايتان: إحداهما يكفر والثانية يفسق وعلى هذا استقر قول القاضي وغيره حكوا في تكفيرهم روايتين.
قال القاضي: "ومن قذف عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه كفر بلا خلاف".
ونحن نرتب الكلام في فصلين أحدهما: في سبهم مطلقا والثاني: في تفصيل أحكام السب.
أما الأول فسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرام بالكتاب والسنة.
أما الأول فلأن الله سبحانه يقول: {ولا يغتب بعضكم بعضا} وأدنى أحوال الساب لهم أن يكون مغتابا وقال تعالى: {ويل لكل همزة لمزة} والطاعن عليهم همزة لمزة وقال: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا} وهم صدور المؤمنين فإنهم هم المواجهون بالخطاب في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} حيث ذكرت ولم يكتسبوا ما يوجب أذاهم لأن الله سبحانه رضي عنهم رضى مطلقا بقوله تعالى: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه} فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسان ولم يرض عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان وقال تعالى: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة} والرضى من الله صفة قديمة فلا يرضى إلا عن عبد علم أنه يوافقه على موجبات الرضى ومن رضي الله عنه لم يسخط عليه أبدا وقوله تعالى: {إذ يبايعونك} سواء كانت ظرفا محضا أو ظرفا فيها معنى التعليل فإن ذلك لتعلق الرضى بهم فإنه يسمى رضى أيضا كما في تعلق العلم والمشيئة والقدرة وغير ذلك من صفات الله سبحانه وقيل: بل الظرف يتعلق بنفس الرضى وإنه يرضى عن المؤمن بعد أن يطيعه ويسخط عن الكافر بعد أن يعصيه ويحب من اتبع الرسول بعد إتباعه له وكذلك أمثال هذا وهذا قول جمهور السلف وأهل الحديث وكثير من أهل الكلام وهو الأظهر وعلى هذا فقد بين في مواضع أخر أن هؤلاء الذين رضي الله عنهم هم من أهل الثواب في الآخرة يموتون على الإيمان الذي به يستحقون ذلك كما في قوله تعالى: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم} .
وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة".
وأيضا فكل من أخبر الله أنه رضي عنه فإنه من أهل الجنة وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه وعمله الصالح فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح له فلو علم أنه يتعقب ذلك ما يسخط الرب لم يكن من أهل ذلك.
وهذا كما في قوله تعالى: {يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ولأنه سبحانه وتعالى قال: {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم} وقال سبحانه وتعالى: {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه} وقال تعالى: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا} الآية وقال تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس} {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} وهو أول من وجه بهذا الخطاب فهم مرادون بلا ريب وقال سبحانه وتعالى: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} فجعل سبحانه ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى للمهاجرين والأنصار والذين جاءوا من بعدهم مستغفرين للسابقين وداعين الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم فعلم أن الاستغفار لهم وطهارة القلب من الغل لهم أمر يحبه الله ويرضاه ويثني على فاعله كما أنه قد أمر بذلك رسوله في قوله تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} وقال تعالى: {فاعف عنهم واستغفر لهم} ومحبة الشيء كراهته لضده فيكون

الله يكره السب لهم الذي هو ضد الاستغفار والبغض لهم الذي هو ضد الطهارة وهذا معنى قول عائشة رضي الله عنها: "أمروا بالاستغفار لأصحاب محمد فسبوهم" رواه مسلم.
وعن مجاهد عن ابن عباس قال: "لا تسبوا أصحاب محمد فإن الله قد أمرنا بالاستغفار لهم وقد علم أنهم سيقتتلون" رواه الإمام أحمد.
وعن سعد بن أبي وقاص قال: "الناس على ثلاث منازل فمضت منزلتان وبقيت واحدة فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت قال: ثم قرأ: {للفقراء المهاجرين} إلى قوله: {ورضوانا} فهؤلاء المهاجرون وهذه منزلة قد مضت {والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم} إلى قوله: {ولو كان بهم خصاصة} قال: هؤلاء الأنصار وهذه منزلة قد مضت ثم قرأ: {والذين جاءوا من بعدهم} إلى قوله: {رحيم} قد مضت هاتان وبقيت هذه المنزلة فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت يقول: أن تستغفروا لهم" ولأن من حاز سبه بعينه أو بغيره لم يجز الاستغفار له كما لا يجوز الاستغفار للمشركين لقوله تعالى: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} وكما لا يجوز أن يستغفر لجنس العاصين مسمين باسم المعصية لأن ذلك لا سبيل إليه ولأنه شرع لنا أن نسأل الله أن لا يجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا والسب باللسان أعظم من الغل الذي لا سب معه ولو كان الغل عليهم والسب لهم جائزا لم يشرع لنا أن نسأله ترك ما لا يضر فعله ولأنه وصف مستحقي الفيء بهذه الصفة كما وصف السابقين بالهجرة والنصرة فعلم أن ذلك صفة للمؤثر فيهم ولو كان السب جائزا لم يشترط في استحقاق الفيء ترك أمر جائز كما لا يشترط ترك سائر المباحات بل لو لم يكن الاستغفار لهم واجبا لم يكن شرطا في استحقاق الفيء لأن استحقاق الفيء لا يشترط فيه ما ليس بواجب بل هذا دليل على أن الاستغفار لهم داخل في عقد الدين وأصله.
وأما السنة ففي الصحيحين عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه".
وفي رواية لمسلم واستشهد بها البخاري قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه".
وفي رواية للبرقاني في صحيحه: "لا تسبوا أصحابي دعوا لي أصحابي فإن أحدكم لو أنفق كل يوم مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه".
والأصحاب: جمع صاحب والصاحب: اسم فاعل من صحبه يصحبه وذلك يقع على قليل الصحابة وكثيرها لأنه يقال: صحبته ساعة وصحبته شهرا وصحبته سنة قال الله تعالى: {والصاحب بالجنب} قد قيل: هو الرفيق في السفر وقيل: هو الزوجة ومعلوم أن صحبة الرفيق وصحبة الزوجة قد تكون ساعة فما فوقها وقد أوصى الله به إحسانا ما دام صاحبا وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره" وقد دخل في ذلك قليل الصحبة وكثيرها وقليل الجوار وكثيره وكذلك قال الإمام أحمد وغيره: كل من صحب النبي صلى الله عليه وسلم سنة أو شهرا أو يوما أو رآه مؤمنا به فهو من أصحابه له من الصحبة بقدر ذلك.
فإن قيل: فلم نهى خالد عن أن يسب أصحابه إذا كان من أصحابه أيضا؟ وقال: "لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه".
قلنا: لأن عبد الرحمن بن عوف ونظراءه هم من السابقين الأولين الذين صحبوه في وقت كان خالد وأمثاله يعادونه فيه وأنفقوا أموالهم قبل الفتح وقاتلوا وهو أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى فقد انفردوا من الصحبة بما لم يشركهم فيه خالد ونظراؤه ممن أسلم بعد الفتح الذي هو صلح الحديبية وقاتل أن يسب أولئك الذين صحبوه قبله ومن لم يصحبه قط نسبته إلى من صحبه كنسبة خالد إلى السابقين وأبعد.
وقوله: "لا تسبوا أصحابي" خطاب لكل أحد أن يسب من انفرد عنه بصحبته عليه الصلاة والسلام وهذا كقوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: "أيها الناس إني أتيتكم فقلت: إني رسول الله إليكم فقلتم: كذبت وقال أبو بكر: صدقت فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ فهل أنتم تاركوا لي صاحبي" أو كما قال بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم قال ذلك لما عاير بعض الصحابة أبا بكر وذاك الرجل من فضلاء أصحابه ولكن امتاز أبو بكر عنه بصحبته وانفرد بها عنه.
وعن محمد بن طلحة المديني عن عبد الرحمن بن سالم بن عتبة بن عويم بن ساعدة عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله اختارني واختار لي أصحابا جعل لي منهم وزراء وأنصارا وأصهارا فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا" وهذا محفوظ بهذا الإسناد.
وقد روى ابن ماجة بهذا الإسناد حديثا وقال أبو حاتم في تحديثه: هذا محله الصدق يكتب حديثه ولا يحتج به على انفراده ومعنى هذا الكلام أنه يصلح للاعتبار تحديثه والاستشهاد به فإذا عضده آخر مثله جاز أن يحتج به ولا يحتج به على انفراده.

وعن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا من بعدي من أحبهم فقد أحبني ومن أبغضهم فقد أبغضني ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه" رواه الترمذي وغيره من حديث عبيدة ابن أبي رائطة عن عبد الرحمن بن زياد عنه وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
وروي هذا المعنى من حديث أنس أيضا ولفظه: "من سب أصحابي فقد سبني ومن سبني فقد سب الله" رواه ابن البناء.
وعن عطاء بن أبي رباح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لعن الله من سب أصحابي" رواه أبو أحمد الزبيري: حدثنا محمد بن خالد عنه وقد روى عنه عن ابن عمر مرفوعا من وجهه آخر رواهما اللالكائي.
وقال علي بن عاصم: أنبأ أبو قحذم حدثني أبو قلابة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا" رواه اللالكائي.
ولما جاء فيه من الوعيد قال إبراهيم النخعي: كان يقال: "شتم أبي بكر وعمر من الكبائر" وكذلك قال أبو إسحاق السبيعي: "شتم أبي بكر وعمر من الكبائر" التي قال الله تعالى: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه} وإذا كان شتمهم بهذه المثابة فأقل ما فيه التعزير لأنه مشروع في كل معصية ليس فيها حد ولا كفارة وقد قال صلى الله عليه وسلم: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" وهذا مما لا نعلم فيه خلافا بين أهل الفقه والعلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان وسائر أهل السنة والجماعة فإنهم مجمعون على أن الواجب الثناء عليهم والاستغفار لهم والترحم عليهم والترضي عنهم واعتقاد محبتهم وموالاتهم وعقوبة من أساء فيهم القول.
ثم من قال: لا أقتل بشتم غير النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يستدل بقصة أبي بكر المتقدمة وهو أن رجلا أغلظ له وفي رواية شتمه فقال له أبو برزة: أقتله؟ فانتهره وقال: ليس هذا لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وبأنه كتب إلى المهاجر بن أبي أمية: "إن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود" كما تقدم ولأن الله تعالى ميز بين مؤذي الله ورسوله ومؤذي المؤمنين فجعل الأول ملعونا في الدنيا والآخرة وقال في الثاني: {فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا} ومطلق البهتان والإثم ليس بموجب للقتل وإنما هو موجب للعقوبة في الجملة فتكون عليه عقوبة مطلقة ولا يلزم من العقوبة جواز القتل ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو رجل قتل نفسا فيقتل بها" ومطلق السب لغير الأنبياء لا يستلزم الكفر لأن بعض من كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان ربما سب بعضهم بعضا ولم يكفر أحدا بذلك ولأن أشخاص الصحابة لا يجب الإيمان بهم بأعيانهم فسب الواحد لا يقدح في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.
وأما من قال: "يقتل الساب" أو قال: "يكفر" فلهم دلالات احتجوا بها:
منها: قوله تعالى: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم} إلى قوله تعالى: {ليغيظ بهم الكفار} فلا بد أن يغيظ بهم الكفار وإذا كان الكفار يغاظون بهم فمن غيظ بهم فقد شارك الكفار فيما أذلهم الله به وأخزاهم وكبتهم على كفرهم ولا يشارك الكفار في غيظهم الذين كبتوا به جزاء لكفرهم إلا كافر لأن المؤمن لا يكبت جزاء للكفر.
يوضح ذلك أن قوله تعالى: {ليغيظ بهم الكفار} تعليق للحكم بوصف مشتق مناسب لأن الكفر مناسب لأن يغاظ صاحبه فإذا كان هو الموجب لأن يغيظ الله صاحبه بأصحاب محمد فمن غاظه الله بأصحاب محمد فقد وجد في حقه موجب ذاك وهو الكفر.
قال عبد الله ابن إدريس الأودي الإمام: "ما آمن أن يكونوا قد ضارعوا الكفار يعني الرافضة لأن الله تعالى يقول: {ليغيظ بهم الكفار} " وهذا معنى قول الإمام أحمد: "ما أراه على الإسلام".
ومن ذلك: ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أبغضهم فقد أبغضني ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله" وقال: "فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا" وأذى الله ورسوله كفر موجب للقتل كما تقدم وبهذا يظهر الفرق بين أذاهم قبل استقرار الصحبة وأذى سائر المسلمين وبين أذاهم بعد صحبتهم له فإنه على عهده قد كان الرجل ممن يظهر الإسلام يمكن أن يكون منافقا ويمكن أن يكون مرتدا فأما إذا مات مقيما على صحبة النبي صلى الله عليه وسلم وهو غير مزنون بنفاق فأذاه أذى مصحوبه قال عبد الله بن مسعود: "اعتبروا الناس بأخدانهم" وقالوا:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقال مالك رضي الله عنه: "إنما هؤلاء قوم أرادوا القدح في النبي صلى الله عليه وسلم فلم يمكنهم ذلك فقدحوا في أصحابه حتى يقال: رجل سوء كان له أصحاب سوء ولو كان رجلا صالحا كان أصحابه صالحين أو كما قال: وذلك أنه ما منهم رجل إلا كان ينصر الله ورسوله ويذب عن رسول الله بنفسه وماله ويعينه على إظهار دين الله وإعلاء كلمة الله وتبليغ رسالات الله وقت الحاجة وهو حينئذ لم يستقر أمره ولم تنتشر دعوته ولم تطمئن قلوب أكثر الناس بدينه ومعلوم أن رجلا لو عمل به بعض الناس نحو هذا ثم آذاه أحد لغضب له صاحبه وعد ذلك أذى له وإلى هذا أشار ابن عمر قال نسير بن ذعلوق: سمعت ابن عمر رضي

الله عنه يقول: "لا تسبوا أصحاب محمد فإن مقام أحدهم خير من عملكم كله" رواه اللالكائي وكأنه أخذه من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم أو نصيفه" وهذا تفاوت عظيم جدا.
ومن ذلك: ما روي عن علي رضي الله عنه قال: "والذي فلق الحبة وبرأ النسمة أنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق" رواه مسلم.
ومن ذلك: ما خرجاه في الصحيحين عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار" وفي لفظ قال في الأنصار: "لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق".
وفي الصحيحين أيضا عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الأنصار: "لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله".
ولمسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يبغض الأنصار رجل آمن بالله واليوم الآخر".
وروى مسلم في صحيحه أيضا عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر".
فمن سبهم فقد زاد على بغضهم فيجب أن يكون منافقا لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وإنما خص الأنصار والله أعلم لأنهم هم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل المهاجرين وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه ومنعوه وبذلوا في إقامة الدين النفوس والأموال وعادوا الأحمر والأسود من أجله وآووا المهاجرين وواسوهم في الأموال وكان المهاجرون إذ ذاك قليلا غرباء فقراء مستضعفين ومن عرف السيرة وأيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما قاموا به من الأمر ثم كان مؤمنا يحب الله ورسوله لم يملك أن لا يحبهم كما أن المنافق لا يملك أن لا يبغضهم وأراد بذلك والله أعلم أن يعرف الناس قدر الأنصار لعلمه بأن الناس يكثرون والأنصار يقلون وأن الأمر سيكون في المهاجرين فمن شارك الأنصار في نصر الله ورسوله بما أمكنه فهو شريكهم في الحقيقة كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله} فبغض من نصر الله ورسوله من أصحابه نفاق.
ومن هذا رواه طلحة بن مصرف قال: كان يقال: "بغض بني هاشم نفاق وبغض أبي بكر وعمر نفاق والشاك في أبي بكر كالشاك في السنة".
ومن ذلك: ما رواه كثير النواء عن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يظهر في أمتي في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة يرفضون الإسلام" هكذا رواه عبد الله ابن أحمد في مسند أبيه.
وفي السنة من وجوه صحيحة عن يحيى بن عقيل: حدثنا كثير ورواه أيضا من حديث أبي شهاب عبد ربه بن نافع الخياط عن كثير النواء عن إبراهيم بن الحسن عن أبيه عن جده يرفعه قال: "يجيء قوم قبل قيام الساعة يسمون الرافضة براء من الإسلام" وكثير النواء يضعفونه.
وروى أبو يحيى الحماني عن أبي جناب الكلبي عن أبي سليمان الهمداني أو النخعي عن عمه عن علي قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: "يا علي أنت وشيعتك في الجنة وإن قوما لهم نبز يقال لهم الرافضة إن أدركتهم فاقتلهم فإنهم مشركون" قال علي: "ينتحلون حبنا أهل البيت وليسوا كذلك وآية ذلك أنه يشتمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما".
ورواه عبد الله بن أحمد: حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا أبو يحيى ورواه أبو بكر الأثرم في سننه: حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا فضيل بن مرزوق عن أبي جناب عن أبي سليمان الهمداني عن رجل من قومه قال: قال علي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أدلك على عمل إذا عملته كنت من أهل الجنة؟ وإنك من أهل الجنة إنه سيكون بعدنا قوم لهم نبز يقال لهم الرافضة فإن أدركتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون" قال: وقال علي رضي الله عنه: "سيكون بعدنا قوم ينتحلون مودتنا يكذبون علينا مارقة آية ذلك أنهم يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما".
ورواه أبو القاسم البغوي: حدثنا سويد بن سعيد حدثنا محمد بن حازم عن أبي جناب الكلبي عن أبي سليمان الهمداني عن علي رضي الله عنه قال: "يخرج في آخر الزمان قوم لهم نبز يقال لهم الرافضة يعرفون به وينتحلون شيعتنا وليسوا من شيعتنا وآية ذلك أنهم يشتمون أبا بكر وعمر أينما أدركتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون".
وقال سويد: حدثنا مروان بن معاوية عن حماد بن كيسان عن أبيه وكانت أخته سرية لعلي رضي الله عنه قال: سمعت عليا يقول: "يكون في آخر الزمان قوم لهم نبز يسمون الرافضة يرفضون الإسلام فاقتلوهم فإنهم مشركون" فهذا الموقوف على علي رضي الله عنه شاهد في المعنى لذلك المرفوع.
وروي هذا المعنى مرفوعا من حديث أم سلمة وفي إسناده سوار ابن مصعب وهو متروك.

وروي ابن بطة بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله اختارني واختار لي أصحابي فجعلهم أنصاري وجعلهم أصهاري وإنه سيجيء في آخر الزمان قوم ينتقصونهم ألا فلا تواكلوهم ولا تشاربوهم ألا فلا تناكحوهم ألا فلا تصلوا معهم ولا تصلوا عليهم عليهم حلة اللعنة" وفي هذا الحديث نظر.

وروى ما هو أغرب من هذا وأضعف رواه ابن البناء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي فإن كفارتهم القتل".

وأيضا فإن هذا مأثور عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فروى أبو الأحوص عن مغيرة عن شباك عن إبراهيم قال: بلغ علي بن أبي طالب أن عبد الله بن السوداء ينتقص أبا بكر وعمر فهم بقتله فقيل له: تقتل رجلا يدعو إلى حبكم أهل البيت؟ فقال: "لا يساكنني في دار أبدا".

وفي رواية عن شباك قال: بلغ عليا أن ابن السوداء يبغض أبا بكر وعمر قال: فدعاه ودعا بالسيف أو قال: فهم بقتله فكلم فيه فقال: "لا يساكنني ببلد أنا فيه" فنفاه إلى المدائن وهذا محفوظ عن أبي الأحوص وقد رواه النجاد وابن بطة واللالكائي وغيرهم ومراسيل إبراهيم جياد لا يظهر علي رضي الله عنه أنه يريد قتل رجل إلا وقتله حلال عنده ويشبه والله أعلم أن يكون إنما تركه خوف الفتنه بقتله كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يمسك عن قتل بعض المنافقين فإن الناس تشتتت قلوبهم عقب فتنة عثمان رضي الله عنه وصار في عسكره من أهل الفتنة أقوام لهم عشائر لو أراد الانتصار منهم لغضبت لهم عشائرهم وبسبب هذا وشبهه كانت فتنة الجمل.

وعن سلمه بن كهيل عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى قال: قلت لأبي: يا أبت لو كنت سمعت رجلا يسب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالكفر أكنت تضرب عنقه؟ قال: نعم رواه الإمام أحمد وغيره ورواه ابن عيينة عن خلف بن حوشب عن سعيد بن عبد الرحمن ابن أبزى قال: قلت لأبي: لو أتيت برجل يسب أبا بكر ما كنت صانعا؟ قال: أضرب عنقه قلت: فعمر؟ قال: أضرب عنقه وعبد الرحمن ابن أبزى من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم أدركه وصلى خلفه وأقره عمر رضي الله عنه عاملا على مكة وقال: هو ممن رفعه الله بالقرآن بعد أن قيل له: أنه عالم بالفرائض قارئ لكتاب الله واستعمله على رضي الله عنه على خراسان.

وروى قيس ابن الربيع عن وائل عن البهي قال: وقع بين عبيد الله بن عمر وبين المقداد كلام فشتم عبيد الله المقداد فقال عمر: "علي بالحداد أقطع لسانه لا يجترئ أحد بعده بشتم أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم" وفي رواية فهم عمر بقطع لسانه فكلمه فيه أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال: "ذروني أقطع لسان ابني لا يجترئ أحد بعده يسب أحدا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم" رواه حنبل وابن بطة واللالكائي وغيرهم ولعل عمر إنما كف عنه لما شفع فيه أصحاب الحق وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولعل المقداد كان فيهم.

وعن عمر بن الخطاب أنه أتى بأعرابي يهجو الأنصار فقال: "لولا أن له صحبة لكفيتكموه" رواه أبو ذر الهروي.

ويؤيد ذلك ما روى الحكم بن جحل قال: سمعت عليا يقول: "لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلا جلدته جلد المفتري".

وعن علقمة بن قيس قال: خطبنا علي رضي الله عنه فقال: "إنه بلغني أن قوما يفضلوني على أبي بكر وعمر ولو كنت تقدمت في هذا لعاقبت فيه ولكني أكره العقوبة قبل التقدم ومن قال شيئا من ذلك فهو مفتر عليه ما على المفتري خير الناس كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر" رواهما عبد الله بن أحمد وروى ذلك ابن بطة اللالكائي من حديث سويد بن غفلة عن علي في خطبة طويلة خطبها.

وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن ابن أبي ليلى قال: "تداروا في أبي بكر وعمر فقال رجل من عطارد: عمر أفضل من أبي بكر فقال الجارود: بل أبو بكر أفضل منه قال: فبلغ ذلك عمر قال: فجعل يضربه ضربا بالدرة حتى شغر برجله ثم أقبل إلى الجارود فقال: إليك عني ثم قال عمر: "أبو بكر كان خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في كذا وكذا" ثم قال عمر: "من قال غير هذا أقمنا عليه ما نقيم على المفتري".

فإذا كان الخليفتان الراشدان عمر وعلي رضي الله عنهما يجلدان حد المفتري من يفضل عليا على أبي بكر وعمر أو من يفضل عمر على أبي بكر مع أن مجرد التفضيل ليس فيه سب ولا عيب علم أن عقوبة السب عندهما فوق هذا بكثير.

فصل.

في تفصيل القول فيهم.

أما من اقترن بسببه دعوى أن عليا إله أو أنه كان هو النبي وإنما غلط جبريل في الرسالة فهذا لاشك في كفره بل لاشك في كفر من توقف في تكفيره.

وكذلك من زعم منهم أن القرآن نقص منه آيات وكتمت أو زعم أن له تأويلات باطنة تسقط الأعمال المشروعة ونحو ذلك وهؤلاء يسمون القرامطة والباطنية ومنهم التناسخية وهؤلاء لا خلاف في كفرهم.
وأما من سبهم سبا لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل أو الجبن أو قلة العلم أو عدم الزهد ونحو ذلك فهذا هو الذي يستحق التأديب والتعزير ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من أهل العلم.
وأما من لعن وقبح مطلقا فهذا محل الخلاف فيهم لتردد الأمر بين لعن الغيظ ولعن الاعتقاد.
وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نفرا قليلا لا يبلغون بضعة عشر نفسا أو أنهم فسقوا عامتهم فهذا لا ريب أيضا في كفره فإنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع: من الرضى عنهم والثناء عليهم بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق وأن هذه الأمة التي هي: {كنتم خير أمة أخرجت للناس} وخيرها هو القرن الأول كان عامتهم كفارا أو فساقا ومضمونها أن هذه الأمة شر الأمم وأن سابقي هذه الأمة هم شرارها وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ولهذا تجد عامة من ظهر عنه شيء من هذه الأقوال فإنه يتبين أنه زنديق وعامة الزنادقة إنما يستترون بمذهبهم وقد ظهرت لله فيهم مثلات وتواتر النقل بأن وجوههم تمسخ خنازير في المحيا والممات وجمع العلماء ما بلغهم في ذلك وممن صنف فيه الحافظ الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي كتابه في النهي عن سب إلا صحاب وما جاء فيه من الإثم والعقاب.
وبالجملة فمن أصناف السابة من لا ريب في كفره ومنهم من لا يحكم بكفره ومنهم من تردد فيه وليس هذا موضع الاستقصاء في ذلك وإنما ذكرنا هذه المسائل لأنها في تمام الكلام في المسألة التي قصدنا لها.
فهذا ما تيسر من الكلام في هذا الباب ذكرنا ما يسره الله واقتضاه الوقت والله سبحانه يجعله لوجهه خالصا وينفع به ويستعملنا فيما يرضاه منم القول والعمل.
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

الكتاب: فضل أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)

المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي)
(المتوفى: 728هـ)
المحقق: د. عبد العزيز بن محمد الفريح
الأستاذ المساعد في كلية الحديث
الجامعة الإسلامية

قام بتلخيصه واختزال عدد صفحاته: عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي(في 17 صفحة فقط)
بعنوان: الملخص الرفيق في فضل أبي بكر الصديق
(رضي الله عنه)

* **تنبيه**: في المطبوع وردت جميع تعليقات المحقق في آخر الرسالة، وقد نقلتها في هذه النسخة الإلكترونية إلى هامش الصفحات المناسبة لها.

ملخص البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، أما بعد

فقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في هذه الرسالة عن فضل أبي بكر الصديق وفضل علي رضي الله عنهما، وملخصها كما يلي:

- إن هناك فرقا بين "الخصائص" التي لم يشارك فيها أحدهما الآخر، كثبوت الخلة لأبي بكر - رضي الله عنه - لو كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - خليل، وكذلك أمره - صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر - رضي الله عنه - أن يصلي بالناس مدة مرضه، من خصائصه التي لم يشركه فيها أحد.

وكذلك تأميره له من المدينة على الحج إقامة للسنة ومحوا لأثر الجاهلية هو بين المناقب والفضائل التي هي مشتركة بينه وبين غيره.

وكقوله - صلى الله عليه وسلم - في علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ((أنت مني وأنا منك)) ، وهذه العبارة قد قالها - صلى الله عليه وسلم - أيضا لجليبيب - رضي الله عنه - الذي قتل عدة من الكفار: ((هذا مني وأنه منه)) ، وكذلك قال - صلى الله عليه وسلم - للأشعريين: ((هم مني وأنا منهم)) .

- لم يرد في حديث صحيح خصيصة لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - امتاز بها على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وكل ما ورد فيه إما صحيح غير صريح أو صريح غير صحيح.

- وردت أحاديث صحيحة في مناقب علي - رضي الله عنه - ومنها:-

1- ((أنت مني وأنا منك)) .
2- ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى)) .
3- ((لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)) .

فهذه الأحاديث صحيحة صريحة في فضله - رضي الله عنه - لكنها لا تدل على أنه أفضل الخلق؛ فإنه ثبتت مثل هذه العبارة والفضائل لغيره من الصحابة سواه - رضي الله عنهم أجمعين.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل أبي بكر - رضي الله عنه - ومنها ما امتاز بها على غيره وهي كثيرة، مما يدل على أنه أفضل هذه الأمة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

هذا - وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

....

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صل عليه وعلى صحبه الهداة المهتدين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:
فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه قد أرسل محمدا - صلى الله عليه وسلم - رحمة للعالمين ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد فاستجاب له وآمن به قوم أشرق نور الإيمان في قلوبهم، فانجلت عنها ظلمة الشرك، فأبصروا الحق الذي دعاهم إليه.
فما زال النبي - صلى الله عليه وسلم - يغذيهم بالقرآن والحكمة، ويزكيهم بالعمل حتى صار هذا الدين أعظم ما يكون في قلوبهم، وصار الرسول - صلى الله عليه وسلم - أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وأموالهم بل وأنفسهم، فناصروه في دعوته وتحملوا معه في سبيل الله أقصى ما يمكن أن يتحمله بشر - غير الأنبياء - من أجل العقيدة، ذلك الجيل الرباني الذي آمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وآزره ونصره هم صحابته الكرام الذين اختصهم الله وشرفهم بصحبة نبيه وإقامة شرعه.
كان مجتمعهم طرازا فريدا، ونسيجا وحيدا، هو أفضل المجتمعات وخيرها.
شهد لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنهم خير القرون حيث قال: ((بعثت من خير قرون بني آدم، قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه)) (1) .
وقال - صلى الله عليه وسلم -: ((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)) (2) .
وأفضل هذا المجتمع الفريد، الذين هم أفضل أتباع الأنبياء أبو بكر الصديق - رضي الله عنه.
فقد أخرج البخاري من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كنا نخير بين الناس في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - فنخير أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان ابن عفان - رضي الله عنهم (3) .

(1) البخاري: الصحيح، كتاب المناقب 1305/3 رقم 3364.
(2) البخاري: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة 1335/3 رقم 3451.
(3) البخاري: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة 1337/3 رقم 3455.

وأخرج البخاري من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((لو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي)) (4) .
وأخرج البخاري من حديث محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ قال: ((أبو بكر)) قلت: ((ثم من)) ؟ قال: ((ثم عمر)) وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ((ثم أنت)) ؟ قال: ((ما أنا إلا رجل من المسلمين)) (5) .
وفي هذه الرسالة أبان شيخ الإسلام بن تيمية فضل أبي بكر على من سواه، بأسلوب علمي رصين وحجج واضحة بينة، رحمه الله تعالى.

منهج ابن تيمية - رحمه الله -
المنهج الذي توخى السير عليه شيخ الإسلام فهو كما يأتي:
1-أورد الخصائص والفضائل التي اختص بها أبو بكر - رضي الله عنه - مدعما بالأدلة الصحيحة الصريحة التي تبين أنه لم يكن في الصحابة من يساريه.
2-أورد الأحاديث التي وردت في فضل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وبين أنها مشتركة بينه وبين غيره من الصحابة.
3- تعقب - رحمه الله - بعض الأحاديث التي استدل بها أهل الأهواء وبين أنها ليست ناهضة للاستدلال، ثم قام بتصويباته النفيسة علميا، ونقدها تأريخيا وحديثيا نقدا رصينا.

النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي [إلا بالله] (36)
سئل الشيخ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين عبد السلام ابن تيمية - رحمهم [الله] (37) تعالى - عن رجل شريف متمسك بالسنة لكنه يحصل له أحيانا ريبة في تفضيل أبي بكر (38) وعمر وعثمان وعلي -رضي الله عنهم-

فيغلب على ظنه أن عليا - رضي الله عنه - أفضل منهم، ويستدل بقوله - صلى الله عليه وسلم -: ((أنت مني وأنا منك)) (39) .

وبقوله - صلى الله عليه وسلم -: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى)) (40) وهارون كان من موسى بمنزلة رفيعة ولم يكن عنده أعز منه.

---

(36) ساقط من الأصل.
(37) ساقط من الأصل.
(38) في الأصل: ((أبا بكر)) .
(39) البخاري: الصحيح، كتاب الصلح باب كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان.. 960/2 رقم 2552 ورقم 4005.
(40) البخاري: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة باب مناقب علي 1359/3 رقم 3503 بلفظ: ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى)) ، وباب غزوة تبوك رقم 4154 وفيه زيادة مفيدة.
مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة 1870/4 رقم 2404.

وبقوله - صلى الله عليه وسلم - يوم خيبر (41) : ((لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يده)) فأعطاها لعلي (42) .
وبقوله - صلى الله عليه وسلم -: ((من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه (43) ، وعاد من عاداه، وأدر الحق معه كيفما دار)) (44) .
وبقوله يوم غدير خم (45) : ((أذكركم الله في أهل بيتي)) (46) .
وبقوله تعالى: {فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم} الآية [آل عمران 61] ، وبقوله تعالى: {هذان خصمان اختصموا في ربهم} (47) [الحج 19] وبقوله سبحانه: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا} [الإنسان 1] ، ويزعم أن هذه السورة نزلت في علي - رضي الله عنه - أفتونا.
الحمد لله [1/أ] رب العالمين. يجب أن نعلم أولا أن التفضيل إنما يكون إذا ثبت للفاضل من الخصائص ما لا يوجد للمفضول، فإذا استويا في أسباب الفضل وانفرد أحدهما بخصائص لم يشركه فيها الآخر كان أفضل منه، وأما ما كان مشتركا بين الرجل وغيره من المحاسن فتلك مناقب وفضائل ومآثر لكن لا توجب تفضيله على غيره، وإذا كانت مشتركة فليست من خصائصه.
وإذا كانت كذلك ففضائل الصديق - رضي الله عنه - الذي ميز بها خصائص لم يشركه فيها أحد، وأما فضائل علي - رضي الله عنه - فمشتركة بينه وبين الناس غيره.
وذلك أن قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، لا تبقين في المسجد خوخة (48) إلا سدت إلا خوخة أبي بكر، إن أمن الناس علي في صحبته لي وذات يده أبو بكر)) (49) ، أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي سعيد (50) (51) ، وقصة الخلة في الصحيح من وجوه متعددة (52) .

---

(41) خيبر: لفظ خيبر بلسان اليهود الحصن، وصار يطلق هذا الاسم على الولاية وتشتمل على سبعة حصون ومزارع ونخيل كثيرة فتحها النبي - صلى الله عليه وسلم - سنة سبع من الهجرة، وتقع شمال المدينة بحوالي 164 كيلا.
انظر: معجم البلدان 409/2، مرويات غزوة خيبر ص8.
(42) البخاري: الصحيح، كتاب المغازي باب غزوة خيبر /1542 رقم 3973.
وهو بلفظ المصنف غير أنه قدم قوله: ((يفتح الله على يديه)) فجعله بعد قوله ((غدا رجلا)) .
(43) قوله ((اللهم وال)) تكرر في الأصل، بعد قوله: ((والاه)) .
(44) قوله: ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب 591/5 رقم 3713، من طريقين عن شعبة. وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهو كما قال، ورجال الإسناد كلهم ثقات.
وأخرجه إلى قوله: ((وعاد من عاداه، وانصر من نصره)) الإمام النسائي في خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بتخريج أبي إسحاق الحويني ص99، 100 رقم (95) قال المحقق: إسناده صحيح، وقد نقل عن ابن كثير في البداية والنهاية (210/5) قوله: ((وهذا إسناد جيد)) . وأخرج عبد الله ابن أحمد في زوائده على المسند (118/1) إلى قوله: ((واخذل من خذله))

قلت: وتمامه: ((اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله))
وفي سنده: شريك بن عبد الله النخعي، وهو سيئ الحفظ، وعمرو ذي مر وهو مجهول.
قال الحافظ ابن حجر: ((وأما حديث ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) فقد أخرجه الترمذي والنسائي، وهو كثير الطرق جدا، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان)) اهـ.
وقال الذهبي في السير (334/8، 335) : ((هذا حديث حسن ومتنه متواتر)) يعني به الشطر الأول منه فقط.
وقد حسن الشيخ الألباني - رحمه الله - الشطرين الأولين: ((من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه))
ثم قال: ((وأما قوله في الطريق الخامسة من حديث علي رضي الله عنه: ((وانصر من نصره واخذل من خذله)) ففي ثبوته عندي وقفة لعدم ورود ما يجبر ضعفه، وكأنه رواية بالمعنى للشطر الآخر من الحديث: ((اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)) الصحيحة 343/4، 344 رقم (1750) .
قلت: وقد تقدم أن الحديث بشطر ((وانصر من نصره)) أيضا ورد بسند صحيح رجاله كلهم ثقات، أما قوله: ((واخذل من خذله)) فلم أقف عليه بسند صحيح إلا ما أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند (118/1) وفيه: شريك بن عبد الله القاضي النخعي الكوفي، وهو صدوق يخطئ كثيرا، وفيه أيضا عمر بن ذي مر، وقد ترجمه البخاري في الكبير (329/2/3-330) وقال: ((لا يعرف)) وكذا قال العقيلي، وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا، فهو مجهول، ولذا فالحديث بهذه الزيادة ضعيف.
والشطر الأخير: ((وأدر الحق معه كيفما دار)) فقد أخرجه الترمذي في جامعه (592/5) (3714) كتاب المناقب، باب مناقب علي رضي الله عنه بلفظ: ((اللهم أدر الحق معه حيث دار)) وقال: ((هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والمختار ابن نافع شيخ بصري كثير الغرائب)) .
وقال الحافظ في التقريب رقم 6525: ضعيف.
قلت: فهذا الشطر ضعيف لم يثبت من وجه يصح.
فيكون الحديث صحيحا إلى قوله: ((وانصر من نصره)) أما ما عدا ذلك وهو قوله: ((واخذل من خذله، وأدر الحق معه كيفما دار)) فلم يثبت.
(45) غدير خم يعرف الآن باسم (الغربة) ، وهو غدير عليه نخل قليل لأناس من حرب، ويقع شرق الجحفة على ثمانية أكيال. معجم معالم الحجاز 159/3.
(46) مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة 1873/4 رقم 2408.
(47) الآية في الأصل بالهامش بخط الناسخ.
(48) الخوخة - بفتح الخاءين - باب صغير كالنافذة الكبيرة، وتكون بين بيتين ينصب عليها باب. النهاية 86/2.
(49) البخاري: الصحيح، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد 558/1 مع الفتح، رقم 466 و 467.
مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبو بكر الصديق 1854/4 رقم 2382 بلفظ - وهو أقرب لفظ للفظ المصنف -: ((إن أمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام، لا تبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر)) .
وفي لفظ عنده من حديث عبد الله بن مسعود: ((لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا ...)) . مسلم: الصحيح رقم 2383.
وفي رواية: ((لا تبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر)) . البخاري مع الفتح 558/1، رقم 466 كتاب الصلاة باب الخوخة والممر في المسجد.
(50) سعد بن مالك أبو سعيد الخدري، الأنصاري، له ولأبيه صحبه، شهد ما بعد أحد، وتوفي بالمدينة سنة ثلاث وستين، وقيل أربع وستين. التقريب ص232.
(51) البخاري: الصحيح، كتاب المساجد 177/1 رقم 454. مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة 1854/4 رقم 2382.
(52) من ذلك: ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - في صحيح البخاري، كتاب المساجد باب الخوخة والممر في المسجد 178/1، وفي فضائل الصحابة، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((لو كنت متخذا خليلا)) 1338/3، وعن عبد الله بن الزبير 1338/3 رقم 3458. ومسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة 1854/4، 1855 رقم 2382 و 2383 عن عبد الله ابن مسعود.

وهذا الحديث فيه ثلاث خصائص لم يشرك أبا بكر فيها غيره:

قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن أمن الناس علينا في صحبته وذات يده أبو بكر)) بين فيه أنه ليس لأحد من الصحابة عليه من حق في صحبته وماله مثل ما لأبي بكر رضي الله عنه.
الثاني: [1/ب] قوله: ((لا تبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر)) ، وهذا تخصيص له دون سائر الصحابة، وقد أراد بعض الكذابين أن يروي لعلي - رضي الله عنه - مثل ذلك، لكن الصحيح الثابت لا يعارض بالضعيف الموضوع (53) .
الثالث: قوله: ((لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا)) فإنه نص أنه لا أحد (54) من البشر يستحق الخلة لو كانت ممكنة إلا أبو بكر، ولو كان غيره أفضل منه لكان أحق بالخلة لو كانت واقعة.
وكذلك أمره لأبي بكر أن يصلي (55) بالناس (56) مدة مرضه من خصائصه التي لم يشركه فيها أحد، ولم يأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أمته أن تصلي خلف أحد في حياته بحضرته إلا خلف أبي بكر (57) .
وكذلك تأميره له من المدينة على الحج ليقيم السنة ويمحو أثر الجاهلية، فإن هذا من خصائصه (58) .
وكذلك قوله في الحديث الصحيح: ((أدع لي أباك أو أخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابا لا يختلف عليه الناس من بعدي)) ثم قال عليه الصلاة والسلام: ((يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر)) (59) وأمثال هذه الأحاديث كثيرة (60) تبين أنه لم يكن في الصحابة من يساويه.

---

(53) قال ابن الجوزي: طرقه كلها باطلة، وقال: هذه الأحاديث من وضع الرافضة قابلوا به حديث أبي بكر في الصحيح.
(انظر: الفوائد المجموعة للشوكاني ص316) بينما يرى الحافظ ابن حجر في القول المسدد ص16-18 أن الأحاديث في هذا الباب صحيحة بل بمجموعها يقطع بصحتها.
وقال عبد الرحمن بن يحيى المعلمي في تعليقه على الفوائد المجموعة ص317 ما نصه: ((وتصدى الحافظ ابن حجر في القول المسدد والفتح للدفاع عن بعض روايات الكوفيين، وفي كلامه تسامح، والحق أنه لا تسلم رواية منها عن وهن)) .
قلت: وأقرب هذه الروايات إلى الصحة ما رواه الإمام النسائي عن طريق شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال: أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأبواب المسجد فسدت إلا باب علي رضي الله عنه.
وإسناده صحيح. الخصائص ص50 (41) .
وهو مخرج في جامع الترمذي 641/5 رقم 3732 كتاب المناقب باب مناقب علي.
وينظر: مجمع الزوائد 114/9، 115، فضائل الصحابة 581/2 رقم 985.
(54) في الأصل: ((أحد)) وهو لحن؛ لأن (لا) نافية للجنس، وحينئذ يكون اسمها منصوبا، فالتنوين لعله من الناسخ. والله أعلم.
(55) في الأصل ((يصل)) وهو تحريف؛ وذلك أن الفعل منصوب فيقال ويكتب: (أن يصلي) ، فلعلها من الناسخ. والله أعلم.
(56) في الأصل: ((في الناس)) .
(57) البخاري: الصحيح، كتاب الجماعة والإمامة 240/1 رقم 646.
مسلم: الصحيح، كتاب الصلاة 316/1 رقم 420.
(58) البخاري: الصحيح، كتاب الحج 586/2 رقم 1543. مسلم: الصحيح، كتاب الحج 982/2 رقم 1447.
(59) البخاري: الصحيح مع الفتح، كتاب الأحكام 205/13 رقم (7217) بلفظ: ((لقد هممت - أو: أردت - أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد، أن يقول القائل أو يتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون)) .
وهو عند مسلم بلفظ: ((ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر)) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر الصديق 1857/4 رقم2387.
(60) ومنها حديث: ((ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر الصديق)) ذكر ذلك الناسخ في الهامش بخطه.
قلت: أخرجه بنحوه أحمد في فضائل الصحابة 352/1 رقم 508، وإسناده ضعيف لتدليس ابن جريج، وفيه أبو بكر لم أعرفه.
وأخرجه عبد بن حميد في المنتخب 217/1 رقم 212، وفي إسناده أبو سعيد البكري لم أعرفه، وابن جريج وقد دلس.

وأما قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((أنت مني وأنا منك)) (61) فهذه العبارة قد قالها لغيره من المؤمنين، كما قالها -[عليه الصلاة و] (62) السلام - لجليبيب (63) الذي قتل عدة من الكفار: ((هذا مني وأنا منه)) (64) .

وفي الصحيحين: ((إن الأشعريين (65) إذا كانوا في السفر ونقصت نفقة [2/أ] عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان معهم في ثوب واحد ثم قسموه بينهم بالسوية؛ هم مني وأنا منهم)) (66) ، فقد جعل الأشعريين أبا موسى (67) وأبا عامر (68) وغيرهما منه وهو منهم، كما قال لعلي: ((أنت مني وأنا منك)) (69) .
وقال تعالى: {والذين ءامنوا من بعد وهاجروا وجهدوا معكم فأولئك منكم} [الأنفال 75] وقال تعالى: {ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم} [المجادلة 14] وقال تعالى: {ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم} [التوبة 56] .
وقال - صلى الله عليه وسلم -: ((من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا)) (70) ونحو ذلك، وهذا يقتضي أن السليم من هذه الكبائر يكون منا، وهذه العبارة تستعمل في النوع الواحد فيقال: هذا من هذا، إذا كان من نوعه، فكل من كان من المؤمنين الكاملين الإيمان فهو من النبي - صلى الله عليه وسلم - والنبي منه.
وقوله - صلى الله عليه وسلم - في قصة بنت حمزة: ((أنت مني وأنا منك)) (71) . وكقوله لزيد ابن حارثة (72) : ((أنت أخونا ومولانا)) (73) ، ومعلوم أن هذا ليس مختصا بزيد بل كل من كان من مواليه يطلق عليه هذا الكلام لقوله تعالى: {فإن لم تعلموا ءاباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم} [الأحزاب 5] فكذلك قوله لعلي: ((أنت مني وأنا منك)) (74) وليس ذلك من خصائصه، بل من كان موافقا للنبي - صلى الله عليه وسلم - في كمال الإيمان كان من النبي - صلى الله عليه وسلم - والنبي منه.

---

(61) البخاري: الصحيح، كتاب الصلح 960/2 رقم 2552، وقد تقدم، تخريجه ص19.
(62) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل.
(63) قال الحافظ: غير منسوب، (الإصابة 253/1 رقم 1175) .
(64) مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل جليبيب رضي الله عنه 1918/4 رقم 2472 بلفظ: ((قتل سبعة ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه..)) الحديث.
وهو مخرج في سنن النسائي الكبرى أيضا.
(65) الأشعريون هم بنو الأشعر نبت بن أدد بن ريد بن يشحب بن عريب بن زيد ابن كهلان بن سبأ. (جمهرة أنساب العرب ص397) .
(66) البخاري:الصحيح، كتاب الشركة باب الشركة في الطعام والعروض 153/5 رقم 2486.
مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل الأشعريين رضي الله عنهم 1944/4 رقم 2500 بلفظ: ((إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية؛ فهم مني وأنا منهم)) .
(67) عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري، صحابي مشهور، أمره عمر ثم عثمان، وهو أحد الحكمين بصفين، توفي سنة خمسين. (التقريب ص318) .
(68) أبو عامر الأشعري، صحابي، اسمه عبيد، وهو عم أبي موسى الأشعري، استشهد بحنين. (التقريب ص653) .
(69) البخاري: الصحيح، كتاب الصلح 960/2 رقم 2552، وقد تقدم، تخريجه ص19.
(70) البخاري: الصحيح، كتاب الفتن باب من حمل علينا السلاح فليس منا، أما قوله: ((من غشنا)) الحديث فلم يخرجه في صحيحه.
مسلم: الصحيح، كتاب الإيمان 98/1 رقم 98، وفيه تقديم الشطر الثاني.
(71) سبق تخريجه ص19.
(72) زيد بن حارثة الكلبي، شهد بدرا وما بعدها وقتل في غزوة مؤتة وهو أمير. الإصابة 25/3، 26.
(73) البخاري: الصحيح، كتاب الصلح باب كيف يكتب: هذا ما صالح عليه فلان بن فلان 960/2 رقم 2552.
(74) سبق تخريجه ص 1246، حاشية 39.

وكذلك قوله: ((لأعطين [2/ب] الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله)) هو من أصح الأحاديث وهو أصح حديث روي في فضائل علي - رضي الله عنه - أخرجاه في الصحيحين (75) ، وقد زاد فيه بعض الكذابين: ((إن الراية أخذها أبو بكر وعمر فهربا)) (76) .

وفي الصحيح أنه لما قال - صلى الله عليه وسلم -: ((لأعطين الراية رجلا)) قال عمر: ((ما أحببت الإمارة إلا يومئذ)) (77) ، واستشرف لها عمر وغيره، ولو جاء منهزما لما استشرف لها، فهذا الحديث رد على الناصبة الواقعين في علي - رضي الله عنه - تبا لهم؛ فإنه مؤمن تقي يحب الله ورسوله، [ويحبه الله ورسوله] (78) ، ولكن ليس هذا من خصائصه، بل كل مؤمن كامل الإيمان يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وقد قال تعالى: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه} [المائدة 54] وهؤلاء الذين قاتلوا أهل الردة وإمامهم أبو بكر - رضي الله عنه - وفي الصحيح أنه قال - صلى الله عليه وسلم - للأنصار: ((والله إني لأحبكم)) (79) .

وفي الصحيح أن عمرو بن العاص (80) سأله: أي الناس أحب إليك؟ قال: ((عائشة)) قال: فمن الرجال؟ قال: ((أبوها)) . وهذا فيه أن أبا بكر أحب الرجال إليه، وهذا من خصائصه رضي الله عنه (81) .

وكان أسامة بن زيد (82) يسمى الحب ابن الحب لحب النبي - صلى الله عليه وسلم - له ولأبيه (83) . وأمثال هذه النصوص التي تبين أنه ليس كل شخص عرف أنه يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله يجب أن يكون أفضل الخلق؛ فإن هذا الوصف ثابت لخلائق [3/أ] كثيرين، فليس هذا من خصائص الشخص المعين.

وأما قوله: ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى)) (84) فحديث صحيح، وهذا قاله في غزوة تبوك (85) لما استخلفه على المدينة فطعن

---

(75) البخاري: الصحيح، كتاب الجهاد 1086/3 رقم 2812. مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة 1871/4 رقم 2407، وقد سبق تخريجه ص! خطأ الإشارة المرجعية غير معرفة..

(76) قلت: وقد ذكر هذه الرواية الهيثمي في مجمع الزوائد 124/9 من رواية ابن عباس عند الطبراني، وقال: ((وفيه حكيم بن جبير، وهو متروك ليس بشيء)) . ومن رواية ابن أبي ليلى عند البزار، ثم قال: ((وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو سيء الحفظ وبقية رجاله رجال الصحيح..)) بلفظ: ((إن النبي - صلى الله عليه وسلم - دعا أبا بكر فعقد له لواء ثم بعثه فسار بالناس فانهزم حتى إذا بلغ ورجع فدعا عمر فعقد له لواء فسار ثم رجع منهزما بالناس، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله وبحبه الله ورسوله يفتح الله له ليس بفرار فأرسل..)) الحديث. مسند البزار 135/2 رقم 496.

قلت: قال الحافظ: محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى: صدوق سيء الحفظ جدا. فالحديث ضعيف كما ترى.

(77) مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي 1871/4 رقم 2405

(78) المثبت من الهامش بخط الناسخ.

(79) البخاري: الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: أنتم أحب الناس إلي 1379/3 رقم 3574، 3575. بلفظ: ((اللهم أنتم من أحب الناس إلي)) قالها ثلاث مرات، يعني الأنصار. وفي حديث آخر: ((والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي)) قالها مرتين أو ثلاث مخاطبا لامرأة من الأنصار. هذا وما وقفت على لفظ المصنف في الكتب الستة. والله أعلم.

(80) السهمي، الصحابي المشهور، أسلم عام الحديبية، وولي إمرة مصر مرتين، وهو الذي فتحها، توفي بمصر سنة نيف وأربعين.

(التقريب ص423) .

(81) البخاري: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - 22/7 رقم 3662.
مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر الصديق 1856/4 رقم 2384.

(82) ابن حارثة الكلبي، الأمير، صحابي مشهور، توفي سنة أربع وخمسين بالمدينة. (التقريب ص98) .

(83) البخاري: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب زيد بن حارثة 1365/3 رقم 3524 و3526.

(84) سبق تخريجه ص 1246، حاشية 40.

(85) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، خرج إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - في سنة تسع من الهجرة، وهي آخر غزواته، وتبوك الآن مدينة كبيرة وهي قاعدة شمال غرب المملكة، وتبعد عن المدينة حوالي سبع مائة كيل.
معجم البلدان 14/2، شمال غرب المملكة 349/1.

الناس فيه وقالوا: إنما استخلفه لأنه يبغضه (86) ، فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا خرج من المدينة استخلف عليها رجلا من أمته، وكان يكون بها رجال من المؤمنين يستخلفه عليهم، فلما كان عام تبوك لم يأذن لأحد من المؤمنين القادرين في التخلف، فلم يتخلف أحد بلا عذر إلا عاص لله ورسوله، فكان ذلك استخلافا ضعيفا، فطعن فيه المنافقون بهذا السبب، فبين النبي - صلى الله عليه وسلم - أني لم استخلفك لنقص قدرك عندي فإن موسى استخلف
هارون وهو شريكه في الرسالة، أفما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى فتخلفني في أهلي كما خلف هارون أخاه موسى.
ومعلوم أنه استخلف غيره (87) قبله، وكان أولئك منه بهذه (88) المنزلة، فلم يكن هذا من خصائصه. ولو كان هذا الاستخلاف أفضل من غيره لم يخف ذلك على علي - رضي الله عنه - ولم يخرج إليه وهو يبكي (89) ويقول: ((أتخلفني في النساء والصبيان)) . ومما بين ذلك أنه بعد هذا الاستخلاف أمر عليه أبا بكر عام تسع، فإن هذا الاستخلاف كان في غزوة تبوك في أوائلها، فلما رجع من الغزو وأمر [3/ب] أبا بكر (90) على الحج ثم أردفه بعلي فلما لحقه قال: ((أمير أو مأمور)) قال: ((بل مأمور)) (91) ، فكان أبو بكر يصلي بعلي وغيره، ويأمر على علي وغيره من الصحابة يطيعون أبا بكر، وعلي يتعاطى نبذ العهود التي كانت بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين المشركين، لأن العادة كانت جارية أنه لا يعقد العقود ولا يحلها إلا رجل من أهل بيته، ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم -: ((لا يبلغ عني العهد إلا رجل من أهل بيتي)) (92) للعادة الجارية.
ولم يكن هذا من خصائص علي - رضي الله عنه - بل أي رجل من عترته نبذ العهد حصل به المقصود، لكن علي أفضل بني هاشم بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

---

(86) وقد ورد ذلك في حديث سعد بن أبي وقاص عند النسائي في الخصائص ص51 رقم (42) قال المحقق: إسناده صحيح بما بعده، ولفظه: ((لما غزا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غزوة تبوك خلف عليا في المدينة، قالوا فيه: مله وكره صحبته..)) الحديث.
قلت: فيه قتادة وقد عنعن وكان مدلسا، قال إسماعيل القاضي في "أحكام القرآن": ((سمعت علي بن المديني يضعف أحاديث قتادة عن سعيد بن المسيب تضعيفا شديدا ويقول: أحسب أن أكثرها بين قتادة وسعيد رجال)) .
وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة رقم 1343 بنفس الإسناد، وأخرجه أبو نعيم في الحلية 196/7، والخطيب في التاريخ 324/1، 325 من طرق عن قتادة به. وله متابعات صحيحة ذكرت أصل الحديث، انظر: الترمذي: السنن رقم 3731، والنسائي: الخصائص رقم 43، 44، 46.
(87) انظر: ابن هشام: السيرة 302/2، 92/3، 292، 298، 306، 401، 426، 59/4.
(88) في الأصل: ((بهذا)) .
(89) لم أقف على رواية صحيحة فيها ذكر بكاء علي رضي الله عنه، وقد ورد ذلك في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند النسائي في الخصائص ص63 رقم 57، وفيه: قال علي رضي الله عنه: ((يا رسول الله! زعمت قريش أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وكرهت صحبتي وبكى علي رضي الله عنه ...)) الحديث. قال المحقق: ((إسناده ضعيف)) .
قلت: فيه عبد الله بن شريك وهو متكلم فيه، والحارث بن مالك مجهول. (التقريب رقم 1046، 3384) .
(90) في الأصل: ((أبو بكر)) .
(91) النسائي: كتاب الحج، باب الخطبة قبل يوم التروية 247/5 رقم 2993 بلفظ: قال له أبو بكر: أمير أم رسول؟ قال: لا بل رسول.. قال النسائي: ((ابن خثيم ليس بالقوي في الحديث، وإنما أخرجت هذا لئلا يجعل ابن جريج عن أبي الزبير ...)) ... الخ (المصدر نفسه) .
وذكره الألباني في ضعيف سنن النسائي وقال: ضعيف الإسناد. رقم 2993.
(92) قال الحافظ في الفتح 320/8 كتاب التفسير باب {وأذان من الله ورسوله ... } : ((وأخرج أحمد بسند حسن عن أنس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث ببراءة مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي، فبعث بها مع علي)) . (المسند 434/13 رقم 13214) .
قلت: وأخرجه الترمذي في سننه 275/5 رقم 3090 والنسائي في خصائص علي (70) ولفظ الترمذي: ((لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهل بيتي فدعا عليا فأعطاه إياه)) . وقال: ((حسن غريب من حديث أنس)) .

قلت: وإسناده حسن، رجاله كلهم ثقات غير سماك بن حرب، فقد قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بأخرة فكان ربما يلقن. (التقريب رقم 2624) .
قلت: روايته هنا عن أنس بن مالك رضي الله عنه وليست عن عكرمة.

فكان أحق بالتقديم من سائر الأقارب، فلما أمر أبو بكر عليه بعد قوله: ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى)) علمنا أنه لا دلالة في ذلك على أنه بمنزلة هارون من كل وجه؛ إذ لو كان كذلك لم يقدم عليه أبو بكر لا في الحج ولا في الصلاة كما أن هارون لم يكن موسى يقدم عليه غيره، وإنما شبهه به في الاستخلاف خاصة، وهذا أمر مشترك بينه وبين غيره.

وقد شبه النبي - صلى الله عليه وسلم - في الصحيح أبا بكر بإبراهيم وعيسى، وشبه عمر بنوح وموسى (93) ، لما أشارا عليه في أسارى بدر: هذا بالفدى وهذا بالقتل. وهذا أعظم من تشبيه علي بهارون، ولم يوجب ذلك أن يكونا بمنزلة أولئك الرسل مطلقا، ولكن تشابها بالرسل: هذا في [لينه في الله وهذا] (94) [4/أ] في شدته في الله، وتشبيه الشيء بالشيء لمشابهته به من بعض الوجوه كثير في الكتاب والسنة وكلام العرب.

وأما قوله: ((من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه كيفما دار)) (95) .

فهذا الحديث ليس في شيء من الأمهات إلا في الترمذي (96) وليس فيه إلا: ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) (97) وأما الزيادة فليست في الحديث، وقد سئل عنها الإمام أحمد - رحمه الله - فقال: ((الزيادة كوفية)) (98) .

ولا ريب أنها كذب لوجوه:

أحدها: أن الحق لا يدور مع شخص معين بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - لا مع أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي - رضي الله عنهم -؛ لأنه لو كان كذلك كان بمنزلة النبي - صلى الله عليه وسلم - يجب اتباعه في كل ما يقوله، ومعلوم أن عليا كان ينازعه أصحابه وأتباعه في مسائل كثيرة ولا يرجعون فيها إلى قوله، بل فيها مسائل وجد فيها

---

(93) أحمد: المسند 383/1، وفضائل الصحابة 181/1، والترمذي: السنن 213/4 رقم 1714 كتاب الجهاد، جميعهم عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود.
قال الترمذي: ((هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه، وفي الباب عن عمر وأبي أيوب وأنس وأبي هريرة)) .
وله شاهد من حديث عمر أخرجه مسلم في صحيحه 1383/3 رقم 1763. فقول الترمذي: حسن، لعله يعني لشواهده، وإلا فقد صرح هو بانقطاعه. وليس في مسلم تشبيه أبي بكر وعمر بالأنبياء.
(94) في الأصل بالهامش بخط الناسخ. والعبارة حصل فيها تقديم وتأخير في الأصل.
(95) ابن تيمية: منهاج السنة 501/1، تقدم تخريجه ص 1247، حاشية 44.
(96) سبق تخريجه ص! خطأ الإشارة المرجعية غير معرفة.. أما قوله: ((وأما الزيادة فليست في الحديث)) قلت: بلى إن الشطر الأخير: ((وأدر الحق معه حيثما دار)) مخرج في جامع الترمذي أيضا 592/5 رقم 3714، ص 1231.
(97) الترمذي: السنن 633/5. وقد سبق تخريجه ص 1247، حاشية 44.
(98) لم أجد هذا النص.

نصوص عن النبي - صلى الله عليه وسلم - توافق قول من نازعه، كالمتوفى عنها زوجها وهي حامل، فإن عليا - رضي الله عنه - أفتى أنها تعتد أبعد الأجلين (99) ، وعمر وابن مسعود (100) - رضي الله عنهما - وغيرهما أفتوا بأنها تعتد بوضع الحمل (101) ، وبهذا جاءت السنة (102) . وسئل النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان أبو السنابل (103) يفتي بمثل قول علي - رضي الله عنه - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: [4/ب] ((كذب أبو السنابل قد حللت فانكحي)) (104) قوله لسبيعة الأسلمية (105) لما سألته عن ذلك.

وقوله: ((اللهم انصر من نصره، واخذل من خذله)) خلاف الواقع؛ فإن الواقع (106) ليس كذلك، بل قاتل معه أقوام يوم صفين فما انتصروا (107) ، وأقوام لم يقاتلوا معه فما خذلوا كسعد ابن أبي وقاص (108) الذي فتح العراق لم يقاتل معه، وكذلك أصحاب معاوية (109) وبني أمية (110) الذين قاتلوه فتحوا (111) كثيرا من بلاد الكفار ونصرهم الله تعالى.

وكذلك قوله: ((وال من والاه، وعاد من عاداه)) مخالف لأصول الإسلام؛ فإن القرآن قد بين أن المؤمنين مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض هم إخوة مؤمنون كما قال تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم} [الحجرات 9، 10] فكيف يجوز أن يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - للواحد من أمته: ((اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)) (112) والله تعالى قد أخبر أنه ولي المؤمنين والمؤمنون أولياؤه وأن بعضهم أولياء بعض، وأنهم إخوة وإن اقتتلوا وبغى بعضهم على بعض.

---

(99) روي عنه بوجه منقطع. (المغني 227/11) .
وانظر أيضا: التمهيد (فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر) ترتيب المغراوي 591/10 كتاب الطلاق، باب عدة الوفاة تنتهي بوضع الحمل.
(100) عبد الله بن مسعود الهذلي، أبو عبد الرحمن، من السابقين الأولين، ومن كبار العلماء من الصحابة، مناقبة جمة، مات سنة اثنتين وثلاثين، أو في التي بعدها بالمدينة. (التقريب ص323) .
(101) ابن قدامة: المغني 227/11، 228، والخطابي: معالم السنن بهامش سنن أبي داود 729/2 كتاب الطلاق، باب في عدة الحامل.
(102) منها ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه 2037/5 (5012، 5013، 5014) كتاب الطلاق باب {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن} من حديث سبيعة الأسلمية. ومنها: ((أفتاني النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ وضعت أن أنكح)) . مسلم:الصحيح، كتاب الرضاع، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل 1122/2 رقم 1484 القصة بطولها.
(103) أبوا السنابل بن بعكك بن الحارث القرشي، قيل اسمه: عمر، وقيل غير ذلك، صحابي مشهور (التقريب ص646) .
(104) أخرجه باللفظ الذي ساقه المصنف أحمد في مسنده 447/1.
قال الهيثمي - بعد أن ذكر هذا الحديث -: ((ورجاله رجال الصحيح)) .
وأخرجه أيضا الإمام البيهقي في السنن الكبرى 429/7. وانظر التعليق السابق.
(105) سبيعة بنت الحارث الأسلمية، زوج سعد بن خولة، لها صحبة. (التقريب ص748) .
(106) قوله ((فإن الواقع)) في الأصل بالهامش.
(107) قلت: كان علي - رضي الله عنه - قريبا من الانتصار العسكري في صفين، لكنه نزل على تحكيم كتاب الله لما دعي إليه، وأوقف الحرب، لأنه يرى أو كما قال بعد ذلك: ((وكتاب الله كله لي)) أي يحكم لي. فيرى أنه سيحقق ما يريد عن طريق التحكيم بدلا من القتال، لكن التحكيم فشل ولم يخرجوا منه بالنتيجة التي أرادوها منه. ولم يتمكن بعد ذلك من غزو الشام وإدخالها في الجماعة والبيعة، بسبب ظهور الخوارج ودخول الوهن على بعض جيشه.
ويبدو أن الذي يعنيه شيخ الإسلام بعدم الانتصار هو عدم تحقيق الهدف الذي أراده الخليفة علي - رضي الله عنه - من غزو الشام وهو إدخاله ضمن خلافته.
أما المعروف عن علي - رضي الله عنه - فإنه لم يخب في أي معركة دخلها، ولم يهزم في معركة قط.
وأما الذين لم يدخلوا المعركة أصلا كسعد بن أبي وقاص فذلك بناء على اجتهاده رضي الله عنه، ولا نستطيع أن نقول إنه أراد بذلك خذل علي رضي الله عنه، فكيف يترتب عليه خذله رضي الله عنه.
ولا يشك أحد منا أن عليا رضي الله عنه كان أقرب إلى الحق من معاوية رضي الله عنه بدليل حديث عمار.
وهذا الذي قاله شيخ الإسلام بأن معاوية وأصحابه انتصروا وفتحوا البلاد مع أنهم خذلوا عليا يقال بأن أصحاب معاوية ما أرادوا ذلك وإنما كان همهم شيئا آخر وهو
القصاص، والذي جعلهم يقاتلونه - رضي الله عنه - أمر خارجي وليس بغضه، فهذا اجتهاد منهم، وهم على اجتهادهم مأجورون، بل كانوا يحبونه بدليل حديث صحيح مروي عن علي أنه قال: ((والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة إنه لعهد النبي إلي أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق..)) صحيح مسلم 64/1 من الجزء الثاني كتاب الإيمان باب حب علي من الإيمان، وبلا شك فهم كانوا مؤمنين وقد وصفهم الله عز وجل بذلك في كتابه: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا..} . وبهذا ظهر الأمر جليا أن معاوية ومن معه رضوان الله عليهم أجمعين لم يكن قتالهم ناشئا من العداوة، وإنما ذلك من أجل القصاص لدم عثمان رضي الله عنه، وإلا فهم كانوا يوالونه موالاة المؤمنين بعضهم لبعض ولم يكونوا يعادونه لا قبل تلك المعارك ولا بعدها.

فإذا كان الأمر كذلك فلا معارضة إذا بين الحديث والواقع، علما بأن الحديث لم يصح بجميع أجزائه، وإنما صح منه بعض الأطراف دون غيرها. وقد سبق بيان ذلك ص20،21.

(108) هنا تجنب المؤلف أن يقول: ((خذلوه)) وقال: ((لم يقاتلوا معه)) لأن سعدا جاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من طريقه أحاديث في فضل علي في الصحيحين وغيرهما، ويعتبر مبايعا له، ولكن توقف عن نصرته لأنه لا يرى القتال بين المسلمين، وصح عنه قوله: ((ائتوني بسيف له عينان وشفتان يقول هذا مسلم وهذا كافر)) أو كما قال.

(109) ابن أبي سفيان.

(110) بنو أمية في دولتهم انتصروا في الجهاد في سبيل الله كمن سبقهم من الخلفاء الراشدين والنبي - صلى الله عليه وسلم -. لكنهم أيضا لم ينتصروا في صفين وهي الحرب الوحيدة مع علي رضي الله
عنه، بل كادوا أن يهزموا فيها لولا أن عليا أوقف القتال عندما طلبوا منه تحكيم الكتاب بينهم.

(111) في الأصل ((وفتحوا)) .

(112) وذلك لأنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق، مثل ما ورد ذلك في الأنصار: ((آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار)) وفي لفظ آخر: ((الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق ...)) البخاري: كتاب مناقب الأنصار باب حب الأنصار من الإيمان 1379/3 رقم 3572، 3573.

وأما قوله: ((من كنت [5/أ] مولاه فعلي مولاه)) ففي علماء الحديث من طعن فيه كالبخاري (113) وغيره، ومنهم من حسنه كأحمد بن حنبل والترمذي وغيرهما.

فإن كان النبي - صلى الله عليه وسلم - لما قال ذلك أراد به ولاية يختص بها أو لم يرد به إلا الولاية [المشتركة وهي ولاية الإيمان التي جعلها الله بين المؤمنين. وتبين] (114) بهذا أن عليا - رضي الله عنه - من المؤمنين المتقين الذين (115) يجب موالاتهم ليس كما تقول النواصب أنه لا يستحق الموالاة، والموالاة ضد المعاداة ولا ريب أنه يجب موالاة جميع المؤمنين، وعلي من سادات المؤمنين كما يجب موالاة أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة المهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم - ولا يجوز معاداة أحد من هؤلاء، ومن لم يوالهم فقد عصى الله ورسوله ونقص إيمانه بقدر ما ترك من موالاتهم الواجبة، وقد قال تعالى: {إنما وليكم الله ورسوله والذين ءامنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكوة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين ءامنوا فإن حزب الله هم الغالبون} [المائدة 55، 56] وهذه موجبة لموالاة جميع المؤمنين.

وحديث التصدق بالخاتم في الصلاة كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة، وذلك مبين من وجوه كثيرة مبسوطة في غير هذا الموضع (116) .

وأما قوله في يوم غدير خم: ((أذكركم بالله في أهل بيتي)) فهذا حديث رواه مسلم (117) ، وليس هذا من خصائص علي بل هو مساو لجميع أهل البيت [5/ب] : علي وجعفر وعقيل وآل العباس، وأبعد الناس عن هذه الوصية الرافضة؛ فإنهم من شؤمهم يعادون العباس وذريته، بل يعادون جمهور أهل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - ويعينون الكفار عليهم، كما أعانوا التتار على الخلفاء من بني العباس،

---

(113) قلت: ما وقفت على طعن الإمام البخاري في هذا الحديث إلا ما جاء في تاريخه الكبير 375/1/1 (1191) في ترجمة إسماعيل بن نشيط العامري، فساق السند والمتن ثم قال: ((في إسناده نظر)) . وهذا حكم خاص بالنسبة لهذا السند الذي ساقه، وليس ذلك حكما عاما على الحديث. والله أعلم.

(114) في الأصل بالهامش بخط الناسخ.

(115) في الأصل ((الذي)) .

(116) لم أجده.

(117) مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة 1873/4 رقم 2408.

فهم يعاونون الكفار ويعادون أهل البيت، وأما أهل السنة فيعرفون حقوق أهل البيت ويحبونهم ويوالونهم ويلعنون من ينصب لهم العداوة.

وأما آية المباهلة [عمران 61] فليست أيضا من خصائصه - رضي الله عنه - بل قد دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين كما رواه مسلم (118) ، ودعوتهم لم تكن لأنهم أفضل أمته بل لأنهم أخص أهل بيته. كما روى مسلم عن عائشة - رضي الله عنها

- أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أدى زكاة علي وفاطمة والحسن والحسين وقال: ((اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا)) (119) فدعا لهم دعوة خصهم بها.
ولما كانت المباهلة بالنساء والأبناء والأنفس ودعا هؤلاء، ولفظ الأنفس يعبر بها عن النوع الواحد كما قال تعالى: {لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنت بأنفسهم خيرا} [النور 12] يعني عامة وقال تعالى: {فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم} [البقرة 54] أي يقتل بعضكم بعضا.
وهذا مثل قوله: ((أنت مني وأنا منك)) ليس المراد أنه من ذاته، ولا ريب أن أعظم الناس قدرا من الأقارب هو علي - رضي الله عنه - فله مزية القرابة والإيمان ما لا يوجد [6/أ] لبقية القرابة والصحابة فدخل بذلك في المباهلة، وذلك لا يمنع أن يكون في غير الأقارب من هو أفضل منه؛ لأن المباهلة وقعت بالأقارب، فلهذا لم يباهل بأبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - ونحوهم.
وأما قوله تعالى: {هذان خصمان اختصموا في ربهم} [الحج 19] ففي الصحيح عن أبي ذر - رضي الله عنه - أنها نزلت في المختصمين يوم بدر، وأول من برز من المؤمنين علي وحمزة وعبيدة بن الحارث - رضي الله عنهم - برزوا لعتبة وشيبة والوليد بن عتبة (120) .

---

(118) مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب 1871/4 رقم 2404.
(119) مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب 1883/4 رقم 2424.
(120) البخاري: الصحيح، كتاب التفسير باب {هذان خصمان} 1768/4 رقم 4466.

وهذه فضيلة مشتركة أيضا بين علي وحمزة وعبيدة بن الحارث، بل سائر البدريين يشاركونهم في هذه الخصومة، ولو قدر أنها نزلت في الستة (121) المبارزين (122)
فلا يدل على أنهم أفضل من غيرهم، بدليل أن النبي - صلى الله عليه وسلم - والحسن والحسين وأبا بكر (123) وعمر وعثمان [وغيرهم] (124) ممن هو أفضل من عبيدة ابن الحارث باتفاق أهل السنة (125) .
فهذه منقبة لهم وفضيلة، وليست من الخصائص التي توجب كون صاحبها أفضل من غيره.
وأما سورة {هل أتى} (126) وقول من يقول: إنها نزلت لما تصدقوا على مسكين ويتيم وأسير، ويذكرون أن ذلك كان لما تصدقت فاطمة - رضي الله عنها - بقوت الحسن [6/ب] والحسين. وهذا كذب؛ لأن سورة {هل أتى} مكية بالإجماع، والحسنين إنما ولدا بالمدينة بعد غزوة بدر باتفاق أهل العلم، وبتقدير صحتها (127) فليس هذا ما يدل على أن من أطعم مسكينا ويتيما وأسيرا كان أفضل الأمة وأفضل الصحابة، بل الآية عامة مشتركة بين كل من فعل هذا الفعل، وهي تدل على استحقاقه لثواب الله تعالى على هذا العمل وغيره من الأعمال كالإيمان بالله والصلاة في مواقيتها والجهاد في سبيل الله تعالى أفضل من هذا العمل بالإجماع (128) .
وهذا جواب هذه المسائل والله تعالى أعلم.
واعلم أن كل ما يظن أن فيه دلالة على فضيلة غير أبي بكر (129) إما أن يكون كذبا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإما أن يكون لفظا محتملا لا دلالة فيه، وأما النصوص المفصلة [لأبي بكر] (130) فصريحة (131) مع دلائل أخرى من القرآن والإجماع والاعتبار والاستدلال والله أعلم.

---

(121) في الأصل: ((الستت)) .
(122) بذلك جاء الحديث، فقد قال أبو ذر رضي الله عنه - وكان يقسم فيها قسما -: ((إن هذه الآية {هذان خصمان اختصموا في ربهم} نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في يوم بدر ...)) الحديث. البخاري 1768/4.
(123) في الأصل ((أبو بكر)) وهو خطأ؛ لأنه معطوف على (النبي) وهو منصوب اسم (أن) .
(124) في الأصل بالهامش بخط الناسخ.
(125) الجملة غير تامة بسقوط خبر (أن) ، ولعل الخبر أن يقال: انهم لم يدخلوا في هذه الخصومة، أو ما شابه ذلك، مما تتم به الجملة.

(126) ذكر الإمام السيوطي في الدر المنثور 485/6: ((وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: {ويطعمون الطعام على حبه..} الآية قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -)) اهـ.
(127) في الأصل: ((صحتهما)) .
(128) ما بعد هذا لا يوجد في مجموع الفتاوى.
(129) أي على أبي بكر.
(130) ساقط من النص مصحح في الهامش بخط الناسخ.
(131) قوله: ((صريحة)) تكرر في الأصل فحذف.

[سبب تسمية الرافضة] (132)

وإنما سموا رافضة لأنهم رفضوا أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - ولم يرفضهما أحد من أهل الأهواء غيرهم، والشيعة دونهم وهم الذين يفضلون عليا (133) على عثمان - رضي الله عنهما - ويتولون أبا بكر وعمر، فأما الرافضة فلها غلو شديد في علي ذهب فيه (134) بعضهم مذهب النصارى في المسيح وهم السبابة (135) أصحاب عبد الله بن سبأ (136) ، وفيهم يقول الحميري:

قوم غلو في علي [7/أ] لا أبا لهم ... وأجشموا أنفسا في حبه تعبا
قالوا هو الله جل الله خالقنا ... من أن يكون ابن شيئا أو يكون أبا

وقد أحرقهم علي - رضي الله عنه - بالنار (137) .

ومن الروافض المغيرة بن سعد مولى بجيلة (138) ، قال الأعمش (139) : دخلت على المغيرة بن سعد فسألته عن فضائل علي - رضي الله عنه - فقال لي: إنك لا تحتملها، قلت: بلى، فذكر آدم عليه السلام فقال: علي خير منه، ثم ذكر من دونه من الأنبياء عليهم السلام فقال: علي خير منهم، حتى انتهى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال: علي مثله، فقلت: كذبت عليك لعنة الله، قال: قد أعلمتك أنك لا تحتمله.

ومن الروافض من يزعم أن عليا في السحاب، فإذا أظلتهم سحابة قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن، وقد ذكر [ذلك] (140) بعض الشعراء (141) :

برئت من الخوارج لست منهم ... من الغزال منهم وابن باب (142)
ومن قوم إذا ذكروا عليا ... يردون السلام على السحاب
ولكني أحب بكل قلبي ... وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حقا (145) ... به أرجو غدا حسن الثواب (143) (144)

---

(132) ما بين المعقوفتين زيادة مني.
(133) في الأصل: ((علي)) وهو لحن.
(134) في الأصل: ((فيهم)) .
(135) في الأصل: ((السبابة)) والمراد بهم السبئية، أتباع عبد الله بن سبأ، ولعل هذا الاسم من أسمائهم.
(136) انظر الطبري: التاريخ 181/7، وابن قتيبة: المعارف ص622.
(137) خبر إحراقهم ورد عند البخاري: الصحيح مع الفتح 267/12 رقم 6922، وانظر الفتح 370/12.
(138) انظرالطبري: التاريخ 128/7.
(139) سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي، ثقة حافظ عارف بالقراءات، ورع، لكنه يدلس، توفي سنة سبع وأربعين ومئة. (التقريب رقم 254) .
(140) زيادة يقتضيها السياق.
(141) إسحاق بن سويد العدوي.
(142) في الأصل: ((ابن داب)) والتصويب من البيان والتبيين.
والغزال: هو واصل بن عطاء، وابن باب: عمرو بن عبيد؛ وهما من المعتزلة.
(143) البيان والتبيين 23/1.

(144) في الهامش: ((ومنه كلامهم: كفى في فضل مولانا علي وقوع الشك في أنه هو الله، ومات الشافعي وليس يدري علي ربه أم ربه الله)) .
وجاء في هامش الأصل تحت هذه الفقرة: ((فيه ما فيه)) . قلت: تعالى الله عن قولهم، وبرأ الله الشافعي من قولهم الباطل.
(145) في البيان والتبيان ((حبا)) .

تمت وبالخير عمت على يد أفقر عباد الله وأحوجهم إليه مغفرة: صالح بن أحمد بن عبد القادر، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات.

الخاتمة:

تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في هذه الرسالة القيمة وبين فيها أن الصديق - رضي الله عنه - أفضل الصحابة، بل أفضل هذه الأمة على الإطلاق بعد نبيها، لأنه جاءت في حقه أحاديث صحيحة صريحة لم يشركه فيها غيره من الصحابة وتميز بها؛ كثبوت الخلة لأبي بكر - رضي الله عنه - لو كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - خليل، وكذلك أمره - صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر أن يصلي بالناس مدة مرضه، وكذلك تأميره له على الحج سنة تسع من الهجرة.
بينما غيره من الصحابة وردت في فضله أحاديث هي مشتركة بينه وبين غيره.

فائدة:

ويحسن بنا أن نختم هذه الرسالة القيمة بأثر جاء بسند صحيح وعلى لسان علي رضي الله عنه نفسه، وفيه ذكر فضائل الشيخين ومنزلتهما في الإسلام، فالمسألة قد حكم فيها صاحب الشأن، وفيه أن مسألة التفضيل لها جذور تاريخية قديمة، وأنها ليست مجرد تفضيل بل تستخدم من بعض أهل الأهواء للطعن في كبار الصحابة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما.
فعن سويد بن غفلة (146) قال: مررت بنفر من الشيعة وهم يتناولون أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - وينتقصونهما، قال: فدخلت على علي بن أبي

---

(146) الجعفي، مخضرم من كبار التابعين، توفي سنة ثمانين. (التقريب ص260) .

طالب - رضي الله عنه - فقلت له: يا أمير المؤمنين إني مررت آنفا بنفر من أصحابك وهم يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذي هما له من الأمر أهل، ولولا أنهم يرون أنك تضمر لهما بمثل ما أعلنوا ما اجتروا على ذلك، فقال علي: أعوذ بالله أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل، لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل، أخوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحباه ووزيراه - رحمة الله عليهما - ثم نهض دامعا عيناه يبكي قابضا على يدي حتى دخل المسجد، وصعد المنبر فجلس عليه متمكنا قابضا على لحيته ينظر فيها - وهي بيضاء - حتى اجتمع له الناس، ثم قام فتشهد بخطبة بليغة موجزة، ثم قال: ما بال أقوام يذكرون سيدي قريش، وأبوي المسلمين بما أنا عنه متنزه وعما يقولون بريء وعلى ما يقولون معاقب، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إنه لا يحبهما إلا مؤمن تقي، ولا يبغضهما إلا فاجر رديء؛ صحبا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الوفاء والصدق، يأمران وينهيان ويقضيان ويعاقبان، ولا يجاوزان رأي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرى مثل رأيهما رأيا، ولا يحب كحبهما أحدا، مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو عنهما راض، ومضيا والمؤمنون عنهما راضون، أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر على صلاة المؤمنين فصلى بهم تسعة أيام في حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فلما قبض الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - واختار له ما عنده، ولاه المؤمنون ذلك، ثم أعطوه البيعة طائعين غير كارهين، أنا أول من سن ذلك من بني عبد المطلب، وهو لذلك كاره، يود لو أن أحدنا كفاه ذلك، كان والله خير من بقي وأرحمه رحمة وأرأفه رأفة وأبينه ورعا وأقدمه سنا وإسلاما، شبهه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بميكائل رحمة، وبإبراهيم عفوا ووقار، فسار بنا سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى مضى على ذلك - رحمة الله عليه -، ثم ولي الأمر بعده عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - واستأمر المسلمين في ذلك، فمنهم من رضي ومنهم من كره فكنت فيمن رضي، فلم يفارق الدنيا حتى رضي من كان كرهه وأقام الأمر على منهاج النبي - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه، يتبع آثارهما كاتباع الفصيل أثر أمه، كان والله رفيقا رحيما بالضعفاء والمؤمنين، عونا وناصرا للمظلومين على الظالمين، لا تأخذه في الله لومة لائم، ثم ضرب الله بالحق على لسانه، وجعل الصدق من شأنه حتى إن كنا لنظن أن ملكا ينطق على لسانه، أعز الله بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدين قواما، ألقى الله له في قلوب المنافقين الرهبة، وفي قلوب

المؤمنين المحبة، شبهه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجبريل: فظا غليظا على الأعداء، وبنوح حنقا مغتاظا على الكفار، الضراء في طاعة الله آثر عنده من السراء في معصية الله. من لكم بمثلهما - رحمة الله عليهما - ورزقنا المضي على سبيلهما، فإنه لا يبلغ مبلغهما إلا باتباع آثارهما، والحب لهما، فمن أحبني فليحبهما ومن لم يحبهما فقد أبغضني وأنا منه بريء، ولو كنت تقدمت إليكم في أمرهما لعاقبت على هذا أشد العقوبة، إنه لا ينبغي أن أعاقب قبل التقدم، ألا فمن أتيت به يقول هذا بعد اليوم فإن عليه ما على المفتري، ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق وعمر الفاروق، ثم الله أعلم بالخير أين هو، أقول قولي هذا ويغفر الله لي ولكم. (بو إسحاق الفزاري: كتاب السير ص327 (647) ورجاله رجال الصحيح....)

الكتاب: رسالة في فضل الخلفاء الراشدين

(طبعت مفردة، ومنها نسخة مختصرة في مجموع الفتاوى)

المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي)

(المتوفى: 728هـ)

التحقيق والتعليق: قسم التحقيق بدار الصحابة للتراث

قام بتلخيصه واختزال عدد صفحاته: عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي(في 17 صفحة فقط)
بعنوان: ملخصات العارفين بفضل الخلفاء الراشدين

- بسم الله الرحمن الرحيم -
سئل الشيخ الإمام العالم العلامة البحر الفهامة وحيد عصره وفريد دهره أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين عبد السلام ابن تيمية رحمهم الله تعالى:
عن رجل شريف متمسك بالسنة، لكن يحصل له أحيانا ريبة في تفضيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، فيغلب على ظنه أن عليا - رضي الله عنه - أفضل منهم، ويستدل بقوله - صلى الله عليه وسلم -: «أنت مني وأنا منك»، وبقوله - صلى الله عليه وسلم -: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، وهارون كان من موسى بمنزلة رفيعة ولم يكن عنده أعز منه، وبقوله - صلى الله عليه وسلم - يوم خيبر: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه» فأعطاها لعلي، وبقوله - صلى الله عليه وسلم -: «من كنت مولاه فعلي مولاه» "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأدر الحق معه كيف ما دار"، وبقوله يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي»، وبقوله تعالى: {فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم} الآية، وبقوله تعالى: {هذان خصمان اختصموا في ربهم} وبقوله سبحانه وتعالى: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا} ويزعم أن هذه السورة نزلت في علي - رضي الله عنه -. أفتونا مأجورين.

الجواب:
الحمد لله رب العالمين. يجب أن تعلم أولا أن التفضيل يكون إذا ثبت للفاضل من الخصائص ما لا يوجد للمفضول، فإذا استويا في أسباب الفضل وانفرد أحدهما بخصائص لم يشركه فيها الآخر كان أفضل منه. وأما ما كان مشتركا بين الرجل وغيره من المحاسن، فتلك مناقب وفضائل ومآثر، لكن لا توجب تفضيله على غيره. وإذا كانت مشتركة فليست من خصائصه.
وإذا كان كذلك، ففضائل الصديق رضي الله عنه التي ميز بها خصائص لم يشركه فيها أحد، وأما فضائل علي - رضي الله عنه - فمشتركة بينه وبين غيره. وذلك أن قوله: «لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر، إن أمن الناس علي في صحبته وذات يده أبو بكر» وهذا الحديث فيه ثلاث خصائص لم يشرك أبا بكر فيها غيره:
[الأولى]: قوله - صلى الله عليه وسلم -: «إن أمن الناس علينا في صحبته وذات يده أبو بكر» بين فيه أنه ليس لأحد من الصحابة عليه من حق في صحبته وماله مثل ما لأبي بكر - رضي الله عنه -.
الثانية: قوله: «لا تبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر»، وهذا تخصيص له دون سائر الصحابة. وقد أراد بعض الكذابين أن يروي لعلي - رضي الله عنه - مثل ذلك، لكن الصحيح والثابت لا يعارض بالضعيف الموضوع.
الثالثة: قوله: «لو كنت متخذا خليلا من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلا» فإنه نص في أنه لا أحد من البشر يستحق الخلة لو كانت ممكنة إلا أبا بكر، ولو كان غيره أفضل منه لكان أحق بها لو كانت واقعة.
وكذلك أمره لأبي بكر أن يصلي بالناس مدة مرضه من خصائصه التي لم يشركه فيها أحد. ولم يأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أمته أن تصلي خلف أحد في حياته بحضرته إلا خلف أبي بكر.
وكذلك تأميره له من المدينة على الحج ليقيم السنة ويمحو أثر الجاهلية، فإن هذا من خصائصه.
وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابا لا يختلف عليه الناس من بعدي» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»
وأمثال هذه الأحاديث كثيرة تبين أنه لم يكن في الصحابة من يساويه.

وأما قوله - صلى الله عليه وسلم -: «أنت مني وأنا منك»، فهذه العبارة قد قالها لغيره من المؤمنين، كما قالها عليه السلام لجليبيب الذي قتل عدة من الكفار: «هذا مني وأنا منه».
وفي الصحيحين: «إن الأشعريين إذا كانوا في السفر أو نقصت نفقة عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان معهم في ثوب واحد ثم قسموه بينهم بالسوية، هم مني وأنا منهم». فقد جعل الأشعريين أبا موسى وأبا عامر وغيرهما منه وهو منهم، كما قال لعلي: «أنت مني وأنا منك».
وقال تعالى: {والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم} وقال تعالى: {ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم} وقال تعالى: {ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم}.
وقال - صلى الله عليه وسلم -: «من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا» ونحو ذلك.
وهذه العبارة تستعمل في النوع الواحد فيقال: "هذا من هذا" إذا كان من نوعه، فكل من كان من المؤمنين الكاملي الإيمان فهو من النبي - صلى الله عليه وسلم - والنبي منه.
وقوله - صلى الله عليه وسلم - في قصة بنت حمزة: «أنت مني وأنا منك» وكقوله لزيد بن حارثة: «أنت أخونا ومولانا» ومعلوم أن هذا ليس مختصا بزيد، بل كل من كان من مواليه يطلق عليه هذا الكلام لقوله تعالى: {فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم}. فكذلك قوله لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وليس ذلك من خصائصه، بل من كان موافقا للنبي - صلى الله عليه وسلم - في كمال الإيمان كان من النبي - صلى الله عليه وسلم - والنبي منه.
وكذلك قوله: «لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله» هو من أصح الأحاديث وهو أصح حديث روي في فضائل علي - رضي الله عنه -، أخرجاه في الصحيحين. وقد زاد فيه بعض الكذابين أن الراية أخذها أبو بكر وعمر فهربا.
وفي الصحيح أنه لما قال - صلى الله عليه وسلم -: «لأعطين الراية رجلا» قال عمر: "ما أحببت الإمارة إلا يومئذ" واستشرف لها عمر وغيره. ولو جاء منهزما لما استشرف لها، فهذا الحديث رد على الناصبة الواقعين في علي - رضي الله عنه -، تبا لهم فإنه مؤمن تقي يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. ولكن ليس هذا من خصائصه، بل كل مؤمن كامل الإيمان يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. وقد قال تعالى: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه}، وهؤلاء الذين قاتلوا أهل الردة، وإمامهم أبو بكر.
وفي الصحيح أنه قال - صلى الله عليه وسلم - للأنصار: «والله إني لأحبكم».
وفي الصحيح أن عمرو بن العاص سأله: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها». وهذا فيه أن أبا بكر أحب الرجال إليه؛ وهذا من خصائصه - رضي الله عنه -.
وكان أسامة بن زيد يسمى الحب بن الحب، لحب النبي - صلى الله عليه وسلم - له ولأبيه. وأمثال هذه النصوص التي تبين أنه ليس كل شخص عرف أنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يجب أن يكون أفضل الخلق، فإن هذا الوصف ثابت لخلائق كثيرين، فليس هذا من خصائص الشخص المعين.
وأما قوله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى» فحديث صحيح، وهذا قاله في غزوة تبوك لما استخلفه على المدينة، فطعن بعض الناس فيه وقالوا: إنما استخلفه لأنه يبغضه، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا خرج من المدينة استخلف رجلا من أمته، وكان يكون بها رجال من المؤمنين القادرين يستخلفه عليهم. فلما كان عام تبوك لم يأذن لأحد من المؤمنين القادرين في التخلف، فلم يتخلف أحد بلا عذر إلا عاص لله ورسوله. فكان ذلك استخلافا ضعيفا، فطعن فيه المنافقون بهذا السبب. فبين له النبي - صلى الله عليه وسلم - أني لم أستخلفك لنقص قدرك عندي، فإن موسى استخلف هارون وهو شريكه في الرسالة، أفما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى فتخلفني في أهلي كما خلف هارون أخاه موسى؟ ومعلوم أنه استخلف غيره قبله، وكان أولئك منه بهذه المنزلة، فلم يكن هذا من خصائصه. ولو كان هذا الاستخلاف أفضل من غيره لم يخف ذلك على علي - رضي الله عنه - ولم يخرج إليه وهو يبكي ويقول: "أتخلفني في النساء والصبيان؟ "
ومما بين ذلك أنه بعد هذا الاستخلاف أمر عليه أبا بكر عام تسع.
فإن هذا الاستخلاف كان في غزوة تبوك - في أوائلها - فلما رجع من الغزو أمر أبا بكر على الحج ثم أردفه بعلي، فلما لحقه قال: "أمير أو مأمور؟ " قال: "بل مأمور"، فكان أبو بكر يصلي بعلي وغيره ويأمر على علي، وعلي وغيره من الصحابة يطيعون أبا بكر. وعلي على نبذ العهود التي كانت بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين المشركين. لأن العادة كانت جارية أنه لا يعقد العهود ولا يحلها إلا رجل من أهل بيته، ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم -: "لا يبلغ عني العهد إلا رجل من أهل بيتي"، للعادة الجارية. ولم يكن هذا من خصائص علي - رضي الله عنه -، بل أي رجل من عترته نبذ العهد حصل به المقصود، لكن علي - رضي الله عنه - أفضل بني هاشم بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فكان أحق الناس بالتقدم من سائر الأقارب. فلما أمر أبا بكر بعد قوله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى» علمنا أنه لا دلالة فيه على أنه

بمنزلة هارون من كل وجه، إذ لو كان كذلك لم يقدم عليه أبو بكر لا في الحج ولا في الصلاة، كما أن هارون لم يكن موسى يقدم عليه غيره. وإنما شبهه به في الاستخلاف خاصة، وهذا أمر مشترك بينه وبين غيره.
وقد شبه النبي - صلى الله عليه وسلم - في الصحيح أبا بكر بإبراهيم وعيسى، وشبه عمر بنوح وموسى لما أشارا عليه في أسرى بدر هذا بالفدى وهذا بالقتل، وهذا أعظم من تشبيه علي بهارون، ولم يوجب ذلك أن يكونا بمنزلة أولئك الرسل مطلقا، ولكن تشابها بالرسل هذا في شدته في الله وهذا في لينه في الله، وتشبيه الشيء بالشيء لمشابهته به من بعض الوجوه كثير في الكتاب والسنة وكلام العرب.
وأما قوله: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار" فهذا الحديث ليس في شيء من الأمهات؛ إلا في الترمذي وليس فيه إلا: «من كنت مولاه فعلي مولاه». وأما الزيادة فليست في الحديث. وقد سئل عنها الإمام أحمد فقال: الزيادة كوفية. ولا ريب أنها كذب لوجوه. أحدها أن الحق لا يدور مع شخص معين بعد النبي - صلى الله عليه وسلم -، لا مع أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي رضي الله عنهم، لأنه لو كان كذلك لكان بمنزلة النبي - صلى الله عليه وسلم - يجب اتباعه في كل ما يقوله، ومعلوم أن عليا كان ينازعه أصحابه وأتباعه في مسائل كثيرة ولا يرجعون فيها إلى قوله، بل فيها مسائل وجد فيها نصوص عن النبي - صلى الله عليه وسلم - توافق قول من نازعه، كالمتوفى عنها زوجها وهي حامل. فإن عليا - رضي الله عنه - أفتى بأنها تعتد أبعد الأجلين، وعمر وابن مسعود رضي
الله عنهما وغيرهما أفتوا بأنها تعتد بوضع الحمل، وبهذا جاءت سنة النبي - صلى الله عليه وسلم -. وكان أبو السنابل يفتي بمثل قول علي - رضي الله عنه - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «كذب أبو السنابل، قد حللت فانحكي» قاله لسبيعة الأسلمية لما سألته عن ذلك.
وقوله: " اللهم انصر من نصره واخذل من خذله" خلاف الواقع، فإن الواقع ليس كذلك. بل قاتل معه أقوام يوم صفين فما انتصروا، وأقوام لم يقاتلوا فما خذلوا، كسعد بن أبي وقاص الذي فتح العراق، لم يقاتل معه، وكذلك أصحاب معاوية وبني أمية الذين قاتلوه فتحوا كثيرا من بلاد الكفار ونصرهم الله تعالى.
وكذلك قوله: "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" مخالف لأصول الإسلام؛ فإن القرآن قد بين أن المؤمنين إخوة مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض، هم إخوة مؤمنون كما قال تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم}. فكيف يجوز أن يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - للواحد من أمته: "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" والله تعالى قد أخبر أنه ولي المؤمنين والمؤمنون أولياؤه وأن بعضهم أولياء بعض وأنهم إخوة وإن اقتتلوا أو بغى بعضهم على بعض.
وأما قوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فمن علماء الحديث من طعن فيه كالبخاري وغيره، ومنهم من حسنه كأحمد بن حنبل والترمذي وغيرهما، فإن كان النبي - صلى الله عليه وسلم - قال ذلك [فما] أراد به ولاية يختص بها، [بل] لم يرد به إلا الولاية المشتركة، وهي ولاية الإيمان التي جعلها الله بين المؤمنين. وتبين بهذا أن عليا - رضي الله عنه - من المؤمنين المتقين الذين يجب موالاتهم، ليس كما تقول النواصب أنه لا يستحق الموالاة. والموالاة ضد المعاداة. ولا ريب أنه يجب موالاة جميع المؤمنين، وعلي من سادات المؤمنين، كما يجب موالاة أبي بكر وعمر وعثمان وسائر المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، ونقص إيمانه بقدر ما ترك من موالاتهم الواجبة، وقد قال تعالى: {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} وهذه موجبة لموالاة جميع المؤمنين.
وحديث التصدق بالخاتم في الصلاة كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة. وذلك مبين بوجوه كثيرة مبسوطة في غير هذا الموضع.
وأما قوله: يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي» وهذا حديث رواه مسلم، وليس هذا من خصائص علي، بل هو مساو لجميع
أهل البيت، آل علي وجعفر وعقيل وآل العباس. وأبعد الناس عن هذه الوصية الرافضة، فإنهم من شؤمهم يعادون العباس وذريته، بل يعادون جمهور أهل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - ويعينون الكفار عليهم، كما أعانوا التتار على الخلفاء من بني العباس، فهم يعاونون الكفار ويعادون أهل البيت. وأما أهل السنة فيعرفون حقوق أهل البيت ويحبونهم ويوالونهم ويلعنون من ينصب لهم العداوة.

وأما آية المباهلة فليست أيضا من خصائصه - رضي الله عنه -، بل قد دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين كما رواه مسلم، ودعوتهم لم تكن لأنهم أفضل الأمة، بل لأنهم أخص أهل بيته، كما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أدى زكاة علي وفاطمة والحسن والحسين وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا». فدعا لهم دعوة خصهم بها. ولما كانت المباهلة بالنساء والأبناء والأنفس دعا هؤلاء.

ولفظ "الأنفس" يعبر بها عن النوع الواحد، كما قال تعالى: {لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا}، وقال تعالى: {فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم} أي: يقتل بعضكم بعضا، وقوله: «أنت مني وأنا منك» ليس المراد أنه من ذاته، ولا ريب أن أعظم الناس قدرا من الأقارب هو علي - رضي الله عنه -، فله من مزية القرابة والإيمان ما لا يوجد لبقية القرابة والصحابة، فدخل بذلك في المباهلة. وذلك لا يمنع أن يكون في غير الأقارب من هو أفضل منه؛ لأن المباهلة وقعت بالأقارب، فلهذا لم يباهل بأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ونحوهم.

وأما قوله تعالى: {هذان خصمان اختصموا في ربهم}، ففي الصحيح عن أبي ذر - رضي الله عنه - أنها نزلت في المختصمين يوم بدر، وأول من برز من المؤمنين علي وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، برزوا لعتبة وشيبة والوليد بن عتبة. وهذه فضيلة مشتركة بين علي وحمزة وعبيدة، بل سائر البدريين يشاركونهم في هذه الخصومة.

ولو قدر أنها نزلت في الستة المبارزين فلا يدل على أنهم أفضل من غيرهم، بدليل أن النبي - صلى الله عليه وسلم - والحسن والحسين وأبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم ممن هو أفضل من عبيدة بن الحارث باتفاق أهل السنة منقبة لهم وفضيلة، وليست من الخصائص التي توجب كون صاحبها أفضل من غيره.

وأما سورة: {هل أتى} وقول من يقول إنها نزلت لما تصدقوا على مسكين ويتيم وأسير، ويذكرون أن ذلك كان لما تصدقت فاطمة رضي الله عنها بقوت الحسن والحسين، وهذا كذب لأن سورة {هل أتى} مكية بالإجماع، والحسنين إنما ولدا في المدينة بعد غزوة بدر باتفاق أهل العلم. وبتقدير صحتها فليس في هذا ما يدل على أن من أطعم مسكينا ويتيما وأسيرا كان أفضل الأمة وأفضل الصحابة، بل الآية عامة مشتركة بين كل من فعل هذا الفعل، وتدل على استحقاقه لثواب الله تعالى على هذا العمل، [مع أن] غيره من الأعمال كالإيمان بالله والصلوات في مواقيتها والجهاد في سبيل الله تعالى أفضل من هذا العمل بالإجماع.

وهذا جواب هذه المسائل والله أعلم.

واعلم أن كل ما يظن أن فيه دلالة على فضيلة غير أبي بكر إما أن يكون كذبا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإما أن يكون لفظا محتملا لا دلالة فيه. وأما النصوص المفضلة لأبي بكر فصحيحة صريحة، مع دلائل أخرى من القرآن والإجماع والاعتبار والاستدلال. **والله أعلم**.

الكتاب: رأس الحسين

المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (بن تيمية الحراني)
(المتوفى: 728هـ)
تحقيق ودراسة: الدكتور السيد الجميلي

تلخيص واختزال: عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي(في 6 صفحات فقط)
بعنوان: ملخص اليقين في مسألة رأس الحسين

بسم الله الرحمن الرحيم *
ما تقول السادة العلماء أئمة الدين، وهداة المسلمين، رضي الله عنهم أجمعين، وأعانهم على تحقيق الحق المبين، وإخماد شغب المبطلين: في المشهد المنسوب إلى الحسين رضي الله عنه بمدينة القاهرة: هل هو صحيح أم لا؟ وهل حمل رأس الحسين إلى دمشق، ثم إلى مصر، أم حمل إلى المدينة من جهة العراق؟.
وهل لما يذكره بعض الناس من جهة المشهد الذي كان بعسقلان من صحة أم لا؟.
ومن ذكر أمر رأس الحسين، ونقله إلى المدينة النبوية دون الشام ومصر؟.
ومن جزم من العلماء المتقدمين والمتأخرين بأن مشهد عسقلان ومشهد القاهرة مكذوب، وليس بصحيح؟ وليبسطوا القول في ذلك، لأجل مسيس الضرورة والحاجة إليه، مثابين مأجورين إن شاء الله تعالى.

الجواب
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله * بل المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي - رضي الله عنهما - الذي بالقاهرة كذب مختلق، بلا نزاع بين العلماء المعروفين عند أهل العلم، الذين يرجع إليهم المسلمون في مثل ذلك، لعلمهم وصدقهم.
ولا يعرف عن عالم مسمى معروف بعلم وصدق أنه قال: إن هذا المشهد صحيح.
وإنما يذكره بعض الناس قولا عمن لا يعرف، على عادة من يحكي من مقالات الرافضة (1) وأمثالهم من أهل الكذب.
* فإنهم ينقلون أحاديث وحكايات، ويذكرون مذاهب ومقالات.
وإذا طالبتهم بمن قال ذلك ونقله؟ لم يكن لهم عصمة يرجعون إليها.

---

(1) ومن الروافض السبئية الذين أظهروا بدعتهم في زمان علي رضى الله عنه، فقال بعضهم لعل أنت الإله، فأحرق على قوما منهم، ونفى زعيمهم عبد الله بن سبأ إلى ساباط المدائن، وهذه ليست فرقة إسلامية لأنهم قالوا أن عليا إله.
ثم افترقت الرافضة - بعد زمان علي رضي الله عنه أربعة أصناف: زيدية وإمامية، وكيسانية وغلاة، وافترقت الزيدية فرقا والإمامية فرقا، والغلاة فرقا، وكل فرقة تكفر سائرها، وجميع فرق الغلاة خارجون عن فرق الاسلام، وقد جعل البغدادي فرقة الزيدية من الرافضة، مع أن الزيدية أتباع زيدين على الباقين على أتباع والرافضة هم الذين كانوا معه ثم تركوه.
راجع الفرق بين الفرق للبغدادي بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ص 21 بتصرف ط.
دار المعرفة بلبنان، ومقالات الاسلاميين (1 / 129) ومروج الذهب للمسعودي (3 / 220) ط.
دار المعرفة أيضا.
وعن الكيسانية أرجو مراجعة مروج الذهب (3 / 87) وعن الإمامة تحدث المسعودي أيضا (3 / 236) فراجعه.
(*)

ولم يسموا أحدا معروفا بالصدق في نقله، ولا بالعلم في قوله.
بل غاية ما يعتمدون عليه.
أن يقولوا: أجمعت طائفة الحقة.
وهم عند أنفسهم الطائفة الحقة، الذين هم عند أنفسهم المؤمنون، وسائر الأمة كفار.

* ويقولون: إنما كانوا على الحق لأن فيهم الإمام المعصوم، والمعصوم عند الرافضة الإمامية الاثنى عشرية (1) : هو الذي يزعمون أنه دخل سرداب سامرا بعد موت أبيه الحسن بن علي العسكري، سنة ستين ومائتين.
وهو إلى الآن لم يعرف له خبر، ولا وقع له أحد على عين ولا أثر.
* وأهل العلم بأنساب أهل البيت (2) يقولون: إن الحسن بن علي العسكري لم يكن له نسل ولا عقب.
ولا ريب أن العقلاء كلهم لا يعدون مثل هذا القول.
واعتقاد الإمامة والعصمة في مثل هذا: مما لا يرضاه لنفسه إلا من هو أسفه الناس، وأضلهم وأجهلهم.
وبسط الرد عليهم له موضع غير هذا (3) .
* والمقصود هنا: بيان جنس المقولات والمنقولات عند أهل الجهل والضلالات.
فإن هذا المنتظر عند الجهال الضلال: يزعمون أنه عند موت أبيه.
كان عمره إما سنتين، أو ثلاثا، أو خمسا، على اختلاف بينهم في ذلك.
* وقد علم بنص القرآن والسنة المتواترة، وجماع (4) الأمة: أن مثل هذا يجب أن يكون تحت ولاية غيره في نفسه وماله.
فتكون نفسه محضونة مكفولة لمن يستحق كفالته الشرعية، تحت من يستحق النظر في ماله من وصى أو غيره.

---

(1) والامامية خمس عشرة فرقة منها الاثنا عشرية.
راجع الفرق بين الفرق للبغدادي ص 23 بتصرف.
(2) مثل الزبير بن بكار نسابة قريش.
(3) راجع كتابة (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) .
(4) كذا ورد بالاصل ولعل الأصوب (إجماع) (*)

وهو قبل السبع لا يؤمر بالصلاة.
فإذا بلغ السبع أمر بها، فإذا بلغ العشر ولم يصل أدب على فعلها.
فكيف يكون مثل هذا إماما معصوما، يعلم جميع الدين، ولا يدخل الجنة إلا من يؤمن به؟ ! * ثم بتقدير وجوده، وإمامته وعصمته، إنما يجب على الخلق أن يطيعوا من يأمرهم بما أمرهم الله به ورسوله، وينهاهم عما نهاهم عنه الله ورسوله، فإذا لم يروه ولم يسمعوا كلامه، لم يكن لهم طريق إلى العلم بما يأمر به وما ينهي عنه، فلا يجوز تكليفهم طاعته، إذ لم يأمر هم بشئ، وطاعته من لا يأمر، ممتنعة لذاتها.
وإن قدر أنه يأمر، ولم يصل إليهم أمره، ولا يتمكنون من العلم بذلك، كانوا عاجزين غير مطيقين لمعرفة ما أمروا به، والتمكن من العلم شرط في الأمر، لا سيما عند الشيعة المتأخرين، فإنهم من أشد الناس منعا لتكليف ما لا يطاق، لموافقتهم المعتزلة في القدر والصفات أيضا.
* وإن قيل: إن ذلك بسبب ذنوبهم، لأنهم أخافوه أن يظهر.
قيل: هب أن أعداءه أخافو، فأي ذنب لأوليائه ومحبيه، وأي منفعة لهم من الإيمان به، وهو لا يعلمهم شيئا ولا يأمرهم بشئ؟ ثم كيف جاز له - مع وجوب الدعوة عليه - أن يغيب هذه الغيبة التي لها الآن (1) أكثر من أربعمائة وخمسين سنة.
* وما الذي يسوغ له هذه الغيبة، دون آبائهم الموجودين قبل موتهم: كعلي، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسين بن علي العسكري؟ !
* فإن هؤلاء كانوا موجودين يجتمعون بالناس وقد أخذ عن علي والحسن

---

(1) الآن أي عصر ابن تيمية رحمه الله المتوفي سنة 728 هـ ومن هذه الغيبة إلى عصرنا هذا 1137 سنة هـ.
(*)

والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد - من العلم ما هو معروف عند أهله، والباقون لهم سبر معروفة، وأخبار مشكوفة.
* فما باله استحل هذا الاختفاء هذه المدة الطويلة أكثر من أربعمائة سنة، وهو إمام الأمة، بل هو على زعمهم، هاديها وداعيها ومعصومها، الذي يجب عليها الأيمان به.
ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن عندهم؟ فإن قالوا: الخوف.

قيل: الخوف على آبائه كان أشد، بلا نزاع بين العلماء، وقد حبس بعضهم.
ثم الخوف إنما يكن إذا حارب.
فأما إذا فعل كما كان يفعل سلفه من الجلوس مع المسلمين وتعليمهم لم يكن عليه خوف.
* وبيان ضلال هؤلاء طويل.
وإنما المقصود بيانه هنا: أنهم يجعلون هذا أصل دينهم.
ثم يقولون: إذا اختلفت الطائفة الحقة على قولين، وأحدهما يعرف قائله، والآخر، لا يعرف قائله، كان القول الذي لا يعرف قائله الحق، وهكذا وجدته في كتب شيوخهم، وعللوا ذلك، بأن القول لا يعرف هو قائله يكون من قائليه الإمام المعصوم، وهذا نهاية الجهل والضلال.
* وهكذا ما ينقلونه من هذا الباب، ينقلون سيرا وحكايات وأحاديث، إذا ما طالبتهم بإسنادها، لم يحلوك على رجل معروف بالصدق، بل حسب أحدهم أن يكون سمع ذلك من آخر مثله، أو قرأه في كتاب ليس فيه إسناد معروف، وإن سموا أحدا: كان من المشهورين بالكذب والبهتان.
لا يتصور قط أن ينقلوا شيئا مما لا يعرفه علماء السنة إلا عن مجهول لا يعرف، أو عن معروف بالكذب.
* ومن هذا الباب نقل الناقل: أن هذا مشهد الحسين رضي الله عنه، بل وكذلك مشاهير غير هذا مضافة إلى الحسين، بل ومشاهد مضافة إلى قبرالحسين رضي الله عنه، فإنه باتفاق الناس: أن هذا المشهد بني عام بضع وأربعين وخمسمائة وأنه نقل من مشهد بعسقلان! وأن ذلك المشهد - بعسقلان - كان قد أحدث بعد التسعين وأربعمائة.
* فأصل هذا المشهد القاهري هو ذلك المشهد العسقلاني.
وذلك العسقلاني محدث بعد مقتل الحسين بأكثر من أربعمائة وثلاثين سنة، وهذا بعد مقتله بقريب من خمسمائه سنة، وهذا مما لم يتنازع فيه اثنان ممن تكلم في هذا الباب من أهل العلم، على اختلاف أصنافهم - كأهل الحديث، ومصنفي أخبار القاهره، ومصنفي التواريخ، وما نقله أهل العلم طبقة عن طبقة (1) .
وهذا بينهم مشهور متواتر، سواء قيل: إن إضافته إلى الحسين صدق أو كذب - لم يتنازعوا أنه نقل من عسقلان في أواخر الدولة العبيدية.
* وإذا كان أصل هذا المشهد القاهري هو ما نقل عن ذلك المشهد العسقلاني باتفاق الناس وبالنقل المتواتر، فمن المعلوم أن قول القائل: إن ذلك الذي بعسقلان هو مبنى على رأس الحسين رضي الله عنه: قول بلا حجة أصلا.
فإن هذا لم ينقله أحد من أهل العلم الذين من شأنهم نقل هذا لا من أهل الحديث.
ولا من علماء الأخبار والتواريخ، ولا من العلماء المصنفين في النسب: نسب قريش أو نسب بني هاشم ونحوه.
* وذلك المشهد العسقلاني: أحدث في آخر المائة الخامسة، لم يكن قديما، ولا كان هناك مكان قبله، أو نحوه مضاف إلى الحسين، ولا حجر منقوش ولا نحوه مما يقال، إنه علامة على ذلك.
* فتبين بذلك: أن إضافة المضيف مثل هذا إلى الحسين قول بلا علم أصلا.
وليس مع قائل ذلك ما يصلح أن يكون معتمدا، لا نقل صحيح ولا ضعيف، بل لا فرق بين ذلك وبين أن يجئ الرجل إلى بعض القبور التي بأمصار المسلمين، فيدعى أن في واحد منها رأس الحسين أو يدعى أنه قبر نبي من الأنبياء، أو نحو ذلك مما يدعيه كثير من أهل الكذب والضلال.

---

(1) يقول القرطبي في التذكرة (2 / 668) : (والإمامية تقول إن الرأس أعيد إلى الجثة بكربلاء بعد أربعين يوما من القتل، وهو يوم معروف عندهم يسمون الزيادة فيه زيادة الأربعين، وما ذكر أنه في عسقلان في مشهد هناك أو بالقاهرة فشئ باطل لا يصح ولا يثبت) م هـ.
(*)

---

* ومن المعلوم أن مثل هذا القول غير مقبول باتفاق المسلمين.
* وغالب ما يستند إليه الواحد من هؤلاء: أن يدعى أنه رأى مناما، أو أنه وجد بذلك القبر علامة تدل على صلاح ساكنه: إما رائحة طيبة، وإما خرق عادة ونحو ذلك، وإما حكاية عن بعض الناس: أنه كان يعظم ذلك القبر.
* فأما المنامات فكثير منها، بل أكثرها كذب وقد عرفنا في زماننا بمصر والشام والعراق من يدعي أنه رأي منامات تتعلق ببعض البقاع إنه قبر نبي، أو أن فيه أثر نبي، ونحو ذلك، ويكون كاذبا.

وهذا الشئ منتشر.
* فرائي المنام قد يكون كاذبا، وبتقدير صدقه: فقد يكون الذي أخبره بذلك الشيطان.
* ورؤيا المحضة التي لا دليل يدل على صحتها لا يجوز أن يثبت بها شئ بالاتفاق، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي (ص) أنه قال: (الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه، ورؤيا من الشيطان) (1) .

---

(1) قال تعالى: (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قالوا إنها الرؤيا الصادقة يراها المؤمن أو ترى له.
أما الرؤيا التي تنجم عن الحديث المرء نفسه فهذه ترجع إلى اضطرابات نفسية ينطلق فيها اللاشعور بالرغبات المكبوتة فيرى الحالم أمنياته الشاقة التي لم تتحقق في اليقظة يراها تتحقق في المنام.
أما رؤيا الشياطين وهي الأحلام فقد ورد فيها قوله تعالى: (قالوا أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) يوسف (12 / 44) وفي الحديث الصحيح أن النبي (ص) أتاه رجل فقال يا رسول الله رأيت كأن رأسي قطع وأنا أتبعه، فقال لا تتحدث بتلاعب الشيطان بك في المنام.
راجع تعطير الأنام في تعبير المنام للنابلسي طبعة الحلبي (1 / 4) (*)

---

* فإذا كان جنس الرؤيا تحته أنواع ثلاثة، فلا بد من تمييز نوع منها من نوع.
* ومن الناس - حتى من الشيوخ الذين لهم علم وزهد - من يجعل مستنده في مثل ذلك: حكاية يحكيها عن مجهول.
حتى يقول: حدثني أخي الخضر أن قبر الحسين بمكان كذا وكذا - ومن المعلوم الذي بيناه في غير هذا الموضع أن الخضر قد مات (1) - أو رأى شخصا يقول: إني الخضر، أو ظن الرائي أنه الخضر، إن كل ذلك لا يجوز.
* وأما ما يذكر من وجود رائحة طيبة، أو خرق عادة أو نحو ذلك بتعلق بالقبر: فهذا لا يدل على تعينه، وأنه فلان أو فلان، بل غاية ما يدل عليه - إذا ثبت - أن ذلك دليلا على صلاحه، وأنه قبر رجل صالح أو نبي (2) .
* وقد تكون تلك الرائحة مما صنعه بعض المكتسبين من القبر، فإن هذا مما يفعله من هؤلاء، كما حدثني بعض أصحابنا: أنه ظهر بشاطئ الفرات رجلان، كان عند أحد هما قبر تجبي عليه أموال ممن يزوره وينذر له من الضلال، فعمد الآخر إلى قبر - زعم أنه رأى في المنام أنه قبر عبد الرحمن بن عوف - وجعل فيه من أنواع الطيب ما ظهرت له رائحة عظيمة.
* وقد حدثني جيران القبر الذي بجبل لبنان بالبقاع - الذي يقال إنه قبر نوح - وكان قد ظهر قريبا في أثناء المائة السابعة، وأصله: أنهم شموا من قبر

---

(1) والخضر عليه السلام قد مات بنص القرآن القطعي لقوله تعالى: وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) الأنبياء (21 / 34) وأرجو أن تراجع تفسير هذه الآية في الجامع لأحكام القرآن (11 / 283) ط.
دار الكتب، زاد المسير (5 / 348) ومختصر ابن كثير (2 / 507) .
وتقول بعض الفرق الهالكة إن الخضر لم يمت وأنهم يرونه عيانا ويتحدثون إليه ويتحدث إليهم ويستمدون منه أصول التشريع ويطمئنهم على معتقداتهم، تلك كلها ضلالات شيطانية يا عزيزي القارئ فلا تتوقف عندها، لأن الخضر مات كأي بشر، وهو ليس أفضل من رسول الله (ص) وهو صاحب كل فضل وفضيلة وكان أولى بالخلود من الخضر وغيره.
(2) وقبر سيدنا رسول الله (ص) هو القبر النبوي الوحيد الذي اتفق عليه بالإجماع وما سواه من قبور الأنبياء لم يحصل عليه الإجماع مثله.
(*)

رائحة طيبة ووجدوا عظاما كبيرة، فقالوا: هذه تدل على كبر خلق الجنة فقالوا - بطريق الظن - هذا قبر نوح، وكان بالبقعة موتى كثيرون من جنس ذلك الميت (1) .
* وكذلك هذا المشهد العسقلاني قد ذكر طائفة: أنه قبر بعض الحواريين أو غيرهم من أتباع عيسى بن مريم.
* وقد يوجد عند قبور الوثنيين أشياء من جنس ما يوجد عند قبور المؤمنين من أمتنا، بل يزعم الزاعم أنه قبر الحسين ظنا وتخرصا.
* وكان من الشيوخ المشهورين بالعلم والدين بالقاهرة من ذكرو عنه أنه قال: هو قبر نصراني.
* وكذلك بدمشق بالجانب الشرقي مشهد يقال: إنه قبر أبي كعب.

وقد اتفق أهل العلم على أن أبيا لم يقدم دمشق، وإنما مات بالمدينة، فكان بعض الناس يقولون: إنه قبر نصراني، وهذا غير مستبعد.
فإن اليهود والنصارى هم ائمة في (2) تعظيم القبور والمشاهد، ولهذا قال النبي (ص) في الحديث المتفق عليه: (لعن الله اليهود والنصارى: اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما فعلوا) (3) .

---

(1) ومنذ فترة يسيرة طالعتنا الصحف والمجلات بخبر عن اكتشاف علمي صارخ وهو العثور على مومياء يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام وأخذت وسائل الاعلام تروج لهذه الأساطير التي تفتقد الدليل العلمي والديني القوي الذي يوثقها بل وتفتقر الى المنطق السوي المستقيم، قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، في القرآن العشرين ولا زلنا موضع سخرية من الواقع الأليم، خرافات وأساتير تفرخ وتطير في كل ناحية من غير دليل أو برهان أو سند من علم أو فقه أو كتاب أو سنة.
(2) تأمل شيخ الاسلام ابن تيمية وهو يسخر منهم بقوله (هم الأئمة في تعظيم القبور والمشاهد) رحمه الله وجمعنا به في دار كرامته.
(3) فقد روى عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما انه صلى الله عليه وسلم كشفها عن وجهه وهو يقول: - (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، تقول عائشة: يحذر مثل الذي صنعوا) والحديث رواه البخاري (1 / 422) ، (6 / 386) و (8 / 116) ومسلم (2 / 67) والنسائي (1 / 115) والدارمى (1 / 326) وأحمد (1 / 218) و (6 / 34) .
(*)

---

* والنصارى أشد غلوا في ذلك من اليهود كما في الصحيحين: (أن النبي (ص) ذكرت له أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما كنيسة رأرض الحبشة، وذكرنا من حسنها وتصاوير فيها.
فقال: إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح، فمات بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) .
* والنصارى كثيرا ما يعظمون آثار القديسين منهم.
فلا يستبعد أنهم ألقوا إلى بعض جهال المسلمين أن هذا قبر بعض من يعظمه المسلمون، ليوافقوهم على تعظيمه.
* كيف لا؟ وهم قد أضلوا كثيرا من جهال المسلمين حتى صاروا يعمدون أولادهم، ويزعمون أن ذلك يوجب طول العمر للولد (1) ، وحتى جعلوهم يزورون ما يعظمونه من الكنائس والبيع، حتى صار كثير من جهال المسلمين ينذرون للمواضع التي يعضمها النصارى كما قد صار كثير من جهالهم يزورون كنائس النصارى، ويلتمسون البركة من قسيسيهم ورها بينهم ونحوهم.
* والذين يعظمون القبور والمشاهد: لهم شبه شديد بالنصارى، حتى إنه لما قدمت القاهرة اجتمع بي بعض فضلاء الرهبان، وناظرني في المسيح ودين النصارى، حتى بينت له فساد ذلك، وأجبته عما يدعيه من الحجة وبلغني بعد ذلك أنه صنف كتابا في الرد على المسلمين، وإبطال نبوة محمد (ص) ، وأحضره بعض المسلمين، وجعل يقرؤه علي لأجيب عن حجج النصارى وأبين فسادها (2) .
* وكان من أواخر ما خاطبت به النصراني: أن قلت له: أنتم مشركون وبينت من شركهم ما عليه من العكوف على التماثيل والقبور وعبادتها، والاستغاثة بها.

---

(1) ومن دواعي الأسف الشديد أن جهال المسلمين يأخذون بهذه الضلالات والوثنيات فيدخلوا في نطاق الشرك وهو لا يشعرون، حتى أصبحوا يقلدون اليهود والنصارى في طقوسهم الوثنية.
(2) راجع كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله في الرد على أوهام وأغلاط النصارى وكشف ما هم فيه من زيف وضلال رهبة.
(*)

فقال لي: نحن ما نشرك بهم ونعبدهم: وإنما نتوسل بهم، كما يفعل المسلمون إذا جاءوا إلى قبر الرجل الصالح، فيتعلقون بالشباك الذي عليه ونحو ذلك.
* فقلت له: وهذا أيضا من الشرك، وليس هذا من المسلمين، وإن فعله الجهال؟ فأقر أنه شرك، حتى إن قسيسا كان حاضرا في هذا المسألة، فلما قرأها قال: نعم، على هذا التقدير: نحن مشركون.

* وكان بعض النصارى يقول لبعض المسلمين: لنا سيد وسيدة، ولكن سيد وسيدة، لنا السيد المسيح والسيدة المريم، ولكم السيد حسين والسيدة نفيسة.
* فالنصارى يفرحون بما يفعله أهل البدع والجهل من المسلمين مما يوافق دينهم ويشابهونهم فيه، ويحبون أن يقوى ذلك ويكثر، ويحبون أن يجعلوا رهبانهم مثل عباد المسلمين وقسيسيهم مثل قضاة المسلمين، ويضاهؤون المسلمين، فإن عقلاءهم لا ينكرون صحة دين الإسلام، بل يقولون: هذا طريق إلى الله، وهذا طريق إلى الله.
* ولهذا يسهل إظهار الإسلام على كثير من المنافقين الذين أسلموا منهم، فإن عنده: أن المسلمين والنصارى كأهل المذاهب من المسلمين، بل يسمون الملل مذاهب، ومعلوم أن أهل المذاهب - كالحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية - دينهم واحد.
وكل من عطاء الله ورسوله منهم بحسب وسعه كان مؤمنا سعيدا باتفاق المسلمين.
* فإذا اعتقد النصارى مثل هذا من الملل يبقي انتقال أحدهم عن ملته كانتقال الإنسان من مذهب إلى مذهب.
وهذا كثيرا ما يفعله الناس لرغبة أو فإذا بقي عقاربه وأصدقاؤه على المذهب الأول لم ينكر ذلك، بل يحبهم ويودهم في الباطن.
لأن المذهب كالوطن، والنفس تحن إلى الوطن، إذا لم تعتقد أن المقام به محرم.
* فلهذا يوجد كثير ممن أظهر الإسلام من أهل الكتاب لا يفرق بين المسلمين وأهل الكتاب.
* ثم منهم من يميل إلى المسلمين أكثر، ومنهم من يميل إلى ما كان عليه أكثر.
ومنهم من يميل إلى أولئك من جهة الطبع والعادة، أو من جهة الجنس والقرابة والبلد، والمعاونة على المقاصد.
ونحو ذلك.
* وهذا كما أن الفلاسفة ومن سلك سبيلهم من القرامطة (1) والاتحادية (2) ونحوهم، يجوز عندهم أن يتدين الرجل بدين المسلمين واليهود والنصارى.
ومعلوم أن هذا كله كفر باتفاق المسلمين.
* فمن لم يقر باطنا وظاهرا بأن الله لا يقبل دين سوى الإسلام (3) ، فليس بمسلم.

---

(1) والقرامطة إسم شهرة للإسماعيلية وسموا بالباطنية، لأنهم قالوا أن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا، ولهم أتعاب كثيرة سوى هذه على لسان قوم قوم: فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية، وبخراسان يسمون التعليمية والملحدة، وهم يقولون نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الإسم.
راجع الملل والنحل للشهرستاني (1 / 192) ط.
الحلبي والباطنية درجات في دعوتهم.
راجع الفرق بين الفرق للبغدادي ص 301.
(2) الإتحادية: وهي فرقة هالكة خرجت على السنة والجماعة فحوى دعوتها الزندقية أن المخلوق اتحد بالخالق فأصبح الإثنان ذاتاواحدة فالخالق عندهم والمخلوق سواء، كذلك القائلين بالحلول مثل محيى الدين بن عربي صاحب الفتوحات المكية الذي قال أن الله روحه حلت في كل الموجودات وكلا الحلوليين والاتحاديين زنادقة كفرة لتأويلاتهم وشطحاتهم وقد كفرهم ابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي وعلماء السلف الغيورين على عقيدة التوحيد.
راجع في الحلولية التبصير (ص 77) والفرق بين الفرق (ص 259) (3) لقوله تعالى في صريح النص القرآني: - (إن الدين عند الله الإسلام) آل عمران (3 / 19) كذلك لقوله: - (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) آل عمران (3 / 85) راجع تفسير الطبري.
(6 / 575) (*)

---

* ومن لم يقر بأن بعد مبعث محمد (ص) ليس مسلم إلا من آمن به واتبعه باطنا وظاهرا (1) ، فليس بمسلم.
ومن لم يحرم التدين - بعد مبعثه (ص) - بدين اليهود والنصارى، بل من لم يكفرهم ويبغضهم فليس بمسلم باتفاق المسلمين.
والمقصود هنا: أن النصارى يحبون أن يكون المسلمين ما يشابهونهم به ليقوي بذلك دينهم، ولئلا ينفر المسلمون من دينهم.
* ولهذا جاءت الشريعة الإسلامية بمخالفة اليهود والنصارى، كما قد بسطناه في كتاب: (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) .
وقد حصل للنصارى من الجهال كثير من مطلوبهم، لا سيما من الغلاة من الشيعة، وجهال النساك والغلاة في المشايخ، فإن فيهم شبها قويا بالنصارى في الغو، والبدع في العبادات ونحو ذلك، فلهذا يلبسون على المسلمين في مقابر تكون من قبورهم، حتى يتوهم الجهال أنها من قبور صالحي المسلمين.

وإذا كان ذلك المشهد العسقلاني قد قال طائفة: إنه قبر بعض النصارى أو بعض الحواريين - وليس معنا ما يدل أنه قبر مسلم - فضلا عن أن يكون قبرا لرأس الحسين - كان قول من قال: إنه قبرا مسلم - الحسين أو غيره - قولا مردودا على قائله.
فهذا كاف في المنع من أن يقال: هذا مشهد الحسين.

---

(1) والبعض الصوفيون هم الذين جعلوا للقرآن ظاهرا وباطنا وقالوا أن العلماء والفقهاء هم أهل الظاهر أما الصوفية فهم أهل الأسرار وأهل الباطن (*)

فصل *

ثم نقول: بل نحن نعلم ونجزم بأنه ليس رأس الحسين، ولا كان ذلك المشهد العسقلاني مشهدا للحسين، من وجوه متعددة.
* منها: أنه لو كان رأس الحسين هناك لم يتأخر كشفه وإظهاره إلى ما بعد مقتل الحسين بأكثر من أربعمائة سنة، ودولة بني أمية انقرضت قبل ظهور ذلك بأكثر من ثلاثمائة وبضع وخمسين سنة.
وقد جائت خلافة بني العباس وظهر في أثنائها من المشاهد بالعراق وغير العراق ما كان كثير منها كذبا.
وكانوا عند مقتل الحسين بكربلاء قد بنوا هنالك مشهدا.
وكان ينتابه أمراء عظماء.
حتى أنكر ذلك عليهم الأئمة، وحتى أن المتوكل تقدم فيه بأشياء، يقال: إنه بالغ في إنكار ذلك، وزاد على الواجب.
* دع خلافة بني العباس في أوائلها، وفي حال استقامتها، فإنهم حينئذ لم يكونوا يعظمون أبدا المشاهد، سواء كانت صدقا أو كذبا، كما حدث فيما بعد.
لأن الإسلام كان حينئذ يغد في قوته وعنفوانه.
ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم في شئ في بلاد الإسلام - لا الحجاز، ولا اليمن
ولا شام، ولا العراق، ولا مصر، ولا خراسان، ولا المغرب - مشهد، لا على قبر نبي، ولا صاحب، ولا أحد من أهل البيت، ولاصالح أصلا.
بل عامة المشاهد محدثة بعد ذلك.
* وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة وكثرت فيهم الزنادقة المنتسبون إلى الإسلام.
وعلت فيهم كلمة أهل البدع.
وذلك في دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية (1) بأرض الغرب.
ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر.
* وقريبا من ذلك: يقال إنه حدثت المكوس (2) في الإسلام.
* وقريبا من ذلك: ظهر بنو بويه الأعاجم: وكان في كثير منهم زندقة وبدع قوية وفي دولتهم قوى بنوا عبيد القداح بأرض مصر، وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى علي رضي الله عنه بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول: إن قبر علي هناك، وإنما دفن علي رضي الله عنه بقصر الإمارة بالكوفة، وإنما ذكروا أنه حكى عن الرشيد.
أنه جاء إلى بقعة هناك، وجعل يعتذر إلى المدفون فيها، فقالوا: إنه علي، وإنه اعتذر إليه مما فعل بولده، فقالوا: هذا هو قبر علي، وقد قال قوم: إنه قبر المغيرة بن شعبة، والكلام عليه مبسوط في غير هذا الموضع.
* فإذا كان بنو بويه وبنو عبيد - مع ما كان في الطائفين من الغلو في التشيع.
حتى إنهم كانوا يظهرون في دولتهم ببغداد يوم عاشوراء من شعار الرافضة ما لم يظهر مثله، مثل تعليق المسوح على الأبواب، وأخراج النوائح بالأسواق، وكان الأمر يفضي إلى قتال تعجز الملوك عن دفعه.
وبسبب ذلك
خرج الخرقي صاحب المختصر في الفقه من بغداد، لما ظهر بها سب السلف.
وبلغ من أمر القرامطة الذين كانوا بالمشرق في تلك الأوقات: أنهم أخذوا الحجر الأسود، وبقي معهم مدة، وأنهم قتلوا الحجاج وألقوهم ببئر زمزم.

---

(1) والذين جاءوا إلى مصر ولقبوا أنفسهم بالفاطميين نسبة الى فاطمة الزهراء، وهي بريئة منهم، لأنهم كذابون فجار وثنيون أدخلوا الطقوس والرقص والطرب في دولة الإسلام وأحالوا شعائر الدين وعباداته إلى حانات لمعاقرة المنكرات، وأكثر من عالم مخلص كشف ما هم فيه من زيف وبهتان.

(2) وفي الحديث الشريف (لا يدخل صاحب مكس الجنة) .
(3) أي بشرق الجزيرة العربية على شاطئ الخليج الفارسي.
(*)

* فإذا كان مع هذا لم يظهر حتى مشهد للحسين بعسقلان، مع العلم بأنه لو كان رأسه بعسقلان لكان المتقدمون أعلم بذلك من المتأخرين، فإذا كان مع توفر الهمم والدواعي والتمكين والقدرة لم يظهر ذلك، علم أنه باطل مكذوب مثل من يدعي أنه شريف علوي: وقد علم أنه لم يدع هذا أحد من أجداده، مع حرصهم على ذلك لو كان صحيحا، فإنه بهذا يعلم كذب هذا المعي، وبمثل ذلك علمنا كذب من يدعي النص على علي، أو غير ذلك من الأمور التي تتوفر الهمم والدواعي على نقلها ولم ينقل.
* الوجه الثاني أن الذين جمعوا أخبار الحسين ومقتله - مثل أبي بكر بن أبي الدنيا، وأبي القاسم البغوي وغيرهما - لم يذكر أحد منهم أن الرأس حمل إلى عسقلان، ولا إلى القاهرة.
* وقد ذكر نحو ذلك أبو الخطاب بن دحية في كتابه الملقب بالعلم المشهور في فضائل الأيام والشهور،! ذكر أن الذين صنفوا في مقتل الحسين أجمعوا على أن الرأس لم يغترب (1) ، وذكر هذا بعد أن ذكر أن المشهد الذي بالقاهرة كذب مختلق: وأنه لا أصل له، وبسط القول في ذلك، كما ذكر في يوم عاشوراء ما يتعلق بذلك.
* الوجه الثالث أن الذي ذكره من يعتمد عليه من العلماء والمؤرخين أن الرأس حمل إلى المدينة (2) ودفن عند أخيه.

(1) أي لم يذهب به إلى أمصار غريبة عنه.
(2) يقول القرطبي: - (لما ذهب بالرأس إلى يزيد بعث به إلى المدينة فأقدم إليه عدة من موالي بني هاشم وضم إليهم عدة من موالي أبى سفيان ثم بعث بثقل الحسين وجهزهم بكل شئ ولم يدع لهم حاجة بالمدينة إلا أمر لهم بها، وبعث برأس الحسين عليه السلام إلى عمرو بن سعيد بن العاص وهو إذ ذاك عامله على المدينة فقال عمرو وددت أنه لم يبعث به إلى، ثم أمر عمرو بن سعيد بن العاص برأس الحسين عليه السلام فكفن ودفن با لبقيع عند قبر أمه فاطمة عليها الصلاة والسلام) التذكرة (2 / 668)
وقد نقل القرطبي هذا الرأي عن العلامة الحافظ أبو العلا الهمداني وهذا ما نطمئن إليه ونثق فيه.
المحقق.
وإن كانت الإمامية تقول إن الرأس أعيد إلى الجثة بكربلاء بعد أربعين يوما أو إلى عسقلان في مشهد هناك أو في المشهد القاهري المعروف فهذا شئ باطل لا يصح وقد أنكره القرطبي أيضا =

* ومن المعلوم: أن الزبير بن بكار، صاحب كتاب الأنساب، ومحمد ابن سعد كاتب الواقدي، صاحب الطبقات ونحوهما من المعروف بالعلم والثقة والاطلاع: أعلم بهذا الباب، وأصدق فيما ينقلو به (1) من المجاهليل والكذابين، وبعض أهل التواريخ الذين لا يوثق بعلمهم ولا أصدقهم، بل قد يكون الرجل صادقا، ولكن لا خبرة له بالأسانيد.
حتى يميز بين المقبول
والمردود، أو يكون سئ الحفظ أو متهما بالكذب، أو بالتزيد في الرواية، كحال كثير من الإخباريين والمؤرخين، ولا سيما إذا كان مثل أبي مخنف لوط بن يحيى (2) وأمثاله * ومعلوم أن الواقدي نفسه خير عند الناس من مثل هشام بن الكلبي وأبيه محمد بن السائب وأمثالها، وقد علم كلام الناس في الواقدي، فإن ما يذكره هو وأمثاله يعتضد به، ويستأنس به.
وأما الاعتماد عليه بمجرده في العلم: فهذا لا يصلح.
* فإذا كان المعتمد عليهم يذكرون أنه دفن بالمدينة، وقد ذكر غيرهم: أنه إما أنه عاد إلى البدن، وإما أنه بحلب، أو بدمشق، أو نحو ذلك من الأقوال التي لا أصل لها، ولم يذكر من يعتمد عليه أنها بعسقلان - علم أن ذلك باطل، إذ يمتنع أن يكون أهل العلم والصدق: على الباطل.
وأهل الجهل والكذب: على الحق في الأمور النقلية، التي تؤخذ عن أهل العلم والصدق، لا عن أهل الجهل والكذب.

= ودفع ببطلانه ونحن نؤيده في رأيه.
وابن كثير يؤيد رأى القرطبي فيقول: - (روى محمد بن سعد أن يزيد بعث برأس الحسين إلى عمرو بن سعيد نائب المدينة، فدفنه عند أمه بالبقيع) ا.
هـ.

البداية والنهاية (8 / 221) .
وقد ذكر ابن جرير الطبري أن موضع قتل الحسين بن علي رحمه الله بكربلاء قد عفى أثره حتى لم يطلع أحد على تعيينه بخبر.
البداية والنهاية.
(8 / 221) بتصرف وقد كان أبو نعيم - الفضل بن دكين - ينكر على من يزعم أنه يعرف قبر الحسين.
(السابق) .
(1) كذا وردت بالأصل والأصح (ينقلونه) .
(2) ذكره ابن عدى وقال: - (شيعي منحرف) وقال عنه الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال أنه لوط بن يحيى بن أبو مخنف وقال فيه: (أنه لا
يوثق به) .
(*)

---

* الوجه الرابع الذي ثبت في صحيح البخاري (أن الرأس حمل إلى قدام عبيد الله بن زياد، وجعل ينكت بالقضيب على ثناياه بحضرة أنس بن مالك) (1) وفي المسند (أن ذلك كان بحضرة أبي برزة الأسلمي) (2) ولكن بعض الناس روى بإسناد منقطع (أن هذا النكت كان بحضرة يزيد بن معاوية) وهذا باطل.
فإن أبا برزة، وأنس بن مالك، كانا با لعراق لم يكونا بالشام، ويزيد بن معاوية كان بالشام، لم يكن بالعراق حين مقتل الحسين، فمن نقل أنه نكث بالقضيب بحضرة هذين قدامه فهو كاذب قطعا، كذبا معلوما بالنقل المتواتر.
* ومعلوم بالنقل المتواتر: أن عبيد الله بن زياد كان هو أمير العراق حين مقتل الحسين، وقد ثبت بالنقل الصحيح: أنه هو الذي أرسل عمر بن سعد مقدما على الطائفة التي قاتلت الحسين، وامتنع عمر من ذلك، فأرغبه وأرهبه حتى فعل ما فعل (3) .
* وقد ذكر المصنفون من أهل العلم بالأسانيد المقبولة: أنه لما كتب أهل العراق إلى الحسين، وهو بالحجاز: أنه يقدم عليهم، وقالوا: إنه قد أميتت السنة، وأحييت البدعة.
وأنه، وأنه، حتى يقال: إنهم أرسلوا إليه كتبا ملء صندوق وأكثر، وأنه أشار عليه الأحباء الأنباء.
فإنه كما قيل: وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه * وما كل مؤت نصحه بلبيب * فقد أشار عليه مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وغيرهما بأن لا يذهب إليهم.

---

(1) راجع التفاصيل في التذكرة للقرطبي (2 / 666، 667) نقلا عن صحيح البخاري.
(2) ولكن الأمام الطبري يقول أن يزيد بن معاوية هو الذي نكث بالقضيب في وجود أبي برزة الأسلامي.
راجع تاريخ الطبري (4 / 356) ونفس القول يؤيد المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر (3 / 70، 71) (3) راجع البداية والنهاية (8 / 170) والأصابة (2 / 17) (*)

وبذلك كان قد وصاه أخوه الحسين (1) : واتفقت كلمتهم على أن هذا لا مصلحة فيه، وأن هؤلاء يكذبونه ويخذلونه، إذ هم أسرع الناس إلى فتنة، وأعجزهم فيها، وأن أباه كان أفضل منه وأطوع في الناس، وجمهور الناس معه.
ومع هذا فكان فيهم من الخلاف عليه والخذلان له ما الله به عليم.
حتى صار يطلب السلم بعد أن كان يدعو إلى الحرب.
وما مات إلا وقد كرهم كراهة الله بها عظيم.
وقد دعا عليهم وتبرم بهم.
* فلما ذهب الحسين رضي الله عنه، وأرسل ابن عمه عقيل (2) إليهم، وتابعه طائفة.
ثم لما قدم عبيد الله بن زياد الكوفة، قاموا مع ابن زياد، وقتل عقيل وغير هما.
فبلغ الحسين ذلك، فأراد الرجوع، فوافه سرية عمر بن سعد، وطلبوا منه أن يستأسر لهم، فأبى، وطلب أن يردوه إلى يزيد بن عمه، حتى يضع يده في يده، أو يرجع من حيث جاء، أو يلحق ببعض الثغور، فامتنعوا من إجابته إلى ذلك، بغيا وظلما وعدوانا.

وكان من أشدهم تحريضا عليه: شمر بن الجوشن (3) .
ولحق بالحسين طائفة منهم، ووقع القتل حتى أكرم الله الحسين ومن أكرمه من أهل بيته بالشهادة، رضي الله عنهم وأرضاهم.
وأهان بالبغي والظلم والعدوان من أهانه بما انتهكه من حرمتهم، واستحله من دمائهم * (ومن يهن الله فما له من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء) * (4) وكان ذلك من نعمة الله على الحسين، وكرامته له، لينال منازل الشهداء، حيث لم يحصل له من أول الأسلام من الابتلاء والامتحان ما حصل لسائر أهل بيته، كجده (ص) ، وأبيه وعمه، وعم أبيه رضي الله عنهم.
فإن بني هاشم أفضل القريش، وقريشا أفضل العرب والعرب أفضل بني آدم، كما صح ذلك عن النبي (ص) ، قوله في الحديث الصحيح: (إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش) .

(1) كذا بالأصل والأصل (الحسن) (2) مسلم بن عقيل: وهو رسول الحسين إلى عبيد الله بن زياد وقتله ابن زياد وكان أول رسول مبعوث يقتل في الإسلام.
(3) وشمر بن ذي الجوشن كان أبرص قبحه الله ولعنه، وكان معروفا بشدة عدائه وسخيمته على أهل البيت.
(4) الحج (22 / 18) (*)

* وفي صحيح مسلم عنه أنه قال يوم غدير خم: (أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي) .
* وفي السنن: (أنه شكا إليه العباس: أن بعض قريش يحقرونهم، فقال: والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي) .
* وإذا كانوا أفضل الخلائق فلاريب أن أعمالهم أفضل الأعمال (1) .
* وكان أفضلهم رسول الله (ص) ، الذي لا عدل (2) له من البشر، ففاضلهم أفضل من كل فاضل من سائر قبائل قريش والعرب، بل وبني إسرائيل وغيرهم.
* ثم علي وحمزة وجعفر وعبيدة بن الحارث: هم من السابقين الأولين من المهاجرين.
فهم أفضل من الطبقة الثانية من سائر القبائل.
ولهذا لما كان يوم
بدر أمرهم النبي (ص) بالمبارزة لما برز عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.
فقال النبي (ص) : (قم يا حمزة.
قم يا عبيدة.
قم يا علي) فبرز إلى الثلاثة ثلاثة من هاشم.
* وقد ثبت في الصحيح: أن فيهم نزل قوله: * (هذان خصمان اختصموا في ربهم - الآية) * (3) .
وإن كان في الآية عموم.
* ولما كان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وكانا قد ولدا بعد الهجرة في عز الإسلام، ولم ينلهما من الأذي والبلاء ما نال سلفهما الطيب، فأكرمهما الله بما أكرمهما به من الإبتلاء، ليرفع درجاتهما.

(1) قال تعالى: - (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) هود (11 / 73) ومعني الآية: أي رحمكم الله وبارك فيكم يا أهل بيت إبراهيم.
الصابوني (12 / 620) (*)

(2) العدل: الند والنظير.
(3) الحج (22 / 19) راجع تفسير القرطبي (12 / 26) لهذه الآية، والفخر الرازي الكبير (23 / 22) وصفوة التفاسير (17 / 882) (*)

وذلك من كرامتهما عليه لا من هوانهما عنده، كما أكرم حمزة عليا وجعفرا وعمر وعثمان وغيرهم بالشهادة.

* وفي المسند وغيره: عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين عن النبي (ص) أنه قال: (ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكر مصيبة، وإن قدمت، فيحدث لها استرجاعا (1) ، إلا أعطاه الله من الأجر مثل أجره يوم أصيب بها) .
فهذا الحديث رواه الحسين، وعنه بنته فاطمة التي شهدت مصرعه.
وقد علم الله أن مصيبة تذكر على طول زمان.
* فالمشروع إذا ذكرت المصيبة وأمثالها أن يقال: * (إنا لله وإنا إليه
راجعون) * (اللهم آجرنا في مصيبتنا واخلف لنا خيرا منها) .
قال تعالى: * (وبشر الصابرين.
الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون) * قال تعالى: * (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وألئك هم المهتدون) *.
* والكلام في أحوال الملوك على سبيل التفصيل: متعسر أو متعذر، لكن يعلم من حيث الجملة، وهم أنهم هم وغير هم من الناس ممن له حسنات وسيئات يدخلون بها في نصوص الوعد (2) ، أو نصوص الوعيد (3) .
* وتناول نصوص الوعد للشخص مشروط بأن يكون عمله خالصا لوجه

---

(1) الإسترجاع: أن يقول عند نزول المصيبة (إنا لله وإنا إليه راجعون) وقد قال (ص) : - (ليسترجع أحدكم في كل شئ حتى في شسع نعله فإنها من المصائب) رواه ابن السني في عمل (اليوم (والليلة) رقم 354 وفي سند يحيى بن عبد الله التيمي لم يوثقه غير ابن حبان وباقي رجاله ثقات.
وقال تعالى: - (وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) البقرة (2 / 155) و (2 / 156)
(2) ، (3) وعد: وأوعد تقال في الخير والشر أما الوعيد والإيعاد ففي الشر.
راجع المختار ص 728 بتصرف.
(*)

الله، موافقا للسنة (1) .
فإن النبي (ص) قيل له: (الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، وقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله) .
* وكذلك شمول نصوص الوعيد له مشروط بأن لا يكون متأولا تأويلا مخطئا.
فإن الله عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان.
* وكثير من تأويلات المتقدمين ومن يعرض لها فيها من الشبهات معروفة بما يحصل بها من الهوى والشهوات، فيأتون ما يأتونه بشبهة وشهوة.
* والسيئات التي يرتكبها أهل الذنوب تزول بالتوبة، وقد تزول بحسنات ماحية، ومصائب مكفرة.
وقد تزول بصلاة المسلمين عليه، وبشفاعة النبي (ص) يوم القيامة في أهل الكبائر (2) .
فلهذا كان أهل العلم يختارون فيمن عرف بالظلم ونحوه مع أنه مسلم له أعمال صالحة في الظاهر - كالحجاج وأمثاله - لأنهم لا يلعنون أحدا بعينة، بل يقولون كما قال الله تعالى: * (ألا لعنة الله على الظالمين) * (3) فيلعنون من لعنه الله ورسوله عاما، كقوله (ص) : (لعن الله الخمر وعاصرها ومعتصرها، وبائعها، ومشتريها، وساقيها وشاربها، وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها) ولا يلعنون المعين.
كما ثبت في صحيح البخاري وغير: (أن رجلا - كان يدعى حمارا - وكان يشرب الخمر، وكان النبي (ص) يجلده، فأتى به مرة، فلعنه رجل، فقال النبي (ص) : (لا تلعنه.
فإنه يحب الله ورسوله) .
* وذلك لأن اللعنة من باب الوعيد، والوعيد العام قد ينتفي في حق

---

(1) وقد كرر شيخ الأسلام ابن تيمية في أكثر من موضع في مصنفاته القيمة الكثيرة أن الله لا يقبل عملا ما لم يتوفر فيه شيئان: الأول: أن يكون خالصا لوجه الله تعالى الثاني: أن يكون صوابا أي على السنة خاليا من البدع والضلالات.
رحمه الله ابن تيمية.
(2) وفي الحديث الصحيح يقول النبي (ص) : - (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) .

(3) هود (11 / 18) (*)

المعين لأحد الأسباب المذكورة، من توبة، أو حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو شفاعة مقبولة.
وغير ذلك.
* وطائفة من العلماء يلعنون المعين، وطائفة بإزاء هؤلاء يقولون: بل نحبه، لما فيه من الإيمان يوالي عليه، إذ ليس كافرا.
* والمختار عند الأئمة: أنا لا نلعن معينا، ولا نحب معينا، فإن العبد قد يكون فيه سبب هذا وسبب هذا إذا إجتمع فيه من حب الأمرين.
* إذ كان من أصول أهل السنة، التي فارقوا بها الخوارج (1) والمعتزلة (2) والمرجئة (3) : أن الشخص الواحد تجتمع فيه حسنات وسيئات، فيثاب على حسناته، ويعاقب على سيئاته.
ويحمد على حسناته، ويذم على سيئاته.
وأنه من وجه: مرضى محبوب، ومن وجه: بغيض مسخوط، فلذا كان لأهل الأحداث: هذا الحكم.
* وأما أهل التأويل المحض، الذي يسوخ تأويلها: فأولئك مجتهدون مخطئون خطؤهم مغفور لهم.
وهم مثابون على ما أحسنوا فيه من حسن قصدهم واجتهادهم في طلب الحق وأتباعه.
كما قال النبي (ص) : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران.
وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر) .
* ولهذا كان الكلام في السابقين الأولين ومن شهد له بالجنة، كعثمان وعلي وطلحة والزبير ونحوهم: له حكم آخر، بل ومن هو دون هؤلاء، مثل أكابر أهل الحديبية الذين بايعوا تحت الشجرة.
وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة..* وقد ثبت في الصحيح عن النبي (ص) أنه قال: (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) .

---

(1) راجع الفرق بين الفرق للبغدادي ص 24 (2) المرجع السابق ص 24.
(3) السابق ص 25.
(*)

---

* فهؤلاء ونحوهم فيما شجر بينهم: إما أن يكون عمل أحدهم سعيا مشكورا أو ذنبا مغفورا، أو اجتهادا قد عفي لصاحبه عن الخطأ فيه، فلهذا كان من أصول أهل العلم: أنه لا يمكن أحد من الكلام في هؤلاء بكلام يقدح في عدالتهم وديانتهم، بل يعلم أنهم عدول مرضيون، رضي الله عنهم وأرضاهم - لا سيما والمنقول عنهم من العظائم كذب مفتري، مثلما كان طائفة من شيعة عثمان يتهمون عليا بأنه أمر بقتل عثمان، أو أعان عليه، وكان بعض من يقاتله يظن ذلك فيه، وكان ذلك من شبههم التي قاتلوه بها وهي شبهة باطلة.
وكان علي يحلف - وهو الصادق البار -: (إني ما قتلت عثمان، ولا أعنت على قتله) ويقول (اللهم شئت قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل) وكانوا يجعلون امتناعه من تسليم قتله عثمان من شبههم في قتاله.
وعلي لم يكن متمكنا من أن يعمل.
كل ما يريده من إقامة الحدود، ونحو ذلك، لكون الناس مختلفين ملتاث أمرهم، وعسكره وأمراء عسكره غير مطيعين له في كل ما كان يأمرهم به.
فإن التفرق والاختلاف يقوم فيه من الشر والفساد وتعطيل الأحكام ما يعلمه من يكون من العلم العارفين بما جاء من النصوص في فضل الجماعة والإسلام.
* ويزيد بن معاوية: قد أتى أمورا منكرة منها: وقعة الحرة، وقد جاء في الصحيح عن علي رضي الله عنه عن النبي (ص) قال: (المدينة حرم ما بين عاثر إلى كذا.
من أحدث فيها حدثا، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا) وقال (من أراد أهل المدينة بسوء أماعه الله كما ينماع الملح في الماء) .
* ولهذا قيل للإمام أحمد: أتكتب الحديث عن يزيد؟ فقال: لا، ولا
كرامة أو ليس هو الذي فعل بأهل الحرة ما فعل؟.
وقيل له: إن قوما يقولون: إنا نحب يزيد: فقال: وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟ فقيل: فلماذا لا تلعنه؟ فقال: ومتى رأيت أباك يلعن أحدا.

انتهى.

ومذهب أهل السنة والجماعة: أنهم لا يكفرون أهل القبلة بمجرد الذنوب، ولا بمجرد التأويل، بل الشخص الواحد إذا كانت له حسنات وسيئات: فأمره إلى الله تعالى.
* وهذا الذي ذكرناه: هو المتفق عليه بين الناس في مقتله رضي الله عنه.
* وقد رويت زيادات: بعضها صحيح، وبعضها ضعيف، وبعضها كذب موضوع.
* والمصنفون من أهل الحديث في ذلك - كالبغوي، وابن ابي الدنيا، ونحوهما: كالمصنفين من أهل الحديث في سائر المنقولات - هم ذلك أعلم وأصدق بلا نزاع بين أهل العلم.
لأنهم يسندون ما ينقلونه عن الثقات، أو يرسلونه عمن يكون مرسله مقارب الصحة، بخلاف الإخباريين، فإن كثيرا مما يسندونه: يسندونه عن كذاب أو مجهول.
أما ما يرسلونه: فظلمات بعضها فوق بعض، وهؤلاء لعمري ممن ينقل عن غيره مسندا أو مرسلا.
* وإما أهل الأهواء ونحوهم: فيعتمدون على نقل لا يعرف له قائل أصلا، لا ثقة ولا ضعيف، وأهون شئ عندهم الكذب المختلق، وأعلم من فيهم لا يرجع فيما ينقله إلى عمدة، بل إلى سماعات عن المجاهيل والكذابين، وروايات عن أهل الإفك المبين.
* فقد تمن أن القصة التي يذكرون فيها حمل الرأس إلى يزيد، ونكته بالقضيب: كذبوا فيها: وإن كان الحمل إلى ابن زياد - وهو الناكت بالقضيب - ولم ينقل بإسناد معروف عن الرأس حمل إلى قدام يزيد.
* ولم أر في ذلك إلا إسنادا منقطعا، قد عارضه من الروايات ما هو أثبت منها وأظهر - نقلوا فيها: أن يزيد لما بلغه مقتل الحسين أظهر التألم (1) من ذلك.

(1) وقال في ذلك الإمام محمد بن حرير الطبري: - (... فدمعت عين يزيد وقال: قد كنت أرضي من طاعتكم بدون مقتل الحسين، لعن الله =

وقال: لعن الله أهل العراق، لقد كنت أرضى من طاعتهم بدون هذا.
* وقال في ابن زياد: أما إنه لو كان بينه وبين الحسين رحم لما قتله (2) ، وأنه ظهر في داره الندب لقتل الحسين، وأنه لما قدم عليه أهله وتلاقي النساء تباكن، وأنه خبر ابنه عليا بين المقام عنده والسفر إلى المدينة، فأختار السفر إلى المدينة فجهزه إلى المدينة جهازا حسنا.
* فهذا ونحوه مما نقلوه بالأسانيد التي هي أصح وأثبت من ذلك الإسناد المنقطع المجهول: يبين أن يزيد لم يظهر الرضى بقتل الحسين، وأنه أظهر الألم لقتله.
والله أعلم بسريرته.
* وقد علم أنه يأمر (1) بقتله ابتداء، لكنه مع ذلك ما انتقم من قاتليه، ولا عاقبهم على ما فعلوا، إذ كانوا قتلوه لحفظ ملكه، ولو قام بالواجب في الحسين وأهل البيت رضي الله عنهم أجمعين، ولم يظهر له من العدل وحسن السيرة ما يوجب حمل أمره على أحسن المحامل، ولا نقل أحد أنه كان على أسوإ الطرائق التي توجب الحد، ولكن ظهر من أمره في أهل الحرة ما لا نستريب أنه عدوان محرم وكان له موقف في القسطنطينية - وهو أول جيش غزاها - ما يعد من الحسنات.
* والمقصود هنا: أن نقل رأس الحسين إلى الشام لا أصل له في زمن
يزيد، فكيف بنقله بعد زمن يزيد؟ وإنما الثابت: هو نقله إلى أمير العراق عبد الله بن (2) زياد بالكوفة، والذي ذكر العلماء، أنه دفن بالمدينة.

= ابن سمية، أما والله لو أني صاحبة لعفوت عنه، فرحم الله الحسين) 1.
هـ.
ثم بعد ذلك يقول: (أن يزيد بن معاوية قال لما وضعت الرؤوس بين يديه - رأس الحسين وأهل بيته وأصحابه - قال يزيد: يفلقن هاما من رجال أعزة علينا، وهم كانوا أعق وأظلما.
أما والله يا حسين لو أنا صاحبك ما قتلتك) 1.
هـ.

تاريخ الطبري (4 / 354) .
(2) قال يزيد: - (قبح الله ابن مرجانة لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم، ولا بعث بكم هكذا) تاريخ الطبري (4 / 353) (1) لعل الأصح والمقصود (لم يأمر) (2) كذا ورد بالأصل والأصح (عبيد الله بن زياد) (*)

---

* وأما ما يرويه من لا عقل له يميز به ما يقول، ولا له إلمام بمعرفة المنقول: من أن أهل البيت سبوا، وأنهم حملوا على البخاتي، وأن البخاتي نبت لها من ذلك الوقت سنامان: فهذا الكذب الواضح الفاضح لمن يقوله.
فإن البخاتي لا تستر امرأة، ولا سبي أهل البيت أحد، ولا سبي منهن أحد.
بل هذا كما يقولون: الحجاج قتلهم.
* وقد علم أهل النقل كلهم.
أن الحجاج لم يقتل أحدا من بني هاشم، كما عهد إليه خليفته عبد الملك، وأنه لما تزوج بنت عبد الله بن جعفر: شق ذلك على بني أمية وغيرهم من قريش، ورأوه ليس بكفء لها، ولم يزالوا به حتى فرقوا بينه وبينها.
بل بنو مروان على الإطلاق لم يقتلوا أحدا من بني هاشم، لا آل علي، ولا آل عباس، إلا زيد بن علي (1) المطلوب بكناسة الكوفة، وابنه يحيى.
* الوجه الخامس أنه لو قدر أنه حمل إلى يزيد فأي غرض لهم في دفنه بعسقلان، وكانت إذ ذاك ثغرا بقيم بها المرابطون؟ فإن كان قصدهم تعفية خبره فمثل عسقلان تظهره، لكثرة من ينتابها للرباط، وإن كان قصدهم بركة البقعة فكيف يقصد هذا من يقال: إنه عدو له مستحل لدمه، ساع في قتله؟ * ثم من المعلوم: أنه دفنه قريبا عند أمه وأخيه بالبقيع أفضل له.
الوجه السادس أن دفنه بالبقيع: هو الذي تشهد له عادة القوم، فإنهم كانوا في الفتن، إذا قتل الرجل فيهم - لم يكن منهم - سلموا رأسه وبدنه إلى أهله، كما فعل الحجاج بابن الزبير لما قتله وصلبه، ثم سلمه إلى أهله.
* وقد علم أن سعي الحجاج في قتل ابن زبير، وأن ما كان بينه وبينه من الحروب: أعظم بكثير مما كان بين الحسين وبين خصومه، فأن ابن زبير ادعاها بعد مقتل الحسين، وبايعه أكثر الناس، وحاربه يزيد حتى مات وجيشه محاربون له بعد الحرة.

---

(1) وقد خرج على هشام بن عبد الملك بن مروان لينتزع الملك والخلافة منه فقتله هشام بن عبد الملك في صفر سنة 122 هـ. (*)

---

* ثم تولى عبد الملك غلبه على العراق مع الشام، ثم بعث إليه الحجاج ابن يوسف، فحاصره الحصار المعروف حتى قتل، ثم صلبه، ثم سلمه إلى أمه.
* وقد دفن بدن الحسين في مصرعة بكربلاء، ولم ينبش، ولم يمثل به فلم يكونوا يمتنعون من تسليم رأسه إلى أهله، كما سلموا بدن ابن الزبير إلى أهله، وإذا تسلم أهله رأسه، فلم يكونوا ليدعوا دفنه عندهم بالمدينة المنورة عند عمه وأمه وأخيه، وقريبا من جده (ص) ، ويدفنونه بالشام، حيث لا أحد إذ
ذاك ينصرهم على خصومهم؟ بل كثير منهم كان يبغضه ويبغض أباه.
هذا لا يفعله أحد.
* والقبة التي على العباس (1) يقال: إن مع العباس الحسن، وعلى ابن الحسين وأبا جعفر محمد بن علي وجعفر بن محمد.
ويقال: إن فاطمة تحت الحائط، أو قريبا من ذلك وأن الرأس الحسين هناك أيضا.
الوجه السابع أنه لم يعرف قط أن أحدا، لا من السنة، ولا من الشيعة، كان ينتاب ناحية عسقلان لأجل رأس الحسين، ولا يزورونه ولا يأتونه، كما أن الناس لم يكونوا ينتابون الأماكن التي تضاف إلى الرأس في هذا الوقت، كموضع بحلب.
* فإذا كانت تلك البقاع لم يكن الناس ينتابونها (2) ولا يقصدونها، وإنما كانوا ينتابون كربلاء، لأن البدن هناك.
كان دليلا على أن الناس فيما مضى لم يكونوا يعتقدون أن الرأس في شئ من هذه البقاع، ولكن الذي اعتقدوه: هو وجود البدن بكربلاء، حتى كانوا ينتابونه في زمن أحمد وغيره، حتى إن في مسائله: مسائل فيما يفعل عند قبره، ذكرها أبو بكر الخلال في جامعة الكبير في زيارة المشاهد.
* ولم يذكر أحد من العلماء أنهم كانوا يزورون التي بالشام موضع الرأس في شئ من هذا البقاع غير المدينة.

---

(1) بالبقيع في المدينة.
(2) ينتابونها: ينتهون إليها.

(*)

---

* فعلم أن ذلك لو كان حقا لكان المتقدمون به أعلم.
ولو اعتقدوا ذلك لعلموا ما جرت عادتهم بعلمه، ولأظهروا ذلك وتكلموا به، كما تكلموا في نظائره.
* فلما لم يظهر عن المتقدمين - بقول ولا فعل - ما يدل على أن الرأس في هذه البقاع: علم أن ذلك الباطل.
والله أعلم.
الوجه الثامن أن يقال: ما زال أهل العلم في كل وقت وزمان يذكرون في هذا المشهد القاهري المنسوب إلى الحسين: أنه كذب ومين (1) ، كما يذكرون ذلك في أمثاله من المشاهد المكذوبة، مثل المشاهد المنسوبة بدمشق إلى أبي بن كعب وأويس القرني، أو هود أو نوح أو غير هما: والمشهد المنسوب بحران إلى جابر بن عبد الله (2) ، وبالجزيرة إلى عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر ونحوهما.
وبالعراق إلى علي رضي الله عنه ونحوه، وكذلك ما يضاف إلى الأنبياء غير قبر نبينا محمد (ص) ، وإبراهيم الخليل عليه السلام.
* فإنه لما كان كثير من المشاهد مكذوبا مختلقا، كان أهل العلم في كل وقت يعلمون أن ذلك كذب مختلق، والكتب والمنصفات المعروفة عن أهل العلم بذلك مملوءة من ثمل هذا.
يعرف ذلك من تتبعه وطلبه.
* وما زال الناس في مصنفاتهم ومخاطباتهم يعلمون أن هذا المشهد القاهري من المكذوبات المختلقات، ويذكرون ذلك في المنصفات، حتى من سكن هذا البلد من العلماء بذلك.
فقد ذكر أبو الخطاب بن دحية في كتابه (العلم المشهور) في هذا المشهد فصلا مع ما ذكره في مقتل الحسين من أخبار ثابتة وغير ثابتة، ومع هذا فقد ذكر أن المشهد كذب بالإجماع، وبين أنه نقل من عسقلان في آخر الدولة العبيدية،

---

(1) المين: بفتح الميم وسكون الياء: الكذب والافتراء.
(2) وكذلك قبر سيدي جابر بالاسكندرية كذب مفتري روجت له طائفة من المنتفعين.
(*)

وأنه وضع لأغراض فاسدة، وأنه بعد ذلك بقليل أزال الله تلك الدولة وعاقبها بنقيض (1) قصدها.
* وما زال ذلك مشهورا بين أهل العلم حتى أهل عصرنا من ساكني الديار المصرية: القاهرة، وما حولها.
* فقد حدثني طائفة من الثقات، عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي القشيري المعروف بابن دقيق العيد، وطائفة عن الشيخ أبي محمد عبد المؤمن ابن خلف الدمياطي، وطائفة عن الشيخ أبي محمد بن القسطلاني، وطائفة عن الشيخ أبي عبد الله محمد القرطبي، صاحب التفسير وشرح أسماء الله الحسني، وطائفة عن الشيخ عبد العزيز الديريني - كل من هؤلاء حدثني عنه من لا أتهمه، وحدثني عن بعضهم عدد كثير، كل يحدثني عمن حدثه من هؤلاء: أنه كان ينكر أمر هذا المشهد ويقول: إنه كذب، وأنه ليس فيه الحسين ولا رأسه.
والذين حدثوني عن ابن القسطلاني ذكروا عنه أنه قال: إن فيه نصرانيا، بل القرطبي والقسطلاني ذكروا بطلان أمر هذا المشهد في مصنفاتهما.
وبينا فيها أنه كذب، كما ذكره أبو الخطاب بن دحية.
* وابن دحية هو الذي بنى له الكامل دار الحديث الكاملية، وعنه أخذ أبو عمرو ابن الصلاح ونحوه كثيرا مما أخذوه من ضبط الأسماء واللغات، وليس الاعتماد في هذا على واحد بعينه، بل هذا إجماع من هؤلاء.
* ومعلوم أنه لم يكن بهذه البلاد من يعتمد عليه في مثل هذا الباب أعلم وأدين (2) من هؤلاء ونحوهم * فإذا كانوا متفقين على أن هذا كذب ومين: علم أن الله قد برأ منه الحسين.

---

(1) وأصعب وأشق الأمور معاقبة الجاني بنقيض مقصوده وقد أقر الشارع هذا في الفقه الإسلامي فإن قاتل والديه لا يورث، إذ أنه قتل ليتعجل الميراث فعامله الشرع بنقيض مقصودة فقال لا
يرث.

(2) كذا ورد بالأصول وقصد المؤلف رحمه الله أن يقول: أعلم وأدين أي أكثر علما وأخلص دينا.
(*)

* وحدثني من حدثني من الثقات: أن من هؤلاء من كان يوصي أصحابه بأن لا يظهروا ذلك عنه، خوفا من شر العامة بهذه البلاد، لما فيهم من الظلم والفساد.
إذ كانوا في الأصل رعية للقرامطة (1) الباطنيين، واستولوا عليها مائتي سنة.
فزرعوا فيهم من أخلاق الزنادقة المنافقين، وأهل الجهل المبتدعين، وأهل الكذب الظالمين: ما لم يمكن أن ينقلع إلا بعد حين، فإنه قد فتحها أهل الإيمان والسنة في الدولة النورية والصلاحية، وسكنها من أهل الإسلام والسنة من سكنها، وظهرت بها كلمة الإيمان والسنة نوعا من الظهور، ولكن النفاق والبدعة فيها كثير متور، وفي كل وقت يظهر الله فيها من الإيمان والسنة ما لم يكن مذكورا، ويطغي فيها من النفاق والجهل ما كان مستورا.
* والله هو المسؤول أن يظهر بسائر البلاد ما يحبه ويرضاه، من الهدى والسداد ويعظم على عباده الخير بظهور الإسلام والسنة.
ويحقق ما وعد به في القرآن من علو كلمته، وظهور أهل الإيمان.
* وكثير من الناس قد تخلق بأخلاق هي في الأصل من أخلاق الكفار والمنافقين وإن لم يكن بذلك من العارفين، كما يشارك النصارى في أعيادهم، ويعظم ما يعظمونه من الأمكنة والأزمنة والأعمال.
وهو لا يقصد بذلك تعظيم الكفر، بل ولا يعرف أن ذلك من خصائصهم، فإذا عرف ذلك انتهى عنه وتاب منه.
* وكذلك كثير من الناس تخلقوا من أخلاق أهل النفاق بأمور، لا يعرف أنها من أخلاق المنافقين، وإذا عرف ذلك كان إلى الله من الطائبين.
والله يتوبوا علينا وعلى جميع المذنبين.
وهذا كله كلام في بطلان ذلك، وفي كذبه.
* ثم نقول: سواء كان صحيحا أو كذبا، فإن بناء المساجد على المقابر ليس من دين المسلمين، بل هو منهى عنه بالنصوص الثابتة عن النبي (ص) واتفاق أئمة الدين، بل لا يجوز اتخاذ القبور مساجد، سواء كان ذلك ببناء

(1) ولا تزال أرض القرامطة حتى الآن موجود في بني عبيد، وهي من أعمال مديرية الدقهلية من القطر المصري.

المسجد عليها، أو بقصد الصلاة عندها، بل أئمة الدين متفقون على النهى عن ذلك وأنه ليس لأحد أن يقصد الصلاة عند قبر أحد، لا نبي ولا غير نبي، وكل من قال: إن قصد الصلاة عند قبر أحد، أو عند مسجد بني (1) على قبر أو مشهد، أو غير ذلك: أمر مشروع، بحيث يسحب ذلك ويكون أفضل من الصلاة في المسجد الذي لا قبر فيه: فقد مرق من الدين، وخالف إجماع المسلمين.
والواجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.
* بل ليس لأحد أن يصلي في المساجد التي على القبور (2) ولو لم يقصد الصلاة عندها، فلا يفعل ذلك لا اتفاقا ولا ابتغا، لما في ذلك من التشبه بهم، والذريعة إلى الشرك، ووجوب التنبيه عليه وعلى غيره، كما قد نص على ذلك أئمة الإسلام من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم.

(1) كذا بالأصل والأصح (نبي) وهو تصحيف.
(2) ولما كان مرض النبي (ص) تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية - وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة - فذكرن من حسنها وتصاويرها قالت: فرفع النبي (ص) رأسه فقال: - (أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) والحديث رواه البخاري (1 / 416، 422) ومسلم (2 / 66) والنسائي (1 / 115) : وأحمد (6 / 51) وابن سعد في طبقاته (2 / 240، 241) .
وقال الحافظ بن رجب في فتح الباري (65 / 82 / 2) : (وهذا الحديث يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم فيها كما يفعله اليهود والنصارى ولا ريب أن كل واحد منهما محرم على انفراده) ا.
هـ.

ومن الحديث آخر عن جندب بن عبد الله البجلي أنه سمع النبي (ص) قبل أن يموت بخمس وهو يقول: - (قد كان لي فيكم إخوة وأصدقاء، وإني أبرأ - أنكر - إلى الله أن يكون لي فيكم خليل، وإن الله عز وجل قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) رواه مسلم (2 / 67 - 68) وأبو عوانه (1 / 401) والطبراني في معجمه الكبير (1 / 84 / 2) كذلك رواه ابن سعد (2 / 340) مختصرا دون ذكر الأخوة واتخاذ الخليل.
ولكن الحافظ نور الدين الهيثمي ضعفه في مجمع الزوائد (9 / 45) وقد كان من دعائه (ص) : - (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) =

منهم من صرح بالتحريم (1) .
ومنهم من أطلق الكراهة.
وليست هذه المسألة عندهم مسألة الصلاة في المقبرة العامة.
فإن تلك منهم من يعلل النهي عنها بنجاسة التراب، ومنهم من يعلله بالتشبه بالمشركين.
* وأما المساجد المبنية على القبور.
فقد كرهوه، ومعللين بخوف الفتنة (2) بتعظيم المخلوق، كما ذكر ذلك الشافعي وغيره من سائر أئمة المسلمين.
* وقد نهى النبي (ص) عن الصلاة عند طلوع الشمس، وعند غروبها، وقال (إنه حينئذ يسجد لها الكفار) فنهى عن ذلك، لما فيه من المشابهة لهم، وإن لم يقصد السجود إلا للواحد المعبود (3) .

= رواه أحمد رقم (7352) وابن سعد (2 / 241، 242) وأبو نعيم في الحلية (7 / 317) بسند صحيح.
(1) وقد ذهب الشافعية إلى أنه كبيرة فقد قال الهيثمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر (1 / 120) : - (الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادة والسابعة والثامنة والتاسعة اتخاذ القبور مساجد وإيقاد السرج عليها، واتخاذها أوثانا والطواف بها واستلامها والصلاة إليها) وعقب على ذلك الإمام محمود الألوسي بقوله: - (وهذا كلام يدل على فهم وفقه في الدين) راجع روح المعاني للألوسي (5 / 31) أما مذهب الحنفية فهو الكراهة التحريمية، فالكراهة عند الحنفية إنما يقصد بها التحريم يقول تلميذ أبي حنفية الإمام محمد: - (لا نرى أن يزداد على ما خرج من القبر، ونكره أن يجصص أو أو يطين أو يجعل عنده مسجدا) راجع كتاب الآثار ص 45.
أما المالكية فمذهبهم التحريم: يقول القرطبي رحمه الله: - (قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد) الجامع لأحكام القرآن (10 / 38) ط.
دار الكتب المصرية.
أما مذهب إمام أهل السنة أحمد بن حنبل فهو التحريم: يقول ابن القيم: - (... وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد، نص على ذلك الإمام أحمد وغيره فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعا معا لم يجز ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز، ولا تصح الصلاة في هذا المسجد لنهي رسول الله (ص) عن ذلك ولغنه من التخذ القبر مسجدا، أو أو قد عليه سراجا فهذا
مسجدا) راجع كتاب الآثار ص 45.
أما المالكية فمذهبهم التحريم: يقول القرطبي رحمه الله: - (قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد) الجامع لأحكام القرآن (10 / 38) ط.
دار الكتب المصرية.
أما مذهب إمام أهل السنة أحمد بن حنبل فهو التحريم: يقول ابن القيم: - (... وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد، نص على ذلك الإمام أحمد وغيره فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعا معا لم يجز ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز، ولا تصح الصلاة في هذا المسجد لنهي رسول الله (ص) عن ذلك ولغنه من التخذ القبر مسجدا، أو أو قد عليه سراجا فهذا دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ونبيه وغربته بين الناس كما ترى!) راجع زاد المعاد لأبن القيم (3 / 22) ط.
الكردي (2) وهذا من قبيل سد الذرائع.

راجع تفسير القرطبي (2 / 57) والموافقات للشاطبي (2 / 241 - 253) و (4 / 122) وإعلام الموقعين لابن القيم (3 / 136) (3) ولذلك فنحن في صلاة الجنازة لا نسجد ولكن نصلي قياما أو قائمين والحكمة في ذلك أي في خلو = (*)
= صلاة الجنازة من السجود إنما لسد ذريعة السجود لغير الله، حتى لا يظن السجود لغير الله.
فتأمل عزيزي القارئ عافاك الله وجعلنا وإياك من المقربين تدبر وتأمل دقة التشريع في سد الذريعة ... ! ! (*)

فكيف بالصلاة في المساجد التي على القبور؟ وهذه المسألة قد بسطناها في غير هذا الجواب.
* وإنما كان المقصود: تحقيق مكان رأس الحسين رضي الله عنه، وبيان أن الأمكنة المشهورة عند الناس بمصر والشام: أنها مشهد الحسين، وأن فيها رأسه فهي كذب واختلاق، وإفك وبهتان.
والله أعلم.

17\214

الكتاب: قاعدة مختصرة في وجوب طاعة الله ورسوله وولاة الأمور

المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي)
(المتوفى: 728هـ)
المحقق: عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر

قام باختزال صفحاته وتوضيبه: عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي(في 7 صفحات فقط)
بعنوان: مختزل النور في وجوب طاعة الله ورسوله وولاة الأمور

بسم الله الرحمن الرحيم
المقدمة
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام عل نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تعريف موجز برسالة ابن تيمية المحققة
وفي هذه الرسالة التي بين أيدينا أبان شيخ الإسلام منهج أهل السنة والجماعة مع ولاة أمرهم، وأورد على ذلك الدلائل الكثيرة والحجج الوفيرة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهي رغم صغر حجمها إلا أنها وافية كافية.
وقد ضمنها- رحمه الله- فصلا مستقلا رد فيه على من يفتي الناس بالخروج على ولاة الأمور، ونزع اليد من طاعتهم، قال فيه: " ... ومن أفتى مثل هؤلاء بمخالفة ما حلفوا عليه [أي: من لزوم الطاعة والنصيحة للولاة] والحنث في أيمانهم، فهو مفتر على الله الكذب، مفت بغير دين الإسلام ... ".
وقد سبق أن طبعت رسالته هذه ضمن مجموع فتاواه (35/5-17) ، ورأيت مناسبة طبعها مفردة ليعم نفعها وتعظم فائدتها، وقد عنيت في هذه الطبعة تصحيح الأخطاء المطبعية اليسيرة الواقعة في الأصل، وعزوت الآيات إلى أماكنها، وخرجت الأحاديث باختصار، وعلقت على مواطن يسيرة منها، وجعلت بين يدي الرسالة مقدمة نقلت فيها جملة من النقول المبينة لمنهج أهل السنة والجماعة مع ولاة أمرهم.
هذا والله الكريم أسأل أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله لوجهه خالصا ولسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مطابقا إنه سميع مجيب قريب.
وكتب: عبد الرزاق البدر

نص الرسالة
الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليما.
أما بعدة فهذه قاعدة مختصرة في وجوب طاعة الله ورسوله في كل حال على كل أحد، وأن ما أمر الله به ورسوله من طاعة الله وولاة الأمور ومناصحتهم واجب، وغير ذلك من الواجبات.
قال الله تعالى: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا} 1، وقال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء

1 سورة النساء: الآية 58.

فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا} 1.
فأمر الله المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر منهم، كما أمرهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول.

قال العلماء: الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول بعد موته هو الرد إلى سنته، قال الله تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء

---

1 سورة النساء: الآية 59.

إلى صراط مستقيم} 1 فجعل الله الكتاب الذي أنزله هو الذي يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.
وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام يصلي بالليل يقول: "اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" 2.
وفي صحيح مسلم عن تميم الداري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة ". قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين3

---

1 سورة البقرة: الآية 213.
2 صحيح مسلم (1/ 534) ، ورواه أحمد (6/ 156) ، وأبو داود (487/1) ، وابن حبان (الإحسان: 337/6) ، والبغوي في شرح السنة (71/4) .
3 قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي- رحمه الله- في توضيح هذا الحديث: " ... وأما النصيحة لأئمة المسلمين، وهم ولاتهم من السلطان الأعظم إلى الأمير، إلى القاضي إلى جميع من لهم ولاية صغيرة أو كبيرة، فهؤلاء لما كانت مهماتهم وواجباتهم أعظم من غيرهم، وجب لهم من النصيحة بحسب مراتبهم ومقاماتهم، وذلك باعتقاد إمامتهم والاعتراف بولايتهم، ووجوب طاعتهم بالمعروف، وعدم الخروج عليهم، وحث الرعية على طاعتهم، ولزوم أمرهم الذي لا يخالف أمر الله ورسله، وبذل ما يستطيع الإنسان من نصيحتهم، وتوضيح ما خفي
عليهم مما يحتاجون إليه في رعايتهم، كل أحد بحسب حاله، والدعاء لهم بالصلاح والتوفيق، فإن صلاحهم صلاح لرعيتهم، واجتناب سبهم والقدح فيهم وإشاعة مثالبهم، فإن في ذلك شرا وضررا وفسادا كبيرا فمن نصيحتهم الحذر والتحذير من ذلك، وعلى من رأى منهم ما لا يحل أن ينبههم سرا لا علنا بلطف وعبارة تليق بالمقام ويحصل بها المقصود، فإن هذا مطلوب في حق كل أحد، وبالأخص ولاة الأمور، فإن تنبيههم عل هذا الوجه فيه خير كثير، وذلك علامة الصدق والإخلاص.
واحذر أيها الناصح لهم عل هذا الوجه المحمود أن تفسد نصيحتك بالتمدح عند الناس فتقول لهم: إني نصحتهم وقلت وقلت.
فإن هذا عنوان الرياء، وعلامة ضعف الإخلاص، وفيه أضرار أخر معروفة". الرياض الناضرة (ص 49، 50) .
ويشهد لما ذكره- رحمه الله- من لزوم مسارة ولي الأمر بالنصيحة ما رواه ابن أبي عاصم في السنة (507/2) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبده علانية ولكن يأخذ بيده فيخلوا به فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه" وصححه العلامة الألباني حفظه الله.

وعامتهم " 1.
وفي صحيح مسلم أيضا عن أبي هريرة- رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم " 2.
وفي السنن من حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- وزيد بن ثابت- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه غير فقيه، ثلاث لا يغل

---

1 صحيح مسلم (74/1) .
2 صحيح مسلم (3/ 1340) .

عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم) 1.

---

1 رواه الشافعي (بدائع المنن:14/1) والترمذي (5/ 34) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (1/ 40) والبغوي في شرح السنة (236/1) من طريق سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه رضي الله عنه.
وقال الترمذي:"هذا حديث حسن صحيح ".
ورواه احمد (5/ 183) والدارمي (1/ 75) وابن حبان (الإحسان: 454/2) من طريق شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت- رضي الله عنه-، وقال ابن حجر: "هذا حديث صحيح"كما في فيض القدير للمناوي (6/ 285) . وانظر: تخريج الحديث مفصلا في كتاب الوالد الشيخ عبد المحسن العباد- حفظه الله- الموسوم بـ "دراسة حديث: نضر الله امرءا سمع مقالتي ... رواية ودراية"وهو مطبوع متداول.

و"يغل "بالفتح هو المشهور1، ويقال: على صدره فغل2 إذا كان ذا غش وضغن وحقد، أي: قلب المسلم لا يغل على هذه الخصال الثلاثة، وهي الثلاثة المتقدمة في قوله: "إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم"فإن الله إذا كان يرضاها لنا لم يكن قلب المؤمن الذي يحب ما يحبه الله يغل عليها، يبغضها ويكرهها فيكون في قلبه عليها غل، بل يحبها قلب المؤمن ويرضاها" 3.

---

1 قال أبو عيد القاسم بن سلام: (وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن ... " فإنه يروى لا يغل ولا يغل.
فمن قال: يغل بالفتح فإنه يجعله من الغل وهو الحقد والضغن والشحناء، ومن قال: يغل بضم الياء جعله من الخيانة من الإغلال) . غريب الحديث له (1/ 199، 200) .
2 كذا في الأصل، والصواب: غل صدره يغل.
3 يؤكد هذا المعنى الذي ذكره شيخ الإسلام أن الدارمي خرج الحديث بلفظ: "لا يعتقد قلب مسلم على ثلاث خصال إلا دخل الجنة ... " سنن الدارمي (1/ 75) .

وفي صحيح البخاري ومسلم وغيرها عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: "بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثره علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول أو نقوم بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم " 1.
وفي الصحيحين أيضا عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة" 2.
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك" 3.
ومعنى قوله: "وأثرة عليك"و"أثرة علينا"أي: وإن

---

1 البخاري (4/ 343) ومسلم (1470/3) .
2 البخاري (4/ 329) ومسلم (3/ 1469) .
3 مسلم (1467/3) .

استأثر ولاة الأمور عليك فلم ينصفوك ولم يعطوك حقك، كما في الصحيحين عن أسيد بن حضير- رضي الله عنه- أن رجلا من الأنصار خلا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ألا تستعملني كما استعملت فلانا؟ فقال: "إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض" 1.
وهذا كما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها تكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها"يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: "تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم" 2.
وفي صحيح مسلم عن وائل بن حجر – رضي الله عنه- قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم، ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله،

1 البخاري (43/3) ، ومسلم (1474/3) .
2 البخاري (4/ 312) ومسلم (3/ 1472) .

فأعرض ثم سأله في الثانية أو في الثالثة فجذبه الأشعث ابن قيس1 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا، وعليكم ما حملتم" 2.
فذلك ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم هو واجب على المسلم، وإن استأثروا عليه، وما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم معصيتهم فهو محرم عليه وإن أكره عليه 3.

1 في الأصل: فحدثه الأشعث بن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتصويب من صحيح مسلم.
2 صحيح مسلم (1474/3) .
3 قال ابن أبي العز الحنفي عند شرحه لقول الطحاوي: "ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا ... "، قال: " ... وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا؛ فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فإن الله ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل. قال تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير} ... وقال تعالى: {وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون} فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير فليتركوا الظلم ... "شرح العقيدة الطحاوية (ص370) .

فصل

وما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب على الإنسان وإن لم يعاهدهم عليه، وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة، كما يجب عليه الصلوات الخمس والزكاة والصيام وحج البيت وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله من الطاعة، فإذا حلف عل ذلك توكيدا وتثبيتا لما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم، فالحالف على هذه الأمور لا يحل له أن يفعل خلاف المحلوف عليه سواء حلف بالله أو غير ذلك من الأيمان التي يحلف بها المسلمون، فإن ما أوجبه الله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب وإن لم يحلف عليه، فكيف إذا حلف عليه!؟ وما نهى الله ورسوله عن معصيتهم وغشهم محرم وإن لم يحلف على ذلك.
وهذا كما أنه إذا حلف ليصلين الخمس، وليصومن شهر رمضان، أو ليقضين الحق الذي عليه، ويشهدن بالحق، فإن هذا واجب عليه وإن لم يحلف عيه، فكيف إذا حلف عليه؟! وما نهى الله عنه ورسوله من الشرك والكذب وضرب الخمر والظلم والفواحش وغش ولاة الأمور والخروج عما أمر الله به من طاعتهم هو محرم وإن لم يحلف عليه، فكيف إذا حلف عليه؟!
ولهذا من كان حالفا على ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم أو الصلاة أو الزكاة أو صوم رمضان أو أداء الأمانة والعدل ونحو ذلك، لا يجوز لأحد أن يفتيه بمخالفة ما حلف عليه والحنث في يمينه، ولا يجوز له أن يستفتي في ذلك. ومن أفتى مثل هؤلاء بمخالفة ما حلفوا عليه والحنث في أيمانهم فهو مفتر على الله الكذب، مفت بغير دين الإسلام، بل لو أفتى آحاد العامة بأن يفعل خلاف ما حلف عليه من الوفاء في عقد بيع أو نكاح أو إجاره أو غير ذلك مما يجب عليه الوفاء به من العقود التي يجب الوفاء بها وإن لم يحلف عليها، فإذا حلف كان أوكد، فمن أفتى مثل هذا بجواز نقض هذه العقود والحنث في يمينه كان مفتريا على الله الكذب مفتيا بغير دين الإسلام، فكيف إذا كان ذلك في1 معاقدة ولاة الأمور التي هي أعظم العقود التي أمر الله بالوفاء بها2.
وهذا كما أن جمهور العلماء يقولون: يمين المكره بغير حق لا ينعقد سواء كان بالله أو النذر أو الطلاق أو العتاق، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد.
ثم إذا أكره ولي الأمر الناس على ما يجب عليهم من طاعته ومناصحته وحلفهم على ذلك لم يجز لأحد أن يأذن لهم في ترك ما أمر الله به ورسوله من ذلك، ويرخص لهم

1 تكرر حرف الجر في الأصل.

2 ولهذا يسمى ولاة الأمور أهل العقدة قال الخطابي في غريب الحديث (318/2) : "وإنما قيل لهم أهل العقدة؛ لأن الناس قد عقدوا لهم البيعة وأعطوهم الصفقة، ومعنى العقدة أي: البيعة المعقودة لهم".

في الحنث في هذه الأيمان هـ لأن ما كان واجبا بدون اليمين فاليمين تقويه لا تضعفه، ولو قدر1 أن صاحبها أكره عليها.
ومن أراد أن يقول بلزوم المحلوف مطلقا في بعض الأيمان؟ لأجل تحليف ولاة الأمور أحيانا، قيل له. وهذا يرد عليك فيما تعتقده في يمين المكره، فإنك تقول: لا يلزم فان حلف بها ولاة الأمور، ويرد عليك في أمور كثيرة تفتي بها في الحيل، مع ما فيه من معصية الله تعالى ورسوله وولاة الأمور.
ما أهل العلم والدين والفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه من معصية ولاة الأمور، وغشهم، والخروج عليهم، بوجه من الوجوه، كما قد عرف من عادات أهل السنة، الدين قديما وحديثا ومن سيرة غيرهم2.
وقد ثبت في الصحيح عن ابن عمر- رضي الله عنه-

---

1 في الأصل: "ولو قد".
2 والنقول عن أهل السنة في ذلك كثير جدا، انظر جملة منها في المقدمة.

عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند أسته بقدر غدره" قال: وإن من أعظم الغدر يعني بإمام المسلمين1، وهذا حدث به عبدالله بن عمر لما قام قوم من أهل المدينة يخرجون عن طاعة ولي أمرهم ينقضون بيعته"2.

---

1 كذا في الأصل ولعل الصواب: وإن من أعظم الغدر الغدر بإمام المسلمين.
2 رواه البخاري (4/ 322) ومسلم (3/ 1360) ولفظ البخاري عن نافع قال: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال: (إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة"وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله روسوله وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله روسوله ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحدا منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه)
قال التيمي في الحجة (523/2) – وقد روى هذا الأثر -: "قال أهل اللغة: والفيصل: القطيعة والهجران.
قال ابن حجر- رحمه الله-: "وفي هذا الحديث وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه ولو جار في حكمه، وأنه لا ينخلع بالفسق"الفتح (71/13) .
وفي صحيح مسلم عن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثا، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من خلع يدا [من طاعة] ، 1 لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية" 2.
وفي الصحيحين عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رأى من أمير شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه ليس أحد من الناس يخرج من السلطان شبرا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية" 3.
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من خرج من الطاعة، وفارق

---

1 زيادة من مصدر الخريج.
2 صحيح مسلم (3/ 1478) .
3 البخاري (4/ 313) ومسلم (1478/3) .

الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، عن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية فقتل فقتلة جاهلية" 1. وفي لفظ: "ليس من أمتي من خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشا من مؤمنها، ولا يفي2 لذي عهدها، فليس مني ولست منه " 3.
فالأول: هو الذي يخرج من طاعة ولي الأمر ويفارق الجماعة.

والثاني. هو الذي يقاتل لأجل العصبية والرياسة لا في سبيل الله، كأهل الأهواء مثل قيس ويمن.
والثالث: مثل الذي يقطع الطريق فيقتل من لقيه من مسلم وذمي، ليأخذ ماله، وكالحرورية المارقين الذين قاتلهم علي بن أبي طالب الذين4 قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: "يحقر أحدكم صلاته مع صلاكم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم،

1 صحيح مسلم (3/ 1476) .
2 وفي الأصل: ولا يوفي.
3 صحيح مسلم (1477/3) .
4 في الأصل: الذي.

يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة" 1.
وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بطاعة ولي الأمر وإن كان عبدا حبشيا، كما في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة" 2.
وعن أبي ذر قال: أوصاني خليلي: "أن اسمعوا وأطيعوا ولو كان حبشيا مجدع الأطراف" 3.
وعند البخاري4: "ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة" 5.

1 رواه البخاري (353/3) ومسلم (2/ 743) عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه-.
2 رواه البخاري (4/ 329) من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه-، ولم أجده في صحيح مسلم، وقد أورده شيح الإسلام في منهاج السنة (3/ 382) وعزاه للبخاري فقط.
3 رواه مسلم (1467/3) .
4 في الأصل "وعن البخاري". وقارن بشرح العقيدة الطحاويه (ص 368) .
5 صحيح البخاري (1/ 230) .

وفي صحيح مسلم عن أم الحصين- رضي الله عنها-: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجة الوداع وهو يقول: "ولو استعمل عبد1 يقودكم بكتاب الله، اسمعوا وأطيعوا" 2، وفي رواية: "عبد حبشي مجدعا" 3.
وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك- رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عيكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم" قلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟ قال. "لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية [الله] فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة " 4.

1 في الأصل: "عبدا".
2 صحيح مسلم (1468/3) .
3 صحيح مسلم (3/ 1468) .
4 صحيح مسلم (1482/3) .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا" 1.
وفي صحيح مسلم عن عائشة- رضي الله عنها- أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به " 2.
وفي الصحيحين عن الحسن البصري قال: عاد عبيد الله3 بن زياد معقل بن يسار في مرضه الذي مات

1 صحيح مسلم (1458/3) .
2 صحيح مسلم (1458/3) .
3 في الأصل: "عبد الله"والتصويب من المصادر، وهو أمير البصرة في زمن معاوية ويزيد وقد أبغضه الناس لما فعل بالحسين- رضي الله عنه- قال الذهبي: "الشيعي لا يطيب عيشه حتى يلعن هذا ودونه، ونحن نبغضهم في الله، ونبرأ منهم ولا نلعنهم وأمرهم إلى الله ". وراجع ترجمته في السير للذهبي (3/ 545) .

فيه فقال له معقل: إني محدثك حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة" 1.
وفي رواية لمسلم: "ما من أمير يلي من أمر المسلمين شيئا لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة" 2.
وفي الصحيحين عن ابن عمر- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، [فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته] 3 والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " 4.

---

1 البخاري (4/ 331) ومسلم (1460/3) .
2 مسلم (1460/3) .
3 زيادة من المصادر.
4 البخاري (4/ 355) ومسلم (3/ 1469)

وفي الصحيحين عن علي- رضي الله عنه-: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث جيشا وأمر عليهم رجلا، فأوقد نارا، فقال: ادخلوها. فأراد الناس أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا فررنا منها، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة، وقال للآخرين: قولا حسنا، وقال: "لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف" 1.

---

1 البخاري (4/ 355) ومسلم (1469/3) .

فصل

قال الله تعالى: {وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون} 1.
وقال الله تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله} 2، {من يطع الرسول فقد أطاع الله} 3.
وقال تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} 4.
وقال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم} 5. وقال تعالى: {يوم تقلب وجوههم في النار يقولون

---

1 سورة الذاريات: الآية 56.
2 سورة النساء: الآية 64.
3 سورة النساء: الآية. 8.
4 سورة النساء: الآية 65.
5 سورة آل عمران. الآية 39.

يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا} 1. وقال تعالى: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا} 2.

فطاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد، وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية فإن اعطوه أطاعهم، وإن منعوه عصاهم، فما له في الآخرة من خلاق.
وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة- رضي الله [عنه] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم

---

1 سورة الأحزاب: الآيات 66، 67، 68.
2 سورة النساء: الآية 69.

القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو [على] غير ذلك، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا1 فإن أعطاه منها وفي، وإن لم يعطه منها لم يف" 2.

---

1 في الأصل: "لدينا".
2 البخاري (164/2) ومسلم (103/1) .

هذا آخر الموجود من هذه القاعدة، والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

باب الرسل والمتنوعات

الكتاب: النبوات

المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي)
(المتوفى: 728هـ)
المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان
المجلد الأول والثاني

قام باختزال عدد صفحاته آليا :عبد الرؤوف أبومجد البيضاوى:
(من 1103 صفحة إلى فقط 420 صفحة)
بعنوان: مختزل الفتوحات لكتاب النبوات

المجلد الأول
مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.
{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} [آل عمران، 102] .
{يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا} [النساء، 1] .
{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما} [الأحزاب،70-71] .
أما بعد:
فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار1.

1 هذه الخطبة تسمى خطبة الحاجة، وهي مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي تشرع بين يدي كل حاجة. وقد أخرجها الإمام مسلم في صحيحه 336/1، 592/2-593، والإمام أحمد في مسنده 310/3، 371. والنسائي في سننه 118/3، كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة. وابن ماجه في سننه 609/1، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني 3/1. وقد أفردها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني برسالة جمع الأحاديث الواردة فيها، وسماها خطبة الحاجة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه.

ثم أما بعد: فإن الله تعالى لم يخلق عباده عبثا، ولم يتركهم سدى، بل أرسل إليهم أنبياءه ورسله واسطة بينه وبينهم يبلغونهم أوامره ونواهيه، ويبينون لهم طريق الهدى من الضلال.
فتبارك القائل: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون} [المؤمنون، 115] ، {أيحسب الأنسان أن يترك سدى} [القيامة، 36] .
وبعثة الرسل فضل منه - جل وعلا - ومنة يمتن بها على عباده المؤمنين.
قال تعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} [آل عمران، 164] .

وفي بعثة الرسل إنذار منه - تبارك وتعالى - لبني آدم، كي لا تكون لهم حجة على الله بعد الرسل، فيقيم عليهم الحجة بإرسال المرسلين، ولا يقولوا بعدها: ما جاءنا مبشرون ولا منذرون.

قال تعالى: {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء، 165] .

إذ من سنته تعالى أن لا يعذب أحدا حتى يقيم عليه الحجة، وفي إرسال المرسلين - عليهم الصلاة والسلام - إقامة للحجة.

قال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء، 15] .

وموضوع النبوات من أعظم أبواب العقيدة؛ إذ الإيمان برسل الله - تبارك وتعالى - أحد أركان الإيمان الستة، فلا يصح إيمان العبد حتى يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

والنبوة هي الطريق لمعرفة محاب الله ومساخطه، وأوامره ونواهيه، وما يقرب إليه، وما يبعد عن رحمته.

لذلك اقتضت حكمته - جل وعلا - أن يرسل أنبياءه ورسله لإرشاد الخلق، وتوضيح الحق، وبيان الشريعة والدين، وما يضمن السعادة في الدارين.

وقد من الله علي إذ وفقني في مرحلة الماجستير لاختيار رسالة نافعة - بإذن الله - درست فيها جهود علم من أعلام أهل السنة في عصرنا في تقرير عقيدة سلف هذه الأمة - رحمهم الله - ألا وهو الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمة الله عليه.

وقد كانت هذه الرسالة ذات أثر مبارك علي - بحمد الله؛ إذ وصلتني بكتب أعلام السلف، فعشت معها وقتا طيبا مباركا، ووجدت في قراءتها لذة ما بعدها لذة.

ومن أشهر من ارتبطت صلتي بهم من كتب هؤلاء الأعلام: شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله، الذي جدد الله - تبارك وتعالى - به الدين في أواخر القرن السابع، وأوائل القرن الثامن الهجري.

وقد من الله به على المسلمين، وجعله عونا لمن اتبع منهج سيد المرسلين، وشوكة في حلوق المخالفين، ونصرة لهذا الدين، ينفي عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين؛ كما قال سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"1.

---

1 أورده التبريزي في "مشكاة المصابيح": (رقم 248) وفيه: عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين". رواه البيهقي.

وقد علق الشيخ الألباني على هذا الحديث بأنه مرسل؛ لأن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري هذا تابعي مقل كما قال الذهبي، راويه عنه معاذ بن رفاعة ليس بعمدة. لكن الحديث قد روي موصولا من طريق جماعة من الصحابة، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في "بغية الملتمس" (3-4) . وروى الخطيب في "شرف أصحاب الحديث" (2/35) عن مهنا بن يحيى قال: سألت أحمد - يعني ابن حنبل- عن حديث معاذ بن رفاعة عن إبراهيم هذا، فقلت لأحمد: كأنه كلام موضوع؟ فقال: لا، هو صحيح. فقلت له: ممن سمعته أنت؟ قال: من غير واحد. قلت: من هم؟ قال: حدثني به مسكين، إلا أنه يقول: معاذ، عن القاسم بن عبد الرحمن. قال أحمد: معاذ بن رفاعة لا بأس به ... انظر مشكاة المصابيح 82/1-83.

وقال الذهبي عن العذري في "الميزان": ما علمته واهيا، أرسل حديث: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله".. وسيأتي تخريجه ص (675-676) .

وقال صلى الله عليه وسلم أيضا: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك"1.

ولا شك أن علم الأعلام، وشيخ الإسلام - رحمه الله - من هذه الطائفة المنصورة؛ فقد حمل أمانة العلم، وبلغها بكل صدق وإخلاص، وجاهد بلسانه وقلمه ويده، وأوذي بسبب صدعه بالحق وحرصه على هداية الخلق، وامتحن بسبب عقيدته، وضيق عليه ونفي من بلدته، وهو رغم ذلك كله غير مبال، لا يخاف في الله لومة لائم، حتى توفاه الله - تعالى - معتقلا، لم يخش من سلطان الباطل أو يظهر من جلده على باطله مللا. وقد ذهب عصره ومضى إلى الرب خصومه، ومات من كانوا يكيدون به، لكن لم يمت علمه ولم ينطفئ نوره بل بقي شعلة تنير الطريق لسالكي الطريق المستقيم؛ طريق الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

---

1 أخرجه الإمام مسلم في "صحيحه" 1523/3، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة..".

وقد طبقت شهرة شيخ الإسلام الآفاق، ووضع الله لكتبه القبول، ونهل الناس من معينها الرقراق.
ومن تلكم الكتب: كتاب ((النبوات)) الذي يعتبر من أفضل ما كتب في موضوعه، فقد بين فيه مؤلفه - رحمه الله - مفهوم النبوة، والمعجزة، والكرامة، وذكر الفرق بينها، وبين خوارق السحرة والكهان ومدعي النبوة والولاية وأشباههم من أصحاب الأحوال الشيطانية.
وقد عرض - رحمه الله - موضوع النبوة في شقين:
أورد في الأول منهما: منهج أهل السنة في النبوات، من خلال عرض أقوالهم.
ورد في الثاني منهما: على المخالفين في النبوة؛ من المنكرين، وأهل البدع، والفرق الضالة، وذلك من خلال ذكر أصول دينهم العقلية التي أصلوها مخالفة لأصول الرسول صلى الله عليه وسلم.. وقد هدم تلك الأصول بمعوله، فانهارت بأصحابها بقوة الله وحوله.
وكتاب ((النبوات)) نادر في بابه، بل لست مبالغا إن قلت: لا يوجد لأهل السنة والجماعة كتاب على شاكلته ومنواله.
لذلك تظهر الحاجة إلى تحقيقه، والعناية به، وإبرازه في أحسن صورة.
وقد طبع هذا الكتاب طبعات عدة، إلا أنه لم يلق من العناية التامة ما يليق به وبمؤلفه الذي أعده؛ فلم تصحح ألفاظه، أو توثق نصوصه، أو يفسر غامضه، أو يشرح مشكله.
لذلك شمرت عن ساعد الجد، وبذلت في تحقيقه الجهد، وتوخيت خدمة الكتاب مستعينا بالرحمن، الذي هو ثقتي، وبه المستعان، وعليه التكلان.
وفي الختام: أحمد الله - تعالى - وأثني عليه الخير كله، فله الفضل والنعمة والثناء الجميل الحسن، أحمده على توفيقه، وأشكره على تسهيله وتيسيره في إتمام تحقيق هذا الكتاب، فلولا إعانته لي لما استطعت إخراجه في هذه الصورة، ولولا تفضله علي لما استطعت بذل ما بذلته من جهد، فله الحمد أولا وآخرا، وله الشكر ظاهرا وباطنا، أعانني على خدمته وتحقيقه، وتصحيحه وتوثيقه، حتى خرج في صورته هذه.
فهذا هو كتاب ((النبوات)) وهذا تحقيقي له، فإن وفقت وأصبت فمن الله وله الحمد والمنة، وإن قصرت أو أخطأت فذلك من نفسي، وعذري أني قد بذلت الوسع والطاقة.
ولئن فارقني الصواب في موضع، فإني لأرجو أن لا يفوتني الأجر من الله المطلع على الضمائر، العالم بالسرائر، وهو سبحانه يغفر الزلة، ويتجاوز عن التقصير والهفوة، إنه جواد كريم، وهو بعباده رؤوف رحيم.
وإني لأستغفر الله وأتوب إليه من كل ذنب وخطيئة.
وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

الباب الثاني: قسم التحقيق

فصل في معجزات الأنبياء التي هي آياتهم وبراهينهم

...

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية - رحمه الله:
فصل ((في معجزات الأنبياء التي هي آياتهم وبراهينهم)) ((كما سماها الله آيات وبراهين))
... [فإن لهم1 طرقا] 2 في التمييز بينها وبين غيرها، وفي وجه دلالتها.

طرق النظار في التمييز بين المعجزة وغيرها

أما الأول: فإن [منهم] 3 من رأى [أن] 4 [كل ما] 5 يخرج عن الأمر المعتاد، فإنه معجزة؛ وهو الخارق للعادة إذا اقترن بدعوى النبوة.
وقد علموا أن الدليل مستلزم للمدلول، فيلزم أن يكون كل من خرقت له العادة نبيا.
قول المعتزلة وغيرهم: إن العادة لا تنخرق إلا لنبي
[فقالت] 6 طائفة7: لا تخرق العادة إلا لنبي. وكذبوا بما يذكر من

1 أي للنظار؛ كما هو مثبت في ((م)) ، و ((ط)) .

2 في ((م)) : وللنظار طرق. وفي ((ط)) : للنظار طرق - بإسقاط الواو.
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((خ)) : كلما - موصولة.
6 في ((ط)) فقط: قالت.
7 وهم أكثر المعتزلة؛ كما سيأتي قول شيخ الإسلام رحمه الله في ذلك.
وهم يقولون إن الخوارق لا تظهر على يد غير الأنبياء.
يقول القاضي عبد الجبار:"إن العادة لا تخرق إلا عند إرسال الرسل. ولا تنخرق لغير هذا الوجه؛ لأن خرقها لغير هذا الوجه يكون بمنزلة العبث".
انظر: المغني في أبواب العدل والتوحيد، لعبد الجبار 189/15.

خوارق السحرة والكهان، وبكرامات الصالحين.
وهذه طريقة أكثر المعتزلة1، وغيرهم؛ كأبي محمد بن حزم2، وغيره3.

---

1 المعتزلة: سموا بذلك لاعتزال رئيسهم واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري. وقيل لاعتزالهم قول الأمة في دعواهم أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر. والأول أرجح. ولهم أصول خمسة اشتهروا بها، هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص20، 114. والملل والنحل للشهرستاني43/1. وخطط المقريزي 345/2. والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص 49.
2 هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل، الأموي مولاهم، القرطبي الظاهري. قال عنه الذهبي: "الإمام الأوحد، البحر ذو الفنون والمعارف، أبو محمد". ولد بقرطبة في سنة 384 هـ، وتوفي سنة 456 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 184/18. وشذرات الذهب لابن العماد 299/3.
ولأبي محمد بن حزم قول في أن الخوارق لا تظهر على يد غير الأنبياء.
يقول: " ... وأن المعجزات لا يأتي بها أحد إلا الأنبياء عليهم السلام. قال عز وجل: {وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله} [غافر، 78] ... " المحلى لابن حزم 36/1. وانظر: الفصل له 2/5-4، 8. والدر فيما يجب اعتقاده، له ص 192.
3 مثل أبي عبد الله الحليمي. انظر: المواقف في علم الكلام للإيجي ص 370. ولوامع الأنوار للسفاريني 394/2.
وقال الإيجي في ((المواقف)) عن الكرامات: "وهي جائزة عندنا خلافا للأستاذ أبي إسحاق، والحليمي منا، وغير أبي الحسين من المعتزلة".
وأبو إسحاق الاستراباذي من أصحاب الشافعي. انظر: تفسير القرطبي 32/7.

من اشتهر عنهم إنكار المعجزات
بل يحكى هذا القول عن أبي إسحاق الاسفراييني1، وأبي محمد بن أبي زيد2. ولكن كأن في الحكاية عنهما غلطا3

---

1 هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الاسفراييني. الأصولي، الشافعي، الملقب: ركن الدين. من مصنفاته: جامع الخلي في أصول الدين، والرد على الملحدين في خمس مجلدات. توفي سنة 418 ? بنيسابور.
انظر: سير أعلام النبلاء 353/17. وشذرات الذهب 209/3. وطبقات الشافعية 256/4.
أما عن إنكاره لكرامات الأولياء؛ فقد ذكر الجويني في الإرشاد ص 319 أنه أنكر الكرامات. وذكر ذلك الذهبي عنه في السير، فقال: (وحكى أبو القاسم القشيري عنه أنه كان ينكر كرامات الأولياء، ولا يجوزها. وهذه زلة كبيرة) . سير أعلام النبلاء 353/17.
وقال السبكي عنه: "ويزداد تعجبي عند نسبة إنكارها إلى الأستاذ أبي إسحاق الاسفراييني، وهو من أساطين أهل السنة والجماعة، على أن نسبة إنكارها إليه على الإطلاق كذب عليه. والذي ذكره الرجل في مصنفاته أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة". طبقات الشافعية للسبكي 315/2.

وكذلك ابن خلدون في مقدمته اعتذر لأبي إسحاق الاسفراييني بأن النقل عن الأستاذ في ذلك ليس صريحا. مقدمة ابن خلدون 402/1.
2 هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي. ويقال له: مالك الصغير. قال عنه الذهبي: "الإمام، العلامة، القدوة، الفقيه، عالم أهل المغرب ... وكان رحمه الله على طريقة السلف في الأصول، لا يدري الكلام، ولا يتأول". توفي سنة 386 هـ. انظر: سير أعلام النبلاء 10/17. وشذرات الذهب 131/3.
3 وقد اعتذر الباقلاني قبل شيخ الإسلام لابن أبي زيد القيرواني، وكأنه استبعد صدور ذلك عنه. انظر: البيان للباقلاني ص 5.
وممن أنكرها: أبو منصور الماتريدي.
انظر كتاب السحر بين الحقيقة والخيال لناصر بن محمد الحمد ص 38.
وقد أوضح د/ محمد باكريم با عبد الله موقف ابن أبي زيد القيرواني من الكرامات، ولخص المسألة، فقال: "ونخلص من ذلك إلى احتمالين:
الأول: أن ابن أبي زيد لم ينكر الكرامات الثابتة للصالحين، وإنما أنكر ما يدعيه أهل البدع من وقوع خوارق العادات، واعتبارها كرامات لهم؛ فلم يفهم كثير مقصوده، ونسب إليه القول بإنكار الكرامات. وهذا الرأي يميل إليه الباقلاني، والقاضي عياض، وابن تيمية.
الثاني: أنه وقع منه ذلك لأسباب، منها: داعي المناظرة والجدل والإلزام، لكنه رجع عن ذلك. وهذا ما ذهب إليه الطلمنكي.
وعلى كلا الاحتمالين، فلا يعتبر منكرا لكرامات الأولياء؛ لأنه إما لم يكن وقع منه أصلا، أو يكون قد وقع منه، ورجع عنه. والله أعلم) .
انظر تعليق الدكتور محمد باكريم با عبد الله على رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت ص 228. وانظر مزيدا حول هذه المسألة: ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض: 218/6، وكتاب الاستغاثة هامش: 46/1، تحقيق: عبد الله بن دجين السهلي، وقسم الدراسة من الجامع لابن أبي زيد القيراوني: ص 49-50.

وإنما أرادوا الفرق بين الجنسين1.
وهؤلاء يقولون [إن] 2 ما جرى لمريم3، وعند مولد الرسول4 [صلى الله عليه وسلم] ؛

1 جنس المعجزات وجنس خوارق الكهان والسحرة.
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 لقد أكرم الله تعالى مريم بكرامات كثيرة، منها:
1- إكرامها بالرزق؛ قال تعالى: {كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا} [آل عمران 37]
2- حملها بعيسى عليه السلام بواسطة نفخ الملك، بدون أن يمسها بشر؛ قال تعالى: {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين} [الأنبياء 91] .
3- تبرئة ابنها لها، وكلامه في المهد؛ قال تعالى: {فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا} [مريم 29-30 وما بعدها] .
4 فمما جرى عند مولده صلى الله عليه وسلم، ما أخرجه قوام السنة في دلائل النبوة، عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه، قال: قيل: يا رسول الله! ما كان بدؤ أمرك؟ قال: "دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي خرج منها نور أضاءت له قصور الشام". دلائل النبوة 239/1، وقد حسنه محقق الكتاب مساعد الراشد.
وقد أخرجه الإمام أحمد في مسنده 262/5، وصححه الألباني. انظر الصحيحة رقم 1546.

فهو إرهاص1؛ أي توطئة، وإعلام بمجيء الرسول، فما خرقت في الحقيقة إلا لنبي.
الرد على من أنكر الكرامات
فيقال لهم: وهكذا الأولياء، إنما خرقت لهم لمتابعتهم الرسول؛ فكما أن ما تقدمه فهو من معجزاته، فكذلك ما تأخر عنه.
وهؤلاء2 يستثنون ما يكون أمام الساعة.

لكن هؤلاء كذبوا بما تواتر من الخوارق لغير الأنبياء.
الرد على من أنكر الكرامات
والمنازع لهم يقول: هي موجودة مشهودة لمن شهدها، متواترة عند كثير من الناس، أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء. وقد شهدها خلق كثير لم يشهدوا معجزات الأنبياء، فكيف يكذبون بما شهدوه، ويصدقون بما غاب عنهم، ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره؟!
قول الأشاعرة في الفرق بين المعجزة وغيرها
وقالت طائفة3: بل كل هذا حق، وخرق العادة جائز مطلقا، وكل ما

1 الإرهاص لغة مشتقة من الرهص - بالكسر؛ وهو العرق الأسفل من الحائط.
والإرهاص هو المقدمة للشيء، والإيذان به.
والإرهاص اصطلاحا: ما يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة من أمر خارق للعادة تمهيدا لها.
انظر: القاموس المحيط للفيروزأبادي ص 801. وكتاب التعريفات للجرجاني ص 31. ولسان العرب لابن منظور 44/7.
2 أي المعتزلة، ومن وافقهم.
3 وهم الأشاعرة. انظر مقولتهم في: البيان للباقلاني ص 47-48، 90، 94-95، 105-106. والإرشاد للجويني ص 317، 319، 322، 326، 328. وأصول الدين للبغدادي ص 175، 185. والمواقف للإيجي ص 346. وشرح المقاصد للتفتازاني 73/5، 75. وانظر: الجواب الصحيح 400/6.

خرق لنبي من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين، بل ومن السحرة والكهان.
لكن الفرق أن هذه تقترن بها [دعوى] 1 النبوة؛ وهو التحدي2.
من أصول الأشاعرة
وقد يقولون: إنه لا يمكن أحدا أن يعارضها، بخلاف تلك. وهذا قول من اتبع جهما3 على أصله في أفعال الرب من الجهمية4، وغيرهم؛ حيث جوزوا أن
يفعل كل ممكن5؛ فلزمهم جواز خرق العادات مطلقا على

1 في ((خ)) : دعوة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: البيان للباقلاني ص 48.
3 هو الجهم بن صفوان الراسبي مولاهم، أبو محرز السمرقندي. رأس الفرقة الجهمية. قتله سلم بن أحوز نائب أصبهان سنة ثمان وعشرين ومائة. كان يقول: إن العباد مجبورون على أفعالهم، وإن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، وإن الجنة والنار تفنيان وتبيدان، وإن القرآن مخلوق. وكان ينكر صفات الله عز وجل وأسماءه، ويقول: إن الله في الأمكنة كلها. تعالى الله عما يقول الجاهلون علوا كبيرا.
انظر: الفرق بين الفرق ص 211. والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص 34. وسير أعلام النبلاء 26/6. والبداية والنهاية 364/9. والخطط للمقريزي 349/2.
4 هي فرقة تنتسب للجهم بن صفوان الراسبي. وقد تبعته في معتقداته كلها. لاحظ التعليقة السابقة.
5 وهذا قول من ينكر حكمة الله، والأسباب التي جعلها الله سببا لحصول بعض الأشياء. ولا فعل للعبد عندهم، والله هو الفاعل. وهذا هو قول الأشاعرة.
انظر: الإرشاد للجويني ص 319، 322، 326. وأصول الدين للبغدادي ص 138، 172، 176. والملل والنحل للشهرستاني 97/1. ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية 13/3، 112.
وسيأتي توضيح لهذا الأصل عند الأشعري. وانظر شرح الأصفهانية 617/2.

يد كل أحد. واحتاجوا مع ذلك إلى الفرق بين النبي وغيره، فلم يأتوا بفرق معقول، بل قالوا: هذا يقترن به التحدي، فمن ادعى النبوة وهو كاذب، لم يجز أن يخرق الله له العادة أو يخرقها له، ولا [تكون] 1 دليلا على صدقه لما يقترن بها [من ما] 2 يناقض ذلك؛ فان هذين قولان لهم3.

الرد على الأشاعرة

فقيل لهم: لم أوجبتم هذا في هذا الموضع، دون غيره، وأنتم لا توجبون على الله شيئا؟ فقالوا: لأن المعجزة علم الصدق؛ فيمتنع أن يكون لغير صادق4. [فقلنا: المجموع] 5 هو الممتنع؛ وهو خارق العادة، ودعوى النبوة. أو هذان مع السلامة عن المعارض.

فقيل لهم: ولم قلتم أنه علم الصدق على قولكم؟ فقالوا: إما لأنه يفضي منع ذلك إلى عجزه؛ وإما لأنه علم دلالته على الصدق بالضرورة.

فقيل لهم: إنما يلزم العجز، [أن] 6 لو كان التصديق على قولكم ممكنا. وكون دلالتها معلومة بالضرورة؛ هو مسلم، لكنه يناقض أصولكم، ويوجب أن يكون أحد الشيئين معلوما بالضرورة، دون نظيره. وهذا

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يكون.

2 في ((م)) ، و ((ط)) : مما.

3 انظر: البيان للباقلاني ص 94-95.

4 انظر: البيان للباقلاني ص 37-38. والجواب الصحيح 399/6.

5 في ((م)) و ((ط)) : فالمجموع - بإسقاط: فقلنا. وزيادة الفاء.

6 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .

ممتنع؛ فإنكم تقولون: يجوز أن يخلق على يد مدعي النبوة، والساحر، والصالح. لكن إن ادعى النبوة، دلت على صدقه، وإن لم يدع النبوة، لم يدل على شيء1، مع أنه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدعي النبوة، وغير مدعي النبوة، بل كلاهما جائز فيه.

فإذا كان هذا مثل هذا: [لم] 2 كان أحدهما دليلا دون الآخر؟ ولم اقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر؟ ومن أين علمتم أن الرب لا يخرقها مع دعوى النبوة إلا على يد صادق، وأنتم تجوزون على أصلكم كل فعل مقدور3، وخلقها على يد الكذاب مقدور؟!.

الأشاعرة لم يجعلوا بين المعجزات والكرامات فرقا

ثم هؤلاء4 جوزوا كرامات الصالحين، ولم يذكروا بين جنسها5 وجنس كرامات الأنبياء فرق، بل صرح أئمتهم6 [أن كل ما] 7 خرق لنبي،

---

1 انظر: البيان للباقلاني ص 90.

2 في ((م)) ، و ((ط)) : فلم.

3 من أصول الأشاعرة: لا فاعل إلا الله، وليس للإنسان إلا الكسب الذي هو - عندهم - مقارنة القدرة والإرادة للفعل، من غير أن يكون هناك من العبد تأثير، أو مدخل في وجوده، سوى كونه محلا له.

وقد تقدم نقل هذا عنهم فيما مضى. وانظر: الإرشاد للجويني ص 319، 322، 328. وشرح المواقف للجرجاني ص 237. وانظر: الجواب الصحيح 394/6-400.

4 أي الأشاعرة.

5 أي معجزات الرسل.

6 انظر: أصول الدين للبغدادي ص 174، 175. والإرشاد للجويني ص 317. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 370. وشرح المقاصد للتفتازاني 73/5، 74. وشرح الفقه الأكبر للقاري ص 79.

7 في ((خ)) : كما. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

يجوز أن يخرق للأولياء؛ حتى معراج محمد1، وفرق البحر لموسى2، وناقة صالح3، وغير ذلك.
ولم يذكروا بين المعجزة والسحر فرقا معقولا، بل قد يجوزون أن يأتي الساحر بمثل ذلك4. لكن بينهما فرق دعوى النبوة، وبين الصالح والساحر، والبر والفجور.

طريقة الفلاسفة في المعجزات

وحذاق5 الفلاسفة الذين تكلموا في هذا الباب6؛ مثل ابن سينا7،

---

1 المعراج: الطريق الذي تصعد فيه الملائكة. انظر: تهذيب اللغة 355/1.
وهو بمنزلة السلم، لكن لا نعلم كيف هو. وحكمه كحكم غيره من المغيبات؛ نؤمن به، ولا نشتغل بكيفيته. انظر شرح الطحاوية ص 270.
وحديث الإسراء والمعراج مخرج في الصحيحين.
أخرجه البخاري في صحيحه 63/3-65، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج. ومسلم في صحيحه 145/1-147، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات.
2 قال تعالى: {فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم} [الشعراء 63] .
3 قال تعالى: {قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم} [الشعراء 155] .
4 انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم 2/5. ونسب هذا القول للباقلاني.
وانظر: البيان للباقلاني ص 94-95. والإرشاد للجويني ص 327-328.
5 الحذق، والحذاقة: المهارة في كل العمل. انظر تهذيب اللغة 35/4.
6 في النبوات.
7 هو الحسين بن عبد الله بن سيناء، أبو علي. الملقب بالرئيس، الحكيم. قال عنه ابن حجر: "ما أعلمه روى شيئا من العلم، ولو روى لما حلت الرواية عنه؛ لأنه فلسفي النحلة، ضال. لا رضي الله عنه.
كان يقول بقدم العالم، ونفي المعاد الجسماني. ونقل عنه أنه قال: إن الله لا يعلم الجزئيات بعلم جزئي، بل بعلم كلي. من مصنفاته: الشفا، والنجاة، والإشارات والتنبيهات. مات سنة 428 ?.
انظر: لسان الميزان لابن حجر 291/2. والأعلام للزركلي 241/2. ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 20/4.
وقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأهل بيت ابن سينا كانوا من أتباع هؤلاء - يعني القرامطة والباطنية والإسماعيلية - وأبوه وجده من أهل دعوتهم، وبسبب ذلك دخل في مذاهب الفلاسفة؛ فإن هؤلاء يتظاهرون باتباع الملل، ويدعون أن للملة باطنا يناقض ظاهرها". كتاب ((الصفدية)) 3/1-4. وانظر: شرح الأصفهانية 634/2. والرد على المنطقيين ص 141-144، 279، 281، 396. ومجموع الفتاوى 186/35.

[و] 1 هو أفضل طائفتهم، [وهو] 2 أجهل من تكلم في هذا الباب فإنهم جعلوا ذلك كله من قوى النفس، لكن الفرق أن النبي والصالح نفسه طاهرة يقصد الخير، والساحر نفسه خبيثة.
وأما الفرق بين النبي والصالح فمتعذر على قول هؤلاء.

الرد على من فرق بين المعجزة والكرامة بفروق ضعيفة

ومن الناس3 من فرق بين معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء بفروق ضعيفة؛ مثل قولهم: الكرامة يخفيها صاحبها، أو الكرامة لا يتحدى بها. ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها؛ كإظهار العلاء بن الحضرمي4 المشي

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((م)) ، و ((ط)) : ولكنه.
3 وهم الأشاعرة.
انظر: أصول الدين للبغدادي ص 174. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص370. وشرح المقاصد للتفتازاني 74/5. وطبقات الشافعية للسبكي317/2. واليواقيت والجواهر لعبد الوهاب الشعراني 161/1.

4 هو العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي. من سادة المهاجرين. ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم البحرين. ثم وليها لأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما. وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: رأيت من العلاء ثلاثة أشياء، لا أزال أحبه أبدا: قطع البحر على فرسه يوم دارين. وقدم يريد البحرين، فدعا الله بالدهناء، فنبع لهم ماء، فارتووا. ونسي رجل منهم بعض متاعه فرد، فلقيه ولم يجد الماء، ومات ونحن على غير ماء، فأبدى الله لنا سحابة، فمطرنا، فغسلناه، وحفرنا له بسيوفنا، ولم نلحد له.
انظر: سير أعلام النبلاء 262/1. والبداية والنهاية 162/6-163.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله في العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه: "والعلاء بن الحضرمي - رضي الله عنه - كان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين، وكان يقول في دعائه: يا عليم يا حليم يا علي يا عظيم، فيستجاب له. ودعا الله بأن يسقوا ويتوضؤوا لما عدموا الماء، ولا يبقى الماء بعدهم، فأجيب. ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم، فمروا كلهم على الماء، فابتلت سرج خيولهم. ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات، فلم يجدوه في اللحد". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 311.
وانظر: حلية الأولياء لأبي نعيم 7/1. وصفوة الصفوة لابن الجوزي 694/1.
وذكر ابن كثير أنه توفي سنة أربع عشرة. البداية والنهاية 123/7.

على الماء، وإظهار عمر مخاطبة سارية1 على المنبر2، وإظهار أبي

---

1 هو سارية بن زنيم بن عمرو الكناني. قال ابن عساكر: له صحبة. كان في الجاهلية كثير الغارات، يسبق الفرس عدوا على رجليه، ولما ظهر الإسلام أسلم. قال الواقدي: أمره عمر على جيش، وسيره إلى فارس سنة ثلاث وعشرين، وفتح بلادا منها أصبهان. توفي سنة 30 هج.
انظر: الإصابة لابن حجر 96/4. والأعلام للزركلي 69/3.
2 وذلك لما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب على المنبر في المدينة، وسارية ابن زنيم يجاهد في العراق، فتذكر عمر سارية، فنادى: يا سارية الجبل. يقول سارية: سمعت صوت عمر، فصعدت الجبل.
أورده ابن كثير في البداية والنهاية 135/7، وقال: إسناده جيد حسن.
وكذلك حسن أسانيده الحافظ ابن حجر في الإصابة 98/4.

مسلم1 لما ألقي في النار أنها صارت عليه بردا وسلاما. وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين، فإنه قد يطفئها، إلا أنها لا تصير عليه بردا وسلاما. وإطفاء النار مقدور للإنس والجن.
ومنها: ما يتحدى بها صاحبها أن دين الإسلام حق؛ كما فعل خالد ابن الوليد لما شرب السم2؛ وكالغلام الذي أتى الراهب، وترك الساحر،

---

1 هو عبد الله بن ثوب الخولاني، من خولان ببلاد اليمن. دعاه الأسود العنسي إلى أن يشهد أنه رسول الله، فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ فقال: لا أسمع، أشهد أن محمدا رسول الله. فأجج له نارا، وألقاه فيها، فلم تضره وأنجاه الله منها. فكان يشبه بإبراهيم الخليل. ثم هاجر، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات، فقدم على الصديق أبي بكر رضي الله عنه، فأجلسه بينه وبين عمر، وقال له عمر: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى في أمة محمد من فعل له كما فعل بإبراهيم الخليل عليه السلام.
توفي أبو مسلم الخولاني سنة 60 ?.
وقد ذكر له شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عددا من الكرامات؛ منها: أنه مشى هو ومن معه في المعسكر على دجلة وهي ترمي بالخشب في مدها. ووضعت له جارية السم في طعامه، فلم يضره. وخببت امرأة عليه زوجته، فدعا عليها، فعميت، فجاءت وتابت، فدعا لها، فرد الله عليها بصرها.
انظر: مجموع الفتاوى 279/11. وانظر: حلية الأولياء 122/2، 131. وجامع العلوم والحكم لابن رجب ص 322. وسير أعلام النبلاء 7/4. والبداية والنهاية لابن كثير 149/8. والتقريب لابن حجر 473/2، وفيه ذكر أن اسمه عبد الله بن ثوب.

2 وذلك لما نزل الحيرة - بالعراق، وأراد الأعاجم أن يسقوه السم، فأخذه بيده، ثم اقتحمه، وقال: بسم الله، وشرب، فلم يضره شيئا.
الخبر أخرجه الطبراني في المعجم الكبير 123/4-124. وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد 350/9 أن أبا يعلى أخرجه، والطبراني في المعجم الكبير بإسنادين؛ رجال أحدهما رجال الصحيح، ورجال الآخر ثقات. وذكر كذلك أن رجال إسناد أبي يعلى ثقات. وانظر: مجموع الفتاوى 277/11-278.
وقد ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله عند محاصرة خالد بن الوليد للحيرة، أن خالدا أخذ السم من ابن بقيلة - من نصارى العرب، ثم قال: لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، ثم قال: بسم الله خير الأسماء، رب الأرض والسماء، الذي ليس يضر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم. قال: وأهوى إليه الأمراء ليمنعوه منه، فبادرهم فابتلعه. فلما رأى ذلك ابن بقيلة، قال: والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد. ثم التفت إلى أهل الحيرة فقال: لم أر كاليوم أوضح إقبالا من هذا. ثم دعاهم، وسألوا خالدا الصلح فصالحهم. البداية والنهاية 351/6. وانظر: طبقات الشافعية للسبكي 333/2.
وقد خالفه الصحابة في ذلك.
ويكفي خالدا كرامة أن جعله الله عزا للإسلام وأهله، وذلا للكفر، وشتاتا لشمله.. وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف الله، وقال الصديق - رضي الله عنه - في حقه: (يا معشر قريش إن أسدكم قد عدا على الأسد فغلبه على خراديله، عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد) . البداية والنهاية 351/6.

وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه، وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله1. ومثل هذا كثير.
مراتب الخوارق
فيقال المراتب ثلاثة: آيات الأنبياء، ثم كرامات الصالحين، ثم خوارق الكفار والفجار؛ كالسحرة والكهان، وما يحصل لبعض المشركين، وأهل الكتاب، والضلال من المسلمين.
الكرامات سببها اتباع الأنبياء
أما الصالحون الذين يدعون إلى طريق الأنبياء لا يخرجون عنها، فتلك خوارقهم من معجزات الأنبياء؛ فإنهم يقولون: نحن إنما حصل لنا هذا باتباع الأنبياء، ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا.
فهؤلاء إذا قدر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للأنبياء؛ كما صارت النار بردا وسلاما على أبي مسلم2، كما صارت على

---

1 وخبر الغلام طويل أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 2299/4-2301، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام.
2 الخولاني. تقدمت قصته قريبا ص 159.

إبراهيم1؛ وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين2؛ كما جرى في بعض المواطن للنبي 3، أو إحياء الله ميتا لبعض الصالحين4 كما أحياه للأنبياء5.
كرامات الأولياء معجزات للأنبياء
فهذه الأمور6 هي مؤكدة لآيات الأنبياء، وهي أيضا من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص.
ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين، فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات المرسلين، كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى

---

1 قال تعالى: {قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم} . [الأنبياء 69] .
2 مثل قصة أبي بكر مع أضيافه، في تكثير الطعام. انظر صحيح البخاري 436/6.
3 انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري 234/4.
وقد عقد القاضي عياض في كتابه الشفا 410/1 فصلا: من معجزاته صلى الله عليه وسلم تكثير الطعام ببركته ودعائه.

4 من ذلك إحياء الله تعالى لصلة بن أشيم العدوي فرسه بعد أن ماتت وهو في الغزو، فأحياها الله له، ووصل إلى أهله، وقال لابنه: ألق السرج عن الفرس فإنها عارية، فلما ألقى السرج عنها، سقطت ميتة.
انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم 239/2. وطبقات الشافعية للسبكي 320/2. وسير أعلام النبلاء للذهبي 499/3، وقال الذهبي عن هذه القصة: وهذه كرامة ثابتة. وانظر: مجموع الفتاوى 280/11.
5 مثل عيسى عليه السلام. قال الله تعالى عنه: {وأحيي الموتى بإذن الله} [آل عمران 49] .
وكذلك عزير عليه السلام الذي أماته الله وحماره مائة عام، ثم بعثهما. قال الله تعالى: {فأماته الله مائة عام ثم بعثه} [البقرة 259] وانظر كتاب الشفا للقاضي عياض444/1، حيث عقد فصلا في: إحياء الموتى، وكلامهم.
6 يقصد كرامات الأولياء.

درجاتهم، ولكن قد يشاركونهم في بعضها، كما قد يشاركونهم في بعض أعمالهم.
كرامات الأولياء لا تجعلهم معصومين
وكرامات الصالحين [تدل] 1 على صحة الدين الذي جاء به الرسول، لا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله2.
ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم3؛ فإن الحواريين4، وغيرهم كانت لهم كرامات، كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الأنبياء، فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون.
النبي صارت طاعته واجبة بأمور
وهذا غلط؛ فإن النبي وجب قبول كل ما يقول لكونه نبيا [ادعى] 5 النبوة، ودلت المعجزة على صدقه، والنبي معصوم. وهنا المعجزة6 ما دلت على النبوة بل على متابعة النبي وصحة دين النبي، فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوما. من أسباب تأليف الكتاب
ولكن الذي يحتاج إلى الفرقان الفرق بين الأنبياء وأتباعهم، وبين من خالفهم من الكفار والفجار؛ كالسحرة، والكهان، وغيرهم؛ حتى يظهر

---

1 في ((خ)) : يدل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 144. والجواب الصحيح 338/2؛ فقد فصل شيخ الإسلام رحمه الله في هذين الموضعين تفصيلا طيبا.
3 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أصناف الناس بالنسبة لمواقفهم ممن يجري على أيديهم بعض الأمور الخارقة في ((الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)) ص 147.
4 الحواريون هم أصحاب عيسى عليه السلام وخاصته الذين اختارهم ليكونوا تلامذته؛ حيث بادروا إلى الإيمان به، وتعلموا منه، وكانوا اثني عشر رجلا.
انظر: الجواب الصحيح 398/2-400،، 17/4.
5 في ((خ)) رسمت ادعاء. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 يقصد الكرامة.

الفرق بين الحق والباطل، وبين ما يكون دليلا على صدق صاحبه؛ كمدعي النبوة، و [بين] 1 ما لا يكون دليلا على صدق صاحبه؛ فإن الدليل لا يكون دليلا حتى يكون مستلزما للمدلول؛ متى وجد وجد المدلول، وإلا فإذا وجد تارة مع وجود المدلول، وتارة مع عدمه [فليس بدليل] 2.
فآيات الأنبياء وبراهينهم لا [توجد] 3 إلا مع النبوة، ولا توجد مع ما يناقض النبوة.
ومدعي النبوة إما صادق، وإما كاذب.
والكذب يناقض النبوة، فلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها، مثل ما يوجد معها. وليس هنا شيء مخالف لها؛ [لا موافق] 4، ولا مناقض؛ فإن الكفر، والسحر، والكهانة، كل هذا يناقض النبوة، لا يجتمع هو [و] 5 النبوة.
والناس رجلان: رجل موافق لهم، ورجل مخالف لهم.
فالمخالف مناقض.

الفرق بين جنس آيات الأنبياء وخوارق من خالفهم

وإذا كان كذلك، فيقال: جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان.

وأما خوارق مخالفيهم؛ كالسحرة، والكهان؛ فإنها من جنس أفعال الحيوان؛ من الإنس، وغيره من الحيوان، والجن؛ مثل قتل الساحر، وتمريضه لغيره؛ فهذا أمر مقدور، معروف للناس بالسحر، وغير السحر؛

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

3 في ((خ)) يوجد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .

5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

وكذلك ركوب المكنسة1، أو الخابية2، أو غير ذلك؛ حتى تطير به، وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد؛ هذا فعل مقدور للحيوان؛ فإن الطير [يفعل] 3 ذلك، والجن تفعل ذلك. وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان: {أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك} 4؛ وهذا تصرف في أعراض5 الحي؛ فإن الموت، والمرض، والحركة أعراض، والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الأعراض، ليس في هذا قلب جنس إلى جنس، ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه، ولا ما يختص به الملائكة.

وكذلك إحضار ما يحضر من طعام، أو نفقة، أو ثياب، أو غير ذلك من الغيب. [و] 6 هذا [إنما هو] 7 نقل مال من مكان إلى مكان. وهذا تفعله الإنس والجن، لكن الجن تفعله، والناس لا يبصرون ذلك. وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيرا، بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يزادها8. فهذا لا يقدر عليه إنسي ولا جني.

---

1 المكنسة - بكسر الميم - ما يكنس به. والكناسة - بالضم - ما يكنس؛ وهي الزبالة. انظر: المصباح المنير ص 542.

2 الخابية: وعاء الماء الذي يحفظ فيه. وجمعه خوابي. المعجم الوسيط 13/1.

3 في ((م)) ، و ((ط)) تفعل.

4 سورة النمل، الآية 39.

5 العرض في اللغة: ما يعرض للإنسان من مرض، وموت، ونحو ذلك.

انظر: الصحاح للجوهري 1038/3. والمعجم الوسيط ص 594.

6 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

7 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

8 مثل ما حدث في غزوة الحديبية؛ حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في الإناء، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون.

قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما - وهو راوي الحديث: "فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. قال فشربنا. قال الراوي: فقلت لجابر: كم كنتم يومئذ، قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة".

أخرجه البخاري في صحيحه 1526/4، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.

وقد ذكر أنس بن مالك - رضي الله عنه - قصة أخرى في نبع الماء من بين أصابع نبينا صلى الله عليه وسلم. فعنه - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بماء، فأتي بقدح رحراح، فجعل القوم يتوضؤون، فحزرت ما بين الستين إلى الثمانين، قال: فجعلت أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه.

صحيح مسلم 1783/4، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم.

أخبار الأنبياء لا كذب فيها، بخلاف من خالفهم

وكذلك الإخبار ببعض الأمور الغائبة، مع الكذب في بعض الأخبار. فهذا تفعله الجن / كثيرا مع الكهان1، وهو معتاد لهم، مقدور، بخلاف إخبارهم بما يأكلون، وما يدخرون، مع تسمية الله على ذلك؛ فهذا لا تظهر عليه الشياطين2.

---

1 مثل حال ابن صياد، لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني خبأت لك خبيئا" فقال: هو الدخ. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "اخسأ، فلن تعدو قدرك".
الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه2240/4، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد.
2 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله، وعند طعامه، قال الشيطان لأصحابه: لا مبيت لكم ولا عشاء..". الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 1598/3، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح بابا، ولا يكشف إناء ... ". الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه 77/10، والإمام مسلم في صحيحه 1594/3، كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء، وإيكاء السقاء، وإغلاق الأبواب، وذكر اسم الله عليها..

وبنو إسرائيل كانوا مسلمين يسمون الله1.
وأيضا: فخبر المسيح2، وغيره من الأنبياء ليس فيه كذب قط. والكهان لا بد لهم من الكذب. والرب قد أخبر في القرآن أن الشياطين [تنزل] 3 على بعض الناس، فتخبره ببعض الأمور الغائبة، لكن ذكر الفرق، فقال: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} 4.
الحكمة من مسرى النبي صلى الله عليه وسلم
وكذلك مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ ليريه الرب من آياته5. فخاصة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة، بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبر به. فهذا لا يقدر عليه الجن، وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته، بل جعله مما يؤمن به؛ فأخبرهم به ليؤمنوا به.

---

1 قال الله تعالى في شأنهم: {أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون} [البقرة، 133] .
وأما عن تسميتهم الله، فقد قال الله تعالى: {وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم.} [المائدة، 5] .
ومعلوم أنهم لو لم يكونوا يسمون الله تعالى عند الذبح، لم يكن طعامهم حلا لنا؛ لأن الله تعالى يقول: {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق} [الأنعام، 121] .
2 وهو إخباره عليه السلام عما يأكل بنو إسرائيل وما يدخرون في بيوتهم.
قال تعالى عن معجزات عيسى عليه السلام: {وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم} [آل عمران الآية، 49] .
3 في ((خ)) : ينزل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة الشعراء، الآيات 221-223.
5 قال تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى} . [الإسراء، 1] .

والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة، وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى، ولهذا قال: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن} 1.
قال ابن عباس [رضي الله عنه] 2: هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به3. وهذا كما قال في الآية: {ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى} 4.

وكذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب؛ قال تعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا} 5. فهذا غيب الرب الذي اختص به؛ مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق، فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله.

الفرق بين خبر الرسول وخبر الجن

والجن غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة؛ كالذي يسترقه الجن من السماء6، مع ما في الجن من الكذب، فلا بد لهم من الكذب، والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات، فهو من جنس المعتاد للناس.

---

1 سورة الإسراء، الآية 60.

2 ما بين المعقوفتين من ((ط)) ، وليس في ((خ)) ، و ((م)) .

3 انظر: صحيح البخاري 1748/4.

4 سورة النجم، الآيات 13-18.

5 سورة الجن، الآيتان 26-27.

6 قال تعالى يحكي عن الجن: {وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا} [الجن، 9] .

وأما ما يخبر الرسل من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلا؛ مثل إخباره: "إنكم تقاتلون الترك، صغار الأعين، ذلف الآنف1، ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة2"3، وقوله: "لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى4"5، ونحو ذلك. فهذا لا يقدر عليه جني، ولا إنسي.

---

1 الذلف بالتحريك: قصر الأنف وانبطاحه. وقيل: ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته. والذلف بسكون اللام: جمع أذلف؛ كأحمر، وحمر. والآنف: جمع قلة للأنف، وضع موضع جمع الكثرة، ويحتمل أنه قللها لصغرها.

انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 165/2.

2 وهي التروس التي يطرق بعضها على بعض. انظر الصحاح للجوهري 1516/4) .

والمراد: تشبيه وجوه الترك في عرضها، وتلون وجناتها بالترسة المطرقة.

3 الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 1070/3. ومسلم في صحيحه 2233/4، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكانه من البلاء. والإمام أحمد في المسند ح 7262 - تحقيق أحمد شاكر.

4 بصرى - بضم الباء - آخرها مقصور: مدينة بالشام، ويقال لها حوران.

انظر معجم البلدان لياقوت الحموي 441/1.

وهي اليوم مدينة من مدن الجمهورية السورية، في شرقها.

5 الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 2605/6. ومسلم في صحيحه 2227/4-2228، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز.

وهذا الغيب الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم قد وقع - كما ذكر المؤرخون - سنة أربع وخمسين وستمائة. وقد أخبر غير واحد أنه لما ظهرت النار في بعض أودية المدينة النبوية، واستمرت شهرا، وكان الناس يسيرون على ضوئها بالليل إلى تيماء - قرب تبوك - شاهد من كان بحاضرة بلد بصرى أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت من أرض الحجاز. انظر: الفتن والملاحم - النهاية - لابن كثير 18/1-19.

والمقصود أن ما يخبر به غير النبي من الغيب معتاد، معروف نظيره من الجن والإنس، فهو من غيب الله الذي قال فيه: {فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول} 1.

والآيات الخارقة جنسان: جنس في نوع العلم، وجنس في نوع القدرة2.

أقسام الخوارق

فما اختص به النبي من العلم خارج عن قدرة الإنس والجن، وما اختص به من المقدورات خارج عن قدرة الإنس والجن.

خوارق الجن

وقدرة الجن في هذا الباب3 كقدرة الإنس؛ لأن الجن هم من جملة من دعاه الأنبياء إلى الإيمان، وأرسلت الرسل إليهم؛ قال تعالى: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا} 4.

1 سورة الجن، الآيتان 26-27.
2 ولشيخ الإسلام رحمه الله زيادة إيضاح لهذا الموضوع، حيث قال: (الخوارق منها ما
هو من جنس العلم؛ كالمكاشفات. ومنها ما هو من جنس القدرة والملك؛ كالتصرفات الخارقة للعادات. ومنها ما هو من جنس الغنى عن جنس ما يعطاه الناس في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى) . ((مجموع الفتاوى)) 298/11-299.
وقال أيضا: "فالأقسام ثلاثة: إما أن يتعلق بالعلم والقدرة، أو بالدين فقط، أو بالكون فقط. ثم فصل، واستدل لكل نوع". انظر: مجموع الفتاوى 323/11-324.
وانظر قاعدة في المعجزات ص 9. وانظر كتاب الصفدية 183/1، فإنه جعل الخوارق ثلاثة أقسام. وقد أفاض المؤلف رحمه الله في ذكر أقسام المعجزات بالتفصيل. انظر: الجواب الصحيح 80/6-296.
3 باب الخوارق.
4 سورة الأنعام، الآية 130.

ومعلوم أن النبي إذا دعا الجن إلى الإيمان به، فلا بد أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجن؛ فلا بد أن تكون آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الإنس والجن.
وما يأتي به الكاهن من خبر [الجن] 1 غايته أنه سمعه الجني لما استرق السمع؛ مثل الذي يستمع إلى حديث قوم وهم له كارهون.
وما أعطاه الله سليمان مجموعه يخرج عن قدرة الإنس والجن؛ كتسخير الرياح، والطير.
خوارق الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم
وأما الملائكة: فالأنبياء لا تدعوا الملائكة إلى الإيمان بهم، بل الملائكة [تنزل] 2 بالوحي على الأنبياء، وتعينهم، وتؤيدهم.
فالخوارق التي [تكون] 3 بأفعال الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم، لا تكون للكفار، والسحرة، والكهان.
ولهذا أخبر الله تعالى أن الذي جاءه بالقرآن ملك لا شيطان؛ فقال: {إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو بقول شيطان رجيم} 4، وقال: {نزل به الروح الأمين ? على قلبك لتكون من المنذرين} 5، وقال: {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} 6، وقال: {قل من كان

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 في ((خ)) : ينزل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة التكوير، الآيات 19-25.
5 سورة الشعراء، الآيتان 193-194.
6 سورة النحل، الآية 102.

عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} 1، وقال: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} 2.
الواجب معرفة الفروق بين آيات الأنبياء وبين من خالفهم
فينبغي أن يتدبر هذا الموضع، وتعرف الفروق الكثيرة بين آيات الأنبياء، وبين ما يشتبه بها؛ كما يعرف الفرق بين النبي، وبين المتنبي؛ وبين ما يجيء به النبي، وما يجيء به المتنبي.

فالفرق حاصل في نفس صفات هذا، وصفات هذا، وأفعال هذا، وأفعال هذا، وأمر هذا، وأمر هذا، وخبر هذا، وخبر هذا، وآيات هذا، وآيات هذا؛ إذ الناس محتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى غيره، والله تعالى يبينه، وييسره.
ولهذا أخبر أنه أرسل رسله بالآيات البينات. وكيف [يشبه] 3 خير الناس بشر الناس. ولهذا لما مثلوا الرسول بالساحر، وغيره، قال تعالى: {انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} 4.
وقد تنازع الناس في الخوارق: هل تدل على صلاح صاحبها، وعلى ولايته لله5؟.
هل الخوارق تدل على صلاح صاحبها أم لا؟
والتحقيق: أن من كان مؤمنا بالأنبياء،لم يستدل على الصلاح بمجرد

1 سورة البقرة، الآية 97.
2 سورة الشعراء، الآيات 221-223.
3 في ((خ)) : شبه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة الفرقان، الآية 9.
5 للاطلاع على خلافهم في ذلك، راجع: مجموع الفتاوى 214/11، 287. والجواب الصحيح 338/2. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 147-148. وقطر الولي على حديث الولي للشوكاني ص 272.

الخوارق التي قد تكون للكفار والفساق، وإنما يستدل بمتابعة الرجل للنبي؛ فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بينها الله ورسوله؛ كقوله: { [ألا] 1 إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون} 2.
وقد علق السعادة بالإيمان والتقوى في عدة مواضع؛ كقوله لما ذكر السحرة: {ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون} 3، وقوله عن يوسف: {نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ? ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون} 4، وقوله في قصة صالح: {ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} 5 وهذه طريقة الصحابة والسلف.
تنازع الناس في ولاية المعين على قولين
وأما دلالتها على ولاية المعين: فالناس متنازعون؛ هل الولي والمؤمن من مات على ذلك؛ بحيث إذا كان مؤمنا تقيا، وقد علم أنه يموت كافرا، يكون في تلك الحال عدوا لله؟ أو ينتقل من إيمان وولاية إلى كفر وعداوة؟. وهما قولان معروفان6.
فمن قال بالأول؛ فالولي عنده كالمؤمن [عند] 7 من علم أنه يموت

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 سورة يونس، الآيتان 62-63.
3 سورة البقرة، الآية 103.
4 سورة يوسف، الآيتان 56-57.
5 سورة فصلت، الآية 18.
6 انظر: مجموع الفتاوى 62/11، 65.
7 في ((خ)) : عنده. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

على تلك الحال، والخوارق لا تدل على ذلك.
ولهذا قال هؤلاء؛ كالقاضي أبي بكر1، وأبي يعلى2، وغيرهما: أنها لا تدل3.
وأما من قال: الولاية تتبدل؛ فالولاية هنا كالإيمان. وقد يعلم أن الرجل مؤمن في الباطن، تقي بدلائل كثيرة، وقد يطلع الله بعض الناس على خاتمة غيره. فهذا لا يمتنع.
أقوال الناس في الشهادة لمعين بالجنة
لكن هذا مثل الشهادة لمعين بالجنة، وفيها ثلاثة أقوال4:
قيل: لا يشهد بذلك لغير النبي. وهو قول أبي حنيفة، والأوزاعي، وعلي ابن المديني، وغيرهم.

1 الباقلاني. هو أبو بكر محمد بن طيب بن محمد بن جعفر البصري. سبقت ترجمته.

2 هو القاضي أبو يعلى؛ محمد بن الحسين بن محمد بن خلف البغدادي الفراء، شيخ الحنابلة، وعالم العراق في زمانه. توفي سنة 458 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 89/18. وطبقات الحنابلة 193/2. والبداية والنهاية 101/12.
3 انظر: البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات للباقلاني ص 51. والتمهيد له ص 47-48. والإنصاف ص 69. ومقالات الإسلاميين للأشعري 350/1. وشرح المقاصد للتفتازاني ص 73، 75، 76.
4 انظر هذه الأقوال الثلاثة في: مجموع الفتاوى 518/11. ومنهاج السنة النبوية 496/3-497. وشرح الطحاوية ص 538. وغاية الأماني في الرد على النبهاني للآلوسي 187/1. وكذلك في المقدمة السالمة في خوف الخاتمة لملا علي القاري - مخطوط - رقم اللوحة 35، ضمن مجموع ابن سلطان رقم 1589.

وقيل: يشهد به لمن جاء به نص، إن1 كان [خبرا] 2 صحيحا؛ كمن شهد له النبي بالجنة فقط. وهذا قول كثير من أصحابنا، وغيرهم.
وقيل: يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح3؛ كعمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وغيرهما.
وكان أبو ثور4 يشهد لأحمد بن حنبل بالجنة.
وقد جاء في الحديث الذي في المسند: "يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار". قالوا: بماذا يا رسول الله؟ قال: "بالثناء الحسن والثناء السيئ"5.
وفي الصحيحين: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة، فأثنوا عليها خيرا، فقال: "وجبت وجبت". ومر عليه بجنازة، فأثنوا عليها شرا، فقال: "وجبت وجبت". فقيل: يا رسول الله! ما قولك: وجبت وجبت؟ قال:

---

1 في ((خ)) : وإن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : خيرا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والأشبه أن يشهد له بذلك. هذا في الأمر العام) . انظر مجموع الفتاوى 65/11.
4 هو إبراهيم بن خالد. الإمام الحافظ الحجة المجتهد، مفتي العراق، أبو ثور. ولد في حدود سنة 170 ?. قال الإمام أحمد لما سئل عنه: أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة، وهو عندي في مسلاخ سفيان الثوري. وقال النسائي: ثقة مأمون، أحد الفقهاء. توفي في صفر 240 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 72/12. والبداية والنهاية 322/10.
5 الحديث رواه الإمام أحمد في المسند 416/3، 466/6، من حديث أبي بكر بن أبي زهير الثقفي، عن أبيه. وسنده حسن كما ذكر محققا شرح الطحاوية ص 531.

"هذه الجنازة أثنيتم عليها الخير، فقلت: وجبت لها الجنة. وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرا، فقلت: وجبت لها النار. أنتم شهداء الله في الأرض"1.
وفي حديث آخر: "إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنت، فقد أحسنت. وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت، فقد أسأت"2.
وسئل عن الرجل: يعمل العمل لنفسه، فيحمده الناس عليه، فقال: "تلك عاجل بشرى المؤمن" 3.
الثناء على رجل يعرف بأسباب
والتحقيق: أن هذا قد [يعلم] 4 بأسباب، وقد يغلب على الظن. ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم؛ ولهذا لما قالت أم العلاء الأنصارية5: لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الأنصار على سكناهم، فصار لنا عثمان بن مظعون6 في السكنى، / فمرض، فمرضناه، ثم توفي، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي

---

1 أخرجه البخاري في صحيحه 460/1. ومسلم في صحيحه حديث 949.

2 أخرجه الإمام أحمد في مسنده 4021/1. وقال الساعاتي: (وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه: حديث عبد الله بن مسعود هذا صحيح، رجاله ثقات، وأورده الهيثمي، وقال: رواه (طب) ورجاله رجال الصحيح. وغفل عن عزوه للإمام أحمد) . الفتح الرباني 219/19-220.
3 أخرجه مسلم في صحيحه، حديث 2642.
4 في ((خ)) : يعمل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 هي أم العلاء بنت الحارث بن ثابت الخزرجية. يقال إنها والدة خارجة بن زيد بن ثابت. إحدى الصحابيات رضي الله عنها. انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر 478/4.
6 هو عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي، أبو السائب. من سادة المهاجرين، وممن فازوا بوفاتهم في حياة نبيهم صلى الله عليه وسلم، فصلى عليهم. وكان أول من دفن بالبقيع. انظر: حلية الأولياء 102/1. وسير أعلام النبلاء 153/1.

أن قد أكرمك الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " [وما يدريك] 1 أن الله قد أكرمه؟ ". قالت: لا والله، لا أدري. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما هو فقد أتاه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم". قالت: فوالله لا أزكي بعده أحدا أبدا. قالت: ثم رأيت لعثمان [رضي الله عنه] 2 بعد في النوم عينا تجري، فقصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "ذاك عمله"3.
وأما من لم يكن مقرا بالأنبياء، فهذا لا يعرف الولي من غيره؛ إذ الولي لا يكون وليا إلا إذا آمن بالرسل.
لكن قد [تدل] 4 الخوارق على أن هؤلاء على الحق، دون هؤلاء؛ لكونهم من أتباع الأنبياء؛ كما قد [يتنازع] 5 المسلمون والكفار في الدين؛ فيؤيد الله المؤمنين بخوارق تدل على صحة دينهم؛ كما صارت النار على أبي مسلم6 بردا وسلاما؛ وكما شرب خالد السم7، وأمثال ذلك. فهذه الخوارق هي من جنس آيات الأنبياء.
كل ما كان الإنسان أقرب إلى الإسلام فهو أقوى خوارق
وقد يجتمع كفار، ومسلمون، ومبتدعة، وفجار؛ فيؤيد هؤلاء بخوارق تعينهم عليها الجن و [الشياطين] 8، ولكن جنهم وشياطينهم أقرب إلى

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 ما بين المعقوفتين يوجد في ((ط)) فقط.
3 الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 954/2، 955.
4 في ((خ)) : يدل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((خ)) : تتنازع. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 الخولاني. تقدمت قصته قريبا، ص 159.
7 تقدمت قصة شرب خالد بن الوليد رضي الله عنه للسم قريبا، ص 159.
8 في ((خ)) : الشيطاطين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

الإسلام؛ فيترجحون بها على أولئك الكفار عند من لا يعرف النبوات؛ كما يجري لكثير من المبتدعة، والفجار، مع الكفار؛ مثل ما يجري للأحمدية1، وغيرهم، مع عباد المشركين البخشية2 قدام التتار3، كانت خوارق هؤلاء أقوى لكونهم كانوا أقرب إلى الإسلام4.

---

1 الأحمدية، والرفاعية من طرق الصوفية. وتنسب إلى أحمد الرفاعي بن سلطان علي. ويوصل أتباعه نسبه إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق، إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولد أحمد الرفاعي في قرية حسن بالقرب من أم عبيدة بالعراق سنة 512 هج، وتوفي سنة 578، ودفن في قرية أم عبيدة.
انظر: البداية والنهاية لابن كثير 312/12. وسير أعلام النبلاء للذهبي 76/21. وطبقات الشافعية للسبكي 19/4. وشذرات الذهب لابن العماد 259/4. والفكر الصوفي لعبد الرحمن عبد الخالق ص 366.

وقد ناقش شيخ الإسلام - رحمه الله - هؤلاء الرفاعية وكشف حقيقة ما يظهرونه من المخاريق مثل ملابسة النار والحيات وإظهار الدم، وذلك في مناقشة علنية بحضور نائب السلطان وأهل دمشق. انظر مجموع الفتاوى 445/11، 476، 494.
(بخش) كلمة سنسكريتية، أصل الكلمة (بهشكو) ، وهي تدل على كهنة بوذا. وهذا أحد معانيها. والكلمة بهذا المعنى ترادف الكلمة الصينية: (هو شانغ) ، والتيبتية: (لاما) ، والأويغورية: (توابن) .
انظر: دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين 386/6.
وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن هؤلاء البخشية في كتاب الصفدية 191/1. ومنهاج السنة 446/3-447.
3 لعل المراد أن أحوال هؤلاء لا تظهر إلا عند التتار.
4 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله قصة لشيخ من الأحمدية: أنه كان مرة عند بعض أمراء التتار، وكان لهذا الأمير صنم يعبده، فقال الأمير لذاك الشيخ: هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كل يوم، ويبقى أثر الأكل في الطعام. فأنكر الشيخ ذلك، فقال له الأمير: إن كان يأكل، فأنت تموت - يعني سيقتله لإنكاره ذلك. فقال له الشيخ: نعم. يقول ذاك الشيخ: فأقمت عنده إلى نصف النهار، ولم يظهر في الطعام أثر، فاستعظم ذلك التتري. قال شيخ الإسلام رحمه الله: فقلت لهذا الشيخ: أنا أبين لك سبب ذلك؛ التتري كافر مشرك، ولصنمه شيطان يغويه بما يظهره من الأثر في الطعام. وأنت كان معك من نور الإسلام ما أوجب انصراف الشيطان ... فالتتري وأمثاله سود، وأهل الإسلام المحض بيض، وأنتم بلق؛ فيكم سواد وبياض) .
((مجموع الفتاوى)) 447/11-448.
ونقل شيخ الإسلام رحمه الله عن شيخ من مشايخ الأحمدية قوله: أحوالنا تظهر عند التتار، لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله.
انظر مجموع الفتاوى 455/11.

كلام الغزالي ينفع الفلسفي ويضر المسلم

وعند من هو أحق بالإسلام منهم لا تظهر خوارقهم، بل تظهر خوارق من هو أتم إيمانا منهم. وهذا يشبه رد أهل البدع على الكفار بما فيه بدعة؛ فإنهم وإن ضلوا من هذا الوجه، فهم خير من أولئك الكفار، لكن من أراد أن يسلك إلى الله على ما جاء به الرسول يضره هؤلاء، ومن كان [حائرا] 1 نفعه هؤلاء. بل كلام أبي حامد2 ينفع المتفلسف ويصير أحسن؛ فإن المتفلسف يسلم به إسلام الفلاسفة، والمؤمن يصير به إيمانه مثل إيمان الفلاسفة. وهذا [أردأ] 3 من هذا، بخلاف ذاك.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : جائرا.
2 هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي. توفي سنة 505 هـ.
قال عنه أبو بكر بن العربي: شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم، فما استطاع.
وقال عنه ابن الجوزي: صنف أبو حامد الإحياء، وملأه بالأحاديث الباطلة، ولم يعلم بطلانها، وتكلم على الكشف، وخرج عن قانون الفقه.
انظر: سير أعلام النبلاء 322/19.
3 في ((خ)) : رده. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

أنواع الخوارق

والخوارق ثلاثة أنواع1:
إما أن [تعين] 2 صاحبها على البر والتقوى؛ فهذه أحوال نبينا ومن اتبعه؛ خوارقهم لحجة في الدين، أو حاجة للمسلمين.
والثاني: أن تعينهم على مباحات؛ كمن [يعينه] 3 الجن على قضاء حوائجه المباحة؛ فهذا متوسط، وخوارقه لا ترفعه ولا تخفضه. وهذا يشبه تسخير الجن لسليمان [عليه السلام] 4. والأول مثل إرسال نبينا إلى الجن يدعوهم إلى الإيمان؛ فهذا أكمل من استخدام الجن في بعض الأمور المباحة؛ كاستخدام سليمان [عليه السلام] 5 لهم في محاريب، وتماثيل، وجفان [كالجواب] 6 وقدور راسيات، [اعملوا آل داود شكرا] 7؛ قال تعالى: {يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان [كالجواب] 8

وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور} 9، وقال تعالى: {ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير} 10.
ونبينا أرسل إليهم يدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته؛ كما أرسل إلى الإنس. فإذا اتبعوه، صاروا سعداء. فهذا أكمل له ولهم من ذاك.

---

1 انظر أيضا: مجموع الفتاوى 319/11-320، 323-329.
2 في ((خ)) : يعين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : تعينه.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
5 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
6 في ((م)) ، و ((ط)) : كالجوابي.
7 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
8 في ((م)) ، و ((ط)) : كالجوابي.
9 سورة سبأ، الآية 13.
10 سورة سبأ، الآية 12.

العبد الرسول أكمل من الملك الرسول
كما أن العبد الرسول أكمل من النبي الملك1. ويوسف، وداود، وسليمان [عليهم السلام] 2 أنبياء ملوك. وأما محمد [صلى الله عليه وسلم] 3 فهو عبد رسول؛ كإبراهيم، وموسى، والمسيح [عليهم السلام] 4. وهذا الصنف أفضل، وأتباعهم أفضل.

---

1 وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضا: "وانقسم الأنبياء عليهم السلام إلى عبد رسول، ونبي ملك. وقد خير الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم بين أن يكون عبدا رسولا، وبين أن يكون نبيا ملكا، فاختار أن يكون عبدا رسولا ... فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه، ويترك ما حرم الله عليه، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه، ويختار من غير إثم عليه. وأما العبد الرسول فلا يعطي أحدا إلا بأمر ربه، ولا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء؛ بل روي عنه أنه قال: "إني والله لا أعطي أحدا، ولا أمنع أحدا، إنما أنا قاسم حيث أمرت". مجموع الفتاوى 180/11-181. وانظر: المصدر نفسه 88/13. ومنهاج السنة النبوية 468/7. والبداية والنهاية لابن كثير 50/6، 294.
وحديث "إني والله لا أعطي أحدا". رواه البخاري في كتاب فرض الخمس.
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال: "إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختارما عنده.. فبكى أبو بكر.."
انظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة رقم 45 - الفتح 227/7 -. وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم 2.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "جلس جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة. فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك فقال: أفملكا نبيا يجعلك، أو عبدا رسولا. قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: "بل عبدا رسولا".
انظر: مسند الإمام أحمد 231/2. وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (المسند 142/12-143) ، والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان280/14. وقال محققه: صحيح على شرط الشيخين.
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .

أهل البدع أحوالهم من إعانة الشياطين
والثالث: أن تعينه على محرمات؛ مثل الفواحش، والظلم، والشرك، والقول الباطل؛ فهذا من جنس خوارق السحرة، والكهان، والكفار، والفجار؛ مثل أهل البدع من الرفاعية1، وغيرهم؛ فإنهم يستعينون بها على الشرك، وقتل النفوس بغير حق، والفواحش. وهذه الثلاثة هي التي حرمها الله في قوله: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما} 2.
ولهذا كانت طريقهم من جنس طريق الكهان، والشعراء، والمجانين - وقد نزه الله نبيه عن أن يكون مجنونا، وشاعرا، وكاهنا3 - فإن إخبارهم4 بالمغيبات عن شياطين تتنزل عليهم كالكهان، وأقوى أحوالهم لمؤلهيهم. وهم من جنس المجانين، وقد قال شيخهم: إن أصحاب الأحوال منهم يموتون على غير الإسلام. وأما سماعهم، ووجدهم فهو شعر الشعراء، ولهذا شبههم من رآهم بعباد المشركين؛ من الهند الذين يعبدون الأنداد.

---

1 تقدم التعريف بهم ص 180.
2 سورة الفرقان، الآية 68.
3 قال تعالى: {فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين} . [سورة الطور، الآيات 29-31] .
4 يعني الكهان، والشعراء، والمجانين.

فصل: كل ما يدل على النبوة آية وبرهان عليها
وحقيقة الأمر أن ما يدل على النبوة هو آية على النبوة، وبرهان عليها. فلا بد أن يكون مختصا بها، لا يكون [مشتركا] 1 بين الأنبياء وغيرهم؛ فإن الدليل هو مستلزم لمدلوله، لا يجب أن يكون أعم وجودا منه، بل إما أن يكون مساويا له في العموم والخصوص، أو يكون أخص منه. وحينئذ فآية النبي لا تكون لغير الأنبياء. لكن إذا كانت معتادة لكل نبي، أو لكثير من الأنبياء، لم يقدح هذا فيها، فلا يضرها أن تكون معتادة للأنبياء.
وصف الآية بأنها خارقة أو غير خارقة وصف لا ينضبط
وكون الآية خارقة للعادة، أو غير خارقة: هو وصف لم يصفه القرآن، والحديث، ولا السلف.
وقد بينا في غير هذا الموضع أن هذا وصف لا ينضبط2، وهو عديم التأثير؛ فإن نفس النبوة معتادة للأنبياء، خارقة للعادة بالنسبة إلى غيرهم.
إن كون الشخص يخبره الله بالغيب خبرا◌ معصوما◌ هذا مختص بهم، وليس هو موجودا لغيرهم، فضلا عن كونه معتادا.

---

1 في ((خ)) : مشركا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر من كتب شيخ الإسلام: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح 412/5-421، 380/6-404، 496-505. ومنهاج السنة النبوية 228/3.
وقد بسط المؤلف رحمه الله الكلام على هذا في مواضع من كتابنا هذا. راجع ص 990، 1017، وغيرها.

معنى الخارق للعادة
فآية النبي لا بد أن تكون خارقة للعادة؛ بمعنى أنها ليست معتادة للآدميين؛ وذلك لأنها حينئذ لا تكون مختصة بالنبي بل مشتركة.
وبهذا احتجوا على أنه لا بد أن تكون خارقة للعادة. لكن ليس في هذا ما يدل على أن كل خارق آية؛ فالكهانة1، والسحر2 هو معتاد للسحرة والكهان، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم؛ كما أن ما يعرفه أهل الطب، والنجوم3،

---

1 الكاهن: هو الذي يدعي مطالعة عالم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن. وكان في العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيرا من الأمور؛ كشق، وسطيح، وغيرهما.

انظر: معالم السنن 228/4. ولسان العرب 363/13.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "أما الكاهن، والمنجم، ونحو هؤلاء، فيكذبون كثيرا، كما يصدقون أحيانا، ويخبرون بجمل غير مفصلة". الجواب الصحيح 69/6.
2 قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عن السحر: "اعلم أن السحر في الاصطلاح لا يمكن حده بحد جامع مانع؛ لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته. ولا يتحقق قدر مشترك يكون جامعا لها ما نعا لغيرها. ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حده اختلافا متباينا". أضواء البيان 444/4.
وعرفه ابن قدامه بقوله: "عزائم، ورقى، وعقد تؤثر في الأبدان والقلوب، فيمرض، ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه". الكافي 164/4. والمغني 299/12. وانظر: زاد المعاد 125/4-126.
وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في مواضع أخرى من كتابه هذا: النبوات ص 172: "أن الكاهن إنما عنده أخبار، والساحر عنده تصرف بقتل، وإمراض، وغير ذلك. وهذا تطلبه النفوس أكثر".
3 التنجيم نوعان: أولا: علم التأثير عرفه شيخ الإسلام رحمه الله بأنه: "الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية، والتمزيج بين القوى الفلكية، والقوابل الأرضية) . وقال رحمه الله عن حكمه: "صناعة محرمة بالكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل". مجموع الفتاوى 192/35.
وعرفه ابن خلدون رحمه الله بأنه "ما يزعمه أصحاب هذه الصناعة من أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها، من قبل معرفة قوى الكواكب، وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة؛ فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية". مقدمة ابن خلدون ص 519-520. وهذا ينافي التوحيد.
والنوع الثاني: علم التيسير؛ وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والأوقات والجهات، فهذا لا بأس به، بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات، أو الاهتداء به في الجهات. انظر: القول السديد في مقاصد التوحيد للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص 91-92. وهناك تعاريف أخرى. انظر: معالم السنن 371/5-372. وشرح السنة للبغوي 183/12.

والفقه، والنحو هو معتاد لنظرائهم، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم.
الكسوف يعرف بالحساب
ولهذا إذا أخبر الحاسب1 بوقت الكسوف والخسوف2، تعجب الناس؛ [إذ] 3 كانوا لا يعرفون طريقه؛ فليس في هذا ما يختص بالنبي. وكذلك [قراءة] 4 القرآن بعد أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم صارت مشتركة بين النبي وغيره. وأما نفس الابتداء به فهو المختص بالنبي.

---

1 الحسب يأتي بمعان كثيرة، منها: العد والإحصاء وتقدير الشيء. قال الفراء: حسبت الشيء: ظننته أحسبه وأحسبه، والكسر أجود اللغتين. انظر: تهذيب اللغة 329/4-331، مادة حسب.
وجاء في حديث الهجرة: "فيلقى الرجل أبا بكر، فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل. قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير ... ". الحديث رواه البخاري في صحيحه79/5.
2 الكسوف: مأخوذ من كسفت الشمس والقمر - بفتح الكاف. وقيل: كسف الشمس - بالكاف -، وخسف القمر - بالخاء -. انظر: شرح النووي على مسلم 198/6.
وجمهور أهل العلم على أن الكسوف والخسوف يكون لذهاب ضوء الشمس والقمر كله، ويكون لذهاب بعضه.
فالكسوف لا يكون إلا في آخر الشهر ليالي الإسرار. والخسوف لا يكون إلا في وسط الشهر ليالي الإبدار.
انظر: مجموعة الفتاوى المصرية 320/1. ومجموع الفتاوى 175/35.
3 في ((ط)) فقط: إذا.
4 في ((خ)) : قرأت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

المعجزة تكون من الابتداء مختصة بالنبي
وكذلك ما يرويه من أنباء الغيب عن الأنبياء لما صار مشتركا بين النبي وغيره، لم يبق [آية] 1، بخلاف الابتداء به.

معنى الكهانة
فالكهانة مثلا: وهو الإخبار ببعض الغائبات عن الجن: أمر معروف عند الناس. وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان، وإنما ذهب ذلك بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم 2. وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة؛ فهم كثيرون في أرض عباد الأصنام، ويوجدون كثيرا عند النصارى، ويوجدون كثيرا في بلاد المسلمين؛ حيث نقص العلم والإيمان بما جاء به الرسول3؛

1 في ((خ)) : أنه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الجن - فيما ذكره الله تعالى عنهم -: {وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا} [الجن 8-10] .
قال ابن عباس: "انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليه الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث.." أخرجه البخاري في صحيحه 253/2. ومسلم في صحيحه 331/1.
قال شيخ الإسلام: "وقد تواترت الأخبار بأنه حين المبعث كثر الرمي بالشهب، وهذا أمر خارق للعادة، حتى خاف بعض الناس أن يكون ذلك لخراب العالم، حتى نظروا هل الرمي بالكواكب التي في الفلك، أم الرمي بالشهب؟ فلما رأوا أنه بالشهب، علموا أنه لأمر حدث. وأرسلت الجن تطلب ذلك، حتى سمعت القرآن، فعلمت أنه كان لأجل ذلك". الجواب الصحيح 353/5-354.
3 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله ذلك مرارا، وبين أن أحوال المشعوذين تقبل في مجتمعات الجاهلين، وتكثر حيث يقل العلم والعلماء العاملين. انظر: كتاب الصفدية 233/1، 236. والرد على المنطقيين ص 187.
وهذا مشاهد الآن في بعض الأقطار التي يقل فيها نور الإسلام؛ فقد شاع بين بعض الناس علوم السحرة، والعرافين، وأهل الزار، ومن يخبر عن الحظ، والطالع. ونفقت بضاعة المشعوذين والدجالين التي هي من علوم الجاهلية؛ كما قال شيخ البطائحية لشيخ الإسلام رحمه الله لما ناظرهم: "أحوالنا تظهر عند التتار، لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله". انظر: مجموع الفتاوى 455/11.

لأن هؤلاء أعداء الأنبياء، والله تعالى قد ذكر الفرق بينهم وبين الأنبياء؛ فقال: {هل أنبئكم على من تنزل [الشياطين] 1 [تنزل] 2 على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} 3.
فهؤلاء لا بد أن يكون في أحدهم كذب وفجور، وذلك يناقض النبوة. فمن ادعى النبوة، وأخبر بغيوب من جنس أخبار الكهان، كان ما أخبر به خرقا للعادة عند أولئك القوم، لكن ليس خرقا لعادة جنسه من الكهان.
خوارق بعض المتنبئين
وهم إذا جعلوا ذلك آية لنبوته، كان ذلك لجهلهم [بوجود] 4 هذا الجنس لغير الأنبياء؛ كالذين صدقوا مسيلمة الكذاب5، والأسود

1 في ((خ)) : الشيطان.
2 في ((خ)) : تنزلوا.
3 سورة الشعراء، الآيات 221-223.
4 في ((ط)) فقط: لوجود.
5 هو: مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي. متنبئ. ولد ونشأ باليمامة في بلدة الجبيلة بوادي حنيفة. وكان قد تنبأ في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر سنة عشر. وزعم أنه اشترك مع محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة، وكان معه من الشياطين من يخبر بالمغيبات. بعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب في جيش كثير، حتى أهلكه الله على يد وحشي غلام مطعم بن عدي؛ الذي قتل حمزة بن عبد المطلب. وكان وحشي يقول: قتلت خير الناس في الجاهلية، وشر الناس في الإسلام.

انظر: مجموع الفتاوى 285/11. وشذرات الذهب 231/1. والأعلام 226/7.

العنسي1، والحارث الدمشقي2، وبابا الرومي3، وغير هؤلاء من

---

1 هو عبهلة بن كعب بن غوث العنسي المذحجي، ذو الخمار، ويلقب بالأسود. كان كاهنا مشعبذا، فتنبأ باليمن، واستولى على بلاده، وكان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور الغيبية. فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره، فقتلوه؛ قتله فيروز الديلمي على فراشه. فبشر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بهلاك الأسود، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد. وأتى خبر مقتل العنسي المدينة في آخر شهر ربيع الأول، بعد ما خرج أسامة. وكان ذلك أول فتح جاء أبا بكر رضي الله عنه.
انظر: مجموع الفتاوى 666/10، 284/11. والبداية والنهاية 311/6. والأعلام 299/5.
2 هو الحارث بن سعيد - أو ابن عبد الرحمن - بن سعد. متنبئ من أهل دمشق. يعرف أتباعه بالحارثية. كان مولى لأحد القرشيين، ونشأ متعبدا زاهدا، ثم ادعى النبوة. وكان يأتي إلى رخامة فينقرها بيده، فتسبح. ويطعمهم فاكهة الصيف في الشتاء، ويظهر لهم خيالات يقول إنها الملائكة. وتبعه خلق كثير. قبض عليه عبد الملك ابن مروان، فصلبه، وقتله.
انظر: مجموع الفتاوى 285/11. والبداية والنهاية 27/9-28. والأعلام 154/2.
3 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذا المتنبئ الكذاب في كثير من كتبه؛ مثل: الجواب الصحيح 34/2. وشرح الأصفهانية 287/1. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 179-180؛ حيث ذكره فيه باسم باباه الرومي.
والبابا: اسم عام، يطلق على الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية
انظر: المعجم الوسيط 35/1.
ولعل المؤلف - رحمه الله - يقصد شخصا معينا؛ فلعله أن يكون البابا نبي الصابئة الحرانيين؛ إذ ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر أن الصابئة الحرانيين "لهم نبي على أصلهم، يقال له البابا، وله مصحف يذكر فيه كثيرا من الأخبار المستقبلة، ويذكر أن سيدته؛ يعني روحانية الزهرة، أخبرته بذلك. وكثير منها صحيح؛ كإخباره بدخول المسلمين بلاد حران وغيرها، وفتحهم البلاد، وإهانتهم لطائفته". الرد على المنطقيين ص 480-481.
وليس الأمر علما بالغيب، بل لعله حدس صدق.

المتنبئين الكذابين1. وكان هؤلاء [يأتون] 2 بأمور عجيبة خارقة لعادة أولئك القوم، لكن ليست خارقة لعادة جنسهم ممن ليس [بنبي] 3. فمن صدقهم ظن أن هذا مختص بالأنبياء , وكان من جهله بوجود هذا لغير الأنبياء، كما أنهم كانوا يأتون بأمور [تناقض] 4 النبوة5.
آيات الأنبياء لا يعارضها من ليس بنبي
ولهذا يجب في آيات الأنبياء أن لا يعارضها من ليس بنبي، فكل ما عارضها [صادرا م] 6 من ليس من جنس الأنبياء، فليس من آياتهم.
ولهذا طلب فرعون أن يعارض ما جاء به موسى لما ادعى أنه ساحر7؛ فجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى، فلا [تبقى] 8 حجته مختصة

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "مسيلمة الكذاب والأسود العنسي اللذين ادعيا النبوة في آخر أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وكان لكل منهما شياطين تخبره وتعينه". مجموع الفتاوى 666/11.
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : نبي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : يناقض. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 ذكر علماء التاريخ أن مسيلمة كان يتشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم. وبلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق في بئر، فغزر ماؤها. فبصق مسيلمة في بئر، فغاض ماؤها بالكلية. وبصق في آخر، فصار ماؤه أجاجا، وتوضأ، وسقى بوضوئه

نخلا، فيبست، وهلكت. وأتى بولدان يبرك عليهم، فجعل يمسح رؤوسهم، فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه. ويقال إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه، ومسحهما، فعمي. انظر: البداية والنهاية 331/6.
وأما الأسود العنسي: فلا أدل على كذبه من قصة أبي مسلم الخولاني، حين ألقاه العنسي في النار، فصارت عليه بردا وسلاما؛ كما صارت النار بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام.
وقد تقدمت هذه القصة قريبا ص 192.
6 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
7 المدعي هو فرعون؛ زعم أن ما جاء به موسى عليه السلام سحر، وأنه - عليه السلام - ساحر.
8 في ((خ)) : يبقى. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

بالنبوة. وأمر [م موسى] 1 أن يأتوا أولا بخوارقهم، فلما أتت، وابتلعتها العصا التي صارت حية، علم السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم، فآمنوا إيمانا جازما.
ولما قال لهم فرعون: {ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ? قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا} 2. وقالوا: {آمنا برب العالمين رب موسى وهارون} 3.
فكان من تمام علمهم بالسحر: أن السحر معتاد لأمثالهم، وأن هذا ليس من هذا الجنس، بل هذا مختص بمثل هذا؛ فدل على صدق دعواه.
وفرعون وقومه [بين] 4 معاند وجاهل استخفه فرعون؛ كما قال تعالى: {فاستخف قومه فأطاعوه} 5.
نقد شيخ الإسلام لبعض من عرف المعجزة
فإذا قيل لهم: المعجزة هي الفعل الخارق للعادة، أو قيل: هي الفعل الخارق للعادة المقرون بالتحدي، أو قيل مع ذلك الخارق للعادة: السليم عن المعارضة؛ فكونه خارقا للعادة ليس أمرا مضبوطا.
فإنه إن أريد به أنه لم يوجد له نظير في العالم، فهذا باطل؛ فإن آيات الأنبياء بعضها نظير بعض، بل النوع الواحد منه؛ كإحياء الموتى: هو آية لغير واحد من الأنبياء.
وإن [قيل] 6: إن بعض الأنبياء كانت آيته لا نظير لها؛ كالقرآن،

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة طه، الآيتان 71-72.
3 سورة الأعراف، الآيتان 121-122.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 سورة الزخرف، الآية 54.
6 في ((خ)) : قد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

والعصا، والناقة، لم يلزم ذلك في سائر الآيات1.
ثم هب أنه لا نظير لها في نوعها، لكن وجد خوارق العادات للأنبياء غير هذا، فنفس خوارق العادات معتاد [جنسه] 2 للأنبياء، بل هو من لوازم نبوتهم، مع كون الأنبياء كثيرين؛ وقد روي أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي3 وما يأتي به كل واحد من هؤلاء، لا يكون معدوم النظير في العالم، [بل ربما كثر نظيره] 4.

---

1 والسبب والله أعلم: أن هذه المعجزات لم تتكرر لأنبياء آخرين، إنما جاءت لما هو شائع بين القوم المرسل إليهم، ليكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة. فالقرآن الكريم تحدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا، وهم الذين عرفوا بالبراعة في فنون القول والفصاحة. والعصا معجزة موسى عليه السلام لما عرف عن قوم فرعون من البراعة في السحر. والناقة معجزة صالح عليه السلام، وكان قومه يتقلبون في نعم الله، وينحتون من الجبال بيوتا؛ فأخرج الله لهم ناقة عشراء من صخرة ملساء، لها شرب، ولثمود شرب يوم آخر.
انظر: رسالة إلى أهل الثغر لأبي الحسن الأشعري ص166. وأعلام النبوة للماوردي ص 97. والإنصاف للباقلاني ص 93. وأصول الدين للبغدادي ص 108. وشرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص 572. والشفاء للقاضي عياض 200/1. وشرح

المقاصد للتفتازاني 14/5. وتفسير ابن كثير 364/1-365، 418/2، 169/5-200. والبداية والنهاية له 84/2. وتفسير السعدي 28/3. ومع الأنبياء في القرآن الكريم ص 22.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : جميعه.
3 رواه الإمام أحمد في المسند 266/5. وابن حبان في صحيحه 54/8، وقال: على شرط مسلم، ولم يخرجه. وقال عنه القرطبي: هذا أصح ما روي في ذلك. انظر: الجامع لأحكام القرآن 14/6. وصححه الألباني. انظر: مشكاة المصابيح 1599/3.
4 في ((خ)) : وإن كثر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

الكلام عن معنى خرق العادة

[وإن عني بكون] 1 المعجزة هي الخارق للعادة: أنها خارقة لعادة أولئك المخاطبين بالنبوة؛ بحيث ليس فيهم من يقدر على ذلك، فهذا ليس بحجة؛ فإن أكثر الناس لا يقدرون على الكهانة، والسحر، ونحو ذلك.
وقد يكون المخاطبون بالنبوة ليس فيهم هؤلاء؛ كما كان أتباع مسيلمة2، والعنسي3، وأمثالهما؛ لا يقدرون على ما يقدر عليه هؤلاء.
والمبرز في فن من الفنون يقدر على ما لا يقدر عليه أحد في زمنه، وليس هذا دليلا على النبوة؛ فكتاب سيبويه4 مثلا مما لا يقدر على مثله عامة الخلق، وليس بمعجز؛ إذ كان ليس مختصا بالأنبياء، بل هو موجود لغيرهم. وكذلك طب أبقراط5.
بل وعلم العالم الكبير من علماء المسلمين خارج عن عادة الناس، وليس هو دليلا على نبوته.

---

1 في ((خ)) : قد يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سبق التعريف به قريبا ص 192.
3 سبق التعريف به قريبا ص 192.
4 هو عمرو بن عثمان بن قنبر، مولى بني الحارث. أبو البشر. من تلاميذ الخليل. توفي سنة 177?، وعمره نيف وأربعين سنة. وقد صنف في النحو كتابا لا يلحق شأوه، وشرحه أئمة النحاة بعده، فانغمروا في لجج بحره. وكان المبرد إذا أراد إنسان أن يقرأ كتاب سيبويه يقول له: ركبت البحر؛ تعظيما له، واستعظاما لما فيه. وقال المازني: من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه، فليستحيي.
انظر: البداية والنهاية لابن كثير 182/10. والفهرست لابن النديم ص 76.
5 هو بقراط بن إيراقليس. طبيب ماهر من تلاميذ أسقلبيوس الثاني. كان في أيام بهمن ابن أردشير. قال يحيى النحوي: بقراط وحيد دهره الذي يضرب به المثل، الطبيب الفيلسوف. وبلغ به الأمر إلى أن عبده الناس. توفي سنة 357 ق. م، وعمره 95سنة.
انظر: طبقات الأطباء ص 24. والفهرست ص 400. وتاريخ الحكماء ص 90.

وأيضا: فكون الشيء معتادا هو مأخوذ من العود. وهذا يختلف بحسب الأمور؛ فالحائض المعتادة: من الفقهاء من يقول: [تثبت] 1 عادتها بمرة، ومنهم من يقول: بمرتين، ومنهم من يقول: لا [تثبت] 2 إلا بثلاث3.
وأهل كل بلد لهم عادات في طعامهم، ولباسهم، وأبنيتهم، لم يعتدها غيرهم. فما خرج عن ذلك فهو خارق لعادتهم، لا لعادة من اعتاده [غيرهم] 4.
فلهذا لم يكن في كلام الله، ورسوله، وسلف الأمة، وأئمتها وصف آيات الأنبياء بمجرد كونها خارقة للعادة، [ولا يجوز أن يجعل مجرد خرق العادة هو الدليل؛ فإن هذا لا ضابط له، وهو مشترك بين الأنبياء وغيرهم. ولكن إذا قيل: من شرطها أن تكون خارقة للعادة] 5؛ بمعنى أنها لا تكون معتادة للناس فهذا ظاهر يعرفه كل أحد.
القول بأن المعجزة هي الخارقة للعادة ليس كافيا لوجهين
ويعرفون أن الأمر المعتاد؛ مثل الأكل، والشرب، والركوب، والسفر، وطلوع الشمس، وغروبها، ونزول المطر في وقته، وظهور الثمرة في وقتها، ليس دليلا، ولا يدعي أحد أن مثل هذا دليل له؛ فإن فساد هذا ظاهر لكل أحد.
ولكن ليس مجرد كونه خارقا للعادة كافيا لوجهين:

أحدهما: أن كون الشيء معتادا وغير معتاد أمر نسبي إضافي، ليس بوصف مضبوط تتميز به الآية، بل يعتاد هؤلاء ما لم يعتد هؤلاء؛ مثل كونه مألوفا، ومجربا، ومعروفا، ونحو ذلك من الصفات الإضافية.

---

1 في ((خ)) : يثبت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 في ((خ)) : يثبت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 انظر: هذه الأقوال الثلاثة مع أدلتها في كتاب المغني 397/1-398.

4 في ((م)) ، و ((ط)) : من غيرهم.

5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

الثاني: أن مجرد ذلك مشترك بين الأنبياء وغيرهم. وإذا خص ذلك بعدم المعارضة، فقد يأتي الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته، ويكون معتادا لغيرهم كالكهانة، والسحر. وقد يأتي بما لا يمكن معارضته، وليس بآية لشيء؛ لكونه لم يختص بالأنبياء.

وقد يقال في طب [بقراط] 1 ونحو سيبويه2 أنه لا نظير له، بل لا بد أن يقال: إنه مختص بالأنبياء، والطب، والنحو، والفقه.

وإن أتى الواحد بما لا يقدر غيره على نظيره، فليس مختصا بالأنبياء، بل معروف أن هذا تعلم بعضه من غيره، واستخرج سائره بنظره.

وإذا خص الله طبيبا، أو نحويا، أو فقيها بما ميزه به على نظرائه، لم يكن ذلك دليلا على نبوته، وإن كان خارقا للعادة؛ فإن ما يقوله الواحد من هؤلاء قد علمه بسماع، أو تجربة، أو قياس.

وهي طرق [معروفة] 3 لغير الأنبياء.

والنبي قد علمه الله من الغيب الذي عصمه فيه عن الخطأ ما لم يعلمه إلا نبي مثله.

الآية لا تعرف أنها مختصة بالنبي حتى يعرف جنس النبوة

فإن قيل: فحينئذ لا يعرف أن الآية مختصة بالنبي، حتى [تعرف] 4 النبوة. [قيل] 5: أما بعد وجود الأنبياء في العالم، فهكذا هو. ولهذا يبين الله عز وجل نبوة محمد في غير موضع باعتبارها بنبوة من

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : أبقراط. وبقراط: تقدم التعريف به.

2 تقدم التعريف به.

3 في ((خ)) : معرفة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 في ((خ)) : يعرف. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

5 في ((م)) ، و ((ط)) : قبل.

قبله. [و] 1 تارة يبين أنه لم يرسل ملائكة، بل رجالا من أهل القرى، ليبين أن هذا معتاد معروف، ليس هو أمرا لم تجر به عادة الرب؛ كقوله تعالى: {وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} 2؛ كما ذكره في سورة النحل3 والأنبياء4. وقال في يوسف: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون} 5.

فإن الكفار كانوا يقولون: إنما يرسل الله ملكا، أو يرسل مع البشر ملكا؛ كما قال فرعون {أم أنا [خير] 6 من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقي عليه [أسورة] 7 من ذهب أو جاء معه الملائكة [مقترنين] 8} 9.

وقال قوم نوح: {ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين} 10.

وقال مشركو العرب لمحمد: {ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي

---

1 حرف الواو ساقط في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

2 سورة الأنبياء، الآية 7.

3 قال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} . [النحل 43] .

4 وهي الآية التي تقدمت آنفا.

5 سورة يوسف، الآية 109.
6 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
7 في ((خ)) : أساورة.
8 رسمت في ((خ)) : مقترين.
9 سورة الزخرف، الآيتان 52-53.
10 سورة المؤمنون، الآية 24.

في الأسواق لولا أنزل [إليه] 1 ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها} 2.
وقال تعالى: {وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا} 3.
الآيات الدالة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم تقدم له نظراء وقد بشروا به
وقال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون} 4؛ بين أنهم لا يطيقون الأخذ عن الملائكة إن لم يأتوا في صورة البشر، ولو جاءوا في صورة البشر لحصل اللبس.
وقال تعالى: {أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس} 5، وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن إسماعيل، فقال الله لهم: {فاسألوا أهل الذكر } 6؛ يعني أهل الكتاب، {إن كنتم لا تعلمون} 7: هل أرسل إليهم رجالا أو ملائكة، ولهذا قال له: {قل ما كنت بدعا من الرسل} 8، وقال: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} 9؛ بين أن هذا الجنس من الناس معروف، قد تقدم له نظراء وأمثال.

---

1 في ((ط)) : عليه.
2 سورة الفرقان، الآيتان 7-8.
3 سورة الإسراء، الآيتان 94-95.
4 سورة الأنعام، الآيتان 8-9.
5 سورة يونس، الآية 2.
6 سورة النحل، الآية 43.
7 سورة النحل، الآية 43.
8 سورة الأحقاف، الآية 9.
9 سورة آل عمران، الآية 144.

وهو سبحانه أمر أن يسأل أهل الكتاب، وأهل الذكر عما عندهم من العلم [بأمور] 1 الأنبياء؛ هل هو من جنس ما جاء به محمد، أو هو مخالف له؛ ليتبين بأخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الأنبياء، وحينئذ فيعرف قطعا أن محمدا نبي، بل هو أحق بالنبوة من غيره.
والثاني: أن يسألوهم عن خصوص محمد، وذكره عندهم. وهذا يعرفه الخاصة منهم، ليس هو معروفا كالأول يعرفه كل كتابي؛ قال تعالى: {قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به [وشهد] 2 شاهد من بني إسرائيل على مثله} 3.
تفسير قوله تعالى: {وشهد شاهد من بني إسرائيل}
وقوله: {شهد شاهد} : ليس المقصود شاهدا واحدا معينا، بل ولا [يحتمل] 4 كونه واحدا. وقول من قال: [إنه] 5 عبد الله بن سلام6 ليس بشيء7؛ فإن هذه نزلت بمكة قبل أن يعرف ابن سلام8، ولكن المقصود

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : من أمور.
2 في ((خ)) : شاهد.
3 سورة الأحقاف، الآية 10.

4 في ((خ)) : يحمل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
6 هو عبد الله بن سلام بن الحارث؛ الإمام الحبر، المشهود له بالجنة. أبو الحارث الإسرائيلي، حليف الأنصار. من خواص أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. أسلم وقت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وقدومه المدينة. توفي بالمدينة سنة ثلاث وأربعين. انظر: سير أعلام النبلاء 413/2.
7 القول بأن المقصود بهذه الآية عبد الله بن سلام: رواه البخاري في صحيحه 1387/3، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وعزاه القرطبي إلى ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة، ومجاهد. انظر: الجامع لأحكام القرآن 124/16.
8 قال مسروق رحمه الله: والله ما نزلت في عبد الله بن سلام. ما نزلت إلا بمكة، وما أسلم عبد الله إلا بالمدينة، ولكنها خصومة خاصم محمد صلى الله عليه وسلم بها قومه.... فالتوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد صلى الله عليه وسلم. انظر: تفسير الطبري 9/27.

جنس الشاهد1؛ كما [تقول] 2 قام الدليل. وهو الشاهد الذي يجب تصديقه سواء كان واحدا قد يقترن بخبره ما يدل على صدقه، أو كان عددا يحصل بخبرهم العلم [بما] 3 تقول؛ فإن [خبرك] 4 بهذا صادق. وقوله: {على مثله} : فإن الشاهد من بني إسرائيل على [مثل] 5 القرآن؛ وهو أن الله بعث بشرا، وأنزل عليه كتابا أمر فيه بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهى فيه عن عبادة ما سواه، وأخبر فيه أنه خلق هذا العالم وحده، وأمثال ذلك.
المشركون ليس معهم دليل سمعي ولا عقلي
وقد ذكر في أول هذه السورة6 التوحيد، وبين أن المشركين ليس معهم على الشرك لا دليل عقلي، ولا سمعي؛ فقال تعالى: { [ما خلقنا] 7 السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من

---

1 قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره". انظر: تفسير القرآن العظيم 156/4.
2 في ((خ)) : يقول. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : كما. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : أخبرك. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
6 سورة الأحقاف.
7 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : ما خلق الله. وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله} إلى آخره1.
ومثل ذلك قوله تعالى: {ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} 2؛ فمن عنده علم الكتاب3 شهد بما في الكتاب الأول4، وهو يوجب تصديق الرسول لأنه يشهد بالمثل5، ويشهد أيضا بالعين6. و [كل] 7 من الشهادتين كافية، فمتى ثبت الجنس8، علم قطعا أن المعين منه.

---

1 سورة الأحقاف، الآيات 3-10.
2 سورة الرعد، الآية 43.

3 قال ابن كثير رحمه الله: (والصحيح في هذا: أن {ومن عنده} : اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته في كتبهم المتقدمة؛ من بشارات الأنبياء به؛ كما قال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والأنجيل} الآية. وقال تعالى: {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} ، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة) . تفسير القرآن العظيم 521/2.
4 وهي الكتب السابقة المتقدمة على القرآن، والتي فيها ذكر رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ كالتوراة والإنجيل.
5 أمثال الأنبياء، وحاجة الأمم إليهم، ولأن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يقيم الحجة على عباده، فيرسل إليهم الرسل يدلونهم على عبادته وحده.
6 أنه يخص ويعين رسولنا صلى الله عليه وسلم؛ اسمه، وصفاته؛ كما قال عيسى بن مريم عليه السلام: {إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد..} . [الصف، الآية 6] .
7 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
8 جنس الأنبياء.

وقال تعالى: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين} 1. وهذا سواء كان خطابا [للرسول] 2 والمراد به غيره، أو خطابا له وهو لغيره بطريق الأولى. [والتقدير] 3 قد يكون معدوما أو ممتنعا4، وهو بحرف (إن) ؛ كقوله: {قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين} 5، و {إن كنت قلته فقد علمته} 6؛ والمقصود بيان الحكم على هذا التقدير: إن كنت قلته فأنت عالم به وبما في نفسي، وإن كان له ولد فأنا عابده، وإن كنت شاكا فاسأل إن قدر إمكان ذلك؛ فسؤال الذين يقرءون الكتاب قبله إذا أخبروا، فما عندهم شاهد له، ودليل، وحجة. ولهذا نهى بعد ذلك عن الامتراء7 والتكذيب.

---

1 سورة يونس، الآيتان 94-95.
2 في ((ط)) فقط: للرسل.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : المقدر.
4 يرى الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله أن المحال لا يعلق عليه إلا المحال؛ فيقول رحمه الله: "إن الشرط إن علق به مستحيل، فلا يمكن أن يصح الربط بينه وبين الجزاء، إلا إذا كان الجزاء مستحيلا أيضا؛ لأن الشرط المستحيل لا يمكن أن يوجد به إلا الجزاء المستحيل. أما كون الشرط مستحيلا، والجزاء هو أساس الدين وعماد الأمر، فهذا مما لا يصح بحال. ومن ذهب إليه من أهل العلم والدين لا شك في غلطه ... ". أضواء البيان 294/7.
5 سورة الزخرف، الآية 81.
6 سورة المائدة، الآية 116.
7 الامتراء: الشك.
انظر: لسان العرب 278/15. والقاموس المحيط 766. والمصباح المنير 750.

الآيات التي بتقدير الممتنع بحرف إن كثيرة
وأما تقدير الممتنع بحرف (إن) فكثير، ومن ذلك قوله: {فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية} 1، {فإن كان لكم كيد فكيدون} 2، {أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} 3، {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} 4، {فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين} 5، وقد قال تعالى: {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} 6، وقال تعالى: {والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق} 7، وقال تعالى: {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا} 8، وقال تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا} 9. وهذا كله في السور المكية، والمقصود الجنس. فإذا شهد جنس هؤلاء مع العلم بصدقهم حصل المطلوب.

---

1 سورة الأنعام، الآية 35.
2 سورة المرسلات، الآية 39.
3 سورة النمل، الآية 64.
4 سورة البقرة، الآية 111.
5 سورة يونس، الآية 38.
6 سورة الشعراء، الآية 197.
7 سورة الأنعام، الآية 114.
8 سورة الإسراء، الآية 107-108.
9 سورة القصص، الآيات 52-54.

شهادة الرسل بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم

لا يقف العلم على شهادة كل واحد واحد؛ فإن هذا متعذر. ومن أنكر، أو قال: لا أعلم، لم يضر إنكاره. وإن قال: بل أعلم عدم ما شهدوا به، علم افتراؤه في الجنس، وعلم في الشخص [إذ] 1 كان لم يحط علما بجميع نسخ الكتب المتقدمة، وما في النبوات كلها، فلا سبيل لأحد من أهل الكتاب أن يعلم انتفاء ذكر محمد في كل نسخة، بكل كتاب من كتب الأنبياء؛ إذ العلم بذلك متعذر. ثم هذه النسخ الموجودة فيها ذكره في مواضع كثيرة، قد ذكر قطعة منها في غير هذا الموضع2.

أعظم شرك المشركين دعوى الشريك لله والولد

وما ينبغي أن يعلم أن أعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد، وفي مبعثه: هو دعوى الشريك لله، والولد. والقرآن مملوء من تنزيه الله عن هذين، وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه.

فهذا في سورة الإخلاص، وفي سورة الأنعام في مثل قوله: {وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون} 3، وفي سورة [سبحان] 4: {وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك} 5، وفي سورة الكهف في أولها: {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا} 6، وفي آخرها: {أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي

---

1 في ((خ)) رسمت: "إن". وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: الجواب الصحيح 5/197-318؛ فقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله كثيرا من الشهادات الدالة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل.
3 سورة الأنعام، الآية 100.
4 في ((ط)) فقط: الإسراء.
5 سورة الإسراء، الآية 111.
6 سورة الكهف، الآية 4.

من دوني أولياء ... [ولا يشرك بعبادة ربه أحدا] 1} 2، وفي مريم تنزيهه عن الولد في أول السورة3، وآخرها4 ظاهر. وعن الشريك: في مثل قصة إبراهيم5، وفي تنزيل6، وغير ذلك. وفي الأنبياء تنزيهه عن الشريك والولد، وكذلك في المؤمنين: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله} 7، وأول الفرقان: {الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك} 8. وأما طه، والشعراء مما بسط فيه قصة موسى.

فالمقصود الأعظم بقصة موسى إثبات الصانع9، ورسالته؛ إذ كان فرعون منكرا. ولهذا عظم ذكرها في القرآن، بخلاف قصة غيره؛ فإن فيها الرد على المشركين المقرين بالصانع، ومن جعل له ولدا من المشركين، وأهل الكتاب10.

---

1 ما بين المعقوفتين لا يوجد في ((ط)) فقط، ويوجد بدلا منه: {إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا} .
2 سورة الكهف، الآيات 102-110.
3 في قوله جل وعلا: {ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه} . [مريم، 35] .
4 في نحو قوله جل وعلا: {وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} . [مريم، 92] .

5 انظر: سورة مريم، الآيات 42-48.
6 قال تعالى: {تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين} . [الزمر، 1-2] .
7 سورة المؤمنون، الآية 91.
8 سورة الفرقان، الآية 2.
9 الصانع: ليس من أسماء الله تعالى، وإنما ذلك من باب الإخبار. وما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته؛ كالشيء، والموجود، والصانع، والقائم بنفسه، والقديم؛ فإنه يخبر به عنه إن احتيج إليه، وإن كان لا يدعى بمثل هذه الأسماء التي ليس فيها ما يدل على المدح.
انظر: مجموع الفتاوى 300/9-301. وبدائع الفوائد 161/1.
10 انظر: الجواب الصحيح 445/6.

مذهب الفلاسفة الملحدين

ومذهب الفلاسفة الملحدة1 دائر بين التعطيل، وبين الشرك والولادة؛ كما يقولونه في الإيجاب الذاتي2؛ فإنه أحد أنواع الولادة. وهم ينكرون معاد الأبدان.
وقد قرن بين هذا وهذا3 في الكتاب والسنة في مثل قوله: {ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا} 4، إلى قوله: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا} 5. وهذه في سورة مريم

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن الفلاسفة: "وأما الفلاسفة فإما أن يكونوا من المشركين، وإما أن يكونوا من المجوس، وإما أن يكون من الصابئين، وإما أن يكونوا منتسبين إلى أهل الملل الثلاث. فمن كان من المشركين كما يذكر عن الفلاسفة اليونان ونحوهم، أو من المجوس كفلاسفة الفرس ونحوهم: فاليهود والنصارى خير منه. ولذلك هم خير من فلاسفة الصابئين". درء تعارض العقل والنقل 207/9-208.
وقال في موضع آخر: "الفلاسفة الملاحدة؛ كابن عربي، وابن سبعين، وابن الفارض، وأمثالهم..". درء تعارض العقل والنقل 165/3.
2 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "لفظ الموجب بالذات لفظ فيه إجمال. فإن عني به ما يعنيه الفلاسفة من أنه علة تامة مستلزمة للعالم، فهذا باطل؛ لأن العلة التامة تستلزم معلولها. ولو كان العالم معلولا لازما لعلة أزلية، لم يكن فيه حوادث؛ فإن الحوادث لا تحدث عن علة تامة أزلية. وهذا خلاف المحسوس. وسواء قيل: إن تلك العلة التامة ذات مجردة عن الصفات؛ كما يقوله نفاة الصفات من المتفلسفة؛ كابن سينا وأمثاله. أو قيل: إنه ذات موصوفة بالصفات، لكنها مستلزمة لمعلولها. فإنه باطل أيضا. وإن فسر الموجب بالذات بأنه يوجب بمشيئته وقدرته كل واحد واحد من المخلوقات في الوقت الذي أحدثه فيه. فهذا دين المسلمين وغيرهم من أهل الملل، ومذهب أهل السنة. فإذا قالوا: إنه بمشيئته وقدرته يوجب أفعال العباد وغيرها من الحوادث، فهو موافق لهذا المعنى لا المعنى الذي قالته الدهرية". منهاج السنة النبوية 274/3-275.
3 بين إنكار البعث، ووصف الله بأن له ولدا - تعالى عن ذلك علوا كبيرا -.
4 سورة مريم، الآيتان 66-67.
5 سورة مريم، الآية 88.

المتضمنة خطاب النصارى، ومشركي العرب؛ لأن الفلاسفة داخلون فيهم؛ فإن اليونان اختلطوا بالروم، فكان فيها خطاب هؤلاء وهؤلاء.
وفي الصحيحين: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى: "شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك. فأما شتمه إياي: فقوله: إني اتخذت ولدا. وأنا الأحد، الصمد، لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفوا أحد. وأما تكذيبه إياي: فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته" رواه البخاري عن ابن عباس1.
ولما كان الشرك أكثر في بني آدم من القول بأن له ولدا، كان تنزيهه عنه أكثر. وكلاهما يقتضي إثبات: (مثل) ، و (ند) من بعض الوجوه؛ فإن الولد من جنس الوالد، ونظير له، وكلاهما يستلزم الحاجة والفقر، فيمتنع وجود قادر بنفسه.

فالذي جعل شريكا، لو فرض مكافئا، لزم افتقار كل منهما. وهو ممتنع. وإن كان غير مكافئ، فهو مقهور.
الولد يتخذه المتخذ للحاجة
والولد يتخذه المتخذ لحاجته إلى معاونته له؛ كما يتخذ المال؛ فإن الولد إذا اشتد أعان والده.
قال تعالى: {قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض} 2، وقال تعالى: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد

1 أخرجه البخاري 1903/4، كتاب التفسير، باب تفسير {قل هو الله أحد} سورة الإخلاص. وأخرجه الإمام أحمد في المسند 350/2-351، 394-397، عن أبي هريرة.
2 سورة يونس، الآية 68.

جئتم شيئا إدا} 1، إلى قوله: {إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا} 2، وقال تعالى: {وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون} 3.
فإن كون المخلوق مملوكا لخالقه، وهو مفتقر إليه من كل وجه، والخالق غني عنه يناقض اتخاذ الولد؛ [لأنه] 4 إنما يكون لحاجته إليه في حياته، أو ليخلفه بعد موته. والرب غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وهو الحي الذي لا يموت.
والوالد في نفسه [مفتقر] 5 إلى ولد مخلوق، لا حيلة له فيه، بخلاف من يشتري المملوك فإنه باختياره ملكه، ويمكنه إزالة ملكه؛ فتعلقه به من جنس تعلقه بالأجانب. والولادة بغير اختيار الوالد. والرب يمتنع أن يحدث شيء بغير اختياره.
واتخاذ الولد هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له، فهو أنقص في الولادة.
ولهذا من قال بالإيجاب الذاتي بغير مشيئته وقدرته، فقوله من جنس قول القائلين بالولادة الحاصلة بغير الاختيار، بل قولهم شر من قول النصارى ومشركي العرب من بعض الوجوه؛ كما قد بسط الكلام على هذا

1 سورة مريم، الآيتان 88-89.
2 سورة مريم، الآية 93.
3 سورة البقرة، الآية 116.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((خ)) : افتقار. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

في تفسير {قل هو الله أحد} 1، وغيره2.
جنس النبوة معروف عند الناس
والمقصود: أن الله قال لمحمد: {قل ما كنت بدعا من الرسل} 3، وقال: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} 4؛ فبين أن هذا الجنس من الناس معروف، قد تقدم له نظراء، وأمثال؛ فهو معتاد في الآدميين، وإن كان قليلا [في الآدميين] 5.
آيات الأنبياء مختصة بهم وكرامات أتباعهم آيات لهم
وأما من جاءهم رسول [لا] 6 يعرفون قبله رسولا؛ كقوم نوح، فهذا بمنزلة ما يبتديه الله من الأمور، وحينئذ فهو يأتي بما يختص به، مما يعرفون أن الله صدقه في إرساله. فهذا يدل على النوع والشخص، وإن كانت آيات غيره تدل على الشخص؛ إذ النوع قد عرف قبل هذا.
[والمقصود] 7 أن آيته وبرهانه لا بد أن يكون مختصا بهذا النوع، لا يجب أن يختص بواحد من النوع، ولا يجوز أن يوجد لغير النوع.

1 وهو كتاب تفسير سورة الإخلاص لشيخ الإسلام.

ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى كتاب آخر في تفسير السورة، اسمه: جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من أن {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن. حققه الشيخ سليمان الغفيص، في مرحلة الماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض.
2 انظر: مجموع الفتاوى 291/17.
3 سورة الأحقاف، الآية 9.
4 سورة آل عمران، الآية 144.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : فيهم.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : ما.
7 في ((م)) ، و ((ط)) : والمقصود.

وقد قلنا1 أن ما يأتي به أتباع الأنبياء من ذلك هو مختص بالنوع، [فإنا نقول] 2 هذا لا يكون إلا لمن اتبع الأنبياء فصار مختصا بهم. وأما ما يوجد لغير الأنبياء وأتباعهم، فهذا هو الذي لا يدل على النبوة؛ [كخوارق] 3 السحرة، والكهان.
من طعن بالأنبياء وصفهم بالسحر والجنون والشعر
وقد عرف الناس أن السحرة لهم خوارق، ولهذا كانوا إذا طعنوا في نبوة النبي واعتقدوا علمه، قالوا هو ساحر؛ كما قال فرعون لموسى: {إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون} 4، وقال للسحرة لما آمنوا: {إنه لكبيركم الذيعلمكم السحر} 5، و {إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها} 6؛ [و] 7 كل هذا من كذب فرعون، وكانوا يقولون: {يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون} 8.
وكذلك المسيح؛ قال تعالى: {وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من [بعدي] 9 اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين} 10.

---

1 انظر: ص 161، 162، 179، 187.
2 في ((خ)) : فإنه يقول. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : لخوارق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة الشعراء، الآيتان 34-35.
5 سورة طه، الآية 71.
6 سورة الأعراف، الآية 123.
7 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
8 سورة الزخرف، الآية 49.
9 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
10 سورة الصف، الآية 6.

وقال تعالى عن كفار العرب: {و [إن] 1 يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} 2.
وإن نسبوه إلى عدم العلم، قالوا: مجنون؛ كما قالوا عن نوح: {مجنون وازدجر} 3، وقالوا عن موسى: {قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون} 4، وقال عن مشركي العرب: {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون} 5.
وقد قال تعالى: { [كذلك] 6 ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون} 7.
فالسحر أمر معتاد في بني آدم، كما أن النبوة معتادة فيهم. كما أن العقلاء معتادون في بني آدم، والمجانين معتادون فيهم.
فإذا قالوا عن الشخص: إنه مجنون؛ فإنه يعلم هل هو من العقلاء أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله. وكذلك يعرف هل هو من جنس الأنبياء، أو من جنس السحرة.
وكذلك لما قالوا عن محمد: إنه شاعر8؛ فإن الشعراء جنس

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

2 سورة القمر، الآية 2.
3 سورة القمر، الآية 9.
4 سورة الشعراء، الآية 27.
5 سورة القلم، الآية 51.
6 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
7 سورة الذاريات، الآيتان 52-53.
8 ذكر الله سبحانه وتعالى أن كفار مكة قالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: {بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر} . [الأنبياء 51] .
وقال سبحانه وتعالى: {وما علمناه الشعر وما ينبغي له} . [يس 69] .
قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: "أي ما هو في طبعه؛ فلا يحسنه، ولا يحبه، ولا تقتضيه جبلته. ولهذا ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يحفظ بيتا على وزن منتظم، بل إن أنشده زحفه، أو لم يتمه"، ثم ذكر رحمه الله أمثلة على ذلك.
انظر: تفسير ابن كثير 578/3.
(189/1)

معروفون في الناس، وقالوا: إنه كاهن1.
شبهة من قال: القرآن شعر
وشبهة الشعر أن القرآن كلام موزون2، والشعر موزون.
وشبهة الكهانة أن الكاهن يخبر ببعض الأمور الغائبة؛ فذكر الله تعالى الفرق بين هذين، وبين النبي، فقال: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} 3، ثم قال: {والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا

1 قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن. قال: فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش. قال: فقرأ: {إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون} . قال: فقلت: كاهن. قال: فقرأ: {ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ... } . [الحاقة 40-42] أخرجه الإمام أحمد في مسنده. انظر: الفتح الرباني 232/20.
2 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وما يوجد في القرآن من مثل قوله: {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا} [الكهف 104] ، و {إن ربهم بهم} [العاديات 11] ، ونحو ذلك، فلم يتكلف لأجل التجانس، بل هذا غير مقصود بالقصد الأول؛ كما يوجد في القرآن من أوزان الشعر، ولم يقصد به الشعر؛ كقوله تعالى: {وجفان كالجواب وقدور راسيات} [سبأ 13] ، وقوله: {نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم} [الحجر 49] ، {ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك} [الشرح 2-3] ، ونحو ذلك) . منهاج السنة النبوية 53/3-54. وانظر: الجواب الصحيح 433/5.
3 سورة الشعراء، الآيات 221-223.

يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا} 1، {وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين} 2، وقال تعالى: {وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون لا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين} 3.
ولهذا لما عرض الكفار على كبيرهم [الوحيد] 4 أن يقولوا للناس: هو شاعر، ومجنون، وساحر، وكاهن، صار يبين لهم أن هذه أقوال فاسدة، وأن الفرق معروف بينه، وبين هذه الأجناس.
فالمقصود أن هذه الأجناس كلها موجودة في الناس، معتادة، معروفة. وكل واحد منها يعرف بخواصه المستلزمة له، وتلك الخواص آيات له، مستلزمة له. فكذلك النبوة لها خواص مستلزمة لها، تعرف بها،

1 سورة الشعراء، الآيات 224-227.
2 سورة يس، الآية 69.

3 سورة الحاقة، الآيات 41-43.
4 في ((خ)) : التوحيد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
والمقصود به كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الوليد بن المغيرة، الذي كان من أعظم الناس كفرا، وهو الوحيد المذكور في قوله تعالى: {ذرني ومن خلقت وحيدا} [المدثر، 11] .
انظر: منهاج السنة النبوية 41/1. ودرء تعارض العقل والنقل 162/5.
ومن خبره: "أنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يصلي ويقترئ، فأعجبه القرآن، ووصفه بأنه ليس بشعر، ولا بسحر، ولا بهذي من الجنون، وأن له لحلاوة، وأن عليه لطلاوة، وأنه ليعلو وما يعلى عليه. وقال لهم أيضا: سمعت قولا حلوا أخضر مثمرا يأخذ بالقلوب، فقالوا: هو شعر؟ فقال: لا والله ما هو بالشعر، ليس أحد أعلم بالشعر مني، أليس قد عرضت علي الشعراء شعرهم؛ نابغة، وفلان، وفلان؟. قالوا: فهو كاهن؟ فقال: لا والله ما هو بكاهن، قد عرضت علي الكهانة. قالوا: فهذا سحر الأولين اكتتبه؟ قال: لا أدري إن كان شيئا فعسى هو إذا سحر يؤثر".
انظر: الخبر برواياته في تفسير الطبري 156/29-157، وفي تفسير ابن كثير 443/4.

وتلك الخواص خارقة لعادة غير الأنبياء، وإن كانت معتادة للأنبياء، فهي لا توجد لغيرهم. فهذا هذا1. والله أعلم.
مدعي النبوة يستعين بالشياطين
فإذا أتى مدعي النبوة بالأمر الخارق للعادة الذي لا يكون إلا لنبي، لا يحصل مثله لساحر، ولا كاهن، ولا غيرهما، كان دليلا على نبوته. وكل من الساحر، والكاهن يستعين بالشياطين؛ فإن الكهان [تنزل] 2 عليهم الشياطين تخبرهم؛ والسحرة تعلمهم الشياطين؛ قال تعالى: {واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى [يقولا] 3 إنما نحن فتنة فلا تكفر} 4.
والساحر لا يتجاوز سحره الأمور المقدورة للشياطين؛ كما تقدم بيانه5.
الساحر ومقدرته ومقصده
والساحر كما قال تعالى: {ولا يفلح الساحر حيث أتى} 6،وقال تعالى: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق} 7؛ فهم يعلمون أن السحر لا ينفع في الآخرة، ولا يقرب إلى الله، وأن من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق؛ فإن مبناه على الشرك، والكذب، والظلم، مقصود صاحبه الظلم، والفواحش.

---

1 كما أن جنس الشعر، والسحر، والكهانة لها خواص معتادة، مستلزمة لها، تعرف بها. فكذلك النبوة من هذا الباب.
2 في ((خ)) : ينزل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : يقول.
4 سورة البقرة، الآية 102.
5 تقدم بيان ذلك ص 192.
6 سورة طه، الآية 69.
7 سورة البقرة، الآية 102.

الفرق بين النبي والساحر
وهذا مما يعلم بصريح العقل أنه من السيئات؛ فالنبي لا يأمر به، [ولا يعمله] 1، [وإنما] 2 يستعين على ذلك [صاحبه] 3 بالشرك والكذب. وقد علم بصريح العقل، مع ما تواتر عن الأنبياء أنهم حرموا الشرك. فمتى كان الرجل يأمر بالشرك، وعبادة غير الله، أو يستعين على مطالبه بهذا، وبالكذب، والفواحش، والظلم، علم قطعا أنه من جنس السحرة، لا من جنس الأنبياء.
وخوارق هذا يمكن معارضتها وإبطالها من بني جنسه، وغير بني جنسه. وخوارق الأنبياء لا يمكن غيرهم أن يعارضها، ولا يمكن أحدا إبطالها، لا من جنسهم، ولا من غير جنسهم؛ فإن الأنبياء [يصدق] 4 بعضهم بعضا، فلا يتصور أن نبيا يبطل معجزة آخر. وإن أتى بنظيرها، فهو يصدقه.
ومعجزة كل منهما آية له، وللآخر5 أيضا؛ كما أن معجزات أتباعهم6 آيات لهم، بخلاف خوارق السحرة؛ فإنها إنما تدل على أن صاحبها ساحر يؤثر آثارا غريبة مما هو فساد في العالم، ويسر بما يفعله من الشرك، والكذب، والظلم، ويستعين على ذلك

بالشياطين، فمقصوده الظلم، والفساد، والنبي مقصوده العدل، والصلاح. وهذا يستعين بالشياطين، وهذا بالملائكة. وهذا يأمر بالتوحيد لله، وعبادته وحده لا شريك له، وهذا

1 ما بين المعقوفتين من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين لا يوجد في ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : تصدق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 للنبي الذي يأتي بعده.
6 المقصود كرامات أتباعهم.

إنما يستعين بالشرك، وعبادة غير الله. وهذا يعظم إبليس وجنوده، وهذا يذم إبليس وجنوده.
الإقرار بوجود الملائكة والجن عام وقد أنكرهما الفلاسفة
والإقرار بالملائكة، والجن عام في بني آدم، لم ينكر ذلك إلا شواذ من بعض الأمم1، ولهذا قالت الأمم المكذبة: {ولو شاء الله لأنزل ملائكة} 2؛ حتى قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون. قال قوم نوح: {ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة} 3، وقال: {فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم أن لا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون} 4.
وفرعون وإن كان مظهرا لجحد الصانع؛ [فإنه ما] 5 قال: {فلولا ألقي عليه [أسورة] 6 من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين} 7 إلا وقد سمع بذكر الملائكة؛ إما معترفا بهم، وإما منكرا لهم.

1 أنكرت الفلاسفة وجود الملائكة والجن، وعبروا عنهما بالقوة التخييلية.
انظر: الرد على المنطقيين ص 106. ودرء تعارض العقل والنقل 205/10.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ملاحدة الفلاسفة يجعلون الملائكة قوى النفس الصالحة، والشياطين قوى النفس الخبيثة، ونحو ذلك من المقالات الخبيثة التي يقولها القرامطة الباطنية، ومن سلك سبيلهم من ضلال المتكلمين والمتعبدة".
مجموع الفتاوى 346/4. وانظر: المرجع نفس 259/4. وشرح الطحاوية ص 402-403.
2 سورة المؤمنون، الآية 24.
3 سورة المؤمنون، الآية 24.
4 سورة فصلت، الآيتان 13-14.
5 في ((خ)) كتبت: فإنما. ثم صححت في الهامش بقوله: صوابه: فإنه ما.
6 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : أساور.
7 سورة الزخرف، الآية 53.

فذكر الملائكة، والجن عام في الأمم.
وليس في الأمم أمة تنكر ذلك إنكارا عاما، وإنما يوجد إنكار ذلك في بعضهم؛ مثل من قد [يتفلسف] 1، فينكرهم لعدم العلم لا للعلم بالعدم.
فلا بد في آيات الأنبياء من أن تكون مع كونها خارقة للعادة أمرا غير معتاد لغير الأنبياء، بحيث لا يقدر عليه إلا الله الذي أرسل الأنبياء، ليس مما يقدر عليه غير الأنبياء، لا بحيلة، ولا عزيمة، ولا استعانة بشياطين، ولا غير ذلك.
من خصائص معجزات الأنبياء
ومن خصائص معجزات الأنبياء: أنه لا يمكن معارضتها. فإذا عجز النوع البشري غير الأنبياء عن معارضتها، كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالأنبياء، بخلاف ما كان موجودا لغيرها. فهذا لا يكون آية البتة.
الفلاسفة لا يعرفون النبوة

فأصل هذا أن يعرف وجود الأنبياء في العالم، وخصائصهم؛ كما يعلم وجود السحرة، وخصائصهم. ولهذا من لم يكن عارفا بالأنبياء من فلاسفة اليونان، والهند، وغيرهم، لم يكن له فيهم كلام يعرف، كما لم يعرف لأرسطو2، وأتباعه فيهم كلام يعرف، بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلك؛

1 في ((خ)) : يفلسف. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 هو أرسطوطاليس بن نيقو ماخس الفيثاغوري. تتلمذ على أفلاطون، ثم صار بعده أستاذا. انتهت إليه فلسفة اليونان، فكان هو خاتمهم. وكان مشركا يعبد الأصنام. وهو الذي جعل المنطق آلة العلوم النظرية. وكان معلما للإسكندر. وقد عني فلاسفة المسلمين بفلسفة أرسطو، وسموه معلمهم الأول. وله كتاب الحيوان.
ولد في اليونان سنة384 ق. م
راجع: تاريخ الحكماء ص 27-53. وفهرست ابن النديم ص 359. وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم 259/2. والفرق بين الفرق ص 307-308.

كالفارابي1، وغيره أن يجعلوا ذلك من جنس المنامات المعتادة. ولما أراد طائفة؛ كأبي حامد2، وغيره أن يقرروا إمكان النبوة على أصلهم، احتجوا بأن مبدأ الطب، ومبدأ النجوم، ونحو ذلك، كان من الأنبياء؛ لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك. وهذا إنما يدل على اختصاص من أتى بذلك بنوع من العلم. وهذا لا ينكره عاقل.
وعلى هذا بنى ابن سينا أمر النبوة؛ أنها من قوى النفس، وقوى النفوس متفاوتة3.

1 هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان التركي الحكيم. صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى وغيرهما. وهو أكبر فلاسفة المسلمين. وقد أتقن اللغة العربية. وكان مولده سنة 259؟، ووفاته سنة 299؟.
انظر: وفيات الأعيان 153/5. وفهرست ابن النديم ص 368. والبداية والنهاية 324/11.
وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والفلسفة التي ذهب إليها الفارابي، وابن سينا إنما هي فلسفة المشائين أتباع أرسطو صاحب التعاليم". درء تعارض العقل والنقل157/1.
2 هو الغزالي. وقد مر التعريف به.
3 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وهذا القدر، فعله ابن سينا وأمثاله ممن رام الجمع بين ما جاءت به الأنبياء وبين فلسفة المشائين؛ أرسطو وأمثاله. ولهذا تكلموا في الآيات، وخوارق العادات، وجعلوا لها ثلاثة أسباب: القوى الفلكية، والقوى النفسانية، والطبيعية؛ إذ كانت هذه هي المؤثرات في العالم عندهم. وجعلوا ما للأنبياء وغير الأنبياء من المعجزات والكرامات، وما للسحرة من العجائب هو من قوى النفس. ولكن الفرق بينهما أن ذلك قصده الخير، وهذا قصده الشر. وهذا المذهب من أفسد مذاهب العقلاء ... فإنه مبني على إنكار الملائكة وإنكار الجن، وعلى أن الله لا يعلم الجزئيات، ولا يخلق بمشيئته وقدرته، ولا يقدر على تغيير العالم". الجواب الصحيح24/6. وانظر: درء تعارض العقل والنقل 70/5.

وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة، بل هو أجنبي عنها، وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء، وأطباء، وهو لم يعرف غير الشعراء؛ فاستدل بوجود الشعراء، على وجود الفقهاء، والأطباء. بل هذا المثال أقرب؛ فإن بعد النبوة عن غير الأنبياء أعظم من بعد الفقيه، والطبيب عن الشاعر، ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع، فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الأنبياء.
فإن قيل: موسى، وغيره كانوا موجودين قبل أرسطو؛ فإن أرسطو كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة1.
وأيضا فقد قال الله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} 2، وقال: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} 3؛ فهذا يبين أن كل أمة قد جاءها رسول، فكيف لم يعرف هؤلاء الرسل؟.
جوابان عن عدم معرفة الفلاسفة الأنبياء
قلت: عن هذا جوابان:

أحدهما: أن كثيرا من هؤلاء لم يعرفوا الرسل؛ كما قال: {ومنهم

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وكان أرسطو قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة، وهو وزير الاسكندر بن فيلبس المقدوني التي تؤرخ له التاريخ الرومي من اليهود والنصارى. وهذا كان مشركا يعبد هو وقومه الأصنام، ولم يكن يسمى ذا القرنين".
الجواب الصحيح345/1. وانظر: درء تعارض العقل والنقل 68/5. ومنهاج السنة النبوية 409/1.
2 سورة النحل، الآية 36.
3 سورة فاطر، الآية 24.

من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} 1، فلم تبق أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم.
الثاني: أنه قال تعالى: {تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم} 2، فإذا كان الشيطان قد زين لهم أعمالهم، كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبياء عندهم، فلم يعرفوها. وأرسطو لم يأت إلى أرض الشام، ويقال: إن الذين كانوا قبله كانوا يعرفون الأنبياء، لكن المعرفة المجملة لا تنفع؛ كمعرفة قريش؛ كانوا قد سمعوا بموسى، وعيسى، وإبراهيم سماعا من غير معرفة بأحوالهم.
وأيضا: فهم وأمثالهم المشاؤون3 أدركوا الإسلام وهم من أكفر الناس بما جاءت [به] 4 الرسل. أما أنهم لا يطلبون معرفة أخبارهم، وما سمعوه: حرفوه، أو حملوه على أصولهم.
وكثير من المتفلسفة هم من هؤلاء. فإذا كان هذا حال هؤلاء في ديار الإسلام، فما الظن بمن كان ببلاد5 لا [يعرف] 6 فيها شريعة نبي، بل طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوع من الآدميين خصهم [الله] 7 بخصائص، يعرف ذلك من أخبارهم، واستقراء أحوالهم؛ كما يعرف الأطباء، والفقهاء.

1 سورة النحل، الآية 36.
2 سورة النحل، الآية 63.
3 المشاؤون هم أتباع أرسطو. وسموا مشائين لأنهم كانوا يمشون ويلقون دروسهم وهم سائرون في الطريق.
انظر: إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص 14.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((ط)) فقط: في بلاد.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : تعرف.
7 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهي في ((م)) ، و ((ط)) .

جنس النبوة يثبت بأحوال الأنبياء السابقين
ولهذا إنما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم؛ من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب، ولوط، وإبراهيم، وموسى، وغيرهم؛ [فيذكر] 1 وجود هؤلاء، وأن قوما صدقوهم، وقوما كذبوهم. ويبين حال من صدقهم، وحال من كذبهم؛ فيعلم بالاضطرار حينئذ ثبوت هؤلاء2، [ويتبين] 3 وجود آثارهم في الأرض. فمن لم يكن رأى في بلده آثارهم، فليسر في الأرض، ولينظر آثارهم، وليسمع أخبارهم المتواترة. يقول الله تعالى: {وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير} 4.

ولهذا قال مؤمن آل فرعون5 لما أراد إنذار قومه: {يا قوم إني أخاف

1 في ((خ)) : فتذكر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: الجواب الصحيح 141/5-142، 345/6-350. وشرح الطحاوية ص151.
3 في ((خ)) : وتبيين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة الحج، الآيات 42-48.
5 ذكر الطبري رحمه الله اختلاف أهل العلم في هذا الرجل المؤمن؛ فقال بعضهم: كان الرجل إسرائيليا، ولكنه كان يكتم إيمانه من آل فرعون. وقال آخرون - وهو الصواب: إنه من آل فرعون، قد أصغى لكلامه، واستمع منه ما قاله، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله.
انظر: جامع البيان 59/24-60.

عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد} 1.
ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل2، والنجاشي3، وغيرهما القرآن، قال ورقة بن نوفل: هذا هو الناموس4 الذي كان يأتي موسى5. وقال

1 سورة غافر، الآيتان 30-31.
2 هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأسدي، ابن عم خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم. كان قد كره عبادة الأوثان، وطلب الدين في الآفاق، وقرأ الكتب، وكانت خديجة رضي الله عنها تسأله عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول: ما أراه إلا نبي هذه الأمة الذي بشر به موسى وعيسى.
انظر: الإصابة لابن حجر 633/3-635.
3 النجاشي لقب لكل من ملك الحبشة؛ مثل لقب قيصر لمن ملك الروم، وكسرى لمن ملك فارس.
والمراد بالنجاشي هنا: أصحمة. أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه. وأخباره معهم ومع كفار قريش الذين طلبوا منه أن يسلم إليهم المسلمين مشهورة. توفي في بلده قبل فتح مكة، وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب بالمدينة، وكبر عليه أربعا.
انظر: الإصابة لابن حجر 17/1.
4 الناموس: صاحب السر؛ كما جزم به البخاري في أحاديث الأنبياء. وزعم ابن ظفر أن الناموس: صاحب سر الخير، والجاسوس: صاحب سر الشر. والأول الصحيح الذي عليه الجمهور. وقد سوى بينهما رؤبة بن العجاج أحد فصحاء العرب.
والمراد بالناموس هنا: جبريل عليه السلام. وقوله: "على موسى"، ولم يقل على عيسى، مع كونه نصرانيا؛ لأن كتاب موسى عليه السلام مشتمل على أكثر الأحكام، بخلاف عيسى عليه السلام. وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم.
على أنه قد ورد بإسنادين؛ أحدهما حسن، والآخر ضعيف: ناموس عيسى. فعلى هذا: كان ورقة يقول تارة: ناموس عيسى، وتارة: ناموس موسى. انظر: فتح الباري 35/1.
5 رواه الإمام البخاري في صحيحه 5/1، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. والإمام مسلم في صحيحه 139/1، 145، 160-161.
وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "والقرآن أصل كالتوراة، وإن كان أعظم منها. ولهذا علماء النصارى يقرنون بين موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، كما قال النجاشي ملك النصارى لما سمع القرآن: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. وكذلك ورقة بن نوفل، وهو من أحبار نصارى العرب لما سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم قال له: إنه يأتيك الناموس الذي يأتي موسى ... ولهذا يقرن سبحانه بين التوراة والقرآن ... ". الجواب الصحيح 116/1-118.

النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى [ليخرج] 1 من مشكاة واحدة2. فكان عندهم علم بما جاء به موسى؛ اعتبروا به، ولولا ذلك لم يعلموا هذا.
وكذلك الجن لما سمعت القرآن، ولوا إلى قومهم منذرين، {قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم} 3.
ولما أراد سبحانه تقرير جنس ما جاء به محمد، قال: {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولافعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا} 4، وقال تعالى: {وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس [تجعلونه] 5 قراطيس [تبدونها وتخفون] 6 كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في

---

1 في ((خ)) : لتخرج. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 رواه الإمام أحمد في المسند 201/1-203،، 290/5-292.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (24/6-27) : ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع.
3 هذا نص الآية الثلاثين من سورة الأحقاف.
4 سورة المزمل، الآيتان 15-16.
5 في ((خ)) : يجعلونه.
6 في ((خ)) : يبدونها ويخفون.

خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها} 1.
فهو سبحانه يثبت وجود جنس الأنبياء ابتداء؛ كما في السور المكية2 حتى يثبت وجود هذا الجنس، وسعادة من اتبعه، وشقاء من خالفه.
من أقر بجنس الأنبياء يلزمه الإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم
ثم [نبوة] 3 عين هذا النبي4 تكون ظاهرة؛ لأن الذي جاء به أكمل مما جاء به جميع الأنبياء. فمن أقر بجنس الأنبياء، كان إقراره بنبوة محمد في غاية الظهور، أبين مما أقر أن في الدنيا نحاة، وأطباء، وفقهاء. فإذا رأى نحو سيبويه، وطب [أبقراط] 5، وفقه الأئمة الأربعة، ونحوهم، كان إقراره بذلك من أبين الأمور.
ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبوة محمد إما أن يكون لجهله بما جاء به، وهو الغالب على عامتهم، أو لعناده وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم.
والعرب عرفوا ما جاء به محمد. فلما أقروا بجنس الأنبياء، لم يبق عندهم في محمد شك.

---

1 سورة الأنعام، الآيتان 91-92.
2 قيل في تعريف المكي والمدني عدة تعريفات، أشهرها: أن المكي: ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة، وإن كان بمكة.
وقد رجح الزركشي أن المكي خطاب، المقصود به - أو جل المقصود به - أهل مكة.... كذلك بالنسبة إلى أهل المدينة.
والتعريف الأول أظهر.
انظر: البرهان في علوم القرآن 187/1-191.
3 كتب في ((خ)) : ثبوت. وفي الحاشية: لعله نبوة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 المقصود به الإقرار بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.
5 في ((خ)) : بقراط. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وجميع ما يذكره الله تعالى في القرآن من قصص الأنبياء، يدل على نبوة محمد بطريق الأولى؛ إذ كانوا من جنس واحد، ونبوته أكمل. فينبغي معرفة هذا، فإنه أصل عظيم1.
ولهذا جميع مشركي العرب آمنوا به، فلم يحتج أحد منهم أن تؤخذ منه جزية. فإنهم لما عرفوا نبوته، وأنه لا بد من متابعته، أو متابعة اليهود والنصارى، عرفوا أن متابعته أولى.
ومن كان من أهل الكتاب: بعضهم آمن به، وبعضهم لم يؤمن جهلا، وعنادا. وهؤلاء كان عندهم كتاب ظنوا استغناءهم به، فلم يستقرئوا أخبار محمد، وما جاء به خالين من [الهوى] 2، بخلاف من لم يكن له كتاب3؛ فإنه نظر في الأمرين نظر خال من الهوى، فعرف فضل ما جاء به محمد على ما جاء به غيره.
ولهذا لا تكاد [توجد] 4 أمة لا كتاب لها يعرض عليها دين المسلمين، واليهود، والنصارى، إلا رجحت دين الإسلام؛ كما يجري لأنواع الأمم التي لا كتاب لها.

---

1 فمن أقر بجنس الأنبياء يلزمه أن يقر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنها في غاية الظهور والبيان. وهذا الأصل من الطرق التي بها تعرف نبوته صلى الله عليه وسلم.
وانظر: الجواب الصحيح 5/141-142، 6/345-350. وشرح الطحاوية ص151.
2 في ((خ)) : هوى. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 مثل المجوس، والصابئة. انظر: الملل والنحل 1/230، 2/5.
4 في ((خ)) : يوجد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

فأهل الكتاب مقرون بالجنس، منازعون في العين1. والمتفلسفة من اليونان والهند منازعون في وجود كمال الجنس، وإن أقروا ببعض صفات الأنبياء، فإنما أقروا منها بما لا يختص بالأنبياء، بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم.
فلم يؤمن هؤلاء 2 بالأنبياء البتة.
هذا هو الذي يجب القطع به3. ولهذا يذكرون معهم ذكر الجنس الخارج عن أتباعهم؛ فيقال: قالت الأنبياء، والفلاسفة، واتفقت الأنبياء، والفلاسفة؛ كما يقال: المسلمون، واليهود، والنصارى4.

---

1 مقرون بالأنبياء السابقين، منكرون لنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.
2 الفلاسفة.
3 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن معتقد الفلاسفة: "ليس للفلاسفة مذهب معين ينصرونه، ولا قول يتفقون عليه في الإلهيات، والمعاد، والنبوات، والشرائع، بل وفي الطبيعيات، والرياضيات، بل ولا في كثير من المنطق، ولا يتفقون إلا على ما يتفق عليه جميع بني آدم من الحسيات المشاهدة، والعقليات التي لا ينازع فيها أحد". منهاج السنة النبوية 1/357.
وقال أيضا: "لكن الذي لا ريب فيه أن هؤلاء أصحاب التعاليم؛ كأرسطو وأتباعه، كانوا مشركين يعبدون المخلوقات، ولا يعرفون النبوات، ولا المعاد البدني، وأن اليهود والنصارى خير منهم في الإلهيات، والنبوات، والمعاد". منهاج السنة النبوية 1/364.
4 يوجد في ((خ)) بياض.

[وقال أيضا رضي الله عنه:
فصل] 1 من آيات الأنبياء: نصرهم على قومهم. وهذا من وجهين:
ومن آياته: نصر الرسل على قومهم. وهذا على وجهين:
الوجه الأول بإهلاك الأمم وإنجاء الرسل وأتباعهم

تارة: يكون بإهلاك الأمم، وإنجاء الرسل وأتباعهم؛كقوم نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى. ولهذا يقرن الله بين هذه القصص في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، ولا يذكر معها قصة إبراهيم2. وإنما ذكر قصة إبراهيم في سورة الأنبياء3، ومريم4، والعنكبوت5، والصافات6؛ فإن هذه السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الأمم.

---

1 في ((ط)) فقط: فصل ... قال رضي الله عنه.
2 ذكر الله سبحانه وتعالى قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء بعد قصة موسى وإهلاك فرعون وقومه؛ قال تعالى: {واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون} . الآيتان 69-70.
3 قال تعالى: {ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ... إلخ} . سورة الأنبياء، آية 51، إلى آية 73.
4 قال تعالى: {واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا} .. سورة مريم، الآيتان 41-42، إلى آية 50.
5 قال تعالى: {وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} . سورة العنكبوت، الآية 16، إلى الآية 27.
6 قال تعالى: {وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ... } . سورة الصافات، الآيات 83-85، إلى آية 113.

بل في سورة الأنبياء كان المقصود ذكر الأنبياء، ولهذا سميت سورة الأنبياء؛ فذكر فيها إكرامه للأنبياء، وإن لم يذكر قومهم؛ كما ذكر قصة داود، وسليمان1، وأيوب2، وذكر آخر الكل: {إن هذه أمتكم أمة واحدة} 3، وبدأ فيها بقصة إبراهيم4؛ إذ كان المقصود ذكر إكرامه للأنبياء قبل محمد وإبراهيم؛ أكرمهم على الله تعالى، وهو خير البرية، وهو [أبو] 5 أكثرهم، إذ ليس هو [أبا] 6 نوح ولوط، لكن لوط من أتباعه7، وأيوب من ذريته؛ بدليل قوله في سورة الأنعام: {ومن ذريته داود وسليمان وأيوب} 8.
وأما سورة مريم: فذكر الله تعالى فيها إنعامه على الأنبياء المذكورين فيها؛ فذكر فيها رحمته زكريا، وهبته يحيى9، وأنه ورث نبوته، وغيرها

---

1 قال تعالى: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث} إلى قوله: {ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين} . سورة الأنبياء، الآيات 78-82.
2 قال تعالى: {وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ... } .. سورة الأنبياء، الآيتان 83-84.
3 سورة الأنبياء، الآية 92.
4 وهي تبدأ من قوله تعالى: {ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل..} . من آية 51، إلى آية 73.
5 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : أب. والصحيح: أبو.
6 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : أب. والصحيح: أبا.
7 قال تعالى: {فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين} . سورة العنكبوت، الآيتان 26-27.
8 سورة الأنعام، الآية 84.
9 في ((ط)) فقط: عليهما السلام.

من علم آل يعقوب، وأنه آتاه الحكم صبيا1؛ وذكر بدء خلق عيسى، وما أعطاه الله تعالى من تعليم الكتاب؛ وهو التوراة، والنبوة، وأن الله تعالى جعله مباركا أينما كان، وغير ذلك2؛ وذكر قصة إبراهيم، وحسن خطابه لأبيه، وأن الله تعالى وهبه

إسحاق ويعقوب نبيين، ووهبه من رحمته، وجعل له لسان صدق عليا3؛ ثم ذكر موسى، وأنه خصصه الله تعالى بالتقريب والتكليم، [ووهبه] 4 أخاه، وغير ذلك5؛ وذكر إسماعيل، وأنه كان صادق الوعد6 وكأنه والله أعلم من ذلك أو أعظمه صدقه فيما وعد به أباه من صبره عند الذبح، فوفى بذلك7؛ وذكر إدريس، وأن الله تعالى رفعه مكانا عليا8. ثم قال: {أولئك الذين أنعم الله عليهم} 9.

---

1 قال تعالى: {كهيعص ذكر رحمت ربك عبده زكريا} إلى قوله عن يحيى عليه السلام: {وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا} . سورة مريم، من أولها، إلى آية 15.
2 قال تعالى: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا} إلى قوله: {ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون} . سورة مريم، الآيات 16، إلى 34.
3 قال تعالى: {واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا} ... إلى قوله: {ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا} . سورة مريم، الآيات 41-50.
4 في ((خ)) : وهبه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 قال تعالى: {واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا} سورة مريم، الآيات 51-53.
6 قال تعالى: {واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا} . سورة مريم، الآية 547 انظر تفسير ابن كثير 125/3.
8 قال تعالى: {واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا} . سورة مريم، الآيتان 56-57.
وانظر أقوال العلماء في معنى رفعه عليه السلام في أعلام النبوة للماوردي ص 82. والبداية والنهاية لابن كثير 93/1.
9 سورة مريم، الآية 58.

وأما سورة العنكبوت: فإنه ذكر فيها امتحانه للمؤمنين، ونصره لهم، وحاجتهم إلى الصبر والجهاد، وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر، وعاقبة من كذب الرسل؛ فذكر قصة إبراهيم لأنها من النمط الأول، ونصرة الله له على قومه1.
وكذلك سورة الصافات قال فيها: {ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين} 2.
وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة؛ إما بكونهم غلبوا وذلوا، وإما بكونهم أهلكوا. ولهذا ذكر فيها قصة إلياس، ولم يذكرها في غيرها، ولم يذكر هلاك قومه، بل قال: {فكذبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين} 3. وإلياس قد روي أن الله تعالى رفعه4، وهذا يقتضي عذابهم في الآخرة؛ فإن إلياس لم

---

1 قال تعالى: {وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} . سورة العنكبوت، الآية 16.
2 سورة الصافات، الآيات 71-73.
3 سورة الصافات، الآيتان 127-128.
4 اختلف في إلياس، فذكر عن ابن مسعود، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، والضحاك: أن إلياس هو إدريس. وقيل: إلياس نبي بعث إلى بني إسرائيل بعد مهلك حزقيل، فعبدوا الأصنام، ثم دعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه فيريحه منهم، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبه، ولا يهابه. فجاءته فرس من نار، فركب، وألبسه الله تعالى النور، وكساه الريش، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وطار في الملائكة، فكان إنسيا ملكيا، أرضيا سماويا.
انظر: جامع البيان 91/23-94. والجامع لأحكام القرآن 76/15-77. وتفسير القرآن العظيم 19/3-20. وقال ابن كثير رحمه الله في آخر القصة: هكذا حكاه وهب بن منبه عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته.
وانظر في رفعه عليه السلام: أعلام النبوة للماوردي ص 89. وكذا البداية والنهاية 314/1-316،، 5/2.

يقم فيهم، وإلياس المعروف بعد موسى1 من بني إسرائيل، وبعد موسى لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال. وبعد نوح2 لم يهلك جميع النوع. وقد بعث في كل أمة نذيرا، والله تعالى لم يذكر قط عن قوم إبراهيم3 أنهم أهلكوا، كما ذكر ذلك عن غيرهم، بل ذكر أنهم ألقوه في النار، فجعلها الله عليه بردا وسلاما، وأرادوا به كيدا، فجعلهم الله الأسفلين الأخسرين.
وفي هذا:
الوجه الثاني إظهار برهان النبي بالحجة والعلم والقدرة
ظهور برهانه، وآيته، وأنه أظهره عليهم بالحجة والعلم، وأظهره أيضا [بالقدرة] 4؛ حيث أذلهم ونصره. [وهذا من جنس المجاهد الذي هزم عدوه، وتلك من جنس المجاهد الذي قتل عدوه] 5.
وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم، بل هاجر وتركهم. وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين ظهراني قومهم حتى هلكوا، فلم يوجد في حق قوم إبراهيم سبب الهلاك؛ وهو إقامته فيهم، وانتظار العذاب النازل.
وهكذا محمد مع قومه لم يقم فيهم، بل خرج عنهم، حتى أظهره الله تعالى عليهم بعد ذلك.
الخليلان هما أفضل الرسل
ومحمد وإبراهيم أفضل الرسل فإنهم إذا علموا [الدعوة] 6 حصل المقصود.

---

1 في ((ط)) فقط: عليه السلام.
2 في ((ط)) فقط: عليه السلام.
3 في ((ط)) فقط: عليه السلام.
4 في ((ط)) فقط: بالقدوة.
5 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
6 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهي في ((م)) ، و ((ط)) .

وقد يتوب منهم1 من يتوب بعد ذلك؛ كما تاب من قريش من تاب.
وأما حال إبراهيم2: فكانت إلى الرحمة أميل، فلم يسع في هلاك قومه، لا بالدعاء، ولا بالمقام، ودوام إقامة الحجة عليهم.
وقد قال تعالى: {وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم} 3.
وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم [فعوقبوا] 4.
وقوم إبراهيم أوصلوه إلى العذاب، لكن جعله الله [تعالى] 5 عليه بردا وسلاما، ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب؛ إذ الدنيا ليست دار الجزاء التام، وإنما فيها من الجزاء ما [تحصل] 6 به الحكمة والمصلحة؛ كما في العقوبات الشرعية.
فمن أراد أعداؤه من أتباع الأنبياء أن يهلكوه فعصمه الله7، وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه، ولم يهلك أعداءه، بل أخزاهم، ونصره؛ فهو أشبه بإبراهيم8.

---

1 من أقوام الأنبياء عليهم السلام.
2 في ((ط)) فقط: عليه السلام.
3 سورة إبراهيم، الآيتان 13-14.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : إلا عوقبوا.
5 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : يحصل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 العبارة فيها لبس، ومعناها: أن من أتباع الأنبياء من يريد أعداؤه أن يهلكوه، ويعصمه الله منهم.
8 جملة: (فهو أشبه إبراهيم) : جواب الشرط. ومعناه: من أراد أعداؤه إهلاكه، وعصمه الله، وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه، وأخزى أعداءه، فهو أشبه بإبراهيم عليه السلام.

وإذا عصمه من كيدهم، وأظهره حتى صارت الحرب بينه وبينهم سجالا، ثم كانت العاقبة له، فهو أشبه بحال محمد [صلى الله عليه وسلم] 1؛ فإن محمدا سيد الجميع2، وهو خليل الله3؛ كما أن إبراهيم خليله.
والخليلان4: هما أفضل الجميع، وفي طريقتهما من الرأفة والرحمة، ما ليس في طريقة غيرهما.
حكمة الرب تعالى في عقوبته لكل قوم بما يناسبهم
ولم يذكر الله عن قوم إبراهيم دينا غير الشرك، وكذلك عن قوم نوح.
وأما عاد: فذكر عنهم التجبر، وعمارة الدنيا.

1 ما بين المعقوفتين لا يوجد في ((ط)) .
2 قال صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع". أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 1782/4، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق، رقم 2278. والإمام أحمد في المسند 540/2.
وقال صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد الناس يوم القيامة". أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، رقم 3340. والإمام مسلم في صحيحه، رقم 194.
وقال صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم، ولا فخر". أخرجه الإمام أحمد في مسنده2/3، 144. وابن ماجه في سننه 1440/2، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة.
3 قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا". أخرجه الإمام مسلم في صحيحه رقم 532.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الخلة: هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه.... ولهذا لم يكن له صلى الله عليه وسلم من أهل الأرض خليل؛ إذ الخلة لا تحتمل الشركة. فإنه كما قيل في المعنى:
قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا.
العبودية لابن تيمية ص 128. وانظر الشفا للقاضي عياض في الفرق بين المحبة والخلة 279/1-289.
4 إبراهيم، ومحمد صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلم.

وقوم صالح1: ذكر عنهم الاشتغال بالدنيا عن الدين، لم يذكر عنهم من التجبر ما ذكر عن عاد، وإنما أهلكهم لما عقروا الناقة.
وأما أهل مدين: فذكر عنهم الظلم في الأموال، مع الشرك؛ {قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء} 2.
وقوم لوط ذكر عنهم استحلال الفاحشة، ولم يذكروا بالتوحيد، بخلاف سائر الأمم. وهذا يدل على أنهم لم يكونوا مشركين، وإنما ذنبهم استحلال الفاحشة، وتوابع ذلك. وكانت عقوبتهم أشد؛ إذ ليس في ذلك تدين، بل شر يعلمون أنه شر3.
وهذه الأمور تدل على حكمة الرب، وعقوبته لكل قوم بما يناسبهم؛ فإن قوم نوح أغرقهم إذ لم يكن فيهم خير يرجى.

1 في ((ط)) فقط: عليه السلام.
2 سورة هود، الآية 87.
3 وقد وصفهم الله تعالى بصفات قبيحة؛ منها صفة العدوان على حدود الله، فقال تعالى: {أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون} . سورة الشعراء، الآية 165-166.
ووصفهم بالجهل، قال تعالى: {أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون} . سورة النمل، الآية 55.
ووصفهم بالإسراف في الشهوات، قال تعالى: {إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون} . سورة الأعراف، الآية 81.
وقال تعالى: {أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر} . سورة العنكبوت، الآية 29.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن قوم لوط: "وكانوا كفارا من جهات؛ من جهة استحلال الفاحشة، ومن جهة الشرك، ومن جهة تكذيب الرسل؛ ففعلوا هذا وهذا، ولكن الشرك والتكذيب مشترك بينهم وبين غيرهم، والذي اختصوا به الفاحشة، فلهذا عوقبوا عقوبة تخصهم، لم يعاقب غيرهم بمثلها، وجعل جنس هذه العقوبة هو الرجم".تفسير آيات أشكلت من القرآن 391/1.

فصل في آيات الأنبياء وبراهينهم

معنى آيات الأنبياء

[و] 1 هي الأدلة والعلامات المستلزمة لصدقهم.

الدليل مستلزم للمدلول

والدليل لا يكون إلا مستلزما للمدلول عليه مختصا به، لا يكون مشتركا بينه وبين غيره؛ فإنه يلزم من تحققه تحقق المدلول.

وإذا [انتفى] 2 المدلول انتفى هو؛ فما يوجد مع وجود الشيء، ومع عدمه، لا يكون دليلا عليه، بل الدليل ما لا يكون إلا مع وجوده. فما وجد مع النبوة تارة، ومع عدم النبوة تارة، لم يكن دليلا على النبوة، بل دليلها ما يلزم من وجوده وجودها.

اضطراب الناس في دليل النبوة

وهنا اضطرب الناس، فقيل: دليلها جنس يختص بها، وهو الخارق للعادة. فلا يجوز وجوده لغير نبي؛ لا ساحر، ولا كاهن، ولا ولي3؛ كما

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

2 في ((خ)) : انتفاء. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 الولي: بمعنى مفعول في حق المطيع. فيقال: المؤمن ولي الله. المصباح المنير 673.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والولاية ضد العداوة. وأصل الولاية: المحبة، والقرب. وأصل العداوة: البغض والبعد. وقد قيل: إن الولي سمي وليا من موالاته للطاعات؛ أي متابعته لها. والأول أصح.

والولي: القريب.... فإذا كان ولي الله هو الموافق، المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معاديا له ... ". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 9-10.

يقول ذلك من يقوله من المعتزلة1، [وغيرهم] 2؛ كابن حزم3، وغيره.

قول الأشاعرة

وقيل: بل الدليل هو الخارق للعادة، بشرط الاحتجاج به على النبوة، والتحدي بمثله. وهذا منتف في السحر، والكرامة؛ كما يقول ذلك من يقوله من متكلمي أهل الإثبات4؛ كالقاضيين أبي بكر5، وأبي يعلى6، وغيرهما.

البيان: كتاب الباقلاني

وقد بسط القاضي أبو بكر7 الكلام في ذلك، في كتابه المصنف8 في الفرق بين المعجزات، والكرامات، والحيل، والكهانات، والسحر، والنيرنجيات9.

---

1 انظر المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار 189/15.

2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) . وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 انظر المحلى لابن حزم 36/1.

4 يعني الأشاعرة.

وانظر قولهم في المعجزة، في: أصول الدين للبغدادي ص 175، 185. والإرشاد للجويني ص 307-315. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 339. وشرح المقاصد للتفتازاني 11/5.

5 الباقلاني. سبقت ترجمته. وانظر كلامه في كتابه البيان ص 19-20، 46-49. وانظر: الإرشاد للجويني ص 312-313. وأصول الدين للبغدادي ص 170-171. والمواقف للإيجي ص 339-340.

6 سبقت ترجمته.

7 الباقلاني.
8 طبع هذا الكتاب أول مرة، ونشره الأب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي عام 1958، في المكتبة الشرقية ببيروت.
9 النيرنج - بالكسر: أخذ كالسحر، وليس به، وإنما هو تشبيه، وتلبيس.
انظر: اللسان 376/2. والقاموس المحيط ص 265.

سبب الغلط عند المعتزلة والأشاعرة في دليل النبوة..
وهؤلاء [وهؤلاء] 1 جعلوا مجرد كونه خارقا للعادة هو الوصف المعتبر.
وفرق بين أن يقال: لا بد أن يكون خارقا للعادة، وبين أن يقال: كونه خارقا للعادة هو المؤثر؛ فإن الأول يجعله شرطا لا موجبا، والثاني يجعله موجبا.
وفرق بين أن يقال: العلم، والبيان، وقراءة القرآن، لا يكون إلا من حي، وبين أن يقال: كونه حيا يوجب أن يكون عالما قارئا.
ومن هنا دخل الغلط على هؤلاء.
ليس في الكتاب والسنة لفظ المعجزة وخرق العادة
وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف، بل ولا ذكر خرق العادة، ولا لفظ المعجز، وإنما فيه آيات وبراهين2، وذلك يوجب اختصاصها بالأنبياء.

---

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((م)) ، و ((ط)) .
2 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات. ولهذا لم يكن لفظ (المعجزات) موجودا في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ (الآية) ، و (البينة) ، و (البرهان) ؛ كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: {فذانك برهانان من ربك..} . [سورة القصص 32] في العصا، واليد. وقال تعالى في حق محمد صلى الله عليه وسلم: {يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا} . [سورة النساء، آية 174] .....) .
ثم ذكر رحمه الله الآيات القرآنية الدالة على أن الآيات النبوية تسمى براهين، ثم قال رحمه الله: (وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن) ... ثم استشهد بآيات كثيرة، منها قوله: {ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات} . [سورة الإسراء، آية 101] ...
انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح 412/5-419. وانظر قاعدة في المعجزات والكرامات لشيخ الإسلام رحمه الله ص 7.

شرط المعجزة عند الأشاعرة
وأيضا: فقالوا في شرطها: أن لا يقدر عليها إلا الله، لا [تكون] 1 مقدورة للملائكة، ولا للجن، ولا للإنس؛ بأن يكون جنسها مما لا يقدر عليه إلا الله2؛ كإحياء الموتى، وقلب العصا حية.
وإذا كانت من أفعال العباد لكنها خارقة للعادة؛ مثل حمل الجبال، والقفز من المشرق إلى المغرب، والكلام المخلوق الذي يقدر على مثله البشر، ففيه لهم قولان:
أحدهما: أن ذلك يصح أن يكون معجزة.
والثاني: أن المعجزة إنما هي إقدار المخلوق على ذلك؛ بأن [يخلق] 3 فيه قدرة [خارجة] 4 عن قدرته المعتادة5.
مناقشة الباقلاني في تعريف المعجزة
وهذا اختيار القاضي أبي بكر6، ومن اتبعه؛ كالقاضي [أبي يعلى] 7.

---

1 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: البيان للباقلاني ص 8، 19، 57.
3 في ((خ)) : خلق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : خارقة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

5 وقال عبد القاهر البغدادي - من الأشاعرة -: "قال أصحابنا: أكثر المعجزات من أفعال الله تعالى لا يقدر على جنسها غيره؛ كإحياء الأموات، وإبراء الأكمه، والأبرص، وقلب العصا حية، وفلق البحر، وإمساك الماء في الهواء، وتشقق القمر، وإنطاق الحصى، وإخراج الماء من بين الأصابع، ونحو ذلك. ومنها ما هو خلق لله اختراعا وكسبا لصاحب المعجزة؛ كإقداره إنسانا على الطفر إلى السماء، وعلى قطع المسافة البعيدة في الساعة القصيرة، وعلى إطلاق لسان الأعجمي بالعربية، ونحو ذلك، مما لم يجر العادة به". أصول الدين للبغدادي ص 176-177. وانظر: شرح المقاصد للتفتازاني 17/5. والإرشاد للجويني ص 308-309.

6 الباقلاني. انظر: كتابه البيان ص 14-15، 20، 23، 34.

7 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

وظنوا أن هذا يوجب طرد قولهم أنها لا تكون مقدورة لغير الله، بخلاف القول الأول؛ فإنه تقع فيه شبهة إذ كان الجنس معتادا. وإنما الخارق هو الكثير الخارج عن العادة.

الفرق بين المعجزة وغيرها عند الأشاعرة

وهذا الفرق الذي ذكره ضعيف، فإنه إذا كان قادرا على اليسير، فخرق العادة في قدرته، حتى جعله قادرا على الكثير، فجنس القدرة معتاد مثل جنس المقدور، وإنما خرقت العادة بقدرة خارجة عن العادة؛ كما خرقت بفعل خارج عن القدرة. وعنده أن خلق القدرة خلق لمقدورها، والقدرة عنده مع الفعل، فلا فرق.

وهذا القول، وهو: أن المعجزة لا تكون إلا مقدورة للرب، لا للعباد: قول كثير من أهل الكلام؛ من القدرية1، والمثبتة للقدر، وغيرهم.

دليل الأشاعرة علىامتناع أن تكون هذه الخوارق لغير الله

ثم إنهم لما طولبوا بالدليل على أنه لا يجوز أن تقدر العباد على مثل: إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، ونحو ذلك مما ذكروا أنه يمتنع أن يكون مقدورا لغير الله، اعتمدوا في الدلالة على (أن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده) ، فلو جاز أن يكون العبد قادرا على هذه الأمور، لوجب أن لا يخلو من ذلك ومن ضده؛ وهو العجز، أو القدرة على ضد

---

1 القدرية من الألفاظ المشتركة. فالقدرية النفاة هم الذين ينفون الإرادة عن الله تعالى، ويقولون بأن العبد يخلق فعل نفسه. وهذا المعروف من معتقد المعتزلة في القدر.

والقدرية المثبتة الذين يجعلون العبد مجبورا على أفعاله.

قال شارح الطحاوية: "وسموا قدرية لإنكارهم القدر. وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضا، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب". شرح الطحاوية ص 79.

وقد قسم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله القدرية إلى ثلاثة أصناف:

1- القدرية المشركية. 2- والقدرية المجوسية. 3- والقدرية الإبليسية.

انظر: مجموع الفتاوى 256/8-261.

ذلك الفعل؛ كما يقولونه في فعل العبد:

المعجزات عند الأشاعرة هي ما تعجز قدرات العباد عنها

إنه إذا لم يقدر على الفعل، فلا بد أن يكون عاجزا، أو قادرا على ضده.

هذا احتجاج من يقول القدرة مع الفعل1، والقدرة عنده لا تصلح للضدين؛ كالأشعرية، فيقول: لا يخلو من القدرة، أو العجز، فهذه مقدمة.

والمقدمة الثانية: ونحن لا نحس من أنفسنا عجزا عن إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، ونحو هذه الأمور، لكنا غير قادرين عليها، ولا يجوز أن نقدر عليها. وهؤلاء يقولون: لا يكون الشيء عاجزا إلا عما يصح أن يكون قادرا عليه، [بخلاف ما لا يصح أن يكون قادرا عليه] 2، فلا يصح أن يكون عاجزا عنه. ولهذا قالوا: لا ينبغي أن تسمى هذه معجزات؛ لأن ذلك يقتضي أن الله أعجز العباد عنها، وإنما يعجز العباد عما يصح قدرتهم عليه. هذا3 كلام القاضي أبي بكر، ومن وافقه4.

رد شيخ الإسلام عليهم

وكلا المقدمتين دعوى مجردة لم يقم على واحدة منها حجة. فكيف يجوز أن يكون الفرق بين المعجزة وغيرها مبنيا على مثل هذا الكلام الذي

---

1 هذا قول الأشاعرة. انظر: التمهيد للباقلاني ص 46. والإرشاد للجويني ص 219-220.

ويقصد شيخ الإسلام رحمه الله بهذا الكلام أن يبين أنهم يقولون: القدرة تكون مع الفعل، لا كما يقوله أهل السنة والجماعة: أن القدرة تكون قبل الفعل، ومع الفعل. انظر: درء تعارض العقل والنقل 60/1-62،، 241/9-242. ومجموع الفتاوى 129/8-130، 290-292، 371-376، 32/10، 172/18-173. وشرح الطحاوية ص 45.

2 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 في ((ط)) فقط: وهذا.

4 انظر: البيان للباقلاني ص 8-12.

ينازعه فيه أكثر العقلاء، ولو كان صحيحا لم يفهم إلا بكلفة، ولا يفهمه إلا قليل من الناس. فكيف إذا كان باطلا.

والذين آمنوا بالرسل لما رأوه، وسمعوه من الآيات، لم يتكلموا بمثل هذا الفرق، بل ولا خطر بقلوبهم.

متأخروا الأشاعرة حذفوا القيد الذي وضعه المتقدمون

ولهذا لما رأى المتأخرون ضعف هذا الفرق؛ كأبي المعالي1، والرازي2، والآمدي3، وغيرهم حذفوا هذا القيد؛ وهو كون المعجزة مما ينفرد الباري بالقدرة عليها، وقالوا: كل حادث، فهو مقدور

---

1 هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني الشافعي، الملقب إمام الحرمين. أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي. متفنن في العلوم من الأصول والفروع. وألف العقيدة النظامية على عقيدة أهل التفويض. ويعتبر من أعلام الأشاعرة كان مولده سنة 419 ?، وتوفي سنة 478 ?، ودفن بنيسابور.

انظر: البداية والنهاية 128/12. ووفيات الأعيان 167/3. وشذرات الذهب358/3، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة: 602/2.

2 هو محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري الرازي، الإمام المفسر. كان يحسن الفارسية، وكان واعظا بارعا بها وبالعربية أيضا. له كتاب ((مفاتيح الغيب)) في تفسير القرآن الكريم. وله مؤلفات عديدة. وهو من علماء الأشاعرة، وممن خلطوا الكلام بالفلسفة، ولد في الري سنة 544?، وتوفي في وهران سنة 606 ?.

انظر: وفيات الأعيان 2488/4. وشذرات الذهب 21/5. والأعلام 203/7، وموقف شيخ الإسلام ابن تيمية من الأشاعرة: 662/2.

3 هو أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سلم التغلبي. الفقيه الأصولي، الملقب سيف الدين. كان حنبليا، ثم صار شافعيا. ويعتبر من علماء الأشاعرة، وممن خلطوا الكلام بالفلسفة، له نحو من عشرين مؤلفا. قال عنه ابن كثير: كان حسن الأخلاق، سليم الصدر، كثير البكاء، تكلموا فيه بأشياء، الله أعلم بصحتها، والذي يغلب على الظن أنه ليس لغالبها صحة. ولد سنة 551?، ومات سنة 631 ?.

انظر: وفيات الأعيان 293/3. والبداية والنهاية 140/13. وشذرات الذهب 144/5. ومعجم المؤلفين 155/7، وموقف شيخ الإسلام من الأشاعرة: 679/2.

للرب1، وأفعال العباد هي أيضا مقدورة للرب، وهو خالقها، والعبد ليس خالقا لفعله؛ فالاعتبار بكونها خارقة للعادة قد استدل بها على النبوة، وتحدى بمثلها، فلم يمكن أحدا معارضة هذه القيود الثلاثة، وحذفوا ذلك القيد.

كلام الباقلاني في الفرق بين المعجز والسحر

وزعم القاضي أبو بكر أن ما يستدل به على أن المعجزات يمتنع دخولها تحت قدر العباد لا يصح على أصول القدرية. وبسط القول في ذلك بكلام يصح بعضه دون بعض؛ كعادته في أمثال ذلك2، ثم جعل هذا الفرق: هو الفرق بين المعجزات، وبين السحر، والحيل؛ فقال: وأما على قولنا إن المعجز لا يكون إلا من مقدورات القديم، ومما يستحيل دخوله، ودخول مثله تحت قدر العباد، فإذا كان كذلك، استحال أن يفعل أحد من الخلق شيئا من معجزات الرسل، أو ما هو من جنسها؛ لأن المحتال إنما يحتال ويفعل ما يصح دخوله تحت قدرته، دون ما يستحيل كونه مقدورا له3.

قال: "وأما4 القائلون بأنه يجوز5 أن يكون في6 معجزات الرسل ما يدخل جنسه تحت قدر العباد، وإن لم يقدروا على كثيره، وما يخرق العادة منه، فإنهم7 يقولون: قد علمنا أنه لا حيلة ولا شيء من8 السحر يمكن

1 انظر: الإرشاد للجويني ص 319، 322.
2 انظر: البيان للباقلاني ص 66-70.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 72-73.
4 في البيان: فأما.
5 في البيان: قد يجوز.
6 في البيان: من.
7 في البيان: فإنهم أيضا.
8 في البيان: في.

أن يتوصل به الساحر، والمشعبذ1 إلى فعل الصعود في2 السماء، [والطفر] 3 من المشرق إلى المغرب4. [وقفز] 5 الفراسخ الكثيرة، والمشي على الماء، وحمل الجبال الراسيات: هذا6 أمر لا يتم بحيلة محتال ولا [سحر] 7 ساحر8"9.

وتكلم على إبطال قول من قال: إن السحر لا يكون إلا تخييلا، لا حقيقة له، وذكر أقوال العلماء [والآثار عن الصحابة بأن الساحر يقتل بسحره10،

1 الشعبذة، والشعوذة: اللعب بخفة. يرى الإنسان منه الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين؛ أي يرى ما ليس له حقيقة. والمشعبذ هو المشعوذ.
انظر: لسان العرب 495/3. والمصباح المنير314/1. والقاموس المحيط ص 427.
2 في البيان: إلى.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : ولا قفز.
والطفر: هو القفز، والوثوب في ارتفاع. وعرف بين المتكلمين: النظرية التي تخالف العقل، والتي اشتهر بها النظام، فيقال: طفرة النظام. انظر القاموس المحيط ص 5.
وسيأتي معنى الطفرة عند النظام.
4 في البيان: من الشرق إلى الغرب.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : ولا طفر.
6 في البيان: هذا زعموا.
7 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
8 في البيان: لا يتم بحيلة ساحر ولا محتال.
9 البيان للباقلاني ص 73.
10 ومن آثار الصحابة الدالة على قتل الساحر:

1- قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل موته بسنة: ((اقتلوا كل ساحر)) . قال الراوي: فقتلنا في يوم واحد ثلاث سواحر. أخرجه أبو داود 431/3-432، وقال عنه الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: إسناده حسن. انظر تيسير العزيز الحميد ص 391-392.

2- وما رواه الإمام مالك من أن حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قتلت جارية لها سحرتها، وقد كانت دبرتها، فأمرت بها فقتلت. موطأ مالك 871/2.
3- وما رواه البخاري في تاريخه الكبير: "كان عند الوليد رجل يلعب، فذبح إنسانا وأبان رأسه، فجاء جندب الأزدي فقتله".
التاريخ الكبير للبخاري، القسم الثاني من الجزء الأول، ص 222.
وانظر: هذه الآثار في أضواء البيان 461/4.

وقول] 1 أنه يقتل حدا عند أكثرهم، وقصاصا عند بعضهم2. [ثم قال3

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 انظر: البيان للباقلاني ص 74-87.
وقد اتفق الأئمة الأربعة على قتل الساحر كفرا إذا تضمن سحره الكفر.
أما إن قتل بسحره إنسانا، ولم يكن سحره متضمنا الكفر، فإنه يقتل عند مالك، والشافعي، وأحمد رحمهم الله. أما أبو حنيفة رحمه الله فقال: "لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك، أو يقر بذلك في حق شخص معين".
وإذا قتل، فإنه يقتل حدا عندهم، إلا الشافعي، فإنه قال: يقتل والحالة هذه قصاصا.
أما هل يقتل الساحر بمجرد فعله السحر، واستعماله، فقال مالك، وأبو حنيفة، ورواية عن أحمد: يقتل.
وقال الشافعي: "الساحر إذا كان يعمل في سحره، ما يبلغ به الكفر، يقتل. فإذا عمل عملا دون الكفر لم نر عليه قتلا". وهو رواية عن أحمد.
انظر: المغني 302/12. وفتح الباري 247/10. وتيسير العزيز الحميد ص 391. وتفسير القرآن العظيم 147/1. وشرح النووي على صحيح مسلم 176/14. وتفسير القرطبي 23/2. وأضواء البيان 456/4-457.
3 أي الباقلاني. قال هذا في البيان ص 93.

[ثم قال1:
فصل القول في الفصل بين المعجز والسحر] 2.
وهو لم يفرق بين الجنسين، بل يجوز أن يكون ما هو معجزة للرسول يظهر على يد الساحر. لكن قال: الفرق: هو (تحدي الرسول3 بالإتيان بمثله، وتقريع مخالفه، بتعذر [مثله] 4 عليه، فمتى وجد الذي5 ينفرد الله بالقدرة عليه6، من غير تحد منه7، واحتجاج لنبوته بظهوره، لم يكن معجزا. وإذا كان8 كذلك، خرج السحر عن أن يكون معجزا ومشبها لآيات الأنبياء9، [و] 10 كان11 ما يظهر عند فعل الساحر، من جنس

---

1 أي: الباقلاني. قال هذا في البيان ص 93.
2 ما بين المعقوفتين في ((ط)) فقط هكذا: (باب القول في الفصل بين المعجز والسحر. ثم قال) . وهو مخالف لما في ((خ)) ، و ((م)) .
3 في البيان: عليه السلام.
4 في ((خ)) : مثلثه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في البيان: وجد الشيء الذي.
6 في البيان زيادة: على حد العادة.
7 في البيان: على غير تحدي نبي به.
8 في البيان: كان ذلك.
9 في البيان: الرسل.
10 في ((خ)) : ولو. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

11 في البيان: وإن كان.

بعض معجزات الرسل، وما يفعله الله1 عند تحديهم به.
غير أن الساحر إذا احتج بالسحر، وادعى به النبوة، أبطله الله بوجهين) 2:
أحدهما: أن ينسيه عمل السحر، أو لا يفعل عند سحره شيئا في المسحور؛ من موت، أو سقم، أو بغض، ولم يخلق فيه الصعود إلى جهة العلو، والقدرة على الدخول في بقرة. فإذا منعه هذه الأسباب بطل السحر3.
والثاني: [أن الساحر] 4 تمكن معارضته؛ فإن أبواب السحر معلومة عند السحرة. فإذا تحدى ساحر بشيء يفعل عند سحره، لم يلبث أن يجد خلقا من السحرة يفعلون مثل فعله، ويعارضونه بأدق وأبلغ مما أورده5
"والرسول6 إذا ظهر عليه مثل ذلك، وادعاه آية له، قال لهم: هذا آيتي وحجتي، ودليل ذلك: أنكم لا تقدرون على مثله، ولا يفعله الله7 في وقتي هذا، ومع تحدي8 ومطالبتي بمثله عند سحر ساحر، وفعل كاهن.

---

1 في البيان: تعالى.
2 البيان للباقلاني ص 94.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 94-95.
4 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
5 انظر: البيان للباقلاني ص 95.
6 في البيان: عليه السلام.
7 في البيان: سبحانه.
8 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والتحدي هو أن يحدوهم؛ أي يدعوهم، فيبعثهم إلى أن يعارضوه، فيقال فيه: حداني على هذا الأمر؛ أي بعثني عليه. ومنه سمي حادي العيس؛ لأنه بحداه يبعثها على السير.
وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة، ولكنه أصله الأول. قال تعالى في سورة الطور: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} ". [سورة الطور، الآيتان 34-35] ...) . الجواب الصحيح 5/422-423.

وقد كان1 يظهر من سحرتكم وكهانكم، وهي آية لا تظهر2 اليوم على أحد من الخلق، وإن دق سحره، وعظم في الكهانة3 علمه. فإذا ظهر ذلك عليه، وامتنع ظهور مثله على يد ساحر أو كاهن، مع أنه قد كان يظهر4 من قبل، صار هذا5 [خرقا] 6 عادة البشر، وعادة السحرة والكهنة7 خاصة" 8.
قال: ولم يبعد أن يقال: هذه الآية أعظم من غيرها، وأن لها فضل مزية9. ذكر هذا بعد أن قال: فإن قال قائل: فإذا أجزتم أن يكون من عمل السحر ما يفعل الله عنده سقم الصحيح وموته، ويفعل عنده بغض المحب وحب المبغض، وبغض الوطن والرد إليه من السفر، وضيق الصدر والعجز عن الوطء بالربط والشد الذي [يعمله] 10 السحرة، والصعود في جهة العلو على خيط أو بعض [الآلة] 11. [فما] 12 الفصل بين هذا، وبين معجزات الرسل؟ وكيف ينفصل - مع ذلك - المعجزات من السحر؟ ويمكن

---

1 في البيان: كان مثل هذا.
2 في البيان: وآيتي أنه لا يظهر اليوم.
3 في البيان: في النهاية.
4 في البيان: يظهر ذلك.
5 في البيان: ذلك.
6 كذا في البيان للباقلاني. وهي في جميع النسخ: خرق.
7 في البيان: عادة الكهنة والسحرة - تقديم وتأخير.
8 البيان للباقلاني ص 95-96.

9 انظر: البيان للباقلاني ص 95-96.
10 في ((م)) ، و ((ط)) : يعلمه.
11 في ((م)) ، و ((ط)) : الآلات.
12 في ((م)) ، و ((ط)) : في.

الفرق بين النبي والساحر؟؛ أوليس لو قال نبي مبعوث: إني أصعد على هذا الخيط نحو السماء، وأدخل جوف هذه البقرة وأخرج، وإني أفعل فعلا أفرق به بين المرء وزوجه، وأفعل فعلا أقتل به هذا الحي وأسقم هذا الصحيح. فهل كان يكون ذلك لو ظهر على يده آية ودليلا على صدقه؟ [فما] 1 الفصل إذا بين السحر والمعجز2.

كلام الباقلاني في الفرق بين المعجزة والسحر هو عمدة الأشاعرة

ثم قال في الجواب: يقال له: جواب هذا قريب، وذلك أنا قد بينا في صدر هذا الكتاب3 أن من حق [المعجز أن] 4 لا يكون معجزا، حتى يكون واقعا من فعل الله على وجه خرق عادة البشر، مع تحدي الرسول بالإتيان ... إلى آخر ما كتب5.

قلت: هذا عمدة القوم، ولهذا طعن الناس في طريقهم، وشنع عليهم ابن حزم6 وغيره.

مناقشة شيخ الإسلام لكلام الباقلاني في الفرق بين المعجزة والسحر

وذلك أن هذا الكلام مستدرك من وجوه:

أحدها: أنه إذا جوز أن يكون ما ينفرد الرب بالقدرة عليه على قوله: يأتي به النبي تارة، والساحر تارة، ولا فرق بينهما إلا دعوى النبوة، والاستدلال به، والتحدي بالمثل، فلا حاجة إلى كونه مما انفرد الباري

1 في ((م)) ، و ((ط)) : وما.
2 انظر: البيان للباقلاني ص 93-94.
3 يشير الباقلاني إلى أول كتابه ((البيان)) .
4 في ((م)) ، و ((ط)) : المعجزات.
5 انظر: البيان للباقلاني ص 94.
6 انظر بعض كتب ابن حزم؛ مثل: كتاب الدرة فيما يجب اعتقاده ص 195-197. والأصول والفروع 132/2-134. وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل 2/5-9. والمحلى 36/1.

بالقدرة عليه، لا سيما وقد ظهر ضعف الفرق بين ما يمتنع قدرة العباد عليه، وما لا يمتنع. ولهذا أعرض المتأخرون عن هذا القيد1.

لا تكون المعجزة عند الأشاعرة إلا إذا استدل بها واقترن بها دعوى نبوة..

والوجه الثاني: وبه تنكشف حقيقة طريقهم أنه على هذا لم [تتميز] 2 المعجزات بوصف تختص به، وإنما امتازت باقترانها [بدعوى] 3 النبوة. وهذا حقيقة قولهم، وقد صرحوا به4.

فالدليل والبرهان إن استدل به كان دليلا، وإن لم يستدل به لم يكن دليلا، وإن اقترنت به الدعوى، كان دليلا، وإن لم تقترن به الدعوى، لم يكن دليلا عندهم. ولهذا لم يجعلوا دلالة المعجز دلالة عقلية، بل دلالة وضعية5؛ كدلالة الألفاظ بالاصطلاح.

1 قال شيخ الإسلام - فيما سبق من هذا الكتاب -: "ولهذا لما رأى المتأخرون ضعف هذا الفرق؛ كأبي المعالي، والرازي، والآمدي، وغيرهم، حذفوا هذا القيد، وهو كون المعجزة مما ينفرد الباري بالقدرة عليها. وقالوا: كل حادث فهو مقدور للرب، وأفعال العباد هي أيضا مقدورة للرب". انظر ص 194.
2 في ((خ)) : يتميز. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : بدعوة.
4 انظر: شرح المقاصد ص 11. والمواقف للإيجي ص 339. والإرشاد للجويني ص 307-315. وأصول الدين للبغدادي ص 170-171.

5 الدلالة اللفظية الوضعية: هي كون اللفظ بحيث متى أطلق، أو تخيل، فهم منه معناه للعلم بوضعه. وهي المنقسمة إلى المطابقة، والتضمن، والالتزام. لأن اللفظ الدال بالوضع يدل على تمام ما وضع له بالمطابقة، وعلى جزئه بالتضمن، وعلى ما يلازمه في الذهن بالالتزام؛ كالإنسان؛ فإنه يدل على تمام الحيوان الناطق بالمطابقة، وعلى جزئه بالتضمن، وعلى قابل العلم بالالتزام.
انظر: التعريفات للجرجاني ص 140. وانظر: الإرشاد للمفيد ص 324.

وهذا مستدرك من وجوه:
رد شيخ الإسلام عليهم من تسعة وجوه..
منها: أن كون آيات الأنبياء مساوية في الحد1 والحقيقة [لسحر] 2 السحرة، أمر معلوم الفساد بالاضطرار من دين الرسل.
الثاني: أن هذا من أعظم القدح في الأنبياء، [إذ] 3 كانت آياتهم من جنس سحر السحرة، وكهانة الكهان.
الثالث: أنه على هذا التقدير لا [يبقى] 4 دلالة؛ فإن الدليل ما يستلزم المدلول، ويختص به. فإذا كان مشتركا بينه وبين غيره، لم يبق دليلا. فهؤلاء قدحوا في آيات الأنبياء، ولم يذكروا دليلا على صدقهم.
الرابع: أنه على هذا التقدير يمكن الساحر دعوى النبوة. وقوله: أنه عند ذلك يسلبه الله القدرة على السحر، أو يأتي بمن يعارضه5: دعوى مجردة؛ فإن المنازع يقول: [لا نسلم] 6 أنه إذا ادعى النبوة فلا بد أن يفعل الله ذلك، لا سيما على أصله؛ وهو: أن الله يجوز أن يفعل كل مقدور7، وهذا مقدور للرب فيجوز أن يفعله. وادعى أن ما يخرق العادة من الأمور

---

1 الحد: قول دال على ماهية الشيء. التعريفات ص 112.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : بسحر.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : إذا.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : تبقى.
5 انظر البيان للباقلاني ص 94-95.
6 في ((خ)) : يسلم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 انظر: البيان للباقلاني ص81-82، 88-90. والتمهيد للباقلاني ص 317-322، 385-386. والإرشاد للجويني ص 319، 322، 326. والاقتصاد للغزالي ص 116-118. وقواعد العقائد له ص 61. والمواقف للإيجي ص 328-331.

الطبيعية، والطلسمات1، هي كالسحر.
فقال: ولأجل ذلك لم تلتبس آيات الرسل بما يظهر من جذب حجر المغناطيس2، وما يوجد ويكون عند كتب الطلسمات3. قال: وذلك أنه لو ابتدأ نبي بإظهار حجر المغناطيس، لوجب أن يكون ذلك آية له. ولو أن أحدا أخذ هذا الحجر، وخرج إلى بعض البلاد، وادعى أنه آية له عند من لم يره، ولم يسمع به، لوجب أن ينقضه الله عليه بوجهين.
أحدهما: أن يؤثر دواعي خلق من البشر إلى حمل جنس تلك الحجارة إلى ذلك البلد. وكذلك سبيل الزناد الذي يقدح النار، وتعرفه العرب4. وكذلك سبيل الطلسمات التي يقال أنها تنفي الذباب، والبق، والحيات5.

---

1 الطلسم: لفظ يوناني. وهو في علم السحر خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية، لجلب محبوب، أو دفع أذى.
انظر المعجم الوسيط / مادة طلسم 568/2.
2 حجر المغناطيس: هو حجر له خاصية جذب الحديد ومعادن أخرى؛ كالكوبالت، والكروم، والنيكل. وهذا الجسم يوجد بكثرة في بلاد السويد، والنورفيج، وأواسط تركيا. وإذا علق المغناطيس تعليقا حرا فإنه يأخذ اتجاها ثابتا دائما نحو الشمال.
انظر: الموسوعة العربية الميسرة 1726. ودائرة معارف القرن العشرين 282/9.
3 انظر البيان للباقلاني ص 70.
4 الزند: العود الذي يقدح به النار، وهو الأعلى. والزندة: السفلى، فيها ثقب، وهي الأنثى. فإذا اجتمعا قيل زندان، ولم يقل زندتان. انظر: الصحاح 481/2. والقاموس 364. والمصباح المنير 256.

5 قال ابن حزم رحمه الله: "وأما السحر فإنه ضروب، منه ما هو من قبل الكواكب؛ كالطابع المنقوش فيه صورة عقرب في وقت كون القمر في العقرب، فينفع إمساكه من لدغة العقرب. ومن هذا الباب كانت الطلسمات، وليست إحالة طبيعة، ولا قلب عين، ولكنها قوى ركبها الله عز وجل مدافعة لقوى أخر؛ كدفع الحر للبرد، ودفع البرد للحر؛ وكقتل القمر للدابة الدبرة إذا لاقى الدبرة ضوءه إذا كانت دبرتها مكشوفة للقمر. ولا يمكن دفع الطلسمات لأننا قد شاهدنا بأنفسنا آثارها ظاهرة إلى الآن من قرى لا تدخلها جرادة، ولا يقع فيه برد ... ". إلى أن قال: "ومنه ما يكون بالخاصة؛ كالحجر الجاذب للحديد، وما أشبه ذلك. ومنه ما يكون لطف يد..". الفصل في الملل والأهواء والنحل 4/5.

والوجه الآخر: أن لا يفعل الله عند ذلك ما كان يفعله من قبل1، فيقال: هذه دعوى مجردة.
ومما يوضح ذلك:
الباقلاني جعل حجر المغناطيس والطلسمات من جنس معجزات الأنبياء.. والرد عليه
الوجه الخامس: وهو أن جعل قدح الزناد، وجذب حجر المغناطيس، والطلسمات من جنس معجزات الأنبياء، وأنه لو بعث نبي ابتداء، وجعل ذلك آية له، جاز ذلك: غلط عظيم، وعدم علم بقدر معجزات الأنبياء وآياتهم. وهذا إنما أتاهم حيث جعلوا جنس الخارق هو الآية2؛ كما فعلت المعتزلة. وأولئك3 كذبوا بوجود ذلك لغير الأنبياء، وهؤلاء4 ما أمكنهم تكذيب ذلك؛ لدلالة الشرع، والأخبار المتواترة، والعيان على وجود حوادث [من هذا النوع] 5، فجعلوا [الفرق] 6 افتراق الدعوى، والاستدلال، والتحدي [دون الخارق] 7. ومعلوم أن ما ليس بدليل

---

1 انظر البيان للباقلاني ص 98-100.
وقال بعد ذلك: "فلو ادعى بعضها مدع لوفر الله سبحانه دواعي خلق من عباده العالمين بها على معارضة ذلك الرجل، وإظهار مثل قوله".
2 أي أنهم حصروا المعجزة في الخارق.
3 يقصد المعتزلة. انظر المغني في أبواب التوحيد والعدل 189/15.
4 يقصد الأشاعرة. انظر الإرشاد للجويني ص 319.
5 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : الفراق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 في ((خ)) : والخارق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

لا يصير دليلا بدعوى المستدل أنه دليل.
الذين ادعوا النبوة ظهرت لهم خوارق ولم يعارضهم أحد
وقد بسط الكلام في ذلك، وجوز أن [تظهر] 1 المعجزات على يد كاذب2، إذا خلق الله مثلها على يد من يعارضه؛ فعمدته سلامتها من المعارضة بالمثل، مع أن المثل عنده موجود، وآيات الأنبياء لها أمثال كثيرة لغير الأنبياء، لكن يقول3 إن من ادعى الإتيان؛ فإما أن لا يظهرها الله على يديه، وإما أن [يقيض] 4 من يعارضه بمثلها. هذا عمدة القوم، وليس فرقا حقيقيا بين النبي والساحر، وإنما هو مجرد دعوى.
وهذا يظهر ب الوجه السادس: وهو أن من الناس من ادعى النبوة5، وكان كاذبا، وظهرت على يده بعض هذه الخوارق، فلم يمنع منها، ولم يعارضه أحد، بل عرف أن هذا الذي أتى به ليس من آيات الأنبياء، وعرف كذبه بطرق متعددة؛ كما في قصة الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، [والحارث] 6 الدمشقي، وبابا الرومي، وغير هؤلاء7 ممن ادعى النبوة. فقولهم: إن الكذاب لا يأتي بمثل هذا الجنس، ليس كما ادعوه8.

---

1 في ((خ)) : يظهر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: البيان للباقلاني ص47-48، 91، 94. والإرشاد للجويني ص319، 328.

3 انظر: البيان للباقلاني ص 94-97.
4 في ((ط)) فقط: يقبض.
5 مثل مسيلمة الكذاب.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : والحارس.
7 وكل هؤلاء سبق التعريف بهم.
8 قال شيخ الإسلام في معرض الرد عليهم في الجواب الصحيح: "أنت تجوز انتقاض العادة، وليس لانتقاضها عندك سبب تختص به، ولا حكمة انتقضت لأجلها، بل لا فرق عندك بين انتقاضها للأنبياء والأولياء والسحرة وغير ذلك. ولهذا قلتم: ليس بين معجزات الأنبياء، وبين كرامات الأولياء والسحرة فرق، إلا مجرد اقتران دعوى النبوة والتحدي بالمعارضة، مع عدم المعارضة، مع أن التحدي بالمعارضة قد يقع من المشرك، بل ومن الساحر، فلم يثبتوا فرقا يعود إلى جنس الخوارق المفعولة، ولا إلى قصد الفاعل والخالق، ولا قدرته، ولا حكمته". الجواب الصحيح 401/6.

الباقلاني منع من ظهور الخارق على يد الكذاب

الوجه السابع: أنه إنما أوجب أن لا يظهر الله الخوارق على يد الكذاب؛ لأن ذلك يفضي إلى عجز الرب. وهذه عمدة الأشعري في أظهر قوليه1، وهي المشهورة عند قدمائهم2، وهي التي سلكها القاضي أبو يعلى، ونحوه.

قال القاضي أبو بكر: فإن قال قائل من القدرية3: [فلم] 4 لا يجوز أن يظهر المعجزات على يد مدعي النبوة ليلبس بذلك على العباد، ويضل به عن الدين، وأنتم تجوزون خلقه الكفر في قلوب الكفار، وإضلالهم. [فما] 5 الفصل بين إضلالهم بهذا، وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على يد الكاذبين؟

قال: فيقال لمن سأل عن هذا من القدرية: الفصل بين الأمرين ظاهر معلوم، وقد نص القرآن والأخبار بأنه يضل ويهدي6، ويختم على القلوب، والأسماع، والأبصار7.

---

1 انظر: المواقف في علم الكلام للإيجي ص 342.
2 انظر: الإرشاد للجويني ص 327. وانظر أيضا الجواب الصحيح 397/6، 398.
3 انظر: شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص 564، 571.
وذكر الجويني اعتراض المعتزلة هذا عليهم في الإرشاد ص 326.
4 في ((ط)) فقط: لم.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : في.
6 قال تعالى: {إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب} . سورة الرعد، آية 27.
7 قال تعالى: {ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم} . سورة البقرة، الآية 7.

فأما مطالبتهم بالفرق بين إضلال العباد بهذه الضروب1 من الأفعال، وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على أيدي الكذابين؟

فجوابه: أنا لم نحل إضلالهم بهذا الضرب لأنه إضلال عن الدين، أو لقبحه من الله لو وقع، أو لاستحقاقه الذم عليه - تعالى عن ذلك، أو لكونه ظالما لهم بالتكليف مع هذا الفعل. كل ذلك باطل محال من تمويههم، وإنما أحلناه لأنه يوجب عجز القديم عن تمييز الصادق من الكاذب.

وتعريفنا الفرق بين النبي والمتنبي من جهة الدليل؛ إذ لا دليل [بقول] 2 كل أحد أثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم، إلا [ظهورا لأعلام] 3 المعجزة على أيديهم، أو خبر من ظهرت المعجزة على يده عن نبوة آخر مرسل. فهذا إجماع لا خلاف فيه؛ فلو أظهر الله على يد المتنبي الكاذب ذلك، لبطلت دلائل النبوة، وخرجت المعجزات عن كونها دلالة على صدق الرسول، ولوجب لذلك عجز القديم عن الدلالة على صدقهم.

ولما لم يجز عجزه، وارتفاع قدرته عن بعض المقدورات، لم يجز لذلك ظهور المعجزات على أيدي الكذابين، بخلاف خلق الكفر في قلوب الكافرين4.

متأخروا الأشاعرة سلكوا طريق الضرورة في معرفة صدق النبي

قلت: هذا عمدة القوم. والمتأخرون عرفوا ضعف هذا، فلم يسلكوه؛ كأبي المعالي5، والرازي، وغيرهما. بل سلكوا الجواب الآخر: وهو أن

1 الضرب: المثل. وضرب المثل: هو ذكر شيء أثره يظهر في غيره.
(انظر: القاموس المحيط ص 138. ومفردات ألفاظ القرآن ص 506) .
2 في ((م)) ، و ((ط)) : في قول.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : ظهور أعلام.
4 هذا الكلام لا يوجد في القسم المطبوع من البيان. وهو ناقص من آخره.
5 انظر: الإرشاد للجويني ص 312، 325.

العلم بالصدق عند المعجز يحصل ضرورة، فهو علم ضروري1. [وبين] 2 ضعف هذا الجواب، مع أنه يحتج به، وقال: فهذا هذا من وجوه:
أحدها: أن يقال: إن كان الأمر كما زعمتم، فإنما يلزم العجز إذا كان خلق الدليل الدال على صدقهم جنسه لا يدل، بل جنسه يقع مع عدم النبوة، ولم يبق عندكم جنس من الأدلة [يختص] 3 النبوة.
فلم قلتم: إن تصديقهم والحال هذه ممكن؟
ولا ينفعكم هنا الاستدلال بالإجماع ونحوه من الأدلة السمعية؛ لأن كلامكم مع منكري النبوات. فيجب أن [تقيموا] 4 عليهم كون المعجزات دليلا على صدق النبي.
وأما من أقر بنبوتهم بطريق غير طريقكم، فإنه لا يحتاج إلى كلامكم. فإذا قال لكم منكروا النبوة: لا نسلم إمكان طريق يدل على صدقهم، لم يكن معكم ما يدل على ذلك.
وقد أورد هذا السؤال، وأجاب عنه: بأنه يمكنه تصديقهم بالقول، والمعجزات تقوم مقام التصديق بالقول، بل التصديق بالفعل أوكد. وضرب المثل بمدعي الوكالة، إذا قال: قم، أو اقعد، ففعل ذلك عند استشهاد وكيله؛ فإن العقلاء كلهم يعلمون أنه أقام تلك الأفعال مقام القول.
قلت: وهذا يعود إلى الاحتجاج بالطريقة الثانية؛ وهي العلم بالتصديق ضرورة، فلا حاجة إلى طريقة المعجزات.

1 انظر: الإرشاد للجويني ص 312، 336.
2 في ((خ)) : وبيان. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : يخص.
4 في ((خ)) : يقيموا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

الثاني: أنه يمكن أن يخلق علما ضروريا بصدقهم. وقد سلم القاضي أبو بكر1 ذلك، لكن قال: إذا اضطررنا إلى العلم بصدق مدعي النبوة، وأنه أرسله إلينا، كان في ضمن هذا العلم اضطراره لنا إلى العلم بذاته، وإلى أنه قد أرسل مدعي النبوة. وإذا علمنا ذلك اضطرارا، لم يكن للتكليف بالعلم بصدقه وجها، وخرجنا بذلك عن أن نكون مكلفين [للعلم] 2 بالدين. وهذا كلام يؤدي إلى خروجنا عن حد المحنة والتكليف.
فيقال له: إذا حصل العلم الضروري بوجود الخالق [وبصدق] 3 رسوله، كان التكليف بالإقرار بالصانع، وعبادته وحده لا شريك له، وبتصديق رسله، وطاعة أمره. وهذا هو الذي أمرت به الرسل؛ أمرت الخلق أن يعبدوا الله وحده، وأن يطيعوا رسله، ولم يأمروا جميع الخلق بأن يكتسبوا علما نظريا بوجود الخالق، وصدق رسله. لكن من جحد الحق أمروه بالإقرار به، وأقاموا الحجة عليه، وبينوا معاندته، وأنه جاحد للحق الذي يعرفه. وكذلك الرسول كانوا يعلمون أنه صادق ويكذبونه. فليتدبر هذا الموضع؛ فإنه موضع عظيم.
حكمة الله تمنع ظهور المعجزات على يد الكذاب
الوجه الثالث: أن يقال: نحن نسلم أن المعجزات تدل على الصدق، وأنه لا يجوز إظهارها على يد الكاذب، لكن هو4 لأن الله [ميزه] 5 عن ذلك، وأن حكمته تمنع ذلك، ولا يجوز عليه كل فعل ممكن، وأنتم مع

1 الباقلاني.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : بالعلم.
3 في ((خ)) : وتصدق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 كذا في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((م)) ، و ((ط)) : منزه.

تجويزكم عليه كل ممكن1، يلزمكم تجويز خلق المعجزة على يد الكاذب، فما علم بالعقل والإجماع من امتناع ظهورها على يد الكاذب يدل على فساد أصلكم.
الرد على من قال لا دليل على صدق الأنبياء إلا المعجزات
الوجه الرابع: أن يقال: لم قلتم أنه لا دليل على صدقهم إلا المعجزات2، وما ذكرتم من الإجماع على ذلك لا يصح الاستدلال به لوجهين:
أحدهما: أنه لا إجماع في ذلك، بل كثير من الطوائف يقولون: إن صدقهم بغير المعجزات.
الثاني: إنه لا يصح الاحتجاج بالإجماع في ذلك؛ فإن الإجماع إنما يثبت بعد ثبوت النبوة، والمقدمات التي يعلم بها النبوة لا يحتج عليها بالإجماع، وقولكم: لا دليل سوى المعجز: مقدمة ممنوعة.
وذكر عن الأشعري أنه ذكر جوابا آخر، فقال: وأيضا فإن قول القائل: ما أنكرتم من جواز إظهار المعجزات على أيدي الكذابين: قول متناقض، والله على كل شيء قدير. ولكن ما طالب السائل بإجازته محال، لا تصح القدرة عليه، ولا العجز عنه؛ لأنه بمنزلة كونه أظهر المعجزات على أيديهم؛ فإنه أوجب أنهم صادقون؛ لأن المعجز دليل على الصدق، ومتضمن له.
وقوله: مع ذلك أنهم كاذبون: نقض لقوله: أنهم صادقون قد ظهرت المعجزات على أيديهم. فوجب إحالة هذه المطالبة، وصار هذا بمثابة قول

1 انظر: البيان للباقلاني ص81-82، 88-90. والإرشاد للجويني ص319، 322، 326. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 152-153،155، 268، 272-275.
2 انظر: البيان للباقلاني ص 38. والإرشاد للجويني ص 331.

من قال: ما أنكرتم من صحة1 ظهور الأفعال المحكمة الدالة على علم فاعلها، والمتضمنة لذلك من جهة الدليل، من الجاهل بها في أنه قول باطل متناقض، فيجب إذا كان الأمر كذلك استحالة ظهور المعجزات على يد الكاذبين، واستحالة ثبوت قدرة قادر عليه. وكيف يصح على هذا الجواب أن يقال: ما أنكرتم [وزعمتم أنه] 2 من فعل المحال الذي لا يصح حدوثه، وتناول القدرة له [هو من قبيل الجائز] 3 قياسا على صحة خلق الكفر، وضروب الضلال التي يصح حدوثها، وتناول القدرة لها.
من أصول الأشاعرة تجويزهم على الله فعل كل ممكن وعدم تنزيهه عن شيء.. ويلزمهم على ذلك خلق المعجزة على يد الكذاب
قلت: هذا كلام صحيح إذا علم أنها دليل الصدق، يستحيل وجوده بدون الصدق، والممتنع غير مقدور، فيمتنع أن يظهر على أيدي الكاذبين ما يدل على صدقهم. لكن المطالب يقول: كيف يستقيم على أصلكم [أن يكون] 4 ذلك [دليل] 5 الصدق، وهو أمر حادث مقدور، وكل مقدور يصح عندكم أن يفعله الله، ولو كان فيه من الفساد ما كان؛ فإنه عندكم لا ينزه عن فعل ممكن، ولا يقبح منه فعل؛ فحينئذ إذا خلق على يد الكاذب مثل هذه الخوارق، لم يكن ممتنعا على أصلكم، وهي لا تدل على الصدق البتة على أصلكم، ويلزمكم إذا لم يكن دليل إلهي، ألا يكون في المقدور دليل على صدق مدعي النبوة، فيلزم أن الرب سبحانه لا يصدق أحدا ادعى النبوة6.

1 كذا في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : لكن أن يكون. - بزيادة: لكن -. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
6 انظر: الجواب الصحيح 6/393-401. وشرح الأصفهانية 2/621-624. وانظر أيضا شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار المعتزلي ص 571-572.

وإذا قلتم: هذا ممكن، بل واقع، ونحن نعلم صدق الصادق إذا ظهرت هذه الأعلام على يده ضرورة1. قيل: فهذا يوجب أن الرب لا يجوز عليه إظهارها على يد كاذب. وهذا فعل من الأفعال هو قادر عليه، وهو سبحانه لا يفعله، بل هو منزه عنه. فأنتم بين أمرين: إن قلتم: لا يمكنه خلقها على يد الكاذب وكان ظهورها ممتنعا، فقد قلتم: أنه لا يقدر على إحداث حادث قد فعل مثله، وهذا تصريح بعجزه. وأنتم قلتم: فليست [بدليل، فلا] 2 يلزم عجزه، فصارت دلالتها مستلزمة لعجزه على أصلكم. وإن قلتم: يقدر، لكنه لا يفعل، فهذا حق، وهو ينقض أصلكم.

وحقيقة الأمر: أن نفس ما يدل على صدق [الصادق] 3 بمجموعه، امتنع أن يحصل للكاذب، وحصوله له ممتنع غير مقدور.

الله قادر على خلق الخوارق على يد الكذاب ولا يفعل لحكمة

وأما خلق مثل تلك الخارقة على يد الكاذب، فهو ممكن، والله سبحانه وتعالى قادر عليه، لكنه لا يفعله لحكمته4؛ كما أنه سبحانه يمتنع عليه أن يكذب، أو يظلم.

الأشاعرة ينفون حكمة الله تعالى

والمعجز تصديق، وتصديق الكاذب هو منزه عنه، والدال على الصدق قصد الرب تصديق الصادق. وهذا القصد يمتنع حصوله للكاذب؛ فيمتنع جعل من ليس برسول رسولا، وجعل الكاذب صادقا، ويمتنع من الرب

---

2 ما بين المعقوفتين رسم في ((خ)) هكذا: بدل ليلا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ملحق في هامش ((خ)) .
4 قال ابن حزم رحمه الله: "والله تعالى قادر على إظهار الآيات على أيدي الكذابين المدعين للنبوة، لكنه تعالى لا يفعل، كما لا يفعل ما لا يريد أن يفعله من سائر ما هو قادر عليه". الفصل في الملل والأهواء والنحل 2/5.

قصد المحال، وهو غير مقدور، وهو إذا صدق الصادق بفعله علم بالاضطرار والدليل أنه صدقه، وهذا العلم يمتنع حصوله للكاذب. واستشهادكم بالعلم: هو من هذا الباب؛ فأنتم تقولون إن الرب لا يخلق شيئا لشيء1. وحينئذ: فلا يكون قاصدا لما في المخلوقات من الإحكام،

---

1 وهي مسألة الحكمة وتعليل أفعال الله التي نفاها الأشاعرة. انظر: الإرشاد للجويني ص 268. ونهاية الإقدام للشهرستاني ص 297. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 331-332. ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص 205. وغاية المرام للآمدي ص 224.

وقد ناقشهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في نفيهم تعليل الله، وتجويزهم على الله كل فعل، ورد عليهم، فقال رحمه الله: "حيث قيل لهم: على أصلكم: لا يفعل الله شيئا لأجل شيء، وحينئذ فلم يأت بالآيات الخارقة للعادة لأجل تصديق الرسول، ولا عاقب هؤلاء لتكذيبهم له، ولا أنجى هؤلاء ونصرهم لإيمانهم به، إذ كان لا يفعل شيئا عندكم ... وإذا جوزتم على الرب كل فعل، جاز أن يظهر الخوارق على يد الكاذب. ويقال لهم أيضا: أنتم لا تعلمون ما يفعل الرب إلا بعادة، أو خبر الأنبياء، فقبل العلم بصدق النبي لا يعلم شيء بخبره. والعادة إنما تكون فيما يتكرر؛ كطلوع الشمس، ونزول المطر، ونحو ذلك. والإتيان بالخارق للتصديق ليس معتادا....".. إلى أن قال - رحمه الله - عنهم: "ويجوزون عليه فعل كل شيء ممكن، لا ينزهونه عن فعل سيئ الأفعال، وليس عندهم قبيحا وظلما إلا ما كان ممتنعا؛ مثل جعل الشيء موجودا معدوما، وجعل الجسم من مكانين. ولهذا ذكر ذلك مخالفوهم حجة إبطال مذهبهم، وقالوا: قولهم يقدح في العلوم الضرورية، ويسد باب العلم بصدق الرسل. قالوا: إذا جوزتم أن يفعل كل شيء، فجوزوا أن يكون الجبال انقلبت ياقوتا، والبحار لبنا، ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة بطلانه. وجوزوا أن يخلق المعجزات على يدي الكذابين ... ". الجواب الصحيح6/394-395.

وناقش - رحمه الله - حجج الرازي على نفي الحكمة في أفعال العباد، ورد عليها، وفندها في شرح الأصفهانية 357/2-379.
وستأتي هذه المسألة ص 499-503 من هذا الكتاب.

فلا يكون الإحكام دالا على العلم على أصلكم؛ فإن الإحكام: إنما هو جعل الشيء محصلا للمطلوب؛ بحيث يجعل لأجل ذلك المطلوب. وهذا عندهم لا يجوز؛ فإثباته علمه، وتصديق رسله مشروط بأن يفعل شيئا لشيء. وهذا عندكم لا يجوز، فلهذا يقال: إنكم متناقضون، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حقيقة المعجزة على قول الأشاعرة

الوجه الثامن: أن حقيقة الأمر على قول هؤلاء الذين جعلوا المعجزة: الخارق، مع التحدي: أن المعجز في الحقيقة ليس إلا منع الناس من المعارضة بالمثل؛ سواء كان المعجز في نفسه خارقا، أو غير خارق1. وكثير [مما] 2 يأتي به [الساحر] 3 والكاهن أمر معتاد لهم.

وهم يجوزون أن يكون آية للنبي. وإذا كان آية، منع الله الساحر والكاهن من مثل ما كان يفعل، أو قيض له من يعارضه.

وقالوا: هذا أبلغ؛ فإنه منع المعتاد. وكذلك عندهم [أحد] 4 نوعي المعجزات [منعهم] 5 من الأفعال المعتادة. وهو مأخذ من يقول بالصرفة6.

---

1 انظر: البيان للباقلاني ص 16-20، 72-73. والإرشاد للجويني ص 328-331.

2 في ((ط)) فقط: ما.

3 في ((ط)) فقط: ساحر.

4 في ((م)) ، و ((ط)) : إحدى.

5 في ((ط)) فقط: فيهم.

6 الصرفة: هي أن الله تعالى صرف الخلق عن الإتيان بمثل القرآن الكريم. وهو قول قال به بعض أهل الكلام؛ كالرازي، وغيره. والصواب أن القرآن بنفسه معجز.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومن أضعف الأقوال: قول من يقول من أهل الكلام إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها، أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلبا عاما، مثل قوله تعالى لزكريا: {آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا} [سورة مريم، الآية 10] . وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته، مع قيام المقتضي التام؛ فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل.... وإلا فالصواب المقطوع به: أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد صلى الله عليه وسلم نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر؛ كما قد أخبر الله به في قوله: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} . [سورة الإسراء، الآية 88] ...) . الجواب الصحيح 429/5-431.

وانظر: المصدر نفسه 420/5-431. والمغني في أبواب التوحيد والعدل لعبد الجبار 264/16. وشرح الأصول الخمسة له ص 587-590. ومقالات الإسلاميين للأشعري 296/1. وأعلام النبوة للماوردي ص 221-222. وإعجاز القرآن للباقلاني ص 77-79. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 352. ومناهل العرفان للزرقاني ص 310-315.

وإذا كان كذلك، جاز أن يكون كل أمر؛ كالأكل، والشرب، والقيام، والقعود معجزة إذا منعهم أن يفعلوا كفعله، وحينئذ: فلا معنى لكونها خارقا، ولا لاختصاص الرب بالقدرة عليها، بل الاعتبار بمجرد عدم المعارضة. وهم يقرون بخلاف ذلك، والله أعلم.

الوجه التاسع: أنه إذا كانت المعجزة هي مجموع دعوى الرسالة، مع التحدي، فلا حاجة إلى كونه خارقا؛ كما تقدم1، ويجب إذا تحدى بالمثل أن يقول: فليأت بمثل القرآن من يدعي النبوة؛ فإن هذا هو المعجز عندهم، وإلا القرآن مجردا ليس بمعجز؛ فلا يطلب مثل القرآن إلا ممن يدعي النبوة2؛ كما في الساحر والكاهن إذا ادعى النبوة سلبه الله ذلك، أو

---

1 انظر: ص.201 من هذا الكتاب

2 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "..أن مسيلمة ادعى النبوة، واتبعه قومه على ذلك..... أنه كان له مخاريق، وأنه ظهر كذبه من وجوه متعددة، وأن أبا بكر الصديق والصحابة قاتلوه على كذبه في دعوى النبوة، وقاتلوا قومه على ردتهم عن الإسلام، واتباعهم نبيا كاذبا، لم يقاتلوهم على كونهم لم يؤدوا الزكاة لأبي بكر. وكذلك الأسود العنسي الذي ادعى النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل في حياته؛ كل منهما عرف كذبه بتكذيب النبي الصادق والمصدوق لهما، ومما ظهر من دلائل كذبهما؛ مثل الأخبار الكاذبة التي تناقض النبوة، ومثل الإيمان بقرآن مختلف يعلم من سمعه أنه لم يتكلم الله به، وإنما هو تصنيف الآدميين؛ كما قال أبو بكر الصديق لهم لما تابوا من الردة وعادوا إلى الإسلام: أسمعوني قرآن مسيلمة. فلما أسمعوه إياه قال: ويحكم أين يذهب بعقولكم! إن هذا كلام لم يخرج....) . الجواب الصحيح 476/6.

قيض له من يعارضه. وإذا لم يدع النبوة جاز أن يظهر على يده مثل ما يظهر على يد النبي. فكذلك يلزمهم مثل هذا في القرآن، وسائر المعجزات. والله أعلم.
(244/1)

فصل في أن الرسول لا بد أن يبين أصول الدين1
وهي البراهين الدالة على أن ما يقوله حق؛ من الخبر، والأمر؛ فلا بد أن يكون قد بين الدلائل على صدقه في كل ما أخبر، ووجوب طاعته في كل ما أوجب وأمر.
ومن أعظم أصول الضلال: الإعراض عن بيان الرسول للأدلة والآيات والبراهين والحجج؛ فإن المعرضين عن هذا؛ إما أن يصدقوه، ويقبلوا قوله، ويؤمنوا به بلا دليل أصلا ولا علم؛ وإما أن يستدلوا على ذلك بغير أدلته
فإن لم يكونوا عالمين بصدقه: فهم ممن يقال له في قبره: ما قولك في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فأما المؤمن أو الموقن، فيقول: هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى، فآمنا به واتبعناه. وأما المنافق أو المرتاب، فيقول: هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا، فقلته. فيضرب بمرزبة 2 من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل

---

(1) للمؤلف رحمه الله رسالة باسم: "معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد.بينها الرسول صلى الله عليه وسلم". نشر مكتبة ابن الجوزي.
وانظر: درء تعارض العقل والنقل للمؤلف 22/1-27 وما بعدها. ومجموع الفتاوى 293/3، 326.
(2) المرزبة، والمرزبة - بالتشديد، والتخفيف -: عصية من حديد. القاموس المحيط للفيروزآبادي ص 114 (رزب) .

شيء، إلا الثقلين12.
وإن استدل على ذلك بغير الآيات والأدلة التي دعا بها الناس، فهو مع كونه مبتدعا3، لا بد أن يخطئ ويضل.
فإن ظن الظان أنه بأدلة4 وبراهين خارجة عما جاء به تدل5 على ما جاء به، فهو6 من جنس ظنه أنه يأتي بعبادات غير ما شرعه توصل إلى مقصوده7.

---

(1) الثقلان: الجن والإنس. القاموس المحيط للفيروزآبادي ص 1256 (ث ق ل) .
(2) معنى حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه 461/1، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، ومسلم في صحيحه 2200/4-2201، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر، والتعوذ منه. كلاهما أخرجاه بألفاظ مقاربة لما ذكره المؤلف.
(3) الابتداع: هو شرع ما لم يأذن الله به، ولم يكن عليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه. وهي ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "كل عمل ليس عليه أمرنا.. " الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 2675/6، كتاب الاعتصام، باب: وكذلك جعلناكم أمة وسطا. ومسلم في صحيحه 1343/3، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور. وانظر: معارج القبول للحكمي1228/3) .

وعرف الشاطبي البدعة بقوله: "عبارة عن طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه". الاعتصام 37/1.
والمبتدع: هو الذي وقعت منه البدعة. وهو نوعان: مبتدع اعتقادي، ومبتدع عملي. والمبتدع المقصود هاهنا هو صاحب البدعة الاعتقادية: الذي يعتقد خلاف ما عليه النبي عليه السلام؛ سواء صاحب الاعتقاد عمل، أم لم يصاحب.. وانظر: الاستقامة لابن تيمية 5/1.
(4) كذا في ((خ)) ، و ((م)) ، ولعل المراد: أنه أتى بأدلة
(1) في ((خ)) يدل، وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
(2) ليست في ((خ)) . وهي في ((م)) ، و ((ط)) .
(3) قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وكل من دعا إلى شيء من الدين بلا أصل من كتاب الله وسنة رسوله، فقد دعا إلى بدعة وضلالة، والإنسان في نظره مع نفسه ومناظرته لغيره إذا اعتصم بالكتاب والسنة هداه الله إلى صراطه المستقيم؛ فإن الشريعة مثل سفينة نوح عليه السلام، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق". درء تعارض العقل والنقل 234/1.

"وهذا الظن وقع فيه طوائف من النظار الغالطين1، أصحاب الاستدلال والاعتبار والنظر؛ كما وقع في الظن الأول طوائف من العباد الغالطين2، أصحاب الإرادة والمحبة والزهد"3.
وقوله صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم الجمعة: "خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة"4 يتناول هذا وهذا.
وقد أرى الله تعالى عباده الآيات في الآفاق، وفي أنفسهم، حتى تبين5 لهم أن ما6 قاله فهو حق؛ فإن أرباب العبادة، والمحبة، والإرادة، والزهد الذين سلكوا غير ما أمروا به، ضلوا كما ضلت النصارى. ومبتدعة
(4) مثل المتكلمين.
(5) مثل المتصوفة.
(6) العبارة في ((خ)) وردت هكذا: "وهذا الظن وقع فيه طوائف من العباد الغالطين أصحاب الإرادة والمحبة والزهد؛ كما وقع في الظن الأول طوائف من النظار الغالطين أصحاب الاستدلال والاعتبار والنظر".
ولعل الصواب ما أثبت نقلا عن ((م)) ، و ((ط)) ؛ لأن الظن المراد في قوله: (وهذا الظن..) هو ظن المتكلمين وأمثالهم ممن أتوا ببراهين وأدلة خارجة عما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(1) الحديث أخرجه أحمد في المسند 310/3، 371. ومسلم في صحيحه 592/2، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.. مع اختلاف في الألفاظ.
(2) في ((خ)) : يتبين، وفي ((م)) ، و ((ط)) : تبين.
(3) في ((خ)) : أنما، وفي ((م)) ، و ((ط)) : أن ما. وهو الصحيح.

هذه الأمة من العباد، وأرباب النظر، والاستدلال الذين سلكوا
غير دليله وبيانه أيضا ضلوا. قال تعالى: {فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} 1.
قول الإمام أحمد: أصول الإسلام أربعة
وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد: أصول الإسلام أربعة2: دال، ودليل، ومبين، ومستدل. فالدال هو الله، والدليل هو القرآن، والمبين هو الرسول؛ قال الله تعالى: {لتبين للناس ما نزل إليهم} 3، والمستدل هم أولوا العلم وأولوا الألباب4 الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم5.
وقد ذكره ابن المني6عن أحمد. وهو مذكور في العدة7 للقاضي أبي يعلى8، وغيرها، إما أن أحمد قاله، أو قيل له، فاستحسنه.

---

(4) سورة طه، الآيات 123-126.
(5) في كتاب ((العدة في أصول الفقه)) للقاضي أبي يعلى: (قواعد الإسلام أربع) .
3 سورة النحل، جزء من الآية 44..
4 في العدة: (والمستدل أولوا الألباب) ..
5 في العدة: (ولا يقبل الاستدلال إلا ممن كانت هذه صفته) ..
6 ابن المني: هو أبو الفتح؛ نصر بن فتيان بن مطر بن المني النهرواني الحنبلي، شيخ الحنابلة. ولد سنة 501هـ. كان ورعا، عابدا، حسن السمت، على منهج السلف. توفي سنة 583 هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء 137/21، 138. والبداية والنهاية 350/12. وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب 358/1. وشذرات الذهب 277/4.
7 انظر: كتاب العدة في أصول الفقه للقاضي أبي يعلى 135/10، تحقيق د/ أحمد بن علي سير المباركي. وانظر: كتاب شرح الكوكب المنير لأبي البقاء الفتوحي55/1.
8 تقدمت ترجمته 175.

أهل الكلام يوجبون النظر
ولهذا صار كثير من النظار يوجبون العلم والنظر والاستدلال1، وينهون عن التقليد، ويقول كثير منهم: إن إيمان المقلد لا يصح، أو أنه وإن صح، لكنه عاص بترك الاستدلال، ثم النظر2.
الاستدلال الفاسد الذي أصله المتكلمون
والاستدلال الذي يدعون إليه، ويوجبونه، ويجعلونه أول الواجبات3،

---

1 وهذا صنيع جمهور المعتزلة والماتريدية والأشعرية؛ فإنهم يوجبون العلم والنظر والاستدلال على كل أحد، بل يجعلونه أول واجب على المكلف. انظر: الغنية في أصول الدين لعبد الرحمن النيسابوري ص 55. وشرح الأصول الخمسة لعبد الجبار المعتزلي ص 60-75. والتوحيد للماتريدي ص 135-137. والإرشاد للجويني ص 3. وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص 38. وشرحها للقاني ص 24-25.
2 قال الصاوي في شرح جوهرة التوحيد - بعد أن ساق في المسألة ستة أقوال -: "والحق الذي عليه المعول: أنه مؤمن عاص بترك النظر، إن كان فيه أهلية النظر".. شرح جوهرة التوحيد للصاوي ص 61.
وانظر: أيضا: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 353/7، 408. ومجموع الفتاوى 202/20. والاستقامة 142/1.
وسيأتي رد المصنف رحمه الله عليهم بالتفصيل في هذا الكتاب 392، 393.
3 قال أبو جعفر السمناني عن هذه المسألة: (إن هذه المسألة بقيت في مقالة الأشعري من مسائل المعتزلة، وتفرع عليها أن الواجب على كل أحد معرفة الله بالأدلة الدالة عليه، وأنه لا يكفي التقليد في ذلك ...) . فتح الباري لابن حجر 361/13.
وقد نقلها شيخ الإسلام رحمه الله في درء تعارض العقل والنقل 407/7، 461.
ومعتقد السلف في هذه المسألة أن أول واجب على المكلف: الشهادتان، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك؛ كما هي أقوال المتكلمين. فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة" الحديث أخرجه أحمد في مسنده233/5، 347. والحاكم في مستدركه 351/1، وصححه ووافقه الذهبي. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: "فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله" الحديث أخرجه البخاري 125/2، كتاب الزكاة، ومسلم 50/1-51، كتاب الإيمان. فهو أول واجب، وآخر واجب.
انظر: درء تعارض العقل والنقل 6/8-7، 21. ومجموع الفتاوى 328/16. وشرح الطحاوية 23/1.

وأصل العلم: هو نظر واستدلال ابتدعوه، ليس هو المشروع؛ لا خبرا، ولا أمرا. وهو استدلال فاسد لا يوصل إلى العلم؛ فإنهم جعلوا أصل العلم بالخالق هو الاستدلال على ذلك بحدوث الأجسام1، والاستدلال على

1 لأنهم قالوا إن إثبات الصانع لا يعرف إلا بالنظر المفضي إلى العلم بإثباته، والعلم بإثبات الصانع لا يمكن إلا بإثبات حدوث العالم، وإثبات حدوث العالم لا يمكن إلا بإثبات حدوث الأجسام؛ لذلك جعلوا أصل العلم بالخالق هو الاستدلال على ذلك بحدوث الأجسام. انظر: الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ص 96، 98. والرسالة التدمرية له ص 148. ومنهاج السنة النبوية له 309/1-310.
ويذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في موضع آخر أن الذي أوجب دليل الأعراض وحدوث الأجسام هم متأخرو الأشعرية؛ كالجويني، فيقول رحمه الله: "وبالجملة: فإنه وإن كان أبو المعالي ونحوه يوجبون هذه الطريقة، فكثير من أئمة الأشعرية، أو أكثرهم يخالفونه في ذلك، ولا يوجبونها، بل إما أن يحرموها أو يكرهوها أو يبيحوها وغيرها، ويصرحون بأن معرفة الله تعالى لا تتوقف على هذه الطريقة، ولا يجب سلوكها. ثم هم قسمان؛ قسم يسوقها ويسوق غيرها ويعدها طريقا من الطرق، فعلى هذا إذا فسدت لم يضرهم. والقسم الثاني يذمونها ويعيبونها ويعيبون سلوكها، وينهون عنها؛ إما نهي تنزيه، وإما نهي تحريم". نقض التأسيس لابن تيمية 15/2.
وهؤلاء الذين يقولون إن معرفة الله لا تتوقف على طريقة الأعراض، ولا يوجبونها، أو الذين ينهون عنها هم من متقدمي الأشعرية.. أما متأخروهم، فكلهم على أنها أصل الدين، ولا يعرف الله إلا بها.
وطريقة الأعراض وحدوث الأجسام هذه مأخوذة عن الجهمية والمعتزلة؛ فهم الأصل فيها، وعنهم انتشرت، وإليهم تضاف.. كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في درء تعارض العقل والنقل 209/7.

حدوث الأجسام بأنها مستلزمة للأعراض لا يخلو عنها ولا ينفك منها1. ثم استدلوا على حدوث الأعراض. قالوا: فثبت أن الأجسام مستلزمة للحوادث، لا يخلو عنها، فلا تكون مثلها.
دليل الحوادث
ثم كثير منهم قالوا: وما لم يخل من الحوادث، أو ما لم يسبق الحوادث، فهو حادث2، وظن أن هذه مقدمة بديهية معلومة بالضرورة لا يطلب عليها دليل، وكان ذلك بسبب أن لفظ الحوادث يشعر بأن3 لها ابتداء؛ كالحادث المعين، والحوادث المحدودة4. ولو قدرت ألف ألف

---

1 وقد اختلفوا فيما يستدل به على حدوثها؛ هل بملازمتها للأعراض جميعها، أو لبعض الأعراض؛ كالأكوان الأربعة، أو لبعض الأكوان؛ كالحركة مثلا؛ على أقوال.
فاستدل المعتزلة بملازمة الأجسام للأعراض جميعها، أو بعضها - كالأكوان - على حدوثها. انظر: شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص 95.
واستدل الأشعرية بملازمة الأجسام للأكوان، أو بعضها - كالحركة والسكون - على حدوثها. انظر: التمهيد للباقلاني ص 38. وأصول الدين للبغدادي ص 59. والإرشاد للجويني ص 40.
أما الماتريدية: فقد وافقوا المعتزلة في استدلالهم بملازمة الأجسام للأعراض، أو لبعضها - كالأكوان - على حدوثها.. انظر: العقائد النسفية لأبي حفص النسفي ص 20. وتفسير أبي البركات النسفي 200/1. وإشارات المرام من عبارات الإمام للبياضي ص 82.
2 وهذه عبارات متنوعة، مؤداها واحد. انظر: جامع الرسائل - رسالة في الصفات الاختيارية - لابن تيمية 31/2-32. وكتاب الصفدية له 163/2. ودرء تعارض العقل والنقل له 173/8.
وانظر: من كتب الأشعرية: التمهيد للباقلاني ص 41. والإنصاف له ص 28. والإرشاد للجويني ص 17-28. وأصول الدين للبغدادي ص 60.
3 في ((خ)) : بأنه.. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 وذلك لأن الحادث ما يكون مسبوقا بالعدم؛ حدث بعد أن لم يكن.
ويفهم من هذا أن جنس الحوادث لها ابتداء.
وهذا الأمر صحيح بالنسبة للحوادث المخلوقة.

أما أفعال الله تعالى فليس لنوعها ابتداء؛ فهو - جل وعلا - لم يكن معطلا عن صفاته الفعلية أزلا، ثم وجدت بعد أن لم تكن. بل هو أزلي بصفاته، وإن كانت أفعاله قديمة النوع متجددة الآحاد.
وما كان كذلك لا يقال عنه إنه وجد بعد العدم.

ألف حادث، فإن الحوادث إذا جعلت مقدرة محدودة، فلا بد أن يكون لها ابتداء1؛ فإن ما لا ابتداء له ليس له حد معين ابتدأ منه، إذ قد قيل لا ابتداء له، بل هو قديم أزلي دائم. ومعلوم أن هذه الحوادث ما لم يسبقها فهو حادث؛ فإنه يكون إما معها، وإما بعدها2.

---

1 وقد مثلوا لذلك ببرهان، أطلقوا عليه اسم ((برهان التطبيق)) ، وقالوا: لو فرض فيما لا يتناهى من الحوادث سلسلتان؛ إحداهما من الطوفان إلى ما لانهاية له في القدم، والأخرى من الهجرة إلى ما لا نهاية له في القدم، ثم طبق بين هاتين السلسلتين؛ فكلما طرح من السلسلة الأولى واحد، طرح من الأخرى مقابله واحد أيضا، وهنا لا يخلو الحال من أمور ثلاثة: إما أن يفرغا معا: وهذا خلاف الفرض، ويلزم منه مساواة الناقص للزائد. وإما ألا يفرغا، وهو باطل عندهم أيضا؛ لأنه يلزم منه المساواة بين مختلفين - على حد قولهم، وتستحيل المساواة لتحقق الزيادة في أحدهما. وإما أن يفرغ أحدهما قبل الآخر؛ فإذا فرغت إحدى السلسلتين، لزم أن تفرغ الأخرى أيضا لوجود قدر متناه بينهما.
وهذا الأمر الثالث هو المعتبر عندهم، وهو يدل على امتناع حوادث لا أول لها.
انظر: من كتبهم: المواقف للإيجي ص 90. وشرح المقاصد للتفتازاني 120/2-122.
2 وهذا تقدمت الإشارة إليه قريبا، وهو إحدى المقدمتين اللتين بنوا عليهما إثبات حدوث الأجسام، وهو معنى قولهم: ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ... إلخ. انظر: نقض التأسيس لابن تيمية - مخطوط - ق 47/ب) .

وكثير منهم1 يفطن للفرق بين جنس الحوادث، وبين الحوادث المحدودة؛ فالجنس: مثل أن يقال: ما زالت الحوادث توجد شيئا بعد شيء، أو ما زال جنسها موجودا، أو ما زال الله متكلما إذا شاء، أو ما زال الله فاعلا لما يشاء2، أو ما زال قادرا على أن يفعل قدرة يمكن معها اقتران المقدور بالقدرة، لا تكون قدرة يمتنع معها المقدور؛ فإن هذه في الحقيقة ليست قدرة3. ومثل أن يقال في المستقبل: لا بد أن الله يخلق شيئا بعد شيء،

---

1 أي من النظار.
2 وهذا ما قاله السلف - رحمهم الله - في صفات الأفعال الاختيارية؛ من أنها قديمة النوع، حادثة الآحاد، لا بمعنى وجود المفعولات معه جل وعلا أزلا؛ فإن القول بوجود المفعولات مع الله جل وعلا أزلا ليس من أقوال المسلمين. انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية 148/1) .
3 مع القدرة التامة يتعين وجود المقدور، وإلا فليست قدرة. انظر: جامع الرسائل - رسالة في الصفات الاختيارية - لابن تيمية 20/2-21) .
تنبيه: ليس يفهم من قول السلف - رحمهم الله تعالى - عن الله جل وعلا: لم يزل فاعلا، أو لم يزل خالقا، أو لم يزل قادرا، ... إلخ: أن الخالق للسموات والأرض والإنسان لم يزل يخلق السموات والأرض والإنسان، أو لم يزل يفعل كذا؛ بمعنى أن هذه المفعولات، أو المخلوقات موجودة معه في الأزل، بل المراد ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع آخر بقوله: "لم يزل الخالق لذلك سيخلقه، ولم يزل الفاعل لذلك سيفعله؛ فما من مخلوق من المخلوقات، ولا فعل من المفعولات، إلا والرب تعالى موصوف بأنه لم يزل سيفعله، ليس موصوفا بأنه لم يزل فاعلا له خالقا له؛ بمعنى أنه موجود معه في الأزل. وإن قدر أنه كان قبل هذا الفعل فاعلا لفعل آخر، وقبل هذا المخلوق خالقا لمخلوق آخر، فهو لم يزل بالنسبة إلى كل فعل ومخلوق: سيفعله، وسيخلقه، لا يقال: لم يزل فاعلا له بمعنى مقارنته له". درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 267/2-268.
وقال شيخ الإسلام في موضع آخر: "فليس مع الله في الأزل شيء من المفعولات ولا الأفعال؛ إذ كان كل منهما حادثا بعد أن لم يكن، والحادث بعد أن لم يكن لا يكون مقارنا للقديم الذي لم يزل". درء تعارض العقل والنقل 267/2.

ونعيم أهل الجنة دائم لا يزول، ولا ينفذ. وقد يقال في النوعين: كلمات الله لا تنفذ، ولا نهاية لها؛ لا في الماضي، ولا في المستقبل، ونحو ذلك1.

فالكلام2 في دوام الجنس وبقائه، وأنه لا ينفذ، ولا ينقضي، ولا يزول، ولا ابتداء له: غير الكلام فيما يقدر محدودا له ابتداء، أو له ابتداء وانتهاء3؛ فإن كثيرا من النظار4 من5 يقول: جنس الحوادث إذا قدر له ابتداء، وجب أن يكون له انتهاء؛ لأنه يمكن فرض تقدمه على ذلك الحد، فيكون أكثر مما وجد، وما لا يتناهى لا يدخله التفاضل؛ فإنه ليس وراء عدم النهاية شيء أكثر منها، بخلاف ما لا ابتداء له ولا انتهاء؛ فإن هذا لا يكون شيء فوقه، فلا يفضي إلى التفاضل فيما لا يتناهى. وبسط هذا له موضع آخر6.

1 وهذا هو التسلسل الذي أجازه السلف - رحمهم الله تعالى - ورأوا أن إثباته ضروري لإثبات أفعال الله الاختيارية، وعليه يشهد قوله تعالى: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا} [الكهف، 109]
.
فكلمات الله لا نهاية لها؛ لم يزل متكلما بمشيئته وقدرته، ولا يزال؛ فلا نهاية لكلماته.

2 كذا في ((خ)) ، وفي ((م)) . وفي ((ط)) : فالكلمة.

3 وفي هذا إشارة إلى الفرق بين جنس الحوادث، وبين الحوادث المحدودة؛ كما تقدم التنويه بذلك.

4 كأبي الهذيل العلاف، والجهم بن صفوان، ومن وافقهما.. وكان من حجتهم: إذا امتنعت حوادث لا أول لها في الماضي، فيجب أن تمتنع حوادث لا نهاية لها في المستقبل.. انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية 147/1) .

5 هكذا وردت في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) . ولعل الأصوب حذفها.

6 انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية 146/1-147، 223/1-234، والفتاوى 88/2، و 28/36-30، والصفدية 8/1-135.
وقد نسب خصوم شيخ الإسلام رحمه الله كالسبكي وغيره (طبقات الشافعية106/6) أنه يقول بقدم العالم وبتسلسل الحوادث، والمشهور من كتب شيخ الإسلام رحمه الله أنه رد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم كما رد على قول المتكلمين الذين يجوزون دوام الحوادث في المستقبل دون الماضي ويقولون: "إن الله خلق بعد أن بم يكن يخلق، ونصر قول أهل الحديث الذي لم يفهمه المتكلمون؛ وهو أن الله لم يزل فاعلا متكلما بمشيئته ولم يكن معطلا عن الخلق والأمر".

المتكلمون جعلوا أصل دينهم النظر في دليل الأعراض وحدوث الأجسام

والمقصود هنا أن هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم، وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف، وأنه من لم ينظر في هذا الدليل؛ فإما أنه لا يصح إيمانه، فيكون كافرا1 على قول طائفة منهم، وإما أن يكون عاصيا2 على قول آخرين، وإما أن يكون مقلدا لا علم له بدينه، لكنه ينفعه هذا التقليد، ويصير به مؤمنا غير عاص.

الرسول لم يدع الخلق إلى دليل النظر

والأقوال الثلاثة باطلة؛ لأنها مفرعة على أصل باطل، وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والإيمان، هو هذا النظر في هذا الدليل؛ فإن علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر، ولا بهذا الدليل؛ لا عامة الخلق، ولا خاصتهم3، فامتنع أن يكون هذا شرطا في الإيمان والعلم.

1 وذلك لأن النظر في هذا الدليل ((دليل الأعراض وحدوث الأجسام)) هو المسلك الوحيد عندهم لإثبات وجود الله تعالى، فمن لم يسلكه عجز عن إثبات وجود ربه وتصحيح عقيدته، فصار من الملحدين. انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 303/1. والفرقان بين الحق والباطل له ص 47. وشرح حديث النزول ص 161-162) .
يقول الماتريدي عن الله تعالى: "لا سبيل إلى العلم به، إلا من طريق دلالة العالم عليه". التوحيد للماتريدي ص 129
ويقول أبو حامد الغزالي: " ... فبان أن من لا يعتقد حدوث الأجسام، فلا أصل لاعتقاده في الصانع أصلا". تهافت الفلاسفة ص 197.

2 قال الصاوي: "والحق الذي عليه المعول: أنه مؤمن عاص بترك النظر ... إلخ". شرح جوهرة التوحيد للصاوي ص 61

3 فالأنبياء عليهم السلام - وفي مقدمتهم نبينا صلى الله عليه وسلم - لم يأمروا أحدا بسلوك هذا السبيل، فدل ذلك على أنه غير مشروع؛ إذ لو كان واجبا أو مستحبا لشرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما دام الأمر كذلك، فليست معرفة الله تعالى موقوفة عليه؛ إذ معرفته جل وعلا واجبة. انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 50/6.

وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم، وأنهم عالمون بصدق الرسول، وبما جاء به، وعالمون بالله، وبأنه لا إله إلا الله، ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين1؛ كما قال تعالى:
{ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد} 2، وقال: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط} 3، وقال: {أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى} 4.
وقد وصف باليقين والبصيرة في غير موضع؛ كقوله: {وبالآخرة هم يوقنون} 5، وقوله: {أولئك على هدى من ربهم} 6، وقوله: {قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني} 7، وأمثال ذلك.
فتبين أن هذا النظر والاستدلال الذي أوجبه هؤلاء، وجعلوه أصل الدين، ليس مما أوجبه الله ورسوله8. ولو قدر أنه صحيح في نفسه، وأن

---

1 وهو ما أنكره بعض النظار أنفسهم. يقول أبو حامد الغزالي - وهو من أئمة المتكلمين: "فليت شعري متى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم قالوا لمن جاء مسلما الدليل على أن العالم حادث: أنه لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث حادث". فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي ص 89.
2 سورة سبأ، الآية 6.
3 سورة آل عمران، الآية 18.
4 سورة الرعد، الآية 19.
5 سورة البقرة، الآية 4.
6 سورة البقرة، الآية 4.
7 سورة يوسف، الآية 108.
8 بل لم يرد في إثبات هذا النظر والاستدلال دليل؛ لا من كتاب، ولا سنة، ولا خبر صحابي، ولا قول تابعي، ولا أحد من أئمة الدين. انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية 315/1-316.

الرسول أخبر بصحته، ولم يلزم من ذلك وجوبه؛ إذ قد يكون للمطلوب أدلة كثيرة.
طعن الرازي وغيره على الجويني
ولهذا طعن الرازي1، وأمثاله2 على أبي المعالي3 في قوله أنه لا يعلم حدوث العالم إلا بهذا الطريق4، وقالوا: هب أنه يدل على حدوث العالم، فمن أين يجب أن لا يكون ثم طريق آخر.

---

1 هو محمد بن عمر بن الحسن التيمي؛ فخري الدين الرازي. أشعري المعتقد، إلا أنه خلط مذهبه بالاعتزال والفلسفة. توفي سنة 606 ?. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 381/3-385. ونقض التأسيس لابن تيمية - مخطوط - ق 28/أ. ولسان الميزان لابن حجر 246/4-249.
2 كأبي الحسن الآمدي الذي قلل من شأن دليل الأعراض وحدوث الأجسام، وقال بعد أن نقل الدليل بطوله: "وهو عند التحقيق سراب غير حقيق". غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص 260.
3 هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، أبو المعالي الجويني. احتار في آخر عمره، وتمنى أن يكون على عقيدة عجائز بلده. توفي سنة 478 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 468/18-477. والفتاوى المصرية لابن تيمية 620/6-621. وبغية المرتاد له ص 450.

4 انظر: نهاية العقول للرازي - مخطوط - ق 175/ب. والمطالب العالية له 71/1. والمباحث المشرقية له 327/1، 365.
"فقد ضعف البراهين الخمسة التي احتج بها أبو المعالي - في الإرشاد ص 37 - ومن شايعه على حدوث العالم وحدوث الأجسام".
وقد ذكر شيخ الإسلام موقف الأشعرية من دليل الأعراض في موضع آخر، فقال: "لكن هؤلاء وغيرهم يعتقدون صحة تلك الطريق، وإن قالوا إن تصديق الرسول لا يتوقف عليها. ثم منهم من يقول إنها لا تعارض النصوص، بل يمكن الجمع بينهما؛ وهذه طريقة الأشعري وأئمة أصحابه؛ يثبتون الصفات الخبرية التي جاء بها القرآن، مع اعتقاد صحة طريق الاستدلال بحدوث الأعراض وتركيب الأجسام.... ومن هؤلاء من يدعي التعارض بينهما؛ كالرازي وأمثاله؛ كما يقول ذلك من يوجب الاستدلال بطريقة حدوث الأعراض؛ كالمعتزلة وأبي المعالي وأتباعه". درء تعارض العقل والنقل 74/7-75.

وسلكوا هم طرقا أخر.
فلو كانت هذه الطريقة صحيحة عقلا، وقد شهد لها الرسول والمؤمنون الذين لا يجتمعون على ضلالة بأنها طريق صحيحة، لم يتعين، مع إمكان سلوك طرق أخرى1.
كما أنه في القرآن سور وآيات قد ثبت بالنص والإجماع أنها من آيات الله الدالة على الهدى. ومع هذا، فإذا اهتدى الرجل بغيرها، وقام بالواجب، ومات ولم يعلم بها، ولم يتمكن من سماعها، لم يضره؛ كالآيات المكية التي اهتدى بها من آمن ومات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل سائر القرآن. فالدليل يجب طرده، لا يجب عكسه2

---

1 فكيف! وهي طريق بدعية لم ترد في كتاب الله، ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يسلكها أحد من الصحابة الموصوفين بالعلم والإيمان، وكذا التابعون لهم بإحسان.
2 الطرد: ما يوجب الحكم لوجود العلة؛ وهو التلازم في الثبوت.
والعكس: عبارة عن تعليق نقيض الحكم المذكور بنقيض علته المذكورة.
وقيل العكس: عدم الحكم لعدم العلة.
انظر: التعريفات للجرجاني ص 183، 198. والعدة في أصول الفقه للقاضي أبي يعلى 77/1.
يقول شيخ الإسلام ابن تيمية موضحا هذه القاعدة - فالدليل يجب طرده، لا يجب عكسه - في بعض مؤلفاته: "فمن المعلوم أن الدليل يجب طرده، وهو ملزوم للمدلول عليه؛ فيلزم من ثبوت الدليل ثبوت المدلول عليه، ولا يجب عكسه؛ فلا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول له. وهذا كالمخلوقات؛ فإنها آية للخالق؛ فيلزم من ثبوتها ثبوت الخالق، ولا يلزم من وجود الخالق وجودها. وكذلك الآيات الدالات على نبوة النبي. وكذلك كثير من الأخبار والأقيسة الدالة على بعض الأحكام، يلزم من ثبوتها ثبوت الحكم، ولا يلزم من عدمها عدمه؛ إذ قد يكون الحكم معلوما بدليل آخر..". درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 269/5-270.

من أنكر سلوك هذه الطريقة
ولهذا أنكر كثير من العلماء على هؤلاء إيجاب سلوك هذه الطريق، مع تسليمهم أنها صحيحة؛ كالخطابي 12، والقاضي أبي يعلى3، وابن عقيل45، وغيرهم6.

---

1 هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي. إمام صاحب تصانيف. تأثر بتقريرات المتكلمين في بعض جوانب العقيدة. توفي سنة 388 ?. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 214/2-216. وسير أعلام النبلاء للذهبي 23/17-28) .
2 وقد نص على أنه يرى أن الطرق الشرعية أوضح بيانا، وأصح برهانا من طريقة الأعراض وحدوث الأجسام، ومما قاله: "فأما مثبتوا النبوات فقد أغناهم الله تعالى عن ذلك، وكفاهم كلفة المؤونة في ركوب هذه الطريق المنعرجة التي لا يؤمن العنت على راكبها، والابتداع والانقطاع على سالكها) .
ذكر ذلك في كتاب الغنية عن الكلام وأهله. وقد نقل عنه ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض التأسيس 254/1. وفي درء تعارض العقل والنقل 292/7-294.
3 تقدمت ترجمته. ولم أقف على كلام له في ذلك.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى أن أبا يعلى ممن انتقد دليل الأعراض وحدوث الأجسام. انظر: مجموع الفتاوى 543/5.
4 هو أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي. وقع في حبائل المعتزلة، فتجاسر على تأويل الصفات. من مؤلفاته كتاب الفنون الذي يزيد على أربعمائة مجلد، ولد سنة 430؟ أو 431؟. توفي سنة 513؟. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 443/19-451. ولسان الميزان لابن حجر 243/4-244. ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية 424/1، وشذرات الذهب 35/4.
5 وها هو ابن عقيل - رغم وقوعه في حبائل المتكلمين - يقول: "أنا أقطع أن الصحابة ماتوا ولم يعرفوا الجوهر ولا العرض. فإن رضيت أن تكون مثلهم، فكن. وإنرأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر، فبئس ما رأيت". نقله عنه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص 85. وانظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 48/8.
6 كأبي حامد الغزالي (في فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص 127) ، وأبي الحسن الآمدي (في غاية المرام في علم الكلام ص 260) ، وابن رشد الحفيد (في الكشف عن مناهج الأدلة ص 43) ، وغيرهم.

والأشعري1 نفسه أنكر على من أوجب سلوكها أيضا في رسالته إلى أهل الثغر، مع اعتقاده صحتها2، واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابه المشهور المسمى ب ((اللمع)) في الرد على أهل البدع، وقد اعتنى به أصحابه حتى شرحوه شروحا كثيرة. والقاضي أبو بكر3 شرحه، ونقض كتاب عبد الجبار4 الذي صنفه في نقضه، وسماه ((نقض نقض اللمع)) 5.

1 هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر. ينتسب إلى أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكنيته أبو الحسن. ولد في البصرة سنة (260 ?) ، وتوفي على القول الراجح سنة (324 ?) في بغداد. وكان له ثلاثة أحوال، كان في أولاها معتزليا، وسلك في الثانية مذهب ابن كلاب، ورجع أخيرا إلى معتقد السلف، وألف عدة كتب في نصرة معتقدهم؛ ككتاب ((الإبانة)) ، و ((رسالة إلى أهل الثغر)) ، و ((مقالات الإسلاميين)) .
انظر: البداية والنهاية 199/11. وشذرات الذهب 302/2. ومقدمة تحقيق د/عبد الله شاكر ل ((رسالة إلى أهل الثغر)) لأبي الحسن الأشعري) .
2 وقد ذكر في رسالة إلى أهل الثغر: "أن الأعراض لا يصح الاستدلال بها إلا بعد رتب كثيرة يطول الخلاف فيها ويدق الكلام عليها؛ فمنها ما يحتاج إليه في الاستدلال على وجودها، والمعرفة بشبه المنكرين لها ... إلخ"؛ من طولها، وغموضها، والتناقضات التي حوتها.. لذلك رأى الأشعري - مع تصحيحه لطريقة الأعراض - أن في الطرق الشرعية غنية عنها. انظر: رسالة إلى أهل الثغر ص 184-185، 186-187. وانظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 309/1.
3 محمد بن الطيب الباقلاني. سبقت ترجمته ص 116 من هذا الكتاب.
4 هو عبد الجبار بن أحمد الهمداني، شيخ المعتزلة. توفي سنة 415؟. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 244/17-245. ولسان الميزان لابن حجر 386/3-387.
5 في ((خ)) : (نقض النقض للمع) . وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

دليل الأعراض وحدوث الأجسام يوجب اعتقادات ولوزام باطلة
وأما أكابر أهل العلم من السلف والخلف: فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها، مخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول، وأنه لا يحصل بها العلم بالصانع، ولا بغير ذلك1، بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب2 مخالفة كثير مما جاء به الرسول، مع مخالفة صريح المعقول3؛ كما أصاب من سلكها من الجهمية، والمعتزلة، والكلابية، والكرامية، ومن تبعهم من الطوائف، وإن لم يعرفوا غورها وحقيقتها؛ فإن أئمة هؤلاء الطوائف صار كل منهم يلتزم ما يراه لازما له ليطردها، فيلتزم لوازم4 مخالفة للشرع والعقل، فيجيء الآخر، فيرد عليه، ويبين فساد ما التزمه، ويلتزم هو لوازم أخر لطردها، فيقع أيضا في مخالفة الشرع والعقل.

1 قال شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع آخر عن هذه الطريقة: "فهذه الطريقة مما يعلم بالاضطرار أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يدع الناس بها إلى الإقرار بالخالق ونبوة أنبيائه. ولهذا قد اعترف حذاق أهل الكلام كالأشعري وغيره بأنها ليست

طريقة الرسل وأتباعهم، ولا سلف الأمة وأئمتها، وذكروا أنها محرمة عندهم. بل المحققون على أنها طريقة باطلة". درء تعارض العقل والنقل 39/1.
2 في ((خ)) : يوجب. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 من ذلك تعطيل الله تبارك وتعالى عن صفاته العلا التي وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسوله؛ كلها، أو بعضها.. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع آخر: "لأجل الاستدلال على حدوث العالم بحدوث الأعراض: التزم طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم نفي صفات الرب مطلقا، أو نفي بعضها؛ لأن الدال عندهم على حدوث هذه الأشياء هو قيام الصفات بها، والدليل يجب طرده؛ فالتزموا حدوث كل موصوف بصفة قائمة به، وهو أيضا في غاية الفساد والضلال. ولهذا التزموا القول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله في الآخرة، وعلوه على عرشه،....". درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 41/1.
4 في ((خ)) : لوازما. والصواب ما أثبت، وهو في ((م)) ، و ((ط)) ؛ لأن (لوازم) ممنوعة من الصرف.

الجهمية التزموا لأجلها نفي الأسماء والصفات
فالجهمية التزموا لأجلها نفي أسماء الله وصفاته، إذ كانت الصفات أعراضا تقوم بالموصوف، ولا يعقل موصوف بصفة إلا الجسم1، فإذا اعتقدوا حدوثه، اعتقدوا حدوث كل موصوف بصفة، والرب تعالى قديم. فالتزموا نفي صفاته. وأسماؤه مستلزمة لصفاته؛ فنفوا أسماءه الحسنى2، وصفاته العلا3.
المعتزلة التزموا نفي الصفات
والمعتزلة استعظموا نفي الأسماء لما فيه من4 تكذيب القرآن تكذيبا ظاهر الخروج عن العقل والتناقض؛ فإنه لا بد من التمييز بين الرب وغيره بالقلب واللسان، فما لا يميز من غيره لا حقيقة له ولا إثبات. وهو حقيقة قول الجهمية؛ فإنهم لم يثبتوا في نفس الأمر شيئا قديما البتة5.

1 في ((خ)) : لجسم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 حكى عنهم شيخ الإسلام في موضع آخر أنهم يقولون عن الله تعالى: "ليس له اسم؛ كالشيء، والحي، والعليم، ونحو ذلك؛ لأنه إذا كان له اسم من هذه الأسماء، لزم أن يكون متصفا بمعنى الاسم؛ كالحياة، والعلم؛ فإن صدق المشتق مستلزم لصدق المشتق منه، وذلك يقتضي قيام الصفات به، وذلك محال ... ". مجموع فتاوى ابن تيمية 35/6.
3 وقد بسط شيخ الإسلام رحمه الله الكلام عن تعطيل الجهمية لأسماء الله وصفاته مستندين لدليل الأعراض وحدوث الأجسام في مواضع كثيرة من كتبه الفريدة. انظر: على سبيل المثال: شرح حديث النزول ص 157. ودرء تعارض العقل والنقل 39/1، 305،، 260/10. ومنهاج السنة النبوية 2/97-99) .
4 في ((خ)) : مع. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 وأسماء الله تعالى يثبتونها على أنها مجاز في الرب جل وعز؛ إذ إثباتها على الحقيقة يستلزم إثبات ما دلت عليه من صفات. وهذا ما يفر المعتزلة من إثباته.. لأنهم يزعمون أن إثبات الصفات لله تعالى يقتضي أن يكون جسما.
انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 41/1. ومنهاج السنة النبوية 361/3. وشرح الطحاوية 24/1-25.

الفلاسفة قالوا بقدم العالم
كما أن المتفلسفة الذين سلكوا مسلك الإمكان والوجوب1، وجعلوا ذلك بدل الحادث والقديم، لم يثبتوا واجبا بنفسه البتة2، وظهر بهذا فساد عقلهم، وعظيم جهلهم، مع الكفر؛ وذلك أنه يشهد وجود السموات وغيرها. فهذه الأفلاك إن كانت قديمة واجبة، فقد ثبت وجود الموجود القديم الواجب، وإن كانت ممكنة، أو محدثة، فلا بد لها من واجب قديم؛ فإن وجود الممكن بدون الواجب3، والمحدث بدون القديم ممتنع في بداية العقول. فثبت وجود موجود قديم واجب بنفسه على كل تقدير.
فإذا كان ما ذكروه من نفي الصفات عن القديم والواجب يستلزم نفي القديم مطلقا، ونفي الواجب: علم أنه باطل4.

1 إذ الوجود - عندهم - ينقسم إلى واجب، وممكن - وهو خلاف تقسيم المتكلمين له إلى قديم وحادث.

ويعرف المتفلسفة الواجب: بأنه الضروري الوجود - وهو يقابل القديم عند المتكلمين -. ويعرفون الممكن بأنه الذي لا ضرورة فيه بوجه؛ أي لا في وجوده، ولا عدمه - وهو يقابل المحدث عند المتكلمين.
انظر: النجاة لابن سينا ص 366. ومعيار العلم في فن المنطق للغزالي ص 325-326.
2 وهم يزعمون أن واجب الوجود هو الذات دون صفاتها. ولا يعقل ذات مجردة عن الصفات، بل ذلك من صفات العدم؛ لذلك لم يثبتوا واجبا. انظر: منهاج السنة لابن تيمية 266/1.
3 في ((خ)) : الوجب. ويبدو أن الألف سقطت سهوا.
4 لأن الواجب المجرد عن جميع الصفات، أو القديم الذي ليس له صفة تميزه: ممتنع الوجود؛ إذ لا بد لوجوب وجود الواجب، وإثبات وجود القديم من إثبات ما يميزه من الصفات.. ولا يستلزم ذلك تعدد القدماء، أو تركيب الواجب؛ لأن نفي ذلك يقتضي نفي ما يريدون إثباته..
يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وإذا لم يكن واجبا، لم يلزم من التركيب محال، وذلك لأنهم إنما نفوا المعاني لاستلزامها ثبوت التركيب، المستلزم لنفي الوجوب. وهذا تناقض؛ فإن نفي المعاني مستلزم لنفي الوجوب، فكيف ينفونها لثبوته؟! ". مجموع فتاوى ابن تيمية 345/6.

من نفى صفة لزمه نفي جميع الصفات
وقد بسط هذا في مواضع1، وبين أن كل من نفى صفة مما أخبر به الرسول لزمه نفي جميع الصفات، فلا يمكن القول بموجب أدلة العقول، إلا مع القول بصدق الرسول؛ فأدلة العقول مستلزمة لصدق الرسول2؛ فلا يمكن مع عدم تصديقه القول بموجب العقول، بل من كذبه فليس معه لا عقل، ولا سمع؛ كما أخبر الله تعالى عن أهل النار:
قال تعالى: {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير} 3، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع4.

---

1 انظر: من كتب ابن تيمية: منهاج السنة النبوية 267/2. ومجموع الفتاوى 345/6. ودرء تعارض العقل والنقل41/1. والتدمرية ص 31.
2 أما المعقولات التي تخالف ما جاء به الرسول، فالمتأمل لها يجد أنها وضعت لتكذيب الرسول، لا لتصديقه؛ كما يزعم أصحابها؛ لذلك يصفها شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بتسميته لها: "ترتيب الأصول في تكذيب الرسول". انظر: درء تعارض العقل والنقل 207/2.
3 سورة الملك، الآيات 8-10.
4 انظر: درء تعارض العقل والنقل 320/1. ومجموع فتاوى ابن تيمية 452/16.

المعتزلة نفوا الصفات وأثبتوا الأسماء
والمقصود هنا أن المعتزلة لما رأوا الجهمية قد نفوا أسماء الله الحسنى، [استعظموا ذلك] 1، وأقروا بالأسماء. ولما رأوا هذه الطريق2 توجب نفي الصفات: نفوا الصفات؛ فصاروا متناقضين؛ فإن إثبات حي، عليم، قدير، حكيم، سميع، بصير، بلا حياة، ولا علم، ولا قدرة، ولا حكمة، ولا سمع، ولا بصر: مكابرة للعقل؛ كإثبات مصل بلا صلاة، وصائم بلا صيام، وقائم بلا قيام، ونحو ذلك من الأسماء المشتقة؛ كأسماء الفاعلين، والصفات المعدولة عنها.
ولهذا ذكروا في أصول الفقه3 أن صدق الاسم المشتق4؛ كالحي، والعليم لا ينفك عن صدق المشتق منه؛ كالحياة، والعلم.
وذكروا النزاع مع من5 ذكروه من المعتزلة؛ كأبي علي6، وأبي

(استعظموا ذلك) : ليست في ((خ)) . وأثبتها من ((م)) ، و ((ط)) .
2 طريق التركيب؛ إذ زعموا أن إثبات الصفات يستلزم تعدد القدماء، فيكون القديم مركبا، والقديم ليس بمركب، لذلك زعم عبد الجبار أن نفي الصفات هو السبيل الوحيد إلى القول بإفراد الله بالقدم انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل لعبد الجبار

341/4، ونفي الصفات هو أحد أصول المعتزلة الخمسة، ويطلقون عليه اسم التوحيد. انظر: شرح المقاصد للتفتازاني 83/4 والملل والنحل للشهرستاني ص 46-47.
3 قال في المراقي:
وعند فقد الوصف لا يشتق وأعوز المعتزلي الحق
شرح مراقي السعود ص 257. وانظر: بدائع الفوائد لابن القيم 22/1.
4 في ((خ)) : مشتق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((خ)) : معمن - موصولة.
6 أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان، مولى عثمان ابن عفان، الجبائي البصري. ولد في سنة 234 ?. شيخ المعتزلة. تنسب إليه فرقة الجبائية من المعتزلة. درس الاعتزال على شيخ المعتزلة عن أبي يعقوب الشحام، وتزوج الجبائي بأم الأشعري، فتتلمذ عليه الأشعري قبل أن يترك الاعتزال. توفي سنة 335 ?، ومات بالبصرة.
انظر: الملل والنحل للشهرستاني 78/1. والبداية والنهاية 134/11. وسير أعلام النبلاء 183/14. وذكر مذاهب الفرق الثنتين والسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين ص 50.

هاشم1،
الكلابية أثبتوا الصفات العقلية
فجاء ابن كلاب، ومن اتبعه؛ كالأشعري، والقلانسي2، فقرروا أنه لا بد من إثبات الصفات متابعة للدليل السمعي والعقلي، مع إثبات الأسماء. وقالوا: ليست أعراضا3؛ لأن العرض لا يبقى

---

1 أبو هاشم: هو عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب. ولد سنة 277?، وتوفي سنة 321. وإليه تنسب فرقة البهشمية - إحدى فرق المعتزلة.
انظر: شذرات الذهب 289/2. وسير أعلام النبلاء 63/15. والملل والنحل78/1وذكر مذاهب الفرق الثنتين والسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين ص 57.
2 هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن خالد القلانسي الرازي. قال عنه ابن عساكر: (إنه من معاصري أبي الحسن رحمه الله، لا من تلاميذه كما قال الأهوازي. وهو من جملة العلماء الكبار الأثبات، واعتقاده موافق لاعتقاده في الإثبات) . تبيين كذب المفتري ص 398.
3 ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن العرض في اللغة: هو ما يعرض ويزول. انظر: مجموع الفتاوى 215/5،، 300/9. واستدل بقوله تعالى: {يأخذون عرض هذا الأدنى} [سورة الأعراف، 169] .
وذكر رحمه الله أن العرض عند أهل الاصطلاح الكلامي: "قد يراد به ما يقوم بغيره مطلقا، وقد يراد به ما يقوم بالجسم من الصفات. ويراد به في غير هذا الاصطلاح أمور أخرى". مجموع الفتاوى 300/9.
أما المتكلمون: فالعرض عندهم ضد الجوهر؛ إذ العالم عندهم جواهر وأعراض. فالجوهر: هو المتحيز، وكل ذي حجم متحيز. والعرض: هو المعنى القائم بالجوهر؛ كاللون، والطعم، والرائحة، والحياة، والموت، والعلوم والإرادات، والقدر القائمة بالجواهر. انظر: الإرشاد للجويني ص 2. وأصول الدين للبغدادي ص 33.

زمانين1، [وصفات الرب باقية2.
من قال: إن العرض لا يبقى زمانين
وسلكوا في هذا الفرق - وهو أن العرض لا يبقى زمانين] 3 - مسلكا أنكره عليهم جمهور العقلاء، وقالوا: إنهم خالفوا الحس وضرورة العقل، وهم موافقون لأولئك4 على صحة هذه الطريقة - طريقة الأعراض - قالوا: وهذه5 تنفي عن الله أن يقوم به حادث، وكل حادث فإنما يكون بمشيئته وقدرته. قالوا: فلا يتصف بشيء من هذه الأمور؛ لا يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا يقوم به فعل اختياري يحصل بمشيئته وقدرته6؛ كخلق العالم، وغيره.

بل منهم من قال: لا يقوم به فعل، بل الخلق هو المخلوق؛ كالأشعري ومن وافقه7.

1 بل يطرأ عليه التغير والتحول، وهذا من صفات الحوادث.
انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 302/1-306.
2 وليس ذلك شاملا لكل صفات الله تعالى؛ بل يفرقون بين صفات الأفعال، وما عداها؛ فيطلقون على صفات الأفعال اسم الأعراض، وينفون قيامها بالله تعالى؛ بحجة أنها تعرض وتزول - بزعمهم -، ولا يطلقون اسم الأعراض على ما عدا ذلك من الصفات. انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية 36/6.
وعلى هذا المعتقد متقدموا الكلابية والأشعرية، وقد نقل اتفاقهم على ذلك: الرازي في كتابه ((المحصل)) ص 265. والإيجي في ((المواقف)) ص 101.
3 ما بين المعقوفتين ساقطة من أصل ((خ)) ، وملحقة بالهامش. وهي في ((م)) ، و ((ط)) .
4 للمعتزلة.
5 أي طريقة الأعراض.
6 قالوا: لو قامت به الأفعال الاختيارية، للزم أن لا يخلو منها؛ لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده. وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 104/1-107. ونهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ص 11. وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص 51.
7 كابن فورك، والغزالي، وغيرهما. انظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك ص 472-473. وقواعد العقائد للغزالي ص 165-167.

ومنهم من قال: بل فعل الرب قديم أزلي، وهو من صفاته الأزلية؛ وهو قول قدماء الكلابية1، وهو الذي ذكره أصحاب ابن خزيمة2

ما وقع بين ابن خزيمة والكلابية

لما وقع بينه وبينهم بسبب هذا الأصل، فكتبوا عقيدة اصطلحوا عليها3، وفيها: إثبات الفعل القديم الأزلي.
وكان سبب ذلك أنهم كانوا كلابية يقولون: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل كلامه المعين لازم لذاته أزلا وأبدا.

1 الكلابية: هم أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد القطان، المعروف بابن كلاب. سلك الأشعري مسلكه في طوره الثاني، وتوفي سنة 240?.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الكلابية والأشعرية خير من هؤلاء - يقصد النجارية والضرارية - في باب الأسماء والصفات؛ فإنهم يثبتون لله الصفات العقلية، وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية في الجملة؛ كما فصلت أقوالهم في غير هذا الموضع. وأما في القدر ومسائل الأسماء والأحكام فأقوالهم متقاربة) . مجموع الفتاوى 103/3. وانظر: مقالات الإسلاميين 350/1، 351،، 225/2-227. وذكر مذاهب الفرق الثنتين والسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين ص 139-140.
2 أصحاب ابن خزيمة: المقصود بهم: أبو علي الثقفي، وأبو بكر الصيفي، وكانا من أخص تلاميذ ابن خزيمة وكانا يقولان بقول ابن كلاب في كلام الله: أنه أزلي، وأنه لا يتكلم إذا شاء، متى شاء، ولا يتعلق ذلك بمشيئته. فوقع بين ابن خزيمة وبينهما في ذلك نزاع، حتى أظهروا موافقتهم له فيما لا نزاع فيه.
انظر: درء تعارض العقل والنقل 9/2، 77-83، 101. ومجموع الفتاوى 56/17. وسير أعلام النبلاء 377/14-381.
وابن كلاب كان قد نفى أن يكون كلام الله تعالى من صفات الأفعال، وأثبته على أنه كلام يقوم بذات المتكلم بلا قدرة ولا مشيئة، أزلي كأزلية العلم والقدرة. انظر: شرح حديث النزول لابن تيمية ص 169-170. ودرء تعارض العقل والنقل له 18/2.
3 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن هذه المشاجرة التي وقعت بين ابن خزيمة وبعض أصحابه، وما نتج عنها، ذكرها بطولها الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في تاريخ نيسابور. انظر: مجموع الفتاوى 56/17. ودرء تعارض العقل والنقل 78/2-83.

وكان ابن خزيمة وغيره على القول المعروف للمسلمين وأهل السنة: أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وكان قد بلغه عن الإمام أحمد أنه كان يذم الكلابية، وأنه أمر بهجر الحارث المحاسبي1 لما بلغه أنه على قول ابن كلاب2. وكان يقول: حذروا عن حارث الفقير؛ فإنه جهمي3. واشتهر هذا عن أحمد4.

1 هو الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله. من شيوخ الصوفية. قال عنه الذهبي: صدوق في نفسه. وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه. سير أعلام النبلاء12/110-112. وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "وبسبب مذهب ابن كلاب هجره الإمام أحمد بن حنبل، وقيل تاب منه". منهاج السنة النبوية 424/1. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام 368/12.
وقد نقل ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص240 عن أبي عبد الرحمن السلمي - صاحب طبقات الصوفية ت 412 أنه قال "وتكلم الحارث المحاسبي في شيء من الكلام والصفات، فهجره أحمد بن حنبل، فاختفى إلى أن مات".
2 في ((ط)) : ابن كلام. وهو خطأ مطبعي.
3 لم أجد هذه العبارة بنصها فيما اطلعت عليه من مصادر. ولكن ذكر أبو يعلى في الطبقات: عن الإمام أحمد أنه قال: "حارث أصل البلية.... ما الآفة إلا حارث..... حذروا عن حارث أشد التحذير..". الطبقات 62/1-63.
ونقل ابن الجوزي عن الخلال في كتابه السنة، عن أحمد بن حنبل أنه قال: "احذروا من الحارث أشد التحذير.. الحارث أصل البلية - يعني في حوادث كلام جهم - ذاك جالسه فلان وفلان، وأخرجهم إلى رأي جهم، وما زال مأوى أصحاب الكلام.. حارث بمنزلة الأسد المرابط، انظر: أي يوم يثب على الناس".
تلبيس إبليس ص 240.
4 لعل كلمة الإمام أحمد رحمه الله فيه قبل أن يتوب ويرجع كما ذكر ذلك ابن تيمية رحمه الله..
قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وكان الحارث المحاسبي يوافقه - أي ابن كلاب، ثم قيل إنه رجع عن موافقته؛ فإن أحمد بن حنبل أمر بهجر الحارث المحاسبي وغيره من أصحاب ابن كلاب لما أظهروا ذلك.. كما أمر السري السقطي الجنيد أن يتقي بعض كلام الحارث. فذكروا أن الحارث رحمه الله تاب من ذلك، وكان له من العلم والفضل والزهد". مجموع الفتاوى 521/6-522.
وانظر: المصدر نفسه 368/12، 56/17. ودرء تعارض العقل والنقل 6/2، 148/7-149. ومنهاج السنة النبوية 424/1.
وقال أيضا رحمه الله: "وكان الناس قبل أبي محمد بن كلاب صنفين؛ فأهل السنة والجماعة يثبتون ما قام بالله تعالى من الصفات والأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها. والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا. فأثبت ابن كلاب قيام الصفات اللازمة به، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها. ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسي، وأبو الحسن الأشعري، وغيرهما. وأما الحارث المحاسبي: فكان ينتسب إلى قول ابن كلاب، ولهذا أمر أحمد بهجره، وكان أحمد يحذر عن ابن كلاب وأتباعه، ثم قيل عن الحارث: إنه رجع عن قوله". درء تعارض العقل والنقل 6/2. وانظر: مجموع الفتاوى 366/12-368.

وكان بنيسابور1 طائفة من الجهمية والمعتزلة ممن يقولون2 إن القرآن وغيره من كلام الله مخلوق، ويطلقون القول بأنه متكلم بمشيئته وقدرته، ولكن مرادهم بذلك أنه يخلق كلاما بائنا عنه، قائما بغيره؛ كسائر المخلوقات. وكان من هؤلاء من عرف أصل ابن كلاب، فأراد التفريق بين ابن خزيمة وبين طائفة من أصحابه، فأطلعه على حقيقة قولهم3، فنفر

1 نيسابور: مدينة عظيمة من بلاد خراسان، سميت بذلك لأن سابور بن أزدشير بن بابك مر بها. ومنها ما لا يحصى من العلماء والأئمة؛ كالإمام مسلم وغيره. وقد دخلها التتر سنة 618 هـ فدمروها. انظر: معجم البلدان 331/5. ولطائف المعارف ص 191.
2 في ((خ)) يقول: وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 أي أن هذا المعتزلي - أو الجهمي - الذي أراد التفريق بين ابن خزيمة وبعض أصحابه أطلع ابن خزيمة على موافقة بعض أصحابه لابن كلاب في معتقده في كلام الله تعالى.

منه1. وهم كانوا قد بنوا ذلك على أصل ابن كلاب، واعتقدوا أنه لا تقوم به الحوادث بناء على هذه الطريقة؛ طريقة الأعراض. وابن خزيمة شيخهم، وهو الملقب بإمام الأئمة، وأكثر الناس معه، ولكن لا يفهمون حقيقة النزاع؛ فاحتاجوا لذلك إلى ذكر عقيدة لا يقع فيها نزاع بين الكلابية وبين أهل الحديث والسنة؛ فذكروا فيها: أن كلام الله غير مخلوق، وأنه لم يزل متكلما2، وأن فعله أيضا غير مخلوق؛ فالمفعول مخلوق، ونفس فعل الرب له قديم غير مخلوق3.

وهذا قول الحنفية، وكثير من الحنبلية، والشافعية، والمالكية، وهو اختيار القاضي أبي يعلى وغيره في آخر عمره. وبسط هذا له موضع آخر4.

---

1 قال الحاكم: "فلما ورد منصور بن يحيى الطوسي نيسابور، وكان يكثر الاختلاف إلى ابن خزيمة للسماع منه، وهو معتزلي، وعاين ما عاين من الأربعة الذين سميناهم، حسدهم، واجتمع مع أبي عبد الرحمن الواعظ القدري بباي معمر في أمورهم غير مرة، فقالا: هذا إمام لا يسرع في الكلام، وينهى أصحابه عن التنازع في الكلام وتعليمه، وقد نبغ له أصحاب يخالفونه، وهو لا يدري، فإنهم على مذهب الكلابية، فاستحكم طمعهما في إيقاع الوحشة بين هؤلاء الأئمة.

سير أعلام النبلاء 377/14، 381. وكذلك ذكر تلك القصة شيخ الإسلام رحمه الله في درء تعارض العقل والنقل 78/2-83، وفي مجموع الفتاوى 169/6-172.

2 وقد روى الحاكم بسنده عن الإمام ابن خزيمة أنه قال: "القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله غير مخلوق، ومن قال شيء منه مخلوق فهو جهمي". نقله عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء 379/14. وتذكرة الحفاظ 726/2. وابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل 79/2.

3 انظر: هذه العقيدة في: مجموع الفتاوى 169/6-172. وسير أعلام النبلاء 381/14. وتذكرة الحفاظ 727/2.

4 انظر: موقف الإمام ابن خزيمة من بعض أصحابه ممن كان يقول بقول ابن كلاب في: درء تعارض العقل والنقل 60/2، 77-83، 101. وشرح العقيدة الأصفهانية ص 34. ومجموع الفتاوى 169/6-172. وشرح حديث النزول ص 158-159. وسير أعلام النبلاء 377/14-381.

افتراق الأمة بسبب طريقة الأعراض

والمقصود التنبيه على افتراق الأمة بسبب هذه الطريقة.

ولما عرف كثير من الناس باطن قول ابن كلاب، وأنه يقول: إن الله لم يتكلم بالقرآن العربي، وإن كلامه شيء واحد؛ هو معنى آية الكرسي، وآية الدين1 عرفوا ما فيه من مخالفة الشرع والعقل؛ فنفروا2 عنه، وعرفوا أن هؤلاء يقولون: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، فأنكروه.

وكان ممن أنكر ذلك الكرامية3، وغير الكرامية؛ كأصحاب أبي معاذ

---

1 ذكر أبو الحسن الأشعري أن ابن كلاب زعم أن كلام الله: "ليس بحروف ولا صوت، ولا ينقسم، ولا يتجزأ، ولا يتبعض، ولا يتغاير. وأنه معنى واحد قائم بالله عز وجل، وأن الرسم هو الحروف المتغايرة، وهو قراءة القرآن. وأنه خطأ أن يقال: كلام الله هو هو، أو بعضه، أو غيره. وأن العبارات عن كلام الله تختلف وتتغاير، وكلام الله سبحانه ليس بمختلف ولا متغاير؛ كما أن ذكرنا لله عز وجل يختلف ويتغاير، والمذكور لا يختلف ولا يتغاير. وإنما سمي كلام الله سبحانه عربيا؛ لأن الرسم الذي هو العبارة عنه، وهو قراءته: عربي؛ فسمي عربيا لعلة، وكذلك سمي عبرانيا لعلة؛ وهي أن الرسم الذي هو عبارة عنه عبراني ... ". مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري 257/2-258.

وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية 424/8-425، 49/12، 165، 370-371، 50/17-51، 147. والفتاوى المصرية 15/5.

2 في ((خ)) : فيفروا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 الكرامية: فرقة من فرق المرجئة، تنتسب إلى محمد بن كرام. قال عنه الذهبي: عابد متكلم شيخ الكرامية. مات بالشام سنة 255 هـ.

قال شيخ الإسلام عنهم: "الكرامية قولهم في الإيمان قول منكر لم يسبقهم إليه أحد؛ حيث جعلوا الإيمان قول باللسان وإن كان مع عدم تصديق القلب؛ فيجعلون المنافق مؤمنا، لكنه يخلد في النار؛ فخالفوا الجماعة في الاسم دون الحكم. وأما في الصفات والقدر والوعيد فهم أشبه من أكثر طوائف الكلام التي في أقوالها مخالفة للسنة". مجموع الفتاوى 103/3.

وقال - رحمه الله - أيضا إن الكرامية المجسمة كلهم حنفية. مجموع الفتاوى 185/3.
وانظر: في بيان معتقد الكرامية: مجموع الفتاوى 36/6. والملل والنحل 108/1. والفرق بين الفرق ص 215-225. وميزان الاعتدال 21/4.

التومني1، وزهير البابي2، وداود بن3 علي4، وطوائف. فصار كثير من هؤلاء يقولون: إنه يتكلم بمشيئته وقدرته، فأنكروه، لكن يراعي تلك الطريقة لاعتقاده صحتها؛ فيقول: إنه لم يكن في الأزل متكلما؛ لأنه إذا

---

1 أبو معاذ التومني ينتسب إلى قرية تومن من قرى مصر. من أئمة المرجئة، ورأس الفرقة التومنية. لا يعرف تاريخ وفاته. وأشار كل من الأشعري، والشهرستاني، والبغدادي إلى أقواله وآرائه بالتفصيل. انظر: المقالات لأبي الحسن الأشعري 351/1. والملل والنحل للشهرستاني 144/1. والفرق بين الفرق للبغدادي ص 203-204. والأنساب للسمعاني 111/3.
2 كذا في جامع الرسائل 6/2: البابي. وأحيانا يذكر باسم زهير اليامي - ولعله تصحيف - انظر: مجموع الفتاوى 219/6) . لم أقف على ترجمته. وكثيرا ما يقرن شيخ الإسلام بينه وبين أبي معاذ التومني في عرض آرائهما العقدية، وأنهما من أهل الكلام من المرجئة. ويسميه في درء تعارض العقل والنقل، وشرح حديث النزول: زهير الأبري. وقد أفاد د/محمد رشاد سالم رحمه الله أن هذه التسمية خاطئة، والصحيح أنه زهير الأثري؛ كما ذكر ذلك الأشعري في المقالات، وقال: وكان أبو معاذ التومني يوافق زهيرا في أكثر أقواله.
وقد ذكر الأشعري في المقالات آراءه بالتفصيل. انظر: مقالات الإسلاميين 351/1، 232/2. وانظر: درء تعارض العقل والنقل 19/2. وشرح حديث النزول ص 404. ومنهاج السنة النبوية 361/2.
3 في ((خ)) : بابن.
4 هو داود بن علي بن خلف الأصبهاني، أبو سليمان، الملقب بالظاهري. قال عنه الخطيب: (هو إمام أصحاب الظاهر، وكان ورعا ناسكا زاهدا. مات سنة 270 ?، وقيل سنة 275 ?) . تاريخ بغداد 369/8. وانظر: البداية والنهاية 55/11 والأعلام للزركلي 333/2.

كان لم يزل متكلما بمشيئته، لزم وجود حوادث لا تتناهى12.
وأصل الطريقة أن هذا ممتنع، فصار حقيقة قول هؤلاء أنه صار متكلما بعد أن لم يكن متكلما.
فخالفوا قول السلف والأئمة، أنه لم يزل متكلما إذا شاء.
وبسط هذه الأمور له موضع آخر3.
ذم السلف للكلام والمتكلمين
والمقصود هنا أن كثيرا من أهل النظر صار ما يوجبونه من النظر والاستدلال ويجعلونه أصل الدين والإيمان هو هذه الطريقة المبتدعة في الشرع، المخالفة للعقل، التي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمها وذم أهلها:
فذمهم للجهمية الذين ابتدعوا هذه الطريقة أولا متواتر مشهور، قد صنف فيه مصنفات4. وذمهم للكلام والمتكلمين مما عني به أهل هذه الطريقة؛

---

1 في ((خ)) : (تتناهى) بدلا من (لا تتناهى) ، وهو غير مستقيم. والصواب ما في ((م)) ، و ((ط)) .
2 وهم يقولون: إن الله تعالى لم يكن في الأزل متكلما إلا بمعنى القدرة على الكلام؛ لأنه لو كان متكلما أزلا بكلام متعلق بمشيئته وقدرته للزم وجود حوادث لا تتناهى في القدم، ويمتنع وجود حوادث لا أول لها.
انظر: توضيح معتقدهم في صفة الكلام في كتب ابن تيمية: مجموع الفتاوى 524/6. والفرقان بين الحق والباطل ص 100. وبغية المرتاد ص 361.
3 بسط شيخ الإسلام رحمه الله الكلام عن موقف المشبهة من صفة الكلام، ومخالفتهم للسلف والأئمة في هذه القضية في كتابه: رسالة في العقل والروح - موجود ضمن مجموعة الرسائل المنيرية 33/2 -. وفي قاعدة نافعة في صفة الكلام - يوجد أيضا ضمن مجموعة الرسائل المنيرية 75/2 -. وفي الفرقان بين الحق والباطل ص100-101. وفي مجموع الفتاوى 524/6.

4 فالإمام نعيم بن حماد، قال عنه الذهبي: "وضع ثلاثة عشر كتابا في الرد على الجهمية". انظر: سير أعلام النبلاء 599/10.
والإمام أحمد بن حنبل صنف كتابا في الرد على الجهمية والزنادقة. وهو مطبوع.
والإمام محمد بن أسلم الطوسي، له كتاب ((الرد على الجهمية)) . انظر: سير أعلام النبلاء 197/12.
والإمام ابن أبي حاتم له كتاب ((الرد على الجهمية)) . انظر: سير أعلام النبلاء264/13.
والإمام ابن قتيبة له كتاب ((الرد على الجهمية)) . انظر: سير أعلام النبلاء 298/13.
والإمام عثمان بن سعيد الدارمي صنف في الرد على بشر المريسي، وفي الرد على الجهمية، وكلاهما مطبوع.
وغير هؤلاء كثير جدا ممن لا يحصون في موضع واحد ...

كذم الشافعي لحفص الفرد12، الذي كان على قول ضرار بن3 عمرو4.

1 حفص الفرد من المجبرة، ومن أكابرهم، نظير النجار، ويكنى أبا عمرو، وكان من أهل مصر. كان أول أمره معتزليا، ثم قال بخلق الأفعال، وهو من أتباع ضرار بن عمرو، وسمع من أبي الهذيل العلاف من كتبه: الاستطاعة، وكتاب التوحيد، وكتاب الرد على النصارى، وغيرها. قال عنه الذهبي: "حفص الفرد مبتدع، قال النسائي: صاحب كلام لا يكتب حديثه. وكفره الشافعي في مناظرته". ميزان الاعتدال564/1. وانظر: الفرق بين الفرق ص 214. والفهرست لابن النديم ص 255.
2 وأما ذم الشافعي له، ففيما رواه البيهقي عن أبي الوليد بن الجارود، قال: "دخل حفص الفرد على الشافعي، فقال - أي الشافعي - لنا: لأن يلقى الله العبد بذنوب مثل جبال تهامة، خير له من أن يلقاه باعتقاد حرف مما عليه هذا الرجل وأصحابه. وكان يقول بخلق القرآن". أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي 452/1، وفي الاعتقاد ص 239. وانظر: درء تعارض العقل والنقل 250/7. وشرح الأصفهانية 321/2.
3 في ((خ)) ابن.
4 هو ضرار بن عمرو القاضي. قال عنه الذهبي: "من رؤوس المعتزلة، شيخ الضرارية. قال الإمام أحمد بن حنبل: شهدت على ضرار بن عمرو عند سعيد بن عبد الرحمن، فأمر بضرب عنقه، فهرب". سير أعلام النبلاء 544/10-545. وانظر: الملل والنحل 90/1. والمقالات 339/1. والفرق بين الفرق ص 213-214

وذم أحمد بن حنبل لأبي عيسى؛ محمد بن1 عيسى برغوث23، الذي كان على قول حسين النجار4. وذمهما، وذم أبي يوسف56،

1 في ((خ)) : ابن.
2 برغوث: أبو عبد الله محمد بن عيسى. وكان على مذهب النجار. قال عنه الذهبي: وهو رأس البدعة.. الجهمي، أحد من كان يناظر الإمام أحمد وقت المحنة. صنف كتاب الاستطاعة، وكتاب المقالات، وكتاب الاجتهاد، وكتاب الرد على جعفر ابن حرب، وكتاب المضاهاة. قيل توفي سنة أربعين ومائتين، وقيل سنة إحدى وأربعين. وإليه تنسب الفرقة البرغوثية. سير أعلام النبلاء 544/10.
وانظر: الفرق بين الفرق ص 209. والمقالات 230/2. ودرء تعارض العقل والنقل 257/7. وشرح حديث النزول ص 251-252. وشرح الأصفهانية 322/2.
3 ومن أقوال الإمام أحمد في ذم أهل الكلام: (علماء الكلام زنادقة) ، "لا يفلح صاحب كلام أبدا، ولا يرى أحد نظر في الكلام إلا في قلبه دغل". انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 95/2. وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص 83. ودرء تعارض العقل والنقل 275/7.
4 هو أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله النجار، وكان حائكا في حراز العباس ابن محمد الهاشمي. من كبار المجبرة ومتكلميهم. والسبب في موته أنه اجتمع مع إبراهيم النظام، فأفحمه النظام في مناظرات جرت بينهما، فانصرف محموما، فكان ذلك سبب علته التي مات فيها. انظر: الفهرست لابن النديم ص 204.

وذكر الأشعري في المقالات 340/2 أن أصحابه يسمون الحسينية. وأما الشهرستاني في الملل والنحل فسمأهم النجارية، وذكر أن أكثرهم معتزلة. وكذلك ذكرهم البغدادي في الفرق بين الفرق ص 207.
5 هو القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي، تلميذ أبي حنيفة. عالم، فقيه، محدث. قال يحيى بن معين: ما رأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث، ولا أحفظ، ولا أصلح رواية من أبي يوسف. توفي رحمه الله سنة 182 هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ 292/1. والجواهر المضيئة 220/2.
6 ومن ذم أبي يوسف لأهل الكلام، قوله: "من طلب العلم بالكلام تزندق". انظر: درء تعارض العقل والنقل 232/1.
والصواعق المرسلة لابن القيم 1264/4.
وقد ذكر الذهبي رحمه الله في العلو ص112 قول أبي يوسف: (من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن تتبع غريب الحديث كذب) .

ومالك1، وغيرهم2 لأمثال هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة3.
وقد صنف في ذم الكلام وأهله مصنفات أيضا4، وهو متناول لأهل

---

1 ومن ذم الإمام مالك لأهل الكلام، قوله: (لعن الله عمرا - يعني عمرو بن عبيد؛ فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام، ولو كان الكلام علما، لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع. ولكنه باطل يدل على باطل". شرح السنة للبغوي 217/1. وانظر: الفتاوى المصرية لابن تيمية 560/6.
ومن أقواله: "لا تجوز شهادة أهل الأهواء والبدع..". انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم 1264/4.
2 كالقاضي ابن سريج ((مجموع الفتاوى 305/17)) ، والإمام البغوي ((شرح السنة 216/1)) ، وغيرهما.
3 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فقول ضرار والنجار وأتباعهما كبرغوث وحفص، وقول بشر المريسي ونحوه من أهل الكلام الذين ذمهم الشافعي، وأحمد، وغيرهما من الأئمة: ليس فيه إنكار للقدر، بل فيه إثبات له، وإنما ذموهم لما في قولهم من نفي ما وصف الله به نفسه، مع أن قول النجار وضرار خير من قول المعتزلة، وقولهما في الرؤية يشبه قول من ينفي العلو ويثبت الرؤية من الأشعرية ونحوهم. وأصل كلامهم الذي بنوا عليه نفي ذلك ما تقدم من الأصول الثلاثة ليس لهم غيرها، وهي: دليل الأعراض، والتركيب، والاختصاص".
درء تعارض العقل والنقل 278/7.
4 يقول الشيخ عبد الرحمن الشبل في مقدمة تحقيق كتاب ذم الكلام للهروي 2/1: "أما الكتب التي ألفها أهل العلم في بيان زيف علم الكلام وبطلانه، وفضح أهله، والرد عليهم، فأكثر من أن تحصى. ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله النصيب الأكبر منها، بل إن كل كتاب ألفه لا بد أن يشير غالبا إلى شيء من ذلك. لكن من باب التمثيل أيضا أشير إلى الكتب الآتية:
1- الغنية عن الكلام وأهله لأبي سليمان الخطابي.
2- إلجام العوام عن علم الكلام لأبي حامد الغزالي. وله أيضا:
3- تهافت الفلاسفة.
4- الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية. وله أيضا: نقض المنطق.
5- نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان.
6- فصل الكلام في ذم الكلام لجلال الدين السيوطي. وله أيضا:
7- القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق.
8- صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام.
9- جهد القريحة في تجريد النصيحة. لخص فيه السيوطي كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية المذكور آنفا.
وانظر: أيضا درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية، ومختصره لمحمد الموصلي؛ ففيهما مباحث قيمة تتعلق بهذا الباب".

هذه الطريقة قطعا. فكان إيجاب النظر بهذا التفسير باطلا قطعا، بل هذا نظر فاسد يناقض الحق والإيمان.

حذاق الطوائف ببينوا فساد طريقة الأعراض

ولهذا صار من يسلك هذه الطريقة1 من حذاق الطوائف يتبين لهم فسادها2؛ كما ذكر مثل ذلك أبو حامد الغزالي3، وأبو عبد الله الرازي4، وأمثالهما5.

---

1 طريقة الأعرض وحدوث الأجسام.

2 كذا في ((خ)) ، و ((م)) . وفي ((ط)) : فاسدها. وهو خطأ.

3 وقد تقدم قوله: "فليت شعري متى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم قالوا لمن جاءهم مسلما: الدليل على أن العالم حادث: أنه لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث حادث". فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص 89.

وفي قوله توهين لقيمة هذه الطريقة، وتقليل من شأنها، ودليل على أنه لا يرى - في قرارة نفسه - أن هذه الطريقة صالحة للاستدلال على إثبات الصانع.

4 وقد تقدم أن الرازي ضعف البراهين الخمسة التي احتج بها على حدوث العالم وحدوث الأجسام. انظر: المطالب العالية للرازي 71/1، والمباحث المشرقية له327/1.

5 ذكر أبو الحسن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر أن الرسل لم تدع إلى هذا الدليل المبتدع انظر: ص 185-192) . وكذلك نقل الشهرستاني والخطابي ذمها. انظر: درء تعارض العقل والنقل 227/7، 293، وما بعدها.

ثم الذي يتبين له فسادها: إذا لم يجد عند من يعرفه من المتكلمين في أصول الدين غيرها بقي حائرا مضطربا1.

الفلاسفة تسلطوا على المتكلمين بسبب فساد طريقة الأعراض

والقائلون بقدم العالم؛ من الفلاسفة، والملاحدة، وغيرهم تبين2 لهم فسادها؛ فصار ذلك من أعظم حججهم على قولهم الباطل؛ فيبطلون قول هؤلاء أنه صار فاعلا، أو فاعلا ومتكلما بمشيئته بعد أن لم يكن3، ويثبتون وجوب دوام نوع الحوادث، ويظنون أنهم إذا أبطلوا كلام أولئك المتكلمين بهذا حصل مقصودهم4. وهم5 أضل وأجهل من أولئك6؛ فإن أدلتهم لا توجب قدم شيء بعينه من العالم، بل كل ما سوى الله فهو حادث مخلوق كائن بعد أن لم يكن، ودلائل كثيرة غير تلك الطريقة7.

---

1 لذلك نجد أكثر من سلك هذا المسلك أصابته الحيرة في آخر عمره؛ فمنهم من تاب وأناب، ومنهم من صرح بما كان يخفيه، وأعلن عن رأيه في الكلام والمنطق.

وسيأتي كلام الرازي، والشهرستاني، والغزالي، وغيرهم لاحقا إن شاء الله.

2 في ((خ)) يبين. والصواب من ((م)) ، و ((ط)) .

3 يقول شيخ الإسلام ابن تيمية حاكيا عن طريقة الأعراض التي سلكها المتكلمون: "فطريقتهم التي أثبتوا بها أنه خالق للخلق، مرسل للرسل، إذا حققت عليهم، وجد لازمها أنه ليس بخالق ولا مرسل. فيبقى المسلم العاقل إذا تبين له حقية الأمر، وكيف انقلب العقل والسمع على هؤلاء، متعجبا. ولهذا تسلط عليهم بها أعداء الإسلام من الفلاسفة والملاحدة وغيرهم؛ لما بينوا أنه لا يثبت بها خلق ولا إرسال؛ فادعى أولئك قدم العالم، وأثبتوا موجبا بذاته، وقالوا: إن الرسالة فيض يفيض على النبي من جهة العقل الفعال، لا أن هناك كلاما تكلم الله تعالى به قائما به أو مخلوقا في غيره". شرح العقيدة الأصفهانية - بتحقيق السعوي - ص 329-330.

4 أي مقصود الفلاسفة.

5 أي الفلاسفة.

6 أي من المتكلمين.

7 انظر: كلام شيخ الإسلام رحمه الله على تسلط الفلاسفة وملاحدة الصوفية على المتكلمين في: الرد على المنطقيين ص 310-311. وشرح الأصفهانية ص 329-331. ومجموع الفتاوى 157/13. وشرح حديث النزول ص 420-422، 428. ومنهاج السنة النبوية 352/1.

قال شيخ الإسلام: "إن هؤلاء المتكلمين الذين زعموا أنهم ردوا عليهم، لم يكن الأمر كما قالوه، بل هم فتحوا لهم دهليز الزندقة. ولهذا يوجد كثير ممن دخل في هؤلاء الملاحدة إنما دخل من باب أولئك المتكلمين؛ كابن عربي، وابن سبعين، وغيرهم. وإذا قام من يرد على هؤلاء الملاحدة، فإنهم يستنصرون ويستعينون بأولئك المتكلمين المبتدعين، ويعينهم أولئك على من ينصر الله ورسوله؛ فهم جندهم على محاربة الله ورسوله كما قد وجد ذلك عيانا". شرح حديث النزول ص 422-423.

وإن كان الفاعل لم يزل فاعلا لما يشاء، ومتكلما بما يشاء، وصار كثير من أولئك1 إذا ظهر له فساد أصل أولئك المتكلمين المبتدعين، وليس عنده إلا قولهم، وقول هؤلاء2، يميل إلى قول هؤلاء الملاحدة، ثم قد يبطن ذلك، وقد يظهر لمن يأمنه.
أثر طريقة الأعراض على المتصوفة
وابتلي بهذا كثير من أهل النظر والعبادة والتصوف، وصاروا يظهرون هذا في قالب المكاشفة3، ويزعمون أنهم أهل التحقيق والتوحيد

---

1 ممن سلكوا طريقة الأعراض وحدوث الأجسام.
2 الفلاسفة والملاحدة.
3 المكاشفة: هي عبارة عن بيان ما يستتر عن الفهم، فيكشف للعبد عنه كأنه يراه رأي العين. انظر: حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب - بهامش قوت القلوب - (273/2) .
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فما كان من الخوارق من باب العلم، فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومناما، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحيا وإلهاما. أو إنزال علم ضروري، أو فراسة صادقة، ويسمى كشفا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات. فالسماع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة. ويسمى ذلك كله (كشفا) و (مكاشفة) ؛ أي كشف له عنه". مجموع الفتاوى 313/11. وانظر: الصفدية 186/1.

والعرفان. فأخذوا من نفي الصفات أن صانع العالم1 لا داخل العالم، ولا خارجه. ومن قول هؤلاء: إن العالم قديم، ولم يروا موجودا سوى العالم، فقالوا: إنه هو الله، وقالوا: هو الوجود المطلق، والوجود واحد، وتكلموا في وحدة الوجود2، وأنه الله بكلام ليس هذا موضع بسطه3.

---

1 في ((خ)) العلم. وهو خطأ. وما أثبته من ((م)) ، و ((ط)) .
2 وحدة الوجود: من أبرز عقائد ملاحدة الصوفية. وقد أوضح شيخ الإسلام مقصودهم به فقال: "معناه أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى، وليس وجودها غيره، ولا شيء سواه البتة". مجموع الفتاوى 140/11. وانظر: المصدر نفسه 172/11-173.
والباطنية: باطنية الشيعة والمتصوفة؛ كابن سبعين وابن عربي هم في الباطن كذلك، بل يقولون: الوجود واحد: وجود الخالق هو وجود الخلق، فيجب أن يكون كل موجود عابدا لنفسه، شاكرا لنفسه، حامدا لنفسه.
وابن عربي يجعل الأعيان ثابتة في العدم، وقد صرح بأن الله لم يعط أحدا شيئا، وأن جميع ما للعباد فهو منهم لا منه، وهو مفتقر إليهم لظهور وجوده في أعينهم، وهم مفتقرون إليه لكون أعيانهم ظهرت في وجوده، فالرب إن ظهر فهو العبد، والعبد إن بطن فهو رب، ولهذا قال: لا تحمد ولا تشكر إلا نفسك، فما في أحد من الله شيء ولا في أحد من نفسه شيء. ولهذا قال: إنه يستحيل من العبد أن يدعوه لأنه يشهد أحدية العين، فالداعي هو المدعو، فكيف يدعو نفسه. وزعم أن هذا هو خلاصة غاية الغاية، فما بعد هذا شيء.
انظر: جامع المسائل 104/2-105.
3 وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا الموضوع بكثرة. انظر: على سبيل المثال: الجزء الثاني من الفتاوى؛ فقد حوى رسائل في هذا الموضوع، منها رسالة تسمى ((حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود)) من ص 134-285، وكذلك ((رسالة إلى نصر المنبجي)) من ص 452-479. وانظر: جامع الرسائل 104/2-116، 201-206.

ثم لما ظهر أن كلامهم يخالف الشرع والعقل، صاروا يقولون: ثبت1 عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل، ويقولون: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا، ومن أراد أن يحصل له هذا العلم اللدني الأعلى، فليترك العقل والنقل2. وصار حقيقة قولهم الكفر بالله، وبكتبه، ورسله، وباليوم الآخر من جنس قول الملاحدة الذين يظهرون التشيع. لكن أولئك لما كان ظاهر قولهم هو ذم الخلفاء كأبي بكر وعمر وعثمان [رضي الله عنهم] 3، صارت وصمة الرفض تنفر عنهم خلقا كثيرا لم يعرفوا باطن أمرهم، وهؤلاء صاروا ينتسبون إلى المعرفة والتوحيد واتباع شيوخ الطرق؛

1 كذا في ((خ)) . وفي ((م)) ، و ((ط)) : يثبت.

2 انظر: كلام هؤلاء في الفرقان ص 229. والفتاوى 472/2.

قال شيخ الإسلام رحمه الله عنهم: "ولهذا كان هؤلاء الاتحادية والحلولية يصفونه بما توصف به الأجسام المذمومة، ويصرحون بذلك، وهؤلاء من أعظم الناس كفرا وشتما لله، وسبا لله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ... ويسمون أنفسهم المنزهون، وهم أبعد الخلق عن تنزيه الله وأقرب لتنجيس تقديسه.... وهذا التلمساني هو وسائر الاتحادية؛ كابن عربي الطائي صاحب الفصوص وغيره، وابن سبعين، وابن الفارض والقونوي صاحب ابن عربي شيخ التلمساني، وسعيد الفرغاني، إنما يدعون الكشف والشهود لما يخبرون عنه وأن تحقيقهم لا يوجد بالنظر والقياس والبحث، وإنما هو شهود الحقائق وكشفها. ويقولون: ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل، ويقولون لمن يسلكونه لا بد أن يجمع بين النقيضين وأن يخالف العقل والنقل، ويقولون: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا، ويقولون: لا فرق عندنا بين الأخوات والبنات والزوجات؛ فإن الوجود واحد، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام، فقلنا حرام عليكم ... ". بيان تلبيس الجهمية 538/2-539. وانظر: بغية المرتاد ص 491. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 229-230. وكتاب الصفدية ص 244.

3 ليست في ((خ)) و ((م)) ، وهي في ((ط)) .

كالفضيل1، وإبراهيم بن أدهم2، والتستري3، والجنيد4، وسهل بن5 عبد الله6، وأمثال هؤلاء ممن له في الأمة لسان صدق، فاغتر بهؤلاء من لم يعرف باطن أمرهم، وهم في الحقيقة من أعظم خلق الله خلافا لهؤلاء المشايخ

1 الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي. ولد بسمرقند وأصله من الكوفة، وسكن مكة. يعد من العباد الصالحين، وكان ثقة نبيلا فاضلا عابدا ورعا كثير الحديث. توفي بمكة سنة 187?. انظر: سير أعلام النبلاء 421/8-442. وحلية الأولياء 84/8. وشذرات الذهب 316/1-317. وطبقات الصوفية 6-14. والأعلام 153/5.

2 إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي نزيل الشام، مولده في حدود المائة. قال عنه ابن كثير رحمه الله: (أحد مشاهير العباد، كانت له همة عالية في ذلك رحمه الله) . توفي سنة 162?. انظر: سير أعلام النبلاء 387/7-396. وحلية الأولياء367/7. وطبقات الصوفية ص 27. والبداية والنهاية 138/10.

3 في ((خ)) السري، وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

والتستري هو: سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد الصوفي الزاهد، وهو من كبار الصوفية. مات سنة 283?. انظر: سير أعلام النبلاء 330/13. وطبقات الصوفية ص206. وحلية الأولياء 189/10. وشذرات الذهب 182/2.

4 هو الجنيد بن محمد بن الجنيد، أبو القاسم. قال عنه الخطيب: (نشأ ببغداد، وسمع بها الحديث، ثم اشتغل بالعبادة ولازمها) . مات سنة 298?. انظر: تاريخ بغداد 241/7. وسير أعلام النبلاء 272/20. وحلية الأولياء 255/10. وشذرات الذهب 228/2. وطبقات الصوفية ص 155.

5 في ((خ)) لبن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

6 لعله أبو طاهر سهل بن عبد الله بن الفرخان الأصبهاني. قال عنه الذهبي: أحد الثقات.. وكان من حملة الحجة، كبير القدر. قال أبو نعيم: لقيت أصحابه، وكان مجاب الدعوة..... وهو أول من حمل مختصر حرملة من علم الشافعي.... إلى أن قال: - ومات في سنة ست وسبعين ومائتين. انظر: سير أعلام النلاء 333/13-334. وحلية الأولياء 212/10-213 - وسماه الفرحان.

السادة، ولمن هو أفضل منهم من السابقين الأولين، والأنبياء المرسلين1.
وكان من أسباب ذلك أن العبادة والتأله والمحبة ونحو ذلك مما يتكلم فيه شيوخ المعرفة والتصوف أمر معظم في القلوب، والرسل إنما بعثوا بدعاء الخلق إلى أن يعرفوا الله، ويكون أحب إليهم من كل ما سواه، فيعبدوه ويألهوه، ولا يكون لهم معبود مألوه غيره2.
وقد أنكر جمهور أولئك المتكلمين أن يكون الله محبوبا، أو أنه يحب شيئا، أو يحبه أحد3. وهذا في الحقيقة إنكار لكونه إلها معبودا؛ فإن

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة، ليسوا من صوفية أهل الكلام، فضلا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة؛ كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبو سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وأمثالهم رضوان الله عليهم أجمعين". الفرقان ص 213.
2 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "محبة الله، بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان؛ كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين". مجموع فتاوى ابن تيمية 48/10-49. وانظر: جامع الرسائل 235/2.
وتقديم محبة الله تعالى على محبة ما سواه أحد الأسباب - بل أهمها - التي يجد العبد بها حلاوة الإيمان؛ كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.." الحديث. أخرجه البخاري في صحيحه 14/1، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان. ومسلم في صحيحه 66/1، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.
3 انظر: إنكار ابن كلاب لذلك في مقالات الإسلاميين 250/1، 225/2. وإنكار الباقلاني في كتابه الإنصاف ص 69. وابن فورك في مشكل الحديث وبيانه ص 332. وابن جماعة في إيضاح الدليل ص 139. والقرطبي في تفسيره 4/20. ومدارك التنزيل للنسفي 209/1. وعمدة القاري للعيني 84/25. وانظر: أيضا: مجموع فتاوى ابن تيمية 66/10.

الإله: هو المألوه الذي يستحق أن يؤله ويعبد، والتأله والتعبد: يتضمن غاية الحب بغاية الذل1.
الإلهية: القدرة على الاختراع عند الأشعري
ولكن غلط كثير من أولئك، فظنوا أن الإلهية هي القدرة على الخلق، وأن الإله بمعنى الآله، وأن العباد يألههم الله، لا أنهم هم يألهون الله؛ كما ذكر ذلك طائفة منهم الأشعري وغيره2.
وطائفة ثالثة3 لما رأت ما دل على أن الله يحب أن يكون محبوبا من أدلة الكتاب والسنة،
الذين غلطوا في مسمى المحبة والإرادة
وكلام السلف وشيوخ أهل المعرفة، صاروا يقرون

---

1 انظر: كتاب العبودية للمؤلف؛ فقد تحدث حول هذا الموضوع ص 35. وانظر: أيضا: مجموع الفتاوى له 202/13-203، والمصدر نفسه 378/8. والجواب الصحيح 31/6. وجامع الرسائل 196/2، 254-256.
2 هذا الفهم الخاطئ قال به الأشعري، وتبعه عليه جميع الأشعرية. انظر: الملل والنحل للشهرستاني 91/1. وانظر: أيضا: الجواب الصحيح 152/2. والصفدية 148/1. واقتضاء الصراط المستقيم 845/2. ودرء تعارض العقل والنقل 377/9. ومجموع الفتاوى 101/8. والتدمرية ص 185-186.
وفهمهم هذا خاطئ؛ فإن الإله بمعنى المألوه المعبود، لا بمعنى الآله كما زعموا. وقد بين شيخ الإسلام خطأهم في ذلك، فقال: (والإله هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، ليس هو الآله بمعنى القادر على الخلق. فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية - وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه - لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله؛ فإن

مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين؛ قال تعالى: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} [يوسف 106] قال طائفة من السلف: تسألهم من خلق السموات والأرض، فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره..) . درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 226/1-227. وانظر: مجموع الفتاوى 378/8. وشرح الأصفهانية 148/1.
3 انظر: مجموع الفتاوى 74/10-75.

بأنه محبوب، لكنه هو نفسه لا يحب شيئا إلا بمعنى المشيئة، وجميع الأشياء مرادة له فهي محبوبة له. وهذه طريقة كثير من أهل النظر والعبادة والحديث؛ كأبي إسماعيل الأنصاري1، وأبي حامد الغزالي، وأبي بكر بن العربي23.

1 هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري، ولد سنة 396، وتوفي سنة 481?. قال عنه الذهبي: "شيخ الإسلام الإمام القدوة الحافظ الكبير، وشيخ خراسان من ذرية صاحب النبي صلى الله عليه وسلم أبي أيوب الأنصاري". انظر: سير أعلام النبلاء 503/18. وطبقات الحنابلة 247/2-248. وشذرات الذهب 365/3-366.
وانظر: كلامه في مدارج السالكين 227/1، وقد علق عليه ابن القيم رحمه الله بأنه من أبطل الباطل.
كما نقل كلامه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وسمى هذه المسألة مسألة إرادة الكائنات وخلق الأفعال. وقال عنه بأنه في هذه المسألة (أبلغ من الأشعرية؛ لا يثبت سببا ولا حكمة، بل يقول: إن مشاهدة العارف الحكم لا يبقى له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة، والحكم عنده هو المشيئة؛ لأن العارف عنده من يصل إلى مقام الفناء) . مجموع الفتاوى 230/8. وانظر: المصدر نفسه 339/8-340.
2 في ((خ)) :ابن عربي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
وأبو بكر بن العربي، هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي الأندلسي الأشبيلي المالكي. ولد في أشبيلية سنة 468?، وتوفي سنة 543?. رحل إلى المشرق، وأخذ من العلماء وأشهرهم الغزالي، ثم رجع إلى الأندلس وتولى قضاء أشبيلية. يعتبر من أئمة المالكية، ومن كبار حفاظهم وفقهائهم إلا أنه أشعري تتلمذ على الغزالي وتأثر ببعض أفكاره. انظر: سير أعلام النبلاء 197/20. والبداية والنهاية 245/12 - وقال عن وفاته: إنها سنة 545 هـ. قانون التأويل - قسم التحقيق - لابن العربي ص 117، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة 647/2.
3 بل هذا قول المعتزلة والجهمية وأغلب الأشعرية. انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل لعبد الجبار المعتزلي 51/6-56. والإنصاف للباقلاني ص 69-70. ولباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول للمكلاتي ص 288.

وحقيقة هذا القول أن الله يحب الكفر، والفسوق، والعصيان، ويرضاه1. وهذا هو المشهور من قول الأشعري وأصحابه2، وقد ذكر أبو المعالي أنه أول من قال ذلك3، وكذلك ذكر ابن عقيل4 أن أول من قال إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان هو الأشعري وأصحابه، وهم قد يقولون لا يحبه دينا، ولا يرضاه دينا، كما يقولون: لا يريده دينا؛ أي لا يريد أن يكون فاعله مأجورا، وأما هو نفسه فهو محبوب له كسائر المخلوقات؛ فإنها عندهم محبوبة له؛ إذ كان ليس عندهم إلا إرادة واحدة

1 لأن من جوز إطلاق المحبة على الإرادة، فلازم قوله أن الله يحب الكفر ويرضاه كفرا.
انظر: مجموع الفتاوى 343/8.
2 يقول أبو المعالي الجويني: "إذا تعلقت الإرادة بنعيم ينال عبدا، فإنها تسمى محبة ورضى. وإذا تعلقت بنقمة تنال عبدا فإنها تسمى سخطا". الإرشاد للجويني ص 239.
وانظر: الإنصاف للباقلاني ص 69-70. والتمهيد له ص 385-386. وانظر: مدارج السالكين لابن القيم 228/1، 251، 189/2. ومنهاج السنة النبوية 134/1-135، 360/5. وسيأتي مزيد إيضاح لهذا الموضوع، حين نقل كلام الأشعري نفسه في اللمع، في ص 301 من هذا الكتاب.
3 انظر: الإرشاد للجويني ص 237-239. وانظر: أيضا: أصول الدين للبغدادي ص 102-104. ومجموع فتاوى ابن تيمية 230/8. وفي منهاج السنة 360/5 قال: إن أبا الحسن أول من سوى بينهما.
4 وكان يميل إلى بعض كلام المعتزلة كما ذكر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله درء تعارض العقل والنقل 270/1.

وقد نقل في منهاج السنة النبوية 360/5 عنه قوله: (أجمع المسلمون على أن الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان، ولم يقل إنه يحبه غير الأشعري) .

شاملة لكل مخلوق؛ فكل مخلوق، فهو عندهم محبوب مرضي1.

وجماهير المسلمين يعرفون أن هذا القول معلوم الفساد بالضرورة من دين أهل الملل، وأن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن الله لا يحب الشرك، ولا تكذيب الرسل، ولا يرضى ذلك، بل هو يبغض ذلك ويمقته ويكرهه؛ كما ذكر الله في سورة بني إسرائيل ما ذكره من المحرمات، ثم قال: {كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها} 2. وبسط هذه الأمور له مواضع أخر3.

---

1 وهذا نجم عن قولهم "إن الإرادة تستلزم الرضى والمحبة"، وقد تقدم نقل ذلك عنهم. وخطؤهم الذي وقعوا فيه وحدا بهم إلى هذه المآزق هو ظنهم أن الإرادة في النصوص كلها بمعنى واحد، بل ولا تتجدد أيضا. وهذا خطأ عظيم، ووهم كبير، وقول مخالف للكتاب والسنة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رادا على معتقدهم هذا: "وإثبات إرادة كما ذكروه لا يعرف بشرع ولا عقل، بل هو مخالف للشرع والعقل؛ فإنه ليس في الكتاب والسنة ما يقتضي أن جميع الكائنات حصلت بإرادة واحدة بالعين تسبق جميع المرادات بما لا نهاية له". درء تعارض العقل والنقل 283/8. وانظر: أصول الدين للبغدادي ص 102. ومراتب الإرادة لابن تيمية - ضمن مجموع الفتاوى188/8-190، 197. ومجموع الفتاوى 115/6-116، 22/8-23، 339، 340-341، 440، 474-476، 301/16-303، 101/17، 132/18. ودرء تعارض العقل والنقل 172/2. وشرح الأصفهانية - ت مخلوف - ص 27. ومدارج السالكين لابن القيم 228/1، 251-252.

2 سورة الإسراء، الآية 38.

3 انظر: مجموع الفتاوى 115/6-116، 22/8-23، 230-234، 337-355، 370، 440، 474-476، 301/16-303، 101/17، 132/18. ودرء تعارض العقل والنقل 172/2، 283/8. وشرح الأصفهانية - ت مخلوف - ص 27. ومنهاج السنة النبوية 359/5-361.

الذين أوجبوا النظر أعرضوا عن طريق الرسول

والمقصود هنا أن الذين أعرضوا عن طريق الرسول في العلم و1العمل وقعوا في الضلال والزلل، وأن أولئك لما أوجبوا النظر الذي ابتدعوه، صارت فروعه فاسدة، إن قالوا إن من لم يسلكها كفر أو عصى2، فقد عرف بالاضطرار من دين الإسلام أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يسلكوا طريقهم، وهم خير الأمة3. وإن قالوا: إن من ليس عنده علم ولا بصيرة بالإيمان، بل قاله تقليدا محضا من غير معرفة يكون مؤمنا، فالكتاب والسنة يخالف4 ذلك. ولو أنهم سلكوا طريقة الرسول، لحفظهم الله من هذا التناقض؛ فإن ما جاء به الرسول جاء من عند الله5،

---

1 في ((خ)) : أو. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 ذكر الإمام ابن حزم عنهم ذلك، فقال: "ذهب محمد بن جرير الطبري، والأشعرية كلها، حاشا السمناني إلى أنه لا يكون مسلما إلا من استدل، وإلا فليس مسلما. وقال الطبري: من بلغ الاحتلام أو الإشعار من الرجال والنساء، أو بلغ المحيض من النساء، ولم يعرف الله عز وجل بجميع أسمائه وصفاته من طريق الاستدلال، فهو كافر حلال الدم والمال". الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم 35/4.

وانظر: كلام شيخ الإسلام رحمه الله عنهم في هذه المسألة في درء تعارض العقل والنقل 407/7. وانظر: رسالة السجزي في الرد على من أنكر الحرف والصوت ص 139.

3 وهذا سبق بيانه ص 297- 303.

4 في ((خ)) : تخالف. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

5 انظر: معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول صلى الله عليه وسلم. وكذلك درء تعارض العقل والنقل 16/1-27، 38-43، 194-195، 363/5-370.

وانظر: كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن تناقض الأشاعرة في الشرعيات والعقليأت في التسعينية ص 259-260.
وانظر: كلامه - رحمه الله - عن أول واجب على المكلف في درء تعارض العقل والنقل 6/8-7. ومجموع الفتاوى 328/16.

وما ابتدعوه جاؤوا به من عند غير الله، وقد قال تعالى: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} 1.
وهؤلاء2 بنوا دينهم على النظر، والصوفية بنوا دينهم على الإرادة، وكلاهما لفظ مجمل، يدخل فيه الحق والباطل.
فالحق: هو النظر الشرعي، والإرادة الشرعية.
النظر الشرعي
[فالنظر الشرعي] 3: [هو] 4 النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدى؛ كما قال: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان} 5.
الإرادة الشرعية والسماع الشرعي والدليل الشرعي
والإرادة الشرعية: إرادة ما أمر الله به ورسوله. والسماع الشرعي: سماع ما أحب الله سماعه كالقرآن. والدليل الذي يستدل به هو الدليل الشرعي، وهو الذي دل الله به عباده، وهداهم به إلى صراط مستقيم6؛ فإنه لما ظهرت البدع، والتبس الحق بالباطل صار اسم النظر، والدليل، والسماع، [والإرادة يطلق على ثلاثة أمور:
إطلاقات النظر والإرادة والسماع والدليل
منهم: من يريد به البدعي دون الشرعي؛ فيريدون بالدليل: ما ابتدعوه من الأدلة الفاسدة، والنظر فيها. ومن السماع والإرادة] 7: ما ابتدعوه من

---

1 سورة النساء، الآية 82.
2 أي المتكلمون.
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : وهو. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 سورة البقرة، الآية 185.
6 كالنظر في المخلوقات، ودلالة المعجزات، وغير ذلك من الأدلة الشرعية. انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 300/7-302. وشرح حديث النزول ص 27-28. ومجموع الفتاوى 378/11.
7 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) . وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

اتباع ذوقهم ووجدهم، وما تهواه أنفسهم، وسماع الشعر والغناء الذي يحرك هذا الوجد التابع لهذه الإرادة النفسانية التي مضمونها اتباع ما تهوى الأنفس بغير هدى من الله.
ومنهم: من يريد مطلق الدليل والنظر، ومطلق السماع والإرادة، من غير تقييدها لا بشرعي ولا ببدعي. فهؤلاء يفسرون قوله: {الذين يستمعون القول} 1: بمطلق القول الذي يدخل فيه القرآن والغناء، ويستمعون إلى هذه وهذا، وأولئك2 يفسرون الإرادة بمطلق المحبة للإله3 من غير تقييدها بشرعي ولا بدعي، ويجعلون الجميع من أهل الإرادة؛ سواء عبد الله بما أمر الله به ورسوله من التوحيد وطاعة الرسول، أو كان عابدا للشيطان مشركا، عابدا بالبدع، وهؤلاء أوسطهم، وهم أحسن حالا من الذين قيدوا ذلك بالبدعي
وأما القسم الثالث: فهم صفوة الأمة، وخيارها المتبعون للرسول علما وعملا، يدعون إلى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التي بعث الله بها رسوله، وتدبر القرآن وما فيه من البيان، ويدعون إلى المحبة والإرادة الشرعية؛ وهي محبة الله وحده، وإرادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله؛ فهم لا يعبدون إلا الله، ويعبدونه بما شرع وأمر، ويستمعون ما أحب استماعه، وهو قوله الذي قال فيه: {أفلم يدبروا القول} 4، وهو الذي قال فيه: {فبشر عباد الذين يستمعون القول

---

1 سورة الزمر، الآية 18.
2 يقصد الصوفية.
3 في ((خ)) : للتأله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة المؤمنون، الآية 68.

فيتبعون أحسنه} 1؛ كما قال: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم} 2. وقال: {وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وامر قومك يأخذوا بأحسنها} 3.
[والله] 4 سبحانه بين القدرة على الابتداء؛ كقوله: {إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم} الآية5، ومثل قوله: {ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا} 6 الآية، ومثل قوله: {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} 7، وغير ذلك.
الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان طريق عقلي صحيح
فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة. وهي شرعية؛ دل القرآن عليها، وهدى الناس إليها، وبينها وأرشد إليها. وهي عقلية8؛ فإن نفس كون الإنسان حادثا

---

1 سورة الزمر، الآيتان 17، 18.
2 سورة الزمر، الآية 55.
3 سورة الأعراف، الآية 145.
4 ليست في ((خ)) ، و ((م)) .
5 سورة الحج، الآية 5.
6 سورة مريم، الآيتان 66، 67.
7 سورة يس، الآيتان 78، 79.
8 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن الفاضل إذا تأمل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية، وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق. وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما قد نبهنا على بعضه في غير هذا الموضع". شرح الأصفهانية - ت السعوي - 41/1.
وانظر: الاستدلال بهذه الطريقة في: نقض أساس التقديس 80/1-82. ودرء تعارض العقل والنقل 300/7-302.

بعد أن لم يكن، ومولودا ومخلوقا من نطفة، ثم من علقة، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم؛ سواء أخبر به الرسول، أو لم يخبر. لكن الرسول أمر أن يستدل به، ودل به، وبينه، واحتج به؛ فهو دليل شرعي؛ لأن الشارع استدل به، وأمر أن يستدل به؛ وهو عقلي؛ لأنه بالعقل تعلم صحته. وكثير من المتنازعين في المعرفة هل تحصل بالشرع، أو بالعقل لا يسلكونه. وهو عقلي شرعي، وكذلك غيره من الأدلة التي في القرآن؛ مثل الاستدلال بالسحاب والمطر؛ هو مذكور في القرآن في غير موضع، وهو عقلي شرعي؛ كما قال تعالى: {أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون} 1؛ فهذا مرئي بالعيون. وقال تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} 2، ثم قال: {أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد} 3.
فالآيات التي يريها الناس، حتى يعلموا أن القرآن حق، هي آيات عقلية؛ يستدل بها العقل على أن القرآن حق، وهي شرعية؛ دل الشرع عليها، وأمر بها. والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية التي يستدل بها العقل، وهي شرعية؛ لأن الشرع دل عليها، وأرشد إليها.
ولكن كثير4 من الناس لا يسمي دليلا شرعيا إلا ما دل بمجرد خبر الرسول، وهو اصطلاح قاصر، ولهذا يجعلون أصول الفقه هو لبيان الأدلة

---

1 سورة السجدة، الآية 27.

2 سورة فصلت، الآية 53.
3 سورة فصلت، الآية 53.
4 ما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) ؛ على أن (لكن) - بالنون الساكنة - للاستدراك. وما في ((ط)) : (لكن) - بالنون المشددة - من أخوات (إن) .

الشرعية؛ الكتاب، والسنة، والإجماع. والكتاب يريدون به أن يعلم مراد الرسول فقط. والمقصود من أصول الفقه: هو معرفة الأحكام الشرعية العملية؛ فيجعلون الأدلة الشرعية: ما دلت على الأحكام العملية فقط، ويخرجون ما دل بإخبار الرسول عن أن يكون شرعا، فضلا عما دل بإرشاده وتعليمه. ولكن قد يسمون هذا دليلا سمعيا، ولا يسمونه شرعيا، وهو اصطلاح قاصر.
والأحكام العملية أكثر الناس يقولون إنها تعلم بالعقل أيضا، وأن العقل قد يعرف الحسن والقبح، فتكون الأدلة العقلية دالة على الأحكام العملية أيضا.
ويجوز أن تسمى شرعية؛ لأن الشرع قررها، ووافقها، أو دل عليها وأرشد إليها؛ كما قيل مثل ذلك في المطالب الخبرية؛ كإثبات الرب، ووحدانيته، وصدق رسله، وقدرته على المعاد: أن الشرع دل عليها، وأرشد إليها. وبسط هذا له موضع آخر1.

---

1 انظر: كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في اختلاف الناس في مسألة (الحسن والقبح) في منهاج السنة النبوية 316/1-317. ومجموع الفتاوى 90/8، 309-310، 677-686،، 347/11-355، 676-677،، 246/16-247، 498. والتسعينية ص 247. وشرح الأصفهانية - ت مخلوف - ص 161. ودرء تعارض العقل والنقل 22/8، 492،، 49/9-62. والرد على المنطقيين ص 420-437. والجواب الصحيح 314/1-315.
وقال الأشعري: "العقل لا يقتضي حسن شيء، ولا قبحه، وإنما عرف القبيح والحسن بالسمع، ولولا السمع ما عرف قبح الشيء، ولا حسنه". انظر: رسالة السجزي في الرد على من أنكر الحرف والصوت ص 139. والملل والنحل للشهرستاني 101/1. والإرشاد للجويني ص 258. والمحصل للرازي ص 202. وشرح المواقف للجرجاني 181/8-182.
فالأشاعرة يقولون: "لا حسن، ولا قبح قبل مجيء الرسول، وإنما الحسن ما قيل فيه: افعل. والقبيح ما قيل فيه: لا تفعل".

الأشعري بنى أصول الدين على دليل الحوادث
والمقصود هنا: أن الأشعري بنى أصول الدين في ((اللمع)) ، و ((رسالة الثغر)) على كون الإنسان مخلوقا محدثا، فلا بد له من محدث1، لكون هذا الدليل مذكورا في القرآن، فيكون شرعيا عقليا.
لكنه في نفس الأمر سلك في ذلك طريقة الجهمية بعينها2؛ وهو الاستدلال على حدوث الإنسان بأنه مركب من الجواهر المفردة3، فلم يخل من الحوادث، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث؛ فجعل العلم بكون الإنسان محدثا، وبكون غيره من الأجسام المشهودة محدثا إنما يعلم بهذه الطريقة؛ وهو أنه مؤلف من الجواهر المفردة، وهي لا تخلو من اجتماع وافتراق - وتلك أعراض حادثة4 - وما لم ينفك من الحوادث، فهو محدث5.

---

1 انظر: اللمع للأشعري ص 6 - ط مكارثي -. ورسالة إلى أهل الثغر ص 144.
2 وهذا تقدم توضيحه قريبا ص 303.
3 الجواهر المفردة: تعرف بأنها الجزء الذي لا يتجزأ، وهو متحيز لا ينقسم لا بالفك والقطع، ولا بالوهم والغرض. انظر: الصحائف الإلهية للسمرقندي ص 255.
وقال صاحب التعريفات عنها: "والجزء الذي لا يتجزأ: جوهر ذو وضع لا يقبل الانقسام أصلا، لا بحسب الوهم أو الغرض العقلي. وتتألف الأجسام من أفراده بانضمام بعضها إلى بعض كما هو مذهب المتكلمين". التعريفات للجرجاني ص 103.
وانظر: الإرشاد للجويني ص 17. وأصول الدين للبغدادي ص 33.
4 وهي من الأكوان الأربعة. والأكوان بعض الأعراض؛ كما تقدم ص 258.

5 وقد نقل عنه تمسكه بهذه الطريقة - طريقة الأعراض وحدوث الأجسام -، وبناءه عليها، وتأويله للنصوص كي يوافقها من جاء بعده من أعلام الأشاعرة؛ كابن فورك في المجرد ص 67. والجويني في الإرشاد ص 120. والبغدادي في أصول الدين ص 113. والبيهقي في الأسماء والصفات ص 517، 564. والشهرستاني في نهاية الإقدام ص 304.

وهذه الطريقة أصل ضلال هؤلاء؛ فإنهم أنكروا المعلوم بالحس، والمشاهدة، والضرورة العقلية؛ من حدوث المحدثات المشهود حدوثها، وادعوا أنه إنما يشهد1 حدوث أعراض لا حدوث أعيان، مع تنازعهم في الأعراض. ثم قالوا: والأجسام لا تخلو من الأعراض - وهذا صحيح، ثم قالوا: والأعراض حادثة. فاضطربوا هنا. ثم قالوا: وما لم يخل من الحوادث فهو حادث. وهذا أصل دينهم، وهو أصل فاسد مخالف للسمع والعقل، كما قد بسط في غير هذا الموضع2.
والمتفلسفة أشد مخالفة للعقل والسمع منهم، لكنهم عرفوا فساد طريقتهم هذه العقلية، فاستطالوا عليهم بذلك، وسلكوا ما هو أفسد منها كطريقة الإمكان والوجوب3؛ كما قد بسط في موضع آخر4؛
فلبسوا هذا الباطل بالحق الذي جاء به الرسول؛ وهو الاستدلال بحدوث الإنسان وغيره

---

1 في ((ط)) : شهد، وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .
2 انظر: من كتب شيخ الإسلام: مجموع الفتاوى 313/6، 330. وشرح العقيدة الأصفهانية - ت مخلوف - ص 70. وشرح حديث النزول ص 73، وص 413-420 - محقق -. وكتاب الصفدية 163/2. ودرء تعارض العقل والنقل 173/8. ورسالة في الصفات الاختيارية - ضمن جامع الرسائل 31/2-32 -. والفتاوى المصرية 552/6-556.
3 تقدم الكلام على مسلكهم - الوجوب والإمكان - قريبا ص 307.
4 انظر: من كتب شيخ الإسلام: شرح العقيدة الأصفهانية - ت السعوي - ص 331، 442-443. وشرح حديث النزول - محقق - ص 420، 422، 428، 436، 438. والفرقان بين الحق والباطل ص 102. ومنهاج السنة النبوية 303/1-304، 352-359، و361/3-362. ودرء تعارض العقل والنقل 336/3-342، 242/7، 345-352، 97/8، 68/9، 379، و316/10-317. ومجموع الفتاوى 590/12، 157/13. ونقض تأسيس الجهمية 223/1، ومجموع الرسائل الكبرى 329/1-330، ولابن القيم رحمه: مختصر الصواعق المرسلة 197/1-199، ومفتاح دار السعادة 158/1.

من المحدثات التي يشهد حدوثها. فصار في كلامهم حق وباطل، من جنس ما أحدثه أهل الكتاب؛ حيث لبسوا الحق بالباطل، واحتاجوا في ذلك إلى كتمان الحق - الذي جاء به الرسول - الذي يخالف ما أحدثوه، فصاروا يكرهون ظهور ما جاء به الرسول، بل يمنعون عن قراءة الأحاديث وسماعها، وقراءة كلام السلف وسماعه.
ومنهم من يكره قراءة القرآن وحفظه. والذين لا يقدرون على المنع من ذلك، صاروا يقرأون حروفه، ولا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، بل إن اشتغلوا بعلومه اشتغلوا بتفسير من يشركهم في بدعتهم؛ ممن يحرف1 الكلم؛ كلم الله عن مواضعه. والأصل العقلي الحسي الذي به فارقوا العقل والسمع، هو: حدوث ما يشهد حدوثه؛ مثل حدوث الزرع، والثمار، وحدوث الإنسان، وغيره من الحيوان، وحدوث السحاب، والمطر، ونحو ذلك من الأعيان القائمة بنفسها، غير حدوث الأعراض؛ كالحركة، والحرارة، والبرودة، والضوء، والظلمة، وغير ذلك. بل تلك الأعيان التي يسمونها أجساما وجواهر هي حادثة؛ فإنه معلوم أن الإنسان مخلوق من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، وأن الثمار تخلق من الأشجار، وأن الزرع تخلق من الحب، والشجر تخلق من النوى؛ قال
تعالى: {إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يحرفون.

النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون} 1.

طريقة الجهمية في خلق الإنسان هي تركيب الجواهر لا إحداثها

فهذا الإنسان، والشجر، والزرع المخلوق من مادة قد خلق منها عين قائمة بنفسها، [وهم يقولون: إنما هي من] 2 الجسم3 القائم بنفسه، وهو الجوهر العام في اصطلاحهم، الذي يقولون إنه مركب من الجواهر المفردة4. [وهل الذي خلق من المادة هو] 5 أعيان، أم لم يخلق إلا أعراض قائمة بغيرها، وأما الأعيان فهي الجواهر المفردة، [وتلك لم يخلق منها] 6 شيء في هذه الحوادث، ولكن أحدث فيها جمع وتفريق؛ فكان خلق الإنسان وغيره هو تركيب تلك الجواهر، وإحداث هذا التركيب لا إحداث تلك الجواهر. وأما حدوث تلك الجواهر فإنما يعلم بالاستدلال، فيستدل عليه بأن الجواهر التي تركبت منها هذه الأجسام لا تخلو7 من اجتماع وافتراق، والاجتماع والافتراق حادث، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث. فهذه طريق هؤلاء الجهمية أهل الكلام المحدث.

وأما جمهور العقلاء فيقولون: بل نحن نعلم حدوث هذه الأعيان القائمة بنفسها، لا نقول أنه لم يحدث8 إلا عرض؛ فإن هذا القول يقتضي

---

1 سورة الأنعام، الآيات 95-99.

2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

3 في ((خ)) : وهو الجسم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 وهذا أحد تعريفات الجوهر عند المتكلمين.

5 ما بين المعقوفتين من ((م)) ، و ((ط)) . وفي ((خ)) : [وهذه الأعيان خلقت من مادة هي أعيان] .

6 في ((م)) ، و ((ط)) : وتلك منها.

7 في ((خ)) : لا يخلوا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

8 في ((ط)) فقط: لا محدث.

أن تلك الجواهر التي ركب منها آدم باقية لم يزل في كل آدمي منها شيء. وهذا مكابرة؛ فإن بدن آدم لا يحتمل هذا كله، لا يحتمل أن يكون فيه جواهر بعدد ذريته، لا سيما وكل آدمي إنما خلق من مني أبويه. وهم يقولون: تلك الجواهر التي في مني الأبوين باقية بأعيانها في الولد. وهم يقولون: إن الجواهر لا تفنى، بل تنتقل من حال إلى حال. وكثير منهم يقول إنها مستغنية عن الرب بعد أن خلقها. وتحيروا فيما إذا أراد أن يفنيها: كيف يفنيها؟ كما قد ذكر في غير هذا الموضع1؛ إذ المقصود هنا التنبيه على أن أصل الأصول معرفة حدوث الشيء من الشيء؛ كحدوث الإنسان من المني، فهؤلاء ظنوا أنه لا يحدث إلا الأعراض2.

ولهذا لما ذكر أبو عبد الله بن الخطيب الرازي في كتبه (الكبار والصغار) الطرق الدالة على إثبات الصانع لم يذكر طريقا صحيحا، وليس في كتبه وكتب أمثاله طريق صحيح لإثبات الصانع، بل عدلوا عن الطرق العقلية التي يعلمها العقلاء بفطرتهم؛ وهي التي دلتهم عليها الرسل، إلى طرق سلكوها

---

1 وقد بسط شيخ الإسلام رحمه الله الكلام في ذلك في: مجموع الفتاوى 421/5-425، 242/17-260. ودرء تعارض العقل والنقل 83/3-86، 444-446. وشرح الأصفهانية 262/1. ومنهاج السنة النبوية 360/1، 139/2-141، 202، 443/5-444. ودرء تعارض العقل والنقل 122/1-124، 308، 195/5-203، 252/8. وبيان تلبيس الجهمية 178/1، 273.

وذكر الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله في أثناء تحقيقه لكتاب منهاج السنة النبوية 141/2، حاشية رقم (4) أن لابن تيمية رحمه الله كتابا اسمه: ((إبطال قول الفلاسفة بإثبات الجواهر العقلية)) ، ذكره ابن عبد الهادي في كتابه العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ص 36، وابن قيم الجوزية في أسماء مؤلفات ابن تيمية ص 20. وهذا الكتاب من كتب شيخ الإسلام المفقودة.

2 في ((خ)) : عرض. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

مخالفة للشرع والعقل، لا سيما من سلك طريقة الوجوب والإمكان متابعة لابن سينا؛ كالرازي، فإن هؤلاء من أفسد الناس استدلالا كما قد ذكرنا طرق عامة النظار في غير هذا الموضع؛ مثل كتاب منع تعارض العقل والنقل1، وغير ذلك2.
طرق الرازي العقلية في إثبات الصانع
والمقصود هنا أن الرازي ذكر أن ما يستدل به على إثبات الصانع3؛ إما حدوث الأجسام4، وإما حدوث صفاتها5، وإما

---

1 انظر: درء تعارض العقل والنقل 38/1-39، 96-97، 307-308، 73/3، 71/7، 141-142، 242، 382، 17/8-18، 93،، 132/9، 260/10.
2 انظر: من كتب شيخ الإسلام: الاستقامة 102/1. وكتاب الصفدية 41/2-55. ومنهاج السنة النبوية 309/1-310، 315. والفتاوى المصرية 644/6-645. وشرح حديث النزول ص 160-161. والفرقان بين الحق والباطل ص 47. ونقض تأسيس الجهمية 141/1-144، 257-258. والرسالة التدمرية ص 148. ومجموع الفتاوى 313/6، 330،، 44/12.
3 وهذه المسالك جميعها ذكرها الرازي مطولة في كتابه نهاية العقول - مخطوط - ق 58/أ 63/أ. وذكرها مختصرة في كتابه الأربعين ص 70. ومعالم أصول الدين - على هامش محصل أفكار المتقدمين - ص 26-29.
4 وهذه هي طريقة الأشعرية، وعامة من ينفي قيام الأفعال الاختيارية بذات الله تعالى؛ استدلوا بقيام الأعراض بالأجسام على حدوثها - أي الأجسام -. وقد ذمها الأشعري كما تقدم لطولها وغموضها. وسيأتي بيان المصنف لهذه الطريق، والقائلين بها قريبا.
وشيخ الإسلام قد ناقشها وبين بطلانها في الكثير من مصنفاته. انظر: شرح الأصفهانية - ت السعوي - ص 260-261. ودرء تعارض العقل والنقل 96/1، 307-308، 72/3-87، 292/5-294، 229/7-232.
5 كصيرورة النطفة علقة، ثم مضغة، ثم إنسانا - في النهاية، وتحول الطين إلى آجر، ولبن، ثم دار - في النهاية. وهذا التحول في صفات الأجسام يدل على أن لها فاعلا فعلها.
وهذا المسلك ذكره الأشعري في كتابه: اللمع ص 6-7، ط مكارثي. وفي رسالة إلى أهل الثغر ص 34-40.
وشيخ الإسلام يرى أن هذا المسلك صحيح لو جرد من الأمور الباطلة التي أدخلت فيه. انظر: درء تعارض العقل والنقل 83/3.

إمكانها1، وإما إمكان صفاتها2، وذكر في بعض المواضع: وإما الإحكام والإتقان3، لكن الإحكام والإتقان يدل4 على العلم ابتداء، والاستدلال بحدوث الأجسام، وإمكانها، وإمكان صفاتها طرق فاسدة؛

---

1 أي الأجسام.
وهذا المسلك عمدة المتفلسفة؛ كابن سينا وأمثاله. انظر: النجاة لابن سينا ص 383. والرسالة العرشية له ص 2. والتعليقات للفارابي ص 37.
وطريقتهم أن الوجود ينقسم إلى واجب وممكن. وكل ممكن فلا بد له من واجب.
وهذه الطريقة قد نص على ضعفها شيخ الإسلام في العديد من مصنفاته. انظر: درء تعارض العقل والنقل 75/3، 138،، 293/5،، 230/7،، 125/8، 127. ومجموع الفتاوى 49/1. وشرح الأصفهانية - ت السعوي - ص 141-145) .
2 وهذا يعرف بدليل الاختصاص. وقد بنوه على أن الأجسام متماثلة، وتخصيص بعضها بالصفات دون بعض يفتقر إلى مخصص. وقالوا: لا يجوز أن يكون الله تعالى جسما، ونفوا لأجل ذلك صفتي العلو والاستواء. وهو مسلك بعض الأشعرية. انظر: أصول الدين للبغدادي ص69. ونهاية الإقدام للشهرستاني ص 105، 245.
وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله فساد هذه الطريقة في مواضع عديدة من تصانيفه. انظر: درء تعارض العقل والنقل 192/5-203،، 112/7-114، 312/10-316. ونقض تأسيس الجهمية 183/1) .
وانظر: لهذه الطرق عند الرازي: مجموع الفتاوى 246/17. وشرح الأصفهانية 260/1. ودرء تعارض العقل والنقل 307/1.
3 وهذا المسلك أورده شيخ الإسلام، وبين ما فيه من حق وما أدخل سالكوه فيه من باطل. انظر: درء تعارض العقل والنقل 128/3-137.

4 في ((خ)) : تدل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

فإن [دلالة] 1 حدوثها مبنية2 على امتناع حوادث لا أول لها؛ و [دلالة] 3 إمكانها مبنية4 على أن ما قامت به الصفات يمتنع أن يكون واجبا بنفسه؛ لأنه مركب؛ و [دلالة] 5 إمكان صفاتها مبنية6 على تماثلها، فلا بد لتخصيص7 بعضها بالصفات من مخصص. وهذه كلها طرق باطلة.

قال8: وأما الاستدلال بحدوث الصفات، فهو الاستدلال بحدوث الأعراض9.

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

2 في ((خ)) : مبني. وما أثبته من ((م)) ، و ((ط)) .

3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

4 في ((خ)) : مبني. وما أثبته من ((م)) ، و ((ط)) .

5 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

6 في ((خ)) : مبني. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

7 كذا في ((خ)) ، و ((م)) . وفي ((ط)) : للتخصيص.

8 القائل هو الباقلاني الذي قصد شيخ الإسلام رحمه الله بتأليفه لكتابه ((النبوات)) الرد عليه.

وهذه المقولة ليست في كتاب ((البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات)) له، بل هي في كتابه: ((شرح اللمع)) وهو غير موجود. وقد نقل عنه شيخ الإسلام رحمه الله في مواضع متفرقة من درء تعارض العقل والنقل.

9 تقدم أن من الأمثلة على حدوث الصفات: صيرورة النطفة علقة، ثم مضغة، ثم إنسانا. أو: تحول القطن إلى غزل مفتول، ثم ثوب. أو تحول الطين إلى آجر ولبن، ثم إلى دار. وهذا التحول في هذه الأجسام يدل على أن لها فاعلا فعلها. وكذا النطفة: لا بد لها من صانع صنعها، وهو الله تعالى.

وهذا الدليل ذكره الأشعري في كتابه: ((اللمع)) ص 6-7 - ط مكارثي.

ثم جاء بعده الباقلاني، وشرح كتابه: ((اللمع)) ، وحاول أن يفسر أقوال الأشعري في هذه المسألة ليقرب مذهبه؛ فذكر أن الأشعري أراد تعميم النطفة، لتشمل سائر الأعراض، كما حاول الباقلاني أن يدلل على أن مسألة (المحدث لا بد له من محدث) مسألة نظرية تحتاج إلى برهان. بينما لم يتعرض الأشعري لهذه المسألة لاعتقاده أنها بدهية، لا نظرية.

وقد أطال شيخ الإسلام رحمه الله النفس في مناقشة الباقلاني في هذه القضية في درء تعارض العقل والنقل 7/304-307، 8/70-88، 106، 300-343. وخلص إلى أن ما قرره الأشعري في ((اللمع)) خير مما قاله الباقلاني في شرحه لهذا الكتاب.

وهذه الطريق1 أجود ما سلكوه من الطرق مع أنها قاصرة؛ فإن مدارها على أنهم لم يعرفوا حدوث شيء من الأعيان، وإنما علموا حدوث بعض الصفات. وهذا يدل على أنه لا بد لها من محدث2.

قال3: وهذا لا ينفي كون المحدث جسما، بخلاف تلك الطرق4.

وهذه الطريق تدل على أن الأعراض؛ كتركيب الإنسان لا بد له من مركب، ولا ينفي بها شيء من قدم الأجسام والجواهر، بل يجوز أن يكون جميع جواهر الإنسان وغيره قديمة أزلية، لكن حدثت5 فيها الأعراض. ويجوز أن يكون المحدث للأعراض بعض أجسام العالم.

---

1 أي: الاستدلال بحدوث الصفات.

2 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله - في موضع آخر - أن طريقة القرآن هي الاستدلال بحدوث الأعيان والمخلوقات ذاتها؛ من إنسان، وحيوان، وغير ذلك، لا بحدوث الصفات؛ يقول رحمه الله: (الطريقة المذكورة في القرآن هي الاستدلال بحدوث الإنسان وغيره من المحدثات المعلوم حدوثها بالمشاهدة ونحوها على وجود الخالق سبحانه وتعالى، فحدوث الإنسان يستدل به على المحدث، لا يحتاج أن يستدل على حدوثه بمقارنة التغير أو الحوادث له ووجوب تناهي الحوادث. والفرق بين الاستدلال بحدوثه، والاستدلال على حدوثه بين. والذي في القرآن هو الأول لا الثاني؛ كما قال تعالى: {أم خلقوا من غير شيء أم هم

الخالقون} [الطور 35] ، فنفس حدوث الحيوان، والنبات، والمعدن، والمطر، والسحاب، ونحو ذلك معلوم بالضرورة، بل مشهود لا يحتاج إلى دليل، وإنما يعلم بالدليل ما لم يعلم بالحس وبالضرورة) . درء تعارض العقل والنقل 219/7. وانظر: شرح الأصفهانية - ت السعوي - 40/1-41.
3 أي: الباقلاني.
4 كأن الباقلاني يرى أن هذه الطريق أدل على مذهبه - في نفي الصفات خشية التجسيم - من سائر الطرق الأخرى.
5 في ((خ)) : حديث. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

فهذه الطريق لا تنفي أن يكون الرب بعض أجسام العالم.
وتلك باطلة، مع أن مضمونها أن الرب لا يتصف بشيء من الصفات، فهي لا تدل على صانع، وإن دلت على صانع، فليس بموجود، بل معدوم، أو متصف بالوجود والعدم؛ كما قد بسط في غير موضع1.
ولهذا يقول الرازي في آخر مصنفاته2: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن؛ اقرأ في الإثبات: {إليه يصعد الكلم الطيب} 3، {الرحمن على العرش استوى} 4، واقرأ في النفي: {ليس كمثله شيء} 5،

---

1 انظر: درء تعارض العقل والنقل 83/3،، 219/7، 224-232، 300، 304-307،، 70/8-88، 100، 106، 300-343. وشرح العقيدة الأصفهانية - ت السعوي - ص 261-262. ومجموع الفتاوى 267/17-270.
2 في كتاب ((أقسام اللذات)) .
وقد صرح شيخ الإسلام رحمه الله بذكر اسمه بقوله: وقد ذكر هذا الإمام لأتباعه أبو عبد الله الرازي في كتابه أقسام اللذات لما ذكر اللذة العقلية، وأنها العلم، وأن أعرف العلوم العلم بالله، لكنه العلم بالذات والصفات والأفعال، وعلى كل واحدة من ذلك عقدة: هل الوجود هو الماهية أم قدر زائد؟ وهل الصفات زائدة على الذات أم لا؟ وهل الفعل مقارن أم محدث؟ ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب، أو ذاق من هذا الشراب! ". بيان تلبيس الجهمية 128/1-129.
وقال الحافظ ابن القيم رحمه الله عن هذا الكتاب: (وهو كتاب مفيد، صنفه في آخر عمره) . اجتماع الجيوش الإسلامية ص 121.
3 سورة فاطر، الآية 10.
4 سورة طه، الآية 5.
5 سورة الشورى، الآية 11.

{ولا يحيطون به علما} 1. قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي2.
ولما ذكر الرازي الاستدلال بحدث الصفات3؛ كالحيوان، والنبات، والمطر، ذكر أن هذه طريقة القرآن4.
ولا ريب أن القرآن يذكر فيه الاستدلال بآيات الله؛ كقوله: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون} 5. وهذا مذكور بعد قوله: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} 6، وقبل قوله: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله} 7.
لكن القرآن لم يذكر أن هذه صفات حادثة، وأنه ليس فيها إحداث عين

---

1 سورة طه، الآية 110.
2 نقل شيخ الإسلام رحمه الله كلام الرازي هذا في الكثير من مصنفاته. انظر: مجموع الفتاوى 72/4-73. ودرء تعارض العقل والنقل 159/1-160. وشرح حديث النزول ص 441. والفتوى الحموية ص15. ومنهاج السنة النبوية 271/5-272. ونقض المنطق ص 60-61. ومعارج الوصول ص 20. والفرقان بين الحق والباطل ص 84. وبيان تلبيس الجهمية 128/1-129.

3 تقدم ص 351 - 352 أن الرازي ذكرها مطولة في كتابه نهاية العقول، ومختصرة في كتابه الأربعين.
4 انظر: نهاية العقول للرازي - مخطوط - ق 58/ب.
5 سورة البقرة، الآية 164.
6 سورة البقرة، الآية 163.
7 سورة البقرة، الآية 165.

قائمة بنفسها، بل القرآن يبين أن في خلق الأعيان القائمة بنفسها آيات، ويذكر الآيات في خلق الأعيان والأعراض؛ كقوله: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس} 1، وهي أعيان. ثم قال: [{وما أنزل الله من السماء من ماء} ، والماء عين قائمة بنفسها. وقوله:] 2 {فأحيا به الأرض بعد موتها} 3؛ هو ما يخلقه فيها من النبات، وهو أعيان. وكذلك قوله: {وبث فيها من كل دابة} ، وقوله: {وتصريف الرياح} ؛ فالرياح أعيان، وتصريفها أعراض. وقوله: {والسحاب المسخر بين السماء والأرض} ، والسحاب أعيان. {لآيات لقوم يعقلون} 4.
وقد تقدم5 أن أصل الاشتباه في هذا أن خلق الشيء من مادة، هل هو خلق عين، أم إحداث اجتماع [و] 6 افتراق وأعراض فقط.
اختلاف الناس في خلق الشيء هل هو خلق عين، أم إحداث اجتماع وافتراق على ثلاثة أقوال
والناس مختلفون في هذا على ثلاثة أقوال7: فالقائلون بالجواهر المفردة8 من أهل الكلام القائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر الصغار التي قد بلغت من الصغر إلى حد لا يتميز منها جانب عن جانب يقولون: تلك الجواهر باقية تنقلت في الحوادث، ولكن تعتقب عليها الأعراض الحادثة. والاستدلال بالأعراض على حدوث ما يلزمه من الجواهر، ثم

---

1 سورة البقرة، الآية 164.
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((ط)) ، وهو في ((خ)) ، و ((م)) .
3 سورة البقرة، الآية 164.
4 سورة البقرة، الآية 164.
5 انظر: ما تقدم ص 345-351، وما سيأتي ص 1340-1349 من هذا الكتاب.
6 ليست في ((خ)) . وأثبتها من ((م)) ، و ((ط)) .
7 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله اختلاف الناس وأقوالهم في هذه المسألة.. انظر: منهاج السنة النبوية 2140-142. ومجموع الفتاوى 17243-245. ودرء تعارض العقل والنقل 383-86.
8 تقدم تعريف الجوهر الفرد ص 345.

الاستدلال بذلك على المحدث، غير الاستدلال بحدوث هذه الأعراض على المحدث لها؛ فتلك1 هي طريقة الجهمية المشهورة، وهي التي سلكها الأشعري في كتبه كلها متابعة للمعتزلة2، ولهذا قيل: الأشعرية مخانيث المعتزلة3.
وأما الاستدلال بالحوادث على المحدث، فهي الطريقة المعروفة لكل أحد4، لكن تسمية هذه أعراضا هو تسمية القائلين بالجوهر الفرد5، مع

---

1 أي الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث الجواهر والأجسام، ثم الاستدلال بحدوث الجواهر والأجسام على أن لها محدثا. هذه هي طريقة الجهمية، ومن تابعهم.
2 انظر: اللمع ص 7، 22 - ط مكارثي -. ورسالة إلى أهل الثغر ص 218-219. والإبانة - ت فوقية - ص 67، 80-81، 102.
3 هذه العبارة يذكرها شيخ الإسلام رحمه الله كثيرا بقوله: قيل. وقد نسبها في الفتاوى 8227 لأبي إسماعيل الأنصاري رحمه الله، أنه قال: "الأشعرية الإناث، هم مخانيث المعتزلة". وأحيانا يذكر رحمه الله هذه العبارة بقوله: "فالمعتزلة في الصفات مخانيث الجهمية".

وأما الكلابية: فيثبتون الصفات في الجملة، وكذلك الأشعريون، ولكنهم كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصاري: "الأشعرية الإناث، وهم مخانيث المعتزلة". انظر: مجموع الفتاوى 14348-349.
أو يذكرها بقوله: "كما قيل: المعتزلة مخانيث الفلاسفة". انظر: مجموع الفتاوى 1231.
4 وهذه طريقة شرعية عقلية؛ فالقرآن مليء بالآيات التي تحث على التفكر والتدبر في خلق الله للاستدلال به على الخالق. وهو أمر معلوم بضرورة العقل. انظر: مجموع الفتاوى 1425. والرسالة التدمرية ص 20. ومنهاج السنة النبوية 329-30.
5 وهم متأخروا المعتزلة والأشعرية. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص 328. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص165. والصحائف الإلهية للسمرقندي ص255.

أن الرازي توقف في آخر أمره فيه؛ كما ذكر ذلك في نهاية العقول1. وذكر أيضا عن أبي الحسين البصري2، وأبي المعالي3 أنهما توقفا فيه4.
والمقصود أن القائلين بالجوهر الفرد يقولون: إنما أحدث أعراضا لجمع الجواهر وتفريقها. فالمادة5 التي هي الجواهر المنفردة باقية عندهم بأعيانها، ولكن أحدث صورا هي أعراض قائمة بهذه الجواهر6.

---

1 انظر: نهاية العقول - مخطوط - ق 67أ.
2 هو أبو الحسين؛ محمد بن علي الطيب البصري. ولد في البصرة، ودرس في بغداد على القاضي عبد الجبار. من متأخري المعتزلة، ومن أئمتهم. وقال عنه ابن حجر: "شيخ المعتزلة، ليس بأهل للرواية". مات سنة 436?. انظر: لسان الميزان 5598. وشذرات الذهب 359.
3 الجويني.
4 بل إن أكثر طوائف أهل الكلام لم يتكلموا به. انظر: من كتب ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل 4135-136. والرد على المنطقيين ص 67. ومجموع الفتاوى 12318. ومنهاج السنة النبوية 2211. وتفسير سورة الإخلاص ص 86.
5 المادة تسمى عند المتفلسفة: هيولى. وهي أحد جزأي الجسم، والجزء الآخر هو الصورة. وكل جزء من هذا الجسم محله الجزء الآخر. فالصورة صورة للمادة؛ أي أنها تحل بها. والمادة محل للصورة. انظر: التعليقات للفارابي ص 41، 43، 60. والمبين في ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي ص 110.
يقول شيخ الإسلام: "التحقيق أن المادة والصورة لفظ يقع على معان؛ كالمادة والصورة الصناعية، والطبيعية، والكلية، والأولية. فالأول: مثل الفضة إذا جعلت درهما وخاتما وسبيكة، والخشب إذا جعل كرسيا، واللبن والحجر إذا جعل بيتا، والغزل إذا نسج ثوبا، ونحو ذلك. فلا ريب أن المادة هنا التي يسمونها الهيولى هي أجسام قائمة بنفسها، وأن الصورة أعراض قائمة بها، فتحول الفضة من صورة إلى صورة هو تحولها من شكل إلى شكل، مع أن حقيقتها لم تتغير أصلا". درء تعارض العقل والنقل 384.
6 انظر: منهاج السنة النبوية 2139-140.

<u>قول الفلاسفة</u>
وأما المتفلسفة فيقولون: أحدث صورا في مواد باقية كما يقول هؤلاء، لكن [يقولون] 1: أحدث صورا هي جواهر في مادة هي جوهر، وعندهم ثم مادة باقية بعينها، والصور الجوهرية؛ كصورة الماء، والهواء، والتراب، والمولدات تعتقب عليها2.
أقسام الموجودات عند الفلاسفة
وهذه المادة - عندهم3 - جوهر عقلي، وكذلك الصورة المجردة جوهر عقلي4، ولكن الجسم مركب من المادة والصورة5، ولهذا قسموا الموجودات، فقالوا: إما أن يكون الموجود حالا [بغيره] 6، أو محلا، أو مركبا من الحال، والمحل، [أو] 7 لا هذا ولا هذا. فالحال في غيره هو الصورة، والمحل هو المادة، والمركب منهما هو الجسم، وما ليس كذلك؛ إن كان متعلقا بالجسم، فهو النفس، وإلا فهو العقل8.
وهذا التقسيم فيه خطأ كثير من وجوه، ليس هذا موضعها9؛ إذ

1 ملحقة بهامش ((خ)) .
2 انظر منهاج السنة النبوية 1360.
3 أي عند الفلاسفة.
4 انظر كتاب الشفا لابن سينا 361.
5 انظر تهافت الفلاسفة للغزالي ص 163.
6 في ((خ)) : لغيره. وما أثبت من ((م)) و ((ط)) .
7 ليست في ((خ)) وهي في ((م)) و ((ط)) .
8 انظر: كتاب الشفا لابن سينا 372. والتعليقات للفارابي ص 41، 43، 60. وتهافت الفلاسفة للغزالي ص 163. والمبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي ص 110. والتعريفات للجرجاني ص 135، 136، 257.
9 وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله خطأ هذا التقسيم في مواضع متعددة من كتبه. انظر: منهاج السنة النبوية 2211. ودرء تعارض العقل والنقل 4146. وبغية المرتاد ص 416. والرد على المنطقيين ص 67. وكتاب الصفدية 2229.

المقصود أنهم يقولون أيضا أنه لم يحدث جسما قائما بنفسه، بل إنما أحدث صورة في مادة باقية1.
ولا ريب أن الأجسام بينها قدر مشترك في الطول والعرض والعمق، وهو المقدار المجرد الذي لا يختص بجسم بعينه2، ولكن هذا المقدار المجرد هو في الذهن، لا في الخارج؛ كالعدد المجرد، والسطح المجرد، والنقطة المجردة، وكالجسم التعليمي3؛ وهو الطويل العريض العميق الذي لا يختص بمادة بعينها4.

1 راجع المصادر المتقدمة في هامش (6) من الصفحة السابقة.
2 فكل جسم له طول، وعرض، وعمق. ولكن هذه الأبعاد لا تسمى تركيبا. يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "وإذا سمى مسم هذه مركبا كان إما غالطا في عقله؛ لاعتقاده اشتمالها على حقيقتين؛ وجودها، وحقيقتها المغايرة لوجودها. أو على حقيقتين؛ ذات قائمة بنفسها معقولة مستغنية عن صفاتها، وصفات زائدة عليها قائمة بها. أو على جواهر منفردة، أو معقولة، أو نحو ذلك من الأمور التي يثبتها طائفة من الناس ويسمونها تركيبا". انظر: درء تعارض العقل والنقل5146.
3 الجسم التعليمي: هو الذي يقبل الإنقسام طولا وعرضا وعمقا، ونهايته السطح، وهو نهاية الجسم الطبيعي. ويسمى جسما تعليميا إذ يبحث عنه في العلوم التعليمية؛ أي الرياضية الباحثة عن أحوال الكم المتصل والمنفصل منسوبة إلى التعليم والرياضة؛ فإنهم كانوا يبتدؤون بها في تعاليمهم ورياضتهم لنفوس الصبيان لأنها أسهل إدراكا. انظر: التعريفات للجرجاني ص 76.
وانظر: زيادة إيضاح حول هذا الموضوع من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الجواب الصحيح 4307. وفي درء تعارض العقل والنقل 10290.
4 قال شيخ الإسلام رحمه الله - في موضع آخر - عن لفظ الجسم: " ... وكذلك النظار، يريدون بلفظ الجسم تارة المقدار، وقد يسمونه الجسم التعليمي، وتارة يريدون به الشيء المقدر، وهو الجسمي الطبيعي والمقدار المجرد عن المقدار، كالعدد المجرد عن المعدود، وذلك لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان، وكذلك السطح والخط والنقطة المجردة عن المحل الذي تقوم به لا يوجد إلا في الذهن ... ". مجموع الفتاوى 12316-317.

فهذه المادة المشتركة التي أثبتوها هي في الذهن، وليس بين الجسمين في الخارج شيء اشتركا فيه بعينه، فهؤلاء جعلوا الأجسام مشتركة في جوهر عقلي، وأولئك جعلوها مشتركة في الجواهر الحسية. وهؤلاء قالوا: إذا خلق كل شيء من شيء، فإنما أحدثت صورة، مع أن المادة باقية بعينها، لكن أفسدت صورة، وكونت صورة. ولهذا يقولون عن ما تحت الفلك: عالم الكون والفساد1.
ولهذا قال ابن رشد2: "إن الأجسام المركبة من المادة والصورة هي في عالم الكون والفساد، بخلاف الفلك؛ فإنه ليس مركبا من مادة وصورة عند الفلاسفة".

حيرة المتكلمين والفلاسفة في خلق الشيء من مادة
قال3: وإنما ذكر أنه مركب من هذا، وهذا: ابن سينا4.

---

1 انظر: الإرشاد للجويني ص 25، وقد أشار إلى هذا القول للفلاسفة.
2 هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي الفيلسوف. ولد سنة 520؟. من أهل قرطبة. وهو المعروف بابن رشد الحفيد تمييزا له عن جده شيخ المالكية. عني بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية، وزاد عليه زيادات. قربه المنصور أولا، ثم اتهمه خصومه بالزندقة والإلحاد، فنفاه إلى مراكش وأحرق بعض كتبه، ثم رضي عنه، وأذن له بالعودة، فعاجلته الوفاة بمراكش سنة 595؟. من مصنفاته: تهافت التهافت، ومناهج الأدلة. انظر: شذرات الذهب 4320. والأعلام 5318. وسير أعلام النبلاء 21307.
3 أي ابن رشد.
4 تقدمت ترجمته.

[وهؤلاء، وهؤلاء] 1 تحيروا في خلق الشيء من مادة؛ كخلق الإنسان من النطفة، والحب من الحب، والشجرة من النواة، وظنوا أن هذا لا يكون إلا مع بقاء أصل تلك المادة؛ إما الجواهر عند قوم2، وإما المادة المشتركة عند قوم3. وهم في الحقيقة ينكرون أن يخلق الله شيئا من شيء؛ فإنه عندهم لم يحدث إلا الصورة التي هي عرض عند قوم، أو جوهر عقلي عند قوم. وكلاهما لم يخلق من مادة، والمادة عندهم باقية بعينها، لم يخلق، و [لن] 4 يخلق منها شيء.
وقد ذكروا في قوله: {أم خلقوا من غير شيء} 5 ثلاثة أمور:
قال ابن عباس والأكثرون: أم خلقوا من غير خالق، وهو الذي ذكره6 الخطابي7.

---

1 كذا وردت في ((خ)) مكررة. ولا يوجد التكرار في النسختين الأخريين.
2 وهم المتكلمون. انظر: شرح الأصفهانية 1262. ومجموع الفتاوى 5424-425.
3 وهم الفلاسفة. انظر: منهاج السنة النبوية 1360. وشرح الأصفهانية 1262.
4 في ((خ)) : لم. وما أثبته من ((م)) ، و ((ط)) .
5 سورة الطور، الآية 35.
6 في ((خ)) : ذكر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، أبو سليمان. فقيه، محدث، من أهل بست من بلاد كابل، من نسل زيد بن الخطاب. له معالم السنن في شرح سنن أبي داود، وغريب الحديث، والغنية عن الكلام وأهله. توفي في بست سنة 388 ?. انظر: شذرات الذهب 2127. والبداية والنهاية 11346. والأعلام 2273.

وقال الزجاج1، وابن كيسان2: "أم خلقوا عبثا وسدى، فلا يبعثون، ولا يحاسبون، ولا يؤمرون، ولا ينهون؛ كما يقولون: فعلت هذا من غير شيء؛ أي: لغير علة"3.
وقيل: أم خلقوا من غير مادة؛ أي: من غير أب وأم. ثم من هؤلاء من قال: فهم كالجماد. ومنهم من قال: كالسموات؛ ظنا منه أنها خلقت من غير مادة. ذكر الأربعة أبو الفرج45.
وذكر البغوي6 الوجهين الأولين7.

---

1 هو إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج. كان فاضلا دينا حسن الاعتقاد. وله المصنفات الحسنة، منها كتاب معاني القرآن. مات سنة 311 ?. انظر: البداية والنهاية 11159. وتاريخ بغداد 689.

2 هو محمد بن أحمد بن كيسان النحوي، أحد حفاظه والمكثرين منه. كان يحفظ طريقة البصريين والكوفيين معا. قال ابن مجاهد: كان ابن كيسان أنحى من الشيخين؛ المبرد وثعلب. توفي سنة 299 ?. انظر: البداية والنهاية 11125. وسير أعلام النبلاء 16329؛ وقد ترجم لولديه، ولم يفرده بترجمة.
3 انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج 565.
4 هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي القرشي البكري الحنبلي. ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق. قال عنه الذهبي: "الإمام، العلامة، الحافظ، عالم العراق، وواعظ الآفاق". توفي سنة 595 ?. انظر: تذكرة الحفاظ 41342. وسير أعلام النبلاء 21365. وذيل طبقات الحنابلة 1399. وشذرات الذهب 4239.
5 زاد المسير لابن الجوزي 855-56.
6 هو الحسين بن مسعود بن محمد البغوي، صاحب التفسير، وشرح السنة، والتهذيب في الفقه. قال عنه الذهبي: الإمام الحافظ الفقيه المجتهد محيي السنة". وقال عنه ابن كثير: "وكان علامة زمانه فيها، وكان دينا ورعا زاهدا عابدا صالحا". توفي سنة 516 ?. انظر: تذكرة الحفاظ 41257. والبداية والنهاية 12206. وشذرات الذهب 448.
7 انظر: تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل 4241.

قول الفلاسفة في المادة

والذي ذكرناه من قول أولئك المتكلمين والفلاسفة معنى آخر؛ وهو: أن من قال المادة باقية بعينها، وإنما حدث عرض، أو صورة، وذلك لم يخلق من غيره، ولكن أحدث في المادة الباقية. فلا يكون الله خلق شيئا من شيء؛ لأن المادة عندهم لم تخلق.
أما المتفلسفة: فعندهم المادة قديمة أزلية باقية بعينها.

قول المتكلمين في الجواهر

وأما المتكلمون: فالجواهر عندهم موجودة، ما زالت موجودة، لكن من قال إنها حادثة من أهل الملل وغيرهم قالوا: يستدل على حدوثها بالدليل، لا أن خلقها معلوم للناس؛ فهو عندهم مما يستدل عليه بالأدلة الدقيقة الخفية، مع أن ما يذكرونه منتهاه إلى أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. وهو دليل باطل. فلا دليل عندهم على حدوثها. وإذا كانت لم تخلق إذ خلق الإنسان، بل هي باقية في الإنسان، والأعراض الحادثة لم تخلق من مادة، فإذا خلق الإنسان لم [يخلق] 1 من شيء؛ لا جواهره، ولا أعراضه. وعلى قولهم، ما جعل الله من الماء كل شيء حي، ولا خلق كل دابة من ماء، ولا خلق آدم من تراب، ولا ذريته من نطفة، بل نفس الجواهر الترابية باقية بعينها لم تخلق حينئذ، ولكن أحدث فيها أعراض، أو صورة حادثة، وتلك الأعراض ليست من التراب. فلما خلق آدم، لم يخلق شيء من تراب، وكذلك النطفة جواهرها باقية؛ إما الجواهر المنفردة، وإما المادة. والحادث هو عرض، أو صورة في مادة. ولا هذا، ولا هذا خلق من نطفة. وليس قولهم أنه لم يخلق من مادة، معناه أن الخالق أبدعه لا من شيء، وأنهم قصدوا بها تعظيم الخالق، بل الإنسان لا ريب أنه جوهر قائم بنفسه. وعندهم ذلك القائم بنفسه ما زال موجودا،

---

1 في ((ط)) فقط: يخل.

لم يخلق إذ خلق الإنسان. والجوهر الحامل لصورته ما زال موجودا أيضا؛ فلم يخلق عند [هؤلاء1 إلا الأعراض] 2، وعند هؤلاء3 إلا صورة مجردة.

المخلوق عند المتكلمين والفلاسفة

وكلاهما ليس هو الإنسان، بل صفة له، أو صورة له. هذا هو المخلوق4 عندهم؛ يخلق الإنسان فقط.
وقد قال تعالى: {أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا} 5، وقال تعالى: {وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا} 6. فقد أمر الإنسان أن يتذكر أن الله خلقه ولم يك شيئا. والإنسان إذا تذكر إنما يذكر أنه خلق من نطفة.

الجواهر والأعراض عند المتكلمين

وعندهم ما زال جواهر الإنسان شيئا، وذلك الشيء باق، وإنما حدث أعراض لتلك الأشياء. ومعلوم أن تلك الأعراض وحدها ليست هي الإنسان؛ فإن الإنسان مأمور، منهي، حي، عليم، قدير، متكلم، سميع، بصير، موصوف بالحركة والسكون. وهذه

صفات الجواهر، والعرض لا يوصف بشيء؛ لا سيما وهم يقولون: العرض لا يبقى زمانين7. فالمخلوق - على قولهم - لا يبقى زمانين، بل يفنى عقب ما يخلق.

اضطرابهم في البعث

ولهذا اضطربوا في المعاد؛ فإن معرفة المعاد مبنية على معرفة المبدأ، والبعث مبني على الخلق. فقال بعضهم: هو تفريق تلك الأجزاء، ثم جمعها، وهي

---

1 أي المتكلمون.

2 في ((خ)) : هؤلاء الأعراض. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 أي الفلاسفة.

4 كذا في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) . وفي حاشية ((خ)) كتب: لعله المراد.

5 سورة مريم، الآية 67.

6 سورة مريم، الآية 9.

7 تقدمت مقولتهم هذه ص 310.

باقية بأعيانها. وقال بعضهم: بل يعدمها، ويعدم الأعراض القائمة بها، ثم يعيدها، وإذا أعادها فإنه يعيد تلك الجواهر التي كانت باقية، إلى أن حصلت في هذا الإنسان.

اضطرابهم في جواهر المأكول إذا أعيدت من الآكل

فلهذا اضطربوا لما قيل لهم: فالإنسان إذا أكله حيوان آخر، فإن أعيدت تلك الجواهر من الأول، نقصت من الثاني، وبالعكس.

أما على قول من يقول إنها تفرق ثم تجمع، فقيل له: تلك الجواهر إن جمعت للآكل، نقصت من المأكول، وإن [أعيدت] 1 للمأكول، نقصت من الآكل2.

وأما الذي يقول: تعدم ثم تعاد بأعيانها، فقيل له: أتعدم لما أكلها الآكل، أم قبل أن يأكلها؟ فإن كان بعد أن أكلها؛ فإنها تعاد في الآكل، فينقص المأكول. وإن كان قبل الأكل، فالآكل لم يأكل إلا أعراضا، لم يأكل جواهر. [فهذا] 3 مكابرة. ثم إن المشهور أن الإنسان يبلى ويصير ترابا كما خلق من تراب، وبذلك أخبر الله. فإن قيل: إنه إذا صار ترابا عدمت تلك الجواهر؛ فهو لما خلق من تراب عدمت أيضا تلك الجواهر. فكونهم يجعلون الجواهر باقية في جميع الاستحالات - إلا إذا صار ترابا - تناقض بين، ويلزمهم عليه الحيوان المأكول، وغير ذلك.

وكأن هذا الضلال [أصل] 4 ضلالهم في تصور الخلق الأول، والنشأة

---

1 في ((ط)) : أعقيدت. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .

2 وقد بحث شيخ الإسلام رحمه الله هذه المسألة في مواضع أخرى. انظر: مجموع الفتاوى 17247، 257. وانظر: هذه المسألة في شرح الطحاوية ص 523. وفي لوامع الأنوار 2160.

3 في ((خ)) : وهذا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 في ((خ)) : أصله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

الأولى التي أمرهم الرب أن يتذكروها ويستدلوا بها على قدرته على الثانية1. قال تعالى: {أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون} 2.

والفلاسفة أجود تصورا في هذا الموضع؛ حيث قالوا: تفسد الصورة الأولى وهي جوهر، وتحدث صورة أخرى. فإن هذا أجود من أن يقال: يزول عرض ويحدث عرض.

ولكن الفلاسفة غلطوا في توهمهم أن هناك مادة باقية بعينها، وإنما تفسد صورتها.

التحقيق في مسألة المادة

والحق أن المادة التي منها يخلق الثاني تفسد، وتستحيل، وتتلاشى، وينشئ الله الثاني ويبتديه، ويخلق3 من غير أن يبقى من الأول شيء؛ لا مادة، ولا صورة، ولا جوهر، ولا عرض. فإذا خلق الله الإنسان من المني، فالمني استحال وصار علقة، والعلقة استحالت وصارت مضغة، والمضغة استحالت إلى عظام وغير عظام. والإنسان بعد أن خلق، خلق كله؛ جواهره وأعراضه، وابتدأه الله ابتداء؛ كما قال تعالى: {الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين} 4، وقال تعالى: {أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا} 5.

1 أي النشأة الثانية.
2 سورة الواقعة، الآيات 58-62.
3 في ((خ)) : يخلقه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة السجدة، الآيتان 7-8.
5 سورة مريم، الآية 67.

فالإنسان مخلوق، خلق الله جواهره وأعراضه كلها من المني؛ من مادة استحالت، ليست باقية بعد خلقه؛ كما تقول المتفلسفة أن هناك مادة باقية1.

ولفظ المادة مشترك:

فالجمهور يريدون به ما منه خلق، وهو أصله وعنصره.

وهؤلاء يريدون بالمادة جوهر باق، وهو محل للصورة الجوهرية. فلم يخلق عندهم الإنسان من مادة، بل المادة باقية، وأحدث2 صورته فيها؛ كما أن الصور الصناعية؛ كصورة الخاتم، والسرير، والثياب، والبيوت، وغير ذلك إنما أحدث الصانع صورته العرضية في مادة لم تزل موجودة ولم تفسد، ولكن حولت من صفة إلى صفة. فهكذا تقول الجهمية المتكلمة المبتدعة أن الله أحدث صورة عرضية في مادة باقية لم تفسد؛ فيجعلون خلق الإنسان بمنزلة عمل الخاتم، والسرير، والثوب.

والمتفلسفة تقول أيضا: إن مادته باقية لم تفسد؛ كمادة الصورة الصناعية، لكن يقولون: إنه أحدث صورة جوهرية. وهم قد يخلطون ولا يفرقون بين الصور العرضية والجوهرية؛ فإنهم يسمون صورة الإنسان صورة في مادة، وصورة الخاتم صورة في مادة؛ فيكون خلق الإنسان عند هؤلاء وهؤلاء من جنس ما يحدثه الناس في الصور من المواد، ويكون خلقه بمنزلة تركيب الحائط من اللبن. ولهذا قال من قال منهم: إنه يستغني عن الخالق بعد الخلق، كما يستغني الحائط عن البناء.

1 انظر: درء تعارض العقل والنقل 1308؛، 5195-203. ومنهاج السنة النبوية 2140.
2 في ((خ)) : وأحدثت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

والأشعرية عندهم أن البناء، والخياط، وسائر أهل الصنائع لم يحدثوا في تلك المواد شيئا؛ فإن القدرة المحدثة - عندهم - لا تتعلق إلا بما هو في محلها، لا خارجا عن محلها. ويقولون: إن تلك المصنوعات كلها مخلوقة لله، ليس للإنسان فيها صنع.

وخلق الله على أصلهم: هو إحداث أعراض فيها كما تقدم1.

فينكرون ما يصنعه الإنسان، وهو في الحقيقة مثلما يجعلونه [مخلوقا] 2 للرحمن، وهم لا يشهدون للرحمن إحداثا ولا إفناء، بل إنما يحدث عندهم الأعراض، وهي تفنى بأنفسها، لا بإفنائه، وهي تفنى عقب إحداثها.

إفناء الأعراض والجواهر عند المتكلمين

وهذا لا يعقل، وهم حائرون؛ إذا أراد أن يعدم الأجسام، كيف يعدمها؟. والمشهور - عندهم - أنها تعدم بأنفسها إذا لم يخلق لها أعراضا. فالعرض يفني عندهم بنفسه، والجوهر يفني بنفسه إذا لم يخلق له عرض بعد عرض. هذا في الإفناء. وأما في الإحداث: فإنهم استدلوا على حدوثها بدليل باطل، لو كان صحيحا، للزم حدوث كل شيء من غير محدث.

فحقيقة أصل [أهل] الكلام المتبعين للجهمية: أنه لا يحدث شيئا، ولا يفني شيئا، بل يحدث كل شيء بنفسه، ويفني بنفسه، ويلزمهم جواز أن يكون الرب محدثا أيضا بلا محدث.

وهذه الأصول [هي] 3 أصول دينهم العقلية التي بها يعارضون الكتاب، والسنة، والمعقولات الصريحة، وهي في الحقيقة لا عقل،

1 انظر: ص 361-367 من هذا الكتاب.
2 في ((خ)) : مخلوقة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهي في ((م)) ، و ((ط)) .

ولا سمع؛ كما حكى [الله] 1 عن من قال: {لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} 2.
والخلق يشهدون إحداث الله لما يحدثه، وإفناءه لما يفنيه؛ كالمني الذي استحال، وفني، وتلاشى، وأحدث منه هذا الإنسان؛ وكالحبة التي فنيت، واستحالت، وأحدث منها الزرع؛ وكالهواء الذي استحال، وفني، وحدث منه النار أو الماء؛ وكالنار التي استحالت، وحدث منها الدخان. فهو - سبحانه - دائما يحدث ما يحدثه ويكونه، ويفني ما يفنيه ويعدمه. والإنسان إذا مات وصار ترابا فني وعدم، وكذلك سائر ما على الأرض؛ كما قال: {كل من عليها فان} 3، ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداء من التراب، ويخلقه خلقا جديدا.
ولكن للنشأة الثانية [أحكام] 4 وصفات ليست للأولى.
فمعرفة الإنسان بالخلق الأول، وما يخلقه من بني آدم وغيرهم من الحيوان، وما يخلقه من الشجر والنبات والثمار، وما يخلقه من السحاب والمطر وغير ذلك: هو أصل لمعرفته بالخلق، والبعث بالمبدأ والمعاد، وإن لم يعرف أن الله يخلقه كله من المني؛ جواهره وأعراضه، وإلا فما عرف أن الله خلقه. ومن ظن أن جواهره لم يخلقها إذ خلقه، بل جواهر المني، وجواهر ما يأكله ويشربه باقية بعينها فيه، لم يخلقها، أو أن مادته التي تقوم بها صورته لم يخلقها إذ خلقه، بل هي باقية أزلية أبدية، لم يكن قد عرف أنه مخلوق محدث.

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهي في ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة الملك، الآية 10.
3 سورة الرحمن، الآية 26.
4 في ((ط)) فقط: أحكاما.

والعلماء ينكرون على من يقول إن روح الإنسان قديمة أزلية من المنتسبين إلى الإسلام.
وهؤلاء الذين يقولون1 إن مادة جسمه باقية بعينها، وهي أزلية أبدية، أبعد عن العقل والنقل منهم. وأولئك أنكروا عليهم حيث قالوا: [الإنسان] 2 مركب من قديم ومحدث؛ من لاهوت قديم، وناسوت محدث.
[و] 3 هؤلاء4 جعلوه مركبا من مادة قديمة أزلية، وصورة محدثة، وجعلوا القديم الأزلي فيه أخس ما فيه، وهو المادة؛ فإنها عندهم أخس الموجودات، وهي قديمة أزلية. وأولئك5 جعلوا القديم الأزلي أشرف ما فيه وهي النفس الناطقة. وكلتا الطائفتين وإن كان ضالا؛ فالشريف العالي أولى بالقدم من الخسيس السافل، وهذا أولى بالحدوث.
وأما المتكلمة الجهمية: فهم لا يتصورون ما يشهدونه؛ من حدوث هذه الجواهر في جواهر أخر من مادة، ثم يدعون أن الجواهر جميعها أبدعت ابتداء لا من شيء. وهم لم يعرفوا قط جوهرا أحدث لا من شيء، كما لم يعرفوا عرضا أحدث لا في محل.
وحقيقة قولهم: أن الله لا يحدث شيئا من شيء؛ لا جوهرا، ولا عرضا؛ فإن الجواهر كلها أحدثت لا من شيء، والأعراض كذلك.

1 وهم الفلاسفة المنتسبون للإسلام، والمتكلمون.
2 في ((ط)) فقط: لإنسان.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : أو.
4 الذين يقولون: إن مادة جسم الإنسان باقية بعينها، وهي أزلية أبدية.
5 الذين قالوا: "إن روح الإنسان قديمة أزلية، وإن الإنسان مركب من لاهوت قديم، وناسوت محدث.

والمشهود المعلوم للناس إنما هو إحداثه لما يحدثه من غيره، لا إحداثا من غير مادة، ولهذا قال تعالى: {وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا} 1، ولم يقل خلقتك لا من شيء، وقال تعالى: {والله خلق كل دابة من ماء} 2، ولم يقل خلق كل دابة لا من شيء، وقال تعالى: {وجعلنا من الماء كل شيء حي} 3.

الرد على الجهمية

وهذا4 هو القدرة التي تبهر العقول؛ وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيل الأول ويفنيه ويلاشيه، ويحدث شيئا آخر؛ كما قال: {فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي} 5، ويخرج الشجرة الحية، والسنبلة الحية، من النواة والحبة الميتة، ويخرج النواة الميتة، والحبة الميتة، من الشجرة والسنبلة الحية؛ كما يخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة، والنطفة الميتة من الإنسان الحي.

وعندهم6 لا يخرج حيا من ميت، ولا ميتا من حي؛ فإن الحي والميت إنما هو الجوهر القائم بنفسه؛ فإن الحياة عرض لا يقوم إلا بجوهر، والعرض نفسه لا يقوم بعرض آخر. وإن كان العرض يوصف بأنه حي؛ كما يقال: قد أحييت العلم والإيمان، وأحييت الدين، وأحييت السنة والعدل؛ كما يقال: [أمات] 7 البدعة.

---

1 سورة مريم، الآية 9.

2 سورة النور، الآية 45.

3 سورة الأنبياء، الآية 30.

4 هكذا وردت في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) .

5 سورة الأنعام، الآية 95.

6 عند المتكلمة الجهمية.

7 في ((خ)) رسمت هكذا: امه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

فهؤلاء1 عندهم لا يخرج جوهرا من جوهر، ولا عرضا من عرض؛ فلا يخرج حيا من ميت، ولا ميتا من حي، بل الجواهر التي كانت في الميت هي بعينها باقية كما كانت، ولكن أحدث فيها حياة لم تكن.

وتلك الحياة لم تخرج من ميت؛ فما أخرج عندهم حي من ميت، ولا ميت من حي، ولهذا ينكرون أن يقلب الله جنسا إلى جنس آخر، ويقولون: الجواهر كلها جنس واحد؛ فإذا خلق النطفة إنسانا، لم يقلب عندهم جنسا إلى جنس، بل نفس الجواهر هي باقية كما كانت. وخاصية الخلق إنما هي بقلب جنس إلى جنس، وهذا لا يقدر عليه إلا الله؛ كما قال تعالى: {يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز} 2.

ولا ريب أن النخلة ما هي من جنس النواة، ولا السنبلة من جنس الحبة، ولا الإنسان من جنس المني، ولا المني من جنس الإنسان. وهو يخرج هذا من هذا، وهذا من هذا؛ فيخرج كل جنس من جنس آخر بعيد عن مماثلته3، و {هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه} 4.

وهو سبحانه إذا جعل الأبيض أسود، أعدم ذلك البياض، وجعل موضعه السواد، لا أن الأجسام تعدم تلك المادة [فتحيلها، وتلاشيها، وتجعل] 5

---

1 المتكلمة الجهمية.

2 سورة الحج، الآية 73، 74.

3 انظر: درء تعارض العقل والنقل 1308، ففيه كلام مماثل لما هنا. وكذا المصدر نفسه 5201.

4 سورة لقمان، الآية 11.

5 في ((خ)) : فيحيلها، ويلاشيها، ويجعل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

منها هذا المخلوق الجديد، ويخلق الضد من ضده؛ كما جعل من الشجر الأخضر نارا، فإذا حك الأخضر بالأخضر، سخن ما يسخنه بالحركة، حتى ينقلب نفس الأخضر فيصير نارا1. وعلى قولهم ما جعل فيه نارا، بل تلك الجواهر باقية بعينها، وأحدث فيها [عرض] 2 لم يكن.

وخلق الشيء من غير جنسه أبلغ في قدرة القادر الخالق سبحانه وتعالى؛ كما وصف نفسه بذلك في قوله: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب} 3. ولهذا قال للملائكة: {إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} 4، وقال: {ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون} 5.

ولهذا امتنع اللعين؛كما قال تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا} 6، وقال: {لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون} 7.

---

1 كما قال تعالى: {الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون} . سورة يس، الآية 80.
والمقصود به ما يشاهدونه من جعله النار من العفار والمرخ، وهما شجرتان خضراوان، إذا حكت إحداهما بالأخرى بتحريك الريح لها، اشتعل النار فيها.
انظر: تفسير الطبري 2332. ورسالة إلى أهل الثغر ص 160.

2 في ((ط)) فقط: عرضا.

3 سورة آل عمران، الآيتان 26-27.

4 سورة ص، الآيتان 71-72.

5 سورة المرسلات، الآية 20-23.

6 سورة الإسراء، الآية 61.

7 سورة الحجر، الآية 33.

وأيضا: فكون الشيء مخلوقا من مادة وعنصر، أبلغ في العبودية من كونه خلق لا من شيء، وأبعد عن مشابهة الربوبية؛ فإن الرب هو أحد، صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد؛ فليس له أصل وجد منه، ولا فرع يحصل عنه.

فإذا كان المخلوق له أصل وجد منه، كان بمنزلة الولد له، وإذا خلق له شيء آخر، كان بمنزلة الوالد، وإذا كان والدا ومولودا كان أبعد عن مشابهة الربوبية والصمدية؛ فإنه خرج من غيره، ويخرج منه غيره؛ لا سيما إذا كانت المادة التي خلق منها مهينة؛ كما قال تعالى: {ألم نخلقكم من ماء مهين} 1، وقال تعالى {فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر} 2.

وفي المسند عن [بسر] 3 بن جحاش4 قال: "بصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في كفه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال: يقول الله تعالى: ابن آدم أنى [تعجزني] 5، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت، ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي، قلت أتصدق، وأنى أوان الصدقة"6.

---

1 سورة المرسلات، الآية 20.

2 سورة الطارق، الآيات 5-10.

3 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : بشر - بالشين المعجمة. وقد قال الدارقطني، وابن زبر، وغيرهما: لا يصح بالمعجمة.
انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر 1148.

4 هو بسر بن جحاش القرشي. صحابي، نزل حمص، ومات بها. الإصابة لابن حجر 1148.

5 في ((ط)) فقط: تعج.

6 أخرجه الإمام أحمد في مسنده 4210. وابن ماجه في سننه 1903، وقال في الزوائد: إسناده صحيح.

وكذلك إذا خلق في محل مظلم وضيق؛ كما خلق الإنسان في ظلمات ثلاث، كان أبلغ في قدرة القادر، وأدل على عبودية الإنسان، وذله لربه، وحاجته إليه.
وقد يقول [المعير] 1 للرجل: مالك أصل ولا فصل2، و [لكن] 3 الإنسان أصله التراب، وفصله الماء المهين.
ولهذا لما خلق المسيح من غير أب، وقعت به الشبهة لطائفة4، وقالوا: إنه ابن الله، مع أنه لم يخلق إلا من مادة أمه، ومن الروح التي نفخ فيها؛ كما قال تعالى: {ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا} 5، [وقال تعالى أيضا] 6: {فتمثل لها بشرا سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك [لأهب] 7 لك غلاما زكيا} 8؛ فما خلق من غير مادة [يكون] 9 كالأب له، قد يظن فيه أنه ابن الله، وأن الله خلقه من ذاته.

---

1 في ((خ)) رسمت هكذا: المعري. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في مجمع الأمثال للميداني: "لا أصل له ولا فصل". قال الكسائي: "الأصل: الحسب، والفصل: اللسان؛ يعني النطق". مجمع الأمثال 2285. وانظر: اللسان 1117، مادة أصل.
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 المقصود بهم النصارى.
5 سورة التحريم، الآية 12.
6 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
7 في ((خ)) : ليهب.
8 سورة مريم، الآيات 17-19.
9 في ((م)) ، و ((ط)) : تكون.

فلهذا كانت الأنبياء مخلوقة من مادة لها أصول، ومنها فروع، لها والد ومولود. والأحد الصمد: لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.
وحدوث الشيء لا من مادة، قد يشبه حدوثه من غير رب خالق، وقد يظن أنه حدث من ذات الرب؛ كما قيل مثل ذلك في المسيح، والملائكة أنها بنات الله، لما لم يكن لها [أب] 1، مع أنها مخلوقة من مادة؛ كما ثبت في الصحيح؛ صحيح مسلم عن عائشة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم"2.
ولما ظن طائفة أنها لم تخلق من مادة، ظنوا أنها قديمة أزلية. وأيضا فالدليل الذي احتج به كثير من الناس على أن كل حادث لا يحدث إلا من شيء، أو في شيء؛ فإن كان عرضا لا يحدث إلا [في] 3 محل، وإن كان عينا قائمة بنفسها لم [تحدث] 4 إلا من مادة، فإن الحادث إنما يحدث إذا كان حدوثه ممكنا، وكان يقبل الوجود والعدم، فهو مسبوق بإمكان الحدوث وجوازه، فلا بد له من محل يقوم به هذا الإمكان والجواز.
وقد تنازعوا في هذا: هل الإمكان صفة خارجية، لا بد لها من محل، أو هي حكم عقلي لا يفتقر إلى غير الذهن؟

---

1 في ((خ)) : أبا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 42294. والإمام أحمد في مسنده 6153، 168.
3 في ((خ)) : من. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : يحدث. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

الإمكان نوعان
والتحقيق: أنه نوعان: فالإمكان الذهني: وهو تجويز الشيء، أو عدم العلم بامتناعه، محله الذهن. والإمكان الخارجي المتعلق بالفاعل، أو المحل؛ مثل أن [تقول] 1: يمكن القادر أن يفعل، والمحل؛ مثل أن [تقول] 2: هذه الأرض يمكن أن تزرع، وهذه

المرأة يمكن أن تحبل. [و] 3 هذا لا بد له من محل خارجي، فإذا قيل عن الرب: يمكن أن يخلق؛ فمعناه أنه يقدر على ذلك، ويتمكن منه. وهذه صفة قائمة به.
وإذا قيل: يمكن أن يحدث حادث؛ فإن قيل يمكن حدوثه بدون سبب حادث، فهو ممتنع، وإذا كان الحدوث لا بد له من سبب حادث؛ فذاك السبب إن كان قائما بذات الرب، فذاته قديمة أزلية، واختصاص ذلك الوقت بقيام مشيئة، أو تمام تمكن، ونحو ذلك، لا يكون إلا لسبب قد أحدثه قبل هذا في غيره، فلا يحدث حادث مباين إلا مسبوقا بحادث مباين له.
فالحدوث مسبوقا بإمكانه، ولا بد لإمكانه من محل، ولهذا لم يذكر الله قط أنه أحدث شيئا إلا من شيء. والذي يقول إن جنس الحوادث حدثت لا من شيء، هو كقولهم: إنها حدثت بلا سبب حادث، مع قولهم إنها كانت ممتنعة، ثم صارت ممكنة، من غير تجدد سبب، بل حقيقة قولهم أن الرب صار قادرا بعد أن لم يكن، من غير تجدد شيء يوجب ذلك.
وهذه الأمور كلها من أقوال الجهمية؛ أهل الكلام المحدث المبتدع المذموم، وهو بناء على قولهم: إنه تمتنع حوادث لا أول لها.
وهؤلاء وأمثالهم غلطوا فيما جاء به الشرع، وأخبرت به الرسل؛ كما غلطوا في المعقولات؛ فكل واحد مما يسمى شرعا، وعقلا، وسمعا، قد وقع فيه اشتباه.

---

1 في ((خ)) : يقول. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : يقول. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

معنى الشرع
فالشرع يطلق تارة على ما جاء به الرسول؛ من الكتاب والسنة. هذا هو الشرع المنزل، وهو الحق الذي ليس لأحد خلافه، ويطلق على ما يضيفه بعض الناس إلى الشرع إما بالكذب والافتراء، وإما بالتأويل والغلط، وهذا شرع مبدل لا منزل ولا يجب، بل ولا يجوز اتباعه.
لفظ السنة
وكذلك لفظ السنة: فإن السنة التي يجب اتباعها هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسنة تذكر في الأصول والإعتقادات، وتذكر في الأعمال والعبادات. وكلاهما يدخل فيما أخبر به وأمر به؛ فما أخبر به وجب تصديقه فيه، وما أوجبه وأمر به وجبت طاعته فيه.
ثم كثير من الناس يضيف إلى السنة ما أدخله بعض الناس فيها؛ إما بالكذب، وإما بالتأويل؛ مثل أحاديث كثيرة ضعيفة، بل موضوعة، واستدلالات بأقواله على ما لا يدل عليه، ومثل أقوال أحدثها قوم انتسبوا إلى السنة في بعض الأمور؛ مثل إثبات الصفات، والقدر؛ فإن [المنتسبين] 1 لذلك يضافون إلى السنة؛ لأن نفاة الصفات، والقدر مبتدعة.
وكذلك حب الخلفاء الراشدين، وموالاتهم يضاف أهله إلى السنة؛ لأن الطاعنين فيهم أهل بدعة.
ومثل الإستدلال بالنصوص على موارد النزاع؛ فإن أهل ذلك يضافون إلى السنة؛ لكونهم يقصدون اتباع القرآن والحديث، والمخالفون لذلك الذين يردون الأخبار الصحيحة، أو لا يحتجون بالقرآن مبتدعون.
ثم قد يقول المضافون إلى السنة أشياء ليست من السنة؛ مثل أحاديث كثيرة يروونها في فضائل بعض الصحابة، وهي كذب؛ ومثل [نفي] 2

---

1 في ((خ)) : المنتبين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((ط)) فقط: تقى.

الحكمة والأسباب في مسائل القدر؛ ومثل كلامهم في الأجسام والاعراض، وتناهي الحوادث، ونحو ذلك مما لم يأخذوه عن الرسول. فهذا ليس من السنة، وإن كان أهلها وافقوا السنة في مواضع خالفهم [فيها] 1 من تنازعهم في هذه المسائل.
فلا يجب إذا كانوا أصابوا حيث وافقوا السنة، أن يصيبوا حيث لم يوافقوها.
وكذلك مسمى العقل؛ فإن مسمى العقل قد مدحه الله في القرآن في غير آية2.

لكن لما أحدث قوم من الكلام المبتدع المخالف للكتاب والسنة - بل وهو في نفس الأمر مخالف للمعقول، وصاروا يسمون ذلك عقليات، وأصول دين، وكلاما في أصول الدين، صار من عرف أنهم مبتدعة ضلال في ذلك ينفر عن جنس المعقول، والرأي، والقياس، والكلام، والجدل. فإذا رأى من يتكلم بهذا الجنس اعتقده مبتدعا مبطلا؛
وهؤلاء وهؤلاء أدخلوا في مسمى الشرع والعقل ما هو محمود وما هو مذموم
كما أن هؤلاء3 لما رأوا أن جنس المنتسبين إلى السنة والشرع والحديث قد أخطأوا في مواضع، وخالفوا فيها صريح المعقول، وهم يقولون إن السنة جاءت بذلك، صار هؤلاء ينفرون عن جنس ما يستدل في الأصول بالشرع والسنة،

---

1 في ((خ)) : فيه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 قال تعالى: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} [سورة الملك، الآية 10] . وقال تعالى: {ويريكم آياته لعلكم تعقلون} [سورة البقرة، الآية 73] . وقال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون} [سورة العنكبوت، الآية 43] . وقال تعالى: {لا يملكون شيئا ولا يعقلون} [سورة الزمر، الآية 43] .
3 المتفلسفة.

ويسمونهم حشوية وعامة1. وكل من هؤلاء، وهؤلاء أدخلوا في مسمى الشرع والعقل والسمع ما هو محمود ومذموم.
[ثم هؤلاء قبلوا من مسمى الشرع والسنة عندهم محموده ومذمومه، وخالفوا مسمى العقل محموده ومذمومه] 2. وأولئك قبلوا مسمى العقل عندهم محموده، ومذمومه، [وخالفوا مسمى الشرع محموده ومذمومه] 3.

---

1 الحشو من الكلام: الفضل الذي لا يعتمد عليه. وكذلك هو من الناس؛ فحشوة الناس: رذالتهم. انظر: لسان العرب 14180. وتهذيب اللغة 5137-138.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "مسمى الحشو في لغة الناطقين به ليس هو اسما لطائفة معينة لها رئيس قال مقالة فاتبعته؛ كالجهمية، والكلابية، والأشعرية، ولا اسما لقول معين من قاله كان كذلك. والطائفة إنما تتميز بذكر قولها، أو بذكر رئيسها ... - إلى أن قال: - وإذا كان كذلك، فأول من عرف أنه تكلم في الإسلام بهذا اللفظ: عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة؛ فقيههم وعابدهم، فإنه ذكر له عن ابن عمر شيء يخالف قوله، فقال: كان ابن عمر حشويا؛ نسبه إلى الحشو، وهم العامة والجمهور. وكذلك تسميهم الفلاسفة كما سماهم صاحب هذا الكتاب - يعني الرازي -. والمعتزلة ونحوهم يسمونهم الحشوية. والمعتزلة تعني بذلك كل من قال بالصفات وأثبت القدر. وأخذ ذلك عنها متأخرو الرافضة، فسموا هم الجمهور بهذا الاسم. وأخذ ذلك عنهم القرامطة الباطنية فسموا بذلك كل من اعتقد صحة ظاهر الشريعة؛ فمن قال عندهم بموجب الصلوات الخمس، والزكاة المفروضة، وصوم رمضان، وحج البيت، وتحريم الفواحش والمظالم والشرك ونحو ذلك، سموه حشويا؛ كما رأينا ذلك مذكورا في مصنفاتهم. والفلاسفة تسمي من أقر بالمعاد الجسمي والنعيم الحسي حشويا. وأخذ ذلك عن المعتزلة تلامذتهم من الأشعرية فسموا من أقر بما ينكرونه من الصفات، ومن يذم ما دخلوا فيه من بدع أهل الكلام والجهمية والإرجاء حشويا. ومنهم أخذ ذلك هذا المصنف" - يعني الرازي -. بيان تلبيس الجهمية 1242، 244-245.
وانظر: كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن لفظ ((الحشوية)) في منهاج السنة النبوية 2520-522. ومجموع الفتاوى 487، 89، 146،، 3186،، 12176.
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

فيجب البيان والتفصيل والاستفسار، وبيان الفرقان بين الحق والباطل؛ فإن ذلك يوجب التصديق بما جاء به الشرع المنزل، والسنة الغراء؛ وهو المعقول الحق؛ وهو الكلام الصدق؛ وهو الجدل بالتي هي أحسن؛ ويوجب رد ما أدخل في الشرع والسنة، وليس منها؛ ورد ما سمي معقولا، وهو باطل؛ وسمي كلاما صدقا، وهو كذب؛ وسمي جدلا بالتي هي أحسن، وهو جدل بالباطل بغير علم.

ولهذا حصل من الذين لبسوا الحق بالباطل تبديل لما بدلوه من الدين، وتحريف الكلم عن مواضعه، ومضاهاة لأهل الكتاب مما ذمهم الله عليه. والبخاري في أول كتاب ((خلق أفعال العباد)) : ذكر الرد على المعطلة الذين يبدلون كلام الله من الجهمية، وذكر من كلام السلف والأئمة فيهم ما عرف به مقصودهم1.

التبديل نوعان

والتبديل نوعان: أحدهما: أن يناقضوا خبره. والثاني: أن يناقضوا أمره. فإن الله بعثه بالهدى ودين الحق، وهو صادق فيما أخبر به عن الله، آمر بما أمر الله به؛ كما قال: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} 2. وأهل التبديل [الذين يضيفون إلى دينه وشرعه ما ليس منه، وهم أهل الشرع المبدل] 3: تارة يناقضونه في خبره؛ فينفون ما أثبته، أو يثبتون ما نفاه؛

---

1 وكتابه - رحمه الله - قسمه إلى جزئين؛ الأول منهما في ذكر كلام السلف والأئمة؛ وابتدأه بباب سماه: باب ما ذكر أهل العلم للمعطلة الذين يريدون أن يبدلوا كلام الله عز وجل. انظر: ص 7-24. وأما الجزء الثاني فقد أفرده للرد على الجهمية، وابتدأه بباب سماه: باب الرد على الجهمية وأصحاب التعطيل. انظر: ص 71 وما بعدها.

2 سورة النساء، الآية 80.

3 ما بين المعقوفتين ملحقة بهامش ((خ)) .

كالجهمية الذين ينفون ما أثبته من صفات الله وأسمائه؛ والقدرية الذين ينفون ما أثبته من قدر الله ومشيئته وخلقه وقدرته؛ والقدرية المجبرة الذين ينفون ما أثبته من عدل الله وحكمته ورحمته، ويثبتون ما نفاه من الظلم والعبث والبخل ونحو ذلك عنه. وأمثال ذلك.

ومسائل أصول الدين عامتها من هذا الباب.

الذين أوجبوا النظر لإثبات الصانع

ثم إنهم أيضا يوجبون ما لم يوجبه، بل حرمه، ويحرمون ما لم يحرمه، بل أوجبه؛ فيوجبون اعتقاد هذه الأقوال والمذاهب المناقضة لخبره، وموالاة أهلها، ومعاداة من خالفها. ويوجبون النظر المعين في طريقهم الذي أحدثوه؛ كما أوجبوا النظر في دليل الأعراض الذي استدلوا به على حدوث الأجسام1، وقالوا: يجب على كل مكلف أن ينظر فيه ليحصل له العلم بإثبات الصانع2،

---

1 وهذا نظر مخصوص؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر: "جعلوا ذلك نظرا مخصوصا؛ وهو النظر في الأعراض، وأنها لازمة للأجسام، فيمتنع وجود الأجسام بدونها". مجموع فتاوى ابن تيمية 16329.

2 يقول الماتريدي عن الله جل وعلا: "لا سبيل إلى العلم به إلا من طريق دلالة العالم عليه بانقطاع وجوه الوصول إلى معرفته من طريق الحواس عليه، أو شهادة السمع". التوحيد للماتريدي ص 129.

وقد أورد شيخ الإسلام رحمه الله طريقة المتكلمين في إثبات الصانع، فقال: "قالوا: لأنه لا يعرف بالنظر والاستدلال المفضي إلى العلم بإثبات الصانع، قالوا: ولا طريق إلى ذلك إلا بإثبات حدوث العالم. ثم قالوا: ولا طريق إلى ذلك إلا بإثبات حدوث الأجسام، قالوا: ولا دليل على ذلك إلا الاستدلال بالأعراض، أو ببعض الأعراض؛ كالحركة والسكون، أو الاجتماع والافتراق؛ وهي الأكوان؛ فإن الجسم لا يخلو منها، وهي حادثة، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث....".

ثم ذكر رحمه الله ذم السلف لهذه الطريقة، واللوازم التي تلزم سالكيها، فقال: "وهذه الطريقة هي أساس الكلام الذي اشتهر ذم السلف والأئمة له، ولأجلها قالوا بأن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، وأنه ليس فوق العرش، وأنكروا الصفات. والذامون لها نوعان: منهم من يذمها لأنها بدعة في الإسلام؛ فإنا نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع الناس بها، ولا الصحابة؛ لأنها طويلة مخطرة كثيرة الممانعات والمعارضات، فصار السالك فيها كراكب البحر عند هيجانه. وهذه طريقة الأشعري في ذمه لها، والخطابي، والغزالي، وغيرهم ممن لا يفصح ببطلانها. ومنهم من ذمها لأنها مشتملة على مقامات باطلة لا تحصل المقصود، بل تناقضه. وهذا قول أئمة الحديث وجمهور السلف". كتاب الصفدية 1274-275.

قالوا: لأن معرفة الله واجبة،

ولا طريق إليها إلا هذا النظر وهذا الدليل1.
الرسول لم يوجب النظر
ولما علم كثير من موافقيهم2 أن الاستدلال بهذا الدليل لم يوجبه الرسول، خالفوهم في إيجابهم، مع موافقتهم لهم على صحته3. والتحقيق ما عليه السلف؛ أنه ليس بواجب أمرا، ولا هو صحيح خبرا، بل هو باطل منهي4 عنه شرعا؛ فإن الله تعالى لا يأمر بقول الكذب والباطل، بل ينهى عن ذلك. لكن غلطوا حيث اعتقدوا أنه حق، وأن الدين لا يقوم إلا على هذا الأصل الذي أصلوه.

---

1 يقول أبو حامد الغزالي: "من لا يعتقد حدوث الأجسام، فلا أصل لاعتقاده في الصانع أصلا". تهافت الفلاسفة ص 197.
وانظر: الإرشاد للجويني ص 8-9. والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم 435. ورسالة السجزي ص 198.
وقد ناقش شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذه المسألة ونقل كلام بعض من رد على هذا القول، أو تبناه.
انظر: درء تعارض العقل والنقل 7352-445.
2 في ((خ)) : موافقتهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ومن هؤلاء: أبو الحسن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر ص 186. والخطابي في الغنية عن الكلام وأهله - انظر: نقض تأسيس الجهمية 1254، والغزالي في فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص 127. وغيرهم.
4 في ((ط)) : منهم. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .

الذين ضلوا عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم
كما أن طوائف من أهل العبادة، والزهد، والإرادة، والمحبة، والتصوف سلكوا طرقا1 ظنوا أنه لا يوصل إلى الله إلا بها. ثم منهم من يوجبها ويذم من لم يسلكها، ومنهم من لم ير أن سالكيها أفضل من غيرهم، ويوسع الرحمة؛ لأنه قد علم أن الرسول والصحابة لم يأمروا بها الناس، مع اعتقادهم أنها طرق صحيحة موصلة إلى رضوان الله. وهي عند التحقيق طرق مضلة إنما توصل إلى رضى الشيطان، وسخط الرحمن؛ كالعبادات التي ابتدعها ضلال أهل الكتاب والمشركين، وخالفوا بها دين المرسلين؛ فهؤلاء في الأحوال البدعية، وأولئك في الأقوال البدعية.
والقول الحق هو القرآن، والحال الحق هو الإيمان؛ كما قال جندب2، وابن عمر: "تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا إيمانا"3.
وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب، وريحها طيب. ومثل المؤمن الذي

---

1 كسلوك الصوفية للكشف، والوجد، والذوق، وجعل ذلك أساسا للمعرفة؛ فلا تنال حقائق الأمور عندهم إلا بهذه الطرق التي تعد السبيل الأوحد - لديهم - لتحصيل المعارف، ودرك العلوم. وقد نبذوا لأجل هذه الطرق الكتاب والسنة، بل وعارضوهما بها، وقدموها عليهما. انظر: تفصيل ذلك في كتاب المصادر العامة للتلقي عند الصوفية - عرضا ونقدا - لصادق سليم صادق - .
2 ابن عبد الله بن سفيان البجلي. صحابي. مات بعد الستين. انظر: تقريب التهذيب 1166.
3 أخرجه ابن ماجه في السنن 123، وكذا أخرجه الخلال في السنة 554، وأشار محققه إلى أن إسناده حسن. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه 116.

لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب، ولا ريح لها. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب، وطعمها مر. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر، ولا ريح لها"1.
الناس أربعة أصناف
فالناس أربعة أصناف: صاحب قول قرآني، [وحال إيماني؛ فهم أفضل الخلق. وصاحب قول قرآني] 2، وحال ليس بإيماني. وصاحب حال إيماني، وليس له قول. ومن ليس له لا قول قرآني، ولا حال إيماني.

وكثير من المنتسبين إلى القول، والكلام، والعلم، والنظر، والفقه، والاستدلال ابتدعوا أقوالا تخالف القرآن. وكثير من المنتسبين إلى العمل، والعبادة، والإرادة، والمحبة، وحسن الخلق، والمجاهدة ابتدعوا أحوالا وأعمالا تخالف الإيمان، وصار مع كل طائفة نوع من الحق الذي جاء به الرسول، لكن ملبوس بغيره. وصار كثير من الطائفتين ينكر ما عليه الأخرى مطلقا؛ كما قالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء3.

---

1 الحديث أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي موسى 41917، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام،، و52070، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، و62748، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم. ومسلم في صحيحه 1549، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن.
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 يشير إلى قوله تعالى حاكيا عن اليهود والنصارى: {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون} سورة البقرة، الآية 113.

وفي كل من الطائفتين شبه من إحدى1 الأمتين؛ ففي المنتسبين إلى العلم إذا لم يوافقوا العلم النبوي ويعملوا به شبه من اليهود2. وفي أهل العمل إذا لم يوافقوا العمل الشرعي، ويعملوا بعلم شبه من النصارى34. وصار كثير من أهل الكلام والرأي ينكرون جنس محبة الله، وإرادته؛ [كما صار كثير من أهل الزهد، والتصوف ينكر جنس العلم، والكلام، والنظر. وأولئك الذين أنكروا محبة الله وإرادته] 5، بنوا ذلك على أصل لهم للقدرية المجبرة6، والنافية؛ وهو: أن المحبة، والإرادة، والرضا، والمشيئة شيء واحد، ولا يتعلق ذلك إلا بمعدوم؛ وهو إرادة الفاعل أن يفعل ما لم يكن فعله؛ فاعتقدوا أن المحبة، والإرادة لا تتعلق إلا بمعدوم. فالموجود لا يحب، ولا يراد. والقديم الأزلي لا يحب، ولا يراد. والباقي لا يحب، ولا يراد؛ فأنكروا أن يكون الله محبوبا، أو مرادا7. وهم لإنكار

---

1 في ((ط)) ، و ((م)) : أحد. وما أثبت من ((خ)) .
2 الذين عرفوا الحق، فلم يعملوا به، بل عملوا بخلافه.
3 الذين لم يعرفوا الحق، فعملوا على جهالة.
4 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ولهذا كان السلف؛ سفيان بن عيينة وغيره يقولون: إن من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود. ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى". اقتضاء الصراط المستقيم 167. وانظر: درء تعارض العقل والنقل 869-70. ومجموع الفتاوى 8197.
5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
6 في ((ط)) : للقدرية والمجبرة. وهو خطأ. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .
7 ففسروا محبة العبد لربه بأنها إرادة العبادة له، وإرادة التقرب إليه، ولم يثبتوا أن العبد يحب الله. انظر: قاعدة في المحبة لابن تيمية ص 51.

كونه يحب أبلغ وأبلغ؛ فلا يثبتون إلا مشيئته أن يخلق فقط، وهي لا تتعلق إلا بمعدوم. فأما أن يحب موجودا من خلقه، فهذا باطل عند الطائفتين1. لكن المجبرة يقولون: محبته هي مشيئته، وقد شاء خلق كل شيء، فهو يحب كل شيء2. والنفاة يقولون: محبته هي إرادته إثابة المطيعين؛ وهي مشيئة خاصة3.
والذي جاء به الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة، وعليه مشايخ المعرفة، وعموم المسلمين: أن الله يحب، ويحب؛ كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله: {يحبهم ويحبونه} 4، ومثل قوله: {والذين آمنوا أشد حبا لله} 5، وقوله: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} 6.
لا يحب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده

بل لا شيء يستحق أن يحب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده. وهذا من معنى كونه معبودا7؛ فحيث جاء القرآن بالأمر بالعبادة، والثناء على أهلها، أو على المنيبين إلى الله، والتوابين إليه، أو الأوابين، أو المطمئنين بذكره، أو المحبين له، ونحو ذلك: فهذا كله يتضمن محبته. وما لا يحب يمتنع8

1 القدرية المجبرة، والقدرية النافية على السواء في ذلك.
2 نقل ذلك عنهم القاضي عبد الجبار المعتزلي في المحيط بالتكليف ص 408.
3 انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل لعبد الجبار 63، 4، 5. وانظر: منهاج السنة النبوية 5388.
4 سورة المائدة، الآية 54.
5 سورة البقرة، الآية 165.
6 سورة آل عمران، الآية 31.
7 إذ العبادة تتضمن معنى الحب، ومعنى الذل؛ فهي تتضمن كما قال شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر: (غاية الذل لله، بغاية المحبة له) . انظر: العبودية ص 6.
8 في ((م)) ، و ((ط)) : ممتنع.

كونه معبودا، ومألوها، [و] 1 مطمأنا بذكره. ومن أطيع لعوض يؤخذ منه، أو لدفع ضرره، فهذا ليس بمعبود ولا إله، بل قد يكون الشخص كافرا، وظالما يبغض، ويلعن، ومع هذا يعمل معه عمل بعوض. فمن جعل العمل لله لا يكون إلا لذلك، فلم يثبت الرب إلها معبودا، ولا ربا محمودا، وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية، والقدرية النافية، والمثبتة. والله سبحانه [وتعالى] 2 رغب في عبادته، والعمل له بما ذكره من الوعد، ورهب من الكفر به، والشرك بما ذكره من الوعيد، وهو حق، لكنه لم يقل إن العابد لله، والعامل له لا يحصل له إلا ما ذكر، بل وقد قال تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} 3. وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخرا، بله ما أطلعتهم عليه. اقرؤوا إن شئتم: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} 4 5. وقد ثبت في [الحديث] 6 الصحيح عن صهيب، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله: يا أهل الجنة ! إن لكم عندي موعدا أريد أن أنجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم [تبيض] 7 وجوهنا، وتثقل موازيننا، وتدخلنا الجنة، وتجرنا من النار؟

1 في ((خ)) : أو. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
(وتعالى) ليست في ((خ)) ، وهي في ((م)) ، و ((ط)) .
3 سورة السجدة، الآية 17.
4 سورة السجدة، الآية 17.
5 أخرجه البخاري في صحيحه 41794، كتاب التفسير، باب قوله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} الآية. ومسلم في صحيحه 42174-2175، كتاب الجنة وصفة نعيمها. وأحمد في مسنده 2313، 416.
6 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
7 في ((م)) ، و ((ط)) : تنتضر.

قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة"1.
وفي الحديث الذي رواه النسائي: لما صلى عمار، فأوجز، وقال: دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم بعلمك2 الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي. اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين"3. وروي نحو هذا من وجه آخر4؛ فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لم يعط

1 الحديث أخرجه مسلم في صحيحه 1163، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى. وأحمد في المسند 4332، 333. والترمذي في جامعه 4687، كتاب صفة الجنة، باب في رؤية الرب تبارك وتعالى. وابن ماجه في سننه 167؛ في المقدمة، حديث رقم (187) . كلهم أخرجوه بألفاظ مقاربة للفظ الذي ساقه المصنف.
2 في ((خ)) : بعملك. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 أخرجه النسائي في سننه 354-55، كتاب السهو، باب نوع آخر في الدعاء بعد الذكر، رقم (62) . وأحمد في المسند 4264. والحاكم في المستدرك 10524-525، وصححه، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي 1280-281، رقم 1237-1238.
4 من رواية زيد بن ثابت رضي الله عنه؛ كما في مسند الإمام أحمد 5191.
وهو حديث طويل، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: ".... أسألك اللهم الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الممات، ولذة نظر إلى وجهك، وشوقا إلى لقائك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة..".
وقد صرح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى 8356 أنه يقصد بهذا الوجه رواية زيد بن ثابت رضي الله عنه هذه.

أهل الجنة أحب إليهم من النظر إليه. وسن أن يدعى بلذة النظر إلى وجهه الكريم. وأهل الجنة قد تنعموا من أنواع النعيم بالمخلوقات بما هو غاية النعيم، فلما كان نظرهم إليه أحب إليهم من كل أنواع النعيم، علم أن لذة النظر إليه أعظم عند أهل الجنة من جميع أنواع اللذات.

الذين أنكروا محبة الله حزبان الحزب الأول

والجنة فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين؛ فما لذت أعينهم بأعظم من لذتها بالنظر إليه. واللذة تحصل بإدراك المحبوب، فلو لم يكن أحب إليهم من كل شيء، [ما كان النظر إليه أحب إليهم من كل شيء] 1، وكانت لذته أعظم من كل لذة. والله تعالى وعد عباده المؤمنين بالجنة؛ وهي اسم لدار فيها جميع أنواع اللذات المتعلقة بالمخلوق، وبالخالق؛ كما أن النار اسم لدار فيها أنواع الآلام، لكن غلط من ظن أن التنعيم بالنظر إليه ليس من نعيم أهل الجنة. وصار هؤلاء حزبين: حزبا أنكروا التنعيم بالنظر إليه؛ وهم المنكرون للمحبة2؛ حتى قال أبو المعالي3 ونحوه ممن ينكر محبته أنهم إذا رأوه لم يلتذوا بنفس النظر، بل يخلق لهم لذة ببعض المخلوقات مع

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "والمنكرون لرؤيته من الجهمية والمعتزلة تنكر هذه اللذة. وقد يفسرها من يتأول الرؤية - بمزيد العلم - على لذة العلم به؛ كاللذة التي في الدنيا بذكره، لكن تلك أكمل. وهذا قول متصوفة الفلاسفة والنفاة؛ كالفارابي، وأبي حامد، وأمثاله، فإن ما في كتبه من الإحياء وغيره من لذة النظر إلى وجهه هو بهذا المعنى". منهاج السنة النبوية 5390. وانظر: درء تعارض العقل والنقل 762-78.
3 الجويني.

النظر1. وكذلك قال من شاركهم في التجهم؛ من أهل الوحدة2؛ كابن عربي؛ قال: ما التذ عارف بمشاهدة قط3. وادعى أبو المعالي أن إنكار محبته من أسرار التوحيد4. وهو من أسرار توحيد الجهمية المعطلة المبدلة. وحكي عن ابن عقيل أنه سمع رجلا يقول: أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم. فقال له: هب أن له وجها، أله وجه يلتذ بالنظر إليه5. وهذا بناء على هذا الأصل؛ فإنه وشيخه أبا يعلى، ونحوهما وافقوا الجهمية في إنكار أن يكون الله محبوبا، واتبعوا في ذلك قول أبي بكر بن الباقلاني6 ونحوه ممن ينكر محبة الله، وجعل القول بإثباتها قول الحلولية7.

1 انظر: العقيدة النظامية للجويني ص 39. والإرشاد له ص 171. وقواعد العقائد للغزالي ص 171-172.

وانظر: توضيح هذه المسألة في كتب شيخ الإسلام التالية: مجموع الفتاوى 8345، 10695. ومنهاج السنة 5391-392. والاستقامة 298.
2 وحدة الوجود. تقدم تعريفها 328.
3 لم أعثر عليه في مظانه.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والفلاسفة تثبت اللذة العقلية، وأبو نصر الفارابي وأمثاله من المتفلسفة يثبت الرؤية لله، ويفسرها بهذا المعنى". منهاج السنة النبوية 5388-400.
4 انظر: مجموع الفتاوى 8345، 10 695. ودرء تعارض العقل والنقل 665-77 - فقد رد فيه على من أنكر لذة النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى.
5 انظر: مجموع الفتاوى 8355، 10695. ومنهاج السنة النبوية 5392. والاستقامة 298.
6 يقول الباقلاني: "واعلم أنه لا فرق بين الإرادة، والمشيئة، والاختيار، والرضى، والمحبة، على ما قدمنا. واعلم أن الاعتبار في ذلك كله بالمآل لا بالحال". الانصاف للباقلاني ص 69.
7 انظر: مجموع الفتاوى 10697. ومنهاج السنة النبوية 5392.

الحزب الثاني
[والحزب الثاني] 1 أن طائفة من الصوفية والعباد شاركوا هؤلاء في أن مسمى الجنة لا يدخل فيه النظر إلى الله. وهؤلاء لهم نصيب من محبة الله تعالى والتلذذ بعبادته، وعندهم نصيب من الخوف والشوق والغرام، فلما ظنوا أن الجنة لا يدخل فيها النظر إليه، صاروا يستخفون بمسمى الجنة، ويقول أحدهم: ما عبدتك شوقا إلى جنتك، ولا خوفا من نارك2.
وهم قد غلطوا من وجهين:
الرد عليهم من وجهين
أحدهما: أن ما يطلبونه من النظر إليه والتمتع بذكره ومشاهدته، كل ذلك في الجنة.
الثاني: أن الواحد من هؤلاء لو جاع في الدنيا أياما، أو ألقي في بعض عذابها، طار عقله، وخرج من قلبه كل محبة.
ولهذا قال سمنون3:

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : الجواب الثاني.
2 نقل الغزالي عن معروف الكرخي نحوا من هذه المقالة؛ أنه عبد الله لا خوفا من ناره، ولا شوقا إلى جنته، بل حبا له. انظر: إحياء علوم الدين 4287.
ونقل الغزالي أيضا عن أبي سليمان الداراني قوله: (إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار، ولا رجاء الجنة) . إحياء علوم الدين 4287.
ونقل الغزالي أيضا قول الثوري لرابعة العدوية: (ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفا من ناره، ولا حبا لجنته..) . إحياء علوم الدين 4287.
والنقول في ذلك عن الصوفية كثيرة جدا.
وانظر: مجموع الفتاوى 10240، 699. والاستقامة 2104، 105.
3 هو سمنون بن حمزة، أبو الحسن الخواص. موسوس في آخر عمره، وله كلام في المحبة مستقيم، وسمى نفسه سمنون الكذاب. توفي سنة 298؟. انظر: البداية والنهاية 11123. وطبقات الصوفية ص 195. وحلية الأولياء 10309. وسير أعلام النبلاء 17441، 651.

وليس لي في سواك حظ ... فكيفما شئت فامتحني
ابتلي بعسر البول، فصار يطوف على المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب1.
وأبو سليمان2 لما قال: قد أعطيت من الرضا نصيبا لو ألقاني في النار لكنت راضيا3، ذكر أنه ابتلي بمرض، فقال: إن لم يعافني وإلا كفرت، أو نحو هذا.

والفضيل بن عياض ابتلي بعسر البول، فقال: "بحبي لك إلا فرجت عني4. فبذل حبه في عسر البول".
فلا طاقة لمخلوق بعذاب الله، ولا غنى به عن رحمته.

---

1 انظر: كتاب نتائج الأفكار القدسية 1160، وذكر فيه بيتا آخر زيادة على الذي أورده المصنف، وهو قوله:
إن كان يرجو سواك قلبي ... لانلت سؤلي، ولا التمني
وانظر: أيضا: حلية الأولياء 10309-310. وإحياء علوم الدين للغزالي 4141 ومجموع الفتاوى 10241، 690. والبداية والنهاية 11123.
2 هو أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي الداراني - نسبة إلى داريا؛ قرية من قرى دمشق، له كلام في الزهد. توفي سنة 215؟. انظر: حلية الأولياء 9254. وطبقات الصوفية ص 75. وسير أعلام النبلاء 10182.
3 هذه الكلمة رواها أبو نعيم بسنده عن أبي سليمان في حلية الأولياء 9163. وكذا أسندها القشيري في رسالته 2246. وانظر: مجموع الفتاوى 10241، 689.
4 أوردها القشيري في رسالته 2623. وانظر: مجوع الفتاوى 10691.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل: "ما تدعو في صلاتك؟ ". قال: أسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار، أما أني لا أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ. فقال: "حولها ندندن" 1.
ودخل على أعرابي قد صار مثل الفرخ، فقال: "هل كنت تدعو الله بشيء؟ ". قال: كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله [لي] 2 في الدنيا. فقال: "سبحان الله! إنك لا تستطيعه، ولا تطيقه، [هلا] 3 قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار"4.
والعدوان في الإرادة، والعبادة، والعمل حصل من إعراضهم عن العلم الشرعي، واتباع الرسول، وقد قال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} 5.

---

1 أخرجه أحمد في المستد 3474. وأبو داود في السنن 1501، كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة، رقم 792. وابن ماجه في السنن 1295، كتاب إقامة الصلاة، باب ما يقال في التشهد، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، رقم 910. وصحح النووي إسناده في الأذكار 1197، والألباني في صحيح سنن أبي داود 1150، وفي صحيح سنن ابن ماجه 1150، وفي تخريج أحاديث الكلم الطيب 103.
2 في ((خ)) : له. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : هل لا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 42068-2069، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهية الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا. والإمام أحمد في مسنده 3107، مع اختلاف يسير في بعض ألفاظ الحديث.
5 سورة آل عمران، الآية 31.

قال بعضهم: ليس الشأن في أن تحبه، الشأن في أن يكون هو يحبك1. وهو إنما يحب من اتبع الرسول، وإلا فالمشركون وأهل الكتاب يدعون أنهم يحبونه، وأولئك2 غلطوا [بنفي] 3 محبته، وهؤلاء4 أثبتوا محبة شركية، لم يثبتوا محبة توحيدية خالصة5، وقد قال تعالى: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله} 6.
أقسام الناس في المحبة
فالأقسام ثلاثة7: أولئك8 معطلة للمحبة، وحقيقة قولهم تعطيل العبادة مطلقا. وهؤلاء9 مشركون في المحبة؛ فهم مشركون في العبادة. أولئك مستكبرون عن عبادته، والكبر لليهود. وهؤلاء مشركون في عبادته، والشرك للنصارى.
لفظ الإسلام
وكل واحد من المستكبرين والمشركين ليسوا مسلمين، بل الإسلام هو الاستسلام لله وحده. ولفظ الإسلام يتضمن الإسلام، ويتضمن

1 نقله ابن كثير في تفسيره 1358 عند تفسيرقوله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني} [آل عمران 31] وقال: عن بعض العلماء والحكماء.. ولم يعزه لأحد.
2 أي الجهمية، ومن تبعهم من أهل الكلام..
3 ليست في ((خ)) . وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 أي الصوفية.
5 وقد قال عنهم شيخ الإسلام رحمه الله: "لكنهم قصروا في الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأفرطوا حتى غلا بهم إلى الإلحاد، فصاروا من جنس المشركين".
مجموعة الرسائل والمسائل 4300.
6 سورة البقرة، الآية 165.
7 انظر: بيانها في مجموع الفتاوى 1082، 683، 684.
8 أي الجهمية ومن تبعهم من المتكلمين.
9 أي الصوفية.

إخلاصه لله1. وقد ذكر ذلك غير واحد، حتى أهل العربية؛ كأبي بكر ابن الأنباري2، وغيره.
ومن المفسرين من يجعلهما قولين؛ كما يذكر طائفة منهم البغوي أن المسلم هو: المستسلم لله. وقيل: هو المخلص3.
والتحقيق: أن المسلم يجمع هذا وهذا؛ فمن لم يستسلم له، لم يكن مسلما؛ ومن استسلم لغيره كما يستسلم له، لم يكن مسلما؛ ومن استسلم له وحده، فهو المسلم؛ كما في القرآن: {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} 4، وقال: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا} 5.
والاستسلام له يتضمن الاستسلام [لقضائه] 6، وأمره، [ونهيه] 7؛ فيتناول فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور: {إنه من

1 انظر: مجموع الفتاوى 8623، 635، 1014. والجواب الصحيح 631. وجامع الرسائل 2254.
2 هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري. ولد في الأنبار سنة 271 ?. من أعلم أهل زمانه بالآداب واللغة. كان حافظا للشعر والأخبار، كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن. توفي في بغداد سنة 328?. انظر: طبقات النحويين ص 171. والأعلام 6334.
3 تفسير البغوي 1106.
4 سورة البقرة، الآية 112.
5 سورة النساء، الآية 125.
6 في ((خ)) : لخلقه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 ليست في ((خ)) ، وهي في ((م)) ، و ((ط)) .

يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} 1.
قال ابن أبي حاتم2: حدثنا عصام3 بن [رواد] 4، [حدثنا] 5 آدم6، عن أبي جعفر7، عن الربيع، عن أبي العالية8 في قوله: {بلى من أسلم وجهه لله} 9؛ يقول: من أخلص لله. قال ابن أبي حاتم: وروي عن الربيع

1 سورة يوسف، الآية 90.
2 هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر بن مهران التميمي الرازي. ولد سنة240?، ورحل في طلب الحديث إلى البلاد مع أبيه وبعده، وصنف التصانيف، من جملتها: كتاب السنة، والتفسير، وكتاب الرد على الجهمية، وفضائل

الإمام أحمد. توفي 327 ?. انظر: سير أعلام النبلاء 13263. وطبقات الحنابلة 255. وشذرات الذهب 2308-309. وطبقات الشافعية للسبكي 3324-328.
3 هو عصام بن رواد بن الجراح العسقلاني.
انظر: الجرح والتعديل 726. وميزان الاعتدال 366. ولسان الميزان 4167) .
4 في ((ط)) : وران. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) ، وتفسير ابن أبي حاتم.
5 في ((خ)) : ثنا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 هو آدم بن أبي إياس العسقلاني. توفي سنة 220 ?.
انظر: الجرح والتعديل 2268. وتهذيب التهذيب 1196) .
7 هو عيسى بن عبد الله بن ماهان الرازي.
انظر: الجرح والتعديل 5227. وميزان الاعتدال 2404. وتهذيب التهذيب 5176.
8 هو رفيع بن مهران البصري، أبو العالية الرياحي. توفي سنة 93 ?.
انظر: الجرح والتعديل 3510. وسير أعلام النبلاء 4207. وتهذيب التهذيب 3284.
9 سورة البقرة، الآية 112.

نحو ذلك1. وقال: ذكر عن يحيى بن آدم2، حدثنا ابن المبارك3، عن حيوة بن شريح4، عن عطاء بن دينار5، عن سعيد بن جبير6: {من أسلم وجهه} ، قال: دينه7.

---

1 تفسير ابن أبي حاتم 1237. وأخرجه ابن جرير 1493. وابن كثير 1222. وانظر: الدر المنثور 1108. وفتح القدير 1120.
وقال محقق تفسير ابن أبي حاتم عن رجال هذا الإسناد: "يحتج برواياتهم، لكن أبا العالية يرسل كثيرا، ورواية أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس مضطربة". تفسير ابن أبي حاتم 128، 35، 42. فالأثر في سنده اضطراب.
2 هو يحيى بن آدم بن سليمان الأموي، أبو زكريا الكوفي، توفي سنة 203 ?.
انظر: الجرح والتعديل 9128. وتهذيب التهذيب 11175، 580، 584.
3 هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي مولاهم. ولد سنة 118?، وتوفي سنة 181. أحد الأئمة الحفاظ.
انظر: تذكرة الحفاظ 1284. وتهذيب التهذيب 5382.
4 هو حيوة بن شريح بن صفوان التجيبي، أبو زرعة المصري. توفي سنة 158 ?.
انظر: الجرح والتعديل 3306. وتهذيب التهذيب 369.
5 هو عطاء بن دينار الهذلي، مولاهم المصري. توفي سنة 126?. له مراسيل عن سعيد بن جبير. انظر: الجرح والتعديل 6332. وميزان الاعتدال 369. وتهذيب التهذيب 7198.
6 هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي مولاهم، أبو محمد. تابعي ثقة، أخذ العلم في التفسير عن ابن عباس، وقتله الحجاج سنة 95 ?، ومات بعده بأيام.
انظر: الجرح والتعديل 49. والثقات 4275. وتهذيب التهذيب 411.
7 تفسير ابن أبي حاتم 1337-338.
وقال محقق تفسير ابن أبي حاتم أيضا: رجال إسناده ثقات، لكن رواية عطاء - التفسير - عن سعيد بن جبير مرسلة؛ حيث لم يأخذ عنه مباشرة، وإنما وجد صحيفة عن سعيد، فاكتتبها.

وقال أبو الفرج1: "أسلم: أخلص. وفي الوجه قولان: أحدهما: أنه الدين، والثاني: العمل"2.

وقال البغوي: {أسلم وجهه لله} : أخلص دينه لله، وقيل: أخلص عبادته لله، وقيل: خضع وتواضع لله، وأصل الإسلام: الاستسلام والخضوع، وخص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود، لم يبخل بسائر جوارحه. {وهو محسن} في عمله، قيل: مؤمن، وقيل: مخلص3.
قلت: قول من قال: خضع وتواضع لربه، هو داخل في قول من قال: أخلص دينه، أو عمله، أو عبادته لله؛ فإن هذا إنما يكون إذا خضع له وتواضع له دون غيره؛ فإن العبادة والدين والعمل له لا يكون إلا مع الخضوع له والتواضع، وهو مستلزم لذلك. ولكن أولئك4 ذكروا مع هذا أن يكون هذا الإسلام لله وحده؛ فذكروا المعنيين: الاستلزام، وأن يكون لله.
حقيقة دين االإسلام
[و] 5 قول من قال: خضع وتواضع لله، يتضمن أيضا أنه أخلص عبادته ودينه لله؛ فإن ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله دون غيره. وأما ذكره [التوجه] 6: فقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع7، وتبين أن الله ذكر إسلام الوجه له، وذكر إقامة الوجه له في قوله: {فأقم وجهك

1 ابن الجوزي.
2 زاد المسير (تفسير ابن الجوزي) 1133.
3 تفسير البغوي 1106.
4 الذين فسروا إسلام الوجه بإخلاص الدين أو العبادة أو العمل.
5 ليست في ((ط)) ، وهي في ((خ)) ، و ((م)) .
6 في ((خ)) : الوجه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 انظر: الجواب الصحيح 631.

للدين} 1، وذكر توجيه الوجه له في قوله: {إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض} 2؛ لأن الوجه إنما يتوجه إلى حيث توجه القلب، والقلب هو الملك، فإذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجها إليها، ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب؛ فكان إسلام الوجه، وإقامته، وتوجيهه، مستلزما لإسلام القلب، وإقامته، وتوجيهه. وذلك يستلزم إسلام كله لله، وتوجيه كله لله، وإقامة [كله] 3 [لله] 4. وبسط الكلام على ما يناسب ذلك56.
الذين أنكروا المحبة لهم شبهتان
وهذا حقيقة دين الإسلام7. لكن الذين أنكروا ذلك لهم شبهتان: إحداهما: أن المحبة تقتضي المناسبة8، قالوا: وهي منتفية؛ فلا مناسبة بين المحدث والقديم9.
الشبهة الأولى والرد عليها
فيقال لهم: هذا كلام مجمل. تعنون بالمناسبة: الولادة؟ أو المماثلة؟ ونحو ذلك مما يجب تنزيه الرب عنه؟؛ فإن الشيء

1 سورة الروم، الآية 30.
2 سورة الأنعام، الآية 79.
3 في ((ط)) : كلها. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .
4 ليست في ((خ)) ، وهي في ((م)) ، و ((ط)) .
5 انظر: الرد على المنطقيين ص 448.
6 ها هنا في ((خ)) بياض بمقدار سطرين. وقد أشير إلى ذلك في ((م)) ، و ((ط)) .
7 انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية 1014،، 11200، 218.
8 المناسبة بين المحب والمحب.
9 ومثل هذا القول صدرمنهم في الرؤية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن مثبتة الرؤية، منهم من أنكر أن يكون المؤمن ينعم بنفس رؤية ربه؛ قالوا: لأنه لا مناسبة بين المحدث والقديم؛ كما ذكر ذلك الأستاذ أبو المعالي الجويني في الرسالة النظامية، وكما ذكره أبو الوفاء بن عقيل في بعض كتبه". مجموع الفتاوى 10695.

ينسب إلى أصله بأنه ابن فلان، وإلى فرعه بأنه أبو فلان، وإلى نظيره بأنه مثل فلان. ولما سأل المشركون النبي صلى الله عليه وسلم عن نسب ربه1، أنزل الله تعالى: {قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد} 2؛ فلم يخرج من شيء، ولا يخرج منه شيء، ولا له مثل.
فإن عنيتم هذا، لم نسلم أن المحبة لا بد فيها من هذا. وإن أردتم بالمناسبة أن يكون المحبوب متصفا بمعنى يحبه المحب، فهذا لازم المحبة، والرب متصف بكل صفة تحب. وكل ما يحب فإنما هو منه؛ فهو أحق بالمحبة من كل محبوب. وإذا كان الإنسان يحب الملائكة، وهم من غير جنسه، لما اتصفوا به من الصفات الحميدة؛ فالسبوح القدوس رب الملائكة والروح الذي كل ما اتصفت به الملائكة وغيرهم، فهو من جوده وإحسانه، وهو العزيز الرحيم، إذ كان المخلوق كثيرا ما يتصف بالعزة دون الرحمة، أو تكون فيه رحمة بلا عزة. وهو سبحانه: العزيز، الرحيم، الغفور، الودود، المجيد.
معنى اسم الودود
والودود: فعول من الود. وقال شعيب: {إن ربي رحيم ودود} 3، وقال تعالى: {وهو الغفور الودود} 4؛ فقرنه بالرحيم في موضع، وبالغفور في موضع.

1 قال الطبري: "ذكر أن المشركين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نسب رب العزة، فأنزل الله هذه السورة جوابا لهم. وقال بعضهم: بل نزلت من أجل اليهود: سألوه، فقالوا له: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فأنزلت جوابا لهم". تفسير الطبري 15342.
2 سورة الإخلاص 1-4.
3 سورة هود، الآية 90.
4 سورة البروج، الآية 14.

قال أبو بكر بن1 الأنباري2: الودود معناه: المحب لعباده؛ من قولهم: وددت الرجل أوده [ودا، وودا، وودا] 3، ويقال: وددت الرجل [ودادا، وودادا، ووداده] 4.
وقال الخطابي5: "هو اسم مأخوذ من الود، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون فعولا في محل مفعول؛ كما قيل: رجل هيوب بمعنى مهيب، وفرس ركوب بمعنى مركوب. والله سبحانه [وتعالى] 6 مودود في قلوب أوليائه، لما [يتعرفونه] 7 من إحسانه إليهم8. والوجه الآخر: [أن يكون بمعنى الواد] 9؛ أي أنه يود عباده الصالحين؛ بمعنى أنه يرضى عنهم، ويتقبل أعمالهم10. [ويكون] 11 معناه أن يوددهم إلى خلقه؛ كقوله: {سيجعل لهم الرحمن ودا} 12 "13.

1 في ((خ)) : ابن.
2 انظر: كلام ابن الأنباري في تفسير ابن الجوزي؛ زاد المسير 4152. وانظر: كذلك تهذيب اللغة للأزهري؛ فقد نقل كلام ابن الأنباري في 14236.
وابن لأنباري هو: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري.
تقدمت ترجمته.
3 ما بين المعقوفتين ضبطت هكذا في ((خ)) .
4 ما بين المعقوفتين ضبطت هكذا في ((خ)) .
5 تقدمت ترجمته.
6 ما بين المعقوفتين ليست في ((خ)) ، ولا في شأن الدعاء للخطابي. وهي في ((م)) ، و ((ط)) .
7 كذا في ((خ)) ، وفي شأن الدعاء. وفي ((م)) ، و ((ط)) : يعرفونه.
8 في ((شأن الدعاء)) زيادة: وكثرة عوائده عندهم.
9 ما بين المعقوفتين في شأن الدعاء هكذا: أن يكون الود بمعنى الواد. وما أثبت من ((خ)) ، وفي ((م)) ، و ((ط)) : أن يكون بمعنى الود.
10 وهذا تأويل للصفة؛ لأن المحبة غير الرضى، وغير قبول الأعمال.

11 في ((شأن الدعاء)) للخطابي: وقد يكون. وفرق بين العبارتين؛ فالأولى فسرت الوجه الآخر، وهذه أتت بمعنى جديد.
12 سورة مريم، الآية 96.
13 شأن الدعاء للخطابي ص74. وانظر: كلامه في زاد المسير لابن الجوزي 4152.

الأدلة على أن الله يحب عباده ويحبونه

قلت: قوله: {سيجعل لهم الرحمن ودا} 1 فسروها بأنه يحبهم، ويحببهم إلى عباده2؛ كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا أحب الله العبد نادى: يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى في السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض". وقال في البغض مثل ذلك3.

وقال عبد [بن] 4 حميد5: أنبأ عبيد الله بن موسى6، عن ابن أبي

---

1 سورة مريم، الآية 96.
2 انظر: تفسير الطبري 1132-133. وزاد المسير 5266. وانظر: أيضا مجموع الفتاوى 15232.
3 أخرجه البخاري في صحيحه 31175، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، و52146، كتاب الأدب، باب الحب في الله، و62721، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل، ونداء الله الملائكة. - وفي كل هذه المواضع لم يذكر في البغض مثل ذلك - ومسلم في صحيحه 42030، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده. ومالك في الموطأ 2953. وأحمد في المسند 2514. - وقد ذكر فيها في البغض مثل ما ذكر في الحب -.
4 في ((خ)) : ابن بإثبات ألف ابن.
5 هو عبد بن حميد بن نصر، أبو محمد الكسي، اسمه عبد الحميد، فخفف. والكسي نسبة إلى بلدة في ما وراء النهر، تقارب سمرقند، يقال لها: كس. ويقال له أيضا: الكشي؛ منسوب إلى كش؛ قرية من قرى جرجان، وإذا أعرب كتب بالسين. ولد عبد بن حميد بعد السبعين ومائة بكش، ونشأ بها، ثم رحل وطوف في البلاد الإسلامية للسماع والتلقي. قال عنه الذهبي: كان من الأئمة الثقات. وقال ابن حجر: ثقة حافظ من الحادية عشرة. مات سنة تسع وأربعين. ومن مصنفاته: التفسير، والمسند. انظر: الأنساب للسمعاني 11108. وسير أعلام النبلاء 12235. وتذكرة الحفاظ 2524. وتقريب التهذيب 1640.
6 هو عبيد الله بن موسى بن أبي المختار باذام العبسي الكوفي، أبو محمد، من التاسعة. مات سنة 213 ?. انظر: الجرح والتعديل 5334. وميزان الاعتدال 316. وتقريب التهذيب 1640.

ليلى1، عن الحكم2، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: {سيجعل لهم الرحمن ودا} 3، قال: "يحبهم، ويحببهم"4. ورواه ابن أبي حاتم أيضا5.

وقال عبد: أخبرني شبابة6، عن ورقاء7، عن ابن أبي نجيح8، عن مجاهد9: {سيجعل لهم الرحمن ودا} ، قال: "يحبهم، ويحببهم إلى المؤمنين"10.

---

1 ستأتي ترجمته.
2 هو الحكم بن عتيبة الكندي - بالولاء -، أبو محمد. توفي سنة 113 ?.
انظر: الجرح والتعديل 3123. وتهذيب التهذيب 2433.
3 سورة مريم، الآية 96.
4 أخرجها الطبري في تفسيره 1132. وانظر: زاد المسير 5266. والدر المنثور 4287.
5 انظر: الدر المنثور 4287.
6 هو شبابة بن سوار الفزاري، مولاهم أبو عمر المدائني الخراساني. توفي سنة 254 ?. انظر: الجرح والتعديل 4392. وميزان الاعتدال 2260.
7 هو ورقاء بن عمر بن كليب اليشكري، أبو بشر الكوفي. ثقة.

انظر: الجرح والتعديل 950. وميزان الاعتدال 4332. وتهذيب التهذيب 11113.
8 هو عبد الله بن أبي نجيح؛ يسار الثقفي، أبو يسار المكي. توفي سنة 101 ?. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن تفسيره: "تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير". مجموع الفتاوى 17409.
9 هو مجاهد بن جبر المكي، أبو الحجاج المخزومي. ولد سنة 21، وتوفي سنة 103 ?. انظر: الجرح والتعديل 8319. وميزان الاعتدال 3439. وتهذيب التهذيب 1042.
10 تفسير مجاهد - تحقيق عبد الرحمن السورتي - ص 391. وانظر: تفسير الطبري 1132.

أخبرنا1 عبد الرزاق2، عن الثوري3، عن مسلم4، عن مجاهد، عن ابن عباس: {سيجعل لهم الرحمن ودا} ، قال: محبة5.
وهذا فيه إثبات حبه لهم، بعد أعمالهم؛ بقوله: {سيجعل لهم الرحمن ودا} ، وهو نظير قوله: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} 6؛ فهو يحبهم إذا اتبعوا الرسول. ونظير قوله في الحديث الصحيح: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها"7.

---

1 القائل عبد بن حميد.
2 هو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، مولاهم الصنعاني. ولد سنة 126، وتوفي سنة 211?. انظر: الجرح والتعديل 639. وميزان الاعتدال 2609. وتهذيب التهذيب 6311.
3 هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله الكوفي. الحافظ، أمير المؤمنين في الحديث. ولد سنة 97?، وتوفي سنة 161?. انظر: الجرح والتعديل 4222. وتاريخ بغداد 9151. وتهذيب التهذيب 4111.
4 هو مسلم بن عمران، أو ابن أبي عمران البطين الكوفي.
انظر: الجرح والتعديل 8191. وتهذيب التهذيب 10134.
5 تفسير القرآن للإمام عبد الرزاق - تحقيق مصطفى مسلم - 214. وانظر: تفسير الطبري 1132. والدر المنثور 4287.
6 سورة آل عمران، الآية 31.
7 أخرجه البخاري في صحيحه 52384-2385، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "بعثت أنا والساعة كهاتين". وأحمد في مسنده 6256.

وكذلك قوله: {وأحسنوا إن الله يحب المحسنين} 1. {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} 2. {إن الله يحب المتقين} 3. {إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص} 4.
وهذه الآيات وأشباهها تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال؛ فهو يحب التوابين، وإنما يكونون توابين بعد الذنب، ففي هذه الحال يحبهم. وهذا مبني على الصفات الاختيارية5، فمن نفاها6 رد هذا كله.
من نفى الصفات الاختيارية لهم في المحبة قولان
ولهم7 قولان: أحدهما: أن المحبة قديمة؛ فهو يحبهم في الأزل إذا علم

---

1 سورة البقرة، الآية 195.
2 سورة البقرة، الآية 222.
3 سورة التوبة، الآية 4.
4 سورة الصف، الآية 4.
5 الصفات الاختيارية: هي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل، فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته؛ مثل كلامه، وسمعه، وبصره، وإرادته، ومحبته ... إلخ. فالجهمية، ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم يقولون: لا يقوم بذاته شيء من الصفات، ولا غيرها. جامع الرسائل 23-4.

ولشيخ الإسلام رحمه الله رسالة صغيرة في هذا الموضوع، اسمها: ((رسالة في الصفات الاختيارية)) ضمن جامع الرسائل 24-70.
وانظر: كلامه أيضا رحمه الله عن مسألة قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى، وأقوال السلف فيها، ومن أثبتها، أو نفاها في درء تعارض العقل والنقل 218-24.
6 قال شيخ الإسلام رحمه الله: فباب محبة الله ضل فيه فريقان من الناس؛ فريق من أهل النظر والكلام والمنتسبين إلى العلم جحدوها، وكذبوا بحقيقتها. وفريق من أهل التعبد والتصوف والزهد، أدخلوا فيها من الاعتقادات، والإرادات الفاسدة ما ضاهوا بها المشركين". جامع الرسائل 2245.
7 أي للمتكلمة الكلابية والآشعرية، ومن وافقهم في نفي الصفات الاختيارية.

أنهم يموتون على حال [مرضية] 1، ويقولون: إن الله يحب الكفار في حال كفرهم إذا علم أنهم يموتون على الإيمان، ويبغض المؤمن إذا علم أنه يرتد. هذا قول ابن كلاب2، ومن [تبعه] 3. ثم منهم من يفسر المحبة بالإرادة4، ومنهم من يقول: هي صفة زائدة على الإرادة5. والقول الثاني: يجعلون هذا من باب الفعل؛ فالمحبة عندهم: إحسانه إليهم،

1 ليست في ((خ)) . وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: الإنصاف للباقلاني ص 69.
وذكر الأشعري في المقالات قول أصحاب ابن كلاب "أن الله لم يزل راضيا عمن يعلم أنه يموت مؤمنا، ساخطا على من يعلم أنه يموت كافرا"، وذكر أن هذا هو قولهم في الولاية، والعداوة، والمحبة. مقالات الإسلاميين للأشعري 1350. وانظر: المصدر نفسه 2225، 255.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله مبينا حال ابن كلاب وعقيدته: "أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان، له فضيلة ومعرفة رد بها على الجهمية والمعتزلة نفاة الصفات، وبين أن الله نفسه فوق العرش، وبسط الكلام في ذلك. ولم يتخلص من شبهة الجهمية كل التخلص، بل ظن أن الرب لا يتصف بالأمور الاختيارية التي تتعلق بقدرته ومشيئته؛ فلا يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا يحب العبد ويرضى عنه بعد إيمانه وطاعته، ولا يغضب عليه ويسخط بعد كفره ومعصيته، بل محبا راضيا، أو غضبان ساخطا على من علم أنه يموت مؤمنا أو كافرا. ولا يتكلم بكلام بعد كلام ... ". مجموع الفتاوى 7662. وانظر: المصدر نفسه 8340-343.
3 في ((خ)) : اتبعه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 انظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك ص 332. وانظر: الإنصاف للباقلاني ص 69. وجامع الرسائل 2237. ومجموع الفتاوى 10697.
5 انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص 37. وإيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعه ص 139، 143-144. وتأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه للسيوطي ص 120. وانظر: أيضا مجموع الفتاوى لابن تيمية 8340-341.

والإحسان عندهم ليس فعلا قائما به، بل بائنا عنه1.
والكتاب، والسنة، وأقوال السلف والأئمة، والأدلة العقلية إنما تدل على القول الأول2، كما قد بسط في غير هذا الموضع3؛ إذ المقصود هنا [ذكر اسمه (الودود) ، والأكثرون على ما ذكره] 4 ابن الأنباري5، وأنه فعول بمعنى فاعل؛ أي هو الواد، كما قرنه بالغفور؛ وهو الذي يغفر، وبالرحيم؛ وهو الذي يرحم.
قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي6، ثنا عيسى بن جعفر؛ قاضي الري7، ثنا سفيان في قوله: {إن ربي رحيم ودود} 8، قال: محب. وقال9:

1 انظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام ص 144- 145 والجامع لأحكام القرآن للقرطبي1150. وانظر: جامع الرسائل 2237.
2 القول الأول: هو تفسير الودود بأنه المحب لعباده. وليس المراد به القول الأول من أقوال المؤولة لصفة المحبة - والذي تقدم آنفا -.

3 انظر: من كتب شيخ الإسلام: قاعدة في المحبة - ضمن جامع الرسائل 2193-401. ومجموع الفتاوى 8337، 370. ودرء تعارض العقل والنقل 662-65.
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) . وهي في ((خ)) ، و ((م)) .
5 انظر: زاد المسير لابن الجوزي 4152.
6 هو محمد بن إدريس بن المنذر بن داود، أبو حاتم الرازي الحنظلي. الإمام الحافظ شيخ المحدثين.
انظر: الجرح والتعديل 1349-375. وسير أعلام النبلاء 13247. وشذرات الذهب 2171.
7 انظر: ترجمته في الجرح والتعديل 6273.
8 سورة هود، الآية 90.
9 أي ابن أبي حاتم.

قرئ على يونس1: ثنا ابن وهب2، قال: وقال ابن زيد3: قوله: (الودود) ، قال: الرحيم. وقد ذكر4 فيه [قولين] 5؛ القول الأول رواه من تفسير الوالبي6

1 هو يونس بن حبيب بن عبد القاهر بن عبد العزيز الأصبهاني، أبو بشر. توفي سنة 267؟. قال ابن أبي حاتم: كتبت عنه بأصبهان وهو ثقة. انظر: الجرح والتعديل 9237.
أو: يونس بن راشد الجزري، أبو إسحاق الحراني القاضي. انظر: الجرح والتعديل 9239. وميزان الاعتدال 4480. وتهذيب التهذيب 11439.
2 هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، مولاهم، أبو محمد المصري. توفي سنة 198 ؟.
انظر: الجرح والتعديل 5189. وتهذيب التهذيب 671.
3 هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولاهم، المدني. توفي سنة 182 ؟.
انظر: الجرح والتعديل 5233. وميزان الاعتدال 2564. وتهذيب التهذيب 6177.
4 أي ابن أبي حاتم. والظاهر أنه ذكر هذين القولين في تفسيره، ولكن لم يطبع منه إلا الأجزاء الأولى.
5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
6 هو علي بن أبي طلحة؛ سالم بن مخارق الوالبي. قال عنه الذهبي: "أخذ تفسير ابن عباس عن مجاهد، فلم يذكر مجاهدا، بل أرسله عن ابن عباس". مات سنة 123 هـ. صنف تفسير القرآن. وطريقه عن ابن عباس من أجود الطرق، قال عنه الإمام أحمد رحمه الله: (إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا) .
انظر: ميزان الاعتدال للذهبي 3134. وتهذيب التهذيب لابن حجر 7339. والاتقان للسيوطي 2188. والتفسير والمفسرون للذهبي - المعاصر - 177.
وتفسير الوالبي نقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مرارا في كتبه بهذا الاسم.
انظر: على سبيل المثال: درء تعارض العقل والنقل 8478، 480. وشرح حديث النزول ص 312. وشرح الأصفهانية - ت السعوي - ص 380. ومنهاج السنة النبوية 2186، 5136، 139، 290. وجامع الرسائل والمسائل 4-5340. وأخذ عنه في هذا الكتاب - النبوات - عدة مرات.
ولقب الوالبي يشترك فيه ثلاثة أشخاص، كلهم يروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكلهم من المفسرين؛ أولهم: سعيد بن جبير الأسدي الوالبي مولاهم، الكوفي. قال عنه ابن حجر: ثقة. قتله الحجاج سنة 95 ؟. انظر: تقريب التهذيب 1292. وحلية الأولياء 4272. وثانيهم: أبو خالد هرمز مولى بني والبة، من بني أسد، من أهل الكوفة. ثقة، مات سنة 100 ؟ انظر: طبقات ابن سعد 6228. وتهذيب التهذيب 1283-84. والثالث: علي بن أبي طلحة؛ سالم بن مخارق الوالبي؛ كما صرح باسمه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، مبينا أنه هو المقصود، وقال عنه: إنه لم يسمع التفسير عن ابن عباس. انظر: جامع الرسائل والمسائل 4-5540. وشرح الأصفهانية 1380.

عن ابن عباس قوله: (الودود) ، قال: الحبيب1. والثاني: قول ابن زيد: الرحيم2. وما ذكره الوالبي [أنه] 3 الحبيب، قد يراد به المعنيان؛ أنه يحب، ويحب4؛ فإن الله يحب من يحبه، وأولياؤه يحبهم ويحبونه.

---

1 رواه الطبري في تفسيره عن ابن عباس 15138، عند قوله تعالى: {وهو الغفور الودود} . وانظر: صحيح البخاري 41885، كتاب التفسير، باب تفسير سورة البروج؛ فإنه ذكره عن ابن عباس. وانظر: أيضا فتح القدير للشوكاني 5417.
2 رواه الطبري في تفسيره عن ابن زيد 15139 عند تفسير قوله تعالى: {وهو الغفور الودود} ، وانظر: تفسير القرطبي 19195. وفتح القدير للشوكاني 5413.
3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) ، وهو في ((خ)) ، و ((م)) .
4 قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في النونية 289 - شرح الهراس -:
وهو الودود يحبهم ويحبه
أحبابه والفضل للمنان
وهو الذي جعل المحبة في
قلوبهم وجازاهم بحب ثان
وانظر: توضيح المقاصد - شرح ابن عيسى - 2230. وبدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم رحمه الله 5172 عند تفسير قوله تعالى: {وهو الغفور الودود} . وانظر: كتاب الأسماء والصفات للبيهقي 1198.

والبغوي ذكر الأمرين، فقال: وللودود معنيان؛ [أنه] 1 يحب المؤمنين، وقيل: هو بمعنى المودود؛ أي محبوب المؤمنين2. وقال3 أيضا في قوله: {وهو الغفور الودود} 4: أي المحب لهم، وقيل: معناه المودود؛ كالحلوب، والركوب؛ بمعنى المحلوب والمركوب، وقيل: يغفر، ويود أن يغفر، وقيل: المتودد إلى أوليائه بالمغفرة5.
قلت: هذا اللفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل6؛ كقول النبي [صلى الله عليه وسلم] : "تزوجوا الودود الولود"7. وفعول بمعنى فاعل كثير؛ كالصبور، والشكور، وأما بمعنى مفعول، فقليل. وأيضا: فإن سياق القرآن يدل على

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : أن.
2 تفسير البغوي 2399.
3 أي البغوي.
4 سورة البروج، الآية 14.
5 تفسير البغوي 5471.
6 انظر: اشتقاق أسماء الله ص 152 لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي؛ فإنه قال: "الودود فيه قولان: أحدهما: أنه فعول بمعنى فاعل؛ كقولك غفور بمعنى غافر، وكما قالوا: رجل صبور بمعنى صابر، وشكور بمعنى شاكر؛ فيكون الودود في صفات الله تعالى عز وجل على هذا المذهب أنه يود عباده الصالحين ويحبهم. والود، والمودة، والمحبة في المعنى سواء؛ فالله عز وجل ودود لأوليائه والصالحين من عباده، وهو محب لهم. والقول الآخر: أنه فعول بمعنى مفعول؛ كما يقال: رجل هيوب؛ أي مهيب؛ فتقديره: أنه عز وجل مودود؛ أي يوده عباده ويحبونه. وهما وجهان جيدان". اشتقاق أسماء الله لأبي القاسم الزجاجي ص 152. وانظر: تفسير الأسماء للزجاج ص 52.
7 أخرجه الإمام أحمد في مسنده 3158، 245. ورواه ابن حبان في صحيحه وصححه في كتاب النكاح، باب ما جاء في التزويج واستحبابه، رقم 1228. ورواه سعيد بن منصور في سننه 1139، باب الترغيب في النكاح.

أنه1 أراد أنه هو الذي يود عباده؛ كما أنه هو الذي يرحمهم ويغفر لهم؛ فإن شعيبا قال: {واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود} 2؛ فذكر رحمته ووده؛ كما قال تعالى: {وجعل بينكم مودة ورحمة} 3. وهو أراد وصفا يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب، ويقبل على التائب؛ وهو كونه ودودا؛ كما قال: {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} 4. وقد ثبت في الصحاح من

غير وجه عن النبي [صلى الله عليه وسلم] أن الله يفرح بتوبة التائب أشد من فرح من فقد راحلته بأرض دوية5 مهلكة، ثم وجدها بعد اليأس6.

1 في ((م)) ، و ((ط)) زيادة كلمة (صح) بعد: أنه، وهي ليست في ((خ)) . ولا وجه لإثباتها.
2 سورة هود، الآية 90.
3 سورة الروم، الآية 21.
4 سورة البقرة، الآية 222.
5 الأرض الدوية: هي الأرض القفر، والفلاة الخالية. قال الخليل: هي المفازة، قالوا: ويقال: دوية، وداوية: مهلكة: هي موضع خوف الهلاك. ويقال لها مفازة، قيل: إنه من قولهم: فوز الرجل إذا هلك. وقيل: على سبيل التفاؤل بفوزه ونجاته منها؛ كما يقال للديغ: سليم. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر 2143، 5271. وشرح النووي على صحيح مسلم 1761.
6 يشير رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه الشيخان في صحيحيهما، ولفظه: "لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت. فطلبها، حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت. فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، وعليها زاده وطعامه وشرابه. فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده" الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 52324-2325، كتاب الدعوات، باب التوبة. ومسلم في صحيحه 42102-2103، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها. ومسند الإمام أحمد 383؛ كلهم أخرجوه بألفاظ متقاربة.

فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له، ومودته له. وكذلك قوله في الآية الأخرى: {وهو الغفور الودود} 1، فإنه مثل قوله: {وهو الرحيم الغفور} 2.
وأيضا: فإن كونه مودودا؛ أي محبوبا، يذكر على الوجه الكامل الذي يتبين اختصاصه به؛ مثل: [اسم] 3 الإله؛ فإن الإله: المعبود هو مودود بذلك، ومثل اسمه الصمد، ومثل ذي الجلال والإكرام، ونحو ذلك4.
وكونه مودودا ليس بعجيب، وإنما العجب: جوده، وإحسانه؛ فإنه يتودد إلى عباده، كما جاء في الأثر: "يا عبدي! كم أتودد إليك بالنعم، وأنت تتمقت إلي بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم يصعد إلي منك بعمل سيء"5. وفي
الصحيحين عن النبي [صلى الله عليه وسلم] أنه قال: يقول الله تعالى: "من

1 سورة البروج، الآية 14.
2 سورة سبأ، الآية 2.
3 في ((ط)) : الاسم. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .
4 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وهو سبحانه يحب عباده الذين يحبونه، والمحبوب لغيره أولى أن يكون محبوبا. فإذا كنا إذا أحببنا شيئا لله كان الله هو المحبوب في الحقيقة، وحبنا لذلك بطريق التبع. وكنا نحب من يحب الله لأنه يحب الله، فالله تعالى يحب الذين يحبونه؛ فهو المستحق أن يكون هو المحبوب المألوه المعبود، وأن يكون غاية كل حب". درء تعارض العقل والنقل 415. وانظر: أيضا المصدر نفسه - عن المحبة - 9374-376،، 672-73. وجامع الرسائل 2254.
5 روى أبو نعيم الأصبهاني عن مالك بن دينار أنه قال: "قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول: يا ابن آدم خيري ينزل عليك، وشرك يصعد إلي، وأتحبب إليك بالنعم، وتتبغض إلي بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم قد عرج منك إلي بعمل قبيح". حلية الأولياء 2358.
وانظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى 1194. وإثبات صفة العلو لابن قدامه ص 113وقال محققه: إسناده ضعيف لجهالة الشيخ القرشي. وأورده الذهبي من طريق ابن أبي الدنيا ص 97 وقال: إسناده مظلم. وانظر: اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص 268، فقد ذكر أن هذا الأثر رواه ابن أبي الدنيا.

تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة"1.
وجاء في تفسير اسمه الحنان، المنان: أن الحنان: الذي يقبل على من أعرض عنه.
معنى الحنان والمنان
والمنان: الذي يجود بالنوال قبل السؤال2.
وأيضا: فمبدأ الحب والود منه، لكن اسمه الودود يجمع المعنيين؛ كما قال الوالبي عن ابن عباس: أنه الحبيب3؛ وذلك أنه إذا كان يود عباده، فهو مستحق لأن يوده العباد بالضرورة. ولهذا من قال إنه يحب المؤمنين، قال: إنهم يحبونه؛ فإن كثيرا من الناس يقول إنه محبوب، وهو

---

1 الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 62741، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه، و62694، كتاب التوحيد باب قوله تعالى: {ويحذركم الله نفسه} [سورة آل عمران 28] ، باختلاف يسير في بعض الألفاظ.
ومسلم في صحيحه 42067-2068، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء.
وأحمد في مسنده 2413، 340، 122.
2 قال الأزهري في تهذيب اللغة 15471: "ومن صفات الله تعالى: المنان؛ ومعناه: المعطي ابتداء. ولله المنة على عباده، ولا منة لأحد منهم عليه".
وانظر: أيضا شأن الدعاء للخطابي ص 100.
وهذا الأثر أورده القرطبي بدون عزو في كتاب: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى - مخطوط - ق 70أ. وفيه: أن أكينة بن عبد الله التميمي سمع علي بن أبي طالب يقول وقد سئل عن الحنان المنان، فذكره ...
وانظر: شرح حديث النزول لابن تيمية ص 453، تعليق المحقق رقم 13، والفتاوى 5573، و 16217.
3 انظر: تفسير الطبري 15139.

132(365/1)

لا يحب شيئا مخصوصا، لكن محبته بمعنى مشيئته العامة1. ومن الناس من قال: أنه لا يحب، مع أنه يثبت محبته للمؤمنين.
القسمة في المحبة رباعية
فالقسمة في المحبة رباعية؛ فالسلف وأهل المعرفة أثبتوا النوعين؛ قالوا: إنه يحب، ويحب. والجهمية والمعتزلة تنكر الأمرين2.
ومن الناس من قال: إنه يحبه المؤمنون، وأما هو، فلا يحب شيئا دون شيء. ومنهم من عكس فقال: بل هو يحب المؤمنين، مع أن ذاته لا يحب3؛ كما

---

1 ومن هؤلاء: غلاة الصوفية؛ فإنهم يعتقدون أنه ليس في مشهدهم لله محبوب، مرضي، مراد إلا ما يقع، فما وقع فالله يحبه ويرضاه، وما لم يقع فالله لا يحبه ولا يرضاه. فمشيئة الله العامة التي تقع كلها محبوبة له، يريدها، ويرضى عنها كما زعموا.
انظر: رسالة الاحتجاج بالقدر لابن تيمية ص 80-81.
ومن هؤلاء: الأشاعرة، ومن وافقهم؛ فإنه لما ثبت عندهم أن المشيئة، والإرادة، والمحبة، والرضى كلها بمعنى واحد - على حد زعمهم، قالوا: فالمعاصي والكفر كلها محبوبة لله؛ لأن الله شاءها وخلقها.
انظر: رسالة الاحتجاج بالقدر لابن تيمية ص 67. ومدارج السالكين لابن القيم 1228، 251، 2189.
ولازم هذا القول: أن الله - تعالى عن ذلك - يحب الكفر والمعاصي. انظر: الرسالة الأكملية - ضمن مجموع الفتاوى 6115-116 -.
2 انظر: درء تعارض العقل والنقل 662-66. وجامع الرسائل 2245. ومجموع الفتاوى 8356.
3 وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله بطلان هذا القول، وذكر أن المحبوبات على قسمين، فقال: "المحبوبات على قسمين: قسم يحب لنفسه، وقسم يحب لغيره. إذ لا بد من محبوب يحب لنفسه. وليس شيء شرع أن يحب لذاته إلا الله تعالى. وكذلك التعظيم لذاته، تارة يعظم الشيء لنفسه، وتارة يعظم لغيره. وليس شيء يستحق التعظيم لذاته إلا الله تعالى. وكل ما أمر الله أن يحب ويعظم، فإنما محبته لله وتعظيمه عبادة لله؛ فالله هو المحبوب المعظم في المحبة والتعظيم، المقصود المستقر الذي إليه المنتهى ... ". جامع الرسائل - قاعدة في المحبة - 2287.

يقولون أنه يرحم، ولا يرحم. فإذا قيل: إن الودود بمعنى الواد، لزم أن يكون مودودا، بخلاف العكس. فالصواب القطع بأن الودود هو الذي يود، وإن كان ذلك متضمنا؛ لأنه يستحق أن يود، ليس هو بمعنى الودود فقط.

ولفظ الوداد بالكسر هو مثل الموادة والتواد، وذاك يكون من الطرفين؛ كالتحاب. وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة، كان كل منهما يود الآخر ويرحمه.

وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح أرحم بعباده من الوالدة بولدها1، وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة، إذ أوجدهما بعد اليأس2. وهذا الفرح [يقتضي] 3 أنه أعظم مودة لعبده المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض. كيف، وكل ود في الوجود فهو من فعله. فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود؛ كما قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما4 في قوله: {سيجعل لهم الرحمن ودا} 5؛ قال: يحبهم، ويحببهم6. وقد دل الحديث

---

1 الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 52235، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

ومسلم في صحيحه 42109، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

وابن ماجه في السنن 21436، كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة.

وأبو داود في سننه 3469، كتاب الجنائز، باب الأمراض المكفرة للذنوب.

2 سبق تخريجه في ص 425.

3 في ((خ)) : تقتضي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 سبق نقل كلامهم قريبا، ص 415-417.

5 سورة مريم، الآية 96.

6 تقدم ص 417.

الذي في الصحيحين1 على أن ما يجعل من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه، وأمر جبريل أن ينادي بأن الله يحبه. فنادى جبريل في السماء أن الله يحب فلانا فأحبوه2. وبسط هذا له موضع آخر3.

وفي مناجاة بعض الداعين: ليس العجب من حبي لك مع حاجتي إليك، العجب من حبك لي مع غناك عني4.

وفي أثر آخر: يا عبدي! وحقي إني لك محب، فبحقي عليك كن لي محبا5.

وروي: يا داود حببني إلي عبادي، وحبب عبادي إلي؛ مرهم بطاعتي فأحبهم، وذكرهم آلائي فيحبوني؛ فإنهم لا يعرفون مني إلا الحسن الجميل6.

وهو سبحانه كما قال؛ كل ما خلقه، فإنه من نعمه على عباده. ولهذا يقول: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} 7. والخير بيديه، لا يأتي بالحسنات إلا

---

1 وهو قوله عليه السلام: " إذا أحب الله عبدا.." الحديث.

2 سبق تخريج هذا الحديث ص 414.

3 انظر: قاعدة في المحبة - ضمن جامع الرسائل 2287 -.

4 انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم 1034؛ عن أبي يزيد البسطامي.

5 قال أبو حامد الغزالي: "وفي بعض الكتب: عبدي! أنا - وحقك - لك محب، فبحقي عليك كن لي محبا". إحياء علوم الدين 4274.

6 انظر: إحياء علوم الدين 4138. وقال محققه: "الحديث لم أجد له أصلا، وكأنه من الإسرائيليات".

وانظر: كتاب تصفية القلوب لليماني الذمار ص 298-299. وقال محققه: "رواه ابن حبان من حديث أبي هريرة".

ولم أقف عليه في صحيح ابن حبان.

7 سورة الرحمن، وردت في آيات كثيرة.

هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه.

ووده سبحانه هو لمن تاب إليه وأناب إليه؛ كما قال: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا} 1، وقال: {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} 2؛ فلا يستوحش أهل الذنوب، وينفرون منه كأنهم حمر مستنفرة؛ فإنه ودود رحيم بالمؤمنين، يحب التوابين، ويحب المتطهرين.
ولهذا قال شعيب: {واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود} 3، وقال هنا: {وهو الغفور الودود} 4؛ فذكر (الودود) في الموضعين لبيان مودته للمذنب إذا تاب إليه، بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا ود فيه.
الشبهة الثانية لمن ينكر المحبة
والحجة الثانية لهم: قالوا: إن الإرادة والمحبة لا تتعلق إلا بمعدوم يراد فعله؛ فإنه لو جاز أن يراد الموجود، وأن يراد القديم، لجاز أن يكون العالم قديما مع كونه مرادا مقدورا؛ كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة5؛ فإن القائلين أنه موجب بذاته والعالم قديم؛ منهم من يصفه

---

1 سورة مريم، الآية 96.
2 سورة البقرة، الآية 222.
3 سورة هود، الآية 90.
4 سورة البروج، الآية 14.
5 انظر: كلام الفلاسفة في هذا الموضوع في: قاعدة في المحبة - ضمن جامع الرسائل 2397-398 -. والجواب الصحيح 45-622. ومجموع الفتاوى 7586-597.

بالإرادة؛ كأبي البركات1، وغيره؛ قالوا: ومن المعلوم بالاضطرار للعقلاء إذ قالوا: هذا الأمر حصل بالإرادة أن يكون محدثا، كائنا بعد أن لم يكن، ولهذا لا يجوز أن يقال إن قدرته ومشيئته تعلقت بوجوده، ولا ببقائه، ولا بكونه حيا، ومن قال إن صفاته قديمة الأعيان، لا يقول إن كلامه وإرادته حصلت بإرادته وقدرته.
فيقال: هذا الذي قالوه، صحيح. لكن هنا نوعان؛
أحدهما: إرادة أن يفعل الشيء ويكون. فهذه لا تكون إلا مع حدوثه.
والثانية: محبة نفس ذاته، من غير أن يفعل في الذات شيء. فهذه التي تتعلق بالموجود، والباقي، والقديم. وإرادة الفعل تابعة لهذه؛ فإنه لولا أن تكون الإرادة متعلقة بنفس الشيء الموجود، امتنع أن يراد إيجاده؛ فإن من أراد [أن] 2 يبني بيتا ليسكنه، إنما مراده نفس البيت لسكناه والانتفاع، وإنما البناء وسيلة إلى ذلك. لولا إرادة الغاية المقصودة بالذات لم ترد الوسيلة. وإذا بناه، فهو مريد له بعد البناء، ولهذا يكره خرابه وزواله. وكذلك من أراد أن يلبس ثوبا، فلبسه، فهو في حال اللبس مريد له. فمن أراد إحداث أمر وفعله، كانت إرادة فعله لغاية مقصودة بعد الفعل، هي العلة [الغائية] 3.

---

1 هو أبو البركات، هبة الله بن علي بن ملكا البلدي. قال عنه الذهبي: "العلامة الفيلسوف، شيخ الطب، أوحد الزمان". وكان يهوديا، وأسلم في آخر عمره. ولد نحو سنة 480 ?، وتوفي سنة 560 ?. انظر: سير أعلام النبلاء 20419. والأعلام 874.
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين في ((ط)) : الغائبة. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .
والعلة الغائية هي: ما يوجد الشيء لأجله.
انظر: التعريفات للجرجاني ص 202. والمبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي ص 123. ومعيار العلم في فن المنطق للغزالي ص 313.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فالعلة الغائية متقدمة في التصور والإرادة، وهي متأخرة في الوجود؛ فالمؤمن يقصد عبادة الله ابتداء، وهو يعلم أن ذلك لا يحصل إلا بإعانته، فيقول: {إياك نعبد وإياك نستعين} .
مجموع الفتاوى 10284. وانظر: المصدر نفسه 8187. ودرء تعارض العقل والنقل 1329-330.

والفعل المطلوب لغاية، لفاعله إرادتان: إرادة الفعل، وإرادة الغاية. وهذه1 هي الأصل، وتلك2 تبع لهذه.
والإرادة إرادة لا تتعلق بالمعدوم من جهة كونه معدوما، بل تتعلق بوجود الفعل، لكن يمتنع أن يراد فعله إلا إذا كان معدوما3.
فالعدم شرط في إرادة فعله، ولهذا جعل من جملة علل الفعل.

ولهذا كان جماهير العقلاء مطبقين على أن كل مفعول فهو حادث، وكل ما أريد أن يفعل فإنه يكون حادثا، وكل ما تعلقت المشيئة والقدرة بفعله فهو حادث.
ثم من الناس من يقول: هذا مختص بكونه مفعولا بالاختيار، وإلا إذا كان معلولا لعلة موجبة، لم يلزم حدوثه.
وهو غلط. بل كل ما فعل، فلا يكون إلا محدثا؛ سواء كان ذلك ممكنا، أو ممتنعا. بل نفس كونه مفعولا مستلزم حدوثه، ونفس تصور

---

1 أي إرادة الغاية.

2 أي إرادة الفعل.

3 انظر: قاعدة في المحبة - ضمن جامع الرسائل 2398 -.

العلم بكونه مفعولا يوجب العلم بحدوثه، وإن لم يخطر بالبال كونه مفعولا بالقدرة والاختيار1.
ثم قد يقال: ما من مفعول إلا وهو مفعول بالاختيار. والقديم إذا قدر فاعلا بلا مشيئة، كان ذلك ممتنعا. والموجب بالذات إذا قيل هو موجب بذاته المتصفة بمشيئته وقدرته لما يشاؤه، و [هذا] 2 حق، وهو مستلزم لكونه فاعلا بمشيئته وقدرته. وأما موجب بلا مشيئة، أو موجب يقارنه موجب، فهذان باطلان، وبهما ضل من ضل من االمتفلسفة القائلين بقدم الفلك ونفي الصفات.
ولكن: من أراد إحداث شيء وأحدثه، لم يجب أن تنقطع إرادته، بل قد يكون مريدا له ما دام موجودا، ولولا أنه مريد لوجوده لما فعله. فكل ما شاء الله وجوده، فهو مريد إحداثه وبقاءه ما دام باقيا. وأما الإرادة والمحبة المتعلقة بالقديم: فليست إرادة فعل فيه، بل هي محبة ذاته. وكل إرادة ومحبة، فلا بد أن تنتهي إلى محبوب لذاته. وكل فاعل بالإرادة، فإرادته تستلزم محبة عامة لأجلها فعل3.
فالحب أصل وجود كل موجود، والرب تعالى يحب نفسه. ومن لوازم [حبه] 4 نفسه: أنها محبة مريدة لما يريد أن يفعله، وما أراد فعله، فهو يريده لغاية يحبها؛ فالحب هو العلة الغائية التي لأجله كان كل شيء.

---

1 انظر: مختصر الصواعق لابن الموصلي 2116.

2 في ((خ)) : ولهذا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 انظر: قاعدة في المحبة - ضمن جامع الرسائل 2401 -.

4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

الفلاسفة يصفون الله بالابتهاج والفرح
والمتفلسفة يصفونه بالابتهاج و [الفرح] 1؛ كما جاءت به النصوص النبوية، لكنهم يقصرون في معرفة هذا وأمثاله من الأمور الإلهية؛ فإنهم يقولون: اللذة إدراك الملائم من حيث هو ملائم، وهو مدرك لذاته بأفضل إدراك2؛ فهو أفضل مدرك لأفضل مدرك بأفضل [إدراك] 3.
تقصير الفلاسفة في ذلك من ثلاثة أوجه
وقد قصروا في ذلك من ثلاثة أوجه:
أحدها: أن اللذة والفرح والسرور والبهجة ليس هو مجرد الإدراك، بل هو حاصل عقب الإدراك؛ فالإدراك موجب له، ولا بد في وجوده من محبة. فهنا ثلاثة أمور: محبة، وإدراك لمحبوب، ولذة تحصل بالإدراك. وهذا في اللذات الدنيوية الحسية وغيرها؛ فإن الإنسان يشتهي الحلو ويحبه، فإذا ذاقه التذ بذوقه، والذوق هو الإدراك4. وكذلك في لذات قلبه يحب الله؛ فإنه إذا ذكره، وصلى له، وجد حلاوة ذلك؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: "جعلت قرة عيني في الصلاة"5.
وأهل الجنة إذا تجلى لهم، فنظروا إليه، قال: فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه6.

---

1 في ((خ)) : الفرج. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 انظر: المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات للرازي 1513-514.

3 في ((خ)) : ادرك. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 انظر: المباحث المشرقية للرازي 1514؛ فقد ذكر نحوا من كلام شيخ الإسلام هذا.

5 الحديث رواه أحمد في المسند 3128، 199، 285. والنسائي 761 في عشرة النساء، باب حب النساء. والحاكم في المستدرك 2160، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي من حديث أنس.
6 هو جزء من حديث سبق تخريجه ص 398.

والله أعلم12.

---

1 وانظر: أقسام الناس في مقاصد العبادات - سيما الفلاسفة - في: الجواب الصحيح 637-41. وجامع الرسائل 2251-252. ومجموع الفتاوى 7536.
2 كتب الناسخ عند نهاية هذا الكلام:
آخر المجلد الحادي والعشرين من بعد المائة الملحق بالكواكب الدراري، ولله الحمد والمنة، لا نحصي ثناء عليه. وصلواته وسلامه وبركاته على سيدنا محمد وآله وأصحابه. ختم آخره [.......] بن محمد بن محمود بن بدر الحنبلي عشية يوم الخميس حادي وعشرين شهر شوال سنة ثلاثين وثمان مائة من الهجرة النبوية، عفى الله لمؤلفه ولكاتبه ولقارئه ولجميع المسلمين.
يتلوه فصل في تمام القول في محبة الله وانقسام المراد إلى ما يراد لذاته ... إلخ.
ملاحظة: في الأصل بين المعقوفتين - التي بعد ختم آخره - بياض، وقد ظهر لي أن اسمه إبراهيم، وذلك من خلال جزء من مخطوطة الكواكب الدراري التي كتبها. وكذلك في البطاقة التي فيها الفهارس والتعريف بكتاب النبوات في مكتبة الجامعة الإسلامية.

فصل1
في تمام القول في محبة الله2،
وانقسام المراد إلى ما يراد لذاته، وإلى ما يراد لغيره3
تابع: الوجه الأول في الرد على الفلاسفة
ثم4 ذلك الغير لا بد أن يكون مرادا لذاته، فالمراد لذاته لازم لجنس الإرادة، والإرادة لازمة لجنس الحركة؛ فإن الحركة [الطبيعية5،و] 6 القسرية7 مستلزمة للحركة الإرادية8. والحركة الإرادية مستلزمة لمراد

---

1 كتب في بداية الورقة: "بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم عونك، لا حول ولا قوة إلا بك".
2 انظر: كلام المؤلف - رحمه الله - على محبة الله تعالى في: منهاج السنة النبوية 5388-412. والاستقامة 288-128. ومجموع الفتاوى 1478. والجواب الصحيح 639. وقاعدة في المحبة - ضمن جامع الرسائل - 2193-401.
3 انظر: مزيد كلام للمؤلف - رحمه الله - عن انقسام المراد إلى ما يراد لذاته، وإلى ما يراد لغيره في: درء تعارض العقل والنقل 663-66.
4 في ((ط)) : تم - بالتاء -، وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .
5 الحركة الطبيعية: هي التي لا تحصل بسبب أمر خارج، ولا تكون مع شعور وإرادة؛ كحركة الحجر إلى أسفل. التعريفات للجرجاني ص 85.
6 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) . وهو في حاشية ((خ)) ، فوق السطر، وعليه علامة التصحيح ((صح)) .
7 الحركة القسرية: ما يكون مبدؤها بسبب ميل مستفاد من خارج؛ كالحجر المرمى إلى فوق. فهي حركة اضطرارية. التعريفات للجرجاني ص 85.
8 الحركة الإرادية: ما لا يكون مبدؤها بسبب أمر خارج مقارنا بشعور وإرادة؛ كالحركة الصادرة من الحيوان بإرادته. التعريفات ص 85.

لذاته. فكان جنس الحركات الموجودة في العالم مستلزمة للمراد لذاته؛ وهو المعبود الذي يستحق العبادة لذاته؛ وهو الله لا إله إلا هو1، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا. وكل عمل لا يراد به وجهه، فهو باطل. وكل عامل لا يكون [عمله] 2 لله، بل لغيره، وهو المشرك؛ فإنه كما قال تعالى: {فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق} 3؛ فإن قوام الشيء بطبيعته الخاصة به؛ فالحي قوامه بطبيعته المستلزمة لحركته الإرادية، وقوامها بالمراد لذاته، فإذا لم يكن حركتها لإرادة

المعبود لذاته، لم يكن لنفسه قوام، بل بقيت ساقطة، خارة؛ كما ذكر الله تعالى. ولهذا يهوي في الهاوية؛ وهو ذنب لا يغفر؛ لأنه فسد الأصل؛ كالمريض الذي فسد قلبه، لا ينفع مع ذلك إصلاح أعضائه.

1 هذا الدليل الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله دليل عقلي، يستخدمه كثيرا رحمه الله، وقد قال عنه في بعض كتبه: "الحركات الموجودة في العالم ثلاثة: قسرية، وطبيعية، وإرادية. ووجه الحصر: أن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك، أو من سبب خارج. فإن لم تمكن حركته إلا بسبب خارج عنه؛ كصعود الحجر إلى فوق؛ فهذه الحركة القسرية. وإن كانت بسبب منه؛ فإما أن يكون المتحرك له شعور، وإما أن لا يكون. فإن كان له شعور، فهي الحركة الإرادية، وإلا فهي الطبيعية. والحركة الطبيعية في العناصر: إما أن تكون لخروج الجسم عن مركزه الطبيعي، وإلا فالتراب إذا كان في مركزه لم يكن في طبعه الحركة. فالمتولدات من العناصر لا تتحرك إلا بقاسر يقسر العناصر على حركة بعضها إلى بعض. وإذا كانت الحركات الطبيعية والقسرية مفتقرة إلى محرك في الخارج، علم أن أصل الحركات كلها الإرادة، فيلزم من هذا أن يكون مبدأ جميع الحركات من العالم العلوي والسفلي هو الإرادة". كتاب الصفدية 1174-175. وانظر: مجموع الفتاوى 16131، 8171.
وقد استخدم شيخ الإسلام رحمه الله هذا الدليل أيضا لإثبات وجود الملائكة بالعقل. انظر: المصدر المتقدم نفسه.
2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
3 سورة الحج، الآية 31.

لفظ الدعاء في القرآن
ولفظ دعاء الله في القرآن1 يراد به دعاء العبادة، ودعاء [المسألة] 2؛ فدعاء العبادة يكون الله هو المراد به، فيكون الله هو المراد. ودعاء المسألة يكون المراد منه3؛ كما في قول المصلي: {إياك نعبد وإياك نستعين} 4؛ فالعبادة إرادته، والاستعانة وسيلة إلى العبادة إرادة المقصود، وإرادة الاستعانة إرادة الوسيلة إلى المقصود، ولهذا قدم قوله: {إياك نعبد} ، وإن كانت لا تحصل إلا بالاستعانة؛ فإن العلة الغائية مقدمة في التصور والقصد، وإن كانت مؤخرة في [الوجود] 5 والحصول، وهذا إنما يكون لكونه هو المحبوب لذاته.
لكن المراد به محبة مختصة به على سبيل الخضوع له والتعظيم، وعلى سبيل تخصيصها به؛ فيعبر عنها بلفظ الإنابة، والعبادة، ونحو ذلك؛ [إذ] 6 كان لفظ المحبة (جنس عام) ، يدخل فيه أنواع كثيرة، فلا يرضى لله

1 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء هو العبادة"، وقرأ: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [سورة غافر، الآية 60] . والحديث أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
2 في ((خ)) : للمسألة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 أي من الله تعالى.
والدعاء ينقسم إلى نوعين:
دعاء مسألة: وهو سؤال الله تعالى بأسمائه الحسنى ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره. ودعاء عبادة: وهو التعبد لله تعالى بمقتضى هذه الأسماء التي فيها ثناء على الله تعالى، والنوعان متلازمان. قال الله تعالى: {ادعوا ربكم تضرعا وخفية} الآيات وفيها: {وادعوه خوفا وطمعا} وقد اشتملت الآية على النوعين، قيل: أعطيه إذا سألني، قيل: أثيبه إذا عبدني. انظر: مجموع الفتاوى 5211، 1510-11. واقتضاء الصراط المستقيم 2778-779. وبدائع الفوائد1164، 32-3. وزاد المعاد 1335. وتيسير العزيز الحميد ص 216، 640.
4 سورة الفاتحة، الآية 5.
5 في ((خ)) : الوجد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((ط)) : إذا. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .

بالقدر المشترك، بل إذا ذكر من يحب غير الله، قال تعالى: {والذين آمنوا أشد حبا لله} 1، وإذا ذكر محبتهم لربهم، ذكرت محبته لهم، وجهادهم؛ كما في قوله: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم} 2، وفي مثل قوله: {أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله} 3. ولهذا كانت القلوب [تطمئن بذكره] 4؛ كما قال تعالى: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب} 5؛ فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره، [و] 6 هو تعالى

إذا ذكر وجلت، فحصل لها اضطراب ووجل لما [تخافه] 7 من [دونه] 8، و [تخشاه] 9 من فوات نصيبها منه. فالوجل إذا ذكر حاصل بسبب من الإنسان، وإلا فنفس ذكر الله يوجب الطمأنينة؛ لأنه هو المعبود لذاته، والخير كله منه؛ قال تعالى: {نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم} 10، وقال تعالى: {اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم} 11. وقال علي رضي الله عنه: "لا يرجون

---

1 سورة البقرة، الآية 165.
2 سورة المائدة، الآية 54.
3 سورة التوبة، الآية 25.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 سورة الرعد، الآية 28.
6 ما بين المعقوفتين ليس في ((ط)) ، وهو في ((خ)) ، و ((م)) .
7 في ((خ)) : يخافه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
8 في ((خ)) : دونها. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
9 في ((خ)) : يخشاه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
10 سورة الحجر، الآيتان 49-50.
11 سورة المائدة، الآية 98.

عبد إلا ربه، ولا يخافن عبد [إلا] 1 ذنبه)) 2؛ فالخوف الذي يحصل عند ذكره، هو بسبب [من] 3 العبد، وإلا فذكر الرب نفسه يحصل الطمأنينة والأمن؛ فما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك؛ كما قال ذلك المريض الذي سئل: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله، وأخاف ذنوبي. فقال [النبي صلى الله عليه وسلم] 4: "ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف" 5.

ولم يقل بذكر الله توجل القلوب، كما قال: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب} 6، بل قال: {إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} 7، ثم قال: {وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون} 8. وإنما يتوكلون عليه لطمأنينتهم إلى كفايته، وأنه سبحانه حسب من توكل عليه؛ يهديه، وينصره،

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((ط)) ، وهو في ((خ)) ، و ((م)) .
2 سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن قول علي هذا: ما معناه؟ فأجاب رحمه الله: "هذا الكلام يؤثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو من أحسن الكلام، وأبلغه، وأتمه؛ فإن الرجاء يكون للخير، والخوف يكون من الشر، والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه....." إلى آخر كلامه القيم رحمه الله تعالى. انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية 8161-181.
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((ط)) ، وهو في ((خ)) ، و ((م)) .
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 جزء من حديث رواه الترمذي في جامعه 3302، كتاب الجنائز، رقم 983، وقال: حديث غريب. وابن ماجه - من حديث أنس - في سننه 21423، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له. وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب 4163: إسناده حسن. وقال عنه الشيخ الألباني: "رجاله ثقات، وفي سيار بن حاتم كلام لا يضر. فالسند حسن". مشكاة المصابيح 1506.
6 سورة الرعد، الآية 28.
7 سورة الأنفال، الآية 2.
8 سورة الأنفال، الآية 2.

ويرزقه بفضله، ورحمته، وجوده. فالتوكل [عليه] 1 يتضمن الطمأنينة إليه، والاكتفاء به عما سواه.

وكذلك قال في الآية الأخرى: {فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} 2، فهم مخبتون. والمخبت: المطمئن الخاضع لله. والأرض [الخبت] 3: [المطمئنة] 4.

روى ابن أبي حاتم من حديث ابن مهدي، عن الثوري، عن ابن أبي نجيح: {وبشر المخبتين} ، قال: المطمئنين5. وعن الضحاك: المتواضعين6؛ فوصفهم بالطمأنينة مع الوجل، كما وصفهم هناك بالتوكل عليه مع الوجل، وكما قال في وصف القرآن: {تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله} 7. فذكر أنه بعد الاقشعرار تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله؛ فذكره بالذات يوجب الطمأنينة، وإنما الاقشعرار والوجل عارض بسبب ما في نفس الإنسان من التقصير في حقه، والتعدي لحده؛ فهو كالزبد مع ما ينفع الناس: الزبد يذهب جفاء، وما ينفع الناس يمكث في الأرض.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

2 سورة الحج، الآيتان 34-35.

3 ما بين المعقوفتين ليس في ((ط)) ، وهو في ((خ)) ، و ((م)) .

4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، و ((م)) ، وهو في ((ط)) .

5 تفسير مجاهد ص 425، وفيه عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: {وبشر المخبتين} ، قال: المطمئنين. وكذلك تفسير الطبري 9151.

6 رواه الطبري في تفسيره عن قتادة. انظر: تفسيره 9151.

7 سورة الزمر، الآية 23.

فالخوف مطلوب لغيره، ليدعو النفس إلى فعل الواجب، وترك المحرم. وأما الطمأنينة بذكره، وفرح القلب به، ومحبته، فمطلوب لذاته. ولهذا يبقى معهم هذا في الجنة، فيلهمون التسبيح، كما يلهمون النفس1.

اللذات عند الفلاسفة ثلاث

والمتفلسفة2 رأوا اللذات في الدنيا ثلاثة3: حسية، ووهمية،

---

1 أخرج مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أهل الجنة يأكلون فيها، ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون". قالوا: فما بال الطعام؟ قال: "جشاء، ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفس". صحيح مسلم 42180-2181، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات أهل الجنة وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا. ومسند الإمام أحمد 3349. وانظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب 2211.

2 الفلاسفة هم طائفة من اليونانيين يشتغلون بالفلسفة، ولهم أقوال مختلفة. وكلمة فلسفة كلمة يونانية مركبة من فيلو، ومعناها: محب، وسوفيا، ومعناها: الحكمة. فالفيلسوف هو محب الحكمة. ومذهبهم: أن العالم قديم، وعلته مؤثرة بالإيجاب، وليست فاعلة بالاختيار. وأكثرهم ينكرون علم الله تعالى، وينكرون حشر الأجساد. وتأثر بهم كثير ممن أراد أن يجمع بين الشريعة والفلسفة؛ مثل ملاحدة الصوفية، والشيعة. انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل 141. والملل والنحل 2155. والمعجم الفلسفي ص 138-140. والجواب الصحيح 622-45. وكتاب الصفدية 1267،، 2323. والرد على المنطقيين ص 332.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الفلسفة: "والفلسفة هي باطن الباطنية، ولهذا صار في هؤلاء نوع من الإلحاد، فقل أن يسلم من دخل مع هؤلاء في نوع من الإلحاد في أسماء الله وآياته، وتحريف الكلم عن مواضعه". درء تعارض العقل والنقل 3269.

3 ولقد شاركهم الرازي، وقسمها مثل تقسيمهم في آخر كتبه؛ وهو كتاب أقسام اللذات، وبين أنها ثلاثة: الحسية؛ كالأكل، والشراب، والنكاح، واللباس. واللذة الخيالية الوهمية؛ كلذة الرياسة، والأمر، والنهي، والترفع، ونحوها. واللذة العقلية؛ كلذة العلوم، والمعارف. وهي الحق، وأن شرف العلم بشرف المعلوم. انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية ص 304-305. وجامع الرسائل 2250-251. وانظر: ما سيأتي لاحقا ص 478.

وعقلية. والحسية في الدنيا غايتها دفع الألم. والوهمية خيالات [وأضغاث] 1، واللذة الحقيقية هي العلم. فجعلوا جنس العلم غاية، وغلطوا من وجوه: أحدها: أن العلم بحسب المعلوم، فإذا كان المعلوم محبوبا تكمل النفس بحبه، كان العلم به كذلك. وإن كان مكروها، كان العلم به لحذره، ودفع ضرره؛ كالعلم بما يضر الإنسان من شياطين الإنس والجن. فلم يكن المقصود نفس العلم، بل المعلوم. ولهذا قد يقولون: سعادتها في العلم بالأمور الباقية2، وأنها تبقى ببقاء معلومها. ثم يظنون أن الفلك والعقول والنفوس أمور باقية، وأن بمعرفة هذه تحصل سعادة النفس. وأبو حامد في مثل ((معراج السالكين)) ، ونحوه، يشير إلى هذا3؛ فإن كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة؛ ففيه فلسفة مشوبة بإسلام، وإسلام مشوب بفلسفة4،
الغزالي بين المسلمين والفلاسفة
ولهذا

---

1 في ((خ)) رسمت: (واصحار) كذا مهملة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: كتاب العلم، ضمن إحياء علوم الدين للغزالي.
3 انظر: معراج السالكين - ضمن مجموعة القصور العوالي 3113-114 -.
وقال الغزالي في المضنون به على غير أهله - ضمن القصور العوالي 2162: "وأما الكلام في أن بعض هذه اللذات مما لا يرغب فيها؛ مثل اللبن، والاستبرق، والطلح المنضود، والسدر المخضود، فهذا مما خوطب به جماعة يعظم ذلك في أعينهم، ويشتهونه غاية الشهوة".
4 وقال شيخ الإسلام رحمه الله عنه أيضا: "ولهذا جعلوا كثيرا من كلامه برزخا بين المسلمين والفلاسفة المشائين؛ فالمسلم يتفلسف به على طريقة المشائين تفلسف مسلم، والفيلسوف يسلم به إسلام فيلسوف، فلا يكون مسلما محضا، ولا فيلسوفا محضا على طريقة المشائين". منهاج السنة النبوية 1357. وانظر: بغية المرتاد ص 193، 198، 199. وشرح الأصفهانية 2507.

كان في كتبه؛ كالإحياء، وغيره يجعل المعلوم بالأعمال، والأعمال كلها إنما غايتها هو العلم فقط1، وهذا حقيقة قول هؤلاء الفلاسفة2، وكان يعظم الزهد3 جدا، ويعتني به أعظم من اعتنائه بالتوحيد الذي جاءت به الرسل؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه؛ فإن هذا التوحيد يتضمن محبة الله وحده، وترك محبة المخلوق مطلقا، إلا إذا أحبه [لله] 4، فيكون داخلا في محبة الله، بخلاف من يحبه مع الله؛ فإن هذا شرك.
وهؤلاء المتفلسفة إنما يعظمون تجريد النفس عن الهيولي5، وهي

---

1 انظر: إحياء علوم الدين 153.
2 وقال عنهم شيخ الإسلام رحمه الله أيضا: "ثم إنهم مع إقرارهم بأن جعل هذه المعاني الصابئية الفلسفية هي مسميات هذه الأسماء النبوية، أو التي يقال إنها نبوية، هو من كلام هؤلاء المتفلسفة، يقطعون بذلك في مواضع أخر. بل فيما يجعلونه من أشرف العلوم والمعارف، حتى إنهم يجعلونه من العلوم التي يضن بها على غير أهلها، ومن العلم المكنون الذي ينكره أهل الغرة بالله، ولا يعرفه إلا أهل العلم بالله. وهذا موجود في مواضع كثيرة؛ كما في كتاب التفرقة بين الإيمان والزندقة". بغية المرتاد ص 195-196.
3 انظر: كتاب الزهد، ضمن إحياء علوم الدين 4203-225.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : الله. وما أثبت من ((خ)) .
5 قال صاحب التعريفات: "الهيولي: لفظ يوناني، بمعنى الأصل والمادة. وفي الاصطلاح: هي جواهر في الجسم قابلة لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال، والانفصال، محل للصورتين: الجسمية، والنوعية". التعريفات ص 321.
وقال عنه شيخ الإسلام رحمه الله: "الهيولي في لغتهم بمعنى المحل؛ يقال الفضة هيولي الخاتم والدرهم، والخشب هيولي الكرسي؛ أي هذا المحل الذي تصنع فيه هذه الصورة، وهذه الصورة الصناعية عرض من الأعراض. ويدعون أن للجسم هيولي، محل الصورة الجسمية، غير نفس الجسم القائم بنفسه". مجموع الفتاوى 17328.

المادة، وهي البدن، وهو الزهد في أغراض البدن، و [هو] 1 الزهد في الدنيا. وهذا ليس فيه إلا تجريد النفس عن الاشتغال بهذا؛ فتبقى النفس فارغة؛ فيلقي إليها الشيطان ما يلقيه، ويوهمه أن ذلك من علوم المكاشفات والحقائق2، وغايته وجود مطلق، هو في الأذهان، لا في الأعيان3.

الغزالي جعل السلوك إلى الله ثلاثة منازل
ولهذا جعل أبو حامد السلوك إلى الله ثلاثة منازل، بمنزلة السلوك4

1 في ((خ)) : هي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 يقول الغزالي عن هذه المكاشفات والحقائق التي تحصل له: "وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب، ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله، وهو المشارك فيه، على سبيل المذاكرة، وبطريق الإسرار، وهذا هو العلم الخفي". إحياء علوم الدين 120-21. وانظر: المنقذ من الضلال ص 51.
ويقول أيضا في ((كيمياء السعادة)) - ضمن الجواهر الغوالي ص 15-16: "إن صاحب الرياضة قد يسمع كلام الله، كما سمعه موسى بن عمران عليه السلام".
وانظر: العواصم من القواصم ص 22-23. والرد على المنطقيين ص509-510. والصفدية 1230. ودرء تعارض العقل والنقل 10281-282. وسير أعلام النبلاء 19333-334. وجامع الرسائل 1163-164.
3 وأوضح شيخ الإسلام رحمه الله مرادهم من الوجود المطلق: "أن الحق هو الوجود المطلق، والفرق بينه وبين الخلق من جهة التعيين، فإذا عين كان خلقا، وإذا أطلق الوجود كان هو الحق". بغية المرتاد ص 410.
وقال أيضا - رحمه الله: "ومنتهاهم أن يثبتوا وجودا مطلقا لا حقيقة له إلا في الذهن، لا في الخارج. وهذا منتهى هؤلاء المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من المتصوفة أهل الوحدة والحلول والاتحاد، ومن ضاهاهم من أصناف أهل الإلحاد". درء تعارض العقل والنقل10282. وانظر: المصدر نفسه 1290، 318، 6242. والرد على المنطقيين ص 309، 522. وشرح حديث النزول ص 97.
4 في ((خ)) : تكرار: (ثلاثة منازل بمنزلة السلوك) . إلا أن الذي قابل النسخة تنبه لهذا التكرار، فوضع (من) في أوله، و (إلى) في آخره؛ علامة على الحذف. والله أعلم.

إلى مكة؛ فإن السالك إليها له ثلاثة أصناف من الشغل:
الأول: تهيئة الأسباب؛ كشراء الزاد، والراحلة، وخرز الراوية1.
والآخر: السلوك، ومفارقة الوطن، بالتوجه إلى الكعبة، منزلا بعد منزل.
والثالث: الاشتغال بأركان الحج، ركنا بعد ركن، ثم بعد النزوع2 عن لبسة الإحرام، وطواف الوداع، استحق التعرض للملك، والسلطنة. قال: فالعلوم ثلاثة3: قسم يجري مجرى سلوك البوادي، وقطع العقبات؛ وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات، وطلوع تلك [العقبة] 4 الشامخة التي عجز عنها الأولون والآخرون، إلا الموفقون.
قال5: فهذا سلوك للطريق، وتحصيل علمه6؛ كتحصيل علم جهات الطريق، ومنازله. وكما لا يغني علم المنازل وطريق البوادي دون سلوكها، فكذا لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب. لكن المباشرة دون العلم، غير ممكن.
قال: وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه؛ وهو العلم بالله، وصفاته، وملائكته، وأفعاله، وجميع ما ذكرناه في تراجم علم المكاشفة.

1 خرز الرواية خياطة الأدم. لسان العرب 5344، والمصباح المنير ص 166 والمقصود خياطة القربة للماء.
2 في إحياء علوم الدين: ثم بعد الفراغ والنزوع.
3 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالىهنا القسمين الثاني والثالث من العلوم التي ذكرها الغزالي في الإحياء، وترك الأول منها؛ وهو: "قسم يجري مجرى إعداد الزاد والراحلة، وشراء الناقة؛ وهو علم الطب، والفقه، وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا". إحياء علوم الدين 154.
4 في ((خ)) : العاقبة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 أي أبو حامد الغزالي.
6 أي علم الطريق.

قال: وها هنا نجاة وفوز بالسعادة. والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق، إذا كان غرضه المقصد؛ وهو السلامة. وأما الفوز بالسعادة: فلا ينالها إلا العارفون؛ فهم المقربون المنعمون في جوار الله بالروح، والريحان، وجنة نعيم1.

وأما الممنوعون دون ذروة الكمال، فلهم النجاة والسلامة؛ كما قال تعالى: {فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين} 2.
وقال: وكل من لم يتوجه إلى المقصد، أو انتهض إلى جهته لا على قصد الامتثال بالأمر والعبودية، بل لغرض عاجل، فهو من أصحاب الشمال، ومن الضالين؛ فله نزل من حميم وتصلية جحيم.
قال: واعلم أن هذا هو الحق اليقين عند العلماء الراسخين في العلم؛ أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن. ومشاهدة الباطن أقوى وأجل من مشاهدة الأبصار3، وترقوا فيه عن حد التقليد إلى الاستبصار4.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : وجنة، ونعيم - بزيادة الواو.
2 سورة الواقعة، الآيات 88-91.
3 والغزالي يمتدح الصوفية بأنها أفضل الطرق الموصلة للمكاشفات، فيقول: "ومن أول الطريقة تبتدي المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه". المنقذ من الضلال ص 50.
4 إحياء علوم الدين للغزالي 154-55، مع اختلاف يسير جدا في بعض الكلمات.

تعليق شيخ الإسلام على كلام الغزالي
قلت: وكلامه من هذا الجنس كثير، ومن لم يعرف حقيقة مقصده [يهوله] 1 مثل هذا الكلام؛ لأن صاحبه يتكلم بخبرة ومعرفة بما يقوله، لا بمجرد تقليد لغيره. لكن الشأن فيما خبره، هل هو حق مطابق. ومن سلك مسلك المتكلمين؛ الجهمية، والفلاسفة، ولم يكن عنده خبرة بحقائق ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، بل ولا بحقائق الأمور عقلا وكشفا، فإن هذا الكلام غايته.
[و] 2 أما من عرف حقيقة ما جاءت به الرسل، أو عرف مع ذلك بالبراهين العقلية والمكاشفات الشهودية صدقهم فيما أخبروا؛ فإنه يعلم غاية مثل هذا [الكلام] 3، وأنه إنما ينتهي إلى التعطيل4.
ولهذا ذاكرني مرة شيخ جليل له معرفة، وسلوك، وعلم في هذا، فقال: كلام أبي حامد يشوقك، فتسير خلفه، منزلا بعد منزل، فإذا هو ينتهي إلى لا شيء5.

---

1 في ((ط)) : فهو له. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((ط)) : كالكلام.
4 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن الغزالي، وما تؤول إليه حاله: (وما يشير إليه أحيانا في الإحياء وغيره، فإنه كثيرا ما يقع في كلامه ما هو مأخوذ من كلام الفلاسفة، ويخلطه بكلام الصوفية، أو عباراتهم، فيقع فيه كثير من المتصوفة الذين لا يميزون بين حقيقة دين الإسلام، وبين ما يخالفه من الفلسفة الفاسدة وغيرها، لا سيما إذا بني على ذلك، واتبعت لوازمه، فإنه يفضي إلى قول ابن سبعين وابن عربي صاحب الفصوص وأمثالهما، ممن يقول بمثل هذا الكلام، وحقيقة مذهبهم يؤول إلى التعطيل المحض، وأنه ليس للعالم رب مباين له، بل الخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق) . جامع الرسائل 1164.
5 لم أعرف هذا الرجل الذي شافه شيخ الإسلام بشأن حال الغزالي.
وللإمام الطرطوشي عبارة في حال الغزالي، مثل ما ذكر هذا الرجل. انظر: سير أعلام النبلاء 19339، 494.

وهذا الذي جعله هنا الغاية، وهو: معرفة الله، وصفاته، وأفعاله، وملائكته، قد ذكره في ((المضنون به على غير أهله)) 1، وهو فلسفة محضة. قول المشركين من العرب خير منه، دع قول اليهود والنصارى. بل قوم نوح، وهود، وصالح، ونحوهم كانوا يقرون بالله، وبملائكته، وصفاته، وأفعاله، خيرا من هؤلاء. [لكن] 2 لم يقروا بعبادته وحده لا شريك له، ولا بأنه أرسل رسولا من البشر.
حقيقة قول الفلاسفة في أصول الدين
[وهذا حقيقة قول] 3 هؤلاء؛ فإنهم لا يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ولا يثبتون حقيقة الرسالة، بل النبوة عندهم فيض من جنس المنامات4.

وأولئك الكفار ما كانوا ينازعون في هذا الجنس؛ فإن هذا الجنس موجود لجميع بني آدم، ومع هذا فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم كانوا يقرون بالملائكة؛ كما قال: {فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود

1 المضنون به على غير أهله - ضمن القصور العوالي - 2126-153.
2 في ((خ)) : ثم من. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) ، وهو في ((خ)) ، و ((م)) .
4 انظر: المضنون به على غير أهله - ضمن القصور العوالي - 2143، 149-150. وانظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس ص 151؛ حيث سلك فيه طريقة الفلاسفة في النبوة، وأنها ثلاث: قوة التخييل، وقوة العقل، وقوة النفس.
ولاحظ كتاب الصفدية لشيخ الإسلام 1230، وفيه ينقل عن الغزالي: (أنه قد يسمع نفس الخطاب الذي سمعه موسى) . وانظر: سير أعلام النبلاء 19333-334.

إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة} 1. وقال [قوم] 2 نوح: {ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين} 3. بل فرعون قال لموسى: {أم أنا خير من هذا [الذي] 4 هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين} 5.
والعبادات كلها عندهم مقصودها تهذيب الأخلاق. والشريعة سياسة مدنية. والعلم الذي يدعون الوصول إليه لا حقيقة لمعلومه في الخارج6.
والله أرسل رسوله بالإسلام والإيمان بعبادة الله وحده، وتصديق الرسول فيما أخبر؛ فالأعمال عبادة الله، والعلوم تصديق الرسول. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص7، وتارة: {قولوا

1 سورة فصلت، الآية 13-14.
2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
3 سورة المؤمنون، الآية 24.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
5 سورة الزخرف، الآيات 52-55.
6 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن الموجودات العقلية التي يثبتها هؤلاء من واجب الوجود؛ كالعقول العشرة التي هي عند التحقيق لا توجد إلا في الأذهان، لا في الأعيان. والواحد المجرد الذي يقولون إنه صدر عنه العالم، لا يوجد إلا في الأذهان، لا في الأعيان. والوجود المطلق الذي يقولون إنه الوجود الواجب إنما يوجد في الأذهان لا في الأعيان". كتاب الصفدية 1243.
وانظر: مناظرات شيخ الإسلام لعلمائهم، وفضحه لأصولهم ومعتقداتهم، وبيانه - رحمه الله - أن آخر أمرهم ينتهي إلى الوجود المطلق، وهو في الأذهان لا في الأعيان: في كتاب الصفدية 1296، 302، 303.
7 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في ركعتي الفجر: {قل يا أيها الكافرون} ، و {قل هو الله أحد} . أخرجه البخاري في كتاب التهجد 272، باب ما يقرأ في ركعتي الفجر. ومسلم 1502، كتاب صلاة المسافرين، باب في استحباب ركعتي سنة الفجر.
وأخرج الترمذي في جامعه 3607، كتاب الحج، باب ما يقرأ في ركعتي الطواف، من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص: {قل يا أيها الكافرون} ، و {قل هو الله أحد} وانظر: التدمرية ص 5. وكتاب الصفدية 2312.
وسميتا سورتي الإخلاص؛ لأن سورة {قل هو الله أحد} وصف الله سبحانه بالوحدانية، والصمدية، ونفي الكفؤ عنه، والمثل؛ فاسمه الأحد دل على أنه مستحق لجميع صفات الكمال وحده.
وسورة {قل يا أيها الكافرون} ، فيها إيجاب عبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من عبادة كل ما سواه.
وأما من حيث الدلالة: ف {قل يا أيها الكافرون} : متضمنة للتوحيد العملي الإرادي؛ وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة.

وأما سورة {قل هو الله أحد} : فمتضمنة للتوحيد القولي العلمي؛ كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا كان يقرأ: {قل هو الله أحد} في صلاته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: سلوه لم يفعل ذلك؟ فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها. فقال: "أخبروه أن الله يحبه". انظر: التحفة المهدية ص 28.

آمنا بالله وما أنزل إلينا} 1 الآية؛ فإنها تتضمن الإيمان، والإسلام. وبالآية من آل عمران: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} 23.

فلاسفة الصوفية الذين تأثروا بكلام الغزالي

[والذين] 4 سلكوا خلف أبي حامد، أو ضاهوه في السلوك؛ كابن سبعين، وابن عربي، صرحوا بحقيقة ما وصلوا إليه، وهو أن الوجود

---

1 سورة البقرة، الآية 136.

2 سورة آل عمران، الآية 64.

3 قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم هذه أخرجها مسلم في صحيحه 1504، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر.

4 في ((ط)) : والذي. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .

(390/1)

واحد1، وعلموا أن أبا حامد لا يوافقهم على هذا، فاستضعفوه، و [نسبوه] 2 إلى أنه مقيد بالشرع والعقل3.

وأبو حامد بين علماء المسلمين، وبين علماء الفلاسفة. علماء المسلمين يذمونه على ما شارك فيه الفلاسفة مما يخالف دين الإسلام. والفلاسفة يعيبونه على ما بقي معه من الإسلام، وعلى كونه لم ينسلخ [منه] 4 بالكلية إلى قول الفلاسفة.

ذم ابن رشد للغزالي

ولهذا كان الحفيد ابن رشد5 ينشد فيه:

يوما يمان إذا ما جئت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدناني6

---

1 وشيخ الإسلام رحمه الله يرى أن ابن عربي، وابن سبعين؛ من أئمة ملاحدة الصوفية تأثروا بكلام الغزالي، وبنوا أفكارهم على أصله الفاسد. انظر: من كتبه: كتاب الصفدية 1230-244. وجامع الرسائل 1163-164. ودرء تعارض العقل والنقل 6241، 10283.

2 في ((خ)) : نسبه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 انظر: ذم ابن سبعين للغزالي في: بد المعارف لابن سبعين ص 144. وكذا انظر: ذم ابن طفيل له - وهو من الفلاسفة - في فلسفة ابن طفيل، ورسالته ((حي ابن يقظان)) دراسة عبد الحليم محمود ص 79، نقلا عن تعليق محقق بغية المرتاد ص110.

4 في ((ط)) : عنه.

5 وابن رشد معدود من الفلاسفة. وقد قال يذم الغزالي: (إنه لم يلزم مذهبا من المذاهب في كتبه، بل هو مع الأشاعرة أشعري، ومع الصوفية صوفي، ومع الفلاسفة فيلسوف، حتى أنه كما قيل:

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدناني)

فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ص 30.

6 من شعر عمران بن حطان الخارجي. انظر: الكامل للمبرد 2170. والأغاني للأصفهاني 18112. وانظر: منهاج السنة النبوية 1357. ودرء تعارض العقل والنقل 10283.

ذم القشيري للغزالي

وأبو نصر القشيري1، وغيره [ذموه] 2 على الفلسفة، وأنشدوا فيه [أبياتا] 3 معروفة، يقولون فيها:

برئنا إلى الله من معشر

بهم مرض من كتاب الشفا4

وكم قلت يا قوم أنتم على
شفا حفرة ما لها من شفا
فلما استهانوا بتعريفنا
رجعنا إلى الله حتى كفا
فماتوا على دين [رسطالس] 5
وعشنا على سنة المصطفى6 ذم العلماء له
ولهذا كانوا يقولون: أبو حامد قد أمرضه الشفاء7.

---

1 هو أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري. قال عنه الذهبي: "النحوي المتكلم، وهو الولد الرابع من أولاد الشيخ - أبو القاسم القشيري". دخل بغداد، فوعظ بها، فوقع بسببه فتنة بين الحنابلة والشافعية، وأخرج من بغداد لاطفاء الفتنة، فعاد إلى بلده. توفي سنة 514؟. انظر: سير أعلام النبلاء 19424. والبداية والنهاية 12200. وطبقات الشافعية 7159.
2 ما بين المعقوفتين ملحق من ((خ)) بين السطرين.
3 في ((خ)) : أبيات. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) ضبطها هكذا: الشفا. وكتب في الحاشية: أي الشفا لابن سينا.
5 نسب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذه الأبيات إلى أبي نصر القشيري في مواضع أخرى من كتبه. انظر: مجموع الفتاوى 9253. والرد على المنطقيين ص 501-511.
6 في ((م)) و ((ط)) : برسطالس. ويقصد به أرسطوطاليس، أحد الفلاسفة اليونان القدماء. انظر: ترجمته ص 227.
7 قال شيخ الإسلام رحمه الله - في موضع آخر: "وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه، وقالوا: مرضه الشفاء؛ يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة". مجموع الفتاوى 10551.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "ومادة أبي حامد في الفلسفة من كلام ابن سينا، ولهذا يقال: أبو حامد أمرضه الشفاء، ومن كلام أصحاب رسائل إخوان الصفا، ورسائل أبي حيان التوحيدي، ونحو ذلك". بغية المرتاد ص 449.
وانظر: أيضا: مجموع الفتاوى 655. والرد على المنطقيين ص 511.

وكذلك الطرطوشي1، والمازري2، وابن عقيل3، وأبو البيان4،

---

1 هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي. قال عنه الذهبي: الإمام العلامة القدوة الزاهد شيخ المالكية عالم الاسكندرية. وطرطوشة هي آخر حد المسلمين من شمالي الأندلس. ولد فيها سنة 451 ? ورحل إلى المشرق، وأخذ عن العلماء، وحج، وسكن الاسكندرية، وتخرج على يديه نحو من مائتي فقيه مفت. توفي سنة 520؟. ومن كتبه كتاب كبير عارض به إحياء علوم الدين للغزالي، وكتاب الحوادث والبدع، وسراج الملوك، وغيرها. انظر: سير أعلام النبلاء 19490. والأعلام 7133، 134. وشذرات الذهب 4602. وانظر: كلامه عن الغزالي في: سير أعلام النبلاء 19334، 339، 494، 495. وطبقات الشافعية للسبكي 6243.
2 هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، محدث من فقهاء المالكية. قال عنه الذهبي: "وكان بصيرا بعلم الحديث. وقال عنه القاضي عياض: هو آخر المتكلمين، من شيوخ أفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقة النظر". ولد سنة 453 هـ، وتوفي سنة 536هـ. من مؤلفاته: الكشف والإنباء في الرد على الإحياء، والمعلم بفوائد مسلم. انظر: سير أعلام النبلاء 20104. وشذرات الذهب 4114. والأعلام للزركلي 6277. وانظر: كلامه على الغزالي في سير أعلام النبلاء 19330-332، 340-342. وطبقات الشافعية للسبكي 6240-242.
3 ترجمة ابن عقيل سبقت.
4 هو نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي، أبو البيان الدمشقي الشافعي. قال عنه الذهبي: "اللغوي الأثري الزاهد، شيخ البيانية، وصاحب الأذكار المسجوعة.... وكان حسن الطريقة، صينا، دينا، تقيا، محبا للسنة والعلم والأدب، له أتباع ومحبون". توفي

سنة 551 ?. انظر: سير أعلام النبلاء 20326، 327. وطبقات الشافعية للسبكي 7318-320. والبداية والنهاية 12235. وشذرات الذهب 4160.

وابن حمدين1، ورفيق أبي حامد؛ أبو نصر المرغيناني2، وأمثال

1 هو أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين الأندلسي المالكي، قاضي الجماعة. قال الذهبي عنه: "صاحب فنون ومعارف وتصانيف. ولي القضاء ليوسف بن تاشفين في قرطبة. توفي سنة 508 ?، وكان ذكيا بارعا في العلم، متفننا، أصوليا، لغويا، شاعرا، حميد الأحكام.... وكان يحط على الإمام أبي حامد في طريقة التصوف، وألف في الرد عليه". سير أعلام النبلاء 19422. وانظر: نفح الطيب 3537.
وقد أفتى قاضي الجماعة ابن حمدين مع بعض العلماء في إتلاف كتاب ((إحياء علوم الدين)) ، ورفعوا أمرهم إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، فأصدر أمره إلى جميع الأقاليم بمصادرة الكتاب وإحراقه. وأحرق بحضور جماعة من أعيان قرطبة وعلمائها، يتقدمهم قاضي الجماعة ابن حمدين. وكان ذلك سنة 503 ?. انظر: الحلل الموشية في ذكر أخبار المراكشية ص 104. وسير أعلام النبلاء 19327 - في ترجمة القاضي عياض - وكذلك عصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان ص 79.
2 وهو أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني. من أكابر فقهاء الحنفية. كان حافظا مفسرا محققا أديبا. من مؤلفاته: الهداية في شرح البداية، ومنتقى الفروع. ولد سنة 530?، وتوفي سنة 593?. انظر: الأعلام 4266.
وقد كناه شيخ الإسلام هنا أبو نصر. والصحيح أبو الحسن؛ كما ذكر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله في بعض مؤلفاته. انظر: بغية المرتاد ص 281. ودرء تعارض العقل والنقل 6239. وكتاب الصفدية 1210. ومجموع الفتاوى 466. والأعلام 4266.

هؤلاء1 لهم كلام كثير في ذمه على ما دخل فيه من الفلسفة. ولعلماء الأندلس في ذلك مجموع كبير.
مراتب الناس عند ابن سبعين
ولهذا لما سلك خلفه ابن عربي2، وابن سبعين3، كان ابن سبعين في كتاب [((البد))] 4 وغيره، يجعل الغاية هو المقرب؛ وهو نظير المقرب

1 وممن ذم الغزالي من غير هؤلاء، وذكرهم شيخ الإسلام رحمه الله في كتبه الأخرى: أبو بكر بن العربي، وأبو عبد الله الذكي، ومحمود الخوارزمي، ويوسف الدمشقي، وأبو الفرج بن الجوزي، وأبو محمد المقدسي، وأبو عمرو بن الصلاح، وأولاد القشيري، وغيرهم من الشافعية. وأبو الحسن بن شكر، وأبو زكريا النووي. كما تكلم فيه الكردري وغيره من أصحاب أبي حنيفة.
انظر: درء تعارض العقل والنقل 6239، 240. وبغية المرتاد ص 280-281. وكتاب الصفدية 210-211. ومجموع الفتاوى 466. ونقض المنطق ص56.
وكذلك القاضي عياض، نقل كلامه الذهبي في سير أعلام النبلاء 19327. وذكر الزبيدي في اتحاف السادة المتقين 140، الذين أنكروا على الغزالي، أنهم: "طوائف شتى؛ ما بين مغاربة، ومشارقة، ومالكية، وشافعية، وحنابلة ... ".
2 هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي. من أئمة فلاسفة الصوفية أهل الزندقة والإلحاد. قال عنه الذهبي: قدوة القائلين بوحدة الوجود. ولد بالأندلس عام 560، وتوفي بدمشق عام 638?. انظر: البداية والنهاية 13167. وشذرات الذهب 5190. والأعلام 6281.
3 هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين. يعد من فلاسفة الصوفية ومن القائلين بوحدة الوجود. ولد سنة 613، ومات سنة 668 بمكة. انظر: البداية والنهاية 13275. وشذرات الذهب 5329. والأعلام 3280. وانظر: مقدمة تحقيق بغية المرتاد ص 135-144.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : اليد.
وكتاب ((البد)) هو: ((بد العارف)) لابن سبعين، وهو مطبوع. (نقلا عن شرح الأصفهانية 2548) .

في كلام أبي حامد، ويجعل المراتب خمسة: أدناها الفقيه، ثم المتكلم، ثم الفيلسوف، ثم الصوفي الفيلسوف؛ وهو السالك، ثم المحقق1.

عقائد ابن عربي

وابن عربي له أربع عقائد2: الأولى: عقيدة أبي المعالي وأتباعه مجردة عن حجة. والثانية: تلك العقيدة مبرهنة بحججها الكلامية. والثالثة: عقيدة الفلاسفة؛ ابن سينا وأمثاله الذين يفرقون بين الواجب والممكن. والرابعة: التحقيق الذي وصل إليه؛ وهو [أن] 3 الوجود واحد4. وهؤلاء يسلكون مسلك الفلاسفة الذي ذكره أبو حامد في ميزان

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وهم يرتبون الناس طبقات؛ أدناهم عندهم الفقيه، ثم المتكلم، ثم الفيلسوف، ثم الصوفي؛ أي صوفي الفلاسفة، ثم المحقق. ويجعلون ابن سينا وأمثاله من الفلاسفة في الثانية، وأبا حامد وأمثاله من الصوفية من العشرة، ويجعلون المحقق هو الواحد". الرد على المنطقيين ص 522. وانظر: كتاب الصفدية 1268. وشرح الأصفهانية 2547-548.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلاما طويلا - في موضع آخر - بين فيه معنى المحقق؛ فقال: "لهذا كان هؤلاء؛ كابن سبعين ونحوه يعكسون دين الإسلام؛ فيجعلون أفضل الخلق: المحقق عندهم؛ وهو القائل بالوحدة. وإذا وصل إلى هذا فلا يضره عندهم أن يكون يهوديا أو نصرانيا، بل كان ابن سبعين، وابن هود، والتلمساني، وغيرهم يسوغون للرجل أن يتمسك باليهودية والنصرانية؛ كما يتمسك بالإسلام، ويجعلون هذه طرقا إلى الله بمنزلة مذاهب المسلمين، ويقولون لمن يختص بهم من النصارى اليهود إذا عرفتم التحقيق لم يضركم بقاؤكم على ملتكم، بل يقولون مثل هذا للمشركين عباد الأوثان) . كتاب الصفدية 1268-269.

2 قال ابن عربي في الفتوحات المكية:

عقد البرية في الإله عقائدا ... وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

نقلا عن الفكر الصوفي ص 102.

3 ما بين المعقوفتين ليست في ((خ)) ، وهي في ((م)) ، و ((ط)) .

4 انظر: الفتوحات المكية 131-32، 38.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "لهذا ذكر ابن عربي في الفتوحات له أربع عقائد؛ الأولى: عقيدة أبي المعالي وأمثاله مجردة عن الحجة. ثم هذه العقيدة بحجتها. ثم عقيدة الفلاسفة. ثم عقيدة المحققين؛ وذلك أن الفيلسوف يفرق بين الوجود والممكن والواجب. وهؤلاء يقولون: الوجود واحد. والصوفي الذي يعظمه هؤلاء هو الصوفي الذي عظمه ابن سينا، وبعده المحقق" الرد على المنطقيين ص 522. وانظر: بغية المرتاد ص 446.

وقال رحمه الله أيضا: "لهذا ذكر ابن عربي في أول الفتوحات ثلاث عقائد؛ عقيدة مختصرة من إرشاد أبي المعالي بحججها الكلامية. ثم عقيدة فلسفية؛ كأنها مأخوذة من ابن سينا وأمثاله. ثم أشار إلى اعتقاده الباطن الذي أفصح به في فصوص الحكم؛ وهو وحدة الوجود، فقال: وأما عقيدة خلاص الخاص فتأتي مفرقة في الكتاب" كتاب الصفدية 1267.

العمل؛ وهو: أن الفاضل له ثلاث عقائد: عقيدة مع العوام يعيش بها في الدنيا؛ كالفقه مثلا. وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم؛ كالكلام. والثالثة: [سر] 1 لا يطلع عليه أحد إلا الخواص2.

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .

2 انظر: ميزان العمل ص 405-408. بتحقيق سليمان دنيا.

ولخص د محمد رشاد سالم في تعليقه على كتاب الصفدية 1268 كلام ابن عربي الذي ذكر فيه أن له ثلاث عقائد؛ فقال: "كر ابن عربي العقيدة الأولى في ج 1 ص 34 من كتاب الفتوحات المكية، وذكر في آخرها ص 38: "هذه عقيدة العوام من أهل الإسلام أهل التقليد وأهل النظر ملخصة مختصرة" ثم قال بعد ذلك مباشرة: "م أتلوها إن شاء الله بعقيدة الناشئة الشادية ... ثم أتلوها بعقيدة خواص أهل الله من أهل طريق الله؛ من المحققين أهل الكشف والوجود. وجردتها أيضا في جزء آخر سميته المعرفة، وبه انتهت مقدمة الكتاب. وأما التصريح بعقيدة الخلاصة فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض، لكن جئت بها مبددة في أبواب هذا الكتاب مستوفاة مبينة، لكنها كما ذكرنا متفرقة ... إلخ. وتنتهي مقدمة الكتاب ص 47" والطبعة التي أشار إليها دمحمد رشاد سالم هي طبعة دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، 1329 ?.

المضنون به على غير أهله فلسفة محضة
ولهذا صنف الكتب المضنون بها على غير أهلها، وهي فلسفة محضة، سلك فيها مسلك ابن سينا1. ولهذا يجعل اللوح المحفوظ هو النفس الفلكية2 إلى أمور أخرى قد بسطت في غير هذا الموضع، ذكرنا ألفاظه بعينها في مواضع؛ منها: الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة، وغير ذلك3؛ فإنه لما انتشر الكلام في مذهب أهل الوحدة، وكنت لما دخلت إلى مصر بسببهم، ثم صرت في الإسكندرية، جاءني من فضلائهم من يعرف حقيقة أمرهم4، وقال: إن كنت تشرح لنا كلام هؤلاء، وتبين مقصودهم، ثم تبطله، وإلا فنحن لا نقبل منك كما لا نقبل من غيرك؛
سبب تأليف بغية المرتاد السبعينية
فإن هؤلاء لا يفهمون كلامهم. فقلت: نعم! أنا أشرح لك ما شئت من كلامهم؛

---

1 قال د محمد رشاد سالم بعد ذكر عقائد الغزالي الثلاث: "هذا هو السبب الذي جعل الغزالي يكتب كتبا للعامة، وكتبا أخرى للخواص، سماها أحيانا بالكتب المضنون بها على غير أهلها. وقد اختلف الباحثون في تعيين هذه الكتب الخاصة (أو المضنون بها على غير أهلها) ، ولكنهم اتفقوا على أنه ألف كتبا من هذا النوع أودعها أفكارا لم يتمكن من التصريح بها لعام الناس إشفاقا عليهم من الضلال. ولعل هذا التصريح في عناوين كتبه ورسائله مثل الاقتصاد في الاعتقاد، وإلجام العوام عن علم الكلام، والمضنون به على غير أهله" مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ص 16-17. وانظر: الجواب الصحيح 539. وشرح الأصفهانية 2547.
2 انظر: المضنون الصغير - ضمن القصور العوالي 2183-184. ومشارق الأنوار ص 198.
3 انظر: بغية المرتاد (وهو الرد على ابن سبعين) ص 194، 198، 228، 326، 327. والرد على المنطقيين ص 474، 480. ومجموع الفتاوى 1244-245، 10402-403.
4 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذه القصة في كتابه الصفدية 1302. وفي الرد على المنطقيين ص 3.

مثل كتاب [البد] 1، والإحاطة2 لابن سبعين، وغير ذلك. فقال لي: لا، ولكن ((لوح الأصالة)) 3؛ فإن هذا يعرفون، وهو في رؤوسهم. فقلت له: هاته. فلما أحضره شرحته له شرحا بينا، حتى تبين له حقيقة الأمر، وأن هؤلاء ينتهي أمرهم إلى الوجود المطلق، فقال: هذا حق. وذكر لي أنه تناظر اثنان؛ متفلسف سبعيني، ومتكلم على مذهب ابن التومرت4، فقال

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : اليد.
وكتاب ((البد)) هو: بد العارف لابن سبعين، وقد طبع بتحقيق د. جورج. ونشر في دار الأندلس ودار الكندي سنة 1978 م.
انظر: بغية المرتاد ص 48، ح 1.
2 الإحاطة: إحدى رسائل ابن سبعين، وقد طبعت ضمن رسائل ابن سبعين، تحقيق د عبد الرحمن بدوي، دار الطباعة الحديثة بمصر.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "لهذا أمر ابن سبعين أن ينقش على قبره صاحب نقش فص خاتم الإحاطة. والإحاطة عندهم: هي الوجود المطلق المجرد الذي لا يتقيد بقيد، وهو الكلي الذي لا يتقيد بإيجاب ولا إمكان" كتاب الصفدية 1285.
3 اسمها: رسالة الألواح؛ وهي ضمن رسائل ابن سبعين. تحقيق د عبد الرحمن بدوي ص 190-200. وهي التي رد عليها شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه بغية المرتاد.
4 هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت البربري المصمودي الهرغي الخارجي بالمغرب، المدعي أنه علوي حسني، وأنه الإمام المعصوم المهدي. مؤسس دولة الموحدين التي قامت على أنقاض دولة المرابطين. توفي سنة 524 هـ. قال عنه الذهبي: "افق المعتزلة في شيء، والأشعرية في شيء، وكان فيه تشيع ... وسمى أصحابه بالموحدين، ومن خالفه بالمجسمين" انظر: سير أعلام النبلاء 19539-552. وطبقات الشافعية للسبكي 6109-117. والبداية والنهاية 12199-200. وشذرات الذهب 470-72.
قال عنه شيخ الإسلام رحمه الله: "أقبح من غلو هؤلاء: ما كان عليه المتسمون بالموحدين في متبوعهم الملقب بالمهدي محمد بن تومرت الذي أقام دولتهم بما أقامها به من الكذب والمحال، وقتل المسلمين، واستحلال الدماء والأموال؛ فعل الخوارج المارقين، ومن الابتداع في الدين، مع ما كان عليه من الزهد والفضيلة المتوسطة، ومع ما ألزمهم به من الشرائع الإسلامية،

والسنن النبوية؛ فجمع بين خير وشر. لكن من أقبح ما انتحلوه فيه: خطبتهم له على المنابر، بقولهم: الإمام المعصوم، والمهدي المعلوم" بغية المرتاد ص 494. وانظر: مجموع الفتاوى 13386.

ويقال إنهم قتلوا القاضي أبا بكر بن العربي، والقاضي عياض البستي. انظر: بغية المرتاد ص 495.

قال عبد الله بن الأشبيري: سمعت عبد المؤمن بن علي القيسي، سمعت أبا عبد الله ابن تومرت يقول: أبو حامد الغزالي قرع الباب، وفتح لنا) . سير أعلام النبلاء 19326.

ذاك: نحن شيخنا يقول بالوجود المطلق1.

---

1 قال ابن سبعين: "يا هذا! الوجود المطلق هو الله، والمقيد أنا وأنت، والقدر جميع ما يقع في المستقبل، والمطلق إذا ذكر نفسه ذكر كل شيء" الرسالة الرضوانية ضمن رسائل ابن سبعين ص 328 - نقلا عن مقدمة محقق بغية المرتاد ص 140.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "لهذا كان منتهى محققيهم الوجود المطلق؛ وهو الوجود المشترك بين الموجودات. وهذا إنما يكون مطلقا في الأذهان لا في الأعيان. والمتفلسفة يجعلون الكلي المشترك موضوع العلم الإلهي" الرد على المنطقيين ص 309. وانظر: درء تعارض العقل والنقل 6242،، 10298. وبغية المرتاد ص 410. والجواب الصحيح 4304.

وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى هذه القصة في منهاج السنة بتوسع، فقال: "صاروا يتباهون في التعطيل الذي سموه توحيدا أيهم فيه أحذق، حتى فروعهم تباهوا بذلك كتباهيهم كابن سبعين وأمثاله من أتباع الفلاسفة، وابن التومرت، وأمثاله من أتباع الجهمية؛ فهذا يقول بالوجود المطلق، وهذا يقول بالوجود المطلق، وأتباع كل منهما يباهون أتباع الآخرين في الحذق في هذا التعطيل. كما قد اجتمع بي طوائف من هؤلاء، وخاطبتهم في ذلك، وصنفت لهم مصنفات في كشف أسرارهم ومعرفة توحيدهم، وبيان فساده؛ فإنهم يظنون أن الناس لا يفهمون كلامهم، فقالوا لي: إن لم تبين وتكشف لنا حقيقة هذا الكلام الذي قالوه ثم تبين فساده، وإلا لم نقبل ما يقال في رده، فكشف لهم حقائق مقاصدهم، فاعترفوا بأن ذلك مرادهم. ووافقهم على ذلك رؤوسهم، ثم بينت ما في ذلك من الفساد والإلحاد حتى رجعوا وصاروا يصنفون في كشف باطل سلفهم الملحدين الذين كانوا عندهم أئمة التحقيق والتوحيد والعرفان واليقين". منهاج السنة 3297-298.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "ولهذا رأيت لابن تومرت كتابا في التوحيد صرح فيه بنفي الصفات، ولهذا لم يذكر في مرشدته شيئا من إثبات الصفات، ولا أثبت الرؤية، ولا قال إن القرآن كلام الله غير مخلوق، ونحو ذلك من المسائل التي جرت عادة مثبتة الصفات بذكرها في عقائدهم المختصرة، ولهذا كان حقيقة قوله موافقا لحقيقة قول ابن سبعين وأمثاله من القائلين بالوجود المطلق موافقة لابن سينا وأمثاله من أهل الإلحاد؛ كما يقال: إن ابن تومرت ذكره في فوائده المشرقية أن الوجود مشترك بين الخالق والمخلوق، فوجود الخالق يكون مجردا، ووجود المخلوق يكون مقيدا". درء تعارض العقل والنقل 520. وكذلك انظر: المصدر نفسه: 3438-439، 10298-300. وانظر: رد شيخ الإسلام على ابن تومرت في مجموع الفتاوى 11476-487.

وقال الآخر: ونحن كذلك إمامنا.

قلت له: والمطلق في الأذهان لا في الأعيان. فتبين له ذلك، وأخذ يصنف في الرد عليهم1.

ابن تومرت يقول بالوجود المطلق

ولم أكن أظن ابن التومرت يقول بالوجود المطلق، حتى وقفت بعد هذا على كلامه المبسوط2، فوجدته كذلك، وأنه كان يقول: الحق

---

1 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله بعض مناظراته لهؤلاء السبعينية، فقال رحمه الله: "وقلت لبعض حذاقهم: هب أن هذا الوجود المطلق ثابت في الخارج، وأنه عين الموجودات المشهودة. فمن أين لك أن هذا هو رب العالمين الذي خلق السموات والأرض وكل شيء. فاعترف بذلك، وقال: هذا ما فيه حيلة". الجواب الصحيح 4313.

وانظر: مناظرات أخرى لهؤلاء في: المصدر نفسه 4309-312. وبغية المرتاد ص 520-521. ومنهاج السنة النبوية 828. وكتاب الصفدية 1296.

2 في كتاب ابن تومرت: ((الدليل والعلم)) . وقد نقل عنه شيخ الإسلام بعض كلامه، ثم رد عليه. انظر: درء تعارض العقل والنقل 3439-440.

وهناك رد لشيخ الإسلام على المرشدة لابن تومرت، مخطوط، في جامعة الملك سعود بالرياض. وانظر: كلام شيخ الإسلام رحمه الله عن المرشدة لابن تومرت في مجموع الفتاوى 11476-493.

حقان؛ الحق المقيد، والحق المطلق؛ وهو الرب. وتبينت أنه لا يثبت شيئا من الصفات، ولا ما يتميز به موجود عن موجود؛ فإن ذلك يقيد شيئا من الإطلاق.
وسألني هذا1 عما يحتجون به من الحديث؛ مثل الحديث المذكور في العقل، وأن أول ما خلق الله تعالى العقل2، ومثل حديث: كنت كنزا لا

---

1 يعني الرجل الذي في الاسكندرية، الذي طلب منه أن يشرح له كلام أصحاب وحدة الوجود.
2 رواه أبو نعيم في الحلية 7318 عن عائشة بلفظ: "حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أول ما خلق الله سبحانه وتعالى العقل، فقال: أقبل، فأقبل. ثم قال: أدبر، فأدبر. ثم قال: ما خلقت شيئا أحسن منك، بك آخذ، وبك أعطي". قال أبو نعيم: غريب من حديث سفيان. ومنصور الزهري أحد رواة الحديث - لا أعلم له راويا عن عبد الحميد إلا سهلا، وأراه واهما فيه.
وقد بين العلماء أنه حديث موضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فقد قال أبو الفرج ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. (الموضوعات لابن الجوزي 1174) .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "وهذا الحديث كذب موضوع على النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك أهل العلم بالحديث؛ كأبي جعفر العقيلي، وأبي حاتم البستي، وأبي الحسن الدارقطني، وأبي الفرج بن الجوزي، وغيرهم". الجواب الصحيح 540-41. وانظر: بغية المرتاد ص 171-178. ومجموع الفتاوى 1244، 18122-123، 336-338. ودرء تعارض العقل والنقل 5224. ومنهاج السنة النبوية 815-16. وكتاب الصفدية 1238-239. والرد على المنطقيين ص 196-197. والفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان ص 206.
قال ابن القيم: أحاديث العقل كلها كذب. انظر: المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص 66-67. وانظر: اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي 1129-130.

أعرف، فأحببت أن أعرف1، وغير ذلك؟ فكتبت له جوابا مبسوطا، وذكرت أن هذه الأحاديث موضوعة، وأبو حامد وهؤلاء لا يعتمدون على هذا، وقد نقلوه إما من رسائل إخوان الصفا2، أو من كلام أبي حيان

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وما يروونه: كنت كنزا لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقا فعرفتهم بي، فبي عرفوني. هذا ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أعرف له إسنادا صحيحا ولا ضعيفا". مجموع الفتاوى 18122. وانظر: المصدر نفسه 18376. ودرء تعارض العقل والنقل 8507. وبغية المرتاد ص 169.
وقد حكم عليه بالوضع: السخاوي. انظر: المقاصد الحسنة ص 327.
2 إخوان الصفا: هم جماعة من الإسماعيلية الباطنية، لزموا التكتم، وألفوا مقالات، وعددها إحدى وخمسون مقالة؛ خمسون منها في خمسين نوعا من الحكمة، ومقالة حادية وخمسون جامعة لأنواع المقالات. ثم بثوا مقالاتهم وكتموا أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ولقنوها الناس، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال. انظر: الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي 25. ومجموع الفتاوى 479. وكتاب إخوان الصفا لعمر الدسوقي.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن رسائل إخوان الصفا: "وضعت في أثناء المائة الرابعة لما ظهرت الدولة العبيدية بمصر، وبنوا القاهرة. فصنفت على مذاهب أولئك الإسماعيلية كما يدل على ذلك ما فيها. وقد ذكروا فيها ما جرى على المسلمين من استيلاء النصارى على سواحل الشام. وهذا إنما كان بعد المائة الثالثة. وقد عرف الذين صنفوها؛ مثل زيد بن رفاعة، وأبي سليمان بن معشر البستي المعروف بالمقدسي، وأبي الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبي أحمد النهرجوري، والعوفي. ولأبي الفتوح المعافى بن زكرياء الجريري صاحب كتاب الجليس والأنيس مناظرة معهم، وقد ذكر ذلك أبو حيان التوحيدي في كتاب الإمتاع والمؤانسة" منهاج السنة النبوية 2466.
وقال رحمه الله أيضا: "صنفه طائفة من الذين أرادوا أن يجمعوا بين الفلسفة والشريعة والتشيع؛ كما كان سلكه هؤلاء العبيديون". منهاج السنة 811.

وانظر: المصدر نفسه 454-55. ودرء تعارض العقل والنقل 510، 26-27. والرد على المنطقيين ص 444. والجواب الصحيح 537-38. وبغية المرتاد ص 180-181. والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي 23-12.

التوحيدي1، أو من نحو ذلك2.
وهؤلاء في الحقيقة من جنس الباطنية الإسماعيلية3، لكن أولئك

---

1 أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي. فيلسوف متصوف معتزلي. قال أبو الفرج ابن الجوزي: "زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء المعري. وأشدهم على الإسلام أبو حيان؛ لأنهما صرحا وهو محجم ولم يصرح". وقال الذهبي عنه: "نسب نفسه إلى التوحيد؛ كما سمى ابن التومرت أتباعه بالموحدين، وكما يسمي صوفية الفلاسفة نفوسهم بأهل الوحدة، وبالاتحادية". مات مستترا فقيرا عن نيف وثمانين عاما، وأحرق كتبه، ولم يسلم منها غير ما نقل قبل الإحراق. من كتبه: المقايسات والصراحة، والصديق، والإمتاع والمؤانسة، وغيرها. مات سنة 400 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 17119-123. وطبقات الشافعية للسبكي 5286. والأعلام 4326.
2 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "والغزالي في كلامه مادة فلسفية كبيرة، بسبب كلام ابن سيناء في الشفاء، وغيره، ورسائل إخوان الصفا، وكلام أبي حيان التوحيدي ... وكلامه في الإحياء غالبه جيد، لكن فيه مواد فاسدة؛ مادة فلسفية، ومادة كلامية، ومادة من ترهات الصوفية، ومادة من الأحاديث الموضوعة". مجموع الفتاوى 654-55.
وانظر: المصدر نفسه 463-64. وبغية المرتاد ص 449. وسير أعلام النبلاء 19341. ودرء تعارض العقل والنقل 6242.
3 الإسماعيلية: نسبة إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. وهم إحدى فرق الباطنية الذين جعلوا لكل ظاهر من الكتاب باطنا، ولكل تنزيل تأويلا، ويخلطون كلامهم ببعض كلام الفلسفة، ويدعون من الإلهية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره كدعوى النصيرية.
قال شيخ الإسلام رحمه الله عنهم: "الإسماعيلية أخذوا من مذاهب الفرس، وقولهم بالأصلين: النور والظلمة وغير ذلك أمورا، وأخذوا من مذاهب الروم من النصرانية، وما كانوا عليه قبل النصرانية من مذهب اليونان وقولهم بالنفس والعقل وغير ذلك. ومزجوا هذا بهذا، وسموا ذلك باصطلاحهم السابق والتالي، وجعلوه هو القلم واللوح، وأن القلم هو العقل". منهاج السنة النبوية 815.
وانظر: الجواب الصحيح 2403-404. ومجموع الفتاوى 7502، 503. ودرء تعارض العقل والنقل 10-11. وانظر: أيضا: الملل والنحل للشهرستاني 1191-198. والفرق بين الفرق للبغدادي ص 62-82.

يتظاهرون بالتشيع والرفض، وهؤلاء غالبهم يميلون إلى التشيع، ويفضلون عليا1. ومنهم من يفضله بالعلم الباطن، ويفضل أبا بكر2 في العلم الظاهر؛ كأبي الحسن [الحرالي] 3، وفيه نوع من مذهب الباطنية الإسماعيلية، لكن لا يقول بوحدة الوجود مثل هؤلاء، ولا أظنه يفضل غير الأنبياء عليهم؛ فهو أنبل من هؤلاء من وجه، لكنه ضعيف المعرفة بالحديث، والسير، وكلام الصحابة والتابعين؛ فيبني له أصولا على أحاديث موضوعة، ويخرج كلامه من تصوف، وعقليات، وحقائق. وهو

---

1 في ((ط)) : رضي الله عنه.
2 في ((ط)) : رضي الله عنه.
3 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : الحرلي. وما أثبت من مصادر ترجمته.
والحرالي: هو أبو الحسن علي بن أحمد بن حسن التجيبي الأندلسي الحرالي - وحراله: قرية من عمل مرسيه - ولد في مراكش، ورحل إلى الشرق، وسكن حماه، وتوفي فيها سنة 637 ?. مفسر من علماء المغرب. قال عنه الذهبي: "كان فلسفي التصوف، ملأ تفسيره بحقائقه ونتائج فكره، وزعم أنه يستخرج من علم الحروف وقت خروج الدجال، ووقت طلوع الشمس من مغربها". ميزان الاعتدال 3114.
وانظر: سير أعلام النبلاء 2347. وشذرات الذهب 5189. والأعلام 4256. ووقع في المخطوطة الحرلي، وكذلك في أصل درء تعارض العقل والنقل 10286. ورجح الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله أنه الحرالي.

خير من هؤلاء، وفي كلامه أشياء حسنة صحيحة، وأشياء كثيرة باطلة، والله سبحانه [وتعالى] 1 أعلم.

الوجه الثاني من أوجه الرد على الفلاسفة
الثاني: أن صلاح النفس في محبة المعلوم المعبود؛ وهي عبادته، لا في مجرد علم ليس فيه ذلك، وهم جعلوا غاية النفس التشبه بالله على حسب الطاقة2، وكذلك جعلوا حركة الفلك للتشبه به3. وهذا ضلال عظيم؛ فإن جنس

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن هؤلاء جعلوا غاية الإنسان وكماله في مجرد أن يعلم الوجود، أو يعلم الحق؛ فيكون عالما معقولا مطابقا للعالم الموجود، وهو التشبه بالإله على قدر الطاقة، وجعلوا ما يأتي به من العبادات والأخلاق إنما هي شروط وأعوان على مثل ذلك، فلم يثبتوا كون الرب تعالى معبودا مألوها يحب لذاته، ويكون كمال النفس أنها تحبه؛ فيكون كمالها في معرفته ومحبته، بل جعلوا الكمال في مجرد معرفة الوجود عند أئمتهم، أو في مجرد معرفته عند من يقرب إلى الإسلام منهم". درء تعارض العقل والنقل 657.
وكذا قال رحمه الله في موضع آخر - بعد أن ذكر محبة الله لعباده، ومحبتهم له: "ومن نفى الأولى من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم، فقد أخطأ. ومن نفى الثانية من المتفلسفة والمتصوفة على طريقتهم فقد أخطأ. مع أن هؤلاء المتفلسفة لا يثبتون حقيقة الأولى، فإنهم لا يثبتون أن الرب تحبه الملائكة والمؤمنون، وإنما يجعلون الغاية تشبههم به، لا حبهم إياه. وفرق بين أن تكون كون هذا مثل هذا، وبين أن تكون الغاية كون هذا يحبه هذا محبة عبودية وذل. ولهذا قالوا: "الفلسفة هي التشبه بالإله على قدر الطاقة". ولهذا كان مطلوب هؤلاء إنما هو نوع من العلم والقدرة الذي يحصل لهم به شرف. فمطلوبهم من جنس مطلوب فرعون، بخلاف الحنفاء الذين يعبدون الله محبة له وذلا له". درء تعارض العقل والنقل 669-70.
وانظر: المصدر نفسه 670، 3269. وانظر: شرح الطحاوية 188. ومجموع الفتاوى 7536، 17321. والجواب الصحيح 632-37. وجامع الرسائل 2251-252.
3 انظر: مجموع الفتاوى 17329.

التشبه يكون بين [اثنين] 1 مقصودهما واحد؛ كالإمام والمؤتم به.
وليس الأمر هنا كذلك. بل الرب هو معبود لذاته، وهو يعرف نفسه، ويحب نفسه، ويثني على نفسه، والعبد نجاته وسعادته في أن يعرف ربه، ويحبه، ويثني عليه. والتشبه به: أن يكون هو [محبوبا لنفسه] 2، مثنيا بنفسه على نفسه. وهذا فساد في حقه، وضار به. والقوم أضل من اليهود والنصارى، بل ومن مشركي العرب؛ فإنه ليس الرب عندهم؛ لا رب العالمين وخالقهم؛ ولا إلههم ومعبودهم.
ومشركو العرب كانوا يقرون بأنه خالق كل شيء، وما سواه مخلوق له محدث. وهؤلاء الضالون لا يعترفون بذلك؛ كما قد بسط في غير هذا الموضع3.
الوجه الثالث من أوجه الرد على الفلاسفة
والوجه الثالث: أنهم يظنون أن ما عندهم هو علم بالله. وليس كذلك، بل هو جهل.
والرازي لما شاركهم4 في بعض أمورهم صار حائرا معترفا بذلك؛

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 ما بين المعقوفتين كتب في ((خ)) هكذا: (لنفسه محبوبا) . وعليها علامة ((م)) ؛ وهي علامة على التقديم والتأخير.
3 انظر: حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود ضمن مجموعة الرسائل والمسائل 43-114. وقاعدة في المحبة ضمن جامع الرسائل 2193-401. ودرء تعارض العقل والنقل 662-70. والرد على المنطقيين ص 282، 394، 521-526. وكتاب الصفدية 1268-273. والفتاوى 7504، 586-597، 631-632، 17295. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 217-230.
4 أي شارك الفلاسفة. انظر: جامع الرسائل 2250.

لما ذكر أقسام اللذات1، وأن اللذة العقلية هي الحق؛ وهي لذة العلم، وأن شرف العلم بشرف المعلوم؛ وهو الرب، وأن العلم به ثلاث مقامات: العلم بالذات، والصفات، والأفعال. قال: وعلى كل مقام عقدة؛ فالعلم بالذات فيه أن وجود الذات: هل هو زائد

عليها أم لا؟ وفي الصفات: هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟ وفي الأفعال: هل الفعل مقارن أم لا؟. ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب؟ أو من الذي ذاق من هذا الشراب؟
نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن؛ اقرأ في الإثبات: {الرحمن على العرش استوى} 2، {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} 3، واقرأ في النفي: {ليس كمثله شيء} 4، {ولا يحيطون به علما} 5. ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي6.

---

1 ذكر ذلك في كتابه: أقسام اللذات. وقد قال د محمد رشاد سالم عن هذا الكتاب: "وهذا الكتاب مخطوط بالهند، ولم يذكره بروكلمان ضمن مؤلفات الرازي". حاشية درء تعارض العقل والنقل 1160.
2 سورة طه، الآية 5.
3 سورة فاطر، الآية 10.
4 سورة الشورى، الآية 11.
5 سورة طه، الآية 110.
6 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذا النص عن الرازي في كثير من كتبه، وكذلك تلميذه ابن القيم، والذهبي، مع اختلاف يسير في ألفاظه. وقد سبق أن ذكر في ص 357-358 من هذا الكتاب.
وانظر: مجموع الفتاوى 472-73. ودرء تعارض العقل والنقل 1159-160. وبيان تلبيس الجهمية 1128-129. ومنهاج السنة النبوية 5270-272. واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص 305-306. والمنار المنيف في الصحيح والضعيف ص 85. والصواعق المنزلة - تحقيق د أحمد بن عطية الغامدي، ود علي ابن ناصر الفقيهي - 170. وسير أعلام النبلاء - عند ترجمة الرازي - 21501. والبداية والنهاية لابن كثير 1354. وطبقات الشافعية للسبكي 896. وشرح الطحاوية 1244.

السعادة العلم بالله وما يقرب إليه..
فالسعادة هو أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب إليه، ويعلم أن السعادة في أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود، ولا يحتجب بالعلم عن المعلوم؛ كما قال ذلك الشيخ العارف للغزالي لما قال له: أخلصت أربعين صباحا، فلم يتفجر لي شيء! فقال: يا بني أنت أخلصت للحكمة، لم يكن الله هو مرادك، والإخلاص لله أن يكون الله هو مقصود المرء ومراده، فحينئذ تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه؛ كما في حديث مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من أخلص لله أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"12.

---

1 رواه أبو نعيم بإسناده عن مكحول، عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وقال: كذا رواه يزيد الواسطي متصلا، ورواه ابن هارون، ورواه أبو معاوية عن الحجاج، فأرسله. حلية الأولياء 5189. وقال الألباني: حديث ضعيف انظر: السلسلة الضعيفة 155-66. وانظر: المغني عن حمل الأسفار رقم 1652. وانظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للحداد 21052، 62406-2407.
2 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذه الحكاية عن الغزالي في: درء تعارض العقل والنقل 666.

ولهذا تقول العامة: قيمة كل امرئ ما يحسن1، والعارفون يقولون: قيمة كل امرئ ما يطلب2، وفي الإسرائيليات: يقول الله تعالى: "إني لا أنظر إلى كلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همته"3.
فالنفس لها قوة الإرادة مع الشعور، وهما متلازمان. وهؤلاء لحظوا شعورها وأعرضوا عن إرادتها. وهي تتقوم بمرادها، لا بمجرد ما [تشعر] 4 به؛ فإنها تشعر بالخير والشر، والنافع والضار، ولكن لا يجوز أن يكون مرادها ومحبوبها إلا ما يصلحها وينفعها؛ وهو الإله المعبود الذي لا يستحق العبادة غيره، وهو الله لا إله إلا هو، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.
العلم الحق ما أخبرت به الرسل

ثم مع هذا يكون العلم حقا، وهو ما أخبرت به الرسل؛ فالعلم الحق هو ما أخبروا به، والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به؛ وذلك عبادة الله وحده لا شريك له؛ فهذا هو السعادة، وهو الذي اتفقت عليه الأنبياء كلهم؛ فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك إنما يكون بتصديق رسله [وطاعتهم] 5.

السعادة متتضمنة للأصلين

فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين: الإسلام، والإيمان؛ عبادة الله وحده، وتصديق رسله؛ وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن

---

1 هذه الحكمة منسوبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: نهج البلاغة 418.

2 انظر: الجواب الصحيح 635.

3 انظر: الجواب الصحيح 635.

4 في ((خ)) : يشعر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

5 في ((ط)) : وطاعته. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .

محمدا رسول الله، قال تعالى: {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين} 1؛ قال أبو العالية2: هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد؛ يقال: لمن كنت تعبد، وبماذا أجبت المرسلين3. وقد بسط هذا في غير هذا الموضع4. والله أعلم.

واتبع لها أسعد الناس في الدنيا والآخرة، وخير القرون القرن الذين شاهدوه مؤمنين به وبما يقول؛ إذ كانوا أعرف الناس بالفرق بين الحق الذي جاء به وبين ما يخالفه، وأعظم محبة لما جاء به وبغضا لما خالفه، وأعظم جهادا عليه. فكانوا أفضل ممن بعدهم في العلم، والدين، والجهاد؛ أكمل علما بالحق والباطل؛ وأعظم محبة للحق وبغضا للباطل؛ وأصبر على متابعة الحق، واحتمال الأذى فيه، وموالاة أهله، ومعاداة أعدائه. واتصل بهم ذلك [إلى] 5 القرن الثاني، والثالث، فظهر ما بعث به من الهدى ودين

---

1 سورة الأعراف، الآية 6.

2 هو رفيع بن مهران البصري، أبو العالية الرياحي. أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ودخل عليه. روى عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبي بن كعب، وغيرهم رضي الله عنهم. وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير بالمدينة. انظر: سير أعلام النبلاء 4207. والتفسير والمفسرون لمحمد الذهبي 1115.

3 لم أجد هذا الأثر في المصادر التي اطلعت عليها.

4 انظر: درء تعارض العقل والنقل 662-70. وقاعدة في توحيد الإلهية وإخلاص العمل والوجه لله - ضمن مجموع الفتاوى 32-120 - والتدمرية ص 165-178، 195-206، 232-234. ومجموع الفتاوى 1189-310. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 181-182.

5 ما بين المعقوفتين مكانها بياض في ((خ)) ، وهي في ((م)) ، و ((ط)) .

الحق على كل دين في مشارق الأرض ومغاربها؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: "زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها"1.

وكان لا بد أن يظهر في أمته ما سبق به القدر، واقتضته نشأة البشر من نوع من التفرق والاختلاف، كما كان فيما غبر. لكن كانت أمته صلى الله عليه وسلم خير الأمم، فكان الخير فيهم أكثر منه في غيرهم، والشر فيهم أقل منه في غيرهم؛ كما يعرف ذلك من تأمل حالهم وحال بني إسرائيل قبلهم.

وبنو إسرائيل هم الذين قال الله فيهم: {ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين} 2، وقال لهم موسى: {يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين} 3.

1 أخرجه مسلم في صحيحه 42215-2216، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. وأحمد في المسند 5278. وأبو داود في سننه 4450، ح (4252) ، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن. والترمذي في جامعه 4472، ح (2176) ، كتاب الفتن، باب ما جاء في سؤال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا في أمته. وابن ماجه في سننه 21304، ح (3952) ، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن. وكلهم أخرجوه من طريق أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان مرفوعا.
2 سورة الجاثية، الآيات 16-19.
3 سورة المائدة، الآية 20.

خصائص أمة محمد صلى الله عليه وسلم

فإذا كان بنو إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين في تلك الأزمان، وكانت هذه الأمة خيرا منهم، كانوا خيرا من غيرهم بطريق الأولى. فكان مما خصهم الله به أنه لا يعذبهم بعذاب عام؛ لا من السماء، ولا بأيدي الخلق؛ فلا يهلكهم بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم؛ كما كان يسلط على بني إسرائيل عدوا يجتاحهم، حتى لا يبقى لهم دين قائم منصور، ومن لا يقبل منهم يبقى مقهورا تحت حكم غيرهم. بل لا تزال في هذه الأمة طائفة ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة1، ولا يجتمعون على ضلالة2؛ فلا [تزال] 3 فيهم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون4.

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سألت ربي

1 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة". رواه مسلم في صحيحه 31524، رقم (173) ، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: "ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين "، و1137، رقم (247) ، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وأحمد في المسند 3345.
وعند البخاري من حديث المغيرة بن شعبة 62667، كتاب الاعتصام، باب قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق" وهم أهل العلم.
2 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة". أخرجه الترمذي في جامعه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما 4466، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة.
وللحديث شواهد أخرى عن أبي ذر وغيره أخرجها الدارمي في سننه 129. والحاكم في مستدركه 1115.
3 في ((خ)) : يزال. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 قال تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون} . سورة آل عمران، الآية 104.

ثلاثا، فأعطاني اثنتين، ومنعني [عن] 1 واحدة؛ سألت ربي أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم، فأعطانيها؛ وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة، فأعطانيها؛ وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها" 2.

معنى البأس

وهذا البأس نوعان؛ أحدهما: الفتن التي تجري عليهم. والفتنة ترد على القلوب، فلا [تعرف] 3 الحق، ولا [تقصده] 4؛ فيؤذي بعضهم بعضا بالأقوال والأعمال. والثاني: أن يعتدي أهل الباطل منهم على أهل الحق منهم، فيكون ذلك محنة في حقهم، يكفر الله بها سيئاتهم، ويرفع بالصبر عليها درجاتهم، وبصبرهم وتقواهم لا يضرهم كيد الظالمين لهم، بل تكون العاقبة للتقوى، ويكونون من أولياء الله المتقين، وحزب الله المفلحين، وجند الله الغالبين؛ إذا كانوا من أهل الصبر واليقين؛ ف {إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} 5. والمتعدي منهم إما أن يتوب الله عليه كما تاب على إخوة يوسف بعد عدوانهم عليه، وآثره الله عليهم بصبره وتقواه؛ كما قال لما قالوا: {أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين} 6.

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 هو جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 42216، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.
3 في ((خ)) : يعرف. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : يقصده. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 سورة يوسف، الآية 90.
6 سورة يوسف، الآيات 90-92.

وكما فعل سبحانه بقادة الأحزاب الذين كانوا عدوا لله وللمؤمنين، وقال فيهم: {لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} 1، ثم قال: {عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم} 2؛ وفي هذا ما دل على أن الشخص قد يكون عدوا لله، ثم يصير وليا لله، مواليا لله ورسوله والمؤمنين؛ فهو سبحانه يتوب على من تاب، ومن لم يتب فإلى الله إيابه، وعليه حسابه. وعلى المؤمنين أن يفعلوا معه ومع غيره ما أمر الله به ورسوله؛ من قصد نصيحتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر؛ كما أمر الله ورسوله، لا اتباعا للظن وما تهوى الأنفس، حتى [يكون] 3 من خير أمة أخرجت للناس؛ يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله. وهؤلاء يعلمون الحق ويقصدونه، ويرحمون الخلق، وهم أهل صدق وعدل؛ أعمالهم خالصة لله، صواب موافقة لأمر الله؛ كما قال تعالى: {ليبلوكم أيكم أحسن عملا} 4. قال [الفضيل] 5 بن عياض6، وغيره: أخلصه، وأصوبه؛ والخالص أن يكون لله؛ والصواب أن يكون على السنة7.

---

1 سورة الممتحنة، الآية 1.
2 سورة الممتحنة، الآية 7.
3 في ((خ)) : تكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة الملك، الآية 2.
5 ما بين المعقوفتين لا توجد في ((ط)) .
6 سبقت ترجمته.
7 انظر: تفسير البغوي 4369.
وقد أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في عدة مواضع من كتبه، انظر: جامع الرسائل 1257، 2226. والعبودية ص 69-70. ومجموع الفتاوى 1333، 7495. والتدمرية ص 233.

دين الإسلام

وهو كما قالوا؛ فإن هذين الأصلين هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله؛ كما قال: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا} 1؛ فالذي أسلم وجهه لله: هو الذي يخلص نيته لله، ويبتغي بعمله وجه الله. والمحسن: هو الذي يحسن عمله؛ فيعمل الحسنات. والحسنات: هي العمل الصالح. والعمل الصالح: هو ما أمر الله به ورسوله؛ [من] 2 واجب ومستحب. فما ليس من هذا ولاهذا، ليس من الحسنات، والعمل الصالح، فلا يكون فاعله محسنا.
وكذلك قال لمن قال: {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى} 3، قال: {تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} 4. وقد قال تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} 5.

الإسلام دين جميع الأنبياء

والإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ومن اتبعهم من الأمم؛ كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع6 من كتابه؛ فأخبر عن نوح7،

---

1 سورة النساء، الآية 125.
2 في ((ط)) : مزن.

3 سورة البقرة، الآية 111.
4 سورة البقرة، الآيتان 111-112.
5 سورة آل عمران، الآية 85.
6 قال تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا} . سورة المائدة، الآية 44.
7 حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: {فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين} . سورة يونس، الآية 72.

وإبراهيم، وإسرائيل1 [عليهم السلام] 2 أنهم كانوا مسلمين. وكذلك عن أتباع موسى3، وعيسى4 [عليهما السلام] 5، وغيرهم6.

معنى الإسلام

والإسلام هو أن يستسلم لله، لا لغيره؛ فيعبد الله ولا يشرك به شيئا، ويتوكل عليه وحده، ويرجوه، ويخافه وحده، ويحب الله المحبة التامة، لا يحب مخلوقا كحبه لله، بل يحب لله، ويبغض لله، ويوالي لله، ويعادي لله. فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلما، ومن عبد مع الله غيره لم يكن مسلما. وإنما تكون عبادته بطاعته؛ وهو طاعة رسله؛ [فمن] 7 يطع الرسول فقد أطاع الله8؛ فكل رسول بعث بشريعة، فالعمل بها في وقتها

---

1 وأخبر الله تعالى عن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام: {إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} . سورة البقرة الآيات 130-132.
2 ما بين المعقوفتين من ((ط)) فقط.
3 حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: {يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} . سورة يونس، الآية 84.
4 قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون} . سورة آل عمران، الآية 52.
5 ما بين المعقوفتين من ((ط)) فقط.
6 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له. وعبادته تعالى في كل زمان ومكان بطاعة رسله عليهم السلام، فلا يكون عابدا له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله". الجواب الصحيح 183. وانظر: مجموع الفتاوى 7624.
7 في ((م)) ، و ((ط)) : من.
8 انظر: معنى الإسلام كما أوضحه شيخ الإسلام رحمه الله في كتاب الإيمان ص 250-252، 346. ومجموع الفتاوى 7623، 635. والفرقان ص 182. والتدمرية ص 169. والاستقامة 2128.

هو دين الإسلام. وأما ما بدل منها فليس من دين الإسلام. وإذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الإسلام؛ كاستقبال بيت المقدس في أول الهجرة بضعة عشر شهرا، ثم الأمر باستقبال الكعبة1؛ وكلاهما في وقته دين الإسلام، فبعد النسخ لم يبق دين الإسلام إلا أن يولي المصلي وجهه شطر المسجد الحرام2.

فمن قصد أن يصلي إلى غير تلك الجهة، لم يكن على دين الإسلام؛ لأنه يريد أن يعبد الله بما لم يأمره. وهكذا كل بدعة تخالف أمر الرسول؛ إما أن تكون من الدين المبدل الذي ما شرعه الله قط، أو من المنسوخ الذي نسخه الله بعد شرعه؛ كالتوجه إلى بيت المقدس. فلهذا كانت السنة في الإسلام كالإسلام في الدين؛ هو الوسط؛ كما قد شرح هذا في غير موضع3.

---

1 روى البخاري عند تفسير قوله تعالى: {سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [سورة البقرة، الآية 142] ، عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت. وأنه صلى - أو صلاها - صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل مكة. فداروا كما هم قبل البيت. وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل

البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: {وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم} . صحيح البخاري 41631، كتاب التفسير، باب: {سيقول السفهاء} .
2 ويوضح شيخ الإسلام رحمه الله تفاوت الإيمان في حق العباد، وأن الأعمال إنما تجب وتكون إيمانا وإسلاما إذا فرضت عليهم. انظر: كتاب الإيمان ص 184-186.
3 انظر: التدمرية ص 169-170. ومجموع الفتاوى 180، 189، 190، 310-311. وقاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق ص 16-27.

والمقصود هنا أنه إذا رد ما تنازع فيه الناس إلى الله والرسول؛ سواء كان في الفروع أو [الأصول] 1، كان ذلك خيرا وأحمد عاقبة؛ كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا} 2. وقال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} 3.
وفي صحيح مسلم عن عائشة، [أن] 4 النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام [يصلي] 5 من الليل يقول: "اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما [اختلف] 6 فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"7.

---

1 في ((خ)) : الأصل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة النساء، الآية 59.
3 سورة البقرة، الآية 213.
4 في ((ط)) : فأن. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .
5 ما بين المعقوفتين في ((خ)) . وليس في ((م)) ، و ((ط)) .
وفي صحيح مسلم، قالت عائشة رضي الله عنها: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: "اللهم رب ... " وذكرت الحديث.
6 في ((خ)) : اختلفت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها 1534، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء.

أهل السنة
وهذه حال أهل العلم والحق والسنة؛ يعرفون الحق الذي جاء به الرسول؛ وهو الذي اتفق عليه صريح المعقول وصحيح المنقول؛ ويدعون إليه؛ ويأمرون به نصحا للعباد، وبيانا للهدى والسداد. ومن خالف ذلك لم يكن لهم معه هوى، ولم يحكموا عليه بالجهل، بل [حكمه] 1 إلى الله والرسول؛ فمنهم من يكفره الرسول، ومنهم من يجعله من أهل الفسق أو العصيان، ومنهم من يعذره ويجعله من أهل الخطأ المغفور. والمجتهد من هؤلاء المأمور بالاجتهاد، يجعل له أجرا على فعل ما أمر به من الاجتهاد، وخطؤه مغفور له؛ كما دل الكتاب2.
أهل البدع
وأما أهل البدع: فهم أهل أهواء وشبهات، يتبعون أهواءهم فيما يحبونه ويبغضونه، ويحكمون بالظن والشبه؛ فهم يتبعون الظن وما تهوى

---

1 في ((ط)) : حكمة. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .
2 قال تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} . [سورة البقرة، الآيتان 285-286] . وثبت في صحيح مسلم أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء، وقال: قد فعلت. انظر: صحيح مسلم 1116، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لا يكلف إلا ما يطاق، رقم 200. ومسند الإمام أحمد 1233.

وقال تعالى: {وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم} . [سورة الأحزاب، الآية 5] . وانظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 144-146 - تحقيق د عبد الرحمن عبد الكريم اليحيى.
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر". متفق عليه؛ أخرجه الإمام البخاري في صحيحه 9133، كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب. والإمام مسلم في صحيحه 31342، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ.

الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى. فكل فريق منهم قد أصل لنفسه أصل دين [صنعه] 1؛ إما برأيه وقياسه الذي يسميه عقليات؛ وإما بذوقه وهواه الذي يسميه ذوقيات2؛ وإما بما يتأوله من القرآن، ويحرف فيه الكلم عن مواضعه، ويقول إنه إنما يتبع القرآن كالخوارج3؛ وإما بما يدعيه في الحديث والسنة ويكون كذبا وضعيفا كما يدعيه الروافض4؛ من

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : وضعه.
2 قال صاحب التعريفات: "والذوق في معرفة الله عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن يتلقوا ذلك من كتاب أو غيره". التعريفات ص 44.
وانظر: أيضا تعريف الذوق في الرسالة القشيرية 1271. وانظر: شرح الأصفهانية 2516-517.
3 المقصود أن الخوارج لا يأخذون بالسنة.
وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجا. وأول من عرف بذلك، واشتهر به: الذين خرجوا على علي رضي الله عنه في حروراء، وقاتلهم. وهم فرق كثيرة يقولون بتخليد صاحب الكبيرة، ويجمعهم القول بتكفير علي بن أبي طالب، وعثمان، والحكمين، وأصحاب الجمل، ومن رضي بالتحكيم وصوب الحكمين أو أحدهما. ويجمعهم أيضا القول بالخروج على الإمام إذا كان جائرا.
انظر: الملل والنحل 114. والفرق بين الفرق ص 72، 73. والمقالات 1167. وانظر أيضا: منهاج السنة النبوية 3461.
4 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وإنما سموا رافضة، وصاروا رافضة لما خرج زيد بن علي بن الحسين بالكوفة في خلافة هشام، فسألته الشيعة عن أبي بكر وعمر، فترحم عليهما، فرفضه قوم، فقال: رفضتموني، رفضتموني. فسموا رافضة. وتولاه قوم فسموا زيدية؛ لانتسابهم إليه. ومن حينئذ انقسمت الشيعة إلى رافضة إمامية، وزيدية. وكلما ازدادوا في البدعة، ازدادوا في الشر. فالزيدية خير من الرافضة، أعلم، وأصدق، وأزهد، وأشجع".
منهاج السنة النبوية 296. وانظر: المصدر نفسه 3471. ومجموع الفتاوى 1335-36.
وهم يغلون في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويكفرون أكثر الصحابة، إلا عددا يسيرا.
وقد أخبر شيخ الإسلام رحمه الله أن "أصل الرفض من المنافقين والزنادقة؛ فإنه ابتدعه ابن سبأ الزنديق، وأظهر الغلو في علي بدعوى الإمامة والنص، وادعى العصمة له". مجموع الفتاوى 4435، 28483.
وانظر: في تعريف الرافضة: المقالات للأشعري 189. واعتقاد فرق المسلمين والمشركين للرازي ص 52. والملل والنحل 1155. والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص 36. وشرح حديث النزول لابن تيمية ص 427. وبغية المرتاد ص 341.

النص والآيات. وكثير ممن يكون قد وضع دينه برأيه أو ذوقه يحتج من القرآن بما يتأوله على غير تأويله، ويجعل ذلك حجة لا عمدة، وعمدته في الباطن على رأيه، كالجهمية والمعتزلة في الصفات والأفعال، بخلاف مسائل الوعد والوعيد1؛ فإنهم قد يقصدون متابعة النص.

---

1 يراد بمسائل الوعد والوعيد عند الرافضة ما أريد بها عند المعتزلة.
ومسائل الوعد والوعيد بينها القاضي عبد الجبار المعتزلي بقوله: ".... وأما علوم الوعد والوعيد: فهو أن الله تعالى وعد المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب، وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة، ولا يجوز عليه التخلف والكذب..".
شرح الأصول الخمسة ص 135-136.
والروافض في إثبات الوعيد فرقتان؛ إحداهما تثبته لمخالفيهم خاصة. والأخرى تثبته للناس عامة.
يقول الأشعري في المقالات: "واختلفت الروافض في الوعيد، وهم فرقتان: فالفرقة الأولى منهم يثبتون الوعيد على مخالفيهم، ويقولون: إنهم يعذبون، ولا يقولون بإثبات الوعيد فيمن قال بقولهم، ويزعمون أن الله سبحانه يدخلهم الجنة، وإن أدخلهم النار

أخرجهم منها. ورووا في أئمتهم أن ما كان بين الشيعة وبين الناس من المظالم شفعوا لهم إليهم، حتى يصفحوا عنهم. والفرقة الثانية منهم يذهبون إلى إثبات الوعيد، وأن الله عز وجل يعذب كل مرتكب للكبائر من أهل مقالتهم كان، أو من غير أهل مقالتهم، ويخلدهم في النار". المقالات للأشعري 1126. وانظر: منهاج السنة النبوية 2303.

البدع نوعان

فالبدع نوعان: نوع كان قصد أهلها متابعة النص والرسول، لكن غلطوا في فهم النصوص، وكذبوا بما يخالف ظنهم من الحديث ومعاني الآيات؛ كالخوارج، وكذلك الشيعة المسلمين، بخلاف من كان منافقا زنديقا1 يظهر التشيع، وهو في الباطن لا يعتقد الإسلام. وكذلك المرجئة قصدوا اتباع الأمر والنهي، وتصديق الوعيد مع الوعد.

ولهذا قال عبد الله بن المبارك2، ويوسف بن أسباط3، وغيرهما إن الثنتين وسبعين فرقة4 أصولها أربعة: الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والقدرية.

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن لفظ الزندقة أنه "لا يوجد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم، كما لا يوجد في القرآن. وهو لفظ أعجمي معرب، أخذ من كلام الفرس بعد ظهور الإسلام وعرب. وقد تكلم به السلف والأئمة؛ في توبة الزنديق، ونحو ذلك. فأما الزنديق الذي تكلم الفقهاء في قبول توبته في الظاهر، فالمراد به عندهم المنافق الذي يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، وإن كان مع ذلك يصلي ويصوم ويحج ويقرأ القرآن، وسواء كان في باطنه يهوديا أو نصرانيا أو مشركا أو وثنيا، وسواء كان معطلا للصانع وللنبوة، أو للنبوة فقط، أو لنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم فقط، فهذا زنديق، وهو منافق. وما في القرآن والسنة من ذكر المنافقين يتناول مثل هذا بإجماع المسلمين". بغية المرتاد ص 338.

2 سبقت ترجمته.

3 يوسف بن أسباط الزاهد، من سادات المشايخ. له مواعظ وحكم. وثقه ابن معين. وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال البخاري: دفن كتبه، فكان حديثه لا يجيء كما ينبغي. انظر: سير أعلام النبلاء 9169. وحلية الأولياء 8237. وشذرات الذهب 1343.

4 يشير إلى حديث: "إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة. ..". أخرجه الإمام أحمد في المسند 4102. وأبو داود في سننه 55، كتاب السنة، باب شرح السنة. والحاكم في مستدركه 1128، وصححه ووافقه الذهبي.

الجهمية أصل دينهم المعقول

وأما الجهمية النافية للصفات، فلم يكن أصل دينهم اتباع الكتاب والرسول1؛ فإنه ليس في الكتاب والسنة نص واحد يدل على قولهم، بل نصوص الكتاب والسنة متظاهرة بخلاف قولهم، وإنما يدعون التمسك بالرأي المعقول. وقد بسط القول على بيان فساد حججهم العقلية، وما يدعيه بعضهم من السمعيات، وبين أن المعقول الصريح موافق للمنقول الصحيح في بطلان قولهم، لا مخالف له2.

الكلام في أفعال الرب تعالى

والمقصود هنا: الكلام في أفعال الرب؛ فإن الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم صاروا يسلكون فيه بأصل أصل بالمعقول، و [يجعلونه] 3 العمدة، وخاضوا في لوازم القدر برأيهم المحض، فتفرقوا فيه تفرقا عظيما، وظهر بذلك حكمة نهي النبي صلى الله عليه وسلم لأمته عن التنازع في القدر، مع أن المتنازعين كان كل منهما يدلي بآية، لكن كان ذلك يفضي إلى إيمان كل طائفة ببعض الكتاب دون البعض، فكيف إذا كان المتنازعون [عمدتهم] 4 رأيهم.

---

1 وانظر: درء تعارض العقل والنقل 5302، 309،، 7110. وكتاب الصفدية 2239-240. ومجموع الفتاوى 3350-354. وشرح الطحاوية 2795. ورسالة السجزي إلى أهل زبيد ص 216. وشرح السنة للبربهاري ص 57.

2 وقد هدم شيخ الإسلام رحمه الله قانون المتكلمين العقلي الذي جعلوه مقدما على الأدلة السمعية، والتزموا لأجله لوازم ردوا بها كثيرا من أمور العقيدة. وقد بسط ذلك - رحمه الله - في كتابه الكبير: ((درء تعارض العقل والنقل)) .

3 في ((خ)) ، و ((م)) : يجعلون. وما أثبت من ((ط)) .

4 في ((خ)) : عهدتهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

أحاديث النهي عن التنازع في القدر
والحديث رواه أهل المسند والسنن [مفصلا] 1، ورواه مسلم2 مجملا عن عبد الله بن رباح الأنصاري أن عبد الله بن عمرو قال: هجرت3 إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، فسمع [أصوات] 4 رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا صلى الله عليه وسلم يعرف في وجهه الغضب، فقال: "إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب".
وقال الإمام أحمد في المسند: [ثنا] 5 أبو معاوية، [حدثنا] 6 داود ابن أبي هند، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده7 قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، والناس يتكلمون في القدر. قال: فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب. قال: فقال: "ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم" قال8: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أشهده، ما غبطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده". وهذا حديث محفوظ من [رواية] 9 عمرو بن شعيب. وقد رواه ابن ماجه

---

1 في ((خ)) : متصلا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 صحيح مسلم 42053، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن.
3 قال ابن الأثير: "التهجير: التبكير إلى كل شيء، والمبادرة إليه؛ يقال: هجر يهجر تهجيرا فهو مهجر". النهاية في غريب الحديث لابن الأثير 5246.
4 في ((خ)) : أصواتا. وفي ((م)) ، و ((ط)) : صوت. وما أثبت من صحيح الإمام مسلم رحمه الله.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : حدثنا.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : ثنا.
7 عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
8 أي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
9 في ((خ)) : روايته. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

من حديث أبي معاوية1.
وكتب أحمد في رسالته إلى المتوكل2 هذا الحديث. وجعل يقول في مناظرته لهم يوم الدار في المحنة: إنا قد نهينا عن أن نضرب كتاب الله بعضه ببعض3.
وروى هذا المعنى: الترمذي من حديث أبي هريرة4، وقال:

---

1 رواه أحمد في المسند 2178، 196. وابن ماجه في السنن 133، في المقدمة، باب في القدر. وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 1115، 3627. والبغوي في شرح السنة1260. وقال محققاه: إسناده حسن. وأخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده - كما في زوائد ابن ماجه 153 - وقال الساعاتي عن رواية الإمام أحمد: وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات. وانظر: الفتح الرباني 1142. وقد حسنه محقق جامع الأصول 10135 عبد القادر الأرناؤوط. ورواه الآجري بسنده عن أبي أمامة في الشريعة ص 68. وقال الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح 136: سنده حسن، وقال في تعليقه على شرح الطحاوية ص 218: صحيح.
2 ذكر هذه الرسالة بنصها عبد الله بن الإمام أحمد رحمهما الله في كتاب السنة ص 21-26. وأبو نعيم في الحلية - عند ترجمة الإمام أحمد - 9216-219.
وهي رسالة أرسلها الإمام أحمد رحمه الله جوابا لرسالة وصلته من وزير المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان يخبره أن أمير المؤمنين أمره أن يكتب إليه، يسأله عن أمر القرآن، لا مسألة امتحان، ولكن مسألة معرفة وبصيرة.. وقال الذهبي عن هذه الرسالة: "رواة هذه الرسالة عن أحمد أئمة أثبات، أشهد بالله أنه أملاها على ولده". تاريخ الإسلام. ومقدمة المسند لأحمد شاكر 1124.
3 كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد

4 أخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه؛ حتى كأنما فقئ في وجنتيه حب الرمان، فقال: أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟! إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر. عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه" الحديث أخرجه الترمذي في جامعه 4443، كتاب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر. وقال: وفي الباب عن عمر، وعائشة، وأنس. وهذا الحديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث صالح المري، وصالح المري له غرائب يتفرد بها، لا يتابع عليها. وانظر: درء تعارض العقل والنقل 149،، 2104.

حديث حسن غريب.

شبهة من ينكر صفات الله

قال1: وفي الباب الذي [فررت] 2 منه؛ فإنه لما قيل: إن له حياة، وعلما، وقدرة، وإرادة، وغضبا، ورضي، ونحو ذلك، قلت: هذا يستلزم أن يكون موافقا للمخلوق في مسمى هذه الأسماء. وهذا تشبيه3. فقيل لك4: هذا يلزم مثله في الذات؛ فإن قيل بتعطيل الذات5، فذلك يستلزم ما فررت منه؛ من ثبوت جسم قديم حامل للأعراض والحركات. وإذا كان هذا لازما لك على تقدير نفي الذات كما ثبت أنه لازم على تقدير إثباتها، كان لازما على تقدير النقيضين؛ النفي والإثبات. وما كان كذلك لم يمكن

---

1 لم يتبين لي القائل، والكلام الذي سيأتي غير واضح. ولا أدري أهو من كلام الترمذي، أم من كلام شيخ الإسلام - فلعله رجع بعد الاستطراد انظر: ص 499؛ فليس هذا الكلام في نسخ جامع الترمذي التي بين أيدينا.

2 في ((خ)) : قررت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 وهذا الكلام - كما يفهم - من كلام من ينكر صفات الله؛ كالجهمية، والمعتزلة. وهذه حجتهم؛ إذ أنهم لم يفهموا من صفات الخالق إلا ما هو من صفات المخلوق؛ فشبهوا، ثم عطلوا.

4 المقصود به الجهمي والمعتزلي الذي يعطل الصفات ويثبت الذات. فيقال له: القول في الصفات كالقول في الذات.

5 وهذا قول ملاحدة الصوفية، وغلاة الفلاسفة الذين يقولون بالوجود المطلق الذي لا حقيقة له في الأعيان.

نفيه. و [أما] 1 نحن فقد بينا أن اللازم على تقدير إثباتها لا محذور فيه، وإنما المحذور لازم على تقدير نفيها. وهذا قد بسط في غير هذا الموضع2.

مناقشة من ينفي الحكمة

والمقصود هنا: أنه يقال لهؤلاء3 الذين ينفون الحكمة، ثم الإرادة،

---

1 في ((خ)) : انما. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 انظر: العقيدة التدمرية ص 15-30، 35-46. وشرح الأصفهانية 2384-388، 441-445، 450، 457-467. ودرء تعارض العقل والنقل 1128، 129، 6119-137. والرد على المنطقيين ص 225-232. ومنهاج السنة 2115-120، 160-172، 595-598. وكتاب الصفدية 188، 234-37.

3 المقصود بهم الفلاسفة، والجهمية. وانظر: ص 533.

فهم ينفون تعليل أفعال الله سبحانه وتعالى، وأن يكون مختارا في أفعاله، ويقولون هو موجب بالذات، فلا يكون فعله لغاية. انظر: الإشارات والتنبيهات لابن سينا 3150-155. وكذا انظر: بيان تلبيس الجهمية 1161.

وقال شيخ الإسلام عن الحكمة: "كل ما خلقه الله فله فيه حكمة؛ كما قال: {صنع الله الذي أتقن كل شيء} ، وقال: {الذي أحسن كل شيء خلقه} . وهو سبحانه غني عن العالمين. فالحكمة تتضمن شيئين؛ أحدهما حكمة تعود إليه يحبها ويرضاها. والثانية إلى عباده، هي نعمه عليهم يفرحون بها، ويلتذون بها. وهذا في المأمورات، وفي المخلوقات". مجموع الفتاوى 835-36.

وذكر شيخ الإسلام رحمه الله أقوال الناس في الحكمة، فقال عن الجهمية: "نكرون التعليل جملة، ولا يثبتون إلا محض المشيئة، ولا يجعلون في المخلوقات والمأمورات معاني لأجلها كان الخلق والأمر، إلى غير ذلك من لوازم قولهم. والمعتزلة يثبتون تعليلا متناقضا في أصله وفرعه؛ فيثبتون للفاعل تعليلا لا تعود إليه حكمة" درء تعارض العقل والنقل 854.

أما الفلاسفة، فيقول عنهم شيخ الإسلام رحمه الله إنهم "ثبتون علة غائية للفعل، وهي بعينها للفاعل. ولكنهم متناقضون؛ فإنهم يثبتون له العلة الغائية، ويثبتون لفعله العلة الغائية، ويقولون مع هذا ليس له إرادة، بل هو موجب بالذات، لا فاعل بالاختيار. وقولهم باطل من وجوه ... " مجموعة الرسائل والمسائل 4-5288.
ويذكر شيخ الإسلام رحمه الله تناقض الجهمية والمتفلسفة في موضع آخر؛ فيقول: "المتفلسفة متناقضون؛ فإنهم يثبتون غاية وحكمة غائية، ولا يثبتون إرادة. والجهمية تثبت أنه سبحانه مريد، ولا تثبت له حكمة فعل لأجلها. وكل من القولين متناقض" شرح الأصفهانية 2378.
وانظر: الكلام عن الحكمة وأقوال الناس فيها في كتب شيخ الإسلام: شرح الأصفهانية 1150-155، 2353-378. ومنهاج السنة النبوية 1133-148، 454، 2612-615، 314، 32، 180-198، 207، 214-215. ودرء تعارض العقل والنقل 854، 9110-111. ومجموع الرسائل 4-5234-235، 240. وانظر: رسالة أقوم ما قيل في المشيئة والحكمة والقضاء والقدر والتعليل وبطلان الجبر - ضمن مجموع الرسائل والمسائل 4-5283-346 - وهي في مجموع الفتاوى 881-158. ومجموع الفتاوى 6128-130،، 835، 57، 377-378، 466-468، 16129-133، 296-298، 1795، 96، 99وبيان تلبيس الجهمية 1163-217. واقتضاء الصراط المستقيم 1409.
وانظر: الإرشاد للجويني ص 268 وما بعدها. ونهاية الإقدام للشهرستاني ص 297. ومحصل أفكار المتقدمين للرازي ص 205. والفصل لابن حزم 3174. والمغني في أبواب التوحيد والعدل لعبد الجبار الهمذاني 648، 1192-93.
ولعل القول الذي قصده شيخ الإسلام رحمه الله أنه يقال للفلاسفة نظير ما قيل لنفاة الصفات، هو ما صرح به بقوله: "على هذا فكل ما فعله علمنا أن له فيه حكمة. وهذا يكفينا من حيث الجملة، وإن لم نعرف التفصيل. وعدم علمنا بتفصيل حكمته بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته، وكما أن ثبوت صفات الكمال له معلوم لنا. وأما كنه ذاته فغير معلومة لنا، فلا نكذب بما علمناه ما لم نعلمه. وكذلك نحن نعلم أنه حكيم فيما يفعله ويأمره، وعدم علمنا بالحكمة في بعض الجزئيات لا يقدح فيما علمناه من أصل حكمته. فلا نكذب بما علمناه من حكمته ما لم نعلمه من تفصيلها" مجموعة الرسائل 4-5233.

ثم الفعل في الأفعال نظير ما قيل لأولئك1 في الصفات، ويجعل مبدأ الكلام من الإرادة في الموضعين2. فيقال لمن أثبتها، ونفى الحكمة من المنتسبين إلى إثبات القدر3، والمنتسبين إلى أهل السنة والجماعة: لم نفيتم الحكمة؟ فإذا قالوا: لأنا لا نعرف من يفعل [لحكمة] 4 إلا من يفعل

---

1 والمقصود بهم المعتزلة والجهمية. وقد مر إلزامات المؤلف رحمه الله لهم قبل أسطر؛ وهو أن يقال للجميع: يلزمكم التشبيه بالمقدار الذي تثبتونه لخالقكم ومعبودكم، وإلا أثبتوا حكمته من غير تشبيه.
2 وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أن نفي الحكمة هو أصل حجة الفلاسفة على نفي الصانع، فقال: "هذه الحجة لما كان أصلها هو البحث عن حكمة الإرادة، ولم فعل ما فعل؛ وهي مسألة القدر، ظهر بها ما كان السلف يقولونه: إن الكلام في القدر هو أبو جاد الزندقة. وعلم بذلك حكمة نهيه صلى الله عليه وسلم لما رآهم يتنازعون في القدر عن مثل ما هلك به الأمم، قال لهم: بهذا هلكت الأمم قبلكم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض. وعن هذا نشأ مذهب المجوس القدرية، مجوس هذه الأمة، حيث خاضوا في التعديل والتجويز بما هو من فروع هذه الحجة، كما أن التجهم من فروع تلك الحجة" بيان تلبيس الجهمية 1163.
3 والمقصود بهم الأشاعرة؛ فهم قد أثبتوا الإرادة، ونفوا الحكمة. وانظر: كتاب الصفدية 1147-148،، 2331.
"قد رد ابن تيمية على نفاة الحكمة من الأشاعرة، وذلك لأن إثبات النبوة مبني على إثبات صفة الحكمة لله تعالى، والمتكلمون ينفون أن تكون أفعال الرب تعالى واقعة لسبب، أو لعلة، أو لغرض، بمعنى آخر: ينفون أن يكون الله تعالى يفعل شيئا لشيء آخر. ومثال ذلك: ... أن تكون المعجزة مفعولة للرب لغرض إثبات نبوة الأنبياء؛ فهم ينفون ذلك الغرض، وهو في الحقيقة نفي لحكمته سبحانه. ومن نفى صفة الحكمة عن الله تعالى فقد انسد عليه طريق إثبات النبوة. لذا وجدناه يقرر أنه قد أجمع المسلمون على أن الله تعالى موصوف بالحكمة، ولكنهم تنازعوا في تفسير ذلك.." النبوة عند ابن تيمية لسعيد خليفة ص 333-334.
رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة. وانظر: النبوات ص 821.
4 في ((ط)) : الحكمة. وما أثبت من ((خ)) ، و ((م)) .

لغرض يعود إليه. وهذا لا يكون إلا فيمن يجوز عليه اللذة، والألم، والانتفاع، والضرر، والله منزه عن ذلك1. فيقال لهم ما قاله نفاة الإرادة2، وأنتم لا تعقلون إرادة إلا فيمن يجوز عليه اللذة والألم والانتفاع والضرر، وقد قلتم أن الله تعالى مريد؛ فإما أن تطردوا أصلكم النافي، فتنفوا الإرادة؛ أو المثبت، فتثبتوا اللذة، وإلا، فما المفرق3؟ فإذا قال نفاة الإرادة4: فلهذا نفينا الإرادة؛ كما رجحه الرازي في المطالب العالية5، واحتج به الفلاسفة. قيل لهم: فانفوا أن يكون فاعلا، فإنكم لا تعلمون فاعلا غير مقهور إلا بإرادة، ولا يعقلون ما يفعل ابتداء إلا بإرادة، أو فاعلا حياء إلا بإرادة، أو فاعلا مطلقا إلا بإرادة6.

---

1 انظر: التمهيد للباقلاني ص 50 - حيث ذكر هذا الكلام بنصه. وكتاب الأربعين للرازي ص 250. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 331-332.
وقد رد شيخ الإسلام رحمه الله على هذه الحجة بأربعة وجوه. انظر: شرح الأصفهانية 2369-371.
2 من الجهمية والمعتزلة.
3 معنى ذلك: "إذا أردتم به أن حكمة الله هي ما ذكرتم، فهي دعوى بلا برهان؛ لأن حكمة الرب تعالى فوق تحصيل اللذة ودفع الألم، بل هو يتعالى عن ذلك؛ لأن ما ذكر غرض المخلوق. أما الخالق سبحانه فهو غني بذاته عن كل ما سواه، حكمته سبحانه لا تشابه حكمة المخلوقين، كما أن إرادته وسائر صفاته لا تشابه صفات المخلوقين. فحكمته سبحانه أجل وأعلى من أن يقال إنها تحصيل لذة، أو دفع ألم وحزن". الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى ص 72. وانظر: التدمرية ص 34.
4 الجهمية والمعتزلة.
5 انظر: المطالب العالية للرازي 3217.
6 المقصود أن المعتزلة القدرية يثبتون أن الله فاعل. وشيخ الإسلام رحمه الله يلزمهم بإثبات الإرادة؛ لأنه لا يعقل فاعل غير مقهور إلا بإرادة.

فإن قال أتباع أرسطو1:

---

1 أرسطو: هو أرسطو بن نيقوماخس (384 - 322 ق. م) . يسمونه المعلم الأول. ولد في مدينة أسطاغيرا اليونانية. وكان أفلاطون يعلم الفلسفة ماشيا، وتابعه على ذلك أرسطو فسمي هو وأصحابه المشائين. انتهت إليه فلسفة اليونان، وكان هو خاتمتهم. وكان مشركا يعبد الأصنام. وقد عنى فلاسفة المسلمين بفلسفة أرسطو، وسموه معلمهم الأول) .
انظر: الفهرست ص 307-312. وطبقات الأطباء والحكماء ص 25-27. والملل والنحل للشهرستاني 337-63. مجموع الفتاوى 11171-172. والرد على المنطقيين ص 186، 283. والفرق بين الفرق ص 307-308.
وقد ذكر شيخ الإسلام عن أرسطو أنه "أول من صرح بقدم الأفلاك، وأن المتقدمين قبله من الأساطين كانوا يقولون إن هذا العالم محدث ... وأصحاب التعاليم كأرسطو وأتباعه كانوا مشركين يعبدون المخلوقات، ولا يعرفون النبوات، ولا المعاد البدني، وإن اليهود والنصارى خير منهم في الإلهيات، والنبوات، والمعاد". منهاج السنة النبوية 1360، 364. وانظر: درء تعارض العقل والنقل 2167. وشرح الأصفهانية 165. والجواب الصحيح 1345. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 80-81.
أما عن مجمل اعتقاد أرسطو وأتباعه، فإنهم يقولون: أن الله تعالى ليس هو خالق هذا العالم، بل لم يخلق شيئا، وإنما العالم قديم، وإنما صدر عن الله العقل الأول لا على سبيل الخلق والإيجاد، وإنما عن طريق ما يسمونه بالفيض والصدور، وأن الله هو علة موجبة بذاته، وهو واحد لا يصدر عنه إلا واحد، ولذلك صدر عنه العقل الأول، وعن هذا العقل صدر عقل ثان، ونفس، وفلك. وعن العقل الثاني صدر عقل ثالث، ونفس، وفلك، وهكذا إلى أن أصبح هناك عشرة عقول، وتسعة نفوس وأفلاك. والعقل عند الفلاسفة بمنزلة الذكر، والنفس بمنزلة الأنثى. وأراد بعضهم التوفيق بين الفلسفة والشريعة، فقالوا: إن العرش هو الفلك التاسع. وربما جعل بعضهم النفس هي اللوح المحفوظ، كما جعل العقل هو القلم. وتارة يجعلون اللوح هو العقل الفعال العاشر، أو النفس المتعلقة به ... وزعموا أن العقول والنفوس هي الملائكة، وأنهم التسعة عشر الذين على سقر، وأن جبريل هو العقل الفعال، وأنكروا وجود الملائكة.
ثم يزعمون أن هذه النفوس الفلكية هي المؤثرة الفعالة في القوى الأرضية المنفعلة، وأن القوى السماوية هي أسباب لحدوث الكائنات العنصرية؛ فهم يثبتون بذلك صدورا للمخلوقات بعضها عن بعض دون إرادة الله تعالى وعلمه ومشيئته، ويثبتون كذلك

التأثير في عالم الأرض، هو من عالم السموات والأفلاك. وأما تدبير الأمور اليومية؛ أي الحوادث الجزئية، وأنه تعالى {كل يوم هو في شأن} فليس لله عندهم في ذلك تأثير، وأسقطوا عن الله تعالى رعايته لهذا الكون، وإمساكه عن الزوال والفناء.
وقد أوجبوا وجود نبي يستقيم به نظام الكون، وهو عندهم بمثابة الرئيس المدني. والفيلسوف أفضل منه؛ لأن النبي يتلقى وحيه وعلمه عن طريق القوة المتخيلة، والفيلسوف يتلقى علمه عن طريق القوة الناطقة المفكرة. والقوة المفكرة عندهم هي الرئيسية المتحكمة في المتخيلة.
انظر: مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ص 79. والنبوة عند ابن تيمية ص 370-371. ونقض المنطق ص 99-106. وتفسير سورة الإخلاص ص 49. وكتاب الصفدية 17-9، 280. والفارابي وآراء المدينة الفاضلة ص 55، 61، 89، 112. والنجاة لابن سينا ص 310-311.

فلهذا قلنا إنه لا يفعل شيئا1، وليس بموجب بذاته شيئا، لكن قلنا:

---

1 وقال شيخ الإسلام رحمه الله موضحا هذا المعنى في كتابه الرد على المنطقيين: "فإن هؤلاء حقيقة قولهم أنه لم يخلق شيئا. ومتقدموهم كأرسطو وأتباعه على أنه يتحرك الفلك للتشبه بها. فليس هو عندهم لا موجبا بالذات، ولا فاعلا بالمشيئة. وأما ابن سينا وأمثاله ممن يقول إنه موجب بذاته، فهم يقولون ما يعلم جماهير العقلاء أنه مخالف لضرورة العقل؛ إذ يثبتون مفعولا ممكنا يمكن وجوده، ويمكن عدمه، وهو مع هذا قديم أزلي لم يزل ولا يزال، وهو مفعول معلول لعلة فاعلة لم يزل مقارنا لها في الزمان. فكل من هذين القولين مما خالفوا فيه جماهير العقلاء من الأولين والآخرين ... ". الرد على المنطقيين ص 524-525.
وانظر: المصدر نفسه ص 220. ودرء تعارض العقل والنقل 1126، 127، 669-70، 8216-224، 290. ومنهاج السنة 1149-150، 402، 405، 3271-289. وشرح الأصفهانية 193. وكتاب الصفدية 2334-335.

إن الفلك يتشبه به، أو قال من هو أعظم تعطيلا منهم: فلهذا نفينا الأول بالكلية، ولم [نثبت] 1 علة تفعل، ولا علة يتشبه بها. قيل لهم2: فهذه الحوادث مشهودة، وحركة الكواكب، والشمس، والقمر مشهودة، فهذه الحركات الحادثة، وغيرها من الحوادث؛ مثل السحاب، والمطر، والنبات، والحيوان، والمعدن، وغير ذلك مما يشهد حدوثه؛ أحدث بنفسه من غير أن يحدثه محدث قديم، أو لا بد للحوادث من محدث قديم؟
فإن قالوا: بل حدث كل حادث بنفسه، من غير أن يحدثه أحد3: كان هذا ظاهر الفساد، يعلم بضرورة العقل أنه في غاية المكابرة، ونهاية السفسطة، مع لزوم ما فروا منه؛ فإنهم فروا من أن يكون ثم فاعل محدث، وقد أثبتوا فاعلا محدثا، لكن جعلوا كل حادث هو يحدث بنفسه ويفعلها؛ فجعلوا ما ليس بشيء يجعل الشيء، وجعلوا المعدوم يحدث الموجود؛ فلزمهم ما فروا منه من إثبات فاعل، مع ما لزمهم من الكفر العظيم، وغاية الجهل، وغاية فساد العقل.

---

1 في ((خ)) : يثبت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 أي لهؤلاء الذين ينكرون وجود الله.
وقد رد عليهم شيخ الإسلام رحمه الله بهذا الطريق العقلي المذكور في القرآن الكريم في كتابه شرح الأصفهانية 141، 2353. وكتاب الصفدية 19-10. وفي رسالة أقوم ما قيل في المشيئة والحكمة - ضمن جامع الرسائل والمسائل 4290.
3 انظر: شرح الأصفهانية 139.
وقد قال لهم شيخ الإسلام رحمه الله: "هذا السؤال ليس مختصا بحدوث العالم، بل هو وارد في كل ما يحدث في الوجود من الحوادث. والحدوث مشهود، محسوس، متفق عليه بين العقلاء، فكل ما يورده على حدوث خلق السموات والأرض يورد عليه نظيره في الحوادث المشهودة". مجموعة الرسائل والمسائل 4345.

وإن قالوا: بل كل محدث يحدثه محدث، وللمحدث محدث1. قيل لهم: هذا أيضا ممتنع في صريح العقل؛ فإن التسلسل في الفاعل ممتنع بصريح العقل واتفاق العقلاء2؛ فإنه كلما كثر ما يقدر أنه حادث، كان

---

1 من نفى الحكمة عن الله من الفلاسفة والأشعرية استدل على ذلك بلزوم التسلسل، وقال هو محال على الله. انظر: التمهيد للباقلاني ص 51-52. والأربعين في أصول الدين للرازي ص 250.
وقد رد شيخ الإسلام رحمه الله على شبهتهم هذه بأربعة وجوه في شرح الأصفهانية 2363-368. وانظر: كتاب الصفدية 227. ومنهاج السنة النبوية 1145-147.
ومما قاله رحمه الله في رده على هذه الشبهة: (هذا التسلسل في الحوادث المستقبلية، لا في الحوادث الماضية؛ فإنه إذا فعل فعلا لحكمة، كانت الحكمة حاصلة بعد الفعل. فإذا كانت تلك الحكمة يطلب منها حكمة أخرى بعدها، كان تسلسلا في المستقبل. وتلك الحكمة الحاصلة محبوبة له، وسبب لحكمة ثانية؛ فهو لا يزال سبحانه يحدث من الحكم ما يحبه ويجعله سببا لما يحبه) . منهاج السنة النبوية 1149.
2 قال شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر: "التسلسل الممتنع إنما هو التسلسل في المؤثرات؛ وهو أن يكون للفاعل فاعل، وهلم جرا إلى غير نهاية؛ سواء عبر عن ذلك بأن للعلة علة وللمؤثر مؤثر، أو عبر عنه بأن للفاعل فاعلا. فهذا هو التسلسل الممتنع في صريح العقل. ولهذا كان هذا ممتنعا باتفاق العقلاء؛ كما أن الدور الممتنع هو الدور القبلي. فأما التسلسل في الآثار: وهو أن لا يكون الشيء حتى يكون قبله غيره، أو لا يكون إلا ويكون بعد غيره. فهذا للناس فيه ثلاثة أقوال: قيل: هو ممتنع في الماضي والمستقبل. وقيل: هو جائز في الماضي والمستقبل. وقيل: ممتنع في الماضي، جائز في المستقبل. والقول بجوازه مطلقا هو معنى قول السلف، وأئمة الحديث، وقول جماهير الفلاسفة القائلين بحدوث العالم والقائلين بقدمه". منهاج السنة النبوية 2393.
وقال رحمه الله: "لفظ التسلسل يراد به التسلسل في المؤثرات؛ وهو أن يكون للحادث فاعل، وللفاعل فاعل. وهذا باطل بصريح العقل واتفاق العقلاء. وهذا هو التسلسل الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يستعاذ بالله منه، وأمر بالانتهاء عنه، وأن يقول القائل: ((آمنت بالله ورسله))) . درء تعارض العقل والنقل 1363. وانظر: المصدر نفسه 3144، 161، 243، 4292-293، 9180-185، 238-241. ومنهاج السنة النبوية 1146، 176، 2128، 129، 392، 426. ومجموع الفتاوى 1245. وكتاب الصفدية 110-11، 23، 27، 30. وشرح الأصفهانية 146.

أحوج إلى القديم. فليس في تقدير حوادث لا [تتناهى] 1 ما يوجب استغناءها عن القديم، بل إذا كان المحدث الواحد لا بد له [من] 2 محدث غيره، فمجموع الحوادث أولى بالافتقار إلى محدث لها خارج عنها كلها؛ فإن المحدث لمجموعها يمتنع أن يكون واحدا منها؛ فإنه يلزم أن يحدث نفسه، ويمتنع أن يكون المجموع أحدث المجموع؛ فإن الشيء لا يحدث نفسه.
والمجموع هي الآحاد الحادثة وهيئتها الاجتماعية، وتلك الهيئة محتاجة إلى [المجموع الذي] 3 هو كل واحد، واحد. والمجموع ليس إلا الآحاد واجتماعها، وكل ذلك مفتقر إلى محدث مباين لها؛ فلا بد للحوادث من قديم ليس بحادث4
ثم يقال لهم: إذا قدر تسلسل الفاعلين، وأن ما كان محدثا له محدث، وهلم جرا. فهذا فيه إثبات ما فررتم منه؛ وهو أن هذا المحدث فعل هذا، وهذا فعل هذا. لكن أثبتم ما لا يتناهى من ذلك في آن واحد، فركبتم ما فررتم منه، مع لزوم هذه الجهالات التي تقتضي غاية فساد العقل،

---

1 في ((خ)) : يتناهى. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
3 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
4 انظر: رد المؤلف رحمه الله على هذه الشبهة في مجموعة الرسائل والمسائل 4343.

والكفر [بالسمع] 1. وإذا كان المحذور يلزمهم على تقدير أن يكون الحادث أحدث نفسه، أو أحدث كل حادث [حادثا] 2 آخر، مع فساد هذين، تبين أنه لا ينفعه إنكار القديم. وإن قال3: بل أقر بالمحدث القديم. قيل: فقد أقررت بفعل القديم للمحدث، وإذا ثبت أن القديم فعل المحدث، وأنت لا تعلم فاعلا [إلا لجلب] 4 منفعة، أو دفع مضرة5. قيل له: [فما] 6 كان جوابك عن هذا، كان جوابا عن كونه يفعل بإرادته7.

---

1 في ((ط)) : بالمسع.
2 في ((خ)) : حادث. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 أي الفيلسوف الذي يقول بقدم العالم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "المشهور من مقالة أساطين الفلاسفة قبل أرسطو، هو القول بحدوث العالم. وإنما اشتهر القول بقدمه عنه، وعن متبعيه؛ كالفارابي، وابن سينا، والحفيد، وأمثالهم". كتاب الصفدية 1130. وانظر: المصدر نفسه 1148-151. ومنهاج السنة النبوية 3386.
4 في ((ط)) : إل لجلب.
5 قال شيخ الإسلام: " ... فإن الواحد منا إنما يحسن إلى غيره لجلب منفعة، أو لدفع مضرة. وإنما يضر غيره لجلب منفعة أو دفع مضرة. فإذا كان الذي يثبت صفة وينفي أخرى يلزمه فيما أثبته نظير ما يلزمه فيما نفاه، لم يكن إثبات إحداهما ونفي الأخرى أولى من العكس. ولو عكس عاكس فنفى ما أثبته من الإرادة، وأثبت ما نفاه من المحبة لما ذكره، لم يكن بينهما فرق. وحينئذ: فالواجب إما نفي الجميع، ولا سبيل إليه للعلم الضروري بوجود نفع الخلق والإحسان إليهم، وأن ذلك يستلزم الإرادة. وإما إثبات الجميع؛ كما جاءت به النصوص. وحينئذ فمن توهم أنه يلزم من ذلك محذور، فأحد الأمرين لازم؛ إما أن ذلك المحذور لا يلزم، أو أنه إن لزم فليس بمحذور". قاعدة في الكرامات والمعجزات ص 58.
6 في ((خ)) : فينما. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 يوضح شيخ الإسلام رحمه الله هذا الجواب الإلزامي في موضع آخر فقال: "إذا قال لهم الناس: إذا أثبتم حكمة حدثت بعد أن لم تكن، لزمكم التسلسل. قالوا: القول في حدوث الحكمة، كالقول في سائر ما أحدثه من المفعولات. ونحن نخاطب من يسلم لنا أنه إذا أحدث المحدثات بعد أن لم تكن؛ فإذا قلنا: إنه أحدثها بحكمة حادثة، لم يكن له أن يقول: هذا يستلزم التسلسل. بل نقول له: القول في حدوث الحكمة، كالقول في حدوث المفعول الذي ترتبت عليه الحكمة. فما كان جوابك عن هذا، كان جوابنا عن هذا". مجموعة الرسائل والمسائل 4341.

وقيل لمثبت الإرادة1: ما كان جوابك عن هذا، كان جوابا عن حكمته؛ فقد بين أن من نفى الحكمة، فلا بد أن ينقض قوله، ويلزمه مع التناقض نفي الصانع، وهو مع نفي الصانع تناقضه أشد.
والمحذور الذي فر منه ألزم، فلم يغن عنه فراره من إثبات الحكمة إلا زيادة الجهل والشر. وهكذا يقال لمن نفى حبه، ورضاه، وبغضه، وسخطه2.
وهذا مقام شريف من تدبره وتصوره تبين له أنه لا بد من الإقرار بما جاء به الرسول، وأنه هو الذي يوافق صريح المعقول، وأن من خالفه، فهو ممن لا يسمع، ولا [يعقل، وهو] 3 أسوأ حالا ممن فر من الملك العادل الذي يلزمه [بطعام] 4 امرأته وأولاده، والزكاة الشرعية، إلى بلاد ملكها ظالم ألزمه بإخراج أضعاف ذلك لخنازيره وكلابه، مع قلة الكسب في بلاده. و [بمنزلة] 5 من فر من معاشرة أقوام أهل صلاح وعدل ألزموه ما يلزم

---

1 وهو الأشعري. وجوابه في إثبات الإرادة؛ فيقال له: القول في الحكمة، كالقول في الإرادة التي تثبتها.
2 وهم الأشاعرة الذين نفوا تلك الصفات مع الحكمة. انظر: التمهيد للباقلاني ص 47-48، 50-51.
3 في ((ط)) : يعق لو هو.
4 في ((خ)) : بالطعام. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((ط)) : بمنزل.

واحدا منهم من الأمور المشتركة إذ كانوا مقيمين، أو مسافرين؛ ان يخرج مثلما يخرجه الواحد منهم. فكره هذا، وفر إلى بلد، فألزمه أهلها بأن ينفق عليهم ويخدمهم، وإلا قتلوه وما أمكنه الهرب منهم.
فمن فر من حكم الله ورسوله أمرا وخبرا، [أو] 1 ارتد عن الإسلام، أو بعض شرائعه خوفا من محذور في عقله، أو عمله، أو دينه، أو دنياه، كان ما يصيبه من الشر أضعاف ما ظنه شرا في اتباع الرسول. قال تعالى: {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} 2.

1 في ((خ)) : و. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة النساء، الآيات 59-65.

فصل1 مناقشة من ينفي المحبة والحكمة والإرادة
ويقال لهم: لم فررتم من إثبات المحبة، والحكمة، والإرادة، والفعل؟ فإن قالوا: لأن ذلك لا يعقل إلا في حق من يلتذ، ويتألم، وينتفع، ويتضرر. والله منزه عن ذلك2. قيل للفلاسفة: فأنتم تثبتون أنه مستلذ،

1 مسألة الحكمة وتعليل الأفعال وتداخلها بالقدر من أعظم المسائل التي اضطرب فيها المبتدعة.
وقد ألف شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الموضوع رسالة مستقلة، أسماها: "أقوم ما قيل في المشيئة والحكمة والقضاء والقدر والتعليل وبطلان الجبر والتعطيل". انظرها في جامع الرسائل والمسائل 4-5283-346.
وذلك على إثر سؤال ورد إليه وهو في الديار المصرية سنة أربع عشرة وسبعمائة في حسن إرادة الله تعالى لخلق الخلق، وإنشاء الأنام، وهل يخلق لعلة أم لغير علة؟ فأجاب رحمه الله بقوله: "هذه المسألة من أجل المسائل الكبار التي تكلم فيها الناس، وأعظمها شعبا وفروعا، وأكثرها شبها ومحارات؛ فإن لها تعلقا بصفات الله تعالى، وبأسمائه، وأفعاله، وأحكامه؛ من الأمر، والنهي، والوعد، والوعيد. وهي داخلة في خلقه وأمره، فكل ما في الوجود متعلق بهذه المسألة؛ فإن المخلوقات جميعها متعلقة بها، وهي متعلقة بالخالق سبحانه. وكذلك الشرائع كلها؛ الأمر، والنهي، والوعد، والوعيد متعلقة بها، وهي متعلقة بمسائل القدر، والأمر، ومسائل الصفات والأفعال. وهذه جوامع علوم الناس ... ". جامع الرسائل والمسائل 4-5285.
2 هذه الشبه يحتج بها أكثر الفرق؛ كالجهمية الذين ينفون بها المحبة، والإرادة، والحكمة، والفعل؛ والأشاعرة ينفون بها المحبة، والحكمة، والتحسين، والتقبيح "ذكر الرازي هذه الشبهة ضمن أدلة الأشاعرة في نفي الحكمة انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي ص 249-251. وانظر: نهاية الإقدام للشهرستاني ص 397. ولأبي الحسن الأشعري كلام في إنكار الحكمة، انظره في رسالة إلى أهل الثغر ص 240، 442"؛ والمعتزلة ينفون بها الصفات. وانظر: ص 7، 9، 27.
وشيخ الإسلام رحمه الله أورد هذه الشبهة ضمن أدلة الأشاعرة، ورد عليها من وجهين بكلام طويل، انظره في قاعدة في المعجزات والكرامات ص 57-60. وأوردها في موضع آخر من قول الرازي في الأربعين ص 250 يحتج بها على نفي الحكمة، ورد عليها بخمسة أوجه في شرح الأصفهانية 2369-371.
وقد يتمسك الفلاسفة بهذه الشبهة في نفي المحبة، والحكمة، والإرادة، والفعل. ولكن واقع الحال لا يساعدهم على الأخذ بها، إذ عمدتهم في نفي الصفات هو دليل التركيب، وليس دليل الأعراض. وهذه الشبهة متفرعة عن دليل الأعراض كما سيأتي.

مبتهج، فهذا غير محذور عندكم1. وإن قلتم: لأن ذلك2 يستلزم لذة

1 وهذا من الأجوبة الملزمة؛ لأن الفلاسفة كما قال شيخ الإسلام: "يعبرون بلفظ البهجة، واللذة، والعشق، ونحو ذلك عن الفرح، والمحبة، وما يتبع ذلك". منهاج السنة النبوية 3183. وانظر: من كتب الفلاسفة النجاة لابن سينا ص 227-251.
فشيخ الإسلام رحمه الله يقول لهم: لم لم تثبتوا المحبة، والحكمة، ... إلخ، وأثبتم البهجة، واللذة، والعشق، مع أنكم تعبرون بها عن المحبة، والفرح ... إلخ.
وانظر: ردود شيخ الإسلام رحمه الله على الفلاسفة في هذه الجزئية في: منهاج السنة النبوية 5388-400. والعقيدة التدمرية ص 40-41. ودرء تعارض العقل والنقل 1100،، 8216-224، 290 والرد على المنطقيين ص 214. وشرح الأصفهانية ص 236. وكتاب الصفدية 2263-264، 268-269.
وقد عاب شيخ الإسلام رحمه الله على الفلاسفة إثباتهم اللذة، والبهجة، ونحو ذلك مما أثبتوه ويقتضي نقصا، وتركهم صفات الكمال التي أتى بها النص، فقال: "ويقولون أيضا إنه يلتذ ويبتهج. ولفظ اللذة فيها من التشبيه واحتمال النقص ما لا يخفى على عاقل. ويقولون إنه مدرك، وأن اللذة أفضل إدراك لأفضل مدرك؛ فيسمونه مدركا، ومدركا". درء تعارض العقل والنقل 582.
2 أي إثبات المحبة، والحكمة، والإرادة.

حادثة. قيل لكم: في حلول الحوادث قولان، وليس معكم في النفي إلا ما يدل على نفي الصفات مطلقا؛ كدليل التركيب1. وقد عرف فساده من وجوه2.

وقيل للجهمية3 والمعتزلة: إن أردتم أن ذلك يقتضي حاجته إلى

---

1 فهؤلاء الفلاسفة كما قال شيخ الإسلام يأخذون بدليل التركيب في نفي الصفات عموما، ولا يأخذون بدليل الأعراض في نفي حلول الحوادث. بل هم يقولون: "الجسم مركب إما من المادة والصورة، أو من الجواهر المنفردة. وكل مركب ممكن. فبهذه الحجة نفوا الصفات، وكانوا من أشد الناس تجهما؛ لأنهم زعموا أن إثبات الصفات ينافي هذا التوحيد..". شرح الأصفهانية 151. وانظر: العقيدة التدمرية ص 40-41.

وانظر: كلام شيخ الإسلام رحمه الله عن مراد المتكلمين والفلاسفة ب (المركب) في درء تعارض العقل والنقل 3403-404.

2 فدليل التركيب من الأدلة الفاسدة الباطلة.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في بطلانه: "قالوا: والعالم حامل الصفات مركب، فلا يكون واجبا. وإذا كان إثباتهم لصانع العالم على طريقتهم لا تتم إلا بنفي الصفات، ونفي الصفات باطل، كان طريقهم في إثبات الصانع باطلا. ولهذا كان الصانع الذي يثبتونه لا حقيقة له إلا في الأذهان، لا في الأعيان. فقولهم يستلزم التعطيل". كتاب الصفدية 1244.

وانظر: نقد شيخ الإسلام رحمه الله لدليل التركيب، وبيانه لفساده من أوجه عديدة في: شرح الأصفهانية ص 50-89. ودرء تعارض العقل والنقل 5246-247. وكتاب الصفدية 187، 104-106. وشرح حديث النزول ص 83-88.

3 وانظر: قول الجهمية، وشبهتهم في نفي الحكمة، ورد شيخ الإسلام رحمه الله عليهم في جامع الرسائل والمسائل 4286-287.

وقال شيخ الإسلام أيضا: "ونفوا الحكمة لظنهم أنها تستلزم الحاجة. وهذا قول الأشعري، وأصحابه، ومن وافقهم...... وهذا القول في الأصل قول جهم بن صفوان، ومن اتبعه من الجهمية". مجموع الفتاوى 837-38.

العباد، وأنهم يضرونه أو ينفعونه1، فهذا ليس بلازم. ولهذا كان الله منزها عن ذلك، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الإلهي: "يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني"2.

فالله أجل من أن يحتاج إلى عباده لينفعوه، أو يخاف منهم أن يضروه. وإذا كان المخلوق العزيز لا يتمكن غيره من قهره، فمن له العزة جميعا، وكل عزة فمن عزته أبعد عن ذلك. وكذلك الحكيم المخلوق إذا كان

---

1 ذكر هذه الحجة في نفي الحكمة عن الله: الشهرستاني في نهاية الإقدام ص 397-398. والرازي في الأربعين ص 249-250. والإيجي في المواقف في علم الكلام ص 331-332.

وقد رد على هذه الشبهة شيخ الإسلام رحمه الله بعشرة أوجه في شرح الأصفهانية 2358-363.

وقال رحمه الله في معرض رده على المعتزلة في قولهم في الحكمة: "أنتم متناقضون في هذا القول؛ لأن الإحسان إلى الغير محمود لكونه يعود منه على فاعله حكم يحمد لأجله؛ إما لتكميل نفسه بذلك؛ وإما لقصده الحمد والثواب بذلك؛ وإما لرقة وألم يجده في نفسه، يدفع بذلك الإحسان لألم؛ وإما لالتذاذه، وسروره، وفرحه بالإحسان؛ فإن النفس الكريمة تفرح، وتسر، وتلتذ بالخير الذي يحصل منها إلى غيرها؛ فالإحسان إلى الغير محمود لكون المحسن يعود إليه من فعله هذه الأمور حكم يحمد لأجله. أما إذا قدر أن وجود الإحسان وعدمه بالنسبة إلى الفاعل سواء، لم يعلم أن مثل هذا الفعل يحسن منه، بل مثل هذا يعد عبثا في عقول العقلاء، وكل من فعل فعلا ليس فيه لنفسه لذة، ولا مصلحة، ولا منفعة بوجه من الوجوه لا عاجلة، ولا آجلة، كان عبثا، ولم يكن محمودا على هذا. وأنتم عللتم أفعاله فرارا من العبث، فوقعتم في العبث؛ فإن العبث هو الفعل الذي ليس فيه مصلحة، ولا منفعة، ولا فائدة تعود على الفاعل". جامع الرسائل والمسائل 4291.

2 جزء من حديث قدسي طويل، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 41994-1995، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

لا يفعل بنفسه ما يضرها، فالخالق جل جلاله أولى أن لا يفعل ذلك لو كان ممكنا. فكيف إذا كان ممتنعا.

قال تعالى: {ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا [يريد الله أن لا يجعل لهم حظا في الآخرة] 1 ولهم عذاب عظيم} 2. وقال تعالى: {وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن [كانوا] 3 أنفسهم يظلمون} 4.

فقد بين أن العصاة لا يضرونه، ولا يظلمونه، كعصاة المخلوقين؛ فإن مماليك السيد، وجند الملك، وأعوان الرجل، وشركاءه إذا عصوه فيما يأمرهم ويطلبه منهم، فقد يحصل له بذلك ضرر في نفسه، أو ماله، أو عرضه، أو غير ذلك. وقد يكون ذلك ظلما له.
والله تعالى لا يقدر أحد على أن يضره ولا يظلمه. وإن كان الكافر على ربه ظهيرا، فمظاهرته على ربه، ومعاداته له، ومشاقته، ومحاربته، عادت عليه بضرره، وظلمه لنفسه، وعقوبته في الدنيا والآخرة.
وأما النفع فهو سبحانه غني عن الخلق، لا يستطيعون نفعه [فينفعوه] 5؛ فما أمرهم به إذا لم يفعلوه، لم يضروه6 بذلك؛ كما قال تعالى: {ولله على

---

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
2 سورة آل عمران، الآية 176.
3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
4 سورة الأعراف، الآية رقم 60.
5 في ((خ)) : فيتفعونه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 يقول شيخ الإسلام رحمه الله في معرض رده على منكري الحكمة، مبينا أن قيام الصفات بالله لا يلزم منه افتقاره جل وعلا إليها، بل هو الغني عن العالمين: "فإن الله غني واجب بنفسه. وقد عرف أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه، ولا إمكانه، ولا حاجته، وأن قول القائل بلزوم افتقاره إلى صفاته اللازمة بمنزلة قوله: مفتقر إلى ذاته. ومعلوم أنه غني بنفسه، وأنه واجب الوجود بنفسه، وأنه موجود بنفسه. فتوهم حاجة نفسه إلى نفسه؛ إن عنى به أن ذاته لا تقوم إلا بذاته. فهذا حق؛ فإن الله غني عن العالمين، وعن خلقه، وهو غني بنفسه. وأما إطلاق القول بأنه غني عن نفسه، فهو باطل؛ فإنه محتاج إلى نفسه. وفي إطلاق كل منهما إيهام معنى فاسد. ولا خالق إلا الله تعالى". قاعدة في المعجزات والكرامات ص 58.

الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين} 1، وقال: {ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم} 2، وقال: {إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى} 3.
وإن أردتم أنه [هو] 4 سبحانه لا يريد، و [لا] 5 يفعل ما يفرح به، ويسر به، ويجعل عباده المؤمنين يفعلون ما يفرح به، فمن أين لكم هذا6؟

---

1 سورة آل عمران، الآية 97.
2 سورة النمل، الآية 40.
3 سورة الزمر، الآية 7.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
5 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
6 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "ولهذا لم يأمر الله تعالى، ولا رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا أحد من العقلاء أحدا بالإحسان إلى غيره ونفعه ونحو ذلك، إلا لما له في ذلك من المنفعة والمصلحة. وإلا فأمر الفاعل بفعل لا يعود إليه منه لذة، ولا سرور، ولا منفعة، ولا فرح بوجه من الوجوه؛ لا في العاجل، ولا في الآجل، لا يستحسن من الآمر". جامع الرسائل والمسائل 4291. وانظر: النصوص الكثيرة التي ساقها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لإثبات محبة الله، وفرحه، وأفعاله جل وعلا في منهاج السنة النبوية 3160-162. وقاعدة في الكرامات والمعجزات ص 58-59.

وإن سمى هذا لذة، فالألفاظ المجملة التي قد يفهم منها معنى فاسد إذا لم ترد في كلام الشارع لم [نكن] 1 محتاجين إلى إطلاقها؛ كلفظ (العشق) . وإن أريد به المحبة التامة، وقد أطلق بعضهم2 على الله أنه يعشق، ويعشق، وأراد به أنه يحب، ويحب محبة تامة، فالمعنى صحيح، واللفظ فيه نزاع. واللذة يفهم منها لذة الأكل، والشرب، والجماع؛ كما يفهم من العشق المحبة الفاسدة، والتصور الفاسد، ونحو ذلك مما يجب تنزيه الله عنه؛ فإن الذين قالوا لا يجوز وصفه بأنه يعشق؛ منهم من قال: لأن العشق هو الإفراط في المحبة، والله تعالى لا إفراط في حبه. ومنهم من قال: لأن العشق لا يكون إلا مع فساد التصور للمعشوق، وإلا فمع

صحة التصور لا يحصل إفراط في الحب. وهذا المعنى لا يمدح فاعله؛ فإن من تصور في الله ما هو منزه عنه، فهو مذموم على تصوره، ولوازم تصوره. ومنهم من قال: لأن الشرع لم يرد بهذا اللفظ، وفيه إبهام، وإيهام، فلا يطلق. وهذا أقرب.
وآخرون ينكرون محبة الله، وأن يحب ويحب؛ كالمعتزلة، والجهمية، ومن وافقهم من الأشعرية3، وغيرهم، فهؤلاء يكون الكلام

---

1 في ((خ)) : يكن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن الفلاسفة: "ويقولون إنه عاشق، ومعشوق، وعشق. مع أن لفظ العشق فيه من التشبيه واحتمال النقص ما لا يخفى على عاقل. وليس في الكتب الإلهية تسميته بعقل، ولا عاشق، ولا معقول، ولا معشوق". درء تعارض العقل والنقل 582. وانظر: المصدر نفسه 5247،، 9304-310، 10224 والصفدية 136. ومنهاج السنة النبوية 3183.
3 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن إنكار هؤلاء لمحبة الله تعالى: "وكان الجعد ... أول من ظهر عنه التعطيل بإنكار صفات الله تعالى، وبإنكار محبته، وتكليمه؛ كما يقول هؤلاء المتفلسفة، والجهمية، والباطنية، ونحوهم من المعطلة، والجهمية، والمعتزلة، ومن اتبعهم؛ فينكرون أن يكون الله يحب، أو يحب حقيقة، وينكرون التمتع برؤيته، وينكرون أن يكون هو سبحانه موصوفا بالفرح، ونحوه؛ لزعمهم أن هذا من نوع اللذة، والبهجة. والله لا يوصف بذلك عندهم ... ". كتاب الصفدية 2263.

معهم في كونه يحب، ويحب؛ كما نطق به الكتاب والسنة في مثل [قوله] 1: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه} 2، لا في لفظ العشق.
لفظ اللذة فيه إبهام وإيهام
كذلك لفظ اللذة فيه إبهام، وإيهام، والشرع لم يرد بإطلاقه، ولكن استفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح من وجد راحلته بعد أن فقدها، وأيس منها في مفازة مهلكة، [يائس] 3 من الحياة والنجاة من تلك الأرض، ومن وجود مركبه، ومطعمه، ومشربه، ثم وجد ذلك بعد اليأس؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فكيف تجدون فرحه بدابته"؟ . قالوا: عظيما يا رسول الله. قال: " [لله] 4 أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته"5.
وقد نطق الكتاب والسنة بأنه يحب المتقين6، والمحسنين7، والصابرين8، والتوابين والمتطهرين9، والذين يقاتلون في سبيله صفا

---

1 في ((خ)) : قولهم.
2 سورة المائدة، الآية 54.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : ويئس من.
4 في ((ط)) : الله.
5 أخرجه الإمام البخاري في صحيحه 52324-2325، كتاب الدعوات، باب التوبة. والإمام مسلم في صحيحه 42102-2104، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة، والفرح بها.
6 قال تعالى: {إن الله يحب المتقين} . سورة التوبة، الآية 4.
7 قال تعالى: {والله يحب المحسنين} . سورة البقرة، الآية 195.
8 قال تعالى: {والله يحب الصابرين} .سورة آل عمران، الآية 146.
9 قال تعالى: {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} . سورة البقرة، الآية 222.

كأنهم بنيان مرصوص1، وأنه يرضى عن المؤمنين2. فإذا كنتم نفيتم حقيقة الحب والرضى لأن ذلك يستلزم اللذة بحصول المحبوب. قيل لكم3: إن كان هذا لازما، فلازم الحق حق. وإن لم يكن لازما بطل نفيكم4. والفرح في الإنسان هو لذة تحصل في قلبه بحصول محبوبه.
وقد جاء أيضا وصفه تعالى بأنه يسر في الأثر، والكتب المتقدمة5؛ وهو مثل لفظ الفرح6.

---

1 قال تعالى: {إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص} .سورة الصف، الآية 4.
2 قال تعالى: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة} سورة الفتح، الآية 18.

3 المقصود بهم الفلاسفة، وغيرهم من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية ممن ينفي صفة المحبة والرضى.
وانظر: جواب شيخ الإسلام رحمه الله المطول على هذه الشبهة في قاعدة في المعجزات والكرامات ص 58؛ فقد أجابهم بجوابين؛ أحدهما بالإلزام. وانظر: كتاب الصفدية 2260-264.
4 انظر: لشيخ الإسلام كلاما مماثلا لهذا في منهاج السنة النبوية 3182-183. وقاعدة في المعجزات والكرامات ص 55-56، 58-59.
5 قال ابن القيم رحمه الله: "وفي صفة النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الكتب المتقدمة: "عبدي الذي سرت به نفسي"، وهذا من كمال محبته له؛ جعله مما تسر به نفسه سبحانه". مدارج السالكين 1216. وانظر: كلامه رحمه الله في السرور، وهل يوصف الله تعالى به، أم لا؟ في مدارج السالكين 3161.
وسيأتي نقل ذلك مفصلا مما يسمى بالعهد القديم، في آخر هذا الكتاب، عند ذكر صفته صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة. انظر: ص 1284 من هذا الكتاب؛ حيث يرد في النص ما يثبت سرور الرب تبارك وتعالى بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم.
وقد نقل الشيخ رحمه الله هذا النص في الجواب الصحيح 5175 في نبوة أشعيا: "عبدي الذي سرت به نفسي، أنزل عليه وحيي، فيظهر في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا".
6 الفرح في اللغة: السرور. انظر: مشكل الحديث لابن فورك ص 67. والأسماء والصفات للبيهقي 2421. وفتح الباري لابن حجر 1118.

صفة الضحك والبشبشة
وأما الضحك: فكثير في الأحاديث1. ولفظ البشبشة جاء أيضا أنه يتبشبش للداخل إلى المسجد؛ كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم2.

---

1 مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة". الحديث رواه البخاري في صحيحه 31040، كتاب الجهاد والسير، باب الكافر يقتل المسلم، ثم يسلم. ومسلم في صحيحه 31504، كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة.
2 الحديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله له كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم". الحديث أخرجه ابن ماجه واللفظ له (صحيح سنن ابن ماجه، حديث رقم 652) . وأحمد في المسند 2307، 328، 340، 453. وابن خزيمة في صحيحه 2379، وصحح إسناده أحمد شاكر 8501. ورواه الدارمي في رده على بشر المريسي ص 203. وصححه الألباني انظر: صحيح ابن ماجه 652. وصحيح الترغيب والترهيب325.
والحديث فيه إثبات البشبشة، وهي بمعنى الفرح.
قال ابن الأثير: "البش: فرح الصديق بالصديق، واللطف في المسألة، والإقبال عليه. وقد بششت به أبش". فمعنى البش: الفرح. ويضرب إذا تلقى الصديق صديقه بالبر، وقربه، وأكرمه. انظر: النهاية في غريب الحديث 1130.
وقال أبو يعلى الفراء بعد الكلام على صفة الفرح لله تعالى: "... وكذلك القول في البشبشة؛ لأن معناه يقارب معنى الفرح. والعرب تقول: رأيت لفلان بشاشة، وهشاشة، وفرحا. ويقولون: فلان هش بش فرح؛ إذا كان منطلقا؛ فيجوز إطلاق ذلك كما جاز إطلاق الفرح.
وقد ذكر ابن قتيبة هذا الحديث في كتاب الغريب، وقال قوله: (يبشبش) من البشاشة، وهو يتفعل؛ فحمل الخبر على ظاهره، ولم يتأوله". انتهى كلام أبي يعلى في إبطال التأويلات لأخبار الصفات 1243. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة 1160. ومشكل الحديث وبيانه لابن فورك ص 68، 256. والأسماء والصفات للبيهقي 2421-422.

وجاء في الكتاب والسنة ما يلائم ذلك ويناسبه شيء كثير1.
فيقال لمن نفى ذلك: لم نفيته؟ ولم نفيت هذا المعنى؛ وهو وصف كمال لا نقص فيه؟ ومن يتصف به أكمل ممن لا يتصف به؟ وإنما النقص فيه أن يحتاج فيه إلى غيره، والله تعالى لا يحتاج إلى أحد في شيء، بل هو فعال لما يريد. لكن القدرية قد يشكل هذا على قولهم؛ فإن العباد عندهم مستقلون بإحداث فعلهم، ولكن هذا مثل إجابة دعائهم، وإثابتهم على أفعالهم، ونحو ذلك مما فيه أن أفعالهم تقتضي أمورا يفعلها هو. وهم لا [يفرون] 2 من كونه [يجب] 3 عليه أشياء، وأنه يفعل ما يجب عليه؛ فيكون

العبد قد جعله مريدا لما لم يكن مريدا له. وحينئذ فإذا كان العباد يجعلونه مريدا عندهم، فالقول في لوازم الإرادة، كالقول فيها.
وهذا إما أن يدل على [فساد] 4 قولهم في القدر، وهو الصواب. وإما أن يقولوا: إن مثل ذلك جائز على الله، وجائز أن يجعله العبد مريدا بدون مشيئته لذلك، وبدون أن يكون هو الذي شاء ذلك من العبد، فيلزمهم في لوازمها ما يلزمهم فيها.
وأما على قول المثبتة5: فكل ما يحدث، فهو بمشيئته، وقدرته، فما

---

1 يريد رحمه الله الأدلة السمعية التي دلت على إثبات صفات الله الفعلية.
وقد جمع رحمه الله أدلة كثيرة من الكتاب والسنة على مسألة أفعال الله تعالى في درء تعارض العقل والنقل 3115-146.
2 في ((خ)) : يقرون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((ط)) : يحب.
4 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
5 المثبتة للقدر.

جعله أحد مريدا فاعلا، بل هو الذي يحدث كل شيء، ويجعل بعض الأشياء سببا لبعض.
فإن قال نافي المحبة، والفرح، والحكمة، ونحو ذلك1: هذا يستلزم حاجته إلى المخلوق. ظهر فساد قوله.
وإن قيل: إن ذلك إن كان وصف كمال، فقد كان فاقدا له، وإن كان نقصا، فهو منزه عن النقص. قيل له: هو كمال حين اقتضت الحكمة حدوثه، وحدوثه [قبل] 2 ذلك قد يكون نقصا في الحكمة، أو يكون ممتنعا غير ممكن؛ كما يقال في نظائر ذلك3.

---

1 أي الجهمية، والمعتزلة، والفلاسفة، والأشعرية، وغيرهم من نفاة هذه الصفات.
2 في ((خ)) : قبل.
3 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذه الحجة، وأنها قول من يقول: "خلق المخلوقات، وأمر بالمأمورات، لا لعلة، ولا لداع، ولا باعث. وهو قول الأشعرية، والظاهرية". وقد رد عليها رحمه الله. انظر: مجموعة الرسائل والمسائل 4286.
وقال رحمه الله أيضا في حصر الأقوال في التعليل وعدمه فذكر قول أهل السنة والجماعة: "والخامس قول من يعلل ذلك بأمور متعلقة بمشيئته وقدرته. فإن كان الفعل المفضي للحكمة حادث النوع، كانت الحكمة كذلك، وإن قدر أنه قام به كلام أو فعل متعلق بمشيئته وأنه لم يزل كذلك، كانت الحكمة كذلك؛ فيكون النوع قديما، وإن كانت آحاده حادثة". مجموعة الرسائل والمسائل 4342. وانظر: قاعدة في المعجزات والكرامات ص 57-58.
وقد ذكر هذه الحجة الرازي في الأربعين ص 249-250. ورد عليها شيخ الإسلام رحمه الله من عشرة أوجه. انظر: شرح الأصفهانية 2357-363.
وذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذه الحجة أيضا عن الفلاسفة، وغيرهم من نفاة الأفعال الاختيارية ورد عليهم رحمه الله من خمسة أوجه. انظر: مجموعة الرسائل والمسائل 4219-220.
وكذلك هذه الحجة هي شبهة لمنكري تعليل أفعال الله تعالى. وقد رد عليهم شيخ الإسلام رحمه الله من خمسة أوجه. انظر: مجموعة الرسائل والمسائل 4337-339 ومنهاج السنة النبوية 1145) .
وانظر: هذه الشبهة في: المواقف في علم الكلام للإيجي ص 331-332. وشرح المقاصد للتفتازاني 4301.

وتمام البسط في هذا الأصل مذكور في غير هذا الموضع1.
والمقصود هنا التنبيه على لوازم ذلك؛ فإن نفاة ذلك2 نفوا أن يكون في الممكن فعل ينزه عنه، فليس عندهم فعل يحسن منه، وفعل ينزه عنه.
الحسن والقبح عند الأشاعرة
بل [عندهم] 3 تقسيم الأفعال؛ أفعال الرب والعبد إلى حسن وقبيح، لا يكون عندهم إلا بالشرع. وذلك لا يرجع إلى صفة في الفعل، بل الشارع عندهم يرجح مثلا على مثل4. والحسن والقبيح إنما يعقل إذا كان الحسن ملائما

---

1 انظر: مجموعة الرسائل والمسائل 4283-346 رسالة أقوم ما قيل في المشيئة والحكمة..؛ فإنها في صميم الموضوع، وهي عبارة عن سؤال ورد للمؤلف رحمه الله من الديار المصرية، مضمونه: هل يفعل الله تعالى لحكمة أم لا؟ وهل هذه الحكمة لم

تزل، أو محدثة؟ ثم أورد السائل على تفرعات السؤال إشكالات. فأجاب عنها شيخ الإسلام رحمه الله بهذه الرسالة القيمة.
وانظر: أيضا منهاج السنة النبوية 1133-147.
2 المقصود بهم الأشاعرة الذين ينفون التحسين والتقبيح العقليين.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : عنده.
4 يقول الجرجاني في شرح المواقف: "فلا حسن ولا قبح للأفعال قبل ورود الشرع. ولو عكس الشارع القضية فحسن ما قبحه، وقبح ما حسنه، لم يكن ممتنعا، وانقلب الأمر، فصار القبيح حسنا، والحسن قبيحا". شرح المواقف للجرجاني 8181-182.
وانظر: رسالة إلى أهل الثغر للأشعري ص 243. واللمع له ص71. والإنصاف للباقلاني ص 48، 74-77. والإرشاد للجويني ص 258. والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص 157. والمحصل للرازي ص 202. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 323-330. وشرح المقاصد للتفتازاني 4282-289.

للفاعل؛ وهو الذي يلتذ به، والقبيح ينافيه؛ وهو الذي يتألم به. والحسن، والقبح في أفعال العباد بهذا الاعتبار متفق على جوازه. وإنما النزاع في كونه يتعلق به المدح والثواب. وهذا في الحقيقة يرجع إلى الألم واللذة.
فلهذا سلم الرازي في آخر عمره ما ذكره في كتاب1 [أقسام اللذات] 2 إن الحسن والقبح العقليين [ثابتان] 3 في أفعال العباد دون الرب4،

---

1 كتاب أقسام اللذات؛ كما صرح به شيخ الإسلام رحمه الله في بعض كتبه. انظر على سبيل المثال: جامع الرسائل 2250-251. وبيان تلبيس الجهمية 1127، وكذلك هذا الكتاب النبوات، كما سبق ص 478؛ حيث صرح بذكر هذا الاسم.
وانظر: اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم رحمه الله ص 304-305؛ إذ أورد نماذج من هذا الكتاب، تبين من خلالها تسليم الرازي، وحيرته في آخر عمره.
وشيخ الإسلام نقل هذا أيضا. يقول رحمه الله: "ومن الناس من أثبت قسما ثالثا للحسن والقبح، وادعى الاتفاق عليه، وهو كون الفعل صفة كمال، أو صفة نقص. وهذا القسم لم يذكره عامة المتقدمين المتكلمين في هذه المسألة، ولكن ذكره بعض المتأخرين؛ كالرازي، وأخذه عن الفلاسفة. والتحقيق: أن هذا القسم لا يخالف الأول؛ فإن الكمال الذي يحصل للإنسان ببعض الأفعال، هو يعود إلى الموافقة والمخالفة؛ فالنفس تلتذ بما هو كمال لها، وتتألم بالنقص، فيعود الكمال والنقص إلى الملائم والمنافي".
مجموعة الرسائل الكبرى 2104.
2 بياض بمقدار ثلاث كلمات في جميع النسخ. ولعل ما أثبت هو المقصود؛ لأنه ألفه في آخر حياته.
3 في ((خ)) رسمت هكذا: ياتيان.
4 قال شيخ الإسلام رحمه الله في تعريف الحسن والقبح، وعلاقتهما بالحكمة والقدر، وكيف وقع الاشتباه والاختلاف في ذلك: "إن الحسن هو: الحق، والصدق، والنافع، والمصلحة، والحكمة، والصواب. وإن الشيء القبيح هو: الباطل، والكذب، والضار، والمفسدة، والسفه، والخطأ".
ثم ذكر رحمه الله قول القدرية، والجبرية في أفعال العباد، وارتباط ذلك بالحسن، والقبح؛ فقال: "والمعتزلة ومن اتبعها من الشيعة تزعم أن الأعمال ليست من خلقه ولا كونها شيء، وأن الآلام لا يجوز أن يفعلها إلا جزاء على عمل سابق، أو تعويض بنفع لاحق. وكثير من أهل الإثبات ومن اتبعهم من الجبرية يقولون: بل الجميع خلقه، وهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا فرق بين خلق المضار والمنافع، والخير والشر بالنسبة إليه. ويقول هؤلاء: إنه لا يتصور أن يفعل ظلما، ولا سفها أصلا. بل لو فرض أنه فعل أي شيء، كان فعله حكمة وعدلا وحسنا، إذ لا قبيح إلا ما نهى عنه، وهو لم ينه أحدا. ويسوون بين تنعيم الخلائق وتعذيبهم، وعقوبة المحسن، ورفع درجات الكفار والمنافقين. والفريقان متفقان على أنه لا ينتفع بطاعات العباد، ولا يتضرر بمعصيتهم. لكن الأولون يقولون: الإحسان إلى الغير حسن لذاته، وإن لم يعد إلى المحسن منه فائدة. والآخرون يقولون: ما حسن منا حسن منه، وما قبح منا قبح منه.....". وقد أطال شيخ الإسلام رحمه الله النفس في توضيح موقف المعتزلة والأشاعرة من الحسن والقبح. انظر: قاعدة في المعجزات والكرامات ص 53.
وأما التحسين والتقبيح عند أهل السنة والجماعة، فقد فصل فيه شيخ الإسلام القول. ومما قاله: "..وقد ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع، ثلاثة أنواع:
أحدها: أن يكون الفعل مشتملا على مصلحة، أو مفسدة، ولو لم يرد الشرع بذلك؛ كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم يشتمل على فسادهم. فهذا النوع هو حسن وقبيح. وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك، لا أنه أثبت للفعل صفة لم

تكن. لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقبا في الآخرة إذا لم يرد شرع بذلك. وهذا مما غلط فيه غلاة القائلين بالتحسين والتقبيح؛ فإنهم قالوا: إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة، ولو لم يبعث إليهم رسولا. وهذا خلاف النص؛ قال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} ....
النوع الثاني: إن الشارع إذا أمر بشيء صار حسنا، وإذا نهى عن شيء صار قبيحا، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع.
والنوع الثالث: أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن العبد، هل يطيعه أم يعصيه، ولا يكون المراد فعل المأمور به؛ كما أمر إبراهيم بذبح ابنه، فلما أسلما وتله للجبين حصل المقصود، ففداه بالذبح. وكذلك حديث أبرص، وأقرع، وأعمى لما بعث الله إليهم من سألهم الصدقة؟ فلما أجاب الأعمى، قال الملك: أمسك عليك مالك، فإنما ابتليتم، فرضي عنك، وسخط على صاحبيك. فالحكمة منشؤها من نفس الأمر، لا من نفس المأمور به. وهذا النوع والذي قبله لم يفهمه المعتزلة، وزعمت أن الحسن والقبح لا يكون إلا لما هو متصف بذلك بدون أمر الشارع. والأشعرية ادعوا أن جميع الشريعة من قسم الامتحان، وأن الأفعال ليست لها صفة، لا قبل الشرع، ولا بالشرع. وأما الحكماء والجمهور، فأثبتوا الأقسام الثلاثة. وهو الصواب". مجموع الفتاوى 8434-436.
وانظر: المصدر نفسه 16498. ومجموعة الرسائل والمسائل 4292. ومنهاج السنة النبوية 1316، 2294-302، 3177. ودرء تعارض العقل والنقل 822، 492، 949-62. وقاعدة في المعجزات والكرامات ص 53-54. والرد على المنطقيين ص 420-437. ومجموعة الرسائل الكبرى 2103-105. وشرح الأصفهانية 2342، 393، 617.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن موقف الناس من التحسين والتقبيح: "وقد تنازع الناس في حسن الأفعال وقبحها؛ كحسن العدل والتوحيد والصدق، وقبح الظلم والشرك والكذب: هل يعلم بالعقل، أم لا يعلم إلا بالسمع. وإذا قيل: إنه يعلم بالعقل، فهل يعاقب من فعل ذلك قبل أن يأتيه رسول؟ على ثلاثة أقوال معروفة في أصحاب الأئمة وغيرهم؛ وهي ثلاثة أقوال لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم ... ". الجواب الصحيح 2307-308.

إذا كان معناهما يؤول إلى اللذة والألم.
الحسن والقبح عند المعتزلة
والمعتزلة أثبتوا حسنا وقبحا عقليين في فعل القادر مطلقا، سواء كان قديما، أو محدثا. وقال1: الحسن: ما للقادر فعله. و [القبيح ما] 2 ليس له فعله. وقالوا: إن ذلك ثابت بدون كونه مستلزما للذة والألم. كما ادعوا ثبوت حكمته للفاعل القادر، ولا تعود إليه، ولا يستلزم اللذة؛ فادعوا ما هو

---

1 لعلها: قالوا.
2 ما بين المعقوفتين ملحق في هامش ((خ)) .
(455/1)

خلاف الموجود والمعقول1. ولهذا تسلط عليهم النفاة2، فكان حجتهم عليهم أن يثبتوا أن هذا أمر لا يعقل إلا مع اللذة والألم. ثم يقولون: وذلك في حق الله محال. فحجتهم مبنية على مقدمتين: أن الحسن والقبح والحكمة مستلزم للذة والألم، وذلك في حق الله محال.

---

1 وانظر: تعريف عبد الجبار الهمذاني وهو من رؤوس المعتزلة للقبيح والحسن في كتابه: المغني في أبواب التوحيد والعدل ج 6، القسم الأول ص 26-30، 59-60. والأصول الخمسة له ص 326-332، 564-566. والمعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري المعتزلي 1363.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله في ذكر موقف كل من المعتزلة والأشاعرة من الحسن والقبح والحكمة: "وتفصيل حكمة الله في خلقه وأمره يعجز عن معرفتها عقول البشر. والقدرية دخلوا في التعليل على طريقة فاسدة مثلوا الله فيها بخلقه، ولم يثبتوا حكمة تعود إليه، فسلبوه قدرته، وحكمته، ومحبته، وغير ذلك من صفات كماله. فقابلهم خصومهم الجهمية المجبرة ببطلان التعليل في نفس الأمر. كما تنازعوا في مسألة التحسين والتقبيح؛ فأولئك أثبتوا على طريقة سووا فيها بين الله وخلقه، وأثبتوا حسنا وقبحا لا يتضمن محبوبا ولا مكروها، وهذا لا حقيقة له. كما أثبتوا تعليلا لا يعود إلى الفاعل حكمه. وخصومهم سووا بين جميع

الأفعال، ولم يثبتوا لله محبوبا، ولا مكروها، وزعموا أن الحسن لو كان صفة ذاتية للفعل، لم يختلف حاله. وغلطوا؛ فإن الصفة الذاتية للموصوف قد يراد بها اللازمة له". منهاج السنة النبوية 3177.

2 الأشاعرة نفاة الحسن والقبح. انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي ص 249-250.

ويقال لهم: "حكمة الرب فوق تحصيل اللذة ودفع الألم، بل هو يتعالى عن ذلك؛ لأن ما ذكر غرض المخلوق. أما الخالق سبحانه فهو غني بذاته عن كل ما سواه؛ حكمته سبحانه لا تشابه حكمة المخلوقين؛ كما أن إرادته، وسائر صفاته لا تشابه صفات المخلوقين". الحكمة والتعليل في أفعال الله ص 72.

والمعتزلة منعوا المقدمة الأولى، فغلبوا معهم. والمقدمة الثانية جعلوها محل وفاق1، وهي مناسبة لأصول المعتزلة؛ لكونهم ينفون الصفات؛ فنفي الفعل القائم به أولى على أصلهم، ونفي مقتضى ذلك أولى على أصلهم. وهذه المقدمة التي اشتركوا فيها [تقتضي] 2 نفي كونه مريدا، ونفي كونه فاعلا، ونفي حدوث شيء من الحوادث؛ كما أن نفي الصفات يقتضي نفي [شيء] 3 قائم بنفسه موصوف بالصفات.

فنفي اتصافه بالصفات يستلزم أن لا يكون في الوجود شيء يتصف بصفة، ونفي فعله، وإحداثه يقتضي أن لا يكون في الوجود شيء حادث؛ فكان ما نفوه مستلزما نهاية السفسطة4، وجحد الحقائق. ولهذا كان من

---

1 المعتزلة جعلوها محل وفاق مع الأشاعرة؛ لأنها موافقة لأصولهم.

2 في ((خ)) : يقتضي.

3 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .

4 المقصود بالسفسطة: الحكمة المموهة. ويراد بها التمويه، والخداع، والمغالطة في الكلام، وجحد الحقائق. وهي كلمة معربة من اليونانية، مركبة من سوفيا؛ وهي الحكمة، ومن اسطس؛ وهو المموه؛ فمعناه: حكمة مموهة.

يقول الجرجاني في التعريفات ص 158: "السفسطة: قياس مركب من الوهميات. والغرض منه تغليط الخصم، وإسكاته؛ كقولنا: الجوهر موجود في الذهن، وكل موجود في الذهن قائم بالذهن عرض؛ لينتج أن الجوهر عرض".

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن هذه الكلمة هي كلمة معربة، وأصلها باليونانية (سوفسقيا) ؛ أي حكمة مموهة؛ فإن (سوفيا) باليونانية هي الحكمة، ولهذا يقولون: (فيلسوف) ؛ أي محب الحكمة ... وأما هذه المموهة فهي تشبه الحق البرهاني ونحوه مما ينبغي قبوله، وهي في الحقيقة باطلة يجب ردها، ولكن موهت كما يموه الحق بالباطل، فسموها (سوفسقيا) ؛ أي حكمة مموهة". بيان تلبيس الجهمية 1322-324. وانظر: التسعينية ص 36-37. وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص 45. وانظر: تقسيم شيخ الإسلام للسفسطة إلى ثلاثة أقسام في منهاج السنة 1419. وفي كتاب الصفدية 197 قسمها إلى أربعة أقسام.

وافق هؤلاء على نفي محبة الله لما أمر به من الصوفية، يلزمهم تعطيل الأمر والنهي، وأن لا [ينفى] 1 إلا القدر [العام] 2. وقد التزم ذلك طائفة من محققيهم3، وكان نفي الصفات يستلزم نفي [الذات] 4، وأن لا يكون [موجودان] 5، أحدهما واجب قديم خالق، والآخر ممكن، أو محدث، أو مخلوق. وهكذا التزمه طائفة من محققيهم؛ وهم القائلون بوحدة الوجود، و [هؤلاء] 6 يقولون [بكون] 7 العبد أولا يشهد الرفق بين الطاعة والمعصية، ثم يشهد طاعة بلا معصية، ثم لا طاعة ولا معصية، بل الوجود واحد8، فالذين أثبتوا الحسن والقبح في الأفعال،

---

1 في ((خ)) : يبقى. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 في ((ط)) : العلم.

3 انظر: كتاب الصفدية 1243-245، 264-265.

4 في ((م)) ، و ((ط)) : الصفات.

5 في ((خ)) : موجودا ان.

6 في ((م)) ، و ((ط)) : هم.

7 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

8 وقد سوى غلاة الصوفية بين الإيمان والكفر، والخير والشر بكونه منه سبحانه وتعالى. انظر: جامع الرسائل والمسائل 4300-301. وجامع الرسائل 1125. ومجموع الفتاوى 8331، 339، 343-350.
وقد قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولهذا يجوز عندهم أن يأمر الله بكل شيء، حتى الكفر والفسوق والعصيان، وينهى عن كل شيء، حتى عن الإيمان والتوحيد، ويجوز نسخ كل ما أمر به بكل ما نهى عنه. ولم يبق عندهم في الوجود خير ولا شر، ولا حسن ولا قبح إلا بهذا الاعتبار. فما في الوجود ضر ولا نفع. والنفع والضر أمران إضافيان، فربما نفع هذا ما ضر هذا؛ كما يقال مصائب قوم عند قوم فوائد". مجموع الفتاوى 8343.
وانظر: بيان تلبيس الجهمية 1162.

وأن لها صفات تقتضي ذلك، قالوا بما قاله جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم.
قال أبو الخطاب1: "هذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين2، لكن تناقضوا، فلم يثبتوا لازم ذلك، فتسلط عليهم النفاة. والنفاة لما نفوا الحسن والقبح في نفس الأمر3، قالوا4: لا فرق في ما يخلقه الله، [وبما يأمر] 5 به بين فعل وفعل، وليس في نفس الأمر حسن، ولا قبيح، ولا صفات توجب ذلك. واستثنوا ما يوجب اللذة والألم، لكن اعتقدوا ما اعتقدته المعتزلة أن هذا لا يجوز إثباته في حق الرب. وأما في حق العبد: فظنوا أن الأفعال لا [تقتضي] 6 إلا لذة وألما في الدنيا. وأما كونها مشتملة

---

1 أبو الخطاب هو محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوذاني البغدادي، أحد أعيان المذهب الحنبلي. ولد سنة 432؟. وتفقه على القاضي أبي يعلى، وسمع الكثير، ودرس، وأفتى، وناظر، وصنف في الأصول والفروع. توفي في بغداد سنة 510 ؟.
قال السلفي: "هو ثقة رضي من أئمة أصحاب أحمد".
انظر: البداية والنهاية 12180. والذيل على طبقات الحنابلة 1116-127. والأعلام للزركلي 5291. وسير أعلام النبلاء 19349.
2 انظر: التمهيد في أصول الفقه لأبي الخطاب 4294.
وقد نقل شيخ الإسلام رحمه الله هذا النص عن أبي الخطاب في كتابه الجواب الصحيح 2309.
3 وهم الأشاعرة، نفاة الحسن والقبح العقليين، والحكمة والمحبة.
ولأبي الخطاب كتاب مطبوع اسمه التمهيد في أصول الفقه، يقع في أربع مجلدات، من مطبوعات المجلس العلمي في جامعة أم القرى.
4 المقصود بهم الأشاعرة. وهذه حجتهم. وانظر: ص 547-552. وانظر: شرح الأصفهانية 2616-620.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : وما يأمره.
6 في ((خ)) : يقتضي.

على صفات تقتضي لذة وألما في الآخرة، [فذاك] 1 عندهم باطل، ولم يمكنهم أن يقولوا إن الشارع يأمر بما فيه لذة مطلقا، و [ينهى] 2 عما فيه ألم مطلقا.
وكون الفعل يقتضي ما يوجب اللذة، هو عندهم من باب التولد3.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : فذلك.
2 في ((خ)) : نهي.
3 المقصود به هنا: التوليد؛ وهو " أن يحصل الفعل عن فاعله بتوسط فعل آخر؛ كحركة المفتاح في حركة اليد". التعريفات للجرجاني ص 98.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن مسألة التوليد، وموقف كل من المعتزلة والأشاعرة منها:
"فإن أفعال الإنسان، وغيره من الحيوان على نوعين: أحدهما المباشر، والثاني المتولد. فالمباشر ما كان في محل القدرة؛ كالقيام، والقعود، والأكل، والشرب. وأما المتولد فهو ما خرج عن محل القدرة؛ كخروج السهم من القوس، وقطع السكين للعنق، والألم الحاصل من الضرب، ونحو ذلك. فهؤلاء المعتزلة يقولون: هذه المتولدات فعل العبد؛ كالأفعال المباشرة. وأولئك المبالغون في مناقضتهم في مسائل القدر من الأشعرية وغيرهم يقولون: بل هذه الحوادث فعل الله تعالى، ليس للعبد فيها فعل أصلا". كتاب الصفدية 1150.

وقال رحمه الله في موضع آخر عن أقوال الناس في التولد:
"فأما الأمور المنفصلة عنه التي يقال إنها متولدة عن فعله. فمن الناس من يقول: ليست مفعولة له بحال، بل هي مفعولة لله تعالى؛ كما يقول ذلك كثير من متكلمي المثبتين للقدر. ومنهم من يقول: بل هو مفعول له على طريق التولد؛ كما يقوله من يقوله من المعتزلة. ويحكى عن بعضهم أنه قال: لا فاعل لها بحال. وحقيقة الأمر: أن تلك قد اشترك فيها الإنسان، والسبب المنفصل عنه؛ فإنه إذا ضرب بحجر فقد فعل الحذف، ووصول الحجر إلى منتهاه حصل بهذا السبب، وبسبب آخر من الحجر والهواء. وكذلك الشبع، والري حصل بسبب أكله وشربه الذي هو فعله، وبسبب ما في الطعام والشراب من قوة التغذية، وما في بدنه من قوة القبول لذلك. والله خالق هذا كله". درء تعارض العقل والنقل 9340-341.
وانظر: عن التولد عند المعتزلة والأشعرية: الأصول الخمسة لعبد الجبار ص 387-390، 424. والتمهيد للباقلاني ص 63-64، 334-341. والإرشاد للجويني ص 230. وأصول الدين للبغدادي ص 137. والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم 359. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 316-319. وشرح المقاصد للتفتازاني 4271.

معنى الكسب عند االأشاعرة
وهم لا يقولون به، بل قدرة العبد عندهم لا [تتعلق] 1 إلا بفعل في محلها، مع أنها عند شيخهم2 غير مؤثرة في المقدور، ولا يقول أن العبد فاعل في الحقيقة، بل كاسب3.

---

1 في ((خ)) : يتعلق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 المقصود به أبو الحسن الأشعري. قال في مقالات الإسلاميين 2221: (والحق عندي أن معنى الاكتساب هو أن يقع الشيء بقدرة محدثة، فيكون كسبا لمن وقع بقدرته) .
وقال الشهرستاني في الملل والنحل 191: (قال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري: إذا كان الخالق على الحقيقة هو الباري تعالى لا يشاركه في الخلق غيره، فأخص وصفه تعالى هو القدرة على الاختراع) .
وقال الشهرستاني عن الكسب، وتأثير القدرة عند الأشعري:
"ثم على أصل أبي الحسن: لا تأثير للقدرة الحادثة في الإحداث؛ لأن جهة الحدوث قضية واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الجوهر والعرض.... أن الله تعالى أجرى سنته بأن يحقق عقيب القدرة الحادثة، أو تحتها، أو معها الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له. ويسمى هذا الفعل كسبا، فيكون خلقا من الله تعالى إبداعا وإحداثا، وكسبا من العبد، حصولا تحت قدرته". الملل والنحل للشهرستاني 197. وانظر: اللمع للأشعري ص93-95. والإنصاف للباقلاني ص70-71. والإرشاد للجويني ص 208-210. وأصول الدين للبغدادي ص 133-137.
3 الكسب عند الأشعري:
قال الأشعري عن الكسب: (فكل من وقع منه الفعل بقدرة قديمة، فهو فاعل خالق، ومن وقع منه بقدرة محدثة فهو مكتسب. وهذا قول أهل الحق) . مقالات الإسلاميين 1539.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الكسب عند الأشعرية: "وهم وإن كانوا لا يثبتون لقدرة العبد أثرا في حصول المقدور، فإنهم يفرقون بين ما كان في محل القدرة فيجعلونه مقدورا للعبد، وما كان خارجا عن محل القدرة فلا يجعلونه مقدورا للعبد. وأكثر من نازعهم يقول: إن هذا كلام لا يعقل؛ فإنه إذا لم يثبت للقدرة أثر، لم يكن الفرق بين ما كان في محل القدرة، وبين ما كان في غير محل القدرة إلا فرقا في محل الحادث، من غير أن يكون للقدرة في ذلك تأثير. وتسمية هذا مقدورا دون هذا تحكم محض، وتفريق بين المتماثلين.
ولهذا قال بعض الناس: عجائب الكلام التي لا حقيقة لها ثلاثة: طفرة النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري.
وإذا قيل لهؤلاء: الكسب الذي أثبتموه لا تعقل حقيقته. فإذا قالوا: الكسب ما وجد في محل القدرة المحدثة مقارنا لها من غير أن يكون للقدرة تأثير فيه. قيل لهم: فلا فرق بين هذا الكسب، وبين سائر ما يحدث في غير محلها وغير مقارن لها؛ إذ اشتراك الشيئين في زمانهما ومحلهما لا يوجب كون أحدهما له قدرة على الآخر؛ كاشتراك العرضين الحادثين في محل واحد، في زمان واحد. بل قد يقال: ليس جعل الكسب قدرة والقدرة كسبا بأولى من العكس إذ لم يكن إلا مجرد المقارنة في الزمان والمحل". كتاب الصفدية 1148، 150-152. وانظر: المصدر نفسه 2331. ومنهاج السنة النبوية 313، 109. ودرء تعارض العقل والنقل 8320. وشرح الأصفهانية 1150، 2350. ومجموع الفتاوى 30139.

وانظر: أيضا: أصول الدين للبغدادي ص133-134. وشرح الجوهرة للبيجوري ص 104. والعقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة ص 757-758.

ولم يذكروا بين الكسب والفعل فرقا معقولا، بل حقيقة قولهم قول جهم: إن العبد لا قدرة له، ولا فعل، ولا كسب1.
والله عندهم فاعل فعل العبد، وفعله هو نفس مفعوله؛ فصار الرب عندهم فاعلا لكل ما يوجد من أفعال العباد. ويلزمهم أن يكون هو الفاعل للقبائح، وأن يتصف بها على قولهم إنه يوصف بالصفات الفعلية القائمة بغيره.

---

1 لاحظ الحاشية السابقة.

وقد تناقضوا في هذا الموضع1 [فجعلوه] 2 متكلما بكلام يقوم بغيره، وجعلوه عادلا ومحسنا بعدل وإحسان يقوم بغيره؛ كما قد بسط في غير هذا الموضع3.
وحينئذ فما بقي يمكنهم أن يفرقوا بين ممكن وممكن من جميع الأجناس؛ أي يقولوا: هذا يحسن من الرب فعله، وهذا ينزه عنه. بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن مقدور.
معنى الظلم عند الأشاعرة
والظلم عندهم هو فعل ما نهى المرء عنه، أو التصرف في ملك الغير4. وكلاهما ممتنع في حق الله. فأما أن

---

1 أي وصفه بالصفات الفعلية القائمة بغيره.
2 في ((خ)) : فلم يجعلوه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 انظر: كتاب الصفدية 1153-154. وشرح الأصفهانية 125-28. ومنهاج السنة النبوية 2107-120. ودرء تعارض العقل والنقل 5242-250.
4 انظر: التمهيد للباقلاني ص384-385. وأصول الدين للبغدادي ص131-133. وشرح المقاصد للتفتازاني 4274-281. وشرح العقائد العضدية لجلال الدواني 2186-189.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه الطائفة إنهم يقولون: (الظلم ليس بممكن الوجود، بل كل ممكن إذا قدر وجوده منه فإنه عدل. والظلم هو الممتنع؛ مثل الجمع بين الضدين، وكون الشيء موجودا معدوما؛ فإن الظلم إما التصرف في ملك الغير، وكل ما سواه ملكه؛ وإما مخالفة الآمر الذي تجب طاعته. وليس فوق الله تعالى آمر تجب عليه طاعته. وهؤلاء يقولون: مهما تصور وجوده، وقدر وجوده فهو عدل. وإذا قالوا كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، فهذا أمر أوهم. وهذا قول المجبرة؛ مثل جهم ومن اتبعه. وهو قول الأشعري ومن اتبعه، وأمثاله من أهل الكلام، وقول من وافقهم من الفقهاء، وأهل الحديث، والصوفية) . جامع الرسائل 1121-122.
قال الأشعري: "وهو المالك في خلقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة، لم يكن حيفا، ولو أدخلهم النار لم يكن جورا؛ إذ الظلم هوالتصرف فيما لا يملكه المتصرف، أو وضع الشيء في غير موضعه. وهو المالك المطلق فلا يتصور منه ظلم، ولا ينسب إليه جور". الملل والنحل 1100.

يكون هناك أمر ممكن مقدور، وهو منزه عنه، فهذا عندهم لا يجوز.
من أصول الأشاعرة
فلهذا جوزوا عليه كل ما يمكن، ولا ينزهونه عن فعل لكونه قبيحا، أو نقصا، أو مذموما، ونحو ذلك1. بل يعلم ما يقع وما لا يقع بالخبر؛ أي بخبر الرسول كما علم بخبره المأمور والمحظور، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، أو بالعادة مع أن العادة يجوز انتقاضها عندهم. لكن قالوا: قد يعلم بالضرورة عدم ما يجوز وقوعه، من غير فرق؛ لا في الوجود، ولا في العلم بين ما علموا انتفاءه، وما لم يعلموه؛ إذ كان أصل قولهم هو جواز التفريق بين المتماثلين بلا سبب. فالإرادة القديمة عندهم ترجح مثلا على مثل بلا سبب في خلق الرب وفي أمره. وكذلك عندهم قد يحدث في قلب العبد علما ضروريا بالفرق بين المتماثلين بلا سبب. فلهذا قالوا: إن الشرع لا يأمر وينهى لحكمة2.
ولم يعتمدوا على المناسبة، وقالوا: علل الشرع أمارات3؛ كما قالوا: إن أفعال العباد أمارة على السعادة والشقاء فقط4، من غير أن يكون

1 انظر: المواقف في علم الكلام للإيجي ص 323، 328، 330، 331.
2 المقصود بهم الأشاعرة. انظر: التمهيد للباقلاني ص 50-66. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 331-332.
3 انظر: المواقف للإيجي ص 314-315، 323.
4 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وملخص ذلك أن الله إذا أمر بأمر فإنه حسن بالاتفاق، وإذا نهى عن شيء فإنه قبيح بالاتفاق. لكن حسن الفعل وقبحه إما أن ينشأ من نفس الفعل، والأمر والنهي كاشفان؛ أو ينشأ من نفس تعلق الأمر والنهي به؛ أو من المجموع. فالأول هو قول المعتزلة. ولهذا لا يجوزون نسخ العبادة قبل دخول وقتها؛ لأنه يستلزم أن يكون الفعل الواحد حسنا قبيحا. وهذا قول أبي الحسين التميمي من أصحاب أحمد، وغيره من الفقهاء. والثاني قول الأشعرية ومن وافقهم من الظاهرية، وفقهاء الطوائف. وهؤلاء يجعلون علل الشرع مجرد أمارات، ولا يثبتون بين العلل والأفعال مناسبة. لكن هؤلاء الفقهاء متناقضون في هذا الباب". شرح الأصفهانية 2618. وانظر: الإنصاف للباقلاني ص 74-75. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 323.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن الأشعرية: "وقالوا: إن الطاعات والمعاصي مع الثواب والعقاب كذلك، ليس في الطاعة معنى يناسب الثواب، ولا في المعصية معنى يناسب العقاب، ولا كان في الأمر والنهي حكمة لأجلها أمر ونهى. ولا أراد بإرسال الرسل رحمة العباد ومصلحتهم، بل أراد أن ينعم طائفة، ويعذب طائفة لا لحكمة. والسبب هو جعل الأمر، والنهي، والطاعة، والمعصية علامة على ذلك، لا لسبب، ولا لحكمة. وأنه يجوز أن يأمر بكل شيء، حتى بالشرك، وتكذيب الرسل، والظلم، والفواحش، وينهى عن كل شيء، حتى التوحيد، والإيمان بالرسل، وطاعتهم". مجموع الفتاوى 8468.
ونحو هذا الكلام الذي حكاه شيخ الإسلام عن الأشعرية، ذكره البيجوري من الأشعرية في كتابه شرح جوهرة التوحيد، فقال: "وبالجملة: فهو سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، والكل بخلقه. فليست الطاعة مستلزمة للثواب، وليست المعصية مستلزمة للعقاب، وإنما هما أمارتان تدلان على الثواب لمن أطاع، والعقاب لمن عصى، حتى لو عكس دلالتهما بأن قال: من أطاعني عذبته، ومن عصاني أثبته، لكان ذلك منه حسنا". شرح الجوهرة ص 108.

في أحد الفعلين معنى يناسب الثواب أو العقاب1.
ومن أثبت المناسبة من متأخريهم؛ كأبي حامد2 ومن تبعه. قالوا: عرفنا بالاستقراء أن المأمور به تقترن به مصلحة العباد؛ وهو حصول ما ينفعهم، والمنهي عنه تقترن به المفسدة، فإذا وجد الأمر والنهي علم وجود

1 انظر: الكلام على المناسبة، وما يراد بها، وتفصيل شيخ الإسلام لها في مجموعة الرسائل والمسائل 4224-225. وانظر: الإنصاف للباقلاني ص 74-77.
2 الغزالي.

قرينه الذي علم بعادة الشرع من غير أن يكون الرب أمر به لتلك المصلحة، ولا نهى عنه لتلك المفسدة.
وجمهورهم وأئمتهم على أنه يمتنع أن يفعل لحكمة.
لكن الآمدي قال: إن ذلك جائز غير واجب؛ فلم يجعله واجبا، ولا ممتنعا1.

1 ولشيخ الإسلام رحمه الله كلام جميل مختصر في توضيح قول أهل السنة والجماعة في مسألة أفعال العباد، وإثبات ما لله في خلقه وأمره من الأسباب، والحكمة، نختم به هذا الفصل الذي أفاض فيه المؤلف رحمه الله في الحديث عن أقوال الفلاسفة والمتكلمين في هذه القضية.
يقول رحمه الله تعالى: "جمهور المسلمين يقولون بالحق الذي دل عليه المنقول والمعقول؛ فيقولون: إن أفعال العباد مخلوقة لله، مفعولة له، وهي فعل للعباد حقيقة لا مجازا. وهم يثبتون ما لله في خلقه وأمره من الأسباب، والحكم، وما جعله الله في الأجسام من القوى والطبائع في الحيوان وفي الجماد. لكنهم مع إثباتهم للأسباب والحكم لا يقولون بقول الطبائعية من الفلاسفة وغيرهم، بل يقولون: إن الله خالق كل شيء، وربه، ومليكه، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول ولا قوة إلا به. ويعلمون أن الأسباب هي مخلوقة لله بمشيئته وقدرته، ولا تزال مفتقرة إلى الله. لا يقولون إنها معلولة له، أو متولدة عنه؛ كما يقوله الفلاسفة، ولا أنها مستغنية عنه بعد الإحداث؛ كما يقوله من يقوله من أهل الكلام. بل كل ما سوى الله تعالى دائم الفقر

والاحتياج إليه، لا يحدث ولا يبقى إلا بمشيئته القديمة. فما كان بالأسباب، فالله خالقه، وخالق سببه جميعا. ويقولون مع هذا: إن الأسباب التي خلقها ليس فيها ما يستقل بالتأثير في شيء من الأشياء، بل لا بد له من أسباب أخر تعاونه وتشاركه، وهو مع ذلك له معارضات وموانع تعارضه وتدافعه؛ كما في الشعاع الحادث عن الشمس، والاحتراق الحادث عن النار، ونحو ذلك؛ فإنه لا بد مع الشمس من محل قابل لانعكاس الشعاع عليه. وهو مع ذلك يمتنع بحصول الحائل؛ كالسحاب، والسقف، وغير ذلك من الموانع، وبكل حائل".كتاب الصفدية 1154-155.

فصل عدل الله وحكمته وتعليل أفعاله

وهذا الأصل1 دخل في جميع أبواب الدين؛ أصوله، وفروعه؛ في

---

1 المقصود به عدل الله وحكمته والتعليل في أفعاله؛ كما مر في الفصل السابق.

وقد ألف شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الأصل رسائل قيمة؛ مثل رسالة في معنى كون الرب عادلا وفي تنزهه عن الظلم. وهي مما ألفه رحمه الله في محبسه الأخير بالقلعة بدمشق. (انظر جامع الرسائل 1119-142) . وكذلك رسالة في شرح حديث أبي ذر: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي"؛ ضمن مجموعة الرسائل المنيرية 2205-246. وانظر منهاج السنة النبوية 1133-146.

ومما قاله رحمه الله عن هذا الأصل: "وهذا الأصل؛ وهو عدل الرب، يتعلق بجميع أنواع العلم والدين؛ فإن جميع أفعال الرب ومخلوقاته داخلة في ذلك، وكذلك أقواله وشرائعه وكتبه المنزلة، وما يدخل في ذلك من مسائل المبدأ والمعاد، ومسائل النبوات، وآياتهم، والثواب والعقاب، ومسائل التعديل والتجوير، وغير ذلك. وهذه الأمور مما خاض فيه جميع الأمم". جامع الرسائل 1125.

وشيخ الإسلام رحمه الله يرد على المبتدعة في أصولهم التي بنوا عليها معتقداتهم، فلذلك ربط رحمه الله بين المعجزات وثبوت النبوة، مع مسائل العدل والحكمة.

وقد ذكر أحد أئمة الأشاعرة أن النبوات والمعجزات مبنية على أصول، ومرتبة على قواعد. وأصل هذه الأصول كما ذكر هو القول بالتعديل والتجوير.

يقول الجويني في الإرشاد ص 257 عن القول في التعديل والتجوير: (إن مضمون هذا الأصل العظيم، والخطب الجسيم تحصره مقدمتان، وثلاث مسائل:

إحدى المقدمتين في الرد على من قال بتحسين العقل وتقبيحه.

والأخرى: أنه لا واجب على الله تعالى يدل عليه العقل.

وأما المسائل الثلاث؛ فإحداها في بيان مذاهب أهل الملل في إيلام الله تعالى من يؤلمه من عباده وخليقته. وهذه المسألة تتشعب القول في التناسخ والأعراض. والمسألة الثانية في الصلاح والأصلح. والثالثة في اللطف ومعناه.

وإذا نجزت هذه الأصول افتتحنا بعده المعجزات، ورتبنا على ثبوت النبوات السمعيات) .

فالتعديل والتجوير هو أصل الأصول التي بنى عليها هؤلاء إثبات النبوة.

لذلك كان اهتمام شيخ الإسلام رحمه الله في الرد على أصحابها، ونقض ما عندهم من الباطل، وإظهار الحق وإعزازه بالدليل والبرهان.

خلق الرب لما يخلقه، ورزقه، وإعطائه، ومنعه، وسائر ما يفعله تبارك وتعالى، ودخل في أمره، ونهيه، وجميع ما يأمر به، وينهى عنه. ودخل في المعاد؛ فعندهم1 يجوز أن يعذب الله جميع أهل العدل والصلاح والدين، والأنبياء والمرسلين بالعذاب الأبدي، وأن ينعم جميع أهل الكذب والظلم والفواحش بالنعيم الأبدي. لكن بمجرد الخبر عرفنا أنه لا يفعل هذا2. ويجوز عندهم أن يعذب من لا له ذنب أصلا بالعذاب الأبدي3.

حكم أطفال المشركين

بل هذا واقع عند من يقول بأن أطفال الكفار يعذبون في النار مع آبائهم4؛ فإنهم كلهم يجوزون تعذيبهم؛ إذ كان عندهم يجوز تعذيب كل

---

1 المقصودِ بهم الأشاعرة. (انظر منهاج السنة النبوية 1135) .

2 قال الأشعري: "فلا يقبح منه أن يعذب المؤمنين، ويدخل الكافرين الجنان، وإنما نقول إنه لا يفعل ذلك لأنه أخبرنا أنه يعاقب الكافرين. وهو لا يجوز عليه الكذب في خبره".
ثم قال: "والدليل على أن كل ما فعله فله فعله: أنه المالك القاهر الذي ليس بمملوك، ولا فوقه ... فإن قال: فإنما يقبح الكذب لأنه قبحه؟ قيل له: أجل، ولو حسنه لكان حسنا، ولو أمر به لم يكن عليه اعتراض". اللمع ص 71.
3 انظر التمهيد للباقلاني ص 382-386.
4 مسألة هل أطفال المشركين يعذبون، أم لا، فيها اختلاف بين الفرق:
فقد ذهبت المعتزلة إلى أنه لا يجوز أن يعذب الله أطفال المشركين. وذهبت الجبرية والأشاعرة إلى جواز ذلك، وقالوا: لا يقبح ذلك من الله تعالى؛ لأنه مالك الرقاب، ويتصرف في ملكه كيف يشاء.
أما قول أهل السنة والجماعة، فيقول في بيانه شيخ الإسلام رحمه الله: "وأما ثبوت حكم الكفرة في الآخرة للأطفال، فكان أحمد يقف فيه؛ تارة يقف عن الجواب، وتارة يردهم إلى العلم؛ لقوله: "الله أعلم بما كانوا عاملين". وهذا أحسن جوابيه، كما نقل محمد بن الحكم عنه، وسأله عن أولاد المشركين، فقال: أذهب إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الله أعلم بما كانوا عاملين" ... ". رواه البخاري ومسلم في كتاب القدر.
ثم قال رحمه الله: "وهذا التفصيل يذهب الخصومات التي كره الخوض فيه لأجلها من كرهه؛ فإن من قطع لهم بالنار كلهم، جاءت نصوص تدفع قوله، ومن قطع لهم بالجنة كلهم، جاءت نصوص تدفع قوله. ثم إذا قيل هم مع آبائهم لزم تعذيب من لم يذنب، وانفتح باب الخوض في الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والقدر، والشرع، والمحبة، والحكمة، والرحمة. فلهذا كان أحمد يقول هو أصل كل خصومة. أما جواب النبي صلى الله عليه وسلم الذي أجاب به أحمد آخرا، وهو قوله: "الله أعلم بما كانوا عاملين": فإنه فصل الخطاب في هذا الباب. وهذا العلم يظهر حكمه في الآخرة. والله تعالى أعلم". درء تعارض العقل والنقل 8397، 402. وذكر ابن حجر في الفتح (3290-291) عشرة أقوال للعلماء في أطفال المشركين. وانظر: منهاج السنة النبوية 2306-309. والجواب الصحيح 2296-300. ومجموع الفتاوى 4277-281، 303، 24372. وطريق الهجرتين لابن القيم ص 677-689. وانظر أيضا: شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص 477-479. ورسائل العدل والتوحيد ص 222. وأصول الدين للبغدادي ص 256.

حي العذاب المؤبد بلا ذنب، ولا غرض، ولا حكمة1.
لكن: هل يقع هذا في أطفال المشركين؟ منهم من جزم بوقوعه؛ كالقاضي أبي يعلى ومن وافقه2. ومنهم من توقف لعدم الدليل السمعي

---

1 يقول شيخ الإسلام رحمه الله أيضا في موضع آخر: "وهؤلاء يجوزون أن يعذب الله العبد في الدنيا والآخرة بلا ذنب؛ كما يجوزون تعذيب أطفال الكفار ومجانينهم بلا ذنب. ثم من هؤلاء من يقطع بدخول أطفال الكفار النار، ومنهم من يجوزه ويتوقف فيه". منهاج السنة النبوية 2306.
2 انظر: درء تعارض العقل والنقل 8398. والجواب الصحيح 2296-297.

عنده، لا لمانع عقلي؛ كالقاضي أبي بكر1، ونحوه2. وليس عندهم من أفعال الله ما ينزهونه عنه، أو ما [تقتضي] 3 الحكمة وجوده، بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن، ويجوز أن لا يفعل شيئا من الخير4.
لكن إذا أخبر أنه يفعل شيئا، أو أنه لا يفعله، علم أنه واقع، أو غير واقع بالخبر. ويجوز عندهم أن يعذب من لا ذنب له، ومن هو أبر الناس وأعدلهم وأفضلهم عذابا مؤبدا لا يعذبه أحدا من العالمين. ويجوز أن ينعم شر الخلق من شياطين الإنس والجن نعيما في أعلى درجات الجنة، لا ينعم مثله [لمخلوق] 5، لكن لما أخبر بأن المؤمنين يدخلون الجنة، والكفار يدخلون النار، علم ما يقع6، مع أنه لو وقع ضده لم يكن بينهما فرق عندهم، ثم مع مجيء [الخبر] 7 فكثير منهم وافقه. أما في جنس الفساق مطلقا، [فيجوزون] 8 أن يدخل جميعهم الجنة، ويجوزون أن يدخل جميعهم النار، ويجوزون أن يدخل بعضهم؛ كما يقوله من يقوله [من واقفة] 9 الشيعة، والأشعرية؛

---

1 الباقلاني.

يقول الباقلاني: "فإن قال قائل: فهل يصح على قولكم هذا أن يؤلم الله سبحانه سائر النبيين، وينعم سائر الكفرة والعاصين من جهة العقل قبل ورود السمع؟ قيل له: أجل، له ذلك. ولو فعله لكان جائزا منه غير مستنكر من فعله". التمهيد ص 385.
2 كالجويني. انظر الإرشاد ص 273.
3 في ((خ)) : يقتضي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 انظر: التمهيد للباقلاني ص 382-386. والإرشاد للجويني ص 273.
5 في ((ط)) : المخلوق.
6 انظر: التمهيد للباقلاني ص 382-383.
7 في ((خ)) : الخير. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
8 في ((خ)) : يجوزون، وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
9 في ((م)) ، و ((ط)) : ممن وافق.

كالقاضي أبي بكر1؛ لأن القرآن عنده لم يدل على شيء، والأخبار أخبار آحاد [بزعمه] 2، فلا يحتج بها في ذلك.
وأما جمهور المنتسبين إلى السنة من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، وأبي حنيفة، وغيرهم: فيقطعون بأن الله يعذب بعض أهل الذنوب بالنار، ويعفو عن بعضهم3؛ كما قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} 4، فهذا فيه الإخبار بأنه يغفر5 ما دون الشرك، وأنه يغفره لمن يشاء، لا لكل أحد.
لكن: هل الجزاء، والثواب، والعقاب مبني على الموازنة بالحكمة والعدل؛ كما أخبر الله بوزن الأعمال6، أو يغفر ويعذب بلا سبب، ولا حكمة، ولا اعتبار الموازنة فيه؟

---

1 الباقلاني. انظر التمهيد له ص 385-386.
2 في ((خ)) : يزعمه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 انظر: جامع الرسائل 1123-124، 126.
4 سورة النساء، الآية، 48، 116.
5 في ((ط)) : يغفقر.
6 قال تعالى: {والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون} . [سورة الأعراف، الآيتان 8-9] .
وقال تعالى: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين} . [سورة الأنبياء، الآية 47] .
وقال تعالى: {فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية} . [سورة القارعة، الآيات 6-9] .
وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية 4302.
وللشيخ مرعي الحنبلي المقدسي رسالة مطبوعة باسم كتاب تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان.

لهؤلاء قولان: فمن جوز ذلك فإنه يجوز عندهم أن يعذب الله من هو أبر الناس وأكثرهم طاعات وحسنات على سيئة صغيرة عذابا أعظم من عذاب أفسق الفاسقين. ويجوز عندهم أن يغفر لأفسق الفاسقين من المسلمين وأعظمهم كبائر كل ذنب، ويدخله الجنة ابتداء، مع تعذيب ذلك في النار على صغيرة1.
ولهذا قال جمهور الناس2 [عن هؤلاء] 3: إنهم لا ينزهون الرب [عن] 4 السفه والظلم، بل يصفونه بالأفعال التي يوصف بها المجانين

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن هؤلاء المجبرة أنهم: "لايجعلون العدل قسيما لظلم ممكن لا يفعله، بل يقولون: الظلم ممتنع. ويجوزون تعذيب الأطفال، وغير الأطفال بلا ذنب أصلا، وأن يخلق خلقا يعذبهم بالنار أبدا، لا لحكمة أصلا، ويرى أحدهم أنه خلق فيه الذنوب وعذب بالنار لا لحكمة، ولا لرعاية عدل، فتفيض نفوسهم إذا وقعت منهم الذنوب فأصيبوا بعقوباتها بأقوال يكونون فيها خصماء لله تعالى". جامع الرسائل 1125.

2 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وأما المثبتون للقدر..... فهؤلاء تنازعوا في تفسير عدل الله وحكمته، والظلم الذي يجب تنزيهه عنه، وفي تعليل أفعاله وأحكامه، ونحو ذلك. فقالت طائفة: إن الظلم ممتنع منه غير مقدور، وهو محال لذاته؛ كالجمع بين النقيضين، وأن كل ممكن مقدور، فليس هو ظلما، وهؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم، وهؤلاء يقولون: إنه لو عذب المطيعين، ونعم العصاة، لم يكن ظالما. وقالوا: الظلم: التصرف فيما ليس له. والله تعالى له كل شيء. أو هو مخالفة الأمر، والله لا آمر له. وهذا قول كثير من أهل الكلام المثبتين للقدر..... وقالت طائفة: بل الظلم مقدور ممكن، والله تعالى منزه لا يفعله، لعدله. ولهذا مدح الله نفسه، حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئا. والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه، لا بترك الممتنع". منهاج السنة النبوية 1134-135.

وقالوا: "والظلم وضع الشيء في غير موضعه؛ فهو لا يضع العقوبة إلا في المحل الذي يستحقها، لا يضعها على محسن أبدا". المصدر نفسه 1139.

3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

4 في ((خ)) : على. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

والسفهاء؛ فإن المجنون والسفيه قد [يعطي] 1 مالا عظيما لمن ليس هو له بأهل. وقد يعاقب عقوبة عظيمة [لمن] 2 هو أهل للإكرام والإحسان.

تنازع الناس في معنى الظلم

والرب تعالى أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وخير الراحمين. والحكمة وضع الأشياء مواضعها، والظلم وضع الشيء في غير موضعه3.

ومن تدبر حكمته في مخلوقاته، ومشروعاته4 رأى ما يبهر العقول؛ فإنه

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يعطى.

2 في ((م)) ، و ((ط)) : من.

3 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تنازع الناس في معنى الظلم على ثلاثة أقوال.

القول الأول: قول المجبرة والأشعرية: "أنه هو التصرف في ملك الغير بغير إذنه، أو مخالفة الآمر الذي تجب طاعته. وكلاهما منتف في حق الله تعالى". جامع الرسائل 1127.

وانظر معنى الظلم عند الأشعري في: الملل والنحل 1101.

وقد نقلت هذا القول بتوسع من قول شيخ الإسلام رحمه الله في ص 560-561، 564-571 من هذا الكتاب. وانظر جامع الرسائل 1121.

الثاني: قول المعتزلة: "أنه عدل لا يظلم، لأنه لم يرد وجود شيء من الذنوب؛ لا الكفر، ولا الفسوق، ولا العصيان. بل العباد فعلوا ذلك بغير مشيئته؛ كما فعلوه عاصين لأمره. وهو لم يخلق شيئا من أفعال العباد؛ لا خيرا، ولا شرا، بل هم أحدثوا أفعالهم. فلما أحدثوا معاصيهم استحقوا العقوبة عليها؛ فعاقبهم بأفعالهم، لم يظلمهم". جامع الرسائل 1123.

الثالث: قول أهل السنة: "أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والعدل وضع كل شيء في موضعه. وهو سبحانه حكم عدل يضع الأشياء مواضعها، ولا يضع شيئا إلا في موضعه الذي يناسبه، وتقتضيه الحكمة والعدل، ولا يفرق بين متماثلين، ولا يسوي بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة؛ فيضعها موضعها، لما في ذلك من الحكمة والعدل". جامع الرسائل 1123-124. وانظر منهاج السنة 1134، 2304، 309، 312.

4 وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن الحكمة من بعض مخلوقات الله في الجواب الصحيح 6396.

وتكلم تلميذه الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله عن بعض هذه الحكمة في مخلوقات الله.

انظر مفتاح دارالسعادة 1188، 210، 256، 257.

وانظر الحكمة في شرع الله في كتاب ((حجة الله البالغة)) للشاه ولي الله الدهلوي 1152.

مثلا خلق العين، واللسان، ونحوهما من الأعضاء لمنفعة، وخلق الرجل، والظفر، ونحو ذلك لمنفعة، فلا تقتضي الحكمة أن يستعمل العين واللسان حيث يستعمل اليد والرجل والظفر، ولا أن يستعمل الرجل واليد حيث يستعمل العين واللسان. وهذا من حكمته موجود في أعضاء الإنسان، وسائر الحيوان، والنبات، وسائر المخلوقات. فكيف يجوز في حكمته، وعدله، ورحمته في

من هو دائما يفعل ما يرضيه من الطاعات، والعبادات، والحسنات، وقد نظر نظرة منهيا عنها، أن يعاقبه على هذه النظرة بما يعاقب به أفجر الفساق، [وأن يكون أفجر الفساق] 1 في أعلى عليين، وهو سبحانه يفعل ما يشاء، ويحكم ما [يريد] 2.
لكن لا يشاء إلا ما يناسب حكمته، ورحمته، وعدله، كما لا يشاء ويريد إلا ما علم أنه سيكون.
فلو قيل: هل يجوز أن يشاء ما علم أنه لا يكون؟ لم [يجز] 3 ذلك باتفاقهم4، لمناقضة علمه. والعلم يطابق المعلوم. فكيف يشاء ما يناقض حكمته، ورحمته، وعدله. وبسط هذه الأمور له مواضع متعددة5.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في هامش ((خ)) .
2 في ((ط)) : يريده.
3 في ((ط)) : يجر.
4 انظر: الإنصاف للباقلاني ص 75.
5 انظر: جامع الرسائل 1120-142. والمجموعة المنيرية 2205-246. ومنهاج السنة 1134-145. ومجموعة الرسائل والمسائل 4234-235، 283-346.

اضطراب الأشاعرة في النبوات
والمقصود أن هؤلاء1 لما احتاجوا إلى إثبات النبوات اضطربوا في صفة النبي، وما يجوز عليه، وفي الآيات التي بها يعلم صدقه؛ فجوزوا أن يرسل الله من يشاء بما يشاء، لا يشترطون في النبي إلا أن يعلم ما أرسل به2؛ لأن تبليغ الرسالة بدون العلم ممتنع. ومن جوز منهم تكليف ما لا يطاق مطلقا3، يلزمه جواز أن يأمره الله بتبليغ رسالة لا يعلم ما هي.

---

1 أي الأشاعرة.
2 المقصود بهم الأشاعرة.
وانظر كلام الباقلاني الذي سيأتي نقل شيخ الإسلام رحمه الله له قريبا ص 732.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن النبوة عند الأشاعرة: "فهؤلاء يجوزون بعثة كل مكلف، والنبوة عندهم مجرد إعلامه بما أوحاه إليه. والرسالة مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه. وليست النبوة عندهم صفة ثبوتية، ولا مستلزمة لصفة يختص بها، بل هي من الصفات الإضافية؛ كما يقولون مثل ذلك في الأحكام الشرعية". منهاج السنة 2414. وسيأتي نحو هذا الكلام في هذا الكتاب، ص 731.
3 يذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن إطلاق "القول بتكليف ما لا يطاق من البدع الحادثة في الإسلام؛ كإطلاق القول بأن العباد مجبورون على أفعالهم. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على إنكار ذلك، وذم من يطلقه، وإن قصد به الرد على القدرية الذين لا يقرون بأن الله خالق أفعال العباد، ولا بأنه شاء الكائنات. وقالوا: هذا رد بدعة ببدعة، وقابل الفاسد بالفاسد، والباطل بالباطل". درء تعارض العقل والنقل 165.
أما عن موقف السلف رحمهم الله من ذلك: فقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أنه "ليس في السلف والأئمة من أطلق القول بتكليف ما لا يطاق، كما أنه ليس فيهم من أطلق القول بالجبر.... ولهذا كان المقتصدون.... يفصلون في القول بتكليف ما لا يطاق، كما تقدم القول في تفصيل الجبر؛ فيقولون: تكليف ما لا يطاق لعجز العبد عنه لا يجوز، وأما ما يقال إنه لا يطاق للاشتغال بضده، فيجوز تكليفه". مجموع الفتاوى 8469.
وذهبت المعتزلة إلى أن تكليف ما لا يطاق غير ممكن. انظر: شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص 133، 396) .
وذهبت طائفة، منهم الرازي إلى جواز تكليف ما لا يطاق مطلقا.
وانظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله في هذه المسألة، وذكره رحمه الله لمن منعها، أو أجازها، أو فصل فيها القول في: مجموع الفتاوى 8294-302، 437-440، 469-474. ودرء تعارض العقل والنقل 160-65.

القول بتكليف ما لا يطاق.
وجوزوا من جهة العقل ما ذكره القاضي أبو بكر: أن يكون الرسول فاعلا للكبائر1، إلا أنه لا بد أن يكون عالما بمرسله. لكن ما علم بالخبر أن الرسول لا يتصف به، علم من جهة الخبر فقط، لا لأن الله منزه عن

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن القاضي أبي بكر وغيره إنه يقول: "إن العقل لا يوجب عصمة النبي إلا في التبليغ خاصة؛ فإن هذا هو مدلول المعجزة. وما سوى ذلك إن دل السمع عليه، وإلا لم تجب عصمته منه.
وقال محققوا هؤلاء؛ كأبي المعالي وغيره: إنه ليس في السمع قاطع يوجب العصمة. والظواهر تدل على وقوع الذنوب منهم. وكذلك كالقاضي أبي بكر إنما يثبت ما يثبته من العصمة في غير التبليغ إذا كان من موارد الإجماع؛ لأن الإجماع حجة. وما سوى ذلك فيقول لم يدل عليه عقل ولا سمع. وإذا احتج المعتزلة وموافقوهم من الشيعة عليهم بأن هذا يوجب التنفير ونحو ذلك، فيجب من حكمة الله منعهم منه؛ قالوا: هذا مبني على مسألة التحسين والتقبيح العقليين. قالوا: لا يجب على الله شيء، ويحسن منه كل شيء، وإنما ننفي ما ننفيه بالخبر السمعي، ونوجب وقوع ما يقع بالخبر السمعي أيضا؛ كما أوجبنا ثواب المطيعين، وعقوبة الكافرين؛ لإخباره أنه يفعل ذلك، ونفينا أن يغفر لمشرك؛ لإخباره أنه لا يفعل ذلك، ونحو ذلك". منهاج السنة 2414-415.
وانظر: الإرشاد للجويني ص 356-357 فصل في عصمة الأنبياء. وأصول الدين للبغدادي ص 167-169 فصل عن عصمة الأنبياء عليهم السلام. والمواقف للإيجي ص 358-359. وشرح المقاصد للتفازاني 550-51.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضا: "وطوائف أهل الكلام الذين يجوزون بعثة كل مكلف؛ من الجهمية، والأشعرية، ومن وافقهم........ متفقون أيضا على أن الأنبياء أفضل الخلق، وأن النبي لا يكون فاجرا. لكن يقولون: هذا لم يعلم بالعقل، بل بالسمع؛ بناء على ما تقدم من أصلهم من أن الله يجوز أن يفعل كل ممكن". منهاج السنة النبوية 2419.

إرسال ظالم، أو مرتكب للفواحش، أو مكاس، أو مخنث، أو غير ذلك؛ فإنه لا يعلم نفي شيء من ذلك بالعقل، لكن بالخبر.
وهم في السمعيات عمدتهم الإجماع1.
عمدة الأشاعرة في السمعيات
وأما الاحتجاج بالكتاب والسنة، فأكثر ما يذكرونه تبعا للعقل أو الإجماع. والعقل والإجماع مقدمان عندهم على الكتاب والسنة2.

لم يعتمد الباقلاني في تنزيه الأنبياء على دليل عقلي ولا سمعي
فلم يعتمد القاضي أبو بكر3 وأمثاله في تنزيه الأنبياء [لا] 4 على دليل عقلي، ولا سمعي من الكتاب والسنة؛ فإن العقل عنده لا يمنع أن يرسل الله من شاء؛ إذ كان يجوز عنده على الله فعل كل ما يقدر عليه. وإنما اعتمد على الإجماع؛ فما أجمع المسلمون عليه أنه لا يكون في النبي نزه عنه، ثم ذكر ما ظنه إجماعا؛ كعاداته، وعادات أمثاله في نقل إجماعات5 لا يمكن

---

1 الإجماع في اللغة: العزم والاتفاق. وفي الاصطلاح: اتفاق المجتهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في عصر على أمر ديني". التعريفات للجرجاني ص 15.
وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن "معنى الإجماع: أن يجتمع علماء المسلمين على حكم من الأحكام. وإذا ثبت إجماع الأمة على حكم من الأحكام، لم يكن لأحد أن يخرج عن إجماعهم؛ فإن الأمة لا تجتمع على ضلالة. ولكن كثير من المسائل يظن بعض الناس فيها إجماعا، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون القول الآخر أرجح في الكتاب والسنة". مجموع الفتاوى 2010.
وانظر رد شيخ الإسلام رحمه الله على الأشاعرة، وادعائهم الإجماع في درء تعارض العقل والنقل 895-96.
2 وانظر على سبيل المثال رسالة إلى أهل الثغر للأشعري؛ فإنه ذكر فيها واحدا وخمسين إجماعا، مع أن جلها، أو أكثرها دل عليه الكتاب والسنة.
3 الباقلاني.
4 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
5 والأمثلة كثيرة في ذلك؛ سيما في كتاب البيان للباقلاني، والإرشاد للجويني؛ انظر مثلا قوله عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر أن دليله الإجماع (في الإرشاد ص 368) ، وغير ذلك.
يقول الباقلاني: "ويجب في الجملة أن لا نستثني في السحر شيئا لا يفعل عنده إلا ما ورد الإجماع والتوقيف على أنه لا يكون بضرب من السحر، وما يفعل عنده ونحو ما ذكرناه، ونحو فلق البحر، وإخراج اليد بيضاء، والآيات التسع، وإخراج ناقة من صخرة، وأمثال هذا مما قد أجمعت الأمة ووقفت على أنه لا يكون عند سحر ساحر". البيان للباقلاني ص 92.

وقال أيضا عن الملائكة: "ولا يمتنع عندنا أن يدعي منهم مدع الربوبية من جهة العقل، لولا الإجماع على منع ذلك، ووصف الباري سبحانه لهم بالنهاية في الطاعة والمعرفة ... فقد ورد الإجماع واستقر بأن ذلك لا يكون منهم، ولا ما دونه من المعاصي". البيان ص 103.
وقال الجويني: "واتفق الفقهاء على وجود السحر، واختلفوا في حكمه، وهم أهل الحل والعقد وبهم ينعقد الإجماع ... ثم اعلموا أن السحر لا يظهر إلا على فاسق، والكرامة لا تظهر على فاسق. وليس ذلك من مقتضى العقل، ولكنه متلقى من إجماع الأمة". الإرشاد للجويني ص 323. وانظر المصدر نفسه ص 332.
وقال الجويني أيضا: "إنه ما من أمر يخرق العوائد، إلا وهو مقدور للرب تعالى ابتداء، ولا يمتنع وقوع شيء لتقبيح عقل". الإرشاد ص 319.
وقال الإمام القرطبي: "أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد، والقمل، والضفادع، وفلق البحر، وقلب العصا، وإحياء الموتى،.... وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام. فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: وإنما منعنا ذلك بالإجماع، ولولاه لأجزناه". الجامع لأحكام القرآن 247.

نقلها عن واحد من الصحابة، ولا ثلاثة من التابعين، ولا أربعة من الفقهاء المشهورين؛ كدعواه الإجماع على أن الصلاة في الدار المغصوبة مجزئة1، مع قوله أن العقل يحيل أن يكون مأمورا به؛ فيدعي الإجماع على براءة المأمور من فعل ما أمر به، لكونه فعل ما نهي عنه.

---

1 انظر: الإرشاد للجويني ص.

ولأهل الكلام والرأي من دعوى [الإجماعات] 1 التي ليست صحيحة، بل قد يكون فيها نزاع معروف، وقد يكون إجماع السلف على خلاف ما ادعوا فيه الإجماع ما يطول ذكره هنا.
وقد ذكرنا قطعة من الإجماعات الفروعية التي حكاها طائفة من أعيان العلماء العالمين بالاختلاف2، مع أنها منتقضة، وفيها نزاع ثابت لم يعرفوه. وقد يكون غيرهم حكى الإجماع على نقيض قولهم. وربما كان من السلف؛ كقول الشافعي: ما أعلم أحدا قبل شهادة العبد3.
وقبله من الصحابة: أنس بن مالك؛ يقول: ما أعلم أحدا رد شهادة العبد4.
وكدعوى ابن حزم الإجماع [على إبطال] 5 القياس6.
وأكثر الأصوليين يذكرون الإجماع على إثبات القياس.
وبسط هذا له موضع آخر7.

---

1 في ((خ)) : الإجمات. وهو تصحيف. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ولشيخ الإسلام رحمه الله تعليق على مراتب الإجماع لابن حزم، باسم نقد مراتب الإجماع. نشر وتوزيع دار الباز بمكة المكرمة.
3 هذه العبارة عن الشافعي رحمه الله لم أجدها. ولكنه رحمه الله ذكر في كتاب الأم عدم قبول شهادة العبد. انظر: الأم للشافعي 743 طبعة الشعب. وانظر: الحاوي الكبير للماوردي 17213-214. والمجموع شرح المهذب للنووي 2321-24) .
4 انظر: المغني لابن قدامه 14185.
5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
6 انظر كلام ابن حزم رحمه الله عن إبطال القياس في كتابه: الإحكام في أصول الأحكام 71208-1209، ضمن الأجزاء من 5 إلى 8.
7 انظر: مجموع الفتاوى؛ الجزء التاسع عشر، والجزء العشرين. وكتاب أصول الفقه عند ابن تيمية رحمه الله إعداد الدكتور صالح المنصور. ومختارات شيخ الإسلام للحام.

فصل طريقة الأشاعرة في إثبات المعجزات

ولما أرادوا1 إثبات معجزات الأنبياء عليهم السلام، وأن الله سبحانه لا يظهرها على يد كاذب، مع تجويزهم عليه فعل كل شيء2، [فتقوا فتقا] 3، فقالوا: لو جاز ذلك، لزم أن لا يقدر على تصديق من ادعى النبوة. وما لزم منه نفي القدرة كان ممتنعا. فهذا هو المشهور عن الأشعري، وعليه اعتمد القاضي أبو بكر، [وابن فورك] 4، والقاضي أبو يعلى، [وغيرهم] 56.

---

1 أي الأشاعرة. وانظر: الإرشاد للجويني؛ فقد ذكر أن المعتزلة "قالوا: إذا جوزتم أن يضل الرب عباده، ويغويهم، ويرديهم، فما يؤمنكم من إظهار المعجزات على أيدي الكذابين". الإرشاد للجويني ص 326.
2 انظر: المواقف في علم الكلام للإيجي ص 331. وانظر: شرح الأصفهانية لشيخ الإسلام 2616-624.
3 رسمت في ((خ)) : فبقوا مما. وفي ((م)) ، و ((ط)) : فعوا معا.
وقد ذكر شيخ الإسلام كلمة مماثلة في موضع آخر من هذا الكتاب ص 488، هي: فتقوا فتقا. فترجح لدي أنها المرادة، والله أعلم.
4 ما بين المعقوفتين ملحق في هامش ((خ)) .
5 في ((خ)) : (وغيرهم وغيرهم) مكررة.
6 فعندهم أن الخوارق لا تظهر على يد مدعي النبوة إذا كان كاذبا، حتى يتميز المتنبي من غير النبي. أما إذا لم يدع النبوة، فلا مانع من ظهور الخوارق.
انظر: البيان للباقلاني ص 48، 94، 95، 105. والإرشاد للجويني ص 319، 326، 327. ونهاية الإقدام للشهرستاني ص 434. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص241-242. وتفسير الرازي 3214-215. وشرح المقاصد للتفتازاني 518. وانظر من كتب ابن تيمية: الجواب الصحيح 6394، 398. ودرء تعارض العقل والنقل 940.

وهو مبني على مقدمات.:
أحدها: أن النبوة لا تثبت إلا بما ذكروه من المعجزات1، وأن الرب لا يقدر على إعلام الخلق بأن هذا نبي إلا بهذا الطريق، وأنه لا يجوز أن يعلموا ذلك ضرورة، وأن إعلام الخلق بأن هذا نبي بهذا الطريق ممكن.
فلو قيل لهم: لا نسلم أن هذا ممكن على قولكم، فإنكم إذا جوزتم عليه فعل كل شيء، وإرادة كل شيء، لم يكن فرق بين أن يظهرها على يد صادق، أو كاذب، ولم يكن إرسال رسول [يصدقه] 2 بالمعجزات ممكنا على أصلكم، ولم يكن لكم حجة على جواز إرسال الرسول وتصديقه بالمعجزات؛ إذ كان لا طريق عندهم إلا خلق المعجز. وهذا إنما يكون دليلا إذا علم أنه إنما خلقه لتصديق الرسول. وأنتم عندكم لا يفعل شيئا لشيء، ويجوز عليه فعل كل شيء.3.

---

1 انظر: كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر للباقلاني ص 37-38. والإنصاف له ص 93. والإرشاد للجويني ص 331. وأعلام النبوة للماوردي ص 62. وشرح المقاصد للتفتازاني 519؛ فقد ذكروا أن الدلالة على ثبوت النبوة لا تكون إلا بالمعجزة الخارقة للعادة فقط.
وانظر رد شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه المقولة في: شرح الأصفهانية 2471، 491. والجواب الصحيح 6504. ودرء تعارض العقل والنقل 940.
2 في ((خ)) : بصدقه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 أي أنكم أيها الأشاعرة عندكم أن الله لا يفعل لحكمة. فكيف يستقيم مع أصلكم، أن يخلق الله المعجزة لتصديق الرسول؟ أليس هذا فعلا لحكمة؟!.
وانظر: الجواب الصحيح 6393-400. وشرح الأصفهانية 2616.

وسلك طائفة منهم طريقا آخر؛ وهي طريقة أبي المعالي1، وأتباعه؛ وهو أن العلم بتصديقه لمن أظهر على يديه المعجز علم ضروري.
وضربوا له مثلا بالملك2.
وهذا صحيح إذا منعت أصولهم؛ فإن هذه تعلم إذا كان المعلم بصدق رسوله ممن يفعل شيئا لحكمة. فأما من لا يفعل شيئا لشيء، فكيف يعلم أنه خلق هذه المعجزة لتدل على صدقه لا لشيء آخر؟ ولم لا يجوز أن يخلقها لا لشيء على أصلهم3.
وقالوا أيضا ما ذكره الأشعري: المعجز: علم الصدق، ودليله؛ فيستحيل وجوده بدون الصدق، فيمتنع وجوده على يد الكاذب4.

1 الجويني.
2 انظر: الإرشاد للجويني ص 313، 325-330. ولمع الاعتقاد له ص 71. وشرح الأصول الخمسة لعبد الجبار المعتزلي ص 571. والمواقف للإيجي ص 341. وشرح المقاصد للتفتازاني 514. وتفسير القرطبي 151.
وانظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله على هذا المثل، وتعليقه عليه في: شرح الأصفهانية 2623-624. والجواب الصحيح 6397-399. ودرء تعارض العقل والنقل 944.
3 وشيخ الإسلام رحمه الله يبين أن هذا من تناقضات أبي المعالي الجويني؛ حيث إنه أثبت أن المعجزة معلومة بالاضطرار، وضرب مثال الملك الذي يفعل لحكمة.
وأبو المعالي ممن ينكر الحكمة في أفعال الله، فلا يستقيم له هذا المثال؛ لأنه مناقض لأصولهم التي أصلوها.
ولذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله: "لكن يقال لهم: الملك يفعل فعلا لمقصود، فأمكن أن يقال إنه قام ليصدق رسوله. وأنتم عندكم أن الله لا يفعل شيئا لشيء، فلم يبق المثل مطابقا. ولهذا صاروا مضطربين في هذا الموضع". الجواب الصحيح 6397.
4 انظر: رسالة إلى أهل الثغر للأشعري ص 141، 183-184.
وانظر كذلك: كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر للباقلاني ص 37-38.
وقال الجويني: "وقد قال شيخنا رحمه الله: المعجزة فعل لله تعالى، يقصد بمثله التصديق". الإرشاد له ص 309، 327. وانظر: شرح المقاصد 512. وأصول الدين للبغدادي ص 178.
وانظر كلام شيخ الإسلام عن هذا القول في: الجواب الصحيح 6399.

وهذا كلام صحيح، لكن كونه: علم الصدق، مناقض لأصولهم؛ فإنه إنما يكون علم الصادق إذا كان الرب منزها عن أن يفعله على يد الكاذب، أو علم بالاضطرار أنه إنما فعله لتصديق الصادق، أو أنه لا يفعله على يد الكاذب.
وإذا علم بالاضطرار تنزهه عن بعض الأفعال بطل أصلهم1.

---

1 وكذلك يوضح شيخ الإسلام رحمه الله تناقضهم في قولهم: إن المعجزة دليل على صدق النبي، ولا يمكن أن يخلقها الله على يد كاذب؛ لأن من أصولهم أن الله لا يقبح منه شيء؛ فكل فعل ممكن لا ينزه عنه.
انظر مذهبهم في ذلك في: البيان للباقلاني ص 47-48، 91، 94، 96. والتمهيد له ص 385. والإنصاف له ص 62، 67. والإرشاد للجويني ص 238، 273. وأصول الدين للبغدادي ص 170، 174. وانظر أيضا منهاج السنة النبوية لابن تيمية 2419.
وهذا القول الله لا يقبح منه شيء من أصول الأشاعرة:
يقول الجويني: "إنه ما من أمر يخرق العوائد إلا وهو مقدور للرب تعالى ابتداء، ولا يمتنع وقوع شيء لتقبيح عقل". الإرشاد للجويني ص 319.
ويقول أيضا: "ولا يمتنع عقلا أن يفعل الرب تعالى عند ارتياد الساحر ما سيستأثر بالاقتدار عليه؛ فإن كل ما هو مقدور للعبد، فهو واقع بقدرة الله تعالى". الإرشاد ص 322.
ويقول المازري: "ومذهب الأشعري أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك يقصد خوارق السحرة، وهو الصحيح عقلا لأنه لا فاعل إلا الله". نقل عنه النووي في شرحه على صحيح مسلم 1475.
ويقول القرطبي: "قال علماؤنا: وينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات مما ليس في مقدور البشر ... ولا يكون الساحر مستقلا به، وإنما يخلق الشبع عند الأكل، والري عند شرب الماء..". الجامع لأحكام القرآن 246-47.
ويظهر تناقض الأشاعرة جليا في دعواهم أن جنس المعجز يقع على يد الكاذب، وأنه يمتنع وقوعه على يديه إذا ادعى النبوة.
انظر: الإرشاد للجويني ص 322، 328. وشرح المقاصد للتفتازاني 518.

فصل تعريف المعجزة عند الأشاعرة
والمعتزلة قبلهم1 ظنوا أن مجرد كون الفعل [خارقا] 2 للعادة، هو الآية على صدق الرسول، فلا يجوز ظهور خارق إلا لنبي.
والتزموا طردا لهذا: إنكار أن يكون للسحر تأثير خارج عن العادة؛ مثل أن يموت ويمرض بلا مباشرة شيء. وأنكروا الكهانة، وأن تكون الجن تخبر ببعض المغيبات، وأنكروا كرامات الأولياء3.

1 أي قبل الأشاعرة.
2 في ((ط)) : خلافا.
3 وذلك لأن من مذهبهم عدم تجويز وقوع الخوارق على يد غير الأنبياء.
يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي: "إن العادة لا تخرق إلا عند إرسال الرسل، ولا تخرق لغير هذا الوجه؛ لأن خرقها لغير هذا الوجه يكون بمنزلة العبث". المغني في أبواب التوحيد والعدل189/15. وانظر: المصدر نفسه241/15. وشرح الأصول الخمسة ص 568-572. ورسائل العدل والتوحيد ص 237.
وقال عبد القاهر البغدادي عنهم: "وأنكرت القدرية كرامات الأولياء؛ لأنهم لم يجدوا في أهل بدعتهم ذا كرامة". أصول الدين ص 175.
وانظر أول هذا الكتاب ((النبوات)) ص 148، وما سيأتي لاحقا ص 1260-1261؛ إذ ذكر المؤلف رحمه الله أن الذين أنكروا الكرامات هم المعتزلة، وابن حزم. انظر: المحلى 36/1، وأبو إسحاق الاسفراييني، وأبو محمد بن زيد. وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ص 148-151. وانظر: شرح الأصفهانية 609/2 وقد أورد السبكي شبه المعتزلة في نفي الكرامات، ورد عليها. انظر: طبقات الشافعية الكبرى 334/2.

فأتى هؤلاء1، فأثبتوا ما أثبته الفقهاء، وأهل الحديث من السحر، والكهانة، والكرامات.
تعريف المعجزة عند الأشاعرة
لكن: قيل لهم: فميزوا بين هذا، وبين المعجزات؟. فقالوا: لا فرق في نفس الجنس. وليس في جنس مقدورات الرب ما يختص بالأنبياء. لكن جنس خرق العادة واحد، فهذا إذا اقترن بدعوى النبوة، وسلم عن المعارضة عند تحدي الرسول بالمثل، فهو دليل2.
فهي عندهم لم تدل؛ [لكونها] 3 في نفسها وجنسها دليلا4. بل إذا

1 الأشاعرة.
2 انظر: البيان للباقلاني ص 94-95، 96. والإرشاد للجويني ص 319، 328. وأصول الدين للبغدادي ص 174، 175. والمواقف للإيجي ص 370. وشرح المقاصد للتفتازاني 11/5-12.
وانظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله، ورده عليهم في الجواب الصحيح 400/6، 500. وفي هذا الكتاب النبوات ص 1301-1302.
3 في ((ط)) : لكونهم.
4 قال الباقلاني في البيان ص48: "إن المعجز ليس بمعجز لجنسه ونفسه، ولا لحدوثها، وإنما يصير معجزا للوجوه التي ذكرناها، ومنها التحدي، والاحتجاج) .

استدل بها المدعي للنبوة كانت دليلا1، [وإلا2 لم تكن دليلا] 3. ومن شرط الدليل سلامته عن المعارضة؛ وهي عندهم غاية الفرق. فإذا قال المدعي للنبوة: ائتوا بمثل هذه الآية، فعجزوا؛ كان هذا هو المعجز المختص بالنبي، وإلا فيجوز عندهم أن تكون معجزات الرسول من جنس ما للسحرة والكهان4 من الخوارق، إذا استدل بها الرسول5.
فالحجة عنده: مجموع الدعوى والخارق، لا الخارق وحده. والاعتبار بالسلامة عن المعارض6.
بل قد لا يشترطون أن يكون خارقا للعادة، لكن يشترطون أن لا يعارض. وعجز الناس عن المعارضة مع أنه معتاد [لا] 7 خارق للعادة. فالاعتبار عندهم بشيئين: باقترانه بالدعوى، وتحديه لمن دعاهم أن يأتوا [بمثله] 8، فلا يقدرون9.

1 قال الجويني في الإرشاد ص 319: "فإن المعجزة لا تدل بعينها، وإنما لتعلقها بدعوى النبي الرسالة) .
2 في ((ط)) : وإلى.
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

4 قال الجويني في الإرشاد ص 328: "جنس المعجزة يقع من غير دعوى، وإنما الممتنع وقوعه على حسب دعوى الكاذب". وانظر: المصدر نفسه ص 322. والبيان للباقلاني ص 94، 98.
5 تقدم لشيخ الإسلام رحمه الله في أول هذا الكتاب كلام أوضح من هذا الكلام. راجع ص 152-155. وانظر كلامه أيضا عن الموضوع نفسه في الجواب الصحيح 400/6.
6 انظر: الإرشاد للجويني ص 312.
7 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) . وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
8 في ((خ)) : بمثلثه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
9 لاحظ قول السبكي في طبقات الشافعية الكبرى 316/2، 337. وانظر: البيان للباقلاني ص 16-17، 19، 94. والإرشاد للجويني ص 309، 312-313.

قالوا: وخوارق الأنبياء يظهر مثلها على يد الساحر، والكاهن، والصالح، ولا يدل على النبوة؛ لأنه لم يدعها. قالوا: ولو ادعى النبوة أحد من أهل هذه الخوارق، مع كذبه، لم يكن بد من أن الله يعجزه عنها؛ فلا يخلقها على يده، أو يقيض له من يعارضه، فتبطل حجته1.
مناقشة شيخ الإسلام للأشاعرة في تعريف المعجزة
وإذا قيل لهم: لم قلتم: إن الله لا بد أن يفعل هذا [أو] 2 هذا؛ وعندكم يجوز عليه كل شيء؟ ولا يجب عليه فعل شيء؟ ولا يجب منه فعل شيء؟
قالوا: لأنه لو لم يمنعه من ذلك، أو يعارضه بآخر، [لكان] 3 قد أتى بمثل ما يأتي به النبي الصادق؛ فتبطل دلالة آيات الأنبياء4.

فإذا قيل لهم: وعلى أصلكم يجوز أنه [يبطل] 5 دلالتها، وعندكم يجوز عليه فعل كل شيء؟ أجابوا بالوجهين المتقدمين: إما لزوم أنه ليس بقادر، أو أن الدلالة [معلومة] 6 بالاضطرار، وقد عرف ضعفهما.

---

1 انظر: البيان للباقلاني ص 94-95، 100.
وقد توسع شيخ الإسلام رحمه الله في هذه القضية، وناقشها في أول هذا الكتاب. راجع ص 267-271.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : و.
3 في ((خ)) : لكن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 انظر: البيان للباقلاني ص 98، 105-106. والإرشاد للجويني ص 326-327. وأصول الدين للبغدادي ص 173. وشرح المقاصد للتفتازاني 182/5. وأعلام النبوة للماوردي ص 62.
5 في ((خ)) : تبطل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

ثم هنا يلزمهم شيء آخر؛ وهو أنه: لم قلتم أن المعجز الذي يدل به على صدق الأنبياء، ما ذكرتموه؛ من مجرد كونه خارقا مع الدعوى وعدم المعارضة1؛ فإن هذا يقال: إنه باطل من وجوه:
أحدها: أنه إذا كان ما يأتي به النبي يأتي به الساحر والكاهن، لكان أولئك2 يعارضون، وهذا3 لا يعارض؛ فالاعتبار إذن بعدم المعارضة. فقولوا: كل من ادعى النبوة، [وقال] 4: معجزتي أن لا يدعيها غيري، فهو صادق. أو: لا يقدر غيري على دعواها، فهو صادق، أو: أفعل أمرا معتادا؛ من الأكل، والشرب، واللباس، ومعجزتي: أن لا يفعله غيري، أو: لا يقدر غيري على فعله، فهو صادق.
فالتزموا هذا، وقالوا: المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد5. وعلى هذا: فلو قال الرسول: [معجزتي] 6 [أن] 7 أركب الحمار، أو الفرس، أو آكل هذا الطعام، أو ألبس هذا الثوب، أو أعدو8 إلى ذلك المكان، وأمثال ذلك. وغيره لا يقدر على ذلك؛ كان هذا آية [دعواه] 9.

---

1 انظر قولهم في: الإرشاد ص 312-313. وفي شرح المقاصد 11/5؛ عند تعريف المعجزة.

2 يعني السحرة، والكهنة.
3 النبي.
4 في ((خ)) : وقالوا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 انظر: البيان للباقلاني ص 16-17، 19-20. والإرشاد للجويني ص 308-309.
6 في ((خ)) : معجزة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 في ((م)) ، و ((ط)) : أني.
8 في ((خ)) أعدوا بزيادة الألف.
9 في ((خ)) : ادعوه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وهذا لا ضابط له؛ فإن ما يعجز عنه قوم دون قوم لا ينضبط. ولكن هذا يفسد قول من فسرها بخرق العادة1؛ فإن العادات تختلف.
وقد ذكروا2 هذا، وقالوا: المعجزة عند كل قوم ما كان خرقا لعادتهم3. وقالوا: يشترط أن تكون [خارقة] 4 لعادة من دعاهم، وإن كان معتادا لغيرهم. [وقالوا: إذا] 5 كان المدعي كذابا؛ فإن الله [يقيض] 6 له من يعارضه من أهل تلك الصناعة، أو يمنعه من القدرة عليها7.
وهذا وجه ثان يدل على فساد ما أصلوه8؛ هم، والمعتزلة9.

---

1 وهم الأشاعرة. انظر من كتبهم: الإرشاد للجويني ص 309. وأصول الدين لعبد القاهر البغدادي ص 170. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 339.
2 يقصد المعتزلة والأشاعرة.
3 انظر: البيان للباقلاني ص45. والإرشاد للجويني ص309. وأصول الدين للبغدادي ص 170. والمواقف في علم الكلام للإيجي ص 339. وشرح الأصول الخمسة ص 571.
4 في ((خ)) رسمت على شكل: خانقة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 ما بين المعقوفتين ملحق في هامش ((خ)) .
6 في ((خ)) : يقتض. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 انظر: البيان للباقلاني ص 94-95، 105. وشرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص 570-572.
8 يقصد الأشاعرة.
9 يوضح رحمه الله أن كلا من الأشاعرة والمعتزلة أصلوا أصلا في إثبات النبوة؛ وهو المعجزة؛ فقالوا: "إن النبوة لا تثبت إلا بالمعجزة. ثم إن المعتزلة التزموا لأجل ذلك نفي الكرامات، وحقيقة السحر والكهانة لأجل أن لا يحصل التباس بينها وبين المعجزات. والأشاعرة التزموا لأجل ذلك أنه لا فرق بين المعجزة والكرامة والسحر إلا دعوى النبوة وعدم المعارضة.

المعجزة عند الأشاعرة دعوى النبوة وعدم المعارضة وليست الآية بجنسها معجزة
الوجه الثالث: أن المعارضة بالمثل: أن يأتي بحجة مثل حجة النبي. وحجته عندهم: مجموع دعوى النبوة، والإثبات بالخارق.
فيلزم على هذا أن تكون المعارضة بأن يدعي غيره1 النبوة، ويأتي بالخارق.
وعلى هذا فليست معارضة الرسول بأن يأتوا بالقرآن، أو عشر سور، أو سورة. [بل] 2 أن يدعي أحدهم النبوة، ويفعل ذلك3.
وهذا خلاف العقل والنقل. ولو قال الرسول لقريش: لا يقدر أحد منكم أن يدعي النبوة، ويأتي بمثل القرآن وهذا هو الآية. وإلا فمجرد تلاوة القرآن ليس آية. بل قد يقرأه المتعلم له، فلا تكون آية؛ لأنه لم يدع النبوة. ولو ادعاها، لكان الله [ينسيه] 4 إياه، أو يقيض له من يعارضه5؛ كما ذكرتم6 لكانت قريش، وسائر [العقلاء] 7 يعلمون أن هذا باطل.
الكاذب لابد أن يتناقض
الرابع: أنه إذا كان اعتمادكم على عدم المعارضة، فقولوا ما قاله غيركم؛ وهو: أن آية سلامة ما يقوله من التناقض وأن كل من ادعى النبوة، وكان كاذبا، فلا بد أن يتناقض، أو يقيض الله له من يقول مثل ما قال. وأما السلامة من التناقض من غير دعوى النبوة فليست دليلا. فهذا خير من قولكم؛ فإنه قد علم أن كل ما جاء من عند غير الله، فإنه لا بد أن يختلف

---

1 في ((ط)) : غيرة.
2 في ((ط)) : مثل.
3 يعني: يأتي بالقرآن، أو عشر سور، أو سورة.
4 في ((خ)) : ينشيه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 انظر: البيان للباقلاني ص 99.
6 الكلام من قوله: "وهذا هو الآية ...) إلى هنا جملة اعتراضية. وما سيأتي هو جواب الشرط المتقدم.
7 في ((م)) ، و ((ط)) : العلماء.

ويتناقض، وما جاء من عند الله لا يتناقض؛ كما قال تعالى: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} 1.
وأما دعوى الضرورة2: فمن ادعى الضرورة في شيء دون شيء مع تماثلهما3، وعدم الفرق بينهما في نفس الأمر، كانت دعواه مردودة، بل كذبا؛ فإن وجود العلم الضروري بشيء دون شيء، لا بد أن يكون لفرق؛ إما في المعلوم، وإما في العالم.
وإلا فإذا قدر تساوي المعلومات، وتساوي حال العالم [بها، لم] 4 يعلم بالضرورة أحد المتماثلين دون الآخر.
آيات النبي مختصة بالأنبياء
الخامس: أنه لا بد أن تكون الآية التي للنبي أمرا مختصا بالأنبياء؛ فإن الدليل مستلزم للمدلول عليه. فآية النبي هي دليل صدقه، وعلامة صدقه، وبرهان صدقه، فلا توجد قط إلا مستلزمة لصدقه. وقد ادعوا5 أن آيات صدقهم تكون منفكة عن صدقهم تكون لساحر، وكاهن، ورجل صالح، ولمدعي الإلهية، لكن لا تكون لمن يكذب في دعوى النبوة؛ فجوزوا وجود الدليل مع عدم المدلول عليه6، إلا إذا ادعى المدلول عليه كاذب.

---

1 سورة النساء، الآية 82.
2 انظر: الإرشاد للجويني ص 326. ودرء تعارض العقل والنقل 1/90-92، 9/52-53. وشرح الأصفهانية 622/2. والجواب الصحيح 398/6.
3 في ((ط)) : تمثالهما.
4 في ((خ)) : بها، ما لم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 أي الأشاعرة. وانظر دعواهم هذه في: البيان للباقلاني ص 47-48. وأصول الدين للبغدادي ص 170.
6 يعني رحمه الله وجود الخارق مع عدم دعوى النبوة، فصار المعجز عندهم هو الدعوى، والخارق مدلول عليه.

واستدلوا على ذلك بأن الساعة تخرق عندها خوارق، ولا تدل على صدق أحد. ولو ادعى [مدع] 1 النبوة مع تلك الخوارق لدلت2. قالوا: فعلم أن جنس ما هو معجز يوجد بدون صدق النبي. لكن مع دعوى النبوة لا يوجد إلا مع الصدق3.
والآية عندهم: الدعوى، والخارق. والصدق هو: المدلول عليه فلا يكون ذلك كذلك إلا مع هذا4.
وأما وجود الخارق مجردا عن الدعوى، فليس بدليل. ولا فرق عندهم بين خارق وخارق، وخارق معتاد عند قوم دون قوم. وليس لهم ضابط في العادات.
ما يفعله الله من الآيات دليل على صدق الرسل..
ولسائل أن يقول: جميع ما يفعله الله من الآيات في العالم، فهو دليل على صدق الأنبياء، ومستلزم له. وإن كانت [الآيات] 5 معتادة لجنس الأنبياء، أو لجنس الصالحين [الذين] 6 يتبعون الأنبياء، فهي مستلزمة لصدق مدعي النبوة؛ فإنها إذا لم تكن إلا لنبي، أو من يتبعه، لزم أن يكون من أحد القسمين. والكاذب في دعوى النبوة ليس واحدا منهما؛ فالتابع للأنبياء الصالح لا يكذب في دعوى النبوة قط، ولا يدعيها إلا وهو صادق؛ كالأنبياء المتبعين لشرع موسى. فإذا كان آية نبي: إحياء الله الموتى، لم

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : مدعي.
2 أي على صدقه.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 94-95. والإرشاد للجويني ص 328.
4 أي لا تكون الدعوى صادقة إلا مع وجود الخارق.
5 في ((خ)) : الأنبياء. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

6 في ((خ)) : الذي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

يمتنع أن يحيي الله الموتى لنبي آخر، أو لمن يتبع الأنبياء؛ كما قد أحيى الميت لغير واحد من الأنبياء ومن [اتبعهم] 1، وكان ذلك آية على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونبوة من قبله، إذ كان إحياء الموتى مختصا بالأنبياء، وأتباعهم2.

---

1 في ((خ)) : قبلهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 ومن الأمثلة: إحياء الله الموتى لعيسى عليه السلام؛ كما قال تعالى حكاية عنه: {وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم} . الآية 49 من سورة آل عمران.

قال القرطبي رحمه الله: " قيل: أحيا أربعة أنفس؛ العازر، وكان صديقا له، وابن العجوز، وابنة العازر، وسام بن نوح. فالله أعلم) . تفسير القرطبي 61/4.

وقال تعالى: {وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم} . [البقرة، الآية 260] .

وقال تعالى: {وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون} . [البقرة، 72، 73] . وكذلك آية 243 من السورة نفسها، وهي قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس} .

وقال تعالى: {وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون} [سورة البقرة، الآيتان 55-56] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الجواب الصحيح: "أعظم آيات المسيح عليه السلام إحياء الموتى. وهذه الآية قد شاركه فيها غيره من الأنبياء؛ كإلياس، وغيره". الجواب الصحيح 17/4.

وقال أيضا: "ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي؛ كما أتى المسيح بإحياء الموتى. وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره". الجواب الصحيح 434/5.

وقال الماوردي: "حزقيل وهو الذي أصاب قومه الطاعون، فخرجوا من ديارهم حذر الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم) . أعلام النبوة للماوردي ص 88.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن " صلة بن أشيم مات فرسه وهو في الغزو، فقال: اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة. ودعا الله عز وجل، فأحياه له. فلما وصل إلى بيته، قال: يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية. فأخذ سرجه، فمات الفرس". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 315.

وهذه القصة أخرجها ابن المبارك في الزهد ص 295، وابن الجوزي في صفة الصفوة 217/3، إلا أنهما ذكرا ذهاب بغلته، وليس موتها.

وثمة قصص أخرى في إحياء الله الموتى لبعض الناس أوردها شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل 377/7. والجواب الصحيح 17/4-18.

إهلاك أعداء الرسل دليل على صدقهم

وكذلك ما يفعله الله من الآيات، والعقوبات بمكذبي الرسل؛ كتغريق فرعون1، وإهلاك قوم عاد بالريح الصرصر2 العاتية3، وإهلاك قوم صالح بالصيحة4، وأمثال ذلك5؛ فإن هذا جنس لم يعذب به إلا من كذب الرسل. فهو دليل على صدق الرسل.

وقد يميت الله بعض الناس بأنواع معتادة من البأس؛ كالطواعين6، ونحوها. لكن هذا معتاد لغير مكذبي الرسل. أما ما عذب الله به مكذبي الرسل، فمختص بهم.

---

1 والآيات على ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: {فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون} [الأنفال، الآية 54] .

2 الريح الصرصر: هي الريح الباردة المحرقة كما تحرق النار، ولها صوت شديد. (انظر البحر المحيط 481/7، 490) .

3 والآيات كثيرة، منها قوله تعالى: {وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية} . [الحاقة، الآية 6] .

4 والآيات كثيرة، منها قوله تعالى يحكي عن قوم صالح عليه السلام: {وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين} . [هود، الآية 94] .

5 انظر سورة العنكبوت، الآيات 30-40؛ حيث أخبر الله تعالى فيها عن عقابه لمن كذبوا رسله؛ فقد عذب الله قوم شعيب بالظلة، وقوم لوط بالحاصب، وقوم نوح بالغرق.
6 الطاعون: مرض من أنواع الحمى الخبيثة، سريع العدوى، يتولد من الجراثيم المضرة المتسببة من البقايا الحيوانية المتعفنة. انظر: دائرة معارف القرن العشرين لوجدي 737/5.

ولهذا كان [مختصا بهم، وكان] 1 من آيات الله كما قال: {وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا} 2.

أشراط الساعة من آيات الأنبياء ودليل على صدقهم

وكذلك ما يحدثه من أشراط الساعة3؛ كظهور الدجال، ويأجوج ومأجوج، وظهور الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، بل والنفخ في الصور، وغير ذلك؛ هو من آيات الأنبياء؛ [فإنهم] 4 أخبروا به قبل أن يكون، فكذبهم المكذبون، فإذا ظهر بعد [مئين] 5، أو ألوف من السنين، كما أخبروا به كان هذا من آيات صدقهم، ولم يكن هذا [إلا] 6 لنبي، أو لمن يخبر عن نبي.
والخبر عن النبي: هو خبر النبي. ولهذا كان وجود ما أخبر به الرسول من المستقبلات من آيات نبوته إذا ظهر المخبر به كما كان أخبر. [وخبره عما مضى آية لمن عرف صدقه] 7 فيما أخبر به إذ كان هذا8. وهذا لا يمكن أن يخبر به إلا نبي، أو من أخذ عن نبي.

---

1 ما بين المعقوفتين لا يوجد في ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة الإسراء، الآية 59.
3 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة: "إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات.."، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف..
الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال، رقم 2901.
4 في ((ط)) : فإنها.
5 في ((خ)) : مايين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : لا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 ما بين المعقوفتين في ((م)) ، و ((ط)) هكذا: أخبر فيما مضى عرف صدقه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
8 وقد عقد شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه الجواب الصحيح فصلا عن أخباره صلى الله عليه وسلم بكثير من الغيوب في الماضي، والحاضر، والمستقبل، ودلالتها على نبوته. انظر الجواب الصحيح 80/6-158.

وهو1 لم يأخذ عن أحد من الأنبياء شيئا؛ فدل على نبوته. ولهذا يحتج الله له في القرآن بذلك؛ كما قد بسط في غير هذا الموضع2.

الكاهن والفرق بينه وبين النبي

وأخبار الكهان فيها كذب كثير، والكاهن قد عرف أنه يكذب كثيرا، مع فجوره؛ قال تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} 3. والكهانة جنس معروف، ومعروف أن الكاهن يتلقى عن الشيطان، ولا بد من كذبهم، وفجورهم. والنبي لا يكذب قط، ولا يكون [إلا] 4 برا تقيا. فالفرق بينهما ثابت في نفس صفاتهما، وأفعالهما، وآياتهما؛ لا يقول عاقل إن مجرد ما يفعله الكاهن هو دليل إن اقترن بصادق، وليس بدليل إذا لم يقترن بصادق، وأنه متى ادعاه كاذب لم يظهر على يده. وهذا أيضا باطل.

كثير من الكذابين أتوا بخوارق وادعوا النبوة ولم يعارضوا

ويظهر بالوجه السادس: وهو أنه قد ادعى جماعة من الكذابين النبوة، وأتوا بخوارق من جنس خوراق الكهان والسحرة، ولم يعارضهم أحد في ذلك المكان والزمان، وكانوا [كاذبين] 5؛ فبطل قولهم إن الكذاب إذا أتى بمثل خوارق السحرة والكهان، فلا بد أن يمنعه الله ذلك الخارق، أو يقيض له من يعارضه6.

---

1 أي النبي.
2 تقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله عن ذلك في أول هذا الكتاب. راجع ص 166-171.

3 سورة الشعراء، الآيات 221-223.
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) . وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((ط)) : كذابين.
6 انظر: البيان للباقلاني ص 94-95.

وهذا كالأسود العنسي1 الذي ادعى النبوة باليمن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، واستولى على اليمن، وكان معه [شيطانان] 2؛ سحيق، ومحيق. وكان يخبر بأشياء غائبة من جنس أخبار الكهان، وما عارضه أحد. وعرف كذبه بوجوه متعددة، وظهر من كذبه، وفجوره؛ ما ذكره الله بقوله: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم} 3.
وكذلك مسيلمة الكذاب4.
وكذلك الحارث الدمشقي5، ومكحول الحلبي6، وبابا الرومي7،

---

1 سبق التعريف به، وذكر بعض أخباره ص 192. وانظر بعض أخباره الأخرى في: البداية والنهاية لابن كثير 347/6.
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) . وهي في ((م)) ، و ((ط)) : شيطان بالإفراد.
3 سورة الشعراء، الآيتان 221-222.
4 سبق التعريف به ص 192.
5 هو الحارث بن سعيد. من أهل دمشق. متنبئ كذاب، وله أتباع يعرفون بالحارثية. كان مولى لأحد القرشيين. يحكى أنه كان في أول أمره متعبدا زاهدا، فأغواه إبليس، فادعى النبوة، فلبس على الناس بما يظهر لهم من الأوهام والضلالات. من ذلك أنه كان يأتي إلى رخامة في المسجد، فينقرها بيده، فتسبح. وكان يري الناس رجالا على خيل، ويقول: هذه الملائكة. وكان يطعم الناس فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف ... إلى غير ذلك من تلبيساته. فتبعه خلق كثير فتنوا به. وقد طلبه عبد الملك بن مروان، فاختفى في بيت المقدس، فلم يزل يطلبه، حتى قبض عليه، فقتله، وصلبه، وذلك سنة 69 ?.
انظر: ميزان الاعتدال للذهبي 434/1. ولسان الميزان لابن حجر 151/2. وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص 379. والأعلام للزركلي 2 /154.
6 مكحول الحلبي لم أقف على ترجمته.
وشيخ الإسلام رحمه الله يذكر في بعض كتبه جماعة من المتنبئين، ويذكر منهم السهروردي الحلبي المقتول. انظر مثلا شرح الأصفهانية 286/1، لكن هذا الحلبي ليس اسمه مكحول.
7 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذا المتنبئ الكذاب في كثير من كتبه؛ مثل: الجواب الصحيح 34/2. وشرح الأصفهانية 287/1. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 179-180؛ حيث ذكره فيه باسم باباه الرومي.
وقد تقدم تفصيل القول فيه سابقا، انظر ص 192 من هذا الكتاب.

لعنة الله عليهم، وغير هؤلاء؛ كانت معهم شياطين كما هي مع السحرة والكهان.
آيات الأنبياء ليس من شرطها التحدي بها
السابع: أن آيات الأنبياء ليس من شرطها استدلال النبي بها، ولا تحديه بالإتيان بمثلها، بل هي دليل على نبوته، وإن خلت عن هذين القيدين.
وهذا كإخبار من تقدم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه دليل على صدقه، وإن كان هو لم يعلم بما أخبروا به، ولا يستدل به.
آيات الأنبياء قد تكون لحاجة المسلمين
وأيضا: فما كان يظهره الله على يديه من الآيات؛ مثل تكثير الطعام والشراب مرات؛ كنبع الماء من بين أصابعه غير مرة، وتكثير الطعام القليل حتى كفى أضعاف أضعاف من كان محتاجا إليه، وغير ذلك؛ [كلها] 1 من دلائل النبوة2، ولم يكن يظهرها للاستدلال بها، ولا يتحدى بمثلها، بل لحاجة المسلمين إليها3.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : كله.

2 وانظر هذه المعجزات في صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام 1308/3-1330.وفي صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم 1783/4-1786.
وقد جمع ابن كثير رحمه الله كثيرا من آيات الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك آيات تكثير الطعام والشراب. انظر البداية والنهاية 96/7-131.
3 وقال شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر: "وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة؛ كما أشبع في الخندق العسكر من قدر الطعام وهو لم ينقص؛ في حديث أم سليم المشهور. وروى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء، ولم تنقص. وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل، ولم ينقص، وهم نحو ثلاثين ألفا. ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه؛ كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة، أو خمسمائة". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 295-297.
وقال رحمه الله في موضع آخر: "وتكثير الماء في عين تبوك، وعين الحديبية، ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة، ومزادة المرأة. وأما المركبات: فتكثيره للطعام غير مرة في قصة الخندق؛ من حديث جابر، وحديث أبي طلحة. وفي أسفاره. وجراب أبي هريرة. ونخل جابر بن عبد الله. وحديث جابر وابن الزبير في انقلاع النخل له، وعوده إلى مكانه، وسقياه لغير واحد من الأرض؛ كعين أبي قتادة ... " قاعدة في المعجزات والكرامات ص 16-17.
وقال رحمه الله أيضا: "وأما هذه الآيات: فنقلها أكثر ممن نقل مواقيت الصلاة من جهة الأخبار المعينة، وذلك أن آيات الرسول كان كثير منها يكون بمشهد من الخلق عظيم، فيشاهدون تلك الآيات كما شاهد أهل الحديبية وهم ألف وخمسمائة نبع الماء من بين أصابعه، وظهور الماء الكثير من بئر الحديبية لما نزحوها ولم يتركوا فيها قطرة، فكثر حتى روى العسكر. وكما شاهد العسكر في غزوة ذات الرقاع الماء اليسير لما صبه جابر في الجفنة، وامتلأت، وملأ منها جميع العسكر. وكما شاهد الجيش في رجوعهم من غزوة خيبر المزادتين مع المرأة، وقد ملؤوا كل وعاء معهم، وشربوا، وهي ملأى كما هي. وكما شاهد أهل خيبر وهم ألف وخمسمائة الطعام الذي كان كربضة الشاة، فأشبع الجيش كلهم. وكما شاهد الجيش العظيم، وهو نحو ثلاثين ألفا في تبوك العين لما كانت قليلة الماء، فكثر ماؤها حتى كفاهم، وشاهدوا الطعام الذي جمعوه على نطع، فأخذوا منه حتى كفاهم. وكما شاهد أهل الخندق وهم أكثر من ألف كثرة الطعام في بيت جابر بعد أن كان صاعا من شعير، وعناقا، فأكلوا كلهم بعد الجوع حتى شبعوا وفضلت فضلة. وكما شاهد الثمانون نفسا كثرة الطعام لما أكلوا في بيت أبي طلحة. وكما شاهد الثلاثمائة كثرة الماء لما توضؤوا من قدح، والماء ينبع من بين أصابعه، حتى كفاهم للوضوء. وكذلك وليمة زينب، كانوا ثلاثمائة، فأكلوا من طعام في تور من حجارة وهو باق، فظن أنس أنه أزيد مما كان، وكانوا يتداولون قصعة من غدوة إلى الليل، يقوم عشرة، ويقعد عشرة؛ كما في حديث سمرة بن جندب. وأهل الصفة لما شربوا كلهم من اللبن القليل، وكفاهم، وفضل، وكانوا ينقلون ذلك بينهم، وهو مشهور ينقله بعض من شاهده إلى من غاب عنه....". الجواب الصحيح 324/6-326.

آية إبراهيم كانت بعد نبوته
وكذلك إلقاء الخليل في النار، إنما كان بعد نبوته، ودعائه لهم إلى التوحيد1.
آيات الأنبياء أدلة وبراهين سواء استدلوا بها أو لم
الثامن: إن الدليل الدال على المدلول عليه، ليس من شرط دلالته استدلال أحد به، بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلا إلى علم، فهو دليل، وإن لم يستدل به أحد؛ فالآيات أدلة وبراهين تدل سواء استدل به النبي، أو لم يستدل. وما لا يدل إذا لم يستدل به لا يدل إذا استدل به، ولا ينقلب ما ليس بدليل دليلا إذا استدل به [مدع] 2 لدلالته.
آيات الأنبياء لا تكون إلا خارقة للعادة ولا يقدر أحد على معارضتها
التاسع: أن يقال: آيات الأنبياء لا تكون إلا خارقة للعادة، ولا تكون مما يقدر [أحد] 3 على معارضتها. فاختصاصها بالنبي، وسلامتها عن المعارضة شرط فيها، بل وفي كل [دليل] 4؛ فإنه لا يكون دليلا حتى يكون مختصا [بالمدلول] 5 عليه، ولا يكون مختصا إلا إذا سلم عن

---

1 يدل على ذلك قول الله تعالى يحكي عن الخليل عليه السلام: {قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم} . سورة الأنبياء، الآيات 66-69.
2 في ((خ)) : مدعي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 في ((خ)) : أحدا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 في ((خ)) : مدل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

المعارضة1، فلم يوجد مع عدم المدلول عليه مثله. وإلا إذا وجد [هو أو مثله] 2 بدون المدلول، لم يكن مختصا؛ فلا يكون دليلا. لكن كما أنه لا يكفي مجرد كونه خارقا لعادة أولئك القوم دون غيرهم، فلا يكفي أيضا عدم معارضة أولئك القوم، بل لا بد أن يكون مما لم يعتده غير الأنبياء؛ فيكون خارقا لعادة غير الأنبياء. فمتى عرف أنه يوجد لغير الأنبياء بطلت دلالته، ومتى عارض غير النبي النبي بمثل ما أتى به، بطل الاختصاص.

كرامات الأولياء من دلائل النبوة

وما ذكره المعتزلة، وغيرهم؛ كابن حزم: من أن آيات الأنبياء مختصة بهم كلام صحيح3. لكن كرامات الأولياء هي من دلائل النبوة؛ فإنها لا توجد إلا لمن اتبع النبي الصادق4، فصار وجودها كوجود ما أخبر به

---

1 أي أن استلزام الدليل بالمدلول عليه، والسلامة من المعارضة شرط في كل دليل.
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 قال القاضي عبد الجبار في شروط المعجزة عند المعتزلة: "واعلم أن من حق المعجز أن يكون واقعا من الله تعالى حقيقة، أو تقديرا، وأن يكون مما تنتقض به العادة المختصة بمن أظهر المعجز فيه، وأن يتعذر على العباد فعل مثله في جنسه، أو صفته، وأن يكون مختصا بمن يدعي النبوة على طريقة التصديق له. فما اختص بعده بالصفات وصفناه بأنه معجز من جهة الاصطلاح". المغني في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار 199/15.
أما ابن حزم فقال: ".. وأن المعجزات لا يأتي بها أحد إلا الأنبياء عليهم السلام..". المحلى لابن حزم 36/1. وانظر أعلام النبوة للماوردي ص 62.
4 وقد أوضح شيخ الإسلام رحمه الله أن كرامات الأولياء لا تصل إلى آيات الأنبياء الكبرى، ولا يأتون بمثلها؛ كالناقة، والعصا، وخلق الطير من الطين، والقرآن، ونصر الأنبياء، وإهلاك المكذبين؛ فإنه لا تحصل لهم هذه الآيات..
يقول رحمه الله في هذا الكتاب: "وأما آيات الأنبياء التي بها تثبت نبوتهم، وبها وجب على الناس الإيمان بهم: فهي أمر يخص الأنبياء، لا يكون للأولياء، ولا لغيرهم". النبوات ص 1035.
ويقول رحمه الله أيضا: "وأما كرامات الصالحين فهي من آيات الأنبياء كما تقدم. ولكن ليست من آياتهم الكبرى، ولا يتوقف إثبات النبوة عليها". النبوات ص 1035.

النبي من الغيب. وأما ما يأتي به السحرة، والكهان من العجائب؛ فتلك جنس معتاد لغير الأنبياء وأتباعهم، بل [لجنس معروفين] 1 بالكذب، والفجور؛ فهو خارق بالنسبة إلى غير أهله. وكل صناعة فهي خارقة عند غير أهلها، ولا تكون آية.
وآيات الأنبياء هي خارقة لغير الأنبياء، وإن كانت [معتادة للأنبياء] 2.

آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الثقلين

العاشر: إن آيات الأنبياء خارجة عن مقدور من أرسل الأنبياء إليه؛ وهم الجن والإنس؛ فلا تقدر الإنس3 والجن أن يأتوا بمثل معجز الأنبياء؛ كما قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} 4. وأما الملائكة فلا تضر قدرتهم على مثل ذلك؛ فإن الملائكة إنما تنزل على الأنبياء لا تنزل على السحرة، والكهان؛ كما أن الشياطين لا [تتنزل] 5 على الأنبياء.

الملائكة تنزل على الأنبياء والشياطين تنزل على الكذابين

والملائكة لا تكذب على الله، فإذا كانت الآيات من أفعال الملائكة؛ مثل إخبارهم للنبي عن الله بالغيب، ومثل نصرهم له على عدوه، وإهلاكهم له6 نصرا وهلاكا خارجين عن العادة؛ كما فعلته الملائكة يوم بدر وغيره7، وكما فعلت

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : الجنس معروف.
2 في ((خ)) : معتادة لغير الأنبياء. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((ط)) : لإنس.

4 سورة الإسراء، الآية 88.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : تنزل.
6 أي لعدوه.
7 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن يوم بدر، يوم حنين: "أنهما غزاتان بينهما نحو ست سنين؛ كانت بدر في السنة الثانية من الهجرة، وكانت حنين في السنة الثامنة بعد فتح مكة، وأن بدرا مكان بين مكة والمدينة؛ شامي مكة، ويماني المدينة. وحنين واد قريب من الطائف شرقي مكة. وإنما قرن بينهما في الاسم لأن الله أنزل فيهما الملائكة، وأيد بهما نبيه والمؤمنين، حتى غلبوا عدوهم، مع قوة العدو في بدر، ومع
هزيمة أكثر المسلمين أولا بحنين. وامتن الله بذلك في كتابه في قوله: {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون} [سورة آل عمران، الآية 123] . وفي قوله: {لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها..} . [سورة التوبة، الآيتان 25-26] .) . الجواب الصحيح 336/6.

بقوم لوط1، وكما فعلت بمريم والمسيح2، ونحو ذلك؛ وكإتيانهم لسليمان بعرش بلقيس؛ فقد روي أن الملائكة جاءته به وهي أقدر من الجن3،لم يكن هذا خارجا عما اعتاده الأنبياء، بل هذا ليس لغير الأنبياء، فلا يقول إن غير الأنبياء اعتادوه فنقضت عادتهم، بل هذا لم يعتده إلا

---

1 قال تعالى: {ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب..} الآيات. [سورة هود، الآيات 77-81] . وقال تعالى: {ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر} . [سورة القمر، الآية 37] .
2 قال تعالى: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ... } إلى قوله: {قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} . سورة مريم، الآيات 16-19.
3 قال تعالى: {قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر..} . سورة النمل، الآية 40.
والأقوال في الذي عنده علم من الكتاب، وأحضر عرش بلقيس كثيرة، تصل إلى ثمانية أقوال. ومن أشهرها أنه سليمان عليه السلام. وقيل ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان. وقيل هو جبريل عليه السلام؛ قاله النخعي، وروي عن ابن عباس. وعلم الكتاب على هذا: علمه بكتب الله المنزلة، أو بما في اللوح المحفوظ. وقال أكثر المفسرين: هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان، وكان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى) .
انظر: تفسير البغوي 420/3. وتفسير القرطبي 136/13.

الأنبياء، وهو مناقض لجنس عادات الآدميين؛ بمعنى أنه لا يوجد فيما اعتاده بنو آدم في جميع الأصناف غير الأنبياء؛ كما اعتادوا العجائب من السحر، والكهانة، والصناعات العجيبة، وما يستعينون عليه بالجن والإنس والقوى الطبيعية؛ مثل الطلاسم1 [وغيرها؛ فكل هذا معتاد معروف لغير الأنبياء. وهؤلاء جعلوا الطلاسم] 2 من جنس المعجزات، وقالوا3: لو أتى بها نبي لكانت [آية له] 4، وإذا أتى بها من لم يدع النبوة جاز، وإن ادعاها كاذب سلبه الله علمها، أو قيض له من يعارضه. وهذا قول قبيح؛ فإنه لو جعل شيء من معجزات الأنبياء وآياتهم من جنس ما يأتي به ساحر، أو كاهن، أو مطلسم، أو5 مخدوم من الجن لاستوى الجنسان، ولم يكن فرق بين الأنبياء وبين هؤلاء، ولم يتميز بذلك النبي من غيره. وهذا مما عظم غلط هؤلاء فيه فلم يعرفوا خصائص النبي، وخصائص آياته.
الفلاسفة جعلوا للنبوة ثلاث خصائص
كما أن المتفلسفة أبعد [منهم] 6 عن الإيمان؛ فجعلوا للنبوة ثلاث

---

1 الطلسم: لفظ يوناني. وقد سبق معناه في ص 388.
وقد اشتغل المصريون القدماء، والبابليون، والكلدانيون، والسريانيون بعلم الطلاسم، واشتغل به في المشرق جابر بن حيان، وبعده مسلمة بن أحمد المجريطي في الأندلس. انظر: دائرة المعارف لوجدي 770/5.
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

3 المقصود بهم الأشاعرة. انظر كلام الباقلاني في هذه المسألة في كتابه: البيان ص 98-100.
4 في ((خ)) : له آية. إلا أن الناسخ جعل فوق الكلمتين حرف ((م)) للدلالة على التقديم والتأخير، فصار الصواب ما هو مثبت في ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((ط)) : احو.
6 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

خصائص: حصول [العلم] 1 بلا تعلم2، وقوة نفسه المؤثرة في هيولي العالم، وتخيل السمع والبصر3. وهذه الثلاثة توجد لكثير من عوام الناس.

---

1 في ((خ)) : التعلم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 قال ابن سينا في كتاب النجاة فصل في طرق اكتساب النفس الناطقة للعلوم: "واعلم أن التعلم سواء حصل من غير المتعلم، أو حصل من نفس المتعلم؛ فإن من المتعلمين من يكون أقرب إلى التصور؛ لأن استعداده الذي قبل الاستعداد الذي ذكرناه أقوى. فإن كان ذلك الإنسان مستعدا للاستكمال فيما بينه وبين نفسه سمي هذا الاستعداد القوي حدسا. وهذا الاستعداد قد يشتد في بعض الناس، حتى لا يحتاج في أن يتصل بالعقل الفعال إلى كبير شيء، وإلى تخريج وتعليم، بل يكون شديد الاستعداد لذلك، كأن الاستعداد الثاني حاصل له، بل كأنه يعرف كل شيء من نفسه. وهذه الدرجة أعلى درجات هذا الاستعداد، ويجب أن تسمى هذه الحال من الفعل الهيولاني عقلا قدسيا، وهو من جنس العقل بالملكة، إلا أنه رفيع جدا، ليس مما يشترك فيه الناس كلهم. ولا يبعد أن تفيض هذه الأفعال المنسوبة إلى الروح القدسي لقوتها واستعلائها فيضانا على المتخيلة أيضا، فتحاكيها المتخيلة أيضا بأمثلة محسوسة ومسموعة من الكلام على النحو الذي سلفت الإشارة إليه ... إلى أن قال: وهذا ضرب من النبوة، بل أعلى قوى النبوة. والأولى أن تسمى هذه القوة قوة قدسية. وهي أعلى مراتب القوى الإنسانية". النجاة لابن سينا ص 166-168.
3 انظر: كتاب الشفاء لابن سينا في قسم النفس منه ص 244-246. والإشارات والتنبيهات له 368/2-370، 413، 853-903 تحقيق سليمان دنيا. وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ص 89.
ولقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله خصائص النبوة عند الفلاسفة في مواضع شتى من كتبه؛ انظر مثلا: درء تعارض العقل والنقل 179/1، و355/5، و44/9، و204/10-205. ومنهاج السنة النبوية 413/2، و24/8. وكتاب الصفدية 5/1-7. والرد على المنطقيين. وشرح الأصفهانية 503/2. والرسالة العرشية ص 11. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص204. ومجموع الفتاوى 229/11. وبغية المرتاد ص 384. والجواب الصحيح 24/6، 47.

ولم يفرقوا1 بين النبي والساحر إلا بأن هذا بر، وهذا فاجر. والقاضي أبو بكر2 وأمثاله يجعلون هذا الفرق سمعيا3.
والفرق الذي لا بد منه عندهم: الاستدلال بها، والتحدي بالمثل4.
وكل من هؤلاء5، وهؤلاء6 أدخلوا مع الأنبياء من ليس [بنبي] 7، ولم يعرفوا خصائص الأنبياء، ولا خصائص آياتهم؛ فلزمهم جعل من ليس

---

1 أي المتفلسفة. وانظر رد شيخ الإسلام على مقولتهم هذه في: كتاب الصفدية 135/1، 147. والجواب الصحيح 400/6-401، 496، 500؛ حيث رد عليهم شيخ الإسلام رحمه الله من وجهين.
وقد قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وجعلوا ما للأنبياء وغير الأنبياء من المعجزات والكرامات وما للسحرة من العجائب، هو من قوى النفس. لكن الفرق بينهما أن ذلك قصده الخير، وهذا قصده الشر. وهذا المذهب من أفسد مذاهب العقلاء...... فإنه مبني على إنكار الملائكة، وإنكار الجن، وعلى أن الله لا يعلم الجزئيات، ولا يخلق بمشيئته وقدرته، ولا يقدر على تغيير العالم. ثم إن هؤلاء لا يقرون من المعجزات إلا بما جرى على هذا الأصل وأمكن أن يقال فيه هذا؛ مثل نزول المطر، وتسخير السباع، وإمراض الغير، وقتله، ونحو ذلك. وأما قلب العصا حية، وإحياء الموتى، وإخراج الناقة من الهضبة، وانشقاق القمر، وأمثال ذلك، فلا يقرون به ... ". الجواب الصحيح 24/6-25.
2 الباقلاني.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 38-41. وانظر: منهاج السنة النبوية 415/2. والجواب الصحيح 400/6-401.

4 انظر: البيان للباقلاني ص 46-47، 94.
5 الأشاعرة.
6 المتفلسفة.
7 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

بنبي نبيا، أو جعل النبي ليس بنبي؛ إذ كان ما ذكروه في النبوة مشتركا بين الأنبياء وغيرهم.
فمن [ظن] 1 أنه يكون لغير الأنبياء، قدح في الأنبياء أن [يكون] 2 هذا هو دليلهم بوجود مثل ما جاءوا به لغير النبي. ومن ظن أنه لا يكون إلا لنبي، إذا رأى من فعله من متنبئ كاذب، وساحر، وكاهن ظن أنه نبي.
والإيمان بالنبوة أصل [النجاة] 3 والسعادة. فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب.
ولما كان الذين اتبعوا هؤلاء وهؤلاء من المتأخرين4؛ مثل أبي حامد5، والرازي، والآمدي، وأمثالهم: هذا، ونحوه مبلغ علمهم بالنبوة، لم يكن لها في قلوبهم من العظمة ما يجب لها؛ فلا يستدلون بها على الأمور العلمية الخبرية؛ وهي خاصة النبي؛ وهو الإخبار عن الغيب، والإنباء به؛ فلا يستدلون بكلام الله ورسوله على الإنباء بالغيب التي يقطع بها، بل عمدتهم ما يدعونه من العقليات المتناقضة.

---

1 في ((خ)) : علم ظن. ولعل الصواب حذف كلمة (علم) بدليل السياق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : التجارة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 أي خلطوا بين الفلسفة والأشعرية، أو ما يسميهم شيخ الإسلام رحمه الله متفلسفة الأشعرية. انظر: درء تعارض العقل والنقل 339/3.
وانظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله عن الغزالي، والرازي، والشهرستاني، والآمدي، وتأثرهم بالفلاسفة، وكتب ابن سينا سيما في النبوات في: مجموع الفتاوى 99/4، 560/5. وشرح الأصفهانية 272/1.
5 الغزالي.

ولهذا يقرون بالحيرة في آخر عمرهم؛ كما قال الرازي:
نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي [عليلا] 1، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: {إليه يصعد الكلم الطيب} 2، {الرحمن على العرش استوى} 3. وأقرأ في النفي: {ليس كمثله شيء} 4، {ولا يحيطون به علما} 5. ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي6.
آيات الأنبياء مختصة بهم..
الوجه الحادي عشر: إن آيات الأنبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم، ليست مما تكون لغيرهم؛ فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء. وسواء في آياتهم التي كانت في حياة قومهم، وآياتهم التي فرق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم؛ بنجاة هؤلاء، وهلاك هؤلاء، ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم7؛

---

1 في ((ط)) : غليلا.
2 سورة فاطر، الآية 10.
3 سورة طه، الآية 5.
4 سورة الشورى، الآية 11.
5 سورة طه، الآية 110.
6 تقدم إيراده مرارا في هذا الكتاب. انظر على سبيل المثال ص 332.

7 وقد عقد المؤلف رحمه الله فصلا في كتابه ((الجواب الصحيح)) 387/6، وذكر فيه كثيرا من الشواهد والآيات للأنبياء الدالة على إهلاك الله لمكذبيهم، ونصره للمؤمنين بهم، وأنها من أعلام نبوتهم، ودلائل صدقهم.

وذلك: مثل تغريق الله لجميع أهل [الأرض] 1 إلا لنوح، ومن ركب معه في السفينة؛ فهذا لم يكن قط في العالم نظيره2.
إنجاء الله الرسل ومن معهم وإهلاك مكذبيهم من آياتهم
وكذلك: إهلاك قوم عاد إرم3 ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، مع كثرتهم، وقوتهم، وعظم عماراتهم التي لم يخلق مثلها في البلاد، ثم أهلكوا بريح صرصر عاتية مسخرة سبع ليال وثمانية أيام حسوما؛ حتى صاروا كلهم كأنهم أعجاز نخل خاوية4. ونجا هود ومن اتبعه؛ فهذا لم يوجد نظيره في العالم.
وكذلك: قوم صالح؛ أصحاب مدائن، ومساكن في السهل والجبل، وبساتين؛ أهلكوا كلهم بصيحة واحدة5؛ فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 قال تعالى: {وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما} . [سورة الفرقان، الآية 37] .
وقال تعالى: {حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم وهي تجري بهم في موج كالجبال..} .
[سورة هود، الآية 40-43] .
3 قال قتادة، والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد. قال ابن كثير: وهذا قول حسن جيد. تفسير ابن كثير 417/8.
4 قال تعالى: {وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية} . [سورة الحاقة، الآيات 6-8] .
5 قال تعالى: {واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين} . [سورة الأعراف، الآية 74] .
وقال تعالى عنهم: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون} . [سورة النمل، الآية 52] .

وكذلك: قوم لوط؛ أصحاب مدائن متعددة، رفعت إلى السماء، ثم قلبت بهم، وأتبعوا بحجارة من السماء، تتبع شاذهم1، ونجا لوط وأهله، إلا امرأته أصابها ما أصابهم؛ فهذا لم يوجد نظيره في العالم.
وكذلك: قوم فرعون وموسى جمعان عظيمان، ينفرق لهم البحر كل فرق كالطود العظيم؛ فيسلك هؤلاء، ويخرجون سالمين؛ فإذا سلك الآخرون انطبق عليهم الماء2؛ فهذا لم يوجد نظيره في العالم.
فهذه آيات تعرف العقلاء عموما أنها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم. وقد يحصل لبعض الناس طاعون، ولبعضهم جدب، ونحو ذلك. وهذا مما اعتاده الناس؛ وهو من آيات الله من وجه آخر، بل كل حادث من آيات [الله] 3 تعالى.
ولكن هذه الآيات ليست من جنس ما اعتيد.
الكعبة لها خاصية ليست لغيرها
وكذلك الكعبة فإنها بيت من حجارة بواد غير ذي زرع4، ليس عندها أحد يحفظها من عدو، ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها؛ فليس عندها رغبة ولا رهبة. ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة؛ فكل من يأتيها يأتيها خاضعا، ذليلا، متواضعا في غاية التواضع. وجعل فيها من الرغبة ما

---

1 قال تعالى: {فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} . [الحجر، 75] .
2 قال تعالى: {فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} [سورة الشعراء، الآيات 62-67] .
3 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

4 قال تعالى يحكي قول إبراهيم الخليل عليه السلام: {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون} . [سورة إبراهيم، الآية 37] .

يأتيها الناس من أقطار الأرض محبة، وشوقا، من غير باعث دنيوي. وهي على هذه الحال من ألوف من السنين؛ وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية غيرها. والملوك يبنون القصور العظيمة فتبقى مدة، ثم تهدم، لا يرغب أحد في [بنائها] 1، ولا يرهبون من خرابها.
وكذلك ما بني للعبادات قد [يتغير] 2 حاله على طول الزمان، وقد يستولي العدو عليه؛ كما استولى [على] 3 بيت المقدس.
والكعبة لها خاصية ليست لغيرها.
وهذا مما حير الفلاسفة ونحوهم؛ فإنهم يظنون أن المؤثر في هذا العالم هو حركات الفلك، وأن ما بني وبقي فقد بني بطالع [سعيد] 4؛ فحاروا في طالع الكعبة، إذ لم يجدوا في الأشكال الفلكية ما يوجب مثل هذه السعادة، [والعزة] 5، والعظمة، والدوام، والقهر، والغلبة6.
وكذلك ما [فعله] 7 الله بأصحاب الفيل لما قصدوا تخريبها8؛ قال تعالى: {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف

1 في ((خ)) : ابنائها.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : تتغير.
3 في ((ط)) : عليه.
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 في ((م)) ، و ((ط)) : الفرح.
6 انظر: كتاب الصفدية 220/1. والرد على المنطقيين ص 502. والجواب الصحيح 264/5-265.
7 في ((م)) ، و ((ط)) : فعل.
8 أي الكعبة المشرفة.

مأكول} 1؛ قصدها جيش عظيم، ومعهم الفيل، فهرب أهلها منهم، فبرك الفيل، وامتنع من المسير إلى جهتها، وإذا وجهوه إلى غير جهتها توجه. ثم جاءهم من البحر طير أبابيل؛ أي جماعات في تفرقة؛ فوجا بعد فوج، رموا عليهم حصى هلكوا به كلهم.
فهذا [مما] 2 لم يوجد نظيره في العالم3.
الدليل يستلزم المدلول
فآيات الأنبياء هي أدلة وبراهين على صدقهم. والدليل يجب أن يكون مختصا بالمدلول عليه، لا يوجد مع عدمه، لا [يتحقق] 4 الدليل إلا مع تحقق المدلول؛ كما أن الحادث لا بد له من محدث؛ فيمتنع وجود حادث بلا محدث، ولا يكون المحدث إلا قادرا؛ فيمتنع وجود الأحداث من غير قادر، والفعل لا يكون إلا من عالم ونحو ذلك؛ فكذلك ما دل على صدق النبي، يمتنع وجوده إلا مع كون النبي صادقا.
الأشاعرة لم يجعلوا المعجزة تدل دلالة عقلية ولا تدل بجنسها
ولم يجعلوا آيات الأنبياء تدل دلالة عقلية مستلزمة للمدلول5، ولا [تدل] 6 [بجنسها] 7 ونفسها8، بل قال بعضهم9: قد تدل، وقد

1 سورة الفيل كلها (1-5) .
2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
3 انظر كلام شيخ الإسلام حول هذا الموضوع بالتفصيل في: الجواب الصحيح 55/6-57؛ حيث عد ذلك آية من آيات النبوة.
4 في ((خ)) : بتحقيق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 انظر: الإرشاد للجويني ص 324. والعقيدة النظامية له ص 68. وشرح المواقف للجرجاني 181/3-182.
6 في ((خ)) : يدل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 في ((خ)) : لجنسها. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

8 انظر: البيان للباقلاني ص 48. والإرشاد للجويني ص 328.
9 ومنهم القاضي عبد الجبار من المعتزلة. انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل 161/15، 168، 172-173.

لا تدل. وقال آخرون: تدل مع الدعوى، ولا تدل مع عدم الدعوى1. وهذا يبطل كونها دليلا2.
وآخرون3 أرادوا تحقيق ذلك، فقالوا: تدل [دلالة] 4 وضعية من جنس دلالة اللفظ على مراد المتكلم؛ تدل أن قصد الدلالة، ولا تدل بدون ذلك؛ فهي تدل مع الوضع دون غيره5.
رد شيخ الإسلام عليهم
فيقال لهم: وما يدل على قصد المتكلم، هو أيضا دليل مطرد، يمتنع وجوده بدون المدلول، ودلالته تعلم بالعقل؛ فجميع الأدلة تعلم بالعقل دلالتها على المدلول؛ فإن ذلك اللفظ إنما يدل إذا علم أن المتكلم أراد به هذا المعنى. وهذا قد يعلم ضرورة، وقد يعلم نظرا؛ فقد يعلم قصد المتكلم بالضرورة؛ كما يعلم أحوال الإنسان بالضرورة؛ فيفرق بين حمرة الخجل، وصفرة الوجل، وبين حمرة المحموم، وصفرة المريض بالضرورة6. وقد يعلم نظرا واستدلالا؛ كما يعلم أن عادته إذا قال كذا: أن يريد كذا، وأنه لا ينقض عادته إلا إذا بين ما يدل على انتقاضها؛ فيعلم هذا، كما يعلم سائر العاديات؛ مثل طلوع الشمس كل يوم، والهلال كل شهر، وارتفاع الشمس في الصيف، وانخفاضها في الشتاء.

---

1 انظر: البيان للباقلاني ص 94. والإرشاد للجويني ص 319، 324.
2 انظر رد شيخ الإسلام رحمه الله على هذه المقولة في الجواب الصحيح 380/6.
3 انظر: الإرشاد للجويني ص 324، 325. والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص 170.
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 وهذه مقولة الأشعرية. وقد سبق رد شيخ الإسلام رحمه الله عليها من عدة وجوه في هذا الكتاب. وقد عقد رحمه الله فصلا عن هذا الموضوع، وحقق الكلام فيه، وسيأتي ص 268-271.
6 انظر: شرح الأصفهانية 622/2.

سنة الله في الفرق بين الأنبياء وبين مكذبيهم
ومن هذا سنة الله في الفرق بين الأنبياء وأتباعهم، وبين مكذبهم؛ قال تعالى: {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} 1، وقال تعالى: {فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا} 2، وقال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} 3، وقال تعالى: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} 4.
فإن هذه العجائب والآيات التي للأنبياء، تارة تعلم بمجرد الأخبار المتواترة، وإن لم نشاهد شيئا من آثارها، وتارة نشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدث؛ كما قال تعالى: {وعادا [وثمود] 5 وقد تبين لكم من مساكنهم} 6، وقال تعالى: {فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا} 7، وقال تعالى: {وإنكم لتمرون عليهم [مصبحين وبالليل أفلا تعقلون] 8} 9، وقال تعالى: {إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك

---

1 سورة آل عمران، الآية 137.
2 سورة فاطر، الآية 43.
3 سورة الحج، الآية 46.
4 سورة ق، الآيتان 36، 37.
5 في ((خ)) : وثمودا.
6 سورة العنكبوت، الآية 38.
7 سورة النمل، الآية 52.
8 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
9 سورة الصافات، الآيتان 137-138.

لآية للمؤمنين وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم [وإنهما] 1 لبإمام مبين} 2؛ أي لبطريق موضح، [متبين] 3 لمن مر به آثارهم.
وهذه الأخبار كانت منتشرة متواترة في العالم، وقد علم الناس أنها آيات للأنبياء، وعقوبة لمكذبيهم، ولهذا كانوا يذكرونها عند نظائرها للاعتبار؛ كما قال مؤمن آل فرعون: {يا قوم إني أخاف [عليكم] 4 مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد} 5، وقال شعيب: {ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد} 6.
القرآن الكريم معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الخالدة.
والقرآن [آيته] 7 باقية على طول الزمان، من حين جاء به الرسول تتلى آيات التحدي به. ويتلى قوله: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} 8، و {فأتوا بعشر سور مثله} 9، و {بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون [الله] 10} 11، ويتلى قوله: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} 12.

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 سورة الحجر، الآيات 75-79.
3 في ((خ)) : وتبين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
5 سورة غافر، الآيتان 30-31.
6 سورة هود، الآية 89.
7 في ((خ)) : آية. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
8 سورة الطور، الآية 34.
9 سورة هود، الآية 13.
10 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
11 سورة يونس، الآية 38.
12 سورة الإسراء، الآية 88.

فنفس إخبار الرسول بهذا في أول الأمر، وقطعه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق، دليل على أنه كان خارقا يعجز الثقلين عن [معارضته] 1. وهذا لا يكون لغير الأنبياء.
ثم مع طول الزمان، قد سمعه الموافق، والمخالف، والعرب، والعجم. وليس في الأمم [من] 2 أظهر كتابا يقرأه الناس، وقال إنه مثله. وهذا يعرفه كل أحد.
وما من كلام تكلم به الناس وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظا ومعنى، إلا وقد قال الناس نظيره، وما يشبهه ويقاربه؛ سواء كان شعرا، أو خطابة، أو كلاما في العلوم، [والحكم] 3 والاستدلال، والوعظ، والرسائل، وغير ذلك. وما وجد من ذلك شيء، إلا ووجد ما يشبهه ويقاربه.
والقرآن مما يعلم الناس؛ عربهم، وعجمهم أنه لم يوجد له نظير، مع حرص العرب، وغير العرب على معارضته؛ فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية4. وإذا ترجم بغير العربي5 كانت

1 في ((خ)) : معارضة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : ممن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : الحكمة.
4 انظر: أعلام النبوة للماوردي ص 99-121. وإعجاز القرآن للباقلاني ص 83-102؛ فقد ذكر وجوها عدة لإعجاز القرآن.
5 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "القرآن يجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء". الجواب الصحيح 55/2.

وقال أيضا عن ألفاظ القرآن: "ولكن يجوز تفسيرها باللسان العربي، وترجمتها بغير العربي) . الجواب الصحيح 20/3.
والشيخ رحمه الله يقصد ترجمة معاني وتفسير القرآن إلى لغة أخرى.
ولا يراد بالترجمة ها هنا الترجمة الحرفية لألفاظ القرآن، فهذه لا خلاف في أنها محرمة، تؤدي إلى تحريف القرآن. انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 27/2. والبرهان في علوم القرآن للزركشي 464/1.

معانيه آية. كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم1.
وإذا قيل إن التوراة، والإنجيل، والزبور، لم يوجد لها نظير أيضا2، لم يضرنا ذلك؛ فإنا قلنا: إن آيات الأنبياء لا تكون لغيرهم، وإن كانت لجنس الأنبياء؛ كالإخبار بغيب الله؛ فهذه آية يشتركون فيها، وكذلك إحياء الموتى قد كان آية [لغير] 3 واحد من الأنبياء غير المسيح؛ كما كان ذلك لموسى4، وغيره5.

---

1 انظر: الجواب الصحيح 405/5-411؛ إذ عقد الشيخ رحمه الله فيه فصلا في بيان إعجاز القرآن الكريم. وكذا المصدر نفسه 433/5-434؛ وهو شرح وتوضيح لما أجمله الشيخ رحمه الله هنا.
وانظر أيضا: البيان للباقلاني ص 31. والتمهيد له ص 167، 158. وإعجاز القرآن له ص 83-99. والإرشاد للجويني ص 349-353. وتفسير القرطبي 52/1-54؛ فقد ذكر عشرة أوجه لإعجاز القرآن الكريم. وأعلام النبوة للماوردي ص 99-122.
2 يرى الباقلاني أن الإعجاز خاص بالقرآن الكريم دون الكتب الأخرى، ولذلك نجده يقول: "إنا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم، ولا ادعى لهم المسلمون. فعلم أن الإعجاز مما يختص به القرآن..". إعجاز القرآن للباقلاني ص 81.
3 في ((ط)) : فغير.
4 ووجه إحياء الموتى لموسى عليه السلام ما قاله تعالى: {فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون} [البقرة، الآية 73] . وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تفصيلا لإحياء الله الموتى على يد موسى عليه السلام في الجواب الصحيح 17/4-18.
5 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فإن أعظم آيات المسيح عليه السلام إحياء الموتى. وهذه الآية قد شاركه فيها غيره من الأنبياء؛ كإلياس وغيره". الجواب الصحيح 17/4.
وانظر: الجواب الصحيح 434/5-435؛ فهو كالشرح لهذا الكلام.

جنس الأنبياء مميزون عن غيرهم بالآيات
وليس المقصود هنا ذكر تفضيل بعض الأنبياء على بعض، بل المقصود أن جنس الأنبياء متميزون عن غيرهم بالآيات، والدلائل [الدالة] 1 على صدقهم، التي يعلم العقلاء إنها لم توجد لغيرهم؛ [فيعلمون أنها ليست لغيرهم] 2؛ لا عادة، ولا خرق عادة، بل إذا عبر عنها بأنها خرق عادة، وبأنها من العجائب، فالأمر العجيب هو الخارج عن نظائره. وخارق العادة ما خرج عن الأمر المعتاد؛ [فالمراد بذلك أنها خارجة عن الأمر المعتاد لغير الأنبياء] 3، وأنها من العجائب الخارجة عن النظائر، فلا يوجد نظيرها [لغير الأنبياء. وإذا وجد نظيرها] 4؛ سواء كان أعظم منها، أو دونها لنبي؛ فذلك توكيد لها أنها من خصائص الأنبياء؛ [فإن الأنبياء يصدق5 بعضهم بعضا، فآية كل نبي آية لجميع6 الأنبياء] 7؛ كما أن آيات أتباعهم آيات لهم أيضا. وهذا أيضا من آيات الأنبياء، وهو تصديق بعضهم لبعض؛ فلا يوجد من أصحاب الخوارق العجيبة التي تكون لغير الأنبياء؛ كالسحرة، والكهنة، وأهل الطبائع، والصناعات إلا من يخالف بعضهم بعضا [فيما يدعو] 8 إليه ويأمر به، ويعادي بعضهم بعضا. وكذلك أتباعهم إذا كانوا من أهل الاستقامة؛ فما أتى به الأول من الآيات، فهو دليل على نبوته،

---

1 في ((خ)) : الدلالة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 في ((خ)) : تصدق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : الجميع. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

7 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
8 في ((خ)) : في ما يدعوا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

ونبوة من يبشر به1، وما أتى به الثاني فهو دليل على نبوته ونبوة من يصدقه ممن تقدم2؛ فما أتى به موسى، والمسيح، وغيرهما من الآيات، فهي آيات لنبوة محمد لإخبارهم بنبوته، فكان هذا الخبر مما دلت آياتهم على صدقه.
وما أتى به محمد من الآيات، فهو دليل على إثبات جنس الأنبياء مطلقا، وعلى نبوة كل من سمي في القرآن، خصوصا [إذا] 3 كان هذا مما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم عن الله، ودلت آياته على صدقه فيما يخبر به عن الله. وحينئذ فإذا قدر أن التوراة، أو الإنجيل، أو الزبور معجز لما فيه من العلوم والإخبار عن الغيوب، والأمر والنهي، ونحو ذلك، لم ينازع في ذلك، بل هذا دليل على نبوتهم صلوات الله عليهم، وعلى نبوة من أخبروا بنبوته.
ومن قال: إنها ليست بمعجزة4. فإن أراد ليست معجزة من جهة اللفظ والنظم؛ كالقرآن، فهذا ممكن. وهذا يرجع إلى أهل اللغة العبرانية.
هل الكتب السابقة معجزة، أم لا؟
وأما كون التوراة معجزة من حيث المعاني لما فيها من الإخبار عن الغيوب، أو الأمر والنهي. فهذا لا ريب فيه. ومما يدل على أن كتب الأنبياء معجزة: أن فيها الإخبار بنبوة محمدصلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بمدة طويلة. وهذا لا يمكن علمه بدون إعلام الله لهم. وهذا بخلاف من أخبر

---

1 كما قال المسيح عليه السلام: {ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} . [الصف،6] .
2 ومن أمثلة ذلك تصديق المسيح عليه السلام بموسى عليه السلام؛ كما حكى الله ذلك عنه بقوله: {ومصدقا لما بين يدي من التوراة} . [آل عمران، 50] .
3 في ((خ)) : إذ. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 قد أورد هذه المسألة الباقلاني بصيغة السؤال والجواب.
انظر: إعجاز القرآن للباقلاني ص 79. والتمهيد له ص180. وتفسير القرطبي 1/ 52. وإعلام النبوة للماوردي ص 111-112. والشفا للقاضي عياض 390/1.

بنبوته من الكهان والهواتف؛ فإن هذا إنما كان عند قرب مبعثه لما ظهرت دلائل ذلك، واسترقته الجن من الملائكة، فتحدثت به، وسمعته الجن من أتباع الأنبياء.
فالنبي الثاني إذا كان قد أخبر بما هو موجود في كتاب النبي الأول، وقد وصل إليه من جهته، لم يكن آية له؛ فإن العلماء يشاركونه في هذا.
وأما إذا أخبر بقدر زائد لم يوجد في خبر الأول، أو كان ممن لم يصل إليه خبر نبي غيره، كان ذلك آية له؛ كما يوجد في نبوة أشعيا، وداود، وغيرهما من صفات النبي ما لا يوجد مثله في توراة موسى1.
فهذه الكتب معجزة لما فيها من أخبار الغيب الذي لا يعلمه إلا نبي، وكذلك فيها من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، ما لا يأتي به إلا نبي، أو تابع نبي. وما أتى أتباع الأنبياء من جهة كونهم أتباعا لهم، مثل أمرهم بما أمروا به، ونهيهم عما نهوا عنه، ووعدهم بما وعدوا به، ووعيدهم بما [يوعدون] 2 به؛ فإنه من خصائص الأنبياء.

---

1 لفظ التوراة. يوضح شيخ الإسلام رحمه الله أن له معنيين يراد به جنس الكتب التي يقر بها أهل الكتاب، فيدخل في ذلك الزبور، ونبوة أشعيا، وسائر النبوات غير الإنجيل. وقد يراد بها نفس الكتب المتقدمة كلها. فكلها تسمى توراة. انظر الجواب الصحيح 157/5-158.
أما إذا قيدت بلفظ توراة موسى. فالمقصود التوراة المكتوبة التي أنزلت على موسى؛ كما قال تعالى: {وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء..} . [الأعراف، 145] .
يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "والزبور تابع لشرع التوراة، وكذلك الإنجيل فرع على التوراة، لم ينزل كتاب مستقل إلا التوراة والقرآن..". الجواب الصحيح 351/5.
2 في ((خ)) : يوعدوا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

مدعي النبوة لا يأمر بما تأمر به الأنبياء ولا ينهى عما نهوا عنه
والكذاب المدعي للنبوة لا يأمر بجميع ما أمرت به الأنبياء، وينهى عن كل ما نهوا عنه؛ فإن ذلك يفسد مقصوده، وهو كاذب، فاجر، شيطان من أعظم شياطين الإنس، والذي يعينه على ذلك من أعظم [شياطين] 1 الجن.
وهؤلاء لا يتصور أن يأمروا بما أمرت به الأنبياء، وينهوا عما نهوا عنه؛ لأن ذلك يناقض مقصودهم، بل وإن أمروا بالبعض في ابتداء الأمر، [من] 2 يخدعونه، ويربطونه، فلا بد أن يناقضوا، [فيأمروا] 3 [بما] 4 نهت عنه الأنبياء، ولا يوجبوا ما أمرت به الأنبياء؛ كما جرى مثل ذلك لمن ادعى النبوة من الكذابين، ولمن أظهر موافقة الأنبياء، وهو في الباطن من المنافقين؛ كالملاحدة الباطنية5 الذين يظهرون الإسلام والتشيع ابتداء، ثم إنهم يستحلون الشرك، والفواحش، والظلم، ويسقطون الصلاة، والصيام، وغير ذلك مما جاءت به الشريعة. فمن أظهر خلاف ما أبطن، وكان مطاعا في الناس، فلا بد أن يظهر من باطنه ما يناقض ما أظهره.

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 في ((خ)) : ولمن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : فيأمرا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
5 قال عنهم شيخ الإسلام رحمه الله: "لا يعتقدون وجوب الصلوات الخمس، ولا الزكاة، ولا صيام شهر رمضان، ولا حج البيت العتيق، ولا تحريم ما حرم الله ورسوله من الخمر، والميسر، والزنا، وغير ذلك. ويزعمون أن هذه النصوص لها تأويل وباطن غير الظاهر المعلوم للمسلمين. فالصلاة عندهم معرفة أسرارهم، والصيام كتمان أسرارهم، والحج زيارة شيوخهم، وأمثال ذلك. وقد يقولون: إن هذه الفرائض تسقط عن الخاصة دون العامة. وأما النصوص التي في المعاد، وفي أسماء الله وصفاته، وملائكته، فدعواهم فيها أوسع وأكثر". كتاب الصفدية 5/1.

فكيف بمن ادعى النبوة، وأظهر أنه صادق على الله، وهو في الباطن كاذب على الله. بل من أظهر خلاف ما أبطن من آحاد الناس، يظهر حاله لمن خبره في مدة؛ فإن الجسد مطيع للقلب، والقلب هو الملك المدبر له؛ كما قال [النبي] 1 صلى الله عليه وسلم: "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت، [صلح] 2 لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب "3. فإذا كان القلب كاذبا على الله، فاجرا، كان ذلك أعظم الفساد، فلا بد أن يظهر الفساد على الجوارح، وذلك الفساد يناقض حال الصادق على الله. وقد [بسط] 4 هذا في غير هذا الموضع5.
آيات الأنبياء كثيرة ومتنوعة
[وذلك] 6 أن آيات الأنبياء الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة7، وأن النبي الصادق خير الناس، والكاذب على الله شر الناس8، وبينهما من

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((ط)) : صاح.
3 رواه البخاري في صحيحه1/28-29، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه. ومسلم في صحيحه 3/1219-1220، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال، وترك الشبهات.
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 بسط الشيخ رحمه الله الكلام على هذا في كتابيه الإيمان الكبير، والأوسط، وهما ضمن مجموع الفتاوى، الجزء السابع. وانظر منه على سبيل المثال لا الحصر الصفحات التالية: 7/50، 362-365، 555. وانظر الجواب الصحيح 6/487.
6 في ((م)) : وذكر. وفي ((ط)) : ذكر.
7 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم تزيد على ألف معجزة.
انظر: الجواب الصحيح 1/399.
8 انظر: الجواب الصحيح 5/356-357.

الفروق ما لا يحصيه إلا الله، فكيف يشتبه هذا بهذا. بل لهذا من دلائل صدقه، ولهذا من دلائل كذبه ما لا يمكن إحصاؤه. وكل من خص دليل الصدق بشيء معين فقط، غلط. بل آيات الأنبياء هي من آيات الله الدالة على أمره ونهيه، ووعده ووعيده.
وآيات الله كثيرة متنوعة؛ كآيات وجوده، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، ورحمته سبحانه وتعالى. والقرآن مملوء من تفصيل آياته، وتصريفها، وضرب الأمثال في ذلك، وهو يسميها آيات وبراهين1. وقد ذكرنا الفرق بين الآيات، والمقاييس الكلية التي لا تدل [إلا] 2 على أمر كلي في غير هذا الموضع3.
ما يأتي به السحرة والكهان فهو من مقدور الإنس والجن
الوجه الثاني عشر: إن ما يأتي به الساحر، والكاهن، وأهل الطبائع، والصناعات، والحيل، وكل من ليس من أتباع الأنبياء، لا يكون إلا من مقدور الإنس والجن؛ فما يقدر عليه الإنس من ذلك هو وأنواعه، والحيل فيه كثير. وما يقدر عليه الجن هو من جنس مقدور الإنس، وإنما يختلفون في الطريق؛ فإن الساحر قد يقدر على أن يقتل إنسانا بالسحر، أو يمرضه، أو يفسد عقله، أو حسه، وحركته، وكلامه؛ بحيث لا يجامع، أو لا يمشي، أو لا يتكلم ونحو ذلك. وهذا كله مما يقدر الإنس على مثله، لكن بطرق أخرى. والجن يطيرون في الهواء، وعلى الماء، ويحملون الأجسام

1 انظر: الجواب الصحيح 412/5-417. وقاعدة في المعجزات والكرامات.
2 في ((ط)) : إلاى.
3 انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح 139/5-141، 477-483. ومجموع الفتاوى 47/1-50.

الثقيلة؛ كما قال العفريت1 لسليمان: {أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك} 2.
جنس مقدور الجن
وهذا الجنس يكون لمن هو دون الإنس والجن من الحيوان؛ كالطيور، والحيتان. والإنس يقدر على جنسه، ولهذا لم يكن هذا الجنس آية لنبي لوجوده لغير الأنبياء. فكثير من الناس تحمله الجن، بل شياطين الجن، وتطير به في الهواء، وتذهب به إلى مكان بعيد؛ كما كان العفريت يحمل عرش بلقيس من اليمن، إلى مكان بعيد.
خوارق أولياء الشيطان
ونحن نعرف من هؤلاء عددا كثيرا، وليسوا صالحين، بل فيهم كفار، ومنافقون، وفساق، وجهال، لا يعرفون الشريعة3، والشياطين تحملهم، وتطير بهم من مكان إلى مكان، وتحملهم إلى عرفات؛ فيشهدون عرفات من غير إحرام، ولا تلبية، ولا طواف بالبيت. وهذا الفعل حرام. والجهال يحسبون أنه من كرامات الصالحين، فتفعله الجن بمن يحب ذلك مكرا به، وخديعة، أو خدمة لمن يستخدمهم من هؤلاء الجهال بالشريعة، وإن كان له زهد وعبادة. وكذلك الجن كثيرا ما يأتون الناس بما يأخذونه من أموال الناس؛ من طعام، وشراب، ونفقة، وماء، وغير ذلك؛ وهو من جنس ما يسرقه الإنسي ويأتي به إلى الإنسي، لكن الجن تأتي بالطعام والشراب في مكان العدم.

1 العفريت من الجن: القوي المارد. انظر: تفسير القرطبي 135/13.
2 سورة النمل، الآية 39.
3 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله بعض القصص والوقائع عن أحوال مدعي الولاية.
انظر: الجواب الصحيح 318/2-327، 331-332، 338-343،، 347/3-351. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 168، 169، 175، 326-331، 338، 341، 351-356، 365-369. وجامع الرسائل 192/1-196. ومجموع الفتاوى 456/17-460.

آيات الأنبياء لا يقدر على مثلها الجن والإنس
ولهذا لم يكن مثل هذا آية لنبي، وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يضع يده في الماء، فينبع الماء من بين أصابعه1. وهذا لا يقدر عليه؛ لا إنس، ولا جن. وكذلك الطعام القليل يصير كثيرا2، وهذا لا يقدر عليه؛ لا الجن، ولا الإنس. ولم يأت [النبي] 3 [صلى الله عليه وسلم] 4 قط بطعام من الغيب، ولا شراب5، وإنما كان هذا قد يحصل لبعض أصحابه؛ كما أتى خبيب بن عدي6 وهو أسير بمكة بقطف من عنب7. وهذا الجنس ليس من خصائص الأنبياء. ومريم عليها السلام لم تكن نبية، وكانت تؤتى [بطعام8. فإن هذا قد يكون

1 سبقت الإشارة إلى ذلك ص 165.
2 سبقت الإشارة إلى ذلك ص 165، 601-603.
3 ما بين المعقوفتين كتب في ((خ)) مرتين.
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 ولشيخ الإسلام رحمه الله زيادة إيضاح لهذا الموضوع. انظر: الجواب الصحيح 403/6-404.
6 خبيب بن عدي بن مالك بن عامر الأوسي الأنصاري. شهد بدرا، واستشهد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حين أخذه المشركون أسيرا في مكة، فقتله بنو الحارث. وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر في بدر. وقصة أسره وقتله في الصحيحين عن أبي هريرة. وفيه أنه عند مقتله صلى ركعتين. انظر: صحيح البخاري 4 /1499، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع. ومسند الإمام أحمد 310/2، 139/4، 287/5.
وقال أبياتا، منها:
ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي
انظر: أسد الغابة لابن الأثير 103/2. والإصابة لابن حجر 262/2.
7 انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب هل يستأسر الرجل. رقم الحديث 2880.
8 قال تعالى يحكي عن مريم عليها السلام: {فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب} . [سورة آل عمران، الآية 37] .

من حلال، فيكون كرامة؛ يأتي] 1 به إما ملك، وإما جني مسلم. وقد يكون حراما. فليس كل ما كان من آيات الأنبياء يكون كرامة للصالحين.
ليس كل ما كان من آيات الأنبياء يكون كرامة للصالحين
وهؤلاء2 يسوون بين هذا وهذا، ويقولون: الفرق هو دعوى النبوة والتحدي بالمثل3. وهذا غلط فإن آيات الأنبياء [عليهم السلام] 4 التي دلت على نبوتهم، هي أعلى مما يشتركون فيه، هم وأتباعهم؛ مثل الإتيان بالقرآن؛ ومثل الإخبار بأحوال الأنبياء المتقدمين، وأممهم، والإخبار بما يكون يوم القيامة، وأشراط الساعة؛ ومثل إخراج الناقة من الأرض5؛ ومثل قلب العصا حية6، وشق البحر7؛ ومثل أن [يخلق] 8 من الطين

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 أي الأشاعرة.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 47، 48. والإرشاد للجويني ص 312، 324.
4 زيادة من ((ط)) .
5 قال تعالى: {وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم} . [سورة الأعراف، الآية 73] .
وانظر تفسير ابن كثير 218/2؛ حيث تكلم عن معجزة صالح عليه السلام؛ وهي إخراج هذه الناقة من صخرة ملساء صماء، انفلقت، وخرجت منها ناقة عشراء.
6 وهذه من معجزات موسى عليه السلام. قال تعالى: {وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى} . [سورة طه، الآيات 17-20] .
7 وهذه من معجزات موسى عليه السلام. قال تعالى يمتن على قوم موسى عليه السلام: {وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون} . [سورة البقرة، الآية 50] .
8 في ((خ)) : خلق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله1. وتسخير الجن لسليمان2 لم يكن مثله لغيره.

لكن من الجن المؤمنين من يعاون المؤمنين، ومن الجن الفساق، والكفار من يعاون الفساق؛ كما يعاون الإنس بعضهم بعضا3.
فأما طاعة مثل طاعة سليمان، فهذا لم يكن لغير سليمان [عليه السلام] 4.
رسولنا صلى الله عليه وسلم أعطي أفضل مما أعطي سليمان صلى الله عليه وسلم
ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطي أفضل مما أعطي سليمان [عليه السلام] 5؛ فإنه أرسل إلى الجن، وأمروا أن يؤمنوا به، ويطيعوه6؛ فهو يدعوهم إلى عبادة الله، وطاعته، لا يأمرهم بخدمته، وقضاء حوائجه؛ كما كان سليمان يأمرهم، ولا يقهرهم باليد؛ كما كان سليمان يقهرهم، بل [يفعل] 7 فيهم كما [يفعل] 8 في الإنس، فيجاهدهم الجن والمؤمنون، ويقيمون الحدود على منافقيهم، فيتصرف فيهم تصرف العبد الرسول، لا تصرف النبي

---

1 وهذه من معجزات عيسى عليه السلام. قال الله تعالى حاكيا عن المسيح عليه السلام: {أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين} . [سورة آل عمران، الآية 49] .
2 قال تعالى: {ولسليمان الريح} إلى قوله {ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين} . [سورة الأنبياء، الآيتان 81-82] .
3 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أحوال الجن مع الإنس. انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 364) .
4 زيادة من ((ط)) .
5 زيادة من ((ط)) .
6 قال تعالى حكاية عن الجن: {يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين} . [سورة الأحقاف: 31-32] .
7 في ((خ)) : يفعله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
8 في ((خ)) : يفعله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

الملك1؛ كما كان سليمان يتصرف فيهم.
أنواع استخدام الجن.
والصالحون من أمته، المتبعون له يتبعونه فيما كان يأمر به الإنس والجن. وآخرون دون هؤلاء قد يستخدمون بعض الجن في مباحات؛ كما قد يستخدمون بعض الإنس. وقد يكون ذلك مما ينقص دينهم، لا سيما إن كان بسبب غير مباح. وآخرون شر من هؤلاء يستخدمون الجن في أمور محرمة؛ من الظلم، والفواحش، فيقتلون نفوسا بغير حق، ويعينونهم على ما يطلبونه من الفاحشة، كما يحضرون لهم امرأة أو صبيا، أو يجذبونه إليه. وآخرون يستخدمونهم في الكفر. فهذه الأمور ليست من كرامات الصالحين2.
سبب كرامات الأولياء..
فإن كرامات الصالحين هو ما كان سببه الإيمان، والتقوى، لا ما كان سببه الكفر، والفسوق، والعصيان.
وأيضا فالصالحون سابقوهم، لا يستخدمونهم إلا في طاعة الله ورسوله. ومن هو دون هؤلاء لا يستخدمهم إلا في مباح. وأما استخدامهم في المحرمات فهو حرام، وإن كانوا إنما خدموه لطاعته لله؛ كما لو خدم الإنس رجلا صالحا لطاعته لله، ثم استخدمهم فيما لا يجوز. فهذا بمنزلة من أنعم عليه بطاعته نعمة، [فصرفها] 3 إلى معصية الله، فهو آثم بذلك.

---

1 وانظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله في: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 104-105، في أن العبد الرسول أفضل من النبي الملك.
وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 161.
2 وقد أفاض شيخ الإسلام رحمه الله في كتبه في الكلام حول هذا الموضوع، وبين أن كثيرا من الناس يعتقد الولاية في هؤلاء، ويعتقد في خوارقهم أنها كرامات، مع أنهم من أولياء الشيطان.
انظر: مجموع الفتاوى 82/1-85، 168-178،، 456/17-460. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 83، 124، 168-169، 226، 321-369. والجواب الصحيح 315/2-325،، 347/3-349.
3 في ((خ)) : صرفها. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وكثير من هؤلاء يسلب تلك النعمة، ثم قد يسلب الطاعة؛ فيصير فاسقا. ومنهم من يرتد عن دين الإسلام.
فطاعة الجن للإنسان ليست أعظم من طاعة الإنس، بل الإنس أجل، وأعظم، وأفضل، وطاعتهم أنفع.
وإذا كان المطاع من الإنس قد يطاع في طاعة الله، فيكون محمودا مثابا، وقد يطاع في معصية الله، فيكون مذموما آثما1.
فكذلك المطاع من الجن الذي يطيعه الناس.
والمطاع من الإنس قد يكون مطاعا لصلاحه، ودينه. وقد يكون مطاعا لملكه، وقوته. وقد يكون مطاعا [لنفعه] 2 لمن يخدمه بالمعاوضة. فكذلك المطاع من الجن؛ قد يطاع لصلاحه ودينه، وقد يطاع لقوة وملك محمود أو مذموم. ثم الملك إذا سار بالعدل حمد، وإن سار بالظلم، فعاقبته مذمومة، وقد يهلكه أعوانه؛ فكذلك المطاع من الجن، إذا ظلمهم، أو ظلم الإنس بهم، أو بغيرهم، كانت عاقبته مذمومة. وقد [تقتله] 3 الجن، أو تسلط عليه من الإنس من يقتله. وكل هذا واقع نعرف من ذلك من الوقائع ما يطول وصفه، كما [نعرف] 4 من ذلك من وقائع الإنس ما يطول وصفه5. وليس آيات الأنبياء في شيء من هذا الجنس.

1 سوف يفصل الشيخ رحمه الله في أقسام طاعة الجن للإنس في ص 1228 من هذا الكتاب.
2 في ((خ)) : بنفعه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : يقتله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : يعرف. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 تقدمت الإشارة إلى بعض كتب شيخ الإسلام رحمه الله التي أشار فيها إلى بعض هذه الوقائع. انظر: ص 632 من هذا الكتاب. وسيأتي مزيد بيان لهذا الموضوع في آخر الكتاب ص 1222-1224، 1242، 1290-1292.

سبب الإسراء والمقصد منه
ونبينا صلى الله عليه وسلم لما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، إنما أسري به ليرى من آيات ربه الكبرى.
وهذا هو الذي كان من خصائصه: أن مسراه كان هذا؛ كما قال تعالى: {أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى} 1، وقال تعالى: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} 2؛ قال ابن عباس: هي رؤيا عين3 أريها رسول الله

1 سورة النجم، الآيات 11-15.
2 سورة الإسراء، الآية 60.
3 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وفي الصحيحين عن ابن عباس في قوله: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن} قال: هي رؤيا عين، أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به، وهذه رؤيا الآيات لأنه أخبر النسا بما رآه بعينه ليلة المعراج، فكان ذلك فتنة لهم حيث صدقه قوم وكذبه قوم، ولم يخبرهم بأنه رأى ربه بعينه في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه) . الفتاوى 510/6.
وأما مسألة رؤية الله جل وعلا فقال القاضي عياض رحمه الله: "وأما وجوبه لنبينا صلى الله عليه وسلم والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضا، ولا نص؛ إذ المعول فيه على آيتي (النجم) ، والتنازع فيهما مأثور، والاحتمال لهما ممكن، ولا أثر قاطع متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك". الشفاء للقاضي عياض 265/1.
ولشيخ الإسلام رحمه الله جمع بين الأقوال في رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لربه:
قال رحمه الله: "وأما الرؤية: فالذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: "رأى محمد ربه بفؤاده مرتين" وعائشة أنكرت الرؤية. فمن الناس من جمع بينهما، فقال: عائشة أنكرت رؤية العين، وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد. والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة، ومقيدة بالفؤاد؛ تارة يقول: رأى محمد ربه. وتارة يقول: رآه محمد. ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه. وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول رآه بفؤاده. ولم يقل أحد إنه سمع أحمد يقول رآه بعينه. لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق، ففهموا منه رؤية العين؛ كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس، ففهم منه رؤية العين. وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك.
بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل؛ كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال: "نور أنى أراه ". مجموع الفتاوى 509/6-510.

وانظر أيضا: زاد المعاد 37/3. وشرح الطحاوية 323/1.

صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به1. فهذا الذي كان من خصائصه، ومن أعلام نبوته.
وأما مجرد قطع تلك المسافة، فهذا يكون لمن [يحمله] 2 الجن. وقد قال العفريت لسليمان: {أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك} 3. وحمل [العرش من] 4 القصر من اليمن إلى الشام أبلغ من ذلك5. و {قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك} 6؛ فهذا أبلغ من قطع المسافة التي بين المسجدين في ليلة.
ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضل من الذي عنده علم من الكتاب، ومن سليمان؛ فكان الذي خصه الله به أفضل من ذلك؛ وهو أنه أسرى به في ليلة ليريه من آياته؛ فالخاصة أن الإسراء كان ليريه من آياته الكبرى؛ كما {رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى} 7

---

1 رواه البخاري في صحيحه 1748/4، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} .
2 في ((م)) ، و ((ط)) : تحمله.
3 سورة النمل، الآية 39.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 تفسير ابن كثير 364/3.
6 سورة النمل، الآية 40.
7 سورة النجم، الآيات 13-17.

فهذا ما حصل مثله؛ لا لسليمان، ولا لغيره. والجن وإن قدروا على حمل بعض الناس في الهواء، فلا يقدرون على إصعاده إلى السماء، و [إراءته] 1 آيات ربه الكبرى؛ فكان ما آتاه الله [محمدا] 2 خارجا عن قدرة الجن والإنس، وإنما كان الذي صحبه في معراجه جبريل الذي اصطفاه الله لرسالته، و {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} 3.
وكان المقصود من الإسراء أن يريه ما رآه من آياته الكبرى، ثم يخبر به الناس، فلما أخبر به كذب به من كذب من المشركين، وصدق به الصديق وأمثاله4 من المؤمنين، فكان ذلك ابتلاء ومحنة للناس؛ كما قال: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} 5؛ أي محنة وابتلاء للناس؛ ليتميز المؤمن عن الكافر، وكان فيما أخبرهم به أنه رأى الجنة والنار، وهذا مما يخوفهم به؛ قال تعالى: {ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا} 6.
والرسول لما أخبرهم بما رآه كذبوه في نفس الإسراء، وأنكروا أن يكون أسري به إلى المسجد الأقصى، فلما سألوه عن صفته، فوصفه لهم، وقد
علموا أنه لم يره قبل ذلك، وصدقه من رآه منهم، كان ذلك دليلا

---

1 في ((خ)) رسمت: اراه. ولعلها إراءه، والله أعلم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : محمد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 سورة الحج، الآية 75.
4 انظر: صحيح البخاري 1743/4-1744، كتاب التفسير، باب قوله: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى} . وصحيح مسلم 156/1، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال. ومسند الإمام أحمد 309/1.
5 سورة الإسراء، الآية 60.
6 سورة الإسراء، الآية 60.

على صدقه في المسرى، فلم يمكنهم مع ذلك تكذيبه فيما لم يروه، وأخبر الله تعالى بالمسرى إلى المسجد الأقصى؛ لأنهم قد علموا صدقه في ذلك، بما أخبرهم به من علاماته، فلا يمكنهم تكذيبه في ذلك.
وذكر أنه رأى من آيات ربه الكبرى، ولم يعين [ما] 1 رآه؛ [وهو] 2 جبريل الذي رآه في صورته التي خلق عليها مرتين3؛ لأن رؤية جبريل هي من تمام نبوته، ومما يبين أن الذي أتاه بالقرآن ملك، لا شيطان؛

كما قال في سورة: "إذا الشمس كورت": {إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين} ، [ثم قال] 4: {وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب [بضنين] 5 وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين} 6.

---

1 في ((خ)) : مما. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 انظر: صحيح البخاري 1840/4-1841، كتاب التفسير، باب في تفسير سورة "النجم". وصحيح مسلم 158/1-159، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى. وفي باب معنى قول الله عز وجل: {ولقد رآه نزلة أخرى} .
4 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
5 في ((خ)) رسمت: بطنين.
6 سورة التكوير، الآيات 19-27.

فصل قول الأشاعرة في المعجزات

ومما يبين ضعف طريقة هؤلاء1 أنهم قالوا: المعجزات لا تدل بجنسها على النبوة، بل يوجد مثل المعجز من كل وجه، ولا يدل على النبوة؛ كأشراط الساعة؛ وكما يوجد للسحرة، والكهان، والصالحين من الخوارق التي تماثل آيات الأنبياء فيما زعمه هؤلاء. قالوا: لكن الفرق أن هذا يدعي النبوة، ويحتج بها، ويتحداهم بالمثل، فلا يقدر أحد على معارضته. وأولئك لو ادعوا النبوة، لمنعهم الله منها، وإن كانوا قبل ذلك غير ممنوعين منها، أو لقيض [لهم] 2 من يعارضهم. ولو عارضوا بها نبيا لمنعهم الله إياها، ليسلم دليل النبوة. قالوا: والمعجز إنما يدل دلالة وضعية بالجعل، والقصد؛ كدلالة الألفاظ، [والعقود] 3، والخط، والعلامات التي يجعلها الناس بينهم4.

---

1 أي الأشاعرة. انظر: البيان للباقلاني ص 47-49. والإرشاد للجويني ص 319، 328.
2 في ((خ)) : له. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : العقد.
4 ممن ذكر ذلك من الأشاعرة: القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه البيان ص 47، 48، 72-73، 94، 95، 96، 105. والجويني في الإرشاد ص 319، 320، 324، 325، 328. والبغدادي في أصول الدين ص 171. والإيجي في المواقف ص 342. والتفتازاني في شرح المقاصد 5 13، 18.

تعليق ابن تيمية على قولهم

فيقال لهم: هذه الأمور كلها إنما تدل إذا تقدم علم المدلول بها أن الدال جعلها علامة؛ كما يوكل الرجل وكيلا، ويجعل بينه وبينه علامة؛ إما وضع يده على ترقوته1، وإما وضع خنصره2، وإما وضع يده على رأسه. فمن جاء بهذه العلامة، علم أن موكله أرسله.

[فأما إذا] 3 لم يتقدم ذلك، لم تكن دلالة [جعلية] 4 وضعية اصطلاحية.

وآيات الأنبياء لم [يتقدم] 5 قبلها من الرب مواضعة بينه وبين العباد. قالوا: هي تشبه ما إذا قال الرجل لموكله، والرسول لمرسله: إنك أرسلتني إلى هؤلاء القوم، فإن كنت أرسلتني، فقم، واقعد ليعلموا أنك أرسلتني. فإذا قام وقعد عقب طلب الرسول، علم الحاضرون أنه قام وقعد ليعلمهم أنه رسوله6. وإن كان بدون طلبه قد يقوم ويقعد لأمور أخرى.

فيقال لهم: هنا لما علم الحاضرون انتفاء [داع] 7 يدعوه، إلا قصد التصديق، علموا أنه قصد تصديقه. ولهذا: لو جوزوا قيامه لحاجة عرضت، أو لحية، أو عقرب، وقعت في ثيابه، أو لغير ذلك، لم يجعلوا ذلك دليلا.

---

1 الترقوة على تقدير فعلوة. وهو: وصل عظم بين ثغرة النحر والعاتق في الجانبين. والترقوتان: العظمان المشرفان بين ثغرة النحر والعاتق، تكون للناس وغيرهم.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري 9 54. ولسان العرب لابن منظور 10 32.
2 الخنصر: صغرى الأصابع. انظر: تهذيب اللغة 7 660. ولسان العرب 4 261.

3 في ((خ)) : فأما اما إذا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((ط)) : جملية.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : تتقدم.
6 انظر: الإرشاد للجويني ص 325. وأصول الدين للبغدادي ص 178. والمواقف للإيجي ص 341. وشرح المقاصد للتفتازاني 5 14.
7 في ((خ)) : داعي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

السبر والتقسيم يعلم به الدليل

و [السبر] 1 والتقسيم2 مما يعلم به الدليل، وإن لم يقصده الدليل؛ حتى إن الرجل المشهور إذا خرج في غير وقت خروجه المعتاد، فقد يعرف كثير من الناس لأي شيء خرج؛ لعلمهم بانتفاء غيره، وأن خروجه له مناسب، وإن لم يكن هنا أحد طلب الاستدلال؛ فخروج الإنسان عن عادته قد [يكون لأسباب] 3؛ فإذا اقترن بسبب صالح، وعلم انتفاء غيره، علم أنه لذاك السبب.

وهذا إنما يكون ممن يفعل [لداع] 4 يدعوه. والرب تعالى عندهم5 لا يفعل لداع يدعوه، فلزمهم؛ إما إبطال أصلهم6، وإما إبطال هذه الدلالة7.

---

1 في ((ط)) : السير بالياء.
2 قال صاحب التعريفات: "السبر والتقسيم كلاهما واحد. وهو إيراد أوصاف الأصل؛ أي المقيس عليه، وإبطال بعضها، ليتعين الباقي للعلية؛ كما يقال: علة الحدوث في البيت؛ إما التأليف، أو الإمكان. والثاني باطل بالتخلف؛ لأن صفات الواجب ممكنة بالذات، وليست حادثة، فتعين الأول؛ وهو حصر الأوصاف في الأصل، وإلغاء البعض لتعين الباقي للعلة؛ كما يقال: علة حرمة الخمر؛ إما الإسكار، أو كونه ماء العنب. والمجموع غير الماء وغير الإسكار لا يكون علة بالطريق الذي يفيد إبطال علة الوصف؛ فيتعين الإسكار للعلة". التعريفات للجرجاني ص 155.
3 في ((خ)) : تكون الأسباب. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : داعي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 أي عند الأشاعرة.
6 المراد: أصل الأشاعرة: الله لا يفعل شيئا لأجل شيء. فهم يستندون إلى هذا الأصل في نفي حكمة الله، وتعليل أفعاله جل وعلا؛ فيجوزون عليه سبحانه كل فعل.
7 وهي المثال الذي ضرب عن الملك الذي أظهر ما يناقض عادته، لتصديق رسوله، فيجعلونه دليلا على تصديق الرسول. وقد مر هذا الموضوع فيما سبق، وعلقت عليه. انظر ص 581-583.
ولشيخ الإسلام رحمه الله شرح لهذا الموضوع في كتابه العظيم ((الجواب الصحيح)) 6 393-408.

وأيضا: فيقال لهم: بل الدليل دل لجنسه؛ وهو هذا الفعل الذي لم يفعل إلا لهذا الطلب. ومتى وجد هذا كان جنسه دليلا. وليست الدعوى جزءا من الدليل، بل طلب الإعلام بهذا الفعل مع الفعل، هو الدليل. ولهذا لو قال: فافعل ما يدل على صدقي، وقام، وقعد، لم يدل على صدقه، بخلاف ما إذا قال: فقم واقعد.

ولو قال: فأظهر ما يدل على صدقي، فلا بد أن يظهر ما يدل جنسه أنه دليل؛ كقول، أو خط، أو غير ذلك، أو خلعة تختص بمثل ذلك. ففرق بين أن يطلب فعلا معينا، أو دليلا مطلقا. وهو إذا طلب فعلا معينا؛ كقيام، أو وضع يد على الرأس، أو صلاة ركعتين، أو غير ذلك من الأفعال، دل على صدقه، وإن كان ذلك معتادا له أن يفعله، فليس من شرط دلالته أن يخرج عن عادته، لكن شرط دلالته أن يعلم أنه فعله لأجل الإعلام؛ بحيث لا يكون هناك سبب داع غير الإعلام. وحينئذ فهو دال لجنسه.

وكذلك يقال: الرب إذا خرق العادة لمدعي الرسالة عقب مطالبته بآية، علم أن الله لم يخلق تلك [الأدلة] 1 على صدقه. فهذا يدل، [وهذا] 2 [إنما يتم] 3 مع كون الرب يفعل شيئا لأجل شيء آخر. وحينئذ فقد يكون من شرط الدليل: مطالبة الطالب بدليل، لا أن نفس الدعوى هي جزء الدليل. وفرق بين طلبه من الرب آية، [أو] 4 طلبهم منه آية، وبين الدعوى؛ فإظهار ما يظهره الرب عقب طلبهم، أو طلبه، قد يقال فيه: إن

---

1 في ((خ)) : الادالة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 في ((خ)) : فهذا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : و. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

الطلب جزء الدليل، وإنه لو أظهره بدون الطلب، لم يدل. وأما نفس دعوى النبوة، فليست جزءا. وعلى هذا: فإذا قدر أنه يفعل ذلك عند [طلبه، أو] 1 طلب غيره آية، [دل] 2 على [صدقه] 3. لكن هذا يكون إذا علم أنه لم يفعله إلا لإعلام أولئك بصدقه. وهذا لا يكون إلا بأن يتميز جنس ما دل به عن غيره. ولا يجوز أن يدل مع وجود مثله من غير دلالة، بل متى قدر وجود مثله من غير دلالة، بطل كونه دليلا. ولو كانت الدعوى [جزءا من الدليل] 4، لكانت المعارضة لا تكون إلا مع دعوى النبوة؛ فلو أتوا بمثل القرآن، من غير دعوى النبوة، لم يكونوا عارضوه.
الأشاعرة يقسمون الأدلة قسمين:
وهذا خلاف ما في القرآن، وخلاف ما أجمع المسلمون، بل العقلاء، والله أعلم.
وهم يسمون ما يكون بقصد الدال؛ كالكلام دليلا وضعيا. فالأقوال والأفعال التي يقصد بها الدلالة؛ كالعقد، وما يجعله الرجل علامة، ونحو ذلك، يسمونه دليلا وضعيا، ويسمون ما يدل مطلقا دليلا عقليا5.

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : صدقهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : جزء الدليل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 الأشاعرة يجعلون دلالة المعجزة على صدق النبي دلالة عادية وضعية، ولا يجعلونها دلالة عقلية؛ لأن الدلالة العقلية لا تتخلف، فإذا وجدت المعجزة التي هي الدليل، لا بد أن يوجد الرسول الذي هو المدلول. أما الدلالة العادية، أو الوضعية، فيجوز عقلا تخلف المدلول عن الدليل؛ أي الرسول عن معجزته.
انظر: الإرشاد للجويني ص 324. والعقيدة النظامية له ص 68. ونهاية الإقدام للشهرستاني ص 438 والمستصفى للغزالي 1 6. وشرح المواقف للجرجاني 3 181-182. وشرح العقائد النسفية للتفتازاني ص 166. وشرح المقاصد له 2 132.

جميع الأدلة عقلية والرد على تقسيم الأشاعرة
والأجود أن يقال: جميع الأدلة عقلية؛ بمعنى أن العقل إذا تصورها، علم أنها تدل؛ فإن الدليل هو ما يكون النظر الصحيح فيه مفضيا إلى العلم بالمدلول عليه، وإنما يكون النظر الصحيح، لمن يعقل دلالة الدليل. فمن لم يعقل كون الدليل مستلزما للمدلول، لم يستدل به.
معنى الدليل
ومن عقل ذلك، استدل به؛ فهو يدل بصفة هو في نفسه عليها، لا بصفة هي في المستدل. لكن [كونه] 1 عقليا يرجع إلى أن المستدل علمه بعقله. وهذا صفة في المستدل لا فيه.
الدليل يدل بمجرده وقد يدل بقصد الدال على دلالته
[و] 2 الأجود أن يقال: الدليل قد يدل بمجرده، وقد يدل بقصد الدال على دلالته. فالأول لا يحتاج إلى قصد الدلالة؛ كما [يقول] 3 النحاة: إن الأصوات تدل بالطبع، وتدل بالوضع. فالذي يدل بالطبع؛ كالنحنحة، والسعال، والبكاء، ونحو ذلك من الأصوات. وهذا ليس كلاما. وحينئذ فما يدل بقصد الدال، أحق بالدلالة، ودلالته أكمل. ولهذا كانت [دلالة] 4 الكلام على مقصود المتكلم، وهي دلالة سمعية، أكمل من جميع أنواع الأدلة على مراده؛ وهو البيان الذي علمه الله الإنسان، وامتن بذلك على عباده؛ فمنها ما يدل بمجرده، ومنها ما يدل بقصد الدال. فإذا انضم إليه ما يعرف أنه قصد الدلالة، دل؛ فالدليل هنا في الحقيقة: قصد الدال للدلالة؛

---

1 في ((خ)) : فكونه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((م)) ، و ((ط)) : أو.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : تقول.

4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

وهي دلالة [لا] 1 تنتقض إذا لم يجوز عليه الكذب، وإنما الذي دل به على قصده، هو دل بجعله دليلا، لم يدل بمجرده؛ فهو دليل بالاختيار، لا بمجرده. فالأقوال، والأفعال التي يقصد بها الدلالة تدل باختيار الدال بها، لا بمجردها، ودلالتها تعلم بالعقل، وقد يفتقر من العقل إلى أكثر مما يفتقر إليه العقلي المجرد؛ لأنها تحتاج إلى أن يعلم قصد الدال. ولكن ما يحصل بها من الدلالة أوضح وأكثر؛ كالكلام. وعلى هذا فإذا أريد تقسيمها إلى عقلي ووضعي؛ [أي] 2 إلى عقلي مجرد، وإلى وضعي، يحتاج مع العقل إلى قصد من الدال؛ فهو تقسيم صحيح. فدال يعلم بمجرد العقل، وهذا لا يحتاج مع العقل إلى السمع، أو غيره.

وحينئذ: فإذا قيل في السمعيات: إنها ليست عقلية؛ أي لا [يكفي] 3 فيها مجرد العقل، [بل لا بد] 4 من انضمام السمع إليه.

[وعلى هذا قوله: {فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها} 5] 6.

وكذلك ذكر الرازي وغيره أن السمع المحض لا يدل، [بل لابد] 7 من العقل.3

وهذا صحيح؛ فإن العقل شرط في جميع العلوم التي تختص بالعقلاء. والله أعلم.

---

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .

2 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

3 في ((خ)) : تكفي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 في ((خ)) : بلابد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

5 سورة الحج، الآية 46.

6 ما بين المعقوفتين ساقط من ((م)) ، و ((ط)) .

7 في ((خ)) : بلابد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم التحدي إلا في القرآن

ومما يلزم [أولئك أن] 1 ما كان يظهر على يد النبي صلى الله عليه وسلم في كل وقت من الأوقات ليست دليلا على نبوته؛ [لأنه] 2 لم يكن كلما ظهر شيء من ذلك احتج به، وتحدى الناس بالإتيان بمثله، بل لم ينقل عنه التحدي إلا في القرآن خاصة3، ولا نقل التحدي عن غيره من الأنبياء؛ مثل موسى، والمسيح، وصالح4. ولكن السحرة لما عارضوا موسى، أبطل معارضتهم. وهذا الذي قالوه يوجب أن لا [تكون] 5 كرامات الأولياء من جملة المعجزات.

كرامات الأولياء معجزات لنبيهم

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن كرامات الأولياء معجزات لنبيهم6، وهي من آيات نبوته. وهذا [هو] 7 الصواب؛ كقصة أبي مسلم الخولاني8،

---

1 في ((ط)) : أن أولئك.

2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

3 وقد أوضح شيخ الإسلام رحمه الله هذا الأمر في آخر كتابه هذا النبوات. انظر ص 946-951.

ومما قاله رحمه الله في كتابه الجواب الصحيح: "وآيات النبوة وبراهينها تكون في حياة الرسول، وقبل مولده، وبعد مماته، لا تختص بحياته، فضلا عن أن تختص بحال دعوى النبوة، أو حال التحدي؛ كما ظنه بعض أهل الكلام". الجواب الصحيح 6 380.

4 ولابن حزم كلام طيب في رده على الأشاعرة في قولهم: إنه لا تكون المعجزة معجزة حتى يتحدى بها. انظر المحلى لابن حزم 1 36.

5 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

6 انظر: تفسير القرطبي 13 137.

وقد ذكر ذلك ابن كثير في كتابه دلائل النبوة ـ ضمن البداية والنهاية 6 161. وكذا البيهقي في دلائل النبوة.

7 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

8 تقدمت قصته ص 158.

وغيره [مما] 1 جرى لهذه الأمة من الآيات؛ ومثل ما كان يظهر على أيدي الحواريين، وعلى يد موسى وأتباعه2. [لا أنه] 3 جعل التحدي بالمثل جزءا من دليله وآيته، فلا يكون دليلا حتى يتحداهم بالمثل! بل قد علم أن [نفس] 4 استدلال المستدل بالدليل، يوجب اختصاصه بالمدلول عليه، وكل من أتى بآية هي دليل وبرهان وحجة، فقد علم أنه يقول إنها مستلزمة للمدلول عليه، لا يوجد مع عدمه، فلا يمكن أحدا أن يعارضها، فيأتي بمثلها مع عدم المدلول عليه.

أجزاء الدليل على صدق النبي عند الأشاعرة

وهؤلاء5 جعلوا من جملة الدليل: دعوى النبوة، والاحتجاج به، والتحدي بالمثل؛ ثلاثة أشياء6.

وهذه الثلاثة هي أجزاء الدليل. ودعوى النبوة هو الذي تقام عليه البينة، والذي [يقام] 7 عليه الحجة ليس هو جزءا من الحجة. والدعوى تسمى مدلولا عليها، ((ونفس المدعى [يسمى] 8 مدلولا عليه، وثبوت المدعى يسمى مدلولا [عليه] 9)) 10، والعلم بثبوته يسمى مدلولا عليه.

---

1 في ((ط)) : ما.

2 انظر: الجواب الصحيح 2 400.

3 في ((م)) ، و ((ط)) : لأنه.

4 في ((ط)) : النفس.

5 أي الأشاعرة.

6 انظر: الإرشاد للجويني ص 312-313. وشرح المقاصد للتفتازاني 5 11.

7 في ((م)) ، و ((ط)) : تقام.

8 في ((خ)) : تسمى. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

9 في ((خ)) : عليها. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

10 تكررت الجملة التي بين الهلالين في ((خ)) بلفظ: "ونفس المدعى تسمى مدلولا عليه. وثبوت المدعى يسمى مدلولا عليه". ولم تكرر في ((م)) ، و ((ط)) .

فهنا دعوى النبوة، وهنا النبوة، وهنا النبوة المدعاة قبل أن يعلم ثبوتها، وهنا ثبوتها في نفس الأمر، وهنا علم الناس بثبوتها. وكذلك سائر الدعاوي.

فمن ادعى تحريم النبيذ المتنازع فيه؛ فهنا: دعواه التحريم، ونفس التحريم هل هو ثابت أم منتف؟ وثبوت التحريم في نفس الأمر، والعلم بالتحريم. وكذلك من ادعى حقا عند الحاكم؛ فهنا: دعواه الحق، وهنا نفس المدعى؛ وهو استحقاقه ذلك الحق، وهنا ثبوت هذا الاستحقاق في نفس الأمر، وهنا العلم باستحقاقه. فالبينة والحجة [يجب] 1 أن يقارن المدلول عليه؛ الذي هو المدعى، وثبوته في نفس الأمر؛ سواء ادعاه [مدع] 2، أو لم يدعه؛ وسواء علمه عالم، أو لم يعلمه؛ فإن الدليل مستلزم للمدلول عليه؛ مستلزم لحرمة النبيذ، واستحقاق الحق. وثبوت الحرمة في نفس الأمر، مستلزم للحرمة. وأما مجرد الحرمة المتصورة: فليست مستلزمة لوجودها في نفس الأمر، بل قد يتصور في الأذهان ما لا [يوجد] 3 في الأعيان. والله أعلم.

---

1 في ((خ)) تجب. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 في ((خ)) : مدعي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 في ((خ)) : يتصور يوجد بزيادة: يتصور. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

فصل كلام الباقلاني في المعجزات ومناقشة شيخ الإسلام له

وقد ذكر القاضي أبو بكر أن من المثبتة المجيزين للكرامات من أجاب عن حجة النفاة، بأن قال: الأدلة على ضربين: عقلية، ووضعية؛ فالعقلي يدل لنفسه وجنسه، والوضعي يدل مع المواطأة، ولا يدل مثله مع عدمها؛ كعقد العشرة.

وضعف أبو بكر هذا، بأن قال لهم أن يقولوا: إذا كانت المعجزات تجري مجرى القول، فحيث قصدت دلت. وعنده أن الأمر ليس كذلك1.

قلت: بل هذا القائل أحسن؛ لأنها تدل إذا قصدت بها الدلالة؛ مثل قيام الأمر، وقعوده إذا طلب ذلك منه؛ ومثل العلامة التي تكون للشخص إذا جعلها علامة؛ فحيث قصد الدلالة به دل. لكن لازم هذا أن لا يكون إلا إذا طلب الاستدلال بها، [لا نفس] 2 الدعوى.
ثم إنه3 ذكر أن الخارق للعادة لا بد أن يكون خارقا لعادة جميع المرسل إليهم4.

---

1 لعل ما نقله شيخ الإسلام رحمه الله هنا عن القاضي أبي بكر الباقلاني هو من القسم المفقود من كتاب البيان؛ إذ المطبوع منه ناقص من آخره.
2 في ((ط)) : لأنفس.
3 أي القاضي أبو بكر الباقلاني.
4 انظر: البيان للباقلاني ص 50، 55.

ثم جوز أن يكون مما اعتاده كثير منهم، بشرط أن يمنعهم عن المعارضة، فيكون ذلك خرق عادة1.
ثم قال في الكرامات: لا يجوز أن تكثر حتى تصير عادة؛ لأن من حق المعجز على قولنا وقولهم أن يكون خارقا للعادة، فلا تجوز إدامة ظهوره فيصير عادة، بل يقع نادرا2. وقد [جوزوا] 3 في السحر والكهانة أن يكون عادة، لكن عند دعوى النبوة يمنعهم من المعارضة، فكانت الكرامات أولى بذلك هي عادة للصالحين، وإذا ادعى النبوة صادق منع من المعارضة4. فهذا اضطراب آخر.
قول الباقلاني الخوارق لاتظهر إلا على يد نبي أو ولي. والرد عليه ...
وادعى إجماع الأمة على أنها لا تظهر على فاسق. ولولا الإجماع لجوز ذلك؛ لأنه لا ينقض دليل النبوة، فصارت تدل على الولاية بالإجماع. على أنها لا تظهر إلا على يد نبي أو ولي. فبهذا الإجماع يعلم أن من ظهرت [على] 5 يده ولي6.
وهذا تناقض من وجهين:
أحدهما: أنهم قد قالوا: إنها لا تدل على الولاية؛ لأن الولي من مات على الإيمان. وهذا غير معلوم.

---

1 انظر: البيان للباقلاني ص 16-20، 23، 72.
2 هذا الكلام غير موجود في المطبوع من كتاب البيان للباقلاني. وقد تقدمت الإشارة إلى أن الكتاب ناقص من آخره.
3 في ((خ)) : جوز. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 انظر: البيان للباقلاني ص 94-95، 96-97، 100.
5 في ((ط)) : عغى. وهو خطأ مطبعي.
6 انظر: البيان للباقلاني ص 91، 103-104، 105.

الفرق بين المعجزات والسحر عند الأشاعرة
الثاني: أنه يقال: إذا جوزت أن يظهر على يد الساحر، والكاهن، ونحوهما من الكفار ما هو من جنس المعجزات والكرامات، وقلت1: يجب أن لا يستثنى من السحر شيء لا يفعل عنده، إلا ما ورد الإجماع والتوقيف على أنه لا يكون بضرب من السحر، ولا يفعل عنده؛ كفلق البحر ونحوه؛ فيكون الفرق بين السحر وغيره [إنما] 2 يعلم بهذا الإجماع، إن ثبت. وإلا فعندك يجوز أن يظهر على يد الساحر كل ما يظهر على يد النبي إذا لم يدع النبوة، [ويحتج] 3 بذلك إذا ادعى النبوة، وعارضه معارض بالمثل. فكيف [تقول] 4 مع هذا: إن الخوارق تدل على الولاية بالإجماع، وأنت تجوز ظهورها على أيدي الكفار؛ من السحرة، والكهان.
فإن قال: السحر والكهانة كانا قبل الرسول، فلما جاء بطلا.
قيل: أنت قد أثبت أن نفسه سحر بعد النبوة5، وأن السحر كان على عهد الصحابة، وقتلوا الساحر، وذكرت إجماع الفقهاء على أن السحر يكون من المسلمين، وأهل الكتاب6، والساحر ليس [بولي لله] 7. والسحر عندك هو من جنس الكرامات. الجميع خارق للعادة، لم يستدل به على النبوة8.

---

1 انظر: قول الباقلاني في كتابه البيان ص 91-98.

2 في ((ط)) : تأنما.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : ولا يحتج.
4 في ((خ)) : يقول. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 انظر: البيان للباقلاني ص 82-83.
6 انظر: البيان للباقلاني ص 78-87.
7 في ((ط)) : بولي الله.
8 انظر: البيان للباقلاني ص 93-97.
فالباقلاني يجعل عمل الساحر من الخوارق، وأنه مما يفعله الله عند سحر الساحر، ولا يستثني من عمل الساحر للخوارق إلا ما ورد الإجماع والتوقيف على أنه لا يكون بضرب من السحر؛ كالآيات الكبرى للأنبياء. أما الفرق بين السحر والمعجزات: فإنه إن ادعى الساحر بسحره النبوة أبطله الله تعالى بوجهين: أحدهما: أنه إذا علم ذلك في حال الساحر، وأنه سيدعي به النبوة، أنساه عمل السحر جملة. والثاني: أن يهيئ الله خلقا من السحرة يفعلون مثل فعله، ويعارضونه، فينتقض بذلك ما ادعاه، ويبطل.
انظر: البيان للباقلاني ص 91، 94-95.
أما الفرق بين المعجزة والكرامة: فليس موجودا في المطبوعة الناقصة من البيان. ولكن الباقلاني ذكر ذلك في رسالته إلى أحد العلماء؛ إذ ذكر فيها أن الفرق هو أن الأمر الخارق للنبي مقرون بالتحدي والاحتجاج، وأن صاحب الكرامة لا يدعي النبوة بكرامته، ولو علم الله أنه يدعي بها، لما أجراها على يديه.
انظر المعيار المعرب 11 250-251، ضمنه رسالة كتبها الباقلاني إلى محمد بن أحمد بن المعتمر المرقي. وقد نقلت النص من كتاب موقف ابن تيمية من الأشاعرة 2 549.
وهذا يؤكد ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عنهم أنهم يجعلون الكرامات من جنس السحر.
وقد صرح الجويني بهذا في كتابه الإرشاد. انظر: الإرشاد ص 322، 328.

فكيف تقول مع هذا: إن الخوارق [لا تكون] 1 إلا لنبي، أو ولي، وأنت [تثبتها] 2 للكفار3.
وهذا كله من جهة أنه أخذ جنس [الخارق] 4 مشتركا؛ فجوز أن يكون للنبي، وغير النبي، مع قوله: إن الخارق لا بد أن يكون خارقا لعادة جميع

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 في ((م)) ، و ((ط)) : أثبتها.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 48-49، 91-98. وانظر: أيضا أصول الدين للبغدادي ص 170.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : الخوارق.

المرسل إليهم. ولكن عنده هذا يحصل بعدم المعارضة. وحينئذ فاشتراط كونه خارقا، ومختصا بمقدور [الرب] 1 باطل.
وهو قد حكى أن الاجماع على أن المعجز لا بد أن يكون خارقا للعادة، فقال: اعلموا رحمكم الله أن الكل من سائر الأمم قد شرطوا في صفة المعجز أن يكون خارقا للعادة2.
[ثم قال3 في فصول الكرامات] 4:

---

1 في ((خ)) : للرب. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 البيان للباقلاني ص 50.
3 أي الباقلاني.
4 قال في ((ط)) : "فصل. ثم قال في فصول الكرامات ... ".
ولا يسلم له صنيعه؛ لأن الكلام متعلق بما سبق؛ من ذكر أقوال القاضي أبي بكر الباقلاني في الكرامات.

[ثم قال1 في فصول الكرامات] 2
فصل3 قول الباقلاني: لايدل على صدق النبي إلا المعجزات ولو لم تدل للزم عجز القديم..

ويقال لهم: إن من الناس من لا يشترط في الآية المعجزة أن تكون خارقا للعادة. وهذا كما ذكر إجماع الناس على أنه لا يدل على صدق النبي إلا المعجزات4، فقال في الاستدلال على أنها لو لم تدل، لزم عجز القديم؛ إذ لا دليل [لقول] 5 كل أحد أثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم، إلا ظهور المعجزة. فهذا إجماع لا خلاف فيه. فلو ظهرت على يد المتنبي، لبطلت دلالة النبوة، ولوجب عجز القديم عن دليل يدل على نبوتهم. وهو نفسه قد ذكر في ذلك عدة أقوال في غير هذا الكتاب6.

---

1 أي: الباقلاني.
2 قال في (ط) : "فصل. ثم قال في فصول الكرامات ... ".
ولا يسلم له صنيعه؛ لأن الكلام متعلق بما سبق؛ من ذكر أقوال القاضي أبي بكر الباقلاني في الكرامات.
3 هذا الفصل في الكرامات لا يوجد في القسم المطبوع من كتاب ((البيان)) للباقلاني، وإلا فالمؤلف ذكر في خطبة الكتاب أنه سيتحدث عن هذا الفصل في آخر الكتاب. وهذا مما يدل على أن الكتاب ناقص في آخره.
4 انظر: البيان للباقلاني ص 37-38. والإرشاد للجويني ص 331.
5 في ((خ)) : يقول. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 أي في غير كتاب البيان الذي يعتمد عليه شيخ الإسلام في سوق أقوال الباقلاني، والرد عليها ببيان تناقضاته.
انظر: التمهيد ص 156-157. والإنصاف ص 93. وكلاهما للباقلاني. وانظر كتاب: البيان له ص 45-48.

وأيضا: فالاستدلال بالإجماع إنما يكون [بعد] 1 ثبوت النبوة، فلا يحتج على مقدمات دليل النبوة بمجرد الإجماع.
سبب عدم ظهور المعجزات على يد الكاذب عند الأشاعرة
وهؤلاء إنما أوقعهم في هذه المناقضات أن القدرية2 يجعلون لربهم شريعة بالقياس على خلقه، ويقولون: لا يجوز أن يفعل كذا، ولا أن يفعل كذا؛ كقولهم: لا يجوز أن يضل هذا، فإنا لو جوزنا عليه الإضلال لجاز أن يظهر المعجزات على أيدي الكذابين؛ فإن غاية ذلك أنه إضلال. وإذا جاز ذلك لم يبق دليل على صدق الأنبياء، ولم يفرق بين الصادق والكاذب. فعارضهم هؤلاء3 بأن قالوا: يجوز أن يفعل كل ممكن مقدور، ليس يجب أن ينزه عن فعل من الأفعال، وليس في الممكنات ما هو قبيح، أو ظلم، أو سيئ، بل كل ذلك حسن وعدل، فله أن يفعله. فقيل لهم: فجوزوا إظهار المعجزات على [أيدي] 4 الكذابين. ففتقوا لهم فتقا، فقالوا5: هذا يلزم

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 المقصود بهم المعتزلة.
وانظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص 133، 564. والمختصر في أصول الدين له ص 237 - ضمن رسائل العدل والتوحيد.
3 أي الأشاعرة. انظر: البيان للباقلاني ص 40-41. والتمهيد له ص 382-386. والإرشاد للجويني ص 258 وما بعدها. والمواقف للإيجي ص 328. وشرح الجوهرة للبيجوري ص 108.
4 في ((خ)) : يدي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 أي الأشاعرة.
انظر من كتب أئمتهم: البيان للباقلاني ص 45-48. والإرشاد للجويني ص 327- 328. وأصول الدين للبغدادي ص 170، 173. والمواقف للإيجي ص 342.

منه عجز الرب عن أن ينصب دليلا يدل على صدق النبي، وإن كان يمكنه أن يعرف صدقهم بالضرورة، فذلك يوجب أن يعرفوا نفسه بالضرورة، وهو يرفع التكليف.
قول شيخ الإسلام في عدم ظهور المعجزات على يد الكاذب..
والتحقيق: أن إظهار المعجزات الدالة على صدق الأنبياء على يد الكاذب لا يجوز، لكن قيل لامتناع ذلك في نفسه؛ كما قاله الأشعري1. وقيل: لأن ذلك يمتنع في حكمة الرب وعدله. وهذا أصح؛ فإنه قادر على ذلك، لو فعله بطلت دلالة المعجز على الصدق2.

وهذا كما أنه قادر على سلب العقول، ولو فعل ذلك لبطلت العلوم. وهو سبحانه لو فعل ذلك قادر على تعريف الصدق بالضرورة، وقادر على أن لا يعرف بذلك، ولا يميز للناس بين الصادق والكاذب، لكنه لا يفعل هذا المقدور. ونحن نعلم بالاضطرار أنه لا يفعل ذلك، وأنه لا يبعث أنبياء

---

1 انظر: المواقف للإيجي؛ فقد نقل ذلك عن الأشعري ص 342.

وانظر ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه المسألة بتوسع في كتبه التالية: شرح الأصفهانية تحقيق السعوي 2 612-624. ودرء تعارض العقل والنقل 1 89-90. والجواب الصحيح 6 393-401.

وذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن مذهب الأشاعرة في إثبات النبوة أنهم يسلكون أحد طريقين: "إما طريق القدرة؛ كما سلكها الأشعري في أحد قوليه، والقاضيان أبو بكر وأبو يعلى، وغيرهما؛ وهو أنه لا طريق إلى تصديق النبي غير المعجزة، فلو لم تكن دالة على التصديق، للزم عجز الباري عن تصديق الرسل. وإما طريق الضرورة؛ كما سلكها الأشعري في قوله الآخر، وأبو المعالي، وطوائف أخر". درء تعارض العقل والنقل 9 52-53.

2 سبق أن أورد الشيخ رحمه الله هذه المسألة في ص 272، 278، 280-282، 580-583، من هذا الكتاب. وسوف يأتي زيادة إيضاح منه رحمه الله لهذه المسألة في ص 1134-1150، 1161-1163 منه.

صادقين يبلغون رسالته ويأمر الناس باتباعهم ويتوعد من كذبهم، فيقوم آخرون كذابون يدعون مثل ذلك، وهو يسوي بين هؤلاء وهؤلاء في جميع ما يفرق به بين الصادق والكاذب. بل قد علمنا من سنته أنه لا يسوي في دلائل الصدق والكذب بين المحدث الصادق، والكاذب، والشاهد الصادق، والكاذب، وبين الذي يعامل الناس بالصدق، والكذب، وبين الذي يظهر الإسلام صادقا، والذي يظهره نفاقا وكذبا، بل يميز هذا من هذا بالدلائل [الكثيرة] 1؛ كما يميز بين العادل وبين الظالم، وبين الأمين وبين الخائن؛ فإن هذا مقتضى سنته التي لا تتبدل، وحكمته التي هو منزه عن نقيضها، وعدله سبحانه بتسويته بين المتماثلات، وتفريقه [بين] 2 المختلفات. فكيف يسوي بين أفضل الناس وأكملهم صدقا، وبين أكذب الناس وشرهم كذبا فيما يعود إلى فساد العالم في العقول، والأديان، والأبضاع، والأموال، والدنيا، والآخرة.

الرد على القدرية في قولهم: لو جوزنا عليه الإضلال لجاز أن يظهر المعجزات على يد الكاذب

وقول [القدري] 3: إذا جاز عليه إضلال من أضله، جاز عليه إضلال بعض الناس. يقال له:

أولا: ليس إظهار المعجزة على أيدي الكذابين من باب الإضلال. بل لو ظهرت على يده لكانت لا تدل على الصدق، فلم يكن دليلا يفرق به بين الصدق والكذب. وعدم الدليل يوجب عدم العلم بذلك الدليل، لا يوجب اعتقاد نقيضه. ولو كان لا يظهرها إلا على يد كاذب، لكانت إنما تدل على

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

3 في ((م)) ، و ((ط)) : القدر.

الكذب؛ فالاشتراك بين الصنفين يرفع دلالتها، واختصاص أحدهما بها يوجب دلالتها على المختص.

ويقال ثانيا: تجويز إضلال طائفة معينة؛ بمعنى أنه حصل لهم الضلال لعدم نظرهم، واستدلالهم، وقصدهم الحق، وجعل قلوبهم معرضة عن طلب الحق وقصده، وأنها تكذب الصادق: ليس هو مثل إضلال العالم كله، ورفع ما يعرف به الحق من الباطل.

بل مثال هذا: مثل من قال: إذا جاز أن [يعمي] 1 طائفة من الناس، جاز أن [يعمي] 2 جميع الناس، فلا يرى أحد شيئا. وإذا جاز أن [يصم] 3 بعض الناس، جاز أن يصم جميعهم، فلا يسمع أحد شيئا. وإذا جاز أن يزمن4 بعض الناس، أو يشل يديه، جاز إزمان جميع الناس، وإشلال أيديهم؛ حتى لا يقدر أحد في العالم على شيء، ولا بطش بيده. وإذا جاز أن يجنن بعض الناس، جاز أن يجنن جميعهم؛ حتى لا يبقى في الأرض إلا مجنون، لا عاقل. وإذا جاز أن يميت بعض الناس، جاز أن يميتهم كلهم في ساعة واحدة، مع بقاء العالم على ما هو عليه. وأن يقال: إذا جاز أن يضل بعض الناس عن قبول بعض الحق، جاز أن يضله عن قبول كل حق؛ حتى لا يصدق أحدا في شيء، ولا يقبل شيئا مما يقال له؛ فلا يأكل، ولا يشرب، ولا يلبس، ولا ينام. وأن كل من أضل جاز أن يفعل به هذا كله.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يعمى.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : يعمى.
3 في ((ط)) : يضم.
4 قال ابن منظور: (الزمن: ذو الزمانة. والزمانة آفة في الحيوانات. ورجل زمن: أي مبتلى بين الزمانة. والزمانة: العاهة..) . لسان العرب 13 199.

وهذا كله مما يعرف بضرورة العقل الفرق بينهما. ومن سوى بين هذا وهذا1، كان مصابا في عقله.
وآيات الأنبياء هي من هذا الباب؛ فلو لم يميز بين الصادق والكاذب، لكان قد بعث أنبياء يبلغون رسالته، ويأمرون بما أمر به؛ من أطاعهم سعد في الدنيا والآخرة، ومن كذبهم شقي في الدنيا والآخرة، وآخرين كذابين يبلغون عنه ما لم يقله، ويأمرون بما نهى عنه، وينهون عما أمر به، ومن اتبعهم شقي في الدنيا والآخرة، ولم يجعل لأحد سبيلا إلى التمييز بين هؤلاء وهؤلاء.
[وهذا] 2 أعظم من أن يقال إنه خلق أطعمة نافعة، وسموما قاتلة، ولم يميز بينهما، بل كل ما أكله الناس، جاز أن يكون من هذا وهذا. ومعلوم أن من جوز مثل هذا على الله، فهو مصاب في عقله.
الله جعل الأشياء متلازمة وكل ملزوم دليل على لازمه..
ثم إن الله جعل الأشياء متلازمة، وكل ملزوم هو دليل على لازمه؛ فالصدق له لوازم كثيرة؛ فإن من كان يصدق، ويتحرى الصدق، كان من لوازمه أنه لا يتعمد الكذب، ولا يخبر بخبرين متناقضين عمدا، ولا يبطن خلاف ما يظهر، ولا يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، ولا يخون أمانته، ولا يجحد حقا هو عليه، إلى أمثال هذه الأمور التي يمتنع أن [تكون] 3 لازمة إلا لصادق؛ فإذا انتفت انتفى الصدق، وإذا وجدت كانت مستلزمة لصدقه. والكاذب بالعكس؛ لوازمه بخلاف ذلك؛ وهذا لأن الإنسان حي ناطق، والنطق من لوازمه الظاهرة لبني جنسه. ومن لوازم النطق: الخبر؛ فإنه ألزم له من الأمر، والطلب؛ حتى قد قيل: إن جميع أنواع الكلام

---

1 أي بين النبي، والمتنبئ.
2 في ((ط)) : وه. وهو خطأ مطبعي.
3 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

[تعود] 1 إلى الخبر؛ فلزم أن يكون من لوازم الإنسان إخباره، [وظهور] 2 إخباره، وكثرته، وأن هذا لا بد من وجوده حيث كان. وحينئذ: فإذا كان كذابا عرف الناس كذبه؛ لكثرة ما يظهر منه من [الخبر] 3 عن الشيء بخلاف ما هو عليه، من أحوال نفسه وغيره، ومما رآه، وسمعه، وقيل له في الشهادة والغيب. ولهذا كل من كان كاذبا ظهر عليه كذبه بعد مدة؛ سواء كان مدعيا للنبوة، أو كان كاذبا في العلم ونقله، أو في الشهادة، أو في غير ذلك4. وإن [كان] 5 مطاعا، كان ظهور كذبه أكثر لما فيه من الفساد.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يعود.
2 في ((ط)) : وظهورا.
3 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
4 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو يشرح حديث أبي سفيان مع هرقل: "فسألهم عن زيادة أتباعه ودوامهم على اتباعه، فأخبروه أنهم يزيدون، ويدومون. وهذا من علامات الصدق والحق؛ فإن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر الأمر، فيرجع عنه أصحابه، ويمتنع عنه من لم يدخل فيه. ولهذا أخبرت الأنبياء المتقدمون أن المتنبئ الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة. وهذه من بعض حجج ملوك النصارى الذين يقال إنهم من ولد قيصر هذا، أو غيرهم حيث رأى رجلا يسب النبي صلى الله عليه وسلم من رؤوس النصارى، ويرميه بالكذب. فجمع علماء النصارى، وسألهم عن المتنبئ الكاذب، كم تبقى نبوته؟ فأخبروه بما عندهم من النقل عن الأنبياء؛ أن الكذاب المفتري لا يبقى إلا كذا وكذا سنة؛ مدة قريبة؛ إما ثلاثين سنة، أو نحوها. فقال لهم: هذا دين محمد له أكثر من خمسمائة سنة أو ستمائة سنة وهو ظاهر مقبول متبوع. فكيف يكون هذا كذابا. ثم ضرب عنق ذلك الرجل". شرح الأصفهانية تحقيق السعوي 2 485.
5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

[و] 1 في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: ملك كذاب، وشيخ زان، وعائل مستكبر - ويروى - وفقير محتال)) 2.
ولهذا كثير من أهل الدول كانوا يتواصون بالكذب، وكتمان أمورهم، ثم يظهر؛ كالقرامطة3. ولهذا امتنع اتفاق الناس على الكذب، والكتمان،

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 1 102-103، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار. مع تقديم، وتأخير في الألفاظ، وليس فيه: وفقير محتال.
3 القرمطة نسبة إلى مذهب القرامطة. ووجه قرمطتهم: أنهم جعلوا للنص معنى باطنا يخالف معناه الظاهر.
والقرامطة: نسبة إلى حمدان قرمط، ولقب بذلك لقرمطة في خطه، أو في خطوه. كان أحد دعاتهم في الابتداء، فاستجاب له جماعة، فسموا قرامطة، وقرمطية. وكان هذا الرجل من أهل الكوفة، وكان يميل إلى الزهد، فصادف أحد دعاة الباطنية، وأثر عليه؛ فاعتنق مذهبهم. ثم لم يزل بنوه وأهله يتوارثون مكانه. وكان أشدهم بأسا: رجل يقال له أبو سعيد. ظهر في سنة ست وثمانين ومائتين، وقوي أمره، وقتل ما لا يحصى من المسلمين، وخرب المساجد، وأحرق المصاحف، وفتك بالحاج، وسن لأهله وأصحابه سننا، وأخبرهم بمحالات. ثم مات، وخلف بعده ابنه أبا طاهر؛ ففعل مثل فعله، وهجم على الكعبة، فأخذ ما فيها من الذخائر، وقلع الحجر الأسود، وحمله إلى بلده، وأوهم الناس أنه الله تعالى الله عن قوله علوا كبيرا.
انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص 289. وفضائح الباطنية للغزالي ص 12. وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص 144-146.
وانظر تعريف شيخ الإسلام رحمه الله للقرمطة في السمعيات في كتابه: نقض تأسيس الجهمية 1 150. والرسالة التدمرية ص 19. وشرح حديث النزول ص 428. وبغية المرتاد ص 183-184. وشرح الأصفهانية 2 451-457. ودرء تعارض العقل والنقل 2 15. ومجموع الفتاوى 12 213، 13 168.

من غير تواطؤ؛ لما جعل الله في النفوس من الداعي إلى الصدق والبيان، وجعل الله في القلوب هداية ومعرفة بين هذا وهذا.
ولم يعرف قط في بني آدم أنه اشتبه صادق بكاذب إلا مدة قليلة، ثم يظهر الأمر. وليس هذا كالضلال في أمور خفية ومشتبهة على أكثر الناس؛ فإن التمييز بين الصادق والكاذب يظهر لجمهور الناس وعامتهم بعد مدة، ولا يطول اشتباه ذلك عليهم، وإنما يشتبه الأمر عليهم فيما لم يتعمد فيه الكذب، بل أخطأ أصحابه؛ فأخذ عنهم تقليدا لهم. وأما مع كون أصحابه يتعمدون الكذب، [فهو] 1 لا يخفى على عامة الناس.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : فهذا.

فصل الفروق بين آيات الأنبياء وغيرها
وقد تقدم1 ذكر بعض الفروق بين آيات الأنبياء وغيرهم. وبينها وبين غيرها من الفروق ما لا يكاد يحصى.
الأول: أن النبي صادق فيما يخبر به عن الكتب، لا يكذب قط. ومن خالفهم من السحرة، والكهان، لا بد أن يكذب؛ كما قال: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم} 2.
الثاني: من جهة ما يأمر به هذا ويفعله، ومن جهة ما يأمر به هذا ويفعله؛ فإن الأنبياء لا يأمرون [إلا] 3 بالعدل، وطلب الآخرة، وعبادة الله وحده، وأعمالهم البر والتقوى. ومخالفوهم يأمرون بالشرك، والظلم، ويعظمون الدنيا، وفي أعمالهم الإثم والعدوان.
الثالث: أن السحر، والكهانة، ونحوهما أمور معتادة معروفة لأصحابها، ليست خارقة لعادتهم. وآيات الأنبياء لا تكون إلا لهم ولمن اتبعهم.
الرابع: أن الكهانة والسحر يناله الإنسان بتعلمه، وسعيه، واكتسابه. وهذا مجرب عند الناس. بخلاف النبوة؛ فإنه لا ينالها أحد باكتسابه.

---

1 انظر: ص 227، 588-631 من هذا الكتاب. وسيأتي أيضا بعض الفروق في ص 728-729، 794-797، 1314-1334 منه.
2 سورة الشعراء، الآيتان 221-222.
3 في ((ط)) : إلى.

الخامس: أن النبوة لو قدر أنها تنال بالكسب، فإنما تنال بالأعمال الصالحة، والصدق، والعدل، والتوحيد. لا تحصل مع الكذب على من دون الله، فضلا عن أن تحصل مع الكذب على الله. فالطريق الذي تحصل به لو حصلت بالكسب مستلزم للصدق على الله فيما يخبر به.
السادس: أن ما يأتي [به] 1 الكهان، والسحرة، لا يخرج عن كونه مقدورا للجن والإنس، وهم مأمورون بطاعة الرسل. وآيات الرسل لا يقدر عليها؛ لا جن، ولا إنس، بل هي خارقة لعادة كل [من] 2 أرسل النبي إليه: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} 3.
السابع: أن هذه يمكن أن تعارض بمثلها. وآيات الأنبياء لا يمكن أحدا أن يعارضها بمثلها.
الثامن: أن تلك ليست خارقة لعادات بني آدم، بل كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء. وأما آيات الأنبياء: فليست معتادة لغير الصادقين على الله، ولمن صدقهم.
التاسع: أن هذه قد لا يقدر عليها مخلوق؛ لا الملائكة، ولا غيرهم؛ كإنزال القرآن، وتكليم موسى. وتلك تقدر عليها الجن والشياطين.
العاشر: أنه إذا كان من الآيات ما يقدر عليه الملائكة؛ فإن الملائكة لا تكذب على الله، ولا تقول لبشر إن الله أرسلك، ولم يرسله. وإنما يفعل ذلك الشياطين. والكرامات معتادة في الصالحين منا، ومن قبلنا، ليست

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
3 سورة الإسراء، الآية 88.

خارقة لعادة الصالحين. وآيات الأنبياء خارقة لعادة الصالحين. وهذه1 تنال بالصلاح؛ بدعائهم، وعبادتهم. ومعجزات الأنبياء لا تنال بذلك. ولو طلبها الناس؛ حتى يأذن الله فيها. {قل إنما الآيات عند الله} 2، {قل إن الله قادر على أن ينزل آية} 3.
الحادي عشر: أن النبي قد تقدمه [أنبياء] 4؛ فهو لا يأمر إلا بجنس ما أمرت به الرسل قبله؛ فله نظراء يعتبر بهم. وكذلك الساحر، والكاهن له نظراء يعتبر بهم.
الثاني عشر: أن النبي لا يأمر إلا بمصالح العباد في المعاش والمعاد؛ فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر؛ فيأمر بالتوحيد، والإخلاص، والصدق؛ وينهى عن الشرك، والكذب، والظلم. فالعقول، والفطر توافقه؛ كما توافقه الأنبياء قبله؛ فيصدقه صريح المعقول وصحيح المنقول الخارج عما جاء به. والله أعلم.

---

1 أي الكرامات.
2 سورة الأنعام، الآية 109.
3 سورة الأنعام، الآية 37.
4 في ((ط)) : الأنبياء.

فصل ما يخالف الكتاب والسنة فهو باطل
ومن تدبر هذا1، وغيره، تبين له أن جميع ما ابتدعه المتكلمون، وغيرهم؛ مما يخالف الكتاب والسنة، فإنه باطل.
المبتدعون المخالفون للكتاب والسنة
ولا ريب أن المؤمن يعلم من حيث الجملة أن ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل. لكن كثير من الناس لا يعلم ذلك في المسائل المفصلة؛ لا يعرف ما الذي يوافق الكتاب والسنة، وما الذي يخالفه؛ كما قد أصاب [كثيرا] 2 من الناس في الكتب المصنفة في

الكلام؛ في أصول الدين، وفي الرأي والتصوف، وغير ذلك؛ فكثير منهم قد اتبع طائفة يظن أن ما يقولونه هو الحق، وكلهم على خطأ وضلال.

خطبة الإمام أحمد

ولقد أحسن الإمام أحمد في قوله في خطبته، وإن كانت مأثورة عمن تقدم3: "الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل

---

1 أي هذه الفروق بين آيات الأنبياء وغيرهم، والتي ذكرها آنفا في الفصل السابق.

2 في ((م)) ، و ((ط)) : كثير.

3 أخرجه ابن عدي في الكامل 1153، والخطيب البغدادي في كتاب أصحاب الحديث ص 28. وقال الهيثمي: يتقوى الحديث بتعدد طرقه، فيكون جسنا. انظر: إرشاد الساري 14.

وذكر ابن القيم لهذا الحديث عدة طرق، في مفتاح دار السعادة 1206-207.

وأورده التبريزي في مشكاة المصابيح رقم 248، وفيه: عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين". رواه البيهقي.

وقد علق الشيخ الألباني على هذا الحديث بأنه مرسل؛ لأن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري هذا تابعي مقل كما قال الذهبي، وراويه عنه معاذ بن رفاعة ليس بعمدة. لكن الحديث قد روي موصولا من طريق جماعة من الصحابة، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في بغية الملتمس (3-4) . وروى الخطيب في شرف أصحاب الحديث (235) عن مهنا بن يحيى قال: سألت أحمد يعني ابن حنبل عن حديث معاذ بن رفاعة عن إبراهيم هذا، فقلت لأحمد: كأنه كلام موضوع؟ فقال: لا، هو صحيح. فقلت له: ممن سمعته أنت؟ قال: من غير واحد. قلت: من هم؟ قال: حدثني به مسكين، إلا أنه يقول: معاذ، عن القاسم بن عبد الرحمن. قال أحمد: معاذ بن رفاعة لا بأس به ... انظر: مشكاة المصابيح 182-83.

وقال الذهبي عن العذري في الميزان: "ما علمته واهيا، أرسل حديث: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله" ...

العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى. فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه. فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم. ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة؛ فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب. يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم. يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم. فنعوذ بالله من فتن المضلين"1.

فهؤلاء أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم، كما قال: مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مفارقة الكتاب.

---

1 انظر: الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ص 85 تحقيق عبد الرحمن عميرة.

أهل البدع مخالفون للكتاب والسنة

وتصديق ما ذكره: أنك لا تجد طائفة منهم توافق الكتاب والسنة فيما جعلوه أصول دينهم. بل [لكل] 1 طائفة أصول دين لهم؛ فهي أصول دينهم الذي هم عليه، ليس هي أصول الدين الذي بعث الله به رسوله، وأنزل به كتابه.

وما هم عليه من الدين، ليس كله موافقا للرسول، ولا كله مخالفا له؛ بل بعضه موافق، وبعضه مخالف؛ بمنزلة أهل الكتاب الذين لبسوا الحق بالباطل؛ كما قال تعالى: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون} 2، وقال تعالى: {يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون} 3.

لكن بعض الطوائف أكثر مخالفة للرسول من بعض، وبعضها أظهر مخالفة. ولكن الظهور أمر نسبي؛ فمن عرف السنة ظهرت له مخالفة من خالفها؛ فقد [تظهر] 4 مخالفة بعضهم للسنة لبعض الناس؛ لعلمه بالسنة دون من لا يعلم منها ما يعلمه هو؛ وقد تكون السنة في ذلك معلومة عند جمهور الأمة؛ فتظهر مخالفة من خالفها؛ كما [تظهر] 5 للجمهور مخالفة الرافضة للسنة. وعند الجمهور هم المخالفون للسنة، فيقولون: أنت سني، أو رافضي؟.

1 في ((ط)) : بكل.
2 سورة البقرة، الآيات 40-42.
3 سورة آل عمران، الآية 71.
4 في ((خ)) : يظهر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((خ)) : يظهر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وكذلك الخوارج: لما كانوا أهل سيف وقتال، ظهرت مخالفتهم للجماعة؛ حين كانوا يقاتلون الناس. وأما اليوم فلا يعرفهم أكثر الناس.

وبدع القدرية، والمرجئة، ونحوهم: لا تظهر مخالفتها بظهور هذين.

ظهور الخوارج

ظهور القدرية والمرجئة

وهاتان البدعتان ظهرتا1 لما قتل عثمان [رضي الله عنه] 2؛ في الفتنة؛ في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] 3. وظهرت [الخوارج] 4 بمفارقة أهل الجماعة، واستحلال دمائهم وأموالهم؛ حتى قاتلهم5 أمير المؤمنين علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] 6 في ذلك لأمر النبي صلى الله عليه وسلم 7.

---

1 وانظر: عرضا لظهور الفتن، وانتشار البدع، والمذاهب في الإسلام في مجموع الفتاوى لابن تيمية 8228-229،، 28490-491. وفي منهاج السنة النبوية له 1306-309.
2 زيادة من ((ط)) .
3 زيادة من ((ط)) .
4 في ((م)) ، و ((ط)) : الخوارق.
5 انظر: سبب خروج الخوارج، وقتال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لهم في موقعة النهروان، في البداية والنهاية لابن كثير 7289-321.
6 زيادة من ((ط)) .
7 يشير رحمه الله إلى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلأن أخر من السماء أحب إلي من أن أقول عليه ما لم يقل. وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم؛ فإن الحرب خدعة؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. فإذا لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة"..". صحيح البخاري 31321-1322، كتاب المناقب، باب علامة النبوة. وصحيح مسلم 2746-747، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج.

الأحاديث في الخوارج

قال الإمام أحمد بن حنبل: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه1.

وهذه2 قد رواها صاحبه مسلم بن الحجاج في صحيحه3، وروى البخاري قطعة منها4.

اتفاق الصحابة على قتال الخوارج

واتفقت الصحابة على قتال الخوارج، حتى إن ابن عمر مع امتناعه عن الدخول في فرقة؛ كسعد5، وغيره من السابقين6. ولهذا لم يبايعوا

---

1 انظر: السنة للخلال 1145. وقال المحقق: إسناده صحيح.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله في غير هذا الكتاب: "قال الإمام أحمد: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه. وقد رواها مسلم في صحيحه، وروى البخاري منها ثلاثة أوجه؛ حديث علي، وأبي سعيد، وسهل بن حنيف. وفي السنن والمسانيد طرق أخر متعددة ... ". مجموع الفتاوى 28512.

2 الأوجه.
3 انظر: صحيح مسلم 2740-746، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، و2746-749 كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، و2750، كتاب الزكاة، باب الخوارج شر الخلق والخليقة.
4 انظر: صحيح البخاري 31148، كتاب الخمس، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم، 31219، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية} ، 41583، كتاب المغازي، باب بعث علي وخالد رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع،، 41927-1928، كتاب فضائل القرآن، باب من راءى بقراءة القرآن، 31321-1322، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، 62539، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج، 62540، كتاب استتابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج للتألف.
5 ابن أبي وقاص رضي الله عنه.
6 اعتزل كثير من الصحابة الفتنة التي وقعت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، فلم يقاتلوا لا مع علي، ولا مع معاوية. ومن هؤلاء: سعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبو بكرة، وعمران بن حصين، وأكثر السابقين الأولين. انظر: منهاج السنة النبوية 1541-542.

لأحد إلا في الجماعة1قال2 عند الموت: ما آسى على شيء إلا على أني لم أقاتل الطائفة الباغية مع علي رضي الله عنه3؛ يريد بذلك قتال الخوارج، وإلا فهو لم يبايع؛ لا لعلي، ولا غيره، ولم يبايع معاوية إلا بعد أن اجتمع الناس عليه. فكيف يقاتل إحدى الطائفتين؟ وإنما أراد المارقة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: "تمرق مارقة على حين فرقة من الناس، يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق"4. وهذا حدث به أبو سعيد5، فلما بلغ ابن عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم في الخوارج، وأمره بقتالهم، تحسر على ترك قتالهم.

الصحابة على ثلاثة أقوال في فتنة الجمل وصفين

فكان قتالهم ثابتا بالسنة الصحيحة الصريحة، وباتفاق الصحابة؛ بخلاف فتنة الجمل وصفين6؛ فإن أكثر السابقين الأولين كرهوا القتال في هذا، وهذا.

السنة دلت على أن عليا أولى الطائفتين

وكثير من الصحابة قاتلوا إما من هذا [الجانب] 7، وإما من هذا الجانب؛ فكانت الصحابة في ذلك على ثلاثة أقوال8.

---

1 انظر: عن الذين اعتزلوا الفتنة؛ كسعد، وابن عمر، فلم يبايعوا لأحد إلا في جماعة: منهاج السنة النبوية 4392-393، و8525-526. والبداية والنهاية 7237.
2 القائل هو عبد الله بن عمر رضي الله عنه.
3 انظر: سير أعلام النبلاء 3231-232.
4 الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 2745-746، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم. والإمام أحمد في مسنده 332، 48.
5 الخدري رضي الله عنه.
6 انظر: خبرهما في البداية والنهاية 7241، وما بعدها،، و 264 وما بعدها.
وانظر: كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في المنهاج 8522-528؛ فهو مشابه للكلام الذي ذكره هنا.
7 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
8 انظر: منهاج السنة النبوية 1535، 541-542،،4501-502،، 7473. ومجموع الفتاوى 2773.

\لكن الذي دلت عليه السنة الصحيحة أن عليا بن أبي طالب [رضي الله عنه] 1 كان أولى بالحق2، وأن ترك القتال بالكلية كان خيرا وأولى؛ ففي الصحيحين عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تمرق مارقة على حين فرقة من الإسلام يقتلهم أولى الطائفتين بالحق"3. وقد ثبت عنه أنه جعل القاعد فيها خيرا من القائم، والقائم خيرا من الماشي، والماشي خيرا من الساعي4، وأنه أثنى على من صالح، ولم يثن على من قاتل؛ ففي البخاري وغيره عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال عن الحسن: "إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين"5؛ فأثنى على الحسن في إصلاح الله به بين الفئتين. وفي صحيح مسلم، وبعض نسخ البخاري: أن النبي صلى الله عليه وسلم [قال] 6 لعمار: "تقتلك الفئة الباغية" 7.

---

1 زيادة من ((ط)) .
2 انظر: منهاج السنة النبوية 4358. ومجموع الفتاوى 2751.
3 تقدم تخريجه آنفا.
4 فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. ومن تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به". الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 31318، كتاب المناقب، باب علامات النبوة. ومسلم في صحيحه 42211-2212، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر.
5 رواه البخاري في صحيحه 2962-963، كتاب الصلح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن ابني هذا لسيد"، و 31328، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
6 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
7 رواه الإمام البخاري في صحيحه 31035، كتاب الجهاد، باب مسح الغبار عن الرأس في سبيل الله. والإمام مسلم في صحيحه 42235-2236، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل.

بقاء الطائفة المنصورة إلى يوم القيامة
وفي الصحيحين أيضا أنه قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة"1؛ قال معاذ: وهم بالشام.
وفي صحيح مسلم عنه أنه قال: "لا يزال أهل المغرب ظاهرين لا يضرهم من خذلهم" 2.
أهل المغرب هم أهل الشام
قال أحمد بن حنبل، وغيره: أهل المغرب: أهل الشام3؛ أي أنها أول المغرب؛ فإن التغريب [والتشريق] 4 أمر نسبي؛ فلكل بلد غرب وشرق، وهو صلى الله عليه وسلم تكلم بمدينته؛ فما تغرب عنها فهو غرب، وما تشرق عنها فهو شرق، وهي5 مسامتة أول الشام من ناحية الفرات؛ كما أن مكة مسامتة لحران6،

---

1 انظر: صحيح البخاري 31329، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، و 62667، كتاب الاعتصام، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، وهم أهل العلم"، و62714، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه} . وانظر: صحيح مسلم 31523-1524، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم".
2 انظر: صحيح مسلم 31525، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم"، ولفظ مسلم: "لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة".
3 انظر: مجموع الفتاوى 2741، 507. وانظر أقوال العلماء في معنى أهل الغرب، في: شرح النووي على مسلم 1368. ومنهاج السنة النبوية 4461-462. وفتح الباري 13308. والمغني لابن قدامة 1320.
4 في ((ط)) : والتشريف.
5 أي المدينة النبوية.
6 قال ياقوت في معجم البلدان: (هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر. بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان) . معجم البلدان 2271.

و [سميساط] 1، ونحوهما2.
قتال صفين من أي الأنواع كان

[وتصويب قتالهم] 3 إن كان بعد الإصلاح، فلم يقع الإصلاح وإن كان عند بغيهم في الاقتتال. وإن لم يكن إصلاح فهؤلاء البغاة لم [يكن] 4 في أصحاب علي من يقاتلهم، بل تركوا قتالهم؛ إما عجزا، وإما تفريطا؛ فترك الإصلاح المأمور به.
وعلى هذا قوتلوا ابتداء قتالا غير مأمور به، ولما صار قتالهم مأمورا به لم يقاتلوا القتال المأمور به، بل نكل أصحاب علي [رضي الله عنه] 5 عن القتال؛ إما عجزا، وإما تفريطا.

---

1 في ((خ)) : سميشاط. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
وسميساط: قال ياقوت في معجم البلدان: (سميساط بضم أوله، وفتح ثانيه، ثم ياء من تحت ساكنة، وسين أخرى، ثم بعد الألف طاء مهملة: مدينة على شاطئ الفرات، في طرف بلاد الروم، على غربي الفرات) . معجم البلدان 3293.
2 وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله معلقا على حديث: "لا يزال أهل المغرب.. ": (وهذا كما ذكروه؛ فإن كل بلد له غرب وشرق، والاعتبار في لفظ النبي صلى الله عليه وسلم بغرب مدينته، ومن الفرات هو غرب المدينة؛ فالبيرة ونحوها على سمت المدينة؛ كما أن حران والرقة وسميساط ونحوها على سمت مكة. ولهذا يقال إن قبلة هؤلاء أعدل القبل؛ بمعنى أنك تجعل القطب الشمالي خلف ظهرك، فتكون مستقبل الكعبة. فما كان غربي الفرات فهو غربي المدينة إلى آخر الأرض. وأهل الشام أول هؤلاء". منهاج السنة النبوية 757.
وانظر مزيد بيان لهذه المسألة في: مجموع الفتاوى 2741-42، 507-508،، 28532.
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((م)) ، و ((ط)) : تكن.
5 زيادة من ((ط)) .

قتال البغاة
والبغاة المأمور بقتالهم: هم الذين بغوا بعد الاقتتال، وامتنعوا من الإصلاح المأمور به؛ فصاروا بغاة مقاتلين.
والبغاة إذا ابتدءوا [بالقتال] 1 جاز قتالهم بالاتفاق؛ كما يجوز قتال [الغواة] 2 قطاع الطريق إذا قاتلوا باتفاق الناس. فأما الباغي من غير قتال، فليس في النص أن الله أمر بقتاله، بل الكفار إنما يقاتلون بشرط [الحراب] 3؛ كما ذهب إليه جمهور العلماء، وكما دل عليه الكتاب والسنة؛ كما هو مبسوط في موضعه4.
أنواع المرتدين الذين قاتلهم الصديق
والصديق قاتل المرتدين الذين ارتدوا عما كانوا فيه على عهد الرسول من دينه، وهم أنواع: منهم من آمن بمتنبىء [كذاب] 5، ومنهم من لم يقر ببعض فرائض الإسلام التي أقر بها مع الرسول، ومنهم من ترك الإسلام بالكلية6.
ولهذا تسمى هذه وأمثالها من الحروب بين المسلمين فتنا؛ كما سماها

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : القتال.
2 في ((خ)) : الغداة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : الجراب. أما في ((خ)) فقد كتب الحراب، ووضع تحت حاء الحراب علامة (ح) إشارة إلى أنها مهملة.
4 انظر: المغني لابن قدامة 12474-483. ومنهاج السنة النبوية 4463، 502. ومجموع الفتاوى 4445، 450، 10374-375، 2741-42، 507-508، 28300-301، 532، 3578-79.
5 في ((خ)) : الكذاب. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 انظر: منهاج السنة النبوية 4494، 501؛ حيث بين شيخ الإسلام رحمه الله أنواع المرتدين الذين قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والجواب الصحيح 6474-475.

النبي صلى الله عليه وسلم 1. والملاحم: ما كان بين المسلمين والكفار.
وبسط هذا له موضع آخر2.
الكلام في الخوارج

والمقصود هنا: أن الخوارج ظهروا في الفتنة، وكفروا عثمان وعليا [رضي الله عنهما] 3، ومن والاهما، وباينوا المسلمين في الدار، وسموا دارهم دار الهجرة4، وكانوا كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم: يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، وكانوا أعظم الناس صلاة وصياما وقراءة؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم؛ يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية"5.

معنى مروقهم من الدين

ومروقهم منه: خروجهم؛ باستحلالهم دماء المسلمين، وأموالهم؛ فإنه قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"6. وهم بسطوا في المسلمين أيديهم وألسنتهم؛ فخرجوا منه.

---

1 فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أشرف على أطم من آطام المدينة، ثم قال: "هل ترون ما أرى. إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع المطر". صحيح مسلم 42211، كتاب الفتن، باب الفتن كمواقع المطر.

وانظر: منهاج السنة النبوية 4450-452؛ فقد ذكر الشيخ رحمه الله عدة أحاديث، فيها إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بما سيكون من الفتن.

2 انظر: منهاج السنة النبوية 6328-344،، 8232-233.

3 زيادة من ((ط)) .

4 انظر: منهاج السنة النبوية 5243.

5 سبق تخريج هذا الحديث ص 680.

6 رواه البخاري في صحيحه 113، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

لا يكفر الخوارج

ولم يحكم علي [رضي الله عنه] 1، وأئمة الصحابة فيهم بحكمهم في المرتدين، بل جعلوهم مسلمين.

قول سعد في الخوارج

وسعد بن أبي وقاص، وهو أفضل من كان قد بقي بعد علي [رضي الله عنه] 2، وهو من أهل الشورى، واعتزل في الفتنة؛ فلم يقاتل، لا مع علي، ولا مع معاوية. ولكنه ممن تكلم في الخوارج، وتأول فيهم قوله3: {وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون} 4.

إحراق علي لمن ادعى فيه الألوهية

وحدث أيضا طوائف الشيعة الإلهية الغلاة، فرفع إلى علي [رضي الله عنه] 5 منهم طائفة ادعوا فيه الإلهية، فأمرهم بالرجوع، فأصروا، فأمهلهم ثلاثا، ثم أمر بأخاديد من نار فخدت، وألقاهم فيها؛ فرأى قتلهم بالنار6.

اختلاف ابن عباس مع علي في تحريق الزنادقة

وأما ابن عباس: فقال7: لو كنت أنا لم أحرقهم بالنار؛ لنهي [رسول

---

1 زيادة من ((ط)) .

2 زيادة من ((ط)) .

3 انظر: منهاج السنة النبوية 5250. وتفسير ابن كثير 165.

4 سورة البقرة، الآيتان 26-27.

5 زيادة من ((ط)) .

6 انظر: منهاج السنة النبوية 1306-307،، 261-65،، 3459.

وقد قال وقتها:

لما رأيت الأمر أمرا منكرا ... أججت ناري ودعوت قنبرا

انظر: مجموع الفتاوى 1332-34. وانظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم 547. وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 8169.

7 انظر قوله في: صحيح البخاري 31098،، 62537. ومنهاج السنة النبوية 1307. وسير أعلام النبلاء 3346.

الله] 1 صلى الله عليه وسلم أن يعذب بعذاب الله، ولضربت أعناقهم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: "من بدل دينه فاقتلوه". رواه البخاري2. وأكثر الفقهاء على قول ابن عباس.
ابن السوداء وإفساده في الدين
وروي أنه بلغه أن ابن السوداء3 يسب أبا بكر وعمر [رضي الله عنهما] 4، فطلب قتله، فهرب منه5. فإما قتله على السب، أو لأنه كان متهما بالزندقة.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 الحديث رواه البخاري 31098، كتاب الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله، 62537، كتاب استتابة المرتدين، باب حكم المرتد والمرتدة.
3 هو عبد الله بن سبأ، رأس الطائفة السبئية، كانت تقول بألوهية علي. أصله من اليمن، وكان يهوديا من يهود صنعاء، أظهر الإسلام، ورحل إلى الحجاز، فالبصرة، فالكوفة، ودخل دمشق في أيام عثمان بن عفان، فأخرجه أهلها، فانصرف إلى مصر، وجهر ببدعته. ومن مذهبه: رجعة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا، فكان يقول: العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب برجوع محمد. ولما بويع علي قام إليه ابن سبأ، فقال له: أنت خلقت الأرض، وبسطت الرزق، فنفاه إلى ساباط المدائن، حيث القرامطة وغلاة الشيعة. عرف بابن السوداء لسواد أمه. قال ابن حجر: ابن سبأ من غلاة الزنادقة، أحسب أن عليا حرقه بالنار. وقال شيخ الإسلام: إن عليا لما بلغه قول السبئية طلب ابن السوداء الذي بلغه ذلك عنه، وقيل: إنه أراد قتله، فهرب منه إلى أرض قرقيسيا.
والسبئية يزعمون أن عليا لم يمت، وأنه يرجع إلى الدنيا، وكذلك الأموات يرجعون إلى الدنيا بزعمهم
انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري 186. والفرق بين الفرق ص 233-236. والملل والنحل 1174. ومنهاج السنة النبوية 123، 30، 308،، 8479. والبداية والنهاية 4174. ولسان الميزان 3289.
4 زيادة من ((ط)) .
5 انظر: منهاج السنة النبوية 111، 308.

وقيل: إنه هو الذي ابتدع بدعة الرافضة، وأنه كان قصده إفساد دين الإسلام1. وهذا يستحق القتل باتفاق المسلمين.
حكم من سب أبابكر وعمر
والذين يسبون أبا بكر وعمر [رضي الله عنهما] 2، فيهم [تزندق] 3؛ كالإسماعيلية، والنصيرية؛ فهؤلاء يستحقون القتل بالإتفاق. وفيهم من يعتقد [نبوة] 4 النبي صلى الله عليه وسلم؛ كالإمامية؛ فهؤلاء في قتلهم نزاع، وتفصيل مذكور في غير هذا الموضع5.
وتواتر عن علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] 6 أنه قال: "خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر"7.
قدماء الشيعة يفضلون أبا بكر وعمر
وهذا متفق عليه بين قدماء الشيعة، وكلهم كانوا يفضلون أبا بكر وعمر [رضي الله عنهما] 8، وإنما كان النزاع في علي وعثمان [رضي الله عنهما] 9 حين صار لهذا شيعة، ولهذا شيعة. وأما أبو بكر وعمر [رضي الله عنهما] 10: فلم يكن أحد يتشيع لهما، بل جميع الأمة كانت متفقة عليهما؛ حتى الخوارج فإنهم يتولونهما، وإنما يتبرءون من علي وعثمان11 [رضي الله عنهما] 12.

---

1 انظر: الملل والنحل للشهرستاني 1174. ومنهاج السنة النبوية 123، 30، 308، 6361، 7511، 8251، 479.
2 زيادة من ((ط)) .
3 في ((خ)) : تزنديق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((م)) ، و ((ط)) : بنبوة.
5 انظر هذه المسألة بالتفصيل، مع أدلتها، وأقوال العلماء فيها في: الصارم المسلول على شاتم الرسول ص 566-587.
6 زيادة من ((ط)) .
7 انظر: منهاج السنة النبوية 1308،، 2138.
8 من ((ط)) .

9 من ((ط)) .
10 من ((ط)) .
11 انظر: منهاج السنة النبوية 113،، 7369، 472.
12 من ((ط)) .

وروي1 أن معاوية قال: لابن عباس: أنت على ملة علي، أم عثمان؟ قال: لا على ملة علي، ولا عثمان، أنا على ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
اتفاق شيعة علي وشيعة عثمان على تقديم الشيخين
وكان كل من الشيعيتن يذم الآخر بما برأه الله منه؛ فكان بعض شيعة عثمان يتكلمون في علي بالباطل، وبعض شيعة علي يتكلمون في عثمان بالباطل. والشيعتان مع سائر الأمة متفقة على تقديم أبي بكر وعمر.
قيل لشريك بن عبد الله القاضي2: أنت من شيعة علي، وأنت تفضل أبا بكر وعمر؟! فقال: كل شيعة علي على هذا؛ هو يقول على أعواد هذا المنبر: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر. أفكنا نكذبه! والله ما كان كذابا3.
وقد روى البخاري في صحيحه4 من حديث محمد بن الحنفية، أنه قال له5: يا أبت من خير الناس بعد رسول الله؟ فقال: يا بني أوما تعرف؟

---

1 انظر: حلية الأولياء 1329. وسير أعلام النبلاء 3342.
2 هو شريك بن عبد الله بن أبي نمر المدني المحدث. مات قبل الأربعين ومائة.
انظر: سير أعلام النبلاء 6159. وتهذيب التهذيب 4337.
3 انظر: منهاج السنة 113-14؛ حيث ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أنه نقل قول شريك عن عبد الجبار المعتزلي في كتابه تثبيت النبوة. انظر: تثبيت النبوة لعبد الجبار 1549.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وقد روي عن علي من نحو ثمانين وجها وأكثر أنه قال على منبر الكوفة: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر". مجموع الفتاوى 4407.
4 صحيح البخاري 31342، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذا خليلا.. ".
5 أي لعلي رضي الله عنه.

قال: لا. قال: أبو بكر. قال: ثم من؟ قال: ثم عمر. وهو مروي من حديث الهمدانيين؛ شيعة علي، عن أبيه.
وروي عن علي أنه قال:
ولو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام1.
وقد روي عنه2 أنه قال: "لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري".
قتل علي لمن اعتقد إلهيته
وقد ثبت عن علي رضي الله عنه بالأحاديث الثابتة، بل المتواترة أنه قتل الغالية؛ كالذين يعتقدون إلهيته، بعد أن استتابهم ثلاثا كسائر المرتدين، وأنه كان يبالغ في عقوبة من يسب أبا بكر وعمر، وأنه كان يقول إنهما خير هذه الأمة بعد نبيها. وهذا مبسوط في مواضع3.
والمقصود هنا: أن هاتين4 حدثتا في ذلك الوقت5.

---

1 انظر: منهاج السنة النبوية 6137،، 7511. ومجموع الفتاوى 4407.
2 فضائل الصحابة للإمام أحمد 183. قال المحقق: إسناده ضعيف.
وانظر: منهاج السنة 1308،، 6138،، 7511. ومجموع الفتاوى 4407.
3 انظر: منهاج السنة النبوية 1306-308. ومجموع الفتاوى 4406-407.
4 بدعة الخوارج، وبدعة الروافض.

5 انظر: منهاج السنة النبوية 1306-310؛ فقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله فيه موضوعا مشابها لما ذكر هنا حول نشأة الفرق وتطورها في الإسلام. وانظر: مجموع الفتاوى 1331-40، 48-50.

بدعة القدرية حدثت في آخر عهد الصحابة

ثم في آخر عصر الصحابة: حدثت القدرية، وتكلم فيها من بقي من الصحابة؛ كابن عمر1، وابن عباس2 [وواثلة] 3 بن الأسقع، وغيرهم4.

بدعة الإرجاء

وحدثت أيضا بدعة المرجئة في الإيمان.

والآثار عن الصحابة ثابتة بمخالفتهم، وأنهم5 قالوا: الإيمان يزيد وينقص6؛ كما ثبت ذلك عن الصحابة؛ كما هو مذكور في موضعه7.

أصول البدع أربعة

بدعة الجهمية حدثت في أواخر الدولة الأموية

وأما الجهمية نفاة الأسماء والصفات: فإنما حدثوا في أواخر الدولة الأموية8. وكثير من السلف لم يدخلهم في الثنتين وسبعين فرقة؛ منهم: يوسف بن أسباط، وعبد الله بن المبارك؛ قالوا: أصول البدع أربعة: الخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة. فقيل لهم: الجهمية؟ فقالوا: ليس هؤلاء من أمة محمد9.

---

1 وقول ابن عمر رضي الله عنهما مخرج في صحيح مسلم 136، كتاب الإيمان، باب الإيمان، والإسلام، والإحسان. وفيه قوله رضي الله عنه لمن نقل له مقولة القدرية، وأنهم يقولون إن الأمر أنف: "فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني. والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ... ثم ذكر رضي الله عنه حديث جبريل المشهور في بيان الإسلام، والإيمان، والإحسان.

2 انظر قول ابن عباس في كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد 2125-126.

3 في ((م)) ، و ((ط)) : ووائلة.

4 انظر: مجموع الفتاوى 7384-385. ومنهاج السنة النبوية 1309.

5 أي الصحابة رضي الله عنهم.

6 انظر: كتاب الإيمان لابن أبي شيبة 1-46. وكتاب الإيمان لأبي عبيد. وكتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد.

7 انظر: مجموع الفتاوى 7223-227، 507،، 8450.

8 انظر: منهاج السنة النبوية 1309.

9 سبق تخريجه ص 498.

وانظر: رسالة السجزي ص 216. ورسالة إلى أهل الثغر للأشعري ص 308. والإيمان لابن بطة 1380. ودرء تعارض العقل والنقل 7110. والرد على المنطقيين ص 143.

الجهمية ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة

ولهذا تنازع من بعدهم من أصحاب أحمد، وغيرهم: هل هم من الثنتين وسبعين؟ على قولين؛ ذكرهما عن أصحاب أحمد: أبو عبد الله بن حامد1 في كتابه في الأصول2.

الجهمية ينفون الأسماء والصفات

والتحقيق: أن التجهم المحض؛ وهو نفي الأسماء والصفات؛ كما يحكى عن جهم، والغالية من الملاحدة، ونحوهم ممن نفى أسماء الله الحسنى كفر، بين، مخالف لما علم بالإضطرار من دين الرسول3.

المعتزلة ينفون الصفات

وأما نفي الصفات، مع إثبات الأسماء؛ كقول المعتزلة4: فهو دون [هذا] 5. لكنه عظيم أيضا.

---

1 هو أبو عبد الله الحسن بن حامد بن علي بن مروان البغدادي. قال عنه ابن أبي يعلى: إمام الحنبلية في زمانه، ومدرسهم، ومفتيهم. له المصنفات في العلوم المختلفات، له الجامع في المذهب نحو من أربعمائة جزء، وله شرح الخرقي، وشرح أصول الدين، وأصول الفقه. توفي سنة 403.
انظر: طبقات الحنابلة 2171-177. والبداية والنهاية 11349.
2 لم أقف على هذا الكتاب. وشيخ الإسلام ينقل عنه كثيرا، ويسميه أصول الدين. انظر: درء تعارض العقل والنقل 275. ومجموع الفتاوى 6162، 163) .
3 انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص211. ومنهاج السنة النبوية 1309-312. والبداية والنهاية 9364. والخطط للمقريزي 2349.
وقد تكلم الشيخ رحمه الله عن تنازع الناس في الجهمية: هل هم من الثنتين والسبعين فرقة، أم لا؟. وقد سبق ذكر هذا النص ص 497.
انظر: شرح الأصفهانية 2239-240. ومجموع الفتاوى 3350، 354.
4 انظر: الفرق بين الفرق ص 20، 114. والملل والنحل 143. والخطط للمقريزي 2345. والبرهان في عقائد أهل الأديان ص 49.
5 في ((ط)) : ذها.

الأشاعرة يثبتون الصفات العقلية
وأما من أثبت الصفات المعلومة بالعقل والسمع، وإنما نازع في قيام الأمور الاختيارية [به] 1؛ كابن كلاب، ومن اتبعه2. فهؤلاء ليسوا جهمية، بل وافقوا جهما في بعض قوله، وإن كانوا خالفوه في بعضه. وهؤلاء من أقرب الطوائف إلى السلف وأهل السنة والحديث.
معتقد السالمية والكرامية
وكذلك السالمية3، والكرامية، ونحو هؤلاء يوافقون في جملة أقوالهم المشهورة؛ فيثبتون الأسماء والصفات، والقضاء والقدر في الجملة ليسوا من الجهمية، والمعتزلة النفاة للصفات. وهم أيضا يخالفون الخوارج،

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن نفاة قيام الأفعال الاختيارية بالله نوعان، فقال رحمه الله: "أحدهما وهم الأصل: المعتزلة ونحوهم من الجهمية. فهؤلاء ينفون الصفات مطلقا، وحجتهم على نفي قيام الأفعال به من جنس حجتهم على نفي قيام الصفات به. وهم يسوون في النفي بين هذا وهذا؛ كما صرحوا بذلك. وليس لهم حجة تختص بنفس قيام الحوادث...... وأما مثبتة الصفات الذين ينفون الأفعال الاختيارية القائمة به؛ كابن كلاب، والأشعري؛ فإنهم فرقوا بين هذين؛ بأنه لو جاز قيام الحوادث به لم يخل منها؛ لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث. وبهذا استدلوا على حدوث الأجسام؛ لأنها لا تخلو من الأعراض الحادثة؛ كالحركة، والسكون، والاجتماع، والافتراق ... ". ثم أجابهم رحمه الله بثلاثة أجوبة.
انظر: شرح الأصفهانية - ت السعوي - 2441.
وانظر: رسالة السجزي ص 173. ودرء تعارض العقل والنقل 216-18. وجامع الرسائل 27. ومنهاج السنة النبوية 2227-229.
3 السالمية: فرقة من أهل الكلام فيها تصوف، تنتسب إلى محمد بن سالم، المتوفى سنة 297 ?، وابنه أحمد المتوفى سنة 350 ?. ومن أشهر رجالها: أبو طالب المكي صاحب كتاب قوت القلوب.
انظر: المعتمد في أصول الدين ص390. والفرق بين الفرق ص157-202. ودائرة المعارف الإسلامية 1169. وشذرات الذهب 336.

والشيعة؛ فيقولون بإثبات خلافة الأربعة، وتقديم أبي بكر وعمر، ولا يقولون بخلود أحد من أهل القبلة في النار.
الكرامية والكلابية وأكثر الأشعرية: مرجئة

لكن الكرامية، والكلابية، وأكثر الأشعرية: مرجئة1، وأقربهم الكلابية؛ يقولون: الإيمان: هو التصديق بالقلب، والقول باللسان، والأعمال ليست منه؛ كما يحكى هذا عن كثير من فقهاء الكوفة؛ مثل أبي حنيفة، [وأصحابه] 23.

الأشعري وأصحابه يوافقون جهما في بعض قوله في الإيمان

وأما الأشعري4: فالمعروف عنه، وعن أصحابه: أنهم يوافقون جهما في قوله في الإيمان، وأنه مجرد تصديق القلب، أو معرفة القلب. لكن قد يظهرون مع ذلك قول أهل الحديث، ويتأولونه، ويقولون بالاستثناء على الموافاة؛ فليسوا موافقين لجهم من كل وجه، وإن كانوا أقرب الطوائف إليه في الإيمان، وفي القدر أيضا5؛ فإنه6 رأس الجبرية؛ يقول: ليس للعبد فعل البتة7.

---

1 انظر: رسالة السجزي ص217. والخطط للمقريزي 2357. وشرح الأصفهانية - ت السعوي - 2587-588. ومجموع الفتاوى 7509، 543، 550.

2 في ((خ)) : أصعا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 انظر: الفقه الأكبر بشرح ملا علي القاري ص 126. ومجموع الفتاوى 7195، 297، 507. وشرح الأصفهانية ت السعوي 586-2585.

4 انظر: التمهيد للباقلاني ص 388، 389. وأصول الدين للبغدادي ص 252. والمواقف للإيجي ص 388. ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام 7120، 154.

5 انظر: مجموع الفتاوى 8229، 339-340. والتسعينية ص 255-256.

6 أي الجهم.

7 انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري 1338. والفرق بين الفرق للبغدادي ص 211. والملل والنحل للشهرستاني 187-88.

كسب الأشعري

والأشعري يوافقه1 على أن العبد ليس بفاعل، ولا له قدرة مؤثرة في الفعل، ولكن يقول: هو كاسب2.

جهم يقول بالجبر

وجهم لا يثبت له شيئا، لكن هذا الكسب؛ يقول أكثر الناس: إنه لا يعقل فرق بين الفعل الذي نفاه، والكسب الذي أثبته. وقالوا: عجائب الكلام ثلاثة: [طفرة] 3 النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري. وأنشدوا4:

عجائب الكلام

مما يقال ولا حقيقة عنده ... معقولة تدنو إلى الأفهام

الكسب5 عند الأشعري والحال6 عنـ ... د [البهشمي] 7 و [طفرة] 8 النظام

---

1 أي يوافق جهما.

2 سبق أن أوضحت معنى الكسب ص 558-559.

3 في ((خ)) : ظفرة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 انظر: منهاج السنة 1459، 2297. وشرح الأصفهانية - ت السعوي - 1149-150. ودرء تعارض العقل والنقل 3444، 8320. وكتاب الصفدية 1151-154.

5 سبق التعريف بالكسب: ص 461-462.

6 الحال في اللغة: نهاية الماضي، وبداية المستقبل. التعريفات للجرجاني ص 110.

والأحوال عند من يثبتها: لا موجودة، ولا معدومة، ولا هي أشياء، ولا هي مخلوقة، ولا غير مخلوقة.

واشتهر بها أبو هاشم بن الجبائي، وأتباعه البهشمية.

انظر: الإرشاد للجويني ص 80. والفرق بين الفرق ص 184، 195-196. والفصل في الملل والأهواء والنحل 549. ونهاية الإقدام ص 131-132.

7 في ((خ)) : النهشمي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

8 في ((خ)) : ظفرة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

والطفرة اشتهر بها النظام من المعتزلة. ومعناها عنده: أن الجسم قد يكون في مكان، ثم يصير منه إلى المكان الثالث، أو العاشر من غير مرور بالأمكنة المتوسطة بينه وبين العاشر، ومن غير أن يصير معدوما في الأول، ومعادا في العاشر.

انظر: مقالات الإسلاميين 219. والفرق بين الفرق ص 140. والفصل لابن حزم 564-65. والملل والنحل للشهرستاني 170-71.

قول الكرامية في الإيمان لم يسبقوا إليه

وأما الكرامية: فلهم في الإيمان قول ما سبقهم إليه أحد؛ قالوا: هو الإقرار باللسان، وإن لم يعتقد بقلبه. وقالوا: المنافق هو مؤمن، ولكنه مخلد في النار. وبعض الناس [يحكي] 1 عنهم: أن المنافق في الجنة. وهذا غلط عليهم، بل هم يجعلونه مؤمنا، مع كونه مخلدا في النار؛ فينازعون في الاسم، لا في الحكم.

منشأ الغلط في أقوال أهل البدع في الإيمان

وقد بسط القول2 على منشأ الغلط؛ حيث ظنوا [أن الإيمان] 3 لا يكون إلا شيئا متماثلا عند جميع الناس؛ إذا ذهب بعضه، ذهب سائره.

قول الخوارج والمعتزلة في الإيمان

ثم قالت الخوارج والمعتزلة4: وهو أداء الواجبات، واجتناب المحرمات؛ فاسم المؤمن مثل اسم البر، والتقي؛ وهو المستحق للثواب، فإذا ترك بعض [ذلك] 5 زال عنه اسم الإيمان والإسلام.

ثم قالت الخوارج: ومن لم يستحق هذا ولا هذا فهو كافر. وقالت المعتزلة: بل ينزل منزلة بين المنزلتين؛ فنسميه فاسقا، لا مسلما، ولا كافرا، ونقول: إنه مخلد في النار. وهذا هو الذي امتازت به المعتزلة، وإلا فسائر بدعهم قد قالها غيرهم؛ فهم وافقوا الخوارج في حكمه، ونازعوهم، ونازعوا غيرهم في الاسم.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يحكى.

2 انظر: منهاج السنة النبوية 3462. ومجموع الفتاوى 7140-141، 404، 509، 511، 514-517. وشرح الأصفهانية - ت السعوي - 2586-587.

3 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .

4 انظر: مجموع الفتاوى 7222-223، 242، 257، 510، و1348. وشرح الأصفهانية - ت السعوي - 2574، 586-587.

5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

قول الجهمية والمرجئة في الإيمان

وقالت الجهمية والمرجئة1: بل الأعمال ليست من الإيمان، لكنه شيئان، أو ثلاثة يتفق فيها جميع الناس: التصديق بالقلب، والقول باللسان، أو المحبة، والخضوع مع ذلك.

وقالت الجهمية والأشعرية والكرامية2: بل ليس إلا شيئا واحدا يتماثل فيه الناس.

أصل غلط أهل البدع في الإيمان ظنهم أن الناس يتماثلون فيه

وهؤلاء الطوائف أصل غلطهم3: ظنهم أن الإيمان يتماثل فيه الناس، وأنه إذا ذهب بعضه، ذهب كله. وكلا الأمرين غلط؛ فإن الناس لا يتماثلون؛ لا فيما وجب منه، ولا فيما يقع منهم، بل الإيمان الذي وجب على بعض الناس قد لا يكون مثل الذي يجب على غيره؛ كما كان [الإيمان بمكة لم يكن الواجب منه كالواجب بالمدينة، ولا كان في آخر الأمر كما كان] 4 في أوله.

ولا يجب على أهل الضعف والعجز من الإيمان، ما يجب على أهل القوة والقدرة في العقول والأبدان5.

بل أهل العلم بالقرآن، والسنة، ومعاني ذلك يجب عليهم من تفصيل الإيمان ما لا يجب على من لم يعرف ما عرفوا. وأهل الجهاد يجب عليهم من الإيمان في تفصيل الجهاد ما لا يجب على غيرهم. وكذلك ولاة الأمر،

---

1 انظر: مجموع الفتاوى 7141، 143، 154، 508، 509. وشرح الأصفهانية - ت السعوي - 2574-575.

2 انظر: مجموع الفتاوى 7508-509، 582.

3 وقد استوفى الشيخ رحمه الله الرد عليهم، وتبيين غلطهم. انظر: مجموع الفتاوى 7511-513.

4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

5 انظر: مجموع الفتاوى 7519. وشرح الأصفهانية - ت السعوي - 2577-578.

وأهل الأموال يجب على كل؛ من معرفة ما أمر الله به، ونهى عنه، وأخبر به ما لا يجب على غيره. والإقرار بذلك من الإيمان.
ومعلوم أنه وإن كان الناس كلهم يشتركون في الإقرار بالخالق، وتصديق الرسول جملة، فالتفصيل لا يحصل بالجملة. ومن عرف ذلك مفصلا، لم يكن ما أمر به ووجب عليه، مثل من لم يعرف ذلك.
الناس غير متماثلين في فعل المأمور
وأيضا: فليس الناس متماثلين في فعل ما أمروا به؛ من اليقين، والمعرفة، والتوحيد، وحب الله، وخشية الله، والتوكل على الله، والصبر لحكم الله، وغير ذلك مما هو من إيمان القلوب، ولا [من] 1 لوازم ذلك [التي] 2 تظهر على الأبدان. وإذا قدر أن بعض ذلك زال، لم يزل سائره. بل يزيد الإيمان تارة وينقص تارة؛ كما ثبت ذلك عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ مثل عمر بن حبيب الخطمي، وغيره؛ أنهم قالوا: الإيمان يزيد وينقص3؛ كما قد بسط في غير هذا الموضع4.
مخالفة أهل البدع لأصول دين الرسول صلى الله عليه وسلم
إذ المقصود هنا: أن طوائف أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم ليس فيهم من يوافق الرسول في أصول دينه لا فيما اشتركوا فيه ولا فيما انفرد به بعضهم. فإنهم وإن اشتركوا في مقالات فليس إجماعهم حجة، ولا هم معصومون من الاجتماع على خطأ.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : في.
2 في ((ط)) : الشيء.
3 انظر: طبقات ابن سعد 4381. والمصنف لابن أبي شيبة 1113. والإيمان له ص 7. والسنة لعبد الله بن الإمام أحمد 1315. والشريعة للآجري ص 112. وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى 1307. وشرح اعتقاد أهل السنة للالكائي 577، 721.
4 انظر: مجموع الفتاوى 7223-227.

وقد زعم طائفة1 أن إجماع المتكلمين في المسائل الكلامية كإجماع الفقهاء. وهذا غلط، بل السلف قد استفاض عنهم ذم المتكلمين، وذم أهل الكلام مطلقا2.
اشتراك أهل البدع في دليل الأعراض
ونفس ما اشتركوا فيه؛ من إثبات الصانع بطريقة الأعراض، وأنها لازمة للجسم أو متعاقبة عليه، فلا يخلو منها، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها، وأن الله يمتنع أن يقال إنه لم يزل متكلما بمشيئته بعد أن لم يكن بلا حدوث حادث، وما يتبع هذا هو أصل مبتدع في الإسلام؛ أول ما عرف أنه قاله الجهم بن صفوان مقدم

---

1 من هؤلاء الرازي.
2 تقدمت الإشارة إلى ذلك ص 320-324.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن طرق أهل الكلام المبتدعة المذمومة: (ولم تكن هذه الطرق شرعية بل بدعية؛ لأن معرفة الله ورسوله لا تتوقف على هذه المسائل، ولأن كثيرا من النظار اعتقدوا أن هذا من أصول الدين وقواعد الإيمان، فتكلموا في ذلك بالكلام الذي ذمه السلف والأئمة.
وهؤلاء هم الجهمية من المعتزلة ومن اتبعهم، وأصل كلامهم أنهم قالوا: لا يعرف صدق الرسول حتى يعرف إثبات الصانع، ولا يعرف إثبات الصانع حتى يعرف حدوث العالم، ولا يعلم حدوث العالم إلا بما به يعلم حدوث الأجسام، ثم استدلوا على حدوث الأجسام بطرق، أحدها: أنه لا يخلو عن الحوادث، وما لم يخل عن الحوادث فهو حادث ...) . شرح الأصفهانية 1264. وانظر: المصدر نفسه 2328-331.
وقال الإمام البربهاري: (واعلم أنها لم تكن زندقة ولا كفر ولا شكوك ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدين إلا من الكلام وأهل الكلام والجدل والمراء والخصومة والعجب) . شرح السنة ص 48.
وانظر: ذم السلف لأهل الكلام في: شرح الأصفهانية 2318. ودرء تعارض العقل والنقل 1232.

الجهمية1، وأبو الهذيل العلاف مقدم المعتزلة2.
اللوازم التي التزمها أصحاب الدليل

ولهذا طرداه3؛ فقالا بامتناع الحوادث في المستقبل، وقال الجهم بفناء الجنة والنار. وقال أبو الهذيل بانقطاع حركاتهما؛ كما قد بسط فروع هذا الأصل الذي اشتركوا فيه4.

الجهمية والمعتزلة نفوا لأجله الصفات وقالوا بخلق القرآن

ثم افترقوا بعد ذلك في فروعه؛ فأئمتهم كانوا يقولون كلام الله؛ القرآن وغيره مخلوق، وكذلك سائر ما يوصف به الرب ليس له صفة قامت به؛ لأن ذلك عرض عندهم لا يقوم إلا بجسم، والجسم حادث5؛ فقالوا: القرآن وغيره من كلام الله مخلوق، وكذلك سائر ما يوصف به الرب6.

---

1 انظر: رسالة إلى أهل الثغر لأبي الحسن الأشعري ص 185. والفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ص 96. ومجموع الفتاوى له 13147. وشرح الأصفهانية 2328-330، 340.

2 انظر: شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص 95. وأبو الهذيل العلاف لعلي مصطفى الغرابي ص 52. وعلم الكلام للدكتور أحمد محمود صبحي 1339 القسم الخاص بالمعتزلة. ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن بدوي الجزء الأول الخاص بالمعتزلة والأشاعرة ص 397.

3 أي طردا أصلهما: امتناع حوادث لا أول لها.

4 انظر: من كتب ابن تيمية: شرح حديث النزول ص 162. ومجموع الفتاوى 3304-305. ودرء تعارض العقل والنقل 139. والفتاوى المصرية 1135. ومنهاج السنة النبوية 1157.

5 انظر: الانتصار والرد على ابن الراوندي للخياط ص 111، 170-171. وشرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص 200-201. ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية 3361. ودرء تعارض العقل والنقل له 211. والإرادة والأمر له - ضمن مجموعة الرسائل الكبرى - 1383-384.

6 انظر: الكشاف للزمخشري 288،، 3411. والمغني في أبواب العدل والتوحيد لعبد الجبار 784، 94. وشرح الأصول الخمسة له ص 528. والمحيط بالتكليف له ص 32، 107، 155، 316، 331، 333. ومتشابه القرآن له 1545. ومقالات الإسلاميين للأشعري 1244-245. والفرق بين الفرق للبغدادي ص 114. والتبصير في الدين للاسفراييني ص 64. والمنية والأمل لابن المرتضى المعتزلي ص 6. والملل والنحل للشهرستاني ص 44. واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص 33. وانظر: من كتب ابن تيمية: تفسير سورة الإخلاص ص 151-152. ومنهاج السنة النبوية 2107. ومجموع الفتاوى 12315-316.

فجاء بعدهم؛ مثل ابن كلاب، وابن كرام، والأشعري، وغيرهم من شاركهم في أصل قولهم1، لكن قالوا بثبوت الصفات لله، وأنها قديمة2.

قول الأشعري الصفات لا تسمى أعراضا

لكن منهم3 من قال: لا تسمى أعراضا؛ لأن العرض لا يبقى زمانين، وصفات الرب باقية؛ كما يقوله الأشعري وغيره4.

---

1 في امتناع حوادث لا أول لها.

2 انظر: الفتاوى المصرية لابن تيمية 6442-443. ومجموع الفتاوى 636. ودرء تعارض العقل والنقل 26-12،، 5245-246،، 7147-148. ومنهاج السنة النبوية 1312. والفرقان بين الحق والباطل ص 86، 100.

3 وهم الأشاعرة. وقد نقل الإيجي والرازي اتفاقهم على ذلك. انظر: المواقف في علم الكلام للإيجي ص 101. ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص 265.

4 وانظر: من كتب الأشاعرة: اللمع لأبي الحسن الأشعري ص 22-23. والتمهيد للباقلاني ص 38. والإنصاف له ص 27-28. وأصول الدين للبغدادي ص 50-52. والشامل في أصول الدين للجويني ص 167.

ومنهم1 من قال: تسمى أعراضا، وهي قديمة، وليس كل عرض حادثا؛ كابن كرام، وغيره2.

قول ابن كلاب في كلام الله

ثم افترقوا في القرآن3، وغيره من كلام الله؛ فقال ابن كلاب ومن اتبعه: [هو] 4 صفة من الصفات، قديمة كسائر الصفات5. ثم قال: ولا يجوز أن يكون صوتا؛ لأنه لا يبقى، ولا معاني متعددة؛ فإنها إن كان لها عدد مقدر فليس قدر بأولى من قدر، وإن كانت غير متناهية، لزم ثبوت معان في آن واحد لا نهاية لها. وهذا ممتنع6. فقال: إنه معنى واحد، هو معنى آية الكرسي، وآية الدين، والتوارة، والإنجيل7.

وقال جمهور العقلاء: إن تصور هذا القول تصورا تاما يوجب العلم بفساده.

---

1 وهم المشبهة؛ كالكرامية، ونحوهم.

2 انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية 636. والفرقان بين الحق والباطل له ص 100.

3 وأقوالهم الفاسدة في القرآن الكريم ناجمة عن أصلهم الجهمي الفاسد: (ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث) ، وقولهم بامتناع حوادث لا أول لها.

وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام رحمه الله في درء تعارض العقل والنقل 1306؛ فقال بعد أن ذكر مذاهب المبتدعة؛ من معطلة ومشبهة في صفات الله تعالى، واستنادهم فيها إلى دليل الأعراض وحدوث الأجسام: "وعن هذه الحجة ونحوها نشأ القول بأن القرآن مخلوق، وأن الله تعالى لا يرى في الآخرة، وأنه ليس فوق العرش، ونحو ذلك من مقالات الجهمية النفاة؛ لأن القرآن كلام، وهو صفة من الصفات، والصفات عندهم لا تقوم به. وأيضا فالكلام يستلزم فعل المتكلم، وعندهم لا يجوز قيام فعل به....".

4 في ((ط)) : فهو.

5 انظر: شرح حديث النزول لابن تيمية ص 169-170. ودرء تعارض العقل والنقل له 218.

6 انظر: ما نقله عنه أبو الحسن الأشعري في مقالات الإسلاميين 2257-258.

7 وانظر: الكيلانية لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى 12376. والفتاوى المصرية له 515.

قول السالمية في كلام الله

وقال طائفة1: بل كلامه قديم العين، وهو حروف، أو حروف وأصوات قديمة أزلية، مع أنها مترتبة في نفسها، وأن تلك الحروف والأصوات باقية أزلا وأبدا2.

وجمهور العقلاء يقولون إن فساد هذا معلوم بالضرورة.

وهاتان الطائفتان3 [تقولان] 4 إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته.

قول الهشامية والكرامية في كلام الله

وقال آخرون؛ كالهشامية والكرامية: بل هو متكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه قائم بذاته، ولا يمتنع قيام الحوادث به، لكن يمتنع أن يكون لم يزل متكلما؛ فإن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها وهو ممتنع5.

فهذه الأربعة في القرآن وكلام الله هي أقوال المشركين في امتناع دوام كون الرب فعالا بمشيئته، أو متكلما بمشيئته.

---

1 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله (في مجموع الفتاوى 12166) أن هذا القول: "قول طوائف من أهل الكلام والحديث؛ من السالمية، وغيرهم؛ يقولون: إن كلام الله حروف وأصوات قديمة أزلية، ولها مع ذلك معان تقوم بذات المتكلم. وهؤلاء يوافقون الأشعرية والكلابية في أن تكليم الله لعباده ليس إلا مجرد خلق إدراك للمتكلم، ليس هو أمرا منفصلا عن المستمع".

وانظر: زيادة إيضاح من كلام شيخ الإسلام لهذا القول في شرح الأصفهانية 2331، 333، 338، 341. وانظر: ما سبق ص 317.

2 انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز 1173.

وقد ذكر شارح الطحاوية تسعة أقوال للناس في صفة الكلام؛ فراجعها في 1172 وما بعدها.

3 الكلابية الذين ينكرون أن يكون حرفا وصوتا. والسالمية التي تزعم أن كلام الله حروف وأصوات باقية أزلا وأبدا.

4 في ((خ)) : يقولان. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

5 انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية 6524. والفرقان بين الحق والباطل له ص 100. وقاعدة نافعة في صفة الكلام له - ضمن مجموعة الرسائل المنيرية - 275. ورسالة في العقل والروح له - ضمن مجموعة الرسائل المنيرية - 232-33.

قول أئمة السنة والحديث في كلام الله تعالى
وأما أئمة السنة والحديث؛ كعبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل1، وغيرهما2؛ فقالوا: لم يزل الرب متكلما إذا شاء وكيف شاء؛ [فذكروا] 3 أنه يتكلم بمشيئته وقدرته، وأنه لم يزل كذلك4.
المتكلمون مخالفون للكتاب والسنة
وهذا يناقض الأصل5 الذي اشترك فيه المتكلمون؛ من الجهمية، والمعتزلة، ومن تلقى عنهم؛ فلا هم موافقون للكتاب والسنة وكلام السلف؛ لا فيما اتفقوا عليه، ولا فيما تنازعوا فيه، ولهذا يوجد في عامة أصول الدين لكل منهم قول، وليس في أقوالهم ما يوافق الكتاب والسنة؛ كأقوالهم في كلام الله، وأقوالهم في إرادته ومشيئته، وفي علمه، وفي قدرته، وفي غير ذلك من صفاته6. وإن كان بعضهم أقرب إلى السنة والسلف من بعض.

---

1 انظر: كلام الإمام أحمد بن حنبل في الرد على الجهمية والزنادقة له ص131. ونقله عنه العلامة ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص 213. وانظر: أيضا: كتاب المحنة لحنبل بن إسحاق ص 45، 68.
2 وانظر كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل ص 21-42؛ حيث ذكر نقولا كثيرة عن أئمة أهل السنة والحديث في كلام الله عز وجل.
3 في ((ط)) فقط: فكذروا.
4 انظر تفصيل معتقدهم في صفة الكلام في كتب ابن تيمية الآتية: الإيمان ص 162. ودرء تعارض العقل والنقل 2329،، 10222. والاستقامة 1311. ومجموع الفتاوى6533. والتسعينية ص131-138، 176-188. 236-238. وشرح الأصفهانية 1200-201، 2341.
5 وهو امتناع حوادث لا أول لها. وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.
6 ومن يقلب كتب المعتزلة، والأشاعرة، والماتريدية، يجد البون الشاسع والفرق الكبير بين أقوال متبعي هذه المذاهب في قضية استندوا فيها جميعا إلى أصل جهمي واحد، وانطلقوا من منطلق واحد؛ فبنوا عليه أقوالهم التي ينطح بعضها بعضا، وينقض أولها آخرها.

المتكلمون في مسألة القرآن لا يعرفون قول أهل السنة
ولكن قد شاع ذلك بين أهل العلم والدين منهم؛ فكثير من أهل العلم والدين المنتسبين إلى السنة والجماعة من قد يوافقهم على بعض أقوالهم في مسألة القرآن، أو غيرها؛ إذ كان لا يعرف إلا ذلك القول، أو ما هو أبعد عن السنة منه؛ إذ كانوا في كتبهم لا يحكون غير ذلك؛ إذ كانوا لا يعرفون السنة، وأقوال الصحابة، وما دل عليه الكتاب والسنة. لا يعرفون [إلا قولهم] 1، وقول من يخالفهم من أهل الكلام، ويظنون أنه ليس للأمة إلا هذان القولان، أو الثلاثة.
المتكلمون يعتمدون على القياس العقلي وعلى الإجماع
وهم يعتمدون في السمعيات على ما يظنونه من الإجماع، وليس لهم معرفة بالكتاب والسنة، بل يعتمدون على القياس العقلي2؛ الذي هو أصل كلامهم، وعلى الإجماع.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 وهو القياس الذي يستعمله أهل الكلام في حق الله تعالى. وهو نوعان: "قياس شمول منطقي تستوي أفراده في الحكم، وقياس تمثيل يستوي فيه الأصل والفرع. وكلا النوعين لا يستعملان في حق الله تعالى؛ فإنه سبحانه لا مثل له، وإنما يستعمل في حقه من هذا وهذا قياس الأولى؛ مثل أن يقال: كل نقص ينزه عنه مخلوق من المخلوقات، فالخالق تعالى أولى بتنزيهه عنه، وكل كمال مطلق ثبت لموجود من الموجودات، فالخالق تعالى أولى بثبوت الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه..". درء تعارض العقل والنقل 7362.
وانظر: من كتب ابن تيمية: المصدر نفسه 129-30، 6181، 7154، 322-327، 362-364. ومجموع الفتاوى 3297، 302، 321،، 5201، 250، 919-20، 12344، 347-350، 356، 16357، 358، 360، 446. ومنهاج السنة النبوية 1371، 417. والرسالة التدمرية ص 50، 151. وكتاب الصفدية 225، 27. والرد على المنطقيين ص 115-116، 118، 119، 120-123. ونقض تلبيس الجهمية - مخطوط - ق 225. وشرح الأصفهانية 2342، 344.

إجماع المتكلمين إنما هو على ما ابتدعه رأس من رؤوسهم

وأصل كلامهم العقلي باطل، والإجماع الذي يظنونه إنما هو إجماعهم، وإجماع نظرائهم من أهل الكلام، ليس هو إجماع أمة محمد، ولا علمائها.

والله تعالى إنما جعل العصمة للمؤمنين [من] 1 أمة محمد؛ فهم الذين لا يجتمعون على ضلالة ولا خطأ؛ كما ذكر على ذلك الدلائل الكثيرة2. وكل ما اجتمعوا عليه فهو مأثور عن الرسول؛ فإن الرسول بين الدين كله، وهم [معصومون] 3 أن يخطئوا كلهم، ويضلوا عما جاء به محمد. بل هم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؛ فلا يبقى معروف إلا أمروا به، ولا منكر إلا نهوا عنه.

وهم أمة وسط، عدل، خيار، شهداء الله في الأرض؛ فلا يشهدون إلا بحق؛ فإجماعهم هو على علم موروث عن الرسول، جاء من عند الله، وذلك لا يكون إلا حقا.

وأما من كان إجماعهم على ما ابتدعه رأس من رؤوسهم4؛ فيجوز أن يكون إجماعهم خطأ؛ إذ ليسوا هم المؤمنين، ولا أمة محمد، وإنما هم فرقة منهم.

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

2 من الأدلة على الإجماع من القرآن الكريم: قوله تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} . [النساء 115] . وكذلك قوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} . [البقرة 143] .

وانظر: كلام شيخ الإسلام رحمه الله عن الإجماع في: مجموع الفتاوى 19173-202، 11-2010، 247-248.

3 في ((ط)) : معصومن.

4 وهم فرق المبتدعة يجمعون على ما ابتدعه جهم بن صفوان الراسبي.

وإذا قيل: المعتبر من أمة محمد بعلمائها. قيل: إذا اتفقت علماؤها على شيء، فالباقون يسلمون لهم ما اتفقوا عليه، لا ينازعونهم فيه؛ فصار هذا إجماعا من المؤمنين. ومن نازعهم بعلم فهذا لا يثبت الإجماع دونه كائنا من كان. أما من ليس من أهل العلم فيما تكلموا فيه، فذاك وجوده كعدمه.

المجتهدون الذين يعتبر بقولهم

وقول من قال: الاعتبار بالمجتهدين دون غيرهم، وأنه لا يعتبر بخلاف أهل الحديث، أو أهل الأصول، ونحوهم: كلام لا حقيقة له؛ فإن المجتهدين إن أريد بهم من له قدرة على معرفة جميع الأحكام بأدلتها، فليس في الأمة من هو كذلك، بل أفضل الأمة كان يتعلم ممن هو دونه شيئا من السنة ليس عنده. وإن عنى به من يقدر على معرفة الاستدلال على الأحكام في الجملة، فهذا موجود في كثير من أهل الحديث، والأصول، والكلام. وإن كان بعض الفقهاء أمهر منهم بكثير من الفروع، أو بأدلتها الخاصة، أو بنقل الأقوال فيها؛ فقد يكون أمهر منه في معرفة أعيان الأدلة؛ كالأحاديث، والفرق بين صحيحها وضعيفها، ودلالات الألفاظ عليها، والتمييز بين ما هو دليل شرعي، وما ليس بدليل.

وبالجملة: العصمة إنما هي للمؤمنين لأمة محمد، لا لبعضهم. لكن إذا اتفق علماؤهم على شيء، فسائرهم موافقون للعلماء. وإذا تنازعوا ولو كان المنازع واحدا، وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول.

وما أحد شذ بقول فاسد عن الجمهور، إلا وفي الكتاب والسنة ما يبين فساد قوله، وإن كان القائل كثيرا؛ كقول [سعيد] 1 في أن المطلقة ثلاثا تباح بالعقد2.

---

1 في ((خ)) : سعد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) . وهو سعيد بن المسيب رحمه الله.

2 انظر: قوله في المغني لابن قدامة 10548-549.

من شذ بقول فاسد عن الجمهور ففي الكتاب والسنة ما يبين فساد قولهم

فحديث عائشة في الصحيحين يدل على خلافه1، مع دلالة القرآن أيضا2. وكذلك غيره.

القول الذي يدل عليه الكتاب والسنة غير شاذ وإن كان القائل به واحدا

وأما القول الذي يدل عليه الكتاب والسنة، فلا يكون شاذا وإن كان القائل به أقل من القائل بذاك القول، فلا عبرة بكثرة القائل باتفاق الناس.
ولهذا كان السلف؛ من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان يردون على من أخطأ بالكتاب والسنة، لا يحتجون بالإجماع إلا علامة.
العلامات والدلائل التي يبين بها المرسل الرسول
وقد يبعث معه نشابه3، أو سيفه، أو شيئا من السلاح المختص به، أو يركبه دابته المختصة به، ونحو ذلك مما يعلم الناس أنه قصد به تخصيصه، وإن
كانت تلك الأفعال [تفعل] 4 مع أمثاله، وقد يفعل لغير الرسول ممن

---

1 فعن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن امرأة رفاعة القرظي جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله! إن رفاعة طلقني فبت طلاقي. وإني نكحت بعده إلى عبد الرحمن بن الزبير القرظي، وإنما معه مثل الهدبة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته" الحديث.
رواه البخاري في صحيحه 52014، كتاب الطلاق، باب من أجاز طلاق الثلاث. ومسلم في صحيحه 21055، كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثا لمطلقها، حتى تنكح زوجا غيره، ويطأها، ثم يفارقها وتنقضي عدتها.
وموضع الشاهد: قول امرأة رفاعة: فبت طلاقي: أي طلقها ثلاثا. وقد أجاز النبي صلى الله عليه وسلم هذا الطلاق، ولكنه لم يردها إلى زوجها الأول الذي طلقها ثلاثا بمجرد العقد على زوج غيره، بل اشترط أن يطأها زوجها الجديد، فتذوق عسيلته، ويذوق عسيلتها.
2 قال تعالى: {الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} ... إلى قوله {فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا..} . [البقرة، 229-231] .
وقال تعالى: {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن..} . [الطلاق، 1] .
3 النشاب: النبل. واحدته نشابة. ويطلق كذلك على السهام.
انظر: لسان العرب 1757. وتهذيب اللغة 11379-380.
4 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : يفعل. ولعل الصواب ما أثبته.

يقصد إكرامه وتشريفه، لكن هي خارقة لعادته؛ بمعنى أنه لم يعتد أن يفعل ذلك مع عموم الناس، ولا يفعله إلا مع من ميزه بولاية، أو رسالة، أو وكالة. والولاية والوكالة [تتضمن] 1 الرسالة. فكل من هؤلاء هو في معنى رسوله إلى من ولاه؛ إني قد وليته، وإلى من أرسله بأني أرسلته. فهذه عادة معروفة في العلامات، والدلائل التي يبين بها المرسل أن هذا رسولي
وجنس خرق العادة لا يستلزم الإكرام، بل [يخرق] 2 عادته بالإهانة تارة، وبالإكرام أخرى؛ فقد يخرج ويركب في وقت لم تجر عادته به، بل لعقوبة قوم.
وآيات الرب - تعالى - قد [تكون] 3 تخويفا لعباده؛ كما قال: {وما نرسل [بالآيات] 4 إلا تخويفا} 5، وقد يهلك بها؛ كما أهلك أمما مكذبين، وإذا قص قصصهم قال: {إن في ذلك لآيات} 6، وكان إهلاكهم خرقا للعادة

---

1 في ((خ)) : يتضمن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((م)) ، و ((ط)) : تخرق.
3 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 سورة الإسراء، الآية 59.
6 وهذا كثير في القرآن الكريم. ومن أمثلة ذلك:
1- قوله تعالى: {إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون} . [سورة يونس، الآية 67] ، [سورة الروم، الآية 23] .
2- وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} . [سورة الرعد، الآية 3] ، [سورة الروم، الآية 10] ، [سورة الزمر، الآية 42] .
3- وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون} . [سورة الرعد، الآية 4] ، [سورة الروم، الآية 24] .
4- وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} . [سورة إبراهيم، الآية 5] ، [سورة سبأ، الآية 19] .

5- وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات لأولي النهى} . [سورة طه، الآية 54، 128] .
6- وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين} . [سورة المؤمنون، الآية 30] .
7- وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} . [سورة الزمر، الآية 52] ، [سورة الروم، الآية 37] .
8- وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات للعالمين} . [سورة الروم، الآية 22] .
9- وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون} . [سورة السجدة، الآية 26] .

دل بها على أنه عاقبهم بذنوبهم، وتكذيبهم للرسل، وأن ما فعلوه من الذنوب مما ينهى عنه، ويعاقب فاعله بمثل تلك العقوبة. فهذه خرق عادات لإهانة قوم وعقوبتهم لما فعلوه من الذنوب [تجري] 1 مجرى قوله: عاقبتهم لأنهم كذبوا رسولي وعصوه. ولهذا يقول سبحانه كلما قص قصة من كذب رسله، وعقوبته إياهم؛ يقول: {فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} 2؛ كما يقول في موضع آخر: {إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين} 3، و {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} 4، و {تركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم} 5.
وإذا كانت تلك العلامات مما جرت عادته أنه يفعلها مع من أرسله، ويهلك بها من كذب رسله، كانت أبلغ في الدلالة، وكانت معتادة في هذا النوع.

---

1 في ((خ)) : يجري. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة القمر، الآيات 16-17، 21-22.
3 سورة المؤمنون، الآية 30.
4 سورة الشعراء، الآية 8.
5 سورة الذاريات، الآية 27.

تقسيم الباقلاني للعادات إلى عامة وخاصة
وهؤلاء1 تكلموا بلفظ لم يحققوا معناه؛ وهو لفظة خرق العادة، وقالوا: العادات تنقسم إلى عامة، وخاصة؛ فمنها ما يشترك فيه جميع الناس، في جميع الأعصار؛ كالأكل، والشرب، واتقاء الحر والبرد. والخاص منها ما يكون كعادة للملائكة فقط، أو للجن فقط، أو للإنس دون غيرهم2.
قالوا: ولهذا صح أن يكون لكل قبيل منهم ضرب من التحدي، وخرق لما هو عادة لهم دون غيرهم، وحجة عليهم دون ما سواهم3.
ومنها ما يكون عادة لبعض البشر؛ نحو اعتياد بعضهم صناعة، أو تجارة، أو رياضة في ركوب الخيل، والعمل بالسلاح4. لكن هذه كلها مقدورات للبشر.
قالوا: وآية الرسل لا تكون مقدورة لمخلوق، بل لا تكون إلا مما ينفرد الله بالقدرة عليه5.
فإذا قالوا هذا، ظن الظان أنهم اشترطوا أمرا عظيما.
قول الأشاعرة: المعجز: الإقدار على الفعل لا نفس الفعل
ولم يشترطوا شيئا؛ فإنهم قالوا6 في جنس الأفعال التي لا [يقدر] 7 الناس إلا على اليسير منها؛ كحمل الجبال، ونقلها: إن المعجزة هنا إقدارهم على الفعل، لا نفس الفعل. ورجحوا هذا على قول من يقول: نفس الفعل آية؛ لأن جنس الفعل مقدور.

---

1 يعني الأشاعرة.
2 انظر: البيان للباقلاني ص 52-53.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 53.
4 انظر: البيان للباقلاني ص 54.
5 انظر: البيان للباقلاني ص 54.
6 انظر: البيان للباقلاني ص 61، 72.
7 في ((م)) ، و ((ط)) : تقدر.

نقد شرطهم
وليس هذا بفرق طائل؛ فإنه لا فرق بين تخصيصهم بالفعل، أو بالقدرة عليه. فإذا كان إقدارهم على الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة، كان نفس الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة.
الأشاعرة أثبتوا للعبد قدرة غير مؤثرة
وهؤلاء عندهم أن قدرة العباد لا تؤثر في وجود شيء، ولا يكون مقدورها إلا في محلها1؛ فهم في الحقيقة لم يثبتوا قدرة؛ فكل ما في الوجود هو مقدور لله عندهم.
الجويني والرازي تركا هذا الشرط في المعجزة
ولهذا عدل أبو المعالي، ومن اتبعه؛ كالرازي عن هذا الفرق2، فلم يشترطوا أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه؛ إذ كانت جميع الحوادث عندهم كذلك. وقالوا3: إن ما يحصل على يد الساحر، والكاهن، وعامل الطلسمات، وعند الطبيعة الغريبة، هو مما ينفرد الرب بالقدرة عليه، ويكون آية للنبي.
وهذا معتاد لغير الأنبياء، فلم يبق لقولهم خرق [للعادة] 4 معنى معقول.
قول الباقلاني: خرق العادة يكون لجميع الذين تحداهم الرسول
بل قالوا - واللفظ للقاضي أبي بكر5: الواجب على هذا الأصل أن يكون خرق العادة الذي يفعله الله مما يخرق جميع القبيل الذين تحداهم الرسول بمثله، ويحتج به على نبوته؛ فإن أرسل ملكا إلى الملائكة، أظهر

1 انظر: الملل والنحل للشهرستاني 197.
ويشير بذلك إلى ما عرف ب (كسب الأشعري) . وقد تقدم بيان معناه ص 558، 697.
2 يقصد ما تقدم ص 251-254 من هذا الكتاب.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 91. والإرشاد ص 319.
4 في ((خ)) : العادة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 الباقلاني.

على يده ما هو خرق لعادتهم؛ وإن أرسل بشرا، أرسله بما يخرق عادة البشر؛ وإن أرسل جنيا، أظهر على يديه ما هو خارق لعادة الجن1.
مناقشة الأشاعرة في شروطهم التي اشترطوها للمعجزة
فيقال: السحر، والكهانة معتاد للبشر. وأنتم تقولون2: يجوز أن يكون ما يأتي به الساحر، والكاهن [آية] 3، بشرط أن لا يمكن معارضته. فلم يبق لكونه خارقا للعادة معنى يعقل عندكم.
لهذا قال محققوهم4: [إنه] 5 لا يشترط في الآيات أن تكون خارقة للعادة؛ كما قد حكينا لفظهم في غير هذا الموضع؛ كما تقدم6، وإنما الشرط: أنها لا تعارض، وأن تقترن بدعوى النبوة7؛ هذان الشرطان هما المعتبران. وقد بينا في غير موضع أن كلا من الشرطين باطل.
والأول: يقتضي أن يكون المدلول عليه جزءا من الدليل.
وآيات النبوة أنواع متعددة؛ منها ما يكون قبل وجوده؛ ومنها ما يكون بعد موته؛ ومنها ما يكون في غيبته8.
والمقصود هنا كان: هو الكلام على المثال الذي ذكروه، وأن ما ضرب من الأمثلة على الوجه الصحيح، فإنه - ولله الحمد - يدل على صدق الرسول، وعلى فساد أصولهم.

1 انظر: البيان للباقلاني ص 55.
2 انظر: البيان للباقلاني ص 94، 95. والإرشاد للجويني ص 327-328.
3 رسمت في ((خ)) : انه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 انظر: البيان للباقلاني ص 47-48. والإرشاد للجويني ص 309.
5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
6 تقدم هذا في ص 659-660 من هذا الكتاب.
7 انظر: البيان للباقلاني ص 47-48، 194. والإرشاد للجويني ص 320-321.

8 انظر: الجواب الصحيح 6380.

طريق الضرورة لإثبات النبوة
ولكن هم ضربوا مثالا، إذا اعتبر على الوجه الصحيح كان حجة - ولله الحمد - على صدق النبي، وعلى فساد ما ذكروه في المعجزات حيث قالوا1: هي الفعل الخارق للعادة، المقترن بدعوى النبوة والاستدلال به، وتحدي النبي من دعاهم أن يأتوا بمثله. وشرط بعضهم2 أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه.
تعريف المعجزة عند الأشاعرة وشروطها
وهذه الأربعة هي التي شرط القاضي أبو بكر3، ومن سلك مسلكه؛ كابن اللبان4، وابن شاذان5، والقاضي أبي يعلى6، وغيرهم7: أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه على أحد القولين، أو منه ومن الجنس الآخر، إذا وقع على وجه يخرق العادة، وطريق متعذر على غيرهم مثله - على القول الآخر. قالوا وهذا لفظ [القاضي] 8 أبي بكر.

---

1 انظر: البيان للباقلاني ص 16، 94. وأصول الدين للبغدادي ص 170-171. والمواقف للإيجي ص 339-340. والمقاصد مع شرحها للتفتازاني 511. وانظر: الجواب الصحيح 6497.
2 انظر: البيان للباقلاني ص 45.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 45.
4 هو علي بن محمد بن نصر الدينوري، أبو الحسن، ابن اللبان. إمام، محدث، حافظ. توفي سنة ثمان وستين وأربع مائة.
انظر: سير أعلام النبلاء 18369-370.
5 هو الحسن بن أبي بكر؛ أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذان. أبو علي البغدادي البزاز الأصولي. إمام، فاضل، مسند العراق. توفي في آخر يوم من سنة 425 ?، ودفن في أول يوم من سنة 426 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 17415-418. وشذرات الذهب 3228-229.
6 سبقت ترجمته.
7 وانظر: أيضا في أقوال هؤلاء في إثبات النبوة: الجواب الصحيح 6397-398.
8 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .

والثاني: أن يكون ذلك الشيء الذي يظهر على أيديهم مما يخرق العادة، وينقضها. ومتى لم يكن كذلك، لم يكن معجزا.
والثالث: أن يكون غير النبي ممنوعا من إظهار ذلك على يده، على الوجه الذي ظهر عليه، ودعا إلى معارضته، مع كونه خارقا للعادة.
والرابع: أن يكون واقعا مفعولا عند تحدي الرسول بمثله، وادعائه آية لنبوته، وتقريعه بالعجز عنه من خالفه وكذبه.
قالوا: فهذه هي الشرائط، والأوصاف التي تختص بها المعجزات1.
مناقشة شيخ الإسلام للأشاعرة في الشروط التي اشترطوها في المعجزة
فيقال لهم:
الشرط الأول قد عرف أنه لا حقيقة له، ولهذا [أعرض] 2 عنه أكثرهم3.
والثاني أيضا لا حقيقة له؛ فإنهم لم يميزوا ما يخرق العادة مما لا يخرقها. ولهذا ذهب من ذهب من محققيهم إلى إلغاء هذا الشرط؛ فهم لا يعتبرون خرق عادة جميع البشر، بل ما اعتاده السحرة، والكهان، وأهل الطلاسم عندهم، يجوز أن يكون آية إذا لم يعارض4. وما اعتاده أهل صناعة، أو علم، أو شجاعة ليس هو عندهم آية، وإن لم يعارض.
فالأمور العجيبة التي خص الله بالإقدار عليها بعض الناس، لم يجعلوها خرق عادة. والأمور المحرمة، أو هي كفر؛ كالسحر، والكهانة، والطلسمات: جعلوها خرق عادة، وجعلوها آية، بشرط أن لا يعارض. وهو الشرط الثالث، وهو في الحقيقة خاصة المعجزة عندهم.

---

1 انظر: البيان للباقلاني ص 45-46.
2 في ((ط)) : أعراض.
3 كما مر معنا في ص 226-227، 640-641 من هذا الكتاب؛ من أمثال الجويني، والرازي.

4 انظر: البيان للباقلاني ص 94-96. والإرشاد للجويني ص 327-328.

لكن كون غير الرسول ممنوعا منه: إن اعتبروا [أنه] 1 ممنوع مطلقا؛ فهذا لا يعلم. وإن اعتبروا أنه ممنوع من المرسل اليهم؛ فهذا لا يكفي، بل يمكن كل ساحر، وكاهن أن يدعي النبوة، ويقول إنني كذا.

قالوا2: لو فعل هذا، لكان الله يمنعه فعل ذلك، أو يقيض له من يعارضه.

قلنا: من أين لكم ذلك؟ ومن أين يعلم الناس ذلك؟ ويعلمون أن كل كاذب فلا بد أن يمنع من فعل الأمر الذي اعتاده هو وغيره قبل ذلك؟ أو أن يعارض؟

والواقع خلاف ذلك؛ فما أكثر من ادعى النبوة، أو الاستغناء عن الأنبياء، وأن طريقه فوق طريق الأنبياء، وأن الرب يخاطبه بلا رسالة، وأتى بخوارق من جنس ما تأتي السحرة، والكهان، ولم يكن في من دعاه من يعارضه3.

وأما الرابع: وهو أن يكون عند تحدي الرسول فيه، يحترزون عن الكرامات4. وهو شرط باطل.

---

1 في ((خ)) : لأنه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 انظر: البيان للباقلاني ص 94، 95، 100.

3 كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والحارث الكذاب، والحلاج، وغيرهم. لم يكن عندهم من يعارضهم.

وسيتناول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا الموضوع بشيء من الإيضاح والشرح.

انظر: ص 950-954 من هذا الكتاب. وانظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 168-169، 321-332. والجواب الصحيح 6500.

4 وانظر الفرق بين المعجزات والكرامات عند الأشاعرة، في: البيان للباقلاني ص48. والإرشاد للجويني ص317، 319-320، 322-323. وأصول الدين للبغدادي ص 174.

تعريف الدليل

آيات الأنبياء وإن لم يتحدوا بها فهي دلائل على النبوة

بل آيات الأنبياء آيات، وإن لم ينطقوا بالتحدي بالمثل. وهي دلائل على النبوة، وصدق المخبر بها. والدليل مغاير للمدلول عليه، ليس المدلول عليه جزءا من الدليل. لكن إذا قالوا: الدليل هو دعاء الرسول، لزمه أن يريهم آية، وخلق تلك الآية عقب سؤاله.

وإن كان ذلك قد يخلقه بغير سؤاله لحكمة أخرى. فهذا متوجه؛ فالدليل هو مجموع طلب العلامة، مع فعل ما جعله علامة؛ كما أن العباد إذا دعوا الله فأجابهم، كان ما فعله إجابة لدعائهم، ودليلا على أن الله سمع دعاءهم، وأجابهم؛ كما أنهم إذا استسقوه فسقاهم، واستنصروه فنصرهم، وإن كان قد يفعل ذلك بلا دعاء، [فلا يكون هناك دليل على إجابة دعاء. فهو دليل على إجابة الدعاء] 1 إذا وقع عقب الدعاء، ولا يكون دليلا إذا وقع على غير هذا الوجه.

وكذلك الرسول: إذا قال لمرسله: أعطني علامة. فأعطاه ما شرفه به، كان دليلا على رسالته، وإن كان قد يفعل ذلك لحكمة أخرى. لكن فعل ذلك عقب سؤاله، آية لنبوته هو الذي يختص به.

وكذلك إذا علم أنه فعله إكراما له، مع دعواه النبوة، علم أنه قد أكرمه بما يكرم به الصادقين عليه، فعلم أنه صادق؛ لأن ما فعله به مختص بالصادقين الأبرار، دون الكاذبين عليه الفجار.

كرامات الأولياء من آيات الأنبياء

وعلى هذا فكرامات الأولياء هي من آيات الأنبياء2؛ فإنها مختصة بمن شهد لهم بالرسالة، وكل ما استلزم صدق الشهادة بنبوتهم، فهو دليل على صدق هذه الشهادة؛ سواء كان الشاهد بنبوتهم المخبر بها هم، أو

---

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .

2 انظر: دقائق التفسير لشيخ الإسلام رحمه الله 1159. وانظر: تفسير القرطبي 13137. ودلائل النبوة لابن كثير ضمن البداية والنهاية 6161.

غيرهم. بل غيرهم إذا أخبر بنبوتهم، وأظهر الله على يديه ما يدل على صدق هذا الخبر، كان أبلغ في الدلالة على صدقهم من أن يظهر على أيديهم.

ليس من شرط دلائل النبوة اقترانها بدعوى النبوة أو التحدي بها

فقد تبين أنه ليس من شرط دلائل النبوة؛ [لا اقترانه] 1 بدعوى النبوة، ولا الاحتجاج به، ولا التحدي بالمثل2، ولا تقريع من يخالفه. بل كل هذه الأمور قد تقع في بعض الآيات، لكن لا يجب أن ما لا يقع معه لا يكون آية، بل هذا إبطال لأكثر آيات الأنبياء؛ [لخلوها] 3 عن هذا الشرط4.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : لاقترانه.

2 كما يقوله أهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة.

انظر: المغني لعبد الجبار الهمداني 15199، 215. وشرح الأصول الخمسة له ص 569-571. والبيان للباقلاني ص 45-46. والمواقف للإيجي ص 339-340.

3 في ((خ)) : خلوها. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 المتكلمون جعلوا التحدي شرطا من شروط المعجزة.

وقد رد عليهم شيخ الإسلام رحمه الله اشتراطهم لهذا الشرط؛ فقال: "وآيات النبوة وبراهينها تكون في حياة الرسول، وقبل مولده، وبعد مماته، لا تختص بحياته، فضلا عن أن تختص بحال دعوى النبوة، أو حال التحدي؛ كما ظنه بعض أهل الكلام".

انظر: الجواب الصحيح 6380، 408، 496.

وقد رد ابن حزم أيضا على من اشترط هذا الشرط؛ فقال: "ومن ادعى أن إحالة الطبيعة لا تكون آية إلا حتى يتحدى فيها النبي صلى الله عليه وسلم الناس، فقد كذب، وادعى ما لا دليل عليه أصلا؛ لا من عقل، ولا من نص قرآن ولا سنة. وما كان هكذا، فهو باطل، ويجب من هذا أن حنين الجذع، وإطعام النفر الكثير من الطعام اليسير حتى شبعوا، وهم مئون من صاع شعير، ونبعان الماء من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإرواء ألف وأربعمائة من قدح صغير تضيق سعته عن الشبر، ليس شيء من ذلك آية له عليه السلام؛ لأنه عليه السلام لم يتحد بشيء من ذلك أحدا". المحلى لابن حزم 136. وانظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل له 52، 6.

الدليل ما يستلزم وجود المدلول

ثم هو شرط بلا حجة؛ فإن الدليل على المدلول عليه، هو ما استلزم وجوده. وهذا لا يكون إلا عند عدم المعارض المساوي، أو الراجح. وما كان كذلك، فهو دليل؛ سواء قال المستدل به: ائتوا بمثله، وأنتم لا تقدرون على الإتيان بمثله، وقرعهم وعجزهم. أو لم يقل ذلك.

فهو إذا كان في نفسه مما لا يقدرون على الإتيان بمثله؛ سواء ذكر المستدل [هذا] 1، أو لم يذكره؛ لا بذكره يصير دليلا، ولا بعدم ذكره تنتفي دلالته.

وهؤلاء قالوا: لا يكون دليلا [إلا] 2 [إذا] 3 ذكره المستدل. وهذا باطل.

وكذلك الدليل، هو دليل؛ سواء استدل به مستدل، أو لم يستدل. وهؤلاء قالوا: لا يكون دليل النبوة دليلا، إلا إذا استدل به النبي حين ادعى النبوة؛ فجعل نفس دعواه، واستدلاله، والمطالبة بالمعارضة، وتقريعهم بالعجز عنها؛ كلها جزءا من الدليل.

وهذا غلط عظيم. بل السكوت عن هذه الأمور أبلغ في الدلالة، والنطق بها لا يقوي الدليل. والله تعالى لم يقل: {فليأتوا بحديث [مثله] 4} 5، إلا حين قالوا: افتراه؛ لم يجعل هذا القول شرطا في الدليل، بل نفس عجزهم عن المعارضة هو من تمام الدليل.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين ,

2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

3 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .

4 في ((خ)) : بمثله.

5 سورة الطور، الآية 34.

الأشاعرة يجعلون الفرق بين جنس المعجزات والكرامات وخوارق السحرة: ادعاء النبوة وإلا فالجنس واحد

[وهم] 1 إنما شرطوا ذلك؛ لأن كرامات الأولياء عندهم؛ متى اقترن بها دعوى النبوة، كانت آية للنبوة2؛ وجنس السحر، والكهانة؛ متى اقترن به دعوى النبوة، كان دليلا على النبوة عندهم، لكن قالوا: الساحر، والكاهن لو ادعى النبوة، لكان [يمنع] 3 من ذلك، أو يعارض بمثله4. وأما الصالح: فلا يدعي.
فكان أصلهم: أن ما يأتي به النبي، والساحر، والكاهن، والولي: من جنس واحد، لا يتميز بعضه عن بعض بوصف5، لكن خاصة النبي: اقتران الدعوى، والاستدلال، والتحدي بالمثل بما يأتي به.
فلم يجعلوا لآيات الأنبياء خاصة تتميز بها عن السحر، والكهانة، وعما يكون لآحاد المؤمنين، ولم يجعلوا للنبي مزية على عموم المؤمنين، ولا على السحرة، والكهان من جهة الآيات التي يدل [الله] 6 بها العباد على صدقه.
رد شيخ الإسلام عليهم
وهذا افتراء عظيم؛ على الأنبياء، وعلى آياتهم، وتسوية بين أفضل الخلق، وشرار الخلق.
الساحر والكاهن لا يأتي إلا بالفجور
بل تسوية بين [ما يدل] 7 على النبوة، وما يدل على نقيضها؛ فإن ما يأتي به السحرة، والكهان، لا يكون إلا لكذاب، فاجر، عدو لله؛ فهو مناقض للنبوة.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 انظر: البيان للباقلاني ص 48. والإرشاد للجويني ص 319-321.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : يمتنع.
4 انظر: البيان للباقلاني ص 94، 95، 100.
5 انظر: البيان للباقلاني ص 91، 96. والإرشاد للجويني ص 327-328.
6 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
7 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

من الفروق بين آيات الأنبياء وبين خوارق السحرة والكهان
فلم يفرقوا بين ما يدل على النبوة وعلى نقيضها، وبين ما لا يدل عليها، ولا على نقيضها؛ فإن آيات الأنبياء تدل على النبوة، وعجائب السحرة، والكهان تدل على نقيض النبوة؛ وإن صاحبها ليس ببر، ولا عدل، ولا ولي لله، فضلا عن أن يكون نبيا.
بل يمتنع أن يكون الساحر، والكاهن نبيا، بل هو من أعداء الله.
والأنبياء أفضل خلق الله، وإيمان المؤمنين، وصلاحهم لا يناقض النبوة، ولا يستلزمها.
الأشاعرة سووا بين الأجناس الثلاثة
فهؤلاء1 سووا بين الأجناس الثلاثة؛ فكانوا بمنزلة من سوى بين عبادة [الرحمن] 2، وعبادة الشيطان والأوثان؛ فإن الكهان، والسحرة يأمرون بالشرك، وعبادة الأوثان، وما فيه طاعة للشيطان. [والأنبياء] 3 لا يأمرون إلا بعبادة الله وحده، وينهون عن عبادة ما سوى الله وطاعة الشياطين.
النبي عند الأشاعرة
فسوى هؤلاء بين هذا وهذا، ولم يبق الفرق إلا مجرد تلفظ المدعي بأني نبي. فإن تلفظ به، كان نبيا، وإن لم يتلفظ به، لم يكن نبيا.
فالكذاب المتنبي إذا أتى بما يأتي الساحر، والكاهن، وقال: أنا نبي، كان نبيا.
وقولهم: إنه إذا فعل ذلك منع منه، وعورض4: دعوى مجردة؛ فهي لا تقبل لو لم يعلم بطلانها. فكيف، وقد علم بطلانها، وأن كثيرا ادعوا ذلك، ولم يعارضهم ممن دعوه أحد، ولا منعوا من ذلك.

---

1 يعني الأشاعرة. انظر: الجواب الصحيح 6400، 500.
2 في ((ط)) : احرحمن.
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 انظر: البيان للباقلاني ص 94، 95، 100.

فلزم على قول هؤلاء: التسوية بين النبي الصادق، والمتنبي الكاذب.
وقد قال تعالى: {فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون} 1.
ولم يفرق هؤلاء2 بين هؤلاء3 وهؤلاء4، ولا بين آيات هؤلاء، وآيات هؤلاء.
وقال تعالى: {وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس [تجعلونه] 5 قراطيس [تبدونها وتخفون] 6 كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى [إذ] 7 الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء

---

1 سورة الزمر، الآيتان 32-33.
2 الأشاعرة.
3 الأنبياء عليهم السلام.
4 السحرة والكهان.
5 في ((خ)) : يجعلونه.
6 في ((خ)) : يبدونها ويخفونها.
7 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .

ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم [أنهم] 1 فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون} 2.
فنسأل الله العظيم: أن يهدينا إلى [صراطه] 3 المستقيم؛ صراط الذين أنعم عليهم؛ من [النبيين] 4، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ الذين عبدوه وحده، لا شريك له، وآمنوا بما أرسل به رسله، وبما جاءوا به من الآيات، وفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، وطريق أولياء الله المتقين، وأعداء الله الضالين، والمغضوب [عليهم] 5؛ فكان ممن صدق الرسل فيما أخبروا به، وأطاعهم فيما أمروا به. ولا حول ولا قوة إلا بالله.
من أصول الأشاعرة
وهؤلاء6 يجوزون أن يأمر الله بكل شيء، وأن ينهى عن كل شيء؛ فلا يبقى عندهم فرق بين النبي الصادق، والمتنبي الكاذب؛ لا من جهة نفسه؛ فإنهم لا يشترطون فيه إلا مجرد كونه في الباطن مقرا بالصانع7. وهذا موجود في عامة الخلق؛ ولا من جهة [آياته؛ ولا من جهة] 8

---

1 في ((ط)) : إنهم.
2 سورة الأنعام، الآيات 91-94.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : صراط.
4 في ((ط)) : افنبين.
5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
6 يعني الأشاعرة.
7 بل لا مانع عند الجهمية أن يكون النبي من أجهل الخلق، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "الجهمية تثبت نبوة لا تستلزم فضل صاحبها ولا كماله ولا اختصاصه قط بشيء من صفات الكمال، بل يجوز أن يجعل من هو من أجهل الناس نبيا..". منهاج السنة النبوية 5436.
8 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
(609/1)

ما يأمر به1.

والفلاسفة من هذا الوجه أجود قولا في الأنبياء؛ فإنهم يشترطون في النبي اختصاصه بالعلم من غير تعلم، وبالقدرة على التأثير الغريب، والتخييل. ويفرق بين الساحر، والنبي: بأن النبي يقصد العدل، ويأمر به؛ بخلاف الساحر2.

الغزالي عدل إلى طريق الفلاسفة في النبوة

ولهذا عدل الغزالي في النبوة عن طريق أولئك المتكلمين، إلى طريق الفلاسفة؛ فاستدل بما يفعله، ويأمر به، على نبوته3. وهي طريق صحيحة، لكن إنما أثبت بها نبوة مثل نبوة الفلاسفة4.

---

1 ولشيخ الإسلام رحمه الله كلام طيب عن النبوة عند الأشاعرة. فمن ذلك قوله رحمه الله عنهم: "فهؤلاء يجوزون بعثة كل مكلف، والنبوة عندهم مجرد إعلامه بما أوحاه إليه، والرسالة مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه. وليست النبوة عندهم صفة ثبوتية، ولا مستلزمة لصفة يختص بها، بل هي من الصفات الإضافية؛ كما يقولون مثل ذلك في الأحكام الشرعية.... إلخ". منهاج السنة النبوية 2414. وانظر: الجواب الصحيح 6496، 500-504. وكتاب الصفدية 1148-149، 225.

وانظر: موقفهم من عصمة الأنبياء في المصدر نفسه 2414-415.

2 انظر: كتاب الصفدية 1143.

3 انظر: المنقذ من الضلال للغزالي ص 145-150. ومعارج القدس له ص 151، 164؛ فإنه يجعل للنبوة ثلاثة خواص. وتهافت الفلاسفة له ص 192-194.

وانظر: ما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح الأصفهانية - ت السعوي - 2519-522، 533. وما نقله - شيخ الإسلام - أيضا عن المازري من أن كلام الغزالي يؤثر في الإيمان بالنبوة فينقص قدرها، انظر: الصفدية 1211.

4 وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على كلام الغزالي، وبين مشابهة قوله لقول الفلاسفة في حقيقة النبوة. انظر: شرح الأصفهانية - ت السعوي - 2542- 543 والصفدية 16 ودرء تعارض العقل والنقل 132. والرد على المنطقيين ص510.

وانظر: كلام الغزالي في النبوة في طبقات الشافعية للسبكي 4110-114.

مقارنة بين الأشاعرة والفلاسفة في النبوات

وأولئك1 خير من الفلاسفة؛ من جهة أنهم لما أقروا بنبوة محمد، صدقوه فيما أخبر به من أمور الأنبياء، وغيرهم، وكان عندهم معصوما من الكذب فيما يبلغه عن الله؛ فانتفعوا بالشرع، والسمعيات. وبها صار فيهم من الإسلام ما تميزوا به على أولئك2؛ فإن أولئك لا ينتفعون بأخبار الأنبياء؛ إذ كانوا عندهم يخاطبون الجمهور بالتخييل؛ فهم يكذبون عندهم للمصلحة3.

---

1 يعني الأشاعرة.

2 يعني الفلاسفة.

3 ولشيخ الإسلام رحمه الله كلام طيب يشرح فيه النبوة عند الفلاسفة، يقول فيه: "وأما المتفلسفة القائلون بقدم العالم، وصدوره عن علة موجبة - مع إنكارهم أن الله تعالى يفعل بقدرته ومشيئته، وأنه يعلم الجزئيات - فالنبوة عندهم فيض يفيض على الإنسان بحسب استعداده، وهي مكتسبة عندهم. ومن كان متميزا - في قوته العلمية؛ بحيث يستغني عن التعليم، وشكل في نفسه خطاب يسمعه كما يسمع النائم، وشخص يخاطبه كما يخاطب النائم؛ وفي العملية بحيث يؤثر في العنصريات تأثيرا غريبا - كان نبيا عندهم. وهم لا يثبتون ملكا مفضلا يأتي بالوحي من الله تعالى، ولا ملائكة، بل ولا جنا يخرق الله بهم العادات للأنبياء، إلا قوى النفس. وقول هؤلاء وإن كان شرا من أقوال اليهود والنصارى، وهو أبعد الأقوال عما جاءت به الرسل، فقد وقع فيه كثير من المتأخرين الذين لم يشرق عليهم نور النبوة؛ من المدعين للنظر العقلي، والكشف الخيالي الصوفي. وإن كان غاية هؤلاء الأقيسة الفاسدة، والشك، وغاية هؤلاء الخيالات الفاسدة والشطح". منهاج السنة النبوية 2415-416.

وانظر: كلاما مشابها لهذا الكلام لشيخ الإسلام في شرح الأصفهانية - ت السعوي - 2502-507. وكتاب الصفدية 25-7.

ولكن آخرون1 سلكوا مسلك التأويل، وقالوا: إنهم لا يكذبون. ولكن أسرفوا فيه.

من أسباب ظهور الفلاسفة على المتكلمين

ففي الجملة: ظهور الفلاسفة، والملاحدة، والباطنية على هؤلاء تارة، ومقاومتهم لهم تارة: لا بد له من أسباب في حكمة الرب، وعدله.

ومن أعظم أسبابه: تفريط أولئك2 وجهلهم بما جاء به الأنبياء؛ فالنبوة التي ينتسبون إلى نصرها، لم يعرفوها، ولم يعرفوا دليلها، ولا قدروها قدرها.
وهذا يظهر من جهات متعددة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

1 استوفى شيخ الإسلام رحمه الله ذكر مذاهب هؤلاء والرد عليهم، وذكر أن المبتدعة لهم طريقتان في نصوص الأنبياء: أولا طريقة التبديل، وأهلها صنفان: 1- أهل الوهم والتخييل؛ كابن سينا، وابن عربي، والفارابي، والسهروردي، وابن رشد الحفيد، وابن سبعين، وهو قول المتفلسفة والباطنية كالملاحدة الإسماعيلية، وإخوان الصفا، وملاحدة الصوفية. 2- أهل التحريف والتأويل، وهم المقصودون هنا، وهي طريقة المتكلمين من المعتزلة والكلابية والسالمية والكرامية والشيعة وغيرهم. أما الطريقة الثانية: فهي طريقة التجهيل.
انظر: درء تعارض العقل والنقل 18-20. وكتاب الصفدية 1202، 203، 209، 237، 244، 265، 276، 288، 289.
وشرح الأصفهانية 2502-508. والرد على المنطقيين ص 469. ومجموع الفتاوى 467.
2 يعني الأشاعرة، ومن نحا منحاهم من أصحاب دليل الأعراض وحدوث الأجسام.
وقد فصل شيخ الإسلام رحمه الله هذا الموضع، وزاده بسطا وإيضاحا في كتابه القيم شرح الأصفهانية 2329-335.
وانظر: في الكلام على النبوة عند الأشاعرة: منهاج السنة النبوية 2414، 5436-437. وكتاب الصفدية1225-226، 228-229. والكلام عن عصمة الأنبياء عندهم في منهاج السنة 2414-415.
وقد مرت معنا مقارنة بين موقف الأشاعرة من النبوة، وموقف الفلاسفة منها في ص 609-612 من هذا الكتاب.

المجلد الثاني

فصل أصول الدين

...
قد ذكرنا في غير موضع1 أن أصول الدين الذي بعث الله به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم قد بينها في القرآن أحسن بيان، وبين دلائل الربوبية والوحدانية، ودلائل أسماء الرب وصفاته، وبين دلائل نبوة أنبيائه، وبين المعاد بين إمكانه وقدرته عليه في غير موضع، وبين وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية؛ فكان في بيان الله أصول الدين الحق؛ وهو دين الله؛ وهي أصول ثابتة، صحيحة، معلومة؛ فتضمن بيان العلم النافع، والعمل الصالح؛ الهدى، ودين الحق.
وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك، ليس فيما ابتدعوه؛ لا هدى، ولا دين حق؛ فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على إثبات الصانع، وصدق الرسول، وإمكان المعاد أو وقوعه.
وفيما ابتدعوه ما خالفوا به الشرع. وكل ما خالفوه من الشرع، فقد خالفوا فيه العقل أيضا؛ فإن الذي بعث الله به محمدا، وغيره من الأنبياء: هو حق، وصدق، وتدل عليه الأدلة العقلية؛ فهو ثابت بالسمع، و [بالعقل] 2.

1 انظر ص 286 من هذا الكتاب. وانظر: نقض تأسيس الجهمية 1246. وشرح الأصفهانية 141. ودرء تعارض العقل والنقل 1188-199. وكتاب الصفدية 1295-296. ودقائق التفسير 5263.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : العقل.

الذين خالفوا الرسل ليس معهم سمع ولا عقل
والذين خالفوا الرسل ليس معهم [سمع] 1، ولا عقل؛ كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير} 2.
وقال تعالى لمكذبي الرسل: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم [قلوب] 3 يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} 4، ذكر ذلك بعد قوله: {وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم [قوم] 5 نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية [أهلكناها] 6

وهي ظالمة فهي [خاوية على] 7 عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد} 8، ثم قال: {أفلم يسيروا في الأرض} الآية9، ثم قال: {وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير} 10؛ فذكر إهلاك من أهلك، وأملاه لمن أملى؛ لئلا يغتر المغتر؛ [فيقول] 11: نحن لم يهلكنا.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : لا سمع.
2 سورة الملك، الآيات 8-11.
3 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
4 سورة الحج، الآية 46.
5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
6 في ((خ)) : أهلكتها.
7 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
8 سورة الحج، الآيات 42-45.
9 سورة الحج، الآية 46.
10 سورة الحج، الآية 48.
11 في ((خ)) : فتقول. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع1.

ما جاء به الرسول يدل عليه السمع والعقل

والمقصود هنا: أن ما جاء به الرسول يدل عليه السمع والعقل، وهو حق في نفسه؛ كالحكم الذي يحكم به؛ فإنه يحكم بالعدل؛ وهو الشرع. فالعدل هو الشرع، والشرع هو العدل.

ولهذا يأمر نبيه أن يحكم بالقسط، وأن يحكم بما أنزل الله. والذي أنزل الله هو القسط، والقسط هو الذي [أنزله] 2 الله. وكذلك الحق، والصدق هو ما أخبرت به الرسل، وما أخبرت به فهو الحق، والصدق.

ذم السلف لأهل الكلام

[والسلف] 3 والأئمة ذموا أهل الكلام المبتدعين؛ الذين خالفوا الكتاب، والسنة4. ومن خالف الكتاب والسنة لم يكن كلامه إلا باطلا؛ فالكلام الذي ذمه السلف يذم لأنه باطل، ولأنه يخالف الشرع5.

الشافعي وأحمد ذما كلام الجهمية

من الناس من ظن أن السلف أنكروا كلام القدرية فقط

ولكن لفظ الكلام لما كان مجملا، لم يعرف كثير من الناس الفرق بين الكلام الذي ذموه، وغيره؛ فمن الناس من يظن أنهم إنما أنكروا كلام القدرية فقط؛ كما ذكره البيهقي6،

---

1 انظر: درء تعارض العقل والنقل 7394.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : أنزل.
3 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
4 سبقت الإشارة إلى ذلك ص 320-324.
5 قال الإمام البربهاري رحمه الله: "اعلم أنها لم تكن زندقة، ولا كفر، ولا شكوك، ولا بدعة، ولا ضلالة، ولا حيرة في الدين، إلا من الكلام، وأهل الكلام والجدل والمراء والخصومة والعجب". شرح السنة للبربهاري ص 48.
6 انظر تبيين كذب المفتري لابن عساكر 341، 344-352؛ حيث نقل كلام البيهقي في أن الشافعي إنما قصد بذمه لأهله الكلام القدرية، ومنهم حفص الفرد.
والبيهقي هو: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الشافعي، شيخ خراسان، ومن أئمة المحدثين. ولد سنة 384 ?، وتوفي سنة 458 ?. قال عنه إمام الحرمين الجويني: "ما من شافعي إلا وللشافعي في عنقه منة، إلا البيهقي؛ فإنه له على الشافعي منة؛ لتصانيفه في نصرته لمذهبه وأقاويله".
انظر: طبقات الشافعية 48-16. وشذرات الذهب 3304-305.

وابن عساكر1 في تفسير كلام الشافعي، ونحوه؛ ليخرجوا أصحابهم عن الذم، وليس كذلك؛ بل الشافعي أنكر كلام الجهمية؛ كلام حفص الفرد، وأمثاله2، وهؤلاء كانت منازعتهم في الصفات، والقرآن، والرؤية، لا في القدر. وكذلك أحمد بن حنبل خصومه من أهل الكلام هم الجهمية3

1 انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص 336.
وانظر رد شيخ الإسلام على مقولته: درء تعارض العقل والنقل 7246-251.
وابن عساكر هو: علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الدمشقي الشافعي المعروف بابن عساكر. محدث، حافظ، فقيه، مؤرخ، رحل إلى ديار كثيرة، وسمع فيها، وحدث. توفي سنة 571 ?.
انظر: طبقات الشافعية 7215-223. والبداية والنهاية 12294. ومعجم المؤلفين 769، 70.
2 سبق نقل كلام الشافعي في حفص الفرد. انظر ص 321 من هذا الكتاب، وانظر ترجمة حفص الفرد في الصفحة نفسها.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "وقد بينا أن ذم الشافعي لكلام حفص وأمثاله لم يكن لأجل إنكار القدر؛ فإن حفصا لا ينكره، وإنما كان لإنكار الصفات والأفعال المبني على دليل الأعراض". درء تعارض العقل والنقل 7275. وانظر: المصدر نفسه 7146، 245، 246، 250.
3 ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في غير ما موضع من كتبه أن المحنة التي وقعت للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، والمناظرة التي حدثت لم تكن مع المعتزلة فقط، بل كانت مع جنس الجهمية.
ومن النصوص التي وقفت عليها في ذلك: قول شيخ الإسلام رحمه الله عن فتنة خلق القرآن التي وقعت زمن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: "ولم تكن المناظرة مع المعتزلة فقط، بل كانت مع جنس الجهمية؛ من المعتزلة، والنجارية، والضرارية، وأنواع المرجئة؛ فكل معتزلي جهمي، وليس كل جهمي معتزليا ... الخ". منهاج السنة النبوية 2603-604.
وقال رحمه الله في موضع آخر يحكي عن الإمام أحمد وما جرى له مع ابن أبي دؤاد: " ... وكان أحمد بن أبي دؤاد قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن من جميع الطوائف؛ فجمع له مثل أبي عيسى محمد بن عيسى بن برغوث، ومن أكابر النجارية؛ أصحاب حسين النجار.
وأئمة السنة؛ كابن المبارك، وأحمد بن إسحاق، والبخاري، وغيرهم يسمون جميع هؤلاء جهمية. وصار كثير من المتأخرين؛ من أصحاب أحمد، وغيرهم يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة، ويظنون أن بشر بن غياث المريسي وإن كان قد مات قبل محنة أحمد، وابن أبي دؤاد، ونحوهما كانوا معتزلة. وليس كذلك؛ بل المعتزلة كانوا نوعا من جملة من يقول: القرآن مخلوق. وكانت الجهمية أتباع جهم، والنجارية أتباع حسين النجار، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو، والمعتزلة، هؤلاء يقولون: القرآن مخلوق". مجموع فتاوى ابن تيمية 14352.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضا: "وهذه المعاني مما ناظروا بها الإمام أحمد في المحنة، وكان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفي التجسيم: أبو عيسى محمد بن عيسى؛ برغوث؛ تلميذ حسين النجار، وهو من أكابر المتكلمين؛ فإن ابن أبي دؤاد كان قد جمع للإمام أحمد من أمكنه من متكلمي البصرة، وبغداد، وغيرهم؛ ممن يقول: إن القرآن مخلوق. وهذا القول لم يكن مختصا بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس؛ فإن كثيرا من أولئك المتكلمين، أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة. وبشر المريسي لم يكن من المعتزلة، بل فيهم نجارية، ومنهم برغوث، وفيهم ضرارية، وحفص الفرد الذي ناظر الشافعي كان من الضرارية؛ أتباع ضرار بن عمرو، وفيهم مرجئة. ومنهم بشر المريسي، ومنهم جهمية محضة، ومنهم معتزلة. وابن أبي دؤاد لم يكن معتزليا، بل كان جهميا ينفي الصفات. والمعتزلة تنفي الصفات؛ فنفاة الصفات الجهمية أعم من المعتزلة ... ". مجموع الفتاوى 17299-300.

الذين ناظروه في القرآن؛ مثل أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث؛ صاحب حسين النجار، وأمثاله1. ولم يكونوا قدرية، ولا كان النزاع في مسائل

1 سبق كلام الإمام أحمد رحمه الله في برغوث ص 322 من هذا الكتاب، وقد ذكرت ترجمة برغوث، وترجمة صاحبه حسين النجار في الصفحة نفسها.

وانظر في ذم السلف لأهل الكلام: شرح الأصفهانية 2318-323. ولزيادة إيضاح هذا الموضوع، انظر: درء تعارض العقل والنقل 1230-231، 249، 7257، 275، 276، 278.

القدر. ولهذا يصرح أحمد، وأمثاله من السلف بذم الجهمية، بل يكفرونهم أعظم من سائر الطوائف1.

أصول أهل الأهواء

وقال عبد الله بن المبارك2، ويوسف بن أسباط3، وغيرهما: أصول أهل الأهواء أربع: الشيعة4، والخوارج5، والمرجئة6،

---

1 وللسلف كتب مستقلة في فضح وذم الجهمية. انظر على سبيل المثال: الرد على الجهمية للإمام أحمد، وللإمام الدارمي، وللجعفي شيخ البخاري، وبيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية، واجتماع الجيوش الإسلامية، والصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة؛ كلاهما لابن قيم الجوزية رحمه الله.

وهناك كتب جمعها السلف فيها ذم للجهمية، ورد عليهم. انظر: كتاب الرد على الجهمية في صحيح البخاري، وخلق أفعال العباد "الجزء الثاني منه" للإمام البخاري. وكتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي. وكتاب السنة لابن أبي عاصم. وسميه لعبد الله بن الإمام أحمد، وكذلك للخلال، وغيرهم كثير.

2 سبقت ترجمته.

3 سبقت ترجمته.

4 سبق التعريف بهم.

5 سبق التعريف بهم.

6 قال الشهرستاني: "الإرجاء على معنيين: أحدهما: بمعنى التأخير؛ كما في قوله تعالى: {قالوا أرجه وأخاه} [الأعراف، 111] ؛ أي أمهله وأخره. والثاني: إعطاء الرجاء. وأما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح؛ لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد. وأما بالمعنى الثاني فظاهر؛ فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة". الملل والنحل للشهرستاني 1139.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (المرجئة ثلاث أصناف: الذين يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة ... ومنهم من لا يدخلها في الإيمان؛ كجهم ومن اتبعه كالصالحي. وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه.

والقول الثاني: من يقول: هو مجرد قول باللسان. وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية.

والثالث: تصديق القلب، وقول اللسان. وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم". مجموع الفتاوى 7195. وانظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص 202-207. ومقالات الإسلاميين للأشعري 1213-234. والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم 2111-112، 4204. والملل والنحل للشهرستاني 1139-146.

والقدرية1. فقيل لهم: الجهمية2؟ فقالوا: الجهمية ليسوا من أمة محمد3. ولهذا ذكر أبو عبد الله بن حامد4 عن أصحاب أحمد في الجهمية: هل هم من الثنتين وسبعين فرقة؟ وجهين5؛ أحدهما: أنهم ليسوا منهم؛ لخروجهم عن الإسلام.

السلف لم يذموا جنس الكلام

وطائفة تظن أن الكلام الذي ذمه السلف: هو مطلق النظر، والاحتجاج، والمناظرة6،

---

1 والمقصود بهم القدرية النفاة. وهو من ألقاب المعتزلة الذين ينفون الإرادة والقدرة عن الله ويثبتون للعبد قدرة يفعل بها ما اختار فعله. فكل إنسان عندهم يخلق فعل نفسه.

انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص 114-116. والفصل لابن حزم 322. والملل والنحل للشهرستاني 143-45، ودرء تعارض العقل والنقل 8405.

2 سبق التعريف بهم.

3 سبق تخريج هذا الأثر.. انظر ص 498 من هذا الكتاب.

4 سبقت ترجمته.

5 انظر ص 694؛ فقد سبق تخريج هذا الأثر.

6 السلف رحمهم الله انصب ذمهم على الكلام الباطل؛ بسبب مخالفته للنصوص الشرعية.
ويزيد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا المعنى إيضاحا؛ فيقول: "السلف رحمهم الله لم يذموا جنس الكلام؛ فإن كل آدمي يتكلم، ولا ذموا الاستدلال، والنظر، والجدل الذي أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، والاستدلال بما بينه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، بل ولا ذموا كلاما هو حق، بل ذموا الكلام الباطل، وهو المخالف للكتاب والسنة، وهو المخالف للعقل أيضا، وهو الباطل، فالكلام الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل، وهو المخالف للشرع والعقل، ولكن كثير من الناس خفي عليه بطلان هذا الكلام".
الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ص 96.
وانظر: مجموع الفتاوى 3306-307، 13147-148، 16473. ودرء تعارض العقل والنقل 1178، 232-237، 7170، 181. والفتاوى المصرية 1136، 137، 6560. وجامع الرسائل 236 رسالة في الصفات الاختيارية.

ويزعم من يزعم [من] 1 هؤلاء أن قوله: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} 2، و {جادلهم بالتي هي أحسن} 3: منسوخ بآية السيف4.

---

1 في ((خ)) : أن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة العنكبوت، الآية 46.
3 سورة النحل، الآية 125.
4 انظر: زاد المسير لابن الجوزي 4506، 9254.
وآيات السيف، مثل قوله تعالى: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين} سورة التوبة.
ومثل قوله: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب} سورة محمد.
ونقل الحافظ ابن كثير رحمه الله عن ابن أبي حاتم بسنده إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "بعث النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف؛ سيف في المشركين من العرب، قال تعالى: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} . هكذا رواه مختصرا.
وعقب الحافظ ابن كثير بقوله: وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب، لقوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} ، والسيف الثالث: قتال المنافقين، في قوله: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين} الآية. والرابع: قتال الباغين في قوله: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله} . تفسير ابن كثير 2336-337.

وهؤلاء أيضا غالطون؛ فإن الله تعالى قد أخبر عن قوم نوح، وإبراهيم بمجادلتهم للكفار؛ حتى: {قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا} 1، وقال عن قوم إبراهيم: {وحاجه قومه} 2، إلى قوله: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه} 3، وذكر محاجة إبراهيم للكافر.
[والقرآن] 4 فيه من مناظرة الكفار، والاحتجاج عليهم ما فيه؛ من [شفاء] 5، وكفاية.
وقوله تعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم} 6، وقوله: {جادلهم بالتي هي أحسن} 7: ليس في القرآن ما ينسخهما، ولكن بعض الناس يظن أن من المجادلة ترك الجهاد بالسيف. وكل ما كان متضمنا لترك الجهاد المأمور به فهو منسوخ بآيات السيف والجهاد.
متى تكون المجادلة؟
والمجادلة قد [تكون] 8 مع أهل الذمة، والهدنة، والأمان، ومن لا يجوز قتاله بالسيف، وقد [تكون] 9 في ابتداء الدعوة؛ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجاهد الكفار بالقرآن، وقد [تكون] 10 لبيان الحق، وشفاء القلوب من الشبه، [مع من] 11 يطلب الاستهداء والبيان.

---

1 سورة هود، الآية 32.
2 سورة الأنعام، الآية 80.

3 سورة الأنعام، الآية 83.
4 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
6 سورة العنكبوت، الآية 46.
7 سورة النحل، الآية 125.
8 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
9 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
10 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
11 في ((خ)) رسمت: معمن.

وبسط هذا له موضع آخر1.
المبتدعة ابتدعوا أصولا تخالف الكتاب
والمقصود هنا: أن المبتدعين الذين ابتدعوا كلاما وأصولا تخالف الكتاب، وهي أيضا مخالفة للميزان؛ وهو العدل؛ فهي مخالفة للسمع، والعقل؛ كما ابتدعوا في إثبات الصانع إثباته بحدوث الأجسام، وأثبتوا حدوث الأجسام بأنها مستلزمة للأعراض لا تنفك عنها. قالوا: وما لا يخلو عن الحوادث، فهو حادث؛ لامتناع حوادث لا أول لها.
فهؤلاء2 إذا حقق عليهم ما قالوه، لم يوجدوا قد [أثبتوا] 3 العلم بالصانع، ولا أثبتوا النبوة، ولا أثبتوا المعاد. وهذه هي أصول الدين والإيمان4. بل كلامهم في الخلق، والبعث؛ المبدأ والمعاد، وفي إثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لا عقلا، ولا نقلا.

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله يؤصل المسائل المختلف فيها، يبين حال الخصوم بيانا شافيا، ثم يكر عليه بالرد، وذلك بهدم الباطل الذي عند الخصم وإحلال الحق مكانه، قال رحمه الله: "فإن المبتدع الذي بنى مذهبه على أصل فاسد، فينبغي إذا كان المناظر مدعيا أن الحق معه أن يبدأ بهدم ما عنده فإذا انكسر وطلب الحق فأعطه إياه، وإلا فما دام معتقدا نقيض الحق لم يدخل الحق إلى قلبه، كاللوح الذي كتب فيه كلام باطل، أمحه أولا، ثم أكتب فيه الحق"
بل يرى مناظرة أهل البدع، ودحض شبهاتهم؛ فيقول رحمه الله: "فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين". مجموع الفتاوى 7158-159. وانظر منهج شيخ الإسلام في الرد على خصومهم: موقفه من الأشاعرة 1284-318 درء تعارض العقل والنقل 1357. وانظر: المصدر نفسه 1232-237.
2 المبتدعة؛ أصحاب دليل الأعراض وحدوث الأجسام.
3 في ((خ)) : أثبتو.
4 انظر طريقة المتكلمين في إثبات أصول الدين، وذم السلف لهذه الطريقة في كتاب الصفدية 1274-275، 277-279.

ندم الرازي وحيرته
[وهم] 1 معترفون بذلك؛ كما قال الرازي: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق: طريقة القرآن؛ أقرأ في النفي: {ليس كمثله شيء} 2، {ولا يحيطون به علما} 3، وأقرأ في الإثبات: {ليس كمثله شيء} 4، {إليه يصعد الكلم الطيب} 5، {أأمنتم من في السماء} 6.
ثم قال7: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي8.
وكذلك الغزالي9، وابن عقيل10، وغيرهما11 يقولون ما يشبه هذا.

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة الشورى، الآية 11.
3 سورة طه، الآية 110.
4 سورة طه، الآية 5.
5 سورة فاطر، الآية 10.

6 سورة الملك، الآية 16.
7 يعني الرازي.
8 سبق كلام الرازي هذا مرارا. انظر ص 356-357، 478، 612.
9 انظر ذم الغزالي للكلام في إحياء علوم الدين 1113-117، وقواعد العقائد ص 82-105 وكلاهما للغزالي. وانظر: درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام 7157-186، 242-246. وشرح الأصفهانية له 2551.
10 قال ابن عقيل: "فنصيحتي لإخواني من المؤمنين الموحدين أن لا يقرع أبكار قلوبهم كلام المتكلمين، ولا تصغي مسامعهم إلى خرافات المتصوفين..... وقد خبرت طريقة الفريقين؛ غاية هؤلاء الشك، وغاية هؤلاء الشطح". انظر: درء تعارض العقل والنقل 866. وشرح الأصفهانية 171.
وانظر ذم ابن عقيل للكلام في تلبيس إبليس ص 116-117. وتحريم النظر في كتب أهل الكلام لابن قدامة ص 5. ودرء تعارض العقل والنقل 748-50،، 861-68.
11 وانظر أيضا ذم الجويني للكلام في تلبيس إبليس ص 115. ودرء تعارض العقل والنقل 747.
وانظر الجزء السابع من درء تعارض العقل والنقل؛ فقد ذكر فيه شيخ الإسلام رحمه الله أقوال العلماء في ذم الكلام، وعلق عليها.
وانظر أيضا: درء تعارض العقل والنقل 1232،، 5218، 8277. وشرح الأصفهانية 2318. ومجموع الفتاوى 5261، 6243، 472-476.

وهو كما قالوا؛ فإن الرازي قد جمع ما جمعه من طرق المتكلمين والفلاسفة، ومع هذا فليس في كتبه إثبات الصانع؛ كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع1، وبين جميع ما ذكره في إثبات الصانع، وأنه ليس فيه ذلك، وليس فيه أيضا إثبات النبوة2؛ فإن النبوة مبناها على أن الله قادر، وأنه يحدث الآيات لتصدق بها الرسل، وليس في كتبه إثبات أن الله قادر،

---

1 انظر كتاب نقض تأسيس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية؛ فهو مما أفرده رحمه الله في نقض كلام الرازي، وقد بين فيه مخالفة الرازي لطريقة السلف. والكتاب وزع كرسائل علمية على الطلاب في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وهو الآن قيد الطبع كما نما إلى سمعي.
وتوجد قطعة منه مطبوعة، وقد اعتنى بها الشيخ عبد الرحمن بن قاسم. انظر منها على سبيل المثال: 1459، 478. وانظر درء تعارض العقل والنقل 968.
2 قال شيخ الإسلام عن الرازي في موضع آخر: "أبو عبد الله الرازي فيه تجهم قوي، ولهذا يوجد ميله إلى الدهرية أكثر من ميله إلى السلفية الذين يقولون إنه فوق العرش، وربما كان يوالي أولئك أكثر من هؤلاء، ويعادي هؤلاء أكثر من أولئك، مع اتفاق المسلمين على أن الدهرية كفار، وأن المثبتة للعلو فيهم من خيار المسلمين من لا يحصيه إلا الله تعالى. وقد صنف على مذهب الدهرية المشركين والصابئين كتبا، حتى صنف في السحر وعبادة الأصنام وهو الجبت والطاغوت، وإن كان قد أسلم من هذا الشرك، وتاب من هذه الأمور، فهذه الموالاة والمعاداة لعلها في تلك الأوقات، ومن كان بتلك الأحوال فهو قبل الإسلام والتوبة..". بيان تلبيس الجهمية 1122-123.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضا عنه: "ليس في كتبه إثبات النبوة، بل كان يصنف في دين المشركين". مجموع الفتاوى 13116. وانظر: المصدر نفسه 1855، 77. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 612.

ولا مريد. بل كلامه فيه تقرير حجج من نفى قدرته وإرادته، دون الجانب الآخر؛ كما قد بينا ذلك في الكلام على ما ذكره في مسألة القدرة والإرادة1، مع أنه ولله الحمد الأدلة الدالة على إثبات الصانع، وإثبات قدرته ومشيئته، تفوق الاحصاء.
لكن من لم يجعل الله له نورا، فما له من نور.
وسبب ذلك إعراضهم عن الفطرة العقلية، و [الشرعة] 2 [النبوية؛ بما ابتدعه المبتدعون مما أفسدوا به الفطرة، والشرعة] 3؛ فصاروا يسفسطون4 في العقليات ويقرمطون5 في السمعيات؛ كما قد بين هذا في

---

1 هذا الكتاب لم أقف عليه، ويبدو أنه غير مطبوع، والله أعلم.

وللشيخ رحمه الله كتاب باسم "الإرادة والقدر"، وهو لا يزال مخطوطا، ويقع في (24) ورقة، كتب في القرن العاشر. ويوجد في المكتبة السليمانية بتركيا، "خزانة أزميرلي"، رقم 365.
انظر قائمة ببعض مخطوطات شيخ الإسلام رحمه الله ضمن رسالة حققها علي بن عبد العزيز الشبل، بعنوان ((قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل)) لشيخ الإسلام ابن تيمية ص 15.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : الشرعية.
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 سبق تعريف هذه الكلمة ص 553. وانظر معنى السفسطة من كلام شيخ الإسلام في نقض تأسيس الجهمية 1150، 322، 324. وشرح العقيدة الأصفهانية 2451-457. وبغية المرتاد ص 184. ودرء تعارض العقل والنقل 215. والتدمرية ص 19. والرد على البكري ص 77-88. ومنهاج السنة النبوية 2524-225. وكتاب الصفدية 198.
5 القرمطة نسبة إلى مذهب القرامطة. ووجه قرمطتهم: أنهم جعلوا للنص معنى باطنا يخالف معناه الظاهر.
والقرامطة: نسبة إلى حمدان قرمط، ولقب بذلك لقرمطة في خطه، أو في خطوه. كان أحد دعاتهم في الابتداء، فاستجاب له جماعة، فسموا قرامطة، وقرمطية. وكان هذا الرجل من أهل الكوفة، وكان يميل إلى الزهد، فصادف أحد دعاة الباطنية، وأثر عليه؛ فاعتنق مذهبهم. ثم لم يزل بنوه وأهله يتوارثون مكانه. وكان أشدهم بأسا: رجل يقال له أبو سعيد. ظهر في سنة ست وثمانين ومائتين، وقوي أمره، وقتل ما لا يحصى من المسلمين، وخرب المساجد، وأحرق المصاحف، وفتك بالحاج، وسن لأهله وأصحابه سننا، وأخبرهم بمحالات. ثم مات، وخلف بعده ابنه أبا طاهر؛ ففعل مثل فعله، وهجم على الكعبة، فأخذ ما فيها من الذخائر، وقلع الحجر الأسود، وحمله إلى بلده، وأوهم الناس أنه الله -تعالى الله عن قوله علوا كبيرا.
انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص 289. وفضائح الباطنية للغزالي ص 12. وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص 144-146. وانظر تعريف شيخ الإسلام رحمه الله للقرمطة في السمعيات في كتابه: نقض تأسيس الجهمية 1150. والرسالة التدمرية ص 19. وشرح حديث النزول ص 428. وبغية المرتاد ص 183-184. وشرح الأصفهانية 2451-457. ودرء تعارض العقل والنقل 215. ومجموع الفتاوى 12213، 13168.

مواضع1.

---

1 وهذه القرمطة في السمعيات، والسفسطة في العقليات؛ والتي هي صنيع المبتدعة الذين ابتدعوا أصولا عارضوا بها أصول الدين: قد أشار إليها شيخ الإسلام في العديد من مصنفاته.
راجع مصنفات شيخ الإسلام رحمه الله المذكورة في الحاشيتين (4) ، (5) عند التعليق على السفسطة في العقليات، والقرمطة في السمعيات.
وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله أن القرآن الكريم جاء بالأدلة العقلية لأصول الدين، ورد على من يهمل دلالة القرآن العقلية والسمعية على ذلك؛ فقال: "إن القرآن ضرب الله فيه الأمثال والمقاييس العقلية التي يثبت بها ما يخبر به من أصول الدين؛ كالتوحيد، وتصديق الرسل، وإمكان المعاد، وأن ذلك مذكور في القرآن على أكمل الوجوه، و.... عامة ما يثبته النظار من المتكلمين والمتفلسفة في هذا الباب يأتي القرآن بخلاصته، وبما هو أحسن منه على أتم الوجوه، بل لا نسبة بينهما لعظم التفاوت". التسعينية ص 273.
ويقول أيضا: "والمتكلم يستحسن مثل هذا التأليف ويستعظمه؛ حيث قررت الربوبية، ثم الرسالة، ويظن أن هذا موافق لطريقته الكلامية في نظره في القضايا العقليات أولا؛ من تقرير الربوبية، ثم تقرير النبوة، ثم تلقي السمعيات من النبوة؛ كما هي الطريقة المشهورة الكلامية للمعتزلة، والكرامية، والكلابية، والأشعرية، ومن سلك هذا الطريق في إثبات الصانع أولا بناء على حدوث العالم، ثم إثبات صفاته نفيا وإثباتا بالقياس العقلي، على ما بينهم من اتفاق واختلاف؛ إما في المسائل، وإما في الدلائل. ثم بعد ذلك يتكلمون في السمعيات؛ في المعاد، والثواب والعقاب، والخلافة، والتفضيل، والإيمان بطريقة مجملة. وإنما عمدة الكلام عندهم ومعظمه هو تلك القضايا التي يسمونها العقليات؛ وهي أصول دينهم، وقد بنوها على مقاييس تستلزم رد كثير مما جاءت به السنة؛ فلحقهم الذم من جهة ضعف المقاييس التي بنوا عليها، ومن جهة ردهم لما جاءت به السنة". مجموع الفتاوى 27.
وانظر: شرح الأصفهانية 140-41، 397. وكتاب الصفدية1276-278.

طرق إثبات النبوة عند الرازي

وأيضا فإذا عرف1 أن الله قادر، كما قد عرفه غيره، فليس عنده في النبوة إلا طريق أصحابه الأشعرية2؛ الذين سلكوا مسلك الجهمية3 في

---

1 المقصود به الرازي. وانظر كتابه الأربعين ص 122-125.
ويوضح شيخ الإسلام رحمه الله موقف الرازي من هذه المسألة، فيقول: "والرازي وأمثاله يترجمون هذه المسألة بأن الباري تعالى هو فاعل مختار، أو موجب بالذات، ويجعلون الأول قول أهل الملل، والثاني قول الفلاسفة، ثم يقررون القادر المختار بأنه الذي يفعل مع جواز أن لا يفعل. وهذا تفسير القدرية، بل تفسير بعضهم. وأما بعضهم: فإنه يوافق أئمة أهل السنة على أنه مع القدرة التامة، والإرادة الجازمة يلزم وجود المراد". شرح الأصفهانية 2351. وانظر الصفدية 1146.
2 وينقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلام الرازي: فإن الطريق إلى إثبات الصانع، ومعرفة النبوة، ليس إلا العقل. ثم ينقل قوله: الدليل السمعي لا يفيد اليقين.
انظر درء تعارض العقل والنقل 5330-331،، 9333-334،، 7242.
3 انظر كلام شيخ الإسلام في النبوة عند الجهمية والأشاعرة في منهاج السنة 2414. وشرح الأصفهانية 2471-472، 502، 543، 609، 610، 616، 617، 621.

أفعال الله تعالى، أو طريق الفلاسفة1.
ولهذا يقول من يقول من علماء الزيدية2 وهم يميلون إلى الاعتزال، مع تشيع الزيدية يقولون: نحن لا نتكلم في الشافعي؛ [فإنه إمام] 3. لكن هؤلاء صاروا جهمية4؛ يعني القدرية فلاسفة، والشافعي لم يكن جهميا، ولا فيلسوفا.
المتكلمون لم يعرفوا الفرق بين آيات الأنبياء ومخالفيهم
وهؤلاء5 لم يعرفوا آيات الأنبياء، والفرق بينها وبين غيرها6، لكن ادعوا أن ما يأتي به الكهان، والسحرة، وغيرهم قد يكون من آيات الأنبياء، لكن بشرط: أن لا يقدر أحد من المرسل إليهم على معارضته؛ وهذه خاصة المعجز عندهم7.

---

1 انظر كلام شيخ الإسلام في النبوة عند المتفلسفة في منهاج السنة النبوية 2415. وشرح الأصفهانية 2543، 502-507، 633.
2 الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين. ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها، وجوزوا إمامة المفضول مع قيام الأفضل. وكان زيد يتولى أبا بكر وعمر، ويفضل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة. والزيدية ست فرق، تجمعهم أصول المعتزلة الخمسة، ومنها القول بأن مرتكب الكبيرة مخلد في النار. انظر: مقالات الإسلاميين 1136. والملل والنحل 1154. وانظر ما سبق ص 495. وأما القائل من علمائهم، فلم أعرفه.
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 قد تقدم المراد من إطلاق كلمة جهمية على طائفة ما، انظره ص 152.
5 المقصود بهم الأشاعرة.
6 انظر بعض الفروق كما أوضحها شيخ الإسلام رحمه الله في: شرح الأصفهانية 2472-477.
وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله جملة من الفروق بين النبي، والمتنبئ في هذا الكتاب، فراجع ص: 589-631، 671-674، 728-729.
7 انظر: البيان للباقلاني ص 48، 91، 94-96، 100. والإرشاد للجويني ص 319، 328.

وهذا فاسد من وجوه كثيرة؛ كما قد بسط في [غير] 1 هذا الموضع2.
المتكلمون ليس في كتبهم إثبات الربوبية ولا المعاد
وأما كلامه في المعاد: فأبعد من هذا، وهذا؛ كما قد بين أيضا3؛ وكذلك كلام من [تقدمه] 4؛ من الجهمية، وأتباعهم من الأشعرية، وغيرهم، ومن المعتزلة؛ فإنك لا تجد في كلامهم الذي ابتدعوه؛ لا إثبات الربوبية، ولا النبوة، ولا المعاد.
[والأشعري نفسه، وأتباعه، ليس في كتبهم إثبات الربوبية، ولا المعاد] 5، وكذلك من سلك سبيلهم في أدلتهم6 من أتباع الفقهاء؛ كالقاضي أبي

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((ط)) .
2 انظر: الجواب الصحيح 6400-401. وانظر أيضا هذا الكتاب ص 263-274، 585-642.
3 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن أصل الرازي في إثبات المعاد وطريقته: (إن إثبات المعاد موقوف على ثبوت الجوهر الفرد. وهذا قول أبي عبد الله الرازي، وغيره، وهو ملخص من جعله الأصل في الإيمان بالله؛ فجعله هو الأصل في الإيمان بالمعاد، مع كونه يجعله أصلا في نفي الصفات التي ينكرها ...) .
ثم نقل رحمه الله من كتاب الرازي نهاية العقول ما يؤيد ما ذكره عنه، ثم أبطل رحمه الله هذا الأصل الذي يعتمد عليه..) .
انظر نقض تأسيس الجهمية 1281-286.
4 في ((خ)) : يقدمه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
6 يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن أصل هؤلاء المتكلمين الذي بنوا عليه إثبات الخالق، والمعاد: "وأصل هؤلاء المتكلمين من الجهمية والمعتزلة، ومن وافقهم بنوا عليه هذا: هو مسألة الجوهر الفرد؛ فإنهم ظنوا أن القول بإثبات الصانع، وبأنه خلق السموات والأرض، وبأنه يقيم القيامة، ويبعث الناس من القبور: لا يتم إلا بإثبات الجوهر الفرد؛ فجعلوه أصلا للإيمان بالله واليوم الآخر. أما جمهور المعتزلة، ومن وافقهم؛ كأبي المعالي، وذويه: فيجعلون الإيمان بالله تعالى لا يحصل إلا بذلك، وكذلك الإيمان بالله واليوم الآخر؛ إذ كانوا يقولون: لا يعرف ذلك إلا بمعرفة حدوث العالم، ولا يعرف حدوثه إلا بطريقة الأعراض، وطريقة الأعراض مبنية على أن الأجسام لا تخلو منها. وهذا لم يمكنهم أن يثبتوه إلا بالأكوان التي هي: الاجتماع، والافتراق، والحركة، والسكون. فعلى هذه الطريقة اعتمد أولهم وآخرهم ... فإن هذا أبلغ الأقوال؛ وهو قول الأشعري، ومن وافقه؛ كالقاضي أبي بكر، والقاضي أبي يعلى، وأبي المعالي الجويني، وأبي الحسين، وابن الزاغوني، وغيرهم".
نقض تأسيس الجهمية 1280.

يعلى، وابن عقيل، وابن الزاغوني1، وغيرهم.
والمعتزلة كذلك أيضا، وكذلك الكرامية.
وقد تأملت كلام أئمة هؤلاء الطوائف؛ كأبي [الحسين] 2 [البصري] 3، ونحوه من المعتزلة، وكابن [الهيصم] 4 من الكرامية، وكأبي الحسن

---

1 هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري، أبو الحسن بن الزاغوني، الفقيه، الحنبلي، شيخ الحنابلة، وواعظهم، وأحد أعيانهم. كان متقنا لعلوم شتى. توفي سنة 527 ?. انظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب 1180-184. وسير أعلام النبلاء 19605-607. وشذرات الذهب 480، 81.
2 في ((ط)) : الحسن.
3 في ((م)) : الصبري.
وهو: أبو الحسين محمد بن علي الطيب البصري، من متأخري المعتزلة، ومن أئمتهم. قال عنه الخطيب البغدادي: "المتكلم، صاحب التصانيف على مذهب الاعتزال. بصري، سكن بغداد، ودرس بها الكلام إلى حين وفاته". وقال ابن حجر: "شيخ المعتزلة، ليس بأهل للرواية". توفي سنة 436 ?.
انظر: لسان الميزان 5298. وتاريخ بغداد 3100. وشذرات الذهب 3259.
4 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : الهيضم بالضاد. وهو خلاف الموجود في كتب التراجم.
وقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مرارا في كتبه؛ سيما في المنهاج (2285، 4120) ، وفي كتاب الصفدية (136) ، وفي بيان تلبيس الجهمية (1201) باسم ابن الهيصم بالصاد، فلعل ما في النبوات خطأ من الناسخ.
وهو أبو عبد الله محمد بن الهيصم. من أئمة الكرامية. عاش في القرن الخامس الهجري. قال عنه الشهرستاني: "وقد اجتهد ابن الهيصم في إرمام مقالة أبي عبد الله في كل مسألة، حتى ردها من المحال الفاحش إلى نوع يفهم فيما بين العقلاء"، وذكر طوائف الكرامية إلى ثنتي عشرة فرقة، وقال: وأقربهم الهيصمية. ونفى عنه ابن أبي الحديد (في شرح نهج البلاغة 3229-230) ما ينسب إليه من تجسيم، وفوقية.
وقد تناظر ابن الهيصم، وابن فورك بحضور السلطان محمود بن سكتكين في مسألة العرش، فمال السلطان إلى قول ابن الهيصم. البداية والنهاية 1230.

وانظر: الملل والنحل للشهرستاني 1108-112. وشرح نهج البلاغة 3229. وانظر بعض آرائه في منهاج السنة النبوية 2285، 4120. وكتاب الصفدية 136.

نفسه1، والقاضي أبي بكر، وأبي المعالي الجويني، وأبي إسحاق الاسفرايني، وأبي بكر ابن فورك، وأبي القاسم القشيري، وأبي الحسن التميمي، والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، وابن الزاغوني غفر الله لهم ورحمهم أجمعين2. وتأملت ما وجدته في الصفات من المقالات؛ مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني، وكتاب مقالات الإسلاميين للأشعري؛ وهو أجمع كتاب رأيته في هذا الفن، وقد ذكر فيه ما ذكر أنه مقالة أهل السنة والحديث، وأنه يختارها، وهي أقرب ما ذكره من المقالات إلى السنة والحديث، لكن فيه أمور لم يقلها أحد من أهل السنة والحديث. ونفس مقالة أهل السنة والحديث لم يكن يعرفها، ولا هو خبير بها؛ فالكتب المصنفة في مقالات الطوائف التي صنفها هؤلاء، ليس فيها ما جاء به الرسول، وما دل عليه القرآن؛ لا في

---

1 لعله يعني أبا الحسن الأشعري؛ لأنه ذكره بعد ذكر أئمة كل فرقة، فكان من المناسب أن يتبعهم بذكر الأشعري وأتباعه.
2 انظر أصل هؤلاء المتكلمين الذي بنوا عليه إثبات الخالق، والمعاد؛ وهو إثبات الجوهر الفرد، في: نقض تأسيس الجهمية 1280-281.

المقالات المجردة، ولا في المقالات التي يذكر فيها الأدلة؛ فإن جميع هؤلاء دخلوا في الكلام المذموم الذي عابه السلف وذموه1.

الأشعري أعلم من الشهرستاني بالمقالات والشهرستاني أعلم من الغزالي بها

ولكن بعضهم أقرب إلى السنة من بعض، وقد يكون هذا أقرب في بعض، وهذا أقرب في مواضع؛ وهذا لكون أصل اعتمادهم لم يكن على القرآن والحديث؛ بخلاف الفقهاء؛ فإنهم في كثير مما يقولونه إنما يعتمدون على القرآن والحديث، فلهذا كانوا أكثر متابعة، لكن ما تكلم فيه أولئك أجل، ولهذا يعظمون من وجه، ويذمون من وجه؛ فإن لهم حسنات، وفضائل، وسعيا مشكورا، وخطأهم بعد الاجتهاد مغفور.

والأشعري أعلم بمقالات المختلفين من الشهرستاني؛ ولهذا ذكر عشر طوائف، وذكر مقالات لم يذكرها الشهرستاني2، وهو أعلم بمقالات أهل السنة، وأقرب إليها، وأوسع علما من الشهرستاني.

والشهرستاني أعلم باختلاف المختلفين، ومقالاتهم من الغزالي؛ ولهذا ذكر لهم في القرآن أربع مقالات، وعدد طوائف من أهل القبلة3.

الغزالي حصر أهل العلم الإلهي في أربعة أصناف

والغزالي حصر أهل العلم الإلهي في أربعة أصناف؛ في الفلاسفة، والباطنية، والمتكلمين، والصوفية؛ فلم يعرف مقالات أهل الحديث والسنة، ولا مقالات الفقهاء، ولا مقالات أئمة الصوفية، ولكن ذكر عنهم العمل، وذكر عن بعضهم اعتقادا يخالفهم فيه أئمتهم4.

---

1 انظر نقد شيخ الإسلام رحمه الله لكتب المقالات في درء تعارض العقل والنقل 2307-311، 368، 735-36، 967-68.
2 ذكر ذلك في كتابه مقالات الإسلاميين.
3 ذكر ذلك في كتابه الملل والنحل.
4 انظر كتاب الغزالي ((المنقذ من الضلال)) ص 25.

والقشيري أعلم بأقوال الصوفية، ومع هذا لم يذكر أقوال أئمتهم1.

وأبو طالب2 أعلم منهما3 بأقوال الصوفية، ومع هذا فلم يعرف مقالة الأكابر؛ كالفضيل بن عياض، ونحوه4.

ابن رشد حصر أهل العلم الإلهي في ثلاثة أصناف

وأبو الوليد بن رشد الحفيد حصر أهل العلم الإلهي في ثلاثة: في الحشوية، والباطنية، والأشعرية. والباطنية عنده يدخل فيهم باطنية الصوفية، وباطنية الفلاسفة5.

ملاحدة الصوفية

ومن هنا دخل ابن سبعين، وابن عربي؛ فأخذوا مذاهب الفلاسفة، وأدخلوها في التصوف6.

1 انظر: الرسالة القشيرية له.
2 هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي، المكي المنشأ، العجمي الأصل. صاحب قوت القلوب. قال عنه الذهبي: إنه وعظ، فخلط في كلامه، فقال: "ليس على المخلوقين أضر من الخالق"، فبدعوه، وهجروه. وهو من أشهر رجال السالمية؛ أتباع أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سالم، وابنه أحمد بن محمد بن سالم. ويجمع السالمية في مذهبهم بين كلام أهل السنة، وكلام المعتزلة، مع ميل إلى التشبيه، ونزعة صوفية اتحادية. وقد توفي أبو طالب المكي ببغداد سنة 386 ?.
انظر: تاريخ بغداد 389. وسير أعلام النبلاء 16536. والبداية والنهاية 11341. وشذرات الذهب 3120-121. والأعلام 6274.
3 أي من الغزالي، والقشيري.
4 انظر كتاب ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي.
5 انظر كتاب ((الكشف عن مناهج الأدلة)) لابن رشد الحفيد. وانظر درء تعارض العقل والنقل 968-69.
6 انظر: كتاب الصفدية لشيخ الإسلام 1265-270، 273، 284. وشرح الأصفهانية 2547-549. وبغية المرتاد ص 445-450.

وأبو حامد يدخل في [بعض] 1 هذا؛ فإن ابن سينا تكلم في مقالات العارفين بتصوف فاسد.
قولهم في الصحابة لأجل أنهم لم يتكلموا بنحو كلامهم
ثم إن هؤلاء2 مع هذا [لما لم] 3 يجدوا الصحابة والتابعين تكلموا بمثل كلامهم، بل ولا نقل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، صار منهم من يقول: كانوا مشغولين بالجهاد عن هذا الباب، وأنهم هم حققوا ما لم يحققه الصحابة4. ويقولون أيضا: إن الرسول لم يعلمهم هذا، لئلا يشتغلوا به عن الجهاد؛ فإنه كان محتاجا إليهم في الجهاد5.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 المتصوفة.
3 في ((ط)) : لم لم.
4 وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن طريقة هؤلاء المبتدعة أنهم "أسقطوا بها حرمة الكتاب والرسول عندهم، وحرمة الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ حتى يقولون: إنهم لم يحققوا أصول الدين كما حققناها. وربما اعتذروا عنهم بأنهم كانوا مشتغلين بالجهاد. ولهم من جنس هذا الكلام الذي يوافقون به الرافضة ونحوهم من أهل البدع، ويخالفون به الكتاب والسنة والإجماع". درء تعارض العقل والنقل 214-15.
وانظر: قواعد العقائد للغزالي ص 97. وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا 3186-187. ومن كتب شيخ الإسلام: درء تعارض العقل والنقل 851-54، والتسعينية ص 256؛ حيث نسب بعض هذه الأقوال للجويني.
5 وقال شيخ الإسلام عنهم: "صار كثير منهم يقول: إن الرسول لم يكن يعرف أصول الدين، أو لم يبين أصول الدين. ومنهم من هاب النبي، ولكن يقول: الصحابة والتابعون لم يكونوا يعرفون ذلك. ومن عظم الصحابة والتابعين مع تعظيم أقوال هؤلاء يبقى حائرا: كيف لم يتكلم أولئك الأفضل في هذه الأمور التي هي أفضل العلوم. ومن هو مؤمن بالرسول معظم له: يستشكل كيف لم يبين أصول الدين مع أن الناس إليها أحوج منهم إلى غيرها". درء تعارض العقل والنقل124. وانظر: مجموع الفتاوى 13249-252.

وهكذا يقول من يقول من مبتدعة أهل الزهد، والتصوف1؛ إذا دخلوا في عبادات منهي عنها، ومذمومة في الشرع، قالوا: كان الصحابة مشغولين عنها بالجهاد، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخاف أن يشتغلوا بها عن الجهاد.
وأهل السيف قد يظن من يظن منهم أن لهم من الجهاد، وقتال الأعداء ما لم يكن مثله للصحابة، وأن الصحابة كانوا مشغولين بالعلم والعبادة عن مثل جهادهم.
ومن أهل الكلام من يقول: بل الصحابة كانوا على عقائدهم، وأصولهم، لكن لم يتكلموا بذلك؛ لعدم حاجتهم إليه2.
فهؤلاء جمعوا بين أمرين؛ بين أن ابتدعوا أقوالا باطلة ظنوا أنها هي أصول الدين، لا يكون عالما بالدين إلا من وافقهم عليها، وأنهم علموا، وبينوا من الحق ما لم يبينه الرسول والصحابة.

وإذا تدبر الخبير حقيقة ما هم عليه، تبين له أنه ليس عند القوم فيما ابتدعوه؛ لا علم، ولا دين، ولا شرع، ولا عقل.

---

1 انظر: التسعينية لشيخ الإسلام ص 257.
2 انظر: قواعد العقائد للغزالي ص 97. وإحياء علوم الدين 1113-114.
ويقول شيخ الإسلام رحمه الله في الرد عليهم، وبيان أن السلف أعلم في المنقول والمعقول: "ومن تدبر كلام أئمة أهل السنة المشاهير في هذا الباب، علم أنهم كانوا أدق الناس نظرا، وأعلم الناس في هذا الباب بصحيح المنقول وصريح المعقول، وأن أقوالهم هي الموافقة للمنصوص والمعقول، ولهذا تأتلف، ولا تختلف، وتتوافق، ولا تتناقض. والذين خالفوهم لم يفهموا حقيقة أقوال السلف والأئمة، فلم يعرفوا حقيقة المنصوص والمعقول؛ فتشعبت بهم الطرق، وصاروا مختلفين في الكتاب، مخالفين للكتاب ... ". درء تعارض العقل والنقل 2301-302. وانظر: مجموع الفتاوى 1329

وآخرون1 لما رأوا ابتداع هؤلاء، وأن الصحابة والتابعين لم يكونوا يقولون مثل قولهم، ظنوا أنهم كانوا كالعامة الذين لا يعرفون الأدلة والحجج، وأنهم كانوا لا يفهمون ما في القرآن مما تشابه على من تشابه عليه، وتوهموا أنه إذا كان الوقف على قوله: {وما يعلم تأويله إلا الله} 2؛ كان المراد أنه لا يفهم معناه إلا الله؛ لا الرسول، ولا الصحابة؛ فصاروا ينسبون الصحابة، بل والرسول إلى عدم العلم بالسمع والعقل، وجعلوهم مثل أنفسهم لا يسمعون ولا يعقلون، وظنوا أن هذه طريقة السلف؛ وهي الجهل البسيط3 التي لا يعقل صاحبها ولا يسمع، وهذا وصف أهل النار، لا وصف أفضل الخلق بعد الأنبياء.

---

1 انظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هؤلاء؛ فقد توسع في ذكر أقوالهم، وما يلزم عليها، في: درء تعارض العقل والنقل 116-20، 5380-381، 851-53. وكتاب الصفدية 1260، 276، 287-288.
2 سورة آل عمران، الآية 7.
وانظر أقوال العلماء في الوقف في هذه الآية في: تفسير الطبري 5182-186. وتفسير ابن كثير 1346-347. وأضواء البيان 1331-336. وانظر لشيخ الإسلام: درء تعارض العقل والنقل 5380-381، 7327. والعقيدة التدمرية ص 90.
3 هو عدم العلم عما من شأنه أن يكون علما. انظر: التعريفات للجرجاني ص 108.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن أهل الجهل البسيط والجهل المركب: "فأهل الجهل البسيط منهم أهل الشك والحيرة من هؤلاء المعارضين للكتاب، المعرضين عنه، وأهل الجهل المركب أرباب الاعتقادات الباطلة التي يزعمون أنها عقليات. وآخرون ممن يعارضهم يقول: المناقض لتلك الأقوال هو العقليات". درء تعارض العقل والنقل 1170. وانظر: المصدر نفسه 117.

ابن مسعود يحث على التمسك بهدي الصحابة..
قال ابن مسعود رضي الله عنه: من كان منكم مستنا، فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا؛ قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم1.

---

1 انظر: مشكاة المصابيح 168، وقد علق عليه الشيخ الألباني بقوله: (أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله 297، والهروي (ق 86أ) من طريق قتادة، عنه. فهو منقطع. وانظر أيضا شرح السنة للبغوي 124 مع اختلاف يسير في الألفاظ. وانظر منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام 276-77، مع اختلاف يسير.
ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على هذا الأثر؛ فيقول: "وقول عبد الله بن مسعود: كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا: كلام جامع، بين فيه حسن قصدهم، ونياتهم ببر القلوب، وبين فيه كمال المعرفة، ودقتها بعمق العلم، وبين فيه تيسير ذلك عليهم، وامتناعهم من القول بلا علم بقلة التكلف ... وهم أفضل الأمة الوسط الشهداء على الناس، الذين هداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم؛ فليسوا من المغضوب عليهم الذين يتبعون أهواءهم، ولا من الضالين الجاهلين ... بل لهم كمال العلم، وكمال القصد؛ إذ لو لم يكن كذلك، للزم أن لا تكون هذه الأمة خير الأمم، وأن لا يكونوا خير الأمة، وكلاهما خلاف الكتاب والسنة.

وأيضا فالاعتبار العقلي يدل على ذلك؛ فإن من تأمل أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وتأمل أحوال اليهود، والنصارى، والصابئين، والمجوس، والمشركين، تبين له من فضيلة هذه الأمة على سائر الأمم في العلم النافع، والعمل الصالح ما يضيق هذا الموضع عن بسطه.
والصحابة أكمل الأمة في ذلك بدلالة الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار، ولهذا لا تجد أحدا من أعيان الأمة إلا وهو معترف بفضل الصحابة عليه وعلى أمثاله، وتجد من ينازع في ذلك كالرافضة من أجهل الناس. ولهذا لا يوجد في أئمة الفقه الذين يرجع إليهم رافضي، ولا في أئمة الحديث، ولا في أئمة الزهد والعبادة، ولا في الجيوش المؤيدة المنصورة جيش رافضي، ولا في الملوك الذين نصروا الإسلام، وأقاموه، وجاهدوا عدوه من هو رافضي، ولا في الوزراء الذين لهم سيرة محمودة من هو رافضي ... ". منهاج السنة النبوية 279-81.
وانظر مدح شيخ الإسلام رحمه الله للسلف، وذكر مميزاتهم، وقيامهم بحفظ هذا الدين في: مجموع الفتاوى 17-8.

وقال أيضا: إن الله نظر في قلوب العباد؛ فوجد قلب محمد خير قلوب العباد؛ فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد؛ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد بعد قلبه؛ فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه. فما رآه المسلمون حسنا، فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحا، فهو عند الله قبيح1.
فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم
وقد ثبت في الصحيحين، من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خير القرون: القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"2.
وقد قال تعالى: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان} 3؛ فرضي عن السابقين مطلقا، ورضي عمن اتبعهم

---

1 رواه الإمام أحمد في المسند ط أحمد شاكر 5311، وقال عنه: إسناده صحيح، مع اختلاف يسير في الألفاظ. وانظر منهاج السنة 277-78.
2 أخرجه البخاري 2938، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد. و31335، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنهم. و52362، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها. و62452، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال أشهد بالله. و62463، كتاب الأيمان والنذور، باب إثم من لا يفي مع اختلاف يسير في جميع هذه الأبواب. وأخرجه مسلم في صحيحه 41962-1965، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، مع اختلاف يسير.
3 سورة التوبة، الآية 100.

بإحسان؛ وذلك متناول لكل من اتبعهم إلى يوم القيامة؛ كما ذكر ذلك أهل العلم1.
قال ابن أبي حاتم: قرىء على يونس بن عبد الأعلى: [أنا] 2 ابن وهب، حدثني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {والذين اتبعوهم بإحسان} 3: قال من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة4.
وبسط هذا له موضع آخر5.
الهدى والبيان والبراهين في القرآن
والمقصود هنا: أن الهدى، والبيان، والأدلة، والبراهين في القرآن؛ فإن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأرسله بالآيات البينات؛ وهي الأدلة البينة الدالة على الحق، وكذلك سائر الرسل. ومن الممتنع أن يرسل الله رسولا يأمر الناس بتصديقه، ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه. وكذلك من قال إني رسول [الله] 6، فمن الممتنع أن يجعل مجرد الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلا له، وحجة على الناس. هذا لا يظن بأجهل الخلق، فكيف بأفضل الناس؟.
وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما من نبي من الأنبياء، إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحيا

---

1 انظر: تفسير الطبري 116-9. وتفسير البغوي 2322. وبدائع التفسير لابن القيم جمع يسري السيد محمد 2372.
2 في ((ط)) : أن. "وأنا: مختصر "أخبرنا".

3 سورة التوبة، الآية 100.
4 الدر المنثور للسيوطي 3271.
5 انظر: العقيدة التدمرية ص 236. ومنهاج السنة النبوية 7155،، 8219.
6 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

أوحاه الله إلي، [فأرجو] 1 أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" 2.
قال تعالى: {إن الذين يكتمون [ما] 3 [أنزلنا] 4 من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون} 5؛ فالبينات: جمع بينة؛ وهي الأدلة والبراهين التي هي بينة في نفسها، وبها يتبين غيرها؛ يقال: بين الأمر: أي تبين في نفسه، ويقال: بين غيره؛ فالبين: اسم لما ظهر في نفسه، ولما أظهر غيره. وكذلك المبين؛ كقوله فاحشة مبينة؛ أي متبينة6. فهذا شأن الأدلة؛ فإن مقدماتها تكون معلومة بنفسها؛ كالمقدمات الحسية، والبديهية. وبها يتبين غيرها؛ فيستدل على الخفي بالجلي.
والهدى: مصدر هداه هدى، والهدى: هو بيان ما ينتفع به الناس، ويحتاجون إليه، وهو ضد الضلالة؛ فالضال يضل عن مقصوده وطريق مقصوده.

---

1 في ((خ)) : فأرجوا.
2 رواه البخاري في صحيحه 41905، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما أنزل. و62654، كتاب الاعتصام، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "بعثت بجوامع الكلم". ورواه مسلم في صحيحه 1134، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته.
3 في ((م)) : اما.
4 في ((ط)) : أنزل.
5 سورة البقرة، الآية 159.
6 انظر: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص 156. ولسان العرب لابن منظور 367-68.

وهو سبحانه بين في كتبه ما يهدي الناس؛ فعرفهم ما يقصدون، وما يسلكون من الطرق؛ عرفهم أن الله هو المقصود المعبود وحده، وأنه لا يجوز عبادة غيره، وعرفهم الطريق؛ وهو ما يعبدونه به.
ففي الهدى: بيان المعبود، وما يعبد به. والبينات فيها بيان الأدلة والبراهين على ذلك. فليس ما يخبر به، ويأمر به من الهدى قولا مجردا عن دليله ليؤخذ تقليدا واتباعا للظن، بل هو مبين بالآيات البينات؛ وهي الأدلة اليقينية، والبراهين القطعية.
وكان عند أهل الكتاب من البينات الدالة على نبوة محمد، وصحة ما جاء به أمور متعددة؛ [لبشارات كتبهم] 1، وغير ذلك؛ فكانوا يكتمونه؛ قال تعالى: {ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله} 2؛ فإنه كان عندهم شهادة من الله، [تشهد] 3 بما جاء به محمد، وبمثله، [فكتموها] 4.
وقال تعالى: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان} 5؛ فأنزله هاديا للناس، وبينات من الهدى والفرقان؛ فهو يهدي الناس إلى صراط مستقيم؛ يهديهم إلى صراط العزيز الحميد الذي له ما في السموات وما في الأرض، بما فيه من الخبر والأمر، وهو بينات دلالات، وبراهين من الهدى؛ من الأدلة الهادية المبينة

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة البقرة، الآية 140.
3 في ((خ)) : يشهد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((ط)) : فتكتموها.
5 سورة البقرة، الآية 185.

للحق، ومن الفرقان المفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والصدق والكذب، والمأمور والمحظور، والحلال والحرام؛ وذلك أن الدليل لا يتم إلا بالجواب عن المعارض؛ فالأدلة تشتبه كثيرا بما يعارضها، فلا بد من الفرق بين الدليل الدال على الحق، وبين ما عارضه؛ [ليتبين أن الذي عارضه باطل.
فالدليل يحصل به الهدى وبيان الحق، لكن لا بد مع ذلك من الفرقان؛ وهو الفرق بين ذلك الدليل، وبين ما عارضه] 1، والفرق بين خبر الرب، والخبر الذي يخالفه.
فالفرقان يحصل به التمييز بين المشتبهات. ومن لم يحصل له الفرقان كان في اشتباه، وحيرة.
الهدى التام لا يكون إلا مع الفرقان
والهدى التام لا يكون إلا مع الفرقان. فلهذا قال أولا: {هدى للناس} ، ثم قال: {وبينات من الهدى والفرقان} ؛ فالبينات: الأدلة على ما تقدم من الهدى؛ وهي بينات من الهدى، الذي هو دليل على أن الأول هدى، ومن الفرقان الذي يفرق بين البينات والشبهات، والحجج الصحيحة والفاسدة. فالهدى: مثل أن يؤمر بسلوك الطريق إلى الله؛ كما يؤمر قاصد الحج [بسلوك] 2 طريق مكة مع دليل يوصله. والبينات: ما يدل، ويبين أن ذلك هو الطريق، وأن سالكه سالك للطريق لا ضال. والفرقان: أن يفرق بين ذاك الطريق وغيره، وبين الدليل الذي يسلكه ويدل الناس عليه، وبين غيرهم ممن يدعي الدلالة، وهو جاهل مضل.

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 في ((ط)) : بساوك.

وهذا، وأمثاله مما يبين أن في القرآن الأدلة الدالة للناس على تحقيق ما فيه من الأخبار، والأوامر كثير. وقد بسط هذا في غير هذا الموضع1.
والمقصود هنا: الكلام على النبوة؛ فإن المتكلمين المبتدعين تكلموا في النبوات بكلام كثير لبسوا فيه الحق بالباطل؛ كما فعلوا مثل ذلك في غير النبوات؛ كالإلهيات، وكالمعاد. وعند التحقيق: لم يعرفوا النبوة، ولم يثبتوا ما يدل عليها؛ فليس عندهم لا هدى، ولا بينات.
النبوة عند المتكلمين
والله سبحانه أنزل في كتبه البينات، والهدى؛ فمن تصور الشيء على وجهه، فقد اهتدى إليه؛ ومن عرف دليل ثبوته، فقد عرف البينات. فالتصور الصحيح: اهتداء. والدليل الذي يبين التصديق بذلك التصور: بينات.
والله تعالى أنزل الكتاب هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان. والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل، ونفى عنها التمثيل؛ وهي طريقة الرسل؛ جاءوا بإثبات مفصل، ونفي مجمل. وأعداؤهم جاءوا بنفي مفصل، وإثبات مجمل2. فلو لم يكن الحق فيما بينه الرسول للناس،

1 انظر: درء تعارض العقل والنقل 1188-199، 233-237،، 736-74، 352. وشرح الأصفهانية 141. ونقض تأسيس الجهمية 1246. والتسعينية ص 273. وكتاب الصفدية 1293-296.
وانظر أول هذا الفصل؛ ففيه ذكر إحالات على ذلك الكتاب 736.
2 الرسل عليهم الصلاة والسلام جاءوا بإثبات مفصل (أي تفصيل في الصفات الثبوتية) ، ونفي مجمل (أي إجمال في الصفات السلبية) ؛ فطريقة الرسل التي هي طريقة القرآن: التفصيل في صفات المدح والثناء، والإجمال في صفات النفي التي فيها النقائص والعيوب والتمثيل.
والأمثلة من القرآن كثيرة:
فمنها: قوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} . [سورة الشورى، الآية 11] .
وقوله تعالى: {هل تعلم له سميا} . [سورة مريم، الآية 65] .
وقوله تعالى: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم هو الذي خلق السماوات ... الآية} . [سورة الحديد، الآيتان 3-4] .
وقوله تعالى: {هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم إلى قوله سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} . [سورة الحشر، الآيات 22-24] .

وأما طريقة مخالفي الرسل من أهل الإلحاد والزندقة وغيرهم: فإنهم يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل، ولا يثبتون إلا وجودا مطلقا لا حقيقة له عند التحصيل؛ فيقولون: لا يوصف بالحياة، ولا العلم، ولا القدرة، ولا يقرب من شيء، ولا يقرب منه شيء، ولا يرى في الآخرة، ولا له كلام يقوم به، ولا داخل العالم ولا خارجه ... إلى أمثال هذه العبارات السلبية التي لا تنطبق إلا على المعدوم.
ثم قالوا في الإثبات: هو وجود مطلق، أو وجود مقيد بالأمور السلبية.
انظر: العقيدة التدمرية ص 8-15. وكتاب الصفدية 1116-117. وشرح الأصفهانية 1379-380.

وأظهر لهم، بل كان الحق في نقيضه، للزم أن يكون عدم الرسول خيرا من وجوده، إذا كان وجوده لم يفدهم عند هؤلاء علما ولا هدى، بل ذكر1

---

1 والمقصود به هنا الرسول صلى الله عليه وسلم. وشيخ الإسلام يذكر هذا على سبيل الإلزام، ومناظرتهم بمفهوم كلامهم.
وقد أوضح رحمه الله موقف المتكلمين من أصول الدين التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقال: "وهؤلاء الفرق مشتركون في القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التي يجعلونها مشكلة، أو متشابهة....، ثم منهم من يقول: لم يعلم معانيها أيضا، ومنهم من يقول: بل علمها، ولم يبينها، بل أحال في بيانها على الأدلة العقلية، وعلى من يجتهد في العلم بتأويل تلك النصوص؛ فهم مشتركون في أن الرسول لم يعلم، أو لم يعلم، بل جهل معناها، أو جهلها الأمة من غير أن يقصد أن يعتقدوا الجهل المركب. وأما أولئك فيقولون: بل قصد أن يعلمهم الجهل المركب، والاعتقادات الفاسدة. وهؤلاء مشهورون عند الأمة بالإلحاد والزندقة، بخلاف أولئك؛ فإنهم يقولون: الرسول لم يقصد أن يجعل أحدا جاهلا معتقدا للباطل، ولكن أقوالهم تتضمن أن الرسول لم يبين الحق فيما خاطب به الأمة من الآيات، والأحاديث، إما مع كونه لم يعلمه، أو مع كونه علمه، ولم يبينه".
درء تعارض العقل والنقل 116-17.

أقوالا تدل على الباطل، وطلب منهم أن يتعلموا الهدى بعقولهم ونظرهم، ثم ينظروا فيما جاء به؛ فإما أن يتأولوه ويحرفوا الكلم عن مواضعه، وإما أن [يفوضوه] 1.
ردود شيخ الإسلام على المتكلمين ومنها: نقض التأسيس
فذكرنا هذا ونحوه مما يبين أن الهدى مأخوذ عن الرسول، وأنه قد بين للأمة ما يجب اعتقاده من أصول الدين في الصفات، وغيرها. فكان الجواب خطابا مع من يقر بنبوته، ويشهد له بأنه رسول الله. فلم يذكر فيه دلائل النبوة، وذكر أن الشبهات العقلية التي تعارض خبر الرسول باطلة، وذكر في ذلك ما هو موجود في هذا الجواب.
سبب تأليف درء تعارض العقل والنقل
ثم بعد ذلك حدثت أمور أوجبت أن يبسط الكلام في هذا الباب، و [يتكلم] 2 على حجج النفاة، ويبين بطلانها، و [يتكلم] 3 على ما أثبتوه؛ من أنه يجب تقديم ما يزعمون أنه معقول على ما علم بخبر الرسول.
وبسط في ذلك من الكلام والقواعد ما ليس [هذا] 4 موضعه5،

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يعوضوه.
وهذا المعنى هو قانون الرازي الذي رد عليه شيخ الإسلام رحمه الله.
2 في ((خ)) : نتكلم.
3 في ((خ)) : نتكلم.
4 في ((ط)) : هذه.
5 شيخ الإسلام رحمه الله يقصد كتابه الكبير: ((درء تعارض العقل والنقل)) ، وهو كتاب يرد فيه شيخ الإسلام رحمه الله على القانون الكلي الذي سنه الرازي لأتباعه؛ زاعما فيه أنه إذا تعارض العقل والنقل، قدم العقل. وأما النقل فإما أن يتأول، وإما أن يفوض.
انظر: درء تعارض العقل والنقل 14 في المقدمة) . وانظر قانون الرازي في كتبه الآتية: أساس التقديس في علم الكلام ص 172-173. والمطالب العالية 1337. ولباب الأربعين ص 36. ونهاية العقول في دراية الأصول ق 13.

والشرع عند الرازي وأتباعه كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: "لا يعتمد عليه فيما وصف الله به نفسه وما لا يوصف، وإنما يعتمد في ذلك على عقلهم، ثم ما لم يثبته إما أن ينفوه، وإما أن يقفوا فيه". درء تعارض العقل والنقل 213.
وشيخ الإسلام رحمه الله رد على هؤلاء من أربعة وأربعين وجها في كتابه درء تعارض العقل والنقل، وهو الذي أفرد لهدم هذا القانون الباطل من أساسه.
وقد قال أحد الباحثين وهو الدكتور عبد الرحمن المحمود عن هذا الكتاب، وسبب تأليفه: "وهذا الكتاب من أعظم كتب ابن تيمية، وقد ألفه في الرد على الأشاعرة الذين يقولون بوجوب تقديم العقل على النقل إذا تعارضا، وجعلوا ذلك قانونا كليا لهم.
ومن الذين قالوا بهذا القانون: الرازي وأتباعه، والجويني، والقاضي أبو بكر بن العربي، وغيرهم.
وقد ألف ابن تيمية هذا الكتاب بعد تأليفه لنقض أساس التقديس، وقد رجح المحقق رحمه الله أنه ألفه بعد وصوله إلى الشام من مصر؛ أي بين عامي 712- 718 ?. ويقول ابن تيمية مشيرا إلى ذلك: (وهذه الطريقة هي ثابتة في الأدلة الشرعية والعقلية؛ فإنا قد بينا في الرد على أصول الجهمية النفاة للصفات في الكلام على تأسيس التقديس، وغيره". فهذا النص أخر تأليف هذا الكتاب عن كتابه الآخر الذي ألفه في مصر ((نقض أساس التقديس)) ، ونلمح هنا التدرج التأليفي في نقض أصول الأشاعرة؛ فهو في البداية رد على أدلتهم مباشرة، وأجاب عن الاعتراضات الواردة عليها، ثم رأى أن هؤلاء إنما يعتمدون في شبههم واعتراضاتهم على ما كتبه شيخهم ومقدمهم الرازي، فرأى أن من تمام الكلام في نقض كلامهم نقض كلام شيوخهم كالرازي؛ فألف نقض أساس التقديس، ثم بعد ذلك رأى أن الرازي وأمثاله ليسوا مستقلين بذلك استقلالا كاملا، وإنما مادة كلامهم من كلام الفلاسفة، فأراد أن يكمل الرد بنقض أصولهم الفلسفية؛ فجاء هذا الكتاب ((درء تعارض العقل والنقل)) الذي لم يكن مقتصرا على جواب هذه المسألة فقط: تقديم العقل على النقل. وإنما حوى مباحث طويلة مع الفلاسفة شيوخ الرازي، وغيرهم، ونقل أقوالهم، وبين من وجوه عديدة أنواعا من تناقضهم، ورد بعضهم على بعض.
والكتاب والحمد لله وصل إلينا كاملا، ونشر نشرا علميا ممتازا، فجزى الله محققه خيرا، وغفر له ورحمه) . موقف ابن تيمية من الأشاعرة 1206-207.
وشيخ الإسلام رحمه الله قد أشار إلى كتابه العظيم، وسماه: درء تعارض العقل والنقل في: الرد على المنطقيين ص 253-254.

وتكلم مع الفلاسفة والملاحدة الذين يقولون إن الرسل خاطبوا خطابا قصدوا به التخييل إلى العامة1 ما ينفعهم، لا أنهم قصدوا [الإخبار] 2 بالحقائق.
وهؤلاء لم يكن وقت الجواب قصد مخاطبتهم إذ كان هؤلاء في الحقيقة مكذبين للرسل، يقولون إنهم كذبوا لما رأوه مصلحة بل كان الخطاب مع من يقر بأن الرسول لا يقول إلا الحق باطنا وظاهرا، ثم بعد هذا طلب الكلام على تقرير أصول الدين بأدلتها العقلية، وإن كانت مستفادة من تعليم الرسول، وذكر فيها ما ذكر من دلائل النبوة3 في مصنف يتضمن شرح عقيدة صنفها شيخ النظار بمصر: شمس الدين الأصبهاني4. فطلب مني شرحها،

---

1 انظر: درء تعارض العقل والنقل 18-11، 17، 19. وكتاب الصفدية 1276، 287.
2 في ((ط)) : الأخبار.
3 شيخ الإسلام يقصد بكلامه هذا الذي ذكره: سبب شرحه للعقيدة الأصفهانية، وأنه ضمنها دلائل النبوة.
لذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن عقيدة الأصبهاني: "إنه اختصر هذه العقيدة من كتب أبي عبد الله ابن الخطيب الرازي ... ". انظر شرح الأصفهانية 140.
4 وقد قام شيخ الإسلام رحمه الله بشرح هذه العقيدة في مصنف موسوم بشرح الأصفهانية. وكان شيخ الإسلام رحمه الله قد سئل وهو مقيم في الديار المصرية عام 712? أن يشرحها، فاعتذر بأنه لا بد عند شرح ذلك الكلام من مخالفة بعض مقاصده لما توجبه قواعد الإسلام؛ فإن الحق أحق أن يتبع، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ... انظر شرح الأصفهانية 2-11.
ثم شرحها رحمه الله مبينا انحرافها عن منهج السلف.
وقد طبع الشرح بدون تحقيق، وقدم له: حسنين محمد مخلوف، ثم قام بتحقيقها د محمد بن عودة السعوي لنيل درجة الدكتوراة من جامعة الإمام، ولم تطبع بعد.

والأصبهاني هو: القاضي أبو عبد الله محمد بن محمود بن عباد العجلي الأصبهاني، شمس الدين. تولى القضاء في القاهرة، ثم استقر فيها. ولد سنة 616 ?، وتوفي سنة 688 ?.
انظر: طبقات السبكي 8100. وشذرات الذهب 5406.

فشرحتها، وذكرت فيها من الدلائل العقلية ما يعلم به أصول الدين.
سبب تأليف الجواب الصحيح
وبعدها جاء كتاب من النصارى1 يتضمن الاحتجاج لدينهم بالعقل

---

1 أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى هذا الكتاب في كتابه النفيس: "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"، وذكر فيه أن وروده إليه من أسباب تأليفه لهذا الكتاب. وهذا يدل على أن الجواب الصحيح ألف بعد شرح الأصفهانية، ودرء التعارض، ونقض التأسيس.
يقول رحمه الله: "وكان من أسباب نصر الدين وظهوره: أن كتابا ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم، وفضلاء ملتهم قديما وحديثا من الحجج السمعية، والعقلية؛ فاقتضى ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب، وبيان الخطأ من الصواب؛ لينتفع بذلك أولوا الألباب، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان. وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلا فصلا، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعا وأصلا، وعقدا وحلا. وما ذكروه في هذا الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماؤهم في مثل هذا الزمان، وقبل هذا الزمان، وإن كان يزيد بعضهم على بعض، بحسب الأحوال؛ فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماؤهم بينهم، والنسخ بها موجودة قديمة، وهي مضافة إلى بولص الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، كتبها إلى بعض أصدقائه، وله مصنفات في نصر النصرانية..... وقد عظم هذه الرسالة، وسماها: "الكتاب المنطيقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم" ... ". الجواب الصحيح 101-198.

والسمع، واحتجوا بما ذكروه من القرآن؛ فأوجب ذلك أن يرد عليهم، ويبين فساد ما احتجوا به من الأدلة السمعية؛ من القرآن، ومن كلام الأنبياء المتقدمين، وما احتجوا به من العقل، وأنهم مخالفون للأنبياء وللعقل؛ خالفوا المسيح، ومن قبله، وحرفوا كلامهم؛ كما خالفوا العقل، وبين ما يحتجون به من نصوص الأنبياء، وأنها هي وغيرها من نصوص الأنبياء التي عندهم حجة عليهم لا لهم، وبين الجواب الصحيح لمن حرف دين المسيح. وهم لم يطالبوا ببيان دلائل نبوة نبينا، لكن اقتضت المصلحة أن يذكر من هذا ما يناسبه، ويبسط الكلام في ذلك بسطا أكثر من غيره1.
وقلوب كثير من الناس يجول فيها أمر النبوات وما جاءت به الرسل. وهم2 وإن أظهروا تصديقهم3 والشهادة لهم، ففي قلوبهم مرض ونفاق؛ إذ كان ما جعلوه أصولا لدينهم، معارض لما جاءت به الأنبياء4.

---

1 وقد بسط ذلك في كتابه الكبير: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.
والكتاب حقق في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على شكل رسائل جامعية لنيل درجة الدكتوراة، وقد طبع في ستة أجزاء كبار.
2 أصحاب القانون الكلي؛ الرازي وأتباعه الذين يقدمون عقلياتهم على قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم.
3 تصديق الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.
4 ويقول شيخ الإسلام رحمه الله عن أصولهم: "ترتيب الأصول في مخالفة الرسول والمعقول؛ جعلوها أصولا للعلم بالخالق، وهي أصول تناقض العلم به؛ فلا يتم العلم بالخالق إلا مع اعتقاد نقيضها". مجموع الفتاوى 16442-443. وانظر درء تعارض العقل والنقل 213-14.

وهم لم يتعلموا ما جاءت به الأنبياء، ولم يأخذوا عنهم الدلائل، والأصول، والبينات، والبراهين.
وإذا وجب أن يؤخذ عن الأنبياء ما أخبروا به من أصول الدين، ومن تصديق خبرهم، مع وجود ما يعارضه، فلأن يؤخذ عنهم ما بينوا به تلك العقائد؛ من الآيات، والبراهين أولى وأحرى؛ فإنه بهذا يتبين ذاك، وإلا فتصديق الخبر متوقف على دليل صحته، أو على صدق المخبر به. وتصديقه بدون أن يعلم أنه في نفسه حق، أو أن المخبر به صادق: قول بلا علم.

الرسول أرسل بالبينات والهدى

والرسول صلوات الله عليه وسلامه قد أرسل بالبينات والهدى؛ بين الأحكام الخبرية والطلبية، وأدلتها الدالة عليها؛ بين المسائل والوسائل؛ بين الدين؛ ما يقال، وما يعمل؛ وبين أصوله التي بها يعلم أنه دين حق. وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في غير موضع، وبين أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين [كله] 1؛ ذكر هذا في سورة التوبة2، والفتح3، والصف4.

والهدى: هو هدي الخلق إلى الحق، وتعريفهم ذلك، وإرشادهم إليه. وهذا لا يكون إلا بذكر الأدلة، والآيات الدالة على أن هذا هدى، وإلا فمجرد خبر: لم يعلم أنه حق، ولم يقم دليل على أنه حق: ليس بهدى.

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

2 قال تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} [التوبة، 33] .

3 قال تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا} . [الفتح، 28] .

4 قال تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} . [الصف، 9] .

وهو سبحانه إذا ذكر الأنبياء؛ نبينا وغيره، ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات1؛ وهي الأدلة، والبراهين البينة، المعلومة علما يقينيا؛ إذ كان كل دليل لا بد أن ينتهي إلى مقدمات بينة بنفسها، قد تسمى بديهيات2، وقد تسمى ضروريات3، وقد تسمى أوليات4، وقد يقال: هي معلومة

---

1 قال تعالى عن رسله عليهم السلام: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ... } الآية. [سورة الحديد، الآية 25] ، وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: {ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس..} الآية. [سورة البقرة، الآية 87] ، وقال تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: {ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون} . [سورة البقرة، الآية 99] ، وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به..} الآية. [سورة غافر، الآية 34] .

2 البديهي: هو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب، سواء احتاج إلى شيء آخر؛ من حدس، أو تجربة، أو غير ذلك، أو لم يحتج؛ فيرادف الضروري. وقد يراد به ما لا يحتاج بعد توجه العقل إلى شيء أصلا؛ فيكون أخص من الضروري؛ كتصور الحرارة والبرودة، وكالتصديق بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان.
التعريفات للجرجاني ص 63.

3 ذكر الجرجاني في تعريفاته أن الضرورية المطلقة: هي التي يحكم فيها بضرورة ثبوت المحمول للموضوع، أو بضرورة سلبه عنه، ما دام ذات الموضوع موجودة. أما التي حكم فيها بضرورة الثبوت، فضرورية موجبة؛ كقولنا: كل إنسان حيوان بالضرورة؛ فإن الحكم فيها بضرورة ثبوت الحيوان للإنسان في جميع أوقات وجوده. وأما التي حكم فيها بضرورة السلب، فضرورية سالبة؛ كقولنا: لا شيء من الإنسان بحجر بالضرورة؛ فالحكم فيها بضرورة سلب الحجر عن الإنسان في جميع أوقات وجوده. انظر التعريفات للجرجاني ص 180.

4 الأولي: هو الذي بعد توجه العقل إليه لم يفتقر إلى شيء أصلا من حدس، أو تجربة، أو نحو ذلك؛ كقولنا: الواحد نصف الاثنين، والكل أعظم من جزئه؛ فإن هذين الحكمين لا يتوقفان إلا على تصور الطرفين. وهو أخص من الضروري مطلقا.
التعريفات للجرجاني ص 58.

بأنفسها؛ فالرسل صلوات الله عليهم بعثوا بالآيات البينات.

إذا خاطب جنس الإنس ذكر جنس الأنبياء

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، [فأرجو] 1 أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" 2.

وهو سبحانه إذا خاطب جنس الإنس، ذكر جنس الأنبياء3، و [أثبت] 4 جنس ما جاءوا به. وإذا خاطب أهل الكتاب المقرين بنبوة موسى، خاطبهم بإثبات نبي بعده؛ كما قال في سورة البقرة في خطابه لبني إسرائيل لما ذكر ما ذكره من أحوالهم مع موسى، وذكرهم بأنعامه عليهم، وبما فعلوه من السيئات، ومغفرته لها؛ قال تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده

بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون} 5، ثم ذكر محمدا؛ فقال: {ولما جاءهم [كتاب] 6 من عند الله

---

1 في ((خ)) : وأرجوا.
2 سبق تخريجه في ص 767.
3 والآيات في ذلك كثيرة؛ منها: قوله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.} إلى قوله: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا..} . [البقرة، 21-23] ؛ فذكر الناس، ثم ذكر بعدهم عبده ونبيه محمدا صلى الله عليه وسلم.
ومنها: قوله تعالى: {يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم.} الآية. [النساء، 170] .
ومنها: قوله تعالى: {يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا} . [النساء، 174] .
4 في ((خ)) : ثبت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 سورة البقرة، الآية 87.
6 في ((خ)) ، و ((م)) : رسول.

مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين} 1.
فذكر سبحانه أنه أرسل المسيح إليهم بالبينات، بعدما أرسل قبله الرسل، وأنهم تارة يكذبون الرسل، وتارة يقتلونهم، وذكر أنه أرسل عيسى بالبينات لأنه جاء بنسخ بعض شرع التوراة، بخلاف من قبله2، ولهذا لم يذكر ذلك عنهم.
وقال في موسى إنه آتاه الكتاب؛ لأنهم كانوا مقرين بنبوته، ولكن حرفوا كتابه في المعنى باتفاق الناس، وحرفوا اللفظ أحيانا، وفي بعض المواضع.
وهو تعالى قد ذكر في غير موضع أنه أرسل موسى بالآيات البينات؛ فقال لما ناجاه: {وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين} 3، وقال في سورة القصص: {يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك

---

1 سورة البقرة، الآيتان 89-90.
2 ذكر هذا في قوله جل وعلا: {ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون} . [سورة البقرة، الآية 87] .
3 سورة النمل، الآيات 10-12.

من الرهب [فذانك] 1 برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين} 2، وقال تعالى: {فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين} 3.
وقد قال تعالى لما قص قصص الرسل؛ نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب4، ونصره لهم، وإهلاك أعدائهم. ثم ذكر الأنبياء عموما؛ فقال: {وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون} 5، إلى قوله: {أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون تلك القرى نقص [عليك من أنبائها] 6 ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين} 7.
فقد أخبر أن أهل القرى كلهم؛ الذين أهلكهم، جاءتهم رسلهم بالبينات، ولكن شابه متأخروهم متقدميهم، فما كان هؤلاء ليؤمنوا بما كذب به أشباههم، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين. وهذا كقوله تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} 8.

---

1 في ((ط)) : فذلك.

2 سورة القصص، الآيتان 31-32.
3 سورة الأعراف، الآية 133.
4 في ((ط)) : عليهم السلام.
5 سورة الأعراف، الآية 94.
6 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، و ((م)) .
7 سورة الأعراف، الآيات 100-102.
8 سورة الذاريات، الآية 52.

قال تعالى: {ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين} 1؛ فبين سبحانه أنه بعث موسى بآياته.
وقال2 في أثناء القصة: {إني رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل} 3؛ فأخبر أنه جاء ببينة من [الله] 4؛ أي بآية بينة من الله؛ بدليل من الله وبرهان،؛ فهي آية منه، وعلامة منه على صدقي، وأني رسول منه؛ فإن قوله: {من ربكم} : متعلق بالرسول، وبالآية؛ يقال: فلان قد جاء بعلامة من فلان؛ فالعلامة منه، والرسول منه، والآية منه؛ كما قال: {فذانك برهانان من ربك} 5؛ فدل على أن كل واحد؛ من الرسول، ومن آيات الرسول، هو من الله تعالى.
قال له فرعون: {إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين} 6. وذكر القصة، ومعارضة السحرة له، إلى أن قال: {وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين و [ألقي] 7 السحرة ساجدين قالوا آمنا برب

---

1 سورة الأعراف، الآية 103.
2 القائل هو موسى عليه السلام؛ كما حكى الله تعالى عنه.
3 سورة الأعراف، الآيتان 104-105.
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .
5 سورة القصص، الآية 32.
6 سورة الأعراف، الآية 106.
7 في ((ط)) : وألقى.

العالمين رب موسى وهارون قال فرعون [آمنتم] 1 به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا إلى ربنا منقلبون وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} 2.
فذكر السحرة أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم، وهم من أعلم الناس بالسحر؛ لما علموا أن هذه الآيات آيات من الله؛ كما قال موسى: {قد جئتكم ببينة من ربكم} ، إلى قوله: {فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين} 3، إلى قوله: {فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين} 4.
التوراة أنزلت بعد غرق فرعون
وليس المراد بالآيات هنا: كتابا منزلا؛ فإن موسى لما ذهب إلى فرعون لم تكن التوراة قد نزلت، وإنما أنزلت التوراة بعد أن غرق فرعون، وخلص [بني] 5 إسرائيل6، فاحتاجوا إلى شريعة يعملون بها؛ قال تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى} 7. ولكن تكذيبهم بآياته: إنكارهم أن [تكون] 8 آية من

---

1 في ((ط)) : آمنت.
2 سورة الأعراف، الآيات 117-126.
3 سورة الأعراف، الآية 133.
4 سورة الأعراف، الآية 136.

5 في ((ط)) : بني.
6 انظر: الجامع في أحكام القرآن للقرطبي 13192. وتفسير ابن كثير 3390.
7 سورة القصص، الآية 43.
8 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

الله، وقولهم: (إنها سحر) ؛ كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: {وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين} 1، {وكانوا عنها غافلين} 2؛ لم يذكروها، ويتأملوا ما دلت عليه من صدق موسى، وأنه مرسل من الله.
فالتكذيب: ضد التصديق، والغفلة عنها: ضد النظر فيها. ولهذا قيل: النظر تجريد العقل عن الغفلات، وقيل: هو تحديق العقل نحو المرئي. والأول هو النظر الطلبي؛ وهو طلب ما يدله على الحق، والثاني هو النظر الاستدلالي؛ وهو النظر في الدليل الذي يوصله إلى الحق. وهذا الثاني هو الذي يوجب العلم3.

1 سورة الأعراف، الآية 132.
2 سورة الأعراف، الآية 136.
3 الأصوليون قسموا النظر، ووضعوا حدا لكل قسم، فأتوا بتعريفات متقاربة في المعنى.
من ذلك قول أبي الخطاب (في التمهيد 158) : (النظر على ضربين؛ نظر العين، ونظر القلب. فحد نظر القلب: هو التفكر في حال المنظور فيه، وحد المنظور فيه: هو الأدلة والأمارات الموصلة إلى المطلوب) .
وكصنيع أبي الخطاب صنع أبو يعلى (في العدة 1183-184) ؛ حين قسم النظر إلى نظر بالعين، ونظر بالقلب؛ فقال: "النظر ضربان؛ ضرب هو النظر بالعين، فهذا حده الإدراك بالبصر. والثاني: النظر بالقلب، وهذا حده الفكر في حال المنظور فيه.
أما الآمدي (في الإحكام في أصول الأحكام 111) ، فقد ذكر عدة معان للنظر، واختار المعنى الذي يوافق المتكلمين؛ فقال: "أما النظر: فإنه قد يطلق في اللغة بمعنى الانتظار، وبمعنى الرؤية بالعين، والرأفة، والرحمة، والمقابلة، والتفكر، والاعتبار. وهذا الاعتبار الأخير هو المسمى بالنظر في عرف المتكلمين. وقد قال القاضي أبو بكر في حده: هو الفكر الذي يطلب به من قام به علما، أو ظنا"

فذمهم على الغفلة عن آياته، يتضمن النوعين؛ النظر فيها والتأمل لها. والتذكر لها: ضد الغفلة عنها.
وهي آيات معينة، فإذا جرد العقل عن الغفلة عنها، وحدقه للنظر فيها، حصل له العلم بها.
وقد يحصل العلم بها، ولكن يمتنع عن اتباعها لهواه؛ كما قال الله عن قوم فرعون: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} 1؛ فإن الحق إذا ظهر، صار معلوما بالضرورة.
والآيات، والدلائل الظاهرة تدل على لوازمها بالضرورة. لكن اتباع الهوى يصد عن التصديق بها، واتباع ما أوجبه العلم بها.
وهذه حال عامة المكذبين؛ مثل مكذبي محمد وموسى [عليهما السلام] 2، وغيرهما؛ فإنهم علموا صدقهما علما يقينيا؛ لما ظهر من آيات الصدق، ودلائله الكثيرة. لكن اتباع الهوى صد؛ قال تعالى: {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} 3، وقال تعالى عن قوم فرعون: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} 4، وقال موسى لفرعون: {لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر} 5، ولهذا قال: {وكانوا عنها غافلين} 6؛ فعلموا أنها حق، وغفلوا عنها؛ كما يغفل الانسان عما يعلمه.

1 سورة النمل، الآية 14.
2 زيادة من ((ط)) .
3 سورة الأنعام، الآية 33.
4 سورة النمل، الآية 14.
5 سورة الإسراء، الآية 102.
6 سورة الأعراف، الآية 136.

ومنه الغفلة عن ذكر الله تعالى؛ قال تعالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا} 1.
وقال تعالى: {واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين} 2.
وقال تعالى: {إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون} 3.
فذكر الذين هم عن آياته غافلون هنا؛ كما ذكرهم هناك. وهناك وصفهم بالتكذيب بها، مع الغفلة عنها، وضد الغفلة التذكر.
والتذكر لآياته سبحانه وتعالى: يوجب العلم بها، وحضورها في القلب، وهو موجب لاتباعها، إلا أن يمنعه هوى؛ قال تعالى: {إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} 4؛ فهو سبحانه لو علم فيهم خيرا؛ وهو قصد الحق، لأفهمهم. لكنهم لا خير فيهم، فلو أفهمهم لتولوا وهم معرضون.
وقال تعالى: {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون} 5.
وقد ذكر أن الآيات التي هي دلائل النبوة منه، في غير موضع غير ما

1 سورة الكهف، الآية 28.
2 سورة الأعراف، الآية 205.
3 سورة يونس، الآيتان 7-8.
4 سورة الأنفال، الآيتان 22-23.
5 سورة الزخرف، الآيات 46-48.

تقدم؛ كقوله تعالى: {فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى [إنا قد أوحي إلينا] 1 أن العذاب على من كذب وتولى قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض [مهدا] 2 وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله} ، إلى قوله عن السحرة: {لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات} 3، وقال تعالى: {ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم} 4، وقال تعالى: {وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى} 5.
فالآيات التي هي دلائل النبوة، وبراهينها، هي آيات من الله، وعلامات منه أنه أرسل الرسول.
وكما أن الآيات التي هي كلامه تتضمن إخباره لعباده، وأمره لهم؛ ففيها الإعلام والإلزام؛ فكذلك دلائل النبوة هي آيات منه تتضمن إخباره لعباده بأن هذا رسوله، وأمره لهم بطاعته؛ ففيها الاعلام والإلزام.

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 في ((خ)) : مهادا.
3 سورة طه، الآيات 47-72.
4 سورة آل عمران، الآية 49.
5 سورة طه، الآية 133.

الآيات القولية والفعلية
وكما أن آياته القولية: زعم المكذبون أنها ليست كلامه، ولا منه، بل هي من قول البشر، وزعموا أن الرسول افتراها، أو من معه، أو تعلمها من غيره1؛

1 هذا ما ادعاه كفار قريش معارضة لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فهذا الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤسائهم، قال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل "قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم" فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: {فقتل كيف قدر} . (انظر: تفسير ابن كثير 4443. والجواب الصحيح 5373-377) .
وانظر الجواب الصحيح 5331-332؛ فقد ذكر فيه شيخ الإسلام رحمه الله أنه كان بمكة مولى أعجمي، فقالت قريش إنه يعلم محمدا القرآن.
ومن الآيات التي أنزلها الله فيما ادعاه هؤلاء الكفار:
1- قوله تعالى: {إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر} . [المدثر، الآيات 18-25] .
2- قوله تعالى: {ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين} . [سورة النحل، الآية 103] .
3- قوله تعالى: {ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين} . [سورة يونس، الآية 38] .
4- قوله تعالى: {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون} . [سورة الطور، الآية 33] .
وهذه الآيات جاءت ردا على مزاعم الكفار الأوائل. وملة الكفر واحدة؛ فهؤلاء أذنابهم من الملاحدة، والزنادقة، والفلاسفة يرددون تلك الأقوال تلميحا أو تصريحا، يريدون ليطفئوا نور الله، والله متم نوره.
وينقل لنا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أقوالهم في آيات الله الكونية، وأنها نوع من السحر والطلسمات؛ فيقول عنهم: "في الجملة فهؤلاء يدعون ما ذكره ابن سينا في إشاراته؛ من أن خوارق العادات في العالم ثلاثة أنواع، لأنها إما أن تكون بأسباب فلكية؛ كتمزيج القوى الفعالة السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية؛ وهذا هو الطلسمات. وإما أن تكون بأسباب طبيعية سفلية؛ كخواص الأجسام، وهي النيرنجيات. وإما أن تكون بأسباب نفسانية، ويزعمون أن المعجزات التي للأنبياء، والكرامات التي للأولياء، وأنواعا من السحر والكهانة هو من هذا الباب، ويقولون: الفرق بين النبي والساحر: أن النبي نفسه زكية، تأمر بالخير، والساحر نفسه خبيثة تأمر بالشر. فهما يفترقان عندهم فيما يأمر به كل منهما، لا في نفس الأسباب الخارقة" كتاب الصفدية 1142-143. وانظر: شرح الأصفهانية 2504. والجواب الصحيح 2328، 6400.

فكذلك الآيات الفعلية1: زعم المكذبون أنها ليست آية منه، وعلامة ودلالة منه على أن الرسول رسوله، بل [مما] 2 يفعله الرسول فيكذب، وهذه من فعل المخلوقين، لكنها عجيبة فهي سحر سحر بها الناس3، فلم يكن من المكذبين من قال: إنها من الله، ولكن لم يخلقها لنصدقك بها، بل خلقها لا لشيء، أو خلقها، وإن كنت كاذبا فإنه قد يخلق مثل هذه على أيدي الكذابين، ليضل بها الناس. فإن هذا وإن كان يقال إنه قبيح، فإنه لا يقبح منه شيء، كما أنه لم يكن في المكذبين من قال: إن الكلام كلام الله، لكنه كذب؛ إذ الكذب وإن كان قبيحا من المخلوق، فالخالق لا يقبح منه شيء، وهذا لأنه من المعلوم بالفطرة الضرورية لجميع بني آدم أن الله لا يكذب، ولا يفعل القبائح؛ فلا يؤيد الكذاب بآيته ليضل بها الناس، لكن قالوا4:

---

1 وقد بسط شيخ الإسلام رحمه الله الكلام على آياته الفعلية التي منها المعجزات، وآيات الله القولية مثل القرآن الكريم، في: مجموع الفتاوى 11322-323. وكتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 285-286.
2 في ((خ)) : من ما.
3 كما قال تعالى عنهم: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون} . [سورة الذاريات، الآيتان 52-53] .
4 يعني المشركين والصادين عن آيات الله؛ فإن كفار مكة لما رأوا انشقاق القمر قالوا: هذا سحر؛ كما قال الله عنهم: {اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} . [سورة القمر، الآيتان 1-2] ، وقالوا عن القرآن الكريم؛ كما حكى الله عنهم: {فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر} . [سورة المدثر، الآيتان 24-25] .

ليست آية من الله، بل هي سحر من عندك. وهم [و] 1 إن كانوا قد يعلمون أن الله خالق كل شيء2، ففرق بين ما يفعله البشر، ويتوصلون إليه بالاكتساب، وبين ما لا قدرة لهم على التوصل إليه بسبب من الأسباب، وفرق بين ما قد علموا أنه يخلقه لغير تصديق الرسل؛ كالسحر؛ فإنه لم يزل معروفا في بني آدم، فقد علموا أنه لا يخلقه آية وعلامة لنبي؛ إذ كان موجودا لغير الأنبياء، معتادا منهم، وإن كان عجيبا، خارجا عن العادة عند من لم يعرفه، بل كان المكذبون يطالبون الرسل بالآيات؛ كقول فرعون: فأت بآية إن كنت من الصادقين3، وقول قوم صالح له: {إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين} 4.

وكانت الأنبياء تأتي بالآيات، وهي آيات بينات؛ فيكذبون بها؛ كما يكذب المعاند بالحق الظاهر المعلوم؛ كما قال فرعون: إنه ساحر5. ولما

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((ط)) .

2 والآيات الدالة على أن المشركين مقرون بربوبية الله عز وجل كثيرة، ولكن لم ينفعهم إقرارهم لإشراكهم مع الله غيره. فمن ذلك قوله تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله} . [سورة العنكبوت، الآية 61] . وقوله تعالى: {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله} [سورة الزخرف، الآية 87] . وقوله تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} . [سورة الزخرف، الآية 9] . وغير هذه من الآيات.

3 قال فرعون لموسى عليه السلام كما حكى الله عنه: {قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين} . [سورة الأعراف، الآية 106] .

4 سورة الشعراء، الآيتان 153-154.

5 كما حكى الله تعالى عنه قوله للملأ من قومه: {قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون} . [سورة الشعراء، الآيتان 34-35] .

غلب السحرة، وآمنوا، واعترفوا بأن هذه آية من الله، قال لهم فرعون: {إنه لكبيركم الذي علمكم السحر} 1، {إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها} 2.

وهذا كذب ظاهر؛ فإن موسى جاء من الشام3، ولم يجتمع بالسحرة، إنما فرعون جمعهم، ولم يكن دين موسى دين السحرة، ولا مقصوده مقصودهم، بل هم وهو في غاية التعادي والتباين.

وكذلك سائر السحرة، والكهنة مع الأنبياء من أعظم الناس ذما لهم، وأمرا بقتلهم، مع تصديق الأنبياء بعضهم ببعض، وإيجاب بعضهم الإيمان ببعض. وهم يأمرون بقتل من يكذب نبيا، ويأمرون بقتل السحرة، ومن آمن بهم4.

من الفروق بين الأنبياء والسحرة

والسحرة [يذم] 5 بعضهم بعضا، والأنبياء يصدق بعضهم بعضا،

---

1 سورة طه، الآية 71،، وسورة الشعراء، الآية 49.

2 سورة الأعراف، الآية 123.

3 انظر: تفسير ابن كثير 2238.

4 ومن الأحاديث التي وردت في ذلك: ما رواه جندب رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "حد الساحر ضربة بالسيف". رواه الترمذي في جامعه 460، وقال: الصحيح عن جندب موقوف. ورواه الدارقطني في سننه 3114.

ومن الآثار الواردة عن الصحابة رضي الله عنهم في قتل السحرة: قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل موته بسنة: "اقتلوا كل ساحر"؛ قال الراوي: فقتلنا في يوم ثلاث سواحر. أخرجه أبو داود في سننه 3431-432، وقال عنه الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: إسناده حسن. انظر: تيسير العزيز الحميد ص 391-392.

5 في ((ط)) : بذم.

وهؤلاء1 يأمرون بعبادة الله وحده، والصدق، والعدل، ويتبرأون من الشرك وأهله. وهؤلاء2 يحبون أهل الشرك، ويوالونهم، ويبغضون أهل التوحيد والعدل. فهذان جنسان، متعاديان؛ كتعادي الملائكة والشياطين؛ كما قال تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى إليه أفئدة الذين لا [يؤمنون] 3 بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون} 4.
فمن جعل النبي ساحرا، أو مجنونا، هو بمنزلة من جعل الساحر، أو المجنون نبيا، وهذا من أعظم الفرية، والتسوية بين الأضداد المختلفة، وهو شر من قول من يجعل العاقل مجنونا، والمجنون عاقلا، أو يجعل الجاهل عالما، والعالم جاهلا.
فإن الفرق بين النبي، وبين الساحر والمجنون، أعظم من الفرق بين العاقل والمجنون، والعالم والجاهل5.

---

1 يعني الأنبياء عليهم السلام.
2 يعني السحرة.
3 في ((ط)) : يمنون.
4 سورة الأنعام، الآيتان 112-113.
5 وقد مر معنا فروق كثيرة بين النبي والساحر. (انظر ص 671) . وسيأتي مزيد بيان لهذه الفروق.
وانظر بعض هذه الفروق في: شرح الأصفهانية 2474-479. والجواب الصحيح 186، 127-129، 140-144، 2332، 5357، 6297-300. والرد على المنطقيين ص 441. ومجموع الفتاوى 1289-292، 4168-169، 6489-491. وكتاب الصفدية 1176. ومنهاج السنة النبوية2419-420.

وأما السحرة فإنه أمر بقتلهم.
وفي التوراة: "سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبيا مثلك، أجعل كلامي على فمه، كلكم يسمعون"1.

---

1 وفي الطبعة الموجودة للكتاب المقدس عندهم: "يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون ... قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه؛ فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به أخي أنا أطالبه ... ". الكتاب المقدس عندهم، سفر التثنية، الإصحاح الثامن عشر، رقم 16، 18-20، ص 308-309، طبعة دار الكتاب المقدس، جمعية الكتاب المقدس سابقا، القاهرة، مصر.
وقد ذكره الماوردي رحمه الله ضمن بشارات الأنبياء بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلق عليه قائلا: "ومعلوم أن أخا بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، وليس منهم من ظهر كلام الله تعالى على فمه، غير محمد صلى الله عليه وسلم". أعلام النبوة للماوردي ص 198.
وذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذا النص في كتابه الجواب الصحيح 5157، 188.
وللشيخ العلامة رحمت الله الكيرانوي الهندي رحمه الله تعالى في كتابه القيم (إظهار الحق) كلام جميل يعلق فيه على هذه البشارة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويفند أقوال اليهود والنصارى فيما يدعونه من وجوه كثيرة؛ فيقول: "وهذه البشارة ليست بشارة يوشع عليه السلام كما يزعم الآن أحبار اليهود، ولا بشارة عيسى عليه السلام كما زعم علماء بروتستنت، بل هي بشارة محمد صلى الله عليه وسلم لعشرة أوجه " ... ثم ذكر هذه الأوجه بالتفصيل، وأختصرها لتعميم الفائدة:
1- إن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبيا آخر مبشرا به، وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح، فلا يكون يوشع، ولا عيسى عليهما السلام.
2- جاء في هذه البشارة لفظ (مثلك) ، ويوشع وعيسى عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى عليه السلام؛ لأمور، منها: أولا: لكونهما من بني إسرائيل، فلا يجوز أن يقوم أحد من بني إسرائيل مثل موسى؛ لما جاء في سفر التثنية: (ولم يقم بعد ذلك من بني إسرائيل مثل موسى يعرفه الرب وجها لوجه) . ثانيا: لا مماثلة بين يوشع وبين موسى عليهما السلام؛ لأن موسى صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ومناهي، ويوشع ليس كذلك، بل هو متبع لشريعة موسى. وكذلك لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام.
3- جاء في هذه البشارة لفظ (من بين إخوتهم) ، والأسباط الإثني عشر كانوا موجودين مع موسى عليه السلام، حاضرين عنده، فلا يعمهم هذا الخطاب، فلو كان النبي المبشر به منهم لقال: منهم، ولم يقل: من بين إخوتهم.

4- جاء في هذه البشارة لفظ (سوف أقيم) ، ويوشع عليه السلام كان حاضرا عند موسى عليه السلام، داخلا في بني إسرائيل، فلا يدخل في هذا اللفظ.
5- قوله: (أجعل كلامي في فمه) : هو إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه الوحي والكتاب، وهو أمي يحفظ كلام الله.
6- قوله: "ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به فأنا أكون المنتقم من ذلك": لا يصدق على عيسى عليه السلام؛ لأن شريعته خالية عن أحكام الحدود، والقصاص، والتعزير، والجهاد.
7- جاء في كتاب الأعمال أعمال الرسل: "فتوبوا وارجعوا كي تمحى خطاياكم، حتى إذا تأتي أزمنة الراحة من قدام وجه الرب، ويرسل المنادي به لكم، وهو يسوع المسيح الذي إياه ينبغي للسماء أن تقبله إلى الزمان الذي يسترد فيه كل شيء تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر أن موسى قال: إن الرب إلهكم يقيم لكم نبيا من إخوتكم مثلي له تسمعون في كل ما يكلمكم به، ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبي تهلك من الشعب". فهذه العبارة تدل صراحة على أن هذا النبي غير المسيح عليه السلام، وأن المسيح لا بد أن تقبله السماء إلى زمان ظهور هذا النبي.
وهذه الوجوه التي ذكرتها تصدق في حق النبي محمد صلى الله عليه وسلم أكمل صدق؛ لأنه غير المسيح عليه السلام، ويماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة، منها: (1) كونه عبد الله ورسوله. (2) كونه ذا الوالدين. (3) كونه ذا نكاح وأولاد. (4) شريعته مشتملة على السياسات المدنية. (5) أنه مأمور بالجهاد. (6) اشتراط الطهارة وقت العبادة في شريعته. (7) وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء في شريعته. (8) اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز. (9) حرمة غير المذبوح وقرابين الأوثان. (10) شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضة الجسمانية. (11) أمره بحد الزنا. (12) تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص. (13) كونه قادرا على إجرائها. (14) تحريم الربا. (15) أمره بالإنكار على من يدعو إلى غير الله. (16) أمره بالتوحيد الخالص. (17) أمره الأمة بأن يقولوا له: عبد الله ورسوله. (18) موته على الفراش. (19) كونه مدفونا كموسى. (20) عدم كونه ملعونا لأجل أمته.
8- في هذه البشارة أن النبي الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره به يقتل. فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نبيا حقا، لكان يقتل. وعيسى عليه السلام بزعم أهل الكتاب قتل وصلب، فلو كانت هذه البشارة في حقه للزم أن يكون نبيا كاذبا، كما يزعمه اليهود.
9- إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر عن الأمور الغيبية الكثيرة في المستقبل، وظهر صدقه فيها.
10- إن علماء اليهود سلموا كونه مبشرا به في التوراة، لكن بعضهم أسلم، وبعضهم بقي على الكفر.
انظر إظهار الحق 2362-370.

وموسى صلوات الله عليه أمر بتصديق من يأتي بعده من الأنبياء الصادقين؛ كما أمر بتكذيب الكذابين.
وهذا يقتضي طاعة من يقوم بعده من الأنبياء.
ثم من الناس من يعين هذا؛ فاليهود يقولون هو يوشع؛ والنصارى يقولون هو المسيح؛ وبعض المسلمين يقولون: هو محمد صلى الله عليه وسلم يحتجون على ذلك بحجج كثيرة، قد ذكرت في غير [هذا] 1 الموضع2. ومنهم من يقول: بل هذا اسم جنس، وهو عام في كل نبي يأتي بعده لئلا يكذبوه؛ كما

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 انظر الجواب الصحيح 5157، 188. وأعلام النبوة للماوردي ص 198.
وقد أورده ابن القيم رحمه الله، وقال: فهذا النص مما لا يمكن أحدا منهم جحده وإنكاره، ولكن لأهل الكتاب فيه أربعة طرق.. ثم ذكرها وأبطلها كلها. انظر: هداية الحيارى ص 107-109.

فعلت اليهود وأنكروا النسخ1. وهذا القول أقرب؛ فيدخل في هذا المسيح، ومحمد2، ومن قبلهما من أنبياء بني إسرائيل؛ فإن المقصود أمرهم بتصديق الأنبياء، وطاعتهم، وأن الله سبحانه ينزل على الأنبياء كلامه، فالذي يقولونه هو كلام الله ما سمعوا منه.
وبسط هذا له موضع آخر3.

وقد بسط القول4 في أن الناس يعلمون بالضرورة أن الآيات التي يأتي بها الأنبياء آيات من الله، وعلامة أعلم بها عباده؛ أنه أرسلهم، وأمرهم بطاعتهم، والذين كذبوا بها كانوا يقولون ليست من الله، بل هي سحر، أو كهانة، أو نحو ذلك، لا يقرون بأنها آية من الله، ويقولون مع ذلك: قد يخلقها الله لغير التصديق، أو يخلقها ليضل بها الخلق، أو نحو ذلك؛ فإن بسط هذه الأمور له موضع آخر5.
الرسول بين للناس الأدلة والبراهين الدالة على أصول الدين
والمقصود هنا: أن الرسول بين للناس الأدلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها؛ كما قد ذكر سبحانه هذا في مواضع؛ كقوله: {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم

---

1 أي نسخ شريعة موسى عليه السلام؛ إما بعضها على يد عيسى عليه السلام، أو كلها على يد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين وسيدهم.
وانظر: الجواب الصحيح 5152.
2 في ((ط)) : عليهما السلام.
3 انظر: الجواب الصحيح 5146، 152، 159، 187، 188، 197.
4 انظر: شرح الأصفهانية 2622. والجواب الصحيح 6397.
5 انظر الجواب الصحيح، ففيه فصل في طرق العلم ببشارات الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم 5160-196، وفيه كذلك فصل ذكر فيه ست طرق كبرى للقطع بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم 6324-379.

الله} 1، وقوله: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان} 2.
ومن ذلك قوله تعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم [يتلو] 3 عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل [لفي] 4 ضلال مبين} 5.
قد وصف الرسول بذلك في مواضع؛ فذكر هذا في البقرة، في دعوة إبراهيم، وفي قوله تعالى: {كما أرسلنا فيكم رسولا [منكم] 6 [يتلو] 7 عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة} 8، وفي قوله: {واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به} 9، وهنا لم يذكر [يتلو] 10 عليهم آياته ويزكيهم؛ لحكمة تختص بذلك، وذكر هذا في آل عمران في قوله: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} 1 1.
وقد قال: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} 12،

---

1 سورة البقرة، الآية 159.
2 سورة البقرة، الآية 185.
3 في ((خ)) : يتلوا.؟
4 في ((ط)) : في.
5 سورة آل عمران، الآية 164.
6 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
7 في ((خ)) : يتلوا.
8 سورة البقرة، الآية 151.
9 سورة البقرة، الآية 231.
10 في ((خ)) : يتلوا.
11 سورة آل عمران، الآية 164.
12 سورة الأحزاب، الآية 34.

وهذا [يشبه] 1 الموضع الثالث في البقرة2.
فأخبر في غير موضع عن الرسول: أنه [يتلو] 3 عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة4.
فالتلاوة، والتزكية عامة لجميع المؤمنين؛ فتلاوة الآيات [يحصل بها العلم؛ فإن الآيات هي العلامات، والدلالات، فإذا سمعوها دلتهم على المطلوب] 5؛ من تصديق الرسول فيما أخبر، والإقرار بوجوب طاعته؛ وأما التزكية: فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته. فالتزكية تكون بطاعة أمره؛ كما أن تلاوة آياته يحصل بها العلم، وسميت آيات القرآن آيات، وقيل: إنها آيات الله؛ كقوله: {تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق} 6؛ لأنها علامات، ودلالات على الله، وعلى ما أراد؛ فهي تدل على ما أخبر به، وعلى ما أمر به ونهى عنه؛ وتدل أيضا على أن الرسول صادق؛ إذ كانت مما لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، وقد تحداهم بذلك؛ كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع7.

1 في ((م)) ، و ((ط)) : شبه.
2 وهو قوله تعالى: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم} . [سورة البقرة، الآية 129] .
3 في ((خ)) : يتلوا.
4 ومن ذلك قوله تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} . [سورة الجمعة، الآية 2] .
5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
6 سورة البقرة، الآية 252.
7 انظر الجواب الصحيح 6422-436؛ فقد عقد فيه شيخ الإسلام رحمه الله فصلا في الإعجاز القرآني.

وأيضا: فهي نفسها فيها من بينات الأدلة والبراهين ما يبين الحق؛ فهي آيات من وجوه متعددة.
ثم قال: {ويعلمهم الكتاب والحكمة} 1، وهذا لمن يعلم ذلك منهم، وقد يتعلم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة. فالكتاب: هو الكلام المنزل الذي يكتب، والحكمة: هي السنة؛ وهي معرفة الدين والعمل به2. وقد قال تعالى: {وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون} 3، وقال تعالى: {واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا} 4؛ ففرق بين الآيات الدالة على العلم؛ التي يعلم بالعقل أنها دلائل للرب، وبين النذر؛ وهو الإخبار عن المخوف؛ كإخبار الأنبياء بما يستحقه العصاة من العذاب؛ فهذا يعلم بالخبر والنذر؛ ولهذا قال: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} 5.

1 جزء من آيات متعددة في عدة سور، منها: الآية 129 في سورة البقرة.
2 سئل الإمام مالك رحمه الله عن الحكمة، فقال: المعرفة بالدين، والفقه في الدين، والاتباع له. انظر: تفسير الطبري 1557. وانظر: تفسير ابن كثير 1184.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "قال غير واحد من السلف في مسمى الحكمة كما قال مالك بن أنس: "الحكمة معرفة الدين والعمل به"، وكذلك قال الفضيل بن عياض، وابن قتيبة، وغير واحد من السلف.
قال الشاعر:
وكيف يصح أن تدعى حكيما ... وأنت لكل ما تهوى ركوب
وقال آخر:
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه، فأنت حكيم
درء تعارض العقل والنقل 922-23. وانظر كتاب الصفدية 2325. والرد على المنطقيين ص 447.
3 سورة يونس، الآية 101.
4 سورة الكهف، الآية 56.
5 سورة الإسراء، الآية 15.

وأما الآيات: فتعلم دلالتها بالعقل.

والأنبياء جاؤوا بالآيات والنذر، وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا [نوحي] 1 إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر} 2، وقال تعالى: {فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير} 3. ومثل هذا كثير يذكر أن جميع الأنبياء جاءوا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل4.

الناس في معرفة الله وتوحيده على ثلاثة أقوال

ولما كان كثير من الناس مقصرين فيما جاء به الرسول، قد أخرجوا ما تعلم دلالته بالعقل عن مسمى الشرع5، تنازع الناس في معرفة الله وتوحيده، وأصول الدين: هل يجب ويحصل بالشرع؟ أو يجب بالشرع، ويحصل بالعقل؟ أو يجب، ويحصل بالعقل؟؛ على ثلاثة أقوال مشهورة6 لأصحاب الإمام أحمد، وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة.

القول الأول

فطائفة يقولون: يجب بالشرع، ويحصل به؛ وهو قول السالمية، وغيرهم؛

مثل الشيخ أبي الفرج المقدسي7. وهذا هو الذي

---

1 في ((خ)) : يوحى.

2 سورة النحل، الآيتان 43-44.

3 سورة آل عمران، الآية 184.

4 انظر تفسير ابن كثير 1434.

5 انظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا المبحث في كتابه: درء تعارض العقل والنقل 1198-200.

6 تطرق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لهذه المسألة في كتبه الأخرى بالتفصيل والبيان. انظر على سبيل المثال: الجواب الصحيح 2307-314. ودرء تعارض العقل والنقل 7352-362،، 91-66. وشرح الأصفهانية 2342.

7 هو أبو الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي، ثم المقدسي، ثم الدمشقي الأنصاري الخزرجي، شيخ الشام في وقته. حنبلي، أصله من شيراز، تفقه ببغداد على القاضي أبي يعلى، وسكن المقدس، واستقر في دمشق، فنشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل. توفي في دمشق سنة 486. ومن مؤلفاته: التبصرة في أصول الدين.

انظر: طبقات الحنابلة 2248-249. والذيل لابن رجب 168-73. والأعلام 4177.

حكاه1 عن أهل السنة من أصحاب أحمد، وغيرهم، وكذلك من شابههم؛ مثل ابن درباس2، وابن شكر3، وغيرهما من أصحاب الشافعي4. وهو المشهور عن أهل الحديث، والفقه الذين يذمون الكلام. وهذا مما وقع فيه النزاع بين صدقة بن الحسين الحنبلي المتكلم5، وبين طائفة من أصحاب

---

1 وقد نقل شيخ الإسلام رحمه الله كلامه من كتاب التبصرة. انظر درء تعارض العقل والنقل 84-6.

2 هو أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني الكردي الشافعي، قاضي الديار المصرية في زمن صلاح الدين الأيوبي. ولد سنة 516?، وتوفي سنة 605?. انظر: سير أعلام النبلاء 21474. والعبر 3139. والبداية والنهاية 1357. وحسن المحاضرة 1408.

3 هو أبو العباس أحمد بن علي بن محمد بن علي بن شكر الأندلسي. مقرئ وصل إلى المشرق، وأخذ القراءات. من مصنفاته: ((مختصر التيسير شرح الشاطبية)) . توفي سنة 640 هـ بالفيوم من مصر.

انظر: معجم المؤلفين 220.

4 انظر: درء تعارض العقل والنقل 916-17.

5 هو أبو الفرج صدقة بن الحسين بن الحداد البغدادي الحنبلي، الناسخ الفرضي، المتكلم، المتهم في دينه. أخذ عن ابن عقيل، وابن الزاغوني، وسمع من ابن ملة، واشتغل مدة، وأم بمسجد كان يسكنه، وناظر، وأفتى، وتكلم فيه ابن الجوزي. قل الحافظ

ابن رجب: كان بينه وبين ابن الجوزي مباينة شديدة، وكل واحد يقول في صاحبه مقالة الله أعلم بها. مات في ربيع الآخر سنة 573؟، وهو في عمر الثمانين.
انظر: سير أعلام النبلاء 2166. والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب 1331-340. والبداية والنهاية لابن كثير 12319.

أحمد، وكذلك بين أبي الفرج بن الجوزي، وطائفة منهم؛ أولئك يقولون الوجوب والحصول بالشرع، وهؤلاء يقولون الحصول بالعقل، والوجوب بالشرع.
وقد ذكر الأمدي1 ثلاثة أقوال في طرق العلم؛ قيل: بالعقل فقط، والسمع لا يحصل به؛ كقول الرازي؛ وقيل: بالسمع فقط؛ وهو الكتاب والسنة؛ وقيل: بكل منهما، ورجح هذا وهو الصحيح.
القول الثاني
والقول الثاني: أنها لا تجب إلا بالشرع، لكن يحصل بالعقل؛ وهو قول الأشعري، وأصحابه، ومن وافقهم؛ كالقاضي أبي يعلى، وابن الزاغوني، وابن عقيل، وغيرهم.
القول الثالث
والقول الثالث: أنها تحصل بالعقل، وتجب به؛ وهو قول من يوجب بالعقل؛ كالمعتزلة، والكرامية، وغيرهم من أتباع الأئمة؛ كأبي الحسن الآمدي، وأبي الخطاب، وغيرهم. وهو قول طائفة من المالكية، والشافعية، وعليه أكثر الحنفية، ونقلوه عن أبي حنيفة نفسه. وقد صرح هؤلاء قبل المعتزلة، وقبل أبي بكر الرازي، وأبي الخطاب، وغيرهم: أن من لم يأته رسول، يستحق العقوبة في الآخرة؛ لمخالفته موجب العقل2.

---

1 هو أبو الحسين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم؛ سيف الدين الآمدي. ولد سنة 551 ? في آمد من ديار بكر، وانتقل إلى بغداد، فدرس بها، ثم انتقل إلى مصر، وأخيرا إلى حماة ثم دمشق؛ حيث درس في العزيزية، ثم عزل عنها، ومات سنة 631 ?. من مؤلفاته: الإحكام في أصول الأحكام، ومنتهى السؤل مطبوعان، وله أيضا: أبكار الأفكار.
انظر: سير أعلام النبلاء 22364. وطبقات الشافعية للسبكي 8306.
2 انظر: التمهيد في أصول الفقه لأبي الخطاب 4294-306.

أعدل الأقوال في المسألة
وقد ذكرنا في غير هذا الموضع1: أن أعدل الأقوال: أن الأفعال مشتملة على أوصاف تقتضي [حسنها] 2 ووجوبها، و [تقتضي] 3 قبحها وتحريمها، وأن ذلك قد يعلم بالعقل، لكن الله لا يعذب أحدا إلا بعد بلوغ الرسالة؛ كما قال: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} 4، ولم يفرق سبحانه بين نوع، ونوع، وذكرنا أن هذه الآية يحتج بها الأشعري، وأصحابه، ومن وافقهم؛ كالقاضي أبي يعلى5، وأتباعه، وهم يجوزون أن الله يعذب في الآخرة بلا ذنب؛ حتى قالوا يعذب أطفال الآخرة؛ فاحتجوا بها على المعتزلة، والآية حجة على الطائفتين؛ كما قد بسط في غير هذا الموضع6.

---

1 انظر من هذا الكتاب: ص 547-555. وقد تقدم ذكر كثير من الإحالات، مما يغني عن تكرارها ها هنا. وانظر: مجموع الفتاوى 890-91، 309-310، 428-436. وشرح الأصفهانية 2617-619.
2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
3 في ((خ)) : يقتضي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة الإسراء، الآية 15.
5 انظر العدة في أصول الفقه لأبي يعلى 2422، 41218-1224.
6 انظر: الجواب الصحيح 2296-300. ومنهاج السنة النبوية 2306-309. ودرء تعارض العقل والنقل 8397-402. ومجموع الفتاوى 4277-281، 303.
وقد سبق أن تطرق شيخ الإسلام رحمه الله إلى هذا الموضوع. وانظر ص 566 من هذا الكتاب.

فصل الحجة على من أنكر قدرة الله وحكمته
وقد ذكر الله تعالى في القرآن الحجة على من أنكر قدرته، وعلى من أنكر حكمته؛ فأول ما أنزل الله تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم} 1؛ فذكر أنه الأكرم، وهو أبلغ من الكريم2، وهو المحسن غاية الإحسان3.
ومن كرمه: أنه علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم؛ فعلمه العلوم بقلبه، والتعبير عنها بلسانه، وأن يكتب ذلك بالقلم.

1 سورة العلق، الآيات 1-5.
2 انظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله عن اسم (الأكرم) لصاحب العزة والجلال، في مجموع الفتاوى 16295، 297، 317-322. وانظر: شأن الدعاء للخطابي ص 103-104. والأسماء والصفات للبيهقي 1148. ومدارج السالكين لابن القيم 1453. وعدة الصابرين له ص 267-271. وشفاء العليل له 158، 2243.
3 انظر أيضا كلام شيخ الإسلام رحمه الله في إثبات اسم (المحسن) لله سبحانه وتعالى في: مجموع الفتاوى1379، 5238، 16317. وبيان تلبيس الجهمية 1189. وانظر: بدائع الفوائد لابن القيم 2249. وطريق الهجرتين له ص 120. ومدارج السالكين له 1416. وللشيخ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد بحث في إثبات اسم (المحسن) لله سبحانه وتعالى، ضمن مجلة البحوث الإسلامية، العدد36.

فذكر التعليم بالقلم يتناول علم العبارة والنطق، وعبارة المعاني والعلوم؛ فإذا كان قد علمه هذه العلوم1، فكيف يمتنع عليه أن يعلمه ما يأمره به، وما يخبره به.
وبيان ذلك: أنه قال في أول السورة: {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق} ، ومعلوم أن من رأى العلقة2 قطعة من دم، فقيل له: هذه العلقة يصير منها إنسان يعلم كذا وكذا، لكان يتعجب من هذا غاية التعجب، وينكره أعظم الإنكار. ومعلوم أن نقل الإنسان من كونه علقة إلى أن يصير إنسانا عالما قادرا كاتبا، أعظم من جعل مثل هذا الإنسان يعلم ما أمر الله به، وما أخبر به؛ فمن قدر على أن ينقله من الصغر إلى أن يجعله عالما قارئا كاتبا، كان أن يقدر على جعله عالما بما أمر به، وبما أخبر به أولى وأحرى.
وهذا كما استدل على قدرته على إعادة الخلق، بقدرته على الابتداء3. وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من التوحيد، ومن

1 في ((خ)) كتبت في الأصل، ثم علق عليها في الحاشية: الأمور. وعليها حرف (ص) ، فلعل المقصود: فإذا كان قد علمه هذه الأمور.
2 العلق هو الدم الجامد، ومنه العلقة التي يكون منها الولد.
انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص 579. ولسان العرب لابن منظور 10267.
3 وهذا من براهين البعث؛ لأن من خلق الناس من العدم، قادر على إعادتهم بعد فنائهم؛ قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده} [سورة الروم، الآية 27] ، وقال
تعالى: {كما بدأنا أول خلق نعيده} [سورة الأنبياء، الآية 104] ، وقال تعالى: {فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة} [سورة الإسراء، الآية 51] ، وقال تعالى: {قل يحييها الذي أنشأها أول مرة} [سورة يس، الآية 79] ، وقال تعالى: {أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس..} [سورة ق، الآية 15] ، وقال تعالى: {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب..} [سورة الحج، الآية 5] ، وقال تعالى: {ولقد علمتم النشأة الأولى} [سورة الواقعة، الآية 62] .
وانظر الرد على المنطقيين ص 320-321؛ فقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله براهين البعث العقلية.
وانظر: أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي 1115-116. وجهود الشيخ محمد الأمين في تقرير عقيدة السلف 2576.

النبوة، ومن المعاد1؛ فقال تعالى: {ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} 2؛ فذكر تعجبهم من التوحيد، والنبوة، وقال تعالى: {أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم} 3، وهذا أيضا تعجب من أن أرسل إليهم رجل منهم، وقوله: {أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس} : دل على أنه منذر لجنس الناس، وأنه من جنس الناس لا يختص به العرب دون غيرهم، وإن كان أول ما أرسل إليهم، وبلسانهم، وقال تعالى: {ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد} 4، وقال تعالى: {وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} 5، وقال تعالى: {بل عجبت ويسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون وإذا رأوا آية يستسخرون} 6؛ فالرسول كان يعجب من تكذيبهم

---

1 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذه الأصول في تفسيره لسورة العلق، وذكر كلاما مشابها لما ذكره هاهنا في مجموع الفتاوى 16260-265.
2 سورة ص، الآيات 1-5.
3 سورة يونس، الآية 2.
4 سورة ق، الآيات 1-3.
5 سورة الرعد، الآية 5.
6 سورة الصافات، الآيات 12-14.

لما جاءهم به من آيات الأنبياء، وهم يعجبون مما جاء به لكونه خارجا عما اعتادوه من النظائر، فإنهم لم يعرفوا قبل مجيئه؛ لا توحيدا، ولا نبوة، ولا معادا؛ قال تعالى: {قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون} 1.

الحكمة من جعل الرسول من البشر

وأما حكمته في إرسال بشر: فقد ذكر أنه من جنسهم، وأنه بلسانهم؛ فهو أتم في الحكمة والرحمة2، وذكر أنهم لا يمكنهم الأخذ عن الملك3، وأنه لو نزل ملكا، لكان يجعله في صورة بشر، ليأخذوا عنه4.

---

1 سورة الأنعام، الآية 150.
2 من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل الرسل بشرا، كي يسهل على أممهم الأخذ عنهم؛ بالتأسي بهم، والاقتداء بأفعالهم؛ كما قال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} [سورة الأحزاب، الآية 21] ، وقال تعالى يحكي عن مقولة الرسل لأممهم: {قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده} [سورة إبراهيم، الآية 17] ، وقال تعالى مانا على المؤمنين: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم} [سورة آل عمران، الآية 164] .
وهذا أتم في إقامة الحجة عليهم، إضافة إلى كونه أتم في رحمتهم؛ إذ لا يمكنهم الأخذ إلا عمن هو من جنسهم، ويتكلم بلسانهم.
3 رؤية الملائكة أمر صعب وخطير، فالكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت، أو حين نزول العذاب، فلو قدر أنهم رأوهم وقت نزول العذاب لكانت رؤيتهم لهم في يوم هلاكهم. انظر الرسل والرسالات لعمر الأشقر ص 72.
قال تعالى: {يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين} [سورة الفرقان، الآية 22] .
وقال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون} [سورة الأنعام، الآية 8] .
4 قال تعالى: {ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون} [سورة الأنعام، الآية 9] .

ولهذا لم يكن البشر يرون الملائكة إلا في صورة الآدميين1؛ كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي2، وكما أتى مرة في صورة

1 ومن الآيات القرآنية الدالة على تشكل الملائكة بصورة الآدميين: الآيات التي تحدثت عن مجيء جبريل عليه السلام إلى مريم، وهي قوله تعالى: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} [سورة مريم، الآيات 16-19] .
ومن الآيات: تلك التي تحدثت عن مجيء الملائكة إلى لوط عليه السلام في صورة شباب حسان، وهي قوله تعالى: {ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب. وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد} [سورة هود، الآيتان 77-78] .
ومن ذلك: دخول الملكين بصورة رجلين، وتسورهما المحراب على داود عليه السلام؛ قال تعالى: {وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط} [سورة ص، الآيتان 21-22] .
2 روى البخاري رحمه الله في صحيحه 31330، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام عن أبي عثمان قال: "أنبئت أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم، وعنده أم سلمة، فجعل يحدث، ثم قام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة: من هذا؟ أو كما قال. قال: قالت: هذا دحية. قالت أم سلمة: أيم الله ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي صلى الله عليه وسلم بخبر جبريل، أو كما قال. قال: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا؟ قال: من أسامة بن زيد".
وانظر صحيح مسلم 41906، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها.
وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية. أخرجه الإمام أحمد في مسنده 8167 ط المعارف، وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: إسناده صحيح. وانظر: منهاج السنة النبوية 2534. ودرء تعارض العقل والنقل 6109-110. وكتاب الصفدية 1196-198، 201.
ودحية الكلبي: هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي القضاعي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسوله بكتابه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى هرقل. أسلم دحية قبل بدر، ولم يشهدها، وكان يتشبه به جبريل عليه السلام، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على صورته، وكان من أجمل الناس وجها. شهد اليرموك، وسكن المزة من قرى دمشق، وبقي إلى زمن معاوية.
انظر سير أعلام النبلاء 2550. والإصابة لابن حجر 1463.

أعرابي1.
ولما جاءوا إبراهيم، وامرأته حاضرة، كانوا في صورة بشر، وبشروها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب2؛ قال تعالى: {وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا} .
وأما قدرته على تعريف الخلق بأنه نبيه، فكما تقدم3؛ فإنه إذا كان

---

1 روى الإمام مسلم في صحيحه 136-38، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان بسنده عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: " بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد.... ثم ساق الحديث، وفي آخره: قال: ثم انطلق، فلبثت مليا، ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم".
وانظر عن تمثل الملك في صورة دحية، وفي صورة الأعرابي: فتح الباري لابن حجر 127.
2 قال تعالى: {ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب} [سورة هود، الآيات 69-71] .
3 انظر أول هذا الفصل، ص 813.

قادرا على أن يهدي الإنسان الذي كان علقة، ومضغة إلى أنواع العلوم بأنواع من الطرق إنعاما عليه، وفي ذلك من بيان قدرته، وحكمته، ورحمته، ما فيه، [فكيف] 1 لا يقدر أن يعرفه صدق من أرسله إليه. وهذا أعظم النعم عليه، والإحسان إليه، والتعريف بهذا دون تعريف الإنسان ما عرفه به من أنواع العلوم؛ فإنه إذا كان هداهم إلى أن يعلم بعضهم صدق رسول من أرسله إليه بشر مثله، بعلامات يأتي بها الرسول، وإن كان لم تتقدم مواطأة وموافقة بين المرسل والمرسل إليهم.

طرق الناس في دلالة المعجزة على صدق الرسول

فمن هدى عباده إلى أن يرسلوا رسولا بعلامة، ويعلم المرسل إليها أنها علامة تدل على صدقه قطعا، فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولا، ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله. وهذا كمن جعل غيره قديرا، عليما، حكيما، فهو أولى أن يكون قديرا، عليما، حكيما، فمن جعل الناس يعلمون صدق رسول [يرسله بعض خلقه بعلامات يعلم بها المرسل صدق رسوله] 2، فمن هدى العباد إلى هذا، فهو أقدر على أن يعلمهم صدق رسوله بعلامات يعرفون بها صدقه، وإن لم يكن قبل ذلك قد تقدم بينهم وبينه مواطأة3.

______

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

3 وهذا من قياس الأولى؛ وهو أن كل كمال اتصف به المخلوق، وأمكن أن يتصف به الخالق، فهو أولى وأحق أن يتصف به. انظر: شرح الأصفهانية 1159. والعقيدة التدمرية 50. ودرء تعارض العقل والنقل 129. ونقض تأسيس الجهمية 2397

______

وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق الرسول1: طريق الحكمة، وطريق القدرة، وطريق العلم والضرورة، وطريق سنته وعادته التي بها يعرف أيضا ما [يفعله] 2؛ وهو من جنس المواطأة، وطريق العدل، وطريق الرحمة، وكلها طرق صحيحة. وكلما كان الناس إلى الشيء أحوج، كان [الرب] 3 به أجود، [وكذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج، كان به أجود] 4؛ فإنه سبحانه الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وهو الذي خلق

______

1 فالمعتزلة وابن حزم لا يثبتون النبوة إلا بطريق القدرة؛ الذي هو المعجزة.

انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي ص 585-586. والمحلى لابن حزم 136. والدرة فيما يجب اعتقاده له أيضا ص 194.

أما الأشاعرة: فيثبتون النبوة بطريق القدرة؛ الذي هو المعجزة، أو بطريق الضرورة، إلا أن طريق المعجزة عندهم هي أشهر الطرق.

انظر: المواقف للإيجي ص 349، 356، 357. والإرشاد للجويني ص 331. والإنصاف للباقلاني ص 93. والبيان له ص 37-38.

وانظر من كتب شيخ الإسلام رحمه الله: درء تعارض العقل والنقل 189-90،، 940-53. والجواب الصحيح 6393-401،، 5196. وانظر: شرح الأصفهانية 1140-141، 2471-485، 492-497، 500-502، 557-558، 591-597، 609-617، 621-624 فقد ذكر فيه شيخ الإسلام رحمه الله طرقا كثيرة لمعرفة النبي. وانظر هذا الكتاب ص 274-275، 563-567، 509، 645. وقد تقدم مزيد توضيح لهذه الطرق في ص 640-647، 653-654، 666-680.

2 في ((م)) ، و ((ط)) : يفعل.

3 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

______

فسوى، [والذي] 1 قدر فهدى، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى2.

______

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

2 وقد وضح شيخ الإسلام رحمه الله هذا الأمر في مواضع كثيرة، وبين أن الله الأكرم جل وعلا يسر لعباده معرفة رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأن طرق معرفتهم كثيرة جدا ومتنوعة؛ فقال رحمه الله تعالى: "قد ذكرنا ما تيسر من

طرق الناس في المعرفة بالله ليعرف أن الأمر في ذلك واسع، وأن ما يحتاج الناس إلى معرفته؛ مثل الإيمان بالله ورسوله، فإن الله يوسع طرقه وييسرها، وإن كان الناس متفاضلين في ذلك تفاضلا عظيما. وليس الأمر كما يظنه كثير من أهل الكلام؛ من أن الإيمان بالله ورسوله لا يحصل إلا بطريق يعينونها، وقد يكون الخطأ الحاصل بها يناقض حقيقة الإيمان، كما أن كثيرا منهم يذكر أقوالا متعددة، والقول الذي جاءت به الرسل، وكان عليه سلف الأمة لا يذكره ولا يعرفه. وهذا موجود في عامة الكتب المصنفة في المقالات والملل والنحل ... فيبقى الناظر في كتبهم حائر، ليس فيما ذكروه ما يهديه ويشفيه، ولكن قد يستفيد من رد بعضهم على بعض علمه ببطلان تلك المقالات كلها". درء تعارض العقل والنقل 966-67.
وقال رحمه الله تعالى أيضا: "كلما كان الناس أحوج إلى معرفة الشيء، فإن الله يوسع عليهم دلائل معرفته كدلائل معرفة نفسه، ودلائل نبوة رسوله، ودلائل ثبوت قدرته وعلمه وغير ذلك؛ فإنها دلائل كثيرة قطعية، وإن كان من الناس من قد يضيق عليه ما وسعه الله على من هداه؛ كما أن من الناس من يعرض له شك وسفسطة في بعض الحسيات والعقليات التي لا يشك فيها جماهير الناس. والمقصود هنا أنا نحن أخرجنا الله من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، فنفتقر في حصول العلم إلى أسباب غير أنفسنا. ومن الأشياء ما نعلمها بمشاعرنا بلا دليل، ومنها ما نفتقر في العلم به إلى دليل، فلا نكون عالمين به حتى نعلم الدليل الذي يستلزم في علمنا به علمنا بالمدلول عليه. والرب تعالى علمه من لوازم نفسه المقدسة، وكذلك قدرته، لم يستفد شيئا من صفاته المقدسة من غيره، ولم يحتج إلى سواه بوجه من الوجوه، بل هو الغني عن كل ما سواه". درء تعارض العقل والنقل 10129-130.
وانظر: الرد على المنطقيين ص 254-255. والجواب الصحيح 5141.
ويذكر رحمه الله تعالى كثيرا من الدلائل والعلامات التي تدل على صدق الرسول؛ فيقول: "وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من آياته وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته ودينهم من آياته، وكرامات صالح أمته من آياته، وذلك يظهر بتدبر سيرته؛ من حين ولد إلى أن بعث، ومن حيث بعث إلى أن مات، وتدبر نسبه، وبلده، وأصله، وفصله؛ فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسبا؛ من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب....... لم يزل معروفا بالصدق، والبر والعدل، ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم ... لا يعرف بشيء يعابه؛ لا في أقواله، ولا أفعاله، ولا في أخلاقه ... ". دقائق التفسير 1159.
وقد ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى تنوع طرق الهداية والدلالة على صدق المرسلين؛ فقال رحمه الله: "فطرق الهداية متنوعة رحمة من الله بعباده، ولطفا بهم؛ لتفاوت عقولهم، وأذهانهم، وبصائرهم؛ فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به، وما دعا إليه، من غير أن يطلب منه برهان خارجا عن ذلك؛ كحال الكمل من الصحابة، كالصديق رضي الله عنه. ومنهم من يهتدي بمعرفة حاله صلى الله عليه وسلم، وما فطر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال.... كخديجة رضي الله عنها ... وهذه المقامات في الإيمان عجز عنها أكثر الخلق، فاحتاجوا إلى الآيات والخوارق ... " مفتاح دار السعادة 213.
258(685/2)
فكيف لا يقدر أن يهدي عباده إلى أن يعلموا أن هذا رسوله، وأن ما جاء به من الآيات [أنه] 1 من الله، وهي شهادة من الله له بصدقه، وكيف [تقتضي] 2 حكمته أن يسوي بين الصادق والكاذب؛ فيؤيد الكاذب من آيات الصدق، بمثل ما يؤيد به الصادق؛ [حتى] 3 لا يعرف هذا من هذا، وأن يرسل رسولا يأمر الخلق بالإيمان به وطاعته، ولا يجعل لهم طريقا إلى معرفة صدقه.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : آية.
2 في ((خ)) : يقتضي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : وحتى. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وهذا كتكليفهم بما لا يقدرون عليه، وما لا يقدرون على أن يعلموه. وهذا ممتنع في صفة الرب، وهو منزه عنه سبحانه؛ فإنه لا يكلف نفسا إلا وسعها.
وقد علم من سنته وعادته: أنه لا يؤيد الكذاب، بمثل ما أيد به الصادق [قط] 1، بل لا بد أن يفضحه ولا ينصره، بل لا بد أن يهلكه. وإذا نصر ملكا ظالما مسلطا، فهو لم يدع النبوة، ولا كذب عليه، بل هو ظالم سلطه على ظالم؛ كما قال تعالى: {وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا} 2، بخلاف من قال: إنه أرسله؛ فهذا لا يؤيده تأييدا مستمرا إلا مع الصدق، لكن قد يمهله مدة، ثم يهلكه؛ كما فعل بمن كذب الرسل: {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} 3.
معنى النبي في اللغة

ولفظ النبي كلفظ الرسول4، هو في الأصل إنما قيل مضافا إلى الله؛ فيقال: رسول الله، ثم عرف باللام؛ فكانت اللام تعاقب الإضافة؛ كقوله: {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما [أرسلنا] 5 إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول} 6، وقوله: {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم [كدعاء] 7 بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون [منكم] 8 لواذا} 9.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

2 سورة الأنعام، الآية 129.

3 سورة الطارق، الآيات 15-17.

4 انظر: مجموع الفتاوى 10290.

5 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : فأرسلنا. وهو خلاف الآية: {كما أرسلنا..} .
وكلمة: (فأرسلنا) : ملحقة في ((خ)) بين السطرين.

6 سورة المزمل، الآيتان 15-16.

7 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

8 في ((ط)) : منهم.

9 سورة النور، الآية 63.

وكذلك اسم النبي؛ يقال نبي الله؛ كما قال: {فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين} 1، وقيل لهم: {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا} 2؛ فتقولون: يا محمد. بل قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

معنى الرسول في اللغة

ورسول: فعول؛ بمعنى مفعول؛ [أي مرسل؛ فرسول الله: الذي أرسله الله؛ فكذلك نبي الله هو بمعنى مفعول] 3: أي منبأ الله؛ الذي نبأه الله. وهذا أجود من أن يقال: إنه بمعنى فاعل؛ أي منبىء؛ فإنه إذا نبأه الله، فهو نبي [الله] 4؛ سواء أنبأ بذلك غيره، أو لم ينبئه؛ فالذي صار به النبي نبيا: أن ينبئه الله.

وهذا مما يبين ما امتاز به عن غيره؛ فإنه إذا كان الذي ينبئه الله؛ كما أن الرسول هو الذي يرسله الله؛ فما نبأ الله حق، وصدق، ليس فيه كذب؛ لا خطأ، ولا عمدا5؛ وما يوحيه الشيطان: هو من إيحائه، ليس من إنباء

---

1 سورة البقرة، الآية 91.

2 سورة النور، الآية 63.

3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

4 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

5 وهذه مسألة لغوية يتطرق إليها شيخ الإسلام رحمه الله في تعريف اسم النبي: هل النبي فعيل بمعنى فاعل، أم فعيل بمعنى مفعول. وهي مسألة خلافية، ذهب فيها بعض العلماء إلى القول الأول؛ أي أنه فعيل بمعنى فاعل.
انظر: لسان العرب لابن منظور 1162. وروح المعاني للآلوسي 978-79.
ورجح شيخ الإسلام رحمه الله أنه فعيل بمعنى مفعول، وعلل ذلك بأن النبي صار نبيا؛ لأنه منبأ من الله، وهذا الذي امتاز به النبي عن غيره؛ فهو بمعنى مفعول: أي نبأه الله؛ سواء نبأ غيره، أم لا.
ومن العلماء من جمع بين القولين؛ كالراغب الأصفهاني الذي قال: (والنبي لكونه منبئا بما تسكن إليه العقول الذكية، وهو يصح أن يكون فعيلا بمعنى فاعل؛ لقوله تعالى: {نبئ عبادي} [الحجر 49] ، {قل أو أنبئكم} [آل عمران 15] ، وأن يكون بمعنى المفعول؛ لقوله: {نبأني العليم الخبير} [التحريم 3]) . انظر مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص 789.
وسيأتي التعريف اللغوي للنبوة، وزيادة إيضاح لما ذكر هاهنا من كلام شيخ الإسلام رحمه الله في ص 863 من هذا الكتاب.

الله؛ فالذي اصطفاه الله [لإنبائه] 1، وجعله نبيا له؛ كالذي اصطفاه لرسالته، وجعله رسولا له؛ فكما أن رسول الله لا يكون [رسولا] 2 لغيره، فلا يقبل أمر غير الله؛ فكذلك نبي الله لا يكون نبيا لغير الله، فلا يقبل أنباء أحد إلا أنباء الله.

وإذا أخبر بما أنبأ الله، وجب الإيمان به؛ فإنه صادق مصدوق، ليس في شيء مما أنبأه الله به شيء من وحي الشيطان. وهذا بخلاف غير النبي؛ فإنه وإن كان قد يلهم، ويحدث، ويوحى إليه أشياء من الله، ويكون حقا، فقد يلقي إليه الشيطان أشياء. ويشتبه هذا بهذا؛ فإنه ليس نبيا لله؛ كما أن الذي يأمر بطاعة الله غير الرسول، وإن كان أكثر ما يأمر به هو طاعة الله، فقد يغلط ويأمر بغير طاعة الله، بخلاف الرسول المبلغ عن الله؛ فإنه لا يأمر إلا بطاعة الله؛ قال تعالى: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} 3، وقال تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله} 4.

1 في ((ط)) : لأنبيائه.
2 في ((خ)) : رسلا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 سورة النساء، الآية 80.
4 سورة النساء، الآية 64.

فنبي الله هو [الذي] 1 ينبئه الله، لا غيره. ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه النبيون؛ فقال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} 2، وقال تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} 3، وقال تعالى: {ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} 4.
وليس كل من أوحي إليه الوحي العام5 يكون نبيا؛ فإنه قد يوحى إلى

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 سورة البقرة، الآية 136.
3 سورة البقرة، الآية 285.
4 سورة البقرة، الآية 177.
5 الوحي: لغة يأتي بمعان كثيرة، وهو ما يطلق عليه الشيخ رحمه الله هنا: (الوحي العام) ؛ فهو يأتي بمعنى الإلهام للإنسان وللحيوان، وبمعنى الأمر، وبمعنى أن تكلمه بكلام تخفيه من غيره، ويأتي بمعنى الإشارة السريعة، وبمعنى الكتابة والكتاب والمكتوب، وبمعنى الرسالة والبعث، وبمعنى العجلة والسرعة، وبمعنى الإيماء بالجوارح، وبمعنى التصويت شيئا بعد شيء. انظر لسان العرب لابن منظور 15380-382.
وأما في الاصطلاح: فنقل شيخ الإسلام رحمه الله كلام الزهري رحمه الله في معنى الوحي؛ فقال: "الوحي ما يوحي الله إلى النبي من أنبيائه عليهم السلام، ليثبت الله عز وجل ما أراد من وحيه في قلب النبي، ويكتبه، وهو كلام الله ووحيه، ومنه ما يكون بين الله وبين رسله، ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد، ولا يأمرون بكتابته، ولكنهم يحدثون به الناس حديثا، ويبينونه لهم؛ لأن الله أمرهم أن يبينوه للناس ويبلغوهم إياه، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته؛ فيكلمون به أنبياءه من الناس، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء من الملائكة؛ فيوحيه وحيا في قلب من يشاء من رسله.
قلت: فالأول: الوحي؛ وهو الإعلام السريع الخفي إما في اليقظة وإما في المنام؛ فإن رؤيا الأنبياء وحي، ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة؛ كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح..". انظر في تخريج حديث الرؤيا: صحيح البخاري 62562، كتاب التعبير، باب رؤيا الصالحين. وصحيح مسلم 41773، كتاب الرؤيا. ومسند أحمد 218، 50، 229.
ثم ذكر شيخ الإسلام رحمه الله الوحي بمعناه العام؛ فقال: "فهذا الوحي يكون لغير الأنبياء، ويكون يقظة ومناما، وقد يكون بصوت هاتف، يكون الصوت في نفس الإنسان، ليس خارجا عن نفسه يقظة ومناما؛ كما يكون النور الذي يراه أيضا في نفسه ...) . مجموع الفتاوى 12397-398، 402. وانظر بغية المرتاد ص 316.

غير الناس؛ قال تعالى: {وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون} 1، وقال تعالى: {وأوحى في كل سماء أمرها} 2. وقال تعالى عن يوسف وهو صغير: {فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب

وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون} 3 وقال تعالى: {وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه} 4، وقال تعالى: {وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي} 5.
وقوله: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا} 6؛ يتناول وحي الأنبياء، وغيرهم؛ كالمحدثين الملهمين؛ كما في الصحيحين عن النبي

1 سورة النحل، الآية 68.
2 سورة فصلت، الآية 12.
3 سورة يوسف، الآية 15.
4 سورة القصص، الآية 7.
5 سورة المائدة، الآية 111.
6 سورة الشورى، الآية 51.

صلى الله عليه وسلم أنه قال: "قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم" 1.
وقال عبادة بن الصامت2: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه3.
معنى المحدث والملهم
فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون4 يوحى إليهم هذا الحديث

1 صحيح البخاري 31349، كتاب فضائل الصحابة، باب في مناقب عمر بن الخطاب. وصحيح مسلم 41864، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضائل عمر ابن الخطاب. ومسند الإمام أحمد 655.
وقال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون.
وفي بعض روايات البخاري: "لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد، فعمر".
انظر صحيح البخاري، نفس الكتاب ونفس الباب.
2 هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم، من بني عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاري. أحد النقباء ليلة العقبة، ومن أعيان البدريين. سكن بيت المقدس، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وممن جمع القرآن في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. مات سنة أربع وثلاثين.
انظر: سير أعلام النبلاء 25. وشذرات الذهب 140، 62.
3 قال ابن حجر رحمه الله عن هذا الأثر: "وذكر ابن القيم حديثا مرفوعا غير معزو: "إن رؤيا المؤمن كلام يكلم به العبد ربه في المنام"، ووجد الحديث المذكور في نوادر الأصول للترمذي، من حديث عبادة بن الصامت، أخرجه في الأصل الثامن والسبعين، وهو من روايته عن شيخه عمر بن أبي عمر، وهو واه، وفي سنده جنيد". فتح الباري لابن حجر 12370. وانظر: مجموع الفتاوى 12398.
4 تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن حديث: "قد كان في الأمم قبلكم محدثون ... "، وذكر معنى المحدث، وذكر الفرق بينه وبين الصديق، وبين أن الصديق أفضل من المحدث.
انظر من كتب شيخ الإسلام: كتاب الصفدية1252-259. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 148-157. وشرح الأصفهانية 2535-538، 540. ودرء تعارض العقل والنقل 528، 747. والرد على المنطقيين ص 514. ومنهاج السنة النبوية 620، 9114-115. وبغية المرتاد ص 385-386. ومجموع الفتاوى 298.

الذي هو لهم [خطاب] 1، وإلهام، وليسوا بأنبياء معصومين [مصدقين] 2 في كل ما يقع لهم؛ فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إيحاء الرب، بل من إيحاء الشيطان، وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء؛ فهم الذين يفرقون بين وحي الرحمن ووحي الشيطان؛ فإن [الشياطين] 3 [أعداؤهم] 4، وهم يوحون بخلاف وحي الأنبياء5؛ قال تعالى: {وكذلك

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 في ((خ)) : مصدوقين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((ط)) : الشيطان.
4 في ((خ)) : أعطاهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأما من ابتدع دينا لم يشرعوه (أي الأنبياء) ، فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له، واتباع نبيه فيما شرعه لأمته، وابتدع الغلو في الأنبياء والصالحين والشرك بهم، فإن هذا تتلاعب به الشياطين ... ".
ثم ذكر رحمه الله قصصا حدثت تدل على تلاعب الشيطان بأولئك العباد؛ فقال رحمه الله تعالى: "وهذا كما أن كثيرا من العباد يرى الكعبة تطوف به، ويرى عرشا عظيما وعليه صورة عظيمة، ويرى أشخاصا تصعد وتنزل، فيظنها الملائكة، ويظن أن تلك الصورة هي الله تعالى وتقدس.... ويكون ذلك شيطانا. وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس، فمنهم من عصمه الله وعرف أنه الشيطان؛ كالشيخ عبد القادر في حكايته المشهورة؛ حيث قال: كنت مرة في العبادة، فرأيت عرشا عظيما، وعليه نور، فقال لي: يا عبد القادر أنا ربك وقد حللت لك ما حرمت على غيرك. قال: فقلت له: أنت الله الذي لا إله إلا هو؟ اخسأ يا عدو الله. قال: فتمزق ذلك النور وصار ظلمة، وقال: يا عبد القادر نجوت مني بفقهك في دينك وعلمك، وبمنازلاتك في أحوالك. لقد فتنت بهذه القصة سبعين رجلا. فقيل له: كيف علمت أنه الشيطان؟ قال: بقوله لي: حللت لك ما حرمت على غيرك، وقد علمت أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لا تنسخ ولا تبدل، ولأنه قال أنا ربك، ولم يقدر أن يقول أنا الله الذي لا إله إلا أنا".
مجموع الفتاوى 1171-172.
وانظر إلى ص 179 من نفس المصدر. وانظر: شرح الأصفهانية 2472-476. وانظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام رحمه الله؛ فقد بين فيه كثيرا من هذه الأحوال الشيطانية، والخوارق الإبليسية.

جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون} 1، وقال تعالى: {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم [لمشركون] 2} 3.

الذين غلطوا في النبوة

الفلاسفة والباطنية والملاحدة من أبعد الطوائف عن النبوة

وقد غلط في النبوة طوائف غير الذين كذبوا بها؛ إما ظاهرا وباطنا، وإما باطنا؛ كالمنافق المحض، بل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول، وإلى من قبله، وهم خلق كثير فيهم شعبة نفاق، وإن لم يكونوا مكذبين للرسول من كل وجه، بل قد يعظمونه بقلوبهم، ويعتقدون وجوب طاعته في أمور دون أمور.
وأبعد هؤلاء عن النبوة: المتفلسفة، والباطنية، والملاحدة4؛ فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا [من] 5 جهة القدر المشترك بين بني آدم؛ وهو

1 سورة الأنعام، الآية 112.
2 في ((خ)) : لمشتركون.
3 سورة الأنعام، الآية 121.
4 سبق في هذا الكتاب الكلام عن النبوة عند الفلاسفة. انظر ص 156، 609-612، 635-636 من هذا الكتاب.
وانظر من كتبه الأخرى رحمه الله: مجموع الفتاوى 985. ومنهاج السنة النبوية 16، 357،، 2415-416،، 823-25.
والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 204. وكتاب الصفدية 1202-203. وبغية المرتاد ص 384. ودرء تعارض العقل والنقل 1179. والرد على المنطقيين ص 394، 443-444، 471، 486-487. وانظر أعلام النبوة للماوردي ص 20.
5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

المنام، وليس [في] 1 كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة2، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي3.
ابن سينا جعل للنبي ثلاث خصائص
وابن سينا عظمها أكثر من ذلك4؛ فجعل للنبي [ثلاث] 5 خصائص6:

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 انظر نحوا من هذا الكلام في: منهاج السنة النبوية 1358. وشرح الأصفهانية 2633. وكتاب الصفدية 1134.
3 انظر: كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ص 68، 76، 84، 86، 89، 114. وانظر من كتب شيخ الإسلام رحمه الله: درء تعارض العقل والنقل 110. وشرح الأصفهانية 2362، 505. والرد على المنطقيين ص 281، 483، 486. ومجموع الفتاوى 986. وانظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 635-636.
4 والفارابي، وابن سينا إنما ذهبوا في ذلك إلى فلسفة أتباع أرسطو؛ كما وضح ذلك شيخ الإسلام رحمه الله بقوله: (وأما الفلاسفة فلا يجمعهم جامع، بل هم أعظم اختلافا من جميع طوائف المسلمين واليهود والنصارى. والفلسفة التي ذهب إليها الفارابي وابن سينا إنما هي فلسفة المشائين أتباع أرسطو صاحب التعاليم) . درء تعارض العقل والنقل 1157.
5 في ((خ)) : ثلاثة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 انظر من كتب ابن سينا: كتاب النجاة ص 166-167.
وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله مرارا عن خصائص النبوة عند ابن سينا.
انظر: كتاب الصفدية 15-7، 128، 132، 142، 165، 176، 230. وشرح الأصفهانية 2502-503. ومجموع الفتاوى 11229. والرد على المنطقيين ص 486-487. ودرء تعارض العقل والنقل 5355-356. وقد سبق ذكر تلك الخصائص عند الفلاسفة في هذا الكتاب ص 425.

أحدها: أن ينال العلم بلا تعلم، ويسميها القوة القدسية؛ وهي القوة الحدسية عنده.
والثاني: أن يتخيل في نفسه ما يعلمه؛ فيرى في نفسه صورا نورانية، ويسمع في نفسه أصواتا؛ كما يرى النائم في نومه صورا تكلمه، ويسمع كلامهم، وذلك موجود في نفسه لا في الخارج. فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبي مما يراه ويسمعه دون الحاضرين، إنما يراه في نفسه ويسمعه في نفسه، وكذلك الممرور1 عندهم2.
والثالث: أن يكون له قوة يتصرف بها في هيولي العالم، بإحداث أمور غريبة؛ وهي عندهم آيات الأنبياء، وعندهم ليس في العالم حادث إلا عن قوة نفسانية، أو ملكية، أو طبعية؛ كالنفس الفلكية3،

---

1 المرة: إحدى الطبائع الأربع، وهي مزاج من أمزجة البدن. والمرارة التي فيها المرة. والممرور الذي غلبت عليه المرة. انظر لسان العرب لابن منظور 5168.
2 انظر ذلك عند المتفلسفة؛ فقد ذكر مثل هذا الكلام: كل من: الفارابي في آراء أهل المدينة الفاضلة ص 116. وابن سينا في الإشارات والتنبيهات 4871-872. وذكر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله عنهم، وبسطه في كتبه؛ مثل: منهاج السنة النبوية 821. وكتاب الصفدية 16.
3 هي أفلاك تتحرك، ولا تتم حركة كل واحد منها إلا بمعاضدة غيره من الأفلاك له.
انظر: المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي ص 95. وشرح المواقف للجرجاني ص 554.
وانظر: الرد على المنطقيين ص 474-475، 480. وكتاب الصفدية 134. وبغية المرتاد ص 326.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن الفلاسفة: "وقد تنازعوا في النفس الفلكية: هل هي جوهر، أو عرض؟ وأكثرهم يقولون هي عرض، ولكن ابن سينا وطائفة رجحوا أنها جوهر". كتاب الصفدية 134.
وقال رحمه الله أيضا عن معتقد هؤلاء الفلاسفة من القرامطة في اللوح المحفوظ، وأنه النفس الكلية، فحكى عنهم قولهم: "أن اللوح المحفوظ؛ وهو العقل الفعال، أو النفس الكلية، وذلك ملك من الملائكة، وأن حوادث الوجود منتقشة فيه، فإذا اتصلت به النفس الناطقة فاضت عليها..". بغية المرتاد ص 326.

وقال رحمه الله عن تأويلاتهم للوح المحفوظ بالنفس الكلية، والقلم بالعقل الفعال، وغير ذلك: "وأما العلميات: فتأولوا بعضها؛ كاللوح، قالوا: هو النفس الفلكية، والقلم قالوا هو العقل الفعال، وربما قالوا عن الكوكب والشمس والقمر التي رآها إبراهيم إنها النفس والعقل الفعال والعقل الأول، وتأولوا الملائكة، ونحو ذلك..". الرد على المنطقيين ص 281.

والإنسانية1، والأشكال الفلكية2، والطبائع3 التي للعناصر الأربعة، والمولدات4، لا يقرون بأن فوق الفلك

---

1 هو كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الأمور الكليات ويفعل الأفعال الفكرية.
انظر: المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي ص 94-95. والتعريفات للجرجاني ص 244.
2 هي الهيئة الحاصلة للأفلاك بسبب إحاطة حد واحد بالمقدار.
انظر المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين ص 65.
3 الطبائع: هي عبارة عن ما يوجد في الأجسام من القوة؛ كالحرارة بالنسبة إلى النار ... إلخ.
انظر: المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين ص 83-84. وكتاب التعريفات للجرجاني ص 140.
4 المولدة: هي قوة من شأنها فصل جزء من الجسم الذي هي فيه، حتى يمكن أن يكون منه شخص آخر من نوع ما هي قوة له.

انظر المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين ص 97.
وانظر معنى المولدات من كلام شيخ الإسلام في: الصفدية1150، 216، 218. والرد على المنطقيين ص 27، 219، 474-478. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 304.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن معنى التولد عند الفلاسفة، أنهم يقولون: "فالعقول والنفوس متولدة عن الله تولدا قديما أزليا لازما لذاته، والعالم متولد عن ذلك. فالعالم كله متولد عندهم عن الله تولدا قديما أزليا لازما لذاته، وإن كانوا قد لا يعبرون بلفظ الولد، فهم يعبرون بلفظ المعلول، والعلة، وهو أخص أنواع التولد، ويعبرون بلفظ الموجب والموجب. وما ذكره الله في كتابه من إبطال التولد يبطل قولهم عقلا وسمعا، وذلك أنه قال تعالى: {وخرقوا له بنين وبنات بغير علم} [الأنعام، 100] .. ". كتاب الصفدية 1216.

[نفسه] 1 شيء يفعل، ولا يحدث شيئا، فلا يتكلم، ولا يتحرك بوجه من الوجوه؛ لا ملك ولا غير ملك، فضلا عن رب العالم. والعقول التي يثبتونها2 عندهم ليس فيها تحول من حال إلى حال البتة؛ لا بإرادة، ولا قول، ولا عمل، ولا غير ذلك. وكذلك المبدأ الأول3.
النبوة عند الفلاسفة
وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس [الأنبياء] 4، إنما هو من فيض العقل الفعال5.

---

1 في ((ط)) : نفس.
2 المقصود بها العقول العشرة عند الفلاسفة.
انظر: بغية المرتاد ص 241-255. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 205.
3 انظر كتاب الصفدية 185.
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ص 55، 61، 63. وكتاب النجاة لابن سينا ص 310-314. والرسالة العرشية له ص 30. والإشارات والتنبيهات له تحقيق سليمان دنيا ص 216-243. والشفاء في الإلهيات له تحقيق إبراهيم مذكور ص 402.
وانظر من كتب شيخ الإسلام: شرح الأصفهانية 2545. وكتاب الصفدية 17، 9، 134، 201. والرد على المنطقيين ص 476.

ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء، أرادوا الجمع بينه، وبين أقوالهم؛ فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء، فيضعونها على معانيهم، ويسمون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء، ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء؛ فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الأنبياء. وضل بذلك طوائف. وهذا موجود في كلام ابن سينا1، ومن أخذ عنه.

الغزالي ربما حذر عن مذهب الفلاسفة وأخذ بأقوالهم

وقد ذكر الغزالي ذلك عنهم تعريفا بمذهبهم، وربما حذر عنه2، ووقع في كلامه طائفة من هذا في الكتب المضنون بها على غير أهلها3، وفي غير ذلك4؛ حتى في كتابه الإحياء5؛ يقول: الملك، والملكوت،

1 انظر: الرسالة العرشية لابن سينا ص 120. وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ص 112. وانظر أيضا بغية المرتاد لابن تيمية ص 332، 342.

وقد جعل ابن سينا العقل الفعال هو جبريل عند المسلمين، وكذا الفارابي يرى أن جبريل عقل محض، وجوهر، وليس بمادة. راجع آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ص 61. فجبريل عند ابن سينا، وعند الفارابي، وغيرهما من الفلاسفة هو عقل، يتلقى العلوم من عقل آخر؛ وهي نفس العلوم التي عند الله؛ فالعقل الفعال يفيض العلوم دون أمر من أحد، وإنما هذا الفيض هو لجوده وكرمه الذي هو في الأصل صفة لله انتقلت إليه عن طريق العقول.

انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة ص 59-60، 68-73. والهداية لابن سينا ص 474.

2 انظر مثلا تكفيره للفلاسفة في كتابه: تهافت الفلاسفة ص 254.

3 انظر كتابه: المضنون به على غير أهله ص 305-309.

4 انظر من كتب الغزالي: مشكاة الأنوار ص 66-74. وتهافت الفلاسفة ص 192-194. ومعارج القدس ص 151-164؛ فإنه يرى أن النبوة لها ثلاث خواص، مثل الفلاسفة تماما.

5 انظر: إحياء علوم الدين 187.

والجبروت؛ ومقصوده: الجسم، والنفس، والعقل الذي [أثبتته] 1 الفلاسفة2، ويذكر اللوح المحفوظ؛ ومراده به: النفس الفلكية، إلى غير ذلك مما قد بسط في غير هذا الموضع3.

وهو في التهافت4 وغيره: يكفرهم، وفي المضنون به5: يذكر ما هو حقيقة مذهبهم؛ حتى يذكر في النبوات عين ما قالوه6، وكذلك في الإلهيات.

وهذه الصفات الثلاث التي جعلوها خاصة الأنبياء، توجد لعموم الناس، بل توجد لكثير من الكفار؛ من المشركين، وأهل الكتاب؛ فإنه قد

1 في ((خ)) : ثبتته. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عنه أنه يقول: "إن الكواكب، والشمس، والقمر هي النفس، والعقل الفعال، والعقل الأول، ونحو ذلك". درء تعارض العقل والنقل 1315.

3 انظر من كتب ابن تيمية رحمه الله: الرد على المنطقيين ص 196-197، 282، 472-480. وبغية المرتاد ص 184، 196، 326. وكتاب الصفدية 1209-212، 249، 250. ودرء تعارض العقل والنقل 1315-318، 5241، 6241. ومنهاج السنة النبوية 820-21. وشرح الأصفهانية 2507، 538، 541-547. وسبق نحو هذا الكلام عن الغزالي في هذا الكتاب ص 448-453، 466.

4 وقد تقدم أنه كفر الفلاسفة لما صرحوا أن الأنبياء خاطبوا الجماهير بالخيالات والتمثيل. انظر: تهافت الفلاسفة للغزالي ص 254.

5 انظر: المضنون به على غير أهله ص 305-309.

6 وسبق أن أوضح شيخ الإسلام رحمه الله أن الغزالي قد استدل على صدق النبي بطريقة الفلاسفة؛ وهي طريقة الضرورة، وهي صحيحة، إلا أن الغزالي أثبت بها نبوة مثل نبوة الفلاسفة. انظر ص 733 من هذا الكتاب، وانظر المنقذ من الضلال للغزالي ص 73-74.

يكون لأحدهم من العلم والعبادة، ما يتميز به على غيره من الكفار، ويحصل له بذلك حدس وفراسة يكون أفضل من غيره.
وأما التخييل في نفسه: فهذا حاصل لجميع الناس الذين يرون في مناماتهم ما يرون، لكن هو يقول: إن خاصة النبي أن يحصل له في اليقظة ما حصل لغيره في المنام.
وهذا موجود لكثير من الناس؛ قد يحصل له في اليقظة ما يحصل لغيره في المنام.
ويكفيك أنهم جعلوا مثل هذا يحصل للممرور، وللساحر، ولكن: قالوا: الساحر قصده فاسد، والممرور ناقص العقل، فجعلوا ما يحصل للأنبياء، من جنس ما يحصل للمجانين والسحرة. وهذا قول الكفار في الأنبياء؛ كما قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون} 1.
الفرق بين الرسول والساحر عند الفلاسفة
وهؤلاء عندهم ما يحصل للنبي من المكاشفة2 والخطاب، هو من جنس ما يحصل للساحر والمجنون، لكن الفرق بينه وبين الساحر: أنه يأمر بالخير، وذاك يأمر بالشر3، والمجنون ما له عقل.
وهذا القدر الذي فرقوا به موجود في عامة الناس، فلم يكن عندهم للأنبياء مزية على السحرة والمجانين، إلا ما يشاركهم فيه عموم المؤمنين.

---

1 سورة الذاريات، الآية 52.
2 سبق بيان معنى المكاشفة في ص 246 من هذا الكتاب.
3 انظر نحوا من هذا الكلام في كتب ابن تيمية: كتاب الصفدية 1143-178. وشرح الأصفهانية 2504، 632. والرد على المنطقيين ص 322. وقد تقدم ذلك قريب من هذا المعنى في ص 156، 733 من هذا الكتاب.

القوة الفعالة عند الفلاسفة تحصل للساحر
وكذلك ما أثبتوه من القوة الفعالة المتصرفة: هي عندهم تحصل للساحر، وغيره؛ وذلك أنهم لا يعرفون الجن والشياطين، وقد أخبروا بأمور عجيبة في العالم، فأحالوا ذلك على قوة نفس الإنسان، فما يأتي به الأنبياء من الآيات والسحرة والكهان، وما يخبر به المصروع والممرور: هو عندهم كله من قوة نفس الإنسان؛ فالخبر بالغيب: هو لاتصالها بالنفس الفلكية؛ ويسمونها اللوح المحفوظ1. والتصرف: هو بالقوة النفسانية. وهذا حذق ابن سينا وتصرفه، لما أخبر بأمور في العالم غريبة، لم يمكنه التكذيب بها؛ فأراد إخراجها على أصولهم، وصرح بذلك في إشاراته، وقال: هذه الأمور لم نثبتها ابتداء، بل لما تحققنا أن في العالم أمورا من هذا الجنس، أردنا أن نبين أسبابها.
أرسطو وأتباعه لم يعرفوا الأنبياء وآياتهم ولكن السحر موجود فيهم
وأما [أرسطو] 2 وأتباعه: فلم يعرفوا هذه الأمور الغريبة، ولم يتكلموا عليها ولا على آيات الأنبياء، ولكن كان السحر موجودا فيهم. وهؤلاء من أبعد الأمم عن العلوم الكلية، والإلهية؛ فإن حدوث هذه الغرائب من الجن، واقترانهم بالسحرة والكهان، مما قد عرفه عامة الأمم، وذكروه في كتبهم، غير العرب؛ مثل الهند، والترك، وغيرهم؛ من المشركين، وعباد الأصنام، وأصحاب الطلاسم والعزائم، وعرفوا أن كثيرا من هذه الخوارق هو من الجن والشياطين. وهؤلاء الجهال لم يعرفوا ذلك، ولهذا كان من

---

1 انظر من كتب ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص 474-480، 512-513. وكتاب الصفدية 134. وبغية المرتاد ص 326. وقد سبق ذكر نحو من هذا الكلام في ص 466 من هذا الكتاب.
2 في ((خ)) : أرسطوا.

أصلهم أن النبوة مكتسبة، وكان السهروردي المقتول يطلب أن يكون نبيا، وكذلك ابن سبعين، وغيره1.
النبوة الحق
والنبوة الحق: هي [إنباء] 2 الله لعبده، ونبي الله: من كان الله هو الذي ينبئه، ووحيه من الله، وهؤلاء3 وحيهم من الشياطين؛ فهم من جنس المتنبئين الكذابين؛ كمسيلمة الكذاب، وأمثاله. بل أولئك4 أحذق منهم؛ فإنهم كانت تأتيهم أرواح، فتكلمهم وتخبرهم بأمور غائبة، وهي موجودة في الخارج لا في أنفسهم، وهؤلاء لا يعرفون مثل هذا.

---

1 وقد نقل عنهم شيخ الإسلام رحمه الله في مواضع من كتبه قولهم بأن النبوة مكتسبة، وطلب كبرائهم لها، ومما حكاه من قولهم: "إن النبوة مكتسبة. ولهذا كان أكابر هؤلاء يطمعون في النبوة، فكان السهروردي المقتول يقول: لا أموت حتى يقال لي: قم فأنذر، وكان ابن سبعين يقول: لقد زرب ابن آمنة حيث قال: ((لانبي بعدي)) . ولما جعل خلع النعلين إشارة إلى ذلك، أخذ ذلك ابن قس ونحوه، ووضع كتابه في خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين من مثل هذا الكلام. ومن هنا دخل أهل الإلحاد؛ من أهل الحلول والوحدة والاتحاد، حتى آل الأمر بهم إلى أن جعلوا وجود المخلوقات عين وجود الخالق سبحانه وتعالى، كما فعل صاحب الفصوص ابن عربي، وابن سبعين، وأمثالهما من الملاحدة المنتسبين إلى التصوف والتحقيق، وهم من جنس الملاحدة المنتسبين إلى التشيع، لكن تظاهر هؤلاء من أقوال شيوخ الصوفية وأهل المعرفة..". درء تعارض العقل والنقل 1318. وانظر من كتب ابن تيمية: المصدر نفسه 522-23، 10204. ومنهاج السنة النبوية 823-25. والرد على المنطقيين ص 483. وبغية المرتاد ص 194. وكتاب الصفدية 1165، 249، 262. وشرح الأصفهانية 2547، 634. ومجموع الفتاوى 12393. وانظر هذا الكتاب ص 463-472، 542، 557-562.
2 في ((ط)) : أنباء.
3 كابن عربي، وابن سبعين، والسهروردي، وأمثالهم من الملاحدة.
4 كمسيلمة الكذاب وأمثاله من المتنبئين.

وقائع دخول الجن في الإنس أكثر من أن تحصى
ووجود الجن والشياطين في الخارج وسماع كلامهم أكثر من أن يمكن سطر عشره هنا، وكذلك صرعهم للإنس، وتكلمهم على ألسنتهم.
والفرق بين النبي [و] 1 الساحر أعظم من الفرق بين الليل والنهار. والنبي يأتيه ملك كريم من عند الله ينبئه الله، والساحر والكاهن إنما معه شيطان يأمره ويخبره؛ قال تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} 2؛ فلا الخبر كالخبر، ولا الأمر كالأمر، ولا مخبر هذا كمخبر هذا، ولا آمر هذا كآمر هذا؛ كما أنه ليس هذا مثل هذا؛ ولهذا قال تعالى لما ذكر الذي جاء بالقرآن إلى محمد وأنه ملك منفصل، ليس خيالا في نفسه، كما يقوله هؤلاء؛ قال تعالى: {إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} 3؛ فالقرآن قول رسول أرسله الله، لم يرسله الشيطان؛ وهو ملك كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين؛ فهو مطاع عند ذي العرش في [الملأ] 4 الأعلى.
أصح الأقوال في جنة آدم صلى الله عليه وسلم
والشياطين لا يطاعون في السموات، بل ولا يصعدون إليها، وإبليس من حين أهبط منها لم يصعد إليها.

---

1 ما بين المعقوفتين لا يوجد في ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة الشعراء، الآيات 221-223.
3 سورة التكوير، الآيات 19-29.
4 في ((ط)) : الأم.

ولهذا كان أصح القولين1: أن جنة آدم جنة التكليف، لم تكن في

1 هذه المسألة خلافية بين العلماء: فمنهم من قال: هي جنة الخلد التي في السماء، وأهبط منها آدم عليه السلام. ومنهم من قال: هي جنة في الأرض. ومنهم من توقف في هذه المسألة، فلم يرجح أحد القولين على الآخر.
وقد ذكر الخلاف في هذه المسألة الحافظ ابن كثير رحمه الله، وأطال النفس في ذلك؛ ذاكرا أقوال العلماء، ومما قاله رحمه الله: "الجمهور على أنها هي التي في السماء، وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث. وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد؛ لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة، ولأنه نام فيها، وأخرج منها، ودخل عليه إبليس فيها. وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى. وهذا القول محكي عن أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، ووهب بن منبه، وسفيان بن عيينة، واختاره ابن قتيبة في المعارف، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره، وأفرد له مصنفا على حدة، وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله، ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصبهاني، ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية. وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب. وممن حكى الخلاف في هذه المسألة: أبو محمد بن حزم في الملل والنحل، وأبو محمد بن عطية في تفسيره، وأبو عيسى الرماني في تفسيره وحكى عن الجمهور الأول، وأبو القاسم الراغب، والقاضي الماوردي في تفسيره؛ فقال: واختلف في الجنة التي أسكنها يعني آدم وحواء على قولين: أحدهما: أنها جنة الخلد، والثاني: جنة أعدها الله لهما، وجعلها دار ابتلاء، وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء. ومن قال بهذا اختلفوا على قولين؛ أحدهما: أنها في السماء؛ لأنه أهبطهما منها. وهذا قول الحسن. والثاني: أنها في الأرض؛ لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار. وهكذا قول ابن يحيى، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس. هذا كلامه.
فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة، وأشهر كلامه أنه متوقف في المسألة. ولقد حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره في هذه المسالة أربعة أقوال؛ هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي، ورابعها التوقف. وحكى القول بأنها في السماء، وليست جنة المأوى عن أبي علي الجبائي.....
قالوا: وليس هذا القول مفرعا على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم، ولا تلازم بينهما. فكل من حكي عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح". البداية والنهاية 169-71.
وانظر تفسير ابن كثير 181.
ومن أكثر من بحث هذه المسألة وأطال فيها: الحافظ ابن القيم رحمه الله؛ فقد قام رحمه الله باستقصاء أدلة كل قوم بالتفصيل، ولم يرجح رحمه الله قولا على قول، بل توقف في المسألة لتعارض الأدلة، ولقوة ووجاهة كل قول.
انظر: مفتاح دار السعادة 116-44. وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص 52-75.
وانظر القرطبي في تفسيره؛ فقد رجح أنها جنة الخلد 1207-208.
وممن ذكر أقوال العلماء في هذه المسألة بالتفصيل: الآلوسي في روح المعاني 1233. والقاسمي في تفسيره 2111-112.
ومحمد رشيد رضا في تفسيره تفسير القرآن الحكيم 1276-277؛ وذكر في هذه المسألة ثلاثة أقوال، ورجح أنها في الأرض.
والماوردي في أعلام النبوة ص 78-79.

السماء؛ فإن إبليس دخل إلى جنة التكليف؛ جنة آدم بعد [إهباطه] 1 من السماء، وقول الله له: {فاخرج منها فإنك رجيم و [إن] 2 عليك لعنتي إلى يوم الدين} 3، وقوله تعالى: { [اخرج] 4 منها [مذءوما] 5 مدحورا} 6، لكن كانت في مكان عال في الأرض من ناحية [المشرق7] 8، ثم لما أكل

---

1 في ((ط)) : إهباط .
2 في ((ط)) : أن.
3 سورة ص، الآية 78.
4 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : فاخرج.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : مذموما.
6 سورة الأعراف، الآية 18.
7 انظر: تفسير القاسمي 2111.

8 في ((ط)) : الشرق.

من الشجرة، أهبط منها إلى الأرض؛ كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع1.
لفظ الجنة في القرآن
ولفظ الجنة في غير موضع من القرآن: يراد به بستان في الأرض؛ كقوله: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة} 2، وقوله: {واضرب لهم مثلا رجلين

---

1 وقد سئل شيخ الإسلام رحمه الله: هل كانت الجنة التي سكنها آدم جنة الخلد الموجودة، أم جنة من الأرض خلقها الله له؟.
فأجاب رحمه الله بقوله: "الجنة التي أسكنها آدم وزوجته عند سلف الأمة وأهل السنة والجماعة: هي جنة الخلد. ومن قال إنها جنة في الأرض بأرض الهند، أو بأرض جدة، أو غير ذلك، فهو من المتفلسفة والملحدين، أو من إخوانهم المتكلمين المبتدعين؛ فإن هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة. والكتاب والسنة يرد هذا القول، وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول) .
ثم ذكر رحمه الله الأدلة التي يعتضد بها هذا القول. انظر مجموع الفتاوى 4347-349.
ولعل قائلا يقول: هذا تناقض من الشيخ رحمه الله؛ حيث يرجح في موضع أنها جنة الخلد، وفي موضع آخر أنها جنة التكليف.
والذي يظهر لي والله أعلم أن الشيخ رحمه الله كان يرى أن المسألة لا تقتضي إلا قولا واحدا، وهو أن الجنة جنة الخلد؛ كما نقلنا عنه آنفا، وجعله قول أهل السنة قاطبة، ولم يقل بغير ذلك إلا المعتزلة والفلاسفة والملاحدة.
والملاحظ على شيخ الإسلام رحمه الله في كتاب النبوات أنه يجعل للمسألة قولين معتبرين عند أهل السنة، إلا أن أصحهما أنها جنة التكليف.
وهذا يدل على أن المسألة مختلف فيها عند شيخ الإسلام، وأن له فيها قولين.
وعلى كل حال: فهذا تلميذه العلامة ابن القيم، وهو ممن حفظ لنا علم شيخه ابن تيمية رحمه الله يذكر أدلة كل فريق، ولا يرجح قولا على قول، بل يتوقف في المسألة لقوة أدلة كلا الفريقين.
وعموما: فالمسألة ليست من المسائل التي يتوقف عليها أمر تعبدي، بل هي من الأمور الخبرية.
2 سورة القلم، الآية 17.

جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب} ، إلى قوله: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا} ، إلى قوله: {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه} 1، وقوله تعالى: {ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة} الآية، إلى قوله: {أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب} الآية2، وقوله تعالى: {لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال} ، إلى قوله: {وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل} 3، وقوله: { [كم] 4 تركوا من جنات وعيون} الآية5، وقوله: {أتتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعيون} 6.
وجنة الجزاء والثواب التي في السماء لم يدخلها الشيطان بعد أن أهبط من السماء، وهو أهبط من السماء لما امتنع من السجود لآدم، قبل أن يدخل آدم إلى جنة التكليف التي وسوس له، وأخرجه منها7.

---

1 سورة الكهف، الآيات 32-35.
2 سورة البقرة، الآيتان 265-266.
3 سورة سبأ، الآيتان 15-16.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : وكم.
5 سورة الدخان، الآية 25.
6 سورة الشعراء، الآيتان 146-147.

7 قال تعالى لإبليس لما امتنع من السجود لآدم: {قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين} [الأعراف، 13] ، وقال في موضع آخر: {قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين} [ص، 78] ، وقال تعالى: {قال قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين} [الأعراف، 18] .

جنة الجزاء مخلوقة والرد على من أنكر ذلك وجنة الجزاء مخلوقة أيضا.

وقد أنكر بعض أهل البدع1 أن تكون مخلوقة، وقال: إن آدم لم يدخلها؛ لكونها لم تخلق بعد. فأنكر ذلك عليه من أنكره من علماء السنة.

وقد ذكر أبو العالية، وغيره من السلف: أن الشجرة التي نهي عنها آدم كان لها غائط، فلما أكل احتاج إلى الغائط2، وجنة الجزاء ليس فيها هذا. لكن الله أعلم بصحة هذا النقل.

وإنما المقصود: أن بعض السلف كان يقول إنها في السماء، وبعضهم يقول إنها في مكان عال من الأرض.

ولفظ الجنة في القرآن: قد ذكر فيما شاء الله من المواضع، وأريد به جنة في الأرض.

وجنة الجزاء مخصوصة بمماتهم؛ كقوله: {قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين} 3؛ فإن أرواح

---

1 قال شارح الطحاوية: "اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السنة، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة. وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا، وقاسوه على خلقه في أفعاله، فهم مشبهة الأفعال". ثم ذكر النصوص التي ترد عليهم. انظر شرح الطحاوية ص 615-620.

ولقد أطال النفس في توضيح هذه المسألة العلامة ابن القيم رحمه الله؛ فذكر أن الجنة مخلوقة، وموجودة الآن، وأن هذا قول أهل السنة قاطبة، والرسل من أولهم إلى آخرهم، إلى أن نبغت نابغة القدرية والمعتزلة، فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن. ثم أورد شبههم التي يحتجون بها، وأجاب عنها مفندا كل قول بالدليل.

انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص 38-51، 76-81.

2 انظر: تفسير الطبري 1236.

3 سورة يس، الآيتان 26-27.

المؤمنين تدخل الجنة من حين الموت؛ كما في هذه الآية: {قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين} 1، قال تعالى: {وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون} 2، وقال تعالى: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون} 3، وقال تعالى لما ذكر أحوال الموتى عند الموت: {فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم} 4. وهذا غير ما ذكره في أول السورة من انقسامهم يوم القيامة الكبرى إلى سابقين، وأصحاب يمين، ومكذبين؛ فإنه سبحانه ذكر في أول السورة انقسامهم في القيامة الكبرى5، وذكر في آخرها انقسامهم عند الموت؛ وهو القيامة الصغرى6؛ كما قال المغيرة بن شعبة: "من مات فقد قامت قيامته"7،

---

1 سورة يس، الآيتان 26-27.

2 سورة يس، الآيتان 28-29.

3 سورة آل عمران، الآية 169.

4 سورة الواقعة، الآيات 88-94.

5 قال تعالى: {وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم} . [سورة الواقعة، 7-12] .

6 قال تعالى: {فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم} . [سورة الواقعة، الآيات 88-94] .
7 ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين 4527 مرفوعا، بلفظ: (وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الموت القيامة، فمن مات، فقد قامت قيامته". وقال محقق إحياء علوم الدين: أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف.

وكذلك قال علقمة1، وسعيد بن جبير عن ميت: أما هذا فقد قامت قيامته2؛ أي صار إلى الجنة أو النار. وإن كان بعد هذا تعاد الروح إلى البدن، و [تقعد] 3 بقبره.
الإيمان بنعيم القبر وعذابه
ومقصودهم: أن الشخص لا يستبطىء الثواب والعقاب؛ فهو إذا مات يكون في الجنة أو في النار4؛ قال تعالى عن قوم نوح: {مما

---

1 هو علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي. ثقة ثبت فقيه عابد. مات بعد الستين، وقيل بعد السبعين. وقد أخرج حديثه الجماعة.
انظر تقريب التهذيب لابن حجر ص 397.
2 ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين 4527، عن علقمة.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : يقعد.
4 من عقيدة أهل السنة والجماعة: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه، وأنه إما حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة.
وقد جاءت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة تدل على إثبات نعيم القبر للمؤمنين، وعذابه للعاصين والكافرين، أعاذنا الله من عذابه، وجعل قبورنا وقبور إخواننا المسلمين روضة من رياض الجنة، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.
أما أدلة الكتاب: فمنها: قوله تعالى: {الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون} . [النحل، 32] ، وقال تعالى: {يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} . [الفجر، 27-29] ، وقال تعالى: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة} . [إبراهيم، 27] ، وقال تعالى: {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر} . [السجدة، 21] ، وقال تعالى: {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون} . [البقرة، 154] .
أما الأدلة من السنة، فكثيرة جدا؛
منها: قوله صلى الله عليه وسلم: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة". أخرجه البخاري في صحيحه 1464، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده. ومسلم في صحيحه 42199، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت.
ومنها: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار، فذكر الحديث بطوله، وفيه: "فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها"، فذكر الحديث. أخرجه الإمام أحمد في مسنده 4287.
ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة". أخرجه الإمام مالك في الموطأ 1240، كتاب الجنائز، باب جامع الجنائز.
ومنها: مخاطبته صلى الله عليه وسلم لأهل القليب يوم بدر، وسماعهم له، وقوله لهم: "هل وجدتم ما وعد ربكم حقا". رواه البخاري في صحيحه 1463، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر. ومسلم في صحيحه 2643، كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه. و 42202، كتاب الجنة ونعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه.
ومنها: حديث القراء؛ أصحاب بئر معونة، وفيه: "بلغوا قومنا عنا أن قد لقينا ربنا، فرضي عنا ورضينا عنه". أخرجه مسلم في صحيحه 1468، كتاب المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة.
والأدلة في ذلك كثيرة جدا، يضيق المكان دون ذكرها.

[خطاياهم] 1 أغرقوا فأدخلوا نارا} 2، وقال عن آل فرعون: {النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} 3. وبسط هذا له موضع آخر4.

---

1 كذا في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) .
وهي قراءة أبي عمرو. وقرأ الباقون: خطيئاتهم.
انظر: الغاية في القراءات العشر للنيسابوري ص 280. وزاد المسير لابن الجوزي 8374.
2 سورة نوح، الآية 25.
3 سورة غافر، الآية 46.
4 انظر الكلام على القيامة الكبرى والصغرى في مجموع الفتاوى 4262، 270.

ملاحدة الصوفية وكلامهم في النبوة
والمقصود هنا: الكلام على النبوة؛ فهؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حق قدرها، وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق وغيرهم، وابن عربي، وابن سبعين ضلوا بهم؛ فإنهم اعتقدوا مذهبهم، وتصوفوا عليه، ولهذا يقول ابن عربي: إن الأولياء أفضل من الأنبياء1، وإن الأنبياء وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأنبياء علم التوحيد، وأنه هو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول؛ فإن الملك عنده هو الخيال الذي في [النفس] 2، وهو جبريل عندهم، وذلك الخيال تابع للعقل؛ فالنبي عندهم يأخذ عن هذا الخيال ما يسمعه من الصوت في نفسه.
ولهذا يقولون: إن موسى كلم من سماء عقله، والصوت الذي سمعه كان في نفسه لا في الخارج، ويدعي أحدهم أنه أفضل من موسى، وكما ادعى ابن عربي أنه أفضل من محمد؛ فإنه يأخذ عن العقل الذي يأخذ منه الخيال، والخيال عنده هو الملك الذي يأخذ منه النبي، فلهذا قال: فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى النبي، قال: فإن عرفت هذا فقد حصل لك العلم النافع. وبسط الكلام على هؤلاء له مواضع أخر3.

---

1 انظر الفتوحات المكية لابن عربي 2252-253. ومما قاله:
مقام النبوة في برزخ
فويق الرسول ودون الولي
وانظر من كتب شيخ الإسلام: درء تعارض العقل والنقل19. وكتاب الصفدية 1251. ومنهاج السنة النبوية 5335-336،، 822. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 191، 196، 198. وشرح الأصفهانية 2505.
2 في ((ط)) : لنفس.
3 انظر: فصوص الحكم لابن عربي 161-64، 134-137. وانظر أيضا من كتب ابن تيمية: كتاب الصفدية 1229-234، 252-247، 262-265. وبغية المرتاد ص 183، 386-387. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 198-199. ومجموع الفتاوى 11226-229،، 12399. وشرح الأصفهانية 2503-507، 634. ودرء تعارض العقل والنقل 5356،، 10204-205. ومنهاج السنة النبوية 822-23.

<u>الفرق بين الرسول والنبي</u>
والمقصود هنا: الكلام على النبوة؛ فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبىء بما أنبأ الله به؛ فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه؛ فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد [يبلغه] 1 عن الله رسالة؛ فهو نبي، وليس برسول؛ قال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته} 2، وقوله: {من رسول ولا نبي} ؛ فذكر إرسالا يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول؛ فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله؛ كنوح.

وقد ثبت في الصحيح أنه3 أول رسول بعث إلى أهل الأرض4،

1 في ((خ)) : بلغه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة الحج، الآية 52.
3 يعني نوحا عليه السلام.
4 كما في حديث الشفاعة، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: "فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض.." الحديث أخرجه البخاري 4392-393، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} . ومسلم في صحيحه 1184-185، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. وانظر كلام شيخ الإسلام في: الرد على المنطقيين ص 370. ودقائق التفسير 1431. وقال في تفسير آيات أشكلت 1232: " إن نوحا أول رسول بعث إلى المشركين "..
وقال الشيخ حافظ حكمي رحمه الله: "إن نوحا أول الرسل والنبيين بعد الاختلاف؛ قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} [النساء، 163] ؛ لأن أمته أول من اختلف، وغير، وبدل، وكذب؛ كما قال تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم} [غافر، 5] ، وإلا فآدم قبله كان نبيا رسولا، وكان الناس أمة واحدة على دينه ودين وصيه شيث عليه السلام؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وقتادة، ومجاهد، وغيرهم رضي الله عنهم في قوله تعالى: {كان الناس أمة واحدة} [البقرة، 213] ؛ قالوا: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) . معارج القبول 2678. وانظر: أضواء البيان 1286.

وقد كان قبله أنبياء؛ كشيث1، وإدريس2 عليهما السلام، وقبلهما آدم كان نبيا مكلما3. قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح، عشرة قرون كلهم على الإسلام4.

1 قال ابن كثير رحمه الله: "ومعنى شيث: هبة الله، وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل. قال أبو ذر في حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف؛ على شيث خمسين صحيفة. قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث، وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك. قال: ويقال: إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث، وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا، والله أعلم) . البداية والنهاية 191. وانظر: أعلام النبوة للماوردي ص 81. وتاريخ الطبري 1164.
2 قال الله تعالى عنه: {واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا} [سورة مريم، الآية 56-57] .
قال ابن كثير رحمه الله عن نبي الله إدريس: "كان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام". البداية والنهاية 192-93.
وقال ابن قتيبة: "وسمي إدريس؛ لكثرة ما كان يدرس من كتب الله تعالى وسنن الإسلام". أعلام النبوة للماوردي ص 81-82.
3 أخرجه الإمام أحمد في المسند 5266 من حديث أبي ذر قال: قلت: يا نبي الله! أو نبي كان آدم؟ قال: " نعم نبي مكلم". وكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه 854، وقال: على شرط مسلم ولم يخرجه. وصححه الألباني. انظر مشكاة المصابيح 31599.
4 أخرجه البزار (كشف الأستار 341) ، والطبري في تفسيره 2334، والحاكم في المستدرك 2442، وقال: هذ حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم (الدر المنثور 1582) . وانظر: تفسير القرطبي 1838. وفتح القدير للشوكاني 1214.

أنبياء بني إسرائيل يحكمون بالتوراة
فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم؛ لكونهم مؤمنين بهم؛ كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول.
وكذلك أنبياء [بني] 1 إسرائيل2 يأمرون بشريعة التوراة، وقد يوحى إلى أحدهم وحي خاص في قصة معينة، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن؛ كما فهم الله سليمان [حكم] 3 القضية التي حكم فيها هو وداود4.

1 في ((ط)) : ببني.
2 وقد ذكر العلماء أسماء أنبياء بني إسرائيل بين موسى وعيسى عليهما السلام.
انظر: أعلام النبوة للماوردي ص 88-91. والبداية والنهاية 23-50.
3 في ((ط)) : حكيم.
4 يشير إلى قوله تعالى حكاية عن داود وسليمان عليهما السلام: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما} . [سورة الأنبياء، الآيتان 78-79] .
وروى ابن جرير الطبري رحمه الله بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير هذه الآية: "وذلك أن رجلين دخلا على داود؛ أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي، فلم يبق من حرثي شيئا، فقال له داود: اذهب، فإن الغنم كلها لك. فقضى بذلك داود. ومر صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالذي قضى به داود. فدخل سليمان على داود، فقال: يا نبي الله إن القضاء سوى الذي قضيت. فقال: كيف؟ فقال سليمان: إن الحرث لا يخفى على صاحبه، ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث؛ فإن الغنم لها نسل في كل عام. فقال داود: قد أصبت القضاء كما قضيت. ففهمها الله سليمان". تفسير الطبري 1751-52.

الفرق بين الرسول والنبي
فالأنبياء ينبئهم الله؛ فيخبرهم بأمره، ونهيه، وخبره. وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر، والأمر، والنهي. فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله، وعبادته وحده لا شريك له، ولا بد أن يكذب الرسل قوم؛ قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} 1، وقال: {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك} 2؛ فإن الرسل ترسل إلى مخالفين؛ فيكذبهم بعضهم.
وقال: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى3 إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا [تعقلون] 4 حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فننجي5 من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين} 6.

1 سورة الذاريات، الآية 52.
2 سورة فصلت، الآية 43.
3 كذا في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : يوحى، وهي قراءة الأصل. وقرأ حفص عن عاصم: نوحي بالنون وكسر الحاء.
انظر: الغاية في القراءات العشر للنيسابوري ص 181. وزاد المسير لابن الجوزي 4295. والوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع لعبد الفتاح القاضي ص 297.
4 في ((خ)) : يعقلون.
5 كذا في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : فننجي بنونين؛ الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، والياء ساكنة، وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وحمزة، والكسائي. وقرأ حفص، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب: فنجي بنون واحدة مضمومة، وتشديد الجيم، وياء مفتوحة. انظر: الغاية في القراءات العشر للنيسابوري ص 181. وزاد المسير لابن الجوزي 4296. والوافي في شرح الشاطبية في القراءات العشر لعبد الفتاح القاضي ص 297.
6 سورة يوسف، الآيتان 109-110.

وقال: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} 1.
فقوله: {وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي} 2: دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولا عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق؛ كالعالم، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء" 3.

ليس من شروط الرسول أن يأتي بشرع جديد
وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة؛ فإن يوسف كان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة4؛

---

1 سورة غافر، الآية 51.
2 سورة الحج، الآية 52.
3 أخرجه أبو داود في سننه 457، 58، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم 3641. والترمذي في جامعه 548-49، كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة. وابن ماجه في سننه 181، في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم 223.
وقد صححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي 2342) ، و (صحيح سنن ابن ماجه 143) ، وحسن سنده في (صحيح الترغيب والترهيب 133، ح 68) ، وفي (مشكاة المصابيح 174، رقم 212) .
4 تعددت الأقوال في الفرق بين النبي والرسول، وكلها لا تخلو من مناقشة، ولا تسلم من اعتراضات ترد عليها.
وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فروقا كثيرة بين النبي والرسول، وهذه الفروق مبنية على الكتاب والسنة؛ فخرج تفريقه بين النبي والرسول من أرجح التفريقات، ومن أسلمها من الانتقادات.
ويمكن تلخيص هذه الفروق فيما يلي:
(1) النبي: هو من ينبئ بما أنبأ الله به، ولا يسمى رسولا عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق؛ كالعالم. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم عن العلماء: "العلماء ورثة الأنبياء"؛ إذ النبي يعمل بشريعة من قبله.
فالأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم، لكونهم مؤمنين بهم؛ كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول. وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة، وقد يوحى إلى أحدهم وحي خاص في قضية معينة، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية ما معنى يطابق القرآن.
فالأنبياء ينبئهم الله؛ فيخبرهم بأمره، ونهيه، وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله من الخبر، والأمر، والنهي.
(2) الرسول: هو من أنبأه الله وأرسله إلى من خالف أمره، ليبلغه رسالة من الله إليه؛ فهو رسول. فالرسل: من أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له. ولا بد أن يكذب الرسل قوم؛ قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} ، وقال تعالى: {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك} ؛ فإن الرسل ترسل إلى مخالفين، فيكذبهم بعضهم. والرسول يسمى رسولا على الإطلاق؛ لأنه يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه. وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة؛ فإن يوسف عليه السلام كان رسولا، وكان على ملة إبراهيم عليه السلام، وداود وسليمان عليهما السلام كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة.
وانظر أقوال العلماء مفصلة في هذه المسألة، في: تفسير الطبري 17189. وأعلام النبوة للماوردي ص 37-38. والفرق بين الفرق للبغدادي ص 342. والشفا للقاضي عياض 1251. وشرح المقاصد للتفتازاني 2173. وتفسير القرطبي 1254. وزاد المعاد لابن القيم 143. وطريق الهجرتين له ص 349. وشرح الطحاوية ص 167. وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 457. ولوامع الأنوار البهية 149. وأضواء البيان للشنقيطي 5735. ورحلة الحج له ص 136-137.

قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا} 1، وقال تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا

---

1 سورة غافر، الآية 34.

إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما} 1.

الإرسال اسم عام

والإرسال: اسم عام يتناول إرسال الملائكة، وإرسال الرياح، وإرسال الشياطين، وإرسال النار؛ قال تعالى: {يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس} 2، وقال تعالى: {جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة} 3؛ فهنا جعل الملائكة كلهم رسلا. والملك في اللغة: هو حامل الألوكة؛ وهي الرسالة4. وقد قال في موضع آخر: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} 5.

فهؤلاء الذين يرسلهم بالوحي؛ كما قال: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء} 6، وقال تعالى: {وهو الذي يرسل الرياح [بشرا] 7 بين يدي رحمته} 8، وقال تعالى: {إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا} 9.

---

1 سورة النساء، الآيتان 163-164.

2 سورة الرحمن، الآية 35.

3 سورة فاطر، الآية 1.

4 انظر: لسان العرب 10496. ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص 776.

5 سورة الحج، الآية 75.

6 سورة الشورى، الآية 51.

7 في ((خ)) : نشرا.

8 سورة الأعراف، الآية 57.

9 سورة مريم، الآية 83.

لكن الرسول المضاف إلى الله: إذا قيل: رسول الله، فهم من يأتي برسالة من الله؛ من الملائكة، والبشر؛ كما قال: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} 1، وقالت الملائكة: {يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك} 2.

وأما عموم الملائكة، والرياح، والجن: فإن إرسالها [لتفعل] 3 [فعلا] 4، لا [لتبلغ] 5 رسالة، قال تعالى: {اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا} 6.

فرسل الله الذين يبلغون عن الله أمره ونهيه: هي رسل الله عند الإطلاق. وأما من أرسله الله ليفعل فعلا بمشيئة الله وقدرته: فهذا عام يتناول كل الخلق؛ كما أنهم كلهم [يفعلون] 7 بمشيئته، وإذنه المتضمن لمشيئته، لكن أهل الإيمان يفعلون بأمره، ما يحبه ويرضاه، ويعبدونه وحده، ويطيعون رسله، والشياطين يفعلون بأهوائهم، وهم عاصون لأمره، متبعون لما يسخطه، وإن كانوا يفعلون بمشيئته وقدرته.

وهذا كلفظ [البعث] 8: يتناول البعث الخاص؛ البعث الشرعي؛

---

1 سورة الحج، الآية 75.

2 سورة هود، الآية 81.

3 في ((خ)) : ليفعل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 في ((خ)) : فلا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

5 في ((خ)) : ليبلغ. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

6 سورة الأحزاب، الآية 9.

7 في ((ط)) : يعقلون.

8 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

<u>فصل</u> الحجة على من أنكر قدرة الله وحكمته

...

كما قال: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم} 1، ويتناول البعث العام الكوني؛ كقوله: {فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار} 2، وقال تعالى: {وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب} 3.
فالعام بحكم مشيئته وقدرته، والخاص هو أيضا [بحكم مشيئته وقدرته] 4، وهو مع ذلك بحكم أمره، ورضاه، ومحبته.
وصاحب الخاص من أولياء الله يكرمه ويثبته، وأما من خالف أمره، فإنه يستحق العقوبة، ولو كان فاعلا بحكم المشيئة؛ فإن ذلك لا يغني عنه من الله شيئا.
ولا يحتج بالمشيئة على المعاصي، إلا من تكون حجته داحضة، ويكون متناقضا، متبعا لهواه، ليس عنده علم بما هو عليه؛ كالمشركين الذين قالوا: {لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء} 5؛ كما قد بسط [هذا] 6 في غير هذا الموضع7.
والله أعلم.

---

1 سورة الجمعة، الآية 2.
2 سورة الإسراء، الآية 5.
3 سورة الأعراف، الآية 167.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 سورة الأنعام، الآية 148.
6 ما بين المعقوفتين ساقط من ((م)) ، و ((ط)) .
7 انظر: منهاج السنة النبوية 3-314-18، 78-85. ومجموع الفتاوى 8181-197، 262-272. والمجلد الثاني عشر من مجموع الفتاوى كله في بيان مسائل القدر.

فصل الدليل هو الآية والبرهان
الدليل الذي هو الآية والبرهان يجب طرده كما تقدم1؛ فإنه لو كان تارة يتحقق مع وجود المدلول عليه، وتارة يتحقق مع عدمه. فإذا تحقق لم يعلم: هل وجد المدلول، أم لا؟ فإنه كما يوجد مع وجوده، [يوجد مع عدمه] 2.
ولهذا كان الدليل3 إما مساويا للمدلول عليه، وإما أخص منه، لا يكون أعم من المدلول.
ولهذا لم يكن للأمور المعتادة دلالة على ما هو أخص؛ كطلوع الشمس، والقمر، والكواكب، لا [تدل] 4 على صدق أحد، ولا كذبه؛ لا مدعي النبوة، ولا غيره؛ فإنها توجد مع كذب الكاذب، كما توجد مع صدق الصادق.
المخلوقات آيات للرب
لكن [تدل] 5 على ما هو أعم منها؛ وهو وجود الرب، وقدرته، ومشيئته، وحكمته؛ فإن وجود ذاته وصفاته ثابت؛ سواء كانت هذه المخلوقات موجودة، أو لم تكن؛ فيلزم من وجود المخلوق وجود خالقه، ولا يلزم من

---

1 انظر ص 301 من هذا الكتاب.
2 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 الدليل في اللغة: هو المرشد، وما به الإرشاد. وفي الاصطلاح: هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر.
انظر: التعريفات ص 140.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : يدل.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : يدل.

عدمه عدم خالقه؛ فلهذا كانت المخلوقات كلها آيات للرب؛ فما من مخلوق إلا وهو آية له1؛ هو دليل، وبرهان، وعلامة على ذاته وصفاته ووحدانيته. وإذا عدم كان غيره من المخلوقات [تدل] 2 على ما دل عليه، ويجتمع على المعلوم الواحد من الأدلة ما لا يحصيه إلا الله.
كل مخلوق هو علامة على ذاته سبحانه وصفاته ووحدانيته

وقد يكون الشيء مستلزما لدليل معين. فإذا عدم عرف انتفاؤه. وهذا مما يكون لازما ملزوما؛ فتكون [الملازمة] 3 من الطرفين؛ فيكون كل منهما دليلا.

1 انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية 148، 29-12، 17-24، 74-78، 9142.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : يدل.
3 في ((ط)) : الزلامة.
والملازمة لغة: امتناع انفكاك الشيء عن الشيء. واللزوم، والتلازم بمعناه.
والملازمة اصطلاحا: كون الحكم مقتضيا للآخر، على معنى أن الحكم بحيث لو وقع يقتضي وقوع حكم آخر اقتضاء ضروريا؛ كالدخان للنار في النهار، والنار للدخان في الليل.
انظر: التعريفات للجرجاني ص 294.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله: " ... معلوم أنه إذا كان اللزوم من أحد الطرفين، لزم من وجود الملزوم وجود اللازم، ومن نفي اللازم نفي الملزوم. فكيف إذا كان التلازم من الجانبين؟ فإن هذا التلازم يستلزم أربع نتائج؛ فيلزم من ثبوت هذا اللازم ثبوت هذا، ومن نفيه نفيه، ومن ثبوت الملازم الآخر ثبوت ذلك، ومن نفيه نفيه. وهذا هو الذي يسميه المنطقيون: الشرطي المتصل، ويقولون: استثناء عين المقدم ينتج عين التالي، واستثناء نقيض التالي ينتج نقيض المقدم. فإذا كان التلازم من الجانبين، كان استثناء عين كل من المتلازمين ينتج عين الآخر، واستثناء نقيض كل منهما ينتج نقيض الآخر ... ".
درء تعارض العقل والنقل 5268-269.

وإذا قدر [انتفاؤه كان دليلا على] 1 انتفاء الآخر؛ كالأدلة على الأحكام الشرعية؛ فما من حكم إلا جعل الله عليه دليلا.
وإذا قدر انتفاء جميع الأدلة الشرعية على حكم، علم أنه ليس حكما شرعيا2، وكذلك ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله؛ فإنه إذا نقل دل التواتر على وجوده، وإذا لم ينقل مع توفر الهمم والدواعي على نقله لو كان موجودا، علم أنه لم يوجد؛ كالأمور الظاهرة التي يشترك فيها الناس؛ مثل موت ملك، وتبدل ملك، وتبدل ملك بملك، وبناء مدينة ظاهرة، وحدوث حادث عظيم في المسجد أو البلد؛ فمثل هذه الأمور لا بد أن ينقلها الناس إذا وقعت. فإذا لم تنقل نقلا عاما، بل نقلها واحد، علم أنه قد كذب. وهذا مبسوط في غير هذا الموضع3.
وقد بسط في غير هذا الموضع: الفرق بين الآية التي هي علامة تدل على نفس المعلوم، وبين القياس الشمولي الذي لا يدل [إلا] 4 على قدر كلي مشترك، لا يدل على شيء معين؛ إذ كان لا بد فيه من قضية كلية، وأن ذلك القياس لا يفيد العلم بأعيان الأمور الموجودة، ولا يفيد معرفة شيء؛ لا الخالق، ولا نبي من أنبيائه، ولا نحو ذلك. بل إذا قيل: كل محدث فلا بد له من [محدث] 5، دل على محدث مطلق، لا يدل على عينه، بخلاف آيات الله؛ فإنها تدل على عينه.

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: درء تعارض العقل والنقل 5268-271.
3 انظر: درء تعارض العقل والنقل 612-13، 271.
4 في ((ط)) : إلى.
5 رسمت في ((خ)) : محدل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وبينا أن القرآن ذكر الاستدلال بآيات الله. وقد يستدل بالقياس الشمولي، والتمثيلي، لكن دلالة الآيات أكمل وأتم1.
وتبين غلط من عظم دلالة القياس الشمولي المنطقي، وأنهم من أبعد الناس عن العلم والبيان.
وذكرنا أيضا2 غلط من فضل الشمولي [على] 3 التمثيلي، وأنها من جنس واحد، والتمثيلي أنفع، وإنما الآيات تكون أحسن.
ثلاثة أقوال في معنى الآية
وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي ما ذكره [أبو بكر] 4 ابن الأنباري5، وغيره في الآيات آيات القرآن؛ مثل قوله: {قد [كانت] 6 آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين} 7: ثلاثة أقوال؛ قال: "في معنى الآية ثلاثة [أقوال] 8:

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في موضع آخر: "والفرق بين الآية وبين القياس: أن الآية تدل على عين المطلوب الذي هي آية وعلامة عليه؛ فكل مخلوق فهو دليل وآية على الخالق نفسه". مجموع الفتاوى 148. وانظر المصدر نفسه 147-50، 159-9142. ودرء تعارض العقل والنقل 5268-286. وشرح الأصفهانية 1261.
2 انظر: مجموع الفتاوى 9196-206.
3 في ((ط)) : عن.
4 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
5 سبقت ترجمته.
6 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
7 سورة المؤمنون، الآيتان 66-67.
8 في ((خ)) : أقول.

القول الأول
أحدها: أنها العلامة؛ فمعنى آية: علامة؛ لانقطاع الكلام الذي قبلها وبعدها1.
قال الشاعر2:
ألا أبلغ لديك بني تميم ... بآية ما يحبون الطعاما3

1 في زاد المسير لابن الجوزي: والذي بعدها.
2 وهو يزيد بن عمرو بن الصعق، أحد بني عمرو بن كلاب.
لاحظ مصادر الحاشية التالية.
3 وله بقية، هي:
أجارتها أسيد ثم غارت ... بذات الضرع منه والسنام
انظر: خزانة الأدب 6520، 523. وانظر أيضا: الكتاب لسيبويه 1460. والكامل للمبرد ص 98) .
وفي خزانة الأدب 6518:
ألا من مبلغ عني تميما ... بآية ما يحبون الطعاما
"على أن آية تضاف في الأغلب إلى الفعلية، مصدرة بحرف المصدر، كما في البيت؛ فإن (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر مجرور بإضافة آية إليه.
وهذا خلاف مذهب سيبويه، فإن (ما) زائدة، وآية مضافة إلى الفعل، ولا تؤول بمصدر.. وقال النحاس: ما عند سيبويه لغو، وقال المبرد: (ما) والفعل مصدر. وأنكر ما قال سيبويه".
وقال أيضا في خزانة الأدب 6519-520: "قال ابن السيد فيما كتبه على الكامل: هذا من الغلط، إنما الرواية: بآية ما بهم حب الطعام. وبعده:
أجارتها أسيد ثم أودت ... بذات الضرع منها والسنام
وليس أبو العباس المبرد بأول من غلط فيه من النحويين. انتهى.
وعليه: لا شاهد فيه، وهذا يؤيد قول سيبويه؛ فإن (ما) موصولة، وحب الطعام: مبتدأ، والظرف قبله خبر، والجملة صلة الموصول".

وقال النابغة1:
توهمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع2
قال: وهذا اختيار أبي عبيد3"4.
قلت5: أما أن الآية هي العلامة في اللغة. فهذا صحيح، وما استشهد به من الشعر يشهد لذلك.

وأما تسمية الآية من القرآن آية؛ لأنها علامة: صحيح، لكن قول القائل: إنها علامة؛ لانقطاع الكلام الذي قبلها وبعدها: ليس بطائل؛ فإن هذا المعنى الحد والفصل؛ فالآية مفصولة عما قبلها، وعما بعدها.

1 هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ، فتقصده الشعراء، فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان بن ثابت، والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة. وهو أحد الأشراف في الجاهلية.
انظر: الأعلام للزركلي 354-55.
2 انظر: ديوان النابغة الذبياني ص 82.
3 لعله: القاسم بن سلام الهروي الخراساني، أبو عبيد. من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، من أهل هراة. ولد وتعلم بها، وكان مؤدبا، ورحل إلى بغداد، فولي القضاء بطرسوس، ورحل إلى مصر، وكان منقطعا للأمير عبد الله بن طاهر، كلما ألف كتابا أهداه إليه، وأجرى له عشرة آلاف درهم كل شهر. من كتبه: الغريب، المصنف، وفي غريب الحديث ألفه في نحو أربعين سنة، وهو أول من صنف في هذا الفن، والإيمان ومعالمه، وغيرها من المؤلفات. ولد في سنة 157 ?، وتوفي سنة 224 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 10490. وطبقات الحنابلة 1259. والأعلام 5176.
4 زاد المسير 171.
5 القائل هو شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

وليس معنى كونها آية هو هذا، وكيف؟ وآخر الآيات آية؛ مثل آخر سورة الناس، وكذلك آخر آية من السورة، وليس بعدها شيء، وأول الآيات آية، وليس قبلها شيء؛ مثل أول آية من القرآن، ومن السورة، وإذا قرئت الآية وحدها، كانت [آية] 1، وليس معها غيرها.
وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية يرددها حتى أصبح2: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} 3؛ فهي آية في نفسها، لا لكونها منقطعة مما قبلها وما بعدها.
وأيضا: فكونه علامة على هذا الانقطاع: قدر مشترك بين جميع الأشياء التي يتميز بعضها عن بعض، ولا تسمى آيات. والسورة متميزة عما قبلها وما بعدها، وهي آيات كثيرة. وأيضا فالكلام الذي قبلها منقطع، وما قبلها آية. فليست دلالة الثانية على الانقطاع بأولى من دلالة الأولى عليه.

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 روى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: صلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقرأ بآية، حتى أصبح، يركع بها، ويسجد بها: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} ، فلما أصبح، قلت: يا رسول الله! لم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت، تركع بها؟ قال: "إني سألت ربي عز وجل الشفاعة، فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئا".
(مسند الإمام أحمد بن حنبل - ط الحلبي - 5149. وانظر المصدر نفسه 5170. والحديث أخرجه النسائي في سننه 21440، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه، بلفظ: "لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيئا".
قد صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه 2430.
3 سورة المائدة، الآية 118.

وأيضا: فكيف يكون كونها آية علامة للتمييز بينها وبين غيرها، والله سماها آياته؛ فقال: {تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق} 1.
والصواب: أنها آية من آيات الله؛ أي علامة من علاماته، ودلالة من أدلة الله، وبيان من بيانه؛ فإن كل آية قد بين فيها من أمره وخبره، ما هي دليل عليه، وعلامة عليه؛ فهي آية من آياته؛ وهي أيضا دالة على كلام الله المباين لكلام المخلوقين؛ فهي دلالة على الله سبحانه، وعلى ما أرسل بها رسوله.

ولما كانت كل آية مفصولة بمقاطع الآي التي يختم بها كل آية، صارت كل جملة مفصولة بمقاطع الآي: آية.
صفة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم..
ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقف على رؤوس الآي؛ كما نعتت قراءته: الحمد لله رب العالمين، وتقف. الرحمن الرحيم، وتقف. مالك يوم الدين، وتقف2. ويسمي أصحاب الوقف: وقف السنة؛ لأن كل آية لها فصل ومقطع تتميز عن الأخرى3.
القول الثاني
قال4: "والوجه الثاني5: أنها سميت آية؛ لأنها جماعة حروف من

1 سورة البقرة، الآية 252.
2 رواه الترمذي في جامعه الصحيح 5185، كتاب القراءات، باب فاتحة الكتاب، وقال: هذا حديث غريب.
والحديث صححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي 313) ، وفي (إرواء الغليل، رقم 343) ، وفي (مشكاة المصابيح، رقم 2205) ، وفي بعض كتبه الأخرى.
3 انظر المكتفى في الوقف والابتداء لأبي عمرو الداني ص 146-147، 157؛ فقد ذكر أن هذا الوقف هو وقف السنة.
4 القائل هو أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله.
5 في زاد المسير لابن الجوزي بدون كلمة: (الوجه) ، وإنما الموجود: والثاني.

القرآن، وطائفة منه. قال [أبو عمرو] 1 الشيباني2: يقال: خرج القوم بآيتهم؛ أي بجماعتهم، وأنشدوا3:
خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآياتنا ترجى اللقاح المطافلا) 4.
قلت5: هذا فيه نظر؛ فإن قولهم: خرج القوم بآيتهم: قد يراد به بالعلامة التي تجمعهم؛ مثل الراية، واللواء؛ فإن العادة أن كل قوم لهم أمير، [يكون] 6 له آية يعرفون [بها] 7، فإذا [أخرج] 8 الأمير آيتهم،

1 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : أبو عمر. والتصويب من زاد المسير، ومن مصادر ترجمة أبي عمرو.
2 هو إسحاق بن مرار الشيباني بالولاء، أبو عمرو. لغوي أديب من رمادة الكوفة. سكن بغداد، ومات بها. أخذ عنه جماعة كبار، منهم أحمد بن حنبل رحمه الله الذي كان يلزم مجالسه ويكتب أماليه. من تصانيفه: كتاب اللغات، وكتاب الخيل، والنوادر، وغريب الحديث. ولد سنة 94 ?، وتوفي سنة 206 ?.
انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 165. والأعلام للزركلي 1296.
3 القائل هو: برج بن مسهر بن الجلاس. أحد بني جذيلة من طي.
انظر: لسان العرب 1462. ومعجم الشعراء 61. وخزانة الأدب 6515.
وفي خزانة الأدب:
خرجنا من النعتين لا حي مثلنا ... بآياتنا نزجى اللقاح المطافلا
وذكر محقق خزانة الأدب أن الشعر في كتاب التنبيهات ص 308، وأن الأشبه من النقبين، وليس من النعتين.
4 زاد المسير لابن الجوزي 171.
5 القائل هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : تكون.
7 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
8 في ((خ)) : خرج. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

اجتمعوا إليه. ولهذا سمي ذلك علما. والعلم هي العلامة والآية، ويسمى راية؛ لأنه يرى. فخروجهم بآيتهم: أي بالعلم والآية التي تجمعهم؛ فيستدل [بها] 1 على خروجهم جميعهم؛ فإن الأمير المطاع إذا خرج، لم يتخلف أحد، بخلاف ما إذا خرج بعض امرائه. وإلا، فلفظ الآية: هي العلامة. وهذا معلوم بالإضطرار، والإشتراك في اللفظ، لا يثبت بأمر محتمل.

القول الثالث
قال2: "والثالث: أنها سميت آية؛ لأنها عجب؛ وذلك: أن قارئها يستدل إذا قرأها على مباينتها لكلام المخلوقين. وهذا كما [تقول] 3: فلان آية من الآيات: أي عجب من العجائب. ذكره ابن الأنباري"4.
قلت5: هذا القول هو داخل في معنى كونها آية من آيات الله؛ فإن آيات الله كلها عجيبة؛ فإنها خارجة عن قدرة البشر، و [عما] 6 قد يشبه بها من مقدور البشر.
والقرآن كله عجب؛ تعجبت به الجن؛ كما حكى عنهم تعالى أنهم

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : به.
2 أي ابن الجوزي رحمه الله.
3 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين. وهي في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : يقول. وما أثبت من زاد المسير لابن الجوزي، وهو الأشبه.
4 زاد المسير 172.
وبعد ذلك قال ابن الجوزي رحمه الله: "وفي المراد بهذه الآيات أربعة أقوال: إحداها: آيات الكتب التي تتلى. والثاني: معجزات الأنبياء. والثالث: القرآن. والرابع: دلائل الله في مصنوعاته". زاد المسير 172.
5 القائل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
6 في ((خ)) : عن ما.

قالوا: {إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} 1؛ فإنه كلام خارج عن المعهود من الكلام، وهو كما في الحديث: لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن [كثرة] 2 الرد3.

---

1 سورة الجن، الآيتان 1-2.
2 في ((خ)) : كثيرة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 الحديث مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد قال فيه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ستكون فتن". قلت: وما المخرج منها؟ قال: "كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا: {إنا سمعنا قرآنا عجبا} . هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم. خذها إليك يا أعور".
خرجه الدارمي في سننه 2526-527، من كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن. وانظر المسند 191.
وأخرجه الترمذي في سننه 5172-173، في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن. وقال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.
وقال ابن كثير رحمه الله في فضائل القرآن ص 11-12: "الحديث مشهور من رواية الحارث الأعور. وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما أنه تعمد الكذب في الحديث، فلا" والله أعلم.
وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه. وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وكل آية لله خرجت عن المعتاد، فهي عجب؛ كما قال تعالى: {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا} 1.
فالآيات: العلامات والدلالة. ومنها: مألوف معتاد، ومنها: خارج عن المألوف المعتاد.
آيات القرآن..

وآيات القرآن من هذا الباب؛ فالقرآن عجب، لا لأن مسمى الآية هو مسمى العجب، بل مسمى الآية أعم، [ولهذا] 2 قال: {كانوا من آياتنا عجبا} .

معنى الآية في العرف

ولكن لفظ الآية قد يخص في العرف بما يحدثه الله، و [أنها] 3 غير المعتاد دائما؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، و [إنهما] 4 لا تخسفان لموت أحد، ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده"5.

وقد قال تعالى: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا} 6.

وفي الحديث الصحيح: لما دخلت أسماء على عائشة وهي في

---

1 سورة الكهف، الآية 9.

2 في ((خ)) رسمت: والهذا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 في ((خ)) : أنهما. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 في ((خ)) : إنها. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

5 رواه البخاري في صحيحه 1353، كتاب صلاة الكسوف، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، و 1356، كتاب صلاة الكسوف، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: يخوف الله عباده بالكسوف. ومسلم في صحيحه 2618، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف؛ أخرجاه مع اختلاف في الألفاظ يسير.

6 سورة الإسراء، الآية 59.

الصلاة، فسألتها فقالت: سبحان الله، فقالت آية؟ فأشارت أي نعم1.

صلاة الكسوف

وتسمى صلاة الكسوف صلاة الآيات2، وهي مشروعة في أحد القولين في مذهب أحمد، في جميع الآيات3 التي يحصل بها

---

1 رواه البخاري في صحيحه 1358، كتاب صلاة الكسوف، باب صلاة النساء مع الرجال في الكسوف. ومسلم في صحيحه 2624، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار.

2 لقوله صلى الله عليه وسلم: "هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله بها عباده، فإذا رأيتم شيئا من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره". أخرجه البخاري في صحيحه 1360، كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف.

3 قال ابن قدامة رحمه الله: "قال أصحابنا: يصلى للزلزلة كصلاة الكسوف، نص عليه، وهو مذهب إسحاق، وأبي ثور. قال القاضي: ولا يصلى للرجفة، والريح الشديدة، والظلمة، ونحوها. وقال الآمدي: يصلى لذلك، ولرمي الكواكب والصواعق، وكثرة المطر، وحكاه عن ابن أبي موسى. وقال أصحاب الرأي: الصلاة لسائر الآيات حسنة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم علل الكسوف بأنه آية من آيات الله تعالى يخوف بها عباده. وصلى ابن عباس للزلزلة بالبصرة؛ رواه سعيد. وقال مالك والشافعي: لا يصلى لشيء من الآيات سوى الكسوف؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل لغيره. وقد كان في عصره بعض هذه الآيات، وكذلك خلفاؤه. ووجه الصلاة للزلزلة: فعل ابن عباس. وغيرها لا يصلى له؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل لها، ولا أحد من الصحابة، والله أعلم". المغني 3332-333. وانظر فتح الباري 1606.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر - فيما نقله عنه ابن قاسم: "يصلى لكل آية؛ كما دل على ذلك السنن والآثار، وقاله المحققون من أصحاب أحمد وغيرهم. ولولا أن ذلك يكون لشر وعذاب لم يصح التخويف بذلك. وهذه صلاة رهبة وخوف؛ كما أن صلاة الاستسقاء صلاة رغبة ورجاء. وقد أمر الله عباده أن يدعوه خوفا وطمعا، وقال عليه الصلاة والسلام: "إذا رأيتم من هذه الأفزاع شيئا فافزعوا إلى الصلاة". حاشية على الروض المربع لابن قاسم 2533-534. وانظر مجموع الفتاوى 24264.

التخويف1؛ كانتثار الكواكب، والظلمة الشديدة، وتصلى للزلزلة، نص عليه2، كما جاء الأثر بذلك3.
فهذه الآيات أخص من مطلق الآيات، وقد قال تعالى: {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين} 4، وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث آيات يتعلمهن [من القرآن] 5 خير له من ثلاث خلفات سمان"6.

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن الشمس والقمر: وقوله: "يخوف الله بهما عباده" كقوله: {وما نرسل بالآيات إلا تخويفا} [سورة الإسراء، الآية 59] . ولهذا كانت الصلوات مشروعة عند الآيات عموما، مثل تناثر الكواكب، والزلزلة، وغير ذلك. والتخويف إنما يكون بما هو سبب للشر المخوف؛ كالزلزلة والريح العاصف، وإلا فما وجوده كعدمه لا يحصل به تخويف. فعلم أن الكسوف سبب للشر، ثم قد يكون عنه شر. ثم القول فيه كالقول في سائر الأسباب: هل هو سبب؟ كما عليه جمهور الأمة، أو هو مجرد اقتران عادة كما يقوله الجهمية. وهو صلى الله عليه وسلم أخبر عند أسباب الشر بما يدفعها من العبادات التي تقوي ما انعقد سببه من الخير، وتدفع أو تضعف ما انعقد سببه من الشر كما قال: "إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض". والفلاسفة تعترف بهذا، لكن هل ذلك بناء على أن الله يدفع ذلك بقدرته وحكمته، أو بناء على أن القوى النفسانية تؤثر؟ هذا مبني على أصولهم في هذا الباب". منهاج السنة النبوية 5445- 446.
2 نقل عبد الله بن أحمد بن حنبل أن أباه إذا كانت ريح، أو ظلمة، أو أمر يفزع الناس منه، فزع إلى الصلاة.
انظر مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله 2447، تحقيق د علي بن سليمان المهنا، ط الأولى، مكتبة الدار. وانظر فتح الباري لابن حجر 1606.
3 لعله يشير إلى الحديث الذي تقدم ذكره قريبا في ح (5) من الصفحة السابقة.
4 سورة الأنعام، الآية 4.
5 ما بين المعقوفتين ساقط من ((م)) ، و ((ط)) .
6 الحديث مروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان؟ " قلنا: نعم. قال: "فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان".
الحديث رواه مسلم في صحيحه 1552، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه. والدارمي في سننه 2523، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن. وابن ماجه في سننه 21243، كتاب الأدب، باب ثواب القرآن. وأحمد في مسنده 2397، 466، 497.

فصل: <u>الدليل ينقسم إلى قسمين:</u>
1- ما يدل بنفسه
2- ما يدل بدلالة الدال به
والدليل الذي هو الآية والعلامة ينقسم إلى ما يدل بنفسه، وإلى ما يدل بدلالة الدال به؛ فيكون الدليل في الحقيقة هو الدال به الذي قصد أن يدل به. وقد جعل ذلك علامة وآية ودليلا.
والذي يدل بنفسه1 يعلم أنه يدل بنفسه، وإن لم يعلم أن أحدا جعله دليلا، وإن كان في نفس الأمر كل مخلوق قد جعله الله آية ودلالة.
وهو سبحانه عليم مريد، فلا يمكن أن يقال: لم يرد بالمخلوقات أن تكون أدلة له، ولا أنها ليست دليلا يجعلها أدلة، كما قد يطلقه طائفة من النظار. ولكن يستدل بها مع عدم النظر في كونها جعلت أدلة؛ كما قد يطلقه؛ إذ كان فيها مقاصد كثيرة غير الدلالة.
الأدلة العقلية والأدلة الوضعية
والذي جعلها دليلا؛ وهو الله، جعل ذاتها يستدل بها، مع قطع النظر عن [كونها] 2 هي دليلا؛ فما من مخلوق، إلا ويمكن الاستدلال به على

---

1 هذا القسم الأول، ويذكره هنا بالتفصيل. وسيأتي ذكره للقسم الثاني لاحقا في بداية الفصل، ص 916.
2 في ((خ)) : كونه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

الخالق، والمحدث نفسه يعلم بصريح العقل أن له محدثا.
وهذه الأدلة التي [تدل] 1 بنفسها قد تسمى الأدلة العقلية، ويسمى النوع الآخر2 الأدلة الوضعية؛ لكونها إنما دلت بوضع واضع.

والتحقيق: أن كلاهما عقلي، إذا نظر فيه العقل علم مدلوله3.
لكن هذه تدل بنفسها، وتلك تدل بقصد الدال بها؛ فيعلم بها قصده. وقصده هو الدال بها؛ كالكلام؛ فإنه يدل بقصد المتكلم به، وإرادته، وهو يدل على مراده، وهو يدلنا بالكلام على ما أراد، ثم يستدل بإرادته على لوازمها؛ فإن اللازم أبدا مدلول عليه بملزومه.
والآيات التي [تدل] 4 بنفسها مجردة نوعان؛
منها: ما هو ملزوم مدلول عليه بذاته، لا يمكن وجود ذاته دون وجود لازمه المدلول عليه؛ مثل دلالة المخلوقات على الخالق.

1 في ((خ)) : يدل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 الذي يدل بدلالة الدال به. وقد سبق تقسيم شيخ الإسلام رحمه الله هذا للأدلة إلى عقلية، ووضعية.
راجع ص 267، 393-397 من هذا الكتاب.
3 وقد شرح شيخ الإسلام رحمه الله هذه العبارة في موضع آخر، فقال: "تدبرت عامة ما يذكره المتفلسفة والمتكلمة، والدلائل العقلية، فوجدت دلائل الكتاب والسنة تأتي بخلاصته الصافية عن الكدر، وتأتي بأشياء لم يهتدوا لها، وتحذف ما وقع منهم من الشبهات والأباطيل مع كثرتها واضطرابها.... - إلى أن قال رحمه الله -: كل علم عقلي أمر الشرع به، أو دل عليه، فهو شرعي أيضا؛ إما باعتبار الأمر، أو الدلالة، أو باعتبارهما جميعا".
مجموع الفتاوى 19232-233. وانظر: المصدر نفسه 246، 61،، 16251-253، 260-264،، 19228-234. ودرء تعارض العقل والنقل 5270-271.
4 في ((خ)) : يدل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

ومنها: ما هو مستلزم له مدة طويلة، أو قصيرة؛ [فتدل] 1 عليه تلك المدة؛ مثل نجوم [السموات] 2؛ فإنه يستدل بها على الجهات، والأمكنة، وعلى غيرها من النجوم، وعلى الزمان ماضيه وغابره، ما دام العالم على هذه الصورة؛ قال تعالى: {وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون} 3، وقال تعالى: {وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون} 4.
ثم قال: {وهو الذي [أنشأكم من نفس واحدة] 5 فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون} 6، ثم قال: {وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا} ، إلى قوله: {إن في ذلكم [لآيات] 7 لقوم يؤمنون} 8، وقوله: {وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات} 9؛ هي علامات ألقاها في الأرض، وهذا قول الأكثرين10؛ قالت طائفة: هي معالم الطرق يستدل بها بالنهار،

1 في ((خ)) : فيدل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : السمات. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 سورة النحل، الآيتان 15 16.
4 سورة الأنعام، الآية 97.
5 في ((خ)) : أنزل من السماء ماء. وهو خطأ، والصواب ما أثبت في ((م)) ، و ((ط)) .
6 سورة الأنعام، الآية 98.
7 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
8 سورة الأنعام، الآية 99.
9 سورة النحل، الآيتان 15 16.

10 انظر: تفسير الطبري 891.

ويستدل بالنجم بالليل؛ وقالت طائفة: هي الجبال، وهي أيضا مما يستدل به1، ولهذا سماها الله أعلاما في قوله: {ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام} 2، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} 3؛ أي كالجبال. والأعلام جمع علم، والعلم: ما يعلم به كالعلامة. [ومنه] 4: أعلام الطرق المنصوبة5، ومنه: يقال لدلائل النبوة: أعلام النبوة، ويقال للراية المرفوعة: إنها علم6، وأنها

---

1 قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآيات:
قوله تعالى: {وعلامات} : فيها ثلاثة أقوال:
أحدها: أنها معالم الطريق بالنهار، وبالنجم هم يهتدون بالليل؛ رواه العوفي عن ابن عباس.
والثاني: أنها النجوم أيضا؛ منها ما يكون علامة لا يهتدى به، ومنها ما يهتدى به؛ قاله مجاهد، وقتادة، والنخعي.
والثالث: الجبال؛ قاله ابن السائب، ومقاتل.
زاد المسير لابن الجوزي 4436. وانظر: تفسير الطبري 891-92. وتفسير القرطبي 1061.
2 سورة الشورى، الآية 32.
3 لعل الشيخ رحمه الله أراد ذكر الآية التي في سورة الرحمن؛ وهي قوله تعالى: {وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام فبأي آلاء ربكما تكذبان} [سورة الرحمن، الآيتان 24-25] .
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .
5 قال الأزهري رحمه الله: "ويقال لما يبنى في جواد الطريق؛ من المنار التي يستدل بها على الطريق أعلام، واحدها علم. والعلم: الراية التي إليها يجتمع الجند. والعلم: علم الثوب ورقمه في أطرافه. والمعلم: ما جعل علامة وعلما للطرق والحدود؛ مثل أعلام الحرم، ومعالمه المضروبة عليه". تهذيب اللغة للأزهري 2418-419.
وانظر: لسان العرب لابن منظور 12419.
6 الراية: العلم، لا تهمزه العرب، والجمع رايات. ويقال ريبت الراية: أي ركزتها. لسان العرب 14351-352.
وقال أيضا: والعلم: الراية التي تجتمع إليها الجند. وقيل: هو الذي يقعد على الرمح. لسان العرب 12420.

جعلت علامة لصاحبها وأتباعه. والعالم [بالفتح] 1 مثل الخاتم2: ما يعلم به؛ كما أن الخاتم ما يختم به، وهو بمعنى العالم3. ويسمى كل صنف من المخلوقات عالما4؛ لأنه علم وبرهان على الخالق تعالى، بخلاف العالم بالكسر؛ فإنه الذي يعلم5؛ كالخاتم بالكسر فإنه الذي يختم6؛ قال تعالى: {ولكن رسول الله وخاتم7 النبيين} 8؛ لأنه ختمهم؛ كما يسمى الماحي، والحاشر، والعاقب9. وقد قرىء: {وخاتم} 10؛ أي ختموا به.

---

1 في ((ط)) : بالفت.
2 أي على وزنه.
3 انظر: تهذيب اللغة 7313. ولسان العرب 12163. والمفردات للراغب ص 581.
4 انظر: تهذيب اللغة 2416. ولسان العرب 12420-421. والمفردات للراغب ص 582. والقاموس المحيط ص 1472.
5 العالم: هو الذي يعمل بما يعلم. انظر: تهذيب اللغة 7416.
6 انظر: تهذيب اللغة 7315-316. ولسان العرب 12163.
7 وهي قراءة الجميع ما عدا عاصم. انظر: الغاية في القراءات العشر للحافظ النيسابوري ص 239. وزاد المسير 6393) .
ومعنى (خاتم) بالكسر: أنه ختم النبيين.
8 سورة الأحزاب، الآية 40.

9 عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد"، وقد سماه الله رؤوفا رحيما.
رواه الإمام مسلم في صحيحه واللفظ له 41828، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم. وهو عند الإمام البخاري في صحيحه 6404.
10 وهي قراءة عاصم وحده. انظر: الغاية في القراءات العشر للحافظ النيسابوري ص 239. وزاد المسير لابن الجوزي 6393. ومعنى (خاتم) بالفتح: آخر النبيين.

فالجبال: أعلام1، وهي علامات لمن في البر والبحر، يستدل بها على ما يقاربها من الأمكنة؛ فإنه يلزم من وجودها وجوده، وهي لا تزال دالة ما دامت موجودة، ومدلولها موجودا، وهي أثبت من غيرها؛ فقد يكون عندها قرية وسكان؛ فيكون علما عليهم، ثم قد [تخرب] 2 القرية، ويذهب السكان؛ فتزول الدلالة لزوال الملزوم.
وهذا كله مما يبين أن الدليل قد يكون معينا، بل الآيات كلها معينة، و [أنه] 3 يكون مطابقا ملازما لمدلوله، ليس أحدهما أعم من الآخر؛ كالثريا4 مع الدبران، وكالجدي مع بنات نعش5، ونحو ذلك.

---

1 انظر: تهذيب اللغة للأزهري 2418.
2 في ((خ)) : يخرب. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : أن.
4 الثريا: هي المنزلة الأولى من منازل القمر الثماني والعشرين التي يتخذها القمر محطات له أثناء دورانه حول الأرض. وتتألف مجموعة الثريا من مئات النجوم، غير أن العدد الذي من الممكن مشاهدته بالعين المجردة قد لا يتعدى تسع نجوم، منها ست واضحات، وثلاث لا ترى إلا بصعوبة. وإذا شوهدت الثريا من خلال المرقب ظهرت نجومها متفرقة غير متراصة". جريدة الجزيرة، العدد 8395، شهر يونيو عام 1996 م.
5 وتسمى هذه بكواكب البابانيت، وهي التي لا ينزل بها شمس ولا قمر، إنما يهتدى بها في البر والبحر، وهي شامية، ومهب الشمال منها، أولها القطب، وهو كوكب لا يزول، والجدي والفرقدان، وهو بين القطب، وفيه بنات نعش الصغرى". لسان العرب 1346.
وقد ذكر الشيخ رحمه الله الاستدلال بالكواكب على جهة الكعبة، وغيرها. انظر: الرد على المنطقيين ص 163.
والجدي: كوكب إلى جنب القطب، تعرف به القبلة، ويقال له جدي الفرقد.
وبنات نعش الكبرى: هي مجموع سبعة كواكب شديدة اللمعان، على صورة علامة ضخمة للاستفهام؟ نشاهدها جهة القطب الشمالي، ويقربها سبعة أخرى، تسمى بنات نعش الصغرى التي منها النجمة القطبية.
والثريا: هي أول نجوم شدة الصيف، وبعدها بثلاثة عشر يوما يظهر الدبران، وهو نجم أحمر مضيء.

فتبين غلط من ذكر أنه يحصر الأدلة1.
فيقال: إما أن يستدل بالعام على الخاص، أو بالخاص على العام، أو

---

1 وقد رد شيخ الإسلام رحمه الله على المنطقيين، وبين أن حصرهم العلم على القياس قول بغير علم؛ فقال رحمه الله: "قولهم: إنه لا يعلم شيء من التصديقات إلا بالقياس الذي ذكروا صورته ومادته: قضية سلبية نافية، ليست معلومة بالبديهة، ولم يذكروا على هذا السلب دليلا أصلا؛ فصاروا مدعين ما لم يبينوه، بل قائلين بغير علم؛ إذ العلم بهذا السلب متعذر على أصلهم. فمن أين لهم أنه لا يمكن أحدا من بني آدم أن يعلم شيئا من التصديقات - التي ليست عندهم بديهية - إلا بواسطة القياس المنطقي الشمولي الذي وضعوا مادته وصورته". الرد على المنطقيين ص 88.
ومما قاله شيخ الإسلام رحمه الله في رده على حصرهم العلم في الدليل والقياس: "فنقول هذا الذي قالوه إما أن يكون باطلا، وإما أن يكون تطويلا يبعد عن الطريق على الطالب المستدل، فلا يخلو عن خطأ يصد عن الحق، أو طريق طويل يتعب

صاحبه حتى يصل إلى الحق، مع إمكان وصوله بطريق قريب، كما كان يمثله بعض سلفنا، بمنزلة من قيل له: أين أذنك؟ فرفع يده فوق رأسه رفعا شديدا، ثم أدارها إلى أذنه اليسرى، وقد كان يمكنه إلى اليمنى، أو اليسرى من طريق مستقيم. وما أشبه هؤلاء بقول القائل:
أقام يعمل أياما رويته ... وشبه الماء بعد الجهد بالماء
وقول الآخر:
وإني وإني ثم إني وإنني ... إذا انقطعت نعلي جعلت لها شسعا
وما أحسن ما وصف الله به كتابه بقوله: {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم} [الإسراء 9] . فأقوم الطرق إلى أشرف المطالب: ما بعث الله به رسوله. وأما طريق هؤلاء: فهي مع ضلالهم في البعض، واعوجاج طريقهم، وطولها في البعض الأخرى إنما يوصلهم إلى أمر لا ينجي من عذاب الله، فضلا عن أن يوجب لهم السعادة، فضلا عن حصول الكمال للأنفس البشرية بطريقهم) . الرد على المنطقيين ص162. وانظر المصدر نفسه ص 316.

بأحد الخاصين على الآخر. والأول هو القياس الشمولي1، والثاني هو الاستقراء2، والثالث هو التمثيل3.

---

1 وقد وضح شيخ الإسلام رحمه الله المراد بالقياس الشمولي؛ فقال أولا موضحا معنى القياس: "والقياس في اللغة تقدير الشيء بغيره، وهذا يتناول تقدير الشيء المعين بنظيره المعين، وتقديره بالأمر الكلي المتناول له ولأمثاله؛ فإن الكلي هو مثال في الذهن لجزئياته. ولهذا كان مطابقا موافقا له".
ثم ذكر رحمه الله حقيقة القياس الشمولي؛ فقال: إنه "انتقال الذهن من المعين إلى المعنى العام المشترك الكلي المتناول له ولغيره، والحكم عليه بما يلزم المشترك الكلي بأن ينتقل من ذلك الكلي اللازم إلى الملزوم الأول؛ وهو المعين؛ فهو انتقال من خاص إلى عام، ثم انتقال من ذلك العام إلى الخاص؛ من جزئي إلى كلي، ومن ذلك الكلي إلى الجزئي الأول، فيحكم عليه بذلك الكلي. ولهذا كان الدليل أخص من مدلوله الذي هو الحكم..) . الرد على المنطقيين ص 119.
2 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعريف أهل المنطق للاستقراء؛ فقال: "قالوا: والاستدلال بالجزئيات على الكلي هو الاستقراء. فإن كان تاما، فهو الاستقراء التام؛ وهو يفيد اليقين. وإن كان ناقصا لم يفد اليقين. فالأول: هو استقراء جميع الجزئيات، والحكم عليه بما وجد في جزئياته. والثاني: استقراء أكثرها، وقد يكذب؛ كقول القائل: الحيوان إذا أكل حرك فكه الأسفل؛ لأنه استقريناها فوجدناها هكذا، فيقال له: التمساح يحرك الأعلى". الرد على المنطقيين ص 159-160. وانظر أيضا المصدر نفسه ص 6، 201، 208.
3 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله حقيقة قياس التمثيل؛ فقال: "وأما قياس التمثيل: فهو انتقال الذهن من حكم معين لاشتراكهما في ذلك المعنى المشترك الكلي؛ لأن ذلك الحكم يلزم ذلك المشترك الكلي، ثم العلم بذلك الملزوم لا بد له من سبب إذا لم يكن بينا،... فهنا يتصور المعينين أولا، وهما الأصل والفرع، ثم ينتقل إلى لازمهما؛ وهو المشترك، ثم إلى لازم اللازم، وهو الحكم. ولا بد أن يعرف أن الحكم لازم المشترك، وهو الذي يسمى هناك قضية كبرى، ثم ينتقل إلى إثبات هذا للملزوم الأول المعين". الرد على المنطقيين ص 121.

وقد بينا ما في هذا الكلام من الغلط؛ في حصره، وفي حكم أقسامه؛ فإن هؤلاء المقسمين للأمور العامة كثيرا ما يغلطون في هذا وهذا؛ إذ كان المقسم يجب أن يستوفي جميع الأقسام، ولا يدخل فيها ما ليس منها؛ كالحاد1. وهم يغلطون فيها كثيرا؛ لعدم إحاطتهم بأقسام المقسوم؛ كما يقسمون أقسام الموجودات، أو أقسام مدارك العلم، أو أقسام العلوم، أو غير ذلك، وليس معهم دليل على الحصر، إلا عدم العلم. وحصر الأقسام في المقسوم هو من الاستقراء.
ثم إذا حكموا على تلك الأقسام بأحكام فقد يغلطون أيضا؛ كما قد ذكر هذا في غير هذا الموضع2؛ مثل غلط من حصر الأدلة في هذه الأنواع؛ من أهل المنطق، ومن تبعهم.

---

1 الحاد: هو الذي يقول بالحد، ويدعيه.

وقد رد شيخ الإسلام رحمه الله على قول أهل المنطق: "أن التصورات غير البديهية لا تنال إلا بالحد"، وناقشهم مناقشة طويلة استغرقت من كتابه الرد على المنطقيين صفحات طويلة (من ص 7-52) ، ومما قاله رحمه الله عن صناعة الحد: "هذه صناعة وضعية اصطلاحية، ليست من الأمور الحقيقية العلمية، وهي مع ذلك مخالفة لصريح العقل، ولما عليه الوجود في مواضع، فتكون باطلة، ليست من الأوضاع المجردة؛ كوضع أسماء الأعلام، فإن تلك فيها منفعة، وهي لا تخالف عقلا ولا وجودا. وأما وضعهم فمخالف لصريح العقل والوجود، ولو كان وضعا مجردا لم يكن ميزانا للعلوم والحقائق؛ فإن الأمور الحقيقية العلمية لا تختلف باختلاف الأوضاع والاصطلاحات؛ كالمعرفة بصفات الأشياء، وحقائقها؛ فالعلم بأن الشيء حي، أو عالم، أو قادر، أو مريد، أو متحرك، أو ساكن، أو حساس، أو غير حساس ليس هو من الصناعات الوضعية، بل هو من الأمور الحقيقية الفطرية التي فطر الله تعالى عباده عليها؛ كما فطرهم على أنواع الإرادات الصحيحة، والحركات المستقيمة ... ". الرد على المنطقيين ص 26.

2 لاحظ مصادر الحاشية التالية.

وقد بسط هذا في مواضع1.

وذلك: مثل قولهم: الدليل إما أن يستدل بالعام على الخاص، أو بالخاص على العام، أو بأحد الخاصين على الآخر؛ فإن الدليل أولا لا يكون قط أعم من المدلول عليه؛ إما مساويا له، وإما أخص منه؛ فإن الدليل ملزوم للمدلول عليه، والملزوم حيث تحقق، [تحقق] 2 اللازم، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم؛ فحيث تحقق الدليل، تحقق المدلول عليه3. فإذا

---

1 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله بطلان حصر الأدلة في القياس، والاستقراء، والتمثيل، في مواضع عديدة من كتبه، وفصل ذلك في كتابه القيم: ((الرد على المنطقيين)) ، وانظر فيه على سبيل المثال المواضع التالية: ص 6، 88، 116-120، 159-165، 200-214، 233-235، 245، 246، 296-298، 316-317، 348-364.

ومما قاله رحمه الله تعالى: "إن ما ذكروه من حصر الدليل في القياس، والاستقراء، والتمثيل: حصر لا دليل عليه، بل هو باطل. وقولهم أيضا إن العلم المطلوب لا يحصل إلا بمقدمتين لا يزيد ولا ينقص: قول لا دليل عليه، بل هو باطل. واستدلالهم على الحصر بقولهم: إما أن يستدل بالكلي على الجزئي، أو الجزئي على الكلي، أو بأحد الجزئين على الآخر، والأول هو القياس، والثاني هو الاستقراء، والثالث هو التمثيل. يقال: لم تقيموا دليلا على انحصار الاستدلال في هذه الثلاثة، فإنكم إذا عنيتم بالاستدلال بجزئي على جزئي قياس التمثيل، لم يكن ما ذكرتموه حاصرا، وقد بقي الاستدلال بالكلي على الكلي الملازم له، وهو المطابق له في العموم والخصوص، وكذلك الاستدلال بالجزئي على الجزئي الملازم له، بحيث يلزم من وجود أحدهما وجود الآخر، ومن عدمه عدمه، فإن هذا ليس مما سميتموه قياسا، ولا استقراء، ولا تمثيلا، وهذه هي الآيات..". الرد على المنطقيين ص162-163.

2 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .

3 وقال شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر في توضيح الدليل: "فليس من ضرورة الدليل أن يكون أعم أو أخص، بل لا بد في الدليل من أن يكون ملزوما للحكم، والملزوم قد يكون أخص من اللازم، وقد يكون مساويا له، ولا يجوز أن يكون أعم منه، لكن قد يكون أعم من المحكوم عليه الموصوف الذي هو موضوع النتيجة المخبر عنه". الرد على المنطقيين ص 348.

كان مساويا له، أو أخص، كان حيث تحقق المدلول؛ كما أنه حيث تحقق ما هو ناطق النطق الذي يختص الإنسان، تحقق الإنسان، وتحقق أيضا ما هو أعم من الإنسان؛ وهو ثبوت حيوان، وجسم حساس [نام] 1 متحرك بالإرادة؛ بمعنى أنه تحقق مطلق هذا الجنس، وإلا فلم يوجد شيء أعم من الإنسان بمجرد وجوده، لكن وجد من صفاته ما يشبه به غيره، ويصح إطلاقه عليه، وعلى غيره؛ وهو مسمى الجسم، والحيوان، ونحو ذلك.

وكذلك إذا وجد آية، [أو خبر] 2 يدل على الإيجاب، أو التحريم، لزم ثبوت الإيجاب أو التحريم. وقد ثبت الإيجاب والتحريم بآية أخرى، أو خبر آخر، فلهذا قيل: الدليل يجب طرده، ولا يجب عكسه3.

و [إذا] 4 كان الدليل لا يكون أعم من المدلول عليه، فقولهم: إما أن يستدل بالعام على الخاص: إنما أرادوا به القياس الشمولي5 الذي هو مقدمتان: صغرى، وكبرى6؛ كقولنا: النبيذ المتنازع فيه مسكر، وكل

1 في ((خ)) : يأتى. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : احبر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 سبق توضيح هذه القاعدة ص 301 من هذا الكتاب. وانظر إضافة لما سبق: الرد على المنطقيين ص 11، 17، 209.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : إذ.
5 سبقت الإشارة إلى ذلك قريبا. انظر ص 873 من هذا الكتاب. وانظر أيضا: الرد على المنطقيين ص 6، 159.
6 وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قولهم هذا بأن الاستدلال لا بد فيه من مقدمتين، وقرر رحمه الله أن الاستدلال بمقدمتين لا يلتزمه إلا أهل المنطق.
انظر: الرد على المنطقيين ص 167-175، 187-194.

مسكر حرام، أو كل مسكر خمر؛ كما ثبت في صحيح مسلم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام"1؛ بين أن المسكر موصوف بأنه خمر، وبأنه حرام، ولم يقصد القياس الشمولي؛ وهو أن يستدل على أن المسكر حرام؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم أجل من هذا شرعا وعقلا؛ فإنه بكلامه يثبت الأحكام، وغيره إذا قال: كل مسكر خمر أو حرام، احتاج أن يستدل عليه، وأما هو فيستدل بنفس كلامه.

الدليل قد يكون أكثر من مقدمة

والنظم الشمولي المنطقي لا يوجد في كلام فصيح، بل هو طويل لا يحتاج إليه؛ كما قد بسط في مواضع2، وبين أن الدليل قد يكون مقدمة واحدة، وقد يكون مقدمتين، وقد يكون ثلاث مقدمات، وأربع، وأكثر؛ بحسب ما يحتاج إليه المستدل الطالب لدلالة نفسه، أو الطالب ليدل غيره3؛ فإنه قد لا يحتاج إلا إلى مقدمة واحدة؛ مثل من عرف أن الخمر حرام، لكن لم يعرف أن كل مسكر هو خمر. فإذا عرف بالنص أن كل مسكر

---

1 رواه الإمام مسلم في صحيحه 31587، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام.
2 انظر رد شيخ الإسلام رحمه الله على قولهم: "بأنه لا بد في كل علم نظري من مقدمتين"، وكذلك رده على تمثيلهم: "كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، فكل مسكر حرام" في: الرد على المنطقيين ص 110-116، 161-162، 190، 191، 245-246. وكذلك في نقض المنطق ص 200-209.
وانظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله عن القياس، وقوله عنه أنه إما كلام باطل، أو طريق طويل لا يخلو من الخطأ، في: الرد على المنطقيين ص 162، 316، ومجموع الفتاوى 924، 28-34.
3 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله اختلاف حال الناس في عدد المقدمات المحتاج إليها، وضرب أمثلة للاستدلال بمقدمة، أو بمقدمتين، أو بمقدمات، في: الرد على المنطقيين ص 168-169.

خمر، عرف أن كل مسكر حرام، وكان علمه موقوفا على مقدمة واحدة، بخلاف من لم يكن عرف بعد أن الخمر حرام؛ فيحتاج إلى مقدمة ثانية. ثم إن كان عرف أن محمدا رسول الله بنصوصه المتواترة، [كفاه ذلك] 1. وإن كان لم يقر بنبوته، احتاج إلى مقدمة ثالثة؛ وهو الإيمان بأنه رسول الله، لا يقول على الله إلا الحق، ويذكر له من دلائل النبوة وأعلامها ما يعرف به ذلك؛ فيهتدي إن كان طالب علم، و [تقوم] 2 عليه الحجة إن لم يكن.

كذلك: فقول هؤلاء3 في مثل هذا4: أنا استدللنا بالعام على الخاص:

[لبس] 5 عظيم؛ فإن المدلول عليه؛ وهو [تحريم] 6 النبيذ المتنازع فيه مثلا، وإن كان أخص من تحريم المسكر والخمر.

فالدليل ليس هو القضية العامة، بل [هي] 7 الدليل: أن النبيذ المتنازع فيه مسكر؛ وهو إحدى المقدمتين، وهذه قضية خاصة أخص من مسمى المسكر؛ فإن المسكر يتناول المتفق على تحريمه، والمتنازع فيه؛ وهذا هو الحد الأوسط8، وهو المتكرر في المقدمتين الذي هو محمول

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) . وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

2 في ((خ)) : يقوم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 أي أهل المنطق.
4 في قياسهم النبيذ على الخمر بجامع الإسكار بين الاثنين.
5 في ((ط)) : ليس.
6 في ((ط)) : يحريم.
7 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
8 قال شيخ الإسلام رحمه الله يوضح هذا: "وذلك أن قياس الشمول مؤلف من الحدود الثلاثة؛ الأصغر، والأوسط، والأكبر. والحد الأوسط فيه هو الذي يسمى في قياس التمثيل علة ومناطا وجامعا ومشتركا ووضعا ومقتضيا، ونحو ذلك من العبارات. فإذا قال في مسألة النبيذ: كل نبيذ مسكر، وكل مسكر حرام، فلا بد له من إثبات المقدمة الكبرى، وحينئذ يتم البرهان. وحينئذ فيمكنه أن يقول: النبيذ مسكر، فيكون حراما قياسا على خمر العنب بجامع ما يشتركان فيه من الإسكار؛ فإن الإسكار هو مناط التحريم في الأصل، وهو موجود في الفرع...." إلى آخر ما قال رحمه الله في هذه المسألة.
انظر الرد على المنطقيين ص 116-117.

في الصغرى، موضوع في الكبرى؛ فالاستدلال وقع [بإسكاره] 1 على أنه خمر، ومحرم. ومسكر النبيذ المتنازع فيه أخص من مسمى المسكر، والخمر.
والمقدمة الثانية: الكبرى؛ وهي قولنا: وكل مسكر خمر: ليست هي الدليل، بل لا بد من الصغرى معها، وهي خاصة.
فالمدلول عليه إن كان تحريم النبيذ المتنازع فيه، فهذا إنما يدل على تحريمه: أنه مسكر، وليس [إسكاره] 2 أعم منه، بل يلزم من ثبوت [إسكاره] 3، ثبوته؛ فإن ثبوت الموصوف بدون الصفة ممتنع؛ [فإسكاره] 4 دل على تحريمه، وليس تحريمه أعم من [إسكاره] 5، بل جنس [الإسكار] 6 والحرام أعم من هذا المسكر، [وهذا] 7 المحرم.
لكن هذا العام ليس هو الدليل بدون الخاص، بل قوله: كل مسكر حرام: يدل على تحريم كل مسكر مطلقا، من غير تعيين؛ فيكون [الإسكار] 8 مستلزما للتحريم، والمسكر أخص من الحرام.

---

1 في ((خ)) : بسكره. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : سكره. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : سكره. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : فسكره. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((خ)) : سكره. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : السكر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 في ((م)) ، و ((ط)) : فهذا.
8 في ((خ)) : السكر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

---

aوهذا استدلال بالخاص على العام؛ فوجود المسكر أخص من وجود الحرام، حيث كان [سكر] 1 كان الحرام موجودا، وليس إذا كان الحرام موجودا يجب وجود المسكر؛ لأن المحرمات كثيرة؛ كالدم، والميتة، ولحم الخنزير2.
فالحد الأوسط؛ وهو المسكر دل على ثبوت الأعم؛ وهو التحريم، من الأخص في الأخص؛ وهو النبيذ المتنازع فيه. فالمدلول عليه التحريم، وهو أعم من المسكر؛ فهو استدلال بالخاص على العام، لكن المعنى العام الكلي لا يوجد في الخارج عاما كليا، بل معينا؛ فهو استدلال على نوع من أنواعه؛ وهو التحريم الثابت في النبيذ المتنازع فيه، وهذا أخص من مطلق التحريم؛ كما أن مسكره أخص من مطلق المسكر.
ومن هنا ظنوا أنهم استدلوا بالعام على الخاص؛ حيث استدلوا بتحريم كل مسكر على تحريم هذا المسكر. وليس الأمر كذلك، بل الذي دل على تحريم هذا المسكر ليس هو مجرد القضية العامة الكلية، بل لا بد معها من قضية أخص منها جزئية؛ مثل قولنا: هذا النبيذ مسكر. وبهذا الخاص يعلم ثبوت ذلك لا بمجرد [العام] 3.
والدليل هنا ليس هو أعم من المدلول عليه، ولا يمكن ذلك قط.

وأما قولهم: إن الاستدلال بالخاص على العام، هو الاستقراء4. فمجرد الخاص إن لم يستلزم العام، لا يدل عليه. والمستقرئ إن لم يحصر

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : مسكر.
2 قال تعالى: {إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله} . [البقرة، 173] .
3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 تقدمت الإشارة إلى ذلك قريبا. انظر ص 894 من هذا الكتاب.

الإفراد، لا يعلم أن ذلك المعنى شامل لها. فما استدل بخاص على عام، [بل بعام] 1 مثله مطابق له.
وقولهم في قياس التمثيل: إنه استدلال بخاص على خاص2، ليس كذلك؛ فإن مجرد ثبوت الحكم في صورة، لا يستلزم ثبوته في أخرى، إن لم يكن بينهما قدر مشترك، ولا يثبت بذلك حتى يقوم دليل على أن ذلك المشترك مستلزم للحكم.
والمشترك3: هو الذي يسمى في قياس التمثيل: الجامع4، والوصف5، والعلة6، والمناط7، ونحو ذلك. فإن لم يقم دليل على أن الحكم متعلق به، لازم له، لم يصح الاستدلال.

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 تقدمت الإشارة إلى ذلك قريبا. انظر ص 894-895 من هذا الكتاب.
3 المشترك: عبارة عن لفظ واحد، يدل على أشياء فوق واحد، باعتبار جهة واحدة؛ كلفظ العين، ونحوه.
انظر: المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي ص 51.
4 الجامع: اسم من أسماء المشترك، وهو معنى واحد، يدل على اتحاد العلة في أشياء مشتركة.
انظر: تسهيل المنطق للشيخ عبد الكريم مراد ص 55.
5 الوصف: عبارة عما دل على الذات باعتبار معنى هو المقصود من جوهر حروفه؛ أي يدل على الذات بصفة؛ كأحمر؛ فإنه بجوهر حروفه يدل على معنى مقصود؛ وهو الحمرة. فالوصف والصفة مصدران؛ كالوعد والعدة. والمتكلمون فرقوا بينهما؛ فقالوا: الوصف يقوم بالواصف، والصفة تقوم بالموصوف، وقيل: الوصف هو القائم بالفاعل. التعريفات للجرجاني ص 252.
6 العلة قد تطلق، ويراد بها العلة الفاعلية، والعلة المادية، والعلة الصورية، والعلة الغائية.
وقد تقدمت التعاريف لهذه في ص 434 من هذا الكتاب. وانظر: المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي ص 122-123.
7 هو الوصف المعلل للحكم. مثال ذلك: تحريم شرب الخمر؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: "كل مسكر خمر، وكل خمر حرام"؛ فنستنبط المناط بالرأي والنظر؛ فنقول: حرمت الخمر لكونها مسكرا، والإسكار هو العلة، فيقاس على هذه العلة، ويطلق الوصف المعلل للحرمة، وهو ما يعرف بالمناط.
انظر: المستصفى في علم الأصول للغزالي 2233.

وهذا1 المشترك في قياس التمثيل هو الحد الأوسط في قياس الشمول بعينه.
فالمعنى في القياسين: واحد2، ولكن التأليف والنظم متنوع إذا أراد أن يثبت تحريم النبيذ بقياس الشمول، [قال] 3: هذا هو حرام؛ لأنه شراب مسكر؛ فيكون حراما، قياسا على المسكر من العنب. فالدليل هو المسكر، وهو المشترك، وهو الحد الأوسط.

ثم لا يكفي ذلك حتى يبين أن العلة في الأصل، هي المشترك؛ فيقول: وعصير العنب حرم؛ لكونه مسكرا. وهذا الوصف موجود في الفرع الذي هو صورة النزاع، فيجب اشتراكهما في التحريم.
وقوله: إنه [حرم] 4؛ لكونه مسكرا: هي المقدمة الكبرى في قياس الشمول؛ وهي قولنا: كل مسكر حرام؛ فثبت أن علة التحريم هي [السكر] 5؛ إما بالنص؛ وهو قوله: "كل مسكر حرام"؛ وإما بدلالة القرآن؛ وهو أنه يوقع العداوة والبغضاء، ويصد عن ذكر الله، وعن

1 في ((ط)) : وهذا ومنه. و (ومنه) زائدة.
2 انظر كلام المؤلف رحمه الله تعالى في حقيقة قياس التمثيل، والموازنة بينه وبين قياس الشمول، وبيان أنهما متلازمان، وأنه يمكن جعل قياس الشمول قياس تمثيل، وأن قياس الشمول مبناه على قياس التمثيل. انظر: الرد على المنطقيين ص 116-117، 120-121، 220، 245-246، 317، 353، 364.
3 في ((ط)) : قاف.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : حرام.
5 في ((خ)) : المسكر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

الصلاة؛ وإما بالمناسبة؛ وإما بالدوران1؛ وإما [بالسبر] 2 والتقسيم3؛ كما قد عرف في موضعه4، وهو نظير ما يستدل به على ثبوت القضية الكبرى.
ثم الدليل قد يكون قطعيا، وقد يكون ظنيا؛ لخصوص المادة، لا تعلق لذلك بصورة القياس. فمن جعل قياس الشمول هو القطعي، دون قياس التمثيل [فقد] 5 غلط؛ كما أن من جعل مسمى القياس هو التمثيل، دون الشمول، فلم يفهم معناه.

1 وهو قياس الدور، وهو عبارة عن أخذ النتيجة، مع عكس إحدى مقدمتي قياسها، لاستنتاج عين المقدمة الأخرى؛ كما لو قيل: كل إنسان ناطق، وكل ناطق ضاحك، فكل إنسان ضاحك. ثم عكس الأمر، وأخذت النتيجة، وهي: كل إنسان ضاحك، وجعلت مقدمة أولى، وعكست المقدمة الصغرى، فصارت كل ضاحك ناطق، فيلزم عنه: كل إنسان ناطق؛ وهو عين المقدمة الكبرى.... إلخ.
انظر: المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي ص 68-71؛ فقد أطال النفس في بيان ذلك جدا.
وانظر الرد على المنطقيين لابن تيمية ص 235.
2 في ((خ)) : بالسير. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 السبر والتقسيم: هو حصر الأوصاف في الأصل، وإلغاء البعض، ليتعين الباقي للعلية؛ كما يقال: علة حرمة الخمر: إما الإسكار، أو كونه ماء العنب، أو المجموع. وغير الماء، وغير الإسكار لا يكون علة بالطريق الذي يفيد إبطال علة الوصف؛ فتعين الإسكار للعلة.
انظر: التعريفات للجرجاني ص 116-117. والرد على المنطقيين لابن تيمية ص 210.
4 انظر: الرد على المنطقيين ص 117.
5 في ((ط)) : فقط.

والذي عليه جمهور العلماء أن كلا منهما قياس، قد يكون قطعيا، وقد يكون ظنيا1.
وطائفة يقولون: اسم القياس لا يستعمل إلا في الشمول؛ كما يقوله ابن حزم، ومن يقوله من المنطقيين.
وطائفة2 يقولون: لا يستعمل حقيقة إلا في التمثيل، ومن هؤلاء من يقول: ليس في العقليات قياس.
وهذا مبسوط في مواضع3،

1 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تنازع الناس في مسمى القياس؛ فقال: "وقد تنازع الناس في مسمى القياس؛ فقالت طائفة من أهل الأصول: هو حقيقة في قياس التمثيل، مجاز في قياس الشمول؛ كأبي حامد الغزالي، وأبي محمد المقدسي، وغيرهما. وقالت طائفة: بل هو بالعكس: حقيقة في الشمول، مجاز في التمثيل؛ كابن حزم، وغيره. وقال جمهور العلماء: بل هو حققيقة فيهما، والقياس العقلي يتناولهما جميعا. وهذا قول أكثر من تكلم في أصول الدين وأصول الفقه وأنواع العلوم العقلية. وهو الصواب، وهو قول الجمهور من أتباع الأئمة الأربعة". الرد على المنطقيين ص 118-119. وانظر: المصدر نفسه ص 6، 364. ومجموع الفتاوى 9259.

2 وهو قول طائفة من أهل الأصول؛ كأبي حامد الغزالي، وأبي محمد المقدسي، وغيرهما؛ كما نص على ذلك شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه الرد على المنطقيين ص 118. وانظر: المستصفى في علم الأصول للغزالي 2324-325.
3 وقد رد شيخ الإسلام رحمه الله على من قال لا قياس في العقليات، وإنما هو في الشرعيات؛ فقال رحمه الله: "ومن قال من متأخري أهل الكلام والرأي؛ كأبي المعالي، وأبي حامد، والرازي، وأبي محمد المقدسي، وغيرهم: إن العقليات ليس فيها قياس، وإنما القياس في الشرعيات، ولكن الاعتماد في العقليات على الدليل، والدال على ذلك مطلقا. فقولهم مخالف لقول جمهور نظار المسلمين، وبل وسائر العقلاء؛ فإن القياس يستدل به في العقليات، كما يستدل به في الشرعيات؛ فإنه إذا ثبت أن الوصف المشترك مستلزم للحكم، كان هذا دليلا في جميع العلوم. وكذلك إذا ثبت أنه ليس بين الفرع والأصل فرق مؤثر، كان هذا دليلا في جميع العلوم، وحيث لا يستدل بالقياس التمثيلي، لا يستدل بالقياس الشمولي. وأبو المعالي ومن قبله من نظار المتكلمين لا يسلكون طريقة المنطقيين، ولا يرضونها، بل يستدلون بالأدلة المستلزمة عندهم لمدلولاتها من غير اعتبار ذلك".... وقد أطال شيخ الإسلام رحمه الله النفس في تقرير ذلك، انظر: الرد على المنطقيين ص 118، 113.

والمقصود [هنا] 1: التنبيه على جنس الأدلة.
وأيضا: فالدليل قد يكون مطابقا للمدلول عليه، ملازما له، ليس أعم منه، ولا أخص منه؛ كالكواكب التي في السماء المتلازمة التي يستدل بكل منها على الآخر؛ وكالناطقية، والإنسانية التي يستدل بثبوت كل منهما على ثبوت الآخر.
وهذا خارج عن تقسيمهم؛ فإن هذا ليس استدلالا بعام على خاص، ولا بخاص على عام، ولا بخاص على نظيره بطريق التمثيل، بل هو استدلال بأحد المتلازمين على الآخر، قد [يكونان] 2 عامين وخاصين؛ فالكواكب خاصة، [والعام] 3 [كالاستدلال] 4 بالحيوانية على الحس والحركة، إلا أنه استدلال بعام على عام ملازم له. وكذلك الاستدلال بكونه جسما على وجود جنس العرض، والاستدلال بوجود جنس العرض على وجود جنس الجسم: هو استدلال بأحد العامين المتلازمين على الآخر.

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 في ((خ)) : يكونا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : والاستدلال. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

والمقصود هنا1: أن هذه المعينات؛ كالنجوم، والجبال، والطرق، وأعلام الطرق: كلها آيات، وأعلام، وعلامات على ما هو لا زم لها في العادة.
وكذلك قد يستدل على منزل الشخص بما هو ملازم؛ من دور الجيران، والباب، وغير ذلك، وشجرة هناك، وغير ذلك من العلامات التي يذكرها الناس يستدلون بها، ويدلون غيرهم بها.
وسميت الجبال أعلاما؛ لأنها مرتفعة عالية، والعالي يظهر، ويعلم، ويعرف قبل الشيء المنخفض، ولهذا يوصف العالي بالظهور؛ كقوله: { [فما استطاعوا] 2 أن يظهروه} 3، ويقال ظهر الخطيب على المنبر. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "وأنت الظاهر فليس فوقك شيء" 4؛

1 وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى مثل هذا الموضوع - وهو الاستدلال بالكلي على الكلي، وبالجزئي على الجزئي الملازم له - ومثل لذلك بأمثلة، منها: الاستدلال بطلوع الشمس، على النهار، ومنها الاستدلال بالكواكب على جهة الكعبة وغيرها، وكذلك الاستدلال بالأمكنة على المواقيت والأمكنة، وأيضا الاستدلال بالجبال والأنهار، والاستدلال بالكعبة على جهات الأرض، والاستدلال بالأبنية والأشجار ... ثم قال رحمه الله تعالى: "فهذا وأمثاله استدلال بأحد المتلازمين على الآخر، وكلاهما معين جزئي، وليس هو من قياس التمثيل". انظر: الرد على المنطقيين ص 163-165.
2 وهي قراءة الجمهور.
انظر: الغاية في القرءات العشر للحافظ النيسابوري ص 200.

3 سورة الكهف، الآية 97.
قال ابن الجوزي رحمه الله في تفسير قوله: {أن يظهروه} : أي يعلوه؛ يقال: ظهر فلان فوق البيت؛ إذا علاه. والمعنى: ما قدروا أن يعلوه لارتفاعه وإملاسه.
زاد المسير لابن الجوزي 5194.
4 جزء من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه 42084، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع. وأحمد في مسنده 2381. وأبو داود في سننه 4426، كتاب الأدب، باب ما يقول عند النوم. والترمذي في جامعه 5472، كتاب الدعاء، باب ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه. وابن ماجه في سننه 21259-1260، 1274-1275، كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأدخل معنى العلو في اسمه الظاهر؛ لأن الظاهر يعلو، والعالي يظهر. وكذلك العالي يعرف قبل غيره، ومنه قيل: عرف الديك: أصله فعل؛ بمعنى مفعول؛ أي معروف؛ كما يقال: كره؛ بمعنى مكروه، ومنه الأعراف؛ وهي: أمكنة عالية بين الجنة والنار1.
وقد قيل في قوله: {وعلامات وبالنجم} 2: إن العلامات هي النجوم؛ منها: ما يكون علامة لا يهتدي به، ومنها: ما يهتدى به3.
وقول الأكثرين أصح4؛ فإن العلامات كلها

---

1 قال تعالى: {وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم..} [الأعراف، 46] .
والأعراف في اللغة: المكان المشرف.
قال ابن عباس رضي الله عنهما: "الأعراف سور له عرف كعرف الديك. تفسير القرطبي 7135.
وقد ذكر القرطبي رحمه الله عشرة أقوال للعلماء في المراد بأصحاب الأعراف. انظر: تفسير القرطبي 7135-136.
2 سورة النحل، الآية 16.
3 وذكر ابن الجوزي في تفسير قوله تعالى: {وبالنجم هم يهتدون} [سورة النحل 16] أن المراد بالنجم أربعة أقوال:
أحدها: أنه الثريا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدي؛ قاله السدي.
والثاني: أنه الجدي، والفرقدان؛ قاله ابن السائب.
والثالث: أنه الجدي وحده، لأنه أثبت النجوم كلها في مركزه؛ ذكره الماوردي.
والرابع: أنه اسم جنس، والمراد جميع النجوم.
زاد المسير 4436. وانظر تفسير القرطبي 1061.
4 قال أبو جعفر النحاس رحمه الله: والذي عليه أهل التفسير، وأهل اللغة سواء أن النجم هاهنا بمعنى النجوم.
معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس 461.
وعليه تحمل القراءات: (وبالنجم) ، و (وبالنجم) ، و (بالنجوم) ؛ فيكون (النجم) اسم جنس، ويراد به جميع النجوم.
انظر زاد المسير لابن الجوزي 4436.

يهتدى بها1، ولأنه قد قال: {وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا [لعلكم تهتدون] 2 وعلامات} 3. [فهذا] 4 كله مما ألقاه في الأرض، وهو منصوب ب (ألقى) ، أو بفعل من جنسه؛ كما قال بعضهم؛ أي وجعل في الأرض أنهارا؛ لأن الإلقاء من جنس الجعل5.
وبسط ما في هذا من إعراب و [معان] 6 له مقام آخر.
لفظ العلامات
والمقصود هنا: ذكر العلامات. والعلامات يدخل فيها ما تقدم من الرواسي والسبل؛ فإن كونها رواسي وسبلا يسلكها الناس، غير كونها علامات. والعطف قد يكون لتغاير الصفات مع اتحاد الذات؛ كقوله: {الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى} 7، وأمثاله. فكيف إذا كانت العلامات تتناول هذا وغيره؟؛ فإن الجبال أعلام، وهي علامات؛ وكذلك الطرق يستدل بها السالك فيها. ولهذا يسمى الطريق إماما؛ لأن السالك يأتم به. وكذلك يسمون ما يستدل به المستدل طريقا ومسلكا. ويقال: لأصحاب هذا القول

1 انظر جامع البيان للطبري 1491.
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
3 سورة النحل، الآيتان 15-16.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : وهذا.
5 انظر: معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس 461.
6 في ((خ)) : معاني. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 سورة الأعلى، الآيتان 2-3.

عدة طرق، ومسالك؛ حتى [أطلقوا] 1 [على] 2 ما يصنف من الاحتجاج على مسائل النزاع: طريقة؛ لأنه فيه أدلة المصنف على موارد النزاع. ومن هذا الباب الاستدلال على المرض بعلامات له، والاستدلال بالأصوات؛ فإن كانت كلاما، كانت الدلالة قصدية إرادية، قصد المتكلم أن يدل بها، وهي دلالة وضعية عقلية؛ وإن كانت غير كلام، كانت الدلالة عقلية طبعية؛ كما يستدل بالأصوات التي هي بكاء، وانتحاب، وضحك، وقهقهة، ونحنحة، وتنخم، ونحو ذلك، على أحوال المصوت3.

ومن الدلائل: الشعائر؛ مثل شعائر الإسلام الظاهرة، التي [تدل] 4 على أن الدار دار الإسلام؛ كالأذان، والجمع، والأعياد.

وفي الصحيحين: عن أنس - رضي الله عنه قال -: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما لم يغز حتى يصبح، فإن سمع أذانا أمسك، وإن لم يسمع أذانا أغار بعدما يصبح". هذا لفظ البخاري5، ولفظ مسلم6: "كان يغير

1 في ((خ)) كتب: صنفوا. وجعل عليها علامة. وفي الهامش كتب: لعله سموا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 سبق نحو هذا الكلام في ص 649 من هذا الكتاب.
4 في ((خ)) : يدل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 انظر صحيح البخاري 1221، كتاب الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء. وانظر أيضا سنن أبي داود 398، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين.
6 انظر صحيح مسلم 1288، كتاب الصلاة، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان. وفي آخره: فنظروا فإذا هو راعي معزى. وانظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل 3263.

إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان؛ فإن سمع أذانا أمسك، وإلا أغار. فسمع رجلا يقول: الله أكبر الله أكبر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "على الفطرة". ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله. فقال: "خرجت من النار".

وعن عصام المزني1، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث السرية يقول: "إذا رأيتم مسجدا، أو سمعتم مناديا، فلا تقتلوا أحدا". رواه أبو داود2، والترمذي3، وابن ماجه4.

ومن هذا النوع: دلائل الجهات. ومنه: دلائل القبلة؛ يستدل عليها بالنجوم، والشمس، والقمر، والرياح، والطرق، وغير ذلك من الدلائل؛ كما قد ذكر الناس ما ذكروه من دلائل القبلة.

1 ذكر البخاري أن له صحبة، وأورده ابن حجر في الإصابة - في القسم الأول - وذكر حديثه الذي رواه الترمذي، والنسائي - في الكبرى - وغيرهما. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر 2480-481.
2 سنن أبي داود 398-99، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، وفيه: (مؤذنا) بدل: (مناديا) .
3 سنن الترمذي 4120، كتاب السير، باب ما جاء في الدعوة قبل القتال، وقال: هذا حديث غريب، وفيه: (مؤذنا) بدل: (مناديا) . وفي نسخة أخرى للترمذي قال: (حسن غريب) . انظر: هامش سنن أبي داود 399.
4 لم أجده عند ابن ماجه - بعد البحث - وإنما وجدته عند الدارمي في سننه 2287، كتاب السير، باب الإغارة على العدو.

وقد أورد مجد الدين ابن تيمية - جد المؤلف رحمهما الله - في المنتقى 2770-771 هذه الأحاديث الثلاثة بنصها في كتاب الجهاد والسير، باب الكف وقت الإغارة عمن عنده شعار الإسلام، وقال عن الأخير: رواه الخمسة إلا النسائي.
ويعني بقوله (إلا النسائي) ؛ أي في سننه، وإلا فقد رواه في السنن الكبرى؛ كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر في الإصابة (2481) ، والحافظ المنذري في الترغيب والترهيب، وقال: حسن غريب.

فصل: القسم الثاني الدلالة القصدية
والنوع الثاني1: ما يدل بقصد الدال به؛ كالكلام، وكالعقد باليد، والإشارة بها، أو بالعين، أو الحاجب، أو غير ذلك من الأعضاء - وقد يسمى ذلك رمزا، ووحيا، وكذلك الخط خط الكتابة، بخلاف الاستدلال بآثار خطى الإنسان؛ فإن هذا من النوع الأول، وكذلك القيافة2؛ [و] 3 هي من النوع الأول؛ وهو الاستدلال بالشبه على النسب، وكذلك القايف: قد يعرف بالأثر: من هو الواطىء، وأين ذهب؟ ومن هذا النوع: [الأميال] 4

---

1 تقدم النوع الأول في أول الفصل السابق، ص 886.
2 القيافة: علم معرفة الآثار، والقائف: من يعرف الآثار ويتتبعها، ويعرفها، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه، وجمعه قافة؛ يقال: قاف الرجل أثر الرجل: إذا تتبعه عن طريق آثاره. وفلان يقوف الأثر ويقتافه، مثل قفا الأثر واقتفاه. انظر: القاموس المحيط للفيروزأبادي ص 1095. ولسان العرب 9293.
3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : الأمثال. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
والأميال: جمع ميل. والميل - بالكسر - عند العرب: مقدار مد البصر من الأرض. ويقال للأعلام المبنية في طريق مكة أميال؛ لأنها بنيت على مقادير مدى البصر من الميل إلى الميل. المصباح المنير 2588.
والأميال التي يعنيها شيخ الإسلام رحمه الله هي أنصاب الحرم؛ وهي العلامات التي تفرق بين الحل والحرم. وذكر الأزرقي أن إبراهيم عليه السلام أول من نصب أنصاب الحرم، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح تميم بن أسد الخزاعي، فجددها، ثم ما زال الخلفاء والولاة يجددونها كلما تهدمت.
انظر: تاريخ مكة للأزرقي 2128-129.

التي جعلت علامات على حدود الحرم، و [الأميال] 1 التي تجعل في الطرقات؛ فإنه قصد بها الدلالة على الطريق؛ أي قصد الناس بها ذلك.
الدلالة القصدية نوعان:
النوع الأول:
وهذا النوع قسمان: منه ما يكون بالاتفاق والمواطأة بين اثنين فصاعدا؛ كما يتفق الرجل مع وكيله على علامة لمن يرسله إليه؛ مثل وضع خنصره في خنصره2؛ ومثل وضع يده على ترقوته؛ كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل ذلك علامة مع بعض الناس3؛ وكما يجعل الملوك وغيرهم لهم علامات عند بعض الناس: من جاء بها، عرفوا أنه مرسل من جهته.

---

1 في ((خ)) : الأمثال. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 الخنصر: صغرى الأصابع. انظر: تهذيب اللغة 7660.
وقد سبق بحث مثل هذا الموضوع في ص 463 من كتاب النبوات.
3 لم أقف أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على ترقوته علامة مع بعض الناس فيما اطلعت عليه من كتب الحديث، ولكن ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل عمامته إلى سعد بن عبادة كدليل على صدق مخبره بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا أرسل نعليه مع أبي هريرة ليبشر الناس، فكانت علامة على أنه مرسل من النبي صلى الله عليه وسلم. انظر: ص 769-770.

وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أمر بقتل عبد الله بن سعد بن أبي السرح، لما ارتد مشركا، فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة فر عبد الله إلى عثمان بن عفان - وكان أخاه من الرضاعة - فغيبه عثمان، حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة، فاستأمن له، فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا، ثم قال: نعم. فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله: ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه. فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إلي يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن النبي لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين".
انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر 2379. والسيرة النبوية لابن هشام 3409. والإصابة في تمييز الصحابة 2317.
ومما يفهم من هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يستخدم الإشارة مع غيره إذا كان حاضرا.

ومن هذا الباب: شعائر الناس في الحرب؛ كل طائفة يعرف أصحابها بشعارها. ولهذا قال الفقهاء: ويجعل لكل طائفة شعار يتداعون به؛ كما كان للمهاجرين شعار1، وللأنصار شعار.
ومن هذا الباب: الأعلام والرايات للمقدمين؛ فإن الراية ترى، فيعلم صاحبها، [وكذلك العلم يعلم، فيعلم صاحبه. وقد تميز راية عن راية لما يختص به صاحبها] 2، ويسمى ذلك رنكا3، [وقد يكون ذلك اسم الشخص] 4، وقد يكون غير ذلك، لكن قد اتفق مع غيره على أن هذا علامة وآية له، فمتى [رؤي] 5 استدل به على أنه هو المضاف إليه ذلك العلم، ويجعل هذا على الدور، والثياب، والدواب.
ومنه: الوسم6 الذي يعلم به إبل الصدقة، وإبل الجزية؛ فإن الوسم علامة مقصودة للواسم.

1 الشعار: علامة القوم في الحرب، وهو ما ينادون به ليعرف بعضهم بعضا. المصباح المنير ص 312.
وقد روى أبو داود في سننه 373، كتاب الجهاد، باب في الرجل ينادي بالشعار: أن شعار المهاجرين كان: عبد الله، وشعار الأنصار كان: عبد الرحمن.
قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وكان من شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه في الحروب: يا بني عبد الرحمن، يا بني عبد الله، يا بني عبيد الله، كما قالوا ذلك يوم بدر وحنين والفتح والطائف، فكان شعار المهاجرين: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله". مجموع الفتاوى 1379-380.
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 هكذا في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) . ولم يتبين لي المراد.
4 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
5 في ((خ)) : رأى. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 الوسم: أثر الكي، والجمع وسوم؛ تقول: بعير موسوم: أي قد وسم بسمة يعرف بها؛ إما كية، أو قطع في أذنه، أو قرحة تكون علامة له. والميسم: المكواة، أو الشيء الذي يوسم به الدواب، والجمع: المواسم.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري 13114. ولسان العرب لابن منظور 12636.

لفظ السيما
وأما السيما: فهي علامة بنفسها، لم يقصدها؛ مثل سيما المؤمنين، وسيما المنافقين؛ قال تعالى في المؤمنين: {سيماهم في وجوههم من أثر السجود} 1، وقال في المنافقين: { [فلعرفتهم] 2 بسيماهم} 3،
وقال: {عتل بعد ذلك زنيم} 4؛ قيل: له زنمة من الشر يعرف بها5.
ومنه: سيما المؤمنين يوم القيامة؛ التي بها يعرفهم نبيهم؛ وهو أنهم [غر] 6 محجلون من آثار الوضوء7؛ فهذه علامة وآية، لكنها من النوع الأول، لم يقصد المسلمون أن يتوضؤوا ليعرفوا بالوضوء، لكن من اللوازم لهم الوضوء للصلاة، وقد جعل الله أثر ذلك نورا في وجوههم وأيديهم، [وليس هذا لغيرهم؛ فإن هذا الوضوء] 8 لم يكن لغيرهم. والحديث الذي

1 سورة الفتح، الآية 29.
2 في ((خ)) : فلتعرفهم.
3 سورة محمد، الآية 30.
4 سورة القلم، الآية 13.
5 وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما؛ رواه عنه سعيد بن جبير. انظر: زاد المسير لابن الجوزي 8333.
6 في ((خ)) : غير. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته، فليفعل". رواه الإمام البخاري في صحيحه 163، كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء، والغر المحجلون من آثار الوضوء.
8 في ((خ)) : وليس هذا لغيرهم، فإن هذا لغيرهم، فإن هذا الوضوء. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

يروى: "هذا وضوئي ووضوء النبيين من قبلي" 1: ضعيف2، بخلاف الصلاة في المواقيت الخمس؛ فإن الأنبياء كانوا يصلون في هذه المواقيت؛ كما قال: "هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك"3.
والوسم والسيما: من الوسم؛ متفقان في الاشتقاق الأوسط؛ فإن أصل سيما: سوما. فلما سكنت الواو، انكسر ما قبلها، قلبت ياء؛ مثل: ميقات، وميعاد، ونحو ذلك.

---

1 والحديث أخرجه ابن ماجه في سننه 1146، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في الوضوء مرة، ومرتين، وثلاثا. والإمام أحمد في مسنده 298 ط الحلبي. وفيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن توضأ ثلاثا ثلاثا: "هذا وضوئي ووضوء المرسلين من قبلي".
2 وهو كما قال؛ لأن في إسناده زيد بن الحواري، أبو الحواري العمي البصري، قاضي هراة. ضعفه ابن معين، وأبو حاتم، وأبو زرعة، والنسائي، وابن عدي. وتؤول أقوال النقاد إلى تضعيفه.
انظر: ميزان الاعتدال للذهبي 2102. تهذيب التهذيب لابن حجر 3407-409. وتقريب التهذيب له ص 223.
3 هذا جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه 1274-278، كتاب الصلاة، باب ما جاء في المواقيت. والترمذي في سننه 1278-281، في أول كتاب الصلاة، باب ما جاء في مواقيت الصلاة عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقال أبو عيسى الترمذي: وحديث ابن عباس حديث حسن صحيح. وصححه أيضا أحمد شاكر في تعليقه على سنن الترمذي 1280، بيد أنه شرح الحديث بشرح مغاير لما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ إذ قال: "وقت الأنبياء قبلك: أي كانت صلاتهم واسعة الوقت، وذات طرفين؛ مثل هذا، وإلا فلم تكن هذه الصلوات على هذا الميقات إلا لهذه الأمة خاصة، وإن كان غيرهم قد شاركهم في بعضها".

والمعنى الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله أقرب؛ لأنه الظاهر المتبادر إلى الذهن، أما المعنى الذي ذكره أحمد شاكر رحمه الله فهو بعيد، ولا يؤيده لفظ الحديث.

والاسم أيضا من هذا الباب، وهو علم على المسمى، ودليل عليه، وآية عليه. وهذا المعنى ظاهر فيه؛ فلذلك قال الكوفيون: [إنه] 1 مشتق من الوسم، والسمة؛ وهي: العلامة. وقال البصريون: بل هو مشتق من السمو؛ فإنه يقال في تصغيره: [سمي] 2، لا وسيم، وفي جمعه: أسماء، لا أوسام، وفي تصريفه: سميت، لا [وسمت] 3.
وكلا القولين حق، لكن قول البصريين أتم؛ فإنه مشتق منه على قولهم في الاشتقاق الأصغر؛ وهو: اتفاق اللفظين في الحروف وتأليفها، وعلى قول الكوفيين: هو مشتق منه من الاشتقاق الأوسط؛ وهو: اتفاق اللفظين في الحروف، لا في ترتيبها؛ كما قلنا في الوسم، والسيما.
والسمو: هو العلو، والسامي: هو العالي، والعلو مستلزم للظهور كما تقدم4؛ فالعالي ظاهر، والظاهر عال؛ فكان الاسم بعلوه يظهر، فيدل على المسمى؛ لأنه يظهر باللسان والخط، ويظهر للسمع المسمى، فيعرف بالقلب.
وقد تقدم5 أنهم يسمون الجبال أعلاما، لما فيها من الظهور.

ودلالة الاسم على مسماه دلالة قصدية؛ فإن المسمى يسمى بالاسم، ليعرف به المسمى، وليدل عليه؛ تارة يقصد به الدلالة على مجرد نفسه؛ كالأسماء الأعلام للأشخاص، وتارة يقصد به الدلالة على ما في اللفظ من المعنى؛ كالأسماء المشتقة؛ مثل: العالم، والحي، والقادر.

1 في ((خ)) : له. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : شيء. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : اسمت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 انظر ص 910 من هذا الكتاب.
5 انظر ص 910 من هذا الكتاب.

ومن هذا الباب: تسمية المعبودين آلهة؛ سموها بما لا [تستحقه] 1؛ كما يسمى الجاهل عالما، والعاجز قادرا، والكذاب نبيا؛ فلهذا قال تعالى: {إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان} 2
النوع الثاني من الدلالة القصدية
والنوع الثاني من هذه الدلالة القصدية3: أن يقصد الدال الدلالة من غير مواطأة مع المستدلين على أنه دليل، لكن هم يعلمون أن قصد الدلالة؛ لعلمهم بأحواله؛ مثل: ما يرسل الرجل شيئا من ملابسه المختص به مع شخص، فيعلمون أنه أرسلها علامة على أنه أرسله.
قال سعيد بن جبير: عن ابن عباس: {إن في ذلك لآية للمؤمنين} 4: قال: العلامة تكون بين الرجل وأهله. راوه ابن المنذر5: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا وكيع، عن سفيان، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.
ورواه ابن أبي حاتم6: ثنا أبو سعيد؛ ابن يحيى بن سعيد القطان، ثنا أبو أسامة، حدثني سفيان، عن سماك، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس: {إن في ذلك لآية} : قال: علامة، ألم تر إلى الرجل إذا أراد أن يرسل إلى أهله في حاجة، أرسل بخاتمه، أو بثوبه، فعرفوا أنه حق7؟

1 في ((خ)) : يستحقه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة النجم، الآية 23.
3 تقدم ذكر النوع الأول من هذه الدلالة في ص 916 من هذا الكتاب.
4 سورة الحجر، الآية 77.
5 انظر الدر المنثور للسيوطي 4103. وكذا انظر تفسير الطبري 1447.
6 لم أقف عليه في الموجود بين أيدينا من تفسير ابن أبي حاتم. وانظر: تفسير الطبري 1447. والدر المنثور للسيوطي 4103.

7 انظر: تفسير الطبري 1447.

فتارة يرسل خاتمه معه، فيعلمون أنه أرسله، ليعلموا أنه أرسله؛ إذ كانوا قد علموا [أن] 1 الخاتم معه، وأنه ليس في إرساله مع ذلك الشخص الذي لا يعرفونه مقصود له، إلا أن يكون علامة على أنه أرسله إليهم، فيصدقونه فيما أخبر عنه؛ وتارة يرسل معه عمامته، أو نعليه، وقد علموا أنه لا يخلع عمامته ويبعثها مع ذلك الشخص، إلا لتكون علامة على صدقه؛ كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة الفتح: لما كانت راية الخزرج مع [سعد] 2 بن عبادة3، وكان فيه حدة، وقال: لا قريش بعد اليوم، اليوم يوم الملحمة، اليوم يستحل الحرمة. قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إنه يخاف منه أن يضع السيف في أهل مكة، فقال: "قولوا له يعطي الراية لابنه قيس". فقال: إنه لا يقبل منه. فقال: "هذه عمامتي، قولوا له: قد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك"4. فلما رأى عمامته مع من جاء بها، [علم أنه] 5 ليس له في إعطائه عمامته مقصود إلا أن تكون علامة، ولم يكن قبل ذلك قد واطأه على ذلك.

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 في ((ط)) : سعيد.
3 هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن حرام بن خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج، سيد الخزرج. يكنى أبا ثابت. من كبار الصحابة. مات في الشام سنة خمس عشرة، وقيل: ست عشرة.
انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر 235-41. والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر 230.
4 ذكر الخبر بطوله ابن عبد البر في كتابه: الاستيعاب في معرفة الأصحاب 238-40، وعزاه إلى ابن إسحاق في مغازيه.
وانظر: السيرة النبوية لابن هشام 3406-407.
5 في ((خ)) : علم شخص أنه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وكذلك لما أعطى أبا هريرة نعليه ليخرج فيبشر الناس بما ذكره له1، فإنهم إذا رأوا معه نعليه، علموا أنه لم يعطه [النعلين] 2 إلا علامة.
وكذلك قد يكون بين الشخص وبين غيره سر لم يطلع عليه المرسل، فيقول له: أعطني علامة. فيقول: قل له: بعلامة ما تكلمت أنت وهو في كذا وكذا، أو ما فعلت أنت وهو كذا وكذا؛ فيعلم المرسل إليه أن المرسل هو أعلم هذا الرسول بهذا الأمر؛ إذ كان غيره لم يعلمه، ويعلم أنه ليس له في إعلامه به مقصود إلا أن يكون علامة له على تصديقه.
ثم أكثر هذه الآيات التي هي علامات للناس يرسلونها مع من يرسلونه ليعرف صدقه: هي قطيعة عند المستدل بها المرسل إليه؛ من الأهل، والأصدقاء، والوكلاء، والنواب، وغيرهم: يأتيهم الرجل بعلامة وهي مستدلة [بصاحبهم] 3؛ فيعلمون قطعا أن هذا جاء من عنده، ويعلمون قطعا أنه لم يرسله بتلك العلامة إلا ليعلموا صدقه.
لا يخطر لسعد بن عبادة حين رأى عمامة النبي صلى الله عليه وسلم معهم أنهم أخذوها بغير قصده؛ بأن [تكون] 4 [وقعت] 5 منه، ونحو ذلك. بل قد علم أنها كانت على رأسه، وهو راكب في الجيش، وقد أرسلها مع هذا.

---

1 وقد أعطاه عليه الصلاة والسلام نعليه، وقال له: "اذهب بنعلي هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه، فبشره بالجنة".. الحديث، وهو طويل، أخرجه الإمام مسلم بطوله في صحيحه 159-61، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا.
2 في ((خ)) النعلان. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : على حبهم.
4 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((م)) ، و ((ط)) : سقطت.

وكذلك خاتم الشخص الذي يعلمون أنه لا ينزع خاتمه من يده، ويعطيها لغيره، ليعبث بها عنه، وهو لا يختم بها شيئا إلا لذلك.
وقد يقع في مثل ذلك احتمالات، فيستعمل المستدلون التقسيم؛ فإن الاستدلال مداره على أنه أرسله بالعلامة، وأنه إنما أرسله بها ليبين صدقه؛ فقد يعرض في المقدمة الأولى أنه أخذها بغير اختياره، أو أن الخاتم سقط منه، أو إن كان مسافرا أنه قتل، أو مات؛ فقد يقع مثل ذلك، وقد يؤخذ خاتم الرجل بغير أمره، ويختم به كتابه؛ كما حكي أن مروان1 فعل مثل ذلك بعثمان2.
والمقدمة الثانية: أنه قد يرسله بالخاتم ليختم به شيئا، أو ليصلحه، ونحو ذلك. [فإذا عرض مثل هذا الاحتمال وقوي توقفوا] 3، وإن عرفوا انتفاء ذلك؛ مثل: أن يكون قد ذهب من عندهم قريبا، وليس له ما يختم به، ونحو ذلك، قطعوا بأنه أرسله علامة، ثم بعد هذا قد يعلمون أنه أرسله، لكن قد [يكذب] 4 عليه، ولكن العهدة في هذا على المرسل؛ فإن إرسال العلامة هو إعلام منه لهم بأني أرسلته إليكم. فهذا الفعل هو مثل هذا القول، يجري مجرى إعلامهم وإخبارهم بأنه أرسله، وتصديقه في قوله: هو أرسلني.

والإخبار تارة يكون بالقول، وتارة يكون بالعمل؛ كما يعلم الرجل غيره بالإشارة بيده، ورأسه، وعينه، وغير ذلك، وإن لم يتقدم بينهما

---

1 ابن الحكم.
2 انظر: البداية والنهاية لابن كثير 7182، 188. ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية 6244-245، 248-249.
3 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
4 في ((خ)) : يكذبون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

مواضعة، لكن يعلم قصده ضرورة؛ مثل أن يسأله عن شيء: هل كان؟ فيرفع رأسه، أو يخفضه، أو يشير بيده، أو يكون قائما؛ فيشير إليه: اجلس، أو قاعدا مطلوبا؛ فيشير إليه: أن اهرب، فقد جاء عدوك، أو نحو ذلك من الإشارات التي هي أعمال بالأعضاء؛ وهي تدل دلالة ضرورية، تعلم من قصد الدال، كما يدل القول، وقد [تكون] 1 أقوى من دلالة القول، لكن دلالة القول أعم وأوسع؛ فإنه يدل على الأمور الغائبة، وعلى الأمور المعضلة.
وهذه الأدلة العيانية هي أقوى من وجه، ولكن ليس فيها من السعة للمعاني الكثيرة ما في الأقوال.

---

1 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

فصل: الدليل مستلزم للمدلول
[وخاصة] 1 الدليل أن يكون مستلزما للمدلول2. فكل ما استلزم شيئا كان دليلا عليه، ولا يكون دليلا إلا إذا كان مستلزما [له] 3. ثم دلالة الدليل [تعلم] 4، كما يعلم لزوم اللازم للملزوم. وهذا لا بد أن يعلم بالضرورة، أو بدليل ينتهي إلى الضرورة.
وعلى هذا: فآيات الأنبياء هي أدلة صدقهم، وبراهين صدقهم، وهي ما يستلزم صدقهم، ويمتنع وجوده بدون صدقهم؛ فلا يمكن أن يكون ما يدل على النبوة موجودا بدون النبوة. ثم كونه مستلزما للنبوة، ودليلا عليها، يعلم بالضرورة، أو بما ينتهي إلى الضرورة.
فآيات الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا تحد بحدود يدخل فيها غير آياتهم؛ كحد بعضهم كالمعتزلة وغيرهم بأنها5 خرق العادة، ولم يعرف مسمى هذه العبارة، بل ظن أن خوارق السحرة، والكهان، والصالحين:

---

1 في ((ط)) : خاصة.
2 انظر الكلام على هذه المسألة في: الرد على المنطقيين ص 296، 348-350.
3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .
4 في ((خ)) : يعلم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 أي آيات الأنبياء ومعجزاتهم صلوات الله وسلامه عليهم.

خرق للعادة؛ فكذبها1؛ وحد بعضهم2 بأنها3 الخارق للعادة، إذا لم يعارضه أحد.
وجعل4 هذا فصلا احترز به عن تلك الأمور؛ فقال5: المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل، مع عدم المعارضة.
وجوز أن يأتي غير الأنبياء بمثل ما أتوا به6 سواء مع المعارضة. [وجعل] 7 ما يأتي به الساحر والكاهن معجزات، مع عدم المعارضة. وحقيقة المعجز هذا ما لم يعارض، ولا حاجة إلى كونه خارقا للعادة، بل الأمور المعتادة إذا لم تعارض كانت آية.
وهذا باطل قطعا. ثم مسيلمة، والأسود العنسي، وغيرهما، لم يعارضوا8.

---

1 انظر: المغني في أبواب العدل والتوحيد لعبد الجبار المعتزلي 15189.
وقد سبق الكلام عن المعتزلة، وموقفهم من معجزات الأنبياء في أول الكتاب ص 147-149.
2 وهم الأشاعرة، وسيأتي استشهاد شيخ الإسلام بكلام رأس كبير من رؤوسهم؛ وهو الباقلاني.
3 أي آيات الأنبياء ومعجزاتهم عليهم الصلاة والسلام.
4 الجاعل هو الباقلاني، وقد ذكره هاهنا لأنه - أي شيخ الإسلام - أفرد كتابه النبوات للرد عليه كما مر معنا.

5 انظر أقوال أبي بكر الباقلاني في كتابه البيان ص 47-48، 91-96.
وقد تقدم نقل بعض أقواله التي تشبه هذه الأقوال في ص 152-153، 580 من هذا الكتاب.
وتقدمت مناقشة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لهم من أقوالهم، ورد عليهم. انظر النبوات ص 586-590.
6 يعني الأنبياء.
7 في ((ط)) : وجلع.
8 انظر ما سبق من كتاب النبوات ص 192-193، 272-273، 598-599.

[ثم يقال: ما يعني بعدم المعارضة] 1 في ذلك المكان والزمان؛ فالسحرة والكهان لا يعارضون، والعنسي، ومسيلمة لم يعارضا في مكانهم، ووقت [إغوائهم] 2.
وإن قال: لا يعارض البتة. فمن أين يعلم هذا العدم؟ فإن قيل: فما آيات الأنبياء؟ قيل: هي آيات الأنبياء التي [يعلم] 3 أنها مختصة بالأنبياء، وأنها مستلزمة لصدقهم، ولا تكون إلا مع صدقهم، وهي لا بد أن تكون خارقة للعادة، خارجة عن قدرة الإنس والجن، ولا يمكن أحدا أن يعارضها. لكن كونها خارقة للعادة، ولا تمكن معارضتها: هو من لوازمها ليس هو حدا مطابقا لها. والعلم بأنها مستلزمة لصدقهم قد يكون ضروريا؛ كانشقاق القمر، وجعل العصا حية، وخروج الناقة.
فمجرد العلم بهذه الآيات يوجب علما ضروريا بأن الله جعلها آية لصدق هذا الذي استدل بها، وذلك يستلزم أنها خارقة للعادة، وأنه لا يمكن معارضتها.
فهذا4 من جملة صفاتها، لا أن هذا وحده كاف فيها.
وهذا إذا قال من قال: إن فلانا أرسلني إليكم؛ فإنه يأتي بما يعلم أنه علامة.
والعلامة، والدليل، والآية، حدها: أنها تدل على المطلوب.
وآيات الأنبياء تدل على صدقهم. وهذا لا يكون إلا مع كونها مستلزمة

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 في ((خ)) : اغواهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : تعلم.
4 أي خرق العادة وعدم المعارضة.

لصدقهم؛ فيمتنع أن تكون معتادة لغيرهم، ويمتنع أن يأتي من يعارضهم بمثلها، ولا يمتنع أن يأتي نبي آخر بمثلها، ولا أن يأتي من يصدقهم بمثلها؛ فإن تصديقه لهم يتضمن صدقهم، فلم يأت إلا مع صدقهم.
وقد تكون الآيات تدل على جنس الصدق؛ وهو صدق صاحبها؛ فيلزم صدقه إذا قال: أنا نبي، ولكن يمتنع أن يكون لكاذب.
فهذا ونحوه مما ينكشف به حقيقة هذا الباب1، وهو من أهم الأمور.
وإذا فسر خرق العادة: بأنها خرق لعادات غير الأنبياء؛ أي لا يكون لغير جنسهم، وجنس من صدقهم، وفسر عدم المعارضة: بأنه لا يقدر أن يأتي بها من ليس بنبي، أو متبع لنبي، كان المعنى واحدا، واتحدت التفاسير الثلاثة2.

1 وهو الفرق بين النبي والمتنبي، والصادق من الكاذب، وآيات الأنبياء من خوارق السحرة والكهان.
وقد صرح المؤلف بوجوب معرفة الفروق بين آيات الأنبياء وخوارق غيرهم؛ فقال رحمه الله تعالى: "فينبغي أن يتدبر هذا الموضوع، وتعرف الفروق الكثيرة بين آيات الأنبياء وبين ما يشتبه بها؛ كما يعرف الفرق بين النبي والمتنبئ، وبين ما يجيء به النبي، وما يجيء به المتنبئ". انظر ص 173 من هذا الكتاب.
وقال أيضا رحمه الله تعالى: "فإن الكلام في المعجزات وخصائصها، والفرق بينها وبين غيرها من أشرف العلوم. وأكثر أهل الكلام خلطوا فيه تخليطا". قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق ص 164.

2 شيخ الإسلام رحمه الله يوجه تعريف كل من المعتزلة والأشاعرة، وحدهم لآيات الأنبياء، وما يحمله على القول الصحيح، ويبين أنه لو كان مرادهم بالحدود التي حدوها هو هذا المعنى، لاتحد تعريف المعتزلة والأشاعرة مع تعريف أهل السنة والجماعة، وكانت التفاسير الثلاثة صحيحة.

وتفسير ذلك: أن المعتزلة حدوا معجزات الأنبياء بأنها خارقة للعادة، وكذبوا بخوارق الأولياء والسحرة والكهان، ونفوا وجودها، وقالوا: إن خرق العادة لا يكون إلا للأنبياء.

والأشاعرة: جعلوا المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل، مع عدم المعارضة، وجوزوا أن يأتي غير الأنبياء بمثل ما أتوا به ولو لم يدعوا النبوة، فسووا بين خوارق الأنبياء والأولياء والسحرة والكهان.

والشيخ رحمه الله يوضح أن خرق العادة وعدم المعارضة هذا من صفات المعجزة، ليس من حدودها.

ولو أن المعتزلة فسروا خرق العادة بأنها خرق لعادات غير الأنبياء؛ أي لا يكون لغير جنسهم وجنس من صدقهم. ولو أن الأشاعرة فسروا عدم المعارض بأنه لا يقدر أن يأتي بها من ليس بنبي، أو متبع لنبي، كان المعنى واحدا، واتفق كل من المعتزلة والأشاعرة مع تعريف أهل السنة والجماعة.

<u>فصل</u>: <u>الله سبحانه دل عباده بالدلالة العيانية والدلالات المسموعة</u>

والله سبحانه دل عباده بالدلالات العيانية المشهودة، والدلالات المسموعة1؛ وهي كلامه. لكن عامتهم تعذر عليهم أن يسمعوا كلامه منه، فأرسل إليهم بكلامه رسلا، وأنزل إليهم كتبا.

والمخلوق إذا قصد إعلام من يتعذر أن يسمع منه، أرسل إليه رسلا، وكتب إليه كتبا؛ كما يفعل الناس؛ ولاة الأمور، وغيرهم: يرسلون إلى من بعد عنهم رسولا، ويكتبون إليه كتبا.

---

1 سبق أن بين شيخ الإسلام رحمه الله قبل ذلك أن آيات الله الكونية الفعلية؛ مثل: المعجزات، والقولية؛ مثل القرآن الكريم. انظر ص 792 من هذا الكتاب.

ثم إنه سبحانه جعل مع الرسل آيات؛ [هن] 1 علامات وبراهين؛ هي أفعال يفعلها مع الرسل، يخصهم بها، لا [توجد] 2 لغيرهم؛ فيعلم العباد - لاختصاصهم بها - أن ذلك إعلام منه للعباد، وإخبار لهم أن هؤلاء رسلي؛ كما يعلمهم بكلامه المسموع منه، ومن رسوله.

ولهذا قد يعلم برسالة رسول بإخبار رسول أخبر عنه3. وقد يخبر عن إرساله بكلامه، لمن سمع كلامه منه؛ كما أخبر موسى، وغيره بالوحي الذي يوحيه إليهم.

تعريف المعجزة عند شيخ الإسلام

فآيات الأنبياء هي علامات وبراهين من الله، [تتضمن] 4 إعلام الله لعباده وإخباره. [فالدليل] 5؛ وهو الآية، والعلامة: لا تدل إلا إذا كان مختصا بالمدلول عليه، مستلزما له؛ إما مساو له، وإما أخص منه، لا يكون أعم منه غير مستلزم له، فلا يتصور أن يوجد الدليل بدون المدلول عليه.

فالآيات التي أعلم الله بها رسالة رسله، وصدقهم، لا بد أن تكون مختصة بهم، مستلزمة لصدقهم؛ فإن الإعلام والإخبار بأن هذا رسول، وتصديقه في قوله: إن الله أرسلني، لا يتصور أن يوجد لغير رسول.

---

1 في ((ط)) : هي.

2 في ((م)) ، و ((ط)) : يوجد.

3 ومن ذلك إخبار عيسى عليه الصلاة والسلام بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى: {وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} . [سورة الصف، الآية 6] .

4 في ((خ)) : يتضمن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

5 في ((خ)) : الدليل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

والآيات التي جعلها الله علامات: هي إعلام بالفعل الذي قد يكون أقوى من القول، فلا يتصور أن تكون آيات الرسل إلا دالة على صدقهم، ومدلولها أنهم صادقون، لا يجوز أن توجد بدون صدق الرسل البتة.
وكون الرب أراد بها إعلام عباده بصدقهم، وصدقهم بها في إخبارهم أنه [أرسلهم] 1، وكونها آية وعلامة على صدقهم: أمر يعلم؛ كما [تعلم] 2 دلالة سائر الأدلة؛ كما يعلم [من] 3 [الرجل أصدقاؤه] 4، ووكلاؤه أنه [أرسل] 5 هذا بهذه العلامات؛ فتارة يعلم ذلك بالضرورة بعد تصور الأمر، وتارة يحتاج إلى نظر: هل هذه العلامة منه، أو من غيره؟ وهل هو أرسله بها، أو غيره؟ وهل قصد بها الإعلام، [والتصديق، أم لا] 6؟ وهل يعلم من حال الذاكر أنه أرسله أنه صادق؟ فقد يرسل من يعلمون هم صدقه، وأنه لا يكذب؛ فيعلمون صدقه بمجرد قوله: هو أرسلني، من غير آية، ولا علامة.
ولهذا إذا قال من صدقه: إنه رأى رؤيا: صدقه، وجزم بصدقه من قد خبر7 صدقه. والرؤ يا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة8.

1 في ((ط)) : أرسلها.
2 في ((خ)) : يعلم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : الرجل وأصدقاؤه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((خ)) : أرسله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : والتصديق أو لا؟ وتارة يحتاج إلى نظر: هل هذه العلامة منه، أو من غيره؟ وفيها تكرار لجملة سابقة، وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 عرف.
8 يشير إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة".. الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 62562، كتاب التعبير، باب رؤيا الصالحين. ومسلم في صحيحه 41773، كتاب الرؤيا. وأحمد في المسند 218، 50، 229. وانظر كلام الحافظ ابن حجر في فتح الباري (12390) على هذا الحديث.

وكذلك لو أخبر بغير ذلك؛ كما أخبر عمران بن حصين1 أن الملائكة تسلم عليه2، فلم يشك الذين أخبرهم في صدقه، من غير آية.
فمن كان يعلم صدق موسى، والمسيح، ومحمد، وغيرهم، وأنهم لا يكذبون في أخف الأمور، فكيف بالكذب على الله؟ إذا أخبرهم أحدهم بما جاءه من الوحي والرسالة، وما غاب من الملائكة؛ فإنه قد يجزم بصدقه، من غير آية، لا سيما إن كان ما يقوله لهم مما يؤيد صدقه.
ولهذا لم يكن من شرط الإيمان بالأنبياء وجود الآيات، بل قد يعلم صدقهم بدون ذلك؛ كما قد بين في موضع آخر3.
وتارة يحتاجون إلى العلامة، وتارة يعلمون كذبه بأن يذكر عن صاحبهم ما يعلمون هم خلافه، ويصفه بما علموا نقيضه. وقد يظهر لهم من قصده أنه كذاب، ملبس، طالب أغراض له؛ إما مال يعطونه، أو ولاية يولونه، أو

1 هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي، أبو نجيد. أسلم عام خيبر، وروى أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من فضلاء الصحابة. تحول إلى البصرة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولي قضاءها، وكان يفقه أهلها. وكان مجاب الدعوة. ولما حصلت الفتنة اعتزلها. توفي في البصرة سنة 52 ؟.
انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 2508. والأعلام للزركلي 570.
2 ابن الجوزي صفة الصفوة 1681، وابن الأثير في أسد الغابة رقم (796) ص 548. انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص 301.

3 سبق ذلك مرارا في كتب شيخ الإسلام رحمه الله؛ سيما كتابه النبوات؛ فقد ذكر فيه رحمه الله طرقا كثيرة في الدلالة على صدق الأنبياء، غير طريق المعجزة. وانظر: الجواب الصحيح 56.

امرأة يزوجونه بها، أو غير ذلك من أغراض النفوس؛ فيسألونه عن مقصوده، فإذا عرفوا مقصوده، فقد يعلمون كذبه أو صدقه.

ومثل هذا كثير في عادات الناس؛ فكثيرا ما يجيء الرجل بما يزعم أنه علامة، وتكون مشتركة1. فيقال له: ما تريد؟ فيذكر مراده، فيعلمون كذبه.
فدلائل الصدق والكذب لا تنحصر كدلائل الحب والبغض، هي كثيرة جدا، وهذا يعرفه من جرب عادات الناس.

---

1 يأتي بها النبي، وغير النبي.

فصل آيات الأنبياء دليل وبرهان
فالآيات التي تكون آيات للأنبياء: هي دليل وبرهان.
والله تعالى سماها برهانا في قوله لموسى: {فذانك برهانان من ربك} 1؛ وهي العصا واليد2.
وسماها برهانا [و] 3آيات في مواضع كثيرة من القرآن4.
فحدها حد الدليل والبرهان؛ وهي أن تكون مستلزمة لصدق النبي، فلا يتصور أن [توجد] 5 مع انتفاء [صدق] 6 من أخبر أن الله أرسله.
فليس له إلا حالان: إما أن يكون الله أرسله، فيكون صادقا، أو لا يكون أرسله، فلا يكون صادقا.
فآيات الصدق لا توجد إلا مع أحد النقيضين؛ وهو الصدق، لا [توجد] 7

---

1 سورة القصص، الآية 32.
2 وهو قول المفسرين جميعا. انظر: زاد المسير لابن الجوزي 6220-221.
3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 من ذلك: قوله تعالى: {يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم} [سورة النساء، الآية 174] . وقول صالح عليه السلام لقومه كما حكى الله تعالى عنه: {هذه ناقة الله لكم} [سورة الأعراف، الآية 73] . والأدلة على ذلك كثيرة جدا، أكثر من أن يجمعها محل واحد.
وقد سبق ذكر كثير منها في هذا الكتاب؛ انظر ص 251.
5 في ((خ)) : يوجد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : صدقه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 في ((خ)) : يوجد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

قط مع الآخر؛ وهو انتفاء الصدق؛ كسائر الأدلة؛ التي هي: البراهين، والآيات، والعلامة؛ فإنها لا توجد إلا مع تحقق المدلول عليه، لا توجد مع عدمه قط؛ إذ كانت مستلزمة له؛ يلزم من وجود الدليل، وجود المدلول عليه؛ فلا يوجد الدليل مع عدم المدلول عليه؛ فلا توجد آياتهم مع عدم صدقهم.
فيجب أن يتصور هذا الموضع؛ فإنه حق، معلوم بعد تصوره لكل العقلاء بالضرورة، فلا يمكن أحدا كذب النبي أن يأتي بمثلها؛ فإنه لو أتى بمثلها، مع تكذيب النبي، لكانت قد وجدت مع قوله: إني صادق، ومع قول هذا المكذب: إنه كاذب؛ فلم [تختص] 1 بصدقه، ولم تستلزمه؛ فلا يلزم إذا قال: إني صادق، أن يكون صادقا، وهذا قد أتى بمثل ما أتى به، وقال: إنه كاذب.

ولا يكون إعلاما من الله لعباده، وإخبارا لهم: بأني أرسلته، ولا تصديقا له؛ كما لو قال رجل: إن فلانا أرسلني، وجاء بعلامة ذكر أنه خصه بها؛ مثل أن يقول: العلامة أنه أعطاني خاتمه، فيقول المكذب: وأنا أيضا أعطاني خاتمه الأخرى لأصلحها له، أو لأختم بها كذا، وأنت إنما أعطاك خاتمه لتصلحها، أو [تختم] 2 بها.
فإذا أتى المكذب له بمثل ما أتى به، امتنع كونها آية.
ولكن لو كان قد [جاءهم] 3 بالخاتم غيره لأمر آخر أرسله [له] 4، لم

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يختص.
2 في ((خ)) : يختم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : جاء.
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

يمتنع ذلك، بل قد جرت عادته معهم: بأنه من أرسله، يرسل معه خاتمه؛ فقد صار إرسال الخاتم عادة له، يدل على صدق من أرسله؛ فهو يميز رسله بالخاتم، لا يخص بها واحدا منهم، وهي عادة منه لرسله، ليست لغيرهم؛ لا عادة، ولا غير عادة.
فهذا شأن الآيات والعلامات التي يقصد الدال بها أن يدل بها.

فصل: الله تعالى سمها آيات وبراهين ولم يسمها معجزات
والله تعالى سماها آيات وبراهين1، وهو اسم مطابق لمسماه، مطرد لا ينتقض، فلا [تكون] 2 قط إلا آيات لهم وبراهين.
أقوال الناس في تسمية آيات الأنبياء خوارق
وأما تسميتها بخرق العادة: فللناس في ذلك ثلاثة أقوال:
أحدها: أن ذلك حد لها مطرد منعكس؛ فكل خرق [هو] 3 معجزة للنبي، فهو خرق عادة4.
والثاني5: أن خرق العادة شرط فيها، وليس بحد لها، فيجب أن [تكون] 6 خارقة لعادة، ولكن ليس كل خارق للعادة يكون آية لنبي؛

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "لم يكن لفظ المعجزات موجودا في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان ... ". ثم ذكر رحمه الله الأدلة من القرآن الكريم على ذلك. انظر: الجواب الصحيح 5412-419. وسبق أن تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا الموضوع في هذا الكتاب. انظر ص 251، 939.
2 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : فهو. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 وهذا قول المعتزلة الذين ينكرون كرامات الأولياء، وخوارق السحرة.
انظر هذا الكتاب - النبوات - ص (147-151، 929-932) .
5 وهذا القول هو الذي يؤيده شيخ الإسلام رحمه الله تعالى. وسبق أن استوفى - رحمه الله - هذا المعنى في هذا الكتاب ص 187.
انظر ص 188-199، 249-250، 929-932.
6 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

كأشراط الساعة، بل أن يقع على وجه مخصوص؛ مثل دعوى النبوة، والاستدلال بها، والتحدي بمثلها، مع عجز الناس عن معارضته.

والقول الثالث: أن كونها خارقة للعادة ليس بحد، ولا شرط1.
قال القاضي أبو بكر في مناظرته في الكرامات2: ويقال لهم أيضا: إن من الناس من لا يشترط في الآية المعجزة أن تكون خارقة للعادة، ويقول: إنما [تكون] 3 آية إذا كانت من فعل الله، مع التحدي بمثلها، ودعوى النبوة. فدلالتها على وجه لا يمكن أن يشترك في ادعائه الصادق والكاذب، فإذا ظهرت على هذا الوجه، كانت آية لمن فعلت على يده. قال المجيبون بهذا4، ولهذا لم تكن أشراط الساعة آية لأحد، وإن خرقت العادة؛ إذ لم يكن معها دعوى نبوة، ولأن موت زيد عند قول الرسول: آيتي أن يميت الله زيدا عند دعائي: موته. فإذا مات عند دعوته، صار ذلك آية له، وإن كان فعل الموت في الإنسان وغيره من الحيوان معتادا.
قال5: [أو إن] 6 قالوا: لو كان كذلك، لكان من قال: آيتي أن

---

1 وهذا قول الأشاعرة.
انظر: الجواب الصحيح 6400. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 405، 407.
2 هذا من القسم المفقود من كتاب الباقلاني: البيان. وسبق أن نقل شيخ الإسلام رحمه الله هذا الكلام عن الباقلاني في ص 486.
وقد أشار الباقلاني في كتابه البيان إلى أنه سيفرد بابا في الكرامات. انظر: البيان ص 7، 48.
3 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 وهم الأشاعرة.
انظر: أصول الدين للبغدادي ص 170. وانظر ما سبق في كتاب ((النبوات)) ص 593-594، 644.
5 أي الباقلاني.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : إن.

[تطلع] 1 الشمس وتغرب، ويأتي الليل والنهار والضياء والظلام، وفعل ذلك مع دعواه الرسالة، كان آية له، وإن لم يكن المفعول من ذلك خارقا للعادة. فلما لم يكن كذلك، وإن كان [واقعا] 2 من فعل الله مع دعوى النبوة؛ لكونه غير خارق للعادة، بطل ما قلتموه؟ يقال لهم: قد أجبنا عن هذا حين قلنا: ويكون الواقع من فعل الله مع دعوى النبوة، مما لا يشترك فيه الصادق والكاذب، ويستوي مع ظهوره دعوى المحق والمبطل، وطلوع الشمس وغروبها.
ولو قال النبي: آيتي أن يظلنا السحاب الساعة، و [تزلزل] 3 الأرض، وتحدث الأمطار، بدعوى، فحدث ذلك، لكان آية له. وإن كان مثل ذلك قد يحدث في العصر ويشاهد، فإذا قال المتنبي: [إنني] 4 معارضه، وآيتي في كوني نبيا ظهور مثل ذلك، منع منه ولم يحدث5.

---

1 في ((خ)) : يطلع. وما اثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : "فاقعا". وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : تزلزله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : آيتي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 يوجد هذا الكلام بمعناه ومفهومه، لا بنصه ومنطوقه في كتاب البيان للباقلاني ص 47-48.
ولفظه هناك؛ قال الباقلاني: "فصل: وأما ما يدل على أنه لا يكون معجزا إلا إذا فعل عند احتجاج الرسول به لصدقه وتحديه بمثله، فهو أنه قد ثبت أنه ليس بمعجز لجنسه، وأن الله عز وجل لو ابتدأ بفعله؛ نحو أن يحيي ميتا، ويطلع الشمس من مغربها، ويزلزل الأرض، ويظلنا بالسحاب، لا عند دعوى أحد للرسالة. وكون ذلك آية له لم يكن ما يفعله الله سبحانه من ذلك معجزا، وإن كان من جنس المعجز، فلذلك لا يكون إحياء الأموات يوم القيامة، وإطلاع الشمس من مغربها، وطي السموات، وأمثال ذلك من آيات الساعة آية لأحد، وإن كان مثله، وما هو من جنسه لو فعل في وقتنا هذا عند تحدي الرسول، لكان آية له، وحجة لنبوته، فهذا أقوى الأدلة، وأصحها على أن المعجز ليس بمعجز لجنسه ونفسه، ولا بحدوثها، وإنما يصير معجزا للوجوه التي ذكرناها، ومنها التحدي والاحتجاج". البيان ص 47-48.
وانظر: الإرشاد للجويني ص 319، 328، 331. وانظر ما سبق من كتاب ((النبوات)) ص 644.

مناقشة شيخ الإسلام للباقلاني

قلت1: هذا الذي ذكروه، هو أيضا خرق للعادة؛ فإن ظهور مثل ذلك على هذا الوجه مما لم تجر به العادة، وهو نفسه القاضي أبو بكر في هذا الكتاب؛ ((كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل و [الكهانة] 2 والسحر والنيرنجيات)) ، قد قال: قيل: هذا باب القول في معنى العادة وانخراقها، والعادة التي إذا انخرقت دلت على صدق الرسل، والاعتياد للأمر، وتفصيل ذلك وتنزيله3:

اعلموا رحمكم الله4 أن الكل من سائر الأمم قد شرطوا في صفة [المعجز: أن] 5 يكون خارقا للعادة. وإذا6 كان ذلك واجبا، وجب معرفة هذه العادة، ومعرفة انخراقها7.

1 القائل هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

2 في ((خ)) : الكهان. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 الذي في البيان للباقلاني: عنوان: "القول في معنى العادة، وانخراقها، والعادة التي إذا انخرقت دلت على صدق الرسل والاعتياد للأمر والأمر المعتاد وتفصيل ذلك وتنزيله". ثم عنوان: فصل. انظر: البيان للباقلاني ص 50.

4 في البيان للباقلاني: وفقكم الله.

5 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : المعجزات. وما أثبت من البيان للباقلاني.

6 في البيان: فإذا.

7 البيان للباقلاني ص 50. وسبق أن نقل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى هذا النص في هذا الكتاب، انظر ص 660.

فقد [حكى] 1 هنا الإجماع، وهناك صرح بالاختلاف2، وقوى ذلك القول.

وسبب ذلك: اضطرابهم في معنى العادة وانخراقها؛ فإن كل قوم يفهمون غير ما يفهمه الآخرون، والله تعالى إنما سماها آيات3.

وهذا القول الذي ذكره وقواه، وهو: لا يشترط فيها أن تكون خارقة للعادة: هو حقيقة قول القاضي4، وأمثاله؛ من المتكلمين الأشعرية، ومن وافقهم؛ كالقاضي أبي يعلى، وأمثاله؛ فإن المعجزات عندهم لا تختص بجنس من الأجناس المقدورات، بل خاصتها أن النبي يحتج بها، ويتحدى بمثلها، فلا يمكن معارضته؛ فاشترطوا لها5 [وصفين] 6: أن تكون مقترنة بدعوى النبوة، وجعلوا المدلول جزءا من الدليل، وأنها لا تعارض.

وبالأول: فرقوا بينها وبين الكرامات.

وبه7 وبالثاني: فرقوا بينها وبين السحر والكهانة.

1 في ((ط)) : حكي.

2 أي في النقل السابق عن الباقلاني، وهو من القسم المفقود من كتابه البيان. انظر ص 49.

3 انظر: الجواب الصحيح 5412. وانظر النبوات ص 251.

4 قال الباقلاني في صفات المعجزات: "والوجه الثاني: أن يكون ذلك الشيء الذي يظهر على أيديهم مما يخرق العادة وينقضها، ومتى لم يكن كذلك لم يكن معجزا". البيان للباقلاني ص 45.

5 انظر: البيان للباقلاني ص 47-48. والإرشاد للجويني ص 312-313، 319. وأصول الدين للبغدادي ص 170. والمواقف للإيجي ص 339. وشرح المقاصد للتفتازاني 511.

6 في ((خ)) : تصفين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

7 أي بالشرط الأول.

وصرحوا بأن جميع خوارق السحرة والكهان يجوز أن تكون معجزة لنبي، لكن إذا كانت معجزة لم تمكن معارضتها. فلو ادعى ساحر أو كاهن النبوة، لكان الله يعجزه عن تلك الخوارق1، قد علم أن غيره من السحرة والكهان يفعل مثلها، وليس بنبي.
وما يأتي به الأنبياء من المعجزات جوزوا أن [يأتي] 2 بمثله الساحر والكاهن، إلا ما منع منه السمع؛ للإجماع3 على أن الساحر لا يقلب العصا حية4.
وهذا الفرق ليس لما يختص به أحد النوعين، ولا ضابط له.
وصرحوا بأنه لا يستثنى من الخوارق، إلا ما انعقد عليه الإجماع5.
وصرحوا بأن العجائب [الطبيعية] 6؛ مثل جذب حجر المغناطيس الحديد: يجوز أن يكون معجزة، لكن بشرط أن لا يعارض7.

وكذلك الطلاسم، وكذلك الأمور المعتادة: يجوز أن تكون معجزة بشرط أن يمنع غيره منها، فتكون المعجزة منع المعتاد8.
فالخاصة عندهم فيها9: أنها لا تعارض، وأنها تقترن بدعوى النبوة.

(1 انظر: البيان للباقلاني ص 94-96.
2 في ((خ)) : يأتوا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 انظر: البيان للباقلاني ص 91. والإرشاد للجويني ص 322-323.
4 انظر: البيان للباقلاني ص 91.
5 انظر: البيان للباقلاني ص 91.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : الطبعية.
7 انظر: البيان للباقلاني ص 98.
8 انظر: البيان للباقلاني ص 99، 100-101.
9 أي خاصة المعجزة وحقيقتها.

وقد يشترطون أن تكون خارقة للعادة، لكن يكتفون بمنع المعارض1؛ فهو وحده خرق للعادة؛ فلا يشترطون هذا وهذا.
وقد اشترط القاضي أبو بكر أن يكون مما يختص الرب بالقدرة عليه2.
ولا حقيقة له؛ فإن جميع الحوادث كذلك عندهم3، وكل ما [خرج] 4 عن محل قدرة العبد، فالرب عندهم مختص بفعله؛ كخوارق السحرة والكهان5.
وحقيقة الأمر: أنه لا فرق عندهم بين المعجزات والكرامات، والسحر والكهانة، لكن هذه إذا لم تقترن بدعوى النبوة لم [تكن] 6 آية، وإذا اقترنت بها كانت آية، بشرط أن لا تعارض7.
حقيقة قول الأشاعرة في النبوة
ثم إنه8 لما أثبت النبوة، قال: إنه يجوز على النبي فعل كل شيء من

---

1 انظر: البيان للباقلاني ص 47-48.
2 انظر: البيان للباقلاني ص 8، 45، 54. وأصول الدين للبغدادي ص 176.
3 انظر: الإرشاد للجويني ص 319، 322. وأصول الدين للبغدادي ص 134، 176.
وسبق أن قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى معلقا على ذلك: "إن المتأخرين من الأشعرية؛ كأبي المعالي، والرازي، والآمدي، وغيرهم حذفوا شرط كون المعجزة مما ينفرد الرب بالقدرة عليها، وقالوا: كل حادث فهو مقدور للرب". النبوات ص 250-251، 718-732.
4 في ((ط)) : خرجخ.
5 انظر: الإرشاد للجويني ص 319، 322. والبيان للباقلاني ص 88-90.
6 في ((خ)) : يكن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 انظر الإرشاد للجويني ص 322. والبيان للباقلاني ص 91.

8 يعني القاضي أبا بكر الباقلاني.

الكبائر، إلا أن يمنع من ذلك سمع1. كما قال: كل ما كان معجزة للأنبياء، يجوز أن يأتي به الساحر، إلا أن يمنع منه سمع2؛ إذ كان في نفس الأمر لا فرق بين فعل وفعل، بل يجوز من الرب كل شيء؛ فيجوز أن يبعث كل أحد، ولا يقيم على نبوته دليلا3.

هذا حقيقة قولهم: إنه يجوز أن يبعث كل أحد، وأنه إذا بعثه لا يقيم دليلا على نبوته، بل يلزم العباد بتصديقه، بلا دليل يدلهم على صدقه.

تعريف الأشاعرة للمعجزة، ورد شيخ الإسلام عليهم بجوابين

فإن غاية هذا: تكليف ما لا يطاق، وهم يجوزونه4.

وهذا الذي قالوه: باطل من وجوه متعددة، قد بسطت في غير هذا الموضع5.

---

1 سبق هذا الكلام.

انظر: النبوات ص 573-574، 732. والمواقف للإيجي ص 358-359.

2 انظر: البيان للباقلاني ص 91. والإرشاد للجويني ص 322، 323، 328.

3 سبق الكلام في ذلك.

انظر ما سبق في هذا الكتاب ص 573-575.

4 أي الأشاعرة.

وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 573-574.

وانظر أيضا: الإنصاف للباقلاني ص 74-77. والإرشاد للجويني ص 226- 228، 280، 326-327. والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص 112-114. وقواعد العقائد له ص 203-204. ومعالم أصول الدين للرازي ص 85-86.

وقال الإيجي: (تكليف ما لا يطاق جائز عندنا لما قدمنا ... من أنه لا يجب عليه شيء، ولا يقبح منه شيء، إذ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه) . المواقف للإيجي ص 330-331.

5 انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية 8295-302، 348، 472-474. ودرء تعارض العقل والنقل 163-65. وجامع الرسائل 1123-124.

منها: أنهم جعلوا المدلول عليه؛ وهو إخبار النبي بنبوته، وشهودها، وثبوتها: جزءا من الدليل؛ قالوا: لأنها لو كانت معجزة لجنسها، لم تقع إلا معجزة، والخوارق التي تكون أمام الساعة، ليست معجزة لأحد. فعلم أن الدليل هو مجموع دعوى النبوة، والخارق1.

والجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أن تلك من آيات الله تعالى؛ فالخوارق التي لا يقدر عليها العباد: كلها آيات [لله] 2 تعالى، وهي دالة على ما يظهر دلالتها عليه؛ تارة [تكون] 3 تخويفا؛ [كما] 4 قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا [ينكسفان] 5 لموت أحد، ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده" 6.

والتخويف يتضمن: الأمر [بطاعته، والنهي] 7 عن معصيته.

وأشراط الساعة آيات على قربها، وعلى جزاء الأعمال، وهو يتضمن الأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية8.

---

1 انظر: البيان للباقلاني ص 47-48. وأصول الدين للبغدادي ص 170، 178. والإرشاد للجويني ص 319. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 586، 593، 653. والجواب الصحيح 6400.

2 في ((ط)) : الله.

3 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

4 في ((خ)) : وكما - بزيادة الواو -، وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((م)) ، و ((ط)) : تنكسفان.
6 سبق تخريجه ص 882.
7 في ((خ)) : بالطاعة والأمر والنهي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
8 سبق نحو هذا الكلام في ص 597، 942.

والثاني: أن يقال: هي آيات على صدق الأنبياء؛ فإنهم أخبروا بها، وهي آية على ما أخبروا به، وعلى صدقهم.
عامة معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يتحدى بها
وأيضا: فإن عامة معجزات الرسول لم يكن يتحدى بها، ويقول ائتوا بمثلها. والقرآن إنما تحداهم لما قالوا إنه [افتراه] 1، ولم يتحداهم به ابتداء، وسائر المعجزات لم يتحد بها، وليس فيما نقل تحد إلا بالقرآن2، لكن قد علم أنهم لا يأتون بمثل آيات الأنبياء. فهذا لازم لها، لكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره.
آيات الأنبياء منها ما يكون قبل ولادتهم ومنها ما يكون بعد موتهم
وأيضا: فمن آيات الأنبياء ما كان قبل ولادتهم، وقبل أنبيائهم، وما يكون بعد موتهم3؛ فإن الآية [هي] 4 دليل على صدق الخبر بأنه رسول الله، وهذا الدليل لا يختص؛ لا بمكان، ولا زمان، ولا يكون هذا الدليل إلا من جنس لا يقدر عليه الإنس كلهم، ولا الجن، فلا بد أن يكون جنسه معجزا أعجز الإنس والجن.
وأما قولهم: خاصة المعجز عدم المعارضة5: فهذا باطل، وإن كان عدم المعارضة لازما له، فإن هذا العدم لا يعلم، إذ يمكن أن يعارضه من ليس هناك إذا كان مما يعلم أنه معتاد؛ مثل خوارق السحرة، والكهان؛ فإنه

1 في ((خ)) : افترا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سبق مثل ذلك في هذا الكتاب. انظر ص 652، 725.
3 ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى كلام حول هذا الموضوع. انظر الجواب الصحيح 6380.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
5 انظر: البيان للباقلاني ص 19-20. والإرشاد للجويني ص 312-313، 319. وأصول الدين للبغدادي ص170. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 588، 591.

وإن لم [يمكن] 1 أن يعارض في هذا الموضع، ففي السحرة والكهان من يفعل مثلها، مع أنه ليس بنبي.
تعريف الأشاعرة لدليل النبوة
ودليل النبوة يمتنع ثبوته بدون النبوة، وإذا قالوا: الدليل هو: مجموع الدعوى، والدليل2: تبين [خطؤهم] 3، وأن القوم لم يعرفوا دلائل النبوة، ولا أقاموا دليلا على نبوة الأنبياء، كما لم يقيموا دليلا على وجود الرب؛ فليس في كتبهم ما يدل على الرب تعالى، ولا على رسوله، مع أن هذا هو المقصود من أصول الدين4.
الأشاعرة لم يقيموا دليلا على ثبوت الأنبياء ووجود الرب تعالى
وأيضا: فمسيلمة، والعنسي: لم يكن عندهما من يعارضهما.
وأيضا: فالمعارض إن اعتبروه في المدعوين، وهذا مقتضى في خرق
العادة، وأن العادات تختلف، فلكل قوم عادة. قالوا5: فالمعتبر خرق عادة من أرسل إليهم.
وعلى هذا: فإذا أرسل إلى بني إسرائيل، ففعل ما لم يقدروا عليه، كان آية، وإن كان ذلك مما يقدر عليه العرب، ويقدر عليه السحرة والكهان.
وصرحوا بأن السحر الذي قال الله فيه: {وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر} 6: يجوز أن يكون من معجزات الأنبياء إذا لم

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يكن.

2 انظر ما سبق في هذا الكتاب ص 593، 653، 949-950. وانظر الجواب الصحيح 6500.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : خطأهم.
4 يقصد شيخ الإسلام رحمه الله بهذا الكلام الأشاعرة.
وقد سبق نحو هذا الكلام في ص 611، 754-756 من هذا الكتاب.
5 انظر: البيان للباقلاني ص 52-55.
6 سورة البقرة، الآية 102.

يعارض1، وقد قال الرازي: إن السمعيات لا يحتج بها؛ لأن دلالتها مشروطة بعدم المعارض العقلي، وذلك غير معلوم2.
وكذلك يقال في معجزات هؤلاء أن خاصتها عدم المعارضة. فإن اعتبروا أن أحدا من الخلق لا يعارض، فهذا لا يعلم. وإن اكتفوا بأن لا يعارض في ذلك المكان والزمان، فكثير من الصناعات، والعجائب، والعلوم من هذا الباب. وهم لا ينكرون هذا، بل يقولون: المعجز هو هذا، مع دعوى النبوة.
وقد تبين أن الشيء في نفسه إذا لم يكن دليلا، لم يصر دليلا باستدلال المستدل به، بل هو في نفسه دليل، وإن لم يستدل به؛ [إذ] 3 كان الدليل هو المستلزم للمدلول؛ فدليل صدق النبي هو يدل على أنه نبي، وأن الخبر بنبوته صدق، وإن كان هو لا يستدل بذلك، ولا يتحدى بمثلها، وقد لا يخبره بنبوة نفسه، ويكون له دلائل تدل على نبوته؛ كما كانت قبل أن يولد، وفي الأمكنة البعيدة.
فتبين أن قول هؤلاء [هو] 4: أنه لا يعلم ما يستدل به على نبوة الأنبياء5.

---

1 سبق هذا الكلام في هذا الكتاب ص 156، 586-588. وانظر: البيان للباقلاني ص 94-96. والإرشاد للجويني ص 327-328.
2 سبق نقل ذلك عن الرازي في هذا الكتاب ص 652.
3 في ((ط)) : إذا.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 من أصول الأشاعرة في النبوات.

وهذا إذا انضم إلى أصلهم؛ وهو: أن الرب يجوز عليه فعل كل شيء1، صارا شاهدين: بانه على أصلهم لا دليل على النبوة؛ [إذ] 2 كان عندهم لا فرق بين فعل من الرب وفعل. وعندهم: لا فرق بين جنس وجنس في اختصاصه بالأنبياء به، فليس في أجناس المعقولات ما يكون آية تختص بالأنبياء، فيستلزم نبوتهم. بل ما كان لهم قد يكون [عند غيرهم] 3، حتى للسحرة والكهان، وهم أعداؤهم. فرقوا بعدم المعارضة، وهذا فرق غير معلوم، وهو مجرد دعوى.
الفرق بين النبي والساحر عند الأشاعرة
قالوا: لو ادعى الساحر والكاهن النبوة، لكان الله ينسيه الكهانة والسحر، ولكان له من يعارضه4؛ لأن السحر والكهانه هي معجزة عندهم.
وفي هذه الأقوال من الفساد عقلا وشرعا، ومن المناقضة لدين الإسلام، وللحق ما يطول وصفه.
ولا ريب أن قول من أنكر وجود هذه الخوارق5 أقل فسادا من هذا.
ولهذا يشنع عليهم ابن حزم وغيره بالشناعات العظيمة6.

---

1 سبق توضيح هذا الأصل عند الأشاعرة، وأنهم به قد نفوا الحكمة عن الله تعالى، وجوزوا عليه فعل كل قبيح.
انظر ص 152، 268، 335، 566 من هذا الكتاب.
2 في ((خ)) : ان. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : عندهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سبق ذكر ذلك مرارا. وانظر: البيان للباقلاني ص 94-95.

5 وهم المعتزلة، وابن حزم؛ فقد أنكروا الخوارق للأولياء وللسحرة على السواء.
6 سبقت الإشارة إلى ذلك في ص 266.
وقد رد ابن حزم رحمه الله على الأشاعرة في تفريقهم بين المعجزات والسحر، وأطال في ذلك. انظر: الفصل له 52-9.

الفرق بين المعجزات والسحر عند الأشاعرة
ولهذا يقيم أكابر فضلائهم مدة يطلبون الفرق بين المعجزات والسحر، فلا يجدون فرقا؛ إذ لا فرق عندهم في نفس الأمر1.

---

1 الفروق التي ذكرها الأشاعرة بين المعجزات وخوارق السحرة فروق ضعيفة، لا تميز بين المعجزة والسحر. ويمكن أن نذكر ها هنا بعض أقوال أئمة الأشاعرة التي توضح بعضا من هذه الفروق التي ذكروها.
وقد أورد الباقلاني سؤالا، وهو: "ما الفصل بين السحر والمعجز؟ ". ثم أجاب بقوله: "إن من حق المعجز أن لا يكون معجزا حتى يكون واقعا من فعل الله سبحانه وتعالى على حد خرق عادة البشر، مع تحدي الرسول عليه السلام بالإتيان بمثله، وتقريع مخالفه بتعذر مثله عليه. فمتى وجد الشيء الذي ينفرد الله سبحانه بالقدرة عليه على حد العادة، على غير تحدي نبي به، واحتجاج لنبوته بظهوره، لم يكن معجزا ... فإذا كان ذلك ... كذلك، خرج السحر عن أن يكون معجزا مشبها لآيات الرسل، وإن كان ما يظهر عند فعل الساحر من جنس بعض معجزات الرسل، وما يفعله الله تعالى عند تحديهم به. غير أن الساحر إذا احتج بالسحر، وادعى به النبوة، أبطله الله عليه بوجهين" ...
ثم ذكر هذين الوجهين، وهما: أن ينسيه الله عمل السحر. والوجه الثاني: أن يوجد من السحرة من يعارضون هذا الساحر المدعي للنبوة. انظر البيان للباقلاني ص 94-95.
إذا: الفرق بين المعجز والسحر عنده: هو التحدي فقط، وإلا فالجنس واحد.
وقال أيضا: "ويجب في الجملة أن لا نستثني في السحر شيئا لا يفعل عنده، إلا ما ورد الإجماع والتوقيف على أنه لا يكون بضرب من السحر". البيان ص 91.
أما الجويني: فيرى أن كل ما خرق للنبي من الآيات الكبرى، يقع للولي، ولا فرق بين المعجزة والكرامة إلا دعوى النبوة. انظر: الإرشاد للجويني ص 317.
ثم يقول عن السحر: "ولا يمتنع عقلا أن يفعل الرب تعالى عند ارتياد الساحر ما يستأثر بالاقتدار عليه، فإن كل ما هو مقدور للعبد، فهو واقع بقدرة الله تعالى عندنا. والدليل على جواز ذلك [يعني السحر] كالدليل على جواز الكرامة، ووجه الميز هاهنا بين السحر والمعجزة؛ كوجه الميز في الكرامة، فلا وجه إلى إعادته". الإرشاد للجويني ص 322.
وقال أيضا: "وجنس المعجزة يقع من غير دعوى، وإنما الممتنع وقوعه على حسب دعوى الكاذب". الإرشاد للجويني ص 328.
وقال أيضا: "إن المعجز لا تدل لعينها، وإنما لتعلقها بدعوى النبي والرسالة، ونزولها منزلة التصديق بالقول". الإرشاد للجويني ص 319.
فالجويني: يجعل الفرق بين المعجزة والكرامة هو التحدي فقط، وإلا فبإمكان الولي أن يكون له مثل معراج الرسول، وعصا موسى، وناقة صالح، ونار إبراهيم عليه السلام. ثم يجعل الفرق بين المعجز والسحر مثل الفرق بين المعجزة والكرامة، ويزعم أن بإمكان الساحر أن يأتي بجنس المعجز إذا لم يدع النبوة.
ويذكر الشهرستاني الفرق بين المعجزة والسحر؛ فيقول: "إذا لم يدع الكاذب النبوة، فلا محذور ولا مانع من ظهور الخوارق". نهاية الإقدام للشهرستاني ص 434.
ويقول الإيجي: "إنا بينا أن لا مؤثر في الوجود إلا الله. والسحر ونحوه - إلا إن لم يبلغ حد الإعجاز؛ كفلق البحر، وإحياء الموتى، كما هو مذهب جميع العقلاء - فظاهر، وإن بلغ. فأما دون دعوى النبوة والتحدي فظاهر أيضا، أو معه، فلا بد من ألا يخلقه الله على يده، أو أن يقدر غيره على معارضته، وإلا كان تصديقا للكاذب، وأنه محال". المواقف في علم الكلام للإيجي ص 346.
وقال المازري عن مذهب الأشعري، وأن الخوارق تقع على أيدي السحرة، مما ليس بمقدور الخلق: "ومذهب الأشعري: أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك، قال: وهذا هو الصحيح عقلا؛ لأنه لا فاعل إلا الله تعالى. وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله تعالى، ولا تفترق الأفعال في ذلك، وليس بعضها بأولى من بعض.... فإن قيل: إذا جوزت الأشعرية خرق العادة على يد

الساحر، فبماذا يتميز عن النبي؟ فالجواب: أن العادة تنخرق على يد النبي والولي والساحر، لكن النبي يتحدى بها الخلق". شرح النووي على صحيح مسلم 14175.
وقال القرطبي: "قال علماؤنا: لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات، مما ليس في مقدور البشر،.... وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر، كما يخلق الشبع عند الأكل، والري عند شرب الماء". الجامع في أحكام القرآن للقرطبي 233.
وقال ملا علي القاري: "كل ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، لا فارق بينهما إلا التحدي". شرح الفقه الأكبر ص 79.
وكلامهم في ذلك كثير، وكلها فروق هزيلة كما تبين.
وانظر حول هذا الموضوع أيضا: شرح المقاصد للتفتازاني 511، 72-74. وجوهرة التوحيد للصاوي ص 98. وحاشية الأمير على شرح عبد السلام على الجوهرة ص 154.
وهكذا نرى الأشاعرة يجعلون جنس الخارق واحد للمعجزة والكرامة والسحر، إلا أن الفرق بين المعجزة والكرامة هو دعوى النبوة والتحدي، والفرق بين الكرامة والسحر هو أن الكرامة تظهر على الرجل الصالح، والسحر يظهر على الرجل الفاسق، والفرق بين المعجزة والسحر هو كالفرق بين المعجزة والكرامة.
وهذه الفروق ضعيفة، وغير مقبولة؛ لأنها لا تميز بين النبي والولي والساحر.
وقد سبقت ردود شيخ الإسلام رحمه الله (في هذا الكتاب ص 727-728) على من فرق هذه الفروق. وسيأتي مزيد توضيح، ونقد لطريقة الأشعرية في فروقهم هذه، وبيان عدم جدواها في التمييز بين النبي والمتنبي، مما فيه غنية عن ذكره هنا.

قول شيخ الإسلام في آيات الأنبياء
والتحقيق: أن آيات الأنبياء مستلزمة للنبوة، ولصدق الخبر بالنبوة، فلا يوجد إلا مع الشهادة للرسول بأنه رسول، لا يوجد مع التكذيب بذلك، ولا مع عدم ذلك البتة، وليست من جنس ما يقدر عليه؛ لا الإنس، ولا الجن؛ فإن ما يقدر عليه الإنس والجن يفعلونه، فلا يكون مختصا بالأنبياء.
ومعنى كونها خارقة للعادة: أنها لا توجد إلا للنبوة؛ لا مرة، ولا أقل، ولا أكثر. فالعادة هنا تثبت بمرة. والقاضي أبو بكر يقول: إن ما فعل مرات يسيرة لا يكون معتادا1.

---

1 انظر: البيان للباقلاني ص 50-51. والإرشاد للجويني ص 310-311.
وقد ذكر الباقلاني معنى الاعتياد، حين عرف العادة بقوله: "العادة على الحقيقة: إنما هي تكرر علم العالم ووجوه الشيء المعتاد على طريقة واحدة؛ إما بتجدد صفته وتكررها، أو ببقائه على حالة واحدة". البيان للباقلاني ص 50.
وسيأتي تعريف العادة عند شيخ الإسلام رحمه الله. انظر ص 1061، 1173 من هذا الكتاب.

وفي كلامه في هذا الباب1 من الاضطراب ما يطول وصفه. وهو رأس هؤلاء الذين اتبعوه؛ كالقاضي أبي يعلى، وأبي المعالي، والرازي، والآمدي، وغيرهم.
وما يأتي به السحرة والكهان، يمتنع أن يكون آية لنبي، بل هو آية على الكفر، فكيف يكون آية للنبوة، وهو مقدور للشياطين؟.
وآيات الأنبياء لا يقدر عليها جن ولا إنس، وآيات الأنبياء آيات لجنسها، فحيث كانت آية لله، تدل على مثل ما أخبرت به الأنبياء، وإن شئت قلت2: هي أيات لله، يدل بها على صدق الأنبياء تارة، وعلى غير ذلك تارة.
وما يكون للسحرة والكهان، لا يكون من آيات الأنبياء، بل آيات الأنبياء مختصة بهم.
الفرق بين المعجزات والكرامات
وأما كرامات الأولياء3: فهي أيضا من آيات الأنبياء؛ فإنها إنما تكون

---

1 يقصد: باب إثبات صدق النبي، والفرق بين خوارقه وخوارق السحرة والكهان.
2 الشيخ رحمه الله يعرف هنا المعجزة، أو آية النبي اصطلاحا.

3 يريد شيخ الإسلام رحمه الله أن يذكر الفرق بين المعجزات والكرامات. وقد سبق صنيعه هذا مرارا فيما مضى. انظر ص 604، 724 من هذا الكتاب.
والأشاعرة لا يفرقون بين المعجزة والكرامة إلا بالتحدي، ويجعلون كل ما خرق للنبي لا يمتنع أن يكون للولي.
يقول الجويني: "صار بعض أصحابنا إلى أن ما وقع معجزة لنبي لا يجوز وقوعه كرامة لولي؛ فيمتنع عند هؤلاء أن ينفلق البحر، وتنقلب العصا ثعبانا، ويحيي الموتى كرامة لولي، إلى غير ذلك من آيات الأنبياء. وهذه الطريقة غير سديدة أيضا. والمرضي عندنا: تجويز جملة خوارق العوائد في معارض الكرامات". الإرشاد للجويني ص 317.
وقال أيضا: "فإن قيل: ما دليلكم على تجويزها؟ قلنا: ما من أمر يخرق العوائد، إلا وهو مقدور للرب تعالى ابتداء، ولا يمتنع وقوع شيء لتقبيح عقل، لما مهدناه فيما سبق، وليس في وقوع الكرامة ما يقدح في المعجزة؛ فإن المعجزة لا تدل لعينها، وإنما تدل لتعلقها بدعوى النبي الرسالة، ونزولها منزلة التصديق بالقول.....".
ثم قال: "فإن قيل: فما الفرق بين الكرامة والمعجزة؟ قلنا: لا يفترقان في جواز العقل، إلا بوقوع المعجزة على حسب دعوى النبوة". الإرشاد للجويني ص 317-318.
وقال الباقلاني: "ولذلك أيضا أجزنا فعل أمثالها [أي المعجزات] ، وما هو من جنس كثير منها، على أيدي الأولياء والصالحين، على وجه الكرامة لهم". البيان للباقلاني ص 48.
والفرق عنده: أن المعجزة لا تكون، حتى يتحدى بها.
وهذه أيضا فروق ضعيفة بين المعجزة والكرامة. وقد انتقدها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وأوضح القول الحق في هذا الموضوع من هذا الكتاب.

لمن [يشهد] 1 لهم بالرسالة، فهي دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوة.
وأيضا: فإن كرامات الأولياء معتادة من الصالحين، ومعجزات الأنبياء فوق ذلك؛ فانشقاق القمر، والإتيان بالقرآن، وانقلاب العصا حية، وخروج الدابة من صخرة2، لم يكن مثله للأولياء؛ وكذلك خلق الطير من

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : تشهد.
2 قال تعالى: {وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم} [سورة الأعراف، الآية 73] . وقال تعالى يحكي عن قوم صالح وقولهم لنبيهم: {قالوا إنما أنت من المسحرين. ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين. قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم. ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم. فعقروها فأصبحوا نادمين} [سورة الشعراء، الآيات 153-157] .
قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: "وقد احتج ملأهم، وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء، وأشاروا إلى صخرة عندهم من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم، وكفر أكثرهم". تفسير ابن كثير 3344.

الطين، ولكن آياتهم صغار، وكبار؛ كما قال الله تعالى: {فأراه الآية الكبرى} 1؛ فلله تعالى آية كبيرة وصغيرة، وقال عن نبيه محمد: {لقد رأى من آيات ربه الكبرى} 2، فالآيات الكبرى مختصة بهم.
الآيات قسمان: كبرى وصغرى
الآيات الكبرى مختصة بالأنبياء
الآيات الصغرى قد تكون للصالحين
وأما الآيات الصغرى: فقد [تكون] 3 للصالحين؛ مثل تكثير الطعام، فهذا قد وجد لغير واحد من الصالحين4، لكن لم يوجد كما وجد للنبي صلى الله عليه وسلم أنه أطعم الجيش من شيء يسير5. فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وجد لهم، لكن لا يماثلون في

قدره؛ فهم مختصون إما بجنس الآيات فلا يكون لمثلهم؛ كالاتيان بالقرآن، وانشقاق القمر، وقلب العصا حية، وانفلاق البحر، وأن يخلق من الطين كهيئة الطير؛ وإما بقدرها، وكيفيتها؛ كنار الخليل6؛ فإن أبا مسلم [الخولاني] 7، وغيره صارت النار عليهم بردا وسلاما8، لكن

1 سورة النازعات، الآية 20.
2 سورة النجم، الآية 18.
3 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 تقدم بيان ذلك في ص 162.
5 سبق نحو هذا الكلام في ص 162، 498.
6 قال تعالى: {قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم} [سورة الأنبياء، الآية 69] .
7 في ((ط)) : الحولاني.
8 تقدم تفصيل ذلك في ص 161-162.

لم تكن مثل نار إبراهيم في عظمتها كما وصفوها1، فهو مشارك للخليل في جنس الآية؛ كما هو مشارك في جنس الإيمان محبة الله وتوحيده. ومعلوم أن الذي امتاز به الخليل من هذا، لا يماثله فيه أبو مسلم، وأمثاله.
وكذلك الطيران في الهواء؛ فإن الجن لا تزال تحمل ناسا، وتطير بهم من مكان إلى مكان؛ كالعفريت الذي قال لسليمان: {أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك} 2، لكن قول الذي عنده علم من الكتاب: {أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك} 3: لا يقدر عليه العفريت.
ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ليريه الله من آياته الكبرى4: أمر اختص به، بخلاف من يحمل من مكان إلى مكان، لا ليريه الله من آياته الكبرى5، أمر اختص به، ولا يعرج إلى السماء.
فهؤلاء كثيرون، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع6.

1 يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: "لما دحضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. فجمعوا حطبا كثيرا جدا. قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطبا لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في هوة من الأرض وأضرموها نارا، فكان لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها. وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد....". تفسير ابن كثير 3183.
2 سورة النمل، الآية 39.
3 سورة النمل، الآية 40.
4 قال تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى} . [الإسراء 1] .
5 انظر: صحيح البخاري 41748.
6 انظر ما سبق في هذا الكتاب من ص 164-169.

نقد شيخ الإسلام للأشاعرة في النبوات
والمقصود هنا: أن هؤلاء حقيقة قولهم: أنه ليس للنبوة آية تختص بها؛ كما أن حقيقة قولهم: أن الله لا يقدر أن يأتي بآية تختص بها، وإنه لو كان قادرا على ذلك، لم يلزم أن يفعله، بل ولم يفعله. فهذان أمران متعلقان بالرب؛ إذ هو عندهم لا يقدر أن يفعل شيئا لشيء1.
والآية إنما تكون آية: إذا فعلها [ليدل] 2. ولو قدر أنه قادر، فهم يجوزون عليه فعل كل شيء؛ فيمكن أنه لم يجعل على صدق النبي دليلا.

وأما الذي ذكرناه عنهم هنا، فإنه يقتضي أنه لا دليل عندهم على نبوة النبي، بل كل ما قدر دليلا، فإنه يمكن وقوعه مع عدم النبوة، فلا يكون دليلا.
فهم هناك3 حقيقة قولهم: إنا لا نعلم على النبوة دليلا. وهنا حقيقة قولهم4: أنه لا دليل على النبوة.

---

1 انظر: الإرشاد للجويني ص 319، 326. والمواقف للإيجي ص 330-332.
وقد سبق أن أشار المؤلف رحمه الله إلى معتقد الأشعرية هذا أكثر من مرة، في هذا الكتاب. انظر ص 485-505، 533-539، 564-573، 588-589.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : لتدل.
3 سبق أن أوضح شيخ الإسلام رحمه الله تعالى تناقض الأشعرية في قولهم إن الله لا ينزه عن فعل ممكن، ولا يقبح منه فعل، ونفيهم للحكمة، وقولهم إن الله لا يظهر الخوارق على يد الكاذب؛ لأن ذلك يفضي إلى القول بعجز الرب.
وسبق كذلك أن قال الشيخ رحمه الله عن الأشاعرة - في هذا الكتاب ص 573-574: "ومن جوز منهم تكليف ما لا يطاق مطلقا، يلزمه أن يأمر الله بتبليغ رسالة لا يعلم ما هي".
وانظر ما تقدم في هذا الكتاب في ص 268-281، 580-583، 587-588.
4 أي في معرض الكلام على النبوة.

ولهذا كان كلامهم في هذا الباب1 منتهاه التعطيل.
الغزالي عدل عن طريقة الأشاعرة في الاستدلال بالمعجزات
ولهذا عدل الغزالي وغيره عن طريقهم في الاستدلال بالمعجزات2؛ لكون المعجزات على أصلهم3 لا تدل على نبوة نبي.
وليس عندهم في نفس الأمر معجزات، وإنما يقولون: المعجزات علم الصدق؛ لأنها في نفس الأمر كذلك4.
وهم صادقون في هذا، لكن على أصلهم ليست دليلا على الصدق، ولا دليل على الصدق.
فآيات الأنبياء تدل على صدقهم دلالة معلومة بالضرورة تارة، وبالنظر أخرى.
وهم قد يقولون: إنه يحصل العلم الضروري بأن الله صدقه بها؛ وهي الطريقة التي سلكها أبو المعالي، والرازي، وغيرهما5؛ وهي طريقة صحيحة في نفسها، لكن [تناقض] 6 بعض أصولهم.

---

1 أي في باب إثبات النبوة. وانظر ما سبق في هذا الكتاب في ص 732-733.
2 سبق مثل ذلك في ص 732 من هذا الكتاب.
3 وهو قولهم بنفي الحكمة، وأن الله لا يفعل شيئا لأجل شيء.
4 الأشاعرة ينفون التعليل في أفعال الله تعالى، ويجوزون على الله كل فعل؛ إذ الله تعالى على أصلهم: لا يفعل شيئا لأجل شيء، وحينئذ فلم يأت بالآيات الخارقة للعادة لأجل تصديق الرسول، ولا عاقب هؤلاء لتكذيبهم له، ولا أنجى هؤلاء ونصرهم لإيمانهم به؛ إذ كان لا يفعل شيئا لشيء عندهم.. وهم إذا جوزوا على الرب تعالى كل فعل، جاز أن يظهر الخوارق على يد الكاذب. انظر: الجواب الصحيح 6394.
5 سبق مثل ذلك في ص 275، 276، 580-581 من هذا الكتاب. وانظر: الجواب الصحيح 6398-399. وشرح الأصفهانية 2622.
6 في ((خ)) : يناقض. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

فالقدح ليس في آيات الأنبياء، لكن في الأقوال الفاسدة التي تناقض ما هو معلوم بالضرورة عقلا، وما هو أصل الإيمان شرعا.
ومن عرف تناقضهم في الاستدلال يعرف أن الآفة في فساد قولهم، لا في جهة صحة الدلالة؛ فقد يظهر بلسانه ما ليس في قلبه؛ كالمنافقين الذين يقولون: {نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} 1.
قول الإمام أحمد في علماء الكلام
ولقد صدق الإمام أحمد في قوله: علماء الكلام زنادقة2.

وطريقة القرآن فيها الهدى، والنور، والشفاء؛ سماها آيات، وبراهين.
فآيات الأنبياء مستلزمة لصدقهم، وصدق من صدقهم، وشهد لهم بالنبوة.
الأنبياء قد يتماثلون في الآيات
والآيات التي يبعث الله بها أنبياء، قد يكون مثلها لأنبياء أخر؛ مثل إحياء الموتى؛ فقد كان لغير واحد من الأنبياء3.
وقد يكون إحياء الموتى على يد اتباع الأنبياء؛ كما قد وقع لطائفة من

---

1 سورة المنافقون، الآية 1.
2 انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص 83. وصون المنطق والكلام للسيوطي ص 128.
وقال الإمام أحمد رحمه الله في أهل الكلام أيضا: "لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة". رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ص 205.
وقال أيضا - رحمه الله -: "لا يفلح صاحب كلام أبدا، ولا تكاد ترى أحدا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل". جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 295.
3 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي، كما أتى المسيح بإحياء الموتى، وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره..". الجواب الصحيح 5434.

هذه الأمة1، ومن اتباع عيسى2؛ فإن هؤلاء يقولون: نحن إنما أحيى الله الموتى على أيدينا؛ [لاتباع محمد، أو المسيح، فبإيماننا بهم، وتصديقنا لهم أحيى الله الموتى على أيدينا] 3، فكان إحياء الموتى مستلزما [لصدق] 4 عيسى، و [محمد] 5، لم يكن قط مع تكذيبهما، فصار آية لنبوتهم، وهو أيضا آية لنبوة موسى، وغيره من أنبياء بني [إسرائيل] 6 الذين أحيي الله الموتى على أيديهم.

---

1 ذكر العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى كثيرا من القصص عن إحياء الموتى في أمة محمد صلى الله عليه وسلم.
انظر: البداية والنهاية 6161-166. وانظر ما تقدم في هذا الكتاب ص 162، 593، 594.
2 أما إحياء الموتى للحواريين أتباع عيسى عليه السلام: فهي مسألة لم أجد فيها نصا واضحا، وإن كان يوجد في الإنجيل المحرف كلام ينسبونه لعيسى عليه السلام موجه للحواريين، يقول فيه: "وفيما أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين: إنه قد اقترب ملكوت السموات، اشفوا مرضى، طهروا برصا، أقيموا موتى، أخرجوا شياطين". إنجيل متى، الإصحاح العاشر، الفقرة 7 إلى 10.
ولشيخ الإسلام رحمه الله كلام، كأنه يضعف فيه الخبر الذي ذكر آنفا، ويقلل من مقدرة الحواريين على ما نسبه إليهم النصارى، يقول فيه رحمه الله تعالى: "فيزعمون أن الحواريين، أو هؤلاء [أي أهل المجامع] جرت على أيديهم خوارق، وقد يذكرون أن منهم من جرى إحياء الموتى على يديه. وهذا إذا كان صحيحا، مع أن صاحبه لم يذكر أنه نبي، لا يدل على عصمته؛ فإن أولياء الله؛ من الصحابة، والتابعين بعدهم بإحسان، وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات ما يطول وصفه، وليس فيهم معصوم يجب قبول كل ما يقول، بل يجوز الغلط على كل واحد منهم، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام". الجواب الصحيح 6399-400. وانظر المصدر نفسه 417-18.
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 في ((م)) ، و ((ط)) : لتصديقه.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : محمدا.
6 في ((ط)) : إسلائيل.

وليس مدلول الآيات هو مجرد دعواه أن الله أرسلني، وإخباره عن نفسه بذلك؛ لأن ذلك معلوم بالحس لمن سمعه، وبالتواتر لمن لم يسمعه، بل صدقه في هذا الخبر؛ وهو ثبوت نبوته.
الآية مستلزمة لصدق النبي وثبوت نبوته

فالآية مستلزمة لصدقه، وثبوت نبوته. ومن أخبر غيره عن إرسال الله له، وأتى هذا المخبر بآية، كانت أيضا آية على صدق هذا المخبر، وثبوت نبوة النبي؛ فإن من أخبر عن نبوة نبي من الأنبياء، وأتى بآية على صدقه في خبره، كانت تلك آية ودليلا على نبوة النبي، وأن إخبار المخبر بنبوته صدق. بل [كون] 1 غيره هو المخبر، الآتي بالعلامة أبلغ. ولهذا كانت من أعظم آيات النبي: إخبار غيره من الأنبياء بنبوته.

فإن قال آخر: إنه كذب، وأتى بمثل تلك الآية، بطلت الدلالة المعينة، ولا يلزم من بطلان دليل معين، بطلان سائر الأدلة؛ فإن الدليل يجب طرده، ولا يجب عكسه2.

ولو جاء من قال: إن فلانا أرسلني، ومعه شخص، فصدقه، وقال: إنه أمرني أن أخبركم بأنه رسوله بعلامة كيت وكيت، لكان ذلك أبلغ.

وكل من علم صدق النبي، فقد صدقه أنه [.................] 3 أن يعلم الناس أن الله يشهد له بالنبوة، ويحكم بينه وبين منازعيه بتصديقه وتكذيبهم، وذلك بآياته وعلاماته يبين بها أنه مصدق للرسول.

وقد يصدقه بكلامه الذي قد بين أنه كلامه؛ فكونه في نفسه آية وعلامة؛

---

1 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .

2 تقدم التنويه بذلك في ص 307 من هذا الكتاب.

3 في ((خ)) بياض بقدر سطرين. وكذا في ((م)) ، و ((ط)) كما أشير إلى ذلك في الهامش.

إذ كان لا يمكن الجن [والإنس] 1 أن ياتوا

بمثله، فهو من أعظم الآيات.

وبغير ذلك؛ فالآيات كلها شهادة بالنبوة، وإخبار بها، وتصديق للمخبر؛ فهي تستلزم ثبوت النبوة في نفسها، وأن صاحب الآيات قد نبأه الله، وأوحى إليه؛ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء، وتستلزم أيضا: صدق الإخبار بأنه نبي؛ فهو إذا قال: إني نبي، كان صادقا، وكذلك كل من أخبر بنبوته، فإنه يكون صادقا.

وثبوت الشيء، وصدق من أخبر به: متلازمان؛ فكل حق ثابت، إذا أخبر به مخبر، فهو صادق، وكل خبر صادق، فقد تحقق مخبره.

[فالخبر] 2 الصادق هو ومخبره متلازمان؛ يلزم من صدق الخبر، تحقق مخبره.

ومن تحقق الشيء، صدق المخبر به؛ بخلاف الكذاب، فإنه ومخبره ليسا متلازمين، بل الخبر الكذب يوجد مع انتفاء مخبره، والمخبر به يتحقق على صفة خلاف ما في الخبر الكاذب3.

فلهذا كانت الآيات، والعلامات، والدلائل، ونحو هذا كما تدل على المدلول، وأنه حق ثابت، فهي أيضا تدل على صدق من أخبر به كائنا من كان.

فمن قال: إني ابن فلان، وقامت بينة بنسبه، فهي تثبت صدقه،

وصدق كل من قال: هو ابن فلان.

---

1 في ((ط)) : والان.

2 في ((ط)) : كالخبر.

3 انظر كلام شيخ الإسلام - رحمه الله - حول هذا الموضوع في شرح الأصفهانية 2592-597.

وكذلك البينة التي تشهد برؤية الهلال، وهي تشهد بصدق كل من أخبر بطلوعه.

وكذلك كل دليل دل على مدلول، فهو دليل على صدق كل من أخبر بذلك المدلول عليه.

وكذلك إذا قال الصادق: إن الله أرسلني، فهذا خبر منه عن إرسال الله؛ فالآية الدالة على صدقه، تدل على صدق كل من قال: إن الله أرسله.

فالآيات الدالة على صدق محمد، إذا قال ما أمره الله به في قوله: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا} 1، هي دالة على صدق كل من قال: أشهد أن محمدا رسول الله.
فجميع آياته، وآيات الأنبياء الذين أخبروا بنبوته؛ كموسى، والمسيح [عليهما السلام] ، وأنبياء بني إسرائيل، وغيرهم: كلها آيات، ومعجزات [تبين] 2 صدق كل واحد من المؤمنين به، الذين يقول أحدهم: أشهد أن محمدا رسول الله؛ سواء قالها مجردة، أو قالها في صلاته، أو عقب طهارته، أو متى ما قالها.
ليست آيات النبوة دالة على أنه وحده هو الصادق في قوله: إني
رسول الله إليكم جميعا، بل الآيات تصدقه، وتصدق كل من شهد له بالرسالة.
وهكذا سائر الأدلة الدالة على مدلول؛ فإنها تدل على صدق من أخبر بذلك المدلول عليه من جميع الخلق.

---

1 سورة الأعراف، الآية 158.
2 في ((خ)) : يبين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وقد عرف أن الدليل لا بد أن [يكون] 1 مختصا بالمدلول عليه، مستلزما له.
فآيات الأنبياء، وسائر أنواع الآيات والأدلة، لا تكون مع نقيض المدلول عليه؛ أي مع عدمه؛ فإنها إذا كانت مع وجوده وعدمه، لم تكن دالة [لا] 2 على وجوده، ولا على عدمه، [ولم يكن الاستدلال به على وجوده، ولا على عدمه] 3، ولم يكن الاستدلال به على وجوده أولى به من الاستدلال على عدمه؛ كالأمور المعتادة التي توجد مع الصادق والكاذب؛ كطلوع الشمس، وغروبها؛ فإن هذه لا تدل على صدق أحد، ولا كذبه.
وكذلك خوارق السحرة والكهان، هي معتادة، مع صدق أحدهم، ومع كذبه؛ فلا تدل على الصدق، [ولا على الكذب، والاستدلال بها على صدقه؛ كالاستدلال بها على كذبه، وهي على الكذب أدل] 4؛ [إذ] 5 كان كذبهم أكثر من صدقهم؛ كالذين يخبرون بكلمة صدق، وعشرة كذب؛ قال تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع و [أكثرهم] 6 كاذبون} 7، فكيف إذا كان مع الصدق مائة كذبة؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الكهان؛ كما روى البخاري في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سأل ناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان،

---

1 في ((خ)) : تكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 ما بين المعقوفتين مؤخر في ((ط)) إلى ما بعد الآية الكريمة.
5 في ((خ)) : إذا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : كثرهم.
7 سورة الشعراء، الآيات 221-223.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليسوا بشيء". قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون أحيانا بشيء يكون حقا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تلك الكلمة من الحق يحفظها الجني، فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة"1.
فيلزم من هذا: أن آيات الأنبياء لا يكون مثلها لمن يكذبهم، وهو الذي يخبر بكذبهم.
والناس فيهم رجلان: إما مصدق، وإما مكذب. فالمكذب لهم يمتنع أن يأتي بمثل آياتهم. ومتى كذب مكذب لمدعي النبوة، وأتى بمثل آيته سواء، دل على أن تلك ليست من آيات الأنبياء، ولا تدل على صدق النبي، لكن لا يلزم أن يدل على كذبه؛ فإن الدليل المعين إذا بطل، لا يستلزم انتفاء المدلول عليه؛ فقد تكون له آيات أخر تدل على نبوته.
وصدق الصادق، وكذب الكاذب يعرف بوجوه كثيرة جدا2.
وكذلك النبوة: لها آثار مستلزمة لها، بدون إخبار النبي بأنه نبي.

وكذب المتنبي الذي يزين له الشيطان أن يقول: إنه نبي، له آثار [تستلزم] 3 انتفاء النبوة، وأنه كاذب؛ إما عمدا، وإما أن الشيطان قد لبس عليه.

---

1 أخرجه الإمام البخاري في صحيحه 52294، كتاب الأدب، باب قول الرجل للشيء: ليس بشيء، وهو ينوي أنه ليس بحق، بنفس اللفظ. وهو بلفظ مقارب في صحيح البخاري أيضا 52173، كتاب الطب، باب الكهانة. ومسلم في صحيحه 41750، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان.
2 سبق ذكر كثير من هذه الوجوه في ص 224-225، 588-631، 649 من هذا الكتاب. وسيأتي في آخر الكتاب وجوه أخرى.
3 في ((خ)) : يستلزم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

فإن الخبر عند كثير من الناس ينقسم إلى صدق وكذب؛ فالمطابق هو الصدق، والمخالف هو الكذب1.
أثبت بعضهم واسطة بين الصدق والكذب
وأثبت بعضهم واسطة بين الصدق والكذب؛ وهو ما لم يتعمده الإنسان 2؛ قال 3: فهذا ليس بصدق؛ [لأنه] 4 غير مطابق، وليس بكذب؛ لأن صاحبه لم يتعمد الكذب، بل أخطأ. وليس كل من أخطأ يقال: إنه كاذب؛ كالناسي في الصلاة، إذا قال: صليت أربعا، ولم يصل إلا ثلاثا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما قال له ذو اليدين: أقصرت الصلاة، أم نسيت؟ [فقال: "لم أنس، ولم تقتصر". فقال: بلى قد نسيت] 5. فقال: "أكما يقول ذو اليدين؟ " قالوا: نعم6.
كل من تكلم بلا علم فهو كاذب
والذي يدل عليه القرآن: أن كل من تكلم بلا علم، فأخطا، فهو كاذب؛ كالذين حرموا، وحللوا، وأوجبوا، وإن كان الشيطان قد زين لهم ذلك، وأوهمهم أنه حق، ولهذا [قال] 7: {هل أنبئكم على من تنزل

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "والخبر تارة يكون مطابقا لمخبره؛ كالصدق المعلوم أنه صدق، وتارة لا يكون مطابقا لمخبره؛ كالكذب المعلوم أنه كذب، وغير المطابق مع التعمد كذب ومع اعتقاد أنه صدق إن لم يكن معذورا كالمفتي بلا اجتهاد يسوغ". الجواب الصحيح 6452.
2 ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى كلام عن هذا المعنى في الجواب الصحيح 6453-454.
3 يعني شيخ الإسلام رحمه الله به من يقسم ذاك التقسيم، فإنه يعلل بهذا التعليل.
وقد ذكر شيخ الإسلام نحو هذا الكلام في الجواب الصحيح 6453-454.
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
5 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
6 أخرجه مسلم في صحيحه 1403، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له.
7 في ((م)) ، و ((ط)) : قال: قل.

الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم} 1، وهي تنزل على من يظن أنه يصدقها؛ قال تعالى: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون} 2، وقال تعالى: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم} 3.
كل من أخبر بخبر غير مطابق فهو كاذب
وكذلك الذي يدل عليه الشرع: أن كل من أخبر بخبر ليس له أن يخبر به، وهو غير مطابق، فإنه يسمى كاذبا، وإن كان لم يتعمد الكذب4؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له: إن أبا السنابل5 قال: ما أنت بناكحة، حتى [تمر] 6 عليك أربعة أشهر وعشر. فقال: "كذب أبو السنابل"7.

---

1 سورة الشعراء، الآيتان 221-222.

2 سورة الزخرف، الآيتان 36-37.
3 سورة إبراهيم، الآية 22.
4 الكذب قد تستعمله العرب في موضع الخطأ. انظر: لسان العرب 1709.
فيقال كذب بمعنى أخطأ. وانظر: الجواب الصحيح 6452-456.
قال ابن الأثير: (وقد استعملت العرب الكذب في موضع الخطأ، قال الأخطل:
كذبتك عينك أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالا
وقال ذو الرمة: ما في سمعه كذب".
النهاية في غريب الحديث 4159.
5 أبو السنابل: هو ابن بعكك بن الحجاج بن الحارث بن بساق بن عبد الدار القرشي، واسمه عمرو، وقيل: حبه. أسلم يوم الفتح، وهو من المؤلفة قلوبهم، وسكن الكوفة. قيل إنه أقام بمكة حتى مات، وكان شاعرا.
انظر: أسد الغابة 5156-157. وتهذيب التهذيب 12121.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : يمر.
7 وأصل هذا الحديث، هو: أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية - صحابية - كانت امرأة سعد بن خولة، فتوفي بمكة في حجة الوداع، وهي حامل. فوضعت بعد وفاة زوجها بخمس عشرة ليلة، فدخل عليها أبو السنابل، فقال: كأنك تحدثين نفسك بالباءة؟ ما لك ذلك حتى ينقضي أبعد الأجلين. فانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته بما قال أبو السنابل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كذب أبو السنابل. إذا أتاك أحد ترضينه فأتيني به".
وهذا الحديث رواه الإمام أحمد بلفظه في مسنده 1447، 4304-305، 6310. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 52: (رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح) . إلا أن محقق مسند الإمام أحمد - طبعة مؤسسة الرسالة - ضعف إسناد الحديث من هذا الطريق؛ فقال: إسناده ضعيف. المسند 7305-306. وانظر: الفتح الرباني 1743.
والحديث مخرج في الصحيحين، بلفظ ليس فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كذب أبو السنابل". انظر: صحيح البخاري 41466-1467، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا. وصحيح مسلم 21122، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل.
وفي ترجمة أبي السنابل بن بعكك في الإصابة 496، ذكر الحافظ ابن حجر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسبيعة حين أتته: "بلى، ورغم أنف أبي السنابل".

ولما قيل له: إن عامر بن الأكوع حبط عمله؛ لأنه قتل نفسه، فقال: ((كذب من قالها، إن له لأجرين، إنه جاهد مجاهد"1.
ولما قال [سعد] 2 بن عبادة في يوم الفتح: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. وحكاه أبو سفيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة"3.

---

1 الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 41537-1538، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر. ومسلم في صحيحه 31427-1430، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر، و 31440-1441، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها.
2 في ((خ)) : سعيد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 أخرجه البخاري 41559-1560، كتاب المغازي، باب: أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح.

وكذلك قال عبادة بن الصامت، لما قيل له: إن أبا محمد1 يقول: الوتر واجب. فقال: كذب أبو محمد2.
وكذلك ابن عباس لما قيل له: إن نوفا3 يقول: إن موسى [عليه السلام] نبي إسرائيل، ليس هو موسى الخضر. فقال: كذب نوف4.

---

1 قال ابن حجر - رحمه الله - عنه: "أبو محمد الأنصاري، صحابي، قيل: اسمه مسعود بن زيد، أو ابن أوس، وقيل: اسمه قيس بن عباية. فأما مسعود: فشهد بدرا، وفتح مصر. قيل: مات في خلافة عمر، وقيل: بعد ذلك. وهو صاحب حديث الوتر، ورد ذلك عبادة بن الصامت". تقريب التهذيب 1463.
2 أخرجه أبو داود في سننه 2130-131، كتاب الصلاة، باب فيمن لم يوتر. والدارمي في سننه 1446-447، باب في الوتر. ومالك في الموطأ 1123، كتاب صلاة الليل، باب الأمر بالوتر.
وقد صححه الألباني انظر: صحيح الجامع الصغير 1617. ومشكاة المصابيح 1180.
وقال ابن الأثير رحمه الله: "كذب أبو محمد: أي أخطأ، سماه كذبا لأنه يشبهه في كونه ضد الصواب، كما أن الكذب ضد الصدق وإن افترقا من حيث النية والقصد؛ لأن الكاذب يعلم أن ما يقوله كذب، والمخطئ لا يعلم. وهذا الرجل ليس بمخبر، وإنما قاله باجتهاد إلى أن الوتر واجب، والاجتهاد لا يدخله الكذب، وإنما يدخله الخطأ". النهاية في غريب الحديث 4159.
3 نوف بن فضالة الحميري البكالي، ابن امرأة كعب الأحبار. شامي مستور. قال ابن حجر رحمه الله: وإنما كذب ابن عباس ما رواه عن أهل الكتاب. من الثانية. مات بعد التسعين". تقريب التهذيب لابن حجر 1255. وانظر: البداية والنهاية 1276.
4 أخرجه البخاري في صحيحه 41752، كتاب التفسير، باب {وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا} . ومسلم في صحيحه 41847- 1850، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام. وأحمد في المسند 3244،، 5117-119.

وأيضا: من أخبر الناس خبرا، طلب أن يصدقوه فيه، وقد نهوا عن تصديقه إلا ببينة، فإنه أيضا كاذب؛ كما قال تعالى في القرآن: {لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء [فإذ] 1 لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} 2.
وقال في القاذفين: {فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم} 3.
وكذلك: إن القاذف، وإن كان قد رأى الفاحشة بعينه، لكنه إذا أخبر بها الناس، فهو يطلب منهم أن يصدقوه بمجرد خبره، وليس لهم ذلك، بل ليس لهم أن يصدقوه حتى يأتي بأربعة شهداء، وهو لا يخبر الناس ليكذبوه، بل يخبرهم ليعتقدوا ثبوت ما أخبرهم به، ويعتقدوا أن المقذوف قد فعل الفاحشة، وهم ليس لهم أن يقولوا ذلك إلا بأربعة شهداء، فإذا لم يأت بأربعة شهداء، فهو عند الله كاذب؛ لأنه أخبر الناس بأن هذا فعل الفاحشة، وقال خبرا طلب به تصديقهم، وإن يظهر أن هذا فعلها.
فحقيقة خبره أن هذا فعل فاحشة ظاهرة يرتب عليها هذا. بل إن كان فعل شيئا، فقد فعله سرا، لم يعلم به الناس.
الذنب إذا كتم لم يضر إلا صاحبه
وقد علم أن الذنب إذا كتم لم يضر إلا صاحبه، ولكن إذا أعلن، فلم ينكر، ضر الناس4. وهذا لم يعلنه.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : فإذا.
2 سورة النور، الآية 13.
3 سورة النور، الآيتان 4-5.
4 هذه المسألة تبحث في إظهار المنكر، أو إخفائه. وقد بحثها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى 14465،، 15302-304،، 34180. وانظر جامع العلوم ولحكم 2292-293.

وأكثر المسلمين إذا فعل أحدهم فاحشة باطنة، تاب منها ومن إعلانها. [يتشبه] 1 الناس بعضهم ببعض في ذلك.
فلهذا نهى الله عن فعلها، وعن التكلم بها؛ صدقا، وغير صدق؛ فإنها إذا فعلت، وكتمت، خف أمرها، وإذا أظهرت، كان فيها مفاسد كثيرة؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من ابتلي من هذه القاذورات بشيء، فليستتر بستر الله؛ فإن من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله" 2، وقال: "كل أمتي معافى، إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يبيت الرجل على الذنب قد ستره الله، فيصبح يقول: يا فلان فعلت البارحة كذا، وكذا"3.
فقد نهى الله تعالى صاحبها أن يظهرها ويعلنها، فكيف القاذف؟.
بخلاف ما إذا أقر بها عند ولي أمر، ليقيم عليه الحد، أو يشهد بها نصاب تام لإقامة الحد4، فذاك فيه منفعة وصلاح.

وقد يخبر بها بعض الناس سرا؛ لمن يعلمه كيف يتوب؟ ويستفتيه، ويستشيره فيما يفعل؟ فعلى ذلك المفتي والمشير أن يكتم عليه ذلك، ولا
يشيع الفاحشة. وبسط هذا له موضع آخر5.

---

1 في ((خ)) : يشبه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 أخرجه الإمام مالك في الموطأ 1-2825، كتاب الحدود، باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا، مع اختلاف يسير.
3 أخرجه البخاري في صحيحه 52254، كتاب الآداب، باب ستر المؤمن على نفسه. ومسلم في صحيحه 42291، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه.
4 انظر بعض من اعترف على نفسه وأقر بما فعل، في صحيح مسلم 31318-1325، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى.
5 انظر: مجموع الفتاوى 34180.

الناس فيمن قال إني رسول قسمان: إما مصدق وإما غير مصدق
والمقصود هنا: أن الناس [في من] 1 قال: [إني] 2 رسول: قسمان: إما مصدق، وإما غير مصدق.
فمن ليس بمصدق: لا يمكنه أن يأتي بمثل آيات الأنبياء؛ سواء قال: إنه كاذب، أو توقف في التصديق والتكذيب.
وكذلك المؤمنون؛ أتباع الأنبياء: إذا أتوا بآية، كانت دليلا على نبوة النبي الذي اتبعوه، فلا يمكن من لا يصدق النبي أن يعارضهم. ومتى عارضهم، لم يكن من آيات الأنبياء.
ولهذا كان أبو مسلم، لما قال له الأسود العنسي: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمدا رسول؟ قال: نعم. فألقاه في النار، فصارت عليه بردا وسلاما3.
فكرامات الصالحين هي مستلزمة لصدقهم في قولهم: إن محمدا رسول، ولثبوت نبوته. فهي من جملة آيات الأنبياء.
وآياتهم4، وما خصهم الله به، لا يكون لغير الأنبياء5.
وإذا قال القائل: معجزات الأنبياء، وآياتهم، وما خصهم الله به: فهذا كلام مجمل؛ فإنه لا ريب أن الله خص الأنبياء بخصائص، لا توجد لغيرهم.

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((ط)) : إن.
3 القصة أخرجها أبو نعيم في الحلية2128، وابن الجوزي في صفة الصفوة 4208. وانظر البداية والنهاية لابن كثير 6272-273.
4 يعني الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.
5 انظر ما تقدم في هذا الكتاب: ص 162. وما سيأتي في نهاية هذا الفصل، ص 987. وانظر كذلك البداية والنهاية 6161.

بعض الآيات التي يختص بها كل نبي عن غيره من الأنبياء
ولا ريب أن من آياتهم، ما لا يقدر أن يأتي به غير الأنبياء.
بل النبي الواحد له آيات، لم يأت بها غيره من الأنبياء؛ كالعصا، واليد لموسى [عليه السلام] ، وفرق البحر؛ فإن هذا لم يكن لغير موسى1؛ وكانشقاق القمر، والقرآن، وتفجير الماء من بين الأصابع، وغير ذلك2 من الآيات التي لم تكن لغير محمد [عليه الصلاة والسلام] من الأنبياء؛ وكالناقة التي لصالح [عليه السلام] ؛ فإن تلك الآية لم تكن مثلها لغيره؛ وهو خروج ناقة من الأرض3.
بعض الآيات التي اشترك فيها كثير من الأنبياء
بخلاف إحياء الموتى: فإنه اشترك فيه [كثير] 4 من الأنبياء، بل ومن الصالحين5.

---

1 انظر ما تقدم ص 195، 636 من هذا الكتاب.
2 انظر ص 632 من هذا الكتاب.
3 سبق الكلام عن ذلك في ص 636 من هذا الكتاب.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : كثيرا.
5 انظر بعض القصص في إحياء الله الموتى على يد بعض الصالحين، في البداية والنهاية 6161-166، 295-297. وقال شيخ الإسلام رحمه الله في الجواب الصحيح 417: "فإن أعظم آيات المسيح عليه السلام: إحياء الموتى، وهذه الآية قد شاركه فيها غيره من الأنبياء؛ كإلياس، وغيره".
وقال أيضا في الجواب الصحيح: "فمن ذلك: أن كتاب سفر الملوك يخبر أن إلياس
أحيا ابن الأرملة، وأن اليسع أحيا ابن الإسرائيلية، وأن حزقيال أحيا بشرا كثيرا، ولم يكن أحد ممن ذكرنا بإحيائه الموتى إلها". الجواب الصحيح 4120-121.
وعن إحياء اليسع لابن الإسرائيلية، انظر: العهد القديم، سفر الملوك الثاني، الإصحاح الرابع، فقرة 21-37، ص 588-589.
وانظر كذلك إحياء الموتى لموسى عليه السلام. في الجواب الصحيح 418.

وملك سليمان [عليه السلام] ، لم يكن لغيره؛ كما قال: {رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي} 1؛ فطاعة الجن والطير، وتسخير الريح تحمله من مكان إلى مكان؛ له، ولمن معه. [لم] 2 يكن مثل هذه الآية لغير سليمان.
وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما من نبي من الأنبياء، إلا وقد أوتي من الآيات ما أمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"3.
وهو من حين أتى بالقرآن، وهو بمكة يقرأ على الناس: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} 4.

---

1 سورة ص، الآية 35.
2 في ((ط)) : ولم.
3 الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 41905، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما أنزل. ومسلم في صحيحه 1134، 152، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته.
وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند هذا الحديث: "والمعنى أن كل نبي أوتي من خوارق المعجزات ما يقتضي إيمان من رأى ذلك من أولي البصائر والنهى، لا من أهل العناد والشقاء، وإنما كان الذي أوتيته؛ أي جله وأعظمه وأبهره القرآن الذي أوحاه الله إلي، فإنه لا يبيد ولا يذهب، كما ذهبت معجزات الأنبياء، وانقضت أيامهم، فلا تشاهد، بل يخبر عنها بالتواتر والآحاد، بخلاف القرآن العظيم الذي أوحاه الله إليه؛ فإنه معجزة متواترة عنه، مستمرة، دائمة البقاء بعده، مسموعة لكل من ألقى السمع وهو شهيد". البداية والنهاية 6262-263.
4 سورة الإسراء، الآية 88.

فقد ظهر أن من آيات الأنبياء ما يختص به النبي، ومنها [ما] 1 يأتي به عدد من الأنبياء، ومنها ما يشترك فيه الأنبياء كلهم ويختصون به؛ وهو الإخبار عن الله بغيبه الذي لا يعلمه إلا الله؛ قال: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا} 2.
لكن ما يظهر على المؤمنين بهم من الآيات؛ بسبب الإيمان بهم: فيه قولان:
كرامات الأولياء: هل هي من آيات الأنبياء أم لا فيه قولان:
قال طائفة3: ليس ذلك من آياتهم. وهذا قول من يقول: من شرط المعجزة أن [يقارن] 4 دعوى النبوة، لا يتقدم عليها، ولا يتأخر عنها؛ كما قاله هؤلاء5 الذين يجعلون خاصة المعجزة: التحدي بالمثل، وعدم المعارضة، ولا يكون إلا مع الدعوى، كما تقدم.
وهو قول قد عرف فساده من وجوه.

والقول الثاني: وهو القول الصحيح: أن آيات الأولياء هي من جملة آيات الأنبياء6؛ فإنها مستلزمة لنبوتهم، ولصدق الخبر بنبوتهم؛ فإنه لولا

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة الجن، الآيات 26-28.
3 وهم المعتزلة الذين نفوا كرامات الأولياء.
وانظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص 569-570.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : تقارن.
5 وهم الأشاعرة. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 152-153، 586.
6 قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "ذكر غير واحد من العلماء أن كرامات الأولياء معجزات للأنبياء؛ لأن الولي إنما نال ذلك ببركة متابعته لنبيه وثواب إيمانه". البداية والنهاية 6163.

ذلك، لما كان هؤلاء أولياء، ولم [يكن] 1 لهم كرامات.
لكن يحتاج أن يفرق بين كرامات الأولياء، وبين خوارق السحرة والكهان، وما يكون للكفار، والفساق، وأهل الضلال والغي بإعانة الشياطين لهم؛ كما يفرق بين ذلك، وبين آيات الأنبياء.
والفروق بين ذلك كثيرة، كما قد بسط في غير هذا الموضع2.

1 في ((م)) ، و ((ط)) : تكن.
2 تقدمت فروق كثيرة في ثنايا هذا الكتاب، انظر في ذلك على سبيل المثال: ص 118-120، 558-559.
وانظر كذلك من كتب شيخ الإسلام: الجواب الصحيح 186، 5196، 6297-301. وشرح الأصفهانية 2472-477. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 49.

فصل
فقد تبين أن من آيات الأنبياء ما يظهر مثله على أتباعهم، ويكون ما يظهر على أتباعهم: من آياتهم؛ فإن ذلك مختص بمن يشهد بنبوتهم؛ فهو مستلزم له: لا [تكون] 1 تلك الآيات إلا لمن أخبر بنبوتهم، [وإذا لم يخبر بنبوتهم] 2، لم تكن له تلك الآيات.
وهذا حد الدليل؛ وهو: أن يكون مستلزما للمدلول عليه؛ فإذا وجد الدليل، وجد المدلول عليه، وإذا عدم المدلول عليه، عدم الدليل.
ولهذا من السلف من يأتي بالآيات دلالة على صحة الإسلام، وصدق الرسول3؛ كما ذكر أن خالد بن الوليد شرب السم لما طلب منه آية، ولم يضره4.

1 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
3 أي يتحدى بالكرامة، أو يظهرها.
وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى كثيرا من الأمثلة على الكرامات التي وقعت لذلك. انظر ما سبق في هذا الكتاب ص 160-162.
4 تقدمت كرامة خالد بن الوليد رضي الله عنه في شربه السم، ولم يضره، في ص161 من هذا الكتاب.

فصل: خوارق الكهان والسحرة ليست من خوارق العادات وإنما من العجائب الغريبة

في معنى خرق العادة، وأن الإعتبار أن تكون خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقا؛ بحيث [تختص] 1 بالأنبياء، فلا [توجد] 2 إلا مع الإخبار بنبوتهم.

خوارق الكهان والسحرة ليست من خوارق العادات وإنما من العجائب الغريبة

وأما إخبار الكهان ببعض الأمور الغائبة؛ لإخبار الشياطين لهم بذلك، وسحر السحرة؛ بحيث يموت الإنسان من السحر، أو [يمرض] 3، [ويمنع] 4 من النكاح، ونحو ذلك مما هو بإعانة الشياطين: فهذا أمر موجود في العالم، كثير، معتاد، يعرفه الناس، ليس هذا من خرق العادة، بل هو من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس؛ كما يختص قوم بخفة اليد، [والشعبذة] 5؛ وقوم بالسباحة الغريبة، حتى يضطجع أحدهم على الماء6؛ وكما يختص قوم بالقيافة7، حتى يباينوا بها غيرهم؛ وكما

1 في ((خ)) : يختص. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : يوجد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : بمرض. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : يمتنع. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((ط)) : والشعوذة.
والشعوذة، والشعبدة: اسمان مترادفان للعب يري الإنسان منه ما ليس له حقيقة؛ كالسحر. المصباح المنير ص 314.
6 انظر: البيان للباقلاني ص 22.
7 القيافة: هي معرفة الآثار. تقدم التعريف بها.

يختص قوم بالعيافة1، ونحو ذلك مما هو موجود.

مكذبوا الرسل يجعلون آيات الرسل من جنس السحر

ولهذا كان [مكذبوا] 2 الرسل يجعلون آياتهم من جنس السحر، وهذا مستقر في نفوسهم: أن الساحر ليس برسول، ولا نبي؛ كما في قصة موسى لما قالوا: {إن [هذا] 3 لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون} 4، قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} 5؛ وهذا لحيرتهم، وضلالتهم؛ تارة ينسبون إلى الجنون، وعدم العقل؛ وتارة إلى الحذق، والخبرة التي [ينال] 6 بها السحر؛ فإن السحر لا يقدر عليه، ولا يحسنه كل أحد، لكن العجائب، والخوارق المقدورة للناس7؛ منها ما سببه من الناس بحذقهم في ذلك الفن؛ كما يحذق الرجل

1 العيافة: زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها، وأصواتها، وممرها، وهو من عادة العرب كثيرا. لسان العرب 9261.
وجاء في الحديث: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "إن العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت".
قال عوف: العيافة: زجر الطير. والطرق: الخط في الأرض. والجبت قال الحسن: إنه الشيطان.
مسند الإمام أحمد 560. وانظر تيسير العزيز الحميد 398-400.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : مكذبو.
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 سورة الأعراف، الآيتان 109-110.
5 سورة الذاريات، الآية 52.
6 في ((خ)) : نال. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 انظر الكلام على الشعوذة والعجائب التي يتقنها بعض الناس، ويبرزوا فيها في:
البيان للباقلاني ص 22-27. والأصول الخمسة لعبد الجبار ص 572-573. والفصل لابن حزم 54-5. والمواقف للإيجي ص 345. وشرح المقاصد 3347-348. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 368. وتفسير ابن كثير 1146

في صناعة من الصناعات؛ وكما يحذق الشاعر، والخطيب [في] 1 شعره، وخطابته، وعلمه؛ وكما يحذق بعض الناس في رمي النشاب2، وعمل الرمح، وركوب الخيل.
فهذه كلها قد يأتي الشخص منها بما لا يقدر عليه أهل البلد، بل أهل الإقليم، لكنها مع ذلك مقدورة، مكتسبة، معتادة بدون النبوة، قد فعل مثلها ناس آخرون قبلهم، أو في مكان آخر؛ فليست هي خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقا، بل [توجد] 3 معتادة لطائفة من الناس، وهم لا يقولون إنهم أنبياء، ولا يخبر أحد عنهم بأنهم أنبياء.
سبب الغلط في آيات الأنبياء
ومن هنا دخل الغلط على كثير من الناس؛ فإنهم لما رأوا آيات الأنبياء خارقة للعادة، لم يعتد الناس مثلها، أخذوا مسمى خرق العادة4، ولم يميزوا بين ما يختص به الأنبياء، ومن أخبر بنبوتهم، وبين ما يوجد معتادا لغيرهم.
لم يسم الله آيات الأنبياء معجزات وإنما آيات وبراهين
واضطربوا في مسمى هذا الاسم؛ كما اضطربوا في مسمى المعجزات، ولهذا لم يسمها الله في كتابه، إلا آيات، وبراهين؛ فإن ذلك اسم يدل على مقصودها، ويختص بها، لا يقع على غيرها؛ لم يسمها معجزة، ولا خرق عادة، وإن كان ذلك من بعض صفاتها؛ فهي لا تكون آية وبرهانا حتى تكون قد خرقت العادة، وعجز الناس عن الإتيان بمثلها. لكن هذا بعض صفاتها، وشرط فيها، وهو من لوازمها.

1 في ((خ)) : وفي - بزيادة الواو، وليست في ((م)) ، و ((ط)) .
2 سبق التعريف به في ص 714.
3 في ((خ)) : يوجد. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 المقصود بخرق العادة: أن يكون خارقا لعادة الجن والإنس، فلا يأتي بمثله إلا الأنبياء.

لكن شرط الشيء، ولازمه قد يكون أعم منه1.
وهؤلاء جعلوا مسمى المعجزة وخرق العادة، هو: الحد المطابق لها طردا وعكسا2.كما أن بعض الناس يجعل اسمها أنها عجائب.
وآيات الأنبياء إذا وصفت بذلك، فينبغي أن يقيد بما يختص بها؛ فيقال: العجائب التي أتت بها الأنبياء، وخوارق العادات، والمعجزات التي ظهرت على أيديهم، أو التي لا يقدر عليها البشر، أو لا يقدر عليها أحد بحيلة واكتساب؛ كما يقدرون على السحر والكهانة، فبذلك تتميز آياتهم عما ليس من آياتهم.
وإلا فلفظ العجائب قد يدخل فيه بعض الناس الشعبذة3 ونحوها.

1 سبق مثل هذا الكلام في ص 932 من هذا الكتاب.
وقد أورد شيخ الإسلام رحمه الله فصلا عن هذا الموضوع قبل هذا الفصل، فليراجع.
2 الطرد: ما يوجب الحكم لوجود العلة، وهو التلازم في الثبوت.
والعكس في اصطلاح الفقهاء: عبارة عن تعليق نقيض الحكم المذكور بنقيض علته المذكورة، ردا إلى أصل آخر؛ كقولنا: ما يلزم بالنذر يلزم بالشروع؛ كالحج. وعكسه: ما لم يلزم بالنذر لم يلزم بالشروع. فيكون العكس على هذا ضد الطرد، وهو التلازم في الانتفاء؛ بمعنى: كل ما لم يصدق الحد، لم يصدق المحدود. انظر: التعريفات للجرجاني ص 183، 198. وانظر ما سبق في ص 307 من هذا الكتاب.
والمعتزلة هم الذين جعلوا خرق العادة حدا للمعجزة مطرد منعكس؛ فكل خرق فهو معجزة للنبي. ولهذا أنكروا الخوارق التي تقع لغير الأنبياء؛ كخوارق السحرة، والكهان، وكرامات الأولياء. انظر: المغني للقاضي عبد الجبار 15218. وانظر كلام المؤلف رحمه الله فيما مضى ص 147-152 من هذا الكتاب.
3 سبق التعريف بها قريبا.

معنى التعجب

والتعجب في اللغة يكون من أمر خرج عن نظائره1. وما خرج عن نظائره فقد خرق تلك العادة المعينة في نظائره، فهو أيضا خارق للعادة.

آيات الأنبياء لا نظير لها لغيرهم

وهذا شرط في آيات الأنبياء؛ أن لا يكون لها نظير لغير الأنبياء، ومن يصدقهم. فاذا وجد نظيرها من كل وجه لغير الأنبياء، ومن شهد لهم بالنبوة، لم تكن تلك من آياتهم، بل كانت مشتركة بين من يخبر بنبوتهم، ومن لا يخبر بنبوتهم، كما يشترك هؤلاء وهؤلاء في الطب والصناعات.

السحر والكهانة من إعانة الشياطين لبني آدم

وأما السحر والكهانة: فهو من إعانة الشياطين لبني آدم، فإن الكاهن [تخبره] 2 الجن، وكذلك الساحر إنما يقتل، ويمرض، ويصعد في الهواء، ونحو ذلك، بإعانة الشياطين له؛ فأمورهم خارجة عما اعتاده الإنس بإعانة الشياطين لهم، قال تعالى: {ويوم [يحشرهم] 3 جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا [الذي] 4 أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين [فيها] 5 إلا ما شاء الله} 6؛ فالجن والإنس قد استمتع بعضهم ببعض, فاستخدم هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء في أمور كثيرة، كل منهم فعل للآخر ما هو غرضه، ليعينه على

---

1 قال الزجاج: أصل العجب في اللغة: أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله، قال: عجبت من كذا. وقال ابن الأعرابي: العجب: النظر إلى شيء غير مألوف، ولا معتاد. انظر تهذيب اللغة 1386.

2 في ((م)) ، و ((ط)) : يخبره.

3 في ((م)) : نحشرهم - بالنون، وهي قراءة الجميع، عدا حفص. انظر: سراج القارئ المبتدي ص 216.

4 في ((ط)) : ادلذي.

5 في ((ط)) : طفيها.

6 سورة الأنعام، الآية 128.

غرضه. والسحر والكهانة من هذا الباب1.

وكذلك ما يوجد لعباد الكفار من المشركين وأهل الكتاب، ولعباد المنافقين والملحدين من المظهرين للإسلام والمبتدعين منهم، كلها بإعانة الجن والشياطين.

الشياطين تظهر عند كل قوم بما لا ينكرونه

لكن الشياطين تظهر عند كل قوم بما لا ينكرونه؛ فإذا كان القوم كفارا لا ينكرون السحر والكهانة؛ كما كانت العرب؛ وكالهند، والترك، والمشركين، ظهروا بهذا الوصف؛ لأن هذا معظم عند تلك الأمة، وإن كان هذا مذموما عند أولئك، كما قد ظهر ذم هؤلاء عند أهل الملل؛ من المسلمين، واليهود، والنصارى، أظهرته الشياطين فيمن يظهر العبادة، ولا يكون مخلصا لله في عبادته متبعا للأنبياء، بل يكون فيه شرك، ونفاق، وبدعة، فتظهر له هذه الأمور التي ظهرت للكهان والسحرة، حتى يظن أولئك أن هذه من كرامات الصالحين، وأن ما هو عليه هذا الشخص من العادة هو طريق أولياء الله، وإن كان مخالفا لطريق الأنبياء، حتى يعتقد من يعتقد أن لله طريقا يسلكها إليه أولياؤه، غير الإيمان بالأنبياء وتصديقهم، وقد يعتقد بعض هؤلاء أن في هؤلاء من هو أفضل من الأنبياء.

أصحاب الأحوال الشيطانية عارضوا الأنبياء

وحقيقة الأمر: أن هؤلاء عارضوا الأنبياء، كما كانت تعارضهم السحرة والكهان؛ كما عارضت السحرة لموسى، وكما كان كثير من المنافقين يتحاكمون إلى بعض الكهان، دون النبي صلى الله عليه وسلم، ويجعلونه نظير النبي2.

---

1 أي من مقدورات الجن والإنس.

2 انظر: تفسير الطبري 5152-155. وتفسير ابن كثير 1519.

الكهانة عند العرب

وكان في العرب عدة من هؤلاء1، وكان بالمدينة منهم أبو برزة الأسلمي2 قبل أن يسلم كان كاهنا،

1 قال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ رحمه الله: "اعلم أن الكهان الذين يأخذون عن مسترقي السمع موجودون إلى اليوم، لكنهم قليل بالنسبة لما كانوا عليه في الجاهلية؛ لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب، ولم يبق من استراقهم إلا ما يخطفه الأعلى، فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب. وأما ما يخبر به الجني مواليه من الإنس بما غاب عن غيره، مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا، فكثير جدا في أناس ينتسبون إلى الولاية والكشف، وهم من الكهان إخوان الشياطين، لا من الأولياء".
تيسير العزيز الحميد ص 405.
وقد ذكر القاضي عياض رحمه الله أن الكهانة كانت في العرب على ثلاثة أضرب:
"أحدها: أن يكون للإنسان ولي من الجن، يخبره بما يسترقه من السماء. وهذا القسم بطل من حين بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم.
والثاني: أن يخبره بما يطرأ، أو يكون في أقطار الأرض، وما خفي مما قرب أو بعد. وهذا لا يبعد وجوده.
ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين، وأحالوهما. ولا استحالة في ذلك، ولا بعد في وجوده، لكنهم يصدقون ويكذبون، والنهي عن تصديقهم والسماع منهم عام.
والثالث: المنجمون. وهذا الضرب يخلق الله فيه لبعض الناس قوة ما، لكن الكذب فيه أغلب. ومن هذا الفن العرافة، وصاحبها عراف؛ وهو: الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها بها. وقد يعتضد بعض هذا الفن ببعض في ذلك، بالزجر، والطرق، والنجوم، وأسباب معتادة.
وهذه الأضرب كلها تسمى كهانة. وقد أكذبهم كلهم الشرع، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم. والله أعلم". شرح النووي على مسلم (14223) .
2 هو نضلة بن عبيد، أبو برزة الأسلمي. صحابي مشهور بكنيته. أسلم قبل الفتح، وغزا سبع غزوات، ثم نزل البصرة، وغزا خراسان، ومات بها بعد سنة خمس وستين على الصحيح.
انظر: حلية الأولياء 232-33. وتقريب التهذيب 2247. وانظر: سير أعلام النبلاء 340. والأعلام 833.

وقد قيل: [إنه] 1 الذي أنزل الله تعالى فيه: {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا} 2. وقد ذكر قصته غير واحد من المفسرين3.
ولما كان الذين يعارضون آيات الأنبياء من السحرة والكهان لا يأتون بمثل آياتهم، بل يكون بينهما شبه كشبه الشعر بالقرآن؛ ولهذا قالوا في النبي: إنه ساحر، وكاهن، وشاعر مجنون، قال تعالى: {انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} 4؛ فجعلوا له مثلا لا يماثله، بل بينهما شبه، مع وجود الفارق المبين.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : إن.
2 سورة النساء، الآية 60.
3 ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله أن الطبراني روى بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان أبو برزة الأسلمي كاهنا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المشركين، فأنزل الله عز وجل: {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} - إلى قوله: - {إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا} ... ". تفسير ابن كثير 1519. وقال الهيثمي عن رجال هذا الخبر: رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد 76.
وقد ذكر خبر هذه المنافرة: الطبري - مطولا - انظر تفسيره 5154. وانظر: زاد المسير لابن الجوزي 2119-120. وأسباب النزول للواحدي ص 119-121. والدر المنثور للسيوطي 2178.
وفي أسباب النزول للواحدي، وزاد المسير لابن الجوزي: "أبو برده بدل أبي برزة"، وفي تفسير الطبري، وابن كثير، والدر المنثور: (أبو برزة) .
4 سورة الفرقان، الآية 9.

وهذا هو القياس الفاسد؛ فلما كان الشعر كلاما له فواصل ومقاطع، والقرآن آيات له فواصل ومقاطع، قالوا: شاعر. ولكن شتان1.
وكذلك الكاهن؛ يخبر ببعض المغيبات، ولكن يكذب كثيرا، وهو يخبر بذلك عن الشياطين، وعليه من آثارهم ما يدل على أنه أفاك أثيم؛ كما قال تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} ، [ثم] 2 قال: {والشعراء [يتبعهم الغاوون] 3 ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون} 4.
فذكر سبحانه الفرق بين النبي، وبين الكاهن والشاعر.
وكذلك الساحر؛ لما كان يتصرف في العقول النفوس بما يغيرها، وكان من سمع القرآن وكلام الرسول خضع له عقله ولبه، وانقادت له نفسه وقلبه، صاروا يقولون: ساحر، وشتان.
وكذلك مجنون؛ لما كان المجنون يخالف عادات الكفار وغيرهم، لكن بما فيه [فساد لا صلاح - والأنبياء جاؤوا بما يخالف عادات الكفار، لكن بما فيه] 5 صلاح لا فساد، قالوا: مجنون، قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون} 6.
فتارة يصفونه بغاية الحذق، والخبرة، والمعرفة؛ فيقولون: ساحر، وتارة بغاية الجهل، والغباوة، والحمق؛ فيقولون: مجنون.

---

1 سبق مثل ذلك. انظر ص 220-221 من هذا الكتاب.
2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
3 في ((ط)) : يتبعه غاوون.
4 سورة الشعراء، الآيات 221-226.
5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
6 سورة الذاريات، الآيتان 52-53.

وقد ضلوا في هذا، وهذا؛ كما قال تعالى: {انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} 1؛ فهم بمنزلة السائر في الطريق، وقد ضل عنها، يأخذ يمينا وشمالا، ولا يهتدي إلى السبيل التي تسلك.
والسبيل التي يجب سلوكها: قول الصدق، والعمل بالعدل.
الأنبياء تعينهم الملائكة والسحرة تعينهم الشياطين
والكهانة والسحر يناقض النبوة؛ فإن هؤلاء2 تعينهم الشياطين؛ تخبرهم، وتعاونهم بتصرفات خارقة، ومقصودهم: الكفر، والفسوق، والعصيان.
والأنبياء تعينهم الملائكة؛ هم الذين يأتونهم، فيخبرونهم بالغيب، ويعاونونهم بتصرفات خارقة؛ كما كانت الملائكة تعين النبي صلى الله عليه وسلم في مغازيه مثل يوم بدر أمده الله بألف من الملائكة3،
ويوم حنين4 قال: {ويوم

---

1 سورة الفرقان، الآية 9.
2 الكهان، والسحرة.
3 قال تعالى: {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون} [سورة النساء، الآية 123] . وفي صحيح مسلم: من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا. فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بربه، مادا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} [سورة الأنفال 9] ، فأمده الله بالملائكة". صحيح مسلم 31383-1384، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم.

4 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن هاتين الغزاتين: "إنهما غزاتان بينهما نحو ست سنين؛ كانت بدر في السنة الثانية من الهجرة، وكانت حنين في السنة الثامنة بعد فتح مكة. وإن بدرا مكان بين مكة والمدينة شامي مكة، ويماني المدينة. وحنين: واد قريب من الطائف شرقي مكة. وإنما قرن بينهما في الاسم؛ لأن الله أنزل فيهما الملائكة، وأيد بهما نبيه والمؤمنين، حتى غلبوا عدوهم، مع قوة العدو في بدر، ومع هزيمة أكثر المسلمين أولا بحنين. وامتن الله بذلك في كتابه".. ثم ذكر الآيات في ذلك؛ التي في النساء، الآية 123، والتي في التوبة 25-26.. الجواب الصحيح 6335-336.

حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم} 1، وقال تعالى: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه [لا تحزن إن الله معنا] 2 فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها} 3، وقال تعالى: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب} 4.
وقد بين سبحانه أن الذي جاء بالقرآن ملك كريم، ليس بشيطان، فقال: {إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب [بضنين] 5 وما

---

1 سورة التوبة، الآيات 25-27.
2 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
3 سورة التوبة، الآية 40.
4 سورة الأنفال، الآية 12.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : بظنين - بالظاء - والمصاحف العثمانية مجمعة على رسمه بالضاد. ولم ترسم بالظاء إلا في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: سراج القارئ المبتدي ص 381.

هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون} 1.
ولما كانت الأنبياء مؤيدة بالملائكة، والسحرة والكهان تقترن بهم الشياطين، كان من الفروق التي بينهم: الفروق التي بين الملائكة والشياطين.
النبوة عند المتفلسفة
والمتفلسفة الذين لم يعرفوا الملائكة والجن؛ كابن سينا وأمثاله، ظنوا أن هذه الخوارق من قوى النفس، قالوا: والفرق بين النبي والساحر: أن النبي يأمر بالخير، والساحر يأمر بالشر2. وجعلوا ما يحصل [للممرور] 3 من هذا الجنس؛ إذ لم يعرفوا صرع الجن للإنسان، وأن الجني يتكلم على لسان الإنسان، كما قد عرف ذلك الخاصة [والعامة] 4، وعرفه علماء الأمة وأئمتها؛ كما قد بسط في غير هذا الموضع5.

---

1 سورة التكوير، الآيات 19-26.
2 انظر: كتاب الصفدية 1143. وشرح الأصفهانية 2504. والرد على المنطقيين ص 322.
وقد سبق أن تكلم شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الكتاب عن موقف الفلاسفة من النبوة. انظر ص 609-612، 730-735، 834-844، 856.
3 في ((ط)) : للمرورن.
وقد تقدم التعريف به ص 836.
4 في ((ط)) : (والعامة) .
5 بل إن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى يقرر هذه القضية، ويرد على من ينكر دخول الجن في الإنسان في مواضع عديدة من كتبه، فمن ذلك قوله: "وجود الجن ثابت، بكتاب الله وسنة رسوله، واتفاق سلف الأمة وأئمتها. وكذلك دخول الجني في بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة؛ قال الله تعالى: {الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان

من المس ذلك بأنهم ... } . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم". وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل: قلت لأبي إن أقواما يقولون: إن الجني لا يدخل في بدن المصروع. فقال: يا بني يكذبون، هذا يتكلم على لسانه.
وهذا الذي قاله أمر مشهور؛ فإنه يصرع الرجل فيتكلم بلسان لا يعرف معناه، ويضرب على بدنه ضربا عظيما، لو ضرب به جمل لأثر به أثرا عظيما. والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب، ولا بالكلام الذي يقوله. وقد يجر المصروع، وغير المصروع، ويجر البساط الذي يجلس عليه ويحول الآلات، وينقل من مكان إلى مكان، ويجري غير ذلك من الأمور من شاهدها أفادته علما ضروريا بأن الناطق على لسان الإنسي والمحرك لهذه الأجسام جنس آخر غير الإنسان. وليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجني في بدن المصروع وغيره، ومن أنكر ذلك وادعى أن الشرع يكذب ذلك، فقد كذب على الشرع، وليس في الأدلة الشرعية ما ينافي ذلك". مجموع الفتاوى 24276-277.
ويقول رحمه الله عن صرع الجن للإنس: (وهذا أمر قد باشرناه نحن وغيرنا غير مرة، ولنا في ذلك من العلوم الحسيات رؤية وسماعا ما لا يمكن معه الشك) . كتاب الصفدية 1181.
أما من ينكر ذلك، فقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أنهم طائفة من المعتزلة، فقال رحمه الله: " ... ولهذا أنكر طائفة من المعتزلة كالجبائي، وأبي بكر الرازي، وغيرهما دخول الجن في بدن المصروع، ولم ينكروا وجود الجن؛ إذ لم يكن ظهور هذا في المنقول عن الرسول كظهور هذا، وإن كانوا مخطئين في ذلك. ولهذا ذكر الأشعري في مقالات أهل السنة والجماعة أنهم يقولون إن الجني يدخل في بدن المصروع؛ كما قال تعالى: {الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} ... " مجموع الفتاوى 1912.
وممن أنكر صرع الجن للإنس: ابن حزم. انظر كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل 59. والأصول والفروع له ص 135-137) .
وانظر عن أسباب صرع الجن في مجموع الفتاوى 1382.
ولشيخ الإسلام رحمه الله رسالة اسمها: (إيضاح الدلالة في عموم الرسالة) يتكلم فيها عن الجن وإبطال أحوالهم، وكيفية دفعهم. ويتحدث فيها الشيخ رحمه الله عن تجاربه في إخراج الجن من بدن الإنسان مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة خلق كثيرين. انظر: مجموع الفتاوى 199-56. وانظر 11293، و24276-282 وكتاب الصفدية 16-7.
ويحدثنا الإمام ابن القيم عن مشاهداته لشيخه - رحمهما الله، فيقول: "شاهدت شيخنا يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التي فيه ويقول: قال لك الشيخ اخرجي، فإن هذا لا يحل لك، فيفيق المصروع ولا يحس بألم. وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مرارا. وكان كثيرا ما يقرأ في أذن المصروع: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون} [المؤمنون، الآية 115] .
وحدثني أنه قرأها مرة في أذن المصروع، فقالت الروح: نعم. ومد بها صوته. قال: فأخذت له عصا، وضربته بها في عروق عنقه، حتى كلت يداي من الضرب، ولم يشك الحاضرون أنه يموت لذلك الضرب، ففي أثناء الضرب قالت: أنا أحبه، فقلت لها: هو لا يحبك. قالت: أنا أريد أن أحج به، فقلت لها: هو لا يريد أن يحج معك. فقالت: أنا أدعه كرامة لك. قال: قلت: لا، ولكن طاعة لله ولرسوله. قالت: فأنا أخرج منه. قال: فقعد المصروع يلتفت يمينا وشمالا، وقال: ما جاء بي إلى حضرة الشيخ؟ قالوا له: وهذا الضرب كله؟ فقال: وعلى أي شيء يضربني الشيخ ولم أذنب. ولم يشعر بأنه وقع به ضرب البتة. وكان يعالج بآية الكرسي، وكان يأمر بكثرة قراءتها المصروع ومن يعالجه بها، وبقراءة المعوذتين. وبالجملة: فهذا النوع من الصرع وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة ... ". زاد المعاد 468-69.
ولسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله رسالة مطبوعة، اسمها: (إيضاح الحق في دخول الجني في الإنسي، والرد على من أنكر ذلك) .

<u>أصول الجهمية</u>

والجهمية المجبرة الذين قالوا: إن الله قد يفعل كل ممكن مقدور1،

---

1 سبقت إشارة الشيخ رحمه الله إلى ذلك مرارا عديدة انظر ما سبق ص 153، 268، 335، 566، 956، 1065، وما سيأتي ص 1125-1164. وانظر: المواقف للإيجي ص 323-324، 328، 330-332.

لا ينزهونه عن فعل شيء، ويقولون: إنه يفعل بلا سبب، ولا حكمة، وهو الخالق لجميع الحوادث؛ لم يفرقوا بين ما تأتي به الملائكة، ولا ما تأتي به [الشياطين، بل] 1 الجميع يضيفونه إلى الله على حد واحد، ليس في ذلك حسن ولا قبيح عندهم2، حتى يأتي الرسول. فقبل ثبوت الرسالة لا يميزون بين شيء من الخير والشر، والحسن والقبيح.

فلهذا لم يفرقوا بين آيات الأنبياء، وخوارق السحرة والكهان، بل قالوا: ما [تأتي] 3 به السحرة والكهان يجوز أن يكون من آيات الأنبياء، وما يأتي به الأنبياء يجوز أن يظهر على أيدي السحرة والكهان4.

لكن إن دل على انتفاء ذلك نص أو إجماع، نفوه، مع أنه جائز عندهم أن يفعله الله، لكن بالخبر علموا أنه لم يفعله.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

2 قال الجويني: "ما من أمر يخرق العوائد إلا وهو مقدور للرب تعالى ابتداء، ولا يمنع وقوع شيء لتقبيح عقل ... فإن المعجزة لا تدل لعينها، وإنما تدل لتعلقها بدعوى النبي الرسالة". الإرشاد ص 319.

وقال أيضا: "ولا يمتنع عقلا أن يفعل الرب تعالى عند ارتياد الساحر ما يستأثر بالاقتدار عليه، فإن كل ما هو مقدور للعبد، فهو واقع بقدرة الله تعالى عندنا". الإرشاد ص 322.

3 في ((م)) ، و ((ط)) : (يأتي) .

4 قال الباقلاني: "إن المعجز ليس بمعجز لجنسه ونفسه، ولا لحدوثها، وإنما يصير معجزا للوجوه ... ومنها التحدي والاحتجاج". البيان للباقلاني ص 48. وانظر المصدر نفسه ص 91، 94-96.

وقال الجويني: "وجنس المعجز يقع من غير دعوى، وإنما الممتنع وقوعه على حسب دعوى الكاذب، فاعلموا ذلك". الإرشاد للجويني ص 328. وانظر المصدر نفسه 324، 326.

فهؤلاء1 لما رأوا ما جاءت به الأنبياء، وعلموا أن آياتهم تدل على صدقهم، وعلموا ذلك؛ إما بضرورة، وإما بنظر، واحتاجوا إلى بيان دلائل النبوة على أصلهم، كان غاية ما [قالوه] 2: إنه كل شيء يمكن أن يكون آية للنبي، بشرط أن يقترن بدعواه، وبشرط أن يتحدى بالإتيان بالمثل فلا يعارض3.

معنى التحدي

ومعنى التحدي بالمثل: أن يقول لمن دعاهم: ائتوا بمثله4.

وزعموا أنه إذا كان هناك سحرة وكهان، وكانت معجزته من جنس ما يظهر على أيديهم من السحر والكهانة، فإن الله لا بد أن يمنعهم عن مثل ما كانوا يفعلونه، وأن من ادعى منهم النبوة، فإنه يمنعه من تلك الخوارق، أو يقيض له من يعارضه بمثلها5.

فهذا غاية تحقيقهم، وفيه من الفساد ما يطول وصفه.

طاعة الجن لسليمان طاعة ملكية

وطاعة الجن والشياطين لسليمان صلوات الله عليه، لم [تكن] 6 من جنس معاونتهم للسحرة، والكهان، والكفار، وأهل الضلال والغي، ولم تكن الآية، والمعجزة، والكرامة التي أكرمه الله بها، هي ما كانوا يعتادونه مع الإنس؛ فإن ذلك إنما كان يكون في أمور معتادة؛ مثل إخبارهم أحيانا ببعض [الغائبات] 7؛ ومثل إمراضهم، وقتلهم لبعض الإنس؛ كما أن

---

1 أي الأشعرية المجبرة.

2 في ((م)) ، و ((ط)) : (قالوا) .

3 انظر: البيان للباقلاني 96، 98-101. والإرشاد للجويني ص 319، 328.

4 انظر: الإرشاد للجويني ص 313.

5 انظر: البيان للباقلاني ص 94-95. والإرشاد للجويني ص 312، 327.

6 في ((خ)) : (يكن) . وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

7 في ((ط)) : (احغائبات) .

[الإنسي] 1 قد يمرض ويقتل غيره. ثم هم إنما يعاونون الإنس على الإثم والعدوان، [إذا كانت الإنس2 من أهل الإثم والعدوان] 3، يفعلون ما [يهواه] 4 الشياطين، فتفعل الشياطين بعض ما يهوونه، قال تعالى: {ويوم [نحشرهم] 5 جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض} 6
وأما التسخير الذي سخروه لسليمان، فلم يكن لغيره من الأنبياء، فضلا عن من ليس بنبي، وقد سأل ربه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فقال: {رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب} 7.
قال تعالى: {فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب} 8.
وقال تعالى: {ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين} 9.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : (الإنس) .
2 في ((م)) : (الإنسي) .
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 في ((م)) ، و ((ط)) : (تهواه) .
5 كذا في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : نحشرهم - بالنون، وهي قراءة الجميع، عدا حفص. انظر سراج القارئ المبتدي ص 216) .
6 سورة الأنعام، الآية 128.
7 سورة ص، الآية 35.
8 سورة ص، الآيات 36-39.
9 سورة الأنبياء، الآيتان 81-82.

وقال تعالى: {ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين} 1.
وكذلك ما ذكره من قول العفريت له: {أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك} 2.
فهذه الطاعة من التسخير: بغير اختيارهم في مثل هذه الأعمال الظاهرة العظيمة، ليس مما فعلته بأحد من الإنس، وكان ذلك بغير أن يفعل شيئا، مما يهوونه؛ من العزائم، والأقسام، والطلاسم الشركية3؛ كما يزعم الكفار أن سليمان سخرهم بهذا، فنزهه الله من ذلك4، بقوله: {واتبعوا ما

---

1 سورة سبأ، الآيات 12-14.
2 سورة النمل، الآية 39.
3 تقدم التعريف بها، انظر ص 270 من هذا الكتاب.
4 روى الطبري رحمه الله بسنده إلى ابن إسحاق قال: "عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليهما السلام، فكتبوا أصناف السحر....، ثم دفنوه تحت كرسيه، فاستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حين أحدثوا ما أحدثوا، فلما عثروا عليه قالوا: ما كان سليمان بن داود إلا بهذا. فأفشوا السحر في الناس، وتعلموه، وعلموه، فليس في أحد أكثر منه في اليهود. فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نزل عليه من الله سليمان بن داود، وعده فيمن عده من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون لمحمد - صلى الله عليه وسلم - يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا، والله ما كان إلا ساحرا. فأنزل الله في ذلك من قولهم على محمد صلى الله عليه وسلم: {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ... } الآية.
تفسير الطبري 1446. وانظر: أسباب النزول للواحدي ص 21-22. وتفسير ابن كثير 1132-136.

وقد فصل شيخ الإسلام رحمه الله القول في هذه المسألة في موضع آخر، بعد أن ذكر الطلاسم الشركية، والعزائم، والأقسام التي يستخدمها الجن، فقال: "والذين يستخدمون الجن بهذه الأمور يزعم كثير منهم أن سليمان كان يستخدم الجن بها، فإنه قد ذكر غير واحد من علماء السلف أن سليمان لما مات كتبت الشياطين كتب سحر وكفر وجعلتها تحت كرسيه، وقالوا: كان سليمان يستخدم الجن بهذه، فطعن طائفة من أهل الكتاب في سليمان بهذا، وآخرون قالوا: لولا أن هذا حق جائز لما فعله سليمان. فضل الفريقان؛ هؤلاء بقدحهم في سليمان، وهؤلاء باتباعهم

السحر، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله تعالى: {ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم..} إلى قوله: {ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون} . بين سبحانه أن هذا لا يضر ولا ينفع، إذ كان النفع هو الخير الخالص أو الراجح، والضرر هو الشر الخالص أو الراجح، وشر هذا إما خالص، وإما راجح) . مجموع الفتاوى 1942.

تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر} 1.

طاعة الجن لنبينا طاعة نبوية

وأما طاعة الجن لنبينا وغيره من الرسل؛ [كموسى] 2: فهذا نوع

---

1 سورة البقرة، الآية 102.

2 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .

وشيخ الإسلام رحمه الله تعالى إذ يقرن هنا بين موسى عليه السلام، ونبينا صلى الله عليه وسلم بطاعة الجن لهم، لكأنه يشير إلى قوله تعالى حكاية عن الجن: {قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم} [سورة الأحقاف، الآية 30] . وإلى قوله: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} [سورة الجن، الآيتان 1-2، وإلى لآخر السورة] .

أما عن سبب عدم ذكر المسيح عليه السلام، مع أنه من أنبياء بني إسرائيل، فقد ذكر ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: {قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى} : "ولم يذكروا عيسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحريم والتحليل، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة. فالعمدة هو التوراة. فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى". تفسير ابن كثير 4170.

آخر؛ فإن هذا طاعتهم فيما أمرهم الله به من عبادته وطاعته؛ كطاعة الإنس لنبينا، حيث أرسل إلى الطائفتين، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعته، ونهاهم عن معصيته التي بها يستحقون العذاب في الآخرة، وكذلك الرسل دعوهم إلى ذلك، وسليمان منهم، لكن هذا إنما ينتفع به منهم من آمن طوعا، ومن لم يؤمن، فإنه يكون بحسب شريعة ذلك الرسول: هل يترك حتى يكون الله هو الذي ينتقم منه، أو يجاهد؟.

وسليمان كان على شريعة التوراة1، واستخدامه لمن لم يؤمن منهم، هو مثل استخدام الأسير الكافر.

حال نبينا مع الجن والإنس أكمل من حال سليمان وغيره

فحال نبينا مع الجن والإنس: أكمل من حال سليمان وغيره؛ فإن طاعتهم لسليمان كانت طاعة ملكية فيما يشاء، وأما طاعتهم لمحمد فطاعة نبوة ورسالة فيما يأمرهم به؛ من عبادة الله، وطاعة الله، واجتناب معصية الله؛ فإن سليمان صلى الله عليه وسلم كان نبيا ملكا، ومحمد كان عبدا رسولا، مثل إبراهيم2

---

1 تقدمت إشارة شيخ الإسلام رحمه الله إلى ذلك في ص 919 من هذا الكتاب.

2 سبق بيان ذلك فيما مضى، انظر ص 132، 636 من هذا الكتاب.

وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى هذه الحقيقة في موضع آخر من كتبه، فقال: "فإن نبينا صلى الله عليه وسلم كان يتصرف في الجن كتصرفه في الإنس تصرف عبد رسول يأمرهم بعبادة الله وطاعته، لا يتصرف لأمر يرجع إليه، وهو التصرف

الملكي؛ فإنه كان عبدا رسولا، وسليمان نبي ملك، والعبد الرسول أفضل من النبي الملك؛ كما أن السابقين المقربين أفضل من عموم الأبرار أصحاب اليمين". مجموع الفتاوى 1951. وانظر المصدر نفسه 1389.
وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني: "فإن قيل: فإن سليمان كانت تأتيه الجن، وإنها كانت تعتاص عليه حتى يصفدها ويقيدها. قيل: فإن: محمدا صلى الله عليه وسلم كانت تأتيه الجن راغبة إليه، طائعة له، معظمة لشأنه، ومصدقة له، مؤمنة به، متبعة لأمره، متضرعة له، مستمدين منه، ومستمنحين له زادهم ومأكلهم. فجعل كل روثة يصيبونها تعود علفا لدوابهم، وكل عظم يعود طعاما لهم، وصرفت لنبوته أشراف الجن وعظماؤهم التسعة الذين وصفهم الله تعالى، فقال: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن} [الأحقاف 29] ، وقوله: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن} إلى قوله: {لن يبعث الله أحدا} [الجن 1-7] . وأقبلت إليه صلى الله عليه وسلم الألوف منهم مبايعين له على الصوم والصلاة والنصح للمسلمين، واعتذروا بأنهم قالوا على الله شططا. فسبحان من سخرها لنبوته صلى الله عليه وسلم بعد أن كانت شرارا تزعم أن لله ولدا، فلقد شمل مبعثه من الجن والإنس ما لا يحصى. هذا أفضل مما أعطي سليمان عليه السلام". دلائل النبوة لأبي نعيم 2762.

[عليهم السلام] 1.
وموسى وسليمان، مثل داود ويوسف عليهم السلام، وغيرهما، مع أن داود وسليمان ويوسف [عليهم السلام] 2 هم رسل أيضا دعوا إلى توحيد الله وعبادته3؛ كما أخبر الله أن يوسف دعا أهل مصر4، لكن بغير معاداة

---

1 ما بين المعقوفتين من ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين من ((ط)) .
3 قال تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما} . [سورة النساء 163-164] ، وانظر ص 686 من هذا الكتاب.
4 قال تعالى يحكي قول مؤمن آل فرعون: {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا} ، [سورة غافر، الآية 34] .
وقال تعالى: {وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين} . [سورة يوسف، الآيات 54-56]

لمن لم يؤمن، ولا إظهار مناوأة بالذم والعيب والطعن لما هم عليه؛ كما كان نبينا أول ما أنزل عليه الوحي، وكانت قريش إذ ذاك تقره، ولا ينكر عليه1، إلى أن أظهر عيب آلهتهم ودينهم، وعيب ما [كان] 2 عليه آباؤهم، وسفه أحلامهم، فهنالك عادوه وآذوه، وكان ذلك جهادا باللسان قبل أن يؤمر بجهاد اليد3، قال تعالى: {ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا} 4.
وكذلك موسى مع فرعون: أمره أن يؤمن بالله، وأن يرسل معه [بني] 5 إسرائيل، وإن كره ذلك6، وجاهد فرعون بإلزامه بذلك بالآيات التي كان الله يعاقبهم بها، إلى أن أهلكه الله وقومه على يديه.

---

1 قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: "ودخل الناس في الدين واحدا بعد واحد، وقريش لا تنكر ذلك، حتى بادأهم بعيب دينهم وسب آلهتهم، وأنها لا تضر ولا تنفع، فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة، فحمى الله رسوله بعمه أبي طالب ... ". زاد المعاد 321-22. وانظر: تهذيب سيرة ابن هشام ص 65.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : كانت.
3 قال تعالى: {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين} [سورة الحجر، 94-95] .
4 سورة الفرقان، الآيتان 51-52.
5 في ((ط)) : (نبي) .

6 قال تعالى: {وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل} [سورة الأعراف، الآيتان 104 - 105] .

فصل: الذين سموا آيات الأنبياء خوارق لا بد أن يخصوا ذلك بالأنبياء دون غيرهم..
فالذين سموا هذه الآيات: خوارق للعادات، وعجائب، ومعجزات، إذا جعلوا ذلك شرطا فيها، وصفة لازمة لها، بحيث لا تكون الآيات إلا كذلك، فهذا صحيح1، وإن كانت هذه الأمور قد تجعل أمرا عاما؛ [فتكون] 2 متناولة لآيات الأنبياء، وغيرها؛ كالحيوان3 الذي ينقسم إلى إنسان، وغير إنسان.
وأما إذا جعلوا ذلك حدا لها، وضابطا، فلا بد أن يقيدوا كلامهم؛ مثل أن يقولوا: خوارق [العادات] 4 التي تختص الأنبياء، أو يقولوا: خوارق عادات الناس كلهم غير الأنبياء؛ فإن آياتهم لا بد أن تخرق عادة كل أمة من الأمم، وكل طائفة من الطوائف، لا تختص آياتهم يخرق عادة بلد معين، ولا من أرسلوا إليه، بل تخرق عادة جميع الخلق إلا الأنبياء؛ فإنها إذا كانت

---

1 سبق أن أوضح شيخ الإسلام رحمه الله أقوال الناس في مسمى خرق العادة، ومن يشترطه، ممن لا يشترطه. انظر ص 990 من هذا الكتاب.
2 في ((خ)) : فيكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 الحيوان: كل ذي روح، ناطقا كان أو غير ناطق، مأخوذ من الحياة، يستوي فيه الواحد والجمع، لأنه مصدر في الأصل. المصباح المنير ص 160.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : للعادات.

معتادة للأنبياء؛ مثل الخبر الصادق بغيب الله تعالى الذي لا يعرف إلا من جهتهم.
فما كان معتادا للأنبياء دون غيرهم فهو من أعظم آياتهم وبراهينهم، وإن كان معتادا لهم، فإن الدليل هو: ما يستلزم المدلول عليه.
فإذا لم يكن ذلك معتادا إلا لنبي، كان مستلزما للنبوة، وكان من أتى به لا يكون إلا نبيا، وهو المطلوب.
بل لو كان مستلزما للصدق، ولا يأتي به إلا صادق، لكان المخبر عن نبوة نبي؛ إما نبوة نفسه، أو نبوة غيرها.
وإذا كان كاذبا، لم يحصل له مثل ذلك الدليل الذي [هو] 1 مستلزم للصدق.
ولا يحصل أيضا لمن كذب بنبوة نبي صادق؛ إذ هو أيضا كاذب، وإنما يحصل لمن أخبر بنبوة نبي صادق.
وحينئذ فيكون ذلك الدليل مستلزما للخبر الصادق بنبوة النبي، وهذا هو المطلوب؛ فإن مدلول الآيات سواء سميت معجزات، أو غيرها، والخبر الصادق بنبوة النبي، ومدلولها: إخبار الله، وشهادته بأنه نبي، وأن الله أرسله؛ فقول الله: {محمد رسول الله} 2، وقوله: {إني رسول الله إليكم} 3، وقول كل مؤمن: إنه رسول الله4؛ كل ذلك خبر عن

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 سورة محمد، الآية 29.
3 في سورة الأعراف، الآية 158: {إني رسول الله إليكم} .
4 نطق المؤمن بأن محمدا رسول الله في مواطن كثيرة، منها على سبيل المثال: في الأذان، وبعد الانتهاء منه، وبعد الوضوء، وعند الدخول إلى المسجد، وفي التشهد الأول والثاني من الصلاة، وبعد الخروج من المسجد. وفي أماكن كثيرة، ليس هذا مكان حصرها.
وقد جمع الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى المواضع التي يصلى فيها على رسول الله، ويذكر في كتاب مستقل، اسمه: جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (مطبوع) .
وقال الشاعر:
لو لم يقل إني رسول لكا
ن شاهد في هديه ينطق.

زاد المعاد 4245.

رسالته، وهذا هو مدلول الآيات.
وقد يكون مدلول الآيات نفس النبوة، التي هي مخبر هذا الخبر، ويكون الدليل مثل خبر من الأخبار، وهذا من جنس الأول1.
فما دل على نفس النبوة، دل على صدق المخبر بها، وما دل على صدق المخبر بها، دل عليها2.
وأما نفس إخبار الرب بالنبوة، وإعلامه بها، وشهادته بها؛ قولا، وعملا، فهو إخبار منه بها، وهو الصادق في خبره؛ فإخباره هو دليل عليها؛ فإنه لا يقول إلا الحق، ولا يخبر إلا بالصدق.
وأيضا: فهو الذي أنشأ الرسالة، وإرساله بكلامه قد يكون إنشاء للرسالة، وقد يكون إخبارا عن إرساله؛ كالذي يرسل رسولا من البشر، قد يرسله والناس يسمعون، فيقول له: اذهب إلى فلان فقل له كذا وكذا. وقد يرسله بينه وبينه، ثم يقول للناس: إني قد أرسلته، ويرسله بعلامات وآيات، يعرف بها المرسل إليه صدقه.

1 أي الخبر الصادق بنبوة النبي، الذي هو المدلول للآيات.
2 أي نفس النبوة. والمقصود التلازم بين النبوة، وصدق النبي.

وكذلك: إذا وصفت1 بأنها معجزات، فلا بد أن يعجز كل من ليس بنبي، ولم يشهد للنبي بالنبوة؛ فيعجز جميع المكذبين للرسول، والشاكين في نبوته من الجن والإنس.
وكذلك: إذا قيل: هي عجائب، والعجب2: ما خرج عن نظيره، فلم يكن له نظير، فلا بد أن يكون من العجائب التي لا نظير لها أصلا عند غير الأنبياء؛ لا من الجن، ولا من الإنس.
[أما إذا] 3 كان [ليست] 4 لها نظير في شيء آخر، فهذا يؤيد أنها من خصائص الأنبياء، ومن آياتهم.
الفرق بين النبي والمتنبئ
فهذا الموضع من فهمه فهما جيدا، تبين له الفرقان في هذا النوع5؛ فإن كثيرا من الناس6 يصفها بأنها خوارق، ومعجزات، وعجائب، ونحو

1 أي الآية والعلامة والبينة والبرهان. وقد سبق أن ذكر المؤلف رحمه الله أن التسمية بالمعجزات حادثة، ولم تعرف في الكتاب والسنة بهذا الاسم. انظر ص 942 من هذا الكتاب.
2 سبق توضيح العجب. انظر ص 994 من هذا الكتاب.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : فإذا.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : ليس.
5 أي من الفرق بين النبي والمتنبئ، وبين الصادق والكاذب. فالشيخ رحمه الله يؤكد أن ما يخص الأنبياء من خوارق ومعجزات وعجائب، لا بد أن يكون خارقا ومعجزا لغيرهم، فلا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله. هذا هو الفرق الذي يعرف به الأنبياء، وتعلم به معجزاتهم.
6 وهم الأشاعرة، حيث جعلوا جنس ما يأتي به النبي والولي والساحر واحدا، إلا أن النبي يدعي به النبوة ولا يعارض، والولي والساحر لا يدعيان النبوة بذلك الخارق. والفرق بين الولي والساحر أن السحر لا يظهر إلا على فاسق، والكرامة لا تظهر على فاسق.
وقد سبق بيان ذلك مرارا. انظر ص 956-958 من هذا الكتاب. وانظر: البيان للباقلاني ص 47-49. والإرشاد للجويني ص 319، 322-323، 328.

ذلك، ولا يحقق الفرق بين من يجب أن يخرق عادته ومعجزه، ومن لا [يجب] 1 أن [تكون] 2 في حقه كذلك.
فالواجب أن يخرق عادة كل من لم يقر بنبوة الأنبياء؛ فلا يكون لمكذب بنبوته و [ليست] 3 لشاك.

وقولنا: يخرق عادتهم، هو من باب العادة التي تثبت بمرة، ليس من شرط فسادها أن تقع غير مرة، مع انتفاء الشهادة بالنبوة. بل متى وقعت مرة واحدة مع انتفاء الشهادة بالنبوة، لم [تكن] 4 مختصة بشهادة النبوة، ولا بالنبوة، فلا يجب أن تكون آية.
وقولنا: ولا يجب أن تخرق عادات الأنبياء، ولم [نقل] 5: ولا يجوز أن تخرق عادات الأنبياء. بل قد تكون خارقة أيضا لعادات الأنبياء.
أنواع آيات الأنبياء
وقد خص بها نبي واحد؛ مثل أكثر آيات الأنبياء6؛ فإن كل نبي خص بايات، لكن لا يجب في آيات الأنبياء أن تكون مختصة بنبي7، بل ولا يجب أن يختص ظهورها على يد النبي، بل متى اختصت به، وهي من

1 في ((ط)) : يحب - بالحاء المهملة.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : يكون.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : لا.
4 في ((خ)) : (يكن) . وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((خ)) : (يقل) . وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 فإبراهيم عليه السلام خص بالنار، وصالح خص بالناقة، وموسى بالعصا واليد، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم خص بالقرآن الكريم ... والأمثلة على ذلك كثيرة.
7 فمثلا إحياء الموتى: اشترك فيه أكثر من نبي. كما سبق بيانه في ص 594-611، 733 من هذا الكتاب. وانظر: الجواب الصحيح 3351، 417، 5434.

خصائصه، كانت آية له سواء وجدت قبل ولادته، أو بعد موته، أو على يد أحد من الشاهدين له بالنبوة1، فكل هذه من آيات الأنبياء.
الرد على من قال من شرط آيات الأنبياء أن تقارن دعوى النبوة
والذين قالوا: من شرط الآيات أن تقارن دعوى النبوة2: غلطوا غلطا عظيما، وسبب غلطهم: أنهم لم يعرفوا ما يخص بالآيات، ولم يضبطوا خارق العادة بضابط يميز بينها وبين غيرها، بل جعلوا ما للسحرة والكهان، هو أيضا من آيات الأنبياء، إذا اقترن بدعوى النبوة، ولم يعارضه معارض.
وجعلوا عدم المعارض هو الفارق بين النبي وغيره، وجعلوا دعواه النبوة جزءا من الآية3، فقالوا: هذا [الخارق] 4 إن وجد مع دعوى

1 هذه تعد من الكرامات التي للأولياء. وقد سبق أن أوضح المؤلف رحمه الله أن كل كرامة حصلت لولي تابع لنبي، فهي معجزة لذلك النبي، لأن ذلك ما حصل له إلا باتباعه لذلك النبي.
ويجب أن نوضح هنا: أن الأولياء لا يحصل على يديهم إلا آيات الأنبياء الصغرى. أما الكبرى فلا؛ مثل معراج الرسول صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم. ولكن الصغرى؛ مثل جنس تكثير الطعام والشراب فتحصل، لكن ليس بالمقدار والكيفية التي حصلت للنبي.
وانظر ما سبق من كلام المؤلف رحمه الله ص 987 من هذا الكتاب.
2 يقصد هنا الأشاعرة، كما هو واضح من تعليل المؤلف - رحمه الله - فيما بعد، وإلا فالمعتزلة يشترطون أن الخارق يقارن دعوى النبوة.
وقد تقدم ذلك. انظر ص 987 من هذا الكتاب.
وانظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص 569. والإرشاد للجويني ص 314، 320. والبيان للباقلاني ص 46-47. وأصول الدين للبغدادي ص 171.
3 يقول الجويني: "المعجزة لا تدل لعينها، وإنما تدل لتعلقها بدعوى النبي والرسالة". الإرشاد ص 319. وانظر البيان للباقلاني ص 47-49.
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

النبوة، كان معجزة، وإن وجد بدون دعوى النبوة، لم يكن معجزة1، فاحتاجوا لذلك أن يجعلوه مقارنا للدعوى.
قالوا: والدليل على [ذلك: أن مثل] 2 آيات الأنبياء يأتي في آخر الزمان، إذا [جاءت] 3 أشراط الساعة، ومع ذلك ليس هو من آياتهم4.
وكذلك قالوا في كرامات الأولياء5.
أشراط الساعة من آيات الأنبياء
وليس الأمر كذلك، بل أشراط الساعة هي من آيات الأنبياء6، من وجوه؛
منها: أنهم أخبروا بها قبل وقوعها، فإذا جاءت كما أخبروا، كان ذلك من آياتهم.
ومنها: أنهم أخبروا بالساعة، فهذه الأشراط مصدقة لخبرهم بالساعة، وكل من آمن بالساعة آمن بالأنبياء، وكل من كذب الأنبياء كذب الساعة، قال تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم

1 انظر: البيان للباقلاني ص 47-49. والإرشاد للجويني ص 324، 331.
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 في ((ط)) : جائئت.
4 وعلل التفتازاني ذلك بقوله: "لأن ما يقع في الآخرة من الخوارق ليست بمعجزة، ولأن ما يظهر عند ظهور أشراط الساعة وانتهاء التكاليف لا يشهد بصدق الدعوى، لكونه زمان نقض العادات وتغير الرسوم". شرح المقاصد للتفتازاني 513. وانظر: البيان للباقلاني ص 47-48. وأصول الدين للبغدادي ص 170.
5 انظر: الإرشاد للجويني ص 319. وأصول الدين للبغدادي ص 174-175.
6 سبق أن أوضح شيخ الإسلام ذلك في ص 597 من هذا الكتاب.
وانظر عن إخباره صلى الله عليه وسلم بالكثير من الغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة، ودلالة ذلك على نبوته، في الجواب الصحيح 680-158.

إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون} 1.
وقال تعالى: {وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به} 2.
فكل من آمن بالآخرة فقد آمن بالقرآن، فإذا جاءت أشراط الساعة، كانت دليلا على صدق [خبرهم أن الساعة حق، وأن القرآن حق، وكان هذا من الآيات الدالة على صدق ما جاء به الرسول] 3؛ من القرآن، وهو المطلوب.
كل ما يكون خرق عادة لجميع الناس فهو من آيات الأنبياء
فلا يوجد خرق عادة لجميع الناس، إلا وهو من آيات الأنبياء4.
وكذلك الذي يقتله الدجال، ثم يحييه، [فيقوم] 5، فيقول: أنت الأعور الكذاب الذي أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله ما ازددت فيك إلا بصيرة. فيريد الدجال أن يقتله، فلا يقدر على ذلك.
الرجل الذي يقتله الدجال ثم يحييه من آيات الرسول صلى الله عليه وسلم
فهذا الرجل بعد أن قتل وقام، يقول للدجال: أنت الأعور الكذاب، الذي أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله ما ازددت فيك بهذا القتل إلا بصيرة. ثم يريد الدجال أن يقتله، فلا يقدر عليه6.

1 سورة الأنعام، الآية 111-113.
2 سورة الأنعام، الآية 92.
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 هذه قاعدة وضابط في معرفة خصائص معجزات الأنبياء.

5 في ((ط)) : فيقول.
6 رواه الإمام البخاري في صحيحه 2609-62608، كتاب الفتن، باب لا يدخل الدجال المدينة. والإمام مسلم في صحيحه 42256، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب صفة الدجال وتحريم المدينة عليه، وقتله المؤمن وإحيائه.

فعجزه عن قتله ثانيا، مع تكذيب الرجل له بعد أن قتله، وشهادته للرسول محمد بالرسالة، هو من خوارق العادات، التي لا توجد إلا لمن شهد للأنبياء بالرسالة. وهذا الرجل هو من خيار أهل الأرض المسلمين.
فهذا الخارق الذي جرى فيه، هو من خصائص من شهد لمحمد بالنبوة؛ فهو من اعلام النبوة، ودلائلها.
وكونه قتل أولا أبلغ في الدلالة؛ فإن ذلك لم يزغه، ولم يؤثر فيه، وعلم أنه لا يسلط عليه مرة ثانية، فكان هذا اليقين والإيمان، مع عجزه عنه، هو من خوارق الآيات.
ومعلوم أن قتله ممكن في العادة، فعجزه عن قتله ثانيا، هو الخارق للعادة.
ودل ذلك على أن إحياء الله له، لم يكن معجزة للدجال، ولا ليبين بها صدقه، لكن أحياه ليكذب الدجال، وليبين أن محمدا رسول الله، وأن الدجال كذاب، وأنه هو الأعور الكذاب، الذي أنذر به النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال: "ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الدجال، وسأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لأمته: إنه أعور، وإن الله ليس بأعور، مكتوب بين عينيه: كافر [ك ف ر] 1، يقرأه كل مؤمن؛ قارىء، وغير قارىء"2.

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، ولا ((ط)) .
2 رواه البخاري في صحيحه 2608-62607، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، مع اختلاف يسير. ومسلم في صحيحه 42245، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، و 2248-42247، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه.

وفي بعض الأحاديث الصحيحة: "واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت"1.
فذكر لهم آيات ظاهرة يشترك فيها الناس، تبين لهم كذبه، فيما يدعيه من الربوبية؛ إذ كان كثير من الناس يجوزون ظهور الإله في البشر؛ النصارى2 وغير النصارى3.
وما يأتي به الدجال، إنما يحار فيه، ويراه معارضا لآيات الأنبياء: من لم يحكم الفرقان.
من أنكر خوارق الدجال وقال إنما هي خيال
فقوم يكذبون أن يأتي بعجيب، ويقولون: ما معه إلا التمويه4؛ كما

---

1 رواه الإمام مسلم في صحيحه 42245، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد. والترمذي في جامعه 4508، كتاب الفتن، باب ما جاء في الدجال.
2 كما قال تعالى: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [سورة التوبة، الآية 30] .
3 مثل ملاحدة الصوفية الذين يقولون بالحلول والاتحاد؛ كقول ابن الفارض في ديوانه:
لها صلواتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصل واحد ساجد ... إلى حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن ... صلاتي لغيري في أدى كل ركعة
ديوان ابن الفارض ص 34.
وهم أخبث من النصارى واليهود كما صرح بذلك شيخ الإسلام رحمه الله؛ لأن اليهود قالوا بالحلول الخاص، وهؤلاء قالوا بالحلول المطلق. انظر: جامع الرسائل والمسائل 193، 94. والجواب الصحيح 4315، 497-500.
4 التمويه: هو التلبيس. ومنه قيل للمخادع: مموه. وقد موه فلان باطله: إذا زينه وأراه في صورة الحق. والمموهة هي التي يكون ظاهرها مخالفا لباطنها.

تهذيب اللغة 6474. ولسان العرب 13544. والتعريفات ص 297.

قالوا في السحر والكهانة؛ مثل كثير من المعتزلة، والظاهرية؛ كابن حزم1.
وقوم2 يقولون: لما ادعى الإلهية، كانت الدعوى معلومة البطلان، فلم يظهر الخارق؛ كما يقول ذلك القاضي أبو بكر3، وطائفة. ويدعون أن

---

1 ونقل ابن كثير رحمه الله عن ابن حزم والطحاوي وغيرهما: (أن الدجال ممخرق مموه لا حقيقة لما يبدي للناس من الأمور التي تشاهد في زمانه، بل كلها خيالات عند هؤلاء. وقال الشيخ أبو علي الجبائي شيخ المعتزلة: لا يجوز أن يكون كذلك حقيقة لئلا يشتبه خارق الساحر بخارق النبي) . النهاية في الفتن والملاحم 1164.
وممن أنكر حقيقة خوارق الدجال: الماوردي انظر كتابه أعلام النبوة ص 62.
ومن المتأخرين الذين أنكروا حقيقة خوارق الدجال: الشيخ محمد رشيد رضا. انظر تفسيره تفسير المنار 9490.
وقد رد على من أنكر حقيقة هذه الخوارق كثير من العلماء: منهم القاضي عياض، والنووي، وابن كثير، وابن حجر رحمهم الله تعالى.
انظر: النهاية في الفتن والملاحم 1164-165. وفتح الباري 13103-105. وشرح النووي على مسلم 1858-59.
2 وهم الأشعرية. انظر: أصول الدين للبغدادي ص 170، 174.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 104 - 105.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "والدجال لما ادعى الإلهية لم يكن ما يظهر على يديه من الخوارق دليلا عليها؛ لأن دعوى الإلهية ممتنعة، فلا يكون في ظهور العجائب ما يدل على الأمر الممتنع". الجواب الصحيح 3351.
وقال أيضا: "ولهذا أعظم الفتن فتنة الدجال الكذاب، لما اقترن بدعواه الإلهية بعض الخوارق، كان منها ما يدل على كذبه من وجوه، منها: دعواه الإلهية وهو أعور، والله ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ، والله تعالى لا يراه أحد حتى يموت، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم هذه العلامات الثلاث في الأحاديث الصحيحة، فأما تأييد الكذاب ونصره وإظهار دعوته دائما، فهذا لم يقع قط. فمن يستدل على ما يفعله الرب سبحانه بالعادة والسنة فهذا هو الواقع، ومن يستدل على ذلك بالحكمة، فحكمته تناقض أن يفعل ذلك؛ إذ الحكيم لا يفعل هذا، وقد قال تعالى: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} [سورة الفتح، الآيتان 22-23] . فأخبر أن سنة الله التي لا تبديل لها: نصر المؤمنين على الكافرين، والإيمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله، فإذا نقض الإيمان بالمعاصي كان الأمر بحسبه كما جرى يوم أحد ...) . الجواب الصحيح 6419-420. وانظر: المصدر نفسه 5187، ومجموع الفتاوى 2045، وشرح الأصفهانية 2477، 608.

النصارى اعتقدت في المسيح الإلهية؛ لكونه أتى بالخوارق، مع إقراره بالعبودية. فكيف بمن يدعي الإلهية؟
ولكن هذا الخارق الذي يظهره الله في هذا الرجل الصالح الذي طلب منه الدجال أن يؤمن به، فلم يفعل، بل كذبه، وقال: أنت الأعور الدجال الذي أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم، فقتله، ثم أحياه الله، فقال له: أنت الأعور الدجال، فكذبه قبل أن قتل، وبعد ما أحياه الله، وأراد الدجال قتله ثانية، فلم يمكن.
فعجزه عن قتله ثانيا: من أعظم الخوارق، مع تكذيبه. وأما إحياؤه، مع تكذيبه له أولا، وعجزه ثانيا عن قتله، فليس بخارق.
فهذا إحياء معين، معه دلائل معدودة، تبين أنه من الآيات الدالة على صدق الرسول، لا على صدق الدجال، وتبين بذلك أن الآيات جميعها تدل على صدق الأنبياء؛ فإن آيات الله مرة أو مرتين أو ثلاثا، لا يشترط في ذلك تكرار، بل شرطها: أن لا يكون لها نظير في العالم لغير الأنبياء، ومن يشهد بالنبوة، ولم يوجد لغيرهم، كان [هذا] 1 دليلا على أنها مختصة بالأنبياء.

---

1 في ((ط)) : ذها.

ومن أطلق خرق العادة1، ولم يفسره ويبينه، فلم يعرف خاصتها، بل ظن أن ما وجد من السحر والكهانة خرق عادة، أو ظن أن خرق [العادة] 2 أن لا يعارضها معارض من المرسل إليهم.

خوارق المتنبئين من جنس خوارق السحرة

وكثير من المتنبئين الكذابين أتوا بخوارق من جنس خوارق السحرة والكهان، ولم يكن من أولئك القوم من أتى بمثلها، لكن قد علم أن في العالم مثلها، في غير ذلك المكان، أو في غير ذلك الزمان، وإنما الخارق كما قال في القرآن: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} 3.

التحدي بالقرآن الكريم

ولهذا قال في آيات التحدي: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين} 4، وقال في تلك الآية: {فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو} 5.

فلم يكتف بعجز المدعوين، بل أمرهم أن يدعوا إلى معاونتهم كل من استطاعوا أن يدعوه من دون الله. وهذا تعجيز لجميع الخلق؛ الإنس، والجن، والملائكة.

وقال في البقرة: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين} 6؛ أي: ادعوا كل

---

1 وهم الأشاعرة الذين يجعلون جنس الخارق ليس هو المعجزة، وإنما المعجز هو دعوى النبوة، وعدم المعارضة، كما سبق بيانه ص 152-153، 586-587 من هذا الكتاب.

2 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

3 سورة الإسراء، الآية 88.

4 سورة هود، الآية 13.

5 سورة هود، الآية 14.

6 سورة البقرة، الآية 23.

من يشهد لكم، فيوافقكم على أن هذا ليس من عند الله؛ ادعوا كل من لم يقر بأن هذا منزل من الله، فهذا تعجيز لكل من لم يؤمن به. ومن آمن به، وبقي في ريب، [بل] 1 قد علم أنه من عند الله.

وهذا التحدي في البقرة، وهي مدنية بعد يونس وهود. ولهذا قال: {وإن كنتم في ريب} ، وهناك2 قال: {أم يقولون افتراه} ؛ فهذا3 تحدي لكل مرتاب، وذاك4 تحدي لكل مثل مكذب. ولهذا قيل في ذاك5: {من استطعتم} فإنه أبلغ، وقيل في هذا6: {شهداءكم} .

وقد قال بعض المفسرين7: {شهداءكم} : آلهتكم، وقال بعضهم8: من يشهد أن الذي جئتم به مثل القرآن.

والصواب: أن شهداءهم الذين يشهدون لهم؛ كما ذكره ابن اسحق9

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : قل.

2 أي في سورة يونس، الآية 38، وسورة هود، الآية 13.

3 الذي في سورة البقرة الآية 23.

4 الذي في سورة يونس 38، وهود 13.

5 في سورة يونس، وسورة هود.

6 في سورة البقرة.

7 انظر: زاد المسير لابن الجوزي 151. وتفسير ابن كثير 159.

8 انظر: تفسير الطبري 1167. وزاد المسير لابن الجوزي 151. وتفسير ابن كثير 159.

9 هو محمد بن إسحاق بن يسار، أبو بكر المطلبي بالولاء، المدني. من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة. له السيرة النبوية، هذبها ابن هشام، زار الاسكندرية، وسكن بغداد، ومات بها. قال ابن حبان: "لم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن إسحاق في علمه، أو يوازيه في جمعه، وهو من أحسن الناس سياقا للأخبار". وكان جده يسار من سبي عين التمر. وقال عنه ابن حجر: "نزيل

العراق، إمام المغازي، صدوق يدلس، ورمي بالتشيع والقدر، من صغار الخامسة، مات سنة خمسين ومائة، ويقال بعدها".
انظر: تقريب التهذيب لابن حجر 254. والأعلام للزركلي 628.

بإسناده المعروف عن ابن عباس، قال: {شهداءكم} : من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه1.
وقال السدي2، عن أبي مالك: {شهداءكم من دون الله} : أي شركاءكم3؛ فإن هؤلاء هم الذي يتصور منهم المعارضة إذا كانوا في ريب منه.
أما من أيقن أنه من عند الله، فإنه يمتنع أن يقصد معارضته؛ لعلمه بأن الخلق عاجزون عن ذلك. والله تعالى شهد لمحمد بما أظهره من الآيات، فادعوا من يشهد لكم. وهؤلاء يشهدون من دون الله، لا يشهدون بما شهد الله به، فتكون شهادتهم [مضادة] 4 لشهادة الله؛ كما قال: {لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون} 5.

1 انظر: تفسير الطبري 1166. وزاد المسير 151. وتفسير ابن كثير 159.
2 هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي الكبير، أبو محمد القرشي الكوفي. له أقوال في تفسير القرآن، اختلف في توثيقه، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق يهم، ورمي بالتشيع من الرابعة، تابعي حجازي الأصل، سكن الكوفة، مات سنة 128 ?.
انظر: تقريب التهذيب 196، وتهذيب التهذيب 1213، وسير أعلام النبلاء 5264-265، والأعلام 1317، والتفسير والمفسرون 179.
3 انظر: تفسير ابن كثير 159.
4 في ((خ)) : بأربعة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 سورة النساء، الآية 166.

وقال: {قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} 1.
كما قال: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم} 2.
وقد قلنا: يجوز أن تكون آياتهم خارقة لعادة جميع الخلق، إلا للنبي، لكن لا يجب هذا فيها3.
اعتراض وجواب المؤلف عليه
فإن قيل: قد ذكرتم أن آيات الأنبياء هي الخوارق التي تخرق عادة جميع الثقلين، فلا تكون لغير الأنبياء، ولغير من شهد لهم بالنبوة. وهذا كلام صحيح فصلتم به بين آيات الأنبياء، وغيرهم بفصل مطرد منعكس4، بخلاف من قال: هي خرق العادة5، ولم يميز بينها وبين غيرها، وتكلم في خرق العادة بكلام متناقض؛ تارة يمنع وجود السحر والكهانة، وتارة يجعل هذا الجنس من الآيات، ولكن الفرق عدم المعارضة. لكن لم يذكروا الفرق في نفس الأمر، ونفس كونها معجزة، وخارقا، وآية: لماذا كان؟ وما هو الوصف الذي امتازت به، حتى صارت آية ودليلا دون غيرها؟ فذكرتم الدليل، لكن لم تذكروا الحقيقة التي بها صار الدليل دليلا.
قيل: لا بد أن تكون مما يعجز عنها الإنس والجن؛ فإن هذين الثقلين بعث إليهم الرسل؛ كما قال تعالى: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا

1 سورة الرعد، الآية 43.
2 سورة آل عمران، الآية 18.
3 تقدم ذلك مرارا، في أول هذا الكتاب، وانظر ص 992 منه.
4 سبق ذلك. انظر ص 301 من هذا الكتاب.
5 وهم الأشاعرة، كما سبق بيانه في ص 151-153.

وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين} 1.
وقال تعالى: { [وقال لهم خزنتها] 2 ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين} 3.
والإنس والجن منهم من آمن بالرسل، ومنهم من كذبهم، فلا بد أن يكون مما لا يقدر عليها جنس الإنس والجن.
ثم الكرامات [يخص] 4 بها المؤمنين من الطائفتين5، وأما آيات الأنبياء التي بها تثبت نبوتهم، وبها وجب على الناس الإيمان بهم، فهي أمر [يخص] 6 الأنبياء، لا يكون للأولياء، ولا لغيرهم، بل يكون من المعجزات الخارقة للعادات الناقضة لعادات جميع الإنس والجن غير الأنبياء.
فما كان الإنس أو الجن يقدرون عليه، فلا يكون وحده آية للنبي. أما ما تقدر عليه الملائكة: فذاك قد يكون من آياتهم؛ لأنهم لم يرسلوا إلى الملائكة7، والملائكة لا تفعل شيئا إلا بإذن الله؛ فما تفعله الملائكة معهم، فهو بإذن الله، وهو ما خص به الأنبياء بخلاف الإنس والجن.

---

1 سورة الأنعام، الآية 130.
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 سورة الزمر، الآية 71.
4 في ((خ)) : يختص. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 أي من الإنس والجن.
6 في ((خ)) : يختص. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 انظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله المتقدم في هذا الكتاب، ص 171. وانظر: البيان للباقلاني ص 102، 105.

كل ما استلزم نبوة الأنبياء فهو آية لهم
وخاصتها التي تمتاز بها عن غيرها: أن يكون آية، ودليلا على نبوتهم؛ فكل ما استلزم نبوتهم، فهو آية لهم، وما لا يستلزم نبوتهم، فليس بآية1، وليست مختصة بجنس من الموجودات، بل تكون في جنس العلم، والإخبار بغيب الرب الذي اختص به، و [تكون] 2 في جنس القدرة، والتصرف، والتأثير في العالم3، وهي مقدورة للرب، فله سبحانه أن يجعلها في أي جنس كان من المقدورات.
تنوع آيات الأنبياء
ولهذا تنوعت آيات الأنبياء، بل النبي الواحد تتنوع آياته، فليس القرآن الذي هو قول الله وكلامه من جنس انشقاق القمر، ولا هذا وهذا من جنس تكثير الطعام، والشراب؛ كنبع الماء من بين الأصابع.
وهذا كما أن آيات الرب الدالة على قدرته، ومشيئته، وحكمته، وأمره، ونهيه، لا تختص بنوع، فكذلك آيات أنبيائه. فهذا مما ينبغي أن يعرف. ولكن خاصتها أنها لا تكون إلا مستلزمة لصدق النبي، وصدق الخبر بأنه نبي4، فلا تكون لمن يكذبه قط.
كرامات الأولياء من آيات الأنبياء الصغرى
ولا يقدر أحد من مكذبي الرسل أن يأتي بمثل آيات الأنبياء، وأما

---

1 هذا ضابط به تميز الآية من غيرها.
2 في ((خ)) : (يكون) . وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 أشار الشيخ رحمه الله تعالى إلى أنواع المعجزات. انظر ما سبق ص 171. وانظر: مجموع الفتاوى 11298-299، 323-324.
وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله آيات الرسول صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير، وذكر لها أنواعا كثيرة، مؤيدا ذلك بكثرة الأمثلة. وقد أطال النفس في سرد ذلك وتوضيحه. انظر الجواب الصحيح 6159-323. وانظر أيضا قاعدة في المعجزات والكرامات ص 9-21.
4 من خاصة المعجزة.

مصدقوهم1 فهم معترفون بأن ما يأتون به هو من آيات الأنبياء، مع أنه لا تصل آيات الأتباع إلى مثل آيات المتبوع مطلقا2، وإن كانوا قد يشاركونه في بعضها؛ كإحياء الموتى، وتكثير الطعام، والشراب3؛ فلا يشركونه في القرآن، وفلق البحر، وانشقاق القمر4؛ لأن الله فضل الأنبياء على غيرهم، وفضل بعض النبيين على بعض. فلا بد أن يمتاز الفاضل بما لا يقدر المفضول على مثله؛ إذ لو أتى بمثل ما أتى، لكان مثله، لا دونه.

1 أي مصدقوا أتباع الأنبياء، وهم الأولياء.
2 كما مر معنا أن كرامات الأولياء هي من آيات الأنبياء الصغرى، لا يصلون إلى الكبرى، وحتى الصغرى تكون من جنس آيات الأنبياء، لكن ليس بالقدر والكيفية. انظر ص 151، 857-860 من هذا الكتاب. وانظر ما سيأتي ص 1219.
3 مر معنا فيما سبق. انظر ص 150-151.
4 لأنها من آيات الله الكبرى التي يختص بها الأنبياء.

فصل مسمى العادة
وكثير من هؤلاء1 مضطربون في مسمى العادة التي [تخرق] 2.
والتحقيق: أن العادة أمر إضافي؛ فقد يعتاد قوم ما لم يعتده غيرهم. [فهذه إذا خرقت] 3، فليست لصدق النبي لا توجد بدون صدقه.
والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته، التي قال فيها: {سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} 4، وقال: {فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا} 5؛ وهي التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين؛ فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره، ويختصه بها، قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره، ويختص به.
ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء، ويختصون بها، والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس6، وهو أعلم حيث يجعل

1 أي الأشاعرة. انظر: الجواب الصحيح 6503-504.
2 في ((خ)) : (يخرق) . وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة الفتح، الآية 23.
5 سورة فاطر، الآية 43.
6 قال تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير} [سورة الحج، الآية 75] .

رسالته1.
فمن خصه بذلك، كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره، ما يناسب ذلك؛ فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة.
وتلك سنته وعادته في أمثاله؛ يميزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم، ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الأنبياء مثلا.
سنة الله وعادته
ولم [تكن] 2 له سبحانه عادة؛ بأن يجعل مثل آيات الأنبياء لغيرهم، حتى يقال: إنه خرق عادته ونقضها، بل عادته وسنته المطردة3 أن تلك

1 قال تعالى: {.. الله أعلم حيث يجعل رسالته..} [سورة الأنعام، الآية 124] .

فالنبوة هبة من الله، يهبها الله من يشاء من عباده. فهو تعالى كما أخبر عن نفسه: {والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم} [سورة البقرة، الآية 105] . وهو جل وعلا يخلق ما يشاء ويختار، ويصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس؛ كما أخبر عن نفسه.
وللشيخ رحمه الله كلام جيد في هذا الموضوع، وفي الرد على المعتزلة الذين أوجبوا على الله الرسالة بزعمهم أن البعثة متى حسنت وجبت. انظر: مجموع الفتاوى872-73. ومنهاج السنة النبوية 1452.
2 في ((خ)) : (يكن) . وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ولشيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر كلام جيد يوضح معنى السنة هاهنا، يقول
فيه: "والسنة هي العادة، فهذه عادة الله المعلومة، فإذا نصر من ادعى النبوة وأتباعه على من خالفه إما ظاهرا وباطنا، وإما باطنا نصرا مستقرا، كان ذلك دليلا على أنه نبي صادق؛ إذ كانت سنة الله وعادته نصر المؤمنين بالأنبياء الصادقين على الكافرين والمنافقين، كما أن سنته تأييدهم بالآيات البينات، وهذه منها. ومن ادعى النبوة وهو كاذب، فهو من أكفر الكفار، وأظلم الظالمين..". الجواب الصحيح 6421. وانظر عن معنى السنة في القرآن: مجموع الفتاوى 1319-23.

الآيات لا تكون إلا مع النبوة، والإخبار بها، لا مع التكذيب بها، أو الشك فيها.
كما أن سنته وعادته: [أن محبته، ورضاه، وثوابه لا يكون إلا لمن عبده وأطاعه، وأن سنته وعادته] 1 أن يجعل العاقبة للمتقين2، وسنته وعادته أن ينصر رسله، والذين آمنوا3؛ كما قال تعالى: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} 4.
وكل ما يظن أنه خرقه من العادات، فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات.
فعادته وسنته لا تتبدل؛ إذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل. هذا قول الجمهور5.

---

1 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
2 قال تعالى: {قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين} [سورة الأعراف، الآية 128] .
وقال تعالى: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين} [سورة هود، الآية 49] .
وقال تعالى: {وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى} [سورة طه، الآية 123] .
وقال تعالى: {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين} [سورة القصص، الآية 83]
3 قال تعالى: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [سورة غافر، الآية 51] .
وقال تعالى: {ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين} [سورة يونس، الآية 103] .
وقال تعالى: {سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا} [سورة الإسراء، الآية 77] .
4 سورة الفتح، الآيتان 22-23.
5 انظر الجواب الصحيح 6400-404، 418-425. وانظر ص 548، 1030-1031 من هذا الكتاب.

الذين ينفون الحكمة يجوزون عليه فعل كل ممكن
وأما من لا يثبت سببا، ولا حكمة، ولا عدلا1: فإنهم يقولون: إنه يخرق عادات، لا لسبب، ولا لحكمة. ويجوزون أن يقلب الجبل ياقوتا، والبحر لبنا، والحجارة آدميين2، ونحو ذلك، مع بقاء العالم على حاله. ثم يقولون مع هذا: ولكن نعلم بالضرورة أنه لم يفعل ذلك3. و [يقولون] 4: العقل هو علوم ضرورية؛كالعلوم بجارى العادات5.
وهذا تناقض بين؛ فإنهم إذا جوزوا هذا، ولم يعلموا فرقا بين ما يقع منه، وما لا يقع، كان الجزم بوقوع هذا دون هذا جهلا.
وغاية ما عندهم أن قالوا: يخلق في قلوبنا علم ضروري بأن هذا لم يقع، ويخلق في قلوبنا علم ضروري بأن الله خرق العادة لتصديق هذا النبي6.

1 وهم الأشاعرة، والجهمية، والفلاسفة، كما سبق بيانه. انظر ص 503-504، 533-535 من هذا الكتاب.
2 انظر: الإرشاد للجويني ص 306، 319، 326. والمواقف للإيجي ص 345-346.
3 انظر: شرح المقاصد 515-19. وانظر ما تقدم ص 113-120، وانظر: الجواب الصحيح 6393-400، 500-505.
4 في ((ط)) : (يقولن) .
5 انظر: التعريفات للجرجاني ص 197. وانظر: الجواب الصحيح 6400.
6 انظر: الإرشاد للجويني ص 324-326. وانظر: الجواب الصحيح 6399-400.
وقد قال القاضي عبد الجبار المعتزلي عن هؤلاء الأشاعرة: "فلو جوزنا أن يكون هذا المعجز من جهة من يصدق الكاذب، لا يمكننا أن نعلم صدق من ظهر عليه. ولهذا قلنا: إن هؤلاء المجبرة لا يمكنهم أن يعرفوا النبوات لتجويرزهم القبائح على الله تعالى". شرح الأصول الخمسة ص 571.

تعليق المؤلف على كلامهم
فيقال: إذا كان قد جعل الله في قلوبكم علما ضروريا كما جعله في قلوب أمثالكم، فأنتم صادقون فيما تخبرون به عن أنفسكم من العلم الضروري، لكن خطأكم: اعتقادكم أن العادات قد [ينقضها] 1 الله بلا سبب، ولا لحكمة. فهذا ليس معلوما لكم بالضرورة.
وخطأكم من حيث جوزتم أن يكون شيئان متساويين من كل وجه، ثم يعلم بضرورة، أو نظر ثبوت أحدهما، وانتفاء الآخر.
فإن هذا تفريق بين المتماثلين، وهذا قدح في البديهيات2؛ فإن أصل العلوم العقلية النظرية: اعتبار الشيء بمثله، وإن حكمه حكم مثله3.
فإذا جوزتم أن يكون الشيئان متماثلين من كل وجه، وأن العقل يجزم بثبوت أحدهما وانتفاء الآخر، كان هذا قدحا في أصل كل علم وعقل.
وإذا قلتم: إن العادات جميعها سواء، وإن الله يفعل ما يفعل بلا سبب، ولا حكمة، بل محض المشيئة مع القدرة رجحت هذا على هذا، وقلتم: لا فرق بين قلب الجبال يواقيت، والبحار لبنا، وبين غير ذلك من العادات، وجوزتم أن يجعل الله الحجارة آدميين علماء، من غير سبب تغير به المخلوقات، كان هذا قدحا في العقل؛ فلا أنتم عرفتم سنة الله المعتادة في خلقه، ولا عرفتم خاصة العقل4؛ وهو التسوية بين المتماثلين؛ فإنه سبحانه قط لم يخرق عادة، إلا لسبب يناسب ذلك؛ مثل:

1 في ((م)) ، و ((ط)) : ينقضه.
2 انظر الكلام على دعوى الضرورة عند الأشاعرة، ورد شيخ الإسلام رحمه الله عليهم في: الجواب الصحيح 6398، 500.
3 انظر: مجموع الفتاوى 1969-71. وانظر ما سبق ص 592 من هذا الكتاب.
4 انظر ما تقدم ص 279-282، 662-669 من هذا الكتاب.

[فلق] 1 البحر لموسى، وغير ذلك من الآيات التي بعث بها2؛ فإن ذلك خلقه ليكون آية وعلامة؛ وكان ذلك بسبب نبوة موسى، وانجائه قومه، وبسبب تكذيب فرعون. [ومن جوز] 3 أن ذلك البحر، أو غيره ينفلق لموسى، من غير أن يكون هناك سبب إلهي يناسب ذلك، فهو مصاب في عقله.
اضطراب الأشاعرة في التفريق بين آيات الأنبياء وخوارق غيرهم
ولهذا اضطرب أصحاب هذا القول4، ولم يكن عندهم ما يفرقون بين دلائل النبوة وغيرها، وكانت آيات الأنبياء والعلم بأنها آيات [إن حققوها على وجهها] 5، فسدت أصولهم6، وإن طردوا أصولهم، كذبوا العقل والسمع، ولم يمكنهم؛ لا تصديق الأنبياء، ولا العلم بغير ذلك من أفعال الله تعالى التي يفعلها بأسباب وحكم، كما قد بسط هذا في موضع آخر7.

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 انظر هذا المعنى من كلام شيخ الإسلام رحمه الله، وقوله أن المعجزات إنما تقع لسبب وحكمة، لا تحصل بغير سبب، في: الجواب الصحيح 6401-404.

3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 وهم الأشاعرة.
5 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
6 من هذه الأصول: نفي الحكمة والتعليل عن أفعال الله، والقول بتكليف ما لا يطاق، ونفي التحسين والتقبيح العقليين، وغير ذلك، مما سبق نقضه، من خلال كلام المؤلف رحمه الله تعالى في معرض رده على المخالفين.
7 انظر: الجواب الصحيح 6393-404. وشرح الأصفهانية 2471-491، 608-624. ومجموع الفتاوى 881-158. ودرء تعارض العقل والنقل 940-44، 52. وانظر ما سبق من كتاب النبوات، حيث تكلم الشيخ رحمه الله عن هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحات: 151-156، 267، 272-282، 501-505، 564-574، 580-590، 549-554، 929-933.

فصل اشتقاق كلمة النبي
ودليل الشيء مشروط بتصور المدلول عليه، فلا يعرف آيات الأنبياء إلا من عرف ما اختص به الأنبياء، وامتازوا به عما [سواهم] 1.
اشتقاق كلمة النبي
والنبوة مشتقة من الإنباء.
والنبي فعيل، وفعيل قد يكون بمعنى فاعل؛ أي منبي، وبمعنى مفعول؛ أي منبأ2.
وهما هنا متلازمان؛ فالنبي الذي [ينبىء] 3 بما أنبأه الله به، والنبي الذي نبأه الله، وهو [منبأ] 4 بما أنبأه الله به.
عصمة الأنبياء
وما أنبأه الله به لا يكون كذبا، وما أنبأ به النبي عن الله [لا يكون] 5 يطابق كذبا؛ لا خطأ، ولا عمدا، فلا بد أن يكون صادقا فيما يخبر به عن الله؛ يطابق خبره مخبره، لا تكون فيه مخالفة؛ لا عمدا، ولا خطأ.

---

1 في ((خ)) : سماهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سبق أن ذكر شيخ الإسلام رحمه الله مسألة اشتقاق كلمة (النبي) ، ورجح فيها - رحمه الله - أنها فعيل بمعنى مفعول. انظر: ص 825-827 من هذا الكتاب. وانظر: مجموع الفتاوى 10190.
3 في ((خ)) : ينبأ. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : نبيا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((خ)) شطب على (لا يكون) للدلالة على حذفها، كما عرف من منهج الناسخ ولا يستقيم ذلك.

وهذا معنى قول من قال: هم معصومون فيما يبلغونه عن الله1.

---

1 من خصائص الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين: أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى. وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة، فللناس نزاع في ذلك. والذي عليه جمهور أهل العلم: عصمة الأنبياء عن الكبائر دون الصغائر، وأنهم معصومون من الإقرار على الذنوب مطلقا، وأنهم إن وقع منهم زلات من جنس ذلك، فإنهم يتداركونها بالتوبة والإنابة، ثم يرتقون إلى منزلة أعلى من المنزلة التي كانوا عليها قبل الذنب.
يقول شيخ الإسلام رحمه الله موضحا مسألة عصمة الأنبياء: "فإن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر: هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام؛ كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول". مجموع الفتاوى 4319.
وقال أيضا عن أهل السنة: هم متفقون على أنهم لا يقرون على خطأ في الدين أصلا، ولا على فسوق، ولا كذب. ففي الجملة: كل ما يقدح في نبوتهم وتبليغهم عن الله، فهم متفقون على تنزيههم عنه. وعامة الجمهور الذين يجوزون عليهم الصغائر يقولون إنهم معصومون من الإقرار عليها، فلا يصدر عنهم ما يضرهم. كما جاء في الأثر: كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة،

والله {يحب التوابين ويحب المتطهرين} [سورة البقرة، الآية 222] ، وإن العبد ليفعل السيئة، فيدخل بها الجنة) . منهاج السنة 1472.
وقال أيضا رحمه الله: " ... أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى لم يذكر من نبي من لأنبياء ذنبا، إلا ذكر توبته منه. ولهذا كان الناس في عصمة الأنبياء على قولين: إما أن يقولوا بالعصمة من فعلها، وإما أن يقولوا بالعصمة من الإقرار عليه، لا سيما فيما يتعلق بتبليغ الرسالة، فإن الأمة متفقة على أن ذلك معصوم أن يقر فيه على خطأ، فإن ذلك يناقض مقصود الرسالة ومدلول المعجزة ... ".
إلى أن قال رحمه الله: "واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه؛ قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم، ورفع درجاتهم بذلك. وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوبا وعيوبا نزههم الله عنها، وهؤلاء مخالفون للقرآن، وهؤلاء مخالفون للقرآن. ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط، مهتديا إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين..". مجموع الفتاوى 15147-150. وانظر المصدر نفسه 4319-321،، 10289 _ 295. ومنهاج السنة النبوية 1470-474. والجواب الصحيح 6298-299. وأضواء البيان 4522، 538.

لكن لفظ الصادق، وأن النبي صادق مصدوق: نطق به القرآن1، وهو مدلول الآيات والبراهين.
ولفظ العصمة في القرآن، جاء في قوله: {والله يعصمك من الناس} 2؛ أي من أذاهم3.
فمعنى هذا اللفظ في القرآن: هو الذي يحفظه الله عن الكذب خطأ وعمدا.

1 ومن الآيات التي ورد بها صفة الصدق للأنبياء: قوله تعالى: {هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون} [سورة يس، الآية 52] ، وقوله تعالى: {واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا} [سورة مريم، الآية 41] ، وقوله تعالى: {واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا} [سورة مريم، الآية 54] ، وقوله تعالى: {يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان..} [سورة يوسف، الآية 46، وقوله تعالى: {واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا} [سورة مريم، الآية 56] ، وقوله تعالى: {ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم} [سورة البقرة، الآية 101] .
وقد تكلم الشيخ رحمه الله عن عاقبة النبي ومتبعيه، وحال مكذبيه، وأن النصر والسعادة وحسن العاقبة للرسول ولمن آمن به، والبلاء والعذاب، وسوء العاقبة لمن كذبهم وخالفهم.
انظر: شرح الأصفهانية 2496-500. والجواب الصحيح 6387-393.
2 سورة المائدة، الآية 67.
3 انظر: تفسير الطبري 4309. وتفسير البغوي 252.

التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من غيرها
والتعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن، أولى من التعبير عنها بغيرها؛ فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد.
والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه.
والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع.
ثم قد يجعل اللفظ حجة بمجرده، وليس هو قول الرسول الصادق المصدوق، وقد يضطرب في معناه. وهذا أمر يعرفه من جربه من كلام الناس.
فالاعتصام بحبل الله يكون بالاعتصام بالقرآن والإسلام1،

1 شيخ الإسلام رحمه الله هنا يقعد قاعدة مهمة في اتخاذ القرآن الكريم إماما، وقائدا؛ فهو كلام الله تعالى، المتعبد بتلاوته، وكل حرف يقرأ فيه بعشر حسنات، فهو كلام العليم الخبير، الذي يعلم ما في الصدور.

وله - رحمه الله - كلام طيب حول هذا المعنى في مناظرته حول العقيدة الواسطية 4165.
وله رحمه الله أيضا كلام نفيس في موضع آخر، يحض فيه على التمسك بالقرآن الكريم، والاعتصام به، ويبين أن السلف رحمهم الله لما اعتصموا به لم يضلوا.. يقول رحمه الله: "وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم: اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده؛ فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات، والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدي ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم، فيه نبأ من قبلهم، وخبر ما بعدهم، وحكم ما بينهم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، فلا يستطيع أن يزيغه إلى هواه، ولا يحرف به لسانه، ولا يخلق عن كثرة الترداد، فإذا ردد مرة بعد مرة، لم يخلق، ولم يمل كغيره من الكلام، ولا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم. فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس، ولا بذوق ووجد ومكاشفة، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل ... ". مجموع الفتاوى1328-29.

كما قال تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعا} 1.
ومتى ذكرت ألفاظ القرآن والحديث، وبين معناها بيانا شافيا، [فإنها] 2 لا [تنتظم] 3 جميع ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة، وفيها زيادات عظيمة لا توجد في كلام الناس، وهي محفوظة مما دخل في كلام الناس من الباطل؛ كما قال: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} 4، وقال تعالى: {وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} 5، وقال تعالى: {الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير} 6، وقال: {تلك آيات الكتاب الحكيم} 7.
وفيه من دلائل الربوبية، والنبوة، والمعاد ما لا يوجد في كلام أحد من العباد؛ ففيه أصول الدين المفيدة لليقين8؛

---

1 سورة آل عمران، الآية 103.
2 في ((خ)) : إنها. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : تنظم.
4 سورة الحجر، الآية 9.
5 سورة فصلت، الآيتان 41-42.
6 سورة هود، الآية 1.
7 سورة لقمان، الآية 2.
8 كثيرا ما يذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذه الأصول في مواضع عديدة من كتبه، من ذلك قوله موضحا هذه الأصول: "الأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات، والتوحيد، والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم. والأصل الثاني يتضمن تفصيل الشرائع، والأمر والنهي، والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه. والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب. وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق، والأمر، والسعادة، والفلاح، موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل؛ فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة..". مجموع الفتاوى 1996.
وقال في موضع آخر: "أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها، ويجب أن تذكر قولا، أو تعمل عملا؛ كمسائل التوحيد، والصفات، والقدر، والنبوة، والمعاد، أو دلائل هذه المسائل..". درء تعارض العقل والنقل 121. وانظر: مجموع الفتاوى 3294-296،، 1996-97. وشرح الأصفهانية 2629.

وهو أصول دين الله ورسوله، لا أصول دين محدث، ورأي مبتدع.
وقد يكون معصوما على لغة القرآن: بمعنى أن الله عصمه من الشياطين؛ شياطين الإنس والجن، وأن يغيروا ما بعث به، أو يمنعوه عن تبليغه؛

فلا يكتم، ولا يكذب؛ كما قال تعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا} 1؛ فهو يسلك الوحي من بين يدي الرسول ومن خلفه. وهذا في معنى عصمته من الناس؛ فهو المؤيد، المعصوم بما يحفظه الله من الإنس والجن، حتى [يبلغ] 2 رسالات ربه كما أمر، فلا يكون فيها كذب ولا كتمان.

لفظ النبي يتضمن معنى الإعلام والإخبار

ولفظ الإنباء: يتضمن معنى الإعلام والإخبار3، لكنه في عامة موارد استعماله أخص من مطلق الإخبار؛ فهو يستعمل في الإخبار بالأمور الغائبة المختصة، دون المشاهدة المشتركة:

---

1 سورة الجن، الآيات 26-28.

2 في ((خ)) : تبلغ. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 سيأتي توضيح ذلك.

كما قال: {وأنبئكم [بما] 1 تأكلون وما تدخرون في بيوتكم} 2.

وقال: {فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير} 3.

وقال: {قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون} 4.

وقال: {عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون} 5.

وقال: {وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا [قليلا] 6} 7.

وقال: {ولتعلمن نبأه بعد حين} 8.

وقال: {لكل نبأ مستقر} 9.

وقال: {أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين} 10، إلى قوله: {قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون} 11.

وقوله: {يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا [لن نؤمن

---

1 في ((خ)) : مما.

2 سورة آل عمران، الآية 49.

3 سورة التحريم، الآية 3.

4 سورة ص، الآيتان 67-68.

5 سورة النبأ، الآيات 1-3.

6 في ((خ)) : قيليلا.

7 سورة الأحزاب، الآية 20.

8 سورة ص، الآية 88.

9 سورة الأنعام، الآية 67.

10 سورة البقرة، الآية 31.

11 سورة البقرة، الآية 33.

لكم] 1 قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} 2؛ فهذا في خطاب المنافقين، ولم يقل: والمؤمنون؛ لأنهم لم يكونوا يطلعون المؤمنين على ما في بطونهم. [وهذا] 3 بخلاف قوله:

{يؤمئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها} 4؛ فإنها أمور مشهودة، يعرفها الناس، لكن العجب كون الأرض [تخبر] 5 بذلك، فالعجب في المخبر، لا في الخبر؛ كشهادة الأعضاء6.
وقال: {قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين} 78.
وجمع النبي: أنبياء؛ مثل ولي وأولياء، ووصي وأوصياء، وقوي

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة التوبة، الآية 94.
3 في ((خ)) : (قال وهذا) . وكتب الناسخ على (قال) علامة، ولعلها للدلالة على الحذف.
4 سورة الزلزلة، الآيتان 4-5.
5 في ((خ)) : يخبر. وما أثبت من ((م)) ، و "ط.
6 قال تعالى: {حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} [سورة فصلت، الآيتان 20-21] .
7 سورة الأنعام، الآية 143.
8 وقع في ((خ)) تكرار لبعض ما سبق؛ فقد كتب بعد قوله: {إن كنتم صادقين} : وقال: {يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم} ، وقال: {أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين} إلى قوله: {قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم} . ثم قال بعد هذا الكلام: (وجمع النبي أنبياء..) .

وأقوياء. ويشبهه حبيب وأحباء1؛ كما قال تعالى: {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه} 2.
ف (فعيل) : إذا كان معتلا، أو مضاعفا، جمع على أفعلاء، بخلاف حكيم وحكماء، وعليم وعلماء.
معنى النبي في اللغة
وهو من النبأ. وأصله الهمزة3، وقد قرىء به، وهي قراءة نافع، يقرأ النبيء4، لكن لما كثر استعماله لينت همزته، كما فعل مثل ذلك في: الذرية، وفي البرية5.
وقد قيل: هو من النبوة؛ وهو العلو؛ فمعنى النبي: المعلى، الرفيع المنزلة6.

1 انظر: القاموس المحيط للفيروزأبادي ص 67.
2 سورة المائدة، الآية 18.
3 انظر: لسان العرب 1162. ومفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص 790.
4 وهذا مما انفرد به نافع، وباقي القراء بخلافه. انظر: سراج القارئ المبتدي للقاصح العذري ص 151. وانظر أيضا لسان العرب 1163.
5 قال ابن بري: "ويجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه، يقال: نبأ، ونبأ، وأنبأ. قال سيبويه: ليس أحد من العرب إلا ويقول: تنبأ مسيلمة بالهمز، غير أنهم تركوا الهمز في النبي، كما تركوه في الذرية والبرية والخابية، إلا أهل مكة، فإنهم يهمزون هذه الأحرف ولا يهمزون غيرها، ويخالفون العرب في ذلك، قال: والهمز في النبيء لغة رديئة، يعني لقلة استعمالها، لا لأن القياس يمنع من ذلك. وقال الزجاج: القراءة المجمع عليها في النبيين والأنبياء: طرح الهمز. وقد همز جماعة من أهل المدينة جميع ما في القرآن من هذا، واشتقاقه من نبأ وأنبأ؛ أي أخبر، والأجود ترك الهمز". لسان العرب 1162-163. وانظر: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص 790.
6 انظر: لسان العرب 1163. ومفردات القرآن للراغب ص 790. والقاموس المحيط ص 67.

والتحقيق: أن هذا المعنى داخل في الأول، فمن أنبأه الله، وجعله منبئا عنه، فلا يكون إلا رفيع القدر عليا.
وأما لفظ العلو والرفعة: فلا يدل على خصوص النبوة؛ إذ كان هذا يوصف به من ليس بنبي، بل يوصف بأنه الأعلى؛ كما قال: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون} 1.

هل لفظ النبي مهموز أم لا؟
وقراءة الهمز2 قاطعة بأنه مهموز.
وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا نبي الله ولست بنبيء الله": فما رأيت له إسنادا؛ لا مسندا، ولا مرسلا3، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث، ولا [السير] 4 المعروفة، ومثل هذا لا يعتمد عليه.
واللفظان5 مشتركان في الاشتقاق الأكبر؛ فكلاهما فيه النون والباء، وفي هذا الهمزة، وفي هذا [الحرف] 6 المعتل.
لكن الهمزة أشرف، فإنها أقوى، قال سيبويه: هي نبوة من الحلق، تشبه التهوع، فالمعنى الذي يدل عليه، ويمكن أن تلين، [فتصير] 7 حرفا معتلا، فيعبر عنه باللفظين، بخلاف المعتل؛ فإنه لا يجعل همزة.

1 سورة آل عمران، الآية 139.
2 وهي قراءة نافع التي سبقت الإشارة إليها قريبا.
3 ذكره ابن منظور نقلا عن سيبويه. انظر: لسان العرب 1162. ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص 790. والنهاية في غريب الحديث 53. وشرح الأصول الخمسة لعبد الجبار المعتزلي ص 567.
4 في ((خ)) : اليسير. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 النبي، والنبيء.
6 في ((خ)) : الخرق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 في ((خ)) : فيصير. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

فلو كان أصله نبي؛ مثل: علي [و] 1 ولي، لم يجز أن يقال بالهمز؛ كما لا يقال: عليء، ووصيء، ووليء - بالهمز -.
وإذا كان أصله الهمز، جاز تليين الهمزة، وإن لم يكثر استعماله؛ كما في لفظ: خبيء وخبيئة.
وأيضا: فإن تصريفه: أنبأ ونبأ، ينبىء وينبىء بالهمزة، ولم يستعمل فيه نبا ينبو، وإنما يقال: النبوة، [و] 2 في فلان نبوة عنا: أي مجانبة.
فيجب القطع بأن النبي مأخوذ من الإنباء، لا من النبوة3. والله أعلم.

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 شيخ الإسلام رحمه الله تعالى يوضح هنا الأصل اللغوي لمعنى النبوة.
والنبي في اللغة: مشتق من واحد من ثلاثة أمور:
أولا- مشتق من النبأ، وهو الخبر، والجمع أنباء، قال تعالى: {عم يتساءلون عن النبأ العظيم} ، وقال تعالى: {نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم} .
ثانيا- من النبوة، أو النباوة، وهي الارتفاع عن الأرض؛ أي أنه أشرف على سائر الخلق، فاصله غير مهموز.
ثالثا- مأخوذ من النبيء، وهو الطريق الواضح.
انظر: لسان العرب 1162-164. والقاموس المحيط ص 67. ومفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص 788-790.
وشيخ الإسلام رحمه الله أشار هنا إلى المعنى الأول، والثاني، ورجح أن النبي مشتق من النبأ؛ الذي هو الخبر، وليس من النبوة الذي هو الارتفاع. وعلل ذلك بأن من أنبأه الله، وجعله منبأ عنه، فلا يكون إلا رفيع القدر عليا، بخلاف لفظ العلو والرفعة، فلا يدل على خصوص النبوة، إذ كان هذا يوصف به من ليس بنبي.

فصل دلالة المعجزة على نبوة النبي
قد تقدم1 أن للناس في وجه دلالة المعجزات؛ وهي آيات الأنبياء، على نبوتهم طرقا متعددة:
منهم من قال: دلالتها على التصديق تعلم بالضرورة2.
ومنهم من قال: تعلم بالنظر والاستدلال3.

وكلا القولين صحيح؛ فإن كثيرا من العلوم في هذا الباب؛ كدلالة الأخبار المتواترة، فإنه قد يحصل بالخبر علم ضروري، وقد يحصل العلم بالاستدلال.
وطائفة منهم الكعبي4، وأبو الحسين البصري5، وأبو الخطاب6: أنه نظري.

---

1 انظر: ما تقدم ص 580-583، 821-822 من هذا الكتاب.
2 انظر: ص 580-583 من هذا الكتاب.
3 انظر: الجواب الصحيح 6397-400، 505.
4 هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي، من بني كعب، البلخي الخراساني، أحد أئمة المعتزلة. كان رأس طائفة منهم تسمى الكعبية - إليه تنتسب، له آراء ومقالات في الكلام انفرد بها، وله مؤلفات؛ منها التفسير، وتأييد مقالة أبي الهذيل. ولد في سنة 273، وتوفي سنة 319 ?.
انظر: الفرق بين الفرق ص 181-182. والملل والنحل 176-78. وسير أعلام النبلاء. والأعلام 465-66.
5 سبقت ترجمته.
6 سبقت ترجمته.

والتحقيق: أن كلا القولين حق؛ فإنه يحصل بها علم ضروري، والأدلة النظرية توافق ذلك.
وكذلك كثير من الأدلة - والعلامات، والآيات:
من الناس من يعرف استلزامها للوازمها بالضرورة، ويكون اللزوم عنده بينا، لا يحتاج فيه إلى وسط ودليل.
ومنهم من يفتقر إلى دليل، ووسط يبين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم، وهذا الحكم لازم له.
ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب؛ فقد يجيء المخبر إليهم بخبر، فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة، لأمور تقترن بخبره. وآخرون يشكون في هذا. ثم قد [يتبين] 1 لبعضهم بأدلة، وقد لا يتبين.
كثير من الناس يعلم صدق النبي بلا آية
وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة2، بل إذا أخبره، وهو

---

1 في ((خ)) : تبين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 مثل خديجة رضي الله عنها، وأبي بكر رضي الله عنه.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "قلت: وإيمان خديجة وأبي بكر وغيرهما من السابقين الأولين، كان قبل انشقاق القمر، وقبل إخباره بالغيوب، وقبل تحديه بالقرآن، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذي هو نفسه آية مستلزمة لصدقه. ونفس كلامه وإخباره بأني رسول الله، مع ما يعرف من أحواله، مستلزم لصدقه، إلى غير ذلك من آيات الصدق وبراهينه. بل خديجة قالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق. فكانت عارفة بأحواله التي تستلزم نفي كذبه وفجوره وتلاعب الشيطان به. وأبو بكر كان من أعقل الناس وأخيرهم، وكان معظما في قريش لعلمه وإحسانه وعقله، فلما تبين له حاله، علم علما ضروريا أنه نبي صادق، وكان أكمل أهل الأرض يقينا علما وحالا.." الجواب الصحيح 6511-512. وانظر: شرح الأصفهانية 2479-486. وكتاب الصفدية 1225. والحديث سبق تخريجه ص 234.

خبير بحاله، أو بحال ذلك [المخبر به] 1، أو بهما، علم بالضرورة: إما صدقه، وإما كذبه.
وموسى بن عمران لما جاء إلى مصر فقال لهارون وغيره: إن الله أرسلني، علموا صدقه، قبل أن يظهر لهم الآيات. ولما قال لهارون: إن الله قد أمرك أن تؤازرني، صدقه هارون في هذا، لما يعلم من حاله قديما، ولما رأى من تغير حاله الدليل على صدقه.
المسلك النوعي

وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر حاله لخديجة، وغيرها، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وكان عالما بالكتاب الأول، فذكر له النبي صلى الله عليه وسلم ما يأتيه، علم أنه صادق، وقال: هذا هو الناموس2 الذي كان يأتي موسى، يا ليتني فيها جذعا، يا ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أو مخرجي هم؟ ". قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا3.
وكذلك النجاشي: لما سمع القرآن، قال: إن هذا، والذي جاء به موسى، ليخرج من مشكاة واحدة4.
المسلك الشخصي
وكذلك أبو بكر، وزيد بن حارثة، وغيرهما: علموا صدقه علما ضروريا

---

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) . وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 سبق معنى الناموس في ص 233 من هذا الكتاب.
3 الحديث رواه البخاري. وقد سبق تخريجه ص 233.
4 الحديث أخرجه الإمام أحمد. وقد سبق تخريجه ص 234.

لما أخبرهم بما جاء به، وقرأ عليهم ما أنزل عليه1. وبقي القرآن الذي قرأه آية، وما يعرفون من صدقه وأمانته، مع غير ذلك من القرائن، يوجب علما ضروريا بأنه صادق.
وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس، قد تقترن به قرائن، يعرف بها صدقه بالضرورة2.

---

1 يدل عليه حديث عمار رضي الله عنه، قال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه إلا خمسة أعبد، وامرأتان، وأبو بكر". أخرجه البخاري 31338، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذا خليلا".
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي - مرتين – "، فما أوذي بعدها. أخرجه البخاري 31339، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذا خليلا ".
2 قال الشيخ رحمه الله تعالى: "إن كثيرا من الناس إذا رأوا الكاذب، وسمعوا كلامه، تبين لهم كذبه تارة بعلم ضروري، وتارة بعلم استدلالي، وتارة بظن قوي. وكذلك النبي الصادق إذا رأوه وسمعوا كلامه، فقد يتبين لهم صدقه بعلم ضروري، أو نظري. وقد يكون أولا بظن قوي، ثم يقوى الظن حتى يصير يقينا، كما في المعلوم بالأخبار المتواترة والتجارب؛ فإن خبر الأول يفيد نوعا من الظن، ثم يقوى بخبر الثاني، والثالث، حتى يصير يقينا". الجواب الصحيح 6505. وانظر المصدر نفسه 6471-473.
وقال أيضا: "إن المحققين من كل طائفة على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضروري بخبر المخبر، بل القرائن وحدها قد تفيد العلم الضروري، كما يعرف الرجل رضا الرجل وغضبه، وحبه وبغضه، وفرحه وحزنه، وغير ذلك مما في نفسه بأمور تظهر على وجهه قد لا يمكنه التعبير عنها.... ولا يقول عاقل من العقلاء أن مجرد خبر الواحد، أو خبر كل واحد يفيد العلم، بل ولا خبر كل خمسة، أو عشرة، بل قد يخبر ألف، أو أكثر من ألف ويكونون كاذبين إذا كانوا متواطئين. وإذا كان صدق المخبر أو كذبه يعلم بما يقترن به من القرائن، بل في لحن قوله وصفحات وجهه، ويحصل بذلك علم ضروري لا يمكن المرء أن يدفعه عن نفسه، فكيف بدعوى المدعي أنه رسول الله..". شرح الأصفهانية 2478.
وقال رحمه الله أيضا: "جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقا له، أو عملا به، أنه يوجب العلم. وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه.... والمقصود هنا: أن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق في العادة يوجب العلم بمضمون المنقول، لكن هذا ينتفع به كثيرا في علم أحوال الناقلين، وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول، وسيئ الحفظ، وبالحديث المرسل، ونحو ذلك، ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث، ويقولون إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره..". مجموع الفتاوى 3352، وانظر: المصدر نفسه 2046.

فكيف بمن عرف صدقه وأمانته، وأخبر بمثل هذا الأمر، الذي لا يقوله إلا من هو من أصدق الناس، أو من أكذبهم، وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني؟.
فإذا كان العلم بصدقه بلا آية، قد يكون علما ضروريا. فكيف بالعلم بكون الآية علامة على صدقه.
وجميع الأدلة لا بد أن تعرف دلالتها بالضرورة؛ فإن الأدلة النظرية لا بد أن [تنتهي] 1 إلى مقدمات [ضرورية] 2. وأكثر الخلق إذا علموا ما جاء به موسى، والمسيح، ومحمد، علموا صدقهم بالضرورة.
ولهذا لا يوجد أحد قدح في نبوتهم، إلا أحد رجلين؛ إما رجل جاهل، لم يعرف أحوالهم؛ وإما رجل معاند، متبع لهواه.

---

1 في ((خ)) : ينتهي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .

وعامة من كذبهم في حياتهم، كان معاندا؛ فالرؤساء كذبوهم لئلا تزول رئاستهم، أو مأكلتهم. والأتباع طاعة لكبرائهم؛ كما أخبر الله بمثل ذلك في غير موضع من القرآن1، لم يكن التكذيب لقيام حجة تدل على الكذب؛ فإنه يمتنع قيام دليل يدل على الكذب؛ فالمكذب مفتر، متكلم بلا علم، ولا دليل قطعا.
وكذلك كل من كذب بشيء من الحق، أو صدق بشيء من الباطل، يمتنع أن يكون عليه دليل صحيح؛ فإن الدليل الصحيح يستلزم مدلوله. فإذا كان المدلول منتفيا، امتنع أن يكون عليه دليل صحيح.
[و] 2 كثير من الناس قد يكون شاكا، لعدم طلبه العلم، وإعراضه عنه؛ فالمكذب متكلم بلا علم قطعا، والشاك معرض عن طلب العلم، مقصر، مفرط. ولو طلب [العلم] 3 تبين له الحق إذا كان متمكنا من معرفة أدلة الحق. وأما من لم يصل إليه الدليل، ولا يتمكن من الوصول إليه، فهذا عاجز.
طريق الحكمة في معرفة صدق لأنبياء
وأما الذين سلكوا طريق الحكمة4، فلهم أيضا مسالك؛ مثل أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى إذا بعث رسولا أمر الناس بتصديقه وطاعته، فلا بد أن ينصب لهم دليلا يدلهم على صدقه؛ فإن إرسال رسول بدون علامة وآية تعرف المرسل إليهم أنه رسول: قبح، وسفه في صرائح العقول، وهو نقص في جميع الفطر.

---

1 قال تعالى عنهم: {وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا} . [سورة الأحزاب، الآية 67] .
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 وهم أهل السنة والجماعة. انظر ما سبق ص 501-504، 760-761 من هذا الكتاب.

وهو سبحانه منزه عن النقائص والعيوب، ولهذا ينكر على المشركين أنهم يصفونه بما هو عندهم عيب ونقص، لا يرضونه لأنفسهم؛ مثل كون مملوك أحدهم شريكه يساويه؛ فإن هذا من النقائص والعيوب التي ينزهون أنفسهم عنها، ويعيبون ذلك على من فعله من الناس.
فإذا كان هذا عيبا ونقصا، لا يرضاه الخلق لأنفسهم؛ لمنافاته الحكمة، والعدل؛ فإن الحكمة والعدل تقتضي وضع كل شيء موضعه الذي يليق به، ويصلح به، فلا تكون العين كالرجل، ولا الإمام الذي يؤتم به في الدين والدنيا في آخر المراتب، والسفلة من أتباعه في أعلى المراتب.
فكذلك المالك لا يكون مملوكا مساويا له، فإن ذلك يناقض كون أحدهما مالكا، والآخر مملوكا، ولهذا جاءت الشريعة بأن المرأة لا تتزوج عبدها1 لتناقض الأحكام؛ فإن الزوج سيد [المرأة] 2، وحاكم عليها، والمالك سيد [المملوك] 3 وحاكم عليه، فإذا جعل مملوكها زوجها الذي هو سيدها، تناقضت الأحكام.
فهذا وأمثاله مما يبين أن هذه القضية مستقرة في [فطر] 4 العقلاء.

ولهذا قال تعالى: {ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم} 5؛

---

1 قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن نكاح المرأة عبدها باطل.
انظر المغني لابن قدامة 9574.
2 في ((ط)) : المرة.
3 في ((ط)) : الملوك.
4 في ((ط)) : نظر.
5 سورة الروم، الآية 28.

أي كما يخاف بعضكم بعضا، {كذلك1 نفصل الآيات لقوم يعقلون بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين} 2.
وكذلك كل أحد يعلم بفطرته أن الذكر أفضل من الأنثى3.
وكانت العرب أشد كراهية للبنات من غيرهم، حتى كان منهم من يئد البنات، ويدفن البنت وهي حية4، حتى قال تعالى: {وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت} 5، وقال تعالى: {وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب} 6. وكانوا لا يورثون الإناث.

---

1 في ((ط)) : وقوله: وكذلك. وهو مخالف لما في ((خ)) ، و ((م)) ، ومخالف لسياق الكلام أيضا.
2 سورة الروم، الآيتان 28-29.
3 ومن الآيات الدالة على تفضيل الرجال على النساء: قوله تعالى يحكي عن امرأة عمران: {فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم} [سورة آل عمران، الآية 36] . وقوله تعالى: {الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم..} [سورة النساء، الآية 34] .
4 قال ابن الجوزي رحمه الله: "قال اللغويون: الموءودة: البنت تدفن وهي حية، وكان هذا من فعل الجاهلية. يقال: وأد ولده، أي دفنه حيا.
قال الفرزدق:
ومنا الذي منع الوائدا ... ت فأحيا الوئيد ولم يوأد
زاد المسير لابن الجوزي 940.
وانظر بعض القصص عمن دفن بناته وهن أحياء. انظر: تفسير ابن كثير 4477-478.
5 سورة التكوير، الآيتان 8، 9.
6 سورة النحل، الآيتان 58-59.

وقد قالت أم مريم: {وليس الذكر كالأنثى} 1.
وكان من الكفار من جعل له الأناث أولادا وشركاء، قال تعالى: {أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة [ضيزى] 2إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم} 3، وقال تعالى: {إن الذين لا يؤمنون بالآخرة [ليسمون] 4 الملائكة تسمية الأنثى وما لهم [به] 5 من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} 6، وقال تعالى: {ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون} 7؛ يعني ساء الحكم حكمهم؛ أي بئس الحكم حكمهم8، كما يقال: بئس ما فعل، وبئس ما حكم، حيث حكموا بأن لله البنات، ولهم ما يشتهون.

فهذا حكم جائر، [كما أن تلك القسمة جائرة عوجاء. فهذا حكمهم بينهم وبين ربهم، وهذا] 9 قسمهم؛ يجعلون لأنفسهم أفضل النوعين، ولربهم أدنى النوعين، وهو10 مثل السوء، ولله المثل الأعلى.

---

1 سورة آل عمران، الآية 36.
2 رسمت في ((خ)) : طيزى.
3 سورة النجم، الآيات 19-23.
4 في ((خ)) : لا يسمون.
5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
6 سورة النجم، الآيتان 27-28.
7 سورة النحل، الآيات 57-59.
8 انظر: تفسير الطبري 14124.
9 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
10 في ((خ)) : وهو سبحانه. وأرى أنها زائدة.

فالواجب أن يكون أفضل الأنواع وأكملها لله، [وما فيها نقص] 1 وعيب، فالمخلوق أحق بها من الخالق؛ إذ كان كل كمال في المخلوق فهو من خالقه، فيمتنع أن يكون الأنقص خلق الأكمل2.
والفلاسفة يقولون بعبارتهم: كل كمال في المعلول، فهو من [العلة] 3.
قياس الأولى
وأيضا: فالموجود الواجب، أكمل من الممكن، والقديم أكمل من الحديث، والغني أكمل من الفقير؛ فيمتنع اتصاف الأكمل بالنقائص، واتصاف الأنقص بالكمالات.
إثبات صفة الأكرم والأكبر والأعلى
ولهذا يوصف سبحانه بأنه: الأكرم4، والأكبر5، والأعلى6، وأنه

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر من كتب شيخ الإسلام: العقيدة التدمرية ص 50، 138-139، 142-144، 151. ودرء تعارض العقل والنقل 129-30،، 6181،، 7154، 322-327، 362-364. ومجموع الفتاوى 3297، 302، 321،، 5201، 250، 919-20، 12344، 347 - 350، 356، 16357، 358، 360، 446. ومنهاج السنة النبوية 1371، 417. وكتاب الصفدية 225، 27. وشرح العقيدة الأصفهانية ص 49. ونقض تأسيس الجهمية - مخطوط - ق 225، - مطبوع - 1321، 328. والفتاوى المصرية 1129. والرد على المنطقيين ص 115-116، 119، 120-123. وجامع الرسائل 1141.
3 في ((خ)) رسمت: المعلولعلة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 قال تعالى: {اقرأ وربك الأكرم} . [سورة العلق، الآية 3] .
5 كما يقال في الأذان، والصلاة: الله أكبر. وقال تعالى: {وأن الله هو العلي الكبير} . [سورة الحج، الآية 62] .
6 قال تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى} . [سورة الأعلى، الآية 1] .

أرحم الراحمين1، وخير الحاكمين2، وخير الغافرين3، وأحسن الخالقين4، فلا يوصف قط، إلا بما يوجب اختصاصه بالكمالات، والممادح، والمحاسن التي لا يساويه فيها غيره، فضلا عن أن يكون لغيره النوع الفاضل، وله النوع المفضول.
ولهذا عاب الله المشركين؛ بأن {جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله [بزعمهم] 5 وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون} 6، فبئس الحكم حكمهم في هذا؛ كما أنه بئس الحكم حكمهم في جعل الذكور لهم، والإناث له.

[وساء: بمعنى بئس؛ كقوله: {ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا} 7] 8؛ أي بئس مثلا مثلهم.
ولهذا قالوا في قوله: {ساء ما يحكمون} : بئسما يقضون9.
وقال تعالى: {أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون

1 قال تعالى: {وأنت أرحم الراحمين} . [سورة الأعراف، الآية 151] .
2 قال تعالى: {وهو خير الحاكمين} . [سورة الأعراف، الآية 87] .
3 قال تعالى: {وأنت خير الغافرين} . [سورة الأعراف، الآية 155] .
4 قال تعالى: {فتبارك الله أحسن الخالقين} . [سورة المؤمنون، الآية 14] .
5 في ((ط)) : برغمهم.
6 سورة الأنعام، الآية 136.
7 سورة الأعراف، الآية 177.
8 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .
9 قال البغوي في تفسير هذه الآية: بئس ما يقضون لله البنات، ولأنفسهم البنين. تفسير البغوي 373.

قولا عظيما} 1، وقال تعالى: {وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون} 2.
قياس الأولى
فهذه الطريقة - وهو أن ما يستحقه المخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه، فالخالق أولى به، وما ينزه عنه المخلوق من العيوب المذمومة، فالخالق تعالى أولى بتنزيهه عن كل [عيب] 3 وذم4، وهو سبحانه القدوس، السلام، الحميد، المجيد - من أبلغ الطرق البرهانية، وهي مستعملة في القرآن في غير موضع5.
فلذلك يقال: الواحد من الناس قادر على إرسال رسول، وعلى أن يرسل نشابة6، وعلامة يعرفه المرسل إليهم بها صدقه.
فكيف لا يقدر الرب على ذلك؟.
ثم إذا أرسله إليهم، وأمرهم بتصديقه وطاعته، ولم يعرفهم أنه رسوله، كان هذا من أقبح الأمور.

1 سورة الإسراء، الآية 40.
2 سورة الزخرف، الآيات 15-19.
3 رسمت في ((خ)) : عين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 وهو قياس الأولى. وقد تقدم توضيحه في ص 779، وتقدمت الإشارة إليه في ص 1092 من هذا الكتاب.
5 انظر ما سبق ص 821-822.
6 سبق التعريف بها في ص 714 من هذا الكتاب.

فكيف يجوز مثل هذا على الله؟.
ولو بعثه بعلامة لا تدلهم على صدقه، كان ذلك عيبا مذموما؛ فكل ما ترك من لوازم الرسالة؛ إما أن يكون لعدم القدرة؛ وإما أن يكون للجهل، والسفه، وعدم الحكمة.
والرب أحق بالتنزيه عن هذا، وهذا من المخلوق؛ فإذا أرسل رسولا فلا بد أن يعرفهم أنه رسوله، ويبين ذلك.
وما جعله آية، وعلامة، ودليلا على صدقه، امتنع أن يوجد بدون الصدق؛ فامتنع أن يكون للكاذب المتنبي؛ فإن ذلك يقدح في الدلالة.
دلالة الآيات من جهة حكمة الله سبحانه وتعالى

فهذا ونحوه مما يعرف به دلالة الآيات من جهة حكمة الرب. فكيف إذا انضم إلى ذلك أن هذه سنته وعادته؟ وأن هذا مقتضى عدله؟.
وكل ذلك عند التصور التام، يوجب علما ضروريا يصدق الرسول الصادق، وأنه لا يجوز أن يسوى بين الصادق والكاذب؛ فيكون ما يظهره النبي من الآيات يظهر مثله على يد الكاذب، إذ لو فعل هذا، لتعذر على الخلق التمييز بين الصادق والكاذب1.

وحينئذ: فلا يجوز أن يؤمروا بتصديق الصادق، ولا يذموا على ترك تصديقه وطاعته؛ إذ الأمر بذلك بدون دليله تكليف ما لا يطاق2. وهذا لا يجوز في عدله وحكمته. ولو قدر أنه جائز عقلا، فإنه غير واقع.

---

1 انظر: الجواب الصحيح.
2 سبق فيما مضى. انظر ص 573 من هذا الكتاب.

فصل سنة الله وعادته في الكذاب أن ينتقم منه ويظهر كذبه
وقد دل القرآن على أنه سبحانه لا يؤيد الكذاب عليه، بل لا بد أن يظهر كذبه، وأن ينتقم منه، فقال تعالى: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين} 1، ذكر هذا [بعد] 2 قوله: {فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين} 3، ثم قال: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه [باليمين] 4 ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين} 5، هذا بتقدير أن يتقول بعض الأقاويل، فكيف بمن يتقول الرسالة كلها.
وقوله: {لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين} : الوتين6: عرق

---

1 سورة الحاقة، الآيات 44-47.
2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
3 سورة الحاقة، الآيات 38-43.
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
5 سورة الحاقة، الآيات 44-47.
6 قال في اللسان: الوتين: عرق في القلب، إذا انقطع مات صاحبه. وقال ابن سيده: الوتين عرق لاصق بالصلب من باطنه أجمع يسقي العروق كلها بالدم، ويسقي اللحم، وهو نهر الجسد، وقيل: هو عرق أبيض مستبطن الفقار. وقيل: الوتين يستقي من الفؤاد وفيه الدم. وقيل: هو عرق أبيض كأنه قصبة. انظر: لسان العرب 13441.
وقال ابن الجوزي رحمه الله عن الوتين: "وهو عرق يجري في الظهر، حتى يتصل بالقلب، فإذا انقطع بطلت القوى، ومات صاحبه. قال أبو عبيدة: الوتين نياط القلب. وأنشد الشماخ:
إذا بلغتني وحملت رحلي
عرابة فاشرقي بدم الوتين
وقال الزجاج: الوتين عرق أبيض غليظ كأنه قصبة". زاد المسير لابن الجوزي 8355. وانظر: تفسير الطبري 2967. ولسان العرب 13441.

في الباطن، يقال: هو [نياط] 1 القلب، وإذا قطع مات الإنسان عاجلا، وذلك يتضمن هلاكه لو تقول على الله.
وقوله: {لأخذنا منه باليمين} :
قيل: لأخذنا بيمينه، كما يفعل بمن يهان عند القتل، فيقال: خذ بيده، فيجر بيده2، ثم يقتل، فهذا هلاك بعزة وقدرة من الفاعل، وإهانة وتعجيل [هلاك] 3 للمقتول.
وقيل: لأخذنا منه باليمين؛ أي: بالقوة، والقدرة؛ فإن الميامن أقوى ممن يأخذ بشماله4، كما قال: {فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر} 5، وكما قال: {إن بطش ربك لشديد} 6.

لكنه قال: {أخذنا منه} ، ولم يقل: لأخذناه. فهذا يقوي القول الأول.
وقال تعالى: {أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك} 7.

1 في ((خ)) : يناط. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: تفسير الطبري 2966.
3 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
4 انظر زاد المسير 8355.
5 سورة القمر، الآية 42.
6 سورة البروج، الآية 12.
7 سورة الشورى، الآية 24.

[ثم قال] 1: {ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته} 2.
فقوله: {ويمح الله الباطل} : عطف جملة على جملة. قالوا: وليس من جواب الشرط؛ لأنه قال: {ويحق الحق} ب الضم، وهو معطوف على قوله: {ويمح الله الباطل} . فمحوه للباطل، وإحقاقه الحق: خبر منه، لا بد أن يفعله؛ فقد بين أنه لا بد أن يمحو الباطل، ويحق الحق بكلماته؛ فإنه إذا أنزل كلماته، دل بها على أنه نبي صادق؛ إذ كانت آية له، وبين بها الحق من الباطل.
وهو أيضا يحق الحق، ويبطل الباطل بكلماته، [فإنه إذا أنزل كلماته، دل بها على أنه نبي صادق؛ إذ كانت آية له، وبين بها الحق من الباطل.
وهو أيضا يحق الحق، ويبطل الباطل بكلماته] 3 التي تكون بها الأشياء؛ فيحق الحق بما يظهره من الآيات، وما ينصر به أهل الحق، كما تقدمت كلمته بذلك، كما قال: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون} 4، وقال: {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا} 5، وقال: {وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين} 6.
وقال تعالى: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} 7، وأمره يتضمن ما يأمر به،

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 سورة الشورى، الآية 24.
3 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة الصافات، الآيتان 171-173.
5 سورة الأنعام، الآية 115.
6 سورة التحريم، الآية 12.
7 سورة النحل، الآية 1.

وهو الكائن بكلماته، وقال تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} 1.
وكلماته صدق وعدل، والعدل: وضع الأشياء [مواضعها] 2.
من عدل الله
فمن عدله: أن يجعل الصادق عليه، المبلغ لرسالته، حيث يصلح من كرامته ونصره، وإن يجعل الكاذب عليه، حيث يليق به من إهانته وذله. قال تعالى: {إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين} 3؛ قال أبو قلابة4: هي لكل مفتر إلى يوم القيامة5.
أصناف الكاذبين الذين يعارضون رسل الله
أعظم الافتراء على الله
ومن أعظم الافتراء عليه: دعوى النبوة والرسالة كذبا، كما قال تعالى:

1 سورة يس، الآية 82.
2 في ((ط)) : مواضعها.
وسبق أن ذكرت كلاما طيبا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حول هذا المعنى في هامش ص 571.
3 سورة الأعراف، الآية 152.
4 هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي البصري، عالم بالقضاء والأحكام، ناسك من أهل البصرة، أرادوه على القضاء، فهرب إلى الشام، فمات فيها، وكان من رجال الحديث الثقات.
وقال علي بن المديني: أبو قلابة عربي من جرم، مات بالشام، وأدرك خلافة عمر ابن عبد العزيز، ثم توفي سنة أربع ومئة.
انظر: حلية الأولياء 2282. وسير أعلام النبلاء 4468. وتهذيب التهذيب 5224. وشذرات الذهب 1126. والأعلام 488.
5 تلا أبو قلابة هذه الآية، ثم قال: فهو جزاء كل مفتر يكون إلى يوم القيامة أن يذله الله عز وجل.
انظر: تفسير الطبري 971. ومنهاج السنة 6179.

{ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله} 1، وذكر في هذا الكلام جميع أصناف الكاذبين الذين يعارضون رسله الصادقين، كما ذكر فيما قبله حال الكاذبين في قوله: {وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون} 2
ثم قال: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء} 3 الآية؛
فإن الكاذب إما أن يقول: إن غيري أنزل علي، وإما أن يقول: أنا أصنف مثل هذا القرآن.
وإذا قال: غيري أنزل علي؛ فأما أن يعينه، فيقول: إن الله أنزله علي؛ وأما أن يقول: أوحي، ولا يعين من أوحاه.
فذكر الأصناف الثلاثة، فقال: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء} 4: فهذان نوعان من جنس، ثم قال: {ومن} ، [و] 5لم يقل: أو قال؛ إذ كان هذا معارضا لا يدعي أنه رسول، فقال: {ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله} .

---

1 سورة الأنعام، الآية 93.
2 سورة الأنعام، الآيتان 91-92.
3 سورة الأنعام، الآية 93.
4 سورة الأنعام، الآية 93.
5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

وهؤلاء المعارضون قد تحداهم في غير موضع1، وقال: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} 2.
والرسول أخبر بهذا خبرا تاما في أول الأمر، وهذا لا يمكن إلا مع قطعه أنه على الحق. وإلى الآن لم يوجد أحد أنزل مثل ما أنزل الله.
وقوله: {ومن قال سأنزل} ، ولم يقل: أقدر أن أنزل؛ فإن قوله: {سأنزل} : هو وعد بالفعل، وبه يحصل المقصود؛ بخلاف قوله: أقدر؛ فإنه لا يحصل به غرض المعارض، وإنما يحصل إذا فعل. فمن وعد بإنزال مثل ما أنزل، كان من أظلم الناس وأكذبهم؛ إذ كان قد تبين عجز جميع الثقلين؛ الإنس، والجن، عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن.
وقوله: {مثل ما أنزل الله} : يقتضي أن كل ما أنزله الله على أوليائه، فهو معجز، لا يقدر عليه إلا الله؛ كالتوراة، والإنجيل، والزبور.
وهذا حق3؛ فإن في ذلك من أنباء الغيب، ما لا يعلمه إلا الله، وفيه

---

1 القرآن الكريم هو كلام الله، وهو من أعظم معجزات رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو المعجزة الباقية الخالدة من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم إلى قرب قيام الساعة. وقد تحدى الله سبحانه وتعالى به الخلق جميعا من الجن والإنس، والعرب والعجم على أن يأتوا بمثله، قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [سورة الإسراء، الآية 88] . فلما عجزوا تحداهم بعشر سور، فقال سبحانه: {قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات} ، فلما عجزوا تحداهم بسورة واحدة، قال تعالى: {فأتوا بسورة من مثله} .
وقد تحدث الشيخ رحمه الله عن تحدي الله سبحانه وتعالى للخلق بالقرآن في هذا الكتاب. انظر ص 621-624.
2 سورة الإسراء، الآية 88.
3 سبق توضيح ذلك. انظر ص 624-628 من هذا الكتاب.

أيضا من تأييد الرسل بذلك، ما لا يقدر على أن يرسل بتلك الرسالة إلا الله؛ فلا يقدر أحد أن ينزل مثل ما أنزل الله على [نبيه]1؛ فيكون به مثل الرسول، ولا أن يرسل به غيره2.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 من المناسب أن نختم هذا الفصل الذي أفرده شيخ الإسلام رحمه الله لبيان أن الله تعالى لا يؤيد الكاذب بما ذكره رحمه الله معلقا على قول هرقل: "وسألهم عن زيادة أتباعه ودوامهم على اتباعه، فأخبروه أنهم يزيدون ويدومون، وهذا من علامات الصدق والحق، فإن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر الأمر، فيرجع عنه أصحابه، ويمتنع عنه من لم يدخل فيه. ولهذا أخبرت الأنبياء المتقدمون أن المتنبئ الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة. وهذا من بعض حجج ملوك النصارى الذين يقال إنهم من ولد قيصر هذا أو غيرهم، حيث رأى رجلا يسب النبي صلى الله عليه وسلم من رؤوس النصارى ويرميه بالكذب، فجمع علماء النصارى فسألهم عن المتنبئ الكذاب: كم تبقى نبوته؟ فأخبروه بما عندهم من النقل عن الأنبياء: أن الكذاب المفتري لا يبقى إلا كذا أو كذا سنة - مدة قريبة، أو ثلاثين سنة، أو نحوها، وقال لهم: هذا دين محمد له أكثر من خمسمائة سنة أو ستمائة سنة، وهو ظاهر مقبول متبوع، فكيف يكون هذا كذابا. ثم ضرب عنق ذلك الرجل". شرح الأصفهانية 2485.
والغريب أن أحد العلماء استدل على صحة معتقد شيخ الإسلام وسلامة منهجه بهذا المسلك الشخصي الذي ذكره الشيخ رحمه الله عن هدي الأنبياء. انظر كلام هذا العالم في شيخ الإسلام ص 78 من هذا الكتاب.

فصل الاستدلال بالحكمة
والاستدلال بالحكمة1: أن يعرف أولا حكمته2، ثم يعرف أن من

---

1 مسألة الحكمة: من أعظم المسائل التي خاض فيها المبتدعة في تعليل أفعال الله وأحكامه وصفاته. وقد ذكر الشيخ رحمه الله أبياته المعروفة لمن سأله عن القدر، يشير فيها إلى أنها أصل حجة أهل الضلال في الخوض في هذه المسائل. يقول:
وأصل ضلال الخلق في كل فرقة ... هو الخوض في فعل الإله بعلة
فإنهمو لم يفهموا حكمة له ... فصاروا على نوع من الجاهلية
فإن جميع الكون أوجب فعله ... مشيئة رب الخلق باري الخليقة
مجموع الفتاوى 8246.
2 الحكمة من صفات الله الذاتية؛ مثلها مثل الإرادة والمشيئة والكلام، فيقال في الإرادة: إن الله سبحانه وتعالى لم يزل مريدا بإرادات متعاقبة، فنوع الإرادة قديم، وأما إرادة الشيء المعين فإنما يريده في وقته. وهو سبحانه يقدر الأشياء ويكتبها، ثم بعد ذلك يخلقها، فهو إذا قدرها علم ما سيفعله، وأراد فعله في الوقت المستقبل، لكن لم يرد فعله في تلك الحال، فإذا جاء وقته أراد فعله. فالأول عزم، والثاني قصد.
وكذلك الحكمة: صفة ذاتية، لم يزل الله حكيما، فإن كان الفعل المفضي للحكمة حادث النوع، كانت الحكمة كذلك، وإن قدر أنه قام به كلام، أو فعل متعلق بمشيئته، وأنه لم يزل كذلك، كانت الحكمة كذلك، فيكون النوع قديما، وإن كانت آحاده حادثة.
وقد أجمع المسلمون على أن الله موصوف بالحكمة، لكن تنازعوا في تفسير ذلك:

فقال الأشاعرة والجهمية: الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده. ولم يثبتوا إلا العلم والإرادة والقدرة. وهم قد أطلقوا ألفاظها، ولكنهم لا يعنون بها معناها، بل يطلقونها لأجل مجيئها في القرآن.
وهم يثبتون أنه مريد، وينكرون أن تكون له حكمة يريدها، وأنه لم يخلق شيئا لشيء، وأنكروا الأسباب والطبائع والقوى الموجودة في خلق الله وأمره والحكم المقصودة بذلك.
وقال أهل السنة: بل هو حكيم في خلقه وأمره. والحكمة ليست مطلق المشيئة، إذ لو كان كذلك، لكان كل مريد حكيما. ومعلوم أن الإرادة تنقسم إلى محمودة ومذمومة، بل الحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة، والغايات المحبوبة.
والله سبحانه حكيم رحيم، وقد أخبر أنه لم يخلق المخلوقات إلا بحكمة، كما قال في قوله تعالى: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا} . والله سبحانه له في كل ما يخلقه حكمة يحبها ويرضاها، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنع، فما وقع من الشر الموجود في المخلوقات، فقد وجد لأجل تلك الحكمة المطلوبة المحبوبة المرضية، فهو من الله حسن جميل، وهو سبحانه محمود عليه، وله الحمد عل كل حال، وإن كان شرا بالنسبة إلى بعض الأشخاص. فهو تعالى لم يزل عليما، فعالا لما يريد، وأفعاله تعالى وإبداعه لمبتدعاته تابعة لحكمته، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، فلم يخلق شيئا عبثا. فالحكمة فعله بعض الأشياء دون بعض، لاشتمال المفعول على ما يصلح أن يكون مرادا للحكيم.
فالله سبحانه وتعالى يفعل لحكمة يحبها ويحصل بها محبوبه، فإنه لا يزال مراده الذي يحبه يحصل بفعله، وهو غني عن كل ما سواه، ورحمته لعبده، وإحسانه إليهم هو مما يحبه، وهو سبحانه إذا أمر العباد ونهاهم: أمرهم بما يحبه ويرضاه لهم، وهو يحبهم ويرضى عنهم إذا فعلوه؛ قال تعالى: {إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم} [سورة الزمر 7] .
لكن فرق بين ما يريد هو أن يخلقه لما يحصل من الحكمة التي يحبها، فهذا يفعله سبحانه، ولا بد من وجوده، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وبين ما يريد من العباد أن يفعلوه، ويحبه إذا فعلوه، ويأمرهم به من غير مشيئة منه أن يخلقه؛ فإن المشيئة متعلقة بفعله، والأمر متعلق بفعل عبده المأمور، فالإرادة منه تارة تكون بمعنى المشيئة، وتارة تكون بمعنى المحبة.
فهو سبحانه محمود على كل حال، له الملك وله الحمد في الدنيا والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.
انظر المصادر الآتية: مجموع الفتاوى 16130، 297، 303،، 1795، 99. ومجموعة الرسائل والمسائل 5242. ومنهاج السنة النبوية 144،، 3168-177، 207-209، 45. وبيان تلبيس الجهمية 1215. وكتاب الصفدية 1147. وشرح الأصفهانية 1365-368. ودرء تعارض العقل والنقل 7476-477.

حكمته أنه لا يسوي بين الصادق بما يظهر به صدقه، وبأن ينصره، ويعزه، [ويجعل] 1 [له] 2 العاقبة، ويجعل له لسان صدق في العالمين. والكاذب عليه: يبين كذبه، ويخذله، ويذله، ويجعل عاقبته عاقبة سوء، ويجعل له لسان الذم واللعنة في العالمين، كما قد وقع.
فهذا هو الواقع، لكن المقصود أن نبين أن ما وقع منه، فهو واجب الوقوع في حكمته، لا يجوز أن يقع منه ضد ذلك. فهذا استدلال ببيان أنه يجب أن يقع منه ما يقع، ويمتنع أن يقع منه ضده، وذلك ببيان أنه حكيم، وأن حكمته توجب أن يبين صدق الأنبياء وينصرهم، ويبين كذب الكاذبين ويذلهم.
وكذلك يفعل باتباع النبيين، وبأعدائهم؛ كما أخبر بذلك في كتابه3، وبين أن هذا حق عليه، يجب أن يفعله، ويمتنع أن يفعل ضده؛ كما قال تعالى: {ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين} 4، وكما قال: {كتب الله لأغلبن أنا

---

1 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
2 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 قال تعالى: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [سورة غافر، الآية 51] ، وقال تعالى: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون} [سورة الصافات، الآيات 171-173] ، وقال تعالى: {قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون} [سورة النحل، الآية 116] .
4 سورة الروم، الآية 47.

ورسلي إن الله [قوي] 1 عزيز} 2. وقوله: {لأغلبن} : قسم أقسم الله عليه، فهو جواب قسم، تقديره: والله لأغلبن أنا ورسلي.
وهذا يتضمن إخباره بوقوع ذلك، وأنه كتب على نفسه ذلك، وأمر به نفسه، وأوجبه على نفسه؛ فإن صيغة القسم يتضمن التزام ما [حلف] 3 عليه؛ إما [حضا] 4 عليه، وأمرا به؛ وإما منعا منه، ونهيا عنه.
الوفاء باليمين وكفارته
ولهذا كان في شرع من قبلنا يجب الوفاء بذلك، ولا كفارة فيه5. وكذلك كان في أول الإسلام.
ولهذا كان أبو بكر لا يحنث في يمين، حتى أنزل الله كفارة اليمين، كما ذكرت ذلك عائشة6.
ولهذا أمر أيوب أن يأخذ بيده ضغثا، فيضرب به، ولا يحنث7؛ فإن ذلك صار واجبا باليمين كوجوب المنذور الواجب بالنذر، يحتذى به حذو الواجب بالشرع.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : لقوي.
2 سورة المجادلة، الآية 21.
3 في ((خ)) : خلق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : خصا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 قال ابن العربي: "قوله تعالى: {فاضرب به ولا تحنث} يدل على أحد وجهين؛ إما أن يكون أنه لم يكن في شرعهم كفارة، وإنما كان البر والحنث. والثاني: أن يكون صدر منه نذر لا يمين". الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 15140.
6 إذ قالت رضي الله عنها: إن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن يحنث في يمين قط، حتى أنزل الله كفارة اليمين، فقال: "لا أحلف على يمين فرأيت غيرها خيرا منها، إلا أتيت الذي هو خير، وكفرت عن يميني".
أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب قوله تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ... } .
7 قال تعالى: {وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب} [سورة ص، الآية 44] .

والضرب بالضغث يجوز في [الحدود] 1 إذا كان المضروب لا يحتمل التفريق؛ كما جاء في الحديث2.
ولو كان في شرعهم3 كفارة، لأغنت عن الضرب مطلقا.
لكن الإنسان قد يلتزم ما لا يعلم عاقبته، ثم يندم عليه، والرب تعالى عالم بعواقب الأمور، فلا يحلف على أمر ليفعلنه، إلا وهو يعلم عاقبته.
واليمين موجبة4، ولهذا قال تعالى: {كتب الله لأغلبن} 5. وكتب: مثل كتب، في قوله: {كتب ربكم على نفسه الرحمة} 6؛ فهي كتابة تتضمن خبرا وإيجابا.

---

1 في ((ط)) : الحدوث.
2 وهو ما رواه أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار أنه اشتكى رجل منهم حتى أضنى، فعاد جلدة على عظم. فدخلت عليه جارية لبعضهم، فهش لها، فوقع عليها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك، وقال: استفتوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإني وقعت على جارية دخلت علي. فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ما هو إلا جلد على عظم. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمراخ، فيضربوه بها ضربة واحدة". أخرجه أبو داود في سننه 4615-616، كتاب الحدود، باب إقامة الحد على المريض. وأحمد في المسند 5222. وابن ماجه في سننه 2859، كتاب الحدود، باب الكبير والمريض يجب عليه الحد. وقال محمد فؤاد عبد الباقي في تعليقه على ابن ماجه: "في الزوائد: مدار الإسناد على محمد بن إسحاق وهو مدلس. وقد رواه بالعنعنة". وقال ابن حجر رحمه الله: "إسناد هذا الحديث حسن، ولكنه اختلف في وصله وإرساله". سبل السلام 424.
3 أي في شرع بني إسرائيل.
4 أي واقعة ومتحققة.

5 سورة المجادلة، الآية 21.
6 سورة الأنعام، الآية 54.

ومنه قوله تعالى: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها} 1.
وفي الحديث الصحيح الإلهي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا"2.
وقد بسط هذا الأصل في مواضع؛ مثل الكلام في مسألة القادر المختار3، ومسألة العدل والظلم4، وغير ذلك5.
فإن كثيرا من المتكلمين يقول: إن القادر المختار لا يفعل إلا بوصف [الجواز6] 7، فيفعل الفعل في حال تردده بين أن يفعل، وأن لا يفعل.
استطالة الفلاسفة على المتكلمين
ومنهم من يقول: يفعله مع رجحان أن يفعل رجحانا لا ينتهي إلى حد الوجوب8.

---

1 سورة هود، الآية 6.
2 سبق تخريج جزء منه في ص 537.
3 أما هذه المسألة: فقد تطرق لها الشيخ رحمه الله في بيان تلبيس الجهمية 1203-206، وفي رسالة أقوم ما قيل، ضمن مجموعة الرسائل 4-5329، وفي شرح الأصفهانية 2351-355، وفي درء التعارض 1326،، 9166.
4 للشيخ رحمه الله رسالة في معنى كون الرب عادلا وفي تنزهه عن الظلم، ضمن جامع الرسائل، المجموعة الأولى ص 119-142. وانظر ص 566 من هذا الكتاب.
5 سبق أن ذكرنا كثيرا من الإحالات على كتب شيخ الإسلام في هذه المسألة، انظر ص 504 من هذا الكتاب.
6 انظر: درء تعارض العقل والنقل 1326،، 4290 إلى آخر الجزء،، 9166، 192-193. وشرح الأصفهانية 1351.
7 في ((م)) ، و ((ط)) : الجوار.
8 انظر: درء تعارض العقل والنقل 363،، 9170-171، 193. وشرح الأصفهانية 1352.

وهو قول محمد بن [الهيصم] 1 الكرامي2، ومحمود الخوارزمي المعتزلي3.
وبهذا استطال عليهم الفلاسفة4، فقالوا: الرب موجب؛ لأن الممكن لا يقع حتى يحصل المؤثر التام الموجب له5.

---

1 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : الهيضم. وهو خلاف الصواب.
2 سبقت ترجمته.
3 هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي النحوي، صاحب الكشاف في التفسير، والمفصل في النحو. من أئمة المعتزلة، ومن الدعاة إلى مذهبهم. ومن علماء اللغة والتفسير. وكان مجاهرا شديد الإنكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم في الكشاف وغيره. ولد سنة 467 ?، وتوفي سنة 538 ? في الجرجانية من قرى خوارزم.
انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 20151-156. وشذرات الذهب لابن العماد 4118-121. والأعلام للزركلي 7178.
4 انظر درء تعارض العقل والنقل 9150.
5 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وهؤلاء المتفلسفة أنكروا على الأشعرية نفي الحكمة الغائية، وهم يلزمهم من التناقض ما هو أعظم من ذلك؛ فإنهم إذا أثبتوا الحكمة الغائية كما هو قول جمهور المسلمين، فإنهم يلزمهم أن يثبتوا المشيئة بطريق الأولى والأحرى، فإن من فعل المفعول لغاية يريدها، كان مريدا للمفعول بطريق الأولى والأحرى. فإذا كانوا مع هذا ينكرون الفاعل المختار، ويقولون: إنه علة موجبة للمعلول بلا إرادة، كان هذا في غاية التناقض........... فالعالم بما فيه من تخصيصه ببعض الوجوه دون بعض، دال على مشيئة فاعله، وعلى حكمته أيضا، ورحمته المتضمنة لنفعه وإحسانه إلى خلقه..". درء تعارض العقل والنقل 9111. وانظر: المصدر نفسه 362، 416-418. وبيان تلبيس الجهمية 1171، 214-215.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضا: "وينبغي أن يعلم أن الذي سلط هؤلاء الدهرية على الجهمية شيئان؛ أحدهما: ابتداعهم لدلائل ومسائل في أصول الدين تخالف الكتاب والسنة، ويخالفون بها المعقولات الصحيحة التي ينسر بها خصومهم أو غيرهم.

والثاني: مشاركتهم لهم في العقليات الفاسدة من المذاهب والأقيسة، ومشاركتهم لهم في تحريف الكلم عن مواضعه؛ فإنهم لما شاركوهم فيه بعد تأويل نصوص الصفات بالتأويلات المخالفة لما اتفق عليه السلف وأئمتهم، كان هذا حجة لهم في تأويل نصوص المعاد وغيرها". بيان تلبيس الجهمية 1223.

والتحقيق: أن الرب يخلق بمشيئته وقدرته، وهو موجب لكل ما يخلقه بمشيئته وقدرته، ليس موجبا بمجرد الذات، ولا موجبا بمعنى أن موجبه يقارنه؛ فإن هذا ممتنع. فهذان معنيان باطلان. وهو قادر يفعل بمشيئته؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فما شاءه وجب كونه، وما لم يشأ امتنع كونه1.
ولهذا قال كثير من النظار: إن الإرادة موجبة للمراد2. وعلى هذا، فقولنا: يجوز أن يكون، ويجوز أن لا يكون: إنما هو جواز الشيء، بمعنى الشك في أيهما هو الواقع، وإلا ففي نفس الأمر أحدهما هو الواقع، ليس في نفس الأمر [ظنيا] 3 مترددا بين الوقوع وعدم الوقوع.
الإمكان الذهني
والإمكان الذهني: قد يراد به عدم العلم بالامتناع، وقد يراد به الشك في الواقع. وكلا النوعين عدم علم.
الإمكان الخارجي
والإمكان الخارجي: يراد به أن وجوده في الخارج ممكن، لا ممتنع4؛

1 انظر شرح الأصفهانية 1128، 351-353.
2 انظر: درء تعارض العقل والنقل 9193.
3 في ((خ)) كلمة غير واضحة، وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 وقال الشيخ رحمه الله في الفرق بين الإمكان الذهني والإمكان الخارجي أيضا: "والفرق بينهما أن الإمكان الذهني معناه عدم العلم بالامتناع، فليس في ذهنه ما يمنع ذلك. والإمكان الخارجي معناه: العلم بالإمكان في الخارج. والإنسان يقدر في نفسه أشياء كثيرة يجوزها، ولا يعلم أنها ممتنعة، ومع هذا فهي ممتنعة في الخارج لأمور أخر". درء تعارض العقل والنقل 3358-359. وانظر: التدمرية ص 263. وانظر كلاما مفصلا للمؤلف أيضا عن الفرق بينهما في الجواب الصحيح 6404-405. وقد سبق أيضا التفريق بينهما من كلام المؤلف في هذا الكتاب، في ص 227.

كولادة النساء، ونبات الأرض.
وأما الجزم بالوقوع وعدمه، فيحتاج إلى دليل.
وفي نفس الأمر ما ثم إلا ما يقع، أو لا يقع.
والواقع لا بد من وقوعه، ووقوعه واجب لازم.
وما لا يقع فوقوعه ممتنع، لكن واجب بغيره، وممتنع لغيره:
وقوع ما قدره الله واجب من جهات
وهو واجب من جهات: من جهة علم الرب من وجهين، ومن جهة إرادته من وجهين، ومن جهة كلامه من وجهين، [ومن جهة كتابته من وجهين] 1، ومن جهة رحمته، ومن جهة عدله.
أما علمه: فما علم أنه سيكون، فلا بد أن يكون، وما علم أنه لا يكون، فلا يكون. وهذا مما يعترف به جميع الطوائف، إلا من ينكر العلم السابق؛ كغلاة القدرية2 الذين تبرأ منهم الصحابة.

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - عنهم: "وغلاة القدرية ينكرون علمه المتقدم وكتابته السابقة، ويزعمون أنه أمر ونهي، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه، بل الأمر أنف: أي مستأنف. وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين، وبعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير وبين بني أمية في أواخر عصر عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وغيرهما من الصحابة. وكان أول من ظهر عنه ذلك بالبصرة معبد الجهني، فلما بلغ

الصحابة قول هؤلاء تبرءوا منهم، وأنكروا مقالتهم، كما قال عبد الله بن عمر لما أخبر عنهم: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برءاء مني. وكذلك كلام ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وواثلة بن الأسقع، وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين فيهم كثير، حتى قال فيهم الأئمة؛ كمالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم: إن المنكرين لعمل الله المتقدم يكفرون.
ثم كثر خوض الناس في القدر، فصار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم، والكتاب السابق، لكن ينكرون عموم مشيئة الله، وعموم خلقه وقدرته، ويظنون أنه لا معنى لمشيئته إلا أمره؛ فما شاءه فقد أمر به، وما لم يشأه لم يأمر به. فلزمهم أن يقولوا: إنه قد يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء. وأنكروا أن يكون الله تعالى خالقا لأفعال العباد، أو قادرا عليها، أو أن يختص بعض عباده من النعم بما يقتضي إيمانهم به وطاعتهم له..". مجموع الفتاوى 8450-451. وانظر المصدر نفسه 7384-385، 8228.
وانظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 665.

ومن جهة أنه يعلم ما في ذلك الفعل من الحكمة: فيدعوه علمه إلى فعله، أو ما فيه من الفساد، فيدعوه إلى تركه. وهذا يعرفه من يقر بأن العلم داع، ومن يقر بالحكمة.
ومن جهة إرادته: فإنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.
ومن جهة حكمته، وهي الغاية المرادة لنفسها، التي يفعل لأجلها. فإذا كان مريدا للغاية المطلوبة، لزم أن يريد ما يوجب حصولها.
ومن جهة كلامه: من وجهين؛ من جهة أنه أخبر به، وخبره مطابق لعلمه؛ ومن جهة أنه أوجبه على نفسه، وأقسم ليفعلنه. وهذا من جهة إيجابه على نفسه، والتزامه أن يفعله.
ومن جهة كتابته إياه في اللوح: وهو يكتب ما علم أن سيكون. وقد يكتب إيجابه والتزامه؛ كما قال: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} 1، وقال: {كتب ربكم على نفسه الرحمة} 2.

1 سورة المجادلة، الآية 21.
2 سورة الأنعام، الآية 54.

فهذه عشرة أوجه1 تقتضي الجزم بوقوع ما سيكون، وأن ذلك واجب [حتم] 2 لا بد منه، فما في نفس الأمر جواز يستوي فيه الطرفان؛ الوجود، والعدم، وإنما هذا في ذهن الانسان، لعدم علمه بما هو الواقع. ثم من علم بعض تلك الأسباب، علم الواقع؛ فتارة يعلم لأنه أخبر بعلمه؛ وهو ما أخبرت به الأنبياء بوقوعه؛ كالقيامة [والجزاء] 3؛ وتارة يعلم من جهة المشيئة؛ لأنه جرت به سنته الشاملة التي لا تتبدل؛ وتارة يعلم من جهة حكمته، كما قد بسط في غير هذا الموضع4.

1 والخلاصة: أن الجزم بوقوع ما قدره الله سبحانه وتعالى واجب من جهات عشر:
من جهة علم الله سبحانه وتعالى من وجهين؛ الأول: ما علمه الله أنه سيكون، فلابد أن يكون. والثاني: ما علم الله سبحانه وتعالى أنه لا يكون، فلا يكون.
وكذلك من جهة إرادته سبحانه من وجهين؛ الأول: أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. والثاني: من جهة حكمته سبحانه، وهي الغاية المرادة لنفسها التي يفعل لأجلها.
وكذلك من جهة كلامه، من وجهين؛ الأول: من جهة أنه أخبر به، وخبره مطابق لعلمه. والثاني: من جهة أنه أوجبه على نفسه وأقسم ليفعلنه.
وكذلك من جهة كتابته إياه في اللوح المحفوظ من وجهين؛ الأول: كتابته ما علم أنه سيكون. والثاني: كتابته ما أوجبه على نفسه.
وكذلك من جهة رحمته.
وكذلك من جهة عدله.
فهذه عشرة أوجه.
2 في ((ط)) : حتى.

3 في ((ط)) : الجزاء.
4 انظر: درء تعارض العقل والنقل 362-69،، 9192-196. وبيان تلبيس الجهمية 1197-213.

الحكمة والعدل والرحمة تعلم بالعقل
والحكمة، والعدل، والرحمة، والعادة تعلم بالعقل، كما قد عرف من حكمة الرب، وعدله، وسنته.
ويستدل بذلك على العلم، والخبر، والكتاب؛ كما أن العلم، والخبر، والكتاب [يعلم] 1 بأخبار الأنبياء، ويستدل بذلك على العدل، والحكمة، والرحمة.
الجهمية ينكرون الحكمة والعدل والرحمة
والجهمية المجبرة لا تجزم بثبوت، ولا انتفاء، إلا من جهة الخبر، أو العادة؛ إذ كانوا لا يثبتون الحكمة، والعدل، والرحمة في الحقيقة، كما قد بسط في غير موضع2.
وحكي عن الجهم أنه كان يخرج، فينظر الجذمى3، ثم يقول: أرحم الراحمين يفعل هذا4؟. يقول إنه يفعل لمحض المشيئة، ولو كان يفعل بالرحمة لما فعل هذا.
وهذا من جهله لم يعرف ما في الابتلاء من الحكمة، والرحمة، والمصلحة.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : تعلم.
2 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "والجهم بن صفوان ومن اتبعه ينكرون حكمته ورحمته، ويقولون: ليس في أفعاله وأوامره لام كي، لا يفعل شيئا لشيء، ولا يأمر بشيء لشيء. وكثير من المتأخرين من المثبتين للقدر من أهل الكلام ومن وافقهم سلكوا مسلك جهم في كثير من مسائل هذا الباب، وإن خالفوه في بعض ذلك". مجموع الفتاوى 8466-467. وانظر: المصدر نفسه 16130-133، 297-300. ومنهاج السنة 1142-145. وبيان تلبيس الجهمية 1214-217. وشرح الأصفهانية 2356-357.
3 الجذام من الداء: مرض معروف سمي بذلك لتجذم الأصابع وتقطعها. لسان العرب 1287.
4 انظر شفاء العليل لابن القيم رحمه الله ص 202.

والمجبرة المثبتة للقدر متبعون لجهم1، والقدرية النفاة مناقضون لهم2، كما قد بسط الكلام على ذلك في غير موضع3.
العقلاء يستدلون بصفات الرب على ما يفعله
وما زال العقلاء يستدلون بما علموه من صفات الرب على ما يفعله؛ [كقول] 4 خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم لما قال لها: "لقد خشيت على نفسي"، فقالت: "كلا، والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتصدق الحديث، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق"5.
فاستدلت بما فيه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال على أن الله لا يخزيه.
ومنه: قوله تعالى: {قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم} 6؛ فإن الشيطان إنما ينزل على ما يناسبه، ويطلبه، وهو يريد

---

1 وهم الأشاعرة.
2 وهم المعتزلة.
3 قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "والجهمي الجبري لا يثبت عدلا ولا حكمة، ولا توحيد إلهيته، بل توحيد ربوبيته. والمعتزلي لا يثبت توحيد إلهيته، ولا عدلا، ولا عزة، ولا حكمة، وإن قال إنه يثبت حكمة ما معناها يعود إلى غيره. فتلك لا تكون حكمة. فمن فعل لا لأمر يرجع إليه، بل لغيره، فهذا عند العقلاء قاطبة ليس بحكيم..". مجموع الفتاوى 8211. وانظر: المصدر نفسه 835-57، 89-93، 377-378، 1799-100.
4 في ((ط)) : كقوله.
5 سبق تخريجه ص 233.

وانظر تعليق المؤلف رحمه الله على هذا الحديث في: شرح الأصفهانية 2479-486. والجواب الصحيح 6511-512. وكتاب الصفدية 1225.
6 سورة الشعراء، الآيتان 221-222.

الكذب والإثم، فينزل على من يكون كذلك. وبسط هذا له موضع آخر1.
الكلام في النبوة فرع على إثبات الحكمة
والكلام في النبوة فرع على إثبات الحكمة التي يوجب فعل ما تقتضيه الحكمة، ويمتنع فعل ما [تنفيه2] 3، [فتقول] 4: هو سبحانه وتعالى حكيم، يضع كل شيء في موضعه المناسب له، فلا يجوز عليه أن يسوي بين جنس [الصادق] 5 والكاذب، والعادل والظالم، والعالم والجاهل، والمصلح والمفسد، بل يفرق بين هذه الأنواع بما يناسب الصادق العادل العالم المصلح من الكرامة، وما يناسب الكاذب الظالم الجاهل المفسد من الهوان؛ كما قال تعالى: {أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار} 6، وقال: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين} 7، وهذا استفهام انكار على من ظن ذلك، وهو يتضمن تقرير المخاطبين، واعترافهم بأن هذا لا يجوز عليه، وأن ذلك بين معروف، يجب اعترافهم به، وإقرارهم به، كما يقال لمن ادعى أمرا ممتنعا؛ مثل نعم كثيرة

---

1 انظر: الجواب الصحيح 6297-302. وشرح الأصفهانية 2474-477. وانظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 190-192.
2 قال شيخ الإسلام رحمه الله وهو يناقش من ينفي حكمة الله، ويجوز عليه فعل كل شيء: "فإما أن يجوز عليه فعل كل شيء، وإما أن يكون متنزها عن بعض الأفعال. فإن قيل: إنه يجوز أن يصدر منه فعل القبيح، لم يؤمن منه تصديق المتنبئين الكذابين بالمعجزات، ولم يؤمن أيضا الخبر المخالف لمخبره، فإن الكذب وتصديق الكاذب قبيح، وتجويز ذلك يبطل النبوات وأخبار المعاد، وهذان تبطل بهما الملل". بيان تلبيس الجهمية 1162.
3 في ((خ)) : ينفيه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : يقول. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((ط)) : الصدق.
6 سورة ص، الآية 28.
7 سورة القلم، الآية 35.

في موضع صغير، فيقال له: أههنا كانت هذه النعم؛ أي هذا ممتنع [فاعترف] 1 بالحق. وإذا ادعى على من هو معروف بالصدق والأمانة أنه نقب داره، وأخذ ماله، قيل له: أهذا فعل هذا؟! .
ومنه: قوله: {يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} 2، وقوله تعالى: {ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون} 3. ونظائره كثيرة.
ظن السوء بالله تعالى
وكذلك قوله: {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا [الصالحات] 4 سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون} 5؛ فإن هذا استفهام إنكار على من حسب أنه يسوي بين هؤلاء وهؤلاء؛ فبين أن هذا الحساب باطل، وأن التسوية ممتنعة في حقه، لا يجوز أن يظن به، بل من ظن ذلك، فقد ظن بربه ظن السوء، وذلك ظن أهل الجاهلية الذين يظنون بالله ظن السوء، فمن جوز ذلك على الله، فقد ظن بربه ظن السوء.
وقوله تعالى فيما جرى يوم أحد: {وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية} 6؛ فسره ابن عباس وغيره: بأنهم ظنوا أن الله لم يقدر ما جرى، وأنه لا ينصر رسوله7.

---

1 في ((ط)) " فاعتبرف.
2 سورة المائدة، الآية 119.
3 سورة سبأ، الآية 40.

4 في ((م)) ، و ((ط)) : السيئات.
5 سورة الجاثية، الآية 20.
6 سورة آل عمران، الآية 154.
7 انظر: تفسير الطبري 4141-143. وتفسير ابن كثير 1418. وفتح القدير للشوكاني 1391-392. وتفسير السعدي 1439-440.

فكما أن القدر يجب الإيمان به، ويعلم أن كل ما كان، قد سبق به علم الرب، فكذلك يعلم أنه لا بد أن ينصر رسله والذين آمنوا. وكما أنه لا يجوز أن يقع خلاف المقدر، فلا يجوز أن لا ينصر رسله والذين آمنوا.

ومثله: قوله [تعالى] 1 فيما أنزله عام الحديبية، لما ظن ظانون أن الرسول وأتباعه لا ينصرون، فقال تعالى: {ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا} 2. وهذا يدل على أن هذا ظن سوء بالله، لا يجوز أن يظن به أنه يفعل ذلك.

ومن ينفي الحكمة3 يقول: يجوز عليه فعل كل شيء، وليس عنده ظن سوء بالله.

جوابان لمن يظن بالله ظن السوء

وإن قيل: لما أخبر أنه ينصره، كان ضد ذلك ظن سوء؛ لأن خبره لا يقع بخلاف مخبره؟ قيل: عن هذا جوابان:

[أحدهما] 4: أن هؤلاء5 يلزمهم تجويز إخلاف الوعد عليه؛ لأن هذا من باب الأفعال المقدورة، وهم يجوزون كل مقدور، وإذا قيل: إخلاف الوعد قبيح، فهم ليس عندهم شيء قبيح ينزهون الرب عنه.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 سورة الفتح، الآية 6.
3 المقصود بهم الأشاعرة.
وانظر: بيان تلبيس الجهمية 1162. وشرح الأصفهانية 2616-624. وانظر أيضا: الإرشاد للجويني ص 319، 322. والمواقف للإيجي ص 323، 328، 330، 331.
4 في ((خ)) : إحداهما. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 وهم من ينفي الحكمة؛ من الأشاعرة، والجبرية، والفلاسفة.

الثاني: أنه إذا علم أنه يفعله ولو بالعلم الضروري، فإنما ذلك لأنه واقع. ولو قدر أن رجلا ظن أن الله لا يفعل ما سيفعله مما ليس فيه ذم؛ مثل أن يظن أنه يموت بعد شهر، لم يقل إن هذا ظن سوء، وإنما يكون ظن سوء، إذا كان المظنون عيبا قبيحا، لا يجوز أن يضاف إلى المظنون به، ومنه قوله تعالى: {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر و [تظنون] 1 بالله [الظنونا] 2} 3؛ فهذا ذم لمن ظن بالله [الظنونا] 4

ومن ذلك: قوله تعالى: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون} 5 , وهذا يقتضي أن هذا ممتنع عليه. ومن حكم بجوازه، فقد حكم حكما باطلا جائرا ممتنعا، كالذين جوزوا أن تكون له بنات، وهم يكرهون أن تكون لهم بنات، فيجوز على الله ما هو قبيح عندهم؛ قال تعالى: {ويجعلون [لله] 6 البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون} 7.

ومما يبين حكمته، أن تقول: أفعاله المحكمة المتقنة دلت على علمه.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يظنون.
2 في ((م)) ، و ((ط)) رسمت: الظنون.
3 سورة الأحزاب، الآية 10.
4 في ((ط)) : الظنون.
5 سورة القلم، الآية 35-36.

6 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
7 سورة النحل، الآيات 57-59.

وهذا مما وقع الاتفاق عليه من هؤلاء؛ فإنهم يسلمون أن الإحكام والإتقان يدل على علم الفاعل.
وهذا أمر ضروري عندهم، وعند غيرهم، وهو من أعظم الأدلة العقلية التي يجب ثبوت مدلولها.
معنى الإحكام والإتقان
والإحكام والإتقان إنما هو أن يضع كل شيء في محله المناسب، لتحصل به الحكمة المقصودة منه؛ مثل الذي يخيط قميصا، فيجعل الطوق على قدر العنق، والكمين على قدر اليدين؛ وكذلك الذي يبني الدار، يجعل الحيطان متماثلة ليعتدل السقف؛ والذي يصنع الابريق يوسع ما يدخل منه الماء، ويضيق ما يخرج منه.
وحكمة الرب في جميع المخلوقات باهرة، قد بهرت العقلاء، واعترف بها جميع الطوائف.
الفلاسفة يثبتون العناية والحكمة الغائية
والفلاسفة من أعظم الناس إثباتا لها، وهم يثبتون العناية، والحكمة الغائية، وإن كان فيهم من قصر في أمر الإرادة والعلم1.

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن الفلاسفة: "إنهم معترفون بما هو مشهود معلوم من ظهور الحكمة التي في العالم التي يسمونها (العناية) . والفلاسفة من أعلم الناس بهذا، وأكثر الناس كلاما فيما يوجد في المخلوقات من المنافع والمقاصد والحكم الموافقة للإنسان وغيره، وما يوجد من هذه الحكمة في بدن الإنسان وغيره، سواء كانوا ناظرين في العلم الطبيعي وفروعه، أو علم الهيئة ونحوه من الرياضي، أو العلم الإلهي، وأجل القوم الإلهيون. وقد تقدم ما ذكر في اعترافهم بأن هذه الموافقة ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد. ولا ريب أن الاعتراف بهذا ضروري؛ كالاعتراف بأن المحدث لا بد له من محدث، والممكن لا بد له من مرجح. فكما أن هناك مقدمتين؛ إحداهما: أن هنا حوادث مشهودة، والحادث لا بد له من محدث. والأولى حسية، والثانية عقلية بديهية ضرورية. وكذلك أن هاهنا ممكنات، والممكن لا بد له من مرجح واجب، فكذلك هاهنا مقدمتان؛ إحداهما: أن هنا حكما أو منافع مطلوبة. والثانية: أنه لا بد لذلك من فاعل قاصد مريد. وهما مقدمتان ضروريتان؛ الأولى حسية، والثانية عقلية؛ فإن الإحساس بالانتفاع كالإحساس بالحدوث، وإن كان في تفاصيل ذلك ما يعلم بالقياس أو الخبر. ثم هذه الحكم قد يعلم حدوثها، وقد يعلم إمكانها، كالأسباب". بيان تلبيس الجهمية 1203-204.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضا عن الفلاسفة أنهم: "من أكثر الناس نظرا في حكم الموجودات، وقد اعترفوا بما تقدم من أن هذه الموافقة تعلم ضرورة أنها من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس المراد أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق، فعلم أن نفيهم بعد ذلك كونه فاعلا مختارا، تناقض منهم". بيان تلبيس الجهمية 1182 وانظر: درء تعارض العقل والنقل 9111.

المتكلمون يثبتون الحكمة في مخلوقات الله
وكذلك المتكلمون1: كلهم متفقون على إثبات الحكمة في مخلوقاته، وإن كانوا في الإرادة، وفعله لغاية، متنازعين؛ وذلك مثلما في خلق الإنسان. وأدنى ذلك أن العين، والفم، والأذن فيها مياه ورطوبة؛ فماء العين مالح، وماء الفم عذب، وماء الأذن مر. فإن العين شحمة، والملوحة تحفظها أن تذوب. وهذه أيضا حكمة تمليح ماء البحر؛ فإن له سببا وحكمة؛ فسببه سبوخة أرضه وملوحتها؛ فهي توجب ملوحة مائه؛ وحكمتها أنها تمنع نتن الماء بما يموت فيه من الحيتان العظيمة؛ فإنه لولا ملوحة مائه لأنتن، ولو أنتن لفسد الهواء لملاقاته له، فهلك الناس بفساده، وإذا وقع أحيانا، قتل خلق كثير فإنه يفسد الهواء حتى يموت بسبب ذلك خلق كثير.
وماء الأذن مر؛ ليمنع دخول الهوام إلى الأذن.
وماء الفم عذب؛ ليطيب به ما يأكله.

---

1 أهل الجدل والمناظرة، والمقصود بهم: الأشاعرة، والمعتزلة، والجهمية.

فلو جعل الله ماء الفم مرا، لفسد الطعام على أكلته، ولو جعل ماء الأذن عذبا، لدخل الذباب في الدماغ.

ونظائر هذا كثيرة، فلا يجوز أن يفعل بخلاف [ذلك] 1؛ مثل أن يجعل العينين في القدمين، ويجعل الوجه خشنا غليظا، كالقدمين؛ فإنه كان يفسد مصلحة النظر والمشي.
بل من الحكمة أنه جعل العينين في أعلى البدن، في [مقدمه] 2 ليرى بها ما أمامه، فيدري أين يمشي.
وجعل الرجل خشنة تصبر على ما تلاقيه من التراب وغيره.
والعين لطيفة يفسدها أدنى شيء، فجعل لها أجفانا تغطيها، و [أهدابا] 3.
إثبات صفة العلم والإرادة والحكمة بالعقل
[فتقول] 4: هذا ومثله من مخلوقات الرب، دل على أنه قد أحكم ما خلقه، وأتقنه، ووضع كل شيء بالموضع المناسب له5، وهذا يوجب العلم الضروري أنه عالم؛ فيميز بين هذا وبين هذا، حتى خص هذا بهذا، وهذا بهذا. وهو أيضا يوجب [العلم] 6 الضروري بأنه أراد تخصيص هذا بهذا، وهذا بهذا؛ فدل على علمه وإرادته. وهذا مما يسلمونه، فتقول: [ودل] 7 أيضا على أنه جعل هذا لهذا؛ فجعل ماء العين والبحر ملحا للحكمة المذكورة، وجعل العين في أعلى البدن، وجعل لها أجفانا للحكمة المذكورة.

---

1 مابين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((ط)) : مقدمة.
3 في ((خ)) رسمت: أهذابا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : فيقول. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 سبق أن ذكر الشيخ رحمه الله هذه الحكم. انظر ص 572-573 من هذا الكتاب.
6 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
7 في ((ط)) : ودم.

وكذلك إذا أنزل المطر، وقت الحاجة إليه، علم أنه أنزله ليحيي به الأرض.
وكذلك إذا دعاه الناس مضطرين، فأنزل المطر، علم أنه أنزل ليحيي الأرض لإجابة دعائهم، فلا يتصور أن يعلم أنه أراد هذا لهذا1، ولا يتصور الإحكام والإتقان، إلا إذا فعل هذا للحكمة المطلوبة.
فكان ما علم من إحكامه وإتقانه، دليلا على علمه، وعلى حكمته أيضا، وأنه يفعل لحكمة.
تناقض الفلاسفة الذين يثبتون الأحكام
والذين استدلوا بالإحكام على علمه، ولم يثبتوا الحكمة2، وأنه يفعل هذا لهذا، متناقضون عند عامة العقلاء. وحذاقهم معترفون بتناقضهم؛ فإنه لا معنى للإحكام إلا الفعل لحكمة مقصودة، فإذا انتفت الحكمة، ولم يكن فعله لحكمة، انتفى الإحكام. وإذا انتفى الإحكام، انتفى دليل العلم.
وإذا كان الإحكام معلوما بالضرورة، [ودلالته على العلم معلومة بالضرورة] 3، علم أن حكمته ثابتة بالضرورة، وهو المطلوب.
مقتضيات صفة العلم لله
وأيضا فإذا ثبت أنه عالم، فنفس العلم يوجب أنه لا يفعل قبيحا، ولا يجوز أن يفعل القبيح، إلا من هو جاهل، كما قد بسط في غير هذا

---

1 قال تعالى: {وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد} [سورة الشورى، الآية 28] ، وقال تعالى: {الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير} [سورة الروم، الآيات 48-50] .
2 المقصود بهم الفلاسفة الذين يثبتون العناية والإحكام (الحكمة الغائية) . انظر: درء تعارض العقل والنقل 9111. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 1026.
3 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .

الموضع1، [و] 2 بين أن العالم يعلم ما الذي يصلح أن يفعل، وأن فعل هذا، أولى من فعل هذا. وإذا كان مريدا للفعل، وقد علم أن الفعل على هذا الوجه هو الأصلح، امتنع أن يريد الوجه الآخر.
والإنسان لا يريد القبيح إلا [لنقص] 3 علمه. أما أن يفعل بلا علم، بل لمجرد الشهوة، أو يظن خطأ؛ فيظن أن هذا الفعل يصلح، وهو لا يصلح، فإنما يقع القبيح في فعله لفعله مع الجهل البسيط أو المركب4.
والرب منزه عن هذا وهذا، فيمتنع أن يفعل القبيح.
إثبات الإرادة يستلزم إثبات الحكمة
وأيضا فإنه قد ثبت أنه مريد، وأن الإرادة تخصص المراد عن غيره، وهذا إنما يكون إذا كان التخصيص لرجحان المراد؛ إما لكونه أحب إلى المريد وأفضل عنده. فأما إذا ساوى غيره من كل وجه امتنع ترجيح الإرادة له، فكان إثبات الإرادة مستلزما إثبات الحكمة5، [وإلا] 6 لم تكن الإرادة.
فقد تبين ثبوت حكمته من جهة علمه، ومن جهة نفس أفعاله المتقنة المحكمة، التي تدل على علمه بالاتفاق.
وهذه أصول عظيمة من تصورها تصورا جيدا، انكشف له حقائق هذا الموضع الشريف7.

1 انظر: مجموع الفتاوى 16130-133. وبيان تلبيس الجهمية 1178-184، 203-204. ودرء تعارض العقل والنقل 363،، 9111.
2 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .
3 في ((خ)) : لفعل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سبق التعريف بهما. انظر ص 763 من هذا الكتاب.
5 انظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 506-507.
6 في ((خ)) رسمت: والم.
7 وهو إثبات حكمة الله سبحانه وتعالى التي نفاها المتكلمون والفلاسفة، وخاضوا في أفعال الله وأحكامه وصفاته بالباطل.

حكمة الله من لوازم ذاته
وإذا ثبت أنه حكيم، وأن حكمته لازمة لعلمه، ولازمة لإرادته، وهما لازمان لذاته، كانت حكمته من لوازم ذاته؛ فيمتنع أن يفعل إلا لحكمة وبحكمة، ويمتنع أن يفعل على خلاف الحكمة.
ومعلوم بصريح العقل أن العلم خير من الجهل، والصدق خير من الكذب، والعدل خير من الظلم، والإصلاح خير من [الإفساد] 1. ولهذا وجب [اتصافه تعالى بالرحمة، والعلم، والصدق] 2، والعدل، والإصلاح، دون نقيض ذلك.
وهذا ثابت في خلقه وأمره؛ فكما أنه في خلقه عادل حكيم رحيم، فكذلك هو في أمره وما شرعه من الدين، فإنه لا يكون إلا عدلا، وحكمة، ورحمة، ليس هو كما تقول الجهمية المجبرة، ومن اتبعهم من أهل الكلام والرأي: إنه يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه، وإن ما أمر به لا يجب أن يفعل على حكمة، وينكرون تعليل الأحكام، أو يقولون إن علل الشرع أمارات محضة3. فهذا كله باطل، كما قد بسط في مواضع4.
البراهين اليقينية على أن الله لا يفعل خلاف الحكمة والعدل ولا يسوي بين الصادق والكاذب
بل ما يأمر به مصلحة لا مفسدة، وحسن لا قبيح، وخير لا فساد، وحكمة وعدل ورحمة، والحمد لله رب العالمين؛ فإذا قدر رجلان ادعيا على الرب الرسالة، أو توليا على الناس، أو كانا من عرض الناس؛ أحدهما

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
2 في ((خ)) : وجب اتصاف الرحمة بالعلم والصدق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 انظر: الإنصاف للباقلاني ص 74-75. والمواقف للإيجي ص 314-315، 323. وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص 108.

4 انظر: شرح الأصفهانية 2618. ومجموع الفتاوى 8433-434، 466-468 ومنهاج السنة 388-90، 177. وانظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 408-409.

عالم صادق عادل مصلح، والآخر جاهل ظالم كاذب مفسد، ثم قدر أن ذلك العالم العادل عوقب في الدنيا والآخرة، فأذل في الدنيا، وقهر، وأهلك، وجعل في الآخرة في جهنم، وذلك الظالم الكاذب الجاهل، أكرم في الدنيا والآخرة، [و] 1 جعل في الدرجات العلى، كان معلوما بالاضطرار أن هذا نقيض الحكمة والعدل، وهو أعظم سفها وظلما من تعذيب ماء البحر وماء العين2؛ فإن هذا غايته موت شخص أو النوع، وهذا أقل فسادا من إهلاك خيار الخلق وتعذيبهم، وإكرام شرار الخلق وإهانتهم.
الأشاعرة يجوزون على الله عقلا أن يسوي بين الصادق والكاذب.. وأن يعذب المؤمنين ولكن بالسمع لا بالعقل
وإذا كان هذا أعظم مناقضة للحكمة والعدل من غيره، وتبين بالبراهين اليقينية أن الرب لا يجوز عليه خلاف الحكمة والعدل، علم بالاضطرار أن الرب سبحانه لا يسوي بين هؤلاء وهؤلاء، فضلا عن أن يفضل الأشرار على الأخيار، وهو سبحانه أنكر التسوية؛ فقال: {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء [ما يحكمون] 3} 4، وقال تعالى: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف [تحكمون] 5} 6.
وقد جعل7 من جوز أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة،
ويعذبهم في الآخرة في جهنم، وأن الفراعنة8 يكرمهم في الدنيا

---

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 أي يصير ماء البحر وماء العين عذبا صالحا للشرب.
3 في ((خ)) : ما كانوا يعملون.
4 سورة الجاثية، الآية 21.
5 في ((ط)) : يحكمون.
6 سورة القلم، الآية 35-36.
7 أي الجبري.
8 فرعون: اسم أعجمي. وقد استخدم في اللغة العربية، فقيل: تفرعن فلان: إذا تعاطى فعل فرعون؛ كما يقال: أبلس إبليس.
ومنه قيل للطغاة: الفراعنة والأبالسة.
انظر: المفردات للراغب الأصفهاني ص 362. والمصباح المنير ص 470.

والآخرة، والمنازع عنده لا فرق بين هذا وهذا بالنسبة إلى الرب وإلى إرادته وحكمته وعلمه، بل إنما علم وقوع أحدهما بمجرد الخبر1، لا لامتناع أحدهما، ووجوب الآخر.

---

1 بمعنى أن الأشعري يقول: علمت أن الله لا يعذب المؤمنين وينعم الكافرين بمجرد خبر النبي الصادق؛ وهي الدلالة السمعية المجردة. أما عقلا: فيجوز أن يفعل الله كل مقدور، فيعذب هؤلاء وينعم هؤلاء، ويسوي بين الصادق والكاذب، لكن بالدلالة الخبرية السمعية علمت أنه لا يفعل.
انظر: اللمع للأشعري ص 71. والتمهيد للباقلاني ص 385. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 566-568.
ولشيخ الإسلام رحمه الله كلام حول هذا الموضوع، يقول فيه: "وأما مثبتة الصفات كابن كلاب والأشعري وغيرهما ممن يثبت الصفات ولا يثبت إلا واحدا معينا؛ فلا يثبت إلا إرادة واحدة تتعلق بكل حادث، وسمعا واحدا معينا متعلقا بكل مسموع، وبصرا واحدا معينا متعلقا بكل مرئي، وكلاما واحدا بالعين يجمع جميع أنواع الكلام، كما قد عرف من مذهب هؤلاء. فهؤلاء يقولون: جميع الحادثات صادرة عن تلك الإرادة الواحدة العين المفردة التي ترجح أحد المتماثلين لا بمرجح، وهي المحبة والرضا وغير ذلك.
وهؤلاء إذا شهدوا هذا لم يبق عندهم فرق بين جميع الحوادث في الحسن والقبح إلا من حيث موافقتها للإنسان، ومخالفة بعضها له. فما وافق مراده ومحبوبه كان حسنا عنده، وما خالف ذلك كان قبيحا عنده، فلا يكون في نفس الأمر حسنة يحبها الله، ولا

سيئة يكرهها، إلا بمعنى أن الحسنة هي ما قرن بها لذة صاحبها، والسيئة ما قرن بها ألم صاحبها، من غير فرق يعود إليه، ولا إلى الأفعال أصلا.
ولهذا كان هؤلاء لا يثبتون حسنا ولا قبيحا، لا بمعنى الملائم للطبع والمنافي له. والحسن والقبح الشرعي هو ما دل صاحبه على أنه قد يحصل لمن فعله لذة، أو حصول ألم له. ولهذا يجوز عندهم أن يأمر الله بكل شيء، حتى الكفر والفسوق والعصيان، وينهى عن كل شيء، حتى الإيمان والتوحيد. ويجوز نسخ كل ما أمر به بكل ما نهى عنه. ولم يبق عندهم في الوجود خير ولا شر، ولا حسن ولا قبيح إلا بهذا الاعتبار، فما في الوجود ضر ولا نفع. والنفع والضر أمران إضافيان، فربما نفع هذا ما ضر هذا". مجموع الفتاوى 8342-344. وانظر: المصدر نفسه 8337-355.

والخبر إنما هو خبر الأنبياء، وذلك موقوف على العلم بصدقهم، وهو يستلزم صدقهم.
وعلى أصله1 يمتنع العلم بصدقهم؛ فإنه يجوز أن يسوي الله بين الصادق والكاذب على أصله؛ إذ كان يجوز عليه عنده كل مقدور.
وعنده لا يجوز أن يفعل فعلا لحكمة، فلا يجوز على أصله أن يخلق الله آية ليدل بها على صدقهم2.
وإذا قال3: تجويز ذلك يقتضي أنه لا يقدر على خلق ما به يبين صدق الصادق، فلذلك منعت من ذلك لأنه يفضي إلى تعجيزه.
قيل له: إنما يفضي إلى عجزه إذا كان خلق دليل الصدق ممكنا. وعلى أصلك لا يمكن إقامة الدليل على [إمكانه] 4؛ فإن الدليل يستلزم المدلول، ويمتنع ثبوته مع عدمه، وأي شيء قدرته، جاز أن يخلقه على أصلك على يد الكاذب، وأنت لا تنزهه عن فعل ممكن5.

---

1 انظر: منهاج السنة النبوية 386-91.
2 الأشاعرة ينفون أن يفعل الله شيئا لأجل شيء، لأنهم ينفون حكمة الله سبحانه وتعالى.
وانظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 653-654. وانظر: الإرشاد للجويني ص 326. والمواقف للإيجي ص 231.
3 انظر: الإرشاد للجويني ص 326-327. والمواقف للإيجي ص 242.
وانظر اعتراض المعتزلة على الأشاعرة في شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص 564-571.
وقد رد عليهم شيخ الإسلام رحمه الله فيما مضى.
وانظر له: الجواب الصحيح 6393 - 401. وشرح الأصفهانية 2616- 624.
4 في ((ط)) : إمكان.
5 انظر ما سبق ص 245-248 من هذا الكتاب.

وإذا قلت: أنزهه عن فعل ممكن يستلزم عجزه، كان هذا تناقضا؛ فإن فعل الممكن لا يستلزم العجز، بل امتناع الممكن يستلزم العجز. وبيان ذلك أن يقال: ما خلقه على يد الصادق هو قادر على أن يخلقه على يد الكاذب أم لا؟ .
فإن قلت: ليس بقادر، فقد أثبت عجزه. وإن قلت: هو قادر على ذلك، فالمقدور عندك لا ينزه عن شيء منه. وإن قلت: هذا المقدور أنزهه عنه، لئلا يلزم عجزه، كان حقيقة قولك: أثبت عجزه [لئلا أنفي] 1 عجزه؛ فجعلته عاجزا لئلا [تجعله] 2 عاجزا، فجمعت بين النقيضين؛ بين إثبات العجز ونفيه.
وإنما لزمه هذا؛ لأنه لا ينزه الرب عن فعل مقدور، فاستوت المقدورات كلها في الجواز عليه عنده، ولم يحكم بثبوت مقدور إلا بالعادة، أو الخبر3. والعادة يجوز انتقاضها عنده4، والخبر موقوف على العلم بصدق المخبر، ولا طريق له إلى ذلك.
فتبين أن كل من لم ينزه الرب عن السوء والسفه، ويصفه بالحكمة والعدل، لم يمكنه أن يعلم نبوة نبي، ولا المعاد، ولا صدق الرب في شيء من الأخبار.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : لأنفي.
2 في ((خ)) : يجعله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 قد تقدمت هذه المناظرة بين شيخ الإسلام رحمه الله والأشاعرة في ص 588 من هذا الكتاب.
4 الأشاعرة يجوزون أن يأتي الساحر والكاهن بمثل آيات الأنبياء، إلا أنه لا يدعي النبوة، فيجوزون خرق العادات لغير الأنبياء. انظر: البيان للباقلاني ص 94-95. وانظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 259-267، 581، 586، 990، 1030-1033، 1066.

الطريقة الأولى عند الأشاعرة في دلالة المعجزة
فهذه طريقة من يجعل وجه دلالة المعجز على صدق الأنبياء، لئلا يلزم العجز1.
الطريقة الثانية
وأما الطريق الثانية، وهي أجود، وهي التي اختارها [أبو] 2 المعالي3 وأمثاله. فهو أن دلالة المعجز على التصديق معلوم بالاضطرار. وهذه طريقة صحيحة لمن اعتقد أنه يفعل لحكمة.
وأما إذا قيل: إنه لا يفعل لحكمة، انتفى العلم الاضطراري. والأمثلة التي يذكرونها كالملك الذي [جعل] 4 آية لرسوله أمرا خارجا عن عادته، إنما دلت للعلم بأن الملك يفعل شيئا لشيء، فإذا نفوا هذا بطلت الدلالة5.
دليل القدرة في إثبات النبوة
وكذلك دليل القدرة6: هو دليل صحيح، لكن مع إثبات الحكمة؛ فإنه سبحانه [وتعالى] 7 قادر على أن يميز بين الصادق والكاذب؛ إذ كان

---

1 وهي الطريقة الأولى عند الأشاعرة؛ طريقة أبي الحسن الأشعري في دلالة المعجزة. انظر ما سبق، ص 580-581.
2 في ((ط)) : أو.
3 انظر: الإرشاد للجويني ص 313، 325-330، 585، 642.
4 في ((خ)) : جعله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 انظر نقد شيخ الإسلام رحمه الله لهذه الطريقة - الثانية - عند الأشاعرة، ومخالفتها لأصولهم، في: الجواب الصحيح 6397-399. وشرح الأصفهانية 2623-624. وانظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 278-280، 581-583، 592، 821-822، 1064-1065.
6 انظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله عن دليل الضرورة والقدرة في إثبات النبوة، في درء تعارض العقل والنقل 94-045، 52-53.
7 في ((خ)) رسمت: جعل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

قادرا على أن يهدي عباده إلى ما هو أدق من هذا، فهداهم إلى أسهل1.
[لكن] 2 هذا3 يستلزم إثبات حكمته ورحمته، فمن لم يثبت له حكمة ورحمة، امتنع عليه العلم بشيء من أفعاله الغائبة.
صفة الكلام لله والكلام النفسي عند الأشاعرة
وأيضا: فآيات الأنبياء تصديق بالفعل، فهي تدل إذا علم أن من صدقه الرب فهو صادق، وذلك يتضمن تنزيهه عن الكذب.
وعلى أصلهم لا يعلم ذلك، فإن ما يخلقه من الحروف والأصوات عندهم هو مخلوق من المخلوقات، فيجوز أن يتكلم كلاما يدل على شيء، وقد أراد به شيئا آخر؛ فإن هذا من باب المفعولات عندهم.
والكلام النفسي4 لا سبيل لأحد إلى العلم به. فعلى أصلهم: يجوز

---

1 أي: إلى أسهل الطرق وأوضحها في ثبوت النبوة؛ لأنه كلما كان الناس إلى الشيء أحوج، فإن الله ييسره لهم منة منه وفضلا.

2 في ((ط)) : فكن.
3 إشارة إلى دليل القدرة.

4 الكلام من صفات الله الثابتة على ما يليق بجلاله سبحانه، وهو صفة ذاتية باعتبار نوع الكلام، وصفة فعل لتعلقه بمشيئة الله باعتبار أفراد الكلام.
وقد ذهبت الكلابية والأشعرية إلى أن الله متكلم بكلام قائم بذاته أزلا وأبدا، لا يتعلق بمشيئته وقدرته، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا. ونفوا أن يكون الله متكلما بحرف وصوت زاعمين أن كلامه سبحانه نفسي. أما القرآن الكريم: فقد صرحوا بأنه مخلوق محدث ليس كلام الله، بل هو عبارة عن كلام الله.
وانظر مذهب الأشاعرة والكلابية في كلام لله والقرآن في: الإرشاد للجويني ص 99. وأصول الدين للبغدادي ص 106-108. والمواقف للإيجي ص 293، 294. والبرهان للسكسكي ص 37. وتحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للباجوري ص 94.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "والصواب الذي عليه سلف الأمة كالإمام أحمد، والبخاري صاحب الصحيح في كتاب خلق أفعال العباد، وغيره، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم: اتباع النصوص الثابتة، وإجماع سلف الأمة؛ وهو أن القرآن جميعه كلام الله حروفه ومعانيه، ليس شيء من ذلك كلاما لغيره، ولكن أنزله على رسوله". مجموع الفتاوى 12243-244. وانظر: المصدر نفسه 1269-70، 162-174، 17165-166. وشرح الأصفهانية2340-342. ودرء تعارض العقل والنقل 1268. ومختصر الصواعق 2512-513. وشرح الطحاوية ص 180.

الكذب في الكلام المخلوق العربي، وهو الذي يستدل به الناس، فلا يبقى طريق إلى العلم بأنه صادق فيما يخلقه من الكلام.
أصول الأشاعرة السمعية
ولهذا تجد حذاقهم في السمعيات1 إنما يفرون إلى ما علم بالاضطرار من قصد الرسول، لا إلى الاستدلال بالقرآن؛ فالقاضي أبو بكر عمدته أن يقول هذا مما وقفنا عليه الرسول، وعلمنا قصده بالاضطرار؛ كما يقول مثل ذلك في تخليد أهل النار2، وفيما علمه من الأحكام؛ إذ كانوا لا يعتمدون

---

1 الأدلة السمعية المقصود بها: القرآن، والسنة، والإجماع. وما يثبتونه بهذه الأدلة هو من السمعيات.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الأشاعرة: (وهم يعتمدون في السمعيات على ما يظنونه من الإجماع، وليس لهم معرفة بالكتاب والسنة، بل يعتمدون على القياس العقلي الذي هو أصل كلامهم وعلى الإجماع) . انظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 709.
وقال أيضا عنهم: ".. إن مسائل ما بعد الموت ونحو ذلك: الأشعري وأتباعه ومن وافقهم من أهل المذاهب الأربعة.. يسمونها السمعيات، بخلاف باب الصفات والقدر، وذلك بناء على أصلين، أحدهما: أن هذه لا تعلم إلا بالسمع، والثاني: أن ما قبلها يعلم بالعقل". شرح الأصفهانية 2631 وانظر: درء تعارض العقل والنقل 895-97. وما سبق في هذا الكتاب ص 574-578.
2 أورد ذلك الباقلاني بأسلوب المحاورة، فقال: "فإن قال قائل: فهل يصح على قولكم هذا أن يؤلم الله سبحانه سائر النبيين، وينعم سائر الكفرة والعاصين من جهة العقل قبل ورود السمع؟ قيل له: أجل، له ذلك، ولو فعله لكان جائزا منه غير مستنكر من فعله. فإن قال: فما الذي يؤمنكم من تعذيبه المؤمنين وتنعيمه الكافرين؟ قيل له: يؤمننا من ذلك توقيف النبي صلى الله عليه وسلم، وإجماع المسلمين على أنه لا يفعل ذلك، وعلى أنه قد أخبر أخبارا علموا قصده به ضرورة إلى أن ذلك لا يكون، ولولا هذا التوقيف والخبر لأجزنا ما سألت عنه". التمهيد للباقلاني ص 385 -386.

على القول المسموع؛ لا خبرا، ولا أمرا، فهم لا طريق [عندهم] 1 إلى التمييز بين ما يقع وما لا يقع؛ مثل التمييز بين كونه يثيب المحسن، ويعاقب المسيء، أو لا يفعله.
ففي الجملة: جميع أفعاله؛ من إرسال الأنبياء، ومجازاة العباد، [وقيام القيامة، لا طريق لهم إلى العلم بذلك إلا من جهة الخبر، وطريق الخبر] 2 على أصلهم مسدود3.
وهم يعلمون صدق الرسول، وصدق خبره معلوم في أنفسهم، لكن يناقض أصولهم.
لكن مع هذا هم واقفة فيما أخبرت به الرسل من الوعيد، فضعف علمهم بما أخبرت به الرسل، فصاروا في نقص عظيم؛ في علمهم، وإيمانهم بما أخبرت به الرسل، وما أمرت به، وفي أصل ثبوت الرسالة. هذه السمعيات.
أصول الأشاعرة العقلية
وأما العقليات: [فمدارها] 4 على حدوث الجسم. وقد عرف فساد

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 سبق مثل هذا في الكلام في ص 280-286، 731 من هذا الكتاب.
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

أصلهم فيها1. فهذه أصولهم العقلية والسمعية.
وهم لا يعلمون أيضا ما يفعله الرب من غير الخبر، إلا من جهة العادة.
العادة
والعادة يجوز عندهم نقضها بلا سبب ولا لحكمة2، ويجوزون أن تصبح الجبال يواقيت، والبحار زيبقا.
فإذا احتجوا [بالعادات] 3، فقيل لهم: عندكم يجوز نقضها بلا سبب ولا حكمة، أجابوا: بأن الشيء قد يعلم جوازه، ويعلم بالضرورة أنه لا يقع. وهذا أيضا جمع بين النقيضين.
العقل عند الأشاعرة
وهم يقولون: العقل هو: العلم بجواز الجائزات، وامتناع الممتنعات4، ووجوب الواجبات؛ كالعلم بأن الجبل لم ينقلب ياقوتا. ثم يجعلون هذا من الجائز، على أصلهم: ليس في الأفعال، لا واجب، ولا ممتنع، بل كل مقدور، فإنه جائز الوجود، وجائز العدم، لا يعلم أحد الطرفين، إلا بخبر، أو عادة، لا بسبب يقتضيه، ولا حكمة تستلزمه. كما أن المرجح له عندهم مجرد الإرادة، لا بسبب ولا حكمة. وإذا علم جواز الشيء وعدمه، ولم يعلم ما يوجب أحدهما، [امتنع] 5 أن يعلم بالضرورة ثبوت أحدهما.

1 وقد أبطل شيخ الإسلام رحمه الله هذا الأصل في كثير من كتبه. وعلى سبيل المثال: في درء تعارض العقل والنقل (771-74) ، وفي بيان تلبيس الجهمية، وفي أول هذا الكتاب، انظر ص 289-306 منه.
2 انظر: الجواب الصحيح 6401.
3 في ((خ)) رسمت: بالعبادات. وما اثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 انظر: درء تعارض العقل والنقل 949. والجواب الصحيح 6399-401.
5 في ((ط)) : إتمنع.

والناس إنما يعلمون أن الجبال لم تنقلب يواقيت، لعلمهم بأن هذا ممتنع، وأن الله إذا أراد قلبها يواقيت، أحدث أسبابا تقتضي ذلك1.
فأما انقلاب العادة بلا سبب: فهذا ممتنع عند العقلاء. وجميع ما خرق الله به العادة كان لأسباب تقتضيه، ولحكم فعل لأجلها2، لم [تكن] 3 ترجيحا بلا مرجح، كما يقوله هؤلاء، فهذا هذا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "ليس كل ما علم إمكانه جوز وقوعه، فإنا نعلم أن الله قادر على قلب الجبال ياقوتا، والبحار دما، ونعلم أنه لا يفعل ذلك". شرح الأصفهانية 2471.
2 وقد رد شيخ الإسلام رحمه الله على هؤلاء الذين يجوزون نقض العادات بدون سبب ولا حكمة، فقال: "وكل ما وجد في العالم من خوارق العادات؛ آيات الأنبياء وغيرها، لم يأت منها شيء إلا بأسباب تقدمته؛ كآيات موسى؛ من مثل مصير العصا حية، كانت بعد أن ألقاها؛ إما عند أمر الله له بذلك لما ناداه من الشجرة ورأى النار الخارقة للعادة؛ وإما عند مطالبة فرعون له بالآية؛ وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم وعصيهم. وكذلك سائر آياته، حتى إغراق فرعون كان بعد مسير الجيش، وضربه البحر بالعصا، وكذلك تفجر الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه واستسقاء قومه إياه وهم في برية لا ماء عندهم.

وكذلك آيات نبينا صلى الله عليه وسلم؛ مثل تكثير الماء، كان بوضع يده فيه، حتى نبع الماء من بين الأصابع؛ أي تفجر الماء من بين الأصابع، لم يخرج من نفس الأصابع. وكذلك البئر كان ماؤها يكثر إما بإلقائه سهما من كنانته فيها، وإما بصبه الماء الذي بصق فيه.
وكذلك المسيح كان يأخذ من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيرا بإذن الله، إلى أمثال ذلك. فأما جبل ينقلب ياقوتا بلا أسباب تقدمت ذلك، فهذا لا كان ولا يكون. وكذلك نهر يطرد يصير لبنا بلا أسباب تقتضي ذلك يخلقها الله، فهذا لا كان ولا يكون". الجواب الصحيح 6403-404. وانظر: شرح الأصفهانية 2479.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : يكن.

الرد على الأشاعرة في النبوات
الأشاعرة يوردون الشبهات ولا يستطيعون الرد عليها
ولو [لم] 1 يتعلق هذا بالإيمان بالرسول، وبما أخبر به الرسول، واحتجنا إلى أن نميز بين الصحيح والفاسد في الأدلة والأصول، لما ورد على ما قاله هؤلاء من هذه السؤالات، لم تكن بنا حاجة إلى كشف الأسرار. لكن: لما تكلموا في إثبات النبوة، صاروا يوردون عليها أسئلة في غاية القوة والظهور، ولا يجيبون عنها إلا بأجوبة ضعيفة2، كما ذكرنا

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 انظر مثلا ما قاله العلماء عن الرازي من أنه يورد الشبه، ولا يرد عليها، وأنه كان يقرر في مسائل كثيرة مذاهب الخصوم وشبههم بأتم عبارة، فإذا جاء إلى الأجوبة اقتنع بالإشارة. حتى قال فيه بعض علماء المغاربة: يورد الشبه نقدا، ويحلها نسيئة. انظر: ذيل الروضتين ص 68. ولسان الميزان 4427-428. ونقض التأسيس - مخطوط - 16-7.
وقد توعد شيخ الإسلام رحمه الله الأشاعرة في مناظرته لهم، إن لم يكفوا عن مخالفته أن يكشف أستارهم، ويبين عوار مذاهبهم ومعتقدهم، ومخالفته لمعتقد السلف، فقال رحمه الله: (فلما اجتمعنا وقد أحضرت ما كتبته من الجواب عن أسئلتهم المتقدمة الذي طلبوا تأخيره إلى اليوم، حمدت الله بخطبة الحاجة ... - إلى أن قال: - وربنا واحد، ونبينا واحد، وأصول الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف، وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين، وهو متفق عليه بين السلف، فإن وافق الجماعة فالحمد لله، وإلا فمن خالفني بعد ذلك كشفت له الأسرار، وهتكت الأستار، وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملل والدول، وأنا أذهب إلى سلطان الوقت على البريد، وأعرفه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس، فإن للسلم كلاما وللحرب كلاما. وقلت: لا شك أن الناس يتنازعون، يقول هذا أنا حنبلي، ويقول هذا أنا أشعري، ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لا يعرفون حقيقتها". مجموع الفتاوى 3181-182. وانظر المصدر نفسه 3188-189.
وقد تقدم بيان شيخ الإسلام رحمه الله لسبب بسطه في الرد على هؤلاء في ص 773-776 من هذا الكتاب.

كلامهم1، فصار طالب العلم والإيمان والهدى من عندهم، - لا سيما إذا اعتقد أنهم أنصار الإسلام، [ونظاره] 2، والقائمون ببراهينه وأدلته - إذا عرف حقيقة ما عندهم، لم يجد ما ذكروه يدل على ثبوت نبوة الأنبياء، بل وجده يقدح في الأنبياء، ويورث الشك فيها أو الطعن، وأنها حجة تقدح في الأنبياء، و [تورث] 3 الشك فيها، أو الطعن فيها، وأنها حجة لمكذب الأنبياء أعظم مما هي حجة لمصدق الأنبياء، فانسد طريق الإيمان والعلم، وانفتح طريق النفاق والجهل4، لا سيما على من لم يعرف إلا ما قالوه.

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله يخاطب المتكلمين، ويبين لهم ضعف أجوبتهم مع الفلاسفة، وينصحهم أن لا يدخلوا معهم في مناظرات لا ينتصرون فيها: "ومن العجيب أن المتكلمين المناظرين لهؤلاء وأمثالهم من أهل الكفر إذا أوردوا سؤالا ... لا يكون المجيب متمكنا من ذلك علما وبيانا، ولا ينقطع بذلك الخصم، ولا يهتدي لنقص قوى إدراكه، أو سوء قصده، أو لاحتياج تحقيق ذلك إلى مقدمات متعددة وزمان طويل، وتقرير لتلك المقدمات بجواب ما ترد بها من ممانعة ومعارضة. فيتركوا أن يبدؤوهم من أول الأمر ببيان فساد هذه الحجة، وبيان تناقضهم، وأن قائلها يلزمه إذا قال بها أعظم مما أنكره. فإذا تبين له

فسادها وللمتكلمين معه، حصل دفع هذا الشر وبطلان هذا القول وهذه الحجة. وهو المقصود في هذا المقام، ثم بيان الحق وتكميله مقامه آخر". بيان تلبيس الجهمية 1171. وانظر: المصدر نفسه 18. والرد على المنطقيين ص 273-274.
2 في ((خ)) : نظائره. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : يورث. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هؤلاء الذي يوردون الشبهات ولا يستطيعون الرد عليها: "ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناء على ظهور دلائل النبوة، نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذي يعتمد في أصول الدين على نظرهم ومناظرتهم، ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة، قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالا، وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جوابا في المسائل الظنية، بل هي إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين. وهم كما مثلهم الغزالي وغيره بمن يضرب شجرة ضربا يزلزلها به، وهو يزعم أنه يريد أن يثبتها. وكثير من أئمة هؤلاء مضطرب في الإيمان بالنبوة اضطرابا ليس هذا موضع بسطه. وهم مع ذلك يدعون أنه قد ظهر عن أهل الكتاب ما لم يظهر عند شيوخ هؤلاء النظار، وينهون عن إظهار آيات الله وبراهينه التي هي غاية مطالب شيوخهم، وهم لم يعطوها حقها، إما عجزا، وإما تفريطا". الجواب الصحيح 1243-244.

والذي يفهم ما قالوه، لا يكون إلا فاضلا، قد قطع درجة الفقهاء، ودرجة من قلد المتكلمين، فيصير هؤلاء؛ إما منافقين؛ وإما في قلوبهم مرض، ويظن الظان أنه ليس في الأمر على نبوة الأنبياء براهين قطعية، ولا يعلم أن هذا إنما هو لجهل هؤلاء وأصولهم الفاسدة التي بنوا عليها الاستدلال وقدحهم في الإلهية، وأنهم لم ينزهوا الرب عن فعل شيء من الشر، ولا أثبتوا له حكمة ولا عدلا، فكان ما جهلوه من آيات الأنبياء؛ إذ كان العلم بآيات الله، وما قصه لخلقه من الدلائل والبراهين، مستلزما لثبوت علمه وحكمته ورحمته وعدله، فإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم.
وهم في الأصل إنما قصدوا الرد على القدرية الذين قالوا: إن الله لم يشأ كل شيء، ولم يخلق أفعال العباد1. وهو مقصود صحيح، لكن ظنوا أن هذا لا يتم إلا بجحد حكمته، وعدله، ورحمته، فغلطوا في ذلك.
المعتزلة غلطوا من جهات كثيرة
كما أن المعتزلة أيضا غلطوا من جهات كثيرة، وظنوا أنه لا تثبت حكمته، وعدله، ورحمته، إن لم يجحد خلقه لكل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ويجحد اتصافه بالكلام، والإرادة، وغير ذلك من أقوال المعتزلة2، التي هي من أقوال هؤلاء؛ فإن هؤلاء3 في الصفات

1 انظر: درء تعارض العقل والنقل 8469، 471، 476.
2 وقد أورد شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه منهاج السنة النبوية قول كل من الجهمية والمعتزلة في هذه المسائل. انظر: المنهاج 3194-197.
3 يعني الأشاعرة.

خير من المعتزلة، وفي الأفعال من بعض الوجوه1.
الغزالي ترك طريقة الأشاعرة في الاستدلال بالمعجزات على ثبوت النبوة
ولهذا لما ظهر للغزالي ونحوه [ضعف] 2 طريق الاستدلال بالمعجزات الذي سلكه شيوخه، وهو لا يعرف غيره؛ أعرض [عنها] 3، وذكر أنه إنما علم ثبوت النبوة بقرائن تعجز عنها العبارة، وهي علوم ضرورية حصلت له على الطول. وجعل الدليل على النبوة هو العلم بأن ما جاء به حق من غير جهته.
وهذه طريق صحيحة قد سلك الجاحظ4 نحوا منها5.

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله في معرض كلامه عن الضرارية والنجارية: "والكلابية والأشعرية خير من هؤلاء في باب الصفات؛ فإنهم يثبتون منه الصفات العقلية، وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية في الجملة ... وأما في باب القدر ومسائل الأسماء والأحكام فأقوالهم متقاربة..".

ثم قال رحمه الله عن المعتزلة: "وأما المعتزلة فهم ينفون الصفات، ويقاربون قول جهم، لكنهم ينفون القدر، فهم وإن عظموا الأمر والنهي والوعد والوعيد وغلوا فيه، فهم يكذبون بالقدر، ففيهم نوع من الشرك في هذا الباب". التدمرية ص 191، 193.
وقال رحمه الله عن الأشاعرة: "فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم". بيان تلبيس الجهمية 287. وانظر درء تعارض العقل والنقل 6292.
2 في ((خ)) : ضعيف. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
4 هو عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان الجاحظ البصري المعتزلي. متبحر ذو فنون، وصاحب تصانيف، وكان ماجنا قليل الدين، له نوادر، أخباري علامة، وهو صاحب الطريقة الجاحظية من المعتزلة.
توفي سنة 255.
انظر: سير أعلام النبلاء 11526-530. وشذرات الذهب 2121. والأعلام 574.
5 وقد بسط شيخ الإسلام رحمه الله القول في هذا الموضوع. انظر: درء تعارض العقل والنقل 3353-354، 946-49، ونقل رحمه الله عن الجاحظ قوله: "معرفة الله تقع ضرورة في طباع نامية عقب النظر والاستدلال، وأن العبد غير مأمور بها) . درء تعارض العقل والنقل 7354.
وانظر: المصدر نفسه 948.

النبوة التي يثبتها الغزالي هي نبوة الفلاسفة.
ولكن النبوة التي علمها أبو حامد هي النبوة التي [يثبتها] 1 الفلاسفة، وهي من جنس المنامات، ولهذا استدل على جوازها بمبدأ الطب والهندسة، ونحو ذلك2.
وأمر النبوة أعظم من هذا بكثير، وتلك النبوة موجودة لخلق من الناس، فلهذا لا يوجد للنبوة عندهم ما تستحقه من التصديق والاحترام، ولا يعتمدون عليها في استفادة شيء من العلم الخبري، وهي الإنباء بالغيب وهي خاصة النبوة.
الرازي متردد بين نبوة الفلاسفة والأشاعرة
والرازي كلامه في النبوة متردد بين نبوة الفلاسفة، ونبوة أصحابه هؤلاء3، كما ترى4، وليس في واحد من الطريقين إثبات النبوة التي خص الله بها أنبياءه.
فلهذا ضعفت معرفة هؤلاء بالأنبياء، وضعف أخذ العلم من طريقهم، لا سيما وقد عارضوا كثيرا مما جاء عنهم بالعقليات5، ودخلوا فيما هو أبعد عن الهدى والعلم؛ من العقليات، والذوقيات التي من سلكها ضل ضلالا بعيدا.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : تثبتها.
2 وقد مضى استدلال الغزالي على إثبات النبوة بهذه الطريق. انظر ص 228، 732-733، 966 من هذا الكتاب. وانظر شرح الأصفهانية 2558.
3 أي الأشاعرة.
4 انظر اضطرابه في النبوات، وميله إلى أقوال الفلاسفة في: المباحث المشرقية 2521-522. وانظر: بيان تلبيس الجهمية 1122. وانظر اضطراب الأشاعرة في النبوة فيما مضى من هذا الكتاب، ص 573-576، 612، 747-753، 954-965.
5 أي عارضوا ما جاء عن الأنبياء بعقلياتهم.

وإنما ينجو من سلك منها شيئا إذا لطف الله، فعرفه السلوك [خلف] 1 طريق الأنبياء.
فمن لم يهتد بما جاءت به الأنبياء، فهو أبعد الناس عن الهدى: {تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين} 2، {وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ويل يومئذ للمكذبين فبأي حديث بعده يؤمنون} 3، {وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم} 4.

اعتراف الرازي في آخر مصنفاته
ولهذا اعترف الرازي بهذا في آخر مصنفاته، حيث قال: (ولقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن؛ اقرأ في الإثبات: {إليه يصعد الكلم الطيب} 5، {الرحمن على العرش استوى} 6. واقرأ في النفي: {ليس كمثله شيء} 7، {ولا يحيطون به علما} 8. ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي) 9.

---

1 في ((ط)) : خلق.
2 سورة الجاثية، الآيات 6-9.
3 سورة المرسلات، الآيات 48-50.
4 سورة آل عمران، الآية 101.
5 سورة فاطر، الآية 10.
6 سورة طه، الآية 5.
7 سورة الشورى، الآية 11.
8 سورة طه، الآية 110.
9 سبق ذلك مرارا. انظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 357، 478، 612، 747.

أقوال المخالفين يستفاد منها في بيان فساد قول كل طائفة
[و] 1 أكثر الانتفاع بكلام هؤلاء، هو فيما يثبتونه من فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها.
وكذلك كلام عامة طوائف المتكلمين؛ ينتفع بكلام كل طائفة في بيان فساد قول الطائفة الأخرى، لا في معرفة ما جاء به الرسول2؛ فليس في طوائف أهل الأهواء والبدع من يعرف حقيقة ما جاء به الرسول، ولكن يعرف كل طائفة منه ما يعرفه، فليسوا كفارا جاحدين [به] 3، وليسوا عارفين به.
فلقد عرفت وما عرفت حقيقة ولقد جهلت وما جهلت حمولا
وبسط هذه الأمور له موضع آخر4، ولكن نبهنا هنا على طريق الحكمة.

---

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .
2 يذكر الشيخ رحمه الله هذه القاعدة في الاستفادة من كلام الفرق والطوائف.
وقد قال رحمه الله أيضا عن تناقض أقوال المعتزلة والأشاعرة، وأن كل فريق يرد على أدلة الفريق الآخر: "وهذا أعظم ما يستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالهم باطلة، فإنه يستفاد من قول كل طائفة بيان فساد قول الطائفة الأخرى، فيعرف الطالب فساد تلك الأقوال، ويكون ذلك داعيا له إلى طلب الحق، ولا تجد الحق إلا موافقا لما جاء به الرسول، ولا تجد ما جاء به الرسول إلا موافقا لصريح المعقول، فيكون ممن له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد". مجموع الفتاوى 12314.
وقال أيضا: "عدم علمهم بما بعث الله به الرسول صلى الله عليه وسلم، وعدم تحقيقهم لقواعد المعقول، فإن الأقوال المبتدعة لا بد أن تكون مناقضة للعقل والشرع". شرح الأصفهانية 2331.
3 في ((ط)) : حه.
4 انظر: مجموع الفتاوى 222-24، 6288، 7435-436، 829. ودرء تعارض العقل والنقل 1326، 4206، 735-37، 967-68، 1097. وبيان تلبيس الجهمية 2110-111. والرد على المنطقيين ص 310-311.

فصل حكمة الله وعدله في إرسال الرسل
وإذا عرفت حكمة الرب وعدله، تبين أنه إنما يرسل من اصطفاه لرسالته، و [اختاره] 1 لها، كما قال: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} 2، وكما قال لموسى: {وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى} 3، وأنه إذا أبلغ الرسالة، وقام بالواجب، وصبر على تكذيب المكذبين وأذاهم، كما مضت به سنته في الرسل؛ قال: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا

ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون} 4، وقال تعالى: {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم} 5، وقال تعالى: {ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن

---

1 في ((خ)) رسمت: اخباره. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة الحج، الآية 75.
3 سورة طه، الآية 13.
4 سورة الذاريات، الآيتان 52-53.
5 سورة فصلت، الآية 43.

تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان [لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا] 1 [ألا] 2 نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل [المتوكلون] 3 وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ} 4، إلى سائر ما أخبر به من أحوال الرسل.
والرسل صادقون، مصدقون على الله [يخبرون] 5 بالحق، ويأمرون بالعدل، ويدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له.
وأهل الكذب المدعون للنبوة ضد هؤلاء، كاذبون تأتيهم الشياطين. الكاذبون يأمرون بما نهى الله عنه، وينهون عما أمر الله به، فإنه لا بد أن يأمروا [بتصديقهم] 6، واعتقاد نبوتهم، وطاعتهم. وذلك مما نهى الله عنه. ولا بد أن ينهوا عن متابعة من يكذبهم ويعاديهم، وذلك مما أمر الله

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 في ((خ)) : أن.
3 في ((خ)) : المتومنين.
4 سورة إبراهيم، الآيات 9-17.
5 في ((خ)) : يخرون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : بتصديقه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

به؛ فإنه يمتنع في حكمة الرب وعدله أن يسوي بين هؤلاء خيار الخلق، وبين هؤلاء شرار الخلق؛ لا في سلطان العلم وبراهينه وأدلته، ولا في سلطان النصر والتأييد، بل يجب في حكمته أن يظهر الآيات والبراهين الدالة على صدق هؤلاء، وينصرهم، ويؤيدهم، ويعزهم، ويبقي لهم [لسان] 1 الصدق، ويفعل ذلك بمن اتبعهم، وأن يظهر الآيات المبينة لكذب أولئك، ويذلهم، ويخزيهم، ويفعل ذلك بمن اتبعهم؛ كما قد وقع في هؤلاء وهؤلاء2.
وقد دل القرآن على الاستدلال بهذا في غير موضع3.
الأدلة والبراهين نوعان
والأدلة والبراهين كما تقدم4 نوعان؛ نوع يدل بمجرده، بحيث يمتنع وجوده غير دال كدلالة حدوث الحادث على محدث، فهذا يدل بمجرده، وإن قدر أن أحدا لم يقصد الدلالة به. لكن الرب بكل شيء عليم، وهو مريد لخلق ما خلقه ولصفاته، لكن لا يشترط في الاستدلال بهذا أن يعلم أن دالا قصد أن يدل به.
والنوع الثاني5: ما هو دليل بقصد الدال وجعله. [فهذا] 6 لولا القصد وجعله دليلا، لم يكن دليلا، [فهو] 7 [إنما] 8 قصد به الدلالة، فهذا مقصوده مجرد الدلالة، وذلك بمجرده هو الدليل.

1 في ((م)) ، و ((ط)) : سلطان.
2 يذكر الشيخ رحمه الله هنا الفرق بين المعجزة والسحر.
3 انظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 1098.
4 انظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 886.
5 سبق ذلك في ص 916 من هذا الكتاب.
6 في ((خ)) : فلهذا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 في ((خ)) : فهذا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
8 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

وهذا كالكلام الذي يدل بقصد المتكلم، وغير ذلك؛ مثل الإشارة بالرأس، والعين، والحاجب، واليد؛ ومثل الكتابة؛ ومثل العقد؛ ومثل الأعلام التي نصبت على الطرق، وجعلت علامة على حدود الأرض وغير ذلك1.
ومن ذلك العلامات التي يبعثها الشخص مع رسوله ووكيله إلى أهله؛ سواء كان قد تواطأ معهم عليها؛ مثل أن يقول: علامته أن يضع يده على ترقوته2، أو يضع خنصره في خنصره3، ونحو ذلك، أو كانت علامة قصد بها الإعلام من غير تقدم مواطأة؛ مثل إعطائه عمامته ونعليه؛ كما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم عمامته علامة على ولاية قيس بن سعد، وعزل أبيه سعد عن الإمارة يوم الفتح4، وكما أعطى أبا هريرة نعليه علامة على ما أرسله به5، وكما يعطي الرجل لرسوله خاتمه، ونحو ذلك.
فهذه الدلائل دلت بالقصد والجعل، وقد كان يمكن أن لا تجعل دليلا.
فإذا كانت آيات الأنبياء من هذا الجنس، فهي إنما تدل مع قصد الرب إلى جعلها دليلا.
وجعله لها دليلا: بأن يجعل المدلول لازما لها؛ فكل من ظهرت على يده، كان نبيا صادقا؛ فإن الدليل لا يكون دليلا إلا مع كونه مستلزما للمدلول، فيمتنع أن يكون دليلا إذا وجد [معه] 6 عدم المدلول، أو وجد ضد المدلول.

1 انظر ما سبق في هذا الكتاب ص 916.
2 سبق التعريف بها في ص 645 من هذا الكتاب.
3 سبق التعريف بها في ص 645 من هذا الكتاب.
4 سبق تخريجه، انظر: ص 924-925 من هذا الكتاب.
5 سبق تخريجه، انظر: ص 925 من هذا الكتاب.
6 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

آيات الأنبياء يمتنع وجودها بدون صدق النبي
فآيات الأنبياء الدالة على صدقهم يمتنع وجودها بدون صدق النبي، ووجودها مع مدعي النبوة كاذبا أعظم استحالة؛ فإنها إذا كانت ممتنعة مع عدم نبوة صادقة، - وإن لم تكن هناك نبوة كاذبة -، فمع الكاذبة أشد امتناعا؛ فهي مستلزمة للنبوة لا [تكون] 1 مع عدم النبوة البتة.
والكاذب قد عدمت في حقه النبوة، ووجد في حقه ضدها؛ وهو الكذب في دعواها، يمتنع كونه نبيا صادقا، فيمتنع أن يخلق الرب ما يدل على صدق الأنبياء، بدون صدقهم؛ لامتناع وجود الملزوم دون لازمه، ومع كذبهم؛ لامتناع وجود الشيء مع ضده.
والكذب ضد الصدق، فيمتنع أن يكون قوله: أنا نبي صدقا وكذبا. فإذا استلزمت الصدق، امتنع وجود الكذب.
يمتنع دليل الصدق مع عدم الصدق
وخلق دليل الصدق مع عدم الصدق، ممتنع غير مقدور، لكن الممكن المقدور: أن ما جعله دليلا على الصدق يخلقه بدون الصدق، فيكون قد خلقه، وليس بدليل [حينئذ. ويمكن أن يخلق على يد الكاذب ما يدل أنه دليل على صدقه، وليس بدليل] 2؛ مثل خوارق السحرة، والكهان؛ كما كان يجري لمسيلمة والعنسي وغيرهما3.

لكن هذه ليست دليلا على النبوة، لوجودها معتادة لغير الأنبياء، وليست خارقة لعادة غير الأنبياء، بل هي معتادة للسحرة والكهان. فالتفريط ممن ظنها دليلا، لا سيما ولا بد أن يكون دليلا على كذب صاحبها؛ فإن

---

1 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 تقدم بيان ذلك، انظر ص 192، 272، 598-600 من هذا الكتاب.

الشياطين لا تقترن إلا بكاذب؛ كما قال تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم} 1.
وآيات الأنبياء مع عدم النبوة، كما أن كلام الله بدون إرادة تلك المعاني كل ذلك ممتنع من عدة وجوه
ولا يجوز أن يظهر الرب ما جعله دليلا للنبوة مع عدم النبوة2؛ كما أنه لا يجوز أن [يتكلم] 3 بالكلام الذي جعله لبيان معان، بدون إرادة تلك المعاني4، بل ذلك ممتنع من وجوه؛ من وجه حكمته، ومن جهة عادته، ومن جهة عدله ورحمته، ومن جهة علمه وإعلامه، وغير ذلك، كما قد بسط في مواضع5.

---

1 سورة الشعراء، الآيتان 221-222.
2 أي لا توجد المعجزة بدون وجود النبي؛ لأن الله يفعل لحكمة وسبب، وهو ممتنع من عدة وجوه؛ فإن الدليل لا يكون إلا مستلزما للمدلول عليه مختصا به.
3 في ((ط)) : يتلكم.
4 شيخ الإسلام رحمه الله يرد ها هنا على الأشاعرة الذين ينفون قيام الصفات الاختيارية بالله تعالى، ويقولون بقدم الكلام، ويمنعون أن يكون الله متكلما إذا شاء، متى شاء.
ومذهب أهل السنة والجماعة أن الله لم يزل متكلما إذا شاء، وأن كلام الله لآدم أو لموسى أو للملائكة كل في وقت تكليمه ومناداته؛ أي أنه تعالى لم يناد موسى قبل خلقه ومجيئه عند الشجرة. وإن كانت صفة الكلام أزلية النوع.
وقد بنى أهل السنة مذهبهم على مقدمتين: 1- على أن الأمور الاختيارية تقوم بالله، 2- وعلى أن كلام الله لا نهاية له، كما قال تعالى: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا} [سورة الكهف، الآية 109] ، وقوله: {ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله} [سورة لقمان، الآية 27] .
انظر: منهاج السنة النبوية 3358-360. وموقف ابن تيمية من الأشاعرة 31277.
5 انظر ما سبق، ص 1116-1119 من هذا الكتاب.

ومن جهة قدرته أيضا؛ فإنه قادر على هدي عباده وتعريفهم، وذلك إنما يكون بتخصيص الصادق بما يستلزم صدقه، فإذا ما سوى بين الصادق والكاذب، فإنه يمتنع التعريف، والممتنع ليس بمقدور، فقدرته تقتضي خلق الفرق.
وقد يقال: هو قادر، لكن لا يفعل مقدوره. فيقال: فعله له ممكن، ولا يمكن إلا على هذا الوجه، فيكون قادرا على هذا الوجه.
فإن قيل: هو قادر، ولكن لا يفعله. قيل: إن أريد أنه يمتنع، فهذا باطل، وإن أريد أنه يمكن فعله، ولكن لا يفعله، لم يكن على هذا النفي دليل، بل وجوده يدل على أنه فعله1.
أفعال الرب إما واجبة وإما ممتنعة
وأيضا: فأفعال الرب؛ إما واجبة، وإما ممتنعة. وإذا لم يكن ممتنعا، تعين أنه واجب، وأنه قد فعله2، وهذا قد فعله. وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.
الله منزه أن يفعل ما يناقض حكمته
والمقصود هنا: أن هذا كله يستلزم أن الرب منزه عن أن يفعل بعض الأمور الممكنة المقدورة3، لكون ذلك يستلزم أمرا يناقض حكمته، ولكون فعل الشيء لا يكون إلا مع لوازمه، وانتفاء أضداده. فيمتنع فعله

---

1 مرت هذه المسألة فيما سبق، ص 278-281، 662 من هذا الكتاب.
وانظر: الفرق بين الفرق ص 133، 134. والانتصار للخياط ص 54.
2 أي أن الله سبحانه وتعالى قد هدى عباده المطيعين وعرفهم بتخصيص الصادق بما يستلزم صدقه، فلم يلتبس عليهم الصادق من الكاذب.
3 وهو جواز أن يظهر الله ما جعله دليلا للنبوة مع عدم النبوة، فيستوي بذلك الصادق والكاذب؛ لأن من أصول الأشاعرة: أن الله يجوز منه فعل كل شيء، ولا ينزه عن شيء.

بدون لوازمه، أو مع ضده، كما يمتنع جعل الدليل دليلا مع وجوده بلا مدلول، أو مع وجود ضد المدلول معه.
الأشاعرة يمتنع على أصولهم كلام الرب أن يدل على مراده أو أن آياته تدل على صدق الأنبياء
والذين قالوا: يجوز منه فعل كل شيء، ولا ينزه عن شيء، يتعذر على أصلهم وجود دليل جعلي قصدي؛ لا الكلام، ولا الفعال؛ فيمتنع على أصلهم كون كلام الرب يدل على مراده، أو كون آياته التي قصد بها الدلالة على صدق الأنبياء، أو غيرهم تدل؛ لأنه يقدر أن يفعل ذلك [و] 1 غير ذلك، كما يقدر أن يظهر على يد الكاذب ما أظهره على يد الصادق.
تعريف المعجزة عند الأشاعرة
وهم يقولون: المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل وعدم المعارضة2. وهذا يقدر على إظهاره على يد الصادق.
صفة الإرادة
فمن سوى بين جميع الأمور، وجعل إرادته لها سواء، لم يفرق بين هذا وهذا3، فقالوا: نحن نستدل على أنه لم يظهرها على يد الكاذب، بأنه لو

---

1 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
2 انظر: البيان للباقلاني ص 48. والإرشاد للجويني ص 312-313. وأصول الدين للبغدادي ص 175، 185. وشرح المقاصد للتفتازاني 511. والمواقف للإيجي ص 339.
3 قد أوضح شيخ الإسلام رحمه الله أن الأشاعرة جعلوا الإرادة قديمة أزلية واحدة، وإنما يتجدد تعلقها بالمراد. ونسبتها إلى الجميع واحدة، ولكن من خواص الإرادة أنها تخصص بلا مخصص. فهم جعلوها واحدة قديمة أزلية مثل ما جعلوا العلم والكلام. وهم يقولون: إنه يعلم المعلومات كلها بعلم واحد بالعين، ويريد المرادات كلها بإرادة واحدة بالعين، وإن كلامه الذي تكلم به من الأمر بكل مأمور، والخبر عن كل مخبر عنه هو أيضا واحد بالعين.
أما قول أهل السنة والجماعة في الإرادة، فإنهم يقولون: إنه لم يزل مريدا بإرادات متعاقبة، فنوع الإرادة قديم، وأما إرادة الشيء المعين فإنما يريده في وقته. وهو سبحانه يقدر الأشياء ويكتبها، ثم بعد ذلك يخلقها. فهو إذا قدرها علم ما سيفعله وأراد فعله في الوقت المستقبل، لكن لم يرد فعله في تلك الحال. فإذا جاء وقته أراد فعله. فالأول عزم، والثاني قصد. فالإرادة منه تارة تكون بمعنى المشيئة، وتارة تكون بمعنى المحبة. فالإرادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا، كقوله تعالى: {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم} [سورة النساء، الآية 26] . والإرادة الكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث، كقوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام} [سورة الأنعام، الآية 125] . وقول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.
انظر: مجموع الفتاوى 16301-303. ودرء تعارض العقل والنقل 2172، 8283. وشرح الأصفهانية 1175-176، 2366. وجامع الرسائل 218، 39. ومنهاج السنة النبوية 314-18، 164-168، 180-181) .

فعل ذلك، لبطلت قدرته على تصديق الصادقين بالآيات؛ فإنه إنما يستدل على صدقهم بالآيات، فلو أظهرها على يد الكاذب، لم يبق قادرا.
هذه عمدة أكثرهم، وعليها اعتمد القاضي أبو بكر في كتاب المعجزات1.
قدرة الله في عدم المساواة بين الصادق والكاذب

فيقال لهم: هذا لا يبطل قدرته على ذلك2، ولكن هذا يوجب أنه لم يفعل المقدور، فيلزم من ذلك أنه سوى بين الصادق والكاذب، ولم يبين صدقه. وهذا مقدور ممكن، وكل مقدور ممكن فهو عندكم جائز عليه، فلم يكن اللازم رفع قدرته3، بل اللازم أنه لم يفعل مقدوره. وهذا جائز عندكم.

---

1 سبق أن نقل شيخ الإسلام رحمه الله كلام الباقلاني في ص 115 من هذا الكتاب، وهو من القسم المفقود من البيان له. وانظر: الإرشاد للجويني ص 326-327. وأصول الدين للبغدادي ص 173-174. والمواقف للإيجي ص 341-342.

2 أي على هذا الدليل.

3 أي لم يكن اللازم من الدليل الذي أوردوه نفي قدرته، وإنما يلزم فقط أنه لم يفعل ذلك، لأن هذا هو الذي توجبه أصولهم.

ومما يوضح هذا، أن يقال: هو قادر على إظهار ذلك على يد الكاذب، أم لا؟ فإن قلتم: ليس بقادر، أبطلتم قدرته، وإن قلتم: هو قادر، فثبت أنه قادر على إظهار ذلك على يد الصادق والكاذب، فبقي مشتركا1 لا يخص أحدهما، فلا يكون حينئذ دليلا، فمجرد القدرة لم يوجب اختصاص الصادق به.

وإن قلتم: لا يقدر على إظهاره على يد الكاذب، فقد رفعتم القدرة2.

فأنتم بين أمرين؛ إن أثبتم القدرة العامة3، فلا اختصاص لها؛ وإن نفيتم القدرة على أحدهما، بطل [استدلالكم] 4 بشمول القدرة5.

وأيضا: فالقدرة إنما تكون على ممكن. وعلى أصلكم: لا يمكن تصديق الصادق.

الأشاعرة استدلوا بمقدمتين

فهم استدلوا بمقدمتين، وكلاهما باطلة6.

الوا: لو لم يكن دليلا رفع القدرة. وهذا باطل، بل يلزم أنه لم يفعل المقدور. وهذا جائز عندهم. فلا يجب عندهم شيء من الأفعال.

ثم قالوا: وهو قادر على ذلك، وعلى أصلهم: ليس هو بقادر على ذلك، فإنهم قالوا: يمكنه تصديق الأنبياء بالفعل، كما يمكنه التصديق بالقول. فيقال لهم: كلاهما يدل بالقصد والجعل، وهذا إنما يكون ممن

---

1 أي: إن أثبتم القدرة لله تكون على أصولكم مشتركة بين الصادق والكاذب، فلا يميز بها بينهما.

2 أي بطل استدلالكم بدليل القدرة.

3 أي قدرة الله في الأزل.

4 في ((خ)) : استدلالهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

5 أي في التمييز بين الصادق والكاذب، وجعلتموه عاجزا.

6 هذه المسألة سبق ذكرها، انظر ص 278، 661، 1006-1007 من هذا الكتاب.

يقصد أن يفعل الشيء ليدل. وعندكم هو لا يفعل شيئا لشيء؛ فيلزم على أصلكم أن لا يفعل شيئا لأجل أنه يدل به عباده؛ لا فعلا ولا كلاما؛ إذ كان هذا عندكم ممتنعا وهو فعل شيء لمقصود آخر غير فعله.

وإذا كان هذا ممتنعا عندكم، لم يكن مقدورا، فلا يقدر على أصلكم أن ينصب لعباده دليلا ليدلهم به على شيء، بل هذا عندهم فعل لغرض، وهو ممتنع عليه.

وإن قلتم: هو وإن لم يقصد أن يفعل شيئا لحكمة، لكن قد يفعل الشيئين المتلازمين، فيستدل بأحدهما على الآخر.

قيل: هذا إنما يكون بعد أن يثبت التلازم، وأن أحدهما مستلزم للآخر. وهذا معلوم فيما يدل بمجرده؛ فإنه يمتنع وجوده بدون لازمه. أما ما يدل بالجعل والقصد، فيمكن وجوده بدون ما جعل مدلولا له.

واللزوم إنما يكون بالقصد، وهو عندكم يمتنع أن يفعل شيئا لأجل شيء، فبطلت الأدلة القصدية على أصلكم، وهي أخص بالدلالة من غيرها.

ولهذا لا يكادون يستدلون بكلام الله، بل يعتمدون في السمعيات؛ إما على ما علم بالضرورة أو الإجماع1.

1 يخبر شيخ الإسلام رحمه الله عنهم قائلا: "فهؤلاء تجد عمدتهم في كثير من الأمور المهمة في الدين إنما هو ما يظنونه من الإجماع. وهم لا يعرفون في ذلك أقوال السلف ألبتة، أو عرفوا بعضها، ولم يعرفوا سائرها، فتارة يحكون الإجماع، ولا يعلمون إلا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف المتأخرين؛ طائفة، أو طائفتين، أو ثلاث، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف. والأول كثير في مسائل أصول الدين وفروعه، كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك، يحكون إجماعا ونزاعا، ولا يعرفون ما قاله السلف في ذلك البتة، بل قد يكون قول السلف خارجا عن أقوالهم". مجموع الفتاوى 1325،، 471-72. وانظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 573-580، 709-714.

خلاصة الكلام في الموضوع

وحقيقة الأمر أن الأدلة الجعلية القصدية لا بد فيها من إرادة الرب ومشيئته، أن تكون أدلة، فلا بد أن يريد أن يجعل هذا الفعل ليدل. وهم لا يجوزون أن يريد شيئا لشيء، بل كل مخلوق هو عندهم مراد من نفسه، لم يرد لغيره. فامتنع أن يكون يريد الرب جعل شيء دليلا على أصلهم1.

فتبين أنه على أصلهم غير قادر على [نصب] 2 ما يقصد به دلالة العباد، وهدايتهم، وإعلامهم؛ لا قول، ولا فعل. فبطلت المقدمة الكبرى. وبتقدير أن يكون قادرا على ذلك، فهو إذا أظهر على يد الكاذب ما يظهر على يد الصادق، كان لم يفعل هذا المقدور، ولم يجعل ذلك دليلا على الصدق، لا يلزم أن لا يكون قادرا.

فهم اعتمدوا على هذه الحجة، وقالوا: هذا هذا، وهذا هذا.

من لم يثبت الحكمة يلزمه نفي الإرادة والمشيئة والقدرة

فقد تبين أن من لم يثبت حكمة الرب، يلزمه نفي إرادته ومشيئته كما تقدم3، ويلزمه أيضا نفي قدرته على أن يفعل شيئا لشيء، فلا يمكنه أن ينصب دليلا ليدل به عباده على صدق صادق ولا كذب كاذب. وهم يقولون: من فعل شيئا لحكمة، دليل على حاجته ونقصه؛ لأنه فعل لغرض.

1 وقد رد عليهم شيخ الإسلام رحمه الله بقوله: "الغاية التي يراد الفعل لها هي غاية مرادة للفاعل، ومراد الفاعل نوعان؛ فإنه تارة يفعل فعلا ليحصل بفعله مراده، فهذا لا يفعله وهو يعلم أنه لا يكون، والله تعالى يفعل ما يريد، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولكن الله يفعل ما يريد. وتارة يريد من غيره أن يفعل فعلا باختيار، لينتفع ذلك الفاعل بفعله، ويكون ذلك محبوبا للفاعل الأول، كمن يبني مسجدا ليصلي فيه الناس، ويعطيهم مالا ليحجوا به، ويجاهدوا به". درء تعارض العقل والنقل 8471.

وانظر: منهاج السنة النبوية 3168.

2 في ((خ)) : ما نصب. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

3 انظر ما سبق ص 501-507 من هذا الكتاب، وكذا ص 1107، 1156 منه.

والغرض هو الشهوة، وذلك يتضمن الحاجة1.

وهذا بعينه يقال في الإرادة2: إن من أراد، فإنما يريد لغرض وشهوة.

فقولهم بنفي الحكمة، يتضمن نفي الإرادة، ونفي القدرة.

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع3، وبين أن من نفى الحكمة، يلزمه [نفي] 4 الإرادة، ومن نفى الإرادة يلزمه نفي فعل الرب، ونفي

1 سبق ذلك في هذا الكتاب. وانظر: منهاج السنة النبوية 391.

2 شيخ الإسلام رحمه الله هاهنا يلزمهم بنفي الإرادة؛ لأن المحذور في إثبات الحكمة عندهم موجود أيضا في الإرادة؛ فإما أن يثبتوا الكل، أو ينفوا الكل.

وقد سبق أن أورد شيخ الإسلام رحمه الله هذا الإلزام بالتفصيل. انظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 503-507.
3 انظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 503-507. وانظر مجموع الفتاوى 16298-299.
والملاحظ أن شيخ الإسلام هاهنا يقرر قاعدة: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر. ويلزم الأشاعرة بهذه القاعدة أن يثبتوا الحكمة كما أثبتوا الإرادة، أو ينفوا الجميع.
يقول رحمه الله تعالى: "أن يقال: يمكن إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك من العقليات، فيقال: نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة كدلالة التخصيص على المشيئة، وإكرام الطائعين يدل على محبتهم، وعقاب الكفار يدل على بغضهم، كما قد ثبت بالشاهد والخبر من إكرام أوليائه وعقاب أعدائه، والغايات المحمودة في مفعولاته ومأموراته، وهي ما تنتهي إليه مفعولاته ومأموراته من العواقب الحميدة، تدل على حكمته البالغة، كما يدل التخصيص على المشيئة وأولى لقوة العلة الغائية. ولهذا كان ما في القرآن من بيان ما في المخلوقات من النعم والحكم أعظم مما في القرآن من بيان ما فيها من الدلالة على محض المشيئة". التدمرية ص 34-35.
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

الإحداث. ومن نفى ذلك يلزمه امتناع حدوث حادث في الوجود. وأن إثبات الحكمة لازم لكل طائفة على أي قول قالوه، كما قد بسط في غير هذا الموضع1.
إذ المقصود: التنبيه على أن إثبات آيات الأنبياء، والاستدلال بكلام الله وآياته التي أراد أن يدل بها عباده بدون إثبات حكمته: ممتنع.
اضطراب كلام من نفى حكمة الله في آيات الأنبياء وفي كلامه
ولهذا اضطرب كلام من نفى حكمته في آيات الأنبياء، وفي كلام الرب سبحانه؛ وهي الآيات التي بعثت بها الأنبياء القولية والفعلية، واضطربوا في الاستدلال على ما جاءت به الأنبياء، كما قد نبه عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم2.

---

1 انظر: درء تعارض العقل والنقل 9111. ورسالة أقوم ما قيل في المشيئة والحكمة والقضاء والتعليل - ضمن مجموعة الرسائل والمسائل - 4-5283-346.
2 أشار شيخ الإسلام رحمه الله تعالى إلى أن الآيات الدالة على الحكمة والرحمة تقرر تنزيه الله عن تأييد الكذاب بالمعجزة، فقال: "وقد يقال: يمكن تقرير كونه سبحانه منزها عن تأييد الكذاب بالمعجزة من غير بناء على أصل المعتزلة، بما علم من حكمة الله في مخلوقاته، ورحمته ببريته، وسنته في عباده؛ فإن ذلك دليل على أنه لا يؤيد كذابا بمعجزة لا معارض لها. ويمكن بسط هذه الطريقة وتقريرها بما ليس هذا موضعه، فإنه كما علم بما في مصنوعاته من الإحكام والإتقان أنه عالم، وبما فيها من التخصيص أنه مريد، فيعلم بما فيها من النفع للخلائق أنه رحيم، وبما فيها من الغايات المحمودة أنه حكيم". شرح الأصفهانية 2612.

<u>فصل</u> الاستدلال بسنة الله وعادته في معرفة النبي الصادق من المتنبئ الكاذب
وأما الاستدلال بسنته وعادته، فهو أيضا طريق برهاني ظاهر لجميع الخلق1.

---

1 يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "انخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة، وقد أخبر في غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثا وباطلا، بل لأجل الجزاء، فكان هذا من سنته الجميلة، وهو جزاؤه الناس بأعمالهم في الدار الآخرة؛ كما أخبر به؛ من نصر أوليائه، وعقوبة أعدائه. فبعث الناس للجزاء هو من هذه السنة. وهو لم يخبر بأن كل عادة لا تنتقض، بل أخبر عن السنة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابة أوليائه، ونصرهم على الأعداء. فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل، كما قال: {فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا} .
ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عند هذه الآية، وهي قوله جل وعلا: {فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا} [سورة فاطر، الآية 43] : (وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة، فتسوي بين المتماثلات، ولن يوجد لهذه السنة تبديل ولا تحويل، وهو إكرام أهل ولايته وطاعته، ونصر رسله

والذين آمنوا على المكذبين. فهذه السنة تقتضيها حكمته سبحانه، فلا انتقاض لها، بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره، فذاك تغييره من الحكمة أيضا، ومن سنته التي لا يوجد لها تبديل ولا تحويل، لكن في هذه الآيات رد على من يجعله يفعل بمجرد إرادة ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح؛ فإن هؤلاء ليس عندهم له سنة لا تتبدل، ولا حكمة تقصد، وهذا خلاف النصوص والعقول؛ فإن السنة تقتضي تماثل الآحاد، وأن حكم الشيء حكم نظيره، فيقتضي التسوية بين المتماثلات، وهذا خلاف قولهم) . الرد على المنطقيين ص 391.

وهم متفقون عليه؛ من يقول بالحكمة1؛ ومن يقول بمجرد المشيئة2؛ فإنه قد علم عادته سبحانه في طلوع الشمس، والقمر، والكواكب، والشهور، والأعوام، وعادته في خلق الإنسان، وغيره من المخلوقات، وعادته فيما عرفه الناس؛ من المطاعم، والمشارب، والأغذية، والأدوية، ولغات الأمم؛ كالعلم بنحو كلام العرب وتصريفه، والعلم بالطب وغير ذلك.

سنة الله في نصر الأنبياء وأتباعهم وإهلاك من كذبهم أو كذب عليهم

كذلك سنته تعالى في الأنبياء الصادقين وأتباعهم، وفيمن كذبهم، أو كذب عليهم؛ فأولئك ينصرهم ويعزهم، ويجعل لهم العاقبة المحمودة، والآخرون يهلكهم ويذلهم، ويجعل لهم العاقبة المذمومة3؛ كما فعل [بقوم] 4 نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وفرعون

---

1 وهم أهل السنة والجماعة الذين يثبتون الحكمة لله سبحانه وتعالى.

2 وهم من ينفي الحكمة من أمثال الأشاعرة.

3 وقال شيخ الإسلام رحمه الله موضحا هذا المعنى: "كذلك سنته في الأنبياء الصادقين، وأتباعهم من المؤمنين، وفي الكذابين والمكذبين بالحق: أن هؤلاء ينصرهم، ويبقي لهم لسان صدق في الآخرين، وأولئك ينتقم منهم، ويجعل عليهم اللعنة. فبهذا وأمثاله يعلم أنه لا يؤيد كذابا بمعجزة لا معارض لها؛ لأن في ذلك من الفساد والضرر بالعباد ما تمنعه رحمته، وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته، وفيه من نقض سنته المعروفة وعادته المطردة ما تعلم به مشيئته". شرح الأصفهانية 2615.

فالشيخ رحمه الله يبين أن الطرق كثيرة ومتنوعة في معرفة النبي من المتنبئ، والصادق من الكاذب. ومن هذه الطرق ودلائل النبوة على صدقهم: دلالة عاقبة الأنبياء ومتبعيهم، ونصرهم على أعدائهم، وإهلاك الله لمكذبيهم. ولأهمية هذا الطريق، ودلالته على صدق الأنبياء، أكثر الشيخ رحمه الله من إيراده في كتبه.

انظر: الجواب الصحيح؛ فقد عقد فصلا كاملا في ذلك 6387-425. وشرح الأصفهانية 2492-496، 500. وانظر ما سبق في كتاب النبوات، ص: 239-248، 596، 612-617، 618-621، 783-786.

4 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .

وقومه؛ وكما فعل بمن كذب محمدا؛ من قومه قريش، ومن سائر العرب، وسائر الأمم غير العرب؛ وكما فعل [بمن] 1 نصر أنبياءه وأتباعهم؛

قال تعالى: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون} 2.

وقال: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} 3.

وقال تعالى: {تلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب} 4

وقال تعالى: {وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير} 5.

وقال تعالى: {أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم [كانوا أشد] 6 منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا [السوأى] 7 أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون} 8.

---

1 في ((خ)) : من. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 سورة الصافات، الآيات 171-173.

3 سورة غافر، الآية 51.

4 سورة هود، الآيتان 100-101.
5 سورة الحج، الآية 44.
6 في ((خ)) : كانوا هم أشد.
7 رسمت في ((م)) ، و ((ط)) : السوء.
8 سورة الروم، الآيتان 9-10.

وقال تعالى: {أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف [كان] 1 عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك [بأنهم] 2 كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب} 3.
وقال تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب} 4.
وقال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم [بالبينات] 5 فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا [به] 6 يستهزئون فلما رأوا بأسنا [قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم [يك] 7 ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا] 8 سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون} 9.
وقال تعالى: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 في ((خ)) : بأنه.
3 سورة غافر، الآيتان 21-22.
4 سورة غافر، الآية 5.
5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
6 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
7 في ((خ)) رسمت: يكن.
8 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
9 سورة غافر، الآيات 82-85.

نصيرا سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} 1.
وقال تعالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا استكبارا في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا} 2.
وقال تعالى: {وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون [خلافك] 3 إلا قليلا} 4.
[وقال تعالى] 5: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا} 6.
وقد قيل: آية الحاقة7، وآية الشورى8 تبين أنه لو افترى عليه [لعاقبه9] 10، فهذه سنته في الكاذبين.

1 سورة الفتح، الآيتان 22-23.
2 سورة فاطر، الآيات 42-43.
3 في ((خ)) : خلفك.

4 سورة الإسراء، الآية 76.
5 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
6 سورة الإسراء، الآيات 73-75.
7 قال تعالى: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين} [سورة الحاقة، الآيات 44-47] .
8 قال تعالى: {أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور} [سورة الشورى، الآية 24] .
9 انظر تفسير ابن كثير 4114-117.
10 في ((ط)) : لعاقبة.

وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته: هو اعتبار الشيء بنظيره؛ وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين؛ وهو الاعتبار المأمور به في القرآن؛ كقوله تعالى: {قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} 1، وقال تعالى: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} 2، وقال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} 3.
وإنما تكون العبرة [به] 4 بالقياس والتمثيل؛ كما قال ابن عباس في دية الأصابع: هن سواء5، واعتبروها بدية الأسنان.

---

1 سورة آل عمران، الآية 13.
2 سورة الحشر، الآية 2.
3 سورة يوسف، الآية 111.
4 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
5 أخرجه عن ابن عباس: البيهقي في السنن الكبرى 893، كتاب الديات، باب الأصابع كلها سواء. وأخرجه أبو داود عن ابن عباس يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "الأصابع سواء، والأسنان سواء، الثنية والضرس سواء، هذه وهذه سواء". سنن أبي داود 2494، كتاب الديات، باب ديات الأعضاء.
وأخرجه البخاري في صحيحه - مختصرا - 62526-2527، كتاب الديات، باب دية الأصابع. والترمذي في جامعه 413-14، كتاب الديات، باب ما جاء في دية الأصابع. وابن ماجه في سننه 2885، كتاب الديات، باب دية الأسنان ودية الأصابع.
والدارمي في سننه 2194، كتاب الديات، باب في دية الأصابع. وانظر المغني لابن قدامة 12132، 148-151.

فإذا عرفت قصص الأنبياء، ومن اتبعهم، ومن كذبهم، وأن متبعيهم كان لهم النجاة [والعاقبة] 1 والنصر والسعادة، [ولمكذبهم] 2 الهلاك والبوار، جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي؛ فعلم أن من صدقهم كان سعيدا، ومن كذبهم كان شقيا. وهذه [سنة الله] 3 وعادته.
ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته، وأنه لا ينقضها ولا يبدلها: {أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر} 4؛ يقول: فإذا لم يكونوا خيرا منهم، فكيف ينجون من العذاب، مع مماثلتهم لهم، هذا بطريق الاعتبار والقياس، ثم قال: {أم لكم براءة في الزبر} : أي معكم خبر من الله بأنه لا يعذبكم؟؛ فنفى الدليلين: العقلي، والسمعي، ثم ذكر قولهم: نحن جميع منتصر، وإنا نغلب من يغالبنا، فقال تعالى: {سيهزم الجمع ويولون الدبر} 5، وهذا مما [أنبأ به] 6 من الغيب في حال ضعف الإسلام، واستبعاد عامة الناس ذلك7، ثم كان كما أخبر.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : العافية.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : ولمكذبيهم.

3 في ((خ)) : الله سنة - تقديم وتأخير -. والمثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة القمر، الآية 43.
5 سورة القمر، الآية 45.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : أنبأه.
7 نقل الطبري بسنده عن عكرمة أن عمر قال: لما نزلت: {سيهزم الجمع} جعلت أقول: أي جمع سيهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع، ويقول: {سيهزم الجمع ويولون الدبر} تفسير الطبري 27108.
وكذلك نقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة، وفيه أن عمر رضي الله عنه قال في آخره: فعرفت تأويلها يومئذ. تفسير ابن كثير 4266.
وروى البخاري في صحيحه عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ قالت: (لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإني لجارية ألعب: {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} . صحيح البخاري 41846، كتاب التفسير، باب: {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} .

وقد قال للمؤمنين في تحقيق سنته وعادته: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب} 1، وقال لمحمد: {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك} 2، وقال: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون} 3، وقال تعالى: {وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم} 4.
وفي الصحيحين: عن [أبي هريرة] 5 [رضي الله عنه] 6، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: نعم"7.

---

1 سورة البقرة، الآية 214.
2 سورة فصلت، الآية 43.
3 سورة الذاريات، الآيتان 52-53.
4 سورة البقرة، الآية 119.
5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
6 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((ط)) . وفي ((م)) : صلى الله عليه وسلم.
7 الحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما 31274، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. مع اختلاف في ألفاظه.
وكذلك أخرجه في 62669، كتاب الاعتصام، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لتتبعن سنن من كان قبلكم".
وأخرجه مسلم 42054، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى.
وابن ماجه في سننه 21422، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم. وأحمد في المسند 2327، 450، 511، 527، 384، 89، 94.

وفي الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليأخذن أمتي ما أخذ الأمم قبلها شبرا بشبر، وذراعا بذراع. قالوا: يا رسول الله! فارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا هؤلاء"1.
وفي السنن: لما قال له بعض أصحابه: "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال: الله أكبر قلتم كما قال [قوم] 2 موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. ثم قال: إنه السنن لتركبن سنن من كان قبلكم" 3.
وقال تعالى: {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} 4.
ولهذا احتج من احتج بسنة الله وعادته في مكذبي الرسل5؛ كقول

---

1 أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما، 62669، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لتتبعن سنن من كان قبلكم"، مع اختلاف في الألفاظ.
وأخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه 42054، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى.
2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
3 أخرجه الترمذي في جامعه 4475، كتاب الفتن، باب ما جاء: "لتركبن سنن من كان قبلكم"، وقال: حسن صحيح. وأحمد في المسند5218. وابن حبان (الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان 8248) . والحاكم في المستدرك 4455، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي.
4 سورة آل عمران، الآية 137.
5 كأن الشيخ رحمه الله يشير إلى احتجاج عثمان بن عفان رضي الله عنه بهذه الآية؛ وهو ما أورده ابن كثير عن ابن أبي حاتم بسنده إلى ابن أبي ليلى الكندي، قال: كنت مع مولاي أمسك دابته، وأحاط الناس بعثمان بن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال: {ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد} ، يا قوم لا تقتلوني، إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا. وشبك بين أصابعه. تفسير ابن كثير 2457.

شعيب: {ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد} 1.
وقال مؤمن آل فرعون: {يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد} 2.
وقال تعالى: {كدأب آل فرعون والذين من قبلهم} 3.
معنى الدأب
والدأب: العادة في ثلاثة مواضع4، قال تعالى: {إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب} 5.
قال ابن قتيبة6 وغيره7: الدأب: العادة، ومعناه: كعادة آل فرعون، يريد كفر اليهود8 كل فريق بنبيهم.

---

1 سورة هود، الآية 89.
2 سورة غافر، الآيتان 30-31.
3 سورة آل عمران، الآية 11. وكذلك سورة الأنفال في الآيتين 52، 54.
4 في سورة آل عمران، الآية 10، وفي سورة الأنفال، الآيتان 52، 54، وفي سورة غافر، الآية 31.
5 سورة آل عمران، الآيتان 10-11.
6 هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد. من أئمة الأدب، ومن المصنفين المكثرين. ولد ببغداد، وسكن الكوفة، ثم ولي قضاء الدينور مدة، فنسب إليها، وتوفي ببغداد. وله كتب كثيرة مثل: تأويل مختلف الحديث، وعيون الأخبار، ومشكل القرآن، وتفسير غريب القرآن. ولد سنة 213، وتوفي سنة 276 ?. انظر: سير أعلام النبلاء 13296. والأعلام 4137.
7 قال ابن الأنباري: والكاف في {كدأب} : متعلقة بفعل مضمر، كأنه قال: كفرت اليهود ككفر آل فرعون. زاد المسير 1355.
8 زاد المسير 1355. وقال ابن قتيبة بعد هذه العبارة: ككفر من قبلهم. وهذا المعنى الأول.

وقال الزجاج1: هو الاجتهاد، معناه: أي دأب هؤلاء، وهو اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي، كتظاهر آل فرعون على موسى2.
وقال عطاء3، والكسائي4، وأبو عبيدة5: كسنة آل فرعون6.

---

1 هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد السري الزجاج البغدادي الإمام، نحوي زمانه. له تآليف جمة، وكان من ندماء المعتضد، ومن أهل الفضل والدين المتين. توفي سنة 311 ?. انظر: الفهرست 90-91. وتاريخ العلماء النحويين ص 38-40. وسير أعلام النبلاء 14360.
2 انظر زاد المسير 1355، وهذا المعنى الثاني.
3 هو عطاء بن أبي رباح القرشي، مولاهم. من كبار التابعين، كان ثقة فقيها عالما كثير الحديث. نشأ بمكة، وفاق أهلها في الفتوى. توفي سنة 114 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 578-88. والبداية والنهاية 9306-309. وتهذيب التهذيب 7199-203. والأعلام 4235.
4 هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي، مولاهم الكوفي، الملقب بالكسائي. شيخ القراءة والعربية. كان من أعلم الناس بالنحو، وواحدهم في الغريب، وهو مؤدب الرشيد وابنه الأمين. توفي سنة 189 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 9131-134. وتهذيب التهذيب 7313-314. وشذرات الذهب 1321. والأعلام 4283.
5 هو معمر بن المثنى التيمي، مولاهم البصري. الإمام، العلامة، البحر، النحوي، صاحب التصانيف. ولم يكن صاحب حديث، وإنما له علم باللسان وأيام الناس. قال عنه الجاحظ: (لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، وكان أباضيا شعوبيا) توفي سنة 209، أو 210 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 9445-447. وتهذيب التهذيب 10246-248. وشذرات الذهب 224-25. والأعلام 7272.
6 انظر: تفسير البغوي 1281. وتفسير ابن عطية 890-91.

وقال النضر بن شميل1: "كعادة آل فرعون2؛ يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق كعادة آل فرعون".
وقال طائفة3: "نظم الآية: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة، مثل آل فرعون، وكفار الأمم الخالية أخذناهم فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم".
وفي تفسير أبي روق4: عن الضحاك5، عن ابن عباس: {كدأب آل فرعون} : قال: كصنيع آل فرعون6.

1 هو النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد المازني التميمي، أبو الحسن. أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة. ولد بمرو، وانتقل إلى البصرة مع أبيه سنة 128 وأصله منها، فأقام زمنا، وعاد إلى مرو، فولي قضاءها، واتصل بالمأمون، فأكرمه وقربه، وتوفي بمرو. له كتب، منها: الصفات في صفات الإنسان والبيوت والجبال والإبل والغنم والطير والكواكب والزروع. توفي سنة 203 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 9328. والأعلام 833.
2 انظر: تفسير البغوي 1281.
3 انظر: تفسير الطبري 3190. وتفسير ابن كثير 1349.
4 عطية بن الحارث، أبو روق الهمداني الكوفي، صاحب التفسير، صدوق، من الخامسة. تقريب التهذيب 1677.
5 هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد صاحب التفسير. كان من أوعية العلم، وليس بالمجود لحديثه. وهو صدوق في نفسه. توفي سنة 102?، وقيل: بعدها.
انظر: سير أعلام النبلاء 4589-600. وتهذيب التهذيب 4453-454. والبداية والنهاية 9223. وشذرات الذهب 1124-125. والأعلام 3215.
6 انظر: تفسير الطبري3190. وتفسير البغوي 1281. وتفسير ابن كثير 1349 وفتح القدير 1322.

قال ابن أبي [حاتم] 1: وروي عن مجاهد، والضحاك، وأبي مالك، وعكرمة، نحو ذلك2.
قال: وروي عن الربيع بن أنس3 كشبه آل فرعون4.
وعن السدي قال: ذكر الذين كفروا كمثل الذين من قبلهم في [التكذيب] 5 والجحود6.
قلت: فهؤلاء جعلوا الشبيه في العمل؛ فإن لفظ الدأب يدل عليه:

قال الجوهري7: دأب فلان في عمله، أي: جد، وتعب دأبا ودؤوبا، فهو دئب. وأدأبته أنا. والدائبان: الليل والنهار. قال: والدأب يعني بالتسكين: العادة والشأن، وقد يحرك8.

---

1 في ((ط)) : حاحم.

2 انظر: تفسير الطبري3190. وتفسير البغوي 1281. وتفسير ابن كثير 1349 وفتح القدير 1322.

3 هو الربيع بن أنس بن أبي زياد البكري الخراساني المروزي. كان عالم مرو في زمانه، وقد سجن ثلاثين سنة. توفي سنة 139 ?.

انظر: سير أعلام النبلاء 6169-170. وتهذيب التهذيب 3238-239.

4 انظر: تفسير الطبري 3190. وتفسير ابن كثير 1349. وفتح القدير 1322.

5 في ((ط)) : اتكذيب.

6 تفسير الطبري 3190-191.

7 هو إسماعيل بن حماد التركي الجوهري، أبو نصر. إمام اللغة. كان يحب الأسفار والتغريب. مات متردياً من سطح داره سنة 393 ? لأنه حاول الطيران، وصنع جناحين من خشب، وصعد داره، فخانه اختراعه، فسقط إلى الأرض قتيلا.

انظر: سير أعلام النبلاء 1780-82. ولسان الميزان 1400-402. وشذرات الذهب 3142-143. والأعلام 1313.

8 انظر الصحاح للجوهري 1123-124.

(970/2)

قال الفراء1: أصله من دأبت، إلا أن العرب حولت معناه إلى الشأن2.

قلت: الزجاج جعل ما في القرآن من الدأب، الذي هو الاجتهاد3. والصواب: ما قاله الجمهور؛ أن الدأب - بالتسكين -: هو العادة، وهو غير الدأب بالتحريك؛ إذا زاد اللفظ زاد المعنى، والذي في القرآن مسكن، ما علمنا أحدا قرأه بالتحريك، وهذا معروف في اللغة؛ يقال: فلان دأبه كذا وكذا: أي هذا عادته وعمله اللازم له، وإن لم يكن في ذلك تعب واجتهاد، ومنه قوله تعالى: {وسخر لكم الشمس والقمر دائبين} 4، والدائب نظير الدائم، والباء والميم متقاربتان؛ ومنه: اللازب واللازم. قال ابن عطية5: "دائبين، أي: متماديين، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه: "إن هذا الجمل شكى إلي أنك تجيعه وتدئبه6"7؛ أي

---

1 هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدي، مولاهم الكوفي، النحوي العلامة، صاحب التصانيف، أبو زكريا. له مشاركات في علوم كثيرة. توفي سنة 207 ?. انظر: سير أعلام النبلاء 10118-121. والبداية والنهاية 10261. وتهذيب التهذيب 11212-213. والأعلام 8145-146.

2 انظر: الصحاح للجوهري1123-124. ولسان العرب1369. وانظر: تفسير الطبري 3191 - ونقله عن السدي -. والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير 295.

3 انظر: زاد المسير 1355. وانظر ما سبق، ص 1185 من هذا الكتاب.

4 سورة إبراهيم، الآية 33.

5 هو أبو محمد عبد الحق بن الحافظ أبي بكر غالب بن عطية المحاربي الغرناطي. كان إماما في الفقه وفي التفسير وفي العربية، قوي المشاركة، ذكيا فطنا مدركا، من أوعية العلم. ولد سنة 480 هـ. وتوفي سنة 541 هـ، وقيل: 542 هـ. سير أعلام النبلاء 19587-588.

6 في تفسير ابن عطية: وتديبه.

وقال ابن الأثير عند شرح غريب هذا الحديث: "أي تكده وتتعبه، دأب يدأب دأبا ودؤوبا وأدأبته أنا". النهاية في غريب الحديث 295.

7 أخرجه الإمام أحمد في المسند 1204، وكذلك في ص 205. وأبو داود في سننه 349-50، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم.

تديمه في العمل [له] 1 والخدمة2". قال3: "وظاهر الآية أن معناه دائبين في الطلوع والغروب، وما بينهما من المنافع للناس التي لا تحصى كثيرة4"5.
قال6: "وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان يرفعه إلى ابن عباس أنه قال: معناه دائبين في طاعة الله" 7.
قال8: "وهذا قول إن كان يراد به أن الطاعة: [انقيادهما للتسخير] 9، فذلك موجود في [طاعة] 10 قوله: [و] 11 {سخر} . وإن كان يراد أنها طاعة [مقدورة] 12، كطاعة العبادة من البشر، فهذا [بعيد] 13" 14.

1 في ((خ)) : والشرك. بدلا من: له. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في تفسير ابن عطية: في الخدمة والعمل.
3 يعني ابن عطية في تفسيره.
4 في تفسير ابن عطية: كثرة.
5 تفسير ابن عطية 1086.
6 القائل هو ابن عطية.
7 تفسير ابن عطية 1086. وانظر تفسير الطبري 13225.
8 القائل هو ابن عطية.
9 في تفسير ابن عطية: انقياد منهما في التسخير.
10 ما بين المعقوفتين لا يوجد في تفسير ابن عطية. وحذفه أولى.
11 لا توجد الواو في تفسير ابن عطية.
12 في تفسير ابن عطية: مقصودة.
13 في تفسير ابن عطية: جيد. وقال محققه: "وفي نسخة: بدل جيد: بعيد. وهذا ما تقتضيه المقابلة، فلعل في هذه النسخة تصحيفا".
14 تفسير ابن عطية 1086.

قلت1: ليس هذا ببعيد، بل عليه دلت الأدلة الكثيرة، كما هو مذكور في مواضع2.
وقالت طائفة، منهم البغوي: وهذا لفظه دائبين يجريان فيما يعود إلى مصالح [عباد] 3 الله لا يفتران.
قال ابن عباس: دؤوبهما في طاعة الله4.
ولفظ أبي الفرج: "دائبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، لا يفتران. قال: ومعنى الدؤوب: مرور [الشيء على] 5 عادة جارية فيه"6.
قلت: وإذا كان دأبهم هو عادتهم وعملهم الذي كانوا مصرين عليه، فالمقصود أن هؤلاء أشبهوهم في العمل، فيشبهونهم في الجزاء، فيحيق بهم ما حاق بأولئك. هذا هو المقصود ليس المقصود التشبيه في [الجزاء كقوله] 7: {إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا

1 القائل هو شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.
2 قال تعالى: {ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء} [سورة الحج، الآية 18] .
وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتدري أين تذهب هذه الشمس"؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر، فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت". الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب في تفسير قوله تعالى {والشمس تجري لمستقر لها} ، حديث رقم 4428. ومسلم في صحيحه 1138-139، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان.
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

4 انظر تفسير البغوي 336.
5 في ((خ)) : الشيء في على. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 زاد المسير 4364.
7 في ((خ)) : الجزاء مقصود كقوله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وأولئك هم وقود النار [كدأب] 1 آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب} 2؛ أي فهؤلاء لا [تدفع] 3 عنهم أموالهم وأولادهم عذاب الله إذ جاءهم، كدأب آل فرعون.
وكذلك قوله: {ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد} 4، [إلى قوله:] 5 {كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين} 6. فهذا كله يقتضي التشبيه في العذاب.
وأما الطائفة الأخرى: فجعلوا الدأب نفس فعل الرب بهم، وعقوبته لهم:
قال مكي بن أبي طالب7: "الكاف [في] 8 (كدأب) في [مواضع] 9

---

1 في ((خ)) رسمت: كذاب.
2 سورة آل عمران، الآيتان 10-11.
3 في ((خ)) : يدفع. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سورة الأنفال، الآيتان 50-51.
5 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
6 سورة الأنفال، الآية 54.
7 مكي بن أبي طالب، حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي، أبو محمد. مقرئ، عالم بالتفسير والعربية، من أهل القيروان. ولد فيها، وطاف في بعض بلاد المشرق، ثم سكن قرطبة، وخطب وأقرأ بجامعها، وتوفي فيها. له كتب كثيرة، منها: مشكل إعراب القرآن، والكشف عن وجوه القراءات وعللها. ولد سنة 355، وتوفي سنة 437 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 17591. والأعلام 7286.
8 في زاد المسير: من.
9 في زاد المسير: موضع.

نصب نعت لمحذوف تقديره: [غيرناهم] 1 [كما] 2 غيروا تغييرا، مثل عادتنا في آل فرعون. ومثلها الآية الأولى، إلا أن الأولى للعادة في العذاب، تقديره: فعلنا بهم ذلك فعلا مثل عادتنا في آل فرعون"3.
وقد جمع بعضهم بين المعنيين، فقال أبو الفرج: " {كدأب آل فرعون} : أي كعادتهم، والمعنى: [كذب هؤلاء كما] 4 كذب أولئك، فنزل بهم العذاب، كما نزل بأولئك" 5.
قلت: الدأب: العادة، وهو مصدر يضاف إلى الفاعل تارة، وإلى المفعول أخرى، فإذا أضيف إلى الفاعل، كان المعنى: كفعل آل فرعون، وإذا أضيف إلى المفعول، كان المعنى: كعادتهم في العذاب والمصائب التي نزلت بهم؛ يقال: [هذه] 6 عادة هؤلاء لما فعلوه، ولما يصيبهم، وهي عادة الرب وسنته فيهم.
والتحقيق: أن اللفظ يتناول الأمرين [جميعا] 7.
وقد تقدم عن الفراء والجوهري: أن الدأب: العادة والشأن8، وهذا كقوله: {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} 9:

---

1 في زاد المسير: غيرنا بهم.
2 في زاد المسير: لما.

3 زاد المسير 3371.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) . وهو من زاد المسير.
5 زاد المسير 3371.
6 في ((ط)) : هذا.
7 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
8 انظر: الصحاح للجوهري 1123.
9 سورة آل عمران، الآية 137.

روى ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن مجاهد: " {قد خلت من قبلكم سنن} : [من] 1 الكفار، والمؤمنين [في] 2 الخير والشر"3.
وعن أبي إسحاق4: "أي: قد مضت مني وقائع نقمة في أهل التكذيب لرسلي والشرك [بي] 5 عاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، [فرؤوا6 مثلات] 7 قد مضت [مني] 8 فيهم" 9؛ فقد فسرت السنن: بأعمالهم وبجزائهم.
قال البغوي: "معنى الآية: قد مضت، وسلفت مني [سنن] 10 فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بإمهالي [واستدراجي] 11 إياهم، حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإهلاكهم وإدالة أنبيائي [عليهم] 12، {فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} : أي

---

1 في تفسير الطبري: في.
2 في تفسير الطبري: و.
3 تفسير الطبري 4100. وانظر: تفسير البغوي 1354.
4 هو عمرو بن عبد الله، من بني ذي يحمر بن السبيع، الهمداني الكوفي، أبو إسحاق السبيعي. من أعلام التابعين الثقات. كان شيخ الكوفة في عصره. أدرك عليا، ورآه يخطب، وقال: رأيته أبيض الرأس واللحية. وكان من الغزاة المشاركين في الفتوح. عمي في كبره. ولد سنة 33، وتوفي سنة 127 ?.
انظر: سير أعلام النبلاء 5392. والأعلام 581.
5 في تفسير الطبري: في.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : فروا.
7 في تفسير الطبري: (فسيروا في الأرض تروا مثلات) .
8 ما بين المعقوفتين ليس في تفسير الطبري.
9 تفسير الطبري 4100.
10 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) . وهو في تفسير البغوي.
11 في ((ط)) : واستندراجي.
12 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) . وهو في تفسير البغوي.

[آخر] 1 المكذبين [منهم] 2. قال: وهذا في [حزب واحد] 3، يقول [عز وجل] 4: فأنا أمهلهم وأستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي [أجلت من] 5 نصرة النبي [صلى الله عليه وسلم] 6 وأوليائه، وهلاك أعدائه) 7.
قلت: ونظير هذا: قوله تعالى: { [أفلم] 8 يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب [يعقلون] 9 بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} 10، وقوله: {أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن [كانوا] 11 أنفسهم يظلمون} 12، وقوله في الآية الأخرى: {كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما

---

1 عند البغوي: اخرنا من.
2 ما بين المعقوفتين ليس في تفسير البغوي.
3 عند البغوي: حرب أحد.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) . وهو في تفسير البغوي.
5 عند البغوي: أجلته في.
6 زيادة من تفسير البغوي.
7 تفسير البغوي 1354.
8 في ((خ)) : أو لم.
9 في ((خ)) : يعللون.
10 سورة الحج، الآية 46.
11 ما بين المعقوفتين ساقط من ((م)) ، و ((ط)) .
12 سورة الروم، الآية 9.

رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون} 1.
فهذا كله يبين أن سنة الله وعادته مطردة، لا تنتقض في إكرام مصدقي الرسل، وإهانة مكذبيهم2.

---

1 سورة غافر، الآيات 82-85.
2 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو يرد على الفلاسفة في علومهم الفلسفية، مبينا أن العاديات التي هي عامة علومهم الكلية منتقضة. أما سنة الله سبحانه وتعالى فلا تنتقض بحال من الأحوال، يقول رحمه الله: "ولكن العادة التي لا تنتقض بحال: ما أخبر الله أنها لا تنتقض، كقوله تعالى: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} [الأحزاب، 60-62] . وقال: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} [الفتح، 22-23] . وقال: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا} [فاطر، 42-43] . فهذه سنة الله وعادته في نصر عباده المؤمنين إذا قاموا بالواجب على الكافرين، وانتقامه وعقوبته للكافرين الذين بلغتهم الرسل بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين هي سنة الله التي لا توجد منتقضة قط. ولما قال قبل هذا: {ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا} [الأحزاب، 38] لم يقل هنا ولن تجد؛ لأن هذه سنة شرعية لا ترى بالمشاهدة، بل تعلم بالوحي بخلاف نصره للمؤمنين، وعقوبته للمنذرين، فإنه أمر مشاهد، فلن يوجد منتقضا". الرد على المنطقيين ص 390.

<u>فصل</u> آيات الأنبياء يلزم من وجودها وجود الأنبياء

آيات الأنبياء كما قد عرف1 هي مستلزمة لثبوت النبوة، وصدق المخبر بها، والشاهد بها؛ فيلزم من وجودها وجود النبوة، وصدق المخبر بها، ويمتنع أن تكون مع التكذيب بها، وكذب المخبر بها؛ فلا يجوز وجودها لمن كذب الأنبياء، ولا لمن أقر بنبوة كذاب؛ سواء كان هو نفسه المدعي للنبوة، أو ادعى نبوة غيره.
وهذان الصنفان هما المذكوران في قوله: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله} 2.
وهؤلاء كلهم من أظلم الكاذبين، كما قال: {فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين} 3، ثم قال: {والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون} 4.

فالمخبر بالنبوة مع ثبوتها هو الذي جاء بالصدق وصدق به، والمخبر بها مع انتفائها هو الذي كذب على الله، والمكذب بها مع ثبوتها هو الذي كذب بالحق لما جاءه.

---

1 انظر ما سبق في هذا الكتاب: ص 187، 249، 869، 886، 897، 898، 929، 942، 989، 1064، 1095.
2 سورة الأنعام، الآية 93.
3 سورة الزمر، الآية 32.
4 سورة الزمر، الآية 33.

الدليل مستلزم للمدلول
فدلائل النبوة هي مستلزمة لصدق من أثبت نبوة هي نبوة حق، يمتنع أن تكون لمن نفى هذه، أو أثبت نبوة ليست بنبوة.
وكذلك كل دليل على إثبات الصانع، دل على صدق المؤمنين به، المخبرين بما دل عليه الدليل، وعلى كذب من نفى ذلك.
ويمتنع أن تكون تلك الأدلة دالة على نفي ذلك، أو على صدق الخبر بنفي ذلك، أو على صدق من جعل صفات الرب ثابتة لغيره.
وما دل على أن هذه الدار ملك لزيد، يدل على صدق المخبر بذلك، وكذب النافي له، ويمتنع أن يدل مع انتفاء الملك.
وما دل على علم شخص وعدله، فإنه مستلزم لذلك، ولصدق المخبر به. وكذلك النافي له يمتنع أن يدل على صدق النافي، أو يدل مع انتفاء العلم والعدل؛ فإن ما استلزم ثبوت شيء وصدقه، استلزم كذب نقيضه، وكان عدم اللازم مستلزما لعدم الملزوم؛ فما كان مستلزما لثبوت النبوة، وصدق المخبر بها، كان مستلزما لكذب من نفاها. فامتنع أن يكون موجودا مع من نفاها، وامتنع أن يكون موجودا مع انتفائها؛ فإن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين.
فدليل كل مدلول عليه يمتنع ثبوته مع عدم المدلول عليه؛ فإنه مستلزم لثبوته. فلو وجد مع عدمه، للزم الجمع بين النقيضين.
التلازم بين نبوة العين وجنس النبوة
فما كان دليلا على نبوة شخص، فهو دليل على جنس النبوة؛ فإن نبوة الشخص لا [تثبت] 1 إلا مع ثبوت جنس النبوة؛ فيمتنع وجود ذلك الدليل مع عدم النبوة.

---

1 في ((خ)) : يثبت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وثبوت أحد النقيضين مستلزم لنفي الآخر؛ فثبوت صدق المخبر بثبوتها، مستلزم لكذب المخبر بانتفائها.
دليل عقلي
فهذا أمر عقلي مقطوع به، معلوم بالبديهة بعد تصوره في جميع الأدلة؛ أدلة النبوة وغيرها1، فلا يجوز أن يكون ما دل على النبوة، وعلى صدق

---

1 هذا دليل عقلي، يستخدمه الشيخ رحمه الله، وهو دليل الملازمة، كما سبق تعريفه ص 617-618.
يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "إنه إذا كان صحة الشرع لا تعلم إلا بدليل عقلي، فإنه يلزم من علمنا بصحة الشرع علمنا بالدليل العقلي الدال عليه، ويلزم من علمنا بذلك الدليل العقلي علمنا بصحة الشرع. وهكذا الأمر في كل ما لا يعلم إلا بدليل. ويلزم أيضا من ثبوت ذلك الدليل المعقول في نفس الأمر، ثبوت الشرع، ولا يلزم من ثبوت الشرع ثبوت ذلك الدليل ... والمتلازمان يلزم من ثبوت كل منهما ثبوت الآخر، ومن انتفائه انتفاؤه". درء تعارض العقل والنقل 5271.
ويقول أيضا: "جميع الأدلة ترجع إلى أن الدليل مستلزم للمدلول". الرد على المنطقيين ص 296.
وقال رحمه الله أيضا: "فمن المعلوم أن الدليل يجب طرده، وهو ملزوم للمدلول عليه، فيلزم من ثبوت الدليل ثبوت المدلول عليه، ولا يجب عكسه؛ فلا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول عليه. وهذا كالمخلوقات؛ فإنها آية للخالق، فيلزم من ثبوتها ثبوت الخالق، ولا يلزم من وجود الخالق وجودها. وكذلك الآيات الدالات على نبوة النبي. وكذلك كثير من الأخبار والأقيسة الدالة على بعض الأحكام، يلزم من ثبوتها ثبوت الحكم، ولا يلزم من عدمها عدمه؛ إذ قد يكون الحكم معلوما بدليل آخر، اللهم إلا أن يكون الدليل لازما للمدلول عليه، فيلزم من عدم اللازم عدم الملزوم. وإذا كان لازما له أمكن أن يكون مدلولا له؛ إذ المتلازمان

يمكن أن يستدل بكل منهما على الآخر، مثل الحكم الشرعي الذي لا يثبت إلا بدليل شرعي، فإنه يلزم من عدم دليله عدمه". درء تعارض العقل والنقل 5269-270.
وانظر استخدام شيخ الإسلام رحمه الله لدليل الملازمة هذا في إثبات التلازم بين العقل والنقل في: درء تعارض العقل والنقل 5136، 137، 150، 151، 268-272، 275، 8530-531، 1073، 120، 122-124، 128، 130، 132، 137، 139، 144، 148، 150، 196. والرد على المنطقيين ص 296-298، 348-349. والجواب الصحيح 65.

المخبر بها، وكذب المكذب بها، دليلا للمكذب بها، ولا دليلا مع انتفائها؛ كالمتنبي الذي يدعي النبوة ولا نبوة معه، فلا يتصور أن يكون معه ولا مع المصدق بنبوته شيء من دلائل النبوة.
وأما كون دليل من دلائل النبوة مع المصدق بها كائنا من كان، فهذا حق، بل هذا هو الواجب. فمن صدق بها بلا دليل، كان متكلما بلا علم. فكل من صدق بالنبوة بعلم فمعه دليل من أدلتها.
العلم الضروري والنظري
وأخبار أهل التواتر بما جاءت به الأنبياء من الآيات: هو من أدلة ثبوتها؛ فكل من آمن بالرسول عن بصيرة، فلا بد أن يكون في قلبه علم بأنه نبي حق؛ إما علم ضروري1، أو علم نظري2 بدليل من الأدلة.

1 العلم الضروري: هو ما علم الإنسان من غير نظر ولا استدلال. وقد قيل: ما لا يدخل عليه الشك والارتياب.
وهو يحصل من أربعة أشياء:
الأول: ما يعلمه الإنسان من حال نفسه؛ مثل الغم، والسرور، والصحة، والسقم، والقيام، والقعود، والهبوط، والصعود.
ومنه: ما يعلمه بطريق العقل، وهو مثل علمه باستحالة اجتماع الضدين، وكون الجسم في مكانين، وأن الواحد أقل من الاثنين.
ومنه: ما علمه بالحواس الخمس؛ وهي: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس.
ومنه: ما يعلمه بأخبار التواتر، فيقع له به العلم ضرورة؛ وهو مثل إخباره بالبلاد النائية، والقرون الخالية، والرسل الماضية.
وقولنا (ضرورة) : هو ما يلزمه العلم به ضرورة، لا يمكنه دفعه من نفسه بحال، ولا يمكنه إدخال الشك فيه) . التمهيد في أصول الفقه لأبي الخطاب 142-43. وانظر: التمهيد للباقلاني ص 26. ومجموع الفتاوى 276.
2 العلم النظري: هو ما حصل من طريق النظر والاستدلال.... وهو على ضربين: علم من طريق العقل، وعلم من طريق الشرع.
فأما العلم الذي يحصل من طريق العقل، فهو مثل علمه بحدوث العالم، وإثبات محدثه، وتصديق الرسل عند ثبوت المعجزة.
فأما الذي يحصل من طريق الشرع، فهو ما علمناه بالكتاب والسنة والإجماع، وقول واحد من الصحابة في إحدى الروايتين) . التمهيد في أصول الفقه لأبي الخطاب 142-43. وانظر: التمهيد للباقلاني ص 27. والتعريفات ص 310. ورسالة الفرقان بين الحق والباطل ضمن مجموعة الرسائل الكبرى 153.

والعلوم النظرية مع أدلتها تبقى ضرورية1، وقد تكون في نفس الأمر علوم ضرورية، ولا يمكنه التعبير عما يدل عليها؛ كالذي يجده الإنسان في نفسه ويعلمه من العلوم البديهية والضرورية وغير ذلك؛ فإن كثيرا من الناس لا يمكنهم بيان الأدلة لغيرهم على وجود ذلك عندهم.
وإذا عرف هذا، فقولنا: دلائل النبوة مختصة بالأنبياء لا تكون لغيرهم: له معنيان:
أحدهما: أنه لا يشاركهم فيها من يكذب بنبوتهم، ولا من يدعي نبوة كاذبة. وهذا ظاهر بين؛ فإن الدليل على الشيء لا يكون دليلا على وجوده وعلى عدمه، فلا يكون ما يدل على النبوة أو غيرها، وعلى صدق المخبر بذلك دليلا على كذب المخبر بذلك، ولا دليلا على النبوة مع انتفاء النبوة.
والمعنى الثاني: أنها لا توجد إلا مع النبي.

1 يقول شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر: "المعقول الضروري الذي هو أصل العلوم النظرية موافق للأدلة الشرعية مصدق لها، لا مناقض معارض لها". درء تعارض العقل والنقل 5312.

ويقول رحمه الله أيضا: "النظريات لا تعارض الضروريات، بل ما عارضها كان من باب السفسطة". درء تعارض العقل والنقل 611.

فهذا إن أريد به أنها لا توجد إلا والنبوة ثابتة، فهو صحيح، وإن كانت مع ذلك دليلا على نبي، فلا يمتنع أن يكون الشيء الواحد دليلا على أمور كثيرة، لكن يمتنع أن يوجد مع انتفاء مدلوله.
فما دل على النبوة قد يدل على أمور أخرى من أمور الرب تبارك وتعالى، لكن لا يمكن أن يدل مع انتفاء النبوة؛ أي مع كون النبوة المدلول عليها باطلة لا حقيقة لها، ولكن قد يدل مع موت النبي ومع غيبته؛ فإن موته وغيبته لا ينفي نبوته.
وليس من شرط دليل النبي أن يكون [موجودا] 1 في محل المدلول عليه، ولا في مكانه ولا زمانه.
وقول من اشترط في آيات الأنبياء أن تكون مقترنة بالدعوى: في غاية الفساد والتناقض، كما قد بسط2، لا سيما والآيات قد تكون مخلوقة [نائية] 3 عن النبي، وعن مكانه، وكذلك سائر الأدلة، لا سيما ما يجري مجرى الخبر.
فالأخبار الدالة على وجود المخبر به لا يجب أن تكون مقارنة للمخبر به؛ لا في محله، ولا زمانه، ولا مكانه.
آيات الأنبياء شهادة من الله بنبوتهم
وآيات الأنبياء: هي شهادة من الله، وإخبار منه بنبوتهم، فلا [يجب] 4 أن تكون في محل النبوة، ولا زمانها ولا مكانها، لكن يجوز ذلك؛ فلا يمتنع أن يكون الدليل في محل المدلول عليه، [ولا] 5 في زمانه، [ولا] 6 في

---

1 في ((خ)) : وجود. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 وهم الأشاعرة.
3 في ((خ)) رسمت: ثابتة. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((م)) ، و ((ط)) : تجب.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : أو.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : أو.

مكانه، لكن [يجوز] 1 ذلك فيه؛ فالإنسان قد تقوم به أمور تدل على بعض الأمور التي فيه، وقد [تعلم] 2 أموره بخبر غيره، وببعض آثاره المنفصلة عنه.
فإذا أريد بأن آيات الأنبياء مختصة بهم، وأنها لا تكون لغيرهم: أنها لا تكون مع انتفاء النبوة المدلول عليها: فهذا صحيح؛ لأنه يستلزم الجمع بين النقيضين.
وأما إذا أريد أنها لا توجد إلا في ذات النبي، أو مقترنة بخبره عن نبوته، أو في المكان الذي كان فيه، أو في الزمان: فهذا كله غلط وخطأ ممن ظنه، وجهل بين بحقائق الأدلة، إن كان من الأدلة وآيات النبوة ما [يكون] 3 في ذات النبي، ويكون مقترنا بقوله: إني رسول الله، ويكون في المكان الذي هو فيه، وفي زمانه، فهذا يمكن، وهو الواقع؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم، بل وغيره من الأنبياء كان في نفس أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم وأخلاقهم [وسيرهم] 4 أمور كثيرة تدل على نبوتهم5.

---

1 في ((خ)) : يجب. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : يعلم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) تكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : وسترهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 انظر: الشفا للقاضي عياض 177-209. والجواب الصحيح لشيخ الإسلام 5437-482، 680، 365-380، 387. وشرح الأصفهانية 2472- 485، 492-499، 500-502. ودقائق التفسير 1159-164. وشرح الطحاوية 1141-154.

وكذلك لما قال: إني رسول الله، [أتى] 1 مع ذلك بآيات دلت على صدقه.

وكذلك في مكانه وزمانه، ظهر من انشقاق القمر وغيره ما دل على نبوته.
لكن آيات الأنبياء أعم من ذلك، كما أن دليل كل شيء أعم من أن يختص بمعنى المدلول وزمانه ومكانه.
وبهذا يظهر خطأ كثير من الناس في عدم معرفتهم بجنس آيات الأنبياء، لعدم تحقيقهم جنس الأدلة والبراهين2.
وإن خاصة الدليل: أنه يلزم من تحققه تحقق المدلول عليه فقط، سواء كان مقارنا للمدلول عليه، أو كان حالا في محله، أو مجاوزا لمحله، أو لم يكن كذلك.
هل النبوة صفة ثبوتية أم لا؟
والنبوة قد قال طائفة من الناس: إنها صفة في النبي3.

1 في ((خ)) : أي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "إن ما يعلم بالدليل إنما يعلم إذا علم أن الدليل مستلزم له ليكون دليلا عليه، وهذه هي الآية والعلامة. وكذلك الاسم إنما يدل على المسمى إذا عرف أنه اسم له، وذلك مشروط بتصور المدلول عليه اللازم، وبأن هذا ملزوم له. ولهذا قيل: إن المقصود بالكلام ليس هو تعريف المعاني المفردة، لأن المعنى المفرد لا يفهم من اللفظ حتى يعرف أن اللفظ دال عليه، فلا بد أن يعرف أن هذا اللفظ موضوع لهذا المعنى حتى تعرف دلالتها عليه". درء تعارض العقل والنقل 8530.
3 والذين قالوا ذلك هم المعتزلة والفلاسفة.
قال شيخ الإسلام رحمه الله عن المعتزلة: إنهم يقولون: "إن النبوة أو الرسالة جزاء على عمل متقدم، فالنبي فعل من الأعمال الصالحة ما استحق به أن يجزيه الله بالنبوة. وهؤلاء القدرية في شق، وأولئك الجهمية الجبرية في شق". منهاج السنة النبوية 215.

وقال طائفة: ليست صفة ثبوتية في النبي، بل [هي] 1 مجرد تعلق الخطاب الإلهي به2؛ يقول الرب: إني أرسلتك، فهي عندهم صفة إضافية كما يقولونه في الأحكام الشرعية إنها صفات إضافية للأفعال لا صفات حقيقية3.

1 في ((م)) ، و ((ط)) : هو.
2 الذين قالوا ذلك هم الجهمية والأشعرية، ومن وافقهم، كما سيأتي بيان ذلك من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
وانظر من كتب الأشعرية: أصول الدين لعبد القاهر البغدادي ص 156-157. ونهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ص 462. وغاية المرام في علم الكلام للآمدي ص 317.
ومن كتب شيخ الإسلام: منهاج السنة النبوية 2413-416، 5436-439.
فالنبوة عندهم ليست صفة ثبوتية في النبي، بل هي صفة إضافية.
وثمة طامة أوقعوا أنفسهم بها، حتى لا يزيلوا صفة النبوة عن النبي بعد وفاته، وهي قولهم بأنه حي في قبره حياة دنيوية.
وقد أورد شيخنا د أحمد بن عطية الغامدي في مقدمته لكتاب (حياة الأنبياء) للبيهقي أن سبب قول الأشاعرة بحياة الأنبياء حقيقة بعد وفاتهم، هو ما يلزمهم على أصلهم الفاسد (العرض لا يبقى زمانين) ، فعلى هذا يلزم القول بفناء الروح. والقول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس رسولا الآن، ولكنه كان رسولا، ففروا إلى القول بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم في قبره حياة دنيوية، حتى لا يلزمهم هذا الأصل.
وقد رد عليهم شيخنا فضيلة الدكتور أحمد عطية فأجاد وأفاد وفقه الله. انظر: ص 50-56 من الكتاب المذكور.
وانظر المراجع التالية: الفصل لابن حزم175. وطبقات الشافعية للسبكي3406، 4130-133. وسير أعلام النبلاء 1796. والقصيدة النونية شرح ابن عيسى 2150-155.
3 قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "فمن نفى الحكم والأسباب في أفعاله، وجعلها معلقة بمحض المشيئة، وجوز عليه فعل كل ممكن، ولم ينزهه عن فعل من الأفعال، كما هو قول الجهم بن صفوان، وكثير من الناس كالأشعري ومن وافقه من أهل الكلام من أتباع مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من مثبتة القدر، فهؤلاء يجوزون بعثة كل مكلف. والنبوة عندهم مجرد إعلامه بما أوحاه إليه، والرسالة مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه. وليست النبوة عندهم صفة ثبوتية، ولا مستلزمة لصفة يختص بها، بل

هي من الصفات الإضافية، كما يقولون مثل ذلك في الأحكام الشرعية". منهاج السنة النبوية 2414. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 731.
قال الإيجي من الأشعرية في كتابه المواقف: "إذا ثبت أن الحاكم بالحسن والقبح هو الشرع، ثبت أن لاحكم للأفعال قبل الشرع". المواقف للإيجي ص 327. وانظر: البرهان في أصول الفقه للجويني

قول أهل السنة في النبوة
والصحيح: أن النبوة تجمع هذا وهذا1؛ فهي تتضمن صفة ثبوتية في

---

1 وهذا هو قول الجمهور. ف"الذي عليه جمهور سلف الأمة وأئمتها وكثير من النظار: أن الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، والله أعلم حيث يجعل رسالته؛ فالنبي يختص بصفات ميزه الله بها على غيره، وفي عقله ودينه، واستعد بها لأن يخصه الله بفضله ورحمته". منهاج السنة النبوية 2416.
وشيخ الإسلام رحمه الله تعالى قد فصل القول في هذه المسألة تفصيلا رائعا في العديد من مصنفاته الرائعة، وذكر الأقوال الثلاثة فيها..
فمن ذلك قوله في كتاب الصفدية: "إن الناس تنازعوا في النبوة: هل هي مجرد صفة قائمة بنفس النبي، كما يقوله من يقوله من أهل الكلام والفلسفة. أو مجرد تعلق خطاب الله بالنبي، كما يقوله من يقوله من أهل الكلام الأشعرية ونحوهم. أو مجموع الأمرين، كما يقوله الجمهور. على ثلاثة أقوال. كما اختلفوا على هذه الأقوال الثلاثة في الأحكام الشرعية....." إلى آخر كلامه الطويل في هذه المسألة. انظر كتاب الصفدية 1225-229.
وقد بسط شيخ الإسلام رحمه الله القول في هذه المسألة في العديد من مصنفاته.
انظر: منهاج السنة النبوية 2413-416، 5436-439. ومجموع الفتاوى 8282-283، 18367، 369-370. والجواب الصحيح 3380-387، 5324.

النبي1، وصفة إضافية هي مجرد تعلق الخطاب الإلهي، به2.
لكن على الأقوال الثلاثة: ليس من شرط أدلتها أن تكون حالة في ذات النبي، ولكن يجوز أن تكون لها أدلة قائمة بذات النبي، كما كان في محمد صلى الله عليه وسلم عدة أدلة من دلائل النبوة، كما هو مبسوط في دلائل نبوته3؛ إذ المقصود هنا الكلام على جنس آيات الأنبياء، لا على شيء معين، [و] 4 لا دليل معين، ولا نبي معين.
فإذا عرف أن دلائل النبوة يمتنع ثبوتها لشخص لا نبوة فيه إذا ادعاها، أو ادعيت له كذبا، ويمتنع ثبوتها مع المكذب بالنبوة الصادقة، وأنها لا توجد إلا والنبوة ثابتة، وأنها دليل على صدق المخبر بالنبوة من جميع الخلق.

---

1 في ((خ)) زيادة: بل هي مجرد تعلق الخطاب. (ولا محل لذكرها) .
2 في ((م)) ، ((ط)) زيادة، ولعلها مكررة، وهي قوله: " [يقول الرب إني أرسلتك فهي عندهم صفة إضافية كما يقولونه في الأحكام الشرعية أنها صفات إضافية للأفعال لا صفات حقيقية] ".
3 ومن كتب دلائل النبوة المطبوعة التي توضح هذا:
(1) - دلائل النبوة لأبي القاسم قوام السنة الأصبهاني.
(2) - علامات النبوة للبوصيري.
(3) - دلائل النبوة للبيهقي.
(4) - دلائل النبوة لأبي بكر الفريابي.
(5) - تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار.
(6) - دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني مطبوع المنتقى منه.
(7) - أعلام النبوة للماوردي.
(8) - الصحيح المسند من دلائل النبوة للوادعي.

وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى تصانيف العلماء في آيات النبوة في كتابه الجواب الصحيح 6361-365.
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

فكل من آمن [بأن] 1 محمدا رسول الله، فقد أخبر عن نبوته؛ كما أخبر هو عن نبوة نفسه بما أمره الله به؛ حيث قال: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا} 2.
فهذا الخبر؛ وهو الشهادة بأنه رسول الله إلى الناس جميعا، سواء وجد منه، أو من غيره، هو مدلول عليه لجميع دلائل النبوة.
فإذا وجد هذا الخبر في غير النبي، ووجد ما يدل على صدق هذا الخبر، كان ذلك من دلائل النبوة، كما وجد هذا في خلق كثير من المؤمنين.
ومن دلائل النبوة: وجود العلم الضروري بخبر أهل التواتر، الذين أخبروا بالآيات. فهذا العلم الضروري هو بمنزلة المشاهدة [للآيات] 3.
وكذلك ما يوجد لأهل الإيمان مما يستلزم صدق خبرهم بأن محمدا رسول، كما يوجد لأمته من الآيات الكثيرة عند تحقيق [أمره] 4 ونصره وطاعته، والجهاد عن دينه، والذب عنه، وبيان ما أرسل به، كما وجد أمثال ذلك للصحابة، والتابعين، وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة5.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : أن.
2 سورة الأعراف، الآية 158.
3 في ((خ)) : الآيات. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : به. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 أي من الكرامات التي يكرم الله بها سبحانه وتعالى عباده المؤمنين.
انظر: كتاب الكرامات للالكائي تحقيق د أحمد سعد حمدان. والبداية والنهاية 5266-267، 285، 296-297. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 300-320. وقاعدة في المعجزات والكرامات ص 19-21.

فصل: خوارق السحرة والكهان مناقضة للنبوة ولا تخرج عن مقدور الجن والإنس
فجميع ما يختص بالسحرة والكهان هو مناقض للنبوة1، فوجود ذلك يدل على أن صاحبه ليس بنبي. ويمتنع أن [يكون] 2 شيء من ذلك دليلا على النبوة؛ فإن ما استلزم عدم الشيء لا يستلزم وجوده.
وكذلك ما يأتي به أهل الطلاسم3 وعبادة الكواكب4 ومخاطبتها،

---

1 هذه من القواعد في التفريق بين النبي، والساحر، والكاهن.
2 في ((خ)) : تكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 سبق بيان معنى الطلاسم. انظر ص 269 من هذا الكتاب.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "السحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وذلك أن النجوم التي من السحر نوعان؛ أحدهما: علمي، وهو الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث، من جنس الاستقسام بالأزلام. والثاني عملي، وهو الذي يقولون إنه القوى السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية، كطلاسم ونحوها. وهذا من أرفع أنواع السحر. وكل ما حرمه الله ورسوله فضرره أعظم من نفعه". مجموع الفتاوى 35170.
وانظر: الصفدية 166. والجواب الصحيح 613. والفصل لابن حزم 53. وتفسير ابن كثير 1145. وأضواء البيان 4453.
4 قال شيخ الإسلام رحمه الله عنهم: "أهل دعوة الكواكب الذين يدعون الشمس والقمر والنجوم، ويعبد ونها، ويسجدون لها، كما كان النمرود بن كنعان وقومه يفعلون ذلك، وكما يفعل ذلك المشركون من الهند والترك والعرب والفرس وغيرهم. وقد ذكر أبو عبد الله محمد بن الخطيب الرازي في كتابه الذي صنفه في هذا الفن قطعة كبيرة من أحوال هؤلاء. وقد تواترت الأخبار بذلك عن هؤلاء، وأنه يحصل لأحدهم أشخاص منفصلة عنه تقضي كثيرا من حوائجه، ويسمونها روحانية الكواكب". الصفدية 1241.

وانظر: المصدر نفسه 1173، 192.
وقال أيضا عن مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه بسبب عبادتهم للكواكب: "فذكر لهم ما كانوا يفعلونه من اتخاذ الكوكب، والشمس، والقمر ربا يعبد ونه، ويتقربون إليه، كما هو عادة عباد الكواكب ومن يطلب تسخير روحانية الكواكب. وهذا مذهب مشهور ما زال عليه طوائف من المشركين إلى اليوم، وهو الذي صنف فيه الرازي السر المكتوم، وغيره من المصنفات". درء تعارض العقل والنقل 1111. وانظر: دقائق التفسير 3123، 165. وفتح الباري 10232-233. والأصول والفروع لابن حزم ص 134، 135. وإغاثة اللهفان 2222-226. والدين الخالص 2443-444.

كل ذلك مناقض للنبوة؛ فإن النبي لا يكون إلا مؤمنا، وهؤلاء كفار؛ فوجود ما يناقض الإيمان هو مناقض للنبوة بطريق الأولى، وهو آية، ودليل، وبرهان على عدم النبوة، فيمتنع أن يكون دليلا على وجودها.
وجميع ما يختص بالسحرة والكهان وغيرهم ممن ليس بنبي، لا يخرج عن مقدور الإنس والجن1. وأعني بالمقدور: ما يمكنهم التوصل إليه بطريق من الطرق2؛ فإن من الناس من يقول: إن المقدور لا بد أن يكون في محل القدرة3.

---

1 هذا من الفروق التي يميز بها النبي من المتنبئ، والصادق من الكاذب.
2 التي أقدر الله عليها الجن والإنس. انظر ما سبق ص 164، 223، 606، 361، 672.
3 هذا من تعريفات الأشاعرة للكسب - عندهم. انظر: شرح جوهرة التوحيد للباجوري ص 219. وشرح الصاوي على جوهرة التوحيد ص 149-150.
وانظر كذلك: مجموع الفتاوى 8404، 467. وشفاء العليل لابن القيم ص 121-122.
وهذه المسألة لها تعلق بالاستطاعة والقدرة.
وقد وقع الخلاف فيها على أقوال، تبعا للخلاف الواقع في القدر:
فالجهمية، وهم الجبرية: قالوا بنفي القدرة لا مع الفعل ولا قبله؛ لأن العبد عندهم لا اختيار له.
والمعتزلة: أثبتوا القدرة قبل الفعل، ونفوا أن تكون معه.
أما الأشاعرة، فقالوا: إن القدرة مع الفعل، لا يجوز أن تتقدمه، ولا أن تتأخر عنه، بل هي مقارنة له، وهي من الله تعالى، وما يفعله الإنسان بها فهو كسب له.
وأهل السنة قالوا: إن القدرة تقع على نوعين:
أ - قدرة أو استطاعة للعبد، بمعنى الصحة والتوسع والتمكن وسلامة الآلات، وهي التي تكون مناط الأمر والنهي، وهي المصححة للفعل. فهذه لا يجب أن تقارن الفعل، بل تكون قبله متقدمة عليه.
ب- والاستطاعة أو القدرة التي يجب معها وجود الفعل، وهذه هي الاستطاعة المقارنة للفعل الموجبة له.
انظر: الملل والنحل 185. والإرشاد ص 219-220. والإنصاف ص 46. والتمهيد ص 323-325. ومجموع الفتاوى 8129-130، 290-292، 371-376، 441، 1032، 18172-173. ودرء تعارض العقل والنقل 9241 وشرح الطحاوية ص 633-639. وموقف ابن تيمية من الأشاعرة 31331-1332. والماتريدية ص 424-425.
وقد ناقش شيخ الإسلام رحمه الله قضية الكسب عند الأشاعرة، ورد عليها في مواضع عديدة من مصنفاته القيمة، فمن ذلك قوله عنهم: "وأخذوا يفرقون بين الكسب الذي أثبتوه، وبين الخلق؛ فقالوا: الكسب: عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة. وقالوا أيضا: الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه. فقال لهم الناس: هذا لا يوجب فرقا بين كون العبد كسب، وبين كونه فعل وأوجد وصنع وعمل ونحو ذلك؛ فإن فعله وإحداثه وعمله وصنعه هو أيضا مقدور بالقدرة الحادثة، وهو قائم في محل القدرة الحادثة. وأيضا فهذا فرق لا حقيقة له؛ فإن كون المقدور في محل القدرة أو خارجا عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه، وهو مبني على أصلين: أن الله لا يقدر على فعل يقوم بنفسه، وأن خلقه للعالم هو نفس العالم. وأكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم على خلاف ذلك. والثاني: أن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في محل وجودها، ولا يكون شيء من مقدورها خارجا عن محلها. وفي ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه. وأيضا: فإذا فسر التأثير بمجرد الاقتران، فلا فرق بين أن يكون الفارق في المحل أو خارجا عن المحل". مجموع الفتاوى 8119.

وانظر عن الكسب عند الأشاعرة: مجموع الفتاوى 8118-120، 387، 403، 467-468. والصفدية 1149-153. وشرح الأصفهانية ص 149-150، 350. ودرء تعارض العقل والنقل 182-84، 465،، 649، 7247-248، 9167، 10114-115.

وليس هذا هو لغة العرب، ولا غيرهم من الأمم؛ لا لغة القرآن والحديث، ولا غيرهما، وإنما يدعون ذلك من جهة العقل.
وقولهم في ذلك باطل من جهة العقل.
لكن المقصود هنا التكلم باللغة المعروفة؛ لغة العرب، وغيرهم التي كان نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره يخاطب بها الناس؛ كقوله في الحديث الصحيح لأبي مسعود1 لما ضرب غلامه: "اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود، الله أقدر عليك منك على هذا" 2؛ فجعل نفس المملوك مقدورا عليه [لسيده] 3،

1 هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري، أبو مسعود البدري. صحابي جليل. وهو معدود من علماء الصحابة. نزل الكوفة، ومات قبل الأربعين، وقيل بعدها.
انظر: سير أعلام النبلاء 2493-496. وتقريب التهذيب 1682.
2 أخرجه مسلم في صحيحه31280-1281، كتاب الإيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبد هـ. وأبو داود في سننه 5360-361، كتاب الأدب، باب في حق المملوك. والترمذي في جامعه 4335، كتاب البر، باب النهي عن ضرب الخدم، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
3 في ((ط)) : لسيدة.

كما يقول الناس: القوة على الضعيف ضعف في القوة، [ويقولون] 1: فلان قادر على فلان، وفلان عاجز عن فلان، ويقولون: فلان ناسج هذا الثوب، و [بنى] 2 هذه الدار. ومنه: قوله تعالى: {ويصنع الفلك} 3؛ فجعل الفلك مصنوعة لنوح. ومنه: قوله تعالى: {والله خلقكم وما تعملون} 4؛ أي والأصنام التي تعملونها، وتنحتونها؛ فجعل ما في الأصنام من التأليف معمولا لهم، كما جعل تأليف السفينة مصنوعا لهم. وهذا كثير5.
والمقصود هنا: أن ما يأتي به السحرة والكهان ونحوهم، هو مما يصنعه الإنس والجن، لا يخرج ذلك عنهم. والإنس والجن قد أرسلت إليهم الرسل6، فآيات الأنبياء خارجة عن قدرة الإنس والجن؛ لا يقدر عليها لا الإنس ولا الجن، ولله الحمد والمنة.
مقدورات الجن والإنس
ومقدورات الجن هي من جنس مقدورات الإنس، لكن يختلف في المواضع؛ فإن الإنسي يقدر على أن يضرب غيره حتى يمرض أو يموت، بل يقدر أن يكلمه بكلام يمرض به أو يموت.
فما يقدر عليه الساحر من سحر بعض الناس حتى يمرض أو يموت، هو من مقدور الجن، وهو من جنس مقدور الإنس.

1 في ((ط)) : ويوقولن.
2 في ((ط)) : بني.
3 سورة هود، الآية 38.
4 سورة الصافات، الآية 96.
5 انظر مجموع الفتاوى 8120-123.
6 كما قال تعالى: {يا معشر الجن والأنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا..} سورة الأنعام، الآية 130.

ومنعه من الجماع هو من جنس المرض المانع له من ذلك.

والحب والبغض لبعض الناس، كما يفعله الساحر، هو من استعانته بالشياطين، وهو من جنس مقدور الإنس. بل شياطين الإنس قد يؤثرون من البغض والحب أعظم مما تؤثره شياطين الجن.
والجن [تقدر] 1 على الطيران في الهواء، وهو من الأعمال. والطيور تطير، فهو من جنس مقدور الإنس. لكن يختلف المحل [بأن] 2 هؤلاء سيرهم في الهواء، والإنس سيرهم على الأرض.
وكذلك المشي على الماء، وطي الأرض؛ وهو قطع المسافة البعيدة في زمان قريب: هو من هذا الجنس، هو مما تفعله الجن، وهو مما تفعله الجن ببعض الناس. وقد أخبر الله عن العفريت أنه قال لسليمان عن عرش بلقيس وهو باليمن وسليمان بالشام: {أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك} 3. ولهذا يوجد كثير من الكفار والفساق والجهال تطير بهم الجن في الهواء، وتمشي بهم على الماء، وتقطع بهم المسافة البعيدة في المدة القريبة.
وليس شيء من ذلك من آيات الأنبياء4، ولله الحمد والمنة؛ إذ كان مقدور الإنس والجن، والإخبار ببعض الأمور الغائبة التي يأتي بها الكهان، هو أيضا من مقدور الجن؛ فإنهم تارة يرون الغائب فيخبرون به، وتارة يسترقون السمع من السماء فيخبرون به، وتارة

1 في ((خ)) : يقدر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : أن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 سورة النمل، الآية 39.
4 وقد ذكر الشيخ رحمه الله قصصا كثيرة من هذا النوع.
انظر: مجموع الفتاوى182-83، 168-178. ومنهاج السنة النبوية 8311.

يسترقون وهم يكذبون في ذلك؛ كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنهم1.
وما تخبر به الأنبياء من الغيب، لا يقدر عليه إنس، ولا جن، ولا كذب فيه.
وأخبار الكهان وغيرهم كذبها أكثر من صدقها، وكذلك كل من تعود الإخبار عن الغائب؛ فأخبار الجن لا بد أن [تكذب] 2، فإنه من طلب منهم الإخبار بالمغيب كان من جنس الكهان، وكذبوه في بعض ما يخبرون به، وإن كانوا صادقين في البعض.
وقد ثبت في الصحيح: أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكهان؟ فقيل له: إن منا قوما يأتون الكهان؟ قال: "فلا يأتوهم" 3.

وثبت عنه في الصحيح أنه قال: "من أتى عرافا، فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين يوما"4.

1 يشير شيخ الإسلام رحمه الله تعالى إلى حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس عن الكهان، فقال: "ليسوا بشيء"، فقالوا: يارسول الله إنهم يحدثون أحيانا بالشيء فيكون حقا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقرقرها في أذن وليه، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة".
أخرجه البخاري52173، كتاب الطب، باب الكهانة. ومسلم41750، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان.
2 في ((خ)) : يكذب. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 أخرجه مسلم في صحيحه 41748-1749، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، مع اختلاف في اللفظ.
4 أخرجه مسلم في صحيحه 41751، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان. وأحمد في مسنده 468،، 5380.

وفي السنن عنه أنه قال: "من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد"1.
والنبي صلى الله عليه وسلم لما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد [الأقصى] 2، لم يكن المقصود مجرد وصوله إلى الأقصى، بل المقصود ما ذكره الله [بقوله] 3: {لنريه من آياتنا} 4، كما قال في سورة النجم: {ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى} 5.
وما رآه مختص بالأنبياء، لا يكون ذلك لمن خالفهم، ولا يريه الله تعالى ما أراه محمدا حين أسرى به. وكذلك صلاته بالأنبياء في المسجد الأقصى، وركوبه على البراق؛ هذا كله من خصائص الأنبياء.

بعض خوارق الشياطين لأوليائهم
والذين تحملهم الجن، وتطير بهم من مكان إلى مكان، أكثرهم لا يدري كيف حمل، بل يحمل الرجل إلى عرفات، ويرجع، وما يدري كيف حملته الشياطين، ولا يدعونه يفعل ما أمر الله به كما أمر الله به، بل قد يقف بعرفات
من غير إحرام ولا إتمام مناسك الحج، وقد يذهبون به إلى مكة،

1 أخرجه أبو داود في سننه 415-16، كتاب الطب، باب في النجوم. وأحمد في مسنده 1227، 311. قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: رواه أبو داود بإسناد صحيح. (تيسير العزيز الحميد ص 400) . وصححه الألباني (انظر: السلسلة الصحيحة 2435رقم 793. ومشكاة المصابيح 4604) . وقال محقق معارج القبول (2562) : وسنده صحيح.
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 في ((ط)) : بقول.
4 سورة الإسراء، الآية 1.
5 سورة النجم، الآيات 13-18.

ويطوف بالبيت من غير إحرام إذا حاذى الميقات1. [وذلك] 2 واجب في أحد قولي العلماء، ومستحب في الآخر3، فيفوته المشروع، أو يوقعونه في الذنب، ويغرونه بأن هذا من كرامات الصالحين.
وليس هو مما يكرم الله به وليه، بل هو مما أضلته به الشياطين، وأوهمته أن ما فعله قربة وطاعة4، أو يكون صاحبه له عند الله منزلة عظيمة.

1 الميقات: واحد المواقيت، وهي التي وقتها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أراد الحج، أو العمرة.
قال ابن عباس رضي الله عنهما: "وقت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم. فهن لهن، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن، لمن كان يريد الحج والعمرة. فمن كان دونهن فمهله من أهله، وكذلك أهل مكة يهلون منها".
راجع صحيح البخاري 1555، كتاب الحج، باب مهل أهل الشام، وصحيح مسلم 2838، 839، كتاب الحج، باب مواقيت الحج والعمرة.
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 انظر المغني لابن قدامة 569.
4 وقد تحدث شيخ الإسلام في موضع آخر عن هؤلاء، فقال: "ومنهم من يطير به الجني إلى مكة، أو بيت المقدس، أو غيرهما. ومنهم من تحمله عشية عرفة ثم تعيده من ليلته، فلا يحج حجا شرعيا، بل يذهب بثيابه ولا يحرم إذا حاذى الميقات، ولا يلبي، ولا يقف بمزدلفة، ولا يطوف بالبيت، ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمي الجمار، بل يقف بعرفة بثيابه، ثم يرجع من ليلته. وهذا ليس بحج مشروع باتفاق المسلمين، بل هو كمن يأتي الجمعة ويصلي بغير وضوء إلى غير القبلة.
ومن هؤلاء المحمولين من حمل مرة إلى عرفات ورجع، فرأى في النوم ملائكة يكتبون الحجاج، فقال: ألا تكتبوني؟ فقالوا: لست من الحجاج؛ يعني لم تحج حجا شرعيا". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 327. وانظر: مجموع الفتاوى 183، 174،، 17460،، 1948. والصفدية 1190. والجواب الصحيح 2331-332.

وليس هو قربة وطاعة، وصاحبه لا يزداد بذلك منزلة عند الله؛ فإن التقرب إلى الله إنما يكون بواجب أو مستحب، وهذا ليس بواجب ولا مستحب، بل يضلون صاحبه، ويصدونه عن تكميل ما يحبه الله منه؛ من عبادته، وطاعته، وطاعة رسوله، ويوهمونه أن هذا من أفضل الكرامات، حتى يبقى طالبا له، عاملا عليه.
وهم بسبب إعانتهم له على ذلك، قد استعملوه في بعض ما يريدون، مما ينقص قدره عند الله، أو وقوعه في ذنوب، وإن لم يعرف أنها ذنوب؛ فيكون ضالا ناقصا، وإن غفر له ذلك لعدم علمه؛ فإنه نقص درجته، وخفض [منزلته] 1 بذلك الذي أوهموه أنه رفع درجته وأعلا منزلته.

وهذا من جنس ما [يفعله] 2 السحرة؛ فإن الساحر قد يصعد في الهواء والناس ينظرونه، وقد يركب شيئا من الجمادات؛ إما قصبة، وإما خابية، وإما مكنسة3، وإما غير ذلك؛ فيصعد به في الهواء، وذلك أن الشياطين تحمله.
وتفعل الشياطين هذا ونحوه بكثير من العباد والضلال؛ من عباد المشركين، وأهل الكتاب، والضلال من المسلمين؛ [فتحملهم] 4 من مكان إلى مكان.

---

1 في ((خ)) : منزله. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((م)) ، و ((ط)) : تفعله.
3 المكنسة - بكسر الميم - ما يكنس به.
وقد تقدم التعريف بها ص 164.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : فيحملهم.

(1000/2)\716

وقد يرى أحدهم بما يركبه إما فرس، وإما غيره، وهو شيطان تصور له في صورة مركوب.
وقد يرى أنه يمشي في الهواء من غير مركوب، والشيطان قد حمله.
والحكايات في هذا كثيرة معروفة عند من يعرف هذا الباب، ونحن نعرف من هذا أمورا يطول وصفها1.

---

1 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في مواضع أخرى قصصا كثيرة، منها قوله: "وأعرف من هؤلاء عددا، ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق، تسرقه الشياطين، وتأتيه به. ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس، أو لعطاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 426.
وقال أيضا رحمه الله: "ومثل عدد كبير حملوا إلى غير مكة، ولو ذكرت ما أعرفه من هذا لطال الخطاب. وأعرف شخصا من أصحابنا حملته الجن في الهواء من أسفل دار إلى أعلاها، ووصوه بأمور الدين، وتاب، وحصل له خير. وآخر كان معه شيطان يحمله قدام الناس بمدينة الشوبك، فيصعد في الهواء إلى رؤوس الجبال. وآخر كان يحمله شيطانه من جبل الصالحية إلى قرية بلدى - نحو فرسخ -. وطائفة حملتهم الشياطين من مدينة تدمر إلى بيت المقدس، وأمرتهم أن يصلوا إلى الشمال، وصلوا إليه أياما، وأخبروهم أن هذه الشريعة تغير وتنسخ، حتى طلبهم المسلمون إلى جامع تدمر، وكانوا في مغارة، واستتابوهم، فلم يتوبوا، بل مكثوا يصلون إلى الشمال ثلاثة أيام، ثم تابوا بعد ذلك، وتبين لهم أن ذلك كان من الشيطان. وآخر أتى قوما يرقصون في سماع، فبقي يرقص في الهواء على رؤوسهم، فرآه شخص، فصرخ به، فسقط. وكان هذا بحضرة الشيخ شبيب الشطي، فقال الشيخ: هذا سلبني حالي، فسأله، فقال: لم يكن له حال، وإنما شيطان حمله من الرحبة إلى هنا، فصرخت فيه، فألقاه، وهرب. وجرى نظير هذه القصة لغير واحد". الصفدية 1190-191.
وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله القصة نفسها في: جامع الرسائل 1192-193، ومجموع الفتاوى 1173-174.
وقد ذكر الشيخ رحمه الله كثيرا من هذه الحكايات عن أولياء الشيطان، ثم قال: "وهذا باب لو ذكرت ما أعرف منه لاحتاج إلى مجلد كبير". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 353.

وكذلك المشي على الماء: قد [تجعل] 1 له الجن ما يمشي عليه، وهو يظن أنه يمشي على الماء. وقد يخيلون إليه أنه التقى طرفا النهر ليعبر، والنهر لم يتغير في نفسه، ولكن خيلوا إليه ذلك. وليس في هذا - ولله الحمد - شيء من جنس معجزات الأنبياء.
كرامات الصالحين من جهة السبب والغاية
وقد يمشي على الماء قوم بتأييد الله لهم، وإعانته إياهم بالملائكة؛ كما يحكى عن المسيح2، وكما جرى للعلاء بن الحضرمي3، ولأبي مسلم الخولاني في عبور الجيش4، وذلك إعانة على الجهاد في سبيل [الله] 5، كما يؤيد الله المؤمنين بالملائكة، ليس هو من فعل الشياطين. والفرق بينهما؛ من جهة السبب، ومن جهة الغاية.

أما السبب: فإن الصالحين يسمون الله، ويذكرونه، ويفعلون ما يحبه الله؛ من توحيده، وطاعته، فييسر لهم بذلك ما ييسره، ومقصودهم به: نصر الدين، والإحسان إلى المحتاجين6.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : يجعل.
2 انظر: العهد الجديد: إنجيل مرقس، الإصحاح 6، رقم الفقرة 48، 49-53، ص 67. وإنجيل يوحنا، الإصحاح 6، رقم الفقرة 19، ص 157. وانظر الجواب الصحيح 4120، 123.
3 سبقت ترجمته.
4 انظر ما سبق ص 159 من هذا الكتاب.
5 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
6 قد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذا السبب مفصلا في موضع آخر، فقال: "فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المتبعين له باطنا وظاهرا لحجة، أو حاجة. فالحجة: لإقامة دين الله. والحاجة: لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله". مجموع الفتاوى 11460. وانظر: المصدر نفسه 184، 176-177. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 169، 328، 354.

وما تفعله الشياطين يحصل بسبب الشرك، والكذب، والفجور1، والمقصود به: الإعانة على مثل ذلك.
والجن فيهم مسلم وكافر، فالمسلمون منهم يعاونون الإنس المسلمين، كما يعاون المسلمون بعضهم بعضا، والكفار مع الكفار.
أصناف طاعة الجن للإنس
والجن الذين يطيعون الإنس، وتستخدمهم الإنس ثلاثة أصناف2:
أعلاها: أن [يأمروهم] 3 بما أمر الله به، ورسله؛ فيأمرونهم بعبادة الله وحده، وطاعة رسله؛ فإن الله أوجب على الجن طاعة الرسل، كما أوجب ذلك على الإنس، وقال تعالى: {ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين [فيها] 4 إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا [بما كانوا يكسبون] 5 يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم [آياتي] 6

---

1 انظر: مجموع الفتاوى 184. والجواب الصحيح 2343. والفرقان ص 169، 328، 355.
2 انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص331، 364-365. والفرقان بين الحق والباطل - ضمن دقائق التفسير - 1429. ودقائق التفسير 3118، 137-138، 139-143. ومجموع الفتاوى 1935،، 1387-88؛ فقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في هذه المواضع أحوال الجن مع الإنس.
3 في ((ط)) : يأمورهم.
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
6 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون} 1؛ فالرسل تكون من الإنس إلى الثقلين، والنذر من الجن باتفاق العلماء2.
هل يكون من الجن رسلا؟!
واختلفوا: هل يكون في الجن رسل؟ والأكثرون على أنه لا رسل فيهم3، كما قال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى} 4.

---

1 سورة الأنعام، الآيات 128-132.
2 قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: {يا معشر الجن والأنس ألم يأتكم رسل منكم} [سورة الأنعام، الآية 130] : (أي من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد، وابن جريج، وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف. وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر. وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلا، واحتج بهذه الآية الكريمة، وفيه نظر؛ لأنها محتملة، وليست بصريحة) . تفسير ابن كثير 2177.
وانظر: تفسير الطبري 836، 2633. وتفسير البغوي 2131. وتفسير القرطبي 757. ومجموع الفتاوى 4234. وشرح الطحاوية ص 168. ولوامع الأنوار 2223.
3 انظر: تفسير الطبري 836، 2633. وتفسير البغوي 2131. وتفسير القرطبي 757. ومجموع الفتاوى 4234. وتفسير ابن كثير 2177. وشرح الطحاوية ص 168. ولوامع الأنوار 2223.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "وكفار الجن يدخلون النار بالنص والإجماع. وأما مؤمنوهم فجمهور العلماء على أنهم يدخلون الجنة. وجمهور العلماء على أن الرسل من الإنس، ولم يبعث من الجن رسول، لكن منهم النذر". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 363. وانظر مجموع الفتاوى 4234،، 1938-39.
4 سورة يوسف، الآية 109.

وعن الحسن البصري قال: لم يبعث الله نبيا من أهل البادية، ولا من الجن، ولا من النساء. ذكره عنه طائفة، منهم: البغوي1، وابن الجوزي2.
إسلام الجن واجتماعهم برسول الله صلى الله عليه وسلم
وقال قتادة: ما نعلم أن الله أرسل رسولا قط، إلا من أهل القرى؛ لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمور. رواه ابن أبي حاتم، وذكره طائفة3.
ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد أرسل إلى الثقلين4، وقد آمن به من آمن من جن نصيبين5، فسمعوا القرآن، وولوا إلى قومهم منذرين، ثم أتوا فبايعوه على الإسلام بشعب معروف بمكة6 بين

---

1 لم أجد في تفسير البغوي ما أشار إليه الشيخ رحمه الله؛ لا عند تفسير سورة الأنعام، الآية 130، ولا عند تفسير سورة يوسف، الآية 109.
2 انظر: زاد المسير لابن الجوزي 4295. وانظر: تفسير القرطبي 9180.
3 انظر: زاد المسير 4295. وتفسير القرطبي 9180. وتفسير ابن كثير 2496.
4 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا: "وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين، وسائر طوائف المسلمين؛ أهل السنة والجماعة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين". مجموع الفتاوى 199. وانظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 363.
5 نصيبين - بالفتح ثم الكسر - مدينة تقع بين دمشق والموصل، فتحها المسلمون سنة 17 هـ. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي 5288.
6 الشعب - بالكسر - واحد الشعاب، للطريق بين جبلين، أو ما انفرج بينهما، أو مسيل الماء في بطن من الأرض له جرفان مشرفان، وأرضه بطحة. وقد يضاف إلى عدد من الأماكن.
انظر المعالم الأثرية في السنة والسيرة ص 150.
وهو شعب الحجون، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بت الليلة أقرأ على الجن واقفا بالحجون) رواه الطبري. وفي بعض الروايات أنه شعب يقال له: شعب الحجون.
انظر: تفسير الطبري 2631، 33. وتفسير ابن كثير 4164-166.

الأبطح1، وبين جبل حراء2، وسألوه الطعام لهم ولدوابهم، فقال: "لكم كل عظم ذكر اسم [الله] 3 عليه أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم"، قال النبي صلى الله عليه وسلم:"فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن" 4.
والأحاديث بذلك كثيرة مشهورة5 في الصحيح، والسنن،

---

1 الأبطح - بفتح الأول، ثم سكون الباء، وفتح الطاء - كل مسيل ماء فيه دقاق الحصى، فهو أبطح. والأبطح والبطحاء أيضا: الرمل المنبسط على وجه الأرض. والأبطح يضاف إلى مكة، وإلى منى؛ لأن المسافة بينه وبينها واحد، وربما كان إلى منى أقرب.
قال ياقوت: وهو المحصب، وهو خيف بني كنانة. قال أبو رافع - وكان على ثقل النبي صلى الله عليه وسلم: لم يأمرني أن أنزل الأبطح، ولكن ضربت قبته، فنزله. والأبطح اليوم داخل مكة، ويسمى العدل.
انظر: معجم البلدان 174. والمعالم الأثرية في السنة والسيرة ص 16.
2 حراء - بكسر الحاء -: جبل، ويسمى جبل النور، ويقع في الشمال الشرقي من مكة المكرمة؛ وفيه الغار الذي كان يتعبد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه نزلت عليه أول سورة من القرآن. وقد وصل إليه اليوم بنيان مكة.
انظر: معجم البلدان 2233. والمعالم الأثرية في السنة والسيرة ص 98.
3 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
4 أخرجه مسلم في صحيحه 1322، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح، والقراءة على الجن.
5 وقد ساق الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره، عند قوله تعالى: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن..} من سورة الأحقاف، كثيرا من الروايات في بدء إسلام الجن، ووفودهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر: تفسير ابن كثير 4162-171.
ومن أشهر هذه الأحاديث وأصحها في إسلام الجن، وبداية معرفتهم برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في أول أمر النبوة، وإنطلاقهم إلى قومهم منذرين: ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: "انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: {فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: { {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن..} سورة الجن، الآية 1.
أخرجه البخاري في صحيحه 1267-268، كتاب صفة الصلاة، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر. و 41873-1874، كتاب التفسير، باب سورة: قل أوحي إلي. ومسلم في صحيحه 1323، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقرآن في الصبح والقراءة على الجن.
أما وفود الجن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقراءته عليهم القرآن: فما رواه علقمة قال: أنا سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير، أو اغتيل. قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن. قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم". أخرجه مسلم في صحيحه 1322، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح، والقراءة على الجن.

والمسند، وكتب التفسير والفقه، وغيرها1.
وقد روى الترمذي وغيره أنه قرأ عليهم سورة الرحمن، وهي خطاب للثقلين2.

---

1 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في موضع آخر أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بعث إلى الثقلين، واستمع الجن لقراءته، وولوا إلى قومهم منذرين؛ كما أخبر الله عز وجل. وهذا متفق عليه بين المسلمين. ثم أكثر المسلمين من الصحابة والتابعين وغيرهم يقولون: إنهم جاؤوه بعد هذا، وأنه قرأ عليهم القرآن، وبايعوه، وسألوه الزاد لهم ولدوابهم، فقال لهم: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يعود أوفر ما يكون لحما، ولكم كل بعرة علف لدوابكم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن"، وهذا ثابت في صحيح مسلم وغيره من حديث ابن مسعود..) .
ثم ساق رحمه الله تعالى الأحاديث التي تدل على دعوته صلى الله عليه وسلم للجن، وقال إثرها: "وقد ثبت بهذه الأحاديث الصحيحة أنه خاطب الجن، وخاطبوه، وقرأ عليهم القرآن، وأنهم سألوه الزاد. وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أنه كان يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير الجن ولا خاطبهم، ولكن أخبره أنهم سمعوا القرآن. وابن عباس قد علم ما دل عليه القرآن من ذلك، ولم يعلم ما علمه ابن مسعود وأبو هريرة وغيرهما من إتيان الجن إليه ومخاطبته إياهم، وأنه أخبره بذلك في القرآن، وأمره أن يخبر به. وكان ذلك في أول الأمر لما حرست السماء، وحيل بينهم وبين خبر السماء، وملئت حرسا شديدا، وكان ذلك من دلائل النبوة ما فيه عبرة ... وبعد هذا أتوه وقرأ عليهم القرآن. وروي أنه قرأ عليهم سورة الرحمن، وصار كلما قال: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد". مجموع الفتاوى 1937-38. وانظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 361-362.
2 رواه الترمذي في جامعه 5399، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الرحمن. وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب. وقد أخرجه ابن جرير في تفسيره 27153-154. وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير 2914. وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 2150.

وقد [اتفق] 1 العلماء على أن كفارهم يدخلون النار2، كما أخبر الله بذلك في قوله: {قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها} 3، وقال الله تعالى: {لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين} 4، وقال: {لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} 5.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
2 قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن الجن: "وكافرهم معذب في الآخرة باتفاق العلماء. وأما مؤمنهم: فجمهور العلماء على أنه في الجنة. وقد روي أنهم يكونون في ربض الجنة يراهم الإنس من حيث لا يرونهم. وهذا القول مأثور عن مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد. وقيل: إن ثوابهم النجاة من النار، وهو مأثور عن أبي حنيفة. وقد احتج الجمهور بقوله: {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ، قالوا: فدل ذلك على تأتي الطمث منهم؛ لأن طمث الحور العين إنما يكون في الجنة". مجموع الفتاوى 1938-39.
وقال العلامة ابن مفلح في كتاب الفروع: "الجن مكلفون في الجملة إجماعا يدخل كافرهم النار إجماعا، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقا لمالك والشافعي رضي الله عنهما، لا أنهم يصيرون ترابا كالبهائم، وأن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافا لأبي حنيفة والليث بن سعد ومن وافقهما. قال: وظاهر الأول يعني قول الإمام أحمد ومالك والشافعي رضي الله عنهم أنهم في الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم، خلافا لمن قال: لا يأكلون، ولا يشربون فيها، كمجاهد، أو أنهم في ربض؛ أي حول الجنة، كعمر بن عبد العزيز". لوامع الأنوار البهية 2222-223.
وانظر: شرح النووي على مسلم 4169. ومجموع الفتاوى 1938. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 363. ودقائق التفسير - رسالة الفرقان بين الحق والباطل - 3138.
3 سورة الأعراف، الآية 38.
4 سورة ص، الآية 85.
5 سورة هود، الآية 119.

أقوال العلماء في مؤمني الجن

وأما مؤمنوهم: فأكثر العلماء على أنهم يدخلون الجنة1.

وقال طائفة: بل يصيرون ترابا كالدواب2. والأول أصح، وهو قول الأوزاعي، وابن أبي ليلى3، وأبي يوسف4، ومحمد5، ونقل ذلك عن مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وهو قول أصحابهم6.

---

1 انظر: تفسير الطبري 27151. وشرح النووي على مسلم 4169. ومجموع الفتاوى 4233، 1386، 1938-39. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 363. وتفسير ابن كثير 4171. وفتح الباري 6398. وروح المعاني للآلوسي 2633.

2 انظر: شرح النووي على مسلم 4169. ومجموع الفتاوى 4234، 1938. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 363. ودقائق التفسير - رسالة الفرقان بين الحق والباطل - 3138.وتفسير ابن كثير 4170-171. وفتح الباري 6398 (وأشار إلى أنه قول أبي حنيفة) . وروح المعاني للآلوسي 2633.

3 هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار، وقيل داود بن بلال الأنصاري الكوفي. قاض فقيه، من أصحاب الرأي. ولي القضاء والحكم بالكوفة لبني أمية، ثم لبني العباس، واستمر 33 سنة. قال الذهبي: كان نظيرا للإمام أبي حنيفة في الفقه. قال أحمد: كان سيء الحفظ، مضطرب الحديث، وكان فقهه أحب إلينا من حديثه. ولد سنة 74 هـ، وتوفي بالكوفة سنة 148 هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء 6310. والأعلام 6189.

4 سبقت ترجمته.

5 هو محمد بن الحسن بن فرقد، من موالي بني شيبان، أبو عبد الله، إمام في الفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة. وروى عن الإمام مالك والأوزاعي، وأخذ عنه الشافعي فأكثر جدا. ولد بواسط سنة 131هـ، ونشأ بالكوفة، وتوفي بالري سنة 189 هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء 9134. وشذرات الذهب 1321. والأعلام 680.

6 قال ابن حجر: "وذهب الجمهور إلى أنهم يثابون على الطاعة، وهو قول الأئمة الثلاثة، والأوزاعي، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وغيرهم". فتح الباري6398. وانظر مجموع الفتاوى 1386.

واحتج عليه الأوزاعي وغيره بقوله: {ولكل درجات مما عملوا} 1، بعد ذكره أهل الجنة وأهل النار، من الجن والإنس2، كما قال في سورة الأنعام، وفي الأحقاف: {ولكل درجات مما عملوا} ، بعد ذكر أهل الجنة والنار3. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم4: درجات أهل النار تذهب سفولا، ودرجات أهل الجنة تذهب صعودا5.

فنبينا صلى الله عليه وسلم هو مع الجن كما هو مع الإنس. [والإنس] 6 معه إما مؤمن به، وإما مسلم له، وإما مسالم له، وإما خائف منه.

---

1 سورة الأنعام، الآية 132. وسورة الأحقاف، الآية 19.

2 في كتاب الفرقان بين الحق والباطل، ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن ابن أبي ليلى، وأبا يوسف هما اللذان احتجا بهذه الآية. أما الأوزاعي فقد ذكر أن حجته قوله تعالى: {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} من سورة الرحمن.

انظر الفرقان بين الحق والباطل - ضمن دقائق التفسير 3139 - ومجموع الفتاوى 1386.

3 وقد أورد الحافظ ابن كثير رحمه الله على مسألة دخول مؤمني الجن الجنة أدلة قوية، وحقق المسألة في ذلك. فراجع تفسيره 4170-171. وانظر كلام العلامة ابن مفلح في هذه المسألة - وقد أورده السفاريني في لوامع الأنوار 2222-223.

4 هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني. جمع تفسيرا في مجلد، وكتابا في الناسخ والمنسوخ. قال الذهبي عنه: فيه لين. توفي سنة 182 هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء 8349. وشذرات الذهب 1297. والفهرست لابن النديم 1225.

5 انظر: تفسير الطبري 2620. ورسالة الفرقان بين الحق والباطل - ضمن دقائق التفسير 3139 -. ومجموع الفتاوى 1386.

6 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

مراتب الجن وأنواعهم

كذلك الجن منهم المؤمن به، ومنهم المسلم له مع نفاق، ومنهم المعاهد المسالم لمؤمني الجن، ومنهم الحربي الخائف من المؤمنين. وكان هذا أفضل مما أوتيه سليمان؛ فإن الله سخر الجن لسليمان تطيعه طاعة الملوك؛ فإن سليمان كان نبيا ملكا، مثل داود ويوسف. وأما محمد فهو عبد رسول، مثل إبراهيم وموسى وعيسى1 [عليهم السلام] 2، وهؤلاء أفضل من أولئك.

القسم الأول: المحمود

فأولياء الله المتبعون لمحمد إنما يستخدمون [الجن كما يستخدمون الإنس] 3 في عبادة [الله] 4 وطاعته، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يستعمل الإنس والجن، لا في غرض له [غير] 5 ذلك.

القسم الثاني: المباح

[و] 6 من الناس من يستخدم من يستخدمه من الإنس في أمور مباحة. كذلك فيهم من يستخدم الجن في أمور مباحة7، لكن هؤلاء لا يخدمهم

---

1 سبق مثل ذلك ص 157-158، 564. وانظر: مجموع الفتاوى 718، 182-11180، 306، 1389، 1951، 3435. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 104، 363. ورسالة الفرقان بين الحق والباطل - ضمن دقائق التفسير - 3140.

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "جلس جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك قال: أفملكا نبيا يجعلك، أو عبد ا رسولا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: بل عبد ا رسولا ". مسند الإمام أحمد 2231.

2 زيادة من ((ط)) .

3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

4 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

5 في ((خ)) : في. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

6 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

7 وهذا القسم الثاني من أقسام استخدام الإنس للجن، فقد تقدم أن القسم الأول يكون بأمر الإنس للجن بعبادة الله وطاعته. وهذا الثاني في استخدام لإنس للجن في أمور مباحة. وسيأتي الثالث، وفيه استخدام الإنس للجن في أمور محرمة.

الإنس والجن إلا بعوض؛ مثل أن يخدموهم كما يخدمونهم، أو يعينونهم على بعض مقاصدهم، وإلا فليس أحد من الإنس والجن يفعل شيئا إلا لغرض.

والإنس والجن إذا خدموا الرجل الصالح في بعض أغراضه المباحة؛ فإما أن يكونوا مخلصين يطلبون الأجر من الله، وإلا طلبوه منه؛ إما دعاؤه لهم، وإما نفعه لهم بجاهه، أو غير ذلك.

القسم الثالث: المذموم

والقسم الثالث: أن يستخدم الجن في أمور محظورة، أو بأسباب محظورة؛ مثل قتل نفس، وإمراضها بغير حق؛ ومثل منع شخص من الوطء؛ ومثل تبغيض شخص إلى شخص؛ ومثل جلب من يهواه الشخص إليه. فهذا من السحر.

وقد يقع مثله لكثير من الناس ولا يعرف السحر، بل يكون موافقا للشياطين على بعض أغراضهم؛ مثل شرك، أو بدعة وضلالة، أو ظلم، أو فاحشة؛ فيخدمونه ليفعل ما يهوونه.

وهذا كثير في عباد المشركين، وأهل الكتاب، وأهل الضلال من المسلمين.

وكثير من هؤلاء لا يعرف أن ذلك من الشياطين، بل يظنه من كرامات الصالحين.

ومنهم من يعرف أنه من الشياطين، ويرى أنه بذلك حصل له ملك، وطاعة، ونيل ما يشتهيه من الرياسة والشهوات، وقتل عدوه؛ فيدخل في

ذلك كما تدخل الملوك الظلمة في أغراضهم1.
وليس أحد من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة، كما كانت تطيع سليمان بتسخير من الله وأمر منه من غير معاوضة، كما أن الطير كانت تطيعه، والريح؛ قال تعالى: {ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور} 2.
والجن [كالإنس] 3، فيهم المؤمن المطيع، والمسلم الجاهل، أو المنافق، أو العاصي، وفيهم الكافر.
وكل ضرب يميل إلى بني جنسه، والذي أعطاه الله تعالى لسليمان خارج عن قدرة الجن والإنس؛ فإنه لا يستطيع [أحد] 4 أن يسخر الجن مطلقا لطاعته، ولا يستخدم [أحدا] 5 منهم إلا بمعاوضة؛ إما عمل مذموم تحبه الجن، وإما قول تخضع له الشياطين؛ كالأقسام، والعزائم6؛ فإن

1 انظر: مجموع الفتاوى 1178، 1391، 17457.
2 سورة سبأ، الآيتان 12-13.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : والإنس.
4 في ((م)) ، و ((ط)) : أحدا.
5 في ((م)) ، و ((ط)) : أحد.
6 العزائم: نوع من أنواع السحر. انظر: تفسير ابن كثير 1145.
وقد تحدث شيخ الإسلام رحمه الله عنها، وذكر حرمتها في موضع آخر فقال: "وعامة ما بأيدي الناس من العزائم والطلاسم والرقى التي لا تفقه بالعربية، فيها ما هو شرك بالجن. ولهذا نهى علماء المسلمين عن الرقى التي لا يفقه معناها لأنها مظنة الشرك، وإن لم يعرف الراقي أنها شر. وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: "اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك". مجموع الفتاوى 1913.

كل جني فوقه من هو أعلى منه، فقد يخدمون بعض [الناس] 1 طاعة لمن فوقهم؛ كما يخدم بعض الإنس لمن أمرهم سلطانهم بخدمته لكتاب معه منه، وهم كارهون طاعته. وقد يأخذون منه ذلك الكتاب ولا يطيعونه، وقد يقتلونه، أو يمرضونه؛ فكثير من الناس قتلته الجن2.
سبب صرع الجن للإنس
كما يصرعونهم، والصرع لأجل الزنا، وتارة يقولون إنه آذاهم؛ إما [بصب نجاسة] 3 عليهم، وإما بغير ذلك؛ فيصرعونه صرع عقوبة وانتقام.
وتارة يفعلون ذلك عبثا؛ كما [يعبث] 4 شياطين الإنس بالناس.
والجن أعظم شيطنة، وأقل عقلا، وأكثر جهلا. والجني قد يحب الإنسي، كما يحب الإنسي الإنسي، وكما يحب الرجل المرأة، والمرأة الرجل، ويغار عليه، ويخدمه بأشياء. وإذا صار مع غيره، فقد يعاقبه بالقتل وغيره. كل هذا واقع5.
ثم الذي يخدمونه تارة يسرقون له شيئا من أموال الناس، مما لم يذكر اسم الله عليه، ويأتونه إما [بطعام] 6، وإما شراب، وإما لباس، وإما نقود، وإما غير ذلك. وتارة يأتونه في المفاوز بماء عذب وطعام وغير ذلك7.

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 338، 350-351.
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 في ((خ)) : بعثت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 انظر: مجموع الفتاوى 182، 173-174، 1382، 1934-35. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 350.
6 في ((ط)) : بؤعام.
7 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله قصصا عديدة عن هذه الحالات، من تلك قوله: "وآخرون كانت الشياطين تأتيهم بأطعمة يسرقونها من حوانيت الناس، وجرى هذا لغير واحد في زماننا وغير زماننا. وأتى قوم بحلاوة من الهواء، وعرفت تلك

الحلاوة المسروقة وفقدها صاحبها، ووصفت الآنية التي كانت فيها، فرد ثمنها إليه. وهذه الأمور وأمثالها معلوم لنا بالضرورة والتواتر. فإذا كانت الجن تحمل الإنسان من مكان إلى مكان بعيد في الهواء، وتحمل إليه الأموال من مكان بعيد، وتخبره بأمور غائبة عن الحاضرين، علم أن هذه الخوارق ليست من قوى النفوس، بل بفعل الجن. وإذا كانت الجن تفعل مثل هذا، فالملائكة أعلى منها وأقدر، وأكمل وأفضل". كتاب الصفدية 1192.

وانظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 82، 85، 226، 352-353. ومجموع الفتاوى 1371، 77، 92، 19135. وجامع الرسائل1192، 194. والجواب الصحيح 2342.

خوارق الشياطين سببها الشرك والظلم

وليس شيء من ذلك من معجزات [الأنبياء] 1، ولا كرامات الصالحين؛ فإن ذلك إنما يفعلونه بسبب شرك وظلم وفاحشة. وهو لو كان مباحا لم يجز أن يفعل بهذا السبب، فكيف إذا كان في نفسه ظلما محرما، لكونه من الظلم، والفواحش، ونحو ذلك. وقد يخبرون بأمور غائبة مما رأوه وسمعوه، ويدخلون في جوف الإنسان2؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم"3.

---

1 في ((خ)) : الأولياء. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

2 قال شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر موضحا ذلك: "كما يدخل الشيطان في بدن المصروع، ولهذا يزبد أحدهم كإزباد المصروع، ويصيح كصياحه، وذلك صياح الشياطين على ألسنتهم. ولهذا لا يدري أحد ما جرى منه حتى يفيق، ويتكلم الشيطان على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه الإنسان، ويدخل أحدهم النار وقد لبسه الشيطان، ويحصل ذلك لقوم من النصارى بالمغرب وغيرهم: تلبسهم الشياطين فيحصل لهم مثل ذلك. فهؤلاء المبتدعون المخالفون للكتاب والسنة أحوالهم ليست من كرامات الصالحين". مجموع الفتاوى 11665. وانظر: المصدر نفسه 11611.

3 الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 2715-716، كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، و 2717، كتاب الاعتكاف أيضا، باب زيارة المرأة لزوجها في اعتكافه، و 2717، كتاب الاعتكاف أيضا، باب هل يدرأ المعتكف عن نفسه. ومسلم في صحيحه 41712، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليا بامرأة وكانت زوجة أو محرما له أن يقول هذه فلانة.

لكن إنما سلطانهم كما قال الله: {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون} 1.

ولما قال الشيطان: {قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين} 2، قال الله تعالى: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان} ، ثم قال: {إلا [أي: لكن] 3 من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم} 45.

---

1 سورة النحل، الآيتان 99-100.

2 سورة الحجر، الآيتان 39-40.

3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .

4 سورة الحجر، الآيات 42-44.

5 فالشيطان حريص على إضلال الإنسان، وقصده - كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: "إغواءه بحسب قدرته، فإن قدر على أن يجعلهم كفارا جعلهم كفارا، وإن لم يقدر إلا على جعلهم فساقا أو عصاة، وإن لم يقدر إلا على نقص عملهم ودينهمببدعة يرتكبونها يخالفون بها الشريعة التي بعث الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم، فينتفع منهم بذلك". مجموع الفتاوى 182. وانظر: المصدر نفسه 1934-35، 41-42. والجواب الصحيح 2324. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 331-332.

الشياطين لا سلطان لهم على أهل الإخلاص وأسباب اندحارهم
فأهل الإخلاص والإيمان لا سلطان له عليهم1. ولهذا يهربون2 من البيت الذي [تقرأ] 3 فيه سورة البقرة4، [ويهربون من قراءة آية الكرسي5،

1 قال تعالى: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} [الإسراء، الآية 65] ، وقال تعالى: {إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون} [سورة النحل، الآية 100] .
وقد أورد ابن الجوزي رحمه الله عن الحسن البصري رحمه الله قصة الرجل الذي غضب لله فأراد أن يقطع شجرة تعبد من دونه، فلقيه إبليس، وأقنعه أن يتركها، وأن يعطيه دينارين كل يوم يجعلهما تحت وسادته. ثم بعد فترة لم يجد شيئا، فقام غضبان ليقطعها، فقال له الشيطان: "كذبت مالك إلى ذلك من سبيل، وخنقه حتى كاد يقتله، وقال: جئت أول مرة غضبا لله، فلم يكن لي عليك من سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها. فلما جئت غضبا للدينارين سلطت عليك". تلبيس إبليس ص 44.
2 أي الشياطين.
3 في ((خ)) : يقرأ. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة".
أخرجه مسلم في صحيحه1539، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد. والترمذي في جامعه 5157، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
وروى الدارمي في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله صراط ". سنن الدارمي 2539.
5 عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، وأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.. - فذكر الحديث، وفيه قول الرجل لأبي هريرة: "إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال معك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقص أبو هريرة على النبي صلى الله عليه وسلم القصة فقال له: "صدقك وهو كذوب، ذاك الشيطان". صحيح البخاري 41914، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة.
وانظر كلام الشيخ رحمه الله عن تأثير آية الكرسي في دفع الشيطان في مجموع الفتاوى 1955.

وآخر1 سورة البقرة] 2، وغير ذلك من قوارع القرآن3.
ومن الجن من يخبر بأمور مستقبلة للكهان، وغير الكهان، مما [يسترقونه] 4 من السمع.
والكهانة كانت ظاهرة [كثيرة] 5 بأرض العرب، فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين، وبطلت، أو قلت.
الشياطين تظهر في المواضع التي يخفى فيها أثر التوحيد
ثم إنها تظهر في المواضع التي يخفى فيها أثر التوحيد6.

1 فعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه". صحيح البخاري 41914، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة. وصحيح مسلم 1554-555، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة.
2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
3 مثل ما روته عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم: "كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما: {قل هو الله أحد} و {قل أعوذ برب الفلق} و {قل أعوذ برب الناس} ، ث م مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات". صحيح البخاري 41916، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات. وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء.
وانظر كلام المؤلف في دفع الشياطين في مجموع الفتاوى 1169-171، 1953-55.

4 في ((م)) ، و ((ط)) : يسرقونه.
5 في ((ط)) : كثيرا.
6 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في مواضع كثيرة أن أحوال المشعوذين تكثر حيث يكثر الجهل، ويخفى أثر التوحيد. انظر ما سبق ص 190. وكتاب الصفدية 1233، 236. والرد على المنطقيين ص 187. ومجموع الفتاوى 11456-457، 17459، 489. ومنهاج السنة 3447، 8311. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 169.
وقد كان حول المدينة بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم كهان يتحاكمون إليهم، وكان أبو بردة بن نيار كاهنا، ثم أسلم بعد ذلك، وهو من أسلم1.
والأصنام لها شياطين كانت تتراءى [للسدنة] 2 [أحيانا، وتكلمهم أحيانا.
قال أبي بن كعب: "مع كل صنم جنية"3.
وقال ابن عباس: "في كل صنم شيطان، تتراءى للسدنة] 4 فتكلمهم"5.

---

1 سبقت ترجمته.
إلا أن المشهور أن اسمه أبو برزة الأسلمي بدل أبو بردة.
وانظر حلية الأولياء 232-34. ومجموع الفتاوى 1383.
2 في ((ط)) : للسنة.
3 انظر: تفسير البغوي 1481. وزاد المسير 2118. وتفسير ابن كثير 1555 "ذكره عن ابن أبي حاتم بإسناده إلى أبي بن كعب". والرد على المنطقيين ص 284.
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 انظر: تفسير البغوي 1481. وزاد المسير 2118. وتفسير القرطبي 5248. والرد على المنطقيين ص 284.
وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى العزى، وهي شجرة بغطفان كانوا يعبد ونها، فجعل خالد بن الوليد يضربها بالفأس ويقول: يا عز كفرانك لا سبحانك.... إني رأيت الله قد أهانك
فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها، داعية بويلها، واضعة يدها على رأسها.
ويقال: إن خالدا رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قد قلعتها. فقال: قال: ما رأيت؟ قال: ما رأيت شيئا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما قلعت. فعاودها ومعه المعول فقلعها واجتث أصلها، فخرجت منها امرأة عريانة، فقتلها، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأخبره بذلك، فقال: تلك العزى، ولن تعبد أبدا".
انظر: تفسير البغوي 4249. وإغاثة اللهفان 2222-226. وتفسير ابن كثير4253-254. والدين الخالص 2242.

والشياطين كما قال الله تقترن بما يجانسها؛ بأهل الكذب والفجور، قال تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} 1.
فكيف يجوز أن يقال: إن مثل هذا يكون معجزة لنبي، أو كرامة لولي؟!. وهذا يناقض الإيمان ويضاده! والأنبياء والأولياء أعداء هؤلاء، قال تعالى: {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير} 2.
وقال تعالى: {ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون} 3.
وهذا يظهر الفرق بين أخبار الأنبياء عن الغيب ما لا سبيل لمخلوق إلى علمه إلا منه، كما قال تعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا} 4.
فقوله: {على غيبه} : هو غيبه الذي اختص به.

---

1 سورة الشعراء، الآيات 221-223.
2 سورة فاطر، الآية 6.
3 سورة يس، الآيات 60-62.
4 سورة الجن، الآيات 26-28.

وأما ما يعلمه بعض المخلوقين: فهو غيب عمن لم يعلمه، وهو شهادة لمن علمه.
فهذا أيضا تخبر منه الأنبياء بما لا يمكن الشياطين أن تخبر به، كما في إخبار المسيح بقوله: {وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم} 1؛ فإن الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس، وبما يدخرونه، لكن الشياطين إنما تتسلط على من لا يذكر اسم الله؛ كالذي لا يذكر اسم الله إذا دخل، فيدخلون معه، وإن لم يذكر اسم الله إذا أكل، فإنهم يأكلون معه.
وكذلك إذا ادخر شيئا، ولم يذكر اسم الله عليه، عرفوا به، وقد يسرقون بعضه، كما جرى هذا لكثير من الناس2.
وأما من يذكر اسم الله على [طعامه] 3، وعلى ما يختاره، فلا سلطان لهم عليه، لا يعرفون ذلك، ولا يستطيعون أخذه4.

1 سورة آل عمران، الآية 49.
2 قال شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر: "فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم؛ إما تغوير ماء من المياه، أو إما أن يحمل في الهواء إلى بعض الأمكنة، وإما أن يأتيه بمال من أموال بعض الناس، كما تسرقه الشياطين من أموال الخائنين ومن لم يذكر اسم الله عليه، وتأتي به، وإما غير ذلك. وأعرف في كل نوع من هذه الأنواع من الأمور المعينة، ومن وقعت له ممن أعرفه، ما يطول حكايته، فإنهم كثيرون جدا". مجموع الفتاوى 1953.
3 في ((ط)) : طعام.
4 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء. وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء".
أخرجه مسلم في صحيحه 31598، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.
وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان جنح الليل، أو أمسيتم، فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهبت ساعة من الليل فخلوهم، وأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله فإن الشيطان لا يفتح بابا مغلقا".
أخرجه البخاري في صحيحه31203، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده. وأحمد في مسنده 3301، 306، 319.

والمسيح عليه السلام كان يخبر المؤمنين بما يأكلون وما يدخرون مما ذكر اسم الله عليه، والشياطين لا تعلم به1.
ولهذا من [تكون] 2 أخباره عن شياطين تخبره، لا يكاشف أهل الإيمان والتوحيد، وأهل القلوب المنورة بنور الله، بل يهرب منهم، ويعترف أنه لا يكاشف هؤلاء وأمثالهم.
خوارق الشياطين لأوليائهم لا تظهر أمام أهل القرآن والإيمان
وتعترف الجن والإنس الذين خوارقهم بمعاونة الجن لهم [أنهم] 3 لا يمكنهم أن يظهروا هذه الخوارق بحضرة أهل الإيمان والقرآن، ويقولون:

1 قال الإمام الطبري رحمه الله موضحا الفرق بين علم الأنبياء وما يعلمه الشياطين: "فإن قال قائل: وما كان في قوله لهم: {وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم} [سورة آل عمران، 49] من الحجة له على صدقه، وقد رأينا المتنجمة والمتكهنة تخبر بذلك كثيرا فتصيب؟ قيل: إن المتنجم والمتكهن معلوم منهما عند من يخبره بذلك أنهما ينبئان به عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه، ولم يكن ذلك كذلك من عيسى صلوات الله عليه، ومن سائر أنبياء الله ورسله، وإنما كان عيسى يخبر به عن غير استخراج ولا طلب لمعرفته باحتيال، ولكن ابتدأ بإعلام الله إياه من غير أصل تقدم ذلك احتذاه أو بنى عليه، أو فزع إليه كما يفزع المتنجم إلى حسابه والمتكهن إلى رئيه، فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنه، وبين علم سائر المتكذبة على الله أو المدعية علم ذلك". تفسير الطبري 3278. وانظر أيضا روح المعاني للآلوسي 3170-171.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : يكون.
3 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

أحوالنا لا تظهر قدام الشرع والكتاب والسنة، وإنما [تظهر] 1 عند الكفار والفجار2؛ وهذا لأن أولئك أولياء الشياطين، ولهم شياطين يعاونون شياطين المخدومين3، ويتفقون على ما يفعلونه من الخوارق الشيطانية؛ كدخول النار مع كونها لم [تصر] 4 عليهم بردا وسلاما؛ فإن الخليل لما ألقي في النار، صارت عليه بردا وسلاما.

وكذلك أبو مسلم الخولاني، لما [قال] 5 له الأسود العنسي المتنبي: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. فأمر بنار، فأوقدت له، وألقي فيها، فجاءوا إليه، فوجدوه يصلي فيها، وقد صارت عليه بردا وسلاما. فقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذه عمر، فأجلسه بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد من فعل به كما فعل بإبراهيم6.

1 في ((خ)) : يظهر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 وقد أقر أهل البدع بذلك، فقال شيخ البطائحية الذين ناظرهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وحكى عنهم: "وقال شيخهم الذي يسيح بأقطار الأرض كبلاد الترك ومصر وغيرها: أحوالنا تظهر عند التتار، لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله، وإنهم نزعوا الأغلال من الأعناق وأجابوا إلى الوفاق". مجموع الفتاوى 11455.
وانظر اعتراف الشاذلي بقوله: "كما نرى في زمننا هذا من إنكار ابن تيمية علينا، وعلى إخواننا من العارفين". طبقات الصوفية للشعراني 17.
3 انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 331. ومجموع الفتاوى 1385، 91.
4 في ((خ)) : يصر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((ط)) : قالا.
6 الاستيعاب لابن عبد البر 4194. وانظر: حلية الأولياء 2129. وجامع العلوم والحكم ص 322. والجواب الصحيح 1325. وسير أعلام النبلاء 47. والبداية والنهاية 8149.

وأما إخوان الشياطين: فإذا دخلت فيهم الشياطين، فقد يدخلون النار، ولا تحرقهم؛ كما يضرب أحدهم ألف سوط، ولا يحس بذلك؛ فإن الشياطين تلتقي ذلك.

طرق خروج الجن من الإنس

وهذا أمر كثير معروف، قد رأينا من ذلك ما يطول وصفه1. وقد ضربنا نحن من الشياطين في الإنس ما شاء الله، حتى خرجوا من الإنس، ولم يعاودوه2.

وفيهم من يخرج بالذكر والقرآن.

وفيهم من يخرج بالوعظ والتخويف.

وفيهم من لا يخرج إلا بالعقوبة؛ كالإنس3.

الشياطين يخافون الرجل الصالح أعظم مما يخافه فجار الإنس

فهؤلاء الشياطين إذا كانوا مع جنسهم، الذين لا يهابونهم، فعلوا هذه الأمور. وأما إذا كانوا عند أهل [إيمان] 4 وتوحيد، وفي بيوت الله التي

1 انظر: الجواب الصحيح 2342. ومجموع الفتاوى 11495، 574-575.
2 وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن الصرع يكون أحيانا بالتواطئ ما بين الشياطين، وبعض الإنس ممن يدعي إخراج الجن من بدن المصروع، فقال رحمه الله: "وشيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس، فيأتي أهل ذلك المصروع إلى الشيخ يطلبون منه إبراده، فيرسل إلى أتباعه فيفارقون ذلك المصروع، ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة". جامع الرسائل 1194.
وانظر ما سبق من الكلام عن صرع الجن للإنس ص 1004-1005 من هذا الكتاب. وانظر: مجموع الفتاوى 11574-575، 1960. ودقائق التفسير 3137.
3 انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 331.
4 في ((خ)) : الإيمان. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

يذكر فيها اسمه، لم [يجترئوا] 1 على ذلك، بل يخافون الرجل الصالح أعظم مما [يخافه] 2 فجار الإنس. ولهذا لا يمكنهم عمل سماع المكاء والتصدية في المساجد المعمورة بذكر الله، ولا بين أهل الإيمان والشريعة المتبعين للرسول. إنما يمكنهم ذلك في الأماكن التي [يأتيها] 3 الشياطين؛ كالمساجد المهجورة، والمشاهد، والمقابر، والحمامات، والمواخير.

فالمواضع التي نهى النبي [صلى الله عليه وسلم] 4 عن الصلاة فيها؛ كالمقبرة، وأعطان الإبل، والحمام، وغيرها5، فتكون حال هؤلاء فيها أقوى لأنها؛ مواضع الشياطين؛ [كالمجزرة] 6، والمزبلة، والحمام، ونحو ذلك، بخلاف الأمكنة التي ظهر فيها الإيمان والقرآن والتوحيد، التي أثنى الله على أهلها، وقال فيهم: {الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها [مصباح] 7

---

1 في ((خ)) رسمت: يخبروا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((م)) ، و ((ط)) : تخافه.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : تأتيها.
4 في ((خ)) رسمت: صلعم.
5 عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "نهى أن يصلى في سبعة مواطن في المزبلة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، وفي الحمام، وفي معاطن الإبل، وفوق ظهر بيت الله".
رواه الترمذي في جامعه 2177-178، كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في كراهية ما يصلى إليه، وفيه. وقال أبو عيسى: وحديث ابن عمر إسناده ليس بذاك القوي، وقد تكلم في زيد بن جبيرة من قبل حفظه. وابن ماجه في سننه 1246، كتاب الطهارة، باب المواضع التي تكره فيها الصلاة.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : كالماخورة.
7 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .

المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري [يوقد] 1 من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب} 2
الأماكن والأزمان التي لا تتسلط فيها الشياطين
فهذه أمكنة النور والصالحين والملائكة، لا تتسلط عليها الشياطين بكل ما تريد، بل كيدهم فيها ضعيف، كما أن كيدهم في شهر رمضان ضعيف3؛ إذ كانوا فيه يسلسلون4، لكن لم يبطل فعلهم بالكلية، بل

---

1 في ((خ)) : توقد.
2 سورة النور، الآيات 35-38.
3 قال شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين"، فإن مجاري الشياطين الذي هو الدم ضاقت، وإذا ضاقت انبعثت القلوب إلى فعل الخيرات التي بها تفتح أبواب الجنة، وإلى ترك المنكرات التي بها تفتح أبواب النار، وصفدت الشياطين فضعفت قوتهم وعملهم بتصفيدهم، فلم يستطيعوا أن يفعلوا في شهر رمضان ما كانوا يفعلونه في غيره. ولم يقل: إنهم قتلوا، ولا ماتوا، بل قال: صفدت. والمصفد من الشياطين قد يؤذي، لكن هذا أقل وأضعف مما يكون في غير رمضان، فهو بحسب كمال الصوم ونقصه. فمن كان صومه كاملا دفع الشيطان دفعا لا يدفعه دفع الصوم الناقص. فهذه المناسبة ظاهرة في منع الصائم من الأكل والشرب. والحكم ثابت على وفقه". مجموع الفتاوى 25246-247.
4 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان رمضان فتحت أبواب الرحمة، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين". الحديث أخرجه البخاري 2672، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان، أو شهر رمضان، ومن رأى كله واسعا. و 31194، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده. ومسلم في صحيحه - واللفظ له - 2758، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان.

ضعف، فشرهم فيه على أهل الصوم قليل، بخلاف أهل [الشراب] 1، وأهل الظلمات؛ فإن الشياطين هنالك محالهم، وهم يحبون الظلمة، ويكرهون النور، ولهذا ينتشرون بالليل؛ كما جاء في الحديث الصحيح2، ولهذا أمر الله بالتعوذ من شر غاسق إذا وقب3.
وخوارق الجن؛ كالإخبار ببعض الأمور الغائبة؛ وكالتصرفات الموافقة لأغراض

بعض الإنس: كثيرة، [معروفة في جميع الأمم؛ فقد كانت في

1 في ((خ)) : السراب. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا استجنح الليل أو كان جنح الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم، وأغلق بابك، واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك، واذكر اسم الله، وأوك سقاءك، واذكر اسم الله، وخمر إناءك، واذكر اسم الله، ولو تعرض عليه شيئا". صحيح البخاري 31195، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده. وأحمد في مسنده3319.
3 قال تعالى: {قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب} سورة الفلق.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن الغاسق قد فسر بالليل، كقوله: {أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل} وهذا قول أكثر المفسرين وأهل اللغة.... والليل مظلم تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار؛ من أنواع الكفر والفسوق والعصيان، والسحر، والسرقة، والخيانة، والفواحش، وغير ذلك. فالشر دائما مقرون بالظلمة. ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر ويدعونه، والقمر وعبادته. وأبو معشر البلخي له مصحف القمر يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه". دقائق التفسير 6497.

العرب كثيرة] 1، وكذلك في الهند، وفي الترك، والفرس، والبربر، وسائر الأمم2، فهي أمور معتادة للجن والإنس.
آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الجن والإنس
خوارق الشياطين علامة على فجور أوليائهم
وآيات الأنبياء - كما تقدم3 - خارجة عن مقدور الإنس والجن؛ فإنهم مبعوثون إلى الإنس والجن، فيمتنع أن تكون آياتهم أمورا معروفة فيمن بعثوا إليه؛ إذ يقال: هذه موجودة كثيرا للإنس، فلا يختص بها الأنبياء. بل هذه الخوارق هي آية وعلامة على فجور صاحبها وكذبه، فهي ضد آيات الأنبياء التي تستلزم صدق صاحبها وعدله.
ولهذا يكون كثير من الذين تخدمهم الشياطين من أهل الشياطين.
وهذا معروف لكثير ممن تخدمه الشياطين.
بل من طوائف المخدومين من يكونون كلهم من هذا الباب؛ [كالبوي] 4 الذي للترك5.

1 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) .
2 انظر: الجواب الصحيح 2319، 321، 342-343. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 83، 124، 169.
3 انظر ما تقدم من هذا الكتاب ص 589-632، 671-674، 754، 798، 799، 1003، 1021.
4 في ((م)) : كالبويي. وفي ((ط)) : كالبوبي. ولعلها (كالبوى) - بالألف المقصورة.
5 ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في موضع آخر أن للترك شيخا يقال له: البوا. ينصب له مكان في ظلمة، فيذبحون ذبيحة للشيطان، ويغنون له، فتأتي الشياطين وتخاطبهم ببعض الأمور الغائبة؛ كأحوال غائبيهم، وسرقاتهم، وغير ذلك. ويحمل البوا فيوقف به في الهواء وهم يرونه، ولا يكون بينهم إذ ذاك مسلم، ولا كتاب فيه قرآن. هذا مشهور عندهم إلى هذا الوقت، أخبرنا به غير واحد. انظر: كتاب الصفدية 1191.
وقد سبق أن ذكر شيخ الإسلام رحمه الله باباه الرومي في ص 192، 600 من هذا الكتاب.
فهو المقصود بالبويي الذي للترك، أو البوا، أو باباه، وهي أسماء لشخص واحد من أولياء الشياطين الذين لهم خوارق تعينهم عليها.
وكذلك البوشي - أبو المجيب - فإنه ذكر أن له خوارق مثل خوارق البوا. انظر: جامع الرسائل 1193.

وأكثر [المؤلهين] 1 من هذا الباب، وهم يصعدون بهم في الهواء، ويدخلون المدن والحصون بالليل والأبواب مغلقة، ويدخلون على كثير من رؤساء الناس، و [يظنون] 2 أن هؤلاء صالحون قد طاروا في الهواء، ولا يعرف أن الجن طارت بهم.
الفرق بين الأحوال الشيطانية والآيات النبوية

وهذه الأحوال الشيطانية تبطل، أو تضعف، إذا ذكر الله وتوحيده، وقرئت قوارع القرآن؛ لا سيما آية الكرسي؛ فإنها تبطل عامة هذه الخوارق الشيطانية3.
وأما آيات الأنبياء والأولياء [فتقوى] 4 بذكر الله وتوحيده.
والجن المؤمنون قد يعينون المؤمنين بشيء من الخوارق، كما يعين الإنس المؤمنون للمؤمنين بما يمكنهم من الإعانة.
وما لا يكون إلا مع الإقرار بنبوة الأنبياء، فهو من آياتهم. فوجوده يؤيد آياتهم، لا يناقضها. مع أن آيات الأنبياء التي يدعون أعلى من هذا، وأعلى من كرامات الأولياء؛ فإن تلك هي الآيات الكبرى5.

---

1 في ((ط)) : لمؤلهين.
2 في ((خ)) : ويظن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 325، 326، 339. ومجموع الفتاوى 1169، 11538، 635، 1953-55.
4 في ((خ)) : فيقوى. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 سبق ذلك، انظر ما تقدم ص 581، 724، 801-963، 986-989،1021-1023، وما سيأتي من هذا الكتاب ص 1325. وانظر مجموع الفتاوى 3156.

الدعوات المجابة والرؤيا الصادقة لا ينكرها أحد
والذين ذكر عنهم إنكار كرامات الأولياء1 من المعتزلة وغيرهم؛ كأبي إسحاق الاسفرايني، وأبي محمد بن أبي زيد؛ وكما ذكر ذلك أبو محمد بن حزم2، لا ينكرون الدعوات المجابة، ولا ينكرون الرؤيا الصادقة؛ فإن هذا متفق عليه بين المسلمين3؛ وهو أن الله تعالى قد يخص بعض عباده بإجابة دعائه أكثر من بعض، ويخص بعضهم بما يريه من المبشرات. وقد كان سعد بن أبي وقاص معروفا بإجابة الدعاء؛ فإن النبي [صلى الله عليه وسلم] 4 قال: "اللهم سدد رميته، وأجب دعوته"5. وحكاياته في ذلك مشهورة6.

---

1 سبق ذلك في ص 148-149، 986 من هذا الكتاب.
2 انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل 52-4، 8. والمحلى 136. والدرة فيما يجب اعتقاده ص 192.
3 انظر إثبات الرؤيا، والدعوات المجابة عند ابن حزم، والمعتزلة في: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم 58، 14. والأصول والفروع له ص 134. وتفسير الزمخشري المعتزلي 2243.
ونقل السبكي عن الاسفراييني أنه قال: "وإنما بالغ الكرامات إجابة دعوة، أو موافاة ماء في بادية في غير موقع المياه، أو مضاهي ذلك، مما ينحط عن العادة". طبقات الشافعية 2315.
4 في ((خ)) : صلعم.
5 انظر: طبقات الشافعية للسبكي 2331. والبداية والنهاية لابن كثير 778.
وعند الترمذي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم استجب لسعد إذا دعاك". سنن الترمذي 5649، كتاب المناقب، باب مناقب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. والحاكم في مستدركه 3499، وصححه، ووافقه الذهبي.
6 انظر بعض هذه الدعوات التي دعا بها سعد، فاستجيب له في: البداية والنهاية 778-80. وسير أعلام النبلاء 1112-117.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لم يبق بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له"1.
وثبت عنه في الصحيح أنه قال: "إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره"2؛ ذكر ذلك لما أقسم أنس بن النضر أنه لا [تكسر] 3 ثنية الربيع4، [فاستجاب الله ذلك] 5.
[وأيضا: فإن منهم] 6 البراء بن مالك7؛ أخو أنس بن مالك، وكانوا

---

1 أخرجه البخاري في صحيحه - مع اختلاف في الألفاظ - 52564، كتاب التعبير، باب المبشرات.

ومسلم في صحيحه 1348، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود.
وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود.
وابن ماجه في سننه 21283، كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له.
ومالك في الموطأ 2957، كتاب الرؤيا، باب ما جاء في الرؤيا.
2 أخرجه البخاري في صحيحه2961-962، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، و 41636-1637، كتاب التفسير، باب {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص} ومسلم في صحيحه 31302، كتاب القسامة، باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها، إلا أنه وقع في صحيح مسلم أن أم الربيع هي التي أقسمت، وابنتها أم حارثة هي التي جرحت إنسانا.
3 في ((خ)) : يكسر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 هي الربيع بنت النضر الأنصارية الخزرجية، عمة أنس بن مالك. صحابية.
انظر تقريب التهذيب 2640.
5 في ((خ)) : وجاء ذلك. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : أيضا ومنهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 هو البراء بن مالك بن النضر الأنصاري. صحابي جليل، بطل شجاع، شهد أحدا وبايع تحت الشجرة. قيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أمراء الجيش: لا تستعملوا البراء على جيش فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم. استشهد يوم فتح تستر سنة 20 هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء 1195. والبداية والنهاية 788.

إذا اشتد الحرب، يقولون: يا براء أقسم على ربك، فيقسم على ربه، فينصرون1.
والقسم: قيل: هو من جنس الدعاء2، لكن هو طلب مؤكد بالقسم. فالسائل يخضع، ويقول: أعطني. والمقسم يقول: عليك لتعطيني، وهو خاضع سائل.
بعض المتصوفة يدعي لنفسه من الكرامات ما لا يجوز أن يكون للأنبياء
لكن من الناس من يدعي له من الكرامات ما لا يجوز أن يكون للأنبياء3؛

---

1 روى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء ابن مالك". سنن الترمذي 5692، كتاب المناقب، باب مناقب البراء بن مالك رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح حسن.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وكان البراء إذا اشتدت الحرب بين المسلمين والكفار يقولون: يا براء أقسم على ربك. فيقسم على الله، فتنهزم الكفار. فلما كانوا على قنطرة بالسوس، قالوا: يا براء أقسم على ربك، فقال: يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد. فأبر الله قسمه، فانهزم العدو، واستشهد البراء بن مالك يومئذ. وهذا هو أخو أنس بن مالك قتل مائة رجل مبارزة، غير من شرك في دمه، وحمل يوم مسيلمة على ترس، ورمي به إلى الحديقة حتى فتح الباب". مجموع الفتاوى 1205.
2 لم أجد هذا المعنى - في مادة قسم - في كتب اللغة التالية: لسان العرب، وتهذيب اللغة، والقاموس المحيط، والمفردات، والمصباح المنير.
وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا الموضوع بالتفصيل في مجموع الفتاوى1205-206.
3 شيخ الإسلام رحمه الله ينبه هاهنا على خرافات ملاحدة الصوفية الذين يضاهئون كرامات أوليائهم بأفعال الله تعالى، فيجعلونهم ينفعون ويضرون، ويحيون ويميتون.

كقول بعضهم: إن لله عبادا، لو شاءوا من الله أن لا يقيم القيامة، لما أقامها1.
وقول بعضهم: إنه يعطي كن، أي شيء أراده، قال له: كن، فيكون.
وقول بعضهم: لا يعزب عن قدرته ممكن، كما لا يعزب عن قدرة ربه محال؛ فإنه لما كثر في الغلاة من يقول بالحلول والاتحاد2 وإلهية بعض البشر، كما [قاله] 3 النصارى في المسيح، صاروا يجعلون ما هو من خصائص الربوبية لبعض البشر، وهذا كفر.

وأيضا: فإن كثيرا من الناس لا يكون من أهل الصلاح، و [يكون] 4 له خوارق شيطانية، كما لعباد المشركين وأهل الكتاب، فتتجلى لهم على أنها كرامات. فمن الناس من يكذب بها، ومنهم من يجعل أهلها [من] 5 أولياء

---

1 نقل الغزالي مثل هذه المقولة عن أحد أقطاب الصوفية الذين يجعلون الإرادة والمحبة والرضا سواء، والكفر والفسوق والعصيان يريده الله ويحبه ويرضى عنه، فقال: "ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال، اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا: لو سألت الله تعالى دفعهم؟ فسكت، ثم قال: إن لله عبادا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة، ولكن لا يفعلون. قيل: لم؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحب. ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يستطاع ذكرها، حتى قال: ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها". إحياء علوم الدين 4375-376.

2 وهم غلاة الصوفية وملاحدتهم؛ كابن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين، ومن قبلهم الحلاج، وغيرهم.

3 في ((ط)) : قال.

4 في ((م)) ، و ((ط)) : وتكون.

5 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

الله1، وذلك لأن الطائفتين ظنت أن مثل هذه الخوارق لا يكون إلا لأولياء الله، ولم يميزوا بين الخوارق الشيطانية التي هي جنس ما للسحرة، والكهان، ولعباد المشركين، وأهل الكتاب، وللمتنبئين الكذابين، وبين الكرامات الرحمانية التي يكرم الله بها عباده الصالحين.

فلما لم يميزوا بين هذا وهذا، وكان كثير من الكفار، والفجار، وأهل الضلال، والبدع لهم خوارق شيطانية، صار هؤلاء منهم حزبين؛ حزبا قد شاهدوا ذلك، وأخبرهم به من يعرفون صدقه، فقالوا: هؤلاء أولياء الله، وحزبا رأوا أن أولئك خارجون عن الشريعة، وعن طاعة الله ورسوله، فقالوا: ليس هؤلاء من الأولياء الذين لهم كرامات؛ فكذبوا بوجود ما رآه أولئك، وأولئك قد عاينوا ذلك أو تواتر عندهم؛ فصار تكذيب هؤلاء مثل تكذيب من ينكر السحر، والكهانة، والجن، وصرعهم للإنس2، إذا

---

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله: "والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام: قسم يكذب وجود ذلك لغير الأنبياء، وربما صدق به مجملا وكذب بما يذكر له عن كثير من الناس لكونه عنده ليس من الأولياء. ومنهم من يظن أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان وليا.

وكلا الأمرين خطأ، ولهذا نجد هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين، وأنهم من أولياء الله. وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة.

والصواب القول الثالث، وهو أن معهم من ينصرهم من جنهم، لا من أولياء الله.. فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله. ولكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضا. وإذا حصل من له تمكن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 342-343. وانظر مجموع الفتاوى 1377، 91.

2 وممن أنكر حقيقة السحر، وجعله من جنس التمويه والحيلة، وكذلك الكهانة: المعتزلة، وابن حزم، وغيرهم.

انظر: الكشاف للزمخشري 2103. والفصل لابن حزم 52-6. وانظر أيضا: شرح النووي على مسلم 14223. وتفسير القرطبي 232. وتفسير ابن كثير 1147 وفتح الباري10233. وتيسير العزيز الحميد ص 383. وأضواء البيان 4444.

وانظر عن إنكار المعتزلة صرع الجن للإنس ما سبق أيضا في هذا الكتاب ص 1003-1005. وكذا الفصل لابن حزم 59.

كذب ذلك عند من رأى ذلك، أو ثبت عنده.

ومن كذب بما تيقن غيره وجوده، نقصت حرمته عند هذا المتيقن، وكان عنده إما جاهلا، و [إما] 1 معاندا، فربما رد عليه كثيرا من الحق بسبب ذلك.

إنكار المعتزلة للكرامات والسحر والكهانة

ولهذا صار كثير من المنتسبين إلى زهد، أو فقر، أو تصوف، أو وله، أو غير ذلك، لا يقبلون قولهم، ولا يعبأون بخلافهم؛ لأنهم كذبوا بحق قد تيقنه هؤلاء، وأنكروا وجوده، وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه.

وقد يدخلون إنكار ذلك في الشرع، كما أدخلت المعتزلة ونحوهم إنكار كرامات الأولياء2، وإنكار السحر والكهانة في الشرع، بناء على أن ذلك يقدح في آيات الأنبياء3؛ فجمعوا بين التكذيب بهذه الأمور الموجودة، وبين عدم

1 في ((ط)) : تأما.
2 أنكر المعتزلة، وابن حزم، وبعض المتكلمين كرامات الأولياء، لأجل أن لا تلبس المعجزة بالكرامة، وقالوا: إن الخوارق لا تظهر إلا على يد الأنبياء.
انظر: المغني للقاضي عبد الجبار 15241. والمحلى لابن حزم 136. والأصول والفروع له ص 132-133. والدره له ص 194-195.
3 أنكر المعتزلة، وابن حزم حقيقة السحر، وقالوا: إنه عجائب وحيل، وقالوا: لو أن السحر حقيقة لما كان بين الأنبياء وبين السحرة والكهان فرق.
انظر: المغني للقاضي عبد الجبار 15241-242. والدره لابن حزم ص 192-194، 197. والأصول والفروع له ص 134-135. وتفسير القرطبي 232.

العلم بآيات الأنبياء والفرق بينها وبين غيرها؛ حيث ظنوا أن هذه الخوارق الشيطانية من جنس آيات الأنبياء، وأنها نظير لها، فلو وقعت لم يكن للأنبياء ما يتميزون به.
والذين ردوا على هؤلاء1 من الأشعرية ونحوهم، يشاركونهم في هذا في التسوية بين الجنسين2، وأنه لا فرق.
قول الأشاعرة في الخوارق
لكن هؤلاء لما تيقنوا وجودها، جعلوا الفرق ما ليس بفرق؛ وهو اقترانها بالدعوى، والتحدي بمثلها، وعدم المعارضة3. وهم يقولون: إنا نعلم بالضرورة أن الرب إنما خلقها لتصديق النبي4.
وهذا كلام صحيح، لكنه يستلزم بطلان ما أصلوه؛ من أنه لا يخلق شيئا لشيء5.

1 أي على المعتزلة.
2 أي لا فرق بين جنس آيات الأنبياء، وجنس خوارق السحرة والكهان.
فالمعتزلة أنكروا كرامات الأولياء، وخوارق السحرة والكهان، وشبهتهم: أنهم لو أثبتوها لما تميزت معجزات الأنبياء من بينها.
وأما الأشاعرة: فقد أثبتوا كرامات الأولياء، وخوارق السحرة والكهان، وجعلوها من جنس معجزات الأنبياء، إلا أن الولي والساحر لا يدعي النبوة بما أوتي من خوارق، ولو ادعى النبوة لأبطل الله تلك الخوارق.
3 هذا تعريف المعجزة عند الأشاعرة، كما تقدم ص 151-152، 1164.
4 انظر: الإرشاد للجويني ص 325، 329. والبرهان في أصول الفقه له أيضا1148-152.
5 سبق أن رد شيخ الإسلام رحمه الله على أصلهم هذا، وبين تناقضه مع قولهم في المعجزات (في ص 580-583 من هذا الكتاب) .

وأيضا: فاختصاصها بوجود العلم الضروري عندها دون غيرها، لا بد أن يكون لأمر أوجب [التخصيص] 1، وهم يقولون: بل قد تستوي الأمور، ويوجد العلم الضروي ببعضها دون بعض2؛ كما قالوا مثل ذلك في العادات: إنه يجوز إنخراقها كلها بلا سبب على أعظم الوجوه؛ كجعل الجبال يواقيت. لكن يعلم بالضرورة أن هذا لا يقع3. فكذلك قالوا في المعجزات: يجوز أن يخلقها على يد كاذب [..................] 4 إنما خلقها على يد الصادق بما ادعى من العلم الضروري صحيح5وأما قولهم: إن المعلوم به يماثل غيره. فغلط عظيم، بل هم لم يعرفوا الفرق، بمنزلة العامي الذي أوردت عليه شبهات السوفسطائية6؛ فهو يعلم بالضرورة أنها باطلة، ولكن لا يعرف الفرق بينها وبين الحق. ولكن العامي يقول: فيها فساد لا أعرفه، لا يقول: دلائل الحق كدلائل الباطل.

1 في ((ط)) : التصخيص.
2 انظر: البرهان في أصول الفقه للجويني 1153.
3 انظر: المواقف للإيجي ص 342، 345. وشرح المقاصد 515-18. وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي 2316-317.
والإرشاد للجويني ص 318-319. وانظر: الجواب الصحيح 6399-404، 500. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 1028-1033.

4 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : بياض في الأصل مقدار نصف سطر.
5 انظر: البرهان في أصول الفقه للجويني 1150. والإرشاد له ص 326-327. والمواقف للإيجي ص 341. وانظر: الجواب الصحيح 6399، 500-502. ومنهاج السنة النبوية 3226-228. وانظر ما سبق ص 777 من هذا الكتاب.
6 تقدم معناها ص 553.

وهؤلاء ادعوا الاستواء في نفس الأمر، فغلطوا غلطا عظيما1، ولو قالوا: بينهما فرق، لكنه لم يتلخص لنا، لكان قولهم حقا، وكانوا قد ذكروا عدم العلم، لا العلم بالعدم؛ كما يقول ذلك كثير من الناس؛ يقول: ما أعرف الفرق بينهما، وذلك أن العلم الضروري يحصل ببعض الأخبار دون بعض.
وقد قيل: إنا نعلم أنه متواتر بحصول علمنا الضروري به2.
والتحقيق: أنه إذا حصل [لهم] 3 علم ضروري، كان قد حصل الخبر الذي يوجبه لهم، وقد لا يحصل لغيرهم.
والعلم يحصل بعدد المخبرين، وبصفاتهم، وبأمور أخرى تنضم إلى الخبر4. ومن جعل الاعتبار بمجرد العدد فقد غلط5.
والأكثرون

---

1 أي أن الأشاعرة ادعوا الاستواء في جنس الخارق للأنبياء والأولياء والسحرة.
انظر: البيان للباقلاني ص 47-48. والإرشاد للجويني ص 328.
2 انظر: التمهيد لأبي الخطاب 316-17.
3 في ((م)) ، و ((ط)) : له.
4 انظر: التمهيد لأبي الخطاب 331. وشرح الكوكب المنير 3335. وأصول الفقه عند ابن تيمية1191. ومجموع الفتاوى 11340، 1848-51. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 888.
5 وانظر إلى من اشترط العدد، وإلى اختلافهم في العدد الذي يفيد التواتر في: التمهيد لأبي الخطاب 328-29. والعدة لأبي يعلى 3744. والمعتمد 2561. والمسودة ص 235. وشرح الكوكب المنير 2333. والبرهان في أصول الفقه للجويني 1569-570. ومجموع الفتاوى 1850-51. وأصول الفقه عند ابن تيمية 1252.

يقولون: العلم الحاصل به ضروري1. وقيل: إنه نظري2. وهو اختيار الكعبي3، وأبي الحسين4، وأبي الخطاب5.
كل علم نظري فمنتهاه أنه ضروري
والتحقيق: أنه قد يكون ضروريا، وقد يكون نظريا، وقد يجتمع فيه الأمران؛ يكون ضروريا، ثم إذا نظر فيه وجد أنه يوجب العلم. وكذلك العلم الحاصل عقب الآيات قد يكون ضروريا، وقد يكون نظريا، وكل نظري فإن منتهاه أنه ضروري6.
ولهذا قال أبو المعالي: المرتضى عندنا أن جميع العلوم ضرورية7؛ أي بعد حصول أسبابها، ولا بد من فرق في نفس الأمر بين ما يوجب العلم، وما لا يوجبه.
أصل خطأ المعتزلة والأشاعرة في الخوارق
وأصل خطأ الطائفتين: أنهم لم يعرفوا آيات الأنبياء، وما خصهم الله به، ولم يقدروا قدر النبوة، ولم يقدروا آيات الأنبياء قدرها، بل جعلوا هذه الخوارق الشيطانية من جنسها؛ فإما أن يكذبوا بوجودها، وإما أن يسووا بينهما، ويدعوا فرقا لا حقيقة له.

---

1 انظر: التمهيد لأبي الخطاب 322-23. والبرهان في أصول الفقه 1569. وشرح الطحاوية 1143.
2 انظر: التمهيد لأبي الخطاب 317، 23-28.
3 سبقت ترجمته.
4 سبقت ترجمته.
5 سبقت ترجمته.
6 انظر: البرهان في أصول الفقه للجويني 199، 111. ودرء تعارض العقل والنقل.
7 انظر: البرهان في أصول الفقه للجويني 1126. ومجموع الفتاوى 276-77.

ولهذا يوجد كثير ممن يكذب [بهذه] 1 الخوارق الشيطانية أن [تكون] 2 لبعض الأشخاص لما يراه من نقص دينه وعلمه، فإذا عاينها بعد ذلك أو ثبت عنده، خضع لذلك الشخص الذي كان عنده: إما كافرا، وإما ضالا، وإما مبتدعا جاهلا، وذلك لأنه أنكر وجودها [معتقدا أنها لا توجد إلا للصالحين، فلما تيقن وجودها] 3، جعلها دليلا على الصلاح. وهو غالط في الأصل، بل هذه من الشياطين؛ من جنس ما للسحرة والكهان، ومن جنس ما للكفار من المشركين وأهل الكتاب؛ فإن لمشركي الهند والترك وغيرهم، ولعباد النصارى من هذه الخوارق الشيطانية أمورا كثيرة يطول وصفها أكثر وأعظم [من أكثر] 4 مما يوجد منها لأهل الضلال والبدع من المسلمين، وما يوجد منها للمنافقين5؛ فإن الشياطين لا تتمكن من إغواء المسلمين، وإن كان فيهم جهل وظلم، كما [تتمكن] 6 من اغواء المشركين وأهل الكتاب7.

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .
2 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((ط)) .
5 قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "وفي أصناف المشركين من مشركي العرب، ومشركي الهند، والترك، واليونان، وغيرهم من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة، ولكن ليس بمتبع للرسل، ولا مؤمن بما جاؤوا به، ولا يصدقهم بما أخبروا به، ولا يطيعهم فيما أمروا. فهؤلاء ليسوا بمؤمنين، ولا أولياء لله، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين، وتنزل عليهم، فيكاشفون ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تتنزل عليهم الشياطين..". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 83-84. وانظر أيضا المصدر نفسه ص 168-169.
6 في ((خ)) : يتمكن. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 وسبق أن ذكرت قصة شيخ من طائفة الأحمدية مع بعض أمراء التتار المشركين، وفيها دلالة واضحة على تسلط الشياطين على هؤلاء الكفار.

ولهذا ثنى في القرآن قصة موسى مع السحرة، وذكر ما يقوله الكفار لأنبيائهم؛ فإنه ما جاء نبي صادق قط، إلا قيل فيه: إنه ساحر أو مجنون؛ كما قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون} 1، وذلك أن الرسول يأتي بما يخالف عاداتهم، ويفعل ما يرونه غير نافع، ويترك ما يرونه نافعا. وهذا فعل المجنون؛ فإن المجنون فاسد العلم والقصد. ومن كان مبلغه من العلم إرادة الحياة الدنيا، كان عنده من ترك ذلك، وطلب ما لا يعلمه: مجنونا. ثم النبي مع هذا يأتي بأمور خارجة عن قدرة الناس؛ من إعلام بالغيوب، وأمور خارقة لعاداتهم؛ فيقولون: هو ساحر.

الفرق بين النبي والساحر عند الفلاسفة

وهذا موجود في المنافقين الملحدين المتظاهرين بالإسلام؛ من الفلاسفة ونحوهم؛ يقولون: إن ما أخبرت به الأنبياء من الغيوب، والجنة، والنار، هو من جنس قول المجانين2، وعندهم خوارقهم من جنس

1 سورة الذاريات، الآيتان 52-53.
2 وقال شيخ الإسلام رحمه الله عنهم في موضع آخر: "وهؤلاء القوم قد يقولون: إن الأنبياء أخبروا الناس بما هو كذب في نفس الأمر لأجل مصلحتهم. وقد يحسنون العبارة، فيقولون: لم يخبروا بالحقائق، بل ذكروا من التمثيل والتخييل في أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ما تنفع به العامة. وأما الحقيقة فلم يخبروا بها، ولا يمكن إخبار العامة بها. وهذا مما يعلم بالضرورة بطلانه من دين المرسلين". الصفدية 1202. وانظر درء تعارض العقل والنقل 18-9. وانظر ما يشبه كلام هؤلاء في: رسالة أضحوية في أمر المعاد لابن سينا ص 44-51.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضا عن الفلاسفة المنتسبين للإسلام: "وصار ابن سينا، وابن رشد الحفيد، وأمثالهما يقربون أصول هؤلاء إلى طريقة الأنبياء، ويظهرون أصولا لا تخالف الشرائع النبوية. وهم في الباطن يقولون: إن ما أخبرت به الرسل عن الله وعن اليوم الآخر لا حقيقة له في نفس الأمر، وإنما هو تخييل وتمثيل، وأمثال مضروبة لتفهيم العامة ما ينتفعون به في ذلك بزعمهم، وإن كان مخالفا للحق في نفس الأمر. وقد يجعلون خاصة النبوة هي التخييل، ويزعمون أن العقل دل على صحة أصولهم". الصفدية 1237.

خوارق السحرة، والممرورين1 المجانين؛ كما ذكر ابن سينا2، وغيره3. لكن الفرق بينهما: أن النبي حسن القصد، بخلاف الساحر، وأنه يعلم ما يقول، بخلاف المجنون4.
لكن معجزات [الأنبياء] 5 عندهم قوى نفسانية، ليس مع هذا ولا هذا شيء خارج عن قوة النفس6.
والقاضيان؛ أبو بكر، وأبو يعلى، ومن وافقهما: متوقفون في وجود المخدوم الذي تخدمه الجن7؛ قالوا: لا يقطع بوجوده.
معنى الكاهن
وكذلك الكاهن: ذكروا فيه القولين؛ قول من يقول: إنه المتخرص؛

---

1 سبق التعريف بالمرة. انظر ص 836 من هذا الكتاب.
2 انظر: الإشارات والتنبيهات لابن سينا 4900-901.
وانظر: الصفدية 1142-143، 165. ودرء تعارض العقل والنقل 19.
وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 608-609، 835.
3 كالفارابي، وقد تقدم ص 835.
4 انظر: الصفدية 1143. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 156-157، 611.
5 في ((ط)) : لأنبياء.
6 انظر: درء تعارض العقل والنقل 5355-356. والصفدية 1128، 132. وانظر ما سبق ص 446، 618 من هذا الكتاب.
7 المخدوم: من له تابعه من الجن. انظر: القاموس المحيط ص 1421.

وقول من يقول: إنه مخدوم. وهم متوقفون [فيه، لا] 1 يقطعون [بوجود] 2 مخدوم كاهن3، كما يقطعون [بوجود] 4 الساحر؛ [لأنه] 5 في زمانهم وجد الساحر.
والقرآن أخبرنا بالسحر في سورة البقرة6، بخلاف الكاهن؛ فإن القرآن ذكر اسمه، ولو تدبروا لعلموا أن الكاهن هو المذكور في قوله: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} 78.
وفي الصحيح: عن النبي [صلى الله عليه وسلم] 9 أنه قيل له: "إن منا قوما يأتون الكهان. قال: فلا يأتوهم"10.

---

1 في ((خ)) : لا فيه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((ط)) : وجود.
3 وقد أشار القاضي عياض رحمه الله إلى إنكار المعتزلة وبعض المتكلمين لوجوده.
انظر: شرح النووي على مسلم 4223.
4 في ((ط)) : وجود.
5 ما بين المعقوفتين ساقط في ((خ)) .
6 قال تعالى: {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله} . سورة البقرة، الآية 102.
7 سورة الشعراء، الآيات 221-223.
8 انظر زاد المسير لابن الجوزي 6149.
9 في ((خ)) : صلعم.
10 سبق تخريجه، انظر ص 1221 من هذا الكتاب.

وسئل عن الكهان، وما يخبرون به؟ فأخبر أن الجن [تسترق] 1 السمع، و [تخبرهم] 2 به3.
فالكتاب والسنة أثبتا وجود الكاهن.
وأحمد قد نص على أنه يقتل كالساحر4.
لكن الكاهن إنما عنده أخبار، والساحر عنده تصرف؛ بقتل، وإمراض، وغير ذلك5. وهذا تطلبه النفوس أكثر.

وابن صياد6 كان كاهنا، ولهذا قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " قد خبأت لك خبيا. فقال: الدخ. فقال: اخسأ، فلن تعدو قدرك" 7، إنما أنت من إخوان الكهان.

---

1 في ((خ)) : يسترق. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : يخبرهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 سبق تخريجه، انظر ص 974 من هذا الكتاب.
4 انظر: المغني لابن قدامة 12305. والكافي 4166. وتيسير العزيز الحميد ص 414. وانظر: المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد 2106-107.
5 انظر: المغني لابن قدامه 12305. وتيسير العزيز الحميد ص 406، 411، 412. ولسان العرب 17244 - مادة كهن -. والمفردات في غريب القرآن ص 97. وأضواء البيان 4455. وفتح المجيد ص 338، 339.
وقال الإمام أحمد رحمه الله: "الكاهن يدعي الغيب، والساحر يعقد ويفعل كذا". المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد 2106.
6 هو عبد الله بن صائد، ويقال له: ابن صياد. كان أبوه من اليهود، وهو الذي يقال إنه الدجال.
ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أعور مختونا. وقد استأذن عمر بن الخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم في قتله؟ فقال: إن يكنه، فلن تسلط عليه، وإن يكن غيره فلا خير لك في قتله. قال بعض العلماء: لأنه كان من أهل العهد، ويقال إنه أسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وتوفي بالمدينة، وقيل فقد يوم الحرة سنة 63 هـ.
انظر: أسد الغابة 3187. والإصابة 5192.
7 رواه البخاري في صحيحه 31112، كتاب الجهاد، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي.
ومسلم في صحيحه42240-2241، كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد.

ولما قضى في الجنين بغرة، قال [حمل بن] 1 مالك2: [أيودى] 3 من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فتل ذلك يطل4.
فقال: " إنما أنت من أخوان الكهان"؛ من أجل [سجعه الذي سجع5.
فكانوا يسجعون أساجيع6] 7.
وقد رأيت من هؤلاء شيوخا [يسجعون أساجيع كأساجيع] 8 الكهان، ويكون كثير منها صدقا.

---

1 في ((خ)) : حمدابن. وفي ((ط)) : أحمد بن. وما أثبت من ((م)) .
2 هو حمل بن مالك بن النابغة الهذلي، أبو نضله - بفتح النون وسكون المعجمة - صحابي نزل البصرة، وله ذكر في الصحيحين. (تقريب التهذيب 1243) .
وقد ورد في صحيح مسلم: فقال حمل بن النابغة الهذلي - نسبه إلى جده -.
3 في ((ط)) : أيودي.
4 في البخاري: فمثل ذلك بطل. وفي مسلم: فمثل ذلك يطل. وبطل من البطلان، ويطل بمعنى يهدر ولا يطالب بديته. انظر: هامش صحيح البخاري 52172 تعليقات المحقق.
5 أخرجه البخاري في صحيحه 52172، كتاب الطب، باب الكهانة. ومسلم في صحيحه 31309-1311، كتاب القسامة، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني. والترمذي في جامعه 423-24، كتاب الديات، باب ما جاء في دية الجنين.
6 قال ابن حجر رحمه الله: "السجع: هو تناسب آخر الكلمات لفظا. وأصله الاستواء. وفي الاصطلاح: الكلام المقفى. والجمع أسجاع وأساجيع. والمكروه منه: ما يقع مع التكلف في معرض مدافعة الحق. وأما ما يقع عفوا بلا تكلف في الأمور المباحة، فجائز". فتح الباري 10229.
7 في ((خ)) : شجعه الذي شجع. فكانوا يشجعون أشاجيع. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
8 في ((خ)) : يشجعون أشاجيع كأشاجيع. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

ولهذا جمع الله بين الكاهن والشاعر، في قوله: {وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين} 1.
وكذلك في الشعراء: ذكر الكاهن والشاعر بعد قوله: {وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين} 2، إلى قوله: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} 3 والرسول في آية الحاقة محمد.
وقال أيضا: {إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بظنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين} 4.
فلما أخبر به أنه قول رسول؛ هو ملك من الملائكة، نفى أن يكون قول شيطان. ولما أخبر هناك أنه قول رسول من البشر، نفى أن يكون قول شاعر، أو كاهن. فهذا تنزيه للقرآن نفسه.
ونزه الرسول أن يكون على الغيب بظنين: أي متهم، وأن يكون بمجنون؛ فالجنون: فساد في العلم، والتهمة: فساد في القصد.
كما قالوا: ساحر، أو مجنون. وقال في الطور: {فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين} 5.

---

1 سورة الحاقة، الآيات 41-43.
2 سورة الشعراء، الآيات 192-195.
3 سورة الشعراء، الآيات 221-223.
4 سورة التكوير، الآيات 19-27.
5 سورة الطور، الآيات 29-31.

معنى الكاهن عند العرب
وقد أخبر عن الأنبياء قبله: أنه {ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} 1، ولم يقولوا: كاهن؛ لأن الكاهن عند العرب: هو الذي يتكلم بكلام مسجوع، وله قرين من الجن2.
وهذا الاسم ليس بذم عند أهل الكتاب، بل يسمون أكثر العلماء بهذا الاسم، ويسمون هارون [عليه السلام] 3 وأولاده الذين عندهم التوراة بهذا [الاسم4] 5.
والقدر المشترك: العلم [بالأمور] 6 الغائبة والحكم بها.
اسم الكاهن ليس بذم عند أهل الكتاب
فعلماء أهل الكتاب يخبرون بالغيب، ويحكمون به عن الوحي الذي أوحاه الله. وكهان العرب كانت تفعل ذلك عن وحي الشياطين، وتمتاز بأنها [تسجع] 7 الكلام.

---

1 سورة الذاريات، الآية 52.
2 انظر: تهذيب اللغة 624. وفتح الباري 10227.
وقد تقدم قول حمل بن مالك في دية الجنين: أنغرم دية من لا أكل ولا شرب ولا استهل، فمثل ذلك بطل. وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له: "أسجع كسجع الأعراب". تقدم ذلك ص 1279.
3 زيادة من ((ط)) .
4 انظر الكتاب المقدس عندهم 1157، سفر اللاويين، الإصحاح الأول. وانظر الفصل لابن حزم 1141، 145، 149.
وقال الأزهري في تهذيب اللغة: "والكاهن أيضا في كلام العرب: الذي يقوم بأمر الرجل، ويسعى في حاجته، والقيام بما أسند إليه من أسبابه. ويقال لقريظة والنضير: الكاهنان، وهما قبيلا اليهود بالمدينة. وفي حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "يخرج من الكاهنين رجل يقرأ القرآن لا يقرأ أحد قراءته"، وقيل: إنه محمد ابن كعب القرظي". تهذيب اللغة 624-25.
5 في ((ط)) : الإسلام.
6 في ((ط)) : بالأمولأ.
7 في ((خ)) : تشجع. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

بخلاف اسم الساحر؛ فإنه اسم معروف في جميع الأمم. وقد يدخل في ذلك عندهم المخدوم الذي تخبره الشياطين ببعض الأمور الغائبة.
ولكون الساحر يأتي بالخوارق شبهوا النبي [به] 1، وقالوا: ساحر. فدل ذلك على قدر مشترك.
من الفروق بين النبي والساحر
لكن الفرقان بينهما أعظم، كالفرق بين الملائكة والشياطين، وأهل الجنة وأهل [النار] 2، وخيار الناس وشرارهم. وهذا أعظم الفروق بين الحق والباطل3.
والكفار قالوا عن الأنبياء: إنهم مجانين وسحرة4.
[فكما] 5 يعلم بضرورة العقل من وجود أعظم الفرق بينهم وبين المجانين، وأنهم أعقل الناس وأبعدهم عن الجنون، فكذلك يعلم بضرورة العقل أعظم الفرق بينهم وبين السحرة، وأنهم أفضل الناس وأبعدهم عن السحر.
فالساحر يفسد الإدراك، حتى يسمع الإنسان الشيء، ويراه، ويتصور خلاف ما هو عليه6.

1 ما بين المعقوفتين ساقط من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
3 سبق أن ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فروقا كثيرة في هذا الكتاب، انظر ص: 478، 507-513، 589-633، 671-674، 766-779، 797-799، 844، 955، 987، 1003، 1020.
4 وقد حكى الله تعالى عن الكفار قولهم عن الأنبياء أنهم سحرة أو مجانين، قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} . سورة الذاريات، الآيتان 52-53.
5 في ((خ)) : فكلما. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 وقد سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله؛ سحره اليهودي ابن أعصم. قالت عائشة رضي الله عنها: "سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله..".
رواه البخاري في صحيحه31192، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده. ومسلم في صحيحه41719-1721، كتاب السلام، باب السحر. ومسند الإمام أحمد 650، 57، 63، 64.

والأنبياء يصححون سمع الإنسان، وبصره، وعقله. والذين خالفوهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون.
فالسحرة يزيدون الناس عمى، وصمما، وبكما.
صفة النبي عليه الصلاة والسلام في التوراة
والأنبياء يرفعون [عماهم] 1، وصممهم، وبكمهم؛ كما في الصحيح عن عطاء بن يسار2 أنه سأل عبد الله بن عمرو3. وروى عبد الله بن سلام4 أنه قيل له: أخبرنا ببعض صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، فقال: إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: " {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} 5، وحرزا للأميين. أنت عبدي سميتك المتوكل.

1 في ((خ)) رسمت: أعمالهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 هو عطاء بن يسار الهلالي، أبو محمد المدني، مولى ميمونة. ثقة فاضل صاحب مواعظ وعبادة. من صغار الثالثة. مات سنة أربع وتسعين. وقيل بعد ذلك. تقريب التهذيب 1676.
3 هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد - بالتصغير - بن سعد ابن سهم السهمي، أبو محمد، وقيل أبو عبد الرحمن. أحد السابقين المكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة الفقهاء. مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح بالطائف على الراجح.
تقريب التهذيب 1517. وسير أعلام النبلاء 381-94.
4 سبقت ترجمته.
5 سورة الأحزاب، الآية 45.

لست بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا [تجزي] 1 بالسيئة السيئة، ولكن [تجزي] 2 بالسيئة الحسنة، [وتعفو وتغفر] 3. ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء؛ فأفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله 4.

وهذا مذكور عند أهل الكتاب في نبوة أشعيا5.

---

1 في ((خ)) : يجزي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : يجزي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((خ)) : ويعفو ويغفر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 أخرجه البخاري في صحيحه 2747-748، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق - مع اختلاف يسير في الألفاظ، وفيه تقديم وتأخير -. وقال البخاري: غلف: كل شيء في غلاف، سيف أغلف، وقوس غلفاء، ورجل أغلف إذا لم يكن مختونا.
وكذا أخرجه في صحيحه أيضا 41831، كتاب التفسير، في سورة الفتح، باب: {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} .
والقلب الأغلف: هو الذي لا يعي شيئا. وسيف أغلف: إذا كان في غلاف. وجمعه: غلف. وفي حديث حذيفة: القلوب أربعة؛ فقلب أغلف، وهو قلب الكافر. قال الفراء: قلب أغلف بين الغلفة. وأغلفت القارورة: جعلت لها غلافا. وإذا أدخلتها في غلاف قلت: غلفتها غلفا.
انظر: تهذيب اللغة 8135-136. والمفردات للراغب ص 612.
5 جاء في العهد القديم، في نبوة أشعيا، بداية الإصحاح الثاني والأربعين، ص 1042-1043: "هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه، فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يطفئ، إلى الأمان يخرج لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته. هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها، باسط الأرض وناتجها، معطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحا. أنا الرب قد دعوتك بالبر، فأمسك بيدك، وأحفظك، وأجعلك عهدا للشعب، ونورا للأمم، لتفتح عيون العمي، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن، الجالسين في الظلمة لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع في رؤوس الجبال، ليهتفوا..".
وقد أورد شيخ الإسلام رحمه الله تعالى هذه البشارة في كتابه الجواب الصحيح (5157-158) ، مع اختلاف يسير في ألفاظها.

المراد بالتوراة

ولفظ التوراة: قد يراد به جميع الكتب التي نزلت قبل الإنجيل؛ فيقال: التوراة، والإنجيل. ويراد بالتوراة: الكتاب الذي جاء به موسى وما بعده من نبوة الأنبياء المتبعين لكتاب موسى، قد يسمى هذا كله توراة؛ فإن التوراة تفسر الشريعة؛ فكل من دان بشريعة التوراة: قيل لنبوته: إنها من التوراة.
وكثير مما يعزوه كعب الأحبار1 ونحوه إلى التوراة، هو من هذا الباب، لا يختص ذلك بالكتاب المنزل على موسى؛ كلفظ الشريعة عند المسلمين: يتناول القرآن، والأحاديث النبوية، وما استخرج من ذلك؛ كما قد بسط هذا في موضع آخر2.
والمقصود هنا: أن الأنبياء يفتحون الأعين العمي، والآذان الصم، والقلوب الغلف. والسحرة يفسدون السمع والبصر والعقل، حتى يخيل للإنسان الأشياء بخلاف ما هي عليه، فيتغير حسه وعقله. قال في قصة

---

1 هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق المعروف بكعب الأحبار. ثقة من الثانية، مخضرم. كان من أهل اليمن، فسكن الشام. مات في خلافة عثمان، وقد زاد على المائة. وليس له في البخاري رواية، إلا حكاية لمعاوية فيه. وله في مسلم رواية لأبي هريرة عنه، من طريق الأعمش، عن أبي صالح.
تقريب التهذيب 243. وسير أعلام النبلاء 3489.
2 انظر: الجواب الصحيح 5156-158، 351. وانظر ما سبق من هذا الكتاب ص 625-627.

موسى: {سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم} 1. وهذا يقتضي أن أعين الناس قد حصل فيها تغير. ولهذا قال تعالى: {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون} 2، فقد علموا أن السحر يغير الإحساس، كما يوجب المرض والقتل. وهذا كله من جنس مقدور الإنس؛ فإن الإنسان يقدر [أن] 3 يفعل [في] 4 غيره ما يفسد إدراكه، وما يمرضه ويقتله. فهذا مع كونه ظلما وشرا، هو من جنس مقدور البشر.
الجني يري قرينه نظير الشيء ليس عينه

والجني إذا أراد أن يري قرينه أمورا غائبة سئل عنها، مثلها له. فإذا سئل عن المسروق، أراه شكل ذلك المال. وإذا سئل عن شخص، أراه صورته. ونحو ذلك5. وقد يظن الرائي أنه رأى عينه، وإنما رأى نظيره.

تمثل الجني بصورة الإنسي

وقد يتمثل الجني في صورة الإنسي، حتى يظن الظان أنه الإنسي. وهذا كثير؛ كما تصور لقريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم6،

---

1 سورة الأعراف، الآية 115.

2 سورة الحجر، الآيتان 14-15.

3 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

4 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

5 انظر: الجواب الصحيح 2322-323. ومجموع الفتاوى 1383-85.

6 هو سراقة بن مالك بن جعشم بن مدلج الكناني المدلجي، أبو سفيان. قال ابن حجر: روى البخاري قصته في إدراكه النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم عليه حتى ساخت رجلا فرسه، ثم إنه طلب منه الخلاص وأن لا يدل عليه، ففعل، وكتب له أمانا. وأسلم يوم الفتح. وفي قصته مع النبي صلى الله عليه وسلم يقول مخاطبا أبا جهل:

أبا حكم والله لو كنت شاهدا

لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه

عجبت ولم تشكك بأن محمدا

رسول وبرهان فمن ذا يقاومه

عليك فكف القوم عنه فإنني

أخال لنا يوما ستبدو معالمه

بأمر تود النصر فيه فإنهم

وإن جميع الناس طرا مسالمه

وكان في الجاهلية قائفا، وهو الذي اقتص الأثر لقريش حتى صعدوا الجبل الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وجعلوا يمرون على باب الغار ولا يرونهما، حفظا من الله لهما. ووقتها قال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا". انظر: صحيح البخاري 31420-1421، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة.

لسراقة 19 حديثا، ومات سنة 24 هـ.

انظر: الإصابة 218-19. والاستيعاب - بهامش الإصابة - 2118. ودلائل النبوة للبيهقي 2215. والبداية والنهاية 3182-186. والأعلام 380.

وكان من أشراف بني كنانة؛ قال تعالى: {وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم} 1 الآية. فلما عاين الملائكة ولى هاربا، ولما رجعوا ذكروا ذلك لسراقة، فقال: والله ما علمت بحربكم، حتى بلغتني هزيمتكم2.

وهذا واقع كثيرا، حتى إنه يتصور لمن يعظم شخصا في صورته، فإذا استغاث به، أتاه، فيظن ذلك الشخص أنه شيخه الميت. وقد يقول له: إنه بعض الأنبياء، أو بعض الصحابة الأموات، ويكون هو الشيطان3.

---

1 سورة الأنفال، الآية 49.

2 انظر: تفسير الطبري 1014. وتفسير ابن كثير 2317. والبداية والنهاية 3258، 280. وزاد المعاد 355.

3 ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى كلام في هذا الموضوع، أذكر بعضه، قال رحمه الله: "ومثل هذا يجري كثيرا لكثير من المشركين والنصارى، وكثير من المسلمين، ويرى أحدهم شيخا، يحسن به الظن، ويقول أنا الشيخ فلان، ويكون شيطانا.

وأعرف من هذا شيئا كثيرا، وأعرف غير واحد ممن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين والموتى، يراه قد أتاه في اليقظة وأعانه.

وقد جرى مثل هذا لي ولغيري ممن أعرفه، وذكر غير واحد أنه استغاث بي في بلاد بعيدة، وأنه رآني قد جئته. ومنهم من قال:

رأيتك راكبا بلباسك وصورتك. ومنهم من قال: رأيتك على جبل. ومنهم من قال غير ذلك. فأخبرتهم أني لم أغثهم، وإنما ذلك شيطان تصور بصورتي ليضلهم لما أشركوا بالله ودعوا غير الله. وكذلك غير واحد ممن أعرفه من أصحابنا استغاث به بعض من يحسن به الظن، فرآه قد جاءه وقضى حاجته. قال صاحبي: وأنا لا أعلم بذلك". الجواب الصحيح 2321-322. وانظر: المصدر نفسه: 2324، 3348. وجامع الرسائل1195. والرد على المنطقيين ص 105-106. ومجموع الفتاوى 11664، 1379، 84، 92، 17456-458، 1947.

وكثيرا من الناس أهل العبادة والزهد من يأتيه في اليقظة، من يقول: إنه رسول الله، ويظن ذلك حقا1. ومن يرى إذا زار بعض قبور الأنبياء أو الصالحين أن صاحب القبر قد خرج إليه، فيظن أنه صاحب القبر ذلك النبي، أو الرجل الصالح، وإنما هو شيطان أتى في صورته إن كان يعرفها، وإلا أتى في صورة إنسان، وقال: إنه ذلك الميت2.

---

1 ومما جرى من هذه الأحوال: ما جرى لأناس بتدمر في زمن الشيخ رحمه الله، قال عنهم: "فرأوا شخصا عظيما طائرا في الهواء، وظهر لهم مرات بأنواع من اللباس، وقال لهم: أنا المسيح بن مريم، وأمرهم بأمور يمتنع أن يأمر بها المسيح عليه السلام. وحضروا إلى عند الناس، وبينوا لهم أن ذلك هو شيطان أراد أن يضلهم". الجواب الصحيح 2318. وانظر المصدر نفسه 2321.

وقال أيضا رحمه الله تعالى: "فرؤيا الأنبياء في المنام حق، وأما رؤية الميت في اليقظة، فهذا جني يتمثل في صورته". الجواب الصحيح 2326. وانظر: المصدر نفسه 3347. ومجموع الفتاوى 1172-173، 1393-94. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 330.

2 انظر الجواب الصحيح 2318،، 3348.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن الحكايات في هذا الباب كثيرة جدا، ومما قاله رحمه الله: "وفي هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره، وهي كثيرة جدا. والجاهل يظن أن ذلك الذي رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كلمه هو المقبور، أو النبي أو الصالح، أو غيرهما. والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان) . مجموع الفتاوى 1168. وانظر: المصدر نفسه 1178-179.

وهذه الأحوال قد حدثت في زمن شيخ الإسلام رحمه الله مع الكفار، لا مع المسلمين، فقد أخبر رحمه الله أن كثيرا "من الكفار بأرض المشرق والمغرب يموت لهم الميت، فيأتي الشيطان بعد موته على صورته، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت، ويقضي الديون، ويرد الودائع، ويفعل أشياء تتعلق بالميت، ويدخل إلى زوجته، ويذهب. وربما يكونون قد أحرقوا بيتهم بالنار كما يصنع كفار الهند، فيظنون أنه عاش بعد موته". الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 330. وانظر: الجواب الصحيح 2318-319،، 3347. وجامع الرسائل 1194-195. ومجموع الفتاوى 1379.

تمثل الشيطان بالخضر

وكذلك يأتي كثيرا من الناس في مواضع، ويقول: إنه الخضر1، فاعتقد أنه الخضر، وإنما كان جنيا من الجن2.

---

1 الخضر: هو صاحب موسى عليه السلام الذي ورد ذكره في قوله تعالى: {فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما} ، وورد ذكره في السنة أيضا.

وقد اختلف فيه: هل هو نبي أو ولي؟ قال الراجز:

واختلفت في خضر أهل العقول

قيل نبي أو ولي أو رسول

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى معلقا على قول الراجز هذا: (أو ملك) . ثم رجح نبوته عليه السلام، ونصر هذا القول، واستدل به وفق طريقته في تفسير القرآن بالقرآن.

وممن قال بنبوته: القرطبي، وابن كثير، وابن حجر.

وكذا اختلف فيه هل هو حي أو ميت؟ وقد قال الإمام أحمد، والبخاري، وابن الجوزي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن حجر، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي بموته، وأكدوا أن قول من قال ببقائه حيا لا دليل عليه.

انظر: تفسير القرطبي 1112-15. والزهر النضر في نبأ الخضر لابن حجر ص 27، 115. ومجموع الفتاوى 4337. وأضواء البيان 4158-164. وجهود الشيخ محمد الأمين في تقرير عقيدة السلف 2477، 501.
2 انظر: الجواب الصحيح 2319-320. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 329. ومجموع الفتاوى 1172،، 1371، 78، 93.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "كل من قال: إنه رأى الخضر وهو صادق؛ إما أن يتخيل له في نفسه أنه رآه، ويظن ما في نفسه كان في الخارج، كما يقع لكثير من أرباب الرياضات. وإما أن يكون جنيا يتصور له بصورة إنسان ليضله. وهذا كثير جدا، قد علمنا منه ما يطول وصفه. وإما أن يكون رأى إنسيا ظن أنه الخضر وهو غالط في ظنه. فإن قال له ذلك الجني أو الإنسي إنه الخضر، فيكون قد كذب عليه، لا يخرج الصدق في هذا الباب عن هذه الأقسام الثلاثة". الرد على المنطقيين ص 185.

لم يقل أحد من الصحابة إنه رأى الخضر
ولهذا لم يجترىء الشيطان على أن يقول لأحد من الصحابة: إنه الخضر، ولا قال أحد من الصحابة: إني رأيت الخضر1. وإنما وقع هذا بعد الصحابة.

1 قال شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر موضحا هذه الحقيقة: "ولا كان فيهم من قال: إنه أتاه الخضر؛ فإن خضر موسى مات، كما بين هذا في غير هذا الموضع. والخضر الذي يأتي كثيرا من الناس إنما هو جني تصور بصورة إنسي، أو إنسي كذاب. ولا يجوز أن يكون ملكا مع قوله أنا الخضر، فإن الملك لا يكذب، وإنما يكذب الجن والإنس. وأنا أعرف ممن أتاه الخضر، وكان جنيا، ما يطول ذكره في هذا الموضع. وكان الصحابة أعلم من أن يروج عليهم هذا التلبيس. وكذلك لم يكن فيهم من حملته الجن إلى مكة، وذهبت به إلى عرفات ليقف بها، كما فعلت ذلك بكثير من الجهال والعباد وغيرهم، ولا كان فيهم من تسرق الجن أموال الناس وطعامهم وتأتيه به، فيظن أن هذا من باب الكرامات". مجموع الفتاوى 1249.
وقال رحمه الله في موضع آخر: "لم ينقل عن أحد من الصحابة أنه رأى الخضر، ولا اجتمع به، لأنهم كانوا أكمل علما وإيمانا من غيرهم، فلم يكن يمكن الشيطان التلبيس عليهم كما لبس على كثير من العباد. ولهذا كثير من الكفار اليهود والنصارى يأتيهم من يظنون أنه الخضر، ويحضر في كنائسهم، وربما حدثهم بأشياء، وإنما هو شيطان جاء إليهم، فيضلهم. ولو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فيؤمن به، ويجاهد معه، كما أخذ الله الميثاق على الأنبياء وأتباعهم بقوله: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه} ، [سورة آل عمران، الآية 81] ، والخضر قد أصلح السفينة لقوم من عرض الناس، فكيف لا يكون بين محمد وأصحابه. وهو إن كان نبيا، فنبينا أفضل منه، وإن لم يكن نبيا، فأبو بكر وعمر أفضل منه". الرد على المنطقيين ص 185.

وكلما تأخر الأمر كثر، حتى إنه يأتي اليهود والنصارى، ويقول: إنه الخضر1.
ولليهود كنيسة معروفة بكنيسة الخضر2.
وكثير من كنائس النصارى يقصدها هذا الخضر.
والخضر الذي يأتي هذا الشخص غير الخضر الذي يأتي هذا.
ولهذا يقول من يقول منهم3: لكل ولي خضر. وإنما هو جني معه4.
والذين يدعون الكواكب5، تتنزل عليهم أشخاص يسمونها روحانية الكواكب6، وهو شيطان نزل عليه لما أشرك، ليغويه.

1 انظر: الجواب الصحيح 2321، 324. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 366-367. ومجموع الفتاوى 1393. والرد على المنطقيين ص 85.
2 انظر: مجموع الفتاوى 1393.
3 من اليهود والنصارى.
4 انظر: مجموع الفتاوى 1393. ومنهاج السنة النبوية 1104.
5 قال شيخ الإسلام رحمه الله عن عباد الكواكب هؤلاء: "فكانوا يصنعون للأصنام طلاسم للكواكب، ويتحرون الوقت المناسب لصنعة ذلك الطلسم. ويصنعونه من مادة تناسب ما يرونه من طبيعة ذلك الكوكب، ويتكلمون عليها بالشرك والكفر، فتأتي

الشياطين فتكلمهم، وتقضي بعض حوائجهم، ويسمونها روحانية الكواكب، وهي الشيطان، أو الشيطانة التي تضلهم". الرد على المنطقيين ص 286. وانظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 222. وانظر ما سبق في ص 1214 من هذا الكتاب.

6 انظر: الجواب الصحيح 2326-327، 3347. ومجموع الفتاوى 1173، 178، 1378، 79.

كما تدخل الشياطين في الأصنام، وتكلم أحيانا لبعض الناس، وتتراءى للسدنة أحيانا، ولغيرهم أيضا1.

وقد يستغيث المشرك [بشيخ] 2 له غائب، فيحكي الجني صوته لذلك الشيخ، حتى يظن أنه سمع صوت ذلك المريد مع بعد المسافة بينهما. ثم إن الشيخ يجيبه، فيحكي الجني صوت الشيخ للمريد، حتى يظن أن شيخه سمع صوته وأجابه. وإلا فصوت الإنسان يمتنع أن يبلغ مسيرة يوم، ويومين، وأكثر3.

وقد يحصل للمريد من يؤذيه، فيدفعه الجني، ويخيل للمريد أن الشيخ هو دفعه4.

وقد يضرب الرجل بحجر، فيدفعه عنه الجني، ثم يصيب الشيخ بمثل ذلك، حتى يقول: إني اتقيت عنك الضرب، وهذا أثره في5.

وقد يكونون يأكلون طعاما، فيصور نظيره للشيخ، ويجعل يده فيه، ويجعل الشيطان يده في طعام أولئك، حتى يتوهم الشيخ وهم أن يد الشيخ امتدت من الشام إلى مصر، وصارت في ذلك الإناء6.

مناداة عمر: يا سارية الجبل الجبل

وعمر بن الخطاب لما نادى: يا سارية 7 الجبل، قال: إن لله جندا

---

1 انظر: الجواب الصحيح 2341. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 338.

2 في ((م)) ، و ((ط)) : لشيخ.

3 انظر مجموع الفتاوى 1384.

4 انظر مجموع الفتاوى 1377، 82.

5 انظر المصدر نفسه.

6 انظر مجموع الفتاوى 1384-85.

7 هو سارية بن زنيم بن عمرو الكناني.

تقدم التعريف به.

يبلغونهم صوتي1. فعلم أن صوته إنما يبلغ بما ييسره الله من تبليغ بعض

---

1 قال العجلوني في كشف الخفاء ومزيل الإلباس 2514-515، أثر رقم 3172: "يا سارية الجبل": قاله عمر بن الخطاب وهو يخطب يوم الجمعة، حيث وقع في خاطره أن الجيش الذي أرسله مع سارية إلى نهاوند بفارس لاقى العدو وهم في بطن واد، وقد هموا بالهزيمة، وبالقرب منهم جبل، فقال ذلك في أثناء خطبته، ورفع به صوته، فألقاه الله في سمع سارية، فانحاز بالناس إلى الجبل، وقاتل العدو من جانب واحد، ففتح الله عليهم. كذا رواه الواقدي عن أسامة بن زيد، عن ابن أسلم، عن ابن عمر.

وأخرجه سيف مطولا عن رجل من بني مازن. والبيهقي في الدلائل، واللالكائي في شرح السنة، وابن الأعرابي في كرامات الأولياء، عن ابن عمر قال: وجه عمر جيشا، وولى عليهم رجلا يدعى سارية، فبينما عمر يخطب، جعل ينادي: يا سارية الجبل - ثلاثا. ثم قدم رسول من الجيش، وسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا، فبينما نحن كذلك، إذ سمعنا صوتا ينادي: يا سارية الجبل - ثلاثا -، فاسندنا ظهرنا إلى الجبل، فهزمهم الله. قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح هكذا وهكذا. رواه حرملة في جمعه لحديث ابن وهب، وإسناده كما قال الحافظ ابن حجر حسن.

ولابن مردويه، عن ابن عمر، عن أبيه أنه كان يخطب يوم الجمعة، فعرض في خطبته أن قال: يا سارية الجبل، من استرعى الذئب ظلم. فالتفت الناس بعضهم لبعض، فقال لهم علي: ليخرجن مما قال. فلما فرغ سألوه، فقال: وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا، وأنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من جانب واحد، وإن جاوزوه هلكوا. فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه. فجاء البشير بعد شهر، وذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم، قال: فعدلنا عن الجبل، ففتح الله علينا.

قال في اللآلئ: وقد أفرد الحافظ القطب الحلبي لطرقه جزءا، ووثق رجال هذا الطريق. وقال: ذكره ابن عساكر، وابن ماكولا، وغيرهم. وسارية له صحبة". كشف الخفاء ومزيل الإلباس 2514-515.
وأخرجها أبو نعيم في دلائل النبوة ص 210. واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 9127. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية 7131-132، وحسن إسناده. وانظر مشكاة المصابيح 31678، وقال الشيخ الألباني: رواه ابن عساكر وغيره بإسناد حسن.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه القصة في موضع آخر: "وعمر رضي الله عنه لما نادى: يا سارية الجبل، قال: إن لله جنودا يبلغون صوتي. وجنود الله هم من الملائكة، ومن صالحي الجن. فجنود الله بلغوا صوت عمر إلى سارية؛ وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر، وإلا نفس صوت عمر لا يصل نفسه في هذه المسافة البعيدة. وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد عنه، فيقول: يا فلان. فيعان على ذلك، فيقول الواسطة بينهما: يا فلان. وقد يقول لمن هو بعيد عنه: يا فلان احبس الماء، تعال إلينا، وهو لا يسمع صوته، فيناديه الواسطة بمثل ذلك: يا فلان احبس الماء، أرسل الماء؛ إما بمثل صوت الأول إن كان لا يقبل إلا صوته، وإلا فلا يضر بأي صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه. وهذه حكاية: كان عمر مرة قد أرسل جيشا، فجاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش، وشاع الخبر، فقال عمر: من أين لكم هذا؟ قالوا: شخص صفته كيت وكيت، فأخبرنا. فقال عمر: ذاك أبو الهيثم بريد الجن، وسيجيء بريد الإنسان بعد ذلك بأيام". مجموع الفتاوى 1388-89.

الملائكة، أو صالحي الجن، فيهتفون بمثل صوته؛ كالذي ينادي ابنه، أو غير ابنه، وهو بعيد، لايسمع: يا فلان، فيسمعه من يريد إبلاغه، فينادي: يا فلان، فيسمع ذلك الصوت، وهو المقصود بصوت [أبيه] 1. وإلا فصوت البشر ليس في قوته أن يبلغ مسافة أيام.
وقد قلنا: إن [آيات] 2 الأنبياء التي اختصوا بها خارجة عن قدرة الجن والإنس، قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} 3.
وأما إذا كانت مما تقدر عليه الملائكة، فهذا مما يؤيدها؛ فإن الملائكة لا يطيعون من يكذب على الله، ولا يؤيدونه بالخوارق. فإذا أيد به؛ كما أيد

---

1 في ((خ)) : ابنه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
3 سورة الإسراء، الآية 88.

الله به نبيه والمؤمنين يوم بدر، ويوم حنين، كان هذا من أعلام صدقه، وأنه صادق على الله في دعوى النبوة؛ فإنها لا تؤيد الكذب، لكن الشياطين تؤيد الكذاب، والملائكة تؤيد الصدق.
التأييد من الملائكة بحسب الإيمان
والتأييد بحسب الإيمان1، فمن كان أقوى من غيره، كان جنده من الملائكة أقوى، وإن كان إيمانه ضعيفا كانت ملائكته بحسب ذلك؛ كملك الإنسان وشيطانه؛ فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الملائكة، وقرينه من الجن. قالوا: وبك يا رسول الله. قال: وبي، لكن الله أعانني عليه فأسلم"2. وفي حديث آخر: "فلا يأمرني إلا بخير"3.
وهو في صحيح مسلم من وجهين4؛ من حديث ابن مسعود؛ ومن حديث عائشة.
وقال ابن مسعود: "إن للقلب لمة5 من الملك، ولمة من الشيطان.

---

1 انظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 171-172، 195، 537-538.
2 رواه الدارمي في سننه 2396، كتاب الرقاق، باب: ما من أحد إلا ومعه قرينه من الجن. وفي آخره: قال: قال أبو محمد: من الناس من يقول: أسلم: استسلم. أقول ذلك.
3 رواه الإمام أحمد في المسند 1385.
4 رواه مسلم في صحيحه 42167-2168، كتاب صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه، من حديث ابن مسعود، ومن حديث عائشة رضي الله عنهما.

5 قال ابن الأثير: "اللمة: الهمة، الخطرة تقع في القلب، أو إلمام الملك، أو الشيطان به، والقرب منه. فما كان من خطرات الخير فهو من الملك، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان". النهاية في غريب الحديث 4273. وقال في القاموس: "والهمة بالكسر - ويفتح: ما هم به من أمر ليفعل". القاموس المحيط ص 1512.

فلمة الملك: [إيعاد] 1 بالخير، وتصديق بالحق. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق"2.
فإذا كانت حسنات الإنسان أقوى، أيد بالملائكة تأييدا يقهر به الشيطان، وإن كانت سيئاته أقوى، كان جند الشيطان معه أقوى.
وقد يلتقي شيطان المؤمن بشيطان الكافر؛ فشيطان المؤمن مهزول ضعيف، وشيطان الكافر سمين قوي3.
الإنسان بفجوره يؤيد شيطانه على ملكه وبصلاحه يؤيده ملكه على شيطانه
فكما أن الإنسان بفجوره يؤيد شيطانه على ملكه، وبصلاحه يؤيد ملكه على شيطانه، فكذلك الشخصان يغلب أحدهما الآخر؛ لأن الآخر لم يؤيد ملكه، فلم يؤيده، أو [ضعف] 4 عنه؛ لأنه ليس معه إيمان [يعينه] 5؛ كالرجل الصالح إذا كان ابنه فاجرا، لم يمكنه الدفع عنه لفجوره. وبسط هذه الأمور له موضع آخر6.

---

1 في ((ط)) : إبعاد.
2 هذا الأثر رواه الترمذي مرفوعا من طريق عبد الله بن مسعود (جامع الترمذي 5219، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة البقرة) . والطبري في تفسيره 388-99؛ رواه مرة مرفوعا عن عبد الله بن مسعود، ومرة موقوفا عليه. وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص 48-49. وذكره ابن القيم في الفوائد ص 214-215. وابن كثير في تفسيره 1321.
3 هذا الكلام ليس من كلام ابن مسعود لعدم وروده في المصادر السابقة، وهو توضيح من شيخ الإسلام رحمه الله لقول ابن مسعود المتقدم.
4 في ((خ)) : ضعفت. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
5 في ((خ)) : يعينها. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
6 انظر: مجموع الفتاوى 184-85، 4254. وجامع الرسائل 1196-197.

والمقصود هنا: الكلام على الفرق بين آيات الأنبياء وغيرهم، وأن من قال1: إن آيات الأنبياء، والسحر، و [الكهانة] 2، والكرامات، وغير ذلك من جنس واحد، فقد غلط أيضا.
المتكلمون لم يعرفوا قدر آيات الأنبياء
والطائفتان3 لم يعرفوا قدر آيات الأنبياء، بل جعلوها من هذا الجنس؛ فهؤلاء4 نفوه، وهؤلاء5 أثبتوه وذكروا فرقا لا حقيقة له.
وإذا قال القائل: آيات الأنبياء لا يقدر عليها [إلا الله، أو أن الله يخترعها ويبتدئها بقدرته، أو أنها من فعل الفاعل المختار، ونحو ذلك6.
الرد على الأشاعرة
قيل له: هذا كلام مجمل. فقد يقال عن كل ما يكون آية: لا يقدر عليه إلا الله] 7؛ فإن الله خالق كل شيء، وغيره لا يستقل بإحداث شيء. وعلى هذا: فلا فرق بين المعجزات وغيرها.
وقد يقال: لا يقدر عليها إلا الله: أي هي خارجة عن مقدورات

---

1 وهم الأشاعرة والماتريدية.
انظر: مجموع الفتاوى 1390. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 585، 586. وما سيأتي ص 1315-1316.
2 في ((خ)) : الكهان. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 وهم المعتزلة والأشاعرة.
4 وهم المعتزلة الذين نفوا السحر والكهانة والكرامات، كما سبق بيانه. انظر: ص 147-152، 585.
5 وهم الأشاعرة، أثبتوا السحر والكهانة والكرامات والمعجزات، ولم يجعلوا بينها فروقا حقيقية؛ كما سبق بيانه في أول هذا الكتاب ص 151-155، وفي ص 501-503 منه.
6 انظر: البيان للباقلاني ص 8-10، 14، 19، 57. وانظر ما سبق بيانه في هذا الكتاب ص 251-257.
7 ما بين المعقوفتين مكرر في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) .

العباد؛ فإن مقدوراته على قسمين: منها ما يفعله بواسطة قدرة العباد؛ كأفعال العباد، وما يصنعونه؛ ومنها ما يفعله بدون ذلك؛ كإنزال المطر1.
فإن أراد هذا القائل: أنها خارجة عن مقدور الإنس؛ بمعنى: أنه لا يقع منهم؛ لا بإعانة الجن، ولا بغير ذلك. فهذا كلام صحيح.
و [إن أراد أنه] 2 خارج عن مقدورهم فقط، وإن كان مقدورا للجن: فهذا ليس بصحيح؛ فإن الرسل أرسلوا إلى الإنس والجن.
والسحر والكهانة وغير ذلك تقدر الجن على إيصالها إلى الإنس، وهي مناقضة لآيات الأنبياء؛ كما قال تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم} 3.
وإن أراد أنها خارجة عن مقدور الملائكة والإنس والجن، أو أن الله يفعلها بلا سبب: فهذا أيضا باطل. فمن أين له أن الله يخلقها بلا سبب؟ ومن أين له أنه لا يخلقها بواسطة الملائكة الذين هم رسله في عامة ما يخلقه؟ فمن أين له أن جبريل لم ينفخ في مريم حتى حملت بالمسيح؟ وقد أخبر الله بذلك.
وهو وأمه مما جعلهما آية للعالمين، قال تعالى: {وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين} 4.
وخلق المسيح بلا أب من أعظم الآيات، وكان بواسطة نفخ جبريل،

1 انظر: منهاج السنة النبوية 3126، 168، 180. ودرء تعارض العقل والنقل 8471-476.
2 في ((ط)) : وأن إرادته.
3 سورة الشعراء، الآيتان 221-222.
4 سورة المؤمنون، الآية 50.

قال تعالى: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك [ليهب] 1 لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لي [غلام] 2 ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا} 3.
وقال تعالى: {ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا} 4.
وكذلك طمس أبصار قوم لوط كان بواسطة الملائكة.
والذي عنده علم من الكتاب، لما قال [عفريت5 من الجن] 6 لسليمان: {أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك} 7؛ أتته به الملائكة؛ كذلك ذكره المفسرون عن ابن عباس وغيره: أن الملائكة أتته به أسرع مما كان يأتي به العفريت8.

1 وهذه قراءة ورش عن نافع، وأبي عمرو البصري. وقرأ الباقون: لأهب. (النشر في القراءات العشر ص 78) .
2 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : ولد.
3 سورة مريم، الآيات 17-20.
4 سورة التحريم، الآية 12.
5 العفريت: قال الطبري: رئيس من الجن مارد قوي. (تفسير الطبري 19161) .
وقال أبو عبيدة: العفريت من كل جن أو إنس: الفائق المبالغ الرئيس.
وقال ابن قتيبة: العفريت: الشديد الوثيق.
وقال الزجاج: العفريت: النافذ في الأمر، المبالغ فيه، مع خبث ودهاء.
انظر: زاد المسير لابن الجوزي 6174.
6 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
7 سورة النمل، الآيتان 39-40.
8 قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إن آصف قال لسليمان حين صلى: مد عينيك حتى ينتهي طرفك، فمد سليمان عينيه، فنظر نحو اليمين، فدعا آصف، فبعث الله الملائكة، فحملوا السرير من تحت الأرض يخدون به خدا، حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان". تفسير البغوي 3420. وزاد المسير 6174-175. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 606.

وقد أخبر الله تعالى أنه أيد محمدا صلى الله عليه وسلم بالملائكة وبالريح، وقال تعالى: {فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا} 1.
وقال تعالى يوم حنين: { [ثم أنزل] 2 الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها} 3.
وقال تعالى يوم الغار: {فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها} 4.
وقال تعالى: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب} 5.
وقد ثبت في الصحيح: أن الإنسان يصوره ملك في الرحم بإذن الله، ويقول الملك: "أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة"6، فإذا كان الخلق المعتاد يكون بتوسط الملائكة.

---

1 سورة الأحزاب، الآية 9.
2 في ((خ)) ، و ((م)) ، و ((ط)) : فأنزل.
3 سورة التوبة، الآية 26.
4 سورة التوبة، الآية 40.
5 سورة الأنفال، الآية 12.
6 وعن أنس بن مالك رضي الله عنه - ورفع الحديث - أنه قال: "إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكا، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة. فإذا أراد الله أن يقضي خلقا، قال الملك: أي رب ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه". صحيح مسلم 42038، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

[وقال] 1 يقرر التوحيد بقوله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم} 2 الآيات.
ثم النبوة، بقوله: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا [فأتوا] 3 [بسورة] 4} 5.
[ثم المعاد] 6.
وكذلك الأنعام، يقرر التوحيد، ثم النبوة في وسطها، ثم يختمها بأصول الشرائع والتوحيد أيضا، وهو ملة إبراهيم. وهذا مبسوط في غير هذا الموضع7.
والمقصود: أنه قد بين انفراده بالخلق، والنفع، والضر، والإتيان بالآيات، وغير ذلك، وأن ذلك لا يقدر عليه غيره. قال تعالى: {أفمن يخلق كمن لا يخلق} 8.

---

1 في ((خ)) كلمة غير واضحة. وما أثبت من ((م)) و ((ط)) .
2 سورة البقرة، الآية 21.
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، و ((م)) .
5 سورة البقرة، الآية 23.
6 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
7 وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام في: مجموع الفتاوى 11572. وأوضح أن انخراق العادات لا بد له من أسباب وموانع في: الجواب الصحيح 6394-404. ومجموع الفتاوى 184. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 354-355.
8 سورة النحل، الآية 17.

وقال تعالى: {وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ وكذلك [نصرف] 1 الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم

بوكيل ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون} 2.

ففي هذه الآيات تقرير التوحيد، حتى في إنزال الآيات، قال: {إنما الآيات عند الله} .

وكذلك قوله في العنكبوت: {وقالوا لولا أنزل عليه آية 3 من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك [لرحمة] 4 وذكرى لقوم

---

1 في ((خ)) : نفصل.

2 سورة الأنعام، الآيات 100-110.

3 قرأ نافع، وأبو عمر، وابن عامر، وحفص عن عاصم: {الآيات} على الجمع، وقرأ ابن كثير، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: {آية} . على التوحيد. انظر: زاد المسير لابن الجوزي 6279.

4 في ((ط)) : رحمة.

يؤمنون قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون}

1. وقال أيضا: {وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون} 2، هذا بعد قوله: {فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين} 3.

[و] 4 هو أرسله بآيات بان بها الحق، وقامت بها الحجة، وكانوا يطلبون آيات تعنتا، فيظن من يظن أنهم يهتدون بها، [لكن لا] 5 يحصل بها المقصود، وقد [تكون] 6 [موجبة] 7 لعذاب الاستئصال، فتكون ضررا بلا نفع. وبين سبحانه أنه قادر على إنزال الآيات، وأنها ليست إلا عنده.

لكن آيات الأنبياء لا تكون مما يقدر عليه العبد، كما قال: {قل إنما الآيات عند الله} 8.

والملائكة إنما هي سبب من الأسباب؛ كما في خلق المسيح [من غير

---

1 سورة العنكبوت، الآيات 50-52.

2 سورة الأنعام، الآية 37.

3 سورة الأنعام، الآية 35.

4 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .

5 في ((خ)) : فلا. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

6 في ((خ)) : يكون. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

7 في ((ط)) : موجة.

8 سورة الأنعام، الآية 109.

أب، فجبريل إنما كان مقدوره النفخ فيها، وهذا لا يوجب الخلق، [بل] 1 هو بمنزلة الإنزال في حق غير المسيح.

وكذلك المسيح] 2 لما خلق من الطين كهيئة الطير: إنما مقدوره تصوير الطين، [وأما] 3 حصول الحياة فيه: فبإذن الله؛ فإن الله يحيي ويميت، وهذا من خصائصه.

ولهذا قال الخليل: {ربي الذي يحيي ويميت} 4.

وفي القرآن، في غير مواضع: {يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي} 5، [{وكنتم أمواتا فأحياكم} 6] 7، {ويحيي الأرض بعد موتها} 8، [{والله يحيي ويميت} 9] 10.

(بل) ساقطة من ((خ)) ، وهي في ((م)) ، و ((ط)) .

2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

3 في ((م)) ، و ((ط)) : وإنما.

4 سورة البقرة، الآية 258.
5 سورة الروم، الآية 19.
وفي سورة آل عمران، الآية 27: {تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب} .
وفي سورة الأنعام، الآية 95: {إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون} .
وفي سورة يونس، الآية 31: {قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون} .
6 سورة البقرة، الآية 28.
7 ما بين المعقوفتين ليس في ((ط)) .
8 سورة الروم، الآية 19.
9 سورة آل عمران، الآية 156.
10 ما بين المعقوفتين ليس في ((ط)) ، وفيه بدلها: {وكذلك تخرجون} .

وما يتولد عن أفعال الملائكة وغيرهم ليسوا مستقلين به، بل لهم فيه شركة؛ كطمس أبصار اللوطية، وقلب مدينتهم.
وكذلك النصر: إنما] يقدرون] 1 على القتال كالإنس. والنصر هو من عند الله؛ كما قال تعالى: {وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله} 2.
[والقرآن إنما يقدرون على النزول به، لا على إحداثه ابتداء، فهم3 يقدرون على الإتيان بمثله من عند الله] 4.
وأما الجن والإنس فلا يقدرون على الإتيان بمثله؛ لأن الله لا يكلم بمثله الجن والإنس ابتداء.
ولهذا قال: {لا يأتون بمثله} 5، وقال تعالى: {فأتوا بسورة من مثله} 6، وقال: {فأتوا بعشر سور مثله} 7، وقال: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} 8، لم يكلفهم نفس الإحداث، بل طالبهم بالإتيان بمثله؛ إما إحداثا، وإما تبليغا عن الله، أو عن مخلوق، ليظهر عجزهم عن جميع الجهات9؛ فقد يقال: فنفس أفعال العباد ليست من الآيات؛ إذ

---

1 في ((خ)) : يقدر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة الأنفال، الآية 10.
3 أي الملائكة.
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 سورة الإسراء، الآية 88.
6 سورة البقرة، الآية 23.
7 سورة هود، الآية 13.
8 سورة الطور، الآية 34.
9 سبق الكلام على التحدي بالقرآن الكريم. انظر ص 622-623، 624، 1105 من هذا الكتاب.

كانت مقدورة ومفعولة للعبد، وإن كان ذلك بإقدار الله تعالى، ولا نفس القدرة على ذلك الفعل؛ فإن المقصود من القدرة هو الفعل.
آيات الأنبياء لا يتوصل إليها بسبب
بل الآيات خارجة عن مقدور جميع العباد؛ الملائكة، والجن، والإنس، وهي أيضا لا تنال بالاكتساب؛ فإن الإنس والجن قد يقدرون بأسباب مباينة لهم على أمور، كما يقدرون على قتل من يقتلونه وإمراضه، ونحو ذلك.
وآيات الأنبياء لا يقدر أحد أن يتوصل إليها بسبب.
والسحر والكهانة مما يمكن التوصل إليه بسبب؛ كالذي يأتي بأقوال وأفعال تحدثه بها الجن1.
فالنبوة لا تنال بكسب العبيد، ولا آياتها تحصل بكسب العباد2، وهذا

---

1 انظر: مجموع الفتاوى 1189.
2 فالنبوة فضل إلهي، ومنة ربانية، يختص الله بها من يشاء من عباده؛ فيخصه بالوحي ليبلغ عباده. فلا تدرك باختيار العبد وكسبه وإرادته، وإنما هي اصطفاء من الله، ومنة منه جل وعلا.
قال تعالى: {والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم} . سورة البقرة، الآية 105.
وقال تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} . سورة الأنعام، الآية 154.
وقال تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} . سورة الحج، الآية 75.
أما الفلاسفة، وصوفيتهم: فقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عنهم أنهم يقولون بأن النبوة مكتسبة. وبين رحمه الله أنها لا تنال باكتساب الإنسان، فقال: "إن النبوة لا تنال باكتساب الإنسان واستعداده كما تنال بذلك العلوم المكتسبة والدين المكتسب؛ فإن هؤلاء القوم ما قدروا الله حق قدره، ولا قدروا الأنبياء قدرهم، لما ظنوا أن الإنسان إذا كان فيه استعداد لكمال تزكية نفسه وإصلاحها، فاض عليه بسبب ذلك المعارف من العقل الفعال كما يفيض الشعاع على المرآة المصقولة إذا جليت وحوذي بها الشمس، وأن حصول النبوة ليس هو أمرا يحدثه الله بمشيئته وقدرته، وإنما حصول هذا الفيض على هذا المستعد، كحصول الشعاع على هذا الجسم الصقيل، صار كثير منهم يطلب النبوة؛ كما يحكى عن طائفة من قدماء اليونان، وكما يعرض ذلك لطائفة من الناس في أيام الإسلام..". كتاب الصفدية 1229. وانظر: المصدر نفسه 1230-234. ودرء تعارض العقل والنقل 5353-356. ومنهاج السنة النبوية 2415-416، 434-435. وبغية المرتاد ص 384. وشرح حديث النزول ص 421. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 204. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 609-612، 732-735، 834-841، 855-857. وانظر عن طلب صوفية الفلاسفة، أو ملاحدة الصوفية للنبوة في: درء تعارض العقل والنقل10204-205. والرد على المنطقيين ص 483. وكتاب الصفدية 1250-251، 284-285. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 196-199، 236-237.
فالنبوة فضل من الله، ومنة يمن بها على عباده، واصطفاء منه جل وعلا، قال العلامة السفاريني رحمه الله:
ولا تنال رتبة النبوة بالكسب والتهذيب والفتوة
لكنها فضل من المولى الأجل لمن يشاء من خلقه إلى الأجل
انظر: لوامع الأنوار 2267.

من الفروق بين آيات الأنبياء، وبين السحر والكهانة.
من الفروق بين آيات الأنبياء وبين خوارق السحرة والكهان
وبينهما فروق كثيرة، أكثر من عشرة1.
أحدها: أن ما تخبر به الأنبياء، لا يكون إلاصدقا. وأما ما يخبر به من خالفهم؛ من السحرة، [والكهان] 2، وعباد المشركين، وأهل الكتاب، وأهل البدع والفجور من المسلمين؛ فإ نه لابد فيه من الكذب.
[الثاني: أن الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل، ولا تفعل إلا العدل] 3.

---

1 ذكر الشيخ رحمه الله الفروق بين آيات الأنبياء، وبين السحرة والكهان منظمة في ص 671-673 من هذا الكتاب، وقد جعلها اثني عشر فرقا.
وانظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 671-673، 798، 844، 987، 1020.
2 في ((ط)) : الكهاه.
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

وهؤلاء المخالفون لهم لا بد لهم من الظلم؛ فإن ما خالف العدل لا يكون إلا ظلما؛ فيدخلون في العدوان على الخلق، وفعل الفواحش، والشرك، والقول [على] 1 الله بلا علم؛ وهي المحرمات التي حرمها الله مطلقا؛ كما قال تعالى: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون} 2.
الثالث: أن ما يأتي به من يخالفهم: معتاد لغير الأنبياء؛ كما هو معتاد للسحرة، والكهان، وعباد المشركين، وأهل الكتاب، وأهل البدع والفجور.

وآيات الأنبياء هي معتادة أنها تدل: علىخبر الله وأمره، على علمه وحكمه؛ فتدل على أنهم أنبياء، وعلى صدق من أخبر بنبوتهم؛ سواء كانوا هم المخبرين، أوغيرهم.
وكرامات الأولياء هي من هذا؛ فإنهم يخبرون بنبوة الأنبياء.
وكذلك أشراط الساعة: هي أيضا تدل على صدق الأنبياء؛ إذ كانوا قد أخبروا بها.
فالذي جعله أولئك3 من كرامات الأولياء، وأشراط الساعة ناقضا لآيات الأنبياء، إذ هو من جنسها، ولا يدل عليها.
فأولئك4 كذبوا بالموجود، وهؤلاء5 سووا بين الآيات وغيرها، فلم [يكن] 6 في الحقيقة عندهم آية، وكانت الآيات عند أولئك منتقضة.

---

1 في ((خ)) : عليه. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 سورة الأعراف: 33.
3 أي المعتزلة.
4 أي المعتزلة.
5 أي الأشاعرة.
6 في ((م)) ، و ((ط)) : تكن.

وأولئك1 نصروا جهلهم بالتكذيب بالحق، وهؤلاء2 نصروا جهلهم أيضا بقول الباطل، فقالوا: إن الآية هي المقرونة بالدعوى التي لا تعارض3، وزعموا أنه لا يمكن معارضة السحر والكهانة إذا جعل آية، وأنه إذا لم يعارض، كان آية4، وهو تكذيب بالحق أيضا؛ فإنه قد ادعاه غير نبي، ولم يعارض5.
فالطائفتان6 أدخلت في الآيات ما ليس منها، وأخرجت منها ما هو منها؛ فكرامات الأولياء، وأشراط الساعة من آيات الأنبياء، وأخرجوها. والسحر والكهانة ليس من آياتهم، وأدخلوها، أو سووا بينها وبين الآيات، بل [ونوابها] 7.
الرابع: إن آيات الأنبياء والنبوة، لو قدر أنها تنال بالاكتساب، فهي إنما تنال بعبادة الله وطاعته؛ فإنه لا يقول عاقل: إن أحدا يصير نبيا بالكذب

---

1 المعتزلة.
2 الأشاعرة.
3 انظر: البيان للباقلاني ص 46-49. والإرشاد للجويني ص 312-313، 319. والمواقف للإيجي ص 369.
وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 151-155، 282، 586-587، 724، 987.
4 انظر: البيان ص 94-95، 96. والإرشاد ص 319، 328. والمواقف ص 370. وأصول الدين للبغدادي ص 174-175.
وانظر ما سبق ص 585-588، 606-609، 726-727،.
5 مثل مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والحارث الدمشقي.
انظر ما سبق ص 192، 282، 598.
6 المعتزلة والأشاعرة.
7 في ((خ)) رسمت: لوابها. وهكذا جاءت في ((م)) ، و ((ط)) .

والظلم، بل بالصدق والعدل؛ سواء قال: إن النبوة جزاء على العمل1، أو قال: إنه إذا زكى نفسه، [فاض] 2 عليه ما يفيض على الأنبياء3. فعلى القولين: هي مستلزمة لالتزام الصدق والعدل.
وحينئذ: فيمتنع أن صاحبها يكذب على الله؛ فإن ذلك يفسدها بخلاف من خالف الأنبياء؛ من السحرة، والكهان، وعباد المشركين، وأهل البدع والفجور؛ من أهل الملل؛ أهل الكتاب، والمسلمين؛ فإن هؤلاء [تحصل] 4 لهم الخوارق، مع الكذب والإثم. بل خوارقهم مع ذلك أشد؛ لأنهم يخالفون الأنبياء. وما ناقض الصدق والعدل، لم يكن إلا كذبا وظلما.
فكل من خالف طريق الأنبياء، لا بد له من الكذب والظلم؛ إما عمدا، وإما جهلا.

---

1 وهذا قول المعتزلة، كما صرح بذلك شيخ الإسلام رحمه الله في منهاج السنة 2414، 5436-439. وكتاب الصفدية 1225-229.
2 في ((ط)) : فاضل.
3 هذا قول الفلاسفة، كما مر معنا في ص 1312 من هذا الكتاب. وانظر: كتاب الصفدية 1229، 2230.
وقد قال شيخ الإسلام عن النبوة عند الفلاسفة أنهم "يزعمون أن ذلك فيض فاض من العقل على نفس النبي كما يفيض على سائر الأنبياء وغيرهم". بغية المرتاد ص 384. وانظر: الرد على المنطقيين ص 218-219، 474-476.
وفكرة الفيض، والصدور - وهما بمعنى واحد عند من قال بهما -: تولد عن الله. والله تعالى قد نفى جنس التولد عن نفسه. انظر: كتاب الصفدية 1158-160، 347. والرد على المنطقيين ص 214، 218، 219.
4 في ((خ)) : يحصل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

وقوله تعالى: {تنزل على كل أفاك أثيم} 1: ليس من شرطه أن يتعمد الكذب، بل من كان جاهلا يتكلم بلا علم، فيكذب؛ فإن الشياطين تنزل عليه أيضا؛ إذ من أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه، من غير اجتهاد يعذر به، فهو كذاب.
ولهذا يصف الله المشركين بالكذب، وكثير منهم لا يتعمد ذلك.
وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لما أفتى أبو السنابل2: بأن المتوفى عنها الحامل، لا [تحل] 3 بوضع الحمل، بل تعتد أبعد الأجلين. فقال: كذب أبو السنابل4؛ [أي في قوله] 5: بأن المتوفى عنها الحامل لا [تحل] 6 بوضع الحمل، بل تعتد أبعد الأجلين.

وكذلك لما قال بعضهم: ابن الأكوع حبط عمله. قال النبي صلى الله عليه وسلم: كذب من قالها، إنه لجاهد مجاهد7
ونظائره كثيرة.
فالأنبياء لا يقع في إخبارهم عن الله كذب؛ لا عمدا، ولا خطأ.
وكل من خالفهم لابد أن يقع في خبره عن الله كذب ضرورة؛ فإن خبره إذا لم يكن مطابقا لخبرهم، كان مخالفا له، فيكون كذبا.

---

1 سورة الشعراء، الآية 222.
2 سبقت ترجمته.
3 في ((خ)) : يحل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
4 سبق تخريجه 978-979.
5 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) ، وهو في ((م)) ، و ((ط)) .
6 في ((خ)) : يحل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
7 سبق تخريجه 979.

فالذي تنزل عليه الشياطين إذا ظن واعتقد أنهم جاؤوا من عند الله، وأخبر بذلك، كان كاذبا. وكذلك إذا قال عما أوحوه إليه: إن الله أوحاه إليه، كان كاذبا؛ قال تعالى: {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم} 1.
ولما شاع خبر المختار بن أبي عبيد2، وهو أول من ظهر في الإسلام بالكذب في هذا، وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يكون في ثقيف كذاب ومبير" 3، فكان الكذاب هو المختار بن أبي عبيد، وكان

---

1 سورة الأنعام، الآية 121.
2 هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، أبو إسحاق. كان أبوه قد أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تعلم له صحبة. استعمله عمر بن الخطاب على جيش، فغزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبي عبيد. ولد المختار عام الهجرة. وقد سار من الطائف بعد مصرع الحسين إلى مكة فأتى ابن الزبير، وكان قد طرد لشره إلى الطائف، فأظهر المناصحة. فلما مات يزيد استأذن ابن الزبير في الرواح إلى العراق، فأذن له. وصار إلى العراق، ودعا فيها إلى إمامة محمد بن الحنفية، حتى علا قدره، ثم طالب بدم الحسين وتتبع قتلته، وقتل ابن زياد، وشاع في الناس أخبار عنه بأنه ادعى النبوة، ونزول الوحي عليه، ومكث كذلك ستة عشر شهرا، ثم قاتله مصعب بن الزبير أمير البصرة من قبل أخيه عبد الله، فقتله في الكوفة سنة 67 ?.

انظر: سير أعلام النبلاء 3538. والإصابة 6349. وشذرات الذهب 174، 75. والبداية والنهاية 8292-295. والأعلام 7192. 3 أورد الإمام مسلم رحمه الله هذا الحديث من طريق أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالته تخاطب الحجاج بن يوسف لما قتل ولدها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، قالت له: " ... أما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أن في ثقيف كذابا ومبيرا، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه.. ".

أخرجه مسلم في صحيحه 41971-1972، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها.

وقد رواه أيضا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أخرجه الترمذي في جامعه 4499-500، 5729-730، كتاب الفتن، باب ما جاء في ثقيف كذاب ومبير.

وانظر مسند الإمام أحمد 6351-352. والبداية والنهاية 8352.

قال النووي: " المبير: المهلك. وقولها في الكذاب: فرأيناه: تعني به المختار بن أبي عبيد الثقفي، كان شديد الكذب، ومن أقبحه ادعى أن جبريل صلى الله عليه وسلم يأتيه. واتفق العلماء على أن المراد بالكذاب هنا المختار بن أبي عبيد، وبالمبير الحجاج بن يوسف. والله أعلم". شرح النووي على صحيح مسلم 16100.

يتشيع لعلي. [ولهذا يوجد الكذب في الشيعة أكثر مما يوجد فى جميع الطوئف، والمبير: هو الحجاج بن يوسف1، وكان ظالما معتديا، وكان يتشيع] 2 لعثمان، والمختار يتشيع لعلي، فذكر لابن عمر، وابن عباس أمر المختار، وقيل لأحدهما: إنه يزعم أنه يوحى إليه، فقال: صدق،

---

1 هو الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي، أبو محمد. ولد بالطائف سنة 40؟. أمره عبد الملك بقتال عبد الله بن الزبير، ثم ولاه مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق.

قال عنه الذهبي: "كان ظلوما جبارا ناصبيا خبيثا سفاكا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن.... - إلى أن قال: - وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله، وله توحيد في الجملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء. أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين كهلا".

سير أعلام النبلاء 4343.

وذكر الإمام الترمذي رواية عنه، عن هشام بن حسان: قال: أحصوا ما قتل الحجاج صبرا، فبلغ مائة ألف وعشرين ألف قتيل. (سنن الترمذي 4499، كتاب الفتن، باب ما جاء في ثقيف كذاب ومبير) . وانظر: البداية والنهاية 9131-157. وشذرات الذهب 1106. والأعلام 2168.

2 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

{وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم} 1، وقيل للآخر: إنه يزعم أنه ينزل عليه، فقال: صدق، {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم} 2.

الخامس: أن ما تأتي به السحرة، والكهان، والمشركون، وأهل البدع؛ من أهل الملل، لا يخرج عن كونه مقدورا للإنس والجن. وآيات الأنبياء لا يقدر على مثلها؛ لا الإنس ولا الجن؛ كما قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} 3.

السادس: أن ما يأتي به السحرة، والكهان، وكل مخالف للرسل تمكن

---

1 سورة الأنعام، الآية 121.

وروى الطبري بسنده إلى أبي زميل قال: كنت قاعدا عند ابن عباس، فجاءه رجل من أصحابه، فقال: يا ابن عباس زعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه الليلة؛ يعني المختار بن أبي عبيد. فقال ابن عباس: صدق. فنفرت فقلت: يقول ابن عباس صدق؟! فقال ابن عباس: هما وحيان؛ وحي الله، ووحي الشيطان. فوحي الله إلى محمد، ووحي الشياطين إلى أوليائهم، ثم قال: {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم} , سورة الأنعام، الآية 121. تفسير الطبري 820.

2 سورة الشعراء، الآيتان 221-222.

وروى الطبري بسنده إلى سعيد بن وهب قال: كنت عند عبد الله بن الزبير، فقيل له: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: صدق، ثم تلا: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم} . سورة الشعراء، الآيتان 221-222. تفسير الطبري 19126.
وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وقد قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه؟ فقال: صدق، قال تعالى: {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم} ". البداية والنهاية 8294.
3 سورة الإسراء، الآية 88.

معارضته بمثله، وأقوى منه؛ كما هو الواقع لمن عرف هذا الباب1. وآيات الأنبياء لا يمكن أحدا أن يعارضها؛ لا بمثلها، ولا بأقوى منها.
وكذلك كرامات الصالحين، لا تعارض؛ لا بمثلها، ولا بأقوى منها. بل قد يكون بعضها آيات [أكبر] 2 من بعض. وكذلك آيات الصالحين. لكنها متصادقة، متعاونة على مطلوب واحد؛ وهو عبادة الله، وتصديق رسله. فهي آيات، ودلائل، وبراهين متعاضده على مطلوب واحد. والأدلة بعضها أدل وأقوى من بعض.
ولهذا كان المشايخ3 - الذين يتحاسدون، ويتعادون، ويقهر بعضهم بعضا بخوارقه؛ إما بقتل وإمراض، وإما بسلب حاله وعزله عن مرتبته، وإما غير ذلك - خوارقهم شيطانية، ليست من آيات الأنبياء والأولياء.
[وكثير] 4 من هؤلاء يكون في الباطن كافرا منافقا. وكثير منهم يموت على غير الإسلام. وكثير منهم يكون مسلما مع ظلم يعرف أنه ظلم، ومنهم من يكون جاهلا يحسب أن ما هو عليه مما أمر الله به ورسوله. وهذا كما يقع للملوك [المتنازعين على] 5 الملك من قهر بعضهم لبعض. فهذا خارج عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة خلفائه الراشدين.
السابع: أن آيات الأنبياء هي الخارقة للعادات؛ عادات الإنس والجن، بخلاف خوارق مخالفيهم؛ فإن كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء.

---

1 أي باب السحر والكهانة والتنجيم.
2 في ((خ)) : أكثر. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 الذين هم من أولياء الشيطان.
4 ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.
5 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .

وآيات الأنبياء ليست معتادة لغير الذين يصدقون على الله، ويصدقون من صدق على الله؛ وهم الذين جاؤوا بالصدق وصدقوا. وتلك معتادة لمن يفتري الكذب على الله، أو يكذب بالحق [لما جاءه] 1. فتلك آيات على كذب أصحابها، وآيات الأنبياء آيات على صدق أصحابها؛ فإن الله سبحانه لا يخلي الصادق مما يدل على صدقه، ولا يخلي الكاذب مما يدل على كذبه؛ إذ من نعته ما أخبر به في [قوله] 2: {أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك} 3. ثم قال خبرا مبتديا: {ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته} 4؛ فهو سبحانه لا بد أن يمحق الباطل، ويحق الحق بكلماته.
وقال تعالى: {وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون} 5.
كما أخبر في موضع أنه لم يخلق الخلق عبثا ولا سدى، وإنما خلقهم بالحق وللحق6، فلا بد أن يجزي هؤلاء وهؤلاء بإظهار صدق هؤلاء، وإظهار كذب هؤلاء؛ كما قال: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق} 7.

---

1 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
2 في ((ط)) : وقله.
3 سورة الشورى، الآية 24.
4 سورة الشورى آية 24.
5 سورة الأنبياء، الآيات 16-18.
6 قال تعالى: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون} . سورة المؤمنون، الآية 115.

وقال تعالى: {أيحسب الأنسان أن يترك سدى} . سورة القيامة، الآية 36.
7 سورة الأنبياء، الآية 18.

الثامن: أن هذه لا يقدر عليها مخلوق، فلا تكون مقدورة للملائكة، ولا للجن، ولا للإنس، وإن كانت الملائكة قد يكون لهم فيها سبب، بخلاف تلك؛ فإنها إما مقدورة للإنس، أو للجن، أو مما يمكنهم التوصل إليها بسبب.
وأما كرامات الصالحين فهي من آيات الأنبياء - كما تقدم1، ولكن ليست من آياتهم الكبرى، ولا يتوقف إثبات النبوة عليها، وليست خارقة لعادة الصالحين، بل هي معتادة في الصالحين من أهل الملل؛ في أهل الكتاب، والمسلمين.
وآيات الأنبياء التي يختصون بها خارقة لعادة الصالحين.
التاسع: أن خوارق غير الأنبياء؛ الصالحين، والسحرة، والكهان، وأهل الشرك والبدع، تنال بأفعالهم؛ كعبادتهم، ودعائهم، وشركهم، وفجورهم، ونحو ذلك.
وأما آيات الأنبياء فلا [تحصل] 2 بشيء من ذلك، بل الله يفعلها آية وعلامة لهم، وقد يكرمهم بمثل كرامات الصالحين، وأعظم من ذلك، مما يقصد به إكرامهم.
لكن هذا النوع يقصد به الإكرام والدلالة، بخلاف الآيات المجردة؛ كانشقاق القمر، وقلب العصا حية، وإخراج يده بيضاء، والإتيان بالقرآن، والإخبار بالغيب الذي يختص الله به.

---

1 انظر ص 162، 724، 987، 1036 من هذا الكتاب.
2 في ((خ)) : يحصل. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

فأمر الآيات إلى الله، لا إلى اختيار المخلوق1، والله يأتي بها بحسب علمه، وحكمته، وعدله، ومشيئته، ورحمته، كما ينزل ما ينزله من آيات القرآن، وكما يخلق من يشاء من المخلوقات، بخلاف ما حصل باختيار العبد؛ إما لكونه يفعل ما يوجبه، أو يدعو الله به فيجيبه.
فالخوارق التي ليست آيات2: تارة تكون بدعاء العبد، والله تعالى يجيب دعوة المضطر [إذا دعاه] 3، وإن كان كافرا. لكن [للمؤمنين] 4 من إجابة الدعاء ما ليس لغيرهم. وتارة تكون بسعيه في أسبابها؛ مثل توجهه بنفسه وأعوانه، وبمن يطيعه من الجن والإنس في حصولها.
وأما آيات الأنبياء: فلا تحصل بشيء من ذلك.

---

1 قال أحد الباحثين معلقا على كلام شيخ الإسلام رحمه الله: "فالذي يظهر من استقرائي لكلام ابن تيمية في تحقيقه للفظ المعجز، وفي تقسيمه للآيات: أن منها آيات خاصة لإقامة الحجج، وآيات عامة، قد يكون فيها معنى الإكرام، فهي دلائل وعلامات. فالآيات الخاصة تمثل المعجزات. والآيات العامة تمثل دلائل النبوة، وأعلام النبوة. فكل معجزة علامة ودلالة على النبوة، وليس كل علامة ودلالة على النبوة معجزة بالمعنى الاصطلاحي. أما المعنى اللغوي فقد تطلق المعجزات على أعلام النبوة ودلائلها، كما نقل ابن تيمية عن السلف كأحمد وغيره". خوارق العادات في القرآن الكريم لعبد الرحمن إبراهيم حميدي: ص 35.
وانظر ما سبق من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى حول هذا المعنى في ص 604، 652، 724، 725، 792 من هذا الكتاب. وانظر: الجواب الصحيح 5412-421،، 6380، 387. وفتح الباري 6581.
2 انظر: الجواب الصحيح 6167-168.
3 ما بين المعقوفتين ليس في ((م)) ، و ((ط)) .
4 في ((خ)) : المؤمنين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

العاشر: أن النبي قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم، فلا يأمر إلا [بما] 1 أمرت به الأنبياء؛ من عبادة الله وحده، والعمل بطاعته، والتصديق باليوم الآخر، والإيمان بجميع الكتب والرسل. فلا يمكن خروجه عما اتفقت [عليه] 2 الأنبياء.
وأما السحرة، والكهان، والمشركون، وأهل البدع من أهل الملل، فإنهم يخرجون عما اتفقت عليه الأنبياء؛ فكلهم يشركون مع تنوعهم، ويكذبون ببعض ما جاء به الأنبياء.

والأنبياء كلهم منزهون عن الشرك، وعن التكذيب بشيء من الحق الذي بعث الله به نبيا.
قال تعالى: {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} 3.
وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا [يوحى] 4 إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} 5.
وقال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة} 6.

---

1 في ((ط)) : بمغ.
2 ما بين المعقوفتين ليس في ((خ)) .
3 سورة الزخرف، الآية 45.
4 في ((ط)) : نوحي. وهي قراءة حفص عن عاصم. انظر: النشر في القراءات العشر ص 65.
5 سورة الأنبياء، الآية 25.
6 سورة النحل، الآية 36.

وقال تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} 1.
وقال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون [فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا] 2 وإن تولوا فإنما هم في شقاق} 3.
وقال تعالى: {ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} 4.
وقال تعالى: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا} 5.
وقال تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} 6.
وقال تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين

---

1 سورة البقرة، الآية 285.
2 ما بين المعقوفتين ساقط من ((خ)) .
3 سورة البقرة، الآية 136.
4 سورة البقرة، الآية 177.
5 سورة النساء، الآيتان 150-151.
6 سورة آل عمران، الآية 81.

ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب} 1.
وقال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وأن 2 هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} 3، ثم قال: {فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون} 4.
وقال تعالى لما ذكر الأنبياء: {إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون} 5.
وقال تعالى: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} 6.
فالأنبياء يصدق متأخرهم متقدمهم، ويبشر متقدمهم بمتأخرهم؛ كما بشر المسيح ومن قبله بمحمد7، وكما صدق محمد جميع النبيين قبله8.

1 سورة الشورى، الآية 13.
2 قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر: ((وأن)) بالفتح وتشديد النون، ووافق ابن عامر في فتح الألف، لكنه سكن النون، وقرأ عاصم، وحمزة والكسائي: ((وإن)) بكسر الألف وتشديد النون. انظر: زاد المسير لابن الجوزي 5478.
3 سورة المؤمنون، الآيتان 51-52.
4 سورة المؤمنون، الآية 53.
5 سورة الأنبياء، الآيات 92-94.
6 سورة البقرة، الآيتان 111-112.
7 قال تعالى: {وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين} . سورة الصف، الآية 6.
8 قال تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} . سورة البقرة، الآية 285.

ولهذا يقول: {يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت} 1.
وقال: { [نزل] 2 عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل} 3.
وقال: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه} 4.
والأنبياء، وأتباعهم، [كلهم] 5 مؤمنون، مسلمون6، يعبدون الله

---

1 سورة النساء، الآية 47.
2 في ((خ)) : أنزل.
3 سورة آل عمران، الآية 3.
4 سورة المائدة، الآية 48.
5 في ((ط)) : كله.
6 جميع الرسل متفقون في الدعوة إلى التوحيد الخالص، والنهي عن الشرك، فالغاية التي بعثوا من أجلها: إفراد الله بالعبادة، والنهي عن جميع الموبقات من الكفر والفسوق والعصيان.
والإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله جل وعلا للخلق أجمعهم، فأرسل النبيين والمرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بدين واحد، وهو الإسلام. إلا أن شرائعهم تنوعت، فشرع لقوم ما لم يشرع لآخرين.
قال تعالى يحكي عن نوح عليه السلام وهو يخاطب قومه: {فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين} [يونس: 72] .
ومن ذلك قوله تعالى: {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون} . سورة البقرة، الآيتان 132-133.
وقال تعالى يحكي قول يوسف عليه السلام: {توفني مسلما وألحقني بالصالحين} [سورة يوسف، الآية 101] . وقال عن موسى عليه السلام: {وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} [سورة يونس، الآية 84] . وقال تعالى عن السحرة: {ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} [سورة الأعراف، الآية 126] . وقال تعالى عن بلقيس: {رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين} [سورة النمل، الآية 44] . وقال يحكي عن الحواريين: {آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون} [سورة آل عمران، الآية 52] .
وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله تعالى إلى أن دين الأنبياء عليهم السلام جميعا هو الإسلام في مواضع كثيرة من تصانيفه.
فمن ذلك قوله: "وقد ذكر الله عن الأنبياء وأتباعهم أنهم كانوا مسلمين مؤمنين من نوح إلى الحواريين، وقال تعالى: {ومن يبتغ غير الأسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} [آل عمران، 85] . وهذا عام في الأولين والآخرين، وقال: {إن

الدين عند الله الأسلام} [آل عمران، 19] . وقال: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة} [النحل، 36] . وقوله تعالى: {أسلم وجهه لله وهو محسن} [سورة البقرة: آية 112] ؛ أي أخلص قصده وعمله لله وهو محسن يفعل الصالحات، وهذا هو الإسلام؛ وهو أن يكون عمله عملا صالحا ويعمله لله تعالى. وهذا هو عبادة الله وحده لا شريك له. وبهذا بعث الله الرسل جميعهم". الرد على المنطقيين ص 448.
وانظر: مجموع الفتاوى 392، 7624. والجواب الصحيح112-83. والعقيدة التدمرية ص167-170. ودقائق التفسير 5105. والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص 182-185. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 488-490.

وحده بما أمر، ويصدقون بجميع ما جاءت به الأنبياء.
ومن خالفهم: لا يكون إلا مشركا، ومكذبا ببعض ما أنزل الله. وبين الطائفتين1 فروق كثيرة غير خوارق العادات.
الحادي عشر: أن النبي هو وسائر المؤمنين لا يخبرون إلا بحق،

---

1 أي بين جنس الأنبياء، وجنس المتنبئين من السحرة والكهان.

ولا يأمرون إلا بعدل؛ فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد، لا يأمرون بالفواحش، ولا الظلم، ولا الشرك، ولا القول بغير علم.
فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها. فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقول، الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول.
فكما أنهم هم لا يختلفون؛ فلا يناقض بعضهم بعضا، بل دينهم وملتهم واحد وإن تنوعت الشرائع1، فهم أيضا موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده، موافقون للأدلة العقلية لا يناقضونها قط. بل الأدلة العقلية الصحيحة كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم.
وآيات الله السمعية والعقلية؛ العيانية2 والسماعية كلها متوافقة، متصادقة، متعاضدة، لا يناقض بعضها بعضا؛ كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع3.

---

1 فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد) . أخرجه البخاري في صحيحه31270، كتاب الأنبياء، باب: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها} . ومسلم في صحيحه 41837، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام. وأحمد في المسند 2309، 406، 437، 482.
2 أي التي ترى وتشاهد.
3 انظر كتابه درء تعارض العقل والنقل؛ فقد ألفه رحمه الله للرد على القانون الذي ابتدعه المخالفون لمنهج أهل السنة يدعون فيه حصول التعارض بين العقل والنقل. وقد أصل شيخ الإسلام رحمه الله أصلا في الرد على هذا القانون؛ وهو موافقة صريح العقل لصحيح النقل، والتلازم بينهما.
وانظر أيضا: الرد على المنطقيين ص 373. ومجموع الفتاوى 6300، 16442-443.

والذين يخالفون الأنبياء؛ من أهل الكفر، وأهل البدع؛ كالسحرة، والكهان، وسائر أنواع الكفار؛ وكالمبتدعين من أهل الملل؛ أهل العلم، وأهل العبادة: فهؤلاء مخالفون للأدلة السمعية والعقلية؛ للسماعية والعيانية، مخالفون لصريح المعقول، وصحيح المنقول؛ كما أخبر الله عنهم بقوله: {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير} الآية1. فهؤلاء يخالفون أقوال الأنبياء؛ إما بالتكذيب، وإما بالتحريف من التأويل، وإما بالإعراض عنها وكتمانها؛ فإما لا يذكروها، أو يذكروا ألفاظها، ويقولون: ليس لها معنى يعرفه مخلوق2؛ كما أخبر الله عن أهل الكتاب: أن منهم

---

1 سورة الملك، الآية 8.
2 ينبه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ها هنا على أن لأهل التعطيل في نصوص الوحي ثلاث طرق:
الطريق الأول: إما بردها بالتكذيب بها، والتعطيل لها لفظا ومعنى.
الطريق الثاني: أو صرفها عن معناها الحقيقي، ومراد الرسول صلى الله عليه وسلم بها، بواسطة التأويل.

الطريق الثالث: وهو التفويض المحض؛ أو قل دعوى الجهل بمعنى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وعدم العلم به، والفقه له. أما أصحاب القول الأول؛ وهو التكذيب بالنصوص، فقد قال عنهم شيخ الإسلام رحمه الله: (يزعم كثير من القدرية والمعتزلة أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن على حكمة الله وعدله وأنه خالق كل شيء وقادر على كل شيء.
وتزعم الجهمية من هؤلاء ومن اتبعهم من بعض الأشعرية وغيرهم أنه لا يصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته وعبادته وأنه مستو على عرشه.
ويزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقا، بناء على أن الدلالة القطعية لا تفيد اليقين بما زعموا.
ويزعم قوم من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوهما مما يطلب فيه القطع باليقين". المعجزات وكرامات الأولياء ص 56-57.
وأما التأويل: فقد أوضح الشيخ رحمه الله أن لفظ التأويل قد صار بتعدد الاصطلاحات مستعملا في معان ثلاثة:
أحدها: العاقبة، وما يؤول إليه الكلام. الثاني: يراد به التفسير. الثالث: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به. وتسمية هذا تأويلا لم يكن موجودا في عرف السلف رحمهم الله، وإنما سمى هذا وحده تأويلا طائفة من المتأخرين الخائضين في الفقه وأصوله والكلام؛ فإن أكثره أو عامته من باب تحريف الكلم عن مواضعه، من جنس تأويلات القرامطة والباطنية. وهذا هو التأويل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض، ورموا في آثارهم بالشهب.
انظر: نقض المنطق ص 57-58. والعقيدة التدمرية ص 91-93.
وأما أهل التفويض المحض؛ وهو تفويض علم معاني النصوص إلى الله تعالى، والإعراض عنها بالكلية، والزعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعلم المراد، ولم يبلغ البلاغ المبين، فقد قال عنهم شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "وأما التفويض فإنه من المعلوم أن الله تعالى أمرنا أن نتدبر القرآن، وحضنا على عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله؟.. فعلى قول هؤلاء: يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص، ولا الملائكة، ولا السابقون الأولون. وحينئذ فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن، أو كثير مما وصف الله به نفسه لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلاما لا يعقلون معناه. وكذلك نصوص المثبتين للقدر عند طائفة، والنصوص المثبتة للأمر والنهي والوعد والوعيد عند طائفة، والنصوص المثبتة للمعاد عند طائفة. ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء؛ إذ كان الله أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدى وبيانا للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله. ومع هذا فأشرف ما فيه؛ وهو ما أخبر به الرب عن صفاته، أو عن كونه خالقا لكل شيء، وهو بكل شيء عليم، أو عن كونه أمرا ونهيا، ووعدا وتوعدا، أو عما أخبر به عن اليوم الآخر، لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بين للناس ما نزل إليهم، ولا بلغ البلاغ المبين. وعلى هذا التقدير: فيقول كل ملحد ومبتدع: الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي، وليس في النصوص ما يناقض ذلك؛ لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة، لا يعلم أحد معناها، وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يستدل به. فيبقى هذا الكلام سدا لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء، وفتحا لباب من يعارضهم ويقول: إن الهدى والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء؛ لأنا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية، والأنبياء لم يعلموا ما يقولون، فضلا عن أن يبينوا مرادهم. فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد". درء تعارض العقل والنقل 1201-205.
وقال رحمه الله تعالى أيضا عن أهل هذه الطرق: "الخارجين عن طريق السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، لهم في كلام الرسول ثلاث طرق: طريقة التخييل، وطريقة التأويل، وطريقة التجهيل. فأهل التخييل: هم الفلاسفة الباطنية الذين يقولون: إنه خيل أشياء لا حقيقة لها في الباطن، وخاصية النبوة عندهم التخييل. وطريقة التأويل طريقة المتكلمين من الجهمية والمعتزلة وأتباعهم، يقولون: إن ما قاله له تأويلات تخالف ما دل عليه اللفظ، وما يفهم منه، وهو وإن كان لم يبين مراده ولا بين الحق الذي يجب اعتقاده، فكان مقصوده أن هذا يكون سببا للبحث بالعقل، حتى يعلم الناس الحق بعقولهم، ويجتهدوا في تأويل ألفاظه إلى ما يوافق قولهم ليثابوا على ذلك. فلم يكن قصده لهم البيان والهداية والإرشاد والتعليم، بل قصده التعمية والتلبيس، ولم يعرفهم الحق حتى ينالوا الحق بعقلهم، ويعرفوا حينئذ أن كلامه لم يقصد به البيان، فيجعلون حالهم في العلم مع عدمه خيرا من حالهم مع وجوده...... - إلى أن قال رحمه الله: - وأما الصنف الثالث الذين يقولون إنهم أتباع السلف، فيقولون: إنه لم يكن الرسول يعرف معنى ما أنزل عليه من هذه الآيات، ولا أصحابه يعلمون معنى ذلك، بل لازم قولهم أنه هو نفسه لم يكن يعرف معنى ما تكلم به من أحاديث الصفات، بل يتكلم بكلام لا يعرف معناه. والذين ينتحلون مذهب

السلف يقولون: إنهم لم يكونوا يعرفون معاني النصوص، بل يقولون ذلك في الرسول. وهذا القول من أبطل الأقوال". نقض المنطق ص 56-57.
وانظر أقوالا أخرى لشيخ الإسلام رحمه الله حول هذه الطرق في كتبه: مجموع الفتاوى 468-69، 13175-176، 288-289. ودرء تعارض العقل والنقل 114، 5284-285. ونقض التأسيس 2234-235.

من يكذب في اللفظ، ومنهم من يحرف الكلم في المعنى، ومنهم جهال لا يفقهون ما يقرؤون؛ قال تعالى: {أفتطمعون أن يؤمنوا لكم} 1، إلى قوله: {فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون} 2.
وكذلك هم مخالفون للأدلة العقلية.
الأنبياء كملوا الفطرة ومخالفوهم أفسدوا الحس والعقل والخبر
فالأنبياء كملوا الفطرة، وبصروا الخلق؛ كما تقدم3 في صفة محمد [صلى الله عليه وسلم] 4: أن الله يفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا.
ومخالفوهم يفسدون الحس والعقل، كما أفسدوا الأدلة السمعية.
والحس والعقل بهما تعرف الأدلة.
والطرق ثلاثة: الحس، والعقل، والخبر.
فمخالفوا الأنبياء أفسدوا هذا، وهذا، وهذا.
أما إفسادهم لما جاء عن الأنبياء: فظاهر.
مخالفوا الأنبياء قسمان:
وأما إفسادهم للحس والعقل: فإنهم قسمان:
قسم أصحاب خوارق حسية؛ كالسحرة، والكهان، وضلال العباد.
وقسم أصحاب كلام واستدلال بالقياس والمعقول.
وكل منهما يفسد الحس والعقل.
أصحاب الحال الشيطاني
أما أصحاب الحال الشيطاني: فقد عرف أن السحر يغير الحس

---

1 سورة البقرة، الآية 75.
2 سورة البقرة، الآية 79.
3 انظر: ص 1284 من هذا الكتاب.
4 في ((خ)) : صلعم.

والعقل، حتى يخيل إلى الإنسان الشيء بخلاف ما هو. وكذلك سائر الخوارق الشيطانية، لا [تأتي] 1 إلا مع نوع فساد في الحس والعقل؛ كالمؤلهين الذين لا تأتيهم إلا مع زوال عقولهم، وآخرين لا [تأتيهم] 2 إلا في الظلام، وآخرين [يتمثل] 3 لهم الجن في صورة الإنس، فيظنون أنهم إنس، أو يرونهم مثال الشيء؛ فيظنون أن الذي رأوه هو الشيء نفسه، أو يسمعونهم صوتا يشبه صوت من يعرفونه، فيظنون أنه صوت ذلك المعروف عندهم4.
وهذا كثير موجود في أهل العبادات البدعية التي فيها نوع من الشرك ومخالفة الشريعة.
أصحاب الكلام والمقال البهتاني
وأما أصحاب الكلام والمقال البهتاني: فإنهم بنوا أصولهم العقلية، وأصول دينهم الذي ابتدعوه على مخالفة الحس والعقل.
أصل كلام أهل الكلام
فأهل الكلام أصل كلامهم في الجواهر والأعراض5 مبني على مخالفة

---

1 في ((خ)) : يأتي. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
2 في ((خ)) : يأتيهم. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .
3 في ((م)) ، و ((ط)) : تتمثل.

4 انظر: مجموع الفتاوى 1384-85، 92.
5 سبق توضيح معنى الجواهر المنفردة ص 345 من هذا الكتاب.
والجواهر والأعراض عند المبتدعة هما ما يتكون منه العالم، كما قال الجويني: "العالم جواهر وأعراض؛ فالجوهر هو المتحيز، وكل ذي حجم متحيز. والعرض هو المعنى القائم بالجوهر كالألوان والطعوم والروائح والحياة والعلوم والإرادات والقدر القائمة بالجواهر". الإرشاد ص 17.
وانظر: التمهيد للباقلاني ص 37-41. والإنصاف له ص 27-28. والفرق بين الفرق للبغدادي ص 328-329.

الحس والعقل؛ فإنهم يقولون: إنا لا نشهد، بل ولا نعلم في زماننا حدوث شيء من الأعيان القائمة بنفسها، بل كل ما [يشهد] 1 حدوثه، بل كل ما حدث من قبل أن يخلق آدم إنما [يحدث] 2 أعراض في الجواهر التي هي باقية، لا تستحيل قط، بل تجتمع وتتفرق3.

---

1 في ((م)) ، و ((ط)) : نشهد.
2 في ((م)) ، و ((ط)) : تحدث.
3 هذه إحدى الطرق التي يثبت بها المتكلمون من جهمية ومعتزلة، وعلى رأسهم الرازي: الصانع. ويسمونها حدوث الصفات.
انظر: أصول الدين للبغدادي ص 40-41، 57. ومعالم أصول الدين على هامش محصل أفكار المتقدمين للرازي ص 26-29. والأربعين في أصول الدين له ص 70.
وقد أوضح شيخ الإسلام مراد الرازي بهذه الطريقة، فقال: "يعني بذلك ما يحدثه الله في العالم من الحيوان والنبات والمعدن والسحاب والمطر وغير ذلك. وهو إنما سمى ذلك حدوث الصفات متابعة لغيره ممن يثبت الجوهر الفرد، ويقول بتماثل الأجسام، وأن ما يحدث الله تعالى من الحوادث إنما هو تحويل الجواهر التي هي أجسام من صفة إلى صفة مع بقاء أعيانها. وهؤلاء ينكرون الاستحالة. وجمهور العقلاء وأهل العلم من الفقهاء وغيرهم متفقون على بطلان قولهم، وأن الله يحدث الأعيان ويبدعها، وإن كان يحيل الجسم الأول إلى جسم آخر، فلا يقولون إن جرم النطفة باق في بدن الإنسان، ولا جرم النواة باق في النخلة". درء تعارض العقل والنقل 1308.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله - أيضا - معقبا على كلام الرازي في حدوث الصفات - وهي الطريق الرابع الذي سلكه المتكلمون في إثبات الصانع؛ وهو الاستدلال بحدوث الصفات والأعراض على وجود الصانع: "هذه الطريقة جزء من الطريقة المذكورة في القرآن، وهي التي جاءت بها الرسل، وكان عليها سلف الأمة وأئمتها وجماهير العقلاء من الآدميين؛ فإن الله سبحانه يذكر في آياته ما يحدثه في العالم من السحاب والمطر والنبات والحيوان وغير ذلك من الحوادث؛ فيذكر في آياته خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ونحو ذلك. لكن القائلون بإثبات الجوهر الفرد من المعتزلة ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم يسمون هذا استدلالا بحدوث الصفات بناء على أن هذه الحوادث المشهودة التي كانت موجودة قبل ذلك لم تزل من حين حدوثها بتقدير حدوثها، ولا تزال موجودة، وإنما تغيرت صفاتها بتقدير حدوثها، كما تتغير صفات الجسم إذا تحرك بعد السكون، وكما تتغير ألوانه، وكما تتغير أشكاله. وهذا مما ينكره عليهم جماهير العقلاء من المسلمين وغيرهم. وحقيقة قول هؤلاء الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم أن الرب لم يزل معطلا لا يفعل شيئا، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته، ثم إنه أبدع جواهر من غير فعل يقوم به، وبعد ذلك ما بقي يخلق شيئا، بل إنما تحدث صفات تقوم بها ويدعون أن هذا قول أهل الملل؛ الأنبياء وأتباعهم". درء تعارض العقل والنقل 383-84.
فهذه الطريقة التي سلكها الرازي هي العمدة في إثبات الصانع عند المتكلمين، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله بقوله: "ثم إن الرازي جعل هذه الطريقة التي سلكها ابن سينا هي العمدة الكبرى في إثبات الصانع؛ كما ذكر ذلك في رسالة إثبات واجب الوجود، ونهاية العقول، والمطالب العالية، وغير ذلك من كتبه. وهذا مما لم يسلكه أحد من أئمة النظار المعروفين من أهل الإسلام..". درء تعارض العقل والنقل 3164.
وانظر: شرح الأصفهانية 1261-262. ومجموع الفتاوى 17322-323. ودرء تعارض العقل والنقل 382 - 84، 163-164.
وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 351-355.

والخلق عندهم - الموجود في زماننا، وقبل زماننا -: إنما هو جمع وتفريق، لا ابتداع عين وجوهر قائم بنفسه1، ولا خلق لشيء قائم بنفسه؛ لا إنسان، ولا غيره، وإنما يخلق أعراضا، ويقولون: إن كل ما نشاهده من الأعيان فإنها مركبة من جواهر، كل جوهر منها لا يتميز يمينه عن شماله2.

---

1 انظر: أصول الدين للبغدادي ص 40-41، 70-71. وانظر: منهاج السنة النبوية 2139. ومجموع الفتاوى 5424-425، 17244. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 348-349.
2 انظر: التمهيد للباقلاني ص 37. والإنصاف له ص 27. وأصول الدين للبغدادي ص 35. والفرق بين الفرق له ص 328-329. وانظر مجموع الفتاوى 5421.

وهذا مخالفة للحس والعقل كالأول.

قولهم: إن الأعراض لا تبقى زمانين وإنه لا يفنى شيء من الأعيان

ويقول كثير منهم: إن الأعراض لا تبقى زمانين1، ويقولون: إنه لا يفنى ولا يعدم في زماننا شيء من الأعيان، بل كما لا يحدث شيء من الأعيان، [لا يفنى شيء من الأعيان2] 3.

فهذا أصل علمهم، ودينهم، ومعقولهم الذي بنوا عليه حدوث العالم، وإثبات الصانع، وهو مخالف للحس والعقل4.

ويقول الذين يثبتون الجوهر الفرد5:

---

1 انظر: التمهيد للباقلاني ص 38. والإنصاف له ص 27-28. والشامل للجويني ص 167. وأصول الدين للبغدادي ص 50-52. والمواقف للإيجي ص 101.
وانظر من كتب ابن تيمية: مجموع الفتاوى12316. وشرح حديث النزول ص 157-158. والنبوات ص 268. ونقض تأسيس الجهمية 1102. ودرء تعارض العقل والنقل 1306، 3434. وشرح الأصفهانية 1265. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 155-156، 541.
2 انظر: أصول الدين للبغدادي ص 45. وانظر: منهاج السنة النبوية 2140. ودرء تعارض العقل والنقل 5202-203.
3 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
4 سبق ذلك فيما مضى من هذا الكتاب، ص 345.
5 هذه المسألة من محارات العقول، وقد اضطرب فيها كثير من النظار.
يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "هذه المواضع من دقيق مسائل النظار التي هي محارات العقول، التي اضطرب فيها أكثر الخائضين في ذلك. وأكثر من تكلم فيها لا يعرف إلا قولين أو ثلاثة أو أربعة، ويظن أن ذلك مجموع أقوال الناس، ولا يكون في تلك الأقوال التي يعرفها بل في غيرها ... ومسألة الجوهر الفرد من هذا وهذا، ولهذا صار كثير من أعيانهم يصل فيها إلى الوقف والحيرة؛ كأبي الحسين البصري، وأبي المعالي الجويني، وأبي عبد الله الرازي، وغيرهم". شرح الأصفهانية 1263-264.
ولشيخ الإسلام رحمه الله كلام جامع مفصل لهذه المسألة، بين فيه رحمه الله بطلان القول بالجواهر الفردة، ورد على من يقول إن الأجسام لا يستحيل بعضها إلى بعض، وبين أن القائلين ببقاء الجوهر وصل حالهم إلى التوقف أو الشك، قال رحمه الله: "فالقول بأن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة قول لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين؛ لا من الصحابة، ولا التابعين لهم بإحسان، ولا من بعدهم من الأئمة المعروفين. بل القائلون بذلك يقولون: إن الله تعالى لم يخلق منذ خلق الجواهر المنفردة شيئا قائما بنفسه؛ لا سماء ولا أرضا ولا حيوانا ولا نباتا ولا معادن ولا إنسانا ولا غير إنسان، بل إنما يحدث تركيب تلك الجواهر القديمة فيجمعها ويفرقها، فإنما يحدث أعراضا قائمة بتلك الجواهر لا أعيانا قائمة بأنفسها، فيقولون: إنه إذا خلق السحاب والمطر والإنسان وغيره من الحيوان والأشجار والنبات والثمار، لم يخلق عينا قائمة بنفسها، وإنما خلق أعراضا قائمة بغيرها. وهذا خلاف ما دل عليه السمع والعقل والعيان. ووجود جواهر لا تقبل القسمة منفردة عن الأجسام مما يعلم بطلانه بالعقل والحس فضلا عن أن يكون الله تعالى لم يخلق عينا قائمة بنفسها إلا ذلك. وهؤلاء يقولون: إن الأجسام لا يستحيل بعضها إلى بعض، بل الجواهر التي كانت مثلا في الأول هي بعينها باقية في الثاني، وإنما تغيرت أعراضها. وهذا خلاف ما أجمع عليه العلماء أئمة الدين وغيرهم من العقلاء؛ من استحالة بعض الأجسام إلى بعض؛ كاستحالة الإنسان وغيره من الحيوان بالموت ترابا، واستحالة الدم والميتة والخنزير وغيرها من الأجسام النجسة ملحا أو رمادا، واستحالة العذرات ترابا، واستحالة العصير

خمرا، ثم استحالة الخمر خلا، واستحالة ما يأكله الإنسان ويشربه بولا ودما وغائطا، ونحو ذلك. وقد تكلم علماء المسلمين في النجاسة: هل تطهر بالاستحالة أم لا؟ ولم ينكر أحد منهم الاستحالة. ومثبتة الجوهر الفرد قد فرعوا عليه من المقالات التي يعلم العقلاء فسادها ببديهة العقل ما ليس هذا موضع بسطه؛ مثل تفليك الرحى والدولاب والفلك وسائر الأجسام المستديرة المتحركة، وقول من قال منهم: إن الفاعل المختار يفعل كلما تحركت، ومثل قول كثير منهم: إن الإنسان إذا مات، فجميع جواهره باقية قد تفرقت، ثم عند الإعادة يجمعها الله. ولهذا صار كثير من حذاقهم إلى التوقف في آخر أمرهم؛ كأبي الحسين البصري، وأبي المعالي الجويني، وأبي عبد الله الرازي. وكذلك ابن عقيل، والغزالي، وأمثالهما من النظار الذين تبين لهم فساد أقوال هؤلاء: يذمون أقوال هؤلاء، ويقولون: إن أحسن أمرهم الشك، وإن كانوا قد وافقوهم في كثير من مصنفاتهم على كثير مما قالوه من الباطل". منهاج السنة النبوية 2139-141.

إن الفلك، والرحاء، وغيرهما يتفكك كلما استدار1. ويقول كثير منهم: إن كل شيء فإنه يمكن رؤيته، وسمعه، ولمسه2.
الفلاسفة أضل من المتكلمين فيجعلون ما في الذهن ثابتا في الخارج
إلى غير ذلك من الأمور التي جعلوها أصول علمهم، ودينهم، وهي مكابرة للحس والعقل.
والمتفلسفة أضل من هؤلاء3؛ فإنهم يجعلون ما في الذهن [ثابتا] 4 في الخارج5؛ فيدعون أن ما يتصوره العقل من المعاني الغائبة الكلية

---

1 انظر الأربعين في أصول الدين للرازي ص 262.
2 انظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص 324-325.
3 أي من المتكلمين ,
وانظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى على المتفلسفة ومخالفتهم للعقل والسمع في ص 346-347 من هذا الكتاب.
وقد قال عنهم - رحمه الله - أيضا: " ومن الفلاسفة من يدعي إثبات جواهر قائمة بأنفسها غير متحيزة. ومتأخرو أهل الكلام ... يقولون: ليس في العقل ما يحيل ذلك. ولهذا كان من سلك سبيل هؤلاء - وهو إنما يثبت حدوث العالم بحدوث الأجسام - يقول بتقدير وجود جواهر عقلية، فليس في هذا الدليل ما يدل على حدوثها. ولهذا صار طائفة ممن خلط الكلام بالفلسفة إلى قدم الجواهر العقلية وحدوث الأجسام، وأن السبب الموجب لحدوثها هو حدوث تصور من تصورات النفس، وبعض أعيان المتصوفة كان يقول بهذا". مجموع الفتاوى 17327. وانظر: منهاج السنة النبوية 2141-142.
4 ما بين المعقوفتين ملحق بهامش ((خ)) .
5 انظر ما سبق في هذا الكتاب، ص 384، 1115. وانظر مجموع الفتاوى 17328-329، 342.

موجودة في الجواهر، قائمة بأنفسها؛ إما مجردة عن الأعيان، وإما مقترنة بها. وكذلك العدد، والمقدار، والخلاء، والدهر، والمادة1: يدعون وجود ذلك في الخارج2.
وكذلك ما يثبتونه من العقول، والعلة الأولى الذي يسميه متأخروهم: واجب الوجود3.
وعامة ما يثبتونه من العقليات، إنما يوجد في الذهن. فالذي لا ريب في وجوده: نفس الإنسان، وما يقوم بها. ثم ظنوا ما يقوم بها من العقليات موجودا في الخارج.
فكان إفسادهم للعقل أعظم، كما أن إفساد المتكلمين للحس أعظم.
الفلاسفة أصول علمهم العقليات والمتكلمون أصول علمهم الحسيات
مع أن هؤلاء المتفلسفة عمدتهم هي العلوم العقلية. والعقليات عندهم أصح من الحسيات. وأولئك المتكلمون أصول علمهم هي الحسيات، ثم يستدلون بها على العقليات. وبسط هذه الأمور له موضع آخر4.

---

1 سبق بيان معنى المادة في ص 361 من هذا الكتاب. وانظر: منهاج السنة النبوية 2202-203.
2 انظر ما سبق في هذا الكتاب ص 363.
3 الفلاسفة يقسمون الوجود إلى واجب وممكن، كما أن المتكلمين يقسمونه إلى قديم وحادث.

قال ابن سينا: "لا شك أن هناك وجودا. وكل وجود إما واجب وإما ممكن؛ فإن كان واجبا فقد صح وجود الواجب وهو المطلوب، وإن كان ممكنا فإنا نوضح أن الممكن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود". النجاة لابن سينا ص 383. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 307.

4 قال شيخ الإسلام رحمه الله بعد أن استطرد في ذكر مسألة الجوهر، وبيان فساد من يقول: الأجسام مركبة من الجواهر التي لا تنقسم، أو مركبة من جوهرين قائمين بأنفسهما: "ومن عرف هذا زاحت عنه شبهات كثيرة في الإيمان بالله تعالى، وباليوم الآخر في الخلق، وفي البعث، وفي إحياء الأموات، وإعادة الأبدان، وغير ذلك مما هو مذكور في غير هذا الموضع. فهذا الموضع يحتاج إلى تحقيقه كل من نظر في هذه الأمور، فإنه بمعرفته تزول كثير من الشبهات المتعلقة بالله واليوم الآخر، ويعرف من الكلام الذي ذمه السلف، والمعقول الذي يقال إنه معارض للرسول، ما يتبين به أن هؤلاء خالفوا الحس والعقل". درء تعارض العقل والنقل 5196-197.

وانظر كلام الفلاسفة والمتكلمين في بقاء الجواهر وعدم فنائها، وهل مادة العالم أزلية أم لا، وأن الله يخلقها خلق أعراض، في: منهاج السنة النبوية 1360، 2139، 143، 202، 5443-444. ودرء تعارض العقل والنقل 1122-124، 308، 383-86، 163-164، 444-446، 5195-203. وشرح الأصفهانية1260-265. وبيان تلبيس الجهمية1178-179. ومجموع الفتاوى 5421-425، 17242-260، 313، 443. وانظر ما سبق في هذا الكتاب ص 349-350.

والمقصود هنا: التنبيه على أن من خالف الأنبياء، فإنه كما أنه مكذب لما جاءوا به من النبوة والسمع، فهو مخالف للحس والعقل؛ فقد [فسد] 1 عليه الأدلة العقلية والنقلية2.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

1 في ((ط)) : فسدت.

2 انظر: مجموع الفتاوى 17307-308.

760\1551

<u>الكتاب</u>: تحقيق القول في مسألة: عيسى كلمة الله والقرآن كلام الله

<u>المؤلف</u>: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي)
(المتوفى: 728هـ)
<u>المحقق</u>: قسم التحقيق بدار النشر

<u>قام بتوضيبه آليا واختزال عدد صفحاته</u>: عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي
<u>بعنوان</u>: المختزل وبيانه في قول عيسى كلمة الله والقرأن كلامه

<u>بسم الله الرحمن الرحيم</u>
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت :
سئل الشيخ الإمام العالم أبو العباس أحمد ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن مسلم ونصراني، تفاوضا في الكلام، فقال النصراني: أنتم معاشر المسلمين، في كتابكم: أن عيسى كلمة الله، وتقولون: القرآن كلام الله، وهو غير مخلوق، فبينوا لنا القول في ذلك وابسطوا الجواب.
أجاب - رحمه الله تعالى -:
الحمد لله.. هذه حجة داحضة، يحتج بها النصارى والجهمية، من المعتزلة وغيرهم، الذين يقولون: إن كلام الله مخلوق، والجهمية تقول كما قال الذي امتحن الناس بخلق القرآن من الخلفاء، لمن ناظره: أليس عيسى كلمة الله؟! قال: بلى. قال: أو ليس مخلوق؟ قال: بلى. قال: فالقرآن كلام الله؟ قال: نعم. قال: وهو مخلوق؟ قال: لا. قال: فكيف تكون الكلمة من القرآن كلام الله وهو غير مخلوق، وهذا كلمة الله وهو مخلوق؟
وقد ذكر الإمام أحمد هذا السؤال فيما كتبه في الرد على الجهمية وبين جوابه وذكر أن النصارى والجهمية يحتجون بهذا وبين فساد حجتهم.
ونحن نذكر في هذا الجواب ما يحصل به المقصود، فإن غلط هؤلاء وأمثالهم كان من جهة اللفظ المشترك، وقد قيل إن أكثر* اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء والله تعالى ورسوله إذا خاطب عباده باسم مشترك؛ كان مقرونا في كل موضع بما يبين المراد به كما في قوله: {إن إبراهيم كان أمة قانتا لله} أي قدوة للناس يؤتم به أو يقتدى به. وفي قوله: {وادكر بعد أمة} أي قرن وزمان وأصل الكلام في ذلك أن لغة العرب أنها تعبر بالألفاظ التي هي المصادر عن المفعول كما يقولون هذا درهم ضرب الأمير أي مضروب الأمير، ومنه قوله تعالى: {هذا خلق الله فأروني ماذا خلق

[التعليق]
* في الأصل المطبوع: (أكثره) ، وهو خطأ.

الذين من دونه} فسمى المخلوقات خلق الله والخلق مصدر خلق يخلق خلقا فهو لفظ يراد به معنى المصدر تارة ومعنى المفعول تارة فإذا قيل: {ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم} فإن المراد معنى المصدر أي ما أشهدتهم تخليق ذلك ولا تكوينه وإذا قيل: {هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه} كان المراد به المفعول أي هذا مخلوق الله فإنه قال تعالى: {خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم} ثم قال: {هذا خلق الله} فالإشارة إلى هذه الأمور التي هي مخلوقة؛ فالسموات وغيرها إذا تبين هذا فالسموات صفات الله* كالأمر والكلام والرحمة والعلم والقدرة وغير ذلك وهي من هذا الباب تطلق على الصفة القائمة بالله وتطلق على مفعول تلك الصفة وما يتعلق بها بلفظ الأمر مصدر أمر يأمر أمرا وأمر الله من كلامه وذلك الأمر الذي هو كلامه الذي يأمر به غير مخلوق ولهذا فصل بين الخلق والأمر في قوله: {ألا له الخلق والأمر} ولفظ الأمر يراد به المفعول الذي هو المأمور وهو ما كونه الله فالأمر كقوله: {وكان أمر الله قدرا مقدورا} . وقوله: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} وكذلك لفظ الرحمة يراد بالرحمة صفة الله القائمة بذته وصفات الله غير مخلوقة كقوله:

[التعليق]
* كذا في الأصل المطبوع، والعبارة تشكو من سقط أو تحريف واضح.

{ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما} أي وسع كل شيء رحمتك وعلمك ويراد بالرحمة ما يرحم الله به عباده من المخلوقات كما في (الصحيح) : «إن الله تعالى قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي» .
وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة فبها يتراحم الخلق وبها يتعاطفون حتى أن الدابة لترفع حافرها عن ولدها من تلك الرحمة واحتبس عنده تسعة وتسعين رحمة فإذا كان يوم القيامة جمع هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين فرحم بها عباده» . ومنه قوله تعالى: {فانظر إلى آثار رحمت الله} قيل: هو أثر المطر يقال له رحمة الله تعالى.
وكذلك لفظ القدرة فإن القدرة صفة لله كالعلم كما في (الصحيح) : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك» .
ومنه قوله تعالى: {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} . وقوله تعالى: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة} ولفظ القدرة يعبر به عن المقدور كقول القائل لما يشاهده من الآيات هذه قدرة عظيمة.
وكذلك لفظ العلم يعبر به عن العلم الذي هو الصفة ويعبر به عن المعلوم كما يقال: غفر الله لك علمه فيك، أي معلومه.
[المراد بكلام الله] :
وهكذا لفظ الكلمة والكلام يراد بهما الكلام الذي تكلم به وذلك صفة من صفاته قائمة بذاته ليس بمخلوق منفصل عن ذاته ولا بائن عنه فإن صفة الموصوف لا يجوز أن تفارق ذاته وتنتقل عنه وإن كان مخلوقا فكيف في الخالق سبحانه وتعالى والكلام يتكلم به المتكلم فيقال: خرج منه الكلام، وبدأ منه الكلام، وهو لم يفارق ذاته وينتقل منه إلى غيره. قال تعالى: {كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا} .
فهذه الكلمة التي هي كلمة مخلوق وقد قيل إنها خرجت منه ومع هذا فلم تفارق ذاته وتنتقل إلى غيره فكلام الله تعالى أولى بذلك ولهذا قال السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. وقولهم: منه بدأ، أي هو المتكلم به فمنه بدأ ليس بمخلوق في غيره حتى يكون قد بدأ من ذلك وسمع كما يقوله الجهمية المنتسبة إلى أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى يقولون: إن الله لما كلم موسى لم يكن الكلام قائما بذات الله بل خلق كلاما في الشجرة أو في الهواء فسمع موسى ذلك الكلام. وهؤلاء يكذبون الرسل لأنه قد علم أن الكلام إذا قام ابتداء بمحل كان كلاما لذلك المحل وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر وسائر الصفات فمن قام به العلم فهو عالم ومن قامت به القدرة فهو قادر ومن قام به السمع والبصر فهو سميع بصير ومن قام به الكلام فهو متكلم فالكلام المخلوق في محل هو كلام لذلك المحل لا كلام الله كإنطاق الله للجلود وغيرها قال تعالى: {وقالوا لجلودهم لم شهدتم
علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء} . وقال تعالى: {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون} فتلك الشهادة وذلك النطق ليس هو كلام الله بل المفرق بين إنطاقه للمخلوقات وبين نطقه الذي هو كلامه فهذا الكلام الذي هو حقيقة الكلام إذا أضيف إليه فكلامه غير مخلوق وقد يراد بلفظ الكلام المفعول وهو المخلوق والمصنوع بالكلام كما يراد بالأمر المخلوق بالأمر.
[معنى المسيح كلمة الله] :
ومن هذا تسمية المسيح كلمة الله فإن الله تعالى خلقه بكلمته أي بقوله: {كن} فكان. قال تعالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} . وقوله: {خلقه} أي خلق آدم من تراب ثم قال له {كن} فكان، والمسيح لم يخلق من تراب بل خلقه بقوله {كن} من غير تراب وآدم بقي مخلوقا من تراب حينا من الدهر قد قيل أربعين عاما حتى نفخ فيه الروح وقال له {كن} فكان. وأما المسيح فإن خلقه ابتداء بقوله {كن} فكان، لم يخلقه على الوجه الذي خلق عليه غيره من البشر حيث خلقه من ماء الأبوين وأقره في الرحم المدة المعلومة، فسائر البشر خلقوا بالسنة - أي: بعادة الله في مخلوقاته - والمسيح خلق بخرق العادة، فكونه بكلمته. فلهذا سمي: كلمة الله دون غيره من المخلوقات.
وهذا يقتضي أن يكون المسيح آية من آيات الله وذلك يبين عموم قدرته فإنه سبحانه خلق النوع البشري على الوجوه الممكنة؛ خلق بعضه من غير ذكر ولا أنثى وهو آدم، وخلق بعضه من ذكر بلا أنثى وهو حواء، وخلق بعضه من أنثى بلا ذكر وهو

المسيح، وخلق سائر الزوجين من الذكر والأنثى، ولا يقتضي أن يكون المسيح بهذا أفضل من غيره من المرسلين فإنه قد جاء في الحديث الذي رواه عثمان بن سعيد الدارمي وغيره بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر وقد رواه عبد الله ابن أحمد في كتاب السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم، مرسلا: «إن الملائكة قالت: يا ربنا! قد جعلت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون وينكحون فاجعل لنا الآخرة كما جعلت لهم الدنيا. فقال: لا أفعل، ثم أعادوا عليه، فقال: لا أفعل، ثم أعادوا عليه، فقال: وعزتي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له {كن} فكان» .

[خلق الله آدم بيده] :

وقد أجمع المسلمون واليهود والنصارى على ما في الكتب الإلهية من أن الله تعالى خلق آدم بيديه وأنه خصه بذلك دون الملائكة والجن، كما قال في القرآن لإبليس: {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي} . وقال له إبليس: {أرأيتك هذا الذي كرمت علي} وإن كان جهمية أهل الملل يتأولون اليد بالنعمة والقدرة ويجعلون مجرد الإضافة هي المخصصة فليس المقصود هنا الرد عليهم إذ هو مبسوط في غير هذا الموضع. ومعلوم أنه لم يفضل آدم إلا لأمر خصه به وإبليس والملائكة خلقوا بقدرته وخلقوا بنعمته، وكلهم مخلوقون لله فلا مزية لآدم عليهم من هذه الوجوه. وقوله: {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي} يقتضي بأنه خلقه بيديه دونهم حتى يصح التفضيل وتقوم حجة الله على إبليس وإلا أمكنه أن يقول: وأنا أيضا خلقتني بيديك.

وما أضيف إلى الله دون غيره كقوله تعالى: (بيت الله) ، و {هذه ناقة الله} يوجب أن يكون في المضاف معنى يتوقى خصه الله به دون سائر البيوت كما خص البيت العتيق بما فيه من الخصائص، وخص المساجد بأن يعبد فيها ويذكر فيها اسمه، وخص تلك الناقة بما جعله فيها من الآيات.

وأما إذا كان شيئان متماثلان في جهة الإضافة فإنه لا يجوز تخصيص أحدهما بالإضافة دون الآخر والمقصود هنا أن آدم مع كونه خلقه بيديه ثم قال له {كن} فكان [مفضلا] على من قال له {كن} فكان ولم يخلقه بيديه.

[العبرة في خلق المسيح بدون أب] :

فالمسيح إذا خلقه بقوله {كن} فكان، لم يقتض ذلك أن يكون أفضل من إبراهيم، ومحمد، لمن خلق في الرح بسنة الله وعادته وإنما يدل ذلك على أن المسيح آية من آيات الله، وقد قال تعالى: {وجعلناها وابنها آية للعالمين} .

ومعلوم أن الأنبياء وحمل مريم أفضل من مريم وخلق آدم من غير زوج آية كما أن المسيح من غير أب آية وما خلقه الله بغير ... * من العجائب الخارقة للعادات فيها من الآيات ما ليس في غيرها وإن كان غيرها أفضل منها ولا يقول قائل إن القمر لما انشق كان أفضل من الشمس فقوله تعالى: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله} بين بذلك أنه مخلوق بكلمته فإنه قادر على أن يخلقه على غير هذا الوجه المعتاد

[التعليق]

* بياض في الأصل.

بكلمته وكان في ذلك رد على من يقذف المسيح وأمه، ويزعم أنه ولد عنه أو يقول: إنه ابن يوسف النجار؛ لرشده، والنصارى الجهال يزعمون أن مريم تزوجت بيوسف النجار، وأنها ولدت المسيح؛ فيكون في هذا حجة للفلاسفة واليهود على أنه ابن يوسف، سواء كان لرشده أو لغيه، وهذا باطل؛ فإن مريم بتول لم تتزوج قط، فما يقوله المسلمون أعظم ببريته كما* تقوله النصارى.

[التعليق]

* كذا في الأصل المطبوع، والأصوب (مما) .

[المراد بكلمة الله] :

والذي يبين الفرق بين قولنا أن القرآن كلام الله وقولنا: الحمد لله رب العالمين كلمة الله وقولنا: المسيح كلمة الله أن القرآن صفة من الصفات لا يقوم بنفسه ليس هو عينا قائما بنفسه ولا جسم فينتقل بنفسه من مكان إلى مكان، والمسيح مثل غيره من البشر عين من الأعيان وجسم من الأجسام ينتقل من مكان إلى مكان ويقوم بنفسه وتقوم به الصفات والأعراض كالكلام والحياة والقدرة وكلام الله الذي هو صفة قائم به كما يقوم به علمه وقدرته وسمعه وبصره وسائر صفاته وكلامه لا يباين ذاته ولا ينتقل إلى غيره؛ إذ كلام المخلوق لا يفارق ذاته وينتقل إلى غيره.

[الرد على من يزعم أن المسيح كلام الله] :

فالمسيح الذي يتحرك وينتقل من مكان إلى مكان كيف يكون هو كلام الله الذي هو صفة من صفاته قائمة به سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا، وكذلك ما يقال أنه حل في المسيح أو تدرع به من اللاهوت فإن ذلك اللاهوت إن كان هو كلام الله القائم به امتنع أن ينتقل عنه ويحل بغيره وإن كان اللاهوت هو المتكلم بالكلام وهو الجوهر الجامع الأقانيم فذلك هو رب العالمين الذي تسميه النصارى الأب فيكون المسيح هو الأب وهو مجمعون على أن المسيح ليس هو الأب ومجمعون على أنه إله يخلق ويرزق وهذان قولان متناقضان يظهر تناقضهما للعاقل من الصبيان فإن الذي تدرع المسيح إن كان هو المتكلم فالمسيح هو الأب وإن كان هو الكلمة فالكلمة صفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره وإن كان كما قالوا: إنه أنزل عليه كلام الله وإنه ظهر فيه نور الله كما يظهر شعاع الشمس على وجه الأرض فهذا حق يوافقهم فيه المسلمون وهو يبطل قول النصارى من وجهين:

أحدهما: أنه لا فرق في ذلك بين المسيح وغيره من الرسل فإن موسى وإبراهيم وغيرهما بهذه المنزلة.

الثاني: أن الشمس نفسها لم تحل في الأرض ولا النور الذي قام بها فارقها وانتقل إلى الأرض، ولكن إذا قابلتها الأجسام انعكس عليها شعاعها، فالشعاع الحاصل على الأرض ليس هو عين ما قام بالشمس، بل حدث بسبب المقابلة كما أن السراج إذا كان في البيت حصل على الأرض والحيطان والسقف نور ينعكس من شعاع السراج، ونفس النار الخارجة من السراج لم ينفصل عنها شيء ولا قامت صفتها بغيرها، وتلك النار عين قائمة بنفسها والضوء الذي على الحيطان صفة وعرض وكذلك الشعاع الذي على الأرض صفة من الصفات وعرض من الأعراض.

[الرد على من زعم أن المسيح من ذات الله] :

فإذا قالوا إن ما كان في المسيح من هذا النمط تبين أن المسيح ليس فيه شيء من ذات الله أصلا ولا صفة من صفاته أصلا فضلا عن أن يكون هو الله وابن الله، بل فيه من هدى الله ونوره نظير ما في المرسلين كما قال تعالى: {الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة} (الآية) . أي مثل نوره في قلوب المؤمنين. وقال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا} . وقال تعالى: {أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} وهذا التفريق بين، فيما أضافه صفة أو أضافه خلقا، فإن كان المضاف صفة لا يقوم بنفسه كالكلام الذي هو الكلام والعلم الذي هو العلم والأمر الذي هو الأمر، فإذا أضيف إلى الله تعالى، كان ذلك صفة من صفاته، وإن كان المضاف إليه بعض الأعيان القائمة بنفسها، وما يقوم بها من الصفات، كان مخلوقا لله، ولم تكن إضافته إليه إضافة الصفة، كقوله للجنة: أنت رحمتي وقوله: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} .

[المراد بقوله {وروح منه}] :

وقوله عن السموات: {هذا خلق الله فأروني} . وقوله للمسيح كلمة الله وبهذا يظهر أيضا قوله في المسيح: {وروح منه} فإن ذلك لا يقتضي أنه صفة لله، وذلك أن قوله: روحي أبلغ من قوله: وروح منه وقد قال في جبريل: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا} . وقد قال في جبريل: {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} . وقال تعالى: {نزل به الروح الأمين} فهذا جبريل سماه الروح الأمين وروح القدس وأضافه إلى نفسه ومع هذا فهو مخلوق فقوله في المسيح روح منه أولى أن يكون مخلوقا فإنه سبحانه قد قال: {وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه} وذلك كله مخلوق. وقال تعالى {وما بكم من نعمة فمن الله} والنعم التي بنا (من الله) مخلوقة وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول على أضحيته: «اللهم منك ولك» . وقال: «من قال إذا أصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر ذلك اليوم»

فإذا كانت النعم التي بنا وما في السموات وما في الأرض من الله وهي مخلوقة فما المانع أن يكون المسيح روحا من الله وهو مخلوق. وقد بينا أن جبريل الذي قال فيه: {فأرسلنا إليها روحنا} هو مخلوق أيضا وذلك كله لأن جبريل عين من الأعيان والمسيح وروحه عين من الأعيان قائم بنفسه. والأعيان القائمة بنفسها التي تنتقل من موضع إلى موضع يمتنع* فيها أن تكون صفة للمخلوق فكيف يكون صفة للخالق سبحانه وتعالى

[التعليق]

* في الأصل المطبوع: (يمنع) .

وهذا بخلاف قوله: {ولكن حق القول مني} . وقوله: {تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} . وقوله: {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} . وقوله: {تنزيل من الرحمن الرحيم} فإن القول هو صفة من الصفات لا تقوم بنفسها بل لا بد له من قائل يقوم به، فإذا قال: {حق القول مني} امتنع أن يكون ذلك القول مخلوقا في غيره وأنه قد يكون حق من ذلك الغير لا من الله. وكذلك

القرآن كلام لا يقوم بنفسه بل بغيره فلو كان قد خلقه في الهواء أو في نفس جبريل أو نفس محمد أو في غير ذلك من المواضع* ولهذا قال السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود أي بدأ منه لم يبدأ

[التعليق]
* يبدو أن سقطا قد حصل هنا، فالعبارة غير تامة.

من غيره، فيكون كلاما لذلك الغير وإليه يعود أي يرفع من الصدور والمصاحف في آخر الزمان.
فالأصل المعقول في هذا الباب أن يفرق فيما أضيف إلى الله أو قيل: إنه منه وبين ما كان عينا من الأعيان الموجودة في العالم التي تمتنع أن تكون صفة لغيره وبين ما قام بتلك الأعيان وبين ما هو صفة لا يقوم إلا بموصوف ولو قامت بغير الله لكانت صفة لذلك الغير لا لله تعالى فإن هذا الباب ضل فيه النصارى واليهود؛ فالنصارى شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا ما هو صفة لله صفة للمخلوق حتى جعلوا المخلوق إلها وربا، واليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فجعلوا ما كان من خصائص المخلوق كاللغوب والفقر والبخل صفة لله والله سبحانه نزه نفسه عن هذا وهذا فقال للنصارى: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد} . وقال: {لقد كفر الذين قآلوا إن الله هو المسيح ابن مريم} .
وقال: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} . {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون • اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} .
وأمثال ذلك. وقال عن اليهود: {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء} .
وقال: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا} .
وقال: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} . وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت ردا على اليهود لما زعموا أن الله عز وجل لما خلق السموات والأرض في ستة أيام استراح وهذه اللفظة هي في التوراة التي بأيديهم لكن لعلماء المسلمين فيها قولين:

[فساد اعتقادهم بالأقانيم الثلاثة]

وسبب ذلك أن المذهب في نفسه باطل بصريح العقل وذلك أنهم يقولون: بسم الأب والابن وروح القدس إله واحد، ويقولون: الأحدي الذات الثلاثي الصفات، ويقولون: إن المتحد بالمسيح هو الابن، ويقولون: إن الرب هو جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم، والأقنوم يفسرونه تارة بالشخص، وتارة بالصفة، إذ المذهب في نفسه متناقض، وقولون: الأب هو أقنوم الوجود، والابن أقنوم الكلمة، والعلم وروح القدس أقنوم الحياة، فيكون المراد: أنه موجود حي متكلم، ومنهم من يقول غير ذلك. وقد كان من طوائفهم المتقدمين من أنكر عليهم هذا وجرت بينهم مخاصمات ومنازعات ودخلت عليهم الملوك وصاروا يعاقبون من أمرهم بالتوحيد.
وأصل ضلالهم شيئان:
أحدهما: أنهم أرادوا الغلو في المسيح معاندة لليهود الذين كذبوه وظلموه فصارت اليهود في جانب وهم في جانب.
والثاني: أنهم وجدوا في الكتب ألفاظا مشتبهة بعضها صح نقلها عن الأنبياء فحرفوا معناها وبعضها لم يصح نقلها.

[المراد بالأقانيم الثلاثة]

وقالوا: إنهم قيل لهم اذهبوا فغرروا الناس باسم الأب والابن والروح القدس. وهذا اللفظ إن كان قيل لهم هو أو ما يشبهه فالمراد بروح القدس هو جبريل والأب هو الله والابن هو عبده ورسوله المسيح، ومن بغيهم أنهم يسمون الرب أبا والعبد ابنا كما في إنجيلهم أن المسيح قال لهم: تشبهوا بأبيكم السماوي، وقال: أي وأبيكم، فقد جعل المسيح فيما ينقلونه عنه أبا لهم كما هو أب له وهم متفقون على أنهم عبيد مخلوقون وأن الله ربهم فكذلك المسيح عبد مخلوق والله ربه ويكون الأب والابن وروح القدس معناه الإيمان بالله وبرسوله المسيح، فإن جبريل هو روح القدس وهو الذي يجيء بالرسالة من الله وهو رسول الله إلى مريم في النفخ كما قال تعالى: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا} .

[المراد بروح القدس]

وقد قيل إن المراد بالروح هنا روح المسيح والصحيح أنه جبريل {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا • قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} . وقال تعالى: {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين} .

وقال: {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين} وقد قال تعالى: {وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} وإذا كان الله قد أمرهم أن يؤمنوا بربهم الذي سموه أبا وبرسوله عيسى ابن مريم الذي يسمونه هو وغيره ابنا ويؤمنوا بروح [القدس] الذي هو جبريل وهو رسول الله والنفخ في مريم الذي لحى* بالوحي كان هذا أمرا موافقا لما جاءت به الرسل وهو موافق للعقل بخلاف قولهم فإن العقل والكتب التي جاءت بها الرسل** فإنهم يقولون: إن الرب جوهر واحد له ثلاثة أقانيم كما تقدم أحدها أقنوم العلم وهو الكلمة ويزعمون أن هذا الأقنوم هو الذي اتحد بالمسيح وهو اللاهوت الذي تدرع الناسوت أي صار الإنسان كالدرع والقميص للاهوت وهم يقولون: إن المسيح إله يخلق ويرزق ويرحم ويعبد ويدعا ويسأل ويصلى له وأن

[التعليق]
* كذا في الأصل المطبوع.
** العبارة تشكو من خلل واضح.

الحواريين كلموه وكلمهم وكلموا الله وكلمهم وقد يفضلون الحواريين على موسى وإبراهيم وغيرهما ويجعلون تكليم الله للحواريين أعظم من تكليمه لموسى.
أو غيرهم وممن يقول بالحلول والاتحاد المطلق كالقائلين بوحدة الوجود مثل ابن عربي الطائي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني وسعيد الفرغاني والصدر القونوي وابن أبي المنصور وأمثال هؤلاء، فإنهم يقولون في مجموع المخلوقات نظير ما يقوله النصارى في المسيح، ويقولون: إن النصارى إنما كفروا لأجل التخصيص ويقولون إن النصارى إنما كفروا لأجل التخصيص ويقولون إن النصارى لو قالوا في كل شيء كما قالوه في المسيح لم يكفروا وكذلك عندهم عباد الأصنام إنما ضلوا لأنهم عبدوا بعض الأعيان التي هي مظاهر الحق دون بعض والعارف المكمل عندهم يعبد كل شيء لأن كل شيء مظهر الحق وهؤلاء متناقضون كتناقض النصارى وهم يخالفون صريح العقل والشرع ويدعون الكشف يحصل فيه ما يناقض صريح العقل والشرع ويقولون بالجمع بين النقيضين وبين الضدين وأمثال ذلك من محالات العقول ولا يفرقون بين محالات العقول ومجازات العقول فإن الأنبياء صلوات الله عليهم الذين هم أعظم درجة من الأولياء لا يخبرون الناس بما يمتنع ويستحيل في العقل كالجمع بين النقيضين والضدين وإنما يخبرونهم بما تمتنع عقول الناس عن الاستقلال بمعرفته فيكون العقل فيه جائزا فيخبرونهم بمجازات العقول لا بمحالات العقول ويأتون على ما يقولون بالآيات البينات وكل من أمعن النظر فيما جاءوا به ازداد بصيرة ويقينا وإيمانا وعظم قدر ما جاءوا به في قلبه وكمل به عقله وتمت به معرفته وتنورت به بصيرته وانشرح به صدره ورأى بنور هداهم ما في من خالفهم من الظلمات كما قال تعالى: {والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات} وهؤلاء يخبرون الناس بمحالات العقول ويريدون أن يصدقونهم* في ذلك بلا برهان ويدعون أنهم أفضل من الأنبياء وأن الله تعالى يخاطبهم أعظم مما خاطب به موسى بن عمران.

[التعليق]
* في الأصل المطبوع: (يصدقومهم) ، وهو خطأ.

[الرد على النصارى في ادعائهم ألوهية المسيح عليه السلام]

كما يزعم النصارى أن الحواريين أفضل من الأنبياء، وأن الله يخاطبهم أعظم مما خاطب به موسى بن عمران وكل ما أمعن المسلم النظر في أمرهم وجد عندهم من الكذب والضلال والجهل مما لا يعلمه إلا الله وهم أكفر من النصارى من وجه والنصارى أكفر منهم من وجه.
والمقصود هنا أن يقال للنصارى: اللاهوت الذي تدرعه ناسوت المسيح هو الرب القديم الأزلي الجامع الأقانيم أو هو صفة من صفاته؟ إذ ليس إلا الرب القديم الموصوف بالحياة والعلم والقدرة وكل من القولين يبطل مذهبهم فإن قالوا هو الرب القديم الأزلي لزم أن يكون المسيح هو الرب القديم الأزلي ولا يكون ابنا ولا يقعد عن يمين الله ويكون فيه أقنوم الحياة والوجود والعلم والقدرة والنصارى يلمزون من يقول ذلك، وإن قالوا إنه صفة من صفاته كما يقولون إن المتدرع به أقنوم الكلمة فجوابهم من وجهين أحدهما أن الصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره لا صفة المخلوق ولا صفة الخالق وهذا معلوم بصريح العقل وقد تقدم بطلان تمثيلهم بشعاع الشمس.

الثاني أن الصفة نفسها ليست إلها يخلق ويرزق ويغفر ويرحم. كيحيى بن عدي النصراني الذي رد على أبي عيسى الوراق وأمثاله قد يمثلون ذلك بقول القائل زيد الكاتب الحاسب فهو وزيد الطبيب* فيجعل له مع كل صفة حكما غير حكمه مع الصفة الأخرى ويقال لهم معلوم أن الله تعالى له الأسماء الحسنى كالرحيم والعزيز والعليم والقدير فالمسمى واحد وله الأسماء الحسنى ولهذا

[التعليق]
* المثال المذكور هنا يشكو من السقط والتحريف، وصوابه ما في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (231/3) حيث قال شيخ الإسلام: « ... ولا ينجيكم من هذا اعتذار من اعتذر منكم، كيحيى بن عدي ونحوه، حيث قالوا: هذا بمنزلة قولك: زيد الطبيب الحاسب الكاتب، ثم تقول: زيد الطبيب وزيد الحاسب وزيد الكاتب» .

الاسم صفة وحكم ليست للاسم الآخر والمسمى واحد فالأسماء تجتمع في مسمى الذات وتتنوع في مسمى الصفات وأن كل اسم يدل على معنى الآخر بطريق التلازم لذات إذا حلت بمحل تبعتها الصفات كلها ومن المعلوم أن الصفة الواحدة لا تحل في محل دون سائر الصفات ولا دون الذات فلو قال قائل زيد الطبيب حل في هذا المحل دون زيد الحاسب أو الكاتب في المثال المذكور مفتريا* فكذلك من قال أن أقنوم الكلمة حل بالمسيح دون أقنوم الوجود والحياة كان كذابا مفتريا فهم مشركون مفترون جاهلون وهم أعظم الطوائف فرية على رب العالمين. والله سبحانه أعلم وأحكم والحمد لله وحده وصلواته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما..
تمت

[التعليق]
* كذا في الأصل. ولعل الصواب: (كان مفتريا) .

767\1559

الكتاب: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي)
(المتوفى: 728هـ)
تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد

المجلد الاول

قام بتلخيص الكتاب وتخزيل عدد صفحاته آليا: عبدالرؤوف أبومجد البيضاوي (مجموع المجلدات الثلاثة في 662 صفحة)
بعنوان: التلخيص المريح لمن بدل دين المسيح (م1)

[مقدمة الكتاب]

بسم الله الرحمن الرحيم
لا إله إلا الله محمد رسول الله، {الحمد لله رب العالمين - الرحمن الرحيم - مالك يوم الدين} [الفاتحة: 2 - 4] .
{الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون} [الأنعام: 1] .
{الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل} [الإسراء: 111] .
والله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا.
{الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا - قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا - ماكثين فيه أبدا - وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا - ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا} [الكهف: 1 - 5] .
{الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير - يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور} [سبأ: 1 - 2] .
{الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير - ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم} [فاطر: 1 - 2] وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم:
{له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم} [البقرة: 255] .
الأحد، الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الملك، القدوس، السلام المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ; ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا، أرسله بالحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم، وأنزل عليه:
{أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد} [الزمر: 23] .
كتاب أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم:
{إلى صراط العزيز الحميد - الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض} [إبراهيم: 1 - 2] .
هداهم به إلى صراط مستقيم، صراط الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو دين الله الذي بعث به الرسل قبله، كما قال تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} [الشورى: 13] .

وقال تعالى: {يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم - وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} [المؤمنون: 51 - 52] .
وقال في الآية الأخرى: {وأنا ربكم فاتقون - فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون} [المؤمنون: 52 - 53] .
وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: 25] .
وقال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} [النحل: 36] .
أنزل عليه الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فصدق كتابه ما بين يديه من كتب السماء، وأمر بالإيمان بجميع الأنبياء، كما قال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون - فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} [البقرة: 136 - 137] .
وهيمن على ما بين يديه من الكتاب، وذلك يعم الكتب كلها، شاهدا وحاكما ومؤتمنا، يشهد بمثل ما فيها من الأخبار الصادقة.
وقرر ما في الكتاب الأول من أصول الدين وشرائعه الجامعة التي اتفقت عليها الرسل، كالوصايا المذكورة في آخر الأنعام، وأول الأعراف، وسورة سبحان، ونحوها من السور المكية.
قال تعالى: {قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون - قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون - ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون - وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} [الأنعام: 150 - 153] .
وقال تعالى: {قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون - فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون - يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين - قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون} [الأعراف: 29 - 32] .
وقال تعالى: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما - واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا - ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا - وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا - إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا - وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا - ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا - إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا - ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا - ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا - ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا - ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا - وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا - ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا - ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا - كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها - ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا} [الإسراء: 23 - 39] .
فدين الأنبياء والمرسلين دين واحد، وإن كان لكل من التوراة والإنجيل والقرآن شرعة ومنهاج، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي» .
فدين المرسلين يخالف دين المشركين المبتدعين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا.
قال تعالى: {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون - منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين - من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون} [الروم: 30 - 32] .

وقال تعالى: {وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين - يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم - وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون - فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون} [المؤمنون: 50 - 53] .
وقال تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب} [الشورى: 13] .
وقد خص الله تبارك وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بخصائص ميزه بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعة ومنهاجا، أفضل شرعة وأكمل منهاج.
كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس، فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الأجناس، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم، وجعلهم وسطا عدلا خيارا، فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله، وكتبه، وشرائع دينه من الأمر، والنهي، والحلال، والحرام.
فأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأحل لهم الطيبات، وحرم عليهم الخبائث، لم يحرم عليهم شيئا من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحل لهم شيئا من الخبائث كما استحلتها النصارى، ولم يضيق عليهم باب الطهارة، والنجاسة كما ضيق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث، والخبث كما رفعته النصارى، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة ولا الوضوء للصلاة، ولا اجتناب النجاسة في الصلاة، بل يعد كثير من عبادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات حتى يقال في فضائل الراهب: " له أربعون سنة ما مس الماء "، ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه السلام وأتباعه.
واليهود إذا حاضت عندهم المرأة، لا يؤاكلونها، ولا يشاربونها، ولا يقعدون معها في بيت واحد، والنصارى لا يحرمون وطء الحائض.
وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة، بل إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه بالمقراض، والنصارى ليس عندهم شيء نجس يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه.
ولذلك المسلمون وسط في الشريعة ; فلم يجحدوا شرعه الناسخ لأجل شرعه المنسوخ، كما فعلت اليهود، ولا غيروا شيئا من شرعه المحكم، ولا ابتدعوا شرعا لم يأذن به الله كما فعلت النصارى، ولا غلوا في الأنبياء والصالحين كغلو النصارى، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود، ولا جعلوا الخالق سبحانه متصفا بخصائص المخلوق، ونقائضه، ومعايبه من الفقر، والبخل، والعجز، كفعل اليهود، ولا المخلوق متصفا بخصائص الخالق سبحانه التي ليس كمثله فيها شيء كفعل النصارى، ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود، ولا أشركوا بعبادته أحدا كفعل النصارى.
وأهل السنة، والجماعة في الإسلام كأهل الإسلام في أهل الملل، فهم وسط في باب صفات الله عز وجل بين أهل الجحد والتعطيل، وبين أهل التشبيه والتمثيل، يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله من غير تعطيل، ولا تمثيل إثباتا لصفات الكمال، وتنزيها له عن أن يكون له فيها أنداد، وأمثال، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل. كما قال تعالى: {ليس كمثله شيء} [الشورى: 11] ردا على الممثلة، {وهو السميع البصير} [الشورى: 11] ردا على المعطلة.
وقال تعالى: {قل هو الله أحد - الله الصمد - لم يلد ولم يولد - ولم يكن له كفوا أحد} [الإخلاص: 1 - 4] .
فالصمد: السيد المستوجب لصفات الكمال، والأحد: الذي ليس له كفو، ولا مثال، وهم وسط في باب أفعال الله عز وجل بين المعتزلة المكذبين للقدر، والجبرية النافين لحكمة الله ورحمته وعدله، والمعارضين بالقدر أمر الله، ونهيه، وثوابه، وعقابه.
وفي باب الوعد والوعيد، بين الوعيدية الذين يقولون بتخليد عصاة المسلمين في النار، وبين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد، وما فضل الله به الأبرار على الفجار.
وهم وسط في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بين الغالي في بعضهم الذي يقول بإلهية، أو نبوة، أو عصمة، والجافي فيهم الذي يكفر بعضهم، أو يفسقه، وهم خيار هذه الأمة.
والله سبحانه أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم للناس رحمة وأنعم به نعمة يا لها من نعمة.
قال تعالى {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} [الأنبياء: 107] .
وقال تعالى {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا} [إبراهيم: 28] .
وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ; فإرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده، يجمع الله لأمته بخاتم المرسلين، وإمام المتقين وسيد ولد آدم أجمعين، ما فرقه في غيرهم من الفضائل، وزادهم من فضله أنواع الفواضل بل أتاهم كفلين من رحمته كما قال تعالى: {يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم - لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} [الحديد: 28 - 29] .

وفي الصحيحين عن ابن عمر، وأبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم، ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار، ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألا لكم الأجر مرتين. فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا نحن أكثر عملا، وأقل عطاء، فقال الله تعالى: فهل ظلمتكم من حقكم شيئا، قالوا: لا، قال الله تعالى، فإنه فضلي أعطيه من شئت» .

أما بعد: فإن الله تبارك وتعالى جعل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وأكمل له ولأمته الدين، وبعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر، وانطماس السبل، فأحيا به ما درس من معالم الإيمان، وقمع به أهل الشرك من عباد الأوثان، والنيران، والصلبان، وأذل به كفار أهل الكتاب أهل الشك والارتياب، وأقام به منار دينه الذي ارتضاه، وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه، وأظهر به ما كان مخفيا عند أهل الكتاب، وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب، وحقق به صدق التوراة، والزبور، والإنجيل، وأماط به عنها ما ليس بحقها من باطل التحريف، والتبديل.

وكان من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل، وتعميم الخلق بهم، بحيث يبعث في كل أمة رسولا ; ليقيم هداه، وحجته، كما قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: 36] .

وقال تعالى: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} [فاطر: 24] .

وقال تعالى: {ثم أرسلنا رسلنا تترى} [المؤمنون: 44] .

وقال تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا - ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما - رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: 163 - 165] .

ولما أهبط آدم إلى الأرض، قال تعالى: {قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى - ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى - قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا - قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى - وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى} [طه: 123 - 127] .

وقال تعالى عن أهل النار: {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير - قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير - وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} [الملك: 8 - 10] .

وقال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: 15] .

وقال تعالى: {يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين - ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون} [الأنعام: 130 - 131] .

[فصل: دين الأنبياء واحد هو الإسلام]

[الدين الذي ارتضاه الله لنفسه هو دين الإسلام]

وكان دينه الذي ارتضاه لنفسه هو دين الإسلام: الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحد دينا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين.

وهو دين الأنبياء وأتباعهم، كما أخبر الله تعالى بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين.

قال تعالى: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون - فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين} [يونس: 71 - 72] .

وقال تعالى عن إبراهيم: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين - إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين - ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} [البقرة: 130 - 132] .

وقال تعالى عن يوسف الصديق: {رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين} [يوسف: 101] .

وقال تعالى عن موسى: {ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} [يونس: 84] .
وأخبر تعالى عن السحرة، أنهم قالوا لفرعون: {وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} [الأعراف: 126] .
وقال تعالى عن بلقيس ملكة اليمن: {رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين} [النمل: 44] .
وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا} [المائدة: 44] .
وقال تعالى عن المسيح: {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون} [آل عمران: 52] .
وقال تعالى: {وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون} [المائدة: 111] .
فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته تعالى في كل زمان ومكان، بطاعة رسله عليهم السلام.
فلا يكون عابدا له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله: كالذين قال فيهم: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} [الشورى: 21] .
فلا يكون مؤمنا به إلا من عبده بطاعة رسله، ولا يكون مؤمنا به، ولا عابدا له إلا من آمن بجميع رسله، وأطاع من أرسل إليه، فيطاع كل رسول إلى أن يأتي الذي بعده، فتكون الطاعة للرسول الثاني.
قال تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله} [النساء: 64] .

[حكم من فرق بين الرسل]

ومن فرق بين رسله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافرا، كما قال تعالى: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا - أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا - والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما} [النساء: 150 - 152] .
فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، ولم يكن بعده رسول، ولا من يجدد الدين لم يزل الله سبحانه وتعالى يقيم لتجديد الدين من الأسباب ما يكون مقتضيا لظهوره، كما وعد به في الكتاب، فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده، ويعرف به مساوئ الكفر ومفاسده.

[من أسباب ظهور الإيمان]

[ظهور المعارضين للحق]

ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين.
كما قال تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون - ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون - أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين - وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم} [الأنعام: 112 - 115] .
وقال تعالى: {ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا - ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا - لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا - وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا - وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا} [الفرقان: 27 - 31] .
وذلك أن الحق إذا جحد وعورض بالشبهات أقام الله تعالى له مما يحق به الحق، ويبطل به الباطل من الآيات البينات بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة.
فالقرآن لما كذب به المشركون، واجتهدوا على إبطاله بكل طريق مع أنه تحداهم بالإتيان بمثله، ثم بالإتيان بعشر سور، ثم بالإتيان بسورة واحدة، كان ذلك مما دل ذوي الألباب على عجزهم عن المعارضة، مع شدة الاجتهاد، وقوة الأسباب، ولو اتبعوه من غير معارضة وإصرار على التبطيل، لم يظهر عجزهم عن معارضته التي بها يتم الدليل.
وكذلك السحرة لما عارضوا موسى عليه السلام، وأبطل الله ما جاءوا به، كان ذلك مما بين الله تبارك وتعالى به صدق ما جاء به موسى عليه السلام، وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء وبراهينهم التي تسمى بالمعجزات، وبين ما قد يشتبه بها من خوارق

السحرة، وما للشيطان من التصرفات، فإن بين هذين فروقا متعددة، منها ما ذكره الله تعالى في قوله: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين - تنزل على كل أفاك أثيم} [الشعراء: 221 - 222] .
ومنها ما بينه في آيات التحدي، من أن آيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن تعارض بالمثل فضلا عن الأقوى، ولا يمكن أحدا إبطالها بخلاف خوارق السحرة والشياطين ; فإنه يمكن معارضتها بمثلها وأقوى منها ويمكن إبطالها.

[معارضة أعداء الحق بدعاويهم الكاذبة]

وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجن، الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا إذا أظهروا من حججهم ما يحتجون به على دينهم المخالف لدين الرسول، ويموهون في ذلك بما يلفقونه من منقول ومعقول - كان ذلك من أسباب ظهور الإيمان الذي وعد بظهوره على الدين كله بالبيان والحجة والبرهان ثم بالسيف واليد والسنان.
قال الله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز} [الحديد: 25] .
وذلك بما يقيمه الله تبارك وتعالى من الآيات والدلائل التي يظهر بها الحق من الباطل، والخالي من العاطل، والهدى من الضلال، والصدق من المحال، والغي من الرشاد، والصلاح من الفساد، والخطأ من السداد، وهذا كالمحنة للرجال التي تميز بين الخبيث والطيب. قال تعالى: {ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب} [آل عمران: 179] .
وقال تعالى: {الم - أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون - ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين - أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون} [العنكبوت: 1 - 4] .
والفتنة هي الامتحان والاختبار، كما قال موسى عليه السلام: {إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء} [الأعراف: 155] .
أي امتحانك واختبارك تضل بها من خالف الرسل وتهدي بها من اتبعهم.
والفتنة للإنسان كفتنة الذهب إذا أدخل كير الامتحان، فإنها تميز جيده من رديئه، فالحق كالذهب الخالص، كلما امتحن ازداد جودة، والباطل كالمغشوش المضيء، إذا امتحن ظهر فساده.
فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهرت له البراهين، وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين.
والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل، ورام أن يقيم عوده المائل، أقام الله تبارك وتعالى من يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وتبين أن صاحبه الأحمق كاذب مائق، وظهر فيه من القبح والفساد، والحلول، والاتحاد، والتناقض والإلحاد، والكفر، والضلال، والجهل والمحال، ما يظهر به لعموم الرجال أن أهله من أضل الضلال، حتى يظهر فيه من الفساد ما لم يكن يعرفه أكثر العباد، ويتنبه بذلك من سنة الرقاد من كان لا يميز الغي من الرشاد، ويحيا بالعلم والإيمان من كان ميت القلب لا يعرف معروف الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا ينكر منكر المغضوب عليهم والضالين، فإن ما ذم الله به اليهود والنصارى في كتابه مثل تكذيب الحق المخالف للهوى، والاستكبار عن قبوله، وحسد أهله، والبغي عليهم، واتباع سبيل الغي، والبخل، والجبن، وقسوة القلوب، ووصف الله سبحانه وتعالى بمثل عيوب المخلوقين، ونقائصهم، وجحد ما وصف به نفسه من صفات الكمال المختصة به التي لا يماثله فيها مخلوق، وبمثل الغلو في الأنبياء والصالحين والإشراك في العبادة لرب العالمين، والقول بالحلول والاتحاد الذي يجعل العبد المخلوق هو رب العباد، والخروج في أعمال الدين عن شرائع الأنبياء والمرسلين، والعمل بمجرد هوى القلب وذوقه ووجده في الدين من غير اتباع العلم الذي أنزله الله في كتابه المبين، واتخاذ أكابر العلماء، والعباد أربابا يتبعون فيما يبتدعونه من الدين المخالف للأنبياء عليهم السلام كما قال تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] .
ومخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول، بما يظن أنه من التنزلات الإلهية، والفتوحات القدسية، مع كونه من وساوس اللعين، حتى يكون صاحبها ممن قال الله فيه: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} [الملك: 10] .
وقال تعالى: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل} [الأعراف: 179] .
إلى غير ذلك من أنواع البدع والضلالات، التي ذم الله بها أهل الكتابين، فإنها مما حذر الله منه هذه الأمة الأخيار، وجعل ما حل بها عبرة لأولي الأبصار.

[التحذير من اتباع بدع اليهود والنصارى]

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا بد من وقوعها في بعض هذه الأمة، وإن كان قد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا يزال في أمته أمة قائمة على الحق، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة، وأن أمته لا تجتمع على ضلالة، ولا يغلبها من سواها من الأمم، بل لا تزال منصورة متبعة لنبيها المهدي المنصور.

لكن لا بد أن يكون فيها من يتتبع سنن اليهود والنصارى والروم والمجوس، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى، قال: فمن؟» .

وفي الصحيحين أيضا، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لتأخذ أمتي مأخذ الأمم قبلها شبرا بشبر، وذراعا بذراع، قالوا: يا رسول الله، فارس والروم، قال: فمن الناس إلا أولئك» .

وفي المظهرين للإسلام منافقون، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار تحت اليهود والنصارى ; فلهذا كان ما ذم الله به اليهود والنصارى قد يوجد في المنافقين المنتسبين للإسلام الذين يظهرون الإيمان بجميع ما جاء به الرسول، ويبطنون خلاف ذلك كالملاحدة الباطنية، فضلا عمن يظهر الإلحاد منهم.

ويوجد بعض ذلك في أهل البدع، ممن هو مقر بعموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، باطنا وظاهرا، لكن اشتبه عليه بعض ما اشتبه على هؤلاء، فاتبع المتشابه، وترك المحكم كالخوارج وغيرهم من أهل الأهواء.

وللنصارى في صفات الله سبحانه وتعالى، واتحاده بالمخلوقات ضلال شاركهم فيه كثير من هؤلاء، بل من الملاحدة من هو أعظم ضلالا من النصارى.

والحلول والاتحاد نوعان: عام، وخاص.

فالعام: كالذين يقولون إن الله بذاته حال في كل مكان، أو إن وجوده عين وجود المخلوقات.

والخاص: كالذين يقولون بالحلول والاتحاد في بعض أهل البيت، كعلي، وغيره، مثل النصيرية، وأمثالهم، أو بعض من ينتسب إلى أهل البيت كالحاكم، وغيره، مثل الدرزية وأمثالهم، أو بعض من يعتقد فيه المشيخة، كالحلاجية، وأمثالهم.

فمن قال: إن الله سبحانه وتعالى حل، أو اتحد بأحد من الصحابة، أو القرابة، أو المشايخ، فهو من هذا الوجه أكفر من النصارى الذين قالوا بالاتحاد والحلول في المسيح، فإن المسيح عليه السلام أفضل من هؤلاء كلهم.

ومن قال بالحلول والاتحاد العام، فضلاله أعم من ضلال النصارى، وكذلك من قال بقدم أرواح بني آدم، أو أعمالهم، أو كلامهم، أو أصواتهم، أو مداد مصاحفهم، أو نحو ذلك، ففي قوله شعبة من قول النصارى.

فبمعرفة حقيقة دين النصارى وبطلانه يعرف به بطلان ما يشبه أقوالهم من أقوال أهل الإلحاد والبدع.

فإذا جاء نور الإيمان والقرآن أزهق الله به ما خالفه، كما قال تعالى: {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا} [الإسراء: 81] .

وأبان الله سبحانه وتعالى من فضائل الحق ومحاسنه ما كان به محقوقا.

[سبب تأليف الكتاب]

وكان من أسباب نصر الدين وظهوره، أن كتابا ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم، قديما، وحديثا من الحجج السمعية، والعقلية،، فاقتضى ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب، وبيان الخطإ من الصواب ; لينتفع بذلك أولو الألباب، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان، والكتاب.

وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلا فصلا، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعا وأصلا، وعقدا وحلا.

وما ذكروه في هذا الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماؤهم في مثل هذا الزمان، وقبل هذا الزمان، وإن كان قد يزيد بعضهم على بعض بحسب الأحوال ; فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماؤهم بينهم، والنسخ بها موجودة قديمة، وهي مضافة إلى بولص الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، كتبها إلى بعض أصدقائه، وله مصنفات في نصر النصرانية، وذكر أنه لما سافر إلى بلاد الروم والقسطنطينية وبلاد الملافطة وبعض أعمال الإفرنج ورومية، واجتمع بأجلاء أهل تلك الناحية، وفاوض أفاضلهم، وعلماءهم، وقد عظم هذه الرسالة، وسماها (الكتاب المنطيقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح، والرأي المستقيم) .

[مجمل ما جاء في رسالة بولس من دعاوى]

ومضمون ذلك ستة فصول:
الفصل الأول: دعواهم أن محمدا، صلى الله عليه وسلم، لم يبعث إليهم بل إلى أهل الجاهلية من العرب، ودعواهم أن في القرآن ما يدل على ذلك، والعقل يدل على ذلك.
الفصل الثاني: دعواهم أن محمدا، صلى الله عليه وسلم، أثنى في القرآن على دينهم الذي هم عليه، ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه.
الفصل الثالث: دعواهم أن نبوات الأنبياء المتقدمين، كالتوراة والزبور والإنجيل، وغير ذلك من النبوات تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم، والتثليث، والاتحاد، وغير ذلك، بأنه حق وصواب، فيجب التمسك به، ولا يجوز العدول عنه إذا لم يعارضه شرع يرفعه، ولا عقل يدفعه.
والفصل الرابع: فيه تقرير ذلك بالمعقول، وأن ما هم عليه من التثليث ثابت بالنظر المعقول، والشرع المنقول، موافق للأصول.
والفصل الخامس: دعواهم أنهم موحدون، والاعتذار عما يقولونه من ألفاظ يظهر منها تعدد الآلهة، كألفاظ الأقانيم ; فإن ذلك من جنس ما عند المسلمين من النصوص التي يظهر منها التشبيه والتجسيم.
والفصل السادس: أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال، فلا حاجة بعد النهاية إلى شرع يزيد على الغاية، بل يكون ما بعد ذلك شرعا غير مقبول.

[نهج المؤلف في رد دعاويهم الباطلة]
ونحن ولله الحمد والمنة نبين أن كل ما احتجوا به من حجة سمعية من القرآن، أو من الكتب المتقدمة على القرآن، أو عقلية، فلا حجة لهم في شيء منها، بل الكتب كلها مع القرآن والعقل حجة عليهم، لا لهم، بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء، ومن المعقول فهو نفسه حجة عليهم، ويظهر منه فساد قولهم مع ما يفسده من سائر النصوص النبوية، والموازين التي هي مقاييس عقلية.
وهكذا يوجد عامة ما يحتج به أهل البدع من كتب الله عز وجل ففي تلك النصوص ما يتبين أنه لا حجة لهم فيها، بل هي بعينها حجة عليهم، كما ذكر أمثال ذلك في الرد على أهل البدع والأهواء، وغيرهم من أهل القبلة.
وإنما عامة ما عند القوم ألفاظ متشابهة، تمسكوا بما ظنوها تدل عليه، وعدلوا عن الألفاظ المحكمة الصريحة المبينة، مع ما يقترن بذلك من الأهواء.
وهذه حال أهل الباطن، كما قال تعالى: {إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى} [النجم: 23] .
فهم في جهل وظلم، كما قال تعالى: {وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا - ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما} [الأحزاب: 72 - 73] .
فالمؤمنون الذين تاب الله عليهم من الجهل والظلم هم أتباع الأنبياء عليهم السلام، فإن الأنبياء بعثوا بالعلم والعدل، كما قال تعالى: {والنجم إذا هوى - ما ضل صاحبكم وما غوى - وما ينطق عن الهوى - إن هو إلا وحي يوحى} [النجم: 1 - 4] .
فبين سبحانه وتعالى أنه ليس ضالا جاهلا، ولا غاويا متبعا هواه، ولا ينطق عن هواه، إنما نطقه وحي أوحاه الله سبحانه وتعالى.
وقال تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا} [الفتح: 28] .
فالهدى يتضمن العلم النافع، ودين الحق يتضمن العمل الصالح، ومبناه على العدل، كما قال تعالى: {وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} [الحديد: 25] .
وأصل العدل العدل في حق الله تعالى، وهو عبادته وحده لا شريك له ; فإن الشرك ظلم عظيم، كما قال لقمان لابنه: {يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان: 13] .
وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، لما نزلت {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} [الأنعام: 82] الآية، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس هو كما تظنون إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم؟ .
ولما كان أتباع الأنبياء هم أهل العلم والعدل، كان كلام أهل الإسلام والسنة مع الكفار، وأهل البدع بالعلم والعدل لا بالظن، وما تهوى الأنفس ; ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار» . رواه أبو داود وغيره.

فإذا كان من يقضي بين الناس في الأموال والدماء والأعراض، إذا لم يكن عالما عادلا، كان في النار، فكيف بمن يحكم في الملل، والأديان، وأصول الإيمان، والمعارف الإلهية، والمعالم الكلية بلا علم، ولا عدل؟ كحال أهل البدع، والأهواء، الذين يتمسكون بالمتشابه المشكوك، ويدعون المحكم الصريح من نصوص الأنبياء ويتمسكون بالقدر المشترك المتشابه في المقاييس والآراء، ويعرضون عما بينهما من الفروق المانعة من الإلحاق والاستواء، كحال الكفار، وسائر أهل البدع والأهواء الذين يمثلون المخلوق بالخالق، والخالق بالمخلوق، ويضربون لله المثل بالقول الهزء.

[ما كفرت به النصارى]

وذلك أن دين النصارى الباطل إنما هو دين مبتدع، ابتدعوه بعد المسيح عليه السلام، وغيروا به دين المسيح، فضل منهم من عدل عن شريعة المسيح إلى ما ابتدعوه.

ثم لما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم كفروا به فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين الرسول الأول، وتكذيب الرسول الثاني.

كما كان كفر اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح، ثم تكذيبهم المسيح عليه السلام.

ونبين إن شاء الله أن ما عليه النصارى من التثليث والاتحاد، لم يدل عليه شيء من كتب الله: لا الإنجيل ولا غيره، بل دلت على نقيض ذلك، ولا دل على ذلك عقل بل العقل الصريح مع نصوص الأنبياء تدل على نقيض ذلك، بل وكذلك عامة شرائع دينهم محدثة مبتدعة، لم يشرعها المسيح عليه السلام.

ثم التكذيب لمحمد، صلى الله عليه وسلم، هو كفرهم المعلوم لكل مسلم، مثل كفر اليهود بالمسيح عليه السلام وأبلغ.

وهم يبالغون في تكفير اليهود بأعظم مما يستحقه اليهود من التكفير، إذ كان اليهود يزعمون أن المسيح ساحر كذاب، بل يقولون: إنه ولد غية، كما أخبر الله عنهم بقوله: {وقولهم على مريم بهتانا عظيما} [النساء: 156] .

والنصارى يدعون أن الله الذي خلق الأولين والآخرين، وأنه ديان يوم الدين، فكانت الأمتان فيه على غاية التناقض والتعادي والتقابل ; ولهذا كل أمة تذم الأخرى بأكثر مما تستحقه، كما قال تعالى: {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون} [البقرة: 113] .

ذكر محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما أنه قال لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى والإنجيل جميعا، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى، وكفر بالتوراة، فأنزل الله ذلك في قولهما {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب} [البقرة: 113] .

قال: كل يتلو في كتابه تصديق ما كفر: أي تكفر اليهود بعيسى، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى عليه السلام، وفي الإنجيل بإجابة عيسى بتصديق موسى، وبما جاء به من التوراة من عند الله وكل يكفر بما في يدي صاحبه.

قال قتادة {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء} [البقرة: 113] قال: بلى قد كان أوائل النصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا.

{وقالت النصارى ليست اليهود على شيء} [البقرة: 113] قال: بلى قد كانت أوائل اليهود على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا.

[تكفير كل من الفريقين للآخر]

فاليهود كذبوا بدين النصارى، وقالوا ليسوا على شيء، والنصارى كذبوا بجميع ما تميز به اليهود عنهم، حتى في شرائع التوراة التي لم ينسخها المسيح، بل أمرهم بالعمل بها، وكذبوا بكثير من الذين تميزوا به عنهم، حتى كذبوا بما جاء به عيسى عليه السلام من الحق.

لكن النصارى - وإن بالغوا في تكفير اليهود ومعاداتهم على الحد الواجب عما ابتدعوه من الغلو والضلال - فلا ريب أن اليهود لما كذبوا المسيح صاروا كفارا، كما قال تعالى للمسيح: {إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا} [آل عمران: 55] .

وقال تعالى: {قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين} [الصف: 14] .
وكفر النصارى بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم، وبمخالفة المسلمين أعظم من كفر اليهود بمجرد تكذيب المسيح، فإن المسيح لم ينسخ من شرع التوراة إلا قليلا، وسائر شرعه إحالة على التوراة، ولكن عامة دين النصارى أحدثوه بعد المسيح، فلم يكن في مجرد تكذيب اليهود له من مخالفة شرع الله الذي جاء بكتاب مستقل من عند الله لم يحل شيئا من شرعه على شرع غيره.
قال الله تعالى: {أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} [العنكبوت: 51] .
والقرآن أصل كالتوراة وإن كان أعظم منها ; ولهذا علماء النصارى يقرنون بين موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، كما قال النجاشي ملك النصارى لما سمع القرآن: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.
وكذلك «قال ورقة بن نوفل، وهو من أحبار نصارى العرب، لما سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: إنه يأتيك الناموس الذي يأتي موسى، يا ليتني فيها جذعا، حين يخرجك قومك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أومخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا» .
ولهذا يقرن سبحانه بين التوراة والقرآن، في مثل قوله {فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا} [القصص: 48] ويعني التوراة والقرآن، وفي القراءة الأخرى (قالوا ساحران) أي محمد وموسى.
{وقالوا إنا بكل كافرون - قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين} [القصص: 48 - 49] .
فلم ينزل كتاب من عند الله أهدى من التوراة والقرآن.
ثم قال تعالى: {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين} [القصص: 50] .
وهؤلاء النصارى، ذكر كاتب كتابهم في كتابه: أنه لما سأله سائل أن يفحص له فحصا بينا عما يعتقده النصارى المسيحيون المختلفة ألسنتهم المتفرقة في أربع زوايا العالم، من المشرق إلى المغرب، ومن الجنوب الى الشمال، والقاطنون بجزائر البحر، والمقيمون بالبر المتصل إلى مغيب الشمس، وإن الأسقف دميان الملك الرومي اجتمع بمن اجتمع به من أجلائهم ورؤسائهم، وفاوض من فاوض من أفاضلهم، وعلمائهم، فيما علمه من رأي القوم الذين رآهم بجزائر البحر قبل دخوله إلى قبرص، وخاطبهم في دينهم وما يعتقدونه ويحتجون به عن أنفسهم، قال الكاتب على لسان الأسقف: إنهم يقولون إنا سمعنا أن قد ظهر إنسان من العرب اسمه محمد يقول إنه رسول الله، وأتى بكتاب، فذكر أنه منزل عليه من الله، فلم نزل إلى أن حصل الكتاب عندنا، قال فقلت لهم إذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب، وهذا الإنسان واجتهدتم على تحصيل هذا الكتاب الذي أتى به عندكم، فلأي حال لم تتبعوه ولا سيما وفي الكتاب يقول: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} [آل عمران: 85] .
أجابوا قائلين: لأحوال شتى، قال: فقلت وما هي؟ قالوا: منها أن الكتاب عربي، وليس بلساننا حسب ما جاء فيه، يقول: {إنا أنزلناه قرآنا عربيا} [يوسف: 2] .
وقال: {بلسان عربي مبين} [الشعراء: 195] . وقال في سورة الشعراء: {ولو نزلناه على بعض الأعجمين - فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين} [الشعراء: 198 - 199] .
وقال في سورة البقرة: {كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون} [البقرة: 151] . وقال في سورة آل عمران: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته} [آل عمران: 164] . وقال تعالى في سورة القصص: {لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون} [القصص: 46] .
وقال في سورة السجدة: {لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون} [السجدة: 3] .
وقال في سورة يس: {لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون} [يس: 6] .
قالوا: فلما رأينا هذا علمنا أنه لم يأت إلينا، بل إلى جاهلية العرب، الذين قال إنه لم يأتهم رسول ولا نذير من قبله، وإنه لا يلزمنا اتباعه ; لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله، خاطبونا بألسنتنا، وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسكون به يومنا هذا، وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغاتنا، على ما يشهد لهم هذا الكتاب الذي أتى به هذا الرجل حيث يقول في سورة إبراهيم: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم: 4] .

وقال في سورة النحل: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا} [النحل: 36] .
وقال في سورة الروم: {ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات} [الروم: 47] .
فقد صح في هذا الكتاب، أنه لم يأت إلا في الجاهلية من العرب، وأما قوله: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} [آل عمران: 85] .
فيريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين أتاهم بلغتهم، لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه.
ونعلم أن الله عدل، وليس من عدله أن يطالب يوم القيامة أمة باتباع إنسان لم يأت إليهم، ولا وقفوا له على كتاب بلسانهم، ولا من جهة داع من قبله.
هذه ألفاظهم بأعيانها في الفصل الأول، وهذا الفصل لم يتعرضوا فيه لا لتصديقه ولا لتكذيبه، بل زعموا أن في نفس هذا الكتاب أنه لم يقل إنه مرسل إليهم، بل إلى جاهلية العرب، وإن العقل أيضا يمنع أن يرسل إليهم.
فنحن نبدأ بالجواب عن هذا، ونبين أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه مرسل إليهم، وإلى جميع الإنس والجن، وأنه لم يقل قط أنه لم يرسل إليهم، ولا في كتابه ما يدل على ذلك.
وأن ما احتجوا به من الآيات التي غلطوا في معرفة معناها، فتركوا النصوص الكثيرة الصريحة في كتابه، التي تبين أنه مرسل إليهم، من جنس ما فعلوه في التوراة والإنجيل والزبور وكلام الأنبياء، حيث تركوا النصوص الكثيرة الصريحة، وتمسكوا بقليل من المتشابه الذي لم يفهموا معناه.
ومعلوم أن الكلام في صدق مدعي الرسالة وكذبه متقدم على الكلام في عموم رسالته وخصوصها، وإن كان قد يعلم أحدهما قبل الآخر لكن هؤلاء القوم ادعوا خصوص رسالته، وذكروا أن القرآن يدل على ذلك. فنجيب عما ذكروه على حسب ترتيبهم فصلا فصلا فنقول وبالله التوفيق:
الكلام فيمن خاطب الخلق بأنه رسول الله إليهم، كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ممن قال إنه رسول الله، كإبراهيم وموسى، ونحوهما من الرسل الصادقين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وآل كل من الصالحين، وكمسيلمة الكذاب والأسود العنسي، ونحوهما من المتنبئين الكذابين، ينبني على أصلين:
أحدهما: أن نعرف ما يقوله في خبره وأمره فنعرف ما يخبر به ويأمر به، وهل قال إنه رسول الله إلى جميع الناس، أو قال إنه لم يرسل إلا إلى طائفة معينة لا إلى غيرها؟
والثاني: أن يعرف هل هو صادق أو كاذب؟
وبهذين الأصلين يتم الإيمان المفصل وهو معرفة صدق الرسول ومعرفة ما جاء به.
وأما الإيمان المجمل، فيحصل بالأول، وهو معرفة صدقه فيما جاء به، كإيماننا بالرسل المتقدمة، وقد نعلم صدقه أو كذبه وهؤلاء بدءوا في كتابهم هذا بما ذكره الرسول، مما زعموا أنه حجة لهم على عدم وجوب اتباعه، وعلى مدح دينهم الذي هم اليوم عليه بعد النسخ، والتبديل، ثم ذكروا حججا مستقلة على صحة دينهم ثم ذكروا ما يقدح فيه وفي دينه ; فلهذا قدمنا الجواب عما احتجوا به من القرآن، كما قدموه في كتابهم.
[فصل: دلائل صدق النبي الصادق]
ودلائل صدق النبي الصادق، وكذب المتنبي الكذاب كثيرة جدا، فإن من ادعى النبوة وكان صادقا، فهو من أفضل خلق الله وأكملهم في العلم والدين ; فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، وإن كان بعضهم أفضل من بعض كما قال تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض} [البقرة: 253] .
وقال تعالى: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض} [الإسراء: 55] .
وإن كان المدعي للنبوة كاذبا فهو من أكفر خلق الله، وشرهم، كما قال تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله} [الأنعام: 93] .
وقال تعالى: {فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين - والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون - لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين} [الزمر: 32 - 34] .
وقال تعالى: {ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين} [الزمر: 60] .
فالكذب أصل للشر، وأعظمه الكذب على الله عز وجل، والصدق أصل للخير، وأعظمه الصدق على الله تبارك وتعالى.
وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «عليكم بالصدق ; فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب ; فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا» .

ولما كان هذا من أعلى الدرجات، وهذا من أسفل الدركات، كان بينهما من الفروق، والدلائل، والبراهين التي تدل على صدق أحدها وكذب الآخر ما يظهر لكل من عرف حالهما. ولهذا كانت دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة، كما قد بسط في موضع آخر.

[فصل: توضيح الدعوى والرد عليها]

[ادعاؤهم أن الرسول لم يبعث إلا إلى أهل الجاهلية من العرب]

إذا عرف هذا، فهؤلاء القوم في هذا المقام ادعوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل إليهم، بل إلى أهل الجاهلية من العرب فهذه الدعوى على وجهين:

إما أن يقولوا: إنه بنفسه لم يدع أنه أرسل إليهم، ولكن أمته ادعوا له ذلك.

وإما أن يقولوا: إنه ادعى أنه أرسل إليهم وهو كاذب في هذه الدعوى، وكلامهم في صدر هذا الكتاب يقتضي الوجه الأول.

وفي آخره قد يقال: إنهم أشاروا إلى الوجه الثاني، لكنهم في الحقيقة لم ينكروا رسالته إلى العرب، وإنما أنكروا رسالته إليهم.

وأما رسالته إلى العرب فلم يصرحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه، وإن كان ظاهر لفظهم يقتضي الإقرار برسالته إلى العرب، بل صدقوا بما وافق قولهم وكذبوا بما خالف قولهم.

ونحن نبين أنه لا يصح احتجاجهم بشيء مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ثم نتكلم على الوجهين جميعا، ونبين أنه لا يصح احتجاجهم بشيء من القرآن على صحة دينهم، بوجه من الوجوه، ونبين أن القرآن، لا حجة فيه لهم، ولا فيه تناقض.

وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين، التي يحتجون بها هي حجة عليهم ليس في شيء منها حجة لهم، ولو لم يبعث محمد صلى الله عليه وسلم، فكيف والكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم موافق لسائر كلام الأنبياء عليهم السلام في إبطال دينهم، وقولهم في التثليث، والاتحاد، وغير ذلك، مع العقل الصريح. فهم احتجوا في كتابهم هذا بالقرآن، وبما جاءت به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم مع العقل.

ونحن نبين أنه لا حجة لهم فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ولا فيما جاءت به الأنبياء قبله، ولا في العقل بل ما جاء به محمد، وما جاءت به الأنبياء قبله مع صريح العقل كلها براهين قطعية على فساد دينهم، ولكن نذكر قبل ذلك أن احتجاجهم بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح بوجه من الوجوه، وأنه لا يجوز أن يحتج بمجرد المنقول عن محمد صلى الله عليه وسلم من يكذبه في كلمة واحدة مما جاء به.

وكذلك سائر الأنبياء عليهم السلام، بخلاف الاحتجاج بكلام غير الأنبياء، فإن ذلك يمكن موافقة بعضه دون بعض، وأما ما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام، أو من قال إنه نبي، فلا يمكن الاحتجاج ببعضه، دون بعض سواء قدر صدقهم، أو كذبهم.

فيقال لهم على كل تقدير، سواء أقروا بنبوته إلى العرب، أو غيرهم، أو كذبوه في قوله إنه رسول الله، أو سكتوا عن هذا وهذا، أو صدقوه في البعض دون البعض.

إن احتجاجكم على صحة ما تخالفون فيه المسلمين، مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، لا يصح بوجه من الوجوه ; فاحتجاجكم على أنه لم يرسل إليكم، أو على صحة دينكم بشيء من القرآن حجة داحضة على كل تقدير.

مع أنا سنبين - إن شاء الله تعالى - أن الكتب الإلهية كلها مع المعقول، لا حجة لكم في شيء منها، بل كلها حجة عليكم.

وهذا بخلاف المسلمين، فإنه يصح احتجاجهم على أهل الكتاب اليهود والنصارى بما جاءت به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وأهل الكتاب لا يصح احتجاجهم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أن المسلمين مقرون بنبوة موسى، وعيسى وداود، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي أرسله الله، وهذا أصل دين المسلمين، فمن كفر بنبي واحد، أو كتاب واحد، فهو عندهم كافر، بل من سب نبيا من الأنبياء، فهو عندهم كافر مباح الدم كما قال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} [البقرة: 136] .

وقال تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} [البقرة: 285] .

وقال تعالى: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} [البقرة: 177] .

والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله، يتناول التوراة والإنجيل، كما يتناول القرآن، كقوله تعالى: {وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم} [الشورى: 15] .

وقوله تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} [البقرة: 285] .
وفي القراءة الأخرى (وكتابه) ، كقوله تعالى: {وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم} [الشورى: 15] .
وقوله تعالى: {الم - ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين - الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون - والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون - أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون} [البقرة: 1 - 5] .
فذكر أن هذا الكتاب الذي أنزل عليه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، والذين يؤمنون بما أنزل إليه، وما أنزل من قبله، وبالآخرة هم يوقنون، ثم أخبر أن هؤلاء هم المفلحون، فحصر الفلاح في هؤلاء، فلا يكون مفلحا إلا من كان من هؤلاء.
وقوله تعالى {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} [البقرة: 4] . هو صفة للمذكورين ليس هؤلاء صنفا آخر، فإن عطف الشيء على الشيء قد يكون لتغاير الصفات، وإن كانت الذات واحدة هذا هو الصحيح هنا، وإن كان قد قيل إن الصنف الثاني مؤمنو أهل الكتاب، والأول هم المسلمون، فهذا ضعيف، وأفسد منه قول هؤلاء النصارى: إن الكتاب المراد به الإنجيل، كما سيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.
والعطف لتغاير الصفات، كقوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى - الذي خلق فسوى - والذي قدر فهدى - والذي أخرج المرعى - فجعله غثاء أحوى} [الأعلى: 1 - 5] .
وهو سبحانه الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاء أحوى.
وقوله تعالى: {قد أفلح المؤمنون - الذين هم في صلاتهم خاشعون - والذين هم عن اللغو معرضون - والذين هم للزكاة فاعلون - والذين هم لفروجهم حافظون} [المؤمنون: 1 - 5] . إلى آخر الآيات
وكذلك قوله: {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} [البقرة: 4] .
هم الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون، وهم الذين على هدى من ربهم، وهم المفلحون.
ولكن فصل إيمانهم بعد أن أجمله ; لئلا يظن ظان أن مجرد دعوى الإيمان بالغيب ينفع، وإن لم يؤمن بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وما أنزل إلى من قبله، فلو قال أحد من الناس: أنا أؤمن بالغيب، وهو مع ذلك لا يؤمن ببعض ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، أو ببعض ما أنزل على من قبله، لم يكن مؤمنا، حتى يؤمن بجميع ما أنزل إليه، وما أنزل إلى من قبله، ولو كانوا صنفا آخر لكان المفلحون قسمين: قسما يؤمنون بالغيب، ولا يؤمنون بما أنزل إليه، وما أنزل إلى من قبله، وقسما يؤمنون بما أنزل إليه، وما أنزل إلى من قبله، ولا يؤمنون بالغيب، وهذا باطل عند جميع الأمم المؤمنين واليهود والنصارى، فإن الإيمان بما أنزل إليه وإلى من قبله يتضمن الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب لا يتم إلا بالإيمان بجميع ما أنزله الله تبارك وتعالى.

[ما يثبت به متى ثبت الاحتجاج على المسلمين]

والمسلمون لا يستجيز أحد منهم التكذيب بشيء مما أنزل على من قبل محمد صلى الله عليه وسلم، لكن الاحتجاج بذلك عليهم يحتاج إلى ثلاث مقدمات:
إحداها: ثبوت ذلك على الأنبياء عليهم السلام.
والثانية: صحة الترجمة إلى اللسان العربي، أو اللسان الذي.
يخاطب به كالرومي، والسرياني، فإن لسان موسى، وداود والمسيح، وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل، كانت عبرانية، ومن قال إن لسان المسيح كان سريانيا، أو روميا فقد غلط.
والثالثة: تفسير ذلك الكلام ومعرفة معناه.
فلهذا كان المسلمون لا يردون شيئا من الحجج بتكذيب أحد من الأنبياء في شيء قاله ولكن قد يكذبون الناقل عنهم، أو يفسرون المنقول عنهم بما أرادوه، أو بمعنى آخر على وجه الغلط.
وإن كان بعض المسلمين قد يغلط في تكذيب بعض النقل، أو تأويل بعض المنقول عنهم، فهو كما يغلط من يغلط منهم، ومن سائر أهل الملل في التكذيب على وجه الغلط ببعض ما ينقل عمن يقر بنبوته، أو في تأويل المنقول عنه.
وهذا بخلاف تكذيب نفس النبي، فإنه كفر صريح، بخلاف أهل الكتاب، فإنه لا يتم مرادهم إلا بتكذيبهم ببعض ما أنزل الله، ومتى كذب بكلمة واحدة مما أخبر به من قال إنه رسول الله بطل احتجاجه بسائر كلامه، فكانت حجتهم التي يحتجون بها

داحضة، وذلك أن الذي يقول إنه رسول الله، إما أن يكون صادقا في قوله: إني رسول الله، وفي جميع ما يخبر به عن الله، وإما أن يكون كاذبا، ولو في كلمة واحدة عن الله.
فإن كان صادقا في ذلك امتنع أن يكذب على الله في شيء مما يبلغه عن الله، فإن من كذب على الله، ولو في كلمة واحدة كان ممن
افترى على الله الكذب، ولم يكن رسولا من رسل الله، ومن افترى على الله الكذب تبين أنه من المتنبئين الكذابين.
ومثل هذا لا يجوز أن يحتج بخبره عن الله، فإنه قد علم أن الله لم يرسله، وإذا قال هو قولا، وكان صدقا، كان كما يقوله غيره يقبل، لا لأنه بلغه عن الله ولا لأنه رسول عن الله، بل كما يقبل من المشركين وسائر الكفار ما يقولونه من الحق، فإن عباد الأوثان إذا قالوا عن الله ما هو حق مثل إقرار مشركي العرب بأن الله خلق السماوات والأرض لم نكذبهم في ذلك، وإن كانوا كفارا، وكذلك إذا قال الكافر إن الله حي قادر خالق، لم نكذبه في هذا القول.
فمن كذب على الله في كلمة واحدة، قال إن الله أنزلها عليه، ولم يكن الله أنزلها عليه، فهو من الكذابين الذين لا يجوز أن يحتج بشيء من أقوالهم التي يقولون إنهم يبلغونها عن الله تبارك وتعالى، وما قالوه غير ذلك فهم فيه كسائر الناس، بل كأمثالهم من الكذابين إن عرف صحة ذلك القول من جهة غيرهم قبل لقيام الدليل على صحته، لا لكونهم قالوه، وإن لم يعرف صحته من جهة غيرهم، لم يكن في قولهم له مع ثبوت كذبهم على الله حجة.
وحينئذ، فهؤلاء إن أقروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه صادق فيما بلغه عن الله من الكتاب والحكمة، وجب عليهم الإيمان بكل ما ثبت عنه من الكتاب والحكمة، كما يجب الإيمان بكل ما جاءت به الرسل.
وإن كذبوه في كلمة واحدة،، أو شكوا في صدقه فيها، امتنع مع
ذلك أن يقروا بأنه رسول الله، وإذا لم يقروا بأنه رسول الله، كان احتجاجهم بما قاله كاحتجاجهم بسائر ما يقوله من ليس من الأنبياء، بل من الكذابين، أو من المشكوك في صدقهم.
ومعلوم أن من عرف كذبه على الله فيما يقول: إنه يبلغه عن الله أو شك في صدقه، لا يعلم أنه رسول الله، ولا أنه صادق في كل ما يقوله، ويبلغه عن الله، وإذا لم يعلم ذلك منه لم يعرف أن الله أنزل إليه شيئا، بل إذا عرف كذبه عرف أن الله لم ينزل إليه شيئا ولا أرسله، كما عرف كذب مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، وكما عرف كذب ماني، وأمثاله، وغيرهم من المتنبئين الكذابين.
وإذا شك في صدقه في كلمة واحدة، بل جوز أن يكون كذبها عمدا، أو خطأ لم يجز تصديقه مع ذلك في سائر ما يبلغه عن الله ; لأن تصديقه فيما يخبر به عن الله، إنما يكون إذا كان رسولا صادقا لا يكذب عمدا ولا خطأ، فإن كل من أرسله الله لا بد أن يكون صادقا في كل ما يبلغه عن الله، لا يكذب فيه عمدا ولا خطأ.

[صدق الرسول وعصمته من الكذب]
وهذا أمر اتفق عليه الناس كلهم المسلمون، واليهود، والنصارى، وغيرهم، اتفقوا على أن الرسول لا بد أن يكون صادقا معصوما فيما يبلغه عن الله، لا يكذب على الله خطأ ولا عمدا، فإن مقصود الرسالة لا يحصل بدون ذلك، كما قال موسى عليه السلام لفرعون: {يافرعون إني رسول من رب العالمين - حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق} [الأعراف: 104 - 105] .
وفي القراءة المشهورة: يخبر أنه جدير وحري وثابت ومستقر على أن لا يقول على الله إلا الحق، وعلى القراءة الأخرى أخبر أنه واجب عليه أن لا يقول على الله إلا الحق.
وقال تعالى: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل - لأخذنا منه باليمين - ثم لقطعنا منه الوتين - فما منكم من أحد عنه حاجزين} [الحاقة: 44 - 47] .
وقال تعالى: {أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته} [الشورى: 24] .
وقال تعالى: {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون - قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين} [النحل: 101 - 102] .
وقال تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي} [يونس: 15] .
وهذا لبسطه موضع آخر.
وإنما المقصود هنا: أن احتجاجهم بكلمة واحدة مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، لا يصح بوجه من الوجوه، فإنه إن كان رسولا صادقا في كل ما يخبر به عن الله عز وجل، فقد علم كل واحد أنه جاء بما يخالف دين النصارى، فيلزم إذا كان رسولا صادقا أن يكون دين النصارى باطلا، وإن قالوا في كلمة واحدة مما جاء به أنها باطلة، لزم أن لا يكون عندهم رسولا صادقا

مبلغا عن الله وحينئذ، فسواء قالوا: هو ملك عادل، أو هو عالم من العلماء، أو هو رجل صالح من الصالحين، أو جعلوه قديسا عظيما من أعظم القديسين، فمهما عظموه به ومدحوه به لما رأوه من محاسنه الباهرة وفضائله الظاهرة وشريعته الطاهرة، متى كذبوه في كلمة واحدة مما جاء به أو شكوا فيها كانوا مكذبين له في قوله: إنه رسول الله، وأنه بلغ هذا القرآن عن الله، ومن كان كاذبا في قوله: إنه رسول الله لم يكن من الأنبياء والمرسلين، ومن لم يكن منهم لم يكن قوله حجة ألبتة، لكن له أسوة أمثاله.
فإن عرف صحة ما يقوله بدليل منفصل، قبل القول ; لأنه عرف صدقه من غير جهته، لا لأنه قاله، وإن لم يعرف صحة القول لم يقبل فتبين أنه إن لم يقر المقر لمن ذكر أنه رسول الله بأنه صادق في كل ما يبلغه عن الله معصوم عن استقرار الكذب خطأ أو عمدا لم يصح احتجاجهم بقوله.
وهذا الأصل يبطل قول عقلاء أهل الكتاب، وهو لقول جهالهم أعظم إبطالا، فإن كثيرا من عقلاء أهل الكتاب، وأكثرهم يعظمون محمدا صلى الله عليه وسلم، لما دعا إليه من توحيد الله تعالى، ولما نهى عنه من عبادة الأوثان، ولما صدق التوارة والإنجيل، والمرسلين قبله، ولما ظهر من عظمة القرآن الذي جاء به، ومحاسن الشريعة التي جاء بها، وفضائل أمته التي آمنت به، ولما ظهر عنه وعنهم من الآيات، والبراهين، والمعجزات، والكرامات، لكن يقولون مع ذلك: إنه بعث إلى غيرنا، وإنه ملك عادل، له سياسة عادلة، وإنه مع ذلك حصل علوما من علوم أهل الكتاب وغيرهم، ووضع لهم ناموسا بعلمه ورتبه، كما وضع أكابرهم لهم القوانين، والنواميس التي بأيديهم ومهما قالوه من هذا، فإنهم لا يصيرون به مؤمنين به، ولا يسوغ لهم بمجرد ذلك الاحتجاج بشيء مما قاله ; لأنه قد عرف بالنقل المتواتر الذي يعلمه جميع الأمم من جميع الطوائف أنه قال: إنه رسول الله إلى جميع الناس، وأن الله أنزل عليه القرآن، فإن كان صادقا في ذلك، فمن كذبه في كلمة واحدة، فقد كذب رسول الله، ومن كذب رسول الله، فهو كافر، وإن لم يكن صادقا في ذلك، لم يكن رسولا لله، بل كان كاذبا، ومن كان كاذبا على الله، يقول: الله أرسلني بذلك، ولم يرسله به، لا يجوز أن يحتج بشيء من أقواله.

[الرد على أهل الكتاب في قولهم بالإرسال الكوني]

وأما من كان من جهلاء أهل الكتاب الذين يقولون: إنه كان ملكا مسلطا عليهم، وإنه رسول غضب، أرسله الله إرسالا كونيا ; لينتقم به منهم كما أرسل بختنصر، وسنحاريب على بني إسرائيل، وكما أرسل جنكس خان، وغيره من الملوك الكافرين والظالمين مما ينتقم به ممن عصاه، فهؤلاء أعظم تكذيبا له، وكفرا به من أولئك، فإن هؤلاء الملوك لم يقل أحد منهم إن الله أنزل عليه كتابا، ولا أن هذا الكلام الذي أبلغه إليكم هو كلام الله، ولا أن الله أمركم أن تصدقوني فيما أخبرتكم به، وتطيعوني فيما أمرتكم به، ومن لم يصدقني باطنا وظاهرا، فإن الله يعذبه في الدنيا والآخرة، بل هؤلاء أرسلهم إرسالا كونيا قدره وقضاه، كما يرسل الريح بالعذاب، وكما يرسل الشياطين قال تعالى: {أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا} [مريم: 83] .
وقال تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا - فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا} [الإسراء: 4 - 5] .
وهذا بخلاف قوله: {إنا أرسلنا نوحا إلى قومه} [نوح: 1] .
وقوله تعالى: {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا} [المزمل: 15] .
وقوله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: 163] .
فإن هذا يعني به الإرسال الديني، الذي يحبه تعالى، ويرضاه الذي هدى به من اتبعهم، وأدخله في رحمته، وعاقب من عصاهم، وجعله من المستوجبين للعذاب، وهو الإرسال الذي أوجب الله به طاعة من أرسله، كما قال تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله} [النساء: 64] .
وقال تعالى: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [النساء: 80] .
وهذه الرسالة التي أقام بها الحجة على الخلق، كما قال تعالى: {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: 165] .
وقال تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} [الحج: 75] .
وهذا كما اصطفى روح القدس جبريل عليه السلام، لنزوله بالقرآن على من اصطفاه من البشر، وهو محمد صلى الله عليه وسلم.
قال تعالى: {قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين} [البقرة: 97] .

وقال تعالى: {وإنه لتنزيل رب العالمين - نزل به الروح الأمين - على قلبك لتكون من المنذرين - بلسان عربي مبين} [الشعراء: 192 - 195] .
وقال تعالى: {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون - قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين} [النحل: 101 - 102] .
فأخبر أنه نزل به جبريل، وسماه الروح الأمين، وسماه روح القدس، وقد ذكره أيضا في قوله: {إنه لقول رسول كريم - ذي قوة عند ذي العرش مكين - مطاع ثم أمين} [التكوير: 19 - 21] .
ثم قال: {وما صاحبكم بمجنون - ولقد رآه بالأفق المبين - وما هو على الغيب بضنين - وما هو بقول شيطان رجيم - فأين تذهبون - إن هو إلا ذكر للعالمين - لمن شاء منكم أن يستقيم - وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} [التكوير: 22 - 29] .
فهذا الرسول جبريل عليه السلام، وقال تعالى: {إنه لقول رسول كريم - وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون - ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون - تنزيل من رب العالمين - ولو تقول علينا بعض الأقاويل - لأخذنا منه باليمين - ثم لقطعنا منه الوتين - فما منكم من أحد عنه حاجزين} [الحاقة: 19 - 47] .
فهذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.
وأما الإرسال الكوني الذي قدره وقضاه، مثل إرسال الرياح وإرسال الشياطين، فذلك نوع آخر. قال تعالى: {أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا} [مريم: 83] .
وقال تعالى: {وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته} [الفرقان: 48] .
والله تعالى له الخلق والأمر، فلفظ الإرسال، والبعث، والإرادة، والأمر، والإذن، والكتاب، والتحريم، والقضاء، والكلام ينقسم إلى: خلقي، وأمري، وكوني، وديني، وقد ذكرنا الإرسال.
وأما البعث، فقال تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة} [الجمعة: 2]
وقال في الكوني: {فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد} [الإسراء: 5] .
وقال تعالى: {فبعث الله غرابا يبحث في الأرض} [المائدة: 31] .
وأما الإرادة، فقال تعالى في الكونية: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا} [الأنعام: 125] .
وقال نوح عليه السلام: {ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم} [هود: 34] .
وقال تعالى في الإرادة الدينية: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} [البقرة: 185] .
وقال تعالى: {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم - والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما - يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا} [النساء: 26 - 28] .
وقال تعالى: {ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم} [المائدة: 6] .
وقال تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا} [الأحزاب: 33] .
وقال تعالى في الأمر الكوني: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} [يس: 82] .
وكذلك في أظهر القولين قوله تعالى: {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول} [الإسراء: 16] .
وأما الأمر الديني مثل قوله: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها} [النساء: 58] .
وأما الإذن الكوني مثل قوله في السحرة: {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله} [البقرة: 102] .
والديني مثل قوله: {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا - وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا} [الأحزاب: 45 - 46] .
والكتاب الكوني مثل قوله: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} [المجادلة: 21] .
وقوله: {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا} [التوبة: 51] .
والديني مثل قوله: {كتب الله عليهم} [الحشر: 3] .
وقوله: {كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم} [البقرة: 183] .
وقوله: {كتب عليكم القصاص} [البقرة: 178] .
والقضاء الكوني كقوله: {فقضاهن سبع سماوات} [فصلت: 12] .
والديني: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا} [الإسراء: 23] .

أي: أمر.
والتحريم الكوني مثل قوله: {وحرمنا عليه المراضع من قبل} [القصص: 12] .
وقوله: {فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض} [المائدة: 26] .
وقوله: {وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون} [الأنبياء: 95] .
والديني مثل قوله: {حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير} [المائدة: 3] .
وقوله: {حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم} [النساء: 23] .
والكلمات الكونية، مثل قول النبي، صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بكلمات الله التامات، التي لا يجاوزهن بر، ولا فاجر» . ومنه قوله تعالى: {وصدقت بكلمات ربها وكتبه} [التحريم: 12] .
والدينية: مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» . ومنه قوله تعالى: {قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله} [آل عمران: 64] .
وهذا مبسوط في موضع آخر.

[تفرق أهل الكتاب في النبي صلى الله عليه وسلم]

والمقصود هنا أنه تفرق أهل الكتاب في النبي صلى الله عليه وسلم، كل يقول فيه قولا هو نظير تفرق سائر الكفار، فإن الكفار بالأنبياء من عاداتهم أن تقول كل طائفة فيه قولا يناقض قول الطائفة الأخرى، وكذلك قولهم في الكتاب الذي أنزل عليه،
وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة، وهذا هو الاختلاف المذموم الذي ذكره الله تعالى في قوله: {ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك} [هود: 118] .
وفي قوله: {إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك} [الذاريات: 8] .
وقوله تعالى: {وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد} [البقرة: 176] .
وقوله: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم - يوم تبيض وجوه وتسود وجوه} [آل عمران: 105 - 106] .
وقوله تعالى: {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة} [المائدة: 14] .
ومثال أقوال الكفار في الأنبياء ما ذكره تعالى في قوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا - الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا - واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا - وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا - وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا - قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما - وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا - أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا - انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} [الفرقان: 1 - 9] .
فبين سبحانه أن الكفار ضربوا له أمثالا كلها باطلة، ضلوا فيها عن الحق، فلا يستطيعون مع الضلال سبيلا إلى الحق، وضرب الأمثال له يتضمن تمثيله بأناس آخرين، وجعله في تلك الأنواع التي ليس هو منها، ولا مماثلا لأفرادها، مثل قولهم: {إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون} [الفرقان: 4] .
مثلوه بالكاذب المستعين بمن يعينه على ما يفتريه، ومثلوه بمن يستكتب أساطير الأولين من غيره، فتقرأ عليه طرفي النهار، وهو يتعلم من أولئك ما يقوله، ومثلوه بالمسحور، وكذلك قوله تعالى: {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا - وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا - نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا - انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} [الفرقان: 45 - 9] .
وقال تعالى: {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم - لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين - وقل إني أنا النذير المبين - كما أنزلنا على المقتسمين - الذين جعلوا القرآن عضين - فوربك لنسألنهم أجمعين - عما كانوا يعملون - فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين - إنا كفيناك المستهزئين - الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون} [الحجر: 87 - 96] .

قال كثيرا من السلف: الذين جعلوا القرآن عضين: هم الذين عضهوه، فقالوا سحر، وشعر وكهانة، ونحو ذلك، كما قال تعالى: {فلا أقسم بما تبصرون - وما لا تبصرون - إنه لقول رسول كريم - وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون - ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون - تنزيل من رب العالمين - ولو تقول علينا بعض الأقاويل - لأخذنا منه باليمين - ثم لقطعنا منه الوتين - فما منكم من أحد عنه حاجزين - وإنه لتذكرة للمتقين - وإنا لنعلم أن منكم مكذبين - وإنه لحسرة على الكافرين - وإنه لحق اليقين - فسبح باسم ربك العظيم} [الحاقة: 38 - 52] .
وقال: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون - أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون - قل تربصوا فإني معكم من المتربصين - أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون - أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون - فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} [الطور: 29 - 34] .
وقال تعالى: {وإنه لتنزيل رب العالمين - نزل به الروح الأمين - على قلبك لتكون من المنذرين - بلسان عربي مبين - وإنه لفي زبر الأولين - أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل - ولو نزلناه على بعض الأعجمين - فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين - كذلك سلكناه في قلوب المجرمين - لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم - فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون - فيقولوا هل نحن منظرون - أفبعذابنا يستعجلون - أفرأيت إن متعناهم سنين - ثم جاءهم ما كانوا يوعدون - ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون - وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون - ذكرى وما كنا ظالمين} [الشعراء: 192 - 209] .
ثم قال تعالى: {وما تنزلت به الشياطين - وما ينبغي لهم وما يستطيعون - إنهم عن السمع لمعزولون - فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين - وأنذر عشيرتك الأقربين - واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين - فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون - وتوكل على العزيز الرحيم - الذي يراك حين تقوم - وتقلبك في الساجدين - إنه هو السميع العليم - هل أنبئكم على من تنزل الشياطين - تنزل على كل أفاك أثيم - يلقون السمع وأكثرهم كاذبون - والشعراء يتبعهم الغاوون - ألم تر أنهم في كل واد يهيمون - وأنهم يقولون ما لا يفعلون - إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} [الشعراء: 210 - 227] .
وقال تعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون - وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون - وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون - بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون - وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين - أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون - قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون - ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون - يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين - يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون} [العنكبوت: 46 - 55] .
وقال تعالى: {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} [الطور: 33] .
وقال تعالى: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين - فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون} [هود: 13 - 14] .
وقال تعالى: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين - فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين} [البقرة: 23 - 24] .
وقال تعالى: {ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون - ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين - ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين} [الذاريات: 49 - 51] .
وقد أخبر تعالى أن هذه سنة الكفار في الأنبياء قبله كما قال: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون - أتواصوا به بل هم قوم طاغون} [الذاريات: 52 - 53] .
وقال تعالى: {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك} [فصلت: 43] .
وقال تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون} [الأنعام: 112] .
وقد أخبر سبحانه أن الكفار قالوا عن موسى عليه السلام أنه ساحر، وأنه مجنون، فقال فرعون: {قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون} [الشعراء: 27] .
وقوله: {وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك} [الزخرف: 49] .

وقال: {إنه لكبيركم الذي علمكم السحر} [طه: 71] .
وكذلك قالوا عن المسيح ابن مريم، كما قال تعالى: {وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين} [الصف: 6] .
وذكر تعالى عن اليهود أنهم قالوا على مريم بهتانا عظيما، فقول اليهود في المسيح من جنس أقوال الكفار في الأنبياء، وكذلك قول كفار أهل الكتاب في خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم تسليما.

[الرد على دعوى قصر الرسالة على العرب]

فإذا علم هذا فنقول بعد ذلك لمن قال إنه رسول أرسل إلى العرب الجاهلية دون أهل الكتاب:
إنه من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله بالنقل المتواتر الذي هو أعظم تواترا مما ينقل عن موسى وعيسى وغيرهما، وبالقرآن المتواتر عنه، وسنته المتواترة عنه، وسنة خلفائه الراشدين من بعده، أنه صلى الله عليه وسلم ذكر أنه أرسل إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى، كما ذكر أنه أرسل إلى الأميين، بل ذكر أنه أرسل إلى جميع بني آدم عربهم، وعجمهم من الروم، والفرس والترك، والهند، والبربر، والحبشة، وسائر الأمم، بل أنه أرسل إلى الثقلين الجن والإنس جميعا.
وهذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه، التي اتفق على نقلها عنه أصحابه مع كثرتهم، وتفرق ديارهم وأحوالهم، وقد صحبه عشرات ألوف، لا يحصي عددهم على الحقيقة إلا الله تعالى، ونقل ذلك عنهم التابعون، وهم أضعاف الصحابة عددا، ثم ذلك منقول قرنا بعد قرن إلى زمننا مع كثرة المسلمين، وانتشارهم في مشارق الأرض ومغاربها، كما أخبر بذلك قبل أن يكون، فقال في الحديث الصحيح «زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها» ، وكان كما أخبر، فبلغ ملك أمته طرفي العمارة شرقا وغربا، وانتشرت دعوته في وسط الأرض، كالإقليم الثالث والرابع والخامس ; لأنهم أكمل عقولا، وأخلاقا، وأعدل أمزجة، بخلاف طرفي الجنوب والشمال، فإن هؤلاء نقصت عقولهم وأخلاقهم، وانحرفت أمزجتهم.
أما طرف الجنوب، فإنه لقوة الحرارة احترقت أخلاطهم، فاسودت ألوانهم، وتجعدت شعورهم.
وأما أهل طرف الشمال فلقوة البرد لم تنضج أخلاطهم، بل صارت فجة، فأفرطوا في سبوطة الشعر والبياض البارد الذي لا يستحسن.
ولهذا لما ظهر الإسلام غلب أهله على وسط المعمورة، وهم أعدل بني آدم وأكملهم، والنصارى الذين تربوا تحت ذمة المسلمين أكمل من غيرهم من النصارى عقولا وأخلاقا، وأما النصارى المحاربون للمسلمين الخارجون عن ذمتهم من أهل الجنوب والشمال، فهم أنقص عقولا وأخلاقا، ولما فيهم من نقص العقول والأخلاق ظهرت فيهم النصرانية دون الإسلام.

[توجيه الدعوة من الرسول إلى أهل الكتاب وغيرهم]

والمقصود: أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وبما جاء به، كما دعا من لا كتاب له من العرب وسائر الأمم.
وهو الذي أخبر عن الله تبارك وتعالى بكفر من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم، وبأنهم يصلون جهنم، وساءت مصيرا، وهو الذي أمر بجهادهم، ودعاهم بنفسه ونوابه، وحينئذ فقولهم في الكتاب لم يأت إلينا بل إلى الجاهلية من العرب سواء أرادوا أن الله بعثه إلى العرب، ولم يبعثه إلينا، أو أرادوا أنه ادعى أنه أرسل إلى العرب لا إلينا ; فإنه قد علم جميع الطوائف أن محمدا دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وذكر أن الله أرسله إليهم وأمره بجهاد من لم يؤمن به منهم فإذا قيل مع هذا أنه قال: لم أبعث إلا إلى العرب، كان كاذبا كذبا ظاهرا عليه سواء صدقه الإنسان أو كذبه، فإن المقصود هنا أنه نفسه دعا جميع أهل الأرض إلى الإيمان به، فدعا أهل الكتاب كما دعا الأميين.
أما اليهود: فإنهم كانوا جيرانه في الحجاز بالمدينة، وما حولها، وخيبر، فإن المهاجرين والأنصار كلهم آمنوا به من غير سيف ولا قتال، بل لما ظهر لهم من براهين نبوته، ودلائل صدقه آمنوا به، وقد حصل من الأذى في الله لمن آمن بالله ما هو معروف في السيرة، وقد آمن به في حياته كثير من اليهود والنصارى بعضهم بمكة وبعضهم بالمدينة وكثيرمنهم كانوا بغير مكة والمدينة، فلما قدم المدينة عاهد من لم يؤمن به من اليهود، ثم نقضوا العهد، فأجلى بعضهم، وقتل بعضهم ; لمحاربتهم لله ورسوله.
وقد قاتلهم مرة بعد مرة قاتل بني النضير، وأنزل الله تعالى فيهم سورة الحشر، وقاتل قريظة عام الأحزاب، وذكرهم الله في سورة الأحزاب، وقاتل قبلهم بني قينقاع، وبعد هؤلاء غزا خيبر هو وأهل بيعة الرضوان، الذين بايعوه تحت الشجرة، وكانوا ألفا وأربعمائة، ففتح الله عليهم خيبر، وأقر اليهود فيها فلاحين، وأنزل الله تعالى سورة الفتح يذكر فيها ذلك فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه أرسل إلا إلى مشركي العرب وهذه حال اليهود معه؟

[قدوم الوفود على الرسول دليل على عموم رسالته]

وأما النصارى فإن أهل نجران التي باليمن كانوا نصارى، فقدم عليه وفدهم ستون راكبا وناظرهم في مسجده، وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران، ولما ظهرت حجته عليهم، وتبين لهم أنه رسول الله إليهم، أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة فقال تعالى: {فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين} [آل عمران: 61] .

فلما دعاهم إلى المباهلة طالبوا أن يمهلهم حتى يشتوروا فاشتوروا، فقال بعضهم لبعض: تعلمون أنه نبي، وأنه ما باهل قوم نبيا إلا نزل بهم العذاب.

فاستعفوا من المباهلة، فصالحوه، وأقروا له بالجزية عن يد وهم صاغرون، لما خافوا من دعائه عليهم، لعلمهم أنه نبي، فدخلوا تحت حكمه، كما يدخل أهل الذمة الذين في بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله، وأدوا إليه الجزية عن يد وهم صاغرون، وهم أول من أدى الجزية من النصارى.

واستعمل عليهم وعلى من أسلم منهم عمرو بن حزم الأنصاري، وكتب له كتابا مشهورا، يذكر فيه شرائع الدين، فكانوا في ذمة المسلمين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عمرو بن حزم الأنصاري، رضي الله عنه، وقصتهم مشهورة متواترة، نقلها أهل السير، وأهل الحديث، وأهل الفقه، وأصل حديثهم معروف في الصحاح، والسنن، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ووفد نجران لما قدموا أنزل الله تبارك وتعالى بسبب ما جرى صدر سورة آل عمران، وذكر تعالى فرض الحج بقوله: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا} [آل عمران: 97] .

وهذا نزل إما سنة تسع وإما سنة عشر، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء، منهم: القاضي أبو يعلى، وغيره.

قالوا وجوب الحج ثبت بقوله {ولله على الناس حج البيت} [آل عمران: 97] .

وروي أنه نزل في سنة عشر، وروي أنه نزل في سنة تسع، وهذا قول جمهور العلماء.

قالوا إن فرض الحج، إنما ثبت بهذه الآية، وقال بعضهم بل ثبت ذلك بقوله تعالى: {وأتموا الحج والعمرة لله} [البقرة: 196] .

وهذه الآية نزلت سنة ست عام الحديبية، لما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت، وصالحهم ذلك العام، وبايع المسلمين تحت الشجرة، وأنزل الله فيها سورة الفتح، ثم رجع إلى المدينة، وفتح الله عليهم خيبر سنة سبع، وفيها قدم عليه جعفر بن أبي طالب مع وفد الحبشة، ثم أرسل جعفرا، وزيدا وعبد الله بن رواحة لغزو النصارى لمؤتة، ثم فتح مكة سنة ثمان في رمضان، ثم في أثناء سنة تسع غزا النصارى إلى تبوك، وفيها حج أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأمر أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وأردفه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لنبذ العهود، وأنزل الله آية السيف المطلقة بجهاد المشركين وجهاد أهل الكتاب، فقال تعالى: {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} [التوبة: 5] .

وهذه الأشهر عند جمهور العلماء هي المذكورة في قوله تعالى: {فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين} [التوبة: 2] .

فإن المشركين كانوا على نوعين: نوعا لهم عهد مطلق غير مؤقت، وهو عقد جائز غير لازم، ونوعا لهم عهد مؤقت، فأمر الله رسوله أن ينبذ إلى المشركين أهل العهد المطلق ; لأن هذا العهد جائز غير لازم، وأمره أن يسيرهم أربعة أشهر، ومن كان له عهد مؤقت فهو عهد لازم، فأمره الله أن يوفي له إذا كان مؤقتا، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن الهدنة لا تجوز إلا مؤقتة، وذهب بعضهم إلى أنه يجوز للإمام أن يفسخ الهدنة مع قيامهم بالواجب، والصواب هو القول الثالث، وهو أنها تجوز مطلقة ومؤقتة.

فأما المطلقة فجائزة غير لازمة، يخير بين إمضائها وبين نقضها. والمؤقتة لازمة.

قال تعالى: {براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين - فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين - وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم - إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين - فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم - وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون - كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين - كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون - اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون - لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون

- فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون - وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون - ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين} [التوبة: 1 - 13] .
والمقصود هنا ذكر قدوم وفد نجران النصارى: السيد والعاقب ومن معهما.
قال أبو الفرج بن الجوزي: ثم دخلت سنة عشر من الهجرة فمن الحوادث فيها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب فروى ابن إسحاق قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالدا في ربيع الآخر أو جمادى الأول في سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم، وذكر القصة، ثم قال: وفيها قدم وفد الأزد وفيها قدم وفد غسان وفيها قدم وفد زبيد، وفيها قدم وفد عبد القيس، قال ابن إسحاق: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارود بن عمرو في وفد عبد القيس، وكان نصرانيا فأسلموا، وفيها قدم وفد كندة فأسلموا، وفيها قدم وفد بني حنيفة، وفيها قدم وفد بجيلة، قال: وفيها قدم العاقب والسيد من نجران، فكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب صلح.
وذكر محمد بن سعد في الطبقات قدومهم في الوفود فقال: ذكر بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في شهر ربيع الأول سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب ذكره بإسناده، أنبأنا محمد بن عمر، حدثني إبراهيم بن موسى المخزومي، عن عبد الله بن عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث، عن أبيه، ثم ذكر قدوم نصارى نجران من طريق علي بن محمد، فقال: أنا علي بن محمد وهو المدائني، عن أبي معشر، عن يزيد بن رومان، ومحمد بن كعب قال: وأنا علي بن مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، وعكرمة بن خالد، وعاصم بن عمر بن قتادة، أنا يزيد بن عايض بن جعدبة، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، وعن غيرهم من أهل العلم يزيد بعضهم على بعض قالوا: ووفد فلان وفلان في رجال من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما هدم جرير بن عبد الله رضي الله عنه ذا الخلصة، وقتل من قتل من خثعم، فقالوا: آمنا بالله ورسوله فاكتب لنا كتابا. وذكروا القصة، وقدوم وفود متعددة.
قالوا: وقدم وفد نجران وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران، فخرج إليه أربعة عشر من أشرافهم نصارى وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم: العاقب، واسمه عبد المسيح رجل من كندة وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذي يصدرون عن رأيه، وأبو الحارث أسقفهم وإمامهم، وصاحب مدراسهم، والسيد وهو صاحب رحلتهم فدخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة، وأردية مكفوفة بالحرير، فقاموا يصلون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوهم، ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأعرض عنهم فلم يكلمهم، فقال لهم عثمان: ذلك من أجل زيكم هذا فانصرفوا يومهم ذلك، ثم غدوا عليه بزي الرهبان فسلموا عليه فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام فأبوا وكثر الكلام، والحجاج بينهم وتلا عليهم القرآن، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم. فانصرفوا على ذلك، فغدا عبد المسيح ورجلان من ذوي رأيهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: قد بدا لنا أن لا نباهلك، فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك. فصالحهم على ألفي حلة في رجب، وألف في صفر، أو قيمة كل حلة من الأواقي، وعلى عارية ثلاثين درعا وثلاثين رمحا، وثلاثين بعيرا، وثلاثين فرسا إن كان باليمن كيد. ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وبيعهم، لا يغير أسقف من سقيفاه، ولا راهب من رهبانيته، ولا واقف من وقفانيته، وأشهد على ذلك شهودا منهم أبو سفيان بن حرب، والأقرع بن حابس، والمغيرة بن شعبة، فرجعوا إلى بلادهم، فلم يلبث السيد والعاقب إلا يسيرا حتى رجعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلما وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري، وأقام أهل نجران على ما كتب لهم به النبي صلى الله عليه وسلم، حتى قبضه الله صلوات الله عليه ورحمته ورضوانه.
ثم ولي أبو بكر الصديق رضي الله عنه فكتب بالوصاة بهم عند وفاته، ثم أصابوا ربا فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم، وكتب لهم هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران، أنه من سار منهم أنه آمن بأمان الله، لا يضرهم أحد من المسلمين، ووفى لهم بما كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر: أما بعد، فمن وقعوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من جريب الأرض فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة، وعقبة لهم فكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم.
أما بعد فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم ; فإنهم أقوام لهم الذمة، وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرا بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التي اعتملوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم. شهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومعيقيب بن أبي فاطمة، فوقع ناس منهم العراق، فنزلوا النجرانية التي بناحية الكوفة.
وما ذكره ابن سعد، عن علي بن محمد المدائني، عن أشياخه في حديث وفد نجران، فهو يوافق ما ذكره ابن إسحاق، فإن قوله أربعة عشر من أشرافهم يوافق قول ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر قال:

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران ستون راكبا فيهم أربعة عشر من أشرافهم في الأربعة عشر ثلاثة نفر، إليهم يئول أمرهم العاقب أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد ثمالهم، وصاحب رحلهم ونجعتهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر بن وائل أسقفهم، وحبرهم، وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه، ومولوه، وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا له الكرامات لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما وجهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجها وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة، فعثرت بغلة أبي حارثة، فقال كرز: تعس الأبعد، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست، فقال، لم يا أخي؟ قال والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره، فقال له كرز: فما منعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا، ومولونا، وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك وهو كان يحدث عنه هذا الحديث فيما بلغني.

قال ابن هشام: وبلغني أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتابا عندهم فكلما مات رئيس منهم فأفضت الرياسة إلى غيره، ختم على تلك الكتب خاتما مع الخواتم التي قبله ولم يكسرها، فخرج الرئيس الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي، فعثر فقال ابنه: تعس الأبعد، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له أبوه: لا تفعل ; فإنه نبي واسمه في الوضائع، يعني الكتب.

فلما مات لم تكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم، فوجد فيها ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، فأسلم فحسن إسلامه، وحج وهو يقول:

إليك تغدو قلقا وضينها ... معترضا في بطنها جنينها

مخالفا لدين النصارى دينها قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جبب، وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب، قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ: ما رأينا بعدهم وفدا مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دعوهم، فصلوا إلى المشرق. قال ابن إسحاق: وكان تسمية الأربعة عشر الذين يئول إليهم أمرهم: العاقب وهو عبد المسيح، والسيد وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأوس، والحارث، وزيد، وقيس، ويزيد، ونبيه، وخويلد، وعمر، وخالد، وعبد الله، ويحنس في ستين راكبا، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، والأيهم السيد، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلافهم من أمرهم يقولون هو الله، ويقولون هو ولد الله، ويقولون هو ثالث ثلاثة، وكذلك قول النصرانية.

فهم يحتجون في قولهم: هو الله، بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طائرا، وذلك كله بأمر الله وليجعله آية الناس.

ويحتجون في قولهم: إنه ولد الله، فإنهم يقولون لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد، وهذا شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم.

ويحتجون في قولهم: ثالث ثلاثة، بقول الله: فعلمنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، فيقولون: لو كان واحدا ما قال إلا فعلت، وقضيت، وأمرت، وخلقت، ولكنه هو عيسى ومريم ففي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن فلما كلمه الحبران، قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسلما، قالا: قد أسلمنا. قال: إنكما لم تسلما فأسلما، قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك. قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولدا، وعبادتكما للصليب، وأكلكما للخنزير، قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما، فلم يجبهما فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلافهم في أمرهم كله صدرا من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية.

وذكر نزول الآيات بسببهم غير واحد مثلما ذكره محمد بن جرير الطبري في تفسيره، قال: حدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا ابن أبي جعفر - يعني - عبد الله بن أبي جعفر الرازي، عن أبيه، «عن الربيع في قوله تعالى: {الم - الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [آل عمران: 1 - 2] . قال: إن النصارى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخاصموه في عيسى ابن مريم، وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان - لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ ، قالوا: نعم. قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ ، قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ ، قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ ، قالوا: بلى. قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما علم؟ ، قالوا: لا. قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟ ، قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما

تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يتغذى الصبي، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ ، قالوا: بلى. قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ . قال: فعرفوا ثم أبوا إلا الجحود فأنزل الله {الم - الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [آل عمران: 1 - 2] » .
وقد ثبت في الصحاح حديث وفد نجران ففي البخاري ومسلم عن حذيفة، وأخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية: {فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم} [آل عمران: 61] .
«دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا، فقال: اللهم هؤلاء أهلي» .
وفي البخاري «عن حذيفة بن اليمان قال جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنما نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا، قال: لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين.
قال فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قم يا أبا عبيدة ابن الجراح، فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أمين هذه الأمة» .
وفي سنن أبي داود وغيره، قال أبو داود: أخبرنا مصرف بن عمرو اليامي، حدثنا يونس يعني ابن بكير، حدثنا أسباط بن نصر الهمداني عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي عن ابن عباس، قال «صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل نجران على ألفي حلة، النصف في صفر، والنصف في رجب، يؤدونها إلى المسلمين ; وعارية ثلاثين درعا، وثلاثين فرسا، وثلاثين بعيرا، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمين كيد ذات غدر، على أن لا يهدم لهم بيعة، ولا يخرج لهم قس، ولا يفتنون عن دينهم ما لم يحدثوا حدثا، أو يأكلوا الربا» .
قال إسماعيل: فقد أكلوا الربا. قال أبو داود: إذا نقضوا بعض ما شرط عليهم فقد أحدثوا.
وما ذكره أبو داود وأهل السير من مصالحته لأهل نجران على الجزية المذكورة معروف عند أهل العلم، وقد ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال ذكره من طريقين:
قال أبو عبيد رحمه الله: حدثنا أبو أيوب الدمشقي، قال: حدثني سعدان بن يحيى، عن عبد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح الهذلي: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل نجران، فكتب لهم كتابا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران، إذ كان له حكمه عليهم أن في كل سوداء وبيضاء وصفراء وحمراء أو ثمرة ورقيق وأفضل عليهم وترك ذلك لهم ألفي حلة، في كل صفر ألف حلة، وفي كل رجب ألف حلة، كل حلة أوقية ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقي فليحسب، وما قضوا من ركاب أو خيل أو دروع أخذ منهم بالحساب، وعلى أهل نجران مقرى رسلي عشرين ليلة فما دونها وعليهم عارية ثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا وثلاثين درعا إذا كان كيد باليمن ذو مغدرة، وما هلك مما أعاروا رسلي فهو ضامن على رسلي حتى يؤدوه إليهم ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم وبيعهم ورهبانهم وأساقفهم وشاهدهم وغائبهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وعلى أن لا يغيروا أسقفا من سقيفاه، ولا واقها من وقيهاه، ولا راهبا من رهابنه، وعلى أن لا يخسروا، ولا يعشروا، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن ملك منهم حقا فالنصف بينهم بنجران، على أن لا يأكلوا الربا، فمن أكل الربا من ذي قبل فذمتي منهم بريئة وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم، شهد عثمان بن عفان ومعيقيب» .
قال أبو عبيد: الواقة ولي العهد في لغة بلحارث بن كعب يقول: إذا مات هذا الأسقف قام الآخر مكانه.
قال أبو عبيد: قال أبو أيوب وحدثني عيسى بن يونس، عن عبد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، وزاد في حديثه قال: «فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوا أبا بكر، فوفى لهم بذلك، وكتب لهم كتابا نحوا من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصابوا الربا في زمانه، فأجلاهم عمر، وكتب لهم: أما بعد فمن وقعوا به من أمراء الشام أو العراق فليوسعهم من جريب الأرض، وما اعتملوا من شيء فهو لهم لوجه الله وعقبى من أرضهم، قال فأتوا العراق فاتخذوا النجرانية. قال أبو عبيد: وهي قرية بالكوفة» .
وكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة: أما بعد، فإن العاقب والأسقف وسراة أهل نجران أتوني بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأروني شرط عمر رضي الله عنه، وقد سألت عثمان بن حنيف فأنبأني أنه قد كان بحث على ذلك، فوجده صار للدهاقين ليردعهم عن أرضهم، وإني قد وضعت عنهم من جزيتهم مائتي حلة لوجه الله وعقبى لهم من أرضهم، وإني أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة.
قال أبو عبيد: وحدثنا عثمان بن صالح، عن عبد الله بن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لأهل نجران: من محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر نحو هذه النسخة، وليس في حديثه قصة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وفي آخره شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نضر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة.

قال أبو عبيد: حدثني سعيد بن عفير، عن يحيى بن أيوب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب، قال: أول من أعطى الجزية أهل نجران وكانوا نصارى.
فإن قيل: قوله تعالى: {قل يأأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا} [آل عمران: 64] .
وقد ثبت في الصحيحين، أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب إلى هرقل مع دحية الكلبي مدة هدنته للمشركين، وكان أبو سفيان إذ ذاك لم يسلم، وقد حضر عند هرقل، وسأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو سفيان أسلم عام الفتح، فدل ذلك على أن هذا الكتاب كان قبل الفتح، ونزول آية الجزية كان بعد الفتح سنة تسع، فدل ذلك على أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية، وقبل آية المباهلة، وآية المباهلة قد علم يقينا أنها نزلت في قصة قدوم وفد نجران والمفسرون وأهل السير ذكروا أن آل عمران نزلت بسبب مناظرة أهل نجران، وقد ذكرناه من نقل أهل الحديث بالإسناد المتصل.
ونقل أهل المغازي والسير أن وفد نجران صالحهم على الجزية وهم أول من أداها، فعلم أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية، وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة، فعلم أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التي هي آية الجزية.
قال الزهري: أهل نجران أول من أدى الجزية.
وقوله تعالى: {تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} [آل عمران: 64] . بعدها آيات نزلت قبل ذلك كقوله: {يأأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون - يأأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون} [آل عمران: 70 - 71] .
فيكون هذا مما تقدم نزوله وتلك مما تأخر نزوله، وجمع بينهما للمناسبة كما في نظائره، فإن الآيات كانت إذا نزلت يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يضعها في مواضع تناسبها، وإن كان ذلك مما تقدم، ومما يبين ذلك أن هذه الآية وهي قوله تعالى {قل يأأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} [آل عمران: 64] لفظها يعم اليهود والنصارى. وكذلك ذكر أهل العلم أنها دعاء لطائفتين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بها اليهود، فدل ذلك على أن نزولها متقدم، فإن دعاءه لليهود كان قبل نزول آية الجزية، ولهذا لم يضرب الجزية على أهل خيبر وغيرهم من يهود الحجاز، ولكن لما بعث معاذا إلى اليمن وكان كثيرا من أهلها يهود أمره أن يأخذ من كل حالم دينارا أو عدله معافرا، وهذا كان متأخرا بعد غزوة تبوك، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ باليمن، قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد، حدثنا الضحاك بن عبد الرحمن بن أبي حوشب وغيره، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أليون طاغية الروم، قال: فيما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم: {قل يأأهل الكتاب} [آل عمران: 64] يعني اليهود والنصارى {تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} [آل عمران: 64] .
وروي بإسناده عن ابن جريج في قوله تعالى: {تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} [آل عمران: 64] .
قال: بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا يهود أهل الكتاب فأبوا عليه فجاهدهم، وكذلك سائر الآيات التي فيها خطاب للطائفتين كقوله تعالى: {يأأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون - ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون - ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين} [آل عمران: 65 - 67] .
ومما ينبغي أن يعلم، أن أهل نجران كان منهم نصارى أهل ذمة وكان منهم مسلمون - وهم الأكثرون - والنبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة لهؤلاء وهؤلاء، واستعمل عمرو بن حزم على هؤلاء وهؤلاء، كما أخرجا في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل أمة أمينا، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح» .
وعن أنس أيضا: أن أهل اليمن قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا ابعث معنا رجلا أمينا، يعلمنا السنة والإسلام، فأخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح، فقال: هذا أمين هذه الأمة.
وفي الصحيحين: عن حذيفة بن اليمان، قال: «جاء أهل نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله ابعث إلينا رجلا أمينا، فقال: لأبعثن إليكم رجلا أمينا حق أمين حق أمين» .
قال: فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح.
وللبخاري عن حذيفة قال: «جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أمينا، فقال: لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين، فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أمين هذه الأمة» .

وكذلك استعمل النبي صلى الله عليه وسلم عليهم عمرو بن حزم، وكتب له الكتاب المشهور الذي فيه الفرائض والسنن، وقد رواه النسائي بطوله، وروى الناس بعضه مفرقا.
ومحمد بن سعد لم يذكر بعد وفد نجران إلا وفد جيشان، فدل على أن قدومهم كان متأخرا، ومحمد بن إسحاق ذكر قدومهم في أوائل السيرة مع قصة اليهود ; ليجمع بين خبر اليهود والنصارى، وذكر في سنة عشر فتح نجران، وإرسال النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، وإرسال خالد ذكروا أنه كان متأخرا قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بأربعة أشهر، وأنه قدم وفد منهم بالإسلام، وهذا إنما كان بعد قدوم وفد النصارى ; فإنه قد ذكر ابن سعد أن العاقب والسيد أسلما بعد ذلك، والعهد بالجزية إنما كان مع النصارى، وآية الجزية هي قوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: 29] .
وهذه آية السيف مع أهل الكتاب، وقد ذكر فيها قتالهم إذا لم يؤمنوا حتى يعطوا الجزية، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذ من أحد الجزية إلا بعد هذه الآية، بل وقالوا: إن أهل نجران أول من أخذت منهم الجزية، كما ذكر ذلك أهل العلم كالزهري وغيره، فإنه باتفاق أهل العلم لم يضرب النبي صلى الله عليه وسلم على أحد قبل نزول هذه الآية جزية لا من الأميين ولا من أهل الكتاب، ولهذا لم يضربها على يهود قينقاع والنضير وقريظة ولا ضربها على أهل خيبر ; فإنها فتحت سنة سبع قبل نزول آية الجزية، وأقرهم فلاحين، وهادنهم هدنة مطلقة قال فيها: نقركم ما أقركم الله.
فإذا كان أول ما أخذها من وفد نجران علم أن قدومهم عليه ومناظرته لهم ومحاجته إياهم، وطلبه المباهلة معهم كانت بعد آية السيف التي فيها قتالهم.
وعلم بذلك أن ما ذكره الله تعالى من مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا، محكم لم ينسخه شيء، وكذلك ما ذكره تعالى من مجادلة الخلق مطلقا بقوله: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} [النحل: 125] .
فإن من الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف ; لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة وهذا غلط، فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضا للحكم المنسوخ، كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام، ومناقضة الأمر بصيام رمضان للمقيم للتخيير بين الصيام وبين إطعام كل يوم مسكينا، ومناقضة نهيه عن تعدي الحدود التي فرضها للورثة للأمر بالوصية للوالدين والأقربين، ومناقضة قوله لهم كفوا أيديكم عن القتال لقوله: قاتلوهم كما قال تعالى: {ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية} [النساء: 77] .
فأمره لهم بالقتال ناسخ لأمره لهم بكف أيديهم عنهم، فأما قوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} [النحل: 125] .
وقوله: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم} [العنكبوت: 46] .
فهذا لا يناقضه الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم، ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه والاقتصار على المجادلة.

[وجوه الجمع بين مجادلة أهل الكتاب وقتالهم]
فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به، فلا منافاة بينهما، وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ، ومعلوم أن كلا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر، وأن استعمالهما جميعا أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق، ومما يبين ذلك وجوه:
أحدها: أن من كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا يجاهد بالقتال، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن، وليس هو داخلا فيمن أمر الله بقتاله.
الثاني: أنه قال: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا} [العنكبوت: 46] .
فالظالم لم يؤمر بجداله بالتي هي أحسن، فمن كان ظالما مستحقا للقتال غير طالب للعلم والدين فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يجادلون بالتي هي أحسن، بخلاف من طلب العلم والدين، ولم يظهر منه ظلم، سواء كان قصده الاسترشاد، أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظنه حقا، ومن كان قصده العناد يعلم أنه على باطل ويجادل عليه فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتي هي أحسن، لكن قد نجادله بطرق أخرى نبين فيها عناده وظلمه وجهله جزاء له بموجب عمله.
الثالث: أنه سبحانه قال: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه} [التوبة: 6] .

فهذا مستجير مستأمن وهو من أهل الحرب أمر الله بإجارته حتى تقوم حجة الله عليه، ثم يبلغه مأمنه، وهذا في سورة (براءة) التي فيها نقض العهود، وفيها آية السيف، وذكر هذه الآية في ضمن الأمر بنقض العهود ; ليبين سبحانه أنه مثل هذا يجب أمانه ; حتى تقوم عليه الحجة، لا تجوز محاربته كمحاربة من لم يطلب أن يبلغ حجة الله عليه.
قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {ثم أبلغه مأمنه} [التوبة: 6] إن لم يوافقه ما نقص عليه ونخبر به فأبلغه مأمنه، قال: وليس هذا بمنسوخ.
وقال مجاهد: من جاءك واستمع ما أنزل إليك فهو آمن حتى يأتيك.
وقال عطاء في الرجل من أهل الشرك يأتي المسلمين بغير عهد، قال: تخيره إما أن تقره، وإما أن تبلغه مأمنه.
وقوله تعالى: {فأجره حتى يسمع كلام الله} [التوبة: 6] .
قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعا يتمكن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى، فلو كان غير عربي وجب أن يترجم له ما يقوم به عليه الحجة - ولو كان عربيا - وفي القرآن ألفاظ غريبة ليست لغته، وجب أن يبين له معناها، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس، ولم يفقه المعنى وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه، فعلينا ذلك.
وإن سألنا عن سؤال يقدح في القرآن أجبناه عنه، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالا يوردونه على القرآن، فإنه كان يجيبه عنه كما أجاب ابن الزبعري لما قاس المسيح على آلهة المشركين، وظن أن العلة في الأصل بمجرد كونهم معبودين، وأن ذلك يقتضي كل معبود غير الله، فإنه يعذب في الآخرة، فجعل المسيح مثلا لآلهة المشركين قاسهم عليه قياس الفرع على الأصل.
قال تعالى: {ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون - وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون} [الزخرف: 57 - 58] .
فبين سبحانه الفرق المانع من الإلحاق بقوله تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} [الأنبياء: 101] .
وبين أن هؤلاء القائسين ما قاسوه إلا جدلا محضا لا يوجب علما ; لأن الفرق حاصل بين الفرع والأصل، فإن الأصنام إذا جعلوا حصبا لجهنم كان ذلك إهانة وخزيا لعابديها من غير تعذيب من لا يستحق التعذيب، بخلاف ما إذا عذب عباد الله الصالحون بذنب غيرهم، فإن هذا لا يفعله الله تعالى، لا سيما عند جماهير المسلمين وسائر أهل الملل سلفهم وخلفهم الذين يقولون إن الله لا يخلق ويأمر إلا لحكمة، ولا يظلم أحدا فينقصه شيئا من حسناته، ولا يحمل عليه سيئات غيره، بل ولا يعذب أحدا إلا بعد إرسال رسول إليه، كما قال تعالى: {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما} [طه: 112] .
وقال تعالى: {فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا} [الجن: 13] .
وقال تعالى: {هل تجزون إلا ما كنتم تعملون} [النمل: 90] .
وقال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: 15] .
ومن قال من المسلمين وغيرهم من أهل الملل: إنه يجوز منه تعالى فعل كل شيء، وأن الظلم هو الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، فهؤلاء يقولون: إنما يعلم ما يفعله وما لا يفعله بدلالة خبر الصادق أو بالعادة، وإن كان الجمهور يستدلون بخبر الصادق وبغيره على ما يمتنع من الله.
وقد أخبر الله تعالى أن عباده الصالحين في الجنة، لا يعذبهم في النار، بل يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، فضلا أن يعاقبهم بذنب غيرهم مع كراهية لفعلهم، ونهيهم عن ذلك، ومن زعم أن لفظ (ما) كانت تتناول المسيح وأخر بيان العام أو أجاب بأن لفظ (ما) لا يتناول إلا ما لا يعقل، فالقولان ضعيفان كما قد بسط في موضعه.
وإنما المشركون عارضوا النص الصحيح بقياس فاسد، فبين الله تعالى فساد القياس وذكر الفرق بين الأصل والفرع.
وكذلك لما أورد بعض النصارى على قوله تعالى: {يأأخت هارون} [مريم: 28] ظنا منه أن هارون هذا هو هارون أخو موسى بن عمران، وأن عمران هذا هو عمران أبو مريم أم المسيح، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، أجاب بأن هارون هذا ليس هو ذاك، ولكنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين.
وبعض جهال النصارى يقدح في القرآن بمثل هذا ولا يعلم هذا المفرط في جهله أن آحاد الناس يعلمون أن بين موسى وعيسى مدة طويلة جدا يمتنع معها أن يكون موسى وهارون خالي المسيح، وأن هذا مما لا يخفى على أقل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، فضلا عن أن يخفى على محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا السؤال مما أورده أهل نجران، كما ثبت «عن المغيرة بن شعبة، قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا: ألستم تقرءون {يأأخت هارون} [مريم: 28] ، وقد علمتم ما بين موسى وعيسى، فلم أدر ما أجيبهم، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فقال: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم؟» .
وهذا السؤال الذي هو سؤال الطاعن في القرآن لما أورده أهل نجران الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم عنه أجاب عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يقل لهم: ليس لكم عندي إلا السيف، ولا قال: قد نقضتم العهد إن كانوا قد عاهدوه، وقد عرف أن أهل نجران لم يرسل إليهم رسولا إلا والجهاد مأمور به.
وكان المسلمون يوردون الأسئلة عليه، كما أورد عليه عمر عام الحديبية، لما صالح المشركين ولم يدخل مكة فقال له: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به، قال: بلى، أفقلت لك أنك تأتيه في هذا العام؟ ، قال: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به.
وكذلك أجابه أبو بكر ولم يكن سمع جواب النبي صلى الله عليه وسلم له، معلوم أنه ليس في ظاهر اللفظ توقيت ذلك بعام، ولكن السائل ظن ما لا يدل اللفظ عليه.
وكذلك لما قال: من نوقش الحساب عذب، «قالت له عائشة: ألم يقل الله: {فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا} [الانشقاق: 7] .
فقال: ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عذب» .
ومعلوم أن الحساب اليسير لا يتناول من نوقش، وقد زادها بيانا، فأخبر أنه العرض لا المقابلة المتضمنة للمناقشة.
وكذلك لما قال: «إنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، قالت له حفصة: ألم يقل الله: {وإن منكم إلا واردها} [مريم: 71] .
فأجابها بأنه قال: {ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا} [مريم: 72] » .
فبين صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء هم الذين يدخلون جهنم، وهذا الدخول هو الذي نفاه عن أهل الحديبية، وأما الورود فهو مرور الناس على الصراط، كما فسره في الحديث الصحيح: حديث جابر بن عبد الله، وهذا المرور لا يطلق عليه اسم الدخول الذي يجزي به العصاة، وينفي عن المتقين، ومثل هذا كثير.
وأما ما في القرآن من ذكر أقوال الكفار وحججهم وجوابها، فهذا كثير جدا، فإنه يجادلهم تارة في التوحيد، وتارة في النبوات، وتارة في المعاد، وتارة في الشرائع بأحسن الحجج وأكملها، كما قال تعالى: {وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا - ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا} [الفرقان: 32 - 33] .
وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن أولي العزم من الرسل بمجادلة الكفار فقال تعالى: {قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا} [هود: 32] .
وقال عن الخليل: {وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني} [الأنعام: 80] . إلى قوله: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء} [الأنعام: 83] .
وأمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بالمجادلة بالتي هي أحسن، وذم سبحانه من جادل بغير علم، أو في الحق بعدما تبين، ومن جادل بالباطل: {ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون} [آل عمران: 66] .
وقال تعالى: {يجادلونك في الحق بعدما تبين} [الأنفال: 6] .
وقال تعالى: {وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب} [غافر: 5] .
وهذا هو الجدال المذكور في قوله: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا} [غافر: 4] .
وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحاج الكفار بعد نزول الأمر بالقتال، وقد أمره الله تعالى أن يجير المستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه مأمنه، والمراد بذلك: تبليغ رسالات الله، وإقامة الحجة عليه، وذلك قد لا يتم إلا بتفسيره له الذي تقوم به الحجة، ويجاب به عن المعارضة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.
علم بطلان قول من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ الأمر بالمجادلة مطلقا.
الوجه الرابع: إن القائل إذا قال: إن آية مجادلة الكفار - أو غيرها مما يدعي نسخه - منسوخة بآية السيف قيل له: ما تعني بآية السيف؟ أتعني آية بعينها، أم تعني كل آية فيها الأمر بالجهاد؟
فإن أراد الأول، كان جوابه من وجهين:
أحدهما: أن الآيات التي فيها ذكر الجهاد متعددة، فلا يجوز تخصيص بعضها.
وإن قال: أريد قوله تعالى: {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} [التوبة: 5] .
قيل له: هذه في قتال المشركين وقد قال بعدها في قتال أهل الكتاب:

{قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: 29] .
فلو لم تكن آية السيف إلا واحدة لم تكن هذه أولى من هذه، وإن قال: كل آية فيها ذكر الجهاد.
قيل له الجهاد شرع على مراتب، فأول ما أنزل الله تعالى فيه الإذن بقوله: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير} [الحج: 39] .
فقد ذكر غير واحد من العلماء أن هذه أول آية نزلت في الجهاد، ثم بعد ذلك نزل وجوبه بقوله: {كتب عليكم القتال} [البقرة: 216] .
ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم، بل قال: {فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا - إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق - أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم - ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا} [النساء: 89 - 90] .
وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله، وإن كانت الهدنة عقدا جائزا غير لازم.
ثم أنزل في (براءة) الأمر بنبذ العهود، وأمرهم بقتال المشركين كافة، وأمرهم بقتال أهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ولم يبح لهم ترك قتالهم وإن سالموهم وهادنوهم هدنة مطلقة مع إمكان جهادهم.
فإن قال: آية السيف التي نسخت المجادلة هي آية الإذن. قيل: فآية الإذن نزلت في أول مقدمه المدينة قبل أن يبعث شيئا من السرايا، وقد جادل بعد هذا الكفار.
وكذلك إن قيل: آيات فرض القتال. قيل: فقوله {كتب عليكم القتال} [البقرة: 216] . نزلت في أول الأمر قبل بدر، ولا ريب أن الجهاد كان واجبا يوم أحد
والخندق وفتح خيبر ومكة، وقد ذكر الله آيات فرض الجهاد في هؤلاء المغازي كما ذكر ذلك في سورة آل عمران والأحزاب.
وإن قيل: بل الجدال إنما نسخ لما أمر بجهاد من سالم ومن لم يسالم، قيل: هذا باطل، فإن الجدال إن كان منافيا للجهاد، فهو مناف لإباحته ولإيجابه ولو للمسالم، وإن لم يناف الجهاد لم يناف إيجاب الجهاد للمسالمين، كما لم يناف إيجاب جهاد غيرهم.
فإن المسالم قد لا يجادل ولا يجالد، وقد يجادل ولا يجالد، كما أن غيره قد يجالد ويجادل وقد يفعل أحدهما.
فإن كان إيجابه لجهاد المحارب المبتدئ بالقتال لا ينافي مجادلته، فلأن يكون جهاد من لا يبدأ القتال لا ينافي مجادلته أولى وأحرى، فإن من كان أبعد عن القتال كانت مجادلته أقل منافاة للقتال ممن يكون أعظم قتالا. يبين هذا:
الوجه الخامس: وهو أن يقال: المنسوخ هو الاقتصار على الجدال، فكان النبي صلى الله عليه وسلم في أول الأمر مأمورا أن يجاهد الكفار بلسانه لا بيده، فيدعوهم ويعظهم ويجادلهم بالتي هي أحسن ويجاهدهم بالقرآن جهادا كبيرا، قال تعالى في سورة الفرقان وهي مكية: {ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا - فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا} [الفرقان: 51 - 52] .
وكان مأمورا بالكف عن قتالهم لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك، ثم لما هاجر إلى المدينة وصار له بها أعوان أذن له في الجهاد، ثم لما قووا كتب عليهم القتال ولم يكتب عليهم قتال من سالمهم؛ لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار.
فلما فتح الله مكة وانقطع قتال قريش ملوك العرب، ووفدت إليه وفود العرب بالإسلام أمره الله تعالى بقتال الكفار كلهم إلا من كان له عهد مؤقت، وأمره بنبذ العهود المطلقة، فكان الذي رفعه ونسخه ترك القتال.
وأما مجاهدة الكفار باللسان، فما زال مشروعا من أول الأمر إلى آخره، فإنه إذا شرع جهادهم باليد، فباللسان أولى، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم» .
وكان ينصب لحسان منبرا في مسجده يجاهد فيه المشركين بلسانه جهاد هجو، وهذا كان بعد نزول آيات القتال، وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام، وإبطال حجج الكفار من المشركين وأهل الكتاب؟
الوجه السادس: أنه من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة، ولو أن الناس آمنوا بالبرهان والآيات لما احتيج إلى القتال، فبيان آيات الإسلام وبراهينه واجب مطلقا وجوبا أصليا.
وأما الجهاد: فمشروع للضرورة، فكيف يكون هذا مانعا من ذلك؟
فإن قيل: الإسلام قد ظهرت أعلامه وآياته فلم يبق حاجة إلى إظهار آياته، وإنما يحتاج إلى السيف. قيل: معلوم أن الله وعد بإظهاره على الدين كله ظهور علم وبيان وظهور سيف وسنان، فقال تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} [التوبة: 33] .
وقد فسر العلماء ظهوره بهذا وهذا، ولفظ الظهور يتناولهما، فإن ظهور الهدى بالعلم والبيان، وظهور الدين باليد والعمل، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ; ليظهره على الدين كله.

ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال ; فإن النبي صلى الله عليه وسلم مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين، فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعا واختيارا بغير سيف لما بان لهم من الآيات البينات والبراهين والمعجزات، ثم أظهره بالسيف، فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداء ودفعا، فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداء ودفعا لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى.

فإن وجوب هذا قبل وجوب ذاك ومنفعته قبل منفعته، ومعلوم أنه يحتاج كل وقت إلى السيف، فكذلك هو محتاج إلى العلم والبيان، وإظهاره بالعلم والبيان من جنس إظهاره بالسيف وهو ظهور مجمل علا به على كل دين مع أن كثيرا من الكفار لم يقهره سيفه فكذلك كثير من الناس لم يظهر لهم آياته وبراهينه، بل قد يقدحون فيه ويقيمون الحجج على بطلانه، لا سيما والمقهور بالسيف فيهم منافقون كثيرون، فهؤلاء جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان، يؤكد هذا:

الوجه السابع: وهو أن القتال لا يكون إلا لظالم، فإن من قاتل المسلمين لم يكن إلا ظالما معتديا، ومن قامت عليه الحجة فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، واتبع غير سبيل المؤمنين لم يكن إلا ظالما.

وأما المجادلة فقد تكون لظالم: إما طاعن في الدين بالظلم، وإما من قامت عليه الحجة الظاهرة فامتنع من قبولها، وقد تكون لمسترشد طالب حق لم يبلغه.

وإما من بلغه بعض أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته، ولكن عورض ذلك عنده بشبهات تنافي ذلك، فاحتاج إلى جواب تلك المعارضات.

وإما طالب لمعرفة دلائل النبوة على الوجه الذي يعلم به ذلك.

فإذا كان القتال الذي لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعا.

فالمجادلة التي تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه وانتفاع غيره مشروعة بطريق الأولى.

قال مجاهد: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم} [العنكبوت: 46] . قال: الذين ظلموا من قاتلك ولم يعطك الجزية. وفي لفظ آخر عنه قال: الذين ظلموا: منهم أهل الحرب من لا عهد لهم؛ المجادلة لهم بالسيف. وفي رواية عنه قال: لا تقاتل إلا من قاتلك ولم يعطك الجزية. وفي رواية عنه قال: من أدى منهم الجزية فلا تقولوا له إلا خيرا. وعن مجاهد: إلا بالتي هي أحسن، فإن قالوا شرا فقولوا خيرا، فهذا مجاهد لا يجعلها منسوخة وهي قول أكثر المفسرين.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} [العنكبوت: 46] ، قال: ليست منسوخة، ولكن عن قتادة قال: نسختها {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} [التوبة: 5] ، ولا مجادلة أشد من السيف.

والأول أصح ; لأن هؤلاء من الذين ظلموا فلا نسخ.

ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناء على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد في أصول الدين على نظرهم ومناظرتهم ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالا وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جوابا في المسائل الظنية، بل هي إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين.

وهم كما مثلهم الغزالي وغيره بمن يضرب شجرة ضربا يزلزلها به، وهو يزعم أنه يريد أن يثبتها، وكثير من أئمة هؤلاء مضطرب في الإيمان بالنبوة اضطرابا ليس هذا موضع بسطه، وهم مع ذلك يدعون أنه قد ظهر عند أهل الكتاب ما لم يظهر عند شيوخ هؤلاء النظار وينهون عن إظهار آيات الله وبراهينه التي هي غاية مطالب مشايخهم وهم لم يعطوها حقها إما عجزا وإما تفريطا.

الوجه الثامن: أن كثيرا من أهل الكتاب يزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات، فإذا طلبوا العلم والمناظرة، فقيل: لهم ليس لكم جواب إلا السيف، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام، وأنه ليس دين رسول من عند الله، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف.

الوجه التاسع: أنه من المعلوم أن السيف لا سيما سيف المسلمين وأهل الكتاب هو تابع للعلم والحجة، بل وسيف المشركين هو تابع لآرائهم واعتقادهم، والسيف من جنس العمل، والعمل - أبدا - تابع للعلم والرأي.

وحينئذ فبيان دين الإسلام بالعلم وبيان أن ما خالفه ضلال وجهل هو تثبيت لأصل دين الإسلام، واجتثاث لأصل غيره من الأديان التي يقاتل عليها أهلها، ومتى ظهر صحته وفساد غيره كان الناس أحد رجلين:

إما رجل تبين له الحق فاتبعه، فهذا هو المقصود الأعظم من إرسال الرسل، وإما رجل لم يتبعه، فهذا قامت عليه الحجة، إما لكونه لم ينظر في أعلام الإسلام، أو نظر وعلم فاتبع هواه أو قصر.

وإذا قامت عليه الحجة كان أرضى لله ولرسوله وأنصر لسيف الإسلام وأذل لسيف الكفار، وإذا قدر أن فيهم من يعجز عن فهم الحجة، فهذا إذا لم يكن معذورا مع عدم قيامها، فهو مع قيامها أولى أن لا يعذر، وإن كان معذورا مع قيامها فهو مع عدمها أعذر، فعلى التقديرين قيام الحجة أنصر وأعذر، وقد قال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: 15] .
وقال تعالى: {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: 165] .
وقال تعالى: {فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا} [المرسلات: 5] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين» .
[فصل: من أدلة عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم] [إسلام النجاشي]
وكان قبل قصة نجران قد آمن به كثير من اليهود والنصارى رؤساؤهم وغير رؤسائهم لما تبين لهم أنه رسول الله إليهم، كما آمن به النجاشي ملك الحبشة، وكان نصرانيا هو وقومه، وكان إيمانه به في أول أمر النبي صلى الله عليه وسلم لما كان أصحابه مستضعفين بمكة، وكان الكفار يظلمونهم ويؤذونهم ويعاقبونهم على الإيمان بالله ورسوله، فهاجر منهم طائفة مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم من الرجال والنساء إليه، وكان ملكا عادلا، فأرسل الكفار خلفهم رسلا بهدايا ليردهم إليهم، فامتنع من عدله أن يسلمهم إليهم حتى يسمع كلامهم، فلما سمع كلامهم وما أخبروه به من أمر النبي صلى الله عليه وسلم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وآواهم.
ولما سمع القرآن قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، ولما سألهم عن قولهم في المسيح عليه السلام قالوا: نشهد أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول التي لم يمسها رجل، فقال النجاشي لجعفر بن أبي طالب: والله ما زاد عيسى ابن مريم على ما قلت هذا العود، فنخرت أصحابه، فقال: وإن نخرتم، وإن نخرتم، وبعث ابنه وطائفة من أصحابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع جعفر بن أبي طالب، وقدم جعفر على النبي صلى الله عليه وسلم عام خيبر، وقد ذكر قصتهم جماعة من العلماء والحفاظ كأحمد بن حنبل في المسند وابن سعد في الطبقات وأبي نعيم في الحلية وغيرهم، وذكرها أهل التفسير والحديث والفقه وهي متواترة عند العلماء.
قال أحمد: حدثني يعقوب بن إبراهيم بن سعيد، عن أبيه، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار (النجاشي) أمنا على ديننا، وعبدنا الله، لا نؤذى، ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، ثم اسألوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا، فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلا بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.
قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامنا.
فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، قومهم أعلا بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي، ثم قال لا ها الله أيم الله إذا لا أسلمهم إليهما، ولا أكاد قوما جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني.
قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم، كائن في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوه زاد أبو نعيم وقد دعى النجاشي أساقفته ومعهم مصاحفهم حوله، فلما جاءوه فسألهم، فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، نخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، قال: فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.
قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟
قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه علي. فقرأ عليه صدرا من سورة مريم: {كهيعص - ذكر رحمة ربك عبده زكريا - إذ نادى ربه نداء خفيا - قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا - وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا - يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا - يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا - قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا - قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا - قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا - فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا - يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا - وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا - وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا - وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا - واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا - فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا - قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا - قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا - قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا - قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا - فحملته فانتبذت به مكانا قصيا - فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا - فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا - وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا - فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا - فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا - ياأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا - فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا - قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا - وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا - وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا - والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا - ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون - ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون - وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم - فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم - أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين - وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون - إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون} [مريم: 1 - 40]
قالت أم سلمة رضي الله عنها، فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، ثم قال لعبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص: انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا ولا أكاد.
قالت أم سلمة: فلما خرج من عنده قال: عمرو بن العاص والله لآتينه غدا أعيبهم عنده، ثم أستأصل به خضراءهم.
قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان أتقى الرجلين فينا - لا تفعل ; فإن لهم أرحاما، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد.
قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه.
قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه.
قالت: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قاله الله، وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم، فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.
قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا، ثم قال: ما عدى عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي - والسيوم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم من سبكم

غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبرا ذهبا وأني آذيت رجلا منكم - والدبر بلسان الحبشة: الجبل - ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.
قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردود عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.
قالت: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به. يعني: من ينازعه في ملكه.
قالت: فوالله ما علمنا حزنا قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفنا أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه.
وروى عبد الله بن عامر بن الزبير، عن أبيه، قال: لما نزل بالنجاشي عدوه من أرضه جاء المهاجرون، فقالوا: إنا نحن نخرج إليهم، فنقاتل معك، وترى جزاءنا، ونجزيك بما صنعت بنا، فقال: ذو ينصره الله خير من الذي ينصره الناس، يقول: الذي ينصره الله خير من الذي ينصره الناس، فأبى ذلك عليهم.
(رجعنا إلى) حديث أم سلمة قالت: وسار النجاشي وبينهما عرض النيل قالت: فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟
قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا.
قالت: وكان من أحدث القوم سنا، قالت: فنفخنا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم.
قالت: ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده.
قالت: فوالله إنا لعلى ذلك متوقعين لما هو كائن إذ طلع الزبير يسعى ويلوح بثوبه ويقول: ألا أبشروا، قد ظهر النجاشي، وقد أهلك الله عدوه.
فوالله ما علمت فرحنا فرحة مثلها قط.
قالت: فرجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وقد روى جمل هذه القصة أبو داود في سننه من حديث أبي موسى.
وفي الصحيحين من حديث أبي موسى، قال: بلغنا مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهما في اثنين وخمسين رجلا من قومي، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، قال جعفر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا وأمرنا - يعني بالإقامة - فأقيموا معنا.
قال: فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا. قال: فوافقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح خيبر فأسهم لنا منها، وما قسم لأحد غائب عن فتح خيبر غيرنا إلا لمن شهد معنا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم.
قال: فلما رأى ناس من الناس يقولون لنا - يعني أهل السفينة - سبقناكم لهجرة، قال: ودخلت أسماء بنت عميس - وهي ممن قدم معنا - على حفصة زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، فقال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، فقال عمر: سبقناكم بالهجرة، نحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فغضبت وقالت: يا عمر كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله تبارك وتعالى وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك.
فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: يا رسول الله إن عمر قال كذا وكذا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فماذا قلت له؟ قالت: قلت كذا وكذا، قال: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» .
قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالا يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني أخرجاه في الصحيحين البخاري ومسلم.
وأخرجا في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى لهم النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه،
قال: استغفروا لأخيكم.

وعنه رضي الله عنه، قال: «نعى النبي صلى الله عليه وسلم النجاشي يوم توفي، وقال: استغفروا لأخيكم، ثم خرج بالناس إلى المصلى، فصفوا وراءه، وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات» . أخرجاه.
وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على أصحمة النجاشي فكبر عليه أربعا» . أخرجاه في الصحيحين.

[إسلام من أسلم من نصارى العرب]

فصل

«وكان أول ما أنزل الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم الوحي، عرضت خديجة امرأته أمره على عالم كبير من علماء النصارى يقال له ورقة بن نوفل، وكان من العرب المتنصرة، فقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى بن عمران، يا ليتني أكون فيها جذعا حين يخرجك قومك. يعني: ليتني أكون شابا فإنه كان شيخا كبيرا، قد كف بصره، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أومخرجي هم قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا» . رواه أصحاب الصحيح.
وقدم إليه بمكة طائفة من أهل الكتاب من النصارى، فآمنوا به، فآذاهم المشركون، فصبروا واحتملوا أذاهم، فأنزل الله فيهم: {الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون - وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون - وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين} [القصص: 52 - 55] .
وروى البيهقي في كتاب دلائل النبوة وأعلام الرسالة، فقال: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا، أبو العباس محمد بن يعقوب أنبأنا أحمد بن عبد الجبار أنبأنا يونس عن ابن إسحاق، قال: ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا - وهو بمكة أو قريب من ذلك - من النصارى حين ظهر خبره في الحبشة فوجدوه في المجلس فكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له، وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا: خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركبا أحمق منكم. أو كما قال لهم، فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألوا لأنفسنا إلا خيرا، ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات: {الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون} [القصص: 52] إلى قوله: {لا نبتغي الجاهلين} [القصص: 55] .

[إرسال الرسل إلى جميع الطوائف الموجودة في عهده]

ولما كان بعد عام الحديبية ومهادنة قريش أرسل صلى الله عليه وسلم رسله إلى جميع الطوائف، فأرسل إلى النصارى: نصارى الشام ومصر، فأرسل إلى هرقل ملك الروم، وقد قيل إن هرقل هذا هو الذي زادت النصارى له في صومهم عشرة أيام لما اقتتلت الروم والفرس، وقتل اليهود بعد أن كان قد أمنهم، فطلبت منه النصارى قتلهم وضمنوا له أن يكفروا خطيئته بما زادوه في الصوم، وكانت الفرس مجوسا، والروم نصارى، وكانت المجوس الفرس غلبت النصارى أولا وكان هذا في أوائل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة وأتباعه قليل، ففرح المشركون بانتصار الفرس ; لأنهم أقرب إليهم، فدخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبره بانتصار الفرس على الروم، فأنزل الله تعالى: {الم - غلبت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون - بنصر الله} [الروم: 1 - 5] .
وكان هذا مما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون، فكان كما أخبر، ولما ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه كذبوه فراهنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه كما ذكر هذا المفسرون والمحدثون قال سنيد في تفسيره - وهو شيخ البخاري - حدثنا حجاج عن ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مكرم الأسلمي، أنه قال: لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم {الم - غلبت الروم} [الروم: 1 - 2] إلى قوله {وهو العزيز الرحيم} [الروم: 5] خرج أبو بكر وهو يقرؤها بمكة رافعا بها صوته: {الم - غلبت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين} [الروم: 1 - 3] .
فقال له رءوس أهل مكة: ما هذا يا ابن أبي قحافة لعله مما يأتي به صاحبك، قال: لا والله، ولكنه كلام الله وقوله تبارك وتعالى، قالوا: فذلك بيننا وبينك إن ظهرت الروم على فارس في بضع سنين، فراهنهم أبو بكر، ففتح الله للروم على فارس دون التسع فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين.

قال ابن مكرم: وإنما كانت قريش تستفتح يومئذ بالفرس ; لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث وأهل أصنام، وإنما كان المؤمنون يستفتحون يومئذ بالروم ; لأنهم وإياهم أهل نبوة وتصديق بالبعث فأنزل الله تعالى: {ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء} [الروم: 4] .
وهذا الحديث رواه الترمذي في جامعه فقال: حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا إسماعيل بن أويس، قال: حدثني ابن أبي الزناد، عن أبي الزناد، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مكرم الأسلمي، قال: لما نزلت: {الم - غلبت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - في بضع سنين} [الروم: 1 - 4] . فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب.
وذلك قوله تعالى: {ويومئذ يفرح المؤمنون - بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم} [الروم: 4 - 5] .
وكانت قريش تحب ظهور فارس ; لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة: {الم - غلبت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد} [الروم: 1 - 4] .
قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ فارتهن أبو بكر والمشركون، فظهرت الروم على فارس في بضع سنين، وأسلم عند ذلك ناس كثير من المشركين.
قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد - يعني غريبا من هذا الوجه - وإلا فهو مشهور متواتر عن أهل التفسير والمغازي والحديث والفقه، والقصة متواترة عند الناس.
وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيره: عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم على فارس ; لأنهم أهل كتاب وكان المشركون يحبون أن تغلب أهل فارس ; لأنهم أهل أوثان، قال فذكروا ذلك لأبي بكر فذكره أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله: {الم - غلبت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون} [الروم: 1 - 4] .
فذكره أبو بكر للمشركين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلا، فإن غلبوا كان لك كذا وكذا، وإن غلبوا كان لنا كذا وكذا، فجعلوا بينهم أجلا خمس سنين، «فذكر ذلك أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له: هلا احتطت، أفلا جعلته دون العشرة؟» قال سعيد بن جبير: والبضع: ما دون العشر. قال فغلبت الروم، ثم غلبت فذلك قوله {الم - غلبت الروم} [الروم: 1 - 2] .
وهذا أيضا أخرجه الترمذي: حدثنا الحسين بن حريث، حدثنا معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق الفزاري عن سفيان عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة.
ورواه أيضا من حديث الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه.
ورواه أيضا من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر، وذهب آخرون أنه يوم الحديبية، وهذا هو الصحيح، وهرقل كان قد مشى شكرا لله من حمص إلى بيت المقدس لما نصره على الفرس، فوافاه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام عقب نصر الله للروم على فارس، ففرح النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين.
قال علماء السير: فلما انتصرت الروم، وخرج هرقل ملك الروم من منزله من حمص ماشيا على قدميه إلى بيت المقدس متشكرا لله عز وجل حين رد عليه ما رد ليصلي فيه، فلما انتهى إلى بيت المقدس وصلى فيه قدم عليه حينئذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية الكلبي يدعوه إلى الإسلام.
قال ابن إسحاق: حدثني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن عباس، قال: حدثني أبو سفيان، قال: كنا قوما تجارا، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى هلكت أموالنا، فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني التي عقدت يوم الحديبية - فلما عقدت الهدنة أمنا، فخرجت في نفر من قريش تاجرا إلى الشام، وكان وجه متجرنا فقدمتها حين ظهر هرقل على من كان عارضه من فارس، فأخرجهم منها، وانتزع له صليبه الأعظم، وقد كانوا سلبوه إياه، فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له، وكانت حمص منزله فخرج منها على قدميه متشكرا لله عز وجل حين رد عليه ما رد ; ليصلي في بيت المقدس، وبسط له الطريق بالبسط ويلقى عليها الرياحين، فلما انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته وأساقفته، قال: وقدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية بن خليفة الكلبي فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» يعني الأكارين.

قال ابن إسحاق، وقال ابن شهاب: حدثني أسقف النصارى في زمان عبد الملك بن مروان، زعم لي أنه أدرك ذلك من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر هرقل وعقله، قال: لما قدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية أخذه فجعله على خاصرته، ثم كتب إلى رجل برومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرأ يذكر له أمره ويصف له شأنه ويخبره ما جاء منه، قال: فكتب إليه صاحب رومية أنه النبي الذي ننتظره لا شك فيه فاتبعه وصدقه، فأمر هرقل ببطارقة الروم، فجمعوا له في دسكرة ملكه، وأمر بها فأشرجت عليهم أبوابها، ثم اطلع عليهم من علية، وخافهم على نفسه، وقال: يا معشر الروم إني قد جمعتكم لخير، إنه قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه - والله - للرجل الذي كنا ننتظره ونجده في كتبنا، فهلم فلنتبعه، لنصدقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا، فنخروا نخرة رجل واحد ثم ابتدروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها، فوجدوها قد أغلقت دونهم فقال: كروهم علي، وخافهم على نفسه، فكروا عليه، وقال: يا معشر الروم، إنما قلت لكم هذه المقالة التي قلت لكم ; لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذي حدث، فقد رأيت منكم الذي أسر به، فوقعوا سجودا، وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا.

وهذا حديث مشهور، من حديث محمد بن إسحاق، وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن، حفظ ما لا يحفظه غيره، قال ابن إسحاق: وأخذ هرقل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعله في قصبة من ذهب، وأمسكها عنده تعظيما له. وهذه القصة مشهورة ذكرها أصحاب الصحاح.

ففي البخاري ومسلم والسياق للبخاري، عن الزهري، قال أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هادن فيها أبا سفيان بن حرب وكفار قريش، فأتوه وهو بإيليا، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم بالترجمان، فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبا، فقال: أدنوه وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إني سائل هذا الرجل عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي الكذب لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. فقال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد منهم أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت. نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه. قال: بماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، فقلت لو كان في آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشته القلوب، لا يسخطه أحد. وسألتك: هل يغدر فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به مع دحية الكلبي إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و {ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 64] » .

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

وكان ابن الناطور صاحب إيلياء أسقفا على نصارى أهل الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوما خبيث النفس، فقال له بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك. قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت

الليلة حين نظرت في النجوم أن ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ ، قالوا: ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود، فبينا هم على أمرهم، أتي هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب قال: هم مختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان هرقل نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع عليهم فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم ويئس من الإيمان منهم قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عليه، فكان هذا آخر شأن هرقل.

قلت: وكان هرقل من أجل ملوك النصارى في ذلك الوقت، وقد أخبر غير واحد أن هذا الكتاب إلى الآن باق عند ذرية هرقل في أرفع صوان وأعز مكان يتوارثونه كابرا عن كابر، وأخبر غير واحد أن هذا الكتاب باق إلى الآن عند الفنش صاحب قشتالة، وبلاد الأندلس يفتخرون به، وهذا أمر مشهور معروف.

وقد روى سنيد وهو شيخ البخاري في تفسيره، قال: حدثنا هشام، قال: أخبرنا حصين عن عبد الله بن شداد بن الهاد، قال: لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، فقرأ كتابه، وجمع الروم فأبوا عليه، قال: فلما كان يوم الأحد لم يحضر أسقفهم الكبير وتمارض، فأرسل إليه فأبى، ثم أرسل إليه فأبى ثلاث مرات، فركب إليه فقال له: أليس قد عرفت أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: بلى، قال: أليس قد رأيت ما ركبوا مني فأنت أطوع فيهم مني فتعال فادعهم، قال: وتأذن لي في ذلك، قال: نعم، قال: اذهب هو ذا أجيء، قال: فجاء بسواده إلى كنيستهم العظمى، فلما رأوه خروا له سجدا الملك وغيره، فقام في المذبح فقال: يا أبناء الموتى، هذا النبي الذي بشر به عيسى، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فنخروا ووثبوا إليه فعضوه بأفواههم حتى قتلوه، قال: وجعلوا يخرجون أضلاعه بالكلبتين حتى مات.

[إرساله رسولا إلى ملك مصر المقوقس ملك النصارى]

فصل

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسولا أيضا إلى ملك مصر المقوقس ملك النصارى في ذلك الوقت بالإسكندرية، وكان رسوله إليه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، قال حاطب: قدمت على المقوقس - واسمه جريج بن مينا - بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر

بغيرك ولا يعتبر بك. قال: هات. قلت: إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي بعد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس إلى الله فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل من أدرك نبيا فهو من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه فأنت ممن أدركت هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به. ثم ناوله كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قرأه قال: خيرا، قد نظرت في هذا فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة. ثم جعل الكتاب في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى خازنه، وكتب جوابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقد علمت أن نبيا قد بقي، وقد أكرمت رسولك. وأهدى للنبي صلى الله عليه وسلم جاريتين وبغلة تسمى الدلدل، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم هديته واصطفى الجارية الواحدة واسمها مارية القبطية لنفسه، فولدت منه إبراهيم وأعطى الأخرى لحسان بن ثابت، فولدت منه عبد الرحمن، وعاشت البغلة إلى زمن معاوية، فقال النبي صلى الله

عليه وسلم: «ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه» .

قال محمد بن سعد: حدثنا محمد بن عمر، قال: حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه، قال: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس القبطي صاحب الإسكندرية وكتب إليه معه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، فلما قرأ الكتاب قال له: خيرا، وأخذ الكتاب، وكان مختوما فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى خازنه، وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم جواب كتابه، ولم يسلم، وأهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما تقدم ذكره.

فكل من الملكين عظم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتواضع له ولكتابه، واعترف بأنه الرسول المنتظر الذي بشرت به الأنبياء عليهم السلام.

وقد كان المقوقس يعرف أنه حق بما يسمع من صفاته من أهل الكتاب، ولكن ضن بملكه ولم يؤمن، وكان قد خرج إليه المغيرة قبل إسلام المغيرة فحدثه بذلك.
قال محمد بن عمر الواقدي: حدثني محمد بن سعد الثقفي، وعبد الرحمن بن عبد العزيز، وعبد الملك بن عيسى، وعبد الله بن عبد الرحمن ومحمد بن يعقوب بن عتبة، عن أبيه وغيرهم، كل قد حدثني من هذا الحديث بطائفة منه، قال: قال المغيرة بن شعبة في خروجه إلى المقوقس مع بني مالك، وأنهم لما دخلوا على المقوقس، قال: كيف خلصتم إلي من طائفتكم ومحمد وأصحابه بيني وبينكم؟ قالوا: لصقنا بالبحر وقد خفناه على ذلك. قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه؟ قالوا: ما تبعه منا رجل واحد. قال: ولم ذاك؟ قالوا: جاءنا بدين مجدد لا تدين به الآباء ولا يدين به الملك، ونحن على ما كان عليه آباؤنا. قال: فكيف صنع قومه؟ قالوا: تبعه أحداثهم، وقد لاقاه من خلفه من قومه وغيرهم من العرب في مواطن مرة تكون عليهم الدائرة ومرة تكون له. قال: ألا تخبروني إلى ماذا يدعو إليه؟ قالوا: يدعونا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونخلع ما كان يعبد الآباء، ويدعو إلى الصلاة والزكاة. قال: وما الصلاة والزكاة ألها وقت يعرف وعدد تنتهي إليه؟ قالوا: يصلون في اليوم والليلة خمس صلوات كلها لمواقيت وعدد قد سموه له ويؤدون من كل مال بلغ عشرين مثقالا نصف مثقال، وأخبروه بصدقة الأموال كلها.
قال: أفرأيتم إذا أخذها أين يضعها؟ قالوا: يردها على فقرائهم، ويأمر بصلة الرحم ووفاء العهد، وتحريم الزنا والخمر، ولا يأكل مما ذبح لغير الله، فقال المقوقس: هذا نبي مرسل إلى الناس، ولو أصاب القبط والروم اتبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى ابن مريم، وهذا الذي تصفون منه بعث به الأنبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ويظهر دينه إلى منتهى الخف والحافر ومنقطع البحور، ويوشك قومه أن يدافعوه بالراح، قالوا: فلو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا. قال المغيرة: فأنغض المقوقس رأسه، وقال: أنتم في اللعب، ثم قال: كيف نسبه في قومه؟ قلنا: هو أوسطهم نسبا. قال: كذلك والمسيح الأنبياء تبعث في نسب قومها. ثم قال: فكيف حديثه؟ قال: قلنا: ما يسمى إلا الأمين من صدقه. قال: انظروا في أمركم أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ويكذب على الله؟ قال: فمن تبعه؟ قلنا: الأحداث. قال: هم والمسيح أتباع الأنبياء قبله. قال فما فعلت يهود يثرب فهم أهل التوراة؟ قلنا: خالفوه، فأوقع بهم فقتلهم وسباهم وتفرقوا في كل وجه. قال: هم قوم حسدة حسدوه، أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف؟ قال المغيرة: فقمنا من عنده، وقد سمعنا كلاما ذللنا لمحمد صلى الله عليه وسلم وخضعنا له، وقلنا: ملوك العجم يصدقونه ويخافونه في بعد أرحامهم منه، ونحن أقرباؤه وجيرانه ولم ندخل معه وقد جاءنا داعيا إلى منازلنا، قال المغيرة: فرجعت إلى منزلنا فأقمت بالإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها، وسألت أساقفتها من قبطها ورومها عما يجدون من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وكان أسقف من القبط هو رأس كنيسة يوحنا كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعو لهم لم أر قط أشد اجتهادا منه، فأتيته فقلت: هل بقي أحد من الأنبياء؟ قال: نعم، هو آخر الأنبياء ليس بينه وبين عيسى ابن مريم أحد، وهو نبي مرسل وقد أمرنا عيسى باتباعه، وهو النبي الأمي العربي اسمه أحمد، ليس بالطويل ولا بالقصير، في عينيه حمرة، وليس بالأبيض ولا بالآدم، يعفي شعره ويلبس ما غلظ من الثياب ويجتزي بما لقي من الطعام، سيفه على عاتقه ولا يبالي من لاقى، يباشر القتال بنفسه ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم، هم له أشد حبا من أولادهم وآبائهم، يخرج من أرض حرم، ويأتي إلى حرم، يهاجر إلى أرض سباخ ونخل، يدين بدين إبراهيم عليه السلام. قال المغيرة: فقلت له: زدني في صفته، قال: يأتزر على وسطه، ويغسل أطرافه، ويخص بما لا تخص به الأنبياء قبله ; كان النبي يبعث إلى قومه ويبعث هو إلى الناس كافة، وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا، أينما أدركته الصلاة تيمم وصلى، ومن كان قبله مشددا عليهم لا يصلون إلا في الكنائس والبيع. قال المغيرة بن شعبة: فوعيت ذلك كله من قوله وقول غيره وما سمعت من ذلك.
فذكر الواقدي حديثا طويلا في رجوعه وإسلامه، وما أخبر به من صفات النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك يعجب النبي صلى الله عليه وسلم ويحب أن يسمعه أصحابه. قال المغيرة: فكنت أحدثهم بذلك وهذا أمر معروف عند علماء أهل الكتاب وعظمائهم.
وقد أخرج أبو حاتم في صحيحه، عن عمرو بن العاص، أنه قال: خرج جيش من المسلمين - أنا أميرهم - حتى نزلنا الإسكندرية، فقال عظيم من عظمائهم: أخرجوا إلي رجلا يكلمني وأكلمه، فقلت: لا يخرج إليه غيري، قال: فخرجت إليه ومعي ترجماني ومعه ترجمانه، فقال: ما أنتم؟ فقلت: نحن العرب، ونحن أهل الشوك، ونحن أهل بيت الله الحرام، كنا أضيق الناس أرضا، وأجهدهم عيشا، نأكل الميتة والدم، ويغير بعضنا على بعض، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ، ولا بأكثرنا مالا، فقال أنا رسول الله إليكم، فأمرنا بما لا نعرف، ونهانا عما كنا عليه، وكان عليه آباؤنا، فكذبناه ورددنا عليه مقالته، حتى خرج إليه قوم غيرنا فقاتلنا وظهر علينا وغلبنا، وتناول من يليه من العرب فقاتلهم حتى ظهر عليهم، ولو يعلم من ورائي من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحد إلا جاءكم حتى يشركوكم فيما أنتم فيه من العيش. فضحك، ثم قال: إن رسولكم قد صدق، قد جاءتنا رسلنا بمثل الذي جاء به رسولكم، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه، ولن يشارككم أحد إلا ظهرتم عليه، وإن فعلتم مثل الذي فعلنا وتركتم أمر نبيكم لم تكونوا أكثر عددا منا ولا أشد منا قوة.

[فصل: قتاله صلى الله عليه وسلم النصارى]

ثم بعد الإرسال إلى الملوك، أخذ صلى الله عليه وسلم في غزو النصارى، فأرسل أولا زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة في جيش، فقاتلوا النصارى بمؤتة من أرض الكرك، وقال لأصحابه: أميركم زيد، فإن قتل فجعفر، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فقتل الثلاثة، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الثلاثة في اليوم الذي قتلوا فيه، وأخبر أنه أخذ الراية خالد بن الوليد ففتح الله على يديه، ثم إنه بعد هذا غزا النصارى بنفسه، وأمر جميع المسلمين أن يخرجوا معه في الغزاة، ولم يأذن في التخلف عنه لأحد، وغزا في عشرات ألوف غزوة تبوك، فقدم تبوك وأقام بها عشرين ليلة ; ليغزو النصارى عربهم ورومهم وغيرهم، وأقام ينتظرهم ليقاتلهم، فسمعوا به وأحجموا عن قتاله ولم يقدموا عليه.

وأنزل الله تعالى في ذلك أكثر سورة (براءة) ، وذم تعالى الذين تخلفوا عن جهاد النصارى ذما عظيما.

والذين لم يروا جهادهم طاعة جعلهم منافقين كافرين، لا يغفر الله لهم إذا لم يتوبوا، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم} [المنافقون: 6] .

وقال تعالى: {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره} [التوبة: 84] .

فإذا كان هذاحكم الله ورسوله فيمن تخلف عن جهادهم إذ لم يره طاعة ولا رآه واجبا، فكيف حكمه فيهم أنفسهم؟ حتى قال تعالى: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره} [التوبة: 24] .

ثم عند موته صلى الله عليه وسلم أمرنا بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب.

ففي صحيح مسلم: أن عمر بن الخطاب، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لاأدع إلا مسلما» .

وروى الإمام أحمد، وأبو عبيد، عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، قال: آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «أخرجوا يهود أهل الحجاز ونصارى أهل نجران من جزيرة العرب» .

وقام خلفاؤه رضي الله عنهم بعده بدينه صلى الله عليه وسلم، فأرسل أبو بكر الصديق الجيوش ; لغزو النصارى بالشام، وجرت بين المسلمين وبينهم عدة غزوات، ومات أبو بكر وهم محاصرو دمشق ثم ولي عمر بن الخطاب ففتح عامة الشام ومصر والعراق وبعض خراسان في خلافته، وقدم إلى الشام في خلافته وسلم إليه النصارى بيت المقدس لما رأوه من صفته عندهم.

قال أبو عبد الله محمد بن عائذ في كتاب الفتوح، قال: قال عطاء الخراساني: لما نزل المسلمون بيت المقدس، قال لهم رؤساؤهم: إنا قد أجمعنا لمصالحتكم، وقد عرفتم منزل بيت المقدس وإنه المسجد الذي أسري بنبيكم إليه، ونحن نحب أن يفتحها ملككم - وكان الخليفة عمر بن الخطاب - فبعث المسلمون وفدا، وبعث الروم أيضا وفدا مع المسلمين حتى أتوا المدينة، فجعلوا يسألون عن أمير المؤمنين، فقال الروم لترجمانهم: من يسألون؟ قالوا: عن أمير المؤمنين، فاشتد عجبهم، وقالوا: هذا الذي غلب فارس والروم، وأخذ كنوز كسرى وقيصر، وليس له مكان يعرف به! بهذا غلب الأمم، فوجدوه قد ألقى نفسه حين أصابه الحر نائما، فازدادوا تعجبا، فلما قرأ كتاب أبي عبيدة أقبل حتى نزل بيت المقدس وفيها اثنا عشر ألفا من الروم وخمسون ألفا من أهل الأرض، فصالحهم، وكان من جملة المصالحة أن لا يدخل عليهم من اليهود أحد، ثم دخل المسجد فوجد زبالة عظيمة على الصخرة، فأمر بكنس الزبالة، وتنظيف المسجد وأمر ببنائه وجعل مصلاه في مقدمه، ثم رجع إلى المدينة، وقصته مشهورة في كتاب الفتوحات، ثم قدم مرة ثانية إلى أرض الشام لما تم فتحه فشارط بوضع الخراج وفرض الأموال، وشارط أهل الذمة على شروط المسلمين فأتم بها المسلمون بعده.

وقد ذكرها أهل السير وغيرهم، فروى سفيان الثوري، عن مسروق، عن عبد الرحمن بن غنم، قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى الشام، وشرط عليهم فيه أن لا يحدثوا في مدينتهم ولا حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يئووا جاسوسا، ولا يكتموا غشا للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يظهروا شركا، ولا يمنعوا ذوي قرابتهم من الإسلام إن أرادوه، وأن يوقروا المسلمين، وأن يقوموا لهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين بشيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا يتسموا بأسماء المسلمين، ولا يكتنوا بكناهم، ولا يركبوا سرجا، ولا يتقلدوا سيفا، ولا يتخذوا شيئا من سلاح،

ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية، ولا يبيعوا الخمور، وأن يجذوا مقادم رءوسهم، وأن يلزموا زيهم حيث ما كانوا، وأن يشدوا الزنانير، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضربا خفيفا، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين، ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم، ولا يظهروا النيران معهم، ولا يشتروا من

الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، فإن خالفوا في شيء مما شرطوه، فلا ذمة لهم وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق. أخرجه أبو داود في سننه.
وقال أبو عبيد في كتاب الأموال: حدثنا النضر بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر فأكتب إلى أهل الأمصار في أهل الكتاب: أن يجزوا نواصيهم، وأن يربطوا الكستيجات في أوساطهم ; ليعرف زيهم من زي أهل الكتاب.
وحدثنا أبو المنذر، ومصعب بن المقدام كلاهما عن سفيان عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن أسلم، قال: كتب عمر إلى أمراء الأجناد أن يختموا رقاب أهل الذمة.
قال أبو عبيد: حدثنا عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن أسلم: أن عمر أمر في أهل الذمة أن يجزوا نواصيهم، وأن يركبوا على الأكف، وأن يركبوا عرضا لا يركبوا كما يركب المسلمون، وأن يوثقوا المناطق.
قال أبو عبيد: يعني الزنانير.
وكما كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الذمة هذه الشروط والتزموها، أوصى بهم نوابه ومن يأتي بعده من الخلفاء وغيرهم، وهذا هو العدل الذي أمر الله به ورسوله.
ففي صحيح البخاري، عن عمر بن الخطاب، أنه قال في خطبته عند وفاته: وأوصي الخليفة من بعدي بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم.
وهذا امتثال لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا من ظلم معاهدا، أو انتقصه من حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة» . رواه أبو داود.
فكان هذا في النصارى الذين أدوا إليه الجزية.
وعمر بن الخطاب لما فتح الشام وأدوا إليه الجزية عن يد وهم صاغرون، أسلم منهم خلق كثير لا يحصي عددهم إلا الله تبارك وتعالى، فإن العامة والفلاحين وغيرهم كان عامتهم نصارى، ولم يكن في المسلمين من يعمل فلاحة، ولم يكن للمسلمين في دمشق مسجد يصلون فيه إلا مسجد واحد لقلتهم، ثم صار أكثر أهل الشام وغيرهم مسلمين طوعا لا كرها، فإن إكراه أهل الذمة على الإسلام غير جائز، كما قال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم - الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} [البقرة: 256 - 257] .
قال أبو عبيد في كتاب الأموال، عن ابن الزبير، قال: كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن: «أنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهودية أو نصرانية فإنه لا يفتن عنها وعليه الجزية» .

[فصل: إرسال الكتب والرسل إلى ملوك الفرس]

وقاتل عمر بن الخطاب الفرس المجوس، وفتح أرضهم، وظهر تصديق خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل» . أخرجاه في الصحيحين.
وهذا بعد أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسوله إلى المجوس، وكتب كتابا إلى كسرى ملك الفرس، كما كتب إلى ملوك النصارى، كما تقدم عن قيصر والمقوقس، ولكن ملوك النصارى تأدبوا معه وخضعوا له، فبقي ملكهم. وأما ملك الفرس فمزق كتابه، فدعا عليهم فقال: «اللهم مزق ملكهم كل ممزق» ، فلم يبق لهم ملك.
قال ابن عباس: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى، فدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه يعني كسرى مزقه، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق» .
وقال ابن إسحاق كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر، فأما كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه، وأما قيصر لما قرأ الكتاب طواه ووضعه عنده، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أما هؤلاء يعني كسرى فيمزقون، وأما هؤلاء فستكون لهم بقية» .
قال ابن إسحاق: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي إلى كسرى بن هرمز ملك الفرس، وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، فإني أدعوك بدعاية الله، فإني رسول الله إلى الناس كافة ; لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك» .
فلما قرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شققه، وقال: يكتب إلي بهذا الكتاب وهو عبدي؟

قلت: وسبب قول كسرى هذا استعلائه: أن الحبشة كانوا قد ملكوا اليمن، وملكهم سار إلى مكة بالفيل ; ليخرب البيت، وكانوا نصارى، فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيرا أبابيل، وهي جماعات في تفرقة تحمل حجارة من طين، فألقتها على الحبشة النصارى فأهلكتهم، وكان هذا آية عظيمة خضعت بها الأمم للبيت وجيران البيت.
وعلم العقلاء أن هذا لم يكن نصرا من الله لمشركي العرب ; فإن دين النصارى خير من دينهم، وإنما كان نصرا للبيت وللأمة المسلمة التي تعظمه، وللنبي المبعوث من البيت، وكان ذلك عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله في ذلك: {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل - ألم يجعل كيدهم في تضليل - وأرسل عليهم طيرا أبابيل - ترميهم بحجارة من سجيل - فجعلهم كعصف مأكول} [الفيل: 1 - 5] .
ثم إن سيف بن ذي يزن ذهب إلى كسرى، وطلب منه جيشا يغزو به الحبشة، فأرسل معه عسكرا من الفرس والمجوس، فأخرجوا الحبشة من اليمن، وصارت اليمن بيد العرب، وبها نائب كسرى، وسيف بن ذي يزن هذا ممن بشر بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره، وأخبر بذلك جده عبد المطلب لما وفد عليه.
فلما كانت اليمن مطيعة لكسرى، لهذا أرسل إلى نائبه على اليمن أن يأتيه بالنبي صلى الله عليه وسلم ; لأن عسكر اليمن في العادة يقهر أهل مكة والمدينة.
قال ابن إسحاق: فبلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مزق الله ملكه» حين بلغه أنه شقق كتابه.
ثم كتب كسرى إلى باذان - وهو على اليمن - أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز من عندك رجلين جلدين فليأتياني به، قال: فبعث باذان قهرمانه، وهو بابويه، وقال غيره: فيروز الديلمي، وكان حاسبا كاتبا، وبعث معه برجل من الفرس، وكتب معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبابويه: ويلك، انظر ما الرجل وكلمه وائتني بخبره.
قال: فخرجا حتى قدما إلى الطائف فسألا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هو بالمدينة واستبشروا يعني الكفار، وقالوا: قد نصب له كسرى كفيتم الرجل، فخرجا حتى قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه بابويه، وقال: إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك فانطلق معي، فإن فعلت كتب معك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به، وإن أبيت فهو من قد علمت وهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.
وكانا قد دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لحاهما، وأبقيا شواربهما فكره النظر إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لهما: «ويلكما من أمركما بهذا؟» ، قالا: أمرنا بهذا ربنا - يعنيان كسرى - فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم
«لكن ربي عز وجل أمرني بإعفاء لحيتي وبقص شاربي» ثم قال لهما «ارجعا حتى تأتياني الغد» .
قال: وجاء الخبر من السماء: أن الله عز وجل سلط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله في شهر كذا، في ليلة كذا، في ساعة كذا، فلما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لهما: «إن ربي قتل ربكما ليلة كذا، في شهر كذا، بعدما مضى من الليل كذا، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله» ، فقالا له: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا منك ما هو أيسر من هذا فنكتب بهذا عنك ونخبر الملك به؟ قال: «نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء» . وأعطى رفيقه منطقة من ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر.
فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبيا كما يقول، ولننظرن ما قد قال، فلئن كان ما قد قال حقا ما بقي فيه كلام إنه لنبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا، فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: أما بعد، فإنني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما كان قد استحل قتل أشرافهم وتجهيزهم في بعوثهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب إليك فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه.
فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول الله، وأسلم لله، وأسلمت أبناء فارس من كان منهم باليمن.
وقال أبو معشر: حدثني المقبري قال: جاء فيروز الديلمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إن كسرى كتب إلى باذان: بلغني أن في أرضك رجلا تنبأ فاربطه وابعث به إلي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ربي غضب على ربك فقتله، فدمه بنحره سخن الساعة» فخرج من عنده فسمع الخبر فأسلم وحسن إسلامه، وكان رجلا صالحا له في الإسلام آثار جميلة منها قتل الأسود العنسي الكذاب الذي ادعى النبوة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان الأسود جبارا استدعى بأبي مسلم الخولاني، فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ فقال أبو مسلم: ما أسمع. فقال له: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. فردد ذلك عليه مرارا، فأمر بنار عظيمة فأضرمت، ثم أمر بإلقاء أبي مسلم فيها فلم تضره، فأخمدها الله تعالى حين ألقي فيها، فقيل له: أخرج هذا عنك من أرضك ; لئلا يفسد عليك أتباعك فأخرجه.

فقدم أبو مسلم المدينة، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستخلف أبو بكر، فأناخ راحلته بباب المسجد، ثم دخل المسجد فقام يصلي إلى سارية، فبصر به عمر، فقام إليه فقال: ممن الرجل؟ قال: من أهل اليمن. قال: ما فعل الذي حرقه الكذاب؟ قال: ذلك عبد الله بن ثوب. قال: نشدتك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم. فاعتنقه، ثم بكى، ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن.

ثم خرج فيروز الديلمي على الأسود العنسي فقتله، وجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله وهو في مرض موته، فخرج فأخبر أصحابه. وقال: «قتل الأسود العنسي الليلة رجل صالح من قوم صالحين» . وقصته مشهورة، وكذلك قصة مسيلمة الكذاب ونحوهما من المتنبئين الكذابين.

[فصل: ضربه صلى الله عليه وسلم الجزية على المجوس]

ولما فتح خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم عمر وعثمان العراق وخراسان ضربوا الجزية على المجوس، كما ضربوها على النصارى بعد أن دعوهم إلى الإسلام، كما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما ضرب النبي صلى الله عليه وسلم الجزية على اليهود والنصارى والمجوس بعد أن دعاهم إلى الله عز وجل، فإنه صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمي إلى

المنذر بن ساوى العبدي صاحب هجر - وهي قرية بالبحرين - بكتابه صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام، قال العلاء: فلما دخلت عليه قلت: يا منذر، إنك عظيم العقل في الدنيا، فلا تصغرن عن الآخرة، إن هذه المجوسية شر دين، ليس فيها تكرم العرب، ولا علم أهل الكتاب، ينكحون ما يستحى من نكاحه، ويأكلون ما يتكرم عن أكله، ويعبدون في الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب أن تصدقه، ولمن لا يخون أن تأمنه، ولمن لا يخلف أن تتثق به، فإن كان هذا هكذا فهذا هو النبي صلى الله عليه وسلم الأمي الذي - والله - لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه، إن ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر.

فقال المنذر: قد نظرت في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا، فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الممات، ولقد عجبت أمس ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يرده، وإن من إعظام من جاء به أن يعظم رسوله، وسأنظر، ثم أسلم المنذر، وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالإسلام والتصديق.

وقال عمرو بن عوف: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة إلى البحرين، فأتى بجزيتها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الصبح مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم، وقال: أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء قالوا: أجل يا رسول الله. قال: أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم» . أخرجاه في الصحيحين.

وأخرج البخاري، عن بجالة بن عبدة، أنه قال: «أتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة: فرقوا بين كل ذي محرم من المجوس. ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر» .

وقال ابن شهاب: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر، وأخذ عمر بن الخطاب الجزية من مجوس فارس، وأخذها عثمان بن عفان من البربر.

قال ابن شهاب: أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران فيما بلغنا وكانوا نصارى، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوسا، ثم أدى أهل (أيلة) وأهل (أذرح) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية في غزوة تبوك، وبعث خالد بن الوليد إلى أهل دومة الجندل، فأسروا رئيسهم أكيدر، فبايعوه على الجزية.

قال أبو عبيد: الجزية مأخوذة من أهل الكتاب بالتنزيل، ومن المجوس والبربر وغيرهم بالسنة.

[فصل: أدلة الكتاب والسنة على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم]

وأخرج مسلم عن أنس: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل - وليس بالنجاشي الذي نعاه لأصحابه في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصف وصلى عليه -» بل النجاشي آخر تملك بعده.

وأخرج مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الناس كافة، وختم بي النبيون» .

وقال صلى الله عليه وسلم: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» .
وقال تعالى: {قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض} [الأعراف: 158] .
وقال تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا} [سبأ: 28] .
وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان، وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه بعث إلا إلى العرب خاصة، وهذه دعوته ورسله وجهاده لليهود والنصارى والمجوس بعد المشركين، وهذه سيرته صلى الله عليه وسلم فيهم؟
وأيضا فالكتاب المتواتر عنه وهو القرآن يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلى الإيمان به في مواضع كثيرة جدا، بل يذكر الله تبارك وتعالى فيه كفر من كفر من اليهود والنصارى، ويأمر فيه بقتالهم كقوله تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير} [المائدة: 17] .
وقوله في هذه السورة أيضا: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار - لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم - أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم - ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون - قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم - قل يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 72 - 77] .
وقال تعالى في سورة النساء: {يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا - لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا - فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا} [النساء: 171 - 173] .
وقال تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: 29] .
وقال تعالى: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون - يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} [التوبة: 30 - 32] .

[فصل: ابتداع اليهود والنصارى في دينهم]

فهذه الدلائل وأضعافها مما تبين أنه نفسه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب، وأنه دعاهم وجاهدهم وأمر بدعوتهم وجهادهم، وليس هذا مما فعلته أمته بعده بدعة ابتدعوها، كما فعلت النصارى بعد المسيح عليه السلام، فإن المسلمين لا يجوزون لأحد بعد محمد صلى الله عليه وسلم أن يغيروا شيئا من شريعته، فلا يحلل ما حرم ولا يحرم ما حلل، ولا يوجب ما أسقط ولا يسقط ما أوجب، بل الحلال عندهم ما حلله الله ورسوله، والحرام ما حرم الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله، بخلاف النصارى الذين ابتدعوا بعد المسيح بدعا لم يشرعها المسيح عليه السلام، ولا نطق بها شيء من الأناجيل ولا كتب الأنبياء المتقدمة وزعموا أن ما شرعه أكابرهم من الدين فإن المسيح يمضيه لهم، وهذا موضع تنازع فيه الملل الثلاث المسلمون واليهود والنصارى، كما تنازعوا في المسيح عليه السلام وغير ذلك.
فاليهود: لا يجوزون لله سبحانه وتعالى أن ينسخ شيئا شرعه.
والنصارى: يجوزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله بآرائهم.
وأما المسلمون: فعندهم أن الله له الخلق والأمر، لا شرع إلا ما شرع الله على ألسنة رسله، وله أن ينسخ ما شاء كما نسخ المسيح ما كان شرعه للأنبياء قبله.
فالنصارى تضع لهم عقائدهم وشرائعهم أكابرهم بعد المسيح، كما وضع لهم الثلاثمائة وثمانية عشر الذين كانوا في زمن قسطنطين الملك الأمانة التي اتفقوا عليها، ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتابا، بل تخالف ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها للعقل الصريح فقالوا فيها: نؤمن بإله واحد، أب ضابط الكل، خالق السماوات

والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساوي الأب في الجوهر الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء، وتأنس وصلب على عهد بيلاطس البنطي وتألم وقبر، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، وأيضا فسيأتي بمجده ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه، وبروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له وبمجد الناطق في الأنبياء، وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، ونترجى قيامة الموتى، وحياة الدهر الآتي آمين.

ووضعوا لهم من القوانين والناموس ما لم يوجد في كتب الأنبياء ولا تدل عليه، بل يوجد بعضه في كتب الأنبياء وزاد أكابرهم أشياء من عندهم لا توجد في كتب الأنبياء، وغيروا كثيرا مما شرعه الأنبياء، فما عند النصارى من القوانين والنواميس التي هي شرائع دينهم وبعضه عن الحواريين، وكثير منه من ابتداع أكابرهم مع مخالفته لشرع الأنبياء، فدينهم من جنس دين اليهود، قد لبسوا الحق بالباطل.

وكان المسيح عليه السلام بعث بدين الله الذي بعث به الأنبياء قبله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة كل ما سواه، وأحل لهم بعض ما حرم الله في التوراة، فنسخ بعض شرع التوراة.

وكان الروم واليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهياكل العلوية والأصنام الأرضية فبعث المسيح عليه السلام رسله يدعونهم إلى دين الله تعالى، فذهب بعضهم في حياته في الأرض، وبعضهم بعد رفعه إلى السماء، فدعوهم إلى دين الله تعالى، فدخل من دخل في دين الله، وأقاموا على ذلك مدة ثم زين الشيطان لمن زين له أن يغير دين المسيح فابتدعوا دينا مركبا من دين الله ورسله: دين المسيح عليه السلام، ومن دين المشركين.

وكان المشركون يعبدون الأصنام المجسدة التي لها ظل، وهذا كان دين الروم واليونان، وهو دين الفلاسفة أهل مقدونية وأثينة، كأرسطو وأمثاله من الفلاسفة المشائين وغيرهم، وكان أرسطو قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة، وهو وزير الإسكندر بن فيلبس اليوناني المقدوني التي تؤرخ له التاريخ الرومي من اليهود والنصارى، وهذا كان مشركا يعبد هو وقومه الأصنام، ولم يكن يسمى ذا القرنين، ولا هو ذا القرنين المذكور في القرآن، ولا وصل هذا المقدوني إلى أرض الترك ولا بنى السد، وإنما وصل إلى بلاد الفرس.

ومن ظن أن أرسطو كان وزير ذي القرنين المذكور في القرآن فقد غلط غلطا تبين أنه ليس بعارف بأديان هؤلاء القوم ولا بأزمانهم.

فلما ظهر دين المسيح عليه السلام بعد أرسطو بنحو ثلاثمائة سنة في بلاد الروم واليونان، كانوا على التوحيد إلى أن ظهرت فيهم البدع، فصوروا الصور المرقومة في الحيطان، جعلوا هذه الصور عوضا عن تلك الصور.

وكان أولئك يسجدون للشمس والقمر والكواكب، فصار هؤلاء يسجدون إليها إلى جهة الشرق التي تظهر منها الشمس والقمر والكواكب، وجعلوا السجود إليها بدلا عن السجود لها ; ولهذا جاء خاتم الرسل صلوات الله عليه وسلامه الذي ختم الله به الرسالة وأظهر به من كمال التوحيد ما لم يظهر بمن قبله، فأمر صلى الله عليه وسلم أن لا يتحرى أحد بصلاته طلوع الشمس ولا غروبها ; لأن المشركين يسجدون لها تلك الساعة، فإذا صلى الموحدون لله عز وجل في تلك الساعة، صار في ذلك نوع مشابهة لهم فيتخذ ذريعة إلى السجود لها، وكان من أعظم أسباب عبادة الأصنام تصوير الصور وتعظيم القبور.

ففي صحيح مسلم وغيره: عن أبي الهياج الأسدي: قال: «قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرني أن لا أدع قبرا مشرفا إلا سويته، ولا تمثالا إلا طمسته» .

وفي الصحيحين: أنه صلى الله عليه وسلم قال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما فعلوا» .

وفي الصحيحين: أنه قال قبل موته بخمس ليال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، وإني أنهاكم عن ذلك» .

ولما ذكروا الكنيسة بأرض الحبشة وذكروا من حسنها وتصاوير فيها فقال: «إن أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» .

ونهى أن يستقبل الرجل القبر في الصلاة ; حتى لا يتشبه بالمشركين الذين يسجدون للقبور، ففي الصحيح أنه قال: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها» . إلى أمثال ذلك مما فيه تجريد التوحيد لله رب العالمين الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله فأين هذا ممن يصور صور المخلوقين في الكنائس ويعظمها ويستشفع بمن صورت على صورته؟ وهل كان أصل عبادة الأصنام في بني آدم من عهد نوح عليه السلام إلا هذا؟ والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب والسجود إليها ذريعة إلى

السجود لها، ولم يأمر أحد من الأنبياء باتخاذ الصور والاستشفاع بأصحابها، ولا بالسجود إلى الشمس والقمر والكواكب، وإن كان يذكر عن بعض الأنبياء تصوير صورة لمصلحة، فإن هذا من الأمور التي قد تتنوع فيها الشرائع بخلاف السجود لها والاستشفاع بأصحابها، فإن هذا لم يشرعه نبي من الأنبياء، ولا أمر قط أحد من الأنبياء أن يدعى غير الله عز وجل لا عند قبره، ولا في مغيبه، ولا يشفع به في مغيبه بعد موته، بخلاف الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته ويوم القيامة، وبالتوسل به بدعائه، والإيمان به، فهذا من شرع الأنبياء عليهم السلام، ولهذا قال تعالى: {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} [الزخرف: 45] .
وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: 25] .
وقال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة} [النحل: 36] .
وقال تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون} [يونس: 18] .
وقال تعالى: {تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم - إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين - ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء - ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار - لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار} [الزمر: 1 - 4] .
وذلك أن المشركين من جميع الأمم لم يكن أحد منهم يقول إن للمخلوقات خالقين منفصلين متماثلين في الصفات، فإن هذا لم يقله طائفة معروفة من بني آدم، ولكن الثنوية من المجوس ونحوهم يقولون: إن العالم صادر عن أصلين: النور والظلمة، والنور عندهم هو إله الخير المحمود، والظلمة هي الإله الشرير المذموم.
وبعضهم يقول: إن الظلمة هي الشيطان، وهذا ليجعلوا ما في العالم من الشر صادرا عن الظلمة.
ومنهم من قال: إن الظلمة قديمة أزلية مع أنها مذمومة عندهم ليست مماثلة للنور.
ومنهم من قال: بل هي حادثة، وأن النور فكر فكرة رديئة، فحدثت الظلمة عن تلك الفكرة الرديئة.
فقال لهم أهل التوحيد: أنتم بزعمكم كرهتم أن تضيفوا إلى الرب سبحانه وتعالى خلق ما في العالم من الشر وجعلتموه خالقا لأصل الشر، وهؤلاء مع إثباتهم اثنين وتسمية الناس لهم بالثنوية فهم لا يقولون: إن الشرير مماثل للخير.
وكذلك الدهرية دهرية الفلاسفة وغيرهم، منهم من ينكر الصانع للعالم، كالقول الذي أظهره فرعون لعنه الله، ومنهم من يقر بعلة يتحرك الفلك للتشبه بها كأرسطو وأتباعه، ومنهم من يقول بالموجب بالذات المستلزم للفلك كابن سينا.
والسهروردي المقتول بحلب وأمثالهما من متفلسفة الملل.
وأما مشركو العرب وأمثالهم فكانوا مقرين بالصانع، وبأنه خلق السماوات والأرض، فكانت عقيدة مشركي العرب خيرا من عقيدة هؤلاء الفلاسفة الدهرية إذ كانوا مقرين بأن هذه السماوات مخلوقة لله حادثة بعد أن لم تكن، وهذا مذهب جماهير أهل الأرض ومن أهل الملل الثلاثة: المسلمون، واليهود، والنصارى، ومن المجوس، والمشركين، وهؤلاء الدهرية من الفلاسفة وغيرهم يزعمون أن السماوات أزلية قديمة لم تزل، وكان مشركو العرب يقرون بأن الله قادر يفعل بمشيئته ويجيب دعاء الداعي إذا دعاه، وهؤلاء المتفلسفة الدهرية عندهم أن الله لا يفعل شيئا بمشيئته ولا يجيب دعاء الداعي، بل ولا يعلم الجزئيات ولا يعرف هذا الداعي من هذا الداعي ولا يعرف إبراهيم من موسى من محمد وغيرهم بأعيانهم من رسله، بل منهم من ينكر علمه مطلقا كأرسطو وأتباعه، ومنهم من يقول: إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله.
ومعلوم أن كل موجود في الخارج فهو جزء معين، فإن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئا من الموجودات المعينة لا الأفلاك ولا الأملاك ولا غير ذلك من الموجودات بأعيانها، والدعاء عندهم: هو تصوف النفس القوية في هيولي العالم كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله، وزعموا أن اللوح المحفوظ هو النفس الفلكية، وأن حوادث الأرض كلها إنما تحدث عن حركة الفلك، كما قد بسط الرد عليهم في غير هذا الموضع.
والمقصود هنا أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلها آخر مساويا له في الصفات والأفعال، بل ولا كانوا يقولون: إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم، ولا أن الأصنام تخلق شيئا من العالم، ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين، أو أن الخليل عليه السلام لما قال هذا ربي أراد به رب العالمين فقد غلط غلطا بينا، بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع، وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين.
قال تعالى عن الخليل: {واتل عليهم نبأ إبراهيم - إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون - قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين - قال هل يسمعونكم إذ تدعون - أو ينفعونكم أو يضرون - قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون - قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون - أنتم وآباؤكم

الأقدمون - فإنهم عدو لي إلا رب العالمين - الذي خلقني فهو يهدين - والذي هو يطعمني ويسقين - وإذا مرضت فهو يشفين - والذي يميتني ثم يحيين - والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين - رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين - واجعل لي لسان صدق في الآخرين - واجعلني من ورثة جنة النعيم - واغفر لأبي إنه كان من الضالين - ولا تخزني يوم يبعثون - يوم لا ينفع مال ولا بنون - إلا من أتى الله بقلب سليم - وأزلفت الجنة للمتقين - وبرزت الجحيم للغاوين - وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون - من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون - فكبكبوا فيها هم والغاوون - وجنود إبليس أجمعون - قالوا وهم فيها يختصمون - تالله إن كنا لفي ضلال مبين - إذ نسويكم برب العالمين - وما أضلنا إلا المجرمون} [الشعراء: 69 - 99] .
فأخبر تعالى عن الخليل أنه عدو لكل ما يعبدونه إلا لرب العالمين، وأخبر أنهم يقولون يوم القيامة: {تالله إن كنا لفي ضلال مبين - إذ نسويكم برب العالمين} [الشعراء: 97 - 98] .
كما قال تعالى في الموضع الآخر: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون - إلا الذي فطرني فإنه سيهدين} [الزخرف: 26 - 27] .
وقال: {وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين} [الأنعام: 79] .
ولم يقل: من المعطلين، فإن قومه كانوا يشركون، ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين، فلم يكونوا جاحدين للصانع، بل عدلوا به، وجعلوا له أندادا في العبادة والمحبة والدعاء، وهذا كما قال تعالى: {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون} [الأنعام: 1] .
وقال تعالى: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله} [البقرة: 165] .
وقال تعالى: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر} [الفرقان: 68] .
وقال تعالى: {فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين} [الشعراء: 213] .
وقال: {لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا} [الإسراء: 22] .
وقال تعالى فيما حكاه عن قوم نوح: {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} [نوح: 23] .
قال ابن عباس وغيره من العلماء: هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوها.
وهكذا عند النصارى عن المسيح عليه السلام في كتاب سر بطرس الذي يسمى بشمعون، وسمعان، والصفا، وبطرس، والأربعة لمسمى واحد، عندهم عنه كتاب عن المسيح فيه أسرار العلوم، وهذا فيه عندهم عن المسيح
فالذي تفعله النصارى أصل عبادة الأوثان، وهكذا قال عالمهم الكبير - الذي يسمونه فم الذهب وهو من أكبر علمائهم - لما ذكر تولد الذنوب الكبار عن الصغار. قال: وهكذا هجمت عبادة الأصنام فيما سلف لما أكرم الناس أشخاصا يعظم بعضهم بعضا فوق المقدار الذي ينبغي، الأحياء منهم والأموات.
وقد قال تعالى: {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا - أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا} [الإسراء: 56 - 57] .
قال طائفة من العلماء: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح وغيرهما، فبين الله تبارك وتعالى أن هؤلاء عباده كما أنتم عباده، يرجون رحمته كما ترجون رحمته، ويخافون عذابه كما تخافون عذابه، ويتقربون إليه كما تتقربون إليه، وقال تعالى: {ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون - ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون} [آل عمران: 79 - 80] .
فبين تعالى أن من يتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون، فإنه لم يقل أحد قط: أن جميع الملائكة والنبيين مشاركون لله سبحانه في خلق العالم، وقد قال تعالى: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} [يوسف: 106] .
قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: تسألهم من خلق السماوات والأرض؟ يقولون: الله، وهم يعبدون غيره، وقد قال تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله} [لقمان: 25] .
في غير موضع، فأخبر تعالى عن المشركين أنهم كانوا يقرون بأن خالق العالم واحد مع اتخاذهم آلهة يعبدونهم من دونه سبحانه يتخذونهم شفعاء إليه ويتقربون بهم إليه.
[فصل: اجتماع المسلمين بإجماعهم وتفرق النصارى بابتداعهم]

وكذلك تعظيمهم للصليب، واستحلالهم لحم الخنزير، وتعبدهم بالرهبانية، وامتناعهم من الختان، وتركهم طهارة الحدث والخبث، فلا يوجبون غسل جنابة ولا وضوءا، ولا يوجبون اجتناب شيء من الخبائث في صلاتهم لا عذرة ولا بولا ولا غير ذلك من الخبائث إلى غير ذلك.

كلها شرائع أحدثوها وابتدعوها بعد المسيح عليه السلام، ودان بها أئمتهم وجمهورهم، ولعنوا من خالفهم فيها، حتى صار المتمسك فيهم بدين المسيح المحض مغلوبا مقموعا قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، وأكثر ما هم عليه من الشرائع والدين لا يوجد منصوصا عن المسيح عليه السلام.

وأما المسلمون: فكل ما أجمعوا عليه إجماعا ظاهرا يعرفه العامة والخاصة فهو منقول عن نبيهم صلى الله عليه وسلم، لم يحدث ذلك أحد لا باجتهاده ولا بغير اجتهاده، بل ما قطعنا بإجماع أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يوجد مأخوذا عن نبيهم.

وأما ما يظن فيه إجماعهم ولا يقطع به:

فمنه ما يكون ذلك الظن خطأ، ويكون بينهم فيه نزاع، ثم قد يكون نص الرسول صلى الله عليه وسلم مع هذا القول، وقد يكون مع هذا القول.

ومنه ما يكون ظن الإجماع عليه صوابا، ويكون فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أثر خفيت دلالته أو معرفته على بعض الناس.

وذلك أن الله تبارك وتعالى أكمل الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وبينه، وبلغه البلاغ المبين، فلا تحتاج أمته إلى أحد بعده يغير شيئا من دينه، وإنما تحتاج إلى معرفة دينه الذي بعث به فقط، وأمته لا تجتمع على ضلالة، بل لا يزال في أمته طائفة قائمة بالحق، حتى تقوم الساعة، فإن الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فأظهره بالحجة والبيان، وأظهره باليد والسنان، ولا يزال في أمته أمة ظاهرة بهذا وهذا حتى تقوم الساعة.

والمقصود هنا: أن ما اجتمعت عليه الأمة إجماعا ظاهرا تعرفه العامة والخاصة، فهو منقول عن نبيهم صلى الله عليه وسلم، ونحن لا نشهد بالعصمة إلا لمجموع الأمة، وأما كثير من طوائف الأمة ففيهم بدع مخالفة للرسول، وبعضها من جنس بدع اليهود والنصارى، وفيهم فجور ومعاصي، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بريء من ذلك، كما قال تعالى له: {فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون} [الشعراء: 216] .

وقال تعالى: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء} [الأنعام: 159] .

وقال صلى الله عليه وسلم: «من رغب عن سنتي فليس مني» وذلك مثل إجماعهم على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع الأمم أهل الكتاب وغير أهل الكتاب، فإن هذا تلقوه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهو منقول عندهم نقلا متواترا يعلمونه بالضرورة.

وكذلك إجماعهم على استقبال الكعبة البيت الحرام في صلاتهم، فإن هذا الإجماع منهم على ذلك مستند إلى النقل المتواتر عن نبيهم وهو مذكور في كتابهم.

وكذلك الإجماع على وجوب الصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وحج البيت العتيق الذي بناه إبراهيم خليل الرحمن، ودعا الناس إلى حجه وحجته الأنبياء، حتى حجه موسى بن عمران ويونس بن متى وغيرهما، وإجماعهم على وجوب الاغتسال من الجنابة وتحريم الخبائث وإيجاب الطهارة للصلاة، فإن هذا كله مما تلقوه عن نبيهم، وهو منقول عنه صلى الله عليه وسلم نقلا متواترا وهو مذكور في القرآن.

وأما النصارى، فليست الصلوات التي يصلونها منقولة عن المسيح عليه السلام ولا الصوم الذي يصومونه منقولا عن المسيح، بل جعل أولهم الصوم أربعين يوما، ثم زادوا فيه عشرة أيام، ونقلوه إلى الربيع، وليس هذا منقولا عندهم عن المسيح عليه السلام.

وكذلك حجهم للقمامة، وبيت لحم، وكنيسة صيدنايا ليس شيء من ذلك منقولا عن المسيح عليه السلام، بل وكذلك عامة أعيادهم مثل عيد القلندس، وعيد الميلاد، وعيد الغطاس - وهو القداس - وعيد الخميس وعيد الصليب الذي جعلوه في وقت ظهور الصليب، لما أظهرته هيلانة الحرانية الفندقانية أم قسطنطين بعد المسيح عليه السلام بمائتين من السنين، وعيد الخميس والجمعة والسبت التي في آخر صومهم، وغير ذلك من أعيادهم التي رتبوها على أحوال المسيح والأعياد التي ابتدعوها لكبرائهم، فإن ذلك كله من بدعهم التي ابتدعوها بلا كتاب نزل من الله تعالى، بل هم يبنون الكنائس على اسم بعض من يعظمونه، كما في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنهم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» وهذا بخلاف المساجد التي تبنى لله عز وجل كما قال تعالى: {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا} [الجن: 18] .

وقال: {في بيوت أذن الله أن ترفع} [النور: 36] .

وقال تعالى: {قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين} [الأعراف: 29] .
وقال تعالى: {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين} [التوبة: 18] .
والنصارى كأشباههم من المشركين يخشون غير الله، ويدعون غير الله.

[فصل: النصارى بدلوا دين المسيح قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم]

والمقصود هنا: أن الذي يدين به المسلمون من أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول إلى الثقلين: الإنس والجن، أهل الكتاب وغيرهم، وأن من لم يؤمن به فهو كافر مستحق لعذاب الله مستحق للجهاد، وهو مما أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه ; لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي جاء بذلك، وذكره الله في كتابه، وبينه الرسول أيضا في الحكمة المنزلة عليه من غير الكتاب، فإنه تعالى أنزل عليه الكتاب والحكمة، ولم يبتدع المسلمون شيئا من ذلك من تلقاء أنفسهم، كما ابتدعت النصارى كثيرا من دينهم بل أكثر دينهم.
وبدلوا دين المسيح وغيروه ; ولهذا كان كفر النصارى لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم مثل كفر اليهود لما بعث المسيح عليه السلام، فإن اليهود كانوا قد بدلوا شرع التوراة قبل مجيء المسيح، فكفروا بذلك، ولما بعث المسيح إليهم كذبوه فصاروا كفارا بتبديل معاني الكتاب الأول وأحكامه، وبتكذيب الكتاب الثاني.
وكذلك النصارى كانوا بدلوا دين المسيح قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم، فابتدعوا من التثليث والاتحاد وتغيير شرائع الإنجيل أشياء لم يبعث بها المسيح عليه السلام، بل تخالف ما بعث به، وافترقوا في ذلك فرقا متعددة، وكفر فيها بعضهم بعضا، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه، فصاروا كفارا بتبديل معاني الكتاب الأول وأحكامه، وتكذيب الكتاب الثاني، كما يقول علماء المسلمين: إن دينهم مبدل منسوخ، وإن كان قليل من النصارى كانوا عند مبعث محمد صلى الله عليه وسلم متمسكين بدين المسيح، كما كان الذين لم يبدلوا دين المسيح كله على الحق، فهذا كما أن من كان متبعا شرع التوراة عند مبعث المسيح كان متمسكا بالحق كسائر من اتبع موسى، فلما بعث المسيح صار كل من لم يؤمن به كافرا، وكذلك لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم صار كل من لم يؤمن به كافرا.
والمقصود في هذا المقام: بيان ما بعث به محمد صلى الله عليه وسلم من عموم رسالته، وأنه نفسه الذي أخبر أن الله تعالى أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم، وأنه نفسه صلى الله عليه وسلم دعا أهل الكتاب، وجاهدهم وأمر بجهادهم، فمن قال بعد هذا من أهل الكتاب اليهود والنصارى: أنه لم يبعث إلينا، بمعنى أنه لم يقل إنه مبعوث إلينا، كان مكابرا جاحدا للضرورة مفتريا على الرسول فرية ظاهرة تعرفها الخاصة والعامة.
وكان جحده لهذا كما لو جحد أنه جاء بالقرآن، أو شرع الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام؛ وجحد محمد صلى الله عليه وسلم، وما تواتر عنه أعظم من جحد أتباع الحواريين المسيح عليه السلام، وإرساله لهم إلى الأمم، ومجيئه بالإنجيل، وجحد مجيء موسى عليه السلام بالتوراة، وجحد أنه كان يسبت ; فإن النقل عن محمد صلى الله عليه وسلم مدته قريبة، والناقلون عنه أضعاف أضعاف من نقل دين المسيح عنه، وأضعاف أضعاف أضعاف من اتصل به نقل دين موسى عليه السلام، فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ما زالوا كثيرين منتشرين في مشارق الأرض ومغاربها، وما زال فيهم من هو ظاهر بالدين منصور على الأعداء، بخلاف بني إسرائيل، فإنهم زال ملكهم في أثناء الأمر لما خرب بيت المقدس الخراب الأول بعد داود عليه السلام ونقص عدد من نقل دينهم حتى قد قيل إنه لم يبق من يحفظ التوراة إلا واحد.
والمسيح عليه السلام لم ينقل دينه عنه إلا عدد قليل لكن النصارى يزعمون أنهم رسل الله معصمون مثل: إبراهيم وموسى، وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله تعالى إذا وصلنا إليه، إذ المقصود هنا بيان من زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يقول: إنه لم يبعث إلا إلى مشركي العرب، فإنه في غاية الجهل والضلال أو غاية المكابرة والمعاندة، فإن هذا أعظم جهلا وعنادا ممن ينكر أنه كان يأمر بالطهارة والغسل من الجنابة، ويحرم الخمر والخنزير، وأعظم جهلا وعنادا ممن ينكر ما تواتر من أمر المسيح، وموسى عليهما السلام، وقد ظهر بهذا بطلان قولهم: علمنا أنه لم يأت إلينا بل إلى جاهلية العرب.

[فصل: شبهات النصارى على رسالة النبي والرد عليها]

فإذا عرف هذا فاحتجاج هؤلاء بالآيات التي ظنوا دلالتها على أن نبوته خاصة بالعرب، تدل على أنهم ليسوا ممن يجوز لهم الاستدلال بكلام أحد على مقصوده ومراده، وأنهم ممن قيل فيه {فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا} [النساء: 78] .
فليسوا أهلا أن يحتجوا بالتوراة والإنجيل والزبور على مراد الأنبياء وسائر الكلام المنقول عن الأنبياء على مراد الأنبياء عليهم السلام - بل ولا يحتجون بكلام الأطباء والفلاسفة والنحاة وعلم أهل الحساب والهيئة على مقاصدهم.
فإن الناس كلهم متفقون على أن لغة العرب من أفصح لغات الآدميين وأوضحها، ومتفقون على أن القرآن في أعلى درجات البيان والبلاغة والفصاحة، وفي القرآن من الدلالات الكثيرة على مقصود الرسول صلى الله عليه وسلم التي يذكر فيها: أن الله

تعالى أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم ما لا يحصى إلا بكلفة، ثم مع ذلك من النقول المتواترة عن سيرته صلى الله عليه وسلم في دعائه لأهل الكتاب، وأمره لهم بالإيمان به، وجهاده لهم إذا كفروا به ما لا يخفى على من له أدنى خبرة بسيرته صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر قد امتلأ العالم به، وسمعه القاصي والداني، فإذا كان الناس المؤمن به وغير المؤمن به يعلمون أنه كان يقول: إنه رسول الله إلى أهل الكتاب، وغيرهم، وأن ظهور مقصوده بذلك مما يعلمه بالاضطرار الخاصة والعامة، ثم شرعوا يظنون أنه كان يقول: إني لم أبعث إلا إلى العرب، واستمر على ذلك حتى مات دل على فساد نظرتهم وعقلهم، أو على عنادهم ومكابرتهم، وكان الواجب إذ لم يكن له معرفة معاني هذه الآيات التي استدلوا بها على خصوص رسالته أن يعتقدوا أحد أمرين: إما أن لها معاني توافق ما كان يقوله، أو أنها من المنسوخ فقد علمت الخاصة والعامة: أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد هجرته إلى بيت المقدس نحو سنة ونصف، ثم أمر بالصلاة إلى الكعبة البيت الحرام، والنصارى يوافقون على أن شرائع

الأنبياء فيها ناسخ ومنسوخ، مع أن ما ذكروه من الآيات ليس منسوخا، ولكن المقصود: أن المعلوم من حال الرسول صلى الله عليه وسلم علما ضروريا يقينيا متواترا لا يجوز دفعه، فإن العلم بأنه كان يقول: إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق معلوم لكل من عرف أخباره صلى الله عليه وسلم سواء صدقه أو كذبه، والعلم بأنه كان يقول إنه رسول الله إلى جميع الناس ممكن قبل أن يعلم أنه نبي أو ليس بنبي، كما أن العلم بنبوته وصدقه ممكن قبل أن يعلم عموم رسالته، فليس العلم بأحدهما موقوفا على الآخر، ولهذا كان كثير ممن يكذبه يعلم أنه كان يقول إنه رسول الله إلى جميع الخلق، وطائفة ممن تقر بنبوته وصدقه لا تقر بأنه رسول إلى جميع الخلق.

والمقصود هنا: الكلام مع هؤلاء بأن العلم بعموم دعوته لجميع الخلق أهل الكتاب وغيرهم هو متواتر معلوم بالاضطرار كالعلم بنفس مبعثه ودعائه الخلق إلى الإيمان به وطاعته وكالعلم بهجرته من مكة إلى المدينة، ومجيئه بهذا القرآن، والصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وحج البيت العتيق، وإيجاب الصدق والعدل، وتحريم الظلم والفواحش، وغير ذلك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن قيل: بل في القرآن ما يقتضي أن رسالته خاصة، وفيه ما يقتضي أن رسالته عامة وهذا تناقض.

قيل: هذا باطل، ويعلم بطلانه قبل العلم بنبوته ; فإنه من المعلوم لكل أحد آمن به، أو كذبه أنه كان من أعظم الناس عقلا وسياسة وخبرة، وكان مقصوده دعوة الخلق إلى طاعته واتباعه، وكان يقرأ القرآن على جميع الناس، ويأمر بتبليغه إلى جميع الأمم، وكان من طلب منه أن يؤمنه حتى يقرأ عليه القرآن من الكفار وجب عليه أن يجيبه ولو كان مشركا، فكيف إذا كان كتابيا؟ كما قال تعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون} [التوبة: 6] .

وكان قد أظهر أنه مبعوث إلى أهل الكتاب وسائر الخلق، وأنه رسول إلى الثقلين: الجن والإنس، فيمتنع مع هذا أن يظهر ما يدل على أنه لم يبعث إليهم، فإن هذا لا يفعله من له أدنى عقل لمناقضته لمراده، فكيف يفعله من اتفقت عقلاء الأمم على أنه أعقل الخلق وأحسنهم سياسة وشريعة؟

وأيضا فكان أصحابه والمقاتلون معه بعد ذلك ينفرون عنه، وقد كان عادتهم أن يستشكلوا ما هو دون هذا، وهذا لم يستشكله أحد، ثم بعد هذا فلو قدر أن في القرآن ما يدل على أنه لم يبعث إلا إلى العرب، وفيه ما يدل على أنه بعث إلى سائر الخلق، كان هذا دليلا على أنه أرسل إلى غيرهم بعد أن لم يرسل إلا إليهم، وأن الله عم بدعوته بعد أن كانت خاصة، فلا مناقضة بين هذا وهذا، فكيف وليس في القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب؟ وإنما فيه إثبات رسالته إليهم، كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش، وليس هذا مناقضا لهذا، وفيه إثبات رسالته إلى أهل الكتاب كقوله تعالى: {ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا} [النساء: 47] .

كما فيه إثبات رسالته إلى بني إسرائيل كقوله: يا بني إسرائيل.

وليس هذا التخصص لليهود منافيا لذلك التعميم، وفي رسالته خطاب لليهود تارة وللنصارى تارة، وليس خطابه لإحدى الطائفتين ودعوته لها مناقضا لخطابه للأخرى ودعوته لها، وفي كتابه خطاب للذين آمنوا من أمته في دعوته لهم إلى شرائع دينه، وليس في ذلك مناقضة بأن يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم، وفي كتابه أمر بقتال أهل الكتاب النصارى، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

قال تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: 29] .

ثم لم يكن هذا مانعا أن يأمر بقتال غيرهم من اليهود والمجوس ; حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، بل هذا الحكم ثابت في المجوس بسنته واتفاق أمته.

وإن قيل: إنهم ليسوا من أهل الكتاب، فهذا كله مما يعلم بالاضطرار من دينه قبل العلم بنبوته، فكيف ونحن نتكلم على تقدير نبوته، والنبي لا يتناقض قوله؟ وإذا كان العلم بعموم دعوته ورسالته معلوما بالاضطرار قبل العلم بنبوته، وبعد العلم بنبوته، فالعلم الضروري اليقيني لا يعارضه شيء، ولكن هذا شأن الذين في قلوبهم زيغ من أهل البدع: النصارى وغيرهم يتبعون المتشابه ويدعون المحكم، وبسبب مناظرة النصارى للنبي صلى الله عليه وسلم بالمتشابه، وعدولهم عن المحكم أنزل الله تبارك وتعالى فيهم: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب} [آل عمران: 7] .

فالتأويل: يراد به تفسير القرآن، ومعرفة معانيه، وهذا يعلمه الراسخون، ويراد به ما استأثر الرب سبحانه وتعالى بعلمه من معرفة كنهه وكنه ما وعد به ووقت الساعة، ونحو ذلك مما لا يعلمه إلا الله.

والضلال يذكرون آيات تشتبه عليهم معرفة معانيها، فيتبعون تأويلها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، وليسوا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويلها مع أن هؤلاء الآيات من أوضح الآيات.

وهذا الذي سلكوه في القرآن هو نظير ما سلكوه في الكتب المتقدمة وكلام الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور وغيرها، فإن فيها من النصوص الكثيرة الصريحة بتوحيد الله وعبودية المسيح ما لا يحصى إلا بكلفة، وفيها كلمات قليلة فيها اشتباه، فتمسكوا بالقليل المتشابه الخفي المشكل من الكتب المتقدمة وتركوا الكثير المحكم المبين الواضح، فهم سلكوا في القرآن ما سلكوه في الكتب المتقدمة، لكن تلك الكتب يقرون بنبوة أصحابها ومحمد صلى الله عليه وسلم هم فيه مضطربون متناقضون، فأي قول قالوه فيه ظهر فساده وكذبهم فيه إذا لم يؤمنوا بجميع ما أنزل إليه.

[الرد على النصارى في دعواهم أن كلام الرسول متناقض]

وإن قالوا: كلامه متناقض ونحن نحتج بما يوافق قولنا، إذ مقصودنا بيان تناقضه.

قيل لهم عن هذا أجوبة:

أحدها: أنه في الكتب المتقدمة مما يظن أنه متعارض أضعاف ما في القرآن وأقرب إلى التناقض، فإذا كانت تلك الكتب متفقة لا تناقض فيها، وإنما يظن تناقضها من يجهل معانيها ومراد الرسل فيكون كما قيل: وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم فكيف القرآن الذي هو أفضل الكتب؟

الثاني: أنهم متمسكون بالمتشابه في تلك الكتب، ومخالفون المحكم منها كما فعلوه بالقرآن وأبلغ.

الثالث: أنه إذا كان ما جاء به متناقضا لم يكن رسول الله، فإن ما جاء به من عند الله لا يكون مختلفا متناقضا، وإنما يتناقض ما جاء من عند غير الله، قال تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} [النساء: 82] .

فكل كتاب ليس من عند الله لا بد أن يكون فيه تناقض، وما كان من عند الله لا يتناقض، وحينئذ فإن كان متناقضا لم يجز لهم الاحتجاج بشيء منه ; فإنه ليس من عند الله، وإن لم يكن متناقضا ثبت أن ما فيه من عموم رسالته، وأنه رسول إليهم، فليس فيه شيء يناقضه، فإن ما جاء من عند الله لا يتناقض.

الرابع: أنا نبين أن ما فيه من عموم رسالته لا ينافي ما فيه من أنه أرسل إلى العرب، كما أن ما فيه من إنذار عشيرته الأقربين، وأمر قريش لا ينافي ما فيه من دعوة سائر العرب ; فإن تخصيص بعض العام بالذكر إذا كان له سبب يقتضي التخصيص لم يدل على أن ما سوى المذكور مخالفة، وهذا الذي يسمى مفهوم المخالفة ودليل الخطاب.

والناس كلهم متفقون على أن التخصيص بالذكر متى كان له سبب يوجب الذكر غير الاختصاص بالحكم لم يكن للاسم اللقب مفهوم، بل ولا للصفة كقوله تعالى: {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق} [الإسراء: 31] .

فإنه نهاهم عن ذلك ; لأنه هو الذي كانوا يفعلونه، وقد حرم في موضع آخر قتل النفس بغير الحق، سواء كان ولدا، أو غيره، ولم يكن ذلك مناقضا لتخصيص الولد بالذكر.

الخامس: أنه في ذلك أسوة بالمسيح عليه السلام فإن المسيح خص أولا بالدعوة، ثم عم، كما قيل في الإنجيل: ما بعثت وأرسلت إلا لبني إسرائيل. وقال أيضا في الإنجيل: ما بعثت إلا لهذا الشعب الخبيث. ثم عم، فقال لتلامذته حين أرسلهم كما في الإنجيل: كما بعثني أبي أبعث بكم، فمن قبلكم فقد قبلني. وقال: أرسلني أبي، وأنا أرسلكم. وقال: كما أفعل أنا بكم، كذلك افعلوا أنتم بعباد الله فسيروا في البلاد، وعمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس، ولا يكون لأحدكم ثوبان، ولا يحمل معه فضة ولا ذهبا ولا عصا ولا حرابة ونحو ذلك مما هو في الأناجيل التي بين أيديهم من تخصيص الدعوة ثم تعميمها، وهو صادق في ذلك كله، فكيف يسوغ لهم إنكار ما في الإنجيل عن المسيح نظيره؟ ثم يقال في بيان الحال: إن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم، كما بعث المسيح وغيره، وإن كانت رسالته أكمل وأشمل كما نذكر في موضعه، فأمره بتبليغ رسالته بحسب الإمكان إلى

طائفة بعد طائفة، وأمر بتبليغ الأقرب منه مكانا ونسبا، ثم بتبليغ طائفة بعد طائفة ; حتى تبلغ النذارة إلى جميع أهل الأرض، كما قال تعالى: {وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ} [الأنعام: 19] .
أي من بلغه القرآن فكل من بلغه القرآن فقد أنذره محمد صلى الله عليه وسلم.
ونبين هنا أن النذارة ليست مختصة بمن شافههم بالخطاب، بل ينذرهم به وينذر من بلغهم القرآن، فأمره الله تبارك وتعالى أولا بإنذار عشيرته الأقربين وهو قريش، فقال تعالى: {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: 214] .
ولما أنزل الله عليه هذه الآية انطلق صلى الله عليه وسلم إلى مكان عال فعلا عليه، ثم جعل ينادي: «يا بني عبد مناف إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف يا صباحاه يا صباحاه» .
وهذه القصة رواها ابن عباس وأبو هريرة وعائشة وغيرهم في الصحيحين وغيرهما من كتب السنن والمسانيد والتفسير.
قال ابن عباس: لما «نزلت هذه الآية: {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: 214] . ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو؟ فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، ما جربنا عليك كذبا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.
وقال أبو هريرة: لما نزلت هذه الآية: {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: 214] . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا، فاجتمعوا، فعم وخص، فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها» .
وقالت عائشة رضي الله عنها لما نزلت هذه الآية: {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: 214] . «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا، فقال: يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمة رسول الله، يا عباس عم رسول الله لا أملك لكم من الله شيئا» .
وقال ابن إسحاق: «لما نزلت هذه الآية جعل النبي صلى الله عليه وسلم ينادي: يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة حتى عدد الأفخاذ من قريش، ثم قال: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الله شيئا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله» ، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟
تبا لك سائر اليوم، فأنزل الله: {تبت يدا أبي لهب وتب - ما أغنى عنه ماله وما كسب - سيصلى نارا ذات لهب - وامرأته حمالة الحطب - في جيدها حبل من مسد} [المسد: 1 - 5] .
ودعا قريشا إلى الله، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأنزل تعالى: {لإيلاف قريش - إيلافهم رحلة الشتاء والصيف - فليعبدوا رب هذا البيت - الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف} [قريش: 1 - 4] .
وقد أنزل الله عليه في غير موضع أمر جميع الخلق بعبادته، كقوله تعالى: {يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون} [البقرة: 21] .
وقوله: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: 56] .
وقريش هم قومه الذين كذبه جمهورهم أولا، كما قال تعالى: {وكذب به قومك وهو الحق} [الأنعام: 66] .
كما أن جمهور بني إسرائيل وهم قوم المسيح كذبوه أولا.
ثم أمره الله تعالى أن يدعو سائر العرب، فكان يخرج بنفسه ومعه أبو بكر صديقه إلى قبائل العرب قبيلة قبيلة، وكانت العرب لم تزل تحج البيت من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام، فكان صلى الله عليه وسلم يأتيهم في منازلهم بمنى، وعكاظ، ومجنة، وذي المجاز، فلا يجد أحدا إلا دعاه إلى الله، ويقول: «يا أيها الناس، إني رسول الله آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما يعبد من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني ; حتى أبين عن الله ما بعثني به، يا أيها الناس إن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي فمن يمنعني أن أبلغ كلام ربي إلا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي، يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم بها العجم» فيقولون: يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن أمرك هذا لعجب.
وما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن دعوته، ويظهر رسالته، ويدعو الخلق إليها، وهم يؤذونه ويجادلونه ويكلمونه، ويردون عليه بأقبح الرد، وهو صابر على أذاهم، ويقول: «اللهم لك الحمد لو شئت لم يكونوا هكذا» .
فلما اشتد عليه أمر قريش خرج إلى الطائف وهي مدينة معروفة شرقي مكة بينهما نحو ليلتين ومعه زيد بن حارثة، ومكث بها عشرة أيام لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه في منزله وكلمه ودعاه إلى التوحيد، فلم يجبه أحد منهم، وخافوه على أحداثهم،

وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة إذا مشى حتى أن رجليه لتدميان، وزيد مولاه يقيه بنفسه حتى ألجئوا إلى ظل كرمة في حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة فرجع عنه ما كان تبعه من سفهائهم، فدعا، فقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» .

فلما رأى ابنا ربيعة ما صنع به رثيا له، وقالا لغلام لهما يقال له عداس - وكان نصرانيا -: خذ قطفا من عنب، ثم اجعله في طبق، ثم اذهب إلى ذلك الرجل يأكله، ففعل عداس وأقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، قال: بسم الله، ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه، ثم قال له: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ فقال عداس: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد خرجت من نينوى، وما فيها عشرة يعرفون متى، من أين عرفت أنت متى وأنت أمي وفي أمة أمية؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو أخي كان نبيا وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رجع عداس فقالا: ويلك يا عداس، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه، فقال: يا سيدي، ما في الأرض خير من هذا الرجل، لقد خبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي.

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعا إلى مكة وهو محزون، إذ لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم يا رسول الله وقد فعلوا وفعلوا، فقال: يا زيد، إن الله عز وجل جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه.

ثم ذكر ابن إسحاق دخوله إلى مكة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لقي من أهل مكة والطائف ما لقي ودعا بالدعاء المتقدم نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال - كما في صحيح البخاري - أن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: «هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت، فإذا فيها جبريل فناداني: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال قد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له» .

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة: أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: «ادع الله على المشركين، فقال: إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة» .

وفي الصحيحين: عن خباب بن الأرت، أنه قال: «لما اشتد البلاء علينا من المشركين أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا: ألا تدعو الله لنا؟ ألا تستنصر الله لنا؟ فقال: لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه حتى يجعل فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب، ما يصرفه عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ولكنكم تستعجلون» .

وذكر ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من قومه من الأذى والاستهزاء والإغراء وهو صابر محتسب، مظهر لأمر الله بتبليغ رسالته، لا تأخذه في الله لومة لائم، مواجه لقومه بما يكرهون من عيب دينهم وآلهتهم، وتضليل آبائهم، وتسفيه أحلامهم، وإظهار عداوته، وقتاله إياهم ما بلغ مبلغ القطع.

قال عكرمة، عن ابن عباس: «ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة فلما حضر الموسم حج نفر من الأنصار، فانتهى النبي صلى الله عليه وسلم إلى فريق منهم، فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، وأخبرهم بالذي آتاه الله فأيقنوا واطمأنت قلوبهم إلى دعوته، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته، وما يدعوهم إليه فصدقوه وآمنوا به، وكان من أسباب الخير الذي ساق الله للأنصار إلى ما كانوا يسمعون من الأخبار في صفته، فلما رجعوا إلى قومهم جعلوا يدعونهم سرا، ويخبرونهم بأقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي بعثه الله به من النور والهدى والقرآن، فأسلموا حتى قل أن يوجد دار من دورهم إلا أسلم فيها ناس لا محالة» .

وقد ذكر الله ذلك في القرآن، وأخبر أن أهل الكتاب كانوا يخبرون العرب به ويستفتحون به عليهم، فكان أهل الكتاب مقرين بنبوته مخبرين بها مبشرين بها قبل أن يبعث، فقال تعالى فيما يخاطب به أهل الكتاب: {ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده

بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون - وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون - ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين - بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين - وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين} [البقرة: 87 - 91] .

فقد أخبر تعالى أن أهل الكتاب كانوا يستفتحون على العرب بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث - أي يستنصرون به - وكانوا هم والعرب يقتتلون فيغلبهم العرب، فيقولون: سوف يبعث النبي الأمي من ولد إسماعيل فنتبعه ونقتلكم معه شر قتلة، وكانوا ينعتونه بنعوته.

وأخبارهم بذلك كثيرة متواترة، وكما قال تعالى: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} [البقرة: 89] .

وأخبر بما كانت عليه اليهود من أنه كلما جاءهم رسول الله بما لا تهوى أنفسهم كذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم، وأخبر أنهم باءوا بغضب على غضب ; فإنهم ما زالوا يفعلون ما يغضب الله عليهم، فإما أن يراد بالتثنية تأكيد غضب الله عليهم، وإما أن يراد به مرتان، والغضب الأول: تكذيبهم المسيح والإنجيل، والغصب الثاني: لمحمد والقرآن.

[فصل: معجزات محمد صلى الله عليه وسلم]

وكان يأتيهم بالآيات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته تزيد على ألف معجزة، مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات، ومثل القرآن المعجز، ومثل أخبار أهل الكتاب قبله وبشارة الأنبياء به، ومثل أخبار الكهان والهواتف به، ومثل قصة الفيل التي جعلها الله آية عام مولده، وما جرى عام مولده من العجائب الدالة على نبوته، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التي ترجم بها الشياطين بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبعد مبعثه، ومثل إخباره بالغيوب التي لا يعلمها أحد إلا بتعليم الله عز وجل من غير أن يعلمه إياها بشر. فأخبرهم بالماضي مثل قصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح وهود وشعيب وصالح وغيرهم، وبالمستقبلات.

وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلم من أهل الكتاب، ولا غيرهم، ولم يكن بمكة أحد من علماء أهل الكتاب ممن يتعلم هو منه، بل ولا كان يجتمع بأحد منهم يعرف اللسان العربي، ولا كان هو يحسن لسانا غير العربي، ولا كان يكتب كتابا، ولا يقرأ كتابا مكتوبا.

ولا سافر قبل نبوته إلا سفرتين: سفرة وهو صغير مع عمه أبي طالب لم يفارقه، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ولا غيرهم، وسفرة أخرى وهو كبير مع ركب من قريش لم يفارقهم، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب.

وأخبر من كان معه بأخبار أهل الكتاب بنبوته مثل إخبار بحيرى الراهب بنبوته، وما ظهر منه مما دلهم على نبوته، ولهذا تزوجت به خديجة قبل نبوته لما أخبرت به من أحواله.

وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر، ولكن المقصود هنا: التنبيه بأن محمدا صلى الله عليه وسلم له معجزات كثيرة، مثل نبع الماء من بين أصابعه غير مرة، ومثل تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الخلق العظيم، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخلق الكثير.

وهذا ما جرى غير مرة له ولأمته من الآيات ما يطول وصفه، فكان بعض أتباعه يحيي الله له الموتى من الناس والدواب، وبعض أتباعه يمشي بالعسكر الكثير على البحر حتى يعبروا إلى الناحية الأخرى، ومنهم من ألقي في النار، فصارت عليه بردا وسلاما، وأمثال ذلك كثير.

ولكن المقصود هنا ذكر بعض ما في القرآن من أنه كان يخبرهم بالأمور الماضية خبرا مفصلا لا يعلمه أحد إلا أن يكون نبيا، أو من أخبره نبي وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحد من البشر، وهذا مما قامت به الحجة عليهم، وهم مع قوة عداوتهم له وحصرهم على ما يطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعنا يقبل منهم، وكان علم سائر الأمم بأن قومه المعادين له المجتهدين في الطعن عليه لم يمكنهم أن يقولوا: إن هذه الغيوب علمها إياه بشر، فوجب على جميع الخلق أن هذا لم يعلمه إياها بشر ; ولهذا قال تعالى: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا} [هود: 49] .

فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه، وقومه تقر بذلك، ولم يتعلم من أحد غير قومه ; ولهذا زعم بعضهم أنه تعلم من بشر ظهر كذبه لكل أحد، كما قال تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم - إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون - إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون - وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون - قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين - ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين} [النحل: 98 - 103] .

فكان بمكة رجل أعجمي مملوك لبعض قريش، فادعى بعض الناس أن محمدا كان يتعلم من ذلك الأعجمي، فبين الله أن هذا كذب ظاهر، فإن ذلك رجل أعجمي لا يمكنه أن يتكلم بكلمة من هذا القرآن العربي، ومحمد صلى الله عليه وسلم عربي لا يعرف شيئا من ألسنة العجم، فمن كلمه بغير العربية لا يفقه كلامه، فلا ذلك الرجل يحسن التكلم بالعربية، ولا محمد صلى الله عليه وسلم يفهم كلاما بغير العربية، فلهذا قال تعالى: {لسان الذي يلحدون إليه} [النحل: 103] . أي: يميلون إليه ويضيفون إليه أنه علم محمدا صلى الله عليه وسلم: {أعجمي وهذا لسان عربي مبين} [النحل: 103] .

وكذلك قال بعض الناس عن القرآن: {إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون} [الفرقان: 4] .

قال تعالى: {فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا - قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما} [الفرقان: 4 - 6] .

فبين سبحانه أن قول هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعدائه فضلا عن أوليائه، فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحد يعينه على ذلك، وليس في قومه، ولا في بلده من يحسن ذلك ليعينه عليه ; فلهذا قال تعالى {فقد جاءوا ظلما وزورا} [الفرقان: 4] .

فإن جميع أهل بلده وقومه المعادين له يعلمون أن هذا ظلم له وزور، ولهذا لم يقل هذا أحد من عقلائهم المعروفين، وكذلك قولهم: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، فإن قومه المكذبين له يعلمون أنه ليس عنده من يملي عليه كتابا، وقد بين ما يظهر كذبهم بقوله {قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض} [الفرقان: 6] .

فإن في القرآن من الأسرار ما لا يعلمه بشر إلا بإعلام الله إياه، فإن الله يعلم السر في السماوات والأرض، ثم لما تبين بطلان قولهم هذا، ذكر ما قدحوا به في نبوته فقال تعالى: وقالوا {مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا - أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا} [الفرقان: 7 - 8] .

فهذا كلام المعارضين له الذين أنكروا أكله ومشيه في الأسواق التي يباع فيها ما يؤكل وما يلبس، وقالوا: هلا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا، أو يستغني عن ذلك بكنز ينفق منه أو جنة يأكل منها؟ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا.

قال تعالى: {انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} [الإسراء: 48] .

يقول مثلوك بالكاذب والمسحور والناقل عن غيره، وكل من هذه الأقوال يظهر كذبه لكل من عرفك ; ولهذا قال تعالى {فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} [الإسراء: 48] والضال: الجاهل العادل عن الطريق، فلا يستطيع الطريق الموصلة إلى المقصود، بل ظهر عجزهم وانقطاعهم في المناظرة.

وقال تعالى: {وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى} [طه: 133] .

فإنه أتاهم بجلية ما في الصحف الأولى، كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئا، فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبي أو من أخبره نبي، وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه نبي، وتبين ذلك لسائر الأمم ; فإنه إذا كان قومه المعادون وغير المعادين له مقرين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك، صار هذا منقولا بالتواتر، وكان مما أقر به مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن.

فهذه الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك، وقد أخبر بالغيوب المستقبلة وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر كما قال تعالى: {غلبت الروم في أدنى الأرض} [الروم: 2] .

ثم قال: {الم - غلبت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون - بنصر الله ينصر من يشاء} [الروم: 1 - 5] .

وقال تعالى: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين - فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا} [البقرة: 23 - 24] .

فأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل، وكان كما أخبر.

وقال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الإسراء: 88] .

فأخبر أنه لا يقدر الإنس والجن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهذا الخبر قد مضى له أكثر من سبعمائة سنة، ولم يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وقال عن الكفار وهو بمكة: {سيهزم الجمع ويولون الدبر} [القمر: 45] .

وظهر تصديق ذلك يوم بدر وغيره، وبعد ذلك بسنين كثيرة.

وقال تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا} [النور: 55] .

وكان الأمر كما وعده وظهر تصديق ذلك بعد سنين كثيرة، وكذلك قوله: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا} [الفتح: 28] .
فأظهر الله ما بعثه به بالآيات والبرهان واليد والسنان.
وقال تعالى: {قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد} [آل عمران: 12] .
فكان كما أخبرهم غلبوا في الدنيا كما شاهده الناس، وهذا يصدق الخبر الأخير وهو أنهم يحشرون إلى جهنم وبئس المهاد.
وقد أيده تأييدا لا يؤيد به إلا الأنبياء، بل لم يؤيد أحد من الأنبياء كما أيد به، كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع، وجعله سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره.
وكل من أيده الله من المدعين للنبوة لم يكن إلا صادقا كما أيد نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان، بل وأيد شعيبا وهودا وصالحا، فإن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وهذا هو الواقع، فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة فهذه عادة الله وسنته يعرف بها ما يصنع، ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب عليه تأييدا لا يمكن أحدا معارضته، وهكذا أخبرت الأنبياء قبله أن الكذاب لا يتم الله أمره ولا ينصره ولا يؤيده فصار هذا معلوما من هذه الجهات ; ولهذا أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله في الأمم الماضية من جعل العاقبة للأنبياء وأتباعهم، وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم.
قال تعالى: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [غافر: 51] .
وقال تعالى: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين - إنهم لهم المنصورون - وإن جندنا لهم الغالبون} [الصافات: 171 - 173] .
وقال تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب} [غافر: 5] .
وقال تعالى: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز - الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور - وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير - فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد - أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} [الحج: 40 - 46] .
وقال تعالى: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} [الروم: 9] ثم {كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون} [الروم: 10] .
وقال تعالى: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد - كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب} [غافر: 4 - 5] .
وقال تعالى: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق - ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب} [غافر: 21 - 22] .
وقال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون - فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين - فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون} [غافر: 82 - 85] .
وقال تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب} [ص: 12] .
وقال تعالى: {وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون} [الشعراء: 5] .
فأخبر بأن المكذبين له سيأتيهم في المستقبل أخبار القرآن الذي استهزءوا به، وبين أن ما أخبرهم به حق بوقوع الخبر مطابقا للخبر، وكان الأمر كذلك ومثله قوله: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد} [فصلت: 53] .

أخبر أنه سيريهم في أنفسهم وفي الآفاق ما يبين أن القرآن حق بأن يروا ما أخبر به كما أخبر به، ثم قال: {أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد} [فصلت: 53] .
فإنه قد يشهد للقرآن بأنه حق بالآيات البينات والبراهين الدالة على صدقه التي تتبين بشهادة الرب تعالى بأنه حق، فلا يحتاج مع الشهادة الحاضرة إلى انتظار الآيات المستقبلة.
وقال تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر - وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر - وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر - ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر - حكمة بالغة فما تغن النذر} [القمر: 1 - 5] .
أخبر باقتراب الساعة وانشقاق القمر، وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه وتواترت به الأخبار، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه السورة في المجامع الكبار مثل الجمع والأعياد ; ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار، وكل الناس يقر ذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوما عند الناس عامة. ثم ذكر حال الأنبياء ومكذبيهم، فقال: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر - فدعا ربه أني مغلوب فانتصر - ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر - وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر - وحملناه على ذات ألواح ودسر - تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر - ولقد تركناها آية فهل من مدكر} [القمر: 9 - 15] .
فأخبر أنه أبقى السفن آية على قدرة الرب وعلى ما جرى لنوح مع قومه، ثم قال: فكيف كان عذابي لمن كذب ونذري؟ وكذلك ذكر قصة عاد وثمود ولوط وغيرهم، يقول في عقب كل قصة: فكيف كان عذابي ونذر؟ ونذره وإنذاره وهو ما بلغته عنه الرسل من الإنذار، وكيف كانت عقوبته للمنذرين.
والإنذار: هو الإعلام بالمخوف، فتبين بذلك صدق ما أخبرت به الرسل من الإنذار وشدة عذابه لمن كذب رسله، وذكر قصة فرعون فقال: {ولقد جاء آل فرعون النذر - كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر - أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر - أم يقولون نحن جميع منتصر - سيهزم الجمع ويولون الدبر} [القمر: 41 - 45] .
وذكر في قصة محمد صلى الله عليه وسلم مع الناس أنواعا من ذلك فقال: {قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} [آل عمران: 13] .
وقال تعالى: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار - ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب} [الحشر: 2 - 3] .
ومثل هذا كثير في القرآن من ذكر دلائل النبوة وأعلام الرسالة ليس هذا موضع بسطه، وإنما المقصود هنا التنبيه على جنس ذلك. وما يذكره بعض أهل الكتاب أو غيرهم من أنه نصر فرعون ونمرود وسنحاريب وجنكسان وغيرهم من الملوك الكافرين جوابه ظاهر، فإن هؤلاء لم يدع أحد منهم النبوة، وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادة الله وطاعته، ومن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، بخلاف من ادعى أن الله أرسله بذلك ; فإنه لا يكون إلا رسولا صادقا ينصره الله ويؤيده وينصر أتباعه، ويجعل العاقبة لهم، أو يكون كذابا فينتقم الله منه، ويقطع دابره، ويتبين أن ما جاءه به ليست من الآيات والبراهين التي لا تقبل المعارضة، بل هي من جنس مخارق السحرة والكهان والكذابين التي تقبل المعارضة، فإن معجزات الأنبياء من خواصها أنه لا يقدر أحد أن يعارضها ويأتي بمثلها، بخلاف غيرها فإن معارضتها ممكنة فيبطل دلالتها.
والمسيح الدجال: يدعي الإلهية، ويأتي بخوارق، ولكن نفس دعواه الإلهية دعوى ممتنعة في نفسها، ويرسل الله عليه المسيح ابن مريم فيقتله ويظهر كذبه، ومعه ما يدل على كذبه من وجوه:
منها: أنه مكتوب بين عينيه كافر.
ومنها: أنه أعور، والله ليس بأعور.
ومنها: أن أحدا لن يرى ربه حتى يموت، ويريد أن يقتل الذي قتله أولا فيعجز عن قتله.
فمعه من الدلائل الدالة على كذبه ما يبين أن ما معه ليس آية على صدقه، بخلاف معجزات الأنبياء، فإنه لا يمكن أحد من الإنس والجن أن يأتي بنظيرها ولا يبطلها مثل قلب العصا حية لموسى، وإخراج ناقة لصالح من الأرض، وإحياء الموتى للمسيح، وانشقاق القمر وإنزال القرآن وغير ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم، فإن المشركين لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم آية واقترحوا عليه انشقاق القمر فأراهم ذلك.
وقد أخبر الله تعالى بذلك في القرآن، فقال تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر - وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر - وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر - ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر - حكمة بالغة فما تغن النذر - فتول عنهم يوم يدعو الداعي إلى شيء نكر - خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر} [القمر: 1 - 7] .

ثم ذكر تعالى ما جرى قبله للمكذبين فذكر قصة قوم نوح وهود وصالح ولوط ثم فرعون، وهذه السورة كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في أعظم اجتماعات الناس عنده وهي الأعياد، والناس كلهم يسمعون ما يذكره من انشقاق القمر، وقول المكذبين أنه سحر والناس كلهم المؤمن به والمنافق والكافر يقرون على هذا لم يقل أحد منهم أن القمر لم ينشق ولا أنكره أحد.
وفي صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سأل أبا واقد الليثي ما يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأضحى والفطر، فقال: كان يقرأ فيهما بـ {ق والقرآن المجيد} [ق: 1] و {اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: 1] .
ومعلوم بالضرورة في مطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع الناس المؤمنون به إلى تكذيب ذلك فضلا عن أعدائه من الكفار والمنافقين، لا سيما وهو يقرأ عليهم ذلك في أعظم مجامعهم.
وأيضا فمعلوم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان من أحرص الخلق على تصديق الناس له واتباعهم إياه، مع أنه كان أخبر الناس بسياسة الخلق، فلو لم يكن القمر انشق لما كان يخبر بهذا، ويقرأه على جميع الخلق ويستدل به، ويجعله آية له، فإن من يكون من أقل الناس خبرة بالسياسة لا يتعمد إلى ما يعلم جميع الناس أنه كاذب به فيجعله من أعظم آياته الدالة على صدقه، ويقرأه على الناس في أعظم المجاميع.
وقال: {اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: 1] بصيغة الفعل الماضي، ولم يقل قامت الساعة، ولا ستقوم، بل قال: {اقتربت} [القمر: 1] أي دنت وقربت، و {وانشق القمر} [القمر: 1] الذي هو دليل على نبوة محمد وعلى إمكان انحراق الفلك الذي هو قيام القيامة، وهو سبحانه قرن بين خبره باقتراب الساعة وخبره بانشقاق القمر، فإن مبعث محمد صلى الله عليه وسلم هو من أشراط الساعة وهو دليل على قربها، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: بعثت أنا والساعة كهاتين، وجمع بين أصبعيه السبابة والوسطى. وقد قال تعالى: {فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها} [محمد: 18] .
وعلم الساعة أخفاها الله عن جميع خلقه، كما يذكر ذلك عن المسيح في الإنجيل، أنه لما سئل عنها فقال: إنها لا يعلمها أحد من الناس ولا الملائكة ولا الابن، وإنما يعلمها الأب وحده. وهذا مما يدل على أنه ليس هو رب العالم، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك لما سئل عنها. قال تعالى {يسألونك عن الساعة أيان مرساها - قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض} [الأعراف: 187] .
أي: خفيت على أهل السماوات والأرض: {لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون} [الأعراف: 187] .
وفي الصحيح، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله» ، فانشقاق القمر كان آية على شيئين: على صدق الرسول، وعلى مجيء الساعة وإمكان انشقاق الفلك ; فإن المنكرين لقيام القيامة الكبرى قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، وانشقاق السماوات وانفطارها سواء أقروا بالقيامة الصغرى، وأن الأرواح بعد الموت تنعم أو تعذب، كما هو قول الفلاسفة اللاإلهيين، أو أنكروا المعاد مطلقا، كما أنكر ذلك من أنكره من مشركي العرب والفلاسفة الطبيعيين، وغيرهم ينكرون انشقاق السماوات ويزعم هؤلاء الدهرية أن الأفلاك لا يجوز عليها الانشقاق، كما ذكر ذلك أرسطو وأتباعه وزعموا أن الانشقاق يقتضي حركة مستقيمة وهي ممتنعة بزعمهم في الفلك المحدد إذ لا خلاء وراءه عندهم، وهذا لو دل فإنما يدل على ذلك في الفلك الأطلس لا فيما دونه، فكيف وهو باطل؟ فإن الحركة المستقيمة هناك بمنزلة جعل الأفلاك ابتداء في هذه الأحياز التي هي فيها - سواء سمي خلاء أو لم يسم - كما هو مذكور في غير هذا الموضع.
والمقصود هنا أنه تعالى أخبر بانشقاق القمر مع اقتراب الساعة ; لأنه دليل على إمكان انشقاق الأفلاك، وانفطارها الذي هو قيام الساعة الكبرى، وهو آية على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو من أشراط الساعة، والله تعالى في كتابه يجمع بين ذكر القيامة الكبرى والصغرى، كما في سورة الواقعة ذكر في أولها القيامة الكبرى، وفي آخرها القيامة الصغرى، وذلك كثير في سور القرآن مثل سورة ق، وسورة القيامة، وسورة التكاثر، وسورة الفجر، وغير ذلك.
وقد استفاضت الأحاديث بانشقاق القمر، ففي الصحيحين، عن ابن مسعود أنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا، وفي لفظ ونحن معه بمنى، فقال كفار قريش سحركم ابن أبي كبشة، فقال رجل منهم: إن محمدا إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر، هل رأوا هذا؟ فأتوا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.
وعن أنس بن مالك أنه قال: سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما فنزلت: {اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} [القمر: 1] .
وهذا حديث صحيح مستفيض، رواه ابن مسعود وأنس بن مالك وابن عباس، وهو أيضا معروف عن حذيفة، قال أبو الفرج بن الجوزي والروايات في الصحيح بانشقاق القمر عن ابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنس رضي الله عنهم.

ولما زعموا أن هذا القرآن هو ألفه، قال الله تعالى: {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} [الطور: 33] .
ثم تحداهم بعشر سور فقال تعالى: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين - فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون} [هود: 13 - 14] .
ثم تحداهم بسورة واحدة فقال: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا} [البقرة: 23] .
وقال تعالى أيضا: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله} [يونس: 38] .
فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به ثم سجل على جميع الخلق العجز إلى يوم القيامة بقوله: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الإسراء: 88] .
فأخبر من ذلك الزمان أن الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يقدرون على معارضة القرآن بمثله، فعجز لفظه ومعناه ومعارفه وعلومه أكمل معجزة وأعظم شأنا، والأمر كذلك فإنه لم يقدر أحد من العرب وغيرهم مع قوة عداوتهم وحرصهم على إبطال أمره بكل طريق وقدرتهم على أنواع الكلام أن يأتوا بمثله، وأنزل الله إذ ذاك آيات بين فيها أنه رسول إليهم، ولم يذكر فيها أنه لم يرسل إلى غيرهم. فقال تعالى في سورة القصص: {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون - وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين - ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين - وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون - ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين} [القصص: 43 - 47] .
وقال في سورة السجدة: {أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون} [السجدة: 3] وقال في سورة يس: {يس - والقرآن الحكيم - إنك لمن المرسلين - على صراط مستقيم - تنزيل العزيز الرحيم - لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون} [يس: 1 - 6] .
ذكر تعالى في هذه الآيات الثلاث نعمته على هؤلاء، وحجته عليهم بإرساله، وذكر بعض حكمته في إرساله وذلك لا يقتضي أنه لم يرسل إلا لهذا، بل مثل هذا كثير معروف في لسان العرب وغيرهم.
قال تعالى: {والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون} [النحل: 8] .
ومعلوم أن في هذه الدواب منافع غير الركوب، وقال تعالى: {يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون} [غافر: 15] .
فقد أخبر أنه ينزل الملائكة بالوحي على الأنبياء ; لينذروا يوم القيامة، وذلك لا يمنع أن يكونوا نزلوا بالبشارة للمؤمنين والأمر والنهي بالشرائع.
وقال تعالى: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق: 12] .
فأخبر تعالى أنه خلق العالم العلوي والسفلي ; ليعلم العباد قدرته وعلمه، ومع هذا ففي خلق ذلك له من الحكمة أمور أخرى غير علم العباد، ومثل ذلك قوله تعالى: {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم} [المائدة: 97] .
ومعلوم أن في جعل الكعبة قياما للناس والهدي والقلائد حكما ومنافع أخرى.
وقال تعالى: {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} [النجم: 31]
ومعلوم أن في ملك الله حكما أخرى غير جزاء المحسن والمسيء، وكذلك قوله: {وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون} [الجاثية: 22] .
وقال تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح} [النساء: 163] . إلى قوله: {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: 165] .
ومعلوم أن في إرسال الرسل سعادة من آمن بهم، وغيرها حكم أخرى غير دفع حجة الخلق على الله، وكذلك قوله تعالى: {كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم} [الحج: 37] .
ومعلوم أن في تسخيرها حكما ومنافع غير التكبير. وقوله: {ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم} [البقرة: 185] .

وقال تعالى: {وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار} [إبراهيم: 32] .
ومعلوم أن لله حكما في خلق الشمس والقمر، والليل والنهار، غير انتفاع بني آدم، وكذلك قوله: {هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه} [يونس: 67] .
وقوله: {وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا} [الفرقان: 62] .
وفيها حكم أخرى.
وقال: {وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: 213] .
وفي إنزال الكتاب من هدى من اهتدى به واتعاظه وغير ذلك مقاصد غير الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.
وقال تعالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين} [النحل: 38 - 39] .
ومعلوم أن في مبعث الخلق يوم القيامة مقاصد غير بيان المختلف في علم هؤلاء، ومما يبين ذلك أنه قال في الآية التي احتجوا بها: {لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم} [يس: 6] .
ومعلوم أنه لم يبعث لمجرد الإنذار، بل وليبشر من آمن به، ولأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتحليل الطيبات، وتحريم الخبائث، وغير ذلك من مقاصد الرسل، كما قال تعالى: {رسلا مبشرين ومنذرين} [النساء: 165] .
وقوله: {وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين} [الأنعام: 48] . لا ينافي كونه لم يصفهم في موضع آخر إلا بالإنذار، وقد قال: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا - قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا - ماكثين فيه أبدا - وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا - ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا} [الكهف: 1 - 5] .
وكان المسلمون مرة صلوا صلاة العيد بحضرة حصار النصارى فقام خطيبهم فخطب بهذه الآية، ولما قرأ قوله:
{ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات} [الإسراء: 9] أشار إلى جند الإيمان.
ولما قرأ قوله: {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا} [الكهف: 4] أشار إلى جند الصلبان.
وقال تعالى: {وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} [الحديد: 25] .
وفي إنزال الكتاب والميزان حكم أخرى من البشارة والإنذار وغير ذلك، وكذلك قوله: {ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا} [الكهف: 12] .
وفي بعثهم حكم أخرى بدليل قوله: {وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها} [الكهف: 21] .
وقال تعالى: {فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا - ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم} [الجن: 27 - 28] .
ومعلوم أن في ذلك مقاصد أخرى من هداية الخلق، وقيام
الحجة على من بلغهم وغير ذلك، وقوله: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} [ص: 29] .
وفيه حكم أخرى من قيام الحجة على الخلق وضلال من ضل به، ومثله قوله: {هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب} [إبراهيم: 52] .
ومعلوم أن في ذلك مقاصد أخرى من البشارة والأمر والنهي وغير ذلك، وكذلك قوله: {يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم - لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله} [الحديد: 28 - 29] .
ومعلوم أن في جزاء المؤمنين مقاصد أخرى غير علم أهل الكتاب وما معه، وقال تعالى: {وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها} [الأنعام: 92] .
ومعلوم أن فيه حكما أخرى مثل تبشير من آمن به، والأمر والنهي، وإنذار غير هؤلاء من العرب.
وقال تعالى: {إن هو إلا ذكر وقرآن مبين - لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين} [يس: 69 - 70] .
ومعلوم أن فيه حكمة أخرى غير الإنذار.
وقال تعالى: {ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين} [الأحقاف: 12] .

ومعلوم أن فيه حكمة أخرى من إنذار الخلق كلهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتبشير المؤمنين، فقال تعالى: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا - ليسأل الصادقين عن صدقهم} [الأحزاب: 7 - 8] .
ومعلوم أن في أخذ الميثاق حكما أخرى.
وقال تعالى: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما} [الفتح: 1 - 2] .
وقوله: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى} [الإسراء: 1] .
وقوله: {لنريه من آياتنا} [الإسراء: 1] .
وكذلك قوله: {وجعلنا الليل والنهار آيتين} [الإسراء: 12] إلى قوله: {لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب} [الإسراء: 12] .
وكذلك قوله: {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب} [يونس: 5] .
وفي ذلك كله حكم أخرى، وكذلك قوله: {فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا} [القصص: 8] .
وإن كانت هذه لام العاقبة، فليست العاقبة منحصرة في ذلك، بل في ذلك من الإحسان إلى موسى وتربيته وغير ذلك حكم أخرى، ومثل قوله: {وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم} [الأنعام: 137] .
وقال تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} [التوبة: 33] .
وفي إرساله حكم أخرى، وكذلك قوله: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله} [النساء: 105] .
وفي إنزاله تبشير وإنذار وأمر ونهي ووعد ووعيد وكذلك قوله في عيسى ابن مريم: {هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا} [مريم: 21] .
وكذلك قوله: {الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله} [الجاثية: 12] .
وفيه حكم أخرى كما قال في الآية الأخرى: {وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها} [النحل: 14] .
وقال: {وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون} [فاطر: 12] .
وقال تعالى {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك} [الأنعام: 112] إلى قوله: {ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون} [الأنعام: 113] .
وكذلك قوله: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} [البقرة: 143] .
وفي كونهم وسطا حكم أخرى.
وقوله: {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا} [الملك: 2] .
وفيهما حكم أخرى، وكذلك قوله: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} [الفرقان: 1] .
وفي ذلك حكم أخرى من البشارة والأمر والنهي.
وقال تعالى: {وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء} [آل عمران: 140] .
وفي ذلك حكم أخرى، ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى، لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبته، وهذا كالمناسبة في قوله: {لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم} [يس: 6] .
فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين، وأحقهم بالإنذار، فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم.
وقال تعالى: {نزل به الروح الأمين - على قلبك لتكون من المنذرين - بلسان عربي مبين} [الشعراء: 193 - 195] .
ومعلوم أنه نزل به ليكون بشيرا، وليأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات، ويحرم الخبائث، ويضع الآصار والأغلال صلى الله عليه وسلم.

[فصل: رد احتجاجهم ببعض الآيات على خصوصية الرسالة]

وأما احتجاجهم بقوله تعالى: {كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا} [البقرة: 151] .
وقوله تعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته} [آل عمران: 164] .
فهذا كقوله تعالى: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم} [التوبة: 128] .

وهذا في عمومه نزاع، فإنه إما أن يكون خطابا لجميع الناس، ويكون المراد إنا بعثنا إليكم رسولا من البشر، إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملك من الملائكة، فمن الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولا بشريا.

قال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون - ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون} [الأنعام: 8 - 9] .

وإما أن يكون الخطاب للعرب، وعلى التقديرين فإن ما تضمن ذكر إنعامه على المخاطبين بإرساله رسولا من جنسهم، وليس في هذا ما يمنع أن يكون مرسلا إلى غيرهم، فإنه إن كان خطابا للإنس كلهم، فهو أيضا مرسل إلى الجن، وليس من جنسهم، فكيف يمتنع إذا كان خطابا للعرب بما امتن به عليهم؟ أن يكون قد امتن على غيرهم بذلك، فالعجم أقرب إلى العرب من الجن إلى الإنس، وقد أخبر في الكتاب العزيز أن الجن لما سمعوا القرآن آمنوا به.

قال تعالى: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين - قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم - ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم - ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض} [الأحقاف: 29 - 32]

وقال: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا - يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا - وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا - وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا - وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا - وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا - وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا - وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا - وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا - وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا - وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا - وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا - وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا - وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا - وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا - وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا - لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا - وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا - وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا - قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا - قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا - قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا - إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا - حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا - قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا - عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا - إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا - ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا} [الجن: 1 - 28] .

ونظير هذا قوله: {وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون} [الزخرف: 44] .

وقومه قريش، ولا يمنع أنه ذكر لسائر العرب بل لسائر الناس، كما قال تعالى: {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون - وما هو إلا ذكر للعالمين} [القلم: 51 - 52] .

وقال تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} [الفرقان: 1] .

وقال تعالى: {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين - إن هو إلا ذكر للعالمين - ولتعلمن نبأه بعد حين} [ص: 86 - 88] وقال تعالى: {إنه لقول رسول كريم - ذي قوة عند ذي العرش مكين - مطاع ثم أمين - وما صاحبكم بمجنون - ولقد رآه بالأفق المبين - وما هو على الغيب بضنين - وما هو بقول شيطان رجيم - فأين تذهبون - إن هو إلا ذكر للعالمين - لمن شاء منكم أن يستقيم - وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} [التكوير: 19 - 29] .

وقال تعالى: {وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا} [النساء: 79] .

وهذا على أصح القولين، وأن المراد بقوله {وإنه لذكر لك ولقومك} [الزخرف: 44] أنه ذكر لهم يذكرونه فيهتدون به.

وقيل: أن المراد أنه شرف لهم وليس بشيء، فإن القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم وليس شرفا لجميع قومه، بل من كذب به منهم كان أحق بالذم، كما قال تعالى: {تبت يدا أبي لهب} [المسد: 1] .

وقال تعالى: {وكذب به قومك وهو الحق} [الأنعام: 66] .

بخلاف كونه تذكرة وذكرى ; فإنه تذكرة لهم ولغيرهم، كما قال تعالى: {قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين} [الأنعام: 90] .

فعم العالمين جميعهم، فقال: {وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين} [يوسف: 104] .

[فصل: قول من يقول أنه لم يقل أنه أرسل إلا إلى العرب] [إن أقروا برسالته إلى العرب]

هذا الكلام على الوجه الأول، وهو قول من يقول أنه لم يقل أنه أرسل إلا إلى العرب.
وأما الوجه الثاني: وهو أن نقول: هو ذكر أنه رسول إلى الناس كافة، كما نطق به القرآن في غير موضع، كقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا} [سبأ: 28] .
وقوله: {يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض} [الأعراف: 158] .
وقد صرح فيه بدعوة أهل الكتاب وبدعوة الجن في غير موضع، فإذا سلموا أنه ذكر ذلك ولكن كذبوه في ذلك، فإما أن يقروا برسالته إلى العرب، أو لا يقروا.
فإن أقروا بأنه رسول أرسله الله، لم يمكن مع ذلك تكذيبه كما تقدم، بل يجب الإقرار برسالته إلى جميع الخلق كما أخبر بذلك، كما تقدم أن من ذكر أنه رسول الله لا يكون إلا من أفضل الخلق وأصدقهم، أو من شر الخلق وأكذبهم، فإنه إن كان صادقا فهو من أفضلهم وإن كان كاذبا فهو من شرهم، وإذا كان الله قد أرسله - ولو إلى قرية كما أرسل يونس بن متى إلى أهل نينوى - كان من أفضل الخلق، وكان صادقا لا يكذب على الله، ولا يقول عليه إلا الحق، ولو كذب على الله ولو في كلمة واحدة لكان من الكاذبين، لم يكن من رسل الله الصادقين، فإن الكاذب لا يكذب في كل شيء، بل في البعض، فمن كذب على الله في كلمة واحدة، فقد افترى على الله الكذب، وكان من القسم الكاذبين في دعوى الرسالة لا من الصادقين.
وأيضا فإن مقصود الرسالة تبليغ رسالات الله على وجهها، فإذا خلط الكذب بالصدق لم يحصل مقصود الرسالة.
وأيضا فإذا علم أنه كذب في بعضها لم يتميز ما صدق فيه مما كذب فيه إلا بدليل آخر غير رسالته، فلا يحصل المقصود برسالته.
ولهذا أجمع أهل الملل قاطبة على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله تبارك وتعالى لم يقل أحد قط أن من أرسله الله يكذب عليه، وقد قال تعالى ما يبين أنه لا يقر كاذبا عليه، قال تعالى: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل - لأخذنا منه باليمين - ثم لقطعنا منه الوتين - فما منكم من أحد عنه حاجزين} [الحاقة: 44 - 47] .
وقال تعالى: {أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك} [الشورى: 24] .
ثم قال تعالى: {ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته} [الشورى: 24] .
فقوله تعالى: {ويمح الله الباطل ويحق الحق} [الشورى: 24] كلام مستأنف، ليس داخلا في جواب الشرط، فإنه لو كان معطوفا على جواب الشرط، لقال ويحق الحق بالكسر لالتقاء الساكنين، كما في قوله {قم الليل} [المزمل: 2] .
فلما قال {ويحق الحق} [الشورى: 24] بالضم دل على أنه جملة مستأنفة أخبر فيها أنه تعالى يمحو الباطل كباطل الكاذبين عليه، ويحق الحق كحق الصادقين عليه، فمحو الباطل نظير إحقاق الحق، ليس مما علق بالمشيئة، بل لا بد منه، بخلاف الختم على قلبه، فإنه معلق بالمشيئة، ولا يجوز أن يعلق بالمشيئة محو الباطل كتعليق الختم، بل يقذف بالحق على الباطل فيدمغه.
وقال تعالى في صيانته وإحكامه لما تبلغه رسله: {وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم - ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد - وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم} [الحج: 52 - 54] .
وأيضا فإذا لم يكن أرسل إلا إلى العرب، وقد دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وكفرهم إذا لم يؤمنوا به، وجاهدهم، وقتل مقاتلهم، وسبى ذرياتهم، كان ذلك ظلما لا يفعله إلا من هو من أظلم الناس، ومن كان نبيا قد أرسله الله فهو منزه عن هذا وهذا.
فالإقرار برسالته إلى العرب دون غيرهم - مع ما ظهر من عموم دعوته للخلق كلهم - قول متناقض ظاهر الفساد، وكل ما دل عليه أنه رسول، فإنه يستلزم رسالته إلى جميع الخلق، وكل من اعترف بأنه رسول لزمه الاعتراف بأنه رسول إلى جميع الخلق، وإلا لزم أن يكون الله أرسل رسولا يفتري عليه الكذب، ويقول للناس: إن الله أمركم باتباعي، وأمرني بجهادكم إذا لم تفعلوا، وهو كاذب في ذلك، ومعلوم أن كل ما دل على أن الله أرسله فإنه يدل على أنه صادق في الرسالة وإلا فلا، فالرسول الكاذب لا يحصل به مقصود الرسالة، بل يكون من جملة المفترين على الله الكذب، وأولئك ليسوا من رسل الله، ولا يجوز تصديقهم في قولهم: إن الله أرسلهم.

[فصل: إن لم يقروا برسالته إلى العرب]

وإما أن لا يقروا برسالته إلى العرب ولا غيرهم بل قالوا فيه ما كان يقوله مشركو العرب من أنه شاعر أو ساحر أو مفتر كاذب ونحو ذلك فيقال: لهم على هذا التقدير فدليلكم أيضا باطل ولا يجوز أن تحتجوا بتقدير تكذيبكم لمحمد - صلى الله عليه وسلم - بشيء من كلام الأنبياء قبله سواء صدقتم محمدا - صلى الله عليه وسلم - في جميع ما يقوله: أو في بعضه أو كذبتموه فدليلكم باطل فيلزم بطلان دينكم على كل تقدير وما ثبت بطلانه على كل تقدير فهو باطل في نفس الأمر فيثبت أنه باطل في نفس الأمر وذلك أنكم إذا كذبتم محمدا لم يبق لكم طريق تعلمون به صدق غيره من الأنبياء فيمتنع مع تكذيبه القول بصدق

غيره بل من اعتقد كذبه وصدق غيره لم يكن عالما بصدق غيره بل يكون مصدقا لهم بغير علم وإذا لم يكن عالما بصدقهم لم يجز احتجاجه قط بأقوالهم بل ذلك قول منه بلا علم ومحاجة فيما لا علم له بها، فإن الدلائل الدالة على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى ومعجزاته أعظم من معجزات غيره والكتاب الذي أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به غيره والشريعة التي جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى - عليهما السلام - وأمته أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو في القرآن أو مثله أو منه وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل فما من مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن به على محمد صلى الله عليه وسلم إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى.

وهذه جملة مبسوطة في موضع آخر لم نبسطها هنا ; لأن جواب كلامهم لا يحتاج إلى ذلك فيمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى - عليهما السلام - مع التكذيب بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا يفعل ذلك إلا من هو من أجهل الناس وأضلهم أو من أعظمهم عنادا واتباعا لهواه وذلك أن هؤلاء القوم احتجوا بما نقلوه عن الأنبياء ولم يذكروا الأدلة الدالة على صدقهم بل أخذوا ذلك مسلما وطلبوا أن يحتجوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله وبما نقلوه عنه على صحة دينهم

(6/2)

وهذه حجة داحضة سواء صدقوه أو كذبوه، فإن صدقوه بطل دينهم وإن كذبوه بطل دينهم، فإنهم إن صدقوه فقد علم أنه دعاهم وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته كما دعا المسيح وموسى وغيرهما من الرسل وأنه أبطل ما هم عليه من الاتحاد وغيره وكفرهم في غير موضع ولهذا كان مجرد التصديق بأن محمدا رسول الله ولو إلى العرب يوجب بطلان دين النصارى واليهود وكل دين يخالف دينه، فإن من كان رسولا لله، فإنه لا يكذب على الله ومحمد - صلى الله عليه وسلم - قد علم منه أنه دعا النصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كما دعا غيرهم وأنه كفر من لم يؤمن به ووعده النار وهذا متواتر عنه تواترا تعلمه العامة والخاصة وفي القرآن من ذلك ما يكثر ذكره كما قال - تعالى -: {لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة} [البينة: 1] (1) {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة} [البينة: 2] (2) {فيها كتب قيمة} [البينة: 3] (3) {وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة} [البينة: 4] (4) {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} [البينة: 5] (5) {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية} [البينة: 6] (6) {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية} [البينة: 7] (7) {جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} [البينة: 8]

وقال - تعالى -: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} [آل عمران: 18] (18) {إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب} [آل عمران: 19] (19) {فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد} [آل عمران: 20] .

وقد ذكر كفر اليهود والنصارى في غير موضع كقوله - تعالى -: عن النصارى {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا} [المائدة: 17] .

وقال - تعالى -: أيضا {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار} [المائدة: 72] (72) {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم} [المائدة: 73] (73) {أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم} [المائدة: 74] (74) {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون} [المائدة: 75] (75) {قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم} [المائدة: 76] (76) {قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] .

وقال - تعالى -: {ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا} [النساء: 171] (171) {لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا} [النساء: 172] (172) {فأما الذين آمنوا وعملوا

الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا} [النساء: 173] (173) {ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا} [النساء: 174] (174) {فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما} [النساء: 175]
وقال - تعالى -: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [التوبة: 30] (30) {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] .
وقال - تعالى -: {وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب} [المائدة: 116] (116) {ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد} [المائدة: 117] .
فقد قال - تعالى -: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} [المائدة: 17] في الموضعين.
وقال - تعالى -: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} [المائدة: 73] وقال - تعالى -: {ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم} [النساء: 171] .
وقال - تعالى -: {وقالت النصارى المسيح ابن الله} [التوبة: 30] .
والنصارى قالت الأقوال الثلاثة فذكر الله عنهم هذه الأقوال لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة منهم وهذا قول طائفة منهم.
كما ذكره طائفة من المفسرين كابن جرير الطبري والثعلبي وغيرهما ثم تارة يحكون عن اليعقوبية أن عيسى هو الله
وعن النسطورية أنه ابن الله وعن المريوسية أنه ثالث ثلاثة وتارة يحكون عن النسطورية أنه ثالث ثلاثة وعن الملكية أنه الله
ويفسرون قولهم: ثالث ثلاثة بالآب والابن وروح القدس.
والصواب أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى المشهورة الملكية واليعقوبية والنسطورية، فإن هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم الثلاثة الآب والابن وروح القدس، فتقول إن الله ثالث ثلاثة وتقول عن المسيح أنه الله وتقول أنه ابن الله وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التي تتضمن ذلك وهو قولهم:
نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل خالق السماوات والأرض كل ما يرى وما لا يرى وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب
قبل كل الدهور نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق.
وأما قوله - تعالى -: {ولا تقولوا ثلاثة} [النساء: 171] وقوله: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} [المائدة: 73] .
فقد فسروه بالتثليث المشهور عنهم المذكور في أمانتهم ومن الناس من يقول: إن الله هو المسيح ابن مريم قول اليعقوبية وقولهم ثالث ثلاثة هو قول النصارى الذين يقولون بالآب والابن والروح القدس وهم قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة وسموا كل واحد من الثلاثة بالإله والرب وقد فسره طائفة بجعلهم عيسى وأمه إلهين يعبدان من دون الله.
قال السدي في قوله - تعالى -: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} [المائدة: 73] .
قال: قالت النصارى إن الله هو المسيح وأمه فذلك قوله: {أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} [المائدة: 116]
وقد قيل قول ثالث أغرب من ذلك عن أبي صخر قال {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} [المائدة: 73] قال: هو قول اليهود عزير ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة وهذا ضعيف وقد ذكر سعيد بن البطريق في أخبار النصارى أن منهم طائفة يقال لهم المريميون يقولون إن مريم إله وإن عيسى إله.
وأما الأول فمتوجه، فإن النصارى المتفقين على الأمانة كلهم يقولون إن الله ثالث ثلاثة والله تعالى قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك فقال - تعالى -: {ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم} [النساء: 171] فذكر سبحانه في هذه الآية التثليث والاتحاد ونهاهم عنهما وبين أن المسيح إنما هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.
وقال: {فآمنوا بالله ورسله} [النساء: 171] ثم قال {ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم} [النساء: 171] لم يذكر هنا أمه. وقوله - تعالى -: {وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} [النساء: 171] قال: معمر عن قتادة وكلمته ألقاها إلى مريم هو قوله: كن فكان.
وكذلك قال: قتادة ليس الكلمة صار عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى.

وكذلك قال: الإمام أحمد في مصنفه الذي صنفه في كتابه في الرد على الجهمية وذكره عنه الخلال والقاضي أبو يعلى قال: أحمد
ثم إن الجهم ادعى أمرا فقال: إنا وجدنا في كتاب الله آية تدل على أن القرآن مخلوق قلنا: أي آية قال: قول الله {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته} [النساء: 171] فقلنا: إن الله منعكم الفهم في القرآن عيسى - عليه السلام - تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن ; لأن عيسى يجري عليه نسمة ومولود وطفل وصبي وغلام يأكل ويشرب وهو يخاطب بالأمر والنهي يجري عليه الوعد والوعيد هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال عيسى؟ ولكن المعنى في قوله - جل ثناؤه - {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} [النساء: 171] فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال: له كن فكان عيسى بـ كن وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان فالكن من الله قوله: وليس الكن مخلوقا وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته ; لأن الكلمة مخلوقة. وقالت النصارى روح الله من ذات الله وكلمة الله من ذات الله كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب وقلنا نحن إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة.
قال أحمد وأما قوله - جل ثناؤه - {وروح منه} [النساء: 171] يقول من أمره كان الروح فيه كقوله: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه} [الجاثية: 13] يقول من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله خلقهم الله كما يقال: عبد الله وسماء الله، وفي نسخة روح يملكها الله خلقها الله.
وقال: الشعبي في قوله - تعالى -: {وكلمته ألقاها إلى مريم} [النساء: 171] الكلمة حين قال: له كن فكان عيسى بـ " كن " وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان.
وقال: ليث عن مجاهد روح منه قال: رسول منه يريد مجاهد قوله: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا} [مريم: 17] (17) {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا} [مريم: 18] (18) {قال إنما أنا رسول ربك} [مريم: 19] والمعنى أن عيسى خلق من الروح وهو جبريل روح القدس سمي روحا كما سمي كلمة ; لأنه خلق بالكلمة والنصارى يقولون في أمانتهم تجسد من مريم ومن روح القدس ; لأنه كذلك في الكتب المتقدمة لكن ظنوا أن روح القدس هو صفة لله وجعلوها حياته وقدرته وهو رب، وهذا غلط منهم، فإنه لم يسم أحد من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئا من صفاته روح القدس، بل روح القدس في غير موضع من كلام الأنبياء - عليهم السلام - يراد بها ما ينزله الله على قلوب الأنبياء كالوحي والهدى والتأييد ويراد بها الملك
وهكذا في تفسير ابن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا: قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه فلما سمع عيسى ذلك قال اللهم أنت ربي وأنا من روحك خرجت وبكلمتك خلقتني ولم آتهم من تلقاء نفسي وذكر تمام الحديث.
وقد قال - تعالى -: {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين} [الأنبياء: 91] وقال - تعالى -: {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا} [التحريم: 12] فهذا يوافق قوله - تعالى -: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا} [مريم: 17] (17) {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا} [مريم: 18] (18) {قال إنما أنا رسول ربك} [مريم: 19] .
والمقصود هنا أنهم سواء صدقوا محمدا أو كذبوه، فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين، فإنه إن كان نبيا صادقا فقد بلغ عن الله
في هذا الكتاب كفر النصارى في غير موضع ودعاهم إلى الإيمان به وأمر بجهادهم فمن علم أنه نبي ولو إلى طائفة معينة يجب تصديقه في كل ما أخبر به وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم وإذا ثبت هذا لم يغن عنهم الاحتجاج بشيء من الكتب والمعقول، بل يعلم من حيث الجملة أن كل ما يحتجون به على صحة دينهم فهو باطل وإن لم يبين فساد حججهم على التفصيل ; لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقا كما أن المسيح - عليه السلام - لما حكم بكفر من كذبه من اليهود كان كل ما يحتج به اليهود على خلاف ذلك باطلا فكل ما عارض قول النبي - صلى الله عليه وسلم - المعصوم فهو باطل وإن كذبوا محمدا تكذيبا عاما مطلقا وقالوا ليس هو نبي أصلا ولا أرسل إلى أحد لا إلى العرب ولا إلى غيرهم بل كان كذابا امتنع مع هذا أن يصدقوا بنبوة غيره، فإن الطريق الذي يعلم به نبوة موسى وعيسى يعلم به نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بطريق الأولى فإذا قالوا: علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا قيل لهم معجزات محمد - صلى الله عليه وسلم - أعظم وتواترها أبلغ والكتاب الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - أكمل وأمته أفضل وشرائع دينه أحسن وموسى جاء بالعدل وعيسى جاء بتكميلها بالفضل وهو - صلى الله عليه وسلم - قد جمع في شريعته بين العدل والفضل.
فإن ساغ لقائل أن يقول هو مع هذا كاذب مفتر كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك. فيبطل بتكذيبهم محمدا - صلى الله عليه وسلم جميع ما معهم من النبوات إذ حكم أحد الشيئين حكم مثله فكيف بما هو أولى منه؟ فلو قال قائل إن

هارون ويوشع وداود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبيا أو أن داود وسليمان ويوشع كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبيا. أو قال ما تقوله السامرة: أن يوشع كان نبيا ومن بعده كداود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء. أو قال ما يقوله اليهود: إن داود وسليمان
وأشعيا وحبقوق ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء والمسيح بن مريم لم يكن نبيا كان هذا قولا متناقضا معلوم البطلان، فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوة ممن أثبتوها له ودلائل نبوة الأكمل أفضل فكيف يجوز إثبات النبوة للنبي المفضول دون الفاضل وصار هذا كما لو قال قائل أن زفر وابن القاسم والمزني والأثرم كانوا فقهاء وأبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد لم يكونوا فقهاء أو قال: إن الأخفش وابن الأنباري والمبرد كانوا نحاة والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة أو قال: إن صاحب الملكي والمسبحي ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء أو قال: إن كوشيار والخرقي ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة وبطليموس ونحوه لم يكن لهم علم بالهيئة.
ومن قال: إن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء ومحمد بن عبد الله لم يكن نبيا فتناقضه أظهر وفساد قوله أبين من هذا جميعه بل وكذلك من قال: إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ومحمد ليس برسول والقرآن لم ينزل من الله فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وما جاء به من قبله، وتدبر كتابه والكتب التي قبله وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء وهذه الجملة مفصلة مشروحة في غير هذا الموضع لكن المقصود هنا التنبيه على مجامع جوابهم وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليل واحد يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم ولا حجة لهم أيضا على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء، فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح في الأصل الذي به علموا صدقهم.
وأيضا فالطريق الذي به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم، فكذلك تعلم نبوة محمد بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحد من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد في كلمة مما جاء به.

[فصل: الرد على النصارى في زعمهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبشر به]
ومما ينبغي أن يعلم أن كثيرا من النصارى إنما يعتمدون في النبوات على بشارة الأنبياء بمن يأتي بعدهم فيقولون: المسيح - عليه السلام - بشرت به الأنبياء قبله بخلاف محمد - صلى الله عليه وسلم -، فإنه لم يبشر به نبي وجواب هؤلاء من وجهين.
أحدهما أن يقال: بل البشارة بمحمد - صلى الله عليه وسلم - في الكتب المتقدمة أعظم من البشارة بالمسيح وكما أن اليهود يتأولون البشارة بالمسيح على أنه ليس هو عيسى بن مريم بل هو آخر ينتظرونه وهم في الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال، فإنه الذي يتبعه اليهود ويخرج معه سبعون ألف مطيلس من يهود أصبهان ويقتلهم المسلمون معه حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وثبت أيضا في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «ينزل عيسى ابن مريم من السماء على المنارة البيضاء شرقي دمشق فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويقتل مسيح الهدى عيسى ابن مريم مسيح الضلالة الأعور الدجال على بضع عشرة خطوة من باب لد» ليتبين للناس أن البشر لا يكون إلها، فيقتل من ادعى فيه أنه الله وهو بريء مما ادعى فيه لمن ادعى في نفسه أنه الله وهو دجال كذاب، فهكذا البشارات بمحمد - صلى الله عليه وسلم - في الكتب المتقدمة، وقد يتأولها بعض أهل الكتاب على غير تأويلها، كما قد بسط في موضع آخر، فإن بسط الكلام في ذكر محمد - صلى الله عليه وسلم - في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب له موضع آخر.
الجواب الثاني: أن يقال ليس من شرط النبي أن يبشر به من تقدمه كما أن موسى كان رسولا إلى فرعون، ولم يتقدم لفرعون به بشارة وكذلك الخليل - عليه السلام - أرسل إلى نمرود ولم يتقدم به بشارة نبي إليه وكذلك نوح وهود وصالح وشعيب ولوط لم يتقدم هؤلاء بشارة إلى قومهم بهم مع كونهم أنبياء صادقين، فإن دلائل نبوة النبي لا تنحصر في أخبار من تقدمه بل دلائل النبوة منها المعجزات ومنها غير المعجزات كما قد بسط في موضع آخر وهؤلاء النصارى إنما مستند دينهم في التثليث والاتحاد وغير ذلك هو السمع وهو دعواهم أن الكتب الإلهية جاءت بذلك ليس مستندهم فيه العقل فإذا تبين أنهم مع تكذيبهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - يمتنع أن تثبت نبوة غيره امتنع استدلالهم بالسمعيات وأما العقليات، فإن تشبثوا ببعضها فهم معترفون بأن حجتهم فيها ضعيفة وأنها على نقيض مذهبهم أدل منها على مذهبهم وسنبين إن شاء الله تعالى أن لا حجة لهم في سمع ولا عقل بل ذلك كله حجة عليهم.

وأما تمثيلهم الكتاب بالوثيقة التي كتب الوفاء في ظهرها فتمثيل باطل غير مطابق ; لأن الإقرار بالوفاء إقرار بسقوط الدين ولا مناقضة بين ثبوت الدين أولا وسقوطه آخرا بالوفاء بل أمكن مع هذا دعواه وأما من يذكر أنه رسول الله فلا يمكن أن يقر بأنه رسول الله في بعض ما أنبأ به عن الله دون بعض، ولا يمكن اتباع بعض كتابه الذي ذكر أنه منزل من عند الله دون بعض، فإنه إن كان صادقا في قوله: إنه رسول الله، كان معصوما في ما يخبر به عن الله، لا يجوز أن يكذب في شيء منه لا عمدا ولا خطأ، ووجب اتباع الكتاب الذي جاء به من عند الله ولم يمكن رد شيء مما ذكر أنه جاء به من الله، وإن كان كاذبا في كلمة واحدة مما أخبر به عن الله، فهو من الكاذبين المفترين فلا يجوز أن يحتج بشيء من دينهم ولا دين غيرهم بمجرد إخباره عن الله، بل ولا بمجرد خبره وقوله وإن لم يذكر أنه خبر عن الله، كما لا يجوز مثل ذلك في سائر من عرف أنه كاذب في قوله: إني رسول الله كمسيلمة الحنفي والأسود العنسي وطليحة الأسدي والحارث الدمشقي وباباى الرومي وأمثالهم من الكذابين.

والواحد من المسلمين وإن كان الله لا يؤاخذه بالنسيان والخطأ بل والرسول أيضا وإن لم يكن يؤاخذ بالنسيان والخطأ في غير ما يبلغه عن الله عند السلف والأئمة وجمهور المسلمين، لكن ما يبلغه عن الله لا يجوز أن يستقر فيه خطأ، فإنه لو جاز أن يبلغ عن الله ما لم يقله ويستقر ذلك ويأخذه الناس عنه معتقدين أن الله قاله - ولم يقله الله - كان هذا مناقضا لمقصود الرسالة ولم يكن رسولا لله في ذلك بل كان كاذبا في ذلك وإن لم يتعمده وإذا بلغ عن الله ما لم يقله وصدق في ذلك كان قد صدق من قال على الله غير الحق، ومن تقول عليه ما لم يقله، وإن لم يكن متعمدا، ويمتنع في مثل هذا أن يصدقه الله في كل ما يخبر به عنه أو أن يقيم له من الآيات والبراهين ما يدل على صدقه في كل ما يخبر به عنه مع أن الأمر ليس كذلك ومن قامت البراهين والآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله كان صادقا في كل ما يخبر به عن الله لا يجوز أن يكون في خبره عن الله شيء من الكذب لا عمدا ولا خطأ، وهذا مما اتفق عليه جميع الناس من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم لم يتنازعوا أنه لا يجوز أن يستقر في خبره عن الله خطأ وإنما تنازعوا هل يجوز أن يقع من الغلط ما يستدركه ويبينه فلا ينافي مقصود الرسالة كما نقل من ذكر " «تلك الغرانيق العلى، وأن شفاعتها لترتجى» " هذا فيه قولان للناس: منهم من يمنع ذلك أيضا وطعن في وقوع ذلك، ومن هؤلاء من قال: إنهم سمعوا ما لم يقله فكان الخطأ في سمعهم والشيطان ألقى في سمعهم.

ومن جوز ذلك قال: إذا حصل البيان ونسخ ما ألقى الشيطان لم يكن في ذلك محذور، وكان ذلك دليلا على صدقه وأمانته وديانته، وأنه غير متبع هواه ولا مصر على غير الحق، كفعل طالب الرياسة المصر على خطئه.

وإذا كان نسخ ما جزم بأن الله أنزله لا محذور فيه، فنسخ مثل هذا أولى أن لا يكون فيه محذور، واستدل على ذلك بقوله: {وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم} [الحج: 52] (52) {ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد} [الحج: 53] (53) {وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم} [الحج: 54] وعلى كل قول فالناس متفقون على أن من أرسله الله وأقام الآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله: لم يكن ما يبلغه عنه إلا حقا وإلا كانت الآيات الدالة على صدقه دلت على صدق من ليس بصادق، وبطلان مدلول الأدلة اليقينية ممتنع.

والصدق الذي هو مدلول آيات الأنبياء وبراهينهم هو أن يكون خبره عن الله مطابقا لمخبره لا يخالفه عمدا ولا خطأ ولو قال قائل: أنا لا أسمي الخطأ كذبا أو قال: إن المخطئ لا إثم عليه في خطئه.

قيل له: هذا لا ينفع هنا، فإن الآيات دلت على أن الله أرسله ليبلغ عنه رسالاته، والله لا يرسل من يعلم أنه يخبر عنه بخلاف ما قال له، كما لا يجوز إرسال من يتعمد عليه الكذب بل الواحد من الناس لا يرسل من يعلم أنه يبلغ خلاف ما أرسله به ولو علم أنه يقول عليه ما لم يقل وأرسله مع ذلك، لكان جاهلا سفيها ليس بعليم حكيم، فكيف يجوز ذلك على أعلم العالمين وأحكم الحاكمين؟

وأيضا: فإن الآيات والبراهين دلت على صدقه في كل ما يبلغه عن الله، وأن الله مصدقه في كل ما يبلغه عنه، فيمتنع أن لا يكون صادقا في شيء من ذلك، ويمتنع أن يصدق الله في كل ذلك من لا يصدق في كل ذلك، فإن تصديق من لا يصدق كذب والكذب ممتنع على الله.

وإذا تبين أن من ذكر أنه رسول الله إما أن يكون رسولا صادقا في جميع ما يبلغه فيمتنع مع هذا تناقض أخباره؛ لأنها كلها صادقة، وإما أن يكون غير صادق ولو في كلمة فلا يكون رسولا لله، فلا يحتج بشيء مما يخبر به عن الله كان تمثيل من ذكر أنه رسول الله بالمقر باستيفاء وثيقته تمثيلا باطلا، فإن صاحب الوثيقة الذي أقر بوفائها بعد، كانت له حجة ثم استوفاها.

ومن ذكر أنه رسول الله إما صادق وإما كاذب، وعلى التقديرين لا يجوز أن يحتج ببعض كلامه دون بعض، وإذا قال القائل: مقصودي أبين أنه متناقض، وأن نفس كلامه يبين أنه لم يرسل إلينا، وأن ديننا حق، كما أن نفس كلام الذي كان له الحق هو المقر بالوفاء، قيل: إن كان كلامه متناقضا فليس برسول، وحينئذ فلا يجوز لك أن تحتج بشيء مما بلغه عن الله بخلاف المقر

بالوفاء، فإن إقراره مقبول على نفسه، فإنه شاهد على نفسه بالوفاء، وإقرار المقر على نفسه وشهادته على نفسه مقبولة ولو كان كافرا وفاسقا، بخلاف شهادته وخبره عن الله.
فمن شبه إقرار المقر على نفسه بقول الذي يقول: إنه رسول الله، دل ذلك على غاية جهله بالقياس والاعتبار والتمثيل. فإن إقرار المقر على نفسه حجة عليه ولو كان فاسقا معروفا بالكذب، ليس هو مثل شهادة الإنسان على غيره، فإن شهادته على غيره لا تقبل إذا كان معروفا بالكذب، فكيف بمن شهد على الله بأن الله أرسله؟ فالمقر على نفسه يمكن قبول إقراره على نفسه ولا يقبل دعواه على غيره، وكذلك الشاهد قد تقبل شهادته فيما ليس هو خصما فيه ولا تقبل شهادته بما ادعاه.
وأما من يقول: إنه رسول الله، فلا يمكن أن يصدق في بعض ما يخبر به عن الله ويكذب في بعض، بل إن كان كاذبا في كلمة واحدة فليس هو رسولا لله، فلا يحتج بكلامه، وإن قدر أن الكلام في نفسه صدق لكن نسبته إلى الله أن الله أرسله به وأوحاه لا يكون صادقا فيه إذا كذب في كلمة واحدة ; لأن الله لا يرسل كاذبا.
وإن لم يكن كاذبا في كلمة واحدة وجب تصديقه في كل ما يخبر به فلا يمكن تصديقه في بعض ما يخبر به عن الله دون بعض بخلاف المقر والشاهد.
وإن كان المقصود بيان تناقضه، كان هذا احتجاجا على أنه ليس برسول فلا ينفعهم ذلك مع أنه تبين أنه ليس بمتناقض.
وإن كان المقصود إلزام المسلمين به، فقد بينا أنه لا يلزمهم من وجوه متعددة، فهذا بيان أنهم لا يجوز لهم الاحتجاج بشيء من كلام محمد - صلى الله عليه وسلم - سواء صدقوه أو كذبوه.
ثم يقال لهم ثانيا: في الجواب عن التمثيل بالوثيقة: إن الإقرار بالاستيفاء يناقض استيفاء الحق، وأما القرآن الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فليس في إخباره بأنه أرسل إلى قريش ثم إلى العرب ما يناقض إخباره بأنه أرسل إلى جميع الناس: أهل الكتاب وغيرهم.
كما أنه ليس في إخباره أنه أرسل إلى بني إسرائيل ومخاطبة الله لهم بقوله: {يابني إسرائيل} [طه: 80] ما يمنعه أن يكون مرسلا إلى اليهود من غير بني إسرائيل وإلى النصارى والمشركين وهو لم يقل قط: إني لم أرسل إلا إلى العرب ولا قال ما يدل على هذا بل ثبت عنه بالنقل المتواتر أنه قال: إنه مرسل إلى جميع الجن والإنس إلى أهل الكتاب وغيرهم، ولو قدر أنه قال: أنه لم يرسل إلا إلى العرب ثم قال: إني أرسلت إلى أهل الكتاب لكان قد أرسل إلى أهل الكتاب بعد إرساله إلى العرب كما قال: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير} [الأنعام: 145] وقال أيضا: {إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير} [النحل: 115] ثم إنه بعد هذا حرم الله أشياء فلم يكن بين نفي تحريمها في الزمن الأول وإثبات تحريمها في الزمن الثاني منافاة.
ولكن يظهر الدين إذا أوجب شيئا ثم نسخ إيجابه كما نسخ إيجاب الصدقة بين يدي النجوى ففي مثل هذا يتمسك بالنص الناسخ دون المنسوخ كما يتمسك بالإقرار بالوفاء الناسخ للإقرار بالدين.

[فصل: إبطال استدلال النصارى على صحة دينهم بما جاء عن الأنبياء السابقين]

[طرق إثبات نبوة الأنبياء السابقين هي إثبات لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم]
وقد ذكرنا أنه لا يجوز أن يحتجوا بشيء من القرآن وما نقل عن محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا مع التصديق برسالته وأنه مع التكذيب برسالته لا يمكن الإقرار بنبوة غيره ولا الاحتجاج بشيء من كلام الأنبياء فتكذيبهم يستلزم تكذيبهم بغيره فإذا ثبتت نبوة غيره ثبتت نبوته وذلك يستلزم بطلان دينهم فكان صحة دليلهم يستلزم بطلان المدلول وفساد المدلول يستلزم فساد الدليل، فإن الدليل ملزوم للمدلول عليه وإذا تحقق الملزوم تحقق اللازم وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم فإذا ثبت الدليل ثبت المدلول عليه وإذا فسد المدلول عليه لزم فساد الدليل، فإن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح.
فإن كان محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لزم بطلان دينهم وإذا بطل دينهم لم يجز أن يقوم دليل صحيح على صحته وإن لم يكن رسول الله لم يجز الاستدلال بقوله فثبت أن استدلالهم بقوله باطل على التقديرين.
ونحن نذكر هنا أنه لا يجوز استدلالهم بقول أحد من الأنبياء أو الرسل على صحة دينهم وأيضا، فإن الذين احتجوا بقولهم مثل موسى وداود والمسيح وغيرهم إما أن يكونوا عرفوا أنهم أنبياء بدليل على نبوتهم كالاستدلال بآياتهم وبراهينهم التي تسمى بالمعجزات وإما أن يكونوا قد اعتقدوا ذلك بلا علم ولا دليل وإما أن يكونوا احتجوا بذلك على المسلمين لأنهم يسلمون نبوة هؤلاء وعلى كل تقدير لا يصح استدلالهم بقولهم.
أما على الأول فلأنه أي طريق ثبتت بها نبوة واحد من هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام -، فإنه تثبت نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بمثلها وأعظم منها وحينئذ، فإن لم يقروا بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - مع أن كل دليل يدل على نبوة موسى وداود وعيسى وغيرهم يدل على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لزم أن يكونوا قد نقضوا دليلهم فجعلوه قائما مع انتفاء مدلوله وإذا انتقض الدليل بطلت دلالته، فإنه إنما يدل إذا كان مستلزما للمدلول.

فإذا كان تارة يوجد مع المدلول وتارة لا يوجد لم يكن مستلزما له فلا يكون دليلا؛ فإن من جعل المعجزات دليلا على نبوة نبي وقال: المعجزة هي الفعل الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم من المعارضة، ونحو ذلك مما يذكر في هذا المقام وجعلوا ذلك دليلا على نبوة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء.
قيل له: إن كان هذا دليلا فهو دليل على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وإن لم يكن دليلا لم يكن دليلا على نبوة موسى وعيسى، فإنه قد ثبت عن محمد من المعجزات ما لم يثبت مثله عن غيره ونقل معجزاته متواتر أعظم من نقل معجزات عيسى وغيره فيمتنع التصديق بآياته مع التكذيب بآيات محمد - صلى الله عليه وسلم.
وإن قالوا: معجزات محمد - صلى الله عليه وسلم - لم تتواتر عندنا قيل: ليس من شرط التواتر أن يتواتر عند طائفة معينة بل هذا كما يقول المشركون والمجوس وغيرهم لم يتواتر عندنا معجزات موسى والمسيح - عليهما السلام - وإنما تتواتر أخبار كل إنسان عند من رأى المشاهدين له أو رأى من رآهم وهلم جرا.
ومعلوم أن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - الذين رأوه ونقلوا معجزاته أضعاف أصحاب المسيح - عليه السلام - والتابعون الذين نقلوا ذلك عن الصحابة كذلك فيلزم من التصديق بمعجزات المسيح - عليه السلام - التصديق بمعجزات محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن التكذيب بمعجزات محمد التكذيب بمعجزات المسيح.
وإن قالوا: عرفت نبوة المسيح ببشارات الأنبياء قبله قيل: وفي الكتب المتقدمة من البشارات بمحمد - صلى الله عليه وسلم - مثل ما فيها من البشارات بالمسيح وأكثر كما سيأتي بعضها إن شاء الله تعالى.
وإن تأولوا تلك البشارات بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بما يمنع دلالتها قيل لهم واليهود يتأولون بشارات المسيح بما يمنع دلالتها على المسيح.
فإذا قالوا: تلك التأويلات باطلة من وجوه معروفة، بين لهم أن هذه باطلة أيضا بمثل تلك الوجوه وأقوى فما من جنس من الأدلة يدل على نبوة موسى والمسيح إلا ودلالته على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - أقوى وأكثر فيلزم من ثبوت نبوة موسى والمسيح ثبوت نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن الطعن في نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - الطعن في نبوة موسى والمسيح.
وإن قالوا: إن المسيح إله قيل لهم: ثبوت كونه إلها لو كان ممكنا أبعد من ثبوت كونه رسولا فكيف إذا كان ممتنعا؟ .
وذلك أنه ليس معهم ما يدل على إلهيته إلا ما ينقلونه من أقوال الأنبياء أو الخوارق والخوارق لا تدل على الإلهية، فإن الأنبياء ما زالوا يأتون بالآيات الخارقة للعادة ولم تدل على إلهية أحد منهم.
وأما أقوال الأنبياء - عليهم السلام - فلا ريب أن دلالتها على رسالته ورسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - أظهر من دلالتها على إلهية المسيح فيمتنع الاحتجاج بها على إلهية المسيح دون رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - ورسالة المسيح ومتى ثبت أن محمدا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بطلت إلهية المسيح، فإنه كفر من قال: إنه الله أو ابن الله بل وكذلك متى ثبت أن المسيح رسول الله بطل كونه إلها، فإن كونه هو الله مع كونه رسول الله متناقض.

[إبطال دعوى النصارى إلهية المسيح عليه السلام]

وقولهم إنه إله بلاهوته ورسول بناسوته كلام باطل من وجوه.
منها أن الذي كان يكلم الناس إما أن يكون هو الله أو هو رسول الله، فإن كان هو الله بطل كونه رسول الله وإن كان رسول الله بطل كونه هو الله.
ولهذا لما كان الذي كلم موسى - عليه السلام - من الشجرة هو الله لم تنطق الكتب بأنه رسول الله، وهذا وارد بأي وجه فسروا الاتحاد، فإنه من المعلوم أن الناس كانوا يسمعون من المسيح كلاما بصوته المعروف وصوته لم يختلف ولا حاله عند الكلام تغيرت كما يختلف الإنسان وحاله عند الكلام إذا حل فيه الجني وإذا فارقه الجني، فإن الجني إذا تكلم على لسان المصروع ظهر الفرق بين ذلك المصروع وبين غيره من الناس بل اختلف حال المصروع وحال كلامه وسمع منه من الكلام ما يعلم يقينا أنه لا يعرفه وغاب عقله بحيث يظهر ذلك للحاضرين واختلف صوته ونغمته فكيف بمن يكون رب العالمين هو الحال فيه المتحد به المتكلم بكلامه.
فإنه لا بد أن يكون بين كلامه وصوته وكلام سائر البشر وصوتهم من الفرق أعظم من الفرق الذي بين المصروع وغير المصروع بما لا نسبة بينهما.
يبين هذا أن موسى لما سمع كلامه سمع صوتا خارقا للعادة مخالفا لما يعهد من الأصوات ورأى من الآيات الخارقة والعجائب ما يبين أن ذلك الذي سمعه لا يقدر على التكلم به إلا الله وأما المسيح فلم يكن بين كلامه وصوته مع طول عمره وكلام سائر الناس فرق يدل على أنه نبي فضلا عن أن يدل على أنه إله وإنما علم أنه نبي بأدلة منفصلة ولم يكن حاله يختلف مع أنهم يقولون: أن الاتحاد ملازم له من حين خلق ناسوته في بطن أمه مريم وإلى الأبد لا يفارق اللاهوت لذلك الناسوت أبدا وحينئذ

فمن المعلوم أن خطابه للناس إن كان خطاب رب العالمين لم يكن هو رسوله وإن كان خطاب رسوله لم يكن ذلك صوت رب العالمين.
الوجه الثاني: أن خطابه خطاب رسول ونبي كما ثبت ذلك عنه في عامة المواضع.
الثالث: أن مصير الشيئين شيئا واحدا مع بقائهما على حالهما بدون الاستحالة، والاختلاط ممتنع في صريح العقل وإنما المعقول مع الاتحاد أن يستحيلا ويختلطا كالماء مع الخمر واللبن، فإنهما إذا صار شيئا واحدا استحالا واختلطا.
الرابع: أنه مع الاتحاد يصير الشيئان شيئا واحدا فيكون الإله هو الرسول، والرسول هو الإله؛ إذ هذا هو هذا، وإن كان الإله غير الرسول فهما شيئان ومهما مثلوا به قولهم كتشبيههم ذلك بالنار في الحديد والروح في البدن، فإنه يدل على فساد قولهم:؛ فإن الحديد متى طرق أو وضع في الماء كان ذلك مصيبا للنار وكذلك البدن إذا جاع أو صلب وتألم كان ذلك الألم مصيبا للروح فيلزم أن يكون رب العالمين قد أصابه ألم الجوع والعطش وكذلك الضرب والصلب على قولهم وهذا شر من قول اليهود: أنه فقير وأنه بخيل وأنه مسه اللغوب.

[فصل: المسلمون لم يصدقوا نبوة أحد من هؤلاء إلا مع نبوة محمد صلى الله عليه وسلم]

وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين قيل لهم: أولا هذه حجة جدلية فما مستندكم فيما بينكم وبين الله في تصديق شخص وتكذيب آخر مع أن دلالة الصدق فيهما واحدة بل هي في الذي كذبتموه أظهر، فإن كانت حقا لزم تصديق من كذبتموه وفسد دينكم وإن كانت باطلة بطل استدلالكم بها على دينكم فثبت أنهم مع تكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يستقيم لهم الاستدلال بكلام أحد من الأنبياء - عليهم السلام.
وقيل لهم ثانيا: المسلمون إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بما دلهم على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن لم يكن محمد صادقا لم يعرفوا صدق هؤلاء فيبطل دليلكم وإن كان صادقا بطل دين النصارى فيبطل دليل صحته فثبت بطلان دليلهم على كل تقدير.
وقيل لهم ثالثا: المسلمون لم يصدقوا نبوة أحد من هؤلاء إلا مع نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وإن قيل أنهم عرفوا ذلك بطريق آخر، فإن الدليل الذي يدل على صدق واحد منهم يدل على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - بطريق الأولى فلا يمكنهم تصديق نبي مع تكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم.
وقيل لهم رابعا: هم إنما يصدقون موسى وعيسى اللذين بشرا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فإن كانا قد بشرا به فثبتت نبوته وإن لم يكونا بشرا به فهم لا يؤمنون إلا بالمبشرين به وبالتوراة والإنجيل اللذين هو مكتوب فيهما.
فإن قدر عدم ذلك فهم لا يسلمون وجود موسى وعيسى وتوراة وإنجيل منزلين من الله ليس فيهما ذكره - صلى الله عليه وسلم.
وإن قالوا: نحن صدقنا هؤلاء الأنبياء بلا علم لنا بصدقهم وطريق يدل على صدقهم ; لأن هذا دين آبائنا وجدناهم يعظمون هؤلاء ويقولون هم أنبياء فاتبعنا آباءنا في ذلك من غير علم وهذا هو الواقع من أكثرهم قيل فإذا كان هذا قولكم في الأنبياء وفيما شهدوا به إن كانوا شهدوا فيلزم أن لا يكونوا عالمين به بل متبعين فيه لآبائهم بغير علم بطريق الأولى وبهذا يحصل المقصود وهو أن ما أنتم عليه من اعتقاد دين النصرانية لا علم لكم ولا دليل لكم على صحته بل أنتم فيه متبعون لآبائكم كاتباع اليهود والمشركين لآبائهم.
ولا ريب أن هذا حال النصارى ولهذا سماهم الله ضلالا في قوله: {ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] وقال - تعالى -: {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم} [الكهف: 4] وقال - تعالى -: {وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم} [النساء: 157] وقال - تعالى -: {وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب} [الشورى: 14] .
ولهذا كان النصارى معروفين بالجهل والضلال كما أن اليهود معروفون بالظلم والقسوة والعناد فتبين بما ذكرناه أنه لا يمكنهم مع تكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم - في كلمة واحدة الاحتجاج بقول واحد من الأنبياء على شيء من دينهم ولا دين غيرهم.

[فصل: رد دعوى النصارى خصوصية الإسلام لكون كتابه باللسان العربي]

وأما كون القرآن أنزل باللسان العربي وحده فعنه أجوبة: أحدها: أن يقال والتوراة إنما أنزلت باللسان العبري وحده وموسى - عليه السلام - لم يكن يتكلم إلا بالعبرية وكذلك المسيح لم يكن يتكلم بالتوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعبرية وكذلك سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسان واحد بلسان الذي أنزلت عليه ولسان قومه الذين يخاطبهم أولا، ثم بعد ذلك تبلغ الكتب وكلام الأنبياء لسائر الأمم إما بأن يترجم لمن لا يعرف لسان ذلك الكتاب وإما بأن يتعلم الناس لسان ذلك الكتاب فيعرفون معانيه وإما بأن يبين للمرسل إليه معاني ما أرسل به الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليه بلسانه وإن لم يعرف سائر ما أرسل به.

وقد أخبر الله في القرآن ما قالته الرسل لقومهم وما قالوا: لهم - وأكثرهم لم يكونوا عربا - وأنزله الله باللسان العربي وحينئذ، فإن شرط التكليف تمكن العباد من فهم ما أرسل به الرسول إليهم وذلك يحصل بأن يرسل بلسان يعرف به مراده ثم جميع الناس متمكنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان أو يعرفوا معنى الكتاب بترجمة من يترجم معناه وهذا مقدور للعباد ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول إلا بتعلم اللغة التي أرسل بها وجب عليه ذلك، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب بخلاف ما لا يتم الوجوب إلا به، فإنه ليس بواجب ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها لا في الأصل ولا في التمام فلا نحتاج أن نقول ما لا يتم الواجب إلا به - وكان مقدورا للمكلف - فهو واجب، فإن ما ليس مقدورا عليه لا يكلف به العباد بل وقد يكون مقدورا عليه ولا يكلفون به.

فلما كانت الاستطاعة شرطا في وجوب الحج لم يجب تحصيل الاستطاعة بخلاف قطع المسافات، فإنه ليس شرطا في الوجوب فلهذا يجب الحج على الإنسان من المسافة البعيدة والقريبة إذا كان مستطيعا.

وجمهور الناس لا يعرفون معاني الكتب الإلهية: التوراة والإنجيل والقرآن إلا بمن يبينها ويفسرها لهم وإن كانوا يعرفون اللغة فهؤلاء يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمرهم الله به ونهاهم عنه وهذا هو طلب العلم المفروض على الخلق وكذلك ما بينه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من معاني الكتاب الذي أنزله الله عليه يجب على الخلق طلب علم ذلك ممن يعرفه إذا كان معرفة ذلك لا تحصل بمجرد اللسان.

كما يروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه إلا الله - تبارك وتعالى - فمن ادعى علمه فهو كاذب.

والله تعالى قال {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم: 4] لم يقل: وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه لكن لم يرسله إلا بلسان قومه الذين خاطبهم أولا، ليبين لقومه فإذا بين لقومه ما أراده حصل بذلك المقصود لهم ولغيرهم، فإن قومه الذين بلغ إليهم أولا يمكنهم أن يبلغوا عنه اللفظ ويمكنهم أن ينقلوا عنه المعنى لمن لا يعرف اللغة ويمكن لغيرهم أن يتعلم منهم لسانه فيعرف مراده فالحجة تقوم على الخلق ويحصل لهم الهدى بمن ينقل عن الرسول: تارة المعنى وتارة اللفظ؛ ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى، والقرآن يجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء.

وجوز بعضهم أن يقرأ بغير العربية عند العجز عن قراءته بالعربية وبعضهم جوزه مطلقا وجمهور العلماء منعوا أن يقرأ بغير العربية وإن جاز أن يترجم للتفهم بغير العربية كما يجوز تفسيره وبيان معانيه وإن كان التفسير ليس قرآنا متلوا وكذلك الترجمة وقد قال: النبي - صلى الله عليه وسلم - «نضر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» .

وقال أيضا في الحديث الصحيح «ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها طائفة أمسكت الماء فنفع الله به الناس فزرعوا وسقوا وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من تفقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» .

فدعا النبي - صلى الله عليه وسلم - لمن يبلغ حديثه وإن لم يتفقه فيه وقال: «رب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» .

وقد كان العارفون باللغة العربية حين بعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - إنما يوجدون في جزيرة العرب وما والاها كأرض الحجاز واليمن وبعض الشام والعراق ثم انتشر فصار أكثر الساكنين في وسط المعمورة العربية، حتى اليهود والنصارى الموجودون في وسط الأرض يتكلمون بالعربية كما يتكلم بها أكثر المسلمين بل كثير من اليهود والنصارى يتكلمون بالعربية أجود مما يتكلم بها كثير من المسلمين.

وقد انتشرت هذه اللغة أكثر مما انتشرت سائر اللغات حتى أن الكتب القديمة من كتب أهل الكتاب ومن كتب الفرس والهند واليونان والقبط وغيرهم عربت بهذه اللغة.

ومعرفة الكتب المصنفة بالعربية والكلام العربي أيسر على جمهور الناس من معرفة الكتب المصنفة بغير العربية، فإن اللسان العبري والسرياني والرومي والقبطي وغيرها وإن عرفه طائفة من الناس فالذين يعرفون اللسان العربي أكثر ممن يعرف لسانا من هذه الألسنة.

وأيضا فمعرفة ما أمر الله عباده أمرا عاما هو مما نقله الأمة عن نبيها - صلى الله عليه وسلم - نقلا متواترا وأجمعت عليه مثل الأمر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأنه أرسل إلى جميع الناس أميهم وغير أميهم، وإقام الصلوات الخمس وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج البيت العتيق من استطاع إليه سبيلا وإيجاب الصدق وتحريم الفواحش والظلم والأمر بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت هو ما يعرفه المسلمون معرفة عامة ولا يحتاج الإنسان في معرفة ذلك

إلى أن يحفظ القرآن بل يمكن الإنسان معرفة ما أمر الله به على لسان رسوله وإن لم يعرف اللغة العربية ويكفيه أن يقرأ فاتحة الكتاب وسورا معها يصلي بهن وكثير من الفرس والروم والترك والهند والحبشة والبربر وغيرهم لا يعرفون أن يتكلموا بالعربية الكلام المعتاد وقد أسلموا وصاروا من أولياء الله المتقين ومنهم من يحفظ القرآن كله وإذا كلم الناس لا يستطيع أن يكلمهم إلا بلسانه لا بالعربية وإذا خوطب بالعربية لم يفقه ما قيل له.

الوجه الثاني: أن المسيح - عليه السلام - كان لسانه عبريا وكذلك ألسنة الحواريين الذين اتبعوه أولا ثم أنه أرسلهم إلى الأمم يخاطبونهم ويترجمون لهم ما قاله المسيح - عليه السلام - فإن قالوا: إن رسل المسيح حولت ألسنتهم إلى ألسنة من أرسل إليهم. قيل هذا منقول في رسل المسيح وفي رسل محمد - صلى الله عليه وسلم - الذين أرسلهم إلى الأمم ولا ريب أن رسل رسل الله كرسل محمد - صلى الله عليه وسلم - والمسيح - عليه السلام - إلى الأمم لا بد أن يعرفوا لسان من أرسلهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم أو أن يكون عند أولئك من يفهم لسانهم ولسان الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليترجم لهم فإذا لم يكن عند من أرسل المسيح إليهم من يعرف بالعربية فلا بد أن يكون رسوله ينطق بلسانهم.

وكذلك رسل النبي - صلى الله عليه وسلم - الذين أرسلهم إلى الأمم، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما رجع من الحديبية أرسل رسله إلى أهل الأرض فبعث إلى ملوك العرب باليمن والحجاز والشام والعراق وأرسل إلى ملوك النصارى بالشام ومصر قبطهم وروممهم وعربهم وغيرهم، وأرسل إلى الفرس المجوس ملوك العراق وخراسان.

قال محمد بن سعد في الطبقات ذكر بعثة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الرسل بكتبه إلى الملوك وغيرهم يدعوهم وذكر ما كتب به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لناس من العرب وغيرهم ثم قال: أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي قال: حدثني معمر بن راشد ومحمد بن عبد الله عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: وعن الواقدي حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن المسور بن رفاعة وحدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن جدته الشفاء وحدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد عن العلاء بن الحضرمي وحدثنا ابن محمد الأنصاري عن جعفر بن عمرو (بن جعفر بن عمرو) بن أمية الضمري عن أهله عن عمرو بن أمية الضمري دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا «إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتبا فقيل يا رسول الله إن الملوك لا يقرءون كتابا إلا مختوما فاتخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ خاتما من فضة فصه منه نقشه ثلاثة أسطر محمد رسول الله وختم به الكتب فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد وذلك في المحرم سنة سبع وأصبح كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم» .

أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل دحية بن خليفة الكلبي وإلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية حاطب بن أبي بلتعة وإلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمي وأرسل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وكان نصرانيا بظاهر دمشق فبعث إليه شجاع بن وهب الأسدي وأرسل إلى غير هؤلاء.

وقال أيضا: أخبرنا الهيثم بن عدي قال: أخبرنا دلهم بن صالح وأبو بكر الهذلي عن عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال: وحدثنا محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان والزهري وحدثنا الحسن بن عمارة عن فراس عن الشعبي دخل حديث بعضهم في حديث بعض: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه: " «ائتوني بأجمعكم بالغداة وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى الفجر يجلس في مصلاه قليلا يسبح ويدعو ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة وقال: - صلى الله عليه وسلم - انصحوا لله في أمر عباده، فإن من أخبر عن شيء من أمور المسلمين ثم لم ينصح حرم الله عليه الجنة انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد فأصبحوا يعني الرسل وكل منهم يعرف بلسان القوم الذين أرسل إليهم وذكر ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: هذا أعظم ما كان من حق الله - عز وجل - عليهم في أمر عباده» .

الوجه الثالث: أن النصارى فيهم عرب كثير من زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - وكل من يفهم اللسان العربي، فإنه يمكن فهمه للقرآن وإن كان أصل لسانه فارسيا أو روميا أو تركيا أو هنديا أو قبطيا وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب من علماء النصارى قد قرءوا المصحف وفهموا منه ما فهموا وهم يفهمونه بالعربية واحتجوا بآيات من القرآن فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا كيف تقوم الحجة علينا بكتاب لم نفهمه؟ .

الوجه الرابع: أن حكم أهل الكتاب في ذلك حكم المشركين ومعلوم أن المشركين فيهم عرب وفيهم عجم - ترك وهند وغيرهما -

فكما أن جميع المشركين كمشركي العرب وكذلك جميع أهل الكتاب كأهل الكتاب من العرب وفي اليهود والنصارى ممن يعرف بلسان العرب من لا يحصيه إلا الله - عز وجل.

الوجه الخامس: أنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضا على كل مسلم وإنما يجب على المسلم أن يعلم ما أمره الله به وما نهاه عنه بأي عبارة كانت وهذا ممكن لجميع الأمم ولهذا دخل في الإسلام جميع أصناف العجم من الفرس والترك والهند والصقالبة والبربر ومن هؤلاء من يعلم اللسان العربي ومنهم من يعلم ما فرض الله عليه الترجمة وقد قدمنا أنه يجوز ترجمة القرآن في غير الصلاة والتعبير كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين وإنما تنازعوا هل يقرأ بغير العربية تلاوة كما يقرأ في الصلاة فجمهور العلماء منعوا من ذلك وحينئذ فإذا قرأ الأعجمي فاتحة الكتاب وسورتين معها بالعربية أجزأه وكذلك التشهد وغيره من الذكر المأمور به وهذا أمر يسير أيسر من أكثر الواجبات فكيف يمتنع أن يأمر الله - تبارك وتعالى - عباده بذلك.
وأما جمل ما أمر به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة والزكاة والصوم والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وما حرمه الله من الشرك والفواحش والظلم وغير ذلك فهذا مما يمكن أن يعرفه كل واحد بتعريف من يعرفه إما باللسان العربي وإما بلسان آخر لا يتوقف تعريف ذلك على لسان العرب.

[فصل: دفع ما يوهم الخصوصية لكون القرآن عربيا]

وأما قوله - تعالى -: {إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون} [يوسف: 2] وقوله: {ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي} [فصلت: 44] وقوله: {إنا جعلناه قرآنا عربيا} [الزخرف: 3] فهذا يتضمن إنعام الله على عباده ; لأن اللسان العربي أكمل الألسنة وأحسنها بيانا للمعاني فنزول الكتاب به أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره وهو إنما خوطب به أولا العرب ليفهموه ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم وكان إقامة الحجة به على العرب أولا والإنعام به عليهم أولا لمعرفتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم.
قال - تعالى -: {فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون} [الدخان: 58] وقال: {فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا} [مريم: 97] واللد جمع الألد وهو الأعوج في المناظرة الذي يروغ عن الحق كما قال: النبي - صلى الله عليه وسلم - «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» وأما قوله - تعالى -: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم: 4] فهو كما قال - تعالى - وقوم محمد - صلى الله عليه وسلم - هم قريش وبلسانهم أرسل وهو سبحانه لم يقل: وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه بل الرسول يبعثه الله إلى قومه وغير قومه كما تقول النصارى: أنه بعث المسيح - عليه السلام - والحواريين إلى غير بني إسرائيل وليسوا من قومه، فكذلك بعث محمدا - صلى الله عليه وسلم - إلى قومه وغير قومه، ولكن إنما يبعث بلسان قومه ليبين لهم ثم يحصل البيان لغيرهم بتوسط البيان لهم إما بلغتهم ولسانهم وإما بالترجمة لهم ولو لم يتبين لقومه أولا لم يحصل مقصود الرسالة لا لهم ولا لغيرهم وإذا تبين لقومه أولا حصل البيان لهم ولغيرهم بتوسطهم وقومه إليهم بعث أولا ولهم دعا أولا وأنذر أولا وليس في هذا أنه لم يرسل إلى غيرهم لكن إذا تبين لقومه لكونه بلسانهم أمكن بعد هذا أن يعرفه غير قومه إما بتعلمه بلسانهم وإما بتعريف بلسان يفهم به والرجل يكتب كتاب علم في طب أو نحو أو حساب بلسان قومه ثم يترجم ذلك الكتاب وينقل إلى لغات أخر وينتفع به أقوام آخرون كما ترجمت كتب الطب والحساب التي صنفت بغير العربي وانتفع بها العرب وعرفوا مراد أصحابها وإن كان المصنف لها أولا إنما صنفها بلسان قومه وإذا كان هذا في بيان الأمور التي لا يتعلق بها سعادة الآخرة والنجاة من عذاب الله فكيف يمتنع في العلوم التي يتعلق بها سعادة الآخرة والنجاة من العذاب أن ينقل من لسان إلى لسان حتى يفهم أهل اللسان الثاني بها ما أراده بها المتكلم بها أولا باللسان الأول.
وأبناء فارس المسلمون لما كان لهم من عناية بهذا ترجموا مصاحف كثيرة فيكتبونها بالعربي ويكتبون الترجمة بالفارسية وكانوا قبل الإسلام أبعد عن المسلمين من الروم والنصارى فإذا كان الفرس المجوس قد وصل إليهم معاني القرآن بالعربي وترجمته فكيف لا يصل إلى أهل الكتاب وهم أقرب إلى المسلمين منهم وعامة الأصول التي يذكرها القرآن عندهم شواهدها ونظائرها في التوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك من النبوات بل كل من تدبر نبوات الأنبياء وتدبر القرآن جزم يقينا بأن محمدا رسول الله حقا وأن موسى رسول الله صدقا لما يرى من تصادق الكتابين التوراة والقرآن مع العلم بأن موسى - عليه السلام - لم يأخذ عن محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يأخذ عن موسى، فإن محمدا - صلى الله عليه وسلم - باتفاق أهل المعرفة بحاله كان أميا من قوم أميين مقيما بمكة ولم يكن عندهم من يحفظ التوراة والإنجيل ولا الزبور ومحمد لم يخرج من بين ظهرانيهم ولم يسافر قط إلا سفرتين إلى الشام خرج مرة مع عمه أبي طالب قبل الاحتلام ولم يكن يفارقه ومرة أخرى مع ميسرة في تجارته وكان ابن بضع وعشرين سنة مع رفقة كانوا يعرفون جميع أحواله ولم يجتمع قط بعالم أخذ عنه شيئا لا من علماء اليهود ولا النصارى ولا من غيرهم لا بحيرى ولا غيره، ولكن كان بحيرى الراهب لما رآه عرفه لما كان عنده من ذكره ونعته فأخبر أهله بذلك وأمرهم بحفظه من اليهود ولم يتعلم لا من بحيرى ولا من غيره كلمة واحدة وسنبين - إن
شاء الله - الدلائل الكثيرة على أنه لم يأخذ عن أحد من أهل الكتاب كلمة واحدة وقصة بحيرى مذكورة ذكرها أرباب السير وأصحاب المسانيد والسنن.

قال الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي في جامعه حدثنا الفضل أبو العباس البغدادي قال: حدثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو نوح أنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي - صلى الله عليه وسلم - في أشياخ من قريش فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت قال: فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين فقال: له أشياخ من قريش ما علمك فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا ولا يسجدن إلا لنبي وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غرضوف كتفه مثل التفاحة ثم رجع فصنع لهم طعاما فلما أتاهم به - وكان هو في رعية الإبل - فقال: أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه فقال:

انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه قال: فبينما هو قائم عليهم يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم الراهب فقال: ما جاء بكم قالوا: جئنا ; لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وإنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذا.

فقال أفرأيتم أمرا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فتابعوه وأقاموا معه. قال: أنشدكم الله يا معشر العرب أيكم وليه فقال: أبو طالب أنا فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وزوده الراهب من الكعك والزيت.

قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ورواه البيهقي في كتاب دلائل النبوة من حديث العباس بن محمد عن قراد بن نوح وقال: العباس لم يحدث به يعني بهذا الإسناد غير قراد وسمعه يحيى وأحمد من قراد.

قال البيهقي أراد أنه لم يحدث بهذا الإسناد سوى هؤلاء فأما القصة فهي عند أهل المغازي مشهورة.

وقال ابن سعد في الطبقات: حدثنا محمد بن عمر قال: حدثني محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين قال: لما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اثني عشرة سنة خرج به أبو طالب إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة فنزلوا بالراهب بحيرى فقال: بحيرى لأبي طالب في النبي - صلى الله عليه وسلم - ما قال، وأمره أن يحتفظ به فرده أبو طالب معه إلى مكة وشب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريده به من كرامته حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأكرمهم مخالطة وأعظمهم حلما وأمانة وأصدقهم حديثا وأبعدهم من الفحش والأذى فما رئي ملاحيا ولا مماريا أحدا حتى سماه قومه الأمين لما جمع فيه من الأمور الصالحة.

وقال: ابن الجوزي خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ابن اثنتي عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام فنزل الركب ببصرى وبها راهب - يقال له بحيرى - في صومعة له وكان ذا علم بالنصرانية ولم يزل في تلك الصومعة راهب تنتهي إليه علم النصرانية صاغرا عن كابر وفيها كتب يدرسونها وكان كثيرا ما يمر الركب فلا يكلمهم حتى إذا كان في ذلك العام نزلوا منزلا قريبا من الصومعة فصنع لهم الراهب طعاما ودعاهم وإنما حمله على ذلك لشيء رآه فلما رأى بحيرى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فحضر وأرسل إلى القوم فقال: يا معشر قريش أحب أن تحضروا طعامي ولا يتخلف منكم أحد فقال: وهذا شيء تكرموني فلما حضروا عنده جعل يلاحظ النبي - صلى الله عليه وسلم - لحظا شديدا وينظر إلى جسده وجعل أبو طالب يخاف عليه من الراهب ثم قال الراهب لأبي طالب ارجع بابن أخيك، فإنه كائن له شأن عظيم، فإنا نجد صفته في كتبنا ويروونه عن آبائنا فلما فرغوا من التجارة رجع أبو طالب سريعا إلى مكة فما خرج بعدها به أبو طالب خوفا عليه.

هذا مع أن في القرآن من الرد على أهل الكتاب في بعض ما حرفوه مثل دعواهم أن المسيح - عليه السلام - صلب وقول بعضهم: أنه إله وقول بعضهم: أنه ساحر. وطعنهم على سليمان - عليه السلام - وقولهم أنه كان ساحرا. وأمثال ذلك ما يبين أنه لم يأخذ عنهم.

وفي القرآن من قصص الأنبياء - عليهم السلام - ما لا يوجد في التوراة والإنجيل مثل قصة هود وصالح وشعيب وغير ذلك.

وفي القرآن من ذكر المعاد وتفصيله وصفة الجنة والنار والنعيم والعذاب ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل بل التوراة ليس فيها تصريح بذكر المعاد وعامة ما فيها من الوعد والوعيد فهو في الدنيا كالوعد بالرزق والنصر والعاقبة والوعيد بالقحط والأمراض والأعداء. وإن كان ذكر المعاد موجودا في غير التوراة من النبوات ولهذا كان أهل الكتاب يقرون بالمعاد وقيام القيامة الكبرى وقد قيل إن ذلك مذكور في التوراة أيضا لكن لم يبسط كما بسط في غير التوراة.

[فصل: رد زعم النصارى عصمة الحواريين المترجمين للإنجيل]

فإن قالوا إن الكتب التي عندنا من التوراة والإنجيل وغيرهما ترجمها لنا الحواريون وهم عندنا رسل معصومون وترجموها لجميع الأمم بخلاف القرآن، فإنه إنما يترجمه من ليس بمعصوم فعن هذا أجوبة.

أحدها: أن هذا كذب بين، فإن من العرب من النصارى من لا يحصي عدده إلا الله تعالى وكان فيهم نصارى كثيرون تنصروا قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - وكان فيهم قوم على دين المسيح الذي لم يبدل وهم مؤمنون من أهل الجنة كسائر من كان على دين المسيح - عليه السلام - فإن كل من كان على دين المسيح الذي لم يبدل قبل مبعث محمد، فإنه مؤمن مسلم من أهل الجنة.

ومع هذا فليس على وجه الأرض توراة ولا إنجيل معرب من عهد الحواريين بل التوراة العبرية تنقل من اللسان العبري أو غيره إلى العربية وكذلك الإنجيل ينقل من اللسان الرومي أو السرياني أو اليوناني أو غيرها إلى اللغة العربية فلو كان عند كل أمة من الأمم توراة وإنجيل ونبوات بلسانهم لكان نصارى العرب أحق بهذا من نصارى الحبشة والصقالبة والهند، فإنهم جيران البيت المقدس وهم بنو إسماعيل - عليه السلام - والأناجيل عندهم أربعة وهم يدعون أن كل واحد كتبها بلسان كتبت بلسان العبري والرومي واليوناني مع أن في بعض الأناجيل ما ليس في بعض مثل قولهم: " عمدوا الناس باسم الآب والابن وروح القدس " الذي جعلوه أصل دينهم وهذا إنما هو قوله: في إنجيل متى، وإذا كان كل واحد من الأربعة كتب إنجيلا بلسانه لم يكن هناك إنجيل واحد أصلي ترجع إليه الأناجيل كلها ثم هم مع هذا يدعون أنها ترجمت باثنين وسبعين لسانا وهذا فيه من الكذب والتناقض أمور سننبه - إن شاء الله - على بعضها لكن غاية ما يدعون أنه ترجم باثنين وسبعين لسانا ومعلوم أن الألسنة الموجودة في بني آدم في جميع المعمورة في زماننا وقبل زماننا أكثر من هذا كما يعرفه من عرف أحوال العالم، بل اللسان الواحد كالعربي والفارسي والتركي جنس تحته أنواع مختلفة لا يفهم بعضهم لسان بعض إلا أن يتعلمه منهم والعرب أقرب الأمم إلى بني إسحاق: بني إسرائيل والعيص، فإنهم بنو إسماعيل وجيرانهم، فإن أهل الحجاز جيران الشام، ومكة لم تزل تحج إليها العرب ولم يكن قط عند العرب توراة ولا إنجيل عربيان من عهد المسيح - عليه السلام - بل ولا كان بمكة لا توراة ولا إنجيل لا معرب ولا غير معرب ولهذا قال - تعالى -: {لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك} [القصص: 46] فكيف يدعى أن التوراة والإنجيل ترجمها الحواريون لكل قوم من جميع بني آدم شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بلسان يفهمونه به وهل يقول هذا إلا من هو من أكذب الناس وأجهلهم.

الوجه الثاني: أن يقال ترجمة الكلام من لغة إلى لغة لا تحتاج إلى معصوم بل هذا أمر تعلمه الأمم فكل من عرف اللسانين أمكنه الترجمة ويحصل العلم بذلك إذا كان المترجمون كثيرين متفرقين لا يتواطئون على الكذب وبقرائن تقترن بخبر أحدهم وبغير ذلك وهذا موجود معلوم بل إذا ترجمه اثنان كل منهما لا يعرف ما يقوله: الآخر ولم يتواطئوا حصل بذلك المقصود في الغالب وهم يذكرون أن التوراة ترجمها اثنان وسبعون حبرا من اليهود ولم يكونوا معصومين وأن الملك فرقهم لئلا يتواطئوا على الكذب واتفقوا على ترجمة واحدة وهذا كان بعد الخراب الأول فهكذا يمكن ترجمة غير التوراة.

وهذه التوراة في زماننا والإنجيل والزبور يترجم باللغة العربية ويعرف المقصود به بلا ريب فكيف بالقرآن الذي يفهم أهله معناه ويفسرونه ويترجمونه أكمل وأحسن مما يترجم أهل التوراة والإنجيل التوراة والإنجيل؟ .

الوجه الثالث: أن دعوى العصمة في كل واحد من الحواريين وأنهم رسل الله بمنزلة إبراهيم وموسى - عليهما السلام - دعوى ممنوعة وهي باطلة وإنما هم رسل المسيح - عليه السلام - بمنزلة رسل موسى ورسل إبراهيم ورسل محمد وأكثر النصارى أو كثير منهم أو كلهم يقولون هم رسل الله وليسوا بأنبياء وكل من ليس بنبي فليس برسول الله وليس بمعصوم وإن كانت له خوارق عادات كأولياء الله من المسلمين وغيرهم، فإنه وإن كانت لهم كرامات من الخوارق فليسوا معصومين من الخطأ والخوارق التي تجري على يدي غير الأنبياء لا تدل على أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء فضلا عن كونهم معصومين، فإن ولي الله من يموت على الإيمان ومجرد الخارق لا يدل على أنه يموت على الإيمان بل قد يتغير عن ذلك الحال وإذا قطعنا بأن الرجل ولي الله كمن أخبر النبي بأنه من أهل الجنة فلا يجب الإيمان بكل ما يقوله: إن لم يوافق ما قالته الأنبياء بخلاف الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم معصومون لا يجوز أن يستقر فيما يبلغونه خطأ ولهذا أوجب الله الإيمان بهم ومن كفر بواحد منهم فهو كافر ومن يسب واحدا منهم وجب قتله في شرع الإسلام كما قال - تعالى -: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [البقرة: 136] (136) {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} [البقرة: 137] وقال - تعالى -: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} [البقرة: 285] .

وهذا مبسوط في موضع آخر.

[فصل: الرد على زعمهم الاستغناء برسل الله إليهم عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم]

وأما قولهم: لا يلزمنا اتباعه لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله خاطبونا بألسنتنا وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسكون به يومنا هذا وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغتنا على ما يشهد لهما الكتاب الذي أتى به هذا الرجل حيث يقول في سورة إبراهيم {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه} [إبراهيم: 4] وقال: في سورة النحل {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا} [النحل: 36] فالجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن إثبات رسول من قبله إليكم لا يمنع إتيان رسول ثان، فإن بني إسرائيل قد بعث الله إليهم موسى - عليه السلام - وكانوا على شريعة التوراة ثم بعث الله - تبارك وتعالى - إليهم المسيح - عليه السلام - ووجب عليهم الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافرا وإن قال إني متمسك بالكتاب الذي أنزل إلي.

فكذلك إذا أرسل الله رسولا بعد المسيح وجب الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافرا كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بني إسرائيل كان كافرا.

وبنو إسرائيل أكثر اختصاصا بموسى والتوراة من الروم وغيرهم فالمسيح والإنجيل، فإنهم كانوا عبرانيين والتوراة عبرانية.

الوجه الثاني: دعواهم أنهم متمسكون في هذا الوقت بالدين الذي نقله الحواريون عن المسيح - عليه السلام - كذب ظاهر بل هم عامة ما هم عليه من الدين عقائده وشرائعه كالأمانة والصلاة إلى المشرق واتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس واتخاذها وسائط والاستشفاع بأصحابها وجعل الأعياد بأسمائهم وبناء الكنائس على أسمائهم واستحلال الخنزير وترك الختان، والرهبانية، وجعل الصيام في الربيع وجعله خمسين يوما والصلوات والقرابين والناموس لم ينقله الحواريون عن المسيح ولا هو موجود لا في التوراة ولا في الإنجيل وإنما هم متمسكون بقليل مما جاءت به الأنبياء وأما كفرياتهم وبدعهم فكثيرة جدا لم ينقل أحد عن المسيح والحواريين أنهم أمروهم أن يقولوا ما يقولونه في صلاتهم السحرية " تعالوا بنا نسجد للمسيح إلهنا وفي الصلاة الثانية والثالثة: " يا والدة الإله مريم العذراء افتحي لنا أبواب الرحمة ".

الوجه الثالث: قولهم أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلغاتهم إنما يستقيم إن كان صحيحا في بعض النصارى لا في جميعهم، فإن العرب من النصارى وغير العرب لم يسلم أحد إليهم توراة ولا إنجيلا بلسانهم وهذا أمر معروف ولا توجد قط توراة ولا إنجيل معرب من زمن الحواريين وإنما عربت في الأزمان المتأخرة فإذا كانت النصارى من العرب تقوم عليهم الحجة قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - بكتاب نزل بغير لسانهم ثم عرب لهم فكيف لا تقوم على الروم وغيرهم الحجة بكتاب نزل بغير لسانهم ثم ترجم بلسانهم؟ .

الوجه الرابع: أن يقال الأمة إذا غيرت دين رسولها الذي أرسل إليها وبدلته أرسل الله إليها من يدعوها إلى الدين الذي يحبه الله ويرضاه كما أن بني إسرائيل لما غيروا دين موسى وبدلوه بعث الله إليهم وإلى غيرهم المسيح بالدين الذي يحبه ويرضاه وكذلك النصارى لما بدلوا دين المسيح وغيروه بعث الله إليهم وإلى غيرهم محمدا - صلى الله عليه وسلم - بالدين الذي يحبه ويرضاه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا

من أهل الكتاب» .

وأولئك البقايا الذين كانوا متمسكين بدين المسيح قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - كانوا على دين الله - عز وجل - وأما من حين بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - فمن لم يؤمن به فهو من أهل النار كما قال: في الحديث الصحيح «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» .

الوجه الخامس: أن يقال دعواهم أن الرسل سلموا إليهم التوراة والإنجيل وسائر النبوات باثنين وسبعين لسانا وأنها باقية إلى اليوم على لفظ واحد دعوى يعلم أن قائلها يتكلم بلا علم بل مفتر كذاب وذلك أن هذا يقتضي أنه الآن في الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانا كلها منقولة عن الحواريين وكلها متفقة غير مختلفة البتة فهذا أربع دعاوى أنها موجودة باثنين وسبعين لسانا وأنها متفقة وأنها كلها منقولة عن الحواريين الرابعة أنهم معصومون.

فيقال: من الذي منكم لو قدر أن هذه الكتب التي باثنين وسبعين لسانا هي عن الحواريين وهي موجودة اليوم فمن الذي يمكنه أن يشهد بموافقة بعضها بعضا وذلك لا يمكن إلا لمن يعلم الاثنين وسبعين لسانا ويكون ما عنده من الكتب يعلم أنها مأخوذة عن الحواريين ويعلم أن كل نسخة في العالم بهذا اللسان توافق النسخة التي عنده وإلا فلو جمع اثنين وسبعين نسخة باثنين وسبعين

لسانا لم يعلم أن كل نسخة من هذه هي المأخوذة عن الحواريين إن قدر أنه أخذ عنهم اثنان وسبعون لسانا ولا يعلم أن كل نسخة في العالم توافق تلك النسخة، فإنه من المعلوم أنه في زماننا وقبل زماننا لم تزل هذه الكتب تنقل من لسان إلى لسان كما يترجم من العبرانية إلى العربية ومن السريانية والرومية واليونانية إلى العربية وغيرها.

وحينئذ فإذا وجدت نسخة بالعربية لم يعلم أنها مما عربت بعد الحواريين أو هي من المأخوذ عن الحواريين إذا قدر أنه أخذ عنهم نسخة بالعربية ولا يمكن لأحد أن يجمع جميع النسخ المعربة ويقابل بينها بل وقد وجدنا النسخ المعربة يخالف بعضها بعضا في الترجمة مخالفة شديدة تمنع الثقة ببعضها وقد رأيت أنا بالزبور عدة نسخ معربة بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط وما يشهد بأنها مبدلة مغيرة لا يوثق بها ورأيت من التوراة المعربة من النسخ ما يكذب بكثير من ترجمتها طائفة من أهل الكتاب فكيف يمكنه أن يجمع جميع النسخ التي بالاثنين وسبعين لسانا ويقابل بين نسخ كل لسان حتى يكون فيها النسخة القديمة المأخوذة عن الحواريين ثم يقابل بين نسخ جميع الألسنة ولا يمكن ذلك إلا لمن يكون عارفا بالاثنين وسبعين لسانا معرفة تامة وليس في بني آدم من يقدر على ذلك ولو قدر وجود ذلك فلم يعرف أن القادر على ذلك فعل ذلك وأخبرنا باتفاقها.

ولو وجد ذلك لكان هذا خبر واحد أو أن يترجم كل لسان من يعلم صحة ترجمته حتى تنتهي الترجمة إلى لسان واحد كالعربي مثلا ويعلم حينئذ اتفاقها وإلا فإذا ترجم هذا الكتاب بلسان أو لسانين أو أكثر وترجم الآخر كذلك لم يعلم اتفاقها إن لم يعلم أن المعنى بهذا اللسان هو المعنى بهذا اللسان وهذا لا يكون إلا ممن يعرف اللسانين أو من يترجم له اللسانان باللسان الذي يعرفه.

ومعلوم أن أحدا لم يترجم له الاثنان وسبعون لسانا بلسان واحد أو ألسنة يعرفها ولا يعرف أحد باثنين وسبعين لسانا.

وحينئذ فالجزم باتفاق جميع الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانا أو الجزم بأن نسخ كل لسان متفقة جزم بما لا يعلم صحته لو لم يكن في الأرض اليوم الاثنان وسبعون لسانا منقولة عن الحواريين لم تختلط بالمترجم بعد ذلك فكيف وأكثر ما بأيدي الناس هو مما ترجم بعد ذلك بالعربي وغيره.

هذا إذا ثبت أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لسانا وأنها باقية إلى اليوم وهذا أمر لا يمكن أحدا معرفته فليس اليوم توراة وإنجيل ونبوات يشهد لها أحد أنها مترجمة باللسان العربي من عهد الحواريين بل ولا بأكثر الألسنة وإلا فإذا قدر أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لسانا مع حصول الترجمة بعد ذلك وكثرة المترجمات أمكن وقوع التغيير في بعض المترجمات وحينئذ فالعلم بأن تلك النسخ القديمة لا تتغير فيها لا يمنع وقوع التغيير في بعض ما ترجم بعدها أو في بعض ما نسخ منها ولا سبيل إلى العلم باتفاقها مع كونها باثنين وسبعين لسانا بخلاف القرآن الذي هو بلسان العرب وخط العرب، فإن العلم باتفاق ما يوجد من نسخة ممكن وهو محفوظ في الصدور ولا يحتاج إلى حفظ في الكتب فهو منقول بالتواتر لفظا وخطا.

الوجه السادس: قولهم وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا على ما يشهد لهما الكتاب الذي أتى به هذا الرجل فيقال لهم: ليس في القرآن ما يشهد لكم بأن التوراة والإنجيل سلمت إليكم بلسانكم فاستشهادكم بالقرآن على هذه الدعوى من جنس استشهادكم به على أن دينكم حق.

ومن جنس استشهادكم بالنبوات على ما أحدثتموه وغيرتم به دين المسيح - عليه السلام - من التثليث والاتحاد وغير ذلك وقولهم حيث يقول الله {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه} [إبراهيم: 4] وقال - تعالى -: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا} [النحل: 36] فيقال: لا ريب أن قوم موسى - عليه السلام - هم بنو إسرائيل وبلسانهم نزلت التوراة وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح - عليه السلام - وبلسانهم كان المسيح يتكلم فلم يخاطب أحد من الرسولين أحدا إلا باللسان العبراني، لم يتكلم أحد منهما لا برومية ولا سريانية ولا يونانية ولا قبطية.

وقوله - تعالى -: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا} [النحل: 36] كلام مطلق عام كقوله: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} [فاطر: 24] ليس في هذا تعرض لكون التوراة والإنجيل سلمت إليهم بألسنتهم.

الوجه السابع: أن يقال عمدتهم في هذه الحجة أنهم يقولون الحواريون هم عندنا رسل الله كإبراهيم وموسى والمسيح عندنا هو الله وهو أرسل إلينا هؤلاء فيجب أن يكونوا أرسلوا إلينا بلساننا وأن يكونوا سلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا.

فيقال: لهم هب أنكم تدعون هذا وتعتقدونه ونحن سنبين - إن شاء الله تعالى - أن هذه دعاوى باطلة لكن أنتم في هذا المقام تذكرون أن هذا الكتاب الذي هو القرآن الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - يشهد لكم بذلك وهذا كذب ظاهر على محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى كتابه وأنتم صدرتم كتابكم بأن كتابه يشهد لكم ونحن نبين كذبكم وافتراءكم عليه سواء أقررتم

بنبوته أو لم تقروا بها، فإنه من المعلوم يقينا عنه أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله بل كفر من قال ذلك ولا يشهد للحواريين بأنهم رسل أرسلهم الله بل إنما شهد للحواريين بأنهم قالوا إنا مؤمنون مسلمون وأنهم قالوا: نحن أنصار الله كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله بل وأنهم أفضل من الحواريين لكون أمته خير الأمم كما قال - تعالى -: {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون} [آل عمران: 52]

وقال - تعالى -: {وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون} [المائدة: 111] وقال - تعالى -: {ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين} [الصف: 14] وسيأتي الكلام على هذا مبسوطا ونبين أن الرسل المذكورين في سورة " يس " ليس هم الحواريين ولا كانوا رسلا للمسيح بل كان هذا الإرسال قبل المسيح وأهل القرية كذبوا أولئك الرسل فأهلكهم الله كما قال - تعالى -: {وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين} [يس: 28] (28) {إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون} [يس: 29] والرسل المذكورون في سورة " يس " هم ثلاثة وكان في القرية رجل آمن بهم وهذه وإن كانت أنطاكية فكان هذا الإرسال قبل المسيح والمسيح - عليه السلام - ذهب إلى أنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إلى السماء ولم يعززوا بثالث ولا كان حبيب النجار موجودا إذ ذاك وآمن أهل أنطاكية بالمسيح - عليه السلام - وهي أول مدينة آمنت به كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يشهد للمسيح بالإلهية ولا للحواريين بأنهم رسل الله ولا أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلسانهم ولا بأنهم معصومون وما ذكروه من قوله - تعالى -: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه} [إبراهيم: 4] إنما يتناول رسل الله لا رسل رسل الله بل رسل رسل الله يجوز أن يبلغوا رسالات الرسل بلسان الرسل إذا كان هناك من يترجم لهم ذلك اللسان وإن لم يكن هناك من يترجم ذلك اللسان كانت رسل الرسل تخاطبهم بلسانهم لكن لا يلزم من هذا أن يكونوا قد كتبوا الكتب الإلهية بلسانهم بل يكفي أن يقرءوها بلسان الأنبياء - عليهم السلام - ثم يترجموها بلسان أولئك وهو سبحانه قال {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه} [إبراهيم: 4] ولم يقل وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه بل محمد أرسل بلسان قومه وهم قريش وأرسل إلى قومه وغير قومه كما يذكرون ذلك عن المسيح - عليه السلام -

فصل

وأما قوله - تعالى -: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا} [النحل: 36] فحق وتمام الآية {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} [النحل: 36] وهذا كقوله - تعالى -: في الآية الأخرى {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} [فاطر: 24] وقوله: {إنما أنت منذر ولكل قوم هاد} [الرعد: 7] في أصح الأقوال أي ولكل قوم داع يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته كما أنت هاد أي داع لمن أرسلت إليه والهادي بمعنى الداعي المعلم المبلغ لا بمعنى الذي يجعل الهدى في القلوب كقوله: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} [الشورى: 52] (52) {صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض} [الشورى: 53] وقوله: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: 17] ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء بعث إليهم موسى وبعث إليهم بعده أنبياء كثيرون حتى قيل أنهم ألف نبي وكلهم يأمرون بشريعة التوراة ولا يغيرون منها شيئا ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعة أخرى غير فيها بعض شرع التوراة بأمر الله - عز وجل.

فإذا كان إرسال موسى والأنبياء بعده إليهم لم يمنع إرسال المسيح إليهم فكيف يمتنع إرسال محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولهم من حين المسيح لم يأتهم رسول من الله كما قال - تعالى -: {ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير} [المائدة: 19] وهذه الفترة التي كانت بين المسيح ومحمد - صلوات الله عليهما وسلامه - وهي فيما ذكره غير واحد من العلماء كسلمان الفارسي وغيره كانت ستمائة سنة وقد قيل ستمائة سنة شمسية وهي ستمائة وعشرون أو ثمانية عشر هلالية وذلك أن كل مائة سنة شمسية تكون مائة وثلاث سنين هلالية كما قال - تعالى -: {ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا} [الكهف: 25] وهذه التسع وبعض العاشرة والتاريخ قد تحسب فيه التامة وتحسب فيه الناقصة فمن قال عشرين حسب الناقصة ومن قال ثمانية عشر حسب التامة فقط.

[فصل: رد زعمهم بأن عدل الله يقتضي أن لا يطالبوا باتباع إنسان لم يأت إليهم]

وأما قولهم: نعلم أن الله عدل وليس من عدله أن يطالب أمة يوم القيامة باتباع إنسان لم يأت إليهم ولا وقفوا له على كتاب بلسانهم ولا من جهة داع من قبله فيقال: الجواب من وجوه.

أحدها: أن هذا الكلام لا يجوز أن يقوله من كتب هذا الكتاب ولا أحد يفهم بالعربية، فإن هؤلاء يفهمون هذا الكتاب بالعربية وقد قرءوه وناظروا بما فيه وإذا كانوا مع ذلك يفهمون بغير العربية كان ذلك أبلغ في قيام الحجة عليهم، فإنهم يمكنهم فهم ما قال بالعربية وتفهيم ذلك لقومهم باللسان الآخر.

الثاني: كما أنهم يفهمون ما في كتبهم الرومية والسريانية والقبطية وغيرها ويترجمونها للعرب من النصارى بالعربية فإذا قامت الحجة على عرب النصارى باللسان الرومي فلأن تقوم على الروم باللسان العربي أولى، فإن اللسان العربي أكثر انتشارا في العالم من اللسان الرومي والناطقون به بعد ظهور الإسلام أكثر من الناطقين بغيره وهو أكمل بيانا وأتم تفهما.

وحينئذ فيكون وصول المعاني به إلى غير أهل لسانه أيسر لكمال معناه ولكثرة العارفين به وهؤلاء علماء النصارى يقرءون كتب الطب والحساب والفلسفة وغير ذلك باللسان العربي مع أن مصنفيها كانوا عجما من رومي ويوناني وغير ذلك فما المانع أن يقرأ القرآن العربي وتفسيره وحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - باللسان العبري مع أنه أخذ عن الرسول بالعربي فهو أولى بأن يعرف به مراد المتكلم به.

الوجه الثالث: أن يقال الناس لهم في عدل الله ثلاثة أقوال قيل كل ما يكون مقدورا فهو عدل وقيل: العدل منه نظير العدل من عباده وهما قولان ضعيفان وقيل: من عدله أن يجزي المحسن بحسناته لا ينقصه شيئا منها ولا يعاقبه بلا ذنب.

ومعلوم أنه إذا أمر العبد بما يقدر عليه كان جائزا باتفاق طوائف أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى وإن كان الفعل مكروها للإنسان، فإن الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقد كلفت بنو إسرائيل والنصارى من الأعمال ما هو مكروه لهم وشاق عليهم فكيف يمتنع أن يأمرهم وينهاهم بلغة يبين بعض المسلمين معناها لهم والعرب الذي نزل القرآن بلسانهم طبقوا الأرض ومنهم نصارى لا يحصون فكل من عرف بالعربية من النصارى أمكنه فهم ما يقال بالعربي ومن كان منهم روميا كان له أسوة من أسلم من سائر طوائف الأعاجم كالفرس والترك والهند والبربر والحبشة وغيرهم وهو متمكن من معرفة ما أمره الله والعمل به كما يمكن هؤلاء كلهم بل الروم أقدر على ذلك من غيرهم فلأي وجه يمتنع أن يأمرهم الله بذلك وما لا يتم الواجب إلا به إذا كان مقدورا للعبد فعليه أن يفعله باتفاق أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى.

وإنما تنازع الناس فيه هل يسمى واجبا فقيل يسمى واجبا وقيل لا يسمى واجبا، فإن الآمر لم يقصده بالأمر وقد لا يخطر بباله إذا كان الأمر مخلوقا.

قال هؤلاء: ولأن الواجب ما يذم تاركه شرعا أو يعاقب تاركه شرعا أو ما يستحق تاركه الذم أو ما يكون تركه سببا للذم أو العقاب وقالوا وما لا يتم الواجب إلا به لا يستحق تاركه الذم والعقاب، فإن الحج إذا وجب على شخصين أحدهما بعيد والآخر قريب ولم يفعلاه لم تكن عقوبة البعيد على الترك أعظم من عقوبة القريب مع أن المسافة التي لا بد لهما من قطعها أكثر.

وكذلك من وجب عليه قضاء دينه من غير احتياج إلى بيع شيء من ماله ليست عقوبته على الترك بأقل من عقوبة من يحتاج إلى بيع مال له ليقضي به دينه.

وفصل الخطاب أن ما لا يتم الواجب إلا به هو من لوازم وجود الواجب ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع فالمأمور به لا يمكن فعله إلا بلوازمه والمنهي عنه لا يمكن تركه إلا بترك ملزوماته لكن هذا الملزوم لزوم عقلي أو عادي فوجوبه وجوب عقلي عادي لا أن الآمر نفسه قصد إيجابه والذم والعقاب على تركه.

وتنازع الناس هل يقال ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب سواء كان وجوبه شرعيا أو عقليا أو يحتاج أن يقال ما لا يتم الواجب إلا به وكان مقدورا للمكلف فهو واجب؟ .

فالجمهور أطلقوا العبارة الأولى وبعض المتأخرين قيدوها بالقدرة ولا حاجة إلى ذلك، فإن ما لم يكن مقدورا ينتفي الوجوب مع انتفائه فيكون شرطا في الوجوب لا في فعل الواجب والجمهور قالوا: ما لا يتم الواجب إلا به، فإنه يجب.

والمقصود هنا أن الله إذا أوجب على العباد شيئا واحتاج أداء الواجب إلى تعلم شيء من العلم كان تعلمه واجبا فإذا كان معرفة العبد لما أمره الله به تتوقف على أن يعرف معنى كلام تكلم به بغير لغته وهو قادر على تعلم معنى تلك الألفاظ التي ليست بلغته أو على معرفة ترجمتها بلغته وجب عليه تعلم ذلك.

ولو جاءت رسالة من ملك إلى ملك بغير لسانه لطلب من يترجم مقصود الملك المرسل ولم يجز أن يقول أنت لم تبعث إلي من يخاطبني بلغتي مع قدرته على أن يفهم مراده بالترجمة، فكيف يجوز أن يقال ذلك لرب العالمين؟ ! ولو أمر به بعض الملوك بعض رعاياه وجنوده بلغته وهم قادرون على معرفة ما أمرهم به إما بتعلم لغته وإما بمن يترجم لهم ما قاله لم يكن ذلك ظلما فكيف يكون ظلما من رب العالمين مع أنه ليس بظلم من المخلوقين؟ .

ولو وجب لبعض الرعية حق على بعض أو ظلم بعضهم بعضا لوجب على الملك أن ينصف المظلوم ويرسل إلى الظالم من يأمره بالعدل والإنصاف ويعاقبه إذا لم ينصف إذا كان الظالم متمكنا من معرفة أمر الملك بالترجمة أو غيرها وهذا هو العدل ليس العدل أن يترك الناس ظالمين في حق الله وحق عباده والله - تعالى - أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كما قال - تعالى -: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} [الحديد: 25] فليس لأحد ممن أرسل إليه رسول وهو قادر على معرفة ما أرسل به إليه بالترجمة أو غير الترجمة أن يمتنع من شرع الله الذي أنزله وهو القسط الذي بعث به رسوله لكون الرسول ليس لغته لغته مع قدرته على أن يعرف مراده بطرق متعددة.

والناس في مصالح دنياهم يتوسل أحدهم إلى معرفة مراد الآخر بالترجمة وغيرها فيتبايعون وبينهم ترجمان يبلغ بعضهم عن بعض ويتراسلون في عمارة بلادهم وأغراض نفوسهم بالتراجم الذين يترجمون لهم وأمر الدين أعظم من أمر الدنيا فكيف لا يتوسلون إلى معرفة مراد بعضهم من بعض وكيف يكون أمر الدنيا أهم من أمر الدين إلا عند من أغفل الله قلبه عن ذكر ربه واتبع هواه وأعرض عن ذكر ربه ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم.

قال - تعالى -: {فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا} [النجم: 29] وقال - تعالى -: {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا} [الكهف: 28] .

الوجه الرابع: أنه من العجب أن تعد النصارى مثل هذا ظلما خارجا عن العدل وهم قد نسبوا إلى الله من الظلم العظيم على هذا الأصل ما لم ينسبه إليه أحد من الأمم كما سبوه وشتموه مسبة ما سبه إياها أحد من الأمم فهم من أبعد الأمم عن توحيده وتمجيده وحمده والثناء عليه وذلك أنهم يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الرب عليه وعاقبه وأن تلك العقوبة بقيت في ذريته إلى أن جاء المسيح وصلب وأنه كانت الذرية في حبس إبليس فمن مات منهم ذهبت روحه إلى جهنم في حبس إبليس حتى قالوا: ذلك في الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وغيرهم.

[فصل: رد عقيدة النصارى في الصلب والفداء]

ومعلوم أن إبراهيم كان أبوه كافرا ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه فكيف يؤاخذه بذنب آدم وهو أبوه الأبعد، هذا لو قدر أن آدم لم يتب فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة؟ ثم يزعمون أن الصلب الذي هو من أعظم الذنوب والخطايا به خلص الله آدم وذريته من عذاب الجحيم وبه عاقب إبليس مع أن إبليس ما زال عاصيا لله مستحقا للعقاب من حين امتنع من السجود لآدم ووسوس لآدم إلى حين مبعث المسيح والرب قادر على عقوبته وبنو آدم لا عقوبة عليهم في ذنب أبيهم فمن كان قولهم مثل هذه الخرافات التي هي مضاحك العقلاء والتي لا تصلح أن تضاف إلى أجهل الملوك وأظلمهم فكيف يدعون مع هذا أنهم يصفون الله بالعدل ويجعلون من عدله أنه لا يأمر الإنسان بتعلم ما يقدر على تعلمه وفيه صلاح معاشه ومعاده ويجعلون مثل هذا موجبا لتكذيب كتابه ورسله والإصرار على تبديل الكتاب الأول وتكذيب الكتاب الآخر وعلى أنه يتضمن مخالفة موسى وعيسى وسائر الأنبياء والرسل؟ .

والنصارى يقولون: إن المسيح الذي هو عندهم اللاهوت والناسوت جميعا إنما مكن الكفار من صلبه ليحتال بذلك على عقوبة إبليس قالوا: فأخفى نفسه عن إبليس لئلا يعلم ومكن أعداءه من أخذه وضربه والبصاق في وجهه ووضع الشوك على رأسه وصلبه وأظهر الجزع من الموت وصار يقول يا إلهي لم سلطت أعدائي علي ليختفي بذلك عن إبليس فلا يعرف إبليس أنه الله أو ابن الله ويريد إبليس أن يأخذ روحه إلى الجحيم كما أخذ أرواح نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين فيحتج

عليه الرب حينئذ ويقول بماذا استحللت يا إبليس أن تأخذ روحي؟ فيقول له إبليس: بخطيئتك فيقول: ناسوتي لا خطيئة له كنواسيت الأنبياء، فإنه كان لهم خطايا استحقوا بها أن تؤخذ أرواحهم إلى جهنم وأنا لا خطيئة لي.

وقالوا فلما أقام الله الحجة على إبليس جاز للرب حينئذ أن يأخذ إبليس ويعاقبه ويخلص ذرية آدم من إذهابهم إلى الجحيم وهذا الكلام فيه من الباطل ونسبة الظلم إلى الله ما يطول وصفه فمن هذا قوله: فقد قدح في علم الرب وحكمته وعدله قدحا ما قدحه فيه أحد وذلك من وجوه.

أحدها: أن يقال إبليس إن كان أخذ الذرية بذنب أبيهم فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره وإن كان بخطاياهم فلم يأخذهم بذنب أبيهم وهم قالوا إنما أخذهم بذنب آدم.

الثاني: أن يقال من خلق بعد المسيح من الذرية كمن خلق قبله فكيف جاز أن يمكن إبليس من الذرية المتقدمين دون المتأخرين وكلهم بالنسبة إلى آدم سواء وهم أيضا يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدمين فكيف جاز تمكين إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين ولم يمكن من عقوبة الكفار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح؟ .

الوجه الثالث: أن يقال أخذ إبليس لذرية آدم وإدخالهم جهنم إما أن يكون ظلما من إبليس وإما أن يكون عدلا، فإن كان عدلا

فلا لوم على إبليس ولا يجوز أن يحتال عليه ليمتنع من العدل الذي يستحقه بل يجب تمكينه من المتأخرين والمتقدمين.

وإن كان ظلما فلم لا يمنعه الرب منه قبل المسيح؟ .

فإن قيل لم يقدر فقد نسبوه إلى العجز وإن قيل قدر على دفع ظلم إبليس ولم يفعله فلا فرق بين دفعه في زمان دون زمان إن جاز ذلك جاز في كل زمان وإن امتنع امتنع في كل زمان.

الوجه الرابع: أن إبليس إن كان معذورا قبل المسيح فلا حاجة إلى عقوبته ولا ملام عليه وإن لم يكن معذورا استحق العقوبة ولا حاجة إلى أن يحتال عليه بحيلة تقام بها الحجة عليه.

الوجه الخامس: إنه بتقدير أنه لم يقم عليه الحجة قبل الصلب فلم يقم عليه حجة بالصلب، فإنه يمكنه أن يقول أنا ما علمت أن هذا الناسوت هو ناسوت الرب وأنت يا رب قد أذنت لي أن آخذ جميع ذرية آدم فأوديهم إلى الجحيم فهذا واحد منهم وما علمت أنك أو ابنك اتحد به ولو علمت ذلك لعظمته، فأنا معذور في ذلك فلا يجوز أن تظلمني.

الوجه السادس: أن نقول: أن إبليس يقول حينئذ يا رب فهذا الناسوت الواحد أخطأت في أخذ روحه لكن سائر بني آدم الذين بعده لي أن أحبس أرواحهم في جهنم كما حبست أرواح الذين كانوا قبل المسيح إما بذنب أبيهم وإما بخطاياهم أنفسهم وحينئذ، فإن كان ما يقوله النصارى حقا فلا حجة لله على إبليس.

الوجه السابع: أن يقال هب أن آدم أذنب وبنوه أذنبوا بتزيين الشيطان فعقوبة بني آدم على ذنوبهم هي إلى الله أو إلى إبليس؟ فهل يقول عاقل أن إبليس له أن يغوي بني آدم بتزيينه لهم ثم له أن يعاقبهم جميعا بغير إذن من الله في ذلك وهل هذا القول إلا من قول المجوس الثنوية الذين يقولون إن كل ما في العالم من الشر من الذنوب والعقاب وغير ذلك هو من فعل إبليس لم يفعل الله شيئا من ذلك ولا عاقب الله أحدا على ذنب.

ولا ريب أن هذا القول سرى إلى النصارى من المجوس لهذا لا ينقلون هذا القول في كتاب منزل ولا عن أحد من الحواريين ولهذا كان المانوية دينهم مركبا من دين النصارى والمجوس وكان رأسهم ماني نصرانيا مجوسيا فالنسب بين النصارى والمجوس بل وسائر المشركين نسب معروف.

الوجه الثامن: أن يقال إبليس عاقب بني آدم وأدخلهم جهنم بإذن الله أو بغير إذنه.

إن قالوا: بإذنه فلا ذنب له ولا يستحق أن يحتال عليه ليعاقب ويمتنع وإن كان بغير إذنه فهل جاز في عدل الله أن يمكنه من ذلك أم لم يجز، فإن جاز ذلك في زمان جاز في جميع الأزمنة وإن لم يجز في زمان لم يجز في جميع الأزمنة فلا فرق بين ما قبل المسيح وما بعده.

الوجه التاسع: أن يقال هل كان الله قادرا على منع إبليس وعقوبته بدون هذه الحيلة وكان ذلك عدلا منه لو فعله أم لا، فإن كان ذلك مقدورا له وهو عدل منه لم يحتج أن يحتال على إبليس ولا يصلب نفسه أو ابنه ثم إن كان هذا العدل واجبا عليه وجب منع إبليس وإن لم يكن واجبا جاز تمكينه في كل زمان فلا فرق بين زمان وزمان.

وإن قيل لم يكن قادرا على منع إبليس فهو تعجيز للرب عن منع إبليس وهذا من أعظم الكفر باتفاق أهل الملل من جنس قول

الثنوية الذين يقولون لم يكن يقدر النور أن يمنع الظلمة من الشر ومن جنس قول ديمقراطيس والحنانين الذين يقولون لم يمكن واجب الوجود أن يمنع النفس من ملابسة الهيولي بل تعلقت النفس بها بغير اختياره.

الوجه العاشر: أن ما فعله به الكفار اليهود الذين صلبوه طاعة لله أو معصية، فإن كان طاعة لله استحق اليهود الذين صلبوه أن يثيبهم ويكرمهم على طاعته كما يثيب سائر المطيعين له والنصارى متفقون على أن أولئك من أعظم الناس إثما وهم من شر الخلق وهم يستحلون من دمهم ولعنتهم ما لا يستحلونه من غيرهم بل يبالغون في طلب اليهود وعقوبتهم في آخر صومهم الأيام التي تشبه أيام الصليب وإن كان أولئك اليهود عصاة لله فهل كان قادرا على منعهم من هذه المعصية أم لا، فإن لم يكن قادرا لم يكن قادرا على منع إبليس من ظلم الذرية في الزمن المستقبل وإن كان قادرا على منعهم من المعاصي ولم يمنعهم كان قادرا على منع إبليس بدون هذه الحيلة وإذا كان حسنا منه تمكينهم من هذه المعصية كان حسنا منه تمكين إبليس من ظلم الذرية في الماضي والمستقبل فلا حاجة إلى الحيلة عليه.

واعلم أن الوجوه الدالة على فساد دين النصارى كثيرة جدا وكلما تصور العاقل مذهبهم وتصور لوازمه تبين له فساده لكن المقصود هنا بيان تناقضهم في أنهم يقيمون عذر أنفسهم في ترك الإيمان بكتابه ورسوله ودينه لكونه سبحانه عدلا لا يأمر الناس بما يعجزون عنه وهو سبحانه لم يأمرهم إلا بما يقدرون عليه وقد نسبوا إليه من الظلم ما لم ينسبه إليه أحد من بني آدم يوضح هذا.

الوجه الحادي عشر: وهو أنه إما أن يقال في الظلم بقول الجهمية المجبرة الذين يقولون يفعل ما يشاء بلا حكمة ولا سبب

ولا مراعاة عدل وإما أن يقال بقول القدرية أنه يجب عليه العدل الذي يجب على المخلوقين وإما أن يقال هو عادل منزه عن الظلم، ولكن ليس عدله كعدل المخلوق فهذه أقوال الناس الثلاثة.

فإن قيل بالأول جاز أن يسلط إبليس على جميع الذرية بلا ذنب وأن يعاقبهم جميعا بلا ذنب ولا حاجة حينئذ إلى الحيلة على إبليس.

وإن قيل بالثاني: فمعلوم أن الواحد من الناس لو علم أن بعض مماليكه أمر غيره بذنب يكرهه السيد ففعله كان العدل منه أن يعاقب الآمر والمأمور جميعا.

وأما تسليطه للآمر على عقوبة المأمور فليس من العدل وكذلك تسليط الآمر الظالم على جميع ذرية المأمور الذين لم يذنبوا ذنب أبيهم ليس من العدل.

وإن قيل: بل هو استحق أن يستعبدهم لكون أبيهم أطاعه قيل: فحينئذ يستحق أن يأسر الأولين والآخرين فلا يجوز أن يمنع من حقه بالاحتيال عليه.

وإن قيل: إنما يستحق أخذهم خطاياهم قيل فله أن يأخذ الأولين والآخرين.

وإن قيل: هو لما طلب أخذ روح ناسوت المسيح منع بهذا الذنب قيل: هذا إن كان ذنبا فهو أخف ذنوبه، فإنه لم يعلم أنه ناسوت الإله وإذا استحق الرجل أن يسترق أولاد غيره فطلب رجلا ليسترقه لظنه أنه منهم ولم يكن منهم لم يكن هذا ذنبا يمنع استرقاق الباقين.

وإن قيل إن عدل الرب ليس كعدل المخلوقين بل من عدله أن لا ينقص أحدا من حسناته ولا يعاقبه إلا بذنبه لم يجز حينئذ أن يعاقب ذرية آدم بذنب أبيهم ولم يجز أن يعاقب الأنبياء الذين ليس لهم ذنب إلا ذنب تابوا منه بذنب غيرهم، فإن الأنبياء معصومون أن يقروا على ذنب فكل من مات منهم مات وليس له ذنب يستحق عليه العقوبة فكيف يعاقبون بعد الموت بذنب أبيهم إن قدر أنه مات مصرا على الذنب مع أن هذا تقدير باطل ولو قدر أن الأنبياء لهم خطايا يستحقون بها العقوبة بعد الموت

وتسليط إبليس على عقوبتهم مع أن هذا تقدير باطل فمن بعد المسيح من غير الأنبياء أولى بذلك فكيف يجوز في العدل الذي يوجب التسوية بين المتماثلين عقوبة الأنبياء ومنع عقوبة من هو دونهم بل من هو من الكفار.

الوجه الثاني عشر: أن الرب إذا قصد بهذا دفع ظلم إبليس فهلا اتحد بناسوت بعض أولاد آدم ليحتال على إبليس فيمنعه من ظلم من تقدم، فإن المنع من الشر الكثير أولى من المنع من الشر القليل أتراه ما كان يعلم أن إبليس يعمل هذا الشر كله فهذا تجهيل له أو كان يعرف وعجز عن دفعه فهذا تعجيز له ثم ما الفرق بين زمان وزمان أم كان ترك منعه عدلا منه فهو عدل في كل زمان.

[فصل: الرد على النصارى في دعواهم أن من في قوله تعالى ومن يبتغ غير الإسلام دينا. . . تقتضي العرب وحدهم]

وأما تفسيرهم لقوله - تعالى -: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} [آل عمران: 85] بأن مراده قومه كما قالوا.

وأما قوله - تعالى -: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} [آل عمران: 85] يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين أتاهم بلغتهم لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه.

فيقال لهم من فسر مراد متكلم: أي متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو كاذب مفتر عليه وإن كان المتكلم من آحاد العامة ولو كان المتكلم من المتنبئين الكذابين، فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه فيقال: أراد كذا وكذا، فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقا أو كاذبا فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علما ضروريا أنه لم يرد ذلك بل يعلم علما ضروريا أنه أراد العموم.

فإن قوله - تعالى -: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا} [آل عمران: 85] صيغة عامة، وصيغة " من " الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله - تعالى - {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} [الزلزلة: 7] (7) {ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره} [الزلزلة: 8] ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم، فإن هذا في سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى، فإنها نزلت لما قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - وفد نجران النصارى وروى أنهم كانوا ستين راكبا وفيهم السيد والأيهم والعاقب وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها.

وقد قال قبل هذا الكلام بذم دين النصارى الذي ابتدعوه وغيروا به دين المسيح ولبسوا الحق الذي بعث به المسيح بالباطل الذي ابتدعوه حتى صار دينهم مركبا من حق وباطل واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره والمسيح قرر أكثر شرع التوراة وغير المعنى وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح.

قال - تعالى -: {ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون} [آل عمران: 79] (79) {ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون} [آل عمران: 80] فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر فمن اتخذ من دونهم أربابا كان أولى بالكفر وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أربابا بقوله - تعالى -: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] ثم قال - تعالى -: في سورة آل عمران {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} [آل عمران: 81] قال ابن عباس وغيره من السلف: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه والآية تدل على ما قالوا، فإن قوله - تعالى -: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين} [آل عمران: 81] يتناول جميع النبيين {لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه} [آل عمران: 81] وهذه اللام الأولى تسمى اللام الموطئة للقسم واللام الثانية: تسمى لام جواب القسم، والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط، والقسم كقوله - تعالى -: {لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون} [الحشر: 12] ومنه قوله - تعالى -: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين} [التوبة: 75] وقوله: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها} [الأنعام: 109] وقوله: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا} [النور: 53] وقوله: {وأقسموا بالله

جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم} [فاطر: 42] ومنه قوله: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله} [لقمان: 25] (وقوله) : {ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب} [التوبة: 65] (وقوله) : {لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين} [الأعراف: 149] وقوله: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم} [الأحزاب: 60] وقوله: {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك} [الإسراء: 86] وقوله: {وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم} [المائدة: 73] وقوله: {ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين} [يوسف: 32] وقوله: {ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون} [الروم: 58] وقوله: {ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم} [العنكبوت: 10] وقوله: {ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه} [هود: 8] ومثل هذا كثير وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام - والله - {لئن أخرجوا لا يخرجون معهم} [الحشر: 12]- والله - {ولئن قوتلوا لا ينصرونهم} [الحشر: 12] ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدل المذكور عليه اختصارا وإيجازا لا سيما فيما يكثر استعماله كالقسم (وقوله) : {لما آتيتكم من كتاب وحكمة} [آل عمران: 81] هي ما الشرطية، والتقدير: أي شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعته بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه، وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا يغنيكم ما آتيتكم عما جاء به، فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله.

فدل ذلك على أنه من أدرك محمدا من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال {لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه} [آل عمران: 81] وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال - تعالى -: {أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} [آل عمران: 81] ثم قال - تعالى -: {فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} [آل عمران: 82] ثم قال - تعالى -: {أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون} [آل عمران: 83] ثم قال - تعالى -: {قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [آل عمران: 84] ثم قال - تعالى -: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} [آل عمران: 85] قالت طائفة من السلف: لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى نحن مسلمون. فقال - تعالى -: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا} [آل عمران: 97] فقالوا: لا نحج فقال - تعالى -: {ومن كفر فإن الله غني عن العالمين} [آل عمران: 97] فكل من لم ير حج البيت واجبا عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن.

واليهود والنصارى لا يرونه واجبا عليهم فهم من الكفار حتى أنه روي في حديث مرفوع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - " «من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا» ".

وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس الشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان وحج البيت، فإنه كافر.

وأيضا فقد قال - تعالى -: في أول السورة {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} [آل عمران: 18] (18) {إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب} [آل عمران: 19] (19) {فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد} [آل عمران: 20]

فقد أمره - تعالى - بعد قوله: {إن الدين عند الله الإسلام} [آل عمران: 19] أن يقول أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وأن يقول للذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى والأميين وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم: أأسلمتم، فالعرب الأميون يدخلون في لفظ الأميين باتفاق الناس.

وأما من سواهم: فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه أرسل إلى جميع الناس.

قال - تعالى -: {فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد} [آل عمران: 20] فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين وإن لم يسلموا فقد قال: (إنما عليك البلاغ) أي تبلغهم رسالات ربك

إليهم والله هو الذي يحاسبهم فدل هذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين.

وفي الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في الكتاب الذي كتبه إلى هرقل ملك النصارى «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» .

و {يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 64] وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر في كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح وإبراهيم ويعقوب وأتباعهم إلى الحواريين وهذا تحقيق لقوله - تعالى -: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} [آل عمران: 85] وإن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان.

قال - تعالى -: عن نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون} [يونس: 71] (71) {فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين} [يونس: 72] فهذا نوح الذي غرق أهل الأرض بدعوته وجعل جميع الآدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين.

وأما الخليل فقال - تعالى -: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم} [البقرة: 127] (127) {ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم} [البقرة: 128] قال - تعالى -: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين} [البقرة: 130] (130) {إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين} [البقرة: 131] (131) {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} [البقرة: 132] فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام وأنه قال: أسلمت لرب العالمين وأن إبراهيم وصى بنيه ويعقوب وصى بنيه أن لا يموتن إلا وهم مسلمون.

وقال - تعالى -: {ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين} [آل عمران: 67] (67) {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين} [آل عمران: 68] وقال - تعالى -: عن يوسف الصديق ابن يعقوب أنه قال {رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين} [يوسف: 101] وقال - تعالى -: عن موسى {وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} [يونس: 84] وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى: {قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون} [الشعراء: 50] (50) {إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين} [الشعراء: 51] وقالوا أيضا {وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} [الأعراف: 126] وقال - تعالى -: في قصة سليمان {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم} [النمل: 30] (30) {ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين} [النمل: 31] وقال {قال ياأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين} [النمل: 38] وقال: {وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين} [النمل: 42]

وقال عن بلقيس التي آمنت بسليمان {رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين} [النمل: 44] وقال: عن أنبياء بني إسرائيل {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا} [المائدة: 44] وقال - تعالى - عن الحواريين: {وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون} [المائدة: 111] وقال - تعالى - {ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين} [آل عمران: 53] .

فهؤلاء الأنبياء وأتباعهم كلهم يذكر تعالى أنهم كانوا مسلمين وهذا مما يبين أن قوله - تعالى -: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} [آل عمران: 85] وقوله: {إن الدين عند الله الإسلام} [آل عمران: 19] لا يختص بمن بعث إليه محمد بل هو حكم عام في الأولين والآخرين ولهذا قال - تعالى -: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا} [النساء: 125] وقال - تعالى -: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: 111] .

[فصل: توسط المسلمين بين تقصير اليهود وغلو النصارى]

قولهم ثم وجدنا في هذا الكتاب من تعظيم السيد المسيح وأمه حيث يقول في سورة الأنبياء {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين} [الأنبياء: 91] وقال في سورة آل عمران {وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين} [آل عمران: 42] مع الشهادات للسيد المسيح بالمعجزات وأنه حبلت به أمه من غير مباضعة رجل لبشارة ملائكة الله لأمه وأنه تكلم في المهد وأحيا الميت وأبرأ الأكمه ونقى الأبرص وأنه خلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فكان طائرا بإذن الله أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت ووجدنا أيضا في الكتاب أن الله رفعه إليه.

وقال: في سورة النساء {وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه} [النساء: 157] وفي سورة آل عمران {إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة} [آل عمران: 55] وقال: في سورة البقرة {وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} [البقرة: 87] وقال: في سورة الحديد {وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم} [الحديد: 27] وقال في سورة آل عمران {من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين} [آل عمران: 113] ثم وجدناه يعظم إنجيلنا.

الجواب: أما تعظيم المسيح وأمه فهو حق وكذلك مدح من كان على دينه الذي لم يبدل قبل أن يبعث أو بقي على ذلك إلى أن بعث محمد فآمن به، فإن هؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون وكذلك من كان على دين موسى الذي لم يبدل إلى أن بعث المسيح فآمن به فهؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون وقد قدمنا أن المسلمين هم عدل متوسطون لا ينحرفون إلى غلو ولا إلى تقصير.

وأما اليهود والنصارى فهم على طرفي نقيض هؤلاء ينحرفون إلى جهة وهؤلاء إلى الجهة التي تقابلها كما ذكرنا تقابلهم في النسخ وكذلك تقابلهم في التحريم والتحليل والطهارة والنجاسة، فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وهم يبالغون في اجتناب النجاسات حتى أن الحائض لا يؤاكلونها ولا يساكنونها ولا يجامعونها وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب بل يقرض موضعها ويستخرجون الدم من العروق إلى غير ذلك من الآصار والأغلال التي كانت عليهم.

وأما النصارى ففي مقابلتهم تجد عامتهم لا يرون شيئا حراما ولا نجسا إلا ما كرهه الإنسان بطبعه ويصلون مع الجنابة والحدث وحمل النجاسات ويأكلون الخبائث كالدم والميتة ولحم الخنزير إلا من كره منهم شيئا فتركه والمسلمون وسط كما قال - تعالى - فيهم {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} [البقرة: 143] أي عدلا خيارا قال - تعالى -: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} [الأعراف: 156] (156) {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون} [الأعراف: 157]

ولهذا كان من انحرف من المسلمين إلى شبه اليهود والنصارى مأمورا بترك ذلك الانحراف واتباع الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا غير المغضوب عليهم كاليهود وغير الضالين كالنصارى.

وذلك مثل من يبالغ في اجتناب النجاسات فينجس ما لم ينجسه الله ورسوله ويحرم ما لم يحرمه الله ورسوله ويأخذه الوسواس في اجتناب النجاسات ويحرم طيبات أحلها الله للمسلمين مثل من يرى أن القياس أن النجاسة لا تزول لا بماء ولا بغيره أو يرى أنها وإن زالت فلم يبق لها أثر فالمحل نجس إذا لم تزل بما يشترطه هو من الماء أو غيره أو يرى أن الطيبات التي أحلها الله حرام خبيثة لأنها مستحيلة عن المحرم مع أن الخل حلال وإن كان قد كان خمرا باتفاق المسلمين إذا بدا إلى حالته أو يرى أن الماء الطيب والمائعات الطيبة التي ليس فيها أثر من الخبيث حرام لكون الخبيث لاقاها أو استهلك فيها مع أنها من الطيبات لا من الخبائث أو يرى تحريم ما سوى موضع الدم الذي هو أذى إلى غير ذلك من أقوال قالها بعض العلماء، ولكن غيرهم نازعهم في ذلك واتبع ما دل عليه الكتاب والسنة.

وأعظم من ذلك من يكفر من خالفه من المسلمين ويرى نجاسة الكفار كما عليه كثير من أهل البدع من الرافضة والخوارج وغيرهم فإذا أكل غيرهم من وعائهم نجسه عندهم وأما ما يفعله كثير من الناس من غير أن يقوله عالم مثل من يغسل يديه وثيابه وحصر بيته بتوهم نجاستها أو يأمر الحائض إذا طهرت أن تبدل ثيابها الأول أو تغسلها أو يمنع الجنب أن يأكل أو يشرب حتى يغتسل فهذا كثير فيمن يشبه اليهود بل يشبه سامرة اليهود.

وأما من يشبه النصارى فمثل من يحسن الظن بمن لا يتطهر ولا يصلي من المنسوبين إلى الفقر والزهد والعبادة مثل من يكون في مواضع الشياطين والنجاسات كالحمام والأتاتين والمزابل وهو متلوث بالبول والعذرة ويعاشر الكلاب ولا يتوضأ ولا يغتسل من الجنابة بل ولا يصلي أو يصلي بلا وضوء وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الصلوات الخمس فرض على كل أحد وأن الوضوء من الحدث والاغتسال من الجنابة فرض لا يصلي إلا به مع القدرة ولا يتيمم مع القدرة فمن أنكر وجوب ذلك فهو كافر باتفاق المسلمين.

ومن جعل الزاهد العابد الذي له نوع من الخوارق مثل نوع من الكشف والتصرف الذي يكون من الشياطين والجهال يظنون أنه من كرامات أولياء الله إذا لم يكن يصلي الصلوات الخمس ويتوضأ ويغتسل من الجنابة من المؤمنين أو من أولياء الله فهو كافر باتفاق المسلمين ومن لم يحرم الخبائث التي حرمها الله ورسوله كالبول والعذرة والدم والميتة ولحم الخنزير والخمر فهو كافر باتفاق المسلمين ومن جعل مستحل ذلك مع العلم بمخالفته لدين الرسول وليا لله فهو كافر باتفاق المسلمين وكذلك فيمن ينتحل الإسلام ويذم أهل الكتاب من يكون منافقا في الدرك الأسفل من النار ويكون كثير من اليهود والنصارى أخف عذابا في الآخرة منه قال الله تعالى {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا} [النساء: 145] (145) {إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما} [النساء: 146] وكذلك المسلمون وأهل السنة في المسلمين وكذلك في التوحيد، فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فيما يختص بالمخلوق وهو صفات النقص الذي يجب تنزيه الرب عنها والنصارى شبهوا المخلوق بالخالق فيما يختص بالخالق وهو صفات الكمال التي لا يستحقها إلا الله تبارك وتعالى فقال من قال من اليهود {إن الله فقير ونحن أغنياء} [آل عمران: 181] وقالوا {يد الله مغلولة} [المائدة: 64] وهو بخيل وقالوا أنه خلق العالم فتعب فاستراح.

وحكي عن بعضهم أنه قال: بكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة وأنه ناح على بعض من أهلكه من عباده كما ينوح المصاب على ميته وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه ويتقدس - سبحانه وتعالى.

وأيضا فهم يستكبرون عن عبادة الله وطاعة رسله ويعصون أمره ويتعدون حدوده ولا يجوزون له أن ينسخ ما شرعه بل يحجرون عليه.

والنصارى يصفون المخلوق بما يتصف به الخالق فيجعلونه رب العالمين خالق كل شيء ومليكه الذي هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون واتخذوا الملائكة والنبيين أربابا وصوروا تماثيل المخلوقات واتخذوهم شفعاء يشفعون لهم عند الله كما فعل عباد الأوثان كما قال: الله تعالى {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض} [يونس: 18] ولهذا قال - تعالى -: {وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون} [الأنعام: 51] وقال - تعالى -: {الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع} [السجدة: 4] والمسلمون وسط يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل يصفونه بصفات الكمال وينزهونه عن النقائص التي تمتنع على الخالق ولا يتصف بها إلا المخلوق فيصفونه بالحياة والعلم والقدرة والرحمة والعدل والإحسان وينزهونه عن الموت والنوم والجهل والعجز والظلم والفناء ويعلمون مع ذلك أنه لا مثيل له في شيء من صفات الكمال فلا أحد يعلم كعلمه ولا يقدر كقدرته ولا يرحم كرحمته ولا يسمع كسمعه ولا يبصر كبصره ولا يخلق كخلقه ولا يستوي كاستوائه ولا يأتي كإتيانه ولا ينزل كنزوله كما قال - تعالى -: {قل هو الله أحد} [الإخلاص: 1] (1) {الله الصمد} [الإخلاص: 2] (2) {لم يلد ولم يولد} [الإخلاص: 3] (3) {ولم يكن له كفوا أحد} [الإخلاص: 4] ولا يصفون أحدا من المخلوقين بخصائص الخالق جل جلاله بل كل ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقير إليه عبد له وهو الصمد الذي يحتاج إليه كل شيء ويسأله كل أحد وهو غني بنفسه لا يحتاج إلى أحد في شيء من الأشياء كما قال - تعالى -: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا} [مريم: 88] (88) {لقد جئتم شيئا إدا} [مريم: 89] (89) {تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا} [مريم: 90] (90)

{أن دعوا للرحمن ولدا} [مريم: 91] (91) {وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} [مريم: 92] (92) {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا} [مريم: 93] (93) {لقد أحصاهم وعدهم عدا} [مريم: 94] (94) {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} [مريم: 95] وقال - تعالى -: {ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا} [النساء: 171] (171) {لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا} [النساء: 172] (172) {فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا} [النساء: 173] وكذلك هم في المسيح فالنصارى يقولون هو الله ويقولون أيضا هو ابن الله وهو إله تام وإنسان تام واليهود يقولون هو ولد زنا وهو ابن يوسف النجار ويقولون عن مريم إنها بغي بعيسى كما قال - تعالى -: {وقولهم على مريم بهتانا عظيما} [النساء: 156] ويقولون هو ساحر كذاب.

وأما المسلمون فيقولون هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه وهو وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويصفونه بما وصفه الله به في كتابه لا يغلون فيه غلو النصارى ولا يقصرون في حقه تقصير اليهود وكذلك قولهم في سائر الأنبياء والمرسلين وفي أولياء الله فاليهود قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ومع هذا فقد شارك النصارى اليهود في نقص حق كثير من الأنبياء فيقولون أن سليمان لم يكن نبيا ويقولون إن الحواريين مثل موسى وإبراهيم ويقولون إن من عمل بوصايا الله من غير الأنبياء صار مثل الأنبياء وكان له أن يشرع شريعة وبعض اليهود غلوا في العزير حتى قالوا إنه ابن الله.

ولهذا قال نبينا في الحديث الصحيح «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله» .

والله تعالى ذكر في القرآن في سورة (كهيعص) قصة ابني الخالة يحيى وعيسى ويحيى يسمونه النصارى يوحنا وهو يوحنا المعمداني عندهم فقال - تعالى - بعد أن ذكر قصة يحيى {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا} [مريم: 16] (16) {فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا} [مريم: 17] (17) {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا} [مريم: 18] (18) {قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} [مريم: 19] (19) {قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا} [مريم: 20] (20) {قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا} [مريم: 21] (21) {فحملته فانتبذت به مكانا قصيا} [مريم: 22] (22) {فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا} [مريم: 23] (23) {فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا} [مريم: 24] (24) {وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا} [مريم: 25] (25) {فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا} [مريم: 26] (26) {فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا} [مريم: 27] (27) {ياأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا} [مريم: 28] (28) {فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا} [مريم: 29] (29) {قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا} [مريم: 30] (30) {وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا} [مريم: 31] (31) {وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا} [مريم: 32] (32) {والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا} [مريم: 33] .

ثم قال: الله تعالى {ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون} [مريم: 34] (34) {ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [مريم: 35] (35) {وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم} [مريم: 36] (36) {فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم} [مريم: 37] (37) {أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين} [مريم: 38] فذكر سبحانه قصة مريم والمسيح في هذه السورة المكية التي أنزلها في أول الأمر بمكة في السور التي ذكر فيها أصول الدين المدنية التي يخاطب فيها من اتبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين لما قدم عليه نصارى نجران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال - تعالى -: {إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين} [آل عمران: 33] (33) {ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم} [آل عمران: 34] (34) {إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم} [آل عمران: 35] (35) {فلما وضعتها قالت رب إني

وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم} [آل عمران: 36] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «ما من مولود إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخا من الشيطان إلا مريم وابنها ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم» {وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم} [آل عمران: 36] قال - تعالى -: {فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب} [آل عمران: 37] ثم ذكر قصة زكريا ويحيى ثم قال {هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء} [آل عمران: 38] (38) {فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين} [آل عمران: 39] (39) {قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء} [آل عمران: 40] (40) {قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار} [آل عمران: 41] (41) {وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} [آل عمران: 42] (43) {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} [آل عمران: 44] (44) {إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين} [آل عمران: 45] (45) {ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين} [آل عمران: 46] (46) {قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [آل عمران: 47] (47) {ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل} [آل عمران: 48] (48) {ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: 49] (49) {ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون} [آل عمران: 50] (50) {إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم} [آل عمران: 51] (51) {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون} [آل عمران: 52] (52) {ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين} [آل عمران: 53] (54) {إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون} [آل عمران: 55] (55) {فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين} [آل عمران: 56] (56) {وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين} [آل عمران: 57] (57) ذلك {نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم} [آل عمران: 58] (58) {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} [آل عمران: 59] (59) {الحق من ربك فلا تكن من الممترين} [آل عمران: 60] (60) {فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين} [آل عمران: 61] (61) {إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم} [آل عمران: 62] (62) {فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين} [آل عمران: 63] (63) {قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ياأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون} [آل عمران: 64] (65) {ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون} [آل عمران: 66] (66) {ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين} [آل عمران: 67] (67) {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين} [آل عمران: 68] .

فهو سبحانه قد ذكر قصة مريم والمسيح في هاتين السورتين إحداهما مكية نزلت في أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين وهي سورة (كهيعص) والثانية: مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم كما نزلت في براءة مجاهدتهم فأخبر في السورة المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل الله إليها روحه فتمثل لها بشرا سويا فقالت {إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا} [مريم: 18] .

قال أبو وائل علمت أن المتقي ذو نهية أي تقواه ينهاه عن الفاحشة وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة فقالت أعوذ

بالرحمن منك إن كنت تقيا أي تتقي الله وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقي فهو من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل ثم قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا وفي القراءة الأخرى {لأهب لك غلاما زكيا} [مريم: 19] فأخبر هذا الروح الذي تمثل لها بشرا سويا أنه رسول ربها فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله ولهذا قال جماهير العلماء أنه جبريل - عليه السلام - فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس وسماه جبريل وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن روح القدس لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد وليس في شيء من الكتب الإلهية ولا في كلام الأنبياء أن الله سمى صفته القائمة به روح القدس ولا سمى كلامه ولا شيئا من صفاته ابنا وهذا أحد ما يثبت به ضلال النصارى وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه على غير ما أرادت الأنبياء، فإن أصل تثليثهم مبني على ما في أحد الأناجيل من أن المسيح - عليه السلام - قال لهم: عمدوا الناس باسم الآب والابن وروح القدس فيقال لهم: هذا إذا كان قد قاله المسيح وليس في لغة المسيح ولا لغة أحد من الأنبياء أنهم يسمون صفة الله القائمة به ولا كلمته ولا حياته لا ابنا ولا روح قدس ولا يسمون كلمته ابنا ولا يسمونه نفسه ابنا ولا روح قدس، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يصفون المصطفى المكرم ابنا وهذا موجود في حق المسيح وغيره كما يذكرون أنه قال - تعالى -: لإسرائيل أنت ابني بكري أي بني إسرائيل.

وروح القدس يراد به الروح التي تنزل على الأنبياء كما نزلت على داود وغيره، فإن في كتبهم أن روح القدس كانت في داود وغيره وأن المسيح قال: لهم أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم فسماه أبا للجميع لم يكن المسيح مخصوصا عندهم باسم الابن ولا يوجد عندهم لفظ الابن إلا اسما للمصطفى المكرم لا اسما لشيء من صفات الله ولا في كتب الأنبياء أن صفة الله تولدت منه.

وإذا كان كذلك كان في هذا ما يبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية التي يقولون أنها تولدت من الله عندهم مع كونها أزلية ولا بروح القدس حياة الله بل المراد بالابن ناسوت المسيح وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي والملك الذي نزل به، فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله وبرسوله وبما أنزله على رسوله والملك الذي نزل به وبهذا أمرت الأنبياء كلهم وليس للمسيح خاصة استحق بها أن يكون فيه شيء من اللاهوت لكن ظهر فيه نور الله وكلام الله وروح الله كما ظهر في غيره من الأنبياء والرسل، فإن غيره أيضا فيما ينقلونه عن الأنبياء يسمى ابنا وروح القدس حلت فيه وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا التنبيه على أن كلام الأنبياء - عليهم السلام - يصدق بعضه بعضا وأنه ليس مع النصارى لا حجة سمعية ولا عقلية توافق ما ابتدعوه، ولكن فسروا كلام الأنبياء بما لا يدل عليه وعندهم في الإنجيل أنه قال: إن الساعة لا يعلمها الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الآب وحده فبين أن الابن لا يعلم الساعة فعلم أن الابن ليس هو القديم الأزلي وإنما هو المحدث الزماني.

[فصل: الفرق بين ما يضاف إلى الله من صفاته وما يضاف إليه من مملوكاته]

والمضاف إلى الله نوعان، فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام والحياة وإما أن يكون عينا قائمة بنفسها.

فالأول إضافة صفة كقوله: {ولا يحيطون بشيء من علمه} [البقرة: 255] وقوله: {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} [الذاريات: 58] وقوله: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة} [فصلت: 15] .

وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح حديث الاستخارة «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك» .

وقوله - تعالى -: {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا} [الأنعام: 115] وقوله: {ذلكم حكم الله يحكم بينكم} [الممتحنة: 10] وقوله: {ذلك أمر الله أنزله إليكم} [الطلاق: 5] والثاني: إضافة عين كقوله - تعالى -: {وطهر بيتي للطائفين} [الحج: 26] وقوله: {ناقة الله وسقياها} [الشمس: 13] وقوله: {عينا يشرب بها عباد الله} [الإنسان: 6] فالمضاف في الأول صفة لله قائمة به ليست مخلوقة له بائنة عنه والمضاف في الثاني: مملوك لله مخلوق له بائن عنه لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله - تبارك وتعالى - كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من البيوت وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق ومن هذا الباب قوله - تعالى -: {فأرسلنا إليها روحنا} [مريم: 17] فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشرا سويا وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيا وأنه قال: {إنما أنا رسول ربك} [مريم: 19] وهذا كله يدل على أنها عين قائمة بنفسها وهي التي تسمى في اصطلاح النظار جوهرا وقد تسمى جسما إذا كانت مشارا إليها مع اختلاف الناس في الجسم

هل هو مركب من الجواهر المفردة أم من المادة والصورة أم ليس مركبا لا من هذا ولا من هذا وإذا كان الله قد بين أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها بل من الأعيان القائمة بنفسها علم أن المضاف مملوك لله مخلوق له لكن إضافته إلى الله تدل على تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيص بالإضافة وقد ذكرت فيما كنت كتبته قبل هذا من الرد على النصارى الكلام في ذلك وغيره وبينت أن المضافات إلى الله نوعان: أعيان وصفات.

فالصفات إذا أضيفت إليه كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك دلت الإضافة على أنها إضافة وصف له قائم به ليست مخلوقة ; لأن الصفة لا تقوم بنفسها فلا بد لها من موصوف تقوم به فإذا أضيفت إليه علم أنها صفة له لكن قد يعبر باسم الصفة عن المفعول بها فيسمى المقدور قدرة والمخلوق بالكلمة كلاما والمعلوم علما والمرحوم به رحمة كقول النبي - صلى الله عليه وسلم - «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة» .

وقوله - تعالى - فيما يروي عنه نبيه أنه قال: للجنة («أنت رحمتي أرحم بك من أشاء») .

ويقال للمطر والسحاب هذه قدرة قادر وهذه قدرة عظيمة ويقال في الدعاء غفر الله لك علمه فيك أي معلومه.

وأما الأعيان إذا أضيفت إلى الله تعالى فإما أن تضاف بالجهة العامة التي يشترك فيها المخلوق مثل كونها مخلوقة ومملوكة له ومقدورة ونحو ذلك فهذه إضافة عامة مشتركة كقوله: {هذا خلق الله} [لقمان: 11] وقد يضاف لمعنى يختص بها يميز به المضاف عن غيره مثل: بيت الله وناقة الله وعبد الله وروح الله فمن المعلوم اختصاص ناقة صالح بما تميزت به عن سائر النياق وكذلك اختصاص الكعبة واختصاص العبد الصالح الذي عبد الله وأطاع أمره وكذلك الروح المقدسة التي امتازت بما فارقت به غيرها من الأرواح، فإن المخلوقات اشتركت في كونها مخلوقة مملوكة مربوبة لله يجري عليها حكمه وقضاؤه وقدره وهذه الإضافة لا اختصاص فيها ولا فضيلة للمضاف على غيره.

وامتاز بعضها بأن الله يحبه ويرضاه ويصطفيه ويقربه إليه ويأمر به أو يعظمه ويحبه فهذه الإضافة يختص بها بعض المخلوقات كإضافة البيت والناقة والروح وعباد الله من هذا الباب.

وقد قال - تعالى -: في سورة الأنبياء {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين} [الأنبياء: 91]

وقال في سورة التحريم {وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين} [التحريم: 11] (11) {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين} [التحريم: 12] فذكر امرأة فرعون التي ربت موسى بن عمران وجمعت بينه وبين أمه حتى أرضعته أمه عندها وذكر مريم أم المسيح التي ولدته وربته فهاتان المرأتان ربتا هذين الرسولين الكريمين فلما قال هنا {فنفخنا فيها} [الأنبياء: 91] أي في المرأة وفيه أي في فرجها من روحنا وقال هنا {فأرسلنا إليها روحنا} [مريم: 17] إلى قوله: (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) دل على أن قوله روحنا ليس المراد به أنه صفة لله لا الحياة ولا غيرها ولا هو رب خالق فلا هو الرب الخالق ولا صفة الرب الخالق بل هو روح من الأرواح التي اصطفاها الله وأكرمها كما تقدم في قوله: {فأرسلنا إليها روحنا} [مريم: 17] وأن الأكثرين على أنه جبريل.

وهذا الأصل الذي ذكرناه من الفرق فيما يضاف إلى الله بين صفاته وبين مملوكاته أصل عظيم ضل فيه كثير من أهل الأرض من أهل الملل كلهم، فإن كتب الأنبياء التوراة والإنجيل والقرآن وغيرها أضافت إلى الله أشياء على هذا الوجه وأشياء على هذا الوجه فاختلف الناس في هذه الإضافة فقالت المعطلة نفاة الصفات من أهل الملل: إن الجميع إضافة ملك وليس لله حياة قائمة به ولا علم قائم به ولا قدرة قائمة به ولا كلام قائم به ولا حب ولا بغض ولا غضب ولا رضى بل جميع ذلك مخلوق من مخلوقاته. وهذا أول ما ابتدعته في الإسلام الجهمية وإنما ابتدعوه بعد انقراض عصر الصحابة وأكابر التابعين لهم بإحسان وكان مقدمهم رجل يقال له الجهم بن صفوان فنسبت الجهمية إليه ونفوا الأسماء والصفات واتبعهم المعتزلة وغيرهم فنفوا الصفات دون الأسماء ووافقهم طائفة من الفلاسفة أتباع أرسطو.

وقالت الحلولية بل ما يضاف إلى الله قد يكون هو صفة له وإن كان بائنا عنه بل قالوا: هو قديم أزلي فقالوا: روح الله قديمة أزلية صفة لله حتى قال كثير منهم إن أرواح بني آدم قديمة أزلية وصفة لله وقالوا إن ما يسمعه الناس من أصوات القراء ومداد المصاحف قديم أزلي وهو صفة لله.

وقال حذاق هؤلاء بل غضبه ورضاه وحبه وبغضه وإرادته لما يخلقه قديم أزلي وهو صفة الله وكلامه الذي سمعه موسى قديم أزلي وأنه لم يزل راضيا محبا لمن علم أنه يطيعه قبل أن يخلق ولم يزل غضبانا ساخطا على من علم أنه يكفر قبل أن يخلق ولم يزل ولا يزال قائلا يا آدم يا نوح يا إبراهيم قبل أن يوجدوا وبعد موتهم ولم يزل ولا يزال يقول يا معشر الجن والإنس قبل أن يخلقوا وبعد ما يدخلون الجنة والنار.

وأما سلف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين المشهورون بالإمامة فيهم كالأربعة وغيرهم وأهل العلم بالكتاب والسنة فيفرقون بين مملوكاته وبين صفاته فيعلمون أن العباد مخلوقون وصفات العباد مخلوقة وأجسادهم وأرواحهم وكلامهم وأصواتهم بالكتب الإلهية وغيرها ومدادهم وأوراقهم والملائكة والأنبياء وغيرها ويعلمون أن صفات الله القائمة به ليست مخلوقة كعلمه وقدرته وكلامه وإرادته وحياته وسمعه وبصره ورضاه وغضبه وحبه وبغضه بل هو موصوف بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسله ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يتأولون كلام الله بغير ما أراده ولا يمثلون صفات الخالق بصفات المخلوق بل يعلمون أن الله - سبحانه - ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله بل هو موصوف بصفات الكمال منزه عن النقائص وليس له مثل في شيء من صفاته ويقولون إنه لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال لم يزل متكلما إذا شاء بمشيئته وقدرته ولم يزل عالما ولم يزل قادرا ولم يزل حيا سميعا بصيرا ولم يزل مريدا فكل كمال لا نقص فيه يمكن اتصافه به فهو موصوف به لم يزل ولا يزال متصفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال والإكرام - سبحانه وتعالى.

والنصارى من أعظم الناس اضطرابا في هذا الأصل فتارة يجعلون كلامه الذي تكلم به كالتوراة والإنجيل مخلوقا منفصلا عنه وينفون عنه الصفات وتارة يجعلون كلمته قديمة أزلية متولدة عنه لم تزل ولا تزال ثم يقولون هذه الكلمة هي ابنه ويجعلون هذه الكلمة علمه أو حكمته ويقولون إن هذه الكلمة هي إله خالق وهو الذي خلق السماوات والأرض وأن هذه الكلمة هي المسيح والمسيح إله خالق العالم.

ويقولون: مع هذا أن هذه الكلمة ليست هي الآب الذي خلق السماوات والأرض فيجعلون كلمته صفة قديمة أزلية ويجعلونها ابنا له ويجعلون الصفة إلها خالقا ويجعلون المسيح هو الإله الخالق ويقولون مع هذا هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه.

ولهم في كلام الله وصفاته من التناقض والاضطراب ومخالفة كلام الأنبياء وتفسيره بغير ما أرادوه ومخالفة صريح المعقول

وصحيح المنقول ما سنذكر - إن شاء الله - منه ما ييسره الله - سبحانه وتعالى - إذ بيان فساد أقوال النصارى بالاستقصاء لا يتسع له هذا الكتاب ولما قص - تعالى - قصة المسيح قال {ذلك عيسى ابن مريم قول الحق} [مريم: 34] أي يشكون ويتمارون كتماري اليهود والنصارى.

ثم قال - تعالى -: {فاختلف الأحزاب من بينهم} [مريم: 37] فاختلف اليهود والنصارى فيه ثم اختلفت النصارى فيه وصاروا أحزابا كثيرة جدا كالنسطورية واليعقوبية والملكية والباروبية والمريمانية والسمياطية وأمثال هذه الطوائف كما سنذكر - إن شاء الله - كثيرا من طوائفهم واختلافهم في مجامعهم كما حكى ذلك عنهم أحد أكابرهم سعيد بن البطريق وغيره، فإنه ليس في الأمم أكثر اختلافا في رب العالمين منهم فويل للذين كفروا من هذه الطوائف كلها من مشهد يوم عظيم {أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا} [مريم: 38] يقول تعالى ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم كالنصارى الذين ظلموا بإفكهم وشركهم في ضلال مبين ضلوا عن الحق في المسيح وقد وصف الله النصارى بالضلال في مثل قوله - تعالى -: {قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] وقال - تعالى -: {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا} [الكهف: 4] ; لأن الغالب عليهم الجهل بالدين وأنهم يتكلمون بكلام لا يعقلون معناه ليس منقولا عن الأنبياء حتى يسلم لقائله بل هم ابتدعوه وإذا سألتهم عن معناه قالوا: هذا لا يعرف بالعقول فيبتدعون كلاما يعرفون بأنهم لا يعقلونه وهو كلام متناقض ينقض أوله آخره ولهذا لا تجدهم يتفقون على قول واحد في معبودهم حتى قال بعض الناس لو اجتمع عشرة نصارى افترقوا على أحد عشر قولا.

وقال: الربعي النصارى أشد الناس اختلافا في مذاهبهم وأقلهم تحصيلا لها لا يمكن أن يعرف لهم مذهب ولو سألت قسا من أقسائهم عن مذهبهم في المسيح وسألت أباه وأمه لاختلفوا عليك الثلاثة ولقال كل واحد منهم قولا لا يشبه قول الآخر.

وقال بعض النظار: وما من قول يقوله طائفة من العقلاء إلا إذا تأملته تصورت منه معنى معقولا وإن كان باطلا إلا قول النصارى، فإنك كلما تأملته لم تتصور له حقيقة تعقل لكن غاياتهم أن يحفظوا الأمانة أو غيرها وإذا طولبوا بتفسير ذلك فسره كل منهم بتفسير يكفر به الآخر كما يكفر اليعقوبية والملكانية والنسطورية بعضهم بعضا لاختلافهم في أصل التوحيد والرسالة إذ كان قولهم في التوحيد والرسالة من أفسد الأقوال وأعظمها تناقضا كما بين في موضع آخر.

[فصل: إبطال دعواهم اتحاد كلمة الله بجسد المسيح]

وأما قولهم: فكان طيرا بإذن الله أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت فهذا إذا قالوه على أنه مذهبهم من غير أن يقولوا أن محمدا أراده تكلمنا معهم في ذلك وبينا فساد ذلك عقلا ونقلا.

وأما قولهم: أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: أن المراد إذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت فهذا من البهتان الظاهر على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو من جنس قولهم أن قوله: {اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم} [الفاتحة: 6] أراد به النصارى ومن جنس قولهم أن قوله: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا} [آل عمران: 85] أراد به العرب ومن جنس قولهم {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات} [الحديد: 25] أراد بهم الحواريين ومن جنس قولهم {الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين} [البقرة: 1] أراد به الإنجيل فهذه المواضع التي فسروا بها القرآن وزعموا أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - الذي بين للناس ما أنزل إليهم كان يريد بما يتلوه من القرآن هذه المعاني التي ذكروها هي من الكذب الظاهر الذي يدل على غاية جهل قائلها أو غاية معاندته، ولكن مثل هذا التأويل غير مستنكر من النصارى، فإنهم قد فسروا مواضع كثيرة من التوراة والإنجيل والزبور والنبوات بنحو هذه التفاسير التي حرفوا فيها الكلام الذي جاءت به الأنبياء عن مواضعه تحريفا ظاهرا فبدلوا بذلك كتب الله ودين الله وضاهوا بذلك اليهود الذين حرفوا وبدلوا وإن اختلفت جهة التحريف والتبديل فتحريفهم للقرآن من جنس تحريفهم للتوراة والإنجيل وهم من الذين يدعون المحكم ويتبعون ما نشأ به منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله لكن في هذه المواضع حرفوا المحكم الذي معناه ظاهر لا يحتمل إلا معنى واحد فكانوا من الجهل والمعاندة أبعد عن الصواب ممن حرف معنى المتشابه وذلك أنه قد علم بالاضطرار من دين محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يقول أن المسيح عبد الله مخلوق كسائر المرسلين وأنه يكفر النصارى الذين يقولون هو الله أو ابن الله.

قال - تعالى -: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير} [المائدة: 17]

وقال - تعالى -: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار} [المائدة: 72] (72) {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم} [المائدة: 73] (73) {أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم} [المائدة: 74] (76) {قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] .

فقد ذكر كفر النصارى في قولهم: هو الله مرتين وذكر أنه ليس المسيح إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فغايته الرسالة كما قال: في محمد - صلى الله عليه وسلم - وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل

وغاية أمه أن تكون صديقة ودل بهذا أنها ليست بنبية ثم قال: كانا يأكلان الطعام وهذا من أظهر الصفات النافية للإلهية لحاجة الأكل إلى ما يدخل في جوفه ولما يخرج منه مع ذلك من الفضلات.

والرب تعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

والنصارى يقولون أنه يلد وأنه يولد وأن له كفوا كما قد بين في موضع آخر وقد أخبر بعبودية المسيح في غير موضع كقوله - تعالى -: {ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون} [الزخرف: 57] (57) {وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون} [الزخرف: 58] (58) {إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل} [الزخرف: 59] وأخبر تعالى أن أول شيء نطق به المسيح قوله: {إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا} [مريم: 30] وقال - تعالى -: {وإذ قال

الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق} [المائدة: 116] الآيات إلى قوله: شهيد وقال - تعالى -: {ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم} [النساء: 171] الآيات كلها.

فإذا كان قد علم بالاضطرار من دين محمد - صلى الله عليه وسلم - وبالنقل المتواتر عنه وبإجماع أمته إجماعا يستندون فيه

إلى النقل عنه وبكتابه المنزل عليه وسنته المعروفة عنه أنه كان يقول أن المسيح عبد الله ورسوله ليس هو إلا رسول وأنه يكفر النصارى الذين يقولون هو الله وهو ابن الله والذين يقولون ثالث ثلاثة وأمثال ذلك كان بعد هذا تفسيرهم لقول الله الذي بلغه نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - فيكون طيرا بإذن الله أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة بالناسوت كذبا ظاهرا على محمد - صلى الله عليه وسلم.

وهذا مما يعرف كذبهم فيه على محمد - صلى الله عليه وسلم - جميع أهل الأرض العالم بحال محمد - صلى الله عليه وسلم - سواء أقروا بنبوته أو أنكروها.

فالمقصود في هذا المقام أن هؤلاء كذبوا على محمد - صلى الله عليه وسلم - كذبا ظاهرا معلوما للخلق المؤمنين به والمكذبين له ليس هو كذبا خفيا.

وإن قدر أن ما قالوه يكون معقولا فكيف إذا كان ممتنعا في صرائح العقول بل هو قول غير معقول أي غير معقول ثبوته في الخارج وإن كان يعقل ما يختلفون ويعلم به فساد عقولهم لمن قال سائر الأقوال المتناقضة الفاسدة التي يمتنع ثبوتها في الخارج وذلك كما قد بسط في موضع آخر، فإن قولهم: بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت باطل من وجوه.

منها أن تلك الكلمة إما أن تكون هي الله أو صفة لذاته أو لا هي ذاته ولا صفة له أو الذات والصفة جميعا.

فإن لم تكن هي ذات الله ولا صفته ولا الذات والصفة كانت بائنة عنه مخلوقة له ولم يكن لاهوتا بل ولا خالقه وحينئذ فلم يتحد بالمسيح لاهوت بل إن لم يتحد به إنه كان اتحد به إلا مخلوق.

وإن كانت الكلمة هي الذات أو الذات والصفة فهي رب العالمين وهي الآب عندهم وهم متفقون على أن المسيح ليس هو الآب ولم يتحد به الآب بل الابن.

وإن كانت الكلمة صفة لله - عز وجل - فصفة الله ليست هي الإله الخالق والمسيح عندهم هو الإله الخالق وأيضا فصفة الله قائمة بذاته لا تفارق ذاته وتحل بغيره وتتحد به وكلمة الله عندهم اتحدت بالمسيح.

وإن قالوا: قولنا هذا كما تقول طائفة من المسلمين إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل حل في القراء أو اتحد بهم وأن القديم حل في المخلوق أو اتحد به ونحو ذلك.

قيل لو كان قول هؤلاء صوابا لم يكن لهم فيه حجة، فإنه على هذا التقدير لا فرق بين المسيح وبين سائر من يقرأ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وأنتم تدعون أن المسيح هو الله أو ابن الله مخصوصا بذلك دون غيره وأيضا فهؤلاء وجميع الأمم متفقون على أن قراء القرآن وسائر الكتب الإلهية ليس واحد منهم هو الله ولا هو ابن الله ولا أنه خالق للعالم فإذا جعلتم قولكم مثل قول هؤلاء لزمكم أن لا يكون المسيح هو الله ولا ابن الله ولا ربا للعالم وأيضا فلم نعلم أحدا من هؤلاء قال: أن اللاهوت اتحد بالناسوت ولا أن القديم اتحد بالمحدث ولا أن كلام الله صار هو والمخلوق شيئا واحدا فالاتحاد باطل باتفاق هؤلاء وغيرهم.

ولكن طائفة منهم أطلقت لفظ الحلول وطائفة أنكرت لفظ الحلول وقالوا إنما نقول ظهر القديم في المحدث لا حل فيه لكن قالوا ما يستلزم الحلول.

وسلف المسلمين وجمهورهم يخطئون هؤلاء ويبينون خطأهم عقلا ونقلا وقولهم ليس هو قول أحد من أئمة المسلمين ولا قول طائفة مشهورة من طوائف المسلمين كالمالكية والشافعية والحنفية والحنبلية والثورية والداودية والإسحاقية وغيرهم ولا قول طائفة من طوائف المتكلمين من المسلمين لا المنتسبين إلى السنة كالأشعرية والكرامية ولا غيرهم كالمعتزلة والشيعة وأمثالهم وإنما قال ذلك طائفة قليلة انتسبت إلى بعض علماء المسلمين مثل قليل من المالكية والشافعية والحنبلية وهؤلاء غايتهم أن يقولوا بحلول صفة من صفات الله وكذلك من قال بحلول الرب واتحاده في العبد من طوائف الغلاة المنتسبين إلى التشيع والتصوف أو

غيرهم فهم ضلال كالنصارى مع أنه لا حجة للنصارى على هؤلاء إذ كان ما يقولونه لا يختص به المسيح بل هو مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء والصالحين.

والنصارى تدعي اختصاص المسيح بالاتحاد مع أن المتحد بالناسوت صار هو والناسوت شيئا واحدا ومع الاتحاد فيمتنع أن يكون لأحدهما فعل أو صفة خارج عن الآخر والنصارى يدعون الاتحاد ثم يتناقضون فمنهم من يقول جوهر واحد ومنهم من يقول جوهران ومنهم من يقول مشيئة واحدة ومنهم من يقول مشيئتان كما سيأتي الكلام - إن شاء الله - تعالى على ذلك.

[فصل: رد دعواهم الفضل لهم على المسلمين بقوله تعالى وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة]

وأما قوله - تعالى -: {يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة} [آل عمران: 55] فهذا حق كما أخبر الله به فمن اتبع المسيح - عليه السلام - جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة وكان الذين اتبعوه على دينه الذي لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود وأيضا فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به إلى يوم القيامة.

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به بل لما بدل النصارى دينه وبعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - بدين الله الذي بعث به المسيح وغيره من الأنبياء جعل الله محمدا وأمته فوق النصارى إلى يوم القيامة كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي» .

وقال - تعالى -: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} [الشورى: 13] وقال - تعالى -: {ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} [المؤمنون: 51] (52) {فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون} [المؤمنون: 53] فكل من كان أتم إيمانا بالله ورسله كان أحق بنصر الله تعالى، فإن الله يقول في كتابه {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [غافر: 51] وقال: في كتابه {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} [الصافات: 171] (171) {إنهم لهم المنصورون} [الصافات: 172] (172) {وإن جندنا لهم الغالبون} [الصافات: 173] واليهود كذبوا المسيح ومحمدا - صلى الله عليه وسلم - كما قال الله فيهم {بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب} [البقرة: 90] فالغضب الأول بتكذيبهم المسيح والثاني: بتكذيبهم لمحمد - صلى الله عليه وسلم - والنصارى لم يكذبوا المسيح فكانوا منصورين على اليهود والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله ولم يكذبوا بشيء من كتبه ولا كذبوا أحدا من رسله بل اتبعوا ما قال الله لهم حيث قال {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [البقرة: 136] وقال - تعالى -: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} [البقرة: 285] ولما كان المسلمون هم المتبعون لرسل الله كلهم المسيح وغيره وكان الله قد وعد أن ينصر الرسل وأتباعهم قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة ".

وقال أيضا: سألت ربي أن لا يسلط على أمتي عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها الحديث.

فكان ما احتجوا به حجة عليهم لا لهم.

[فصل: بيان معنى الروح القدس ودفع اعتقاد النصارى ألوهيته]

وأما قوله - تعالى -: {وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} [البقرة: 87] فهو حق كما أخبر الله به وقد ذكر تعالى تأييد عيسى ابن مريم بروح القدس في عدة مواضع فقال - تعالى - في سورة البقرة {ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} [البقرة: 87] وقال - تعالى -: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد}

[البقرة: 253] وقال - تعالى -: {ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني} [المائدة: 110] وقال - تعالى -: في القرآن {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون} [النحل: 101] (101) {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} [النحل: 102] وقال - تعالى -: {نزل به الروح الأمين} [الشعراء: 193] (193) {على قلبك لتكون من المنذرين} [الشعراء: 194] وقال - تعالى -: {قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا} [البقرة: 97] فروح القدس الذي نزل بالقرآن من الله هو الروح الأمين وهو جبريل.

وثبت في الصحيح عن أبي هريرة أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - «يقول لحسان بن ثابت: " أجب عني، اللهم أيده بروح القدس» .

وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة - رضي الله عنها - قالت «سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول لحسان بن ثابت: " إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال: «سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لحسان بن ثابت: " اهجهم أو هاجهم وجبريل معك» .

فهذا حسان بن ثابت واحد من المؤمنين لما نافح عن الله ورسوله وهجا المشركين الذين يكذبون الرسول أيده الله بروح القدس وهو جبريل - عليه السلام - وأهل الأرض يعلمون أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يجعل اللاهوت متحدا بناسوت حسان بن ثابت فعلم أن إخباره بأن الله أيده بروح القدس لا يقتضي اتحاد اللاهوت بالناسوت فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح وأهل الكتاب يقرون بذلك وأن غيره من الأنبياء كان مؤيدا بروح القدس كداود وغيره بل يقولون إن الحواريين كانت فيهم روح القدس وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنصارى أن روح القدس يكون في غير المسيح بل في غير الأنبياء كما سيأتي - إن شاء الله.

وإنما المقصود في هذا المقام بيان كذبهم على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا التأييد نظير قوله - تعالى -: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22] فهذا التأييد بروح منه عام لكل من لم يحب أعداء الرسل وإن كانوا أقاربه بل يحب من يؤمن بالرسل وإن كانوا أجانب ويبغض من لم يؤمن بالرسل وإن كانوا أقارب وهذه ملة إبراهيم.

وقال - تعالى -: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} [الممتحنة: 4] وقال - تعالى -: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون} [الزخرف: 26] (26) {إلا الذي فطرني فإنه سيهدين} [الزخرف: 27] (27) {وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون} [الزخرف: 28] وقال: {فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه} [التوبة: 114] وهذا التأييد بروح القدس لمن ينصر الرسل عام في كل من نصرهم على من خالفهم من المشركين وأهل الكتاب كما تقدم وليس في القرآن ولا في الإنجيل ولا غير ذلك من كتب الأنبياء أن روح القدس الذي أيد به المسيح هو صفة الله القائمة به وهي حياته ولا أن روح القدس رب يخلق ويرزق فليس روح القدس هي الله ولا صفة من صفات الله بل ليس في شيء من كلام الأنبياء أن صفة الله القائمة به تسمى ابنا ولا روح القدس.

فإذا تأول النصارى قول المسيح عمدوا الناس باسم الآب والابن وروح القدس على أن الابن صفته التي هي العلم وروح

القدس صفته التي هي الحياة كان هذا كذبا بينا على المسيح فلا يوجد قط في كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء تسمية الله ولا شيئا من صفاته ابنا ولا حياته روح القدس.

وأيضا فهم يذكرون في الأمانة أن المسيح تجسد من مريم ومن روح القدس وهذا يوافق ما أخبر الله به من أنه أرسل روحه الذي هو جبريل وهو روح القدس فنفخ في مريم فحملت بالمسيح فكان المسيح متجسدا مخلوقا من أمه ومن ذلك الروح وهذا الروح ليس صفة لله لا حياته ولا غيرها بل روح القدس قد جاء ذكرها كثيرا في كلام الأنبياء ويراد بها إما الملك وإما ما يجعله الله في قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدى والتأييد ونحو ذلك كما قال - تعالى -: {أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم

بروح منه} [المجادلة: 22] وقال - تعالى -: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا} [الشورى: 52] وقال - تعالى -: {ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون} [النحل: 2] وقال - تعالى -: {ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق} [غافر: 15] فسمى الملك روحا وسمى ما ينزل به الملك روحا وهما متلازمان والمسيح - عليه السلام - مؤيد بهذا وهذا. ولهذا قال كثير من المفسرين إنه جبريل وقال: بعضهم إنه الوحي وهذا كلفظ الناموس يراد به صاحب سر الخير كما يراد بالجاسوس صاحب سر الشر فيكون الناموس جبريل ويراد به الكتاب الذي نزل به وما فيه من الأمر والنهي والشرع ولما قال ورقة بن نوفل للنبي: " هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى " فسر الناموس بهذا وهذا وهما متلازمان ".

[فصل: الرد على النصارى في احتجاجهم بآية سورة الحديد على مدح الرهبانية]

وأما قوله - تعالى -: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز} [الحديد: 25] (25) {ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون} [الحديد: 26] فهو حق كما قال - تعالى -، وليس في ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله في قلوبهم من الرحمة والرأفة حيث يقول {وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة} [الحديد: 27] ثم قال: {ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم} [الحديد: 27] أي وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم وهذه الرهبانية لم يشرعها الله ولم يجعلها مشروعة لهم بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله: {ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام} [المائدة: 103] .

وهذا الجعل المنفي عن البدع هو الجعل الذي أثبته للمشروع بقوله - تعالى -: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} [المائدة: 48] وقوله: {لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه} [الحج: 67] فالرهبانية ابتدعوها لم يشرعها الله وللناس في قوله: " ورهبانية " قولان.

أحدهما: أنها منصوبة يعني ابتدعوها إما بفعل مضمر يفسره ما بعده أو يقال هذا الفعل عمل في المضمر والمظهر كما هو

قول الكوفيين حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما ونظيره قوله: {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} [الإنسان: 31] وقوله: {فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة} [الأعراف: 30] وعلى هذا القول فلا تكون الرهبانية معطوفة على الرأفة والرحمة.

والقول الثاني: أنها معطوفة عليها فيكون الله قد جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية المبتدعة ويكون هذا جعلا خلقيا كونيا والجعل الكوني يتناول الخير والشر كقوله - تعالى -: {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار} [القصص: 41] وعلى هذا القول فلا مدح للرهبانية بجعلها في القلوب فثبت على التقديرين أنه ليس في القرآن مدح للرهبانية.

ثم قال: {إلا ابتغاء رضوان الله} [الحديد: 27] أي لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يبتدع وهذا يسمى استثناء منقطعا.

كما في قوله: {اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه} [النساء: 157] وقوله - تعالى -: {ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا} [النساء: 29] وقوله - تعالى -: {لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى} [الدخان: 56] وقوله - تعالى -: {فما لهم لا يؤمنون} [الانشقاق: 20] (20) {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} [الانشقاق: 21] (21) {بل الذين كفروا يكذبون} [الانشقاق: 22] (22) {والله أعلم بما يوعون} [الانشقاق: 23] (23) {فبشرهم بعذاب أليم} [الانشقاق: 24] (24) {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون} [الانشقاق: 25] وقوله - تعالى -: {لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما} [الواقعة: 25] (25) {إلا قيلا سلاما سلاما} [الواقعة: 26] وقوله: {وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ} [النساء: 92] وهذا أصح الأقوال في هذه الآية كما هو مبسوط في موضع آخر.

ولا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله، فإن الله لا يفعل شيئا ابتغاء رضوان نفسه ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين كما قد بسط في موضع آخر.

وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية وما رعوها حق رعايتها وليس في ذلك مدح لهم بل هو ذم ثم قال - تعالى -: {فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم} [الحديد: 27] وهم الذين آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وكثير منهم فاسقون ولو أريد الذين آمنوا بالمسيح أيضا فالمراد من اتبعه على دينه الذي لم يبدل وإلا فكلهم يقولون أنهم مؤمنون بالمسيح وبكل حال فلم يمدح سبحانه إلا من اتبع المسيح على دينه الذي لم يبدل ومن آمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لم يمدح النصارى الذين بدلوا دين المسيح ولا الذين لم يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل قد قال بعض الناس إن قوله - تعالى -: " {ورهبانية ابتدعوها} [الحديد: 27] " عطف على " رأفة " " ورحمة " وإن المعنى أن الله جعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية أيضا ابتدعوها وجعلوا الجعل شرعيا ممدوحا، قيل هذا غلط لوجوه.

منها: أن الرهبانية لم تكن في كل من اتبعه بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة، فإنها جعلت في قلب كل من اتبعه.

ومنها أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة، فإنهم لم يبتدعوها وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم، فإن كان المراد هو الجعل الشرعي الديني لا الجعل الكوني القدري فلم تدخل الرهبانية في ذلك وإن كان المراد الجعل الخلقي الكوني فلا مدح للرهبانية في ذلك.

ومنها أن الرأفة والرحمة جعلها في القلوب والرهبانية لا تختص بالقلوب بل الرهبانية ترك المباحات من النكاح واللحم وغير ذلك وقد كان طائفة من الصحابة - رضوان الله عليهم - هموا بالرهبانية، فأنزل الله تعالى نهيهم عن ذلك بقوله - تعالى -: {يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} [المائدة: 87] وثبت في الصحيحين «أن نفرا من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قال أحدهم: أما أنا فأصوم لا أفطر وقال آخر: أما أنا فأقوم لا أنام وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم.

فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - خطيبا فقال: ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني» .

وفي صحيح البخاري «أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى رجلا قائما في الشمس فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال: مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه» .

وثبت في صحيح مسلم «عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يقول في خطبته: خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة» .

وفي السنن عن العرباض بن سارية أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة» .

قال الترمذي حديث حسن صحيح.

وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة وما كان بدعة وضلالة لم يكن هدى ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرعها كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

فإن قيل قد قال: طائفة معناها ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وقالت طائفة ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

قيل كلا القولين خطأ والأول أظهر خطأ، فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم بل لم يشرعها لا إيجابا ولا استحبابا، ولكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها وليس في الآية ما يدل على ذلك، فإنه قال: {ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها} [الحديد: 27] فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعة وأن تلك البدعة لم يرعوها حق رعايتها.

فإن قيل قوله - تعالى -: {فما رعوها حق رعايتها} [الحديد: 27] يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لكانوا ممدوحين.

قيل ليس في الكلام ما يدل على ذلك بل يدل على أنهم مع عدم الرعاية يستحقون من الذم ما لا يستحقونه بدون ذلك فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها وإن لم يكن واحد منهما محمودا بل مذموما مثل نصارى بني تغلب

ونحوهم ممن دخل في النصرانية ولم يقوموا بواجباتها بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شرا منهم والنار دركات كما أن الجنة درجات.

وأيضا فالله تعالى إذا كتب شيئا على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله.

وأيضا فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيص بغير موجب، فإن ما كتبه ابتداء لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه فكيف بالرهبانية؟ .

وأما قول من قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله فهذا المعنى لو دل عليه الكلام لم يكن في ذلك مدح للرهبانية، فإن من فعل ما لم يأمر الله به بل نهاه عنه مع حسن مقصده، غايته أن يثاب على قصده لا يثاب على ما نهي عنه ولا على ما ليس بواجب ولا مستحب فكيف والكلام لا يدل عليه، فإن الله قال {ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله} [الحديد: 27] ولم يقل ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ولا قال: ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله ولو كان المراد ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله لكان منصوبا على المفعولية ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه ولا نفى الابتداع بل أثبته لهم وإنما تقدم لفظ الكتابة فعلم أن القول الذي ذكرناه هو الصواب وأنه استثناء منقطع فتقديره وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، فإن إرضاء الله واجب مكتوب على الخلق وذلك يكون بفعل المأمور وبترك المحظور لا بفعل ما لم يأمر بفعله وبترك ما لم ينه عن تركه والرهبانية فيها فعل ما لم يؤمر به وترك ما لم ينه عنه.

[فصل: الرد على النصارى في احتجاجهم بأن الله مدحهم في قوله من أهل الكتاب أمة قائمة]

وأما قوله - تعالى -: {من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون} [آل عمران: 113] (113) {يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين} [آل عمران: 114] فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى بل هي مذكورة بعد قوله - تعالى -: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون} [آل عمران: 110] (110) {لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون} [آل عمران: 111] (111) {ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} [آل عمران: 112] ثم قال {ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة} [آل عمران: 113] ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله: {ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق} [آل عمران: 112] صفة اليهود وكذلك قوله: {وضربت عليهم المسكنة} [آل عمران: 112] فقوله عقب ذلك {من أهل الكتاب أمة قائمة} [آل عمران: 113] لا بد أن يكون متناولا لليهود ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود مع كفرهم بالمسيح ومحمد - صلى الله عليه وسلم - ليس فيهم مؤمن وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد - صلى الله عليه وسلم - والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم في ذلك حكم اليهود والله تعالى إنما أثنى على من آمن من أهل الكتاب كما قال - تعالى -: {وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب} [آل عمران: 199] وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى في آل عمران نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا العمل بشرائع الإسلام لكون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام وقد قيل أن النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما صلى عليه لما مات لأجل هذا، فإنه لم يكن هناك من يظهر الصلاة عليه في جماعة كثيرة ظاهرة كما يصلي المسلمون على جنائزهم.

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بمنزلة من يؤمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - في بلاد الحرب ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه كما قال - تعالى -: {فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة} [النساء: 92] فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار وهو في الباطن مؤمن كما كان مؤمن آل فرعون.

قال - تعالى -: {وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب} [غافر: 28] (28) {ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد} [غافر: 29] (29) {وقال الذي آمن ياقوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب} [غافر: 30] (30) {مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد} [غافر: 31] (31) {ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد} [غافر: 32] (32) {يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد} [غافر: 33] (33) {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب} [غافر: 34] (34) {الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار} [غافر: 35] (35) {وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب} [غافر: 36] (36) {أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب} [غافر: 37] (37) {وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد} [غافر: 38] (38) {ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار} [غافر: 39] (39) {من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب} [غافر: 40] (40) {ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار} [غافر: 41] (41) {تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار} [غافر: 42] (42) {لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار} [غافر: 43] (43) {فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد} [غافر: 44] (44) {فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب} [غافر: 45] (45) {النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} [غافر: 46] .

فقد أخبر سبحانه أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء قال الله تعالى {وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين} [التحريم: 11] وامرأة الرجل من آله بدليل قوله: {إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين} [الحجر: 59] (59) {إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين} [الحجر: 60] وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو في الظاهر منهم وهو في الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - يعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علما وعملا: و {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} [البقرة: 286] وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام كعجز النجاشي.

وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم في الظاهر مسلمون وفيهم من هو منافق كافر في الباطن إما يهودي وإما نصراني وإما مشرك وإما معطل.

كذلك في أهل الكتاب والمشركين من هو في الظاهر منهم ومن هو في الباطن من أهل الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - يفعل ما يقدر على علمه وعمله ويسقط ما يعجز عنه في ذلك.

وفي حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: «لما مات النجاشي قال: النبي - صلى الله عليه وسلم - استغفروا لأخيكم فقال بعض القوم: تأمرنا أن نستغفر لهذا العلج يموت بأرض الحبشة فنزلت {وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم} [آل عمران: 199] » .

ذكره ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم وذكره حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن البصري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «استغفروا لأخيكم النجاشي» فذكر مثله.

وكذلك ذكر طائفة من المفسرين عن جابر بن عبد الله وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا: «نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبي - صلى الله عليه وسلم - في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم قالوا: من هو؟ قال: النجاشي فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى البقيع وزاد بعضهم: وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر

سرير النجاشي وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له وقال لأصحابه: استغفروا له فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج حبشي نصراني لم يره قط وليس على دينه، فأنزل الله تعالى {وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب} [آل عمران: 199] » وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح - عليه السلام - إلى أن بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - فآمن به كما نقل ذلك عن عطاء.

وذهبت طائفة إلى أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم.

والقول الأول أجود، فإن من آمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأظهر الإيمان به وهو من أهل دار الإسلام يعمل ما يعمله المسلمون ظاهرا وباطنا فهذا من المؤمنين وإن كان قبل ذلك مشركا يعبد الأوثان فكيف إذا كان كتابيا؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهما وهؤلاء لا يقال أنهم من أهل الكتاب كما لا يقال في المهاجرين والأنصار أنهم من المشركين وعباد الأوثان ولا يمكن أحد من المنافقين ولا من غيرهم من أن يصلي على واحد منهم بخلاف من هو في الظاهر منهم وفي الباطن من المؤمنين.

وفي بلاد النصارى من هذا النوع خلق كثير يكتمون إيمانهم إما مطلقا وإما يكتمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم وهؤلاء قد

يتناولهم قوله - تعالى -: {وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله} [آل عمران: 199] الآية.

فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه كما يفعل كثير من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله فيمنعونهم الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم.

وأما قوله - تعالى -: {من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون} [آل عمران: 113] (113) {يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين} [آل عمران: 114] فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى ونظيرها قوله - تعالى -: {ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون} [الأعراف: 159] وهذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة ليس في ذلك مدح لمن كذب المسيح ولا فيها مدح لمن كذب محمدا - صلى الله عليه وسلم.

وهذا الكلام يفسره سياق الكلام، فإنه قال - تعالى -: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} [آل عمران: 110] ثم قال - تعالى -: {ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون} [آل عمران: 110] فقد جعلهم نوعين نوعا مؤمنين ونوعا فاسقين وهم أكثرهم وقوله - تعالى -: منهم المؤمنون يتناول من كان منهم مؤمنا قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - كما يتناولهم قوله - تعالى -: {وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة} [الحديد: 27] إلى قوله: وكثير منهم فاسقون وكذلك قوله - تعالى -: {ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون} [الحديد: 26] وقوله عن إبراهيم الخليل {وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين} [الصافات: 113] ثم لما قال: {وأكثرهم الفاسقون} [آل عمران: 110] قال {لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون} [آل عمران: 111] (111) {ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} [آل عمران: 112] وضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا ومباؤهم بغضب الله وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتداؤهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - كما قال - تعالى - في سورة البقرة {وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} [البقرة: 61] ثم قال بعد ذلك {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: 62] فتناولت هذه الآية من كان من أهل هذه الملل الأربع متمسكا بها قبل النسخ بغير تبديل كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفا به أكثرهم قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - من الكفر قال {ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون} [آل عمران: 113] (113) {يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين} [آل عمران: 114]

. وهذا يتناول من كان متصفا منهم بهذا قبل النسخ، فإنهم كانوا على الدين الحق الذي لم يبدل ولم ينسخ كما قال في الأعراف {ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون} [الأعراف: 159] وقوله: {وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون} [الأعراف: 168] (168) {فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون} [الأعراف: 169] (169) {والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين} [الأعراف: 170] .

وقد قال - تعالى -: {وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون} [الأعراف: 181] فهذا خبر من الله عمن كان متصفا بهذا الوصف قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن أدرك من هؤلاء محمدا - صلى الله عليه وسلم - فآمن به كان له أجره مرتين.

[فصل: رد دعواهم تعظيم الإسلام لمعابدهم]

قالوا ثم وجدناه يعظم إنجيلنا ويقدم صوامعنا ويشرف مساجدنا ويشهد بأن اسم الله يذكر فيها كثيرا وذلك مثل قوله - تعالى -: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا} [الحج: 40] والجواب أن فيها ذكر الصوامع والبيع وأما قوله: {يذكر فيها اسم الله كثيرا} [الحج: 40] ، فإنما ذكره عقب ذكره المساجد والمساجد للمسلمين وليس المراد بها كنائس النصارى، فإنها هي البيع ثم قوله - تعالى -: يذكر فيها اسم الله كثيرا إما أن يكون مختصا بالمساجد فلا يكون في ذلك إخبار بأن اسم الله يذكر كثيرا في البيع والصوامع وإما أن يكون ذكر اسم الله في الجميع فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان فيها من يتبع دين المسيح الذي لم يبدل ويذكر فيها اسم الله كثيرا وقد قيل أنها بعد النسخ والتبديل يذكر فيها اسم الله كثيرا وإن الله يحب أن يذكر اسمه.

قال الضحاك إن الله يحب أن يذكر اسمه وإن كان يشرك به يعني أن المشرك به خير من المعطل الجاحد الذي لا يذكر اسم الله بحال.

وأهل الكتاب خير من المشركين وقد ذكرنا أنه لما اقتتل فارس والروم وانتصرت الفرس ساء ذلك أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكرهوا انتصار الفرس على النصارى ; لأن النصارى أقرب إلى دين الله من المجوس والرسل بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وتقديم خير الخيرين على أدناهما حسب الإمكان ودفع شر الشرين بخيرهما فهدم صوامع النصارى وبيعهم فساد إذا هدمها المجوس والمشركون وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا فهذا خير وصلاح.

وهذه الآية ذكرت في سياق الإذن للمسلمين بالجهاد بقوله - تعالى -: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير} [الحج: 39] وهذه الآية أول آية نزلت في الجهاد ولهذا قال {الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله} [الحج: 40] ثم قال: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض} [الحج: 40] فيدفع بالمؤمنين الكفار ويدفع شر الطائفتين بخيرهما كما دفع المجوس بالروم النصارى ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا كما قال - تعالى -: في سورة البقرة {وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين} [البقرة: 251] وأما التقديم في اللفظ، فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى كقوله - تعالى -: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: 33] وقوله: {يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه} [عبس: 34] وقوله: {والذاريات ذروا} [الذاريات: 1] (1) {فالحاملات وقرا} [الذاريات: 2] (2) {فالجاريات يسرا} [الذاريات: 3] (3) {فالمقسمات أمرا} [الذاريات: 4] ونظائره متعددة.

وكذلك في قوله - تعالى -: {لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا} [الحج: 40] فبين سبحانه أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت مواضع العبادات وهدمها فساد إذا هدمها من لا يبدلها بخير منها وأدناها هي الصوامع، فإن الصومعة تكون لواحد أو لطائفة قليلة فبدأ بأدنى المعابد وختم بأشرفها وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيرا ففي الجملة حكم هذه المعابد حكم أهلها وأهلها قبل النسخ والتبديل مؤمنون مسلمون وهدم معابد المؤمنين المسلمين فساد وبعد النسخ والتبديل إذا غلب أهل الكتاب من هو شر منهم كالمجوس والمشركين وهدموا معابدهم كان ذلك فسادا وإذا هدمها من هو خير

منهم كأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأبدلوها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولا يشرك به ويذكر فيها الإيمان بجميع كتبه ورسله كان ذلك صلاحا لا فسادا.

ولهذا أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يتخذ المساجد مواضع معابد الكفار كما كان لثقيف أهل الطائف معبد يعبدون فيه اللات التي قال الله فيها: {أفرأيتم اللات والعزى} [النجم: 19] فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يهدم ذلك المعبد ويتخذ مكانه المسجد الذي يعبد الله وحده فيه، فإن المساجد هي بيوت الله في الأرض قال - تعالى -: {قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون} [الأعراف: 29] وقال - تعالى -: {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا} [الجن: 18] وقال - تعالى -: {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم} [التوبة: 17] الآية إلى قوله: المهتدين وقال - تعالى -: {الله نور السماوات والأرض مثل نوره} [النور: 35] الآية إلى قوله: بغير حساب ثم لما ذكر المؤمنين ذكر الكفار من أهل الكتاب والمشركين فذكر أهل الجهل المركب والبسيط فقال - تعالى -: {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب} [النور: 39] (39) {أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور} [النور: 40] فقد تبين أنه ليس لهم حجة في شيء مما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - بل ما جاء به حجة عليهم من وجوه متعددة.

[فصل: رفض دعواهم وجوب التمسك بدينهم بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم]

قالوا وهذا وغيره أوجب لنا التمسك بديننا وأن لا نهمل ما معنا ولا نرفض مذهبنا ولا نتبع غير السيد المسيح كلمة الله وروحه وحوارييه الذين أرسلهم إلينا.

والجواب أنهم احتجوا بحجتين باطلتين:

إحداهما: أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يرسل إليهم بل إلى العرب وقد تبين أن الاحتجاج بها من أعظم الكذب والافتراء على محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه لم يقل قط إني لم أرسل إلى أهل الكتاب ولا قال قط إني لم أرسل إلا إلى العرب بل نصوصه المتواترة عنه وأفعاله تبين أنه مرسل إلى جميع أهل الأرض أميهم وكتابيهم.

والحجة الثانية: قولهم: أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أثنى على دين النصارى بعد التبديل والنسخ وهي أيضا أعظم كذبا عليه من التي قبلها كيف يثني عليهم وهو يكفرهم في غير موضع من كتابه ويأمر بجهادهم وقتالهم ويذم المتخلفين عن جهادهم غاية الذم ويصف من لم ير طاعته في قتالهم بالنفاق والكفر ويذكر أنه يدخل جهنم وهذا كله يخبر به عن الله ويذكره تبليغا لرسالة ربه وإنما يضاف إليه ; لأنه بلغه وأداه لا لأنه أنشأه وابتدأه.

كما قال - تعالى -: {إنه لقول رسول كريم} [الحاقة: 40] (40) {وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون} [الحاقة: 41] (41) {ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون} [الحاقة: 42] (42) {تنزيل من رب العالمين} [الحاقة: 43] (43) {ولو تقول علينا بعض الأقاويل} [الحاقة: 44] (44) {لأخذنا منه باليمين} [الحاقة: 45] (45) {ثم لقطعنا منه الوتين} [الحاقة: 46] (46) {فما منكم من أحد عنه حاجزين} [الحاقة: 47] (47) {وإنه لتذكرة للمتقين} [الحاقة: 48] (48) {وإنا لنعلم أن منكم مكذبين} [الحاقة: 49] (49) {وإنه لحسرة على الكافرين} [الحاقة: 50] (50) {وإنه لحق اليقين} [الحاقة: 51] (51) {فسبح باسم ربك العظيم} [الحاقة: 52] وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وأمه وعلى من اتبعه وكان على دينه الذي لم يبدل فهذا حق وهو لا ينافي وجوب اتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - على من بعث إليه فلو قدر أن شريعة المسيح لم تبدل وأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أثنى على كل من اتبعها وقال مع ذلك إن الله أرسلني إليكم لم يكن ذلك متناقضا وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه.

فكيف وهو إنما مدح من اتبع دينا لم يبدل؟ وأما الذين بدلوا دين المسيح فلم يمدحهم بل ذمهم كما قال {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون} [المائدة: 14] وقد قدمنا أن النصارى كفروا كما كفرت اليهود: كفروا بتبديلهم ما في الكتاب الأول وكفروا بتكذيبهم بالكتاب الثاني.

وأما من لم يبدل الكتاب أو أدرك محمدا - صلى الله عليه وسلم - فآمن به فهؤلاء مؤمنون ومما يبين ذلك أن تعظيم المسيح للتوراة واتباعه لها وعمله بشرائعها أعظم من تعظيم محمد - صلى الله عليه وسلم - للإنجيل ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطا عن اليهود وجوب اتباعهم للمسيح فكيف يكون تعظيم محمد - صلى الله عليه وسلم - للإنجيل مسقطا عن النصارى وجوب اتباعه.

[فصل: رد دعوى النصارى أن الإسلام عظم الحواريين]

وأما قولهم: وحوارييه الذين أرسلهم إلينا أنذرونا بلغتنا وسلموا لنا ديننا الذين قد عظموا في هذا الكتاب بقوله في سورة الحديد: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} [الحديد: 25] وقال في سورة البقرة {فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: 213] فأعني بقوله: أنبياءه المبشرين ورسله ينحو بذلك الحواريين الذين داروا في سبعة أقاليم العالم وبشروا بالكتاب الواحد الذي هو الإنجيل الطاهر ; لأنه لو عني عن إبراهيم وداود وموسى ومحمد لكان قال: معهم الكتب ; لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون غيره ولم يقل إلا الكتاب الواحد ; لأنه ما أتى جماعة مبشرين بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر وجاء أيضا في الكتاب {وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين} [يس: 20] يعني الحواريين لم يقل رسول إنما قال: المرسلين والجواب من وجوه:

أحدها: أنه ليس فيما ذكر ولا في غيره ما يوجب تكذيب الرسول الذي أرسل إليكم وإلى غيركم وتمسككم بدين مبدل منسوخ كما أنه ليس فيما يعظم به موسى والتوراة ومن اتبع موسى ما يوجب لليهود تكذيب الرسول الذي أرسل إليهم وتمسكهم بدين مبدل منسوخ.

الثاني: أن قولهم: ولا نتبع غير المسيح وحوارييه قول باطل، فإنهم ليسوا متبعين لا للمسيح ولا لحوارييه لوجهين:

أحدهما: أن دينهم مبدل ليس كله عن المسيح والحواريين بل أكثر شرائعهم أو كثير منها ليست عن المسيح والحواريين.

الثاني: أن المسيح بشر بأحمد كما قال - تعالى -: {وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: 6] .

فإذا لم يتبعوا أحمد كانوا مكذبين للمسيح وعندهم من البشارات عن المسيح وغيره من الأنبياء بأحمد ما هو مبسوط في موضع آخر كما سيأتي - إن شاء الله.

وإنما المقصود هنا منع احتجاجهم بشيء مما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وبيان أنه حجة عليهم لا لهم إذ زعموا أن في بعضه حجة لهم.

الثالث: أن قولهم عن الحواريين: أنهم الرسل الذين عظموا في هذا الكتاب قول باطل فسروا به القرآن تفسيرا باطلا من جنس تفسيرهم {الذين أنعمت} [الفاتحة: 7] عليهم بالنصارى. وتفسيرهم بإذني أي ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت. وتفسيرهم: {الم ذلك الكتاب} [البقرة: 1] بالإنجيل، وتفسيرهم: {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} [البقرة: 3] (3) {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون} [البقرة: 4] هم النصارى.

وتفسيرهم قوله: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} [العنكبوت: 46] هم النصارى.

{إلا الذين ظلموا} [العنكبوت: 46] هم اليهود.

وأمثال ذلك من تفسيرهم القرآن، مثل ما يفسرون به التوراة والإنجيل والزبور من التفاسير التي هي من تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في آيات الله والكذب على أنبيائه بما يظهر أنه كذب على الأنبياء لكل من تدبر ذلك. وبطلان ذلك يظهر من وجوه.

أحدها: أن الله قال: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز} [الحديد: 25] . وقوله - تعالى -: {لقد أرسلنا رسلنا} [الحديد: 25] اسم جمع مضاف يعم جميع من أرسله الله تعالى.

الثاني: أن أحق الرسل بهذا الحكم الذين سماهم في القرآن ; كما قال - تعالى -: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا - ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما - رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: 163 - 165] وقال: في سورة الشعراء {كذبت قوم نوح المرسلين - إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون - إني لكم رسول أمين - فاتقوا الله وأطيعون - وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين - فاتقوا الله وأطيعون} [الشعراء: 105 - 163] . وقوله: {كذبت عاد المرسلين - إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون - إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون - وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} [الشعراء: 123 - 164] . وقوله: {كذبت ثمود المرسلين - إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون - إني لكم رسول أمين - فاتقوا الله وأطيعون - وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} [الشعراء: 141 - 145] وقوله:

{كذبت قوم لوط المرسلين - إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون - إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون - وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} [الشعراء: 160 - 127] . وقوله: {كذب أصحاب الأيكة المرسلين - إذ قال لهم شعيب ألا تتقون - إني لكم رسول أمين - فاتقوا الله وأطيعون - وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} [الشعراء: 176 - 180] . وقال - تعالى -: {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا - فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا} [المزمل: 15 - 16] . وقال - تعالى -: {كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب} [غافر: 5] . وقال - تعالى -: {ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون} [المؤمنون: 23] .

وذكر قصته ثم قال: بعد ذلك: {ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون} [المؤمنون: 31] . ثم لما قضى قصته قال - تعالى -: {ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين - ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون - ثم أرسلنا رسلنا تترى كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون - ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين - إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين} [المؤمنون: 42 - 46] فذكر إرسال رسله تترى أي متواترة ثم ذكر إرسال موسى وهارون وإرسال موسى وهارون قبل المسيح بمدة طويلة.

وقال - تعالى -: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} [النحل: 36] فهذا إخبار منه - سبحانه وتعالى - بأنه بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده وقال - تعالى -: في المسيح - صلوات الله عليه - {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة} [المائدة: 75] . . . فأخبر أن المسيح رسول من هؤلاء الرسل {قد خلت من قبله الرسل} [المائدة: 75] وقبله قد بعث في كل أمة رسولا.

وقد روي في حديث أبي ذر عن «النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الأنبياء مائة ألف نبي وأن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر» وبعض الناس يصحح هذا الحديث وبعضهم يضعفه، فإن

كان صحيحا فالرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر وإن لم تعرف صحته أمكن أن يكونوا بقدر ذلك وأن يكونوا أكثر ; كما يمكن أن يكونوا أقل، فإن الله تعالى أخبر أنه بعث في كل أمة رسولا.

وقال - تعالى -: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} [فاطر: 24] وروي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم أكرمها وأفضلها على الله» وهو حديث جيد.

وقد قال - تعالى -: في سورة الزمر {وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين} [الزمر: 71] .

وقال - تعالى - في سورة تبارك: {وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير - إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور - تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير - قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير} [الملك: 6 - 9] فهذا إخبار منه بأن كل فوج يلقى في النار وقد جاءهم نذير ; كما قال - تعالى -:

{وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: 15] وقد قال - تعالى -: {ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: 165] وقال - تعالى -: {يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين} [الأنعام: 130] .

فقد أرسل الله قبل المسيح رسلا كثيرين إلى جميع الأمم فكيف يجوز أن يدعي أن المراد بقوله - تعالى -: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات} [الحديد: 25] هم الحواريون - فقط - الذين أرسلهم المسيح مع أن الحواريين رسل المسيح بمنزلة رسل موسى وإبراهيم ورسل محمد - صلى الله عليه وسلم -.

ومن أرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجبت طاعته على الناس فيما يبلغه عن رسول الله ; كما في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني» .

فبين أن أميره إنما تجب طاعته في المعروف الذي أمر الله به ورسوله لا في كل ما يأمر به ففي الصحيحين عن علي «أن

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث جيشا وأمر عليهم رجلا وأمرهم أن يسمعوا ويطيعوا فأغضبوه فقال: اجمعوا لي حطبا فجمعوا له ثم قال: أوقدوا نارا فأوقدوا نارا ثم قال: ألم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لي وتطيعوا قالوا: بلى قال: فادخلوها فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا إنما فررنا إلى رسول الله من النار فكانوا كذلك حتى سكن غضبه فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا وقال: لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف» وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» .

وفي مسلم عن أم الحصين سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم «- في حجة الوداع يقول ولو استعمل عليكم عبد أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا» .

وفي الصحيحين عنه أنه قال: «ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى له من سامع» .

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» .

وفي السنن عنه أنه قال: «نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» .

فالحواريون في تبليغهم عن المسيح كسائر أصحاب الأنبياء في تبليغهم عنهم وقال الله تعالى في كتابه: {يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا} [النساء: 59] وأولوا الأمر هم العلماء والأمراء فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله وجبت طاعتهم وإن تنازع الناس في شيء وجب رده إلى الله والرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يرد إلى أحد دون الرسل الذين أرسلهم الله ; كما قال: في الآية الأخرى {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [البقرة: 213] .

والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله ليس المراد به كتابا معينا ; كما قال - تعالى -: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} [البقرة: 177] ولم يرد بهذا أن يؤمن بكتاب معين واحد بل وهذا يتضمن الإيمان بالتوراة والإنجيل والقرآن وكل ما أنزله الله من كتاب ; كما قال: في سورة الشورى {فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم} [الشورى: 15] فأمره الله تعالى أن يؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب وأن يعدل بين من بلغتهم رسالته ; كما قال {لأنذركم به ومن بلغ} [الأنعام: 19] فكل من بلغه القرآن فهو مخاطب به يتناوله خطاب القرآن وفي الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «بلغوا عني ولو آية» .

وقال - تعالى -: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} [البقرة: 285] وفي القراءة الأخرى وكتابه ورسله وكلا القراءتين موافقة للأخرى وقوله - تعالى -: {كان الناس أمة واحدة} [البقرة: 213] أي فاختلفوا بعد ذلك ; كما قال: في السورة الأخرى وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا فلما اختلف بنو آدم بعث النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب.

وذلك يتناول كل كتاب أنزله الله ليحكم الله ويحكم كتابه بين الناس بالحق فالحاكم بين الناس هو الله تعالى وحكمه في كتبه المنزلة فلهذا أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول.

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه فأمرهم بالرد إلى كتابه ورسوله وقد ذم تعالى من لم يتحاكم إلى كتابه ورسوله فقال تعالى:

{ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا - وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا - فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا - أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا - وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما - فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} [النساء: 60 - 65] فقد تبين أن الرسل الذين ذكرهم الله في قوله: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات} [الحديد: 25] يتناول الرسل الذين أرسلهم الله تعالى كلهم ومن أحقهم بذلك الرسل الذين أخبر في القرآن أنه أرسلهم إلى عباده فظهر بطلان قولهم: أنهم الحواريون.

الوجه الثالث: أنه قال: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز} [الحديد: 25] فذكر أنه أنزل الحديد أيضا ليتبين من يجاهد في سبيل الله بالحديد.

اوالنصارى يزعمون أن الحواريين والنصارى لم يؤمروا بقتال أحد بالحديد.

الوجه الرابع: أنه قال: بعد ذلك: {ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة} [الحديد: 26] وإخباره بإرسال نوح وإبراهيم بعد قوله: لقد أرسلنا رسلنا بالبينات من باب ذكر الخاص بعد العام وبيان ما اختص به الخاص من الأحكام التي امتاز بها عن غيره مما دخل في العام ; كما يأمر السلطان العسكر بالجهاد ويأمر فلانا وفلانا بأن يفعلوا كذا وكذا ومثل أن يقال أرسل رسله إلى فلان وأرسل إليهم فلانا وأمره بكذا وكذا قال - تعالى -: {ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب} [الحديد: 26] فنوح هو أبو الآدميين الذين حدثوا بعد الطوفان، فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السفينة وقال: في نوح وجعلنا ذريته هم الباقين.

وإبراهيم جعل الأنبياء بعده من ذريته ; كما قال - تعالى -: في إبراهيم {ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين} [العنكبوت: 27] ثم قال: بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم وأنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب {ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل} [الحديد: 27] فأخبر أنه قفى على آثارهم برسله وقفى بعيسى ابن مريم وآتاه الإنجيل وهؤلاء رسل قبل المسيح وآخرهم المسيح ولم يذكر أنه أرسل أحدا من أتباع المسيح بل أخبر أنه جعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة فكيف يجوز أن يقال أن مراده بالرسل الذين أرسلهم بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان هم الحواريون دون الرسل الذين ذكرهم وأرسلهم قبل المسيح.

الوجه الخامس: أنه ليس في القرآن آية تنطق بأن الحواريين رسل الله بل ولا صرح في القرآن بأنه أرسلهم لكن قال: في سورة يس {واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون - إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون - قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون - قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون - وما علينا إلا البلاغ المبين - قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم - قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون - وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين - اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون - وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون - أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون - إني إذا لفي ضلال مبين - إني آمنت بربكم فاسمعون - قيل ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون - بما غفر لي ربي وجعلني

من المكرمين - وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين - إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون - ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون} [يس: 13 - 30] .

فهذا كلام الله ليس فيه ذكر أن هؤلاء المرسلين كانوا من الحواريين ولا أن الذين أرسلوا إليهم آمنوا بهم وفيه أن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم هؤلاء الثلاثة أنزل الله عليهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون.

وقد ذكر طائفة من المفسرين أن هؤلاء كانوا من الحواريين وأن القرية أنطاكية وأن هذا الرجل اسمه حبيب النجار ثم إن بعضهم يقول إن المسيح أرسلهم في حياته لكن المعروف عند النصارى أن أهل أنطاكية آمنوا بالحواريين واتبعوهم لم يهلك الله أهل أنطاكية.

والقرآن يدل على أن الله أهلك قوم هذا الرجل الذي آمن بالرسل.

وأيضا فالنصارى يقولون: إنما جاءوا إلى أهل أنطاكية بعد رفع المسيح وأن الذين جاءوا كانوا اثنين لم يكن لهما ثالث قيل أحدهما شمعون الصفا والآخر بولص ويقولون إن أهل أنطاكية آمنوا بهم ولا يذكرون حبيب النجار ولا مجيء رجل من أقصى المدينة بل يقولون إن شمعون وبولص دعوا الله حتى أحيا ابن الملك فالأمر المنقول عند النصارى أن هؤلاء المذكورين في القرآن ليسوا من الحواريين وهذا أصح القولين عند علماء المسلمين وأئمة المفسرين وذكروا أن المذكورين في القرآن في سورة يس ليسوا من الحواريين بل كانوا قبل المسيح وسموهم بأسماء غير الحواريين ; كما ذكر محمد بن إسحاق قال: سلمة بن الفضل كان من حديث صاحب يس فيما حدثني محمد بن إسحاق عن ابن عباس وعن كعب وعن وهب بن منبه أنه كان رجلا من أهل أنطاكية وكان اسمه حبيبا وكان يعمل الحرير وكان رجلا سقيما قد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند باب من أبواب المدينة،

يتاجر وكان مؤمنا ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فيما يذكرون فيقسمه نصفين فيطعم نصفه عياله ويتصدق بنصفه وكان بالمدينة التي هو بها مدينة أنطاكية فرعون من الفراعنة يقال له إنطخس بن أنطنخس يعبد الأصنام صاحب شرك فبعث الله إليه المرسلين وهم ثلاثة صادق وصدوق وشلوم فقدم الله إليه وإلى أهل المدينة منهم اثنين فكذبوهما ثم عزز الله بالثالث.

وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله - تعالى -: {واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون - إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث} [يس: 13 - 14] لكي تكون الحجة عليهم أشد فأتوا أهل القرية فدعوهم إلى الله وحده وعبادته لا شريك له فكذبوهم فأتوا على رجل في ناحية القرية في زرع له فسألهم الرجل ما أنتم قالوا: نحن رسل رب العالمين، أرسلنا إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له قال لهم: أتسألون على ذلك أجرا؟ قالوا: لا، قال: فألقى ما في يده ثم أتى أهل المدينة {قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون} [يس: 20] وهذا القول هو الصواب وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلا لله قبل المسيح وأنهم كانوا قد أرسلوا إلى أنطاكية وآمن بهم حبيب النجار فهم كانوا قبل المسيح ولم تؤمن أهل المدينة بالرسل بل أهلكهم الله تعالى ; كما أخبر في القرآن ثم بعد هذا عمرت أنطاكية وكان أهلها مشركين حتى جاءهم من جاءهم من الحواريين فآمنوا بالمسيح على أيديهم ودخلوا دين المسيح.

ويقال إن أنطاكية أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح - عليه السلام - وذلك بعد رفعه إلى السماء.، ولكن ظن من ظن من المفسرين أن المذكورين في القرآن هم رسل المسيح وهم من الحواريين وهذا غلط لوجوه: منها: أن الله قد ذكر في كتابه أنه أهلك الذين جاءتهم الرسل وأهل أنطاكية لما جاءهم من دعاهم إلى دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا.

ومنها: أن الرسل في القرآن ثلاثة وجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى والذين جاءوا من أتباع المسيح كانوا اثنين ولم يأتهم رجل يسعى لا حبيب ولا غيره.

ومنها: أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح فلم يكن الله أرسلهم وهذا ; كما أن الله ذكر في القرآن أنه أهلك أهل مدين بالظلة لما جاءهم شعيب وذكر في القرآن أن موسى أتاها وتزوج ببنت واحد منها فظن بعض الناس أنه شعيب النبي - صلى الله عليه وسلم - وهذا غلط عند علماء المسلمين مثل ابن عباس والحسن البصري وابن جريج وغيرهم، كلهم ذكروا أن الذي صاهره موسى ليس هو شعيبا النبي - صلى الله عليه وسلم - وحكي أنه شعيب عمن لا يعرف من العلماء ولم يثبت عن أحد من الصحابة والتابعين ; كما بسطناه في موضعه. وأهل الكتاب يقرون بأن الذي صاهره موسى ليس هو شعيبا بل رجل من أهل مدين ومنهم من يقول: أنها غير مدين التي أهلك الله أهلها، والله أعلم.

وكذلك ذكر المفسرون في المرسلين هل أرسلهم الله أو أرسلهم المسيح قولين.

أحدهما: أن الله هو الذي أرسلهم.

قال أبو الفرج ابن الجوزي وهذا ظاهر القرآن وهو مروي عن ابن عباس وكعب ووهب بن منبه قال: وقال: المفسرون في قوله:

{إن كانت إلا صيحة واحدة} [يس: 29] أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة وصاح بهم صيحة واحدة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حس كالنار إذا أطفئت وذلك قوله: {فإذا هم خامدون} [يس: 29] أي ساكنون كهيئة الرماد الخامد.

ومعلوم عند الناس أن أهل أنطاكية لم يصبهم ذلك بعد مبعث المسيح بل آمنوا قبل أن يبدل دينه وكانوا مسلمين مؤمنين به على دينه إلى أن تبدل دينه بعد ذلك ومما يبين ذلك أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبي الأمم بعذاب من السماء يعمهم ; كما أهلك قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وغيرهم بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار ; كما أمر بني إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة، وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذاب من السماء فدل ذلك على أن هؤلاء الرسل المذكورين في يس كانوا قبل موسى - عليه السلام - وأيضا، فإن الله لم يذكر في القرآن رسولا أرسله غيره وإنما ذكر الرسل الذين أرسلهم هو، وأيضا فإنه قال: {إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث} [يس: 14] فأخبر أنه أرسلهم ; كما أخبر أنه أرسل نوحا وموسى وغيرهما، وفي الآية: {قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء} [يس: 15] ومثل هذا هو خطاب المشركين لمن قال: إن الله أرسله وأنزل عليه الوحي لا لمن جاء رسولا من عند رسول، وقد قال بعد هذا: {ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون} [يس: 30] .

وهذا إنما هو في الرسل الذين جاءوهم من عند الله لا من عند رسله. وأيضا فإن الله ضرب هذا مثلا لمن أرسل إليه محمدا - صلى الله عليه وسلم - يحذرهم أن ينتقم الله منهم ; كما انتقم من هؤلاء ومحمد إنما يضرب له المثل برسول نظيره لا بمن أصحابه أفضل منهم، فإن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا أفضل من الحواريين باتفاق علماء المسلمين ولم يبعث الله بعد المسيح رسولا بل جعل ذلك الزمان زمان فترة كقوله: {يأأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل} [المائدة: 19] وأيضا، فإنه قال - تعالى -: {إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا} [يس: 14] .

ولو كانوا رسل رسول لكان التكذيب لمن أرسلهم ولم يكن في قولهم: إن أنتم إلا بشر مثلنا شبهة، فإن أحدا لا ينكر أن يكون رسل رسل الله بشرا وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشرا، وأيضا فلو كان التكذيب لهما وهما رسل الرسول لأمكنهما أن يقولا: فأرسلوا إلى من أرسلنا أو إلى أصحابه، فإنهم يعلمون صدقنا في البلاغ عنه بخلاف ما إذا كانا رسل الله وأيضا فقوله: {إذ أرسلنا إليهم اثنين} [يس: 14] صريح في أن الله هو المرسل ومن أرسلهم غيره إنما أرسلهم ذلك لم يرسلهم الله ; كما لا يقال لمن أرسله محمد بن عبد الله أنهم رسل الله فلا يقال لدحية بن خليفة الكلبي أن الله أرسله ولا يقال ذلك للمغيرة بن شعبة وعبد الله بن حذافة وأمثالهما ممن أرسلهم الرسول وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أرسل رسله إلى ملوك الأرض ; كما أرسل دحية بن خليفة إلى قيصر وأرسل عبد الله بن حذافة إلى كسرى وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ; كما تقدم ذكر ذلك.

ومعلوم أنه لا يقال في هؤلاء: إن الله أرسلهم ولا يسمون عند المسلمين رسل الله ولا يجوز باتفاق المسلمين أن يقال هؤلاء داخلون في قوله: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات} [الحديد: 25] .

فإذا كانت رسل محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يتناولهم اسم رسل الله في الكتاب الذي جاء به فكيف يجوز أن يقال: إن هذا الاسم يتناول رسل رسول غيره، والمقصود هنا بيان معاني القرآن وما أراده الله - تبارك وتعالى - بقوله: {إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين} [يس: 13] هل مراد الله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - من أرسلهم الله أو من أرسلهم رسوله، وقد علم يقينا أن محمدا لم يدخل في مثل هذا فمن قال: إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أراد بذلك من أرسله رسولا فقد كذب على محمد - صلى الله عليه وسلم - عمدا أو خطأ.

[فصل: بيان فساد قولهم في تفسير آية سورة البقرة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين]

وقد تبين بما ذكرناه فساد قولهم: في تفسير آية البقرة، فإنهم قالوا: وقال: في سورة البقرة {فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: 213] قالوا: فأعني بقوله: أنبياءه المبشرين ورسله ينحو بذلك عن الحواريين الذين داروا في سبعة أقاليم العالم وبشروا بالكتاب الذي هو الإنجيل الطاهر ; لأنه لو كان أعني عن إبراهيم وموسى وداود ومحمد لكان قال: ومعهم الكتب ; لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون غيره ولم يقل إلا الكتاب الواحد ; لأنه ما أتي جماعة مبشرين بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر.

فيقال: لهم: قد تقدم بعض ما يدل على فساد هذا التفسير.

وأيضا، فإنه قال - تعالى -: {كان الناس أمة واحدة} [البقرة: 213] أي فاختلفوا. {فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين} [البقرة: 213] .

والحواريون ليسوا من النبيين وإن كان المسيح أرسلهم ولا يلزم من إرساله لهم أن يكونوا أنبياء كمن أرسلهم موسى ومحمد وغيرهما ولهذا تسميهم عامة النصارى رسلا ولا يسمونهم أنبياء.

وأيضا فإنه قال: وأنزل معهم الكتاب.

والحواريون لم ينزل معهم الكتاب إنما أنزل الكتاب مع المسيح، ولكن الأنبياء أنزل معهم جنس الكتاب، فإن الكتاب اسم جنس فيدخل فيه الكتب المنزلة كلها ; كما في قوله: {ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} [البقرة: 177] وفي قوله: {كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله} [البقرة: 285] وفي القراءة الأخرى (وكتابه ورسله) وكذلك قوله عن مريم: {وصدقت بكلمات ربها وكتبه} [التحريم: 12] وفي القراءة الأخرى (وكتابه) وأيضا قال - تعالى -: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين} [البقرة: 213] .

وقال - تعالى -: في سورة يونس {وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا} [يونس: 19] وهذا يدل أنه لما اختلفت بنو آدم بعث الله النبيين، واختلافهم كان قبل المسيح بل قبل موسى بل قبل الخليل بل قبل نوح ; كما قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم حدث فيهم الشرك والاختلاف على وجهين تارة يختلفون فيؤمن بعضهم ويكفر بعضهم ; كما قال - تعالى -: {ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر} [البقرة: 253] وقال - تعالى -: {هذان خصمان اختصموا في ربهم} [الحج: 19] يعني أهل الإيمان والكفر وقد يكون المختلفون كلهم على باطل كقوله: {وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد} [البقرة: 176] وقوله: {ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك} [هود: 118] وأيضا: فالإنجيل ليس فيه حكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بل عامته مواعظ ووصايا وأخبار المسيح بخلاف التوراة والقرآن، فإن فيهما من الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ما ليس في الإنجيل.

وأيضا فإنه قال: {وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه} [البقرة: 213] .

وذلك يقتضي أن الله هدى الذين آمنوا بعد اختلاف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم لما اختلفوا فيه من الحق وهذا ذم لمن أوتوا الكتاب فاختلفوا.

والنصارى داخلون في هذا الذم ولو كان المراد الإنجيل لكانوا هم المذمومين دون غيرهم وليس كذلك بل اليهود وغيرهم من المختلفين مذمومون أيضا، وإنما الممدوح هم المؤمنون الذين هداهم الله لما اختلف أولئك فيه من الحق بإذنه.

وهذا يتناول أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - قطعا وقد يتناول كل من آمن من الأمم المتقدمة كالذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم الخليل ; كما قال - تعالى -: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: 62] وأما أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -، فإن الله هداهم لما اختلف فيه الأمم قبلهم من الحق بإذنه وهذا بين، فإنهم على الحق والعدل الوسط بين طرفي الباطل وهذا ظاهر في اتباعهم الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى في التوحيد والأنبياء والأخبار والتشريع والنسخ والحلال والحرام والتصديق والتكذيب وغير ذلك.

أما التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فوصفوا الرب سبحانه بصفات النقص الذي يختص بها المخلوق فقالوا إن الله فقير وبخيل وأنه يتعب وغير ذلك.

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق صفات الكمال الذي يختص بها الخالق فقالوا: عن المسيح أنه خالق السماوات والأرض القديم الأزلي علام الغيوب القادر على كل شيء و: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} [التوبة: 31] الآية.

والمسلمون هداهم الله لما اختلفوا فيه من الحق فلم يشبهوا الخالق بالمخلوق ولا المخلوق بالخالق بل أثبتوا لله ما يستحقه من صفات الكمال ونزهوه عن النقائص وأقروا بأنه أحد ليس كمثله شيء وليس له كفوا أحد في شيء من صفات الكمال فنزهوه عن النقائص خلافا لليهود وعن مماثلة المخلوق له خلافا للنصارى.

وأما الأنبياء - عليهم السلام - فإن اليهود قتلوا بعضا وكذبوا بعضا ; كما قال - تعالى -: {أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون} [البقرة: 87] .

والنصارى أشركوا بهم وبمن هو دونهم فعبدوا المسيح بل اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله وجعلوا الحواريين رسلا لله وزعموا أن الإنسان يصير بطاعته بمنزلة الأنبياء وصوروا تماثيل الأنبياء والصالحين وصاروا يدعونهم ويستشفعون بهم بعد موتهم وإذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تماثيلهم.

وفي الصحيحين «أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاوير فيها فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» .

وأما المسلمون فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه فآمنوا بأنبياء الله كلهم ولم يفرقوا بين أحد منهم ولم يغلوا فيهم غلو النصارى ولا قصروا في حقهم تقصير اليهود وكذلك قتل اليهود الذين يأمرون بالقسط من الناس والنصارى يطيعون من يأمر بالشرك وإن الشرك لظلم عظيم ويطيعون من يحرم الحلال ويحلل الحرام والمسلمون يطيعون من يأمر بطاعة الله ولا يطيعون من يأمر بمعصية الله. والنصارى فيهم الشرك بالله واليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله ; كما قال - تعالى -: في النصارى {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] وقال: في اليهود {أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون} [البقرة: 87] والإسلام هو أن يستسلم العبد لله وحده فيعبده وحده بما أمره به فمن استسلم له ولغيره كان مشركا، والله لا يغفر أن يشرك به. ومن لم يستسلم له بل استكبر عن عبادته كان ممن قيل فيه {ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [غافر: 60] فلهذا كان جميع الأنبياء وأممهم مسلمين لله يعبدونه وحده بما أمرهم به وإن تنوعت شرائعهم فالمسيح لم يزل مسلما لما كان متبعا لشرع التوراة ولما نسخ الله له نسخة منها.

ومحمد لم يزل مسلما لما كان يصلي إلى بيت المقدس، ثم لما صلى إلى الكعبة ولما بعثه الله إلى الخلق كانوا كلهم مأمورين بطاعته وكانت عبادة الله طاعته، فمن لم يطعه لم يكن عابدا لله فلم يكن مسلما.

وأما التشريع فإن اليهود زعموا أن ما أمر الله به يمتنع منه أن ينسخه.

والنصارى زعموا أن ما أمر الله به يسوغ لأكابرهم أن ينسخوه فهدى الله المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق فقالوا إن الله سبحانه له أن ينسخ ما شرعه خلافا لليهود وليس للمخلوق أن يغير شيئا من شرع الخالق خلافا للنصارى.

وأما الحلال والحرام والطهارة والنجاسة فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وشددت عليهم من أمر النجاسات، حتى منعوا من

مؤاكلة الحائض والجلوس معها في بيت ومن إزالة النجاسة وحرم عليهم شحم الثرب والكليتين وكل ذي ظفر وغير ذلك.

والمسيح - عليه السلام - أحل لهم بعض الذي حرم عليهم فقابلهم النصارى فقالوا: ليس شيء محرم لا الخنزير ولا غيره بل ولا شيء نجس، لا البول ولا غيره وزعموا أن بعض أكابرهم رأى ملاءة صور له فيها صور الحيوان وقيل له كل ما طابت نفسك ودع ما تكره وأنه أبيح لهم جميع الحيوان ونسخوا شرع التوراة بمجرد ذلك، فالحلال عندهم ما اشتهته أنفسهم والحرام عندهم ما كرهته أنفسهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق فأحل لهم الله الطيبات وحرم عليهم الخبائث وأزال عنهم الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل خلافا لليهود وأمرهم بالطهارة طهارة الحدث والخبث خلافا للنصارى.

والمسيح - عليه السلام - جعلته اليهود ولد زنا كذابا ساحرا، وجعلته النصارى هو الله خالق السماوات والأرض فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فشهدوا أنه عبد الله مخلوق خلافا للنصارى وأنه رسول وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين خلافا لليهود وأما التصديق والتكذيب، فإن اليهود من شأنهم التكذيب بالحق والنصارى من شأنهم التصديق بالباطل، فإن اليهود كذبوا من كذبوه من الأنبياء وقد جاءوا بالحق ; كما قال - تعالى -: {أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون} [البقرة: 87] والنصارى يصدقون بمحالات العقول والشرائع ; كما صدقوا بالتثليث والاتحاد ونحوهما من الممتنعات.

[فصل: الرد على قولهم أن القرآن يشهد لهم أنهم أنصار الله]

ثم قالوا: عن القرآن أنه يشهد لهم أنهم أنصار الله حيث يقول: كما قال: عيسى ابن مريم: من أنصاري إلى الله؟ قال: {الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين} [الصف: 14] فيقال: هذا حق والحواريون مؤمنون مسلمون وهم أنصار الله لكن ليس في هذا أنهم رسل الله ولا في هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذ عنهم ولا في هذا أن الواحد من الحواريين معصوم من الغلط بل أمر الله المؤمنين من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يكونوا أنصار الله ; كما طلب المسيح ذلك بقوله: {من أنصاري إلى الله} [الصف: 14] .

وقد وصف الله المؤمنين أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - من أهل المدينة النبوية بأنهم أنصار الله بقوله - تعالى -:

{والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه} [التوبة: 100] والمهاجرون أفضل من الأنصار وهم أيضا من أنصار الله نصروه ; كما نصره الأنصار لكن لما كان لهم اسم يخصهم وهو المهاجرون وهو أفضل الاسمين، خص الأنصار بهذا الاسم. والمهاجرون والأنصار أفضل ممن آمن بموسى ومن آمن بعيسى عند المسلمين.

ومع هذا فليس فيهم عندهم نبي ولا رسول لله، ولكن فيهم رسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تسليما.

[فصل: الرد عليهم في زعمهم أن الإسلام عظم إنجيلهم الذي بين أيديهم]

فصل

قالوا وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التي بأيدينا فيقول: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه} [المائدة: 48] وقال: في سورة آل عمران: {الم - الله لا إله إلا هو الحي القيوم - نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل - من قبل هدى للناس} [آل عمران: 1 - 4] . وقال: في سورة البقرة {الم - ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين - الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون - والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون - أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون} [البقرة: 1 - 5] . فأعني بالكتاب الإنجيل والذين يؤمنون بالغيب نحن النصارى الذين آمنا بالمسيح وما رأيناه، ثم اتبع بالقول {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} [البقرة: 4] فأعني بهم المسلمين الذين آمنوا بما آتى به وما أتى من قبله وقال: في سورة المائدة {وموعظة للمتقين - وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} [المائدة: 46 - 47] وقال في سورة آل عمران: {فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير} [آل عمران: 184] فأعني أيضا بالكتاب المنير الذي هو الإنجيل المقدس.

وقال: أيضا: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين} [يونس: 94] .

فثبت بهذا ما معنا ونفي عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

والجواب: بعد أن تعرف أن لفظ الآية الأولى من سورة المائدة {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه} [المائدة: 48] . أن يقال: أما تصديق خاتم الرسل محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما أنزل الله قبله من الكتب ولمن جاء قبله من الأنبياء فهذا معلوم بالاضطرار من دينه متواترا تواترا ظاهرا كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم وهذا من أصول الإيمان.

قال - تعالى -: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون - فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} [البقرة: 136 - 137] وقال - تعالى -: {قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون - ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} [آل عمران: 84 - 85]

وقال: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} [البقرة: 177]

وقال - تعالى -: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} [البقرة: 285 - 286] وتصديقه للتوراة والإنجيل مذكور في مواضع من القرآن وقد قال {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه} [المائدة: 48] .

وقال - تعالى -: {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني} [الزمر: 23] وقال: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن} [يوسف: 3] فبين أنه أنزل هذا القرآن مهيمنا على ما بين يديه من الكتب والمهيمن الشاهد المؤتمن الحاكم يشهد بما فيها من الحق وينفي ما حرف فيها ويحكم بإقرار ما أقره الله من أحكامها وينسخ ما نسخه الله منها وهو مؤتمن في ذلك عليها وأخبر أنه أحسن الحديث وأحسن القصص وهذا يتضمن أنه كل من كان متمسكا بالتوراة قبل النسخ من غير تبديل شيء من أحكامها، فإنه من أهل الإيمان والهدى وكذلك من كان متمسكا بالإنجيل من غير تبديل شيء من أحكامه قبل النسخ فهو من أهل الإيمان والهدى وليس في ذلك مدح لمن تمسك بشرع مبدل فضلا عمن تمسك بشرع منسوخ ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرسل وما أنزل إليه من الكتب بل قد بين كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأول وبترك الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - في غير موضع.

وأما تأويلهم قوله: {ذلك الكتاب} [البقرة: 2] أنه الإنجيل و {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} [البقرة: 3] عنى بهم النصارى فهو من تحريف الكلم عن مواضعه وتبديل كلام الله ; كما فعلوه في قوله: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا} [آل عمران: 85] وفي قوله: بإذني أي باللاهوت وفي قوله: {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: 6] .

وفي غير ذلك مما ذكروه وتأولوه من القرآن على غير المعنى الذي أراد الله به وهذا مما يؤيد أنهم فعلوا كذلك بالتوراة والإنجيل، فإنه إذا كان القرآن الذي قد عرف تفسيره والمراد به العام والخاص ونقل ذلك عن الرسول نقلا متواترا حتى عرف معناه علما يقينا اضطراريا فيبدلون معناه ويحرفون الكلم عن مواضعه فماذا يصنعون بالتوراة والإنجيل ولم ينقل لفظ ذلك ومعناه ; كما نقل القرآن وليس في أهل تلك الكتب من يذب عن لفظها ومعناها ; كما يذب المسلمون عن لفظ القرآن ومعناه؟ .

وهؤلاء غرهم قوله: {ذلك الكتاب} [البقرة: 2] فظنوا أن لفظ ذلك لما كان يشار بها إلى الغائب أشير بها إلى الإنجيل.

فيقال: لهم هذا كقوله: {ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم} [آل عمران: 58] وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية، وقوله: {واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم} [الممتحنة: 10] وقوله: {فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر} [الطلاق: 2] ومثله قوله - تعالى -: بعد أن ذكر خبر يوسف الصديق {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك} [يوسف: 102] وقال أيضا: لما ذكر خبر مريم: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم} [آل عمران: 44] ; كما قال: لما ذكر آيات يخبر فيها عن نوح {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك} [هود: 49] وقال: {الر - تلك آيات الكتاب المبين - إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون} [يوسف: 1 - 2] وتلك في المؤنث مثل ذلك في المذكر ومع هذا فأشار إلى القرآن ومنه قوله: {الر - تلك آيات الكتاب وقرآن مبين} [الحجر: 1] وقوله: {طس - تلك آيات القرآن وكتاب مبين} [النمل: 1] ومنه قوله: {طسم - تلك آيات الكتاب المبين} [القصص: 1 - 2] ومنه قوله: {حم - عسق - كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم}

[الشورى: 1 - 3] وقوله: {وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا} [الشورى: 7] وقوله: {المر - تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق} [الرعد: 1] الآية.

ومثل هذا كثير وذلك أنه لما أنزل قوله: {ذلك الكتاب - تلك آيات الكتاب} [يونس: 2 - 1] ونحو ذلك لم يكن الكتاب المشار إليه قد أنزل تلك الساعة وإنما كان قد أنزل قبل ذلك فصار كالغائب الذي يشار إليه ; كما يشار إلى الغائب وهو باعتبار حضوره عند النبي - صلى الله عليه وسلم - يشار إليه ; كما يشار إلى الحاضر ; كما قال - تعالى -: {وهذا ذكر مبارك أنزلناه} [الأنبياء: 50]

ولهذا قال: غير واحد من السلف ذلك الكتاب أي هذا الكتاب يقولون المراد هذا الكتاب وإن كانت الإشارة تكون تارة إشارة غائب وتارة إشارة حاضر وقد قال {هدى للمتقين - الذين يؤمنون بالغيب} [البقرة: 2 - 3] وقد وصف النصارى بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وأنهم كافرون ظالمون فكيف يجعلهم المتقين الذين يؤمنون بالغيب.

قال - تعالى -: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: 29] .

وأول التقوى تقوى الشرك وقد وصف النصارى بالشرك في قوله: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] وقال - تعالى -: لما ذكر المسيح {فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم - أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين} [مريم: 37 - 38] وقال - تعالى -: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} [المائدة: 72] وقوله: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} [المائدة: 73] ونهى عن موالاتهم فقال {ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم} [المائدة: 51] وقد أخبر أن الله ولي المتقين فقال {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون - إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين} [الجاثية: 18 - 19] فلو كانوا من المتقين فضلا عن أن يكونوا هم المتقين لكان الله وليهم ولكانت موالاتهم واجبة على المؤمنين وهو قد نهى عن موالاتهم وجعل من يتولاهم ظالما وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض والكفار بعضهم أولياء بعض ولهذا لما قطع الله الموالاة بين المؤمنين وبين الكافرين.

قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» .

واتفق المسلمون على أن اليهودي والنصراني لا يرث مسلما ولو كان ابنه وأباه ; لأن الله قطع الموالاة بينهما وقد قال - تعالى -: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22] وأيضا فإنه قال - تعالى -: {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة} [البقرة: 3] وهي الصلاة التي أمر بها في قوله: {أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا} [الإسراء: 78] وقد قال: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور» والنصارى يصلون بغير طهور.

وقال - صلى الله عليه وسلم -: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» وهم لا يقرؤونها. والصلاة التي فرضها وأثنى عليها مشتملة

على استقبال الكعبة وعلى ركوع وسجدتين في كل ركعة وغير ذلك مما لا يفعله النصارى فكيف يمدحهم بإقامة الصلاة وهم لا يقيمون الصلاة التي أمر بإقامتها.

ثم لو قال اليهودي المراد بقوله: {ذلك الكتاب} [البقرة: 2] التوراة وبالمتقين اليهود لكان هذا مع بطلانه أقرب من قول القائل أن المراد بالكتاب الإنجيل ; لأن التوراة أحق بذلك من الإنجيل، فإنها الأصل والله تعالى يقرن بينها وبين القرآن في غير موضع كقوله: {أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة} [هود: 17] وقوله - تعالى -: {قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين} [الأحقاف: 10] .

وقد قالت الجن لما سمعت القرآن {قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم} [الأحقاف: 30] وقال: النجاشي لما سمع القرآن إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وكذلك ورقة بن نوفل قال: هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى بن عمران.

وقال - تعالى -: قالوا: {لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا} [القصص: 48] أي: التوراة والقرآن. وقالوا ساحران تظاهرا أي موسى ومحمد وقالوا إنا بكل كافرون.

قال الله: {قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين} [القصص: 49] فقد بين أنه لم يأت من عند الله كتاب أهدى من التوراة والقرآن.

وقال - تعالى -: {وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون - وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون} [الأنعام: 91 - 92] .

وأما قوله - تعالى -: {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} [البقرة: 4] فهي صفة ثانية للذين يؤمنون بالغيب مجملا، ثم وصفهم بإيمان مفصل بما أنزل إليك وما أنزل من قبله. والعطف بالواو يكون لتغاير الذوات ويكون لتغاير الصفات كقوله - تعالى -: {سبح اسم ربك الأعلى - الذي خلق فسوى - والذي قدر فهدى - والذي أخرج المرعى - فجعله غثاء أحوى} [الأعلى: 1 - 5] والذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى وهو الذي أخرج المرعى وكذلك قوله - تعالى -: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم - الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون - والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون - والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون} [الزخرف: 9 - 12] ومثله قوله: {قد أفلح المؤمنون - الذين هم في صلاتهم خاشعون - والذين هم عن اللغو معرضون - والذين هم للزكاة فاعلون - والذين هم لفروجهم حافظون - إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين - فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون - والذين هم على صلواتهم يحافظون - أولئك هم الوارثون - الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون} [المؤمنون: 1 - 11] .

فهم صنف واحد وصفهم بهذه الصفات بحرف الواو وكذلك في قوله: {إن الإنسان خلق هلوعا - إذا مسه الشر جزوعا - وإذا مسه الخير منوعا - إلا المصلين - الذين هم على صلاتهم دائمون - والذين في أموالهم حق معلوم - للسائل والمحروم - والذين يصدقون بيوم الدين - والذين هم من عذاب ربهم مشفقون - إن عذاب ربهم غير مأمون - والذين هم لفروجهم حافظون - إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين - فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون - والذين هم بشهاداتهم قائمون - والذين هم على صلاتهم يحافظون - أولئك في جنات مكرمون} [المعارج: 19 - 35] .

وقد فسر قبل قوله: يؤمنون بالغيب صفة المؤمنين من غير أهل الكتاب كمشركي العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك صفة من آمن به من أهل الكتاب.

وعلى هذا القول: هؤلاء غير هؤلاء، لكن هذا ضعيف، فإنه لا بد في المؤمنين من غير أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله ولا بد في مؤمن أهل الكتاب أن يؤمن بالغيب. فكل من الإيمانين واجب على كل واحد ولا يكون أحد على هدى من ربه مفلحا إلا بهذا وهذا.

وأما قول النصارى نحن الذين آمنا بالسيد المسيح وما رأيناه فهكذا اليهود آمنوا بموسى - عليه السلام - وما رأوه والمسلمون آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وما رأوه بل المسلمون آمنوا بموسى وعيسى وسائر النبيين وما رأوهم بخلاف اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض. ثم الغيب ليس المراد به صورة النبي - عليه السلام -، فإن صورة النبي ليست من الغيب، فإن الناس يرونها وليس في رؤيتها ما يوجب إيمانا ولا كفرا، ولكن الغيب ما غاب عن مشاهدة الخلق وهو ما أخبرت به الأنبياء من الغيب فيدخل فيه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وهو الإيمان بأنهم رسل الله، وسواء رؤيت أبدانهم أو لم تر فقد يراهم من لم يؤمن برسالتهم وقد يؤمن برسالتهم من لم يرهم.

والمقصود الإيمان برسالتهم لا بنفس صورهم حتى يقول القائل آمنا بنبي ولم نره وقد يعلم من دلائل نبوته وأعلام رسالته من لم يره أكثر مما يعلمها من رآه.

فصل

وأما قوله: في سورة المائدة {وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين - وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} [المائدة: 46 - 47] فهذا ثناء منه على المسيح والإنجيل وأمر للنصارى بالحكم بما أنزل فيه ; كما أثنى على موسى والتوراة بأعظم مما عظم به المسيح والإنجيل فقال تعالى: {يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك} [المائدة: 41] أي: قائلون للكذب مصدقون مستجيبون مطيعون لقوم آخرين لم يأتوك فهم مصدقون للكذب مطيعون لمن يخالفك وأنت رسول الله.

فكل من تصديق الكذب والطاعة لمن خالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أعظم الذنوب.

ولفظ السميع يراد به الإحساس بالصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به قبوله فيقال: فلان سمع ما يقول فلان أي يصدقه أو يطيعه ويقبل منه.

فقوله: سماعون للكذب أي مصدقون به وإلا مجرد سماع صوت الكاذب وفهم كلامه ليس مذموما على الإطلاق.

وكذلك سماعون لقوم آخرين لم يأتوك أي مستجيبون لهم مطيعون ; كما قال: في حق المنافقين وفيكم سماعون لهم أي مستجيبون مطيعون لهم ومن قال: إن المراد به الجاسوس فهو غالط كغلط من قال: سماعون لهم هم الجواسيس، فإن الجاسوس إنما ينقل خبر القوم إلى من لا يعرفه، ومعلوم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان ما يذكره ويأمر به ويفعله يراه ويسمعه كل من بالمدينة مؤمنهم ومنافقهم ولم يكن يقصد أن يكتم يهود المدينة ما يقوله ويفعله خلاف من كان يأتيه من اليهود وهم يصدقون الكذب ويطيعون لليهود الآخرين الذين لم يأتوه والله نهى نبيه أن يحزنه المسارعون في الكفر من هاتين الطائفتين المنافقتين الذين أظهروا الإيمان به ولم تؤمن قلوبهم ومن أهل الكتاب الذين يطلبون أن يحكم بينهم وليس مقصودهم أن يطيعوه ويتبعوا حكمه بل إن حكم بما يهوونه قبلوه وإن حكم بخلاف ذلك لم يقبلوه لكونهم مطيعين لقوم آخرين لم يأتوه.

قال - تعالى -: {سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين} [المائدة: 41] أي لم يأتك أولئك القوم الآخرون يقولون أي يقول السماعون {إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم} [المائدة: 41] والحكم يفتقر إلى الصدق والعدل فلا بد أن يكون الشاهد صادقا والحاكم عادلا وهؤلاء يصدقون الكاذبين من الشهود ويتبعون حكم المخالفين للرسل الذين يحكمون بغير ما أنزل الله وإذا لم يكن قصدهم اتباع الصدق والعدل فليس عليك أن تحكم بينهم بل إن شئت فاحكم بينهم وإن شئت فلا تحكم.

ولكن إذا حكمت فلا تحكم إلا بما أنزل الله إليك إذ هو العدل.

قال - تعالى -: {سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين} [المائدة: 42] ، ثم قال {وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين - إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} [المائدة: 43 - 45] فهذا ثناؤه على التوراة وإخباره أن فيها حكم الله وأنه أنزل التوراة وفيها {هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا} [المائدة: 44] وقال: عقب ذكرها {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} [المائدة: 44] وهذا أعظم مما ذكره في الإنجيل، فإنه قال: في الإنجيل {وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور} [المائدة: 46] وقال فيه: {وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} [المائدة: 47] وقال: في التوراة {يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا} [المائدة: 44] وقال: عقب ذكرها {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} [المائدة: 44] فهو سبحانه مع إخباره بإنزال الكتابين يصف التوراة بأعظم مما يصف به الإنجيل.

كما قال - تعالى -: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا} [المائدة: 44] وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمدا - صلى الله عليه وسلم - وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى، فكذلك أيضا ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمدا وبدلوا أحكام التوراة والإنجيل واتبعوا المبدل المنسوخ، واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح للنصارى، والنصارى توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل. فعلم اتفاق أهل الملل كلها: المسلمون واليهود والنصارى على أنه ليس فيما ذكر في القرآن من ذكر التوراة والإنجيل وموسى وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - ولا مدح لدينهم المبدل قبل مبعثه فليس في ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل ولا بدين منسوخ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ.

[فصل: قيام الحجة على من بلغته دعوة الرسل]

وهنا أصل لا بد من بيانه وهو أنه قد دلت النصوص على أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولا تقوم به الحجة عليه.

قال - تعالى -: {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا - اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: 13 - 15] وقال - تعالى -: {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: 165] وقال - تعالى -: عن أهل النار {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير - قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء} [الملك: 8 - 9] وقال: {وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين} [الزمر: 71] وقال - تعالى -: {يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين} [الأنعام: 130] وقال - تعالى -: {وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون} [القصص: 59] وقال - تعالى -: {ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا} [القصص: 47] إلى قوله: {فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون} [القصص: 48] .

وقال - تعالى -: {ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب} [المائدة: 15] وقوله: {ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير} [المائدة: 19] وإذا كان كذلك فمعلوم أن الحجة إنما تقوم بالقرآن على من بلغه كقوله: {لأنذركم به ومن بلغ} [الأنعام: 19] فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجة بما بلغه دون ما لم يبلغه فإذا اشتبه معنى بعض الآيات وتنازع الناس في تأويل الآية وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله فإذا اجتهد الناس في فهم ما أراده الرسول - صلى الله عليه وسلم - فالمصيب له أجران والمخطئ له أجر فلا يمنع أن يقال ذلك في أهل الكتاب قبلنا فمن لم يبلغه جميع نصوص الكتاب قبلنا لم تقم عليه الحجة إلا بما بلغه وما خفي عليهم معناه منه فاجتهد في معرفته، فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر وخطأه محطوط عنه فأما من تعمد تحريف الكتاب لفظه أو معناه وعرف ما جاء به الرسول فعانده فهذا مستحق للعقاب وكذلك من فرط في طلب الحق واتباعه متبعا لهواه مشتغلا عن ذلك بدنياه.

وعلى هذا فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرفوا بعض الكتاب وفيهم آخرون لم يعلموا ذلك فهم مجتهدون في اتباع ما جاء به الرسول لم يجب أن يجعل هؤلاء من المستوجبين للوعيد وإذا جاز أن يكون في أهل الكتاب من لم يعرف جميع ما جاء به المسيح بل خفي عليه بعض ما جاء به أو بعض معانيه فاجتهد لم يعاقب على ما لم يبلغه وقد تحمل أخبار اليهود الذين كانوا مع تبع والذين كانوا ينتظرون الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - من أهل المدينة كابن التيهان وغيره على هذا وأنهم لم يكونوا مكذبين للمسيح تكذيب غيرهم من اليهود.

وقد تنازع الناس هل يمكن مع الاجتهاد واستفراغ الوسع أن لا يبين للناظر المستدل صدق الرسول أم لا. وإذا لم يبين له ذلك هل يستحق العقوبة في الآخرة أم لا؟ .

وتنازع بعض الناس في المقلد منهم أيضا والكلام في مقامين: المقام الأول: في بيان خطأ المخالف للحق وضلاله وهذا مما يعلم بطرق متعددة عقلية وسمعية وقد يعرف الخطأ في أقوال كثيرة من أهل القبلة المخالفين للحق وغير أهل القبلة بأنواع متعددة من الدلائل.

والمقام الثاني: الكلام في كفرهم واستحقاقهم الوعيد في الآخرة.

فهذا فيه ثلاثة أقوال للناس من أصحاب الأئمة المشهورين مالك والشافعي وأحمد لهم الأقوال الثلاثة.

قيل: أنه يعذب في النار من لم يؤمن وإن لم يرسل إليه رسول لقيام الحجة عليه بالعقل وهذا قول كثير ممن يقول بالحكم العقلي من أهل الكلام والفقه من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم وهو اختيار أبي الخطاب.

وقيل: لا حجة عليه بالعقل بل لا يجوز أن يعذب من لم يقم عليه حجة لا بالشرع ولا بالعقل وهذا قول من يجوز تعذيب أطفال الكفار ومجانينهم وهذا قول كثير من أهل الكلام كالجهم وأبي الحسن الأشعري وأصحابه والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وغيرهم.

والقول الثالث: وعليه السلف والأئمة إنه لا يعذب إلا من بلغته الرسالة ولا يعذب إلا من خالف الرسل ; كما دل عليه الكتاب والسنة.

قال - تعالى -: لإبليس {لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين} [ص: 85] وإذا كان كذلك فنحن فيما نناظر فيه أهل الكتاب: متقدميهم ومتأخريهم تارة نتكلم في المقام الأول وهو بيان مخالفتهم للحق وجهلهم وضلالهم فهذا تنبيه لجميع الأدلة الشرعية والعقلية وتارة نبين كفرهم الذي يستحقون به العذاب في الدنيا والآخرة فهذا أمره إلى الله ورسوله لا يتكلم فيه إلا بما أخبرت به الرسل ; كما أنا أيضا لا نشهد بالإيمان والجنة إلا لمن شهدت له الرسل ومن لم تقم عليه الحجة في الدنيا بالرسالة كالأطفال والمجانين وأهل الفترات فهؤلاء فيهم أقوال أظهرها ما جاءت به الآثار أنهم يمتحنون يوم القيامة فيبعث الله إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب وإن عصوه استحقوا العقاب.

وإذا كان كذلك فنحن نشهد لمن كان مؤمنا بموسى متبعا له أنه مؤمن مسلم مستحق للثواب.

وكذلك من كان مؤمنا بالمسيح متبعا له ونشهد لمن قامت عليه الحجة بموسى فلم يتبعه كآل فرعون أنهم من أهل النار.

وكذلك من قامت عليه الحجة بالمسيح الذين قال الله فيهم: {قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين} [المائدة: 115] والذين قال فيهم: {ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون - فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين - وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين} [آل عمران: 55 - 57] وأما من بعد عهده بالمسيح وبلغته بعض أخباره دون بعض أو بموسى وبلغه أخباره دون بعض، فهؤلاء قامت عليهم الحجة بما بلغهم من أخبارهم دون ما لم يبلغهم من أخبارهم وإذا اختلفوا في تأويل بعض التوراة والإنجيل فمن قصد الحق واجتهد في طلبه لم يجب أن يعذب وإن كان مخطئا للحق جاهلا به ضالا عنه كالمجتهد في طلب الحق من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وعلى هذا فإذا قيل: أن الحواريين أو بعضهم أو كثيرا من أهل الكتاب أو أكثرهم كانوا يعتقدون أن المسيح نفسه صلب كانوا مخطئين في ذلك ولم يكن هذا الخطأ مما يقدح في إيمانهم بالمسيح إذا آمنوا بما جاء به ولا يوجب لهم النار، فإن الأناجيل التي بأيدي أهل الكتاب فيها ذكر صلب المسيح وعندهم أنها مأخوذة عن الأربعة مرقس ولوقا ويوحنا ومتى ولم يكن في الأربعة من شهد صلب المسيح ولا من الحواريين بل ولا في أتباعه من شهد صلبه وإنما الذين شهدوا الصلب طائفة من اليهود فمن الناس من يقول أنهم: علموا أن المصلوب غيره وتعمدوا الكذب في أنهم صلبوه وشبه صلبه على من أخبروهم وهذا قول طائفة من أهل الكلام المعتزلة وغيرهم وهو قول ابن حزم وغيره ومنهم من يقول بل اشتبه على الذين صلبوه وهذا قول أكثر الناس، والأولون يقولون أن قوله: {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم} [النساء: 157] أي شبه للناس الذين أخبرهم أولئك بصلبه.

الجمهور يقولون: بل شبه للذين يقولون صلبوه كما قد ذكرت القصة في غير هذا الموضع. والمقصود هنا أن الناس في هذا المقام على طرفين ووسط.

أما الطرف الواحد: فهم الغلاة من النصارى الذين يدعون أن الحواريين كانوا معصومين فيما يقولونه ويروونه ويرونه، وكذلك يقولون بتصويب علماء النصارى فيما يقولونه من تأويل الإنجيل.

والطرف الآخر يقول: بل كل من غلط وأخطأ في شيء من ذلك فإنه مستحق للوعيد بل كافر.

والثالث: الوسط: أنهم لا يعصمون ولا يؤثمون بل قد يكونون مخطئين خطأ مغفورا لهم إذا كانوا مجتهدين في معرفة الحق واتباعه بحسب وسعهم وطاقتهم وعلى هذا تدل الأدلة الصحيحة وكتب الله تدل على ذم الضال والجاحد ومقته مع أنه لا يعاقب إلا بعد إنذاره.

وقد ثبت في الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب» .

فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا، والمقت هو البغض بل أشد البغض ومع هذا فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا فقال: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: 15] وقال: {ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى} [طه: 134] فدل ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم، ولكن شرط العذاب هو بلوغ الرسالة ولهذا قال {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: 165] وفي الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «ما أحد أحب إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب» .

وفي رواية «من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين وما أحد أحب إليه المدح من الله؛ من أجل ذلك مدح نفسه، وما أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» .

وقد تنازع الناس في حسن الأفعال وقبحها كحسن العدل والتوحيد والصدق وقبح الظلم والشرك والكذب هل يعلم بالعقل أم لا يعلم إلا بالسمع وإذا قيل أنه يعلم بالعقل فهل يعاقب من فعل ذلك قبل أن يأتيه رسول؟ على ثلاثة أقوال معروفة في أصحاب الأئمة وغيرهم، وهي ثلاثة أقوال لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم فقالت طائفة لا يعرف ذلك إلا بالشرع لا بالعقل، وهذا قول نظار المجبرة كالجهم بن صفوان وأمثاله، وهو قول أبي الحسن الأشعري وأتباعه من أصحاب الأئمة الأربعة كالقاضي أبي بكر بن الطيب وأبي عبد الله بن حامد والقاضي أبي يعلى وأبي المعالي وأبي الوفاء بن عقيل وغيرهم وقيل بل قد يعلم حسن الأفعال وقبحها بالعقل.

قال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين.

وهذا هو المنقول عن أبي حنيفة نفسه وعليه عامة أصحابه وكثير من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأهل الحديث كأبي الحسن التميمي وأبي الخطاب وأبي بكر القفال وأبي نصر السجزي وأبي القاسم سعد بن علي الزنجاني وهو قول الكرامية وغيرهم من نظار المثبتة للقدر وهو قول المعتزلة وغيرهم من نظار القدرية، ثم هؤلاء على قولين: منهم من يقول: يستحقون عذاب الآخرة بمجرد مخالفتهم للعقل كقول المعتزلة والحنفية وأبي الخطاب، وقول هؤلاء مخالف للكتاب والسنة.

ومنهم من يقول بل لا يعذبون حتى يبعث إليهم رسول ; كما دل عليه الكتاب والسنة. لكن أفعالهم تكون مذمومة ممقوتة يذمها الله ويبغضها ويوصفون بالكفر الذي يذمه الله ويبغضه وإن كان لا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا ; كما قال: النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح ; كما تقدم «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وإن ربي قال: لي قم في قريش، فأنذرهم قلت إذا يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة.

قال: " إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظان فابعث جندا أبعث مثليهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك وأنفق أنفق عليك» .

وقال: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا» .

وقال: النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح «كل مولود يولد على الفطرة» .

وفي رواية «على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ; كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ، ثم يقول أبو هريرة - رضي الله عنه - «اقرءوا إن شئتم {فطرة الله التي فطر الناس عليها} [الروم: 30] قيل يا رسول الله أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير قال: الله أعلم بما كانوا عاملين ومع مقت الله لهم فقد أخبر أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا» وهذا يدل على إبطال قول من قال: أنهم لم يكونوا مسيئين ولا مرتكبين لقبيح حتى جاء السمع. وقول من قال: أنهم كانوا معذبين بدون السمع إما لقيام الحجة بالعقل ; كما يقوله من يقوله من القدرية وإما لمحض المشيئة ; كما يقوله المجبرة.

قال - تعالى -: {وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون} [القصص: 59] وقال - تعالى -: {ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين} [القصص: 47] وقال - تعالى -: {ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى} [طه: 134] فهذا يبين أنه لم يكن ليعذب الكفار حتى يبعث إليهم رسولا، وبين أنهم قبل الرسول كانوا قد اكتسبوا الأعمال التي توجب المقت والذم وهي سبب للعذاب، لكن شرط العذاب قيام الحجة عليهم بالرسالة.

[فصل: أسباب ضلال النصارى ومن على شاكلتهم]

ومما ينبغي أن يعلم أن سبب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية كغالية العباد والشيعة وغيرهم ثلاثة أشياء:

أحدها: ألفاظ متشابهة مجملة مشكلة منقولة عن الأنبياء وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة وتمسكوا بها وهم كلما سمعوا لفظا لهم فيه شبهة تمسكوا به وحملوه على مذهبهم وإن لم يكن دليلا على ذلك، والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يفوضوها، وإما أن يتأولوها كما يصنع أهل الضلال، يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين. والثاني: خوارق ظنوها آيات وهي من أحوال الشياطين وهذا مما ضل به كثير من الضلال المشركين وغيرهم، مثل دخول الشياطين في الأصنام وتكليمها للناس، ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة ولا بد لهم مع ذلك من كذب ومثل تصرفات تقع من الشياطين.

والثالث: أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقا وهي كذب وإلا فليس مع النصارى ولا غيرهم من أهل الضلال على باطلهم لا معقول

صريح ولا منقول صحيح، ولا آية من آيات الأنبياء بل إن تكلموا بمعقول تكلموا بألفاظ متشابهة مجملة. فإذا استفسروا عن معاني تلك الكلمات، وفرق بين حقها وباطلها تبين ما فيها من التلبيس والاشتباه.

وإن تكلموا بمنقول: فإما أن يكون صحيحا لكن لا يدل على باطلهم.

وإما أن يكون غير صحيح ثابت بل مكذوب.

وكذلك ما يذكرونه من خوارق العادات: إما أن يكون صحيحا قد ظهر على يد نبي كمعجزات المسيح ومن قبله كإلياس واليسع وغيرهما من الأنبياء وكمعجزات موسى فهذه حق.

وإما أن تكون قد ظهرت على يد بعض الصالحين كالحواريين وذلك لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء، فإن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه لا يتصور أن يقولوا على الله إلا الحق ولا يستقر في كلامهم باطل لا عمدا ولا خطأ.

وأما الصالحون فقد يغلط أحدهم ويخطئ مع ظهور الخوارق على يديه وذلك لا يخرجه عن كونه رجلا صالحا ولا يوجب أن يكون معصوما إذا كان هو لم يدع العصمة ولم يأت بالآيات دالة على ذلك ولو ادعى العصمة وليس بنبي لكان كاذبا لا بد أن يظهر كذبه وتقترن به الشياطين فتضله ويدخل في قوله - تعالى -: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم} [الشعراء: 221] والنصارى عندهم منقول في الأناجيل أن الذي صلب ودفن في القبر رآه بعض الحواريين وغيرهم بعد أن دفن قام من قبره رأوه مرتين أو ثلاثا وأراهم موضع المسامير وقال: لا تظنوا أني شيطان.

وهذا إذا كان صحيحا فذاك شيطان ادعى أنه المسيح والتبس على أولئك، ومثل هذا قد جرى لخلق عظيم في زماننا وقبل زماننا كناس كانوا بـ " تدمر " فرأوا شخصا عظيما طائرا في الهواء وظهر لهم مرات بأنواع من اللباس وقال: لهم أنا المسيح ابن

مريم وأمرهم بأمور يمتنع أن يأمر بها المسيح - عليه السلام - وحضروا إلى عند الناس وبينوا لهم أن ذلك هو شيطان أراد أن يضلهم. وآخرون يأتي أحدهم إلى قبر من يعظمه ويحسن به الظن من الصالحين وغيرهم فتارة يرى القبر قد انشق وخرج منه إنسان على صورة ذلك الرجل وتارة يرى ذلك الإنسان قد دخل في القبر وتارة يراه إما راكبا وإما ماشيا داخلا إلى مكان ذلك الميت كالقبة المبنية على القبر وتارة يراه خارجا من ذلك المكان ويظن أن ذلك هو ذلك الرجل الصالح وقد يظن أن قوما استغاثوا به فذهب إليهم ويكون ذلك شيطانا تصور بصورته وهذا جرى لغير واحد ممن أعرفهم وتارة يستغيث أقوام بشخص يحسنون به الظن إما ميت وإما غائب فيرونه بعيونهم قد جاء وقد يكلمهم وقد يقضي بعض حاجاتهم فيظنونه ذلك الشخص الميت وإنما هو شيطان زعم أنه هو وليس هو إياه وكثيرا ما يأتي الشخص بعد الموت في صورة الميت فيحدثهم ويقضي ديونا ويرد ودائع ويخبرهم عن الموتى ويظنون أنه هو الميت نفسه قد جاء إليهم وإنما هو شيطان تصور بصورته.

وهذا كثير جدا لا سيما في بلاد الشرك كبلاد الهند ونحوها ومن هؤلاء من تراه أنت تحت سريره آخذ بيد ابنه في الجنازة ومنهم من يقول إذا مت فلا تدعوا أحدا يغسلني، فأنا آتي من هذه الناحية أغسل نفسي فيأتي بعد الموت شخص في الهواء على صورته يغسله هو والذي أوصاه ويظن ذلك أنه جاء وإنما هو شيطان تصور بصورته وتارة يرى أحدهم شخصا إما طائرا في الهواء وإما عظيم الخلقة وإما أن يخبره بأشياء غائبة ونحو ذلك ويقول له أنا الخضر ويكون ذلك شيطانا كذب على ذلك الشخص وقد يكون الرائي من أهل الدين والزهد والعبادة وقد جرى هذا لغير واحد وتارة يرى عند قبر نبي أو غيره أن الميت قد خرج إما من حجرته وإما من قبره وعانق ذلك الزائر وسلم عليه ويكون شيطانا تصور بصورته وتارة يجيء من يجيء إلى عند قبر ذلك الشخص فيستأذنه في أشياء ويسأله عن أمور فيخاطبه شخص يراه أو يسمع صوتا ولا يرى شخصا ويكون ذلك شيطانا أضله.

وقد يرى أشخاصا في اليقظة إما ركبانا وإما غير ركبان ويقولون هذا فلان النبي إما إبراهيم وإما المسيح وإما محمد وهذا فلان الصديق إما أبو بكر وإما عمر وإما بعض الحواريين وهذا فلان لبعض من يعتقد فيه الصلاح إما جرجس أو غيره ممن تعظمه النصارى وإما بعض شيوخ المسلمين ويكون ذلك شيطانا ادعى أنه ذلك النبي أو ذلك الشيخ أو الصديق أو القديس.

ومثل هذا يجري كثيرا لكثير من المشركين والنصارى وكثير من المسلمين ويرى أحدهم شيخا يحسن به الظن ويقول أنا الشيخ فلان ويكون شيطانا وأعرف من هذا شيئا كثيرا وأعرف غير واحد ممن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين والموتى يراه قد أتاه في اليقظة وأعانه.

وقد جرى مثل هذا لي ولغيري ممن أعرفه ذكر غير واحد أنه استغاث بي من بلاد بعيدة وأنه رآني قد جئته ومنهم من قال: رأيتك راكبا بلباسك وصورتك ومنهم من قال: رأيتك على جبل ومنهم من قال: غير ذلك فأخبرتهم أني لم أغثهم وإنما ذلك شيطان تصور بصورتي ليضلهم لما أشركوا بالله ودعوا غير الله.

وكذلك غير واحد ممن أعرفه من أصحابنا استغاث به بعض من يحسن به الظن فرآه قد جاءه وقضى حاجته قال صاحبي: وأنا لا أعلم بذلك ومن هؤلاء الشيوخ من يقول أنه يسمع صوت ذلك الشخص المستغيث به ويجيبه وتكون الشياطين أسمعته صوتا يشبه صوت الشيخ المستغيث له فأجابه الشيخ بصوته فأسمعت المستغيث صوتا يشبه صوت الشيخ فيظن أنه صوت الشيخ.

وهذا جرى لمن أعرفه وأخبر بذلك عن نفسه وقال: بقي الجني الذي يحدثني يبلغني مثل صوت المستغيثين بي ويبلغهم مثل صوتي ويريني في شيء أبيض نظير ما أسأل عنه فأخبر به الناس أني رأيته وأنه سيأتي ولا أكون قد رأيته وإنما رأيت شبيهه.

وهكذا تفعل الجن بمن يعزم عليهم ويقسم عليهم.

وكذلك ما رآه قسطنطين من الصليب الذي رآه من نجوم، والصليب الذي رآه مرة أخرى هو مما مثله الشياطين وأراهم ذلك ليضلهم به ; كما فعلت الشياطين ما هو أعظم من ذلك بعباد الأوثان.

وكذلك من ذكر أن المسيح جاءه في اليقظة وخاطبه بأمور ; كما يذكر عن بولس، فإنه إذا كان صادقا كان ذلك الذي رآه في اليقظة وقال: أنه المسيح، شيطانا من الشياطين ; كما جرى مثل ذلك لغير واحد.

والشيطان إنما يضل الناس ويغويهم بما يظن أنهم يطيعونه فيه فيخاطب النصارى بما يوافق دينهم ويخاطب من يخاطب من ضلال المسلمين بما يوافق اعتقاده وينقله إلى ما يستجيب لهم فيه بحسب اعتقادهم.

ولهذا يتمثل لمن يستغيث من النصارى بجرجس في صورة جرجس أو بصورة من يستغيث به النصارى من أكابر دينهم، إما بعض البطاركة، وإما بعض المطارنة، وإما بعض الرهبان، ويتمثل لمن يستغيث به من ضلال المسلمين بشيخ من الشيوخ في صورة ذلك الشيخ ; كما تمثل لجماعة ممن أعرفهم في صورتي وفي صورة جماعة من الشيوخ الذين ذكروا في ذلك ويتمثل كثيرا في صورة بعض الموتى تارة يقول أنا الشيخ عبد القادر وتارة يقول أنا الشيخ أبو الحجاج الأقصري وتارة يقول أنا الشيخ عدي وتارة يقول أنا أحمد بن الرفاعي وتارة يقول أنا أبو مدين المغربي وإذا كان يقول أنا المسيح أو إبراهيم أو محمد فغيرهم بطريق الأولى. والنبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «من رآني في المنام فقد رآني حقا، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي» وفي رواية «في صورة الأنبياء» .

فرؤيا الأنبياء في المنام حق وأما رؤية الميت في اليقظة فهذا جني تمثل في صورته.

وبعض الناس يسمي هذا روحانية الشيخ، وبعضهم يقول هي رفيقه وكثير من هؤلاء يرى يقوم من مكانه ويدع في مكانه صورة

مثل صورته، وكثير من هؤلاء ومن هؤلاء من يقول يرى في مكانين ويرى واقفا بعرفات وهو في بلده لم يذهب فيبقى الناس الذين لا يعرفون حائرين.

فإن العقل الصريح يعلم أن الجسم الواحد لا يكون في الوقت الواحد في مكانين.

والصادقون قد رأوا ذلك عيانا لا يشكون فيه ولهذا يقع النزاع كثيرا بين هؤلاء وهؤلاء ; كما قد جرى ذلك غير مرة.

وهذا صادق فيما رأى وشاهد وهذا صادق فيما دل عليه العقل الصريح.

لكن ذلك المرئي كان جنيا تمثل بصورة الإنسان.

والحسيات إن لم يكن معها عقليات تكشف حقائقها وإلا وقع فيها غلط كبير.

وهذا القسم المشهود في الخارج غير ما يتخيله الإنسان في نفسه، فإن هذا يعرفه جميع الناس ويصوبه جميع العقلاء يتخيلون أشياء في أنفسهم ; كما يتخيله النائم في منامه وتكون تلك الصورة موجودة في الخيال لا في الخارج.

والفلاسفة وسائر العقلاء يعترفون بهذا، لكن كثيرا من الفلاسفة يظن أن ما رأته الأنبياء من الملائكة وما سمعته من الكلام كان من هذا النوع ويظنون أن ما يرى من الجن هو من هذا النوع وهؤلاء جهال غالطون في هذا، كما جهلوا وغلطوا في ظنهم أن خوارق العادات سببها قوى نفسانية أو طبيعية أو قوى فلكية وأن الفرق بين النبي - صلى الله عليه وسلم - والساحر إنما هو حسن قصد هذا، وفساد قصد الآخر وإلا فكلاهما خوارق سببها قوى نفسانية أو فلكية، وهذا النفي باطل ; كما قد بسطنا الكلام عليه وبينا جهل هؤلاء وضلالهم في غير هذا الموضع.

والذين شاهدوا ذلك في الخارج وثبت عندهم بالأخبار الصادقة المتواترة وجود ذلك في الخارج يعلمون أن هؤلاء جاهلون ضالون ويعلمون أن الملائكة تظهر في صورة البشر ; كما ظهرت لإبراهيم ولوط ومريم في صورة البشر وكما كان جبريل يظهر للنبي - صلى الله عليه وسلم - تارة في صورة دحية الكلبي وتارة في صورة أعرابي ويراه كثير من الناس عيانا وما في خيال الإنسان لا يراه غيره، وكذلك كما ظهر إبليس للمشركين في صورة الشيخ النجدي وظهر لهم يوم بدر في صورة سراقة بن مالك بن جعشم فلما رأى الملائكة هرب.

قال - تعالى -: {وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب} [الأنفال: 48] وروي عن ابن عباس وغيره قال: تبدى إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من مدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم فقال: {لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم} [الأنفال: 48] وأقبل جبريل - عليه السلام - على إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده وولى مدبرا هو وشيعته فقال: الرجل يا سراقة أتزعم أنك لنا جار فقال: {إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب} [الأنفال: 48] .

قال ابن عباس وذلك لما رأى الملائكة قال الضحاك: سار الشيطان معهم برايته وجنوده وألقى في قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبكم وأنتم تقاتلون على دينكم ودين آبائكم.

وكثير من الناس تحمله الجن إلى مكان بعيد فتحمل كثيرا من الناس إلى عرفات وغير عرفات وإذا رئي واحد من هؤلاء في غير بلده يكون تارة محمولا قد حملته الجن وتارة تصورت على صورته ولا يكون هذا من أولياء الله المتقين الذين لهم كرامات بل قد يكون من الكافرين أو الفاسقين وأعرف من ذلك قضايا كثيرة ليس هذا موضع تفصيلها.

وعند المشركين والنصارى من ذلك شيء كثير يظنونه من جنس الآيات التي للأنبياء.

إنما هي من جنس ما للسحرة والكهان ومن لم يفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ويفرق بين معجزات الأنبياء وكرامات الصالحين وبين خوارق السحرة والكهان ومن تقترن بهم الشياطين وإلا التبس عليه الحق بالباطل فإما أن يكذب بالحق الذي جاء به الأنبياء الصادقون وإما أن يصدق بالباطل الذي يقوله: الكاذبون والغالطون.

وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر، والمقصود هنا التنبيه على هذا الأصل، وعلماء النصارى يسلمون هذا وعندهم من ذلك أخبار كثيرة من حكايات أولياء الشيطان الذين عارضهم أولياء الرحمن، وأبطلوا أحوالهم كما أبطل موسى - صلوات الله عليه - ما عارضته به السحرة من الخوارق، كما ذكر ذلك في التوراة وكما يذكرونه عن فلان وفلان، مثل حكاية سيمون الساحر مع الحواريين وغير ذلك وإذا كان هذا معلوما كان ما يذكرونه من هذا الجنس، إذا كان مخالفا لما ثبت عن الأنبياء من الشيطان فلا يجوز أن يحتج به على ما يخالف شرائع الأنبياء الثابتة عنهم بل هؤلاء من جنس الدجال الكبير الذي أنذرت به الأنبياء كلهم حتى نوح أنذر قومه وقال: خاتم الرسل «ما من نبي إلا قد أنذر أمته حتى نوح أنذر قومه وسأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لأمته أنه أعور وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر (ك ف ر) يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ وقال: واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت» .

وقد أخبر أن المسيح عيسى ابن مريم مسيح الهدى ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء شرقي دمشق فيقتل مسيح الضلالة وهذا هو الذي تنتظره اليهود ويجحدون المسيح عيسى ابن مريم ويقولون هذا هو الذي بشرت به الأنبياء ويتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفا مطيلسين ويقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم شر قتلة حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال اقتله. وكل هذا ثابت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ولهذا أمر أمته أن يستعيذوا بالله من فتنته فقال: «إذا قعد أحدكم في التشهد في الصلاة فليتعوذ بالله من أربع من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال» .

والأنبياء كلهم أنذروا بالكذابين الذين يتشبهون بالأنبياء لكن من الناس من يتعمد الكذب، وكثير منهم لا يتعمد بل يلتبس عليه فيغلط فيخبر بما يظنه حقا ولا يكون كذلك ويرى في اليقظة ما يظنه فلانا الولي أو النبي - صلى الله عليه وسلم - أو الخضر ولا يكون كذلك.

والغلط جائز على كل أحد إلا الأنبياء - عليهم السلام -، فإنهم معصومون، لا يقرون على خطأ، فمن لم يزن علومه وأعماله وأقواله وأفعاله بالمعلوم عن الأنبياء وإلا كان ضالا فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على إثبات مسيحين: مسيح هدى من ولد داود ومسيح ضلال. يقول أهل الكتاب أنه من ولد يوسف ومتفقون على أن مسيح الهدى سوف يأتي كما يأتي مسيح الضلالة. لكن المسلمون والنصارى يقولون: مسيح الهدى هو عيسى ابن مريم وإن الله أرسله، ثم يأتي مرة ثانية لكن المسلمون يقولون أنه ينزل قبل يوم القيامة فيقتل مسيح الضلالة ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ولا يبقى دين إلا دين الإسلام ويؤمن به أهل الكتاب اليهود والنصارى.

كما قال - تعالى -: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} [النساء: 159] والقول الصحيح الذي عليه الجمهور قبل موت المسيح وقال - تعالى -: {وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها} [الزخرف: 61] وأما النصارى فتظن أنه الله وأنه يأتي يوم القيامة لحساب الخلائق وجزائهم وهذا مما ضلوا فيه واليهود تعترف بمجيء مسيح هدى يأتي لكن يزعمون أن عيسى - عليه السلام - لم يكن مسيح هدى لظنهم أنه جاء بدين النصارى المبدل ومن جاء به فهو كاذب وهم ينتظرون المسيحين.

[فصل: الخوارق التي يضل بها الشياطين أبناء آدم]

والخوارق التي تضل بها الشياطين لبني آدم مثل تصور الشيطان بصورة شخص غائب أو ميت ونحو ذلك، ضل بها خلق كثير من الناس من المنتسبين إلى المسلمين أو إلى أهل الكتاب وغيرهم وهم بنو ذلك على مقدمتين.

إحداهما: أن من ظهرت هذه على يديه فهو ولي لله وبلغة النصارى هو قديس عظيم.

الثانية: أن من يكون كذلك فهو معصوم فكل ما يخبر به فهو حق وكل ما يأمر به فهو عدل وقد لا يكون ظهرت على يديه خوارق لا رحمانية ولا شيطانية، ولكن صنع حيلة من حيل أهل الكذب والفجور، وحيل أهل الكذب والفجور كثيرة جدا فيظن أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة ولا يكون كذلك مثل الحيل المذكورة عن الرهبان.

وقد صنف بعض الناس مصنفا في حيل الرهبان مثل الحيلة المحكية عن أحدهم في جعل الماء زيتا بأن يكون الزيت في جوف منارة فإذا نقص صب فيها ماء فيطفو الزيت على الماء فيظن الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتا.

ومثل الحيلة المحكية عنهم في ارتفاع النخلة وهو أن بعضهم مر بدير راهب وأسفل منه نخلة فأراه النخلة صعدت شيئا شيئا حتى حاذت الدير فأخذ من رطبها، ثم نزلت حتى عادت كما كانت، فكشف الرجل الحيلة فوجد النخلة في سفينة في مكان منخفض إذا أرسل عليه الماء امتلأ حتى تصعد السفينة وإذا صرف الماء إلى موضع آخر هبطت السفينة.

ومثل الحيلة المحكية عنهم في التكحل بدموع السيدة يضعون كحلا في ماء متحرك حركة لطيفة فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة فيخرج من عينها فيظن أنه دموع.

ومثل الحيلة التي صنعوها بالصورة التي يسمونها القونة بصيدنايا وهي أعظم مزاراتهم بعد القمامة وبيت لحم حيث ولد المسيح وحيث قبر، فإن هذه صورة السيدة مريم، وأصلها خشبة نخلة سقيت بالأدهان حتى تنعمت وصار الدهن يخرج منها دهنا مصنوعا يظن أنه من بركة الصورة.

ومن حيلهم الكثيرة النار التي يظن عوامهم أنها تنزل من السماء في عيدهم في قمامة وهي حيلة قد شهدها غير واحد من المسلمين والنصارى ورأوها بعيونهم أنها نار مصنوعة يضلون بها عوامهم يظنون أنها نزلت من السماء ويتبركون بها وإنما هي صنعة صاحب محال وتلبيس.

ومثل ذلك كثير من حيل النصارى فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق إما حال شيطاني وإما محال

بهتاني ليس فيه شيء من كرامات الصالحين.

وكذلك أهل الإلحاد المبدلين لدين محمد - صلى الله عليه وسلم - الذين يتخذون دينا لم يشرعه الله ورسوله ويجعلونه طريقا إلى الله وقد يختارونه على الطريق التي شرعها الله ورسوله، مثل أن يختاروا سماع الدفوف والشبابات على سماع كتاب الله تعالى فقد يحصل لأحدهم من الوجد والغرام الشيطاني ما يلبسه معه الشيطان حتى يتكلم على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه ذلك الشخص إذا أفاق ; كما يتكلم الجني على لسان المصروع وقد يخبر بعض الحاضرين بما في نفسه ويكون ذلك من الشيطان فإذا فارق الشيطان ذلك الشخص لم يدر ما قال: ومنهم من يحمله الشيطان ويصعد به قدام الناس في الهواء.

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيموت أو يمرض أو يصير مثل الخشبة.

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيلبسه الشيطان ويزول عقله حتى يبقى دائرا زمانا طويلا بغير اختياره.

ومنهم من يدخل النار ويأكلها ويبقى لهبها في بدنه وشعره.

ومنهم من تحضر له الشياطين طعاما أو شيئا من لادن أو سكر أو زعفران أو ماء ورد ومنهم من تأتيه بدراهم تسرقها الشياطين من بعض المواضع.

ثم من هؤلاء من إذا فرق الدراهم على الحاضرين أخذت منهم فلا يمكنون من التصرف فيها إلى أمور يطول وصفها وآخرون ليس لهم من يعينهم على ذلك من الشياطين فيصنعون حيلا ومخاريق.

فالملحدون المبدلون لدين الرسل، دين المسيح أو دين محمد - صلى الله عليهما وسلم - هم كأمثالهم من أهل الإلحاد والضلال الكفار المرتدين والمشركين ونحوهم كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي والحارث الدمشقي وبابا الرومي وغيرهم ممن لهم خوارق شيطانية.

وأما أهل الحيل فيكثرون وهؤلاء ليسوا أولياء الله بل خوارقهم إذا كانت شيطانية من جنس خوارق الكهنة والسحرة لم يكن لهم حال شيطاني بل محال بهتاني فهم متعمدون للكذب والتلبيس بخلاف من تقترن به الشياطين، فإن فيهم من يلتبس عليه فيظن أن هذا من جنس كرامات الصالحين ; كما أن فيهم من يعرف أن ذلك من الشياطين ويفعله لتحصيل أغراضه، فالمقصود أنه كثير من الخوارق ما يكون من الشياطين أو يكون حيلا ومخاريق ويظن أنها من كرامات الصالحين، فإن ما يكون شبيه الشرك أو الفجور إنما يكون من الشيطان، مثل أن يشرك الرجل بالله فيدعو الكواكب أو يدعو مخلوقا من البشر ميتا أو غائبا أو يعزم ويقسم بأسماء مجهولة لا يعرف معناها أو يعرف أنها أسماء الشياطين أو يستعين بالفواحش والظلم، فإن ما كان هذا سببه من الخوارق فهو من الشيطان ; كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع.

والصالحون لهم كرامات مثل كرامات صالحي هذه الأمة ومثل كرامات الحواريين وغيرهم ممن كان على دين المسيح لكن وجود الكرامات على أيدي الصالحين لا توجب أن يكونوا معصومين كالأنبياء، لكن يكون الرجل صالحا وليا لله وله كرامات ومع هذا فقد يغلط ويخطئ فيما يظنه أو فيما يسمعه ويرويه أو فيما يراه أو فيما يفهمه من الكتب ولهذا كان كل من سوى الأنبياء يؤخذ من قولهم: ويترك بخلاف الأنبياء - صلوات الله عليهم - أجمعين، فإنه يجب تصديقهم في كل ما أخبروا به من الغيب، وطاعتهم في كل ما أمروا به ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتوه ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتي به غيرهم.

قال - تعالى -: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [البقرة: 136] وقال - تعالى -: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} [البقرة: 177] ولهذا اتفق المسلمون على أن من كذب نبيا معلوم النبوة فهو كافر مرتد ومن سب نبيا وجب قتله بل يجب الإيمان بجميع ما أوتيه النبيون

كلهم وأن لا نفرق بين أحد منهم، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض قال - تعالى -: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا} [النساء: 150] وليس هذا لأحد غير الأنبياء ولو كان من رسل الأنبياء وكانوا من أعظم الصديقين المقدمين.

فضلال الضلال من هؤلاء مبني على مقدمتين.

إحداهما: أن هذا له كرامة فيكون وليا لله.

والثانية: أن ولي الله لا يجوز أن يخطئ بل يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليس لأحد من البشر أن يصدق في كل ما أخبر به ويطاع في كل أمر إلا أن يكون نبيا.

والمقدمتان المذكورتان قد تكون إحداهما باطلة وقد يكون كلاهما باطلا، فالرجل المعين قد لا يكون من أولياء الله تكون خوارقه من الشياطين وقد يكون من أولياء الله، ولكن ليس بمعصوم بل يجوز عليه الخطأ وقد لا يكون من أولياء الله ولا يكون له خوارق، ولكن له محالات وأكاذيب.

[فصل: ما يتناوله اسم الرسل في قوله فقد كذب رسل من قبلك]

قالوا: وقال في سورة آل عمران: {فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير} [آل عمران: 184] فأعني أيضا بالكتاب المنير الذي هو الإنجيل المقدس.

فيقال: قد تقدم أن الرسل تتناول قطعا الرسل الذين ذكرهم الله في القرآن لا سيما أولو العزم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، فإن هؤلاء مع محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين - صلوات الله عليهم وسلامه - خصهم الله وفضلهم بقوله - تعالى -: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا - ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما} [الأحزاب: 7 - 8] وفي قوله - تعالى -: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} [الشورى: 13] فالدين دين رسل الله دين واحد ; كما بينه الله في كتابه وكما ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وأن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي» .

ويتناول أيضا اسم الرسل من لم يسمهم بأعيانهم في القرآن قال - تعالى -: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا - ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما - رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: 163 - 165] وقال - تعالى -: {ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك} [غافر: 78] وأما الحواريون، فإن الله - تعالى - ذكرهم في القرآن ووصفهم بالإسلام واتباع الرسول وبالإيمان بالله ; كما أنزل في قوله - تعالى -: {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون - ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين} [آل عمران: 52 - 53] وقال - تعالى -: {وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون} [المائدة: 111] وقال - تعالى -: {ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين} [الصف: 14] .

ولم يذكر الله تعالى في القرآن أنه أرسلهم البتة بل ذكر أنه ألهمهم الإيمان به وبرسوله وأنهم أمروا باتباع رسوله وقوله: {وإذ أوحيت إلى الحواريين} [المائدة: 111] لا يدل على النبوة، فإنه قال - تعالى -: {وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه} [القصص: 7] وأم موسى لم تكن نبية بل ليس في النساء نبية ; كما تقوله: عامة النصارى والمسلمين.

وقد ذكر إجماعهم على ذلك غير واحد مثل القاضيين أبي بكر بن الطيب وأبي يعلى بن أبي الفراء والأستاذ أبي المعالي الجويني وغيرهم ويدل على ذلك قوله - تعالى -: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى} [يوسف: 109] وقوله - تعالى -: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة} [المائدة: 75] فجعل غاية مريم الصديقية ; كما جعل غاية المسيح الرسالة.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم» يعني من نساء الأمم قبلنا، وهذا يدل على أن أم موسى ليست ممن كمل من النساء فكيف تكون نبية، وقوله - تعالى -: {جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير} [آل عمران: 184] والكتاب اسم جنس كما تقدم يتناول كل كتاب أنزله الله تعالى، وقال - تعالى -: {ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير} [الحج: 8] وقوله: ولا كتاب منير نكرة في سياق المعنى فيعم كل كتاب منير، ولو لم يكن إلا الإنجيل لقيل ولا الكتاب المنير، وأيضا فالتوراة أعظم من الإنجيل، وقد بين الله أنه لم ينزل كتابا أهدى من التوراة والقرآن، فقال تعالى: {قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران} [القصص: 48] وقرئ ساحران تظاهرا {وقالوا إنا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين} [القصص: 48] وهذا تعجيز لهم أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما كقوله: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله} [يونس: 38] وهذا يبين أنه ليس الإنجيل ولا الزبور أهدى من التوراة والقرآن فكيف يجعل الكتاب المنير هو الإنجيل دون التوراة والزبور.

وأيضا فإن الله تعالى إنما يخص بالذكر من الكتب المتقدمة التوراة دون غيرها فهي التي يقرنها بالقرآن، كقوله - تعالى -: {وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون - وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون} [الأنعام: 91 - 92] وقد وصف التوراة بأن فيها نورا وهدى للناس فكيف يجعل النور في الإنجيل دونها وقال - تعالى -: {ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون - وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون - أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين} [الأنعام: 154 - 156] فقد ذكر التوراة والقرآن، وقولهم أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا فبين أن الكتاب اسم جنس يتناول هنا التوراة والإنجيل، كقوله - تعالى -: {ياأهل الكتاب} [آل عمران: 64] وقوله - تعالى -: {وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم} [المائدة: 5] فذكر الكتاب بلفظ المنفرد، ومعلوم أنه أراد بالذين أوتوا الكتاب من قبلنا اليهود والنصارى لا يختص ذلك بالنصارى ; كما قال: {أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا} [الأنعام: 156] .

وقد تبين بطلان قول هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويفسرون كلام الله ورسوله بما يعلم كل من عرف حاله من مؤمن وكافر أنه لم يرده.

وبين أن الله لم يرد بالكتاب الإنجيل وحده ; كما لم يرد بالرسل الحواريين بل أراد بالكتاب المنير ما أنزله الله من الكتب كالتوراة والإنجيل ; كما أراد بالرسل من أرسله الله مطلقا كنوح وإبراهيم وموسى والمسيح ابن مريم - صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين

[فصل: إثبات أن عند أهل الكتاب ما يثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم]

قالوا: وقال أيضا: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين} [الفاتحة: 94 - 28981] فيقال: لهم من المعلوم بالاضطرار أنه ليس المراد بهذا النصارى فقط ; كما تقدم، بل اليهود يقرءون الكتاب من قبلنا والنصارى يقرءون الكتاب من قبلنا، والكتاب اسم جنس ; كما تقدم نظائره في قوله: {أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا} [الأنعام: 156] وقوله: {وطعام الذين أوتوا الكتاب} [المائدة: 5] وقوله: {ياأهل الكتاب} [آل عمران: 64] في غير موضع، وقوله: {لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين} [البينة: 1] وقوله - تعالى -: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم - إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب - فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد} [آل عمران: 18 - 20] وقد قال - تعالى -: {ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا} [النساء: 47] . وتناول لفظ أهل الكتاب هنا لليهود أظهر من تناوله للنصارى لذكره لعنة أصحاب السبت، وكذلك قوله - تعالى -: {وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون} [آل عمران: 72] فهذا خبر عن طائفة من اليهود قالوا: ذلك وقال - تعالى -: {ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين} [آل عمران: 100] وسبب نزولها أنه أراد طائفة من اليهود إلقاء الفتنة بين المسلمين. فهم داخلون قطعا، وإن كان الخطاب مطلقا يتناول الطائفتين.

وأمره تعالى بسؤال الذين يقرءون الكتاب من قبله على تقدير الشك لا يقتضي أن يكون الرسول شك ولا سأل، إن قيل الخطاب له، وإن قيل لغيره فهو أولى وأحرى؛ فإن تعليق الحكم بالشرط لا يدل على تحقيق الشرط بل قد يعلق بشرط ممتنع لبيان حكمه.

قال - تعالى -: {ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين - وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين - وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين} [الأنعام: 84 - 86] فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون مع انتفاء الشرك عنهم، بل مع امتناعه لأنهم قد ماتوا ; لأن الأنبياء معصومون من الشرك به.

وقال - تعالى -: {قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين - بل الله فاعبد وكن من الشاكرين} [الزمر: 64 - 66] فهذا خطاب للجميع. وذكر هنا لفظ إن لأنه خطاب لموجود. وهناك خبر عن ميت وكذلك قوله: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل} [يونس: 94] لا يدل على وقوع الشك، ولا السؤال، بل النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن شاكا ولا سأل أحدا منهم بل روي عنه أنه قال: «والله لا أشك ولا أسأل» .

ولكن المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون.

كما قال - تعالى -: في الآية الأخرى {قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} [الرعد: 43] وقال - تعالى -: {قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين} [الأحقاف: 10] وقال - تعالى -: {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} [الشعراء: 197] وقال - تعالى -: {الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين} [القصص: 52]

وقال: {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا - ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا} [الإسراء: 107 - 109] .

وقال - تعالى -: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين} [المائدة: 83] وقال - تعالى -: {لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك} [النساء: 162] وقال - تعالى -: {وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [الأنبياء: 7] وقال - تعالى -: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} [البقرة: 146] فالمقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون وذلك من وجوه.

أحدها: أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده ونهوا عن الشرك فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين.

ومثل هذا قوله - تعالى -:. {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} [الزخرف: 45] .

وقوله - تعالى -: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: 25] وقوله - تعالى -: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} [النحل: 36] .

الوجه الثاني: أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشرا مثلهم لم يرسل إليهم ملكا، فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكا أو بشرا معه ملك ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر ; كما قال - تعالى -: {وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا} [الإسراء: 94] قل {لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا} [الإسراء: 95] وقال - تعالى -: {ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون - فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين} [المؤمنون: 23 - 24]

وقال - تعالى -: {كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر} [القمر: 23] وكذلك قال الذين من بعدهم {ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون} [المؤمنون: 33] وكذلك قال قوم فرعون لموسى وهارون {أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} [المؤمنون: 47] وقال: فرعون {أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين} [الزخرف: 52] وكذلك قالوا: لمحمد وقال: تعالى {الر تلك آيات الكتاب الحكيم أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين} [يونس: 1] وقال - تعالى -: {وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون - ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون} [الأنعام: 8 - 9] .

فبين سبحانه أنكم لا تطيقون التلقي عن الملك فلو أنزلناه ملكا لجعلناه في صورة بشر وحينئذ كنتم تظنونه بشرا فيحصل اللبس عليكم فأمر الله تعالى بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشرا أم كان ملكا ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشر ; كما قال - تعالى -: وما {أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين - ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين} [الأنبياء: 7 - 9] وأهل الذكر هم أهل الذكر الذي أنزله الله تعالى.

الوجه الثالث: أنهم يسألون أهل الكتاب عما جرى للرسل مع أممهم وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذبين لهم.

الوجه الرابع: يسألون أهل الكتاب عن الدين الذي بعث الله به رسله وهو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل كالأمر بالتوحيد والصدق والعدل وبر الوالدين وصلة الأرحام والنهي عن الشرك والظلم والفواحش.

الوجه الخامس: يسألونهم عما وصفت به الرسل ربهم هل هو موافق لما وصفه به محمد أم لا؟ وهذه الأمور المسؤول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه وليس إذا كان مثل هذا معلوما لهم بالتواتر فيسألون عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلوما لهم بالتواتر.

وأيضا، فإنهم يسألون أيضا عما عندهم من الشهادات والبشارات بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وقد أخبر الله بذلك في القرآن فقال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} [الأعراف: 156 - 157] .

وقال - تعالى -: {وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين} [الصف: 6]

فقد أخبر عن عيسى أنه صدق بالرسول والكتاب الذي قبله وهو التوراة وبشر بالرسول الذي يأتي بعده وهو أحمد. قال - تعالى -: {فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون} [البقرة: 144] إلى قوله: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون} [البقرة: 146] وقال - تعالى -: {وإنه لتنزيل رب العالمين - نزل به الروح الأمين - على قلبك لتكون من المنذرين - بلسان عربي مبين - وإنه لفي زبر الأولين - أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} [الشعراء: 192 - 197] وقال - تعالى -: عن من أثنى عليه من النصارى {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا} [المائدة: 83] وقال - تعالى -: {وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا - قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا - ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا} [الإسراء: 106 - 109] وقال - تعالى -: {أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين} [الأنعام: 114] وقال - تعالى -: {ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون - الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون - وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون} [القصص: 51 - 54] وقال - تعالى -: في سورة الأنعام {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون} [الأنعام: 20] وقال - تعالى -: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} [البقرة: 89] والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد - صلى الله عليه وسلم - عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم.

وكان قبل أن يبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - تجري حروب وقتال بين العرب وبين أهل الكتاب فتقول أهل الكتاب قد قرب مبعث هذا النبي - صلى الله عليه وسلم - الأمي الذي يبعث بدين إبراهيم فإذا ظهر اتبعناه وقتلناهم معه شر قتلة فلما بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - كان منهم من آمن به ومنهم من كفر به فقال تعالى: {وكانوا من قبل يستفتحون} [البقرة: 89] أي يستنصرون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - على الذين كفروا {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} [البقرة: 89] ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم «والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني

رسول الله» وكذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام كان يقول لغيره من أهل الكتاب والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذا أمر معروف في الأحاديث الصحاح المخرجة في الصحيحين وغيرهما فظهر بما ذكرناه تحريف هؤلاء لكلام الله وأنه لا حجة لهم فيما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - ; كما تقدم نظائر ذلك.

[فصل: رفض دعواهم أن القرآن صدق كتبهم التي بين أيديهم]

قالوا فثبت بهذا ما معنا نعم، ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

فيقال: كلامكم الذي تحتجون به في هذا الموضع وغيره إما أن يكون باطلا محضا وإما أن يكون مما لبستم فيه الحق بالباطل، فإن قولكم بتصديقه إياها إن أردتم أنه صدق التوراة والإنجيل والزبور التي أنزلها الله على أنبيائه فهذا لا ريب فيه، فإن هذا مذكور في القرآن في غير موضع وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبي من الأنبياء مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه.

وقال - تعالى -: {الم - الله لا إله إلا هو الحي القيوم - نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل - من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان} [آل عمران: 1 - 4] وقال - تعالى -: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من

الكتاب ومهيمنا عليه} [المائدة: 48] وقال - تعالى -: {يأأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت} [النساء: 47] وقال: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه} [المائدة: 48] وقال: {والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير} [فاطر: 31] وقال: {ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون} [البقرة: 101] وقال - تعالى -: {آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم} [النساء: 47] وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض، فقال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون - فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} [البقرة: 136 - 137] وقال - تعالى -: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} [البقرة: 285] وقال - تعالى -: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا - أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا - والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما} [النساء: 150 - 152] فذم المفرق بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض وبين أنه فضل بعضهم على بعض فقال تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض} [البقرة: 253] فبين أنه فضل بعضهم على بعض وقال - تعالى -: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض} [الإسراء: 55] وقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وبجميع ما أنزله الله من الكتب فمن كفر بنبي واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى فهو كافر عند جميع المسلمين حكمه حكم الكفار وإن كان مرتدا استتيب، فإن تاب وإلا قتل.

ومن سب نبيا واحدا من الأنبياء قتل أيضا باتفاق المسلمين وما علم المسلمون أن نبيا من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به ; كما يصدقون بما أخبر به محمد - صلى الله عليه وسلم - وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف وما لم يعلموا أن النبي أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمدا أخبر به صلى الله عليهم أجمعين، ولكن لا يكذبون إلا بما علموا أنه كذب ; كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بما علموا أنه صدق وما لم يعلموا أنه كذب ولا صدق لم يصدقوا به ولم يكذبوا به ; كما أمرهم نبيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - وبهذا أمرهم المسيح - عليه السلام - فقال: الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه.

فصل

وإن أرادوا بتصديقه كتبهم أنه صدق ما هم عليه من العقائد والشرائع التي ابتدعوها بغير إذن من الله وخالفوا بها ما تقدمه من شرائع المسلمين أو خالفوا بها الشرع الذي بعث به مثل القول بالتثليث والأقانيم والقول بالحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت وقولهم: أن المسيح هو الله وابن الله وما هم عليه من إنكار ما يجب الإيمان به من الإيمان بالله واليوم الآخر ومن تحليل ما حرمه الله ورسله كالخنزير وغيره وبين أنهم لا يدينون بدين الحق الذي أنزل به كتابه وأرسل به رسوله بل بدين مبتدع ابتدعه لهم أكابرهم ; كما قال - تعالى -: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم} [التوبة: 31]

وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك لعدي بن حاتم وكان نصرانيا لما جاءه ليؤمن به وقد آمن به عدي وكان من خيار الصحابة فسمعه يقرأ هذه الآية {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] قال: عدي قلت يا رسول الله ما عبدوهم.

قال «أنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم إياهم» .

فإن أرادوا بتصديقهم في هذه الأمور أو أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - صدق ما عندهم مما لم يأت به الأنبياء عن الله فقد كذبوا على محمد - صلى الله عليه وسلم - كذبا ظاهرا معلوما بالاضطرار من دينه وإنما صدق ما جاءت به الأنبياء قبله.

وأما ما أحدثوه وابتدعوه فلم يصدقوه ; كما أنه لم يشرع لهم أن يستمروا على ما هم عليه من الشرع الأول ولو لم يكن مبدلا بل دعاهم وجميع الإنس والجن إلى الإيمان به وبما جاء به واتباع ما بعث به من الكتاب والحكمة وحكم بكفر كل من لم يتبع كتابه المنزل عليه وأوجب مع خلودهم في عذاب الآخرة جهادهم في الدنيا حتى يكون الدين كله لله وحتى تكون كلمة الله هي العليا.

وقد دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى عموما، ثم كلا من الطائفتين خصوصا في غير موضع مع دعائه الناس كلهم أهل الكتاب وغيرهم كقوله - تعالى -: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون - قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون} [الأعراف: 156 - 158] وقال - تعالى -: يخاطب النصارى {يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا - لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا - فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا} [النساء: 171 - 173]

وقال - تعالى -: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} [المائدة: 17] وقال - تعالى -: {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون} [المائدة: 14] أخبر سبحانه أن النصارى تركوا حظا مما ذكرهم به وبسبب ذلك أغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة فعلم أنه سبحانه بين أنهم تركوا بعض ما جاء به المسيح ومن قبله من الأنبياء واستحقوا لذلك أن يغري بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

وقال - تعالى -: {قل يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] فنهاهم عن الغلو في دينهم وعن اتباع أهواء الذين ابتدعوا بدعا غيروا بها شرع المسيح فضلوا من قبل هؤلاء الأتباع وأضلوا كثيرا من هؤلاء الأتباع وغيرهم وضلوا عن سواء السبيل وهو وسط السبيل بين الضلال وقيده بعد أن أطلقه وأجمله.

وقال - تعالى -: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: 29] وقد خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - لقتالهم بنفسه عام تبوك واستنفر لقتالهم جميع المؤمنين ولم يأذن لأحد من القادرين على الغزو في التخلف ومن تخلف لأنه لم ير قتالهم واجبا كان كافرا وإن أظهر الإسلام كان منافقا ملعونا بين الله أنه لا يغفر لهم ونهى نبيه عن الصلاة عليهم وأنزل في ذلك جمهور سورة براءة بالنقل المتواتر حتى بين كفر الذين استأذنوه في ترك الخروج معه لقتال النصارى.

قال - تعالى -: {يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل - إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير - إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم - انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون - لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون - عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين - لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين - إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون - ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين - لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين - لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون} [التوبة: 38 - 48] .

فصل

فتبين أن قولهم: فثبت بهذا ما معنا نعم، ونفي عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

إن أرادوا به أنه ثبت ما جاءت الأنبياء قبله عن الله فهذا حق.

وإن أرادوا به أنه ثبت ما هم عليه بعد مبعثه من الشرع الذي خالف شرعه أو ما ابتدعوه مما لم يأت به الأنبياء - عليهم السلام - قبله فهذا باطل.

وإن أرادوا بذلك أنه صدق ألفاظ الكتب التي بأيدينا أي التوراة والإنجيل فهذا مما يسلمه لهم بعض المسلمين وينازعهم فيه أكثر المسلمين وإن كان أكثر ذلك مما يسلمه أكثر المسلمين.

فأما تحريف معاني الكتب بالتفسير والتأويل وتبديل أحكامها فجميع المسلمين واليهود والنصارى يشهدون عليهم بتحريفها وتبديلها ; كما يشهدون هم والمسلمون على اليهود بتحريف كثير من معاني التوراة وتبديل أحكامها وإن كانوا هم واليهود يقولون إن التوراة لم تحرف ألفاظها.

وحينئذ فلا ينفعهم بقاء حروف الكتب عندهم مع تحريف معانيها إلا ; كما ينفع اليهود بقاء حروف التوراة والنبوات عندهم مع تحريف معانيها بل جميع النبوات التي يقرون بها هي عند اليهود، وهم مع اليهود ينفون عنها التهم والتبديل لألفاظها مع أن اليهود عندهم من أعظم الخلق كفرا واستحقاقا لعذاب الله في الدنيا والآخرة وهم عند النصارى الذين يكفرون المسلمين أكثر من هؤلاء وشر منهم، فإن النصارى متفقون على أن المسلمين خير من اليهود وكذلك اليهود متفقون على أن المسلمين خير من النصارى بل جميع الأمم المخالفين للمسلمين يشهدون أن المسلمين خير من سائر الأمم والطوائف إلا أنفسهم وشهادتهم لأنفسهم لا تقبل فصار هذا اتفاق أهل الأرض على تفضيل دين الإسلام.

فعلم أن بقاء حروف الكتاب مع الإعراض عن اتباع معانيها وتحريفها لا يوجب إيمان أصحابها ولا يمنع كفرهم.

وحينئذ فليس شهادة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته للمسيح - عليه السلام - ولما أنزل عليه من الإنجيل في تثبيت ما عند النصارى بأعظم من شهادة المسيح - عليه السلام - والحواريين وسائر من اتبعه لموسى ولما أنزل عليه من التوراة في تثبيت ما عند اليهود، فإن المسيح أمر أتباعه باتباع التوراة إلا القدر اليسير الذي نسخه منها.

وأما محمد - صلى الله عليه وسلم - فبعث بكتاب مستقل وشرع مستقل كامل تام لم يحتج معه إلى شرع سابق تتعلمه أمته من غيره ولا إلى شرع لاحق يكمل شرعه ولهذا قال: النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح «أنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر» .

فجزم أن من كان قبله كان فيهم محدثون وعلق الأمر في أمته وإن كان هذا المعلق قد تحقق ; لأن أمته لا تحتاج بعده إلى نبي آخر، فلأن لا تحتاج معه إلى محدث ملهم أولى وأحرى.

وأما من كان قبله فكانوا يحتاجون إلى نبي بعد نبي فأمكن حاجتهم إلى المحدثين الملهمين ولهذا إذا نزل المسيح ابن مريم في أمته لم يحكم فيهم إلا بشرع محمد - صلى الله عليه وسلم - وإذا كان مع هذا فشهادة المسيح والحواريين وكل من آمن بالمسيح للتوراة بأنها حق ولموسى بأنه رسول لا يمنع كفر اليهود لكونهم بدلوا شرع التوراة وكذبوا بالمسيح والإنجيل.

فكيف تكون شهادة محمد وأمته للإنجيل بأنه منزل من عند الله وللمسيح بأنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مانعة من كفر النصارى مع تبديلهم شرع الإنجيل وتكذيبهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وشرع القرآن؟ .

وأما إيمان من يؤمن منهم بأن محمدا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى العرب أو بكثير مما جاء به القرآن فلا يمنع كفرهم إذا كفروا ببعض ما جاء به، بل من كذب بشيء مما جاءت به الرسل عن الله فهو كافر وإن آمن بأكثر ما جاءت به الرسل ; كما قال - تعالى -: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا - أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا} [النساء: 150 - 151] وقال - تعالى -: {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون} [البقرة: 85] وقد صرح بكفر النصارى في غير موضع وأمر بجهادهم وقتالهم وحكم بكفر من لا يوجب جهادهم وقتالهم أو لا يرى ذلك عبادة لله وطاعة له ; كما تقدم التنبيه على ذلك فإذا كان من لا يرى جهادهم عبادة لله كافرا عند محمد - صلى الله عليه وسلم - فكيف حالهم عنده - صلى الله عليه وسلم -.

[فصل: رد دعواهم تناقض خبر الأنبياء السابقين مع ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم]

وإذا تبين للخاصة والعامة ممن آمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ومن كفر به أنه كان مصدقا لما بين يديه من الكتب والأنبياء مصدقا للتوراة والإنجيل شاهدا بأن موسى - عليه السلام - ومن كان متبعا له على الحق وأن المسيح - عليه السلام - ومن اتبعه على الحق وإن كان يكفر جميع اليهود والنصارى وغيرهم ممن بلغته رسالته ولم يؤمن به وشهد عليهم بأنهم حرفوا كثيرا من معاني التوراة والإنجيل قبل نبوته وأن أهل الكتاب كلهم مع المسلمين يشهدون أيضا بأن كثيرا من معاني التوراة والإنجيل حرفها كثير من أهل الكتاب لم يجز لأحد من أهل الكتاب أن يحتج بقول محمد - صلى الله عليه وسلم - على صحة دينهم الذي شهد محمد - صلى الله عليه وسلم - بأنه باطل مبدل منسوخ وأهله من أهل النار كما تقدم بسطه.

وإذا قالوا: نحن نذكر ذلك لنبين تناقضه حيث صدقها وهي تناقض بعض ما أخبر به أو لنبين أن ما أخبرت به الأنبياء قبله يناقض خبره فيكون ذلك قدحا فيما جاء به.

أجاب المسلمون عن هذا بعدة طرق.

أحدها: أن يقولوا أما مناقضة بعض خبره لبعض ; كما يزعمه هؤلاء من أن كتابه يمدح أهل الكتاب مرة ويذمهم أخرى وأنه يصدق الكتب المنزلة تارة ويذمها أخرى فهذا قد ظهر بطلانه، فإنه إنما مدح من اتبع موسى والمسيح على الدين الذي لم يبدل ولم ينسخ.

وأما من اتبع الدين المبدل المنسوخ فقد كفره.

فأما دعواهم مناقضة خبره لخبر غيره فيقال: هو مصدق للأنبياء فما أخبروا به.

وأما ما بدل من ألفاظهم أو غيرها بالترجمة أو فسر بغير مرادهم فلم يصدقه ويقال أيضا إن نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - تثبت بمثل ما تثبت به نبوات الأنبياء قبله وبأعظم من ذلك كما قد بسط في موضع آخر وبين أن التكذيب بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - مع التصديق بنبوة غيره في غاية التناقض والفساد وأنه ما من طريق يعلم بها نبوة غيره إلا ونبوته تعلم بمثل تلك الطريق وبأعظم منها فلو لم تكن نبوته وطريق ثبوتها إلا مثل نبوة غيره وطريق ثبوتها لوجب التصديق بنبوته ; كما وجب التصديق بنبوة غيره ولكان تكذيبه كتكذيب إبراهيم وموسى وغيرهما من الرسل فكيف إذا كان ذلك أعظم من وجوه متعددة.

وحينئذ فالأنبياء كلهم صادقون مصدقون معصومون فيما يخبرون به عن الله لا يجوز أن يثبت في خبرهم عن الله خبر باطل لا عمدا ولا خطأ فلا يجوز أن يخبر أحدهم بخلاف ما أخبر به غيره بل ولا يفترقون في الدين الجامع ; كما قال - تعالى -: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} [الشورى: 13] وقال - تعالى -: {ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم - وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون - فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون} [المؤمنون: 51 - 53] وإنما يقع النسخ في بعض الشرائع ; كما يقع النسخ في شريعة الرسول الواحد وحينئذ فيعلم أن كل ما ينقل عن الأنبياء المتقدمين مما يناقض ما علم من إخبار محمد - صلى الله عليه وسلم - فهو باطل سواء كان اللفظ نفسه باطلا لم يقله ذلك النبي أو قد قال: لفظا وغلط المترجمون له من لغة إلى لغة أو كان اللفظ وترجمته صحيحين لكن وقع الغلط في معرفة مراد ذلك النبي بذلك الكلام.

فإن كل ما يحتج به من الألفاظ المنقولة عن الأنبياء أنبياء بني إسرائيل وغيرهم ممن أرسل بغير اللغة العربية لا بد في الاحتجاج بألفاظه من هذه المقدمات أن يعلم اللفظ الذي قاله ويعلم ترجمته ويعلم مراده بذلك اللفظ.

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على وقوع الغلط في تفسير بعض الألفاظ وبيان مراد الأنبياء بها وفي ترجمة بعضها، فإنك تجد بالتوراة عدة نسخ مترجمة وبينها فروق يختلف بها المعنى المفهوم وكذلك في الإنجيل وغيره فهذا الطريق في الجواب طريق عام لكل من آمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وشهد أنه رسول الله باطنا وظاهرا يخاطب به كل يهودي ونصراني على وجه الأرض وإن لم يكن عارفا بما عند أهل الكتاب، فإنه لا يقدر أحد من أهل الأرض يقيم دليلا صحيحا على نبوة موسى وعيسى وبطلان نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، فإن هذا ممتنع لذاته بل ولا يمكنه أن يقيم دليلا صحيحا على نبوة أحدهما إلا وإقامة مثل ذلك الدليل أو أعظم منه على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - أولى وحينئذ فلا يمكن أحدا من أهل الكتاب أن يحتج بشيء من المنقولات عن الأنبياء المخالفة لما ثبت عن محمد - صلى الله عليه وسلم - سواء أقر بنبوته أو أنكرها بل إن احتج بشيء مما نقل عن محمد - صلى الله عليه وسلم - بين له بطلان احتجاجه به وأنه حجة عليه لا له.

وإن احتج بشيء من المنقول عن غيره من الأنبياء - عليهم السلام - طولب بتقدير نبوة ذلك النبي مع تكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم - وإلا فبتقدير أن ينقل عن اثنين ادعيا النبوة وأتيا بالآيات التي تثبت بها النبوات خبران متناقضان لا يجوز تصديق هذا وتكذيب ذاك إن لم يتبين ما يدل على صدق هذا وكذب هذا وكذلك إذا عورض أحدهما بجنس ما يعارض الآخر.

وهذا لا يرد على المسلمين إذا ردوا ما يحتج به أهل الكتاب مما ينقلونه عن الأنبياء مخالفا لخبر محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فإن المسلمين لا يطعنون في نبوة أحد من الأنبياء المعروفين وإنما يطعنون في أنهم أخبروا بما يخالف خبر محمد - صلى الله عليه وسلم -، فإن ذلك لا يثبت أي لم يثبت اللفظ والترجمة وتفسير اللفظ وهذه المقدمات يمتنع أن تقوم على شيء يخالف خبر محمد لا جملة ولا تفصيلا.

فأهل الكتاب يطالبون فيما يعارضون به بثلاث مقدمات.

أحدها: تقدير أن أولئك صادقون ومحمد - صلى الله عليه وسلم - كاذب.

والثاني: ثبوت ما أتوا به لفظا.

والثالث: معرفة المراد باللفظ ترجمة وتفسيرا وإن قال الكتابي للمسلم: أنت توافقني على نبوة هؤلاء المتقدمين، إجابة المسلم بوجوه.

منها أن يقول إني لم أوافقك على نبوة واحد منهم مع التكذيب بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بل دين المسلمين كلهم أنه من آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض فهو كافر فكيف بمن كفر بمن هو عند المسلمين أفضل الأنبياء وخاتمهم بل قد يقول له أكثر المسلمين نحن لم نعلم نبوة أولئك إلا بإخبار محمد أنهم أنبياء فلو قدحنا في الأصل الذي قد علمنا به نبوتهم لزم القدح في نبوتهم والفرع إذا قدح في أصله دل على فساده في نفسه سواء قدر أصله صحيحا أو فاسدا، فإنه إن كان أصله فاسدا فسد هو وإن كان أصله صحيحا وهو يناقضه بطل هو، فإنه إن كان أصله فاسدا فسد هو وإن كان أصله صحيحا وهو يناقضه بطل هو فهو إذا ناقض أصله باطل على كل تقدير.

وكذلك إذا قال: له الكتابي قد اتفقنا على تصديق موسى والتوراة والمسيح والإنجيل.

قال له المسلم إنما وافقتك على تصديق موسى وعيسى الذين بشرا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ; كما أخبرنا به محمد عن الله حيث قال الله - تعالى -: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر} [الأعراف: 156 - 157] الآية.

وقال - تعالى -: {وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: 6] إلى أمثال ذلك.

فأما الإيمان بموسى الذي ذكر أن شريعته مؤيدة لا ينسخ منها شيء أو بمسيح ادعى أنه الله أو أن الله اتحد به أو حل فيه ونحو ذلك مما يدعيه أهل الكتاب في الرسولين والكتابين ويخالفهم فيه المسلمون فهذا من موارد النزاع لا من مواقع الإجماع فليس لأحد من أهل الكتاب أن يحتج على أحد من المسلمين بموافقته له على ذلك.

ومن تمام ذلك أن يقول المسلم نعم أنا أقر بنبوة موسى والمسيح وإن التوراة والإنجيل كلام الله لكن يمتنع عقلا الإقرار بنبوة واحد من هؤلاء دون نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، فإن البراهين والآيات والأدلة الدالة على صدق موسى والمسيح تدل على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بطريق الأولى فلو انتقضت تلك الأدلة لزم فسادها وأن لا أصدق بأحد من الأنبياء وإن كانت حقا لزم تصديقهم كلهم فلزم إما أن نصدقهم كلهم وإما أن نكذبهم كلهم ولهذا كان من آمن ببعض وكذب ببعض كافرا.

ومن الأجوبة للمسلمين أن يقولوا نحن نصدق الأنبياء المتقدمين في كل ما أخبروا به لكن من نقل عنهم أنهم أخبروا بما يناقض خبر محمد فلا بد له من مقدمتين، ثبوت ذلك اللفظ عن الأنبياء والعلم بمعناه الذي يعلم أنه مناقض للمعنى الذي علم أن محمدا عناه، ثم العلم باللفظ يحتاج مع الخطاب بغير ألسن الأنبياء العربية سواء كانت عربية أو رومية أو سريانية أو قبطية إلى أن يعرف أن هذا اللفظ الذي ترجم به لفظه مطابق للفظه ويمتنع ثبوت المقدمتين ; لأن في ثبوتهما تناقض الأدلة العلمية، والأدلة العلمية لا تتناقض.

الطريق الثاني: أن يقول المسلمون: ما تذكرونه من المنقول عن الأنبياء مناقضة لما أخبر به محمد أمور لم تعلم صحتها فلا يجوز اعتقاد ثبوتها والجزم بها ولو لم يعلم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أخبر بخلافها فكيف إذا علم أنه أخبر بخلافها وذلك أن العلم بثبوتها مبني على مقدمات.

أحدها: العلم بنبوتهم وهذا ممتنع مع تكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم -.

والثانية: أنهم قالوا: هذه الألفاظ وهذا يحتاج إلى إثبات تواتر هذه الألفاظ عن الأنبياء ولم يثبت أنها تواترت عنهم.

والثالثة: أن معناها هو المعنى المناقض لخبر محمد - صلى الله عليه وسلم - ولم يعلم ذلك.

وكل واحدة من هذه المقدمات تمنع العلم بثبوت هذه المعاني المناقضة لخبر محمد - صلى الله عليه وسلم - فكيف إذا اجتمعت.

وهي تمنع العلم بصحتها ولو لم تناقض خبر محمد فكيف إذا ناقضته.

الطريق الثالث: طريق من يبين أن ألفاظ هذه الكتب لم تتواتر ويثبتون ذلك بانقطاع تواتر التوراة لما خرب بيت المقدس وانقطاع تواتر الإنجيل في أول الأمر.

الطريق الرابع: طريق من يبين أن بعض ألفاظ الكتب حرفت، ويقيم الأدلة الشرعية والعقلية على تبديل بعض ألفاظها.

الطريق الخامس: أن يبين أن الألفاظ التي بأيديهم لا تناقض ما أخبر به محمد بل تدل على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - ويتكلم على تفسير تلك الألفاظ بأعيانها.

وهذه الطريق يسلكها من لا ينازع في ثبوت الألفاظ من المسلمين.

وأما الجمهور الذين يقولون بتبديل هذه الألفاظ فيسلكون هذه الطريق ويسلكون أيضا بيان عدم تواتر الألفاظ بل بيان التبديل في ألفاظها.

[فصل: وقوع التبديل في ألفاظ التوراة والإنجيل وانقطاع سندهما]

ومن حجة الجمهور الذين يمنعون أن تكون جميع ألفاظ هذه الكتب المتقدمة الموجودة عند أهل الكتاب منزلة من عند الله لم يقع فيها تبديل، ويقولون أنه وقع التبديل في بعض ألفاظها ويقولون أنه لم يعلم أن ألفاظها منزلة من عند الله فلا يجوز أن يحتج بما فيها من الألفاظ في معارضة ما علم ثبوته أنهم قالوا: التوراة والإنجيل الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب لم تتواتر عن موسى وعيسى - عليهما السلام - أما التوراة، فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولا، وأجلى منه بنو إسرائيل، ثم ذكروا أن الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له عزرا وزعموا أنه نبي.

ومن الناس من يقول أنه لم يكن نبيا وأنها قوبلت بنسخة وجدت عتيقة.

وقد قيل أنه أحضرت نسخة كانت بالمغرب وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها ولا يمنع وقوع الغلط في بعضها ; كما يجري مثل ذلك في الكتب التي يلي نسخها ومقابلتها وحفظها القليل الاثنان والثلاثة.

وأما الإنجيل الذي بأيديهم فهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح - عليه السلام - ولا أملاه على من كتبه وإنما أملوه بعد رفع المسيح متى ويوحنا وكانا قد صحبا المسيح ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عدد التواتر، ومرقس ولوقا وهما لم يريا المسيح - عليه السلام - وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض أخباره وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله.

ونقل اثنين وثلاثة وأربعة يجوز عليه الغلط لا سيما وقد غلطوا في المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب، ولكن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل عيسى ابن مريم وموسى - عليهما السلام - وأنهم معصومون وأنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل وأن لهم معجزات وقالوا لهم هذه التوراة وهذا الإنجيل ويقرون مع هذا بأنهم ليسوا بأنبياء فإذا لم يكونوا أنبياء فمن ليس بنبي ليس بمعصوم من الخطأ ولو كان من أعظم أولياء الله ولو كان له خوارق عادات فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من أفاضل الصحابة عند المسلمين أفضل من الحواريين ولا معصوم عندهم إلا من كان نبيا.

ودعوى أنهم رسل الله مع كونهم ليسوا بأنبياء تناقض، وكونهم رسل الله هو مبني على كون المسيح هو الله، فإنهم رسل المسيح وهذا الأصل باطل، ولكن في طريق المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن نمنعهم في هذا المقام ونطالبهم بالدليل على أنهم رسل

الله وليس لهم على ذلك دليل، فإنه لا يثبت أنهم رسل الله إن لم يثبت أن المسيح هو الله وإثباتهم أن المسيح هو الله إما أن يكون بالعقل أو بالسمع. والعقل لا يثبت ذلك بل يحيله وهم لا يدعون ثبوت ذلك بالعقل.

بل غاية ما يدعون إثبات إمكانه بالعقل لا إثبات وجوده مع أن ذلك أيضا باطل وإنما يدعون ثبوت وجوده بالسمع وهو ما ينقلونه عن الأنبياء من ألفاظ يدعون ثبوتها عن الأنبياء، ودلالتها على أن المسيح هو الله كسائر من يحتج بالحجة السمعية، فإن عامة بيان صحة الإسناد دون بيان دلالة المتن وكلا المقدمتين باطلة.

ولكن يقال لهم في هذا المقام أنتم لا يمكنكم إثبات كون المسيح هو الله إلا بهذه الكتب ولا يمكنكم تصحيح هذه الكتب إلا بإثبات أن الحواريين رسل الله معصومون ولا يمكنكم إثبات أنهم رسل الله إلا بإثبات أن المسيح هو الله فصار ذلك دورا ممتنعا.

فإنه لا تعلم إلهية المسيح إلا بثبوت هذه الكتب ولا تثبت هذه الكتب إلا بثبوت أنهم رسل الله ولا يثبت ذلك إلا بثبوت أنه الله فصار ثبوت الإلهية متوقفا على ثبوت إلهيته، وثبوت كونهم رسل الله متوقفا على كونهم رسل الله فصار ذلك دورا ممتنعا.

قد يدعون عصمة الحواريين وعصمة أهل المجامع بعد الحواريين كأهل المجمع الأول الذي كان بحضرة قسطنطين الذي حضره ثلاثمائة وثمانية عشر ووضعوا لهم الأمانة التي هي عقيدة النصارى التي لا يصح لهم قربان إلا بها فيزعمون أن الحواريين

أو هؤلاء جرت على أيديهم خوارق وقد يذكرون أن منهم من جرى إحياء الموتى على يديه وهذا إذا كان صحيحا مع أن صاحبه لم يذكر أنه نبي لا يدل على عصمته، فإن أولياء الله من الصحابة والتابعين بعدهم بإحسان وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات ما يطول وصفه وليس فيهم معصوم يجب قبول كل ما يقول بل يجوز الغلط على كل واحد منهم، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء - عليهم السلام -.

ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه الأنبياء ولم يجب الإيمان بكل ما يقوله كل ولي لله.

قال - تعالى -: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم} [البقرة: 136] وقال - تعالى -: {ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} [البقرة: 177] ولهذا وجب الإيمان بالأنبياء جميعهم وما أوتوه كلهم.

ومن كذب نبيا واحدا تعلم نبوته فهو كافر باتفاق المسلمين ومن سبه وجب قتله كذلك بخلاف من ليس بنبي، فإنه لا يكفر أحد بمخالفته ولا يقتل بمجرد سبه إلا أن يقترن بالسب ما يكون مبيحا للدم.

والذي عليه سلف الأمة كالصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين وجماهير المسلمين أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر وليس بعد الأنبياء أفضل منهما، وهذه الأمة أفضل الأمم وقد ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «قد كان قبلكم في الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر» والمحدث الملهم المخاطب.

وكان عمر قد جعل الله الحق على قلبه ولسانه وما كان يقول لشيء إني لأراه كذا وكذا إلا كان ; كما يقول وكانت السكينة تنطق على لسانه ومع هذا فلم يكن لا هو ولا غيره ممن ليس بنبي معصوما من الغلط ولا يجب على المسلم قبول ما يقوله: إن لم يدل عليه الكتاب والسنة ولا كان يجوز له العمل بما يلقى في قلبه إن لم يعرضه على الكتاب والسنة، فإن وافق ذلك قبله وإن خالف ذلك رده.

وعند المسلمين أنه ليس في أتباع المسيح - عليه السلام - مثل أبي بكر وعمر - رضوان الله عليهما - فإذا قالوا عن الحواريين: أنهم ليسوا معصومين فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من الحواريين، كما أنهم إذا قالوا: عن المسيح أنه عبد مخلوق ليس بإله فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من المسيح كمحمد وإبراهيم - عليهما أفضل الصلاة والسلام -.

وفي الملاحدة المنتسبين إلى الأمة من فيه بدع من الغلو يشبه غلو النصارى كمن يدعي الإلهية من الإسماعيلية كبني عبيد القداح

كالحاكم وغيره ويدعي الإلهية في علي بن أبي طالب أو غيره كدعوى النصيرية وهؤلاء كفار عند المسلمين.

وكذلك من يدعي الإلهية في بعض المشايخ كغلاة العدوية والحلاجية واليونسية وغيرهم وكذلك من يدعي عصمة بني عبيد أو عصمة الإثني عشر أو عصمة بعض المشايخ.

فإن النصارى يدعون عصمة الحواريين الإثني عشر وهؤلاء يدعون عصمة الأئمة الإثني عشر.

وهؤلاء يسندون أصل دينهم إلى قول الحواريين المعصومين عندهم ويقولون أنهم معصومون في النقل عن المسيح وفي الفتيا وإن ما قالوه فقد قاله المسيح - عليه الصلاة والسلام -.

وهؤلاء يقولون عن أولئك أنهم معصومون في النقل والفتيا وإن ما قالوه فقد قاله الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهذا مبسوط في موضع آخر.

والمقصود هنا أنه ليس مع النصارى نقل متواتر عن المسيح بألفاظ هذه الأناجيل ولا نقل لا متواتر ولا آحاد بأكثر ما هم عليه من الشرائع ولا عندهم ولا عند اليهود نقل متواتر بألفاظ التوراة ونبوات الأنبياء كما عند المسلمين نقل متواتر بالقرآن وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة وهذا مثل الأمانة التي هي أصل دينهم وصلاتهم إلى المشرق وإحلال الخنزير وترك الختان وتعظيم الصليب واتخاد الصور في الكنائس وغير ذلك من شرائعهم ليست منقولة عن المسيح ولا لها ذكر في الأناجيل التي ينقلونها عنه وهم متفقون على أن الأمانة التي جعلوها أصل دينهم وأساس اعتقادهم ليست ألفاظها موجودة في الأناجيل ولا هي مأثورة عن الحواريين وهم متفقون على أن الذين وضعوها أهل المجمع الأول الذين كانوا عند قسطنطين الذي حضره ثلاثمائة وثمانية عشر وخالفوا عبد الله بن أريوس الذي جعل المسيح عبدا لله كما يقول المسلمون ووضعوا هذه الأمانة.

وهذا المجمع كان بعد المسيح بمدة طويلة تزيد على ثلاثمائة سنة وبسط هذا له موضع آخر وإنما المقصود هنا الجواب عن قولهم: إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - ثبت ما معهم وأنه نفى عن إنجيلهم وكتبهم التي بأيديهم التهم والتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

وقد تبين أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يصدق شيئا من دينهم المبدل والمنسوخ، ولكن صدق الأنبياء قبله وما جاءوا به وأثنى على من اتبعهم لا على من خالفهم أو كذب نبيا من الأنبياء. وإن كفر النصارى من جنس كفر اليهود، فإن اليهود بدلوا معاني الكتاب الأول وكذبوا بالكتاب الثاني: وهو الإنجيل وكذلك النصارى بدلوا معاني الكتاب الأول التوراة والإنجيل وكذبوا بالكتاب الثاني: وهو القرآن وأنهم ادعوا أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - صدق بجميع ألفاظ الكتب التي عندهم.

فجمهور المسلمين يمنعون هذا ويقولون إن بعض ألفاظها بدل ; كما قد بدل كثير من معانيها، ومن المسلمين من يقول: التبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها وهذا القول يقر به عامة اليهود والنصارى.

وعلى القولين فلا حجة لهم في تصديق محمد - صلى الله عليه وسلم - لما هم عليه من الدين الباطل، فإن الكتب الإلهية التي بأيديهم لا تدل على صحة ما كفرهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته مثل التثليث والاتحاد والحلول وتغيير شريعة المسيح وتكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم - فليس في الكتب التي بأيديهم ما يدل لا نصا ولا ظاهرا على الأمانة التي هي أصل دينهم وما في ذلك من التثليث والاتحاد والحلول ولا فيها ما يدل على أكثر شرائعهم كالصلاة إلى الشرق واستحلال المحرمات من الخنزير والميتة ونحو ذلك، كما قد بسط في موضع آخر.

ويقال لهم: أين ما معكم عن محمد - صلى الله عليه وسلم - مما يدل على أن ألفاظ الكتب التي بأيديكم لم يغير فيها شيء ومعلوم أن المسلمين وغيرهم إذا اختلفوا لم يكن قول فريق حجة على الفريق الآخر.

فإذا كان المسلمون قد اختلفوا في تبديل بعض ألفاظ الكتب المتقدمة لم يكن قول فريق حجة على الأخرى ولا يجوز لأحد من المسلمين ولا منكم أن يضيف إلى الرسول قولا إلا بدليل.

فأين في القرآن والسنة الثابتة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - أن جميع ما بأيدي أهل الكتاب من التوراة والإنجيل والزبور ونبوات الأنبياء لم تبدل بشيء من ألفاظها حتى يقولوا: إن محمدا نفى عن كتبهم ذلك؟ .

وهؤلاء بنوا كلامهم على أن ألفاظ كتبهم تدل على صحة دينهم الذي هم عليه بعد مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - وبعد تكذيبهم لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأنه لم يبدل شيء من ألفاظها.

وقد تبين فساد ذلك من وجوه متعددة.

ثم زعموا أن المسلمين يدعون أن ألفاظ هذه الكتب حرفت كلها بجميع لغاتها بعد مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا القول لم يقله أحد من المسلمين فيما أعلم وظنوا أنهم بالجواب عن هذا يكونون قد أجابوا المسلمين.

[فصل: الرد على النصارى في دعواهم بأن المسلمين يقولون أن التحريف وقع بعد مبعث النبي محمد]

فقال الحاكي عنهم: فقلت لهم: إن قال قائل: إن التبديل والتغيير يجوز أن يكون بعد هذا القول فقالوا: إنا نعجب من هؤلاء القوم على علمهم وذكائهم ومعرفتهم كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول وذلك أنا أيضا إذا احتججنا عليهم بمثل هذا القول وقلنا: إن الكتاب الذي في أيديهم يومنا هذا قد غيروه وبدلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا هل كانوا يجوزون كلامنا؟ قال الحاكي عنهم: فقلت لهم: هذا مما لا يجوز ولا يمكن أحدا أن يقوله، ولا يمكن أن يتغير منه إلى آخر الفصل وسيأتي بألفاظ بعد هذا.

والجواب أن هذا السائل النصراني الذي ذكر عن المسلمين سؤالا لا يقولونه وعن علماء النصارى جوابه هو وهم بنوا كلامهم على أصلين فاسدين.

أحدهما: أن الرسول ثبت ما معهم ونفى عن كتبهم التي بين أيديهم التهم والتبديل والتغيير لها ومقصودهم بذلك لا يتم إلا إذا نفى التبديل عن لفظها ومعناها وهذا مما يعلم كل عاقل أن الرسول لم ينفه عنها بل النقل المتواتر عنه بنقيض ذلك وهم أيضا وكل عاقل يعلم أن الكتب التي بأيديهم في تفسيرها من الاختلاف والاضطراب بين فرق النصارى وبين النصارى واليهود ما يوجب القطع بأن كثيرا من ذلك مبدل محرف وكذلك وقع في تغيير شرائع هذه الكتب، فإن الكتب تضمنت أصلين: الإخبار والأمر. والإيمان بها لا يتم إلا بتصديقها فيما أخبرت وإيجاب طاعتها فيما أوجبته.

وأهل الكتاب يكذبون بكثير مما أخبرت ولا يوجبون طاعتها في كثير مما أوجبته وأمرت به وكل فرقة منهم تشهد على الفرقة الأخرى بمثل ذلك.

والنصارى لهم سبع مجامع مشهورة عندهم وهم في كل

مجمع يلعنون طائفة منهم كبيرة ويكفرونهم ويقولون عنهم أنهم كذبوا ببعض ما في تلك الكتب ولم يوجبوا طاعة بعض أمرها وتلك الطائفة تشهد على الأخرى بأنها كذبت ببعض ما فيها، ثم فرقهم الثلاثة المشهورة النسطورية والملكية واليعقوبية كل طائفة تكفر الأخرى وتلعنها وتشهد عليها أنها مكذبة ببعض ما في النبوات غير موجبة لطاعة بعض ما فيها بل اختلافهم في نفس التوحيد والرسالة فزعم كل فريق منهم أن المسيح جاء بما هم عليه والمسيح - عليه السلام - وجميع الرسل بريئون من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وبريئون ممن يقول على الله غير الحق أو يقول على الله ما لا يعلم وبريئون من كل قول باطل يقال على الله - عز وجل - وإن كان قائله مخطئا لم يتعمد الكذب.

وفي مقالات النصارى من هذه الأنواع ما يطول وصفه وقد بسط في غير هذا الموضع.

وإذا عرفت أن جميع الطوائف من المسلمين واليهود والنصارى يشهدون أنه قد وقع في هذه الكتب تحريف وتبديل في معانيها وتفاسيرها وشرائعها فهذا القدر كاف وهم من حين بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - صار كل من لم يؤمن به كافرا بخلاف حال النصارى قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم -، فإنه كان فيهم من هو متبع لدين المسيح والمسلمون وإن كان فيهم من حرف الدين وبدله فجمهورهم خالفوا هؤلاء فلا يزال فيهم طائفة ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم وخذلهم حتى تقوم الساعة بخلاف النصارى، فإنهم كفروا جميعهم ; كما كفرت اليهود بتكذيب المسيح.

والمسلمون يثبتون بالدلائل الكثيرة أنهم بدلوا معاني التوراة والإنجيل والزبور وغيرهم من نبوات الأنبياء وابتدعوا شرعا لم يأت به المسيح ولا غيره ولا يقول عاقل مثل زعمهم أن جميع بني آدم من الأنبياء والرسل وغيرهم كانوا في الجحيم في حبس الشيطان لأجل أن أباهم آدم أكل من الشجرة وأنهم إنما تخلصوا من ذلك لما صلب المسيح.

فإن هذا الكلام لو نقله ناقل عن بعض الأنبياء لقطعنا بكذبه عليهم فكيف وهذا الكلام ليس منقولا عندهم عن أحد من الأنبياء وإنما ينقلونه عمن ليس قوله حجة لازمة، فإن كثيرا من دينهم مأخوذ عن رؤوسهم الذين ليسوا بأنبياء.

فإذا قطعنا بكذب من ينقله عن الأنبياء فكيف إذا لم ينقله عنهم وذلك أن الأنبياء - عليهم السلام - يخبرون الناس بما تقصر عقولهم عن معرفته لا بما يعرفون أنه باطل ممتنع فيخبرونهم بمحيرات العقول لا محالات العقول وآدم - عليه السلام - وإن كان أكل من الشجرة فقد تاب الله عليه واجتباه وهداه.

قال - تعالى -: {وعصى آدم ربه فغوى - ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى} [طه: 121 - 122] وقال - تعالى -: {فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم} [البقرة: 37] وليس عند أهل الكتاب في كتبهم ما ينفي توبته وإنما قد يقول قائلهم إنا لا نعلم أنه تاب أو ليس عندنا توبته وعدم العلم بشيء ليس علما بعدمه وعدم وجود الشيء في كتاب من كتب الله لا ينفي أن يكون في كتاب آخر ففي التوراة ما ليس في الإنجيل وفيهما ما ليس في الزبور وفي الإنجيل والزبور ما ليس في التوراة وفي سائر النبوات ما لا يوجد في هذه الكتب والقرآن لو كان دون التوراة والإنجيل والزبور والنبوات أو كان مثلها لأمكن أن يكون فيه ما ليس فيها فكيف إذا كان أفضل وأشرف وفيه من العلم أعظم مما في التوراة والإنجيل وقد بين الله تعالى فضله عليهما في غير موضع كقوله - تعالى -: {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه} [الزمر: 23] وقال - تعالى -: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن} [يوسف: 3] وقال - تعالى -: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه} [المائدة: 48] وسواء تاب آدم أو لم يتب فكيف يجوز أن يكون رسل الله الذين هم أفضل منه محبوسين في حبس الشيطان في جهنم بذنبه؟ وإبراهيم خليل الرحمن كان أبوه كافرا ولم يؤاخذه الله بذنبه فكيف يجعله في جهنم في حبس الشيطان بسبب ذنب أبيه الأقصى آدم؟ مع أنه كان نبيا ونوح - عليه السلام - قد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده وأغرق الله أهل الأرض بدعوته وجعل ذريته هم الباقين فكيف يكون في جهنم في حبس الشيطان لأجل ذنب آدم؟ .

وموسى بن عمران الذي كلمه الله تكليما وأظهر على يديه من البراهين والآيات ما لم يظهر مثله على يدي المسيح وقتل نفسا لم يؤمر بقتلها فغفر الله له ذلك وله من المنزلة عند الله والكرامة ما لا يقدر قدره فكيف يكون في جهنم في حبس الشيطان.

ثم أي مناسبة بين الصلب الذي هو من أعظم الذنوب سواء صلبوا المسيح أو المشبه به وبين تخليص هؤلاء من الشيطان، فإن الشيطان إن فعل ذلك بالذرية كان ظالما معتديا والله - عز وجل - قادر على منعه من ظلمهم بل وعلى عقوبته إذا لم ينته عن ظلمهم.

فلماذا أخر منعه من ظلمهم إلى زمن المسيح؟ وهو سبحانه ولي المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم وهم رسله الذين نصرهم على من عاداهم بل أهلك أعداءهم الذين هم جند الشيطان فكيف لا يمنع الشيطان بعد موتهم أن يظلمهم ويجعل أرواحهم في جهنم هذا إن قدر أن الشيطان كان قادرا على ذلك وكيف يجوز أن يجعل الشيطان بعد موت أنبيائه وأوليائه وسقوط التكليف عنهم واستحقاقهم كرامته وإحسانه وجنته بحكم وعده ومقتضى حكمته فجعله مسلطا على حبسهم في جهنم؟ ! .

وإن قالوا: الرب - عز وجل - ما كان يقدر على تخليصهم من الشيطان مع علمه بأنه ظالم معتد عليهم بعد الموت إلا بأن يحتال عليه بإخفاء نفسه ليتمكن الشيطان منه ; كما يزعمون فهذا مع ما فيه من الكفر العظيم وجعل الرب سبحانه عاجزا ; كما جعلوه أولا ظالما فيه من التناقض ما يقتضي عظيم جهلهم الذي جعلوا به الرب جاهلا، فإنهم يقولون أنه احتال على الشيطان ليأخذه بعدل ; كما احتال الشيطان على آدم بالحية فاختفى منه لئلا يعلم أنه ناسوت الإله وناسوت الإله لم يعمل خطيئة قط بخلاف غيره.

فلما أراد الشيطان أخذ روحه ليحبسه في جهنم كسائر من مضى وهو لم يعمل خطيئة استحق الشيطان أن يأخذه الرب ويخلص الذرية من حبسه.

وهذا تجهيل منهم للرب - سبحانه وتعالى - عما يقولون مع تعجيزه وتظليمه، فإنه إن كان هو سلط الشيطان على بني آدم كما يقولون. فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره إذ الجميع بني آدم، وأيضا فإذا قدر أن الناسوت يدفع الشيطان عن نفسه بحق، فإنهم يقولون أنه دخل الجحيم وأخرج منه ذرية آدم.

فيقال: إن كان تسلط الشيطان على حبسهم في الجحيم بحق لأجل ذنوبهم مع ذنب أبيهم لم يجز إخراجهم لأجل سلامة ناسوت المسيح من الذنب وإن كانوا مظلومين مع الشيطان وجب تخليصهم قبل صلب الناسوت ولم يجز تأخير ذلك فليس في مجرد سلامة المسيح من الذنوب ما يوجب سلامة غيره وإن قالوا إنه كان بدون تسلطه على صلبه عاجزا عن دفعه فهو مع تسلطه على صلبه أعجز وأعجز.

الأصل الثاني: الفاسد الذي بنوا عليه سؤالهم الذي جعلوه من جهة المسلمين وجوابهم ظنهم أن المسلمين يقولون: إن هذه الكتب حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة منها بعد مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم -. وهذا مما لا يقوله المسلمون، ولكن قد يقول

بعضهم: أنه حرف بعد مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - ألفاظ بعض النسخ، فإن الجمهور الذين يقولون إن بعض ألفاظها حرفت منهم من يقول كان هذا قبل المبعث.

ومنهم من يقول كان بعده ومنهم من يثبت الأمرين أو يجوزهما، ولكن لا يقول: إنه حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة في مشارق الأرض ومغاربها، كما حكاه هذا الحاكي عنهم، ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف في المعاني والتفسير.

وإن كانت كل طائفة تزعم أن الأخرى هي التي حرفت المعاني.

وأما ألفاظ الكتب فقد ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلى أن ألفاظها لم تبدل ; كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب.

وذهب كثير من علماء المسلمين وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها.

وهذا مشهور عند كثير من علماء المسلمين وقاله أيضا كثير من علماء أهل الكتاب.

حتى في صلب المسيح ذهبت طائفة من النصارى إلى أنه إنما صلب الذي شبه بالمسيح ; كما أخبر به القرآن وإن الذين أخبروا بصلبه كانوا قد أخبروا بظاهر الأمر، فإنه لما ألقي شبهه على المصلوب ظنوا أنه هو المسيح أو تعمدوا الكذب، ثم هؤلاء منهم الذين يقولون: إن في ألفاظ الكتب ما هو مبدل.

وفيهم من يجعل المبدل من التوراة والإنجيل كثيرا منهما وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهما لا سيما الإنجيل، فإن الطعن فيه أكثر وأظهر منه في التوراة.

ومن هؤلاء من يسرف حتى يقول: أنه لا حرمة لشيء منهما بل يجوز الاستنجاء بهما.

ومنهم من يقول الذي بدلت ألفاظه قليل منهما وهذا أظهر.

والتبديل في الإنجيل أظهر، بل كثير من الناس يقول هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله إلا القليل.

والإنجيل الذي هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل. [فصل: دعوة أهل الكتاب إلى الحكم بما في كتبهم من الألفاظ الصحيحة]

والصحيح أن هذه التوراة الذي بأيدي أهل الكتاب فيها ما هو حكم الله وإن كان قد بدل وغير بعض ألفاظهما كقوله - تعالى -: {يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم} [المائدة: 41]

إلى قوله: {وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله} [المائدة: 43] فعلم أن التوراة التي كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس وبعد مجيء بختنصر وبعد مبعث المسيح وبعد مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - فيها حكم الله.

والتوراة التي كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإن قيل: أنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثل ذلك، فإن هذا غير معلوم لنا وهو أيضا متعذر بل يمكن تغيير كثير من النسخ وإشاعة ذلك عند الأتباع حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير بعد ذلك ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة في الغالب إنما تختلف في اليسير من ألفاظها فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - ممكن لا يمكن أحد أن يجزم بنفيه ولا يقدر أحد من اليهود والنصارى أن يشهد بأن كل نسخة في العالم بالكتابين متفقة الألفاظ إذ هذا لا سبيل لأحد إلى علمه، والاختلاف اليسير في ألفاظ هذه الكتب موجود في الكثير من النسخ، كما قد تختلف نسخ بعض كتب الحديث أو تبدل بعض ألفاظ بعض النسخ، وهذا خلاف القرآن المجيد الذي حفظت ألفاظه في الصدور بالنقل المتواتر لا يحتاج أن يحفظ في كتاب ; كما قال - تعالى -: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر: 9] وذلك أن اليهود قبل النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى عهده وبعده منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها وعندهم نسخ كثيرة من التوراة.

وكذلك النصارى عندهم نسخ كثيرة من التوراة ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبديلها ولو كان ذلك ممكنا لكان هذا من الوقائع العظيمة التي تتوفر الدواعي على نقلها وكذلك في الإنجيل قال - تعالى -: {وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه} [المائدة: 47] فعلم أن في هذا الإنجيل حكما أنزله الله تعالى لكن الحكم هو من باب الأمر والنهي وذلك لا يمنع أن يكون التغيير في باب الأخبار وهو الذي وقع فيه التبديل لفظا وأما الأحكام التي في التوراة فما يكاد أحد يدعي التبديل في ألفاظها.

وقد ذكر طائفة من العلماء أن قوله - تعالى -: في الإنجيل {وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه} [المائدة: 47] هو خطاب لمن كان على دين المسيح قبل النسخ والتبديل لا الموجودين بعد مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وهذا القول يناسب مناسبة ظاهرة لقراءة من قرأ " وليحكم أهل الإنجيل " بكسر اللام كقراءة حمزة فإن هذه لام كي، فإنه تعالى قال {وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين - وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} [المائدة: 46 - 47] فإذا قرئ " وليحكم " كان المعنى وآتيناه الإنجيل لكذا وكذا وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه وهذا يوجب الحكم بما أنزل الله في الإنجيل الحق لا يدل على أن الإنجيل الموجود في زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو ذلك الإنجيل.

وأما قراءة الجمهور {وليحكم أهل الإنجيل} [المائدة: 47] فهو أمر بذلك، فمن العلماء من قال: هو أمر لمن كان الإنجيل الحق موجودا عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه وعلى هذا يكون قوله - تعالى -: " وليحكم " أمر لهم قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - وقال: آخرون لا حاجة إلى هذا التكلف، فإن القول في الإنجيل كالقول في التوراة وقد قال - تعالى -: {يأأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم - سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين - وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين - إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون - وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل} [المائدة: 41 - 46] فهذا قد صرح بأن أولئك الذين تحاكموا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - من اليهود عندهم التوراة فيها حكم الله، ثم تولوا عن حكم الله وقال: بعد ذلك {وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه} [المائدة: 47] وهذه لام الأمر وهو أمر من الله أنزله على لسان محمد وأمر من مات قبل هذا الخطاب ممتنع وإنما يكون الأمر أمرا لمن آمن به من بعد خطاب الله لعباده بالأمر فعلم أنه أمر لمن كان موجودا حينئذ أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل، والله أنزل في الإنجيل الأمر باتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - ; كما أمر به في التوراة فليحكموا بما أنزل الله في الإنجيل مما لم ينسخه محمد - صلى الله عليه وسلم - ; كما أمر أهل التوراة أن يحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسيح وما نسخه فقد أمروا فيها باتباع المسيح وقد أمروا في الإنجيل باتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - فمن حكم من أهل الكتاب بعد مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - بما أنزل الله في التوراة والإنجيل لم يحكم بما يخالف حكم محمد - صلى الله عليه وسلم - إذ كانوا مأمورين في التوراة والإنجيل باتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - ; كما قال - تعالى -: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل} [الأعراف: 157] وقال - تعالى -: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} [المائدة: 48] .

فجعل القرآن مهيمنا. والمهيمن الشاهد الحاكم المؤتمن فهو يحكم بما فيها مما لم ينسخه الله ويشهد بتصديق ما فيها مما لم يبدل ولهذا قال {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} [المائدة: 48] وقد ثبت في الصحاح والسنن والمساند هذا. ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: «إن اليهود جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكروا له أن امرأة منهم ورجلا زنيا فقال: لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما تجدون في التوراة في شأن الرجم قالوا: نفضحهم ويجلدون فقال: عبد الله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا: صدق يا محمد فأمر بهما النبي - صلى الله عليه وسلم - فرجما»

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أنه قال: «أتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق حتى جاء يهود فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى قالوا: نسود وجوههما ويطاف بهما قال: {فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين} [آل عمران: 93] قال: فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ

ما بين يديها وما وراءها فقال عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مره فليرفع يده فرفعها فإذا تحتها آية الرجم قالوا: صدق فيها آية الرجم، ولكننا نتكاتمه بيننا وأن أحبارنا أحدثوا التحميم والتجبية فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - برجمهما فرجما» .

وأخرج مسلم عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أنه قال: «مر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيهودي محمم مجلود فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم فدعى رجلا من علمائهم فقال: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجد الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال: رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم، فأنزل الله تعالى {يأأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم} [المائدة: 41] إلى قوله: فأولئك هم الكافرون إلى الظالمون إلى الفاسقون قال: هي في الكفار كلها» .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أنه قال: «رجم النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلا من أسلم ورجلا من اليهود» .

وأما السنن ففي سنن أبي داود عن زيد بن أسلم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: «أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى القف فأتاهم في بيت المدراس فقالوا: يا أبا القاسم إن رجلا منا زنى بامرأة فاحكم بينهم فوضعوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسادة فجلس عليها، ثم قال: ائتوني التوراة فأتي بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها وقال: آمنت بك وبمن أنزلك، ثم قال: ائتوني بأعلمكم فأتي بشاب، ثم ذكر قصة الرجم» .

وأخرج أيضا أبو داود وغيره عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: «زنى رجل من اليهود بامرأة فقال: بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى هذا النبي، فإنه نبي بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله فقلنا: نبي من أنبيائك قالوا: فأتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو جالس في المسجد في أصحابه فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى في رجل وامرأة منهم زنيا فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم فقام على الباب فقال: أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ .

قالوا نحممه ونجبيه ونجلده والتجبية أن يحمل الزانيان على حمار ويقابل أقفيتهما، ويطاف بهما قال: وسكت شاب منهم فلما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - ساكتا أنشده فقال: اللهم إذ نشدتنا، فإنا نجد في التوراة الرجم فقال: النبي - صلى الله عليه وسلم - فما أول ما ارتخصتم أمر الله قال: زنى ذو قرابة ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أسرة من الناس

فأراد رجمه فحال قومه دونه وقالوا لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم قال: النبي - صلى الله عليه وسلم -، فإني أحكم بما في التوراة فأمر بهما فرجما» .

قال الزهري فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا} [المائدة: 44] فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - منهم.

وأيضا فقد تحاكموا إليه في القود الذي كان بين بني قريظة والنضير وكان النضير أشرف من قريظة فكان إذا قتل بعض إحدى القبيلتين قتيلا من الأخرى فيقتلونه ولم يضعفوا الدية وإذا قتل من القبيلة الشريفة قتلوا به وأضعفوا الدية.

قال أبو داود سليمان بن الأشعث في سننه حدثنا محمد بن العلاء حدثنا عبيد الله بن موسى عن علي بن صالح عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: «كان قريظة والنضير وكان النضير أشرف من قريظة فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قتل به وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة ودي مائة وسق من تمر» .

فلما بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - «قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا: ادفعوه إلينا نقتله فقالوا: بيننا وبينكم محمد فأتوه فنزلت {وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط} [المائدة: 42] » والقسط النفس بالنفس، ثم نزلت {أفحكم الجاهلية يبغون} [المائدة: 50] قال: أبو داود قريظة والنضير من ولد هارون.

وبسط هذا له موضع آخر وعلى كل قول، فقد أخبر الله - عز وجل - أن في التوراة الموجودة بعد المسيح - عليه السلام - حكم الله وأن أهل الكتاب اليهود تركوا حكم الله الذي في التوراة مع كفرهم بالمسيح وهذا ذم من الله لهم على ما تركوه من حكمه الذي جاء به الكتاب الأول ولم ينسخه الرسول - صلى الله عليه وسلم - الثاني:.

وهذا من التبديل الثاني: الذي ذموا عليه ودل ذلك على أن في التوراة الموجودة بعد مبعث المسيح حكما أنزله الله أمروا أن يحكموا به وهكذا يمكن أن يقال في الإنجيل.

ومعلوم أن الحكم الذي أمروا أن يحكموا به من أحكام التوراة ولم ينسخه الإنجيل ولا القرآن، فكذلك ما أمروا أن يحكموا به من أحكام الإنجيل هو مما لم ينسخه القرآن وذلك أن الدين الجامع أن يعبد الله وحده ويأمر بما أمر الله به ويحكم بما أنزله الله في أي كتاب أنزله ولم ينسخه، فإنه يحكم به.

ولهذا كان مذهب جماهير السلف والأئمة أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل الله، كما أن الله أمر أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يحكموا بما أنزل الله في القرآن وفيه الناسخ والمنسوخ فهكذا القول في جنس الكتب المنزلة.

قال - تعالى -: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون - وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون - أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون - يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين - فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين - ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين - يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم - إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون - ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} [المائدة: 48 - 56] .

فقد أمر نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يحكم بما أنزل الله إليه وحذره اتباع أهوائهم وبين أن المخالف لحكمه هو حكم الجاهلية حيث قال - تعالى -: {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون} [المائدة: 50] وأخبره تعالى أنه جعل لكل من أهل التوراة والإنجيل والقرآن شرعة ومنهاجا، وأمره تعالى بالحكم بما أنزل الله أمر عام لأهل التوراة والإنجيل والقرآن ليس لأحد في وقت من الأوقات أن يحكم بغير ما أنزل الله والذي أنزله الله هو دين واحد اتفقت عليه الكتب والرسل وهم متفقون في أصول الدين وقواعد الشريعة وإن تنوعوا في الشرعة والمنهاج بين ناسخ ومنسوخ فهو شبيه بتنوع حال الكتاب الواحد، فإن المسلمين كانوا أولا مأمورين بالصلاة لبيت المقدس، ثم أمروا أن يصلوا إلى المسجد الحرام وفي كلا الأمرين إنما اتبعوا ما أنزل الله - عز وجل -. وكذلك موسى - عليه السلام - كان مأمورا بالسبت محرما عليه ما حرمه الله في التوراة وهو متبع ما أنزله الله - عز وجل - والمسيح أحل بعض ما حرمه الله في التوراة وهو متبع ما أنزل الله - عز وجل - فليس في أمر الله لأهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ ; كما أنه ليس في أمر أهل القرآن أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ، بل إذا كان ناسخ ومنسوخ فالذي أنزل الله هو الحكم بالناسخ دون المنسوخ فمن حكم بالمنسوخ فقد حكم بغير ما أنزل الله - عز وجل - ومما يوضح هذا قوله - تعالى -: {قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين} [المائدة: 68] فإن هذا يبين أن هذا أمر لمحمد - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لأهل الكتاب الذي بعث إليهم أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم فدل ذلك على أنهم عندهم ما يعلم أنه منزل من الله وأنهم مأمورون بإقامته إذ كان ذلك مما قرره محمد - صلى الله عليه وسلم - ولم ينسخه ومعلوم أن كل ما أمر الله به على لسان نبي ولم ينسخه النبي - صلى الله عليه وسلم - الثاني بل أقره كان الله آمرا به على لسان نبي بعد نبي ولم يكن في بعثة الثاني ما يسقط وجوب اتباع ما أمر به النبي الأول وقرره النبي الثاني.

ولا يجوز أن يقال إن الله ينسخ بالكتاب الثاني جميع ما شرعه بالكتاب الأول وإنما المنسوخ قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والشرائع.

وأيضا ففي التوراة والإنجيل ما دل على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - فإذا حكم أهل التوراة والإنجيل بما أنزل الله فيهما حكموا بما أوجب عليهم اتباع محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وهذا يدل على أن في التوراة والإنجيل ما يعلمون أن الله أنزله إذ لا يؤمرون أن يحكموا بما أنزل الله ولا يعلمون ما أنزل الله، والحكم إنما يكون في الأمر والنهي والعلم ببعض معاني الكتب لا ينافي عدم العلم ببعضها وهذا متفق عليه في المعاني، فإن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن في الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وأنه أرسل إلى الخلق رسلا من البشر وأنه أوجب العدل وحرم الظلم والفواحش والشرك وأمثال ذلك من الشرائع الكلية وأن فيها الوعد بالثواب والوعيد بالعقاب بل هم متفقون على الإيمان باليوم الآخر وقد تنازعوا في بعض معانيها واختلفوا في تفسير ذلك ; كما اختلفت اليهود والنصارى في المسيح المبشر به النبوات، هل هو المسيح ابن مريم - عليه السلام - أو مسيح آخر ينتظر والمسلمون يعلمون أن الصواب في هذا مع النصارى لكن لا يوافقونهم على ما أحدثوا فيه من الإفك والشرك.

وكذلك يقال إذا بدل قليل من ألفاظها الخبرية لم يمنع ذلك أن يكون أكثر ألفاظها لم يبدل لا سيما إذا كان في نفس الكتاب ما يدل على المبدل وقد يقال أن ما بدل من ألفاظ التوراة والإنجيل ففي نفس التوراة والإنجيل ما يدل على تبديله فبهذا يحصل الجواب عن شبهة من يقول أنه لم يبدل شيء من ألفاظها، فإنهم يقولون إذا كان التبديل قد وقع في ألفاظ التوراة والإنجيل قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يعلم الحق من الباطل، فسقط الاحتجاج بهما ووجوب العمل بهما على أهل الكتاب فلا يذمون حينئذ على ترك اتباعهما.

والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيهما واستشهد بهما في مواضع.

وجواب ذلك أن ما وقع من التبديل قليل والأكثر لم يبدل والذي لم يبدل فيه ألفاظ صريحة تبين بها المقصود من غلط ما خالفها ولها شواهد ونظائر متعددة يصدق بعضها بعضا بخلاف المبدل، فإنه ألفاظ قليلة، وسائر نصوص الكتب يناقضها، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، فإنه إذا وقع في سنن أبي داود والترمذي أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة كان في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يبين ضعف تلك.

بل وكذلك صحيح مسلم فيه ألفاظ قليلة غلط، وفي نفس الأحاديث الصحيحة مع القرآن ما يبين غلطها، مثل ما روي أن الله خلق التربة يوم السبت وجعل خلق المخلوقات في الأيام السبعة، فإن هذا الحديث قد بين أئمة الحديث كيحيى بن معين وعبد الرحمن بن مهدي والبخاري وغيرهم أنه غلط، وأنه ليس في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - بل صرح البخاري في تاريخه الكبير أنه من كلام كعب الأحبار ; كما قد بسط في موضعه، والقرآن يدل على غلط هذا، ويبين أن الخلق في ستة أيام، وثبت في الصحيح أن آخر الخلق كان يوم الجمعة فيكون أول الخلق يوم الأحد.

وكذلك ما روي أنه - صلى الله عليه وسلم -، «صلى الكسوف بركوعين أو ثلاثة» .

فإن الثابت المتواتر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة وابن عباس وعبد الله بن عمرو وغيرهم أنه صلى كل ركعة بركوعين ولهذا لم يخرج البخاري إلا ذلك، وضعف الشافعي والبخاري وأحمد في أحد الروايتين عنه وغيرهم حديث الثلاث والأربع، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما صلى الكسوف مرة واحدة وفي حديث الثلاث والأربع أنه صلاها يوم مات إبراهيم ابنه، وأحاديث الركوعين كانت ذلك اليوم فمثل هذا الغلط إذا وقع كان في نفس الأحاديث الصحيحة ما يبين أنه غلط، والبخاري إذا روى الحديث بطرق في بعضها غلط في بعض الألفاظ ذكر معه الطرق التي تبين ذلك الغلط ; كما قد بسطنا الكلام على ذلك في موضعه.

فكذلك إذا قيل أنه وقع تبديل في بعض ألفاظ الكتب المتقدمة كان في الكتب ما يبين لك الغلط وقد قدمنا أن المسلمين لا يدعون أن كل نسخة في العالم من زمن محمد - صلى الله عليه وسلم - بكل لسان من التوراة والإنجيل والزبور بدلت ألفاظها، فإن هذا لا أعرف أحدا من السلف قاله وإن كان من المتأخرين من قد يقول ذلك، كما في بعض المتأخرين من يجوز الاستنجاء بكل ما في العالم من نسخ التوراة والإنجيل فليست هذه الأقوال ونحوها من أقوال سلف الأمة وأئمتها وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما رأى بيد كعب الأحبار نسخة من التوراة قال: يا كعب إن كنت تعلم أن هذه هي التوراة التي أنزلها الله على موسى بن

عمران فاقرأها فعلق الأمر على ما يمتنع العلم به ولم يجزم عمر - رضي الله عنه - بأن ألفاظ تلك مبدلة لما لم يتأمل كل ما فيها.

والقرآن والسنة المتواترة يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيهما ما أنزله الله - عز وجل - والجزم بتبديل ذلك في جميع النسخ التي في العالم متعذر ولا حاجة بنا إلى ذكره ولا علم لنا بذلك ولا يمكن أحدا من أهل الكتاب أن يدعي أن كل نسخة في العالم بجميع الألسنة من الكتب متفقة على لفظ واحد، فإن هذا مما لا يمكن أحدا من البشر أن يعرفه باختباره وامتحانه وإنما يعلم مثل هذا بالوحي وإلا فلا يمكن أحدا من البشر أن يقابل كل نسخة موجودة في العالم بكل نسخة من جميع الألسنة بالكتب الأربعة والعشرين وقد رأيناها مختلفة في الألفاظ اختلافا بينا، والتوراة هي أصح الكتب وأشهرها عند اليهود والنصارى ومع هذا فنسخة السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى حتى في نفس الكلمات العشر ذكر في نسخة السامرة منها من أمر استقبال الطور ما ليس في نسخة اليهود والنصارى وهذا مما يبين أن التبديل وقع في كثير من نسخ هذه الكتب، فإن عند السامرة نسخا متعددة.

وكذلك رأينا في الزبور نسخا متعددة تخالف بعضها بعضا مخالفة كثيرة في كثير من الألفاظ والمعاني يقطع من رآها أن كثيرا منها كذب على زبور داود - عليه السلام - وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه في التوراة.

فإن قيل فإذا كانت الكتب المتقدمة منسوخة فلماذا ذم أهل الكتاب على ترك الحكم بما أنزل الله منها؟ قيل: النسخ لم يقع إلا في قليل من الشرائع وإلا فالإخبار عن الله وعن اليوم الآخر وغير ذلك لا نسخ فيه.

وكذلك الدين الجامع والشرائع الكلية لا نسخ فيها وهو سبحانه ذمهم على ترك اتباع الكتاب الأول ; لأن أهل الكتاب كفروا من وجهين من جهة تبديلهم الكتاب الأول، وترك الإيمان والعمل ببعضه، ومن جهة تكذيبهم بالكتاب الثاني: وهو القرآن، كما قال - تعالى -: {وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين} [البقرة: 91] فبين أنهم كفروا قبل مبعثه بما أنزل عليهم وقتلوا الأنبياء كما كفروا حين مبعثه بما أنزل عليه وقال - تعالى -: {الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين} [آل عمران: 183] وقال - تعالى -: {فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير} [آل عمران: 184] وقال - تعالى -: {فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون - قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين} [القصص: 48 - 49] وإذا كان الأمر كذلك فهو سبحانه يذمهم على ترك اتباع ما أنزله في التوراة والإنجيل وعلى ترك اتباع ما أنزله في القرآن ويبين كفرهم بالكتاب الأول وبالكتاب الثاني: وليس في شيء من ذلك أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ من الكتاب الأول ; كما ليس فيه أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ في الكتاب الثاني.

<u>[فصل: قياس النصارى كتبهم على القرآن قياس باطل]</u>

فحينئذ فقولهم: إنا نعجب من هؤلاء القوم على علمهم وذكائهم ومعرفتهم كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول؟

وذلك أنا أيضا إذا قلنا واحتججنا عليهم بمثل هذا القول إن الكتاب الذي بأيديهم يومنا هذا قد غيروه وبدلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا هل كانوا يجوزون كلامنا؟

قال الحاكي عنهم: فقلت لهم هذا ما لا يجوز ولا يمكن لأحد أن يقوله ولا يمكن تغييره ولا تبديل حرف واحد منه.

فقالوا سبحان الله العظيم! إذا كان الكتاب الذي لهم، الذي هو باللسان الواحد لا يمكن تبديله، ولا تغيير حرف واحد منه فكيف يمكن تغيير كتبنا التي هي مكتوبة باثنين وسبعين لسانا وفي كل لسان منها كذا وكذا ألف نسخة وجاز عليها إلى مجيء محمد أكثر من ستمائة سنة، وصارت في أيدي الناس يقرءونها باختلاف ألسنتهم على تشاسع بلدانهم.

فمن الذي تكلم باثنين وسبعين لسانا؟ ومن هو الذي حكم على الدنيا جميعها ملوكها وقساوستها وغالبها حتى حكم على جميعها في أقطار الأرض وجمعها في أربع زوايا العالم حتى يغيرها؟

وإن كان غير بعضها، وترك بعضها فهذا لا يمكن أن يكون لأن كلها قول واحد ولفظ واحد في جميع الألسن، فهذا ما لا يجوز لقائل أن يقوله أبدا والجواب أن يقال:

أولا: هذا الكلام منهم يدل على غاية جهلهم بما يقوله المسلمون في كتبهم، وتبين أنهم - لفرط جهلهم - يظنون أن المسلمين يقولون مقالة لا يخفى فسادها على من له أدنى عقل ومعرفة والمسلمون لا يشك أحد من الأمم أنهم أعظم الأمم عقولا وأفهاما وأتمهم معرفة وبيانا وأحسن قصدا وديانة وتحريا للصدق والعدل، وأنهم لم يحصل في النوع الإنساني أمة أكمل منهم ولا ناموس أكمل من الناموس الذي جاء به نبيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - وحذاق الفلاسفة معترفون لهم بذلك وأنه لم يقرع العالم ناموس أكمل من هذا الناموس.

وقد جمع الله للمسلمين جميع طرق المعارف الإنسانية، وأنواعها فإن الناس نوعان: أهل كتاب وغير أهل كتاب، كالفلاسفة والهنود.

والعلم ينال بالحس والعقل، وما يحصل بهما وبوحي الله إلى أنبيائه الذي هو خارج عما يشترك فيه الناس من الحس والعقل.

ولهذا قيل: الطرق العلمية البصر، والنظر، والخبر: الحس، والعقل والوحي: الحس والقياس، والنبوة.

فأهل الكتاب امتازوا عن غيرهم بما جاءهم من النبوة مع مشاركتهم لغيرهم فيما يشترك فيه الناس من العلوم الحسية، والعقلية.

والمسلمون حصل لهم من العلوم النبوية والعقلية ما كان للأمم قبلهم، وامتازوا عنهم بما لا تعرفه الأمم وما اتصل إليهم من عقليات الأمم هذبوه لفظا ومعنى حتى صار أحسن مما كان عندهم ونفوا عنه من الباطل وضموا إليه من الحق ما امتازوا به على من سواهم.

وكذلك العلوم النبوية أعطاهم الله ما لم يعطه أمة قبلهم، وهذا ظاهر لمن تدبر القرآن مع تدبر التوراة والإنجيل، فإنه يجد من فضل علم القرآن ما لا يخفى إلا على العميان.

فكيف يظن مع هذا بالمسلمين أن يخفى عليهم فساد هذا الكلام الذي ظنه بهم هؤلاء الجهال: ويقال: ثانيا الجواب من وجوه:

أحدها: أن المسلمين لم يدعوا أن هذه الكتب حرفت بعد انتشارها، وكثرة النسخ بها، ولكن جميعهم متفقون على وقوع التبديل والتغيير في كثير من معانيها، وكثير من أحكامها.

وهذا مما تسلمه النصارى جميعهم في التوراة والنبوات المتقدمة، فإنهم يسلمون أن اليهود بدلوا كثيرا من معانيها وأحكامها.

ومما تسلمه النصارى في فرقهم، أن كل فرقة تخالف الأخرى فيما تفسر به الكتب المتقدمة، ومما تسلمه اليهود أنهم متفقون على أن النصارى تفسر التوراة والنبوات المتقدمة على الإنجيل بما يخالف معانيها وأنها بدلت أحكام التوراة فصار تبديل كثير من معاني الكتب المتقدمة متفقا عليه بين المسلمين، واليهود، والنصارى.

وأما تغيير بعض ألفاظها ففيه نزاع بين المسلمين.

والصواب الذي عليه الجمهور أنه بدل بعض ألفاظها، كما ذكر ذلك في مواضعه.

الوجه الثاني: أن قياسهم كتبهم على القرآن وأنه كما لا تسمع دعوى التبديل فيه، فكذلك في كتبهم - قياس باطل في معناه ولفظه.

أما معناه: فكل ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعا ظاهرا معروفا عندهم فهو منقول عن الرسول نقلا متواترا، بل معلوما بالاضطرار من دينه، فإن الصلوات الخمس، والزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، ووجوب العدل والصدق، وتحريم الشرك والفواحش والظلم، بل وتحريم الخمر والميسر والربا، وغير ذلك منقول عن النبي - صلى الله عليه وسلم - (نقلا متواترا كنقل ألفاظ القرآن الدالة على ذلك.

ومن هذا الباب عموم رسالته - صلى الله عليه وسلم -) وأنه مبعوث إلى جميع الناس أهل الكتاب وغير أهل الكتاب، بل إلى الثقلين الإنس والجن وأنه كان يكفر اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا ما أنزل الله عليه كما كان يكفر غيرهم ممن لم يؤمن بذلك وأنه جاهدهم وأمر بجهادهم.

فالمسلمون - عندهم منقولا عن نبيهم نقلا متواترا - ثلاثة أمور: لفظ القرآن ومعانيه التي أجمع المسلمون عليها والسنة المتواترة وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن.

كما قال - تعالى -: {كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة} [البقرة: 151] .

وقال - تعالى -: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} [النساء: 113] .

وقال - تعالى -: {واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة} [البقرة: 231] .

وقال - تعالى -: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} [الأحزاب: 34] .

وبذلك دعا الخليل حيث قال لما بنى - هو وإسماعيل – الكعبة بأرض فاران المذكورة في الكتاب الأول قال - تعالى -:

{وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم} [البقرة: 127] (127) {ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم} [البقرة: 128] (128) {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم} [البقرة: 129] .

وقال - صلى الله عليه وسلم -: («ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه») .

فالمسلمون عندهم نقل متواتر عن نبيهم بألفاظ القرآن ومعانيه المتفق عليها وبالسنة المتواترة عنه مثل: كون الظهر والعصر والعشاء أربعا، وكون المغرب ثلاث ركعات، وكون الصبح ركعتين ومثل الجهر في العشائين والفجر والمخافتة في الظهر والعصر، ومثل كون الركعة فيها سجدتين، وكون الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة سبعا، ورمي الجمرات كل واحدة سبع حصيات وأمثال ذلك.

وأيضا فالمسلمون يحفظون القرآن في صدورهم حفظا يستغنون به عن المصاحف كما ثبت في الصحيح الذي رواه مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال «إن ربي قال لي إني منزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا» .

يقول: ولو غسل بالماء من المصاحف لم يغسل من القلوب كالكتب المتقدمة، فإنه لو عدمت نسخها لم يوجد من ينقلها نقلا متواترا محفوظة في الصدور.

والقرآن ما زال محفوظا في الصدور نقلا متواترا حتى لو أراد مريد أن يغير شيئا من المصاحف، وعرض ذلك على صبيان المسلمين لعرفوا أنه قد غير المصحف، لحفظهم للقرآن من غير أن يقابلوه بمصحف، وأنكروا ذلك.

وأهل الكتاب يقدر الإنسان منهم أن يكتب نسخا كثيرا من التوراة والإنجيل، ويغير بعضها، ويعرضها على كثير من علمائهم، ولا يعرفون ما غير منها إن لم يعرضوه على النسخ التي عندهم.

ولهذا لما غير من نسخ التوراة راج ذلك على طوائف منهم ولم يعلموا التغيير.

(وأيضا فالمسلمون لهم الأسانيد المتصلة بنقل العدول الثقات لدقيق الدين كما نقل العامة جليله، وليس هذا لأهل الكتاب) .

وأيضا فما ذكروه من أن كتبهم مكتوبة باثنين وسبعين لسانا هو أقرب إلى التغيير من الكتاب الواحد باللغة الواحدة; فإن هذا مما يحفظه الخلق الكثير فلا يقدر أحد أن يغيره.

وأما الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانا فإذا قدر أن بعض النسخ الموجودة ببعض الألسنة غير بعض ما فيها لم يعلم ذلك سائر أهل الألسن الباقية، بل ولم يعلم بذلك سائر أهل النسخ الأخرى فالتغيير فيها ممكن كما يمكن في نظائر ذلك.

وما ادعوه من تعذر جمع جميع النسخ هو حجة عليهم فإن ذلك إذا كان متعذرا لم يمكن الجزم باتفاق جميع النسخ لواحد، حتى يشهد بأنها كلها متفقة لفظا ومعنى، بل إمكان التغيير فيها أيسر من إمكان الشهادة باتفاقها.

ولهذا لا يمكن أحدا تغيير القرآن، مع كونه محفوظا في القلوب منقولا بالتواتر، مع أنا لا نشهد لجميع المصاحف بالاتفاق، بل قد يقع في بعض نسخ المصاحف ما هو غلط يعلمه حفاظ القرآن، ولا يحتاجون إلى اعتبار ذلك بمصحف آخر.

وتلك الكتب لا يحفظ كلا منها قوم من أهل التواتر حتى تعتبر النسخ بها، ولكن لما كان الأنبياء - عليهم السلام - فيهم موجودين، كانوا هم المرجع للناس فيما يعتمدون عليه إذا غير بعض الناس شيئا من الكتب، فلما انقطعت النبوة فيهم أسرع فيهم التغيير.

فلهذا بدل كثير من النصارى كثيرا من دين المسيح - عليه السلام - بعد رفعه بقليل من الزمان، وصاروا يبدلون شيئا بعد شيء، وتبقى فيهم طائفة متمسكة بدين الحق إلى أن بعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم -.

وقد بقي من أولئك الذين على الدين الحق طائفة قليلة كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه، عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا قبيل مبعثه» .

وقد أدرك سلمان الفارسي - وكان قد تنصر بعد أن كان مجوسيا - طائفة ممن كانوا متبعين لدين المسيح - عليه السلام - واحدا بالموصل وآخر بنصيبين وآخر بعمورية.

وكل منهم يخبره بأنه لم يبق على دين المسيح – عليه السلام - إلا قليل إلى أن قال له آخرهم: لم يبق عليه أحد، وأخبره أنه يبعث نبي بدين إبراهيم من جهة الحجاز فكان ذلك سبب هجرة سلمان إليه وإيمانه به.

فالدين الذي اجتمع عليه - صلى الله عليه وسلم - المسلمون اجتماعا ظاهرا معلوما هو منقول عن نبيهم نقلا متواترا نقلوا القرآن ونقلوا سنته، وسنته مفسرة للقرآن مبينة له كما قال - تعالى - له:

{وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} [النحل: 44] .

فبين ما أنزل الله لفظه ومعناه فصار معاني القرآن التي اتفق عليها المسلمون اتفاقا ظاهرا مما توارثته الأمة عن نبيها كما توارثت عنه ألفاظ القرآن فلم يكن - ولله الحمد - فيما اتفقت عليه الأمة شيء محرف مبدل من المعاني فكيف بألفاظ تلك المعاني.

فإن نقلها والاتفاق عليها أظهر منه في الألفاظ فكان الدين الظاهر للمسلمين الذي اتفقوا عليه مما نقلوه عن نبيهم لفظه ومعناه فلم يكن فيه تحريف ولا تبديل لا للفظ ولا للمعنى بخلاف التوراة والإنجيل فإن من ألفاظها ما بدل معانيه وأحكامه اليهود والنصارى أو مجموعهما تبديلا ظاهرا مشهورا في عامتهم كما بدلت اليهود ما في الكتب المتقدمة من البشارة بالمسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وما في التوراة من الشرائع وأمره في بعض الأخبار.

وكما بدلت النصارى كثيرا مما في التوراة والنبوات من الأخبار ومن الشرائع التي لم يغيرها المسيح، فإن ما نسخه الله على لسان المسيح من التوراة يجب اتباع المسيح فيه.

وأما ما بدل بعد المسيح مثل استحلال لحم الخنزير وغيره مما حرمه الله ولم يبحه المسيح ومثل إسقاط الختان ومثل الصلاة إلى المشرق (وزيادة الصوم ونقله من زمان إلى زمان) واتخاذ الصور في الكنائس وتعظيم الصليب واتباع الرهبانية، فإن هذه كلها شرائع لم يشرعها نبي من الأنبياء لا المسيح، ولا غيره خالفوا بها شرع الله الذي بعث به الأنبياء من غير أن يشرعها الله على لسان نبي.

الوجه الثالث أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر المعلوم بالضرورة - للموافق والمخالف - أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان يقول إنه كلام الله لا كلامه وأنه مبلغ له عن الله وكان يفرق بين القرآن وبين ما يتكلم به من السنة وإن كان ذلك مما يجب اتباعه فيه تصديقا وعملا.

فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة وعلم أمته الكتاب والحكمة كما قال - تعالى -: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة} [آل عمران: 164] .

وقال - تعالى -: {واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به} [البقرة: 231] .

وقال - تعالى -: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم} [النساء: 113] .

وقال - تعالى -: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} [الأحزاب: 34] .

وقال - تعالى -: عن الخليل وابنه إسماعيل. {ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم} [البقرة: 128] (128) {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم} [البقرة: 129] .

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه» فكان يعلم أمته الكتاب وهو القرآن العزيز الذي أخبرهم أنه كلام الله لا كلامه وهو الذي قال عنه:

{قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الإسراء: 88] .

وهو الذي شرع لأمته أن تقرأه في صلاتهم فلا تصح صلاة إلا به وعلمهم مع ذلك الحكمة التي أنزلها الله عليه وفرق بينها وبين القرآن من وجوه.

منها: أن القرآن معجز.

ومنها: أن القرآن هو الذي يقرأ في الصلاة دونها.

ومنها: أن ألفاظ القرآن العربية منزلة على ترتيب الآيات فليس لأحد أن يغيرها باللسان العربي باتفاق المسلمين ولكن يجوز تفسيرها باللسان العربي وترجمتها بغير العرب.

وأما تلاوتها بالعربي بغير لفظها، فلا يجوز باتفاق المسلمين، بخلاف ما علمهم من الحكمة فإنه ليس حكم ألفاظها حكم ألفاظ القرآن ومنها: أن القرآن لا يمسه إلا طاهر، ولا يقرأه الجنب كما دلت عليه سنته عند جماهير أمته، بخلاف ما ليس بقرآن.

والقرآن تلقته الأمة منه حفظا في حياته، وحفظ القرآن جميعه في حياته غير واحد من أصحابه وما من الصحابة إلا من حفظ بعضه وكان يحفظ بعضهم ما لا يحفظه الآخر فهو جميعه منقول سماعا منه بالنقل المتواتر وهو يقول إنه مبلغ له عن الله وهو كلام الله لا كلامه.

وفي القرآن - ما يبين أنه كلام الله - نصوص كثيرة وكان الذين رأوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - ونقلوا ما عاينوه من معجزاته وأفعاله وشريعته وما سمعوه من القرآن وحديثه ألوفا مؤلفة أكثر من مائة ألف رأوه وآمنوا به.

وأما الأناجيل التي بأيدي النصارى: فهي أربعة أناجيل إنجيل متى ويوحنا ولوقا ومرقس وهم متفقون على أن لوقا ومرقس لم يريا المسيح، وإنما رآه متى ويوحنا، وأن هذه المقالات الأربعة التي يسمونها الإنجيل، وقد يسمون كل واحد منهم إنجيلا، إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله، ولا أن المسيح، بلغها عن الله، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح، وأشياء من أفعاله ومعجزاته.

وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من أقواله وأفعاله التي ليست قرآنا.

فالأناجيل التي بأيديهم شبه كتاب السيرة وكتب الحديث أو مثل هذه الكتب وإن كان غالبها صحيحا.

وما قاله - عليه السلام - فهو مبلغ له عن الله يجب فيه تصديق خبره وطاعة أمره كما قاله الرسول من السنة فهو يشبه ما قاله الرسول من السنة فإن منها ما يذكر الرسول أنه قول الله كقوله.

يقول الله - تعالى -: «من عادى لي وليا فقد آذنت بالحرب» ونحو ذلك ومنها ما يقوله هو ولكن هو أيضا مما أوحاه الله إليه، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فهكذا ما ينقل في الإنجيل وهو من هذا النوع فإنه كان أمرا من المسيح فأمر المسيح أمر الله ومن أطاع المسيح فقد أطاع الله.

وما أخبر به المسيح عن الغيب فالله أخبره به فإنه معصوم أن يكذب فيما يخبر به.

وإذا كان الإنجيل يشبه السنة المنزلة فإنه يقع في بعض ألفاظها غلط كما يقع في كتب السيرة، وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجه، ثم هذه الكتب قد اشتهرت واستفاضت بين المسلمين (فلا يمكن أحدا - بعد اشتهارها وكثرة النسخ بها - أن يبدلها كلها.

لكن في بعض ألفاظها غلط وقع فيها قبل أن تشتهر، فإن المحدث - وإن كان عدلا - فقد يغلط) لكن ما تلقاه المسلمون بالقبول والتصديق والعمل من الأخبار فهو مما يجزم جمهور المسلمين بصدقه عن نبيهم.

هذا مذهب السلف وعامة الطوائف كجمهور الطوائف الأربعة وجمهور أهل الكلام من الكلابية والكرامية والأشعرية وغيرهم، لكن ظن بعض أهل الكلام أنه لا يجزم بصدقها لكون الواحد قد يغلط أو يكذب، وهذا الظن إنما يتوجه في الواحد الذي لم يعرف صدقه وضبطه أما إذا عرف صدقه وضبطه، إما بالمعجزات كالأنبياء وإما بتصديق النبي له فيما يقول وإما باتفاق الأمة المعصومة على صدقه واتفاقهم على العمل بخبره، أو اتفاقهم على قبول خبره وإقراره، وذكره من غير نكير، أو ظهور دلائل وشواهد وقرائن احتفت بخبره ونحو ذلك من الدلائل على صدق المخبر، فهذه يجب معها الحكم بصدقه وأنه لم يكذب ولم يغلط، وإن كان خبره لو تجرد عن تلك الدلائل أمكن كذبه أو غلطه كما أن الخبر المجرد لا يجزم بكذبه إلا بدليل يدل على ذلك إما قيام دليل عقلي قاطع أو سمعي قاطع على أنه بخلاف مخبره فيجزم ببطلان خبره وحينئذ فالمخبر إما كاذبا أو غالطا، وقد يعلم أحدهما بدليل.

فالمسلمون عندهم من الأخبار عن نبيهم ما هو متواتر وما اتفقت الأمة المعصومة على تصديقه، وما قامت دلائل صدقه من غير هذه الجهة مثل: أن يخبر واحد أو اثنان أو ثلاثة بحضرة جمع كثير لا يجوز أن يتواطئوا على الكذب بخبر يقولون إن أولئك عاينوه وشاهدوه فيقرونهم على هذا ولا يكذب به منهم أحد فيعلم بالعادة المطردة أنه لو كان كاذبا لامتنع اتفاق أهل التواتر على السكوت عن تكذيبه كما يمتنع اتفاقهم على تعمد الكذب.

وإذا نقل الواحد والاثنان ما توجب العادة اشتهاره وظهوره ولم يظهر، ونقلوه مستخفين بنقله لم ينقلوه على رءوس الجمهور، علم أنهم كذبوا فيه.

ودلائل صدق المخبر وكذبه كثيرة متنوعة ليس هذا موضع بسطها، ولكن المقصود هنا أن المسلمين تواتر عندهم عن نبيهم ألفاظ القرآن ومعانيه المجمع عليها والسنة المتواترة وعندهم عن نبيهم أخبار كثيرة معلومة الصدق بطرق متنوعة كتصديق الأمة المعصومة ودلالة العادات وغير ذلك وهم يحفظون القرآن في صدورهم لا يحتاجون في حفظه إلى كتاب مسطور، فلو عدمت المصاحف من الأرض لم يقدح ذلك فيما حفظوه.

بخلاف أهل الكتاب فإنه لو عدمت نسخ الكتب لم يكن عندهم به نقل متواتر بألفاظها إذ لا يحفظها - إن حفظها - إلا قليل لا يوثق بحفظهم فلهذا كان أهل الكتاب بعد انقطاع النبوة عنهم يقع فيهم من تبديل الكتب إما تبديل بعض أحكامها ومعانيها، وإما تبديل بعض ألفاظها ما لم يقوموا بتقويمه.

ولهذا لا يوجد فيهم الإسناد الذي للمسلمين، ولا لهم كلام في نقلة العلم وتعديلهم وجرحهم ومعرفة أحوال نقلة العلم ما للمسلمين ولا قام دليل سمعي ولا عقلي على أنهم لا يجتمعون على خطأ، بل قد علم أنهم اجتمعوا على الخطأ لما كذبوا المسيح.

ثم كذبوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - فإذا كانت الكتب المنقولة عن الأنبياء من جنس الكتب المنقولة عن محمد ولم تكن متواترة عنهم ولم يكن تصديق غير المعصوم حجة لم يكن عندهم من العلم بالتمييز بين الصدق والكذب ما عند المسلمين.

فهذه الأناجيل التي بأيدي النصارى من هذا الجنس فيها شيء كثير من أقوال المسيح وأفعاله ومعجزاته وفيها ما هو غلط عليه، بلا شك، والذي كتبها في الأول إذا لم يكن ممن يتهم بتعمد الكذب فإن الواحد والاثنين والثلاثة والأربعة لا يمتنع وقوع الغلط والنسيان منهم لا سيما ما سمعه الإنسان ورآه ثم حدث به بعد سنين كثيرة، فإن الغلط في مثل هذا كثير ولم يكن هناك أمة معصومة يكون تلقيها لها بالقبول والتصديق موجبا للعلم بها لئلا تجتمع الأمة المعصومة على الخطأ والحواريون كلهم اثنا عشر رجلا.

وقصة الصلب مما وقع فيها الاشتباه وقد قام الدليل على أن المصلوب لم يكن هو المسيح - عليه السلام -، بل شبهه وهم ظنوا أنه المسيح والحواريون لم ير أحد منهم المسيح مصلوبا، بل أخبرهم بصلبه بعض من شهد ذلك من اليهود.

(فبعض الناس يقولون: إن أولئك تعمدوا الكذب وأكثر الناس يقول اشتبه عليهم ولهذا كان جمهور المسلمين يقولون في قوله: {ولكن شبه لهم} [النساء: 157] عن أولئك، ومن قال بالأول جعل الضمير في (شبه لهم) عن السامعين لخبر أولئك فإذا جاز أن يغلطوا في هذا، ولم يكونوا معصومين في نقله جاز أن يغلطوا في بعض ما ينقلونه عنه وليس هذا مما يقدح في رسالة المسيح،

ولا فيما تواتر نقله عنه بأنه رسول الله الذي يجب اتباعه، سواء صلب أو لم يصلب، وما تواتر عنه فإنه يجب الإيمان به، سواء صلب أو لم يصلب.

والحواريون مصدقون فيما ينقلونه عنه لا يتهمون بتعمد الكذب عليه لكن إذا غلط بعضهم في بعض ما ينقله لم يمنع ذلك أن يكون غيره معلوما لا سيما إذا كان الذي غلط فيه مما تبين غلطه فيه في مواضع أخر.

وقد اختلف النصارى في عامة ما وقع فيه الغلط حتى في الصلب فمنهم من يقول المصلوب لم يكن المسيح، بل الشبه كما يقوله المسلمون ومنهم من يقر بعبوديته لله وينكر الحلول والاتحاد كالأريوسية ومنهم من ينكر الاتحاد وإن أقر بالحلول كالنسطورية

وأما الشرائع التي هم عليها فعلماؤهم يعلمون أن أكثرها ليس عن المسيح - عليه السلام - فالمسيح لم يشرع لهم الصلاة إلى المشرق، ولا الصيام الخمسين ولا جعله في زمن الربيع، ولا عيد الميلاد والغطاس، وعيد الصليب، وغير ذلك من

أعيادهم، بل أكثر ذلك مما ابتدعوه بعد الحواريين، مثل عيد الصليب فإنه مما ابتدعته هيلانة الحرانية أم قسطنطين وفي زمن قسطنطين غيروا كثيرا من دين المسيح والعقائد والشرائع فابتدعوا الأمانة التي هي عقيدة إيمانهم وهي عقيدة لم ينطق بها شيء من كتب الأنبياء التي هي عندهم، ولا هي منقولة عن أحد الأنبياء ولا عن أحد من الحواريين الذين صحبوا المسيح،، بل ابتدعها لهم طائفة من أكابرهم قالوا كانوا ثلاث مائة وثمانية عشر.

واستندوا في ذلك إلى ألفاظ متشابهة في الكتب وفي الكتب ألفاظ محكمة تناقض ما ذكروه كما قد بسط في موضع آخر وكذلك عامة شرائعهم التي وضعوها في كتاب " القانون " بعضها منقول عن الأنبياء وبعضها منقول عن الحواريين وكثير منها مما ابتدعوه ليست منقولة عن أحد من الأنبياء ولا عن الحواريين وهم يجوزون لأكابر أهل العلم والدين أن يغيروا ما رأوه من الشرائع ويضعوا شرعا جديدا فلهذا كان أكثر شرعهم مبتدعا لم ينزل به كتاب ولا شرعه نبي.

[فصل: الرد على قولهم كيف يمكن تغيير كتبنا التي هي مكتوبة باثنين وسبعين لسانا]

وأما قولهم كيف يمكن تغيير كتبنا التي هي مكتوبة باثنين وسبعين لسانا وفي كل لسان منها كذا وكذا ألف مصحف ومضى عليها إلى مجيء محمد أكثر من ستمائة سنة؟

فيقال: أما بعد انتشارها هذا الانتشار فلم يقل المسلمون، بل ولا طائفة معروفة منهم إن ألفاظ جميع كل نسخة في العالم غيرت لكن جمهور المسلمين الذين يقولون إن في ألفاظها ما غير إنما يدعون تغيير بعض ألفاظها قبل المبعث، أو تغيير بعض النسخ بعد المبعث لا تغيير جميع النسخ فبعض الناس يقول إن ذلك التغيير وقع في أول الأمر ويقول بعضهم إن منها ما غير بعد مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا يقولون إنه غير كل نسخة في العالم، بل يقولون غير بعض النسخ دون البعض وظهر عند كثير من الناس النسخ المبدلة دون التي لم تبدل.

والنسخ التي لم تبدل هي موجودة عند بعض الناس.

ومعلوم أن هذا لا يمكن نفيه فإنه لا يمكن أحدا أن يعلم أن كل نسخة في العالم بكل لسان مطابق لفظها سائر النسخ بسائر الألسنة إلا من أحاط علما بذلك وهم قد سلموا أن أحدا لا يمكنه ذلك.

وأما من ذكر أن التغيير وقع في أول الأمر فهم يقولون إنما أخذت الأناجيل عن أربعة، اثنان منهم لم يريا المسيح، بل إنما رآه اثنان من نقلة الإنجيل متى ويوحنا.

ومعلوم إمكان التغير في ذلك.

وأما قولهم إنها مكتوبة باثنين وسبعين لسانا فمعلوم باتفاق النصارى أن المسيح لم يكن يتكلم إلا بالعبرية كسائر أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان مختونا ختن بعد السابع كما يختن بنو إسرائيل وأنه كان يصلي إلى قبلتهم لم يكن يصلي إلى الشرق ولا أمر بالصلاة إلى الشرق.

ومن قال إن لسانه كان سريانيا كما يظنه بعض الناس فهو غالط فالكلام المنقول عنه في الأناجيل إنما تكلم به عبريا ثم ترجم من تلك اللغة إلى غيرها.

والترجمة يقع فيها الغلط كثيرا كما وجدنا في زماننا من يترجم التوراة من العبرية إلى العربية ويظهر في الترجمة من الغلط ما يشهد به الحذاق الصادقون ممن يعرف اللغتين.

والنصارى يقولون إنما كتبت بأربع لغات: (بالعبرية والرومية واليونانية والسريانية) .

وأما قولهم إنها كتبت باثنين وسبعين لغة، فهذا إن كان صحيحا فإنما كتبت بعد أن كتبت تلك الأربعة فإذا كان الغلط وقع في مواضع من تلك الأربعة، لم يرفعه بعد ذلك كتابتها باثنين وسبعين لغة، فإن المسلمين لا يقولون: إنها كتبت باثنين وسبعين لغة غير لفظها في جميع الألسن (لاثنين وسبعين لغة في كل نسخة من ذلك) .

وإنما يقال التغيير وقع قبل ذلك كما يقال في سائر ما ورد عن المسيح وموسى (ومحمد - عليهم صلوات الله وسلامه - من الحديث مثل سيرة ابن إسحاق، وأحاديث السنن، والمساند المأثورة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فإن في العالم بكل كتاب منها نسخ كثيرة، لا يمكن أن يغير منها فصل طويل، ولكن في نفس السيرة وقع غلط في مواضع وأحاديث وقعت في السنن هي غلط في الأصل (فاشتهار النسخ بها بعد ذلك لا يمنع وقوع الغلط في الأصل) وهذه كتب التفسير والفقه والدقائق، ما من كتاب إلا وبه نسخ كثيرة في العالم لا يمكن تغيير فصل طويل منها وفيها أحاديث غلط في الأصل.

والأناجيل التي بأيدي النصارى تشبه هذا، ولهذا أمروا أن يحكموا بما فيها فإن فيها أحكام الله وعامة ما فيها من الأحكام لم يبدل لفظه وإنما بدلت بعض ألفاظ الخبريات وبعض معاني الأمريات كما نؤمر نحن أن نعمل بأحاديث الأحكام المعروفة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فإن العلماء اعتنوا بضبطها أكثر من اعتنائهم بضبط الخبريات كأحاديث الزهد والقصص والفضائل ونحو ذلك، إذ حاجة الأمم إلى معرفة الأمر والنهي أكثر من حاجتهم إلى معرفة التفاصيل بالخبريات التي يكتفى بالإيمان المجمل بها.

وأما الأمر والنهي، فلابد من معرفته على وجه التفصيل، إذ العمل بالمأمور لا يكون إلا مفصلا، والمحظور الذي يجب اجتنابه لابد أن يميز بينه وبين غيره كما قال - تعالى -: {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون} [التوبة: 115] .

والنصارى لا يحتاجون عند أنفسهم إلى هذا فإنه لا يجب عندهم أن يتمسكوا بشرع منقول عن المسيح - عليه السلام - وعندهم لأكابرهم أن يشرعوا دينا لم يشرعه المسيح، ويقولون: ما شرعه هؤلاء فقد شرعه المسيح فلم يكن لهم عناية ولا معرفة بشرع المسيح، كما للمسلمين عناية ومعرفة بشرع محمد - صلى الله عليه وسلم -.

[فصل: الرد على قولهم إن التوراة أخذت عن العزير وهو نبي معصوم]

وأما التوراة فمن المعلوم عند المسلمين واليهود والنصارى أن بيت المقدس خرب الخراب الأول وجلا أهله منه وسبوا ولم يكن هناك من التوراة نسخ كثيرة ظاهرة، بل إنما أخذت عن نفر قليل.

كما يقولون إن عزيرا أملاها وأنهم وجدوا نسخة أخرى فقابلوها بها والمقابلة تحصل باثنين وقد يغلط أحدهما وهم يذكرون

أن من الملوك من أمر اثنين وسبعين حبرا منهم بنقلها واعتبر بعض تلك النسخ ببعض وهذا إذا كان صدقا لا يمنع أن يكون الغلط وقع في بعض ألفاظها قبل ذلك إلا أن يثبت أنها مأخوذة عن نبي معصوم أو أقر جميع ألفاظها نبي معصوم.

فما قاله المعصوم فهو حق، وما ثبت بالنقل المتواتر فهو حق.

وهؤلاء القائلون إنه وقع التغيير في بعض ألفاظها في ذلك الزمان يقولون لم تؤخذ عن نبي معصوم ولا نقلت بالتواتر.

ومن نازع من المسلمين وأهل الكتاب يقولون: أخذت عن العزير، وهو نبي معصوم وهذا مما يحتاج المثبت فيه والنافي إلى تحقيقه.

وإذا قالت النصارى فالمسيح - عليه السلام - أقرها قيل المسيح - عليه السلام - لم يمكن أن يلزمهم بما أوجبه الله عليهم من الإيمان به وطاعته فكيف كان يمكنه أن يغير نسخ التوراة التي عندهم مع كثرتها وهم قد طلبوا قتله وصلبه لعجزه وضعفه وصلبوا شبيهه كما يقوله المسلمون أو صلبوه نفسه (كما يقوله النصارى) ، فكيف كان يمكنه أن يصلح ما غير منها؟

وأما من بعد المسيح فليس معصوما والمسيح غير بعض أحكامها وأقر أكثرها، والأحكام إنما يدعي المسلمون فيها النسخ وتبديلها بالاعتقاد بخلاف موجبها والعمل بذلك، لا يحتاجون إلى دعوى تبديل ألفاظها، كما بدلوا شريعة الرجم بغيرها وهو مكتوب في التوراة.

بخلاف الخبريات فإن هذه يقول أكثر المسلمين: إن التغيير وقع في بعض ألفاظها.

وأما النبوات المنقولة عن الاثنين وعشرين نبيا فهذه لا تعلم منها نبوة واحدة تواترت جميع ألفاظها، بل أحسن أحوالها أن تكون بمنزلة الإنجيل وهو بمنزلة ما ينقل من أقوال الأنبياء وسيرهم كسيرة ابن إسحاق أو بعض كتب المساند والسنن التي ينقل فيها ما ينقله الناقلون من أقوال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأفعاله، وأكثره صدق، وبعضه غلط.

ولكن هذه الأمة حفظ الله لها ما أنزله كما قال - تعالى -: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر: 9] .

فما في تفسير القرآن أو نقل الحديث أو تفسيره من غلط فإن الله يقيم له من الأمة من يبينه ويذكر الدليل على غلط الغالط وكذب الكاذب فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة ولا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة إذ كانوا آخر الأمم فلا نبي - بعد نبيهم - بعدهم ولا كتاب بعد كتابهم.

وكانت الأمم قبلهم إذا بدلوا وغيروا بعث الله نبيا يبين لهم ويأمرهم وينهاهم ولم يكن بعد محمد - صلى الله عليه وسلم - نبي، وقد ضمن الله أن يحفظ ما أنزله من الذكر وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، بل أقام الله لهذه الأمة في كل عصر من يحفظ به دينه من أهل العلم والقرآن وينفي به تحريف الغالين وانتحال المضلين وتأويل الجاهلين.

[فصل: الرد على من قال إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعث محمد]

وأما من قال: إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - فهؤلاء يقولون: إنه كان في التوراة والإنجيل وغيرهما ألفاظ صريحة بأمور.

منها اسم محمد - صلى الله عليه وسلم -، وأنه عمد بعض أهل الكتاب فغيروا بعض الألفاظ في النسخ التي كانت عندهم.

لا يقولون: إن هؤلاء غيروا كل نسخة كانت على وجه الأرض لكن غيروا بعض ألفاظ النسخ وكتب الناس من تلك النسخ المغيرة نسخا كثيرة انتشرت فصار أكثر ما يوجد عند كثير من أهل الكتاب هو من تلك النسخ المغيرة.

وفي العالم نسخ أخرى لم تغير فذكر كثير من الناس أنه رآها وقرأها وفي تلك النسخ ما ليس في النسخ الأخرى ومما يدل على ذلك أنك في هذا الزمان إذا أخذت نسخ التوراة الموجودة عند اليهود والنصارى والسامرة وجدت بينهما اختلافا في مواضع متعددة.

وكذلك نسخ الإنجيل، وكذلك نسخ الزبور مختلفة اختلافا متباينا بحيث لا يعقل العاقل أن جميع نسخ التوراة الموجودة متفقة على لفظ واحد، ولا يعلم أن جميع نسخ الإنجيل متفقة على لفظ واحد، ولا يعلم أن جميع نسخ الزبور متفقة على لفظ واحد فضلا عن سائر النبوات.

ومعلوم أنه لا يمكن أهل الكتاب إقامة حجة على أن جميع النسخ بجميع اللغات في زوايا الأرض متفقة على لفظ واحد في جميع ما هو موجود من جميع النبوات والحجة التي احتجوا بها على تعذر تغييرها كلها تدل على تعذر العلم بتساويها كلها.

فإذا قالوا: فمن هو الذي تكلم باثنين وسبعين لسانا، ومن هو الذي حكم على الدنيا كلها ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على جميع من بأقطار الأرض وجمعها من أربع زوايا الأرض (حتى يغيرها.

قيل لهم: ومن الذي يعلم اثنين وسبعين لغة ومن هو الذي حكم على الدنيا ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على جميع من بأقطار الأرض وجمعها من أربع زوايا الأرض) وأحضر كل نسخة موجودة في جميع الأرض وقابل كل نسخة (موجودة في جميع الأرض) بجميع النسخ فوجد جميع ألفاظ جميع النسخ التي باثنين وسبعين لسانا من جميع أقطار الأرض لفظا متفقا، لم يختلف ألفاظها.

فإن دعوى العلم بهذا ممتنع أعظم من امتناع دعوى تغييرها، فإنه إن أمكن أحدا أن يجمع جميع النسخ كانت قدرته على تغيير بعض ألفاظها كلها أيسر عليه من مقابلة كل ما في نسخة بجميع ما في سائر النسخ.

فإنا إذا أحضرنا بكتاب من الكتب عشر نسخ كان تغيير بعض ألفاظ العشرة أيسر علينا من مقابلة كل واحد من العشرة بالتسعة الباقية إذ المقابلة يحتاج فيها إلى معرفة جميع ألفاظ كل نسخة ومساواتها للأخرى.

وأما التغيير فيكفي فيه أن يغير من كل نسخة ما يغيره من الأخرى فإن كان تغيير جميع النسخ ممتنعا في العادة فالعلم باتفاقها أشد امتناعا، وإن كان العلم باتفاقها ممكنا، فإمكان تغيير بعض ألفاظها أيسر وأيسر.

وأما قولهم إن قيل: إنه غير بعضها وترك بعضها، فهذا لا يمكن أن يكون لأنها كلها قول واحد ولفظ واحد في جميع الألسن.

فيقال: أما إمكان قول هذا فظاهر لا ينازع فيه عاقل، وهو واقع فإنا قد رأينا التوراة التي عند السامرة تخالف توراة اليهود والنصارى (حتى في العشر الكلمات.

فذكر السامرة فيها من أمر استقبال الطور ما لا يوجد في نسخ اليهود والنصارى) وكذلك بين نسخ اليهود والنصارى اختلاف

معروف ونسخ الإنجيل مختلفة، ونسخ الزبور مختلفة اختلافا أكثر من ذلك، وبكل حال فلا يقدر عاقل أن يقول: يمتنع تغيير بعض النسخ.

ولكن إذا قالوا لم يغير شيء منها لأن جميعها قول واحد ولفظ واحد في جميع الألسن كانت هذه الدعوى باطلة من وجهين.

أحدهما: أن دعوى العلم بتساوي جميع النسخ أبلغ من دعوى إمكان تغييرها، فإن كان التغيير ممتنعا على جميعها كان علم الواحد بما في جميعها - وأنها متماثلة الألفاظ مع اختلاف الألسن - أولى بالامتناع.

الثاني: أن هذا دعوى خلاف الواقع، فإن الاختلاف في نسخ التوراة والإنجيل والزبور موجود قد رأيناه نحن بأعيننا، ورآه غيرنا، فرأيت عدة نسخ بالزبور يخالف بعضها بعضا اختلافا كثيرا ورأينا بعض ألفاظ التوراة التي ينقلها هذه الطائفة وهي مكتوبة عندهم يدعون أنها هي التوراة الصحيحة المنقولة عندهم بالتواتر تخالف بعض ألفاظ توراة الطائفة الأخرى، وكذلك الإنجيل.

وبالجملة قولهم: هذا لا يمكن أن يكون؛ لأنها كلها قول واحد ولفظ واحد في جميع الألسن، تضمن شيئين:

تضمن دعوى كاذبة، وحجة باطلة، فإن قولهم: (هذا لا يمكن) مكابرة ظاهرة، فإن إمكان تغيير بعض النسخ مما لا ينازع عاقل في إمكانه، لكن قد يقول القائل: إذا غير بعض النسخ وأظهر ذلك، شاع ذلك فرأى سائر أهل النسخ تلك النسخة مغايرة لنسخهم فأنكروه، فإن الهمم والدواعي متوفرة على إنكار ذلك، كما يوجد اليوم مثل ذلك لو أراد رجل أن يغير كتابا مشهورا عند الناس، به نسخ متعددة، فإذا غيره فوصلت تلك النسخة إلى من يعرف ما في تلك النسخ أنكروا ذلك.

فيقال: هذا يمكن إذا كانت تلك النسخة المغيرة وصلت إلى طائفة يمتنع عليهم مواطأتهم على الكذب فإنه كما يمتنع في الأخبار المتواترة التواطؤ على الكذب، فيمتنع التواطؤ على كتمان ما يتعذر كتمانه في العادة.

ومعلوم أنه لا يمتنع على الجماعة القليلة التواطؤ على تغيير بعض النسخ، والنسخ إنما هي موجودة عند علماء أهل الكتاب وليس عامتهم يحفظ ألفاظها كما يحفظ عوام المسلمين ألفاظ القرآن فإذا قصد طائفة منهم تغيير نسخة أو نسخ عندهم أمكن ذلك، ثم إذا تواطأت طائفة أخرى على أن لا يذكروا ذلك أمكن ذلك، ولكن إذا كانت الطوائف ممن لا يمكن تواطؤها على الكذب أو الكتمان امتنع ذلك فيهم.

وقد رأينا عند أهل الكتاب كتبا يدعون أنها عندهم من النبي - صلى الله عليه وسلم - بخط علي بن أبي طالب، فيها أمور تتعلق بأغراضهم، وقد التبس أمرها على كثير من المسلمين، وعظموا ما فيها وأعطوا أهل الكتاب ما كتب لهم فيها معتقدين أنهم ممتثلين ما فيها فلما وصلت إلى من وصلت إليه من علماء المسلمين بينوا كذبها بطرق معلومة بالتواتر، مثل ذكرهم فيها: شهد بما فيها كعب بن مالك الحبر على النبي - صلى الله عليه وسلم - يعنون كعب الأحبار.

وكعب الأحبار إنما أسلم على عهد عمر بن الخطاب لم يدرك النبي واسمه كعب بن ماتع، ولكن في الأنصار كعب بن مالك الشاعر الذي أنزل الله توبته في سورة (براءة) ، فظن هؤلاء الجهال أن هذا هو ذاك.

ومثل ذكرهم شهادة سعد بن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمن، ذكروا شهادته عام خيبر، وقد اتفق أهل العلم أنه مات

عقب غزوة الخندق قبل غزوة خيبر بمدة، وأمثال ذلك.

وأما حجتهم الداحضة فقولهم: إن جميع كتب النبوات التي في العالم من التوراة والإنجيل والزبور والنبوات موجودة باثنين وسبعين لسانا، بلفظ واحد وقول واحد، فهل يقول عاقل من العقلاء إنه علم ذلك؟ وإنه علم أن كل نسخة من النبوات الأربعة وعشرين بأحد الألسنة الاثنين وسبعين موافقة لكل نسخة في سائر الألسنة، ولو ادعى مدع أن كل نسخة من التوراة في العالم باللسان العربي (أو كل نسخة من الإنجيل في العالم باللسان العربي) أو كل نسخة في العالم من الزبور باللسان العربي موافقة لجميع النسخ العربية الموجودة في زوايا العالم لكان قد ادعى ما لا يعلمه ولا يمكنه علمه، فمن أين له ذلك؟

وهل رأى كل نسخة عربية بهذه الكتب، أو أخبره من يعلم صدقه أن جميع النسخ العربية الموجودة في العالم موافقة لهذه النسخة؟

وكذلك إذا ادعى ذلك في اللسان اليوناني، والسرياني، والرومي، والعبراني، والهندي، فإن كان في العالم بكل كتاب من هذه اثنان وسبعون لسانا فدعوى اتفاق نسخ كل لسان من جنس دعوى اتفاق النسخ العربية، فكيف إذا ادعى اتفاق النسخ بجميع الألسنة؟

وهب أنه يمكن أن يقال ذلك في نسخ لسان نقلها أهله، والناطقون به، فكيف يمكن دعواه في لسان كثر الناطقون به وانتشر أهله؟

وليس هذا كدعوى اتفاق مصاحف المسلمين بالقرآن فإن القرآن لا يتوقف نقله على المصاحف، بل القرآن محفوظ في قلوب ألوف مؤلفة من المسلمين، لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل، فلو عدم كل مصحف في العالم لم يقدح ذلك في نقل لفظ من ألفاظ القرآن، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه قل أن نجد من أهل الكتاب أحدا يحفظ كتابا من هذه الكتب، فقل أن يوجد من اليهود من يحفظ التوراة.

وأما النصارى فلا يوجد فيهم من يحفظ التوراة والإنجيل والزبور والنبوات كلها فضلا عن أن يحفظها باثنين وسبعين لسانا، (وإن وجد ذلك فهو قليل لا يمتنع عليهم لا الكذب ولا الغلط) .

فتبين أن ما ذكروه من انتشار كتبهم بالألسنة المختلفة هو من أقوى الأمور في عدم العلم بتماثل ما فيها من الألفاظ، وأن القرآن إذا كان منقولا، بلغة واحدة، وذلك اللسان يحفظه خلق كثير من المسلمين فكان ذلك مما يبين أن القرآن لا يمكن أحدا أن يغير شيئا من ألفاظه، وإن أمكن تغيير بعض ألفاظ التوراة والإنجيل عند كثير من أهل الكتاب.

والمسلمون لا يدعون أنه غير جميع ألفاظ جميع النسخ بعد مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - كما ظنه بهم هؤلاء الجهال، بل إنما ادعوا ما يسوغه العقل، بل ويظهر دليل صدقه ولكن هؤلاء الجهال ادعوا العلم، بأن جميع النسخ بجميع الألسنة بجميع الكتب، بلفظ واحد، فادعوا ما لا يمكن أحدا علمه، وادعوا ما يعلم بطلانه

[فصل: ثبوت الاختلاف والتغيير في نسخ أهل الكتاب]

وقد ظهر الجواب عن قولهم فمن هو الذي تكلم باثنين وسبعين لسانا، أو من هو الذي حكم على الدنيا جميعها ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على الدنيا جميعها من أربع زوايا العالم حتى غيرها، وإن كان مما أمكنه جمعها كلها أو بعضها.

فهذا ما لا يمكن، إذ جميعها قول واحد ونص واحد واعتقاد واحد.

وقد ظهر الجواب عن ذلك من وجوه:

أحدها: أنا لم ندع تغييرها بعد أن صارت بهذه الألسن، وانتشرت بها النسخ، بل لا ندعي التغيير بعد انتشار النسخ فيما ليس من كتب الأنبياء مثل كتب النحو والطب والحساب والأحاديث والسنن المنقولة عن الأنبياء مما نقل في الأصل نقل آحاد، ثم صارت النسخ به كثيرة منتشرة، فإن أحدا لا يدعي أنه بعد انتشار النسخ بكتاب في مشارق الأرض ومغاربها حكم إنسان على جميع المعمورة، وجمع النسخ التي بها وغيرها.

ولا ادعى أحد مثل ذلك في التوراة والإنجيل، وإنما ادعى ذلك فيها، لما كانت النسخ قليلة: إما نسخة، وإما اثنتين، وإما أربعة ونحو ذلك.

أو ادعى تغيير بعض ألفاظ النسخ، فإن بعض النسخ يمكن تغييرها.

ونسخ التوراة والإنجيل والزبور موجودة اليوم وفي بعضها اختلاف، لكنه اختلاف قليل والغالب عليها الاتفاق.

وذلك يظهر بالوجه الثاني: أن قولهم: إن جميعها قول واحد، ونص واحد، واعتقاد واحد، ليس كما قالوه، بل نسخ التوراة مختلفة في مواضع.

وبين توراة اليهود والنصارى والسامرة اختلاف، وبين نسخ الزبور اختلاف أكثر من ذلك وكذلك بين الأناجيل فكيف بنسخ النبوات؟

وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - باسمه ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أر ذلك فيها وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي - صلى الله عليه وسلم - ما ليس في أخرى.

الوجه الثالث: أن التبديل في التفسير أمر لا ريب فيه، وبه يحصل المقصود في هذا المقام فإنا نعلم قطعا أن ذكر محمد - صلى الله عليه وسلم - مكتوب فيما كان موجودا في زمنه من التوراة والإنجيل كما قال - تعالى -:

{الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل} [الأعراف: 157] .

ولا ريب أن نسخ التوراة والإنجيل على عهده كانت كثيرة منتشرة في مشارق الأرض ومغاربها فلابد من أحد الأمرين.

إما أن يكون غير اللفظ من بعض النسخ وانتشرت النسخ المغيرة.

وإما أن يكون ذكره في جميع النسخ كما استخرجه كثير من العلماء ممن كان من أحبار اليهود والنصارى وممن لم يكن من أحبارهم، استخرجوا ذكره والبشارة به في مواضع كثيرة متعددة من التوراة والإنجيل ونبوات الأنبياء، كما هو مبسوط في موضع آخر.

ومن قال إن ذكره موجود فيها أكثر من هذا وأصرح في بعض النسخ لا يمكن هؤلاء دفعه بأن يقولوا: قد اطلعنا على كل نسخة في العالم بالتوراة والإنجيل في مشارق الأرض ومغاربها، فوجدناها على لفظ واحد، فإن هذا لا يقوله إلا كذاب، فإنه لا يمكن بشرا أن يطلع على كل نسخة في مشارق الأرض ومغاربها، كما لا يمكنه أن يغير كل نسخة في مشارق الأرض ومغاربها، فلو لم يعلم اختلاف النسخ لم يمكنه الجزم باتفاقها في اللفظ، فكيف وقد ذكر الناس المطلعون عليها من اختلاف لفظها؟ ما تبين به كذب من ادعى اتفاق لفظها (وكيف يمكن اتفاق لفظها وهي، بلغات مختلفة)

[فصل: رد دعوى النصارى في أن القرآن أقرهم على ما هم عليه]

قالوا: ثم وجدنا في هذا الكتاب، ما هو أعظم من هذا برهانا، مثل قوله في سورة الشورى:

{وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير} [الشورى: 15] .

وأما لغير أهل الكتاب، فيقول:

{قل يأيها الكافرون} [الكافرون: 1] (1) {لا أعبد ما تعبدون} [الكافرون: 2] (2) {ولا أنتم عابدون ما أعبد} [الكافرون: 3] . . . السورة كلها. والجواب:

أما قوله: {وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم} [الشورى: 15] .

فهذه الآية مذكورة بعد قوله - تعالى -: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب} [الشورى: 13] (13) {وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم

وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب} [الشورى: 14] (14) {فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم} [الشورى: 15] .

فقد أخبرنا أنه شرع لنا من الدين ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه كما قال - تعالى - في الآية الأخرى:

{فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون} [الروم: 30] (30) {منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين} [الروم: 31] (31) {من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون} [الروم: 32] .

وقال - تعالى -: {يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم} [المؤمنون: 51] (51) {وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} [المؤمنون: 52] (52) {فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون} [المؤمنون: 53] .

ثم أخبر عن تفرق الذين أوتوا الكتاب كتفرق اليهود والنصارى وتفرق فرق اليهود، وفرق النصارى كالنسطورية واليعقوبية والملكية.

ثم قال: {وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم} [الشورى: 14]- أولئك المفترقين - {لفي شك منه مريب} [الشورى: 14] .

وهكذا توجد عامة اليهود والنصارى في شك من ذلك مريب.

وقال - تعالى -: {ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب} [فصلت: 45] .

وقال - تعالى -: {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا} [النساء: 157] (157) {بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: 158] .

ثم قال - تعالى -: {فلذلك فادع واستقم كما أمرت} [الشورى: 15] .

إلى الدين الذي شرعه لنا: {واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم} [الشورى: 15] .

وهذا يتناول أهواء أهل الكتاب، كما يتناول أهواء المشركين، وقد صرح بذلك في قوله - تعالى -: {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير} [البقرة: 120] .

وقال - تعالى -: {ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين} [البقرة: 145] .

كما صرح بنهيه عن اتباع أهواء المشركين في قوله - تعالى -: {قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون} [الأنعام: 150] .

وقوله - تعالى -: {وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب} [الشورى: 15] .

حق، فإن الله أمره وجميع الخلق أن يؤمنوا بجميع ما أنزل الله وكذلك قوله - تعالى -: {وأمرت لأعدل بينكم} [الشورى: 15] .

فإن الله أمره أن يعدل بين جميع الخلق وقوله: {الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم} [الشورى: 15] .

هذه براءة منه لمن يخاطب بذلك من المشركين وأهل الكتاب، كقوله - تعالى -:

{وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون} [يونس: 41] .

ومثله قوله - تعالى -: {قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون} [البقرة: 139] .

وكذلك قوله: {قل يأيها الكافرون} [الكافرون: 1] (1) {لا أعبد ما تعبدون} [الكافرون: 2] (2) {ولا أنتم عابدون ما أعبد} [الكافرون: 3] (3) {ولا أنا عابد ما عبدتم} [الكافرون: 4] (4) {ولا أنتم عابدون ما أعبد} [الكافرون: 5] (5) {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: 6] .

فإن هذه الكلمة كقوله: {لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون} [يونس: 41] .

وهي كلمة توجب براءته من عملهم وبراءتهم من عمله فإن حرف اللام في لغة العرب يدل على الاختصاص، فقوله: {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: 6] .

يدل على أنكم مختصون بدينكم لا أشرككم فيه، وأنا مختص بديني لا تشركوني فيه، كما قال: {لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون} [يونس: 41] .

ولهذا «قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في {قل يأيها الكافرون} [الكافرون: 1] هي براءة من الشرك» ، وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين، وجعلوها منسوخة، بل فيها براءته من دينهم وبراءتهم من دينه، وأنه لا تضره أعمالهم ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم.

وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ ولم يرض الرسول بدين المشركين، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط ومن زعم أنه رضي بدين الكفار واحتج بقوله - تعالى -: {قل يأيها الكافرون} [الكافرون: 1] (1) {لا أعبد ما تعبدون} [الكافرون: 2] (2) {ولا أنتم عابدون ما أعبد} [الكافرون: 3] (3) {ولا أنا عابد ما عبدتم} [الكافرون: 4] (4) {ولا أنتم عابدون ما أعبد} [الكافرون: 5] (5) {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: 6] .

(فظن هذا الملحد أن قوله: {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: 6] معناه أنه رضي بدين الكفار، ثم قال: هذه الآية منسوخة، فيكون قد رضي بدين الكفار) ، وهذا من أبين الكذب والافتراء على محمد - صلى الله عليه وسلم -، فإنه لم يرض قط إلا بدين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، ما رضي قط بدين الكفار لا من المشركين، ولا من أهل الكتاب.

وقوله: {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: 6] لا يدل على رضاه بدينهم، بل ولا على إقرارهم عليه، بل يدل على براءته من دينهم، ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (إن هذه السورة براءة من الشرك) .

ونظير هذه الآية قوله - تعالى -: {وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون} [يونس: 41] .

وكذلك قوله - تعالى -: {فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم} [الشورى: 15] .

وقد يظن بعض الناس أيضا أن قوله {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: 6] الآية، أني لا آمر بالقتال ولا أنهى عنه ولا أتعرض له بنفي ولا إثبات وإنما فيها أن دينكم لكم أنتم مختصون به وأنا بريء منه وديني لي وأنا مختص به وأنتم برآء منه.

وهذا أمر محكم لا يمكن نسخه بحال كما قال - تعالى -: عن الخليل.

{وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون} [الزخرف: 26] (26) {إلا الذي فطرني فإنه سيهدين} [الزخرف: 27] .

وقد قال - تعالى -: {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه} [الإسراء: 13] .

وهو ما طار عنه من خير وشر، وقد قال - تعالى -: {ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى} [الأنعام: 164] .

وقال - تعالى -: {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} [البقرة: 286]

وقال - تعالى -: {إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها} [الإسراء: 7] ، بل قال - تعالى - لنبيه:

{واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين} [الشعراء: 215] (215) {فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون} [الشعراء: 216]

فإذا كان قد برأه الله من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة؟ !

[فصل: إلزام اليهود والنصارى بدين الإسلام]

وأما قوله - تعالى -: {قل ياأيها الكافرون} [الكافرون: 1] (1) {لا أعبد ما تعبدون} [الكافرون: 2] (2) {ولا أنتم عابدون ما أعبد} [الكافرون: 3] (3) {ولا أنا عابد ما عبدتم} [الكافرون: 4] (4) {ولا أنتم عابدون ما أعبد} [الكافرون: 5] (5) {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: 6] فهو أمر بالقول لجميع الكافرين من المشركين وأهل الكتاب، فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه من ربه كافرون قد شهد عليهم بالكفر وأمر بجهادهم وكفر من لم يجعلهم كافرين ويوجب جهادهم قال - تعالى -:

{لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة} [البينة: 1] .

وقال - تعالى -: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} [المائدة: 17] .

وقال - تعالى -:{لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} [المائدة: 73] .

وقال - تعالى -: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: 29] .

وحرف (من) في هذه المواضع لبيان الجنس، فتبين جنس المتقدم، وإن كان ما قبلها يدخل في جميع الجنس الذي بعدها، بخلاف ما إذا كان للتبعيض كقوله: {لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب} [البينة: 1] .

فإنه يدخل في الذين كفروا بعد مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - جميع المشركين، وأهل الكتاب.

وكذلك دخل في الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق جميع أهل الكتاب الذين بلغتهم دعوته، ولم يؤمنوا به، وكذلك قوله:{وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات} [النور: 55] .

وإن كان جميعهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذا إذا كان الجنس يتناول المذكورين وغيرهم، ولكن لم يبق في الجنس إلا المذكورون، كما يقول: هنا رجل من بني عبد المطلب، وإن لم يكن بقي منهم غيره.

ووصفهم بالشرك، وبأنهم يعبدون غير الله، كما قال - تعالى -: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] .

فأخبر أنهم اتخذوا من دون الله أربابا واتخذوا المسيح ربا وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا وهؤلاء باتخاذهم غيره أربابا عبدوهم فأشركوا بالله - سبحانه وتعالى عما يشركون -.

وقال - تعالى -:{ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون} [آل عمران: 79] (79) {ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون} [آل عمران: 80] .

فقد أخبر أيضا أنه من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا فإنه كافر.

وقال - تعالى -: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم} [المائدة: 73] (73) {أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم} [المائدة: 74] (74) {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون} [المائدة: 75] (75) {قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم} [المائدة: 76]

(فقد وبخ أهل التثليث على أنهم يعبدون ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم) فدخلوا في قوله: {قل ياأيها الكافرون} [الكافرون: 1] (1) {لا أعبد ما تعبدون} [الكافرون: 2] (2) {ولا أنتم عابدون ما أعبد} [الكافرون: 3] .

كما دخل في ذلك غيرهم من الكفار، لا سيما وقد دخل في ذلك اليهود، وهم أولى بالدخول من غيرهم، فإن قوله: (ما تعبدون) يتناول صفات المعبود، والإله الذي يعبده المؤمنون هو الإله الذي أنزل التوراة والإنجيل والقرآن، وأرسل موسى وعيسى ومحمدا - صلوات الله عليهم وسلامه -.

والإله المتصف بهذه الصفات لا يعبده اليهود والنصارى، وهذا كقوله: {قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون} [البقرة: 133] .

فهذا الإله الذي يعبده محمد وأمته، وليس هو إله المشركين الذي يعبدونه، وإن كان هو المستحق لأن يعبدوه فإنهم يشركون بعبادته ويصفونه بما هو بريء منه فلا يخلصون له الدين، فيعبدوا معه آلهة أخرى إن لم يستكبروا عن عبادته، وإله العبد الذي يعبده بالفعل ليس حاله معه كحاله مع الذي يستحق أن يعبده، وهو لا يعبده، بل يشرك به أو يستكبر عن عبادته، فهذا هو الذي قال فيه: {لا أعبد ما تعبدون} [الكافرون: 2] .

والشرك غالب على النصارى، والكبر غالب على اليهود.

[فصل: وجوب محاجة الظالمين من مشركين وأهل كتاب]

وأما قوله: {لا حجة بيننا وبينكم} [الشورى: 15] .

الآية، فهذا ليس خطابا للنصارى خصوصا، بل هو خطاب للجميع، وهؤلاء النصارى ظنوا أن معنى هذا لا تحاجوا أهل الكتاب، كما ظنوا في قوله تعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم} [العنكبوت: 46] .

أن معناه: لا تجادلوا أهل الكتاب - أي النصارى - إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا، أي اليهود اهـ.

وهذا تحريف كلم الله عن مواضعه، وهو شبيه بتحريفهم لما عندهم من التوراة والإنجيل والزبور، وسائر النبوات، فإنهم أعظم تسلطا على تحريف معانيها منهم على تحريف معاني القرآن، إذ كان القرآن له أمة تحفظه، وتعرف معانيه، وتذب عنه من يحرف لفظه أو معناه.

وأما تلك الكتب فليس لها من يذب عن لفظها ومعناها، فلهذا عظم تحريفهم لها، وكان أعظم من تحريفهم للقرآن.

ومما يبين أن هذا الخطاب ليس مختصا بالنصارى أن هذه السورة مكية، والسور المكية كانت تتناول من لا يقرأ الكتاب، لا تختص بأهل الكتاب، بل كانت تعم الأمم أو تختص بالمشركين.

والسور المدنية خطابها تارة لأهل الكتاب، وتارة تختص بالمؤمنين وتارة تعم، وقد قال - تعالى -:

{كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب} [الشورى: 13] .

وقال - تعالى -: {وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب} [الشورى: 14] .

فالخطاب إما أن يعم المشركين، وأهل الكتاب، أو يخص المشركين، وأهل الكتاب: اليهود والنصارى، وبكل تقدير فلا وجه لتخصيص النصارى به.

وأما قوله - تعالى -: {لا حجة بيننا وبينكم} [الشورى: 15] .

فهو نظير قوله تعالى: {قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون} [البقرة: 139] .

وقوله: {فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ} [آل عمران: 20] .

فالحجة اسم لما يحتج به من حق وباطل كقوله: {لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم} [البقرة: 150] .

فإن الظالمين يحتجون عليكم بحجة باطلة كقول المشركين لما حولت القبلة إلى الكعبة قد عاد إلى قبلتكم فسوف يعود إلى ملتكم، فهذه حجة داحضة من الظالمين.

ومما يبين ذلك بعد قوله بعد ذلك: {والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد} [الشورى: 16] .

فسماها حجة وجعلها داحضة، وهؤلاء الذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له هم الكفار من المشركين وأهل الكتاب.

فهم يحاجون المؤمنين ليردوهم عن دينهم، وقال عن النصارى:

{فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين} [آل عمران: 61] .

فكان الكفار يحاجون المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم، كما يؤذونهم، فهؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

ومحاجتهم للمؤمنين من باب الظلم لهم والعدوان عليهم وقول الباطل، فأمره - تعالى - أن يقول: {لا حجة بيننا وبينكم} [الشورى: 15] .

أي ليس لكم أن تظلمونا، وتعتدوا علينا بحجتكم الداحضة، وليس المراد بذلك أنا نحن لا نحاجكم، وندعوكم إلى الحق بالحجج الصحيحة.

فإنه - تعالى - قال: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} [النحل: 125] .

فأمره - تعالى - أن يجادل أهل دعوته مطلقا من المشركين، وأهل الكتاب بالتي هي أحسن.

وقد قال - تعالى -: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم} [العنكبوت: 46] .

فإن الظالم باغ مستحق للعقوبة، فيجوز أن يقابل بما يستحقه من العقوبة، لا يجب الاقتصار معه على التي هي أحسن، بخلاف من لم يظلم، فإنه لا يجادل إلا بالتي هي أحسن.

وأهل الكتاب اسم يتناول اليهود والنصارى، كما في نظائره في القرآن كقوله - تعالى -: {وطعام الذين أوتوا الكتاب} [المائدة: 5] الآية. وقوله:{لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين} [البينة: 1] .

وأمثال ذلك.

والظالم يكون ظالما بترك ما تبين له من الحق واتباع ما تبين له أنه باطل، والكلام بلا علم فإذا ظهر له الحق فعند عنه كان ظالما.

وذلك مثل الألد في الخصام قال - تعالى -: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام} [البقرة: 204] .

وقال: {يجادلونك في الحق بعد ما تبين} [الأنفال: 6] .

وقال: {ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم} [آل عمران: 66] .

[فصل: الإسلام هو دين الأنبياء جميعا]

وقولهم: إنه لم يقل: كونوا له مسلمين، ولكن ونحن، أي عنه وعن العرب التابعين له، ولما أتى به وجاء في كتابه.

فيقال لهم: هذا ونظائره كلام من لم يفهم القرآن، بل ولا يفهم كلام سائر الناس، فإنه إذا عرف من صاحب كتاب يقول إنه منزل من الله، أو يقول إنه صنفه هو أنه يدعو قوما بالأقوال الصريحة الكثيرة، والأعمال البينة الظاهرة، كان سكوته عن دعائهم في بعض الألفاظ لا ينافي دعاءهم له.

لكن إن كان حكيما في كلامه كان للسكوت عن دعائهم في بعض المواضع حكمة تناسب ذلك، وهذا كقوله - تعالى -: {قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون} [البقرة: 139] .

أفتراه لما أمر أمته أن يقولوا {ونحن له مخلصون} [البقرة: 139] لم يكن أهل الكتاب مأمورين بالإخلاص لله، وقد ذكر أمر أهل الكتاب بالإخلاص في غير موضع كقوله - تعالى -: {وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة} [البينة: 4] (4) {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} [البينة: 5] .

وكذلك دعاهم إلى الإسلام وتوعدهم على التولي عنه في مثل: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} [آل عمران: 18] (18) {إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب} [آل عمران: 19] (19) {فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد} [آل عمران: 20] ، وقال - تعالى -: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين} [البقرة: 130] (130) {إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين} [البقرة: 131] (131) {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} [البقرة: 132] (132) {أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون} [البقرة: 133] .

فقد بين - سبحانه - أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه أي سفه نفسا، أي كانت نفسه سفيهة جاهلة، هذا أصح القولين في ذلك، وهو مذهب الكوفيين من النحاة، يجوزون أن يكون المنصوب على التمييز معرفة، كما يكون نكرة، ثم أخبر عنه أنه:

{إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين} [البقرة: 131] .

وذكر أن إبراهيم وصى بها بنيه، ويعقوب وصى بها بنيه أيضا، كلاهما قال لبنيه: {يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} [البقرة: 132] .

ثم ذكر أن يعقوب عند موته: {إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون} [البقرة: 133] .

فهؤلاء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كلهم على الإسلام وهم يأمرون بالإسلام ثم قال بعد ذلك: {وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} [البقرة: 135] .

ثم قال: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [البقرة: 136] .

ثم قال: {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} [البقرة: 137] .

فقد أخبر أنهم إن تولوا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به المتضمن قولكم: ونحن له مسلمون فإنما هم في شقاق، أي: مشاقون لله ورسوله كما قال - تعالى -: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار} [الحشر: 2] .

إلى قوله: {ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب} [الحشر: 4] .

وقوله - تعالى -: {ونحن له مسلمون} [البقرة: 133] في العنكبوت فهو مثل قوله: {ونحن له مسلمون} [البقرة: 133] في البقرة مع دعائهم إلى الإسلام، وكذلك في سورة آل عمران في قوله:

{قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 64] .

فقد دعاهم أولا إلى الإسلام، وهو عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، كما قال - تعالى - {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] .

ثم قال - تعالى -: {فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 64] .

وهذه الآية هي التي كتب بها النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى قيصر ملك الروم لما دعاه إلى الإسلام.

وقال في كتابه.

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين و: {ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 64] » .

فدعاه النبي إلى الإسلام، في كتابه الذي أرسله إليه وقال أيضا في آل عمران: {ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون} [آل عمران: 79] (79) {ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون} [آل عمران: 80] .

فذكر التوحيد في هذه الآية، وكفر من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا، فكيف بمن اتخذ الأحبار والرهبان أربابا ثم ذكر الإيمان بخاتم الرسل، فقال: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} [آل عمران: 81] (81) {فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} [آل عمران: 82] (82) {أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون} [آل عمران: 83] (83) {قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [آل عمران: 84] (84) {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} [آل عمران: 85] .

فقد ذكر أنه أخذ الميثاق على النبيين وأممهم: مهما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه.

وهذا يتناول الأمر لكل أهل الكتاب إذا جاءهم رسول ثان أن يؤمنوا به وينصرونه، وإن كان عندهم من الكتاب والحكمة ما كان، ولا يقولون: نحن مستغنون بما عندنا من الكتاب والحكمة، لا نؤمن بالرسول الذي جاءنا.

ونخص الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم -، فإنه خاتم الرسل، وهو آخر رسول جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب، فوجب على من جاءه أن يؤمن به وينصره، وإن كان عنده من الكتاب والحكمة ما كان.

وهذا الميثاق أخذه الله على الأنبياء، وأخذوه على أممهم، ثم قال: {أفغير دين الله يبغون} [آل عمران: 83] .

وهذا هو دين الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه، فمن ابتغى غيره فقد ابتغى غير دين الله، وهو دين الإسلام، (الذي قال) فيه: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} [آل عمران: 85] .

[فصل: أمر المؤمنين بقول الحق لتقوم به الحجة على المخالف]

وأما قوله - تعالى -: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون} [العنكبوت: 46] .

فهو أمر للمؤمنين أن يقولوا الحق الذي أوجبه الله عليهم، وعلى جميع الخلق ليرضوا به الله، وتقوم به الحجة على المخالفين، فإن هذا من الجدال بالتي هي أحسن، وهو أن تقول كلاما حقا يلزمك، ويلزم المنازع لك أن يقوله، فإن وافقك وإلا ظهر عناده وظلمه.

كما قال - تعالى - في الآية الأخرى: {قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون} [البقرة: 139] .

فإنا مشتركون في أنه ربنا كلنا وأن عمل كل عامل له لا لغيره، وامتزنا نحن بأنا مخلصون له، وأنتم لستم مخلصين له، فأوجب هذا أن الحق معنا دونكم، وأن أعمالنا صالحة مقبولة، وأعمالكم مردودة.

ويشبه ذلك قوله - تعالى -: {قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 64] .

فأمره لهم أن يقولوا اشهدوا بأنا مسلمون يتضمن إقامة الحجة عليهم كما كان المسيح - عليه السلام - يقول.

[فصل: نقض دعواهم أن الظلم اتصف به اليهود دون النصارى]

ثم قالوا: فأما الذين ظلموا فما يشك أحد في أنهم اليهود الذين سجدوا لرأس العجل، وكفروا بالله مرارا كثيرة ليست واحدة، وقتلوا أنبياءه ورسله وعبدوا الأصنام، وذبحوا للشياطين ليس حيوانات غير ناطقة فقط، بل بنيهم وبناتهم حسب ما شهد الله عليهم قائلا على لسان داود النبي - عليه السلام - في كتاب الزبور في مزمور مائة وخمسة يقول ذبحوا بنيهم وبناتهم للشياطين وأراقوا دما زكيا دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوا للمنحوتات بكنعان وقد تنجست الأرض بالدماء وتنجست أعمالهم وزنوا بضغائنهم، وسخط الرب عليهم ورذل ميراثهم.

وقال أيضا على لسان أشعيا النبي - عليه السلام - يقول الله في بني إسرائيل: لم يسمعوا وصاياي، لم يحفظوا كل ما أوصيتهم به،

بل غيروا ونقضوا الميثاق الذي كنت جعلته لهم إلى الأبد، فلذلك أجلستهم عليهم الحزن، وأهلكتهم وانقطع ممن يبقى منهم الفرح والسرور.

هكذا قال الله على سكان بيت المقدس من بني إسرائيل: سأبددهم بين الأمم، وفي تلك الأيام يرفعون الأمم أصواتهم ويسبحون الله ويمجدونه بأصوات عالية، ويجتمعون من أقطار الأرض، ومن جزائر البحر، ومن البلدان البعيدة ويقدسون اسم الله ويرجعون إلى الله إله إسرائيل، ويكونون شعبة، وأما بنو إسرائيل فيكونون مبددين في الأرض.

وقال أشعيا النبي - عليه السلام - يقول الله: (يا بني إسرائيل نجستم جبلي المقدس، فإني سأفنيكم بالحرب وتموتون، وذلك لأني

دعوتكم فلم تجيبوا وكلمتكم فلم تسمعوا، وعملتم الشيء بين يدي) .

وقال أشعيا أيضا: (إن الله قد بغض بني إسرائيل، وأخرجهم من بيوتهم ومن بيته ولا يغفر لهم لأنهم لعنة، وجعلوا لعنة الناس فلذلك أهلكهم الله، وبددهم بين الأمم، ولا يعود يرحمهم ولا ينظر إليهم برحمة إلى أبد الآبدين، ولا يقربون لله قربانا ولا ذبيحة في ذلك اليوم وذلك الزمان، ولا يفرح بنو إسرائيل؛ لأنهم قد ضلوا عن الله - عز وجل -) .

وقال أرميا النبي - عليه السلام -: (كما أن الحبشي لا يستطيع أن يكون أبيضا، فكذلك بنو إسرائيل لا يتركون عادتهم الخبيثة، ولذلك إني لا أرحم، ولا أشفق، ولا أرق على الأمة الخبيثة ولا أرثي لها) .

وقال حزقيل النبي - عليه السلام -: (قال الله: إنما رفعت يدي عن بني إسرائيل وبددتهم بين الأمم، لأنهم لم يعملوا بوصاياي، ولم يطيعوا أمري، وخالفوني فيها فيما قلت لهم ولم يسمعوا لي) .

ومثل هذا القول في التوراة، وكتب الأنبياء، وزبور داود شيء كثير يقرونها اليهود في كنائسهم، ويقرأونها ولا ينكرون منها حرفا واحدا، ومثل ما هو عندهم، وكذلك عندنا في جميع الألسن اهـ.

والجواب أن يقال: أما كون اليهود ظالمين كافرين معتدين مستحقين لعذاب الله وعقابه، فهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد منقول بالتواتر، كما علم بالاضطرار والنقل المتواتر عنه - صلى الله عليه وسلم - أن النصارى أيضا ظالمون معتدون كافرون مستحقون لعذاب الله وعقابه، وفي اليهود من الكفر ما ليس في النصارى، وفي النصارى ما ليس في اليهود فإن اليهود بدلوا شريعة التوراة قبل أن يأتيهم المسيح ابن مريم، فلما أتاهم كفروا به وكذبوه فلما بعث محمد كذبوه فباءوا بغضب على غضب.

كما قال - تعالى - عنهم: {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون} [البقرة: 85] (85) أولئك {الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون} [البقرة: 86] (86) {ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون} [البقرة: 87] (87) {وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون} [البقرة: 88] (88) {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} [البقرة: 89] (89) {بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين} [البقرة: 90] (90) {وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين} [البقرة: 91] (91) {ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون} [البقرة: 92] (92) {وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين} [البقرة: 93] .

فغضب عليهم أولا بتكذيب المسيح، وثانيا بتكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وقال - تعالى -: {ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} [آل عمران: 112] .

وقال - تعالى -: {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} [المائدة: 78] (78) {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون} [المائدة: 79] .

وقال - تعالى -: {قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت} [المائدة: 60] .

فتبين أن اليهود لعنهم الله وأنهم عبدوا الطاغوت، وأنه جعل منهم القردة والخنازير، ومثل هذا في القرآن كثير لكن قول القائل أنهم المرادون بقوله - تعالى -: {إلا الذين ظلموا منهم} [البقرة: 150] .

في قوله: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم} [العنكبوت: 46] .

غلط بين ولهذا كان باطلا باتفاق المسلمين.

فإن قوله - تعالى -: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} [العنكبوت: 46] .

نهي عن مجادلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بالتي هي أحسن.

وقوله: {إلا الذين ظلموا} [البقرة: 150] .

من الطائفتين جميعا.

ولهذا كان الواجب على المسلمين، إذا جادلهم اليهودي والنصراني أن يجادلوه بالتي هي أحسن، إلا من ظلم من الطائفتين، فإنه يعاقب باللسان تارة وباليد أخرى، كما أمر الله ورسوله بجهاد الظالمين من هؤلاء، فجاهد النبي - صلى الله عليه وسلم - اليهود

الذين كانوا بالمدينة النبوية وحولها وقريبا منها، كما جاهد بني قينقاع، والنضير، وقريظة، وأهل خيبر، وأهل وادي القرى، وغيرهم.

وكما جاهد النصارى عام تبوك غزاهم بالشام عربهم وورومهم، وأغزاهم قبل ذلك نوابه: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وأمرهم بغزوهم فغزاهم بعده خلفاؤه الراشدون.

والنبي - صلى الله عليه وسلم - لما قدم وفد نجران النصارى جادلهم في مسجده بالتي هي أحسن، ثم أمره الله - سبحانه - أن يدعوهم إلى المباهلة، فامتنعوا عن مباهلته، وأقروا بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون، كما تقدم ذلك مفصلا فجادل بعضهم بالتي هي أحسن، والظالم منهم عاقبه وجاهده، كما عاقب الظالم من اليهود.

ومن أعجب الأشياء قولهم: وأما الذين ظلموا، فلا يشك أحد أنهم اليهود، فإن هذا من جنس قولهم: ثم وجدنا في الكتاب ما هو أعظم من هذا برهانا

وهو قوله في سورة الشورى: {وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم} [الشورى: 15] كما تقدم.

وهي من جنس قولهم في قوله: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} [البقرة: 2] .

أنه عنى بالكتاب الإنجيل، والذين يؤمنون بالغيب: النصارى، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك هم المسلمون، وزعمهم أن قولهم هذا بين ظاهر.

وتفاسير النصارى للكتب الإلهية فيها من التحريف لكلمات الله، والإلحاد في أسماء الله وآياته ما يطول وصفه، ولا ينقضي التعجب منه، لكن إقدامهم على تفسير القرآن بالإلحاد والتحريف أعجب وأعجب كقولهم: [إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - ذكر أنه لم يرسل إليهم، وأنه أثنى على الدين الذي هم عليه بعد النسخ والتبديل، بعد مبعثه - صلى الله عليه وسلم -، وأن قوله {صراط الذين أنعمت عليهم} [الفاتحة: 7] أراد به النصارى.

وقوله: {لقد أرسلنا رسلنا} [الحديد: 25] أراد به الحواريين.

وقوله: {وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس} [البقرة: 213] .

أراد به الإنجيل] فإن في هذا من الكذب الظاهر، والافتراء على محمد بأنه أراد هذه الأمور، ما هو من جنس افترائهم على الأنبياء، فإنهم أخبروا أن المسيح هو خالق السماوات والأرض، وأن التوراة والزبور وغيرهما من الكتب أخبرت بذلك، ثم يأتون إلى ما يعلم كل عاقل أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يرده، فيقولون: إنه لا يشك فيه أحد، وإنه قول ظاهر بين، وكل من عرف حال محمد - صلى الله عليه وسلم -، وما جاء به من القرآن والدين يعلم علما يقينيا ضروريا أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يجعل النصارى مؤمنين دون اليهود، بل كان يكفر الطائفتين، ويأمر بجهادهم، ويكفر من لم ير جهادهم واجبا عليه.

وهذا مما اتفق عليه المسلمون، وهو منقول عندهم عن نبيهم نقلا متواترا، بل هذا يعلمه من حاله الموافق والمخالف، إلا من هو مفرط في الجهل بحاله، أو من هو معاند عنادا ظاهرا

[فصل: المسلمون يوافقون النصارى فيما كفروا به اليهود]

وأما ما نقلوه عن الأنبياء مما يدل على كفر اليهود، فهذا لا ننازعهم فيه، ولا حاجة بنا إلى الاستدلال بما نقلوه، وإن كان فيما يثبت عن الأنبياء ما يبين كفرهم لما بدلوا دين موسى - عليه السلام - كما كفر النصارى لما بدلوا دين المسيح، فهذا حق موافق لما أخبر به خاتم الرسل - صلى الله عليه وسلم - فإنا قد علمنا كفرهم من جهة لا نشك في صدقها.

وما أخبرونا به عن الأنبياء إن علمنا صدقهم فيه، صدقناهم فيه وإن علمنا كذبهم فيه كذبناهم فيه، وإن لم نعلم صدقه ولا كذبه لم نصدقه ولم نكذبه، بل نقول: {آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون} [العنكبوت: 46] .

فإن الإيمان بجميع ما أوتي النبيون حق واجب، لكن وجوب التصديق في النبي المعين الذي لم نعلمه من غيرهم يقف على مقدمتين:

1 - أن يكون اللفظ قد قاله النبي

2 - وأن يكون المعنى الذي فسروه به مرادا للنبي الذي تكلم بذلك القول، فلابد من ثبوت الإسناد ودلالة المتن.

وهاتان المقدمتان، لابد منهما في جميع المنقول عن الأنبياء.

وقد يحتاج إلى مقدمة ثالثة في حق من لم يعرف اللغة العبرية، فإن موسى وداود والمسيح وغيرهم إنما تكلموا باللغة العبرية، فمن لم يعرف بها، وإنما يعرف بالعربية أو الرومية، لابد أن يعرف أن المترجم من تلك اللغة إلى هذه قد ترجم ترجمة مطابقة.

[فصل: غلو النصارى في عيسى عبد الله ورسوله]

وأما قولهم: وأما نحن النصارى فلم نعمل شيئا مما عملته اليهود، فيقال لهم: الكفر والفسوق والعصيان لم ينحصر في ذنوب اليهود، فإن لم تعملوا مثل أعمالهم فلكم من الأقوال والأعمال ما بعضه أعظم من كفر اليهود، وإن كنتم أنتم ألين من اليهود وأقرب مودة، فأنتم أيضا أجهل وأضل من اليهود.

وقال - تعالى -: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا} [مريم: 88] (88) {لقد جئتم شيئا إدا} [مريم: 89] (89) {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا} [مريم: 90] (90) {أن دعوا للرحمن ولدا} [مريم: 91] (91) {وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} [مريم: 92] (92) {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا} [مريم: 93] (93) {لقد أحصاهم وعدهم عدا} [مريم: 94] (94) {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} [مريم: 95]

وقال - تعالى -: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا} [الكهف: 1] (1) {قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا} [الكهف: 2] (2) {ماكثين فيه أبدا} [الكهف: 3] (3) {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا} [الكهف: 4] (4) ما {لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا} [الكهف: 5] .

وقال - تعالى -: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: 29] .

وقال - تعالى -: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [التوبة: 30] (30) {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] .

وقال - تعالى -: {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون - هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله} [التوبة: 32 - 34] .

وقال - تعالى -: {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون} [المائدة: 14] .

وقال - تعالى -:، لما قص قصة المسيح - عليه السلام -: {ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون} [مريم: 34] (34) {ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [مريم: 35] (35) {وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم} [مريم: 36] (36) {فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم} [مريم: 37] (37) {أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين} [مريم: 38] .

وقال - تعالى -: {قل يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] .

[فصل: تطرف اليهود والنصارى وتوسط المسلمين]

ومن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين، وجد اليهود والنصارى متقابلين هؤلاء في طرف ضلال، وهؤلاء في طرف يقابله، والمسلمون هم الوسط.

وذلك في التوحيد، والأنبياء، والشرائع، والحلال والحرام والأخلاق وغير ذلك.

فاليهود يشبهون الخالق بالمخلوق في صفات النقص المختصة بالمخلوق التي يجب تنزيه الرب سبحانه عنها كقول من قال منهم: إنه فقير، وإنه بخيل، وإنه تعب لما خلق السماوات والأرض، والنصارى يشبهون المخلوق بالخالق في صفات الكمال المختصة بالخالق التي ليس له فيها مثل، كقولهم إن المسيح هو الله، وابن الله.

وكل من القولين يستلزم الآخر.

والنصارى أيضا يصفون اللاهوت بصفات النقص التي يجب تنزيه الرب عنها، ويسبون الله سبا ما سبه إياه أحد من البشر، كما كان معاذ بن جبل يقول: لا ترحموهم فإنهم قد سبوا الله سبة ما سبه إياها أحد من البشر.

واليهود تزعم أن الله يمتنع منه أن ينسخ ما شرعه، كما يمتنع ما لا يدخل في القدرة أو ينافي العلم والحكمة.

والنصارى يجوزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله الذي بعث به رسله، فيحللوا ما حرم، كما حللوا الخنزير، وغيره من الخبائث، بل لم يحرموا شيئا، ويحرمون ما حل، كما يحرمون في رهبانيتهم التي ابتدعوها، وحرموا فيها من الطيبات ما أحله الله، ويسقطون ما أوجب كما أسقطوا الختان وغيره، وأسقطوا أنواع الطهارة من الغسل، وإزالة النجاسة وغير ذلك.

ويوجبون ما أسقط، كما أوجبوا من القوانين ما لم يوجبه الله وأنبياؤه.

والمسلمون وصفوا الرب بما يستحقه من صفات الكمال، ونزهوه عن النقص، وأن يكون له مثل، فوصفوه بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، مع علمهم أنه ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

وقالوا: ألا له الخلق والأمر، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره، بل الدين كله له، هو المعبود المطاع الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولا طاعة لأحد إلا طاعته، وهو ينسخ ما ينسخه من شرعه، وليس لغيره أن ينسخ شرعه.

واليهود بالغوا في اجتناب النجاسات، وتحريم الطيبات، والنصارى استحلوا الخبائث، وملابسة النجاسات، والمسلمون أحل الله لهم الطيبات خلافا لليهود، وحرم عليهم الخبائث، خلافا للنصارى.

واليهود يبالغون في طهارة أبدانهم مع خبث قلوبهم والنصارى يدعون أنهم يطهرون قلوبهم مع نجاسة أبدانهم، والمسلمون يطهرون أبدانهم وقلوبهم جميعا.

والنصارى لهم عبادات وأخلاق، بلا علم ومعرفة ولا ذكاء، واليهود لهم ذكاء وعلم ومعرفة بلا عبادات ولا أخلاق حسنة.

والمسلمون جمعوا بين العلم النافع، والعمل الصالح، بين الزكا والذكاء، فإن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فالهدى

يتضمن العلم النافع، ودين الحق يتضمن العمل الصالح ليظهره على الدين كله، والظهور يكون بالعلم واللسان ليبين أنه حق وهدى، ويكون باليد والسلاح ليكون منصورا مؤيدا، والله أظهره هذا الظهور فهم أهل الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، غير المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق، ولا يعملون به، كاليهود، ولا الضالين الذين يعملون ويعبدون ويزهدون بلا علم كالنصارى.

واليهود قتلوا النبيين، والذين يأمرون بالقسط من الناس، والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم.

والمسلمون اعتدلوا فآمنوا بالله وملائكته وكتبه، ورسله، ولم يفرقوا بين أحد من رسله وآمنوا بجميع النبيين، وبكل كتاب أنزله الله فلم يكذبوا الأنبياء ولا سبوهم ولا غلوا فيهم ولا عبدوهم، وكذلك أهل العلم والدين لا يبخسونهم حقهم ولا غلوا فيهم.

واليهود يغضبون لأنفسهم وينتقمون، والنصارى لا يغضبون لربهم ولا ينتقمون.

والمسلمون المعتدلون المتبعون لنبيهم يغضبون لربهم ويعفون عن حظوظهم كما في الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها – أنها قالت: «ما ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده خادما له، ولا امرأة ولا شيئا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه، إلا أن تنتهك محارم الله فينتقم لله» .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -، قال: «خدمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عشر سنين، فما قال لي: أف قط، وما قال لي لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لم لم تفعله؟» وكان بعض أهله إذا عاتبني على شيء يقول:

" دعوه فلو قضي شيء لكان ".

هذا في حق نفسه، وأما في حدود الله، ففي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها -: « (أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، (فقالوا من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) فكلمه فيها أسامة، فقال: يا أسامة، أتشفع في حد من حدود الله، إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدود، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) » .

وقد وصف الله أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأنهم أنفع الأمم للخلق، فقال: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون} [آل عمران: 110] .

ففي أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد ما لم يوجد مثله في الأمتين.

[فصل: رد دعوى النصارى أن القرآن نفى عنهم الشرك]

ثم قالوا: وكذلك جاء في هذا الكتاب يقول: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون} [المائدة: 82] .

فذكر القسيسين والرهبان، لئلا يقال: إن هذا قيل عن غيرنا، ودل بهذا على أفعالنا وحسن نياتنا، ونفى عنا اسم الشرك بقوله اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا، والذين قالوا إنا نصارى أقربهم مودة.

والجواب أن يقال: تمام الكلام: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين} [المائدة: 83] فهو سبحانه لم يعد بالثواب في الآخرة إلا لهؤلاء الذين آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - الذين قال فيهم: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين} [المائدة: 83] .

والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الشهداء الذين قال فيهم: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} [البقرة: 143] .

ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله: {فاكتبنا مع الشاهدين} [آل عمران: 53] .

قال مع محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته.

وكل من شهد للرسل بالتصديق فهو من الشاهدين كما قال الحواريون: {ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين} [آل عمران: 53] .

وقال - تعالى -: {يأأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون} [الحج: 77] (77) {وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس} [الحج: 78] .

وأما قوله في أول الآية: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى} [المائدة: 82] .

فهو كما أخبر - سبحانه وتعالى - فإن عداوة المشركين واليهود للمؤمنين أشد من عداوة النصارى، والنصارى أقرب مودة لهم، وهذا معروف من أخلاق اليهود، فإن اليهود فيهم من البغض والحسد والعداوة ما ليس في النصارى.

وفي النصارى من الرحمة والمودة ما ليس في اليهود، والعداوة أصلها البغض فاليهود كانوا يبغضون أنبياءهم، فكيف ببغضهم للمؤمنين.

وأما النصارى فليس في الدين الذي يدينون به عداوة ولا بغض لأعداء الله الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملة إبراهيم، المؤمنين بجميع الكتب والرسل؟

وليس في هذا مدح للنصارى بالإيمان بالله، ولا وعد لهم بالنجاة من العذاب، واستحقاق الثواب وإنما فيه أنهم أقرب مودة، وقوله - تعالى -: {ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون} [المائدة: 82] .

أي بسبب هؤلاء، وسبب ترك الاستكبار يصير فيهم من المودة ما يصيرهم بذلك خيرا من المشركين وأقرب مودة من اليهود والمشركين.

ثم قال - تعالى -: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق} [المائدة: 83] .

فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان ووعدهم بثواب الآخرة، والضمير وإن عاد إلى المتقدمين، فالمراد جنس المتقدمين لا كل واحد منهم، كقوله - تعالى -:{الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} [آل عمران: 173] .

وكأن جنس الناس، قالوا لهم: إن جنس الناس، قد جمعوا ويمتنع العموم، فإن القائل من الناس، والمقول له من الناس، والمقول عنه من الناس، ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجميع الناس: إنه قد جمع لكم جميع الناس.

ومثل ذلك قوله - تعالى -: {وقالت اليهود عزير ابن الله} [التوبة: 30] .

أي جنس اليهود قال هذا، لم يقل هذا كل يهودي، ومن هذا أن في النصارى من رقة القلوب التي توجب لهم الإيمان ما ليس في اليهود، وهذا حق، وأما قولهم: ونفى عنا اسم الشرك، فلا ريب أن الله فرق بين المشركين، وأهل الكتاب في عدة مواضع، ووصف من أشرك منهم في بعض المواضع، بل قد ميز بين الصابئين والمجوس وبين المشركين في بعض المواضع وكلا الأمرين حق، فالأول كقوله - تعالى -:

{لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين} [البينة: 1] .

وقوله - تعالى -: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا} [الحج: 17] .

وقال - تعالى -: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا} [المائدة: 82] .

وأما وصفهم بالشرك ففي قوله: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] .

فنزه نفسه عن شركهم، وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك، فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد، والنهي عن الشرك، كما قال - تعالى -: {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} [الزخرف: 45] .

وقال - تعالى -: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: 36] .

وقال - تعالى -: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: 25] .

فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه ومن قبله من الرسل إنما دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وفي التوراة من ذلك ما يعظم وصفه، لم يأمر أحد الأنبياء بأن يعبد ملك ولا نبي ولا كوكب ولا وثن، ولا أن تسأل ولا تطلب الشفاعة إلى الله من ميت ولا غائب، لا نبي ولا ملك، فلم يأمر أحد من الرسل بأن يدعو الملائكة، ويقول: اشفعوا لنا إلى الله ولا يدعو الأنبياء والصالحين الموتى والغائبين، ويقول: اشفعوا لنا إلى الله ولا تصور تماثيلهم لا مجسدة ذات ظل، ولا مصورة في الحيطان، ولا بجعل دعاء تماثيلهم وتعظيمها قربة وطاعة، سواء قصدوا دعاء أصحاب التماثيل، وتعظيمهم والاستشفاع بهم، وطلبوا منهم أن يسألوا الله - تعالى -، وجعلوا تلك التماثيل تذكرة بأصحابها، أو قصدوا دعاء التماثيل ولم يستشعروا أن المقصود دعاء أصحابها، كما فعله جهال المشركين، وإن كان في هذا جميعه إنما يعبدون الشيطان وإن كانوا لا يقصدون عبادته، فإنه قد يتصور لهم في صورة ما يظنون أنها صورة الذي يعظمونه، ويقول: أنا الخضر، أنا المسيح، أنا جرجس، أنا الشيخ فلان.

كما قد وقع هذا لغير واحد من المنتسبين إلى المسلمين والنصارى، وقد يدخل الشيطان في بعض التماثيل فيخاطبهم، وقد يقضي بعض حاجاتهم، فبهذا السبب وأمثاله ظهر الشرك قديما وحديثا، وفعل النصارى وأشباههم ما فعلوه من الشرك.

وأما الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - فنهوا عن هذا كله ولم يشرع أحد منهم شيئا من ذلك، والنصارى لا يأمرون بتعظيم الأوثان المجسدة، ولكن بتعظيم التماثيل المصورة، فليسوا على التوحيد المحض، وليسوا كالمشركين الذين يعبدون الأوثان ويكذبون الرسل، فلهذا جعلهم الله نوعا من غير المشركين تارة، وذمهم على ما أحدثوه من الشرك تارة.

وإذا أطلق لفظ الشرك فطائفة من المسلمين تدخل فيه جميع الكفار من أهل الكتاب، وغيرهم كقوله - تعالى -: {ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا} [البقرة: 221] .

فمن الناس من يجعل اللفظ عاما لجميع الكفار، ولا سيما النصارى ثم من هؤلاء من ينهى عن نكاح هؤلاء، كما كان عبد الله بن عمر، ينهى عن نكاح النصرانية، ويقول: لا أعلم شركا أعظم من أن تقول: إن عيسى ربها.

وهذا قول طائفة من الشيعة وغيرهم.

وأما جمهور السلف والخلف، فيجوزون نكاح الكتابيات ويبيحون ذبائحهم لكن إذا قالوا لفظ المشركين عام قالوا: هذه الآية

مخصوصة أو منسوخة بآية المائدة وهو قوله - تعالى -: {وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان} [المائدة: 5] .

وطائفة أخرى تجعل لفظ المشركين إذا أطلق لا يدخل فيه أهل الكتاب.

وأما كون النصارى فيهم شرك كما ذكره الله فهذا متفق عليه بين المسلمين، كما نطق به القرآن كما أن المسلمين متفقون على أن قوله: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى} [المائدة: 82] .

أن النصارى لم يدخلوا في لفظ الذين أشركوا كما لم يدخلوا في لفظ اليهود.

وكذلك قوله: {لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين} [البينة: 1] .

ونحو ذلك، وهذا لأن اللفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد ما لا يدخل فيه عند الاقتران بغيره، كلفظ المعروف والمنكر في قوله - تعالى -:

{يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر} [الأعراف: 157] .

فإنه هنا يتناول جميع ما أمر الله به فإنه معروف، وجميع ما نهى عنه فإنه منكر.

وفي قوله: {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس} [النساء: 114] .

فهنا قرن الصدقة بالمعروف والإصلاح بين الناس.

وكذلك المنكر في قوله: {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} [العنكبوت: 45] .

قرن الفحشاء بالمنكر، وقوله: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون} [النحل: 90] .

قرن الفحشاء بالمنكر والبغي.

وكذلك لفظ البر والإيمان، إذا أفرده أدخل فيه الأعمال الصالحة والتقوى، كقوله: {ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} [البقرة: 177] .

وقال: {إن الأبرار لفي نعيم} [الانفطار: 13] .

وقوله: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون} [الأنفال: 2] .

وقد يقرنه بغيره كقوله: {وتعاونوا على البر والتقوى} [المائدة: 2] .

وقوله: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات} [البقرة: 277] .

وكذلك لفظ الفقير، والمسكين إذا أفرد أحدهما دخل فيه معنى الآخر.

وقد يجمع بينهما في قوله: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين} [التوبة: 60] .

فيكونان هنا صنفين، وفي تلك المواضع صنف واحد، فكذلك لفظ الشرك في مثل قوله: {إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا} [التوبة: 28] .

يدخل فيه جميع الكفار، أهل الكتاب وغيرهم عند عامة العلماء لأنه أفرده وجرده، وإن كانوا إذا قرن بأهل الكتاب كانا صنفين.

وفي صحيح مسلم عن بريدة أن النبي - صلى الله عليه وسلم -: «كان إذا أرسل أميرا على سرية، أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وأوصاه بمن معه من المسلمين خيرا، وقال لهم: اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث - فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم - ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك إلى ذلك، فاقبل منهم، وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المسلمين وليس لهم في الغنيمة والفيء نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم» .

وهذا الحديث كان بعد نزول آية الجزية، وهي إنما نزلت عام تبوك لما قاتل النبي - صلى الله عليه وسلم - النصارى بالشام، واليهود باليمن.

وهذا الحكم ثابت في أهل الكتاب باتفاق المسلمين، كما دل عليه الكتاب والسنة، ولكن تنازعوا في الجزية: هل تؤخذ من غير أهل الكتاب؟ وهذا مبسوط في موضعه.

[فصل: رد دعوى النصارى أن القرآن سوى بين جميع الأديان]

قالوا وقال في سورة البقرة: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: 62] .

فساوى بهذا القول بين سائر الناس: اليهود والمسلمين وغيرهم.

والجواب أن يقال:

أولا: لا حجة لكم في هذه الآية على مطلوبكم، فإنه يسوي بينكم وبين اليهود والصابئين، وأنتم مع المسلمين متفقون على أن اليهود كفار من حين بعث المسيح إليهم فكذبوه.

وكذلك الصابئون من حين بعث إليهم رسول فكذبوه، فهم كفار. فإن كان في الآية مدح لدينكم الذي أنتم عليه بعد مبعث محمد ففيها مدح دين اليهود أيضا، وهذا باطل عندكم وعند المسلمين.

وإن لم يكن فيها مدح اليهود بعد النسخ والتبديل فليس فيها مدح لدين النصارى بعد النسخ والتبديل.

وكذلك يقال لليهودي، إن احتج بها على صحة دينه.

وأيضا، فإن النصارى يكفرون اليهود، فإن كان دينهم حقا لزم كفر اليهود، وإن كان باطلا لزم بطلان دينهم فلابد من بطلان أحد الدينين فيمتنع أن تكون الآية مدحتهما، وقد سوت بينهما.

فعلم أنها لم تمدح واحدا منهما بعد النسخ والتبديل، وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمحمد - صلى الله عليه وسلم -، والذين هادوا الذين اتبعوا موسى - عليه السلام -، وهم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل، والنصارى الذين اتبعوا المسيح - عليه السلام -، وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل.

والصابئين وهم الصابئون الحنفاء، كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ.

فإن العرب من ولد إسماعيل، وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذي بناه إبراهيم وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن غير دينه بعض ولاة خزاعة، وهو عمرو بن لحي، وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك، وتحريم ما لم يحرمه الله، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه - أي أمعاءه - في النار وهو أول من بحر البحيرة، وسيب السوائب، وغير دين إبراهيم» .

وكذلك بنو إسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين إبراهيم كانوا من السعداء المحمودين، فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم، ونحوهم هم الذين مدحهم الله تعالى:

{إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: 62] .

فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله، ولا باليوم الآخر وعمل صالحا، كما قال - تعالى -:{قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: 29] .

وقد تقدم أنه كفر أهل الكتاب الذين بدلوا دين موسى والمسيح، وكذبوا بالمسيح أو بمحمد - صلى الله عليه وسلم - في غير موضع، وتلك آيات صريحة، ونصوص كثيرة، وهذا متواتر معلوم بالاضطرار من دين محمد - صلى الله عليه وسلم -.

ولكن هؤلاء النصارى سلكوا في القرآن ما سلكوه في التوراة والإنجيل، يدعون النصوص المحكمة الصريحة البينة الواضحة التي لا تحتمل إلا معنى واحدا، ويتمسكون بالمتشابه المحتمل، وإن كان فيه ما يدل على خلاف مرادهم، كما قال - تعالى - فيهم وفي أمثالهم:

{هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب} [آل عمران: 7] .

[فصل: رد دعواهم أنه لا يليق بهم أن يتركوا كلمة الله عندهم التي عظمها القرآن]

قالوا: ثم مدح قرابيننا وتوعدنا إن أهملنا ما معنا وكفرنا بما أنزل إلينا أن يعذبنا عذابا أليما لم يعذبه أحدا من العالمين بقوله ذلك في سورة المائدة: {إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين} [المائدة: 112] (112) {قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين} [المائدة: 113] (113) {قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك

وارزقنا وأنت خير الرازقين} [المائدة: 114] (114) {قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين} [المائدة: 115] .

فالمائدة هي القربان المقدس الذي يتقرب به في كل قداس.

والجواب أن يقال: هذا كذب ظاهر على القرآن في هذا الموضع، كما كذبتم عليه في غير هذا الموضع، فإنه ليس في الآيات ذكر قرابينكم البتة، وإنما فيه ذكر المائدة التي أنزلها الله - تعالى - في عهد المسيح - عليه السلام -، وقولهم: المائدة هي القربان الذي يتقرب به في كل قداس، هو أولا: قول لا دليل عليه، وثانيا: هو قول معلوم الفساد بالاضطرار من دين المسلمين الذين نقلوا هذا القرآن عن محمد صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه، فإنهم متفقون على أن المائدة مائدة أنزلها الله من السماء على عهد المسيح - عليه السلام -، وقصتها مشهورة في عامة الكتب تعرفها العامة والخاصة، ولم يقل أحد إنها قرابين النصارى، وليس في لفظ الآية ما يدل على ذلك، بل يدل على خلاف ذلك، فإن الآية تبين أن المائدة منزلة من السماء وقرابينهم هي عندهم في الأرض لم تنزل من السماء.

وفي الآية أن عيسى قال: {اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين} [المائدة: 114] (114) {قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين} [المائدة: 115] .

وفي أول الكلام: {إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين} [المائدة: 112] (112) {قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين} [المائدة: 113] .

فأين هذا من قرابينهم الموجودة اليوم؟

[فصل: تكريم الإسلام للمسيح عبد الله ورسوله]

قالوا: ولما تقدم به القول لأنه غير لائق عند ذوي الألباب أن نهمل روح القدس وكلمة الله الذي شهد لهما في هذا الكتاب بالعظائم، فقال عن كلمة الله: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا} [النساء: 159] .

والجواب: إن الله - تعالى - لم يبعث محمدا - صلى الله عليه وسلم - بإهمال ما يجب من حق المسيح - عليه السلام -، بل أمره بالإيمان بالمسيح وبما جاء به، كما أمره بالإيمان بموسى وبما جاء به وكما أمر المسيح بالإيمان بموسى وبما جاء به ولكنه أمر بإهمال ما ابتدع من الدين الذي لم يشرعه الله على لسان المسيح - عليه السلام -، وما نسخه الله من شرعه على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم -، فيهمل المبدل والمنسوخ كما أمر الله المسيح أن يهمل ما ابتدعته اليهود من الدين الذي لم يشرعه، وما نسخه من شرع موسى.

فكما أمر المسيح أن يهمل المبدل والمنسوخ من التوراة التي جاء بها موسى - عليه السلام -، ولم يكن في ذلك إهمال لما يجب من حق التوراة وموسى - عليه السلام -، فكذلك إذا أهمل المبدل والمنسوخ من دين أهل الإنجيل، لم يكن في ذلك إهمال لما يجب من حق الإنجيل والمسيح، بل ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - يتضمن الإيمان بجميع الكتب والرسل، وأن لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون كما قال - تعالى -: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [البقرة: 136] .

والنصارى كاليهود، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، فأيما هو اللائق عند أولي الألباب، أن نؤمن بجميع كتب الله ورسله، أو نؤمن ببعض ونكفر ببعض وأيما هو اللائق عند أولي الألباب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، ونعبده بما شرعه على لسان رسوله، أو نبتدع من الشرك والعبادات المبتدعة ما لم ينزل به الله كتابا ولا بعث به رسولا ونضاهي المشركين عباد الأوثان؟

قال - تعالى -: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [التوبة: 30] .

وقال - تعالى -: {قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 64] .

فالمسلمون لم يهملوا روح القدس، وكلمة الله، وقد قال - تعالى - عن كلمة الله: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} [النساء: 159] .

، بل هم الذين اتبعوا دينه ودين الرسل قبله فإن دين الأنبياء - عليهم السلام - جميعهم واحد كما ثبت في الصحيحين عن النبي

- صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد.

وقد قال - تعالى -: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} [الشورى: 13] .

فدين المرسلين كلهم دين واحد، ويتنوع شرعهم ومناهجهم كتنوع شريعة الرسول الواحد، فإن دين المسيح هو دين موسى، وهو دين الخليل قبلهما، ودين محمد بعدهما، مع أن المسيح كان على شريعة التوراة ثم نسخ الله على لسانه ما نسخ منها وهو قبل النسخ وبعده دينه دين موسى ولم يهمل دين موسى.

كذلك المسلمون هم على دين المسيح وموسى وإبراهيم وسائر الرسل وهم الذين اتبعوا المسيح ولهذا جعلهم الله فوق النصارى إلى يوم القيامة.

والنصارى الذين بدلوا دين المسيح وكذبوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - بريئون من دين المسيح والمسيح بريء منهم، كبراءة موسى ممن بدل وغير دينه وكذب المسيح.

والمسلمون أشد تعظيما للمسيح - عليه السلام - واتباعا له بالحق ممن بدل دينه وخالفه من النصارى، فإن المسلمين يصدقونه في كل ما أخبر به عن نفسه ولا يحرفون ما قاله عن مواضعه، ولا يفسرون كلامه بغير مراده، وكلام غيره من الأنبياء كما فعلت النصارى، فإنهم نقلوا عن المسيح أنه قال عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس، وهذا إذا قاله المسيح فإنه يفسر بلغته وعادته في خطابه وعادة سائر الأنبياء، (وليس في كلام المسيح ولا في كلام سائر الأنبياء ولا كلام غيرهم أن كلمة الله) القائمة بذاته سبحانه و - تعالى - تسمى ابنا، ولا روح قدس، ولا تسمى صفته القديمة ابنا، ولا روح قدس، ولا يوجد قط في كلام الأنبياء اسم الابن واقعا إلا على مخلوق.

والمراد في تلك اللغة أنه مصطفى محبوب لله، كما ينقلونه أنه قال لإسرائيل: (أنت ابني بكري) ، ولداود (أنت ابني وحبيبي) ، وأن المسيح قال للحواريين (أبي وأبيكم) ، فجعله أبا للجميع، وهم كلهم مخلوقون فيكون اسم الابن واقعا على المسيح الذي هو ناسوت مخلوق، فعمد هؤلاء الضلال فجعلوا اسم الابن واقعا على اللاهوت، قديم أزلي مولود غير مخلوق.

وزعموا أن الابن يراد به الابن بالوضع، وهو المخلوق، وهو الابن بالطبع، وهو القديم الأزلي المولود غير المخلوق، وهذا التفريق هم أحدثوه وابتدعوه ولا يوجد قط في كلام المسيح ولا غيره أنه سمى القديم الأزلي ابنا، ولا جعل له ابنا قديما مولودا غير مخلوق، ولا سمى شيئا من صفات الله قط ابنا.

وكذلك لفظ روح القدس موجود في غير موضع من كلام الأنبياء- عليهم السلام - لا يراد بهذا قط حياة الله ولا صفة قائمة به.

وإنما يراد به ما أيد الله به الأنبياء والأولياء، ويجعله في قلوبهم من هداه ونوره ووحيه وتأييده، ومما ينزل بذلك من الملائكة، وهذا الذي تسميه الأنبياء روح القدس لم يختص به المسيح، باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل قد أنزله على غيره من الأنبياء والصالحين كما هو موجود في كتبهم: إن روح القدس كانت في داود وغيره، وكانت أيضا عندهم في الحواريين.

وهكذا خاتم الرسل، كان يقول لحسان بن ثابت: «إن روح القدس معك ما دمت تدافع عن نبيه» ، ويقول «اللهم أيده بروح القدس» .

وقد قال الله - تعالى - عن عباده المؤمنين: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22] .

فروح القدس لا اختصاص للمسيح - عليه السلام - بها، بل ما يفسر به اسم الابن واسم روح القدس، وغير ذلك مما وصف به المسيح فهو مشترك بينه وبين غيره من الرسل، وإذا فسروا الحلول بظهور نور الله وعلمه وهداه في الأنبياء فهذا حق وهو مشترك بين المسيح وغيره.

فأما نفس ذات الله فلم تحل في أحد من البشر.

والمسلمون مع شهادتهم للمسيح بأنه عبد الله ورسوله يقولون: إنه مؤيد منصور عصمه الله من أعدائه وطهره منهم، ولم يسلطهم عليه.

والنصارى يدعون أن اسم المسيح اسم اللاهوت والناسوت وأنه إله تام وإنسان تام، وهذا يمتنع شرعا وعقلا ثم يصفونه بالصفات المتناقضة، يصفونه بأن طائفة من أشرار اليهود وضعوا الشوك على رأسه وبصقوا في وجهه، وأهانوه وصلبوه وفعلوا به ما لا يفعل بأخس الناس، ويقولون مع هذا: إنه رب السماوات والأرض وما بينهما.

[فصل: نسخ شرع التوراة وأن ما جاء به المسيح حق]

قالوا ثم شهد لقرابيننا وذبائحنا أنها مقدسة مقبولة لدى الله من كتب اليهود التي في أيديهم يومنا هذا المنزلة من الله على أفواه الأنبياء المرسلين.

قال أشعيا: (قال الله: إني أعرف بني إسرائيل وقلوبهم القاسية الخبيثة فإذا أنا ظهرت إلى الأمم فنظروا إلى كرامتي أقيم منها أنبياء وأبعث منهم مخلصين يخلصون الأمم من البلدان القاصية الذين لم يسمعوا بسماعي، ولم يعرفوا من قبل كرامتي، ويكون اسمي فيهم، ويجلبون إخوتهم من الأمم كلها، ويجيبون قرابين الله على الدواب والمراكب إلى جبل قدسي بيت المقدس، فيقربون لي القرابين بالسميد، كما كان بنو إسرائيل من قبل وكذلك باقي الأمم وتقرب القرابين بين يدي، فهم وزرعهم إلى الأبد، ويحجون في كل سنة، وفي كل شهر، ومن سنة إلى سنة إلى بيت المقدس، بيت الله ويقربون لله ربهم فيه قرابين زكية نقية، ينظرون إلى الأمة الخبيثة الماردة: بني إسرائيل، لا يبلى حزنها ولا ينقطع، بلاؤها إلى الأبد) .

وقال دانيال النبي - عليه السلام -: (وسيأتي على شعبك وقرية قدسك سبعون سابوعا، وتنقضي الذنوب، وتفنى الخطايا وغفران الإثم، ويؤتى بالحق الذي لم ينزل من قبل، وتتم نبوات الأنبياء وكتب الرسل، وتبيد قرية القدس وتخرب مع مجيء المسيح، ويفنى الميثاق العتيق من الناس، ومن بعد أسبوع ونصف تبطل ذبائح اليهود وقرابينهم، وتصير على كف النجاسة والفساد إلى انقضاء الدهر) .

وقال ميخا النبي - عليه السلام -: (قال الله في آخر الزمان إذا أتى المسيح يدعو الأمم المبددة، ويضعهم شعبا واحدا، ويبطل قتال بني إسرائيل وسلاحهم وقرابينهم إلى الأبد) .

وقال عاموص النبي: (لا تذبحوا العجول بعد فإن الرب سيأتي صهيون ويحدث وصية جديدة طاهرة من الخبز النقي والخمر الزكي ويصير بنو إسرائيل مطرودين) .

والجواب من وجوه:

أحدها: أن ما يحتجون به من النقل عن الأنبياء - صلوات الله عليهم - يحتاجون فيه إلى أربع مقدمات: إلى أن تعلم نبوة المنقول عنه، والى أن يعلم لفظه الذي تكلم به، وإلى أن يعلم ما ذكروه ترجمة صحيحة عنده، فإن أولئك الأنبياء لم يتكلموا بالعربية، بل ولا بالرومية والسريانية واليونانية، وإنما تكلموا بالعبرية، كالمسيح - عليه السلام -.

والرابع: أن يعلم أن ما ذكروه من كلام الأنبياء دليل على ما ادعوه من قبول قرابينهم في هذا الزمان، ونحن في هذا المقام نقتصر على منازعتهم في هذه المقدمة، فليس فيما ذكروه دليل على مدح قرابينهم وذبائحهم بعد التبديل والنسخ، ولكن غايتها أن يدل على مدحها قبل النسخ والتبديل، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون.

الوجه الثاني: أن هذه النعوت المذكورة عن " أشعيا " وغيره من الأنبياء لا توافق ما عليه النصارى، فإن النصارى لا يقربون القرابين بالسميد، كما كان بنو إسرائيل من قبل، ولا يحجون في كل شهر ومن سنة إلى سنة إلى بيت المقدس بيت الله، ويقربون لله ربهم فيه قرابين نقية زكية، وإنما يحجون إلى قمامة الخارجة عن بيت الله الذي كانت الأنبياء تقصده وتصلي فيه، فإن الأنبياء إنما كانوا يصلون في بيت المقدس، ويزورون بيت المقدس نفسه، وأما قمامة فليس لها ذكر في كتب الأنبياء - عليهم

السلام -، بل إنما ظهرت قمامة في زمن قسطنطين الملك، لما أظهرتها أمه هيلانة الحرانية لما جاءت بيت المقدس، واختارت من اليهود ثلاثة، وسألتهم أن يدلوها على موضع الصليب فامتنعوا، فعاقبتهم بالحبس والجوع، فدلوها على موضعه في مزبلة فاستخرجوه، وجعلته في غلاف من ذهب وحملته، وبنت كنيسة القمامة في موضعه، كما ذكر ذلك ابن البطريق في تاريخه، وغيره، كما سيأتي، وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاث مائة سنة.

ومن ذلك الوقت أظهروا الصليب، وجعلوا " عيد الصليب "، ولم يشرع ذلك لا المسيح ولا الحواريون، وهذا مذكور في كتبهم متفق عليه بين علمائهم، كما قد ذكر في موضع آخر، ولا هم يأتون بقرابين لله على الدواب والمراكب إلى جبل قدس بيت الله المقدس.

الوجه الثالث: أن ما ذكروه عن " دانيال " لا يتضمن مدح دينهم بعد النسخ والتبديل، وإنما يتضمن أن الله يبعث المسيح - عليه السلام - بالحق الذي لم يزل من قبل، وهو الدين الذي بعث به الرسل قبله، وهو عبادة الله وحده وأن بيت المقدس يخرب مع مجيء المسيح، ويفنى الميثاق العتيق، يعني ما نسخ من شرع التوراة، وأنه يبطل ذبائح اليهود وقرابينهم.

وهذا كله إنما يدل على نسخ شرع التوراة، وبطلان دولة اليهود ويدل على أن المسيح جاء بالحق، ومن اتبع المسيح كان على الحق، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون فإنهم متفقون على أن من كان متمسكا بما أمر به المسيح فإنه من عباد الله الصالحين ولكن من جاء بشرع لم يأت به المسيح أو أراد اتباع شرعه بعد النسخ فهو بمنزلة اليهود الذين نسخ الله ما نسخه من شرعهم وأزال دولتهم وكذلك فعل بالنصارى لما بعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - أزال دولتهم عن وسط الأرض وخيارها وحيث بعثت الأنبياء كأرض الشام ومصر والجزيرة، والعراق، وأرمينية، وأذربيجان، وأجلاهم إلى طرفي الأرض من جهة الشمال والجنوب، وصار الذين في وسط الأرض منهم أحسن أحوالهم إذا لم يسلموا أن يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وكذلك ما ذكروه عن " ميخا " و " عاموس " إنما يدل على مجيء المسيح - عليه السلام -، وبطلان ما نسخه الله وأبطله من شرع اليهود وملكهم ولا يدل على صحة دين النصارى الذي لم يشرعه المسيح - عليه السلام - ولا على صحته بعد أن نسخ بشرع محمد - صلى الله عليه وسلم - نسخا هو أبلغ من نسخ بعض شرع موسى بشرع المسيح - عليه السلام -.

هذا إذا سمى الشرع المؤقت بغاية مجهولة نسخا، فإن الأول لم يبشر بالثاني.

وأما إذا كان الأول بشر بالثاني، وكانت شريعة الأول مؤقتة إلى مجيء الثاني لم يسم ذلك نسخا، فالمسيح ومحمد - صلى الله عليهما وسلم - لم ينسخا شيئا، بل كان شرع موسى إلى مجيء المسيح، وشرع المسيح إلى مجيء محمد - صلى الله عليهما وسلم وأما ما حكي عن أشعيا عن الله أنه قال: فإذا ظهرت إلى الأمم فهذا قد يحتج به النصارى وبأمثاله من كلام الأنبياء - عليهم السلام - على الحلول الذي ابتدعوه، وهو باطل فإن مثل هذا اللفظ مذكور في كتب أهل الكتاب في غير موضع ولا يراد بشيء منها حلول ذات الله في أحد من البشر، كما ذكر في التوراة أن الله عز وجل استعلن لإبراهيم وغيره، وأن الله يأتي من طور سيناء، ويشرف من ساعير، ويستعلن من جبال فاران.

ومعلوم عند جميع أهل الملل أن الله سبحانه و - تعالى - لم يحل في موسى وغيره لما كلمه، ولا يحل في شيء من جبال فاران مع إخباره أنه استعلن منها.

وقد قال - تعالى -: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} [التوبة: 33] .

فأظهره بالعلم والحجة والبيان، وأظهره باليد والسنان، كما قال - تعالى -: {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء} [النور: 35] .

قال أبي بن كعب وغيره: مثل نوره في قلب المؤمن.

وقال - تعالى -: {ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به} [الحديد: 28] .

وقال - تعالى -: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا} [الشورى: 52] .

وفي الترمذي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ: {إن في ذلك لآيات للمتوسمين} [الحجر: 75] » .

قال الترمذي: حديث حسن، وقد جاء عن بعض السلف أن قلوب المؤمنين تضيء لأهل السماوات كما تضيء الكواكب لأهل الأرض.

والمخلوق الذي تظهر محبته وذكره وطاعته في بعض البلاد، يقال فلان قد ظهر في هذه الأرض، فإذا ظهر ذكر الله وذكر أسمائه وصفاته وتوحيده وآياته وعبادته حتى امتلأت القلوب بذلك بعد أن كانت ممتلئة بظلمة الكفر والشرك، كان ذلك مما أخبر به من ظهوره، وهذا أعظم ما يكون في بيوته التي يعبد فيها ويذكر فيها اسمه.

ولهذا لما ذكر - تعالى - آية النور وقال: {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم} [النور: 35] .

قال عقب ذلك: {في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب} [النور: 36] .

وكذلك ما في الكتب من ظهوره ببيت المقدس فهو كظهوره بطور سيناء وبجبل فاران، ومع هذا فلم يره موسى ولا غيره، لا مجردا ولا حالا في غيره وقد أخبر المسيح أنه لم يره أحد، كما أخبر غيره وذلك نفي عام يوجب أنه لا يرى لا مجردا، ولا حالا في دار الدنيا كما قد بسط هذا في موضع آخر ومعلوم أن ملابسة الشيء أبلغ من رؤيته فإذا كان الرب - تعالى - لا يراه ناسوت فأن لا يلابسه ناسوت بطريق الأولى والأحرى والنصارى يزعمون أنه اتحد هو والناسوت وهذا أعظم من الرؤية.

[فصل: شهادة كتب اليهود لعيسى بالنبوة شهادة لمحمد]

قالوا: فماذا يكون أعظم من هذا برهانا، وأقوى شهادة، إذ هذه كتب أعدائنا المخالفين لديننا، وهم يقرون بذلك ويقرءونه في كنائسهم، ولم ينكروا منه كلمة واحدة ولا حرفا واحدا.

والجواب: أن الأمر إذا كان على ما قالوه من ثبوت هذه الكلمات عن بعض الأنبياء فليس فيها مدح لدينهم بعد التبديل، فكيف بعد النسخ والتبديل؟ وإنما فيها إخبار بزوال ملك بني إسرائيل، وبنسخ ما نسخ من شرعهم بمجيء المسيح - عليه السلام -، وهذا دليل على نبوة المسيح وصدقه وهذا مما اتفق عليه المسلمون.

والمسيح - عليه السلام - عندهم كما أخبر الله عنه، بقوله - تعالى - لمريم: {إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين - ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين} [آل عمران: 45 - 46] .

وأما قولهم: إن هذا وغيره موجود في كتب أعدائنا اليهود.

فيقال لهم لا ريب أن اليهود يخالفونكم في تفسير الكتب، فأنتم تفسرونها بشيء، وهم يفسرونها بشيء آخر وقد يكون كلا التفسيرين باطلا وحينئذ فيقال لكم كما أن كتب الأنبياء شاهدة للمسيح ولدينه وإن خالفتكم اليهود في تفسيرها، فكذلك هي شاهدة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته، وإن خالف أهل الكتاب في تفسيرها كما قد بين الله في كتب الأنبياء صفة محمد وأمته في غير موضع.

والواجب في الكتب إذا تنازعت الأمم في تفسيرها أن يبين الحق الذي يقوم عليه الدليل الشرعي والعقلي، وحينئذ تبين أنكم فسرتم كتب الله بأشياء تخالف مراد الله في أمر التثليث والاتحاد وغيره، كما فعلت اليهود بتفسير الكتب، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

[فصل: رفض دعوى النصارى أن محمدا لم يرسل إليهم مع تشككه فيما جاء به]

قالوا: وأيضا في قول هذا الإنسان مما أتى في كتابه حيث اتبع القول أنه لم يرسل إلينا مع تشككه فيما أتى به في هذا الكتاب في سورة سبأ حيث يقول: {وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} [سبأ: 24] .

وأيضا في سورة الأحقاف يقول: {وما أدري ما يفعل بي ولا بكم} [الأحقاف: 9] .

والجواب: أن نقلهم عنه أنه قال: إنه لم يرسل إليهم كذب ظاهر عليه، فإن كتابه مملوء بدعوتهم وأمره لهم بالإيمان به واتباعه، بل وبعموم رسالته إلى جميع الناس، بل وإلى الجن والإنس، وليس فيه قط أنه لم يرسل إلى أهل الكتاب، بل فيه التصريح بدعوة أهل الكتاب في غير موضع كقوله - تعالى -: {قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 64] .

وقد كتب النبي بهذه الآية إلى قيصر ملك النصارى الذي اسمه هرقل بالشام، وقد تقدم ذكر ذلك، وتقدم أيضا أن قوله - تعالى -:

{لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون} [يس: 6] .

يقتضي أنه لم ينذر الأميين، وليس فيه أنه لا ينذر غيرهم، كما أن قوله: {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: 214] .

يقتضي إنذار قومه ولا ينافي أن ينذر غيرهم من العرب كما أن قوله في قريش: {فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف} [قريش: 3] .

لا يمنع أن يكون غير قريش مأمورين بعبادة رب هذا البيت، بل أمر الله جميع الثقلين: الجن والإنس أن يعبدوا رب هذا البيت.

فإن قيل: فقد سكت عن ما سوى الأميين في هذا، فيشعر بالنفي بدليل الخطاب الذي يسمى مفهوم المخالفة، قيل ذاك إنما يدل إذا

لم يكن في التخصيص فائدة سوى الاختصاص بالحكم، ولم يكن هنا تصريح بأن حكم المسكوت كحكم المنطوق، وهنا لما بعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم -، أمره أن ينذر عشيرته الأقربين أولا، ثم ينذر العرب الأميين ثم أهل الكتاب والمجوس وغيرهم، وقد تقدم بسط هذا.

[فصل: الله سبحانه وتعالى نفى جميع وجوه الشرك به]

وأما قولهم مع تشككه فيما أتى به فمن الكذب البين فإنه - تعالى - قال: {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير} [سبأ: 22] (22) {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير} [سبأ: 23] (23) {قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} [سبأ: 24] (24) {قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون} [سبأ: 25] (25) {قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم} [سبأ: 26] .

فإنه لما دعاهم إلى التوحيد وبين أن ما يدعونه من دون الله لا يملك مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا هو شريك، ولا هو ظهير ولا ينفع شفيع إلا بإذنه، نفى بذلك جميع وجوه الشرك، فإن ما يشرك به إما أن يكون له ملك أو شريك في الملك، أو يكون معينا، فإذا انتفت الثلاثة لم يبق إلا الشفاعة التي هي دعاء لك ومسألة وتلك لا تنفع عنده إلا لمن أذن له.

ثم ذكر بعد هذا أنه لا رازق يرزق من السماء والأرض إلا الله دل بهذا وهذا على التوحيد، كما في قوله: {وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون} [النحل: 53] (53) {ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون} [النحل: 54] (54) {ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون} [النحل: 55] .

فلما ذكر ما دل على وجوب توحيده، وبيان أن أهل التوحيد هم على الهدى، وأن أهل الشرك على الضلال قال: {وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} [سبأ: 24] .

يقول: إن أحد الفريقين أهل التوحيد الذين لا يعبدون إلا الله، وأهل الشرك لعلى هدى أو في ضلال مبين.

وهذا من الإنصاف في الخطاب الذي كل من سمعه من ولي وعدو قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك، كما يقول العادل الذي ظهر عدله للظالم الذي ظهر ظلمه: الظالم إما أنا وإما أنت، لا للشك في الأمر الظاهر، ولكن لبيان أن أحدنا ظالم ظاهر الظلم، وهو أنت لا أنا.

فإنه إذا قيل: أهل التوحيد الذين يعبدون الله على هدى، أو في ضلال مبين، وأهل الشرك الذين يعبدون ما لا يضر ولا ينفع على هدى أو في ضلال مبين.

تبين أن أهل التوحيد على الهدى، وأهل الشرك على الضلال، وهذا مما يعلمه جميع الملل من المسلمين واليهود والنصارى، يعلمون أن أهل التوحيد على الهدى، وأهل الشرك على الضلال.

وفي القرآن في بيان مثل هذا ما لا يحصى إلا بكلفة، بل قطب القرآن وسائر الكتب ومدارها على عبادة الله وحده، فكيف يقال إن الرسول كان يشك هل المهتدى هم أهل التوحيد أم أهل الشرك؟ وهل يقول هذا إلا من هو في غاية الجهل والعناد.

(ثم الآية خطاب للمشركين ليست خطابا للنصارى خصوصا) .

[فصل: الرسول بشر لا يعلم الغيب ولا يقول إنه ملك]

وأما قوله - تعالى -: قل ما أدري ما يفعل بي ولا بكم، فلفظ الآية: {قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين} [الأحقاف: 9] .

وهذا بعد قوله: {أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم} [الأحقاف: 8] .

ونظير هذا قوله: {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون} [الأنعام: 50] .

وهذا قاله نوح - عليه السلام - أول الرسل، وأمر محمد - صلى الله عليه وسلم - آخر الرسل أن يقوله، ومثل قوله: {قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا} [الجن: 21] (21) {قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا} [الجن: 22] (22) {إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} [الجن: 23] .

وهذا ونحوه يتضمن اعترافه بأنه عبد الله ورسول من الله لا يتعدى حد الرسالة ولا يدعي المشاركة في الألوهية، كما ادعته النصارى في المسيح ولهذا قال - تعالى -:

{ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام} [المائدة: 75] .

فتبين أنه لا يتعدى حد الرسالة، وهو كقوله - تعالى -: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم.

ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم - وفي الحديث المتفق على صحته: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» .

فقال - تعالى -: {قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم} [الأحقاف: 9] .

يقول لست أول من أرسل، أو ادعى الرسالة، بل قد تقدم قبلي رسل: {وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين} [الأحقاف: 9] .

يقول لا أدعي علم الغيب، إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين أنذركم بما أمرني الله أن أنذركم به لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك، وهذا من كمال صدقه وعدله وعبوديته لله وطاعته، وتمييز ما يستحقه الخالق وحده مما يستحقه العبد، فإن العلم بعواقب الأمور على وجه التفصيل مما استأثر الله بعلمه، فلا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

وليس من شرط الرسول أن يعلم كل ما يكون وقوله - تعالى -: {وما أدري ما يفعل بي ولا بكم} [الأحقاف: 9] .

نفي لعلمه بجميع ما يفعل به وبهم وهذا لا يعلمه إلا الله - تبارك وتعالى -، وهذا لا ينفي أن يكون عالما بأنه سعيد من أهل الجنة، وإن لم يدر تفاصيل ما يجري له في الدنيا من المحن والأعمال، وما يتجدد له من الشرائع، وما يكرم به في الآخرة من

أصناف النعيم، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (يقول الله - تعالى -: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) » ، وأيضا هذا مأثور عن غيره من الأنبياء - عليهم السلام -.

ولا من شرط النبي أن يعلم حال المخاطبين: من يؤمن به، ومن يكفر، وتفصيل ما يصيرون إليه، هذا إن قيل إنه لم يعلم بعد هذه الآية ما نفي فيها، وإن قيل إنه أعلم بذلك فمعلوم أن الله لم يعلمه بكل شيء جملة، بل أعلمه بالأمور شيئا بعد شيء.

وقد قال له بعد ذلك:«إنا فتحنا لك فتحا مبينا» (1) «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما» (2) «وينصرك الله نصرا عزيزا» .

وقال - تعالى -: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا} [الفتح: 28] .

وفي القرآن والأحاديث عنه - صلى الله عليه وسلم - من الإخبار بما سيكون في الدنيا وفي الآخرة أضعاف أضعاف ما يوجد عن الأنبياء قبله، حتى إنه ينبئ عن الشيء الذي يكون بعد ما يبين من السنين خبرا أكمل من خبر من عاين ذلك، كقوله - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين، ذلف الأنوف، حمر الخدود، ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة، فمن رأى هؤلاء الترك الذين قاتلهم المسلمون من حين خرج جنكز خان ملكهم الأكبر وأولاده وأولاد أولاده، مثل هولاكو وغيره من ملوك الترك الكفار الذين قاتلهم المسلمون، لم يحسن أن يصفهم بأحسن من هذه الصفة» .

وقد أخبر بهذا قبل ظهوره بأكثر من ستمائة سنة، وقوله: صلى الله عليه وسلم «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى،» وهذه النار ظهرت سنة خمس وخمسين وستمائة بأرض الحجاز، فكانت تحرق الحجر ولا تنضج اللحم، ورأى أهل بصرى أعناق الجمال من ضوء تلك النار، وكانت منذرة بما يكون بعدها، ففي سنة ست وخمسين وستمائة دخل هولاكو ملك الكفار بغداد، وقتل فيها مقتلة عظيمة مشهورة (وسيأتي - إن شاء الله - بعض أخبار أنه شاهد الناس وقوعها كما أخبرنا عند ذكرنا معجزاته) .

[فصل: رد دعوى النصارى أنهم هم الذين أنعم الله عليهم]

ثم قالوا: مع الأمر له في فاتحة الكتاب أن يسأل الهداية إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فإنه عنى بقوله: المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين الثلاث أمم الذين كانوا في عصره، وهم: النصارى، واليهود وعباد الأصنام، ولم يكن في زمانه غير هؤلاء الثلاث أمم.

فالمنعم عليهم نحن النصارى والمغضوب عليهم فلا - يشك أنهم - اليهود، الذين غضب الله عليهم في كتب التوراة والأنبياء وهذا الكتاب، والضالين فهم عباد الأصنام الذين ضلوا عن الله، فهذا أمر واضح بين ظاهر عند كل أحد، ولا سيما عند ذوي العقول والمعرفة والصراط: هو المذهب، أي الطريق، وهذه اللفظة رومية، لأن الطريق بالرومية اسطراطا.

والجواب:

أما قولهم: المنعم عليهم نحن النصارى، فمن العجائب التي تدل على فرط جهل صاحبها، وأعجب من ذلك قولهم إن هذا شيء بين واضح عند كل أحد، لا سيما عند ذوي العقل والمعرفة، فيا سبحان الله!

ألم يعرف العام والخاص علما ضروريا لا تمكن المنازعة فيه من دين محمد - صلى الله عليه وسلم -، ودين أمته الذي تلقوه عنه من تكفير النصارى وتجهيلهم وتضليلهم واستحلال جهادهم وسبي حريمهم وأخذ أموالهم، ما يناقض كل المناقضة أن يكون محمد وأمته في كل صلاة يقولون: اللهم اهدنا صراط النصارى.

وهل ينسب محمدا - صلى الله عليه وسلم - وأمته إلى أنهم في كل صلاة يطلبون من الله أن يهديهم صراط النصارى إلا من هو من أكذب الكذابين وأعظم الخلق افتراء ووقاحة وجهلا وضلالا؟ ولو كانوا يسألون الله هداية طريق النصارى، لدخلوا في دين النصارى، ولم يكفروهم ويقاتلوهم، ويضعوا عليهم الجزية التي يؤدونها عن يد وهم صاغرون، ولم يشهدوا عليهم بأنهم من أهل النار، وأمته أخذوا ذلك جميعه عنه منقولا عنه بالنقل المتواتر بإجماعهم، لم يبتدعوا ذلك، كما ابتدعت النصارى من العقائد والشرائع ما لم يأذن به الله، فلا يلام المسلمون في اتباعهم لرسول الله الذي جاء بالبينات والهدى.

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - إن كان رسولا صادقا، فقد كفرالنصارى، وأمر بجهادهم، وتبرأ منهم ومن دينهم، وإن كان كاذبا لم يقبل شيء مما نقله عن الله عز وجل.

وقد تقدم غير مرة قوله - تعالى -: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} [المائدة: 73] .

{لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} [المائدة: 17] .

{وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [التوبة: 30] (30) {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] .

فمن يقول عن النصارى مثل هذه الأقوال هل يأمر أمته في كل صلاة أن يقولوا: اهدنا طريقهم؟

ثم يقال: أي شيء في الآية مما يدل على أن قوله: صراط الذين أنعمت عليهم، هم النصارى.

وإنما المنعم عليهم هم الذين ذكرهم الله في قوله - تعالى -: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا} [النساء: 69] .

فهؤلاء هم الذين أمر الله عباده أن يسألوا هداية صراطهم.

وأما النصارى الذين كانوا على دين المسيح قبل النسخ والتبديل فهم من المنعم عليهم، كما أن اليهود الذين كانوا على دين موسى قبل النسخ والتبديل كانوا من المنعم عليهم.

وأما النصارى بعد النسخ والتبديل فهم من الضالين، لا من المنعم عليهم عند الله ورسوله، كما قال - تعالى -: {قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] .

وقال - تعالى -: {أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين} [مريم: 38] .

وعباد الأصنام من الضالين المغضوب عليهم، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون رواه الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وسبب ذلك أن اليهود يعرفون الحق ولا يعملون به، والنصارى يعبدون بلا علم، وقد وصف الله اليهود بأعمال، والنصارى بأعمال، فوصف اليهود بالكبر والبخل والجبن والقسوة وكتمان العلم وسلوك سبيل الغي وهو سبيل الشهوات والعدوان.

وذكر عن النصارى الغلو والبدع في العبادات والشرك والضلال واستحلال محارم الله، فقال - تعالى -:{ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا} [النساء: 171] (171) {لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا} [النساء: 172] (172) {فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا} [النساء: 173] .

وقال - تعالى -: {ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها} [الحديد: 27] .

أي لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، لم نكتب عليهم الرهبانية، بل هم ابتدعوها ومع ابتداعهم إياها فما رعوها حق رعايتها، وكل بدعة ضلالة فهم مذمومون على ابتداع الرهبانية وعلى أنهم لم يرعوها حق رعايتها.

وأما ما كتب عليهم من ابتغاء رضوان الله فيحصل بفعل ما شرعه الله لهم من واجب ومستحب، فإن ذلك هو الذي يرضاه، ومن فعل ما يرضاه الله فقد فعل ما كتب عليه، ويحصل رضوان الله أيضا بمجرد فعل الواجبات، وهذا هو الذي كتب على العباد، فإذا لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كان ابتغاء رضوانه واجبا، فما ليس بواجب لا يشترط في حصول ما كتب عليهم.

ولهذا ضعف أحمد بن حنبل وغيره الحديث المروي: أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله، فإن من صلى في آخر الوقت كما أمر فقد فعل الواجب، وبذلك يرضى الله عنه وإن كان فعل المستحبات والمسابقة إلى الطاعات أبلغ في إرضاء الله، ويحصل له بذلك من رضوان الله ومحبته ما لا يحصل بمجرد الواجبات.

كما قال موسى - عليه السلام -: {وعجلت إليك رب لترضى} [طه: 84] .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «يقول الله - تعالى -: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي فلئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته» ، ولا بد له منه فقوله حتى أحبه يريد المحبة المطلقة الكاملة. وأما أصل المحبة: فهي حاصلة بفعل الواجبات، فإن الله يحب المتقين والمقسطين، ومن أدى الواجبات فهو من المتقين المقسطين. وقال - تعالى - فيهم: {وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [التوبة: 30] (30) {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} [التوبة: 31] .

وقال - تعالى -: {قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] .

وهو - سبحانه - خاطب النصارى بهذا لأن النصارى يعتمدون في دينهم على ما يقوله كبراؤهم الذين وضعوا لهم القوانين والنواميس ويسوغون لأكابرهم الذين صاروا عندهم عظماء في الدين أن يضعوا لهم شريعة وينسخوا بعض ما كانوا عليه قبل ذلك، لا يردون ما يتنازعون فيه من دينهم إلى الله ورسله، بحيث لا يمكنون أحدا من الخروج عن كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل وعن اتباع ما جاء به المسيح، ومن قبله من الأنبياء - عليهم السلام -.

ولهذا قال - تعالى -: {قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم} [المائدة: 68] .

بل ما وضعه لهم أكابرهم من القوانين الدينية والنواميس الشرعية بعضها ينقلونه عن الأنبياء، وبعضها عن الحواريين، وكثير من ذلك ليس منقولا، لا عن الأنبياء، ولا عن الحواريين، بل من وضع أكابرهم وابتداعهم.

كما ابتدعوا لهم الأمانة التي هي أصل عقيدتهم، وابتدعوا لهم الصلاة إلى الشرق، وابتدعوا لهم تحليل لحم الخنزير، وسائر

المحرمات، وابتدعوا لهم الصوم وقت الربيع، وجعلوه خمسين يوما، وابتدعوا لهم أعيادهم، كعيد الصليب، وغيره من الأعياد.

وكذلك «قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لعدي بن حاتم لما سمعه يقرأ هذه الآية: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} [التوبة: 31] .

فقال: لم يعبدوهم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم» ولهذا قال - تعالى -: {ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] .

فإنهم يتبعون أهواء أكابرهم الذين مضوا من قبلهم، وأولئك ضلوا من قبل هؤلاء وأضلوا أتباعهم، وهم كثيرون، وضلوا عن سواء السبيل، وهو وسط السبيل، وهو الصراط المستقيم، فإن كانوا هم وأتباعهم ضالين عن الصراط المستقيم، فكيف يجوز أن يأمر الله عباده أن يسألوه أن يهديهم الصراط المستقيم، ويعني به صراط هؤلاء الضالين المضلين عن سواء السبيل، وهو الصراط المستقيم.

وقد قال - سبحانه -: ولا تتبعوا أهواء هؤلاء لأن أصل ابتداعهم هذه البدعة من أنفسهم مع ظن كاذب، فكانوا ممن قيل فيهم:

{إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى} [النجم: 23] .

وممن قيل فيه: {ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله} [القصص: 50] .

وسبب ذلك أن المسيح - صلى الله عليه وسلم - لما رفع إلى السماء وعاداه اليهود، وعادوا أتباعه عداوة شديدة، وبالغوا في أذاهم وإذلالهم وطلب قتلهم ونفيهم، صار في قلوبهم من بغض اليهود، وطلب الانتقام منهم ما لا يوصف، فلما صار لهم دولة وملك مثل ما صار لهم في دولة قسطنطين، صاروا يريدون مقابلة اليهود.

كما جرت العادة في مثل ذلك بين الطوائف المتقابلة المتنازعين في الملك، والمتنازعين في البدع كالخوارج، والروافض،

والجبرية مع القدرية والمعطلة مع الممثلة، وكالدولتين المتنازعتين على الملك والأهواء بمنزلة قيس ويمن، وأمثال ذلك.

إذا ظهرت طائفة على الأخرى بعدما آذتها الأخرى وانتقمت منها تريد أن تأخذ بثأرها، ولا تقف عند حد العدل، بل تعتدي على تلك كما اعتدت تلك عليها.

فصار النصارى يريدون مناقضة اليهود فأحلوا ما يحرمه اليهود كالخنزير وغيره، وصاروا يمتحنون من دخل في دينهم بأكل الخنزير، فإن أكله وإلا لم يجعلوه نصرانيا.

وتركوا الختان، وقالوا: إن المعمودية عوض عنه، وصلوا إلى قبلة غير قبلة اليهود.

وكان اليهود قد أسرفوا في ذم المسيح - عليه السلام - وزعموا أنه ولد زنا، وأنه كذاب ساحر.

فغلوا هؤلاء في تعظيم المسيح، وقالوا: إنه الله وابن الله، وأمثال ذلك، وصار من يطلب أن يقول فيه القول العدل مثل كثير من علمائهم وعبادهم، يجمعون له مجمعا ويلعنونه فيه على وجه التعصب، واتباع الهوى، والغلو فيمن يعظمونه، كما يجري مثل ذلك لأهل الأهواء، كالفلاة في بعض المشايخ، وبعض أهل البيت، وبعض العلماء وبعض الملوك، وبعض القبائل وبعض المذاهب، وبعض الطرائق، فإنما كان مصدر ضلالهم أهواء نفوسهم، قال - تعالى - للنصارى الذين كانوا في وقت النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بعدهم: {قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] .

وأما قولهم إن الصراط هو المذهب أي الطريق، وهذه لفظة رومية لأن الطريق بالرومية اسطراطا.

فيقال لهم: الصراط في لغة العرب: هو الطريق يقال هو الطريق الواضح ويقال هو الطريق المحدود بجانبين الذي لا يخرج عنه، ومنه الصراط المنصوب على جهنم، وهو الجسر الذي يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة، وإذا عبر عليه الكفار سقطوا في جهنم، ويقال فيه: معنى الاستواء والاعتدال الذي يوجب سرعة العبور عليه، وفيه ثلاث لغات، هي ثلاث قراءات: الصراط، والسراط، والزراط، وهي لغة عربية عرباء ليست من المعرب، ولا مأخوذة من لغة الروم كما زعموا.

ويقال أصله من قولهم: سرطت الشيء أسرطه سرطا، إذا ابتلعته واسترطته ابتلعته، فإن المبتلع يجري بسرعة في مجرى محدود.

ومن أمثال العرب: لا تكن حلوا فتسترط، ولا مرا فتعفى، من قولهم: أعفيت الشيء، إذا أزلته من فيك لمرارته، ويقال فلان يسترط ما يأخذ من الدين.

وحكى يعقوب بن السكيت: الأخذ سريط، والقضاء ضريط، والسرطاط: الفالوذج، لأنه يسترط استراطا، وسيف سراطي، أي قاطع فإنه ماض سريع المذهب في مضربه.

فالصراط: هو الطريق المحدود المعتدل الذي يصل سالكه إلى مطلبه بسرعة، وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع، ولم يسم الله سبيل الشيطان سراطا، بل سماها سبلا، وخص طريقه باسم الصراط، كقوله - تعالى -: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} [الأنعام: 153] .

وفي السنن عن عبد الله بن مسعود قال: «خط لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطا، وخط خطوطا عن يمينه وشماله، ثم قال: هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه من أجابه قذفه في النار ثم قرأ: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} [الأنعام: 153] » .

فسمى - سبحانه - طريقه صراطا، وسمى تلك سبلا، ولم يسمها صراطا كما سماها سبيلا، وطريقه يسميه سبيلا كما يسميه صراطا.

وقال - تعالى -: عن موسى وهارون:{وآتيناهما الكتاب المستبين} [الصافات: 117] (117) {وهديناهما الصراط المستقيم} [الصافات: 118] .

وقال - تعالى -: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا} [الفتح: 1] (1) {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما} [الفتح: 2] (2) {وينصرك الله نصرا عزيزا} [الفتح: 3] .

وهذه الهداية الخاصة التي أعطاه إياها بعد فتح الحديبية أخص مما تقدم فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء، ويزيده الله هدى بعد هدى، وأقوم الطريق وأكملها الطريق التي بعث الله بها نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم كما قال - تعالى -:

{إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم} [الإسراء: 9] .

[فصل: بيان أن تفسيرهم للتثليث تفسير باطل]

قال الحاكي عنهم: فقلت: إنهم ينكرون علينا في قولنا، أب وابن، وروح قدس، وأيضا في قولنا إنهم ثلاثة أقانيم، وأيضا في قولنا إن المسيح رب وإله وخالق، وأيضا يطلبون منا إيضاح تجسيد تجسم كلمة الله الخالق بإنسان مخلوق.

أجابوا قائلين: لو علموا قولنا هذا إنما نريد به القول الذي يعني أن الله شيء حي ناطق لما أنكروا علينا ذلك، لأننا معشر النصارى لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئا غيرها أحدثها، إذ لا يمكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضاد والتقلب.

فقلنا: إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة إذ هو الخالق لكل شيء، وذلك لننفي عنه العدم، ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين: شيء حي، وشيء غير حي، فوصفناه بأجملهما، فقلنا: هو شيء حي، لننفي الموت عنه، ورأينا الحي ينقسم قسمين: حي ناطق، وحي غير ناطق، فوصفناه بأفضلهما، فقلنا: هو شيء حي ناطق لننفي الجهل عنه.

والثلاثة أسماء وهي إله واحد، مسمى واحد، ورب واحد، خالق واحد شيء حي ناطق، أي الذات والنطق والحياة، فالذات عندنا الأب الذي هو ابتداء الاثنين، والنطق الابن الذي هو مولود منه لولادة النطق من العقل، والحياة روح القدس، وهذه أسماء لم نسمه نحن بها.

والجواب من وجوه:

أحدها: قولهم: أما قولنا أب، وابن، وروح قدس، فلو علموا قولنا هذا إنما نريد به تصحيح القول بأن الله حي ناطق لما أنكروا ذلك علينا، فيقال: ليس الأمر كما ادعوه فإن النصارى يقولون: إن هذا القول تلقوه عن الإنجيل، وإن في الإنجيل عن المسيح - صلوات الله عليه وسلامه - أنه قال: عمدوا الناس باسم الأب، والابن وروح القدس فكان أصل قولهم هو ما يذكرونه من أنه متلقى من الشرع المنزل لا أنهم أثبتوا الحياة والنطق بمعقولهم، ثم عبروا عنها بهذه العبارات، كما ادعوه في مناظرتهم.

ولو كان الأمر كذلك لما احتاجوا إلى هذه العبارة، ولا إلى جعل الأقانيم ثلاثة، بل معلوم عندهم، وعند سائر أهل الملل أن الله موجود حي عليم، قدير متكلم لا تختص صفاته بثلاثة، ولا يعبر عن ثلاثة منها بعبارة لا تدل على ذلك، وهو لفظ: الأب، والابن، وروح القدس، فإن هذه الألفاظ لا تدل على ما فسروها به في لغة أحد من الأمم، ولا يوجد في كلام الأنبياء أنه عبر بهذه الألفاظ عما ذكروه من المعاني، بل إثبات ما ادعوه من التثليث والتعبير عنه بهذه الألفاظ هو مما ابتدعوه لم يدل عليه لا شرع ولا عقل.

وهم يدعون أن التثليث والحلول والاتحاد إنما صاروا إليه من جهة الشرع، وهو نصوص الأنبياء والكتب المنزلة، لا من جهة العقل، وزعموا أن الكتب الإلهية نطقت بذلك، ثم تكلفوا لما ظنوه مدلول الكتاب طريقا عقلية، فسروه بها تفسيرا ظنوه جائزا في العقل ولهذا نجد النصارى لا يلجئون في التثليث والاتحاد إلا إلى الشرع والكتب وهم يجدون نفرة عقولهم وقلوبهم عن التثليث والاتحاد والحلول فإن فطرة الله التي فطر الناس عليها وما جعله الله في قلوب الناس من المعارف العقلية التي قد يسمونها ناموسا عقليا طبيعيا يدفع ذلك وينفيه وينفر عنه ولكن يزعمون أن الكتب الإلهية جاءت بذلك وأن ذلك أمر يفوق العقل وأن هذا الكلام من طور وراء طور العقل فينقلونه لظنهم أن الكتب الإلهية أخبرت به، لا لأن العقول دلت عليه، مع أنه ليس في الكتب الإلهية ما يدل على ذلك، بل فيها ما يدل على نقيضه كما سنذكره - إن شاء الله تعالى -، ولا يميزون بين ما يحيله العقل ويبطله ويعلم أنه ممتنع، وبين ما يعجز عنه العقل فلا يعرفه ولا يحكم فيه بنفي ولا إثبات، وأن الرسل أخبرت بالنوع الثاني: ولا يجوز

أن تخبر بالنوع الأول، فلم يفرقوا بين محالات العقول ومحارات العقول، وقد ضاهوا في ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولدا شريكا.

قال - تعالى -: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [التوبة: 30] .

وقد ضاهاهم في ذلك أهل البدع والضلال المشبهون لهم من المنتسبين إلى الإسلام الذين يقولون: نحو قولهم من الغلو في الأنبياء وأهل البيت والمشايخ وغيرهم، ومن يدعي الوحدة أو الحلول أو الاتحاد الخاص المعين كدعوى النصارى ودعوى الغالية من الشيعة في علي وطائفة من أهل البيت كالنصيرية ونحوهم ممن يدعي إلهية علي، وكدعوى بعض الإسماعيلية الإلهية في الحاكم وغيره من بني عبد الله بن ميمون القداح المنتسبين إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر.

ودعوى كثير من الناس نحو ذلك في بعض الشيوخ، إما المعروفين بالصلاح، وإما من يظن به الصلاح وليس من أهله، فإن لهم أقوالا من جنس أقوال النصارى، وبعضها شر من أقوال النصارى.

وعامة هؤلاء إذا خوطبوا ببيان فساد قولهم قالوا من جنس قول النصارى، هذا أمر فوق العقل، ويقول بعضهم ما كان يقوله التلمساني لشيخ أهل الوحدة، يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح النقل ويقولون: لمن أراد أن يسلك سبيلهم: دع العقل والنقل، أو اخرج من العقل والنقل.

وينشدون فيهم:

مجانين إلا أن سر جنونهم ... عزيز على أقدامه يسجد العقل

هم معشر حلوا النظام وحرقوا ... السياج فلا فرض لديهم ولا نقل

وهؤلاء مقلدون لمشايخهم متبعون لهم فيما يخرجون به عن شريعة الرسول، وما ابتدعوه مما لم يأذن به الله باتخاذ البدع عبادات، واستحلال المحرمات كتقليد بعض النصارى لشيوخهم، وإذا اعترض على أحد منهم يقولون: الشيخ يسلم له حاله، ولا يعترض عليه كما يقول النصارى لشيوخهم ومن هؤلاء من يقول نحن أولاد الله، ويقول: المسيح هو ولد الله، وينطق أيضا، بلفظ الشهوة، فيقول إنهم أولاد شهوة، ويقول: إنه زوج مريم، كما يقول ذلك من يقوله من النصارى.

وغاية ما عندهم أنهم يحكون عن شيوخهم نوعا من خرق العادات، قد يكون كذبا، وقد يكون صدقا، وإذا كانت صدقا فقد يكون من أحوال أولياء الشيطان كالسحرة والكهان، وقد يكون من أحوال أولياء الرحمن، وإذا كانت من أحوال أولياء الرحمن لم يكن في ذلك ما يوجب تقليد الولي في كل ما يقوله، إذ الولي لا يجب أن يكون معصوما، ولا يجب اتباعه في كل ما يقوله، ولا الإيمان بكل ما يقوله.

وإنما هذا من خصائص الأنبياء الذين يجب الإيمان بكل ما يقولونه فيجب تصديقهم في كل ما يخبرون به من الغيب، وطاعتهم فيما أوجبوه على الأمم، ومن كفر بشيء مما جاءوا به فهو كافر، ومن سب نبيا واحدا وجب قتله، وليس هذا لغير الأنبياء من الصالحين.

فهؤلاء المبتدعة الغلاة المشركون القائلون بنوع من الحلول هم مضاهئون للنصارى بقدر ما شابهوهم فيه، وخالفوا فيه دين المسلمين ومنهم من تكون موافقته لدين المسلمين أكثر، وأما الغلاة منهم فموافقتهم للنصارى أكثر، ومنهم من هو أكفر من النصارى، ولما كان مستند النصارى هو ما ينقلونه إما عن الأنبياء، وإما عن غيرهم ممن يوجبون اتباعه كانوا إذا أوردوا على علمائهم ما يقتضي امتناع ذلك قالوا هكذا في الكتاب، وبهذا نطق الكتاب وهذه الكتب جاءت بها الرسل، يعنون المؤيدين بالمعجزات، ويعنون بالرسل الحواريين فاعتصامهم بها إنما هو لما ظنوه مذكورا في الكتب الإلهية، وإن رأوه مخالفا لصريح المعقول.

ولهذا ينهون جمهورهم عن البحث والمناظرة في ذلك، لعلمهم بأن العقل الصريح متى تصور دينهم علم أنه باطل، فدعوى المدعين أنا إنما قلنا أب وابن وروح قدس لتصحيح القول بأن الله حي ناطق كذب ظاهر، وهم يعلمون أنه كذب، وتصحيح القول بأن الله حي متكلم، لا يقف على هذه العبارة، بل يمكنه تصحيح ذلك بالأدلة الشرعية والسمعية والعقلية، والتعبير عنه بالعبارات البينة كما يقوله المسلمون وغيرهم بدون قولنا أب وابن وروح قدس.

ومما يبين ذلك الوجه الثاني: وهو أن النصارى - المقرون بأن هذه العبارة في الإنجيل المأخوذ عن المسيح - مختلفون في تفسير هذا الكلام، فكثير منهم يقول الأب هو الوجود، والابن هو الكلمة، وروح القدس هو الحياة.

ومنهم من يقول: بل الأب هو الوجود، والابن هو الكلمة، وروح القدس هو القدرة.

وبعضهم يقول: إن الأقانيم الثلاثة: جواد حكيم قادر، فيجعل الأب هو الجواد، والابن هو الحكيم، وروح القدس هو القادر، ويزعمون أن جميع الصفات تدخل تحت هذه الثلاثة، ويقولون: إنا استدللنا على وجوده بإخراجه الأشياء من العدم إلى الوجود، وذلك من جوده.

وقد رأيت في كتب النصارى هذا وهذا وهذا، ومنهم من يعبر عن الكلمة بالعلم، فيقولون: موجود حي عالم، أو موجود عالم قادر، كما يقول بعضهم: ناطق، ومنهم من يقول موجود حي حكيم، ومنهم من يقول قائم بنفسه حي حكيم، وهم متفقون على أن المتحد بالمسيح والحال فيه هو أقنوم الكلمة، وهو الذي يسمونه الابن دون الأب، ومن أنكر الحلول والاتحاد منهم كالأريوسية يقول: إن المسيح - عليه السلام - عبد مرسل، كسائر الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه -، فوافقهم على لفظ: الأب، والابن، وروح القدس، ولا يفسر ذلك بما يقوله منازعوه من الحلول والاتحاد.

كما أن النسطورية يوافقونهم أيضا على هذا اللفظ، وينازعونهم في الاتحاد الذي يقوله اليعقوبية والملكية: فإذا كانوا متفقين على اللفظ متنازعين في معناه، علم أنهم صدقوا أولا باللفظ لأجل اعتقادهم مجيء الشرع به، ثم تنازعوا بعد ذلك في تفسير الكتاب، كما يختلفون هم وسائر أهل الملل في تفسير بعض الكلام الذي يعتقدون أنه منقول عن الأنبياء - عليهم السلام -، وعلم بذلك أن أصل قولهم: الأب، والابن، وروح القدس، لم يكن لأجل تصحيح القول بأن الله موجود حي ناطق الذي علموه أولا بالعقل.

يوضح هذا الوجه الثالث: وهو قولهم إنما لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئا غيرها أحدثها، إن كان المتكلم بهذا طائفة معينة من النصارى، فيقال لهؤلاء: القول بالأب، والابن، وروح القدس، موجود عند النصارى قبل وجودكم، وقبل نظركم هذا واستدلالكم، فلا يجوز أن يكون نظركم هو الموجب لقول النصارى هذا، وإن كان المراد به أن جميع النصارى من حين قالوا هذا الكلام نظروا واستدلوا حتى قالوا ذلك فهذا كذب بين، فإن هذا الكلام يقول النصارى إنهم تلقوه من الإنجيل، وأن المسيح - عليه السلام - قال: عمدوا الناس باسم الأب، والابن، وروح القدس.

والمسيح والحواريون لم يأمروهم بهذا النظر الموجب لهذا القول، ولا جعل المسيح هذا القول موقوفا عندهم على هذا البحث، فعلم أن جعلهم هذا القول ناشئا عن هذا البحث قول باطل يعلمون هم بطلانه.

الوجه الرابع: إن هذا القول: إن كان المسيح لم يقله فلا يجوز أن يقال، ولو عنى به الإنسان معنى صحيحا فإن هذه العبارة إنما يفهم منها عند الإطلاق المعاني الباطلة، ولهذا يوجد كثير من عوام النصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله، البنوة المعروفة في المخلوقات، ويقولون: إن مريم زوجة الله وهذا لازم لعامة النصارى، وإن لم يقولوه فإن الذي يلد لابد له من زوجة.

ولهذا قال - تعالى -: {أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم} [الأنعام: 101] .

وجعل الرب والد المولود أنكر في العقول من إثبات صاحبة له سواء فسرت الولادة بالولادة المعروفة، أو بالولادة العقلية التي يقولها علماء النصارى، فإن من أثبت صاحبة له يمكنه تأويل ذلك، كما تأولوا هم الولد، ويقولون: إن الأب ولدت منه الكلمة، ومريم ولد منها الناسوت واتحد الناسوت باللاهوت، فكما أن الأب أب باللاهوت لا بالناسوت، ومريم أم للناسوت لا للاهوت، فكذلك هي صاحبة للأب بالناسوت، واللاهوت زوج مريم، بلاهوته، كما أنه أب للمسيح بلاهوته، وإذا اتحد اللاهوت بناسوت المسيح مدة طويلة، فلماذا يمتنع أن يجتمع اللاهوت بناسوت مريم مدة قصيرة، وإذا جعل الناسوت الذي ولدته ابنا للاهوت، فلأي شيء لا تجعل هي صاحبة وزوجة للاهوت فإن المسيح عندهم اسم لمجموع اللاهوت والناسوت، وهو عندهم إله تام وإنسان تام، فلاهوته من الله، وناسوته من مريم، فهو من أصلين: لاهوت وناسوت، فإذا كان أحد الأصلين أباه والآخر أمه، فلماذا لا تكون أمه زوجة أبيه بهذا الاعتبار، مع أن المصاحبة قبل البنوة؟ فكيف يثبت الفرع الملزوم بدون ثبوت الأصل اللازم؟

وليس في ذلك من المحال على أصلهم إلا ما هو من جنس إثبات بنوة المسيح، وأقل امتناعا، وإن كان المسيح - عليه السلام - قال هذا الكلام، فقد علمنا أن المسيح - عليه السلام - وغيره من الأنبياء معصومون لا يقولون: إلا الحق، وإذا قالوا قولا فلابد له من معنى صحيح.

ويمتنع أن يريدوا بقولهم ما يمتنع بطلانه بسمع أو عقل فإذا كانت العقول، ونصوص الكتب المتقدمة مع نصوص القرآن تناقض ما ابتدعته النصارى في المسيح، علم أن المسيح لم يرد معنى باطلا يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول.

، بل نقول في الوجه الخامس: إن صحت هذه العبارة عن المسيح المعصوم عليه الصلاة والسلام، فإنه أراد بذلك ما يناسب سائر كلامه، وفي الموجود في كتبهم تسمية الرب أبا وتسمية عباده أبناء، كما يذكرون أنه قال في التوراة ليعقوب: " إسرائيل " أنت ابني بكري "، وقال لداود في الزبور: " أنت ابني وحبيبي "، وفي الإنجيل في غير موضع يقول المسيح: " أبي وأبيكم " كقوله إني أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم فيسميه أبا لهم كما يسميهم أبناء له، فإن كان هذا صحيحا، فالمراد بذلك أنه الرب المربي الرحيم، فإن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، والابن هو المربى المرحوم، فإن تربية الله لعبده أكمل من تربية الوالدة لولدها فيكون المراد بالأب الرب، والمراد بالابن عنده المسيح الذي رباه.

وأما روح القدس: فهي لفظة موجودة في غير موضع من الكتب التي عندهم، وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم، بل روح القدس عندهم تحل في إبراهيم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء الصالحين.

والقرآن قد شهد أن الله أيد المسيح بروح القدس، كما قال - تعالى -: {وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} [البقرة: 87] .

في موضعين من البقرة.

وقال - تعالى -: {ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس} [المائدة: 110] .

وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لحسان بن ثابت: «إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه» وقال: «اللهم أيده بروح القدس» كما تقدم ذكره هذا كله مبسوطا.

وروح القدس: قد يراد بها الملك المقدس كجبريل، ويراد بها الوحي، والهدى والتأييد الذي ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطته، وقد يكونان متلازمين، فإن الملك ينزل بالوحي، والوحي ينزل به الملك، والله - تعالى - يؤيد رسله بالملائكة وبالهدى، كما قال - تعالى -: عن نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -:

{فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها} [التوبة: 40] .

في موضعين من سورة " براءة ".

وقال الله - تعالى -: {فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها} [الأحزاب: 9] .

وقال - تعالى -: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا} [الأنفال: 12] .

وقال - تعالى -: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22] .

وقال الله - تعالى -: {ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده} [النحل: 2] .

وقال - تعالى -: {يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق} [غافر: 15] .

وقال: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا} [الشورى: 52] وإذا كان روح القدس معروفا في كلام الأنبياء المتقدمين والمتأخرين أنها أمر ينزله الله على أنبيائه وصالحي عباده سواء كان ملائكة تنزل بالوحي والنصر أو وحيا وتأييدا مع الملك، وبدون الملك ليس المراد بروح القدس أنها حياة الله القائمة به كان المعصوم إن كان قال: عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس مراده مروا الناس أن يؤمنوا بالله ونبيه الذي أرسله وبالملك الذي أنزل عليه الوحي الذي جاء به، فيكون ذلك أمرا لهم بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا هو الحق الذي يدل عليه صريح المعقول وصحيح المنقول.

فتفسير كلام المعصوم بهذا التفسير الذي يوافق سائر ألفاظ الكتب التي عندهم، ويوافق القرآن، ويوافق العقل، أولى من تفسيره بما يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول.

وهذا تفسير ظاهر ليس فيه تكلف، ولا هو من التأويل الذي هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره، بل هو تفسير له بما يدل ظاهره عليه باللغة المعروفة والعبارة المألوفة في خطاب المسيح، وخطاب سائر الأنبياء.

أما تفسير النصارى بأن الابن مولود قديم أزلي هو العلم أو كلمة الله، فتفسير للفظ بما لم يستعمل هذا اللفظ فيه، لا في كلام أحد من الأنبياء ولا لغة أحد من الأنبياء، وكذلك تفسير روح القدس بحياة الله، فالذي فسر النصارى به ظاهر كلام المسيح هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح وعادته في كلامه، ولا لغة غيره من الأنبياء والأمم، بل المعروف في لغته وكلامه وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسرناه، وبذلك فسره أكابر علماء النصارى.

وأما ضلال النصارى المحرفون لمعاني كتب الله عز وجل، فسروه بما يخالف معناه الظاهر وينكره العقل والشرع.

وتمام هذا بالوجه السادس: وهو أن النصارى لما كان عندهم في الكتب تسمية المسيح - عليه السلام - ابنا، وتسمية غيره من الأنبياء ابنا، كقوله ليعقوب: أنت ابني بكري، وتسمية الحواريين أبناء قالوا هو ابنه بالطبع، وغيره هو ابنه بالوضع، فجعلوا لفظ الابن مشتركا بين معنيين وأثبتوا لله طبعا، جعلوا المسيح ابنه باعتبار ذلك الطبع، وهذا يقرر قول من يفهم منهم أنه ابنه البنوة المعروفة في المخلوقين، وأن مريم زوجة الله.

وكذلك جعلوا روح القدس مشتركة بين حياة الله وبين روح القدس التي تنزل على الأنبياء والصالحين، ومعلوم أن الاشتراك على

خلاف الأصل وأن اللفظ إذا استعمل في عدة مواضع كان جعله حقيقة متواطئا في القدر المشترك أولى من جعله مشتركا اشتراكا لفظيا بحيث يكون حقيقة في خصوص هذا، أو يكون مجازا في أحدهما، فإن المجاز والاشتراك على خلاف الأصل، هذا إن قدر أن لفظ الابن وروح القدس استعمل في نطق الله وحياته كما يزعم النصارى فكيف إذا لم يوجد في كلام الأنبياء أنهم قالوا لفظ الابن، ولفظ روح القدس، وأرادوا به شيئا من صفات الله لا كلامه ولا حياته ولا علمه ولا غير ذلك، بل لم يوجد استعمال لفظ الابن في كلام الأنبياء إلا في شيء مخلوق، ولم يوجد استعمال روح القدس كما هو من صفات الله القائمة به، ونحن إذا فسرنا الأب وروح القدس ببنوة التربية، وروح القدس بما ينزل على الأنبياء كنا قد جعلنا اللفظ مفردا متواطئا وهم يحتاجون أن يجعلوا اللفظ مشتركا أو مجازا في أحد المعنيين، فكان تفسيرهم مخالفا لظاهر اللغة التي خوطبوا بها، ولظاهر الكتب التي بأيديهم وتفسيرنا موافقا لظاهر لغتهم، وظاهر الكتب التي بأيديهم، وحينئذ فقد تبين أنه ليس معهم بالتثليث لا حجة سمعية ولا عقلية، بل هو باطل شرعا وعقلا.

ويؤيد هذا الوجه السابع: وهو أنهم في أمانتهم أثبتوا من المعاني ولفظ الأقانيم وغير ذلك ما لا تدل عليه الكتب التي بأيديهم البتة، بل فهموا منها معنى باطلا، وضموا إليه معاني باطلة من عند أنفسهم، فكانوا محرفين لكتب الله في ذلك، مفترين على الله الكذب، وهذا مبسوط في موضع آخر.

الوجه الثامن: أن قولهم بالأقانيم مع بطلانه في العقل والشرع لم ينطق به عندهم كتاب، ولم يوجد هذا اللفظ في شيء من كتب الأنبياء التي بأيديهم ولا في كلام الحواريين، بل هي لفظة ابتدعوها، ويقال: إنها رومية، وقد قيل: الأقنوم في لغتهم معناه الأصل، ولهذا يضطربون في تفسير الأقانيم تارة يقولون: أشخاص، وتارة خواص وتارة صفات وتارة جواهر وتارة يجعلون الأقنوم اسما للذات والصفة معا، وهذا تفسير حذاقهم.

الوجه التاسع: قولهم في المسيح - عليه السلام - إنه خالق، قول مع بطلانه في الشرع والعقل، قول لم ينطق به شيء من النبوات التي عندهم، ولكن يستدلون على ذلك بما لا يدل عليه كما سنبينه إن شاء الله - تعالى -.

الوجه العاشر: قولهم في تجسد اللاهوت - أيضا - هو قول مع بطلانه في العقل والشرع قول لا يدل عليه شيء من كلام المعصوم من النبيين والمرسلين الوجه الحادي عشر: إنا نقول: لا ريب أن الله حي عالم قادر متكلم، وللمسلمين على ذلك من الدلائل العقلية التي دل الرسول عليها وأرشد إليها فصارت معروفة بالعقل مدلولا عليها بالشرع ما هو مبسوط في موضعه، وأنتم مع دعواكم أنكم تثبتون ذلك بالعقل، لم تذكروا على ذلك دليلا عقليا.

فقولكم لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئا غيرها أحدثها إذ لا يمكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضاد والتقلب، كلام قاصر من وجوه:

أحدها: أنكم لم تروا حدوث جميع المخلوقات، وإنما رأيتم حدوث ما يشهد حدوثه كالسحاب والمطر والحيوان والنبات ونحو ذلك، فأين دليلكم على حدوث سائر الأشياء؟

الثاني: أنه كان ينبغي أن تقولوا لما علم حدوث المحدثات، أو حدوث المخلوقات أو حدوث ما سوى الله ونحو ذلك مما يبين أن المحدث ما سوى الله، فأما إطلاق حدوث جميع الأشياء فباطل، فإن الله يسمى عندكم وعند جمهور المسلمين شيئا من الأشياء، وهذا بخلاف قوله - تعالى -: {قل الله خالق كل شيء} [الرعد: 16] .

فإن هذا التركيب يبين أن الخالق غير المخلوق خلاف قول القائل حدوث الأشياء.

الثالث: أن العلم بأن المحدث لابد له من محدث، علم فطري ضروري، ولهذا قال الله - تعالى -: في القرآن: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} [الطور: 35] .

«قال جبير بن مطعم: لما سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقرأ بها في صلاة المغرب أحسست بفؤادي قد انصدع» ، يقول - تعالى -: أخلقوا من غير خالق خلقهم أم هم الخالقون لأنفسهم.

ومعلوم بالفطرة التي فطر الله عليها عباده بصريح العقل أن الحادث لا يحدث إلا بمحدث أحدثه.

وإن حدوث الحادث بلا محدث أحدثه معلوم البطلان بضرورة العقل وهذا أمر مركوز في بني آدم حتى الصبيان، لو ضرب الصبي ضربة فقال: من ضربني؟ فقيل: ما ضربك أحد، لم يصدق عقله أن الضربة حدثت من غير فاعل.

ولهذا لو جوز مجوز أن يحدث كتابة أو بناء أو غراس ونحو ذلك من غير محدث لذلك، لكان عند العقلاء إما مجنونا وإما مسفسطا كالمنكر للعلوم البديهية والمعارف الضرورية، وكذلك معلوم أنه لم يحدث نفسه، فإن كان معدوما قبل حدوثه لم يكن شيئا فيمتنع أن يحدث غيره فضلا عن أن يحدث نفسه.

فقولكم لم يكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضاد والتقلب، تعليل باطل فإن علمنا بأن حدوثها لم يكن من ذواتها ليس لأجل ما فيها من التضاد والتقلب، بل سواء كانت متماثلة أو مختلفة أو متضادة، نحن نعلم بصريح العقل أن المحدث لا يحدث نفسه، وهذا من أظهر المعارف وأبينها للعقل، كما يعلم أن العدم لا يخلق موجودا، وأن المحدث للحوادث الموجودة لا يكون معدوما.

الوجه الرابع: أنكم ذكرتم حجة على أنها لم تحدث نفسها، وهي حجة ضعيفة ولم تذكروا حجة على أنها حدثت، بلا محدث، لا أنفسها ولا غيرها، فإن كان امتناع كونها أحدثت نفسها محتاجا إلى دليل، فكذلك امتناع حدوثها، بلا محدث، وإن كان معلوما ببديهة العقل، وهو من العلوم الضرورية، فكذلك الآخر، فذكر الدليل على أحدهما دون الآخر خطأ لو كنتم ذكرتم دليلا صحيحا، فكيف إذا كان الدليل باطلا؟ ومن يكون مبلغهم من العلم بالأدلة العقلية التي يثبتون بها العلم بالصانع وصفاته هذا المبلغ؟ ثم يريدون مع ذلك أن يثبتوا معاني عقلية ويزعمون أنها موافقة لفهمهم الباطل من الكتب الإلهية، فهم ممن قال الله فيهم:

{والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب} [النور: 39] (39) {أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور} [النور: 40] .

الوجه الثاني عشر: قولكم: فقلنا إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة، إذ هو الخالق لكل شيء، لننفي عنه العدم.

فيقال لهم: لا ريب أن الله كما وصف نفسه بقوله - تعالى -: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: 11] .

وقوله: {فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا} [مريم: 65]

أي مثلا يستحق أن يسمى بأسمائه، وقوله - تعالى -: {قل هو الله أحد} [الإخلاص: 1] (1) {الله الصمد} [الإخلاص: 2] (2) {لم يلد ولم يولد} [الإخلاص: 3] (3) {ولم يكن له كفوا أحد} [الإخلاص: 4] . .

وقد دل على ذلك العقل، فإن المثلين اللذين يسد أحدهما مسد الآخر يجب لأحدهما ما يجب للآخر ويمتنع عليه ما يمتنع عليه، ويجوز عليه ما يجوز عليه، فلو كان للخالق مثل للزم أن يشتركا فيما يجب، ويجوز ويمتنع.

والخالق يجب له الوجود والقدم، ويمتنع عليه العدم، فيلزم أن يكون المخلوق واجب الوجود قديما أزليا لم يعدم قط، وكونه محدثا مخلوقا يستلزم أن يكون كان معدوما، فيلزم أن يكون موجودا معدوما قديما محدثا، وهو جمع بين النقيضين يمتنع في بداية العقول، وأيضا فالمخلوق يمتنع عليه القدم، ويجب له سابقة العدم، فلو وجب للخالق القديم ما يجب له، لوجب كون الواجب للقدم واجب الحدوث بعد العدم وهذا جمع بين النقيضين، فالعقل الصريح يجزم بأن الله ليس كمثله شيء، والكلام على هذا مبسوط في موضع آخر لكن أنتم لم تذكروا على ذلك حجة، (بل قلتم إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة، إذ هو الخالق لكل شيء فلم تذكروا حجة) على أنه خالق كل شيء، إذ كان عمدتكم على ما شهدتم حدوثه وليس ذلك كل شيء، ولم تذكروا حجة مع كونه خالق كل شيء على أنه ليس كمثله شيء، بل قلتم لأننا معشر النصارى لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئا غيرها أحدثها لما فيها من التضاد والتقلب فقلنا: إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة إذ هو الخالق لكل شيء، وذلك لننفي العدم عنه، ودليلكم لو دل على العلم بالصانع لم يدل إلا على أنه خالق فكيف إذا لم يدل؟

ولا ريب أن الخالق سبحانه يجب أن يكون موجودا لا معدوما، وهذا معلوم بالضرورة لا يحتاج إلى دليل عند جمهور العقلاء والنظار وإن كان بعضهم أثبت وجوده بالدليل النظري، لكن ليس في دليلكم ما يدل على أنه ليس كالأشياء المخلوقة، وقولكم: إذ هو الخالق لكل شيء يتضمن أنه خالق لكل ما سواه، ليس فيه بيان نفي للمماثلة عنه، ولكن بينتم بهذا الكلام جهلكم بالدلائل العقلية كجهلكم بالكتب المنزلة، وكذلك أخبر - تعالى - عن أهل النار بأنهم يقولون: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} [الملك: 10] .

[فصل: دلائل وجود الله وحياته]

وأما قولكم: ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين: شيء حي، وشيء غير حي، فوصفناه بأجل القسمين فقلنا إنه حي لننفي الموت عنه.

فيقال: لا ريب أن الله حي كما نطقت بذلك كتبه المنزلة التي هي آياته القولية، ودلت على ذلك آياته كمخلوقاته، التي هي آياته الفعلية، قال - تعالى -: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} [فصلت: 53] .

أي القرآن حق، وقد تقدم ذكر القرآن في قوله: {قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد} [فصلت: 52] .

فالله - تعالى - يري عباده من آياته المشاهدة المعاينة الفعلية، ما يبين صدق آياته المنزلة المسموعة القولية.

قال - تعالى -: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [آل عمران: 2]

وقال - تعالى -: {وتوكل على الحي الذي لا يموت} [الفرقان: 58] .

والدلائل على حياته كثيرة:

منها: أنه قد ثبت أنه عالم، والعلم لا يقوم إلا بحي، وثبت أنه قادر مختار يفعل بمشيئته، والقادر المختار لا يكون إلا حيا.

ومنها: أنه خالق الأحياء وغيرهم، والخالق أكمل من المخلوق، فكل كمال ثبت للمخلوق فهو من الخالق، فيمتنع أن يكون المخلوق أكمل من خالقه، وكماله أكمل منه.

والمتفلسفة القائلون بالموجب بالذات يسلمون هذا، ويقولون: كمال المعلول مستفاد من علته فإذا كان خالقا للأحياء كان حيا بطريق الأولى والأحرى.

ومنها: أن الحي أكمل من غير الحي، كما قال - تعالى -: {وما يستوي الأحياء ولا الأموات} [فاطر: 22] .

فلو كان الخالق غير حي لزم أن يكون الممكن المحدث المخلوق أكمل من الواجب القديم الخالق، فيكون أنقص الموجودين أكمل من أكملها، وهذا الوجه يتناول ما ذكروه من الدليل، وإن كانوا لم يبينوه بيانا تاما، لكن قولهم قلنا إنه حي لننفي الموت عنه.

كلام مستدرك فإن الله موصوف بصفات الكمال الثبوتية كالحياة والعلم والقدرة، فيلزم من ثبوتها سلب صفات النقص، وهو سبحانه لا يمدح بالصفات السلبية إلا لتضمنها المعاني الثبوتية، فإن العدم المحض والسلب الصرف لا مدح فيه ولا كمال، إذ كان المعدوم يوصف بالعدم المحض، والعدم نفي محض لا كمال فيه، إنما الكمال في الوجود.

ولهذا جاء كتاب الله - تعالى - على هذا الوجه فيصف سبحانه نفسه بالصفات الثبوتية صفات الكمال وبصفات السلب المتضمنة للثبوت كقوله: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم} [البقرة: 255] .

فنفي أخذ السنة والنوم يتضمن كمال حياته وقيوميته، إذ النوم أخو الموت ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون مع كمال الراحة، كما لا يموتون.

والقيوم: القائم المقيم لما سواه، فلو جعلت له سنة أو نوم لنقصت حياته وقيوميته، فلم يكن قائما ولا قيوما، كما ضرب الله المثل لبني إسرائيل، لما سألوا موسى: هل ينام ربك؟ فأرقه ثلاثا، ثم أعطاه قوارير فأخذه النوم فتكسرت.

بين بهذا المثل أن خالق العالم لو نام لنفد العالم، ثم قال - تعالى -: {له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} [البقرة: 255] .

فإنكاره ونفيه أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه يتضمن كمال ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه ليس له شريك، فإن من شفع عنده غيره بغير إذنه وقبل شفاعته كان مشاركا له إذ صارت شفاعته سببا لتحريك المشفوع إليه، بخلاف من لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فإنه منفرد بالملك ليس له شريك بوجه من الوجوه.

ثم قال - تعالى -: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} [البقرة: 255] .

فنفى أن يعلم أحد شيئا من علمه إلا بمشيئته ليس إلا أنه منفرد بالتعليم، فهو العالم بالمعلومات، ولا يعلم أحد شيئا إلا بتعليمه، كما قالت الملائكة: {لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم} [البقرة: 32] ثم قال - تعالى -: {وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يئوده حفظهما} [البقرة: 255] أي لا يكرثه ولا يثقل عليه، فبين بذلك كمال قدرته، وأنه لا يلحقه أدنى مشقة، ولا أيسر كلفة في حفظ المخلوقات، كما قال - تعالى - في الآية الأخرى: {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} [ق: 38] .

بين بذلك كمال قدرته وأنه لا يلحقه اللغوب في الأعمال العظيمة مثل خلقه السماوات والأرض، كما يلحق المخلوق اللغوب إذا عمل عملا عظيما، واللغوب: الانقطاع والإعياء، وهذا باب واسع مبسوط في موضع آخر.

والمقصود هنا أنه موصوف بصفات الكمال التي يستحقها بذاته ويمتنع اتصافه بنقائضها، وإذا وصف بالسلوب، فالمقصود هو إثبات الكمال، وهؤلاء قالوا: قد وصفناه بالحياة لننفي عنه الموت، كما قالوا: هو شيء لننفي العدم عنه، والحياة صفة كمال يستحقها بذاته، والموت مناقض لها، فلم يوصف بالحياة لأجل نفي الموت، بل وصفه بالحياة يستلزم نفي الموت، فينفي عنه الموت لأنه حي، لا يثبت له الحياة لنفي الموت، وكذلك لتثبت له أنه شيء موجود، وذلك يستلزم نفي العدم عنه، لا أن إثبات وجوده لأجل نفي العدم، بل نفي العدم عنه لأجل وجوده، كما أن نفي الموت عنه لأجل حياته، وكذلك قولهم: قلنا إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة وذلك لننفي العدم عنه، لكن كان مرادهم والله أعلم - وإن كانت عبارتهم قاصرة - إثبات الوجود، ونفي العدم، وإثبات الحياة ونفي الموت.

[فصل: طرق معرفة صفات الرب]

ثم قالوا: ورأينا الحي ينقسم قسمين: حيا ناطقا، وحيا غير ناطق فوصفناه بأفضل الوصفين، فقلنا: إنه ناطق لننفي الجهل عنه.

فيقال لهم: لا ريب أن الرب سبحانه موصوف بأنه حي عليم قدير متكلم مختار، لكن قولهم: فقلنا إنه ناطق لننفي الجهل عنه يقتضي أنكم أردتم النطق المناقض للجهل، وهذا هو العلم، فإن العلم يناقض الجهل لم تريدوا بذلك النطق الذي هو العبارة والبيان، ولم تريدوا بذلك ما جعله بعض النظار كلاما، وهي معاني قائمة بالنفس ليست من جنس العلوم، ولا من جنس الإرادات، وحينئذ فيقال لكم: ليس في الأحياء إلا ما هو شاعر، فكل حي فله شعور بحسبه.

وكلما قويت الحياة قوي شعورها، وشعور الحيوان قد يعبر عنه بلفظ العلم، كما يقول الناس: علم الفهد والبازي والكلب، ويقال: كلب معلم وغير معلم وبازي معلم.

وقال - تعالى -: {وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله} [المائدة: 4] .

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله فقتل فكل» ولا ريب أن العلم صفة كمال، فالعالم أكمل من الجاهل، والدلائل الدالة على علم الله كثيرة، مثل أنه سبحانه خالق كل شيء بإرادته.

والإرادة تستلزم تصور المراد فلابد أن يعلم المخلوقات قبل أن يخلقها.

وكل ما وجد في الخارج فهو موجود وجودا معينا يمتاز به عن غيره، فإذا خلقها كذلك فلابد أن يعلمها علما مفصلا يمتاز به كل معلوم عما سواه، ولو قدر أنه علمها على وجه كلي فقط لم يكن علم منها شيئا، لأن الكلي إنما يكون كليا في الأذهان، وأما ما هو موجود في الخارج فهو معين مختص بعينه ليس بكلي.

وكل واحد من الأفلاك معين، فلو لم يعلم إلا الكليات لم يكن عالما بشيء من الموجودات، وقد بسط في غير هذا الموضع تمام الكلام على هذا وبين فساد شبه نفاة ذلك بما ادعوه من لزوم التغيير أو التكثر، وبين أنه لا يلزم من ثبوت علم الله بالأشياء كلها على وجه التفصيل محذور ينفيه دليل صحيح.

فإن التكثر فيما يقوم به من المعاني هو مدلول الأدلة العقلية والسمعية فإنه عالم قادر حي، وليس العلم هو القدرة، ولا القدرة هي الحياة ولا الصفة هي الموصوف، ومن جعل كل صفة هي الأخرى، وجعل الصفات هي الموصوف، فهو قول في غاية السفسطة.

وأيضا فإنه خالق العالمين من الملائكة والجن والإنس، وجاعلهم علماء، فيمتنع أن يجعل غيره عالما من ليس هو في نفسه بعالم، فإن العلم صفة كمال، ومن يعلم أكمل ممن لا يعلم، وكل كمال للمخلوق فهو من الخالق، فيمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق، وأيضا فإن في الممكنات المحدثة المخلوقة ما هو عالم، والواجب القديم الخالق أكمل من الممكن المحدث، فيمتنع أن يتصف بالكمال الموجود الناقص الخسيس دون الموجود الكامل الشريف، وهذا يتناول معنى حجتهم.

وأيضا فإنه حي، والحياة مستلزمة لجنس العلم، وإذا كانت حياته أكمل من كل حياة فعلمه أكمل من كل علم، لكن يقال لكم: كما أنه حي عالم فهو أيضا قادر، فما ذكرتم بأن الموجودات أو الأحياء تنقسم إلى قادر وغير قادر، فيجب أن يوصف بأجل القسمين، وهو القدرة.

لا سيما ودلائل كونه قادرا أظهر من دلائل كونه عالما، فإن نفس كونه خالقا فاعلا يستلزم كونه قادرا، فإن الفعل بدون القدرة ممتنع حتى إذا قيل: إن الجماد يفعل فإنما يفعل بقوة فيه كالقوى الطبيعية التي في الأجسام الطبيعية، فيمتنع في خالق العالم أن لا يكون له قوة، ولا قدرة، قال - تعالى -: {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} [الذاريات: 58] .

وقال - تعالى -: {أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة} [فصلت: 15] .

وفي صحيح البخاري حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب» وكثير من نظار المسلمين المصنفين في أصول الدين الذين يقيمون الدليل على كونه قادرا قبل كونه عالما وحيا، ويقولون: العلم بذلك أسبق في السلوك الاستدلالي النظري لدلالة الأحداث والفعل على قدرة المحدث الفاعل فيجب أن يثبتوا له صفة القدرة مع العلم.

وكذلك يقولون: إن الحي لما كان ينقسم إلى سميع، وغير سميع، وبصير، وغير بصير، وصفناه بأشرف القسمين، وهو السميع والبصير.

وكذلك في النطق إذا أريد به البيان والعبارة، ولم يرد به مجرد العلم، أو معنى من جنس العلم فإن الحي ينقسم إلى متكلم، ومبين معبر عما في نفسه، وإلى ما ليس كذلك، فيجب أن تصفوه بأشرف القسمين، وهو الكلام المبين المعبر عنه عما في النفس من المعاني.

ومما يستدل به على ثبوت جميع صفات الكمال أنه لو لم يوصف بكونه حيا عالما قادرا سميعا بصيرا متكلما لوصف بضد ذلك، كالموت والجهل والعجز والصمم والبكم والخرس، ومعلوم وجوب تقدسه عن هذه النقائص، بل هذا معلوم بالضرورة العقلية، فإنه أكمل الموجودات، وأجلها وأعظمها، ورب كل ما سواه وخالقه ومالكه، وجاعل كل ما سواه حيا عالما قادرا سميعا بصيرا متكلما، فيمتنع أن يكون هو شيئا عاجزا جاهلا أصم أبكم أخرس، بل من المعلوم بضرورة العقل أن المتصف بهذه النقائص يمتنع أن يكون فاعلا، فضلا عن أن يكون خالقا لكل شيء.

ولبعض الملاحدة من المتفلسفة ومن اتبعهم هنا سؤال مشهور وهو: أنه إنما يلزم إذا لم يتصف بصفات الكمال أن يوصف بأضدادها إذا كان قابلا لها، فأما إذا لم يكن قابلا لها لم يلزم.

قالوا: هذه الصفات متقابلة تقابل العدم والملكة، وهو عدم الشيء عما من شأنه أن يكون قابلا له كعدم الحياة والسمع والبصر.

والكلام عن الحيوان الذي هو القابل له، فإذا لم يكن قابلا له كالجماد، فلا يسمى مع عدم الحياة والسمع والبصر والكلام ميتا ولا أصم ولا أعمى ولا أخرس.

وجواب ذلك من أوجه:

أحدها: أنه إما أن يكون قابلا للاتصاف بصفات الكمال، وإما أن لا يكون.

فإن لم يكن قابلا لزم أن يكون أنقص ممن قبلها، ولم يتصف بها، فالجماد أنقص من الحيوان الذي لم يتصف بعد بصفات كماله، وإن كان قابلا لها لزم إذا عدمها أن يتصف بأضدادها.

وهؤلاء قد يقولون: في إثباتها تشبيه له بالحيوان، فيقال لهم: وفي نفيها تشبيه له بالجماد الذي هو أنقص من الحيوان، فإذا لم يكن في نفيها تشبيه له بالجماد، فكذلك لا يكون في إثباتها تشبيه له بالحيوان، وإن كان في ذلك تشبيه بالحيوان فهو محذور، فالمحذور في تشبيهه بالجماد أعظم وإن لم يكن مثل هذا التشبيه محذورا في ذلك، فأن لا يكون محذورا في هذا بطريق الأولى.

الوجه الثاني: أن جعلهم سلب الموت والصمم والبكم عن الجماد لزعمهم أنه غير قابل لها اصطلاح محض، فإنه موجود في كلام الله تسمية الجماد ميتا، كما قال - تعالى - في الأصنام: {أموات غير أحياء} [النحل: 21] .

الوجه الثالث: أنه يكفي عدم هذه الصفات، فإن مجرد عدم الحياة والعلم والقدرة صفة نقص سواء قدر الموصوف قابلا لها أو غير قابل، بل إذا قدر أنه غير قابل لها كان ذلك أبلغ في النقص.

فعلم أن نفي هذه الصفات عنه، ونفي قبولها يوجب أن يكون أنقص من الحيوان الأعمى الأصم الذي يقبلها، وإن لم يتصف بها.

الوجه الرابع: أن الكمال في الوجود، والنقص في العدم، فنفس ثبوت هذه الصفات كمال، ونفس نفيها نقص، وإن لم يتصف بها لزم نقصه، وأن يكون المفعول أكمل من الفاعل، وأن يكون المحدث الممكن المخلوق أكمل من القديم الأزلي الواجب الوجود الخالق، وهذا ممتنع في بداية العقول، وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع ولكن نبهنا عليها هنا لبيان بعض الطرق التي بها تعرف صفات الرب، وبيان أن هؤلاء القوم من أجهل أهل الملل بالرب.

والطرق التي يعرف بها كماله فيها العقلية والسمعية، وأن القوم عندهم من ألفاظ الأنبياء ما لم يفهموا كثيرا منه وما حرفوا كثيرا منه، وعندهم من المعقول في ذلك ما يفضلهم اليهود فيه، لكن اليهود، وإن كانوا أعلم منهم، فهم أعظم عنادا وكبرا وجحدا للحق، والنصارى أجهل وأضل من اليهود لكن هم أعبد وأزهد وأحسن أخلاقا، ولهذا كانوا أقرب مودة للذين آمنوا من اليهود والمشركين.

[فصل: بيان أسماء الله تعالى]

قالوا: والثلاثة أسماء فهي إله واحد ورب واحد، وخالق واحد، مسمى واحد لم يزل ولا يزال شيئا حيا ناطقا، أي الذات، والنطق، والحياة.

فالذات عندنا: الأب الذي هو ابتداء الاثنين.

والنطق: الابن الذي هو مولود منه كولادة النطق من العقل.

والحياة: هي الروح القدس.

والجواب عن هذا من وجوه:

الأول أن أسماء الله تبارك و - تعالى - متعددة كثيرة، فإنه: {هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم} [الحشر: 22] (22) {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون} [الحشر: 23] (23) {هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} [الحشر: 24]

وقال - تعالى -: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون} [الأعراف: 180]

وقال - تعالى -: {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى} [الإسراء: 110] .

وقال - تعالى -: {طه} [طه: 1] (1) {ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى} [طه: 2] (2) {إلا تذكرة لمن يخشى} [طه: 3] (3) {تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلا} [طه: 4] (4) {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] (5) {له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى} [طه: 6] (6) {وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى} [طه: 7] (7) {الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى} [طه: 8] .

وفي الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة»

وهذا معناه في أشهر قولي العلماء وأصحهما أن من أسمائه - تعالى - تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة، وإلا فأسماؤه تبارك و - تعالى -: أكثر من ذلك، كما في الحديث الآخر الذي رواه أحمد في مسنده، وأبو حاتم في صحيحه، عن ابن مسعود، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن وقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدل مكانه فرحا، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتعلمهن، قال: بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن» .

وإذا كانت أسماء الله كثيرة، كالعزيز والقدير وغيرها، فالاقتصار على ثلاثة أسماء دون غيرها باطل، وأي شيء زعم الزاعم في اختصاص هذه الأسماء به دون غيرها فهو باطل، كما قد بسط في موضع آخر.

الوجه الثاني: قولهم الأب الذي هو ابتداء الاثنين، والابن: النطق الذي هو مولود منه، كولادة النطق من العقل، كلام باطل، فإن صفات الكمال لازمة لذات الرب عز وجل أولا وآخرا، ولم يزل ولا يزال حيا عالما قادرا، لم يصر حيا بعد أن لم يكن حيا، ولا عالما بعد أن لم يكن عالما.

فإذا قالوا: إن الأب الذي هو الذات، هو ابتداء الحياة والنطق اقتضى ذلك أن يكون الأب قبل الحياة والنطق، وأن يكون فاعلا للحياة والنطق، فإن ما كان ابتداء لغيره يكون متقدما عليه أو فاعلا له.

وهذا في حق الله باطل.

وكذلك قولهم: إن النطق مولود منه كولادة النطق من العقل، فإن المولود من غيره متولد منه، فيحدث بعد أن لم يكن، كما يحدث النطق شيئا فشيئا، سواء أريد بالنطق العلم أو البيان فكلاهما لم يكن لازما للنفس الناطقة، بل حدث فيها واتصفت به بعد أن لم يكن، وإن كانت قابلة له ناطقة بالقوة، فإذا مثلوا تولد النطق من الرب كتولده عن العقل لزم أن يكون الرب كان ناطقا بالقوة، ثم صار ناطقا بالفعل فيلزم أنه صار عالما بعد أن لم يكن عالما، وهذا من أعظم الكفر وأشده استحالة، فإنه لا شيء غيره يجعله متصفا بصفات الكمال بعد أن لم يكن متصفا بها، إذ كل ما سواه فهو مخلوق له وكماله منه، فيمتنع أن يكون هو جاعل الرب سبحانه و - تعالى - كاملا.

وذلك دور ممتنع في صريح العقل، إذ كان الشيء لا يجعل غيره متصفا بصفات الكمال، حتى يكون هو متصفا بها، فإذا لم يتصف بها حتى جعله غيره متصفا بها لزم الدور الممتنع، مثل كون كل من الشيئين فاعلا للآخر وعلة له أو لبعض صفاته المشروطة في الفعل فتبين بطلان كون نطقه متولدا منه، كتولد النطق من العقل، كما بطل أن يكون لصفاته اللازمة له ما هو مبدأ لها متقدم عليها أو فاعل لها.

الوجه الثالث: أن قولهم في الابن أنه مولود من الله إن أرادوا به أنه صفة لازمة له، فكذلك الحياة صفة لازمة لله، فيكون روح القدس أيضا ابنا ثانيا، وإن أرادوا به أنه حصل منه بعد أن لم يكن، صار عالما بعد أن لم يكن عالما، وهذا مع كونه باطلا وكفرا فيلزم مثله في الحياة، وهو أنه صار حيا بعد أن لم يكن حيا.

الوجه الرابع: أن تسمية حياة الله روح القدس أمر لم ينطق به شيء من كتب الله المنزلة، فإطلاق روح القدس على حياة الله من تبديلهم وتحريفهم.

الوجه الخامس: أنهم يدعون أن المتحد بالمسيح هو الكلمة الذي هو العلم، وهذا إن أرادوا به نفس الذات العالمة الناطقة، كان المسيح هو الأب، وكان المسيح نفسه هو الأب، وهو الابن، وهو روح القدس، وهذا عندهم وعند جميع الناس باطل وكفر.

وإن قالوا المتحد به هو العلم، فالعلم صفة لا تفارق العالم، ولا تفارق الصفة الأخرى التي هي حياة، فيمتنع أن يتحد به العلم دون الذات، ودون الحياة.

الوجه السادس: أن العلم أيضا صفة، والصفة لا تخلق ولا ترزق، والمسيح نفسه ليس هو صفة قائمة بغيرها باتفاق العقلاء، وأيضا فهو عندهم خالق السماوات والأرض، فامتنع أن يكون المتحد به صفة، فإن الإله المعبود هو الإله الحي العالم القادر، وليس هو نفس الحياة، ولا نفس العلم والكلام.

فلو قال قائل: يا حياة الله، أو يا علم الله، أو يا كلام الله، اغفر لي، وارحمني واهدني، كان هذا باطلا في صريح العقل، ولهذا لم يجوز أحد من أهل الملل أن يقال للتوراة أو الإنجيل وغير ذلك من كلام الله اغفر لي وارحمني، وإنما يقال للإله المتكلم بهذا الكلام: اغفر لي وارحمني.

والمسيح - عليه السلام - عندكم هو الإله الخالق الذي يقال له اغفر لنا وارحمنا، فلو كان هو نفس علم الله وكلامه لم يجز أن يكون إلها معبودا فكيف إذا لم يكن هو نفس علم الله وكلامه، بل هو مخلوق بكلامه حيث قال له: كن فيكون؟

فتبين من ذلك أن كلمات الله كثيرة لا نهاية لها، وفي الكتب الإلهية كالتوراة أنه خلق الأشياء بكلامه، وكان في أول التوراة أنه قال: ليكن كذا ليكن كذا.

ومعلوم أن المسيح ليس هو كلمات كثيرة، بل غايته أن يكون كلمة واحدة، إذ هو مخلوق بكلمة من كلمات الله عز وجل.

الوجه السابع: أن أمانتكم التي وضعها أكابركم بحضرة قسطنطين، وهي عقيدة إيمانكم التي جعلتموها أصل دينكم تناقض ما تدعونه من أن الإله واحد، وتبين أنكم تقولون لمن يناظركم خلاف ما تعتقدونه.

وهذان أمران معروفان في دينكم تناقضكم وإظهاركم في المناظرة بخلاف ما تقولونه من أصل دينكم، فإن الأمانة التي اتفق عليها جماهير النصارى يقولون فيها: أومن بإله واحد، أب ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء وتأنس وصلب وتألم وقبر، وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، وأيضا سيأتي بمجده ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه، وبروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن المسجود له، وممجد ناطق في الأنبياء، كنيسة واحدة جامعة رسولية، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، وابن جاء لقيامة الموتى، وحياة الدهر العتيد كونه أمينا.

ففي هذه الأمانة التي جعلتموها أصل دينكم ذكر الإيمان بثلاثة أشياء بإله واحد خالق السماوات والأرض، خالق ما يرى وما لا يرى، فهذا هو رب العالمين الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، وهو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء والمرسلين، وهو الذي دعت جميع الرسل إلى عبادته وحده لا شريك له ونهوا أن يعبد غيره، كما قال الله - تعالى -:

{وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: 25] .

وقال - تعالى -: {وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} [الزخرف: 45] .

ثم قلتم: وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوق، مساو الأب في الجوهر، فصرحتم بالإيمان مع خالق السماوات والأرض برب واحد مخلوق، مساو الأب ابن الله الوحيد، وقلتم: هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه.

وهذا تصريح بالإيمان بإلهين، أحدهما من الآخر، وعلم الله القائم به، أو كلامه أو حكمته القائمة به الذي سميتموه ابنا، ولم يسم أحد من الرسل صفة الله ابنا ليس هو إله حق من إله حق، بل إله واحد وهذا صفة الإله، وصفة الإله ليست بإله، كما أن قدرته وسمعه وبصره وسائر صفاته ليس بآلهة، ولأن الإله واحد، وصفاته متعددة، والإله ذات متصفة بالصفات قائمة بنفسها، والصفة قائمة بالموصوف، ولأنكم سميتم الإله جوهرا، وقلتم: هو القائم بنفسه، والصفة ليست جوهرا قائما بنفسه.

وهم في هذه الأمانة قد جعلوا الله والدا وهو الأب، ومولودا وهو الابن، وجعلوه مساويا له في الجوهر، وقد نزه الله نفسه عن الأنواع الثلاثة، فقالوا: مولود غير مخلوق مساو الأب في الجوهر، فصرحوا بأنه مساو له في الجوهر، والمساوي ليس هو المساوى.

ولا يساوي الأب في الجوهر إلا جوهر، فوجب أن يكون الابن جوهرا ثانيا، وروح القدس جوهرا ثالثا كما سيأتي.

وهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر، وثلاثة آلهة، ويقولون مع ذلك: إنما نثبت جوهرا واحدا وإلها واحدا، وهذا جمع بين النقيضين، فهو حقيقة قولهم يجمعون بين جعل الآلهة واحدا، وإثبات ثلاثة آلهة، وبين إثبات جوهر واحد، وبين إثباته ثلاثة جواهر، وقد نزه الله نفسه عن ذلك بقوله:

{قل هو الله أحد} [الإخلاص: 1] (1) {الله الصمد} [الإخلاص: 2] (2) {لم يلد ولم يولد} [الإخلاص: 3] (3) {ولم يكن له كفوا أحد} [الإخلاص: 4] .

فنزه نفسه أن يلد كما يقولون: هو الأب، وأن يولد كما يقولون: هو الابن، وأن يكون له كفوا أحد، كما يقولون: إن له من يساويه في الجوهر.

وإذا قلتم نحن نقول أحدي الذات ثلاثي الصفات، قيل لكم: قد صرحتم بإثبات إله حق من إله حق وبأنه مساو للأب في الجوهر، وهذا تصريح بإثبات جوهر ثاني لا بصفة، فجمعتم بين القولين بين إثبات ثلاثة جواهر، وبين دعوى إثبات جوهر واحد، ولا ينجيكم من هذا اعتذار من اعتذر منكم كيحيى بن عدي ونحوه حيث قالوا: هذا بمنزلة قولك: زيد الطبيب الحاسب الكاتب، ثم تقول: زيد الطبيب وزيد الحاسب وزيد الكاتب.

فهو مع كل صفة له حكم خلاف حكمه مع الصفة الأخرى، وقد يفسرون الأقنوم بهذا، فيقولون: الأقنوم هو الذات مع الصفة، فالذات مع كل صفة أقنوم، فصارت الأقانيم ثلاثة، لأن هذا المثال لا يطابق قولكم، فإن زيدا هنا هو جوهر واحد له ثلاث صفات: الطب والحساب والكتابة، وليس هنا ثلاثة جواهر، ولكن لكل صفة حكم ليس للأخرى.

ولا يقول عاقل: إن الصفة مساوية للموصوف في الجوهر، ولا أن الذات مع هذه الصفة تساوي الذات مع الصفة الأخرى في الجوهر، لأن الذات واحدة والمساوي ليس هو المساوى، ولأن الذات مع الصفة هي الأب فإن كان هذا هو الذي اتحد بالمسيح فالمتحد به هو الأب، ولأنكم قلتم عن هذا الذي قلتم: (إنه إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي هو مساو الأب في الجوهر وأنه نزل، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس وصلب وتألم) فاقتضى ذلك أن يكون الإله الحق المساوي للأب في الجوهر صلب وتألم، فيكون اللاهوت مصلوبا متألما، وهذا تقر به طوائف منكم، وطوائف تنكره، لكن مقتضى أمانتكم هو الأول.

وأيضا فإذا كان تجسد من روح القدس ومريم، فإن كان روح القدس هو حياة الله، كما زعمتم فيكون المسيح كلمة الله وحياته، فيكون لاهوته أقنومين من الأقانيم الثلاثة، وعندهم إنما هو أقنوم الكلمة فقط وإن كان روح القدس ليس هو حياة الله بطل تفسيركم لروح القدس بأنه حياة الله.

وقيل لكم: لا يجب أن يكون روح القدس صفة لله ولا أقنوما.

ثم ذكرتم في عقيدة أمانتكم أنكم تؤمنون بروح القدس الرب المحيي، فأثبتم ربا ثالثا، قلتم المنبثق من الأب والانبثاق: الانفجار، كالاندفاق والانصباب، ونحو ذلك، يقال: بثق السيل موضع كذا يبثقه بثقا أي خرقه وشقه فانبثق أي انفجر، فاقتضى ذلك أن يكون هذا الرب المحيي انفجر من الأب واندفق منه.

ثم قلتم: هو مع الأب مسجود له وممجد ناطق في الأنبياء فجعلتموه مع الأب مسجودا له فأثبتم إلها ثالثا يسجد له.

ومعلوم أن حياة الله التي هي صفته ليست منبثقة منه، بل هي قائمة به لا تخرج عنه البتة، وهي صفة لازمة له لا تتعلق بغيره، فإن العلم يتعلق بالمعلومات، والقدرة بالمقدورات والتكليم بالمخاطبين بخلاف التكلم فإنه صفة لازمة، يقال: علم الله كذا، وقدر الله على كل شيء، وكلم الله موسى.

وأما الحياة: فاللفظ الدال عليها لازم لا يتعلق بغير الحي، يقال حيا يحيا حياة، ولا يقال حيا كذا ولا بكذا، وإنما يقال: أحيا كذا، والإحياء فعل غير كونه حيا، كما أن التعليم غير العلم، والإقدار غير القدرة، والتكليم غير التكلم، ثم جعلتم روح القدس هذا ناطقا في الأنبياء - عليهم السلام -، وحياة الله صفة قائمة به لا تحل في غيره، وروح القدس الذي تكون في الأنبياء والصالحين ليس هو حياة الله القائمة به، ولو كان روح القدس الذي في الأنبياء هو أحد الأقانيم الثلاثة لكان كل من الأنبياء إلها معبودا قد اتحد ناسوته باللاهوت كالمسيح عندكم، فإن المسيح لما اتحد به أحد الأقانيم صار ناسوتا ولاهوتا، فإذا كان روح القدس الذي هو أحد الأقانيم الثلاثة ناطقا في الأنبياء كان كل منهم فيه لاهوت وناسوت كالمسيح وأنتم لا تقرون بالحلول والاتحاد إلا للمسيح وحده مع إثباتكم لغيره ما ثبت له.

وهم تارة يشبهون الأقنومين - العلم والحياة التي يسمونها الكلمة وروح القدس - بالضياء والحرارة التي للشمس، مع الشمس ويشبهون ذلك بالحياة والنطق الذي للنفس مع النفس، وهذا تشبيه فاسد، فإنهم إن أرادوا بالضياء والحرارة ما يقوم بذات الشمس، فذلك صفة للشمس قائمة بها لم تحل بغيرها ولم تتحد بغيرها، كما أن صفة النفس كذلك هذا إن قيل إن الشمس تقوم به حرارة، وإلا فهذا ممنوع.

والمقصود هنا: بيان فساد كلامهم وقياسهم.

وإن أرادوا ما هو بائن عن الشمس قائم بغيرها. كالشعاع القائم بالهواء والأرض، والحرارة القائمة بذلك كان هذا دليلا على فساد قولهم من وجوه:

منها: أن هذه أعراض منفصلة بائنة عن الشمس قائمة بغيرها لا بها، ونظير هذا ما يقوم بقلوب الأنبياء من العلم والحكمة والوحي الذي أنذروا به، وعلى هذا التقدير فليس في الناسوت شيئا من اللاهوت وإنما فيه آثار حكمته وقدرته.

ومنها: أن الحرارة والضوء القائم بالهواء والجدران أعراض قائمة بغير الشمس، والكلمة وروح القدس عندهم هما جوهران.

ومنها: أن هذا ليس هو الشمس، ولا صفة من صفات الشمس، وإنما هو أثر حاصل في غير الشمس بسبب الشمس، ومثل هذا لا ينكر قيامه بالأنبياء والصالحين، ولكن ليس للمسيح - عليه السلام - بذلك اختصاص، فما حل بالمسيح حل بغيره من المرسلين، وما لم يحل بغيره لم يحل به فلا اختصاص له بأمر يوجب أن يكون إلها دون غيره من الرسل، ولا هنا اتحاد بين اللاهوت والناسوت، كما لم تتحد الشمس ولا صفاتها القائمة بها بالهواء، والأرض التي حصل بها الشعاع والحرارة.

[فصل: رد دعواهم أن الله قد سمى نفسه أبا وابنا وروح قدس]

قالوا: وهذه الأسماء لم نسمه نحن معشر النصارى بها من ذات أنفسنا، بل الله سمى لاهوته بها، وذلك أنه قال على لسان موسى النبي في التوراة مخاطبا بني إسرائيل قائلا: أليس هذا الأب الذي صنعك وبراك واقتناك؟ وعلى لسانه أيضا قائلا: وكان روح الله ترف على الماء وقوله على لسان داود النبي: روحك القدس لا تنزع مني، وأيضا على لسانه بكلمة الله تشددت السماوات والأرض وبروح فاه جميع قواتهن.

وقوله: على لسان أشعيا: (ييبس القتاد ويجف العشب، وكلمة الله باقية إلى الأبد، وعلى لسان أيوب الصديق، روح الله خلقني وهو يعلمني) .

وقال السيد المسيح في الإنجيل المقدس للتلاميذ الأطهار: (اذهبوا إلى جميع العالم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به) ، وقد قال في هذا الكتاب: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} [الصافات: 171] .

وقال أيضا: {ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس} [المائدة: 110] .

وقال أيضا: {وكلم الله موسى تكليما} [النساء: 164]

وقال في سورة التحريم: {ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين} [التحريم: 12] .

وسائر المسلمين يقولون: إن الكتاب كلام الله ولا يكون كلام إلا لحي ناطق، وهذه صفات جوهرية تجري مجرى الأسماء، وكل صفة منها غير الأخرى والإله واحد لا يتبعض ولا يتجزأ.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن تقول: إن كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يكون إلا حقا وصدقا، ولا يكون فيه شيء يعلم بطلانه بصريح العقل، وإن كان فيه ما يعجز العقل عن معرفته بدون إخبار الأنبياء، ولا يكون كلام النبي الذي يخبر به مناقضا لكلامه في موضع آخر، ولا لكلام سائر الأنبياء، بل كل ما أخبرت به الأنبياء فهو حق وصدق، يصدق بعضه بعضا.

وقد أوجب الله علينا أن نؤمن بكل ما أخبروا به، وحكم بكفر من آمن ببعض ذلك، وكفر ببعضه، فما علم بصريح العقل لا يناقض ما علم بالنقل الصحيح عن الأنبياء وما علم بالنقل الصحيح عن بعضهم لا يناقض ما علم بالنقل الصحيح عن غيره، ولكن قد يختلف بعض الشرع والمناهج في الأمر والنهي.

فأما ما يخبرون به عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وغير ذلك، فلا يجوز أن يناقض بعضه بعضا.

وإذا كان كذلك فما ينقلونه عن الأنبياء إنما تتم الحجة به إذ علم إسناده ومتنه، فيعلم أنه منقول عنهم نقلا صحيحا، ونعلم أن ترجمته من العبرية إلى اللسان الآخر، كالرومية والعربية والسريانية ترجمة صحيحة ويعلم بعد ذلك أنهم أرادوا به ذلك المعنى.

وليس مع النصارى حجة عن الأنبياء تثبت فيها هذه المقدمات الثلاث ونحن في هذا المقام يكفينا المنع، والمطالبة لهم بتصحيح هذه المقدمات فإنهم ادعوا أن التثليث أخذوه عن الأنبياء، فنحن نطالبهم بتصحيح هذه المقدمات.

والجواب الثاني: أنا نبين تفسير ما ذكروه من الكلمات، أما قوله على لسان موسى - عليه السلام - مخاطبا بني إسرائيل قائلا: (أليس الأب الذي صنعك وبراك واقتناك) ؟ فهذا فيه أنه سماه أبا لغير المسيح - عليه السلام -، وهذا نظير قوله لإسرائيل: (أنت ابني بكري) ، وداود (ابني حبيبي) ، وقول المسيح (أبي وأبيكم) وهم يسلمون أن المراد بهذا في حق غير المسيح بمعنى الرب لا معنى التولد الذي يخصون به المسيح.

الثالث: أن هذا حجة عليهم، فإذا كان في الكتب المتقدمة تسميته أبا لغير المسيح وليس المراد بذلك إلا معنى الرب، علم أن هذا اللفظ في لغة الكتب يراد به الرب، فيجب حمله في حق المسيح على هذا المعنى، لأن الأصل عدم الاشتراك في الكلام.

الرابع: أن استعماله في المعنى الذي خصوا به المسيح، إنما يثبت إذا علم أنه أريد المعنى الذي ادعوه في المسيح فلو أثبت ذلك المعنى بمجرد إطلاق لفظ الأب لزم الدور، فإنه لا يعلم أنه أريد به ذلك المعنى من حيث يثبت أنه كان يراد به في حق الله هذا المعنى ولا يثبت ذلك، حتى يعلم أنه أريد به ذلك المعنى في حق المسيح، فإذا توقف العلم بكل منهما على الآخر لم يعلم واحد منهما، فتبين أنه لا علم عندهم بأنه أريد في حق المسيح، بلفظ الأب ما خصوه به في محل النزاع.

الوجه الخامس: أنه يوجد في كتب الأنبياء وكلامهم إطلاق اسم الأب، والمراد به أب اللاهوت، ولا إطلاق اسم الابن والمراد به شيء من اللاهوت لا كلمته ولا حياته، بل لا يوجد لفظ الابن إلا والمراد به المخلوق، فلا يكون لفظ الابن إلا لابن مخلوق.

وحينئذ فيلزم من ذلك أن يكون مسمى الابن في حق المسيح هو الناسوت، وهذا يبطل قولهم: إن الابن وروح القدس أنهما صفتان لله وأن المسيح اسم للاهوت والناسوت، فتبين أن نصوص كتب الأنبياء تبطل مذهب النصارى، وتناقض أمانتهم، فهم بين أمرين: بين الإيمان بكلام الأنبياء (وبطلان دينهم.

وبين تصحيح دينهم وتكذيب الأنبياء) ، وهذا هو المطلوب.

[فصل: بيان معنى الروح في قوله وكان روح الله ترف على الماء]

قالوا: وعلى لسانه أيضا قائلا: (وكان روح الله ترف على الماء) .

فيقال هذا في السفر الأول " سفر الخليقة " في أوله، لما ذكر أنه في البدء خلق السماوات والأرض، وأنه كانت الأرض مغمورة بالماء، وكانت روح الله ترف على الماء، أخبر أنه كان الماء فوق التراب والهواء فوق الماء، وروح الله هي الريح التي كانت فوق الماء.

هذا تفسير جميع الأمم من المسلمين واليهود وعقلاء النصارى، ولفظ الكلمة بالعبرية " روح " بضم الراء وتشديد الواو، وهي الروح، والريح تسمى روحا، وجمعها أرواح، ولم يرد بذلك أن حياة الله كانت ترف على الماء.

فإن هذا لا يقوله عاقل، فإن حياة الله صفة قائمة به لا تفارقه ولا تقوم بغيره فيمتنع أن تقوم بماء أو غيره فضلا عن أن ترف على الماء والذي يرف على الماء، جسم قائم بنفسه، وهذا إخبار عن الريح التي كانت تتحرك فوق الماء.

ومثل هذا قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فلا تسبوها ولكن تعوذوا بالله من شرها وسلوا الله خيرها» وقوله: إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن

[فصل: بيان معنى قوله على لسان داود " روحك القدس لا تنزع مني]

قالوا: وقوله على لسان داود النبي صلى الله عليه وسلم: " روحك القدس لا تنزع مني ".

فيقال: هذا دليل على أن روح القدس كانت في داود، فعلم بذلك أن روح القدس التي كانت في المسيح من هذا الجنس، فعلم بذلك أن روح القدس لا تختص بالمسيح، وهم يسلمون ذلك، فإن ما في الكتب التي بأيديهم في غير موضع أن روح القدس حلت في غير المسيح في داود، وفي الحواريين، وفي غيرهم.

وحينئذ فإن كان روح القدس هو حياة الله ومن حلت فيه يكون لاهوتا، لزم أن يكون إلها ولزم أن يكون كل هؤلاء فيهم لاهوت وناسوت كالمسيح، وهذا خلاف إجماع المسلمين والنصارى واليهود.

ويلزم من ذلك أيضا أن يكون المسيح فيه لاهوتان الكلمة وروح القدس، فيكون المسيح مع الناسوت أقنومين: أقنوم الكلمة، وأقنوم روح القدس، وأيضا فإن هذه ليست صفة لله قائمة به، فإن صفة الله القائمة به، بل وصفة كل موصوف لا تفارقه وتقوم بغيره، وليس في هذا أن الله اسمه روح القدس، ولا أن حياته اسمها روح القدس ولا أن روح القدس الذي تجسد المسيح منه، ومن مريم هو حياة الله سبحانه و - تعالى -، وأنتم قلتم إنا معاشر النصارى لم نسمه بهذه الأسماء من ذات أنفسنا، ولكن الله سمى لاهوته بها، وليس فيما ذكرتموه عن الأنبياء أن الله سمى نفسه، ولا شيئا من صفاته بروح القدس، ولا سمى نفسه ولا شيئا من صفاته ابنا فبطل تسميتكم لصفته التي هي الحياة بروح القدس ولصفته التي هي العلم بالابن.

وأيضا فأنتم تزعمون أن المسيح مختص بالكلمة والروح، فإذا كانت روح القدس في داود - عليه السلام - والحواريين وغيرهم، بطل ما خصصتم به المسيح، وقد علم بالاتفاق أن داود عبد لله عز وجل، وإن كانت روح القدس فيه.

وكذلك المسيح عبد لله وإن كانت روح القدس فيه، فما ذكرتموه عن الأنبياء حجة عليكم لأهل الإسلام لا حجة لكم.

[فصل: بيان معنى قوله على لسان داود بكلمة الله تشددت السماوات والأرض وبروح فاه جميع قواتهن]

قالوا: وأيضا على لسان داود النبي - عليه السلام -: بكلمة الله تشددت السماوات والأرض، وبروح فاه جميع قواتهن.

فيقال: أما قوله: بكلمة الله تشددت السماوات والأرض، فهو أيضا حجة عليكم لوجوه:

أحدها: أن الله خلق الأشياء بكلمته التي هي (كن) ، كما قال في التوراة (ليكن كذا ليكن كذا ليكن كذا) وكذلك في الزبور: (لأنه قال فكانوا، وهو أمر فخلقوا) فجعل كونهم عن قوله.

ومثل قوله في الزبور: (الكل بحكمة صنعت) ، وفي القرآن: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} [يس: 82] .

وليس المسيح هو هذه الكلمات.

الثاني: أن كلمة الله اسم جنس، فإن كلمات الله لا نهاية لها، قال - تعالى -:

{قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا} [الكهف: 109] .

والتوراة تدل على تعدد الكلمات، وإذا كان كذلك، فالمسيح ليس هو مجموع الكلمات، بل خلق بكلمة منها.

الثالث: أن المسيح عندكم هو الخالق، وأنتم مع قولكم: إنه الابن والكلمة، تقولون إنه الإله الخالق، وتقولون إنه إله حق من إله حق، وتقولون: إله واحد فتجمعون بين النقيضين، وإذا كان هو الخالق فهو الذي يشدد السماوات والأرض، لا يقال به تشددت السماوات والأرض، وإنما يقال به فيما كان صفة للموصوف، فيقال: خلق الله الأشياء بكن، وخلق الأشياء بقدرته.

وقوله: (بكلمته تشددت السماوات والأرض) يقتضي أن الكلمة صفة فعل بها لأنها هي الخالقة والمسيح عندكم هو الخالق ليس هو صفة خلق.

والرابع: أن كلمة الله يراد بها جنس كلماته، كما قال - تعالى -: {وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا} [التوبة: 40]

وكقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وحينئذ فالمراد أن الله أقام السماوات والأرض بكلمته، كقوله كن وليس في هذا تعرض للمسيح - عليه السلام -.

وأما نقلكم أنه قال: (وبروح فاه جميع قواتهن) فهذه الكلمة سواء كانت حقا أو باطلا، لا حجة لكم فيها لأنه إن أريد بهذه الكلمة حياة الله فإثبات حياة الله حق وهو لم يسم حياة الله روح القدس، كما زعمتم، وإن أراد شيئا غير حياة الله لم تنفعكم فأنتم ادعيتم أن حياة الله روح القدس حتى قلتم مراده في الإنجيل بقوله: (عمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس) هو حياة الله، وادعيتم أن الأنبياء سموه بذلك ولم تذكروا نقلا عن الأنبياء أنهم سموا حياته روح القدس، بل ذكرتم عنهم ما يوافق ما في القرآن أن روح القدس ليس المراد بها حياة الله، ولو قدر أن هذا اللفظ استعمل في هذا وهذا لم يتعين أن المسيح أراد بقوله: (روح القدس) حياة الله، فكيف إذا لم يستعمل في كلام الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - في حياة الله قط.

[فصل: بيان المعنى الصحيح لروح الله]

قالوا: وقوله: على لسان أيوب الصديق روح الله خلقني وهو يعلمني.

فيقال هذا لا حجة فيه لأنكم ادعيتم أن الأنبياء سمت حياة الله روح القدس، وهذا لم يقل روح القدس، بل قال روح الله.

وروح الله يراد بها الملك الذي هو روح اصطفاه الله فأحبها، كما قال في القرآن: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا} [مريم: 17] (17) {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا} [مريم: 18] (18) {قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} [مريم: 19] .

فقد أخبر أنه أرسل إليها روحه فتمثل لها بشرا سويا، وتبين أنه رسوله.

فعلم أن المراد بالروح ملك، هو روح اصطفاها فأضافها إليه، كما يضاف إليه الأعيان التي خصها بخصائص يحبها.

كقوله: {ناقة الله وسقياها} [الشمس: 13] .

وقوله: {وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود} [الحج: 26] .

وقوله: {عينا يشرب بها عباد الله} [الإنسان: 6] .

والمضاف إلى الله إن كان صفة لم تقم بمخلوق كالعلم والقدرة والكلام والحياة، كان صفة له، وإن كان عينا قائمة بنفسها أو صفة لغيره، كالبيت والناقة والعبد والروح، كان مخلوقا مملوكا مضافا إلى خالقه ومالكه، ولكن الإضافة تقتضي اختصاص المضاف بصفات تميز بها عن غيره، حتى استحق الإضافة، كما اختصت الكعبة والناقة والعباد الصالحون بأن يقال فيهم (بيت الله) و (ناقة الله) و (عباد الله) ، كذلك اختصت الروح المصطفاة بأن يقال لها روح الله.

بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشياطين والكفار، فإنها مخلوقة لله، ولا تضاف إليه إضافة الأرواح المقدسة، كما لا تضاف إليه الجمادات كما تضاف الكعبة، ولا نوق الناس، كما تضاف ناقة صالح التي كانت آية من آياته.

كما قال - تعالى -: {هذه ناقة الله لكم آية} [الأعراف: 73] .

وإذا كان كذلك فهذا اللفظ إن كان ثابتا عن النبي وترجم ترجمة صحيحة، فقد يكون معناه أن الملك صورني في بطن أمي، وهو يعلمني، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أو أنثى، فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجله؟ فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه؟ فيقول ربك ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزاد على أمر ولا ينقص» رواه مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري.

وقد يقال: من هذا قوله في الزبور في مزمور الخليقة: ترسل روحك فيخلقون، وفي المزمور أيضا هو قال: فكانوا وأمر فخلقوا فقد يضاف الخلق إلى الملك.

ومن هذا الباب قوله - تعالى -:{أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله} [آل عمران: 49] .

فأخبره أنه يخلق من الطين كهيئة الطير طيرا بإذن الله، وكذلك الملك يخلق النطفة في الرحم بإذن الله.

ولا يجوز أن يريد به أن حياة الله خلقتني وتعلمني، فإن الصفة لا تخلق ولا تعلم، إنما يخلق ويعلم الرب الموصوف الذي خلق الإنسان من علق، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، ولكن هو سبحانه يخلق بواسطة الملائكة، فإن الملائكة رسل الله في الخلق، فجاز أن يضاف الفعل إلى الوسائط تارة، وإلى الرب أخرى، وهذا موجود في الكتب الإلهية في غير موضع كما في القرآن: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها} [الزمر: 42] .

وفي موضع آخر: {حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون} [الأنعام: 61] .

وفي موضع ثالث: {قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون} [السجدة: 11] .

والجميع حق، فإذا وجد لفظ له معنى في كلام بعض الأنبياء، ولم يوجد له معنى يخالف ذلك من كلامهم، كان حمله على ذلك المعنى أولى من حمله على معنى يخالف كلامهم، ولا يوجد في كلامهم أن حياة الله تسمى روحا، ولا أن صفات الله تخلق المخلوقات.

[فصل: بيان المعنى الصحيح لكلمة الله]

قالوا: وقوله: على لسان أشعيا النبي: (ييبس القتاد، ويجف العشب، وكلمته باقية إلى الأبد) .

فيقال: إما أن يريد بكلمة الله علمه، أو كلمة معينة، أو تكون كلمة الله اسم جنس، وعلى التقديرات الثلاثة لا حجة لكم في ذلك، فإنه إن كان كلمة الله اسم جنس لكل ما تكلم الله به كما قال: {وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا} [التوبة: 40] . وقال النبي - صلى الله عليه وسلم: - «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» ولهذا جمعها في قوله - تعالى -:

{وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا} [الأنعام: 115] .

وفي قوله: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا} [الكهف: 109] .

فالمراد بذلك أن ما قاله الله فهو حق ثابت لا يبطل.

كما قال - تعالى -: {وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا} [الأعراف: 137] .

يعني بتمامها نفاذ ما وعدهم به من النصر على فرعون، وإهلاكه، وإخراجهم إلى الشام.

وقال - تعالى -: {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا} [الأنعام: 115] .

ومنه قوله: {واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته} [الكهف: 27] .

وقوله: {سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل} [الفتح: 15] .

ومن هذا الباب قول المسيح السماء والأرض يزولان، وكلامي لا يزول، فإن أراد علم الله، فعلم الله باق سواء أراد به علمه القائم بذاته أو معلومه الذي أخبر ببقائه فلا حجة لكم فيه، وكذلك إن أراد كلمة معينة فإن المسيح عندكم ليس كلمة معينة من كلامه، بل هو عندكم هو الكلمة وهو الله الخالق وليس في هذا اللفظ ما يدل على أنه أراد بالكلمة المسيح والمسيح عندكم أزلي أبدي لا يوصف بالبقاء دون القدم ولو قدر أنه أراد بالكلمة المسيح فنحن لا ننكر أنه يسمى بالكلمة، لأنه قال له: كن فكان، كما سيأتي بيان ذلك، ويريد بذلك إما بقاؤه إلى أن ينزل إلى الأرض، وإما أن يريد بقاء ذكره والثناء عليه، ولسان صدق له إلى آخر الزمان.

ومما يوضح هذا وأنه ليس المراد به ما يدعونه، أنه قال: وكلمة الله باقية إلى الأبد فوصفها بالبقاء دون القدم.

وعندهم أن الكلمة المولودة من الأب قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ومثل هذا لا يحتاج أن يوصف بالدوام والبقاء، بخلاف ما وعد به من النعيم والرحمة والثواب، فإنه يوصف بالبقاء والدوام كما في القرآن: {أكلها دائم} [الرعد: 35] وقوله: {إن هذا لرزقنا ما له من نفاد} [ص: 54] .

وفي الزبور: اعترفوا للرب، فإنه صالح، وإنه إلى الأبد رحمته.

[فصل: إبطال استدلالهم بالتعميد على الأقانيم]

قالوا: وقال السيد المسيح في الإنجيل المقدس لتلاميذه الأطهار: (اذهبوا إلى جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس الإله الواحد، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيكم به) .

فيقال لهم: هذا عمدتكم على ما تدعونه من الأقانيم الثلاثة وليس فيه شيء يدل على ذلك لا نصا ولا ظاهرا، فإن لفظ الابن لم يستعمل قط في الكتب الإلهية في معنى صفة من صفات الله، ولم يسم أحد من الأنبياء علم الله ابنه ولا سموا كلامه ابنه، ولكن عندكم أنهم سموا عبده أو عباده ابنه أو بنيه وإذا كان كذلك فدعواكم أن المسيح أراد بالعلم ابن الله وكلامه - دعوى في غاية الكذب على المسيح، وهو حمل للفظه على ما لم يستعمله هو ولا غيره فيه لا حقيقة ولا مجازا، فأي كذب وتحريف لكلام الأنبياء أعظم من هذا.

ولو كان لفظ الابن يستعمل في صفة الله لسميت حياته ابنا، وقدرته ابنا، فتخصيص العلم، بلفظ الابن دون الحياة خطأ ثان لو كان

لفظ الابن يستعمل في صفة الله، فكيف إذا لم يكن كذلك.

وكذلك روح القدس لم يستعملوها في حياة الله، ولا أرادوا بهذا اللفظ حياة الله التي هي صفته، وإنما أرادوا بذلك ما ينزله على الصديقين والأنبياء، ويؤيدهم به كما في قول داود: (روحك القدس لا تنزع مني) ، وعندهم أن روح القدس حلت في الحواريين، وقد قدمنا أن روح القدس يراد به الملك، ويراد به ما يجعله في القلوب من الهدى والقوة، ومنه قوله في بعض النبوات: (وفي تلك الأيام أسكب من روحي على كل قديس) وفي زبور داود (روحك الصالح يهديني في أرض مستقيمة.

يوضح هذا أنهم قالوا في أمانتهم: (الذي من أجلنا - نحن البشر - ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء) وذكروا أن ذلك في الكتب المقدسة، والذي في الكتب المقدسة لا يكون إلا حقا، ولا ريب أن فيها مثل ما في القرآن، وفي القرآن أن الله أرسل روحه إلى مريم فنفخ فيها فحملت بالمسيح عليه السلام، قال تعالى:

{فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا} [مريم: 17] (17) {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا} [مريم: 18] (18) {قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} [مريم: 19] (19) {قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا} [مريم: 20] (20) {قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا} [مريم: 21] (21) {فحملته فانتبذت به مكانا قصيا} [مريم: 22] .

إلى آخر القصة، وقال تعالى: {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين} [الأنبياء: 91] .

وقال تعالى: {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين} [التحريم: 12]

وهذا الروح هو الرسول كما قال: {قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} [مريم: 19] .

ونفخ فيها من هذا الروح فكان المسيح مخلوقا من هذا الروح، ومن أمه مريم كما قالوا في الأمانة: إنه تجسد من مريم، ومن روح القدس، لكن اعتقدوا أن روح القدس التي خلق المسيح منها ومن مريم هي حياة الله، وهذا ليس في الكتب ما يدل عليه، بل الكتب كلها صريحة في نقيض هذا، وهو أيضا مناقض لقولهم إن المتحد بالمسيح هو أقنوم الكلمة، وهو العلم، فإن كان قد تجسد من مريم، وأقنوم الكلمة لم يكن متجسدا من روح القدس، وإن كان من روح القدس لم يكن من الكلمة، وإن كان منهما جميعا كان المسيح أقنومين: أقنوم الكلمة وأقنوم الروح.

والنصارى بفرقهم الثلاثة كلهم يقولون: إنما المتحد به أقنوم الكلمة لا أقنوم الحياة، فتبين تناقضهم في أمانتهم، وتبين خطؤهم فيما فسروا به كلام الأنبياء.

وتبين أن ما ثبت عن الأنبياء فهو حق موافق لما أخبر به محمد خاتم النبيين لا يناقض شيئا من كلام الأنبياء، كما أنه لا يناقض

شيئا من كلامهم صريح المعقول، وتبين أنهم حملوا كلام الأنبياء في لفظ الابن وروح القدس وغيره على ما لم يوجد استعمال هذا اللفظ فيه، وتركوا حمله على المعنى الموجود في كلامهم، وهذا من أبلغ ما يكون من تحريف كلامهم عن مواضعه وتبديل معاني كلام الله، فكيف يجوز أن يحمل لفظ روح القدس على معنى لم يستعمله فيه الأنبياء، ولا أرادوه به، ويترك حمله على المعنى المعروف الذي يستعملونه فيه دائما.

وهل هذا إلا من فعل من يحرف كلام الأنبياء، ويفتري الكذب عليهم؟ بل ظاهر هذا الكلام أن يعمدوهم باسم الأب الذي يريدون به - في لغتهم - الرب، والابن الذي يريدون به - في لغتهم - المربي، وهو هنا المسيح وروح القدس وهو روح القدس الذي أيد الله به المسيح من الملك والوحي وغير ذلك، وبهذا فسر هذا الكلام من فسره من أكابر علمائهم.

[فصل: تسميتهم لعلم الله وكلامه ابنا وتسميتهم لحياته روح القدس]

فهذا ما ذكروه في كتابهم يحتجون بها على ما يعتقدونه من الأقانيم الثلاثة قائلين: إن تسمية الله أنه أب وابن وروح القدس أسماء لم نسمه نحن النصارى بها من ذات أنفسنا، بل الله سمى لاهوته بها.

وقد تبين أنه ليس فيما ذكروه عن الأنبياء ما يدل لا نصا ولا ظاهرا على أن أحدا من الأنبياء سمى الله، ولا شيئا من صفاته ابنا ولا روح قدس.

وتبين أن تسميتهم لعلم الله وكلامه ابنا، وتسميتهم لحياته روح القدس - أسماء ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، وأنه ليس معهم على ما ادعوه من الأقانيم حجة أصلا، لا سمعية، ولا عقلية، وأنه ليس لقولهم بالتثليث وحصرهم لصفات الله في ثلاثة مستند شرعي.

كما تبين أنه ليس له مستند عقلي، وأن القوم ممن قيل فيهم: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} [الملك: 10]

وممن قيل فيهم: {أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا} [الفرقان: 44] .

[فصل: إبطال احتجاجهم بما ورد في القرآن على الأقانيم]

ثم أخذوا يزعمون أن فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم - حجة لهم على الأقانيم التي ادعوها، وهم ابتدعوا القول بالأقانيم والتثليث قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم.

وذلك معروف عندهم من حين ابتدعوا الأمانة التي لهم، التي وضعها الثلاثمائة وثمانية عشر منهم بحضرة قسطنطين الملك، فإذا لم يكن لهم مستند عقلي، ولا سمعي عن الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم فكيف يكون لهم مستند فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بعد ابتداعهم الأمانة؟

لا سيما مع العلم الظاهر المتواتر أن محمدا صلى الله عليه وسلم كفرهم في الكتاب الذي أنزل عليه وضللهم، وجاهدهم بنفسه وأمر بجهادهم؛ كقوله تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} [المائدة: 17] .

وقوله تعالى: {وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [التوبة: 30]

وقال: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} [المائدة: 73] .

وقال: {ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم} [النساء: 171] .

ونحو ذلك من الآيات.

وقالوا: وقد قال في هذا الكتاب أيضا: ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا الصالحين.

فيقال لهم: حرفتم لفظ الآية ومعناها؛ فإن لفظها: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} [الصافات: 171] (171) {إنهم لهم المنصورون} [الصافات: 172] (172) {وإن جندنا لهم الغالبون} [الصافات: 173] .

فالكلمة التي سبقت لعباده المرسلين قوله: {إنهم لهم المنصورون} [الصافات: 172] .

أخبر أنه سبق منه كلمة لعباده المرسلين لينصرنهم، كما قال تعالى: {ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى} [طه: 129]

وقوله: {ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب} [هود: 110] .

وقوله: {وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار} [غافر: 6] .

وقوله: {وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم} [الشورى: 14]

وقوله: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} [السجدة: 13] .

والكلمة في لغة العرب: هي الجملة المفيدة سواء كانت جملة اسمية أو فعلية، وهي القول التام، وكذلك الكلام عندهم هو الجملة التامة.

قال سيبويه: واعلم أنهم يحكون بالقول ما كان كلاما ولا يحكون به ما كان قولا، ولكن النحاة اصطلحوا على أن يسموا

ما تسميه العرب حرفا يسمونه كلمة مثل زيد وعمرو، ومثل: قعد وذهب، وكل حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، مثل: إن وثم، وهل ولعل.

قال تعالى: {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا} [الكهف: 4] (4) {ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم} [الكهف: 5] .

فسمى هذه الجملة كلمة.

وقال تعالى: {مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة} [إبراهيم: 24] .

وهو قول: لا إله إلا الله.

وقال تعالى: {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} [فاطر: 10] .

وقال تعالى: {قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله} [آل عمران: 64]

وقوله تعالى: {وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها} [الفتح: 26] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» ، وقال صلى الله عليه وسلم: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة» ، ولما شاع عند المشتغلين بالنحو استعمال لفظ الكلمة في الاسم أو الفعل، وحرف المعنى - صاروا يظنون أن هذا هو كلام العرب، ثم لما وجد بعضهم ما سمعه من كلام العرب أنه يراد بالكلمة الجملة التامة صار يقول: وكلمة بها كلام قد يؤم، فيجعل ذلك من القليل.

ومنهم من يجعل ذلك مجازا، وليس الأمر كذلك، بل هذا اصطلاح هؤلاء النحاة، فإن العرب لم يعرف عنهم أنهم استعملوا لفظ الكلمة والكلام إلا في الجملة التامة، وهكذا نقل عنهم أئمة النحو كسيبويه وغيره.

فكيف يقال: إن هذا هو المجاز، وإن هذا قليل وكثير.

كما أن لفظ القديم في لغة العرب هو المتقدم على غيره كما قال تعالى: {حتى عاد كالعرجون القديم} [يس: 39] .

وقوله تعالى: {وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم} [الأحقاف: 11] .

وقوله تعالى: {أفرأيتم ما كنتم تعبدون - أنتم وآباؤكم الأقدمون} [الشعراء: 75 - 76] .

ثم إن من أهل الكلام من خص لفظ القديم بما لم يسبقه عدم، أو ما لم يسبقه غيره، وصار هذا عندهم هو حقيقة اللفظ، حتى صار كثير منهم يظن أن استعمال القديم في المتقدم على غيره مطلقا - مجاز.

فتبين أن مراده تعالى بقوله: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} [الصافات: 171] .

من جنس قوله: {ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما} [طه: 129] .

فسبق منه كلمته بما سيكون من نصر المرسلين، وملء جهنم من الجنة والناس أجمعين ونحو ذلك، فحرف هؤلاء الضلال لفظ الآية فقالوا: لعبادنا الصالحين، وجعلوا الكلمة هي المسيح وليس في اللفظ ما يدل على ذلك بوجه من الوجوه، ولا في كون المسيح سبق لعبادنا المرسلين - معنى صحيح، وقد قال تعالى: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} [الصافات: 171] (171) {إنهم لهم المنصورون} [الصافات: 172] (172) {وإن جندنا لهم الغالبون} [الصافات: 173]

[فصل: بيان معنى تأييد المسيح بروح القدس]

قالوا: وقال أيضا: {ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس} [المائدة: 110] .

فيقال: هذا مما لا ريب فيه، ولا حجة لكم فيه، بل هو حجة عليكم، فإن الله أيد المسيح عليه السلام بروح القدس كما ذكر ذلك في هذه الآية وقال تعالى: في البقرة: {وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} [البقرة: 87] .

وقال تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} [البقرة: 253] .

وهذا ليس مختصا بالمسيح، بل قد أيد غيره بذلك، وقد ذكروا هم أنه قال لداود: روحك القدس لا تنزع مني، وقد «قال نبينا صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: اللهم أيده بروح القدس» ، وفي لفظ: «روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه» وكلا اللفظين في الصحيح.

وعند النصارى أن الحواريين حلت فيهم روح القدس، وكذلك عندهم روح القدس حلت في جميع الأنبياء.

وقد قال تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} [النحل: 98] (98) {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون} [النحل: 99] (99) {إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون} [النحل: 100] (100) {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون} [النحل: 101] (101) {قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين} [النحل: 102] .

وقد قال تعالى في موضع آخر: {نزل به الروح الأمين - على قلبك} [الشعراء: 193 - 194] .

وقال: {قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} [البقرة: 97] .

فقد تبين أن روح القدس هنا جبريل، وقال تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22] .

وقال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا} [الشورى: 52] .

وقال تعالى: {ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون} [النحل: 2] .

وقال: {يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق} [غافر: 15] .

فهذه الروح التي أوحاها والتي تنزل بها الملائكة على من يشاء من عباده - غير الروح الأمين التي تنزل بالكتاب، وكلاهما يسمى روحا، وهما متلازمان؛ فالروح التي ينزل بها الملك مع الروح الأمين التي ينزل بها روح القدس يراد بها هذا وهذا.

وبكلا القولين فسر المفسرون قوله في المسيح وأيدناه بروح القدس، ولم يقل أحد إن المراد بذلك حياة الله، ولا اللفظ يدل على ذلك ولا استعمل فيه.

وهم إما أن يسلموا أن روح القدس في حق غيره ليس المراد بها حياة الله، فإذا ثبت أن لها معنى غير الحياة، فلو استعمل في حياة الله أيضا لم يتعين أن يراد بها ذلك في حق المسيح، فكيف ولم يستعمل في حياة الله في حق المسيح.

وإما أن يدعوا أن المراد بها حياة الله في حق الأنبياء والحواريين، فإن قالوا ذلك لزمهم أن يكون اللاهوت حالا في جميع الأنبياء والحواريين، وحينئذ فلا فرق بين هؤلاء وبين المسيح.

ويلزمهم أيضا أن يكون في المسيح لاهوتان: لاهوت الكلمة، ولاهوت الروح، فيكون قد اتحد به أقنومان.

ثم في قوله تعالى: {وأيدناه بروح القدس} [البقرة: 87] ، يمتنع أن يراد بها حياة الله، فإن حياة الله صفة قائمة بذاته لا تقوم بغيره، ولا تختص ببعض الموجودات غيره، وأما عندهم فالمسيح، هو الله الخالق، فكيف يؤيد بغيره، وأيضا فالمتحد بالمسيح هو الكلمة دون الحياة، فلا يصح تأييده بها.

فتبين أنهم يريدون أن يحرفوا القرآن كما حرفوا غيره من الكتب المتقدمة، وأن كلامهم في تفسير المتشابه من الكتب الإلهية - من جنس واحد.

[فصل: بيان معنى قوله وكلم الله موسى تكليما]

قالوا: وقال أيضا: {وكلم الله موسى تكليما} [النساء: 164] .

فيقال لهم: وأي حجة لكم في هذا، وإنما هو حجة عليكم، فإنه قد ثبت أن الله كلم موسى تكليما، وكلام الله الذي سمعه منه موسى عليه السلام، ليس هو المسيح فعلم أن المسيح ليس هو كلام الله، وعندهم هو كلمة الله، وهو علم الله، وهو الله.

ومعلوم أن كلام الله كثير كالتوراة والإنجيل والقرآن، وغير ذلك من كلامه، وليس المسيح شيئا من ذلك، والمسيح عندهم خالق، ولو كان المسيح نفس كلام الله لم يكن خالقا ولا معبودا، فإن كلام الله لم يخلق السماوات والأرض، ولا كلام الله هو الإله

المعبود، بل كلامه كسائر صفاته مثل حياته وقدرته، ولا يقول أحد: يا علم الله اغفر لي، ولا يا كلام الله اغفر لي، وإنما يعبد ويدعى الإله الموصوف بالعلم، والقدرة، والكلام الذي كلم به موسى تكليما.

[فصل: بيان معنى قوله فنفخنا فيه من روحنا]

قالوا: وقال أيضا في سورة التحريم: {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين} [التحريم: 12] .

فيقال: أما قوله تعالى: {فنفخنا فيه من روحنا} [التحريم: 12] .

وقوله: في سورة الأنبياء: {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين} [الأنبياء: 91] .

فهذا قد فسره قوله تعالى: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا} [مريم: 17] (17) {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا} [مريم: 18] (18) {قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} [مريم: 19] .

وفي القراءة الأخرى: ليهب لك غلاما زكيا.

فأخبر أنه رسوله وروحه، وأنه تمثل لها بشرا، وأنه ذكر أنه رسول الله إليها، فعلم أن روحه مخلوق مملوك له، ليس المراد حياته التي هي صفته سبحانه وتعالى:

وكذلك قوله: {فنفخنا فيها من روحنا} [الأنبياء: 91] .

وهو مثل قوله في آدم عليه السلام: {فإذا سويته ونفخت فيه من روحي} [الحجر: 29] .

وقد شبه المسيح بآدم في قوله: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} [آل عمران: 59] .

والشبهة في هذا نشأت عند بعض الجهال من أن الإنسان إذا قال: روحي، فروحه في هذا الباب هي الروح التي في البدن، وهي عين قائمة بنفسها، وإن كان من الناس من يعني بها الحياة، والإنسان مؤلف من بدن وروح، وهي عين قائمة بنفسها عند سلف المسلمين وأئمتهم وجماهير الأمم.

والرب تعالى منزه عن هذا، وأنه ليس مركبا من بدن وروح، ولا يجوز أن يراد بروحه ما يريد الإنسان بقوله: روحي، بل تضاف إليه ملائكته وما ينزله على أنبيائه من الوحي والهدى والتأييد، ونحو ذلك.

[فصل: الرد على قولهم وسائر المسلمين يقولون إن الكتاب كلام الله]

قالوا: وسائر المسلمين يقولون: إن الكتاب كلام الله، ولا يكون كلام إلا لحي ناطق، وهذه صفات جوهرية تجري مجرى الأسماء، وكل صفة منها غير الأخرى، فالإله واحد، خالق واحد، ورب واحد لا يتجزأ.

فيقال لهم: أما قول المسلمين إن الكتاب - أي القرآن - كلام الله، فهذا حق، والكلام لا يكون إلا لمتكلم.

والمسلمون يقولون: إن الله حي متكلم، وإنه تكلم بالتوراة والإنجيل والقرآن، وغير ذلك من كلامه، والقرآن قد أخبر بكلام الله في مواضع كثيرة، وهل يسمى ناطقا وكلامه نطقا؟

فيه نزاع، فبعض المسلمين يجيزه، وبعضهم يمنع منه لكونه لم يرد به الشرع، وليس في التوراة والإنجيل والزبور تسمية الله ناطقا، بخلاف لفظ القول والكلام، وقد تنازع المسلمون بعد ظهور البدع فيهم كما تنازع أهل الكتاب في كلام الله، هل هو قائم به، أو مخلوق منفصل عنه.

والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وجمهورها، أن كلام الله قائم به، وكذلك سائر ما يوصف به من الحياة والقدرة وغير ذلك.

وأحدث قوم منهم بعد انقراض الصحابة وأكابر التابعين، بعد أكثر من مائة سنة من موت النبي صلى الله عليه وسلم أنه مخلوق خلقه في غيره، وشاركهم في هذه البدعة كثير من اليهود والنصارى.

وظهرت هذه المقالة بعد المائة الثانية، وانتصر لها قوم من الولاة، وغيرهم، ثم أطفأها الله بمن أقامه الله من أئمة الإسلام والسنة الذين بينوا فسادها وبينوا ما اتفق عليه السلف من أن كلام الله منزل منه غير مخلوق، بل منه بدأ، لم يبتدئ من شيء من المخلوقات، ومع هذا فلم يقل أحد من المسلمين: إن كلام الله يكون إلها ولا ربا.

وكذلك حياته لم يقل أحد منهم: إن حياته تكون إلها ولا ربا، ولا أنه مساو للرب تعالى في الجوهر.

[فصل: مناقشتهم في دعواهم أن الأقانيم صفات جوهرية تجري مجرى الأسماء]

وأما قولهم: هذه صفات جوهرية تجري مجرى أسماء.

فإن أرادوا بقولهم: جوهرية أن كل صفة جوهر، فهذا كلام ظاهر الفساد فإن الصفة القائمة بغيرها لا تكون جوهرا قائما بنفسه، ومن ظن أن حرارة النار القائمة بها جوهر قائم بنفسه كالنار، فهو إما مصاب في عقله وإما مسفسط معاند.

والأول: يستحق علاج المجانين.

والثاني: يستحق العقوبة التي تردعه عن العناد.

ثم إن جاز أن تكون الصفة جوهرا كانت القدرة أيضا جوهرا.

وإن أرادوا بقولهم: جوهرية أنها صفات ذاتية، وغيرها صفات فعلية كالخالق والرازق، فمعلوم أن صفاته الذاتية منها القدرة وغيرها فلم تنحصر في هذه.

وأيضا فالكلام، وإن كان قائما بذاته، فقيل: هو متعلق بمشيئته وقدرته، وهو قول السلف والأكثرين، وقيل: ليس كذلك.

والمتكلم قيل: هو من فعل الكلام ولو كان منفصلا عنه، وقيل: هو من قام به الكلام، وإن لم يكن بمشيئته وقدرته، وقيل: المتكلم من قام

به الكلام بمشيئته وقدرته، وهذا قول السلف والأكثرين، فبطل قولهم على كل تقدير.

وإن أرادوا بالجوهرية أنها ذاتية مقومة، وباقي الصفات عرضية على رأي أهل المنطق اليونان الذين يفرقون في الصفات اللازمة للموصوف بين هذا وهذا، كان هذا فاسدا من وجوه:

منها: أن تفريق هؤلاء في الصفات اللازمة للموصوف بين صفة وصفة، وجعل بعضها ذاتيا مقوما داخلا في الماهية، وبعضها عرضيا لاحقا خارجا عن الماهية - كلام باطل عند جماهير نظار الأمم من أهل الملل، وغيرهم كما قد بسط الكلام عليه في الرد على هؤلاء المتفلسفة، وبين أن ما يدعونه من تركيب الأنواع من الأجناس والفصول إنما هو تركيب في الأذهان لا حقيقة له في الأعيان، وأن ما يقوم بالأذهان يختلف باختلاف تصور الأذهان.

فتارة يتصور الشيء مجملا، وتارة يتصوره مفصلا، وما سموه تمام الماهية، والداخل في الماهية، والخارج عنها، اللازم لها - يعود عند التحقيق إلى ما يدل عليه اللفظ بالمطابقة والتضمن والالتزام.

ومدلول اللفظ هو بحسب ما يعنيه المتكلم ويقصده ويتصوره، وهذا يختلف باختلاف إرادات الناس لا يرجع ذلك إلى حقيقة عقلية ولا صفة ذاتية للموجودات.

ولهذا لما كان كلامهم باطلا لم يمكنهم ذكر فرق صحيح بين الذاتي والعرضي اللازم إذا كان كلاهما لازما للموصوف، بل ذكروا ثلاثة فروق، والثلاثة باطلة، واعترف حذاقهم ببطلانها، كقولهم: إن الذاتي يثبت للموصوف، بلا وسط، والعرضي اللازم إنما يثبت بوسط.

ثم حذاقهم يفسرون الوسط بالدليل، كما فسره ابن سينا.

ومنهم من يفسر الوسط بصفة قائمة للموصوف، كما يفسره الرازي وغيره، وهؤلاء لم يفهموا مراد أولئك فزاد غلطهم، وأولئك أرادوا بالوسط الدليل، كما يريدون بالحد الأوسط ما يقرن باللام في قولك: لأنه، فصار العرضي اللازم عندهم ما يعلم ثبوته للموصوف بدليل، وهذا لا يرجع إلى حقيقة ثابتة في نفس الأمر، بل هذا أمر يتعلق بالعالم بالصفات.

فمنهم من يكون تام التصور فيعلم لزوم الصفة للموصوف، بلا دليل.

ومنهم من لا يكون تام التصور فلا يعلم ذلك إلا بدليل، ثم كل ما كان مستلزما لشيء، فإنه يمكن الاستدلال به عليه، إذا كان الدليل هو الذي يلزم من تحققه تحقق المدلول، فيكون الوسط كل ما كان مستلزما للعرض، فيكون العرض لازم اللازم.

وهم معترفون بأن من العرضيات ما يلزم، بلا وسط، وقد مثلوا ذلك بالزوجية والفردية في العدد، كالعلم بأن الأربعة زوج، والثلاثة فرد، وإن كان ظاهرا، لكن العلم بأن خمسمائة وثلاثة وأربعين نصف ألف وستة وثمانين، قد يفتقر إلى دليل، وقد يفتقر إلى تأمل وفكر.

وهم يقولون ما يقول ابن سينا أفضل متأخريهم، وغيره من أن العرض المنقسم إلى الكيف والكم وغير ذلك هو ذاتي لموصوفاته. واللون المنقسم إلى السوداء والبياض هو ذاتي للمتلون، والسوادية والبياضية صفتان ذاتيتان، بخلاف الزوجية والفردية.

قالوا: لأن كون هذا أسود وأبيض وعرضا قائما بغيره، لا يفتقر إلى استدلال ونظر بخلاف كون هذا العدد زوجا أو فردا، فإن هذا قد يفتقر إلى نظر واستدلال، فإنه ينقسم إلى قسمين متساويين أو لا ينقسم.

ومعلوم أن هذا فرق يعود إلى علم العالم بهذه الصفات، هل هو جلي أو خفي، وهل يفتقر إلى نظر واستدلال أو لا يفتقر، ليس هو فرقا يعود إلى الصفة في نفسها ولا إلى موصوفها، فعلم أنه ليس بين ما جعلوه ذاتيا مقوما داخلا في الماهية، وما جعلوه عرضيا لازما خارجا عن الماهية - فرق يعود إلى نفس الماهية التي هي الذات الموصوفة الموجودة في الخارج، ولا إلى صفاتها، بل جميع صفاتها اللازمة لها - سواء في ذلك، وليست الماهية مركبة من هذا دون هذا، ولا فيها شيء يتقدم على الماهية في الوجود الخارجي، كما يقولون: إن الذاتي يتقدم على الماهية في الوجود والذهن.

ولا الصفات جواهر موجودة في الخارج لها أجزاء كأجزاء الأجسام المركبة، وإنما هي صفات قائمة بالموصوف يمتنع تقدم شيء منها على الموصوف.

ولكن إذا قيل في الإنسان: هو جسم حساس تام متحرك بالإرادة ناطق - فهنا قد يتصور الذهن هذه الأمور، ويعبر عنها، فكل واحد منهما جزء من الجملة التي في ذهنه ولسانه.

والجملة التي في ذهنه ولسانه مركبة من هذه الأجزاء لا أن الإنسان الموجود في الخارج مركب من هذه الأجزاء، وأنها متقدمة عليه أو أنها جواهر، فإن هذا كله مما يعلم بصريح العقل أنه باطل، لكن هؤلاء المتفلسفة اليونان ومن اتبعهم - كثيرا ما يشتبه عليهم ما يتصورونه في الأذهان بما يوجد في الأعيان، كما أثبت من أثبت من قدمائهم مثل فيثاغورس وأتباعه - أعدادا مجردة موجودة في الخارج.

وقد رد ذلك عليهم سائر العقلاء، كما رده من بعده منهم.

وقالوا: إن العدد المجرد، والمقدار المجرد إنما يوجد في الذهن لا في الخارج، وإنما يوجد في الخارج المعدودات والمقدرات، مثل الأجسام المتفرقة التي تعد كالكواكب، أو المتصلة التي تقدر كالأفلاك، وذلك هو المتصف بالكم المتصل والكم المنفصل الموجود في الخارج.

وأثبت أصحاب أفلاطون الكليات العقلية في الخارج التي يسمونها المثل الأفلاطونية وزعموا أنها قديمة أزلية، وأثبتوا بعدا

موجودا مجردا جوهرا: هو الخلاء، وجوهرا قائما بنفسه، هو الدهر، وجوهرا مجردا قائما بنفسه: هو المادة والهيولى الأزلية.

وهذه كلها إنما تتصور في الأذهان لا في الأعيان، بل وما أثبتوه من العقول المجردة العشرة هي أيضا عند التحقيق ترجع إلى ما يجرده الذهن، ويقدره فيه، لا إلى موجود في الخارج.

وأصل قولهم: المجردات والمفارقات هو مأخوذ من مفارقة النفس الناطقة للبدن بالموت، وهذا حق، فإن الذي عليه الأنبياء وأتباعهم، وجمهور العقلاء أن الروح تفارق البدن، وتبقى بعد فراق البدن، ومن قال من متكلمة أهل الملل إنه لا يبقى بعد البدن روح تفارقه، وإن الروح جزء من البدن أو عرض من أعراض البدن، فقوله - مع أنه خطأ في العقل الصريح - هو أيضا مخالف لكتب الله المنزلة ولرسله، ولمن اتبعهم من جميع أهل الملل، وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا التنبيه على أن تفريق هؤلاء اليونانيين في الصفات اللازمة للموصوف بين الصفات الذاتية والعرضية اللازمة، وجعلهم اللازمة: منها ما هو لازم للماهية، ومنها ما هو لازم لوجودها - هو مبني على أصلين فاسدين لهم، خالفهم فيها جمهور عقلاء الأمم من نظار أهل الملل وغيرهم.

أحد الأصلين: هو ما تقدم من جعلهم الصفات اللازمة للموصوف هي في الخارج منقسمة إلى ذاتي، جزء من الماهية داخل فيها، وإلى عرضي خارج عنها لازم لها.

والثاني: زعمهم أن كل موجود ممكن وله في الخارج ماهية هي ذاته وحقيقته - غير الموجود المعلوم المعين الثابت في الخارج، وهذا أيضا مما اشتبه عليهم فيه ما في الذهن بما في الخارج.

فإنه إذا أريد بالماهية ما يتصور في الذهن، وهو المقول في جواب ما هو، وبالوجود ما هو ثابت متحقق في الخارج، فمعلوم أن هذا غير هذا، كما يقولون: إنا نتصور المثلث قبل أن نعلم وجوده في الخارج، فعلم أن ماهية المثلث غير المثلث الموجود في الخارج.

فإنه يقال لهم إن أردتم أن ما يتصور في الذهن من المثلث غير الموجود في الخارج فهذا حق، لكن ليس في هذا ما يدل على أنه في الخارج عن الذهن شيئين:

أحدهما: ماهية المثلث التي هي حقيقته وذاته.

الثاني: المثلث الموجود الذي هو زاوية الحائط.

وإن أردتم أن في الخارج شيئين، فهذا غلط، وهذا الموضع مما اشتبه على كثير من النظار حتى صار بعض أكابرهم حائرا متوقفا.

وبعضهم يختلف قوله ويتناقض، وسبب ذلك عدم تمييزهم بين ما يتصور في الأذهان وبين ما يوجد في الأعيان، ثم هذا الموضوع نقلوه إلى الكلام في صفات الله اللازمة له، كحياته وعلمه وقدرته، هل هي ذاتية أو عرضية؟

فإن قيل: ذاتية لزم أن تكون له أجزاء متقدمة عليه تركب منها، وإن كانت عرضية لازمة لزم أن يكون قابلا وفاعلا، فإن كونه فاعلا غير كونه قابلا، فلزم أن يكون فيه جهتان، وهذا من التركيب الذي زعموه منتفيا، وذلك يستلزم التركيب، وهو التركيب من الذاتيات، وقد بين فساد هذا من وجوه متعددة:

منها: أن التركيب المعقول هو تركيب الحيوان والنبات والمعادن من أبعاضه وأخلاطه، وتركيب المبنيات والملبوسات والأطعمة والأشربة من أبعاضها وأخلاطها.

وأما تركيب الأجسام من الجواهر المنفردة أو من المادة والصورة فهذا مما تنازع فيه جمهور العقلاء، وكذلك تركيب الشيء من الموجود، والماهية سواء كان واجبا أو ممكنا هو مما تنازع فيه جمهور العقلاء، وكذلك تركبه من الصفات الذاتية المشتركة والمميزة التي يسمونها: الجنس، والفصل.

وأما اتصاف الذات بصفات تقوم بها، فهذا هو الذي يعرفه عامة العقلاء، ولكن لا يسمون هذا تركيبا، فمن سماه تركيبا لم يكن نزاعه اللفظي قادحا فيما علم بالأدلة السمعية والعقلية.

ثم هم يقولون: المركب يفتقر إلى أجزائه، وأجزاؤه غيره، وواجب الوجود لا يفتقر إلى غيره، وهذه كلها ألفاظ مجملة، فإن لفظ الافتقار هنا لم يعنوا به افتقار المفعول إلى فاعله، ولا المعلول إلى علته الفاعلية، فإن جزء الشيء لا يكون فاعله ولا علته الموجبة له، بل يريدون به التلازم والاشتراط، فإن وجود المجموع مستلزم لوجود أجزائه، وهو مشروط بذلك.

ومنها: أن لفظ الجزء ليس مرادهم جزءا مباينا للجملة، فإن جزء الجملة ليس مباينا لها.

ومنها لفظ الغير، فإنه يراد بالغيرين ما يجوز مباينة أحدهما لصاحبه، أو مفارقته له بزمان أو مكان أو وجود، ويراد بهما ما يجوز العلم بأحدهما دون الآخر، وبعض المجموع وصفة الموصوف لا يجب أن تفارقه وتباينه، بل قد يجوز أن تباينه ويجوز أن لا تباينه.

فصفات الرب عز وجل اللازمة له لا يجوز أن تفارقه وتباينه، وحينئذ فمن الناس من لا يسميها غيرا له، ومن سماها غيرا له فذاته مستلزمة لها، ليست الصفات فاعلة للذات، ولا علة موجبة لها.

ولفظ واجب الوجود يراد به الموجود بنفسه الذي لا فاعل له، ولا علة فاعلة له، وذات الرب عز وجل وصفاته واجبة الوجود بهذا الاعتبار، ويراد به مع ذلك المستغني عن محل يقوم به، والذات بهذا المعنى واجبة دون الصفات، ويراد به ما لا تعلق له بغيره، وهذا لا حقيقة له؛ فإن الرب تعالى له تعلق بمخلوقاته لا سيما عند هؤلاء الفلاسفة الدهرية الذين يقولون: إنه موجب بذاته للأفلاك مستلزم لها، فيجعلونه ملزوما لمفعولاته، فكيف ينكرون أن تكون ذاته ملزومة لصفاته؟

وهؤلاء المتفلسفة اليونانيون الذين يسمون المشائين أتباع أرسطو صاحب التعاليم: المنطق الطبيعي، والرياضي، والإلهي، يقولون: إن موضوع العلم الطبيعي متعلق بالمادة في الذهن والخارج من الجسم وأحكامه.

والثاني الرياضي: وهو متعلق بالمادة في الخارج لا في الذهن، فإنه لا يوجد عددا ولا مقدارا في الخارج إلا في جسم في الخارج أو عرض معدود، أو مقدر منفصل، بخلاف الذهن، فإنه يجرد أعدادا ومقادير مجردة عن المعدودات والمقدرات.

والثالث: الذي يسمونه علم ما بعد الطبيعة باعتبار السلوك العلمي، وهو علم ما قبلها باعتبار الوجود العيني، ويسمونه أيضا العلم الإلهي، وموضوعه عندهم: المجرد عن المادة في الذهن والخارج، وهو الموجود من حيث هو موجود، وانقسامه إلى جوهر وعرض، وانقسام الجوهر إلى جسم وغير جسم، وانقسام الجسم إلى المادة والصورة والعقول والنفوس.

والعلة الأولى يسميها أرسطو وأتباعه جوهرا، ولا يسميها واجب الوجود، وأما متأخروهم كابن سينا وأتباعه يسمونها واجب الوجود، ولا يسمونها جوهرا، والكلام على هؤلاء مبسوط في موضع آخر، إذ المقصود هنا أن هذه الأمور التي يقولون هي موضوع العلم الإلهي، وهي المجردة عندهم عن المادة في الذهن والخارج، هي عند التحقيق وجودها في الأذهان، لا في الأعيان.

فإن الوجود العام الكلي لا يوجد عاما كليا إلا في الأذهان لا في الأعيان كما أن الإنسان العام الكلي، والحيوان العام الكلي لا يوجد عاما كليا إلا في الأذهان، لا في الأعيان.

وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع، وبين أن اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل، أقرب إلى الحق في الأمور الإلهية منهم.

وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر، ولكن نبهنا عليها لتعلقها هنا بقول هؤلاء النصارى: إن صفات الرب الثلاث هي جوهرية دون غيرها، وأنهم إن عنوا بذلك ما يعنيه هؤلاء بالذاتية، فقولهم باطل مبني على أصل باطل.

فإن تفريق هؤلاء اليونان في الصفات اللازمة بين الذاتي والعرضي اللازم للموجود، والعرضي اللازم للماهية، والعرضي اللازم للموصوف - فرق باطل، وقد ذكروا ثلاث فروق كلها باطلة، كما تقدم:

الأول: الوسط.

والفرق الثاني: تقدم الذاتي ذهنا ووجودا، بخلاف اللازم العرضي.

والثالث: توقف الحقيقة على الذات.

وقد تبين بطلان هذا في غير هذا الموضع.

والنصارى ليس مرادهم بالجوهرية ما يريده هؤلاء بالذاتية، فلهذا لم نبسط الكلام عليه،، بل يقولون: إن الثلاثة جواهر، وهؤلاء المنطقيون يفرقون بين اللازم للماهية، واللازم لوجودها بناء على أن في الخارج شيئين: الوجود، وماهية أخرى غير الوجود.

والكلام على هذا كله مبسوط في موضع آخر.

ومنها: أنه لو قدر أن صفات الموصوفات اللازمة لها تنقسم إلى ذاتي مقوم، وعرضي لازم، وأن صفات الرب سبحانه كذلك، لم يكن تخصيص العلم بأنه ذاتي أولى من القدرة، فليس ذكر القائم بنفسه الحي العالم بأولى من ذكر القائم بنفسه الحي القادر.

والنصارى لما كانت الأقانيم عندهم ثلاثة، وزعموا أن الشرع المنزل دل على ذلك، وكانوا في ذلك مخالفين للشرع المنزل إليهم،

كما قد بسط في موضعه - صار طائفة منهم يقولون: موجود حي عالم، وطائفة يقولون: موجود عالم قادر، فيجعلون القادر مكان الحي، ويجعلون روح القدس هو القدرة.

وهذا القول وإن كان أحسن في المعنى، لكن تفسير روح القدس بالقدرة في غاية البعد الذي يظهر فساده لكل أحد.

ولا بد لهم من إثبات أقنوم الكلمة الذي يقولون تارة: هي العلم، وتارة: هي الحكمة، ويسمونها تارة: النطق كما سموها في كتابهم هذا، لأن الذي اتحد بالمسيح عندهم هو أقنوم الكلمة، فصاروا تارة يضمون إليها الحياة، وتارة يضمون إليها القدرة.

والأب تارة يقولون: هو الوجود، وتارة يقولون: القائم بنفسه، وتارة يقولون: الذات، وتسمى القائم بنفسه بالسريانية: الكيان، وتارة يقولون: الجود.

وكل هذا من الحيرة والضلال، لأنهم لا يجدون ثلاث معان هي المستحقة لأن تكون جوهرية دون غيرها من الصفات، سواء فسرت الجوهرية بأنها جواهر، أو بأنها ذاتية مقومة أو بغير ذلك.

ومنها قولهم: تجري مجرى أسماء، فإن أرادوا بذلك أسماء أعلام أو جامدة، وسائرها صفات، فاسم الحي والعالم اسم مشتق يدل على معنى العلم والحياة، كما يدل القدير على القدرة، وإن أرادوا أنه يسمى بها، فلله تعالى أسماء كثيرة، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى.

ومن أسمائه القدير، والقدرة تستلزم من قدرته على المخلوقات ما لا يدل عليه العلم، وخلقه للمخلوقات يدل على قدرته أبلغ من دلالته على علمه، واختصاصه بالقدرة أظهر من اختصاصه بالعلم، حتى إن طائفة من النظار كأبي الحسن الأشعري وغيره يقول: أخص وصفه القدرة على الاختراع، فلا يوصف بذلك غيره.

والجهم بن صفوان قبله يقول: ليس في الوجود قادر غيره، ولا لغيره قدرة، والأشعري وإن أثبت للمخلوق قدرة، لكن يثبت قدرة لا تؤثر في المقدور، ولم يقل أحد من العقلاء: إن أخص وصفه الحياة والعلم، ولا إن غيره ليس بحي ولا عالم، فكان جعل القدير اسما وغيره صفة - إن كان الفرق حقا - أولى من العكس، فكيف إذا كان الفرق باطلا فإن أسماءه تعالى التي يعرفها الناس هي أسماء، وهي صفات في اصطلاح أهل العربية تدل على معان، هي صفاته القائمة به.

فالحي يدل على الحياة، والعليم يدل على العلم، والقدير يدل على القدرة، هذا مذهب سلف الأمة وجماهير الأمم، ومن الناس فرقة شاذة تزعم أن هذه الأسماء لا تدل على معان كأسماء الأعلام، وقد تنازع الناس فيما يسمى به سبحانه، ويسمى به غيره كالحي والعليم والقدير.

فالجمهور على أنه حقيقة فيهما، وقالت طائفة كأبي العباس الناشي: إنها حقيقة في الرب عز وجل مجاز في المخلوق،

وقالت طائفة عكس هؤلاء من الجهمية والملاحدة والمتفلسفة: إنها مجاز في الرب عز وجل حقيقة في المخلوق، والأولون هي عندهم متواطئة، وقد يسمونها مشككة لما فيها من التفاضل، وبعضهم يقول: هي مشتركة اشتراكا لفظيا.

[فصل: إبطال تمثيلهم الصفات بشعاع الشمس]

وأما قولهم: كل صفة منها غير الأخرى: فهذا إن أرادوا به أن صفات الرب سبحانه وتعالى قد تباينه وتنفصل عنه، وهو حقيقة قولهم. ويقولون مع ذلك: إنها متصلة به، فهو جمع بين النقيضين، وتمثيلهم بشعاع الشمس تمثيل باطل، وهو حجة عليهم لا لهم.

فإن الشعاع القائم بالهواء والأرض والجبال والشجر والحيطان، ليس هو قائما بذات الشمس.

والقائم بذات الشمس، ليس هو قائما بالهواء والأرض.

فإن قالوا: بل ما يقوم به من العلم يفيض منه على قلوب الأنبياء علوم، كما يفيض الشعاع من الشمس.

قيل لهم: لا اختصاص للمسيح بهذا، بل هذا قدر مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء، وليس في هذا حلول ذات الرب ولا صفته القائمة به بشيء من مخلوقاته، ولا أن العبد بما حل فيه من العلم والإيمان يصير إلها معبودا.

وإن أرادوا أنها قائمة به، وتسمى كل واحدة غير الأخرى، فهنا نزاع لفظي، هل تسمى غيرا أو لا تسمى غيرا؟

فإن من الناس من يقول: كل صفة للرب عز وجل فهي غير الأخرى، ويقول: الغيران ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر، أو ما جاز العلم بأحدهما مع الجهل بالآخر.

ومنهم من يقول ليست هي الأخرى، ولا هي هي؛ لأن الغيرين ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر، أو ما جاز مفارقة أحدهما الآخر بزمان أو مكان أو وجود.

والذي عليه سلف الأمة وأئمتها إذا قيل لهم: علم الله وكلام الله، هل هو غير الله أم لا؟ لم يطلقوا النفي ولا الإثبات، فإنه إذا قال: غيره؛ أوهم أنه مباين له.

وإذا قال: ليس غيره؛ أوهم أنه هو، بل يستفصل السائل، فإن أراد بقوله: غيره؛ أنه مباين له منفصل عنه - فصفات الموصوف لا تكون مباينة له منفصلة عنه، وإن كان مخلوقا، فكيف بصفات الخالق؟

وإن أراد بالغير أنها ليست هي هو، فليست الصفة هي الموصوف، فهي غيره بهذا الاعتبار، واسم الرب تعالى إذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما يستحقه من صفات الكمال، فيمتنع وجود الذات عرية عن صفات الكمال.

فاسم الله يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال، وهذه الصفات ليست زائدة على هذا المسمى،، بل هي داخلة في المسمى، ولكنها زائدة على الذات المجردة التي تثبتها نفاة الصفات، فأولئك لما زعموا أنه ذات مجردة قال هؤلاء: بل الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات.

وأما في نفس الأمر، فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها، بل الرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال، وصفاته داخلة في مسمى أسمائه سبحانه وتعالى.

[فصل: بيان تناقض قول النصارى في عقيدة إيمانهم]

وقولهم: فالإله واحد، خالق واحد، رب واحد.

هو حق في نفسه، لكن قد نقضوه بقولهم في عقيدة إيمانهم: (نؤمن برب واحد، يسوع المسيح ابن الله الوحيد، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مساو الأب في الجوهر) فأثبتوا هنا إلهين، ثم أثبتوا روح القدس إلها ثالثا، وقالوا إنه مسجود له، فصاروا يثبتون ثلاثة آلهة، ويقولون: إنما نثبت إلها واحدا، وهو تناقض ظاهر، وجمع بين النقيضين، بين الإثبات والنفي.

ولهذا قال طائفة من العقلاء: إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا، بل تكلموا بجهل، وجمعوا في كلامهم بين النقيضين، ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا، وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولا، وامرأته قولا آخر، وابنه قولا ثالثا.

[فصل: تناقض قولهم لا يتبعض ولا يتجزأ]

وقولهم: (لا يتبعض ولا يتجزأ) مناقض لما ذكروه في أمانتهم، ولما يمثلونه به.

فإنهم يمثلونه بشعاع الشمس، والشعاع يتبعض ويتجزأ، فإن ما يقوم منه بهذا الموضع بعض وجزء منه، ويمكن زوال بعضه مع بقاء بعض، فإنه إذا وضع على مطرح الشعاع شيء فصل ما بين جانبيه، وصار الشعاع الذي كان بينهما على ذلك الفوقاني فاصلا بين الشعاعين السافلين.

يبين ذلك أن الشعاع قائم بالأرض والهواء، وكل منهما متجزئ متبعض، وما قام بالمتبعض فهو متبعض، فإن الحال يتبع المحل، وذلك يستلزم التبعض والتجزيء فيما قام به.

ويقولون أيضا: إنه اتحد بالمسيح وأنه صعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، وعندهم أن اللاهوت منذ اتحد بالناسوت لم يفارقه،، بل لما صعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب كان الصاعد عندهم هو المسيح الذي هو ناسوت ولاهوت إله تام، وإنسان تام، فهم لا يقولون: إن الجالس عن يمين الأب هو الناسوت فقط، بل اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت، فأي تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا؟

وليس هذا من كلام الأنبياء حتى يقال: إن له معنى لا نفهمه، بل هو من كلام أكابرهم الذي وضعوه وجعلوه عقيدة إيمانهم، فإن كانوا تكلموا بما لا يعقلونه، فهم جهال لا يجوز أن يتبعوا، وإن كانوا يعقلون ما قالوه، فلا يعقل أحد من كون اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت المجرد عن الاتحاد، إلا أن هذا اللاهوت المجرد منفصل مباين للاهوت المتحد، وليس هو متصلا به، بل غايته أن يكون مماسا له، بل يجب أن يكون الذي يماس اللاهوت المجرد هو الناسوت مع اللاهوت المتحد به، فهذا حقيقة التبعيض والتجزئة مع انفصال أحد البعضين عن الآخر.

وأيضا فيقال لهم: المتحد بالمسيح أهو ذات رب العالمين، أم صفة من صفاته؟ فإن كان هو الذات، فهو الأب نفسه، ويكون المسيح هو الأب نفسه، وهذا مما اتفق النصارى على بطلانه؛ فإنهم يقولون: هو الله، وهو ابن الله، كما حكى الله عنهم، ولا يقولون هو الأب والابن، والأب عندهم هو الله، وهذا من تناقضهم.

وإن قالوا: المتحد بالمسيح صفة الرب فصفة الرب لا تفارقه، ولا يمكن اتحادها ولا حلولها في شيء دون الذات.

وأيضا فالصفة نفسها ليست هي الإله الخالق رب العالمين، بل هي صفته، ولا يقول عاقل: إن كلام الله أو علم الله أو حياة الله، هي رب العالمين الذي خلق السماوات والأرض، فلو قدر أن المسيح هو صفة الله نفسها لم يكن هو الله، ولم يكن هو رب العالمين، ولا خالق السماوات والأرض.

والنصارى يقولون: إن المسيح رب العالمين خالق كل شيء، وهو خالق آدم ومريم، وإن كان ابن آدم ومريم، فإنه خالق ذلك بلاهوته، وهو ابن آدم ومريم بناسوته.

فلو قدر أن المسيح هو صفة الرب لم تكن الصفة هي الخالق، فكيف والمسيح ليس هو صفة الله نفسها، بل هو مخلوق بكلمة الله، وسمي كلمة الله، لأن الله كونه (بكن) ؟

وقال تعالى: {ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون} [مريم: 34] (34) {ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [مريم: 35] .

وسماه روحه، لأنه خلقه من نفخ روح القدس في أمه، لم يخلقه كما خلق غيره من أب آدمي.

قال الله تعالى: {إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين} [آل عمران: 45] (45) {ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين} [آل عمران: 46] (46) {قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [آل عمران: 47] وإن قالوا: المتحد به بعض ذلك دون بعض، فقد قالوا بالتبعيض والتجزئة، فهم بين أمرين: إما بطلان مذهبهم، وإما اعترافهم بالتبعيض والتجزئة مع بطلانه.

وأيضا فقولهم: (إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، ابن الله الوحيد، المولود قبل كل الدهور) .

يقال لهم: هذا الابن المولود المساوي للأب في الجوهر، الذي هو إله حق من إله حق، هل هو صفة قائمة بغيرها؟ أو عين قائمة بنفسها؟

فإن كان الأول، فالصفة ليست إلها ولا هي خالقة، ولا يقال لها: مولودة من الله، ولا إنها مساوية لله في الجوهر، ولم يسم قط أحد من الأنبياء، ولا أتباع الأنبياء صفات الله لا ابنا له ولا ولدا، ولا قال: إن صفة الله تولدت منه، ولا قال عاقل: إن الصفة القديمة تولدت من الذات القديمة.

وهم يقولون: إن المسيح إله خلق السماوات والأرض لاتحاد ناسوته بهذا الابن المولود قبل كل الدهور، المساوي الأب في الجوهر.

وهذا كله نعت عين قائمة بنفسها، كالجواهر القائمة بنفسها، لا نعت صفات قائمة بغيرها، وإذا كان كذلك كان التبعيض والتجزئة

لازمة لقولهم، فإن القول بالولادة الطبيعية مستلزم لأن يكون خرج منه جزء، قال تعالى: {وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين} [الزخرف: 15] (15) {أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين} [الزخرف: 16] (16) {وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم} [الزخرف: 17] (17) {أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين} [الزخرف: 18] (18) {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون} [الزخرف: 19] .

وأما هذا المعنى الذي يثبته من يثبته من علماء النصارى ويسمونه ولادة وبنوة فيسمونه الصفة القديمة الأزلية القائمة بالموصوف ابنا، ويسمونها تارة النطق، وتارة الكلمة، وتارة العلم، وتارة الحكمة، ويقولون: هذا مولود من الله، وابن الله.

فهذا لم يقله أحد من الأنبياء وأتباعهم، ولا من سائر العقلاء غير هؤلاء المبتدعة من النصارى، ولا يفهم أحد من العقلاء من اسم الولادة والبنوة هذا المعنى.

والأنبياء لم يطلقوا لفظ الابن إلا على مخلوق، وهم يقولون: هو أب للمسيح بالطبع، ولغيره بالوضع، فلا يعقل جمهور العقلاء

وغيرهم من هذا المعنى إلا البنوة المعقولة بانفصال جزء من الوالد، وهذا ينكره من ينكره من علمائهم.

لكنهم لم يتبعوا الأنبياء، ولم يقولوا ما تعقله العقلاء، فضلوا فيما نقلوه عن الأنبياء، وأضلوا أتباعهم فيما قالوه، وعوامهم، وإن كانوا لا يقولون: إن ولادة الله مثل ولادة الحيوان بانفصال شيء يوجد، فيقولون: ولادة لاهوتية بانفصال جزء من اللاهوت حل في الناسوت، لا يعقل من الولادة غير هذا.

وأيضا فقولهم: (ونؤمن بروح القدس الرب المحي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب مسجود له، وممجد ناطق في الأنبياء، فقولهم: المنبثق من الأب الذي هو مع الأب مسجود له وممجد، يمتنع أن يقال هذا في حياة الرب القائمة به، فإنها ليست منبثقة منه كسائر الصفات، إذ لو كان القائم بنفسه منبثقا لكان علمه وقدرته، وسائر صفاته منبثقة منه، بل الانبثاق في الكلام أظهر منه في الحياة، فإن الكلام يخرج من المتكلم، وأما الحياة فلا تخرج من الحي، فلو كان في الصفات ما هو منبثق لكان الصفة التي يسمونها الابن، ويقولون: هي العلم والكلام أو النطق والحكمة - أولى بأن تكون منبثقة من الحياة التي هي أبعد عن ذلك من الكلام.

وقد قالوا أيضا: إنه مع الأب مسجود له وممجد، والصفة القائمة بالرب ليست معه مسجود لها، وقالوا: هو ناطق في الأنبياء، وصفة الرب القائمة به لا تنطق في الأنبياء،، بل هذا كله صفة روح القدس الذي يجعله الله في قلوب الأنبياء، أو صفة ملك من الملائكة كجبريل، فإذا كان هذا منبثقا من الأب، والانبثاق الخروج، فأي تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا.

وإذا شبهوه بانبثاق الشعاع من الشمس كان هذا باطلا من وجوه:

منها: أن الشعاع عرض قائم بالهواء والأرض، وليس جوهرا قائما بنفسه، وهذا عندهم حي مسجود له، وهو جوهر.

ومنها: أن ذلك الشعاع القائم بالهواء والأرض ليس صفة للشمس، ولا قائما بها، وحياة الرب صفة قائمة به.

ومنها: أن الانبثاق خصوا به روح القدس، ولم يقولوا في الكلمة: إنها منبثقة.

والانبثاق لو كان حقا لكان بالكلمة أشبه منه بالحياة، وكلما تدبر العاقل كلامهم في الأمانة وغيرها وجد فيه من التناقض والفساد

ما لا يخفى إلا على أجهل العباد، ووجد فيه من مناقضته التوراة والإنجيل، وسائر كتب الله - ما لا يخفى من تدبر هذا وهذا.

ووجد فيه من مناقضة صريح المعقول ما لا يخفى إلا على معاند أو جهول، فقولهم متناقض في نفسه، مخالف لصريح المعقول، وصحيح المنقول عن جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين.

[فصل: نقض قولهم إن اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف ولهذا تجسمت كلمة الله الخالقة بعيسى]

قالوا: وأما تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معا، أي الكلمة مع الناسوت، فإنه لم يخاطب الباري أحدا من الأنبياء إلا وحيا أو من وراء حجاب، حسب ما جاء في هذا الكتاب بقوله: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء} [الشورى: 51] .

وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف - روح القدس - وغيرها، فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف والكثائف، تظهر في غير كثيف كلا.

ولذلك ظهر في عيسى ابن مريم، إذ الإنسان أجل ما خلقه الله، ولهذا خاطب الخلق، وشاهدوا منه ما شاهدوا.

والجواب من طرق:

أحدها: أنه يقال: هذا الذي ذكروه، وادعوا أنه تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق، وولادتهما معا، أي الكلمة مع الناسوت، وهو الذي يعبر عنه باتحاد اللاهوت بالناسوت - هو أمر ممتنع في صريح العقل، وما علم أنه ممتنع في صريح العقل لم يجز أن يخبر به رسول، فإن الرسل إنما تخبر بما لا يعلم بالعقل أنه ممتنع، فأما ما يعلم بصريح العقل أنه ممتنع، فالرسل منزهون عن الإخبار عنه.

الطريق الثاني: أن الأخبار الإلهية صريحة بأن المسيح عبد الله ليس بخالق العالم، والنصارى يقولون: هو إله تام وإنسان تام.

الطريق الثالث: الكلام فيما ذكروه.

فأما الطريق الأول فمن وجوه:

أحدها: أن يقال: المتحد بالمسيح إما أن يكون هو الذات المتصفة بالكلام أو الكلام فقط، وإن شئت قلت: المتحد به، إما الكلام مع الذات، وإما الكلام بدون الذات، فإن كان المتحد به الكلام مع الذات كان المسيح هو الأب وهو الابن وهو روح القدس، وكان المسيح هو الأقانيم الثلاثة.

وهذا باطل باتفاق النصارى، وسائر أهل الملل، وباتفاق الكتب الإلهية، وباطل بصريح العقل كما سنذكره إن شاء الله.

وإن كان المتحد به هو الكلمة فقط فالكلمة صفة، والصفة لا تقوم بغير موصوفها، والصفة ليست إلها خالقا، والمسيح عندهم إله خالق، فبطل قولهم على التقديرين، وإن قالوا: المتحد به الموصوف بالصفة فالموصوف هو الأب، والمسيح عندهم ليس هو الأب، وإن قالوا: الصفة فقط، فالصفة لا تفارق الموصوف ولا تقوم بغير الموصوف، والصفة لا تخلق ولا ترزق، وليست الإله، والصفة لا تقعد عن يمين الموصوف، والمسيح عندهم صعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه.

وأما كونه هو الأب فقط، وهو الذات المجردة عن الصفات، فهذا أشد استحالة، وليس فيهم من يقول بهذا.

الوجه الثاني: أن الذات المتحدة بناسوت المسيح مع ناسوت المسيح إن كانتا بعد الاتحاد ذاتين، وهما جوهران كما كانا قبل الاتحاد، فليس ذلك باتحاد.

وإن قيل: صارا جوهرا واحدا، كما يقول من يقول منهم: إنهما صارا كالنار مع الحديدة، أو اللبن مع الماء، فهذا يستلزم استحالة كل منهما، وانقلاب صفة كل منهما، بل حقيقته كما استحال الماء واللبن إذا اختلطا، والنار مع الحديدة، وحينئذ فيلزم أن يكون اللاهوت استحال وتبدلت صفته وحقيقته، والاستحالة لا تكون إلا بعدم شيء ووجود آخر، فيلزم عدم شيء من القديم الواجب الوجود بنفسه.

وما وجب قدمه استحال عدمه، وما وجب وجوده امتنع عدمه، فإن القديم لا يكون قديما إلا لوجوبه بنفسه، أو لكونه لازما للواجب بنفسه، إذ لو لم يكن لازما له، بل كان غير لازم له لم يكن قديما بقدمه، والواجب بنفسه يمتنع عدمه، ولازمه لا يعدم إلا بعدمه، فإنه يلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم.

الوجه الثالث: أن يقال: الناس لهم في كلام الله عز وجل عدة أقوال، وقول النصارى باطل على جميع الأقوال التي قالها الناس في كلام الله فثبت بطلانه على كل تقدير، وذلك أن كلام الله سبحانه إما أن يكون صفة له قائما به، وإما أن يكون مخلوقا له بائنا عنه، وإما أن يكون لا هذا ولا هذا، بل هو ما يوجد في النفوس، وهذا الثالث هو أبعد الأقوال عن أقوال الأنبياء، وهو قول من يقول من الفلاسفة والصابئة: إن الرب لا تقوم به الصفات وليس هو خالقا باختياره.

ويقولون مع ذلك: إنه ليس عالما بالجزئيات، ولا قادرا على تغيير الأفلاك، بل كلامه عندهم ما يفيض على النفوس، وربما سموه كلاما، بلسان الحال.

وهؤلاء ينفون الكلام عن الله، ويقولون: ليس بمتكلم، وقد يقولون: متكلم مجازا، لكن لما نطقت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطلقه من دخل في الملل منهم، ثم فسره بمثل هذا، وهذا أحد قولي الجهمية.

والقول الثاني: أنه متكلم حقيقة، لكن كلامه مخلوق، خلقه في غيره، وهو قول المعتزلة وغيرهم، والقول الآخر للجهمية.

وعلى هذين القولين، فليس لله كلام قائم به حتى يتحد بالمسيح، أو يحل به، والمخلوق عرض من الأعراض ليس بإله خالق، وكثير من أهل الكتاب: اليهود، والنصارى، من يقول بهذا وهذا.

وأما القول الأول، وهو قول سلف الأمة وأئمتها، وجمهورها، وقول كثير من سلف أهل الكتاب، وجمهورهم - فإما أن يقال: الكلام قديم النوع، بمعنى أنه لم يزل يتكلم بمشيئته، أو قديم العين، وإما أن يقال: ليس بقديم، بل هو حادث، والأول هو القول المعروف عن أئمة السنة والحديث.

وأما القائلون بقدم العين، فهم يقولون: الكلام لا يتعلق بمشيئته وقدرته، لاعتقادهم أنه لا تحله الحوادث، وما كان بمشيئته وقدرته لا يكون إلا حادثا.

ولهم قولان: منهم من قال: القديم معنى واحد، أو خمسة معان، وذلك المعنى يكون أمرا ونهيا وخبرا، وهذه صفات له لا أقسام له، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة.

ومنهم من قال: هو حروف، أو حروف وأصوات قديمة الأعيان.

والقول الثالث: إنه متكلم بمشيئته وقدرته كلاما قائما بذاته، قالوا: وهو حادث، ويمتنع أن يكون قديما، لامتناع كون المقدور

المراد قديما، وهذه الطوائف بنوا أقوالهم على أن ما لم يخل عن الحوادث، فهو حادث لامتناع وجود ما لا نهاية له عندهم، وإذا امتنع ذلك تعين أن يكون لنوع الحوادث ابتداء، كما للحادث المعنى ابتداء، وما لم يسبق الحوادث كان معه أو بعده، فيكون حادثا، فلهذا منع هؤلاء أن تكون كلمات الله لا نهاية لها في الأزل، وإن كان من هؤلاء من يقول بدوام وجودها في الأبد.

وأما القول بأن كلمات الله لا نهاية لها مع أنها قائمة بذاته، فهو القول المأثور عن أئمة السلف، وهو قول أكثر أهل الحديث، وكثير من أهل الكلام، ومن الفلاسفة، وهذه الأقوال قد بسط الكلام عليها في غير موضع.

والمقصود هنا أن قول النصارى باطل على كل قول من هذه الأقوال الأربعة، كما تقدم بيان بطلانه على ذينك القولين، فإنه - على قول الجمهور الذين يجعلون لله كلمات كثيرة - إما كلمات لا نهاية لها ولم تزل، وإما كلمات لها ابتداء، وإذا كان له كلمات كثيرة فالمسيح ليس هو الكلمات التي لا نهاية لها، وليس هو كلمات كثيرة، بل إنما خلق بكلمة من كلمات الله كما في الكتب الإلهية: القرآن والتوراة، إنه يخلق الأشياء بكلماته.

قال تعالى في قصة بشارة مريم بالمسيح: {قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [آل عمران: 47] .

وقال أيضا: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} [آل عمران: 59] .

وقال: {ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون - ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [مريم: 34 - 35] .

وقد أخبر الله في القرآن بخلقه للأشياء بكلماته في غير موضع، بقوله: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} [يس: 82]

وفي التوراة: ليكن يوم الأحد، ليكن كذا ليكن كذا.

وأيضا فعلى قول هؤلاء وعلى قول من يجعل كلامه إما معنى واحدا، وإما خمسة معان، وإما حروف وأصوات هي شيء واحد؛ فكلهم يقولون: إن الكلام صفة قائمة بالموصوف لا يتصور أن يكون جوهرا قائما بنفسه، ولا يتصور أن يكون خالقا،

ولا للكلام مشيئة، ولا هو جوهر آخر غير جوهر المتكلم، ولا يتحد بغير المتكلم، بل جمهورهم يقولون: إنه لا يحل أيضا بغير المتكلم.

ومن قال بالحلول منهم فلا يقول: إن الحال جوهر، ولا إله خالق، فتبين أن ما قاله النصارى باطل على جميع الأقوال التي قالها الناس في كلام الله مع أن أكثر هذه الأقوال خطأ، ولما كان قول النصارى فساده أظهر للعقلاء كان الخطأ الذي في أكثر هذه الأقوال قد خفي على العقلاء الذين قالوها، ولم يخف عليهم فساد قول النصارى.

وأيضا فالذين قالوا بالحلول من الغلاة الذين يكفرهم المسلمون، كالذين يقولون بحلوله في بعض أهل البيت أو بعض المشايخ، هم وإن كانوا كفارا شاركوا النصارى في الحلول، ولكن لم يقولوا: إن الكلمة التي حلت هي الإله الخالق، فيتناقضون تناقضا ظاهرا، مثل ما في قول النصارى من التناقض البين ما ليس في قول هؤلاء، وإن كانوا في بعض الوجوه قولهم شر من قول النصارى.

الوجه الرابع: أن يقال: لو كان المسيح نفس كلمة الله فكلمة الله ليست هي الإله الخالق للسماوات والأرض، ولا هي تغفر الذنوب، وتجزي الناس بأعمالهم، سواء كانت كلمته صفة له أو مخلوقة له كسائر صفاته ومخلوقاته، فإن علم الله وقدرته وحياته لم تخلق العالم، ولا يقول أحد: يا علم الله اغفر لي، ويا قدرة الله توبي علي، ويا كلام الله ارحمني، ولا يقول: يا توراة الله أو يا إنجيله أو يا قرآنه اغفر لي وارحمني، وإنما يدعو الله سبحانه، وهو سبحانه متصف بصفات الكمال، فكيف والمسيح ليس هو نفس الكلام؟

فإن المسيح جوهر قائم بنفسه، والكلام صفة قائمة بالمتكلم، وليس هو نفس الرب المتكلم، فإن الرب المتكلم هو الذي يسمونه الأب، والمسيح ليس هو الأب عندهم، بل الابن، فضلوا في قولهم من جهات:

منها: جعل الأقانيم ثلاثة، وصفات الله لا تختص بثلاثة.

ومنها: جعل الصفة خالقة، والصفة لا تخلق.

ومنها: جعلهم المسيح نفس الكلمة، والمسيح خلق بالكلمة، فقيل له كن فكان كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفسير ذلك، وإنما خص المسيح بتسميته كلمة الله دون سائر البشر، لأن سائر البشر خلقوا على الوجه المعتاد في المخلوقات، يخلق الواحد من ذرية آدم من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ فيه الروح، وخلقوا من ماء الأبوين: الأب والأم.

والمسيح عليه السلام لم يخلق من ماء رجل، بل لما نفخ روح القدس في أمه حبلت به، وقال الله: كن فكان، ولهذا شبهه الله بآدم في قوله:{إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} [آل عمران: 59] .

فإن آدم عليه السلام خلق من تراب وماء، فصار طينا، ثم أيبس الطين، ثم قال له: كن فكان، وهو حين نفخ الروح فيه صار بشرا تاما، لم يحتج بعد ذلك إلى ما احتاج إليه أولاده بعد نفخ الروح، فإن الجنين بعد نفخ الروح يكمل خلق جسده في بطن أمه، فيبقى في بطنها نحو خمسة أشهر، ثم يخرج طفلا يرتضع، ثم يكبر شيئا بعد شيء، وآدم عليه السلام حين خلق جسده قيل له كن فكان بشرا تاما بنفخ الروح فيه، ولكن لم يسم كلمة الله لأن جسده خلق من التراب والماء وبقي مدة طويلة يقال: أربعين سنة، فلم يكن خلق جسده إبداعيا في وقت واحد،، بل خلق شيئا فشيئا، وخلق الحيوان من الطين معتاد في الجملة.

وأما المسيح عليه السلام فخلق جسده خلقا إبداعيا بنفس نفخ روح القدس في أمه، قيل له: كن فكان، فكان له من الاختصاص بكونه خلق بكلمة الله ما لم يكن لغيره من البشر، ومن الأمر المعتاد في لغة العرب وغيرهم أن الاسم العام إذا كان له نوعان خصت أحد النوعين باسم، وأبقت الاسم العام مختصا بالنوع، كلفظ الدابة والحيوان، فإنه عام في كل ما يدب، وكل حيوان، ثم لما كان للآدمي اسم يخصه بقي لفظ الحيوان يختص به البهيم، ولفظ الدابة يختص به الخيل أو هي والبغال والحمير ونحو ذلك، وكذلك لفظ الجائز والممكن، وذوي الأرحام، وأمثال ذلك، فلما كان لغير المسيح ما يختص به أبقي اسم الكلمة العامة مختصا بالمسيح.

الطريق الثاني: أن ما ذكروه حجة عليهم، فإن الله إذا لم يكلم أحدا من الأنبياء إلا وحيا أو من وراء حجاب، فالمسيح عيسى ابن مريم يجب أن لا يكلمه إلا وحيا، أو من وراء حجاب، أو يرسل إليه رسولا.

وقوله تعالى: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب} [الشورى: 51] .

يعم كل بشر: المسيح وغيره.

وإذا امتنع أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب فامتناع أن يتحد به أو يحل فيه أولى وأحرى.

فإن ما اتحد به وحل فيه كلمة الله من غير حجاب بين اللاهوت والناسوت، وهم قد سلموا أن الله لا يكلم بشرا إلا من وراء حجاب.

الوجه الثالث: أن قوله. {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب} [الشورى: 51] .

يقتضي أن يكون الحجاب حجابا يحجب البشر كما حجب موسى، فيقتضي ذلك أنهم لا يرونه في الدنيا وإن كلمهم، كما أنه كلم موسى ولم يره موسى، بل سأل الرؤية فقال: {قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين} [الأعراف: 143] .

قيل: أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد في الدنيا، وعندهم في التوراة: إن الإنسان لا يمكنه أن يرى الله في الدنيا فيعيش،

وكذلك قال عيسى لما سألوه عن رؤية الله فقال: إن الله لم يره أحد قط. وهذا معروف عندهم، وإذا كان كذلك فلا بد أن يكون الحجاب الحاجب للبشر ليس هو من البشر، وهذا يبطل قول النصارى فإنهم يقولون: إن الرب احتجب بحجاب بشري، وهو الجسد الذي ولدته مريم، فاتخذه حجابا وكلم الناس من ورائه، والقرآن يدل على أن الحجاب ليس من البشر.

يبين هذا الوجه الرابع: وهو أن ذلك الجسد الذي ولدته مريم هو من جنس أجسام بني آدم، فإن جاز أن يتحد به، ويحل فيه، ويطيق الجسد البشري ذلك في الدنيا بما يجعله الله فيه من القوة، جاز أن يتحد بغيره من الأجسام بما يجعله فيها من القوة، وإذا جاز أن يتحد بها جاز أن يكلمها بغير حجاب بينه وبينها بطريق الأولى والأحرى، وهذا خلاف ما ذكروه وخلاف القرآن.

فتبين أن نفي الأنبياء لأن يراه المرء في الدنيا هو نفي لممساته ببشر بطريق الأولى والأحرى، والناسوت المسيحي هو بشر فإذا لم يمكنه أن يرى الله فكيف يمكنه أن يتحد به، ويماسه ويصير هو وإياه كاللبن والماء، والنار والحديد، أو كالروح والبدن؟

الوجه الخامس: أنه من المعلوم أن رؤية الآدمي له أيسر من اتحاده به، وحلوله فيه، وأولى بالإمكان، فإذا كانت الرؤية في الدنيا قد نفاها الله، ومنعها على ألسن رسله: موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه، فكيف يجوز اتصاله بالبشر واتحاده به؟ الوجه السادس: أنه لو كان حلوله في البشر مما هو ممكن وواقع، لم يكن لاختصاص واحد من البشر بذلك دون من قبله وبعده معنى، فإن القدرة شاملة، والمقتضى - وهو وجود الله وحاجة الخلق - موجودة، ولهذا لما كانت الرسالة ممكنة أرسل من البشر غير واحد، ولما كان سماع كلامه للبشر ممكنا سمع كلامه غير واحد، ورؤيته في الدنيا بالأبصار لم تقع لأحد باتفاق علماء المسلمين، لكن لهم في النبي - صلى الله عليه وسلم - قولان، والذي عليه أكابر العلماء وجمهورهم أنه لم يره بعينه، كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

والخلة لما كانت ممكنة اتخذ إبراهيم خليلا، واتخذ محمدا أيضا خليلا كما في الصحيح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا» وقال صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا

لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله، يعني نفسه» .

الوجه السابع: قولهم: وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف مثل الروح وغيرها - فكلمة الله التي بها خلقت الكثائف تظهر في غير كثيف كلا.

فيقال لهم: ظهور اللطائف في الكثائف كلام مجمل، فإن أردتم أن روح الإنسان تظهر في جسده، أو الجني يتكلم على لسان المصروع ونحو ذلك - فليس هذا مما نحن فيه، وإن أردتم أن الله تعالى نفسه يحل في البشر، فهذا محل النزاع، فأين الدليل عليه وأنتم لم تذكروا إلا ما يدل على نقيض ذلك؟

الوجه الثامن: أن هذا أمر لم يدل عليه عقل ولا نقل، ولا نطق نبي من الأنبياء بأن الله يحل في بشر، ولا ادعى صادق قط حلول الرب فيه، وإنما يدعي ذلك الكذابون، كالمسيح الدجال الذي يظهر في آخر الزمان، ويدعي الإلهية، فينزل الله تبارك

وتعالى عيسى ابن مريم مسيح الهدى، فيقتل مسيح الهدى الذي ادعيت فيه الإلهية بالباطل المسيح الدجال الذي ادعى الإلهية بالباطل، ويبين أن البشر لا يحل فيه رب العالمين.

ولهذا لما أنذر النبي صلى الله عليه وسلم بالمسيح الدجال، وقال: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال حتى نوح أنذر قومه به» وذكر النبي صلى الله عليه وسلم له ثلاث دلائل ظاهرة تظهر لكل مسلم، تبين كذبه:

أحدها: قوله: مكتوب بين عينيه كافر، " ك ف ر " يقرؤه كل مؤمن: قارئ وغير قارئ الثاني: قوله: «واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت» فبين أن الله لا يراه أحد في الدنيا بعينيه، وكل بشر فإنه يرى في الدنيا بالعين، فعلم أن الله لا يتحد ببشر.

الثالث: قوله: إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، ودلائل نفي الربوبية عنه كثيرة.

لكن لما كان حلول اللاهوت في البشر واتخاذه به مذهبا ضل به طوائف كثيرون من بني آدم النصارى وغيرهم، وكان المسيح الدجال يأتي بخوارق عظيمة، والنصارى احتجوا على إلهية المسيح بمثل ذلك - ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من علامات كذبه أمورا ظاهرة لا يحتاج فيها إلى بيان موارد النزاع التي ضل فيها خلق كثير من الآدميين، فإن كثيرا من الناس، بل أكثرهم، تدهشهم الخوارق حتى يصدقوا صاحبها قبل النظر في إمكان دعواه، وإذا صدقوه صدقوا النصارى في دعوى إلهية المسيح، وصدقوا أيضا من ادعى الحلول والاتحاد في بعض المشايخ، أو بعض أهل البيت أو غيرهم من أهل الإفك والفجور.

وبهذا يظهر الجواب عما يورده بعض أهل الكلام كالرازي على هذا الحديث حيث قالوا: دلائل كون الدجال ليس هو الله - ظاهرة، فكيف يحتج النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور» ؟ وهذا السؤال يدل على جهل قائله بما يقع فيه بنو آدم من الضلال، وبالأدلة البينة التي تبين فساد الأقوال الباطلة، وإلا فإذا كان بنو إسرائيل في عهد موسى ظنوا أن العجل هو إله موسى، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، وظنوا أن موسى نسيه.

والنصارى مع كثرتهم يقولون: إن المسيح هو الله. وفي المنتسبين إلى القبلة خلق كثير يقولون ذلك في كثير من المشايخ وأهل البيت، حتى إن كثيرا من أكابر شيوخ المعرفة والتصوف يجعلون هذا نهاية التحقيق والتوحيد، وهو أن يكون الموحد هو الموحد، وينشدون:

ما وحد الواحد من واحد ... إذ كل من وحده جاحد

توحيد من يخبر عن نعته ... عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد

فكيف يستبعد مع إظهار الدجال هذه الخوارق العظيمة أن يعتقد فيه أنه الله، وهو يقول: أنا الله، وقد اعتقد ذلك فيمن لم يظهر فيه مثل خوارقه من الكذابين وفيمن لم يقل: أنا الله، كالمسيح، وسائر الأنبياء والصالحين.

الوجه التاسع: قولهم: فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف تظهر في غير كثيف كلا، فيقال لهم: كلمة الله التي يدعون ظهورها في المسيح، أهي كلام الله الذي هو صفته، أو ذات الله المتكلمة أو مجموعها؟ فإن قلتم: الظاهر فيه نفس الكلام فهذا يراد به شيئان:

إن أريد به أن الله أنزل كلامه على المسيح، كما أنزله على غيره من الرسل، فهذا حق اتفق عليه أهل الإيمان، ونطق به القرآن.

وإن أريد به أن كلام الله فارق ذاته وحل في المسيح أو غيره، فهو باطل مع أن هذا لا ينفع النصارى، فإن المسيح عندهم إله خلق السماوات والأرض، وهو عندهم ابن آدم وخالق آدم، وابن مريم وخالق مريم، ابنها بناسوته وخالقها بلاهوته.

وإن أرادوا بظهور الكلمة ظهور ذات الله أو ظهور ذاته وكلامه في الكثيف الذي هو الإنسان، فهذا أيضا يراد به ظهور نوره في قلوب المؤمنين، كما قال تعالى: {الله نور السماوات والأرض} [النور: 35] إلى قوله: {كوكب دري} [النور: 35] الآية.

وكما ظهر الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران، وكما تجلى لإبراهيم، كما ذكره في التوراة، فهذا لا يختص بالمسيح، بل هو لغيره كما هو له.

وإن أرادوا أن ذات الرب حلت في المسيح، أو في غيره فهذا محل النزاع، فأين دليلهم على إمكان ذلك ثم وقوعه؟ مع أن جماهير العقلاء من أهل الملل وغيرهم يقولون: هذا غير واقع، بل هو ممتنع.

الوجه العاشر: قولهم: فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف تظهر في غير كثيف كلا - كلام باطل.

فإن ظهور ما يظهر من الأمور الإلهية إذا أمكن ظهوره فظهوره في اللطيف أولى من ظهوره في الكثيف، فإن الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء عليهم السلام، وتتلقى كلام الله من الله، وتنزل به على الأنبياء عليهم السلام، فيكون وصول كلام الله إلى ملائكة قبل وصوله إلى البشر وهم الوسائط كما قال تعالى: {أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء} [الشورى: 51]

والله تعالى أيد رسله من البشر حتى أطاقوا التلقي عن الملائكة، وكانت الملائكة تأتيهم أحيانا في غير الصورة البشرية، وأحيانا في الصورة البشرية، فكان ظهور الأمور الإلهية باللطائف ووصولها إليهم أولى منه بالكثائف، ولو جاز أن يتحد الرب سبحانه بحي من الأحياء، ويحل فيه، لكان حلوله في ملك من الملائكة واتحاده به أولى من حلوله واتحاده بواحد من البشر.

الوجه الحادي عشر: أن الناسوت المسيحي عندهم الذي اتحد به هو البدن والروح معا، فإن المسيح كان له بدن وروح، كما لسائر البشر، واتحد به عندهم اللاهوت، فهو عندهم اسم يقع على بدن وروح آدميين وعلى اللاهوت، وحينئذ فاللاهوت على رأيهم إنما اتحد في لطيف وهو الروح، وكثيف وهو البدن، لم يظهر في كثيف فقط، ولولا اللطيف الذي كان مع الكثيف، وهو الروح - لم يكن للكثيف فضيلة ولا شرف.

الوجه الثاني عشر: أنهم يشبهون اتحاد اللاهوت بالناسوت باتحاد الروح بالبدن، كما شبهوا هنا ظهوره فيه بظهور الروح في البدن، وحينئذ فمن المعلوم أن ما يصيب البدن من الآلام تتألم به الروح، وما تتألم به الروح يتألم به البدن، فيلزمهم أن يكون الناسوت لما صلب وتألم وتوجع الوجع الشديد كان اللاهوت أيضا متألما متوجعا، وقد خاطبت بهذا بعض النصارى فقال لي: الروح بسيطة، أي لا يلحقها ألم، فقلت له: فما تقول في أرواح الكفار بعد الموت، أمنعمة أو معذبة؟ فقال: هي في العذاب، فقلت: فعلم أن الروح المفارقة تنعم وتعذب، فإذا شبهتم اللاهوت في الناسوت بالروح في البدن لزم أن تتألم إذا تألم الناسوت كما تتألم الروح إذا تألم البدن، فاعترف هو وغيره بلزوم ذلك.

الوجه الثالث عشر: أن قولهم: وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف - فكلمة الله لا تظهر إلا في كثيف كلا.

تركيب فاسد لا دلالة فيه، وإنما يدل إذا بينوا أن كل لطيف يظهر في كثيف، ولا يظهر في غيره حتى يقال: فلهذا ظهر الله في كثيف ولم يظهر في لطيف، وإلا فإذا قيل: إنه لا يحل لا في لطيف، ولا كثيف، أو قيل إنه يحل فيهما - بطل قولهم بوجوب حلوله في المسيح الكثيف دون اللطيف، وهم لم يؤلفوا الحجة تأليفا منتجا، ولا دلوا على مقدماتها بدليل، فلا أتوا بصورة الدليل، ولا مادته،، بل مغاليط لا تروج إلا على جاهل يقلدهم.

ولا يلزم من حلول الروح في البدن أن يحل كل شيء في البدن، بل هذه دعوى مجردة، فأرواح بني آدم تظهر في أبدانهم، ولا تظهر في أبدان البهائم، بل ولا في الجن، والملائكة تتصور في صورة الآدميين، وكذلك الجن، والإنسان لا يظهر في غير صورة الإنسان، فأي دليل من كلامهم على أن الرب يحل في الإنسان الكثيف، ولا يحل في اللطيف؟

والقوم شرعوا يحتجون على تجسيم كلمة الله الخالقة فقالوا: وأما تجسيم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معا، أي الكلمة مع الناسوت، فإن الله لم يكلم أحدا من الأنبياء إلا وحيا أو من وراء حجاب وليس فيما ذكروه قط دلالة لا قطعية ولا ظنية على تجسيم كلمة الله الخالقة وولادتها مع الناسوت.

الوجه الرابع عشر: أنهم قالوا: وأما تجسيم كلمة الله الخالقة، ثم قالوا: فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف، فتارة يجعلونها خالقة، وتارة يجعلونها مخلوقا بها، ومعلوم أن الخالق ليس هو المخلوق به، والمخلوق به ليس هو الخالق، فإن كانت الكلمة خالقة، فهي خلقت الأشياء، ولم تخلق الأشياء بها، وإن كانت الأشياء خلقت بها، فلم تخلق الأشياء، بل خلقت الأشياء بها، ولو قالوا: إن الأشياء خلقت بها بمعنى أن الله إذا أراد أمرا فإنما يقول له: كن فيكون، لكان هذا حقا، لكنهم يجعلونها خالقة، مع قولهم بما يناقض ذلك.

الوجه الخامس عشر: أن يقال لهم: إذا كان الله لم يخاطب بشرا إلا وحيا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء - فتكليمه للبشر بالوحي ومن وراء حجاب، كما كلم موسى، وبإرسال ملك، كما أرسل الملائكة - إما أن يكون كافيا في حصول مراد الرب من الرسالة إلى عباده، أو ليس كافيا، بل لا بد من حلوله نفسه في بشر، فإن كان ذلك كافيا أمكن أن يكون

المسيح مثل غيره فيوحي الله إليه أو يرسل إليه ملكا فيوحي بإذن الله ما يشاء، أو يكلمه من وراء حجاب كما كلم موسى، وحينئذ فلا حاجة به إلى اتحاده ببشر مخلوق، وإن كان التكلم ليس كافيا وجب أن يتحد بسائر الأنبياء، كما اتحد بالمسيح فيتحد بنوح وإبراهيم وموسى وداود وغيرهم، يبين هذا:

الوجه السادس عشر: وهو أنه من المعلوم أن الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح أفضل من عوام النصارى الذين كانوا بعد المسيح، وأفضل من اليهود الذين كذبوا المسيح فإذا كان الرب قد يفضل باتحاده في المسيح حتى كلم عباده بنفسه، فيتحد بالمسيح محتجبا ببدنه الكثيف، وكلم بنفسه اليهود المكذبين للمسيح وعوام النصارى، وسائر من كلمه المسيح، فكان أن يكلم من هم أفضل من هؤلاء من الأنبياء والصالحين بنفسه أولى وأحرى، مثل أن يتحد بإبراهيم الخليل، فيكلم إسحاق ويعقوب ولوطا محتجبا ببدن الخليل، أو يتحد بيعقوب فيكلم أولاده أو غيرهم محتجبا ببدن يعقوب أو يتحد بموسى بن عمران فيكلم هارون ويوشع بن نون وغيرهما محتجبا ببدن موسى، فإذا كان هو سبحانه لم يفعل ذلك، إما لامتناع ذلك، وإما لأن عزته وحكمته أعلى من ذلك مع عدم الحاجة إلى ذلك، علم أنه لا يفعل ذلك في المسيح بطريق الأولى والأحرى.

الوجه السابع عشر: أنه إذا أمكنه أن يتحد ببشر فاتحاده بملك من الملائكة أولى وأحرى، وحينئذ فقد كان اتحاده بجبريل الذي أرسله إلى الأنبياء أولى من اتحاده ببشر يخاطب اليهود، وعوام النصارى.

[فصل: تفنيد مراد النصارى بظهور الله في عيسى]

قالوا: ولذلك ظهر في عيسى ابن مريم، إذ الإنسان أجل ما خلقه الله، ولهذا خاطب الخلق، وشاهدوا منه ما شاهدوا.

فيقال: إن ادعيتم ظهوره في عيسى كما ظهر في إبراهيم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه، وكما يظهر في بيوته التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وذلك بظهور نوره ومعرفته، وذكر أسمائه وعبادته ونحو ذلك، من غير حلول ذاته في البشر ولا اتحاده به، فهذا أمر مشترك بين المسيح وغيره فلا اختصاص للمسيح بهذا، وهذا أيضا قد يسمى حلولا، وعندهم أن الله يحل في الصالحين، وهذا مذكور عندهم في بعض الكتب الإلهية، كما في كتبهم في المزمور الرابع من الزبور، يقول داود عليه السلام في مناجاته لربه: وليفرح المتوكلون عليك إلى الأبد، ويبتهجون، وتحل فيهم ويفتخرون. فأخبر أنه يحل في الصالحين المذكورين، فعلم أن هذا لا اختصاص للمسيح به، وليس المراد بهذا - باتفاقهم واتفاق المسلمين - أن ذات الله نفسه تتحد بالبشر، ويصير اللاهوت والناسوت كالنار والحديد، والماء واللبن ونحو ذلك مما يمثلون به الاتحاد،، بل هذا يراد به حلول الإيمان به ومعرفته، ومحبته وذكره وعبادته، ونوره وهداه.

وقد يعبر عن ذلك بحلول المثال العلمي، كما قال تعالى: {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} [الزخرف: 84] .

وقال تعالى: {وهو الله في السماوات وفي الأرض} [الأنعام: 3] . {وله المثل الأعلى في السماوات والأرض} [الروم: 27] .

فهو سبحانه له المثل الأعلى في قلوب أهل السماوات وأهل الأرض.

ومن هذا الباب «ما يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه قال: يقول الله: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه» ، فأخبر أن شفتيه تتحرك به أي باسمه، وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «عبدي مرضت فلم تعدني، فيقول العبد: رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ ، فيقول: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده» .

فقال: لوجدتني عنده ولم يقل: لوجدتني إياه، وهو عنده أي في قلبه، والذي في قلبه المثال العلمي.

«وقال تعالى: عبدي جعت فلم تطعمني، فيقول: وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلانا جاع، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي» ، ولم يقل لوجدتني قد أكلته.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى: من «عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» .

وفي رواية: فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته.

وهذا الحديث قد يحتج به القائلون بالحلول العام، أو الاتحاد العام أو وحدة الوجود، وقد يحتج به من يقول بالخاص من ذلك، كأشباه النصارى.

والحديث حجة على الفريقين، فإنه قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، فأثبت ثلاثة: وليا له، وعدوا يعادي وليه، وميز بين نفسه وبين وليه، وعدو وليه، فقال: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب» ، ولكن دل ذلك على أن وليه الذي والاه فصار يحب ما يحب ويبغض ما يبغض، ويوالي من يوالي ويعادي من يعادي، فيكون الرب مؤذنا بالحرب لمن عاداه، بأنه معاد لله.

ثم قال تعالى: «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه» ، ففرق بين العبد المتقرب، والرب المتقرب إليه، ثم قال: ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فبين أنه يحبه بعد تقربه بالنوافل والفرائض.

ثم قال: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وعند أهل الحلول والاتحاد العام أو الوحدة: هو صدره وبطنه وظهره ورأسه وشعره، وهو كل شيء، أو في كل شيء قبل التقرب وبعده، وعند الخاص وأهل الحلول صار هو، وهو كالنار والحديد والماء واللبن، لا يختص بذلك آلة الإدراك والفعل.

ثم قال تعالى: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي» ، وعلى قول هؤلاء - الرب هو الذي يسمع ويبصر ويبطش ويمشي، والرسول إنما قال: فبي، ثم قال: «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» ، فجعل العبد سائلا مستعيذا، والرب مسئولا مستعاذا به، وهذا يناقض الاتحاد، وقوله: فبي يسمع مثل قوله: ما تحركت بي شفتاه، يريد به المثال العلمي.

وقول الله: فيكون الله في قلبه أي معرفته ومحبته وهداه وموالاته، وهو المثل العلمي، فبذاك الذي في قلبه يسمع ويبصر ويبطش ويمشي.

والمخلوق إذا أحب المخلوق أو عظمه أو أطاعه يعبر عنه بمثل هذا، فيقول: أنت في قلبي وفي فؤادي، وما زلت بين عيني، ومنه قول القائل:

مثالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب

وقول الآخر:

ومن عجبي أني أحن إليهم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

ومثل هذا كثير مع علم العقلاء أن نفس المحبوب المعظم هو في نفسه ليست ذاته في عين محبه ولا في قلبه، ولكن قد يشتبه هذا بهذا حتى يظن الغالطون أن نفس المحبوب المعبود في ذات المحب العابد.

ولذلك غلط بعض الفلاسفة حتى ظنوا أن ذات المعلوم المعقول يتحد بالعالم العاقل، فجعلوا المعقول والعقل والعاقل شيئا واحدا، ولم يميزوا بين حلول مثال المعلوم، وبين حلول ذاته، وهذا يكون لضعف العقل وقوة سلطان المحبة والمعرفة، فيغيب الإنسان بمعبوده عن عبادته، وبمحبوبه عن محبته، وبمشهوده عن شهادته، وبمعروفه عن معرفته، فيفنى من لم يكن عن شهود العبد، لا أنه نفسه يعدم ويفنى في من لم يزل في شهوده، ومن هذا المقام إذا غلط قد يقول مثل ما يحكى عن أبي يزيد البسطامي: سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، وفي هذا تذكر حكاية، وهو أن شخصا كان يحب آخر فألقى المحبوب نفسه في ماء، فألقى المحب نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت فلم وقعت أنت؟ فقال: غبت بك عني، فظننت أنك أني، فهذا العبد المحب لما استولى على قلبه سلطان المحبة صار قلبه مستغرقا في محبوبه، لا يشهد قلبه غير ما في قلبه وغاب عن شهود نفسه وأفعاله، فظن أنه هو نفس المحبوب، وهذا أهون من أن يظن أن ذات المحبوب نفسه.

فهذا الظن لاتحاد الذات أو لحلولها ظن غالط وقع فيه كثير من الناس، فالذين قالوا: إن المسيح أو غيره من البشر هو الله، أو إن الله حال فيه قد يكون غلطهم من هذا الجنس، لما سمعوا كلاما يقتضي أن الله في ذات الشخص، وجعلوا فعل هذا فعل هذا، ظنوا ذاك اتحاد الذات وحلولها.

وإنما المراد أن معرفة الله فيه، واتحاد المأمور به والمنهي عنه والموالي والمعادي، كقوله تعالى: {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله} [الفتح: 10] .

وقوله: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [النساء: 80] .

وليس ذلك لأن الرسول هو الله، ولا لأن نفسه حال في الرسول،، بل لأن الرسول يأمر بما أمر الله به، وينهى عما ينهى الله عنه، ويحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله.

فمن بايعه على السمع والطاعة، فإنما بايع الله على السمع والطاعة، ومن أطاعه فإنما أطاع الله.

وكذلك المسيح وسائر الرسل؛ إنما يأمرون بما يأمر الله به، وينهون عما ينهى الله عنه ويوالون أولياء الله، ويعادون أعداء الله، فمن أطاعهم فقد أطاع الله، ومن صدقهم فقبل منهم ما أخبروا به، فقد قبل عن الله، ومن والاهم فقد والى الله، ومن عاداهم وحاربهم فقد عادى الله وحارب الله، ومن تصور هذه الأمور تبين له أن لفظ الحلول قد يعبر به عن معنى صحيح، وقد يعبر به عن معنى فاسد.

وكذلك حلول كلامه في القلوب، ولذلك كره أحمد بن حنبل الكلام في لفظ حلول القرآن في القلوب، كما قد ذكر في غير هذا الموضع.

ومما يوضح هذا أن الشيء له وجود في نفسه هو، وله وجود في المعلوم والأذهان، ووجود في اللفظ واللسان، ووجود في الخط والبيان، ووجود عيني شخصي، وعلمي ولفظي، ورسمي، وذلك كالشمس مثلا فلها تحقق في نفسها، وهي الشمس التي في السماء، ثم يتصور بالقلب الشمس، ثم ينطق اللسان بلفظ الشمس، ويكتب بالقلم الشمس.

والمقصود بالكتابة مطابقة اللفظ، وباللفظ مطابقة العلم، وبالعلم مطابقة المعلوم، فإذا رأى الإنسان في كتاب خط الشمس، أو سمع قائلا يذكر قال: هذه الشمس قد جعلها الله سراجا وهاجا، وهذه الشمس تطلع من المشرق وتغرب في المغرب، فهو يشير إلى ما سمعه من اللفظ ورآه من الخط، وليس مراده نفس اللفظ والخط، فإن ذلك ليس هو الشمس التي تطلع وتغرب، وإنما مراده ما يقصد بالخط واللفظ ويراد بهما، وهو المدلول المطابق لهما، وكذلك قد يرى اسم الله مكتوبا في كتاب، ومعه اسم صنم، فيقول: آمنت بهذا، وكفرت بهذا، ومراده أنه مؤمن بالله كافر بالصنم، فيشير إلى اسمه المكتوب ومراده المسمى بهذا الاسم، وكذلك إذا سمع من يذكر أسماء الله الحسنى قال: هذا رب العالمين، ومراده: المسمى بتلك الأسماء، ومن هذا «قول أنس بن مالك: كان نقش خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر» .

ومراده بهذه الأسماء الخط لهذا وهذا وهذا، لا اللفظ ولا المسمى.

ومما يشبه هذا ما يرى في المرآة أو الماء، مثل أن يرى الشمس أو غيرها في ماء أو مرآة، فيشار إلى المرئي فيقال: هذا الشمس، وهذا وجهي أو وجه فلان، وليس مراده أن نفس الشمس أو وجهه أو وجه فلان حل في الماء أو المرآة، ولكن لما كان المقصود بتلك الرؤية هو الشمس وهو الوجه - ذكره، ثم قد يقال: رآه رؤية مقيدة في الماء، أو المرآة، وقد يقال: رآه بواسطة الماء والمرآة، وقد يقال: رأى مثاله وخياله المحاكي له، ولكن المقصود بالرؤية هو نفسه، ومثل هذا كثير.

ومعلوم أن ما في القلوب من المثال العلمي المطابق للمعلوم أقرب إليه من اللفظ، واللفظ أقرب من الخط، فإذا كان قد يشار إلى اللفظ والخط، والمراد هو نفسه، وإن لم يكن الخط واللفظ هو ذاته، بل به ظهر وعرف، فلأن يشار إلى ما في القلب، ويراد به المعروف الذي ظهر للقلب وتجلى للقلب، وصار نوره في القلب - بطريق الأولى.

والعقلاء إنما تتوجه قلوبهم إلى المقصود المراد دون الوسائل، ويعبرون بعبارات تدل على ذلك لظهور مرادهم بها، كما يقولون لمن يعرف علم غيره، أو لمن يأمر بأمره، ويخبر بخبره، هذا فلان، فإذا كان مطلوبهم علم عالم أو طاعة أمير، فجاء نائبه القائم مقامه في ذلك، قالوا: هذا فلان، أي المطلوب منه هو مع هذا، فالاتحاد المقصود بهما يعبرون عن أحدهما بلفظ الآخر.

كما يقال: عكرمة هو ابن عباس، وأبو يوسف هو أبو حنيفة، ومن هذا الباب ما يذكر عن المسيح عليه السلام أنه قال: أنا وأبي واحد، من رآني فقد رأى أبي.

«وقوله تعالى فيما حكاه عن رسوله: عبدي مرضت فلم تعدني، عبدي جعت فلم تطعمني» ، ويشبهه قوله: {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله} [الفتح: 10] .

فينبغي أن يعرف هذا النوع من الكلام، فإنه تنحل به إشكالات كثيرة، فإن هذا موجود في كلام الله ورسله وكلام المخلوقين، في عامة الطوائف مع ظهور المعنى ومعرفة المتكلم والمخاطب أنه ليس المراد أن ذات أحدهما اتحدت بذات الآخر.

، بل أبلغ من ذلك يطلق لفظ الحلول والاتحاد، ويراد به معنى صحيح، كما يقال فلان وفلان بينهما اتحاد، إذا كانا متفقين فيما يحبان ويبغضان، ويواليان ويعاديان، فلما اتحد مرادهما ومقصودهما صار يقال هما متحدان، وبينهما اتحاد، ولا يعني بذلك أن ذات هذا اتحدت بذات الآخر، كاتحاد النار والحديد، والماء واللبن، أو النفس والبدن، وكذلك لفظ الحلول، والسكنى، والتخلل وغير ذلك، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمي الخليل خليلا

والمتخلل مسلك الروح منه هو محبته له وشعوره به، ونحو ذلك، لا نفس ذاته، وكذلك قول الآخر:

ساكن في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره

والساكن في القلب هو مثاله العلمي ومحبته ومعرفته، فتسكن في القلب معرفته ومحبته لا عين ذاته، وكذلك قول الآخر:

إذا سكن الغدير على صفاء ... وجنب أن يحركه النسيم

بدت فيه السماء بلا امتراء ... كذاك الشمس تبدو والنجوم

كذاك قلوب أرباب التجلي ... يرى في صفوها الله العظيم

وقد يقال: فلان ما في قلبه إلا الله، وما عنده إلا الله، يراد بذلك: إلا ذكره ومعرفته ومحبته وخشيته وطاعته، وما يشبه ذلك، أي ليس في قلبه ما في قلب غيره من المخلوقين، بل ما في قلبه إلا الله وحده، ويقال: فلان ما عنده إلا فلان، إذا كان يلهج بذكره، ويفضله على غيره.

وهذا باب واسع، مع علم المتكلم والمستمع أن ذات فلان لم تحل في هذا، فضلا عن أن تتحد به، وهو كما يقال عن المرآة إذا لم تقابل إلا الشمس: ما فيها إلا الشمس، أي لم يظهر فيها غير الشمس.

وأيضا فلفظ الحلول يراد به حلول ذات الشيء تارة، وحلول معرفته ومحبته ومثاله العلمي تارة كما تقدم ذكره، وعندهم في النبوات أن الله حل في غير المسيح من الصالحين، وليس المراد به أن ذات الرب حلت فيه، بل يقال فلان ساكن في قلبي وحال في قلبي وهو في سري، وسويداء قلبي، ونحو ذلك، وإنما حل فيه مثاله العلمي، وإذا كان كذلك فمعلوم أن المكان إذا خلا ممن يعرف الله ويعبده لم يكن هناك ذكر الله ولا حلت فيه عبادته ومعرفته، فإذا صار في المكان من يعرف الله ويعبده ويذكره ظهر فيه ذكره والإيمان به وحل فيه الإيمان بالله وعبادته وذكره، وهو بيت الله عز وجل فيقال: إن الله فيه، وهو حال فيه.

كما يقال: إن الله في قلوب العارفين، وحال فيهم، والمراد به حلول معرفته والإيمان به ومحبته، ونحو ذلك، وقد تقدم شواهد ذلك، فإذا كان الرب في قلوب عباده المؤمنين، أي نوره ومعرفته، وعبر عن هذا بأنه حال فيهم وهم حالون في المسجد - قيل: إن الله في المسجد، وحال فيه، بهذا المعنى، كما يقال: الله في قلب فلان وفلان، ما عنده إلا الله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده» .

ومما يزيد ذلك إيضاحا ما يراه النائم من بعض الأشخاص في منامه، فيخاطبه ويأمره وينهاه ويخبره بأمور كثيرة، وهو يقول: رأيت فلانا في منامي فقال لي: كذا، وقلت له: كذا، وفعل كذا، وفعلت كذا، ويذكر أنواعا من الأقوال والأفعال.

وقد يكون فيها علوم وحكم وآداب ينتفع بها غاية المنفعة، وقد يكون ذلك الشخص الذي رأى في المنام حيا، وهو لا يشعر بأن ذاك رآه في منامه فضلا عن أن يكون شاعرا بأنه قال أو فعل، وقد يقص الرائي عليه رؤياه، ويقول له الرائي: يا سيدي رأيتك في المنام فقلت لي: كذا، وأمرتني بكذا، ونهيتني عن كذا، والمرئي لا يعرف ذلك، ولا يشعر به، لأن المرئي الذي حل في قلب الرائي هو المثال العلمي المطابق للعيني، كما يرى الرائي في المرآة أو الماء الشخص الموجود في الخارج، فهو المقصود، وبعض المرئيين في المنام قد يدري بأنه رئي في المنام ويكاشف بذلك الرائي كما قد يكاشفه بأمور أخرى، لا لأنه نفسه حل فيه.

والرؤيا إذا كانت صادقة كان ذلك القول والعمل مناسبا لحال المرئي، مما هو عادته يقوله ويفعله بنفسه، فمثل للرائي مثاله قائلا له وفاعلا؛ ليعلم أنه نفسه يقوله ويفعله فينتفع بذلك الرائي، كما يحكى للإنسان قول غيره وعمله ليعرف بذلك نفس القول والعمل المحكي، فإن كثيرا من الأشياء لا يعرفه الناس أو أكثرهم إلا بالمثل المضروب له، إما في اليقظة وإما في المنام، مع العلم بأن عين هذا ليس عين هذا، ومن توهم أنه إذا رأى شخصا في منامه بأن ذاته نفسها حلت فيه دل على جهله؛ فإن المرئي كثيرا ما يكون حيا وهو لا يشعر بمن رآه، ذلك لا روحه تشعر ولا جسمه، فلا يتوهم أن ذات روحه تمثلت في صورته الجسمية للنائم، بل الممثل في نفس الرائي مثال مطابق له وجسمه وروحه حيث هما.

ثم الرؤيا قد تكون من الله، فتكون حقا، وقد تكون من الشيطان، كما ثبت تقسيمها إلى هذين في الأحاديث الصحيحة، والشيطان كما قد يتمثل في المنام بصورة شخص فقد يتمثل أيضا في اليقظة بصورة شخص يراه كثير من الناس، يضل بذلك من لم يكن من أهل العلم والإيمان، كما يجري لكثير من مشركي الهند وغيرهم إذا مات ميتهم يرونه قد جاء بعد ذلك وقضى ديونا، ورد ودائع وأخبرهم بأمور عن موتاهم، وإنما هو شيطان تصور في صورته، وقد يأتيهم في صورة من يعظمونه من الصالحين، ويقول: أنا فلان، وإنما هو شيطان.

وقد يقوم شيخ من الشيوخ، ويخلف موضعه شخصا في صورته يسمونه روحانية الشيخ ورفيقه، وهو جني تصور في صورته، وهذا يقع لكثير من الرهبان وغير الرهبان من المنتسبين إلى الإسلام، وقد يرى أحدهم في اليقظة من يقول له: أنا الخليل، أو أنا موسى، أو أنا المسيح، أو محمد، أو أنا فلان لبعض الصحابة، أو الحواريين، ويراه طائرا في الهواء، وإنما يكون ذلك من الشياطين، ولا تكون تلك الصورة مثل صورة ذلك الشخص.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من رآني في المنام فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي» ، فرؤيته في المنام حق، وأما في اليقظة فلا يرى بالعين هو، ولا أحد من الموتى، مع أن كثيرا من الناس قد يرى في اليقظة من يظنه نبيا من الأنبياء، إما عند قبره وإما عند غير قبره.

وقد يرى القبر انشق، وخرج منه صورة إنسان، فيظن أن الميت نفسه خرج من قبره، أو أن روحه تجسدت وخرجت من القبر، وإنما ذلك جني تصور في صورته ليضل ذلك الرائي، فإن الروح ليست مما تكون تحت التراب وينشق عنها التراب، فإنها وإن كانت قد تتصل بالبدن، فلا يحتاج في ذلك إلى شق التراب، والبدن لم ينشق عنه التراب، وإنما ذلك تخييل من الشيطان، وقد جرى مثل هذا لكثير من المنتسبين إلى المسلمين، وأهل الكتاب والمشركين.

ويظن كثير من الناس أن هذا من كرامات عباد الله الصالحين، ويكون من إضلال الشياطين، كما قد بسط الكلام في هذا الباب في غير هذا الكتاب، مثل الفرقان بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان وغير ذلك.

[فصل: الرد على قولهم ظهر في عيسى حلول ذاته واتحاده بالمسيح أو غيره]

وإذا أردتم بقولكم: ظهر في عيسى حلول ذاته واتحاده بالمسيح أو غيره - فهذه دعوى مجردة من غير دليل متقدم ولا متأخر، وكون الإنسان أجل ما خلقه الله - لو كان مناسبا لحلوله فيه - أمر لا يختص به المسيح، بل قد قام الدليل على أن غير عيسى عليه السلام أفضل منه مثل إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وهذان اتخذهما الله خليلين، وليس فوق الخلة مرتبة، فلو كان يحل في أجل ما خلقه الله من الإنسان لكونه أجل مخلوقاته لحل في أجل هذا النوع، وهو الخليل، ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وليس معهم قط حجة على أن الجسد المأخوذ من مريم إذا لم يتحد باللاهوت على أصلهم - أنه أفضل من الخليل وموسى.

وإذا قالوا: إنه لم يعمل خطيئة، فيحيى بن زكريا لم يعمل خطيئة، ومن عمل خطيئة وتاب منها فقد يصير بالتوبة أفضل مما كان قبل الخطيئة، وأفضل ممن لم يعمل تلك الخطيئة، والخليل وموسى أفضل من يحيى الذي يسمونه يوحنا المعمداني.

وأما قولهم: ولهذا خاطب الخلق، فالذي خاطب الخلق هو عيسى ابن مريم، وإنما سمع الناس صوته لم يسمعوا غير صوته، والجني إذا حل في الإنسان وتكلم على لسانه يظهر للسامعين أن هذا الصوت ليس هو صوت الآدمي، ويتكلم بكلام يعلم الحاضرون أنه ليس كلام الآدمي.

والمسيح عليه السلام لم يكن يسمع منه إلا ما يسمع من مثله من الرسل، ولو كان المتكلم على لسان الناسوت هو جنيا أو ملكا لظهر ذلك، وعرف أنه ليس هو البشر، فكيف إذا كان المتكلم هو رب العالمين؟ فإن هذا لو كان حقا لظهر ظهورا أعظم من ظهور كلام الملك والجني على لسان البشر بكثير كثير.

وأما ما شاهدوه من معجزات المسيح عليه الصلاة والسلام، فقد شاهدوا من غيره ما هو مثلها وأعظم منها، وقد أحيا غيره الميت وأخبره بالغيوب أكثر منه، ومعجزات موسى أعظم من معجزاته أو أكثر، وظهور المعجزات على يديه يدل على نبوته ورسالته، كما دلت المعجزات على نبوة غيره، ورسالتهم، لا تدل على الإلهية.

والدجال لما ادعى الإلهية لم يكن ما يظهر على يديه من الخوارق دليلا عليها، لأن دعوى الإلهية ممتنعة، فلا يكون في ظهور العجائب ما يدل على الأمر الممتنع.

[فصل: ما تنبأت به الكتب السابقة بشأن المسيح]

قالوا: وقد قال الله على أفواه الأنبياء والمرسلين، الذين تنبوا على ولادته من العذراء الطاهرة مريم، وعلى جميع أفعاله التي فعلها في الأرض، وصعوده إلى السماء، وهذه النبوات جميعها عند اليهود مقرين ومعترفين بها ويقرؤنها في كنائسهم، ولم ينكروا منها كلمة واحدة.

فيقال: هذا كله مما لا ينازع المسلمون فيه، فإنه لا ريب أنه ولد من مريم العذراء البتول التي لم يمسها بشر قط، وأن الله أظهر على يديه الآيات، وأنه صعد إلى السماء، كما أخبر الله بذلك في كتابه، كما تقدم ذكره، فإذا كان هذا مما أخبرت به الأنبياء في النبوات التي عند اليهود لم ينكروا ذلك، وإن كان اليهود يتأولون ذلك على غير المسيح، كما في النبوات من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم، فهو حق، وإن كان الكافرون به من أهل الكتاب يتأولون ذلك على غيره.

[فصل: مناقشتهم فيما نقلوه عن الأنبياء حول مجيء المسيح عليه السلام وبيان وجه الدلالة فيها]

[قول عزرا يأتي المسيح ويخلص الشعوب والأمم]

قالوا: وسبيلنا أن نذكر من بعض قول الأنبياء الذين تنبوا على السيد المسيح، ونزوله إلى الأرض، قال عزرا الكاهن حيث سباهم بختنصر الفريدي إلى أرض بابل إلى أربعمائة واثنتين وثمانين سنة: يأتي المسيح ويخلص الشعوب والأمم، وفي كمال هذه المدة أتى السيد المسيح. وقال أرميا النبي عن ولادته في ذلك الزمان: يقوم لداود ابن هو ضوء النور يملك الملك ويعلم ويفهم ويقيم الحق والعدل في الأرض ويخلص من آمن به من اليهود من بني إسرائيل وغيرهم، ويبقى بيت المقدس بغير مقاتل ويسمى الإله. وأما قوله: ابن لداود لأن مريم كانت من نسل داود ولأجل ذلك قال النبي: يقوم لداود ابن.

فيقال: أما قول عزرا الكاهن فليس فيه إلا إخباره بأنه يأتي المسيح ويخلص الشعوب والأمم، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون، فإنهم يقرون بما أخبر الله به في كتابه من إتيان المسيح عليه السلام، وتخليص الله به كل من آمن به من الشعوب والأمم إلى أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم.

فكل من كان مؤمنا بالمسيح، متبعا لما أنزل عليه من غير تحريف ولا تبديل، فإن الله خلصه بالمسيح من شر الدنيا والآخرة، كما خلص الله تعالى بموسى من اتبعه من بني إسرائيل.

ومن حرف وبدل فلم يتبع المسيح، ومن كذب محمدا صلى الله عليه وسلم فهو كمن كذب المسيح بعد أن كان مقرا بموسى عليه السلام.

ولكن هذا النص وأمثاله حجة على اليهود الذين يتأولون ذلك على أن هذا ليس هو المسيح ابن مريم، وإنما هو مسيح ينتظر، وإنما ينتظرون المسيح الدجال مسيح الضلالة، فإن اليهود يتبعونه ويقتلهم المسلمون معه («حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله») وهكذا يقال في النبوة الثانية التي ذكروها عن أرميا النبي عليه السلام.

[فصل: قول أرميا النبي عن ولادته في ذلك الزمان]

قالوا: وقال أرميا النبي عن ولادته في ذلك الزمان: يقوم لداود ابن، وهو ضوء النور يملك الملك، ويعلم ويفهم ويقيم الحق والعدل في الأرض، ويخلص من آمن به من اليهود، من بني إسرائيل وغيرهم ويبقى بيت المقدس بغير مقاتل، ويسمى الإله، وأما قوله: ابن لداود لأن مريم كانت من نسل داود، ولأجل ذلك قال: (ويقوم لداود ابن) .

والجواب أن يقال: قد قال فيه: ويخلص من آمن به من اليهود، ومن بني إسرائيل. وهو كما فسرنا به التخليص الذي نقله عن عزرا الكاهن.

وأما قوله: واسمه الإله فهذا يدل على أنه ليس هو الله رب العالمين، وإنما لفظ الإله اسم سمي به كما سمي موسى إلها

لفرعون عندهم في التوراة، إذ لو كان هو الله رب العالمين لكان أجل من أن يقال ويسمى الإله، فإن الله تبارك وتعالى لا يعرف بمثل هذا، ويقال فيه: إن الله يسمى الإله، ولقال: يأتي الله بنفسه فيظهر. وقال: يملك الملك، ورب العالمين ما زال ولا يزال مالكا للملك سبحانه.

وأيضا فإنه قال: يقوم لداود ابن هو ضوء النور، ومعلوم أن الابن الذي من نسل داود الذي اسم أمه مريم هو الناسوت فقط، فإن اللاهوت ليس هو من نسل البشر، وقد تبين أن هذا الناسوت الذي هو ابن داود، يسمى الإله، فعلم أن هذا اسم للناسوت المخلوق لا للإله الخالق.

وأيضا فإنه قال: وهو ضوء النور لم يجعله النور نفسه،، بل جعله ضوء النور، والله تعالى منور كل نور، فكيف يكون هو ضوء النور، والله تعالى قد سمى محمدا صلى الله عليه وسلم سراجا منيرا، ولم يكن بذلك خالقا، فكيف إذا سمي ضوء النور؟

وأيضا فإنه لم يجعل القائم إلا ابن داود، وابن داود مخلوق، وأضاف الفعل إلى هذا المخلوق، ولو كان هذا هو الله رب العالمين قد اتحد بالناسوت البشري لبين أرميا، وغيره من الأنبياء ذلك بيانا قاطعا للعذر، ولم يكتفوا بمثل هذه الألفاظ التي هي إما صريحة أو ظاهرة في نقيض ذلك، أو مجملة لا تدل على ذلك، فإنه من المعلوم أن إخبارهم بإتيان نبي من الأنبياء أمر معتاد ممكن، ومع هذا يذكرون فيه من البشارات والدلائل الواضحة ما يزيل الشبهة.

وأما الإخبار بمجيء الرب نفسه وحلوله أو اتحاده بناسوت بشري فهو: إما ممتنع غير ممكن كما يقوله أكثر العقلاء من بني آدم، ويقولون: يعلم بصريح العقل أن هذا ممتنع.

وإما ممكن كما يقوله بعض الناس، وحينئذ فإمكانه خفي على أكثر العقلاء وهو أمر غير معتاد، وإتيان الرب بنفسه أعظم من إتيان كل رسول ونبي، لا سيما إذا كان إتيانه باتحاده ببشر لم يظهر على يديه من الآيات ما يختص بالإلهية، بل لم يظهر على يديه إلا ما ظهر على يد غيره من الأنبياء ما هو مثله أو أعظم منه، والله تعالى لما كان يكلم موسى ولم يكن موسى يراه، ولا يتحد لا بموسى ولا بغيره، ومع هذا فقد أظهر من الآيات على ذلك، وعلى نبوة موسى ما لم يظهر مثله ولا قريب منه على يد المسيح.

فلو كان هو بذاته متحدا بناسوت بشري لكان الأنبياء يخبرون بذلك إخبارا صريحا بينا لا يحتمل التأويلات، ولكان الرب يظهر على ذلك من الآيات ما لم يظهر على يد رسول ولا نبي، فكيف والأنبياء لم ينطقوا في ذلك بلفظ صريح، بل النصوص الصريحة تدل على أن المسيح مخلوق ولم تأت آية على خلاف ذلك، بل إنما تدل الآيات على نبوة المسيح.

[فصل: قول أشعيا النبي فإن الله يأتي ويخلص الشعوب]

قالوا: وقال أشعيا النبي: قل لصهيون هنا تفرح وتتهلل، فإن الله يأتي ويخلص الشعوب، ويخلص من آمن به وبشعبه ويخلص مدينة بيت المقدس، ويظهر الله ذراعه الطاهر فيها لجميع الأمم المبددين ويجعلهم أمة واحدة، ويبصرون جميع أهل الأرض من خلاص الله، لأنه يمشي معهم وبين يديهم، ويجمعهم إله إسرائيل.

فيقال: هذا محتاج أولا أن يعلم من هذه النبوة أن هذا الكلام نقل بلا تحريف للفظه، ولا غلط في الترجمة، ولم يثبت ذلك،

وإذا ثبت ذلك فحينئذ هو نظير ما في التوراة من قوله: (جاء الله من طور سينا، وأشرف من ساعير، واستعلن من جبال فاران) . ومعلوم أنه ليس في هذا ما يدل على أن الله حال في موسى بن عمران، ومتحد به، ولا أنه حال في جبل فاران، ولا أنه متحد بشيء من طور سينا، ولا ساعير.

وكذلك هذا اللفظ لا يدل على أنه حال في المسيح ومتحد به، إذ كلاهما سواء، وإذا قيل: المراد بذلك قربه ودنوه كتكليم موسى، وظهور نوره وهداه وكتابه ودينه، ونحو ذلك من الأمور التي وقعت، قيل: وهكذا في المسيح عليه السلام.

وقوله: ويظهر الله ذراعه الطاهر لجميع الأمم المبددين، قد قال في التوراة مثل هذا في غير موضع، ولم يدل ذلك على اتحاده بموسى عليه السلام.

وأما قوله عن الأمم المبددين: فيجعلهم أمة واحدة، فهم الذين اتبعوا المسيح، فإنهم كانوا متفرقين مبددين فجعلهم أمة واحدة.

وأما قوله: ويبصرون جميع أهل الأرض خلاص الله، لأنه يمشي معهم وبين يديهم، ويجمعهم إله إسرائيل، فمثل هذا في التوراة في غير موضع، ولم يدل ذلك على اتحاده بموسى ولا حلوله فيه، كقوله في السفر الخامس من التوراة: يقول موسى لبني إسرائيل: لا تهابوهم ولا تخافوهم، لأن الله ربكم السائر بين أيديكم هو يحارب عنكم.

وفي موضع قال موسى: إن الشعب هو شعبك، فقال: أنا أمضي أمامك فارتحل، فقال: إن لم تمض أنت أمامنا وإلا فلا تصعدنا من هاهنا، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أني وجدت أمامك نعمة كذا إلا بسيرك معنا.

وفي السفر الرابع من الفصل الثالث عشر: إن أصعدت هؤلاء من بينهم بقدرتك، فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم، يرونه عينا بعين، وغمامك يقيم عليهم، وبعمود غمام يسير بين أيديهم نهارا، وبعمود نار ليلا.

وفي التوراة أيضا: يقول الله لموسى: (إني آت إليك في غلظ الغمام لكي يسمع القوم مخاطبتي لك) .

ثم قوله: اجمع سبعين رجلا من شيوخ بني إسرائيل وخذهم إلى خباء العرب يقفون معك حتى أخاطبهم.

[فصل: قول زكريا ويحل هو وهم فيك وتعرفين أني أنا الله القوى الساكن فيك]

قالوا: وقال زكريا النبي: (افرحي يا بيت صهيون، لأني آتيك وأحل فيك وأترايا، قال الله: ويؤمن بالله في ذلك اليوم الأمم الكثيرة، ويكونون له شعبا واحدا، ويحل هو وهم فيك، وتعرفين أني أنا الله القوي الساكن فيك، ويأخذ الله في ذلك اليوم الملك من يهوذا، ويملك عليهم إلى الأبد.

فيقال: مثل هذا قد ذكر عندهم عن إبراهيم وغيره من الأنبياء أن الله تجلى له، واستعلن له، وترايا له، ونحو هذه العبارات، ولم يدل ذلك على حلوله فيه واتحاده به.

وكذلك إتيانه، وهو لم يقل: إني أحل في المسيح وأتحد به، وإنما قال عن بيت صهيون: (آتيك وأحل فيك) كما قال مثل ذلك عندهم في غير هذا ولم يدل على حلوله في بشر، وكذلك قوله: (وتعرفين أني أنا الله القوي الساكن فيك) لم يرد بهذا اللفظ حلوله في المسيح، فإن المسيح لم يسكن بيت المقدس وهو قوي، بل كان يدخلها وهو مغلوب مقهور حتى أخذ وصلب أو شبهه، والله سبحانه إذا حصلت معرفته والإيمان به في القلوب اطمأنت وسكنت.

وكان بيت المقدس لما ظهر فيه دين المسيح عليه السلام بعد رفعه حصل فيه من الإيمان بالله ومعرفته ما لم يكن قبل ذلك.

وجماع هذا أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور، وسائر نبوات الأنبياء لم تخص المسيح بشيء يقتضي اختصاصه باتحاد اللاهوت به وحلوله فيه كما يقوله النصارى، بل لم تخصه إلا بما خصه الله به على لسان محمد في قول الله تعالى: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} [النساء: 171] .

فكتب الأنبياء المتقدمة، وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم يصدق بعضها بعضا، وسائر ما تستدل به

النصارى على إلهيته من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك الكلمات في حق غير المسيح، فتخصيص المسيح بالإلهية ودون غيره باطل، وذلك مثل اسم الابن والمسيح ومثل حلول روح القدس فيه، ومثل تسميته إلها، ومثل ظهور الرب أو حلوله فيه أو سكونه فيه أو في مكانه.

فهذه الكلمات وما أشبهها موجودة في حق غير المسيح عندهم، ولم يكونوا بذلك آلهة.

ولكن القائلون بالحلول والاتحاد في حق جميع الأنبياء والصالحين قد يحتجون بهذه الكلمات.

وهذا المذهب باطل باتفاق المسلمين واليهود والنصارى، وهو باطل في نفسه عقلا ونقلا، وإن كان طوائف من أهل الإلحاد والبدع المنتسبين إلى المسلمين واليهود والنصارى تقول به، فهؤلاء اشتبه عليهم ما يحل في قلوب العارفين به، من أهل الإيمان به ومعرفته ونوره وهداه والروح منه، وما يعبر عنه بالمثل الأعلى، والمثال العلمي.

وظنوا أن ذلك ذات الرب، كمن يظن أن نفس اللفظ بالاسم هو المعنى الذي في القلب، أو نفس الخط هو نفس اللفظ، ومن يظن أن ذات المحبوب حلت في ذات المحب واتحدت به، أو نفس المعروف المعلوم حل في ذات العالم العارف به واتحد به، مع العلم اليقيني أن نفس المحبوب المعلوم باين عن ذات المحب روحه وبدنه، لم يحل واحد منها في ذات المحب.

وقد قال الله تعالى: {وله المثل الأعلى في السماوات والأرض} [الروم: 27] .

وقال تعالى: {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} [الزخرف: 84] .

وقال تعالى: {وهو الله في السماوات وفي الأرض} [الأنعام: 3] .

فالمؤمنون يعرفون الله ويحبونه ويعبدونه ويذكرونه ويقال هو في قلوبهم، والمراد معرفته ومحبته وعبادته، وهو المثل العلمي ليس المراد نفس ذاته، كما يقول الإنسان لغيره: أنت في قلبي، وما زلت في قلبي وبين عيني، ويقال:

ساكن في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره

ويقال:

إن بيتا أنت ساكنه ... غير محتاج إلى السرج

ومن قول القائل:

ومن عجبي أني أحن إليهم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها....ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وقال:

مثالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب؟

والمساجد: هي بيوت الله التي فيها يظهر ذلك، ولهذا قال تعالى: {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح} [النور: 35] .

قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلوب المؤمنين.

ثم قال: {نور على نور} [النور: 35] .

ثم قال: {في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه} [النور: 36] .

فذكر سبحانه نوره في قلوب المؤمنين، ثم ذكر ذلك في بيوته، كذلك ما ذكر في الكتب الأولى.

وأما الإتيان والمجيء والتجلي فعندهم في التوراة يقول الله لموسى: إني آتي إليك في غلظ الغمام لكي يسمع القوم مخاطبتي لك، ثم قوله: اجمع سبعين رجلا من شيوخ بني إسرائيل، وخذهم إلى خباء العرب يقفون معك حتى أخاطبهم.

وفي السفر الرابع لما كلم مريم وهارون في موسى: (حينئذ تجلى الله بعمود الغمام قائما على باب الخباء ونادى يا هارون ويا مريم، فخرجا كلاهما فقال: اسمعا كلامي إني أنا الله فيما بينكم) .

وفي الفصل الثالث عشر: (إن أصعدت هؤلاء من بينهم بقدرتك، فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونه عينا بعين وغمامك يقيم عليهم، وبعمود غمام يسير بين أيديهم نهارا وبعمود نار ليلا) .

وفي السفر الخامس قول موسى لبني إسرائيل: (لا تهابوهم ولا تخافوهم، لأن الله ربكم السائر بين أيديكم هو يحارب عنكم) .

وفي موضع آخر قال موسى: (إن الشعب هو شعبك، فقال: يا موسى أنا أمضي أمامك فارتحل، فقال: إن لم تمض أنت معنا وإلا فلا تصعدنا من هاهنا، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أني وجدت أمامك نعمة كذا بعلمك إلا بسيرك معنا؟) .

وفي المزمور الرابع من الزبور عندهم يقول: (وليفرح المتكلون عليك إلى الأبد ويبتهجون ويحل فيهم ويفتخرون) فأخبر أنه يحل في جميع الصديقين، أي معرفته ومحبته، فإنهم متفقون على أن ذات الله لم تحل في الصديقين، وكذلك في رسائل يوحنا الإنجيلي: (إذا أخفى بعضنا بعضا نعلم أن الله يلبث فينا) أي محبته، ونظائره كثيرة.

[فصل: قول عاموص ستشرق الشمس ويهتدى بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل]

قالوا: وقال عاموص النبي: ستشرق الشمس على الأرض، ويهتدي بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل، قالوا: فالشمس هو السيد المسيح، والضالون الذين اهتدوا به هم النصارى المختلفة ألسنتهم، الذين كانوا من قبله عابدين الأصنام وضالين عن معرفة الله، فلما أتوهم التلاميذ وأنذروهم بما أوصاهم السيد المسيح فتركوا عبادة الأصنام واهتدوا باتباعهم السيد المسيح.

فيقال: هذا مما لا ينازع فيه المسلمون، وإنما ينازع في مثل هذا وأمثاله اليهود المكذبون للمسيح عليه السلام، كما ينازع كفار أهل الكتاب في محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما المسلمون فيؤمنون بجميع كتب الله ورسله، وأن المسيح عليه الصلاة والسلام أشرق نوره على الأرض! كما أشرق قبله نور موسى عليه الصلاة والسلام، وأشرق بعده نور محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} [الأحزاب: 45] (45) {وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا} [الأحزاب: 46] .

فسماه الله سراجا منيرا، وسمى الشمس سراجا وهاجا، والسراج المنير أكمل من السراج الوهاج، فإن الوهاج له حرارة تؤذي، والمنير يهتدى بنوره من غير أذى بوهجه.

وقال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: {فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون} [الأعراف: 157] .

وقال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} [الشورى: 52] (52) {صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور} [الشورى: 53] والمسلمون مقرون بأن كل من كان متبعا لدين المسيح عليه السلام الذي لم يغير ولم يبدل، فإنه اهتدى بالمسيح من الضلالة، ومن كفر به من بني إسرائيل، فإنه ضال، بل كافر، كما قال تعالى: {إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون} [آل عمران: 55] (55) {فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين} [آل عمران: 56] (56) {وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين} [آل عمران: 57]

وقال تعالى: {يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين} [الصف: 14] .

وقوله: ستشرق الشمس على الأرض ويهتدي بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل - يناسب قوله في التوراة: جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران، فإن إشراقه من ساعير هو ظهور نوره بالمسيح، كما أن مجيئه من طور سينا: هو ظهور نوره بموسى، واستعلانه من جبال فاران هو ظهور نوره بمحمد.

وبهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله في القرآن بقوله: {والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين} [التين: 1] .

فبلد التين والزيتون هي الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح، وكان بها أنبياء بني إسرائيل، وأسري بمحمد صلى الله عليه وسلم إليها وظهرت بها نبوته. وطور سينين المكان الذي كلم الله فيه موسى بن عمران، وهذا البلد الأمين هو بلد مكة التي بعث الله منه محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن.

[فصل: قوله إنه سيسكن الله مع الناس على الأرض]

قالوا: وقال في السفر الثالث من أسفار الملوك: (والآن يا رب إله إسرائيل لتحقق كلامك لداود، لأنه حق أن يكون إنه سيسكن الله مع الناس على الأرض، اسمعوا أيتها الشعوب كلكم، ولتنصت الأرض، وكل من فيها، فيكون الرب عليها شاهدا من بيته القدوس، ويخرج من موضعه وينزل ويطأ على مشاريق الأرض في شأن خطيئة بني يعقوب هذا كله.

فيقال هذا السفر يحتاج إلى أن يثبت أن الذي تكلم به نبي، وأن ألفاظه ضبطت وترجمت إلى العربية ترجمة مطابقة، ثم بعد ذلك يقال فيه ما يقال في أمثاله من الألفاظ الموجودة عندهم، وليس فيها ما يدل على اتحاده بالمسيح، فإن قوله: (إن الله سيسكن مع الناس في الأرض) لا يدل على المسيح، إذ كان المسيح لم يسكن مع الناس في الأرض،، بل لما أظهر الدعوة لم يبق في الأرض إلا مدة قليلة، ولم يكن ساكنا في موضع معين، وقبل ذلك لم يظهر عنه شيء من دعوى النبوة فضلا عن الإلهية، ثم إنه بعد ذلك رفع إلى السماء فلم يسكن مع الناس في الأرض، وأيضا فإذا قالوا: سكونه هو ظهوره في المسيح عليه السلام، قيل لهم: أما الظهور الممكن المعقول، كظهور معرفته ومحبته ونوره وذكره وعبادته، فهذا لا فرق فيه بين المسيح وغيره.

وحينئذ فليس في هذا اللفظ ما يدل على أن هذا السكون كان بالمسيح دون غيره، وإن كان بالمسيح فليس هذا من خصائصه عليه السلام، وليس في ظهوره فيه أو حلول معرفته ومحبته ومثاله العلمي ما يوجب اتحاد ذاته به.

وأما قوله: (فيكون الرب عليها شاهدا) ، فيقال أولا شهود الله على عباده لا يستلزم حلوله، أو اتحاده ببعض مخلوقاته، بل هو شهيد على العباد بأعمالهم كما قال: {ثم الله شهيد على ما يفعلون} [يونس: 46] .

ولفظ النص: (ولتنصت الأرض، وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهدا) ، وهذا كما في التوراة: أن موسى لما خاطب بني إسرائيل أشهد عليهم وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان يقول لأمته لما بلغ الناس بقول: " ألا هل بلغت؟ فيقولون: نعم، فيقول:اللهم اشهد.

وحينئذ فليس في هذا تعرض لكون المسيح هو الله، وقد يقال أيضا: ليس فيه أن المراد بلفظ الرب هنا هو الله، ولفظ الرب يراد به السيد المطاع، وقد غاير بين اللفظين، فقال هناك: إنه سيسكن الله مع الناس، فقال: فيكون الرب عليها شاهدا، والأنبياء يشهدون على أممهم، كما قال المسيح عليه السلام: {وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم} [المائدة: 117]

وقال تعالى: {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا} [المزمل: 15] .

وقال تعالى: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} [النساء: 41] .

وقال تعالى: {ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء} [النحل: 89] .

وحينئذ فيكون الرب الشهيد هو المسيح، الذي هو الناسوت، وهو الذي جاء من بيت المقدس، وخرج من موضعه، ونزل ووطئ على الأرض من أجل خطيئة بني يعقوب فإنهم لما أخطأوا وبدلوا أرسل الله إليهم المسيح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده وطاعته، فمن آمن به كان سعيدا مستحقا للثواب، ومن كفر به كان شقيا مستحقا للعذاب.

[فصل: قول ميخا وأنت يا بيت لحم قرية يهودا بيت أفراتا يخرج لي رئيس الذي يرعى شعبي إسرائيل]

قالوا: وقال ميخا النبي: (وأنت يا بيت لحم قرية يهودا بيت أفراتا، يخرج لي رئيس الذي يرعى شعبي إسرائيل، وهو من قبل أن تكون الدنيا، لكنه لا يظهر إلا في الأيام التي تلده فيها الوالدة، وسلطانه من أقاصي الأرض إلى أقاصيها) .

والجواب: أن عامة ما يذكرونه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حجة عليهم لا لهم، كما ذكروه عن المسيح عليه السلام في أمر التثليث، فإنه حجة عليهم لا لهم، وهكذا تأملنا عامة ما يحتج به أهل البدع والضلالة من كلام الأنبياء، فإنه إذا تدبر حق التدبر وجد حجة عليهم لا لهم، فإن كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هدى وبيان، وهم معصومون لا يتكلمون بباطل.

فمن احتج بكلامهم على باطل فلا بد أن يكون في كلامهم ما يبين به أنهم أرادوا الحق لا الباطل، وهذا مثل قوله في هذه النبوة: (منك يخرج لي رئيس) ، فهذا صريح في أن هذا الذي يخرج هو رئيس الله ليس هو الله، بل هو رئيس له كسائر الرؤساء الذين لله، وهم الرسل والأنبياء المطاعون مثل: داود، وموسى، وغيرهما.

ولهذا قال: (الذي يرعى شعبي إسرائيل) ، ولو كان هو، لكان هو راعي شعب نفسه، وأما قوله: (وهو من قبل أن تكون الدنيا) فهذا مثل «قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ميسرة الفجر، وقد قيل له: يا رسول الله متى كنت نبيا؟ قال: " وآدم بين الروح والجسد " وفي لفظ: متى كتبت نبيا؟ قال: " وآدم بين الروح والجسد» "، وفي مسند الإمام أحمد، عن العرباض بن سارية، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " «إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول أمري، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي، رأت حين ولدتني أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام» " فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه كان نبيا، وكتب نبيا وآدم بين الروح والجسد، وأنه مكتوب عند الله خاتم النبيين وآدم منجدل في طينته.

ومراده صلى الله عليه وسلم أن الله كتب نبوته، وأظهرها وذكر اسمه، ولهذا جعل ذلك في ذلك الوقت بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه، كما يكتب رزق المولود وأجله وعمله، وشقي هو أو سعيد بعد خلق جسده، وقبل نفخ الروح فيه.

وكذلك قول القائل في المسيح عليه السلام وهو من قبل أن تكون الدنيا، فإنه مكتوب مذكور من قبل أن تكون الدنيا.

فإنه قد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» ".

وفي صحيح البخاري، عن عمران بن حصين، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض» ".

وهو قد قال: قبل أن تكون الدنيا، ولم يقل: إنه كان قديما أزليا مع الله لم يزل، كما يقول النصارى: إنه صفة الله الأزلية، بل وقت ذلك بقوله: " قبل أن تكون الدنيا "، ولا يحسن أن يقال في رب العالمين كان قبل أن تكون الدنيا؛ فإنه سبحانه قديم أزلي، ولا ابتداء لوجوده فلا يوقت بهذا المبدأ، لا سيما إن أريد بكون الدنيا عمارتها بآدم وذريته، فإن الدنيا قد لا تدخل فيها السماوات والأرض، بل يجعل من الآخرة، وأرواح المؤمنين في الجنة في السماوات، ويراد بالدنيا الحياة الدنيا أو الدار الدنيا.

ولهذا قال: لكنه لا يظهر إلا في الأيام التي تلده فيها الوالدة كما يظهر غيره من الأنبياء بعد أن تلده أمه.

والوالدة إنما ولدت الناسوت، وأما اللاهوت فهو عندهم مولود من الله القديم الأزلي، وإذا قالوا فهي ولدت اللاهوت مع الناسوت كان هذا معلوم الفساد من وجوه كثيرة، وإذا قيل: لم خص عيسى المسيح عليه السلام بالذكر؟ قيل: كما خص محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر، لأن أمر المسيح كان أظهر وأعظم ممن قبله من الأنبياء بعد موسى.

وكذلك أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان أظهر وأعظم من أمر جميع الأنبياء قبله، وإذا عظم الشيء كان ظهوره في الكتاب أعظم.

وظن بعض النصارى أن المراد بذلك وجود ذات المسيح، يضاهي ظن طائفة من غلاة المنتسبين إلى الإسلام وغيرهم الذين يقولون: إن ذات النبي صلى الله عليه وسلم كانت موجودة قبل خلق آدم ويقولون: إنه خلق من نور رب العالمين، ووجد قبل خلق آدم، وأن الأشياء خلقت منه حتى قد يقولون في محمد صلى الله عليه وسلم من جنس قول النصارى في المسيح، حتى قد يجعلون مدد العالم منه، ويروون في ذلك أحاديث وكلها كذب، مع أن هؤلاء لا يقولون إن المتقدم هو اللاهوت، بل يدعون تقدم حقيقته وذاته، ويشيرون إلى شيء لا حقيقة له، كما تشير النصارى إلى تقدم لاهوت اتحد به لا حقيقة له.

ومن هؤلاء الغلاة من يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " «من قال: إني كلي بشر فقد كفر، ومن قال لست ببشر فقد

كفر» " ويحتجون بقوله تعالى: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم} [الأحزاب: 40] .

فيجعلون فيه شيئا من اللاهوت مضاهاة للنصارى.

وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي في الصحيحين، أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد (فقولوا عبد الله ورسوله) » .

وقد قال تعالى عنه: {قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا} [الإسراء: 93] .

وهذا من جنس الغلاة الذين يقولون: إن الرب يحل في الصالحين، ويتكلم على ألسنتهم، وإن الناطق في أحدهم هو الله لا نفسه، وقول هؤلاء من جنس قول النصارى في المسيح، ويقول أحدهم: إن الموحد هو الموحد، وينشدون:

ما وحد الواحد من واحد ... إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته ... عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد

وهو من جنس قول الذين يجعلون روح الإنسان قديمة أزلية، ويقولون: هي صفة الله فيجعلون نصف الإنسان لاهوتا، ونصفه ناسوتا، لكن اللاهوت عندهم هو روحه، لا لاهوت واحد كما يقوله النصارى وعلى قول هؤلاء مع قول النصارى يكون في المسيح وأمثاله ممن ادعي فيه اتحاد اللاهوت به لاهوتان: روحه لاهوت والكلمة لاهوت ثان، ومن جنس هؤلاء من ينشد ما يحكى عن الحلاج أنه أنشد:

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهرا ... في صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب للحاجب

ولو قدر أن نفسه هي التي كانت قبل أن تكون الدنيا، فهذا لا يدل على أنه الله أو صفة الله، بل إذا قال من يدعي أن روحه كانت موجودة حينئذ: المراد روحه، كان هذا أقرب من قول النصارى، وفي الجملة ما يخبر عن المسيح أنه كان قبل أن تكون الدنيا بمنزلة ما عند أهل الكتاب، عن سليمان أنه قال: (كنت قبل أن تكون الدنيا) ثم قد ثبت باتفاق الخلائق أن سليمان لم يكن اللاهوت متحدا به، فعلم أن مثل هذا الكلام لا يوجب اتحاد اللاهوت به، بل المسلمون يعدلون في القول، ويفسرون كلام الله في كتبه بعضه ببعض، ويجعلون كلامه يصدق بعضه بعضا لا يناقض بعضه بعضا.

وأما أهل الضلال من النصارى وغيرهم فيفضلون المفضول على من هو أفضل منه، ويبخسون الفاضل حقه، ويغلون في المفضول ويبخسون الأنبياء حقوقهم، مثل تنقصهم لسليمان، فإن كثيرا من اليهود والنصارى يطعنون فيه.

منهم من يقول: كان ساحرا، وأنه سحر الجن بسحره.

ومنهم من يقول: سقط عن درجة النبوة، فيجعلونه حكيما لا نبيا، ولهذا ذكر الله في القرآن تبرئة سليمان عن ذلك، وذلك أن سليمان سأل الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فسخر لسليمان الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد، فسخر له الريح غدوها شهر، ورواحها شهر، ولما طلب من الملأ أن يأتوه بعرش (بلقيس) ملكة اليمن، وكان هو بالشام: قال: {يأأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين} [النمل: 38] (38) {قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين} [النمل: 39] (39) {قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم} [النمل: 40] .

فلما مات سليمان عمدت الشياطين إلى أنواع من الشرك فكتبوها ووضعوها تحت كرسيه، وقالوا: كان سليمان يسخر الجن بهذا، فصار هذا فتنة لمن صدق بذلك وصاروا طائفتين، طائفة علمت أن هذا من الشرك والسحر، وأنه لا يجوز، فطعنت في سليمان كما فعل ذلك كثير من أهل الكتاب اليهود والنصارى.

وطائفة قالت: سليمان نبي، وإذا كان قد سخر الجن بهذا دل على أن هذا جائز، فصاروا يقولون ويكتبون من الأقوال التي فيها الشرك والتعزيم والإقسام بالشرك والشياطين - ما تحبه الشياطين وتختاره ويساعدونهم لأجل ذلك على بعض مطالب الإنس، إما إخبارا بأمور غائبة يخلطون فيها كذبا كثيرا، وإما تصرفا في بعض الناس، كما يقتل الرجل أو يمرض بالسحر، أو تسرق الشياطين له بعض الأموال، ونحو ذلك مما فيه إعانة الشياطين للإنس على أمور تريدها الإنس، لأجل مطاوعة الإنس وموافقتهم للشياطين على ما تريده الشياطين من الكفر والفسوق والعصيان.

وكثير منهم يضيف ذلك إلى سليمان وإلى " آصف بن برخيا " ويصورون خاتم سليمان، وقد يأخذون الرجل الذي صار من إخوانهم إلى مواضع فيرونه شخصا، ويقولون: هذا سليمان بن داود، كما قد جرى مثل ذلك لمن نعرفه من المشايخ الذين كانت تقترن بهم الشياطين، وكان لهم خوارق شيطانية من جنس خوارق السحرة والكهان.

فنزه الله تعالى سليمان من كذب هؤلاء، وهؤلاء الذين جعلوه يسخر الشياطين بنوع من الشرك والسحر، هؤلاء جرحوه، وهؤلاء زعموا أنهم يتبعونه فقال تعالى: {واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون} [البقرة: 102] (102) {ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون} [البقرة: 103]

ومثل هذا كثير يحكى عن بعض الأنبياء، أو بعض أهل العلم والدين، من أمور ليست من شرع الله، فيصدق بها بعض الناس، وتصير فتنة لطائفتين مصدقتين بها.

طائفة تقدح في ذلك النبي أو الرجل الصالح بما هو منه بريء.

وطائفة تقول: إنها تتبعه فيم يقول، وهذا موجود في كثير مما يحكيه أهل الكتاب عن الأنبياء، فإن اليهود تذكر عنهم ما يقدح في نبوتهم.

والنصارى تجعل ذلك قدوة لهم فيما يبتدعونه، وهذا مبسوط في موضع آخر، فالمقصود هنا أن الكلام الذي وصف به المسيح إما وصفه به الأنبياء قبله، أو أخبر به عن نفسه - موجود مثله في حق غيره، ولم يكن أحدهم بذلك لاهوتا وناسوتا، ولا اتحد اللاهوت بالناسوت، ولا استحق أحدهم بذلك أن يعبد ويصلى له ويسجد ويدعى كما يدعى الله، ويضاف إليه ما يضاف إلى الله من الخلق والبعث والثواب والعقاب، وليس للمسيح صلوات الله عليه آية خارقة إلا ولغيره مثلها وأعظم منها، ولا قيل فيه كلمة، إلا قيل في غيره مثلها وأعظم منها، إلا ما خصه فيه القرآن.

[فصل: قول حبقوق النبي إن الله في الأرض يتراءى ويختلط مع الناس ويمشي معهم]

قالوا: وقال: حبقوق النبي: (إن الله في الأرض يتراءى، ويختلط مع الناس، ويمشي معهم) .

وقال أرميا النبي: (الله بعد هذا في الأرض يظهر، وينقلب مع البشر، فيقول أنا الله رب الأرباب) .

والجواب: أن هذا يحتاج إلى تثبيت نبوة هذين، وإلى ثبوت النقل عنهما، وثبوت الترجمة الصحيحة المطابقة، وبعد هذا يكون حكم هذا الكلام حكم نظائره، ففي التوراة ما هو من هذا الجنس، ولم يدل ذلك باتفاق المسلمين، واليهود، والنصارى - على أن الله حل في موسى، ولا في غيره من أنبياء بني إسرائيل، بل قوله: يتراءى هو - بمنزلة يتجلى ويظهر، وقد ذكر في التوراة أنه تجلى، وتراءى لإبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام من غير أن تكون ذاته حلت بأحد منهم، وما في القلوب من المثال العلمي وبمعرفته ومحبته وذكره - يطلق عليه ما يطلق على المعروف بنفسه؛ لعلم الناس أن المراد به المثال العلمي.

وما في القلوب من معرفة المعروف ومحبته ليس المراد به نفس المعروف المحبوب، فإذا قال القائل: أنت والله في قلبي، أو في سويداء قلبي، أو قال له: والله ما زلت في قلبي، وما زلت في عيني، ونحو ذلك - علم جميع الناس أنه لم يرد ذاته، فإذا رأوا من يذكر عالما مشهورا أو شيخا مشهورا، فيذكر علمه، وعمله، ويحيي ذلك بين الناس - قالوا: قد صار فلان، يعني المعروف المذكور، عندنا وبين أظهرنا لعلم المخاطبين بالمراد.

ويقول أحدهم لمن مات والده: أنا والدك؛ أي قائم مقامه، ويقولون للولد القائم مقام أبيه: من خلف مثلك ما مات، وإذا رأوا عكرمة مولى ابن عباس الذي معه علمه يقولون: جاء ابن عباس، وابن عباس بين الناس؛ لأن مولاه نائب عنه، وقائم مقامه، وإذا بعث الملك نائبا قائما مقامه يقولون جاء الملك الفلاني، لأن هذا النائب قائم مقامه مظهر لأمره، ونهيه، وأحواله.

وفي الحديث الصحيح، عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله: «عبدي مرضت فلم تعدني، فيقول العبد: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين، فيقول: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما لو عدته لوجدتني عنده، عبدي جعت فلم تطعمني، فيقول: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ ، فيقول: أما علمت أن عبدي فلانا جاع، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي، عبدي، عطشت فلم تسقني، فيقول: رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي استسقاك فلم تسقه، أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي» .

فجعل جوع عبده جوعه، ومرضه مرضه، لأن العبد موافق لله فيما يحبه ويرضاه، ويأمر به، وينهى عنه، وقد عرف أن الرب نفسه لا يجوع، ولا يمرض.

ومعلوم أن وصفه بالجوع والمرض أبعد من وصفه بالمشي بين الناس، والاختلاط بهم، ولهذا نظائر كثيرة موجودة في كلام الأنبياء، وغير الأنبياء من الخاصة، والعامة، ولا يفهم عاقل من ذلك أن ذات المذكور اتحدت بالآخر أو حلت فيه إلا من هو جاهل كالنصارى.

والناس يرون الشمس، والقمر، والكواكب، وغير ذلك في الماء الصافي، وفي المرآة المجلوة، ونحو ذلك.

ويقول أحدهم: رأيت وجه فلان في هذه المرآة، ورأيت الشمس والقمر في المرآة أو في الماء، مع علم كل عاقل أن نفس

الشمس والقمر وغيرهما لم تحلا لا في المرآة ولا في الماء، ولكن هذه رؤية مقيدة رآها بواسطة المثال الذي تمثل في المرآة أو الماء، سواء كان ذلك شعاعا منعكسا أو غير ذلك، ومن هذا الباب قول القائل: إذا ظهر الغدير على صفاء ، وجنب أن يحركه النسيم ترى فيه السماء، بلا امتراء كذاك الشمس تبدو والنجوم كذاك قلوب أرباب التجلي يرى في صفوها الله العظيم فقد أخبر أن الله يرى في قلوب العارفين، كما ترى الشمس والنجوم في الماء الصافي، بل يتصور أحدهم صورة من يعرفه بحمرة أو خضرة أو سواد، فيقول: والله هذا هو فلان بعينه، مع علمه وعلم كل من سمعه أنه مثاله المطابق لصورته لا عينه، وذلك لمماثلة تلك الصورة لصورته، يريد أن هذا تمثيل مطابق له لا مخالف.

ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: " «من رآني في المنام فقد رآني حقا، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي» " لم يرد أنه رأى جسدي الذي في القبر، وروحي التي في الجنة - حالة في ذاته، فإن هذا ممتنع لوجوه كثيرة، فلهذا قال: " «فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي» ".

ولما دخل جماعة من الصحابة على المقوقس ملك النصارى بمصر، واستخبرهم عن دينهم فأخبروه بذلك، فإذا عنده شبه الربعة العظيمة مذهبة، وإذا فيها أبواب صغار ففتح منها بابا فاستخرج منه خرقة حرير سوداء فيها صورة بيضاء، فإذا رجل طوال أكثر الناس شعرا، فقال: أتعرفون هذا؟ قالوا: قلنا لا، فقال: هذا آدم.

ثم أعاد، وفتح بابا آخر، فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء، فإذا رجل ضخم الرأس عظيم له شعر كشعر النبط أحمر العين، فقال: أتعرفون هذا؟ فقلنا: لا، فقال: هذا نوح.

ثم أعاد، وفتح بابا آخر فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء، فإذا رجل أبيض الرأس واللحية، كأنه يبتسم فقال أتعرفون هذا؟ فقلنا: لا. فقال: هذا إبراهيم.

ثم أعاد، وفتح بابا آخر فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: النبي صلى الله عليه وسلم، قال: هذا والله محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله.

قال: والله يعلم أنه قام ثم قعد ثم قال: الله بدينكم إنه نبيكم؟ قلنا: الله بديننا إنه نبينا كأنما ننظر إليه ثم قال: أما إنه كان آخر الأبواب، ولكني عجلته لكم لأنظر ما عندكم.

ثم أعاد، وفتح بابا بابا، وهو يقول: هذا موسى، هذا هارون، هذا داود، هذا سليمان، هذا عيسى.

وهذا كله لظهور المراد به، ومعرفة الناس بمقصود المتكلم، كما يقال لمن كتب اسمه في كتاب: هذا فلان ومعلوم أن الموجود في الكتاب اسمه المكتوب لا ذاته الموجودة في الخارج، ومن هذا الباب قوله تعالى: {وكل شيء فعلوه في الزبر} [القمر: 52] .

وإنما في الزبر ذكر أعمالهم، وكتابة ذلك، ويقال في كتابة الوثائق: هذا ما أصدق فلان، وهذا ما يقاضي عليه فلان وفلان، ويقال: هذا ذكر ما أصدق فلان أو يقاضي عليه فلان وفلان، فيشار إلى الموجود تارة، وإلى ذكره تارة.

ومعلوم أن الموجود في الكتاب ذكره لا عينه، بل ذلك وجود الخط في الأذهان المطابق لذكره باللفظ.

والشيء له وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في اللسان، ووجود في البنان، ووجود عيني، وعلمي، ورسمي، ولفظي، وفي كل من الأربعة يذكر، ويشار إليه مع القرائن والضمائر التي تبين تارة أن المشار إليه هو الخط المطابق للفظ، وتارة تكون الإشارة إلى اللفظ المطابق للمعنى.

ومعلوم أن المعنى الذي في القلب أقرب إلى الموجود في الخارج من اللفظ والخط، فإذا أشير إلى ما في قلب العارف بعين المحب له الذاكر له، بأنه المعروف المحبوب، كان أقرب لا سيما، وقد يغلب الذكر والمعرفة والمحبة على القلب حتى يغيب بموجوده عن وجوده، وبمعروفه عن معرفته، وبمذكوره عن ذكره حتى يقول أحدهم في هذه الحال: سبحاني، أو ما في هذه الجبة إلا الله.

ومعلوم أن ذات الله تبارك وتعالى ليست الذي في قلبه، بل في قلبه مثاله العلمي، ومعرفته، ومحبته، فغاب بذلك عن نفسه، هذا وإن كان يقوله الغالط، فيقول من ليس بغالط: الله في قلب فلان، وفلان ما عنده إلا الله، ومن أراد الله فليذهب إلى فلان، وليس مرادهم أن ذات الله في قلبه، بل مثاله العلمي ومعرفته وذكره ومحبته، وأنه لا يعبد إلا الله، ولا يرجو إلا إياه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يعمل إلا لله، ولا يأمر إلا بطاعته فيفنى بعبادته عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه.

فما قيل في المسيح عليه السلام، وأمثاله من هذا فهو حق، لكن لا اختصاص للمسيح بهذا.

وإذا كان مثل هذا الكلام كثيرا موجودا في كلام الأنبياء وغيرهم، بل هو المعروف في كلامهم، ولا يوجد قط على أحد من الأنبياء أنه جعل ذات الله في قلب أحد من البشر - علم أن النصارى تركوا المحكم من كلام الأنبياء عليهم السلام، وتمسكوا بالمتشابه كأمثالهم من الضلال، فاشتبه عليهم المعلوم بالقلوب المذكور بالألسن بالموجود في نفسه، فظنوا أن نفس المثال العلمي هو الموجود العيني، كما يظن ذلك كثير من الغالطين، وهؤلاء يقولون بالحلول تارة، وبالاتحاد أخرى، ولا يفرقون بين حلول الإيمان والمعرفة والمحبة والمثال العلمي في القلب، وبين حلول الذات المعلومة المحبوبة.

ولهذا يعتقد كثير من هؤلاء أنهم يكلمون الله، ويكلمهم، ويقول أحدهم: أوقفني، وقال لي، وقلت له. وتكون مخاطبته ومناجاته مع

هذا المثال العلمي بحسب ما عندهم من الاعتقاد في الله تعالى، وكثير منهم يتمثل له الشيطان ويقول: أنا ربك، فيخاطبه ويظنه ربه، وإنما هو الشيطان.

ومنهم: من يرى عرشا عليه نور، أو يرى ما يظنه الملائكة وهم شياطين، وذلك شيطان.

وكثير من هؤلاء يظن أنه أفضل من الأنبياء، وأنه يدخل إلى الله بلا إذن، خلاف الأنبياء، ويكون ذلك الإله الذي يعتقده هو الشيطان، والذين لا يتمثل لهم الشيطان يخاطب أحدهم من في قلبه، فتخاطبه تلك الصورة العلمية، ويقدر أنها تخاطبه، ويظن ذلك مخاطبة الحق له.

وهذا كالرجل يذكر بعض أصحابه فيمثله في قلبه ويخاطبه مخاطبة من يعاتبه أو يعتذر إليه، ويقدر خطاب تلك الصورة، ويقول: قلت لك كذا، وقلت لي كذا.

ونفس الشخص لا يكلمه ولا يسمع كلامه، وإنما هو المثال، كما قد يصور صورة الإنسان ويخاطبها الإنسان، ويقدر ذلك مخاطبة لصاحب الصورة.

والنصارى أدخل في هذا من غيرهم، فإنهم يخاطبون الصور الممثلة في الكنائس كصورة مريم، والمسيح والقديسين، ويقولون: إنما نقصد خطاب أصحاب تلك الصور نستشفع بهم.

وهذا مما حرمه الله على ألسن جميع النبيين، ولم يشرع لأحد أن يدعو الملائكة، ولا الأنبياء ولا الصالحين الأموات، فكيف بالصور الممثلة لهم، كما قد بسط في موضع آخر.

والمقصود هنا أنه كثيرا ما يوجد في كلام الناس الأنبياء وغيرهم من ذكر ظهور الله عز وجل، والمراد به ظهوره في قلوب عباده بالمعرفة والمحبة والذكر.

ولهذا لما كان يقصد بذكر اسمه ذكر المسمى صار يقول - من يقول: إن الاسم هو المسمى -: إن المراد المقصود من الاسم هو المسمى، لا أن نفس اللفظ هو المسمى، فإن هذا لا يقوله عاقل، وتنزيه الاسم وتسبيحه تنزيه للمسمى وتسبيح له.

كما قال تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى} [الأعلى: 1] ، وقال: {فسبح باسم ربك العظيم} [الواقعة: 74] .

وقال: {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} [الرحمن: 78] .

وجاء في الحديث: " «لا تقوم القيامة حتى لا يعبد لله اسم» "، أي لا يعبد الله باسم من أسمائه، فإنه إذا قيل: دعوت الله وعبدته، فإنما في اللفظ الاسم، والمقصود هو المسمى.

وهذا الذي ذكرناه من تفسير ظهور اللاهوت في المسيح وغيره بأن المراد ظهور ما في القلوب من توحيد الله ومعرفته ومحبته وذكره ونوره وهداه وروحه - هو مما يفسر به ذلك كثير من علماء النصارى، فإنهم يفسرون اتحاد اللاهوت بالناسوت بظهور اللاهوت فيه كظهور نقش الخاتم في الشمع والطين.

ومعلوم أن الحال في الشمع والطين هو مثال نقش الخاتم لا أن في الشمع والطين شيئا من الخاتم، بل ظهر فيه نقش الخاتم.

وكذلك يظهر نور الله وروحه في الأنبياء والصالحين، وهذا المعنى لا يختص به المسيح عليه السلام، بل يشترك هو فيه وسائر الرسل، بل وكل مؤمن له من هذا نصيب بحسب إيمانه.

[فصل: قول أشعيا النبي ها هي العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعى اسمه عمانويل]

قالوا: وقال أشعيا النبي: (ها هي العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعى اسمه عمانويل) .

وعمانويل: كلمة عبرانية تفسيرها بالعربي (إلهنا معنا) فقد شهد النبي أن مريم، ولدت اللاهوت المتحد بالناسوت كلاهما.

(فيقال: ليس في هذا الكلام أن مريم ولدت اللاهوت المتحد بالناسوت) ، وأنها ولدت خالق السماوات والأرض، بل هذا الكلام يدل على أن المولود ليس هو خالق السماوات والأرض، فإنه قال: تلد ابنا.

وهذا نكرة في الإثبات كما يقال في سائر النساء: إن فلانة ولدت ابنا، وهذا دليل على أنه ابن من البنين، ليس هو خالق السماوات

والأرضين، ثم قال: ويدعى اسمه (عمانويل) فدل بذلك على أن هذا اسم يوضع له، ويسمى به كما يسمي الناس أبناءهم بأسماء الأعلام، أو الصفات التي يسمونهم بها.

ومن تلك الأسماء ما يكون مرتجلا ارتجلوه.

ومنها ما يكون جملة يحكونها، ولهذا كثير من أهل الكتاب يسمي ابنه عمانويل، ثم منهم من يقول: العذراء المراد بها غير مريم، ويذكرون في ذلك قصة جرت.

ومنهم من يقول: بل المراد بها مريم، وعلى هذا التقدير فيكون المراد أحد معنيين:

إما أنه يريد أن إلهنا معنا بالنصر والإعانة، فإن بني إسرائيل كانوا قد خذلوا بسبب تبديلهم، فلما بعث المسيح عليه السلام بالحق كان الله مع من اتبع المسيح، والمسيح نفسه لم يبق معهم، بل رفع إلى السماء ولكن الله كان مع من اتبعه بالنصر والإعانة.

كما قال تعالى: {فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين} [الصف: 14] .

وقال تعالى: {وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة} [آل عمران: 55]

وهذا أظهر، وإما أن (يكون) يسمى المسيح إلها، كما يقولون: إنه يسمى موسى إله فرعون، أي هو الآمر الناهي له المسلط عليه. وقد حرف بعضهم معنى هذه الكلمة، فقال: معناها: الله معنا، فقال: من رد عليهم من علمائهم يقال لهم: أهذا هو القائل: أنا الرب لا إله غيري، أنا أميت وأنا أحيي، أم هو القائل لله: إنك أنت الإله الحق وحدك والذي أرسلت يسوع المسيح؟ وإذا كان الأول باطلا، والثاني هو الذي شهد به الإنجيل، وجب تصديق الإنجيل، وتكذيب من كتب في الإنجيل أن (عمانويل) وتأويله - (الله معنا) ، بل تأويل عمانويل (معنا إله) ، وليس المسيح مخصوصا بهذا الاسم، بل عمانويل اسم يسمى به النصارى، واليهود من قبل النصارى.

وهذا موجود في عصرنا هذا، في أهل الكتاب من سماه أبوه عمانويل يعني (شريف القدر) وكذلك السريان أكثرهم يسمون أولادهم عمانويل.

قلت: ومعلوم أن الله مع المتقين والمحسنين والمقسطين بالهداية، والنصر، والإعانة، ويقال للرجل في الدعاء: الله معك، فإذا سمي الرجل بقول: (الله معك) كان هذا تبركا بمعنى هذا الاسم، وإذا قيل إن المسيح سمي الله معنا أو إلهنا معنا ونحو ذلك - كان ذلك دليلا على أن الله مع من اتبع المسيح وآمن به، فيكون الله هاديه وناصره ومعينه.

[فصل: في كلام أشعيا بشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم]

قالوا: وقال أشعيا أيضا: إن غلاما ولد لنا، وابنا أعطيناه، الذي رياسته على عاتقيه وبين منكبيه، ويدعى: اسمه ملكا، عظيم المشية مسيرا عجيبا، إلها قويا مسلطا رئيس السلامة في كل الدهور، وسلطانه كامل ليس له فناء.

فيقال: ليس في هذه البشارة دلالة بينة أن المراد به المسيح عليه السلام، ولو كان المراد به المسيح لم يدل على مطلوبهم، بل قد يقال المراد بها محمد صلى الله عليه وسلم فإنه الذي رياسته على عاتقيه، وبين منكبيه من جهتين:

من جهة خاتم النبوة على بعض كتفيه، وهو علامة من أعلام النبوة الذي أخبرت به الأنبياء، وعلامة ختمهم.

ومن جهة أنه بعث بالسيف الذي يتقلد به على عاتقه ويرفعه، إذا ضرب به على عاتقه، ويدل على ذلك قوله: (مسلط رئيس قوي السلامة) .

وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم المؤيد المنصور المسلط رئيس السلامة، فإن دينه الإسلام، ومن اتبعه سلم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، ومن استيلاء عدوه عليه.

والمسيح عليه السلام لم يسلط على أعدائه، كما سلط محمد صلى الله عليه وسلم، بل كان أعداؤه بحيث يقدرون على صلبه، وعند النصارى قد صلبوه، وعند المسلمين ألقى الله شبهه على غيره، فصلب ذاك المشبه، فبهذه الطريق دفع الله الصلب عنه لا بقهر أعدائه، وإهلاكهم وذلهم له، كما نصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم على أعدائه.

وقال: (في كل الدهور سلطانه كامل ليس له فناء) ، وهذا صفة خاتم الرسل الذي لا يأتي بعده نبي ينسخ شرعه، وسلطانه بالحجة واليد، كامل لا يحتاج فيه إلى الاستعانة بشرع آخر، وشرعه ثابت باق إلى آخر الدهر.

[فصل: قول أشعيا ويحل فيه روح القدس روح الله روح الحكمة والفهم روح الحيل والقوة روح العلم وخوف الله]

قالوا: وقال أشعيا أيضا: يخرج عصاه من بيت يسي ينبت نور منها، ويحل فيه روح القدس روح الله، روح الحكمة والفهم، روح الحيل والقوة، روح العلم وخوف الله.

وفي تلك الأيام يكون أصل يسي آية للأمم، وبه يؤمنون وعليه يتوكلون، ويكون لهم التاج والكرامة إلى دهر الداهرين) .

والجواب: أن هذا الكلام بعد المطالبة بصحة نقله عن النبي، وصحة الترجمة له باللسان العربي - هو حجة على النصارى لا لهم، فإنه لا يدل على أن المسيح هو خالق السماوات والأرض، بل يدل على مثل ما دل عليه القرآن من أن المسيح عليه السلام أيد بروح القدس، فإنه قال: ويحل فيه روح القدس، وروح الله، وروح الحكمة والفهم، وروح الحيل والقوة، روح العلم وخوف

الله) ، ولم يقل تحل فيه حياة الله - فضلا عن أن يقول حل فيه الله أو اتحد به، ولكن جعل روح القدس هي روح الله، وهي روح الحكمة والفهم والعلم، وهي روح الحيل والقوة.

كما أن عندهم في التوراة (أن الذين كانوا يعملون في قبة الزمان حلت فيهم روح الحكمة روح الفهم، روح العلم) .

فهي ما يحصل به الهدى والنصر، كما قال تعالى:

{واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار} [ص: 45] .

فقال: هي روح الله، وهذا كقوله تعالى:

{أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22] .

وقوله تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا} [الشورى: 52] .

وقال تعالى: {ينزل الملائكة بالروح من أمره} [النحل: 2] .

فما أنزله يسمى هدى الله، وروح الله، ووحي الله، ونور الله، ونحو ذلك.

وقال تعالى لما ذكر أنبياءه من ذرية إبراهيم فقال: {ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين} [الأنعام: 84] (84) {وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين} [الأنعام: 85] (85) {وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين} [الأنعام: 86] (86) {ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم} [الأنعام: 87] (87) {ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده} [الأنعام: 88] .

وقال تعالى: {فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى} [طه: 123] .

وسماه نور الله كقوله تعالى: {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم} [النور: 35] .

فهذا هدى الله، ونور الله هو روح الله كما قال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا} [الشورى: 52] .

وقال تعالى: {أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22] .

[فصل: قول أشعيا من أعجب الأعاجيب أن رب الملائكة سيولد من البشر]

قالوا: وقال أشعيا أيضا: " من أعجب الأعاجيب أن رب الملائكة سيولد من البشر ".

فيقال: مثل هذا الكلام لا بد أن يكون قبله كلام وبعده كلام، وهو منقول من لغة إلى لغة، ونحن نعلم قطعا أنه لم يرد أن رب العالمين يولد من البشر، ولو أراد ذلك لم يقل رب الملائكة فقط، فإن الله رب كل شيء، لكن قد يريد أنه يولد من البشر من سيكون سيد الملائكة تخدمه وتكرمه، كما سجدت الملائكة لأبي البشر آدم.

والنصارى يسلمون أن اللاهوت ما هو متولد من البشر، وإنما المتولد من البشر هو الناسوت، وليس هو رب العالمين بالاتفاق، فعلم أنه لا حجة لهم في ظاهر اللفظ إن قدر سلامته من التغيير.

ونظير هذا ما عندهم في إنجيل متى: (أن ابن الإنسان يرسل ملائكته، ويجمعون كل الملوك ربا على الأمم فيلقونهم في أتون النار) قال بعض علماء أهل الكتاب: لم يرد بذلك أن المسيح هو رب الأرباب، ولا أنه خالق الملائكة، بل رب الملائكة أوصى الملائكة بحفظ المسيح بشهادة النبي القائل: (إن الله يوصي ملائكته بك ليحفظوك) .

ثم شهادة (لوقا) أن الله أرسل له ملكا من السماء ليقويه، قال: " وإذا شهد الإنجيل باتفاق الأنبياء والرسل بأن الله يوصي ملائكته بالمسيح فيحفظونه، علم أن الملائكة تطيع للمسيح بالأمر، وهو والملائكة في خدمة رب العالمين ".

وقال المسيح لتلاميذه: " من قبلكم فقد قبلني، ومن قبلني فقد قبل من أرسلني ".

وقال المسيح: " من أنكرني قدام الناس أنكرته قدام ملائكة الله ".

وقال للذي ضرب عبد رئيس الكهنة: " أغمد سيفك، ولا تظن أن لا أستطيع أن أدعو الله الأب فيقدم لي أكثر من اثني عشر جوقا من الملائكة ".

[فصل: الرد عليهم في قولهم ومثل هذا القول في كتب الله المنزلة على أفواه الأنبياء والرسل شيء كثير]

قالوا: ومثل هذا القول في كتب الله المنزلة على أفواه الأنبياء والرسل - شيء كثير عند النصارى جميعهم المختلفة ألسنتهم المفرقين في سبعة أقاليم العالم المتمسكين بدين النصرانية - قول واحد ونص واحد، على ما تسلموه من الحواريين حين أنذروهم وردوهم عن عبادة الأصنام إلى معرفة الله تعالى، سلموها إليهم، كل أمة بلسانها، وهي على هيئتها إلى يومنا هذا.

والجواب على هذا من وجوه:

أحدها: أن القول في سائر ما يذكرونه من النصوص كما تقدم وقد تكلم على هذا من تكلم عليه من علماء النصارى الذين هداهم الله، وبينوا ما وقع في ذلك من تحريفهم لمعاني الكتب التي عندهم، وذكروا مما عندهم من النصوص الصريحة بأن المسيح عبد الله ليس هو الله - ما يتبين به بطلان قولهم، وأنهم ممن تركوا المحكم من الآيات واتبعوا المتشابه، ولهذا أنزل الله فيهم:

{فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب} [آل عمران: 7] .

وهذا كقول المسيح - عليه السلام - لما سئل عن علم الساعة فقال: (لا يعلمها إنسان ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب فقط) فنفى عن نفسه علم الساعة، وهذا يدل على شيئين: على أن اسم الابن إنما يقع على الناسوت دون اللاهوت، فإن اللاهوت لا يجوز أن ينفى عنه علم الساعة، ويدل على أن الابن لم يكن يعلم ما يعلمه الله، وهذا يبطل قولهم بالاتحاد، فإنه لو كان الاتحاد حقا كما يزعمون لكان الابن يعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر عليه، فإنه هو الله عندهم، والناسوت لا يتميز عندهم عن اللاهوت فيما يوصف به المسيح من كونه عالما قادرا يحيي ويميت.

وقال المسيح لتلاميذه: (آمنوا بالله وآمنوا بي) وقال أيضا: (من يؤمن بي فليس يؤمن بي فقط بل وبالذي أرسلني) ، وهم يذكرون أن المسيح - عليه السلام - استصرخ الله قائلا: (إلهي إلهي انظر لماذا تركتني وتباعدت عن خلاصي) .

الوجه الثاني: أن قولهم: إن هذه الكتب التي بأيديهم من التوراة والإنجيل، وسائر النبوات؛ تسلموها من الحواريين كل أمة بلسانها، وهي على هيئتها - قول لم يقيموا على صحته دليلا، بل ادعوا ذلك دعوى مجردة.

ومثل هذا النقل إن لم يثبت بالتواتر لم يحتج به في المسائل العلمية، لا سيما إذ قيل في الوجه الثالث: إن هذا كذب ظاهر، فإن كثيرا من الألسنة ليس عند أهله إنجيلا قديما، ومن ذلك لسان العرب، فإن العرب النصارى كثيرون قبل الإسلام، ولا تعرف توراة ولا إنجيلا ولا نبوات عربية، إلا ما عرب من النسخ العبرية والرومية والسريانية، ونحن نطالبهم بهذه الكتب التي هي بالعربية التي في زمن الحواريين أين هي؟ ومن رآها؟ ولو قدر أنها كانت بالعربية، فهذه النسخ اليوم العربية الموجودة بأيدي الناس هي مما عرب مما بأيديهم، وحينئذ فلا تعرف صحتها إن لم تعرف صحة الترجمة، ويثبت نقل تلك عن المسيح عليه السلام، وهكذا القول في سائر الألسن.

الوجه الرابع: أن التوراة والنبوات التي نقلت من نسخ اليهود والأناجيل هي أربعة كتب بعد المسيح عليه السلام، اثنان ممن كتبها لم يريا المسيح، وهما لوقا، ومرقس، واثنان رأياه، وهما يوحنا، ومتى.

والنسخ إنما كثرت عن الأربعة، وما ينقله الأربعة لا يجب أن يكون متواترا معلوما، وإذا كثرت الألسن بها فمن بعد الأربعة، لا أن الذين سمعوها من المسيح عليه السلام تكلموا باثنين وسبعين لسانا، فإن هذا لم يقله أحد، ولا يقوله عاقل، إذ الحواريون

كانوا اثني عشر لم يكونوا اثنين وسبعين، فإذا قيل: إنه نقلها اثنان وسبعون، فهم نقلوها عمن نقلها إليهم من الحواريين، وهم إنما يسندون نقلها إلى أربعة.

الوجه الخامس: أن الحواريين ليسوا معصومين، بل يجوز على أحدهم الغلط في بعض ما ينقله، وما ينقل من خوارقهم للعادات، فمن الناس من يكذبه، ومنهم من يصدقه، ولا دلالة فيه على عصمتهم، إلا أن يثبت أنهم ادعوا النبوة، وأقاموا المعجزات الدالة على نبوتهم، ولم يكن الأمر كذلك، وإلا فالصالحون إذا كانت لهم كرامات لم تدل كراماتهم على أنهم معصومون كالأنبياء، بل يجوز عليهم الغلط مع ثبوت كراماتهم.

والحواريون عندهم ليسوا بأنبياء، وإن سموهم رسلا، فهم رسل المسيح لا رسل الله تبارك وتعالى.

الوجه السادس: أن في هذه الكتب التي بأيديهم ما يناقض قولهم من الأقوال الصريحة الكثيرة ما هو أكثر وأصرح مما احتجوا به على قولهم.

والواجب حينئذ التمسك بالصريح المحكم، ورد المتشابه إليه، ولا يجوز التمسك بالمتشابه، ورد المحكم إليه.

الوجه السابع: أنه بتقدير أن يكون في الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانا سواء كانت كلها منقولة عن الحواريين نقلا صحيحا، أو كان نقل أكثرها أو أكثر منها مترجمة من لغة إلى لغة.

فمعلوم أنه بكل لسان عدة نسخ، ولو لم يكن بها إلا لسان واحد مع كثرة النسخ بها في مشارق الأرض ومغاربها، لم يمكن أحدا أن يقطع بأن جميع النسخ على لفظ واحد ونص واحد، كما ادعاه هؤلاء في الاثنين وسبعين لسانا، حيث قالوا:

(ومثل هذا القول في كتب الله المنزلة على أفواه الأنبياء والرسل كثير، عند النصارى جميعهم المختلفة ألسنتهم المتفرقين في سبعة أقاليم العالم، المتمسكين بدين النصرانية - قول واحد ونص واحد على ما تسلموه من الحواريين، وردوهم عن عبادة الأصنام فسلموها إليهم كل أمة بلسانها، وهي على هيئتها إلى يومنا هذا) .

فإن هذا الكلام يتضمن عدة دعاوى ليس فيها ما يمكن قائله أن يكون عالما به، فعلم أن هؤلاء تكلموا بهذا الكلام بلا علم، بل بالجهل والضلال، كما هو عادتهم، فإنه يقال لهم: من الذي جمع كل نسخة في العالم من جميع التوراة والإنجيل والزبور وسائر النبوات الأربعة والعشرين بلسان واحد كالعربي مثلا، وهل ميز جميع النسخ فلم يجد نسخة تزيد على نسخة ولا تنقص عنها؟

ومعلوم إن كان هذا ممكنا أمكن أن يقال: جمعها جامع وغير بعض ألفاظها، فلا يمكنهم دعوى بقائها بلا تغيير، وإن لم يمكن ذلك لم يمكن أحدا أن يقول: أنا أعلم موافقة كل نسخة من نسخ هذه الكتب لكل نسخة توجد في سبعة أقاليم العالم بذلك اللسان، فضلا عن اثنين وسبعين لسانا، فضلا عن أن يقال: أنا أعلم أن هذه الألسن كلها تكلمت بها الحواريون، وهي باقية على لفظهم إلى اليوم.

ومعلوم أن الإنسان إذا أمكنه جمع نسخ كتاب واحد من جميع الفنون من كتب الطب والحساب والهندسة والنحو والفقه والحديث، كان إمكان تغيير بعض ألفاظ تلك النسخ أيسر عليهم من مقابلة ألفاظ كل نسخة بألفاظ تلك النسخ مثلها.

فإن هذا لا يقدر عليه في العادة، بل هو متعذر أو متعسر، ولا سيما والمقابلة إن كانت بين اثنين فكل منهما ينقل للآخر لفظ

نسخته فيكون مدار المقابلة على خبر واحد، لم يقترن بخبره ما يعلم به صدقه، فقد يغلطان أو يكذبان جميعا.

وإن كانت بين عدد يحصل بهم العلم احتاجت كل نسخة بكل لسان إلى أن يشهد بلفظها جمع يحصل بهم العلم، وأولئك بأعيانهم يشهدون بلفظ كل نسخة بكل لسان، ويشهدون بلفظ كل نسخة، ويشهد لهم من هو مثلهم بلفظ النسخة الأخرى (وموافقتها لها، وهؤلاء أو مثلهم بموافقة النسخة الثانية) .

ومعلوم أن هذا لم يفعله أحد، ولا يقدر عليه أحد، بل لو اجتمع جميع ملوك النصارى على ذلك (وعلماء بلادهم على ذلك) لم يقدروا عليه، فإن من النسخ ما هو عند المسلمين، ومنها ما هو في بلاد لا حكم لهم عليها، وأيضا فقد يكون في بلادهم من النسخ ما لم يظهرها أصحابها.

فكل من شهد من النصارى، وغيرهم بأن كل نسخة في العالم بهذه الكتب توافق جميع النسخ فهو شاهد زور شهد بما لا يعلم، بل شهد بما يعلم أنه كاذب فيه. وكذلك لو شهد بمثل هذا لنسخ أي كتاب كان، فإن العادة المعروفة أن نسخ الكتب تختلف ويزيد

بعضها وينقص بعضها، والقرآن المنقول بالتواتر لم يكن الاعتماد في نقله على نسخ المصاحف، بل الاعتماد على حفظ أهل التواتر له في صدورهم.

ولهذا إذا وجد مصحف يخالف حفظ الناس أصلحوه، وقد يكون في بعض نسخ المصاحف غلط، فلا يلتفت إليه مع أن المصاحف التي كتبها الصحابة قد قيد الناس صورة الخط ورسمه، وصار ذلك أيضا منقولا بالتواتر فنقلوا بالتواتر لفظ القرآن حفظا، ونقلوا رسم المصاحف أيضا بالتواتر.

ونحن لا ندعي اتفاق جميع نسخ المصاحف كما لا ندعي أن كل من يحفظ القرآن لا يغلط، بل ألفاظه منقولة بالتواتر حفظا ورسما فمن خرج عن ذلك علم الناس أنه غلط لمخالفته النقل المتواتر، بخلاف هذه الكتب، فإن النصارى لم يحفظوها كلها في قلوبهم تلقيا لها عن الحواريين حفظا منقولا بالتواتر، بل لم يكن أحد منهم يحفظها كلها، فضلا عن أن يحفظها كلها أهل التواتر، فضلا عن أن يحفظ كل لسان منها من تواتر بهم ذلك اللسان.

وهذا أمر معلوم لجميع النصارى وغيرهم أنه لم يحفظها كلها بكل لسان من زمن الحواريين عدد التواتر، بل ولا في زمن من الأزمان، بل بعد انتشار النصارى، وكثرتهم، وتفرقهم في الأقاليم السبعة لا يكاد يوجد فيهم من يحفظها كلها عن قلبه، كما يحفظ صبيان مكاتب المسلمين القرآن، فكيف يحفظها في كل زمان أهل التواتر؟ فكيف يحفظ كل لسان من الاثنين وسبعين أهل التواتر؟ وإذا كان اعتمادهم إنما هو على الكتب، وهم لا يمكنهم معرفة اتفاق جميع النسخ بلسان واحد فضلا عن جميع الألسنة، علم أن دعواهم أنها لم تزل متفقة على نص واحد ولفظ واحد، وأن جميع نسخها متفقة في هذا الزمان، وفيما قبله - كلام مجازف يتكلم بلا علم، بل يتكلم بما يعلم أنه باطل.

الوجه الثامن: أن هذا لو قدر إمكانه، فإنما يكون منقولا لو لم يعلم أنه كذب فكيف مع العلم بأنه كذب؟ فإنه يوجد في هذا الزمان نسخ التوراة والإنجيل والزبور والنبوات مختلفة متناقضة.

والنسخ التي عند النصارى مختلفة، وهي أيضا تخالف نسخ اليهود والسامرة في مواضع، وحينئذ فإذا قالت النصارى: نسخنا هي الصحيحة - لم يكن هذا أولى من قول اليهود: نسخنا هي الصحيحة.

بل معلوم أن اعتناء اليهود بالتوراة أعظم من اعتناء النصارى، (ثم بعد هذا، ما ذكروه لا يكفي إن لم يعلم أن نسخهم توافق النسخ التي عند اليهود حتى السامرة، وهذا غير معلوم) .

وإن قالوا: إذا خالف نقل اليهود لنقل الحواريين - لم يلتفت إليه لأنهم معصومون. كل هذا مبني على دعوى عصمتهم، وقد عرف فساده، وإذا قالت النصارى: نحن ننقلها عن الحواريين المعصومين، قالت اليهود: نحن ننقلها عن موسى المعصوم باتفاق أهل الملل، أو عن العارف المعصوم باتفاق اليهود والنصارى، وكثير من المسلمين، فالتوراة باتفاق الخلق مأخوذة عن موسى بن عمران وهو معصوم، وإنما يطعن من يطعن في نقل بعضها لانقطاع التواتر في أثناء المدة لما خرب بيت المقدس، ولم يبق فيه ساكن، أكثر من سبعين سنة، فيقول بعض الناس: إن بعض ألفاظها غير حينئذ، ويقول بعضهم: لم تغير ألفاظ جميع النسخ، وإنما غير ألفاظ بعض النسخ، وانتشرت النسخ المغيرة عند كثير من الناس حتى لا يعرفوا غيرها.

ثم بنو إسرائيل لم يزل فيهم نبي بعد نبي حتى جاء المسيح، وبعد المسيح فلم يزالوا خلقا كثيرا لا يمكن تواطؤهم في مشارق الأرض ومغاربها على تغيير نسخ التوراة، بخلاف الإنجيل فإنه إنما نقله أربعة، ومن كتب التوراة والزبور والنبوات من أتباع المسيح، فإنما كتبوها من النسخ التي كانت بأيدي اليهود.

وإذا قالوا: كانوا معصومين، فهذا ممنوع عند المسلمين واليهود، وعلى تقدير تسليمه فاليهود ينقلونها أيضا عن المعصوم قبل هؤلاء، فلا يمكن مع هذا أن يدعي مدع أن النبوات التي عند النصارى تواترت عن المعصوم أعظم من تواتر ما عند اليهود، بل لا يشك العقلاء العادلون أن نقل حروف التوراة أصح من نقل حروف الإنجيل.

وهذا أمر يعرف من وجوه متعددة فإن التوراة أخذت عن المعصوم باتفاق أهل الملل، وكانت منقولة قبل المسيح بين الأنبياء وبين بني إسرائيل أعظم من نقل الإنجيل، وبعد المسيح نقلها اليهود، والنصارى.

وإذا كان كذلك، فإذا وجد ما عند اليهود والسامرة من نسخ النبوات يخالف ما عند النصارى في بعض الألفاظ - كان هذا دليلا على أن هذه الكتب ليست ألفاظها منقولة عن نص واحد، وأنه ليس كل لفظ من ألفاظها متواترا، والله أعلم.

الوجه التاسع: أن جميع ما عندهم من النصوص الصحيحة لا يدل على مذهبهم ألبتة نصا، بل غاية ما يدعون فيها الظهور، وهم منازعون في ذلك حتى يقال: بل الظاهر فيما يحتجون به خلاف قولهم.

ومعلوم أن أصول الإيمان التي يؤمن أهل الإيمان بها، ويكفرون من خالفها - لا بد أن تكون معلومة عندهم عن الأنبياء، والعلم لا يحصل بلفظ محتمل، فعلم أنه لا علم عندهم عن الأنبياء عليهم السلام، وهو محل النزاع.

الوجه العاشر: أن أصرح ما عندهم من التثليث، هو قوله: (عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس) ، وعلى هذا القول بنوا قولهم بالتثليث، وأثبتوا لله ثلاثة أقانيم.

ولفظ الأقانيم لم ينطق به أحد من الأنبياء، ولا أحد من الحواريين باتفاقهم، بل هو مما ابتدعوه، قيل: إنه لفظ رومي معناه: الأصل، ثم أقنوم الابن تارة يقولون: " هو علم الله "، وتارة يقولون: " هو حكمة الله "، وتارة يقولون: " هو كلمة الله "، وتارة يقولون: " هو نطق الله "، وروح القدس تارة يقولون: " هو حياة الله " وتارة يقولون: " هو قدرة الله ".

والكتب المنقولة عن الأنبياء عندهم ليس فيها تسمية شيء من صفات الله لا باسم ابن ولا باسم روح القدس، فلا يوجد أن أحدا من الأنبياء سمى علم الله وحكمته وكلامه - ابنا، ولا سمى حياة الله أو قدرته روح القدس، بل روح القدس في كلام الأنبياء يراد بها معنى ليس هو حياة الله، كما يراد بها ملك الله أو ما ينزله في قلوب الأنبياء والصالحين من هداه ونوره وتأييده، ونحو ذلك.

وإذا كان كذلك، علم أن ما فسروا به قول المسيح عليه السلام: (عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس) - كذب صريح عليه، وكذلك ما فسروا به كلام الأنبياء من إثبات الأقانيم الثلاثة كذب صريح عليهم، كقولهم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، أرادوا به إثبات ثلاثة آلهة، فإن هذا مما يعلم بالضرورة ضلالهم فيه وافتراؤهم على الأنبياء، ويعلم أن إله الثلاثة هو إله واحد ليس إله إبراهيم إلها آخر غير إله إسحاق حتى لو قيل بالأقانيم، فلا يقول عاقل: إن أحد الأقانيم إله هذا، والأقنوم الآخر إله الآخر، فإن هذا لم يقله أحد من العقلاء لا النصارى، ولا غيرهم، لا يقولون: إن الأب إله إبراهيم مثلا، والابن إله إسحاق، وروح القدس إله يعقوب، بل هم متفقون مع قولهم بالتثليث أن الجميع إله واحد لجميع المرسلين، ليس إله هذا أقنوما وإله الآخر أقنوما آخر، فعلم أن ما يفسرون به كلام الأنبياء كذب، لا يصح لا على تثليثهم الذي ابتدعوه، ولا قول أهل التوحيد المتبعين لرسل الله تعالى.

[فصل: رأي النصارى في عدم إيمان اليهود بالمسيح بالرغم مما ذكر عندهم من النبوات عن ظهوره]

قال الحاكي عنهم: فقلت لهم: إذا كانت هذه النبوات عند اليهود، وهم مقرون معترفون بها أنها حق، وأنها عتيدة أن تكمل عند مجيء المسيح فأي حجة لهم يحتجون بها عن الإيمان به؟

أجابوا قائلين: إن الله اختار بني إسرائيل، واصطفاهم على الناس له شعبا في ذلك الزمان، وحيث كانوا في أرض مصر في عبودية فرعون أرسل إليهم موسى النبي دلهم على معرفة الله، ووعدهم أن الله يخلصهم من عبودية فرعون، ويخرجهم من مصر، ويريهم أرض الميعاد التي هي أرض بيت المقدس فطلب موسى من الله، وعمل العجائب قدام عيونهم

وضرب أهل مصر عشر الضربات، وهم يرون ذلك جميعه، ويعلمون أن الله يصنعه لأجلهم، وأخرجهم من مصر بيد قوية، وشق لهم البحر، وأدخلهم فيه، وصار لهم الماء حائطا عن يمينهم، وحائطا عن شمالهم، ودخل فرعون، وجميع جنوده في البحر، وبنو إسرائيل ينظرون ذلك فلما برز موسى وبنو إسرائيل من البحر، وخلفهم فرعون بجنوده فيه - أمر الله لموسى أن يرد عصاه إلى الماء فعاد الماء كما كان، وغرق فرعون وجميع جنوده في البحر، وبنو إسرائيل يشهدون ذلك فلما غاب عنهم موسى إلى الجبل ليناجي ربه، وأخذ لهم التوراة من يد الله تركوا عبادة الله، ونسوا جميع أفعاله، وكفروا به وعبدوا رأس العجل من بعد ذلك، ثم عبدوا الأصنام مرارا كثيرة ليس مرة واحدة، وذبحوا لها الذبائح ليست حيوانات بل بنيهم مع البنات حسبما ذكر فيما قبل ذلك، وجميع أفعالهم مكتوبة في أخبار بني إسرائيل فلما رأى الله قساوة قلوبهم، وغلظ رقابهم وكفرهم به، ورأى أفعالهم النجسة الخبيثة، غضب عليهم وجعلهم مرذولين، وطبع على قلوبهم فلا يؤمنون، وجعلهم مهانين في جميع الأمم، وليس لهم ملك ولا بلاد ولا نبي ولا كاهن إلى الأبد حسبما تنبئت عليهم الأنبياء على ما ذكرناه قبل، وتشهد به كتبهم التي في أيديهم إلى يومنا هذا.

وكذا قال الله لأشعيا: (اذهب إلى هذا الشعب، فقل لهم تسمعون سماعا ولا تفهمون، وينظرون نظرا ولا تبصرون، لأن قلب هذا الشعب قد غلظ وقد سمعوا بأفهامهم سمعا ثقيلا، وقد غمضوا أعينهم لئلا يبصروا بها، وسمعوا بآذانهم ولا يفهمون بقلوبهم، ويرجعون إلي فأرحمهم) .

وقال أشعيا: (قال الله: هكذا مقتت نفسي سبوتكم ورءوس شهوركم صارت عندي مرذولة، وقال: (وفي ذلك اليوم يقول الله: سأبطل السبوت والأعياد كلها وأعطيكم سنة جديدة مختارة لا كالسنة التي أعطيتها لموسى عبدي (يوم حوريب) يوم الجمع الكثير، بل سنة جديدة مختارة أمر بها وأخرجها من صهيون) فصهيون هي أورشليم، والسنة الجديدة المختارة: هي السنة التي تسلمناها نحن معشر النصارى من يدي الرسل الحواريين الأطهار الذين خرجوا من أورشليم، وداروا في سبعة أقاليم العالم وأنذروا بهذه السنة الجديدة. فأي بيان يكون أوضح وأصح من هذا البيان، إذ قد أوردناه من قول الله، ولا سيما وأعداؤنا اليهود المخالفون لديننا شهدوا لنا بصحة ذلك جميعه.

وأما حجة اليهود في هذه النبوات يقولون ويعتقدون أنها حق، وأنها قول الله لكن يقولون: إنها عتيدة (فهذه النبوات مثلما هي عند اليهود كذلك هي عندنا معشر النصارى في اثنين وسبعين لسانا، فيراهم جميع الأمم قولا واحدا وأنها قول الله، وقالت اليهود نحن مصدقون بها) أن تكمل وتتم عند مجيء المسيح، لكن المسيح لم يجئ بعد، وأن الذي جاء ليس هو المسيح. هذا قولهم، وكفاهم أنهم يكفرون ويفجرون مع الكفر، ويقولون: إن المسيح كان ضالا مضلا، وأما المسيح الحق فعتيد أنه يأتي ويكمل نبوات الأنبياء إذا جاء، وإذا جاء اتبعناه وكنا أنصاره، وهذا رأيهم واعتقادهم في السيد المسيح، فماذا يكون أعظم من هذا الكفر الذي هم عليه؟

ولأجل (ذلك في هذا الكتاب سماهم المغضوب عليهم لأجل) خلافهم لقول الله الذي أرسل نطقه على أفواه الأنبياء، ولما كنا نحن النصارى متمسكين بما أمرتنا به الرسل الأطهار سمانا في هذا الكتاب المنعم عليهم، وأما قولنا في الله: ثلاثة أقانيم إله واحد، فهو أن الله نطق به وأوضحه في التوراة، وفي كتب الأنبياء، ومن ذلك ما جاء في السفر الأول من التوراة يقول: (حيث شاء الله أن يخلق آدم قال: لنخلق خلقا على شبهنا ومثالنا، فمن هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروح قدسه، وحين خالف آدم وعصى ربه (ها آدم قد صار كواحد منا) .

(وهذا واضح أن الله قال هذا القول لابنه، أي كلمته وروح قدسه، وقال هذا القول يستهزئ بآدم، أي طلب أن يصير كواحد منا) صار عريانا مفتضحا.

وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة قال في التوراة: (وأمطر الرب عند الرب من السماء على سدوم وعامورة نارا وكبريتا)

أوضح بهذا ربوبية الأب والابن بذكر ثالث.

والجواب: أن يقال أما كفر اليهود كلهم لما أرسل المسيح عليه السلام إليهم فلم يؤمنوا به وكفر من كفر منهم قبل ذلك، إما بقتل النبيين، وإما بتكذيبهم، إما بالشرك، وإما بغير ذلك مما كفروا فيه بما أنزل الله - فهذا حق.

وهذا هو نظير كفر النصارى كلهم الذين بلغتهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأقام الله عليهم الحجة به فلم يؤمنوا به، وكفر من كفر منهم قبل ذلك بما أنزل الله، إما بتكذيب بعض ما أنزله، وإما بتبديله بغيره، وإما بجعل ما لم ينزله الله منزلا منه، وإما بغير ذلك مما فيه كفر بما أنزل الله عز وجل.

وكذلك ما ذكر من أن الله أقام سنة جديدة، وعهدا جديدا، وهو ما بعث به المسيح عليه السلام من الشريعة التي بعث بها، وفيها تحليل بعض ما حرم الله في التوراة، كما قال في القرآن عن المسيح:

{ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم} [آل عمران: 50] .

فهذا أيضا حق.

[فصل: الرد عليهم في قولهم السنة الجديدة المختارة هي السنة التي تسلمناها من يدي الرسل الأطهار]

وأما قولكم: السنة الجديدة المختارة هي السنة التي تسلمناها من يدي الرسل الأطهار، على ما تسلموها هم من المسيح عليه السلام.

فيقال: لو كنتم على تلك السنة لم تغيروها، لم ينفعكم المقام عليها إذا كذبتم الرسول النبي الأمي الذي بعث إليكم وإلى سائر الخلق بسنة أخرى أكمل من السنن التي كانت قبله، كما لم ينفع اليهود، ولو تمسكوا بسنة التوراة، ولم يتبعوا سنة المسيح الذي أرسل إليهم، بل من كذب برسول واحد فهو كافر.

كما قال تعالى: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا} [النساء: 150] .

فإنه، وإن كانت السنة التي جاء بها المسيح عليه السلام حقا، وكل من كان متبعا له فهو مؤمن مسلم من أولياء الله، من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كما قال تعالى:

{إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: 62] .

وقال تعالى: {كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين} [الصف: 14] .

فمن اتبع المسيح كان مؤمنا، ومن كفر به كان كافرا.

وقال تعالى: {ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون} [آل عمران: 55] (55) {فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين} [آل عمران: 56] (56) {وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين} [آل عمران: 57] .

لكن غيرتموها وبدلتموها قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، (فصرتم كفارا بتبديل شريعة المسيح، وتكذيب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم) ، كما كفرت اليهود بتبديل شريعة التوراة، وتكذيب شريعة الإنجيل، ثم كفروا بتكذيب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى سائر رسل الله أجمعين.

فإن المسيح لم يسن لكم التثليث والقول بالأقانيم، ولا القول بأنه رب العالمين، ولا سن لكم استحلال الخنزير وغيره من المحرمات، ولا ترك الختان، ولا الصلاة إلى المشرق، ولا اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، ولا الشرك واتخاذ التماثيل والصليب، ودعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والصالحين وغيرهم، وسؤالهم الحوائج، ولا الرهبانية، وغير ذلك من المنكرات التي أحدثتموها، ولم يسنها لكم المسيح، ولا ما أنتم عليه هي السنة التي تسلمتموها من رسل المسيح.

بل عامة ما أنتم عليه من السنن أمور محدثة مبتدعة بعد الحواريين، كصومكم خمسين يوما زمن الربيع، واتخاذكم عيدا يوم الخميس والجمعة والسبت، فإن هذا لم يسنه المسيح ولا أحد من الحواريين، وكذلك عيد الميلاد والغطاس، وغير ذلك من أعيادكم.

بل عيد الصليب إنما ابتدعته (هيلانة) الحرانية القندقانية أم قسطنطين، فأنتم تقولون: إنها هي التي أظهرت الصليب وصنعت لوقت ظهوره عيدا، وذلك بعد المسيح والحواريين بمدة طويلة زمن الملك قسطنطين بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة.

وفي ذلك الزمان أحدثتم الأمانة لنصوص الأنبياء في غير موضع، وأظهرتم استحلال الخنزير وعقوبة من لم يأكله، وابتدعتم في ذلك الزمان تعظيم الصليب، وغير ذلك من بدعكم، وكذلك كتب القوانين التي عندكم جعلتموها سنة وشريعة فيها شيء عن الأنبياء والحواريين، وكثير مما فيها ابتدعه من بعدهم لا ينقلونه لا عن المسيح ولا عن الحواريين، فكيف تدعون أنكم على السنة والشريعة التي كان عليها المسيح عليه السلام وهذا مما يعلم بالاضطرار والتواتر أنه كذب بين.

[فصل: رد استدلالهم بما ورد في التوراة عن خلق آدم على رأيهم في المسيح]

[قوله في التوراة لنخلق خلقا على شبهنا ومثالنا]

قالوا: وأما قولنا في الله: ثلاثة أقانيم إله واحد، فهو أن الله نطق به وأوضحه في التوراة، وفي كتب الأنبياء، ومن ذلك ما جاء في السفر الأول من التوراة يقول - حيث شاء الله أن يخلق آدم - قال الله: (لنخلق خلقا على شبهنا ومثالنا) ، فمن هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروحه؟

وحين خالف آدم وعصى ربه قال الله تعالى: (ها آدم قد صار كواحد منا) ، وهو قول واضح أن الله قال هذا القول لابنه وروح قدسه.

والجواب: أن استدلالهم بهذا على قولهم في المسيح هو في غاية الفساد والضلال، فإن لفظ التوراة: (نصنع آدم كصورتنا وشبهنا) ، وبعضهم يترجمه (نخلق بشرا على صورتنا وشبهنا) .

والمعنى واحد، وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أن الله خلق آدم على صورته) ، وفي رواية: (على صورة الرحمن) فقولهم: من هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروحه - من أبطل الباطل من وجوه:

أحدها: أن الله ليس كمثله شيء، وليس لفظ النص: على مثالنا.

الثاني: أنه لا اختصاص للمسيح بما ذكر على تقدير حق وباطل، فإنه بأي تفسير فسر قوله: (سنخلق بشرا على صورتنا شبهنا) لم يخص ذلك المسيح.

الثالث: أنهم إن أرادوا بالكلمة التي هي شبهه ومثاله صفته التي هي العلم القائم به، والحياة القائمة به مثلا، فالصفة لا تكون مثلا للموصوف، إذ الموصوف هو الذات القائمة بنفسها، والصفة قائمة بها، والقائم بغيره لا يكون مثل القائم بنفسه.

وإن أرادوا به شيئا غير صفاته، مثل بدن المسيح وروحه، فذلك مخلوق له، والمخلوق لا يكون مثل الخالق، وكذلك روح القدس - سواء أريد به ملك أو هدى وتأييد - ليس مثلا لله عز وجل.

الرابع: أنه قال (لنخلق خلقا) أو قال: (نخلق آدم أو نخلق بشرا على صورتنا وشبهنا) وعلى ما قالوه: (نخلق خلقا على شبهنا ومثالنا) ، وبكل حال، فهذا وكلمة الله وروحه عندهم غير مخلوق فامتنع أن يكون المراد بذلك كلمته وروحه.

وإن قالوا: أراد بذلك الناسوت المسيحي، فلا فرق بين ذلك الناسوت وسائر النواسيت، مع أن المراد بذلك النص آدم أبو البشر باتفاق الأمم، والناسوت نفسه ليس هو كلمة الله وروحه.

الخامس: أنه لو قدر أنه أريد بذلك أن كلام الله يشبه ذاته من بعض الوجوه، مثل كونه قديما بقدمه - لم يكن في ذلك ما يدل على الأقانيم الثلاثة.

وكذلك اللفظ المعروف وهو قوله: (سنخلق بشرا على صورتنا شبهنا) فهذا لا يدل على التثليث بوجه من الوجوه، وشبه الشيء بالشيء يكون لمشابهته له من بعض الوجوه، وذلك لا يقتضي التماثل الذي يوجب أن يشتركا فيما يجب ويجوز ويمتنع، وإذا قيل هذا حي عليم قدير، وهذا حي عليم قدير، فتشابها في مسمى الحي والعليم والقدير - لم يوجب ذلك أن يكون هذا المسمى مماثلا لهذا المسمى فيما يجب ويجوز ويمتنع.

، بل هنا ثلاثة أشياء:

أحدها: القدر المشترك، الذي تشابها فيه، وهو معنى كلي لا يختص به أحدهما، ولا يوجد كليا عاما مشتركا إلا في علم العالم.

والثاني: ما يختص به هذا، كما يختص الرب بما يقوم به من الحياة والعلم والقدرة.

والثالث: ما يختص به (ذاك، كما يختص به) العبد من الحياة والعلم والمقدرة، فما اختص به الرب عز وجل لا يشركه فيه العبد، ولا يجوز عليه شيء من النقائص التي تجوز على صفات العبد، وما يختص به العبد لا يشركه فيه الرب، ولا يستحق شيئا من صفات الكمال التي يختص بها الرب عز وجل.

وأما القدر المشترك كالمعنى الكلي الثابت في ذهن الإنسان فهذا لا يستلزم خصائص الخالق ولا خصائص المخلوق، فالاشتراك فيه لا محذور فيه.

ولفظ التوراة فيه: (سنخلق بشرا على صورتنا يشبهنا) ، لم يقل: على مثالنا وهو كقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح (لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته) فلم يذكر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كموسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم - إلا لفظة شبه دون لفظ مثل.

وقد تنازع الناس: هل لفظ الشبه والمثل بمعنى واحد أو معنيين، على قولين:

أحدهما: أنهما بمعنى واحد، وأن ما دل عليه لفظ المثل مطلقا ومقيدا يدل عليه لفظ الشبه، وهذا قول طائفة من النظار.

والثاني: أن معناها مختلف عند الإطلاق لغة وشرعا وعقلا، وإن كان مع التقيد والقرينة يراد بأحدهما ما يراد بالآخر، وهذا قول أكثر الناس، وهذا الاختلاف مبني على مسألة عقلية، وهو أنه هل يجوز أن يشبه الشيء الشيء من وجه دون وجه، وللناس في ذلك قولان: فمن منع أن يشبهه من وجه دون وجه قال: المثل والشبه واحد، ومن قال: إنه قد يشبه الشيء الشيء من وجه دون وجه - فرق بينهما عند الإطلاق، وهذا قول جمهور الناس، فإن العقل يعلم أن الأعراض مثل الألوان تشتبه في كونها ألوانا، مع أن السواد ليس مثل البياض، وكذلك الأجسام والجواهر عند جمهور العقلاء تشتبه في مسمى الجسم والجوهر، وإن كانت حقائقها ليست متماثلة، فليست حقيقة الماء مماثلة لحقيقة التراب، ولا حقيقة النبات مماثلة لحقيقة الحيوان، ولا حقيقة النار مماثلة لحقيقة الماء وإن اشتركا في أن كلا منهما جوهر وجسم وقائم بنفسه.

وأيضا فمعلوم في اللغة أنه يقال: هذا يشبه هذا، وفيه شبه من هذا، إذا أشبهه من بعض الوجوه، وإن كان مخالفا له في الحقيقة.

قال الله تعالى: {وأتوا به متشابها} [البقرة: 25] .

وقال: {منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله} [آل عمران: 7] .

{وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم} [البقرة: 118] .

فوصف القولين بالتماثل، والقلوب بالتشابه لا بالتماثل؛ فإن القلوب وإن اشتركت في هذا القول فهي مختلفة لا متماثلة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس») .

فدل على أنه يعلمها بعض الناس، وهي في نفس الأمر ليست متماثلة، بل بعضها حرام وبعضها حلال.

والوجه السادس: أن قوله: (سنخلق خلقا على شبهنا) لا يتناول صفته، مثل كلامه وحياته القائمة به، فإن ذلك ليس بمخلوق، وحينئذ فهذا لا يتناول اللاهوت الذي يزعمون أنه تدرع بالناسوت، فإن اللاهوت ليس بمخلوق.

وأما الناسوت فهو كسائر نواسيت الناس لا اختصاص له، بأن يكون شبيها لله دون سائر النواسيت، فقوله: فمن هو الشبه المخلوق سوى كلمته وروحه؟ - باطل على كل تقدير.

وأما قوله: (ها آدم قد صار كواحد منا) ، وقولهم: إن هذا قول واضح أن الله قال هذا القول لابنه روح قدسه، فإن أرادوا أن يجعل الذي صار كواحد منا لابنه، كان هذا من أبطل الكلام؛ فإن هذا الابن إن كان المراد به الكلمة التي هي صفة لله، فتلك لم يخلق لها أمر يصير كواحد منهم، وتلك لا تسمى آدم ولا سماها الله ابنا.

وإن أريد به ناسوت المسيح فذاك مخلوق مبتدع يمتنع أن يكون كالقديم الأزلي، وأيضا فإن الله قال عن آدم، وآدم ليس هو المسيح، ولا يجوز أن يقال: آدم ويراد به المسيح، كما لا يجوز أن يقال: عصى آدم ويراد به المسيح، وأيضا فإنه قال: (ها آدم قد صار كواحد منا) هذه إشارة إلى أمر قد كان في الزمن الماضي، ليس هو إشارة إلى ما سيكون بعد ذلك بألوف من السنين، وإن أرادوا أن الله قال لابنه الذي هو كلمته وروحه، وهذا هو مرادهم، كقولهم: إنه قال هذا القول يستهزئ بآدم، أي أنه طلب أن يصير كواحد منا، صار هكذا عريانا مفتضحا، ويكون شبهتهم قوله: (منا) لأنه عبر بصيغة الجمع، (وكذلك إن أرادوا هذا بقوله (نخلق بشرا على صورتنا وشبهنا) فاحتجوا على التثليث بصيغة الجمع.................

نهاية المجلد الأول

بداية المجلد الثاني

......وهذا مما احتج به نصارى نجران على النبي صلى الله عليه وسلم فاحتجوا بقوله تعالى (إنا) ، (نحن) قالوا: وهذا يدل على أنهم ثلاثة، وكان هذا من المتشابه الذي اتبعوه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وتركوا المحكم المبين الذي لا يحتمل إلا واحدا، فإن الله في جميع كتبه الإلهية قد بين أنه إله واحد، وأنه لا شريك له، ولا مثل له.

وقوله: (إنا) ، (نحن) لفظ يقع في جميع اللغات على من كان له شركاء وأمثال، وعلى الواحد المطاع العظيم الذي له أعوان يطيعونه، وإن لم يكونوا شركاء ولا نظراء، والله تعالى خلق كل ما سواه، فيمتنع أن يكون له شريك أو مثل، والملائكة وسائر العالمين جنوده تعالى.

قال تعالى: {وما يعلم جنود ربك إلا هو} [المدثر: 31] .

وقال تعالى: {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} [الفتح: 7] .

فإذا كان الواحد من الملوك يقول: إنا، ونحن، ولا يريدون أنهم ثلاثة ملوك فمالك الملك رب العالمين، رب كل شيء ومليكه هو أحق بأن يقول: إنا، ونحن، مع أنه ليس له شريك، ولا مثيل، بل له جنود السماوات والأرض.

وأيضا فمن المعلوم أن آدم لم يطلب أن يصير مثل الله ولا مثل صفاته كعلمه وحياته، وأيضا فليس في ظاهر اللفظ أن الله خاطب صفاته بتلك.

وأيضا فالصفة القائمة بالموصوف لا تخاطب ولا تخاطب، وإنما يخاطب الموصوف، ولم يكن قد خلق آدم ناسوت المسيح، ولا غيره من البشر حتى يخاطبه، فعلم أن دعواهم أن الله خاطب صفته التي سموها ابنا وروح قدس - كلام باطل، بل قد يخاطب ملائكته.

وآدم عليه السلام أراد ما أطمعه الشيطان من الخلد والملك، كما قال تعالى: {فوسوس إليه الشيطان قال يآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى} [طه: 120] .

[فصل: رد استدلالهم بما ورد في الأمر بإهلاك قوم لوط على ربوبية الابن]

قالوا: وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة، قال في التوراة: (وأمطر الرب من عند الرب من السماء على سدوم وعامورة - نارا وكبريتا) أوضح بهذا ربوبية الأب والابن.

والجواب: أن احتجاجهم بهذا من أبطل الباطل لوجوه:

أحدها: أن تسمية الله علمه وحياته ابنا وربا تسمية باطلة، لم يسم موسى في التوراة شيئا من صفات الله باسم الابن ولا باسم الأب، فدعوى المدعي أن موسى عليه السلام أراد بالرب شيئا من صفات الله، أو أن له صفة تسمى ابنه - كلام باطل.

الثاني: أنه لو قدر أن صفة الله تسمى بذلك فمعلوم أن الذي أمطر هو الذي كان المطر عنده، لم يكن المطر عند أحدهما (والآخر هو الممطر، كما لا يجوز أن يقال خلق أحدهما) من شيء عند الآخر، ولا أنزل أحدهما المطر من سحاب الآخر.

الثالث: أن الصفة لا تفعل شيئا، ولا عندها شيء، بل هي قائمة بالموصوف، والذات المتصفة بالصفة هي التي تفعل، وعندها يكون ما يكون.

الرابع: أن هذا بمنزلة قوله: (أمطر الرب من عنده) لكن جعل الاسم الظاهر موضع المضمر إظهارا، لأن الأمر له وحده في هذا وهذا.

ومثل هذا في القرآن كقوله: {الحاقة - ما الحاقة} [الحاقة: 1 - 2] . {القارعة - ما القارعة} [القارعة: 1 - 2] .

وقال تعالى: {تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم} [غافر: 2] . {تنزيل من الرحمن الرحيم} [فصلت: 2] .

والله هو المنزل، ولم يقل مني.

[فصل: رد استدلالهم بما ورد عن داود على ربوبية المسيح]

قالوا: نذكر ثالثا، وقال داود في الزبور في المزمور المائة والتسعة قائلا: (قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك تحت موطأ قدميك) .

والجواب من وجوه:

أحدها: أنه لا يجوز أن يراد بـ (ربي) شيء من صفات الله، فإنه لم يسم داود ولا أحد من الأنبياء شيئا من صفات الله ربا ولا ابنا، ولا قال أحد لشيء من صفات الله: يا رب ارحمني، ولا قال لعلم الله أو كلامه أو قدرته: يا رب، وإذا لم يكونوا يسمون صفات الله ربا، ولو كان المسيح صفة من صفاته لم يجز أن يكون هو المراد بلفظ الرب، فكيف وناسوته أبعد عن اللاهوت أن يراد بذلك؟ فعلم أنهم لم يريدوا بذلك لا اللاهوت ولا الناسوت.

الثاني: أنه قال: قال الرب لربي، فأضاف إليه الثاني دون الأول وأنه هو ربه الذي خلقه، وعامة ما عند النصارى من الغلو أن يقولوا: إله حق من إله حق، ويجعلونه خالقا، أما أن يجعلوه أحق من الأب بكونه رب داود، فهذا لم يقولوه، وهو ظاهر البطلان.

الثالث: أنه ليس في هذا ذكر الأقانيم الثلاثة، غايته لو كان كما تأولوه أن يكون فيه ذكر الابن، وأما الأقانيم الثلاثة فلم ينطق بها شيء من كتب الله التي بأيديهم، فضلا عن القرآن لا بلفظها ولا معناها، بل ابتدعوا لفظ الأقنوم، وعبروا به عما جعلوه مدلول كتب الله، وهي لا تدل على ذلك فكانوا في ذلك مترجمين لكلام الله، وهم لم يفهموا معناه، ولا عبروا عنه بعبارة تدل على المراد.

الرابع: أنه قال: لربي، وهذا يراد به السيد، كما قال يوسف: {إنه ربي أحسن مثواي} [يوسف: 23] .

وقال لغلام الملك: {اذكرني عند ربك} [يوسف: 42] .

وقال تعالى: {فأنساه الشيطان ذكر ربه} [يوسف: 42] .

ولهذا ذكر الأول مطلقا والثاني مقيدا، فيكون المعنى: وقال الله لسيدي: قال رب العالمين لسيدي، وسماه سيدا تواضعا من داود وتعظيما له، لاعتقاده أنه أفضل منه.

[فصل: قوله في التوراة الذي قال لي أنت ابني وأنا اليوم ولدتك]

قالوا: نذكر رابعا، وقال في المزمور الثاني: (الذي قال لي: أنت ابني وأنا اليوم ولدتك) .

والجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا ليس فيه تسمية صفات الله - علمه وحياته - ابنا، ولا فيه ذكر الأقانيم الثلاثة، فليس فيه حجة لشيء مما تدعونه.

والثاني: أن هذا حجة عليهم، فإنه هو سمى داود ابنه، فعلم أن اسم الابن ليس مختصا بالمسيح عليه السلام، بل سمى غيره من عباده ابنا، فعلم أن اسم الابن ليس اسما لصفاته، بل هو اسم لمن رباه من عبيده.

وحينئذ فلا تكون تسمية المسيح ابنا لكون الرب أو صفته اتحدت به، بل كما سمى داود ابنا، وكما سمى إسرائيل ابنا فقال: (أنت ابني بكري) .

وهذا في كتبهم، كما ذكر، (فإن كان ما في كتبهم قول الله فلا حجة فيه، لأنه أراد المربى، وإن لم يكن قول الله ورسله) فلا حجة فيه، لأن قول غير المعصوم ليس بحجة.

الثالث: أن قوله: (وأنا اليوم ولدتك) يدل على حدوث هذا الفعل، وعندهم تولد الكلمة التي يسمونها الابن من الأب قديم أزلي، كما قالوا في أمانتهم (وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور إله حق من إله حق من جوهر أبيه، مولود غير مخلوق، مساو الأب في الجوهر الذي به كان كل شيء) .

فهذا الابن عندهم مولود من الأب قبل كل الدهور، وذاك ولد في يوم خاطبه بعد خلق داود فلم يكن في هذا المحدث دليل على وجود ذلك القديم.

الوجه الرابع: أنه إذا كان الأب في لغتهم هو الرب الذي يربي عبده، أعظم مما يربي الأب ابنه، كان معنى لفظ الولادة مما يناسب معنى هذه الأبوة، فيكون المعنى: اليوم جعلتك مرحوما مصطفى مختارا.

والنصارى قد يجعلون الخطاب الذي هو ضمير لغير المسيح، يراد به المسيح، فقد يقولون: المراد بهذا المسيح، وهذا باطل لا يدل اللفظ عليه، وبتقدير صحته، فهو يدل على أن المسيح هو الناسوت المخلوق، وهو المسمى بالابن، لقوله (وأنا اليوم ولدتك) .

واللاهوت عندهم مولود من قبل الدهور، وحينئذ فإن كان المراد به يوم ولادته، فالمعنى خلقتك، وإن كان يوم اصطفاه، فالمراد اليوم اصطفيتك وأحببتك، كأنه قال: اليوم جعلتك ولدا وابنا، على لغتهم.

[فصل: رد استدلالهم بما ورد في التوراة من كلام الله لموسى وما يفيده ذلك من تعدد ألوهيته سبحانه]

قالوا: نذكر خامسا، وفي السفر الثاني من التوراة: وكلم الله موسى من العليقة قائلا: (أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب) ، ولم يقل أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بل كرر اسم الإله ثلاث دفوع قائلا: أنا إله وإله؛ لتحقق مسألة الثلاث أقانيم في لاهوته.

والجواب: أن الاحتجاج بهذا على الأقانيم الثلاثة من أفسد الأشياء، وذلك يظهر من وجوه:

أحدها: أنه لو أريد بلفظ الإله أقنوم الوجود، وبلفظ الإله مرة ثانية أقنوم الكلمة، وبالثالث أقنوم الحياة، لكان الأقنوم الواحد إله إبراهيم، والأقنوم الثاني إله إسحاق، والأقنوم الثالث إله يعقوب، فيكون كل من الأقانيم الثلاثة إله أحد الأنبياء الثلاثة، والأقنومين ليسا بإلهين له.

وهذا كفر عندهم، وعند جميع أهل الملل، وأيضا فيلزم من ذلك أن يكون الآلهة ثلاثة، وهم يقولون: إله واحد، ثم هم إذا قالوا: كل من الأقانيم إله واحد، فيجعلون الجميع إله كل نبي، فإذا احتجوا بهذا النص على قولهم لزم أن يكون إله كل نبي، ليس هو إله النبي الآخر، مع كون الآلهة ثلاثة.

الوجه الثاني: أنه يقال: إن الله رب العالمين، ورب السماوات ورب الأرض ورب العرش ورب كل شيء، أفيلزم أن يكون رب السماوات ليس هو رب الأرض، رب كل شيء.

وكذلك يقال: إله موسى وإله محمد، مع قولنا: إله إبراهيم وإسحاق، ويعقوب، (أفتكون الآلهة خمسة، وقد قال يعقوب لبنيه: (ما تعبدون من بعدي) ، قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.

أفتراه أثبت إلهين: أحدهما إلهه، والآخر إله الثلاثة؟ !

الوجه الثالث: أن العطف يكون تارة لتغاير الذوات، وتارة لتغاير الصفات كقوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى} [الأعلى: 1] (1) {الذي خلق فسوى} [الأعلى: 2] (2) {والذي قدر فهدى} [الأعلى: 3] (3) {والذي أخرج المرعى} [الأعلى: 4] (4) {فجعله غثاء أحوى} [الأعلى: 5] .

والذي خلق هو الذي قدر وأخرج، وكذلك قوله: {إلهك وإله آبائك} [البقرة: 133] .

وهو هو سبحانه، وقال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه لقومه: {قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون} [الشعراء: 75] (75) {أنتم وآباؤكم الأقدمون} [الشعراء: 76] (76) {فإنهم عدو لي إلا رب العالمين} [الشعراء: 77] (77) {الذي خلقني فهو يهدين} [الشعراء: 78] (78) {والذي هو يطعمني ويسقين} [الشعراء: 79] (79) {وإذا مرضت فهو يشفين} [الشعراء: 80] (80) {والذي يميتني ثم يحيين} [الشعراء: 81] (81) {والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين} [الشعراء: 82]

والذي خلقه هو الذي يطعمه ويسقيه، وهو الذي يميته ثم يحييه.

فقوله في التوراة: إله إبراهيم وإله إسحاق، وإله يعقوب، هو من هذا الباب، ولا يختص هذا بثلاثة، بل يقال في الاثنين والأربعة والخمسة بحسب ما يقصد المتكلم ذكره من الصفات، وفي هذا من الفائدة ما ليس في قوله: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فإنه لو قيل ذلك لم يفد إلا أنه معبود الثلاثة، لا يدل على أنهم عبدوه مستقلين، كل منهم عبده عبادة اختص بها، لم تكن هي نفس عبادة الأول.

وأيضا فإنه إذا قيل: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب دل على عبادة كل منهم باللزوم، وإذا قال: وإله، دل على أنه معبود كل من الثلاثة، فأعاده باسم الإله الذي يدل على العبادة دلالة باللفظ المتضمن لها، وفي ذلك من ظهور المعنى للسامع وتفرعه بصورة له من غير فكر - ما ليس في دلالة الملزوم.

[فصل: رد استدلالهم بشهادة أشعيا بتحقيق الثالوث]

قالوا: وكذلك شهد (أشعيا) بتحقق الثالوث بوحدانية جوهره، وذلك بقوله: (رب القوات) ، وبقوله: (رب السماوات والأرض) ومثل هذا القول في التوراة والمزامير شيء كثير حتى اليهود يقرون هذه النبوات، ولا يعرفون لها تأويلا، وهم معترفون بذلك، ولا ينكرون منه كلمة واحدة، وإنما قلوبهم مغلوقة عن فهمه لقساوتها على ما ذكرنا قبل ذلك، وأنهم إذا اجتمعوا في كنيستهم كل سبت يقف الحران أمامهم، ويقول كلاما عبرانيا هذا تفسيره، ولا يجحدونه، (نقدسك، ونعظمك، ونثلث لك تقديسا مثلثا كالمكتوب على لسان نبيك) .

فيصرخ الجميع مجاوبين: (قدوس قدوس قدوس، رب القوات، ورب السماوات والأرض) .

فما أوضح إقرارهم بالثالوث، وأشد كفرهم بمعناه، فنحن لأجل هذا البيان الواضح الذي قاله الله في التوراة، وفي كتب الأنبياء فجعلوه ثلاثة أقانيم جوهرا واحدا، طبيعة واحدة، إلها واحدا، ربا واحدا، خالقا واحدا، وهو الذي نقوله: أب وابن وروح قدس.

والجواب: أما ما في كتب الأنبياء عليهم السلام من تثنية اسم الرب عند إضافته إلى مخلوق آخر فهو من نمط تثنية اسم الإله،

وهذا لا يقتضي تعدد الأرباب والآلهة، ولهذا لا يقتضي جعلهم اثنين وأربعة إذا ذكر اللفظ مرتين وأربعة.

فكذلك إذا ذكر ثلاث مرات لا يقتضي أن الأرباب ثلاثة، وهم أيضا لا يقولون بثلاثة أرباب وثلاثة آلهة فلو كان هذا يدل على ثلاثة أرباب وثلاثة آلهة، لدل على نقيض قولهم، بل هم يزعمون أنهم إنما يثبتون إلها واحدا، ولكنهم يناقضون فيصرحون بثلاثة آلهة، ويقولون هم إله واحد.

والكتب لا تدل على قولهم المتناقض بوجه من الوجوه، وأما ما ذكروه من اعتراف اليهود بألفاظ هذه النبوات، ودعواه أنهم لا يعرفون لها تأويلا، فإن أرادوا بالتأويل تفسيرها وما يدل عليه لفظها، فهذا ظاهر لا يخفى على الصبيان من اليهود وغيرهم.

ولكن النصارى ادعوا ما لا يدل عليه اللفظ، وإن أرادوا بالتأويل معنى يخالف ظاهر اللفظ فهذا إنما يحتاج إليه إذا كان ظاهره معنى باطلا، لا يجوز إرادته، وليس ما ذكروا هنا من هذا الباب، بل الكتب الإلهية يكثر فيها مثل هذا الكلام عند أهل الكتاب وعند المسلمين، ولا يفهم منها ثلاثة أرباب أو ثلاثة آلهة إلا من اتبع هواه بغير هدى من الله، وقال قولا مختلفا يؤفك عنه من أفك، ومثل هذا موجود في سائر الكلام يقال: هذا أمير البلد الفلاني، وأمير البلد الفلاني، وأمير البلد الفلاني، وهو أمير واحد.

ويقال: هذا رسول الله إلى الأميين، ورسول إلى أهل الكتاب، ورسول إلى الجن والإنس، وهو رسول واحد.

[فصل: رد ما جاء في التوراة من قوله نقدسك ونعظمك ونثلث لك تقديسا مثلثا كالمكتوب على لسان نبيك أشعيا]

وأما قولهم: (نقدسك، ونعظمك، ونثلث لك تقديسا مثلثا، كالمكتوب على لسان نبيك أشعيا) .

وقولهم: قدوس، قدوس، قدوس، رب القوات، ورب السماوات والأرض) ، فيقال: هذا الكلام صريح في أن المثلث هو نفس التقديس لا نفس الإله المقدس.

وكذلك قولهم: (قدوس، قدوس، قدوس) . قدسوه ثلاث مرات، فإنه قال: (نقدسك، ونثلث لك تقديسا مثلثا) . فنصب التثليث على المصدر الذي ينصب بفعل التقديس، فقال: نقدسك تقديسا مثلثا.

(فنصب التقديس على المصدر) ، كما تقول: سبحتك تسبيحا مثلثا، أي سبحتك ثلاث مرات، وقال: نثلث لك أي نثلث تقديسا لك، لم يقل: أنت ثلاثة، بل جعلوا أنفسهم هم الذين يقدسون التقديس المثلث، وهم يثلثون له، وهذا صريح في أنهم يسبحونه ثلاث مرات، ولا يسبحون ثلاثة آلهة، ولا ثلاثة أقانيم.

وهذا كما في السنن عن ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « (إذا قال العبد في ركوعه: سبحان ربي العظيم، ثلاثا، فقد تم ركوعه، وذلك أدناه، وإذا قال في سجوده: سبحان ربي الأعلى، ثلاثا، فقد تم سجوده وذلك أدناه») ، والتسبيح هو تقديس الرب، وأدناه أن يقدسه ثلاث مرات، فمعناه: قدسوه ثلاث مرات، لا تقتصروا على مرة واحدة.

ولهذا يقولون مجاوبين: قدوس، قدوس، قدوس، فيقدسونه ثلاث مرات، فعلم أن المراد تثليث التقديس حيث ما دل عليه لفظه، وما يفعلونه ممتثلين لهذا الأمر، وما يفعل في نظير ذلك من تثليث تقديسه، وأن يقدس ثلاث مرات لا أن يكون المقدس ثلاث أقانيم، فإن هذا أمر لم ينطق نبي من الأنبياء به لا لفظا ولا معنى، بل جميع الأنبياء عليهم السلام أثبتوا إلها واحدا له الأسماء الحسنى.

وأسماؤه متعددة تدل على صفاته المتعددة، ولا يختص ذلك بثلاثة أسماء، ولا بثلاث صفات، (وليست الصفات أقنوما هو ذات وصفة، بل ليس إلا ذات واحدة لها صفات) متعددة، فالتعدد في الصفات لا في الذات التي يسمونها الجوهر، ولا في الذات والصفة التي يسمونها الأقنوم.

[فصل: رد تأكيدهم إقرار اليهود بالثالوث وكفرهم بمعناه]

قالوا: فما أعظم إقرارهم في الثالوث، وأشد كفرهم بمعناه.

فيقال: هذا من الافتراء الظاهر على اليهود، وإن كان اليهود كفارا فلم يكن كفرهم لأجل إنكار الثالوث، بل لو أقروا به لكان زيادة في كفرهم يزيد به عذابهم.

كما أن النصارى لما كفروا لم يكن كفرهم بإقرارهم بأن المسيح المبشر به الذي قد ظهر ليس هو المسيح الدجال الذي تنتظره اليهود، وإذا خرج كانوا شيعته ويقتلهم المسلمون معه شر قتلة، حتى إن الشجر والحجر يقول: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله.

بل لو كفروا بالمسيح كما كفرت اليهود لكان ذلك زيادة في كفرهم.

وعند اليهود، وعندهم في التوراة من التوحيد المحض الذي يبطل تثليثكم ما لا يخفى إلا عمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله، وهداه الذي هدى به عباده.

[فصل: رجوعهم مرة أخرى إلى التمسك بالتثليث لما سبق أن نقلوه وأشاروا إليه من كلام الأنبياء]

قالوا: فمن أجل هذا البيان الواضح الذي قاله الله في التوراة، وفي كتب الأنبياء نجعل ثلاثة أقانيم: جوهرا واحدا، إلها واحدا، خالقا واحدا.

وهو الذي نقوله: أب، وابن، وروح قدس.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن في التوراة والكتب الإلهية من إثبات وحدانية الله، ونفي تعدد الآلهة، ونفي إلهية ما سواه - ما هو صريح في إبطال قول النصارى ونحوهم، وليس فيها ذكر الأقانيم لا لفظا ولا معنى، حيث يجعلون الأقنوم اسما للذات مع الصفة، والذات واحدة، والتعدد في الصفات لا في الذات.

ولا يمكن أن تتحد صفة دون الأخرى، ولا دون الذات، فيمتنع اتحاد أقنوم أو حلوله بشيء من المخلوقات دون الأقنوم الآخر، ولا إثبات ثلاثة أقانيم ولا إثبات ثلاث صفات دون ما سواها في شيء من الكتب الإلهية، ولا كلام الحواريين، ولا إثبات إله حق من إله حق، ولا تسمية صفات الله - مثل كلامه وحياته - لا ابنا، ولا إلها، ولا ربا، ولا إثبات اتحاد الرب خالق السماوات والأرض بشيء من الآدميين، ولا حلول ذات وصفة دون ذات مع الصفات الأخرى، بل ولا حلول نفس الصفة القائمة به في غيره، لا علمه ولا كلامه ولا حياته، ولا غير ذلك.

، بل جميع ما أثبتوه من التثليث والحلول والاتحاد ليس في كتب الأنبياء التي بأيديهم ما يدل عليه، بل فيها أقوال كثيرة صريحة بنقيض ذلك مع القرآن والعقل، فهم مخالفون للمعقول وكتب الله المنزلة.

الثاني: أنهم يقولون: إنما نثبت إلها واحدا، ثم يقولون في أمانتهم وأدلتهم وغير ذلك من كلامهم ما هو صريح بإثبات ثلاثة آلهة، فينقضون كلامهم بعضهم ببعض، ويقولون من الأقوال المتناقضة ما يعلم بطلانه كل عاقل تصوره.

وهذا لا ينضبط لهم قول مطرد، كما يقول من يقول من عقلاء الناس: إن النصارى ليس لهم قول يعقله عاقل، وليس أقوالهم منصوصة عن الأنبياء، فليس معهم لا سمع ولا عقل، كما قال الله تعالى عن أصحاب النار: {لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} [الملك: 10] .

وهم أيضا يبطنون خلاف ما يظهرون، ويفهم جمهور الناس من مقالاتهم خلاف ما يزعم بعضهم أنه مرادهم، فإنه قد تقدم آنفا من استدلالهم بالتوراة، وقوله: (وكلم الله موسى من العليقة قائلا: أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب) قالوا: ولم يقل: أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بل كرر اسم إله ثلاث دفوع قائلا: أنا إله 00 وإله 00 وإله 00 لتحقق مسألة الثلاث أقانيم في لاهوته، فيقال لهم: وإن كان هذا التكرير لا يقتضي إلا إثبات إله واحد فلا حجة لكم فيه، كما لو قال أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وإن كان يقتضي إثبات ثلاثة آلهة: فقد أثبتم ثلاثة آلهة، وأنتم تقولون: لا نثبت إلا إلها واحدا، وإن كان المعنى: إنه إله واحد موصوف بأنه معبود إبراهيم، ومعبود إسحاق، ومعبود يعقوب، فلا حجة لكم فيه على التثليث والأقانيم، (بحيث تجعلون الأقنوم اسما للذات مع صفة والذات واحدة، فالتعدد في الصفات لا في الذات، ولا يمكن أن تتحد صفة دون أخرى، ولا دون الذات فيمتنع اتحاد أقنوم وحلوله بشيء من المخلوقات دون الأقنوم الآخر.

الوجه الثالث: قولهم: وهو الذي نقوله: أب، وابن، وروح القدس، قد تقدم أن هذا القول هم معترفون بأنهم لم يقولوه ابتداء، ولا علموا بالعقل التثليث الذي قالوه في أمانتهم، ثم عبروا عنه بهذه العبارة، بل هذه العبارة منقولة عندهم في بعض الأناجيل: أن المسيح عليه الصلاة والسلام أمر أن يعمدوا الناس بها، وحينئذ، فالواجب إذا كان المسيح قالها أن ينظر ما أراد بها، وينظر سائر ألفاظه ومعانيها فيفسر كلامه، بلغته التي تكلم بها تفسيرا يناسب سائر كلامه.

وهؤلاء حملوا كلام المسيح والأنبياء عليهم السلام على شيء لا يدل عليه كلامهم، بل يدل على نقيضه فسموا كلام الله أو علمه أو حكمته أو نطقه - ابنا، وهذه تسمية ابتدعوها لم يسم أحد من الأنبياء شيئا من صفات الله باسم الابن، ولا باسم الرب، ولا باسم الإله، ثم لما أحدثوا هذه التسمية قالوا: مراد المسيح بالابن هو الكلمة، وهذا افتراء على المسيح عليه السلام، وحمل لكلامه على معنى لا يدل عليه لفظه.

ولفظ الابن عندهم في كتبهم يراد به من رباه الله تبارك وتعالى، فلا يطلق عندهم في كلام الأنبياء لفظ الابن قط، إلا على مخلوق محدث، ولا يطلق إلا على الناسوت دون اللاهوت، فيسمى عندهم إسرائيل ابنا وداود ابنا لله، والحواريون كذلك، بل عندهم في إنجيل يوحنا في ذكر المسيح إلى خاصته، أي وخاصته لم يقبلوه، والذين قبلوه أعطاهم ليكونوا أبناء الله الذي ليس من دم ولا من مشبه لحم، ولا من مشبه رجل، بل من الله ولد.

فهذا إخبار بأنهم يكونون جميعا أبناء الله، وهم معترفون بأنه ليس فيهم لاهوت يتحد بناسوت، بل كل منهم ناسوت محض، فعلم أن الكتب ناطقة بأن لفظ ابن الله يتناول الناسوت فقط، وليس معهم لفظ ابن الله، والمراد به صفة من صفات الله.

فقولهم: إن المسيح أراد بلفظ الابن اللاهوت كذب بين عليه، والمسيح لا يسمى ابنا بهذا الاعتبار، وروح القدس لم يعبر

بها أحد من الأنبياء عن حياة الله التي هي صفته، بل روح القدس في كتب الله يراد بها الملك، ويراد بها الهدى والوحي والتأييد، فيقال: روح الله، كما يقال: نور الله، وهدى الله، ووحي الله، وملك الله، ورسول الله، لم يرد به أحد من الأنبياء، بقوله: روح الله، وروح القدس - ما يريده الإنسان بقوله: (روحي) .

فالإنسان مركب من روح وبدن، وفي بدنه بخار يخرج من القلب، ويسري في بدنه، وله جوف يخرج منه هواء ويدخل فيه، فإذا قيل: روح الإنسان فقد يراد بها الروح التي بها البخار اللطيف الذي في البدن، وقد يراد بها الريح الذي يخرج من جوف البدن، ويدخل فيه.

والله تبارك وتعالى بإجماع المسلمين واليهود والنصارى ليس هو روحا وبدنا كالإنسان، وهو سبحانه أحد صمد، لا جوف له، ولا يدخل فيه شيء، ولا يخرج منه شيء، لا بخار ولا هواء متردد.

وقد يعبر بعض الناس بلفظ الروح عن الحياة، والله تعالى حي له حياة، لكن لم ترد الأنبياء عليهم السلام بقولهم: روح القدس - حياة الله، بل أرادوا به ما يجعله الله في قلوب الأنبياء ويؤيدهم به، كما يراد بنور الله ذلك، قال الله تعالى: {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم} [النور: 35] .

فضرب الله مثلا للمؤمن الذي جعل صدره كالمشكاة، وقلبه كالزجاجة في المشكاة، ونور الإيمان الذي في قلبه - وهو نور الله - كالمصباح الذي في الزجاجة، وذلك النور الذي في قلبه ليس هو نفس صفة الله القائمة به.

فتبين أن العارف كلما تدبر ما قالته الأنبياء، وما قاله أهل البدع من النصارى وغيرهم، لم يجد لهم في كلام الأنبياء إلا ما يدل على نقيض ضلالهم لا ما يدل على ضلالهم.

[فصل: رد زعمهم أنه لا يلزمهم عبادة ثلاثة آلهة وأنه لا لوم عليهم في التثليث لما سبق لهم من شهادات الأنبياء]

قالوا: وقد علمنا أنه لا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادة ثلاثة آلهة، بل إله واحد، كما لا يلزمنا إذا قلنا: الإنسان ونطقه وروحه ثلاثة أناسي، بل إنسان واحد، ولا إذا قلنا: لهيب النار وضوء النار وحرارة النار ثلاثة نيران، ولا إذا قلنا: قرص الشمس، وضوء الشمس وشعاع الشمس ثلاثة شموس، وإذا كان هذا رأينا في الله تقدست أسماؤه، وجلت آلاؤه فلا لوم علينا، ولا ذنب لنا إذ لم نهمل ما تسلمناه ولا نرفض ما تقلدناه ونتبع ما سواه، (ولا سيما أن لنا هذه الشهادات البينات والدلائل الواضحات من الكتاب الذي أتى به هذا الرجل) .

والجواب من وجوه:

أحدها أنكم صرحتم بتعدد الآلهة والأرباب في عقيدة إيمانكم وفي استدلالكم وغير ذلك من كلامكم، فليس ذلك شيئا

ألزمكم الناس به، بل أنتم تصرحون بذلك، كما تقدم من قولكم: نؤمن بإله واحد، أب، ضابط الكل، خالق ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور إله حق من إله حق، من جوهر أبيه يولد، غير مخلوق، مساو الأب في الجوهر، وبروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي مع الأب، مسجود له وممجد.

فهذا تصريح بالثلاثة أرباب، وأن الابن إله حق من إله حق، ومع تصريحكم بثلاثة أرباب وتصريحكم بأن هذا إله حق من إله حق، تقولون: إن ذلك إله واحد، وهذا تصريح بتعدد الآلهة مع القول بإله واحد.

ولو لم تذكروا ما يقتضي أنه جوهر آخر، لأمكن أن يحمل كلامكم على عطف الصفة، لكن يكون كلامكم أعظم كفرا، فتكونون قد جعلتم المسيح هو نفس الإله الواحد الأب، خالق ما يرى وما لا يرى، وهذا أعظم من كفركم مع أن هذا حقيقة قولكم، فإنكم تقولون: المسيح هو الله، وتقولون: هو ابن الله (كما ذكر الله القولين عنكم في كلامه، وكفركم بذلك، وليس هذا قول طائفة وهذا قول طائفة) كما يقوله بعض الناس، بل القولان جميعا يقولهما فرق النصارى كالنسطورية واليعقوبية والملكية ونحوهم، وهذا أيضا من تناقضكم فإنه إن كان هو الله لم يكن هو ابن الله، سواء عبر بالابن عن الصفة أو غيرها فإن الأب هو الذات، والذات ليست هي الصفة، وإن عنى بالابن الذات مع صفة الكلام، كما تفسرون الأقنوم بذلك - فهذه الذات متصفة مع ذلك بالحياة، والكلام - سواء عنوا به العلم أو البيان مع العلم - هو مع الحياة قائم بالأب، والصفة ليست عين الموصوف، بل ولا يعبر عنها بأنها ابن الموصوف، ولا عبر بذلك أحد من الأنبياء عليهم السلام.

والمقصود أنهم لم يريدوا بقولهم: وبرب واحد يسوع المسيح - عطف الصفة، وأن هذا هو الأب كما قال: إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب فهذا إله واحد، والعطف لتغاير الصفة، فلو كان المراد بالابن نفس الأب لكان هذا خلاف مذهبهم، ويكونون قد جعلوه إلها من نفسه فقالوا: إلهان، بل ثلاثة، وهو واحد.

فهذا لو أرادوه لكان أعظم في الكفر، بل قالوا: وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوق. فصرحوا بأنه رب، وأنه إله حق من إله حق، وصرحوا بإله ثان مع الإله الأول.

وقالوا مع ذلك: إنه مولود من الأب قبل كل الدهور، وإنه مولود غير مخلوق، فامتنع أن يريدوا بذلك الناسوت، فإن الناسوت مخلوق.

وهم يقولون: إن الكلمة هي المتولدة من الأب. والكلمة صفة المتكلم وقائمة به، والكلام ليس برب ولا بإله، بل هو كلام الرب الإله، كما أن سائر كلام الله كالتوراة والإنجيل والقرآن ليس هو الرب والإله، ثم قلتم: مساو الأب في الجوهر فاقتضى هذا أن يكون المولود الذي هو الكلمة جوهرا، وأنه مساو الأب في الجوهر، والمساوى ليس هو المساوي.

وهذا يقتضي إثبات جوهر ثان مساو الجوهر الأول، وهو صريح بإثبات إلهين، ويقولون مع ذلك: إنه إله واحد جوهر واحد، ولا يقال الجوهر مع العلم الذي يعبرون عنه بالأقنوم مساو الجوهر الذي هو الذات؛ فإن الجوهر هو الذات، وليس هنا جوهران، أحدهما مجرد عن العلم، والآخر متصف به، حتى يقال: إن أحدهما مساو للآخر، بل الرب تعالى هو الذات المتصفة بالعلم، فإن كان الأب هو الذات المجردة، فالابن أكمل من الأب، وهو الذات مع العلم، والأب بعض الابن.

وكذلك يلزمهم أن يكون الابن هو بعض روح القدس؛ فإنهم في أمانتهم جعلوا روح القدس هو الرب المحيي، والرب المحيي هو الذات المتصفة بالحياة، والذات المجردة بعض ذلك، فإن كان الأب هو الذات المجردة فالابن بعض روح القدس.

ثم قلتم في أقنوم روح القدس الذي جعلتموه الرب المحيي -: إنه منبثق من الأب مسجود له ممجد، ناطق في الأنبياء، فإن كان المنبثق ربا حيا، فهذا إثبات إله ثالث، وقد جعلتم الذات الحية منبثقة من الذات المجردة، وفي كل منهما من الكفر والتناقض ما لا يخفى.

ثم جعلتم هذا الثالث مسجودا له، والمسجود له هو الإله المعبود، وهذا تصريح بالسجود لإله ثالث مع ما فيه من التناقض، ثم جعلتموه ناطقا بالأنبياء، وهذا تصريح بحلول هذا الأقنوم الثالث بجميع الأنبياء، فيلزمكم أن تجعلوا كل نبي مركبا من لاهوت وناسوت، وأنه إله تام وإنسان تام، كما قلتم في المسيح إذ لا فرق بين حلول الكلمة وحلول روح القدس، كلاهما أقنوم.

وأيضا فيمتنع حلول إحدى الصفتين دون الأخرى، وحلول الصفة دون الذات، فيلزم أن يكون الإله الحي الناطق بأقانيمه الثلاثة حالا في كل نبي، ويكون كل نبي هو رب العالمين، ويقال مع ذلك: هو ابنه، وفي هذا من الكفر الكبير والتناقض العظيم ما لا يخفى، وهذا لازم للنصارى لزوما لا محيد عنه، فإن ما ثبت للشيء ثبت لنظيره، ولا يجوز التفريق بين المتماثلين، وليس لهم أن يقولوا: الحلول أو الاتحاد في المسيح ثبت بالنص، ولا نص في غيره، لوجوه:

أحدها: أن النصوص لم تدل على شيء من ذلك، كما قد تبين.

الثاني: أن في غير المسيح من النصوص ما شابه النصوص الواردة فيه، كلفظ الابن، ولفظ حلول روح القدس فيه، ونحو ذلك.

الثالث: أن الدليل لا ينعكس فلا يلزم من عدم الدليل المعين عدم المدلول، وليس كل ما علمه الله وأكرم به أنبياءه أعلم به الخلق بنص صريح، بل من جملة الدلالات دلالة الالتزام.

وإذا ثبت الحلول والاتحاد في أحد النبيين بمعنى مشترك بينه وبين النبي الآخر - وجب التسوية بين المتماثلين، كما إذا ثبت أن النبي يجب تصديقه لأنه نبي.

ويكفر من كذبه لأنه نبي، فيلزم من ذلك أنه يجب تصديق كل نبي وتكفير من كذبه.

الرابع: هب أنه لا دليل على ثبوت ذلك في الغير، فيلزم تجويز ذلك في الغير؛ إذ لا دليل على انتفائه، كما يقولون: إن ذلك كان ثابتا في المسيح قبل إظهاره الآيات على قولهم، وحينئذ فيلزمهم أن يجوزوا في كل نبي أن يكون الله قد جعله إلها تاما وإنسانا تاما كالمسيح وإن لم يعلم ذلك.

الخامس: أنه لو لم يقع ذلك، لكنه جائز عندهم، إذ لا فرق في قدرة الله بين اتحاده بالمسيح واتحاده بسائر الآدميين، فيلزمهم تجويز أن يجعل الله كل إنسان إلها تاما وإنسانا تاما، ويكون كل إنسان مركبا من لاهوت وناسوت، وقد تقرب إلى هذا اللازم الباطل من قال بأن أرواح بني آدم من ذات الله، وأنها لاهوت قديم أزلي، فيجعلون نصف كل آدمي لاهوتا، ونصفه ناسوتا، وهؤلاء يلزمهم من المحالات أكثر مما يلزم النصارى من بعض الوجوه، والمحالات التي تلزم النصارى أكثر، من بعض الوجوه.

الوجه الثاني: قولهم: ولا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادة ثلاثة آلهة بل إله واحد، كما لا يلزمنا إذا قلنا: الإنسان وروحه ونطقه ثلاثة أناسي، ولا إذا قلنا: النار وحرها وضوءها ثلاث نيران، ولا إذا قلنا: الشمس وضوءها وشعاعها ثلاث شموس.

فيقال: هذا تمثيل باطل لوجوه:

أحدها: أن حر النار وضوءها القائم بها ليس نارا من نار، ولا جوهرا من جوهر، ولا هو مساوي النار والشمس في الجوهر، وكذلك نطق الإنسان، ليس هو إنسانا من إنسان، ولا هو مساو الإنسان في الجوهر، وكذلك الشمس وضوءها القائم بها وشعاعها القائم بها - ليس شمسا ولا جوهرا قائما بنفسه، وأنتم قلتم: إله حق من إله حق، فقلتم في الأمانة: (نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مساوي الأب في الجوهر) ، وقلتم في روح القدس: (إنه رب ممجد مسجود له) فأثبتم ثلاثة أرباب.

والثاني: أن الضوء في الشمس والنار يراد به نفس الضوء القائم بها، ويراد به الشعاع القائم بالأرض والجدران، وهذا مباين لها ليس قائما بها، ولفظ النور يعبر به عن هذا وهذا، وكلاهما صفة قائمة بغيرها وعرض، وقد يراد بلفظ النور نفس النار ونفس الشمس والقمر، فيكون النور جوهرا قائما بنفسه، وإذا كان كذلك فهم جعلوا الأب ربا جوهرا قائما بنفسه، والابن أيضا ربا جوهرا قائما بنفسه، وروح القدس ربا جوهرا قائما بنفسه.

ومعلوم أن ضوء النار والشمس وحرارتها ليس كل منهما شمسا ونارا قائما بنفسها، ولا جوهرا قائما بنفسه، فلو أثبتوا حياة الله وعلمه أو كلامه صفتين قائمتين به، ولم يجعلوا هذا ربا جوهرا قائما بنفسه، وهذا ربا جوهرا قائما بنفسه - لكان قولهم حقا وتمثيلهم مطابقا، ولكنهم لم يقتصروا على مجرد جعلهما صفتين لله حتى جعلوا كلا منهما ربا وجوهرا وخالقا، بل صرحوا بأن المسيح الذي يزعمون اتحاد أحدهما به إلها واحدا وخالقا، فلو كان نفس كلمة الله وعلمه لم يكن إلها خالقا، فإن كلام الله وعلمه ليس إلها خالقا، فكيف والمسيح مخلوق بكلمة الله، ليس هو نفس كلمة الله؟

الوجه الثالث: أن قولهم: الشمس وشعاعها وضوءها، إن أرادوا بالضوء ما يقوم بها، وبالشعاع ما ينفصل عنها - فليس هذا مثال النار وحرها ولهبها؛ إذ كلاهما يقوم بها، وعلى هذا فالشمس لم تقم بها إلا صفة واحدة لا صفتين، فلا يكون التمثيل بها مطابقا، وإن أرادوا بالضوء والشعاع كلاهما؛ ما يقوم بها، أو كلاهما؛ ما ينفصل عنها - فكلاهما صفة واحدة ليس هما صفتان كالحياة والعلم، فعلم أن تمثيلهم بالشمس خطأ، وبعضهم يقول: الشمس وحرها وضوءها، كما يقولون مثل ذلك في النار.

وهذا التمثيل أصح لو ثبت أن في جرم الشمس حرارة تقوم بها، فإن هذا لم يقم عليه دليل، وكثير من العقلاء ينكره، ويزعم أن جرم الشمس والقمر والكواكب لا توصف بحرارة ولا برودة، وهو قول أرسطو وأتباعه.

وأما تمثيلهم بروح الإنسان ونطقه، فإن أرادوا بالروح حياته، فليس هذا هو مفهوم الروح، وإن أرادوا بالروح التي تفارق بدنه بالموت وتسمى النفس الناطقة - فهذه جوهر قائم بنفسه ليس عرضا من أعراضه، وحينئذ فيلزم أن تكون روح الله جوهرا قائما بنفسه مع جوهر آخر نظير بدن الإنسان، ويكون الرب سبحانه وتعالى مركبا من بدن وروح كالإنسان، وليس هذا قول أهل الملل، لا المسلمين ولا اليهود ولا النصارى، بل هو كفر عندهم، فتبين أن تمثيلهم بالثلاثة باطل.

والوجه الرابع: أن التمثيل إما أن يقع بصفات الشمس والنار والإنسان، أو النفس القائمة بهذه الجواهر، أو بما هو مباين لذلك، كالضوء الذي يقع على الأرض والحيطان والهواء، وغير ذلك من الأجسام إذا قابلت الشمس أو النار أو الإنسان أو النفس القائمة بهذه الجواهر، فإن أريد هذا فهذا شعاع منعكس، وضوء منقلب، وليس صفة قائمة بالشمس والنار.

وإذا أريد بما حل في المسيح هذا، وهذا يسمى نورا وروحا ويسمى نور الله كما قال تعالى:

{الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء} [النور: 35] .

وقال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا} [الشورى: 52] .

فأخبرنا أنه جعل الروح الذي أوحاه نورا يهدي به من يشاء.

وقال تعالى: {أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22] .

وقال تعالى: {فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه} [الأعراف: 157] .

وقال تعالى: {ويجعل لكم نورا تمشون به} [الحديد: 28] .

وقال تعالى: {ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور} [النور: 40] .

، فإذا أريد ما حل في المسيح من الروح والكلمة بهذا المعنى فلا اختصاص للمسيح بذلك، فإن هذا يحل في جميع الأنبياء والمؤمنين، وإن كانوا متفاضلين فيه بحسب درجاتهم، وليس هذا الحال فيهم نفس صفة الله القائمة به، وإن كان ذلك حاصلا عنها ومسببا عنها، لكن ليس هو نفس صفة الله، وإن كان من الناس من يقول: بل صفة الله التي اتصف بها حلت في العبد، فهذا القول خطأ، فإن صفة الموصوف القائمة به يمتنع قيامها بعينها بغيره، ولكن الإنسان إذا تعلم علم غيره، وبلغ كلام غيره يقال: هذا علم فلان وكلامه؛ لأن هذا الثاني بلغه عنه، والمقصود هو علم الأول وكلامه، مع العلم بأن نفس ما قام بذات الأول ليس هو عين ما قام بذات الثاني، وإن كان قد يكون مثله، وقد يكون الأول هو المقصود بالثاني، مثل من بلغ كلام غيره، فكلام المبلغ هو المقصود بالتبليغ.

وصفات المبلغ - كحركته وصوته - التي بها يحصل التبليغ؛ ليس هو نفس المقصود، وإذا قيل هذا كلام المبلغ عنه، فالإشارة إلى حقيقة الكلام المقصود بالتبليغ، لا إلى ما يختص به المبلغ من أفعاله وصفاته، ولهذا شبه الناس من قال بحلول صفة الرب في عبده بالنصارى القائلين بالحلول وهو شبيه بهم من بعض الوجوه.

لكن النصارى لا يقولون بحلول صفة مجردة، بل بحلول الأقنوم الذي هو ذات متصفة بالصفة، ويقولون: إن المسيح خالق ورازق، وهو خالق آدم ومريم، وهو ولد آدم ومريم، وهو خالق لهما بلاهوته ابن لهما بناسوته.

ويقولون: هو ابن الله، وهو الله بلاهوته، ويقولون أيضا باللاهوت والناسوت لأجل الاتحاد، والله كفرهم بقولهم: {إن الله هو المسيح ابن مريم} [المائدة: 17] ونحو ذلك.

وإن أرادوا بتمثيلهم بصفات الشمس والنار والنفس التمثيل بنفس ما يقوم بالشمس والنار والنفس من الضوء والحياة والنطق، وجعلوا ما يثبتونه من الأب والابن وروح القدس - صفات الله، كما أن هذه صفات لهذه المخلوقات.

قيل لهم أولا: لم يعبر أحد من الأنبياء عليهم السلام عن صفات الله باسم الأب والابن وروح القدس، فليس لكم إذا وجدتم في كلام المسيح عليه السلام، أو غيره من الأنبياء ذكر الإيمان بالأب والابن وروح القدس - أن تقولوا: مرادهم بذلك صفة الله التي هي الكلمة والعلم، ولا حياة الله، إذ كانوا لم يريدوا هذا المعنى بهذا اللفظ، وإنما أرادوا باسم الابن وروح القدس ما هو بائن عن الله عز وجل.

والبائن عن الله ليس صفة لله، فضلا عن أن يكون هو الخالق، فضلا عن أن يكون البشر المتحد به خالقا، فقد ضللتم ضلالا بعد ضلال، ضلالا حيث جعلتم مراد المسيح وغيره بالابن وروح القدس - صفة الرب، ثم ضلالا ثانيا حيث جعلتم الصفة خالقا وربا، ثم ضلالا ثالثا حيث جعلتم الصفة تتحد ببشر هو عيسى، ويسمى المسيح ويكون هو الخالق رب العالمين فضللتم في الحلول ضلالا مثلثا بعد ضلالكم في التثليث أيضا ضلالات أخر، حيث أثبتم ثلاث صفات دون غيرها، وجعلتموها جواهر أربابا، ثم قلتم: إله واحد، فضللتم ضلالا مثلثا في التثليث، وضلالا مثلثا في الاتحاد.

وقيل لكم ثانيا: إذا جعلتم ذلك صفات لله، كما أن الضوء والنطق والحرارة صفات لما تقوم بها - امتنع أن تحل بغيرها، وامتنع مع الحلول أن تكون فاعلة فعل النار والشمس والنفس، وأنتم جعلتم الكلمة والحياة حالة بغير الله، وجعلتم ما يحل به إلها خالقا، بل هو الإله الخالق، ومعلوم أن أحدا من العقلاء لا يجعل ما يحصل فيه ضوء النار - نارا، ولا ما يحصل فيه شعاع الشمس - شمسا، ولا ما يحصل فيه نطق زيد وعلمه - هو نفس زيد، فكان جعلكم المسيح هو الخالق للعالم - مخالفا لتمثيلكم.

وتبين بذلك أن ما ذكرتموه لا يطابقه شيء من الأمثلة، إذ كان كاملا باطلا متناقضا يمتنع تحققه، فلا تمثيل بشيء من الموجودات الثابتة المعلومة، إلا إذا كان تمثيلا غير مطابق.

ولهذا يشبهون الحلول والاتحاد تارة بحلول الماء في الظرف، وتارة بحلول النار في الحديد، وتارة بالنفس والبدن، وتارة يقولون بأنهما جوهر واحد اختلطا كاختلاط الماء واللبن، وكل هذه الأمثال التي ضربوها لله أمثال باطلة، فإن الماء في الظرف

وغيره من الأوعية محتاج إلى وعائه، لو انخرق وعاؤه لتبدد، وهو محيط به، ولا يتصف الظرف بشيء من صفات الماء، والرب تعالى يمتنع أن يحتاج إلى شيء من مخلوقاته لا إلى العرش، ولا إلى غيره، أو يحيط به شيء من الموجودات؛ إذ هو الظاهر، فليس فوقه شيء.

كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: («أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء،

وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء» ، فهو غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، ولهذا لم يكن ما وصف الله به نفسه مماثلا لصفات المخلوقين، كما لم تكن ذاته كذوات المخلوقين، فهو مستو على عرشه، كما أخبرنا عن نفسه مع غناه عن العرش.

والمخلوق المستوي على السرير أو الفلك أو الدابة لو ذهب ما تحته لسقط؛ لحاجته إليه، والله غني عن كل ما سواه، وهو الحامل بقدرته للعرش ولحملة العرش.

وفرق النصارى الثلاثة يقولون بالاتحاد، فلا ينفعهم التمثيل بحلول الماء في الظرف، ولو قدر أنهم قالوا بالحلول المجرد مع أن الرب لا يحتاج إلى الناسوت لا يحويه ولا يمسه، بل كما خاطب موسى من الشجرة، فهذا يوجب أن الناسوت لا يتصف بشيء من الإلهية كالشجرة، ثم إنه معلوم بالضرورة أن الصوت الذي كان يسمع هو صوت الناسوت، فالتمثيل بالشجرة أيضا باطل، كما بسط في موضعه.

وأما الحديد والخشب وغيرهما إذا ألقي في النار فإنه يستحيل نارا لاتصاله بالنار، لا أن النار الذي استحال إليها كانت موجودة فحلت به، فهذا استحالة بلا حلول، والنار الذي صارت في الحديد حادثة عن تلك النار ليست إياها، ثم تلك الحديدة إذا طرقت وقع التطريق على النار، وكذلك إذا ألقيت في الماء، فلو كان هذا تمثيلا مطابقا لكان الضرب والصلب والإهانة وقع على اللاهوت، وكان اللاهوت هو الذي يغتسل بالماء، وهو الذي يأكل ويشرب، وهذا من أعظم الكفر.

ويحكى عن بعض طائفة منهم كاليعقوبية أنه يقول بهذا الكفر، وإن كان كثير منهم كالملكية والنسطورية ينكره، فهو لازم لهم، وكذلك إذا شبهوه بالنفس والبدن، فإن النفس تتألم تألم البدن، وتستحيل صفاتها بكونها في البدن، وتكتسب عن البدن أخلاقا وصفات، فلو كان هذا تمثيلا مطابقا لزم تألم اللاهوت بآلام البدن، وأن يكون متألما بجوع البدن وعطشه وضربه وصلبه، وأن يكون مستحيلا لما اكتسبه من صفات الناسوت الذي هو عندهم بمنزلة البدن للنفس، وأما قولهم: إذ لم نهمل ما تسلمناه، ولم نرفض ما تقلدناه، فقولهم في ذلك بمنزلة قول اليهود للمسيح: إنا لا نهمل ما تسلمناه، ولا نرفض ما تقلدناه من موسى عليه السلام.

وجواب الطائفتين من وجهين:

أحدهما: أنكم بدلتم وحرفتم الكتاب الذي أنزل إليكم، والشرع الذي شرع لكم، وتبديل المعاني والأحكام لا ريب فيه عند جميع عقلاء الأنام، وما كان عليه اليهود بعد التبديل لم يكن هو الشرع الذي شرعه موسى عليه السلام، وما كان عليه النصارى بعد التبديل لم يكن هو الشرع الذي شرعه المسيح عليه السلام.

والثاني: أنكم كذبتم بالكتاب الآخر، والرسول الآخر الذي أرسل إليكم، ومن كذب ما أنزل إليه من ربه، والرسول الذي أرسل إليه - كان كافرا مستحقا لعذاب الدنيا والآخرة، وإن كان قبل ذلك متبعا لشرع رسول، وكتاب غير مبدل، فكيف إذا كان قد بدل ما بدل من أحكامه ومعانيه؟

[فصل: إسقاط احتجاجهم بشيء من القرآن مرة أخرى على باطلهم وأن القرآن يؤخذ كله]

وأما قولهم: ولنا هذه الشهادات والدلائل من الكتاب الذي في أيدي هؤلاء القوم.

فيقال: لا يصح استشهادهم بهذا الكتاب واستدلالهم بوجه من الوجوه، فإن الذي قد جاء به، قد تواتر عنه أنه أخبر أنه مرسل إليهم، وأنهم كفار إذا لم يؤمنوا به، مستحقون للجهاد، ومن لم يستحل جهادهم فهو كافر، والقرآن مملوء بكفرهم، فإن كان هذا رسولا من الله، وقد أخبر بكفرهم؛ ثبت أنهم كفار.

فإن الرسول لا يقول على الله إلا حقا، لا يكذب على الله في شيء، ومن كذب على الله ولو في كلمة واحدة فهو من الكذابين المفترين على الله الكذب، مستحق لعقوبة الكذابين، كما قال تعالى: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل} [الحاقة: 44] (44) {لأخذنا منه باليمين} [الحاقة: 45] (45) {ثم لقطعنا منه الوتين} [الحاقة: 46] (46) {فما منكم من أحد عنه حاجزين} [الحاقة: 47] .

{أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته} [الشورى: 24] .

وقال تعالى: {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون} [النحل: 101] (101) {قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين} [النحل: 102] .

وقال تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم} [يونس: 15] (15) {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون} [يونس: 16]

فمتى كانت كلمة من كلمات هذا الكتاب كذبا على الله لم يكن كتاب الله، ولم يكن جاء به رسول الله، فإن الكاذب قد يصدق في أكثر ما يقوله، لكن إذا كذب في بعض ما يقوله كان كاذبا، والله تعالى لا يرسل من يكذب عليه، فإن المخلوق لا يرضى أن يرسل من يعلم أنه يكذب عليه، ولو فعل ذلك دل على جهله أو عجزه، فكيف يرسل رب العالمين من يعلم أنه يكذب عليه.

وحينئذ فمتى كذبوا بكلمة واحدة مما في الكتاب لم يصح استشهادهم واستدلالهم بشيء مما في الكتاب، وإن صدقوا بالكتاب كله لزمهم الإيمان بما جاء به، واتباع شريعته، والاعتراف بكفر الذين كذبوه، وكفر الذين يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم، وإن الله ثالث ثلاثة.

وهذا بخلاف من آمن بالرسول، ولم يثبت عنده بعض ما نقل عنه أو لم يعرف معناه، فإن هذا لا يقدح في أصل إيمانه بالرسول.

فالمسلمون إذا كذبوا ببعض ما نقل عن موسى والمسيح فهو لطعنهم في الناقل، لا في النبي المنقول عنه.

وأما النصارى فيعلمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بالقرآن، فطعنهم في بعضه طعن في الرسول نفسه وكفر به، وليس هذا بمنزلة ما مثلوا به من الوثيقة التي كتب وفاؤها في ظهرها، فإن الذي له الدين أقر بالاستيفاء المسقط له، فلم يبق هناك حق له يدعيه، بخلاف ما يخبر به الذي يقول: إنه رسول الله، فإنه يقول: إن الله أنزل علي هذا الكتاب كله، وأرسلني بكذا وكذا إلى كذا وكذا، فإن كذب في شيء مما أخبر به عن الله لم يكن الله أرسله، فإن الذي أرسله هو الذي جعله يبلغ عنه ما يقوله، بلا زيادة ولا نقص، وإرسال الله للرسول يتضمن شيئين:

إنشاء الله للرسالة، والله حكيم، وهو أعلم حيث يجعل رسالاته، لا يجعلها إلا فيمن هو من أكمل الخلق وأصدقهم.

ويتضمن إخبار الله عنه بأنه صادق عليه، فيما يبلغه عنه مما يقول: إن الله أرسله به، فكما صدقه بالآيات المعجزات في قوله: إنه أرسلني، فقد صدقه بما يقول: إنه أرسلني به، إذ التصديق بكونه أرسله من غير معرفة بصدقه فيما يخبر به - لا فائدة فيه، ولا يحصل به مقصود الإرسال.

والله تعالى عليم بما يشهد به لمن أرسله بخلاف المخلوق الذي يبعث من يظنه يصدق فيما يبلغه عنه، فيظهر أنه كذب عليه، والله يعلم عواقب الأمور، والرسالة صادرة من علمه وحكمته، وهو عليم حكيم، ومن يكذب على الله ولو في كلمة لم يبلغ عنه ما يقوله، على هذا الوجه فلا يكون رسوله.

ولهذا اتفق أهل الملل على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله، لا يكذبون عليه عمدا ولا خطأ، فإن هذا مقصود الرسالة، فكان تمثيل هذا بالوثيقة تمثيلا باطلا، فإن المدعي للإسقاط لم يدع كلاما متناقضا، بل قال: أقررت بهذا الدين، ثم وفيتك إياه، وأنت تقر بوفائه، وإقرارك مكتوب في ظهرها، فليس لك أن تحتج بإقراري بالدين دون إقرارك بالوفاء، بل إما أن تعتبر ما في الوثيقة من إقراري وإقرارك وإما أن تبطل الأمرين المتعارضين.

وهذا كلام عدل كالشريكين المتفاوضين، مثل شريكي العنان، إذا قال لصاحبه: إن حصل ربح فهو لي ولك، وإن لم يحصل ربح فلا لي ولا لك.

وكذلك البائع والمؤاجر الذي يقول: إن كان بيننا معاوضة فعليك تسليم ما بذلته، وعلي تسليم ما بذلته، لا يستحق هذا إلا بهذا، فهذا كله كلام عادل وإنصاف، بخلاف الشخص الذي يقال فيه: إنه رسول الله، والكتاب الذي يقال: إنه كلام الله، وإن الله أنزله، فإن هذا إن كان رسولا صادقا فجميع ما بلغه من الله حق، وإن كان كاذبا لم يكن الله أرسله، فجميع ما بلغه عن الله كذب على الله، فلا يجوز بمجرد خبره أن ينسب إلى الله شيء ولا يحتج بما يخبر به عن الله على شيء.

ألا ترى أن من ادعى الرسالة وعلم أنه كاذب كالأسود العنسي ومسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي، وغير هؤلاء - لا يجوز لأحد أن يحتج بشيء مما ذكروا أن الله أرسلهم به، وإن كان ذلك القول قد علم أنه حق من جهة أخرى، فإنه قد علم بكذبهم أن الله لم يرسلهم، فأي شيء قالوا إن الله أنزله عليهم - كانوا كاذبين فيه، ومتى علم أنه كاذب في نفس الخبر المعين لم يجز أن يحتج بجنس الذي علم أنه كذب فيه.

وكذلك لو قال رجل عندي: إن موسى أو داود أو المسيح (كذبوا على الله في بعض ما يخبرون به عن الله، كانوا بمنزلة) من لم يرسلهم الله بشيء، لكن كذبوا في قولهم إن الله أرسلهم، فإذا أراد مع هذا أن يحتج بما ينقل من التوراة والزبور والإنجيل عن الله كان متناقضا، وكان احتجاجه باطلا غير مقبول، بل لو قال: أنا أشك في بعض ما أخبروا به عن الله، هل كذبوا فيه أم لا؟ كان كذلك شكا في أن الله أرسلهم، فإن من أرسله الله لا يكذب في شيء لا خطأ ولا عمدا، ومع شكه في ذلك لا يجوز أن يحتج بشيء مما ينقلونه عن الله لتجويز أن يكونوا كاذبين في نفس ذلك الذي نقلوه عن الله، وليس هذا مثل رسول الواحد من الآدميين، فإنه قد يكون أرسله، ثم إن الرسول صدق في بعض ما بلغه عن مرسله، وكذب في البعض.

ويجوز على الآدمي أن يرسل من يكذب عليه لعدم علمه بكذبه، أو عدم حكمته في إرساله.

وأما الرب تعالى: فلا يجوز أن يرسل نبيا يكذب عليه لا عمدا، ولا خطأ، وكذلك الشاهد والمخبر الذي قد علم أنه تارة يصدق وتارة يكذب - يمكن أن يستدل ببعض أخباره الذي يظهر فيها صدقه لدلالات تقترن بذلك، بخلاف الرسول، فإنه إذا كذب كذبة واحدة امتنع أن يكون الله أرسله، فصار جميع ما يبلغه عن الله هو كاذب في أن الله أرسله به، فكذبه في كلمة واحدة يوجب أنه كاذب في جميع ما بلغه عن الله، وأن جميع ما حكاه ورواه عن الله قد كذب فيه، وإن قدر أن ذلك الكلام في نفسه حق، لكن تبليغه عن الله ونقله وروايته وحكايته عن الله كذب على الله.

وقد أخبر الله أنه ينسخ ما يلقيه الشيطان، مما يناقض مقصود التبليغ، بقوله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم} [الحج: 52] (52) {ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد} [الحج: 53] (53) {وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم} [الحج: 54] (54) {ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم} [الحج: 55]

وإن قالوا: خبره يناقض بعضه بعضا كان الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا أيضا إن كان حقا، فإنه يقدح في رسالته، فإن الرسول لا يناقض بعض خبره بعضا، ومن كان كذلك لم يصح لكم أن تحتجوا بشيء مما جاء به. وإن كان باطلا لم يرد عليه.

فعلم أن استدلالهم بما في هذا الكتاب على صحة دينهم الذي خالفوا به هذا الكتاب - في غاية الفساد، وهو جمع بين النقيضين واستدلال بما في الكتاب على ما يوجب بطلان الاستدلال بشيء مما في الكتاب.

وإذا كانت النتيجة تستلزم فساد بعض مقدمات الدليل بطل الاستدلال بذلك الدليل، الذي لا يصح إلا بصحة مقدماته، فإذا كانت مقدمته لا تصح إلا مع فساد نتيجته، ونتيجته مستلزمة لفساد مقدمته - كان الجمع بين صحة المقدمة، والنتيجة جمعا بين النقيضين.

وكذلك من استدل بشيء من الكتاب على ما يناقض ما في الكتاب، كاستدلال النصارى بآيات فيه على صحة دينهم، كان تناقضا، فإنه إن صح ذلك الدليل، بأن مدح دينهم مع ذمه كان متناقضا، والكتاب المتناقض لا يكون كتاب الله.

وإن فسد أحدهما، إما فساد دينهم، وإما فساد مدحه، فالكتاب الذي فيه فساد لا يكون كتاب الله، فيلزم أن لا يكون كتاب الله على التقديرين، فلا يصح الاستدلال به من جهة كونه خبر الله، وأما الاستدلال به من جهة كون المتكلم به رجلا عالما حكيما، وهذا لا يفيد العلم، إذ ليس معصوما إلا الأنبياء عليهم السلام.

والنصارى يجوزون أن يكون معصوما غير الأنبياء، فبتقدير أن يكون كذلك فهو حجة عليهم، وإن قالوا: هو رجل عالم ليس برسول من الله قيل لهم فهذا قوله ليس بحجة لجواز أن يخطئ، ولكن يعتضد بقوله، وأما إذا ادعى أن الله أرسله، وهو لم يرسله بهذا الكتاب كله - فهذا كذاب لا يحتج بشيء من كلامه، ولا يكون مثل هذا عدل فضلا عن أن يكون حكيما، بل هو من الذين افتروا على الله كذبا: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء} [الأنعام: 93] .

والجواب الثاني: أنا قد بينا أن ما ذكروه لا يناقض شيئا مما أخبر به، وأنه ليس في هذا الكتاب تناقض يحتجون به بوجه من الوجوه.

وأما قولهم: وأعظم حجتنا ما وجدناه فيه من الشهادة لنا بأن الله جعلنا فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

فيقال: بل ما ذكروه حجة عليهم لا لهم، فإن الله أخبر المسيح أنه جاعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وخبر الله حق، ووعد الله صدق، والله لا يخلف الميعاد، فلما اتبع المسيح من آمن به جعلهم الله فوق الذين كفروا به من اليهود وغيرهم.

ثم لما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالدين الذي بعث به المسيح، وسائر الأنبياء قبله، وكان محمد صلى الله عليه وسلم، مصدقا لما جاء به المسيح، وكان المسيح مبشرا برسول يأتي من بعده اسمه (أحمد) صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أتبع للمسيح عليه السلام من النصارى الذين غيروا شريعته، وكذبوه فيما بشر به، فجعل الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم فوق النصارى إلى يوم القيامة.

كما جعلهم أيضا فوق اليهود إلى يوم القيامة، والنصارى بعد النسخ والتبديل ليسوا متبعين المسيح، لكنهم أتبع له من اليهود الذين بالغوا في تكذيبه وسبه، فإنهم كذبوه أولا، وكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم ثانيا، فصاروا أبعد عن متابعة المسيح من النصارى فكانوا مجعولين فوق اليهود.

والمؤمنون أمة محمد صلى الله عليه وسلم، هم المتبعون للمسيح عليه السلام، ومن سواهم كافر به فأمة محمد صلى الله عليه وسلم فوق اليهود والنصارى إلى يوم القيامة، ولهذا لما جاء المسلمون يقاتلون النصارى غلبوهم، وأخذوا منهم خيار الأرض: الأرض المقدسة، وما حولها من مصر والجزيرة، وأرض المغرب ولم يزل المسلمون منتصرين على النصارى، ولا يزالون إلى يوم القيامة لم تنتصر النصارى قط على جميع المسلمين، وإنما تنتصر على طائفة من المسلمين بسبب ذنوبهم، ثم يؤيد الله المؤمنين عليهم.

ولو كان النصارى هم المتبعين للمسيح عليه السلام، والمسلمون كفارا به - لوجب أن ينتصروا على جميع المسلمين؛ لأن جميع المسلمين ينكرون إلهية المسيح ويكفرون النصارى، فعلم أن المتبعين للمسيح هم المسلمون دون النصارى

[فصل: تفسيرهم لتجسم كلمة الله بالمسيح وأنه اتحاد بريء من الاختلاط ونحوه والجواب عن ذلك]

قالوا: وأما تجسم كلمة الله الخالقة التي بها خلق كل شيء وتجسدها بإنسان مخلوق، وهو الذي أخذ من مريم العذراء المصطفاة، التي فضلت على نساء العالمين واتحدت الكلمة به اتحادا بريا من اختلاط أو تغير أو استحالة، وخاطب الناس كما خاطب الله موسى النبي من العوسجة، ففعل المعجز بلاهوته، وأظهر العجز بناسوته، والفعلان هما من المسيح الواحد

والجواب: إن في هذا الكلام من أنواع الكذب والكفر والتناقض أمورا كثيرة، وذلك يظهر بوجوه:

الأول: أن قولهم: كلمة الله الخالقة التي بها خلق كل شيء، كلام متناقض، فإن الخالق هو الإله الخالق، وهو خلق الأشياء بكلامه، وهو قوله: كن، فالخالق لم يخلق به الأشياء، بل هو خلقها، والكلام الذي به خلقت الأشياء ليس هو الخالق لها، بل خلق الخالق الأشياء، والفرق بين الخالق والمخلوق وبين ما به خلق الخالق معقول.

وهؤلاء جعلوا الخالق هو الذي به خلقت المخلوقات، فجعلوا الكلمة هي الخالق، وجعلوا المخلوقات خلقت بها.

وإيضاح هذا أن الكلمة إن كانت مجرد الصفة، فإن الصفة ليست خالقة، وإن كانت الصفة مع الموصوف فهذا هو الخالق، ليس هذا هو المخلوق به .

والثاني: قولهم: تجسدها بإنسان مخلوق وقولهم: تجسم كلمة الله، فإن قولهم تجسمت وتجسدت يقتضي أن الكلمة صارت جسدا وجسما بالإنسان المخلوق، وذلك يقتضي انقلابها جسدا وجسما، وهذا يقتضي استحالتها وتغيرها، وهم قالوا: اتحادا بريا من تغير واستحالة.

الثالث: قولهم: اتحدت الكلمة به اتحادا بريا من اختلاط أو تغير أو استحالة، كلام متناقض أيضا، فإن الاتحاد يصير الاثنين واحدا، فيقال قبل الاتحاد: كان اللاهوت جوهرا والناسوت جوهرا آخر.

وإن شئت قلت: كان هذا شيئا وهذا شيئا، أو هذا عينا قائمة بنفسها، وهذا عينا قائمة بنفسها، فبعد الاتحاد إما أن يكونا اثنين كما كانا أو صار الاثنان واحدا، فإن كانا اثنين كما كانا فلا اتحاد، بل هما متعددان كما كانا متعددين، وإن كانا قد صارا شيئا واحدا، فإن كان هذا الواحد هو أحدهما، فالآخر قد عدم وهذا عدم لأحدهما لا اتحاده، وإن كان هذا الذي صار واحدا ليس هو أحدهما، فلا بد من تغييرهما واستحالتهما، وإلا فلو كانا بعد الاتحاد اثنين باقيين بصفاتهما لم يكن هناك اتحاد.

فإذا قيل: اتحد اتحادا بريا من اختلاط أو تغير أو استحالة، كان هذا كلاما متناقضا، ينقض بعضه بعضا، فإن هذا إنما يكون مع التمدد والمباينة، لا مع الاتحاد، يوضح ذلك أنه إذا اتحد الماء واللبن، أو الماء والخمر، ونحو ذلك كان الحاصل من اتحادهما شيئا ثالثا ليس ماء محضا ولا لبنا محضا، بل هو نوع ثالث، وكل من الماء واللبن قد استحال وتغير واختلط، وأما اتحاد بدون ذلك فغير معقول.

ولهذا عظم اضطراب النصارى في هذا الموضع، وكثر اختلافهم، وصار كل منهم يرد على الآخر ما يقوله ويقول هو قولا يكون مردودا، فكانت أقوالهم كلها باطلة مردودة، إذ كانوا قد اشتركوا في أصل فاسد يستلزم أحد أمور كلها باطلة، فأي شيء أخذ من تلك اللوازم كان باطلا، ولا بد له منها فيأخذ هذا بعض اللوازم فيرده الآخر، ويأخذ الآخر لازما آخر فيرده الآخر.

وهذا شأن جميع المقالات الباطلة، إذا اشترك فيها طائفة لزمها لوازم باطلة، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم، فإنه إذا تحقق الملزوم تحقق اللازم، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم.

وهذا يتبين بالوجه الرابع: وهو أن يقال: كثير من النصارى يقول: إنهما بعد الاتحاد جوهر واحد، وطبيعة واحدة، ومشيئة واحدة، وهذا القول يضاف إلى اليعقوبية.

ويقولون: إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا، كما يختلط الماء واللبن، والماء والخمر، وهذا القول هو حقيقة الاتحاد، لا يعقل الاتحاد إلا هكذا، لكن فساده ظاهر لعقول الناس، فإذا كان هذا لازما لقول النصارى وفساده ظاهرا، كان فساد اللازم يدل على فساد الملزوم، فإن حقيقة هذا القول أن الذي كان يأكل ويشرب ويبول ويتغوط، والذي ضرب وبصق في وجهه ووضع الشوك على رأسه هو رب العالمين.

ونفس تصور هذا القول مما يوجب العلم ببطلانه وتنزيه الله عن ذلك، وأن قائله من أعظم المفترين على الله، قال تعالى:

{وقالوا اتخذ الرحمن ولدا} [مريم: 88] (88) {لقد جئتم شيئا إدا} [مريم: 89] (89) {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا} [مريم: 90] (90) {أن دعوا للرحمن ولدا} [مريم: 91] (91) {وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} [مريم: 92] (92) {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا} [مريم: 93] (93) {لقد أحصاهم وعدهم عدا} [مريم: 94] (94) {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} [مريم: 95] الوجه الخامس: قولهم: وخاطب الناس كما خاطب الله موسى من العوسجة، يوجب أن يكون الذين كلمهم المسيح ممن آمن به وكفر به، بمنزلة موسى بن عمران الذي كلمه الله تكليما.

ومعلوم أن تكليم الله لموسى عليه الصلاة والسلام، مما فضله به على غيره من النبيين، فإن كان آحاد الناس بمنزلة موسى بن عمران لزم أن يكون كل من آحاد الناس في ذلك بمنزلة موسى بن عمران، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل.

الوجه السادس: أنه من المعلوم أن خطاب الله لأنبيائه ورسله أفضل من خطابه لمن ليس بنبي ولا رسول، والمسيح عليه السلام لم يكلم عامة النبيين والمرسلين، بل لم يكلم إلا ناسا منهم من آمن به ومنهم من كفر به.

والتحقيق أنه لم يكلم أحدا من رسل الله، ولكن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله، وهذا باطل، ولو سلم فلم يكلم إلا اثني عشر رسولا، وقد بعث الله قبله رسلا كثيرين، وقد روي في حديث أبي ذر أن عدتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر.

وقد قال الله في القرآن: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة} [النحل: 36] وقال تعالى: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} [فاطر: 24]

وفي الحديث الذي في المسند، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل» وهذه السبعون سواء كانت هي التي هداها أو هي الجميع، فإنه يدل على كثرة الرسل، ولم يكلم الله أحدا من هؤلاء من بشر حل فيه، فلو كان المكلم للناس في عيسى هو الله، لكان تكليم الله للذين كلمهم عيسى من الكفار والمؤمنين أكمل من تكليمه رسل الله الذين أرسلهم.

الوجه السابع: أن الناسوت ناسوت المسيح هو من جنس سائر النواسيت، والإنسان لا يستطيع أن يرى الله في الدنيا كما أخبر بذلك موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم فإذا لم يستطع أن يراه كان أن لا يستطيع الاتصال به ومماسته، فضلا عن الاتحاد به أولى وأحرى.

الوجه الثامن: أن الله لما كلم موسى عليه السلام من الشجرة، كان الكلام المسموع مخالفا لما يسمع من كلام الناس، ولهذا لم تطق بنو إسرائيل سماع ذلك الصوت، بل قالوا لموسى: صف لنا ذلك، وهذا عندهم في التوراة.

كما روى الخلال في كتاب السنة، عن أحمد بن حنبل، فيما رواه من حديث الزهري، قال: " لما سمع موسى كلام الله قال: يا رب هذا الكلام الذي أسمع هو كلامك؟ قال: نعم يا موسى، هو كلامي، وإنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان، ولي قوة الألسن كلها، وأنا أقوى من ذلك، وإنما كلمتك على قدر ما يطيق بدنك، ولو كلمتك بأكثر من هذا لمت، فلما رجع موسى إلى قومه قالوا له: صف لنا كلام ربك. فقال: سبحان الله، وهل أستطيع أن أصفه لكم؟ قالوا: فشبهه لنا. قال: هل سمعتم أصوات الصواعق التي تقبل في أحلى حلاوة سمعتموها، فكأنه مثله ".

وأما المسيح عليه السلام فكان كل أحد يسمع صوته كصوت سائر الناس لم يتميز عنهم بما يوجب أن يكونوا سمعوا كلام الله كما سمعه موسى بن عمران.

الوجه التاسع: أن الجني إذا حل في الإنسي كما يحل في المصروع ويتكلم على لسانه، فإنه يتغير الكلام، ويعرف الحاضرون أنه ليس هو كلام الإنسي مع أنه يتكلم بلسان الإنسي، وحركة أعضائه، فيعلم أن الصوت حصل بحركة بدن الإنسي، مع العلم بأنه قد تغير تغيرا خالف به المعهود من كلام الإنسي، والإنسان الذي حل فيه الجني يغيب عنه عقله ولا يشعر بما تكلم الجني على لسانه، فرب العالمين سبحانه وتعالى لو حل في بشر واتحد به وتكلم بكلامه، وكان الكلام المسموع كلام الله المسموع منه، لكان يظهر من الفرق بين ذلك وبين المعهود من كلام الإنسي ما هو في غاية الظهور، وكان يتغير حال الإنسي غاية التغير، فإن الرب عز وجل لما تجلى للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا، فإذا كان البدن الإنسي لا يثبت لتجليه للجبل، فكيف يثبت لحلوله فيه وتكلمه على لسانه من غير تغير في البدن؟

وقد كان الوحي والملائكة إذا نزلت على الأنبياء في باطنهم يظهر التغير في أبدانهم، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي ثقل حتى يبرك به البعير، وإن كان فخذه على أحد ثقل حتى كاد يرضه.

وفي الصحيحين عن عائشة " أن الحارث بن هشام قال: «يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ قال: أحيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا» ".

وموسى عليه السلام لما سمع كلام الله مقت الآدميين، لما وقر في سمعه من كلام الله، وكان النور يظهر على وجهه حتى كان

يتبرقع، والمسيح عند النصارى قد اتحد به اللاهوت من حين علقت به مريم، ولم يزل متحدا به وهو حمل في بطنها، يعظم اتحاده به كلما كبر، ثم كذلك كان متحدا به وهو صبي إلى أن رفع إلى السماء وقعد عن يمين أبيه وهو متحد به عندهم، واللاهوت والناسوت جميعا، ومع هذا لم يتغير بدن المسيح تغيرا يناسب ذلك، ولا ظهر من الأنوار ما يناسب ذلك، بل عندهم أن المسيح قبل أن يعمده (يوحنا) ويرى شبه الحمامة نازلا عليه، لم يظهر الآيات، بل كان كآحاد الناس، وأول ما ظهر من الآيات قلب الماء خمرا.

وموسى عليه السلام بمجرد ما سمع الكلام ظهر عليه النور، وأين سمع الكلام من الاتحاد به؟

وموسى لما سمع الكلام وكلمه الله من الشجرة نزلت الملائكة وظهر له من آيات الله وعظمته ما يناسب تكليم الله عز وجل.

والرب دائما عند النصارى متحد ببدن المسيح، ولم يظهر من آيات الربوبية والعظمة إلا ما يظهر أكثر منه لبعض الأنبياء.

الوجه العاشر: أن المخاطب للناس إن كان هو مجموع اللاهوت والناسوت فكلامه صريح في أنه مخلوق مربوب يدعو ويسأل، والمجموع ليس بمخلوق يسأل الله ويعبده، وإن كان هو اللاهوت وحده كما يقتضيه كلامهم هذا، فهو أبعد وأبعد، وإن كان هو الناسوت وحده فلم يكن اللاهوت مخاطبا للناس ولم يكلم الله الناس من الناسوت كما كلم الله موسى من الشجرة.

وأيضا فلم يكن فرق بين حقيقة كلام الناسوت وكلام اللاهوت.

وكلام المسيح الصريح في أنه مخلوق كثير وهم يقرون به، لكن يقولون ذلك كلام الناسوت. فيقال لهم حينئذ: فالمخاطب للناس هو الناسوت دون اللاهوت، وأنتم قلتم: إن الله خاطب الخلق من بدن المسيح كما خاطب موسى من الشجرة.

والخطاب الذي سمعه موسى من الشجرة هو كله كلام اللاهوت، والكلام الذي كان يسمع من المسيح ليس فيه شيء يختص باللاهوت، بل عامته صريح في أنه كلام الناسوت.

الوجه الحادي عشر: أن الله لما كلم موسى من الشجرة، كان الكلام كلام الله وحده، لم يكن للشجرة كلام أصلا بوجه من الوجوه، فإن كان هذا المثل مطابقا، كان الذي يكلم الناس من ناسوت المسيح هو اللاهوت وحده.

ومعلوم أن في الإنجيل وغيره من النصوص الصريحة ما يدل على أن الناسوت كان هو المتكلم، مما يبين الفرق الواضح بين هذا وهذا.

الوجه الثاني عشر: أن الذي نادى موسى من الشجرة لم يتكلم إلا بكلام الربوبية فقال: {إني أنا الله رب العالمين} [القصص: 30]

{إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري - إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى - فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى} [طه: 14 - 16] .

وسائر ما تكلم به كله يقتضي أنه كلام رب العالمين، وأما المتكلم على لسان المسيح فلم يقل كلمة من هذا أصلا، بل كان في كلامه من الإقرار بأنه رسول، وأنه مخلوق محتاج، وأنه ابن البشر، وغير ذلك مما يناقض من كل وجه كلام المنادي لموسى من الشجرة، فمن سوى بين هذا وهذا، كان قد سوى بين رب العالمين وبين إنسان من الآدميين، وهو أضل من الذين قال الله فيهم:

{تالله إن كنا لفي ضلال مبين - إذ نسويكم برب العالمين} [الشعراء: 97 - 98] .

فإن أولئك جعلوهم أندادا لله في بعض الأمور مع اعترافهم بأنهم مخلوقون، وهؤلاء الضلال جعلوا هذا الإنسان الذي يتكلم هو رب العالمين الذي كلم موسى من الشجرة، وقالوا: إن هذا الذي كلم العباد هو ذاك الذي نادى موسى من الشجرة

الوجه الثالث عشر: أن يقال: معلوم أن الله أجل وأعظم وأكبر من رسله بما لا يقدر المخلوق قدره، فلو كان هو الذي كلم الخلق على لسان المسيح، وكان الحواريون رسله الذين سمعوا كلامه منه بلا واسطة، لكان الحواريون إما مثل موسى وإما أعظم.

ومعلوم أن المسيح نفسه لم تكن له آيات مثل آيات موسى، فضلا عن الحواريين، فإن أعظم آيات المسيح عليه السلام إحياء الموتى، وهذه الآية قد شاركه فيها غيره من الأنبياء كإلياس وغيره.

وأهل الكتاب عندهم في كتبهم أن غير المسيح أحيا الله على يديه الموتى، وموسى بن عمران من جملة آياته العصا التي انقلبت فصارت ثعبانا مبينا حتى بلعت الحبال والعصي التي للسحرة، وكان غير مرة يلقيها فتصير ثعبانا ثم يمسكها فتعود عصا.

ومعلوم أن هذه آية لم تكن لغيره، وهي أعظم من إحياء الموتى، فإن الإنسان كانت فيه الحياة، فإذا عاش فقد عاد إلى مثل حاله الأول، والله تعالى يحيي الموتى بإقامتهم من قبورهم، وقد أحيا غير واحد من الموتى في الدنيا وأما انقلاب خشبة تصير حيوانا ثم تعود خشبة مرة بعد مرة وتبتلع الحبال والعصي، فهذا أعجب من حياة الميت وأيضا فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على

يد موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح، قال تعالى: {وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون - ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون} [البقرة: 55 - 56]

وقال تعالى: {فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى} [البقرة: 73]

وقال تعالى: {ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم} [البقرة: 243] .

وأيضا فموسى عليه الصلاة والسلام كان يخرج يده بيضاء من غير سوء وهذا أعظم من إبراء أثر البرص الذي فعله المسيح عليه السلام فإن البرص مرض معتاد، وإنما العجب الإبراء منه، وأما بياض اليد من غير برص ثم عودها إلى حالها الأول، ففيه أمران عجيبان لا يعرف لهما نظير.

وأيضا فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده، وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية، ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح.

وأيضا فموسى كان الله يطعمهم على يده المن والسلوى مع كثرة بني إسرائيل، ويفجر لهم بضربه للحجر كل يوم اثني عشر عينا يكفيهم.

وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة، ومن قلب الماء خمرا، ونحو ذلك مما يحكى عنه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وكان لموسى في عدوه من القمل والضفادع والدم وسائر الآيات ما لم يكن مثله للمسيح، فلو كان الحواريون رسلا قد كلمهم الله مثل ما كلم موسى من الشجرة كانوا مثل موسى، فكيف والمسيح نفسه لم يكن له آيات مثل آيات موسى، ولو كان المسيح هو اللاهوت الذي كلم موسى لكان يظهر من قدرته أعظم مما أظهره على يد موسى، فإنه لم يحل في بدن موسى، ولا كان اللاهوت يكلم الخلق من موسى، كما يزعمه هؤلاء في المسيح، ومع هذه فالآيات التي أيد بها عبده موسى، تلك الآيات العظيمة، فكيف تكون آياته إذا كان هو نفسه الذي قد حل في بدن المسيح، وهو الذي يخاطب الناس على لسان المسيح؟

الوجه الرابع عشر: أن يقال: إن قولهم: إن الله خاطب الناس في المسيح، كما خاطب موسى النبي من العوسجة من أبطل الباطل، فإن الله باتفاق الأمم كلها لم يحل في الشجرة، ولم يتحد بها، كما يزعمون هم أنه حل بالمسيح واتحد به، فإنه عندهم حل بباطن المسيح، بل وبظاهره، واتحد به باطنا وظاهرا، والرب تعالى لم يكن في باطن الشجرة، ولا حل فيها، ولا اتحد بها، وقول الله إنه كلمه منها وناداه منها كقوله أنه: نودي من شاطئ الواد الأيمن وذلك مثل قوله:

{هل أتاك حديث موسى - إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى} [النازعات: 15 - 16] .

وفي البقعة المباركة ونحو ذلك وليس في شيء من ذلك أن الرب تعالى حل في باطن الوادي المقدس، أو البقعة المباركة، أو الجانب الأيمن، ولا أنه اتحد بشيء من ذلك، ولا صار هو وشيء من ذلك جوهرا واحدا، ولا شخصا واحدا، كما يقول بعض النصارى: إن اللاهوت والناسوت صارا جوهرا واحدا، وبعضهم يقول: صارا شخصا واحدا، بل ولا قال أحد: أنه حل في شيء من ذلك كحلول الماء في اللبن، أو النار في الحديد، كما يقول بعضهم: إن اللاهوت حل في الناسوت. كذلك ولو قدر أن بعض الناس قد قال شيئا من المقالات التي لا تدل عليها الكتب الإلهية، ولا تعلم بالعقل، لم يكن قوله حجة، إذ لا يحتج إلا بنقل ثابت عن الأنبياء، أو بما يعلم بالعقل.

الوجه الخامس عشر: أن الذي كلم موسى وناداه هو الله رب العالمين، وتكليمه له من الشجرة من جنس ما أخبر بنزوله إلى السماء الدنيا، ونزوله يوم القيامة لحساب الخلق، والكلام على ذلك مبسوط في غير هذا الموضع.

وأما حلوله في البشر أو اتحاده به فيمتنع من وجوه كثيرة عقلا وسمعا، مع أنه لم يخبر به نبي.

وما تقوله النصارى في غاية التناقض، فإنهم يزعمون أن المسيح هو الكلمة وهو الخالق، لأن الكلمة والذات شيء واحد، فلا يفرقون بين الصفة والموصوف، ثم يقولون: المتحد بالمسيح هو الكلمة دون الذات التي يسمونها الأب، ويقولون مع ذلك: إنه لم يتبعض ولم يتجزأ.

ومعلوم بصريح العقل أن الكلمة التي هي الصفة لا يمكن مفارقتها للموصوف، فلا تتحد وتحل دون الموصوف، لا سيما والمتحد الحال عندهم هو الخالق، فيجب أن يكون هو الأب، وهم لا يقولون: المتحد الحال هو الأب، بل هو الابن، وإذا قالوا: إن الابن هو المتحد الحال دون الأب، فالمتحد ليس هو الذي ما اتحد، والابن اتحد والأب ما اتحد.

ويقولون: إن المتحد اتخذ عيسى حجابا احتجب به، ومسكنا يسكن فيه، خاطب الناس فيه، ويقولون في ذلك: إنه اتحد به الأب لم يحتجب به ولم يسكن فيه ولم يتحد به، فلزم قطعا أن يكون منه شيء اتحد ومنه شيء لم يتحد، فالأب لم يتحد، والابن اتحد، وهذا يناقض قولهم لم يتبعض، ويبطل تمثيلهم بالمخاطب من الشجرة، فإن ذاك هو الله رب العالمين ليس هو الابن دون الأب، مع ما ذكر من الفروق الكثيرة المبينة التي تبين بطلان تمثيل هذا بهذا.

الوجه السادس عشر: أن الرب عز وجل إذا تكلم تكلم بكلام الربوبية، فلو كان في المسيح اللاهوت الذي أرسل موسى وغيره، لم يخضع لموسى ولتوراته، ويذكر أنه إنما جاء ليكملها لا لينقضها، ولا كان يقوم بشرائعها، فإن رب العالمين أعظم وأجل من ذلك، بل لو كان ملكا من الملائكة لم يفعل مثل ذلك، فكيف برب العالمين؟

وإذا قالت النصارى: فعل ذلك خوفا من بني إسرائيل، أو خوفا أن يكذبوه، كان عذرهم أقبح من ذنبهم، فرب العالمين ممن يخاف سبحانه وتعالى؟ ! .

وموسى لما كان فرعون يكذبه كان يظهر من الآيات يذل بها فرعون وقومه مع عتوه وعتو قومه، ولم تكن بنو إسرائيل أعتى من فرعون وقومه، فلو كان هو رب العالمين، كان ما يؤيد به نفسه من الآيات أعظم مما يؤيد به عبده موسى.

ومن عجائب النصارى أنهم يدعون فيه الإلهية مع ادعائهم فيه غاية العجز حتى صلب.

وأما المسلمون فيقولون: هو رسول مؤيد، لم يصلب، وهذه سنة الله سبحانه في رسله، فإنه يؤيدهم وينصرهم على عدوهم، كما نصر نوحا وإبراهيم ومحمدا صلوات الله عليهم وسلامه فإذا كان لا يجوز أن يكون رسولا مغلوبا، فكيف يكون ربا مغلوبا مصلوبا؟ ! .

الوجه السابع عشر: قولهم فعل المعجزات بلاهوته، وأظهر العجز بناسوته، فيقال لهم: إن الله فعل من المعجزات ما هو أعظم من المعجزات التي ظهرت على يد المسيح عليه السلام ولم يكن متحدا بشيء من البشر، فأي ضرورة له إلى أن يتحد بالبشر إذا فعل معجزات دون ذلك؟ !

الوجه الثامن عشر: أن المسيح ظهرت على يديه معجزات كما ظهر لسائر المرسلين، ومعجزات بعضهم أعظم من معجزاته، ومع هذا فلم تكن المعجزات دليلا على اتحاد اللاهوت بالنبي الذي ظهرت على يديه، فعلم أن الاستدلال بظهور المعجزات على يديه في غاية الفساد.

الوجه التاسع عشر: أن اللاهوت إن كان متحدا بالناسوت لم يتميز فعله عن فعل الناسوت، فإنهما إذا صارا شيئا واحدا كان كل ما فعله من عجز ومعجز هو ذلك الواحد، كالأمثال التي يضربونها لله سبحانه وتعالى فإنهم يمثلون ذلك بالنار مع الحديد، والماء مع اللبن والخمر.

ومعلوم أن الحديدة إذا أدخلت النار حتى صارت بيضاء كالنار البيضاء ففعلها فعل واحد، ليس لها فعلان متميزان: أحدهما بالحديد، والآخر بالنار، بل فيها قوة الحديد وقوة النار، بل فيها قوة ثالثة ليست قوة الحديد ولا قوة النار، إذ ليست حديدا محضا ولا نارا محضا.

وكذلك الماء إذا اختلط باللبن والخمر، فالمتحد منهما شيء واحد، فعله فعل واحد، منه ما ليس ماء محضا ولا لبنا محضا، لا يقول عاقل: إن له فعلين يتميز أحدهما عن الآخر، فعل بكونه لبنا محضا، وفعل بكونه ماء محضا، فقولهم بالاتحاد يوجب استحالة اللاهوت بالناسوت، وأن يصير فعل المتحد شيئا واحدا.

وإن كان اللاهوت لم يتحد به فهما اثنان شخصان وجوهران وطبيعتان ومشيئتان، وليس هذا دين النصارى مع أن حلول الرب عز وجل في البشر ممتنع، كما قد بسط في موضوع آخر.

وكذلك إذا مثلوه بالنفس مع البدن، فإن النفس تتغير صفاتها بمفارقة البدن، وكذلك البدن تتغير صفاته بمفارقة الروح له.

والإنسان الذي نفخت فيه الروح فصارت بدنا فيه الروح هو نوع ثالث ليس فيه بدن محض، وروح محض، حتى يقال: إنه يفعل كذا ببدنه، وكذا بنفسه، بل أفعاله تشترك فيها الروح، فهو إذا أكل وشرب، فالروح تتلذذ بالأكل والشرب، وبها صار آكلا شاربا، وإلا فالبدن الميت لا يأكل ولا يشرب، وإذا نظر واستدل وسمع ورأى وتعلم، فالنفس فعلت ذلك بالبدن، والبدن يظهر فيه ذلك، والروح وحدها لا تفعل ذلك، وعندهم أن فعل اللاهوت بعد الاتحاد كفعله قبله، وكذلك فعل الناسوت، وهذا يناقض الاتحاد.

والقول بهذا مع الاتحاد في غاية التناقض والفساد، ولا يعقل نظير هذا في شيء من الموجودات، ونفس المتكلم بهذا من النصارى لا يتصور ما يقول، ولا يمكنه أن يمثله بشيء معقول.

[فصل: نقض دعواهم أن القرآن أثبت في المسيح اللاهوت والناسوت]

قالوا: وقد جاء في هذا الكتاب الذي جاء به هذا الإنسان يقول: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} [النساء: 171] وهذا يوافق قولنا: إذ قد شهد أنه إنسان مثلنا، أي بالناسوت الذي أخذ من مريم، وكلمة الله وروحه المتحدة فيه، وحاشا أن تكون كلمة الله وروحه الخالقة مثلنا نحن المخلوقين، وأيضا قال في سورة النساء: {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم} [النساء: 157] فأشار بهذا القول إلى اللاهوت الذي هو كلمة الله التي لم يدخل عليها ألم ولا عرض، وقال أيضا:

{ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة} [آل عمران: 55] وقال في سورة المائدة عن عيسى أنه قال: {وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد} [المائدة: 117] .

فأعنى بموته عن موت الناسوت الذي أخذ من مريم العذراء.

وقال أيضا في سورة النساء: {وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه} [النساء: 157] .

فأشار بهذا إلى اللاهوت الذي هو كلمة الله الخالقة، وعلى هذا القياس نقول: إن المسيح صلب وتألم بناسوته، ولم يصلب ولا تألم بلاهوته.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال: دعواهم على محمد صلى الله عليه وسلم أنه أثبت في المسيح اللاهوت والناسوت، كما يزعمه هؤلاء النصارى فيه، هو من الكذب الواضح المعلوم على محمد صلى الله عليه وسلم الذي يعلم من دينه بالاضطرار، كما يعلم من دينه تصديق المسيح عليه السلام وإثبات رسالته، فلو ادعى اليهود على محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان يكذب المسيح ويجحد رسالته، كان كدعوى النصارى عليه أنه كان يقول: إنه رب العالمين، وأن اللاهوت اتحد بالناسوت، ومحمد صلى الله عليه وسلم قد أخبر فيما بلغه عن الله عز وجل بكفر من قال ذلك، وبما يناقض ذلك في غير موضع كقوله تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير} [المائدة: 17] .

وقوله تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار - لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم - أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم - ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون - قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم - قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 72 - 77]

وقال تعالى: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون - يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون - هو الذي

أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم} [التوبة: 30 - 34] .

وقال تعالى: {ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون - وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون - إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل - ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون - وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم - ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين - ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون - إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم - فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم} [الزخرف: 57 - 65]

وقال تعالى: {وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب - ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد} [المائدة: 116 - 117] فأخبر عن المسيح أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به، بقوله: أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكان عليهم شهيدا ما دام فيهم، وبعد وفاته كان الله هو الرقيب عليهم، فإذا كان بعضهم قد غلط في النقل عنه أو في تفسير كلامه، أو تعمد تغيير دينه لم يكن على المسيح عليه السلام من ذلك درك، وإنما هو رسول عليه البلاغ المبين.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن أول ما تكلم به المسيح أنه قال: {قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا - وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا - وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا} [مريم: 30 - 32] .

ثم طلب لنفسه السلام فقال: {والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا} [مريم: 33] .

والنصارى يقولون: (علينا منه السلام) كما تقوله الغالية فيمن يدعون فيه الإلآهية كالنصيرية في علي، والحاكمية في الحاكم.

الوجه الثاني: أن يقال: إن الله لم يذكر أن المسيح مات ولا قتل إنما قال: {ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا} [آل عمران: 55]

وقال المسيح: {فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد} [المائدة: 117]

وقال تعالى: {فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا - وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما - وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا - بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما - وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا - فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا - وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما} [النساء: 155 - 161] .

فذم الله اليهود بأشياء منها: قولهم على مريم بهتانا عظيما ; حيث زعموا أنها بغي، ومنها: قولهم: {إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله} [النساء: 157] .

قال تعالى: {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم} [النساء: 157] .

وأضاف هذا القول إليهم وذمهم عليه.

ولم يذكر النصارى ; لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود، ولم يكن أحد من النصارى شاهدا هذا معهم، بل كان الحواريون خائفين غائبين، فلم يشهد أحد منهم الصلب، وإنما شهده اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح، والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم، إنما نقلوه عن أولئك اليهود وهم شرط من أعوان الظلمة، لم يكونوا خلقا كثيرا يمتنع تواطؤهم على الكذب.

قال تعالى: {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم} [النساء: 157] . فنفى عنه القتل، ثم قال: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} [النساء: 159] .

وهذا عند أكثر العلماء معناه قبل موت المسيح، وقد قيل قبل موت اليهودي وهو ضعيف، كما قيل: أنه قبل موت محمد صلى الله عليه وسلم وهو أضعف، فإنه لو آمن به قبل الموت لنفعه إيمانه به، فإن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

وإن قيل: المراد به الإيمان الذي يكون بعد الغرغرة، لم يكن في هذا فائدة، فإن كل أحد بعد موته يؤمن بالغيب الذي كان يجحده فلا اختصاص للمسيح به، ولأنه قال قبل موته، ولم يقل بعد موته، ولأنه لا فرق بين إيمانه بالمسيح وبمحمد صلوات الله عليهما وسلامه واليهودي الذي يموت على اليهودية يموت كافرا بمحمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام ولأنه قال: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} [النساء: 159] وقوله: {ليؤمنن به} [النساء: 159] فعل مقسم عليه، وهذا إنما يكون في المستقبل، فدل ذلك على أن هذا الإيمان بعد إخبار الله بهذا، ولو أريد به قبل موت الكتابي لقال: وإن من أهل الكتاب إلا من يؤمن به، لم يقل: {ليؤمنن به} [النساء: 159] وأيضا فإنه قال " وإن من أهل الكتاب " وهذا يعم اليهود والنصارى فدل ذلك على أن جميع أهل الكتاب اليهود والنصارى يؤمنون بالمسيح قبل موت المسيح وذلك إذا نزل آمنت اليهود والنصارى بأنه رسول الله ليس كاذبا كما تقول اليهود ولا هو الله كما تقوله النصارى.

والمحافظة على هذا العموم أولى من أن يدعى أن كل كتابي ليؤمنن به قبل أن يموت الكتابي، فإن هذا يستلزم إيمان كل يهودي

ونصراني، وهذا خلاف الواقع، وهو لما قال: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) دل على أن المراد بإيمانهم قبل أن يموت هو، علم أنه أريد بالعموم عموم من كان موجودا حين نزوله ; أي لا يتخلف منهم أحد عن الإيمان به، لا إيمان من كان منهم ميتا.

وهذا كما يقال: إنه لا يبقى بلد إلا دخله الدجال إلا مكة والمدينة، أي من المدائن الموجودة حينئذ، وسبب إيمان أهل الكتاب به حينئذ ظاهر، فإنه يظهر لكل أحد أنه رسول مؤيد ليس بكذاب ولا هو رب العالمين.

فالله تعالى ذكر إيمانهم به إذا نزل إلى الأرض، فإنه تعالى لما ذكر رفعه إلى الله بقوله: {إني متوفيك ورافعك إلي} [آل عمران: 55] وهو ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ويموت حينئذ أخبر بإيمانهم به قبل موته، كما قال تعالى في آية أخرى: {إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل - ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون - وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم - ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين - ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون - إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم - فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم} [الزخرف: 59 - 65] .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، وإماما مقسطا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية» . " وقوله تعالى: {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا - بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: 157 - 158] .

بيان أن الله رفعه حيا وسلمه من القتل، وبين أنهم يؤمنون به قبل أن يموت.

وكذلك قوله:ومطهرك من الذين كفروا.

ولو مات لم يكن فرق بينه وبين غيره.

ولفظ التوفي في لغة العرب معناه: الاستيفاء والقبض، وذلك ثلاثة أنواع: أحدها: توفي النوم، والثاني: توفي الموت، والثالث: توفي الروح والبدن جميعا، فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس والنوم، ويخرج منهم الغائط والبول، والمسيح عليه السلام توفاه الله وهو في السماء الثانية إلى أن ينزل إلى الأرض، ليست حاله كحالة أهل الأرض في الأكل والشرب واللباس والنوم، والغائط والبول، ونحو ذلك.

الوجه الثالث: قولهم: إنه عني بموته عن موت الناسوت، كان ينبغي لهم أن يقولوا على أصلهم: عني بتوفيته عن توفي الناسوت، وسواء قيل موته أو توفيته فليس هو شيئا غير الناسوت، فليس هناك شيء غيره لم يتوف، والله تعالى قال: {إني متوفيك ورافعك إلي} [آل عمران: 55] فالمتوفى هو المرفوع إلى الله، وقولهم: إن المرفوع هو اللاهوت، مخالف لنص القرآن،

لو كان هناك موت فكيف إذا لم يكن، فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفى، والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفى. وكذلك قوله في الآية الأخرى: {وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه} [النساء: 157] .

هو تكذيب لليهود في قولهم: {إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله} [النساء: 157] .

واليهود لم يدعوا قتل لاهوت، ولا أثبتوا لله لاهوتا في المسيح، والله تعالى لم يذكر دعوى قتله عن النصارى حتى يقال: إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت، بل عن اليهود الذين لا يثبتون إلا الناسوت.

وقد زعموا أنهم قتلوه، فقال تعالى: {وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه} [النساء: 157] .

فأثبت رفع الذي قالوا إنهم قتلوه، وإنما هو الناسوت، فعلم أنه هو الذي نفي عنه القتل. وهو الذي رفع، والنصارى معترفون برفع الناسوت، لكن يزعمون أنه صلب، وأقام في القبر إما يوما وإما ثلاثة أيام، ثم صعد إلى السماء، وقعد عن يمين الرب الناسوت مع اللاهوت.

وقوله تعالى: {وما قتلوه يقينا} [النساء: 157] معناه: أن نفي قتله هو يقين لا ريب فيه، بخلاف الذين اختلفوا فإنهم في شك منه من قتله وغير قتله فليسوا مستيقنين أنه قتل ; إذ لا حجة معهم بذلك.

ولذلك كانت طائفة من النصارى يقولون: لم يصلب، فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود، وكان قد اشتبه عليهم المسيح بغيره، كما دل عليه القرآن، وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم بعض الناس: أنا أعرفه فعرفوه، وقول من قال: معنى الكلام ما قتلوه علما بل ظنا قول ضعيف.

الوجه الرابع: أنه قال - تعالى: {إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا} [آل عمران: 55] .

فلو كان المرفوع هو اللاهوت، لكان رب العالمين قال لنفسه أو لكلمته: " إني أرفعك إلي "، وكذلك قوله: بل رفعه الله إليه فالمسيح عندهم هو الله.

ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلى نفسه، وإذا قالوا: هو الكلمة فهم يقولون مع ذلك إنه الإله الخالق، لا يجعلونه بمنزلة التوراة

والقرآن ونحوهما، مما هو من كلام الله الذي قال فيه: {إليه يصعد الكلم الطيب} [فاطر: 10] بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين، ورفع رب العالمين إلى رب العالمين ممتنع.

الوجه الخامس: قوله: {وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم} [المائدة: 117] دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح، فإن قوله كنت أنت يدل على الحصر، كقوله: {إن كان هذا هو الحق} [الأنفال: 32] ونحو ذلك، فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيبا على أتباعه، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم المحصي أعمالهم المجازي عليها، والمسيح ليس برقيب فلا يطلع على أعمالهم ولا يحصيها ولا يجازيهم بها.

[فصل: نقض دعواهم بورود تسمية المسيح خالقا في القرآن]

قالوا: وقد سماه الله أيضا في هذا الكتاب خالقا حيث قال: {وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني} [المائدة: 110] فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة بالناسوت المأخوذ من مريم لأنه كذا قال على لسان داود النبي: " بكلمة الله خلقت السماوات والأرض، ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه.

وهذا مما يوافق رأينا واعتقادنا في السيد المسيح لذكره، لأنه حيث قال: {أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله} [آل عمران: 49] أي بإذن لاهوت الكلمة المتحدة في الناسوت.

والجواب: أن جميع ما يحتجون به من هذه الآيات وغيرها، فهو حجة عليهم لا لهم، وهكذا شأن جميع أهل الضلال إذا احتجوا بشيء من كتب الله وكلام أنبيائه كان في نفس ما احتجوا به ما يدل على فساد قولهم، وذلك لعظمة كتب الله المنزلة وما أنطق به أنبياءه، فإنه جعل ذلك هدى وبيانا للخلق وشفاء لما في الصدور، فلا بد أن يكون في كلام الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه

أجمعين من الهدى والبيان ما يفرق الله به بين الحق والباطل والصدق والكذب، لكن الناس يؤتون من قبل أنفسهم لا من قبل أنبياء الله - تعالى.

إما من كونهم لم يتدبروا القول الذي قالته الأنبياء حق التدبر حتى يفقهوه ويفهموه، وإما من جهة أخذهم ببعض الحق دون بعض، مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزله الله دون بعض، فيضلون من جهة ما لم يؤمنوا به، كما قال تعالى عن النصارى:

{ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة} [المائدة: 14] وإما من جهة نسبتهم إلى الأنبياء ما لم يقولوه من أقوال كذبت عليهم ومن جهة ترجمة أقوالهم بغير ما تستحقه من الترجمة، وتفسيرها بغير ما تستحقه من التفسير الذي دل عليه كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فإنه يجب أن يفسر كلام المتكلم بعضه ببعض، ويؤخذ كلامه هاهنا وهاهنا، وتعرف ما عادته يعنيه ويريده بذلك اللفظ إذا تكلم به، وتعرف المعاني التي عرف أنه أرادها في موضع آخر، فإذا عرف عرفه وعادته في معانيه وألفاظه، كان هذا مما يستعان به على معرفة مراده.

وأما إذا استعمل لفظه في معنى لم تجر عادته باستعماله فيه، وترك استعماله في المعنى الذي جرت عادته باستعماله فيه، وحمل كلامه على خلاف المعنى الذي قد عرف أنه يريده بذلك اللفظ بجعل كلامه متناقضا، وترك حمله على ما يناسب سائر كلامه، كان ذلك تحريفا لكلامه عن موضعه، وتبديلا لمقاصده وكذبا عليه.

فهذا أصل من ضل في تأويل كلام الأنبياء على غير مرادهم، فإذا عرف هذا، فنقول:

الجواب عما ذكروه هنا من وجوه:

أحدها: أن الله لم يذكر عن المسيح خلقا مطلقا، ولا خلقا عاما، كما ذكر عن نفسه تبارك وتعالى فأول ما أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {اقرأ باسم ربك الذي خلق - خلق الإنسان من علق - اقرأ وربك الأكرم - الذي علم بالقلم - علم الإنسان ما لم يعلم} [العلق: 1 - 5]

وقال تعالى: {هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم - هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون - هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى} [الحشر: 22 - 24] فذكر نفسه بأنه الخالق البارئ المصور، ولم يصف قط شيئا من المخلوقات بهذا لا ملكا ولا نبيا، وكذلك قال تعالى:

{الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل - له مقاليد السماوات والأرض} [الزمر: 62 - 63]

وقال تعالى: {وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون - بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم} [الأنعام: 100 - 101]

ووصف نفسه بأنه رب العالمين، وبأنه مالك يوم الدين، وأنه له الملك وله الحمد، وأنه الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، ونحو ذلك من خصائص الربوبية، ولم يصف شيئا من مخلوقاته لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بشيء من الخصائص التي يختص بها، التي وصف بها نفسه سبحانه وتعالى وأما المسيح عليه السلام فقال فيه: {وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني} [المائدة: 110]

وقال المسيح عن نفسه: {أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله} [آل عمران: 49] فلم يذكر إلا خلق شيء معين خاص بإذن الله، فكيف يكون هذا الخالق هو ذاك؟

الوجه الثاني: أنه خلق من الطين كهيئة الطير، والمراد به تصويره بصورة الطير، وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس، فإنه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير، وغير الطير من الحيوانات، ولكن هذا التصوير محرم، بخلاف تصوير المسيح، فإن الله أذن له فيه.

والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيرا بإذن الله عز وجل ليس المعجزة مجرد خلقه من الطين، فإن هذا مشترك، وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم المصورين، وقال: «إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون»

. الوجه الثالث: أن الله أخبر المسيح أنه إنما فعل التصوير والنفخ بإذنه تعالى وأخبر المسيح عليه السلام أنه فعله بإذن الله، وأخبر الله أن هذا من نعمه التي أنعم بها على المسيح عليه السلام كما قال تعالى: إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل

. وقال تعالى: {ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات} [المائدة: 110] .

وهذا كله صريح في أنه ليس هو الله، وإنما هو عبد الله فعل ذلك بإذن الله، كما فعل مثل ذلك غيره من الأنبياء، وصريح بأن الآذن غير المأذون له، والمعلم ليس هو المعلم، والمنعم عليه وعلى والدته ليس هو إياه، كما ليس هو والدته.

الوجه الرابع: أنهم قالوا: أشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت، ثم قالوا في قوله: بإذن الله أي بإذن الكلمة المتحدة في الناسوت، وهذا يبين تناقضهم وافتراءهم على القرآن، لأن الله أخبر في القرآن أن المسيح خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، ففرق بين المسيح وبين الله، وبين أن الله هو الآذن للمسيح، وهؤلاء زعموا أن مراده بذلك أن اللاهوت المتحد بناسوت المسيح هو الخالق وهو الآذن فجعلوا الخالق هو الآذن، وهو تفسير للقرآن بما يخالف صريح القرآن.

الوجه الخامس: أن اللاهوت إذا كان هو الخالق لم يحتج إلى أن يأذن لنفسه، فإنهم يقولون: هو إله واحد، وهو الخالق فكيف يحتاج أن يأذن لنفسه وينعم على نفسه؟

الوجه السادس: أن الخالق إما أن يكون هو الذات الموصوفة بالكلام أو الكلام الذي هو صفة للذات، فإن كان هو الكلام، فالكلام

صفة لا تكون ذاتا قائمة بنفسها خالقة، ولو لم تتحد بالناسوت، واتحادها بالناسوت دون الموصوف ممتنع لو كان الاتحاد ممكنا، فكيف وهو ممتنع؟

فقد تبين امتناع كون الكلمة تكون خالقة من وجوه.

وإن كان الخالق هو الذات المتصفة بالكلام، فذاك هو الله الخالق لكل شيء رب العالمين، وعندهم هو الأب، والمسيح عندهم ليس هو الأب، فلا يكون هو الخالق لكل شيء، والقرآن يبين أن الله هو الذي أذن للمسيح حتى خلق من الطين كهيئة الطير، فتبين أن الذي خلق من الطين كهيئة الطير ليس هو الله ولا صفة من صفاته، فليس المسيح هو الله ولا ابن قديم أزلي لله ولكن عبده فعل بإذنه.

الوجه السابع: قولهم: فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت المأخوذ من مريم، لأنه كذا قال على لسان داود النبي: " بكلمة الله خلقت السماوات والأرض ". يقال لهم: هذا النص عن داود حجة عليكم، كما أن التوراة والقرآن وسائر ما ثبت عن الأنبياء حجة عليكم، فإن داود عليه السلام قال: " بكلمة الله خلقت السماوات والأرض " ولم يقل: إن كلمة الله هي الخالقة، كما قلتم أنتم أنه أشار بالخالق إلى كلمة الله.

والفرق بين الخالق للسماوات والأرض وبين الكلمة التي بها خلقت السماوات والأرض، أمر ظاهر معروف، كالفرق بين القادر

والقدرة، فإن القادر هو الخالق وقد خلق الأشياء بقدرته، وليست القدرة هي الخالقة، وكذلك الفرق بين المريد والإرادة، فإن الله خلق الأشياء بمشيئته، وليست مشيئته هي الخالقة.

وكذلك الدعاء والعبادة هو للإله الخالق لا لشيء من صفاته، فالناس كلهم يقولون: يا الله يا ربنا يا خالقنا، ارحمنا واغفر لنا، ولا يقول أحد: يا كلام الله اغفر لنا وارحمنا، ولا يا قدرة الله ويا مشيئة الله ويا علم الله اغفر لنا وارحمنا، والله تعالى يخلق بقدرته ومشيئته وكلامه، وليست صفاته هي الخالقة.

الوجه الثامن: أن قول داود عليه السلام: " بكلمة الله خلقت السماوات والأرض " يوافق ما جاء في القرآن والتوراة وغير ذلك من كتب الأنبياء: أن الله يقول للشيء: كن فيكون، وهذا في القرآن في غير موضع، وفي التوراة قال الله: " ليكن كذا ليكن كذا "

الوجه التاسع: قولهم: لأنه ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه، إن أرادوا بكلمته كلامه، وبروحه حياته، فهذه من صفات الله كعلمه وقدرته، فلم يعبر أحد من الأنبياء عن حياة الله بأنها روح الله، فمن حمل كلام أحد من الأنبياء بلفظ الروح أنه يراد به

حياة الله فقد كذب عليه. ثم يقال: هذا كلامه وحياته من صفات الله كعلمه وقدرته، وحينئذ فالخالق هو الله وحده، وصفاته داخلة في مسمى اسمه لا يحتاج أن تجعل معطوفة على اسمه بواو التشريك التي تؤذن أن لله شريكا في خلقه، فإن الله لا شريك له.

ولهذا لما قال الله تعالى: " الله خالق كل شيء " دخل كل ما سواه في مخلوقاته، ولم تدخل صفاته كعلمه وقدرته ومشيئته وكلامه، لأن هذه داخلة في مسمى اسمه ليست أشياء مباينة له، بل أسماؤه الحسنى متناولة لذاته المقدسة المتصفة بهذه الصفات لا يجوز أن يراد بأسمائه ذاتا مجردة عن صفات الكمال، فإن تلك لا حقيقة لها، ويمتنع وجود ذات مجردة عن صفة فضلا عن وجود ذاته تعالى مجردة عن صفات كماله التي هي لازمة لذاته، فيمتنع تحقق ذاته دونها، ولهذا لا يقال: الله وعلمه خلق، والله وقدرته خلق.

وإن أرادوا بكلمته وروحه المسيح أو شيئا اتحد بناسوت المسيح، فالمسيح عليه السلام كله مخلوق كسائر الرسل، والله وحده هو الخالق، وإن شئت قلت: إن أريد بالروح والكلمة ما هو صفة الله، فتلك داخلة في مسمى اسمه، وإن أريد ما ليس بصفة فذلك مخلوق له كالناسوت.

الوجه العاشر: أن داود عليه السلام لا يجوز أن يريد بكلمة الله المسيح ; لأن المسيح عند جميع الناس هو اسم للناسوت،

وهو عندهم اسم للاهوت والناسوت لما اتحدا، والاتحاد فعل حادث عندهم، فقبل الاتحاد لم يكن هناك ناسوت ولا ما يسمى مسيحا، فعلم أن داود لم يرد بكلمة الله المسيح، ولكن غايتهم أن يقولوا: أراد الكلمة التي اتحدت فيما بعد بالمسيح، لكن الذي خلق بإذن الله هو المسيح كما نطق به القرآن بقوله: {يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين} [آل عمران: 45]

فالكلمة التي ذكرها وأنها هي التي خلقت السماوات والأرض ليست هي المسيح الذي خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، فاحتجاجهم بهذا على هذا احتجاج باطل، بل تلك الكلمة التي بها خلقت السماوات والأرض لم يكن معها ناسوت حين خلقت باتفاق الأمم، والمسيح لا بد أن يدخل فيه الناسوت، فعلم أنه لم يرد بالكلمة المسيح.

[فصل: بيان المعنى الصحيح لتشبيه القرآن الكريم عيسى بآدم ورد تفسيرهم لذلك]

قالوا: وقال أيضا في موضع آخر: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب} [آل عمران: 59]

فأعنى بقوله: {مثل عيسى} [آل عمران: 59] إشارة إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة، لأنه لم يذكر هاهنا اسم المسيح، إنما ذكر عيسى فقط.

كما أن آدم خلق من غير جماع ولا مباضعة، فكذلك جسد السيد المسيح خلق من غير جماع ولا مباضعة، وكما أن جسد آدم ذاق الموت، فكذلك جسد المسيح ذاق الموت، وقد يبرهن بقوله أيضا قائلا: إن الله ألقى كلمته إلى مريم، وذلك حسب قولنا معشر النصارى: إن كلمة الله الأزلية الخالقة حلت في مريم وتجسدت بإنسان كامل، وعلى هذا المثال نقول: في السيد المسيح طبيعتان: طبيعة لاهوتية: التي هي طبيعة كلمة الله وروحه، وطبيعة ناسوتية: التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به، ولما تقدم به القول من الله تعالى على لسان موسى النبي، إذ يقول: (أليس هذا الأب الذي خلقك وبراك واقتناك) قيل: وعلى لسان داود النبي (روحك القدس لا تنزع مني) وأيضا على لسان داود النبي: (بكلمة الله تشددت السماوات وبروح فاه جميع قواهن) وليس يدل هذا القول على ثلاثة خالقين، بل خالق واحد: الأب ونطقه: أي كلمته وروحه: أي حياته.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن قوله تعالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} [آل عمران: 59]

كلام حق، فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ; ليبين عموم قدرته، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى، كما قال تعالى: {وخلق منها زوجها} [النساء: 1]

وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكروأنثى، وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح، فإن حواء خلقت من ضلع آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا، وهو أصل خلق حواء.

فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح، فإذا كان سبحانه قادرا أن يخلقه من تراب، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان؟ وهو سبحانه خلق آدم من تراب، ثم قال له: كن فيكون، لما نفخ فيه من روحه، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له: كن فيكون، ولم يكن آدم بما نفخ من روحه لاهوتا وناسوتا، بل كله ناسوت، فكذلك المسيح كله ناسوت، والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى، لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وناظروه في المسيح، وأنزل الله فيه ما أنزل، فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى، فكذب الله الطائفتين: هؤلاء في غلوهم فيه، وهؤلاء في ذمهم له.

وقال عقب هذه الآية:{فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين - إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم - فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين - قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 61 - 64] .

وقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم قول الله فدعاهم إلى المباهلة فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته، فأقروا بالجزية وهم صاغرون، ثم كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم بقوله تعالى: {قل ياأهل الكتاب تعالوا} [آل عمران: 64] إلى آخرها.

وكان أحيانا يقرأ بها في الركعة الثانية من ركعتي الفجر، ويقرأ في الأولى: بقوله: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [البقرة: 136]

وهذا كله يبين به أن المسيح عبد ليس بإله، وأنه مخلوق كما خلق آدم، وقد أمر أن يباهل من قال إنه إله، فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به، ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين، فإن كان النصارى كاذبين في قولهم: هو الله، حقت اللعنة عليهم، وإن كان من قال: ليس هو الله بل عبد الله، كاذبا، حقت اللعنة عليه، وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق.

والنصارى لما لم يعلموا أنهم على الحق، نكلوا عن المباهلة، وقد قال عقب ذلك: {إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم} [آل عمران: 62]

تكذيبا للنصارى الذين يقولون: هو إله حق من إله حق، فكيف يقال إنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت، وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت؟ وبهذا ظهر الجواب عن قولهم، قال في موضع آخر: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم} [آل عمران: 59]

فأعنى بقوله: عيسى، إشارة إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة، لأنه لم يذكر هاهنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط، فإنه يقال: عيسى هو المسيح، بدليل أنه قال: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} [المائدة: 75]

فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولا ليس هو بإله وأنه ابن مريم، والذي هو ابن من مريم هو الناسوت وقال: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا - لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا} [النساء: 171 - 172]

وقال تعالى: {وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [التوبة: 30]

وقال تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا} [المائدة: 17] .

الوجه الثاني: أن ما ذكروه من موته قد بينا أن الله لم يذكر ذلك، وأن المسيح لم يمت بعد، وما ذكروه من أنه صلب ناسوته دون لاهوته باطل من وجهين:

فإن ناسوته لم يصلب، وليس فيه لاهوت، وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة فيكتفى في مقابلتها بالمنع.

لكن نقول في الوجه الثالث: إنهم في اتحاد اللاهوت بالناسوت يشبهونه تارة باتحاد الماء باللبن، وهذا تشبيه اليعقوبية، وتارة باتحاد النار بالحديد أو النفس بالجسم، وهذا تشبيه الملكانية وغيرهم.

ومعلوم أنه لا يصل إلى الماء شيء إلا وصل إلى اللبن، فإنه لا يتميز أحدهما عن الآخر، وكذلك النار التي في الحديد متى طرق الحديد أو بصق عليه لحق ذلك بالنار التي فيه، والبدن إذا ضرب وعذب لحق ألم الضرب والعذاب بالنفس، فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضي أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود وتعذيبهم له وإيلامهم له والصلب الذي ادعوه

وهذا لازم على القول بالاتحاد، فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر فيه لم يكن هنا اتحاد بل تعدد.

الرابع: أن هؤلاء الضلال لم يكفهم أن جعلوا إله السماوات والأرض متحدا ببشر في جوف امرأة، وجعلوه له مسكنا، ثم جعلوا أخابث خلق الله أمسكوه وبصقوا في وجهه ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه بين لصين، وهو في ذلك يستغيث بالله ويقول: " إلهي إلهي لم تركتني " وهم يقولون: الذي كان يسمع الناس كلامه هو اللاهوت، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة، ويقولون: هما شخص واحد، ويقول بعضهم: لهما مشيئة واحدة وطبيعة واحدة.

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم، فيلزم أن يكون المتكلم الداعي المستغيث المصلوب هو اللاهوت وهو المستغيث المتضرع وهو المستغاث به، وأيضا فهم يقولون: إن اللاهوت والناسوت شخص واحد، فمع القول بأنهما شخص واحد، إما أن يكون مستغيثا، وإما أن يكون مستغاثا به، وإما أن يكون داعيا، وإما أن يكون مدعوا، فإذا قالوا: إن الداعي هو غير المدعو، لزم أن يكونا اثنين لا واحدا، وإذا قالوا: هما واحد فالداعي هو المدعو.

الوجه الخامس: أن يقال: لا يخلو إما أن يقولوا: إن اللاهوت كان قادرا على دفعهم عن ناسوته، وإما أن يقولوا: لم يكن قادرا، فإن قالوا لم يكن قادرا لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين، وأن يكون رب العالمين مقهورا مأسورا مع قوم من شرار اليهود، وهذا من أعظم الكفر والتنقص برب العالمين، وهذا أعظم من قولهم: إن لله ولدا، وأنه بخيل، وأنه فقير، ونحو ذلك مما يسب به الكفار رب العالمين.

وإن قالوا: كان قادرا فإن كان ذلك من عدوان الكفار على ناسوته وهو كاره لذلك، فسنة الله في مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به، فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به، وهذا بخلاف من قتل من النبيين وهو صابر، فإن أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء، والناسوت عندهم استغاث وقال: " إلهي إلهي لماذا تركتني "، وإن كان هو قد فعل ذلك مكرا، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق، فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق، فكان الواجب أن لا يجزع ولا يهرب لما في ذلك من الحكمة، وهم يذكرون من جزع الناسوت وهربه ودعائه ما يقتضي أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره، ويقول بعضهم: مشيئتهما واحدة، فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت؟ بل لو يشاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين، وقد اتفقا على المكر بالعدو ولم يجزع الناسوت، كما جرى ليوسف مع أخيه لما وافقه على أنه يحمل الصواع في رحله، ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه لما ظهر الصواع في رحله، كما جزع إخوته حيث لم يعلموا، وكثير من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذي يصفون به المسيح، وهو يقتضي غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية.

الوجه السادس: قولهم إنه كلمته وروحه تناقض منهم، لأنه عندهم أقنوم الكلمة فقط لا أقنوم الحياة.

الوجه السابع: قولهم: وقد برهن بقوله رأينا أيضا في موضع آخر قائلا: إن الله ألقى كلمته إلى مريم، وذلك حسب قولنا معشر النصارى: إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم واتحدت بإنسان كامل.

فيقال لهم: أما قول الله في القرآن فهو حق، ولكن ضللتم في تأويله كما ضللتم في تأويل غيره من كلام الأنبياء، وما بلغوه عن الله، وذلك أن الله تعالى قال: {إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين - ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين - قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [آل عمران: 45 - 47]

ففي هذا الكلام وجوه تبين أنه مخلوق وليس هو ما يقوله النصارى:

منها أنه قال: (بكلمة منه) وقوله بكلمة منه نكرة في الإثبات تقتضي أنه كلمة من كلمات الله، ليس هو كلامه كله كما يقول النصارى.

ومنها: أنه يبين مراده بقوله: بكلمة منه، وأنه مخلوق حيث قال: {كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [آل عمران: 47]

كما قال في الآية الأخرى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} [آل عمران: 59]

وقال تعالى في سورة كهيعص: {ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون - ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [مريم: 34 - 35]

فهذه ثلاث آيات في القرآن تبين أنه قال له: (كن فيكون) وهذا تفسير كونه كلمة منه.

وقال " اسمه المسيح عيسى ابن مريم " أخبر أنه ابن مريم، وأخبر أنه وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وهذه كلها صفة مخلوق، والله تعالى وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيء من ذلك، وقالت مريم: أنى يكون لي ولد

فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم، لا ولد الله سبحانه وتعالى وقال في سورة النساء: {ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا - لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا - فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا} [النساء: 171 - 173] .

فقد نهى النصارى عن الغلو في دينهم، وأن يقولوا على الله غير الحق، وبين أن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله، فبين أنه رسوله، ونهاهم أن يقولوا ثلاثة، وقال: {انتهوا خيرا لكم} [النساء: 171] ، {إنما الله إله واحد} [النساء: 171] ، وهذا تكذيب لقولهم في المسيح أنه إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، ثم قال: {سبحانه أن يكون له ولد} [النساء: 171] ، فنزه نفسه وعظمها أن يكون له ولد كما تقوله النصارى، ثم قال: {له ما في السماوات وما في الأرض} [النساء: 171] فأخبر أن ذلك ملك له، ليس فيه شيء من ذاته، ثم قال: {لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون} [النساء: 172] أي: لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله تبارك وتعالى فمع هذا البيان الواضح الجلي، هل يظن ظان أن مراده بقوله (وكلمته) أنه إله خالق؟ أو أنه صفة لله قائمة به؟ وأن قوله: {وروح منه} [النساء: 171] المراد به أنه حياته، أو روحه منفصلة عن ذاته؟

ثم نقول أيضا: أما قوله (وكلمته) فقد بين مراده أنه خلقه بـ (كن) وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر، فيسمى المخلوق خلقا لقوله: هذا خلق الله، ويقال: درهم ضرب الأمير، أي: مضروب الأمير، ولهذا يسمى المأمور به أمرا، والمقدور قدرة وقدرا، والمعلوم علما، والمرحوم به رحمة، كقوله تعالى: {وكان أمر الله قدرا مقدورا} [الأحزاب: 38]

وقوله {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} [النحل: 1]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " «يقول الله للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي، ويقول للنار: أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي.» وقال: " «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة فبها يتراحم الخلق ويتعاطفون، وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك، فرحم بها الخلق» ويقال للمطر: هذه قدرة عظيمة، ويقال: غفر الله لك علمه فيك، أي معلومه، فتسمية المخلوق بالكلمة كلمة من هذا الباب.

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب (الرد على الجهمية) وذكره غيره أن النصارى الحلولية والجهمية المعطلة اعترضوا على أهل السنة، فقالت النصارى: القرآن كلام الله غير مخلوق، والمسيح كلمة الله فهو غير مخلوق، وقالت الجهمية: المسيح كلمة الله وهو مخلوق، والقرآن كلام الله فيكون مخلوقا.

وأجاب أحمد وغيره: بأن المسيح نفسه ليس هو كلاما، فإن المسيح إنسان وبشر مولود من امرأة، وكلام الله ليس بإنسان ولا بشر ولا مولود من امرأة، ولكن المسيح خلق بالكلام، وأما القرآن فهو نفسه كلام الله فأين هذا من هذا؟

وقد قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وما من عاقل إذا سمع قوله تعالى في المسيح عليه السلام أنه كلمته ألقاها إلى مريم، إلا يعلم أنه ليس المراد أن المسيح نفسه كلام الله، ولا أنه صفة الله ولا خالق.

ثم يقال للنصارى: فلو قدر أن المسيح نفس الكلام، فالكلام ليس بخالق، فإن القرآن كلام الله وليس بخالق، والتوراة كلام الله وليست بخالقة، وكلمات الله كثيرة وليس منها شيء خالق، فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجز أن يكون خالقا، فكيف وليس هو الكلام، وإنما خلق بالكلمة، وخص باسم الكلمة، فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذي خلق عليه غيره، بل خرج عن العادة فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة في البشر.

وقوله: (بروح منه) لا يوجب أن يكون منفصلا من ذات الله، كقوله تعالى: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه} [الجاثية: 13]

وقوله تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله} [النحل: 53]

وقال تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك} [النساء: 79] {لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة - رسول من الله يتلو صحفا مطهرة - فيها كتب قيمة} [البينة: 1 - 3]

فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة، وأبلغ من ذلك روح الله التي أرسلها إلى مريم، وهي مخلوقة.

فالمسيح الذي هو روح من تلك الروح أولى أن يكون مخلوقا، قال تعالى: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا - قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا - قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} [مريم: 17 - 19]

وقد قال تعالى: {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا} [التحريم: 12] .

وقال: {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين} [الأنبياء: 91] .

فأخبر أنه نفخ في مريم من روحه، كما أخبر أنه نفخ في آدم من روحه، وقد بين أنه أرسل إليها روحه {فتمثل لها بشرا سويا - قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا - قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا - قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا - قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا} [مريم: 17 - 21] فحملته فهذا الروح الذي أرسله الله إليها ليهب لها غلاما زكيا، مخلوق وهو روح القدس الذي خلق المسيح منه ومن مريم، فإذا كان الأصل مخلوقا فكيف الفرع الذي حصل منه وهو روح القدس؟ وقوله عن المسيح: (وروح منه) خص المسيح بذلك لأنه نفخ في أمه من الروح، فحبلت به من ذلك النفخ، وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر فامتاز بأن حبلت به من نفخ الروح، فلهذا سمي روحا منه ولهذا قال طائفة من المفسرين: روح منه، أي رسول منه سماه باسم الروح الرسول الذي نفخ فيها، فكما يسمى " كلمة " يسمى" روحا " لأنه كون بالكلمة، لا كما يخلق الآدميون غيره، ويسمى " روحا "، لأنه حبلت به أمه بنفخ الروح الذي نفخ فيها، لم تحبل به من ذكر كغيره من الآدميين، وعلى هذا فيقال: لما خلق من نفخ الروح ومن مريم سمي " روحا " بخلاف سائر الآدميين، فإنه يخلق من ذكر وأنثى، ثم ينفخ فيه الروح بعد مضي أربعة أشهر.

والنصارى يقولون في أمانتهم: (تجسد من مريم ومن روح القدس) ولو اقتصروا على هذا، وفسروا روح القدس بالملك الذي نفخ فيها وهو روح الله، لكان هذا موافقا لما أخبر الله به، لكنهم جعلوا روح القدس حياة الله وجعلوه ربا وتناقضوا في ذلك، فإنه على هذا كان ينبغي فيه أقنومان: أقنوم الكلمة، وأقنوم الروح، وهم يقولون: ليس فيه إلا أقنوم الكلمة، وكما يسمى المسيح كلمة لأنه خلق بالكلمة، يسمى " روحا " لأنه حل به من الروح.

فإن قيل: فقد قال في القرآن: {والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك} [الأنعام: 114]

وقال: {تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} [الزمر: 1] .

وقد قال أئمة المسلمين وجمهورهم: " القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ " وقال في المسيح: " {وروح منه} [النساء: 171] " قيل: هذا بمنزلة سائر المضاف إلى الله إن كان عينا قائمة بنفسها أو صفة فيها كان مخلوقا، وإن كان صفة مضافا إلى الله كعلمه وكلامه ونحو ذلك كان إضافة صفة، وكذلك ما كان منه إن كان عينا قائمة أو صفة قائمة بغيرها كما في السماوات والأرض والنعم، والروح الذي أرسله إلى مريم، وقال: " {إنما أنا رسول ربك} [مريم: 19] " كان مخلوقا، وإن كان صفة لا تقوم بنفسها

ولا يتصف بها المخلوق كالقرآن لم يكن مخلوقا، فإن ذلك قائم بالله، وما يقوم بالله لا يكون مخلوقا، والمقصود هنا بيان بطلان احتجاج النصارى وأنه ليس لهم في ظاهر القرآن ولا باطنه حجة في سائر كتب الله، وإنما تمسكوا بآيات متشابهات وتركوا المحكم، كما أخبر الله عنهم بقوله: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله} [آل عمران: 7]

والآية نزلت في النصارى، فهم مرادون من الآية قطعا، ثم قال: {وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا} [آل عمران: 7] .

وفيها قولان وقراءتان، منهم من يقف عند قوله: (إلا الله) ، ويقول: الراسخون في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه، لا يعلمه إلا الله.

ومنهم من لا يقف، بل يصل بذلك قوله تعالى: {والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا} [آل عمران: 7] ويقول: الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه وكلا القولين مأثور عن طائفة من السلف، وهؤلاء يقولون: قد يكون الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما في قوله تعالى " والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا " أي قائلين، وكلا القولين حق باعتبار، فإن لفظ التأويل يراد به التفسير ومعرفة معانيه.

والراسخون في العلم يعلمون تفسير القرآن، قال الحسن البصري: لم ينزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم في ماذا نزلت، وماذا عنى بها.

وقد يعنى بالتأويل ما استأثر الله بعلمه من كيفية ما أخبر به عن نفسه وعن اليوم الآخر، ووقت الساعة ونزول عيسى، ونحو ذلك، فهذا التأويل لا يعلمه إلا الله، وأما لفظ التأويل إذا أريد به صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل يقترن به، فلم يكن السلف يريدون بلفظ التأويل هذا ولا هو معنى التأويل في كتاب الله عز وجل ولكن طائفة من المتأخرين خصوا لفظ التأويل بهذا، بل لفظ التأويل في كتاب الله يراد به ما يئول إليه الكلام، وإن وافق ظاهره، كقوله تعالى: {هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل} [الأعراف: 53] .

ومنه تأويل الرؤيا، كقول يوسف الصديق: {هذا تأويل رؤياي من قبل} [يوسف: 100]

وكقوله: {إلا نبأتكما بتأويله} [يوسف: 37] .

وقوله: {ذلك خير وأحسن تأويلا} [النساء: 59]

وهذا مبسوط في موضع آخر.

والمقصود هنا أنه ليس للنصارى حجة لا في ظاهر النصوص، ولا في باطنها، كما قال تعالى:{إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} [النساء: 171]

والكلمة عندهم هي جوهر، وهي رب لا يخلق بها الخالق، بل هي الخالقة لكل شيء، كما قالوا في كتابهم: (إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم) ، والله تعالى قد أخبر أنه سبحانه ألقاها إلى مريم، والرب سبحانه هو الخالق، والكلمة التي ألقاها ليست خالقة، إذ الخالق لا يلقيه شيء بل هو يلقي غيره، وكلمات الله نوعان: كونية، ودينية.

فالكونية: كقوله للشيء: كن فيكون.

والدينية: أمره وشرعه الذي جاءت به الرسل، وكذلك أمره وإرادته وإذنه وإرساله وبعثه ينقسم إلى هذين القسمين، وقد ذكر الله تعالى إلقاء القول في غير هذا، وقد قال تعالى: {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا} [النساء: 94]

وقال تعالى: {وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون - وألقوا إلى الله يومئذ السلم} [النحل: 86 - 87]

وقال تعالى: {يأأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} [الممتحنة: 1]

وأما لقنته القول ولقيته فتلقاه، فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه، فإن هذا يقوله فيما يخاطبه به وإن لم يحفظه، كمن ألقيت إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون، وألقوا إليهم السلام، وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم في المخاطب، فكذلك مريم إذا ألقى الله كلمته إليها وهي قول: " كن " لم يلزم أن تكون نفس صفته القائمة به حلت في مريم، كما لم يلزم أن تكون صفته القائمة به حلت في سائر من ألقى إليه كلامه، كما لا تحصل صفة كل متكلم فيمن يلقى إليه كلامه.

[فصل: بيان اضطراب كلام النصارى وتفرقهم في باب طبيعة المسيح]

وأما قولهم: وعلى هذا المثال نقول: في السيد المسيح طبيعتان:

طبيعة لاهوتية: التي هي طبيعة كلمة الله وروحه.

وطبيعة ناسوتية: التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به.

فيقال لهم: كلام النصارى في هذا الباب مضطرب مختلف متناقض، وليس لهم في ذلك قول اتفقوا عليه، ولا قول معقول، ولا قول دل عليه كتاب، بل هم فيه فرق وطوائف كل فرقة تكفر الأخرى، كاليعقوبية والملكانية والنسطورية، ونقل الأقوال عنهم في ذلك مضطربة، كثيرة الاختلاف.

ولهذا يقال: لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا على أحد عشر قولا، وذلك أن ما هم عليه من اعتقادهم من التثليث والاتحاد، كما هو مذكور في أمانتهم، لم ينطق به شيء من كتب الأنبياء، ولا يوجد لا في كلام المسيح ولا الحواريين ولا أحد من الأنبياء، ولكن عندهم في الكتب ألفاظ متشابهة وألفاظ محكمة يتنازعون في فهمها، ثم القائلون منهم بالأمانة وهم عامة النصارى اليوم من الملكانية والنسطورية واليعقوبية مختلفون في تفسيرها، ونفس قولهم متناقض يمتنع تصوره على الوجه الصحيح.

فلهذا صار كل منهم يقول ما يظن أنه أقرب من غيره، فمنهم من يراعي لفظ أمانتهم وإن صرح بالكفر الذي يظهر فساده لكل أحد كاليعقوبية، ومنهم من يستر بعض ذلك كالنسطورية، وكثير منهم وهم الملكانية بين هؤلاء وهؤلاء، ولما ابتدعوا ما ابتدعوا من التثليث والحلول، كان فيهم من يخالفهم في ذلك.

وقد يوجد نقل الناس لمقالاتهم مختلفا، وذلك بحسب قول الطائفة التي ينقل ذلك الناقل قولها، والقول الذي يحكيه كثير من نظار المسلمين يوجد كثير منهم على خلافه، كما نقلوا عنهم ما ذكره أبو المعالي وصاحبه أبو القاسم الأنصاري، وغيرهما: أن القديم واحد بالجوهر، ثلاثة بالأقنوم، وأنهم يعنون بالأقنوم: الوجود والحياة والعلم.

ونقلوا عنهم: أن الحياة والعلم ليسا بوصفين زائدين على الذات موجودين، بل هما صفتان نفسيتان للجوهر، قالوا: ولو مثل مذهبهم بمثال لقيل: إن الأقانيم عندهم تنزل منزلة الأحوال والصفات النفسية عند مثبتيها من المسلمين، فإن سوادية اللون ولونيته صفتان نفسيتان للعرض، قال: وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود، وبالابن المسيح والكلمة، وربما سموا العلم كلمة، والكلمة علما، ويعبرون عن الحياة بالروح، قال: ولا يريدون بالكلمة الكلام، فإن الكلام عندهم من صفات الفعل، ولا يسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح واتحاده به ابنا، بل المسيح عندهم مع ما تدرع به ابن، قالوا: ومن مذهبهم أن الكلمة اتحدت بالمسيح وتدرعت بالناسوت، ثم اختلفوا في معنى الاتحاد فمنهم من فسره بالاختلاط والامتزاج، وهذا مذهب طوائف من اليعقوبية والنسطورية والملكانية، قالوا: إن الكلمة خالطت جسد المسيح ومازجته كما مازج الخمر الماء أو اللبن، قالوا: وهذا مذهب الروم ومعظمهم الملكانية، قالوا: فمازجت الكلمة جسد المسيح فصارت شيئا واحدا وصارت الكثرة قلة.

وذهبت طائفة من اليعاقبة إلى أن الكلمة انقلبت لحما ودما، وقالوا: وصارت شرذمة من كل صنف إلى أن المراد بالاتحاد ظهور اللاهوت على الناسوت كظهور الصورة في المرآة، والنقش في الخاتم.

ومنهم من قال: ظهور اللاهوت على الناسوت كاستواء الإله على العرش عند المسلمين، وذهب كثير من هذه الطوائف إلى أن المراد بالاتحاد الحلول. قالوا: وقد اختلفوا أيضا في الجوهر والأقانيم فذهبت اليعقوبية والنسطورية إلى أن الجوهر ليس بغير الأقانيم.

ولا يقال: إنه هي، وصرحت الملكانية بأنه غير الأقانيم، وآخرون قالوا: هو الأقانيم.

قالوا: وافترقت النصارى من وجه آخر، فذهبت الروم إلى التصريح بإثبات ثلاثة آلهة، وامتنعت اليعقوبية والنسطورية من ذلك في وجه والتزموه من وجه، وذلك أنهم قالوا: الكلمة إله والروح إله والأب إله، والثلاثة الأقانيم التي كل أقنوم إله، إله واحد.

قالوا: وذهبت شرذمة من النصارى إلى أن عيسى كان ابنا لله على جهة الكرامة، فكما اتخذ الله إبراهيم خليلا، كذلك اتخذ عيسى ابنا.

قالوا: وهؤلاء يقال لهم: الأريوسية. فهذا نقل طائفة من نظار المسلمين، وهذا قول لمن قاله من النصارى، وفيه ما هو مخالف لصريح أمانتهم وما عليه جمهورهم، مثل قوله: إنهم لا يسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح ابنا، بل المسيح مع ما تدرع به ابن، فإن هذا خلاف ما عليه فرق النصارى من الملكانية واليعقوبية والنسطورية، وخلاف ما تضمنته أمانتهم، إذ صرحوا فيها بأن الكلمة ابن قديم أزلي مولود قبل الدهور، وهذا صفة اللاهوت عندهم، وفيها أشياء يقولها بعض النصارى لا كلهم، وكذلك نقلهم عنهم أنهم لا يريدون بالكلمة الكلام، فإن الكلام عندهم صفة فعل، وهذا قول طائفة منهم ومن اليهود، وكثير منهم أو أكثرهم يقولون: إن كلام الله غير مخلوق، وينكرون على من يقول إنه مخلوق.

ونقلت طائفة أخرى منهم أبو الحسن بن الزاغوني عنهم ما يوافق هذا من وجه دون وجه، فقالوا: اتفقت طوائف النصارى على أن الله ليس بجسم، واتفقوا على أنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم، وأن كل واحد من الأقانيم جوهر خاص يجمعها الجوهر العام، ثم اختلفوا، فقال بعضهم: إن الأقانيم مختلفة في الأقنومية، متفقة في الجوهرية.

وقال آخرون: ليست مختلفة في الأقنومية، بل متغايرة، وقال فريق منهم: إن كل واحد منها لا هو الآخر، ولا هو غيره، وليست متغايرة ولا مختلفة، وزعموا أن الجوهر ليس هو غيرها إلا ما ذكر عن طائفة من الملكانية، فإنهم قالوا: إن الأقانيم هي الجوهر غير الأقانيم، وزعموا أن الجوهر هو الأب، والأقانيم الحياة، وهي روح القدس، والقدرة، والعلم، وأن الله اتحد بأحد الأقانيم الذي هو الابن بعيسى ابن مريم، وكان مسيحا عند الاتحاد، لاهوتا وناسوتا، حمل، وولد، ونشأ، وقتل، وصلب، ودفن.

واختلفوا أيضا فقالت النسطورية: إن المسيح جوهران أقنومان قديم ومحدث، وأن اتحاده إنما هو بالمشيئة، وأن مشيئتهما واحدة وإن كانا جوهرين.

وقالت اليعقوبية: لما اتحدا صار الجوهران الجوهر القديم والجوهر المحدث جوهرا واحدا.

واختلفوا هاهنا فقال بعضهم: الجوهر المحدث صار قديما، وزعم آخرون أنهما لما اتحدا صارا جوهرا واحدا قديما من وجه محدثا من وجه آخر.

وقالت الملكانية: إن المسيح جوهران أقنوم واحد. وحكي عن بعضهم أنه أقنومان جوهر واحد، وقالت الأريوسية: إن الله ليس بجسم ولا أقانيم له، وأن المسيح لم يصلب ولم يقتل، وأنه نبي، وحكي عن بعضهم أنه قال: المسيح ليس بابن الله، وحكى عن بعضهم أنه ابن الله على التسمية والتقريب.

واختلفوا في الكلمة الملقاة إلى مريم، فقالت طائفة منهم: إن الكلمة حلت في مريم حلول الممازجة، كما يحل الماء في اللبن فيمازجه ويخالطه. وقالت طائفة منهم: إنها حلت في مريم من غير ممازجة، كما أن شخص الإنسان يحل في المرآة وفي الأجسام الصقيلة من غير ممازجة.

وزعمت طائفة من النصارى أن الناسوت مع اللاهوت كمثل الخاتم مع الشمع، يؤثر فيه بالنقش، ثم لا يبقى منه شيء إلا أثره.

قال أبو الحسن بن الزاغوني ومن معه: واختلفت النصارى في الأقانيم فقال قوم منهم: هي جواهر، وقال قوم: هي خواص، وقال قوم هي صفات، وقال قوم: هي أشخاص، والأب عندهم الجوهر الجامع للأقانيم، والابن هو الكلمة التي اتحدت عند مبدأ المسيح، والروح هي الحياة، واجتمعوا على أن الاتحاد صفة فعل وليس بصفة ذات.

قالوا: واختلف قولهم في الاتحاد اختلافا متباينا، فزعم قوم منهم أن الاتحاد هو أن الكلمة التي هي الابن حلت جسد المسيح وقيل: هذا قول الأكثرين منهم.

وزعم قوم منهم أن الاتحاد: هو الاختلاط والامتزاج، وقال قوم من اليعقوبية: هو أن كلمة الله قد انقلبت لحما ودما بالاختلاط، وقال كثير من اليعقوبية والنسطورية: الاتحاد هو أن الكلمة والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط الماء بالخمر وامتزاجهما، وكذلك الخمر باللبن.

وقال قوم منهم: الاتحاد هو أن الكلمة والناسوت اتحدا فصارا هيكلا واحدا.

وقال قوم منهم: الاتحاد مثل ظهور صورة الإنسان في المرآة، وكظهور الطابع في المطبوع، مثل الخاتم في الشمع، وقال قوم منهم: الكلمة اتحدت بجسد المسيح على معنى أنها حلته من غير مماسة ولا ممازجة، كما نقول: الله في السماء على العرش من غير مماسة ولا ممازجة، وكما نقول: إن العقل جوهر حال في النفس من غير مخالطة للنفس ولا مماسة لها. وقالت الملكانية: الاتحاد أن الاثنين صارا واحدا وصارت الكثرة قلة.

وهذا الذي نقله عنهم أبو الحسن الزاغوني هو نحو ما نقله عنهم القاضي أبو بكر بن الطيب والقاضي أبو يعلى وغيرهما، وقال أبو محمد بن حزم: النصارى فرق منهم أصحاب أريوس، وكان قسيسا بالأسكندرية، ومن قوله: التوحيد المجرد وأن عيسى عبد

مخلوق، وأنه كلمة الله التي بها خلق السماوات والأرض، وكان في زمن " قسطنطين " الأول باني القسطنطينية وأول من تنصر من ملوك الروم، وكان على مذهب أريوس هذا.

قال: ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي، وكان بطرياركا بأنطاكية قبل ظهور النصرانية وكان قوله بالتوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام خلقه الله في بطن أمه مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلهية فيه البتة، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة ولا الروح القدس، قال: وكان منهم أصحاب مقدنيوس، كان بطرياركا بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين بن قسطنطين باني القسطنطينية، وكان هذا الملك أريوسيا كأبيه، وكان من قول مقدونيوس هذا التوحيد المجرد وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق إنسان نبي رسول كسائر الأنبياء عليهم السلام، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان، خلق الله كل ذلك، قال: وكان منهم البربرانية، وهم يقولون: إن عيسى وأمه إلهان من دون الله تعالى. قال: وهذه الفرق قد بادت، وعمدتهم اليوم ثلاث فرق، وأعظمها فرق الملكانية، وهي مذهب جميع ملوك النصارى حيث كانوا حاشا الحبشة والنوبة ومذهب عامة أهل كل مملكة النصارى حاشا النوبة والحبشة وهو مذهب جميع نصارى أفريقية وصقلية والأندلس وجمهور الشام، وقولهم أن الله تعالى الله عن قولهم ثلاثة أشياء: أب، وابن، وروح القدس، كلها لم تزل، وأن عيسى إله تام كله وإنسان تام ليس أحدهما غير الآخر، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل، وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان، وأنهما معا شيء واحد ابن الله تعالى الله عن كفرهم.

وقالت النسطورية مثل ذلك سواء بسواء، إلا أنهم قالوا: إن مريم لم تلد الإله، وإنما ولدت الإنسان، وأن الله لم يلد الإنسان، وإنما ولد الإله تعالى الله عن كفرهم، وهذه الفرقة غالبة على الموصل والعراق وفارس وخراسان، وهم منسوبون إلى نسطور، وكان بطرياركا بالقسطنطينية.

وقالت اليعقوبية: إن المسيح هو الله نفسه، وأن الله تعالى الله عن عظيم كفرهم مات وصلب وقتل، وأن العالم بقي ثلاثة أيام بلا

مدبر، والفلك بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان، والله تعالى عاد محدثا، والمحدث عاد قديما، والله تعالى كان في بطن مريم محمولا به، وهم في أعمال مصر وجميع النوبة وجميع الحبشة، وملوك الأمتين المذكورتين.

قلت: ومن أخبر الناس بمقالاتهم من كان من علمائهم، وأسلم على بصيرة بعد الخبرة بكتبهم ومقالاتهم، كالحسن بن أيوب الذي كتب رسالة إلى أخيه علي بن أيوب يذكر فيها سبب إسلامه ويذكر الأدلة على بطلان دين النصارى وصحة دين الإسلام، قال في رسالته إلى أخيه لما كتب إليه يسأله عن سبب إسلامه بعد أن ذكر خطبته: " ثم أعلمك أرشدك الله أن ابتداء أمري في الشك الذي دخلني فيما كنت عليه والاستبشاع بالقول به من أكثر من عشرين سنة لما كنت أقف عليه في المقالة من فساد التوحيد لله عز وجل بما أدخل فيه من القول بالثلاثة الأقانيم وغيرها مما تضمنته شريعة النصارى، ووضع الاحتجاجات التي لا تزكو ولا تثبت في تقرير ذلك، وكنت إذا تبحرته وأجلت الفكر فيه، بان لي عواره، ونفرت نفسي من قبوله، وإذا فكرت في دين الإسلام الذي من الله علي به، وجدت أصوله ثابتة وفروعه مستقيمة وشرائعه جميلة.

وأصل ذلك ما لا يختلف فيه أحد ممن عرف الله عز وجل منكم ومن غيركم وهو الإيمان بالله الحي القيوم السميع البصير الواحد الفرد الملك القدوس الجواد العدل إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وإله موسى وعيسى وسائر النبيين والخلق أجمعين، الذي لا ابتداء له ولا انتهاء، ولا ضد ولا ند، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا، الذي خلق الأشياء كلها لا من شيء ولا على مثال، بل كيف شاء وبأن قال لها: " كوني " فكانت على ما قدر وأراد، وهو العليم القدير الرءوف الرحيم الذي لا يشبهه شيء، وهو الغالب فلا يغلب، والجواد فلا يبخل، لا يفوته مطلوب، ولا تخفى عليه خافية، {يعلم خائنة الأعين وما تخفي

الصدور} [غافر: 19] ، وما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وكل مذكور أو موهوم هو منه، وكل ذلك به، وكل له قانتون، ثم نؤمن بأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ; ليظهره على الدين كله ولو كره

المشركون، ونؤمن بموسى وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا نفرق بين أحد منهم، ونؤمن بالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن وسائر الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الأبرار لفي نعيم وأن الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين، ذلك بما كسبت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد.

قال: وكان يحملني إلف ديني وطول المدة والعهد عليه والاجتماع مع الآباء والأمهات والإخوة والأخوات والأقارب والإخوان والجيران وأهل المودات على التسويف بالعزم، والتلبث على إبرام الأمر، ويعرض مع ذلك الفكر في إمعان النظر والازدياد في البصيرة، فلم أدع كتابا من كتب أنبياء التوراة والإنجيل والزبور وكتب الأنبياء والقرآن إلا نظرت فيه وتصفحته، ولا شيئا من مقالات النصرانية إلا تأملته، فلما لم أجد للحق مدفعا، ولا للشك فيه موضعا، ولا للأناة والتلبث وجها، خرجت مهاجرا إلى الله عز وجل بنفسي هاربا بديني عن نعمة وأهل مستقر ومحل وعز ومتصرف في عمل، فأظهرت ما أظهرته عن نية صحيحة، وسريرة صادقة، ويقين ثابت، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق، وإياه تعالى نسأل أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا منه رحمة، إنه هو الوهاب.

قال: ولما نظرت في مقالات النصارى وجدت صنفا منهم يعرفون بالأريوسية يجردون توحيد الله ويعترفون بعبودية المسيح عليه السلام ولا يقولون فيه شيئا مما يقوله النصارى من ربوبية ولا بنوة خاصة ولا غيرهما، وهم متمسكون بإنجيل المسيح مقرون بما جاء به تلاميذه والحاملون عنه، فكانت هذه الطبقة قريبة من الحق مخالفة لبعضه في جحود نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودفع ما جاء به من الكتاب والسنة.

قال: ثم وجدت منهم صنفا يعرفون باليعقوبية، يقولون: إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين: إحداهما طبيعة الناسوت والأخرى طبيعة اللاهوت، وأن هاتين الطبيعتين تركبتا كما تركبت النفس مع البدن فصارتا إنسانا واحدا وجوهرا واحدا وشخصا واحدا، وأن هذه الطبيعة الواحدة والشخص الواحد هو المسيح، وهو إله كله وإنسان كله، وهو شخص واحد وطبيعة واحدة من طبيعتين.

وقالوا: إن مريم ولدت الله، تعالى الله عما يقولون، وإن الله مات وتألم وصلب متجسدا، ودفن وقام من بين الأموات وصعد إلى

السماء، فجاءوا من القول بما لو عرض على السماء لانفطرت، أو على الأرض لانشقت، أو على الجبال لانهدت، فلم يكن لمحاجة هؤلاء وجه، إذ كان كفرهم بما صرحوا به أوضح من أن يقع فيه الشك، وكان غيرهم من النصارى كالملكانية والنسطورية يشهدون بذلك عليهم.

قال: ثم نظرت في قول الملكانية وهم الروم وهم أكثر النصارى فوجدتهم قالوا: إن الابن الأزلي الذي هو الله الكلمة تجسد من مريم تجسدا كاملا كسائر أجساد الناس، وركب في ذلك الجسد نفسا كاملة بالعقل والمعرفة والعلم كسائر أنفس الناس، وأنه صار إنسانا بالنفس والجسد اللذين هما من جوهر الناس، وإلها بجوهر اللاهوت كمثل أبيه لم يزل، وهو إنسان بجوهر الناسوت مثل إبراهيم وداود، وهو شخص واحد لم يزد عدده وثبت له جوهر اللاهوت كما لم يزل يصح له جوهر الناسوت الذي لبسه من مريم، وهو شخص واحد لم يزد عدده وطبيعتان، ولكل واحدة من الطبيعتين مشيئة كاملة، فله بلاهوته مشيئة مثل الأب والروح، وله بناسوته مشيئة مثل مشيئة إبراهيم وداود.

وقالوا: إن مريم ولدت إلها، وأن المسيح وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت، مات، وقالوا: إن الله لم يمت، والذي ولدت مريم قد مات بجوهر ناسوته (فهو إله تام بجوهر لاهوته، وإنسان تام بجوهر ناسوته، وله مشيئة اللاهوت ومشيئة الناسوت، وهو شخص واحد لا نقول شخصان لئلا يلزمنا القول بأربعة أقانيم.

قال: فهؤلاء أتوا من ذلك بمثل ما أتت به اليعقوبية في ولادة مريم الله، تعالى الله عما يقول الظالمون، وقالوا: إن المسيح وهو اسم لا تشك جماعة النصارى أنه واقع على اللاهوت والناسوت مات، وأن الله لم يمت، فكيف يكون ميتا لم يمت، وقائما قاعدا في حال واحدة؟ وهل بين المقالتين فرق إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع؟

قال: ثم نظرت في قول النسطورية فوجدتهم قالوا: إن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة، وأن طبيعة اللاهوت التي للمسيح غير طبيعة ناسوته، وأن طبيعة اللاهوت لما توحدت بالناسوت بشخصها الكلمة التي صارت الطبيعتان بجهة واحدة وإرادة واحدة، واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصان، ولا يمتزج بشيء، والناسوت يقبل الزيادة والنقصان، فكان المسيح بتلك إلها وإنسانا، فهو إله بجوهر اللاهوت الذي لا يزيد ولا ينقص، وهو إنسان بجوهر الناسوت القابل للزيادة والنقصان.

وقالوا: إن مريم ولدت المسيح بناسوته، وإن اللاهوت لم يفارقه قط منذ توحدت بناسوته.

وقال: فوجدنا اليعقوبية قد صرحوا بأن مريم ولدت الله، تعالى عما يصفه المبطلون ويقوله العادلون، وأنه تألم وصلب ومات، وقام بعد ثلاثة أيام من بين الموتى، وهذا الكفر الذي تشهد به عليهم سائر ملل النصارى وغيرهم، ووجدنا الملكانية قد حادوا عن هذا التصريح إلى ما هو دونه في الظاهر، فقالوا: إن المسيح شخص واحد وطبيعتان، فلكل واحدة من الطبيعتين مشيئة، فله بلاهوته مشيئة مثل الأب والروح، وله بناسوته مشيئة كمشيئة إبراهيم وداود. وأوهموا الواقف على قولهم أنهم بما اخترعوه من هذا الاختيار قد فرقوا بين اللاهوت والناسوت، ثم عادوا إلى قول اليعقوبية، فقالوا: إن مريم ولدت إلها وأن المسيح وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت عند جماعتهم لا يشكون في ذلك، مات بالجسد وأن الله لم يمت، والذي قد ولدته مريم قد مات بجوهر ناسوته، فكيف يكون ميت لم يمت؟ وهل بين المقالتين إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع فرق؟

وإذا كانوا قد اعترفوا بأن مريم ولدت الله، وأن الذي ولدته مريم وهو المسيح الاسم الجامع للجوهرين، للاهوت والناسوت قد مات، فهل وقعت الولادة والموت وسائر الأفعال التي تحكي النصارى أنها فعلت بالمسيح إلا عليهما؟

فكيف يصح لذي عقل عبادة مولود من امرأة بشرية قد مات ونالته العلل والآفات؟

قلت: ومما يوضح تناقضهم أنهم يقولون: إن المسيح وهو اللاهوت والناسوت شخص واحد وأقنوم واحد مع قولهم أنهما جوهران بطبيعتين ومشيئتين فيثبتون للجوهرين أقنوما واحدا، ويقولون: هو شخص واحد، ثم يقولون: إن رب العالمين إله واحد، وأقنوم واحد، وجوهر واحد، وهو ثلاثة أقانيم، فيثبتون للجوهر الواحد ثلاثة أقانيم، وللجوهرين المتحدين أقنوما واحدا، مع أن مشيئة الأقانيم الثلاثة عندهم واحدة، والناسوت واللاهوت يثبتون لهما مشيئتين وطبيعتين، ومع هذا هما عندهم شخص واحد، أقنوم واحد، وهذا يقتضي غاية التناقض سواء فسروا الأقنوم بالصفة، أو الشخص، أو الذات مع الصفة، أو أي شيء قالوه.

وهو يبين أن الذين تكلموا بهذا الكلام ما تصوروا ما قالوه، بل كانوا ضلالا جهالا، بخلاف ما يقوله الأنبياء فإنه حق، فلهذا لا يوجد عن المسيح ولا غيره من الأنبياء ما يوافق قولهم في التثليث والأقانيم والاتحاد ونحو ذلك مما ابتدعوه بغير سمع وعقل، بل ألقوا أقوالا مخالفة للشرع والعقل.

ثم قال الحسن بن أيوب: ثم وجدنا النصارى المعروفين بالنسطورية قد خالفوا اليعقوبية والملكانية في قولهم بشخصين لهما مشيئة واحدة، وأن الطبيعتين اتحدتا فصارتا بجهة واحدة، ثم عادوا إلى شبيه قولهم في أن مريم ولدت المسيح، فإذا كانت ولدت المسيح فقد لزمهم ووجب عليهم الإقرار بأنها ولدت هذا اللاهوت والناسوت المتحدين.

وقد رجع المعنى إلى قول اليعقوبية، إلا أنهم اختاروا لذلك ألفاظا زوقوها وقدروا بها التمويه على السامع، ولم يصرحوا بالقول كتصريح اليعقوبية ; لأن المتحد بالشيء هو الممازج له والمجتمع معه حتى صار مازجه وهو شيئا واحدا، ثم أكدوا القول بإقرارهم أن الناسوت منذ اتحد باللاهوت لم يفارقه، فما لم يفارق الشيء هل هو إلا يجري مجراه في سائر متفرقاته من ضر ونفع، وخير وشر، وحاجة وغنى؟

قال: وأما قولهم: إن مريم ولدت المسيح بناسوته فهذه أغلوطة، وإلا فكيف يولد ولد متحد بشيء آخر مجامع له دون ذلك الشيء؟ وكيف يكون ذاك وهم يقولون إنه لم يفارقه قط؟ وهل يصح هذا عند أهل النظر؟ أوليس الحكم عند كل ناظر ومن كل ذي عقل يوجب أن تكون الولادة واقعة على اللاهوت والناسوت معا؟ بمعنى الاتحاد وبمعنى الاسم الجامع للاهوت والناسوت وهو المسيح، وكذلك الحمل بهما جميعا، وأن يكون البطن قد حواهما؟

قال: فإن لجوا في الباطل ودافعوا عن قبيح هذه المقالة، ومالوا إلى تحسينها بالتمويهات المشككة لمن قصرت معرفته، فنحن نقيم عليهم شاهدا من أنفسهم لا يمكنهم دفعه، وذلك أن شريعة إيمانهم التي ألفها لهم رؤساؤهم من البطاركة والمطارنة والأساقفة والأحبار في دينهم وذوي العلم منهم بحضرة الملك عند اجتماعهم من آفاق الأرض بمدينة " قسطنطينية " وكانوا

ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا، يصفون أنهم نطقوا بها بروح القدس، وهي التي لم تختلف جماعتهم عند اختلافهم في المقالات فيها، ولا يتم لهم قربان إلا بها على هذا النسق الذي نبينه: نؤمن بالله الأب، مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء، الذي من أجلنا معشر البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وصار إنسانا، وحبل به وولد من مريم البتول، وتألم وصلب أيام فيطوس بن بيلاطوس، ودفن، وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه روح، ومجيئه، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قديسية سليخية جاثليقية، وبقيامة أبداننا، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين.

قال: فهذه الشريعة يجتمع على الإيمان بها، وبذل المهج فيها، وإخراج الأنفس دونها جماهيرهم من الملكانية واليعقوبية والنسطورية.

وقد اعترفوا فيها جميعا بأن الرب المسيح الذي هذه صفته على ما اقتصصناه منها الإله الحق من الإله الحق، نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وصار إنسانا وحبل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب.

قال: فهل في هذا الإقرار شبهة أو علقة يتعلق بها العنت المدافع عن الحجة؟ فتدبروا هذا القول يا معشر النصارى، فإنه لا يمكن أحد منكم أن يخرج عنه، ولا أن يدفع ما صرح به، فإنكم إن قلتم: إن المقتول المصلوب هو الله، فمريم على قولكم ولدت الله، سبحانه وتعالى عما يقولون، وإن قلتم: إنه إنسان فمريم ولدت إنسانا، وفي ذلك أجمع بطلان شريعة إيمانكم، فاختاروا أي القولين شئتم، فإن فيه نقض الدين.

قال: وقد يجب على ذوي العقول أن تزجرهم عقولهم عن عبادة إله ولدته مريم، وهي امرأة آدمية، ثم مكث على الأرض ثلاثين سنة تجري عليه أحكام الآدميين من غذاء وتربية، وصحة وسقم، وخوف وأمن، وتعلم وتعليم، لا يتهيأ لكم أن تدعوا أنه كان منه في تلك المدة من أسباب اللاهوتية شيء، ولا له من أحوال الآدميين كلها من حاجتهم وضروراتهم وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم مخرج، ثم أحدث بعد هذه المدة الطويلة ما أحدثه من إظهار أمر الله تعالى والنبوات والآيات الباهرة المعجزة بقوة الله تعالى، وقد كان من غيره من الأنبياء مثلها وما هو أعلى منها، فكانت مدته في ذلك أقل من ثلاث سنين، ثم انقضى أمره بما يصفون أنه انقضى به وينسبونه إليه من حبس وضرب وقذف، وصلب وقتل، فهل تقبل العقول ما يقولون من أن إلها نال عباده منه، مثل ما تذكرون أنه نيل منه؟

فإن تأولتم أن ذلك حل بالجسم، وليس بالقياس يحتمل ذلك لما شرحناه من معنى اتحاد اللاهوت به، أفليس قد وقع بجسم توحدت اللاهوتية به، وحلت الروح فيه، وقد أنجبه الله على ما تزعمون وتصفون لخلاص الخلق، وفوض إليه القضاء بين العباد في اليوم الذي يجتمع فيه الأولون والآخرون للحساب، وقد وجدناكم تؤثرون أخبارا في قوم عرضوا التوابيت فيها شهداء لكم بأن الأيدي التي بسطت إليها جفت، أو هل نال أحدا من الجزع والهلع والغم والقلق والتضرع إلى الله في إزالة ما حل به، مثل ما يحكى في الإنجيل أنه ناله، ووجدنا الكتب تنبئ بأنه نيل من جورجيس أحد من كان على دين المسيح صلى الله عليه وسلم من العذاب الشديد بالقتل والحرق والنشر بالمناشير ما لم يسمع بمثله في أحد من الخلق، ونال خلقا كثيرا من تلامذته أيضا عذاب شديد.

وقيل: لما كان الملوك المحاربون لهم يسومونهم إياه من الرجوع عن أديانهم إلى الكفر الذي كان أولئك الملوك عليه فصبروا على ذلك واحتسبوا أنفسهم، فلم يهربوا من الموت، وقد كان يمكنهم الهرب من بلد إلى بلد، والاستتار وإخفاء أشخاصهم، وما أظهروا في حال من تلك الأحوال جزعا ولا هلعا، وهم بعض الآدميين التابعين له، لأنه خفف عنهم ما كانوا ينالون به بتأييد الله عز وجل إياهم.

قال: ثم نقول قولا آخر: قد نستدل على صحة هذه الشريعة من سقمها بأربعة أوجه، لا يقع في شيء منها شك ولا طعن، ولا زيادة ولا نقصان، وهي أصل أمر المسيح عندكم:

فأولها البشرى التي أتى بها جبريل عليه السلام

والثانية: قول يحيى بن زكريا الذي شهد له المسيح بأنه لم تقم النساء عن مثله.

والثالثة: النداء المسموع من السماء.

والرابعة: قول المسيح عن نفسه حين سأله يحيى عن شأنه.

والذي قال جبريل على ما ثبت في إنجيلكم لمريم حين بشرها: (السلام عليك أيتها الممتلئة نعما، ربنا معك أيتها المباركة في النساء. فلما رأته مريم ذعرت منه، فقال: لا ترهبي يا مريم فقد فزت بنعمة من ربك، فها أنت تحبلين وتلدين ابنا وتسميه يسوع ويكون كبيرا، ويسمى ابن الله العلي، ويعطيه الله الرب كرسي أبيه

داود، ويكون ملكا على آل يعقوب إلى الأبد. فقالت مريم: أنى يكون لي ذلك ولم يمسسني رجل؟ قال لها الملك: إن روح القدس يأتيك، أو قال: يحل فيك، وقوة العلي تحبلك، من أجل ذلك يكون الذي يولد منك قديسا، ويسمى ابن الله العلي) .

قال: فلم نر الملك قال لها: إن الذي تلدين هو خالقك، وهو الرب كما سميتموه، بل أزال الشك في ذلك بأن قال: إن الله الرب يعطيه كرسي أبيه داود، ويصطفيه ويكرمه، وأن داود النبي أبوه، وأنه يسمى ابن الله، وما قال أيضا: (أنه يكون ملكا على الأرض) وإنما جعل له الملك على بني إسرائيل فقط، وقد علمتم أن من يسمى بابن الله كثير لا يحصون، فمن ذلك إقراركم بأنكم جميعا أبناء الله بالمحبة، وقول المسيح: (أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم) ، في غير موضع من الإنجيل، ثم تسمية الله يعقوب وغيره بنيه خصوصا، فالسبيل في المسيح إذا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور أن يجري في هذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار، ونسبة الملك إياه إلى أبيه داود تحقق أن أباه داود، وأن التسمية الأولى على جهة الاصطفاء والمحبة، وأن حلول الروح عليه على الجهة التي قالها " متى " التلميذ للشعب عن المسيح في الإنجيل: (لستم أنتم متكلمين، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم) .

فأخبر أن الروح تحل في القوم أجمعين وتتكلم فيهم، وقال الملك في بشارته لمريم بالمسيح عليه السلام: إنه يكون ملكا على آل يعقوب. فخص آل يعقوب بتملكه عليهم دون غيرهم من الناس، ولم يقل إنه يكون إلها للخلائق، ومعنى قول جبريل عليه السلام

لمريم 74: (ربنا معك) مثل معنى قول الله عز وجل لموسى وغيره من الأنبياء: (إني معكم) فقد قال ليوشع بن نون: (إني أكون معك، كما كنت مع موسى عبدي) فقول النصارى كلهم في مجاري لغتهم ومعاني ألفاظهم أن الله عز وجل وروح القدس مع كل خطيب وراهب وفاضل في دينه على هذه السبيل.

قال: وأما النداء الذي سمعه يحيى بن زكريا من السماء في المسيح، وشهادة يحيى له، فإن " متى " قال في إنجيله: (إن المسيح عليه السلام لما خرج من الأردن تفتحت له السماء، فنظر يحيى إلى روح القدس قد نزلت على المسيح كهيئة حمامة، وسمع نداء من السماء: إن هذا ابني الحبيب الذي اصطفيته) .

فقد علمنا وعلمتم أن المصطفى مفعول، والمفعول مخلوق، وليس يستنكف المسيح عليه السلام من الاعتراف بذلك عن الاعتراف بذلك في كل كلامه، وما زال يقول: (إلهي وإلهكم وأبي وأبيكم) وكلما يصحح به أنه عبد مرسل مربوب مبعوث مأمور يؤدي ما سمع، ويفعل ما حد له، ونحن نشرح هذا في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ثم قال: وقد وجدنا المسيح عليه السلام احتاج إلى تكميل أمره بمعمودية يحيى له، فسار إليه لذلك وسأله إياه، فليس مرتبة المقصود بدون مرتبة القاصد الراغب، وقال " لوقا " التلميذ في إنجيله: (إن يحيى المعمداني أرسل إلى المسيح بعد أن عمده وسأله: أنت ذلك الذي تجيء، أو نتوقع غيرك؟) فكان جواب المسيح لرسله: (أن ارجعوا فأخبروه بما ترون من عميان يبصرون، وزمن ينهضون، وصم يسمعون، فطوبى لمن لم يغتر بي، أو يذل في أمري) .

قال: فوجدنا يحيى مع محله وجلالة قدره عند الله عز وجل ثم ما شهد به للمسيح له من أنه ما قامت النساء عن مثله، قد شك فيه، فاحتاج إلى أن يسأله عن شأنه، ثم لم يكن من جواب المسيح له بشيء مما تصفون من الربوبية، ولا قال: إني خالقك وخالق كل شيء، كما في شريعة إيمانكم، بل حذر الغلط في أمره والاغترار، ولا كان من قوله أكثر مما ذكر أنه أظهر بنبوته من هذه الآيات التي سبق إلى مثلها أكثر الأنبياء.

قال: ولا رأينا يحيى زاد في وضعه إياه لما قرظه وأعلا ذكره مع تشككه في أمره وحاجته إلى مسألته عن حاله على أن قال: (هو أقوى مني، وأني لا أستحق أن أحل معقد خفه) ولم يقل إنه خالقي، وقد يقول الرجل الخير فيمن هو دونه مثل الذي قال يحيى فيه تواضعا لله وخشوعا، كما قال المسيح في يحيى: (إنه ما قامت النساء عن مثله) .

قال: فتركتم ما أتت به الرسل والنبوات في المسيح وهو أصلكم الذي وقع عليه بناؤكم، وجعلتم لأنفسكم شريعة غيرها، ومثل الذين عقدوا هذه الشريعة لكم مثل من آمن بنبوة رجل ينتفي من النبوة، لأن المسيح عليه السلام يقول: إنه مربوب مبعوث، ويقول جبريل: إنه مكرم مصطفى، وأن أباه داود، وأن الله جعله ملكا على آل يعقوب، وينادي مناد من السماء بمثل ذلك، ويشهد يحيى بن زكريا على مثله، وتقولون: بل هو خالق أزلي إلا أنه يستر نفسه، ويقول: المسيح وغيره ممن سمينا أنه معطى وأن الله معطيه، وتقولون: بل رازق النعم وواهبها، ويقول: إن الله أرسله، وتقولون: بل هو الذي نزل لخلاصنا، وتعتقدون سبب نزوله من السماء أنه أراد أن يخلصكم، ويحتمل الخطيئة، ويربط الشيطان! فقد وجدنا الخلاص لم يقع، والخطيئة قائمة لم تزل، والشيطان أعتى ما كان لم يربط، بل سلطه الله عليه على ما تقولون، فحصره في الجبل أربعين يوما يمتحنه، وقال له في بعض أحواله معه: (إن كنت ابن الله فقل لهذه الصخور تصير خبزا، فقال له المسيح مجيبا له: إنه مكتوب أن حياة الإنسان لا تكون بالخبز، بل بكل كلمة تخرج من الله. ثم ساقه الشيطان إلى مدينة بيت المقدس، وأقامه على قرنة الهيكل، وقال له: إن كنت ابن الله فارم بنفسك من هاهنا، فإنه مكتوب إن الملائكة توكل بك، لئلا تعثر رجلك بالحجر. قال يسوع: ومكتوب أيضا: لا تجرب الرب إلهك. ثم ساقه إلى جبل عال وأراه جميع مملكات الدنيا وزخارفها، وقال له: إن خررت على وجهك ساجدا لي جعلت هذا الذي ترى كله لك. قال له المسيح: اغرب أيها الشيطان، فإنه مكتوب: اسجد للرب إلهك، ولا تعبد شيئا سواه. ثم بعث الله عز وجل ملكا اقتلع العدو من مكانه ورمى به في البحر، وأطلق السبيل للمسيح.

وقال: أفلا يعلم من كان في عقله أدنى مسكة، أن هذا الفعل لا يكون من شيطان إلى إله، ولو كان إلها لأزاله عن نفسه قبل أن يأتيه الملك من عند ربه، ولما قال: (أمرنا أن لا نجرب الله، وأن نسجد للرب، ولا نعبد شيئا سواه) . وكيف لم يربط الشيطان عن نفسه قبل أن يربط عن أمته؟ قال: فهذه أمور إذا تأملها المتأمل قبحت جدا، وكثر اختلافها، واشتد تناقضها واضطرابها.

قال: ومما يعجب منه أنكم تعتقدون أن الابن الأزلي اتحد بالمسيح فصارا بجهة واحدة ولم يفارقه قط منذ اتحد به، ومكث على ذلك في بطن أمه تسعة أشهر، ثم أقام مولودا وتغذى باللبن، ومربوبا صبيا مغذى بالأغذية إلى أن بلغ ثلاثين سنة لا يظهر منه شيء من آلة الربوبية، ولا أمر يوجب هذا المحل، ولا كان بينه وبين نظرائه من الآدميين فرق، ولا سطع منه نور، ولا ظهرت له سكينة، ولا حفته الملائكة بالتهليل، ولا ألم به الشعث بعد ذلك فوق ما كان من الأنبياء قبله، فقد كلم الله موسى من العوسجة كيف شاء فأشرق ما حولها نورا، وكلمه من طور سيناء فاضطربت في الجبل النيران، والتبس وجهه النور الساطع حتى كان يتبرقع إذا جلس مع بني إسرائيل بعد ذلك، لأنهم كانوا لا يستطيعون النظر إليه، ثم سأل موسى ربه عز وجل لما قرب منه فقال: رب أرني أنظر إليك. قال: لن تراني ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق) من صعقته استغفر ربه فتاب عليه، وتجلى مجد الله لجماعة من الأنبياء فرأوا حول مجده ربوات الملائكة.

وقال داود: (يا رب إنك حيث عبرت ببلاد سنين تزلزلت الأرض منك وانفطرت من هيبتك) . وقال أيضا كالمخاطب للبحر والجبال والمتعجب منها: (ما لك أيها البحر هاربا، وأنت يا نهر الأردن لم وليت راجعا، وما لك أيتها الجبال تنفرين كالأبابيل، ومالكن أيتها الشوامخ والهضبات تنزو نزو الشياء) . ثم قال كالمجيب عنهم: (من قدام الرب تزلزلت البقاع) .

قال: فإن كان المسيح هو الأزلي الخالق أو كان متحدا به، فكيف لم ترجف بين يديه الجبال ولم تتصرف عن مشيئته الأنهار والبحار؟ أو كيف لم تظهر منه آيات باهرات أجل من آيات الأنبياء قبله مثل المشي على متون الهواء، والاضطجاع على أكتاف الرياح، والاستغناء عن المآكل والمشارب وإحراق من قرب منه من الشياطين والجن، كما أحرق إيليا من قرب منه من جند أحاب الملك، ويمنع الآدميين من نفسه، وما فعلوا على زعمكم بجسمه ليعلم الناس أنه خالقهم أو أنه هيكل الخالق؟

قال: ووجدناكم تقولون: إن الابن إنما يسمى ابن الله وكلامه، لأنه تولد من الأب وظهر منه، فلم نقف على معنى ذلك، لأن شريعة إيمانكم تقول: إن الروح أيضا تخرج من الأب، فإن كان الأمر كما تقولون فالروح أيضا ابن، لأنها تخرج عن الله تعالى، وإلا فما الفرق بينهما؟

قال: ولم نفهم أيضا قولكم: إن الابن تجسد من روح القدس، وأن روح القدس ساقه إلى البر ليمتحنه الشيطان، فما كانت حاجة الابن إلى أن تكون الروح وهي في قولكم مثله تدبره وتغيره من حال إلى حال، أوما علمتم أن الغير السابق المدبر فاعل، والمسبوق المدبر مفعول به، فالابن إذن دون الروح وليس مثله، لأن الأزلي لا ينفك من الأزلي وهو مثله.

قال: وإن كان المسيح من روح القدس، كما قال جبريل الملك لأمه مريم، فلم سميتموه كلمة الله وابنه، ولم تسموه روحه، فإنما قال لها الملك: إن الذي تلدين من روح القدس. والروح غير الابن، ولو كان المعنى واحدا لما قالت الشريعة إنه تجسد من روح

القدس، وإن روح القدس ساقه إلى البر، وإن روح القدس نزل عليه، ولم تثلثون به في إيمانكم فتقولون: نؤمن بالأب والابن والروح القدس؟

قال: ووجدناكم تقولون أيتها النسطورية: إن لله علما وحكمة هما الابن، وحياة هي الروح قديمين، ولعلمه وحياته ذات كذات الله، وذلك أن علم الله له علم وحياة، ولحياته التي هي روحه علم وحياة، وأن الله الأب لما رأى استيلاء العدو على خلقه ونكول الأنبياء عن مناوأته، أرسل إليه ابنه الفرد وحبيبه وجعله فداء ووفاء للناس أجمعين، وأن ابنه نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنسانا، ثم ولد ونشأ وعاش ثلاثين سنة يتقلب بين بني إسرائيل كواحد منهم، يصلي في كنائسهم، ويستن بسننهم، لا يدعي دينا غير دينهم، ولا ينتحل رسالة ولا نبوة ولا بنوة حتى إذا انقضت تلك السنون. أظهر الدعوة وجاء بالآيات الباهرة والبراهين المشهورة، فأنكرته اليهود وقتلته وصلبته، ثم صعد إلى السماء.

وصدقتم بشريعة الإيمان وكفرتم من خالفها، ثم لم تلبثوا أن خلعتموها وانسلختم منها وقلتم: إن المسيح جوهران وأقنومان، جوهر قديم وجوهر حديث، ولكل جوهر أقنوم على حياله، وإن الله جوهر قديم يقوم بمعنيين، فهو واحد يقوم بثلاثة معان، وثلاثة لها معنى واحد، كالشمس التي هي شيء واحد ولها ثلاثة معان: القرص والحر والنور. فالمسيح هو الله، وهو مبعوث غير أنه ليس يعبد.

فكان معنى قولكم هذا: أن المسيح مولود لكنه ليس مفعولا به، وهو مبعوث مرسل لكنكم تستحيون أن تسموه رسولا، إذ كنتم لا تفرقون بين الله وبينه في شيء من الأشياء، وأقبلتم على الملكانية واليعقوبية بالتكفير واللعن لقولهم إن الله والمسيح شيء واحد، ثم لم تلبثوا أن قدمتم المسيح على الله تبارك وتعالى وبدأتم به في التمجيد، ورفعتم إليه تهاليلكم ورغائبكم في أوقات القرابين خاصة، وهي أجل صلواتكم وأفضل محافلكم عندكم، فإنه يقوم الإمام منكم على المذبح من مذابحكم وأهله مرعوبون فتتوقعون نزول روح القدس، بزعمكم من السماء بدعائه.

فيفتح دعاءه ويقول: (ليتم علينا وعليكم نعمة يسوع المسيح ومحبة الله الأب، ومشاركة روح القدس إلى دهر الداهرين) . ثم يختم صلاته بمثل ذلك، فهذا تصريح بالشرك، وتصغير لعظمة الله وعزته أن جعلتم النعم والمواهب لمن هو دونه، وهو معطى ومخول من عند الله على قولكم، وجعلتم لله بعد المسيح محبة ولروحه مشاركة.

قال: ووجدناكم قد عبتم على اليعقوبية قولهم: إن مريم ولدت الله، عز الله وجل عن ذلك، وفي شريعة الإيمان التي بيناها المجتمع عليها أن المسيح إله حق، وأنه ولد من مريم، فما معنى المنافرة، وما الفرق، وما تنكرون من قولهم: إن المقتول المصلوب هو الله عز الله وجل عن ذلك؟

وشريعة إيمانكم تقول: نؤمن بالرب المسيح الذي من خبره وحاله الذي ولد من مريم وتألم وصلب على عهد الملك " بيلاطيس "

النبطي، ودفن وقام في اليوم الثالث، أليس هذا إقرارا بمثل قولهم؟ فتدبروا هذا القول يا أولي الألباب.

فإنكم إن قلتم: إن المقتول المصلوب هو الله، فإن مريم عندكم ولدت الله.

وإن قلتم: إنه إنسان فإن مريم ولدت إنسانا، وبطلت الشريعة، فأي القولين اخترتموه ففيه نقض دينكم، ثم عبتم على الملكانية قولهم: إنه ليس للمسيح إلا أقنوما واحدا، لأنه صار مع الأزلي الخالق شيئا واحدا لا فرق بينهما، وقلتم بأن له أقنومين، لكل جوهر أقنوم على حياله، ثم لم تلبثوا أن رجعتم إلى مثل قولهم فقلتم: إن المسيح وإن كان مخلوقا من مريم مبعوثا، فإنه هيكل لابن الله الأزلي، ونحن لا نفرق بينهما، فإذا كان الأمر عندكم على هذا فما تنقمون على الملكية، وما معنى الافتراق؟ وقد رجعتم في الاتحاد إلى مثل قولهم؟ إن هذا الأمر تحار فيه الأفهام.

فإن كانت الشريعة بمعنى الأمانة عندكم حقا، فالقول ما قال يعقوب، وذلك أنا إذا ابتدأنا من الشريعة في ذكر المسيح، ثم نسقنا المعاني نسقا واحدا وانحدرنا فيها إلى آخرها، وجدنا القوم الذين ألفوها لكم قد صححوا أن يسوع المسيح هو ابن الله وهو بكر الخلائق كلها، وهو الذي ولد من مريم ليس بمصنوع، وهو إله حق من إله حق من جوهر أبيه، وهو الذي أتقن العوالم وخلق كل شيء على يده، وهو الذي نزل لخلاصكم، فتجسد وحملته مريم وولدته، وقتل وصلب، فمن أنكر قول اليعقوبية لزمه أن ينكر هذه الشريعة التي تشهد بصحة قولهم ويلعن من ألفها.

قال: وإنما أخذت تلك الطائفة يعني الذين وضعوا الأمانة بكلمات وذكروا أنهم وجدوها في الإنجيل مشكلات تأولت فيها ما وقع بهواها، وتركت ما في الإنجيل من الكلام البين الواضح الذي يشهد بعبودية المسيح وشهادته بذلك على نفسه وشهادة تلاميذه به عليه، فأخذت بالمشكل اليسير، وجعلت له ما أحبت من التأويل، وألغت الواضح الكثير الذي لا يحتاج إلى تأويل.

قال: فأما احتجاجكم بالشمس، وأنها شيء واحد له ثلاثة معان، وتشبيهكم ما يقولونه في الثلاثة الأقانيم بها، فإن ذلك تمويه لا يصح، لأن نور الشمس لا يحد بحد الشمس، وكذلك حرها لا يحد بحد الشمس، إذ كان حد الشمس جسما مستديرا مضيئا مسخنا دائرا في وسط الأفلاك دورانا دائما، ويتهيأ أن يحد نورها وحرها بمثل هذه الصفة، ولا يقال: إن نورها أو حرها جسم مستدير مضيء مسخن دائم الدوران، ولو كان نورها وحرها شمسا حقا من شمس حق من جوهر الشمس، كما قالت الشريعة في المسيح: إنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه، لكان ما قلتم له مثلا تاما، والأمر مخالف لذلك فلا يشبهه ولا يقع القياس عليه، والحجة منكم فيه باطلة.

قال: ووجدناكم تذكرون أن المسيح نزل من السماء فأبطل بنزوله الموت والآثام، فإن العجب ليطول من هذا القول، وأعجب منه من قبله ولم يتفكر فيه، وممن لم يستقبح أن يعتقد ديانة لله تبارك وتعالى على مثل هذا القول المحال البائن عما تشهد به العقول وتنبئ به المشاهدة، ويدعو الناس إليها، فما هو ببعيد من عقد ما هو أمحل وأبطل منها، لأنه إن كانت الخطيئة بطلت بمجيئه، فالذين قتلوه إذا ليسوا خاطئين ولا مأثومين، لأن لا خاطئ بعد مجيئه ولا خطيئة.

وكذلك أيضا الذين قتلوا حواريه وأحرقوا أسفاره غير خاطئين، وكذلك من نراه من جماعتكم منذ ذلك الدهر إلى هذا الوقت يقتل ويسرق ويزني ويلوط، ويسكر ويكذب، ويركب كل ما نهي عنه من الكبائر وغيرها غير خاطئين، ولا مأثومين.

فمن جحد ذلك فليرجع إلى التسبيحة التي تقرأ بعقب كل قربان، وهو أن (يا ربنا الذي غلب بوجعه الموت الطاغي) .

وفي الأخرى التي تقال في يوم الجمعة الثانية من الفصح: (إن فخرنا بالصليب الذي بطل به سلطان الموت وصرنا إلى الأمن والنجاة بسببه) . وفي بعض التسابيح (بصلوات ربنا يسوع المسيح بطل الموت، وانطفأت فتن الشيطان، ودرست آثارها) . فأي خطيئة بطلت؟ وأي فتنة للشيطان انطفأت؟ أو أي أمر كان الناس عليه قبل مجيئه من المحارم والآثام تغير عن حاله؟

قال: فإذا كان التمويه يقع فيما يلحقه كل أحد بالمعرفة والبيان، فهو فيما أشكل من الأمور وفعل بالتأويلات التي تأولها أولئك المتأولون أوقع.

وإذا كنتم قد قبلتم هذا المحال الظاهر الذي لا خفاء به عن الصبيان، فأنتم لما هو أعظم منه من المحال أقبل، وهذا إنجيلكم يكذب هذا القول، حيث يقول المسيح فيه: (ما أكثر من يقول لي يوم القيامة: يا سيدنا أليس باسمك أخرجنا الشيطان، فأقول: اغربوا عني أيها الفجرة الغاوون، فما عرفتكم قط) فهذا خلاف قول علمائكم ما قالوا، ووضعهم لكم ما وضعوا، ومثله قوله: (إني جامع الناس يوم القيامة عن ميمنتي وميسرتي وقائل لأهل الميسرة: إني جعت فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، وكنت غريبا فلم تأووني، ومحبوسا فلم تزوروني، ومريضا فلم تعودوني، فاذهبوا إلى النار المعدة لكم من قبل تأسيس الدنيا.

وأقول لأهل الميمنة: فعلتم بي هذه الأشياء فاذهبوا إلى النعيم المعد لكم من قبل تأسيس الدنيا) . فهل أدخل أولئك النار إلا خطاياهم التي ركبوها؟ وهل صار هؤلاء إلى النعيم إلا بأعمالهم الجميلة التي قدموها بتوفيق الله إياهم؟ فمن قال: إن الخطيئة قد بطلت، فقد بهت، وقد خالف قول المسيح، وكان هو من الكاذبين.

وقال: ويا أيها القوم الذين هم أولوا الألباب والمعرفة، حيث ينسبونه إلى الربوبية، وينحلونه اللاهوتية، ويجعلونه خالق الخلق أجمعين وإلههم، بماذا ساغ ذلك لكم، وما الحجة فيه عندكم؟

هل قالت كتب النبوات فيه ذلك؟ أو هل قاله عن نفسه؟ أو قاله أحد عن تلامذته والناقلين عنه الذين هم عماد دينكم وأساسه ومن أخذتم الشرائع والسنن عنه؟ ومن كتب الإنجيل وبينه، قد أفصح في كل الإنجيل من كلامه ومخاطبته ووصاياه بما لا يحصى كثرة بأنه عبد مثلكم ومربوب معكم، ومرسل من عند ربه وربكم، ومبدي ما أمر به فيكم، وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته ووصفوه لمن سأل عنه.

وفي كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله عز وجل ونبي له قوة وفضل، فتأولتم في ذلك أنه أخرج كلامه على معنى الناسوت، ولو كان كما تقولون، لأفصح عن نفسه بأنه إله، كما أفصح بأنه عبد ولكنه ما ذكره ولا ادعاه، ولا دعا إليه ولا ادعته له كتب الأنبياء قبله ولا كتب تلامذته ولا حكي عنهم، ولا أوجبه كلام جبريل الذي أداه إلى مريم، ولا قول يحيى بن زكريا.

قال: فإن قلتم: إنكم استدللتم على ربوبيته بأنه أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، ومشى على الماء وصعد إلى السماء، وصير الماء خمرا، وكثر القليل، فيجب الآن أن ينظر إلى كل من فعل من هذه الأمور فعلا فنجعله ربا وإلها، وإلا فما الفرق؟

فمن ذلك أن كتاب " سفر الملوك " يخبر أن إلياس أحيا ابن الأرملة، وأن اليسع أحيا ابن الإسرائيلية، وأن " حزقيال " أحيا بشرا كثيرا، ولم يكن أحد ممن ذكرنا بإحيائه الموتى إلها.

وأما إبراء الأكمه فهذه التوراة تخبر أن يوسف أبرأ عين أبيه يعقوب بعد أن ذهبت، وهذا موسى طرح العصا فصارت حية لها عينان تبصر بهما، وضرب بها الرمل فصار قملا لكل واحدة منها عينان تبصر بهما، ولم يكن واحد منهم بذلك إلها.

وأما إبراء الأبرص، فإن كتاب " سفر الملوك " يخبر بأن رجلا من عظماء الروم برص فرحل من بلده قاصدا اليسع عليه السلام ليبرأه من برصه، فأخبر الكتاب بأن الرجل وقف بباب اليسع أياما لا يؤذن له، فقيل لليسع: إن ببابك رجلا يقال له " نعمان " وهو أجل عظماء الروم، به برص وقد قصدك لتبرأه من مرضه، فإن أذنت له دخل إليك، فلم يأذن له، وقال لرجل من أصحابه: اخرج إلى هذا الرجل فقل له: ينغمس في الأردن سبع مرات، فأبلغ الرسول لنعمان ما أمره به اليسع، ففعل ذلك، فذهب عنه البرص ورجع قافلا إلى بلده، فأتبعه خادم اليسع فأوهمه أن اليسع وجه به إليه يطلب منه مالا، فسر الرجل بذلك ودفع إلى الخادم مالا وجوهرا، ورجع فأخفى ذلك وستره.

ثم دخل إلى اليسع، فلما مثل بين يديه قال له: تبعت نعمان وأوهمته عني كذا وكذا، وأخذت منه كذا وأخفيته في موضع كذا، إذ فعلت الذي فعلت به، فليصر برصه عليك وعلى نسلك، فبرص ذلك الخادم على المكان.

قال: فهذا اليسع قد أبرأ أبرصا، وأبرص صحيحا، وهو أعظم مما فعل المسيح عليه السلام فلم يكن في فعله ذلك إلها.

قال: وأما قولكم أنه مشى على الماء، فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن إلياس عليه السلام سار إلى الأردن ومعه اليسع تلميذه، فأخذ عمامته فضرب بها الأردن فاستيبس له الماء حتى مشى عليه هو واليسع، ثم صعد إلى السماء على فرس من نور واليسع يراه، ودفع عمامته إلى اليسع، فلما رجع اليسع إلى الأردن ضرب بها الماء فاستيبس له حتى مشى عليه راجعا ولم يكن واحد منهما بمشيه على الماء إلها، ولا كان إلياس بصعوده إلى السماء إلها.

قال: وأما قولكم أنه صير الماء خمرا، فهذا كتاب سفر الملوك يخبر بأن اليسع نزل بامرأة إسرائيلية فأضافته وأحسنت إليه، فلما أراد الانصراف قال لها: هل لك من حاجة؟ فقالت المرأة: يا نبي الله إن على زوجي دينا قد فدحه، فإن رأيت أن تدعو الله لنا بقضاء ديننا فافعل.

فقال لها اليسع: اجمعي كل ما عندك من الآنية، واستعيري من جيرانك جميع ما قدرت عليه من آنيتهم. ففعلت، ثم أمرها فملأت الآنية كلها ماء فقال: اتركيه ليلتك هذه. ومضى من عندها فأصبحت المرأة وقد صار ذلك الماء كله زيتا، فباعوه فقضوا دينهم

وتحويل الماء زيتا أبدع من تحويله خمرا، ولم يكن اليسع بذلك إلها.

وأما قولكم: المسيح عليه السلام كثر القليل حتى أكل خلق كثير من أرغفة يسيرة، فإن كتاب " سفر الملوك " يخبر بأن إلياس نزل بامرأة أرملة، وكان القحط قد عم الناس وأجدبت البلاد، ومات الخلق ضرا وهزلا، وكان الناس في ضيق، فقال للأرملة: هل عندك طعام؟ فقالت: والله ما عندي إلا كف من دقيق في قلة، أردت أن أخبزه لطفل لي، وقد أيقنا بالهلاك لما الناس فيه من القحط.

فقال لها: أحضريه فلا عليك. فأتته به، فبارك عليه، فمكث عندها ثلاث سنين وستة أشهر تأكل هي وأهلها وجيرانها منه حتى فرج الله عن الناس، فقد فعل إلياس في ذلك أكثر مما فعل المسيح، لأن إلياس كثر القليل وأدامه، والمسيح كثر القليل في وقت واحد، ولم يكن إلياس بفعله هذا إلها.

قال: فإن قلتم: إن هؤلاء الأنبياء ليس لهم صنع في هذه الأفعال، وإن الصنع فيها والقدرة لله عز وجل إذ كان هو الذي أجراها على أيديهم فقد صدقتم، ونقول لكم أيضا: كذلك المسيح ليس له صنع فيما ظهر على يديه من هذه الأعاجيب، إذ كان الله هو الذي أظهرها على يديه، فما الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء؟ وما الحجة في ذلك؟

قال: وإن قلتم: إن الأنبياء كانت إذا أرادت أن يظهر الله على أيديهم آية تضرعت إلى الله ودعته وأقرت له بالربوبية وشهدت على أنفسها بالعبودية.

قيل لكم: وكذلك سبيل المسيح، سبيل سائر الأنبياء، قد كان يدعو ويتضرع ويعترف بربوبية الله، ويقر له بالعبودية، فمن ذلك: أن الإنجيل يخبر بأن المسيح أراد أن يحيي رجلا يقال له العازر، فقال: (يا أبي أدعوك كما كنت أدعوك من قبل فتجيبني وتستجيب لي، وأنا أدعوك من أجل هؤلاء القيام ليعلموا) . وقال بزعمكم وهو على الخشبة: (إلهي إلهي لم تركتني؟) ، وقال: (يا أبي اغفر لليهود ما يعملون، فإنهم لا يدرون ما يصنعون) .

وقال في إنجيل متى: (يا أبي أحمدك) . وقال: (يا أبي إن كان بد أن يتعداني هذا الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا، فلتكن مشيئتك) . وقال أيضا: (أنا أذهب إلى إلهي الذي هو أعظم مني) وقال: (لا أستطيع أن أصنع شيئا ولا أتفكر فيه إلا باسم إلهي) . وقال يعني نفسه: (لا ينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده، ولا للرسول أن يكون أعظم ممن أرسله) .

وقال: (إن الله لم يلد ولم يولد، ولم يأكل ولم يشرب، ولم ينم ولم يره أحد من خلقه، ويراه أحد إلا مات) .

والمسيح قد أكل وشرب وولد، ورآه الناس فما ماتوا من رؤيته ولا مات أحد منهم، وقد لبث فيهم ثلاثا وثلاثين سنة.

قلت: وعامة ما ذكره هذا عن الكتب تعترف به النصارى، ولكن بعضهم ينازعه في يسير من الألفاظ، فنازعه هنا في قوله:

(لا ينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده) . وقال: هذا إنما قاله المسيح للحواريين، وذكر أنه لا يعرف عنه لفظ (لم يولد، ولم يأكل ولم يشرب) .

قال: وقال في إنجيل يوحنا: ": (إنكم متى رفعتم ابن البشر فحينئذ تعلمون أني أنا هو وشيء من قبل نفسي لا أفعل، ولكن كل شيء كالذي علمني أبي) . وقال في موضع آخر: (من عند الله أرسلت معلما) . وقال لأصحابه: (اخرجوا بنا من هذه المدينة، فإن النبي لا يجل في مدينته) وأخبر الإنجيل أن امرأة رأت المسيح فقالت: إنك لذلك النبي الذي كنا ننتظر مجيئه؟ فقال لها المسيح: (صدقت، طوبى لك) . وقال لتلامذته: (كما بعثني أبي كذلك أبعث بكم) .

قال: فاعترف بأنه نبي وأنه مألوه ومربوب ومبعوث، وقال لتلامذته: (إن من قبلكم وآواكم فقد قبلني، ومن قبلني فإنما يقبل من أرسلني، ومن قبل نبيا باسم نبي فإنما يفوز بأجر من قبل النبي) .

فبين هاهنا في غير موضع أنه نبي مرسل، وأن سبيله مع الله سبيلهم معه، وقال متى التلميذ في إنجيله، يستشهد على المسيح بنبوة أشعيا عن الله عز وجل: (هذا عبدي الذي اصطفيته، وحبيبي الذي ارتاحت إليه نفسي، أنا واضع روحي عليه، ويدعو الأمم إلى الحق) . فلن يحتاج إلى حجة أوضح من هذا القول الذي جعلتموه حجة لكم، فقد أوضح الله أمره وسماه عبدا، وأعلم أنه يضع عليه روحه ويؤيده بها كما أيد سائر الأنبياء بالروح فأظهروا الآيات المذكورة عنهم، وهذا القول يوافق ما بشر به جبريل الملك مريم حين ظهر لها، وقال القول الذي سقناه في صدر كتابنا.

وقال يوحنا التلميذ في الإنجيل عن المسيح عليه السلام: (إن كلامي الذي تسمعون هو كلام من أرسلني) . وقال في موضع

آخر: (إن أبي أجل وأعظم مني) . وقال أيضا: (كما أمرني أبي كذلك أفعل أنا، أنا الكرم وأبي هو الفلاح) . وقال يوحنا: (كما للأب حياة في جوهره، فكذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في قينومه) . قال: فالمعطي خلاف المعطى لا محالة، والفاعل خلاف المفعول.

قال: وقال المسيح في إنجيل يوحنا: (إني لو كنت أنا الشاهد لنفسي على صحة دعواي، لكانت شهادتي باطلة، لكن غيري يشهد لي، فأنا أشهد لنفسي ويشهد لي أبي الذي أرسلني) . وقال المسيح لبني إسرائيل: (تريدون قتلي، وأنا رجل قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقوله.!

قال: وقال في الرجل الذي أقامه من الموتى: (يا أبي أشكرك على استجابتك دعائي وأعترف لك بذلك، وأعلم أنك كل وقت تجيب دعوتي، لكن أسألك من أجل هذه الجماعة ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني) . قال: فأي تضرع وإقرار بالرسالة والمسألة والطلب للإجابة من الله عز وجل أشد من هذا أو أكثر؟

قال: وقال في بعض مخاطبته لليهود وقد نسبوه إلى الجنون: (أنا لست بمجنون، ولكن أكرم أبي ولا أحب مدح نفسي، بل أمدح أبي، لأني أعرفه، ولو قلت: إني لا أعرفه، لكنت كذابا مثلكم، بل أعرفه وأتمسك بأمره) .

قال: وقال داود في مزموره المائة وعشرة: (قال الرب اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئا لرجليك، عصا العظمة تبعث الرب من صهيون، ويبسط على أعدائك شعبك يا مسيح يوم الرعب في بهاء القدس من اليوم الذي ولدتك يا صبي، عهد الرب ولا يكذب أنك أنت الكاهن المؤيد يشبه ملكليز داق.)

قال: فهذه مخاطبة ينسبونها إلى اللاهوت، وقد أبان داود في مخاطبته، أن لربه الذي ذكره ربا هو أعظم منه وأعلى أعطاه ما حكيناه، ومنحه ذلك وشهد عليه، إن عصا العظمة تبعث ربه هذا من صهيون وسماه صبيا محققا لقوله الأول: اليوم ولدتك ونسقا على أول كلامه وهو ربه، ووصف أنه الكاهن المؤيد الذي يشبه ملكليز داق.

قلت: قالوا: وهذا الكاهن هو الذي ذكر في التوراة أن الخليل أعطاه القربان، وإذا كان المسيح مشبها به مع تسميته كاهنا، كان ذلك من أعظم الأدلة على أنه مخلوق، قال: فأما قوله: (من البدء ولدتك) ، فهو يشبه قول داود: (تبنني على نفسه من البدء. ذكرتك وهديت كل أعمالك) . وبعضهم يقول: لفظ النص: (إن الرب يبعث عصاه من صهيون) .

قال: وقال شمعون الصفا رئيس الحواريين في الفصل الثاني من قصصهم: (يا رجال بني إسرائيل اسمعوا مقالتي، إن يسوع الناصري رجل ظهير لكم من عند الله بالقوة والأيدي والعجائب التي أجراها على يديه، وأنكم أسلمتموه وقتلتموه، فأقام الله يسوع هذا من بين الأموات) .

قال: فأي شهادة أبين وأوضح من هذا القول؟ وهو أوثق التلاميذ عندكم يخبر كما ترون أن المسيح رجل وأنه من عند الله، وأن الآيات التي ظهرت منه بأمر الله أجراها على يديه، وأن الذي بعثه من بين الموتى هو الله عز وجل.

قال: وقال في هذا الموضع: (اعلموا أن الله جعل يسوع الذي قتلتموه ربا ومسيحا) . قال: فهذا القول يزيل تأويل من لعله يتأول في الفصل الأول أنه أراد بقوله الناسوت، لأنه يقول: إن الله جعله ربا ومسيحا، والمجعول مخلوق مفعول، قال أبو نصر: وإنما سمي ناصري ; لأن أمه كانت من قرية يقال لها: " ناصرة " في الأردن وبها سميت النصرانية.

قال: وقد سمى الله جل ثناؤه يوسف ربا، قال داود في مزمور مائة وخمسة: (وللعبودية بيع يوسف وشدوا بالكبول رجليه وبالحديد دخلت نفسه حتى صدقت كلمته قول الرب جربه، بعث الملك فخلاه وصيره مسلطا على شعبه، وربا على بنيه، ومسلطا على فتيانه) .

وقال لوقا في آخر إنجيله: (إن المسيح عرض له وللوقا تلميذه جبريل في الطريق وهما محزونان، فقال لهما وهما لا يعرفانه: ما بالكما محزونين؟ فقالا: كأنك أنت وحدك غريب ببيت المقدس، إذ كنت لا تعلم ما حدث فيها في هذه الأيام من أمر يسوع الناصري، فإنه كان رجلا نبيا قويا في قوله وفعله عند الله وعند الأمة، أخذوه وقتلوه) على قولهم فيه.

قال: فهذا قوله وأقوال تلاميذه قد تركتموها وعقدتم على بدع ابتدعها لكم أولوكم تؤدي إلى الضلالة والشرك بالله جل ثناؤه. وقال داود في المزمور الثاني في زبوره مخاطبا لله ومثنيا على المسيح: (من الرجل الذي ذكرته والإنسان الذي أمرته وجعلته دون الملائكة قليلا، وألبسته المجد والكرامات؟) ، وقال في المزمور الثاني: (قال لي الرب: أنت ابني وأنا اليوم ولدتك، سلني فأعطيك) ، فقوله: " ولدتك " دليل على أنه حديث غير قديم، وكل حادث فهو مخلوق، ثم أكد ذلك بقوله: " اليوم " فحد باليوم حدا لولادته أزال به الشك في أنه ما كان قبل اليوم، ودل بقوله: " سلني فأعطيك " على أنه محتاج إلى المسألة غير مستغن عن العطية، قال: فهذا ما حضرنا من الآيات في تصحيح خلق المسيح وعبوديته، وبطلان ما يدعونه من ربوبيته، ومثله كثير في الإنجيل لا يحصى، فإذا كانت الشهادات منه على نفسه، ومن الأنبياء عليه، ومن تلاميذه بمثل ما قد بيناه في هذا الكتاب، وإنما اقتصرنا على الاحتجاج عليكم من كتبكم، فما الحجة فيما تدعونه له ومن أي جهة أخذتم ذلك واخترتم الكلام الشنيع الذي يخرج عن المعقول، وتنكره النفوس، وتنفر منه القلوب، الذي لا يصح بحجة ولا قياس ولا تأويل على القول الجميل الذي تشهد به العقول وتسكن إليه النفوس ويشاكل عظمة الله وجلاله.

قال: وإذا تأملتم كل ما بيناه تأمل إنصاف من أنفسكم وإشفاق عليها، علمتم أنه قول لا يحتمل أن يتأول فيه للناسوت شيئا دون اللاهوت.

قال: فإن قلتم: إنه يثبت للمسيح البنوة بقوله: (أبي وأبيكم، ويا أبي، وبعثني أبي) . قلنا: فإن كان الإنجيل أنزل على هذه الألفاظ لم تبدل ولم تغير، فإن اللغة قد أجازت أن يسمى الولي ابنا، وقد سماكم الله جميعا بنيه، وأنتم لستم في مثل حاله.

ومن ذلك أن الله عز وجل قال لإسرائيل في التوراة: (أنت ابني بكري) . وقال لداود في الزبور: (أنت ابني وحبيبي) . وقال المسيح في الإنجيل للحواريين: (أريد أن أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم) . فسمى الحواريين أبناء الله، وأقر بأن له إلها هو الله ومن كان له إله فليس بإله كما تقولون، فإن زعمتم أن المسيح إنما استحق الإلهية بأن الله سماه ابنا، فنلتزم ذلك ونشهد بالإلهية لكل من سماه ابنا، وإلا فما الفرق؟

قال: فإن قلتم: إن إسرائيل وداود ونظراءهم إنما سموا أبناء الله على جهة الرحمة من الله لهم، والمسيح ابن الله على الحقيقة، تعالى الله عن ذلك.

قلنا: يجوز لمعارض أن يعارضكم، فيقول لكم: ما تنكرون أن يكون إسرائيل وداود ابني الله على الحقيقة، والمسيح ابن رحمة، وما الفرق؟

فإن قلتم: إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل، أن المسيح جاء إلى مقعد فقال: (قم قم، فقد غفرت لك، فقام الرجل، ولم يدع الله في ذلك الوقت) .

قلنا لكم: هذا إلياس أمر السماء أن تمطر فأمطرت، ولم يدع الله في ذلك الوقت، وكذلك اليسع أمر نعمان الرومي أن ينغمس في الأردن من غير دعاء ولا تضرع، على أنا قد وجدناه في الإنجيل قد تضرع، وسأل مسائل قد تقدم ذكرها.

وقال في بعض الإنجيل: (يا أبي أشكرك على استجابتك دعائي، وأعلم أنك في كل وقت تجيب دعوتي، لكن أسألك من أجل هذه الجماعة ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني) .

فإن قلتم: إن الغفران من الله عز وجل وأن المسيح قال لبعض بني إسرائيل: (قم فقد غفرت لك) والله هو الذي يغفر الذنوب.

قلنا: فقد قال الله في السفر الخامس من التوراة لموسى: (اخرج أنت وشعبك الذي أخرجت من مصر، وأنا أجعل معكم ملكا يغفر ذنوبكم) .

فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه غفر ذنوب المقعد، فالملك إذا إله، لأنه يغفر ذنوب بني إسرائيل وإلا فما الفرق؟

فإن قلتم: إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل، أن الله سماه ربا فقال: (ابن البشر رب السبت) .

قلنا: فهذه التوراة تخبر بأن لوطا عليه السلام لما رأى الملكين قد أقبلا من البرية لهلاك قومه قال لهما: (يا ربي ميلا إلى منزل عبدكما) . وقد تقدم لنا احتجاج في هذا الكتاب بذكر من سمي في الكتب ربا من يوسف وغيره، فإن كان المسيح إلها لأنه سمي ربا، فهؤلاء إذا آلهة، لأنهم سموا بمثل ذلك.

فإن قلتم: إن الأنبياء قد تنبأت بإلهية المسيح، فقال أشعيا: (العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعى اسمه " عمانويل ") ، وتفسيره: " معنا إلهنا ".

قلنا: إن هذا اسم يعاره السيد الشريف من الناس، وإن كان الله عز وجل المنفرد بمعنى الإلهية جل ثناؤه فقد قال الله في التوراة لموسى عليه السلام: (قد جعلتك لهارون إلها، وجعلته لك نبيا) .

وقال في موضع آخر: (قد جعلتك يا موسى إلها لفرعون) . وقال داود في الزبور لمن كانت عنده حكمة: (كلكم آلهة ومن العلية تدعون) .

فإن قلتم: إن الله عز وجل جعل موسى إلها لهارون على معنى الرياسة عليه.

قلنا: وكذلك قال أشعيا في المسيح إنه إله لأمته على هذا المعنى، وإلا فما الفرق؟

فإن قلتم: إن المسيح قد قال في الإنجيل: (من رآني فقد رأى أبي، وأنا وأبي واحد) .

قلنا: إن قوله: (أنا وأبي واحد) إنما يريد به أن قبولكم لأمري هو قبولكم لأمر الله، كما يقول رسول الرجل: أنا ومن أرسلني واحد، ويقول الوكيل: أنا ومن وكلني واحد، لأنه يقوم فيما يؤديه مقامه، ويؤدي عنه ما أرسله به، ويتكلم بحجته ويطالب له بحقوقه، وكذلك قوله: (من رآني فقد رأى أبي) ، يريد بذلك أن من رأى هذه الأفعال التي أظهرها فقد رأى أفعال أبي.

فإن قلتم: إن المسيح قد قال في الإنجيل: (أنا قبل إبراهيم) ، فكيف يكون قبل إبراهيم، وإنما هو من ولده؟ ولكن لما قال (قبل إبراهيم) علمنا ما أراد أنه قبل إبراهيم من جهة الإلهية.

قلنا: هذا سليمان بن داود يقول في حكمته: (أنا قبل الدنيا وكنت مع الله حيث بدأ الأرض) ، فما الفرق بينه وبين من قال: إن سليمان ابن الله، وأنه إنما قال: أنا قبل الدنيا بالإلهية، وقد قال داود أيضا في الزبور: (ذكرتك يا رب من البدء، وهديت بكل أعمالك) .

فإن قلتم: إن كلام سليمان بن داود متأول، لأنهما من ولد إسرائيل، وليس يجوز أن يكونا قبل الدنيا.

قلنا: وكذلك قول المسيح أنا قبل الدنيا متأول، لأنه من ولد إبراهيم، ولا يجوز أن يكون قبل إبراهيم، فإن تأولتم تأولنا، وإن تعلقتم بظاهر الخبر في المسيح تعلقنا بظاهر الخبر في سليمان وداود، وإلا فما الفرق؟

وقد قدمنا هذا الاحتجاج على تأويلكم لتعلموا بطلان ما ذهبتم إليه على أنه تأويل غير واقع بحقه، وإنما حقه أن يكون هذا الاسم يعني " عمانويل " لما وقع على المسيح كان معناه أنه أخبر عن نفسه بأن " إلهنا معنا " يعني أن الله معه ومع شعبه معينا وناصرا.

ومما يصحح ذلك أنكم تتسمون به، ولو كان المعنى ما ذهبتم إليه لما جاز لأحد أن يتسمى به، كما لم يجز أن يتسمى بالمسيح ; لأنه مخصوص بمعناه.

فإن قلتم: إن تلاميذ المسيح كانوا يعلمون الآيات باسم المسيح.

قلنا لكم: فقد قال الله جل ثناؤه ليحيى بن زكريا: (قد أيدتك بروح القدس وبقوة إلياس، وهي قوة تفعل الآيات) ، فأضاف القوة إلى إلياس.

فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه فعلت الآيات باسمه، فما الفرق بينكم وبين من قال: إن إلياس إله فإنه فعلت بقوته الآيات؟ فإن قلتم: إن الخشبة التي صلب عليها المسيح على زعمكم ألصقت بميت فعاش، فإن هذا دليل على أنه إله. قلنا لكم: فما الفرق بينكم وبين من قال: إن اليسع إله؟ واحتج في ذلك (بأن كتاب سفر الملوك يخبر بأن رجلا مات فحمله أهله إلى المقبرة، فلما كانوا بين القبور رأوا عدوا لهم يريد أنفسهم فطرحوا الميت عن رقابهم وبادروا إلى المدينة، وكان الموضع الذي ألقوا عليه الميت قبر اليسع، فلما أصاب ذلك الميت تراب قبر اليسع عاش وأقبل يمشي إلى المدينة، فإن زعمتم أن المسيح إله لأن الخشبة التي ذكروا أنه صلب عليها ألصقت بميت فعاش، فاليسع إله، لأن تراب قبره لصق بميت فعاش.

فإن قلتم: أن المسيح كان من غير فحل. قلنا لكم: قد كان ذلك، وليس أعجوبة الولادة توجب الإلهية ولا الربوبية، لأن القدرة في

ذلك للخالق تبارك وتعالى لا للمخلوق، وعلى أنه يوجدكم لأن حواء خلقت من فحل بلا أنثى، وخلق أنثى من ذكر بلا أنثى، أعجب من ذكر من أنثى بغير ذكر، وأعجب من ذلك أن آدم خلقه الله من تراب، وخلق بشر من تراب أعجب وأبدع من خلق ذكر من أنثى بلا فحل، فما الفرق؟

قال: وهذه الأسباب التي ذكرناها كلها هي الأسباب التي تتعلقون بها في نحلتكم المسيح الربوبية، وإضافتكم إليه الإلهية، وقد وصفناها على حقائقها عندكم، وقبلنا فيها قولكم، وإن كنا لا نشك في أن أهل الكتاب قد حرفوا بعض ما فيها من الكلام عن مواضعه، وأوجدناكم بطول ما تنتحلونه وفساد ما تتأولونه من الكتب التي في أيديكم التوراة والزبور والأنبياء والإنجيل، فما الذي يثبت الحجة بعد ذلك لكم؟

قال: وقد قال السيد المسيح في الإنجيل لتلاميذه لما سألوه عن الساعة والقيامة: (إن ذلك اليوم وتلك الساعة لا يعرفه أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن أيضا، ولكن الأب وحده يعرفه) . قال: فهذا إقرار منه بأنه منقوص العلم، وأن الله تبارك وتعالى أعز وأعلم منه، وأنه خلافه وأعلا منه، وقد بين بقوله (أحد) عمومه بذلك الخلق جميعا، ثم قال: (ولا الملائكة) وعندهم من علم الله ما ليس عند أهل الأرض، ثم قال: (ولا الابن) وله من القوة ما ليس لغيره، وشهد قوله هذا شهادة واضحة عليه بأنه لا يعلم كل ما يعلمه الله، بل ما علمه الله إياه وأطلعه على معرفته وجعله له، وأنه لقصور معرفته بكل الأشياء ليس بحيث يصفونه من الربوبية، وأنه هو الله ومن جوهر أبيه، تعالى الله الخالق لكل شيء علوا كبيرا، ولو كان إلها كما يقولون، لعلم ما

يعلمه الله من سائر الأشياء وسرائر الأمور وعلانيتها، إذا كان هذا المعنى ليس من الكلام الذي إذا سئلتم عنه تعلقتم بأنه قيل للناسوت دون اللاهوت.

قلت: مقصوده بذلك أنه صرح بأنه لا يعلمه أحد، ثم خص الملائكة بالذكر لئلا يظن أن أحدا منهم يعلمه، فقال: (ولا الملائكة الذين في السماء) ، ثم قال: (ولا الابن يعرفه، وأن الأب وحده يعرفه) ، فنفى معرفة الابن، وأثبت أن الأب وحده يعرفه، ومراده بالابن المسيح، فعرف أن المسيح لا يعرفه، وأثبت أن الرب يعرفه دون الابن، ودل ذلك على أن لفظ الابن عند المسيح إنما يراد بها الناسوت وحده، إذ كان لا يجوز نفي العلم عن اللاهوت، فإن اللاهوت يعلم كل شيء، وقد دل ذلك على أن قوله: (عمدوا الناس باسم الأب والابن) ، المراد به الناسوت وحده، كما أريد بلفظ الابن في سائر كلامه وكلام غيره لم يرد قط أحد منهم بلفظ الابن اللاهوت، بل إطلاق الابن على اللاهوت مما ابتدعته النصارى وحملوا عليها كلام المسيح، فابتدعوا لصفات الله أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وحملوا عليها كلام المسيح، وإنما يحمل كلام الأنبياء عليهم السلام وغيرهم على معنى لغتهم التي جرت عادتهم بالتكليم بها، لا على لغة يحدثها من بعدهم ويحمل كلامهم عليها.

قلت: فإن هذا الذي فعلته النصارى وأشباههم يفتح باب الإلحاد في كتب الله المنزلة وقد قال تعالى: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة} [فصلت: 40] ".

وذلك أن كل من اعتقد معاني برأيه يمكنه أن يعبر عنها بألفاظ تناسبها بنوع مناسبة، وتلك الألفاظ موجودة في كلام الأنبياء عليهم السلام لها معان أخر، ويجعل تلك الألفاظ دالة على معانيه التي رآها، ثم يجعل الألفاظ التي تكلمت بها الأنبياء وجاءت بها الكتب الإلهية أرادوا بها معانيه هو، وهكذا فعل سائر أهل الإلحاد في سائر الكتب الإلهية، كما فعلته النصارى مثل ما عمدت الملاحدة المتبعون لفلاسفة اليونان القائلون بأن هذه الأفلاك قديمة أزلية لم تزل ولا تزال، وأن الله لم يتكلم بالتوراة ولا غيرها من الكتب الإلهية، ولا هو عالم بالجزئيات لا بموسى بن عمران ولا بغيره، ولا هو قادر أن يفعل بمشيئة، ولا يقيم الناس من قبورهم، فقالوا: خلق وأحدث وفعل وصنع ونحو ذلك يقال على الإحداث الذاتي، والإحداث الزماني.

فالأول: هو إيجاب العلة لمعلولها المقارن لها في الزمان.

والثاني: إيجاد الشيء بعد أن لم يكن، ثم قالوا: ونحن نقول: إن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأحدث ذلك وأبدعه وصنعه، كما أخبرت بذلك الأنبياء عليهم السلام، لكن مرادهم بذلك الإحداث الذاتي، وهو أن ذلك معلول له لم يزل معه.

فيقال لهم: لم يستعمل أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل ولا أحد من سائر الأمم لفظ الخلق والإحداث إلا فيما كان بعد عدمه، وهو ما كان مسبوقا بعدمه ووجود غيره، ومعنى هذا اللفظ معلوم بالاضطرار في جميع لغات الأمم، وأيضا فاللفظ المستعمل في لغة العامة والخاصة لا يجوز أن يكون معناه ما لا يعرفه إلا بعض الناس، وهذا المعنى الذي يدعونه لو كان حقا لم يتصوره إلا بعض الناس، فلا يجوز أن يكون اللفظ العام الذي تداوله العامة والخاصة موضوعا له إذا كان هذا يبطل مقصود اللغات، ويبطل تعريف الأنبياء للناس، فكيف وهو باطل في صريح المعقول؟ كما هو باطل في صحيح المنقول، فإنه لم يعرف أن أحدا قط عبر عن القديم الأزلي الذي لم يزل موجودا ولا يزال بأنه محدث أو مخلوق أو مصنوع أو مفعول، فهذا الذي ذكرتموه كذب صريح على الأنبياء عليهم السلام لتوهموا الناس أنكم موافقون لهم، والكتب الإلهية كالتوراة والقرآن مصرحة بأن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، والقديم الأزلي لا يكون مخلوقا في ستة أيام، وكذلك الكتب الإلهية كالتوراة والقرآن قد أخبرت بتكليم الله لموسى وبندائه إياه من الطور من الشجرة، وفي التوراة أنها شجرة العليق.

وأخبرت بأن موسى عليه السلام كان يلقي عصاه فتصير حية تسعى، ويخبر بأن الله فلق البحر، فقالت الملاحدة: إن الشيء الثابت يسمى طورا، فإنه ثابت كالجبل، والقلوب تسمى أودية، وإظهار العلوم بتفجير ينابيع العلم، والحجة المبتلعة كلام أهل الباطل هي عصا معنوية، فمراد الكتب بالطور العقل الفعال الذي فاض منه العلم على قلب موسى عليه السلام، والوادي قلب موسى، والكلام الذي سمعه موسى سمعه من سماء عقله، وتلك الأصوات كانت في نفسه لا في الخارج، والملائكة التي رآها كانت أشخاصا نورانية تمثلت في نفسه لا في الخارج، والبحر الذي فلقه هو بحر العلم، والعصا كانت حجته، غلب على السحرة بحجته العلمية فابتلعت حجته شبههم التي جعلوها حبالا يتوسلون بها إلى نيل أغراضهم، وعصيا يقهرون بها من يجادلونه.

أفليس من قال مثل هذا الكلام يعلم بالاضطرار أنه يكذب على الكتب الإلهية التي أخبرت بقصة موسى كالتوراة والقرآن، وأنه ليس مراد الرسل بما أخبروا به من قصة موسى هذا، بل صرحوا بأن موسى سمع نداء الله له، وأنه كلمه من الطور طور سينا

الذي هو الجبل، وقلب عصاه التي كان يهش بها على غنمه ثعبانا عظيما، وفلق له البحر وأغرق فيه آل فرعون فغرقوا وماتوا فيه وهلكوا، وأمثال هذا من تحريفات الملاحدة كثير.

فهكذا النصارى حرفوا كتب الله وسموا صفة الله القديمة الأزلية

التي هي علمه أو حكمته ابنا، وسموها أيضا كلمة، وسموا صفته القديمة الأزلية، التي هي حياته روح القدس، وتسمية هذه الصفات بهذه الأسماء لا توجد في شيء من كلام الأنبياء ولا غيرهم ولا يعرف أن أحدا قط لا من الأنبياء ولا غيرهم سمى علم الله القائم به ابنه، بل وسمى علم أحد من العالمين القائم به ابنه، ولكن لفظ الابن يعبر به عمن ولد الولادة المعروفة، ويعبر به عمن كان هو سببا في وجوده، كما يقال: ابن السبيل، لمن ولدته الطريق، فإنه لما جاء من جهة الطريق جعل كأنه ولده.

ويقال لبعض الطير: ابن الماء، لأنه يجيء من جهة الماء، ويقال: كونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن الابن ينتسب إلى أبيه ويحبه ويضاف إليه، أي كونوا ممن ينتسب إلى الآخرة ويحبها ويضاف إليها، وهذا اللفظ موجود في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب في حق الصالحين الذين يحبهم الله ويربيهم، كما ذكروا أن المسيح قال: (أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم) . وفي التوراة: أن الله قال ليعقوب: (أنت ابني بكري) .

ونحو ذلك مما يراد به إذا كان صحيحا له معنى صحيح، وهو المحبة له والاصطفاء له، والرحمة له، وكان المعنى مفهوما عند

الأنبياء عليهم السلام ومن يخاطبونه، وهو من الألفاظ المتشابهة، فصار كثير من أتباعهم يريدون به المعنى الباطل.

وزعم كثير من الكفار أن لله سبحانه وتعالى بنين وبنات، وأن الملائكة بناته، وبعض من يقول بقدم العالم من المتفلسفة يقولون: العقول العشرة هي بنوه، والنفوس الفلكية هي بناته وهي متولدة عنه لازمة لذاته، فجاء القرآن الذي هو أفضل الكتب وأكملها بإبطال هذه المعاني ومنع استعمال هذا اللفظ في حق الله تعالى، فنزه الله عن أن يتخذ ولدا، كما نزهه عن أن يكون له ولد، والأول من باب تنزيهه عن الأفعال المذمومة، وهذا على قول جماهير المسلمين وغيرهم الذين ينزهون الله ويقدسونه عن الأفعال القبيحة التي لا تليق به، بل تنافي ما وجب له من الكمال في أفعاله، كما وجب له الكمال في ذاته وصفاته، وأما من كان من المسلمين وغيرهم لا ينزه الله عن فعل من الأفعال إلا ما كان ممتنعا لذاته، فأما الممكن المقدور فيقول: لا يعلم انتفاؤه إلا بالخبر أو بالعادة المطردة التي يمكن انتقاضها، فهذا لا يبقى معه ما ينفي به عن الله الأفعال المذمومة القبيحة، والكتب الإلهية قد نزهت الرب عز وجل عن الأفعال المذمومة، كما نزهته عن صفات النقص، كقوله تعالى: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون} [الأنبياء: 26] .

وقال تعالى: {إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا} [النساء: 171] .

كما قال تعالى: {وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون} [الأنعام: 100]

وقال تعالى: {وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا} [الإسراء: 111] .

وقال تعالى عن المؤمنين: {ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا} [آل عمران: 191] .

وقال تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا - الذي له ملك

السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا} [الفرقان: 1 - 2] .

وقال تعالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون - عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون} [المؤمنون: 91 - 92] .

وقال تعالى: {ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون} [الصافات: 151] .

وقال تعالى: {قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد} [الإخلاص: 1]

فكما نزه نفسه عن الولادة، نزه نفسه عن اتخاذ الولد.

وقال تعالى: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا - لقد جئتم شيئا إدا - تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا - أن دعوا للرحمن ولدا} [مريم: 88 - 91] {وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا - إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا - لقد أحصاهم وعدهم عدا - وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} [مريم: 92 - 95] .

وقال تعالى: {لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون} [النساء: 172] .

وقال تعالى: {ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون} [آل عمران: 80] .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " «يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وشتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: أنى يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: أني اتخذت ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " «ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليجعلون له ولدا وشريكا، وهو يرزقهم ويعافيهم» .

ولهذا كان معاذ بن جبل يقول: لا ترحموا النصارى، فإنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر. فجاءت هذه الشريعة الحنيفية القرآنية وحرمت أن يتكلم في حق الله باسم ابن أو ولد، سدا للذريعة، كما منعت أن يسجد أحد لغير الله وإن كان على وجه التحية، كما منعت أن يصلي أحد عند طلوع الشمس وغروبها، لئلا يشبه عباد الشمس والقمر، فكانت بسدها للأبواب التي يجعل لله فيها الشريك والولد أكمل من غيرها من الشرائع، كما سدت غير ذلك من الذرائع، مثل تحريمها قليل المسكر ; لأنه يجر إلى كثيره، فإن أصول المحرمات التي قال الله فيها: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: 33] .

مما اتفقت عليه شرائع الأنبياء بخلاف تحريم الطيبات عقوبة، فإن هذا جاء في شرع التوراة دون شرع القرآن، فإن الله أحل لأمة محمد الطيبات وحرم عليهم الخبائث، وكذلك تكميل التوحيد من كل الوجوه وسد أبواب الشرك من كل الوجوه، جاءت به هذه الشريعة مع اتفاق الأنبياء على إيجاب التوحيد وتحريم أن يجعل لله شريك أو ولد.

فإذا كان مراد المسيح عليه السلام بالابن هو الناسوت، وهو لم يسم اللاهوت ابنا، وقد ذكر أن الابن لا يعلم الساعة، فتبين بذلك أن المسيح هو الناسوت وحده، وأنه لا يعلم الساعة وهذا هو الحق، وإن قالوا: مراده بالابن اللاهوت أو اللاهوت والناسوت لزم من ذلك أن اللاهوت أو اللاهوت والناسوت لا يعلم الساعة وهذا باطل، وكذب، وهو أيضا مناقض لقولهم.

فدل هذا النص من المسيح مع سائر نصوصه ونصوص الأنبياء على أن مسمى الابن هو الناسوت وحده، وأنه لا يعلم ما يعلمه الله، وذلك صريح في أنه مخلوق ليس بخالق، ولا يجوز أن يكون هذا خطابا للناسوت المتحد باللاهوت دون اللاهوت، كما يتأوله عليه بعض النصارى، لأن كل ما علمه اللاهوت المتحد بالمسيح علمه الناسوت، ولأن الناسوت ليس هو الابن عندهم دون اللاهوت المتحد به، بل اسم الابن عندهم هو اللاهوت، ولأجل الاتحاد دخل فيه الناسوت، ولأنه لم يثبت إلا علم الأب وحده لم يستثن علم الابن الأزلي عندهم، بل نفى علم ما سوى الأب به، وهذا مناقض لقولهم من كل وجه.

[فصل: مواصلة الرد على النصارى بما قاله الحسن بن أيوب ثم بكلام ابن البطريق]

قال الحسن بن أيوب: ومثل هذا أنه لما خاطبه الرجل على ما كتب في الإنجيل فقال له: (أيها الخير، فقال: ليس الخير إلا الله وحده، قلت: وبعضهم يترجمه أيها الصالح، فقال: ليس الصالح إلا الله وحده) . قال: ومثله قوله في الإنجيل: (إني لم آت لأعمل بمشيئتي، لكن بمشيئة من أرسلني) . قال: ولو كانت له مشيئة لاهوتية، كما يقولون، لما قال هذا القول فقد أبطل به ما تدعونه في ذلك.

قال: ثم أنتم مع ذلك تدعون أن المسيح كلمة الله، ومن قوة الله غير بائنة منه ولا منفصلة عنه، وتشهدون عليه في الإنجيل بقوله: (إنه يصعد إلى السماء ويجلس عن يمين أبيه، ويدين الناس يوم القيامة ويجازيهم بأعمالهم، ويتولى الحكم بينهم، وأن الله عز وجل منحه ذلك إذ كان لا يراه أحد من خلقه في الدنيا ولا في الآخرة، فإن كان هذا الجالس للحكومة بين العالمين يوم الدين، والقاعد عن يمين أبيه وهو شخص قائم بذاته لا يشك فيه هو الجسد الذي كان في الأرض المتوحد به الربوبية، فقد فصلتم بين الله تبارك وتعالى وبينه، وبعضتموه باجتماعهما في السماء شخصين متباينين أحدهما عن يمين صاحبه، وهذا كفر

وشرك بالله عز وجل وإن كان جسدا خاليا من الإلهية، وهي الكلمة، وقد عادت إلى الله كما بدت منه، فقد زال عنه حكم الربوبية التي تنتحلونه إياها.

قال: ونسألكم عن واحدة نحب أن تخبرونا بها، هي أصل ما وضعتموه من عبادة الثلاثة الأقانيم التي ترجع بزعمكم إلى جوهر واحد وهو اللاهوت، ما هو؟ ومن أين أخذتموه؟ ومن أمركم به؟ وفي أي كتاب نزل؟ وأي نبي تنبأ به؟ أو أي قول للمسيح تدعونه فيه؟ وهل بنيتم أمركم في ذلك إلا على قول " متى " التلميذ على المسيح عليه السلام أنه قال لتلاميذه حيث أراد أن يفارقهم: (اذهبوا فعمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس) .

قال: وهذا كلام يحتمل معناه إن كان صحيحا أن يكون ذهب فيه بأن يجمع هذه الألفاظ إلى أن تجتمع لهم بركات الله وبركة نبيه المسيح وروح القدس التي يؤيد بها الأنبياء والرسل، وقد نراكم إذا أردتم الدعاء بعضكم لبعض قلتم: صلاة فلان القديس تكون معك. ومعنى الصلاة: الدعاء. واسم فلان النبي يعينك على أمورك.

وكما قال الله تبارك وتعالى: {يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} [النساء: 59]

يقرن طاعته نبيه وأولي الأمر من المسلمين، أفنقول لذلك إنهم جميعا آلهة؟

قال: وقد يجوز أن يكون له معنى يدق عن الوقوف عليه بغير التأويل إن لم يكن معناه ما قلناه، أو يكون المسيح عليه السلام ذهب فيه إلى ما هو أعلم به، فلم حكمتم بأنه ذهب إلى أن هذه الأسماء لما أضافها إلى الله عز وجل صارت آلهة، وجعلتم لها أقانيم لكل اسم أقنوم يخصه بعينه وهو شخص واحد، وكيف استجزتم ما أشركتموه مع الله عز وجل بالتأويل الذي لا يصح؟

وإذا قلتم بثلاثة أقانيم كل أقنوم بذاته، فلا بد من أن تعترفوا ضرورة بأن كل أقنوم منها حي سميع بصير عالم حكيم منفرد بذاته، كما يقولون في المسيح إنه جالس عن يمين أبيه، فنراكم أخذتم الأقنومين اللذين أحدثتموها مع الله من جهة أن الله حكيم حي، فحكمته الكلمة وهي المسيح، وروحه روح القدس، وهذه صفة من صفات الله مثلها كثير، لأنه يقال حكيم عليم سميع بصير حي قدير.

وكذلك ربنا تبارك وتعالى وإن كانت صفاتنا إياه لا تلحق صفاته ولا تبلغ كنه مجده إلا بالتمثيل لعظمته وعزته وجلاله وعلوه، فنحلتم صفاته التي هي معناه وليست سواه غيره وجعلتموه أقانيم لكل واحد من الحياة والحكمة وسائر الصفات مثل الذي له، وما منها أقنوم له صفة إلا ويحتمل على قياس قولكم أن تكون صفته مثله، فإذا كانت هذه الأقانيم آلهة وكل صفة إله، وهي من جوهره فيجب أن تكون كل صفة لكل واحد من الثلاثة الأقانيم إلها مثله إذ كان من جوهره فيتسع الأمر في ذلك حتى لا يكون له غاية ولا نهاية.

قال: وإذا قلتم بثلاثة أقانيم هي في السماء من جوهر قديم، أفليس يلزمكم الإقرار بثلاثة آلهة، لأن الأقانيم أشخاص يوما إليها ويقع الحد عليها، وإلا فما الحجة وأنتم تذكرون في بعض احتجاجكم أنها ثلاثة ترجع إلى واحد غير متبعضة ولا منفصلة، وتشبهونها في اجتماعها وظهور ما يظهر منها بالشمس، وقد نراكم عقدتم شريعة إيمانكم على أن المسيح إله وإنسان متحدين، وأنه يصعد إلى السماء ويجلس عن يمين أبيه، والجالس عن يمين صاحبه أليس هو منفصلا عنه مفروزا عنه؟ فكيف يصح على هذا القول قياس، أو يصح به عقد دين؟ تقولون مرة مجتمع، ومرة منفصل، وما شبهتموه به من الشمس، فقد تقدم شرحنا لبطلان الحجة فيه، وأنه لا يكون قياسه القياس الذي تعلقتم به.

على أنا وجدناكم تقولون في معنى التثليث: إن الذي دعاكم إليه ما ذكرتم أن " متى " التلميذ حكاه في الإنجيل عن المسيح عليه السلام إذ قال لتلاميذه: (سيروا في البلاد، وعمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس) . وأنكم فكرتم في هذا القول بعقولكم فعلمتم أن المراد بذلك أنه لما أن ثبت حدوث العالم علمتم أن له محدثا فتوهمتموه شيئا موجودا، ثم توهمتموه حيا ثم ناطقا، لأن الشيء ينقسم لحي ولا حي، والحي ينقسم لناطق ولا ناطق.

وأنكم علمتم بذلك أنه شيء حي ناطق، فأثبتم له حياة ونطقا غيره في الشخص وهما هو في الجوهرية.

فنقول لكم في ذلك: إذا كان الحي له حياة ونطق، فأخبرونا عنه: أتقولون أنه قادر عزيز، أم عاجز ذليل؟

فإن قلتم: لا بل هو قادر عزيز، قلنا: فأثبتوا له قدرة وعزة، كما أثبتم له حياة وحكمة.

فإن قلتم: لا يلزمنا ذلك، لأنه قادر بنفسه عزيز بنفسه، قلنا لكم: وكذلك فقولوا: إنه حي بنفسه وناطق بنفسه، ولا بد لكم مع ذلك من إبطال التثليث، أو إثبات التخميس، وإلا فما الفرق؟ وهيهات من فرق.

وقال الحسن بن أيوب أيضا: إنا كلما تأملنا معكم في نسبة المسيح عليه السلام إلى الإلهية وعبادتكم له مع الله على الجهة التي تذهبون إليها، وطلبنا لكم الحجة في ذلك من كتبكم، ازددنا بصيرة في استحالة ذلك ووضعكم له من القول ما يثبت لكم به حجة، ولا يشهد به لكم شيء من كتبكم، ووجدنا أبين ما جاء في المسيح وصحة أمره فيما أتى به ما قال " متى " التلميذ: (إنه لما جاء يسوع إلى أرض قيسارية سأل تلاميذه فقال: ماذا يقول الناس في أني ابن البشر؟ فقالوا: منهم من يقول: إنك يوحنا المعمداني، وآخرون يقولون: إنك أرميا، أو أحد الأنبياء. فقال لهم يسوع: فأنتم ماذا تقولون؟ فأجابه سمعان الصفا، وهو رئيسهم، فقال: أنت المسيح ابن الله الحق. فأجابه المسيح وقال: طوبى لك يا سمعان ابن يونان، إنه لم يطلعك على هذا لحم ولا دم، ولكن أبي الذي في السماء) .

وحكى لوقا في إنجيله هذا الخبر فقال: (إن سمعان أجابه فقال: أنت مسيح الله) ، ولم يقل ابن الله، فهذا كلام تلميذه الرئيس فيه وأرضاه ما قال.

وقوله: إنه لم ينطق بذلك إلا ما أوحاه الله في قلبه ولم ندفعكم قط عن أنه مسيح الله، ولا عن أنه كما تقولون في لغتكم أنه ابن الله بالرحمة والصفوة مع هذا الاختلاف الواقع في ذلك في الإنجيلين، وقد قال مثل ذلك فيكم جميعا: (إن الله إلهي وإلهكم وأبي وأبيكم) ، فنعمل على احتجاجكم بأنه ليس مثلكم في معنى النبوة ونجعله مثل من سمي في الكتب ابنا على جهة الاصطفاء والمحبة مثل إسرائيل وغيره، بل قد خص إسرائيل بأن قال عز وجل: (أنت ابني بكري) . وهذا كلام له مذهب في اللغة القديمة التي جاءت بها الكتب، وليست بموجبة الإلهية إذ كان قد شاركه في هذا الاسم غيره، فلم لا جعلتموه كما جعل نفسه؟

ومما يؤكد المعنى في ذلك ويزيل تأويل من يتأوله له ما لم يدعه ولم يرض به، قوله في علم الساعة: (أن ذلك شيء لا يعلمه أحد من الخلق ولا الملائكة المقربون، ولا الابن يعني نفسه إلا الأب وحده) ، ثم قال للرجل الذي أتاه فقال له: (أيها العالم الصالح، أي الأعمال خير لي، الذي تكون لي حياة إلى يوم الدين؟ فقال له: لم تقول لي صالحا؟ ليس الصالح إلا الله وحده) ، فاعترف لله بأنه واحد لا شريك له، ونفى عن نفسه فلم يجعلها ولا أحد من الخلق أهلا لذلك.

وقوله للمرأة التي جاءته فقالت: (أنت ذلك النبي الذي كنا ننتظر مجيئه؟

فقال لها المسيح: صدقت طوبى لك) ، ثم قال للشيطان حين اختبره فسامه أن يلقي نفسه من رأس الهيكل، فقال: (أمرنا أن لا نجرب الرب) ، ثم سامه أن يسجد له فقال: (أمرنا أن لا نسجد إلا لله وحده، ولا نعبد سواه) ، ثم صلاته في غير وقت لله، وآخرها الليلة التي أخذته اليهود فيها، فإذا كان إلها كما زعمتم فلمن كان يصلي ويسجد؟

ثم قول الجموع الذين كانوا معه حين دخل أورشليم، وهي مدينة بيت المقدس على الأتان، لمن كان يسأله عن أمره لما راجت المدينة به: (هذا هو يسوع الناصري النبي الذي من الناصرة) ؟ ثم قوله في بعض الإنجيل: (اخرجوا بنا من هذه المدينة، فإن النبي لا يبجل في مدينته) . وفي موضع آخر أنه قال: (لا يهان نبي إلا في مدينته وفي بيته وأقاربه) .

وقوله في بعض خطبه: (إن هذا الجيل السوء يريد آية وأنه لا يعطى إلا آية يونس، كما كان يونس لأهل " نينوى ": كذلك يكون ابن البشر لهذا الجيل، رجال نينوى يقومون في الدين مع هذا الجيل فيخصمونهم، لأنهم تابوا على قول يونس النبي، وإن هاهنا أفضل من يونس) .

ثم قول داود في نبوته عليه: (من هذا الرجل الذي ذكرته وجعلته دون الملائكة قليلا) . ثم قول تلاميذه فيه ما شرحناه في صدر كتابنا هذا ما تقدم ووصفهم أنه رجل أتى من عند الله بالأيدي والقوة.

ومما يشبه ذلك أنه لما قدم تلامذته فركبوا السفينة وقال لهم: (امضوا فإني ألحق بكم، فأتاهم يمشي على البحر فلما رأوه في تلك الحال قالوا: ما هذا الحال ويح، ومن الغرق صاحوا. فقال لهم يسوع: اطمئنوا ولا تخافوا أنا هو، فأجابه شمعون الصفا وقال له: يا رب إن كنت أنت هو فأذن لي آتيك على الماء. فقال له: تعال، فنزل سمعان إلى الماء ليمشي عليه، فلم يستطع وجعل يغرق، فصاح وقال: يا رب أغثني، فبسط يده يسوع فأخذه وقال له: لم تشككت يا قليل الأمانة؟) . قال: فبان بذلك عجز المسيح عن إتمام ما سأله شمعون الصفا، ومثله أمر الرجل الذي قال ليسوع خبر ابنته وما ينالها من الشيطان، وأنه قد قدمها إلى تلاميذه فلم يستطيعوا أن يخرجوه، وقد كان جعل لهم ذلك وغيره فأخرجه هو منها.

وقال في الإنجيل، وهو يذكر الأمثال التي ضربها لرؤساء الكهنة، أنهم لما سمعوها منه علموا أنها في شأنهم، فهموا أن يأخذوه ثم فرقوا من الجموع، لأنهم كانوا ينزلونه مثل النبي.

وقال في الإنجيل لما جاءته أم ابني زندا، وكانت من تلامذته مع ابنيها، فقال لها: (ما تريدين؟ قالت: أريد أن تجلس ابناي أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك في ملكوتك. فقال: ليس إلى ذلك سبيل، لأنه ليس لي أن أعطيه، ولكن من وعد له من أبي) .

قال الحسن بن أيوب: فما يكون يا هؤلاء أفصح وأبين وأوضح من اجتماع هذه الشواهد لكم في كتبكم، ما رضيتم بقوله في نفسه، ولا بقول تلامذته فيه، ولا بقول من تنبأ عليه من الأنبياء، ولا قول جموعه الذين تولوه لمن سألهم من مخالفيهم عنه وتركتم ذلك كله، وأخذتم بآراء قوم تأولوا لكم على علمكم بأنهم قد اختلفوا أيضا في الرأي، فقال كل قوم في المسيح ما اختاروا، واتبع كلا منهم طائفة قالوا بقولهم، ثم سلك من بعدهم سبيل الآباء في الاقتداء بهم.

فبينوا لنا حجتكم في ذلك، وهيهات من حجة ونحن نستوهب الله العصمة والتوفيق منه.

قال: ومما يشبه ما تقدم قوله لتلاميذه في إنجيل لوقا 55: (فأما أنتم الذين صبرتم معي في بلائي وتجاربي فإني أعدكم كما وعدني أبي الملكوت لتأكلوا وتشربوا معي على مائدتي في ملكوتي) فبين أن الله - عز وجل ثناؤه وعده أن يجعله في ملكوت السماء يأكل ويشرب مع تلاميذه على مائدته، وهذا ما لا شك لكم فيه، وهو مخالف لقولكم فيما يصير إليه، وفي الأكل والشرب

والنعيم هناك، ثم قوله لشمعون حين أتته الجموع فأخذوه: (أم تظن أني لست قادرا أن أطلب إلى أبي فيقيم لي اثني عشر جندا من ملائكته أو أكثر، ولكن: كيف تتم الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون) ، ولم يقل: إني قادر أن أدفعهم عن نفسي، ولا أني آمر الملائكة أن يمنعوا عني، كما يقول من له القدرة والأمر.

قال: ونجدكم تقولون في المسيح عليه السلام: إنه مولود من أبيه أزلي، ويجب على المدعي القول أن يثبت الحجة فيه ويعلم أنه مطالب بإيضاحها، لا سيما في مثل هذا الخطب الجليل الذي لا يقع التلاعب به، ولا تجترئ النفوس على ركوب الشبهات فيه، والويل الطويل لمن تأول في ذلك تأويلا لا حقيقة له، فإنه يهلك نفسه ومن كان من الناس معه ممن يتبع قوله، إن كان هذا الابن أزليا على ما في شريعة إيمانكم فليس هذا بمولود، وإن كان مولودا فليس بأزلي ; لأن اسم الأزلية إنما يقع على من لا أول له ولا آخر.

ومعنى المولود: أنه حادث مفعول، وكل مفعول فله أول، فكيف ما أردتم القول فيه كان بطلان الشريعة.

قال: ونسألكم أيضا عن واحدة، لم سميتم الأب أبا والابن ابنا؟ فإنه إن كان وجب للأب اسم الأبوة لقدمه، فالابن أيضا يستحق هذا الاسم بعينه، إذ كان قديما مثله، وإن كان الأب عالما عزيزا فهو أيضا عالم عزيز تشهد شريعة الإيمان له بذلك في قولها: إنه خلق الخلائق كلها وأتقنت على يده، وأنه نزل لخلاصكم ومن قدر على ذلك لم يكن إلا عالما عزيزا، فهذه المعاني التي ذكرناها تبطل اسم الأبوة والبنوة وفي إبطالها بطلان الشريعة التي تقول: ولد من أبيه، وإلا فإن كان الأب والابن متكافئين في القدم والقدرة، فبأي فضل وسلطان للأب عليه أمره ونهاه، فصار الأب باعثا والابن مبعوثا، والأب متبوعا مطاعا والابن تابعا مطيعا؟ ومما يشهد بصحة قولنا وبطلان ما تأوله أولوكم في عبودية المسيح، أن " متى " التلميذ حين بنى كتابه الإنجيل أول ما ابتدأ به أن قال: كتاب مولد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم، فنسبه إلى من كان منه على الصحة، ولم يقل: إنه ابن الله، ولا إنه إله من إله كما يقولون: فإن قلتم: إن تسمية يسوع للناسوت الذي قد جعلتموه حجة بينكم وبين كل من التمس الحجة منكم عند الانقطاع فيما يعترف به للمسيح من العبودية، فقد نسق " متى " على اسم يسوع الذي هو عندكم اسم للناسوت المسيح الذي هو جامع الناسوت واللاهوت، فأي حجة في إبطال هذا التأويل أوضح من هذا؟ .

ومما يصحح قولنا ويؤكده قول جبريل الملك لمريم عند مخاطبته إياها: إنه ابن داود على ما ثبت من ذلك في الإنجيل.

قال: ووجدناكم قد ذكرتم في شريعة الإيمان: أن يسوع المسيح بكر الخلائق، فإن كنتم ذهبتم في ذلك إلى أنه على نحو ما يسمى أول ولد الرجل وكبيرهم فجائز، وهو محقق لقولنا في عبوديته، وإن كنتم أردتم بذكر البكر أنه أول قديم، فلسنا نعرف للبكر معنى في لغة من اللغات إلا للأكبر من الإخوة والأول من الولد، وبكر الخلائق لا يكون إلا من الخلائق.

كما أن بكر الرجل والمرأة لا يكون إلا من جنسهما، وباكورة الثمار لا تكون إلا ثمرة، ولأن من المحال أن يقول قائل: بكر ولد آدم ملك من الملائكة، وكذلك من المحال أن يكون بكر المصنوعات ليس بمصنوع، وبكر المخلوقات ليس بمخلوق.

وقد قال الله تعالى في التوراة:(يا ابني بكري) أي إسرائيل، وقال في موضع آخر: (إنه نظر بنو الله إلى بنات الناس فشغفوا بهن) . فهل يوجب لآل إسرائيل إلهية بهذا القول؟

قال: وقلتم: إن المسيح ولد من أبيه قبل العوالم وليس بمصنوع، فليس يخلو الأب من أن يكون أولد شيئا موجودا أو غير موجود، فإن كان لم يزل موجودا فإن الأب لم يلد شيئا، وإن كان غير موجود وإنما هو حادث، لم يكن، فهو مخلوق كما قلنا.

قال: ومما يبين قولنا في خلق المسيح: أن هذا الاسم إنما وقع له، لأنه مسح للنبوة والخير وماسحه الله تبارك وتعالى، وقد قال داود في زبوره قولا يشهد على ذلك بعينه: (من أجل هذا البر مسحك الله إلهك أكثر مما مسح به نظراءك) فأبان داود بهذه الآية معنى المسح بإنجيله، وأن ماسحه الله إلهه، وأنه مصطفى مكرم بزيادة على نظرائه، وقال داود أيضا في مزمور إحدى وثلاثين يخاطب الله: (من أجل داود عبدك لا يغلب وجه مسيحك. عهد الرب لداود بالحق، ولا يرجع عنه) يعني بمسيحه نفسه، لأن الله مسحه للنبوة والملك، وقد قال مثل هذا في غير موضع من زبوره، فسمى نفسه مسيح الله.

قال: وإذا نظر في الإنجيل وكتب بولس وغيره ممن يحتج به النصارى، وجد نحوا من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح وكلها تنطق بعبودية المسيح، وأنه مبعوث مربوب وأن الله اختصه بالكرامات، ما خلا آيات يسيرة مشكلات قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد، وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته، فلو كانوا قصدوا الحق لردوا تلك المشكلات الشاذة اليسيرة التي يوجد لها من التأويل خلاف ما يتأولونه على الواضحات الكثيرة التي قد بانت بغير تأويل، لأنه إنما يجب أن يقاس الجزء على الكل، ويستدل على ما غاب بما حضر، وعلى ما أشكل بما ظهر، فمن تلك الآيات المشكلات ما ذكرناه في كتابنا هذا وبينا معناه والحجة فيه، وأنه ليس كما تأولوه.

ومنها ما يحكون عن المسيح أنه قال: (أنا بأبي) ، وقد فسر المسيح عليه السلام ذلك وكشفه. قال " يوحنا " في إنجيله: (إن المسيح تضرع إلى الله في تلاميذه وقال: يا أيها الرب القدوس احفظهم باسمك الذي أعطيتني ليكونوا هم أيضا شيئا واحدا، كما أنا شيء واحد، وكما أنك أرسلتني إلى العالم، وكذلك أرسلهم أنا أيضا. ثم قال بعد هذا أيضا: إني قد منحتهم من المجد الذي أعطيتني ومنحتني ليكونوا أيضا شيئا واحدا، كما أنا شيء واحد، فأنا بهم وأنت بي)

قال: هو معنى ذلك أنه قال: أنت معي وأنت لي، كما أنا مع تلاميذي ولهم.

قلت: أو أراد أنك بي هديت الخلق وعلمتهم وأنا أهديهم وأعلمهم. والباء للسببية، فإن الله برسله هدى عباده وعلمهم، والرسل علموا الغائبين عنهم بالحاضرين الذين بلغوا عنهم، وقوله: ليكونوا شيئا واحدا: أراد به اتفاق صدقهم وأمرهم ومرادهم، وهذا مفسر، وقد قال: ليكونوا هم شيئا واحدا، كما أنا شيء واحد، فقد طلب لهم مثل ما حصل له ولربه.

وهذا يبين أن قوله: كما أنا شيء واحد، أي أنا موافقك في أمرك ونهيك ومحبتك ورضاك، لم يرد بذلك اتحاد ذاته به، كما لم يرد أن تتحد ذوات بعضهم ببعض، فإنه طلب لهم مثل ما حصل له من الموافقة لأمر الله ونهيه ومحبته ورضاه.

قال: أو يكون ذهب فيه إلى معنى دقيق لا يعرفه إلا أنه قد بطل على كل حال بهذا القول تأويلكم ممازجته عز وجل في اللاهوت بقوله في تلاميذه أنه بهم، كما أن أباه به، لأنه إن تأول متأول في هذا المعنى أنه ذهب في وصفه أنه أبيه، وأن أباه به إلى مشاركته في اللاهوت فقد قال في تلامذته مثل هذا القول، فيجب أن يكونوا على هذا القياس شركاء في المحل، وهذا ما لا يكون ولا يجترئ على القول به أحد.

قال: ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها ودعوتها ومعبودها واحد يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام، وتلامذته وإنجيله وسنته وشرائعه، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف، فمنهم من يقول: إنه عبد، ومنهم من يقول: إنه إله، ومنهم من يقول: إنه ولد، ومنهم من يقول: إنه أقنوم وطبيعة، ومنهم من يقول: إنه أقنومان وطبيعتان.

وكل منهم يكفر صاحبه ويقول: إن الحق في يده، وكلهم لا يأتي من الكتاب بحجة واضحة يثبت بها دعواه، ولا من قياسه لنفسه وتأوله بما يصح له عند المناظرة، وإنما يرجع في دينه واعتقاده إلى ما تأوله له المتأولون، بما يخالف إنجيلهم وكتبهم بالهوى والعناد من بعضهم لبعض، فهم يشركون بالله على التأويل ولا شريك له، ويدعون له ولدا من جهة ما أحدثوا لأنفسهم، سبحانه أنى يكون له ولد.

قال الحسن بن أيوب: وقد بينا الحجج في بطلان كل قول لكم مما عقدتم به شريعة إيمانكم، ووجدنا قوما منكم إذا نوظروا في ذلك قالوا: قد وجدنا أكثر الأديان يختلف أهلها فيها، ويتفرقون على مقالات شتى هم عليها، وكل منهم يدعي أن الصواب في يده.

وهذا أيضا من سوء الاختيار، وذهاب القلوب عن رشدها وانصرافها عن سبيل حقها.

فلم يختلف أهل دين من الأديان في عقد معبودهم، ولا شكوا فيه ولا تفرقوا القول فيما اختاروه، إلا أهل ملل النصرانية فقط.

وسائر من سواهم إنما اختلفوا في فروع من فروع الدين وشرائعه، مثل اختلاف اليهود في أعيادهم وسنن لهم، ومثل اختلاف المسلمين في القدر.

فمنهم من قال به، ومنهم من دفعه.

وفي تفضيل قوم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على نظرائهم بعد اتفاق جماعتهم على إلههم ومعبودهم وخالقهم، وأن الله إله الخلق كلهم واحد لا شريك له ولا ولد.

ثم اتفاقهم بعد ذلك على نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم لا يشكون فيه، وعلى القرآن وأنه كتاب الله المنزل على محمد المرسل لا يختلفون فيه.

فإذا صح اتفاقهم على هذه الأصول، كان ما سواها خللا لا يقع معه كفر ولا يبطل به دين.

والبلاء العظيم الاختلاف في المعبود.

فلو أن قوما لم يعرفوا لهم إلها ولا دينا، ثم عرض عليهم دين النصرانية، لوجب أن يتوقفوا عنه، إذ كان أهله لم يتفقوا على شيء فيه.

ودل اختلافهم في مقالاتهم ومباينتها ما في كتبهم على باطله.

فأما قولنا في باب التوحيد، واعترافنا بوحدانية الله تعالى ونفينا عنه الشركاء والأنداد والأمثال والأولاد، فهو قول لا يشكون في صحته ولا يشك فيه أحد من أهل الكتب وسائر الملل ولا غيرهم من أهل القول بالدهر وسائر عبدة الأصنام والأوثان، وكل منهم يقر به ويرجع إليه.

إلا أن منهم من يتابعنا على تحديد التوحيد. ومنهم من يدخل العلل فيه، بأن يقول: ثلاثة ترجع إلى واحد، وصنما نعبده إجلالا لله ليقربنا إلى ربنا وربه، ومدبر للأمور قديم لا بد أن نعترف به خالقها وباريها.

وكل منهم مقر بقولنا، وذاهب إلى مذهبنا على الاعتراف بالله على الجهة التي يذهب إليها، وأنه واحد لا شريك له.

فقد صح عقدنا بلا شك منكم، ولا من أحد من الأمم فيه، ولا في شيء منه، بل تقودكم الضرورة إلى الإقرار به والاجتماع معنا عليه.

والحمد لله رب العالمين على توفيقه، وإياه نسأل أن يتم علينا فضله ويديم لنا تسديده بقدرته، وأن يحيينا ويميتنا على الإسلام غير مشركين ولا جاحدين ولا مبدلين، إنه على كل شيء قدير، وكل مستصعب عليه يسير، وهو بمن خافه واتقاه وطلب ما عنده ولم يلحد في دينه رءوف رحيم. اهـ.

قلت: هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن أيوب، وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارى وأخبر الناس بأقوالهم، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره.

وقد ذكر في كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية، وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية ما يبين ذلك.

ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من أئمتهم المنتصرين لدين النصرانية، ونذكر ما ذكروه من حججهم، مثل ابن البطريق، بترك الإسكندرية، فإنه صنف كتابه الذي سماه " نظم الجوهر " وذكر فيه أخبار النصارى ومجامعهم واختلافهم، وسبب إحداثهم ما أحدثوه مع انتصاره لقول الملكية والرد على من خالفهم.

قال سعيد بن البطريق بطريك الإسكندرية في تاريخه المعروف عند النصارى الذي سماه " نظم الجوهر "، وذكر فيه مبدأ الخلق وتواريخ الأنبياء والملوك والأمم وأخبار ملوك الروم وأصحاب الكراسي برومية وقسطنطينية وغيرهما، ووصف دين النصرانية وفرق أهلها، وهو ملكي، رد على سائر طوائف النصارى لما ذكر مولد المسيح صلوات الله عليه وأنه ولد في عهد ملك الروم قيصر المسمى أغسطس لثنتين وأربعين سنة من ملكه، قال: وملك ستا وخمسين سنة.

قال: وملك بعده ابنه " طيباريوس " قيصر برومية، وللمسيح خمس عشرة سنة.

وكان لقيصر هذا صديق يقال له " بلاطس " من قرية على شط البحر الذي تحت " قسطنطينية " ويسمى ذلك البحر " السطس " ولذلك يسمى " بلاطس النبطي " فولاه على أرض " يهوذا ".

قال: وفي خمس عشرة سنة من ملك " طيباريوس " قيصر هذا ظهر " يحيى " ابن زكريا المعمداني، فعمد اليهود في الأردن لغفران الخطايا.

فجاء المسيح إلى يحيى بن زكريا فعمده يحيى في الأردن، ولسيدنا المسيح ثلاثون سنة، وذكر قصة قتل يحيى، وقصة الصلب المعروفة عند النصارى.

إلى أن قال: وكتب بلاطس " إلى " طيباريوس " الملك بخبر سيدنا المسيح وما تفعل تلاميذه من العجائب الكثيرة من إبراء المرضى وإحياء الموتى.

فأراد أن يؤمن بسيدنا المسيح ويظهر دين النصرانية، فلم يتابعه أصحابه على ذلك، وملك اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر.

وذكر أن في عصره بنيت مدينة " طبرية " مشتقة من اسمه.

قال: وملك بعده قيصر آخر أربع سنين وثلاثة أشهر. قتل " بلاطس " وولى شخصا كان شديدا على تلاميذ المسيح، وقتل رئيس الشهداء والشمامسة، فرجم بالحجارة حتى مات.

وذكر أنه لقي التلاميذ من اليهود ومن الروم شدة شديدة، وقتل منهم خلق كثيرة، وأنه مات هذا وولي بعده قيصر آخر، وفي زمنه وقع جوع ووباء وفي زمنه كتب " متى " وبين إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس، وفسره من العبرانية إلى الرومية " يوحنا " صاحب الإنجيل.

قال: وفي تسع سنين من ملكه كان " مرقس " صاحب الإنجيل بمدينة الإسكندرية يدعو الناس إلى الإيمان بالمسيح، وأنه أول شخص جعل بطريركا على الإسكندرية، وأنه صير معه اثني عشر قسيسا وأمرهم إذا مات البطريرك أن يختاروا واحدا من الاثني عشر قسيسا، ويضع الاثنا عشر قسيسا أيديهم على رأسه ويباركونه ويصلحونه بطريركا، ثم يختارون رجلا فاضلا قسيسا ويصيرونه معهم بدل القسيس الذي أصلحوه بتركا، ليكون اثني عشر أبدا.

فلم يزل رسمهم بالإسكندرية على هذا إلى زمن الثلاثمائة وثمانية عشر.

فأمرهم بطريرك الإسكندرية الذي كان من جملة الثلاثمائة وثمانية عشر أن لا يفعل هذا فيما بعد، ومنع أن يصلح الأقساء البترك، بل يختاروا من أي بلد كان رجلا فاضلا، وإذا مات البترك اجتمع الأساقفة فأصلحوا البترك من أي بلد كان من أولئك الأقسة، أو من غيرهم.

فانقطع الرسم الأول من إصلاح الأقساء البترك، وجعل التيسير لهم في إصلاح البترك بابا، ثم سمى بترك الإسكندرية بابا، ومعناه الجد.

ومن حنانيا الذي أصلحه " مرقس البشير " إلى حادي عشر بطركا بالإسكندرية، لم يكن في عمل مصر أسقف ولم يكن البطاركة قبله أصلحوا أسقفا، وأن العامة لما سمعت الأساقفة يسمون البطريرك أبا قالوا: إذا كنا نحن نسمي الأسقف أبا،

والأسقف يسمي البطريك أبا، فيجب علينا أن نسمي البطريرك بابا ; أي الجد، إذ كان أبا لأبينا، فسمي بطريرك الإسكندرية من وقت " هرقل " بابا، أي الجد.

قال: وخرج " مرقس " إلى " برقة " يدعو الناس إلى الإيمان بالسيد المسيح ومات " قلوديوس " قيصر، وملك بعده ابنه " نارون " ثلاث عشرة سنة.

قال: وهو أول من أهاج على النصارى الشر والبلاء والعذاب.

قال: وفي عصره كتب " بطرس " رئيس الحواريين الإنجيل (إنجيل مرقس) عن مرقس بمدينة رومية، ونسبه إلى مرقس.

قال: وفي عصر هذا الملك كتب " لوقا " إنجيله بالرومية إلى رجل شريف من عظماء الروم يقال له " فوفيلا " فكتب له أيضا الأبركسس الذي فيه أخبار التلاميذ.

وقد كان " لوقا البشير " صاحب " بولس الرسول " يقول في بعض رسائله أن " لوقا " الطبيب يقول: " عليكم السلام ".

وقال: وأخذ ثارون قيصر لبطرس فصلبه منكسا، ثم قتله، لأن بطرس قال له: إن أردت أن تصلبني فاصلبني منكسا، لئلا أكون مثل سيدي المسيح، فإنه صلب قائما، وضرب عنق بولس الرسول بالسيف.

وأقام بطرس بعد صعود المسيح اثنين وعشرين سنة.

قال: وكان مرقس صاحب الإنجيل بالإسكندرية، وبرقة يدعو الناس إلى الإيمان فأقام سبع سنين.

وفي أول سنة من ملك نارون قيصر قتل مرقس بالإسكندرية وأحرق جسده بالنار، وذكر بعده عدة قياصرة، وذكر أن " طيطس " خرب بيت المقدس بعد المسيح بسبعين سنة، بعد أن حاصرها وأصاب أهلها جوع عظيم، وقتل كل من كان فيها من ذكر وأنثى حتى كانوا يشقون بطون الحبالى ويضربون بأطفالهم الصخور.

وخرب المدينة والهيكل، وأضرم بها النار، وأحصى القتلى على يديه فكانوا ثلاثة آلاف ألف.

وذكر عدة قياصرة بعد ذلك، وأنه ولي واحد منهم خمس عشرة سنة، يقال له: " ذوما طيانوس " وكان شديدا جدا على اليهود، وأنه بلغه أن النصارى يقولون أن المسيح ملكهم، وأن ملكه إلى الدهر.

فغضب غضبا شديدا وأمر بقتل النصارى، وأن لا يكون في ملكه نصراني.

وكان " يوحنا " صاحب الإنجيل هناك فسمع بهذا، فخاف وهرب إلى أفسس.

ثم إنه أمر بإكرامهم وترك الاعتراض عليهم.

ثم تولى بعده قيصر آخر سنة وبعض أخرى، ثم ملك آخر بعده تسع عشرة سنة، يسمى " طرايانوس ".

قال: وهذا الملك أثار على النصارى بلاء عظيما وحزنا طويلا، وقتل شهداء كثيرة، وقتل بطريرك إنطاكية برومية وقتل أسقف بيت المقدس وصلبه وله مائة وعشرون سنة، وأمر أن يستعبد النصارى إذ ليس لهم دين ولا شريعة.

فلشدة ما استعبد النصارى وغلظ ما نالهم من القتل، رحمتهم الروم وشهد وزراء الملك عنده أن النصارى لهم شريعة ودين، وأنه لا يحل أن يستعبدوا، فكف عنهم الأذية.

قال: وفي عصره كتب " يوحنا " إنجيله بالرومية في جزيرة يقال لها: " تيمرا " من أرض الروم من أرض " أثينة " في عصر رجل من عظماء الروم فيلسوف يقال له: " مومودس ".

قال: وفي ذلك العصر رجع اليهود إلى بيت المقدس.

فلما كثروا وامتلأت منهم المدينة، عزموا على أن يملكوا منهم ملكا، فبلغ الخبر " طيباريوس قيصر " فوجه بقائد من قواده بجيش عظيم إلى بيت المقدس، فقتل من اليهود ما لا يحصى كثرة.

قال: وخرج على قيصر هذا خارجي مقاتل ببابل، فخرج إليه بنفسه فوقعت بينهم حرب شديدة، وقتل من الفريقين خلق عظيم، وقتل قيصر في الحرب.

وملك بعده " أندريانوس قيصر " عشرين سنة، فخرج إلى ذلك الخارجي ببابل فهزمه، وصار إلى مصر فلقي منه أهل مصر شدة شديدة، وأخذ الناس بعبادة الأصنام وقتل من النصارى خلقا كثيرا، وأصاب " إيليا " ابنه علة في بدنه، فكان ينفذ إلى البلدان يطلب شفاء لعلته، فوصفوا له بيت المقدس.

فلما وافاها رآها خرابا ليس فيها أحد إلا كنيسة للنصارى، فأمر أن تبنى المدينة وتحصن بحصن قوي.

فلما سمع اليهود أقبلوا من كل بلد وكل مدينة، فما كان إلا زمان قليل حتى امتلأت منهم المدينة، فلما كثروا ملكوا عليهم ملكا.

فاتصل الخبر بإيليا بن قيصر إندريانوس، فوجه إليهم بقائد من قواده مع خلق كثير، فحاصر المدينة، فمات كل من فيها من الجوع والعطش، ثم فتحها فقتل من اليهود ما لا يحصى، وهدم الحصن وخرب المدينة حتى صيرها صحراء.

قال: وهذا آخر خراب بيت المقدس، وهرب من اليهود من هرب إلى مصر وإلى الشام وإلى الجبال وإلى الغور.

وأمر الملك أن لا يسكن المدينة يهودي، وأن يقتل اليهود ويستأصلوا، وأن يسكن المدينة اليونانيون ويبنوا على باب الهيكل برجا، ويجعل فوقه ألواحا ويكتبوا عليه اسم " إيليا الملك " وذلك من ثمان سنين من ملكه.

قال: والبرج اليوم على باب مدينة القدس، وسمي محراب داود.

قال: فسمي بيت المقدس إلى هذا الوقت " إيليا ".

فمن الخراب الأول الذي أخربه " طيطس " إلى هذا الخراب ثلاث وخمسون سنة.

وامتلأت بيت المقدس من اليونانيين، فنظروا إلى النصارى يأتون إلى تلك المزبلة التي فيها القبر والأقرانيون، فيصلون، فمنعوهم من ذلك.

وبنى اليونانيون على تلك المزبلة هيكلا على اسم الزهرة، فلم يقدر أحد من النصارى بعد ذلك أن يقرب ذلك الموضع.

قال: ثم مات " إيليا الملك " وملك بعده " أنطونيوس قيصر " برومية اثنين وعشرين سنة.

قال: وفي إحدى عشرة سنة من ملكه صير " يهودا " أسقفا على بيت المقدس، فأقام سنتين ومات.

قال: فمن يعقوب أسقف المقدس الأول إلى يهودا أسقف بيت المقدس هذا، كانت الأساقفة الذين صيروا على بيت المقدس مختونين.

وذكر أنه ولي بعد هذا قيصر آخر اسمه " مرقس " تسع عشرة سنة، وأنه أثار على النصارى بلاء عظيما وحزنا شديدا، واستشهد في زمانه شهداء كثيرون.

قال: وكان في أيامه جوع شديد ووباء عظيم لم تمطر السماء سنين، وكاد الملك وجميع أهل مملكته أن يهلكوا من الجوع.

فسألوا النصارى أن يبتهلوا إلى إلههم، فدعوا فأمطر الله عليهم مطرا عظيما وارتفع الوباء والقحط.

قال: وكان بأيامه بأرض اليونانيين " مغنوس " الحكيم.

قال: وفي خمس سنين من ملكه، صير " لولياثوس " بطريركا، وهو أول بطريرك أصلح الأساقفة في عمل مصر، أقام ثلاثا وأربعين سنة ومات.

[فصل: متابعة حكاية كلام ابن البطريق عن النصارى ومناقشته في ذلك]

قال: وفي ذلك العصر كتب بطريرك الإسكندرية إلى أسقف بيت المقدس وبطرك إنطاكية وبطرك رومية في كتاب فصح النصارى وصومهم، وكيف يستخرج من فصح اليهود، فوضعوا في ذلك كتبا كثيرة على ما هو عليه اليوم.

قال: وذلك أن النصارى كانوا بعد صعود سيدنا المسيح إلى السماء إذا عيدوا عيد الغطاس من الغد يصومون أربعين يوما، ويفطرون كما فعل سيدنا يسوع المسيح، لأن سيدنا المسيح لما اعتمد بالأردن خرج إلى البرية فأقام بها صائما أربعين يوما، وكان النصارى إذا أفصح اليهود عيدوا هم الفصح.

فوضع هؤلاء البطاركة حسابا للفصح ليصوم النصارى أربعين يوما، ويكون فطرهم يوم الفصح ليتم فرحهم بذلك.

قلت: فقد أخبر عن المسيح أنه لما صام أربعين يوما عقب المعمودية، وكان يعيد مع اليهود في عيدهم لا يعيد عقب صومه، شاركه النصارى في ذلك مدة، فصاروا يصومون أربعين عقب الغطاس الذي هو نظير المعمودية، ويعيدون مع اليهود العيد.

ثم إنهم بعد هذا ابتدعوا تغيير الصوم، فلم يصوموا عقب الغطاس، بل نقلوا الصوم إلى وقت يكون عيدهم مع عيد اليهود، فيكون عيدهم مع عيد اليهود، وهو فصح المسيح، ويكون ذلك وقت قيامته من قبره.

قال: ومات " مرقص الملك " وملك بعده " قمودوس قيصر " برومية اثنتي عشرة سنة، وفي أيامه كان في أرض اليونانيين في مدينة " أفرغامس "، " جالينوس " الحكيم صاحب صناعة الطب.

وذكر " جالينوس " في فهرست كتبه أنه ربى " قمودوس الملك ".

وذكر " جالينوس " في المقالة الأولى من الكتاب المعروف بـ (كتاب أخلاق النفس) : أنه كان في عصر " قمودوس الملك " رجل يقال له " بولس " طلبه " قمودوس الملك " ليقتله، فهرب منه، وكان له غلامان، فقبضهما الملك، فضربهما الملك، وطلب منهما أن يدلاه على مولاهما، فلم يفعلا لكرم أنفسهما ونخوتهما وشدة محاماتهما على مولاهما، فقتلهما. وأن من الإسكندر إلى بولس خمسمائة سنة وست عشرة سنة، وذلك في السنة التاسعة من ملك " قمودوس قيصر " فهذا ما ذكر جالينوس.

قال: وكان أيضا في أيام " ديمقراطيس " الحكيم.

قلت: هذه المدة أكثر مما ذكره " سعيد " هذا، فإنه لم يذكر من المسيح إلى هنا مائتا سنة، بل ذكر إلى الخراب مائة وثلاثة وعشرين سنة، وقد تقدم ذكره " لديمقراطيس " قبل هذا.

قال: وفي عشر سنين من ملكه ظهرت الفرس فغلبت على " بابل "، وأمدوا فارس، وتملك " أزدشير بن ساسان " بابل من أهل أصطخر، وهو أول ملك ملك على فارس في المرة الثانية.

قال: ومات " قمودوس قيصر " ملك الروم، وملك بعده قيصر آخر ثلاثة أشهر، ثم آخر، وملك بعده برومية " سويرس قيصر " سبع عشرة سنة، وذلك في أربع سنين من ملك " أزدشير ".

وكان هذا الملك شديدا، قد أثار على النصارى بلاء عظيما وعذابا كبيرا، وقتل كل عالم منهم وقتل خلقا كثيرا، واستشهد في أيامه خلق كثير من النصارى في كل موضع، ثم قتل كل من كان بمصر والإسكندرية من النصارى، وهدم الكنائس وبنى بالإسكندرية هيكلا، وسماه هيكل الآلهة.

وملك بعده قيصر، وهو " أنطونيوس " الأصلع ست سنين، وملك بعده قيصر آخر ثلاث عشرة سنة، كانت النصارى في أيامه في هدوء وسلامة، وكانت أمه تحب النصارى، وفي أيامه سمي بطرك الإسكندرية " بابا " أي الجد، وملك بعده قيصر آخر ثلاث سنين، وهذا أثار على النصارى بلاء طويلا وحزنا عظيما، وقتل منهم خلقا كثيرا وأخذ الناس بعبادة الأصنام، وقتل من الأساقفة خلقا كثيرا وقتل بترك أنطاكية، فلما سمع أسقف بيت المقدس بقتله هرب وترك الكرسي.

قال: ومات قيصر هذا في السنة الثانية من ملك " بهرام بن هرمز " وملك بعده قيصر آخر ثلاثة أشهر، ثم بعده آخر أربع سنين،

واسمه " غرديانوس " وفي ثلاث سنين من ملكه مات " بهرام بن هرمز " وملك بعده " بهرام بن بهرام " على الفرس تسع عشرة سنة.

وفي أيامه ظهر رجل فارسي يقال له: " ماني " فأظهر دين المانية، وزعم أنه نبي، فأخذه " بهرام بن بهرام " ملك الفرس فشقه نصفين، وأخذ من أصحابه وممن يقول بقوله مائتي رجل، فغرس رءوسهم في الطين منكسين حتى ماتوا منكسين.

وملك بعد قيصر هذا " فيلبس " قيصر برومية سبع سنين، وآمن بالسيد المسيح، ووثب عليه قائد من قواده فقتله.

ثم ملك بعده قيصر آخر اسمه " داقنوس " وهو " دقيانوس " وذلك من عشر سنين من ملك " بهرام بن بهرام " فلقي النصارى منه حزنا طويلا وعذابا شديدا، وقتل منهم من لا يحصى واستشهد في أيامه من الشهداء خلق كثير، وقتل بطرق رومية، ثم خرج إلى مدينة " أفسس " فبنى في وسطها هيكلا عظيما وصير فيه الأصنام، وأمر أن يسجد للأصنام ويذبح لها، ومن لم يفعل ذلك قتل، فقتل من النصارى بأفسس خلقا عظيما، وصلبهم على الحصن واتخذ من أولاد عظماء " أفسس " سبعة غلمان من خواصه وعلى كسوته، وقدمهم على جميع من عنده، وذكر أسماءهم، أسماء أصحاب أهل الكهف.

قال: وهؤلاء السبعة الغلمان لم يسجدوا للأصنام، فأعلموا الملك بخبرهم فأمر بحبسهم، ثم خرج إلى بعض المواضع وأطلق سبيلهم إلى حين رجوعه.

فلما خرج من المدينة أخذ الغلمان كل ما لهم فتصدقوا به، ثم خرجوا إلى جبل عظيم يقال له: " جاوس " شرقي أفسس " فيه كهف كبير فاختفوا في الكهف، فكان واحد منهم في كل يوم يتنكر ويدخل المدينة، فيسمع ما يقول الناس في شأنهم ويشتري لهم طعاما ويرجع فيعلمهم.

فقدم " دقيانوس " الملك فسأل عنهم، فقيل له: إنهم في جبل " جاوس " في الكهف مختفين.

فأمر الملك أن يبنى باب الكهف عليهم ليموتوا، وصب الله عليهم النعاس، فناموا كالأموات.

وأخذ قائد من قواده صفيحة من نحاس، وكتب فيها خبرهم وقصتهم مع " دقيانوس " الملك، وصير الصفيحة في صندوق نحاس ودفنه داخل الكهف، وبنى الكهف.

ومات الملك " دقيانوس قيصر " وملك بعده قيصران برومية سنتين، ثم قيصر آخر اسمه " غنيونوس " خمس عشرة سنة، وملك بعده قيصر آخر سنة واحدة ومات، وذلك من ثلاث سنين من ملك " هرمز ".

وفي أول سنة من ملك هذا، صير " بولس " بطركا على أنطاكية ويسمى: " بولوس الشمشاطي " قال: وهو الذي ابتدع دين " البوليانية "، فسمي التابعون لدينه والقائلون بمقالته بوليانيين.

قال: وكانت مقالته: أن سيدنا المسيح خلق من اللاهوت إنسانا كواحد منا في جوهره، فإن ابتداء الابن من مريم وأنه اصطفي ليكون مخلصا للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، فحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي: (ابن الله) .

وقال: إن الله جوهر واحد، وأقنوم واحد ولا نؤمن بالكلمة، ولا بروح القدس.

قال: وبعد موته اجتمع ثلاثة عشر أسقفا في مدينة " أنطاكية " ونظروا في مقالة " بولس "، فأوجبوا على هذا الشمشاطي اللعن فلعنوه، ولعنوا من يقول مقالته وانصرفوا.

قال: وبعده ملك قيصر آخر ست سنين، اسمه " أوراغوس قيصر ".

قال: وكان النصارى بالإسكندرية في أيامه يصلون في المطامير والبيوت فزعا من الروم، ولم يكن يظهر بترك بالإسكندرية ; لئلا يقتلوهم.

فلما صار " نارون " بطركا، ظهر ولم يزل يداري الروم حتى بنى بالإسكندرية كنيسة " حنا " و " مار مريم " وملك بعده

قيصران، ثم قيصر اسمه " فاروس " وذلك في تسع سنين من ملك " سابور بن هرمز ". وكان شديدا على النصارى، قتل الأخوين " قزمان " و " دميان " الشهيدين، وملك بعده " دقيطيانوس ".

قال: فمن خراب " طيطس " لبيت المقدس إلى ملك " دقيطيانوس " مائتان وست سنين، ومن مولد سيدنا المسيح إلى " دقيطيانوس " مائتان وست وسبعون سنة، ومن الإسكندر إلى " دقيطيانوس " خمسمائة وخمس وتسعون سنة، ومن سبي بابل إلى " دقيطيانوس " ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثون سنة، ومن داود إلى " دقيطيانوس " ألف وتسعمائة وإحدى وأربعون سنة.

قال: وملك " دقيطيانوس " في إحدى عشرة سنة من ملك " سابور بن هرمز " ملك الفرس، وملك معه اثنان تملكا على الروم إحدى وعشرين سنة، وهؤلاء أثاروا على النصارى بلاء عظيما وحزنا طويلا وعذابا أليما وشدة شديدة تجل عن الوصف من

القتل والعذاب واستباحة الأموال، واستشهدوا ألوفا من الشهداء وعذبوا " ماري جرجس " أصناف العذاب وقتلوه بفلسطين، وقتلوا " ماري مينا " و " ماري بقطر " و " أيتماخوس " و " مركورس " وغيرهما.

قال: وفي عشر سنين من ملكهما صير " بطرس " بطركا على الإسكندرية فأقام عشر سنين وقتل.

وفي عشرين سنة من ملكهما، ضرب عنق بطرس هذا البطرك بالإسكندرية.

قال: وكان لبطرس تلميذان، اسم أحدهما " أشلا " والآخر " الأكصندروس " وكان بالإسكندرية رجل يقال له: " أوريوس " يقول: إن الأب وحده الله الفرد، والابن مخلوق مصنوع، وقد كان (الأب) إذ لم يكن الابن.

فقال " بطرس " البطرك لتلميذيه: إن المسيح لعن " أريوس " فاحذرا أن تقبلا قوله، فإني رأيت المسيح في النوم مشقوق الثوب، فقلت له: يا سيدي من شق ثوبك؟ فقال لي: " أريوس "، فاحذروا أن تقبلوه ويدخل معكم الكنيسة، كنيسة الله.

قال: وبعد قتل " بطرس " بخمس سنين صير " أشيلا " بطركا على الإسكندرية، فأقام ستة أشهر ومات.

وكان " أريوس " قد استعان على " أشلا " بأصدقائه، فأورى أنه قد رجع عن تلك المقالة، فقبله " أشلا " وأدخله الكنيسة وجعله قسيسا.

قال: وأما " دقيطيانوس " الملك فكان يطلب النصارى فيقتلهم.

فبينما هو يسير في طلبهم إذ بلغ إلى موضع يقال له: " ملطية " فصب الله عليه نقمته، فوقع في علل عظيمة وأمراض عظيمة حتى ذاب جسمه، وكان الدود يتساقط من بدنه إلى الأرض، وسقط لسانه من حنكه ومات.

وملك بعده قيصران، أحدهما المشرق والشام وأرض الروم، والآخر رومية ونحوها، وكان أحدهما اسمه " علانيوس " والآخر " مقصطيوس " فكانا كالسباع الضارية على النصارى، وأثارا عليهم البلاء والجلاء وما لا يصفه واصف، وفعلا بهم ما لم يفعله أحد من الملوك قبلهم.

وملك معهما على بزنطية، وما والاها " قسطس " أبو " قسطنطين "، وكان رجلا دينا مبغضا للأصنام محبا للنصارى.

فخرج " قسطس " إلى ناحية الجزيرة و " الرها "، فنزل في قرية من قرى " الرها " يقال لها: " كفرجاث " فنظر فيها امرأة حسنة جميلة يقال لها: " هيلانة " وكانت قد تنصرت على يدي أسقف " الرها " وتعلمت قراءة الكتب.

وولدت " هيلانة " " قسطنطين " " فتربى بـ " الرها " وتعلم حكم اليونانيين، وكان غلاما حسن الوجه قليل الشر، وديعا محبا للحكمة.

وأما " علانيوس " فكان رجلا وحشيا شديد البأس، مبغضا للنصارى جدا كثير القتل لهم، محبا للنساء، ولم يترك للنصارى بنتا بكرا إلا أخذها وأفسدها وقتلها، وكذلك أصحابه، وهكذا كانوا يفعلون بالنصارى، وكان النصارى في شدة شديدة جدا معهم.

وبلغه خبر " قسطنطين " وأنه غلام هاد قليل الشر كثير العلم والخير.

وأخبره الحكماء الذين له والمنجمون أن " " قسطنطين " " سيملك ملكا عظيما، فهم بقتله.

وعلم " " قسطنطين " " بذلك فهرب من " الرها " وذهب إلى مدينة " بزنطية " ووصل إلى أبيه " قسطس " فسلم إليه الملك.

وبعد قليل مات " قسطس " وصب الله على " علانيوس " الملك عللا عظيمة، حتى تقطع لحمه وتهرأ، وبقي مطروحا لا يقدر أحد أن يقترب منه.

فعجب الناس مما ناله، ورحمه أعداؤه مما حل به.

فرجع إلى نفسه وقال: لعل هذا الذي بي مما أقتل النصارى.

فكتب إلى جميع عماله أن يطلقوا النصارى من الحبوس، وأن يكرموهم ولا يؤذوهم، ويسألونهم أن يدعوا له في صلاتهم.

فصلى النصارى على الملك ودعوا له، فوهب الله له العافية ورجع إلى أفضل مما كان عليه من الصحة والقوة.

فلما صح وقوي، رجع إلى أشر مما كان عليه من الردى.

وكتب إلى جميع عماله أن يقتلوا النصارى، ولا يعيش في مملكته نصراني ولا يسكنوا مدينة ولا قرية له.

فمن كثرة القتلى كانوا يحملون على العجل ويرمون بهم في البحار والصحاري، وقتل " مار جرجس " وأخاه بمدينة " قباذوقية "

وهما من أهلها، وقتل " بربارة "، وذكر حربا جرت بينه وبين " سابور " لما تنكر " سابور " وجاء إليه متنكرا وعرفه.

قال: وأما " مقسطيوس " فكان شريرا على أهل رومية، واستعبد كل من كان برومية وخاصة النصارى، فكان ينهب أموالهم ويقتل رجالهم ونساءهم وصبيانهم.

فلما سمع أهل رومية بملك " " قسطنطين " " وأنه مبغض للشر محب للخير، وأن أهل مملكته معه في هدوء وسلامة، كتب رؤساء رومية إلى " " قسطنطين " " يسألونه ويطلبون إليه أن يخلصهم من عبودية " مقسطيوس " عدو الله.

فلما قرأ كتبهم، اغتم غما شديدا وبقي متحيرا ولا يدري كيف يصنع.

فبينما هو متفكر، إذ ظهر له من نصف النهار في السماء صليب من كواكب تضيء، مكتوبا حوله بهذا تغلب.

فقال لأصحابه: رأيتم ما رأيت؟ قالوا: نعم.

فآمن من ذلك الوقت بالنصرانية، وذلك لست سنين من بعد موت أبيه.

فتجهز " " قسطنطين " " واستعد لمحاربة " مقسطيوس " ملك رومية، وعمل صليبا كبيرا من ذهب، وصيره على رأس البند وخرج يريد " مقسطيوس ".

فلما سمع " مقسطيوس " أن " " قسطنطين " " قد وافاه لمحاربته، استعد لحربه وعقد جسرا على النهر الذي قدام رومية، وخرج مع جميع أصحابه يحارب " " قسطنطين " ".

فأعطي " " قسطنطين " " النصرة عليه، فقتل من أصحاب " مقسطيوس " مقتلة عظيمة، وهرب " مقسطيوس " وغرق هو وأصحابه حتى امتلأ البحر وهو النهر الذي عند رومية غرقى وقتلى.

وخرج أهل رومية إلى " " قسطنطين " " بالإكليل الذهب وكل أنواع اللهو واللعب، فلقوا " " قسطنطين " " وفرحوا فرحا عظيما.

فلما دخل المدينة أمر أن تدفن أجساد النصارى الشهداء المصاليب، وكل من كان من النصارى هرب أو نفاه " مقسطيوس " يرجع إلى بلده وموضعه، ومن أخذ له شيء رد إليه.

وأقام أهل رومية سبعة أيام يعيدون للملك وللصليب ويفرحون.

فلما سمع الخبر " علانيوس " جمع ما قدر عليه وتجهز لقتال " " قسطنطين " ".

فلما عاينه انهزموا من بين يديه وأخذهم بالسيف، وقتل منهم مقتلة عظيمة، ومنهم من أسر ومنهم من استأمن.

وأفلت " علانيوس " عريانا، فلم يزل يتقوى موضعا موضعا حتى وافى مدينته، فجمع الكهنة والسحرة والعرافين الذين كان يحبهم ويقبل منهم، فضرب أعناقهم، لئلا يقعوا في يد " " قسطنطين " ".

وصب الله على " علانيوس " نارا في جوفه حتى كانت أحشاؤه تتقطع من الحر الذي كان يجده في جوفه، وسقط على الأرض وتهرأ لحمه على عظمه ومات.

وملك " " قسطنطين " " الدنيا في هدوء وسلامة، وذلك في إحدى وأربعين سنة من ملك " سابور بن هرمز " ملك الفرس.

قال: وتنصر " " قسطنطين " " في مدينة يقال لها: " نيقوميديا "، وذلك في اثنتي عشرة سنة من ملكه، وأمر ببناء الكنائس في كل بلد، وأن يخرج من بيت المال الخراج مما يعمل به أبنية الكنائس.

قال: وفي خمس سنين من ملكه صير " الأكصندروس " بطريركا على الإسكندرية، وهو تلميذ بطركها " بطرس " الذي قتل وهو رفيق " أشلا "، فأقام ست عشرة سنة، وفي خمس عشرة سنة من رياسته، كان المجمع بمدينة " نيقية " الذي رتبت فيه الأمانة الأرثذكسية.

فمنع " الأكصندروس " بترك الإسكندرية " أريوس " من دخول الكنيسة ولعنه، وقال: إن " أريوس " ملعون، لأن " بطرس " البترك قبل أن يستشهد قال لنا: إن الله لعن " أريوس " فلا تقبلوه ولا تدخلوه الكنيسة.

وكان على مدينة " أسيوط " من عمل مصر أسقف يرى رأي " أريوس " فلعنه أيضا.

وكان بالإسكندرية هيكل عظيم كانت " كلاوبطرة " الملكة بنته على اسم زحل، وكان فيه صنم من نحاس عظيم يسمى: " ميكائيل "، وكان أهل الإسكندرية ومصر في اثني عشر يوما في شهر " هتور " وهو " تشرين الثاني " يعيدون لذلك الصنم عيدا عظيما، ويذبحون الذبائح الكثيرة.

فلما صار هذا بطركا على الإسكندرية وظهرت النصرانية، أراد أن يكسر الصنم ويبطل الذبائح.

فامتنع عليه أهل الإسكندرية، فاحتال لهم بأن قال: إن هذا صنم لا منفعة فيه ولا مضرة، فلو صيرتم العيد لميكائيل الملاك، وجعلتم هذه الذبائح له كان أنفع لكم عند الله، وكان خيرا لكم من هذا الصنم، فأجابوه إلى ذلك.

فكسر الصنم، وأصلح منه صليبا وسمى الهيكل " كنيسة ميكائيل " وهي الكنيسة التي تسمى " قيسارية "، احترقت بالنار وقت موافاة الجيوش من المغاربة القرامطة مع المسمى أبو عبيد الله، وكان معه أمير من أصحابه يسمى " حباسة " وذلك في خلافة " المعتضد بالله ".

وكان عامله على مصر يومئذ مولاه المعروف " بتكين الحاجب " رجل تركي، فنفر إلى المغاربة وجاءه مدد من الشرق مع الخادم الملقب " مونس " الأستاذ.

فهرب منه أبو عبيد الله وحباسة وجنودهما، وصير العيد لميكائيل الملك والذبائح.

وإلى اليوم القبط بمصر والإسكندرية يعيدون في هذا اليوم عيد ميكائيل الملاك ويذبحون فيه الذبائح الكثيرة، وكذلك الملكية يعيدون في هذا اليوم عيد ميكائيل الملاك وصار رسما إلى اليوم.

قال: فلما منع بترك الإسكندرية " أريوس " من دخول الكنيسة ولعنه، خرج " أريوس " مستعديا عليه ومعه أسقفان، فاستغاثوا إلى " " قسطنطين " " الملك.

وقال " أريوس ": إنه تعدى علي وأخرجني من الكنيسة ظلما.

وسأل الملك أن يشخص " الأكصندروس " بطرك الإسكندرية ليناظره قدام الملك.

فوجه " " قسطنطين " " برسول إلى الإسكندرية فأشخص البطرك، وجمع بينه وبين " أريوس " ليناظره فقال " " قسطنطين " " لأريوس ": اشرح مقالتك.

قال " أريوس ": أقول: إن الأب كان إذ لم يكن الابن، ثم الله أحدث الابن، فكان كلمة له إلا أنه محدث مخلوق، ثم فوض الأمر إلى ذلك الابن المسمى كلمة، فكان هو خالق السماوات والأرض وما بينهما كما قال في إنجيله، إذ يقول: (وهب لي سلطانا على السماء والأرض) فكان هو الخالق لهما بما أعطي من ذلك.

ثم إن الكلمة تجسدت من مريم العذراء ومن روح القدس فصار ذلك مسيحا واحدا.

فالمسيح الآن معنيان: كلمة وجسد، إلا أنهما جميعا مخلوقان.

قال: فأجابه عند ذلك بطرك الإسكندرية، وقال: تخبرنا الآن أيما أوجب علينا عندك، عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا.

قال " أريوس ": بل عبادة من خلقنا.

قال له البطرك: فإن كان خالقنا الابن كما وصفت، وكان الابن مخلوقا، فعبادة الابن المخلوق أوجب من عبادة الأب الذي ليس بخالق، بل تصير عبادة الأب الخالق للابن كفرا، وعبادة الابن المخلوق إيمانا، وذلك من أقبح الأقاويل.

فاستحسن الملك وكل من حضر مقالة البطرك، وشنع عندهم مقالة " أريوس "، ودار بينهما أيضا مسائل كثيرة.

فأمر " " قسطنطين " " البطرك " الأكصندروس " أن يلعن " أريوس " وكل من قال بمقالته.

فقال له: بل يوجه الملك فيشخص البطاركة والأساقفة حتى يكون لنا مجمع، ونضع فيه قضية ونلعن " أريوس " ونشرح الدين ونوضحه للناس.

فبعث " " قسطنطين " " الملك إلى جميع البلدان فجمع البطاركة والأساقفة فاجتمع في مدينة " نيقية " بعد سنة وشهرين، ألفان وثمانية وأربعون أسقفا، وكانوا مختلفي الآراء مختلفي الأديان.

فمنهم من يقول: المسيح ومريم إلهان من دون الله، وهم " المريمانية "، ويسمون " المريميين ".

ومنهم من كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى لإيقاد الثانية منها، وهي مقالة " سبارينون " وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: لم تحبل مريم لتسعة أشهر، وإنما مر نور في بطن مريم كما يمر الماء في الميزاب، لأن " كلمة الله " دخلت من أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهي مقالة " ألبان " وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفي ليكون مخلصا للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية فحلت فيه المحبة والمشيئة، فلذلك سمي " ابن الله " ويقولون: إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد، يسمونه بثلاثة أسماء ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، وهي مقالة " بولص الشمشاطي " بطرك أنطاكية وأشياعه، وهم " البوليانيون ".

ومنهم من كان يقول بثلاثة آلهة، لم يزل صالح وطالح وعدل بينهما، وهي مقالة " مرقيون " وأشياعه.

وزعموا أن " مرقيون " رئيس الحواريين، وأنكروا " بطرس " السليح.

ومنهم من كان يقول: ربنا هو المسيح، وهي مقالة " بولس " الرسول، ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا.

قال: فلما سمع " " قسطنطين " " الملك مقالاتهم، عجب من ذلك وأخلى لهم دارا وتقدم لهم بالإكرام والضيافة، وأمرهم أن يتناظروا فيما بينهم لينظر من معه الحق فيتبعه.

فاتفق منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا على دين واحد ورأي واحد، فناظروا بقية الأساقفة المختلفين فأفلجوا عليهم حججهم وأظهروا الدين المستقيم، وكان أيضا باقي الأساقفة مختلفي الأديان والآراء.

وصنع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا مجلسا خاصا عظيما، وجلس في وسطه، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعها إليهم، وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على المملكة لتصنعوا ما بدا لكم، لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين.

فباركوا على الملك وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذب عنه.

ووضعوا له أربعين كتابا، فيها السنن والشرائع، وفيها ما يصلح أن يعمل به الأساقفة وما يصلح للملك أن يعمل بما فيها.

وكان رئيس المجمع والمقدم فيه " الأكصندروس " بطريرك الإسكندرية، وبطرك الإنطاكية، وأسقف بيت المقدس.

ووجه بطرك رومية من عنده رجلين، فاتفقوا على نفي " أريوس " وأصحابه ولعنوهم وكل من قال مقالته، ووضعوا تلك الأمانة، وثبتوا أن الابن مولود من الأب قبل كل الخلائق، وأن الابن من طبيعة الأب غير مخلوق.

واتفقوا على أن يكون فصح النصارى في يوم الأحد الذي يكون بعد فصح اليهود، وأن لا يكون فصح اليهود مع فصح النصارى في يوم واحد، وثبتوا ما وضعه من تقدم ذكره من حساب الصوم والفصح، وأن يكون فطر النصارى يوم فصحهم، يوم الأحد الذي يكون بعد فصح اليهود.

لأن النصارى كما قلنا من قبل كانوا إذا عيدوا عيد الحميم وهو عيد الغطاس صاموا من الغد أربعين يوما ويفطرون.

فإذا كان عيد اليهود عيدوا معهم الفصح، فصيروا يوم الفصح للفطر، ومنعوا أن يكون للأسقف زوجة، وذلك أن الأساقفة منذ وقت الحواريين إلى مجمع الثلاثمائة وثمانية عشر كان لهم نساء، لأنه كان إذا اختير واحد أسقفا وكانت له زوجة، تبيت معه ولم تتنح عنه، ما خلا البطاركة، فإنه لم يكن لهم نساء ولا كانوا أيضا يصيرون أحدا بطركا له زوجة.

قال: وانصرفوا مكرمين محظوظين، وذلك في سبع عشرة سنة من ملك " قسطنطين ".

قال: وسن " قسطنطين " الملك ثلاث سنن:

أحدها: كسر الأصنام وقتل كل من يعبدها.

والثانية: أن لا يثبت في الديوان إلا أولاد النصارى، ويكونون أمراء وقوادا.

والثالثة: أن يقيم الناس جمعة الفصح والجمعة التي بعدها لا يعملون فيها عملا، ولا يكون فيها حرب.

قال: وتقدم " قسطنطين " إلى أسقف بيت المقدس أن يطلب موضع المقبرة والصليب، ويبني الكنائس ويبدأ ببناء القيامة المقدسة.

فقالت " هيلانة " أم " قسطنطين " للملك: إني نذرت أن أصير إلى بيت المقدس فأطلب المواضع المقدسة فأبنيها، فدفع الملك إليها أموالا كثيرة جزيلة.

وسارت إلى بيت المقدس مع أسقف بيت المقدس، فلما وصلت لم يكن لها حرص ولا همة إلا طلب الصليب.

فجمعت اليهود والسكان في بيت المقدس، واختارت منهم عشرة، ومن العشرة ثلاثة كان واحد منهم يقال له: " يهوذا " فسألتهم أن يدلوها على موضع الصليب فامتنعوا، وقالوا: ليس عندنا علم منه ولا خبرة بالموضع.

فأمرت بهم فطرحتهم في جب ليس فيه ماء، فأقاموا سبعة أيام لم يطعموا ولم يسقوا، فقال أحدهم الذي اسمه يهوذا لصاحبيه: إن أباه عرفه بالموضع الذي تطلب هذه المرأة، وإن جده عرف أباه.

فصاح الاثنان من الجب: أخرجونا حتى نعلم الملكة بحال هذا الرجل.

فأخرجوهم، فأخبروا الملكة بما قال لهما " يهوذا " فأمرت بضربه بالسياط فأقر أنه يعرف الموضع، فخرج حتى جاء إلى الموضع الذي فيه المقبرة والأقرانيون، وكانت مزبلة عظيمة هناك، فصلى وقال: اللهم إن كان في هذا الموضع المقبرة فأسألك أن تزلزل المكان وتخرج منه دخانا حتى نؤمن، فزلزل الموضع وخرج منه دخان كما سأل فآمن.

فأمرت " هيلانة " بكنس الموضع من التراب، فظهرت المقبرة والأقرانيون ووجد ثلاثة صلبان، قالت " هيلانة " كيف لنا أن نعلم بصليب السيد المسيح؟ وكان بالقرب منهم عليل شديد العلة قد يئس منه، فوضع الصليب الأول عليه والثاني والثالث فقام المريض وليس به شيء يكره.

فعلمت " هيلانة " أنه الصليب الذي لسيدنا المسيح، فجعلته في غلاف من ذهب، وحملته معها وجملته بما تقدر عليه، وأظهرت كل ما كان مدفونا من آثار سيدنا المسيح وحملته إلى ابنها " قسطنطين " وبنت كنيسة القيامة في موضع الصليب والأقرانيون وكنيسة " قسطنطين "، وانصرفت وأمرت أسقف بيت المقدس أن يبني باقي الكنائس، وذلك في اثنين وعشرين سنة من ملك " قسطنطين ".

قال: فمن ميلاد سيدنا المسيح إلى أن وجد الصليب ثلاثمائة وثمانية وعشرون سنة، وذكر أنه بعد هذا اجتمعوا بمجمع عظيم ببيت

المقدس.

وكان معهم رجل قد دسه بطرك القسطنطينية وجماعة معه ليسألوا بطرك الإسكندرية، وكان هذا الرجل لما رجع إلى الملك أظهر أنه مخالف لأريوس، وكان يرى رأيه ويقول بمقالته، فقام هذا الرجل واسمه " مانيوس " فقال: إن " أريوس " لم يقل إن المسيح خلق الأشياء، ولكن قال به خلقت الأشياء، لأنه " كلمة الله " التي بها خلق السماوات والأرض، وإنما خلق الله الأشياء بكلمته، ولم تخلق الأشياء كلمته، كما قال سيدنا المسيح في الإنجيل المقدس: " كل بيده كان، ومن دونه لم يكن شيء ". فقال: به كانت الحياة، والحياة نور البشر. وقال: في هذا العالم والعالم به تكون، فأخبر أن الأشياء به تكونت ولم يخبر أنها كونت له، قال: فهذه كانت مقالة " أريوس " ولكن الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا تعدوا عليه وظلموه وحرموه ظلما وعدوانا.

فرد عليه بطرك الإسكندرية وقال: أما " أريوس " فلم يكذب عليه الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا ولا ظلموه، لأنه إنما قال: " إن الابن خالق الأشياء دون الأب.

وإذا كانت الأشياء إنما خلقت بالابن دون أن يكون الأب لها خالقا، فقد يجب أن يكون ما خلق منها شيئا، وفي ذلك تكذيب للمسيح، قوله: " الأب يخلق وأنا أخلق " وقال: " إن أنا لم أعمل عمل أبي فلا تصدقوني ". وقال: " كما أن الأب يحيي من يشاء ويميته، كذلك الابن يحيي من يشاء ويميته.

فدل على أنه يحيي ويخلق، وفي هذا تكذيب لمن زعم أنه ليس بخالق، وإنما خلقت به دون أن يكون خالقا له. وأما قولك: إن الأشياء كونت به، فإنما كنا لا نشك أن المسيح حي فعال، وكان قد دل بقوله: " إنما أفعل الخلق والحياة " كان قولك: (به كونت الأشياء) إنما هو راجع في المعنى إلى أنه كونها فكانت به مكونة، ولو لم يكن ذلك كذلك لتناقض القولان.

قال: ورد عليه أيضا فقال: (أما قول من قال من أصحاب " أريوس ": إن الأب يريد الشيء فيكونه الابن، والإرادة للأب والتكوين للابن، فإن ذلك يفسد أيضا إذ كان الابن عنده مخلوقا فقد صار حظ المخلوق في الخلق أوفى من حظ الخالق فيه، وذلك أن هذا أراد وفعل، وذاك أراد ولم يفعل، فهذا أوفر حظا في فعله من ذاك، ولا بد لهذا أن يكون في فعله لما يريد ذلك، بمنزلة كل فاعل من الخلق لما يريد الخالق منه، ويكون حكمه كحكمه في الجبر والاختيار، فإن كان مجهولا فلا شيء له في الفعل، وإن كان مختارا فجائز أن يطاع، وجائز أن يعصى وجائز أن يثاب، وجائز أن يعاقب، وهذا أشنع في القول.

قال: ورد عليه أيضا وقال: إن كان الخالق إنما خلق خلقه بمخلوق، فالمخلوق غير الخالق بلا شك، فقد زعمتم أن الخالق يفعل بغيره، والفاعل بغيره محتاج إلى متمم ليفعل به إذ كان لا يتم له الفعل إلا به، والمحتاج إلى غيره منقوص، والخالق يتعالى عن هذا كله.

قال: فلما دحض بطرك الإسكندرية حجج أولئك المخالفين وظهر لمن حضر بطلان قولهم، تحيروا وخجلوا فوثبوا على بطرك الإسكندرية فضربوه حتى كاد أن يقتل، فخلصه من أيديهم ابن أخت " قسطنطين "، وهرب بطرك الإسكندرية المحتج على أصحاب " أريوس " وصار إلى بيت المقدس من غير حضور أحد من الأساقفة، ثم أصلح دهن الميرون وقدس الكنائس ومسحها بدهن الميرون، وسار إلى الملك فأعلمه بالخبر فصرفه الملك إلى الإسكندرية.

[فصل: متابعة حكاية كلام ابن البطريق عن النصارى ومناقشته في ذلك]

قال: وأمر الملك أن لا يسكن يهودي بيت المقدس ولا يجوز بها، ومن لم يتنصر يقتل. فتنصر من اليهود خلق كثير، وظهر دين النصرانية.

فقيل لـ قسطنطين الملك: إن اليهود يتنصرون من فزع القتل وهم على دينهم. قال الملك: كيف لنا أن نعلم ذلك منهم؟

قال بولس البترك: إن الخنزير في التوراة حرام واليهود لا يأكلون لحم الخنزير، فأمر أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها وتطعمهم منها، فمن لم يأكل منه علمنا أنه مقيم على دين اليهودية.

فقال الملك: إذا كان الخنزير في التوراة حراما، فكيف يجوز لنا أن نأكل لحم الخنزير ونطعمه للناس؟

فقال له " بولس " البترك: إن سيدنا المسيح قد أبطل كل ما في التوراة وجاء بناموس آخر وبتوراة جديدة وهو الإنجيل، وفي إنجيله المقدس: (أن كل ما يدخل البطن ليس بحرام ولا ينجس، وإنما ينجس الإنسان الذي يخرج من فيه) .

وقال بولس الرسول في رسالته إلى أهل مدينة " فورينيوس " الأولى: (الطعام للبطن آلته لها، والبطن للطعام، وله يلعن) .
ومكتوب في " الإبركسس " يعني أخبار الحواريين: أن بطرس رئيس الحواريين كان في مدينة " يافا " في منزل رجل دباغ يقال له: " سيمون "، وأنه صعد إلى المنزل ليصلي وقت ست ساعات من النهار، فوقع عليه سبات فنظر إلى السماء قد تفتحت وإذا إزار قد نزل من السماء حتى بلغ الأرض.

وفيه: كل ذي أربع قوائم على الأرض من السباع والذئاب وغير ذلك من طير السماء. وسمع صوتا يقول له: يا بطرس، قم فاذبح وكل، فقال بطرس: يا رب ما أكلت شيئا نجسا قط ولا وسخا قط فجاء صوت ثان: كل ما طهره الله فليس بنجس، وفي نسخة أخرى: ما طهره الله فلا تنجسه أنت.

ثم جاء الصوت بهذا ثلاث مرات، ثم إن الإزار ارتفع إلى السماء، فعجب بطرس وتحير فيما بينه وبين نفسه.

فبهذا المنظر وبما قال سيدنا المسيح في إنجيله المقدس، أمر بطرس وبولس أن نأكل كل ذي أربع قوائم من الخنزير وغيره من جميع الحيوان حلالا لنا.

فأمر الملك أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها وتقطع صغارا صغارا وتصير على أبواب الكنائس في كل مملكته يوم أحد الفصح، وكل من خرج من الكنيسة يلقم لقمة من لحم الخنزير، فمن لم يأكل منه يقتل، فقتل لأجل ذلك خلق كثير.

قال سعيد: وكان لـ " قسطنطين " ثلاثة أولاد أكبرهم " قسطنطين " بن " قسطنطين " وذلك حين ملك " أزدشير بن سابور بن هرمز " على الفرس، وملك بعده " سابور بن سابور " لخمس سنين من ملك " قسطنطين ".

قال: وفي ذلك العصر اجتمع أصحاب " أريوس " وكل من قال بمقالته إلى الملك " قسطنطين "، فحملوا له دينهم ومقالتهم، وقالوا: إن الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا الذين كانوا اجتمعوا بنيقية قد أخطأوا وحادوا عن الحق في قولهم: إن الابن متفق مع الأب في الجوهر، فتأمر أن لا يقال هذا، فإنه خطأ. فأراد الملك أن يفعل ذلك.

قال: وفي ذلك العصر ظهر على " الأقرانيون " وهو الجلجلة نصف النهار صليب من نور من الأرض إلى السماء يفوق ضوءه ضوء الشمس، فكان يبلغ إلى طور زيتا فرأى ذلك كل من كان في بيت المقدس من كبير وصغير.

فكتب أسقف بيت المقدس إلى " قسطنطين " بن " قسطنطين " بالخبر وقال: في أيام أبيك السعيد ظهر صليب كواكب من السماء في نصف النهار، وفي أيامك ظهر أيها الملك على " الأقرانيون " صليب من نور يفوق نوره نور الشمس في نصف النهار.

وكتب إليه أن لا يقبل قول أصحاب " أريوس " فإنهم حائدون عن الحق كفار، قد لعنهم الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا، ولعنوا كل من يقول بمقالتهم. فقبل قوله.

قال: وفي ذلك الوقت غلبت مقالة " أريوس " على قسطنطينية وأنطاكية وبابل والإسكندرية.

فسمي التابعون لأريوس والقائلون بمقالته " أريوسيين " مشتقا من اسمه.

قال: وفي ثاني سنة من ملك " قسطنطين " صير على أنطاكية بطرك أريوسي، ثم بعده آخر أريوسي، ثم بعده آخر مناني، وصير على قسطنطينية بترك مناني.

قال ففي عشر سنين من ملكه صير على قسطنطينية بطرك، وكان يقول: روح القدس مخلوقة، وأقام عشر سنين ومات.

ونقل بعد ذلك بطرك أنطاكية فصير على قسطنطينية، وكان منانيا.

قال: وأما أهل مصر والإسكندرية فكان أكثرهم " أريوسيين " و " منانيين " فغلبوا على كنائس مصر فأخذوها ووثبوا على بترك الإسكندرية ليقتلوه فهرب منهم واستخفى، وصيروا على إسكندرية بتركا منانيا.

وفي ذلك الزمان قدم من القسطنطينية إلى الإسكندرية قائد، وكان أريوسيا، فنفى الملكي وأقام بطركا أريوسيا.

فلما خرج القائد قتل الملكيون ذلك البترك الأريوسي وأحرقوه بالنار.

ومات الملك " قسطنطين " بن " قسطنطين " وله في الملك أربع وعشرون سنة.

وملك بعده " يوليانوس " الملك الكافر على الروم سنين، وأراد أن يرد الناس إلى عبادة الأصنام، وقتل من الشهداء خلقا كثيرا.

وفي أول سنة من ملكه وثب الأريوسيون ببيت المقدس على أسقفها الملكي الذي كتب بظهور الصليب ليقتلوه فهرب منهم، فصيروا أسقفا أريوسيا.

قال: وفي ثاني سنة من ملكه، صير على أنطاكية بطركا على الأمانة، أقام خمسا وعشرين سنة.

وفي إحدى وعشرين سنة من رياسته، كان المجمع الثاني بقسطنطينية.

قال: وكان في عصره أهل مدينة " نيريار " كلهم صابئون، فوضع أسقف " نيريار ميمرا " في ميلاد المسيح ويقول في ابتدائه الميمر: السيد ولد مختونا، فخذوا المسيح من السماء واستقبلوه على الأرض، فلما قرأه عليهم استهزأوا به، وأقبلوا يضحكون منه، فلما كان عيد الحميم، وضع " ميمرا " في عيد الحميم، هتك فيه دين الصابئين وفضحهم فيه، ومكن فيه دين النصرانية.

قال: وكان في عصر " يوليانوس " الملك الكافر أول راهب سكن برية مصر وبنى الديارات وجمع الرهبان.

وكان آخر بالشام وهو أول من سكن برية " الأردن " وجمع الرهبان وبنى الديارات.

قال: وخرج هذا الملك الكافر لقتال " سابور " ملك الفرس، فلسوء مذهبه ورداءة دينه وما أراد أن يأخذ بعبادة الأصنام، ظفر به ملك الفرس فقتله، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة.

وذكر أسقف " قيسارية " أنه كان جالسا في محرابه وحذاؤه لوح فيه صورة " ماري مركورس " الشاهد، فنظر إلى اللوح فلم ير فيه صورة الشاهد، فعجب من ذلك إذ غابت فلم يكن إلا ساعة حتى عادت صورة الشاهد إلى اللوح، وفي طرف الحربة المصورة التي في يد الشاهد شبيه بالدم، فتعجب من ذلك وبقي متحيرا حتى بلغه أن الملك الكافر قتل في الحرب.

فعلم أن " ماري مركوس " الشاهد قتله ; لشدة بغضه الذي كان للنصارى، وما كان عزم عليه من عبادة الأصنام.

وذكر بعد هذا جماعة من البتاركة والأساقفة، كان بعضهم أريوسيا وبعضهم منانيا وبعضهم ملكيا، وذكر فتنا بينهم وتعصب كل طائفة لبتركها حتى يقتل بعضهم بعضا وينفي بعضهم بعضا.

وذكر أنه اختلفت آراء النصارى وكثرت مقالاتهم وغلبت عليهم مقالة " أريوس "، وأنهم ملكوا عليهم ملكا اسمه " تذوس "، وأن

الوزراء والقواد اجتمعوا إليه، ذاكرين أن مقالات الناس اختلفت وفسدت وغلبت عليهم مقالة " أريوس " و " مقدينوس " فينظر الملك في هذا ويذب عن النصرانية ويوضح الأمانة المستقيمة.

وكتب إلى بطرك إسكندرية وأنطاكية وروميه وأسقف بيت المقدس فحضروا مع أساقفتهم بقسطنطينية، إلا بطرك رومية، فإنه كتب وأنفذ بالأمانة المستقيمة.

فاجتمع بقسطنطينية مائة وخمسون أسقفا، وكان المقدم البطاركة الثلاثة، فدفع الملك إليهم كتاب بطرك رومية، فكان صحيحا موافقا، وكان يزعم أن روح القدس إله، ولكن مخلوق مصنوع.

فقال بطرك الإسكندرية: ليس روح القدس عندي معنى غير حياته، فإذا قلنا: إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا: إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا: إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حي، وإذا زعمنا أنه غير حي، فقد كفرنا، ومن كفر وجب عليه اللعن.

فاتفقوا على لعن " مقدونيوس " فلعنوه وأشياعه، ولعنوا البطاركة الذين كانوا بعده يقولون بقوله، ولعنوا أسقف لونية وأشياعه، ولعنوا " بوليناريوس " وأشياعه، لأنه كان يقول: إن الأب والابن وجه واحد.

ولعنوا " بوليناريوس " وأشياعه، لأنه كان يقول: إن جسد سيدنا المسيح بغير فعل.

وثبتوا أن روح القدس خالقة غير مخلوقة إله حق، وأن طبيعة الأب والابن جوهر واحد وطبيعة واحدة.

وزاد في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا الذين اجتمعوا في مدينة " نيقية ": (وبروح القدس المحيي المميت المنبثق من الأب) .

وثبتوا أن الأب وحده والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجوه وثلاثة خواص في وحدانية واحدة وكيان واحد، وثلاثة أقانيم إله واحد جوهر واحد طبيعة واحدة.

وثبتوا أن جسد سيدنا المسيح بنفس ناطقة عقلية.

قال: فمن المجمع الأول إلى هذا المجمع الثاني ثمان وخمسون سنة.

قال: وأطلق بطرك الإسكندرية للبطاركة والأساقفة والرهبان أكل اللحم من أجل المنانية ليعرف المناني منهم، لأن المنانية لا يرون أكل اللحم ولا شيئا من الحيوان البتة.

وكان أكثر أساقفة مصر منانية، فأكل بطاركة مصر وأسقفهم اللحم.

وأما بطاركة رومية وقسطنطينية وأساقفتها ورهبانها، فلم يأكلوا اللحم وأكلوا بدل اللحم السمك، وأقاموه مقام اللحم إذ كان حيوانا.

قال سعيد بن البطريق: لم يطلق أكل اللحم على أنهم يعتاضون منه بالسمك، إذ ليس بذبيحة، ويمنعون أكل اللحم إذ كان قد أخطأ الذين أقاموا السمك مقام اللحم، وسيدنا المسيح فقد أكل اللحم، فوجب ضرورة أكل اللحم اقتداء بالسيد المسيح، ولو يوما واحدا في السنة، ليزيلوا الشك من مذهب المنانية.

قال: وفي " الأبركسس " مكتوبا، ما نظره " بطرس " السليح بـ " يافا " من تنزل السبنية، وفيها كل ذي أربع قوائم، ولهذا الحكم كل من لم يأكل اللحم مخالف لشريعة النصرانية، ومضاهاة لمذهب الصابئة الروم، وهم لا يغتسلون إلى اليوم، لأن المنانية لا يرون الغسل بالماء، فلما طال بهم الزمان أقاموه على هذه السنة.

وقال قوم: إنما تركوا الغسل بالماء، لشدة برد بلادهم وبرد الماء عندهم، وأنه لا يتهيأ لهم بالجملة أن يقربوا الماء في الشتاء ; لثلجه وبرده، فصار سنة جارية شتاء وصيفا.

والمنانية صنفان: السماعون، والصديقون.

فالسماعون: يصومون في كل شهر أياما معلومة.

والصديقون: يصومون الدهر كله ولا يأكلون إلا ما نبت من الأرض.

فلما تنصروا خافوا أن يتركوا أكل اللحم فيعلم بهم، فجعلوا لأنفسهم صياما، فصاموا الميلاد والحواريين.

فلما طال بهم الزمان وتربوا في هذا الصوم أكلوا اللحم، فتبعتهم في ذلك النساطرة واليعاقبة والمارونية، وصارت سنة استحسنتها الملكية، فتبعوهم وخاصة المقيمون ببلاد الإسلام.

وأما الروم: فما تركوا أكل اللحم في أيام صوم الميلاد وصوم الحواريين، وتلك الأيام التي يظن أنها من جملة الصوم الكبير.

فمن أحب أن يصوم الميلاد والحواريين والسيدة ولا يأكل لحما، فليس بواجب وليس لأحد قطع اللحم طول السنة إلا في صوم الأربعين المقدسة فقط، ومن فعل بضد ذلك مخالف راجع إلى أصحاب الآراء المختلفة.

قال: وفي ثمان سنين من ملك " ثذوس " ظهرت الفتية الذين كانوا هربوا من " ذاقيوس " الملك واختفوا في الكهف.

وذلك أن الرعاة على طول الزمان كانوا إذا جازوا بذلك الموضع الذي هو الكهف، قلعوا الطوب المبني على باب الكهف حتى عاد مفتوحا كالباب.

فلما انتبهت الفتية توهموا أنهم كانوا نياما ليلة واحدة، فقالوا لصاحبهم الذي كان يذهب يبتاع لهم الطعام: امض واشتر لنا طعاما واستعلم خبر ذاقنوس.

فلما خرج إلى باب الكهف، نظر إلى البنيان والهدم ثم مضى حتى بلغ باب المدينة وهي " أفسس " فرأى باب المدينة عليه صليب كبير منصوب، فأنكر ذلك في نفسه وقال: أحسب أني نائم، فأقبل يمسح عينيه وينظر يمينا وشمالا هل يرى من يعرفه، فلم ير، فبقي متحيرا وقال: لعلي أخطأت الطريق، ولعل هذه مدينة أخرى.

ثم دخل المدينة فدفع دراهم مما كان معه عليها صورة " ذاقيوس " الملك فأنكر عليه، وقالوا: لعله أصاب كنزا، ثم قالوا: من أين لك هذه الدراهم وإلا قتلناك، فلم يكلمهم.

وصاح الناس، فاجتمع إليه خلق كثير وكلموه، فلم يكلمهم، فصاروا به إلى بطريق المدينة وكلمه فلم يتكلم، فهدده فلم يتكلم، فجاء إلى أسقف المدينة فكلمه وخوفه وقال: إنك إن لم تكلمني وتقل لي من أين لك هذه الدراهم وإلا قتلتك.

وإنما كان يمتنع من الكلام خوفا من " ذاقيوس " الملك.

فقالوا له: إنه قد مات، وملك بعده جماعة ملوك، فضربوه حتى آلمه الضرب فخبرهم بحاله على جليتها.

فقالوا له: إن " دقيانوس " قد مات وملك بعده ملوك كثيرة، والملك اليوم " ثذوس " الكبير، وقد ظهر دين النصرانية.

ثم سار معهم إلى الكهف فنظروا إلى أصحابه والصندوق النحاس الذي في الصحيفة الرصاص مكتوب فيها قصتهم وخبرهم.

فكثر تعجبهم، وكتبوا إلى الملك يعلمونه بخبرهم، فركب وسار إلى مدينة " أفسس " فنظر إليهم وكلمهم.

وبعد ثلاثة أيام دخل إليهم فوجدهم أمواتا، فأمر أن يتركوا في الكهف ولا يخرجوا، ولكن يدفنوا فيه وتبنى عليهم كنيسة، وتسمى بأسمائهم، ويعيد لها عيد في كل سنة في ذلك اليوم، وانصرف إلى قسطنطينية.

قال: فمن وقت هرب الفتية من " ذاقيوس " إلى الكهف إلى الوقت الذي ظهروا فيه وماتوا، مائة وسبع أو تسع وأربعون سنة.

قلت: هذا مما أخطأ فيه فإن الله تعالى أخبر أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا.

لكن بعض المفسرين زعموا أن هذا قول بعض أهل الكتاب لقوله: (الله أعلم بما لبثوا) وليس كذلك، فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب، بل ذكره كلاما منه تعالى.

قال سعيد: وفي زمنه كانت قصة بترك قسطنطينية " يوحنا " الملقب بـ " فم الذهب " وتولى بعده ابنه " ثذوس " الصغير اثنين وأربعين سنة لإحدى عشرة سنة من ملك " يزدجرد بن بهرام ".

وفي زمنه جعل " نسطورس " الذي تنسب إليه مقالة النسطورية بطركا على قسطنطينية.

قال: وكان " نسطورس " يقول: إن مريم العذراء ليست بوالدة إلها على الحقيقة، ولذلك كان اثنان.

أحدهما: الذي هو إله مولود من الأب، والآخر: الذي هو إنسان مولود من مريم، وأن هذا الإنسان الذي يقول: إنه مسيح بالمحبة متوحد مع ابن إله، ويقال له: إله وابن إله، ليس بالحقيقة، ولكن موهبة، واتفاق الاسمين والكرامة شبيها بأحد الأنبياء.

فبلغ قوله بطرك الإسكندرية فأنكر ذلك وكتب إليه يقبح عليه فعله ومقالته ويعرفه فساد ما هو عليه ويسأله الرجوع إلى الحق، فجرت بينهما رسائل كثيرة، ولم يرجع " نسطورس " عن مقالته.

فكتب إلى بطرك أنطاكية يسأله أن يكتب إلى " نسطورس " ويعرفه قبح فعله ورأيه وفساد مقالته ويسأله الرجوع إلى الحق.

فكتب إلى " نسطورس " إن هو لم يرجع اجتمعوا والعنوه، وجرت بينهما رسائل كثيرة فلم يرجع.

فكتبوا إلى بطرك رومية وأنطاكية وبطرك بيت المقدس أن يجتمعوا في مدينة " أفسس " لينظروا في مقالة " نسطورس ".

فاجتمع بالمدينة مائتا أسقف مقدمهم بطرك الإسكندرية، وتأخر بطرك أنطاكية فلم ينتظروه وبعثوا إلى " نسطورس " فلم يحضر معهم، فنظروا في مقالته وأوجبوا عليه اللعن، فلعنوه ونفوه وثبتوا أن مريم العذراء والدة الإله، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين متوحدة في الأقنوم.

وهذا هو خلاف المحبة، لأن " نسطورس " كان يقول: إن التحيد (أي الاتحاد) : اتفاق الوجهين، وأما التحيد (أي الاتحاد المستقيم) : فإنما هو أن يكون أقنوما واحدا من طبيعتين.

فلما لعنوا " نسطورس " قدم " يوحنا " بطرك أنطاكية، فلما وجدهم قد لعنوه قبل حضوره، غضب وقال: ظلمتم " نسطورس " ولعنتموه باطلا، وتعصب مع " نسطورس " فجمع الأساقفة الذين قدموا معه، فقطع بطرك إسكندرية وقطع أسقف " أفسس ".

فلما رأى أصحاب بطرك إسكندرية قبح فعاله وقع بينهم شر عظيم، وخرجوا من " أفسس " وصار أصحاب بطرك إسكندرية والمشرقيون حزبين، فلم يزل " ثذوس " الملك حتى أصلح بينهم.

وكتب المشرقيون صحيفة وثبتوا فيها الأمانة الصحيحة، وقالوا فيها: إن مريم العذراء القديسة ولدت إلها ربنا يسوع المسيح، الذي هو مع أبيه في الطبيعة، ومع الناس في الناسوت، وأقروا بطبيعتين ووجه واحد وأقنوم واحد، ولعنوا " نسطورس " ووجهوا بالصحيفة إلى بطرك إسكندرية، فقبل الصحيفة وأجابهم عنها بموافقتهم على ذلك.

وقال قوم: لما قبل صحيفة المشرقيين بدا له، ولم يقبل طبيعتين ووجها واحدا.

قال سعيد بن البطريق: وهم في ذلك كاذبون ; لأن كتبه تنطق بذلك.

ثم أرسل نسخة صحيفة المشرقيين إلى جماعة من الأساقفة يعلمهم أن المشرقيين رجعوا إلى الإيمان، وأنهم غير موافقين لنسطورس.

قال: فمن المجمع الثاني إلى المائة والخمسين أسقفا المجتمعين بمدينة قسطنطين، ولعنوا " مقدونيوس " إلى هذا المجمع المائتين أسقفا المجتمعين بأفسس على " نسطورس " - إحدى وخمسون سنة.

قال: ولما نفي " نسطورس " صار إلى مصر فأقام بضيعة في صعيد مصر يقال لها: " إخميم " ومات ودفن بها.

وكانت مقالته قد اندرست، فأحياها من بعده بزمن طويل " مطران نصيبين " في عصر بوسيطيانوس ملك الروم وقباد بن فيروز ملك الفرس، فبثها بالمشرق، فلذلك كثر النسطورية بالمشرق وخاصة أرض فارس بالعراق والموصل ونصيبين والفرات والجزيرة.

قال سعيد بن البطريق: رأيت أن أرد على النسطورية في هذا الموضع وأبين بطلان قولهم وفساده ; لأن النسطورية في عصرنا هذا خالفوا قول " نسطور " القديم، وزعموا أن " نسطور " كان يقول: إن المسيح جوهران وأقنومان، إله تام بأقنومه وجوهره، وإنسان تام بأقنومه وجوهره.

وإن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ; لأن الأب عندهم ولد إلها ولم يلد إنسانا، ومريم ولدت إنسانا ولم تلد إلها.

فيقال لهم: إن كان الأمر على ما تقولون، فالمسيح مسيحان وابنان، فمسيح إله وابن إله، ومسيح إنسان وابن إنسان ; لأنه لا بد لمريم من أن تكون ولدت المسيح أو لم تلده.

فإن كانت ولدته، فلا بد أن يكون ولادا روحانيا أو جسمانيا.

فإن كان جسمانيا، فهو غير الذي ولده الأب، وذلك يوجب أن يكون مسيحان.

وإن كان روحانيا، فالمسيح ابن واحد أقنوم واحد مسيح واحد.

والدليل على ذلك صفيحة الحديد التي تتحد بها النار فإنها سيف واحد تحرق وتمنع وتقطع وتضيء.

ولا يجوز أن يكون من الجهة الحديدية هي المحرقة المضيئة من غير جهة النار، إذ كان ما لم يكن فيه نار من الحديد غير محرق.

ولا الجهة النارية هي القاطعة المانعة، إذ كان شأن النار الإضاءة والإحراق لا القطع.

فقد ثبت بهذا وصح ما تعتقده الملكية من أن المسيح أقنوم واحد، وبان زيف قول النسطورية: إن المسيح أقنومان.

قلت: يقال لهذا: إن قول النسطورية والملكية، وإن كانا باطلين فقول الملكية أشد بطلانا وأعظم كفرا وتناقضا، وما ذكره هذا باطل.

أما قوله: لو كان الأمر على ما تقولون، فالمسيح مسيحان.

فيقال له: هذا إنما يلزم أن لو كان اللاهوت بمجرده يسمى مسيحا، فإن النسطورية وافقوهم على باطل، وهو أن الرب ولد إلها، وهذا باطل، ولم يقل أحد قط من الأنبياء لا في الإنجيل ولا غيره: إن صفة الله القائمة به مولودة، ولا أن الرب له مولود قديم أزلي.

ولكن إذا قدر أن الأمر كذلك، فصفة الله لم يسمها أحد مسيحا.

فإذا قدر أن اللاهوت والناسوت جوهران أقنومان لا اتحاد بينهما، لم يلزم أن يكون اللاهوت مسيحا، ولا هناك مسيح هو إله، ولا مسيح هو ابن إله.

وقد تقدم عن " نسطور " أنه كان يقول: إن هذا الإنسان الذي نقول: إنه مسيح متوحد بالمحبة مع ابن إله، ويقال له إله وابن إله، ليس بالحقيقة، ولكن موهبه.

فقد صرح بأن المسيح هو الإنسان فقط دون اللاهوت، وأن المسيح ليس بإله ولا ابن إله في الحقيقة.

فبطل ما ألزمه إياه، من أنه يلزم أن يكون هنا مسيحان.

وأما قوله: لا بد لمريم من أن تكون ولدت المسيح أو لم تلده.

فيقال: بل ولدت المسيح، وهو الإنسان وهو غير اللاهوت الذي تزعمون أن الأب ولده، وليس في ذلك مسيحان، بل مسيح واحد إنسان مخلوق.

وأيضا فقوله: فإن كان ولدته فلا بد أن يكون ولادا روحانيا أو جسمانيا، فإن كان روحانيا، فالمسيح ابن واحد، أقنوم واحد، مسيح واحد - تقسيم باطل وحجة فاسدة داحضة.

فإن مريم لم تلد ولادة روحانية، بل خرج الولد من فرجها كما تخرج أولاد النساء من فروجهن، سواء كانت عذرتها باقية أو لم تكن.

وأما ما ذكره من التمثيل بصفيحة الحديد، فلو قدر أنه مثل مطابق لم يدل على صحة قولهم، بل غايته أنه يدل على إمكانه.

فأين الدليل على أن هذا هو الواقع؟ فليس فيه ما يدل على صحة قول الملكية وفساد قول خصومهم، فكيف وهو تمثيل غير مطابق؟

فإن الحديد إذا اتحدت به النار كان الحديد قد استحال عن صفته فلم يبق حديدا محضا، وليست نارا محضا، والخشب

وغيره إذا أحرق وصار نارا، فليس هو خشبا محضا وليس هو نارا محضة بسيطة.

فمن شأن الشيئين إذا اتحدا، أن يستحيل كل منها إلى جوهر ثالث وطبيعة ثالثة ليست هذا ولا هذا، كالماء واللبن إذا اتحدا فإن ذلك يصير جوهرا ثالثا وطبيعة ثالثة لا لبنا محضا ولا ماء محضا، وكذلك النار مع الحديد أو الخشب أو غير ذلك، فإن ذلك يصير جوهرا ثالثا ليس حديدا محضا ولا خشبا محضا ولا نارا محضة، لكن الحديد إذا برد هو حديد، لكنه تغيرت حقيقته، فالنار تلينه وتذهب خبثه ولا يبقى بعد اتحاده بالنار كما كان قبل، والخشب يصير فحما وهو جوهر ثالث، إذ كان من طبع النار أنها تؤثر في كل جسد بحسبه، فتؤثر في الحديد بحسبه، وفي الخشب بحسبه.

وكل شيئين اتحدا فإنهما يصيران جوهرا ثالثا وأقنوما ثالثا وطبيعة ثالثة.

فإن كان اللاهوت والناسوت قد اتحدا - كما زعموا - فقد استحالت صفة اللاهوت واستحالت صفة الناسوت، فلم يبق اللاهوت لاهوتا ولا الناسوت ناسوتا، بل صارا جوهرا ثالثا لا لاهوتا ولا ناسوتا، وهم ينكرون هذا القول، وهو باطل.

فإن رب العالمين لا يتبدل ولا تستحيل صفاته بصفات المحدثات، ولا ينقلب القديم ولا شيء من صفاته محدثا، ولا يستحيل القديم الرب الخالق والمخلوق المحدث إلى شيء ثالث.

بل صفات الرب التي لم يزل ولا يزال موصوفا بها لا تتبدل ولا تنقلب ولا تستحيل، فضلا عن أن تستحيل إلى أمر ثالث.

ثم هذا الثالث، إن كان قديما خالقا، صار هنا خالقين قديمين.

وإن كان مخلوقا محدثا، كان الخالق قد صار مخلوقا محدثا، ومعلوم أن استحالة الخالق إلى خالق آخر أو إلى مخلوق، ممتنع ظاهر الامتناع.

ومما يوضح هذا، أن ما مثلوا به من الحديدة المحماة بالنار، هي جوهر ثالث يجري على نارها ما يجري على حديدها، فإذا طرقت، فالتطريق واقع على نارها كما هو واقع على حديدها، وكذلك إذا مدت، وكذلك إذا بصق عليها، وكذلك إذا ألقيت في الماء.

فإن كان هذا التمثيل مطابقا، لزم أن يكون ما حل بالناسوت قد حل باللاهوت.

فيكون رب العالمين هو الذي يأكل ويشرب ويبول ويتغوط، وهو الذي صفع عندهم، وبصق في وجهه، وجعل الشوك على رأسه، وضرب بالسياط، وصلب ومات وتألم، كما يحكى مثل هذا عن اليعقوبية.

وهذا لازم لكل من قال بالاتحاد، حتى النسطورية إن قالوا: إنهما متحدان بالمشيئة بمعنى أن مشيئة هذا عين مشيئة هذا.

بخلاف ما إذا قالوا: إن مشيئته موافقة لمشيئته، ليست إياها، ولهذا قال تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار - لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم - أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم - ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون} [المائدة: 72 - 75] . فذكر سبحانه وتعالى: أنهما كانا يأكلان الطعام ; لأن ذلك من أظهر الأدلة على أنهما مخلوقان مربوبان، إذ الخالق أحد صمد لا يأكل ولا يشرب.

وذكر مريم مع المسيح ; لأن من النصارى من اتخذها إلها آخر فعبدها كما عبد المسيح.

والذين لا يقولون بهذا - كثير منهم يطلب منها كل ما يطلب من الله حتى يقول لها: اغفري لي وارحميني، وغير ذلك، بناء على أنها تشفع في ذلك إلى ابنها.

فتارة يقولون: يا والدة الإله، اشفعي لنا إلى الإله، وتارة يسألونها الحوائج التي تطلب من الله ولا يذكرون شفاعة، وآخرون يعبدونها كما يعبدون المسيح.

وقد ذكر سعيد بن البطريق هذا عنهم، لما ذكر اجتماعهم عند " قسطنطين " بـ " نيقية ".

قال: وكانوا مختلفي الآراء مختلفي الأديان.

فمنهم من يقول: المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم المريمانيون ويسمون المريمانية، كذلك قال ابن حزم، وقد قال تعالى: {وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب - ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد} [المائدة: 116 - 117] . وهو - سبحانه - لم يحك هذا عن جميع النصارى، بل سأل المسيح سؤالا يقرع به من اتخذه وأمه إلهين من دون الله.

قال ابن البطريق: ويقال للنسطورية أيضا: أخبرونا عن الناسوت التي اتحدت بها اللاهوت وسمي مسيحا، هل لم يزل مسيحا منذ كان في بطن مريم إلى حين وضعته وأرضعته وشب وصلب وقتل؟ أم كان ثلاثين سنة وهو واحد من الناس، ثم اتحد بعد ذلك اللاهوت بالناسوت فكان مسيحا؟

فإن قالوا: لم يكن مسيحا وهو في بطن مريم، وإنما ولدت مريم إنسانا كان ثلاثين سنة وهو واحد من الناس، ثم اتحد بعد ذلك اللاهوت بالناسوت فكان مسيحا، تركوا قولهم وكذبوا الإنجيل وبولص وجميع كتب الكنيسة، وخرجوا عن مقالة النصرانية.

وإن قالوا: إن اللاهوت اتحد في الناسوت عند الحمل، وإنه كان مسيحا وهو محمول ومولود ومرضع إلى أن صلب وقتل - قد أقروا أن مريم ولدت إلها مسيحا واحدا، أقنوما واحدا.

فيقال له: هذا التقسيم يدل على بطلان قول النصارى الذي ابتدعه طوائفهم الثلاثة وغيرهم، فإن الاتحاد يزعمون أنه كان من حين حملت به مريم، وأنه كان ينمو قليلا قليلا كنمو جسد المسيح، والاتحاد باطل، كما قد قرر غير مرة، ولو قدر أنه ممكن لظهر أثر ذلك.

فإن الله لما كلم موسى من الشجرة، ظهر من الآيات والعظمة ما دل على ذلك. ولذلك كان إذا كلم موسى يظهر آيات ذلك.

وكذلك ما أخبر به في التوراة وغيرها من مصاحبته لبني إسرائيل، وهو مما ظهر أثره، وإن لم يكن متحدا ولا حالا في شيء من ذلك.

ولما تجلى من طور سينا وأشرق من " ساعير " واستعلن من جبال " فاران " بما أنزله من كتبه، ظهر آثار ذلك، وإن لم تكن ذاته متحدة ولا حالة بفاران ولا طور سينا، باتفاق الأمم.

فكيف تكون ذاته متحدة بما في بطن مريم، أو حالة فيه، ولا يظهر أثر ذلك؟

وأيضا فيقال له: قد يقول النسطورية له: الناسوت كان مسيحا من حين الحمل، بمعنى أنه كان طاهرا مقدسا، لا بمعنى اتحاد اللاهوت به.

وإن قالوا: المسيح اسم اللاهوت والناسوت جميعا. فيقال: ليس في كتب الأنبياء ما يقتضي هذا، والنسطورية يسلمون ذلك، لكن قد يقولون: إن المسيح اسم لهما كما أن الإنسان اسم للروح والجسد.

ثم قد يقال لجسد الإنسان الميت: هذا الإنسان، فيقال وهو في بطن مريم أمه قبل نفخ الروح فيه: هذا الجنين وهذا الحمل. فكذلك إذا قيل له: مسيح بدون اللاهوت.

وأيضا فقد تقول النساطرة باقتران اللاهوت من حين الحمل، ولا يلزم أن يكون قد ولدت إلها، إذ لم يقولوا بالاتحاد، بل قالوا: هما

جوهران أقنومان، ولدت أحدهما ولم تلد الآخر، كما تقول الملكية معهم: إنه صلب أحدهما ولم يصلب الآخر، ومات أحدهما ولم يمت الآخر، وتألم أحدهما ولم يتألم الآخر.

فكيف جوز الملكية حين الموت أن يحل الموت والصلب والأكل والشرب وسائر الأمور البشرية بأحد الجوهرين دون الآخر، ولم يجوزوا - حين الولادة - أن تلد مريم أحد الجوهرين دون الآخر؟ وهل هذا إلا من تناقضهم؟ كقولهم جميعا: إنه صعد إلى السماء وقعد عن يمين أبيه مع قولهم: إن اللاهوت مع الناسوت قعد عن يمين الأب.

ويقولون مع ذلك: إن اللاهوت القاعد عن يمين الآخر هو ذلك الآخر، وهما جوهر واحد، وإله واحد، مع قوله: إنه إله حق من إله حق، فمناقضتهم كثيرة.

ولا ريب أن قول النسطورية أيضا متناقض، لكن لا يمكن أن نصحح قول الملكية دون قولهم، بل قول الملكية أعظم فسادا وتناقضا.

فالنسطورية يقولون: الإله لم يولد ولم يصلب.

واليعقوبية يقولون: ولد وصلب.

والملكية يقولون: ولد ولم يصلب.

ومتى جاز أن يولد، جاز أن يموت ويصلب، وإن لم يجز أن يصلب ويموت، لم يجز أن يولد.

فتجويز أحدهما ومنع الآخر تناقض.

ويقال للملكية: أنتم تقولون: إن اللاهوت اتحد بالناسوت عند الحمل، وكان مسيحا وهو مصفوع ومصلوب وميت ومتألم. وتقولون: هذا كان بالناسوت دون اللاهوت، فهذا التناقض من جنس تناقض النساطرة.

قال ابن البطريق: ويقال للنساطرة أيضا: متى اتحدت الكلمة بالإنسان؟ أقبل الولادة، أم في حال الولادة؟

فإن قالوا: قبل الولادة، قلنا لهم: قبل الولادة، قبل الحمل؟ أو قبل الولادة وهو حمل؟

فإن قالوا: قبل الولادة وقبل الحمل، فقد زعموا أنه اتحد قبل أن يكون إنسانا وقبل أن يصور. فإن كان ذلك كذلك، فسد قول النسطورية: إن القديم اتحد بإنسان جزئي ; لأن الإنسان الجزئي إنما كان إنسانا جزئيا، لما صار مصورا بشريا.

فيقال له: هذا السؤال لازم للطوائف الثلاثة، فإنهم يقولون بالاتحاد أعظم من النساطرة.

فإن قيل: هم يقولون: إنه اتحد بإنسان كلي، كان هذا من أفسد الأقاويل، فإن المسيح بشر معين جزئي، يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، لم يكن إنسانا كليا.

ثم قال: ويلزمهم أن يزعموا أن اللاهوت قد كان حل مع الناسوت تسعة أشهر ونحوها من بدء الحمل مقيما معه في الموضع الذي يحمل فيه الجنين، ثم ولدا معا، وهذا خلاف قولهم: إن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته.

فيقال: قد يقولون: إنه ولد الناسوت دون اللاهوت، كما يقول الملكية: إنه صلب الناسوت دون اللاهوت.

وإن كان هذا متناقضا، فالنساطرة أقل تناقضا ; لأن الملكية يقولون: إنهما شخص واحد، أقنوم واحد، فقد اتحد أحدهما بالآخر.

فإذا جاز مع هذا أن يفارق أحدهما الآخر في الأكل والشرب والصلب والموت، فمن قال: إنهما جوهران أقنومان، هو أولى أن يقول ولدت أحدهما دون الآخر.

ثم قال: وإن قالوا: اتحد به وهو حمل صورة تامة.

قلنا لهم: فقد كان الإله حملا قبل الولادة، وإذا جاز أن يحمل، جاز أن يولد.

فيقال: هم لا يقولون بأنهما صارا شخصا واحدا، أقنوما واحدا، بل يقولون: جوهران أقنومان، وحينئذ فلا يقولون: حملت بإله،

ولا ولدت إلها، كما لا يقول الملكية: صلب اللاهوت ومات اللاهوت، مع قولهم بأن اللاهوت والناسوت اتحدا.

قال: فإن قالوا: كان الاتحاد في حال الولادة.

قلنا: فقد ولدت مريم الكلمة إذا مع الإنسان، والكلمة عندنا وعندهم إله، فقد ولدت مريم إلها.

فإن قالوا: نعم. قلنا: فإذا جاز أن يولد، فلم لا يجوز أن يكون حملا؟ فإذا أجازوا ذلك، تركوا قولهم، وإن لم يجيزوه، قلنا: فما الفرق بين أن يكون مولودا وبين أن يكون محمولا؟ فإن قالوا: ليس الإله مولودا، ولم يكن الاتحاد قبل الولادة، وهو أن يكون محمولا، ولا في حال كونه ولدا في حال الولادة.

قلنا: فهذا نقض قولكم: إن مريم ولدت المسيح ; لأن المسيح - عندكم - ليس هو الإنسان وحده، ومريم - عندكم - إنما ولدت الإنسان وحده.

وإذا كان المسيح ليس هو الإنسان وحده، وعندكم إنما ولدت الإنسان وحده قبل الاتحاد، فإنما ولدت إذا ما ليس بمسيح، إذ كان إنما كان مسيحا بالاتحاد، وكان الاتحاد بعد الولادة، فإنما كان مسيحا بعد الولادة.

فإذا كان هذا - عندكم - فاسدا، وكانت مريم ولدت المسيح، فمريم لم تلد الإنسان وحده، وهذا يوجب أنها قد ولدت الإله مع الإنسان، ويوجب أن الاتحاد كان قبل الولادة.

قال: فقد تبين زائف ما تعتقده النسطورية من أن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، وصح أن مريم ولدت إلها مسيحا واحدا.

قال: ويقال لهم: إذا زعمتم أن المسيح جوهران، جوهر قديم وجوهر محدث، ثم زعمتم أن مريم ولدت المسيح، فقد أقررتم أن مريم ولدت هذين الجوهرين اللذين هما المسيح، وإذا ولدتهما وأحدهما إله، فقد ولدت إلها قديما، ولا يجوز أن تلد إلا ما كان محمولا، فهذا يوجب أنها قد كانت حاملة لذلك الإله.

فقد تبين زائف ما تعتقده النسطورية، أن مريم لم تحمل إلها ولم تلده، وصح ما تعتقده الملكية أن مريم ولدت إلها مسيحا واحدا وابنا واحدا، أقنوما واحدا.

فيقال له: ليس هذا التناقض من النسطورية بأعظم من تناقض الملكية فإنهم - مع قولهم باتحاد اللاهوت والناسوت، وأنهما شخص واحد - يقولون: إن أحدهما كان يأكل ويشرب ويصوم ويصلي ويتصرف، وأنه أخذ وصفع ووضع الشوك على رأسه وصلب وتألم ومات دون الآخر.

فإذا كان قول النسطورية متناقضا، فقول الملكية أعظم تناقضا، فإذا منعوا أن تحمل المرأة وتلد الناسوت دون اللاهوت لأجل الاتحاد الذي بينهما، وجب أن يمنعوا أن يأكل ويشرب ويصلب ويقتل أحدهما دون الآخر لأجل الاتحاد بطريق الأولى.

وكون الصلب والقتل أعظم منافاة للربوبية من حمل مريم به وولادته إياه، لا يمنع كون كل ذلك ممتنعا على الله.

ومن جوز عقله أن يكون رب العالمين خرج من فرج مريم وهي بكر، فقد جعل رب العالمين يخرج من ثقب صغير، وهذا أعظم ما يكون من الامتناع.

ومن جوز عليه هذا، جوز عليه أن يخرج من كل ثقب مثل ذلك الثقب وأكبر منه، وجوز أن يخرج رب العالمين من فم كل حيوان وفرجه، ومن شقوق الأبواب وغير ذلك من الثقوب.

وإن قالوا: ذاك مكان طاهر. قيل: أفواه الأنبياء والصالحين أطهر من كل فرج في العالم، فيجوز أن يخرج من فم كل نبي وولي لله، ومن أذنه ومن أنفه، فإن هذه الخروق والثقوب أفضل من فروج النساء، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

فهؤلاء النصارى يقولون: إن كون الله مولودا من فرج مريم، غير كونه مولودا في الأزل من الأب، بل هما ولادتان روحانية وجسمانية.

وهم إذا طولبوا بتفهيم ما يقولونه، وقيل لهم: هذا لا يتصور؛ أن يكون رب العالمين يخرج من ثقب ضيق، لا فرج ولا فم ولا أذن ولا غير ذلك من الأثقاب. قالوا: هذا فوق العقل، واعترفوا بأن هذا لا يتصوره العقل.

فيقال لهم: هذا الكلام لم يقله نبي من الأنبياء، ولم ينطق به نبي من الأنبياء بأن مريم حملت برب العالمين وولدته، بل ولا نطق نبي من الأنبياء بأن الله مولود ولا شيء من صفاته مولود، لا علمه ولا حياته ولا غير ذلك.

ولا نطق نبي من الأنبياء لا المسيح ولا غيره بأن الله اتحد بشيء من المخلوقات.

وليس في الإنجيل وغيره مما ينقل عن الأنبياء شيء من ذلك، بل غاية ما فيها كلمات مجملة متشابهة، كقوله: (أنا وأبي واحد) كما قال الله لمحمد: {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله} [الفتح: 10] وقوله: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [النساء: 80] فإذا قال بعض ملاحدة المسلمين من الشيعة أو المتصوفة أو غيرهم: إن الله اتحد بمحمد ; لقوله: {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله} [الفتح: 10] كان هذا من جنس قول النصارى.

والآية لم تدل على ذلك، بل مبايعة الرسول مبايعة لله ; لأن الرسول أمر بما أمر الله، ونهى عما نهى الله عنه.

فليس في كلام الأنبياء أن الله ولا شيئا من صفاته مولود الولادة التي يسمونها ولادة عقلية وروحانية، ولا في كتبهم أن شيئا من صفات الله تسمى ابنا لله، ولا أن اللاهوت ابن الله، فضلا عن أن ينطقوا بأن الله مولود من امرأة ولادة، وخرج من فرجها، فيكون مولودا ولادة جسمانية.

ولهذا لما تنازعت النصارى في ذلك، لم يكن لمن ادعاه على من نفاه حجة من نصوص الأنبياء، غاية ما عندهم التمسك بألفاظ متشابهة وتغيير ألفاظ صريحة محكمة، تبين أن المولود إنما هو بشر.

فإذا قالوا في الألفاظ المتشابهة: لا نعلم مراد الرسول بها، كان هذا مما قد يعذرون به، فإن المتشابه من النصوص لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم.

فإذا قالوا: لسنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله - كانوا شاهدين على أنفسهم بعدم العلم، وشهادة الإنسان على نفسه مقبولة.

بخلاف القول الذي تكلموا به هم، وزعموا أن معناه يدل عليه كلام الأنبياء أو يدل عليه العقل، فإن عليهم أن يبينوا معناه الذي عنوه به، وعليهم أن يبينوا أنه قد دل على ذلك شرع أو عقل.

فإذا قالوا: نفس الكلام الذي قلناه لا نتصور معناه، كانوا معترفين أنهم يقولون على الله ما لا يعلمون، وهذا حرام عليهم.

وإن قالوا: إن كلام الأنبياء دل على ذلك، كان غاية ما عندهم التمسك بالمتشابه، وحينئذ فيطالبون بتفسير المتشابه، والجمع بينه وبين المحكم على وجه صحيح معلوم، وإلا فإذا قالوا: هذا فوق العقل لا نفهمه، قيل لهم: فدعوا المتشابه لا تحتجوا به، ولا تذكروا له معنى تزعمون أنكم لا تعقلونه.

فمتى ثبت عن الأنبياء قول وقال قوم: إنا لا نفهمه - فإنهم يصدقون على أنفسهم.

وأما إذا فسروا كلام الأنبياء بقول عبروا به على مراد الأنبياء وقالوا: هذا مرادهم مع تعبيرهم عنه بعبارات أخرى - طولبوا بأن يبينوا ذلك المعنى، وقيل لهم: إن فهمتم ما قلتموه فبينوه، وإن لم تفهموه فلا تتكلموا بلا علم.

قال سعيد بن البطريق: إن أئمة الضلالة - أعني " نسطوريوس " و " أرطيوس " و " ديسقورس " و " سورس " و " يعقوب البرادعي " وأشياعهم - الذين أرادوا أن يقيموا الزيف والمحال، ولم يرجعوا إلى خشية الله، وزاغوا عن سبيل الحق لسوء رأيهم، فقد تورطوا في بحر الضلالة.

وهم - جميعا - فيما ارتطموا فيه من ضلالتهم يضمرون جهلا منهم باتحاد لاهوت سيدنا المسيح بناسوته، ويتورط كل واحد منهم في وجه من وجوه الخلطة، ويتمسك به.

فقد رأيت أن أوضح وجه الخلطة، وأبين ذلك ; لتقف على فساد قولهم: إن من عظيم تدبير الله وكمال عدله وجليل رحمته، أن بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شيء، وهي التي من جوهره ليست مخلوقة، ولكن مولودة منه قبل كل الدهور، ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط، ولا كانت الكلمة برية منه قط، ولا من روحه الخالقة، ولا من جوهره، فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت، الذي لم يزل ولا يزال، فالتحمت من مريم العذراء وهي جارية طاهرة مختارة من نسل داود، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين، وطهرها بروح القدس، روحه الجوهرية، حتى جعلها أهلا لحلول كلمة الله الجوهرية بها، فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها، بمسرة الأب ومؤازرة روح القدس، خلقا جديدا من غير نطفة آدمية جرت عليها الخطيئة، ومن غير مجامعة بشرية ولا انفكاك عذرة تلك الجارية المقدسة، فهو إنسان تام بجسده ونفسه الدموية وروحه الكلمانية التي من صورة الله في الإنسان وشبهه، فكانت مسكنا لله في حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم.

واعلم أنه لا يرى شيء من لطيف الخلق إلا في غليظ الخلق، ولا يرى ما هو لطيف من اللطيف إلا مع ما هو أغلظ منه فيما يظهر لأهل الأثقال من غليظ الخلق.

وإنا وجدنا روح الإنسان العاقلة الكلمانية ألطف من لطيف الخلق، فلذلك كانت أولى خلق الله بحجاب الله، فكانت لها حجابا ولمن هو ألطف منها، وكانت النفس الدموية لها حجابا والجسد الغليظ حجابا.

فعلى هذا خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة بجسدها ودمها وروحها العاقلة الكلمانية، وصارت كلمة الله بقوامها قواما لتثليث الناسوت التي كمل جوهرها بتقويم قوام كلمة الله إياها ; لأنها لم تخلق ولم تك شيئا إلا بقوام من كلمة الله الذي خلقها وكونها لا من شيء، لا سبق قبل ذلك في بطن مريم، ولا من شيء كان لها من نطفة، ولا من غير ذلك، غير قوام الكلمة الخالقة الذي هو أحد التثليث الإلهي، فذلك القوام معدود معروف مع الناس، لما ضم إليه وخلقه له؛ التحم به من جوهر الإنسان، فهو - بتوحيد ذلك القوام الواحد - قوام لكلمة الله الخالقة، واحد في التثليث بجوهر لاهوته، واحد في الناس بجوهر ناسوته، وليس باثنين، ولكن واحد مع الأب والروح وهو إياه واحد مع الناس جميعا بجوهرين مختلفين من جوهر اللاهوت الخالق،

وجوهر الناسوت المخلوق، بتوحيد القوام الواحد قوام الكلمة التي هي الابن المولود من الله قبل الأدهار كلها، وهو إياه المولود من مريم العذراء في آخر الزمان من غير مفارقة من الأب ولا من روح القدس.

قلت: فهذا كلام سعيد بن البطريق الذي قرر به دين النصارى، وفيه من الباطل ما يطول وصفه، لكن نذكر من ذلك وجوها.

الوجه الأول: قوله: إن من عظيم تدبير الله أن بعث كلمته الخالقة، التي بها خلق كل شيء من جوهره، ليست مخلوقة، ولكن مولودة منه، فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم، فالتحمت من مريم العذراء.

فيقال: قد جعلت الكلمة الخالقة، وقلت - بعد هذا -: ولا كانت الكلمة برية منه، ولا من روحه الخالقة، وقلت - بعدها -:

فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق، خلقته لنفسها بمسرة الأب ومؤازرة روح القدس جميعا، خلقا جديدا.

فيقال لهم: أخالق العالم - عندكم - خالق واحد وهو إله واحد، أم للعالم ثلاثة آلهة خالقون؟ .

فإن قالوا: إن الخالق واحد، وهم ثلاثة آلهة خالقون، كما أنهم في كثير من كلامهم يصرحون بثلاثة آلهة، وثلاثة خالقين، ثم يقولون: إله واحد، وخالق واحد.

فيقال: هذا تناقض ظاهر، فإما هذا، وإما هذا.

وإذا قلتم: الخالق واحد، له ثلاث صفات، لم ننازعكم في أن الخالق له صفات، لكن لا يختص بثلاثة.

فإن قالوا بثلاثة آلهة خالقين، كما قد كثر منهم في كثير من كلامهم، بان كفرهم وعظم شركهم، وبان أن شركهم أعظم من كل شرك في العالم، فغاية المجوس الثنوية - إثبات اثنين، نور وظلمة، وهؤلاء يثبتون ثلاثة.

ثم الأدلة السمعية في التوراة والإنجيل والزبور وسائر كلام الأنبياء مع الأدلة العقلية المبينة لكون الخالق واحدا، كثيرة جدا لا يمكن حصرها هنا.

وإن قالوا: إن الخالق واحد، له صفات، قيل لهم: فهذا مناقض لقولكم: إنه بعث كلمته الخالقة، وقولكم: (ولا كانت الكلمة برية منه

ولا من روحه الخالقة) وقولكم: (فهبطت الكلمة الخالقة) ، وقولكم: (فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق، خلقته لنفسها بمسرة الأب ومؤازرة الروح) . فهذا يقتضي أن الكلمة خالقة وأن الروح خالقة، وأنها خلقت بمسرة الأب الخالق ومؤازرة الروح الخالقة، وهذا الخالق هبط والأب لم يهبط.

فإذا كان الخالق واحدا له صفات، لم يكن هنا إلا خالق واحد.

الوجه الثاني: قولكم: (بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شيء) ، وقد نطقت الكتب بأن الله يخلق الأشياء بكلامه، فيقول لها: (كن فيكون) ، هكذا في القرآن والتوراة وغيرهما.

لكن الخالق هو الله تعالى يخلق بكلامه، ليس كلامة خالقا.

ولا يقول أحد قط: إن كلام الله خلق السماوات والأرض.

والتوراة كلام الله، والإنجيل كلام الله، ولا يقول أحد: إن شيئا من ذلك خلق السماوات والأرض، ولا يقول أحد: يا كلام الله اغفر لي وارحمني.

فقول هؤلاء: إن كلمته هي الخالقة وإنه خلق بها - كلام متناقض.

فإنها إن كانت هي الخالقة، لم تكن هي المخلوق به، فالمخلوق به ليس هو الخالق.

الوجه الثالث: أن يقال: قولكم: (كلمة الله الخالقة) أهي كلام الله كله، أم هي بعض كلام الله، أم هي المعنى القائم بالذات القديم الأزلي، الذي يثبته ابن كلاب، أم حروف وأصوات قديمة أزلية كما يقوله بعض الناس، أم هي الذات المتكلمة؟ .

فإن كانت هي الذات المتكلمة، فهي الأب والرب، وتكون هي الموصوفة بالحياة، فلا يكون هناك كلام مولود، ولا كلمة أرسلت، ولا غير ذلك مما ذكره، وهذا خلاف قولهم كلهم، فإن الكلمة المتحدة بالمسيح ليست هي الأب عندهم.

وإن قالوا: بل هي كلام الله كله.

قيل لهم: فيكون المسيح هو التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كلام الله، وهذا لا يقولونه، ولم يقله أحد ولا يقوله عاقل.

وإن قالوا: إنها هي المعنى الواحد القديم الأزلي، أو الحروف والأصوات القديمة الأزلية.

قيل لهم: هذان القولان، وإن كانا باطلين، فإن قلتم بهما لزمكم أن يكون المسيح هو كلام الله كله، فإن هذين - عند من يقول بهما - هما جميع كلام الله.

والتوراة والإنجيل وسائر كلام الله، عبارة عن ذلك المعنى القائم بذات الله، وهو الحروف والأصوات القديمة القائمة بالذات عند من يقول بهذين.

إن قلتم: إن المسيح بعض كلمات الله، فحينئذ لله كلمات أخر غير المسيح، فاجعلوا كل كلمة خلقا كما جعلتم الكلمة المتحدة بالمسيح خالقا، إذ كنتم تقولون: (الكلمة هي الخالقة وهي المخلوق بها) ، فقولوا عن سائر كلمات الله إنها خالقة مخلوق بها، وحينئذ فيتعدد الخالق بتعدد كلمات الله.

وإذا كانت كلمات الله لا نهاية لها، كان الخلق خالقين لا نهاية لهم، وهذا غاية الباطل والكفر.

وبالجملة، أي شيء فسروا به الكلمة تبين به فساد قولهم، ولكنهم يتكلمون بما لا يفهمونه، ويقولون الكذب والكفر المتناقض، وإنما عندهم تقليد من أضلهم، كما قال تعالى: {قل يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77] .

الوجه الرابع: أن يقال لهم: ما لم يعلم بالمعقول، فليس في المنقول ما يدل عليه، وأنتم لا تدعون أنكم عرفتموه بالعقل، لكن بما نقل عن الأنبياء، وأنتم قد فسرتم كلمته بعلمه وحكمته، وروح القدس بحياته، فمن أي نبي تنقلون أن علم الله وحكمته مولودة منه، وأنه يسمى ابنا، وأن علمه أو حكمته خلق كل شيء، وأن حياته خلقت كل شيء، وأن علمه خالق وإله ورب، وحياته خالقة وإله ورب، وليس في الأنبياء من سمى شيئا من صفات الرب ولدا له ولا ابنا، ولا ذكر أن الله ولد شيئا من صفاته. فدعواكم أن صفته القديمة الأزلية ولدت مرتين، مرة ولادة قديمة أزلية، وولادة حادثة من فرج مريم - كذب معلوم على الأنبياء، لم يقل أحد منهم: إن الله ولد، ولا إن شيئا من صفاته ولده، لا ولادة روحانية، ولا ولادة جسمانية.

وهذا وإن أبطل قول الملكية، فهو لقول اليعقوبية أشد إبطالا، وهو مبطل أيضا لقول النسطورية، فإنهم يقولون بالأمانة التي فيها أنه مولود قديم أزلي، فإن طوائفهم الثلاثة متفقون على الأمانة التي ابتدعوها في زمن " قسطنطين " بعد أكثر من ثلاثمائة سنة من المسيح.

الوجه الخامس: قولكم: بعث كلمته الخالقة فهبطت كلمة الله الخالقة التي بها خلق كل شيء، ليست مخلوقة، ولكن مولودة منه، ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط.

من قال من الأنبياء: إنه لم يكن بلا روحه قط، أو إن روحه صفة له قديمة، أو إنها حياته؟

وكلام الأنبياء كله ينطق بأن روح الله وروح القدس ونحو ذلك هو ما ينزله على الأنبياء، كالوحي والتأييد، أو الملائكة، فليست روح الله صفة قائمة به ولا غيرها، ولكنها أمر بائن عنه.

الوجه السادس: أنه إذا كان قد بعث كلمته الخالقة وهبطت والتحمت من مريم، فهو نفسه رب العالمين هبط والتحم من مريم، أم

رب العالمين نفسه لم يهبط ولم يلتحم من مريم، وإنما هبط والتحم الكلمة التي أرسلها؟

فإن قلتم: هو نفسه هبط والتحم، كان الأب الوالد للكلمة، هو الذي هبط والتحم، وكان الأب هو الكلمة، وهذا مناقض لأقوالكم.

وإن قلتم: إن المبعوث الهابط الملتحم ليس هو الأب، بل هو كلمة الرب، فقد جعلتموه الخالق، فيكون هناك خالقان، خالق أرسل فهبط والتحم، وخالق أرسل ذلك ولم يهبط ولم يلتحم، وقد أثبتم خالقا ثالثا، وهو الروح، وهذا تصريح بثلاثة آلهة خالقين.

الوجه السابع: أنه قال: إن الله بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شيء فمع كونه جعلها خالقة، جعل أنه بها خلق كل شيء، والذي خلق بها كل شيء هو خالق، فجعلها خالقة، وجعل خالقا آخر، وجعل أحد الخالقين قد خلق الآخر به كل شيء، وجعل هذا الخالق قد بعث ذاك الخالق الذي به خلق كل شيء، وجعل الكلمة الخالقة احتجبت بإنسان مخلوق خلقته لنفسها بمسرة الأب ومؤازرة روح القدس خلقا جديدا.

وإذا كانت هي الخالقة بمسرة الأب الخالق على الخلق، فالأب لم يخلقه، بل سر بذلك، وروح القدس وازرت ذلك، والخالق خلق الخلق.

ومعلوم أنه إذا كان للخالق من يوازره على الخلق، لم يكن مستقلا بالخلق، بل يكون له فيه شريك.

فهذه الكلمة، تارة يقولون: هي الخالقة، وتارة يقولون: خلق بها الخالق فخلقت، وتارة يقولون: إن روح القدس وازرها في الخلق، فهذه أربعة أقوال ينقض بعضها بعضا.

فإن كان الله هو الخالق لكل شيء فالخالق واحد، فليس هناك خالق آخر ولا شريك له في الخلق.

والخالق إذا خلق الأشياء بقوله: (كن) لم يكن كلامه خالقا، ولو كانت كل كلمة إلها خالقا، لكان الآلهة الخالقون كثيرين لا نهاية لهم.

ثم قال: ليست بمخلوقة ولكن مولودة منه من قبل كل الدهور.

فيقال: من من الأنبياء سمى شيئا من صفات الله مولودا قديما أزليا؟ فكيف يكون مولودا قديما أزليا؟ وهل يعقل مولود إلا محدثا؟ .

وأيضا فإذا جاز أن تكون الكلمة التي يفسرونها بالعلم أو الحكمة مولودة منه، فكذلك حياته مولودة منه، وإن كانت حياته منبثقة منه، فكلمته منبثقة منه.

فجعل إحدى الصفتين الأزليتين مولودة من الأزل غير منبثقة، والأخرى ليست مولودة من الأزل، بل منبثقة - مع كونه باطلا فهو متناقض، وتفريق بين المتماثلين.

فإنه إن جاز أن يقال للصفة القديمة الأزلية: إنها مولودة منه فالحياة مولودة.

وإن جاز أن يقال: إنها منبثقة، فالكلمة منبثقة.

وأيضا فكون الصفة إلها خالقا، وإثبات ثلاثة آلهة خالقين مع قولهم: إن الخالق واحد - تناقض آخر.

وأيضا فقوله: (ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط) إن أراد بروحه حياته، فهذا صحيح، لكن من من الأنبياء سمى حياة الله روحه؟ ومن الذي جعل الله روحا قديمة أزلية؟ وهل هذا إلا افتراء على الأنبياء؟

وليس لقائل أن يقول: إن هذا نزاع لفظي فلا اعتبار به ; لأن هذا تفسير لكلام الأنبياء، فهم الذين تكلموا بروح الله وروح القدس ونحو ذلك، ولم يرد أحد بذلك حياة الله قط.

فتسمية حياة الله روحا، وتفسير مراد الأنبياء بذلك - افتراء على الله ورسله.

الوجه الثامن: قوله (فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت الذي لم يزل ولا يزول، فالتحمت من مريم العذراء، وهي جارية طاهرة، مختارة من نسل داود، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين وطهرها بروح القدس، روحه الجوهرية، التي جعلها أهلا لحلول كلمة الله الجوهرية بها، فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها بمسرة الأب ومؤازرة روح القدس خلقا جديدا) .

فيقال: إن الكتب دلت على أن المسيح تجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء البتول، وهكذا هو في الأمانة التي لهم، وبهذا أخبر القرآن حيث أخبر في غير موضع، أنه نفخ في مريم من روحه مع إخباره أنه أرسل إليها روحه.

قال تعالى: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا - فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا - قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا - قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا - قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا - قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا - فحملته فانتبذت به مكانا قصيا - فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا} [مريم: 16 - 23] .

وقال تعالى: {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين} [الأنبياء: 91]

وقال تعالى: {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين} [التحريم: 12]

فالكتب الإلهية يصدق بعضها بعضا.

لكن دعواكم أن روح القدس، روح الله الجوهرية ; (أي حياته القديمة الأزلية) - أمر مخالف لجميع كتب الله وأنبيائه.

فلم يفسر أحد منهم روح القدس بصفة الله، لا جوهرية ولا غير جوهرية، ولا قديمة ولا غير قديمة، ولا أرادوا بذلك حياة الله.

فقولكم هذا، تبديل لكلام الله وكلام أنبيائه ورسله، كما أنكم في قولكم: إن كلمة الله أو علمه أو حياته مولودة منه، وإن صفته القديمة الأزلية هي ابنه - مما حرفتم فيه كلام الأنبياء، فلم يرد أحد منهم هذا المعنى بهذا اللفظ قط، ولم يطلق في جميع الكتب التي عندكم لفظ الابن المولود إلا على محدث مخلوق لا على شيء قديم أزلي، لا موصوف ولا صفة ولا علم، ولا كلام ولا حكمة، ولا غير ذلك.

وكل ولادة في الكتب الإلهية التي عندكم وغيرها، فهي ولادة حادثة زمانية، وكل مولود، فهو محدث مخلوق زماني، ليس في الكتب ولادة قديمة أزلية ولا مولود قديم أزلي، كما أنكم ذكرتم ذلك في أمانتكم وغيرها.

فلو كان ما ذكرتموه ممكنا في العقول، لم يجز أن تجعلوه موجودا واقعا، وتقولوا: الأنبياء أرادوا ذلك، إلا أن يكونوا بينوا أن ذلك مرادهم.

فإذا كان كلامهم صريحا في أنهم لم يريدوا ذلك، والمعقول الصريح يناقض ذلك، كان ما قلتموه كذبا على الله وعلى أنبيائه ورسله ومسيحه، وكان باطلا في المعقول، وكنتم ممن قيل فيه: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} [الملك: 10]

ثم يقال: أنتم قلتم: (إن الكلمة الخالقة هبطت فالتحمت من مريم، واحتجبت بإنسان مخلوق خلقته لنفسها) ، وقلتم: (إن مريم حملت بالإله الخالق وولدته الذي هو الابن) .

فإذا جوزتم أن تكون مريم هي أما للخالق الذي هو الابن حملته وولدته - فلم لا يجوز أن تكون زوجة للخالق الذي هو الأب مع أن الخالق التحم من مريم؟ وقد قلتم: لم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط، ولا كانت الكلمة برية منه قط، ولا من روحه الخالقة ولا من جوهره.

فجعلتم الروح خالقة، والله الذي هو الأب خالقا، والمسيح قد تجسد من الروح الخالقة ومن مريم، فكما أن مريم أمه، فالروح الخالقة بمنزلة أبيه.

وأيضا فمريم لها اتصال بالأب وبروح القدس، وكلاهما أب للمسيح على ما ذكرتموه.

فإذا كانت مريم متصلة بكل واحد ممن جعلتموه أبا للمسيح، وقلتم: إن الخالق التحم من مريم، فهذا أبلغ ما يكون من جعل الخالق زوج مريم.

ومهما فسرتم به اتحاد اللاهوت بناسوت المسيح المخلوق منها، كان تفسير التحام اللاهوت بناسوت مريم حتى يصير زوجا لمريم أولى وأحرى، وليس في ذلك نقص ولا عيب إلا وفي كون اللاهوت ابن مريم، ما هو أبلغ منه في النقص والعيب.

ومعلوم أن أم الإنسان أعلى قدرا عنده من زوجته، وأن تسلطه على زوجته أعظم منه على أمه، فإن الرجل مالك للزوجة، قوام عليها، والمرأة أسيرة عند زوجها، بخلاف أمه.

فإذا جعلتم اللاهوت الخالق القديم الأزلي ابنا لناسوت مريم بحكم الاتحاد مع كونه خالقا لها بلاهوته وابنا لها بناسوته، ولم يكن هذا ممتنعا عندكم ولا قبيحا، فأن تكون مريم صاحبة له وزوجة وامرأة بحكم الالتحام بالناسوت أولى وأحرى.

وإن كان هذا ممتنعا وقبيحا، فذاك أشد امتناعا وقبحا.

ولهذا ذهب طوائف من النصارى إلى أن مريم امرأة الله وزوجته، وقالوا أبلغ من ذلك حتى ذكروا شهوته للنكاح.

ولقد قال بعض أكابر عقلاء الملوك ممن كان نصرانيا: إنهم كانوا إذا نبهوا على قولهم: إن عيسى ابن الله، لم يفهم من ذلك إلا أن الله أحبل أمه وولدت له المسيح ابنه، كما يحبل الرجل المرأة وتلد له الولد، فيكون قد انفصل من الله جزء في مريم بعد أن نكحها، وذلك الجزء الذي من الله ومن مريم ولدته مريم كما تلد المرأة الولد الذي منها ومن زوجها، وقد قالت الجن المؤمنون: {وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} [الجن: 3]

فنزهوه عن هذا وهذا، وهؤلاء الجن المؤمنون أكمل عقلا ودينا من هؤلاء النصارى.

وقال تعالى: {بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم} [الأنعام: 101]

فقوله: (أنى يكون له ولد) ، تقديره من أين يكون له ولد؟ فـ (أنى) في اللغة بمعنى: من أين ذلك؟ وهذا استفهام إنكار.

فبين سبحانه أنه يمتنع أن يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة مع أنه خالق كل شيء، وأن هذا الولد يمتنع أن يكون، وأن هذا الامتناع مستقر في صريح المعقول.

ثم إذا كانت الكلمة التي هي الخالق المخلوق به قد حلت في جوف مريم والتحمت من مريم، وخلقت منها إنسانا هو المسيح خلقته لنفسها واحتجبت به واتحدت به، فهل كان خلقها لهذا الإنسان قبل الاتحاد والاحتجاب، أم حين ذلك؟

فإنه بعد ذلك ظاهر الامتناع، محال أنها بعد الاحتجاب به والاتحاد خلقته، بل لا بد أن تكون خلقته قبله أو معه.

فإن كان معه، لزم كون المخلوق متحدا بالخالق دائما، لم تمر عليه لحظة إلا وهو متحد به.

فإذا أمكن أن يقارن المخلوق خالقه - وعندهم أنه أقام تسعة أشهر حملا كعامة الناس، وقد ذكر ذلك سعيد بن البطريق هذا - فإذا كان كذلك، كان الرب متحدا بالمضغة والجماد الذي لا روح فيه.

وإذا جاز عليه هذا، جاز أن يتحد بسائر الجمادات، وهذا على قول الأكثرين الذين يقولون: إن الروح إنما نفخت فيه بعد أربعة أشهر، ومن قال: إنها نفخت فيه من حين أخذ الجسد من مريم، وهذا يشبه قول جمهور النصارى الذين يقولون: إن المسيح مات وصلب وفارقته الروح الناطقة المنفوخة فيه، والإله المتحد به لم يفارقه أبدا، فإنهم يقولون: إنه من حين اتحد بناسوت المسيح لم يفارقه، بل هو الآن متحد به، وهو في السماء قاعد عن يمين أبيه، وذلك القاعد هو الخالق القديم، والأب هو الإله الخالق القديم الأزلي، وهما مع ذلك إله واحد.

والمقصود هنا أنهم يقولون باتحاد اللاهوت بجسد لا روح فيه قبل النفخ وبعد الموت إلى أن قام من قبره، فعادت الروح إليه، وحينئذ لم يظهر من تلك المضغة شيء من العجائب.

وهم يستدلون على إلهية المسيح بالعجائب، مع أنه كان الإله متحدا به قبل أن يظهر العجائب، وحينئذ فلا يلزم من عدم ظهور العجائب من شيء الجزم بأن الرب لم يتحد به مع إمكان الاتحاد.

ويلزم أن كل جامد وحي ظهرت منه العجائب أن يكون ذلك دليلا على أن الرب اتحد به.

وحينئذ فعباد العجل أعذر من النصارى، وإن كان من عباد الأصنام من يقول: إن الصنم خلق السماوات والأرض، فهو أعذر من النصارى ; لأن ظهور العجائب من الحيوان الأعجم والجماد أعظم من ظهورها من الإنسان الناطق، لا سيما الأنبياء

والرسل، فإن الأنبياء والرسل معروفون بظهور العجائب على أيديهم، فإذا ظهرت على يد من يقول: إني نبي مرسل، كانت دليلا على نبوته لا على إلهيته.

والمسيح كان يقول: إني نبي مرسل، كما ذكر ذلك في الإنجيل في غير موضع، فأما الحيوان الأعجم والجماد، فلا يجوز أن يكون نبيا.

فإن جاز الاتحاد بالمضغة والجسم المقبور الذي لا روح فيه، فاتحاده بالعجل وبالصنم أولى، وحينئذ فخوار العجل عجيب منه.

فاستدلال عباد العجل بذلك على أنه إله، خير من استدلال النصارى على إلهية المضغة إن قدر ظهور شيء من العجائب التي قد يستدلون بها.

وإن كانت تلك لا تدل إلا على نبوته - صلى الله عليه وسلم تسليما -

الوجه التاسع: قوله: (فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها) ، وقوله: (فكانت مسكنا في حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم) .

يقال لهم - أولا -: من أين لك أن روح الإنسان ألطف من جميع المخلوقات، وأنها ألطف من الملائكة والروح الذي قال الله فيه: {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن} [النبأ: 38] وأنها ألطف من الروح التي نفخ في آدم منه بقوله: {ونفخت فيه من روحي} [الحجر: 29] وبتقدير أن تكون ألطف، فأنت لا تقول: إن الاحتجاب والاتحاد كان بروح الإنسان مجردة، بل بالجسد الناسوتي الدموي الغليظ، وتقول: (إن الخالق التحم من مريم العذراء) فتجعل الخالق قد التحم من لحم مريم، ومن رحمها الذي هو لحم ودم وهذه أجساد كثيفة، بل جمهورهم يقول: إنه اتحد بجسد لا روح فيه قبل النفخ وبعد الموت وقبل أن يقوم من قبره.

وحينئذ فقولك: (فكانت مسكنا لله في حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم) - وصف ممنوع، والتعليل به باطل، فإنه لو كان مسكنا للطفه، لم يجز أن يسكن إلا في الروح اللطيفة، فلما أثبت اتحادا بالجسد الكثيف، بطل قولك: (إنه اتحد بالإنسان للطفه) .

الوجه العاشر: قولكم: (واعلم أنه لا يرى شيئ من لطيف الخلق إلا في غليظ الخلق، ولا يرى ما هو لطيف من اللطيف إلا مع ما هو أغلظ منه) .

يقال لهم: إما أن يكون الله لما اتحد بالمسيح عندكم قد رآه الناس وعاينوه، أو لم يره أحد.

فإن قلتم: قد رآه الناس وعاينوه، فهذا مخالف للحس والشرع والعقل.

أما الحس، فإن أحدا ممن رأى المسيح لم ير شيئا يتميز به المسيح عن غيره من البشر غير العجائب التي ظهرت على غيره، منها ما هو أعظم مما ظهر عليه، ولم ير إلا بدن المسيح الظاهر، لم ير باطنه، لا قلبه ولا كبده ولا طحاله، فضلا عن أن يرى روحه، فضلا عن أن يرى الملائكة الذين يوحون إليه، فضلا عن أن يرى الله، إن قدر أنه كان متحدا به أو حالا فيه.

فدعوى المدعي أن من رأى المسيح فقد رأى الله عيانا ببصره - في غاية المباهتة والمكابرة والكذب، لو قدر أن الله حال فيه، أو متحد به.

فإنه من المعلوم أن الملائكة تنزل على المسيح وغيره وتتصل بأرواحهم، والناس لا يرون الملائكة، بل الجن تدخل في بني آدم والناس لا يرونهم، وإنما يرون جسد المصروع.

وكل إنسان معه قرينه من الملائكة، وقرينه من الجن، وهو نفسه لا يرى ذلك، ولا يراه من حوله.

وتحضره الملائكة وقت الموت ولا يراهم من حوله مع أنه هو يراهم، قال تعالى: {فلولا إذا بلغت الحلقوم - وأنتم حينئذ تنظرون - ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون - فلولا إن كنتم غير مدينين - ترجعونها إن كنتم صادقين} [الواقعة: 83 - 87] . فإذا كانت هذه المخلوقات التي اتفق أهل الملل على اقترانها بالإنسان واتصالها بهم، وأن رؤيتها ممكنة - لا يراها الناس، فكيف يقال: إن المسيح الذي لم ير الناس منه إلا ما رأوه من أمثاله من الرسل كإبراهيم وموسى، ولم يكن له قط شيء يتميز به عن جنس الرسل، فكيف يقال: إن الذين رأوه، رأوا الله عيانا بأبصارهم؟

وأما الشرع، فموسى والمسيح وغيرهما من الأنبياء أخبروا أن أحدا لا يرى الله في الدنيا.

وأما العقل، فإن رؤية بعض ملائكة الله، أو بعض الجن - يظهر لرائيها من الدلائل والأحوال ما يطول وصفه، فكيف بمن رأى الله؟

والذين رأوا المسيح لم يكن حالهم إلا كحال سائر من رأى الرسل، منهم الكافر به المكذب له، ومنهم المؤمن به المصدق له، بل هم يذكرون من إهانة ناسوته ما لا يعرف عن نظرائه من الرسل، مثل ضربه، والبصاق في وجهه، ووضع الشوك على رأسه، وصلبه، وغير ذلك.

وأيضا فمعلوم أن من رأى الله إما أن يعرف أنه الله، أو لا يعرف.

فإن عرف أنه رأى الله، كان الذين رأوا المسيح قد علموا أنه الله، ولو علموا ذلك لحصل لهم من الاضطراب ما يقصر عنه الخطاب.

وإن كانوا لم يعرفوه، فهذا في غاية الامتناع، حيث صار رب العالمين لا يميز بينه وبين غيره من مخلوقاته، بل يكون كواحد منهم، ويميز بينه وبينهم، ولا يعرف الرائي أن هذا هو الله.

ولوازم هذا القول الفاسدة كثيرة جدا.

وإن قالوا: إن الله لم ير لما اتحد بالمسيح، وإنما رئي جسد المسيح الذي احتجب به الله. فقولهم بعد ذلك: (واعلم أنه لا يرى شيء من لطيف الخلق إلا في غليظ الخلق، ولا يرى ما هو لطيف من اللطيف إلا مع ما هو أغلظ منه) - كلام لا فائدة فيه. إذ كان هذا مثلا ضربوه لله ليبينوا أنه يرى.

فإذا سلموا أنه لم ير، لم يكن في هذا المثل فائدة، بل كان هذا استدلالا على شيء يعلمون أنه باطل.

وأيضا فما ذكروه من أن اللطيف لا يرى إلا في الغليظ - باطل، فإن اللطيف كروح الإنسان لا ترى في الدنيا، وإن علم وجودها وأحس الإنسان بروحه وصفاتها، فرؤيتها بالبصر غير هذا. يبين ذلك:

الوجه الحادي عشر: قولهم: (وإنا وجدنا روح الإنسان العاقلة الكلمانية - يعنون النفس الناطقة - ألطف من لطيف الخلق) ، فلذلك كانت أولى خلق الله بحجاب الله، فكانت له حجابا، وكانت النفس الدموية لها حجابا والجسد الغليظ حجابا.

فعلى هذا خالطت كلمة الله الخالقة نفس الإنسان الكاملة لجسدها ودمها وروحها العاقلة الكلمانية، وصارت كلمة الله بقوامها قواما لتثليث الناسوت التي كمل جوهرها بتقويم قوام كلمة الله إياها ; لأنها لم تخلق، ولم تك شيئا إلا بقول من كلمة الله الذي خلقها وقومها، لا من شيء سبق قبل ذلك في بطن مريم، ولا من سبب كان لها من غير ذلك غير قوام الكلمة الخالقة الذي هو أحد التثليث الإلهي.

فيقال لهم: هذا الكلام يقتضي أن الخالق احتجب بالنفس الناطقة، والنفس الناطقة احتجبت بالبدن.

وأنتم تصرحون بأن نفس الكلمة التي هي الخالق، وهي الله عندكم، التي خلقت لنفسها إنسانا احتجبت به، وقلتم: هو إنسان تام بجسده ونفسه الدموية، وروحه الكلمانية، أي نفسه الناطقة التي هي صورة الله في الإنسان وشبهه، فكانت مسكنا لله في حلوله واحتجابه.

فصرحتم بأن البدن مع الروح مسكن لله في حلوله واحتجابه، وأنه هو الذي خلق ذلك البدن والروح، وقلتم: إن هذه الكلمة الخالقة المحتجبة التي قلتم: إنها الله، التحمت من مريم العذراء.

فإذا كان الله الخالق قد التحم من مريم العذراء، فمعلوم أن ذلك قبل نفخ النفس الناطقة التي سميتموها الروح الكلمانية في المسيح.

وإذا كان الخالق - تعالى - قد التحم بجسد لا روح فيه، والتحامه به أبلغ من حلوله فيه، ثم اتخذ الجسد حجابا قبل نفخ الروح الكلمانية فيه، فكيف يقال: إنما حل في الروح لا في البدن، وهو قد التحم بالبدن واتخذ منه جزءا مسكنا له وحجابا قبل أن ينفخ فيه الروح الكلمانية؟

وقلتم أيضا: فعلى هذا خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة بجسدها ودمها وروحها العاقلة الكلمانية.

وهذا تصريح بأن الخالق خالط الإنسان بجسده ودمه وروحه.

فكيف تقولون: إنما احتجبت بالروح اللطيفة، مع تصريحكم بأن الخالق اختلط بالجسد والدم.

وهذا أيضا يناقض قول من قال: إنه اتحد به اتحادا بريا من الاختلاط.

فقد صرحتم هنا أنه اختلط به، وسيأتي نظائر هذا في كلامهم يصرحون فيه باختلاط اللاهوت بالناسوت.

الوجه الثاني عشر: قولكم: (غير قوام الكلمة الخالقة الذي هو أحد التثليث الإلهي، فذلك القوام معدود معروف مع الناس، لما ضم إليه وخلقه له التحم به من جوهر الإنسان، فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد قوام لكلمة الله الخالقة واحد في التثليث بجوهر لاهوته، واحد من الناس بجوهر ناسوته، وليس باثنين، ولكن واحد مع الأب والروح، وهو إياه واحد مع الناس جميعا بجوهرين مختلفين، من جوهر اللاهوت الخالق، وجوهر الناسوت المخلوق، بتوحيد القوام الواحد قوام الكلمة، التي هي الابن المولود من الله من قبل كل الدهور، وهو إياه المولود من مريم العذراء في آخر الزمان من غير مفارقة من الأب، ولا من روح القدس.

فيقال: في هذا الكلام، بل فيما تقدم ذكره، ما يطول تعداده ووصفه من التناقض والفساد، والكلام الباطل، والكلام الذي تكلم به قائله، وهو لا يتصور ما يقول مع سوء التعبير عنه، كقوله: (وهو إياه) ، فيضع الضمير المنفصل موضع المتصل، ويعطف أحدهما على الآخر بلا واو عطف، إلى أمثال ذلك مما يطول ذكر معانيه، وذلك أن قولهم في نفسه باطل لا حقيقة له، وهم لم يتصوروا معنى معقولا ثم عبروا عنه حتى يقال: قصروا في التعبير، بل هم في ضلال وجهل لا يتصورون معقولا، ولا يعرفون ما يقولون، بل ولا لهم اعتقاد يثبتون عليه في المسيح، بل مهما قالوه من بدعهم كان باطلا، وكانوا هم معترفون بأنهم لا يفقهون ما يقولون.

لهذا يقولون: (هذا فوق العقل) . ويقولون: (قد اتحد به بشر لا يدرك) ، فما لا يدرك وما هو فوق العقل، ليس لأحد أن يعتقده ولا يقوله برأيه.

لكن إذا أخبرت الرسل الصادقون بما يعجز عقل الإنسان عنه، علم صدقهم، وإن نقل عنهم ناقل ما يعلم بصريح العقل بطلانه، علم أنه يكذب عليهم، إما في اللفظ والمعنى، وإما في أحدهما.

وأما إذا كان هو يقول القول الذي يذكر أنه علم صحته، أو أنه فسر به كلام الأنبياء، وهو لا يتصور ما يقوله، ولا يفقهه، فهذا قائل على الله وعلى رسله ما لا يعلم، وهذا قد ارتكب أعظم المحرمات، قال تعالى: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: 33]

وقال تعالى عن الشيطان: {إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [البقرة: 169] .

وقال تعالى: {ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا - لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا - فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا} [النساء: 171 - 173] .

وقد اتفق أهل الملل على أن القول على الله بغير علم حرام، والله - سبحانه - نهاهم أن يقولوا على الله إلا الحق، فكان هذا نهيا أن يقولوا الباطل، سواء علموا أنه باطل، أو لم يعلموا.

فإنهم إن لم يعلموا أنه باطل، فلم يعلموا أنه حق أيضا، إذ الباطل يمتنع أن يعلم أنه حق، وإن اعتقد معتقد اعتقادا فاسدا أنه حق، فذلك ليس بعلم، فلا تقولوا على الله ما لا تعلمون.

وإن علموا أنه باطل فهو أجدر أن لا يقولوه.

وعامة النصارى ضلال لا يعلمون أن ما يقولونه حق، بل يقولون على الله ما لا يعلمون.

والمقصود أن الباطل في كلامهم كثير، كقولهم: (فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد - قوام لكلمة الله الخالقة) .

والمسيح عندهم اسم للاهوت والناسوت جميعا، اسم للخالق والمخلوق، وأحدهما متحد بالآخر، فهو بتوحيد ذلك القوام، قوام لكلمة الله الخالقة.

وسواء أريد بذلك أن الناسوت واللاهوت قوام للاهوت، أو أن الناسوت قوام للاهوت، وهم يمثلون ذلك بالروح والجسد والنار والحديد، فيكون كما لو قيل: إن الجسد والروح، أو الجسد - قوام للروح، أو النار والحديد، أو الحديد - قوام للنار.

فيقال: الخالق الأزلي الذي لم يزل ولا يزال، هل يكون المحدث المخلوق قواما له؟ فيكون المخلوق المصنوع المحدث المفتقر إلى الله من كل وجه - قواما للخالق الغني عنه من كل وجه؟ وهل هذا إلا من أظهر الدور الممتنع؟

فإنه من المعلوم بصريح العقل واتفاق العقلاء، أن المخلوق لا قوام له إلا بالخالق، فإن كان الخالق قوامه بالمخلوق، لزم أن يكون كل من الخالق والمخلوق قوامه بالآخر، فيكون كل منهما محتاجا إلى الآخر، إذ ما كان قوام الشيء به، فإنه محتاج إليه.

وهذا مع كونه يقتضي أن الخالق يحتاج إلى مخلوقه وهو من الكفر الواضح، فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل، وهذا لازم للنصارى، سواء قالوا بالاتحاد، أو بالحلول بلا اتحاد، وإن كانت فرقهم الثلاث يقولون بنوع من الاتحاد، فإنه مع الاتحاد كل من المتحدين لا بد له من الآخر، فهو محتاج إليه كما يمثلون به في الروح مع البدن، والنار مع الحديد.

فإن الروح التي في البدن محتاجة إلى البدن، كما أن النار في الحديد محتاجة إلى الحديد.

وكذلك الحلول، فإن كل حال محتاج إلى محلول فيه، وهو من الكفر الواضح، فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل.

فإن ذلك المخلوق إن قدر أنه موجود بنفسه قديم أزلي، فليس هو مخلوقا، ومع هذا فيمتنع أن يكون كل من القديمين الأزليين محتاجا إلى الآخر، سواء قدر أنه فاعل له، أو تمام الفاعل له، أو كان مفتقرا إليه بوجه من الوجوه ; لأنه إذا كان مفتقرا إليه بوجه من الوجوه، لم يكن موجودا إلا به.

فإن الموجود لا يكون موجودا إلا بوجود لوازمه، ولا يتم وجوده إلا به، فكل ما قدر أنه محتاج إليه لم يكن موجودا إلا به.

فإذا كان كل من القديمين محتاجا إلى الآخر، لزم أن لا يكون هذا موجودا إلا بخلق ذلك ما به تتم حاجة الآخر، وأن لا يكون هذا موجودا إلا بخلق ذلك ما به تتم حاجة الآخر.

والخالق لا يكون خالقا حتى يكون موجودا، ولا يكون موجودا إلا بلوازم وجوده، فيلزم أن لا يكون هذا موجودا حتى يجعله الآخر موجودا، ولا يكون ذاك موجودا حتى يجعله الآخر موجودا، إذ كان جعله لما لم يتم به وجوده يتوقف وجوده عليه، فلا يكون موجودا إلا به، فلا فرق بين أن يحتاج أحدهما إلى الآخر في وجوده، أو فيما لا يتم وجوده إلا به، وهذا هو الدور القبلي الممتنع باتفاق العقلاء.

وأما الدور المعي، وهو أنه لا يوجد هذا إلا مع هذا، ولا هذا إلا مع هذا، كالأبوة مع البنوة، وكصفات الرب بعضها مع بعض، وصفاته مع ذاته، فإنه لا يكون عالما إلا مع كونه قادرا، ولا يكون عالما قادرا إلا مع كونه حيا، ولا يكون حيا إلا مع كونه عالما قادرا، ولا تكون صفاته موجودة إلا بذاته، ولا ذاته موجودة إلا بصفاته، فهذا جائز في المخلوقين اللذين يفتقران إلى الخالق الذي يحدثهما جميعا، كالأبوة والبنوة، وجائز في الرب الملازم لصفاته تعالى.

وأما إذا قدر قديمان أزليان ربان فاعلان، امتنع أن يكون أحدهما محتاجا إلى الآخر، إذ كان وجوده لا يتم إلا بما يحتاج وجوده إليه، ولا يكون فاعلا لشيء إن لم يتم وجوده، فيمتنع مع نقص كل منهما عن تمام وجوده، أن يكون فاعلا لغيره تمام وجود ذلك الغير، ولهذا لم يقل بهذا أحد من الأمم.

ولكن الذي قاله النصارى، إنهم جعلوا قوام الخالق - تعالى - بالمخلوق.

فيقال لهم: هذا أيضا ممتنع في صريح العقل أعظم من امتناع قيام كل من الخالقين بالآخر، وإن كان هذا أيضا ممتنعا، فإن المخلوق مفتقر في جميع أموره إلى الخالق، فيمتنع مع فقره في وجوده وتمام وجوده إلى الخالق أن يكون قوام الخالق به ; لأن ذلك يقتضي أن يكون مقيما له، وأن يكون تمام وجوده به، فيكون المخلوق لا وجود لشيء منه إلا بالخالق.

فالقدر الذي يقال: إنه يقيم به الخالق - هو من الخالق، والخالق خالقه وخالق كل مخلوق، فلا وجود له ولا قيام إلا بالخالق، فكيف يكون به قيام الخالق؟

وليس هذا كالجوهر وأعراضه اللازمة، أو كالمادة والصورة عند من يزعم أن الصورة جوهر إذا كانا متلازمين، فإن هذا من باب الدور المعي، كالنبوة مع الأبوة، وهذا جائز كما تقدم، إذ كان الخالق لهما جميعا هو الله.

وأما مع كون كل منهما هو الخالق، فهو ممتنع، ومع كون أحدهما خالقا والآخر مخلوقا، فهو أشد امتناعا.

والرب - تعالى - غني عن كل ما سواه من كل وجه، وكل ما سواه فقير إليه من كل وجه، وهذا معنى اسمه " الصمد "، فإن الصمد الذي يصمد إليه كل شيء ; لافتقاره إليه، وهو غني عن كل شيء، لا يصمد إلى شيء، ولا يسأله شيئا - سبحانه وتعالى - فكيف يكون قوامه بشيء من المخلوقات؟

وهذا الاتحاد الخاص من النصارى يشبه - من بعض الوجوه - قول أهل الوحدة والاتحاد العام، الذين يقولون كما يقوله ابن عربي صاحب " الفصوص " و " الفتوحات المكية ": إن أعيان المخلوقات ثابتة في العدم، ووجود الحق فاض عليها، فهي مفتقرة إليه من حيث الوجود المشترك العام، وهو وجوده، وهو مفتقر إليها من حيث الأعيان الثابتة في العدم، وهو ما يختص به كل عين عين، فيجعل كل واحد من الخالق والمخلوق مفتقر إلى الآخر.

ويقولون: الوجود واحد، ثم يثبتون تعدد الأعيان، ويقولون: هي مظاهر ومجال.

فإن كان المظهر والمجلى غير الظاهر، فقد ثبت التعدد، وإن كان هو إياه، فلا تعدد، فلهذا يضطرون إلى التناقض كما يضطر إليه النصارى، حيث يثبتون الوحدة مع الكثرة، وينشدون: (فيعبدني وأعبده ويحمدني وأحمده) . وهؤلاء بنوا قولهم على أصلين فاسدين.

أحدهما: أن أعيان الممكنات ثابتة في العدم، كقول من يقول من أهل الكلام: إن المعدوم شيء ثابت في العدم، وهذا القول فاسد عند جماهير العقلاء.

وإنما حقيقة الأمر، أن المعدوم يراد إيجاده ويتصور، ويخبر به، ويكتب قبل وجوده، فله وجود في العلم والقول والخط، وأما في الخارج فلا وجود له.

والوجود هو الثبوت، فلا ثبوت له في الوجود العيني الخارجي، وإنما ثبوته في العلم ; أي يعلمه العالم قبل وجوده.

والأصل الثاني: أنهم جعلوا نفس وجود رب العالمين الخالق القديم الأزلي الواجب بنفسه، هو نفس وجود المربوب المصنوع الممكن، كما قال ابن عربي: ومن عرف ما قررناه في الأعداد، وأن نفيها عين إثباتها، علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه. فالأمر للخالق هو المخلوق، والأمر المخلوق هو الخالق، كل ذلك من عين واحدة، لا بل هو العين الواحدة، وهو العيون الكثيرة، وهو: (يا أبت افعل ما تؤمر) . إلى أن قال: وما ذبح سوى نفسه: وما نكح سوى نفسه.

وقال: ومن أسمائه الحسنى العلي، على من يكون عليا، وما هو إلا هو؟ أو عن ماذا يكون عليا، وما ثم إلا هو؟ فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها وليست إلا هو.

وقد نقل عن أبي سعيد الخراز أنه قيل له: بماذا عرفت ربك؟

قال: بجمعه بين الأضداد، وقرأ قوله: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم} [الحديد: 3] .

أراد بذلك أنه مجتمع في حقه - سبحانه - ما يتضاد في حق غيره، فإن المخلوق لا يكون أولا آخرا باطنا ظاهرا.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يقول: («أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء») ، فجاء هذا الملحد وفسر قول أبي سعيد بأن المخلوق هو الخالق، فقال: قال أبو سعيد، وهو وجه من وجوه الحق، ولسان من ألسنته، ينطق عن نفسه بأن الله لا يعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، فهو عين ما ظهر وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من باطن عنه سواه، فهو ظاهر لنفسه باطن عن نفسه، وهو المسمى أبو سعيد الخراز،

وغير ذلك من أسماء المحدثات، ولهذا قال بعض النصارى لمن يقول مثل هذا ويحكيه عن شيوخه ويقول: إنه مسلم (أنتم كفرتمونا لأجل أن قلنا: إن الله هو المسيح، وشيوخكم يقولون: إن الله هو أبو سعيد الخراز، والمسيح خير من أبي سعيد) .

وهؤلاء يجيبون النصارى بجواب يتبين به أنهم أعظم إلحادا من النصارى.

فيقولون للنصارى: (أنتم خصصتموه بالمسيح، ونحن نقول: هو وجود كل شيء، لا نخص المسيح.

ولهذا قال بعضهم لأحذق هؤلاء " التلمساني " الملقب بالعفيف: أنت نصيري.

فقال: نصير جزء مني. فإن النصيرية أتباع أبي شعيب " محمد بن نصير " يقولون في علي بن أبي طالب نظير ما يقوله النصارى في المسيح، كذلك سائر الغلاة في علي، أو في أحد من أهل بيته، أو في الإسماعيلية بني عبيد المنتسبين إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، كالحاكم وغيره، أو في الحلاج، أو في بعض من الشيوخ الذين يقولون في واحد من هؤلاء باتحاد اللاهوت به أو حلوله فيه، نظير ما تقوله النصارى في المسيح.

وهؤلاء يقولون بأن الحلول والاتحاد محدث، وأن القديم حل أو اتحد بالمحدث، بعد أن لم يكونا متحدين.

وأما أولئك فيقولون بالوحدة المطلقة، فمحققوهم يقولون: إنه وجود كل شيء، لا يقولون باتحاد وجودين، ولا بحلول أحدهما بالآخر.

بل قد يقولون: إن الوجود هو ثبوت وجود الحق وثبوت الأشياء، اتحدا، وكل منهما مفتقر إلى الآخر.

فالحق إذا ظهر كان عبدا، والعبد إذا بطن كان ربا.

ويقولون: إذا حصل لك التجلي الذاتي، وهو هذا، لم تضرك عبادة الأوثان ولا غيرها، بل يصرحون بأنه عين الأوثان والأنداد، وأن أحدا لم يعبد غيره، كما يقول ابن عربي مصوبا لقوم نوح الكفار: ومكروا مكرا كبارا، قال: لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو، فإنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية (ادعوا إلى الله) فهذا عين المكر، فأجابوه (مكرا) كما دعاهم (مكرا) فقالوا في مكرهم: {لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} [نوح: 23] إذا تركوهم جهلوا عن الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء.

فإن للحق في كل معبود وجها، يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله، كما قال في المحمديين: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} [الإسراء: 23] . ; أي حكم فما حكم الله بشيء إلا وقع. فالعارف يعرف من عبد، وفي أي صورة ظهر حتى عبد، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة، وكالقوى المعنوية في الصور الروحانية، فما عبد غير الله في كل معبود.

وصوب هذا الملحد فرعون في قوله: أنا ربكم الأعلى.

قال: ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت، وأنه الخليفة بالسيف وإن جار في العرف الناموسي، لذلك قال: أنا ربكم الأعلى. ; أي وإن كان الكل أربابا بنسبة ما، فأنا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم.

قال: ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه، وأقروا له بذلك وقالوا له: إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. فاقض ما أنت قاض. فالدولة لك.

قال: فصح قول فرعون: أنا ربكم الأعلى. وإن كان فرعون عين الحق.

وصوب أيضا أهل العجل في عبادتهم العجل، وزعم أن موسى رضي بذلك، فقال: ولما كان موسى أعلم بالأمر من هارون لعلمه بأن الله قضى أن لا نعبد إلا إياه، وما حكم الله بشيء إلا وقع، كان عتبه على هارون لإنكاره وعدم اتساعه، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل من يراه عين كل شيء.

ومن هؤلاء طائفة لا يقولون بثبوت الأعيان في العدم، بل يقولون: ما ثم وجود إلا وجود الحق.

لكن يفرقون بين المطلق والمعين، فيقولون: هو الوجود المطلق الساري في الموجودات المعينة، كالحيوانية الثابتة في كل حيوان، والإنسانية الثابتة في كل إنسان، وهذا الذي يسمى الكلي الطبيعي.

ويسمون هذا الوجود: الإحاطة، فيقولون: هو الوجود المطلق، إما بشرط الإطلاق عن كل قيد، وهذا يسمى الكلي العقلي.

وهذا عند عامة العقلاء لا يوجد إلا في الذهن لا في الخارج، ولكن يحكى عن شيعة " أفلاطون " أنهم أثبتوا هذه الكليات المجردة عن الأعيان في الخارج، وقالوا: إنها قديمة أزلية إنسانية مطلقة، وحيوانية مطلقة، ويسمونها المثل الأفلاطونية، والمثل المعلقة.

وقد رد ذلك عليهم إخوانهم " أرسطو " وشيعته وجماهير العقلاء، وبينوا أن هذه إنما هي متصورة في الأذهان لا موجودة في الأعيان، كما يتصور الذهن عددا مطلقا ومقادير مطلقة، كالنقطة والخط والسطح والجسم التعليمي، ونحو ذلك مما يتصوره الذهن، وليس من ذلك شيء في الموجودات الثابتة في الخارج.

وهذا المطلق بشرط الإطلاق، يظن هؤلاء ثبوته في الخارج، وقد يسمونه الإحاطة، وهو الوجود المجرد عن جميع القيود، ثم بعده الوجود المطلق لا بشرط، وهو العام المنقسم إلى واجب وممكن، إلى قديم وحادث ونحو ذلك، كانقسام الحيوان إلى ناطق وأعجم.

وهذا المطلق لا بشرط يوجد في الخارج، فإن الاسم المفرد يصدق عليه فيقال: هذا حيوان، هذا إنسان، وإن كان الاسم العام شاملا لأنواعه وأشخاصه، لكن لا يوجد في الخارج إلا مقيدا معينا.

ومن قال: إنه يوجد في الخارج كليا، فقد غلط، فإن الكلي لا يكون كليا قط إلا في الأذهان لا في الأعيان، وليس في الخارج إلا شيء معين، إذا تصور منع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه، ولكن العقل يأخذ القدر المشترك الكلي بين المعينات، فيكون كليا مشتركا في الأذهان.

وهؤلاء يجعلون الوجود الواجب هذا، وقد يجعلونه بعد هذا، فيقولون: هذا فرق الواجب.

وهذا الوجود الكلي إذا قيل: إنه لا يوجد في الخارج إلا معينا فلا موجود في الخارج سوى الموجودات المعينة المشخصة بما فيها من الصفات القائمة بها.

وإن قدر وجوده في الخارج، فهو إما جزء من المعينات، وإما صفة لها.

فعلى الأول، لا يكون في الخارج موجود هو رب الموجودات المعينة.

وعلى الثاني، يكون رب الموجودات جزءها أو صفة لها.

ومعلوم بصريح العقل أن صفة الشيء القائمة به لا تخلق الموصوف وأن جزء الشيء لا يخلق الشيء، بل جزء الشيء جزء من الشيء.

فإذا كان هو الخالق للجملة، كان خالقا لنفسه، وكان بعض الشيء خالقا لكله.

ومن هؤلاء من يقول: إن الرب في العالم كالزبد في اللبن، والدهن في السمسم ونحو ذلك، فيجعلونه جزءا من العالم المخلوق. ونفس تصور هذا يكفي في العلم بفساده.

لكن هؤلاء يقولون لمن تبعهم: إن لم تترك العقل والنقل، لم يحصل لك التحقيق والتجلي الذي حصل لنا. ويقولون: ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل.

فقلت لبعضهم: إن الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - أكمل الناس كشفا، وهم يخبرون بما يعجز عقول الناس عن معرفته، لا بما يعرف في عقولهم أنه باطل، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول.

فمن دونهم إذا أخبر عن شهود وكشف، يعلم بصريح العقل بطلانه - علم أن كشفه باطل.

وأما إن كان لم يعلم بطلانه، فهذا قد يمكن فيه إصابته، وقد يمكن خطؤه ; لأن غير الأنبياء ليس بمعصوم.

وهؤلاء سمعوا باسم الله وقصدوا عبادته ومعرفته، فوقفوا على أثره في مصنوعاته، فظنوا أنه هو كمن سمع بالشمس، فلما أن رأى الشعاع المنبسط في الهواء والأرض، ظن أن ذلك هو الشمس، ولم يصعد بصره وبصيرته إلى الشمس التي في السماء.

وكذلك هؤلاء لم تصمد بصائر قلوبهم إلى رب العالمين، الذي فوق كل شيء المباين لمخلوقاته.

وسر ذلك، أنهم يشهدون بقلوبهم وجودا مطلقا بسيطا ليس له اسم خاص، كالحي والعليم والقدير. ولا له صفة، ولا يتميز فيه شيء عن شيء، وهذا هو الوجود المشترك.

لكن هذا الشهود هو في نفوسهم، لا حقيقة له في الخارج، وكثير ممن يخاطبهم لا يتصور ما يشهدونه، فيظنون أنه لم يفهم ما شهدوه.

وقد خاطبت غير واحد منهم، وبينت له أن هذا الذي يشهدونه هو في الذهن، وبتقدير أن يكون موجودا في الخارج، فهو صفة للموجودات، أو جزء منها، ويظنون مع ظنهم أنه موجود في الخارج، أنه لم يبق في الخارج غير ما شهدوه، فإنهم يغيبون عن الحس الذي يدرك المعينات، ويغيبون عقولهم عن تصورها، حتى لا يميزوا بين موجود وموجود، ويقولون: الحس فيه تفرقة، ثم يشهدون هذا الوجود المطلق مع عزلهم الحس، فيظنون أن هذا المطلق هو نفس المعينات، وأنه ما بقي موجودا أصلا.

فيقال لهم: لو قدر أن الوجود الكلي ثابت في الخارج كليا، وأنكم شهدتم ذلك، فمعلوم عند كل عاقل أن وجود الكلي المشترك لا يناقض وجود المعين المختص.

فالحيوانية والإنسانية المشتركة المطلقة، لا تناقض أعيان الحيوان وأعيان الإنسان، وحينئذ فثبوت أعيان الموجودات حاصل في الخارج.

وهب أنكم غبتم عن هذا ولم تشهدوه، فالغيبة عن شهود الشيء لا يوجب عدمه في نفسه.

فإذا لم يشهد العبد الشيء، أو لم يرده، أو لم يعلمه، أو لم يخطر بقلبه، أو فني عن شهوده، أو اصطلم، أو غاب، لم يلزم من ذلك أن يكون الشيء صار في نفسه معدوما فانيا لا حقيقة له، بل الفرق ثابت بين أن يعدم الشيء في نفسه ويفنى ويتلاشى، وبين أن يعدم شهود الإنسان له وذكره ومعرفته.

وهؤلاء - من ضلالهم - يظنون أنه إذا فني شهودهم للموجودات، كانت فانية في أنفسها، فلم يكن موجودا إلا ما تخيلوه من الوجود المطلق.

ويقولون: الكثرة والتفرقة في الحس، فإذا فني شهود القلب عن الحس، لم يبق تفرقة ولا كثرة، ويظنون أن شهود الحس حينئذ خطأ، والعقل هو الذي يشهد الكليات والمطلقات دون الحس، فإذا أبطلوا ما شهده الحس، لم يبق معهم إلا الوجود الكلي.

ثم يظنون مع ذلك أنه هو الله، فيبقى الرب عندهم وهما وخيالا في نفوسهم، لا حقيقة له في الخارج، كما قال بعض حذاقهم وهو التستري صاحب ابن سبعين: (وهمك هو بتشخيص ما تحته شيء) وقال:

ترى الوجود واحدا وأنت ذاك ... وليس عليك زائد ما ثم سواك

وقلت لبعض حذاقهم: هب أن هذا الوجود المطلق ثابت في الخارج، وأنه عين الموجودات المشهودة، فمن أين لك أن هذا هو رب العالمين الذي خلق السماوات والأرض وكل شيء؟

فاعترف بذلك وقال: هذا ما فيه حيلة.

والحس الباطن أو الظاهر إن لم يقترن به العقل الذي يميز بين المحسوس وغيره، وإلا دخل فيه من الغلط من جنس ما يدخل على النائم والممرور والمبرسم وغيرهم ممن يحكم بمجرد الحس الذي لا عقل معه.

والبهائم قد تكون أهدى من هؤلاء، كما قال تعالى: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} [الأعراف: 179] .

وهؤلاء يصرحون برفض السمع والعقل فدخلوا في قوله: {أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا} [الفرقان: 44] . ويلزمون أنفسهم الغيبة عن العقل والحس الظاهر والشرع، فلهذا يقول أحذقهم التلمساني:

فقل لحسك غب وجدا وذب طربا ... فيها وقل لزوال العقل لا تزل

واصمت إلى أن تراها فيك ناطقة ... فإن وجدت لسانا قائلا فقل

وهؤلاء لبسط الكلام عليهم موضع آخر والمقصود هنا أن النصارى زعموا أن اللاهوت محتاج إلى ما اتحد به من الناسوت، وهؤلاء زعموا أن رب العالمين محتاج إلى كل ما سواه من الأعيان الثابتة في العدم.

فإن كل من قال: إن رب العالمين اتحد بغيره فكل من المتحدين مفتقر إلى الآخر، مع استحالة كل منهما، وتغير حقيقته، ولا كذلك الحلول المعقول، فإن الحلول لا يعقل إلا إذا كان الحال قائما بالمحل محتاج إليه، سواء أريد بذلك حلول الصفات والأعراض في الموصوفات والجواهر، أو أريد به حلول الأعيان.

فإن كون أحد الجسمين محلا للآخر، كحلول الماء في الظرف، هو يوجب افتقاره إليه.

وما يحل في قلوب المؤمنين من معرفة الرب والإيمان به، هو قائم بقلوبهم محتاج إليه وكذلك ما يثبته الفلاسفة من الهيولى والصورة، ويقولون: إن الهيولى محل للصورة، ويعترفون - مع ذلك - بأن الصورة محتاجة إلى الهيولى.

والقائلون بوحدة الوجود، قد يجعلون الخالق مع المخلوقات كالصورة مع الهيولى، كما يشير إليه ابن سبعين ويقول: هو في الماء ماء، وفي النار نار، وفي كل شيء بصورة ذلك الشيء، كما قد بسط الكلام على هؤلاء في مواضع غير هذا الكتاب.

وإذا قالوا: إن الرب حل في المسيح كما حل في غيره، وهو الحلول الموجود في كلام داود عندهم، حيث قالوا: أنت تحل في قلوب القديسين، فقد عرف أن هذا حلول الإيمان به ومعرفته وهداه ونوره والمثال العلمي، كما قد بسط في موضع آخر، ولهذا يسمى ظهورا والشعاع الحال على الأرض والهواء عرض قائم بذلك، وهو مفتقر إلى الأرض والهواء.

والرسل - صلوات الله عليهم - أخبروا بأن الله فوق العالم بعبارات متنوعة، تارة يقولون: هو العلي وهو الأعلى، وتارة يقولون: هو في السماء، كقوله: أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا.

وليس مرادهم بذلك أن الله في جوف السماوات، أو أن الله يحصره شيء من المخلوقات، بل كلام الرسل كله يصدق بعضه بعضا، كما قال تعالى: سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. وقد قال تعالى: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم} [الحديد: 3] .

وثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: («أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء») ، فأخبر أنه لا يكون شيء فوقه.

ولهذا قال غير واحد من أئمة السلف: إنه ينزل إلى السماء الدنيا، ولا يخلو العرش منه، فلا يصير تحت المخلوقات وفي جوفها قط، بل العلو عليها صفة لازمة له حيث وجد مخلوق، فلا يكون الرب إلا عاليا عليه.

وقول الرسل: (في السماء) أي في العلو، ليس مرادهم أنه في جوف الأفلاك، بل السماء العلو، وهو إذا كان فوق العرش، فهو العلي الأعلى وليس هناك مخلوق حتى يكون الرب محصورا في شيء من المخلوقات، ولا هو في جهة موجودة، بل ليس موجودا إلا الخالق والمخلوق، والخالق بائن عن مخلوقاته، عال عليها، فليس هو في مخلوق أصلا، سواء سمي ذلك المخلوق جهة، أو لم يسم جهة.

ومن قال: إنه في جهة موجودة تعلو عليه أو تحيط به أو يحتاج إليها بوجه من الوجوه، فهو مخطئ.

كما أن من قال: ليس فوق السماوات رب، ولا على العرش إله، ومحمد لم يعرج به إلى ربه، ولا تصعد الملائكة إليه، ولا تنزل الكتب منه، ولا يقرب منه شيء، ولا يدنو إلى شيء - فهو أيضا مخطئ.

ومن سمى ما فوق العالم جهة، وجعل العدم المحض جهة، وقال هو في جهة - بهذا المعنى - أي هو نفسه فوق كل شيء؛ فهذا معنى صحيح.

ومن نفى هذا المعنى بقوله: ليس في جهة فقد أخطأ.

بل طريق الاعتصام أن ما أثبته الرسل لله، أثبت له، وما نفته الرسل عن الله، نفي عنه.

والألفاظ التي لم تنطق الرسل فيها بنفي ولا إثبات، كلفظ الجهة والحيز ونحو ذلك، لا يطلق نفيا ولا إثباتا إلا بعد بيان المراد.

فمن أراد بما أثبت معنى صحيحا، فقد أصاب في المعنى، وإن كان في اللفظ خطأ.

ومن أراد بما نفاه معنى صحيحا، فقد أصاب في المعنى، وإن كان في لفظه خطأ.

وأما من أثبت بلفظه حقا وباطلا، أو نفى بلفظه حقا وباطلا، فكلاهما مصيب فيما عناه من الحق، مخطئ فيما عناه من الباطل، قد لبس الحق بالباطل، وجمع في كلامه حقا وباطلا.

والأنبياء كلهم متطابقون على أنه في العلو.

وفي القرآن والسنة ما يقارب ألف دليل على ذلك، وفي كلام الأنبياء المتقدمين ما لا يحصى.

[فصل: متابعة حكاية كلام ابن البطريق عن النصارى ومناقشته في ذلك]

قال سعيد بن البطريق: وذلك مثل ما أن الشعاع المولود من عين الشمس الذي يملأ ضوءه ما بين السماء والأرض نورا، وفي بيت من البيوت يكون فيه ضياء بنوره من غير مقارنة لعين الشمس التي تولد منها حقا ; لأنه لم ينقطع من العين ولا من الضوء، فكذلك سكن الله في الناسوت من غير أن يفارقه الأب، فهو مع الناسوت، وهو مع الأب وروح القدس حقا.

فيقال: هذا التمثيل لو قدر أنه صحيح، فإنما يشبه من بعض الوجوه قول من يقول: إنه بذاته في كل مكان، كشعاع الشمس الذي يظهر في الهواء والأرض.

وأما النصارى فإنهم يخصونه بناسوت المسيح دون سائر النواسيت، ولو مثل بهذا من يقول: إنه بذاته في كل مكان - لكان باطلا، فكيف النصارى؟ فإن الضوء إنما يكون في الهواء وسطوح الأرض، لا يكون تحت السقوف والغيران وباطن الأرض.

ثم هذا التمثيل باطل من وجوه:

أحدها: أن الشعاع ليس متولدا من جرم الشمس، ولا شعاع النار متولد من جرم النار، بل هو حادث بائن عن جرم الشمس، ولكنها سبب في حصوله.

ولهذا يشبه به العلم الحاصل في قلب المتعلم بسبب تعلم العلم من غير أن يكون من ذات علم العالم.

ولهذا يشبه علم العالم بالسراج الذي يقتبس كل أحد من نوره، وهو لم ينقص.

بخلاف تولد المولود عن والده، فإنه متولد عن عينه.

والشعاع القائم بالهواء والأرض، ليس هو قائما بذات الشمس والنار، بل هو عرض قائم بمحل آخر، والعرض الواحد لا يكون في محلين.

والنصارى يقولون: إن الكلمة التي هي علم الله أو حكمته، متولدة منه، وهي قديمة أزلية، والصفة قائمة بالموصوف، فالصفة مثل ما يقوم بذات الشمس من استدارة وضوء، فذاك صفة لها، وهو غير الشعاع القائم بالهواء، فإن ذاك بائن عنها، فكيف يجعل هذا هو هذا.

فإن قالوا: نحن مقصودنا أن حكمة الله وعلمه ونوره أنزله إلى المسيح وأفاضه على المسيح، كما يفيض الشعاع عن الشمس.

قيل لهم: فهذا قدر مشترك بين المسيح وسائر الأنبياء، فلا اختصاص للمسيح بذلك.

الوجه الثاني: قولهم: الذي يملأ ضوءه ما بين السماء والأرض نورا، وفي بيت من البيوت يكون فيه حقا من غير مقارنة لعين الشمس التي تولد منها حقا.

فيقال لهم: الشعاع الذي بين السماء والأرض هو الضوء وهو النور.

فقولكم: إن الشعاع يملأ ضوءه ما بين السماء والأرض نورا، يقتضي أنه شعاع وضوء شعاع، ونور حدث عن ذلك، وهذا غلط، بل ليس هنا إلا جرم الشمس التي في السماء وشعاعها، وهو الضوء والنور الذي ما بين السماء والأرض.

الثالث: قولكم: (من غير مفارقة عين الشمس) يقتضي أن هذا الشعاع هو نفس ما قام بالشمس، وهذا مكابرة للحس والعقل، بل الشعاع الذي قام بالهواء والأرض عرض لم يقم بالشمس فقط.

وكل شعاع بقعة، فليس هو عين الشعاع الذي في البقعة الأخرى، وإن كان هو نظيره ومثله، وجنس الشعاع يجمعهما، كما أن شعاع هذا السراج، ليس هو شعاع هذا السراج، وإن قدر اختلاطهما حتى يقوى الضوء، ولا حركة هذا الهواء هي حركة هذا الهواء، ونظائر ذلك متعددة.

الرابع: قولكم: (كذلك الله سكن في الناسوت من غير أن يفارقه الأب) تمثيل باطل.

فإن الشمس نفسها لم تكن في الهواء والأرض، وإنما سكن شعاعها.

فوزانه أن يقال: فكذلك سكن نور الله وبرهانه، وهداه وروحه.

وهذا إذا قلته، فهو منقول عن الأنبياء، تنطق كتبهم بأن نور الله وروحه وهداه في قلوب المؤمنين، لكن لا اختصاص للمسيح بذلك.

قال الله تعالى: {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري} [النور: 35] .

قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المؤمن.

وفي الترمذي عن أبي سعيد، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: («اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ قوله: {إن في ذلك لآيات للمتوسمين} [الحجر: 75] » .

الخامس: إنكم إذا جعلتم الله نفسه ساكنا في المسيح، فوزانه أن تكون الشمس نفسها ساكنة في موضع صغير من الأرض.

وهذا التمثيل يبطل قولكم: إن الله أعلى وأعظم وأجل وأكبر. والله أجل وأكبر وأعظم من كل شيء، والشمس آية من آياته ومخلوق من مخلوقاته، ومع هذا فلو قال قائل: إن الشمس سكنت في جوف امرأة وخرجت من فرج تلك المرأة، لكان كل عاقل يعلم فساد قوله، وينسبه إلى الجهل العظيم أو الجنون، وسواء قال: إن الشمس نفسها نزلت أو لم تنزل.

وأنتم تقولون: إن رب العالمين سكن في بطن مريم، ويقول أكثركم - كالملكية واليعقوبية -: إنه خرج من فرج مريم.

ولو قال قائل عما هو من أصغر مخلوقات الله، كوكب من الكواكب أو جبل من الجبال أو صخرة عظيمة: إن ذلك كان في بطن امرأة وخرج من فرجها - لضحك الناس من قوله، فكيف بمن يدعي مثل ذلك في رب العالمين؟ !

وإذا قالوا: إن الله نزل إلى السماء الدنيا، أو نزل إلى الطور وكلم موسى من العليقة أو في عمود الغمام، ونحو ذلك - فليس في شيء من ذلك أنه اتحد بمخلوق، لا سماء ولا طور ولا شجرة، ولا كان كلامه قائما بشيء مخلوق، لا شجرة ولا غيرها.

وعندهم أنه اتحد بالمسيح، وكان صوت المسيح القائم به، هو صوت رب العالمين بلا واسطة.

[فصل: الرد على تشبيه النصارى حلول كلمة الله في الناسوت بالكتابة في القرطاس]

قال سعيد بن البطريق: ومثلما أن كلمة الإنسان المولودة من عقله تكتب في قرطاس، فهي في القرطاس كلها حقا من غير أن تفارق العقل الذي منه ولدت، ولا يفارقها العقل الذي ولدها ; لأن العقل بالكلمة يعرف ; لأنها فيه، والكلمة كلها في العقل الذي ولدها، وكلها في نفسها، وكلها في القرطاس الذي التحمت به فكذلك كلمة الله كلها في الأب الذي ولدت منه، وكلها في نفسها وفي الروح، وكلها في الناسوت التي حلت فيها والتحمت به فيقال: هذا التمثيل حجة عليكم وعلى فساد قولكم، لا حجة لكم، وذلك يظهر بوجوه.

أحدها: أن يقال: إن كان حلول كلمة الله التي هي المسيح في الناسوت، مثل كتابة الكلام في القرطاس، فحينئذ يكون المسيح من جنس سائر كلام الله، كالتوراة وزبور داود والإنجيل والقرآن، وغير ذلك، فإن هذا كله كلام الله، وهو مكتوب في القراطيس باتفاق أهل الملل، بل الخلق كلهم متفقون على أن كلام كل متكلم يكتب في القراطيس، وقد قال تعالى في القرآن: {بل هو قرآن مجيد - في لوح محفوظ} [البروج: 21 - 22] .

وقال تعالى: {إنه لقرآن كريم - في كتاب مكنون - لا يمسه إلا المطهرون} [الواقعة: 77 - 79] . وقال: {يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة} [البينة: 2] وقال: {كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة} [عبس: 11] وقال تعالى: {والطور وكتاب مسطور في رق منشور} [الطور: 1]

وإذا كانت الكلمة التي هي المسيح عندكم هكذا، فمعلوم أن كلام الله المكتوب في القراطيس ليس هو إلها خالقا، وهو كلام كثير لا ينحصر في كلمة ولا كلمتين.

ولو قال قائل: يا كلام الله اغفر لي وارحمني، أو يا توراة، أو يا إنجيل، أو يا قرآن اغفر لي وارحمني، كان قد تكلم بباطل عند جميع أهل الملل والعقلاء.

وأنتم تقولون: المسيح إله خالق، وهو يدعى ويعبد، فكيف تشبهونه بكلام الله المكتوب في القراطيس؟

الثاني: أن الكلام المكتوب صفة للمتكلم، يقوم به ويكتب في القراطيس عند سلف أهل الملل وجماهيرهم.

وعند بعضهم، هو عرض مخلوق، يخلقه في غيره.

فالجميع متفقون على أن الكلام صفة تقوم بغيرها، ليس جوهرا قائما بنفسه.

والمسيح - عندكم - لاهوته جوهر قائم بنفسه، وهو إله حق من إله حق وهو - عندكم - إله تام وإنسان تام.

فكيف تجعلون الإله الذي هو عين قائمة بنفسها كالصفة التي لا تقوم إلا بغيرها؟

الثالث: قولكم: (إن كلمة الإنسان مولودة من عقله) ، لو كان صحيحا فالتولد لا يكون إلا حادثا.

وأنتم تقولون: إن كلمة الله القديمة الأزلية متولدة منه قبل الدهور وتقولون - مع هذا -: هي إله.

وهذا كما أن بطلانه معلوم بصريح العقل، فهي بدعة وضلالة في الشرع، فإنه لم يسم أحد من الأنبياء شيئا من صفات الله ابنا له، ولا قال: إن صفته متولدة منه. ولفظ الابن لا يوجد عندكم عن الأنبياء إلا اسما لناسوت مخلوق، لا لصفة الله القديمة، فقد بدلتم كلام الأنبياء بهذا الافتراء.

الرابع: قولكم: (مولودة من عقله) ، إن أردتم (بعقله) العين القائمة بنفسها التي يسميها قلبا وروحا ونفسا، أو نفسا ناطقة، فتلك إنما تقوم بها المعاني، وأما الألفاظ فإنما تقوم بفمه ولسانه.

وإن أردتم (بعقله) مصدر عقل يعقل عقلا، فالمصدر عرض قائم بالعقل، وهو عرض من جنس العلم والكلمة والعمل الصالح.

وإن أردتم بالعقل الغريزة التي في الإنسان، فهو أيضا عرض.

الخامس: أن تسميتكم تكلم الإنسان بالمعنى أو اللفظ تولدا، أمر اخترعتموه لا يعرف عن نبي من الأنبياء، ولا أمة من الأمم، ولا في لغة من اللغات.

وإنما ابتدعتم هذا لتقولوا: إذا كان كلام الإنسان متولدا منه، فكلام الله متولد منه.

ولم ينطق أحد من الأنبياء بأن كلام الله تولد منه، ولا أنه ابنه، ولا أن علمه تولد منه، ولا أنه ابنه.

السادس: قولكم: (إن كلمة الإنسان المولودة من عقله تكتب في القرطاس، فهي في القرطاس كلها حقا، من غير أن تفارق العقل الذي منه ولدت) ، إلى قولكم: (الكلمة كلها في العقل الذي ولدها، وكلها في القرطاس الذي التحمت به) - مكابرة ظاهرة، معلومة الفساد بصريح العقل، فإن وجود الكلام في القلب واللسان، ليس هو عين وجوده مكتوبا في القرطاس، بل القائم بقلب المتكلم معان: طلب وخبر وعلم وإرادة، والقائم بنفسه حروف مؤلفة هي أصوات مقطعة، أو هي حدود أصوات مقطعة، وليس في قلب الإنسان ولا فمه مداد كالمداد الذي في القرطاس.

والكلام مكتوب في القرطاس باتفاق العقلاء، مع علمهم بأنه ليس في القرطاس علم وطلب وخبر قائم به، كما تقوم بقلوب المتكلم، ولا قام به أصوات مقطعة مؤلفة، ولا حروف كالأصوات القائمة بفم المتكلم، بل لفظ الحرف يقال على الحرف

المكتوب: إما المداد المصور، وإما صورة المداد وشكله. ويقال على الحرف المنطوق: إما الصوت المقطع، وإما حد الصوت ومقطعه وصورته.

وكل عاقل يميز بحسه وعقله بين الصوت المسموع من المتكلم، وبين المداد المرئي بالبصر، ولا يقول عاقل: إن هذا هو هذا، ولا يقال: إن هذا وهذا هو نفس المعنى القائم بقلب المتكلم، فكيف تقولون: إن الكلمة في القرطاس كلها، وكلها في العقل الذي ولدها، وكلها في نفسها؟

السابع: أن حرف (في) التي يسميها النحاة ظرفا، يستعمل في كل موضع بالمعنى المناسب لذلك الموضع.

فإذا قيل: إن الطعم واللون والريح حال في الفاكهة، أو العلم والقدرة والكلام حال في المتكلم، فهذا معنى معقول.

وإذا قيل: إن هذا حال في داره، أو إن الماء حال في الظرف، فهذا معنى آخر.

فإن ذاك حلول صفة في موصوفها، وهذا حلول عين قائمة تسمى جسما وجوهرا في محلها. ومنه يقال لمكان القوم: المحلة، ويقال: فلان حل بالمكان الفلاني.

وإذا قيل: الشمس والقمر في الماء، أو في المرآة، أو وجه فلان في المرآة، أو كلام فلان في هذا القرطاس، فهذا له معنى يفهمه الناس، يعلمون أنه قد ظهرت الشمس والقمر والوجه في المرآة ورؤيت فيها، وأنه لم يحل بها ذات ذلك، وإنما حل فيها مثال شعاعي عند من يقول ذلك.

وكذلك الكلام إذا كتب في القرطاس، فالناس يعلمون أنه مكتوب فيه ومقروء فيه ومنظور فيه، ويقولون: نظرت في كلام فلان وقرأته، وتدبرته وفهمته ورأيته، ونحو ذلك، كما يقولون: رأيت وجهه في المرآة وتأملته ونحو ذلك.

وهم في ذلك كله صادقون يعلمون ما يقولون، ويعلمون أن نفس جرم الشمس والقمر والوجه لم يحل في المرآة، وأن نفس ما قام به من المعاني والأصوات لم تقم بالقرطاس، بل كانت المرآة واسطة في رؤية الوجه فهو المقصود بالرؤية، وكان القرطاس واسطة في معرفة الكلام، فهو المقصود بالرؤية، ويعلمون أن حاسة البصر باشرت ما في المرآة من الشعاع المنعكس، ولكن المقصود بالرؤية هو الشمس، وحاسة البصر باشرت ما في القرطاس من المداد المكتوب، ولكن المقصود بالرؤية هو الكلام المكتوب.

ويعلمون أن نفس المثال الذي في المرآة ليس هو الوجه، وأن نفس المداد المكتوب به ليس هو الكلام المكتوب، بل يفرقون بينهما، كما قال تعالى: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا} [الكهف: 109]

ففرق سبحانه بين الكلمات وبين المداد الذي يكتب به الكلمات.

فكيف يقال: إن هذا هو هذا، وإن الكلمة في القرطاس كلها، وهي في المتكلم كلها؟

الثامن: أن الكلام له معنى في المتكلم يعبر عنه بلفظه، واللفظ يكتب في القرطاس، فالمكتوب في القرطاس هو اللفظ المطابق للمعنى، لا يكتب المعنى بدون كتابة اللفظ الذي كتب بالخط ; ليعرف ما كتب.

فدعوى هؤلاء أن نفس المعنى الذي في القلب كله، هو في القرطاس كله - جعل لنفس المعنى هو الخط، وهذا باطل.

التاسع: أنه لا ريب أن كلام المتكلم يقال: إنه قائم به.

ويقال - مع ذلك -: إنه مكتوب في القرطاس، ويقال: هذا هو كلام فلان بعينه، وهذا هو ذاك، ونحو ذلك من العبارات التي تبين أن هذا المكتوب في القرطاس هو هذا الكلام الذي تكلم به المتكلم بعينه، لم يزد فيه ولم ينقص، لم يكتب كلام غيره.

ولا يريدون بذلك أن نفس الخط نفس الصوت، أو نفس المعنى، فإن هذا لا يقوله عاقل.

فإن قيل: ففي المسلمين من يقول: إن كلام الله القديم الأزلي، أو كلام الله الذي ليس بمخلوق، هو حال في الصدور والمصاحف من غير مفارقة.

ومن هؤلاء من يقول: إنه يسمع من الإنسان الصوت القديم، أو الصوت الذي ليس بمخلوق.

ومنهم من يقول: إن الحرف القديم أو الذي ليس بمخلوق، هو في القرطاس، وحكي عن بعضهم أنه يقول ذلك في المداد.

ومن هؤلاء من يقول: إن القديم حل في المصحف ونحو ذلك.

فتقول النصارى: نحن مثل هؤلاء.

قيل: الجواب من وجوه.

أحدها: أن المقصود بيان الحق الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، والرد على من خالف ذلك من النصارى وغيرهم.

ونحن لا ننكر أن في المنتسبين إلى الإسلام طوائفا منهم منافقون ملحدون وزنادقة، ومنهم جهال ومبتدعة، ومنهم من يقول مثل قول النصارى، ومنهم من يقول شرا منه، فالرد على هؤلاء كلهم، والعصمة ثابتة لكتاب الله وسنة رسوله.

وما اجتمع عليه عباده المؤمنون. فهذا لا يكون إلا حقا، وما تنازع فيه المسلمون، ففيه حق وباطل.

الوجه الثاني: أن يقال: هؤلاء الذين قالوا في القرآن ما قالوه، ليس قولهم مثل قول النصارى.

فإن النصارى جعلوا لله ولدا قديما أزليا سموه كلمة، وقالوا: إنه إله يخلق ويرزق، وإنه اتحد بالمسيح، فجعلوا المسيح - الذي هو الكلمة عندهم - إلها يخلق ويرزق.

وليس في طوائف المسلمين المعروفة من يقول: إن كلام الله إله يخلق ويرزق.

ولكن محمد وغيره من الرسل - عليهم السلام - بلغوا إلى الخلق كلام الله الذي تكلم به.

فكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان على أن القرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلام الله، هو كلام الله الذي تكلم به، وأن الله أنزله وأرسل به ملائكته، ليس هو مخلوقا بائنا عنه خلقه في غيره.

ويقولون: إن هذا القرآن هو كلام الله الذي بلغه رسوله، والمسلمون يقرءونه، ويسمع من القارئ كلام الله، لكن يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم، ويسمعونه من القارئ الذي يقرؤه بصوت نفسه، فالكلام كلام البارئ، والصوت صوت القارئ.

ويقولون: إن الله تكلم به وكلم به موسى، وإن موسى سمع نداء الله بأذنه، فكلمه الله بالصوت الذي سمعه موسى، كما بين ذلك في كتب الله القرآن والإنجيل والتوراة وغير ذلك.

فحدث بعد الصحابة وأكابر التابعين طائفة معطلة يقولون: إن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا، فقتل المسلمون مقدمهم " الجعد " وصار لهم مقدم يقال له " الجهم " فنسبت إليهم الجهمية، نفاة الأسماء والصفات.

تارة يقولون: إن الله لم يتكلم ولم يكلم موسى، وإنما أطلق ذلك مجازا.

وتارة يقولون: تكلم ويتكلم حقيقة، ولكن معنى ذلك أنه خلق كلاما في غيره، سمعه موسى، لا أنه نفسه قام به كلام، وهذا قول من يقوله من المعتزلة ونحوهم.

وزين هذا القول بعض ذوي الإمارة، فدعوا إليه مدة وأظهروه، وعاقبوا من خالفهم، ثم أطفئ ذلك، وأظهر ما كان عليه سلف الأمة، أن القرآن والتوراة والإنجيل كلام الله، تكلم هو به. منه بدا، ليس ببائن منه، وليس بمخلوق خلقه في غيره.

ولما أظهر الله هذا، والناس يتلون قول الله تعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} [التوبة: 6] صار بعض أهل الأهواء يقول: إنما سمع صوت القارئ، وصوته مخلوق، وهو كلام الله، فكلام الله مخلوق.

ولم يميز هذا بين أن يسمع الكلام من المتكلم به، كما سمعه موسى من الله بلا واسطة، وبين أن يسمع من المبلغ عنه.

ومعلوم أنه لو سمع كلام الأنبياء وغيرهم من المبلغين، لم يكن صوت المبلغ هو صوت المبلغ عنه، وإن كان الكلام كلام المبلغ عنه لا كلام المبلغ.

فكلام الله إذا سمع من المبلغين عنه، أولى أن يكون هو كلام الله لا كلام المبلغين، وإن بلغوه بأصواتهم.

فجاءت طائفة ثانية فقالوا: هذا المسموع ألفاظنا وأصواتنا، وكلامنا ليس هو كلام الله ; لأن هذا مخلوق، وكلام الله ليس بمخلوق.

وكان مقصود هؤلاء، تحقيق أن كلام الله غير مخلوق، فوقعوا في إنكار أن يكون هذا القرآن كلام الله، ولم يهتدوا إلى أنه - وإن كان كلام الله، فهو كلام الله مبلغا عنه - ليس هو كلامه مسموعا منه، ولا يلزم - إذا كانت أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة ليست هي كلام الله - أن يكون الكلام الذي يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم كلامهم، ويكون مخلوقا ليس هو كلام الله.

وهؤلاء الذين قالوا: ليس هذا كلام الله، منهم من قال: هو حكاية لكلام الله، وطردوا ذلك في كل من بلغ كلام غيره أن يكون ما بلغه حكاية لكلام المبلغ عنه لا كلامه.

وأهل الحكاية منهم من يقول: إن كلام الرب يتضمن حروفا مؤلفة، إما قائما بذاته على قول بعضهم، أو مخلوقة في غيره على قول بعضهم، والقائم بذاته معنى واحد.

ومن هؤلاء من قال: الحكاية تماثل المحكي عنه، فلا نقول: هو حكاية، بل هو عبارة عنه، والتقدير عندهم فأجره حتى يسمع كلام عبارته أو حكايته.

فجاءت طائفة ثالثة فقالت: بل قد ثبت أن هذا المسموع كلام الله، وكلام الله ليس بمخلوق، وهذا المسموع هو الصوت، فالصوت غير مخلوق.

ثم من هؤلاء من قال: إنه قديم، ومنهم من قال: ليس بقديم، ومنهم من قال: يسمع صوت الرب والعبد، ومنهم من قال: إنما يسمع صوت الرب.

ثم منهم من قال: إنه قديم، ومنهم من قال: إنما يسمعه من العبد.

وهؤلاء منهم من قال: إن صوت الرب حل في العباد، فضاهوا النصارى.

ومنهم من قال: بل نقول: ظهر فيه من غير حلول. ومنهم من يقول: لا يطلق لا هذا ولا هذا.

وكل هذه الأقوال محدثة مبتدعة، لم يقل شيئا منها أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا إمام من أئمة المسلمين، كمالك والثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وابن عيينة وغيرهم.

بل هؤلاء كلهم متفقون على أن القرآن منزل غير مخلوق، وأن الله أرسل به جبريل، فنزل به جبريل على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - فبلغه محمد إلى الناس فقرأه الناس بحركاتهم وأصواتهم، وليس شيء من أفعال العباد وأصواتهم قديما ولا غير مخلوق، ولكن كلام الله غير مخلوق، ولم يكن السلف يقولون: القرآن قديم.

ولما أحدث الجهمية وموافقوهم من المعتزلة وغيرهم أنه مخلوق بائن من الله، قال السلف والأئمة: إنه كلام الله غير مخلوق.

ولم يقل أحد من السلف: إن الله تكلم بغير قدرته ومشيئته، ولا أنه معنى واحد قائم بالذات، ولا أنه تكلم بالقرآن أو التوراة أو الإنجيل في الأزل بحرف وصوت قديم، فحدث بعد ذلك طائفة فقالوا: إنه قديم.

ثم منهم من قال: القديم هو معنى واحد قائم بالذات، هو معنى جميع كلام الله.

وذلك المعنى إن عبر عنه بالعبرية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، والأمر والنهي والخبر صفات له لا أنواع له.

ومن هؤلاء من قال: بل هو قديم، وهو حروف، أو حروف وأصوات أزلية قديمة، وأنها هي التوراة والإنجيل والقرآن.

فقال الناس لهؤلاء: خالفتم الشرع والعقل في قولكم: إنه قديم، وابتدعتم بدعة لم يسبقكم إليها أحد من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، وفررتم من محذور إلى محذور، كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ثم قولكم: إنه معنى واحد - وهو مدلول جميع العبارات - مكابرة للعقل والشرع؛ فإنا نعلم - بالاضطرار - أنه ليس معنى آية الكرسي، هو معنى آية الدين، ولا معنى {تبت يدا أبي لهب} [المسد: 1] هو معنى سورة الإخلاص.

والتوراة إذا عربناها لم تصر هي القرآن العربي الذي جاء به محمد، وكذلك إذا ترجمنا القرآن بالعبرية، لم يكن هو توراة موسى.

وقول من قال منكم: إنه حروف، أو حروف وأصوات أزلية، ظاهر الفساد، فإن الحروف متعاقبة، فيسبق بعضها بعضا، والمسبوق بغيره لا يكون قديما لم يزل، والصوت المعين لا يبقى زمانين، فكيف يكون قديما أزليا؟

والسلف والأئمة لم يقل أحد منهم بقولكم، لكن قالوا: إن الله تكلم بالقرآن وغيره من الكتب المنزلة، وإن الله نادى موسى بصوت سمعه موسى بأذنه، كما دلت على ذلك النصوص.

ولم يقل أحد منهم: إن ذلك النداء الذي سمعه موسى قديم أزلي، ولكن قالوا: إن الله لم يزل متكلما إذا شاء وكيف شاء ; لأن الكلام صفة كمال، لا صفة نقص، وإنما تكون صفة كمال إذا قام به، لا إذا كان مخلوقا بائنا عنه، فإن الموصوف - إلا بما قام به - لا يتصف بما هو بائن عنه، فلا يكون الموصوف حيا عالما قادرا متكلما رحيما مريدا بحياة قامت بغيره، ولا بعلم وقدرة قامت بغيره، ولا بكلام ورحمة وإرادة قامت بغيره.

والكلام بمشيئة المتكلم وقدرته أكمل ممن لا يكون بمشيئته وقدرته.

وأما كلام يقوم بذات المتكلم بلا مشيئته وقدرته، فإما أنه ممتنع أو هو صفة نقص، كما يدعى مثل ذلك في المصروع.

وإذا كان كمالا، فدوام الكمال له، وأنه لم يزل موصوفا بصفات الكمال أكمل من كونه صار متكلما بعد أن لم يكن، لو قدر أن هذا ممكن، فكيف إذا كان ممتنعا؟

وكان أئمة السنة والجماعة كلما ابتدع في الدين بدعة، أنكروها ولم يقروها، ولهذا حفظ الله دين الإسلام، فلا يزال في أمة محمد طائفة هادية مهدية ظاهرة منصورة.

بخلاف أهل الكتاب، فإن النصارى ابتدعوا بدعا خالفوا بها المسيح، وقهروا من خالفهم ممن كان متمسكا بشرع المسيح حتى لم يبق حين بعث الله محمدا من هو متمسك بدين المسيح، إلا بقايا من أهل الكتاب كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح: («إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب») .

فلما أظهر قوم من الولاة أن القرآن مخلوق، ودعوا الناس إلى ذلك، ثبت الله أئمة السنة وجمهور الأمة، فلم يوافقوهم، وكان المشار إليه من الأئمة إذ ذاك أحمد بن حنبل.

ثم بقي ذلك القول المحدث ظاهرا نحو أربع عشرة سنة، وأئمة الأمة وجمهورها ينكرونه، حتى جاء من الولاة من منع من إظهاره والقول به، فصار مخفيا كغيره من البدع، وشاع عند العامة والخاصة أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

فأراد بعض الناس أن يجيب عن شبهة من قال: إن هذا الذي يقوم بنا مخلوق. فقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، ولكن ألفاظنا به مخلوقة، وتلاوتنا له مخلوقة.

وربما قالوا: هذا الذي نقرؤه مخلوق، أو هذا ليس هو كلام الله فقصدوا معنى صحيحا، وهو كون صفات العباد وأصواتهم وأفعالهم مخلوقة.

لكن غلطوا حيث أطلقوا القول، أو أفهموا الناس بأن هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون مخلوق، ولم يهتدوا إلى أنا إذا أشرنا إلى كلام متكلم قد بلغ عنه، فقلنا مثلا لما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - كقوله: («إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى») : هذا كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، أو لقول الشاعر:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

-: هذا كلام لبيد بن ربيعة، ونحو ذلك.

فإنا نشير إلى نفس الكلام معانيه ونظمه وحروفه، لا إلى ما يختص بالمبلغ من حركته وصوته، بل ولا صوت المبلغ عنه وفعله. فإن كون الحي متحركا أو مصوتا قدر مشترك بين الناطق والأعجم، وليس هذا صفة له.

والكلام الذي يتميز به الناطق عن الأعجم، إنما يتميز بالمعاني القائمة به، وباللفظ المطابق لها من الحروف المنظومة بالأصوات المقطعة.

وهذا أمر يختص به المتكلم بالكلام، لا المبلغ عنه، فليس للمبلغ إلا تأدية ذلك.

ولهذا لو قال قائل لشعر لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال: هذا شعري أو كلامي لكونه أنشده بصوته، لكذبه الناس.

ولو قال: هذا الذي أقوله مثل شعر لبيد، لكذبه الناس وقالوا: بل هو شعره نفسه، ولكن أديته بصوتك.

بخلاف ما إذا قال قائل قولا نظما أو نثرا، وقال آخر مثله، فإن الناس يقولون: هذا مثل قول فلان، كما قال تعالى: {كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم} [البقرة: 118] وقال عن القرآن: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله} [الإسراء: 88] ولهذا لو قال قارئ: أنا آتي بقرآن مثل قرآن محمد، وتلاه نفسه وقال: هذا مثله، لأنكر الناس ذلك وضحكوا منه وقالوا: هذا القرآن الذي جاء به هو، ليس هو كلام آخر مماثل له.

فإذا كان القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله الذي بلغه الرسول، لم يجز أن يقال: ليس هو بكلام الله، بل هو مثل له، أو حكاية عنه، أو عبارة.

وإذا كان معلوما إنما هو كلام الله، فقد تكلم الله به - سبحانه - لم يخلقه بائنا عنه، ولم يجز أن يقال لما هو كلامه: إنه مخلوق.

فإذا قيل عما يقرؤه المسلمون: إنه مخلوق، والمخلوق بائن عن الله، ليس هو كلامه، فقد جعل مخلوقا، ليس هو بكلام الله، فصار الأئمة يقولون: هذا كلام الله وهذا غير مخلوق، لا يشيرون بذلك إلى شيء من صفات المخلوق، بل إلى كلام الله الذي تكلم به وبلغه عنه رسوله.

والمبلغ إنما بلغه بصفات نفسه، والإشارة في مثل هذا يراد بها الكلام المبلغ، لا يراد بها ما به وقع التبليغ.

وقد يراد بهذا، الثاني، مع التقييد كما في مثل الاسم إذا قيل: عبدت الله ودعوت الله، فليس المراد أن المعبود المدعو، هو الاسم الذي هو اللفظ، بل المعبود المدعو هو المسمى باللفظ، فصار بعضهم يقول: الاسم هو غير المسمى، حتى قيل لبعضهم: أقول: دعوت الله، فقال: لا تقل هكذا، ولكن قل: دعوت المسمى بالله، وظن هذا الغالط أنك إذا قلت ذلك، فالمراد دعوت هذا اللفظ، ومثل هذا يرد عليه في اللفظ الثاني.

فما من شيء عبر عنه باسم، إلا والمراد بالاسم هو المسمى، فإن الأسماء لم تذكر إلا لبيان المسميات، لا أن الاسم نفسه هو ذات المسمى.

فمن قال: إن اللفظ والمعنى القائم بالقلب هو عين المسمى، فغلطه واضح.

ومن قال: إن المراد بالاسم في مثل قولك: دعوت الله، وعبدته، هو نفس اللفظ، فغلطه واضح، ولكن اشتبه على الطائفتين ما يراد بالاسم ونفس اللفظ.

كذلك أولئك اشتبه عليهم نفس كلام المتكلم المبلغ عنه الذي هو المقصود بلفظ المبلغ وكتابته بنفس صوت المبلغ ومداده.

والفرق بين هذا وهذا واضح عند عامة العقلاء.

وإذا كتب كاتب اسم الله في ورقة، ونطق باسم الله في خطابه، وقال قائل: أنا كافر بهذا ومؤمن بهذا، كان مفهوم كلامه أنه مؤمن أو كافر بالمسمى المراد باللفظ والخط، لا أنه يؤمن ويكفر بصوت أو مداد.

فكذلك من قال لما يسمعه من القراء ولما يكتب في المصاحف: إن هذا كلام الله.

أو قال لما يسمع من جميع المبلغين لكلام غيرهم، ولما يوجد في الكتب: هذا كلام زيد، فليس مرادهم ذلك الصوت والمداد، إنما هو المعنى واللفظ الذي بلغه زيد بصوته وكتب في القرطاس بالمداد.

فإذا قيل عن ذلك: إنه مخلوق، فقد قيل: إنه ليس كلام الله، ولم يتكلم به.

ومن قصد نفس الصوت أو المداد وقال: إنه مخلوق، فقد أصاب، كما أن من قصد نفس الصوت أو الخط وقال: ليس هذا هو كلام الله، بل هو مخلوق، فقد أصاب، لكن ينبغي أن يبين مراده بلفظ لا لبس فيه.

فلهذا كان الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره، ينكرون على من أطلق القول بأن اللفظ بالقرآن مخلوق، أو غير مخلوق ويقولون: من قال: إنه مخلوق فهو جهمي، ومن قال: إنه غير مخلوق، فهو مبتدع، ومن قال: إنه مخلوق هنا، فقد يقولون: ليس هو كلام الله، وهذا خلاف المتواتر عن الرسول، وخلاف ما يعلم بمثل ذلك بصريح المعقول.

فإن الناس يعلمون - بعقولهم - أن من بلغ كلام غيره فالكلام كلام المبلغ عنه الذي قاله مبتديا آمرا بأمره مخبرا بخبره، لا كلام من قاله مبلغا عنه مؤديا.

ولهذا «كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول في المواسم: (ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؟ فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي) » رواه أبو داود وغيره، عن جابر.

ولما أنزل الله تعالى: {الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون} [الروم: 1]

قال بعض الكفار لأبي بكر الصديق: هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ قال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي، ولكنه كلام الله.

فلهذا اشتد به إنكار أحمد بن حنبل وغيره من أئمة الإسلام، وبالغ قوم في الإنكار عليهم وقالوا: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، وأطلقوا عبارات تتضمن وتشعر أن يكون شيء من صفات العباد غير مخلوقة، فأنكر ذلك أحمد وغيره، كما أنكر ذلك ابن المبارك، وإسحاق بن راهويه، والبخاري، وغير هؤلاء من أئمة السنة، وبينوا أن الورق والمداد وأصوات العباد وأفعالهم مخلوقة، وأن كلام الله الذي يحفظه العباد ويقرءونه ويكتبونه غير مخلوق.

فكلام أئمة السنة والجماعة كثير في هذا الباب، متفق غير مختلف، وكله صواب.

ولكن قد يبين بعضهم في بعض الأوقات ما لا يبينه غيره لحاجته في ذلك.

فمن ابتلي بمن يقول: ليس هذا كلام الله كالإمام أحمد، كان كلامه في ذم من يقول: هذا مخلوق، أكثر من ذمه لمن يقول: لفظي مخلوق.

ومن ابتلي بمن يجعل بعض صفات العباد غير مخلوق، كالبخاري صاحب الصحيح، كان كلامه في ذم من يجعل ذلك غير مخلوق، أكثر، مع نص أحمد والبخاري وغيرهما، على خطأ الطائفتين.

[فصل: متابعة لكلام ابن البطريق والرد عليه]

قال سعيد بن البطريق: وليس حلول كلمة الله الخالقة والتحامها بجوهر الناسوت - عن انتقال ولا تغير ولا احتيال من واحد من الجوهرين عن كثافة، فلا الإلهي احتال أن يكون إلها خالقا، ولا الناسي احتال عن أن يكون ناسيا مخلوقا.

والاحتيال والتغير، إنما يلزم الخلطة إذا كانت من خلقين ثقيلين غليظين، مثل الماء والخمر، أو الماء والعسل، أو السمن والعسل، والذهب والورق والنحاس والرصاص، وما أشبه ذلك ; لأن كله ثقيل غليظ، وكل ثقل تخالطه ثقلة - لا محالة - يلزمه التغير حتى يصير إلى ما كانت عليه الأثقال، فلا الخمر خمرا، ولا الماء ماء بعد اختلاطهما، ولكنهما احتالا جميعا عن جوهرهما، فصار إلى أمر متغير ليس هو أحدهما بعينه، ولا أحدهما خالص من الفساد والاحتيال عن حاله.

فأما إذا كانت الخلطة من خلق لطيف وخلق غليظ، لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال، مثل خلطة النفس والجسد إنسانا واحدا،

أحدهما يلتحم بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت ; أي استحالت عن جوهرها أن تكون نفسا تعرفها بفعالها، ولا الجسد تغير ولا احتال عن حاله وأفعاله، ومثل ما كان تخالط النار والحديد فيلتحمان جميعا فيكونان جمرة واحدة من غير أن

تكون النار قد تغيرت إلى أن تكون حديدة ثقيلة تشج وتقطع، ولا الحديدة تغيرت واحتالت إلى أن تكون نارا تحرق، فكذلك تفعل كل خلطة مؤلفة من شيئين مختلفين أحدهما روحاني لطيف، والآخر ثقلي غليظ، مثل النفس والجسد والنار والحديد، ومثل الشمس المخالطة للماء والطين وكل رطوبة وحمأة، فهي لا تتغير ولا تحتال عن نورها ونقائها وضوئها، مع مخالطتها كل سواد وسخ، ونتن ونجس.

قال: والخلطة تكون على ثلاثة أوجه:

أحدها: خلطة باختلاط من الطبيعتين الثقيلتين واحتيالهما وفسادهما، مثل خلطة الخمر والماء، والخل والعسل، والذهب والورق والرصاص والنحاس، فإن في ذلك كله وما أشبهه، احتيالا وفسادا ; لأن مزاج الخمر والماء، ليس بخمر ولا ماء ; لاحتيال كل واحد منهما عن طبعه واختلاطهما بفسادهما وتغيرهما عن حالهما.

وكذلك خلطة الخل والعسل، قد صارت لا خلا ولا عسلا ; لاحتيال كل واحد منهما، وخلطة الذهب والورق على مثل ذلك صارت على غير صحة لا من الذهب ولا من الورق، وخلطة الورق والنحاس على غير صحة، لا من الورق ولا من النحاس، فهذا وجه من الوجوه الثلاثة.

والوجه الثاني: خلطة افتراق من الطبيعتين الثقيلتين، وقد تعرف من تلك الخلطة كل واحدة من الطبيعتين ثابتة في الأخرى بقوامها ووجهها، مثل الزيت والماء في قنديل واحد، ومثل الكتان والقز في ثوب واحد منسوج بكتان مضلع بقز، ومثل صنم نحاس رأسه من ذهب، وما أشبه ذلك مما لا ينبغي أن يسمى خلطة مع افتراق الطبيعتين والقوامين، مثل ما لا ينبغي أن يكون بين الماء والقلة التي هو فيها خلطة ; لأن طبيعة القلة فخار، قوامها قلة، وليس بينهما وبين الماء خلطة، بل أشد الفرقة.

وكذلك الماء والزيت، لولا أن وعاء القنديل الذي هما فيه ضمهما ما اجتمعا.

وكذلك الكتان والقز، ليس بينهما خلطة، وإن كانا في ثوب واحد، ولا بين الذهب والنحاس ولم يسبكا خلطة، وإن جمعها صنم واحد.

فهاتان الخلطتان لا تكونا أبدا إلا في أثقال جسمانيات غليظة.

فإن التحم بعضهما ببعض مثلما يذاب الذهب والنحاس ويفرغان جميعا، وقعت في وجه خلطة الاحتيال والفساد ; لأن تلك النقرة ليست بذهب صحيح، ولا بنحاس صحيح.

فإن لم تلحم وألزم بعضها بعضا، مثل طوق يكون من نحاس وذهب، وقعت من وجه خلطة الافتراق التي لا يحق لها أن تسمى خلطة.

وفي هذين الوجهين وقع " نسطورس " وأشياعه فلزموا خلطة الاحتيال والفساد، فزعموا أن الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسية اختلطا في المسيح الواحد، فهو ذو قوام واحد بطبيعة واحدة مختلطة من طبيعتين مختلفتين إلهية وناسية، فأقروا أنهما قد احتالا، والاحتيال فساد.

وألزموا على هذا القول الكافر طبيعة الله المصائب والموت، وصيروا المسيح لا إلها صحيحا ولا إنسانا، مثل الذهب والنحاس.

فنسطورس وأشياعه لزموا خلطة الفرقة والانقطاع، فزعموا أن المسيح الواحد ذو طبيعتين مختلفتين، الإلهية وناسية، وذو قوامين معروفين، إلهي وناسي، فصيروا الفرقة خلطة، كالطوق الملون نصفين أحدهما ذهب والآخر نحاس، والثوب المبطن ظاهره خز وباطنه قطن، ليس بينهما خلطة في طبيعة ولا قوام.

وليس لهم على هذا أن يؤمنوا بمسيح واحد ; لأن الطوق الملون طوقان، والثوب المبطن ثوبان.

فالمسيح - مثل ذلك - مسيحان، واحد إلهي بطبيعته وقوامه، مثل قضيب الذهب في الطوق الملون، ومثل ظهارة الخز في الثوب المبطن.

والآخر ناسي، مثل قضيب النحاس في الطوق، وبطانة القطن في الثوب.

والعجب كل العجب، كيف لم يفصل أهل الخلاف والشقاق بين الصنفين كليهما؟ ولم يفهموا أن هاتين الخلقتين أنهما خلقتان ذواتا أثقال جسمانية غليظة، ليس فيهما شيء من الخلق الروحاني اللطيف الخفيف، ولذلك لا تقدر الأثقال الغليظة على الخروج من هذين الوجهين من وجوه الخلطة ; لأنهما إن اختلطا خلطة ملتحمة ممتزجة، صارت إلى احتيال وفساد، وإن قامت على حالها، لا تلتحم ولا يمتزج بعضها ببعض، فهي على وجه خلطة الافتراق، ومنقطعة بعضها من بعض، وإن جمعها صنم واحد أو ثوب واحد، فليس يوجد لشيء من الأثقال الجسمانية وجه خلطة سوى هذين الوجهين أبدا، إما فساد وإما انقطاع، إلا أن تكون الخلطة في اثنين أحدهما ثقيل جسماني، والآخر لطيف روحاني، فإن ذلك هو.

الوجه الثالث من الخلطة: وهي خلطة الحلول بلا اختلاط ولا احتيال، ولا فساد ولا فرقة ولا انقطاع، لكنها نفاذ الطبيعة الروحانية في الطبيعة الثقيلة السفلية، حتى تنتشر في جميعها وتحل بكلها، فلا يبقى موضع من الطبيعة الثقيلة السفلية خلوا من الطبيعة الروحانية، ولا احتيال من الثقيلة الجسمانية عن طبيعتها الغليظة الثقيلة، ولا تغيير ولا فساد لإحداهما، مثل خلطة النفس والجسد، ومثل خلطة النار والحديد في قوام جمرة واحدة، فهي جمرة واحدة بالقوام من طبيعة نار ملتحمة مخالطة لطبيعة الحديدة بلا فرقة من انقطاع، ولا تخليط احتيال وفساد، وقد انتشرت النار في جميع الحديدة، ولبستها، وأنالت النار الحديدة من قوامها وقوتها حتى أنارت الحديدة وأحرقت، ولم تنل النار من ضعف الحديدة شيئا من السواد ولا البرودة.

فعلى هذا الوجه من الخلطة دبرت كلمة الله الخالقة خلطتها للطبيعة البشرية.

فهو مسيح واحد ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الأدهار كلها، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود ليس بمخلوق من سوس أبيه وجوهره وطبيعته، وهو إياه من مريم العذراء المولود منها في آخر الزمان بقوام واحد، قوام ابن الله الوحيد الجامع للطبيعتين كلتيهما، الإلهية التي لم تزل في البدء قبل كل بدء، والناسية التي كونت في آخر الزمان المقوم بالقوام الأزلي.

فهو مسيح واحد بقوام واحد أزلي، ذو طبيعتين إلهية لم تزل، وناسية خلقها له والتحم بها من مريم العذراء، فقوامه ذلك قوام الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسية، جامعا لهما بلا اختلاط ولا فساد، ولا فرقة انقطاع، لم يزل قوام الطبيعة الإلهية، ثم هو قوام الطبيعة الناسية، قد خلقها وكونها وقومها بقوامه الذي لم يزل يقيم إلا به، ولم يعرف إلا له.

والجواب عن هذا الكلام - بعد أن يقال: إنه تناقض، فجعل هذا تارة اختلاطا، وتارة يقول: ليس هو اختلاطا - أن يقال: إنه - أولا - قد يجعل هذا الحلول والالتحام اختلاطا، ويقول: إنه لا يكون فيه استحالة ولا تغير، ويقول: الاستحالة والتغيير إنما يلزم الخلطة، إذا كانت من خلقين غليظين، كالماء والخمر، فأما إذا كانت من لطيف وكثيف، لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال - أي استحالة - ويقول: والخلطة تكون على ثلاثة أوجه: ثم يقول: أحدهما كالخمر والماء، والثاني كالزيت والماء، والكتان والقز، ثم يقول: وما أشبه ذلك مما ينبغي أن يسمى خلطة مع افتراق الطبيعتين، فيجعله من أقسام الخلطة، ثم يقول: ولا ينبغي أن يسمى خلطة.

وليس المقصود المنازعات اللفظية، بل يقول: دعواه أن أحد نوعي الاختلاط يكون عن تغير واستحالة، بخلاف النوع الآخر الذي هو اختلاط لطيف وغليظ - دعوى ممنوعة، ولم يقم عليها دليلا، بل يقول: هي باطلة، بل لا يكون الاختلاط بين شيئين إلا مع تغير واستحالة.

وما ذكره من الأمثال والشواهد، فهي حجة عليه ; لقوله: (فأما إذا كانت الخلطة من خلق لطيف وخلق غليظ، لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال، مثل خلطة النفس والجسد إنسانا واحدا، أحدهما ملتحم بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت عن جوهرها، أن تكون نفسا تعرفها بفعالها، ولا الجسد تغير واستحال عن حاله وفعاله.

فيقال: هذا قول باطل ظاهر البطلان لكل من تصوره، فإن الجسد إذا خلا عن النفس، مثل ما يكون قبل نفخ الروح فيه، وما يكون بعد مفارقة الروح له بالموت، بل آدم - عليه السلام - أبو البشر، خلق من تراب وماء، وصار صلصالا كالفخار، ثم نفخت فيه الروح، فصار جسدا هو لحم وعظم وعصب ودم.

فهل يقول عاقل: إن جسد آدم قبل النفس وبعدها على صفة واحدة لم يتغير ولم تستحل، وذريته من بعده يخلق أحدهم من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، فيكون جسدا ميتا، ثم ينفخ فيه الروح فيصير الجسد حيا بعد أن كان ميتا؟

وأي تغيير أعظم من انتقال الجسد من الموت إلى الحياة؟

ومعلوم بالحس والعقل الفرق بين الحي والميت، كما قال تعالى: {وما يستوي الأحياء ولا الأموات} [فاطر: 22] والجسد إذا لم ينفخ فيه الروح، فهو موات ليس له حس ولا حركة إرادية، ولا يسمع ولا يبصر، ولا ينطق ولا يعقل، ولا يبطش ولا يأكل

ولا يشرب، ولا يمني ولا ينكح، ولا يتفكر ولا يحب ولا يبغض، ولا يشتهي ولا يغضب.

فإذا اتصلت به النفس، تغيرت أحواله واستحالت صفاته، وصار حساسا متحركا بالإرادة، فكيف يقال مثل خلطة النفس والجسد إنسانا واحدا، أحدهما يلتحم بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واستحالت عن جوهرها، أن تكون نفسا يعرفها بفعالها، ولا الجسد تغير ولا استحال عن حاله وأفعاله؟

فهل يقول عاقل يتصور ما يقول: إن الجسد كان حاله وفعاله مع مفارقة النفس له، كحاله وفعاله مع مخالطتها له؟

وهل يقول عاقل: إن الجسد بعد موته ومفارقة النفس له، حاله وفعاله كحاله وفعاله إذا كانت النفس مختلطة به، وهو إذا مات كالجماد لا يسمع ولا يبصر، ولا ينطق ولا يبطش ولا يمشي، قد جمد دمه واسود، ولم يبق سائلا، وتغير سحنته ولونه، وتغير الجسد بالحياة بعد الموت، وبالموت بعد الحياة - من أعظم التغيرات والاستحالات؟

وكذلك النفس، فإن النفس - عند اتصالها بالبدن - تلتذ بلذته، وتتألم بألمه.

فإذا أكل البدن وشرب، ونكح واشتم، التذت النفس، وإذا ضرب البدن وصفع، وأهين وحط الشوك على رأسه، وبصق في وجهه، تألمت النفس بذلك.

فإذا شبهوا اتحاد الرب بالمسيح باتحاد النفس بالبدن، وهم يقولون: إن المسيح وكل أحد إذا ضرب وصفع وصلب فتألم بدنه، تألمت نفسه أيضا.

فإن كان الألم مع نفس المسيح وجسده، كالنفس مع الجسد، وجب أن يكون الرب يتألم بتألم الناسوت، ويجوع بجوعه ويشبع بشبعه، فإن ألم الجوع ولذة الشبع يحصل للنفس إذا جاع البدن وشبع.

وأيضا فالمسيح عندهم إله تام، وإنسان تام، والإله إله قبل الاتحاد، والإنسان إنسان قبل الاتحاد.

فهم يقولون: إنهما بعد الاتحاد إله تام كما كان، وإنسان تام كما كان.

فنظير هذا، أن يكون الإنسان المركب من بدن ونفس، نفسا تامة وبدنا تاما، وأن تكون الحديدة المحماة، حديدا تاما ونارا تامة، وهو باطل، بل الإنسان مركب من نفس وبدن، والإنسان اسم لمجموع، ليس الإنسان روحا والإنسان بدنا.

فلو كان الاتحاد حقا، لوجب أن يقال: إن المسيح نصفه لاهوت، ونصفه ناسوت، وهو مركب من هذا وهذا.

ولا يقال: إن المسيح نفسه إنسان تام، والمسيح نفسه إله تام، فإن تصور هذا القول على الوجه التام يوجب العلم الضروري، حيث جعلوا

المسيح الذي هو المبتدأ، الموضوع المخبر عنه المحكوم عليه، هو إنسان تام وإله تام، يوجب أن يكون نفس الإنسان هو نفس الإله.

ولو قيل هذا في مخلوقين، فقيل: نفس الملك نفس البشر، لكان ظاهر البطلان، فكيف إذا قيل في رب العالمين؟ لا سيما وكثير من النصارى لا يقولون: إن جسد المسيح مخلوق، بل يصفون الجميع بالإلهية، وهذا مقتضى قول أئمتهم القائلين: إن المسيح إله تام، لكنهم تناقضوا فقالوا - مع ذلك -: وهو إنسان تام، فكأنهم قالوا: هو الخالق ليس هو الخالق، هو مخلوق ليس هو مخلوق، فجمعوا بين النقيضين، وهذا حقيقة قول النصارى، لا سيما واتحاد اللاهوت بناسوت المسيح - عندهم - اتحاد لازم، لم يفارقه البتة، فيكون ذلك أبلغ من الاتحاد العارض، ومن أن الرب كان متحدا بجسد لا روح فيه، ثم بالجسد مع نفخ الروح فيه، ثم بالجسد بعد مفارقة الروح له، وحيث دفن في القبر ووضع التراب عليه.

ومعلوم أن الإنسان إذا كانت فيه النفس وجعلت في التراب معه، تألمت النفس ألما شديدا، ثم تفارق البدن.

ومن العجائب أنهم يقولون: إن المسيح صلب ومات، ففارقته النفس الناطقة، وصار الجسد لا روح فيه، واللاهوت - مع هذا - متحد لم يفارقه وهو في القبر، واللاهوت متحد به، فيجعلون اتحاده به أبلغ من اتحاد النفس بالبدن.

والنفس - عند اتصالها بالبدن - تتغير وتتبدل صفاتها وأحوالها، ويصير لها من الصفات والأفعال ما لم يكن بدون البدن، وعند مفارقة البدن، تتغير صفاتها وأفعالها.

فإن كان تمثيلهم مطابقا، لزم أن يكون الرب قد تغيرت أوصافه وأفعاله، لما اختلط بالمسيح، كما تتغير صفات النفس وأفعالها، ويكون الرب قبل هذا الاختلاط كالنفس المجردة التي لم تقترن ببدن.

وأيضا فالنفس والبدن شريكان في الأعمال الصالحة والفاسدة، لهما الثواب وعليهما العقاب، والثواب والعقاب على النفس أكمل منه على البدن، فإن كان الرب كذلك، كان جميع ما يفعله المسيح باختياره فعل الرب، كما أن جميع ما يفعله البدن باختيار فعل النفس عن التي تخاطب بالأمر والنهي، فيقال لها: كلي واشربي وانكحي، ولا تأكلي ولا تشربي ولا تنكحي.

فإن كان الرب مع الناسوت كذلك، كان الرب هو المأمور والمنهي بما يأمر به المسيح، وكان الرب هو المصلي الصائم العابد الداعي، وبطل قولهم: يخلق ويرزق بلاهوته، ويأكل ويعبد بناسوته.

فإن النفس والبدن لما اتحدا، كانت جميع الأفعال الاختيارية للنفس والبدن، فإذا صلى الإنسان وصام ودعا، فالنفس والبدن يوصفان بذلك جميعا، بل النفس أخص بذلك، وكذلك إذا أمر أو نهى، فكلاهما موصوف بذلك، وكذلك إذا ضرب، فألم الضرب يصل إليهما كما تصل إليهما لذة الأكل والجماع.

بل أبلغ من ذلك، أن الجني إذا دخل في الإنسي وصرعه وتكلم على لسانه، فإن الإنسي يتغير، حتى يبقى الصوت والكلام الذي يسمع منه، ليس هو صوته وكلامه المعروف.

وإذا ضرب بدن الإنسي، فإن الجني يتألم بالضرب ويصيح ويصرخ، ويخرج منه ألم الضرب، كما قد جرب الناس من ذلك ما لا يحصى، ونحن قد فعلنا من ذلك ما يطول وصفه.

فإذا كان الجني تتغير صفاته وأحواله لحلوله في الإنسي، فكيف بنفس الإنسان؟

وعندهم اتحاد اللاهوت بالناسوت أتم وأكمل من اتحاد النفس بالجسد.

فهل يقول عاقل - مع هذا الاتحاد -: إنهما جوهران، لكل منهما أفعال اختيارية، لا يشركه الآخر فيها.

ويقولون - مع قولهم بالاتحاد -: إن الذي كان يصلي ويصوم، ويدعو ويتضرع، ويتكلم ويتألم، ويضرب ويصلب، هو نظير البدن، والذي كان يأمر وينهى، ويخلق ويرزق، هو نظير النفس.

هذا مع قولهم: إن مريم ولدت اللاهوت مع الناسوت، وأنه اتحد به مع كونه حيا وقبل حياته وعند مماته، والجسد في ذلك كله كسائر أجساد الآدميين، لم يظهر فيه شيء من خصائص الرب أصلا، بل ولا بعد إتيانه بالآيات، فإن تلك كان يجري مثلها وأعظم منها على يد الأنبياء، فهذا أقرب أمثالهم وقد ظهر فساده.

وأبعد منه وأشد فسادا، تمثيلهم ذلك بالنار والحديد.

ومعلوم عند كل من له خبرة، أن النار إذا اتصلت بشيء من الأجسام الحيوانية والنباتية والمعدنية، مثل جسد الإنسان وغيره، ومثل الخشب والقصب والقطن وغيره، ومثل الحديد والذهب والفضة، فإنها تغير ذلك الجسد وتبدل صفاته عما كانت، فتحرقه، أو تذيبه، أو تلينه، والنار المختلطة به لا تبقى نارا محضة، بل تستحيل وتتغير أيضا.

فقول هؤلاء: ومثل ما تختلط النار والحديد، فيلتحمان جميعا، فيكونان جمرة واحدة من غير أن تكون النار تغيرت، إلى أن تكون حديدة ثقيلة تشج وتقطع، ولا الحديدة تغيرت واستحالت إلى أن تكون نارا تحرق) ، كلام باطل ملبس، فإن الجمرة ليست حديدة محضة، ولا نارا محضة، بل نوعا ثالثا.

وقوله: (لم تتغير النار إلى أن تصير حديدة، ولا الحديدة إلى أن تصير نارا) - تلبيس.

فإن الاختلاط لا يتضمن الاستحالة والتغير، كاختلاط الكثيفين الذي سلمه مثل الماء والخمر، والماء والعسل، والسمن والعسل، والذهب والورق، والنحاس والرصاص، قد قال فيه: إنه لا الخمر خمر، ولا الماء ماء بعد اختلاطهما، ولكنهما استحالا جميعا عن جوهرهما، فصارا إلى أمر متغير ليس هو أحدهما بعينه، ولا أحدهما خالصا من الفساد والاستحالة عن حاله.

فيقال له: فهذا الذي سلمت فيه الفساد والاستحالة، لم يصر الخمر فيه ماء، ولا الماء فيه خمرا، فكذلك مورد النزاع إذا لم تصر النار حديدة، ولا الحديدة نارا، لم ينفعك هذا النفي، ولم يكن هذا مانعا من الاستحالة إلى نوع ثالث، ومن الاستحالة والفساد كما ذكرته في اختلاط الكثيفين، فإنه معلوم أن ما خالطته النار واتحدت به، غيرته وأحالته وأفسدت صورته الأولى، والنار الملتحمة به ليست نارا محضة.

ومعلوم أيضا أن الجمرة التي ضربتها مثلا للمسيح فقلت: إن الله وعيسى اتحدا كاتحاد النار والحديد، حتى صارا جمرة، فمعلوم أن الجمرة إذا ضربت بالمطرقة، أو وضعت في الماء، أو مدت، فإن هذه الأفعال تقع بالمجموع، لا تقع على حديدة بلا نار، ولا نار بلا حديدة.

فيلزم من ذلك أن يكون ما حل بالمسيح من ضرب وبصاق في الوجه، ووضع الشوك على الرأس، ومن أكل وشرب وعبادة، ومن مشي وركوب، ومن حمل وولادة، وغير ذلك مما حل بالمسيح، ومن موت، إما متقدم وإما متأخر إذا نزل إلى الأرض، ومن صلب - على قولهم - أن يكون جميع ذلك حل بالمسيح الذي هو عندهم إله تام، وإنسان تام، من غير فرق بين لاهوته ولا ناسوته، كما يكون ما يحل بجمرة النار، من حمل ووضع وطرق بالمطرقة ومد، وتصوير بشكل مخصوص وإلقاء في الماء، وغير ذلك حال بمجموع الجمرة، لا يقول عاقل: إن ذلك يحل بالحديد دون النار، بل هو حال بالجمرة المستحيلة من حديدة ونار، ومن خشبة ونار، وليست حديدة محضة، ولا نارا محضة، ولا مجموع حديد محض، ونار محضة، بل جوهر ثالث مستحيل من حديد ونار، كسائر ما يستحيل بالاتحاد والاختلاط إلى حقيقة ثالثة.

فلا فرق بين الشيئين إذا اتحدا واختلطا وصارا شيئا واحدا من أن يكونا كثيفين، أو يكون أحدهما كثيفا والآخر لطيفا، لا بد في ذلك كله أن يحصل لكل منهما من التغير والاستحالة ما يوجب الاتحاد، وأن يكون المتحد المختلط المركب منهما شيئا ثالثا، ليس هو أحدهما فقط، ولا هو مجموع كل منهما على حاله.

فقولهم: (إنه مع الاتحاد إنسان تام وإله تام) ، كلام فاسد معلوم الفساد بصريح العقل.

وكلما ضربوا له مثلا، كان المثل حجة على فساد قولهم، بل مع الاتحاد ليس بإنسان تام ولا إله تام، لكنه شيء ثالث مركب من إنسان استحال وتغير، وإله استحال وتغير.

وإذا كان كل من هذين باطلا - بل إنسانية المسيح باقية تامة، كما كانت لم تستحل ولم تتغير، ورب العالمين باق بصفات كماله، لم يستحل ولم يتصف بشيء من خصائص المخلوقات، ولا استحال عما كان عليه قبل ذلك - كان قولهم ظاهر الفساد.

فهذا مثلهم الثاني الذي ضربوه لله، حيث شبهوا المسيح أو الله مع الإنسان بالنفس مع الجسد، وشبهوه بالنار مع الحديد، وهذا المثل أشد فسادا وأظهر.

وأما المثل الثالث - وهو تمثيل ذلك بالشمس مع الماء والطين -: فهو أشد فسادا، فإنهم قالوا كما تقدم: (ومثل الشمس المخالطة للماء والطين وكل رطوبة وحمأة، فهي لا تتغير ولا تستحيل عن نورها وبقائها وضوئها، مع مخالطتها كل سواد ووسخ ونتن ونجس) .

فيقال: أما جرم الشمس الذي في السماء فلم يخالط شيئا من الماء والطين، ولا اتحد به ولا حل فيه بوجه من الوجوه، بل بينهما من البعد ما لا يقدر قدره إلا الله، والله - تعالى - أجل وأعظم وأبعد من مخالطة الإنسان من الشمس للماء والطين.

فإذا كانت الشمس نفسها لم تتحد، ولم تختلط ولا حلت في الماء والطين، بل ولا بغيرها من المخلوقات، فرب العالمين أولى أن ينزه عن الاتحاد والاختلاط والحلول بشيء من المخلوقات.

ولكن شعاع الشمس حل بالماء والطين والهواء وغير ذلك مما يقوم به الشعاع، كما يحل شعاع النار في الأرض والحيطان، وإن كان نفس جرم النار القائم بنفسه الذي في ذبالة المصباح هو جوهر قائم بنفسه، لم تحل ذاته في شيء من تلك المواضع.

ولفظ الضياء والنور ونحو ذلك، يراد به الشيء بنفسه المستنير، كالشمس والقمر وكالنار، قال تعالى: {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا} [يونس: 5] وقال: {وجعلنا سراجا وهاجا} [النبأ: 13] وسمى سبحانه الشمس سراجا وضياء ; لأن فيها مع الإنارة والإشراق تسخينا وإحراقا، فهي بالنار أشبه بخلاف القمر، فإنه ليس فيه مع الإنارة تسخينا، فلهذا قال: {جعل الشمس ضياء والقمر نورا} [يونس: 5]

والمقصود هنا، أن لفظ الضياء والنور ونحو ذلك يراد به الشيء المستنير المضيء القائم بنفسه، كالشمس والقمر والنار، ويراد به الشعاع الذي يحصل بسبب ذلك في الهواء والأرض، وهذا الثاني عرض قائم بغيره ليس هو الأول، ولا صفة قائمة بالأول، ولكنه حادث بسببه.

فالشعاع الذي هو الضوء والنور الحاصل على الماء والطين والهواء وغير ذلك، هو عرض قائم بغيره، وليس هو متحدا به البتة.

فهذا المثل لو ضربته النسطورية الذين يقولون: (إن الناسوت واللاهوت جوهران بطبيعتين، حل أحدهما بالآخر) ، لكان تمثيلا باطلا، فإن الشمس لم تحل بغيرها، ولا صارت مشيئتها ومشيئة غيره واحدة كما تقوله النسطورية، بل شعاعها حل بغيره، والشعاع حادث وكائن عنها.

فإذا قيل: إن ما يكون عن الرب من نوره وروح قدسه وهداه وكلامه ومعرفته، يحل بقلوب أنبيائه والمؤمنين من عباده، ومثل ذلك بحلول الشعاع بالأرض - كان أقرب إلى العقول، ولهذا قال تعالى: {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة} [النور: 35] قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلوب المؤمنين بهذا.

وكذلك إذا قيل: نوره أو هداه أو كلامه، وسمى ذلك روحا، يحل في قلوب المؤمنين، فهو بهذا الاعتبار، والله قد سمى ذلك روحا فقال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} [الشورى: 52] وقال تعالى: {يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده} [غافر: 15]

وقال تعالى: {أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22]

وما جاء في الكتب المتقدمة من أن روح الله أو روح القدس يحل في الأنبياء والمؤمنين، فهو حق بهذا الاعتبار.

وإذا قيل: كلام الله يحل في قلوب القارئين، فهو حق بهذا الاعتبار.

وأما نفس ما يقوم بالرب، فلا يتصور أن يقوم هو نفسه بغير الرب، بل ما يقوم بالمخلوق من الصفات والأعراض، يمتنع أن يقوم هو نفسه بغيره.

فيمتنع في صفات الشمس القائمة بها من شكلها واستدارتها، وما قام بها من نور أو غيره أن يقوم بغيرها، وكذلك ما قام بجرم النار من حرارة وضوء، فلا يقوم بغيرها، بل إذا جاورت النار هواء أو غير هواء، حصل في ذلك المحل سخونة أخرى غير السخونة القائمة بنفس النار تسخن الهواء الذي يجاورها، كما تسخن القدر الذي يوقد تحتها النار فيسخن، ثم يسخن الماء الذي فيها مع أن سخونة النار باقية فيها، وسخونة القدر باقية فيها، وسخونة الماء سخونة أخرى حصلت في الماء ليست واحدة من تينك، وإن كانت حادثة عنها، وجنس السخونة يجمع ذلك كله.

ولهذا ذكر الإمام أحمد عن السلف أنهم كرهوا أن يتكلم أحد في حلول كلام الله في العباد بنفي أو إثبات، فإن لفظ " الحلول " لفظ مجمل يراد به معنى باطل، ويراد به معنى حق.

وقد جاء في كلام الأنبياء لفظ " الحلول " بالمعنى الصحيح، فتأوله من في قلبه زيغ، كالنصارى وأشباههم على المعنى الباطل، وقابلهم آخرون أنكروا هذا الاسم بجميع معانيه، وكلا الأمرين باطل.

وقد قدمنا أن الناس يقولون: أنت في قلبي، أو ساكن في قلبي، وأنت حال في قلبي، ونحو ذلك، وهم لا يريدون أن ذاته حلت فيه، ولكن يريدون أن تصوره وتمثله وحبه وذكره حل في قلبه، كما تقدم نظائر ذلك.

والمقصود هنا، أن النسطورية لو شبهوا ما يدعونه من اتحاد وحلول بالشعاع مع الطين، كان تمثيلهم باطلا، فكيف بالملكية الذين هم أعظم باطلا وضلالا؟ فقولهم: (ومثل الشمس المخالطة للطين والماء وكل رطوبة وحمأة) ، تمثيل باطل من وجوه:

منها: أن الشمس نفسها لم تتحد ولم تحل بغيرها، بل ذلك شعاعها.

ومنها: أن الشعاع نفسه لم يتحد بالماء والطين، ولكن حل به وقام به.

ومنها: أن ذلك عام في المخلوقات من وجه، وبعباده المؤمنين من وجه لا يختص المسيح به، فالمخلوقات كلها مشتركة في أن الله خلقها بمشيئته وقدرته، وأنه لا قوام لها إلا به، فلا حول ولا قوة إلا به، وهي كلها مفتقرة إليه محتاجة إليه مع غناه عنها، ولهذا كانت من آيات ربوبيته وشواهد إلهيته.

ومن سماها مظاهر ومجالي، بمعنى أن ذاته نفسها تظهر فيها، فهو مفتر على الله، ومن أراد بذلك أنه أظهر بها مشيئته وقدرته وعلمه وحكمته، فأراد بالمظاهر والمجالي ما يراد بالدلائل والشواهد، فقد أصاب.

وكذلك إذا قال: هي آثاره ومقتضى أسمائه وصفاته.

وأما المؤمنون، فإن الإيمان بالله ومعرفته ومحبته ونوره وهداه يحل في قلوبهم، وهو المثل الأعلى والمثال العلمي، فلا اختصاص للمسيح بهذا، وكذلك كلامه في قلوب عباده المؤمنين، لا اختصاص للمسيح بذلك.

ومنها: أن الشعاع لم يخالط الماء والطين، ولا يخالط شيئا من الأعيان ولا ينفذ فيه ولا يتحد به، بل يكون على سطحه الظاهر فقط، لكن الشعاع يسخن ما يحل فيه، فإذا سخن ذلك، سخن جوفه بالمجاورة، كما يسخن الماء بسخونة القدر من غير أن تكون النار خالطت القدر ولا الماء.

فأين هذا من قولهم: (إن رب العالمين اتحد بابن امرأة، فصار إلها تاما وإنسانا تاما) ؟

وهل يقول عاقل: إن الماء والطين صار شعاعا تاما، وطينا تاما؟ بل الطين طين، لكن أثر الشعاع فيه بتجفيفه، لم يتحد به الشعاع، ولا نفذ فيه، ولا حل في باطنه.

فهذا المثل أبعد عن مذهبهم من تمثيلهم بالنار مع الحديد، ومن تمثيلهم بالنفس مع الجسد، فإن هناك اتصالا بباطن الحديد والبدن، وهنا لم يتصل الشعاع إلا بظاهر الطين وغيره.

وأيضا فالنفس جوهر قائم بنفسه، والشعاع عرض، وكذلك النار جوهر، فالشمس هنا لم تتحد ولم تحل بالطين، بل شعاعها، بل ولا يوصف الطين باتحاده بالشعاع، ولا باختلاط الشعاع بباطنه، ولا بحلول الشمس نفسها فيه.

وحينئذ فقول القائل: (إن الشمس لم تتغير، ولم تستحل عن نورها ونقائها وضوئها مع مخالطتها كل وسخ ونتن ونجس) ، إن أريد به نفس الشمس أو صفاتها القائمة بها، فتلك لم تتحد بغيرها ولا حلت فيه ولا قامت بغيرها.

فإذا كانت الشمس كذلك - ولله المثل الأعلى - فهو أولى أن لا يتحد بغيره ولا يحل فيه ولا يقوم به.

وإن أريد شعاعها، فشعاها ليس هو الشمس، فلا ينفعهم التمثيل به، فإنهم يقولون: إن الله نفسه اتحد بالمسيح، والمسيح - عندهم - هو رب العالمين مع أنه إنسان تام، فهو - عندهم - إله تام، إنسان تام، والطين ليس بشعاع تام، ولا طين تام، والشعاع نفسه لا يخالط شيئا، ولكن يقوم به، وقيام العرض بالمحل غير مخالطته له، فإن المخالطة تكون باختلاط كل من الأمرين بالآخر، كاختلاط الماء بالطين ونحو ذلك.

وأما ما يقوم بالسطح الظاهر فيقال: إنه مخالط بجميع الأجزاء، فلا يقال للشعاع الذي على الجبال والبحر: إنه مخالط لجميع الجبال والبحر، ولا لشعاع النار: إنه مخالط للحيطان وداخل للأرض، وقد تقدم أنهم قسموا هذا الباب ثلاثة أقسام:

أحدها: اختلاط أحد الشيئين بالآخر، كالماء والخمر.

والثاني: اتصال من غير اختلاط، كالماء والزيت، والإناء الذي بعضه فضة وبعضه ذهب، وقالوا: إن هذا لا ينبغي أن يسمى اختلاطا مع افتراق الطبيعتين والقوامين، مثل ما لا ينبغي أن يكون بين الماء والقلة التي هو فيها خلطة ; لأن طبيعة الفخار ليس بينها وبين الماء خلطة.

وهذا الفرق موجود في الشعاع والطين، بل بينهما من الفرق أشد مما بين الماء والقلة، فإن الماء جرم قائم بنفسه، وهذا عرض قائم بغيره، والجسم بالجسم أشبه من الجسم بالعرض.

والإله عندهم مخالط لجميع ناسوت المسيح، لم يخل جزء منه من اتحاد الإله به، فأين هذا من هذا؟

وإذا قيل: إن الشعاع لم يستحل عن نوره ونقائه وضوئه مع مخالطته كل سواد ووسخ ونتن ونجس، لم يكن مثلا يطابقه مع أنه لم يخالط الشعاع غيره.

ثم يقال: إن أراد بما لم يتغير نفس الشعاع القائم بالمحل، فهذا ممنوع، فإن الشعاع يتغير بتغير محله، فيرى في الأحمر أحمر، وفي الأسود أسود، وفي الأزرق أزرق، حتى إن الزجاج المختلف الألوان إذا صار مطرحا للشعاع، ظهر الشعاع متلونا بتلون الزجاج، فيرى أحمر وأزرق وأصفر.

وقد ضرب أهل الإلحاد القائلون بوحدة الوجود، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق - لله أمثالا باطلة شرا من أمثال النصارى، ولهم مثل السوء، ولله المثل الأعلى، وكان مما ضربوه لله من الأمثال أن شبهوه بالشعاع في الزجاج.

فالأعيان الثابتة في العدم - عندهم - هي الممكنات، ووجود الحق قاض عليها، فشبهوا وجوده بالشعاع، وأعيانهم بالزجاج، وهذا باطل من وجوه:

منها: أن القول بأن أعيان الممكنات ثابتة في العدم - قول باطل.

ومنها: أن قولهم: إن وجود الخالق هو عين وجود المخلوق، هو أيضا باطل.

ومنها: أن حلول الشعاع بالزجاج يقتضي حلول أحدهما بالآخر، وهم ينكرون الحلول، ويقولون: الوجود واحد.

ومنها: أن الشعاع الذي على نفس الزجاج، ليس وجوده وجود الزجاج، وعندهم وجود الرب وجود الممكنات.

ومنها: أن الشعاع الحال بهذا الزجاج، ليس هو بعينه ذلك الشعاع الحال بالزجاج الآخر، وإن كان نظيره، وهؤلاء عندهم أن الوجود واحد بالعين لا يتعدد.

ومنها: أن الشعاع عرض مفتقر إلى الزجاج، فهو مفتقر إليه افتقار العرض إلى محله، فيلزم إذا مثلوا به الرب أن يكون الرب مفتقرا إلى كل ما سواه مع غنى كل ما سواه عنه، وهذا قلب كل حقيقة، وأعظم كفر بالخالق - تعالى - فإنه - سبحانه - الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه مفتقر إليه.

وكل من قال بحلول الله في شيء من المخلوقات من النصارى وغيرهم، يلزمهم أن يكون مفتقرا إلى ما حل فيه، فإنه لا حقيقة للحلول إلا هذا.

ولهذا كان ما حل بقلوب المؤمنين من الإيمان والهدى والنور والمعرفة مفتقرا إلى قلوب المؤمنين، ولا يقوم إلا بها.

وجميع الصور الذهنية القائمة بالأذهان مفتقرة إلى الأذهان، لا تقوم إلا بها، والشعاع مفتقر إلى محله، لا يقوم إلا به، وهكذا سائر النظائر.

وهؤلاء الذين شابهوا النصارى وزادوا عليهم من الكفر بقولهم: إن وجود الخالق وجود كل مخلوق، وإنه قائم بأعيان الممكنات يقولون: إنه مفتقر إلى الأعيان في وجوده، وهي مفتقرة إليه في ثباتها، فيجعلون الخالق محتاجا إلى كل مخلوق، والمخلوق محتاجا إلى الخالق، ويصرحون بذلك، كما يصرح بعض النصارى، بأن اللاهوت محتاج إلى الناسوت، والناسوت محتاج إلى اللاهوت.

ومعلوم أن الله غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه من كل وجه، فهو الصمد المستغني عن كل شيء، وكل شيء مفتقر إليه.

فمن قال: إنه مفتقر إلى مخلوق بوجه ما، فهو كاذب مفتر كافر، فكيف بمن قال: إنه مفتقر إلى كل شيء؟

والمثل الذي ضربوه له، يقتضي أن يكون مفتقرا إلى غيره، وغيره مستغن عنه، كالمثل الذي ضربه النصارى له، لما مثلوه بشعاع الشمس مع محله، فإن محل الشعاع مستغن عن الشعاع، والشعاع مفتقر إلى محله.

فمقتضى هذا التمثيل، أن الإله محتاج إلى الإنسان، والإنسان مستغن عن الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

{تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا} [الإسراء: 44]

[فصل: بيان أن عامة دين النصارى ليس مأخوذا عن المسيح]

وهذا الذي قد ذكره هذا البترك " سعيد بن البطريق " المعظم عند النصارى، المحب لهم، المتعصب لهم في أخبارهم التي بين بها أحوالهم في دينهم، معظما لدينهم، مع ما في بعض الأخبار من زيادة فيها تحسين لما فعلوه، وكثير من الناس ينكر ذلك ويكذبه، مثل ما ذكره من ظهور الصليب، ومن مناظرة " أريوس " وغير ذلك، فإن كثيرا من الناس يخالفه فيما ذكر. ويذكر أن أمر ظهور الصليب كان بتدليس وتلبيس وحيلة ومكر. ويذكر أن " أريوس " لم يقل قط: إن المسيح خالق.

ولكن المقصود أنه إذا صدق هذا فيما ذكره، فإنه بين أن عامة الدين الذي عليه النصارى، ليس مأخوذا عن المسيح، بل هو مما ابتدعه طائفة منهم، وخالفهم في ذلك آخرون، وأنه كان بينهم من العداوة والاختلاف في إيمانهم وشرائعهم ما يصدق قوله تعالى: {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون} [المائدة: 14]

والنصارى يقرون بما ذكره هذا البترك، أن أول ملك أظهر دين النصارى هو " قسطنطين "، وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة، وهو نصف الفترة التي بين المسيح ومحمد - صلى الله عليهما وسلم -، فإنها كانت ستمائة سنة أو ستمائة وعشرين. وإذا كان النصارى مقرين بأن ما هم عليه من الإيمان صنعه طائفة منهم مع مخالفة آخرين لهم فيه ليس منقولا عن المسيح، وكذلك ما هم عليه من تحليل ما حرمه الله ورسوله، وكذلك قتال من خالف دينه وقتل من حرم الخنزير، مع أن شريعة الإنجيل تخالف هذا، وكذلك الختان، وكذلك تعظيم الصليب.

وقد ذكروا مستندهم في ذلك أن " قسطنطين " رأى صورة صليب كواكب.

ومعلوم أن هذا لا يصلح أن ينبني عليه شريعة، فإن مثل هذا يحصل للمشركين عباد الأصنام والكواكب ما هو أعظم منه، وبمثل هذا بدل دين الرسل وأشرك الناس بربهم، وعبدوا الأوثان، فإن الشيطان يخيل هذا وأعظم منه.

وكذلك الإزار الذي رآه من رآه، والصوت الذي سمعه، هل يجوز لعاقل أن يغير شرع الله الذي بعثت به رسله، بمثل هذا الصوت والخيال الذي يحصل للمشركين عباد الكواكب والأصنام ما هو أعظم منه؟ مع أن هذا الذي ذكروه عن " بطرس " رئيس الحواريين، ليس فيه تحليل كل ما حرم، بل قال: (ما طهره الله فلا تنجسه) وما نجسه الله في التوراة، فقد نجسه ولم يطهره، إلا أن ينسخه المسيح. والحواري لم يبح لهم الخنزير وسائر المحرمات إن كان قوله معصوما، كما يظنون.

والمسيح لم يحل كل ما حرمه الله في التوراة، وإنما أحل بعض ما حرم عليهم، ولهذا كان هذا من الأوصاف المؤثرة في قتال النصارى، كما قال تعالى {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: 29]

وقد ذكر من لعن بعض طوائف النصارى لبعض في مجامعهم السبعة وغير مجامعهم ما يطول وصفه، ويصدق قوله تعالى: {فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة} [المائدة: 14]

وحينئذ فقول هؤلاء: (من خالفنا لعناه) كلام لا فائدة فيه، فإن كل طائفة منهم لاعنة ملعونة.

فليس في لعنتهم لمن خالفهم إحقاق حق ولا إبطال باطل، وإنما يحق الحق بالبراهين والآيات التي جاءت بها الرسل، كما قال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذينءامنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [البقرة: 213] .

وقد تقدم ما ذكره " سعيد بن البطريق " من أخبارهم، أنه كان يأتي البترك العظيم منهم إلى كنيسة مبنية لصنم من الأصنام يعبده المشركون، فيحتال حتى يجعلهم يعبدون مكان الصنم مخلوقا أعظم منه، كملك من الملائكة أو نبي من الأنبياء، كما كان بالإسكندرية للمشركين كنيسة فيها صنم اسمه " ميكائيل " فجعلها النصارى كنيسة باسم " ميكائيل الملك " وصاروا يعبدون الملك بعد أن كانوا يعبدون الصنم ويذبحون له.

وهذا نقل لهم من الشرك بمخلوق إلى الشرك بمخلوق أعلى منه، أولئك كانوا يبنون الهياكل ويجعلون فيها الأصنام بأسماء الكواكب، كالشمس والزهرة وغير ذلك.

فنقلهم المبتدعون من النصارى إلى عبادة بعض الملائكة، أو بعض الأنبياء ولهذا قال تعالى: {ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون - ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون} [آل عمران: 79 - 80] .

وقال تعالى: {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا - أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا} [الإسراء: 56 - 57] .

[فصل: بيان أن كل ما نقله المؤلف عن الحسن بن أيوب وابن البطريق إنما هو رد على أن في المسيح طبيعتين]

وقد حصل بما ذكرناه الجواب عن قولهم: (وعلى هذا المثال نقول: في السيد المسيح طبيعتان: طبيعة لاهوتية التي هي طبيعة كلمة الله وروحه، وطبيعة ناسوتية التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به) .

وعرف أن هذا قول من أقوال النصارى، وأن لهم أقوالا أخر تناقض هذا.

وكل فريق منهم يكفر الآخر، إذ كانوا ليسوا على مقالة تلقوها عن المسيح والحواريين، بل هي مقالات ابتدعها من ابتدعها منهم، فضلوا بها وأضلوا، كما قال تعالى: {ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77]

فذكر سبحانه أنهم أضلوا من قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم -.

والنصارى أمة يلزمهم الضلال الذي أصله الجهل.

ولا يوجد قط من هو نصراني باطنا وظاهرا، إلا وهو ضال جاهل بمعبوده وبأصل دينه، لا يعرف من يعبد ولا بماذا يعبد، مع اجتهاد من يجتهد منهم في العبادة والزهد، ومكارم الأخلاق.

ثم يقال على هؤلاء: قولهم: (طبيعتان) ويقولون أيضا: (له مشيئتان) ويقولون أيضا: (إنه شخص لم يزد عدده) فإنهم يقولون: (إنهما اتحدا) كما ذكروه في كتابهم هذا، لا يقولون بشخصين ; لئلا يلزمهم القول بأربعة أقانيم.

ومنهم من يقول: (هما جوهران) ، ومنهم من يقول: (جوهر واحد) .

فإن قالوا: (هو جوهر واحد) ، صار قولهم من جنس قول اليعقوبية، لا سيما وهم يقولون: (إن مريم ولدت اللاهوت والناسوت، وإن المسيح اسم يجمع اللاهوت والناسوت، وهو إله تام، وإنسان تام) .

فإذا كان جوهرا واحدا، لزم من ذلك أن يكون اللاهوت قد استحال وتغير، وكذلك الناسوت، فإن الاثنين إذا صارا شيئا واحدا، فذلك الشيء الثالث ليس هو إنسانا محضا، ولا إلها محضا، بل اجتمعت فيه الإنسانية والإلهية، مع أنه قد كان الإنسان والإله اثنين متباينين، وهما في اصطلاحهم جوهران، فإذا صار الجوهران جوهرا واحدا لا جوهرين، فقد لزم ضرورة أن يكون هذا الثالث ليس هو إلها محضا، ولا إنسانا محضا، ولا جوهران إنسانا وإلها، فإن هذين جوهران لا جوهر واحد، بل هو شيء ثالث اختلط وامتزج واستحال من هذا وهذا، فتبدلت حقيقة اللاهوت وحقيقة الناسوت، حتى صار هذا الجوهر الثالث الذي ليس لاهوتا محضا، ولا ناسوتا محضا - كسائر ما يعرف من الاتحاد.

فإن كل اثنين اتحدا فصارا جوهرا واحدا، فلا بد في ذلك من الاستحالة، كما في اتحاد الماء واللبن والخمر وسائر ما يختلط بالماء، بخلاف الماء والزيت، فإنهما جوهران كما كانا، لكن الزيت لاصق بالماء وطفا عليه لم يتحد به، ومثل اختلاط النار والحديد، فإن الحديد استحال عما كان، ولهذا إذا برد عاد إلى ما كان، وهكذا اتحاد الهواء مع الماء والتراب، حتى يصير بخارا أو غبارا وأمثال ذلك.

وفي الجملة، فجميع ما يعرفه الناس من الاتحاد إذا صار الاثنان واحدا وارتفعت الثنوية، فلا بد من استحالة الاثنين.

وإذا قيل: فيه طبيعة الاثنين ومشيئة الاثنين، كما في الماء واللبن قوة الماء وقوة اللبن.

قيل: لا بد - مع ذلك - أن تتغير كل قوة عما كانت عليه فتنكسر الأخرى، كما يعرف في سائر صور الاتحاد؛ إذا اتحد هذا مع هذا كسر كل منهما قوة الآخر عما كانت عليه.

كما إذا اتحد الماء البارد بالماء الحار، انكسرت قوة الحر وقوة البرد عما كانت، فيبقى المتحد مرتبة متوسطة بين البرد المحض والحر المحض.

وكذلك الماء واللبن وسائر صور الاتحاد.

وعلى هذا، فيجب إذا اتحد أن تتغير قوة اللاهوت وطبيعته ومشيئته عما كانت، وتنكسر قوة الناسوت وطبيعته ومشيئته عما كانت عليه، ويبقى هذا المتحد ممتزجا من لاهوت وناسوت، وذلك يستلزم نقص اللاهوت عما كان، وبطلان كماله، كما أنه يوجب من كمال الناسوت ما لم يكن.

فكل ما يصفون به الناسوت من اتحاد اللاهوت به، فهو مستلزم من نقص اللاهوت وسلب كماله الذي يختص به وبطلان صفاته التامة - بحسب ما حصل له من ذلك الناسوت بحكم الاتحاد، وإلا فإن كان اللاهوت كما كان، فلا اتحاد بوجه من الوجوه، بل الناسوت كما كان.

ثم هما اثنان لم يتحد أحدهما بصاحبه، ولا صارا شيئا واحدا.

وأيضا فمع كون الجوهر واحدا، يجب أن تكون مشيئته واحدة وطبيعته واحدة، فإنه لو كان مشيئتين، لكان محل إحدى المشيئتين، إن كان هو محل الأخرى مع تضاد موجب المشيئتين، لزم اجتماع الضدين في محل واحد.

فإن الإرادة الناسوتية تطلب الأكل والشرب، وأن تعبد وتصوم وتصلي.

واللاهوتية، توجب امتناعه من إرادة هذه الأشياء.

وإرادته أن يخلق ويرزق ويدبر العالم. والناسوتية تمتنع من هذه الإرادة.

فإذا قامت الإرادتان والكراهتان بمحل واحد، لزم أن يكون ذلك الجوهر الموصوف بهذا وهذا مريدا للشيء ممتنعا من إرادته غير مريد له كارها للشيء غير كاره له، وذلك جمع بين النقيضين من وجوه متعددة.

ويمتنع أن يقوم بالموصوف الواحد إرادتان جازمتان بالشيء ونقيضه، أو كراهتان جازمتان للشيء أو نقيضه، والفعل لا يقع إلا بإرادة جازمة مع القدرة، فاللاهوت ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومتى شاء شيئا مشيئة جازمة، فإنه على ما شاء قادر.

والناسوت لا يفعل شيئا من خصائص البشرية حتى يريد ذلك إرادة جازمة.

والناسوت يمتنع أن يريد إرادة اللاهوت ويكره ذلك، فيصير الشيء الواحد مريدا للشيء إرادة جازمة، قادرا عليه ليس مريدا له إرادة جازمة، بل هو عاجز عنه.

ويلزم أيضا إذا كانا جوهرا واحدا وقد ولد، وصفع وضرب وصلب ومات وتألم، أن يكون نفس اللاهوت ضرب وصلب ومات وتألم، كما تقوله اليعقوبية، وهذا لازم لجميع النصارى وهو موجب عقيدة إيمانهم.

فإن قالوا: بل هما جوهران مع كونهما عندهم شخصا واحدا لا تعدد فيه، كما يقوله من يقوله من الملكية، كان هذا كلاما متناقضا، فإن الشخص الواحد الذي لا تعدد فيه جوهر واحد، ولهذا حد بأنه جسم.

وإن شبهوا ذلك بالنفس مع الجسد لزمهم المحدود.

فإن الإنسان كما يقال فيه: إنه شخص واحد، يقال: إنه جوهر واحد بما بينهما من الاتحاد، ولهذا يحد بأنه جسم حساس تام متحرك بالإرادة ناطق، هذا يتناول جسده وروحه، وللنفس والبدن مشيئة واحدة.

ومتى شاء الإنسان الفعل مشيئة جازمة مع قدرته عليه فعله، ولم يكن معه جوهر آخر له مشيئة غير مشيئته.

فإذا شبهوا اتحاد اللاهوت بالناسوت بهذا، لزمهم أن يكونا جوهرا واحدا ومشيئة واحدة، وهذا قول اليعقوبية.

ولهذا تألم النفس بما يحدث في الجسد من الآلام، ويتألم الجسم الذي هو القلب الصنوبري، بما يحدث في النفس من الآلام.

فإذا تألمت النفس، تألم قلب الجسد وغير قلب الجسد، وكذلك إذا تألم الجسد وإذا صفع الجسد، وصلب وبصق في وجهه، ووضع الشوك عليه، وتألم ومات، كان ذلك كله حالا بالنفس ونالها منه إهانة الصفع وألم النزع ما ينالها، كما يسلمون لله أنه حل بنفس المسيح وبدنه، فإنهم لا يتنازعون أن الإله حل ببدن المسيح ونفسه، وإنما يتنازعون في اللاهوت، مع أن النفس مفارقة للبدن بالموت.

واللاهوت عندهم لم يفارق الناسوت بالموت، بل صعد إلى السماء.

والمسيح الذي هو إله تام وإنسان تام يقعد عن يمين أبيه، وكذلك يجيء يوم القيامة.

وأيضا فالبدن إذا كانت فيه النفس، تتغير صفاته وأحكامه، وتختلف أحواله باجتماعها وافتراقها، والنفس إذا كانت في البدن تختلف صفاتها وأحكامها.

فيلزم أن يكون ناسوت المسيح مخالفا في الصفات والأحكام لسائر النواسيت، وأن يكون اللاهوت لما اتحد به تغيرت صفاته وأحكامه، وهذا هو الاستحالة والتغير والتبدل للصفات، مع أن ناسوت المسيح كان من جنس نواسيت البشر، لم يظهر عليه إلا ما ظهر مثله على غيره، بل ظهر على غيره من خوارق العادات أكثر مما ظهر عليه.

وبالجملة، فأي مثل ضربوه للاتحاد، كان حجة عليهم وظهر به فساد قولهم.

وإن قالوا: هذا أمر لا يعقل، بل هو فوق العقول، كان الجواب من وجهين:

أحدهما: أنه يجب الفرق بين ما يعلم العقل بطلانه وامتناعه، وبين ما يعجز العقل عن تصوره ومعرفته.

فالأول: من محالات العقول، والثاني من محارات العقول، والرسل يخبرون بالثاني.

وأما الأول: فلا يقوله إلا كاذب، ولو جاز أن يقول هذا، لجاز أن يقال: إن الجسم الواحد يكون أبيض أسود في حال واحدة، وإنه بعينه يكون في مكانين، وإن الشيء الواحد يكون موجودا معدوما في حال واحدة، وأمثال ذلك مما يعلم العقل امتناعه.

وقول النصارى مما يعلم بصريح العقل أنه باطل، ليس هو مما يعجز عن تصوره.

يوضح هذا، أنه لو قال قائل في مريم أم المسيح: (امرأة الله وزوجته) ، وأنه نكحها نكاحا عقليا، كما يقولون: إن المسيح ولده ولادة عقلية، لم يكن هذا القول أفسد في العقل من قولهم في المسيح، كما قد بسطناه في موضعه، وهم يكفرون من يقول ذلك، ويحتجون بالعقل على فساده.

وإذا قال: (هذا فوق العقل) لم يقبلوه، وكذلك كل طائفة من طوائفهم احتجت على الأخرى بالعقل، وإذا قالوا: (قولنا فوق العقل) لم يقبلوا هذا الجواب.

فإن كان هذا جوابا صحيحا، فيجب أن لا يبحث في شيء من الإلهيات بالعقل، بل يقول كل مبطل ما شاء من الباطل، ويقول: كلامي فوق العقل، كما يقول أصحاب الحلول والاتحاد والوحدة الذين يقولون: إن وجود الخالق وجود المخلوق، ويقولون: إن هذا فوق العقل، وإنه يعلم بالذوق لا بالسمع ولا بالعقل.

الوجه الثاني: أن يقال: ما يعجز العقل عن تصوره إذا أخبرت به الأنبياء - عليهم السلام - قبل منهم ; لأنهم يعلمون ما يعجز غيرهم من معرفته.

وهذه الأقوال لم يقل الأنبياء شيئا منها، بل نفس فرق النصارى قالوها بآرائهم، وزعموا أنهم استنبطوها من بعض ألفاظ الكتب.

فيقال لمن قالها منهم: أنت تتصور ما تقول، أم لا تتصوره وتفهمه وتعقله؟

فإن قال: لا أتصور ما أقول ولا أفقهه ولا أعقله، قيل له: فقد قلت على الله ما لا تعلم، وقفوت ما ليس لك به علم.

ومن أعظم القبائح المحرمة في جميع الشرائع، أن يقول الإنسان برأيه على الله قولا لا يتصوره ولا يفهمه.

وجميع العقلاء يعلمون أن من قال قولا وهو لا يتصوره ولا يفقهه، فإن قوله مردود عليه غير مقبول منه، وإن قوله من الباطل المذموم.

وإن قال قائلهم: إني أفقه ما أقول وأتصوره وأعقله، قيل له: بينه لغيرك حتى يفقهه ويعقله ويتصوره، ولا تقل هو فوق العقل، بل هو قول قد عقلته وفقهته، وهذا تقسيم لا محيد لهم عنه.

فإنهم إن كانوا يفقهون ما يقولون ويعقلونه، لزم أن يكون معقولا.

وإن كانوا لا يفقهونه ولا يعقلونه، لزم أنهم قالوا على الله ما لا يفقهونه ولا يعقلونه قولا برأيهم وعقلهم، لا نقلا لألفاظ الأنبياء، فإن من نقل ألفاظ الأنبياء الثابتة عنهم، لم يكن عليه أن يفقه ويعقل ما يقول.

ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم - « (نضر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) » . فقد يحفظ الرجل كلاما فيبلغه غيره وهو لا يفقه معناه ولا يعقله.

فمن نقل لفظ التوراة أو الإنجيل أو القرآن أو ألفاظ سائر الأنبياء، لم نطالبه ببيان معناه.

بخلاف من ادعى أنه فهم ما قاله الأنبياء، وعبر عن ذلك بعبارة أخرى، فإنه يقال له: إن كنت فهمت ما قالوه، فهو معنى واحد عبروا عنه بعبارة وعبرت عنه بعبارة أخرى كالترجمان، فهذا يعقل ما يقول ويفقهه.

وإن قال: إني لم أفهم كلامهم، أو لم أفهم ما قلته، فقد اعترف بجهله وضلاله، وأنه من الذين لم يفهموا كلام الأنبياء - عليهم السلام - ولم يفقهوا ما قالوه هم.

فلو قالوا: لم نفهم كلام الأنبياء وسكتوا، لكانوا أسوة أمثالهم من الجهال بمعاني كلام الأنبياء.

وأما إذا وضعوا عبارة وكلاما ابتدعوه، وأمروا الناس باعتقاده، وقالوا: هذا هو الإيمان والتوحيد، وقالوا: إنا مع هذا لا نتصور ما قلناه ولا نفقهه ولا نعقله، فهؤلاء من الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفترون على الله وعلى كتب الله وأنبياء الله بغير علم، بل يقولون الكذب المفترى والكفر الواضح، ويقولون مع ذلك: إنا لا نعقله، وهذا حال النصارى بلا ريب.

وهذا الموضع غلط فيه طائفتان من الناس: غالية غلت في المعقولات حتى جعلت ما ليس معقولا من المعقول، وقدمته على الحس ونصوص الرسول.

وطائفة جفت عنه، فردت المعقولات الصريحة وقدمت عليها ما ظنته من السمعيات والحسيات.

وهكذا الناس في السمعيات نوعان، وكذلك هم في الحسيات الباطنة والظاهرة نوعان.

فيجب أن يعلم أن الحق لا ينقض بعضه بعضا، بل يصدق بعضه بعضا.

بخلاف الباطل، فإنه مختلف متناقض، كما قال تعالى في المخالفين للرسل: {والسماء ذات الحبك إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك} [الذاريات: 7]

وإن ما علم بمعقول صريح، لا يخالفه قط، لا خبر صحيح ولا حس صحيح.

وكذلك ما علم بالسمع الصحيح، لا يعارضه عقل ولا حس.

وكذلك ما علم بالحس الصحيح، لا يناقضه خبر ولا معقول.

والمقصود هنا، الكلام مع من يعارض المعقولات بسمع أو حس.

فنقول: لفظ (المعقول) يراد به المعقول الصريح الذي يعرفه الناس بفطرهم التي فطروا عليها، من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض، كما يعلمون تماثل المتماثلين واختلاف المختلفين - أعني اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد والتباين - فإن لفظ (الاختلاف) يراد به هذا وهذا.

وهذه المعقولات في العلميات والعمليات، هي التي ذم الله من خالفها بقوله: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} [الملك: 10] وقوله: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها} [الحج: 46]

وأما ما يسميه بعض الناس (معقولات) ويخالفه فيه كثير من العقلاء، مثل القول بتماثل الأجسام وبقاء الأعراض، وأن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة التي لا تقبل القسمة، أو من المادة والصورة، وأن ما لا يتناهى من الأمور المتعاقبة شيئا بعد شيء، يمتنع وجوده إما في الماضي والمستقبل، أو في الماضي فقط، أو أن الكليات موجودة في الخارج جواهر قائمة بأنفسها، أو أن لنا دهرا أو مادة هي جوهر عقلي قائم بنفسه، أو أنه يمكن وجود جوهر قائم بنفسه لا يشار إليه، ونحو ذلك مما يعده من يعده من النظار أنه عقليات وينازعهم فيه آخرون.

فليس هذا هو العقليات التي لا يجب لأجلها رد الحس والسمع، وتبنى عليها علوم بني آدم، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية، ترد إلى معقولات بديهية أولية، بخلاف العقليات الصريحة، مثل كون الجسم الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد معا، فإن هذا معلوم بفطرة الله التي فطر الناس عليها.

فإذا جاء في الحس أو الخبر الصحيح ما يظن أنه يخالف ذلك، مثل أن يرى الشخص الواحد في عرفات وهو في بلده لم يبرح، أو يرى قاعدا في مكانه وهو في مكان آخر، أو يرى أنه أغاث من استغاث به، أو جاء طائرا في الهواء مع العلم بأنه في مكانه لم يتغير منه، فهذا إنما هو جني تصور بصورة ذلك الشخص، ليس هو نفسه، فهذا يشبهه ليس هو إياه.

والحسيات إن لم يميز بينها بالعقل، وإلا فالحس يغلط كثيرا، فكذلك من ادعى فيما حصل له من المكاشفة والمخاطبة أمرا يخالف صريح العقل يعلم أنه غالط فيه، كمن قال من القائلين بوحدة الوجود: (إني أشهد بباطني وجودا مطلقا مجردا عن الأسماء والصفات، لا اختصاص فيه ولا قيد البتة) فلا يتنازع في هذا، كما قد ينازعه بعض الناس.

لكن يقال له: من أين لك أن هذا هو رب العالمين الذي خلق السماوات والأرض؟ فإن كون ما شهدته بقلبك هو الله، أمر لا يدرك بحس القلب، وإذا ادعيت أنه حصل لك في الكشف ما يناقض صريح العقل، علم أنك غالط، كما قال شيخ هؤلاء الملاحدة التلمساني:

يا صاحبي أنت تنهاني وتأمرني ... والوجد أصدق نهاء وأمار

فإن أطعك وأعص الوجد عدت عمى ... عن العيان إلى أوهام أخبار

وعين ما أنت تدعوني إليه إذا ... حققت فيه تراه النهي يا جار

فيقال له: وجدك وذوقك لم يفدك إلا شهود وجود مطلق بسيط، لكن من أين لك أن هذا هو رب العالمين؟ بل من أين لك أن هذا ثابت في الخارج عن نفسك كليا مطلقا مجردا؟ بل إنما تشهده كليا مطلقا مجردا في نفسك.

ولست تعلم بحس ولا عقل ولا خبر أن هذا هو في الخارج.

كما أن النائم إذا شهد حسه الباطن أشياء لم يكن معه يقين أن هذا في الخارج.

فإذا عاد إليه عقله علم أن هذا كان في خياله في المنام.

وكذلك السكران وغيره ممن يضعف عقله، فهذا يشهد بحسه الباطن أو الظاهر أشياء، وقد ضعف عقله عن كنه ذلك لما ورد عليه، وإذا ثاب إليه عقله، علم أن ما شهده كان في نفسه وخياله، لا في الخارج عن ذلك.

فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط، وإن كان صادقا فيما يشهده في الحس الباطن أو الظاهر، لكن الغلط وقع في ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا في مجرد الحس، فإن الحس ليس فيه علم بنفي أو إثبات.

فمن رأى شخصا، فليس في الحس إلا رؤيته.

وأما كونه زيدا أو عمرا، فهذا لا بد فيه من عقل يميز بين هذا وهذا، ولهذا كان الصغير والمجنون والبهيم والسكران والنائم ونحوهم - لهم حس، ولكن لعدم العقل لا يميزون أن هذا المشهود هو كذا أم كذا، بل قد يظنون ظنونا غير مطابقة.

قال تعالى: {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب} [النور: 39] .

فالظمآن يرى أن ما ظنه ماء، ولم يكن ماء لاشتباهه بالماء، والحس لم يغلط، لكن غلط عقله.

والأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - معصومون، لا يقولون على الله إلا الحق، ولا ينقلون عنه إلا الصدق.

فمن ادعى في أخبارهم ما يناقض صريح المعقول، كان كاذبا، بل لا بد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح، أو ذلك المنقول ليس بصحيح.

فما علم يقينا أنهم أخبروا به، يمتنع أن يكون في العقل ما يناقضه.

وما علم يقينا أن العقل حكم به، يمتنع أن يكون في أخبارهم ما يناقضه.

وقول أهل الاتحاد من النصارى وغيرهم - سواء ادعوا الاتحاد العام أو الخاص - قد علم بصريح العقل بطلانه، فيمتنع أن يخبر به نبي من الأنبياء، بل الأنبياء - عليهم السلام - قد يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته، لا بما يعلم العقل بطلانه، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول.

ومن سوى الأنبياء ليس معصوما، فقد يغلط ويحصل له في كشفه وحسه وذوقه وشهوده أمور يظن فيها ظنونا كاذبة.

فإذا أخبر مثل هذا بشيء - علم بطلانه بصريح العقل - علم أنه غالط.

وإذا أخبر غير الأنبياء بما يعجز عقل كثير من الناس عن معرفته، لم يلزم أن يكون صادقا ولا كاذبا، بل لا نحكم بصدقه ولا كذبه إلا بدليل ; لاحتمال أن يكون غالطا واحتمال أن يكون قد علم ما يعجز غيره عن معرفته.

وإذا قال القول المعلوم فساده بصريح العقل من ليس بنبي، وقال: إن هذا فوق العقل، أو هذا وراء طور العقل والنقل، أو هذا لا نعرفه إن لم نترك العقل والنقل، أو قال:

هم معشر حلوا النظام وأحرقوا ال ... سياج فلا فرض لديهم ولا نفل

مجانين إلا أن سر جنونهم ... عزيز على أبوابه يسجد العقل

قيل: وهذا يمتنع أن يقوله نبي، أو ينقله صادق عن نبي، فإن أقوال الأنبياء لا تناقض العقل الصريح، فكيف يقبل هذا ممن ليس بنبي؟

وإن قال كما يقوله النصارى أو غيرهم: إن هذا دل عليه كلام الأنبياء أو فهمناه من كلام الأنبياء.

قيل لهم: الكلام في معاني الألفاظ التي نطقت بها الأنبياء شيء، والكلام الذي فهمتموه عنهم شيء آخر.

ولو قدر أن ما ذكرتموه أنتم أو غيركم، فهمتموه من كلام الأنبياء ليس مخالفا لصريح العقل، لم نجزم بأن قائل ذلك يتصور ما قال، بل قد يكون فهم من كلامهم ما لم يريدوه.

فكيف إذا كان هو نفسه لم يتصور ما قال؟ بل هم معترفون بأنه غير معقول له، وهو لا يفهمه، فكيف إذا كان الذي قاله معلوم الفساد بصريح العقل؟

فهذه ثلاث مقدمات لو فهمه، ثم قال: إني فهمت كلامه، لم يكن فهمه حجة.

فكيف إذا قال: إني لم أفهمه، وإن هذا فوق طور العقل؟

ولو قال هذا لم يكن قوله حجة، ولم يجب تصديقه من أن الأنبياء عنوا بكلامهم المعنى الذي اعترف أنه فوق طور العقل، فكيف إذا عرف أن ذلك المعنى باطل يمتنع أن يقوله عاقل لا نبي ولا غير نبي؟

[فصل: الجواب عن شبهة النصارى في إقرار المسلمين في الصفات وأنه لا يقتضي التشبيه والتجسيم]

قال الحاكي عنهم: فقلت لهم: إنهم يقولون لنا: إذا كان اعتقادكم في الباري - تعالى - أنه واحد، فما حملكم على أن تقولوا: أب وابن وروح قدس، فتوهمون السامعين أنكم تعتقدون في الله ثلاثة أشخاص مركبة، أو ثلاثة آلهة، أو ثلاثة أجزاء، وأن له ابنا، ويظن من لا يعرف اعتقادكم أنكم تريدون بذلك ابن المباضعة والتناسل، فتطرقون على أنفسكم تهمة أنتم منها بريئون؟

قالوا: وهم أيضا، لما كان اعتقادهم في الباري جلت عظمته أنه غير ذي جسم، وغير ذي جوارح وأعضاء، وغير محصور في مكان، فما حملهم على أن يقولوا: إن له عينين يبصر بهما، ويدين يبسطهما، وساقا، ووجها يوليه إلى كل مكان، وجنبا، وأنه يأتي في ظلل من الغمام، فيوهمون السامعين أن الله ذو جسم وذو أعضاء وجوارح، وأنه ينتقل من مكان إلى مكان في ظلل من الغمام، فيظن من لا يعرف اعتقادهم أنهم يجسمون الباري، حتى إن قوما منهم اعتقدوا ذلك واتخذوه مذهبا، ومن لم يتحقق اعتقادهم يتهمهم بما هم بريئون منه.

قال: فقلت لهم: إنهم يقولون: إن العلة في قولهم هذا، أن الله له عينان ويدان ووجه وساق وجنب، وأنه يأتي في ظلل من الغمام، فهو أن القرآن نطق به، وأن ذلك غير ظاهر اللفظ، وكل من يحمل ذلك على ظاهر اللفظ ويعتقد أن الله له عينان ويدان ووجه وجنب وجوارح وأعضاء، وأن ذاته تنتقل، فهم يلعنونه ويكفرونه، فإذا كفروا من يعتقد هذا، فليس لمخالفيهم أن يلزموهم هذا بعد أن لا يعتقدوه.

قالوا: وكذلك نحن أيضا النصارى، العلة في قولنا: إن الله ثلاثة أقانيم: أب، وابن، وروح قدس، أن الإنجيل نطق به، والمراد بالأقانيم: غير الأشخاص المركبة والأجزاء والأبعاض وغير ذلك مما يقتضي الشرك والتكثير، وبالأب والابن غير أبوة وبنوة نكاح أو تناسل، أو جماع أو مباضعة.

وكل من يعتقد أن الثلاثة أقانيم ثلاثة آلهة مختلفة، أو ثلاثة آلهة متفقة، أو ثلاثة أجسام مؤلفة، أو ثلاثة أجزاء متفرقة، أو ثلاثة أشخاص مركبة، أو أعراض، أو قوى، أو غير ذلك مما يقتضي الاشتراك والتكثير والتبعيض والتشبيه، أو بنوة نكاح، أو تناسل، أو مباضعة، أو جماع، أو ولادة زوجة، أو من بعض الأجسام، أو من بعض الملائكة، أو من بعض المخلوقين، فنحن نلعنه ونكفره ونجرمه.

وإذا لعنا أو كفرنا من يعتقد ذلك، فليس لمخالفينا أن يلزمونا بعد أن لا نعتقده، وإن ألزمونا الشرك والتشبيه لأجل قولنا: أب وابن وروح قدس ; لأن ظاهر ذلك يقتضي التكثير والتشبيه، ألزمناهم أيضا - نحن - التجسيم والتشبيه لقولهم: إن الله له عينان ويدان ووجه وساق وجنب، وأن ذاته تنتقل من مكان إلى مكان، وأنه استوى على العرش من بعد أن لم يكن عليه، وغير ذلك مما يقتضي ظاهره التجسيم والتشبيه.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال: من آمن بما جاءت به الرسل وقال ما قالوه من غير تحريف للفظه ولا معناه، فهذا لا إنكار عليه، بخلاف من ابتدع أقوالا لم تقلها الرسل، بل هي تخالف ما قالوه، وحرف ما قالوه، إما لفظا ومعنى، وإما معنى فقط، فهذا يستحق الإنكار عليه باتفاق الطوائف.

وأصل دين المسلمين أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتبه، وبما وصفته به رسله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يثبتون له - تعالى - ما أثبته لنفسه، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه، ويتبعون في ذلك أقوال رسله، ويجتنبون ما خالف أقوال الرسل، كما قال تعالى: {سبحان ربك رب العزة عما يصفون} [الصافات: 180] أي عما يصفه الكفار المخالفون للرسل. {وسلام على المرسلين} [الصافات: 181] لسلامة ما قالوه من النقص والعيب. {والحمد لله رب العالمين} [الأنعام: 45] .

فالرسل وصفوا الله بصفات الكمال، ونزهوه عن النقائص المناقضة للكمال، ونزهوه عن أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال، وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل، ونفوا عنه التمثيل، فأتوا بإثبات مفصل ونفي مجمل.

فمن نفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات، كان معطلا، ومن جعلها مثل صفات المخلوقين، كان ممثلا، والمعطل يعبد عدما، والممثل يعبد صنما.

وقد قال تعالى: {ليس كمثله شيء} [الشورى: 11] وهو رد على الممثلة، {وهو السميع البصير} [الشورى: 11] وهو رد على المعطلة.

فوصفته الرسل بأنه حي منزه عن الموت، عليم منزه عن الجهل، قدير قوي عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب، سميع بصير منزه عن الصم والعمى، غني منزه عن الفقر، جواد منزه عن البخل، حكيم حليم منزه عن السفه، صادق منزه عن الكذب، إلى سائر صفات الكمال، مثل وصفه بأنه ودود رحيم لطيف، وقد قال تعالى: {قل هو الله أحد - الله الصمد - لم يلد ولم يولد - ولم يكن له كفوا أحد} [الإخلاص: 1 - 4] .

فالصمد، اسم يتضمن إثبات صفات الكمال ونفي النقائص، وهو العليم الكامل في علمه، القدير الكامل في قدرته، الحكيم الكامل في حكمته.

ولنا مصنف مبسوط في تفسير هذه السورة، وآخر في بيان أنها تعادل ثلث القرآن، وذكرنا كلام علماء المسلمين من الصحابة والتابعين في معنى " الصمد " وأن عامة ما قالوه حق، كقول من قال منهم: (إن الصمد الذي لا جوف له) ومن قال منهم: (إنه السيد الذي انتهى سؤدده) كما قيل: (إنه المستغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه محتاج إليه) وكما قيل: (إنه العليم الكامل في علمه، والقدير الكامل في قدرته) إلى سائر صفات الكمال.

وذكر تعالى في هذه السورة، أنه أحد ليس له كفوا أحد، فنفى بذلك أن يكون شيئا من الأشياء له كفوا، وبين أنه أحد لا نظير له.

وقال في آية أخرى: {فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا} [مريم: 65] وقال: {ليس كمثله شيء} [الشورى: 11] وقال: {فلا تضربوا لله الأمثال} [النحل: 74] وقال: {فلا تجعلوا لله أندادا} [البقرة: 22]

وما ورد في القرآن والسنة من إثبات صفات الله، فقد ورد في التوراة وغيرها من كتب الله مثل ذلك.

فهو أمر اتفقت عليه الرسل، وأهل الكتاب في ذلك كالمسلمين.

وإذا كان كذلك، فهم في أمانتهم لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء، بل ابتدعوا اعتقادا لا يوجد في كلام الأنبياء، فليس في كلام الأنبياء لا المسيح ولا غيره ذكر أقانيم لله، لا ثلاثة ولا أكثر، ولا إثبات ثلاث صفات، ولا تسمية شيء من صفات الله ابنا لله ولا ربا، ولا تسمية حياته روحا، ولا أن لله ابنا هو إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، وأنه خالق كما أن الله خالق، إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواع من الكفر، لم تنقل عن نبي من الأنبياء.

فقالوا في شريعة إيمانهم: نؤمن بالله الأب، مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لايرى، وهذا حق.

ثم قالوا: وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلايق كلها، مولود ليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، نور من نور، مساو للأب في الجوهر الذي بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء، الذي من أجلنا - معشر الناس - ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء البتول، وصار إنسانا، وحبل به وولد من مريم البتول، وتألم وصلب ودفن، وقام في اليوم الثالث، كما هو مكتوب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء.

ونؤمن بروح القدس المحيي، وروح الحق المنبثق من أبيه، أو الذي خرج من أبيه روح محييه.

فأين في كلام الأنبياء أن شيئا من صفات الله أو من مخلوقاته يقال فيه: إنه أقنوم، وإنه حق من إله حق، من جوهر أبيه، وإنه مساو لله في الجوهر، وإنه خالق خلق كل شيء، وإنه قعد عن يمين الله فوق العرش، وإنه الذي يقضي بين الناس يوم القيامة؟

وأين في كلام الأنبياء أن لله ولدا قديما أزليا؟

ومن الذي سمى كلام الله أو علمه أو حكمته - مولودا له أو ابنا له، أو شيئا من صفاته مولودا له أو ابنا له؟

ومن الذي قال من الأنبياء: إنه مولود، وهو - مع ذلك - قديم أزلي؟

وأين في كلامهم أن لله أقنوما ثالثا هو حياته، ويسمى بروح القدس، وأنه أيضا رب حي محي.

فلو كان النصارى آمنوا بنصوص الأنبياء، كما آمن المؤمنون، لم يكن عليهم ملام.

ومن اعترض على نصوص الأنبياء، كان لفساد فهمه ونقص معرفته.

ولكنهم ابتدعوا أقوالا وعقائد ليست منصوصة عن أحد من الأنبياء - عليهم السلام - وفيها كفر ظاهر وتناقض بين.

فلو قدر أنهم أرادوا بها معنى صحيحا، لم يكن لأحد أن يبتدع كلاما لم يأت به نبي يدل على الكفر المتناقض الذي يخالف الشرع والعقل، ويقول: إني أردت به معنى صحيحا، من غير أن يكون لفظه دالا على ذلك، فكيف والمراد الذي يفسرون به كلامهم فاسد متناقض كما تقدم؟

فهم ابتدعوا أقوالا منكرة وفسروها بتفسير منكر، فكان الرد عليهم من كل واحد من الوجهين، وهم - في ذلك - نظير بعض ملاحدة المسلمين الذين يعتقدون إلهية بعض أهل البيت، أو بعض المشايخ، ويصفون الله بصفات لم ينطق بها كتاب، وهؤلاء ملحدون عند المسلمين.

بخلاف المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله، الذين آمنوا بما قالت الأنبياء، ولم يبتدعوا أقوالا لم يأت بها الأنبياء، وجعلوها أصل دينهم.

الوجه الثاني: أن يقال: ما ذكرتموه عن المسلمين كذب ظاهر عليهم.

فهذا النظم الذي ذكروه ليس هو في القرآن، ولا في الحديث، ولا يعرف عالم مشهور من علماء المسلمين، ولا طائفة مشهورة من طوائفهم، يطلقون العبارة التي حكوها عن المسلمين، حيث قالوا عنهم: (إنهم يقولون: إن لله عينين يبصر بهما، ويدين يبسطهما، وساقا ووجها يوليه إلى كل مكان، وجنبا) .

ولكن هؤلاء ركبوا من ألفاظ القرآن بسوء تصرفهم وفهمهم، تركيبا زعموا أن المسلمين يطلقونه.

وليس في القرآن ما يدل ظاهره على ما ذكروه، فإن الله - تعالى - قال في كتابه: {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء} [المائدة: 64]

واليهود أرادوا بقولهم: (يد الله مغلولة) أنه بخيل، فكذبهم الله في ذلك، وبين أنه جواد لا يبخل، فأخبر أن يديه مبسوطتان، كما قال: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا} [الإسراء: 29]

فبسط اليدين المراد به الجواد والعطاء، ليس المراد ما توهموه من بسط مجرد.

ولما كان العطاء باليد يكون ببسطها، صار من المعروف في اللغة التعبير ببسط اليد عن العطاء.

فلما قالت اليهود: (يد الله مغلولة) وأرادوا بذلك أنه بخيل، كذبهم الله في ذلك، وبين أنه جواد ماجد.

وإثبات اليدين له موجود في التوراة وسائر النبوات، كما هو موجود في القرآن.

فلم يكن في هذا شيء يخالف ما جاءت به الرسل، ولا ما يناقض العقل، وقد قال تعالى لإبليس: {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي} [ص: 75]

فأخبر أنه خلق آدم بيديه، وجاءت الأحاديث الصحيحة توافق ذلك.

وأما لفظ (العينين) ، فليس هو في القرآن، ولكن جاء في حديث.

وذكر الأشعري عن أهل السنة والحديث أنهم يقولون: إن لله عينين.

ولكن الذي جاء في القرآن: {ولتصنع على عيني - واصنع الفلك بأعيننا ووحينا} [هود: 39 - 37] {وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا} [القمر: 13] .

وأما قولهم: (له وجه يوليه إلى كل مكان) فليس هذا في القرآن ولكن في القرآن: {كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} [الرحمن: 26] وقوله: {كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون} [القصص: 88] وقوله: {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله} [البقرة: 115]

وهذا قد قال فيه طائفة من السلف: فثم قبلة الله ; أي فثم جهة الله، والجهة كالوعد والعدة، والوزن والزنة.

والمراد بوجه الله وجهة الله - الوجه، والجهة والوجهة الذي لله يستقبل في الصلاة، كما قال في أول الآية: {ولله المشرق والمغرب} [البقرة: 115] ثم قال: {فأينما تولوا فثم وجه الله} [البقرة: 115]

كما قال تعالى: {سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [البقرة: 142]

فإذا كان لله المشرق والمغرب، {ولكل وجهة هو موليها} [البقرة: 148] وقوله: (موليها) ; أي متوليها أو مستقبلها، فهذا كقوله: {فأينما تولوا فثم وجه الله} [البقرة: 115] أي فأينما تستقبلوا فثم وجه الله. وقد قيل: إنه يدل على صفة الله، لكن يدل على أن ثم وجه لله، وأن العباد أينما يولون فثم وجه الله، فهم الذين يولون ويستقبلون، لا أنه هو يولي وجهه إلى كل مكان، فهذا تحريف منهم للفظ القرآن عن معناه وكذب على المسلمين.

ومن قال بالقول الثاني من المسلمين، فإن ذلك يقتضي أن الله محيط بالعالم كله، كما قد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع. إذ المقصود هنا بيان ضلال هؤلاء في دينهم فيما ابتدعوا من الكفر والتثليث والاتحاد، دون الذين آمنوا بالله ورسله، وما أخبرت به الرسل عن الله - تبارك وتعالى -.

وأما قولهم: (وجنب) فإنه لا يعرف عالم مشهور عند المسلمين، ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين، أثبتوا لله جنبا نظير جنب الإنسان، وهذا اللفظ جاء في القرآن في قوله: {أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله} [الزمر: 56]

فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق، كقوله: (بيت الله) و (ناقة الله) و (عباد الله) بل وكذلك (روح الله) عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم.

ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره، مثل كلام الله وعلم الله، ويد الله ونحو ذلك، كان صفة له.

وفي القرآن ما يبين أنه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان فإنه قال: {أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله} [الزمر: 56]

والتفريط ليس في شيء من صفات الله - عز وجل -.

والإنسان إذا قال: فلان قد فرط في جنب فلان أو جانبه، لا يريد به أن التفريط وقع في شيء من نفس ذلك الشخص، بل يريد به أنه فرط في جهته وفي حقه.

فإذا كان هذا اللفظ إذا أضيف إلى المخلوق لا يكون ظاهره أن التفريط في نفس جنب الإنسان المتصل بأضلاعه، بل ذلك التفريط لم يلاصقه، فكيف يظن أن ظاهره في حق الله - أن التفريط كان في ذاته؟

وجنب الشيء وجانبه، قد يراد به منتهاه وحده، ويسمى جنب الإنسان جنبا بهذا الاعتبار، قال تعالى: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا} [السجدة: 16] وقال تعالى: {الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم} [آل عمران: 191]

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لعمران بن حصين: « (صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع، فعلى جنب) »

وإذا قدر أن الإضافة هنا تتضمن صفة الله، كان الكلام في هذا كالكلام في سائر ما يضاف إليه تعالى من الصفات، وفي التوراة من ذلك نظير ما في القرآن.

وهذا يتبين بالوجه الثالث: وهو أن يقال ما في القرآن والحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من وصف الله بهذه الصفات التي يسميها بعض الناس تجسيما، هو مثل ما في التوراة وسائر كتب الأنبياء، وهذا الذي في التوراة وكتب الأنبياء ليس مما أحدثه أهل الكتاب.

ولو كانوا هم ابتدعوا ذلك، ووصفوا الخالق بما يمتنع عليه من التجسيم، لكان النبي - صلى الله عليه وسلم - ذمهم على ذلك، كما ذمهم على ما وصفوه به من النقائص في مثل قوله تعالى: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء} [آل

عمران: 181] وقوله: {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء} [المائدة: 64] وقال تعالى: {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} [ق: 38]

فنفى عنه اللغوب الذي يظن في لفظ الاستراحة الذي في التوراة، فإن فيها أن الله خلق العالم في ستة أيام، ثم استراح في يوم السبت، فظن بعض الناس أنه تعب فاستراح.

ثم من علماء المسلمين من قال: إن هذا اللفظ حرفوا معناه دون لفظه، وهذا لفظ التوراة المنزلة. قاله ابن قتيبة وغيره وقالوا معناه: ثم ترك الخلق، فعبر عن ذلك بلفظ استراح.

ومنهم من قال: بل حرفوا لفظه، كما قال أبو بكر الأنباري وغيره.

وقالوا: ليس هذا لفظ التوراة المنزلة، وأما ما في التوراة من إثبات الصفات، فلم ينكر النبي - صلى الله عليه وسلم - شيئا من ذلك، بل كان علماء اليهود إذا ذكروا شيئا من ذلك يقرهم عليه ويصدقهم عليه، كما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، «أن حبرا من اليهود جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: (يا محمد إن الله - عز وجل - يوم القيامة يحمل السماوات على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك) . قال: فضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى بدت نواجذه تعجبا وتصديقا لقول الحبر، ثم قرأ: {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه} [الزمر: 67] الآية» .

وفي التوراة: " إن الله كتب التوراة بإصبعه ".

وإذا ثبت أن مثل هذه النصوص في التوراة والكتب المتقدمة باتفاق أهل الكتاب وبما يشهد على ذلك من أخبار الرسول بنظير ذلك وترك إنكاره لما في التوراة، وتصديقه على ما كانوا يذكرونه من ذلك - لم يكن المسلمون مختصين بذكر ما سموه تجسيما، بل يلزم أهل الكتاب اليهود والنصارى من ذلك نظير ما يلزم المسلمين.

وقد افترق أهل الكتاب في ذلك كما افترق فيه المسلمون، منهم الغالي في النفي والتعطيل، ومنهم الغالي في التشبيه والتمثيل.

والمسلمون أئمتهم وجمهورهم مقتصدون بين التعطيل والتمثيل، وكذلك طائفة من أهل الكتاب.

والمقصود أنه إذا كانت هذه الصفات قد جاءت في الكتب الإلهية، التوراة وغيرها، كما جاءت في القرآن، لم يكن للمسلمين بذلك اختصاص.

ولم يجز للنصارى أن يجعلوا ذلك نظير ما اختصوا به من التثليث والاتحاد، فإن ذلك مختص بهم.

وهذه الصفات قد اشترك فيها أهل الملل الثلاث ; لأن التثليث والاتحاد ليس منصوصا عن أحد من الأنبياء - عليهم السلام - وهذه الصفات منصوصة في القرآن والتوراة وغيرهما من كتب الأنبياء، فكيف يجوز تشبيه هذا بهذا؟

الوجه الرابع: قولهم: (فيوهمون السامعين أن الله ذو جسم وأعضاء وجوارح) - كلام باطل؛ وذلك أن الله سمى نفسه وصفاته بأسماء، وسمى بعض عباده وصفات عباده بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه وتعالى.

فسمى نفسه حيا، كقوله: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [البقرة: 255] الآية.

{وتوكل على الحي الذي لا يموت} [الفرقان: 58] وسمى بعض عباده حيا، كقوله: {يخرج الحي من الميت} [الأنعام: 95]

مع العلم بأنه ليس الحي كالحي، وسمى نفسه عليما، كقوله: {إن ربك حكيم عليم} [الأنعام: 83] .

وسمى بعض عباده عليما، كقوله: {وبشروه بغلام عليم} [الذاريات: 28]

مع العلم بأنه ليس العليم كالعليم.

وسمى نفسه حليما، بقوله: {والله غني حليم} [البقرة: 263] وسمى بعض عباده حليما، بقوله: {فبشرناه بغلام حليم} [الصافات: 101]

وسمى نفسه رءوفا رحيما، بقوله: {إن الله بالناس لرءوف رحيم} [البقرة: 143] .

وسمى بعض عباده رءوفا رحيما، بقوله: {بالمؤمنين رءوف رحيم} [التوبة: 128]

وليس الرءوف كالرءوف، ولا الرحيم كالرحيم.

وكذلك سمى نفسه ملكا جبارا متكبرا عزيزا، وسمى بعض عباده ملكا، وبعضهم عزيزا، وبعضهم جبارا متكبرا، وليس هو في ذلك مماثلا لخلقه.

وكذلك سمى بعض صفاته علما وقوة وأيدا، وقدرة ورحمة وغضبا، ورضى ويدا وغير ذلك، وسمى بعض صفات عباده بذلك، وليس علمه كعلمهم، ولا قدرته كقدرتهم، ولا رحمته وغضبه كرحمتهم وغضبهم، ولا يده كأيديهم.

وكذلك ما أخبر به عن نفسه من استوائه على العرش، ومجيئه في ظلل من الغمام، وغير ذلك من هذا الباب، ليس استواؤه كاستوائهم، ولا مجيئه كمجيئهم.

وهذه المعاني التي تضاف إلى الخالق تارة وإلى المخلوق أخرى، تذكر على ثلاثة أوجه: تارة تقيد بالإضافة إلى الخالق أو بإضافته إليها، كقوله - تعالى -: {ولا يحيطون بشيء من علمه} [البقرة: 255] الآية. {إن الله هو الرزاق ذو القوة} [الذاريات: 58] وتارة تتقيد بالمخلوق كقوله: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم} [آل عمران: 18] .

وتارة تطلق مجردة.

فإذا قيدت بالخالق، لم تدل على شيء من خصائص المخلوقين.

فإذا قيل: علم الله وقدرته واستواؤه ومجيئه ويده ونحو ذلك، كانت هذه الإضافة توجب ما يختص به الرب الخالق، وتمنع أن يدخل فيها ما يختص به المخلوق.

وكذلك إذا قيل: {فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك} [المؤمنون: 28] كانت هذه الإضافة توجب ما يختص بالعبد وتمنع أن يدخل في ذلك ما يختص بالرب - عز وجل -.

وإذا جرد اللفظ عن القيود فذكر بوصف العموم والإطلاق، تناول الأمرين كسائر الألفاظ التي تطلق على الخالق والمخلوق.

وهذه للناس فيها أقوال.

قيل: إنها حقيقة في الخالق، مجاز في المخلوق، كقول أبي العباس الناشئ.

وقيل: بالعكس كقول غلاة الجهمية والباطنية والفلاسفة.

وقيل: حقيقة فيهما، وهو قول الجمهور.

ثم قيل: هي مشتركة اشتراكا لفظيا، وقيل: متواطئة وهو قول الجمهور.

ثم من جعل المشككة نوعا من المتواطئة لم يمتنع - عنده - إذا قيل: مشككة، أن تكون متواطئة، ومن جعل ذلك نوعا آخر جعلها مشككة لا متواطئة.

وهذا نزاع لفظي، فإن المتواطئة التواطؤ العام، يدخل فيها المشككة.

إذ المراد بالمشككة، ما يتفاضل معانيها في مواردها، كلفظ الأبيض الذي يقال على البياض الشديد، كبياض الثلج، والخفيف كبياض العاج، والشديد أولى به.

ومعلوم أن مسمى البياض في اللغة لا يختص بالشديد دون الخفيف، فكان اللفظ دالا على ما به الاشتراك، وهو المعنى العام الكلي، وهو متواطئ بهذا الاعتبار، وهو باعتبار التفاضل يسمى مشككا.

وأما إذا أريد بالتواطؤ، ما تستوي معانيه، كانت المشككة نوعا آخر.

لكن تخصيص لفظ المتواطئة بهذا عرف حادث، وهو خطأ أيضا.

فإن عامة المعاني العامة تتفاضل، والتماثل فيها في جميع مواردها، بحيث لا تتفاضل في شيء من مواردها، إما قليل وإما معدوم.

فلو لم تكن هذه الأسماء متواطئة بل مشككة، كان عامة الأسماء الكلية غير متواطئة، وهذا مبسوط في موضع آخر.

والمقصود هنا أن الله - سبحانه وتعالى - إذا أضاف إلى نفسه ما أضافه إضافة يختص بها، وتمنع أن يدخل فيها شيء من خصائص المخلوقين، وقد قال مع ذلك: إنه (ليس كمثله شيء) وإنه (لم يكن له كفوا أحد) وأنكر أن يكون له سمي، كان من فهم من هذه ما يختص به المخلوق - قد أتي من سوء فهمه ونقص عقله، لا من قصور في بيان الله ورسوله، ولا فرق في ذلك بين صفة وصفة.

فمن فهم من علم الله ما يختص به المخلوق من أنه عرض محدث باضطرار أو اكتساب، فمن نفسه أتي، وليس في قولنا: علم الله - ما يدل على ذلك.

وكذلك من فهم من قوله: {بل يداه مبسوطتان} [المائدة: 64] الآية. {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي} [ص: 75]

ما يختص به المخلوق من جوارحه وأعضائه، فمن نفسه أتي، فليس في ظاهر هذا اللفظ ما يدل على ما يختص به المخلوق كما في سائر الصفات.

وكذلك إذا قال: {ثم استوى على العرش} [الأعراف: 54] . من فهم من ذلك ما يختص بالمخلوق، كما يفهم من قوله: {فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك} [المؤمنون: 28]

فمن نفسه أتي، فإن ظاهر اللفظ يدل على استواء يضاف إلى الله - عز وجل - كما يدل في تلك الآية على استواء يضاف إلى العبد.

وإذا كان المستوي ليس مماثلا للمستوي، لم يكن الاستواء مماثلا للاستواء.

فإذا كان العبد فقيرا إلى ما استوى عليه، يحتاج إلى حمله.

وكان الرب - عز وجل - غنيا عن كل ما سواه والعرش وما سواه فقيرا إليه، وهو الذي يحمل العرش وحملة العرش، لم يلزم إذا كان الفقير محتاجا إلى ما استوى عليه أن يكون الغني عن كل شيء وكل شيء محتاج إليه - محتاجا إلى ما استوى عليه.

وليس في ظاهر كلام الله - عز وجل - ما يدل على ما يختص به المخلوق من حاجة إلى حامل وغير ذلك، بل توهم هذا من سوء الفهم، لا من دلالة اللفظ.

لكن إذا تخيل المتخيل في نفسه أن الله مثله، تخيل أن يكون استواؤه كاستوائه، وإذا عرف أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، علم أن استواءه ليس كاستوائه، ومجيئه كمجيئه، كما أن علمه وقدرته ورضاه وغضبه، ليس كعلمه وقدرته ورضاه وغضبه.

وما بين الأسماء من المعنى العام الكلي كما بين قولنا: حي وحي، وعالم وعالم. وهذا المعنى العام الكلي المشترك لا يوجد عاما كليا مشتركا إلا في العلم والذهن، وإلا فالذي في الخارج أمر يختص بالموصوف.

فصفات الرب - عز وجل - مختصة به، وصفات المخلوق مختصة به، ليس بينهما اشتراك ولا بين مخلوق ومخلوق.

الوجه الخامس: قولهم: (لما كان اعتقادهم في الباري جلت قدرته أنه غير ذي جسم) استعمال منهم للفظ الجسم في القدر والغلظ، لا في ذي القدر والغلظ، وهذا أحد موردي استعماله، وهو الأشهر في لغة العامة، فيقولون: هذا الثوب له جسم، وهذا ليس له جسم ; أي هذا له غلظ وكثافة دون هذا.

ولكن النظار أكثر ما يستعملون لفظ الجسم في نفس ذي القدر، فيقولون للقائم بنفسه ذي القدر: إنه جسم.

وهذا اللفظ لما كثر استعماله في كلام النظار، تفرقوا في معانيه لغة وعقلا وشرعا، تفرقا ضل به كثير من الناس، فإن هذا اللفظ أصله في اللغة هو الجسد.

قال غير واحد من أهل اللغة، كالأصمعي وأبي زيد وغيرهما: الجسم هو الجسد.

وهذا إنما يستعمله أهل اللغة فيما كان غليظا كثيفا، فلا يسمون الهواء جسما ولا جسدا، ويسمون بدن الإنسان جسدا.

وقد تقدم أن الجسم يراد به نفس الجسد، ويراد به قدر الجسد وغلظه، قال تعالى: {وزاده بسطة في العلم والجسم} [البقرة: 247] وقال تعالى: {وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة} [المنافقون: 4]

وقد يراد به هذا وهذا.

ثم إن أهل النظر استعملوا لفظ " الجسد " في أعم من معناه في اللغة، كما فعلوا مثل ذلك في لفظ " الجوهر " ولفظ " العرض " ولفظ " الوجود " ولفظ " الذات " وغير ذلك.

فاستعملوا لفظ " الجسم " فيما يقوم بنفسه وتمكن الإشارة إليه الحسية المختلفة.

ثم تنازعوا نزاعا عقليا فيما يشار إليه، كالهواء والنار والتراب والماء وغير ذلك، هل هو مركب من الجواهر المنفردة التي لا تقبل القسمة، أو من المادة والصورة، أو ليس مركبا لا من هذا ولا من هذا، على ثلاثة أقوال قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع.

فمن اعترف أنها مركبة من هذا أو هذا، يلزمه - إذا قال: إن الله جسم - أن يكون الله مركبا من هذا أو هذا.

ولهذا قالوا: إن هذا باطل وأوجبوا - على أصلهم - نفي مسمى هذا الاسم، وهذا هو المشهور عند هؤلاء.

ومن اعتقد أنه ليس مركبا لا من هذا ولا من هذا، قال: يلزمني إذا قلت: هو جسم أن يكون مركبا.

فمن هؤلاء من أطلق عليه لفظ " الجسم "، وأراد به القائم بنفسه أو الموجود، كما أطلق هؤلاء لفظ الجوهر، وقالوا: أردنا بالجوهر القائم بنفسه. وكما قال هؤلاء: ليس في الوجود إلا جوهر أو عرض.

فإن الوجود إما قائم بنفسه، وهو الجوهر، أو بغيره، وهو العرض، والجوهر أشرف القسمين.

وقال الآخرون: ليس في الوجود إلا قائم بنفسه، وهو الجسم أو قائم بغيره، وهو العرض، والجسم أشرف القسمين. وقال: فما سماه أولئك جوهرا، سماه أولئك جسما، وكلاهما ليست تسميته لغوية ولا شرعية.

وإذا قال هؤلاء: هو جوهر لا كالجواهر، كما يقال: هو شيء لا كالأشياء.

قال أولئك: هو جسم لا كالأجسام، كما يقال: هو شيء لا كالأشياء.

وإذا قال هؤلاء: الجوهر ينقسم إلى كثيف ولطيف، قال أولئك: والجسم ينقسم إلى لطيف وكثيف.

والمقصود هنا، أن هؤلاء الذين نزهوه عما يمتنع عليه من مماثلة المخلوقين، وسموه جسما - نزاعهم مع النفاة قد يكون لفظيا، كنزاع النصارى في لفظ " الجوهر "، وقد يكون عقليا، كنزاعهم في المشار إليه، هل هو مركب من الجواهر المنفردة، أو من المادة والصورة، أو لا من هذا ولا من هذا.

ومن قال من القائلين بأنه جسم، فيقول: إنه مركب من الجواهر المنفردة، أو من المادة والصورة، فهؤلاء مذمومون لفظا ومعنى عند جماهير المسلمين وغيرهم، وإن كان النصارى وغيرهم يعجزون عن الرد على هؤلاء، إذ كان ما يعتمدون عليه في تنزيه الله عن خصائص الأجسام طرقا ضعيفة لا تثبت على المعيار العقلي، كما قد بسط في موضع آخر.

بخلاف من كان نزاعه لفظيا، فهذا يذم إما لغة وإما لغة وشرعا ; لكونه أطلق لفظا لم يأذن به الشرع، أو استعمله في خلاف معناه اللغوي، كما قد يذم النافي لمثل ذلك لغة وشرعا، إذا كان معناه صحيحا.

وأما من كان من النفاة أو المثبتة نفى حقا أو أثبت باطلا، فهذا مذموم ذما معنويا شرعا وعقلا.

وأما الشرع، فالرسل وأتباعهم الذين من أمة موسى وعيسى ومحمد - صلى الله عليه وسلم -، لم يقولوا: إن الله جسم، ولا إنه ليس بجسم، ولا إنه جوهر، ولا إنه ليس بجوهر.

لكن النزاع اللغوي والعقلي والشرعي في هذه الأسماء، هو مما أحدث في الملل الثلاث بعد انقراض الصدر الأول من هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء.

والذي اتفقت عليه الرسل وأتباعهم، ما جاء به القرآن والتوراة من أن الله موصوف بصفات الكمال، وأنه ليس كمثله شيء، فلا تمثل صفاته بصفات المخلوقين، مع إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات، ولا يدخل في صفاته ما ليس منها، ويخرج منها ما هو داخل فيها.

إذا تبين هذا، فالمسلمون لما كان اعتقادهم بأن الله - تعالى - موصوف بما وصف به نفسه، وأنه ليس كمثله شيء، وكان ما أثبتوه له من الصفات مما جاءت به الرسل، لم يكن عليهم ملام ; لأنهم أثبتوا ما أثبته الرسل، ونفوا ما نفته الرسل، فكان في هذا النفي ما ينفي الوهم الباطل.

بخلاف من أثبت أمورا لم تأت بها الرسل، وضم إليها ما يؤكد المعنى الباطل لا ما ينفيه، وكان مما نفوا عنه أنه ليس بجسم مركب من الجواهر المنفردة، ولا من المادة والصورة.

أما على أحد قولي النظار بل أظهرهما، فإن ما سواه من الموجودات القائمة بأنفسها، ليس مركبا لا من هذا ولا من هذا.

فهو سبحانه أحق بتنزيهه عن مثل هذا، إذ كل نقص نفي عن المخلوق، فالخالق أحق بتنزيهه منه.

وأما على القول الآخر، فتارة يقولون: لأن المركب من الجواهر المنفردة يمكن افتراق أجزائه، وذلك ممتنع في حق الله - تعالى -، وتارة يقولون: لأنه مفتقر إلى أجزائه، وذلك ممتنع في حق الله - تعالى -، إذ جزؤه غيره، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجبا بنفسه قديما أزليا، كما قد بسط الكلام على هذه الأمور في موضع آخر.

ثم منهم من لا يطلق من النفي والإثبات إلا الألفاظ الشرعية، فكما لا يقول: هو جسم وجوهر، لا يقول: ليس بجسم ولا جوهر.

ومنهم من يطلق هذه الألفاظ، وهؤلاء منهم من ينفيها، ومنهم من يثبتها.

وكل من الطائفتين قد يدخل في ذلك ما يوافق الشرع، وقد يدخل في ذلك ما يخالف الشرع.

وكل من الطائفتين يدعي النظر العقلي أو اللغوي، وربما اعتصم بعضهم بما يظنه دليلا شرعيا.

والغالب عليهم أنهم لا يعتصمون في ذلك بشرع، إذ لم يكن في ذلك شرع، وإنما يتكلفون تغيير اللغة التي بعث بها الرسول، ثم يحملون ألفاظه على ما ابتدعوه من اللغة، كما فعلته النصارى في حمل كلام الأنبياء على ما ابتدعوه من اللغة.

فإن الأنبياء لم يسموا علم الله وحياته ابنا، وروح قدس، ولا ربا، فسمى النصارى علمه وحياته ابنا، وروح قدس، وربا، ثم حملوا كلام الأنبياء على ذلك.

كذلك طائفة من أهل الكلام كان السلف يسمونهم الجهمية، أحدثوا تسمية الواحد والأحد ونحوهما لما لا يشار إليه ويميز الحس منه شيئا عن شيء، وهذا خلاف اللغة، فإن أهل اللغة يسمون بالواحد والوحيد والأحد في النفي لما يشار إليه ويميز الحس منه شيئا من شيء، قال تعالى: {ذرني ومن خلقت وحيدا} [المدثر: 11] فسمى الإنسان وحيدا، وقال تعالى: {وإن كانت واحدة فلها النصف} [النساء: 11] فسمى المرأة واحدة، {وما أمرنا إلا واحدة} [القمر: 50] وقال: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} [التوبة: 6] فسمى المستجير وهو الإنسان أحدا.

وكذلك قوله تعالى: {ولم يكن له كفوا أحد} [الإخلاص: 4] فنفى أن يكون أحد كفوا له.

فلو كان ما يشار إليه لا يسمى أحدا، لم يكن قد نزهه عن مماثلة المخلوقات له، فإن المشهود من المخلوقات كلها يشار إليها، فإن لم يدخل في أحد، لم يكن قد نزه نفسه عن مماثلتها.

فهؤلاء لما أحدثوا أن مسمى الأحد والواحد لا يكون مشارا إليه، قالوا: والرب قد سمى نفسه أحدا وواحدا، فيجب أن لا يكون مشارا إليه.

ولغة الرسول التي خاطب بها الناس لم تكن موافقة لما ابتدعوه من اللغة.

وكذلك الذين قالوا: " هو جسم " غيروا اللغة، وجعلوا الجسم اسما لما يشار إليه، أو لكل موجود، ولكل قائم بنفسه.

ثم قالوا: هو موجود، أو قائم بنفسه، أو مشار إليه، فيكون جسما ولا يوجد في اللغة اسم الجسم، لا لهذا، ولا لهذا، ولا لهذا.

وقالوا: لا يلزم من كونه مشارا إليه أن يكون مركبا من الجواهر المفردة، ولا من المادة والصورة.

وقال أولئك: بل يلزم أن كل مركب، يسمى في اللغة جسما، فيلزم أن يسمى جسما، إذا قلنا: هو مشار إليه، أو يرى بالأبصار، أو متصفا بصفات تقوم به.

وليس ما ذكروه عن اللغة بمستقيم، فإن أهل اللغة لا يعنون بالجسم المركب، بل الجسم عندهم هو الجسد، ولا يسمون الهواء جسما.

إذا تبين هذا، فتمثيل هؤلاء النصارى باطل، على قول كل طائفة من طوائف المسلمين.

فمنهم من يقول: الجسم - في اللغة - هو المركب، والله ليس بمركب، فليس بجسم. لا يقولون بما ذكروه من أن الله له وجه يوليه إلى كل مكان، وجنب ونحو ذلك.

وكذلك من قال: إن الله ليس بمركب، وسماه جسما، بمعنى أنه قائم بنفسه، أو لم يسمه جسما، لا يقول بذلك أيضا، ومن حكى عنه يثبت له خصائص الأجسام المركبة، فهؤلاء إن أطلقوا ما نفاه، فلا حجة للنصارى عليهم، وإن لم يطلقوه، فحجتهم أبعد.

فقد تبين أنه ليس لهم حجة على أفسد الناس قولا في التجسيم، فضلا عن غيرهم.

الوجه السادس: أن يقال لهؤلاء النصارى: إما أن تعنوا بلفظ الجسم المعنى اللغوي وهو الجسد، وإما أن تعنوا به المعنى الاصطلاحي عند أهل الكلام، كالمشار إليه مثلا.

فإن عنيتم الأول، لم يلزم من نفي ذلك نفي ما ذكرتموه من الصفات لا سيما وأنتم تقولون: إنه جوهر، وقسمتم الجوهر إلى لطيف وكثيف.

فإذا كان الكثيف هو الجسم، واللطيف جوهر ليس بجسم، لم يمتنع على مثل هذا أن يكون له ما يناسبه من الصفات كالملائكة،

فإن الملائكة لا يمتنع وصفها بذلك، وإن لم تكن أجساما على هذا الاصطلاح، بل هي جواهر روحانية، وكذلك روح الإنسان التي تخرج منه، لا يمتنع وصفها بما يناسبها من ذلك، وإن كانت ليست بجسم على هذا التقدير.

فتبين أن نفي مسمى الجسم اللغوي عن الشيء، لا يمتنع اتصافه بما ذكر من الصفات وأمثالها.

وإن عنيتم بالجسم القائم بنفسه أو المشار إليه، لم يمتنع - عندكم - أن يكون جسما، فإنكم سميتموه جوهرا، وعنيتم القائم بنفسه.

فإن قام الدليل على أن كل قائم بنفسه يشار إليه، كان أيضا مشارا إليه.

وإن قام دليل على أنه قائم بنفسه لا يشار إليه، كان جوهرا وجسما عند من يفسر الجسم بالقائم بنفسه، ومن فسره بالمشار إليه لم يسم عنده جسما، فتبين أنه على - أصلكم - لا يمتنع أن يسمى جسما مع تسميتكم له جوهرا، إلا إذا ثبت أن من الموجودات ما هو جوهر قائم بنفسه لا يشار إليه، وهذا لم يقيموا عليه دليلا، وليس هذا قول أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، وإنما هو قول طائفة من الفلاسفة، وقليل من أهل الملل وافقوهم.

ثم يقال لكم: أنتم قلتم: إنه حي ناطق، وله حياة ونطق، بل زدتم على ذلك حتى جعلتموه أقانيم ثلاثة.

ومعلوم أن الحياة والنطق لا تعقل إلا صفة قائمة بموصوف، ولا يعلم موصوف بالحياة والنطق إلا ما هو مشار إليه، بل ما هو جسم كالإنسان.

فإن جاز لكم أن تثبتوا هذه الأعراض في غير جسم، جاز لغيركم أن يثبت المجيء واليد ونحو ذلك لغير الجسم.

وإن قلتم: هذا لا يعقل إلا لجسم، قيل لكم: وذلك لا يعقل إلا لجسم، فإن رجعتم إلى الشاهد، كان حجة عليكم، وإن جاز لكم أن تثبتوا في الغائب حكما على خلاف الشاهد، جاز لغيركم، وحينئذ فلا تناقض بين ما نفاه المسلمون وأثبتموه، لو كان ما ذكرتموه عنهم من النفي والإثبات حقا على وجهه، فكيف وقد وقع التحريف في الطرفين؟

الوجه السابع: أن يقال: غاية مقصودكم أن تقولوا: إن المسلمين لما أطلقوا ألفاظا ظاهرها كفر عندهم، لمجيء النص بها، وهم لا يعتقدون ظاهر مدلولها، كذلك نحن أطلقنا هذه الألفاظ التي ظاهرها كفر، لمجيء النص بها، ونحن لا نعتقد مدلولها.

فيقال لكم: أولا: إن ما أطلقه المسلمون من نصوص الصفات أطلقتموه أنتم، كما وردت به التوراة، فهذا مشترك بينكم وبينهم، وما اختصصتم به من التثليث، والاتحاد لم يشركوكم فيه.

ثم يقال ثانيا: إن المسلمين أطلقوا ألفاظ النصوص، وأنتم أطلقتم ألفاظا لم يرد بها نص.

والمسلمون قرنوا تلك الألفاظ بما جاءت به النصوص من نفي التمثيل.

وأنتم لم تقرنوا بألفاظكم ما ينفي ما أثبتموه من التثليث والاتحاد.

والمسلمون لم يعتقدوا معنى باطلا.

وأنتم اعتقدتم من التثليث في الأقانيم والاتحاد ما هو معنى باطل.

والمسلمون لم يسموا صفات الله بأسماء أحدثوا تسمية الصفات بها وحملوا كلام الرسل عليها.

وأنتم أحدثتم لصفات الله أسماء سميتموه أنتم بها لم تسمعه الرسل، وحملتم كلام الرسل عليها.

والمسلمون لم يعدلوا عن النصوص الكثيرة المحكمة البينة الواضحة إلى ألفاظ قليلة متشابهة.

وأنتم عدلتم عن هذا إلى هذا.

والمسلمون لم يضعوا لهم شريعة اعتقاد غير ما جاءت به الرسل.

وأنتم وضعتم شريعة اعتقاد غير ما جاءت به الرسل.

والمسلمون لم يقولوا قولا لا يعقل.

وأنتم قلتم قولا لا يعقل.

والمسلمون لم يتناقضوا، فيجعلوا الإله واحدا ويجعلونه اثنين، بل ثلاثة، وأنتم تناقضتم.

فهذه الفروق وغيرها مما يبين فساد تشبيهكم أنفسكم بالمسلمين.

الوجه الثامن: قولكم: وكذلك - نحن النصارى - العلة في قولنا: (إن الله ثلاثة أقانيم، أب، وابن، وروح قدس، أن الإنجيل نطق به. فيقال لكم: هذا باطل، فإنه لم ينطق لا الإنجيل ولا شيء من النبوات بأن الله ثلاثة أقانيم، ولا خص أحد من الأنبياء الرب بثلاث صفات دون غيرها، ولا قال المسيح ولا غيره: إن الله هو الأب والابن وروح القدس، ولا إن له أقنوما هو الابن، وأقنوما هو روح القدس، ولا قال: إن الابن كلمته أو علمه أو حكمته أو نطقه، وإن روح القدس حياته، ولا سمى شيئا من صفاته ابنا ولا ولدا، ولا قال عن شيء من صفات الرب إنه مولود، ولا جعل القديم الأزلي مولودا، ولا قال لا عن قديم ولا مخلوق، إنه إله حق من إله حق، ولا قال عن صفات الله إنها آلهة، وإن الكلمة إله والروح إله، ولا قال إن الله اتحد لا بذاته ولا بصفاته بشيء من البشر، بل هذا كله مما ابتدعتموه وخرجتم به عن الشرع والعقل، فخالفتم الكتب المنزلة والعقول الصريحة، وكنتم ممن قيل فيهم: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} [الملك: 10]

فإنكم أنتم الذين سميتم نطق الله ابنا، وقلتم: سميناه ابنا ; لأنه تولد منه كما يتولد الكلام من العقل، فكان ينبغي أيضا أن تسموا حياته ابنا ; لأنها منبثقة منه ومتولدة عنه أيضا، إذ لا فرق بين علم الرب وحياته.

فعلمه لازم له وحياته لازمة له، فلماذا جعلتم هذا ابنا دون هذا.

وقلتم: إنه مولود من الله، وإنه قديم أزلي، وأنتم تعترفون بأن أحدا من الأنبياء لم يسم علم الله ولا كلامه ولا حكمته مولودا منه.

والذي يعقله الخلق في المولود الذي يولد من غيره، كما يتولد العلم والكلام من نفس الإنسان، أنه حادث فيه أو منفصل عنه، لا يعقل أنه قائم به، وأنه متولد منه قديم أزلي.

ثم قلتم في أمانتكم، إنه تجسم من روح القدس، أو منه ومن مريم.

وهو إنما تجسم عندكم من الكلمة التي سميتموها الابن دون روح القدس.

وإن كان تجسم من روح القدس، فيكون هو روح القدس لا يكون هو الكلمة التي هي الابن.

ثم تقولون: هو كلمة الله وروحه، فيكون حينئذ أقنومين، أقنوم الكلمة وأقنوم الروح، وإنما هو عندكم أقنوم واحد.

فهذا تناقض وحيرة، تجعلونه الابن الذي هو الكلمة، وهو أقنوم الكلمة فقط

وتقولون: تجسم من روح القدس، ولا تقولون: إنه تجسم من الكلمة.

وتقولون: هو كلمة الله وروحه، والكلمة والروح أقنومان.

ولا تقولون: إنه أقنومان، بل أقنوم واحد.

وتقولون: إنه خالق العالم، والخالق هو الأب وتقولون: ليس هو الأب، وتقولون: إله حق من إله حق، وتقولون: إله واحد ساوى الأب في الجوهر.

وتقولون: ليس له مثل، وليس شيء من هذا في كلام أحد من الأنبياء، فكيف تشبهون أنفسكم بمن اتبع نصوص الأنبياء، ولم يحرفها؟

وغاية ما عندكم ما وجد في إنجيل " متى " دون سائر الأناجيل من أن المسيح - عليه السلام - قال: (عمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس) .

وأنتم قد عرفتم في كلام المسيح وغيره من الأنبياء أنهم يريدون بالابن صفة الله، لا كلامه ولا علمه ولا حكمته.

ولا يريدون بالابن: إله حق من إله حق، ولا مولود قديم أزلي، بل يريدون به وليه، وهو ناسوت لا لاهوت، كيعقوب والحواريين.

ولا يريدون بروح القدس نفس حياة الله، ولا يريدون به أنه رب حي، وإنما يريدون بها الملك أو ما ينزله الله على قلوب أنبيائه وأصفيائه من الهدى والتأييد ونحو ذلك.

فروح القدس يكون عندكم وعند المسلمين في الأنبياء وغيرهم، كما كانت في داود وغيره وكانت في الحواريين.

فلو قدر أن لفظ الابن وجد في كلام المسيح مستعملا تارة في كلمة الله، وتارة في وليه الناسوت، وروح القدس مستعملا تارة في حياته، وتارة فيما ينزله على قلوب أنبيائه - كان جزمكم بأنه أراد بذلك هنا صفات الله جزما باطلا.

فما وصف به المسيح من أنه ابن الله، ومن أن روح القدس فيه - قد وصف به غيره من الأنبياء والصالحين.

فإن كان الابن وروح القدس صفتين لله، وجب أن يكون غير المسيح لاهوتا وناسوتا كالمسيح، إذ الذي حل في المسيح حل في غيره.

ثم جزمكم بأن هذه الصفات أقانيم، وأنه ليس لله صفات ذاتية أو جوهرية أو نحو ذلك إلا هذه الثلاثة، ثم تفرقتم في الثلاثة، هل المراد بالأقانيم الوجود والعلم والحياة، أو الحكمة والكلام، أو النطق بدل لفظ العلم، أو المراد الوجود والعلم والقدرة، بدل الحياة، أو المراد الوجود والحياة والقدرة، أو المراد الوجود مع الحياة والعلم والقدرة؟ إلى أقوال أخرى يطول أمرها.

فيا ليت شعري، ما الذي أراد المسيح بلفظ الأب والابن وروح القدس من هذه الأمور التي اختلفتم فيها، لو كان مراده ما ادعيتموه من الأقانيم؟

والأقانيم - لفظا ومعنى - لا يوجد في كلام أحد من الأنبياء، بل قيل فيها: إنها لفظة رومية، يفسرونها تارة بالأصل، وتارة بالشخص، وتارة بالذات مع الصفة، ويفسرونها تارة بالخاصة، وتارة بالصفة.

فهلا تركتم كلام المسيح على حاله، ولم تحرفوه هذه التحريفات.

ولقد أحسن بعض الفضلاء إذ قال: لو سألت نصرانيا وابنه وابن ابنه عما يعتقدونه، لأخبرك كل واحد بعقيدة تخالف عقيدة الآخر، إذ كان أصل اعتقادهم جهلا وضلالا، ليس معهم علم لا نقل ولا عقل، فهم كما قال الله - تعالى -: {ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير} [الحج: 8]

وليس معهم بما اعتقدوه من التثليث والاتحاد علم، بوجه من الوجوه فضلا عما هو أخص من ذلك، وهو علم يهتدون به، فليسوا

بمهتدين فضلا عما هو أخص من الهدى وهو " كتاب منير " فليس معهم به كتاب منير.

ولو تكلمتم بهذا الكلام، وقلتم: لا نفهم معناه أو ظاهره باطل، وله تأويل مقبول، كما حكيتموه عمن تشبهتم به من المسلمين من أنه يقوله في الصفات - لكان هذا أقرب إلى القياس.

فكيف والأمر بعكس ما ذكرتم؟

وذلك يتبين بالوجه التاسع: وهو أنكم إنما ضللتم بعدولكم عن صريح كلام الأنبياء وظاهره، إلى ما تأولتموه عليه من التأويلات التي لا يدل عليها لفظه، لا نصا ولا ظاهرا، فعدلتم عن المحكم واتبعتم المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

فلو تمسكتم بظاهر هذا الكلام، لم تضلوا، فإن الابن ظاهره في كلام الأنبياء، لا يراد به شيء من صفات الله، بل يراد به وليه وحبيبه ونحو ذلك، وروح القدس يراد به صفته، بل يراد به وحيه وملكه ونحو ذلك، فعدلتم عن ظاهر اللفظ ومفهومه إلى معنى لا يدل عليه اللفظ البتة، فكيف تدعون أنكم اتبعتم نصوص الأنبياء؟

الوجه العاشر: أنكم بالغتم في ذم المسيح وإنجيله، كما بالغتم في سب الله وشتمه، وإن كنتم لا تعلمون أن ذلك ذم، فلم ترضوا أن تجعلوا ظاهر كلام المسيح ما أنتم عليه من الكفر حتى جعلتم ظاهره كفرا لا ترضونه، مثل ثلاثة آلهة متفقة أو متفرقة، أو ثلاثة أجسام مؤلفة، أو ثلاثة أجزاء مفرقة، أو ثلاثة أشخاص مركبة.

فهذا ونحوه هو الذي ادعيتم أنه ظاهر كلام المسيح - عليه السلام -.

وأنتم لا تقولون بهذا الظاهر، بل تكفرون قائله، كما يكفر المسلمون من يقول بالظاهر الذي هو التجسيم والتمثيل.

وهذا ما يتضمن أن كلام المسيح ظاهر في إثبات ثلاثة آلهة، وثلاثة أشخاص مؤلفة، وثلاثة أجزاء متفرقة، وثلاثة أشخاص مركبة.

كما زعمتم أن ظاهر القرآن التجسيم، وأنكم عدلتم عن هذا الظاهر إلى إثبات الأقانيم الثلاثة التي جعلتم فيها كلمة الله هي ابنه، وهو جوهر خالق يساويه في الجوهر، وأن المسيح هو هذا الابن المساوي للأب في الجوهر خالق العالمين، وديان يوم الدين والجالس فوق العرش عن يمين الرب، وأنه إله حق من إله حق، والروح أيضا إله ثالث، والآلهة الثلاثة إله واحد.

وهذا الذي ذكرتموه فيه من عيب المسيح وذمه ما ينتصر الله به للمسيح، وممن افترى عليه منكم ومن غيركم.

فإن المسيح - عليه السلام - على قولكم - لم يفصح لكم بأمانة تعتقدونها، ولا بتوحيد تعرفون به ربكم - عز وجل -، بل تكلم بما ظاهره إثبات ثلاثة آلهة، وثلاثة أجسام مركبة، وثلاثة أجزاء متفرقة، وأنكم أنتم أصلحتم ذلك حتى جعلتموه ثلاثة أقانيم، ووضعتم تلك الأمانة المخالفة لعقول ذوي العقول، ولكل كتاب جاء به رسول، مع أن المسيح لم ينطق بتثليث قط، ولا باتحاد، ولا بما يدل على ذلك.

وعمدتم على ما نقله " متى " عنه دون الثلاثة أنه قال: (عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس) .

وهذا الكلام ظاهر، بل نصه حجة على خلاف قولكم، وأنه أراد بالابن نفسه، وهو الناسوت، ولم يرد به صفة الله، وأراد بروح القدس ما أيده الله به، أو روح القدس الذي نفخ في أمه حتى حبلت به، لم يرد به صفة الله - تعالى -.

فتأولتم كلامه على خلاف ظاهره، تأويلا يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول، فكيف تدعون أنكم تمسكتم بظاهر كلامه؟

ولما كان قول النصارى في التثليث متناقضا في نفسه لا حقيقة له، صار مجرد تصوره التام كافيا في العلم بفساده من غير احتياج إلى دليل، وإن كانت الأدلة تظهر بفساده.

ولهذا سلك طائفة من العلماء في الكلام معهم هذا المسلك، وهو أن مجرد تصور مذهبهم كاف في العلم بفساده، فإنه غير معقول.

وقالوا: إن النصارى ناقضت في اللفظ وأحالت في المعنى، فلا يجوز أن يعتقد ما يدعون انتحاله لتناقضه.

وذلك أنهم يزعمون أن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، وهذا لا يصح اعتقاده ; لأنه لا يجوز أن يعتقد المعتقد في شيء أنه ثلاثة، مع اعتقاده فيه أنه واحد ; لأن ذلك متضاد.

وإذا كان ذلك كذلك، فليس يخلو من أن يعتقد أنه ثلاثة، أو أنه واحد.

وليس يحتاج أن يعرف بدليل بطلان قول من ادعى أن الواحد ثلاثة، وأن الثلاثة واحد ; لأن ذلك لا يعقل.

وهو كمن ادعى في الشيء أنه موجود معدوم، أو قديم محدث، أو في الجسم أنه قائم قاعد، متحرك ساكن.

وإذا كان كذلك، فتناقضه أظهر من أن يحتاج فيه إلى دلالة.

وإذا قال النصارى: إنه أحدي الذات ثلاثي الصفات.

قيل: لو اقتصرتم على قولكم: إنه واحد له صفات متعددة، لم ينكر ذلك عليكم جمهور المسلمين، بل ينكرون تخصيص الصفات بثلاث، فإن هذا باطل من وجوه متعددة:

منها: أن الأب عندكم هو الجوهر ليس هو صفة، فلا يكون له صفة إلا الحياة والعلم، فيكون جوهرا واحدا له أقنومان، وأنتم جعلتم ثلاثة أقانيم.

ومنها: أن صفات الرب لا تنحصر في العلم والحياة، بل هو موصوف بالقدرة وغيرها.

ومنها: أنكم تارة تفسرون روح القدس بالحياة، وتارة بالقدرة، وتارة بالوجود.

وتفسرون الكلمة تارة بالعلم، وتارة بالحكمة، وتارة بالكلام.

فبطلان قولكم في إثبات ثلاث صفات، كثير وأنتم مع هذا تجعلون كل واحدة منها إلها. فتجعلون الحياة إلها، والعلم إلها، وهذا باطل.

وأما من لم يثبت الصفات من المسلمين وغيرهم، فيردون عليكم من وجوه أخرى كقول بعضهم: إذا قيل: ألستم تقولون: إن الأبعاض الكثيرة تكون إنسانا واحدا، والآحاد الكثيرة عشرة واحدة، والأجسام الكثيرة دارا واحدة ومدينة واحدة، وما جرى هذا المجرى مما هو أكثر من أن يحصى، وأظهر من أن يخفى.

فكيف عبتم ذلك من النصارى؟ ولم أنكرتم أن يكون ثلاثة أقانيم جوهرا واحدا؟

قيل: إن قولنا: إنسان واحد، ودار واحدة، وعشرة واحدة، وما يجري هذا المجرى، أسماء تنبئ عن الجمل لا عن آحاد.

وإذا قلنا: إنسان واحد، فكأنا قلنا: جملة واحدة، وكذلك إذا قلنا: عشرة واحدة، لا أنا نثبته واحدا في الحقيقة.

كيف ونحن نقول: إن أبعاض الإنسان متغايرة، فكل بعض منها غير سائرها، وكذلك كل واحد من العشرة غير سائرها؟

فنحن وإن قلنا: إنسان واحد، فلسنا نثبته شيئا واحدا في نفسه، ولو أثبتنا ذلك، لتناقضنا مناقضة النصارى، وإنما قلنا: هي جملة واحدة، ولو قالت النصارى مثل ذلك، لم تتناقض، حتى يزعموا أنها ثلاثة أشياء جملة واحدة.

فيكون مرادهم في ذلك بوصفهم الأقانيم الثلاثة، بأنها جوهر واحد مما نريد بقولنا: الأبعاض الكثيرة - أنه إنسان واحد.

فيكون وصفهم لها بأنها جوهر، إنما ينبئ أنها جملة، وليس هذا مما يذهبون إليه، ولا يعتقدونه ولا يجعلون له معنى ; لأنهم لا يعطون حقيقة التثليث، فيثبتون الأقانيم الثلاثة متغايرة، ولا حقيقة التوحيد، فيثبتون القديم واحدا ليس باثنين ولا أكثر من ذلك.

وإذا كان ذلك كذلك، فما قالوه هو شيء لا يعقل، ولا يصلح اعتقاده، ويمكن أن يعارضوا على قولهم بكل حال.

فيقال لهم: إذا جاز عندكم أن تكون ثلاثة أقانيم جوهرا واحدا، فلم لا يجوز أن تكون ثلاثة آلهة جوهرا واحدا، وثلاثة فاعلين جوهرا واحدا، وثلاثة أغيار جوهرا واحدا، وثلاثة أشياء جوهرا واحدا، وثلاثة قادرين جوهرا واحدا، وكل ثلاثة أشياء جوهرا واحدا، وكل ما يجري هذا المجرى من المعارضة؟ فلا يجدون فصلا.

الوجه الحادي عشر: أن غلاة المجسمة الذين يكفرهم المسلمون أحسن حالا منكم شرعا وعقلا، وهم أقل مخالفة للشرع والعقل منكم.

فإذا كان هؤلاء خيرا منكم، فكيف تشبهون أنفسكم بمن هو خير من هؤلاء من أهل السنة من المسلمين الذين لا يقولون لا بتمثيل ولا بتعطيل.

وبيان ذلك أن التوراة والإنجيل وسائر كتب الله، وغير ذلك مما هو مأثور عن الأنبياء فيه نصوص كثيرة صريحة ظاهرة واضحة في وحدانية الله، وأنه لا إله غيره، وهو مسمى فيها بالأسماء الحسنى، موصوف بالصفات العلى، وأن كل ما سواه مخلوق له، ليس فيه تثليث ولا اتحاد الخالق بشيء من المخلوقات، لا المسيح ولا غيره.

وفيها ألفاظ قليلة مشكلة متشابهة، وهي - مع ذلك - لا تدل على ما ذكرتموه من التثليث والاتحاد، لا نصا ولا ظاهرا، ولكن بعضها يحتمل بعض ما قلتم، وليس فيها شيء يحتمل جميع ما قلتم، فضلا عن أن يكون ظاهرا فيه أو نصا، بل بعضها يحتمل بعض قولكم.

فأخذتم ذلك المحتمل وضممتم إليه من الكفر الصريح والتناقض القبيح ما صيرتموه أمانة لكم ; (أي عقيدة إيمان لكم) .

ولو كانت كلها تحتمل جميع ما قلتم، لم يجز العدول عن النص والظاهر إلى المحتمل، ولو كان بعضها ظاهرا فيما قلتم، لم يجز العدول عن النصوص الصريحة إلى الظاهر المحتمل.

ولو قدر أن فيها نصوصا صريحة قد عارضتها نصوص أخرى صريحة، لكان الواجب أن ينظروا بنور الله الذي أيد به عباده المؤمنين، فيتبعون أحسن ما أنزل الله، وهو المعنى الذي يوافق صريح المعقول وسائر كتب الله، وذلك النص الآخر إن فهموا تفسيره، وإلا فوضوا معناه إلى الله - تعالى - إن كان ثابتا عن الأنبياء.

وهؤلاء عدلوا عما يعلم بصريح المعقول، وعما يعلم بنصوص الأنبياء الكثيرة، إلى ما يحتمله بعض الألفاظ لموافقته لهواهم، فلم يتبعوا: {إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى} [النجم: 23]

وأما كفار المجسمة، فهؤلاء أعذر وأقل كفرا من النصارى، فإن هؤلاء يقولون كما يقوله معهم النفاة: إن ظواهر جميع الكتب هو التجسيم.

ففي التوراة والقرآن من الآيات التي ظاهرها التجسيم ما لا يحصى.

وليس فيها نص بما يقوله النفاة من أن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا هو فوق العرش، ولا يشار إليه، ولا يصعد إليه شيء، ولا ينزل منه شيء، ولا يقرب منه شيء، ولا يدنو من شيء، ولا يدنو إليه شيء، إلى نحو ذلك من النفي الذي يقوله نفاة الصفات.

فمعلوم أنه ليس في الكتب الإلهية لا التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن ولا غير ذلك من النبوات - من هذا حرف واحد، وكلها مملوءة مما يقول هؤلاء: إنه تجسيم.

فيقول هؤلاء: نحن اتبعنا نصوص الأنبياء، ولم نعدل عنها إلى غيرها، ولم نجد في نصوصهم نصا محكما صريحا بالنفي الذي يقوله نفاة الصفات.

ووجدنا نصوصهم كلها بالإثبات الذي يقولون: إنه تجسيم.

فكان على قولنا وقولهم نصوص الأنبياء ظاهرة في التجسيم، وليس لهم نص يناقض ذلك، فاتبعنا نصوصهم، وكل من عارض إثبات الصفات، لم يعارضها بنصوص صريحة عن الأنبياء، لكن بحجج عقلية.

فيقول هؤلاء: إن النصارى خالفوا صريح المعقول، وصريح كلام الأنبياء، واتبعوا قليلا من متشابه كلامهم، ونحن اتبعنا نصوص الأنبياء، ولم نخالف شيئا من صريح نصوصهم، ولكن مخالفنا يقول: إنا خالفنا العقل.

ونحن ننازعه في ذلك، وندعي أن العقل معنا لا علينا، وأن ما يدعيه من المعقولات التي تعارض كلام الأنبياء فهي باطلة.

أو يقولون: نحن والنصارى متفقون على أنا لا نعارض كلام الأنبياء بالشبه العقلية، لكن نحن اتبعنا كلامهم المحكم الظاهر الكثير، الذين لا مخالف له من كلامهم.

وهم خالفوا كلامهم الكثير المحكم، واتبعوا قليلا من المتشابه.

ويقول الغلاة من هؤلاء الذين يكفرهم أئمة المسلمين وجمهورهم الذي يحكي عنهم: أن الله ينزل إلى الأرض عشية عرفة، فيعانق المشاة ويصافح الركبان، وأنه يتمشى في الأرض، يكون موطئ أقدامه مروجا، ونحو ذلك.

ليس هذا القول بأعجب من قول النصارى الذين يقولون: إنه هو المسيح، وأن اللاهوت والناسوت اتحدا.

فنحن نقول أيضا: إنه حل في بعض الأجساد المخلوقة، كما يقوله النصارى.

أو نقول: إنه تجسد كما تتجسد الملائكة والجن، وهذا أقرب من قول النصارى: إنه اتحد بجسم المسيح.

فإنا قد عهدنا اللطائف من الملائكة تتصور في صورة بشرية، ولم نعهد ملكا صار هو والبشر شيئا واحدا.

فإذا لم يجز أن يتحد الملك بالبشر، فكيف يجوز أن يتحد رب الخلائق كلهم بالبشر؟

قالوا: وقد يحل الجني في بدن الإنسي ويتكلم على لسانه، إلا أنهما جوهران ومشيئتان وطبيعتان، ليس بينهما اتحاد، لكنه دخل فيه وتكلم على لسانه.

والنصارى يقولون: إن رب العالمين اتحد بالبشر، فمنهم من يقول: جوهر واحد، ومنهم من يقول: شخص واحد وأقنوم واحد، ومنهم من يقول: مشيئة واحدة، فلابد لكل منهم من نوع اتحاد، وهذا أبعد من حلول الجني في الإنسي، فإذا كان ما يقولونه ممتنعا في الجن والملائكة، فكيف برب العالمين؟

ومن غلاة المجسمة اليهود، من يحكىعنه أنه قال: (إن الله بكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة، وأنه ندم حتى عض يده وجرى منه الدم) ، وهذا كفر واضح صريح، ولكن يقولون: قولنا خير من قول النصارى، فإن النصارى يقولون: (إنه أخذ وضرب بالسياط وبصق في وجهه، ووضع الشوك على رأسه كالتاج، وصلب بين لصين، وفعل به من أقبح ما يفعل باللصوص قطاع الطرق.

وقد صرح كثير منهم بأن هذا فعل باللاهوت والناسوت جميعا.

وشريعة إيمانهم تدل على ذلك، وهو لازم لمن أنكر ذلك منهم، فإنه مع القول بالاتحاد الذي لا بد لطوائفهم الثلاثة منه، يمتنع أن تحل هذه العقوبات في هذا دون ذاك، فلا يمكن أن يحل في الناسوت دون اللاهوت، فإن هذا إنما يتصور إذا كان اثنين، ومن قال بالاتحاد، امتنع عنده أن يكون هناك اثنان.

وفي الجملة، فالنصارى المثلثة، إما أن يصرحوا بالاتحاد من كل وجه كاليعقوبية، وهؤلاء يصرحون بأن الآلآم حلت باللاهوت.

وإما أن يقولوا بالاتحاد من وجه كقول الملكية: إنهما شخص واحد، وقول النسطورية: هما مشيئة واحدة.

وحينئذ فما قالوه من التعدد الذي يوجب المباينة، وأنه لا يتصف أحدهما بما يتصف به الآخر، ولا يحل به ما حل به، فيكون متناقضا لهذا.

فأحسن أحوالهم أن يتناقضوا في الاتحاد، كما تناقضوا في التثليث، وهذا حقيقة قول خيار هؤلاء يتكلمون بالكفر وبما يناقضه، وبالتوحيد وبما يناقضه.

ومعلوم أن ما يفعله بنفسه من ندم وبكاء وحزن، هو دون ما يفعله أعداؤه به من ضرب وصفع وجعل الشوك على رأسه، وصلبه بين لصين، وأن استغاثته بمن يخلصه من ذلك أشد نقصا من ندمه وحزنه.

وإن قالوا: فعل هذا حتى يعلم عباده التشبه به - أمكن أولئك المجسمة الكفرة أن يقولوا: بكى وندم وعض يده ندما حتى جرى الدم، حتى يعلم عباده التوبة من الذنوب.

ففي الجملة، ما قال قوم من أهل الملل قولا في الله، إلا وقول النصارى أقبح منه.

ولهذا، كان معاذ بن جبل - رضي الله عنه - يقول: لا ترحموهم، فلقد سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، ولهذا يعظم الله فريتهم على الله في القرآن أشد من تعظيم افتراء غيرهم كقوله: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا - لقد جئتم شيئا إدا - تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا - أن دعوا للرحمن ولدا - وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا - إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا - لقد أحصاهم وعدهم عدا - وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} [مريم: 88 - 95] .

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: («يقول الله - عز وجل - كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته») .

ورواه البخاري عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: («قال الله - عز وجل -: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولا ولدا») .

وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: («ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله - عز وجل - إنه يشرك به ويجعل له ند وهو يعافيهم ويرزقهم ويدفع عنهم» .)

الوجه الثاني عشر: أن كل من يعتقد في التجسيم ما يعتقد، يمكنه أن يقول كما يقوله النصارى، فإن النصارى عمدوا إلى ما هو جسد من جنس سائر أجساد بني آدم، قالوا: إنه إله تام وإنسان تام، وليس فيه من الإلهية شيء، فما بقي مع هذا يمتنع أن يعتقد في نظائره ما يعتقد فيه.

فلو قال القائل: إن موسى بن عمران كان هو الله، لم يكن هذا أبعد من قول النصارى، فإن معجزات موسى كانت أعظم وانتصاره على عدوه أظهر، وقد سماه الله في التوراة إلها لهارون ولفرعون.

فإذا قيل فيه ما قالوه في المسيح: إنه أظهر المعجز بلاهوته، وأظهر العبودية بناسوته، لم يكن بطلان هذا أظهر من بطلان قول النصارى، بل متى جوزوا اتحاد اللاهوت بالناسوت، لم يمكنهم دفع ذلك عن أحد ممن يدعى فيه إلا بدليل خاص، بل إذا قيل لهم حل في كثير من الأنبياء والقداديس، لم يمكنهم نفي ذلك.

وإذا قالوا: لم يخبر بذلك أحد، ولم يبشر به نبي، أو هذا غير معلوم.

قيل لهم: غاية هذا كله، أنكم لا تعلمون ذلك، ولم يقم عندكم دليل عليه، وعدم العلم ليس علما بالعدم، فعدم علمكم وعدم علم غيركم بالشيء، ليس علما بعدم ذلك الشيء.

وكذلك عدم الدليل المعين لا يستلزم عدم المدلول عليه، فإن كل ما خلقه الله دليل عليه، ثم إذا عدم ذلك لم يلزم عدم الخالق، فلا يجوز نفي الشيء لعدم الدليل الدال عليه، إلا أن يكون عدم الدليل مستلزما لعدمه، كالأمور التي تتوفر الهمم على نقلها، إذا لم ينقل علم انتفاؤها.

والمقصود أنكم - مع العدم - يمكنكم النفي العام عن غير المسيح لعدم الدليل الدال عليه، فإنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول في نفس الأمر، لا سيما وهو كان متحدا بالمسيح عندهم أكثر من ثلاثين سنة، ومع هذا فكان يخفي نفسه ولا يظهر إلا العبودية.

فإذا قيل لهم: هكذا كان متحدا بغيره من الأنبياء والصالحين، ولكن أخفى نفسه لحكمة له في ذلك، أو أظهر على نفسه بعض خواص عباده، أو أظهر لطائفة لم ينقل إلينا خبرهم ونحو ذلك، لم يمكن مع تصديق النصارى فيما يدعونه الجزم بكذب هؤلاء، بل من جوز قول النصارى، جوز أن يكون متحدا بغير ذلك من الأجسام، فيجعل كثيرا من الأجسام المخلوقة هي رب العالمين، إذ كانت ليس هو متحدا بها في نفس الأمر.

فإذا اعتقدوا الاتحاد فيها، كما اعتقدته النصارى في المسيح، لم يكن ثم إله في الحقيقة إلا ذلك الجسم الناسوتي المخلوق.

لكن ظن الضال أنه رب العالمين، كما ظن عباد العجل أن العجل إله موسى. فإذا جاز أن يتحد الرب - عز وجل - ببعض الأجسام، لم ينكر على أصحاب العجل إذا جوزوا أن يكون رب العالمين اتحد بالعجل، وقد رأوا منه نوع خرق عادة. فليس للنصارى أن ينكروا على عباد العجل ولا عباد شيء من الأصنام إذا أمكن أن يكون الرب - عز وجل - حل فيها عندهم إن لم يقيموا دليلا على أن الرب لم يحل في ذلك.

فإذا قيل: إن موسى - عليه السلام - أنكر على عباد العجل.

قيل: نعم. وموسى ينكر على كل من عبد شيئا من المخلوقات، حتى لو عبد أحد الشجرة التي كلمه الله منها لأنكر عليه، فإنكاره على النصارى أعظم.

وموسى - عليه السلام - لم يقل قط: إن الله يتحد بشيء مع المخلوقات ويحل فيه، بل أخبر من عظمة الله - عز وجل - بما يناقض ذلك.

ففي التوراة من نهيه عن عبادة ما سوى الله ومن تعظيم أمره وعقوبة المشركين به، وبما أخبر به من صفات الله - عز وجل - ما يناقض قول النصارى.

ولهذا كان من تدبر التوراة وغيرها من كلام الأنبياء - عليهم السلام - من النصارى، تبين له أن دينهم يناقض دين الأنبياء كلهم، وأن ما هم عليه من التثليث والاتحاد والشرك، لم يبعث به أحد من الأنبياء - عليهم السلام -.

وما يفعلونه من دعاء المخلوقين كالملائكة، أو كالأنبياء والصالحين الذين ماتوا، مثل دعائهم مريم وغيرها، وطلبهم من الأموات الشفاعة لهم عند الله - لم يبعث به أحد من الأنبياء، فكيف وقد صوروا تماثيلهم ليكون تذكيرا لهم بأصحابها، ويدعون تلك الصور؟

وإن قصدوا دعاء أصحابها، فهم إذا صرحوا بدعاء أصحابها وطلبوا منهم الشفاعة وهم موتى وغائبون، كانوا مشركين.

فكيف إذا كان الدعاء في الظاهر لتماثيلهم المصورة، وهذا مما يعترف حذاق علمائهم بأنه مخالف لدين الأنبياء كلهم.

ولهذا وقع بينهم تنازع في اتخاذ الصور في الكنائس لما ابتدعه بعضهم، كما هو مذكور في أخبارهم، ولم يأت من ابتدع ذلك بحجة شرعية.

والمجسمة يعتقدون أن الله قديم أزلي، وأنه عظيم جدا، لا يقولون: إنه متحد بشيء من الأجسام المخلوقة، ولا يحل فيها. فمن

قال باتحاده وحلوله فيها، كان قوله شرا من قول هؤلاء المجسمة.

كما أن المتفلسفة الذين يقولون بأن الأفلاك أجسام قديمة أزلية واجبة بنفسها أولها علة تتشبه بها كما يقوله " أرسطو " وذووه، أو يثبتون لها علة فاعلة، لم تزل مقارنة لها، كما يقوله " ابن سينا " وأمثاله.

وهؤلاء قولهم شر من قول اليهود والنصارى ومشركي العرب الذين يثبتون للسموات والأرض خالقا خلقها بمشيئته وقدرته.

ولو قال من قال منهم: إن ذلك جسم فغايته أن يثبت جسما قديما أزليا موصوفا بصفات الكمال

فمن أثبت جسما قديما أزليا ليس موصوفا بصفات الكمال، كان قوله شرا من قول هذا.

فتبين أن المجسمة الذين يثبتون جسما قديما أزليا واجب الوجود بنفسه عالما بكل شيء قادرا على كل شيء مع قولهم: إنه تحله الحوادث وتقوم به الحركة والسكون - خير من قول الفلاسفة الذين يقولون: إن الأفلاك أجسام قديمة أزلية واجبة الوجود بنفسها، كما يقوله " أرسطو " وذووه، وخير من النصارى أيضا.

الوجه الثالث عشر: قولهم: من قال: ثلاثة آلهة مختلفة أو متفقة، أو ثلاثة أشخاص مركبة، أو غير ذلك مما يقتضي الاشتراك والتكثير والتبعيض والتشبيه - فنحن نلعنه ونكفره.

فيقال لهم: وأنتم أيضا تلعنون من قال: إن المسيح ليس هو إله حق من إله حق، ولا هو مساوي الأب في الجوهر، ومن قال: إنه

ليس بخالق، ومن قال: إنه ليس بجالس عن يمين أبيه، ومن قال أيضا: إن روح القدس ليس برب حق محي، ومن قال: إنه ليس ثلاثة أقانيم.

وتلعنون أيضا مع قولكم إنه الخالق من قال: إنه الأب، والأب هو الخالق، فتلعنون من قال: هو الأب الخالق، ومن قال: ليس هو الخالق، فتجمعون بين النقيضين.

فتلعنون من جرد التوحيد بلا شرك ولا تثليث، ومن أثبت التثليث مع انفصال كل واحد عن الآخر، وتجمعون بين النقيضين.

فمن أثبت أحدهما منفكا عن الآخر لعنتموه، كمن قال: عندي واحد ثلاثة.

فمن قال: هو واحد ليس بثلاثة - كذبه، ومن قال: هو ثلاثة ليس واحدا - كذبه.

ومن قال: عندي شيء موجود معدوم، فمن قال: هو موجود ليس بمعدوم - كذبه، ومن قال: معدوم ليس بموجود - كذبه.

ومن قال: عندي شيء هو حي ميت، هو عالم جاهل، هو قادر عاجز، فمن قال: هو حي ليس بميت - كذبه، ومن قال: هو ميت ليس بحي - كذبه.

فهكذا أنتم تجمعون بين قولين متناقضين، أحدهما حق والآخر باطل.

فمن قال الحق ونفى الباطل لعنتموه، ومن قال الباطل ونفى الحق لعنتموه.

وأنتم تشبهون الملاحدة من الجهمية والفلاسفة والباطنية الذين يسلبون عنه النقيضين، أو يمتنعون عن إثبات أحد النقيضين، فيقولون: لا نقول هو حي ولا ليس بحي، ولا هو عالم ولا ليس بعالم، ولا قادر ولا ليس بقادر.

بل منهم من يقول: لا نقول: هو موجود ولا معدوم، ولا نقول هو شيء ولا نقول ليس بشيء.

ومنهم من يقول: ليس بحي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز.

ومنهم من يقول: لا نطلق لا هذا ولا هذا.

فيقال لهم: رفع النقيضين كجمع النقيضين، والامتناع عن إثبات أحد النقيضين، كالامتناع عن نفي أحد النقيضين.

وكذلك من وصفه بأنه موجود واجب الوجود لذاته، ثم وصفه بصفات تستلزم عدمه، فقد جمع بين النقيضين.

وكل قول يتضمن جمع النقيضين وإثبات الشيء ونفيه، أو رفع النقيضين الإثبات والنفي - فهو باطل.

والنصارى في هذا الباب من أبلغ الناس تناقضا يقولون الشيء ويقولون بما يناقضه، ويلعنون من قال هذا ومن قال هذا.

وأيضا فكل طائفة منكم تلعن الأخرى، فإن أهل الأمانة تلعن الأريوسية وغيرهم من طوائف النصارى، وهم يلعنونكم وكل من فرقكم الثلاثة، النسطورية، واليعقوبية، والملكية، تلعن الطائفتين الأخريين.

فأنتم واليعقوبية تلعنون من يقول: إن مريم لم تلد إلها، ويقولون: إن مريم ولدت إنسانا تاما إلها تاما.

وأنتم والنسطورية تلعنون من قال: إنهما جوهر واحد بمشيئة واحدة وطبيعة واحدة.

ومن قال: إن اللاهوت تألم مع قولكم: إن اللاهوت مولود من مريم، ومع قولكم: المسيح الذي ولدته مريم مات وصلب، وفي أقوالكم من العجائب المتناقضة التي توجب أنكم ملعونون، ما يطول وصفه، فما منكم من أحد إلا وهو لاعن ملعون، فلعنكم من قال بهذه المقالات، لا يوجب أنكم على الحق، بل يوجب أن يكون من جملة الملعونين عندكم كطائفة من طوائفكم. والنصارى طوائف كثيرون مختلفون اختلافا كثيرا.

والطوائف الثلاثة المشهورة في الأزمان المتأخرة منهم - بعض طوائفهم، وإلا فهم طوائف كثيرون مختلفون في التثليث والاتحاد. وتجد كل صنف منهم أو غيرهم في مقالاتهم يحكي أقوالا غير الأقوال التي حكاها الآخرون.

ومن أجل من جمع أخبارهم عندهم، سعيد بن البطريق بترك الإسكندرية في أثناء المائة الرابعة من دولة الإسلام، وقد بحث لهم بحثا استقصى فيه - بزعمه - نصر مذهبهم، وهو ملكي، وقد ذكرت كلامه في غير هذا الموضع.

وفيهم من يقول: إن مريم زوجة الله، وفيهم من يجعلها إلها آخر كالمسيح.

وفيهم من يثبت أن المسيح ابن الله، الولادة المعقولة المعروفة من الحيوان.

والأمانة التي جعلوها عقيدتهم وأصل إيمانهم في زمن " قسطنطين " بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة، هي وغيرها من أقوالهم الظاهرة تدل على هذه الأمور المنكرة القبيحة دلالة بينة.

لكن علماؤهم يتأولونها بتأويلات تناقض مدلولها، مع فساد تلك المعاني التي يحملونها عليها عقلا وشرعا.

وليست تلك ألفاظ الأنبياء حتى يقال: حكمهم في ذلك حكم سائر الطوائف من المسلمين وغيرهم، الذين يقولون ما يرونه متشابها من كلام الأنبياء، ويقولون: إن الأنبياء تكلموا بما لا يعرف أحد معناه، أو إنهم خاطبوا الجمهور بما أرادوا به تفهيمهم أمورا ينتفعون بها، وإن كان ذلك كذبا باطلا في نفس الأمر.

فإن هؤلاء الطوائف، وإن كان فيهم من الضلال والجهل ما قد بسط في غير هذا الموضع، فقد فعلوا ذلك في ألفاظ الأنبياء التي لها حرمة النبوة.

بخلاف النصارى فإنهم وضعوا عقيدة وشريعة، ليست ألفاظها منقولة عن أحد من الأنبياء.

الوجه الرابع عشر: قولهم: ويراد بالأب والابن غير أبوة وبنوة نكاح، ومن أراد ولادة زوجة لعناه.

فيقال: لفظ الولادة المعروفة، إنما يكون من أصلين، وإنما يكون بانفصال جزء من الأصلين، وإنما يكون بحدوث المولود سواء أريد ولادة الحيوان أو غيرها، كما تتولد النار من بين الزنادين، فإذا قدح أحدهما بالآخر، خرج منهما جزء لطيف، فاستحال نارا، ثم سقط على الحراق.

وقد توسع بعض الناس في الولادة حتى عبر به عما يحدث عن الشيء، وإن لم يكن بانفصال جزء منه، كتولد الشعاع عن النار والشمس وغيرها ; لأن هذا يحدث بشيئين أحدهما ما يصدر عنه من الشمس والنار، والثاني المحل القابل له الذي ينعكس عليه، وهو الجرم المقابل له الذي يقوم به الشعاع.

فأما ما يحدث عن شيء واحد، فلا يعرف أنه يسمى ولادة إن قدر وجود ذلك، وكذلك لا يعرف ما يلزم الشيء الواحد أنه يسمى ولدا.

فأما ما يقوم بالموصوف من صفاته اللازمة له، فهذا أبعد شيء عن أن يسمى هذا الملزوم ولادة، بل لا تكون الولادة إلا عن أصلين.

وكل من قال: إن لله ولدا، لزمه أن يكون له صاحبة بأي وجه فسر الولادة، وأن يكون له ولد حادث، ولهذا قال تعالى: {وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون - بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم} [الأنعام: 100 - 101] . فاستفهم تعالى استفهام إنكار، ليبين امتناع أن يكون له ولد، إذ لم تكن له صاحبة، فإن الولد لا يكون إلا من أصلين، وهذا مما ينبغي أن يتفطن له، فإن جعل ما يلزم الشيء الواحد متولدا عنه لا يعرف، لا سيما صفاته القائمة به اللازمة له، كعلمه وحياته، لا سيما الصفات القديمة الأزلية

اللازمة لذات رب العالمين الذي لم يزل ولا يزال موصوفا بها، فإن صفات العبد اللازمة له، كحياته وقدرته ونحو ذلك، ليست متولدة عنه عند جميع العقلاء.

ولا يقول عاقل يعقل ما يقول: إن لون السماء وقدرها متولد عنها، ولا إن قدر الشمس وضوءها القائم بها اللازم لها متولد عنها، ولا يقول أحد: إن حرارة النار وضوءها القائم بها متولد عنها.

وإنما يقال: إن قيل فيما ليس بقائم بها، بل قائم بغيرها، أو فيما هو حادث بعد أن لم يكن، كالشعاع القائم بالأرض والحيطان، وهذا ليس بقائم بها، بل قائم بغيرها، هو حادث متولد عن أصلين لا عن أصل واحد.

فأما صفات المخلوق القائمة به اللازمة له، فلا يقول أحد من العقلاء: إنها متولدة عنه.

والنصارى يزعمون أن كلمة الله التي يفسرونها بعلمه أو حكمته، وروح القدس التي يفسرونها بحياته وقدرته - هي صفة له قديمة أزلية، لم يزل ولا يزال موصوفا بها.

ويقولون - مع ذلك -: إن الكلمة هي مولودة منه، فيجعلون علمه القديم الأزلي متولدا عنه، ولا يجعلون حياته القديمة الأزلية متولدة عنه.

وقد أصابوا في أنهم لم يجعلوا حياته متولدة عنه، لكن ظهر بذلك بعض مناقضاتهم وضلالهم، فإنه أنواع كثيرة، فإنه إن كانت صفة الموصوف القديمة اللازمة لذاته يقال: إنها ابنه وولده ومتولد عنه، ونحو ذلك، فتكون حياته أيضا ابنه وولده ومتولدا عنه، وإن لم يكن كذلك، فلا يكون علمه ابنه ولا ولده ولا متولدا عنه.

وأبلغ من ذلك أن روح القدس المنفصلة عنه القائمة بالأنبياء والصديقين، يقولون إنها ولده ولا إنها متولدة عنه، بل يخصون

ذلك بالكلمة، فلا ينقلون عن أحد من الأنبياء أنه سمى شيئا من صفات الله ابنا ولا ولدا، ولا قال: إن علم الله أو كلامه أو حكمته ولده أو ابنه، أو هو متولد عنه.

فعلم أن القوم في غاية التناقض في المعاني والألفاظ، وأنهم مخالفون للكتب الإلهية كلها، ولما فطر الله عليه عباده من المعقولات التي يسمونها نواميس عقلية، ومخالفون لجميع لغات الآدميين، وهذا مما يظهر به فساد تمثيلهم، فإنهم قالوا: تولدت الكلمة عنه، كما تولد الكلمة والحكمة فينا عن العقل.

فيقال لهم: لو قدر أن الأنبياء سموا ذلك تولدا، فما يتولد فينا حادث بعد أن لم يكن، وحدوثه يتسبب من فعلنا وقدرتنا ومشيئتنا.

فأما صفاتنا اللازمة لنا، التي لا اختيار لنا في اتصافنا بها، ولم نزل متصفين بها، فلا يقول عاقل: إنها متولدة فينا وعنا.

وأنتم تجعلون صفة الله القديمة اللازمة له التي لم يزل ولا يزال متصفا بها، متولدة عنه.

فلو قدر أن ما ذكرتموه من التولد العقلي أمر معروف في اللغة والعقل والشرع، لم يكن لكم أن تجعلوا علم الله وحكمته التي فسرتم بها كلمته ابنا له ومولودا منه، لم يزل مولودا منه ; لأن هذا باطل عقلا وشرعا ولغة.

أما العقل، فإن صفة الموصوف اللازمة له - وإن كان مخلوقا - ليست متولدة عنه، فكيف الصفة القديمة للموصوف القديم؟

ولو جاز هذا، جاز أن يجعل ما كان لازما لغيره ولدا له ومولودا منه، فيجعل كيفيات الأشياء وكمياتها متولدة عنها وأمثالها.

ويقال: إن طول الجسم وعرضه وعمقه متولد عنه، وإن حياة الحي متولدة عنه، وإن القوى والطبايع التي جعلها الله في المخلوقات متولدة عنها.

وأما الشرع، فإن هذا لو كان متولدا وهو في بعض اللغات يسمى ولدا، لم يجز أن يحمل على ذلك كلام الأنبياء، إلا أن يكون في لغتهم يسمى ولدا.

وكل من نظر في كتب الأنبياء من علماء النصارى وغيرهم، لم يجد أحدا من الأنبياء يسمي علم الله وكلمته وحياته ولدا له، ولا ابنا له، ولا قال: إن ذلك يتولد عنه.

فقولهم عن المسيح: عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس: إنه أراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية، وإنها متولدة منه، وإنه أراد بروح القدس حياة الله القديمة الأزلية - كذب محض على المسيح - عليه السلام - لا يوجد قط في كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء أنهم سموا علم الله وحكمته، ولا شيئا من صفاته القائمة به ابنا، ولا سموا حياته روح القدس.

وأما اللغة، فإن هذا التعبير الذي ذكروا - وهو تسمية صفات الموصوف اللازمة له ولدا وابنا ومتولدا - لا يعرف في لغات بني آدم المعروفة.

وقد يتبنى الرجل ولد غيره فيتخذه ولدا ويجعله بمنزلة الولد، وإن لم يكن متولدا عنه، كما كانت تفعله أهل الجاهلية من العرب وغيرهم، ولهذا نزه الله - تعالى - نفسه عن الولادة وعن اتخاذ الولد فقال تعالى: {ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون} [الصافات: 151] وقال تعالى: {وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون - بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم} [الأنعام: 100 - 101] . وقال تعالى: {لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد} [الإخلاص: 3]

وأما اتخاذ الولد، ففي مواضع متعددة، كقوله تعالى: {وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك} [الإسراء: 111] وقوله تعالى: {وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون - بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} [البقرة: 116 - 117] . وقوله: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون - لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون - يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون - ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين} [الأنبياء: 26 - 29] . وقوله: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض} [المؤمنون: 91] وقوله: {لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء} [الزمر: 4]

وأهل الكتاب يذكرون أن في كتبهم تسمية عباد الله الصالحين ابنا، وتسمية الله أبا، وتسمية المصطفين أبناء، وهذا إذا كان ثابتا عن الأنبياء، فإنهم لا يعنون به إلا معنى صحيحا واللفظ قد يكون له في لغة معنى، وله في لغة أخرى معنى غير ذلك، والمراد بهذا الولد والابن لا ينافي كونه مخلوقا مربوبا عبدا لله - عز وجل -.

وأما تسمية شيء من صفات الله ابنا أو ولدا، فهذا لا يعرف عن أحد من الأنبياء، ولا الأمم أهل اللغات سوى مبتدعة النصارى. ولم يبق للتولد إلا معنيان: أحدهما: أن ينفصل عنه جزء، والثاني: أن يحدث عنه شيء، إما باختياره، وإما بغير اختياره وقدرته، كحدوث الشعاع عن النار والشمس.

وكل من الأمرين لا يكون إلا عن أصلين، ولا بد أن يكون حادثا، لا يكون من صفاته اللازمة له، فيمتنع أن يتولد عنه شيء إن لم يكن معه أصل آخر يتولد عنهما.

والتولد عنه بغير قدرته ومشيئته، ممتنع عند أهل الملل، المسلمين واليهود والنصارى وسائر الأمم، سوى طائفة من المتفلسفة يقولون: إنه موجب بذاته مستلزما لما يصدر عنه، فهؤلاء قولهم يناسب هذا التولد.

والنصارى تكفر هؤلاء، لكن قد ضاهوهم في القول، كما قال تعالى: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [التوبة: 30] .

وهذا قاله طائفة من اليهود، وهو معروف عن شخص يقال له فنحاص بن عازورا وأتباعه.

قال أبو محمد بن حزم: والصدوقية طائفة من اليهود نسبوا إلى رجل يقال له صدوق، وهم يقولون - من بين سائر اليهود -: إن العزير ابن الله، وكانوا بجهة اليمن.

ولكن المتفلسفة الذين يقولون بصدور العقول والأفلاك عنه، وإن سمي ذلك تولدا، فهم يجعلون ولده منفصلا عنه، لكن يثبتون ولدا قديما أزليا صدر عنه بغير اختياره، ويجعلون الشيء الواحد متولدا عنه.

وسائر الطوائف الذين أثبتوا لله ولدا، جعلوه حادثا منفصلا عنه.

فأما جعل صفته القائمة به ولدا له ومولودا، فهذا لا يعرف عن غير النصارى، فإذا أثبتوا له ولدا وابنا غير مخلوق، والصفة القائمة به اللازمة له، لم تتولد عنه ولا تسمى ابنا ولا ولدا عند أحد من الأنبياء وغيرهم - تعين أن يكون الولد إما جزءا منفصلا عنه، وإما معلولا له صادرا عنه بغير قدرته ومشيئته، وأي القولين قالوه فهم فيه كفار مضاهئون لقول الذين كفروا من قبل.

وبعض علمائهم، وإن أنكر ذلك، لكنهم يقولون ما يستلزم ذلك ويشبهونه بالشعاع من الشمس، ويقولون عن الروح: هو منبثق من الله خارج منه.

وهذا كله يناسب الولادة التي هي خروج شيء منه، أو حدوث شيء عنه بغير اختياره ومشيئته، ولا بد له - مع ذلك - من محل يقوم به، فإن الشعاع لا يقوم إلا بالأرض.

والأمر المنبثق الخارج من غيره، إما أن يكون جوهرا قائما بنفسه، أو صفة قائمة بغيرها.

فإن كان جوهرا، فقد انفصل من الرب جزء.

وإن كان عرضا، فلا بد له من محل، فيكون متولدا عن أصلين.

وتشبيههم بتولد الكلام عن العقل تشبيه باطل، فإن ذلك يحصل بقدرة الإنسان ومشيئته، وهو حادث بعد أن لم يكن.

هذا إذا عرف أن ما يقوم بقلب الإنسان من علم وحكمة، يقال: إنه يتولد عنه، ويقال: إنه ابنه، مع أن هذا أمر غير معروف في اللغات، ولو كان معروفا في لغة بعض الأمم، لم يجز أن يفسر به كلام الأنبياء، إن لم يكن معروفا في لغتهم.

وأما ما يدعونه، فإنهم يقولون: إن الكلمة لازمة لذات الله أزلا وأبدا، وهي مولودة منه، مع أنها غير مصنوعة، فهذا كلام متناقض باطل من وجوه.

فإن المتولد عن الشيء لا يتولد إلا عنه وعن غيره، وأما الشيء الواحد فلا يتولد عنه وحده شيء، وأيضا فإن ما تولد عن غيره لم يكن حادثا، وأما الصفة القديمة اللازمة لذات الرب فليست مولودة له، ولا متولدة عنه، بل هي قائمة به لازمة لذاته.

وأيضا، فإن المولود اسم مفعول، يقال: ولده يلده فهو مولود، وهذا لا يقال إلا في الحادث المتجدد، فإنه مفعول فعل الوالد.

والقديم الأزلي لا يكون مفعولا مولودا.

وأيضا فتسمية الصفة القديمة الأزلية مولودا وابنا، لا يوجد في كلام أحد من الأنبياء - عليهم السلام -.

فهب أن هذا مما يسوغ لنا في اللغة أن نقوله، لكن لا يجوز أن نحدث لغة غير لغة الأنبياء، ونحمل كلام الأنبياء عليها، فإن هذا كذب عليهم.

وهكذا تفعل النصارى وأمثالهم من أهل التحريف بكلام الأنبياء، يحدثون لهم لغة مخالفة للغة الأنبياء، ويحملون كلام الأنبياء عليه.

مثال ذلك أن الأنبياء أخبروا بأن الله إله واحد، وكفروا من أثبت إلهين اثنين، وأمروا بالتوحيد ودعوا إليه، وحرموا الشرك وكفروا أهله، وأخبروا أن الله واحد أحد، وكان مرادهم بذلك توحيده، وأنه لا يجوز أن يعبد إلا الله، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو، ليس مقصودهم بذلك نفي صفاته.

فلم يقصدوا بلفظ " الأحد والواحد " أنه ليس له علم ولا قدرة ولا شيء من الصفات.

فجاء طائفة من أهل البدع، ففسروا لفظ اسم " الواحد والأحد " بما جعلوه اصطلاحا لهم، فقالوا: الواحد الذي ليس فيه تركيب ولا ينقسم، ولو كان له صفات لكان مركبا، ولو قامت به الصفات لكان جسما، والجسم مركب من الجواهر المنفردة، أو من المادة والصورة، فلا يكون أحدا ولا واحدا.

فيقال: هذا الذي قالوه، لو قدر أنه صحيح في العقل واللغة، فليس هو لغة الأنبياء التي خاطبوا بها الخلق، فكيف إذا لم يكن هذا الواحد من لغة أحد من الأمم؟

بل جميع الأمم تسمي ما قام به الصفات واحدا، بل يسمونه وحيدا، وقد يسمونه في غير الإثبات أحدا، كقوله: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} [التوبة: 6] وقوله: {ذرني ومن خلقت وحيدا} [المدثر: 11] وأمثال ذلك.

وأما البحث العقلي في هذا، فقد بسطناه في غير هذا الموضع، وبينا أن ما يسميه هؤلاء المتفلسفة تركيبا، كقولهم: إن الشيء مركب من وجود وماهية، وقولهم: إن الأنواع مركبة من الأجناس والفصول، هو باطل عند جميع جمهور العقلاء.

وليس في الخارج إلا ذات متصفة بصفات، ليس في الخارج وجود القائم بنفسه، وماهية أخرى غير هذا الشيء الموجود القائم بنفسه مثلا.

ولكن قد يعنى بلفظ " ماهية " ما يتصور في الأذهان، وبالوجود ما يوجد في الأعيان، وحينئذ فهذه الماهية غير هذا الموجود، وحينئذ فيقال: هذه الماهية غير هذا الوجود.

وكذلك قولهم: إن الإنسان الموجود في الخارج مركب من الجنس والفصل، فإن الإنسان الموجود هو ذات متصفة بصفات هو وغيره من الموجودات.

ولكن يتصور في الذهن ما هو مركب من الحيوان والناطق، كما يتصور ما هو مركب من الحيوان والضاحك، وهذا تركيب ذهني لا تركيب في الخارج، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

وتبين أن ما جعلوه من الصفات داخلا في الماهية، وما جعلوه خارجا عنها لازما لها، وما هو مجموع أجزاء الماهية، يرجع عند التحقيق إلى ما هو مدلول عليه بالتضمن والالتزام والمطابقة.

ومن ذلك تركيب الجسم من الجواهر المفردة، أو من المادة والصورة.

وأكثر العقلاء ينكرون تركيب الجسم من هذا وهذا، كما قد بسط في موضع آخر.

والمقصود هنا، أن كلام الأنبياء لا يجوز أن يحمل إلا على لغتهم التي من عادتهم أن يخاطبوا بها الناس، لا يجوز أن يحدث لغة غير لغتهم، ويحمل كلامهم عليها.

بل إذا كان لبعض الناس - عادة ولغة - يخاطب بها أصحابه، وقدر أن ذلك يجوز له، فليس له أن يحمل ذلك، لغة النبي، ويحمل كلام النبي على ذلك.

ومن هذا إخبار الأنبياء بأن الله يقول ويتكلم وينادي ويناجي، وأنه قال كذا وتكلم بكذا، ونادى موسى ونحو ذلك.

والمعروف في لغتهم ولغة سائر الأمم، أن المتكلم من قام به الكلام، وإن كان متكلما بقدرته ومشيئته، لا يعرف في لغتهم أن المتكلم من أحدث كلاما منفصلا عنه، ولا أن المتكلم من قام به الكلام بدون قدرته ومشيئته.

فليس لأحد - إذا جعل اسم المتكلم لمن يحدث كلاما بائنا عنه، أو من قام به بدون قدرته ومشيئته - أن يحمل كلام الأنبياء على هذا.

بل المتكلم - عند الإطلاق - من تكلم بقدرته ومشيئته، مع قيام الكلام به.

وهذا هو المعروف في لغة الأنبياء وسائر الأمم عند الإطلاق، ونظائر هذا متعددة.

فمن فسر كلام الأنبياء بغير لغتهم المعروفة، فهم ممن بدل كلامهم وحرفه، والنصارى من هؤلاء.

وكذلك اسم العادل والظالم ونحوهما، فإن المعروف من كلام الأنبياء وغيرهم أن العادل من قام به العدل وفعل العدل بمشيئته وقدرته.

والظالم من قام به الظلم، وفعله بقدرته ومشيئته، لا يسمون من لم يقم به الظلم، ولكن قام بغيره، لكون قد جعل ذلك فاعلا له، ولا يسمون من لم يفعل الظلم - ولكن فعله غيره فيه - ظالما.

فمن جعل الظالم والكافر والفاسق من لم يفعل شيئا من ذلك ولكن فعله غيره فيه، أو جعل الظالم من لم يقم به ظلم فعله، ولكن جعل غيره متصفا به ظالما - فقد خرج عن المعروف من كلام الأنبياء وغيرهم.

وأبلغ من ذلك أن المحدث والحادث في لغة جميع الأمم، لا يسمى به إلا ما كان بعد أن لم يكن، والمخلوق أبلغ من المحدث والحادث

فليس لأحد - إذا أحدث اصطلاحا سمى به القديم الأزلي الذي لم يزل موجودا، ولكنه زعم أنه معلول لغيره، فسماه محدثا بهذا الاعتبار - أن يقول: أنا أحمل كلام الأنبياء الذي أخبروا به، أن السماوات والأرض

وما بينهما مخلوق أو مصنوع أو معقول أو محدث أو نحو ذلك من العبارات - على أن مرادهم بذلك أنه معلول، مع كونه قديما أزليا لم يزل.

وأما لفظ " القديم " فهو في اللغة المشهورة التي خاطبنا بها الأنبياء، يراد به ما كان متقدما على غيره تقدما زمانيا، سواء سبقه عدم أو لم يسبقه، كما قال تعالى: {حتى عاد كالعرجون القديم} [يس: 39] وقال تعالى: {تالله إنك لفي ضلالك القديم} [يوسف: 95] وقال " الخليل ": {أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين} [الشعراء: 75]

فلهذا كان القديم الأزلي الذي لم يزل موجودا، ولم يسبقه عدم - أحق باسم القديم من غيره.

وليس لأحد أن يجعل القديم والمتقدم اسما لما قارن غيره في الزمان لزعمه أنه متقدم عليه بالعلة، ويقول: إنه متقدم على غيره وسابق له بهذا الاعتبار، وإن ذلك المعلول متأخر عنه بهذا الاعتبار، ثم يحمل ما جاء من كلام الأنبياء وأتباع الأنبياء وعموم الخلق على هذا الاصطلاح لو كان حقا، فكيف إذا كان باطلا.

وما ذكره من التقدم والسبق والتأخر بغير الزمان، أمر غير موجود ولا معقول ولا يعرف في الوجود من فعل شيئا، وكان علة فاعلة له إلا وهو متقدم عليه سابق له، ليس مقارنا له في الزمان ألبتة، بل متقدم عليه تقدما زمانيا.

وكل من يعرف أنه سبب أو علة فاعلة، فإنه متقدم على مسببه ومعلوله، لكن قد يكون متصلا به ليس بينهما زمان آخر.

فيقال: ليس هذا متأخرا عن هذا ; أي هو متصل به ليس بينهما فصل.

ويقال: ليس ذلك متقدما على هذا ; أي ليس بينهما زمان، بل هو متصل به، إذ قد يراد بلفظ التقدم هذا، كقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: («الجنازة متبوعة، وليست بتابعة، ليس منها من تقدمها») ; أي من كان قد تقدمها، حتى لم يكن قريبا منها، لم يكن تابعا لها، كما جاء في الحديث الآخر: («الراكب خلف الجنازة، والماشي أمامها ووراءها، وعن يمينها ويسارها، قريبا منها») رواه أبو داود وغيره، وهو أبين حديث روي في هذا الباب في هذا الحكم، ومنه قوله تعالى: {ولا الليل سابق النهار} [يس: 40] أي لا يتقدم عليه، بحيث يكون بينهما انفصال، بل كل منهما متصل بالآخر.

والمقصود هنا أن معرفة اللغة التي خاطبنا بها الأنبياء وحمل كلامهم عليها - أمر واجب متعين، ومن سلك غير هذا المسلك، فقد حرف كلامهم عن مواضعه، وكذب عليهم وافترى.

ومثل هذا التحريف والتبديل قد اتفق المسلمون واليهود والنصارى على أنه وقع فيه خلق كثير من أهل الكتب الثلاثة، وأن التوراة والإنجيل حرفا بهذا الاعتبار، وكذلك القرآن حرفه أهل الإلحاد والبدع بهذا الاعتبار.

فأهل الكتاب نقلوا عن الأنبياء أنهم تكلموا بلفظ الأب والابن ومرادهم - عندهم - بالأب: الرب، وبالابن: المصطفى المختار المحبوب.

ولم ينقل أحد منهم عن الأنبياء أنهم سموا شيئا من صفات الله ابنا، ولا قالوا عن شيء من صفاته: إنه تولد عنه، ولا إنه مولود له.

فإذا وجد في كلام المسيح - عليه السلام - أنه قال: (عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس) ثم فسروا الابن بصفة الله

القديمة الأزلية، كان هذا كذبا بينا على المسيح، حيث لم يكن في لغته أن لفظ الابن يراد به صفة الله القديمة الأزلية.

وكذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء أن حياة الله تسمى روح القدس، وإنما يريدون بروح القدس ما ينزله الله - تبارك وتعالى - على الأنبياء والصالحين ويؤيدهم، كان تفسير قول المسيح: " روح القدس ": إنه أراد حياة الله - كذبا على المسيح.

وهذا من بعض الوجوه أفسد من قول بعض المتفلسفة: إن العقول والنفوس والأفلاك معلولة له متولدة عنه، لازمة له أزلا وأبدا، وإن كان هذا أيضا باطلا في صريح العقل، كما هو كفر بما أخبرت به الأنبياء، كما قد بسط في موضع آخر، فإنه لا يصدر شيء عن فاعل الأشياء بعد شيء لا يتصور أن يكون المفعول مقارنا للفاعل لا يتأخر عنه، ولا يكون التولد إلا عن أصلين.

والواحد من كل وجه الذي ليس له صفة ثبوتية، لا وجود له، ولو كان له وجود لم يصدر عنه وحده شيء، كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع أخر.

ومما يوضح ذلك، أن خواص النصارى وعلماءهم - مع تجويزهم أن يقال: إن المسيح ابن الله - يلزمهم أن تكون مريم صاحبة الله وامرأته، كما قال ذلك من يغلو منهم، ومنهم من يجعل مريم إلها مع الله، كما جعل المسيح إلها.

فإن قالوا بذلك، جعلوا لله صاحبة وولدا، وجعلوا المسيح ابن مريم وأمه إلهين من دون الله، كما فعل ذلك من فعله منهم.

فإنهم يعبدون مريم ويدعونها بما يدعون به الله - سبحانه - والمسيح، ويجعلونها إلها كما يجعلون المسيح إلها، فيقولون: يا والدة الإله، اغفري لنا وارحمينا، ونحو ذلك، فيطلبون منها ما يطلبونه من الله - عز وجل -.

ومنهم من يقول عن مريم: إنها صاحبة الله - سبحانه وتعالى -.

وبيان لزوم ذلك أن المسيح - عندهم - إنسان تام وإله تام، ناسوت ولاهوت، فناسوته من مريم، ولاهوته الكلمة القديمة الأزلية، وهي الخالق عندهم.

فالمسيح بين أصلين، ناسوت ولاهوت، فإذا كان الأب هو الله - عندهم - والكلمة المولودة عن الأب ابن الله، فمعلوم أن اللاهوت لما التحم بالناسوت ليصير منهما المسيح ازدوج به وقارنه، وهذا معنى الزوجية.

فكما أنهم قالوا: إن الولادة عقلية لا حسية، فكذلك الازدواج والنكاح عقلي لا حسي، فإن اللاهوت - على قولهم - ازدوج بناسوت مريم ونكحها نكاحا عقليا، وخلق المسيح من هذا وهذا.

وهم يقولون في الأمانة: إن المسيح تجسد من مريم ومن روح القدس.

فإن فسروا روح القدس بجبريل - كما يقوله المسلمون – فهو الحق، وبطل قولهم لكنهم يقولون: روح القدس هو الأقنوم الثالث، كما يقولون في الكلمة وهو اللاهوت عندهم.

فهم قد ذكروا أنه تجسد من الناسوت واللاهوت، فيلزمهم على هذا أن يكون المسيح هو الابن، وهو روح القدس، فيكون أقنومين، لا أقنوما واحدا، وقد تقدم تناقضهم في هذا.

والمقصود هنا، أنهم إذا قالوا: إن الرب أو بعض صفاته اتحد بما خلق من مريم، فلا بد أن يحصل له اتصال بمريم قبل اتصاله بما خلق منها، وذلك هو معنى النكاح والازدواج.

وعند جمهور النصارى أن مريم ولدت اللاهوت كما ولدت الناسوت، وهي أم اللاهوت، ويقولون في دعائهم: يا والدة الإله.

واللاهوت الذي ولدته مريم هو - عندهم - رب العالمين، واللاهوت اتحد بالناسوت عندهم، من حين خلق الناسوت في بطن مريم، لم يحدث بعد الولادة.

فإذا جاز أن يكون لرب العالمين عندهم أم ولدته بوجه من الوجوه، فإمكان أن يكون له صاحبة وزوجة أولى وأحرى، وليس في ذلك ما يحيله العقل والشرع إلا وهو لكونها أما للاهوت أشد إحالة.

فإن جاز أن يكون للاهوت أم والأم أصل، فلأن يكون له صاحبة هي زوجة ونظير - أقرب وأولى، فإن من المعلوم أن ولد ذلك الشيء، وهو المتفرع المتولد عنه، أنقص بالنسبة إليه من نظيره.

فإذا قالوا: إن لرب العالمين ولدا اتحد بالناسوت هو نظيره المساوي له في الجوهر، وقالوا: إن الناسوت أم هذا المسيح الذي

هو الله وهو ابن الله، وقالوا: إن الناسوت مريم، ولد اللاهوت، كما ولد الناسوت، ولم يكن هذا عيبا ينزه الرب عنه، فلأن يجعلوا له أم هذا الولد الذي حبلت به واتحد به اللاهوت وهو منها، وولدت اللاهوت - صاحبة وزوجة للأب، أولى وأحرى، وإلا فكيف تلد ابنه الذي هو اللاهوت ولا تكون صاحبته وامرأته؟

وهم يقولون: نحن سمينا علمه مولودا عنه ; لكونه تولد عنه تولد الكلمة عن العقل، وهذا الولد اتحد بالناسوت فسمينا المجموع ولدا.

وبهذا يفرقون بين كون المسيح ابنا وغيره من الأنبياء يسمى ابنا.

فإنهم يقولون: هؤلاء أبناء بالوضع، والمسيح ابن بالطبع ; أي أولئك سموا أبناء بمشيئة الرب وقدرته ; لأنه اصطفاهم، والكلمة التي جعلوها متحدة بالمسيح، هي عندهم متولدة عن الله تولدا قديما أزليا، لا يتعلق بمشيئته وقدرته، ولهذا قالوا: مولود غير مصنوع، فإن القديم الأزلي - مع كونه قائما بذاته - لا يكون مصنوعا عند أحد من العقلاء، ولا القائلين بقدم العالم.

فإذا كانت الكلمة اتحدت بالمسيح المخلوق من مريم والتحمت به، فإذا قيل - مع ذلك -: إن القديم مس المحدث أو لاصقه أو باشره، كان أيسر من هذا كله.

والمسيح ولد ولادة حادثة عندهم، غير الولادة القديمة التي للكلمة، فيلزم أن تكون مريم قد صارت زوجة وامرأة، بل نكحت نكاحا حادثا يناسب تلك الولادة المحدثة، قال تعالى: {أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم} [الأنعام: 101] ولهذا كان الحلول أسهل من الاتحاد.

فمن قال: إنه حل في جسد المسيح وماسه وباشره، كما يحل الماء في اللبن، كان أهون ممن يقول: إنه اتحد به والتحم به.

فإذا قيل: إن مريم امرأة القديم وصاحبته وزوجته، كان ما في هذا من إثبات مباشرته لها ومماسته لها واتصاله بها.

ومهما قدر من اتصال الزوج بزوجته، أهون مما قالوه من اتحاد القديم بالمحدث، ومصيره إياه، إما جوهرا واحدا، وإما شخصا واحدا، وإما مشيئة واحدة.

ولهذا كان كل عاقل يعلم أن النكاح الحسي أسهل من الولادة الحسية.

فالذكر من الحيوان إذا نكح الأنثى، فإنما مس الذكر للأنثى، لم تصر الأنثى متولدة عنه. فإذا جوزوا أن يكون للرب القديم الأزلي ما يتولد عنه ويتحد به، وهو محدث مخلوق، فلأن يكون له ما يمسه أولى وأحرى.

وإذا قالوا: إن المسيح إنما كان ابنا ; لأن الكلمة القديمة التي هي ابن، اتحدت به قبل، فقد يسمى الناسوت الذي اتحد به القديم ابنا عندكم، باسم القديم وجعلتموه إلها خالقا، فما المانع من جعل أم ذلك الناسوت الذي جعلتموه ابن الله، صاحبة لله وزوجة، باعتبار أن القديم الأزلي حصل منه ومنها ما هو ابن القديم الأزلي؟

الوجه الخامس عشر: أن يقال: لفظ الابن وروح القدس، قد جاء في حق غير المسيح - عندكم - حتى الحواريين عندكم يقولون: إن المسيح قال لهم: (إن الله أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم) ، ويقولون: إن روح القدس تحل فيهم.

وفيما عندكم من التوراة أن الرب قال لموسى: (اذهب إلى فرعون، فقل له: يقول لك الرب: إسرائيل ابني بكري، أرسله يعبدني، فإن أبيت أن ترسل ابني بكري، قتلت ابنك بكرك. فلما لم يرسل فرعون بني إسرائيل كما قال الله، قتل الله أبكار فرعون وقومه من بكر فرعون الجالس على السرير، إلى الأول من أولاد الآدميين، إلى ولد الحيوان إليهم.)

فهذه التوراة تسمي بني إسرائيل كلهم أبناء الله وأبكاره، وتسمي أبناء أهل مصر أبناء فرعون، فتوسع بتسمية سخال الحيوان أولاد المالك للحيوان.

وفي مزامير داود يقول: (أنت ابني، سلني أعطك) . وفي الإنجيل يقول عن المسيح: (أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم) ، وقال: (إذا صليتم فقولوا: يا أبانا الذي في السماء، قدوس اسمك، افعل بنا كذا وكذا) .

ويقولون عن القديسين: إن روح القدس يحل فيهم، وكذلك حلت في داود وغيره من الأنبياء، بل عندهم: إن الله يحل في الصديقين كلهم.

فإن كان الابن وروح القدس، يقتضي اتحاد اللاهوت بالناسوت، وجب أن يكون كل من الحواريين لاهوتا وناسوتا، وكذلك الأنبياء، فيكون النبي لاهوتا وناسوتا ; لأنه قد سمي عندكم ابن الله، ونطقت فيه روح القدس، لا سيما وأنتم قلتم في الأمانة: إنه روح ممجد مسجود له، ناطق في الأنبياء.

فإن كان هذا يوجب حلول اللاهوت في الناسوت أو اتحاده، لزم أن يكون غير المسيح من الأنبياء، بل والحواريين، بل وأبناء إسرائيل - لاهوتا وناسوتا، إذ كان الذي جعلتموه اللاهوت حل بغير المسيح واتحد به، أو سكن فيه، أو احتجب به، أو ما قلتم من الألفاظ التي استدللتم بها على أن اللاهوت حل في المسيح، كلفظ الابن وروح القدس - موجود عندكم في غير حق المسيح.

والمعجزات التي احتججتم بها للمسيح، قد وجدت لغير المسيح.

ولو قدر أن المسيح أفضل من بعض أولئك، فلا ريب أن المسيح - عليه السلام - أفضل من جمهور الأنبياء، أفضل من داود وسليمان وأصحاب النبوات الموجودة عندكم، وأفضل من الحواريين.

لكن مزيد الفضل يقتضي الفضيلة في النبوة والرسالة، كفضيلة إبراهيم وموسى ومحمد - صلوات الله عليهم وسلامه -، وذلك

لا يقتضي خروجه عن جنس الرسل، كما قال تعالى: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون} [المائدة: 75] وقال تعالى: {وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار - لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم - أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم - ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة} [المائدة: 72 - 75] .

وجماع هذا الجواب: أن ما يوصف به المسيح عندهم من كونه ابن الله، وكون الله حل فيه، أو ظهر أو سكن، وكون روح القدس أو روح الله حلت فيه، وكونه مسيحا - كل ذلك موجود عندهم في حق غير المسيح.

فليس للمسيح اختصاص بشيء من هذه الألفاظ، وإنما يوجد اختصاصه بلفظ الكلمة، وكونه تجسد من روح القدس، وهذا هو الذي خصه به القرآن، فإن الله قال: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} [النساء: 171] .

وفي الصحيحين عن عبادة بن الصامت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: « (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه - أدخله الله الجنة على ما كان من عمل) » فهذا الذي خصه به القرآن، هو الذي خصته الكتب المتقدمة، إذ كان القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه.

وأما سائر ما يوصف به ويدعون اختصاصه به من كونه ابنا لله وكونه مسيحا، فغيره أيضا في كتب الله يسمى ابنا لله ومسيحا، ولذلك ما يذكر من الألفاظ التي يحتجون بها على الحلول، مثل كون الرب ظهر فيه أو حل أو سكن، فإن هذه الألفاظ موجودة عندهم في حق غير المسيح بخلاف لفظ الاتحاد، فإنه لا يوجد عندهم عن الأنبياء لا في حق المسيح ولا غيره، كما لا يوجد عندهم عن الأنبياء لفظ " الأقانيم " ولا لفظ " التثليث " ولا " اللاهوت " و " الناسوت " ولا تسمية الله جوهرا، بل هذا كله مما ابتدعوه، كما ابتدعوا أيضا تسمية صفات الله ابنا وروح القدس، فهم ابتدعوا ألفاظا لم ينطق بها الأنبياء، أثبتوا لها معاني وابتدعوا استعمال ألفاظ الأنبياء في غير مرادهم، وحملوا مرادهم عليها.

والألفاظ المتشابهة التي يحتجون بها على اتحاد اللاهوت بالناسوت موجودة - عندهم - في حق غير المسيح.

فليس للمسيح خاصة في كلام الأنبياء، توجب أن يكون هو الله أو ابن الله، وتلك الألفاظ قد عرف - باتفاقهم واتفاق المسلمين -، أن المراد بها حلول الإيمان بالله ومعرفته وهداه ونوره ومثاله العلمي في قلوب عباده الصالحين، كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع وقد تقدم.

ومن قال من ضلال المسلمين: (إن الرب يتحد أو يحل في الأنبياء والأولياء، وإن هذا من السر الذي لا يباح به، فقوله من جنس قول النصارى في المسيح، وهذا كثير في كلام كثير من المشايخ والمدعين للمعرفة والتحقيق والتوحيد، فيجعلون توحيد العارفين أن يصير الموحد هو الموحد، ومنهم من يقول: إن الله يحل في قلب العارف ويتكلم بلسانه، كما يتكلم الجني على لسان المصروع، ويقول الأول:

ما وحد الواحد من واحد ... إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته

عارية أبطلها الواحد ... توحيده إياه توحيده

ونعت من ينعته لاحد

ومن هؤلاء من يقول: إن هذا هو السر الذي باح به الحلاج وغيره، وهذا عندهم من الأسرار التي يكتمها العارفون، فلا يبوحون بها إلا لخواصهم.

ومنهم من يقول: إنما قتل الحلاج ; لأنه باح بهذا السر وينشدون:

من باح بالسر كان القتل شيمته ... بين الرجال ولم يؤخذ له ثار

وأمثال ذلك.

وهؤلاء في دعواهم الاتحاد والحلول بغير المسيح، شر من النصارى.

فإن المسيح - صلوات الله عليه - أفضل من كل من ليس بنبي، بل هو أفضل من جماهير الأنبياء والمرسلين.

فإذا كان من ادعى أن اللاهوت اتحد به كافرا، فكيف بمن ادعى ذلك فيمن هو دونه؟

وهذا الاتحاد الخاص غير الاتحاد والحلول العام لقول الذين يقولون إنه حال بذاته في كل مكان، أو متحد بكل شيء.

وغلاة هؤلاء ومحققوهم يقولون: إنه عين الوجود، والوجود واحد.

فيجعلون الوجود الخالق القديم الواجب، هو عين وجود المخلوق المحدث الممكن.

وهؤلاء مثل ابن عربي الطائي، وصاحبه الصدر القونوي، وصاحبه العفيف التلمساني، وابن سبعين، وصاحبه الششتري، وعبد الله البلياني وعامر البصري وطوائف غير هؤلاء.

وهؤلاء يقولون: إن النصارى إنما كفروا لأنهم خصوا ذلك بالمسيح.

وحقيقة قول هؤلاء هو جحد الخالق وتعطيله، كما قال فرعون: {وما رب العالمين} [الشعراء: 23] وقال: {ما علمت لكم من إله غيري} [القصص: 38]

فإن فرعون ما كان ينكر هذا الوجود المشهود، لكن ينكر أن له صانعا مباينا له خلقه، وهؤلاء موافقون لفرعون في ذلك.

لكن فرعون أظهر الجحود والإنكار، فلم يقل " الوجود المخلوق هو الخالق ".

وهؤلاء ظنوا أنهم يقرون بالخالق، وأن الوجود المخلوق هو الخالق، وقد بسط الكلام على هؤلاء في آخر هذا الكتاب.

وهؤلاء لهم شعر نظموا قصائد على مذهبهم، كابن الفارض في قصيدته المسماة " بنظم السلوك " حيث يقول:

لها صلواتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلت

كلانا مصل واحد ساجد إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة

وما كان لي صلى سواي ولم تكن صلاتي لغيري في أدا كل ركعة

إلى أن قال:

وما زلت إياها وإياي لم تزل ... ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت

وقوله:

إلي رسولا كنت مني مرسلا ... وذاتي بآياتي علي استدلت

فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن ... منادى أجابت من دعاني ولبت

وقد رفعت ياء المخاطب بيننا ... وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي

إلى أمثال هذه الأبيات.

وكذلك ابن إسرائيل في شعره قطعة من هذا كقوله:

وما أنت غير الكون بل أنت عينه ... ويفهم هذا السر من هو ذائق

والتلمساني الملقب بالعفيف، كان من أفجر الناس، وكان أحذق هؤلاء الملاحدة.

ولما قرئ عليه كتاب " فصوص الحكم " لابن عربي قيل له: هذا الكلام يخالف القرآن، قال: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا.

فقيل له: إذا كان الوجود واحدا، فلماذا تحرم علي أمي وتباح لي امرأتي؟

فقال: الجميع عندنا حلال، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم.

وكلام هؤلاء كله متناقض ينقض بعضه بعضا.

فإن قوله: (هؤلاء المحجوبون) وقوله: (قلنا حرام عليكم) ، يقتضي الفرق بينه وبين المحجوبين، وبين المخاطب والمخاطب، وهذا يناقض وحدة الوجود.

وإذا قالوا: (هذه مظاهر للحق ومجال) فإن كان الظاهر غير المظهر، والمجلى غير المتجلي، فقد ثبت التعدد، وأن في الوجود اثنين ظاهرا ومظهرا، وإن جعلوهما واحدا، فقد بطل جوابهم.

[فصل: مناقشة النصارى في إطلاق لفظ الجوهر على الله تعالى]

فصل

قال الحاكي عنهم: فقلت فإنهم ينكرون علينا قولنا: إن الله - تعالى - جوهر قالوا إننا نسمع عن هؤلاء القوم أنهم ذوو فضل وأدب ومعرفة، ومن هذا صورته، وقد قرأ شيئا من كتب الفلاسفة والمنطق فما حقهم ينكرون هذا علينا وذلك أنه ليس في الوجود شيء إلا وهو إما جوهر وإما عرض؛ لأن أي أمر نظرناه وجدناه إما قائما بنفسه غير مفتقر في وجوده إلى غيره، وهو الجوهر، وإما مفتقر في وجوده إلى غيره لا قوام له بنفسه، وهو العرض ولا يمكن أن يكون لهذين القسمين قسم ثالث. فأشرف هذين القسمين القائم بذاته الغير مفتقر في وجوده إلى غيره. وهو الجوهر.

ولما كان الباري - تقدست أسماؤه - أشرف الموجودات؛ إذ هو سبب سائرها، أوجب أن يكون أشرف الأمور وأعلاها الجوهر؛ ولهذا قلنا إنه جوهر لا كالجواهر المخلوقة، كما نقول إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة، وإلا لزم أن يكون قوامه بغيره ومفتقر في وجوده إلى غيره، وهذا من القبيح أن يقال على الله - تعالى – فقلت لهم إنهم يقولون إنا إنما نمتنع من تسميه جوهرا؛ لأن الجوهر ما قبل عرضا وما شغل الحيز ولهذا ما يطلق عليه القول بأنه - تعالى - جوهر. قالوا: إن الذي يقبل عرضا ويشغل حيزا هو الجوهر الكثيف، فأما الجوهر اللطيف فما يقبل عرضا ولا يشغل حيزا؛ مثل جوهر النفس، وجوهر العقل، وجوهر الضوء، وما يجري هذا المجرى من الجواهر اللطيفة المخلوقة.

فإذا كانت الجواهر اللطيفة المخلوقة لا تقبل عرضا، ولا تشغل حيزا فيكون خالق الجواهر اللطائف والكثائف، ومركب اللطائف بالكثائف يقبل عرضا ويشغل حيزا؟ كلا.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال: أما تسمية الباري جوهرا. فهو من أهون ما ينكر على النصارى؛ ولهذا كان من الناس من ينكره من جهة الشرع - فقط - أو اللغة، ومنهم من ينكره من جهة العقل أيضا، ومنهم من يراه نزاعا لفظيا. وطائفة من المسلمين يسمونه

جوهرا وجسما أيضا. وذلك أن المسلمين في أسماء الله - تعالى - على طريقتين، فكثير منهم يقول: إن أسماءه سمعية شرعية، فلا يسمى إلا بالأسماء التي جاءت بها الشريعة، فإن هذه عبادة، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع.

ومنهم من يقول: ما صح معناه في اللغة، وكان معناه ثابتا له، لم يحرم تسميته به، فإن الشارع لم يحرم علينا ذلك، فيكون عفوا. والصواب القول الثالث؛ وهو أن يفرق بين أن يدعى بالأسماء أو يخبر بها عنه. فإذا دعي لم يدع إلا بالأسماء الحسنى كما قال - تعالى -: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه} [الأعراف: 180]

وأما الإخبار عنه فهو بحسب الحاجة؛ فإذا احتيج في تفهيم الغير المراد إلى أن يترجم أسماؤه بغير العربية، أو يعبر عنه باسم له معنى صحيح، لم يكن ذلك محرما.

وأما الذين منعوه من جهة العقل فكثير: منهم من يقولون: إن الجوهر ما شغل الحيز، وحمل الأعراض والله - سبحانه وتعالى - ليس كذلك، وهذا قول من نفى ذلك من أهل الكلام. ومنهم من يقول: الجوهر ما إذا وجد كان وجوده لا في موضوع، وهذا إنما يكون فيما وجوده زائد على ذاته، وواجب الوجود وجوده عين ذاته، فلا يكون جوهرا. وهذا قول ابن سينا وأمثاله من متأخري المتفلسفة.

وأما قدماء الفلاسفة؛ كأرسطو وأمثاله؛ فكانوا يسمونه جوهرا؛ وعنهم أخذت النصارى هذه التسمية؛ فإن أرسطو كان قبل المسيح

بأكثر من ثلاثمائة سنة ولهذا قال هؤلاء في كتابهم نعجب ممن ينكر ذلك وهو قد قرأ شيئا من كتب الفلاسفة والمنطق.

وأما اللغة: فإن لفظ الجوهر ليس من العربية العرباء؛ ولهذا لا يعرف في كلام العرب المحض، وإنما هو معرب كما ذكر ذلك الجوهري وغيره، قال الجوهري: الجوهر معرب، الواحدة جوهرة، فهو من العربية المعربة، لا من العربية العرباء، كلفظ سجيل، وإستبرق وأمثال ذلك من الألفاظ المعربة، وهذا اللفظ ليس موجودا في القرآن. ومع هذا فلما عرب كان معناه في اللغة هو الجوهر المعروف. وتسمية القائم بنفسه أو الشاغل للحيز جوهرا، فهو أمر اصطلاحي، ليس هو من الأسماء اللغوية ولا العرفية العامة، ولا الأسماء الشرعية.

وقد قيل: إنه مأخوذ من كلام الأوائل، كاليونان وغيرهم، فإنه يوجد في كلامهم تسمية القائم بنفسه جوهرا. وقد قيل: سموه بذلك؛ لأن جوهر الشيء أصله والقائم بنفسه هو الأصل. وقد يسمون العرض القائم بغيره جوهرا. وقيل: لأن لفظ الجوهر، فوعل، من الجهر؛ وهو الظهور والوضوح، والقائم بنفسه يظهر ويعرف قبل أن يعرف ما قام به من الأعراض.

والناس متفقون على إثبات الأعيان القائمة بنفسها التي تسمى جواهر أو أجساما، وتنازعوا في ثبوت الأعراض القائمة بها، والنزاع عند محققيهم لفظي، فإن عاقلا لا ينازع أن الجسم يتحرك بعد سكونه. لكن منهم من يقول: حركته ليست زائدة على ذاته. ومنهم من يقول: هي زائدة على ذاته. وهو نظير نزاعهم في الصفات: هل هي زائدة على الذات أو ليست زائدة؟ .

والتحقيق أن مسمى الإنسان إذا أطلق دخل فيه صفاته، وإذا ميز بين هذا وهذا قيل: الذات والصفات. ومن الناس من يخص بلفظ العرض ما لم يكن من الصفات لازما للموصوف، والصفات اللازمة يسميها صفات ذاتية جوهرية. ومنهم من يخص بالعرض

ما لا يبقى عنده زمانين، ويقول: صفات المخلوق تسمى أعراضا؛ لأنها لا تقبل زمانين بخلاف صفات الله، فإنها عنده باقية فلا تسمى أعراضا.

ومن نظار المسلمين من يسمي صفات كل موصوف أعراضا، وإذا كان كذلك فلا يدخل في أسماء الله التي تذكر في أصول الإيمان التي يجب اعتقادها من الأسماء ما هو اصطلاح طائفة من الناس، مع أنه يوهم معنى باطلا. وهذا الوضع مما اضطرب فيه - مع النصارى - كثير من الناس.

منهم من يجعل الصفات أعيانا قائمة بنفسها وجواهر قائمة بنفسها.

ومنهم من يجعل الأعيان القائمة بنفسها صفات، والصفات لا تقوم بأنفسها بل لا بد لها من موصوف تقوم به.

والأولون نوعان:

منهم من نفى الصفات، وقال: لو أثبتنا له حياة وعلما وقدرة لزم أن تكون هذه آلهة فإن القدم أخص وصفه، فلو أثبتنا قديما ليست هي الذات، لزم أن يشارك الذات في أخص وصفها، فتكون ذاتا أخرى قائمة بنفسها. وهذه طريقة كثير من نفاة الصفات من مبتدعة المسلمين، واليهود والنصارى احتجوا على نفي الصفات بأنا لو أثبتناها لزم أن تكون آلهة.

وقال من قال من المنتسبين إلى الإسلام: أنا لو أثبتنا الصفات لقلنا بقول النصارى، حيث أثبتوا لله الأقانيم، وحجة هؤلاء قائمة على النصارى، وهم النوع الثالث، فإنهم أثبتوا لله صفات جعلوها جوهرا قائما بنفسه، وقالوا: إن الله موجود حي ناطق، ثم قالوا حياته جوهر قائم بنفسه، ونطقه - وهو الكلمة - جوهر قائم بنفسه وقالوا في هذا: إنه إله من إله، وهذا إله من إله، فأثبتوا صفات لله وجعلوها جواهر قائمة بنفسها، ثم قالوا: الجميع جوهر، فكان في كلامهم أمور كثيرة من الباطل المتناقض. منهم من جعل الصفات جوهرا. ومنهم من جعل الجواهر المتعددة جوهرا واحدا.

والذين قالوا من نفاة الصفات المعتزلة والجهمية: إن من أثبت الصفات فقد قال بقول النصارى، هو متوجه على من جعل الصفات جواهر. وهؤلاء هم النصارى يزعمون أن الصفات جواهر آلهة، ثم قال هؤلاء: ولا إله إلا الله، فلا صفة له. وقالت النصارى: بل الأب جوهر إله، والابن جوهر إله، وروح القدس جوهر إله، ثم قالوا: والجميع إله واحد. ونفس تصور هذه الأقوال - التصور التام - يوجب العلم بفسادها. وأما الرسل وأتباعهم فنطقوا أن لله علما وقدرة وغير ذلك من الصفات، وثبتوا أن الإله إله واحد. فإذا قال القائل: عبدت الله ودعوت الله؛ فإنما دعا وعبد إلها واحدا؛ وهو ذات متصفة بصفات الكمال، لم يعبد ذاتا لا حياة لها ولا علم ولا قدرة، ولا عبد ثلاثة آلهة ولا ثلاثة جواهر، بل نفس اسم الله يتضمن ذاته المقدسة المتصفة بصفاته - سبحانه - وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه، ولا زائدة على مسمى اسمه، بل إذا قدر ذات مجردة عن الصفات، فالصفات زائدة على هذه الذات المقدرة في الذهن المجردة عن الصفات ليست الصفات زائدة عن الذات المتصفة بالصفات، فإن تلك لا تحقق إلا بصفاتها فتقديرها - مجردة عن صفاتها - تقدير ممتنع.

وقد تنازع المثبتة: هل يقال الصفات عين الذات، أم يقال ليست عين الذات؟ أم يقال: لا يقال هن غير الذات، ولا يقال ليست غير الذات؟ وتنازعوا في مسمى الغيرين: هل هما ما جاز مفارقة أحدهما الآخر مطلقا، أو ما جاز مفارقته بوجود أو زمان أو مكان، أو هما ما جاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر؟ وغاية ذلك منازعات لفظية.

وكثير منهم فرق في الصفات اللازمة بين بعضها وبعض؛ فجعل بعضها زائدا على الذات وبعضها ليس بزائد على الذات، وكان الفرق بحسب ما يتصوره، لا بحسب ما الأمر عليه في نفسه. فإذا أمكنهم تصور الذات بدون صفة قالوا: هذه زائدة، وإلا قالوا ليست زائدة. وهذا يقتضي أنها زائدة على ما تصوروه هم من الذات، لا أنه في الخارج ذات مجردة عن تلك الصفة، وصفة زائدة عليها، بل ليس إلا الذات المتصفة بتلك الصفات.

ولكن يجب الفرق بين أن يقال: إن الصفات غير الذات، وبين أن يقال: إنها غير الله؛ فإن اسم (الله) متناول لذاته المتصفة بصفاته. فإذا قال القائل: دعوت الله وعبدت الله؛ فلم يدع ذاتا مجردة ولا صفات مجردة، بل دعا الذات المتصفة بصفاتها فاسمه - تعالى - يتناول ذلك. فليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ولا زائدة على ذلك، وإن قيل إنها زائدة على الذات المجردة. ومن ظن أنها زائدة على الذات المتصفة بصفاتها التي تدخل صفاتها في مسماها، فقد غلط ولكن في الأذهان والألسنة زلق في هذا الموضع كثيرا.

فإذا قيل: الصفات مغايرة للذات، لم يكن في هذا من المحذور ما في قولنا: إن صفات الله غير الله؛ فإن اسم الله يتناول صفاته.

فإذا قيل: إنها غيره؛ فهم من ذلك أنها مباينة له وهذا باطل. ولهذا كان النفاة إذا ناظروا أئمة المسلمين، كما ناظروا الإمام

أحمد بن حنبل في محنته المشهورة فقالوا له: " ما تقول في القرآن وكلام الله، أهو الله أم غير الله؟ " عارضهم بالعلم؛ وقال لهم: " ما تقولون في علم الله، أهو الله أم غير الله؟ ". وأجاب - أيضا - بأن الرسل لم تنطق بواحد من الأمرين، فلا حجة لهم في كلام الله ورسوله، فإن الله لم يقل لكلامه: هو أنا، ولا قال: إنه غيري! حتى يقول القائل: إذا كان قد جعل كلامه غيره وسواه فقد أخبر أنه خالق لكل ما سواه! .

فإن كان الاحتجاج بالسمع؛ فلا حجة فيه، وإن كان الاحتجاج بالعقل؛ فالمرجع في ذلك إلى المعاني لا إلى العبارات. فإن أراد المريد بقوله: هل كلامه وعلمه غيره، أنه مباين له. فليس هو غيرا له بهذا الاعتبار. وإن أراد بذلك أن نفس الكلام والعلم ليس هو العالم المتكلم؛ فهو غير له بهذا الاعتبار. وإذا كان اللفظ مجملا لم يجز إطلاقه على الوجه الذي يفهم المعنى الفاسد. وأما

الذين جعلوا الأعيان القائمة بأنفسها صفات، فهم هؤلاء المتفلسفة النفاة للصفات ومن أشبههم؛ فإنهم قالوا: إن رب العالمين عقل وعاقل ومعقول.

ولفظ (العقل) عندهم وإن كانوا يقولون: هو جوهر قائم بنفسه، فقد صرحوا أيضا بأنه - نفسه - علمه، حتى صرحوا بأن رب العالمين علم، كما صرح بذلك ابن رشد وغيره، ونقلوه عن أرسطو، وأن العقول العشرة كل منها علم، فهو علم وعالم ومعلوم، بل قالوا: عقل وعاقل ومعقول، وعاشق ومعشوق وعشق، ولذيذ وملتذ ولذة، فجعلوه - نفسه - لذة وعقلا وعشقا، وجعلوا ذلك هو العالم العاشق الملتذ، وجعلوا نفس العلم نفس العشق ونفس اللذة؛ فجعلوه - نفسه - صفات، وجعلوه ذاتا قائمة بنفسها، وجعلوا كل صفة هي الأخرى، وهذا مما يعلم - بصريح العقل - بطلانه.

ومنهم من لا يصرح بأنه - نفسه - علم، فإنه يقول: هو عاقل ومعقول وعقل؛ يقول: إنه يعلم - نفسه - بلا علم علمه، بل هو العالم، وهو المعلوم وهو العلم. وحقيقة كلامهم تعود إلى قول أولئك؛ فإنهم إذا قالوا: إن العلم الذي يعلم به ذاته هو العالم وهو المعلوم؛ فقد جعلوا نفس العلم نفس العالم ونفس العلم نفس المعلوم وهي حقيقة قول أولئك، وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع.

الوجه الثاني: أن يقال لهم: أنتم تقولون إنكم متبعون للكتب الإلهية، وإذا كان كذلك لم ينبغ لكم في شريعة إيمانكم من الأسماء إلا ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام.

والأنبياء لم يسم الله أحد منهم جوهرا، وإنما سماه بذلك أرسطو وأمثاله، وهؤلاء كانوا مشركين يعبدون الأصنام ولم يكونوا يعرفون الله المعرفة الصحيحة، ولا يقولون: إنه خالق السماوات والأرض، ولا إنه بكل شيء عليم، ولا على كل شيء قدير، وإنما كانوا يعبدون الكواكب العلوية، والأصنام السفلية ويعبدون الشياطين ويؤمنون بالجبت والطاغوت، وإنما صاروا مؤمنين لما دخل إليهم دين المسيح، صلوات الله عليه وسلامه بعد الإسكندر المقدوني - صاحب أرسطو - بنحو ثلاثمائة سنة. ويقال: إنه آخر ملوكهم كان (بطليموس) وكانوا يسمون الملك من ملوكهم (بطليموس) كما يسمون القبط ملكها (فرعون) والحبشة ملكها (النجاشي) والفرس (كسرى) ونحو ذلك. وحينئذ فعدولكم عن طريقة الأنبياء والمرسلين. إلى طريقة الكفار والمشركين المعطلين من الضلال المبين.

وفي كتبهم: أن بولص لما صار إلى (أيثينية) دار الفلاسفة، وفيها دار الأصنام، وجد مكتوبا على باب دار العلماء: الإله الخفي الذي لا يعرف هو الذي خلق العالم.

فكانوا لا يعرفون رب العالمين، فكيف يعدل عن طريقة رسل الله وأنبيائه كموسى، وداود، والمسيح، إلى طريقة هؤلاء الكفار المشركين المعطلين؟ ! .

ولكن النصارى ركبوا دينا من دينين: من دين الأنبياء الموحدين ودين المشركين، فصار في دينهم قسط مما جاءت به الأنبياء، وقسط مما ابتدعوه من دين المشركين في أقوالهم وأفعالهم، كما أحدثوا ألفاظ الأقانيم، وهي ألفاظ لا توجد في كلام الأنبياء، وكما أحدثوا الأصنام المرقومة بدل الأصنام المجسدة، والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب، بدل الصلاة لها، والصيام في وقت الربيع، ليجمعوا بين الدين الشرعي والأمر الطبيعي وغير ذلك.

الوجه الثالث: قولهم: إن الذي يشغل حيزا ويقبل عرضا هو الجوهر الكثيف، فأما الجوهر اللطيف فما يقبل عرضا ولا يشغل حيزا، مثل جوهر النفس وجوهر العقل وجوهر الضوء. فيقال: الكلام في الجواهر. هل هي منقسمة إلى متحيز وغير متحيز أو كلها متحيزة؟ متصل بالكلام على نفس الإنسان الناطقة.

فنقول إن المسلمين من أعظم الناس معرفة بوجود الملائكة والجن، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكذلك سلف الأمة وأئمتها يعرفون وجود النفس التي هي روح الإنسان التي تفارق بدنه حين الموت، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة، وإن كان كثير من أهل الكتاب يزعم أنها عرض من أعراض البدن، أو جزء من أجزائه، فهذا قول محدث في الإسلام لم يذهب إليه أحد من السلف والأئمة، وإن كان محكيا عن أكثر المتكلمين، فليس الذين قالوا هذا من سلف الأمة ولا أئمتها، بل هم من أهل الكلام المحدث المذموم عند السلف. وأئمة الأمة وكثير من المتفلسفة الداخلين في أهل الملل يقولون: إن الذوات التي تسميها الأنبياء الملائكة هي التي تسميها المتفلسفة المشاءون عقولا، أو عقولا ونفوسا، وهذا غلط عظيم كما قد بسط في موضعه.

فإن العقول التي يثبتها هؤلاء المتفلسفة لا حقيقة لها عند الرسل وأتباعهم، بل ولا حقيقة لها في المعقول الصريح، بل حقيقة كلامهم أنها أعراض قائمة بنفسها. وقد صرحوا بأن واجب الوجود - نفسه - هو علم، وجعلوا نفس العلم هو نفس العالم، ونفس تصور هذا القول يكفي في العلم بفساده، كما أن هؤلاء المتفلسفة - أتباع أرسطو - لا يعرفون الملائكة، بل ولا الجن، وإنما علمهم معرفة الأجسام الطبيعية، وتكلموا في الإلهيات بكلام قليل نزر؛ باطله أكثر من حقه، كما قد بسط في موضع آخر.

وهؤلاء يزعمون أن العقل الأول أبدع ما دونه من العقول والأفلاك إلى أن ينتهي الأمر إلى العقل العاشر، فهو مبدع ما تحت فلك القمر. وهذا كله من أعظم الكفر عند الرسل وأتباعهم أهل الملل. فإن مضمون هذا أن ملكا من الملائكة خلق كل ما تحت السماء، وملكا فوقه خلق كل ما سوى الله - سبحانه - وهذا من أعظم الكفر في دين المرسلين وأهل الملل المسلمين واليهود والنصارى. قال - تعالى -: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون - لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون - يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون} [الأنبياء: 26 - 28]

فأخبر أن الملائكة لا تسبقه بالقول، ولا تعمل إلا بأمره، فضلا عن أن يكون ملك خلق كل شيء.

وهؤلاء يقولون: إن الوحي والكلام الذي جاءت به الرسل، إنما هو فيض من هذا العقل الفعال على قلوب الأنبياء. والله - تعالى - عند هؤلاء لم يكن يعرف موسى ولا عيسى ولا إبراهيم ولا محمدا ولا غيرهم من الرسل، ولا يعرف الجزئيات، بل عند أرسطو وأتباعه: أنه لا يعلم شيئا من الأشياء، بل ولا خلق عندهم شيئا، بل ولا يقدر عندهم على خلق شيء، فضلا عن أن يكون على كل شيء قدير وأن يكون أحاط بكل شيء علما.

وأرسطو وقومه كانوا مشركين يعبدون الأصنام بمقدونية وأثينية وغيرهما من مدائن فلاسفة اليونان، وكان وزيرا للإسكندر بن فيلبس المقدوني، وكان هذا قبل المسيح - عليه السلام - بنحو ثلاثمائة سنة، ولم يكن وزيرا لذي القرنين الذي بنى سد يأجوج ومأجوج، وعامة علم القوم علم الطبيعيات والحسابيات، وأما العلم الإلهي - وهو الذي يسمونه علم ما بعد الطبيعة، وهو منتهى فلسفتهم - فإنما تكلموا فيه على أمور كلية، قسموا الوجود إلى جوهر وتسعة أعراض يجمعها بيتان

زيد الطويل الأسود بن مالك ... في داره بالأمس كان متكى

في يده سيف نضاه فانتضى ... فهذه عشر مقولات سوا

وهي: الجوهر، والكم، والكيف، والأين، ومتى، والإضافة، والملك، والوضع، وأن يفعل، وأن ينفعل.

وقد نازعه أتباعه وغيرهم في هذا الحصر وقالوا: إنه لا دليل عليه. ومنهم من جعلها ثلاثة. ومنهم من قال غير ذلك وأثبت العلة الأولى بناء على حركة الفلك، وأنه يتحرك حركة شوقية، فلابد له مما يتشبه به. فالعلة الأولى هي غاية لحاجة الفلك إليها من جهة أنه متحرك ليتشبه بها كحركة المؤتم بإمامه، والمقتدي بقدوته، وقد يقولون: كتحريك المعشوق لعاشقه.

وكلام أرسطو في ذلك موجود، وقد نقلته بألفاظه وتكلمت عليه في غير هذا الموضع، وقد ذكر ذلك في مقالة اللام وهي آخر فلسفته ومنتهى حكمته.

وفي كتاب أثولوجيا " ولم يثبت أن الرب مبدع لفلك وعلة فاعلة، ولا يسمى واجب الوجود.

ولا قسم الموجودات إلى واجب قديم وممكن قديم، بل ذلك فعل المتأخرين؛ كابن سينا وأمثاله، وقد بسطنا الكلام عليهم في غير هذا الموضع.

والمتأخرون الذين سمعوا كلام أهل الملل أرادوا إصلاح كلامه وتقريبه إلى العقول، لعله يوافق ما علم بصريح المعقول وصحيح المنقول. فتكلم عليه ثابت بن قرة وبين أن الفلك لا قوام له إلا بطبيعته ولا قوام لطبيعته إلا بحركته، ولا قوام لحركته الإرادية إلا بمحرك لها.

وزعموا أن المحرك يجب أن لا يكون متحركا، وقرروا ذلك بأدلة فاسدة، قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع؛ فقالوا: إنه إنما تحرك الفلك من جهة نسبة الفلك به، وإن لم يكن هو القادر على تحريك الفلك، بل ولا شعور منه بالفلك. وعبر عن ذلك ابن رشد الفيلسوف وأمثاله؛ فقالوا: إنه يأمر الفلك بالحركة وقوام الفلك بطاعته لأمر الله. مع أنه عندهم لا إرادة له ولا علم له بما يأمر به، بل كونه آمرا وهو معنى كون الفلك يتشبه به، كما يأمر المعشوق عاشقه أن يحبه، وإن كان المعشوق لا شعور له ولا إرادة في أن يحبه ذلك.

ثم لو قدر أنه هو الآمر؛ فإنما يصدر بسبب أمره، مجرد حركة الفلك؛ ولهذا شبهوا ذلك بأمر السلطان لعسكره بأمر يطيعونه فيه، فجعلوا الحركات معلولة بهذا الاعتبار، لم يثبتوا أنه أبدع شيئا من الأفلاك والعناصر والمولدات ولا العقول ولا النفوس، لا أبدع أعيانها ولا صفاتها، ولا أفعالها، بل غايته أن يكون آمرا لها بالحركة؛ كأمر الملك لعسكره، مع أنه عندهم ليس آمرا بالحقيقة، بل ولا علم له بشيء من الموجودات، بل غاية ما يزعم أرسطو وأتباعه أن للفلك حاجة إليه من جهة تشبهه به، وأما كونه هو علية موجبة للفلك، فإنما يقول هذا من يقوله من متأخريهم كابن سينا.

وأما الفارابي؛ فهو الذي وسع القول في هذا الباب، وقسم الوجود إلى واجب وممكن، وجعل الأفلاك ممكنة واجبة به، وفي ذلك من الفساد والاضطراب ما قد بسط في غير هذا الموضع. وبنى ابن سينا الكلام في نفي صفاته على كونه واجب الوجود.

وأما الفارابي في كتاب " آراء المدينة الفاضلة " وغير ذلك فاعتمد على كونه أول، وكذا أرسطو في كتاب " أثولوجيا " اعتمد على كونه هو الأول، وشبهه بالأول في العدد، وعلى ذلك بنوا نفي الصفات، وإنما لو أثبتناها لخرج عن كونه أول، مع أنهم لم يقيموا حجة على كونه أول بهذا المعنى الذي زعموه، كما لم يقيموا حجة على كونه واجب الوجود بالمعنى الذي ادعوه، بل تكلموا بألفاظ مجملة متشابهة، تحتمل حقا وباطلا؛ فإنه معلوم أن الله واجب الوجود بذاته موجود بنفسه، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، وهو القديم الأزلي الذي لم يزل ولا يزال، وهؤلاء جعلوا وجوب الوجود بمعنى أنه لا يتعلق بغيره فلا يكون له صفة. وكونه أول بمعنى أول الأعداد الذي لا تعدد فيه، فمعلوم أن الواحد والأول المجرد عن كل شيء إنما يقدر في الأذهان لا في الأعيان.

فالذهن يقدر واحدا واثنين وثلاثة وأربعة، إلى سائر الأعداد المجردة، والعدد المجرد عن المعدود إنما يوجد في الأذهان لا في الأعيان، فأما الموجود في الخارج فإنما هي أعيان قائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها والأول منها هو ذات متصفة بصفاتها لا توجد في الأعيان، ليس بذات قائمة بنفسها، ولا صفة قائمة بغيرها، بل لا توجد ذات مجردة عن صفاتها وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع، ولكن نبهنا هنا عليها لأن هؤلاء القوم قالوا إنا نعجب من هؤلاء القوم أنهم ذو فضل وأدب ومعرفة، ومن هذا صورته وقد قرأ شيئا من كتب الفلاسفة والمنطق، فما حقهم ينكرون علينا هذا.

فكل كلام هؤلاء النصارى يتضمن تعظيم الفلاسفة وأهل المنطق، وأن من قرأ كتبهم عرف بها من الحق في الإلهيات ما لا يعرفه سائر أهل الملل، وهذا يدل على جهل هؤلاء النصارى بما جاءت به الرسل، وبما يعرف بالعقل المحض.

أما الأول: فلأن المسيح وأتباعه كالحواريين ومن اتبعهم ليس فيهم من عظم هؤلاء الفلاسفة، ولا استعان بهم، ولا التفت إليهم، بل وهم عندهم من أئمة الكفر ورءوس الضلال، وكذلك موسى وأتباعه، وكذلك محمد وأتباعه، فليس في رسل الله وأنبيائه ولا في أتباعهم من يعظمهم ولا يستعين بكلامهم، بل الرسل وأتباعهم متفقون على تضليلهم وتجهيلهم.

وأما العقليات: فإنما يعظم كلام هؤلاء الفلاسفة في العلوم الكلية والإلهية من هو من أجهل الناس بالمعارف الإلهية والعلوم الكلية؛ إذ كان كلامهم في ذلك، فيه من الجهل والضلال ما لا يحيط به إلا ذو الجلال، وإنما كان القوم يعرفون ما يعرفونه من الطبيعيات والرياضيات كالهندسة وبعض الهيئة وشيئا من علوم الأخلاق والسياسات المدنية والمنزلية التي هي جزء مما جاءت به الرسل، واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم من هؤلاء بالعلوم الإلهية والأخلاق والسياسات، فضلا عما وراء ذلك.

فاعتضاد هؤلاء النصارى هؤلاء المتفلسفة يدل على عظيم جهلهم بالشرعيات والعقليات، وهذا قد بسط الكلام عليه في مواضع متعددة؛ إذ كان الرد على الفلاسفة لا يختص به النصارى، بل الكلام في ذلك معهم ومع من يعظمهم من أهل الملل عموما.

ومعلوم أن المنتسبين إلى الإسلام من أتباع الفلاسفة؛ كالفارابي وابن سينا والسهروردي المقتول، وابن رشد الحفيد إمامهم، أحذق بهم وأعلم من النصارى.

وكتب الفلاسفة التي صارت إلى الإسلام، من الطب والحساب والمنطق وغير ذلك، هذبها المنتسبون إلى الإسلام فجاء كلامهم فيها خيرا من كلام أولئك اليونان.

والنصارى واليهود إنما يعتمدون في هذه العلوم على ما وصفه هؤلاء المنتسبون إلى الإسلام، مع أن هؤلاء عند علماء المسلمين جهال ضلال في الإلهيات والكليات، فكيف يكون سلفهم ومن يعظمهم من اليهود والنصارى؟ .

ولما صار أولئك اليونان عارفين بالله، موحدين له، عابدين له، مؤمنين بملائكته وكتبه ورسله، لما دخل إليهم أتباع المسيح يدعونهم إلى دين الله الذي بعث به المسيح. وكل من كان من أتباع المسيح - غير مبدل لشيء من دينه قبل النسخ - فإنه من المؤمنين المهتدين، وهم من أولياء الله وهم من أهل الجنة.

ومن ظن أن كلام الرسل يوافق هؤلاء اليونان؛ فإن ذلك يدل على جهله بما جاءت به الرسل وبما يقول هؤلاء. وإنما يوجد مثل هذا في كلام الملاحدة من أهل الملل؛ ملاحدة اليهود والنصارى وغيرهم؛ كأصحاب رسائل إخوان الصفا، وأمثالهم من الملاحدة المنتسبين إلى تشيع أو إلى تصوف كابن عربي وابن سبعين وأمثالهما. وفي الكتب المضنون بها على غير أهلها ونحو ذلك من الكلام المنسوب إلى أبي حامد قطعة من ذلك.

وهؤلاء يحتجون بالحديث المأثور «أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل. فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي ما خلقت خلقا أكرم علي منك، فبك آخذ وبك أعطي، وبك الثواب وعليك العقاب» .

وهذا الحديث كذب موضوع على النبي - صلى الله عليه وسلم - كما ذكر ذلك أهل العلم بالحديث؛ كأبي جعفر العقيلي،

وأبي حاتم بن حبان البستي، وأبي الحسن الدارقطني، وأبي الفرج بن الجوزي وغيرهم.

ثم لفظه لو كان صحيحا حجة على نقيض مطلوبهم، فإنه قال: " أول ما خلق الله العقل " بنصب " أول "، وفي لفظ " لما خلق الله العقل قال له ".

فلفظه يقتضي أنه خاطبه في أول ما خلقه، فحرفوا لفظه وقالوا: أول ما خلق الله العقل بالضم، وليس هذا لفظه، ولكن لفظه يقتضي أنه خاطبه في أول أوقات خلقه؛ ولهذا قال: " «ما خلقت خلقا أكرم علي منك» "، وهذا يقتضي أنه خلق قبله غيره.

وعندهم هو أول المبدعات، يمتنع أن يتقدمه شيء، مع أنه وسائر العقول والأفلاك - عندهم - قديمة أزلية لم تزل ولا تزال.

ثم قال: " «فبك آخذ وبك أعطي وبك الثواب وعليك العقاب» " فجعل به هذه الأنواع الأربعة.

وعندهم أن العقل صدر عنه جميع العالم العلوي والسفلي؛ وذلك أن لفظ (العقل) في الحديث سواء كان صحيحا أو ضعيفا، هو العقل في لغة الأنبياء والمرسلين، هو عقل الإنسان، وهو عرض قائم به، وهذه صفة قائمة بالإنسان، ليس هو جوهرا قائما بنفسه. والعقل في لغة هؤلاء الفلاسفة هو جوهر قائم بنفسه. وأما النفس الفلكية، فلهم فيها قولان: قيل: إنها عرض قائم بالفلك، وهو قول أكثرهم. وقيل: بل جوهر قائم بنفسه، ولهذا يميل ابن سيناء، وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر.

والمقصود هنا ذكر هؤلاء النصارى أن ثم جوهرا لطيفا، غير الجوهر الكثيف، ومثلوا ذلك بالنفس والعقل والضوء، ثم لم يقيموا على ثبوت شيء من ذلك دليلا، ولا دليل مما دلت عليه الكتب الإلهية، فإن النفس الفلكية والعقول العشرة لم ينطق بها كتاب

ولا رسول، بل ولا دل عليها دليل عقلي، وأدلة المتفلسفة عليها ضعيفة. وإنما دل العقل على ما أخبرت به الرسل من الملائكة.

ولكن هؤلاء الذين حملوا كلام الرسل على ما يوافق قول المتفلسفة يجعلون اللوح المحفوظ، هو النفس الفلكية، كما يجعلون العقل والقلم هو العقل الأول والعرش هو الفلك التاسع، وغير ذلك مما قد بسط الكلام عليه في موضع آخر.

وإذ لم يقيموا حجة شرعية ولا عقلية على ما مثلوا به من الجواهر اللطيفة لم يكن لهم حجة على من قال: إن الجوهر ما يشغل حيزا ويقبل عرضا. ولما قرنوا النفس بالعقل، كان ذلك ظاهرا في أنهم أرادوا النفس الفلكية.

فأما إن أرادوا النفس الإنسانية فهذه ثابتة، أخبرت بها الرسل وأتباعهم، كما قد بسط في موضعه. لكن هذه لا تقرن بالعقل الذي هو جوهر. والعقل صفة هذه وهو مصدر عقل يعقل عقلا. وقد يراد بالعقل غريزة قائمة بها، ويراد بالعقل العمل بالعلم كما قد بسط في موضع آخر.

الوجه الرابع: قولهم: " وجوهر الضوء " فيقال لهم: إن أردتم بالضوء نفس الشمس والنار فهذا جسم متحيز؛ يشغل حيزا، ويقبل عرضا، ليس هو من الجواهر اللطيفة الذي مثلتم بها وإن أردتم بالضوء الشعاع القائم بالهواء والجدران ونحو ذلك، فليس هذا بجوهر، لا لطيف ولا كثيف، بل هو عرض قائم بغيره.

الوجه الخامس: قولكم: " إن الجوهر اللطيف لا يقبل عرضا " كلام ممنوع، وهو باطل أيضا. فإن نفس الإنسان تقبل الأعراض القائمة بها، وكذلك النفس الفلكية - عند من أثبتها - تقوم بها إرادات وتصورات متجددة. ولفظ " العرض " في اصطلاح النظار يراد به ما قام بغيره سواء كان صفة لازمة أو عارضة، وهذا موجب تقسيم النصارى، كما هو قول الفلاسفة.

فإنهم قالوا: ليس في الوجود شيء إلا وهو إما جوهر وإما عرض؛ لأنه أي أمر نظرناه وجدناه إما قائما بنفسه، غير مفتقر في وجوده إلى غيره، وهو الجوهر، وإما مفتقر في وجوده إلى غيره، لا قوام له بنفسه وهو " العرض " قالوا: " ولا يمكن أن يكون لهذين قسم ثالث ".

وهذا الذي قالوه هو تقسيم أرسطو وأتباعه، وهو يسمي المبدأ الأول جوهرا وهذا تقسيم سائر النظار. لكن أكثرهم لا يدخلون رب العالمين في مسمى الجوهر، ومنهم من يدخله فيه، وبعض النزاع في ذلك لفظي.

وإذا كان الأمر على ما قالوه؛ فالضوء القائم بالأرض والهواء عرض ليس جوهرا قائما بنفسه، وهم قد جعلوه جوهرا، وهذا تناقض بين. وأيضا فالجواهر اللطيفة تقوم بها الأعراض؛ كالحياة والعلم، بل والرب - على قولهم - تقوم به الحياة والعلم.

فإذا سموه جوهرا، لزمهم أن يسموا صفاته أعراضا، إذا قالوا: لا موجود إلا جوهر أو عرض.

فهذا يناقض قولهم: " الموجود إما جوهر وإما عرض، فليس في الموجودات إلا هذا أو هذا " بل موجب كلامهم أنها قائمة بذات الله، فكيف بذات غيره؟ .

وإذا قالوا: " ويعنى بالأعراض، الصفات العارضة أو القائمة بالأجسام " كان هذا مناقضا لقولهم: " الموجود إما جوهر وإما عرض " مع قولهم: " إن الرب جوهر ثلاثة أقانيم، والأقنوم ذات وصفة " ومع قولهم: " إن الرب جوهر " فقولهم يقتضي أن الرب جوهر تقوم به الأعراض، فكيف غيره.

ثم يقال: إذا قدر أنهم يدعون ثبوت جوهر لا يقوم به الأعراض، فهذا اصطلاح لهم وافقوا فيه نفاة الصفات من الفلاسفة كأرسطو وذويه، فإنهم يقولون: إن الرب جوهر لا يتصف بشيء من الصفات الثبوتية، لكن ليس هذا قول النصارى، فتبين أنهم في قولهم: " إن الرب جوهر " وفي قولهم: " إن من الجواهر ما لا يقوم به الصفات " موافقون للمشركين الفلاسفة، أرسطو وأتباعه، لا موافقين للمسيح والحواريين، وأنهم أثبتوا الصفات لله موافقة للمسيح والحواريين ثم جعلوه جوهرا، ثم قالوا: " إن الجوهر اللطيف لا تقوم به الصفات " وهذا قول الفلاسفة المشركين المعطلين، وهذا تحقيق ما ذكرناه عنهم من أنهم ركبوا دينا من دين المسيح والحواريين ومن دين الكفار المشركين.

فهؤلاء إن عنوا بالعرض هذا فكل جوهر يقبل الصفات، وإن أرادوا بالعرض ما تعنيه المتفلسفة بالصفات العرضية التي يفرقون بينها وبين الذاتية - مع أن هذا ليس مقتضى كلامهم - فقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن تقسيم هؤلاء الصفات اللازمة للموصوف إلى ذاتية وعرضية تقسيم باطل، وتقدير أن يكون حقا، فالنفس - أيضا - تقبل الصفات العرضية، بل وكذلك كل جوهر سواء كان لطيفا أو كثيفا. فقولكم: " إن الجوهر اللطيف لا يقبل عرضا؛ مثل جوهر النفس وجوهر العقل وجوهر الضوء وما يجري هذا المجرى من الجواهر اللطيفة، كلام باطل على كل تقدير.

وإن عنوا بلفظ العرض شيئا آخر، لم ينفعهم ذلك، فإن المتكلمين الذين قالوا: " الجوهر هو ما يشغل حيزا ويقبل عرضا " إنما أرادوا بالعرض ما يقوم بغيره من المعاني، سواء كان لازما له أو عارضا له، ومعلوم أن كل جوهر فإنه يقوم به المعاني. والخالق - تعالى - عندهم يقوم به الحياء والعلم، فإذا كان الخالق - تعالى - يقوم به المعاني - وهم يسمونه جوهرا - فكيف لا تقوم المعاني بغيره.

وهؤلاء يثبتون جوهرا لطيفا لا تقوم به الأعراض، مع قولهم: " إنه تقوم به المعاني " وهذا اصطلاح لهم لا يوافقهم عليه أحد. ثم يتناقضون فيقولون: " الموجود إما جوهر وإما عرض " وهذا تناقض.

ونظار المسلمين لهم في تسمية صفات الله القائمة به أعراضا نزاع: بعضهم يسميها أعراضا، وبعضهم ينكر هذه التسمية، مع اتفاق هاتين الطائفتين على قيام الصفات به. وجمهور نظار المسلمين لا يسمونه جوهرا، وبعضهم يسميه جوهرا، وأما من أنكر قيام الصفات به فذاك لا يسمي الله جوهرا ولا جسما.

وهؤلاء النصارى متناقضون تناقضا بينا، ولهذا كان لهم طريقة لا يوافقهم عليها أحد من طوائف العقلاء، ذلك يظهر:.

بالوجه السادس: وهو أن الناس لهم في إثبات الصفات القائمة بذات الله - تعالى - قولان: فسلف المسلمين وأئمتهم وجمهور الخلق من أهل الملل وغير أهل الملل، يثبتون قيام الصفات بالله، تبارك وتعالى. وهل تسمى أعراضا؟ على قولين: والقول الثاني: قول من ينفي الصفات، مثل الملاحدة الجهمية ونحوهم، من مبتدعة المسلمين، ومن وافقهم من الفلاسفة، وبعض اليهود والنصارى، فهؤلاء لا تقوم به المعاني والصفات عندهم، فلا يقولون: تقوم به الأعراض. ثم من هؤلاء من يسميه جوهرا كأرسطو وأتباعه، ومنهم من لا يسميه جوهرا، كمتأخري الفلاسفة: ابن سينا وأمثاله، مع جمهور نظار المسلمين وغيرهم، سواء سموه جوهرا أو لم يسموه.

وأما الجمهور القائلون بقيام المعاني به؛ فبعضهم يسميها أعراضا وإن لم يسمه جوهرا. وقد سماه بعضهم جوهرا، وبعضهم ينفي أن يكون أعراضا، وبعضهم يسكت عن النفي والإثبات، فلا يسميها أعراضا ولا ينفي تسميتها بذلك، أو يستفصل القائل عن كونها أعراضا.

وأما هؤلاء النصارى فقالوا: " جوهر ثلاثة أقانيم " ووصفوه بالصفات الثبوتية؛ وهي الحياة والنطق، وقالوا: " الموجود إما جوهر وإما عرض " فلزمهم أن تكون صفات الله أعراضا عندهم، ثم قالوا: " الجوهر اللطيف لا يقوم به الأعراض " ونزهوا الرب أن تقوم به الأعراض، مع قولهم: " إنه جوهر " تناقضوا تناقضا بينا، حيث جمعوا بين كلام الرسل وأتباعهم وبين كلام المشركين المعطلين الفلاسفة. فما تلقوه عن المسيح فهو حق، وما ابتدعوه من قول من خالف الرسل فهو باطل. فجمعوا في قولهم بين الحق والباطل، وسلكوا مسلكا لا يعرف عن غيرهم، وإيضاح هذا أن يقال في:

الوجه السابع: أن هذا الذي ذكروه تناقض بين؛ فإنهم قالوا: الموجود إما جوهر وإما عرض: " القائم بذاته هو الجوهر، والقائم بغيره هو العرض ".

ثم قالوا: " إنه موجود حي ناطق، له حياة ونطق ". فيقال لهم: حياته ونطقه؛ إما جوهر وإما عرض، وليس جوهرا؛ لأن الجوهر ما قام بنفسه، والحياة والنطق لا يقومان بنفسيهما، بل بغيرهما، فهما من الأعراض، فتعين أنه عندهم جوهر يقوم به الأعراض، مع قولهم: " إنه جوهر لا يقبل عرضا ".

فإن قيل: أرادوا بقولهم: " لا يقبل عرضا " ما كان حادثا؛ قيل: فهذا ينقض تقسيمهم الموجود إلى جوهر وعرض، فإن المعنى القديم الذي يقوم به ليس جوهرا وليس حادثا. فإن كان عرضا؛ فقد قام به العرض وقبله، وإن لم يكن عرضا؛ بطل التقسيم.

يبين هذا أنه يقال: أنتم قلتم: " إنه شيء حي ناطق " وقلتم: " هو ثلاثة أقانيم " وقلتم: " المتحد بالمسيح أقنوم الكلمة " وقلتم في الأمانة: " نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، إله حق من إله حق من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساو للأب في الجوهر ".

ثم قلتم: " إن الرب جوهر " وقلتم: " إن الذي يشغل حيزا أو يقبل عرضا هو الجوهر الكثيف؛ فأما الجوهر اللطيف فلا يقبل عرضا ولا يشغل حيزا؛ مثل جوهر النفس وجوهر العقل، وما يجري هذا المجرى من الجواهر اللطيفة. فإذا كانت الجواهر اللطيفة المخلوقة لا تقبل عرضا ولا تشغل حيزا؛ فيكون خالق الجواهر اللطائف والكثائف ومركب اللطائف بالكثائف يقبل عرضا ويشغل حيزا كلا " فصرحتم بأنه جوهر لا يقبل عرضا، وقلتم: " ليس في الموجود شيء إلا وهو إما جوهر وإما عرض؛ فإن كان قائما بنفسه غير محتاج في وجوده إلى غيره فهو الجوهر، وإن كان مفتقرا في وجوده إلى غيره لا قوام له بنفسه فهو العرض ".

فيقال لكم: الابن القديم الأزلي المولود من جوهر أبيه - الذي هو مولود غير مخلوق، الذي تجسد ونزل - جوهر قائم بنفسه أم هو عرض قائم بغيره، والموجود عندكم: إما جوهر وإما عرض. فإن قلتم: هو جوهر، فقد صرحتم بإثبات جوهرين: الأب جوهر، والابن جوهر، ويكون حينئذ أقنوم الحياة جوهرا ثالثا، فهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر قائمة بنفسها، وحينئذ فيبطل قولكم: " إنه إله واحد، وإنه أحدي الذات ثلاثي الصفات، وإنه واحد بالجوهر ثلاثة بالأقنوم " إذ كنتم قد صرحتم - على هذا التقدير - بإثبات ثلاثة جواهر.

وإن قلتم: بل الابن القديم الأزلي، الذي هو الكلمة، التي هي العلم والحكمة، عرض قائم بجوهر الأب، ليس هو جوهرا ثانيا؛ فقد صرحتم بأن الرب جوهر تقوم به الأعراض، وقد أنكرتم هذا في كلامكم، وقلتم: " هو جوهر لا تقوم به الأعراض " وقلتم: " إن من المخلوقات جواهر لا تقوم بها الأعراض، فالخالق أولى " وهذا تناقض بين لا حيلة فيه لمن تدبر كلامهم أوله وآخره.

فإن كلامهم هذا يوجب أنه جوهر واحد، لا يقوم به شيء من الأعراض.

وهم يقولون: " جوهر واحد، ثلاثة أقانيم " وسواء سموها صفات أو خواص أو أعراضا، أو قالوا: الأقنوم هو الذات والصفة. فيقال لهم: الرب مع الأقانيم: ثلاثة جواهر أو جوهر واحد له ثلاثة صفات، أو جوهر لا صفة له. فإن قالوا: ثلاثة جواهر، أثبتوا ثلاثة وبطل قولهم: " إن الرب جوهر واحد وإله واحد " وصرحوا بإثبات ثلاثة آلهة.

وإن قالوا: بل جوهر واحد له ثلاث صفات، فقد صرحوا أن هذا الجوهر تقوم به الصفات، وإذا قامت به الصفات - وقد سموه جوهرا - وقالوا: " كل موجود إما جوهر وإما عرض " لزمهم قطعا أن تكون صفاته أعراضا فبطل قولهم: " إنه جوهر لا يقوم به الأعراض " وإن قالوا: جوهر واحد لا تقوم به الصفات. بطل قولهم: " له حياة ونطق " وإذا نفوا الصفات؛ أبطلوا التثليث والاتحاد وبطلت الأمانة، مع مخالفتهم لكتب الأنبياء، فإنها مصرحة بإثبات الصفات، ومع مخالفتهم لصريح العقل.

والمقصود أنهم يتناقضون تناقضا بينا؛ لأنهم أثبتوا جوهرا لا تقوم به الأعراض مع قولهم: " الموجود إما جوهر وإما عرض " ومع قولهم: " إنه جوهر ثلاثة أقانيم " فإذا لم تقم به الأعراض، لم يكن له صفات، فإن الصفة قائمة بغيرها ليست جوهرا، بل هي - إذا كان الموجود إما جوهر وإما عرض - من قسم الأعراض، لا من قسم الجواهر، فكان هذا الكلام نافيا لقيام الصفات به مطلقا.

ثم قالوا بالأقانيم التي توجب إما إثبات صفات، وإما إثبات جواهر ثلاثة قائمة بنفسها، مع أنها إذا قامت بنفسها لزم اتصافها بالصفات. ولا ريب أن القوم يجمعون في قولهم بين النقيضين، بين إثبات الصفات ونفيها، وبين إثبات ثلاثة جواهر ثلاثة آلهة، وبين قولهم الإله الواحد.

وسبب ذلك: أنهم ركبوا لهم اعتقادا، بعضه من نصوص الأنبياء المحكمة، كقولهم: " إله واحد " وبعضه من متشابه كلامهم، كلفظ (الابن) و (روح القدس) وبعضه من كلام الفلاسفة المشركين المعطلين، كقولهم: " جوهر لا تقوم به الصفات ".

ومما يوضح ذلك أنك تجد عامة علماء النصارى - فضلا عن عامتهم - لا يعرفون ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره، مع اتفاقهم على أن المسيح لم ينسخها كلها، ولم يقرها كلها، بل أخبرهم أنه إنما جاء ليتمها لا ليبطلها، وقد أحل بعض ما حرم فيها، كالعمل في السبت.

ومعلوم أن المقصود بالرسل تصديقهم فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، فإذا كان عامة النصارى لا يميزون ما أمرهم به مما لم يأمرهم به، ولا ما نهاهم عنه مما لم ينههم عنه - مع اعترافهم بأنه أقر كثيرا من شريعة التوراة، بل أكثرها وأحل بعضها فنسخه ورفعه، وهم لا يعرفون هذا من هذا، لم يكونوا عارفين بما جاء به المسيح، ولا يعرفون ما أمرهم الله على لسان موسى وسائر الأنبياء - فإنهم لا يجوز لهم العمل بكل ما في التوراة، بل قد نسخ المسيح بعض ذلك باتفاقهم واتفاق المسلمين على ذلك.

ولا يجوز لهم تعطيل جميع شريعة التوراة، بل يجب عليهم العمل بما لم ينسخه المسيح، وعامتهم لا يعرفون ما نسخه مما لم ينسخه، فلا يمكنهم العمل بالتوراة والانتفاع بها في الشرع، حتى يعرفوا المنسوخ منها من غير المنسوخ.

وعامتهم لا يعرفون ذلك، فلم يكونوا حينئذ على شريعة منزلة من الله، لا من جهة المسيح، ولا من جهة موسى فلم يعلموها، بل كان ذلك مجهولا عند عامتهم وجمهورهم أو جميعهم، فكانوا محتاجين إلى أن يعرفوا ما شرعه الله مما لم يشرعه؛ فأرسل الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - بشرع أمر فيه بمحاسن ما في الكتابين، وعوض عما نسخه بما هو خير منه.

[فصل: نقض دعواهم الاستغناء باليهودية والنصرانية]

فصل

ثم قالوا: " إنا نعجب من هؤلاء القوم، الذين مع أدبهم وما يأخذون به أنفسهم من الفضل، كيف لم يعلموا أن الشرائع شريعتان: شريعة عدل وشريعة فضل؛ لأنه لما كان الباري عدلا وجوادا وجب أن يظهر عدله على خلقه فأرسل موسى إلى بني إسرائيل فوضع شريعة العدل وأمرهم بفعلها إلى أن استقرت في نفوسهم، ولما كان الكمال الذي هو الفضل لا يمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال، وجب أن يكون هو - تقدست أسماؤه وجلت آلاؤه - الذي يضعه؛ لأنه ليس شيء أكمل منه، ولأنه جواد؛ وجب أن يجود بأجل الموجودات وليس في الموجودات أكمل من كلمته؛ لذلك وجب أن يجود بكلمته، فلهذا وجب أن يجود بكلمته، فلهذا وجب

أن يتحد بذات محسوسة يظهر منها قدرته وجوده. ولما لم يكن في المخلوقات أجل من الإنسان، اتحد بالطبيعة البشرية من السيدة الطاهرة، من مريم البتول المصطفاة على نساء العالمين، وبعد هذا الكمال ما تبقى شيء يوضع؛ لأن جميع ما يتقدمه وما يأتي مقتضيه، وما يأتي بعد الكمال غير محتاج إليه؛ لأن ليس شيء يأتي بعد الكمال فيكون فاضلا، بل دون، أو أخذ منه. فهو فاضل لا يحتاج إليه، وفي هذا القول نفع. والسلام على من اتبع الهدى، وهذا مما عرفته من أن القوم الذين رأيتهم وخاطبتهم في محمد - عليه السلام - وما يحتجون به عن أنفسهم، فإن يكن ما ذكروه صحيحا؛ فلله الحمد. وإن كان خلاف ذلك فمولانا يكتب ذلك، فقد جعلوني سفيرا، والحمد لله رب العالمين ".

والجواب على هذا من وجوه، أحدها: أن يقال: بل الشرائع ثلاثة: شريعة عدل فقط، وشريعة فضل فقط، وشريعة تجمع العدل والفضل، فتوجب العدل، وتندب إلى الفضل، وهذه أكمل الشرائع الثلاث وهي شريعة القرآن الذي جمع فيه بين العدل والفضل. مع أنا لا ننكر أن يكون موسى - عليه السلام - أوجب العدل وندب إلى الفضل، وكذلك المسيح - أيضا - أوجب العدل وندب إلى الفضل.

وأما من يقول: إن المسيح أوجب الفضل وحرم على كل مظلوم أن يقتص من ظالمه، أو أن موسى لم يندب إلى الإحسان، فهذا فيه غضاضة بشريعة المرسلين. لكن قد يقال: إن ذكر العدل في التوراة أكثر، وذكر الفضل في الإنجيل أكثر، والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال.

والقرآن بين أن السعداء أهل الجنة، وهم أولياء الله نوعان: أبرار مقتصدون، ومقربون سابقون؛ فالدرجة الأولى تحصل بالعدل: وهي أداء الواجبات وترك المحرمات، والثانية لا تحصل إلا بالفضل: وهو أداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

فالشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل؛ كقوله - تعالى - {وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة} [البقرة: 280] .

فهذا عدل واجب، من خرج عنه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة.

ثم قال: {وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون} [البقرة: 280] .

فهذا فضل مستحب مندوب إليه، من فعله أثابه الله ورفع درجته، ومن تركه لم يعاقبه.

وقال - تعالى -:. {ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله} [النساء: 92] .

فهذا عدل.

ثم قال - تعالى -: {إلا أن يصدقوا} [النساء: 92] .

فهذا فضل.

وقال - تعالى -:. {والجروح قصاص} [المائدة: 45] .

فهذا عدل.

ثم قال:. {فمن تصدق به فهو كفارة له} [المائدة: 45] .

فهذا فضل.

وقال - تعالى -:. {وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم} [البقرة: 237] .

فهذا عدل.

ثم قال:. {إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى} [البقرة: 237] .

فهذا فضل.

وقال - تعالى -:. {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به} [النحل: 126] .

فهذا عدل.

ثم قال:. {ولئن صبرتم لهو خير للصابرين} [النحل: 126] .

فهذا فضل.

وقال - تعالى -. {وجزاء سيئة سيئة مثلها} [الشورى: 40] .

فهذا عدل.

ثم قال:. {فمن عفا وأصلح فأجره على الله} [الشورى: 40] .

فهذا فضل.

وهو - سبحانه - دائما يحرم الظلم ويوجب العدل ويندب إلى الفضل، كما في آخر سورة البقرة لما ذكر حكم الأموال. والناس فيها إما محسن وإما عادل وإما ظالم؛ فالمحسن المتصدق، والعادل المعاوض كالبايع، والظالم كالمرابي.

فبدأ بالإحسان والصدقة فذكر ذلك ورغب فيه فقال: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم - الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون - قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم} [البقرة: 261 - 263] الآيات.

ثم ذكر تحريم الربا، فقال: {الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} [البقرة: 275] .

ثم لما أحل البيع ذكر المداينات، وحكم البيع الحال والمؤجل، وحفظ ذلك بالكتاب والشهود أو الرهن، وختم السورة بأصول

الإيمان من الإيمان بالكتب والرسل، وهو - سبحانه - بعد أن افتتحها بذكر أصناف الناس، وهم ثلاثة: إما مؤمن وإما كافر وإما منافق. فذكر نعت المؤمنين، ثم ذكر نعت الكافرين، ثم ذكر نعت المنافقين، ثم مهد أصول الإيمان؛ فأمر بعبادة الله - تعالى - وذكر آياته وآلائه. ثم قرر نبوة رسله، ثم ذكر اليوم الآخر والوعد والوعيد، ثم ذكر بدء العالم وخلق السماوات والأرض، ثم خلق آدم وإسجاد الملائكة له وخروجه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض.

ثم بعد أن عم بالدعوة جميع الخلق، خص أهل الكتاب فخاطبهم: خاطب اليهود أولا بني إسرائيل، ثم النصارى، ثم خاطب المؤمنين فقرر لهم قواعد دينه؛ فذكر أصل ملة إبراهيم وبناءه للبيت ودعاءه لأهل مكة، ووكد الأمر بملة إبراهيم، ثم ذكر ما يتعلق بالبيت من اتخاذه قبلة ومن تعظيم شعائر الله التي عنده كالصفا والمروة، ثم ذكر التوحيد والحلال والحرام والمطاعم للناس عموما، ثم للذين آمنوا خصوصا.

ثم ذكر ما يتعلق بالقتل من القصاص وبالموت من الوصية، ثم ذكر شرائع الدين، فذكر صيام شهر رمضان، وما يكون فيه من الاعتكاف، ثم ذكر ما يتصل بشهر الصيام، وهو أشهر الحج، فذكر الحج، وذكر حكم القتال عموما، وخصوصا في البلد الحرام. ولما ذكر الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة، ذكر بعد ذلك الحلال والحرام في الفروج. فذكر أحكام وطء النساء والحيض والإيلاء منهن والطلاق لهن، واختلاعهن. وذكر حكم الأولاد وإرضاعهم، واعتداد النساء وخطبتهن في العدة، وطلاقهن قبل الدخول وبعده، ثم ذكر الصلوات والمحافظة عليهن، ثم قرر المعاد وما يدل عليه من إحياء الموتى في الدنيا مرة بعد مرة.

فتضمنت هذه السورة الواحدة جميع ما يحتاج الناس إليه في الدين وأصوله وفروعه، وافتتحها بالإيمان بالكتب والرسل، ووسطها بالإيمان بالكتب والرسل، وختمها بالإيمان بالكتب والرسل. فإن الإيمان بالكتب والرسل هو عمود الإيمان وقاعدته وجماعه.

وأمر فيها الخلق عموما وخصوصا، وذكر فيها الإيمان بالخالق وآيات ربوبيته، والإيمان بالمعاد والدار الآخرة، والأعمال الصالحة التي أمر بها، وأن من كان من أتباع الرسل من المؤمنين واليهود والنصارى.

والصابئين قائما بهذه الأصول: وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، والعمل الصالح فهو السعيد في الآخرة الذي له أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

بخلاف من بدل منهم الكتاب، أو كذب بكتاب فإن هؤلاء من الكفار. فمن كان متبعا لشرع التوراة قبل مبعث المسيح، غير مبدل له فهو من السعداء. وكذلك من كان متبعا لشرع الإنجيل قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - غير مبدل له فهو من السعداء. ومن بدل شرع التوراة أو كذب بالمسيح فهو كافر، كاليهود بعد مبعث المسيح - عليه السلام - وكذلك من بدل شرع الإنجيل أو كذب محمدا - صلى الله عليه وسلم - فهو كافر كالنصارى بعد مبعث محمد، صلى الله عليه وسلم.

فقدماء اليهود والنصارى الذين اتبعوا الدين قبل النسخ والتبديل سعدوا، وأما اليهود والنصارى الذين تمسكوا بشرع مبدل منسوخ وتركوا اتباع الكتب والرسول الذي أرسل إليهم وإلى غيرهم وعدلوا عن الشرع المنزل المحكم، فهم كفار.

ورد دعاوى اليهود والنصارى الكاذبة، مثل قول هؤلاء: {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا} [البقرة: 111] .

وقول هؤلاء: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فقال:. {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: 112] .

وبين من كفر اليهود والنصارى، مما عرف بهم حالهم.

لكن أكثر ما ذكر في هذه السورة: اليهود، كما أن أكثر ما ذكر في سورة آل عمران النصارى، فإن هذه نزلت أول مقدمه المدينة، وكان اليهود جيرانه. وآل عمران تأخر نزولها إلى آخر الأمر، لما قدم عليه نصارى نجران، وفيها فرض الحج، لما طهر الله مكة من المشركين، فكان أكثر دعائه في أول الأمر للمشركين؛ لأنهم جيرانه بمكة، ثم لليهود؛ لأنهم جيرانه بالمدينة، ثم للنصارى؛ لأنهم كانوا أبعد عنه من ناحية الشام واليمن، والمجوس - أيضا - لأنهم كانوا أبعد عنه بأرض العراق وخراسان.

وهذا هو الترتيب المناسب، يدعو الأقرب إليه فالأقرب، ثم يرسل رسله إلى الأبعد. وهو - صلى الله عليه وسلم - كان - أولا - مشغولا بجهاد المشركين واليهود. فلما صالح المشركين صلح الحديبية، وحارب يهود خيبر عقيب ذلك، ففتحها الله عليه، وقسمها بين الذين بايعوه تحت الشجرة: الذين شهدوا صلح الحديبية، تفرغ لمن بعد عنه، فأرسل رسله إلى جميع من حواليه من الأمم.

أرسل إلى ملوك النصارى بمصر والشام والحبشة، فإنه كان قد مات ملك الحبشة النجاشي الذي أسلم، وأخبر الناس بموته يوم مات، وخرج بأصحابه إلى ظاهر المدينة فصلى عليه بهم صلاة الجنازة كما كان يصلي على سائر موتى المسلمين. وتولى بعد النجاشي آخر فأرسل إليه كما ذكره مسلم في صحيحه، وأرسل إلى ملوك اليمن من المشركين واليهود، وإلى ملوك العرب. وكان في العرب خلق كثير يهود، وخلق كثير نصارى، وخلق كثير مجوس فدعا جميع الخلق من اليهود والنصارى والمجوس والمشركين، عربهم وعجمهم.

الوجه الثاني: أن يقال لهم: الناس لهم في أمر الله ونهيه قولان مشهوران:

أحدهما: أنه يرجع إلى محض المشيئة، لا يعتبر فيه أن يكون المأمور به مصلحة للخلق، وإن اتفق أن يكون مصلحة، وإن كان الواقع كونه مصلحة، وهذا قول من يقول: لا يفعل ولا يحكم بسبب ولا لحكمة ولا لغرض.

والقول الثاني: - وهو قول جمهور الناس - إن الله إنما أرسل الرسل ليأمروا الناس بما يصلحهم وينفعهم إذا فعلوه، كما قال - تعالى -: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} [الأنبياء: 107] .

وقال - تعالى -: {فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى - ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى - قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا - قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} [طه: 123 - 126] .

فإن قيل بالأول: لم يسأل عن حكمة إرسال الرسل، وإن قيل بالثاني: ففي إرسال محمد - صلى الله عليه وسلم - من الحكم

والمصالح أعظم مما كان في إرسال موسى والمسيح، والذي حصل به من صلاح العباد في المعاش والمعاد أضعاف ما حصل بإرسال موسى والمسيح من جهة الأمر والخلق. فإن في شريعته من الهدى ودين الحق أكمل مما في الشريعتين المتقدمتين. وتيسير الله من اتباع الخلق له واهتدائهم به ما لم يتيسر مثله لمن قبله، فحصل فضيلة شريعته من جهة فضلها في نفسها، ومن جهة كثرة من قبلها وكمال قبولهم لها، بخلاف شريعة من قبله، فإن موسى - صلى الله عليه وسلم - بعث إلى بني إسرائيل، وكان فيهم من الرد والعناد في حياة موسى وبعد موته ما هو معروف، وقد ذكر النصارى في كتابهم هذا من ذلك ما تقدم.

ولم تكن شريعة التوراة في الكمال مثل شريعة القرآن، فإن القرآن فيه ذكر المعاد وإقامة الحجج عليه وتفصيله، ووصف الجنة والنار، ما لم يذكر مثله في التوراة. وفيه من ذكر قصة هود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء، ما لم يذكر في التوراة، وفيه من ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته ووصف ملائكته وأصنافهم وخلق الإنس والجن ما لم يفصل مثله في التوراة، وفيه من تقرير التوحيد بأنواع الأدلة ما لم يذكر مثله في التوراة، وفيه من ذكر أديان أهل الأرض ما لم يذكر مثله في التوراة، وفيه من مناظرة المخالفين وإقامة البراهين على أصول الدين ما لم يذكر مثله في التوراة، مع أنه لم ينزل كتاب من السماء أهدى من القرآن والتوراة. وفي شريعة القرآن تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وشريعة التوراة فيها تحريم كثير من الطيبات عليهم، حرمت عليهم عقوبة لهم، وفي شريعة القرآن من قبول الدية في الدماء ما لم يشرع في التوراة، وفيها من وضع الآصار والأغلال التي في التوراة ما يظهر به أن نعمة الله على أهل القرآن أكمل.

وأما الإنجيل؛ فليس فيه شريعة مستقلة، ولا فيه الكلام على التوحيد وخلق العالم وقصص الأنبياء وأممهم، بل أحالهم على التوراة في أكثر الأمر. ولكن أحل المسيح بعض ما حرم عليهم، وأمرهم بالإحسان والعفو عن الظالم واحتمال الأذى، والزهد في الدنيا، وضرب الأمثال لذلك.

فعامة ما امتاز به الإنجيل عن التوراة بمكارم الأخلاق المستحسنة، والزهد المستحب، وتحليل بعض المحرمات وهذا كله في القرآن، وهو في القرآن أكمل، فليس في التوراة والإنجيل والنبوات ما هو من العلوم النافعة والأعمال الصالحة إلا وهو في القرآن أو ما هو أفضل منه. وفي القرآن من العلوم النافعة والأعمال الصالحة من الهدى ودين الحق ما ليس في الكتابين. لكن النصارى لم يتبعوا لا التوراة ولا الإنجيل، بل أحدثوا شريعة لم يبعث بها نبي من الأنبياء، كما وضعوا لقسطنطين (الأمانة) ووضعوا له أربعين كتابا فيها القوانين، فيها بعض ما جاءت به الأنبياء، وفيها شيء كثير مخالف لشرع الأنبياء وصاروا إلى كثير من دين المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى، وكذبوا رسله فصار في دينهم من الشرك وتغيير دين الرسل ما غيروا به شريعة الإنجيل؛ ولهذا التبست عند عامتهم شريعة الإنجيل بغيرها، فلا يعرفون ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره ولا ما شرعه مما أحدث بعده.

فالمسيح لم يأمرهم بتصوير الصور وتعظيمها، ولا دعاء من صورت تلك التماثيل على صورته، ولا أمر بهذا أحد من الأنبياء.

لا يوجد قط عن نبي أنه أمر بدعاء الملائكة والاستشفاع بهم، ولا بدعاء الموتى من الأنبياء والصالحين والاستشفاع بهم، فضلا عن دعاء تماثيلهم والاستشفاع بها، فإن هذا من أصول الشرك الذي نبهت عليه الرسل، وهذا كان أصل الشرك في بني آدم من عهد نوح - عليه السلام -.

قال الله - تعالى - عن قوم نوح: {لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا} [نوح: 23]

قال كثير من العلماء، منهم ابن عباس وغيره: وهؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم وقد ذكر ذلك المسيح وعلماء النصارى.

والمسيح - عليه السلام - لم يأمرهم بعبادته ولا قال: إنه الله، ولا بما ابتدعوه من التثليث والاتحاد. والمسيح لم يأمرهم باستحلال كل ما حرمه الله في التوراة من الخبائث؛ كالخنزير وغيره، فاستحلوا الخبائث المحرمة وغيروا شريعة التوراة والإنجيل. والمسيح لم يأمرهم بأن يصلوا إلى المشرق ولم يأمرهم أن يعظموا الصليب، ولم يأمرهم بترك الختان ولا بالرهبانية ولا بسائر ما ابتدعوه بعده.

ولهذا لما ظهر فساد دين النصارى، صار بعض الناس، كأبي عبد الله الرازي يقول: " لم يظهر الانتفاع بدين المسيح، إلا في طائفة قليلة كانوا قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن الدين الذي كان عليه جمهور النصارى، ليس هو دين المسيح.

وتبين هذا:

بالوجه الثالث: وهو أن يقال: هب إن شريعة الكتاب كانت كافية، فإنما ذاك إذا كانت محفوظة معمولا بها، ولم يكن الأمر كذلك، بل كانت قد درس كثير من معالمها.

وقد اختلف أهل الكتاب في المسيح وغيره اختلافا عظيما كما قال تعالى: {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون} [المائدة: 14] .

وقد قال - تعالى -: {كان الناس أمة واحدة} [البقرة: 213] .

أي فاختلفوا. {فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه} [البقرة: 213] .

والوقت الذي بعث الله فيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يكن قد بقي أحد مظهرا لما بعث الله به الرسل قبله.

فبعثه على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، أحوج ما كان الناس إلى رسول، كما في صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب» ".

وكان الناس حين مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - إما أميين، لا كتاب لهم، يشركون بالرحمن، ويعبدون الأوثان، وإما أهل كتاب قد بدلوا معانيه وأحكامه وحرفوا حلاله وحرامه ولبسوا حقه بباطله، كما هو الموجود. فلو أراد الرجل أن يميز له أهل الكتاب ما جاءت به الأنبياء مما هم عليه مما أحدثوه بعدهم، لم يعرف جمهورهم ذلك، بل قد صار الجميع عندهم دينا واحدا.

فبعث الله - تبارك وتعالى - محمدا بالكتاب الذي أنزله عليه مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا، فميز به الحق من الباطل والهدى من الضلال والغي من الرشاد. قال - تعالى -: {ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين - يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم - لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير} [المائدة: 15 - 17] .

إلى قوله. {ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير} [المائدة: 19] .

الوجه الرابع: إن شريعة التوراة تغلب عليها الشدة، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين، وشريعة القرآن معتدلة جامعة بين هذا وهذا، كما قال - تعالى -: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} [البقرة: 143] .

وقال في وصف أمته: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم} [الفتح: 29] .

وقال - أيضا -: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين} [المائدة: 54] .

فوصفهم بالرحمة للمؤمنين، والذلة لهم، والشدة على الكفار والعزة عليهم.

وكذلك كان صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - نبيهم، أكمل النبيين وأفضل الرسل؛ بحيث قال: " «أنا محمد وأنا أحمد، وأنا نبي الرحمة، وأنا نبي الملحمة، وأنا نبي التوبة، وأنا الضحوك القتال» ".

فوصف نفسه بأنه نبي الرحمة والتوبة، وأنه نبي الملحمة، وأنه الضحوك القتال، وهذا أكمل ممن نعت بالشدة والبأس غالبا، أو باللين غالبا، وقد قيل بسبب ذلك: أن بني إسرائيل كانت نفوسهم قد ذلت لقهر فرعون لهم واستعباد فرعون لهم، فشرعت لهم الشدة لتقوى أنفسهم ويزول عنهم ذلك الذل.

ولهذا لما أمروا بالجهاد نكلوا عنه وقال لهم موسى: {ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين - قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون - قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين - قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} [المائدة: 21 - 24] .

وأما أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال له قائلهم يوم بدر: «والله لا نقول لك كما قال قوم موسى: {فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} [المائدة: 24] .

" لكن نقاتل أمامك ووراءك وعن يمينك وعن يسارك. والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك» .

وكان الكلام قريبا من (بدر) والبحر من جهة الغرب و (برك الغماد) مكان من يماني مكة، بينه وبين مكة عدة ليال، والكفار كانوا - إذ ذاك - بمكة وأصحابه من ناحية المدينة شامي مكة، فمكة جنوبهم والبحر غربهم. تقول: لو طلبت أن ندخل بلد العدو ونذهب إلى تلك الناحية لفعلناه. قالوا: فلما نصر الله بني إسرائيل وأظهرهم، ظهرت فيهم الأحداث بعد ذلك وتجبروا، وقست قلوبهم وصاروا شبها بآل فرعون، فبعث الله المسيح - عليه السلام - باللين والصفح والعفو عن المسيء واحتمال أذاه؛ ليلين أخلاقهم ويزيل ما كانوا فيه من الجبرية والقسوة.

فأفرط هؤلاء في اللين حتى تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وتركوا الحكم بين الناس بالعدل وإقامة الحدود، وترهب عبادهم منفردين، مع أن في ملوك النصارى من الجبرية والقسوة والحكم بغير ما أنزل الله وسفك الدماء بغير حق مما يأمرهم به علماؤهم وعبادهم ومما لم يأمروهم به ما شاركوا فيه اليهود.

فبعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - بالشريعة الكاملة العادلة، وجعل أمته عدلا خيارا لا ينحرفون إلى هذا الطرف ولا إلى هذا الطرف، بل يشتدون على أعداء الله ويلينون لأولياء الله ويستعملون العفو والصفح فيما كان لنفوسهم، ويستعملون الانتصار والعقوبة فيما كان حقا لله.

وهذا كان خلق نبيهم، كما في الصحيحين عن عائشة قالت: " «ما ضرب رسول الله بيده خادما ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه، إلا أن تنتهك محارم الله، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله» ".

وفي الصحيح عن أنس أنه قال: " «خدمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لم لا فعلته؟» «وكان بعض أهله إذا عتبوني على شيء يقول: " دعوه، فلو قدر شيء لكان» ، هذا مع قوله - في الحديث الصحيح - «لما سرقت امرأة كانت من أشرف قريش من بني مخزوم فأمر بقطع يدها، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد؟ فكلموه فكلمه فيها، فقال: " يا أسامة! أتشفع في حد من حدود الله؟ إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد! والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» .

ففي شريعته - صلى الله عليه وسلم - من اللين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق أعظم مما في الإنجيل، وفيها من الشدة والجهاد، وإقامة الحدود على الكفار والمنافقين أعظم مما في التوراة، وهذا هو غاية الكمال؛ ولهذا قال بعضهم: بعث موسى بالجلال، وبعث عيسى بالجمال، وبعث محمد بالكمال.

الوجه الخامس: إن نعم الله على عباده تتضمن نفعهم والإحسان إليهم، وذلك نوعان:

أحدهما: أن يدفع بذلك مضرتهم ويزيل حاجتهم وفاقتهم؛ مثل رزقهم الذي لولا هو لماتوا جوعا، ونصرهم الذي لولا هو لأهلكهم عدوهم، ومثل هداهم الذي لولا هو لضلوا ضلالا يضرهم في آخرتهم. وهذا النوع من النعمة لا بد لهم منه، وإن فقدوه حصل لهم ضرر، إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما؛ ولهذا كان في سورة النحل، وهي سورة النعم، في أولها أصول النعم، وفي أثنائها كمال النعم.

والنوع الثاني: النعم التي تحصل بها من كمال النعم وعلو الدرجة ما لا يحصل بدونها، كما أنهم في الآخرة نوعان: أبرار أصحاب يمين، ومقربون سابقون. ومن خرج عن هذين كان من أصحاب الجحيم.

وإذا كانت النعمة نوعين، فالخلق كانوا محتاجين إلى إرسال محمد - صلى الله عليه وسلم - من هذين الوجهين، وحصل بإرساله هذان النوعان من النعمة، فإن الناس بدونه كانوا جهالا ضالين أميين، وأهل الكتاب منهم.

ولم يكن قد بقي من أهل الكتاب - أتباع المسيح - من هو قائم بالدين الذي يوجب السعادة عند الله في الآخرة، بل كانوا قد بدلوا وغيروا. وأيضا فلو قدر أنهم لم يبدلوا شيئا ففي إرساله من كمال النعم وتواصلها وعلو الدرجات في السعادة ما لم يكن حاصلا بالكتاب الأول، فكان إرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض من نوعي النعيم.

ومن استقرأ أحوال العالم تبين له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إنعامه بإرساله - صلى الله عليه وسلم - وإن الذين ردوا رسالته هم من قال الله فيهم: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار} [إبراهيم: 28] .

ولهذا وصف بالشكر من قبل هذه النعمة فقال - تعالى -: {وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين} [الأنعام: 53] .

وقال - تعالى -: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين} [آل عمران: 144] .

الوجه السادس: أن يقال: قولهم: " إنا نعجب من هؤلاء القوم. . . . " إلى آخر الفصل، قول جاهل ظالم يستحق أن يقال له: بل

العجب من هذا العجب هو الواجب، بل هو الذي لا ينقضي منه العجب، وإن كل عاقل ليعجب ممن عرف دين محمد - صلى الله عليه وسلم - وقصده الحق، ثم اتبع غيره، ويعلم أنه لا يفعل ذلك إلا مفرط في الجهل والضلال أو مفرط في الظلم واتباع الهوى.

وذلك أن أهل الأرض نوعان: أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وغير أهل الكتاب كالمشركين من العرب والهند والترك، وغيرهم كالمجوس من الفرس، وغيرهم كالصابئة من المتفلسفة، وغيرهم.

وأهل الكتاب يسلمون لنا أن من سوى أهل الكتاب انتفع بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - منفعة ظاهرة، وأنه دعا جميع طوائف المشركين والمجوس والصابئين إلى خير مما كانوا عليه، بل كانوا أحوج الناس إلى رسالته. وأما أهل الكتاب: فاليهود مسلمون لنا حاجة النصارى إليه، وأنه دعاهم إلى خير مما كانوا عليه، والنصارى تسلم لنا حاجة اليهود إليه، وأنه دعاهم إلى خير مما كانوا عليه.

فما من طائفة من طوائف أهل الأرض إلا وهم مقرون بأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - دعا سائر الطوائف - غيرهم - إلى خير مما كانوا عليه هذه شهادة من جميع أهل الأرض؛ بأنه دعا أهل الأرض إلى خير مما كانوا عليه. فإن شهادة جميع الطوائف مقبولة على غيرهم؛ إذ كانوا غير متهمين عليهم، فإنهم معادون لمحمد وأمته، معادون لسائر الطوائف، وأما شهادتهم لأنفسهم فغير مقبولة فإنهم خصومه وشهادة الخصم على خصمه غير مقبولة.

وقد اعترف الفلاسفة بأنه لم يقرع العالم ناموس بأفضل من ناموسه، واعترفوا بأنه أفضل من ناموس موسى والمسيح عليهما الصلاة والسلام، بل كان لهم من الطعن في نواميس غيره ما ليس هذا موضع ذكره. بخلاف ناموس محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه لم يطعن فيه أحد منهم، إلا من كان خارجا عن قانون الفلسفة التي توجب عندهم العدل والكلام بعلم. وأما من التزم منهم الكلام بعلم وعدل فهم متفقون على أن ناموس محمد - صلى الله عليه وسلم - أفضل ناموس طرق العالم، فكيف يعجب من مثل هذا الناموس؟ ! .

الوجه السابع: أن يقال لأهل الكتاب خصوصا، فيقال لليهود: أنتم أذل الأمم، فلو قدر أن ما أنتم عليه دين الله الذي لم يبدل فهو مغلوب مقهور في جميع الأرض، فهل تعجبون من أن يبعث الله رسولا يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فيبعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله حتى يصير دين الله الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه منصورا ظاهرا بالحجة والبيان والسيف والسنان.

ويقال للنصارى: أنتم لم تخلصوا دين الله الذي بعث به رسله من دين المشركين والمعطلين، بل أخذتم من أصول المشركين والمعطلين من الفلاسفة وغيرهم ما أدخلتموه في دينكم، وليس لكم على أكثر الكفار حجة علمية ولا يد قهرية، بل للكفار في

قلوبكم من الرعب والخوف والتعظيم ما أنتم به من أضعف الأمم حجة وأضيقها محجة، وأبعدها عن العلم والبيان، وأعجزها عن إقامة الحجة والبرهان؛ تارة تخافون من الكفار والفلاسفة وغيرهم من المشركين والمعطلين، فإما أن توافقوهم على أقوالهم، وإما أن تخضعوا لهم متواضعين، وتارة تخافون من سيوف المشركين، فإما أن تتركوا بعض دينكم لأجلهم، وإما أن تذلوا لهم خاضعين.

ففيكم من ضعف سلطان الحجة، وضعف سلطان النصرة ما يظهر به حاجتكم إلى قيام الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه فالعجب منكم كيف تعدلون عما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة إلى ما فيه شقاؤكم في الدنيا والآخرة. هذا هو العجب ليس العجب ممن آمن بما فيه سعادة الدنيا والآخرة وفي خلافه شقاوة الدنيا والآخرة.

ومثل هذا لا يرد على المسلمين، فإنه لم يزل ولا يزال فيه طائفة قائمة بالهدى ودين الحق ظاهرة بالحجة والبيان واليد والسنان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، كما ثبت في الصحاح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» " وفي لفظ " «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة حتي يأتي الله بأمره» ".

الوجه الثامن: أن يقال لأهل الكتاب: لليهود: أنتم لما كنتم متبعين لموسى - عليه السلام - كنتم على الهدى ودين الحق وكنتم منصورين، ثم كثرت فيكم الأحداث التي تعرفونها كما قال - تعالى -:

{قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون - قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل} [المائدة: 59 - 60] .

وقوله - تعالى -: {وعبد الطاغوت} [المائدة: 60] معطوف على (لعنه الله) أي من لعنه الله وغضب عليهم وعبد هو الطاغوت، ليس هو داخلا في خبر " جعل "، حتى يلزم إشكال كما ظنه بعض الناس.

وأهل الكتاب معترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات، وقتلوا الأنبياء.

وقال - تعالى -: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا - فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا - ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا - إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا - عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا} [الإسراء: 4 - 8] .

وهم معترفون بأن بيت المقدس خرب مرتين.

فالخراب الأول لما جاء " بختنصر " وسباهم إلى بابل وبقي خرابا سبعين سنة، والخراب الثاني بعد المسيح بنحو سبعين سنة، وقد قيل: هذا تأويل قوله: {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم} [المائدة: 78] .

فبعد الخراب الثاني تفرقوا في الأرض ولم يبق لهم ملك. وبين الخرابين كانوا تحت قهر الملوك الكفار، وبعث المسيح - عليه الصلاة والسلام - وهم كذلك.

ويقال للنصارى: أنتم ما زلتم مقهورين مغلوبين مبددين في الأرض، حتى ظهر قسطنطين وأقام دين النصرانية بالسيف، وقتل من خالفه من المشركين واليهود. لكن أظهر دينا مبدلا مغيرا ليس هو دين المسيح - عليه السلام - ومع هذا فكانت أرض العراق وفارس كفارا - المجوس وغيرهم - مجوسا ومشركين. وكانوا في بعض الأزمنة يقهرون النصارى على بلادهم، وأما أرض المشرق والمغرب ففيهما من أنواع المشركين أمم، وكان الشرك والكفر ظاهرا في أرض اليمن والحجاز والشام والعراق، فلما بعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - أظهر به توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ظهورا لم يعرف في أمة من الأمم، ولم يحصل مثله لنبي من الأنبياء، وأظهر به من تصديق الكتب والرسل والتوراة والإنجيل والزبور، وموسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من الرسل ما لم يكن ظاهرا لا عند أهل الكتاب ولا غيرهم، فأهل الكتاب وإن كانوا خيرا من غيرهم فلم يكونوا قائمين بما يجب من الإيمان بالله ورسله ولا باليوم الآخر ولا شرائع دينه، ولا كانوا قاهرين لأكثر الكفار،

ولا كانوا منصورين عليهم ولهذا قال: - تعالى -.: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب} [التوبة: 29].

أما اليهود ففيهم من التنقص من الأنبياء في سبهم، وذكر عيوب نزههم الله عنها، ما هو معروف. حتى إن منهم من يقول أن سليمان كان ساحرا، وداود كان منجما لم يكن نبيا، إلى أمثال ذلك.

مما يطول وصفه. ففيهم من الكفر بالأنبياء، من جنس ما كان في سلفهم الخبيث.

وأما النصارى - فمع غلوهم في المسيح وأتباعه - يستخفون بغيره فتارة يجعلون الحواريين مثل إبراهيم وموسى أو أفضل منهم، وتارة يقولون - كما قال اليهود -: " إن سليمان لم يكن نبيا بل سقط من النبوة "، وتارة يجعلون ما خاطب الله به داود وغيره من الأنبياء إنما أريد به المسيح، مع أن اللفظ لا يدل على ذلك، بل يتأولون كتب الله بمجرد هوى أنفسهم، وتارة يقولون: إن الواحد منهم إذا أطاع الله بما يزعمون أنه طاعة، صار مثل واحد من الأنبياء، ويسوغون لمثل هؤلاء أن يغيروا شرائع الأنبياء ويضعوا دينا ابتدعوه ومحمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته أقاموا توحيد الله الذي كان عليه إبراهيم وموسى وسائر الرسل وآمنوا بكل كتاب أنزله الله وكل رسول بعثه الله، وأقاموا دين الرحمن إقامة لم يقمها أحد من الأمم. فعامة أهل الأرض مع محمد - صلى الله عليه وسلم -: إما مؤمن به باطنا وظاهرا - وهم أولياء الله المتقون وحزبه المفلحون وجنده الغالبون - وإما مسلمون له في الظاهر تقية وخوفا من أمته، وهم المنافقون.

وإما مسالمون له بالعهد والذمة والهدنة - وهم أهل الذمة والهدنة في جميع الأرض - وإما خائفون من أمته.

وحيث كان الواحد والطائفة من أمته متمسكا بدينه، كان نوره ظاهرا وبرهانه باهرا معظما منصورا، يعرف فضله على كل من سواه.

وهذا أمر يعرفه الناس في أرض الكفار من المشركين وأهل الكتاب؛ لما خص الله به محمدا - صلى الله عليه وسلم - وأمته من الهدى ودين الحق. وقد أظهروا دين الرب في مشارق الأرض ومغاربها بالقول والعمل. فهل يقول من عنده علم وعدل: إنه لا فائدة في إرسال محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنه يستغنى بما عند أهل الكتاب عن رسالته؟ !

الوجه التاسع: أن يقال: هم معترفون بانتفاع المشركين به غاية الانتفاع، فإنه أقام توحيد الله ودينه فيهم، وأنه عظم المسيح. ورد على اليهود قولهم فيه وأهانهم وحينئذ فهذا من أعظم الفوائد وأجل المقاصد وأعظم نعم الله على عباده، ثم هو - مع ذلك - قال: إن الله أرسله وأمره بذلك.

فإن كان كاذبا فالكذاب المفتري على الله من شر الكفار، ومن يكون كذلك لا يحصل منه هذا الخير العظيم، الذي ما حصل مثله من أحد من الأنبياء، فإنه أزال دين المشركين، ودين المجوس، وقمع اليهود وكل واحدة من هذه الثلاث لم يقدر عليها أحد قبله من الأنبياء والمرسلين.

وإن كان صادقا؛ فهو قد أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من الأمم، وأخبر عن الله بكفر كل من لم يؤمن به. وهذا الوجه ممن يخاطب به كل صنف، فيقال لكل صنف من الأمم: أنتم معترفون بأن من سواكم إذا اتبعوا دين محمد - صلى الله عليه وسلم - كان خيرا لهم مما هم عليه؛ فاليهود معترفة بأن النصارى إذا اتبعوه كان خيرا لهم من دين النصارى، والنصارى معترفون بأن اليهود إذا اتبعوه كان خيرا لهم من دين اليهود، وأهل الكتاب اليهود والنصارى معترفون بأن من سواهم إذا اتبعوا محمدا كان خيرا لهم مما هم عليه.

فالمجوس والمشركون من العرب، والسودان والترك وأصناف الخزر والصقالبة، إذا اتبعوه كان خيرا لهم مما هم عليه وسائر أصناف الكفار معترفون بأن أتباعه خير من غيرهم. ومن ليس من أهل الكتاب - عامتهم - معترفون بأن دين المسلمين خير من دين اليهود والنصارى. وحينئذ فيقال: من جاء بهذا الدين الذي يفضله جميع أهل الأرض على غيره يمتنع أن يكون من أكفر الناس وأحقهم بغضب الله وعقابه. وكل من قال: إنه رسول الله؛ فإن كان صادقا كان من خير أهل الأرض وأحقهم برضوان الله وثوابه، وإن كان كاذبا كان من شر أهل الأرض وأحقهم بغضب الله وعقابه. ومن حصل منه هذا الخير والعلم والهدى وما فيه صلاح الدنيا والآخرة أعظم مما حصل من جميع الخلق يمتنع أن يكون من أكفر الناس المستحقين لغضب الله وعقابه، فوجب أن يكون من خير أهل الأرض، بل هو خير أهل الأرض وأحقهم برضوان الله وثوابه.

الوجه العاشر: إن الله - سبحانه وتعالى - كانت سنته قبل إنزال التوراة، إذا كذب نبي من الأنبياء ينتقم الله من أعدائه بعذاب من عنده، كما أهلك قوم نوح بالغرق، وقوم هود بالريح الصرصر، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بالظلة، وقوم لوط بالحاصب، وقوم فرعون بالغرق قال تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون} [القصص: 43] .

فلما أنزل التوراة، أمر أهل الكتاب بالجهاد، فمنهم من نكل ومنهم من أطاع.

وصار المقصود بالرسالة لا يحصل إلا بالعلم والقدرة كما قال تعالى:{هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا} [الفتح: 28] .

فقول هؤلاء: " إن التوراة جاءت بالعدل، والإنجيل بالفضل فلا حاجة إلى غيرهما، لو قدر أنه حق. إنما يستقيم إذا كان الكتابان لم يبدلا، بل كانا متبعين علما وعملا، وكان أهلهما مع ذلك منصورين مؤيدين على من خالفهم، فكيف وكل منهما قد بدل كثير مما فيه، وأهلهما غير منصورين على سائر الكفار، بل الكفار ظاهرون عليهم في أكثر الأرض؛ كأرض اليمن والحجاز وسائر جزيرة العرب وأرض العراق وخراسان والمغرب وأرض الهند والسند والترك، وكان بأيدي أهل الكتاب الشام ومصر وغير ذلك، ومع هذا فكانت الفرس قد غلبتهم على ذلك،، ثم إن الله أظهر النصارى عليهم، فكان ظهورهم توطئة وتمهيدا لإظهار دين الإسلام.

فإن الفرس المجوس لما غلبوا الروم ساء ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين به، وفرح بذلك مشركو العرب وكانوا أكثر من المؤمنين؛ لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس، والمجوس أقرب إلى المشركين منهم إلى أهل الكتاب، ووعد الله المؤمنين أن تغلب الروم بعد ذلك، وأنه يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

فأضاف النصرة إلى اسم الله، ولم يقل بنصر الله إياهم. وذلك أنه حين ظهرت الروم على فارس كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه قد ظهروا على المشركين واليهود.

وأرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ ذاك يدعو ملوك النصارى بالشام ومصر إلى الإيمان به، فعرفوه وعرفوا أنه النبي المبشر به، وكان ذلك أول ظهور دينه، ثم أرسل طائفة من أصحابه إلى غيرهم، ثم خرج بالمسلمين بنفسه معهم عام تبوك إلى الشام، ثم فتح هذه البلاد أصحابه، فكان تأييد دين الله وظهوره وإذلال المشركين والمجوس وغيرهم من الكفار على يديه ويدي أمته، لا على يد اليهود والنصارى.

فلو قدر أن شرع أولئك كامل لا تبديل فيه، لكان مغلوبا مقهورا، وكان الله قد أرسل من يؤيد دينه ويظهره، فكيف وهو مبدل؟ ولو لم يبدل فدين أحمد أكمل وأفضل منه، فذاك مفضول مبدل، وهذا فاضل لم يبدل، وذلك مغلوب مقهور، وهذا مؤيد منصور. وببعض هذا تحصل الفائدة في إرساله.

فكان من أجل الفوائد إرسال محمد - صلى الله عليه وسلم - فكيف يقال: إنه لا فائدة في إرساله.

الوجه الحادي عشر: قولهم: " لما كان الباري عدلا جوادا أوجب أن يظهر عدله وجوده " فيقال لهم: جود الجواد غير إلزام الناس بترك حقوقهم، فإن الجواد هو الذي يحسن إلى الناس ليس هو الذي يلزم الناس بترك حقوقهم، وهؤلاء يزعمون أن شريعة الإنجيل ألزمت الناس بترك حقوقهم، وأنه لا ينصف مظلوم من ظالمه، ولهذا ليس عندهم حكم عدل يحكمون به بين الناس، بل الحكم عندهم حكمان: حكم الكنيسة، وليس فيه إنصاف المظلوم من الظالم. والثاني: حكم الملوك، وليس هو شرعا منزلا، بل هو بحسب آراء الملوك.

ولهذا تجدهم يردون الناس إلى حكم شرع الإسلام في الدماء والأموال ونحو ذلك، حتى في بعض بلادهم يكون الملك والعسكر كلهم نصارى، وفيهم طائفة قليلة مسلمون لهم حاكم، فيردون الناس في الدماء والأموال إلى حكم شرع المسلمين، وذلك أن الدماء والأموال وإن كان يستحب للمظلوم أن يعفو فيها عن ظالمه، فالحاكم الذي يحكم بين الناس، متى حكم على المظلوم بترك حقه كان حاكما بالظلم لا بالعدل.

ولو أمرنا كل ولي مقتول أن لا يقتص من القاتل، وكل صاحب دين أن لا يطالب غريمه، بل يدعه على اختياره، وكل مشتوم ومضروب أن لا ينتصف من ظالمه، لم يكن للظالمين زاجر يزجرهم، وظلم الأقوياء الضعفاء، وفسدت الأرض. قال تعالى:

{ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض} [البقرة: 251] .

فلا بد من شرع يتضمن الحكم بالعدل ولا بد - مع ذلك - من ندب الناس إلى العفو والأخذ بالفضل.

وهذه شريعة الإسلام كما تقدم ما ذكرنا من الآيات مثل قوله: {والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له} [المائدة: 45] .

وقوله: {وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم} [البقرة: 280] .:.

وقوله: {وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله} [الشورى: 40] .

وقوله: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين} [النحل: 126] .

وقوله: {الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} [آل عمران: 134] .

وقوله: {ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا} [النساء: 92] ..

وقوله: {ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور} [الشورى: 43] .

وقال أنس: " «ما رفع للنبي - صلى الله عليه وسلم - أمر فيه القصاص، إلا أمر فيه بالعفو» " فكان يأمر بالعفو، ولا يلزم الناس به؛ ولهذا لما عتقت (بريرة) ، وكان لها أن تفسخ النكاح، وطلب زوجها أن لا تفارقه، شفع إليها أن لا تفارقه، فقالت: أتأمرني؟ قال: لا إنما أنا شافع فلم يوجب عليها قبول شفاعته - صلى الله عليه وسلم -.

الوجه الثاني عشر: قولهم: " ولما كان الكمال الذي هو الفضل لا يمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال " فيقال لهم: العدل والفضل لا يشرعه إلا الله، فشريعة التوراة لم يشرعها إلا الله، وشريعة الإنجيل لم يشرعها إلا الله - عز وجل -.

يبين ذلك أن الله كلم موسى من الشجرة تكليما، وهم غاية ما قرروا به إلهية المسيح أن زعموا أن الله كلم الناس من ناسوت المسيح، كما كلم موسى من الشجرة، ومعلوم عند كل عاقل، لو كان هذا حقا، أن تكليمه لموسى من الشجرة أعظم تكليم كلمه الله لعباده فكيف يقال: إن شريعة العدل لم يشرعها الله عز وجل؟ .

ثم يقال لهم: بل شريعة العدل أحق بأن تضاف إلى الله من شريعة الفضل، فإن الأمر بالإحسان والعفو يحسنه كل أحد، وأما معرفة العدل والحكم بين الناس به، فلا يقدر عليه إلا آحاد الناس؛ ولهذا يوجد الذي يصلح بين الناس بالإحسان خلق كثير، وأما الذي يحسن أن يفصل بينهم بالعدل فناس قليل، فكيف يقال: إن الذي يأمر بشرع الفضل هو الله، دون الذي يأمر بشرع العدل؟ .

والله - تعالى - أرسل الرسل، وأنزل الكتب؛ ليقوم الناس بالقسط كما قال تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز} [الحديد: 25] .

وأمر المسيح - عليه السلام - للمظلوم بالعفو عن الظالم: ليس فيه ما يدل على أنه من الواجب الذي من تركه استحق الذم والعقاب، بل هو من المرغب فيه الذي من فعله استحق المدح والثواب. وموسى - عليه السلام - أوجب العدل الذي من تركه استحق الذم والعقاب. وحينئذ فلا منافاة بين إيجاب العدل، وبين استحباب الفضل.

لكن إيجاب العدل يقترن به الترهيب والتخويف في تركه، واستحباب الفضل يقترن به الترغيب والتشويق إلى فعله، فذاك فيه رهبة مع ما فيه من الرغبة. وهذا فيه رغبة بلا رهبة؛ ولهذا قال المسيح - عليه السلام -:. {وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد - إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} [المائدة: 117 - 118] .

ولهذا قيل: إن المسيح - عليه السلام - بعث لتكميل التوراة، فإن النوافل تكون بعد الفرائض كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «يقول الله - تعالى -: " من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش

وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه» .

وإلا فلو قيل: إن المسيح - عليه السلام - أوجب على المظلوم العفو عن الظالم؛ بمعنى أنه يستحق الوعيد والذم والعقاب إن

لم يعف عنه لزم من هذا أن يكون كل من انتصف من الظالم، ظالما مستحقا للذم والعقاب، وهذا ظلم ثان للمظلوم الذي انتصف؛ فإن الظالم ظلمه أولا فلما انتصف منه ظلم ظلما ثانيا، فهو ظلم العادل انتصف من ظالمه.

وما أحسن كلام الله حيث يقول:. {فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون - والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون - والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون - والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون - وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين - ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل - إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم - ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور} [الشورى: 36 - 43] .

وقال: {ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور} [الحج: 60] .

فهذا من أحسن الكلام وأعدله وأفضله حيث شرع العدل فقال:{وجزاء سيئة سيئة مثلها} [الشورى: 40] .

ثم ندب إلى الفضل، فقال: {فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين} [الشورى: 40] .

ولما ندب إلى العفو، ذكر أنه لا لوم على المنتصف، لئلا يظن أن العفو فرض فقال: {ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل} [الشورى: 41] .

ثم بين أن السبيل إنما يكون على الظالمين فقال: {إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم} [الشورى: 42] .

ثم لما رفع عنهم السبيل ندبهم مع ذلك إلى الصبر والعفو فقال:. {ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور} [الشورى: 43] .

فهذا أحسن شرع وأحكمه يرغب في الصبر والغفر والعفو والإصلاح بغاية الترغيب، ويذكر ما فيه من الفضائل والمحاسن وحميد العاقبة، ويرفع عن المنتصف ممن ظلمه الملام والعذل، ويبين أنه لا حرج عليه ولا سبيل إذا انتصر بعدما ظلم.

فهل يمكن أن تأتي شريعة بأن تجعل على المنتصف سبيلا مع عدله وهي لا تجعل على الظالم سبيلا مع ظلمه؟ .

فعلم أن ما أمر به المسيح من العفو لم يكن لأن تاركه مستحق للذم والعقاب، بل لأنه محروم مما يحصل للعافي المحسن من الأجر والثواب، وهذا حق لا يناقض شرع التوراة، فعلم أن شرع الإنجيل لم يناقض شرع التوراة؛ إذ كان فرعا عليها ومكملا لها، وحينئذ فزعمهم أن شرع الإنجيل شرعه الله دون شرع التوراة كلام من هو من أجهل الناس وأضلهم ولهذا كان فرعا على قولهم بالاتحاد، وأن المسيح هو الله.

فذاك الضلال مما أوجب هذا القول المحال.

[فصل: بطلان استدلالهم بما يدعونه أنه من كلام الأنبياء السابقين]

فصل

وجميع ما احتجوا به من التوراة والإنجيل وغيرهما من كلام الأنبياء - عليهم السلام - إنما يكون الحجة فيه علمية برهانية، إذا أقاموا الدليل على نبوة من احتجوا بكلامه، بأن بينوا إمكان النبوة ثم بينوا وقوعها في الشخص المعين بالطرق التي يستدل بها على نبوة النبي.

وهم لم يفعلوا شيئا من ذلك، بل احتجوا بذلك بناء على أنها مقدمة مسلمة يسلمها المسلمون لهم. وهذا لا ينفعهم لوجوه:

أحدها: أن فيمن ذكروه من لم يثبت عند المسلمين أنه نبي كميخا وعاموص.

الثاني: أن من ثبت عند المسلمين نبوته كموسى وعيسى وداود وسليمان لم يثبت عندهم أنهم قالوا جميع ما ذكروه من الكلام وأن ترجمته بالعربية هو ما ذكروه، وأن مرادهم به ما فسروه.

الثالث: أن جمهور المسلمين لا يعلمون نبوة أحد من الأنبياء قبل محمد إلا بإخبار محمد - صلى الله عليه وسلم - بنبوتهم فلا يمكنهم التصديق بنبوة أحد من هؤلاء إلا بعد التصديق بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -.

فإذا طلب هؤلاء من المسلمين أن يسلموا نبوة هؤلاء، دون نبوة محمد لم يمكن المسلمين أن يسلموا ذلك لهم، ولا يشرع ذلك للمسلمين لا عقلا ولا نقلا، وحينئذ إذا لم يقيموا الأدلة على نبوة أولئك؛ لم يكونوا قد ذكروا لا حجة برهانية ولا حجة جدلية.

الرابع: أن المسلمين لم يصدقوا بنبوة موسى وعيسى، إلا مع إخبارهما بنبوة محمد، فإن سلموا أنهما أخبرا بنبوة محمد ثبتت نبوته ونبوتهما، وإن جحدوا ذلك جحد المسلمون نبوة من يدعون أنه موسى.

وعيسى اللذين لم يخبرا بمحمد - صلى الله عليه وسلم -.

الخامس: أن المسلمين وكل عاقل، يمنع - بعد النظر التام - أن يقر بنبوة موسى وعيسى دون محمد - صلى الله عليه وسلم -، إذ كانت نبوته أكمل، وطرق معرفتها أتم وأكثر وما من دليل يستدل به على نبوة غيره إلا وهو على نبوته أدل، فإن جحد نبوته يستلزم جحد نبوة غيره بطريق الأولى. ولكن من قال ذلك هو متناقض كما يتناقض سائر أهل الباطل؛ ولهذا قال - تعالى - في الكفار: {إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك} [الذاريات: 8] .

[فصل: إثبات الفضل لرسول الله ولشريعته ولأمته]

فصل

قد ذكرنا في جواب أول كتابهم بيان امتناع احتجاجهم بشيء من كلام محمد - صلى الله عليه وسلم - أو غيره من الأنبياء - عليهم السلام - على ما يخالف دين المسلمين من دينهم. ونحن نبسط هذا هنا فنقول: لا ريب أن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح لا عقلي ولا شرعي؛ سواء كان من الخبريات أو الطلبيات. فإن الدليل الصحيح يستلزم صحة المدلول عليه، فلو قام على الباطل دليل صحيح لزم أن يكون حقا مع كونه باطلا، وذلك جمع بين النقيضين؛ مثل كون الشيء موجودا معدوما.

وأهل الكتاب معهم حق في الخبريات والطلبيات، ومعهم باطل، وهو ما بدلوه في الخبريات، سواء كان المبدل هو اللفظ أو معناه وما ابتدعوه أو ما نسخ من العمليات. والمنسوخ الذي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والرسل. فإن الذي اتفقت عليه هو الذي لا بد للخلق منه في كل زمان ومكان، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح كما قال – تعالى:

{إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [المائدة: 69] ..

وعامة السور المكية، كالأنعام، والأعراف، وآل حم، وآل طس، وآل الر، هي من الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والصدق والعدل والإخلاص، وتحريم الظلم والفواحش والشرك، والقول على الله بلا علم، وعامة ما عندهم من النقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور ونبوات الأنبياء توافق المنقول عن محمد - صلى الله عليه وسلم - شهد هذا لهذا وهذا لهذا. وذلك من دلائل نبوة أولئك الأنبياء ومن دلائل نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -.

ولهذا يذكر الله ذلك بيانا لإنعامه بمحمد ودلالة لنبوته كقوله - تعالى -: {وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين - يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين - ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} [آل عمران: 42 - 44] .

وقال: - تعالى - لما قص قصة نوح.: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين} [هود: 49]

فذكر الإله نعمته وآيته، بكونه لم يكن يعلمها هو ولا قومه - أيضا - كانوا يعلمونها؛ لئلا يظن أنه تعلم ذلك من قومه، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك.

وقد علم بالنقل المتواتر أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - ولد بمكة، وبها نشأ بعد أن كان مسترضعا في بادية سعد بن بكر قريبا من الطائف شرقي مكة وهو صغير ثم حملته مرضعته حليمة السعدية.

إلى أمه بمكة، لا يعلم شيئا من ذلك، ولا هناك من يتعلم منه شيء من ذلك. وأهل مكة يعلمون حاله وأنه لم يتعلم ذلك من أحد ثم أخبرهم بالغيب الذي لا يعلمه أحد إلا بتعليم الله له.

فكان هذا من أعلام رسالته، ودلائل نبوته، عليهم أولا، وعلى غيرهم آخرا. فإنهم كانوا مشاهدين له يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من أحد. وغيرهم يعلم ذلك بالأخبار المتواترة، ويعلم أن قومه المكذبين له مع حرصهم على الطعن فيه، ومع علمهم بحاله، لو كان قد تعلم من أهل الكتاب لقالوا: هذا قد تعلمه منهم. قال - تعالى -: {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون} [يونس: 16] .

والمقصود أنه نفى علم قومه بما أخبره فيه، بيانا لآلاء الله التي هي آياته ونعمه فإن ذلك يدل على أنه لم يتعلم ذلك من قومه وفيه إنعام الله على الخلق بذلك.

وقال - تعالى - لما ذكر قصة يوسف: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون} [يوسف: 102] .

وقال تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون - وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين - ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين - وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك} [القصص: 43 - 46] .

فنفى - سبحانه - شهادته لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها؛ تنبيها للناس على أنه أخبر بالغيب الذي لم يشهده ولم يعرفه من جهة أخبار الناس، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك ولا عاشر غير قومه. وكل من عرف حاله يعلم أنه لم يتعلم شيئا من ذلك، لا من أهل الكتاب ولا ممن نقل عن أهل الكتاب.

فإذا كان محمد - صلى الله عليه وسلم - أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله، في باب أسماء الله وصفاته، وتوحيده وملائكته وأوليائه وأعدائه، مع العلم بأن في هذه الأمور من التفاصيل الكثيرة ما يمتنع اتفاق اثنين عليه إلا عن مواطأة بينهما، ومحمد وموسى - صلوات الله عليهما وسلامه لم يتواطآ، بل لم يواطئ محمد - صلى الله عليه وسلم - أحدا من الرسل قبله ولا واطأوه.

والخبر الكذب إما أن يتعمد صاحبه الكذب، وإما أن يغلط. فالكاذبان المتعمدان للكذب لا يتفقان في القصص الطويلة والتفاصيل العظيمة.

وكذلك الغالطان لا يتفق غلطهما في مثل ذلك، بل الاثنان من آحاد الناس إذا أخبر كل منهما عن حال بلدة وأخبر الآخر بمثل خبره من غير مواطأة عرف صدقهما، فكيف بالأمور الغائبة التي لا يمكن العلم بها إلا من جهة الله - تعالى - فهذا من دلائل نبوة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -.

وأما القدر الذي يخالف ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - مما ينقلونه عن الأنبياء فهو نوعان:

أحدهما: ما وقع فيه النسخ من الشرائع وهذا لا يمنعه لكن المنسوخ مثل هذا بالنسبة إلى ما لم ينسخ من الكتاب نظير المنسوخ من القرآن والأحاديث النبوية، فإنه قليل جدا بالنسبة إلى ما لم ينسخ، وكذلك عامة ما أمر به موسى وداود والمسيح وغيرهم من الأنبياء، إذا اعتبر بما أمر به محمد - صلى الله عليه وسلم - وجد عامة ذلك متفقا لم ينسخ منه إلا القليل.

والثاني: الخبريات؛ وهذه قد ادعى بعض أهل الكتاب أن محمدا خالف بعض ما أخبرت به الأنبياء قبله، وهذا باطل، فإن أخبار الأنبياء لا يجوز أن تتناقض؛ إذ هم - كلهم - صادقون مصدقون ومن علم أن محمدا رسول الله، وأن موسى رسول الله، وأن المسيح رسول الله، علم أن أخبارهم لا تتناقض لكن قد يخبر هذا بما لم يخبر به هذا؛ فيكون في أخبار أحدهم زيادات على أخبار غيره لا ما يناقض خبر غيره.

وما يذكره أهل الكتاب مما يناقض خبر محمد - صلى الله عليه وسلم - فهو - عامته - مما حرفوا معناه وتأويله وقليل منه حرف لفظه، وأهل الكتاب - اليهود والنصارى - مع المسلمين متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها، إما عمدا وإما خطأ في ترجمتها وفي تفسيرها وشرحها وتأويلها. وإنما تنازع الناس: هل وقع التحريف في بعض ألفاظها؟ وكل ما يدعي فيه مدع أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - ناقضه فلا بد له من أن يثبت مقدمتين:

إحداهما: ثبوت ذلك اللفظ عن ذلك النبي.

والثاني: ثبوت معناه.

وكل من احتج بنقل عن نبي، فلا بد له من هاتين المقدمتين: الإسناد والمتن، فلا بد له من ثبوت اللفظ، ولابد له من ثبوت معنى اللفظ. وإذا كان النقل ليس بلغة النبي، بل بلغة أخرى فلا بد من الترجمة الصحيحة، وعامة النصارى ليس عندهم كتب الأنبياء بلغة الأنبياء.

فإن موسى والمسيح ومن بينهما من أنبياء بني إسرائيل إنما كانوا يتكلمون باللغة العبرانية.

والمسيح كان عبرانيا، لم يتكلم بغير العبرانية، وإنما تكلم بغيرها، كالسريانية واليونانية والرومية بعض من اتبعه. وجمهور

النصارى لا يعرفون بالعبرانية، فلا يحسنون أن يقرءوا بالعبرانية لا توراة ولا إنجيلا ولا غير ذلك، وإنما يتكلمون بذلك: الرومية أو السريانية أو غيرهما، وإن كان فيهم قليل ممن يتكلم بالعبرانية، بخلاف اليهود، فإن العبرانية فاشية فيهم، وحينئذ فمن احتج من أهل الكتاب بشيء من كلام الأنبياء المنقول بالرومية والسريانية أو بالعربية، فإنه يحتاج مع إثبات النقل إلى إثبات الترجمة وصحتها؛ فإنهم كثيرا ما يضطربون في الترجمة وصحتها ويختلفون في معناها.

فهذه مقدمات ثلاث لا بد لهم منها في كل ما يحتجون من كلام الأنبياء، ولو لم يدعوا أنه معارض لما أخبر به محمد - صلى الله عليه وسلم - فكيف إذا ادعوا به تناقضه لما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن قدر أنه ثبت أن نبيا أخبر بشيء امتنع قطعا أن يخبر محمد - صلى الله عليه وسلم - بنقيضه. فإن فيما نقل عن محمد - صلى الله عليه وسلم - أيضا ما ليس بثابت لفظه؛ مثل بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وفيما ثبت لفظه ما ليس معناه صريحا في المناقضة، بل لا يدل على ذلك.

فكم ممن يفسر القرآن بما لا يدل عليه لفظ القرآن، بل ولا قاله أحد من الصحابة، بل ولا التابعين.

كمن يقول: إن شعيبا النبي هو كان حمو موسى. وليس في القرآن والسنة وكلام الصحابة إلا ما يدل على نقيض ذلك. وكمن يقول: إن الرسل الذين أرسلوا إلى القرية كانوا من أتباع المسيح. وليس في القرآن والمنقول عن الصحابة إلا ما يدل على نقيض ذلك.

وأما ما علم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أخبر به فقد قامت الأدلة القاطعة اليقينية على صدقه وصدق ما أخبر به، أعظم مما قامت على صدق غيره وصدق ما جاء به، فمهما عارض ذلك علم أنه كذب على الأنبياء. ولا يمكن أحدا من الخلق أن يذكر دليلا قطعيا على صحة ذلك النقل، بل غايتهم أن يذكروا طريقا ظنيا لا يفيدهم إلا الظن، والظن لا يعارض اليقين.

فما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - يمكن صاحب النظر والاستدلال أن يعلمه علما يقينا لا يرتاب فيه.

وما يناقضه لا سبيل لأحد إلى العلم به، ولا يتصور أن يقوم بقلبه منه إلا الظن والتقليد، وكلاهما لا يناقض العلم، فهذا أصل جامع. ثم العارف يعبر عنه مع كل إنسان بحسب ما يوصل معناه إلى ذلك المخاطب. والمقصود هنا أن يقال: كل ما يحتجون به على مخالفة ما ثبت عن محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يمكن أن يقوم لهم عليه دليل لا شرعي ولا عقلي، وهذا نعلمه مجملا.

ونحن نبين ذلك مفصلا فنقول: ما يحتجون به إما أن يكون حجة عقلية وإما أن يكون سمعية؛ أما العقليات: فمعلوم أن الحجج العقلية الدالة على فساد ما يقوله النصارى، أظهر مما يحتجون به على صحة دينهم ومن احتج منهم أو من اليهود بحجة عقلية على مخالفة شيء من دينه فلها أجوبة:

أحدها: أن يبين أن ذلك يلزم غيره من الأنبياء، فإنهم جاءوا بذلك أو بأعظم منه..

فلا يقدح أحد بحجة عقلية في محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا كان ذلك قد جاء بطريق الأولى في غيره من الأنبياء، كما بينا في الرد على الرافضة، أنه لا يقدح أحد في الخلفاء الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان، إلا أمكن أن يقدح بمثل ذلك وبأعظم منه في علي، فيمتنع أن يكون علي سليما من القوادح في إمامته إلا والثلاثة أسلم منه مما يقدح في إمامتهم.

ويمتنع أن يكون موسى وعيسى وداود برآء مما يقدح في نبوتهم إلا ومحمد أبرأ مما يقدح في نبوته. وهذا كما لو احتج محتج بما في القرآن من إثبات الصفات، فيقال له: في التوراة وغيرها من كتب الأنبياء مثل ذلك وأعظم، وإذا احتج بإنزال المتشابهات فيقال له: في الكتب المتقدمة من التشابه أعظم مما في القرآن. وهل ضلت النصارى إلا باتباع المتشابه من كلام الأنبياء وترك المحكم؟ .

والثاني: أن يبين أن تلك الحجة لا تصلح أن يعارض بها ما جاءت به الأنبياء. كما إذا أخذ بعض الناس يطعن في شيء من الشرائع بالرأي، بين له أن ما ثبت عن الأنبياء لا يعارض برأي ولا قياس.

الثالث: أن يبين فساد تلك الحجة العقلية. إن كانت من باب الخبريات: بين فسادها كما قد بسطنا القول في ذلك في كتاب " درء تعارض العقل والشرع " وذكرنا أن جميع ما يحتج به على خلاف نصوص الأنبياء من العقليات، فإنه باطل. وذكرنا ما يعتمد عليه النفاة من هذا الباب.

وإن كانت من باب الطلبيات فهي من باب الأمر والنهي. فمن كان في مذهبه أنه لا يعلل أحكام الله ولا يقول: إن حسن الأفعال وقبحها يعلم بالعقل، ولا ينزه الله عن فعل ولا عن حكم، بل يجوز عليه كل شيء، وإنما ينفي ذلك بالخبر السمعي أو العادة، فهذا يجاب بهذا الجواب لكن عامة القلوب والعقول لا تقبل هذا.

وأما على قول الجمهور: فنبين ما في مأموراته من الحكم والمصالح، وما في منهياته من المفاسد والضرر، ونبين رجحان ما جاء به على ما يعارض به، بل ونبين رجحان شرائع الأنبياء على سياسات سائر الأمم، بل ونبين رجحان شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - على سائر الشرائع، وهذا مبسوط في مواضع.

وأما إذا احتج أهل الكتاب على مناقضة محمد - صلى الله عليه وسلم - بحجة سمعية سواء كانت من كلامه، أو كلام غيره من الأنبياء عليهم السلام، كان الجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال لهم: لا يمكنكم أن تصدقوا بنبوة نبي من الأنبياء مع التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم. والطريق الذي بها تثبت نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بمثلها وبأعظم منها. بل نحن نبين أن التصديق بنبوته أولى من التصديق بنبوة غيره، وأن كل ما يستدل به على نبوة نبي فمحمد أحق بجنس ذلك الدليل من غيره، وما يعارض به نبوة نبي، فالجواب عن محمد - صلى الله عليه وسلم - أولى من الجواب عن غيره.

فهو مقدم فيما يدل على النبوة، وفيما يجاب به عن المعارضة، وهذه أكمل في ذلك. فيمتنع مع العلم أو العدل أن يصدق بنبوة غيره مع التكذيب بنبوته، كما يمتنع مع العلم والعدل في كل اثنين أحدهما أكمل من الآخر في فن أن يقر بمعرفة ذلك الفن للمفضول دون الفاضل. وقولنا: مع العلم والعدل؛ لأن الظالم يفضل المفضول مع علمه بأنه مفضول، والجاهل قد يعرف المفضول، ولا يعرف الفاضل.

فإن كثيرا من الناس يعلمون فضيلة متبوعهم: إما في العلم أو العبادة ولا يعرفون أخبار غيره حتى يوجد أقوام يعظمون بعض

الأتباع دون متبوعه الذي هو أفضل منه عند التابع، وغيره لا يعرفونه. فهؤلاء ليس عندهم علم؛ ولهذا تجد كثيرا من هؤلاء يرجح المفضول؛ لعدم علمه بأخبار الفاضل، وهذا موجود في جميع الأصناف، حتى في المدائن، يفضل الإنسان مدينة يعرفها على مدينة هي أكمل منها لكونه لا يعرفها.

والحكم بين الشيئين بالتماثل أو التفاضل، يستدعي معرفة كل منهما ومعرفة ما اتصف به من الصفات التي يقع بها التماثل والتفاضل كمن يريد أن يعرف أن البخاري أعلم من مسلم، وكتابه أصح، أو أن سيبويه أعلم من الأخفش، ونحو ذلك.

وقد فضل الله بعض النبيين على بعض، كما قال - تعالى -: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض} [الإسراء: 55] ..

وقال - تعالى -: وتلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض.

والكلام في شيئين.:

أحدهما: في كون المفضول يستحق تلك المنزلة دون الفاضل، وهذا غاية الجهل والظلم. كقول الرافضة الذين يقولون: إن عليا كان إماما عالما عادلا، والثلاثة لم يكونوا كذلك.

وكذلك اليهود والنصارى الذين يقولون: إن موسى كان رسولا، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - لم يكن كذلك، فإن هذا في غاية الجهل والظلم. بخلاف من اعترف باستحقاق الاثنين للمنزلة، ولكن فضل المفضول، فهذا أقل جهلا وظلما.

ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون، تارة في الكتب المنزلة عليهم وتارة في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم، وتارة في الشرائع وما جاءوا به من العلم والعمل وتارة في أممهم.

فمن عنده علم وعدل؛ فينظر في القرآن وفي غيره من الكتب كالتوراة والإنجيل، أو في معجزات محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعجزات غيره، أو في شريعته وشريعة غيره، أو في أمته وأمة غيره وجد له من التفضيل على غيره ما لا يخفى إلا على مفرط في الجهل أو الظلم.

فكيف يمكن مع هذا أن يقال: هو كاذب مفتر، وغيره هو النبي الصادق؟ ! ..

نعم، كثير من أهل الكتاب لم يعرفوا من أخباره ما يبين لهم ذلك كما أن كثيرا من الرافضة لم يعرفوا من أخبار الثلاثة ما يبين لهم فضيلتهم عن علي رضي الله عنه، فهؤلاء في الجهل، وطلب العلم عليهم فرض، خصوصا أمر النبوة. فإن النظر في أمر من قال: {إني رسول الله إليكم} [الأعراف: 158] .

مقدم على كل شيء؛ إذ كان التصديق بهذا مستلزما لغاية السعادة، والتكذيب به مقتضيا لغاية الشقاوة، فبالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء وبين الحق والباطل والهدى والضلال، والفرق بين أولياء الله وأعدائه.

وكما يسلك هذه الطريق العقلية في القياس والاعتبار، بأن يعتبر حال محمد - صلى الله عليه وسلم - وكتابه وشرعه وأمته بحال غيره وكتابه وشرعه، وينظر هل هما متماثلان أو متفاضلان وأيهما أفضل، وإذا تبين أن حاله أفضل كان تصديقه أولى، وامتنع أن يكون غيره صادقا وهو كاذب.

بل لو كانا متماثلين وجب كونه صادقا، بل وكذلك لو كانا متقاربين وغيره أفضل فإن المتنبي الكذاب لا يقارب الصادق، بل بينهما من التباين ما لا يخفى إلا على أعمى الناس.

وكذلك نسلك هذه الطريق في جنس الأنبياء – عليهم السلام - مطلقا وأممهم، بأن تعرف أخبار من مضى من الأنبياء وأممهم. وترى آثار هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى:

{أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} [الحج: 46] .

وقال - تعالى -: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون - حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين - لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} [يوسف: 109 - 111] .

وقال - تعالى - لما ذكر آل فرعون.:. {وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين} [القصص: 42] .

وكذلك قال تعالى - عن عاد: {وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود} [هود: 60]

وقال - تعالى - عن قوم شعيب: {ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود} [هود: 95] .

وإذا ذكر الأنبياء - عليهم السلام - قال - تعالى -: {وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين} [الصافات: 78] .

{سلام على إبراهيم} [الصافات: 109] .

{سلام على موسى وهارون} [الصافات: 120] ..

{سلام على إل ياسين} [الصافات: 130] .

وقال - تعالى -: {وجعلنا لهم لسان صدق عليا} [مريم: 50] .

ومثل هذا في القرآن كثير، فيذكر من حال الأنبياء وأتباعهم، وما حصل لهم من الكرامة، وما حصل للكفار بهم من الخزي والعذاب، ما بين حسن حال هؤلاء وقبح حال هؤلاء.

ومما يوضح ذلك من أن من اعتبر حال أهل الملل، من المسلمين واليهود، والنصارى، وحال غيرهم في العلوم النافعة والأعمال الصالحة، تبين له أن حال أهل الملل أكمل بما لا يحصى. وإذا نظر ما عند غير أهل الملل من الحكمة العلمية والعملية، كحكمة الهند واليونان والعرب من الجاهلية والفرس.

وغيرهم، وجد ما عندهم بعض ما عند أهل الملل، من الحكمة العلمية والعملية فيمتنع أن يكون علماء اليونان والهند ونحوهم على حق وهدى، وعلماء المسلمين واليهود والنصارى على باطل وضلال. وكذلك يمتنع أن تكون الأمة لها علم نافع وعمل صالح وأهل الملل ليسوا كذلك.

ففي الجملة: لا يوجد في غير أهل الملل من علم نافع وعمل صالح: من حكمة علمية وعملية، إلا وذلك في أهل الملل أكمل، ولا يوجد في أهل الملل شر إلا وهو في غيرهم أكثر.

وهؤلاء فلاسفة اليونان، الذين قد شهروا عند كثير من الناس باسم الحكمة، وحكمتهم كحكمة سائر الأمم، نوعان: فطرية وعملية؛ والعملية في الأخلاق وسياسة المنزل وسياسة المدائن، وكل من تأمل ما عند اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل من سياسة الأخلاق والمنزل والمدائن وجده خيرا مما عند أولئك بأضعاف مضاعفة.

فإن أولئك عمدة أمرهم: الكلام على قوى النفس الشهوية.

والغضبية، وقوة العلم والعدل، كأمور من جنس آداب العقلاء، ليس عندهم من معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله، ومن عبادته وحده لا شريك له شيء له قدر والذي عندهم من العلوم الطبيعية والحسابية، ليس مما ينفع بعد الموت إلا أن يستعان به على ما ينفع بعد الموت. والذي عندهم من العلم الإلهي قليل جدا مع ما فيه من الخطأ الكثير.

وكل ما عندهم من علم نافع وعمل صالح، فهو جزء مما جاءت به الأنبياء - عليهم السلام - فيمتنع أن يكون هؤلاء المسمون بالحكماء وأتباعهم على حق في الاعتقاد، وصدق في الأقوال وخير في الأعمال كما هو غاية مطلوبهم. والأنبياء وأتباعهم ليسوا كذلك.

واعتبر ذلك بمن يعرف من خاصة هؤلاء وعامتهم، وخاصة هؤلاء وعامتهم، وإن كان بينهما من التفاوت ما بين أهل الجنة وأهل النار، فالاعتبار في مثل ذلك مما جاء به التنزيل.

قال - تعالى -: {آلله خير أما يشركون} [النمل: 59] .

والمقصود أنه بالاعتبار والقياس العقلي والموازنة يوزن الشيء بما يناظره، ويعتبر به قياس الطرد وقياس العكس.

فيظهر لكل من تدبر ذلك أن أهل الملل أولى بالحق والصدق والخير من غيرهم، وإن كان لأولئك من الحكمة ما يناسب أحوالهم. وحكماؤهم أفضل من عوامهم، وهم خير من الكفار بالرسل الذين ليس فيهم خير أصلا وهذا مما استفادوه أتباع الأنبياء منهم، فيكون هذا من دلائل نبوتهم وأعلام رسالتهم استدلالا بالأثر على المؤثر وبالمعلول على علته.

وكذلك من تدبر حال المسلمين، وحال اليهود والنصارى، تبين له رجحان حال المسلمين فيكون هذا من دلائل نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأعلام رسالته.

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن النبوة تعلم بطرق كثيرة، وذكرنا طرقا متعددة في معرفة النبي الصادق والمتنبي الكذاب، غير طريق المعجزات. فإن الناس كلما قويت حاجتهم إلى معرفة الشيء يسر الله أسبابه كما يتيسر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشد.، فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهواء أعظم منها إلى الماء، كان مبذولا لكل أحد في كل وقت، ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت، كان وجود الماء أكثر.

وكذلك لما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم، كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيئته وحكمته أعظم من غيرها، ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل بعد ذلك أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك، أقام الله - سبحانه - من دلائل صدقهم وشواهد نبوتهم وحسن حال من اتبعهم وسعادته ونجاته، وبيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح، وقبح حال من خالفهم وشقاوته وجهله وظلمه - ما يظهر لمن تدبر ذلك.

{ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور} [النور: 40] .

وهذا الذي ذكرناه من اعتبار الشيء بنظرائه وموافقيه وأشباهه، واعتباره بأضداده ومخالفيه، حتى يعرف في المتشابهين أيهم أكمل وأفضل، وفي المختلفين أيهم أولى بالحق والهدى، والعدل موجود في سائر الأمور علمها وعملها، كعلم الطب والحساب والفقه وغير ذلك، فيمتنع - مع العلم والعدل - أن يقال: جالينوس كان طبيبا، وأبقراط لم يكن طبيبا، أو أن يقال: تاميطميوس كان فيلسوفا، وأرسطو لم يكن فيلسوفا، أو أن يقال: الأخفش كان نحويا وسيبويه لم يكن نحويا، أو أن يقال: زفر والحسن بن زياد ومحمد بن الحسن كانوا فقهاء، وأبو حنيفة لم يكن فقيها، أو أن أشهب وابن القاسم، وابن وهب كانوا فقهاء، ومالك لم يكن فقيها، أو أن المزني والبويطي وحرملة كانوا فقهاء، والشافعي لم يكن فقيها، وأن أبا داود وإبراهيم الحربي.

وأبا بكر الأثرم كانوا فقهاء، وأحمد بن حنبل لم يكن فقيها، أو أن عليا كان إمام عدل، وأبا بكر وعمر لم يكونوا يكونا إمامي عدل، أو أن نور الدين الشهيد كان عادلا، وعمر بن عبد العزيز لم يكن عادلا، أو أن كوشيار كان يعلم الهيئة، وبطليموس لم يكن يعرف الهيئة، أو أن النابغة الجعدي كان شاعرا، والنابغة الذبياني لم يكن شاعرا، أو أن يقال: إن القمر مستنير، والشمس ليست مستنيرة، أو أن عطارد نجم ثاقب، وزحل ليس بنجم ثاقب، أو أن مسلما كان عالما بالحديث، والبخاري لم يكن كذلك، أو أن كتابه أصح من كتاب البخاري. ونحو ذلك مما يطول تعداده.

[فصل: اشتراطهم لصحة النبوة تبشير الأنبياء بها والرد عليهم]

فصل

والنصارى لهم سؤال مشهور بينهم، وهو أن فيهم من يقول: محمد - صلى الله عليه وسلم - لم تبشر به النبوات بخلاف المسيح فإنه بشرت به النبوات " وزعموا أن من لم تبشر به، فليس بنبي وهذا السؤال يورد على وجهين:

أحدهما: أنه لا يكون نبيا حتى تبشر به.

والثاني: أن من بشرت به أفضل أو أكمل، ممن لم تبشر به، أو أن هذا طريق يعرف به نبوة المسيح، اختص به.

وأنتم قد قلتم: " ما من طريق تثبت به نبوة نبي إلا ومحمد تثبت نبوته بمثل تلك الطريق وأفضل " فأما هذا الثاني، فيستحق الجواب، وأما الأول نجيبهم عنه أيضا. لكن هل تجب الإجابة عنه؟ فيه قولان بناء على أصل وهو أنه: هل من شرط النسخ الإشعار بالمنسوخ؟ ولنظار المسلمين فيه قولان:.

أحدهما: أنه لا بد إذا شرع حكما يريد أن ينسخه، فلا بد أن يشعر المخاطبين بأنه سينسخه؛ لئلا يظنوا دوامه فيكون ذلك تجهيلا لهم. والثاني لا يشترط ذلك.

وأيضا، فمن بعث بعد موسى، هل يجب أن يكون مبشرا به؟ فيه قولان.

وبكل حال، فلا ريب عند علماء المسلمين أن المسيح - عليه السلام - بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم - كما قال - تعالى -:

{وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: 6] .

وقد قال - تعالى -: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} [الأعراف: 157] .

وقال - تعالى -: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار} [الفتح: 29] .

وقال - تعالى -: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} [البقرة: 146] .

في موضعين من القرآن؛ أحدهما في التوحيد والقرآن، والآخر في القبلة، والقرآن ومحمد.

فقال في الأول: {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون - الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون} [الأنعام: 19 - 20] ..

وهذا في سورة الأنعام، وهي مكية.

وقال في سورة البقرة - وهي مدنية -: {قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون - ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين - الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون - الحق من ربك فلا تكونن من الممترين} [البقرة: 144 - 147] ..

وقال - تعالى -: {وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} [البقرة: 89] .

وقال - تعالى -: {أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين} [الأنعام: 114] .

وقال - تعالى -: {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} [الشعراء: 197] .

وقال - تعالى -: {قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} [الرعد: 43] .

وقال - تعالى -: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق} [المائدة: 83] .

وقال - تعالى -: {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا - ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا} [الإسراء: 107 - 109] .

وقال - تعالى -: {الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون} [القصص: 52 - 54] .

وقال - تعالى -: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك} [يونس: 94] ..

وإذا كان كذلك فيقال: معلوم باتفاق أهل الملل، أنه ليس من شرط نبوة كل نبي أن يبشر به من قبله؛ إذ النبوة ثابتة بدون ذلك، لاسيما ونوح وإبراهيم وغيرهما لم يعلم أنه بشر بهما من قبلهما، وكذا عامة الأنبياء الذين قاموا في بني إسرائيل لم تتقدم بهم بشارات؛ إذ كانوا لم يبعثوا بشريعة ناسخة، كداود وأشعيا وغيرهما.

وإنما قد يدعى هذا فيمن جاء بنسخ شرع من قبله، كما جاء المسيح بنسخ بعض أحكام التوراة، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم. ففي مثل هذا يتنازع المتنازعون من علماء المسلمين وغيرهم: هل يشترط أن يكون قد أخبر بذلك قبل النسخ؟ على قولين.

وحينئذ فالمسلمون يقولون: شريعة التوراة والإنجيل لم تشرع شرعا مطلقا، بل مقيدا إلى أن يأتي محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا مثل الحكم المؤقت بغاية لا يعلم متى تكون، كقوله تعالى: {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره} [البقرة: 109] .

وقوله تعالى: {فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا} [النساء: 15] .

ومثل هذا جائز باتفاق أهل الملل.

وهل يسمى هذا نسخا؟ فيه قولان: قيل: لا يسمى نسخا، كالغاية المعلومة، كقوله تعالى: {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل} [البقرة: 187] .

فإن ارتفاع وجوب الصيام بمجيء الليل لا يسمى نسخا باتفاق الناس.

فقيل: إن الغاية المجهولة كالمعلومة. وقيل: بل هذا يسمى نسخا. ولكن هذا النسخ جائز باتفاق أهل الملل اليهود وغيرهم، وعلى هذا فثبوت نبوة المسيح ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهما - لا تتوقف على جواز النسخ المتنازع فيه، فإن ذلك إنما يكون في الحكم المطلق. والشرائع المتقدمة لم تشرع مطلقا.

وسواء قيل: إن الإشعار بالناسخ واجب، أو قيل: إنه غير واجب، فعلى القولين قد أشعر أهل الشرع الأول بأنه سينسخ. فإن موسى بشر بالمسيح، وكذلك غيره من الأنبياء وموسى والمسيح، وغيرهما من الأنبياء بشروا بمحمد، وإذا كان هذا هو الواقع فنبوة المسيح ومحمد - صلى الله عليهما وسلم - لا تتوقف على ثبوت النسخ المتنازع فيه.

وحينئذ فنقول العلم بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ونبوة المسيح لا تتوقف على العلم بأن من قبلهما بشر بهما، بل طرق العلم بالنبوة متعددة. فإذا عرفت نبوته بطريق من الطرق ثبتت نبوته عند من علم ذلك وإن لم يعلم أن من قبله بشر به. لكن يقال: إذا كان الواجب أو الواقع أنه لا بد من إخبار من قبله بمجيئه وأن الإشعار بنسخ شريعة من قبله واجب أو واقع صار ذلك شرطا في النبوة، ومن علم نبوته علم أن هذا قد وقع، وإن لم ينقل إليه.

فإذا قال المعارض: عدم إخبار من قبله به يقدح في نبوته، وأنه إذا قدر أنه لم يخبر به من قبله، والإخبار شرط في النبوة، كان ذلك قدحا - قيل: الجواب هنا من طريقين:.

أحدهما أن يقال: إذا علمت نبوته بما قام عليها من أعلام النبوة؛ فإما أن يكون تبشير من قبله لازما لنبوته واجبا أو أو واقعا، وإما أن لا يكون لازما.

فإن لم يكن لازما لم يجب وقوعه، وإن كان لازما علم أنه قد وقع، وإن كان ذلك لم ينقل إلينا إذ ليس كل ما قالته الأنبياء المتقدمون علمناه ووصل إلينا، وليس كل ما أخبر به المسيح ومن قبله من الأنبياء وصل إلينا، وهذا مما يعلم بالاضطرار.

ولو قدر أن هذا ليس في الكتب الموجودة لم يلزم أن المسيح ومن قبله لم يذكروه، بل يمكن أنهم ذكروه وما نقل، ويمكن أنه كان في كتب غير هذه، ويمكن أنه كان في نسخ غير هذه النسخ فأزيل من بعضها، ونسخت هذه مما أزيل منه، وتكون تلك النسخ التي هو موجود فيها غير هذه، فكل هذا ممكن في العادة لا يمكن الجزم بنفيه.

فلو قدر أنه ليس في هذه الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب، لم يقطع بأن الأنبياء لم يبشروا به، فإذا لم يمكن لليهود أن يقطعوا بأن المسيح لم يبشر به الأنبياء، ولا يمكن أهل الكتاب أن يقطعوا بأن محمدا لم يبشر به الأنبياء، لم يكن معهم علم بعدم ذلك، بل غاية ما يكون عند أحدهم ظن لكونه طلب ذلك فلم يجده.

ودلائل نبوة المسيح ومحمد قطعية يقينية، لا يمكن القدح فيها بظن؛ فإن الظن لا يدفع اليقين، لاسيما مع الآثار الكثيرة المخبرة بأن محمدا كان مكتوبا باسمه الصريح فيما هو منقول عن الأنبياء، كما في صحيح البخاري أنه قيل لعبد الله بن عمرو: " أخبرنا ببعض صفة رسول الله في التوراة "، فقال: إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تجزي بالسيئة الحسنة وتعفو وتغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة.

الموجاء، فأفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا، بأن يقولوا لا إله إلا الله.

ولفظ التوراة والإنجيل والقرآن والزبور قد يراد به الكتب المعينة، ويراد به الجنس، فيعبر بلفظ القرآن عن الزبور وغيره، كما في الحديث الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " «خفف على داود القرآن فكان ما بين أن تسرج دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن» " والمراد به قرآنه وهو الزبور، ليس المراد به القرآن الذي لم ينزل إلا على محمد.

وكذلك ما جاء في صفة أمة محمد: " أناجيلهم في صدورهم " فسمى الكتب التي يقرءونها - وهي القرآن - أناجيل.

وكذلك في التوراة: " إني سأقيم لبني إسرائيل نبيا من إخوتهم أنزل عليه توراة مثل توراة موسى " فسمى الكتاب الثاني توراة.

فقوله: " أخبرني بصفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في التوراة " قد يراد بها نفس الكتب المتقدمة كلها، وكلها تسمى توراة، ويكون هذا في بعضها.

وقد يراد به التوراة المعينة، وعلى هذا فيكون هذا في نسخة لم ينسخ منها هذه النسخ، فإن النسخ الموجودة بالتوراة التي وقفنا عليها ليس فيها هذا.

لكن هذا عندهم في نبوة أشعيا، قال فيها: " عبدي الذي سرت به نفسي، أنزل عليه وحيي، فيظهر في الأمم عدلي ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك ولا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، والآذان الصم، ويحيي القلوب الغلف، وما أعطيه لا أعطي أحدا، يحمد الله حمدا جديدا يأتي من أقصى الأرض، وتفرح البرية وسكانها يهللون الله على كل شرف ويكبرونه على كل رابية، لا يضعف ولا يغلب ولا يميل إلى الهوى، مشقح ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة، بل يقوي الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفى. أثر سلطانه على كتفيه ".

وهذه صفات منطبقة على محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته، وهي من أجل بشارات الأنبياء المتقدمين به.

ولفظ التوراة قد عرف أنه يراد به جنس الكتب التي يقر بها أهل الكتاب، فيدخل في ذلك الزبور، ونبوة أشعيا، وسائر النبوات غير الإنجيل.

فإن كان المراد بلفظ التوراة والإنجيل في القرآن هذا المعنى؛ فلا ريب أن ذكر النبي في التوراة كثير متعدد.

الطريق الثاني من الجواب: أن نبين أن الأنبياء قبله بشروا به. وهذا دليل مستقل على نبوته وعلم عظيم من أعلام رسالته، وهذا - أيضا - يدل على نبوة ذلك النبي إذ أخبر بأنباء من الغيب مع دعوى النبوة، ويدل على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لإخبار من تثبت نبوته بنبوته. هذا إذا وجد الخبر ممن لا نعلم نحن نبوته، ولم يذكر في كتابنا.

وأما من ثبتت نبوته بطرق أخرى كموسى والمسيح، فهذا مما تظاهر فيه الأدلة على المدلول الواحد، وهو - أيضا - يتضمن أن كل ما ثبتت به نبوة غيره فإنه تثبت به نبوته، وهو جواب ثان لمن يجعل ذلك شرطا لازما لنبوته.

[فصل: طرق العلم ببشارة الأنبياء بمحمد عليه الصلاة والسلام]

فصل

ثم العلم بأن الأنبياء قبله بشروا به يعلم من وجوه.:.

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب من ذكره.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب وغيرها من كتب أهل الكتاب - ممن أسلم ومن لم يسلم - بما وجدوه من ذكره فيها.

وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنه رسول الله، وأنه موجود عندهم، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام، حتى آمن الأنصار به وبايعوه من غير رهبة ولا رغبة.

ولهذا قيل: إن المدينة فتحت بالقرآن، لم تفتح بالسيف كما فتح غيرها.

ومثل ما تواتر عن إخبار النصارى بوجوده في كتبهم مثل إخبار هرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر صاحب الإسكندرية والنجاشي ملك الحبشة والذين جاءوه بمكة وقد ذكر الله ذلك في القرآن في قوله عن اليهود.:.

{وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به} [البقرة: 89] .

وقال عن النصارى: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين} [المائدة: 83] .

وقوله: {الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا} [القصص: 52] .

وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: " أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدو ما كانوا يقولون فيه "، فقال معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، وداود بن سلمة: " يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ونحن أهل شرك وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته "، فقال سلام بن مشكم، أخو بني النضير، " ما جاءنا شيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم "..

فأنزل الله - تعالى -: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} [البقرة: 89] .

وقال أبو العالية وغيره: " كانوا - يعني اليهود - إذا استنصروا بمحمد على مشركي العرب يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا، حتى نعذب المشركين ونقتلهم " فلما بعث الله محمدا ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله هذه الآيات.

{فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به} [البقرة: 89] .

وروى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري ثم الظفري، عن رجال من قومه قالوا: " ومما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله وهداه - أنا كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل الكتاب عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - رسولا من عند الله، أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزلت هؤلاء الآيات التي في البقرة.:.

{ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} [البقرة: 89] .

قال: ابن إسحاق: " وحدثنا صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، حدثنا يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة الأنصاري، قال: حدثني من شئت من رجال قومي عن حسان بن ثابت الأنصاري، قال: والله إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان سنين، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يقول على أطم يثرب، يصرخ: " يا معشر اليهود " فلما اجتمعوا عليه قالوا: " ما لك ويلك " قال: " طلع نجم أحمد الذي يبعث الليلة ".

وروى أبو زرعة، بإسناد صحيح، عن أسامة بن زيد، عن أبيه زيد بن حارثة، قال: " «خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مردفي ثم أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في يوم حار من أيام مكة، حتى إذا كنا بأعلى الوادي لقيه زيد بن عمرو بن نفيل، فقال له رسول الله: " يا ابن عمرو، ما لي أرى قومك قد شنفوك؟ ".

قال: " أما والله، إن ذلك لغير ثائرة كانت مني فيهم لكن أراهم على ضلال " فخرجت أبتغي هذا الدين، فأتيت إلى أحبار يثرب، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي. فخرجت حتى آتي أحبار خيبر فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فقال لي حبر من أحبار الشام: " إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحدا يعبد الله به إلا شيخ بالجزيرة ". فخرجت فقدمت عليه فأخبرته بالذي خرجت له، فقال: " إن كل من رأيت في ضلالة فمن أنت "، قلت: " أنا من أهل بيت الله، ومن أهل الشوك والقرظ ".

فقال: " إنه قد خرج في بلدك نبي - أو: خارج - قد خرج نجمه، فارجع فصدقه واتبعه وآمن به، فرجعت فلم أحس شيئا بعد، قال:

" فأناخ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعيره، فقدمنا إليه السفرة " قال زيد: " ما آكل شيئا ذبح لغير الله " فتفرقا، فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فطاف بالبيت. قال زيد: وأنا معه، وكان صنمان من نحاس يقال لهما: (إساف) و (نائلة) مستقبل الكعبة، يتمسح بهما الناس إذا طافوا فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " لا تمسهما ولا تمسح بهما ".

قال زيد: فقلت في نفسي - وقد طفنا - لأمسنهما حتى أنظر ما يقول، فمسستهما، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " ألم تنهه؟ " فلا والذي أكرمه، ما مسستهما حتى أنزل الله عليه الكتاب» .

«ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل الإسلام. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إنه يبعث أمة وحده» .

وروى البخاري حديث خروج زيد بن عمرو قريبا من هذا اللفظ.

وقال: ابن إسحاق: حدثنا صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد، عن سلمة بن سلامة بن وقش، قال:

كان بين أبياتنا يهودي، فخرج على نادي قومه بني عبد الأشهل ذات غداة، فذكر البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، فقال ذلك لأصحاب وثن، لا يرون أن بعثا كائن بعد موت، وذلك قبل مبعث رسول الله، فقالوا: " ويحك يا فلان - أو: ويلك - وهذا كائن، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون من أعمالهم "، قال: " نعم، والذي يحلف به لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا أعظم تنور في داركم فتحمونه ثم تقذفوني فيه ثم تطينون علي وأني أنجو من تلك النار غدا. فقيل: يا فلان، فما علامة ذلك؟ قال: " نبي يبعث من ناحية هذه البلاد " وأشار إلى مكة واليمن بيده، قالوا: " فمتى تراه؟ " فرمى بطرفه فرآني وأنا مضطجع بفناء باب أهلي وأنا أحدث القوم، فقال: " إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه " فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله، وإنه لحي بين أظهرهم، فآمنا به وصدقناه، وكفر به بغيا وحسدا، فقلنا له: يا فلان ألست الذي قلت ما قلت وأخبرتنا؟ قال: ليس به.

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - «أن غلاما يهوديا كان يخدم النبي، فمرض فأتاه رسول الله يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة، فقال له رسول الله يا يهودي أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي؟ قال: لا، قال الفتى: " بلى والله يا رسول الله إنا نجد في التوراة نعتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: النبي - صلى الله عليه وسلم - أقيموا هذا من عند رأسه، ولوا أخاكم» رواه البيهقي بإسناد صحيح. وقال: ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن شيخ من بني قريظة، قال: هل تدري عما كان إسلام أسيد وثعلبة ابني

سعية، وأسد بن عبيد، نفر من هدل، لم يكونوا من بني قريظة وبني النضير، كانوا فوق ذلك، فقلت: لا، قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام من يهود، يقال له: ابن الهيبان، فأقام عندنا، والله ما رأينا رجلا قط لا يصلي الخمس خيرا منه، فقدم علينا قبل مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - بسنين، وكنا إذا أقحطنا وقل علينا المطر، نقول: يا ابن الهيبان اخرج فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة، فنقول كم؟ فيقول صاعا من تمر أو مدين من شعير، فنخرجه ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه فنستقي، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى تمر الشعاب. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة، فحضرته الوفاة واجتمعوا إليه، فقال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم، قال: " فإنه إنما أخرجني أتوقع خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلاد مهاجره، فاتبعوه ولا تستبقن إليه إذا خرج، يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وبسبي الذراري والنساء ممن يخالفه، ولا يمنعنكم ذلك منه " ثم مات، فلما كان الليلة التي فتحت فيها قريظة، قال أولئك الثلاثة الفتية - وكانوا شبانا أحداثا -: يا معشر يهود والله إنه الذي ذكر لكم ابن الهيبان، فقالوا: ما هو به، قالوا: " بلى والله إنه لصفته " ثم نزلوا فأسلموا وخلوا أموالهم وأولادهم وأهاليهم. قال ابن إسحاق: فلما فتح الحصن رد ذلك عليهم.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب، لما حدثه عن هرقل - وقد تقدم حديثه في أول الكتاب - وذكر فيه أن هرقل لما سأله عن صفات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: إن يكن ما تقول حقا، إنه نبي، قد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

وزاد البخاري في حديثه، وقال ابن الناطور: وكان هرقل.

حزاء ينظر في النجوم، فنظر فقال: إن ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ قال: تختتن اليهود، فلا يهمنك شأنهم، وابعث إلى من في مملكتك من اليهود فيقتلوهم. ثم وجد إنسانا من العرب فقال: انظروا أمختتن هو؟ فنظروا فإذا هو مختتن،

وسأله عن العرب، فقال: يختتنون. وقال فيه: وكان برومية صاحب له كان هرقل نظيره في العلم، فأرسل إليه، وصار إلى حمص، فلم يرم من حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأيه على خروج النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنه نبي.

وكذلك النجاشي ملك الحبشة، لما هاجر الصحابة إليه، لما آذاهم المشركون وخافوا أن يفتنوهم عن دينهم، وقرءوا عليه القرآن، قال: فأخذ عودا بين أصبعيه، فقال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن نخرتم. اذهبوا

فأنتم سيوم بأرضي. يعني أنتم آمنون. وقال هذا لأن قريشا أرسلوا هدايا إليه وطلبوا منه أن يرد هؤلاء المسلمين وقالوا: " هؤلاء فارقوا ديننا وخالفوا دينك ".

وفي الصحيح، حديث ورقة بن نوفل الذي ترويه عائشة - رضي الله عنها - في بدء الوحي، قالت: «أول ما بدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصادقة من النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد - إلى أن قالت - فأتت به خديجة ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، فقالت: اسمع من ابن أخيك فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، ليتني كنت جذعا أنصرك إذ يخرجك قومك، قال: أومخرجي هم؟ قال: لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا " ثم لم ينشب ورقة أن توفي» .

وقال ابن إسحاق: «وقدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عشرون رجلا - أو قريب من ذلك - وهو بمكة من النصارى حين ظهر خبره بالحبشة، فوجدوه في المجلس فكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديتهم. فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عما أرادوا، دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الله - عز وجل - وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لترتادوا لهم فتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم؟ ! ما نعلم ركبا أحمق منكم - أو كما قالوا لهم - فقالوا: " سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ". ويقال: فيهم نزل قوله تعالى:

{الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين} [القصص: 52] » .

وعن محمد بن عمر بن إبراهيم بن محمد بن جبير: حدثتني جدتي أم عثمان بنت سعيد بن محمد بن جبير، عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: سمعت أبي جبيرا يقول: لما بعث الله نبيه وظهر أمره بمكة خرجت إلى الشام، فلما

كنت ببصرى، أتتني جماعة من النصارى فقالوا لي: أمن الحرم أنت؟ قلت: نعم، قالوا: فتعرف هذا الذي تنبأ فيكم؟ قلت: نعم، قال: فأخذوا بيدي فأدخلوني ديرا لهم فيه تماثيل وصور، فقالوا لي: انظر هل ترى صورة هذا النبي الذي بعث فيكم؟ فنظرت فلم أر صورته، قلت: لا أرى صورته.

فأدخلوني ديرا أكبر من ذلك الدير فيه صور أكثر مما في ذلك الدير، فقالوا لي: انظر، هل ترى صورته؟ فنظرت، فإذا أنا بصفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصورته، وإذا أنا بصفة أبي بكر وصورته، وهو آخذ بعقب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا لي: انظر هل ترى صفته؟ قلت: نعم، قالوا: هو هذا؟ وأشاروا إلى صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلت: اللهم نعم. أشهد أنه هو. قالوا: أتعرف هذا الذي أخذ بعقبه؟ قلت: نعم.

قالوا: نشهد أن هذا صاحبكم، وأن هذا الخليفة من بعده رواه البخاري في تاريخه، وقال فيه: قال الذي أراه الصور: لم يكن نبي إلا كان بعده نبي، إلا هذا النبي. ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة.

وروى موسى بن عقبة أن هشام بن العاص، ونعيم بن عبد الله، ورجلا آخر، قد سماه، بعثوا إلى ملك الروم زمن أبي بكر، قال: فدخلنا على جبلة بن الأيهم وهو بالغوطة فذكر الحديث.

وأنه انطلق بهم إلى الملك وأنهم وجدوا عنده شبه الربعة العظيمة مذهبة، وإذا فيها أبواب صغار ففتح فيها بابا، فاستخرج منه خرقة حرير سوداء، فيها صورة بيضاء، وذكر صفة آدم ثم فتح بابا آخر، فاستخرج منه حريرة، وفيها صورة نوح ثم إبراهيم ثم أراهم حريرة فيها صورة محمد - صلى الله عليه وسلم - وقال: هذا آخر الأبواب لكني عجلته؛ لأنظر ما عندكم ثم فتح أبوابا

أخر، وأراهم صورة بقية الأنبياء؛ موسى، وهارون، وداود، وسليمان، وعيسى ابن مريم - عليهم السلام - وصفة لوط، وصفة إسحاق، وذكر أن هذا عندهم قديما من عهد آدم، وأن دانيال صورها بأعيانها.

وروي مثل هذا عن المغيرة بن شعبة، أنه لما دخل على المقوقس ملك مصر والإسكندرية ملك النصارى، أخرج له صور الأنبياء وأخرج له صورة نبينا - صلى الله عليه وسلم - فعرفها.

والوجه الثالث: نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة، واستشهاده بأهل الكتاب وإخباره بأنه مذكور في كتبهم، مما يدل العاقل

على أنه كان موجودا في كتبهم، فإنه لا ريب عند كل من عرف حال محمد من مؤمن وكافر، أنه كان من أعقل أهل الأرض، فإن المكذبين له لا يشكون في أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحذق، ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم، الذي لم يحصل لأحد مثله، لا قبله ولا بعده، فعلم ضرورة أنه لا يفعله ولا يخبر به، وهو من أحرص الناس على تصديقه، وأخبرهم بالطرق التي يصدق بها، وأبعدهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يكذب به.

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم - بل علم انتفاء ذلك - لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويستشهد به ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه، وأوليائه وأعدائه، فإن هذا لا يفعله إلا من هو أقل الناس عقلا؛ لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم، عند من يخبرونه وهو ضد مقصوده وهو بمنزلة من يريد إقامة شهود على حقه فيأتي إلى من يعلم أنه لا يكذب، ويعلم أنه ليس بشاهد ولا حضر قضيته، ويقول: هذا يشهد لي، وهذا يشهد لي فإنهم كانوا حاضرين هذه القضية، فيقول أولئك: لسنا نشهد له ولا حضرنا هذه القضية، فهذا لا يفعله عاقل يعلم أنهم لم يكونوا حاضرين، وأنهم يكذبونه، ولا يشهدون له.

الرابع: أن يقال: لما قامت الأعلام على صدقه، فقد أخبر أنه مكتوب في الكتب المتقدمة، وأن الأنبياء بشروا به علم أن الأمر كذلك. لكن هذا لا يذكر إلا بعد أن يقام دليل منفصل على نبوته.

والطريق الأول، هو من أظهر الحجج على أهل الكتاب، وأظهر الأعلام على نبوته.

وقد استخرج غير واحد من العلماء من الكتب الموجودة الآن في أيدي أهل الكتاب من البشارات بنبوته مواضع متعددة، وصنفوا في ذلك مصنفات، وهذه البشارات في هذه الكتب من جنس البشارات بالمسيح - صلى الله عليه وسلم -.

واليهود يقرون باللفظ، لكن يدعون أن المبشر به ليس هو المسيح عيسى ابن مريم، وإنما هو آخر ينتظر، وهم - في الحقيقة - لا ينتظرون إلا المسيح الدجال، وينتظرون - أيضا - مجيء المسيح عيسى ابن مريم إذا نزل من السماء، كما بسط في موضع آخر ويحرفون دلالة اللفظ، ويقولون: إنها لا تدل على نبي منتظر، كما قالوا في قوله: " سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى، أنزل عليه مثل توراة موسى، أجعل كلامي على فيه ".

قال بعضهم: ليس هذا إخبارا، بل هذا استفهام إنكار وقدروا ألف استفهام، وليس في النص شيء من ذلك.

فاليهود يحرفون الدلالات المبشرة بالمسيح، وذلك عند المسلمين والنصارى لا يقدح في البشارة بالمسيح، بل تبين دلالة النصوص عليه، وبطلان تحريف اليهود.

وكذلك البشارات بمحمد - صلى الله عليه وسلم - في الكتب المتقدمة، لا يقدح فيها تحريف أهل الكتاب، اليهود والنصارى، بل تبين دلالة تلك النصوص على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وبطلان تحريف أهل الكتاب.

الوجه الخامس: أن يقال: معلوم أن ظهور دين محمد - صلى الله عليه وسلم - في مشارق الأرض ومغاربها، أعظم حادث حدث في الأرض؛ فلم يعرف قط دين انتشر ودام كانتشاره ودوامه. فإن شرع موسى، وإن دام فلم ينتشر انتشاره ودوامه، بل كان غاية ظهوره ببعض الشام، وأما شرع المسيح فقبل، قسطنطين لم يكن له ملك، بل كانوا يكونون ببعض بلاد الروم وغيرها، وكانوا مستضعفين تقتل أعيانهم أو عامتهم في كثير من الأوقات، ولما انتشر تفرق أهله فرقا متباينة يكفر فيها بعضهم بعضا.

ثم إن شرع محمد - صلى الله عليه وسلم - ظهر في مشارق الأرض ومغاربها وفي وسط الأرض المعمورة؛ الإقليم الثالث والرابع والخامس، وظهرت أمته على النصارى في أفضل الأرض وأجلها عندهم؛ كأرض الشام ومصر والجزيرة وغيرها، ودام شرعه، فله اليوم أكثر من سبعمائة سنة.

ومعلوم أن هذا المدعي للنبوة، سواء كان صادقا أو كاذبا لا بد أن يخبر به الأنبياء فإنهم أخبروا بظهور الدجال الكذاب، تحذيرا للناس، مع أن الدجال مدته قليلة، فلو كان ما يقوله المكذب لمحمد حقا، وأنه كاذب ليس برسول، لكانت فتنته أعظم من فتنة الدجال من وجوه كثيرة؛ لأن الذين اتبعوه أضعاف أضعاف من يتبع الدجال. فلو كان كاذبا لكان الذين افتتنوا به أضعاف أضعاف من يفتتن بالدجال، فكان التحذير منه أولى من التحذير من الدجال؛ إذ ليس في العالم من زمان آدم إلى اليوم كذاب ظهر ودام هذا الظهور والدوام، فكيف تغفل الأنبياء التحذير عن مثل هذا لو كان كاذبا؟ .

وإذا كان صادقا: فالبشارة للإيمان به أولى ما يبشر به الأنبياء من المستقبلات وتخبر به. فعلم أنه لا بد أن يكون في الكتب ذكره ثم قد وجد مواضع كثيرة في الكتب تزيد على مائة موضع استدلوا بها على أنه مذكور، وتواتر عن خلق كثير من أهل الكتاب أنه موجود في كتبهم، وتواتر عن كثير ممن أسلم أنه كان سبب إسلامهم - أو من أعظم سبب إسلامهم - علمهم بذكره في الكتب المتقدمة، إما بأنه وجد ذكره في الكتب كحال كثير ممن أسلم قديما وحديثا، وإما بما ثبت عندهم من أخبار أهل الكتاب، كالأنصار فإنه كان من أعظم أسباب إسلامهم ما كانوا يسمعونه من جيرانهم أهل الكتاب من ذكره ونعته، وانتظارهم إياه، وأن من خيارهم من لم يوجب له أن يسكن أرض يثرب مع شدتها ويدع أرض الشام مع رخائها إلا انتظاره لهذا النبي العربي الذي يبعث من ولد إسماعيل.

ولم يمكن أحد قط أن ينقل عن شيء من الكتب أنه وجد فيها ذكره بالذم والتكذيب والتحذير، كما يوجد ذكر الدجال. وعند أهل الكتاب من ذكر أصحابه؛ كعمر بن الخطاب وغيره، وعدلهم وسيرتهم، عن المسيح وغيره، ما هو معروف عندهم. فإذا كان الذين استخرجوا ذكره من كتب أهل الكتاب والذين سمعوا خبره من علماء أهل الكتاب إنما يذكرون نعته فيها بالمدح والثناء، علم بذلك أن الأنبياء المتقدمين ذكروه بالمدح والثناء، ولم يذكروه بذم ولا عيب.

وكل من ادعى النبوة ومدحه الأنبياء وأثنوا عليه، لم يكن إلا صادقا في دعوى النبوة، إذ يمتنع أن الأنبياء يثنون على من يكذب في دعوى النبوة:

{ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء} [الأنعام: 93] .

وهذا مما يبين أنه لا بد أن يكون الأنبياء ذكروه وأخبروا به، وأنهم لم يذكروه إلا بالثناء والمدح لا بالذم والعيب وذلك - مع دعوى النبوة - لا يكون إلا إذا كان صادقا في دعوى النبوة، فتبين أنهم بشروا بنبوته، وهو المطلوب.

يبين ذلك أن الأنبياء أخبروا أهل الكتاب بما سيكون منهم من الأحداث، وما يسلط عليهم من الملوك الذين يقتلونهم ويخربون بلادهم ويسبونهم ك - (بختنصر) و (سنجاريب) ولكن هؤلاء الملوك لم يدعوا أنهم أنبياء، ولم يدعوا إلى دين، فلم تحتج الأنبياء إلى التحذير من اتباعهم، وقد حذروا من اتباع من يدعي النبوة وهو كاذب.

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - قد قهر أهل الكتاب، وقتل من قتل وسبى من سبى، وأخرجهم من ديارهم فلا بد أن يذكروه ويذكروا الأحداث التي تجري عليهم في أيامه. وإذا كان كاذبا مدعيا للنبوة، فلا بد أن يحذرهم من اتباعه، ومعلوم أن عامة أهل الكتاب ومن نقل عنهم إما أن يقول: ليس موجودا في كتبنا، أو يقول: إنه موجود بالمدح والثناء، لا يمكن أحد أن ينقل عن الكتب المتقدمة أنه موجود فيها بالذم والتحذير. ولو كان مذكورا عندهم بالذم والتحذير، لكان من أعظم ما يحتجون به عليه في حياته، وعلى أمته بعد مماته، ويحتج به من لم يسلم منهم على من أسلم.

فإنه معلوم أن كثيرا من أهل الكتاب كان عندهم من البغض له والعداوة وتكذيبه، والحرص على إبطال أمره، ما أوجب أن يفتروا أشياء لم توجد، وينسبوا إليه أشياء يعرف كذبها كل من عرف أمره، حتى آل الأمر ببعضهم إلى أن فسروا قول المسلمين " الله أكبر " بأن " أكبر " صنم، وأن النبي أمرهم بتعظيم هذا الصنم. وقال بعضهم فيه: إنه أوجب الزنا على المرأة المطلقة ثلاثا. عقوبة لزوجها بأنه لا ينكحها حتى يزني بها غيره. وقال بعضهم: إنه تعلم من " بحيرى الراهب " مع علم كل من عرف سيرته أنه لم يجتمع ب - (بحيرى) وحده، ولم يره إلا بعض نهار مع أصحابه، لما مروا به لما قدموا الشام في تجارة، وأن (بحيرى) سألهم عنه ولم يكلمه إلا كلمات يستخبره فيها عن حاله.

لم يخبره بشيء.

ومع طعن بعض أهل الكتاب فيه بأنه بعث بالسيف، حتى قد يقولوا: إنما قام دينه بالسيف، وحتى يوهموا الناس أن الذين اتبعوه إنما اتبعوه خوفا من السيف، وحتى يقولوا: إن الخطيب إنما يتوكأ على سيف يوم الجمعة إشارة إلى أنه إنما يقوم الدين بالسيف،

إلى أمثال هذه الأمور - التي هي من أظهر الأمور كذبا عليه - يعرف أدنى الناس معرفة بحاله أنها كذب، وهم - مع هذا - يتشبثون بها.

فلو كان عندهم أخبار عن الأنبياء توجب ذمه والتحذير من متابعته، لكان إظهارهم لذلك واحتجاجهم به أقوى وأبلغ، وكان ذلك مما يجب في العادة اشتهاره بين خاصتهم وعامتهم، قديما وحديثا، وكان ظهور ذلك فيهم أولى من ظهور خبر الدجال فيهم وفي المسلمين؛ فإن هذا الأمر من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله واشتهاره.

فإذا لم يكن كذلك، علم أنه ليس في كتب الأنبياء ما يوجب تكذيبه، وقد قام الدليل على أنه لا بد من أن تذكره الأنبياء وتخبر بحاله، فإذا لم يخبروا أنه كاذب علم أنهم أخبروا أنه نبي صادق، كما شاع ذلك وظهر واستفاض من وجوه كثيرة.

فالكتاب الذي بعث به مملوء بشهادة الكتب له، والكتب الموجودة فيها مواضع كثيرة شاهدة له من وجوه متعددة، والأخبار متواترة عمن أسلم لأجل ذلك، وهذا مما يوجب القطع بأنه مذكور فيها بما يدل على صدقه في دعوى النبوة، وليس فيها ما يخبر بكذبه والتحذير منه وهذا هو المطلوب.

وفي الجملة أمره أظهر وأشهر وأعجب وأبهر، وأخرق للعادة من كل أمر ظهر في العالم من البشر. ومثل هذا إذا كان كاذبا، فلكذبه لوازم كثيرة جدا تفوق الحصر متقدمة ومقارنة ومتأخرة. فإن من هو أدنى دعوة منه إذا كان كاذبا لزم كذبه من اللوازم ما يبين كذبه، فكيف مثل هذا؟ ! فإذا انتفت لوازم المكذوب انتفى الملزوم.

وصدقه لازم لأمور كثيرة كلها تدل على صدقه، وثبوت الملزوم يقتضي ثبوت اللازم ماضيه ومقارنه ومتأخره. ومدعي النبوة لا يخلو من الصدق أو الكذب، وكل من الصدق والكذب له لوازم وملزومات، فأدلة الصدق مستلزمة له وأدلة الكذب مستلزمة له، والصدق له لوازم والكذب له لوازم، فصدقه يعرف بنوعين: بثبوت دلائل الصدق المستلزمة لصدقه، وبانتفاء لوازم الكذب الموجب انتفاؤها انتفاء كذبه، كما أن كذب الكذاب يعرف بأدلة كذبه المستلزمة لكذبه، وبانتفاء لوازم الصدق المستلزم انتفاؤها لانتفاء صدقه، والله أعلم.

والشيء يعرف تارة بما يدل على ثبوته، وتارة بما يدل على انتفاء نقيضه، وهو الذي يسمى قياس الخلف، فإن الشيء إذا انحصر في شيئين، لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر، ومن انتفاء أحدهما ثبوت الآخر. ومدعي النبوة إما صادق وإما كاذب، وكل منهما له لوازم يدل انتفاؤها على انتفائه، وله ملزومات يدل ثبوتها على ثبوته.

فدليل الشيء مستلزم له كأعلام النبوة ودلائلها، وآيات الربوبية وأدلة الأحكام وغير ذلك، وانتفاء الشيء يعلم بما يستلزم نفيه كانتفاء لوازمه؛ مثل صدق الكاذب، يقال: لو كان صادقا لكان متصفا بما يتصف به الصادقون.

وكذلك كذب الصادق، يقال: لو كان كذابا لكان متصفا بما يتصف به الكذاب، فإنه قد عرف حال الأنبياء الصادقين، والمتنبئين الكذابين، فانتفاء لوازم الكذب دليل صدقه، كما أن ثبوت ما يستلزم الصدق دليل صدقه، وكذلك الكذاب يستدل على كذبه بما يستلزم كذبه وبانتفاء لوازم صدقه، وهكذا سائر الأمور.

[فصل: شهادات الكتب المتقدمة لمحمد عليه الصلاة والسلام وأمثلة منها]

فصل

ومما ينبغي أن يعرف ما قد نبهنا عليه غير مرة، أن شهادة الكتب المتقدمة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - إما شهادتها بنبوته، وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو من الآيات البينات على نبوته ونبوة من قبله، وهو حجة على أهل الكتاب وعلى غير أهل الكتاب من أصناف المشركين الملحدين، كما قد ذكر الله هذا النوع من الآيات في غير موضع من كتابه.

كما في قوله تعالى: {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} [الشعراء: 197] ..

وقوله: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك} [يونس: 94] .

وقوله: {قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} [الرعد: 43] .

وقوله: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} [البقرة: 146] .

وقوله: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين} [المائدة: 83] .

وقوله: {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا} [الإسراء: 107] .

وذلك مثل قوله في التوراة ما قد ترجم بالعربية: " جاء الله من طور سينا " وبعضهم يقول: " تجلى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران ".

قال كثير من العلماء - واللفظ لأبي محمد بن قتيبة - ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض؛ لأن مجيء الله من طور سينا: إنزاله التوراة على موسى من طور سينا، كالذي هو عند أهل الكتاب، وعندنا وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح، وكان المسيح من ساعير - أرض الخليل بقرية تدعى (ناصرة) - وباسمها يسمى من اتبعه نصارى.

وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران: إنزاله القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - وجبال فاران هي جبال مكة. قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة، فإن ادعوا أنها غير مكة، فليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم.

قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن (هاجر) و (إسماعيل) فاران؟ .

وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتابا بعد المسيح أوليس (استعلن) و (علن)

وهما بمعنى واحد؟ وهو ما ظهر وانكشف.

فهل تعلمون دينا ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه؟ .

وقال ابن ظفر: (ساعير) جبل بالشام، منه ظهرت نبوة المسيح. قلت: وبجانب بيت لحم، القرية التي ولد فيها المسيح قرية تسمى إلى اليوم ساعير ولها جبل يسمى ساعير.

وفي التوراة: أن نسل العيص كانوا سكانا بساعير، وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم.

وعلى هذا، فيكون ذكر الجبال الثلاثة حقا، جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه، ومنه كان نزول أول الوحي على النبي - صلى الله عليه وسلم - وحوله من الجبال جبال كثيرة، حتى قد قيل: إن بمكة اثني عشر ألف جبل. وذلك المكان يسمى فاران، إلى هذا اليوم، وفيه كان ابتداء نزول القرآن.

والبرية التي بين مكة وطور سينا تسمى برية فاران، ولا يمكن أحدا أن يدعي أنه - بعد المسيح - نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبي. فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو - سبحانه - ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني. فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهداه.

وقال في الأول: جاء، أو: ظهر، وفي الثاني: أشرق، وفي الثالث: استعلن. وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، أو ما هو أظهر من ذلك، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس، زاد به النور والهدى.

وأما نزول القرآن، فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء؛ ولهذا قال: واستعلن من جبال فاران، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس إذا استعلت في مشارق الأرض ومغاربها؛ ولهذا سماه الله سراجا منيرا، وسمى الشمس سراجا وهاجا.

والخلق يحتاجون إلى السراج المنير، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج؛ فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت، وكما قيل: قد ينضرون به بعض الأوقات، وأما السراج المنير فيحتاجون إليه كل وقت وفي كل مكان ليلا ونهارا، سرا وعلانية.

وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها» .

وهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله بها في القرآن في قوله تعالى: {والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين} [التين: 1] .

فأقسم بالتين والزيتون، وهو الأرض المقدسة الذي ينبت فيها ذلك، ومنها بعث المسيح، وأنزل عليه فيها الإنجيل، وأقسم بطور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة، وأقسم بالبلد الأمين، وهي مكة وهو البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه، وهو الذي جعله الله حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم خلقا وأمرا قدرا وشرعا، فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله فقال: {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون} [إبراهيم: 37] .

وقال تعالى -: {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير} [البقرة: 125] .

فأخبر الله - تعالى - أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلدا آمنا، واستجاب الله دعاء إبراهيم، وذكر ذلك في غير موضع، وبها بنى إبراهيم البيت، كما قال - تعالى -: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم} [البقرة: 127] .

وقال - تعالى -: {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين} [آل عمران: 96] .

وقال - تعالى -: {لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف} [قريش: 1] .

وقال - تعالى -: {وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون} [القصص: 57] .

وقال - تعالى -: {أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون} [العنكبوت: 67] .

فقوله - تعالى: {والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين} [التين: 1] .

إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة، التي ظهر فيها نوره وهداه، وأنزل فيها الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن. كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله: " جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران ".

ولما كان ما في التوراة خبرا عنها، أخبر بها على ترتيبها الزماني، فقدم الأسبق فالأسبق. وأما القرآن فإنه أقسم بها تعظيما لشأنها، وذلك تعظيم لقدرته - سبحانه - وآياته، وكتبه، ورسله. فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة، فختمها بأعلى الدرجات. فأقسم أولا بالتين والزيتون ثم بطور سينا ثم بمكة لأن أشرف الكتب الثلاثة: القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل، وكذلك الأنبياء، فأقسم بها على وجه التدريج، كما في قوله.:. {والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا} [الذاريات: 1] .

فأقسم بطبقات المخلوقات، طبقة بعد طبقة، فأقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح ثم بالجاريات يسرا، وقد قيل: إنها السفن. ولكن الأنسب أن تكون هي الكواكب المذكورة في قوله: {فلا أقسم بالخنس - الجوار الكنس} [التكوير: 15 - 16] .

فسماها جواري، كما سمى الفلك جواري في قوله: {ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام} [الشورى: 32] .

والكواكب فوق السحاب.

ثم قال: {فالمقسمات أمرا} [الذاريات: 4] .

وهي الملائكة التي هي أعلى درجة من هذا كله.

وما ذكر ابن قتيبة وغيره من علماء المسلمين، من تربية إسماعيل في برية " فاران " فهكذا هو في التوراة قال فيها: (وغدا إبراهيم، فأخذ الغلام وأخذ خبزا وسقاء من ماء ودفعه إلى هاجر وحمله عليها، وقال لها: اذهبي، فانطلقت هاجر، فضلت في برية سبع، ونفد الماء الذي كان معها، فطرحت الغلام تحت شجرة، وجلست في مقابلته على مقدار رمية بسهم؛ لئلا تبصر الغلام حين يموت، ورفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الغلام فدعا ملك الله هاجر، وقال لها: ما لك يا هاجر لا تخشي؛ فإن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو، فقومي فاحملي الغلام وشدي يدك به، فإني جاعله لأمة عظيمة، وفتح الله عينيها فبصرت بئر ماء فسقت الغلام وملأت سقاءها، وكان الله مع الغلام، فربى وسكن في برية " فاران ") .

فهذا خبر الله في التوراة: أن إسماعيل ربى وسكن في برية فاران بعد أن كاد يموت من العطش، وأن الله سقاه من بئر ماء. وقد علم بالتواتر، واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما ربى بمكة، وهو وأبوه إبراهيم بنيا البيت، فعلم أن أرض مكة، فاران.

وهذه البشارة في التوراة لهاجر بإسماعيل، وقول الله: " إني جاعله لأمة عظيمة ومعظمة جدا جدا، وإن هاجر فتحت عينيها فرأت بئر ماء فدنت منها " إلى آخر الكلام.

وفي موضع آخر قال عن إسماعيل: " إنه يجعل يده فوق يدي الجميع ".

ومعلوم باتفاق الأمم، والنقل، أن إسماعيل تربى بأرض مكة.، فعلم أنها " فاران "، وأنه هو وإبراهيم بنيا البيت الذي ما زال محجوجا من عهد إبراهيم، تحجه العرب وغير العرب من الأنبياء وغيرهم، كما حج إليه موسى بن عمران ويونس بن متى، كما في الصحيح من رواية ابن عباس، «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مر بوادي الأزرق، فقال: أي واد هذا؟ فقالوا: هذا وادي الأزرق، فقال: كأني أنظر إلى موسى - صلى الله عليه وسلم - هابطا من الثنية واضعا إصبعيه في أذنيه، له جؤار إلى الله - عز وجل - بالتلبية مارا بهذا الوادي. قال: ثم سرنا حتى أتينا على ثنية، فقال: أي ثنية هذه؟ قالوا: هرشى، فقال: كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف خطام ناقته ليف خلبة، مارا بهذا الوادي ملبيا» . وفي رواية «أما موسى فرجل آدم، جعد على جمل أحمر مخطوم بخلبة» .

ولما بعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - أوجب حجه على كل أحد، فحجت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها. والبئر

الذي شرب منها إسماعيل وأمه، هي بئر زمزم، وحديثها مذكور في صحيح البخاري، عن ابن عباس، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا ليعفي أثرها على سارة.

ثم جاء بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، في أعلى المسجد وليس بمكة.

يومئذ أحد وليس بها ماء، ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفا إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ليس فيه أنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات فقال:. {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم} [إبراهيم: 37] حتى بلغ " يشكرون ".

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء وعطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، انطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى من أحد؟ فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: فلذلك سعى الناس بينهما، فلما أشرفت المروة سمعت صوتا، فقالت صه - تريد نفسها - فسمعت - أيضا - فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو

قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا، تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم لم تغرف من الماء لكان عينا معينا.

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة؛ فإن هاهنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذه عن يمينه وشماله، وذكر تمام الحديث.

وكانت بئر زمزم قد عميت ثم أحياها عبد المطلب، جد النبي - صلى الله عليه وسلم - وصارت السقاية في ولده: في

العباس، وأولاده يسقون منها، ويسقون - أيضا - الشراب الحلو، والشرب من ذلك سنة.

والله - تعالى - قال في إسماعيل: " إني جاعله لأمة عظيمة ومعظمة جدا جدا ". وهذا التعظيم المؤكد ب - (جدا جدا) يقتضي أن يكون تعظيما مبالغا فيه. فلو قدر أن البيت الذي بناه لا يحج إليه أحد، وأن ذريته ليس منهم نبي، كما يقوله كثير من أهل الكتاب، لم يكن هناك تعظيم مبالغا فيه جدا جدا؛ إذ أكثر ما في ذلك أن يكون له ذرية. ومجرد كون الرجل له نسل وعقب، لا يعظم به إلا إذا كان في الذرية مؤمنون مطيعون لله.

وكذلك قوله: " أجعله لأمة عظيمة " إن كانت تلك الأمة كافرة، لم تكن عظيمة، بل كان يكون أبا لأمة كافرة، فعلم أن هذه الأمة

العظيمة كانوا مؤمنين، وهؤلاء يحجون البيت، فعلم أن حج البيت مما يحبه الله ويأمر به. وليس في أهل الكتاب من يحج إليه إلا المسلمون، فعلم أنهم الذين فعلوا ما يحبه الله ويرضاه، وأنهم وسلفهم الذين كانوا يحجون البيت أمة أثنى الله عليها وشرفها، وأن إسماعيل عظمه الله جدا جدا، بما جعل في ذريته من الإيمان والنبوة، وهذا هو كما امتن الله على نوح وإبراهيم بقوله:

{ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب} [الحديد: 26] .

وقال في الخليل: {وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب} [العنكبوت: 27] .

فعلم بذلك أن إسماعيل وذريته معظمون عند الله ممدوحون، وأن إسماعيل معظم جدا جدا، كما عظم الله نوحا وإبراهيم، وإن كان إبراهيم أفضل من إسماعيل لكن المقصود أن هذا التعظيم له ولذريته إنما يكون إذا كانت ذريته على دين حق، وهؤلاء يحجون إلى هذا البيت، ولا يحج إليه بعد مجيء محمد غيرهم.

ولهذا لما قال الله تعالى: {ولله على الناس حج البيت} [آل عمران: 97] .

فقالوا: لا نحج، فقال: {ومن كفر فإن الله غني عن العالمين} [آل عمران: 97] .

و - أيضا - فهذا التعظيم المبالغ فيه، الذي صار به ولد إسماعيل فوق الناس، لم يظهر إلا بنبوة محمد، فدل ذلك على أنها حق ومبشر به.

فهذا نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - لا نعت المسيح، فهو الذي بعث بشريعة قوية، ودق ملوك الأرض وأممها، حتى امتلأت الأرض منه ومن أمته من مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانه دائم لم يقدر أحد أن يزيله، كما زال ملك اليهود وزال ملك النصارى عن خيار الأرض وأوسطها.

ومثل هذا بشارة أخرى بمحمد - صلى الله عليه وسلم - من كلام " شمعون " بما رضوه من ترجمتهم، وهو: " جاء الله بالبينات من جبال فاران، وامتلأت السماء والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته ".

فهذا تصريح بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي جاء بالنبوة من جبال " فاران " وامتلأت السماوات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته.

ولم يخرج أحد قط، وامتلأت السماوات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته، مما يسمى " فاران " سوى محمد - صلى الله عليه وسلم - والمسيح لم يكن في أرض فاران ألبتة. وموسى إنما كلم من الطور، والطور ليس من أرض فاران، وإن كانت البرية التي بين الطور وأرض الحجاز من فاران، فلم ينزل الله فيها التوراة، وبشارات التوراة قد تقدمت بجبل الطور، وبشارة الإنجيل بجبل (ساعير) .

ومثل هذا كما نقل في نبوة (حبقوق) أنه قال: جاء الله من التيمن، وظهر القدس على جبال (فاران) وامتلأت الأرض من

تحميد (أحمد) وملك بيمينه رقاب الأمم، وأنارت الأرض لنوره وحملت خيله في البحر.

ومن ذلك ما في التوراة التي بأيديهم، في السفر الأول منها، وهي خمسة أسفار في الفصل التاسع في قصة هاجر، لما فارقت سارة وخاطبها الملك فقال: " يا هاجر من أين أقبلت؟ وإلى أين تريدين؟ " فلما شرحت له الحال قال: ارجعي فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون وها أنت تحبلين وتلدين ابنا نسميه إسماعيل؛ لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك، وولدك يكون وحشي الناس، ويكون يده فوق الجميع، ويد الكل به، ويكون على تخوم جميع إخوته.

قال: المستخرجون لهذه البشارة: معلوم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - لم تكن فوق أيدي بني إسحاق، بل كان في بني إسحاق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب، فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد ثم خرجوا منها لما بعث موسى، وكانوا مع موسى أعز أهل الأرض لم يكن لأحد عليهم يد ثم مع (يوشع) بعده إلى زمن داود، وملك سليمان الذي لم يؤت أحد مثله وسلط عليهم بعد ذلك (بختنصر) فلم يكن لبني إسماعيل عليهم يد ثم بعث المسيح وخرب بيت المقدس الخراب الثاني، حيث أفسدوا في الأرض مرتين، ومن حينئذ زال ملكهم وقطعهم الله في الأرض أمما، وكانوا تحت حكم الروم والفرس، لم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم، فلم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم - لا أهل الكتاب، ولا الأميين - فلم يكن يد ولد إسماعيل فوق الجميع، حتى بعث الله محمدا؛ الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل حيث قالا:

{ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم} [البقرة: 129] .

فلما بعث، صار يد ولد إسماعيل فوق الجميع، فلم يكن في الأرض سلطان أعز من سلطانهم، وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين. فظهر بذلك تحقيق قوله في التوراة " وتكون يده فوق الجميع ويد الكل به " وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر.

فإن قيل: هذه بشارة بملكه وظهوره؟ قيل: الملك ملكان؛ ملك ليس فيه دعوى نبوة، وهذا لم يكن لبني إسماعيل على الجميع، وملك صدر عن دعوى نبوة، فإن كان مدعي النبوة كاذبا: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء} [الأنعام: 93] .

وهذا من شر الناس وأكذبهم وأظلمهم وأفجرهم، وملكه شر من ملك الظالم الذي لم يدع نبوة ك - (بختنصر) و (سنجاريب) .

ومعلوم أن الإخبار بهذه لا يكون بشارة، ولا تفرح سارة وإبراهيم بهذا، كما لو قيل: يكون جبارا طاغيا يقهر الناس على طاعته، ويقتلهم ويسبي حريمهم، ويأخذ أموالهم بالباطل، " فإن الإخبار بهذا لا يكون بشارة ولا يسر المخبر بذلك، وإنما يكون بشارة تسره، إذا كان ذلك يعدل، وكان علوه محمودا لا إثم فيه، وذلك في مدعي النبوة لا يكون إلا وهو صادق لا كاذب ".

[فصل: بشارة من الزبور وتفسيرها]

فصل

وقال: داود في الزبور في قوله: " سبحوا الله تسبيحا جديدا، وليفرح بالخالق من اصطفى الله له أمته وأعطاه النصر، وسدد الصالحين منهم بالكرامة، يسبحونه على مضاجعهم ويكبرون الله بأصوات مرتفعة، بأيديهم سيوف ذات شفرتين؛ لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه ".

وهذه الصفات إنما تنطبق على صفات محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته، فهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة في أذانهم

للصلوات الخمس، وعلى الأماكن العالية، كما قال جابر بن عبد الله: («كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا علونا كبرنا، وإذا هبطنا سبحنا، فوضعت الصلاة على ذلك») رواه أبو داود وغيره، وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج أو العمرة إذا أوفى على ثنية أو فدفد، كبر ثلاثا ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ....

نهاية المجلد الثاني

بداية المجلد الثالث

........وفي صحيح البخاري عن أنس قال: («صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن معه بالمدينة، الظهر أربعا، والعصر بذي الحليفة ركعتين ثم بات بها حتى أصبح ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء، حمد الله وسبح وكبر ثم أهل بعمرة وحج») وذكر الحديث.

وعن أبي هريرة: «أن رجلا قال: يا رسول الله، إني أريد أن أسافر فأوصني. قال: عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف، فلما أن ولى الرجل قال: اللهم اطو له البعد، وهون عليه السفر» رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي.

وروى ابن ماجه منه: «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف» وروى أبو داود وغيره بإسناد صحيح عن ابن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " «كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وجيوشه إذا علوا شرفا كبروا، وإذا هبطوا سبحوا»

وهم يكبرون الله بأصوات عالية مرتفعة في أعيادهم: عيد الفطر وعيد النحر، في الصلاة والخطبة، وفي ذهابهم إلى الصلاة وفي أيام (منى) الحجاج، وسائر أهل الأمصار يكبرون عقيب الصلوات فإمام الصلاة يسن له الجهر بالتكبير.

وذكر البخاري عن عمر بن الخطاب: أنه كان يكبر بمنى، فيسمعه أهل المسجد فيكبرون بتكبيره، فيسمعهم أهل الأسواق فيكبرون، حتى ترتج منى تكبيرا.

وكان ابن عمر وابن عباس يخرجان إلى السوق أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما، ويكبرون على قرابينهم وهديهم وضحاياهم، كما كان «نبيهم يقول عند الذبح: بسم الله والله أكبر» ويكبرون إذا رموا الجمار، ويكبرون على الصفا والمروة، ويكبرون في الطواف عند محاذاة الركن، وكل هذا يجهرون فيه بالتكبير غير ما يسرونه.

قال - تعالى - لما ذكر صوم رمضان الذي يقيمون له عيد الفطر، قال - تعالى -: {ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون} [البقرة: 185] .

ولما ذكر الهدي الذي يقرب في عيد النحر، وهو يوم الحج الأكبر قال: {والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين} [الحج: 36] .

والنصارى يسمون عيد المسلمين عيد " الله أكبر " لظهور التكبير فيه، وليس هذا لأحد من الأمم أهل الكتاب، ولا غيرهم - غير المسلمين - وإنما كان موسى يجمع بني إسرائيل بالبوق، والنصارى لهم الناقوس.

وأما تكبير الله بأصوات مرتفعة، فإنما هو شعائر المسلمين، فإن الأذان شعار المسلمين، وبهذا يظهر تقصير من فسر ذلك بتلبية الحجاج.

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " «أنه كان إذا أراد الإغارة إن سمع أذانا أو رأى مسجدا وإلا أغار» ".

وفي لفظ مسلم: " «كان يغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذانا أمسك وإلا أغار ".

فسمع رجلا يقول: الله أكبر الله أكبر، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الفطرة. ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: خرجت من النار» .

وكذلك قوله: " بأيديهم سيوف ذات شفرتين " وهي السيوف العربية التي بها فتح الصحابة وأتباعهم البلاد، وقوله: " يسبحونه على مضاجعهم. بيان لنعت المؤمنين الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويصلي أحدهم قائما، فإن لم يستطع فقاعدا، فإن لم يستطع فعلى جنب، فلا يتركون ذكر الله في حال، بل يذكرونه حتى في هذه الحال، ويصلون في البيوت على المضاجع. بخلاف أهل الكتاب.

والصلاة أعظم التسبيح، كما في قوله تعالى: {فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون} [الروم: 17] .

وقوله: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها} [طه: 130] .

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: «كنا جلوسا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ نظر القمر ليلة البدر، فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا. ثم قرأ قوله تعالى: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى} [طه: 130] » .

وهذا معنى قول داود: سبحوا الله تسبيحا جديدا، والتسابيح التي شرعها الله جديدا: كالصلوات الخمس التي شرعها للمسلمين جديدا. ولما أقامها جبريل للنبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك ".

فكان الأنبياء يسبحون في هذه الأوقات كما يدل التسبيح المقدم، والتسبيح الجديد كما يدل عليه سائر الكلام. ولا يمكن أن يكون ذلك للنصارى؛ لأنهم لا يكبرون الله بأصوات مرتفعة، ولا بأيديهم سيوف ذات شفرتين لينتقم الله بهم من الأمم، بل أخبارهم تدل على أنهم كانوا مغلوبين مع الأمم، لم يكونوا يجاهدونهم بالسيف، بل النصارى قد تعيب من يقاتل الكفار بالسيف.

ومنهم من يجعل هذا من معايب محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته، ويغفلون ما عندهم من أن الله أمر موسى بقتال الكفار، فقاتلهم بنو إسرائيل بأمره، وقاتلهم يوشع وداود، وغيرهما من الأنبياء، وإبراهيم الخليل قاتل لدفع الظلم عن أصحابه.

[فصل: بشارة أخرى من الزبور]

فصل

وقال داود في مزاميره - وهي الزبور -: من أجل هذا بارك الله عليه إلى الأبد، فتقلد - أيها الجبار - بالسيف؛ لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك. اركب كلمة الحق وسمة التأله، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، والأمم يخرون تحتك.

قالوا: فليس متقلد السيف من الأنبياء بعد داود سوى محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي خرت الأمم تحته، وقرنت شرائعه بالهيبة، كما قال - صلى الله عليه وسلم -: " «نصرت بالرعب مسيرة شهر» ". وقد أخبر داود أنه له ناموسا وشرائع، وخاطبه بلفظ الجبار، إشارة إلى قوته وقهره لأعداء الله، بخلاف المستضعف المقهور.

وهو - صلى الله عليه وسلم - نبي الرحمة، ونبي الملحمة. وأمته أشداء على الكفار رحماء بينهم، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين. بخلاف من كان ذليلا للطائفتين من النصارى المقهورين مع الكفار، أو كان عزيزا على المؤمنين من اليهود، بل كان مستكبرا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا وقتلوا فريقا.

[فصل: بشارة ثالثة من داود عليه السلام]

فصل

قالوا: وقال: داود في مزمور له: " إن ربنا عظيم محمود جدا " وفي ترجمته: " إلهنا قدوس، ومحمد قد عم الأرض كلها فرحا ". قالوا: فقد نص داود على اسم محمد - صلى الله عليه وسلم - وبلده، وسماها قرية الله، وأخبر أن كلمته تعم الأرض كلها.

قلت: قد تقدم الحديث الصحيح لما قيل لعبد الله بن عمرو، وروي أنه عبد الله بن سلام " أخبرنا ببعض صفة رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - في التوراة "، فقال: " إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن "، وذكر صفته موجودة في نبوة أشعياء، وليست موجودة في نفس كتاب موسى.

وتقدم أن لفظ التوراة يقصدون به جنس الكتب التي عند أهل الكتاب لا يخصون بذلك كتاب موسى.

وإذا كان هذا معروفا عندهم في التوراة والإنجيل، يراد بالتوراة جنس الكتب التي عند أهل الكتاب، يتناول ذلك كتاب موسى وزبور داود وصحف سائر الأنبياء - سوى الإنجيل - فإنه ليس عند أهل الكتاب، وإنما هو عند النصارى خاصة.

وأما سائر كتب الأنبياء، فالأمتان تقر بها ويؤيد ذلك أن الله كثيرا ما يقرن في القرآن بين التوراة والإنجيل وبين القرآن، وإنما يذكر الزبور مفردا، كقوله تعالى:

{الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان} [آل عمران: 1] .

وقوله: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن} [التوبة: 111] .

وقوله تعالى: {الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل} [الأعراف: 157] .

وأهل الكتاب يجدونه مكتوبا في الكتب التي بأيديهم، وهو في كثير منها أصرح مما هو في كتاب موسى خاصة.

فإذا أريد بالتوراة جنس الكتب فلا يستريب عاقل في كثرة ذكره ونعته ونعت أمته في تلك الكتب، ومعلوم أن الله أراد بذلك الاستشهاد بوجوده في تلك الكتب، وإقامة الحجة بذكره فيها. فإذا كان ذكره في غير كتاب موسى أكبر وأظهر عندهم، كان الاستدلال بذلك أولى من تخصيص الاستدلال بكتاب موسى. فإذا حمل لفظ التوراة في هذا على جنس الكتب، كما هو موجود في لغة من تكلم بذلك من الصحابة والتابعين، كان هذا في غاية البيان والمدح للقرآن والكتب المتقدمة، وتصديق بعضها بعضا.

وقد أمرنا أن نؤمن بما أوتي النبيون مطلقا، كما قال - تعالى -: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [البقرة: 136] .

وقال: {ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} [البقرة: 177] .

والزبور ذكره مفردا في موضعين من القرآن، في قوله: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: 163] .

وقال - تعالى -: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا} [الإسراء: 55] .

فذكره مفردا.

وذكر كتاب موسى بهذه الإضافة، لا بلفظ التوراة في غير موضع فقال: {أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده} [هود: 17] .

وقال: {قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين} [الأحقاف: 10] .

إلى قوله.. {ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين} [الأحقاف: 12] .

وقوله - تعالى -.

{وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس} [الأنعام: 91] .

وقال - تعالى -: {ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن} [الأنعام: 154] .

وإذا كان لفظ التوراة يتناول الكتب الذي عند أهل الكتابين جميعا، والزبور وغيره داخل في هذا الاسم، وكان ظهور اسمه ونعته في التوراة، ووجود ذلك فيما عندهم، وتكرره في غاية القوة، وكان معرفتهم لذلك كما يعرفون أبناءهم واضحا بينا، إن قدر هذه الكتب التي يعترف بها عامتهم، لم يكتم منها شيء، بل هي باقية كما كانت.

[فصل: بشارة رابعة من داود عليه السلام]

وقالوا: قال داود في مزموره: " لترتاح البوادي وقراها، ولتصر أرض (قيذار) مروجا، وليسبح سكان الكهوف ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرب، ويذيعوا تسابيحه في الجزائر ".

فلمن البوادي من الأمم سوى أمة محمد؟ ومن (قيذار) سوى ابن إسماعيل جد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ومن سكان الكهوف وتلك الجبال سوى العرب؟

[فصل: بشارة خامسة من داود عليه السلام]

قال داود في مزمور له: " ويحوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض، ويخر أهل الجزائر بين يديه، ويلحس أعداؤه التراب ويسجد له ملوك الفرس، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد، ويخلص البائس المضطهد ممن هو أقوى منه، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالمساكين والضعفاء، ويصلى عليه، ويبارك في كل حين ".

وهذه الصفات منطبقة على محمد وأمته، لا على المسيح فإنه حاز من البحر الرومي إلى البحر الفارسي، ومن لدن الأنهار بجيحون وسيحون، إلى منقطع الأرض بالمغرب، كما قال: " زويت لي الأرض، مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها ".

وهو يصلى عليه ويبارك في كل حين: في كل صلاة في الصلوات الخمس وغيرها، يقول كل من أمته: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، فيصلى عليه ويبارك.

ومنه خرت أهل الجزائر بين يديه، أهل جزيرة العرب، وأهل الجزيرة التي بين الفرات ودجلة، وأهل جزيرة قبرص، وأهل جزيرة الأندلس.

وخضعت له ملوك الفرس، فلم يبق منهم إلا من أسلم أو أدى الجزية عن يد وهم صاغرون. بخلاف ملوك الروم، فإن فيهم من لم يسلم، ويؤد الجزية، فلهذا خص ملوك فارس، ودانت له الأمم التي تعرفه وتعرف أمته، كانت إما مؤمنة به، أو مسلمة له منافقة، أو مهادنة مصالحة، أو خائفة منهم. وأنقذ الضعفاء من الجبارين.

وهذا بخلاف المسيح ; فإنه لم يتمكن هذا التمكن في حياته، ولا من اتبعه بعد موته تمكنوا هذا التمكن، ولا حازوا ما ذكر، ولا صلي عليه وبورك عليه في اليوم والليلة، فإن القوم يدعون إلاهيته.

[فصل: شهادة سفر أشعيا " راكب الحمار وراكب الجمل "]

وقالوا - في نبوة أشعياء -: قال أشعياء: " قيل لي: قم نظارا، فانظر ماذا ترى، فقلت: أرى راكبين مقبلين: أحدهما على حمار والآخر على جمل، يقول أحدهما لصاحبه: سقطت بابل وأصحابها للمنحر ".

قالوا: فراكب الحمار هو المسيح، وراكب الجمل هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار.

وبمحمد صلى الله عليه وسلم سقطت أصنام بابل.

[فصل: بشارة الكتب المتقدمة بالمسيح وبمحمد وإنذارها بالدجال]

ومما ينبغي أن يعرف: أن الكتب المتقدمة بشرت بالمسيح، كما بشرت بمحمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك أنذرت بالمسيح الدجال.

والأمم الثلاثة - المسلمون واليهود والنصارى - متفقون على أن الأنبياء أنذرت بالمسيح الدجال، وحذرت منه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال، حتى نوح أنذره أمته، وسأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لأمته: إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه (ك ف ر) ، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ» .

والأمم الثلاثة متفقون على أن الأنبياء بشروا بمسيح من ولد داود. فالأمم الثلاثة متفقون على الإخبار بمسيح هدى، من نسل داود، ومسيح ضلالة، وهم متفقون على أن مسيح الضلالة لم يأت بعد، ومتفقون على أن مسيح الهدى سيأتي - أيضا -.

ثم المسلمون والنصارى متفقون على أن مسيح الهدى هو عيسى ابن مريم، واليهود ينكرون أن يكون هو عيسى ابن مريم، مع إقرارهم بأنه من ولد داود.

قالوا: " لأن المسيح المبشر به تؤمن به الأمم كلها "، وزعموا أن المسيح ابن مريم إنما بعث بدين النصارى، وهو دين ظاهر البطلان.

والنصارى تقر بأن المسيح مسيح الهدى بعث، ومقرون بأنه سيأتي مرة ثانية، لكن يزعمون أن هذا الإتيان الثاني هو يوم القيامة، ليجزي الناس بأعمالهم، وهو - في زعمهم - هو الله، والله الذي هو اللاهوت يأتي في ناسوته، كما زعموا أنه جاء قبل ذلك.

وأما المسلمون ; فآمنوا بما أخبرت به الأنبياء على وجهه وهو موافق لما أخبر به خاتم الرسل، حيث قال في الحديث الصحيح: «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، وإماما مقسطا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية» .

وأخبر في الحديث الصحيح: «أنه إذا خرج مسيح الضلالة الأعور الكذاب، نزل عيسى ابن مريم على المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعا يديه على منكبي ملكين. فإذا رآه الدجال انماع كما ينماع الملح في الماء، فيدركه فيقتله بالحربة عند باب لد الشرقي، على بضع عشرة خطوات منه» ، وهذا تفسير قوله تعالى: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} [النساء: 159] .

أي: يؤمن بالمسيح قبل أن يموت، حين نزوله إلى الأرض، وحينئذ لا يبقى يهودي ولا نصراني، ولا يبقى إلا دين الإسلام، وهذا موجود في نعته عند أهل الكتاب.

ولكن النصارى ظنوا مجيئه بعد قيام القيامة، وأنه هو الله، فغلطوا في ذلك كما غلطوا في مجيئه الأول ; حيث ظنوا أنه هو الله، واليهود أنكروا مجيئه الأول، وظنوا أن الذي بشر به ليس إياه، وليس هو الذي يأتي آخرا، وصاروا ينتظرون غيره، وإنما هو بعث إليهم أولا فكذبوه، وسيأتيهم ثانيا فيؤمن به كل من على وجه الأرض من يهودي ونصراني إلا من قتل أو مات، ويظهر كذب هؤلاء الذين كذبوه، ورموا أمه بالفرية، وقالوا: إنه ولد زنى، وهؤلاء الذين غلوا فيه، وقالوا: إنه الله.

ولما كان المسيح عليه السلام نازلا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم صار بينه وبين محمد - من الاتصال - ما ليس بينه وبين غير محمد ; ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «إن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه

نبي» ، وروي: «كيف تهلك أمة أنا في أولها، وعيسى في آخرها» . وهذا مما يظهر به مناسبة اقترانهما، فيما رواه أشعياء ; حيث قال: " راكب الحمار وراكب الجمل ".

[فصل: بشارة أشعياء بشأن مكة]

قالوا: وقال أشعياء النبي عليه السلام متنبيا على مكة - شرفها الله -: " ارفعي إلى ما حولك بصرك، فستبتهجين وتفرحين من أجل أن يصير إليك ذخائر البحر، وتحج إليك عساكر الأمم، حتى يعم بك قطر الإبل الموبلة، وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك، وتساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ، ويسير إليك أغنام فاران، ويخدمك رجال مأرب "، يريد سدنة الكعبة، وهم أولاد مأرب بن إسماعيل.

قالوا: فهذه الصفات كلها حصلت بمكة، فحملت إليها ذخائر البحرين، وحج إليها عساكر الأمم، وسيقت إليها أغنام فاران - الهدايا والأضاحي - و (فاران) هي البرية الواسعة التي فيها مكة، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل الموبلة الحاملة للناس وأزوادهم إليها، وأتاها أهل سبأ، وهم أهل اليمن.

[فصل: بشارة ثالثة من أشعياء]

قالوا: وقال: أشعياء النبي صلى الله عليه وسلم معلنا باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني جعلت أمرك يا محمد، يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد "، قالوا: فهل بقي بعد ذلك لزائغ فقال: أو لطاعن مجال؟ وقول أشعياء: إن اسم محمد موجود من الأبد موافق لقول داود الذي حكيناه: أن اسمه موجود قبل الشمس.

وقوله: " يا قدوس الرب " يعني يا من طهره الرب، وخلصه من بشريته، واصطفاه لنفسه.

[فصل: بشارة رابعة من أشعياء]

قالوا: وقال أشعياء - وشهد لهذه الأمة بالصلاح والديانة -: " سأرفع علما لأهل الأرض بعيدا، فيصفر لهم من أقاصي الأرض، فيأتون سراعا ".

والنداء هو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من التلبية في الحج، وهم الذين جعلوا لله الكرامة، فوحدوه وعبدوه، وأفردوه بالربوبية، وكسروا الأصنام، وعطلوا الأوثان. والعلم المرفوع: هو النبوة، وصفيره: دعاؤهم إلى بيته ومشاعره، فيأتونه سامعين مطيعين.

[فصل: بشارة خامسة من أشعياء]

قالوا: وقال أشعياء النبي - والمراد مكة شرفها الله تعالى -: سيري واهتزي أيتها العاقر، التي لم تلد، وانطقي بالتسبيح، وافرحي إذ لم تحبلي، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي - يعني بأهله: بيت المقدس، ويعني بالعاقر: مكة شرفها الله؛ لأنها لم تلد قبل نبينا عليه الصلاة والسلام، ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس؛ لأنه بيت للأنبياء ومعدن الوحي، فلم تزل تلك البقعة ولادة.

[فصل: بشارة سادسة من أشعياء]

قالوا: وقال أشعياء النبي - ونص على خاتم النبوة -: " ولد لنا غلام، يكون عجبا وبشرا، والشامة على كتفيه، أركون السلام، إله جبار، وسلطانه سلطان السلام، وهو ابن عالمه، يجلس على كرسي داود.

قالوا: الأركون، هو العظيم بلغة الإنجيل، والأراكنة المعظمون. ولما أبرأ المسيح مجنونا من جنونه، قال اليهود: " إن هذا لا يخرج الشياطين من الآدميين إلا بأركون الشياطين " يعنون عظيمهم. وقال المسيح في الإنجيل: " إن أركون العالم يدان " يريد إما إبليس أو الشرير العظيم الشر من الآدميين، وسماه إلها على نحو قول التوراة: " إن الله جعل موسى إلها لفرعون "؛ أي حاكما عليه ومتصرفا فيه، وعلى نحو قول داود للعظماء من قومه: " إنكم آلهة ".

فقد شهد أشعياء بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه بأخص علاماته وأوضحها، وهي شامته، فلعمري لم تكن الشامة لسليمان، ولا للمسيح، وقد وصفه بالجلوس على كرسي داود، يعني أنه سيرث بني إسرائيل، نبوتهم وملكهم، ويبتزهم رياستهم.

[فصل: بشارة سابعة من أشعياء]

قالوا: وقال أشعياء في وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم: " ستمتلئ البادية والمدن من أولاد قيذار يسبحون، ومن رءوس الجبال ينادون، هم الذين يجعلون لله الكرامة، ويسبحونه في البر والبحر. وقيذار هو ابن إسماعيل باتفاق الناس، وربيعة ومضر من ولده، ومحمد صلى الله عليه وسلم من مضر.

وهذا الامتلاء والتسبيح لم يحصل لهم إلا بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم.

[فصل: بشارة ثامنة من أشعياء]

قالوا: وقال أشعياء - والمراد مكة -: " أنا رسمتك على كفي، وسيأتيك أولادك سراعا، ويخرج عنك من أراد أن يخيفك ويخونك، فارفعي بصرك إلى ما حولك، فإنهم سيأتونك ويجتمعون إليك، فتسمي باسمي إني أنا الحي، لتلبسي الحلل وتزيني بالإكليل، مثل العروس، ولتضيقن خراباتك من كثرة سكانك والداعين فيك، وليهابن كل من يناوئك، وليكثرن أولادك حتى تقولي من رزقني هؤلاء كلهم؟ وأنا وحيدة فريدة، يرون رقوبا، فمن ربى لي هؤلاء، ومن تكفل لي بهم؟ ".

قالوا: وذلك - أيضا - من أشعياء بشأن الكعبة، فهي التي ألبسها الله الحلل الديباج الفاخرة، ووكل بخدمتها الخلفاء والملوك، ومكة: هي التي ربا الله لها الأولاد من حجاجها، والقاطنين بها. وذلك أن مكة هي التي أخرج عنها كل من أراد أن يخيفها ويخربها، فلم تزل عزيزة مكرمة محرمة، لم يهنها أحد من البشر قط، بل أصحاب الفيل لما قصدوها، عذبهم الله العذاب المشهور، ولم تزل عامرة محجوجة، من لدن إبراهيم الخليل.

بخلاف بيت المقدس، فإنه قد أخرب مرة بعد مرة، وخلا من السكان، واستولى العدو عليه وعلى أهله، وكذلك إخباره بإهانة كل من يناويها: هو للكعبة دون بيت المقدس، قال تعالى: {ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم} [الحج: 25] .

والحجاج بن يوسف كان معظما للكعبة؛ لم يرمها بمنجنيق، وإنما قصد ابن الزبير خاصة. وأما كثرة أولادها، وهم الذين يحجون إليها ويستقبلونها في صلاتهم، فهم أضعاف أضعاف أولاد بيت المقدس.

[فصل: بشارة تاسعة من أشعياء]

قالوا: وقال أشعياء - حاكيا عن الله تعالى -: " اشكر حبي وابني أحمد "، فسماه الله حبيبا وسماه ابنا، وداود ابنا غير أن الله خصه عليهم بمزية فقال: " حبي ابني اشكره "، فتعبد أشعياء بشكر محمد، ووظف عليه وعلى قومه شكره وإجلاله، ليتبين قدره ومنزلته عنده، وتلك منقبة لم يؤتها غيره من الرسل.

وقال: أشعياء: " إنما سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد "، وهذا إفصاح من أشعياء باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليرنا أهل الكتاب نبيا نصت الأنبياء على اسمه صريحا، سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[فصل: بشارة محمد صلى الله عليه وسلم من حبقوق]

قالوا: وقال حبقوق: - وسمي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صريحا مرتين في نبوته -: " إن الله جاء من التيمن، والقدوس من جبل فاران، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، شعاع منظره مثل النور، يحوط بلاده بعزه، تسير المنايا أمامه، وتصحب سباع الطير أجناده، قام فمسح الأرض فتضعضعت له الجبال القديمة، وانخفضت الروابي، وتزعزعت ستور أهل مدين ".

ثم قال: " زجرك في الأنهار، وإقدام صوامك في البحار، ركبت الخيول، وعلوت مراكب الإيفاد، وستنزع في قسيك أعراقا ونزعا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء، ولقد رأتك الجبال فارتاعت، وانحرف عنك شؤبوب السيل، وتغيرت المهاوي تغيرا ورعبا، رفعت أيديها وجلا وخوفا، وسارت العساكر في بريق سهامك ولمعان نيازكك، وتدوخ الأرض غضبا، وتدوس الأمم زجرا؛ لأنك ظهرت بخلاص أمتك وإنقاذ تراث آبائك ".

قالوا: وهذا تصريح بمحمد، ومن رام صرف نبوة حبقوق هذه عن محمد صلى الله عليه وسلم فقد رام ستر النهار، وحبس الأنهار، وأنى يقدر على ذلك؟ ! وقد سماه باسمه مرتين، وأخبر بقوة أمته، وسير المنايا أمامهم، واتباع جوارح الطير آثارهم. وهذه النبوة لا تليق إلا بمحمد، ولا تصلح إلا له، ولا تدل إلا عليه، فمن حاول صرفها عنه فقد حاول ممتنعا. وقد ذكر فيها مجيء نور الله من التيمن - وهي ناحية مكة والحجاز - فإن أنبياء بني إسرائيل كانوا يكونون من ناحية الشام، ومحمد جاء من ناحية اليمن، وجبال فاران هي جبال مكة - كما قد تقدم بيان ذلك - وهذا مما لا يمكن النزاع فيه.

وأما امتلاء السماء من بهاء أحمد، بأنوار الإيمان والقرآن التي ظهرت منه ومن أمته، وامتلاء الأرض من حمده وحمد أمته في صلواتهم، فأمر ظاهر ; فإن أمته هم الحمادون، لا بد لهم من حمد الله في كل صلاة وخطبة، ولا بد لكل مصل في كل ركعة من يقول: {الحمد لله رب العالمين - الرحمن الرحيم - مالك يوم الدين} [الفاتحة: 2 - 4] .

فإذا قال: {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة: 2] .

قال الله: حمدني عبدي.

فإذا قال: {الرحمن الرحيم} [الفاتحة: 3] .

قال: أثنى علي عبدي.

فإذا قال: {مالك يوم الدين} [الفاتحة: 4] .

قال: مجدني عبدي.

فهم يفتحون القيام في الصلاة بالتحميد، ويختمونها بالتحميد، وإذا رفعوا رءوسهم من الركوع يقول: إمامهم سمع الله لمن حمده، ويقولون: جميعا ربنا ولك الحمد، ويختمون صلاتهم بتحميد، يجعل التحيات له والصلوات والطيبات. وأنواع تحميدهم لله مما يطول وصفه.

[فصل: بشارة من حزقيال]

قالوا: وقال: حزقيال - وهو يهدد اليهود ويصف لهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم -: " وإن الله مظهرهم عليكم، وباعث فيكم نبيا، ومنزل عليهم كتابا، ومملكهم رقابكم، فيقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال بني قيذار في جماعات الشعوب، معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين، محيطون بكم، وتكون عاقبتكم إلى النار، نعوذ بالله من النار ".

وذلك أن رجال بني قيذار هم (ربيعة) و (مضر) أبناء عدنان، وهما جميعا من ولد قيذار بن إسماعيل، والعرب كلهم من

بني عدنان، وبني قحطان. فعدنان - أبو ربيعة - ومضر وأنمار من ولد إسماعيل باتفاق الناس. وأما قحطان فقيل هم من ولد إسماعيل، وقيل هم من ولد هود. ومضر ولد إلياس بن مضر، وقريش هم من ولد إلياس بن مضر، وهوازن مثل عقيل، وكلاب، وسعد بن بكر و " بنو نمير "، وثقيف وغيرهم هم من ولد إلياس بن مضر.

وهؤلاء انتشروا في الأرض، فاستولوا على أرض الشام والجزيرة ومصر والعراق وغيرها، حتى إنهم لما سكنوا الجزيرة بين الفرات ودجلة، سكنت مضر في حران وما قرب منها، فسميت ديار مضر، وسكنت ربيعة في الموصل وما قرب منها، فسميت ديار ربيعة.

[فصل: بشارتان من دانيال عليه السلام]

وقال: دانيال عليه السلام، وذكر محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم باسمه، فقال: " ستنزع في قسيك إغراقا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء ".

فهذا تصريح بغير تعريض، وتصحيح ليس فيه تمريض.

فإن نازع في ذلك منازع فليوجدنا آخر اسمه محمد، له سهام تنزع، وأمر مطاع لا يدفع.

وقال: دانيال النبي - أيضا - حين سأله بخت نصر عن تأويل رؤيا رآها، ثم نسيها: " رأيت أيها الملك صنما عظيما، قائما بين يديك، رأسه من ذهب، وساعداه من الفضة، وبطنه وفخذاه من النحاس، وساقاه من الحديد، ورجلاه من الخزف، ورأيت حجرا لم تقطعه يد إنسان، قد جاء وصك ذلك الصنم فتفتت وتلاشى وعاد رفاتا، ثم نسفته الرياح، فذهب وتحول ذلك الحجر فصار جبلا عظيما حتى ملأ الأرض كلها، فهذا ما رأيت أيها الملك؟ ".

فقال بخت نصر: صدق؛ فما تأويلها؟

قال دانيال: " أنت الرأس الذي رأيته من الذهب، ويقوم بعدك ولداك اللذان رأيت من الفضة، وهما دونك، ويقوم بعدهما مملكة أخرى هي دونهما، وهي شبه النحاس، والمملكة الرابعة تكون قوية مثل الحديد الذي يدق كل شيء، فأما الرجلان التي رأيت من خزف فمملكة ضعيفة وكلمتها مشتتة، وأما الحجر الذي رأيت قد صك ذلك الصنم العظيم ففتته فهو نبي يقيمه الله إله السماء والأرض من قبيلة بشريعة قوية، فيدق جميع ملوك الأرض وأممها، حتى تمتلئ منه الأرض ومن أمته، ويدوم سلطان ذلك النبي إلى انقضاء الدنيا، فهذا تعبير عن رؤياك أيها الملك ".

فهذا نعت محمد صلى الله عليه وسلم، لا نعت المسيح، فهو الذي بعث بشريعة قوية، ودق جميع ملوك الأرض وأممها، حتى امتلأت الأرض منه ومن أمته في مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانه دائم، لم يقدر أحد أن يزيله كما زال ملك اليهود وزال ملك النصارى عن خيار الأرض وأوسطها.

[فصل: بشارة ثالثة من دانيال عليه السلام]

وقال: دانيال النبي - أيضا -: " سألت الله وتضرعت إليه أن يبين لي ما يكون من بني إسرائيل، وهل يتوب عليهم ويرد إليهم ملكهم ويبعث فيهم الأنبياء، أو يجعل ذلك في غيرهم " قال: دانيال: " فظهر لي الملك في صورة شاب حسن الوجه، فقال: السلام عليك يا دانيال، إن الله تعالى يقول: إن بني إسرائيل أغضبوني وتمردوا علي وعبدوا من دوني آلهة أخرى، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل، ومن بعد الصدق إلى الكذب، فسلطت عليهم بخت نصر فقتل رجالهم وسبى ذراريهم، وهدم بيت مقدسهم، وحرق كتبهم، وكذلك فعل من بعده بهم، وأنا غير راض عنهم ولا مقيلهم عثراتهم، فلا يزالون من سخطي حتى أبعث مسيحي ابن العذراء البتول فأختم عليهم عند ذلك باللعن والسخط، فلا يزالون ملعونين، عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث نبي بني إسماعيل، الذي بشرت به هاجر، وأرسلت إليها ملاكي فبشرها، فأوحي إلى ذلك النبي، وأعلمه الأسماء، وأزينه بالتقوى، وأجعل البر شعاره، والتقوى ضميره، والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما

بين يديه من الكتب، وناسخ لبعض ما فيها، أسري به إلي وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو، فأدنيه وأسلم عليه وأوحي إليه، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة، حافظا لما استودع، صادعا بما أمر، يدعو إلى توحيدي باللين من القول والموعظة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، رءوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن على من عاداه، فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأى من آياتي، فيكذبونه ويؤذونه.

قال الناقل لهذه البشارة: قالوا: ثم سرد دانيال قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم حرفا حرفا مما أملاه عليه الملك، حتى وصل آخر أيام أمته بالنفخة وانقضاء الدنيا، ونبوته كثيرة، وهي الآن في أيدي النصارى واليهود يقرءونها.

ومهما وصفنا مما ذكره الله من وصف هذه الأمة ونبيها، واتصال مملكتهم بالقيامة - قلت: فهذه نبوة دانيال فيها البشارة بالمسيح، والبشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وفيها من وصف محمد وأمته بالتفصيل ما يطول وصفه، وقد قرأها المسلمون لما فتحوا العراق، كما ذكر ذلك العلماء، منهم أبو العالية: ذكر أنهم لما فتحوا (تستر) وجدوا دانيال ميتا، ووجدوا عنده مصحفا.

قال أبو العالية: أنا قرأت ذلك المصحف، وفيه صفتكم ولحون كلامكم، وكان أهل الناحية إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فيسقون، فكتب أبو موسى في ذلك إلى عمر بن الخطاب.

فكتب إليه عمر: " أن احفر بالنهار ثلاثة عشر قبرا، وادفنه بالليل في واحد منها ; لئلا يفتن الناس به ".

[فصل: ما نقل من بشارات المسيح بمحمد والتعليق المفصل عليها]

قالوا: وقال يوحنا الإنجيلي: قال يسوع المسيح - في الفصل الخامس عشر من إنجيله -: " إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي، هو يعلمكم كل شيء ".

وقال: يوحنا - التلميذ - أيضا - عن المسيح، أنه قال لتلاميذه: " إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليط آخر، يثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لم يطق العالم أن يقتلوه؛ لأنهم لم يعرفوه، ولست أدعكم أيتاما؛ لأني سآتيكم عن قريب ".

وقال يوحنا: قال المسيح: " من يحبني يحفظ كلمتي، وأبي يحبه، وإليه يأتي، وعنده يتخذ المنزل، كلمتكم بهذا؛ لأني عندكم مقيم، والفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي، هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم استودعتكم سلامي، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع، فإني منطلق وعائد إليكم، لو كنتم تحبوني كنتم تفرحون بمضيي إلى الأب، فإن أنتم ثبتم في كلامي وثبت كلامي فيكم كان لكم كل ما تريدون، وبهذا يمجد أبي ".

وقال - أيضا -: " إذا جاء الفارقليط الذي أبي أرسله، روح الحق الذي من أبي، هو يشهد لي، قلت لكم هذا حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه ".

وقال - أيضا -: " إن خيرا لكم أن أنطلق؛ لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فهو يوبخ العالم على الخطيئة، وإن لي كلاما كثيرا، أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله. لكن إذا جاء روح الحق ذاك يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب ".

وقال يوحنا الحواري: قال المسيح: " إن أركون العالم سيأتي، وليس لي شيء ".

وقال متى التلميذ: قال المسيح: " ألم يقرءوا أن الحجر الذي أرذله البناءون صار رأسا للزاوية من عند الله، كان هذا - وهو عجيب في أعيننا - ومن أجل ذلك أقول لكم: إن ملكوت الله سيؤخذ منكم، ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرها، ومن سقط على هذا الحجر ينشرح، وكل من سقط هو عليه يمحقه ".

وقال يوحنا التلميذ - في كتاب رسائل التلاميذ، المسمى بفراكسيس -: " يا أحبابي، إياكم أن تؤمنوا بكل روح. لكن ميزوا الأرواح التي من عند الله من غيرها، واعلموا أن كل روح يؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء فكان جسدانيا، فهي من عند الله، وكل روح لا تؤمن بأن يسوع المسيح جاء، وكان جسدانيا، فليست من عند الله، بل من المسيح الكذاب الذي سمعتم به، وهو الآن في العالم ".

وقال شمعون الصفا، رئيس الحواريين - في كتاب فراكسيس -: " إنه قد حان أن يبتدئ الحكم من بيت الله ابتداء ".

قلت: وهذا اللفظ، لفظ الفارقليط، في لغتهم ذكروا فيه أقوالا: قيل: إنه الحماد، وقيل: إنه الحامد، وقيل: إنه المعز، وقيل: إنه الحمد، ورجح هذا طائفة ; وقالوا: الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم أنه الحمد، والدليل عليه قول يوشع: " من عمل حسنة تكون له فارقليط جيدا - أي حمدا جيدا - وقولهم المشهور في تخاطبهم: فارقليط، وفارقليطان، وما زاد على الجميع - أي حمد - ومنه كما نقول نحن: يد ومنة. ومن قال: معناه المخلص فيحتجون بأنها كلمة سريانية، ومعناها المخلص، وقالوا: هو مشتق من قولنا: " راوف "، ويقال بالسريانية " فاروق "، فجعل " فارق ". قالوا: ومعنى " ليط " كلمة تزاد، والتقدير كما يقال في العربية: رجل هو، وحجر هو، وبدر هو، وذكر هو. قالوا: وكذلك يزاد في السريانية " ليط ". والذين قالوا: هو المعز، قالوا: هو في لسان اليونان المعز.

ويعترض على هذين القولين بأن المسيح لم تكن لغته سريانية ولا يونانية، بل عبرانية. ويجاب عنه بأنه تكلم بالعبرانية، وترجم عنه بلغة أخرى كما أملوا أحد الأناجيل باليونانية، والآخر بالرومية.

وواحد بقي عبرانيا. وأكثر النصارى على أنه المخلص، والمسيح - نفسه - يسمونه المخلص، وفي الإنجيل الذي بأيديهم أنه قال: " إني لم آت لأزين العالم، بل لأخلص العالم "، والنصارى يقولون في صلاتهم: " لقد ولدت لنا مخلصا ".

وقد اختلف فيه، فمن النصارى من قال: هو روح نزلت على الحواريين، وقد يقولون: إنه ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ، ففعلت الآيات والعجائب ; ولهذا يقول من خبر أحوال النصارى: إنه لم ير أحدا منهم يحسن تحقيق مجيء هذا الفارقليط الموعود به.

منهم من يزعم أنه المسيح - نفسه - لكونه جاء بعد الصلب بأربعين يوما، وكونه قام من قبره. وتفسيره بالروح باطل، وأبطل منه

تفسيره بالمسيح لوجوه:

منها: أن روح القدس ما زالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وهذا مما اتفق عليه أهل الكتاب: أن روح القدس نزلت على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وليست موصوفة بهذه الصفات، وقد قال تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22] .

«وقال: النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت لما كان يهجو المشركين، قال: " اللهم أيده بروح القدس "، وقال: " إن روح القدس معك ما زلت تنافح عن نبيه» .

وإذا كان كذلك ولم يسم أحد هذه الروح فارقليط دل على أن الفارقليط أمر غير هذا. وأيضا فمثل هذه ما زالت يؤيد بها الأنبياء

والصالحون، وما بشر به المسيح أمر عظيم، يأتي بعده أعظم من هذا، وأيضا فإنه وصف الفارقليط بصفات لا تناسب هذا، وإنما تناسب رجلا يأتي بعده نظيرا له، فإنه قال: (إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليط آخر، يثبت معكم إلى الأبد) . فقوله: (فارقليط آخر) دل على أنه ثان لأول كان قبله، ولم يكن معهم في حياة المسيح إلا هو، لم تنزل عليهم روح، فعلم أن الذي يأتي بعده نظيرا له، ليس أمرا معتادا يأتي للناس.

وأيضا، فإنه قال: (يثبت معكم إلى الأبد) ، وهذا إنما يكون لما يدوم، ويبقى معهم إلى آخر الدهر. ومعلوم أنه لم يرد بقاء ذاته، فعلم أنه بقاء شرعه وأمره، فعلم أن الفارقليط الأول لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد، وهذا يبين أن الثاني صاحب شرع لا ينسخ بخلاف الأول، وهذا إنما ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم.

وأيضا، فإنه أخبر أن هذا الفارقليط الذي أخبر به يشهد له، ويعلمهم كل شيء، وأنه يذكركم كل ما قال المسيح، وأنه يوبخ العالم على خطيئته فقال: (والفارقليط الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم) .

وقال: (إذا جاء الفارقليط الذي أبي أرسله، هو يشهد لي، قلت لكم هذا حتى إذا كان تؤمنوا به، ولا تشكوا فيه) .

وقال: (إن خيرا لكم أن أنطلق؛ لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فهو يوبخ العالم على الخطيئة، وإن لي كلاما كثيرا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله. لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عند نفسه، بل يتكلم بما يسمع، ويخبر بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب) .

فهذه الصفات والنعوت التي تلقوها عن المسيح، لا تنطبق على شيء في قلب بعض الناس، لا يراه أحد، ولا يسمع كلامه، وإنما تنطبق على من يراه الناس، ويسمعون كلامه، فيشهد للمسيح، ويعلمهم كل شيء، ويذكرهم كل ما قال لهم المسيح، ويوبخ العالم على الخطيئة، ويرشد الناس إلى جميع الحق، وهو لا ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبرهم بكل ما يأتي، ويعرفهم جميع ما لرب العالمين.

وهذا لا يكون ملكا لا يراه أحد، ولا يكون هدى، ولا علما في قلب بعض الناس، بل لا يكون إلا إنسانا عظيم القدر يخاطب الناس

بما أخبر به المسيح، وهذا لا يكون إلا بشرا رسولا، بل يكون أعظم من المسيح، بين أنه يقدر على ما لا يقدر عليه المسيح، ويعلم ما لا يعلمه المسيح، ويخبر بكل ما يأتي، وبما يستحقه الرب حيث قال: (إن لي كلاما كثيرا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب) .

وهذه الصفات لا تنطبق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أن الإخبار عن الله بما هو متصف به من الصفات، وعن ملائكته، وعن ملكوته، وعن ما أعده الله في الجنة لأوليائه، وفي النار لأعدائه، أمر لا يحتمل عقول كثير من الناس معرفته على التفصيل ; ولهذا قال علي رضي الله عنه: " حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ".

وقال ابن مسعود: " ما من رجل يحدث قوما بحديث لا يبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم ". وسأل رجل ابن عباس عن قوله تعالى: {خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن} [الطلاق: 12] .

قال: " ما يؤمنك أن لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت؟ وكفرك بها تكذيبك بها ". فقال لهم المسيح عليه السلام: (إن لي كلاما كثيرا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله) ، وهو الصادق المصدوق في هذا ; لهذا ليس في الإنجيل من صفات الله، وصفات ملكوته، ومن صفات اليوم الآخر إلا أمور مجملة، وكذلك التوراة، ليس فيها من ذكر اليوم الآخر إلا أمور مجملة، مع أن موسى كان قد مهد الأمر للمسيح، ومع هذا فقد قال لهم المسيح: (إن لي كلاما كثيرا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله) ، ثم قال: (ولكن إذا جاء روح الحق ذلك الذي يرشدكم إلى جميع الحق) ، وقال: (إنه يخبركم بكل ما يأتي، ويعرفكم بجميع ما للرب) .

فدل هذا على أن هذا الفارقليط هو الذي يفعل هذا دون المسيح، وكذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم أرشد الناس إلى جميع الحق، حتى أكمل الله له الدين، وأتم به النعمة ; ولهذا كان خاتم الأنبياء، فإنه لم يبق شيء يأتي به غيره، وأخبر محمد صلى الله عليه وسلم بكل ما يأتي من أشراط الساعة، والقيامة، والحساب، والصراط، ووزن الأعمال، والجنة وأنواع نعيمها، والنار وأنواع عذابها، ولهذا كان في القرآن من تفصيل أمر الآخرة، وذكر الجنة والنار، وما يأتي من ذلك أمور كثيرة توجد لا في التوراة، ولا في الإنجيل، وذلك تصديق قول المسيح: إنه يخبر بكل ما يأتي.

ومحمد بعثه الله بين يدي الساعة كما قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بأصابعه السبابة، والوسطى» . وكان إذا ذكر الساعة علا صوته، واحمر وجهه، واشتد غضبه كأنه منذر جيش، وقال:{إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد} [سبأ: 46] .

وقال: («أنا النذير العريان») .

فأخبر من الأمور التي تأتي في المستقبل بما لم يأت به نبي من الأنبياء، كما نعته به المسيح حيث قال: (إنه يخبركم بكل ما يأتي) ، ولا يوجد مثل هذا قط عن أحد من الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم، فضلا عن أن يوجد شيء نزل على قلب بعض الحواريين.

وأيضا، فقال: (ويعرفكم جميع ما للرب) ، فبين أنه يعرف الناس جميع ما لله، وذلك يتناول ما لله من الأسماء والصفات، وما له من الحقوق، وما يجب من الإيمان به، وبملائكته وكتبه ورسله، بحيث يكون ما يأتي به جامعا لكل ما يستحقه الرب.

وهذا لم يأت به أحد غير محمد حيث يتضمن ما جاء به من الكتاب والحكمة، هذا كله. ومعلوم أن ما نزل على الحواريين لم يكن فيه هذا كله ولا نصفه ولا ثلثه، بل ما جاء به المسيح أعظم مما جاء به الحواريون، وهذا الفارقليط الثاني جاء بأعظم مما جاء به المسيح.

وأيضا، فالمسيح قال: (إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أبي هو يشهد لي، قلت لكم هذا، حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا.

فيه) . فبين أنه أخبرهم به ; ليؤمنوا به إذا جاء، ولا يشكوا فيه، وأنه يشهد له، وهذه صفة من بشر به المسيح، ويشهد للمسيح كما قال تعالى: {وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: 6] .

وأخبر أنه يوبخ العالم على الخطيئة، ولم يوجد أحد وبخ جميع العالم على الخطيئة إلا محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه أنذر جميع العالم من أصناف الناس، ووبخهم على الخطيئة: من الكفر والفسوق والعصيان، وبخ جميع المشركين من العرب والهند والترك وغيرهم، ووبخ المجوس، وكانت مملكتهم أعظم الممالك، ووبخ أهل الكتابين اليهود والنصارى، وقال في الحديث الصحيح عنه: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب» . لم يقتصر على مجرد الأمر والنهي، بل وبخهم وقرعهم وتهددهم.

وأيضا، فإنه أخبر أنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع. وهذا إخبار بأن كل ما يتكلم به فهو وحي يسمعه، ليس هو شيئا تعلمه من الناس، أو عرفه باستنباطه، وهذه خاصة محمد صلى الله عليه وسلم، فإن المسيح ومن قبله من الأنبياء كانوا يتعلمون من غيرهم، مع ما كان يوحى إليهم، فعندهم علم غير ما يسمعونه من الوحي.

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم ينطق إلا بما يسمعه من الوحي، فهو مبلغ لما أرسل به، وقد قيل له: {بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس} [المائدة: 67] .

فضمن الله له العصمة إذا بلغ رسالاته، فلهذا أرشد الناس إلى جميع الحق، وألقى إلى الناس ما لم يمكن غيره من الأنبياء إلقاءه ; خوفا أن يقتلوه كما يذكرون عن المسيح، وغيره.

وقد أخبر المسيح بأنه لم يذكر لهم جميع ما عنده، وأنهم لا يطيقون حمله، وهم معترفون بأنه كان يخاف منهم إذا أخبرهم

بحقائق الأمور. ومحمد أيده الله تأييدا لم يؤيده لغيره، فعصمه من الناس حتى لم يخف من شيء يقوله، وأعطاه من البيان والعلم ما لم يؤته غيره. فالكتاب الذي بعث به فيه من بيان حقائق الغيب ما ليس في كتاب غيره.

وأيد أمته تأييدا أطاقت به حمل ما ألقاه إليهم، فلم يكونوا كأهل التوراة الذين حملوا التوراة، ثم لم يحملوها، ولا كأهل الإنجيل الذين قال لهم المسيح: (إن لي كلاما كثيرا أريد أن أقوله لكم، ولكن لا تستطيعون حمله) ، ولا ريب أن أمة محمد أكمل عقولا، وأعظم إيمانا، وأتم تصديقا وجهادا ; ولهذا كانت علومهم وأعمالهم القلبية وإيمانهم أعظم.

وكانت العبادات البدنية لغيرهم أعظم، قال تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} [البقرة: 285 - 286] .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قال: قد فعلت.

وأيضا، فإنه أخبر عن الفارقليط أنه يشهد له، وأنه يعلمهم كل شيء، وأنه يذكرهم كل ما قاله المسيح، ومعلوم أن هذا لا يكون إلا إذا شهد له شهادة يسمعها الناس، لا يكون هذا شيئا في قلب طائفة قليلة، ولم يشهد أحد للمسيح شهادة سمعها عامة الناس إلا محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه أظهر أمر المسيح، وشهد له بالحق حتى سمع شهادته له عامة أهل الأرض، وعلموا أنه صدق المسيح، ونزهه عما افترته عليه اليهود، وعما غلت فيه النصارى، فهو الذي شهد له بالحق ; ولهذا لما سمع النجاشي من الصحابة ما شهد به محمد للمسيح قال لهم: (ما زاد عيسى على ما قلتم هذا العود) .

وجعل الله أمة محمد شهداء على الناس، يشهدون عليهم بما علموه من الحق، إذ كانوا وسطا عدلا، لا يشهدون بباطل، فإن الشاهد لا يكون إلا عدلا بخلاف من جار في شهادته، فزاد على الحق أو نقص منه، كشهادة اليهود والنصارى في المسيح.

وأيضا، فإن معنى الفارقليط، إن كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد، أو المعز، فهذا الوصف ظاهر في محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه وأمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبته، ومفتاح صلاته، ولما كان حمادا جوزي بوصفه ; فإن الجزاء من جنس العمل. فكان اسمه محمدا، وأحمد. وأما محمد فهو على وزن مكرم ومعظم ومقدس، وهو الذي يحمد حمدا كثيرا مبالغا فيه، ويستحق ذلك، فلما كان حمادا لله كان محمدا، وفي شعر حسان بن ثابت:

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد.

وأما أحمد، فهو أفعل التفضيل: أي أحق بأن يكون محمودا أكثر من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا ; أي هذا أحق بأن يحمد من هذا، فيكون فيه تفضيل له على غيره في كونه محمودا. فلفظ (محمد) يقتضي فضله في الكمية، ولفظ (أحمد) يقتضي فضله في الكيفية. ومن الناس من يقول أحمد ; أي أكثر حمدا من غيره. فعلى هذا يكون بمعنى الحامد والحماد.

وقال: من رجح أن معنى الفارقليط في لغتهم هو الحمد - كما تقدم -: فإذا كان كذلك فهو ما جاء في القرآن: {ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: 6] .

قالوا: ولا شك عندهم أنه اسم مشتق من الحمد، مثل ما نقول في لغتنا: ضارب ومضروب. وأما من فسره بالمعز فلم يعرف قط نبي أعز أهل التوحيد لله والإيمان كما أعزهم محمد، فهو أحق باسم المعز من كل إنسان.

وأما معنى المخلص، فهو - أيضا - ظاهر فيه، فإن المسيح هو المخلص الأول كما ذكر في الإنجيل، وهو معروف عند النصارى أن المسيح - صلوات الله عليه - سمي مخلصا، فيكون المسيح هو الفارقليط الأول، وقد بشر بفارقليط آخر، فإنه قال: (وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليط آخر، يثبت معكم إلى الأبد) ، فهذه بشارة بمخلص ثان يثبت معهم إلى الأبد، والمسيح هو المخلص الأول. وأما ما ينزل في القلوب فلم يسمه أحد مخلصا، ولا فارقليط، فلا يجوز أن يفسر كلام المسيح إلا بلغته، ومعانيه المعروفة التي خاطب بها، وكذلك سائر الأنبياء، بل وسائر الناطقين.

وقد وصف هذا المخلص الثاني بأنه يثبت معهم إلى الأبد، ومحمد هو المخلص الذي جاء بشرع باق إلى الأبد، لا ينسخ.

وأيضا، فإن في الإنجيل ; إنجيل يوحنا، أن المسيح قال: (أركون العالم سيأتي وليس لي شيء) .

وقد ذكروا أن الأركون بلغتهم العظيم القدر، والأراكنة العظماء، وقد كانوا يقولون: عن المسيح: (إن أركون الشياطين يعينه) أي عظيم الشياطين. وهو من افتراء اليهود على المسيح، فقول المسيح عليه السلام: أركون العالم، إنما ينطبق على عظيم العالم وسيد العالم وكبير العالم. وقد أخبر أنه سيأتي، فامتنع أن يكون هذا الأركون المسيح، أو أحدا مثله، ولم يأت بعد المسيح من ساد العالم، وأطاعه العالم غير محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا من بشارة المسيح به.

وقد «سئل صلى الله عليه وسلم ما كان أول أمرك؟ قال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي رأت حين ولدتني أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» .

وبالجملة، فمعلوم باتفاق أهل الأرض أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم باطنا وظاهرا، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع في السر والعلانية، في محياه وبعد مماته في جميع الأعصار، وأفضل الأقاليم شرقا وغربا، غير محمد، فإن الملوك يطاعون ظاهرا لا باطنا، ولا يطاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله في الدار الآخرة، ويخافون عقاب الله في الدار الآخرة، بخلاف الأنبياء.

ومحمد أظهر دين الرسل قبله، وصدقهم، ونوه بذكرهم وتعظيمهم، فبه آمن بالأنبياء والرسل قبل موسى والمسيح وغيرهما أمم عظيمة، لولا محمد لم يؤمنوا بهم. ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب كانوا مختلفين فيهم كاختلاف أهل الكتاب في المسيح، وكانوا يقدحون في داود وسليمان وغيرهما بما هو معروف عندهم.

وأيضا، فإنه ذكر لهم من الرسل ما لم يكونوا يعرفونه، مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم.

ومحمد صلى الله عليه وسلم صدق المسيح في أخباره ; بأنه أركون العالم فقال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر. آدم فمن دونه تحت لوائي، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا» .

وهو صاحب لواء الحمد، وهو صاحب المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون يوم القيامة، فهو سيد العالمين حقا، وهذا مطابق لقول المسيح: (إنه أركون العالم) ، فهو أركون الآخرين في الدنيا والآخرة، وهو أركون الأولين والآخرين في الآخرة.

وقول المسيح: (إن أركون العالم سيأتي، وليس لي شيء) تضمن الأصلين: إثبات الرسول، وإثبات التوحيد، وأن الأمر كله لله، وهو تحقيق شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وقول المسيح: (ليس لي شيء) تنزيه له مما نسب إليه من الربوبية، وهذا النفي يشترك فيه جميع الخلق، قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم:

{ليس لك من الأمر شيء} [آل عمران: 128] .

وقال تعالى: {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي} [الأنعام: 50] .

وقال: {قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا - قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا} [الجن: 21 - 22] (أي ملجأ وملاذا) {إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} [الجن: 23] .

وقال تعالى: {قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله} [الأعراف: 188] .

وأيضا، ففي نبوة أشعياء أنه وصف محمدا بأنه أركون السلم، والسلم والسلام: الإسلام. فهو يبين أنه سيد دين الإسلام. ولا ريب أن الأنبياء كلهم بعثوا بدين الإسلام. لكن لم يظهر هذا الدين واسمه، وانتشر ذكر دين الإسلام في الأرض كما ظهر لمحمد، فمحمد أركون الإسلام الذي يجمع كل خير وبر، كما أن إبليس أركون الشر، قال تعالى عن نوح:

{ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون - فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين} [يونس: 71 - 72] .

فهذا نوح: أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين.

وقالت السحرة - لما أسلموا، وأراد فرعون قتلهم -: {ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} [الأعراف: 126] .

وقال: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا} [المائدة: 44] .

وقال: {وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون} [المائدة: 111] .

فإن قيل: فقد سمى المسيح الفارقليط روح الحق، وسماه روح القدس. وقال تعالى عن إبراهيم: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين - إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين - ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} [البقرة: 130 - 132] .

{وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} [يونس: 84] .

وقالت بلقيس: {رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين} [النمل: 44] .

قيل: قد قال يوحنا في كتاب أخبار الحواريين، المسمى (إفراكسيس) : " يا أحبابي، إياكم أن تؤمنوا بكل روح. لكن ميزوا الأرواح التي من عند الله من غيرها، واعلموا أن كل روح تؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء، فكان جسدانيا، فهي من عند الله، وكل روح لا تؤمن بأن المسيح جاء، وكان جسدانيا، فليست من عند الله، بل من المسيح الكذاب الذي هو الآن في العالم ".

وإذا كان كذلك علم أن الروح - عندهم - يتناول النبي المرسل من البشر، وجبريل الذي نزل بالوحي على محمد هو روح القدس، وهو روح الحق، كما قال تعالى: {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} [النحل: 102] .

وقال: {نزل به الروح الأمين - على قلبك} [الشعراء: 193 - 194] .

وقال: {من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} [البقرة: 97] .

وهذا الروح إنما جعله بمجيء محمد، والكلام الذي نزل به هو الذي بلغه محمد ; ولهذا قال الله تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} [الحج: 75] .

فاصطفى الله جبريل من الملائكة، واصطفى محمدا من البشر ; ولهذا يضاف القول الذي هو القرآن إلى قول هذا تارة، وإلى قول هذا تارة كما قال تعالى: {إنه لقول رسول كريم - ذي قوة عند ذي العرش مكين - مطاع ثم أمين} [التكوير: 19 - 21] .

فهذا الرسول هنا جبريل، وقال تعالى في الآية الأخرى: {إنه لقول رسول كريم - وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون - ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون - تنزيل من رب العالمين} [الحاقة: 40 - 43] .

فهذا الرسول هنا محمد، وأضافه إلى كل منهما بلفظ الرسول ; لتضمنه أنه بلغه عن مرسله، لم يقل: " إنه لقول ملك، ولا نبي "، بل كفر من قال: إنه قول البشر كما ذكرذلك عن الوحيد، وقد قال تعالى في القرآن: {قد أنزل الله إليكم ذكرا - رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور} [الطلاق: 10 - 11] .

ومعلوم أن الرسول - نفسه - لم ينزل، بل أبدل الرسول من الذكر؛ لأن الرسول جاء بالذكر.

ولما كان الرسول الملكي، والرسول البشري، والذكر المنزل أمورا متلازمة يلزم من ثبوت واحد ثبوت الآخرين، ومن الإيمان بواحد الإيمان بالآخرين، فيلزم من كون القرآن حقا كون جبريل ومحمد حقا، وكذلك يلزم من كون محمد حقا كون جبريل والقرآن حقا، ويلزم من كون جبريل حقا كون القرآن ومحمد حقا.

ولهذا جمع الله بين الإيمان بالملائكة والكتب والرسل في مثل قوله: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله} [البقرة: 285] .

فتعليم محمد وتذكيره وشهادته هو تعليم روح القدس وروحه، والأخبار بأن الملك ينطق على لسان البشر، أو الجني ينطق على لسان البشر كثير كما في حديث ابن عمر: " كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر "، ويقال: " ما ألقى هذا على لسانك إلا الشيطان "، ويكون مع هذا البشر ينطق بقدرته واختياره ليس هو كالمصروع الذي يتكلم الجني على لسانه وهو يدري ما يقول ; فلهذا يقال: هذا قول الرسول البشري، وهو قول الرسول الملكي.

ويقال: الفارقليط روح الحق وروح القدس يشهد لي وهو يعلمكم، وهو يذكركم، ونحو ذلك، فإن الفارقليط يتضمن ذكر جبريل ومحمد جميعا، وقول أحدهما هو قول الآخر، ومعروف في اللغة بدل الاشتمال ; كقوله: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه} [البقرة: 217] .

والشهر ليس هو نفس القتال، لكن لما اشتمل على القتال أبدل أحدهما من الآخر، وقوله: {قد أنزل الله إليكم ذكرا - رسولا} [الطلاق: 10 - 11] .

ومن هذا النمط أبدل الرسول من الذكر لاشتماله عليه، وهذا الثاني اشتمل على الأول، والرسول البشري كان الرسول الملكي يتصل به في الباطن فيثقل عليه الوحي حين ينزله.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها «أن الحارث بن هشام قال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ قال: أحيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني، وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة:" ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا» .

والفصم: الفك والفصل من الأمور اللينة، كما قال: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم} [البقرة: 256] .

وبالقاف: هو الكسر الذي يكون في الأمور الصلبة.

فبين أن الملك حين ينزل الوحي عليه يتصل به، ويلتبس به، ثم بعد ذلك ينفصل عنه وينفك عنه، وهذا الاشتمال والانفصال أبلغ من غيره، فيحسن معه أن يكون إبدال أحدهما من الآخر أحسن من غيره. فيقال: هذا القرآن بلغه الرسول النبي، وبلغه جبريل عن الله، ونظائر هذا متعددة في جميع بشارات المسيح. يذكر أن الأب وهو في لغتهم: الله الذي يرسل الفارقليط. وفي بعضها

قال: " أنا أطلب من الأب يعطيكم فارقليط آخر، يثبت معكم إلى الأبد "، وفي بعضها: " والفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي، هو يعلمكم كل شيء "، فقد بين أن الله يرسله، وأنه يطلب من الله أن يرسله.

وأما قوله في بعض الألفاظ: " فإذا انطلقت أرسلته إليكم " فيكون معناه: إني أرسله بدعاء أبي، وطلبي منه أن يرسله، كما يطلب الطالب من ولي الأمر أن يرسل رسولا، أو يولي نائبا، أو يعطي أحدا، ويقول أنا أرسلت هذا، ووليت هذا، وأعطيت هذا ; أي كنت سببا في ذلك. ومما ينبغي أن يعلم أن الله إذا قضى ما يكون الشيء فإنه يقدر له أسبابا يكون بها، ومن تلك الأسباب دعاء طائفة من عباده به. فيكون في ذلك من النعمة في إجابته دعاء هذا وهذا وهذا.

ومحمد دعا به الخليل عليه السلام فقال: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم} [البقرة: 129] .

مع أن الله قضى بإرساله، وأعلن باسمه قبل ذلك كما قيل له: يا رسول الله، متى كنت نبيا؟ قال: " وآدم بين الروح والجسد "، وقال: " إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته ".

وهذا كما أن الله قضى بنصره يوم بدر، ومن أسباب ذلك استغاثته بالله، وكذلك بما يقضيه من إنزال الغيث يكون من أسبابه دعاء عباده له، ونظائره كثيرة، فلا يمتنع أن يكون المسيح سأل ربه بعد صعوده أن يرسل محمدا، ويكون هذا من أسباب إرساله، لكن إبراهيم سأل في الدنيا فذكر الله ذلك، بخلاف سؤال المسيح، فإنه كان بعد صعوده إلى السماء.

[فصل: براهين قرآنية مستقلة على نبوته صلى الله عليه وسلم]

والقرآن - نفسه - قد بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعا متعددة مع اشتمال كل نوع على عدد من الآيات والبراهين، مثال ذلك: إخباره لقومه بالغيب الماضي الذي لا يمكن بشرا أن يعلمه إلا أن يكون نبيا، أو يكون ممن تلقاه عن نبي، وقومه يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر، ولا من أهل الكتاب، ولا غيرهم. وهذا نوعان:

منه: ما كان يسأله عنه المشركون وأهل الكتاب ; لينظر هل هو نبي أم لا؟

وكان قومه يرسلون إلى أهل الكتاب، البعيدين عنهم، مثل من كان بالمدينة، وغيرها من أهل الكتاب، يطلبون منهم ما يسألونه عنه، فيرسلون إليهم ليسألوه عن ذلك، ويمتحنون بذلك هل هو نبي أم لا؟

ومنه: ما كان الله يخبره به ابتداء، ويجعله علما وآية لنبوته، وبرهانا لرسالته، مع ما في ذكر هذه القصص من الاعتبار لأمور أخرى، فكان كل من هذين النوعين دليلا وعبرة على نبوته، من طريقين، فكان دليلا وعبرة على نبوته من جهة إخباره بالغيب، الذي لا يعلمه إلا نبي، وكانت عبرة بما فيها من أحوال المؤمنين والكافرين التي توجب اتباع سبيل المؤمنين الذين اتبعوا مثله، وتجنب سبيل الكافرين الذين خالفوا مثله، وحكم الشيء حكم نظيره. فإذا كان من كان مثله ومثل من اتبعه سعيدا، وحال من خالف مثله ومثل من اتبعه شقيا، كان في هذا دلالة وعبرة توجب اتباعه، وتنهى عن مخالفته، وهذا - أيضا - دليل على نبوة من قبله من الأنبياء من وجهين: من جهة أنه أخبر بمثل ما أخبروا به، من غير مواطأة بينهم وبينه، ولا تشاعر، لم يأخذوا عنه، ولم يأخذ عنهم.

وكل منهما أخبر عن الله بأخبار مفصلة، يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطؤ، فإذا لم يكن تواطؤ وتشاعر، وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطأة، علم أن كلا من المخبرين صادق، قال تعالى: {لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين} [يوسف: 7] .

وقص قصته في السورة، إلى أن قال: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون - وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين - وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين - وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون - وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} [يوسف: 102 - 106] .

إلى قوله: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين - وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون - حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين - لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} [يوسف: 108 - 111] .

وقال تعالى: {ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا} [الكهف: 83] .

وقال: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} [الإسراء: 85] .

وقال: {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا} [الكهف: 9] .

وقال تعالى لما قص قصة نوح من سورة هود، وهي أطول ما قصه في قصة نوح: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين} [هود: 49] .

فذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه إليه من أنباء الغيب، ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا. فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لا من أهل الكتاب، ولا من غيرهم، وهو لم يعاشر إلا قومه، وقومه يعلمون ذلك منه، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك، ويعلمون - أيضا - أنه هو لم يكن تعلم ذلك، وأنه لم يكن يعاشر غيرهم، وهم لا يعلمون ذلك، صار هذا حجة على قومه، وعلى من بلغه خبر قومه، ومثل ما أخبرهم عن قصة آدم، وسجود الملائكة له، وتزيين إبليس له حتى أكل من الشجرة، وهبط هو وزوجه.

وأخبرهم عن قصة نوح ومكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وهذا في التوراة الموجودة بأيدي أهل الكتاب: مقدار لبثه في قومه قبل الغرق وبعده.

وأخبرهم عن قصة الخليل، وما جرى له مع قومه، وإلقائه في النار، وذبح ولده، ومجيء الملائكة إليه في صورة ضيفان، وتبشيره بإسحاق ويعقوب، وذهاب الملائكة إلى لوط، وما جرى للوط مع قومه، وإهلاك الله مدائن قوم لوط، وقصة إسرائيل مع بنيه ; كقصة يوسف، وما جرى له بمصر، وقصة موسى مع فرعون، وتكليم الله إياه مرة بعد مرة، وآياته كالعصا، واليد البيضاء، والقمل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وتظليل الغمام على بني إسرائيل، وإطعامهم المن والسلوى، وانفجار الماء من الحجر اثنتي عشرة عينا لسقيهم وعبادتهم العجل، وقتل بعضهم بعضا لما تاب الله عليهم، وقصة البقرة، ونتق الجبل فوقهم، وقصة داود، وقتله لجالوت، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، وقصة الذي أماته الله مائة عام، ثم بعثه، وغير ذلك من أحوال بني إسرائيل.

إلى أن ذكر قصة زكريا وابنه يحيى، وعيسى ابن مريم، وأحوال المسيح وآياته، ودعائه لقومه، والآيات التي بعث بها، وتفاصيل ذلك، وذكر قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وغير ذلك من قصص الأنبياء والصالحين والكفار مفصلة مبينة بأحسن بيان وأتم معرفة، مع علم قومه الذين يعرفون أحواله من صغره إلى أن ادعى النبوة: أنه لم يتعلم هذا من بشر، بل لم يجتمع هو بأحد من البشر يعرف ذلك، ولا كان عندهم بمكة من يعرف ذلك، لا يهودي ولا نصراني، ولا غيرهم.

فكان هذا من أعظم الآيات والبراهين لقومه بأن هذا إنما أعلمه به وأنبأه به الله، ومثل هذا الغيب لا يعلمه إلا نبي، أو من أخذ عن نبي، فإذا لم يكن هو أخذه عن نبي، تعين أن يكون نبيا.

، ثم سائر أهل الأرض يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر، من طرق:

أحدها: أن قومه المعادين له، الذين هم من أحرص الناس على
القدح في نبوته، مع كمال علمهم - لو علموا أنه تعلم ذلك من بشر - لطعنوا عليه بذلك وأظهروه، فإنهم - مع علمهم - بحاله يمتنع أن لا يعلموا ذلك لو كان، ومع حرصهم على القدح فيه، يمتنع أن لا يقدحوا فيه، ويمتنع أن لا يظهر ذلك.

الثاني: أنه قد تواتر عن قومه أنهم كانوا يقولون: إنه لم يكن يجتمع به من يعلمه ذلك.

الثالث: أنه لو كانت هذه القصص المتنوعة قد تعلمها من أهل الكتاب - مع عداوته لهم - لكانوا يخبرون بذلك، ويظهرونه، ولو أظهروا ذلك لنقل ذلك وعرف، فإن هذا من الحوادث التي تتوفر الهمم والدواعي على نقله.

الرابع: أنه حيث بعث كان الناس إما مشركا وإما كتابيا، فلم يكن هناك أحد على الدين الذي دعا إليه، وقد علم الناس بالتواتر أن المشركين - من قريش وغيرهم - لم يكونوا يعرفون هذه القصص، ولو قدر أنهم كانوا يعرفونها فهم أول من دعاهم إلى دينه فعادوه وكذبوه، فلو كان فيهم من علمه، أو يعلم أنه تعلم من غيره لأظهر ذلك.

الخامس: أن مثل هذا لو كان، فلا بد أن يعرفه - ولو خواص الناس - وكان في أصحابه الذين آمنوا به من يعرف ذلك، وكان ذلك

يشيع، ولو تواصوا بكتمانه كما شاع ما كتم من أمر الدول الباطنية، ولكان خواصه في الباطن يعلمون كذبه، وكان علمهم بذلك يناقض تصديقه في الباطن كما عرف في مثل ذلك.

فكيف، وكان أخص أصحابه وأعلمهم بحاله أعظمهم محبة وموالاة؟ بخلاف حال من يبطن خلاف ما يظهر، فإن خواص أصحابه لا يعظمونه في الباطن.

فإنه علم الناس أن قومه الذين كانوا معادين له غاية العداوة، وكانوا يطلبون القدح في نبوته بكل طريق، يعلمون أنه لم يكن عندهم بشر يعلمه مثل هذا، وأنه لم يكن في قومه ولا بلده من يعرف هذا.

علم الناس ما علمه قومه أن هذا أنبأه به الله، وكان هذا من أعلامه وآياته وبراهينه، وهذا مما يبين الله في القرآن أنه من آياته، وأنه حين أخبر قومه بهذا - مع تكذيبهم وفرط عداوتهم له - لم يمكن أحدا منهم أن يقول له: بل فينا من كان يعلم ذلك، وأنت كنت تعلم ذلك، وقد تعلمته منا أو من غيرنا. فكان إقرارهم بعدم علمه وعلمهم، ومع فرط عداوتهم له، آية بينة لجميع الأمم أنه لم يكن هو ولا هم يعلمون ذلك.

ولهذا لما كان بعضهم يفتري عليه فرية ظاهرة، كانوا كلهم يعلمون كذبه، وإذا اجتمعوا وتشاوروا في أمره يعرفون أن هذا كذب ظاهر عليه كما كان بعضهم يقول: إنه مجنون، وبعضهم يقول: إنه كاهن، وبعضهم يقول: إنه ساحر، وبعضهم يقول: إنه تعلمه من بشر، وبعضهم يقول: أضغاث أحلام.

فحكى الله أقوالهم، مبينا لظهور كذب من قال ذلك، وأنه قول ضال حائر، قد بهره حال الرسول، فحار، فلم يدر ما يقول، كما قال تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا - الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا - واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا - وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا - وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا - قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما} [الفرقان: 1 - 6] .

فأخبر عمن قال ذلك، وهم يعلمون أن هذا من أظهر الكذب، فإن هذه القصص المذكورة في القرآن، لم يكن بمكة من يعرفها، فضلا عن أن يمليها كما قال: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك} [العنكبوت: 48] .

وقال: {ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا} [هود: 49] .

ولهذا قال: {أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض} [الفرقان: 6] .

فأخبر أن هذا من علم من يعلم السر، إذ كان البشر لا يعلمون ذلك إلا من جهة أخبار الأنبياء، وليس بمكة من يعلم ما أخبرت به الأنبياء.

، ثم ذكر ما اقترحوه فقال: {وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا - أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا - انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} [الفرقان: 7 - 9] .

أمر بالنظر في كيفية ما ضربوه من الأمثال، حيث شبهوه بمن يظهر الفرق بينه وبينه ظهورا لا يخفى على الناظر ; ولهذا قال:

{فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} [الفرقان: 9] . إذ كان ظاهرا أن هذا ضلال عن طريق الحق، فلا يستطيع الضال عن طريق الحق إليه سبيلا.

وقال تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم - إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون - إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون - وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل

أكثرهم لا يعلمون - قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين - ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين} [النحل: 98 - 103] .

فأخبر عما افتراه بعضهم، من قوله: إنما يعلمه هذا القرآن بشر.

وكان بمكة مولى أعجمي لبعض قريش، قيل: إنه مولى لبني الحضرمي، والنبي لا يحسن أن يتكلم بلسان العجمي، وذاك لا يحسن أن يتكلم بهذا الكلام العربي. فلما قالوا: إنه افترى هذا القرآن، وأنه علمه إياه بشر قال تعالى: {لسان الذي يلحدون} [النحل: 103] .

أي يضيفون إليه هذا التعليم، وينسبونه إليه، وعبر عنه بلفظ الإلحاد ; لما فيه من الميل، فقال: لسان هذا الشخص الذي قالوا إنه يعلمه القرآن، لسان أعجمي، وهم لم يمكنهم أن يضيفوا هذا التعليم إلى رجل عربي، بل إلى هذا الأعجمي ; لكونه كان يجلس - أحيانا - إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك الأعجمي لا يمكنه التكلم بهذا الكلام العربي، بل هو أعجمي، ومحمد لا يعرف بالعجمية، لكن غاية ذلك الأعجمي كعبد بني الحضرمي أن يعرف قليلا من كلام العرب الذي يحتاج إليه في العادة، مثل الألفاظ التي يحتاج إليها في غالب الأوقات ; كلفظ الخبز والماء والسماء والأرض، ولا يعرف أن يقرأ سورة واحدة من القرآن.

فبين سبحانه ظهور كذبهم فيما افتروه، ولم يقل أحد منهم ما يمكن أن يكون شبهة من تعلمه أنباء الغيب، من علماء أهل الكتاب ونحو ذلك، وإنما قالوا ما ظهر بطلانه لكل أحد، ولم ينقل عن أحد منهم أنه قال قولا يخفى بطلانه، بل ما يظهر كذبه لكل أحد.

فتبين أنه لم يمكنهم أن يقولوا: إنه تعلم أخبار الغيوب من أحد. وهذه القصة: قصة نوح - لا سيما قصته في سورة هود كما تقدم - لا يعلمها إلا نبي، أو من تلقاها عن نبي، فإذا عرف أنه لم يتلقاها عن أحد، علم أنه نبي ; ولهذا قال تعالى في آخرها:

{تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين} [هود: 49] .

والقول في سائر القصص، كالقول فيها.

وكما قال - في سورة يوسف -: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون} [يوسف: 102]

وقال - في سورة آل عمران، لما ذكر قصة زكريا ومريم -: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} [آل عمران: 44] .

وقال: - في قصة موسى -: {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين - ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين - وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك} [القصص: 44 - 46] الآية.

والإنسان إنما يعلم مثل هذا بمشاهدة أو خبر، فنبه بقوله: (وما كنت لديهم) على أنه إنما علمت ذلك بإخبارنا وإيحائنا إليك وإعلامنا لك بذلك، إذ كان معلوما عند كل من عرفه: أنه لم يسمع ذلك من بشر، وأنه لم يكن هو ولا قومه يعلمون ذلك.

وقد قال تعالى: {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون} [يونس: 16] .

بين بذلك أن تلاوته عليهم هذا الكتاب، وإدراءهم ; أي إعلامهم به، هو بمشيئة الله وقدرته لا من تلقاء نفسه، كما قال تعالى:

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم - قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به} [يونس: 15 - 16] .

فبين أنه لبث فيهم عمرا من قبله، وهو لا يتلو شيئا من ذلك، ولا يعلمه، ولا يعلمهم به، فليس الأمر من جهته، ولكن من جهة الله الذي لو شاء ما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وتلاوته عليهم وإدراؤهم به هو من الإعلام بالغيوب الذي لا يعلمها إلا نبي، وبين أن ذلك من الإرسال الذي يحبه الله ويرضاه، لا من الكوني الذي قدره، وهو لا يحبه، ولا يرضاه؛ كإرسال الشياطين، ولهذا كانوا يعرضون عليه أن يصير ملكا عليهم، وأن يعطوه حتى يكون من أغناهم، وأن يزوجوه ما شاء من نسائهم، فيقول: " «لو

وضعتم الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر لم أستطع أن أدعه» "، وهذه الثلاث هي مطلوب النفوس من الدنيا (السلطان والمال والنساء) ، فيعرض عن قبول الدنيا التي هي غاية أماني طالبها، ويبين أنه لا يقدر على أن يدع ما أمر به من تبليغ الرسالة.

وقال تعالى: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا - ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا - إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا - وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا - سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا} [الإسراء: 73 - 77] .

بين سبحانه أنهم كادوا أن يمنعوه بكل طريق، فإن الإنسان إنما يتم عمله بإرادته وقدرته. فمع الإدارة الجازمة والقدرة التامة يجب وجود المقدور، وإذا تعذر أحدهما امتنع، فطلبوا تغيير إرادته ليركن إليهم فيغير ما أوحي إليه، فعصمه الله وثبته.

، ثم طلبوا تعجيزه بأن يستفزوه ويخرجوه، حتى يعجز عن تبليغ رسالة ربه، ولو كان ذلك لعاجلهم الله بالعقوبة، أسوة بمن تقدمه من الرسل، فإن الله كان إذا أراد إهلاك أمة، أخرج نبيها منها ثم أهلكها، لا يهلكها وهو بين أظهرها، كما قال تعالى:

{وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} [الأنفال: 33] .

وهذا بعد قوله: {وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} [الأنفال: 32]

قال تعالى: {وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} [الأنفال: 33] .

فلما خرج من بينهم بالهجرة أتاهم الله بعذاب أليم يوم (بدر) وغيره، فقوله: {وإن كادوا ليفتنونك} [الإسراء: 73] .

إشارة إلى سعيهم في إفساد إرادته.

وقوله: {وإن كادوا ليستفزونك من الأرض} [الإسراء: 76] .

إشارة إلى سعيهم في تعجيزه.

وقال تعالى: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون} [العنكبوت: 48] .

بين سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة، وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه، متواتر عند من غاب عنه، وبلغته أخباره من جميع الناس: أنه كان أميا لا يقرأ كتابا، ولا يحفظ كتابا من الكتب، لا المنزلة ولا غيرها، ولا يقرأ شيئا مكتوبا، لا كتابا منزلا ولا غيره، ولا يكتب بيمينه كتابا، ولا ينسخ شيئا من كتب الناس المنزلة ولا غيرها.

ومعلوم أن من يعلم من غيره إما أن يأخذ تلقينا وحفظا، وإما أن يأخذ من كتابه، وهو لم يكن يقرأ شيئا من الكتب من حفظه، ولا يقرأ مكتوبا، والذي يأخذ من كتاب غيره إما أن يقرأه وإما أن ينسخه، وهو لم يكن يقرأ ولا ينسخ.

وقال تعالى: {وإنه لتنزيل رب العالمين - نزل به الروح الأمين - على قلبك لتكون من المنذرين - بلسان عربي مبين - وإنه لفي زبر الأولين - أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} [الشعراء: 192 - 197] .

إلى قوله. {وما تنزلت به الشياطين - وما ينبغي لهم وما يستطيعون - إنهم عن السمع لمعزولون - فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين - وأنذر عشيرتك الأقربين - واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين - فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون - وتوكل على العزيز الرحيم - الذي يراك حين تقوم - وتقلبك في الساجدين - إنه هو السميع العليم - هل أنبئكم على من تنزل الشياطين - تنزل على كل أفاك أثيم - يلقون السمع وأكثرهم كاذبون - والشعراء يتبعهم الغاوون - ألم تر أنهم في كل واد يهيمون - وأنهم يقولون ما لا يفعلون - إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} [الشعراء: 210 - 227] .

فقال تعالى: {وإنه لفي زبر الأولين} [الشعراء: 196] .

وقال: {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} [الشعراء: 197] .

وعلماء بني إسرائيل يعلمون ذكر إرسال محمد ونزول الوحي عليه، كما قال تعالى: {الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل} [الأعراف: 157] .

وقال: {والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين} [الأنعام: 114] .

وقال:{الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون} [القصص: 52] .

وقال: {وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين} [القصص: 53] .

ويعلمون المعاني التي فيه أنها موافقة لأقوال الرسل قبله في الخبر والأمر.

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته، وعرشه وملائكته، وخلقه السماوات والأرض، وغير ذلك بمثل ما أخبرت به الرسل قبله. وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له وبالعدل والصدق والصلاة والزكاة، ونهى عن الشرك والظلم والفواحش كما أمرت ونهت الرسل قبله.

والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة، التي اتفقت عليها الرسل، التي لا بد منها، وهي الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا غيره.

وأما السور المدنية ففيها هذا، وفيها ما يختص به محمد صلى الله عليه وسلم من الشرعة والمنهاج. فإن دين الأنبياء واحد كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:«إنا - معشر الأنبياء - ديننا واحد» ، قال الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} [الشورى: 13] .

وقال تعالى: {يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم - وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون - فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون} [المؤمنون: 51 - 53] .

وقال تعالى: {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون - منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين - من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون} [الروم: 30 - 32] .

وأما الشرعة والمنهاج، فقد قال عن أهل التوراة والإنجيل والقرآن:{لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} [المائدة: 48] .

وقال: {ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين - الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون - والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون - لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم} [الحج: 34 - 37] .

إلى قوله: {لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه} [الحج: 67] .

وأما القبلة: فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة، فلذلك قال: {ولكل وجهة هو موليها} [البقرة: 148] .

لم يقل: إنا جعلنا لكل وجهة، كما قال في المنسك والشرعة والمنهاج. وقال تعالى:{وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى} [طه: 133] .

فإنه إذا أتاهم ببيان ما في الصحف الأولى - مع علمهم بأنه لم يعاشر أحدا من أهل الصحف الأولى، ولا استفاد منهم علما - كان هذا من أعظم الآيات من الله.

وكما أن إخباره عن أمور الغيب يدل على نبوته، فإنه يدل على أن النبوة إنباء من الله، ليس ذلك كما يقوله بعض المتفلسفة كابن سينا وأمثاله: (إنه فيض فاض عليه من النفس الفلكية أو العقل الفعال) ، ويقولون: (إن النفس أو العقل هو اللوح المحفوظ، وأن

من اتصلت نفسه به علم ما علمته الأنبياء) ، ويقولون: (النبوة مكتسبة؛ لأن هذه صفتها) ، ويقولون: (إن سبب علمه بالغيب هو اتصال نفسه بالنفس الفلكية) ، وزعموا أنها اللوح المحفوظ، وأن تحريكها للفلك هو سبب حدوث الحوادث في الأرض، فتكون عالمة بما يحدث في الأرض؛ لأن العلم بالسبب يوجب العلم بالمسبب. فإن هذا مبني على مقدمات باطلة، قد بسط الكلام على بطلانها في مواضع أخرى:

منها: إثبات العقل الفعال.

ومنها: دعواهم أنه لا سبب للحوادث إلا حركة الفلك.

ومنها: أن المحرك له هو النفس.

ومنها: اتصال نفوسنا بتلك النفس.

والمقصود - هنا - أن هذا لو كان حقا فإنما يفيد علما بالمستقبل الذي تكون الحركة الحاضرة سببا له، أما ما قد مضى بمئين أو ألوف من السنين فليس شيء من حركات الفلك - حين مبعث الرسول - كان سببا له، وإنما تكون الحركة الموجودة في زمانه سببا للمستقبل لا للماضي، وحينئذ فلا يكون تحريك النفس للفلك سببا للعلم بهذه الأمور، ولا يكون ذلك هو اللوح المحفوظ، بل القرآن المجيد في لوح محفوظ، وهو في أم الكتاب، وهو: {في كتاب مكنون - لا يمسه إلا المطهرون} [الواقعة: 78 - 79] .

وأخبر سبحانه أنه: {نزل به الروح الأمين} [الشعراء: 193] .

وقال في آية أخرى: {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} [النحل: 102] .

وقال: في موضع آخر: {قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} [البقرة: 97] .

وقال: {إنه لقول رسول كريم - ذي قوة عند ذي العرش مكين - مطاع ثم أمين - وما صاحبكم بمجنون - ولقد رآه بالأفق المبين - وما هو على الغيب بضنين - وما هو بقول شيطان رجيم - فأين تذهبون - إن هو إلا ذكر للعالمين - لمن شاء منكم أن يستقيم} [التكوير: 19 - 28] .

وقال تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} [الحج: 75] .

فذكر أنه قول رسول اصطفاه من الملائكة، نزله به على رسول اصطفاه من البشر، فقال: {إنه لقول رسول كريم - وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون - ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون - تنزيل من رب العالمين - ولو تقول علينا بعض الأقاويل - لأخذنا منه باليمين - ثم لقطعنا منه الوتين - فما منكم من أحد عنه حاجزين - وإنه لتذكرة للمتقين - وإنا لنعلم أن منكم مكذبين - وإنه لحسرة على الكافرين - وإنه لحق اليقين - فسبح باسم ربك العظيم} [الحاقة: 19 - 52] .

فنزه كلا من الرسولين عما قد يشتبه به.

نزه الملك أن يكون شيطانا، ونزه البشر أن يكون شاعرا أو كاهنا، وبين برهان ذلك وآيته، فقال:{وما تنزلت به الشياطين - وما ينبغي لهم وما يستطيعون - إنهم عن السمع لمعزولون} [الشعراء: 210 - 212] .

فبين أنه ما يصلح لهم النزول به، بل هم منهيون عن ذلك، وهم ممتنعون عن ذلك لا يريدونه لمنافاته لمقصودهم، وأنهم لو أرادوا لعجزوا عن ذلك فلم يستطيعوه ; إذ كانوا معزولين عن أن يسمعوه من الملأ الأعلى، وهم إنما يقدرون على أن ينزلوا بما سمعوه لا بما لم يسمعوه، وذلك أن الفاعل للفعل إنما يفعله إذا كان مريدا له قادرا عليه.

فبين قوله: {وما ينبغي لهم} [الشعراء: 211] .

أنهم لا يريدون تنزيله.

وبقوله: {وما يستطيعون} [الشعراء: 211] .

أنهم عاجزون عن تنزيله.

أما كونهم لا يريدون ; فلأنه لا ينبغي لهم، (وينبغي) مضارع بغى يبغي: أي طلب وأراد. فالذي لا ينبغي للفاعل هو الذي لا يطلبه ولا يريده، إما لكونه ممتنعا من ذلك، أو لكونه ممنوعا منه. والشيطان إنما يريد الكذب والفجور، لا يريد الصدق والصلاح.

وما جاء به الرسول مناقض لمراد الشياطين غاية المناقضة، فلم يحدث في الأرض أمر أعظم مناقضة لمراد الشياطين من إرسال محمد، فنزول القرآن عليه، فيمتنع أن تفعل الشياطين ما لا يريدون إلا نقيضه، وهم - أيضا - ممنوعون من ذلك بحيث لا يصلح لهم ذلك ولا يتأتى منهم كما أن الساحر لا ينبغي له أن يكون نبيا. والمعروف بالكذب والفجور لا ينبغي له - مع ذلك - أن يكون نبيا، ولا أن يكون حاكما، ولا شاهدا، ولا مفتيا ; إذ الكذب والفجور يناقض مقصود الحكم والشهادة والفتيا، فكذلك ما في طبع الشياطين من إرادة الكذب والفجور يناقض أن تتنزل بهذا الكلام الذي هو في غاية الصدق والعدل، لم يشتمل على كذبة واحدة ولا ظلم لأحد.

، ثم قال: {وما يستطيعون} [الشعراء: 211] .

فإنهم عن سمع هذا الكلام لمعزولون، بما حرست به السماء من الشهب كما قال - عن الجن -: {وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا - وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا} [الجن: 8 - 9] .

وقد ذكرنا تواتر هذا الخبر وأن السماء حرست حرسا لم يعهده الناس قبل ذلك، ورأى الناس ذلك بأبصارهم فكانوا قد عاينوا ما أخبرهم به من الرمي بالشهب التي يرمى بها لطرد الشياطين، فعزلوا بذلك عن سمع الملأ الأعلى، وكان ما عاينه الكفار - من الرمي الشديد العام - الذي انتقضت به العادة المعروفة من رمي الشهب، دليلا على سبب خارق للعادة، ولم يحدث - إذ ذاك - في الأرض أمر لم تجر به العادة إلا ادعاءه للرسالة، فلم يعرف قبله من نزل عليه الكلام كنزوله عليه؛ إذ كان موسى عليه السلام إنما أنزلت عليه التوراة مكتوبة، لم تنزل عليه منجمة مفرقة ملقاة إليه حفظا، حتى تحتاج السماء إلى حراستها عن استراق سمعها. والزبور تابع لشرع التوراة، وكذلك الإنجيل فرع على التوراة. لم ينزل كتاب مستقل إلا التوراة والقرآن، كما قال تعالى:

{قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين} [القصص: 49] .

ولهذا يقرن سبحانه بين التوراة والقرآن كثيرا كما في قوله: {وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس} [الأنعام: 91] .

إلى قوله: {وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه} [الأنعام: 92] .

وقال: {أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده} [هود: 17] .

قال سعيد بن جبير وغيره: " والأحزاب هي الملل كلها "، قال: وهذا تصديق قول النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» ، وقرأ هذه الآية: {ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده} [هود: 17] .

وقالت الجن: {إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى} [الأحقاف: 30] .

وقال النجاشي - لما سمع القرآن -: (إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة) .

وأيضا، فكان معروفا عندهم إخبار الكهان عن الشياطين التي تسترق السمع، فلما رأوا أن السماء قد حرست حرسا شديدا خلاف العادة، علموا أن الشياطين منعوا استراق السمع، وعلمت الجن ذلك كما تقدم، وقد قالت الجن: {وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا - وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا} [الجن: 8 - 9] .

وقد تواترت الأخبار بأنه حين المبعث كثر الرمي بالشهب، وهذا أمر خارق للعادة، حتى خاف بعض الناس أن يكون ذلك لخراب العالم، حتى نظروا هل الرمي بالكواكب التي في الفلك أم الرمي بالشهب؟ فلما رأوا أنه بالشهب، علموا أنه لأمر حدث. وأرسلت

الجن تطلب سبب ذلك، حتى سمعت القرآن، فعلموا أنه كان لأجل ذلك.

وهذا من أعلام النبوة ودلائلها.

وقبل زمان البعث وبعده، كان الرمي خفيفا، لم تمتلئ به السماء كما ملئت حين نزول القرآن، وقال تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين - تنزل على كل أفاك أثيم - يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} [الشعراء: 221 - 223] .

والأفاك الكذاب، والأثيم الفاجر، كما قال: {لنسفعا بالناصية - ناصية كاذبة خاطئة} [العلق: 15 - 16] .

قال في الحديث المتفق على صحته: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يدعو إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا» .

فالشياطين تنزل على من يحصل مقصودها بنزولها عليه، وهو المناسب لها في الكذب والفجور. فأما الصادق البار، فلا يحصل به مقصود الشياطين، فإن الشيطان لا يطلب الصدق والبر، وإنما يطلب الكذب والفجور.

ومحمد صلى الله عليه وسلم ما زال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين، لم تجرب عليه كذبة واحدة. ولما جاءه الروح بالوحي لم يخبر بخبر واحد كذب، لا عمدا ولا خطأ.

ومن تنزلت عليه الشياطين لا بد أن يخبر بالكذب، فإن الشياطين يلقون إليهم السمع، ولا يلقون إليهم ما سمعوه على وجهه، بل يكذبون فيه كثيرا ; إذ كان أكثر الشياطين الذين ينزلون عليهم كاذبين فيما ينزلون به عليهم. والشياطين وإن كان كلهم كاذبا - فليس كل من ألقى السمع يكذب فيما يلقيه، بل قد يصدق أحدهم فيما يلقيه من السمع ويسترقه، ولكن أكثرهم يكذبون، والذي يصدق منهم مرة يكذب مرات، والذي ينزل عليه الشياطين أفاك أثيم.

فالفرق بين الصادق البار الذي يأتيه الملك، والكاذب الأثيم الذي يأتيه الشيطان الرجيم، فرق بين، يعرف بأدنى معرفة بحال الاثنين، ولما كان الكاهن الذي يأتيه شيطان قد يخبر ببعض الأمور الغائبة بين سبحانه أن هذا يكون - وإن صدق في بعض الأخبار - كاذبا فاجرا، والذي يأتيه بالكذب، فلا يشتبه بمن لا يكذب ولا يفجر، وهذا مما يبين أن النبي لا يكون إلا بارا معصوما أن يصر على ذنب.

[فصل: الدلائل القاطعة عند أهل مكة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم]

وقد ذكرنا أن قومه المعادين له غاية العداوة ما زالوا معترفين بصدقه صلى الله عليه وسلم، وأنهم لم يجربوا عليه كذبا، بل ومعترفين بأن ما يقوله ليس بشعر ولا كهانة، وأنه ليس بساحر، وكانوا في أول أمره يرسلون إلى البلاد التي فيها علماء أهل الكتاب يسألونهم عنه؛ لأن مكة لم يكن بها ذلك.

ففي الصحيحين عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب حدثه، قال: " انطلقت إلى الشام في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فبينما أنا بالشام إذ جيء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، قال: وكان دحية الكلبي جاء به، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل:: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، قال: فدعيت في نفر من قريش فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، قال أبو سفيان: فقلت أنا. فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي. فدعا بترجمانه، فقال: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه.

قال: فقال: وايم الله! لولا مخافة أن يؤثر علي كذب لكذبت عليه. ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسب. قال: فهل كان في آبائه من ملك، قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا "، وذكر باقي الحديث:

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، حديث سعد بن معاذ، لما قال لأمية: إنهم قاتلوك (يعني النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه) ، وفزع منه لذلك، وقال لامرأته ذلك، فقالت: والله ما يكذب محمد، وقال هو - في رواية أخرى -: والله ما يكذب محمد، وعزم أن لا يخرج خوفا من هذا، وقال: والله لا أخرج من مكة. وأراد التخلف عن بدر، حتى قال له أبو جهل: إنك متى

يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد هذا الوادي تخلفوا معك. فقال: أما إذ غلبتني فلأشترين أجود بعير بمكة، وذكرته امرأته بقول سعد، فقال: ما أريد أن أكون معهم إلا قريبا.

وكذلك ما ذكره أهل المغازي وغيرهم «أن أبي بن خلف لم بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنا أقتله، ثم طعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فخدشه، وجعل أصحابه يجزعونه ويقولون: إنما هو خدش وليس بشيء، فقال: والله لو كان بمضر لقتلهم، أليس قال: " لأقتلنك» . وعن مجاهد: قال مولاي السائب بن أبي السائب: كنت فيمن بنى البيت، وأن قريشا اختلفوا في الحجر حين أرادوا أن يضعوه، حتى كادوا يقع بينهم قتال بالسيوف، فقال: اجعلوا بينكم أول رجل يدخل من الباب، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يسمونه في الجاهلية الأمين.

فقالوا: يا محمد، قد رضينا بك.

وعن عقيل بن أبي طالب قال: " «جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا له: إن ابن أخيك يأتينا في كعبتنا ونادينا ويسمعنا

ما يؤذينا، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل. قال: فقال لي: يا عقيل التمس ابن عمك. قال: فأخرجته من كبس من أكباس شعب أبي طالب، فأقبل يمشي حتى انتهى إلى أبي طالب، فقال له: يا ابن أخي، والله ما علمت إن كنت لي مطيعا، وقد جاءني قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وناديهم فتسمعهم ما يؤذيهم، فإن رأيت أن تكف عنهم؟ قال: فحلق ببصره إلى السماء، فقال: والله ما أنا بأقدر على أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من النار فقال أبو طالب: إنه - والله - ما كذب قط فارجعوا راشدين» . رواه البخاري في تاريخه، وأبو زرعة في الدلائل، ورواه ابن إسحاق قريبا من هذا اللفظ، وقال: " فأخرجته من حفش - وهو بيت صغير - وقال فيه: فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد بدا لعمه، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن القيام معه، فقال: «يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه» وفي الصحيحين عن عبد الله بن الصامت قال: " قال أبو ذر: خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلون الشهر الحرام، فخرجت أنا وأخي أنيس وأمنا، فنزلنا على خال لنا فأكرمنا، وأحسن إلينا فحسدنا قومه، فقالوا: إنك إذا خرجت عن أهلك خالف إليهم أنيس. فجاء خالنا فثنا علينا الذي قيل له، فقلت له: أما ما مضى من معروفك فقد كدرته، ولا جماع لك فيما بعد. فقربنا صرمتنا، فاحتملنا عليها، وتغطى خالنا بثوبه يبكي، وانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة.

فنافر أنيس رجلا عن صرمتنا وعن مثلها فأتينا الكاهن فخير أنيسا فأتى بصرمتنا ومثلها معها. قال: وقد صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين، قلت: لمن؟ قال: لله، قلت: فأين توجه؟ قال: أتوجه حيث يوجهني ربي، أصلي عشاء، حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأني خفاء، حتى تعلوني الشمس، فقال أنيس: إن لي حاجة بمكة فاكفني.
فانطلق أنيس حتى أتى مكة فراث علي، ثم جاء فقلت: ما صنعت؟ قال: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعراء فما يلتئم على لسان أحد يقري بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون.
قال: قلت: فاكفني حتى أذهب فأنظر، قال: فأتيت مكة فضعفت رجلا منهم، فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابئ؟ فأشار إلي فقال: الصابئ، فمال علي أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشيا علي. . . "، وذكر الحديث وصفة إسلامه رضي الله عنه بلفظ مسلم.

وفي حديث البخاري عن ابن عباس: " أن أبا ذر أرسل أخاه، وقال: اعلم لي علم هذا الرجل، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله، ثم ائتني، فانطلق الآخر حتى قدم مكة، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاما ما هو بالشعر.

فقال: ما شفيتني فيما أردت، فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم مكة فأتى المسجد. . . " وذكر تمام الحديث.

وعن جابر بن عبد الله " قال الملأ وأبو جهل: لقد غلبنا أمر محمد، فلو التمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر، فأتاه فكلمه، وأتانا ببيان من أمره.

قال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر، وعلمت من ذلك علما، فما يخفى علي إن كان كذلك. فأتاه، فلما خرج إليه قال: أنت - يا محمد - خير أم هاشم؟ وأنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا، وتضلل آباءنا؟ فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا لك الرياسة، فكنت رأسنا ما بقيت، وإن كان بك الباه زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال، جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلم،

فلما فرغ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بسم الله الرحمن الرحيم {حم - تنزيل من الرحمن الرحيم - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون} [فصلت: 1 - 3] .

إلى قوله: {فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} [فصلت: 13] .

فأمسك عتبة على فيه، وناشد بالرحم أن يكف، ورجع إلى أهله، فلم يخرج إلى قريش، فاحتبس عنهم عتبة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فأتاه أبو جهل فقال: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد، وأعجبك أمره، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم أن لا يكلم محمدا أبدا، وقال: لقد علمتم أني من أكثر قريش مالا، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر: {حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون} [فصلت: 1] .

إلى قوله: {فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} [فصلت: 13] .

فأمسكت بفيه، وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب ". رواه أبو بكر أحمد بن مردويه، في كتاب التفسير عن محمد بن فضيل عن الأجلح عن الذيال بن حرملة عنه، ورواه يحيى بن معين عن محمد بن فضيل، ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده، ورواه عبد بن حميد عن شيخ أبي يعلى ابن أبي شيبة.

وفي بعض الطرق: " إن كنت تزعم أن هؤلاء خيرا منك فقد عبدوا الآلهة، وإن كنت تزعم أنك خيرا منهم فتكلم حتى نسمع "، ورواه ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن زياد مولى لبني هاشم عن محمد بن كعب، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا حليما. وذكر الحديث إلى أن قال: " لما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد، قال: ورائي أني - والله - قد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، فقالوا: سحرك - والله - يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم. ثم ذكر شعر أبي طالب يمدح عتبة فيما قال.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: «قدم ضماد مكة وهو رجل من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل، لعل الله أن يشفيه على يدي، قال: فلقيت محمدا، فقلت: إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهلم، فقال محمد: " إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد " قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فقال: والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت بمثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر.

فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " وعلى قومك "، فقال: وعلى قومي» . الحديث.

وعن ابن عباس: «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي، فقرأ عليه من القرآن: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون} [النحل: 90] .

قال: أعد، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله

لمغدق، وما يقول هذا البشر ".

وفي لفظ: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال: ولم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعوض مما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا ترضى عنك قومك حتى تقول

فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره. فنزلت: {ذرني ومن خلقت وحيدا} [المدثر: 11] » .

رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة عنه.

وفي رواية أخرى: " أن الوليد بن المغيرة اجتمع، ونفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضا، ويرد بعضكم قول بعض، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيا نقوم به. فقال: بل أنتم فقولوا وأنا أسمع، فقالوا: نقول كاهن، فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكهان. فقالوا: نقول مجنون، فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر، فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريظه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر، قال: فما هو بساحر، قد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده. فقالوا: ما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجنى، فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له أمره ; فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة، وذلك من قوله: {ذرني ومن خلقت وحيدا} [المدثر: 11] .

إلى قوله: {سأصليه سقر} [المدثر: 26] .

وأنزل في النفر الذين كانوا معه: {الذين جعلوا القرآن عضين} [الحجر: 91] .

أي أصنافا.

وروى ابن إسحاق، عن شيخ من أهل مصر، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: قام النضر بن الحارث فقال: " يا معشر قريش، والله لقد نزل بكم أمر ما ابتليتم بمثله، لقد كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا - والله - ما هو بسحر، قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا - والله - ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا - والله - ما هو بشاعر، لقد روينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها؛ هزجه ورجزه وقريظه، وقلتم: مجنون، ولا - والله - ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون فما هو بخنقه، ولا تخليطه، يا معشر قريش انظروا في شأنكم فإنه - والله - لقد نزل بكم أمر عظيم ". وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة.

قال: وحدثني الزهري قال: " حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلي بالليل في بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا، وطلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في - نفسه شيئا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا، فلما كانت الليلة الثالثة، فعلوا كذلك، ثم جمعتهم الطريق فتعاهدوا أن لا يعودوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، فقال الأخنس: وأنا، والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، ثم إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه أبدا ".

وكذلك روي عن المغيرة بن شعبة، أن أبا جهل قال له مثل ذلك، وقال: إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الندوة.

فقلنا: نعم، فينا الحجابة، فقلنا: نعم، فينا السقاية، فقلنا: نعم. وذكر نحوه.

وقد كانوا يرسلون إلى أهل الكتاب ليسألوهم عن أمره صلى الله عليه وسلم.

قال محمد بن إسحاق حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس قال: " بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: اسألوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أحبار يهود: " سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه. وسلوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة، حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، خبرنا فسألوه عما أمروهم به. فقال: لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبركم، وجاءه جبريل من الله بسورة الكهف، فيها خبر ما سألوه عنه، من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} [الإسراء: 85] .

قال ابن إسحاق: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح السورة فقال: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب} [الكهف: 1] .

يعني محمدا، إنك رسولي في تحقيق ما سألوه عنه من نبوته.

{ولم يجعل له عوجا قيما} [الكهف: 1] .

أي أنزله قيما؛ أي معتدلا لا اختلاف فيه، وذكر تفسير السورة إلى قوله: {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا} [الكهف: 9] .

أي وما قدروا من قدري، وفيما صنعت من أمر الخلائق، وما وضعت على العباد من حجتي، ما هو أعظم من ذلك.

قال مجاهد: " ليس بأعجب من آياتنا من هو أعجب من ذلك ".

وفي تفسير العوفي عن ابن عباس: " الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف ".

قلت: والأمر على ما ذكره السلف، فإن قصة أصحاب الكهف هي من آيات الله، فإن مكثهم نياما لا يموتون ثلاثمائة سنة، آية دالة على قدرة الله ومشيئته، وأنه يخلق ما يشاء، ليس كما يقوله أهل الإلحاد. وهي آية على معاد الأبدان كما قال تعالى:

{وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها} [الكهف: 21] .

وكان الناس قد تنازعوا في زمانهم: هل تعاد الأرواح دون الأبدان.

وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم بقصتهم من غير أن يعلمه بشر آية على نبوته، فكانت قصتهم آية على أصول الإيمان الثلاثة ; الإيمان بالله، واليوم الآخر، والإيمان برسوله. ومع هذا فليسوا من آيات الله بعجب، بل من آيات الله ما هو أعجب من ذلك.

وقد ذكر الله تعالى سؤالهم عن الآيات التي كانوا يسألونه عنها ليعلموا: هل هو نبي صادق أم كاذب؟ فقال تعالى: {ويسألونك عن ذي القرنين} [الكهف: 83] .

وقال: {لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين} [يوسف: 7] .

إلى قوله: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون} [يوسف: 102] .

إلى قوله: {وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} [يوسف: 105] .

إلى قوله: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} [يوسف: 109] .

وقال تعالى لما ذكر قصة أهل الكهف التي سألوه عنها: {ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا} [الكهف: 83] .

أي يسألونك عن ذاك، ويسألونك عن هذا.

والقرآن مملوء من إخباره عن الغيب الماضي، الذي لا يعلمه أحد من البشر، إلا من جهة الأنبياء الذين أخبرهم الله بذلك، ليس هو الشيء الذي تزعمه ملاحدة المتفلسفة، فإن هذه الأمور الغيبية المعينة المفصلة لا يؤخذ خبرها قط إلا عن نبي، كموسى، ومحمد، وليس أحد ممن يدعي المكاشفات؛ لا من أولياء الله، ولا من غير أولياء الله يخبر بشيء من ذلك ; ولهذا كان هذا من أعلام الأنبياء وخصائصهم التي لا يشركهم فيها غيرهم.

وأهل الملل متفقون على ما دل عليه العقل الصريح من أن هذا لا يعلم إلا بخبر نبي. فإذا كان محمد قد أخبر من ذلك بما أخبر به موسى وغيره من الأنبياء، وأخبر بما يعلمونه مما لا يعلمه أحد إلا بالتعلم منهم، وقد عرف أن محمدا لم يتعلم هذا من بشر، كان هذا آية وبرهانا قاطعا على نبوته. ثم العلم بأن محمدا لم يتعلم هذا من بشر يحصل في حياته، أما قومه المباشرون له، الخبيرون بحاله، فكانوا يعلمون أنه لم يتعلم هذا من بشر، فقامت عليهم الحجة بذلك، وأما من لم يعرف حاله إلا بالسماع فيعلم ذلك بطرق:

منها: تواتر أخباره، وكيف كان؟ من حين ولد إلى أن مات كما هي مستفيضة مشهورة متواترة، يعلمها من كان له خبرة بذلك، أعظم مما يعلم به حال موسى وعيسى، فإن محمدا ظهر أمره، وانتشرت أخباره، وتواترت أحواله، أعظم من جميع بني آدم. فما بقي ما دون هذا من أحواله يخفى على الناس فكيف مثل هذا؟ !

ومنها: أنه أخبر في القرآن بما لا يوجد عند أهل الكتاب، مثل: قصة هود وصالح وشعيب، وبعض التفاصيل في قصة إبراهيم وموسى وعيسى؛ مثل تكليم المسيح في المهد، ومثل نزول المائدة، فإن هذا لا يعرفه أهل الكتاب، ومثل إيمان امرأة فرعون، وغير ذلك. فيمتنع أن يقال: إن هذا تعلمه من أهل الكتاب، وقومه لم يكونوا يعلمون ذلك، بل قد أراهم وغيرهم آثار المنذرين الذين عاقبهم الله لما كذبوا الرسل، كقوم عاد وثمود، وغيرهم.

فيستدل الناس بالآثار الموجودة على صدق الرسل، وعقوبة الله لمن يكذبهم. ويستدل قومه وغيرهم على صدقه فيما أخبر به من هذه الأمور التي لم يتعلمها من أهل الكتاب بتصديق أهل الكتاب له فيما وافقهم فيه، مع علمهم أنه لم يتعلم ذلك منهم، ويكون هذا مما يدل على أنه لم يتعلم من أهل الكتاب شيئا كما قد يظنه بعضهم، وذلك من الوجهين كما تقدم.

ومنها: أن أكثر قومه كانوا من أعظم الناس عداوة له، وحرصا على تكذيبه والطعن فيه، وبحثا عما به يقدحون فيه. فلو كان قد تعلم هذه الأخبار من بشر لكانوا يعلمون ذلك، ويقدحون به فيه ويظهرونه، ولكان هذا مما يظهر أعظم مما ظهر غيره. فلما لم يقع ذلك دل على أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك، ولم يتمكنوا من القدح به فيه مع علمهم بحاله، ورغبتهم في القدح به. ومع كمال الداعي والقدرة، يجب وجود المقدور، فلما كان داعيهم تاما، ولم يقدحوا، علم أن ذلك لعجزهم. وعجزهم عن القدح مع علمهم بحاله دليل على أنهم علموا أنه لم يتعلمه من بشر.

ومنها: أن يقال: مثل هذا لو وقع لكان من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، بل كان المتبعون له المؤمنون به إذا اطلعوا على ذلك فلا بد أن يشيعوه ويعلنوه، فكيف المخالفون له، المكذبون له؟ فإن القوم المتفرقين الذين لم يتواطئوا، كما لا يجتمعون على تعمد الكذب، فلا يجتمعون على كتمان مثل ذلك، بل يجتهد الملوك والرؤساء في إخفاء ما يبطنونه من أمر ملكهم الذي بنوه عليه، ويحلفون أولياءهم على كتمان ذلك، ويبذلون لهم الرغبة والرهبة في ذلك، ثم يظهر ذلك كما فعل القرامطة الباطنية، من أهل البحرين بني عبيد الله بن ميمون القداح، وكما عرف الناس أن النصيرية لهم خطاب يسرونه إلى أوليائهم، وإن لم يعلم أكثر الناس ما ذلك الخطاب الذي يسرونه.

لا سيما والذين آمنوا بحمده واتبعوه - أولا - من المهاجرين كانوا مؤمنين به باطنا وظاهرا، هجروا لأجله الأوطان والأهل والمال، وصبروا على أنواع المكاره والأذى: طائفة كبيرة ذهبت إلى الحبشة، مهاجرة بدينها لما عذبها المخالفون له حتى

يرجعوا عن دينه، وطائفة كانوا بمكة يعذبون ; هذا يقتل، وهذا يخرج به إلى بطحاء مكة في الحر وتوضع الصخرة على بطنه حتى يكفر، وهذا يمنع رزقه ويترك جائعا عريانا.

ثم إنهم هجروا أحب البلاد إليهم، وأفضلها عندهم: مكة - أم القرى - إلى مدينة كانوا فيها محتاجين إلى أهلها، وتركوا أموالهم بمكة، قال تعالى: {للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون} [الحشر: 8] .

وقال تعالى: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله} [الحج: 39] .

وقال تعالى: {فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب} [آل عمران: 195] .

وقوله: {يخرجون الرسول وإياكم} [الممتحنة: 1] .

وجميع المهاجرين والأنصار آمنوا به طوعا واختيارا، قبل أن يؤمر أحد بقتال.

فإنه مكث بمكة بضع عشرة سنة لا يقاتل أحدا، ولم يؤمر بقتال، بل كان لا يكره أحدا على الدين كما قال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} [البقرة: 256] .

وكانوا خلقا كثيرا، ومعلوم أن الخلق الكثير الذين اتبعوا شخصا قد جاء بدين لا يوافقه عليه أحد، وطلب منهم أن يؤمنوا به ويتبعوه، ويفارقوا دين آبائهم، ويصبروا على عداوة الناس وأذاهم، ويهجروا لأجله ما ترغب النفوس فيه من الأهل والمال والوطن، وهو – مع ذلك - لم يعط أحدا منهم مالا، ولا كان له مال يعطيهم إياه، ولا ولى أحدا ولاية، ولم يكن عنده ولاية يوليهم إياها، ولا أكره أحدا، ولا بقرصة في جلده، فضلا عن سوط أو عصا أو سيف، وهو - مع ذلك - يقول عما يخبرهم به من الغيب: " «الله أخبرني به، لم يخبرني بذلك بشر» ".

فلو كانوا - مع ذلك - يعلمون أن تعلمه من بشر لكان هذا مما يقوله بعضهم لبعض. ويمتنع في جبلة بني آدم وفطرهم أن يعلموا أنه كاذب وأنه قد تعلم هذا من بشر، وليس فيهم من يخبر بذلك، مع أنهم كانوا كثيرين لا يمكن تواطؤهم على الكذب والكتمان، بل ولا داعي لهم يدعوهم إلى ذلك. ويمتنع أن لا يعلموا ذلك، وهم بطانته المطلعون على أحواله، وهم يسمعون كلام أعدائه المطلعين على حاله.

والقرآن كان ينزل شيئا فشيئا، لم ينزل جملة، بل كانوا يسألونه عن الشيء بعد الشيء من الغيب بين الذين آمنوا به وباطنوه واطلعوا على أسراره، وهو لا يعلم شيئا من ذلك، ثم يخبرهم به، وهم مطلعون على أمره خبرا بعد خبر، وسؤالا بعد سؤال، وهذا كان بمكة، وليس بها أحد من علماء أهل الكتاب، لا اليهود ولا النصارى، ثم هاجر إلى المدينة، وبها خلق كثير من اليهود ; قينقاع والنضير وقريظة، ولعلهم كانوا بقدر نصف أهلها، أو أقل أو أكثر، وهم - أيضا - يسألونه عن الغيوب التي لا يعلمها إلا نبي فيخبرهم بها، ويتلو عليهم ما سأله عنه المشركون من الغيب، وما أخبرهم به، ويتلو عليهم هذا الغيب الذي أوحاه الله إليه، ويبين أن الله أعلمه ذلك، لم يعلمه إياه بشر، فآمن به طائفة من أهل الكتاب وكفرت به طائفة أخرى، والطائفتان ليس فيهم من يقول: إن هذا تعلمه منا أو من إخواننا أو نظرائنا، ولا إنك قرأته في كتبنا. مع أنه لو كان قد تعلم ذلك منهم لكان شيوخه منهم، وشيوخهم إذا علموا أنه كاذب تعلمه منهم، يمتنع أن يصدقوه باطنا وظاهرا، بل تصديقهم الكتاب الأول، وعلمهم بكذب من ادعى نزول كتاب ثان وقد تعلم منهم يدعوهم إلى أن يبينوا أمره، ويظهروا كذبه، ويقولوا للناس تعلم منا، نحن أخبرناه بذلك، لا سيما مع ما فعله باليهود من القتل والحصار والجلاء والسبي، وغير ذلك.

وهذا لو وقع، لكان من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، ينقله الموافق والمخالف، فلما لم يقل ذلك أحد، ولم ينقله أحد مع ما أظهره من الأخبار المتواترة التي علمها الخاص والعام، بأن هذا مما أنبأني الله، لم يخبرني به بشر، كان هذا دليلا قاطعا بينا في أن هذه الأخبار الغيبية التي لا يعلمها إلا نبي أعلمه الله بها، أو من تعلمها من نبي: هي مما أنبأه الله به، ولم يعلمه ذلك بشر، وهذا من الغيب الذي قال الله فيه - في السورة التي فيها استماع الجن للقرآن، وإنذار قومهم به حيث قال -: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} [الجن: 1] .

إلى قوله: {وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا} [الجن: 19] .

فقوله تعالى: {فلا يظهر على غيبه} [الجن: 26] .

يبين أنه غيب يضاف إليه يختص به، لا يعلمه أحد إلا من جهته، بخلاف ما يغيب عن بعض الناس ويعلمه بعضهم، فإن هذا قد يتعلمه بعضهم من بعض.

فمما سأله عنه أهل الكتاب في المدينة مسائل، وهي غير المسائل التي كان يسأل عنها وهو بمكة، كما كان مشركو قريش يرسلون إلى اليهود بالمدينة، يسألونهم عن محمد، فيرسل اليهود بمسائل يمتحنون بها نبوته، وذلك مثل ما في صحيح البخاري عن أنس قال: " «جاء عبد الله بن سلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، والولد ينزع إلى أمه تارة، وإلى أبيه ". قال: " أخبرني جبريل آنفا ". قال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة. " أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه "، فقال: " أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله "، قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: أي رجل عبد الله فيكم، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وعالمنا وابن عالمنا، قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله، قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: " أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله "، فقالوا: " شرنا وابن شرنا "، وتنقصوه. قال: فهذا ما كنت أخاف وأحذر» .

وروى مسلم - في صحيحه - عن ثوبان قال: " «كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود، وقال: " السلام عليك يا محمد "، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ قال: قلت: ألا تقول يا رسول الله؟ قال: إنما سميته باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن اسمي الذي سماني به أهلي محمد، فقال: اليهودي جئت أسألك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ينفعك شيء إن حدثتك. قال: أسمع بأذني، فنكت بعود معه، فقال له: سل، فقال اليهودي: " أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ " فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: في الظلمة دون الجسر، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقراء المهاجرين، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون؟ قال: زيادة كبد نون، قال: وما غذاؤهم على أثره؟ قال: ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين فيها تسمى سلسبيلا قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: ينفعك إذا حدثتك قال: أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد، قال: ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله فقال: اليهودي صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف. فقال: النبي صلى الله عليه وسلم: إنه سألني هذا الذي سألني عنه، وما أعلم شيئا منه حتى أتاني به الله تعالى» .

وروى أبو داود الطيالسي حدثنا عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس، قال: «حضرت عصابة من اليهود يوما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، حدثنا عن خلال نسألك عنها لا يعلمها إلا نبي، فقال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه إن أنا حدثتكم بشيء تعرفونه صدقا لتتابعوني على الإسلام قالوا: لك ذلك، قال: فسلوني عما شئتم، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال ; أخبرنا عن الطعام الذي حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا عن ماء الرجل كيف يكون الذكر منه حتى يكون ذكرا، وكيف يكون الأنثى حتى يكون أنثى، وأخبرنا كيف هذا النبي في النوم، ومن وليك من الملائكة؟ قال: فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا حدثتكم لتتابعوني، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ; هل تعلمون أن إسرائيل - يعقوب - مرض مرضا شديدا طال سقمه فيه فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه، وأحب الطعام إليه، وكان أحب الشراب إليه ألبان الإبل، وأحب الطعام إليه لحوم الإبل قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اشهد عليهم، قال: فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى ; هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض، وأن ماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الولد، والشبه له بإذن الله، قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم اشهد، قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، وأنزل التوراة على موسى ;

هل تعلمون أن هذا النبي تنام عيناه، ولا ينام قلبه، قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد، قالوا: أنت الآن حدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: وليي جبريل عليه السلام، ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان غيره لاتبعناك وصدقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوا قالوا: إنه عدونا من الملائكة. فأنزل الله عز وجل: {من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا} [البقرة: 97] .

إلى قوله: {فإن الله عدو للكافرين} [البقرة: 98] » .

ففي هذه الأحاديث أن علماء اليهود كعبد الله بن سلام، وغيره كانوا يسألونه عن مسائل، يقولون فيها: لا يعلمها إلا نبي: أي ومن تعلمها من الأنبياء، فإن السائلين كانوا يعلمونها، كما جاء - أيضا -: " لا يعلمها إلا نبي أو رجل أو رجلان ". فكانوا يمتحنونه بهذه المسائل ليتبين هل يعلمها، وإذا كان يعلم ما لا يعلمه إلا نبي، كان نبيا، ومعلوم أن مقصودهم بذلك إنما يتم إذا علموا أنه لم يعلم هذه المسائل من أهل الكتاب، ومن تعلم منهم، وإلا فمعلوم أن هذه المسائل كان تعلمها بعض الناس، لكن تعلمها هؤلاء من الأنبياء.

وهذا يبين أن هؤلاء السائلين له من أهل الكتاب كانوا يعلمون أن أحدا من البشر لم يعلمه ما عند أهل الكتاب من العلم ; إذ لو جوزوا ذلك عليه لم يحصل مقصودهم من امتحانه ; هل هو نبي أم لا؟ فإنهم إذا جوزوا أن يكون تعلم ما لا يعلمه إلا نبي من أهل الكتاب، كان من جنسهم، فلم يكن في علمه بها وإجابتهم عنها دليل على نبوته.

فلا بد أن يكون هؤلاء السائلون يقطعون بأنه لم يتعلم من أهل الكتاب. وهذا كان بالمدينة بعد أن أقام بمكة بضعة عشرة سنة، وانتشر أمره، وكذبه قومه، وحرصوا على إبطال دعوته بكل طريق يقدرون عليه، فلو كان بمكة أو بالمدينة أحد من أهل الكتاب يتعلم منه، أو لقي أحدا من أهل الكتاب في طريق فتعلم منه، لكان ذلك يقدح في مقصود هؤلاء السائلين.

فتبين أنه كان معلوما عند أهل الكتاب أنه لم يتعلم شيئا من الغيب من بشر، لا سيما ولو كان قد تعلمه من أهل الكتاب وقد كذبهم وحاربهم، لأظهروا ذلك، ولشاع في أهل الكتاب، فكان إذا أجابهم قالوا: هذا تعلمته من فلان، وفلان منا، أو هذا علمكه بعض أهل ديننا. وهذا كما كانوا يرسلون إلى قومه من قريش ليسألوه عن مسائل، ويقولون: إن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فهو متقول، ويقولون: سلوه عن مسائل لا يعلمها إلا نبي.

فهذا من أهل المدينة ومن قريش قومه، يبين أن قومه المشركين وأهل الكتاب كانوا متفقين على أنه لم يتعلم شيئا من ذلك البشر، إذ لو جوزوا ذلك لم يحصل مقصودهم بذلك، ولم يجز أن يقولوا لا يعلمها إلا نبي، فإنهم كانوا جميعا يعلمون أن من أهل الكتاب من يعلم هذه المسائل، وبذلك يعرف هل يجيب فيها بما قالته الأنبياء، أو بخلاف ذلك، ويعلمون أن من كان تعلمها من أهل الكتاب، ومن تعلم منهم لا يدل جوابه عنها على نبوته كما لو أجاب عن تلك المسائل بعض أهل الكتاب، وكما لو سأل في زماننا بعض الناس لبعض المسلمين عن تلك المسائل أو غيرها من أنباء الغيب، التي لا يعلمها إلا نبي، فإن ذلك لا يدل على نبوته؛ لأنه قد تعلم ذلك من الأنبياء.

فدل على أن مرادهم بقولهم: لا يعلمها إلا نبي: أي لا يعلمها ابتداء بدون تعليم من بشر إلا نبي، ويدل على أن المشركين وأهل الكتاب كانوا جميعا متفقين على أنه لم يتعلم من بشر مع انتشار أخباره، ومع اطلاع قومه على أسراره، ومع ظهور ذلك - لو وجد - ومع أنهم لو جوزوا تجويزا أن يكون قد تعلمها من بشر في الباطن، لم يجز أن يستدل بها على نبوته، فدل على أنهم كانوا قاطعين بأنه لم يتعلم ذلك من بشر؛ لا في الباطن، ولا في الظاهر، وهذا طريق بين يدل على أنه لم يتعلم ذلك من بشر سوى الطرق المذكورة هنا.

[فصل: جلاء آيات النبوة وتنوعها وكثرتها]

ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم رسولا إلى جميع الثقلين جنهم وإنسهم، عربهم وعجمهم، وهو خاتم الأنبياء - لا نبي بعده - كان من نعمة الله على عباده، ومن تمام حجته على خلقه أن تكون آيات نبوته وبراهين رسالته معلومة لكل الخلق الذين بعث إليهم، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته، ما ليس عند هؤلاء.

وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ما يبين به أن القرآن حق، كما قال تعالى:

{قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد} [فصلت: 52] .

أخبر سبحانه أنه سيري عباده الآيات في أنفسهم، وفي الآفاق حتى يتبين لهم أن القرآن حق، فإن الضمير عائد إليه ; إذ هو

الذي تقدم ذكره كما قال: {قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد} [فصلت: 52] .

والضمير في (كان) عائد إلى معلوم.

يقول: أرأيتم إن كان القرآن من عند الله، ثم كفرتم به، من أضل ممن هو في شقاق بعيد. فإنه على هذا التقدير يكون الكافر في شقاق بعيد قد شاق الله ورسوله، ولا أحد أضل ممن هو في مثل هذا الشقاق ; حيث كان في شق، والله ورسوله في شق، كما قال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} [البقرة: 136] .

بين أن من تولى عن ذلك لم يكن متبعا للحق قاصدا له، فإن هذا الذي قلتموه لا يتولى عنه من أهل الكتاب من قصده الحق، وإنما يتولى عنه من قصده المشاقة والمعاداة، لهوى نفسه، وهذا يكفيك الله أمره.

والقرآن إن كان من عند الله، ثم كفر به من كفر فلا أحد أضل ممن هو في مثل حاله ; إذ هو في شقاق بعيد، وإن قدر أنه لم يعلم أنه حق فهو ضال. والشقاق قد يكون مع العناد، وقد يكون مع الجهل، فإن الآيات إذا ظهرت فأعرض عن النظر الموجب للعلم كان مشاقا ; ولهذا قال عقب ذلك: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} [فصلت: 53] .

فأخبر أنه سيري عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين أنه حق، ثم قال: {أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد} [فصلت: 53] .

فإن شهادته وحده كافية بدون ما ينتظر من الآيات، كما قال تعالى: {قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} [الرعد: 43] .

وشهادته للقرآن ولمحمد، تكون بأقواله التي أنزلها قبل ذلك على أنبيائه كما قال تعالى عن أهل الكتاب:{ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله} [البقرة: 140] .

وتكون بأفعاله وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين، الدالة على صدق رسله، فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون.

والقرآن - نفسه - هو قول الله، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول، وإنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم وإتيان محمد به هو آية وبرهان، وذلك من فعل الله ; إذ كان البشر لا يقدرون على مثله لا يقدر عليه أحد من الأنبياء، ولا الأولياء، ولا السحرة، ولا غيرهم، كما قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الإسراء: 88] .

ومحمد أخبر بهذا في أول أمره إذ كانت هذه الآية في سورة (سبحان) وهي مكية.

صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس. وقد أخبر خبرا وأكده بالقسم عن جميع الثقلين - إنسهم وجنهم - أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، بل يعجزون عن ذلك، وهذا فيه آيات لنبوته.

منها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة بأنهم لا يفعلون هذا، بل يعجزون عنه. هذا لا يقدم عليه من يطلب الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك ; إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر فيفسد عليه ما قصده، وهذا لا يقدم عليه عاقل مع اتفاق الأمم؛ المؤمن بمحمد، والكافر به، على كمال عقله ومعرفته وخبرته، إذ ساس العالم سياسة لم يسسهم أحد بمثلها.

، ثم جعله هذا في القرآن المتلو المحفوظ إلى يوم القيامة، الذي يقرأ به في الصلوات، ويسمعه العام والخاص، والولي والعدو، دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر، وإلا لو كان شاكا في ذلك لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه، وهذ لا يفعله من يقصد أن يصدقه الناس، فمن يقصد أن يصدقه الناس، لا يقول مثل هذا، ويظهره هذا الإظهار، ويشيعه هذه الإشاعة، ويخلده هذا التخليد، إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه.

ولا يتصور أن بشرا يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة، هو من أعظم دلائل كونه معجزا، وكونه آية على نبوته، فهذا من دلائل نبوته في أول الأمر عند من سمع هذا الكلام، وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه إلى جميع الخلق، وهو وحده كاف في العلم بأن القرآن معجز.

دع ما سوى ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز، مثل عجز جميع الأمم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته، وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة، فلما كان دواعي العرب وغيرهم على المعارضة تامة، علم عجز جميع الأمم عند معارضته، وهذا برهان ثان يعلم به صدق هذا الخبر، وصدق هذا الخبر آية لنبوته غير العلم بأن القرآن معجز، فإن ذلك آية مستقلة لنبوته، وهي آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر، معلومة لكل أحد، وهي من أعظم الآيات.

فإن كونه معجزا يعلم بأدلة متعددة، والإعجاز فيه وجوه متعددة، فتنوعت دلائل إعجازه، وتنوعت وجوه إعجازه، وكل وجه من الوجوه هو دال على إعجازه، وهذه جمل لبسطها تفصيل طويل ; ولهذا قال تعالى:

{وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} [العنكبوت: 50] .

فهو كاف في الدعوة والبيان، وهو كاف في الحجة والبرهان.

[فصل: التحقيق في اسم المعجزة والآية والكرامة وإطلاقهن]

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة متنوعة، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء، ويسميها من يسميها من النظار (معجزات) ، وتسمى (دلائل النبوة) و (أعلام النبوة) .

وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ولهذا لم يكن لفظ (المعجزات) موجودا في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ (الآية) و (البينة) و (البرهان) ، كما قال تعالى في قصة موسى:

{فذانك برهانان من ربك} [القصص: 32] .

في العصا واليد، وقال الله تعالى في حق محمد صلى الله عليه وسلم:

{يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا} [النساء: 174] .

وقد قال في مطالبة أهل الدعاوى الكاذبة بالبرهان: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} [البقرة: 111] .

وقال تعالى: {أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} [النمل: 64] .

وقال: {ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون} [المؤمنون: 117] .

وقال تعالى: {ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون} [القصص: 74] .وأما لفظ (الآيات) فكثير في القرآن، كقوله تعالى: {وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته} [الأنعام: 123] .

وقوله تعالى: {ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات} [الإسراء: 101] .

وقال تعالى: {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء} [النمل: 12] آية أخرى.

وقول فرعون له: {فأت به إن كنت من الصادقين} [الشعراء: 31] .

وقال قوم صالح له: {فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم} [الشعراء: 154] .

وقال: {هذه ناقة الله لكم آية} [الأعراف: 73] .

وقال المسيح: {قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: 49] .

وقال في حق محمد: {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون} [الأنعام: 4] .

{اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} [القمر: 1] .

وقال: {ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين} [الأنعام: 25] .

وقال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} [العنكبوت: 50] .

وقال:{سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} [فصلت: 53] .

وقال تعالى: {قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} [آل عمران: 13] .

وقال تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي} [يونس: 15] .

وقال تعالى: {قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون} [يونس: 101] .

وقال لما ذكر قصص الأنبياء في سورة الشعراء - قال في آخر كل قصة: {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين - وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: 67 - 68] .

وقال: {لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين} [يوسف: 7] .

إلى أن قال في آخرها: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون} [يوسف: 102] .

إلى قوله: {وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون} [يوسف: 105] .

وقال تعالى: {وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين} [الفتح: 20] .

وقال: {وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين} [المؤمنون: 50] .

وأما لفظ المعجز، فإنما يدل على أنه أعجز غيره، كما قال تعالى: {وما هم بمعجزين} [الزمر: 51] .

وقال: {وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء} [العنكبوت: 22] .

ومن لا يثبت فعلا إلا لله يقول: المعجز هو الله، وإنما سمي غيره معجزا مجازا. وهذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلا إلا إذا فسر المراد به وذكر شرائطه، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمي معجزا إلا ما كان للأنبياء فقط، وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سماها كرامة.

والسلف - كأحمد وغيره - كانوا يسمون هذا وهذا معجزا، ويقولون لخوارق الأولياء: إنها معجزات، إذ لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك. بخلاف ما كان آية وبرهانا على نبوة النبي، فإن هذا يجب اختصاصه.

وقد يسمون الكرامات آيات، لكونها تدل على نبوة من اتبعه الولي، فإن الدليل مستلزم للمدلول، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول، فكذلك ما كان آية وبرهانا، وهو الدليل والعلم على نبوة النبي يمتنع أن يكون لغير النبي. وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة متنوعة كما قد تكلمنا على ذلك في غير هذا الكتاب، وبينا أن

من يخصص دلائل النبوة بنوع فقد غلط، بل هي أنواع كثيرة، لكن الآيات نوعان:

ومنها: ما مضى وصار معلوما بالخبر، كمعجزات موسى وعيسى.

ومنها: ما هو باق إلى اليوم كالقرآن الذي هو من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وكالعلم والإيمان الذي في أتباعه، فإنه من أعلام نبوته، وكشريعته التي أتى بها، فإنها - أيضا - من أعلام نبوته، وكالآيات التي يظهرها الله وقتا بعد وقت من كرامات الصالحين من أمته، ووقوع ما أخبر بوقوعه، كقوله: " «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك» "، وقوله: " «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى» ". وقد خرجت هذه النار سنة خمسين وستين وستمائة، وشاهد الناس أعناق الإبل ببصرى.

وظهر دينه وملته بالحجة والبرهان، واليد والسنان، ومثل المثلات والعقوبات التي تحيق بأعدائه، وغير ذلك، وكنعته الموجود في كتب الأنبياء قبله، وغير ذلك.

[فصل: بحث في الإعجاز القرآني]

والقرآن كلام الله، وفيه الدعوة والحجة، فله به اختصاص على غيره كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» .

والقرآن يظهر كونه آية وبرهانا له من وجوه: جملة وتفصيلا. أما الجملة، فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم، علما متواترا أنه هو الذي أتى بهذا القرآن، وتواترت بذلك الأخبار أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة، وغيرهم.

والقرآن نفسه فيه تحدي الأمم بالمعارضة، والتحدي هو أن يحدوهم: أي يدعوهم فيبعثهم إلى أن يعارضوه، فيقال فيه: حداني على هذا الأمر: أي بعثني عليه، ومنه سمي حادي العيس؛ لأنه بحداه يبعثها على السير.

وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة، ولكنه أصله الأول، قال تعالى: في سورة الطور: {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} [الطور: 33] .

فهنا قال: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} [الطور: 34] .

في أنه تقوله، فإنه إذا كان محمد قادرا على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر، كان هذا ممكنا للناس، الذين هم من جنسه، فأمكن الناس أن يأتوا بمثله.

ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين} [هود: 13] .

ثم تحداهم بسورة واحدة منه فقال تعالى: {وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين - أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين} [يونس: 37 - 38] .

فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات هم وكل من استطاعوا من دون الله، ثم تحداهم بسورة واحدة هم ومن استطاعوا، قال: {فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو} [هود: 14] .

وهذا أصل دعوته، وهو الشهادة بأنه لا إله إلا الله، والشهادة بأن محمدا رسول الله.

وقال تعالى: {فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله} [هود: 14] .

كما قال: {لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون} [النساء: 166] .

أي: هو يعلم أنه منزل، لا يعلم أنه مفترى، كما قال: {وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله} [يونس: 37] .

أي: ما كان لأن يفترى، يقول: ما كان ليفعل هذا. فلم ينف مجرد فعله، بل نفى احتمال فعله، وأخبر بأن مثل هذا لا يقع، بل يمتنع وقوعه فيكون المعنى: ما يمكن، ولا يحتمل، ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله، فإن الذي يفتريه من دون الله مخلوق، والمخلوق لا يقدر على ذلك. وهذا التحدي كان بمكة، فإن هذه السور مكية؛ سورة يونس، وهود، والطور.

ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة، فقال في (البقرة) وهي سورة مدنية: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين} [البقرة: 23] .

ثم قال: {فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة} [البقرة: 24] .

فذكر أمرين:

أحدهما قوله: {فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار} [البقرة: 24] .

يقول: إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق، فخافوا الله أن تكذبوه، فيحيق بكم العذاب، الذي وعد به المكذبين، وهذا دعاء إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة، بعد أن دعاهم بالحكمة، وهو جدالهم بالتي هي أحسن.

والثاني قوله: {ولن تفعلوا} [البقرة: 24] .

و (لن) لنفي المستقبل، فثبت الخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان، لا يأتون بسورة من مثله كما أخبر قبل ذلك، وأمره أن يقول في سورة (سبحان) ، وهي سورة مكية، افتتحها بذكر الإسراء، وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر، وذكر فيها من مخاطبته للكفار بمكة ما يبين بذلك بقوله: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الإسراء: 88] .

فعم بالخبر جميع الخلق معجزا لهم، قاطعا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم، لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدي والدعاء هو لجميع الخلق، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن وعرفه الخاص والعام، وعلم - مع ذلك - أنهم لم يعارضوه، ولا أتوا بسورة مثله، ومن حين بعث، وإلى اليوم، الأمر على ذلك، مع ما علم من أن الخلق كلهم كانوا كفارا قبل أن يبعث، ولما بعث إنما تبعه قليل.

وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله، مجتهدين بكل طريق يمكن، تارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسألونهم عن أمور من الغيب، حتى يسألوه عنها، كما سألوه عن قصة يوسف وأهل الكهف وذي القرنين كما تقدم. وتارة يجتمعون في مجمع بعد مجمع على ما يقولونه فيه، وصاروا يضربون له الأمثال، فيشبهونه بمن ليس مثله لمجرد شبه ما مع ظهور الفرق. فتارة يقولون: مجنون. وتارة يقولون: ساحر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: شاعر. . . إلى أمثال ذلك من الأقوال التي يعلمون - هم وكل عاقل سمعها - أنها افتراء عليه.

فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة - مرة بعد مرة - وهي تبطل دعوته، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها، فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد إذا كانت القدرة حاصلة، وجب وجود المقدور، ثم هكذا القول في سائر أهل الأرض.

فهذا القدر يوجب علما بينا لكل أحد بعجز جميع أهل الأرض، عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة، وبغير حيلة. وهذا أبلغ من الآيات التي يكرر جنسها كإحياء الموتى، فإن هذا لم يأت أحد بنظيره، وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة: من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك.

ومن جهة معانيه، التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة، كما قال تعالى: {ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا} [الإسراء: 89] .

وقال تعالى: {ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا} [الكهف: 54] .

وقال: {ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون - قرءانا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون} [الزمر: 27 - 28] .

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن، هو حجة على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له.

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي - مع تمام الموجب لها - أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلبا عاما، مثل قوله تعالى لزكريا:

{آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا} [مريم: 10] .

وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام. فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله، فامتناعهم - جميعهم - عن هذه المعارضة، مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة، من أبلغ الآيات الخارقة للعادات، بمنزلة من يقول: إني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم، وأضربهم جميعهم، وأجوعهم، وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله، أو إلى ولي الأمر، وليس فيهم - مع ذلك - من يشتكي، فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة.

ولو قدر أن واحدا صنف كتابا يقدر أمثاله على تصنيف مثله، أو قال شعرا، يقدر أمثاله أن يقولوا مثله، وتحداهم كلهم، فقال: عارضوني، وإن لم تعارضوني فأنتم كفار، مأواكم النار، ودماؤكم لي حلال، امتنع في العادة أن لا يعارضه أحد. فإذا لم يعارضوه كان هذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة.

والذي جاء بالقرآن قال للخلق كلهم: أنا رسول الله إليكم جميعا، ومن آمن بي دخل الجنة، ومن لم يؤمن بي دخل النار، وقد أبيح لي قتل رجالهم، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، ووجب عليهم كلهم طاعتي، ومن لم يطعني كان من أشقى الخلق، ومن آياتي هذا القرآن، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله، وأنا أخبركم أن أحدا لا يأتي بمثله.

فيقال: لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين.

فإن كانوا قادرين، ولم يعارضوه، بل صرف الله دواعي قلوبهم، ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم، أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه، فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل: معجزتي أنكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب، فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد - فهذا من أبلغ الخوارق.

وإن كانوا عاجزين، ثبت أنه خارق للعادة، فثبت كونه خارقا على تقدير النقيضين ; النفي والإثبات. فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر.

فهذا غاية التنزل، وإلا فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد صلى الله عليه وسلم - نفسه - من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر، كما قد أخبر الله به في قوله.

{قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الإسراء: 88] .

وأيضا فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة، لكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة، ولو كانوا قادرين لعارضوه.وقد انتدب غير واحد لمعارضته، لكن جاء بكلام فضح به نفسه، وظهر به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله، مثل قرآن مسيلمة الكذاب، كقوله: (يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء، وذنبك في الطين) .

وكذلك - أيضا - يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه، فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه.

وأيضا فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له، إنه كان قصده أن يصدقه الناس ولا يكذبوه، وكان - مع ذلك - من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به، ينال مقصوده، سواء قيل: إنه صادق أو كاذب. فإن من دعا الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم، ولم يزل حتى استجابوا له طوعا وكرها، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار، هو من عظماء الرجال على أي حال كان. فإقدامه - مع هذا القصد - في أول الأمر وهو بمكة، وأتباعه قليل، على أن يقول خبرا، يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، لا في ذلك العصر، ولا في سائر الأعصار المتأخرة، لا يكون إلا مع جزمه بذلك، وتيقنه له، وإلا فمع الشك والظن لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح فيرجع الناس عن تصديقه.

وإذا كان جازما بذلك - متيقنا له - لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك. وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر. والعلم بهذا يستلزم كونه معجزا، فإنا نعلم ذلك وإن لم يكن علمنا بذلك خارقا للعادة، ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم، وإلا كان العلم جهلا، فثبت أنه على كل تقدير يستلزم كونه خارقا للعادة.

وأما التفصيل، فيقال: نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الخطابة ولا الرسائل، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة، ليس له نظير في كلام جميع الخلق، وبسط هذا وتفصيله طويل، يعرفه من له نظر وتدبر.

ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته، أمر عجيب خارق للعادة، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر، لا نبي ولا غير نبي.

وكذلك ما أخبر به عن الملائكة والعرش والكرسي والجن وخلق آدم، وغير ذلك، ونفس ما أمر به القرآن من الدين، والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال، وبينه من الدلائل هو - أيضا - كذلك.

ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية والسياسية وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية - التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء - وجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم.

فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه. وما في التوراة والإنجيل: ولو قدر أنه مثل القرآن، لا يقدح في المقصود، فإن تلك كتب الله - أيضا - ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي، كما أتى المسيح بإحياء الموتى، وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره؛ فكيف وليس ما في التوراة والإنجيل مماثلا لمعاني القرآن؛ لا في الحقيقة ولا في الكيفية ولا الكمية، بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن وتدبر الكتب.

وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة، ظهر له إعجازه من هذا الوجه، ومن لم يظهر له ذلك اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبي، وإخباره بعجزهم، فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد.

ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية، فيها الظاهر البين لكل أحد ; كالحوادث المشهودة ; مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب وإنزال المطر، وغير ذلك، وفيها ما يختص به من عرفه مثل دقائق التشريح ومقادير الكواكب وحركاتها، وغير ذلك، فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق والإقرار برسله، وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا فإن الله يجود به على عباده جودا عاما ميسرا.

فلما كانت حاجتهم إلى النفس أكثر من حاجتهم إلى الماء، وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل، كان سبحانه قد جاء بالهواء جودا عاما في كل مكان وزمان لضرورة الحيوان إليه، ثم الماء دونه، ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر؛ لأن الحاجة إليه أشد.

فكذلك دلائل الربوبية، حاجة الخلق إليها في دينهم أشد الحاجات، ثم دلائل النبوة ; فلهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما لا يحتاج إليه العامة، مثل تماثل الأجسام واختلافها، وبقاء الأعراض أو فنائها، وثبوت الجوهر الفرد أو انتفائه، ومثل مسائل المستحاضة، وفوات الحج وفساده، ونحو ذلك مما يتكلم فيه بعض العلماء.

[فصل: شخصية الرسول وشريعته وأمته، وكرامات الصالحين منها، كل ذلك من آياته]

وسيرة الرسول وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته ودينهم من آياته، وكرامات صالح أمته من آياته. وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد وإلى أن بعث، ومن حيث بعث إلى أن مات، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسبا، من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من ذريته، ونجعل له ابنين: إسماعيل، وإسحاق، وذكر في التوراة هذا وهذا، وبشر في التوراة بما يكون من ولد إسماعيل، ولم يكن في ولد إسماعيل من ظهر فيما بشرت به النبوات غيره، ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولا منهم، ثم من قريش صفوة بني إبراهيم، ثم من بني هاشم صفوة قريش، ومن مكة أم القرى وبلد البيت الذي بناه إبراهيم، ودعا الناس إلى حجه، ولم يزل محجوجا من عهد إبراهيم، مذكورا في كتب الأنبياء بأحسن وصف. وكان من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفا بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم، مشهودا له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة، وممن آمن به، وممن كفر بعد النبوة لا يعرف له شيء يعاب به؛ لا في أقواله، ولا في أفعاله، ولا في أخلاقه، ولا جرب عليه كذبة قط، ولا ظلم ولا فاحشة، وكان خلقه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله، وكان أميا من قوم أميين لا يعرف، لا هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب: التوراة والإنجيل، ولم يقرأ شيئا عن علوم الناس، ولا جالس أهلها، ولم يدع نبوة إلى أن أكمل الله له أربعين سنة، فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره، وأخبرنا بأمر لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثله.

، ثم اتبعه أتباع الأنبياء وهم ضعفاء الناس، وكذبه أهل الرياسة وعادوه، وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم، والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة، ولا لرهبة، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم، ولا جهات يوليهم إياها، ولا كان له سيف، بل كان السيف، والمال، والجاه مع أعدائه. وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة. وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم فتجتمع في الموسم قبائل العرب فيخرج إليهم يبلغهم الرسالة، ويدعوهم إلى الله صابرا على ما يلقاه من تكذيب المكذب، وجفاء الجافي، وإعراض المعرض، إلى أن اجتمع بأهل يثرب وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخباره منهم، وعرفوه، فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر الذي تخبرهم به اليهود، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته، فإن أمره كان قد انتشر، وظهر في بضع عشرة سنة فآمنوا به، وبايعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم، وعلى الجهاد معه، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة، وبها المهاجرون والأنصار، ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية، ولا برهبة إلا قليلا من الأنصار أسلموا في الظاهر، ثم حسن إسلام بعضهم، ثم أذن له في الجهاد، ثم أمر به، ولم يزل قائما بأمر الله على أكمل طريقة، وأتمها من الصدق والعدل والوفاء، لا يحفظ له كذبة واحدة ولا ظلم لأحد ولا غدر بأحد، بل كان أصدق الناس وأعدلهم، وأوفاهم بالعهد، مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم وأمن وخوف وغنى وفقر وقلة وكثرة، وظهوره على العدو تارة وظهور العدو عليه تارة، وهو - على ذلك - لازم لأكمل الطرق وأتمها، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكهان، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرمة، وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرة ولا معادا، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم، حتى إن النصارى لما رأوهم - حين قدموا الشام - قالوا: ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء، وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض، وآثار غيرهم يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وهو صلى الله عليه وسلم مع ظهور أمره، وطاعة الخلق له، وتقديمهم له على الأنفس والأموال، مات صلى الله عليه وسلم ولم يخلف درهما ولا دينارا، ولا شاة ولا بعيرا له، إلا بغلته وسلاحه، ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعا من شعير ابتاعها لأهله، وكان بيده عقار ينفق منه على أهله، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين، فحكم بأنه لا يورث ولا يأخذ ورثته شيئا من ذلك.

وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويشرع الشريعة شيئا بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بعث به، وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه، وأحل الطيبات لم يحرم شيئا منها كما حرم في شرع غيره، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئا كما استحله غيره، وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في الكتب.

فليس في الكتب إيجاب لعدل، وقضاء بفضل، وندب إلى الفضائل، وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها، وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها، وكذلك في الحدود والأحكام، وسائر الشرائع.

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعباداتهم وطاعتهم لله

بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله، ظهر أنهم أعظم جهادا وأشجع قلوبا، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم، تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم، وهذه الفضائل به نالوها، ومنه تعلموها، وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة.

فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة، وبعضها من الزبور، وبعضها من النبوات، وبعضها من المسيح، وبعضها ممن بعده كالحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة، وغيرهم حتى أدخلوا - لما غيروا دين المسيح - في دين المسيح أمورا من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح.

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكونوا قبله يقرءون كتابا، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود، والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء، ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به:

{قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [البقرة: 136] (136) {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} [البقرة: 137] .

وقال تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} [البقرة: 285 - 286] .

وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئا من الدين من غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، فلا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله.

لكن ما قصه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم اعتبروا به، وما حدثهم أهل الكتاب، موافقا لما عندهم، صدقوه، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه أمسكوا عنه، وما عرفوا أنه باطل كذبوه، ومن أدخل في الدين ما ليس منه من أقوال متفلسفة الهند أو الفرس أو اليونان أو غيرهم، كان - عندهم - من أهل الإلحاد والابتداع، وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون، وهو الذي عليه أئمة الدين، الذين لهم في الأمة لسان صدق، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم، ومن خرج عن ذلك كان مذموما مدحورا عند الجماعة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة الظاهرون إلى قيام الساعة، الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة» .

وقد تنازع بعض المسلمين، مع اتفاقهم على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عموما، ودين محمد خصوصا.

ومن خالف في هذا الأصل كان - عندهم - ملحدا مذموما، ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا دينا قام به أكابر علمائهم وعبادهم، وقاتل عليه ملوكهم، ودان به جمهورهم، وهو دين مبتدع ليس هو دين المسيح، ولا دين غيره من الأنبياء.

والله - سبحانه وتعالى - أرسل رسله بالعلم النافع والعمل الصالح، فمن اتبع الرسل، حصل له سعادة الدنيا والآخرة. وإنما دخل في البدع من قصر في اتباع الأنبياء علما وعملا.

ولما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق تلقى ذلك عنه المسلمون أمته.

فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم أخذوه عن نبيهم، مع ما يظهر لكل عاقل: أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية، ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم هو من الأصل المعلم، وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علما ودينا، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقا في قوله: {إني رسول الله إليكم جميعا} [الأعراف: 158] .

لم يكن كاذبا مفتريا، فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم إن كان صادقا، أو هو من شر الناس وأخبثهم إن كان كاذبا.

وما ذكر من كمال علمه ودينه، يناقض الشر والخبث والجهل، فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقا في قوله: {إني رسول الله} [الأعراف: 158] .

لأن الذي لم يكن صادقا: إما أن يكون متعمدا للكذب، أو مخطئا، والأول: يوجب أنه كان ظالما غاويا، والثاني: يقتضي أنه كان جاهلا ضالا، وكمال علمه ينافي جهله، وكمال دينه ينافي تعمد الكذب. فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمدا للكذب، ولم يكن جاهلا يكذب بلا علم، وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقا عالما بأنه صادق ; ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى: {والنجم إذا هوى - ما ضل صاحبكم وما غوى - وما ينطق عن الهوى - إن هو إلا وحي يوحى} [النجم: 1 - 4] .

وقال تعالى عن الملك الذي جاء به: {إنه لقول رسول كريم - ذي قوة عند ذي العرش مكين - مطاع ثم أمين} [التكوير: 19 - 21] .

، ثم قال عنه: {وما صاحبكم بمجنون - ولقد رآه بالأفق المبين - وما هو على الغيب بضنين} [التكوير: 22 - 24] .

أي: بمتهم أو بخيل، كالذي لا يعلم إلا بجعل، أو لمن يكرمه: {وما هو بقول شيطان رجيم - فأين تذهبون - إن هو إلا ذكر للعالمين} [التكوير: 25 - 27] .

وقال تعالى: {وإنه لتنزيل رب العالمين - نزل به الروح الأمين - على قلبك لتكون من المنذرين - بلسان عربي مبين} [الشعراء: 192 - 195] .

إلى قوله: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين - تنزل على كل أفاك أثيم - يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} [الشعراء: 221 - 223] .

بين سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه، فإن الشيطان يقصد الشر: وهو الكذب والفجور، ولا يقصد الصدق والعدل، فلا يقترن إلا بمن فيه كذب، إما عمدا وإما خطأ، فإن الخطأ في الدين هو من الشيطان أيضا، كما قال ابن مسعود - لما سئل عن مسألة -: " أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه ".

فالرسول بريء من تنزل الشيطان عليه في العمد والخطأ، بخلاف غير الرسول، فإنه قد يخطئ، ويكون خطؤه من الشيطان، وإن كان خطؤه مغفورا له، فإذا لم يعرف له خبر أخبر به كان فيه مخطئا، ولا أمر أمر به كان فيه فاجرا، علم أن الشيطان لم ينزل عليه، وإنما ينزل عليه ملك كريم ; ولهذا قال في الآية الأخرى عن النبي: {إنه لقول رسول كريم - وما هو بقول شاعر - قليلا ما تؤمنون - ولا بقول كاهن - قليلا ما تذكرون - تنزيل من رب العالمين} [الحاقة: 40 - 43] .

[فصل: نقل الناس لصفاته عليه السلام الدالة على كماله]

وقد نقل الناس صفاته الظاهرة الدالة على كماله، ونقلوا أخلاقه من حلمه وشجاعته وكرمه وزهده وغير ذلك، ونحن نذكر بعض ذلك.

ففي الصحيحين «عن البراء بن عازب، قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها، وأحسنهم خلقا، ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير» .

وعنه قال: " كان بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه، عليه حلة حمراء، ما رأيت شيئا قط أحسن منه ".

وفي البخاري: وسئل البراء: " أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف، قال: لا، بل مثل القمر ".

وفي الصحيحين من حديث كعب بن مالك قال: " «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه فلقة قمر» ".

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك، قال: " «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضخم الرأس والقدمين، لم أر قبله ولا بعده مثله، وكان بسط الكفين ضخم اليدين» ".

«وسئل عن شعره، فقال: " كان شعرا رجلا، ليس بالجعد ولا بالسبط، بين أذنيه وعاتقه» .

وفي الصحيحين عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة، قال: «كان رسول الله ضليع الفم، أشكل العينين، منهوس العقبين "، وفسرها سماك بن حرب فقال: واسع الفم، طويل شق العين، قليل لحم العقب» .

وفي الصحيحين عن أنس، قال: " «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، ولا بالجعد القطط ولا بالسبط» .

وفي الصحيحين عنه قال: " «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ، وما مسست ديباجة ولا حريرا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكا ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله» .

صلى الله عليه وسلم ".

وروى الدارمي عن ابن عباس، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلج الثنيتين، إذا تكلم رئي النور يخرج من ثناياه» .

وروي عن ابن عمر، قال: " «ما رأيت أحدا أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أضوأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم» ".

«وعن أنس قال: " دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عندنا، فعرق، وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أم سليم، ما هذا الذي تصنعين؟ ! قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو أطيب من الطيب» ، أخرجاه في الصحيحين.

وروى الدارمي عن جابر، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسلك طريقا فيتبعه أحد، إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرقه» ".

وفي حديث أم معبد المشهور، لما مر بها النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة هو وأبو بكر، ومولاه، ودليلهم، وجاء زوجها فقال: صفيه لي يا أم معبد، فقالت: «رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن» .

وروى أبو زرعة «عن محمد بن عمار بن ياسر، قالت: قلت للربيع بنت معوذ بن عفراء: صفي لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: " يا بني، لو رأيته رأيت الشمس طالعة» .

وفي الصحيحين «عن أنس، قال: " كان رسول الله أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعا، وقد سبقهم إلى الصوت، وقد استبرأ الخبر، وهو على فرس لأبي طلحة عري في عنقه السيف وهو يقول: لن تراعوا، وقال: " وجدناه بحرا "، وكان الفرس قبل ذلك بطيئا فعاد لا يجارى» .

وفي الصحيحين «عن ابن عباس، قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة» .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال: «كنا إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به (يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم) » .

«وعن علي بن أبي طالب، قال: " لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أشد الناس بأسا، وما كان أحد أقرب إلى العدو منه» ذكره البيهقي بإسناد صحيح.

وفي الصحيحين عن أنس، قال: «خدمت رسول الله عشر سنين، والله ما قال لي (أفا) قط، ولا قال ل لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟» .

وفي رواية في الصحيحين أيضا قال: " «خدمته في السفر والحضر، والله ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لم لم تصنع هذا هكذا؟ وكان أحسن الناس خلقا» ".

وفي الصحيحين عن جابر، قال: " «ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا، فقال: لا» .

وفي الصحيحين عن أنس قال: " «ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه

غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا، فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة» .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: " «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه» .

وفي الصحيحين «عن عبد الله بن عمرو، وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " لم يكن فاحشا ولا متفحشا» .

وروى البخاري عن أنس قال: " «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبابا ولا فحاشا ولا لعانا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له تربت جبينه» ".

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنها قالت: " «ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله» ". .

وعنها قالت: «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده شيئا قط، لا امرأة ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله» .

وروى مسلم في صحيحه «عنها، وقد سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: " كان خلقه القرآن» ".

وروى أبو داود الطيالسي عن شعبة، حدثنا أبو إسحاق، حدثنا أبو عبد الله الجدلي، قال: «سمعت عائشة، وسألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: " لم يكن فاحشا ولا متفحشا، ولا سخابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، أو يغفر» شك أبو داود.

ورواه الحاكم في مستدركه على الصحيحين.

وفي الصحيحين «عن علقمة، قال: سألت عائشة: كيف كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وهل كان يخص شيئا من الأيام؟ قالت: " لا، كان عمله ديمة، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع» ".

وروى مسلم في صحيحه عن سعد بن هشام، «وقد سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فقالت: " ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله القرآن» .

وفي صحيح الحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بعثت لأتمم صالح الأخلاق» .

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة، قال: «قام رسول الله حتى تورمت قدماه، فقيل: يا رسول الله، أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا» .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: " «ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه»

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وأبو الشيخ الأصبهاني من «حديث بهز بن حكيم، عن أبيه عن جده، أن أخاه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " جيراني على ما أخذوا "، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " إن الناس يزعمون أنك نهيت عن الغي، ثم تستخلي به "، فقال: " لأن كنت أفعل ذلك أنه لعلي وما هو عليهم، خلوا له جيرانه» .

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي عن أنس بن مالك قال: " «ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهته لذلك» " رواه عن عبد الرحمن بن مهدي: ثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عنه.

وروى عنه أبو نعيم وأبو الشيخ، وغيرهما، عن ابن عباس: " «أن الله أرسل إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ملكا من الملائكة معه جبريل، فقال: الملك: " إن الله خيره بين أن يكون عبدا وبين أن يكون ملكا.

نبيا، قال: فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير، فأشار جبريل بيده: أن تواضع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا بل أكون عبدا نبيا» رواه النسائي والبخاري في تاريخه.

وفي صحيح مسلم عن أنس قال: «كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ فنظر الغلام إلى أبيه فقال له أبوه: " أطع أبا القاسم "، فأسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي أنقذه بي من النار» .

«وعن أبي حازم أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم رجلا فأرعد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» رواه ابن الجوزي من طرق بعضها متصل عن ابن مسعود، قال ابن الجوزي: " وروي متصلا "، والصواب إرساله كما تقدم.

وفي الصحيح «عن أنس: " أن امرأة كان في عقلها شيء، قالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. قال: " يا أم فلان، خذي في أي الطرق شئت، قومي فيه حتى أقوم معك "، فخلا معها يناجيها حتى قضت حاجتها» " رواه مسلم.

«وعن أنس قال: " كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتدور به في حوائجها حتى تفرغ، ثم يرجع» رواه البخاري في الأدب.

وروي «عن ابن أبي أوفى قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته» .

وعنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يستنكف أن يمشي مع العبد ولا مع الأرملة، حتى يفرغ من حاجتهم» " ورواه الدارمي، والحاكم في صحيحه.

وروى أبو داود الطيالسي عن أنس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويجيب دعوة المملوك، ولقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه ليف» ".

وروى مسلم في صحيحه «عن أنس، قال: " ما رأيت أرحم بالعيال من رسول الله» .

وروى البخاري عنه، قال " «مر رسول الله على صبيان فسلم عليهم» .

وروى ابن عباس، قال: " «كان رسول الله يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك» .

«وعن قدامة بن عبد الله: " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة شهباء، لا ضرب ولا طرد ولا إليك» " رواهما أبو الشيخ.

«وعن عائشة قالت: " ما رأيت رسول الله قط مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه، فقلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، قال: يا عائشة، وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد أتى العذاب قوما، وتلا قوله تعالى:

{فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا} [الأحقاف: 24] » .

أخرجاه في الصحيحين.

وفي الصحيحين - أيضا - «عن أنس قال: " كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذا شديدا، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، قال: فالتفت إليه رسول الله فضحك، ثم أمر له بعطاء» .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة، قال: " «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم» ".

وفي رواية أخرى صحيحة: «كان طويل الصمت، قليل الضحك، وكان أصحابه ربما تناشدوا عنده الشعر، والشيء من أمورهم، فيضحكون ويتبسم» .

وفي صحيح البخاري «عن عائشة رضي الله عنها، وسألها الأسود: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع في أهله؟ فقالت: " كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج» .

ومن رواية عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة.

قال: «سأل رجل عائشة ; هل كان يعمل في بيته؟ فقالت: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته» .

وروى الطيالسي: ثنا شعبة، ثنا الأعور، قال: سمعت أنسا يقول: " «كان رسول الله يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويجيب دعوة المملوك، ولقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه من ليف» .

وروى مسلم في صحيحه عن أنس، قال: " «ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله» ".

وروى عنه البخاري قال: " «مر رسول الله على صبيان، فسلم عليهم» ".

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: " «ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خبز بر تباعا، حتى مضى لسبيله» ".

وعنها قالت: «كنا آل محمد صلى الله عليه وسلم يمر بنا الهلال والهلال، ما نوقد بنار لطعام، إلا أنه التمر والماء، إلا أنه حولنا أهل دور من الأنصار، فيبعث أهل كل دار بفريزة شاتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشرب من ذلك اللبن» أخرجاه في الصحيحين.

وفي صحيح البخاري، «قال أنس: " ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفا مرققا، حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط» .

وفي صحيح البخاري عنه: «ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان، ولا في سكرجة، ولا خبز له مرقق ". فقيل له: على ما كانوا يأكلون؟ قال: " على السفر» .

وفي صحيح مسلم «عن عمر بن الخطاب: أنه خطب وذكر ما فتح على الناس، فقال: " لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوى يومه من الجوع ما يجد من الدقل ما يملأ بطنه» .

وفي صحيح البخاري «عن أنس: " أنه مشى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخبز شعير، وإهالة سنخة، ولقد رهن درعه عند يهودي فأخذ لأهله شعيرا، ولقد سمعته يقول: ما أمسى عند آل محمد صاع بر ولا صاع حب، وإنهم يومئذ تسعة أبيات» .

وفيه عن عائشة، قالت: " «كان فراش رسول الله من أدم حشوه ليف» ".

وفي صحيح مسلم من «حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لما ذكر اعتزال رسول الله نساءه - قال: " فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في خزانته، فإذا هو مضطجع على حصير، فأدنى إليه إزاره وجلس، وإذا الحصير قد أثر بجنبه، وقلبت عيني في بيته فلم أجد شيئا يرد البصر غير قبضة من شعير وقبضة من قرظ نحو الصاعين، وإذا أفيق معلقة، فابتدرت عيناي، فقال رسول الله: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت: يا رسول الله، وما لي لا أبكي وأنت صفوة الله ورسوله وخيرته من خلقه، وهذه خزانتك، وهذه الأعاجم كسرى وقيصر في الثمار والأنهار! فقال: أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ ! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، وفي رواية أو ما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة؟ قال: بلى، قال: فالحمد لله عز وجل. قال: " فقلت: أستغفر الله» .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا» .

وروى الطيالسي بإسناد صحيح عن ابن مسعود، قال: " «اضطجع النبي على حصير، فأثر الحصير بجلده، فجعلت أمسحه عنه وأقول: " بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ألا آذنتنا فنبسط لك شيئا يقيك منه تنام عليه؟ " فقال: " ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها» ".

ورواه الحاكم في صحيحه عن ابن عباس أن عمر دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر نحوه.

وفي الترمذي عن أنس بن مالك، قال: " «حج النبي صلى الله عليه وسلم على رحل رث وقطيفة» "، ورواه البخاري - أيضا - عن أنس في (كتاب الحج) فقال: «حج أنس على رحل رث، ولم يكن شحيحا، وحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم حج على رحل، وكانت زاملته» .

وفي صحيح الحاكم عن أنس: «أن النبي صلى الله عليه وسلم لبس خشنا، وأكل خشنا، ولبس الصوف، واحتذى المخصوف. قيل: للحسن: ما الخشن؟ قال: " غليظ الشعير، ما كان يسيغه إلا بجرعة ماء» ".

[فصل: فضل أمة محمد على غيرها من الإيمان. والعمل آية لنبوته]

ومما يبين به فضل أمته على جميع الأمم - وذلك مستلزم لكونه رسولا صادقا كما تقدم، وهو آية وبرهان على نبوته، فإن كل ملزوم فإنه دليل على لازمه.

إن الأمم نوعان: نوع لهم كتاب منزل من عند الله، كاليهود والنصارى، ونوع لا كتاب لهم كالهند، واليونان، والترك، وكالعرب قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، وما من أمة إلا ولا بد لها من علم وعمل بحسبهم، ويقوم به ما يقوم من مصالح دنياهم، وهذا من الهداية العامة التي جعلها الله لكل إنسان بل لكل حي، كما يهدي الحيوان لجلب ما ينفعه بالأكل والشرب، ودفع ما يضره باللباس والكن، وقد خلق الله فيه حبا لهذا، وبغضا لهذا. قال تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى} [الأعلى: 1]

وقال موسى: {ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى} [طه: 50] وقال في أول ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم: {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم} [العلق: 1] وقال تعالى: {ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين} [البلد: 8] ، ثم الأمم متفاضلون في معرفة الخالق تعالى، وفي الإقرار بالمعاد بعد الموت، إما للأرواح فقط، وإما للأبدان فقط، وإما لمجموعهما كما هو قول سلف الأمة المسلمين وأئمتهم وعامتهم أهل السنة والجماعة، ومتفاضلون فيما يحمدونه، ويستحسنونه من الأفعال والصفات، وما يذمونه ويستقبحونه من ذلك لكن عامة بني آدم على أن العدل خير من الظلم، والصدق خير من الكذب، والعلم خير من الجهل، فإن المحسن إلى الناس خير من الذي لا يحسن إليهم. وأما المعاد فهو إما للأرواح أو للأبدان، وإن الناس بعد الموت يكونون سعداء أو أشقياء، فيقر به كثير من الأمم غير أهل الكتاب، وإن كان على وجه قاصر كحكماء الهند، واليونان، والمجوس، وغيرهم، وذلك أن أهل الأرض في المعاد على أربعة أقوال: أحدها: وهو مذهب سلف المسلمين من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين المشهورين، وغيرهم من أهل السنة، والحديث من الفقهاء، والصوفية، والنظار، وهو إثبات معاد الأرواح والأبدان جميعا وأن الإنسان إذا

مات كانت روحه منعمة، أو معذبة، ثم تعاد روحه إلى بدنه عند القيامة الكبرى، ولهذا يذكر الله في كثير من السور أمر القيامتين: القيامة الصغرى بالموت، والقيامة الكبرى حين يقوم الناس من قبورهم وتعاد أرواحهم إلى أبدانهم، كما ذكر الله القيامتين في سورة الواقعة حيث قال في أولها: {إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون} [الواقعة: 1] . ثم ذكر سبحانه حال الأصناف الثلاثة في القيامة الكبرى وقال في آخر السورة: {فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم} [الواقعة: 83] وكذلك في سورة القيامة: {لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر} [القيامة: 1] فذكر القيامة الكبرى، ثم قال في آخر السورة: {كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق} [القيامة: 26] ولبسط هذا موضع آخر، فإن ذكر ما ينال الروح عند فراق البدن من النعيم والعذاب كثير في النصوص النبوية، وأما وصف القيامة الكبرى في الكتاب والسنة فكثير جدا لأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، وقد بعث بين يدي الساعة، فلذلك وصف القيامة بما لم يصفها به غيره كما ذكر المسيح - في صفته - فقال: إنه يخبركم بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للرب .

والقول الثاني: قول من يثبت معاد الأبدان فقط، كما يقول ذلك كثير من المتكلمين الجهمية، والمعتزلة المبتدعين من هذه الأمة، وبعض المصنفين يحكي هذا القول عن جمهور متكلمي المسلمين، أو جمهور المسلمين، وذلك غلط، فإنه لم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين، ولا هو قول جمهور نظارهم، بل هو قول طائفة من متكلميهم المبتدعة، الذين ذمهم السلف والأئمة.

والقول الثالث: المعاد للنفس الناطقة بالموت فقط، وأن الأبدان لا تعاد. وهذا لم يقله أحد من أهل الملل لا المسلمين ولا اليهود ولا النصارى. بل هؤلاء كلهم متفقون على إعادة الأبدان، وعلى القيامة الكبرى. ولكن من تفلسف من هؤلاء فوافق سلفه من الصابئة والفلاسفة المشركين على أن المعاد للروح وحده، فإنه يزعم أن الأنبياء خاطبوا الجمهور بمعاد الأبدان، وإن لم يكن له حقيقة وخاطبوهم بإثبات الصفات لله، وليس له حقيقة، وأن الأنبياء لم يظهروا الحقائق للخلق، وأنه لا يستفاد من أخبارهم معرفة شيء من صفات الله ولا معرفة شيء من أمر المعاد. وحقيقة قولهم أن الأنبياء كذبوا للمصلحة، وهؤلاء ملاحدة كفار عند المتبعين للأنبياء من المسلمين، واليهود، والنصارى. وإن كان هؤلاء كثيرين موجودين فيمن يتظاهر بأنه من أهل الملل، لظهور أديانهم، وهو في الباطن على هذا الرأي. وهؤلاء القائلون بمعاد الأرواح فقط، منهم من يقول بأن الأرواح تتناسخ إما في أبدان الآدميين، أو أبدان الحيوان مطلقا، أو في موضع الأجسام النامية، ومنهم من يقول بالتناسخ للأنفس الشقية فقط، وكثير من محققيهم ينكر التناسخ

والقول الرابع: إنكار المعادين جميعا، كما هو قول أهل الكفر من العرب، واليونان، والهند،، والترك، وغيرهم، والمتفلسفة أتباع أرسطو كالفارابي وأتباعه، لهم في معاد الأرواح ثلاثة أقوال: قيل: بالمعاد للنفس العالمة والجاهلة، وقيل: بالمعاد للعالمة دون الجاهلة، وقيل: بإنكار الاثنين، والفارابي نفسه قد قال الأقوال الثلاثة، وبسط الكلام على هذه الأمور له موضع آخر، إذ المقصود

هنا أن كل ما عند أهل الكتاب بل وسائر أهل الأرض من علم نافع وعمل صالح فهو عند المسلمين. وعند المسلمين ما ليس عند غيرهم في جميع المطالب التي تنال بها السعادة والنجاة. وعقلاء جميع الأمم تأمر بالعدل ومكارم الأخلاق، وتنهى عن الظلم، والفواحش، ولهم علوم إلهية وعبادات بحسبهم، ويعظمون أهل العلم والدين منهم. والهند، واليونان، والفرس في ذلك أكمل من كفار الترك، والبربر، ونحوهم، مع أن هؤلاء أيضا فيهم قسط من ذلك. ومعلوم عند الاعتبار أن الأمم الذين لهم كتاب كاليهود، والنصارى أكمل من الأمم الذين لا كتاب لهم في الفضائل العلمية، والعملية، فإن ما لم يأخذه الناس عن الأنبياء يعلم بالعقل، والاعتبار، أو بالمنام، والإلهام، وأخبار الجن ونحو ذلك من طرق الأمم. وكل طريق صحيح من الطرق العقلية، والإلهامية، وغيرها، شارك أهل الكتاب فيه من لا كتاب له. ويمتاز أهل الكتاب بعلوم وأعمال أخذوها عن الأنبياء، ليس في قوة من ليس بنبي أن يعلمها، وهذا ظاهر في الأخلاق، والسياسات المنزلية والمدنية. فإن جنس أهل الكتاب ولو كان منسوخا مبدلا أحسن حالا ممن لا كتاب له. وأما في العبادات والإيمان بالله واليوم الآخر فرجحانهم فيه ظاهر، وأما علوم وأعمال يكون ضررها راجحا، كالسحر، والطلسمات، وما يتوسل به من الشرك إلى استخدام الشياطين، ونحو ذلك، فهذا وإن كان غير أهل

الكتاب أقوم به، فإنما ذاك لاستغناء أهل الكتاب بما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة. ولهذا لما ذكر الله سبحانه في قصة سليمان براءته عن ذلك، وكانت الشياطين قد كتبت كتب كفر وسحر، ودفنتها تحت كرسي سليمان، فلما مات أظهروا ذلك وقالوا: إنما كان يسخر الجن بهذه الأسماء والعزائم، فصدقهم فريقان: فريق قدحوا في سليمان بل كفروه، من أهل الكتاب، وقال: من فعل ذلك فهو كافر، وفريق قالوا: نحن نقتدي بسليمان ونفعل كما كان يفعل، وهم أهل العزائم والطلاسم التي يستخدمون بها الجن، ويقولون: إن سليمان كان يستخدمهم بها، حتى يقولوا: إن هذه الأسماء كانت مكتوبة على تاجه، وهذا صورة خاتمه، وهذا كلام آصف بن برخيا إلى أمثال ذلك مما يضيفونه إليه، وهو كذب على سليمان. وقد ذكر ذلك علماء المسلمين في تفسير قوله تعالى: {ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون} [البقرة: 101] فذم سبحانه من عدل عن اتباع كتاب الله ورسله، واتبع ما تتلوه الشياطين على عهد سليمان، وبين سبحانه أن سليمان لم يكفر ولكن الشياطين كفروا، وأنهم يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل وأن الملكين: هاروت وماروت، ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر. وأخبر سبحانه أنهم لا يضرون به أحدا إلا بإذن الله، وأنهم يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ثم قال: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق} [البقرة: 102] أي من نصيب، أي هؤلاء يعلمون أن صاحبه لا نصيب له في الآخرة، وإنما يطلبون أنهم يقضون به أغراضهم الدنيوية لما لهم في ذلك من الهوى، وذلك ضار لهم لا نافع، كما قال في المشرك: {يدعو لمن ضره أقرب من نفعه} [الحج: 13] قال تعالى: {ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون} [البقرة: 103] فبين سبحانه أنه بالإيمان والتقوى يحصل من ثواب الله ما هو خير لهم من هذا، فإنهم إنما يطلبونه لما يرجون به من الخير لهم، وهذا خير لهم، وهذا كقوله: {إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم} [الجمعة: 9] فإن ما تطلبه النفوس فيه لها لذة، يجعل خيرا بذلك الاعتبار، لكن إذا كان الألم زائدا على اللذة كان شره أعظم من خيره. والشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فهي تأمر بما تترجح مصلحته، وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد، وتنهى عما ترجحت مفسدته، وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كتناول المحرمات من الخمر وغيره. ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا. فالأحسن: إما واجب وإما مستحب، قال تعالى: {فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها} [الأعراف: 145] وقال: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم} [الزمر: 55] فأمر باتباع الأحسن والأخذ به، وقال تعالى: {فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله} [الزمر: 17] فاقتضى أن غيرهم لم يهده، وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن، وهو مشكل، وقد تكلم الناس فيه، ونظيره قوله تعالى: {وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم} [الإسراء: 53] ، وقوله تعالى: {ادفع بالتي هي أحسن السيئة} [المؤمنون: 96] مع قوله تعالى في موضع آخر: {ويدرءون بالحسنة السيئة} [الرعد: 22] ، وقال تعالى: {وجادلهم بالتي هي أحسن} [النحل: 125] ، وقال: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} [العنكبوت: 46] ، وقال تعالى: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن في موضعين.

وقد يقال: هذا نظير قوله تعالى: فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم، وقوله تعالى: آلله خير أم ما يشركون، وقوله تعالى: تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين، وقوله: والله خير وأبقى، وقوله: والآخرة خير وأبقى، وقوله: فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا وقوله أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا، وقوله تعالى: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا} [النساء: 125] ، وقوله تعالى: {اعدلوا هو أقرب للتقوى} [المائدة: 8] ، وقوله: {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا} [النساء: 66] ونظائر هذا كثيرة، مما يذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه، وإن كان الأول واجبا والثاني محرما. وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مفسدة مرجوحة، والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة، فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن، وفي هذا شر وسيئ، لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبا. فقوله تعالى: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم} [الزمر: 55] هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحظور، وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب، فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه. لكن يكون الأمر أمر إيجاب، وأمر استحباب، كما أمر بالإحسان في قوله تعالى: {وأحسنوا إن الله يحب المحسنين} [البقرة: 195] والإحسان منه واجب، ومنه مستحب.

[فصل: توسط المسلمين واعتدالهم في التوحيد والعبادات والمعاملات]

وإذا كان جنس أهل الكتاب أكمل - في العلوم النافعة والأعمال الصالحة - ممن لا كتاب له، فمعلوم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أكمل من طائفتي أهل الكتاب: اليهود والنصارى وأعدل، وقد جمع لهم محاسن ما في التوراة وما في الإنجيل. فليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية وعملية إلا وأمة محمد صلى الله عليه وسلم أكمل منهم فيها. فأما العلوم: فهم أحذق - في جميع العلوم - من جميع الأمم حتى العلوم التي ليست بنبوية، ولا أخروية، كعلم الطب - مثلا - والحساب، ونحو ذلك، هم أحذق فيها من الأمتين، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأمتين، بل أحسن علما وبيانا لها من الأولين الذين كانت هي غاية علمهم، وقد يكون الحاذق فيها من هو عند المسلمين منبوذ بنفاق وإلحاد، ولا قدر له عندهم، لكن حصل له بما يعلمه من المسلمين من العقل، والبيان ما أعانه على الحذق في تلك العلوم، فصار حثالة المسلمين أحسن معرفة وبيانا لهذه العلوم من أولئك المتقدمين. وأما العلوم الإلهية والمعارف الربانية وما أخبرت به الأنبياء من الغيب كالعرش، والملائكة، والجن، والجنة، والنار، وتفاصيل المعاد، فكل من نظر في كلام المسلمين فيها وكلام علماء اليهود، والنصارى وجد كلام المسلمين فيها أكمل، وأتم. ومعلوم أن علم أهل الكتاب والملل بذلك أتم من علم غيرهم، وأما العبادة، والزهد، والأخلاق، والسياسة المنزلية، والمدنية، فالكلام فيها مبني على أصل، وهو معرفة المقصود بها، وما به يحصل المقصود. فنقول: للناس في مقصود العبادات مذاهب: منهم من يقول: المقصود بها تهذيب أخلاق النفوس، وتعديلها؛ لتستعد بذلك للعلم، وليست هي مقصودة في نفسها، ويجعلونها من قسم الأخلاق، وهذا قول متفلسفة اليونان، وقول من اتبعهم من الملاحدة والإسماعيلية وغيرهم من المتفلسفة الإسلاميين كالفارابي، وابن سينا، وغيرهما، ومن سلك طريقهم من متكلم، ومتصوف، ومتفقه، كما يوجد مثل ذلك في كتب أبي حامد، والسهروردي المقتول، وابن رشد الحفيد، وابن عربي، وابن سبعين، لكن أبو حامد يختلف كلامه؛ تارة يوافقهم، وتارة يخالفهم. وهذا القدر فعله ابن سينا وأمثاله ممن رام الجمع بين ما جاءت به الأنبياء، وبين فلسفة المشائين - أرسطو، وأمثاله، ولهذا تكلموا في الآيات، وخوارق العادات، وجعلوا لها ثلاثة أسباب: القوى الفلكية، والقوى النفسانية، والطبيعية؛ إذ كانت هذه هي المؤثرات في هذا العالم عندهم، وجعلوا ما للأنبياء وغير الأنبياء من المعجزات، والكرامات، وما للسحرة من العجائب هو من قوى النفس. لكن الفرق بينهما أن ذلك قصده الخير، وهذا قصده الشر، وهذا المذهب من أفسد مذاهب العقلاء، كما قد بسط الكلام عليه في موضع آخر. فإنه مبني على إنكار الملائكة، وإنكار الجن، وعلى أن الله لا يعلم الجزئيات، ولا يخلق بمشيئته وقدرته، ولا يقدر على تغيير العالم، ثم إن هؤلاء لا يقرون من المعجزات إلا بما جرى على هذا الأصل، وأمكن أن يقال فيه هذا، مثل: نزول المطر، وتسخير السباع، وإمراض الغير، وقتله، ونحو ذلك. وأما قلب العصا حية، وإحياء الموتى، وإخراج الناقة من الهضبة، وانشقاق القمر، وأمثال ذلك فلا يقرون به، وقد علم بطرق متعددة ما يكون من الخوارق بسبب أفعال الجن، وبسبب أفعال الملائكة. وأحوال الجن معلومة عند عامة الأمم: مسلمهم، وكافرهم، لا يجحد ذلك إلا من هو من أجهل الناس، وكذلك من فسرها بقوى النفس، وهذا غير إخبار الله عنهم فيما أنزله من الكتب. وأما الملائكة فأمرهم أجل، وهم رسل الله في تدبير العالم كما قال تعالى: {فالمدبرات أمرا} [النازعات: 5] ، وقال: {فالمقسمات أمرا} [الذاريات: 4] وقد ذكر الله تعالى في كتبه من أخبارهم، وأصنافهم ما يطول وصفه، وآثارهم موجودة في العالم، يعرف ذلك بالاعتبار كما قد بسط في موضعه؛ إذ المقصود هنا ذكر مذاهب الناس في العبادات، وهؤلاء غاية ما عندهم في العبادات، والأخلاق، والحكمة العملية، أنهم رأوا النفس فيها شهوة، وغضب من حيث القوة العملية، ولها نظر من جهة القوة العلمية. فقالوا: كمال الشهوة في العفة، وكمال الغضب في الحلم، والشجاعة، وكمال القوة النظرية في العلم. والتوسط في جميع ذلك بين الإفراط والتفريط هو العدل. وما ذكروه من العمل متعلق بالندب لم يثبتوا خاصية النفس التي هي محبة الله، وتوحيده، بل ولا عرفوا ذلك كما لم يكن عندهم من العلم بالله إلا قليل مع كثير من الباطل، كما بسط الكلام عنهم في موضعه. ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. فلا صلاح للنفس، ولا كمال لها إلا في ذلك، وبدون ذلك تكون فاسدة، لا صلاح لها، كما قد بسط الكلام على ذلك في موضع آخر، ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل، قال الله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: 36] ، وقال:، {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: 25] ، وقال: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} [آل عمران: 85] ، وقال تعالى: {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} [الزخرف: 45] ، وقال تعالى: {ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون} [المؤمنون: 51] ، وقال لما ذكر قصص الأنبياء: {إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون} [الأنبياء: 92] ، وقال تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} [الشورى: 13] ، وقال تعالى: {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي

فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون} [الروم: 30]

وقد قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: 56] فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده، وهي حقيقة قول القائل: لا إله إلا الله، ولهذا بعث الله جميع الرسل، وأنزل جميع الكتب، ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا، كما قال تعالى: {وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة} [فصلت: 6] أي لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد، والإيمان. وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص لم يكن من أهل النجاة والسعادة كما قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء: 48] في موضعين من كتابه، وهذا أول الكلمات العشر التي أنزلها الله على موسى حيث قال: أنا الله لا إله إلا أنا إلهك الذي أخرجتك من أرض مصر، من التعبد، لا يكون لك إله غيري ; لا تتخذ صورا، ولا تمثالا، ما في السماوات من فوق، ومن في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض ; لا تسجد لهن ; ولا تعبدهن إني أنا ربك العزيز. وقد شهد المسيح عليه السلام أن هذا هو أعظم وصية في الناموس، فعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه، هو أعظم وصية وكلمة جاء بها المرسلون كموسى، والمسيح، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وضد هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله تعالى: قال تعالى: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله} [البقرة: 165] وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع، وبين أن النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال إلا بأن يكون الله معبودها ومحبوبها، الذي لا أحب إليها منه، ولهذا كثر في الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده، ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب. فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب، ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل، فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبده، ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده، وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده، فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو، وذلك يتضمن كمال الحب، والذل، والإجلال، والإكرام، والتوكل، والعبادة. فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها، ومن حيث هو ربها وخالقها. فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه، ولم يعبد إلا الله وحده، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، وأخشى عنده من كل ما سواه، وأعظم عنده من كل ما سواه، وأرجى عنده من كل ما سواه، بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله، ويخشاه مثل ما يخشى الله، ويرجوه مثل ما يرجو الله، ويدعوه مثل ما يدعوه، فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله، ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه، وكان حكيما شجاعا. فما ذكره المتفلسفة من الحكمة العملية ليس فيها من الأعمال ما تسعد به النفوس، وتنجو من العذاب، كما أن ما ذكروه من الحكمة النظرية ليس فيها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فليس عندهم من العلم ما تهتدي به النفوس، ولا من الأخلاق ما هو دين حق، ولهذا لم يكونوا داخلين في أهل السعادة في الآخرة المذكورين في قوله تعالى: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: 62] وهذه الفضائل الأربع التي ذكرها المتفلسفة لا بد منها في كمال النفس، وصلاحها، وتزكيتها. والمتفلسفة لم يحدوا ما يحتاج إليه بحد يبين مقدار ما تحصل به النجاة والسعادة. ولكن الأنبياء بينوا ذلك، وقد قال سبحانه: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: 33] فهذه الأنواع الأربعة هي التي حرمها تحريما مطلقا، لم يبح منها شيئا لأحد من الخلق، ولا في حال من الأحوال، بخلاف الدم، والميتة، ولحم الخنزير، وغير ذلك، فإنه يحرم في حال، ويباح في حال. وأما الأربعة فهي محرمة مطلقا. فالفواحش متعلقة بالشهوة. والبغي بغير الحق يتعلق بالغضب، والشرك بالله فساد أصل العدل فإن الشرك ظلم عظيم، والقول على الله بلا علم فساد في العلم، فقد حرم سبحانه هذه الأربعة، وهي فساد الشهوة، والغضب، وفساد العدل، والعلم. وقوله: {وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا} [الأعراف: 33] يتضمن تحريم أصل الظلم في حق الله، وذلك يستلزم إيجاب العدل في حق الله تعالى وهو عبادته وحده لا شريك له، فإن النفس لها القوتان: العلمية، والعملية، وعمل الإنسان عمل اختياري، والعمل الاختياري إنما يكون بإرادة العبد. وكل إنسان له إرادة، وعمل بإرادته فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أصدق الأسماء الحارث، وهمام» والإرادة لا بد لها من مراد، وكل مراد فإما أن يراد لنفسه، وإما أن يراد لغيره، والمراد لغيره لا بد أن ينتهي إلى مراد لنفسه. فالقوة العملية تستلزم أن يكون للإنسان مراد، وذلك المراد لنفسه هو علة فاعلة للعلة الفاعلة، ولهذا قيل: العامة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسنه. والعارفون يقولون: قيمة كل امرئ ما يطلب. وفي بعض الكتب المتقدمة: إني لا أنظر إلى كلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همته. وهؤلاء المتفلسفة لم يذكروا هذا في كمال النفس، وإنما جعلوا كمالها العملي في تعديل الشهوة والغضب بالعفة، والحلم، وهذا غايته ترك الإسراف في الشهوة والغضب، والشهوة: هي جلب ما ينفع البدن ويبقي النوع، والغضب: دفع ما يضر البدن. ولم يتعرضوا لمراد الروح الذي يحبه لذاته. مع أنهم إنما تكلموا فيما يعود إلى البدن، وجعلوا

ذلك إصلاحا للبدن الذي هو آلة للنفس، وجعلوا كمال النفس في مجرد العلم. وقد بسطنا غلطهم في هذا الأصل من وجوه في غير هذا الموضع، وبينا أن النفس لها كمال في العمل والإرادة، كما أن لها

كمالا في العلم، وأن العلم المجرد ليس كمالا لها ولا صلاحا، ولو كان كمالا لم يكن ما عندهم من العلم ما هو كمال النفس، وبينا غلط الجهمية الذين قالوا: الإيمان هو مجرد العلم، وأن الصواب قول السلف والأئمة: إن الإيمان قول وعمل. أصله قول القلب، وعمل القلب المتضمن علم القلب وإرادته. وإذا كان لا بد للنفس من مراد محبوب لذاته لا تصلح إلا به، ولا تكمل إلا به، وذلك هو إلهها، فليس لها إله يكون به صلاحا إلا الله، ولهذا قال الله تعالى: {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا} [الأنبياء: 22] ، وليس ذلك للإنسان فقط بل للملائكة والجن فإنهم كلهم أحياء عقلاء ناطقون، لهم علم وعمل اختياري، ولا صلاح لهم إلا بمرادهم المحبوب لذاته، وهو معبودهم، ولا يجوز أن يكون معبودا محبوبا لنفسه إلا الله، فلو كان في السماوات والأرض إله إلا الله لفسدتا. فلهذا كان دين جميع الرسل عبادة الله وحده لا شريك له.

وهؤلاء المتفلسفة لا يعرفون ذلك، فليس عندهم من صلاح النفس وكمالها في العلم والعمل ما تنجو به من الشقاء، فضلا عما تسعد به، ومما يبين ذلك أن أرسطو معلمهم الأول هو وأتباعه إنما أثبتوا العلة الأولى بالحركة الفلكية، فقالوا: الحركة الدورية حركة اختيارية نفسانية، فقوامه بحركته الاختيارية، وفساده بعدمها، وقوام حركته بما يتحرك لأجله، فإن الفاعل بالاختيار إنما قوامه بعلته الغائية التي يتحرك لأجلها، وغايته التي يتحرك لأجلها، هو العلة الأولى فإنه يتحرك للتشبه بها. فجعلوا قوام العالم كله بالعلة الأولى من حيث هو متشبه به؛ لأن المتحرك باختياره لا بد له من مراد. ومعلوم أن الحركة الإرادية تطلب مرادا محبوبا لنفسها، وتستلزم ذلك أعظم من استلزامها مشبها به، فإن كل متحرك بإرادة لا بد له من مراد محبوب لنفسه، فإن الإرادة لا بد لها من مراد، والمراد يكون إما مرادا لنفسه، وإما لغيره، والمراد لغيره إنما يراد لذلك الغير بدلا أن يكون ذلك الغير مرادا لنفسه، أو منتهى إلى مراد لنفسه، وإلا لزم التسلسل في العلل الغائية، وذلك باطل كبطلان التسلسل في العلل الفاعلية بصريح

العقل، واتفاق العقلاء، وبسط هذا له موضع آخر. وإذا كان الفاعل باختيار يستلزم مرادا لنفسه محبوبا، فلا بد أن يكون لما يتحرك في السماوات بإرادته سواء كان هؤلاء الملائكة، أو ما يسمونه هم نفسا من محبوب مراد لذاته، يكون هو الإله المعبود المراد بتلك الحركات، وكذلك نفس الإنسان حركتها بالإرادة من لوازم ذاتها، فلا بد لها من محبوب مراد لذاته، وهو الإله، وهذا المحبوب المراد لذاته هو الله تعالى، ويمتنع أن يكون غيره، كما قد بسط هذا في موضع آخر، وبين أنه يمتنع أن يكون موجودا بغيره، بل هو واجب الوجود بنفسه، فيمتنع أن يكون مرادا لغيره بل مراد لنفسه. وكما يمتنع أن يكون للعالم ربان قادران، يمتنع أن يكون للعالم إلهان معبودان، فإن كون أحدهما قادرا يناقض كون الآخر قادرا؛ لامتناع اجتماع القادرين على مقدور واحد، وامتناع كون أحدهما قادرا على الفعل حين يكون الآخر قادرا عليه، وامتناع ارتفاع قدرة أحدهما بقدرة الآخر مع التكافؤ.

كذلك يمتنع أن يكون إلهان معبودان محبوبان لذاتهما؛ لأن كون أحدهما هو المعبود لذاته يناقضه أن يكون غيره معبودا لذاته، فإن ذلك يستلزم أن يكون بعض المحبة والعمل لهذا، وبعض ذلك لهذا، وذلك يناقض كون الحب والعمل كله لهذا، فإن الشركة نقص في الحب، فلا تكون حركة المتحرك بإرادته له، فلا يكون أحدهما معبودا معمولا له إلا إذا لم يكن الآخر كذلك، فإن العمل لهذا يناقض أن يكون له شريك فضلا عن أن يكون لغيره. وكل من أحب شيئين فإنما يحبهما لثالث غيرهما، وإلا فيمتنع أن يكون كل منهما محبوبا لذاته؛ إذ المحبوب لذاته هو الذي تريده النفس وتطلبه، وتطمئن إليه، بحيث لا يبقى لها مراد غيره، وهذا يناقض أن يكون له شريك.

والقول الثاني: قول من يقول: إن الله عوض الناس بالتكليف بالعبادات ليثيبهم على ذلك بعد الموت؛ فإن الإنعام بالثواب لا يحسن بدون التكليف؛ لما فيه من الإجلال، والتعظيم الذي لا يستحقه إلا مكلف، كما يقول ذلك القدرية من المسلمين وغيرهم وهؤلاء قد يجعلون الواجبات الشرعية لطفا في الواجبات العقلية، وقد يقولون: إن الغاية المقصودة التي بها يحصل الثواب هو العمل، والعلم ذريعة إليه، حتى يقولوا مثل ذلك في معرفة الله تعالى، يقولون: إنما وجبت لأنها لطف في أداء الواجبات العقلية العملية.

، والقول الثالث: قول من يقول: بل الله أمر بذلك لا لحكمة مطلوبة ولا بسبب، بل لمحض المشيئة، وهذا قول الجبرية المقابلين للقدرية كالجهم، والأشعري، وخلق كثير من المتكلمين والفقهاء، والصوفية، وغيرهم.

القول الرابع: قول سلف الأمة وأئمتها، وهو أن نفس معرفة الله تعالى ومحبته مقصودة لذاتها، وأن الله سبحانه محبوب مستحق للعبادة لذاته لا إله إلا هو، ولا يجوز أن يكون غيره محبوبا معبودا لذاته، وأنه سبحانه يحب عباده الذين يحبونه، ويرضى عنهم، ويفرح بتوبة التائب، ويبغض الكافرين ويمقتهم، ويغضب عليهم ويذمهم، وأن في ذلك من الحكم البالغة، وكذلك من الأسباب ما يطول وصفه في هذا الخطاب كما قد بسط في موضعه؛ إذ المقصود هنا التنبيه على أن المسلمين في هذا أكمل من غيرهم في العلوم النافعة والأعمال الصالحة. وإذا عرف مذاهب الناس في مقاصد العبادات فهم أيضا مختلفون في صفاتها، فمن الناس من يظن أن كل ما كان أشق على النفس وأشد إماتة لشهوتها فهو أفضل، وهذا مذهب كثير من المشركين الهند، وغيرهم، وكثير من أهل الكتاب اليهود، والنصارى، وكثير من مبتدعة المسلمين. والثاني: قول من يقول: إن أفضلها ما كان أدعى إلى تحصيل الواجبات العقلية.

والثالث: قول من يقول: فضل بعضها على بعض لا علة له، بل يرجع إلى محض المشيئة.

والرابع وهو الصواب: أن أفضلها ما كان لله أطوع، وللعبد أنفع. فما كان صاحبه أكثر انتفاعا به، وكان صاحبه أطوع لله به من غيره فهو أفضل، كما جاء في الحديث: «خير العمل أنفعه» وعلى كل قول فعبادات المسلمين أكمل من عبادات غيرهم، أما عن الأول فأولئك يقولون: كلما كانت الأعمال أشق على النفس فهي أفضل. ثم هؤلاء قد يفضلون الجوع، والسهر، والصمت، والخلوة، ونحو ذلك، كما يفعل ذلك من يفعله من المشركين الهند، وغيرهم، ومن النصارى، ومبتدعة هذه الأمة، ولكن يقال لهم: الجهاد أعظم مشقة من هذا كله، فإنه بذل النفس، وتعريضها للموت، ففيه غاية الزهد المتضمن لترك الدنيا كلها، وفيه جهاد النفس في الباطن، وجهاد العدو في الظاهر، ومعلوم أن المسلمين أعظم جهادا من اليهود، والنصارى. فإن اليهود خالفوا موسى في الجهاد، وعصوه، والنصارى لا يجاهدون على دين، وأما على قول من يجعل العبادات الشرعية لطفا في الواجبات العقلية، فلا ريب أن عبادات المسلمين - كصلاتهم وصيامهم وحجهم - أدعى إلى العدل الذي هو جماع الواجبات العقلية، من عبادات غيرهم التي ابتدعوها، فإنها متضمنة للظلم المنافي للعدل. وأما على قول نفاة التعليل، ورد ذلك إلى مشيئة الله: فيكون الأمر في ذلك راجعا إلى محض مشيئة الله، وتعبده للخلق، وحينئذ فمن تكون عباداته تابعة لأمر الله الذي جاء به الرسل يكون متعبدا بما أمر الله به بخلاف من تكون عباداته قد ابتدعها أكابرهم من غير أن يأتيهم بها رسول الله من عند الله. وأما على القول الرابع: فإن علم أن الله أمر به يتضمن طاعة الله. وهذا إنما يكون في عبادات أمر الله بها، وهي عبادات المسلمين دون من ابتدع كثيرا من عباداتهم أكابرهم. وأما انتفاع العباد بها، فهذا يعرف بثمراتها ونتائجها وفوائدها، ومن ذلك آثارها في صلاح القلوب. فليتدبر الإنسان عقول المسلمين وأخلاقهم، وعدلهم، يظهر له الفرق بينهم وبين غيرهم. ثم صفات عباداتهم فيها من الكمال، والاعتدال، كالطهارة، والاصطفاف، والركوع، والسجود، واستقبال بيت إبراهيم، الذي هو إمام الخلائق، والإمساك فيها عن الكلام، وما فيها من الخشوع، وتلاوة القرآن، واستماعه الذي يظهر الفرق بينه وبين غيره من الكتب لكل متدبر منصف، إلى أمثال ذلك من الأمور التي يظهر بها فضل عبادات المسلمين على عبادات غيرهم. وأما حكم المسلمين في الحدود والحقوق فلا يخفى على عاقل فضله. حتى إن النصارى في طائفة من بلادهم ينصبون لهم من يقضي بينهم بشرع المسلمين إذا لم يكن لهم شرع يحكم به الناس. وليس في الإنجيل حكم عام، بل عامته، وإنما فيه الأمر بالزهد، ومكارم الأخلاق، وهو مما يأمر به المسلمون أيضا. وقد ذكرنا في كون المسلمين معتدلين متوسطين بين اليهود والنصارى في التوحيد، والنبوات، والحلال، والحرام وغير ذلك، مما يبين أنهم أفضل من الأمتين، مع أن دلائل هذا كثيرة جدا، وإنما المقصود التنبيه على ذلك، وحينئذ ففضل الأمة يستلزم فضل متبوعها.

[فصل: أقسام مدعي النبوة ودلالة ذلك على صدقه عليه السلام]

ومما يبين أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن من دعا إلى مثل ما دعا إليه لا يخلو من ثلاثة أقسام: إما أن يكون نبيا صادقا مرسلا من الله كما أخبر عن نفسه، بمنزلة نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا} [النساء: 163] ، وإما أن يكون ملكا مسلما عادلا، وضع ناموسا سياسيا وقانونا عدليا ينفع به الخلق، ويحملهم به على السيرة العادلة بمبلغ علمه، كما كان للأمم من يضع لهم النواميس مثل واضعي النواميس من اليونان، والهند، والفرس، وغيرهم. وإن كان واضع الناموس مختصا بقوة قدسية ينال بها العلم بسهولة، وقوة نفسية يتصرف فيها تصرفات خارجة عن العادة، ويكون له قوة تخييلية تمثل له في نفسه أشكالا

نورانية، وأصواتا يسمعها في داخل نفسه، فإن هذه الخواص الثلاثة هي التي يقول ابن سينا، وأمثاله من المتفلسفة: إنها خواص النبي، ومن قامت به كان نبيا، والنبوة مكتسبة عندهم. ولكن لما كانت هذه موجودة لكثير من الخلق، ولم يصل بها إلى قريب من درجة الصديقين - أتباع الأنبياء - كالخلفاء الراشدين، وحواريي عيسى، وأصحاب موسى جعلناها من هذا القسم؛ إذ صاحب هذا قد يكون فيه عدل وسياسة بحسب ما معه من العلم والعدل، فهذا القسم الثاني. وإما أن يكون رجلا كاذبا فاجرا أفاكا أثيما يتعمد الكذب والظلم، أو يتكلم بلا علم فيخطئ خطأ من يتكلم بلا علم. ومن يظن الكذب صدقا والباطل حقا، والضلال هدى، والغي رشدا، والظلم عدلا، والفساد صلاحا، وكل من دعا الخلق إلى متابعته، وطاعته على سبيل الحتم والإيجاب بأن يصدقوه بما أخبر، ويطيعوه فيما أمر به، وأوجبه باطنا وظاهرا من غير أن يخير أحدا في اتباعه وتصديقه وطاعته، ولا يسوغ له مخالفته بوجه من الوجوه لا في الباطن ولا في الظاهر، لم يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة. وذلك لأنه إما أن يكون قصده الإثم والعدوان، أو قصده البر والعدل، فإن كان قصده الأول فهو ظالم فاجر، ومثل هذا لا يكون إلا كاذبا عمدا أو خطأ، وإن كان قصده البر والعدل، فيخلو مع ذلك إما أن يكون عالما بكل ما يخبر به من الغيوب جازما بصدق نفسه جزما لا يحتمل النقيض، عالما بأن ما يأمر به عدل، لا يجوز لمن أمره أن يعصيه بوجه من الوجوه، وإما أن لا يكون جازما بذلك. فإن كان جازما بذلك كان هذا هو النبي المعصوم الذي لا يخبر إلا بحق، ولا يأمر إلا بعدل: {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم} [الأنعام: 115] بخلاف القسم الذي يتحرى العدل، والصدق باجتهاده ورأيه، فإن هذا قد يأمر بأشياء يجوز أن تكون المصلحة والعدل والصدق في خلافها، ويخبر بأشياء باجتهاده، يحوز أن يكون الأمر فيها بخلاف ذلك، ولا بد أن يغلط في بعض ما يخبر به من العلميات، وما يأمرهم به من العمليات فإنه لا معصوم إلا الأنبياء، ولهذا لم يجب الإيمان بكل ما يقوله بشر. إلا أن يكون نبيا، فإن الإيمان واجب بكل ما يأتي به النبي. قال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [البقرة: 136] ، وقال تعالى: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} [البقرة: 177] ، وإذا كان الأمر كذلك فمعلوم بالتواتر أن محمدا ذكر أنه رسول كإبراهيم، وموسى، وعيسى بل أخبر أنه سيد، ولد آدم، وأن آدم فمن دونه تحت لوائه يوم القيامة، وأنه لما أسري به، وعرج إلى ربه علا على الأنبياء كلهم، على إبراهيم، وموسى، وهارون، ويحيى، وعيسى، وغيرهم، وأخبر أنه لا نبي بعده، وأن أمته هم الآخرون في الخلق السابقون يوم القيامة، وأن الكتاب الذي أنزل إليه أحسن الحديث، وأنه مهيمن على ما بين يديه من الكتب مع تصديقه لذلك، وحينئذ فإن كان عالما بصدق نفسه فهو نبي رسول، ومن قال هذا القول وهو يعلم أنه كاذب فهو من أظلم الناس وأفجرهم: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء} [الأنعام: 93] ، وإن كان يظن صدق نفسه وليس كذلك، فهو مخطئ غالط ملبوس عليه، وإذا كان كذلك فلا بد أن يخطئ فيما يخبر به من الغيوب، ويظلم فيما يأمر به من العدل، ولا يتصور استمراره على هذا بل لا بد أن يتبين له، ولغيره أنه صادق أو كاذب. فإن من ظن صدق نفسه في مثل هذه الدعوى، وليس بصادق يكون من أجهل الناس وأظلمهم، وأبعدهم عن التمييز بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والخير والشر، فإن هذا بمنزلة من اشتبه عليه النبي الصادق بالمتنبي الكذاب، وهذا من أجهل الناس. إذا اشتبه عليه حال غيره فكيف بمن اشتبه عليه حال نفسه ولم يعلم ما يقوله أصدق هو أم كذب؟ ومن كان جاهلا مع هذه الدعوى العظيمة، التي لم يدع بشر مثلها، ومع كثرة ما يخبر به من الغيوب الماضية والمستقبلة، ويأمر به وينهى عنه من الأمور الكلية والسنن العامة والشرائع والنواميس، فلا بد أن يكون فيها من الضلال والغي ما يبين لأكثر الخلق. فإذا كانت أخباره عن الماضي والمستقبل يصدق بعضها بعضا، والذي يأمر به هو الطريق الأقوم، والكتاب الذي جاء به كتاب متشابه مثاني، يشبه بعضه بعضا في الصدق، قال تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} [النساء: 82] فإنه لو كان من عند غير الله لوجب أن يكون فيه تناقض، لامتناع قدرة البشر على أن تخبر بهذه الأخبار، وما فيها من الغيوب، ويأمر بهذه الأوامر مع سلامة ذلك من التناقض، ولهذا لا يوجد بشر غير نبي يسلم من ذلك. وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قد علم بالاضطرار من سيرته أنه كان يتحرى الصدق والعدل، وأنه ما جربت عليه كذبة قط، وعلم أنه كان جازما بما يخبر به مع عظم الأخبار وكثرتها، وهو وحده قام يدعو الناس إلى ما جاء به، ومن عادة طالب الملك والرياسة - ولو كان عادلا - أن يستعين بمن يعينه كأقاربه وأصدقائه ونحوهم، وأن يبذل للنفوس من العاجل ما يرغبها به كالمال والرياسة، ويرهب من خالفه. ومحمد صلى الله عليه وسلم دعا الناس وحده وهو بمكة، فآمن به المهاجرون ثم آمن به الأنصار بالمدينة، ثم آمن به أهل البحرين، ولم يعط أحدا منهم درهما، ولا كان معه ما يخيفهم به، لا سيف ولا غيره، بل مكث بمكة بضع عشرة سنة، هو والمؤمنون به مستضعفين، لم يكن له مال يبذله لهم، ولا سيف يخيفهم به.

وكان أعظم من آمن به أبو بكر الصديق مع كمال عقله وخلقه، ودينه في قومه، ومحبتهم له، وعلو قدره فيهم، أنفق ماله كله في سبيل الله حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ما تركت لأهلك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله» ، ولم يعطه النبي صلى الله

عليه وسلم درهما واحدا يخصه به، ثم تولى الأمر بعده وترك ما كان معه للمسلمين، وتولى بعده عمر بن الخطاب، وفتح أعظم ممالك العالم، مملكة فارس، والروم فقهر الروم على بلاد الشام، والجزيرة، ومصر. وأميره الكبير أبو عبيدة أزهد الخلق في الأموال وأعبدهم للخالق، وأرحمهم للمخلوق، وأبعدهم عن هوى النفس، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه: «إن لكل أمة أمينا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» وأميره على فارس سعد بن أبي وقاص الذي كان مستجاب الدعوة، وكان من أزهد الناس، وكان آخر من بقي من أهل الشورى، والناس يتنازعون في الولاية، وهو معتزل في قصره بالعقيق لا يزاحم أحدا، فقال له ابنه عمر: تركت الناس يتنازعون الملك وجلست ههنا، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني النقي الخفي» .

[فصل: من آيات النبوة قصة الفيل وحراسة السماء]

ومن آيات محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته التي في القرآن قصة الفيل، قال تعالى: {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل - ألم يجعل كيدهم في تضليل - وأرسل عليهم طيرا أبابيل - ترميهم بحجارة من سجيل - فجعلهم كعصف مأكول} [الفيل: 1 - 5] ، وقد تواترت قصة أصحاب الفيل، وأن أهل 72 الحبشة النصارى ساروا بجيش عظيم، معهم فيل، ليهدموا الكعبة لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيم كنايسهم، فأرسل الله عليهم طيرا أهلكهم، وكان ذلك عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارى خير من دينهم.

فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت أو لأجل النبي صلى الله عليه وسلم، الذي ولد به في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته. فإنه إذا قيل: إنما كانت آية للبيت وحفظا له وذبا عنه؛ لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل. فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا البيت ويصلي إليه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ومحمد هو الذي فرض حجه والصلاة إليه، فإذا كان هذا البيت عند الله خيرا من الكنائس التي للنصارى، حتى إن الله أهلك النصارى أهل الكنائس لما أرادوا تعظيم الكنائس وإهانة البيت، علم أن دين أهل هذا البيت خير من دين النصارى، والمشركون ليسوا خيرا من النصارى فتعين أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير من النصارى، وذلك يستلزم أن نبيهم صادق، وإلا فمن كانوا متبعين لنبي كاذب فليسوا خيرا من النصارى بل هم شرار الخلق، كأتباع مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وغيرهما، وقال في القرآن: {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل - ألم يجعل كيدهم في تضليل - وأرسل عليهم طيرا أبابيل} [الفيل: 1 - 3]

والأبابيل جماعات في تفرقة، فوج بعد فوج {ترميهم بحجارة من سجيل} [الفيل: 4] أي: من طين مستحجر {فجعلهم كعصف مأكول} [الفيل: 5] كالتبن الذي أكل. وقوله: ألم تر استفهام في معنى التقرير، وهذا يقتضي أن هذا قد وقع وعلم به الناس ورأوه، وقد قررهم على ذلك؛ لما فيه من الدلالة والبيان والإنعام على الخلق. ومن آيته الظاهرة التي في القرآن ما ذكره من أن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا، بخلاف ما كانت العادة جارية به، قال تعالى: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا - يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} [الجن: 1 - 2] إلى قوله: {وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا - وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا - وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا} [الجن: 8 - 10] ، وقال تعالى: {وما تنزلت به الشياطين - وما ينبغي لهم وما يستطيعون - إنهم عن السمع لمعزولون} [الشعراء: 210 - 212] وهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤه على الناس، وهم يقرءونه، ولم ينكره أحد، ولا ارتاب به مؤمن، ولا احتج به عليه كافر، فدل أن الناس علموا صدق ما أخبرت به الجن، من أن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا، وأنهم لم يتمكنوا حينئذ مما كانوا يتمكنون منه قبل ذلك من الاستماع. ومعلوم أن هذا أمر يراه الناس بأبصارهم فإن امتلاء السماء بالشهب أمر يراه الناس كلهم، فلو لم يكن كذلك لكان الناس يكذبون بهذا، مؤمنهم، وكافرهم، فإن الجماعة العظيمة الذين لم يتواطئوا يمتنع اتفاقهم على الكذب، وعلى التصديق بما يعلمون أنه كذب، وعلى كتمان ما يعلمونه، وعلى ترك إنكار ما يعلمون أنه كذب.

وقد سمع القرآن ألوف مؤلفة أدركوا مبعثه وشاهدوا أحوال السماء، فلو لم يكن هذا كان موجودا - مع أن عامتهم كانوا مكذبين له، ولما آمنوا كانوا طوائف متباينين - يمتنع اتفاقهم على كذب أو كتمان أو سكوت، فلما لم ينكر ذلك أحد، بل تظاهرت الأخبار بمثل ما أخبر به القرآن من الرمي العظيم بالشهب، الذي لم يعهد مثله، حتى صاروا يشكون: هل ذلك في الكواكب التي في الفلك أو في غيرها؟ وقالوا: إن كان في كواكب الأفلاك فهو خراب العالم، فلما رواه فيما دونها، علموا أنه لأمر حدث. ففي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: «انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ،

وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين السماء؛ أرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة، وهي بنخل عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا: {إنا سمعنا قرآنا عجبا - يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} [الجن: 1 - 2] . فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن} [الجن: 1] » ، وفي لفظ البخاري بنخلة قريبا من مكة، وهو الصواب.

وقد ظن بعض الناس أن الشهب لم يكن يرمى بها قبل ذلك بحال، والصواب أنه كان الرمي بها - كما هو الآن - أحيانا، كما ثبت في صحيح مسلم، عن ابن عباس، ورواه أيضا أحمد في مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «بينما هو في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال لهم: ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول حين رأيناها يرمى بها: مات ملك. ولد مولود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس ذلك كذلك، ولكن الله إذا قضى في خلقه أمرا يسمعه أهل العرش فيسبحون فيسبح من تحتهم بتسبيحهم، فيسبح من تحت ذلك، فلم يزل التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا، حتى يقول بعضهم لبعض: لم سبحتم؟ فيقولون: سبح من فوقنا فسبحنا بتسبيحهم، فيقولون: ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا؟ فيسألونهم فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا، الأمر الذي كان، فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى سماء الدنيا فيتحدثون به، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم منهم واختلاف، ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثونهم فيخطئون ويصيبون، فيحدث الكهان» . وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، «إن الكهان قد كانوا يحدثوننا بالشيء فيكون حقا، قال: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة» وروى البخاري في صحيحه عن عائشة أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب، فتذكر الأمر، قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم» . وفي صحيح البخاري أيضا عن أبي هريرة قال: «إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله: كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: {الحق وهو العلي الكبير} [سبأ: 23] فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا، بعضهم فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقيها على لسان الساحر، أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا. الكلمة التي سمعت من السماء، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء» . ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهري، وقال في آخره: «ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين عن السمع بهذه النجوم، فانقطعت الكهانة فلا كهانة» . ورواه معمر، عن الزهري، وقال: فقلت للزهري: أو كان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: يقول الله {وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع} [الجن: 9] الآية. قال: غلظت واشتد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم.

وروى الطبري، عن داود، ثنا عاصم بن علي بن عاصم، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان للجن مقاعد في السماء يستمعون الوحي، وكان الوحي إذا أوحي، سمعت الملائكة كهيئة الحديدة رمي بها على الصفوان، فإذا سمعت الملائكة صلصلة الوحي خر لجباههم من في السماء من الملائكة، فإذا نزل عليهم أصحاب الوحي قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال: فينادون: قال ربكم: {الحق وهو العلي الكبير} [سبأ: 23] قال: فإذا نزل إلى السماء الدنيا قالوا: يكون في الأرض كذا وكذا موتا، وكذا وكذا حياة، وكذا وكذا جدوبة، وكذا وكذا خصبا، وما يريد أن يصنع، وما يريد أن يبتدي - تبارك وتعالى - فنزلت الجن فأوحوا إلى أوليائهم من الإنس ما يكون في الأرض، فبينما هم كذلك إذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم، فزجرت الشياطين، ورموهم بالكواكب، فمنعوا، فجعل لا يصعد أحد إلا احترق، وفزع أهل الأرض لما رأوا في الكواكب، ولم يكن قبل ذلك، فقالوا: هلك من في السماء، وكان أهل الطائف أول من فزع، فينطلق الرجل إلى إبله فينحر كل يوم بعيرا لآلهتهم، فينطلق صاحب الغنم فيذبح كل يوم شاة، فينطلق صاحب البقر فيذبح كل يوم بقرة، فقال لهم رجل: ويلكم، لا تهلكوا أموالكم، فإن معالمكم من الكواكب التي تهتدون بها، لم يسقط منها شيء. فأقلعوا وقد أسرعوا في أموالهم، وقال إبليس: حدث في الأرض حدث فأتوني من كل مكان في الأرض بتربة، فجعل لا يؤتى بتربة أرض إلا شمها، فلما أتي بتربة تهامة، قال: ههنا حدث الحدث. فصرف الله إليه نفرا من الجن، وهو يقرأ القرآن فقالوا: {إنا سمعنا قرآنا عجبا} [الجن: 1] حتى ختم الآية، فولوا: إلى قومهم منذرين ورواه أبو زرعة، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بنحوه، ورواه البيهقي من طرق، عن حماد بن سلمة، عن عطاء أيضا فقد تبين أنه لما كان في زمن المبعث ملئت السماء حرسا شديدا وشهبا، وقبل ذلك لم يكن الحرس شديدا، ولا كانت السماء مملوءة حرسا وشهبا - كما هي الآن - يرمى بها أحيانا، وكانوا يقعدون بها مقاعد للسمع أي

يسترق أحدهم ما يسمعه كما يستمع المستمع إلى حديث غيره مختفيا بسماعه مسترقا له، فكانت الشياطين تسترق - أي تستمع - ما تقوله الملائكة، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم صار أحدهم إذا سمع وجد الشهاب قد أرصد له، فلم يستطع أن يقعد ويستمع كما كان قبل ذلك.

[فصل: من آيات النبوة ما ثبت بالقرآن أو بالتواتر]

وقد ذكرنا بعض آياته التي في القرآن؛ لأن من أهل الكتاب من يقول: لا نصدق إلا بما في القرآن كما في التوراة، والإنجيل من آيات موسى، والمسيح إذ كان نقل القرآن عنه متواترا لا يستريب فيه أحد، فنبهنا على بعض ما في القرآن مع أن آياته التي ليست في القرآن كثيرة جدا. وليس من شرط المنقول المتواتر أن يكون في القرآن بل كما تواتر عنه في شريعته ما ليس في القرآن، وهو من الحكمة التي أنزلها الله عليه كذلك، وتواتر عنه من دلائل نبوته ما ليس في القرآن، وهو من براهينه وآياته، وقد قال تعالى: في غير موضع: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} [النساء: 113] فالحكمة نزلت عليه، وهي منقولة في غير القرآن، وقد تواتر عنه كون الصلوات خمسا، والفجر ركعتين، والمغرب ثلاثا، والباقي أربعا أربعا، والرباعية في السفر ركعتان، وتواتر عنه سجود السهو، كذلك متواتر عنه أنواع من المعجزات والأخبار المتواترة في أصناف آياته وبراهينه كثيرة جدا، لا يمكن إحصاؤها، وهي مشتملة على جنسي العلم، والقدرة على أنواع من الإخبار بالغيوب المستقبلة مفصلة، كأنما رآها بعينه، لم يأت منها خبر إلا كما أخبر به، وهذا أمر لم يكن قط إلا لنبي. أما الكاهن والمنجم ونحو هؤلاء فيكذبون كثيرا، كما يصدقون أحيانا، ويخبرون بجمل غير مفصلة. وأما أهل الولاية، والصلاح فأعظمهم كشفا يخبر عن ذلك بأمور قليلة لا تبلغ عشر معشار ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يخبرون بها مفصلة كخبره، وعلى أنواع من القدرة والتصرف الخارق للعادة، والآيات إما من باب العلم والخبر والمكاشفة، وإما من باب القدرة، والتأثير، والتصرف.

وفي القرآن من الإخبار بالمستقبلات شيء كثير، كقوله تعالى: {الم - غلبت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - في بضع سنين لله الأمر من قبل} [الروم: 1 - 4] ومن بعد فغلبت الروم فارس في بضع سنين، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فيما مضى، وكقوله تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} [النور: 55] ، وكان كما أخبر. وروى الدارمي، عن أبي بن كعب قال: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه المدينة، وآواهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين، لا نخاف إلا الله عز وجل، فنزلت: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات} [النور: 55] إلى آخر الآية» . وكان كذلك، استخلف الله المؤمنين في الأرض، ومكن لهم دينهم في مشارق الأرض ومغاربها. وقال تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا} [الفتح: 28] وكان كما أخبر ووعد، وقال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله} [الإسراء: 88] . وكان كما أخبر. وقال تعالى: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله} [البقرة: 23] إلى قوله: {فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين} [البقرة: 24] فأخبر أنهم لن يفعلوا، وكان كما أخبر. وأخبر أنه قال للمسيح: {وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة} [آل عمران: 55] ، وكان كما أخبر. وأنزل في مكة: {سيهزم الجمع ويولون الدبر} [القمر: 45] ، وقال:، {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا} [الفتح: 22] فكان كما أخبر. وقال: {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة} [المائدة: 14] ، وكانوا كما أخبر. وقال: {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله} [المائدة: 64] وكان كما أخبر.

وقال: {لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون - ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} [آل عمران: 111 - 112] ، وقال: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار} [الفتح: 22]

وقال: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم} [التوبة: 14] . وكان كذلك، فلم يقاتلوهم بعد نزول الآية إلا انتصر عليهم المسلمون، وما زال الإسلام في عز وظهور حتى ظهر على أهل المشرق والمغرب. وقال تعالى خطابا لليهود: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين - ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين -

ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا} [البقرة: 94 - 96] . وقال: {قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين} [الجمعة: 6] فأخبر عن اليهود أنهم لن يتمنوا الموت أبدا، وكان كما أخبر، فلا يتمنى اليهود الموت أبدا، وهذا دليل من وجهين: من جهة إخباره بأنه لا يكون أبدا، ومن جهة صرف الله لدواعي اليهود عن تمني الموت، مع أن ذلك مقدور لهم، وهذا من أعجب الأمور الخارقة للعادة، وهم - مع حرصهم على تكذيبه - لم تنبعث دواعيهم لإظهار تكذيبه، بإظهار تمني الموت. وقال في سورة المدثر: {ذرني ومن خلقت وحيدا - وجعلت له مالا ممدودا - وبنين شهودا} [المدثر: 11 - 13] إلى قوله {سأصليه سقر - وما أدراك ما سقر - لا تبقي ولا تذر} [المدثر: 26 - 28] . وقال عن أبي لهب - عمه -: {تبت يدا أبي لهب وتب - ما أغنى عنه ماله وما كسب - سيصلى نارا ذات لهب} [المسد: 1 - 3] ، وكان كما أخبر به، مات الوليد كافرا، ومات أبو لهب كافرا.

وقال في سورة الفتح: {وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين} [الفتح: 20] . وقال: {لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} [الفتح: 27] . وقال: {قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما} [الفتح: 16] . وهذا كله وقع كما أخبر، فحصلت لهم الغنائم الكثيرة، ودخلوا المسجد الحرام آمنين، ودعيت الأعراب إلى قتال الروم، والفرس يقاتلونهم أو يسلمون، فلا بد من القتال أو الإسلام، ليس هناك هدنة بلا قتال، كما كان يكون قبل نزول الآية.

وقال تعالى: {إذا جاء نصر الله والفتح - ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا - فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} [النصر: 1 - 3] . فدخل الناس في دين الله أفواجا بعد الفتح، فما مات صلى الله عليه وسلم، وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام. وقال تعالى عن المنافقين: {ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون - لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون} [الحشر: 11 - 12] . وكذلك كان، فروى أهل التفسير والمغازي والسير أن هذه الآية نزلت في المنافقين، كعبد الله بن أبي، وعبد الله. . . . .

بن نبتل، ورفاعة بن تابوت، ونحوهم، كانوا يقولون لبني النضير، وهم اليهود حلفاؤهم: {لئن أخرجتم لنخرجن معكم} [الحشر: 11] الآية. فأخبر الله عنهم أنهم لن يفعلوا ذلك، وكذلك كان، وضرب الله لهم مثلا بالشيطان: {إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين} [الحشر: 16] . كذلك المنافقون، وبنو النضير.

[فصل: إخباره عليه السلام بالكثير من الغيوب الماضية والمستقبلة ودلالتها على النبوة]

وآياته صلى الله عليه وسلم قد استوعبت جميع أنواع الآيات الخبرية والفعلية. وإخباره عن الغيب الماضي والحاضر والمستقبل بأمور باهرة، لا يوجد مثلها لأحد من النبيين قبله، فضلا عن غير النبيين. ففي القرآن من إخباره عن الغيوب شيء كثير - كما تقدم بعض ذلك - وكذلك في الأحاديث الصحيحة، مما أخبر بوقوعه، فكان كما أخبر. ففي الصحيحين عن حذيفة قال: «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه» .

وفي صحيح مسلم، عن أبي زيد عمرو بن أخطب قال: «صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر، وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى بنا، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، قال: وأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأحفظنا أعلمنا» . وفي صحيح البخاري، عن عدي بن حاتم قال: «بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل. فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها. قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله. قال: قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيئ، الذين قد سعروا البلاد؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قلت: كسرى بن هرمز! قال: كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله عنه، فلا يجد أحدا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له،

فيقولن له: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم. قال عدي: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة. قال عدي فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يخرج ملء كفه. قلت: وهذا الذي أخبر به من خروج الرجل بملء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله، ظهر كما أخبر في زمن عمر بن عبد العزيز» .

وفي صحيح مسلم، عن جابر بن سمرة، عن نافع بن عتبة قال: 7466 - «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة، قال: فأتى النبي صلى الله عليه وسلم قوم من قبل المغرب، عليهم ثياب الصوف، فوافقوه عند أكمة، فإنهم لقيام ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد، قال: فقالت لي نفسي: ائتهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه، قال: ثم قلت: لعله نجي معهم. فأتيتهم فقمت بينهم وبينه، قال: فحفظت منه أربع كلمات أعدهن في يدي. قال: تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله» .

وروى البخاري، عن عوف بن مالك قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، 3212 - وهو في قبة من أدم، فقال: اعدد ستا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفا» .

قلت: ففتح بيت المقدس بعد موته في خلافة عمر بن الخطاب، ثم بعد ذلك وقع الطاعون العظيم بالشام، طاعون عمواس في خلافة عمر أيضا، ومات فيه معاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجراح، وخلق كثير، وكان ذلك أول طاعون وقع في الإسلام، فكان ما أخبر به، حيث أخذهم طاعون كعقاص الغنم، ثم استفاض المال في خلافة عثمان بن عفان حتى كان أحدهم يعطى مائة دينار فيسخطها، وكثر المال حتى كانت الفرس تشترى بوزنها، ثم وقعت الفتنة العامة التي لم يبق بيت من العرب إلا دخلته لما قتل عثمان، ووقعت الفتنة بين المسلمين أو الملوك، يوم الجمل، ويوم صفين. وفي الصحيحين عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تدعو الله لنا، ألا تستنصر لنا، قال: فجلس محمرا وجهه، ثم قال: والله إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيمشط بأمشاط الحديد ما بين لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويؤخذ فتحفر له الحفرة فيوضع المنشار على رأسه، فيشق باثنتين ما يصرفه عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل أو الذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون» وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر» . قلت: وهؤلاء الطوائف كلهم قاتلهم المسلمون كما أخبر صلى الله عليه وسلم، وأمر هذه الطوائف معروف، فإن قتال الترك من التتار وغيرهم الذين هذه صفتهم معروف مشهور، وحديثهم في أكثر من عشرة آلاف نسخة كبار وصغار من كتب المسلمين، قبل قتال هؤلاء الذين ظهروا من ناحية المشرق، الذين هذه صفتهم التي لو كلف من رآهم بعينه أن يصفهم لم يحسن مثل هذه الصفة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: 7203 «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى» . وقد ظهرت هذه النار سنة بضع وخمسين وستماية، ورآها الناس، ورأوا أعناق الإبل قد أضاءت ببصرى، وكانت تحرق الحجر، ولا تنضج اللحم. وفي الصحيحين عن أبي سعيد، وأسماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية» . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده، وقيصر 55 ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله» . وفي الصحيحين عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله» .

وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لتفتحن عصابة من المسلمين، أو قال: من المؤمنين كنز آل كسرى الذي في الأبيض» . والأبيض قصر كان لكسرى، وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي بكرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه قال عن الحسن: أن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» .
قلت: فوقع هذا كما أخبر به، بعد موت الرسول بنحو ثلاثين سنة، وهو سنة أربعين من الهجرة، لما أصلح الله بالحسن بين الفئتين العظيمتين اللتين كانتا متحاربتين بصفين، عسكر علي، وعسكر معاوية. وفي الصحيحين عن ابن عباس «أن رجلا أتى

النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني رأيت الليلة ف المنام ظلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها بأيديهم، فمنهم المستكثر والمستقل، ثم إذا سبب واصل من الأرض إلى السماء فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل بعدك فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثم وصل له فعلا. قال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي لتدعني فلأعبره، فقال: أعبر. فقال أبو بكر: أما الظلة فظلة الإسلام، وأما الذي ينطف من السمن والعسل فالقرآن حلاوته ولينه، وأما ما يتكفف فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيعليك الله، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو، ثم يأخذ به رجل فيعلو، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به ثم يوصل له فيعلو به. فأخبرني يا رسول الله: أصبت أم أخطأت؟ فقال: أصبت بعضا وأخطأت بعضا. قال: فوالله يا رسول الله لتخبرني بالذي أخطأت. قال: لا تقسم» .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف - والله يغفر له - ثم استحالت غربا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن، وفي رواية: فاستحالت الدلو غربا في يد عمر» . قال الشافعي: رؤي الأنبياء وحي. وقوله: في نزعه ضعف، قصر مدته، وعجلة موته، وشغله بالحرب مع أهل الردة عن الافتتاح والتزيد الذي بلغه عمر في طول مدته. وفي الصحيحين عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه «أن امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك يا رسول الله؟ قال: أي كأنها تعني الموت، قال: إن لم تجديني فائتي أبا بكر» . وروى أبو داود الطيالسي، عن أبي ثعلبة الخشني، وعن أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة، وكائنا خلافة ورحمة، وكائنا ملكا عضوضا، وكائنا عنوة وجبرية، وفسادا في الأمة، يستحلون الفروج، والخمور والحرير، وينصرون على ذلك، ويرزقون أبدا حتى يلقوا الله عز وجل» . وروى أبو داود، عن سمرة بن جندب أن رجلا قال: «يا رسول الله، إني رأيت كأن دلوا دلي من السماء فجاء أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بعراقيها فشرب شربا ضعيفا، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء علي فأخذ بعراقيها فانتشطت وانتضح عليه منها شيء» . وفي السنن عن سفينة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة ثم تصير ملكا» . فكان هذا العام تمام الثلاثين سنة من موته، ودخل في ذلك خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «زويت لي الأرض مشارقها، ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها» . وفي صحيح مسلم: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال لي: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا» . وهذا أخبر به في أول الأمر، وأصحابه في غاية القلة قبل فتح مكة، وكان كما أخبر، فإن ملك أمته انتشر في الشرق والغرب، ولم ينتشر في الجنوب والشمال كانتشاره في الشرق والغرب؛ إذ كانت أمته أعدل الأمم؛ فانتشرت دعوته في الأقاليم التي هي وسط المعمور من الأرض، كالثالث والرابع والخامس، وقد تقدم قوله:

هلك كسرى فلا يكون كسرى بعده. وذاك كسرى بن هرمز آخر الأكاسرة المملكين، ثم ولي بعده ولاة متضعفون، فكان آخرهم يزدجرد، وإليه الإشارة باللفظ الآخر: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله» . وهذا أخبر به، وملك كسرى، وقيصر أعز ملك في الأرض، فصدق الله خبره في خلافة عمر وعثمان فهلك كسرى، وهو آخر الأكاسرة في خلافة عثمان بأرض فارس، ولم يبق بعده كسرى، ولم يبق للمجوس، والفرس ملك، وهلك قيصر الذي بأرض الشام، وغيرها، ولم يبق بعده من هو ملك على الشام، ولا مصر، ولا الجزيرة من النصارى، وهو الذي يدعى قيصر. قال: الشافعي: كانت قريش تنتاب الشام انتيابا كثيرا، وكان كثير من معاشها منه، وتأتي العراق فيقال: لما دخلت في الإسلام ذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم خوفها من انقطاع معاشها بالتجارة من الشام، والعراق إذا فارقت الكفر ودخلت في الإسلام، مع خلاف ملك الشام، والعراق لأهل الإسلام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا هلك كسرى فلا كسرى» بعده. فلم يبق بأرض العراق كسرى يثبت له أمر بعده. وقال: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده» . فلم يكن بأرض الشام قيصر، فأجابهم على ما قالوا، وكان كما قال قطع الله الأكاسرة عن العراق، وفارس، وقيصر عن الشام. وقال في كسرى: «مزق الله ملكه. فلم يبق للأكاسرة ملك، وقال في» قيصر: ثبت ملكه. فثبت ملكهم ببلاد الروم، وتنحى عن الشام، وكل هذا يصدق بعضه بعضا. وفي الصحيحين عن سفيان بن أبي زهير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تفتح اليمن فيأتي

قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم تفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» ، وفي رواية: فيخرج من المدينة. فأخبر صلى الله عليه وسلم بفتح اليمن، والشام، والعراق قبل أن يكون، وأخبر أنه يخرج من المدينة أقوام يتحملون بأهليهم، ومن أطاعهم إلى هذه الأمصار، ويطلبون الريف وسعة الرزق، قال: والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ستفتح مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا. وفي رواية: فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان على موضع لبنة فاخرج منها» .

فمر أبو ذر بعد فتح مصر بمدة بابني شرحبيل بن حسنة، وهما يتنازعان في موضع لبنة فخرج منها. وفي صحيح البخاري، عن سليمان بن صرد قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «حين أجلي الأحزاب عنه: الآن نغزوهم، ولا يغزونا» وكذلك كان. وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا فتحت عليكم فارس، والروم، أي قوم وأنتم» . قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أو غير ذلك؟ تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين فتحملون بعضهم على رقاب بعض» . وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة أنه «لما أنزل الله: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين - وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم} [الجمعة: 2 - 3] . سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء الآخرين، فقال: لو كان الدين معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس» . وفي لفظ: لو كان الإيمان، وفي لفظ: العلم. وكان كما أخبر، فإنه حصل في التابعين وتابعيهم، وهلم جرا، من أبناء فارس، مثل: الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، ومجاهد بن جبر، وأضعاف هؤلاء، من نالوا ذلك. «ولما نزل قوله تعالى: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين} [المائدة: 54] سئل عنهم، فقال: هم قوم هذا، وأشار إلى أبي موسى الأشعري، وقال: إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن» . وفي الصحيحين عنه أنه قال: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق قلوبا وألين أفئدة; الإيمان يماني، والفقه يماني، والحكمة يمانية.

فلما ارتد من ارتد عن الإسلام أتى الله بهؤلاء الذين يحبهم ويحبونه، فقاتل الصديق بهم أهل الردة، وغلب بهم أبو بكر، وعمر كسرى وقيصر. وقال لعثمان: إن الله مقمصك قميصا فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه» . وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: «بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط من حوائط المدينة، وهو متكئ يركز بعود في الماء والطين، إذ استفتح رجل فقال له: افتح وبشره بالجنة. فإذا هو أبو بكر ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر، فقال له: افتح له وبشره بالجنة. فذهبت فإذا هو عمر، ففتحت له، وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر، فقال له: افتح له، وبشره بالجنة على بلوى تصيبه. فذهبت فإذا هو عثمان ففتحت له، وبشرته بالجنة، فقلت له الذي قال، فقال: اللهم صبرا، والله المستعان» . وفي الصحيحين حديث حذيفة، «عن النبي صلى الله عليه وسلم في الفتن التي تموج موج البحر، وقال لعمر: إن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك ذلك الباب أن يكسر. فسأله مسروق من الباب, فقال: عمر» .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ستكون الفتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به. ورواه أبو بكرة، وقال فيه: فإذا وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق

بأرضه. قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت. فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين، أو إحدى الفئتين، فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار» . وفي صحيح أبي حاتم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ويل للعرب من شر قد اقترب، أو فتنة عمياء صماء بكماء، القاعد فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، ويل للساعي فيها من الله يوم القيامة» .

وفي الصحيحين عنه أنه قال: «إني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كمواقع القطر» . وفي الصحيحين من غير وجه أنه «لما قال له ذو الخويصرة: يا محمد، اعدل فإنك لم تعدل. فقال: ويحك، قد خبت وخسرت إن لم أعدل. فقال بعض أصحابه: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنه يخرج من ضئضئ هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم أن فيهم رجلا مخدج اليد على عضده مثل البضعة من اللحم تدردر، عليها شعرات» . وفي رواية في الصحيحين: «تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق» . وهؤلاء ظهروا بعد موته ببضع

وعشرين سنة في أواخر خلافة علي، لما افترق المسلمون، وكانت الفئة بين عسكر علي، وعسكر معاوية، وقتلهم علي بن أبي طالب، وأصحابه، وهم أدنى الطائفتين إلى الحق، والطائفة الأخرى قتلوا عمار بن ياسر، وهي الطائفة الباغية، وكان علي قد أخبرهم بهذا الحديث، وبعلامتهم فطلبوا هذا المخدج فلم يجدوه، حتى قام علي - بنفسه - ففتش عليه فوجده مقتولا فسجد شكرا لله. وفي الصحيح عنه أنه قال: «ستكون بعدي أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها، واجعلوا صلاتكم معهم نافلة» . وهؤلاء ظهروا بعده بمدة فكانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر، ويؤخرون العصر إلى اصفرار الشمس. وفي الصحيحين عنه أنه قال: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» . فلقوا بعده من استأثر عليهم، ولم يعطهم حقهم. وفي الصحيحين عنه أنه قال: «ستكون بعدي أمراء يطلبون منكم حقهم، ويمنعونكم حقكم، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله، قال: أدوا إليهم حقهم، واسألوا الله حقكم» . وفي الصحيحين عنه «أنه سار فاطمة فقال لها وهو في مرضه الذي توفي فيه: إني أقبض في مرضي هذا. ثم أخبرها أنها أول أهله لحوقا به. وفي رواية: وأخبرها أنها سيدة نساء المؤمنين» .
وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسرعكن بي لحاقا أطولكن يدا قالت: قالت فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا، فكانت أطولنا يدا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق» . وفي صحيح البخاري، وغيره، عن أم حرام، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم» . وفي صحيح البخاري، عن أم حرام أيضا قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا. قالت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. قالت: ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم. فقلت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: لا» . وغزاها المسلمون في خلافة معاوية، وكان يزيد أميرهم، وكان في العسكر أبو أيوب الأنصاري الذي نزل النبي صلى الله عليه وسلم في بيته لما قدم المدينة مهاجرا، ومات ودفن تحت سورها، وذكروا أنهم كانوا إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فيسقون.

ثم غزاها المسلمون مرة ثانية في خلافة عبد الملك غزاها ابنه مسلمة، وحصروها عدة سنين، وبنوا فيها مسجدا. وفي الصحيحين عن أنس قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته، وجعلت تفلي رأسه، فنام ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: مم تضحك؟ فقال: عرض علي ناس من أمتي يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة. فقالت أم حرام: ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ، وهو يضحك، فقالت: مم تضحك؟ فقال: عرض علي ناس من أمتي كما قال في الأولى، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين، قال أنس: فركبت البحر زمان معاوية بن أبي سفيان فصرعت عن دابتها لما خرجت من البحر فماتت» ، وهذا كان في خلافة عثمان، ومعاوية نائبه. وكان المسلمون في خلافة عمر لم يغزوا في البحر، وأول ما غزوا البحر في خلافة عثمان، وفتحوا جزيرة قبرص، وجاءوا بسبيها إلى دمشق، وكان أبو الدرداء حيا بدمشق فجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا الدرداء هذا يوم قد أعز الله فيه الإسلام؟ فقال: إنما أبكي أني رأيت هذه الأمة كانت قاهرة ظاهرة فأضاعت أمر الله فيه؛ فأصارها الله إلى ما ترون، ما أهون العباد على الله إذا ضيعوا أمره. وفي الصحيحين، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يسلط على أمتي عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها، وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» . وثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة» . وهذا أخبر به حين كانت أمته أقل الأمم فانتشرت الأمة في مشارق الأرض ومغاربها، وكان كما أخبر به، فإن هذه الأمة - ولله الحمد والمنة - لم يزل فيها طائفة ظاهرة بالعلم والدين والسيف، لم يصبها ما أصاب من قبلها من بني إسرائيل وغيرهم، حيث كانوا مقهورين مع الأعداء، بل إن غلبت طائفة في قطر من الأرض، كانت في القطر الآخر أمة ظاهرة منصورة، ولم يسلط على مجموعها عدوا من غيرهم، ولكن وقع بينهم اختلاف وفتن. وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» . وهؤلاء ظهروا بعده بمدة طويلة، وظهر النسوة بعد ذلك بسنين كثيرة، وعلى رءوسهن عمائم كأسنمة الجمال البخاتي، يسمون العمامة سنام الجمل.

وفي حديث مسلم، عن أسماء بنت أبي بكر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سيكون في ثقيف كذاب، ومبير، وظهر الكذاب من ثقيف، وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي أظهر التشيع والانتصار للحسين، وقتل عبيد الله بن زياد وغيره من قتلة الحسين، ثم أظهر أنه يوحى إليه، وأنه ينزل عليه، حتى قيل لابن عمر وابن عباس عنه، قيل لأحدهما: إنه يوحى إليه، وللآخر: إنه ينزل عليه. فقال أحدهما: {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم} [الأنعام: 121] ، وقال الآخر: {هل أنبئكم على من

تنزل الشياطين - تنزل على كل أفاك أثيم} [الشعراء: 221 - 222] ، وأما المبير فكان هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان مبيرا سفاكا للدماء بغير حق، انتصارا لملك عبد الملك بن مروان الذي استنابه. وفي الصحيحين، عن أبي هريرة أنه قال: لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثي فيجمعه إلى صدره، فإنه لن ينسى شيئا سمعه، فبسطت بردة علي حتى فرغ من حديثه، ثم جمعتها إلى صدري فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئا سمعته منه» . وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة، كلهم من قريش. وفي لفظ: إلى اثني عشر أميرا» ، وفي رواية لأبي داود الطيالسي: «كلهم يجتمع عليهم الأمة» ، وفي رواية، فقالوا: «ثم يكون ماذا؟ قال: ثم يكون الهرج» . قال أبو بكر البيهقي: وفي الرواية الأولى بيان العدد، وفي الأخرى بيان المراد بالعدد، وقد بين وقوع الهرج، وهو القتل بعدهم. وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم وقع الهرج والفتنة العظمى، وإنما يزيدون على العدد المذكور إذا تركت الصفة المذكورة فيه، أو عد معهم من كان بعد الهرج. وفي الصحيحين عن جابر قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لك من أنماط؟ قلت: يا رسول الله، وأنى يكون لي أنماط، فأنا أقول اليوم لامرأتي: نحي عنك أنماطك، فتقول: ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها ستكون لكم أنماط» . وفي الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينا أنا نائم أريت أنه وضع في يدي سواران من ذهب، ففظعتهما وكرهتهما، فأذن لي فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي» قال عبيد الله: أحدهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة. وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو مستقبل المشرق: ها، إن الفتنة ها هنا، إن الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان» . وفي بعض طرق البخاري: قام خطيبا فأشار بيده نحو مسكن عائشة فقال: وذكر الحديث. فالمشرق عن مدينته فيه البحرين، ومنها خرج مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة، وهو أول حادث حدث بعده، واتبعه خلائق، وقاتله خليفته الصديق، وروى أبو حاتم في صحيحيه عن جابر بن عبد الله قال: «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن بين يدي الساعة كذابين، منهم صاحب اليمامة، ومنهم صاحب صنعاء العنسي، ومنهم صاحب حمير، ومنهم الدجال، وهو أعظمهم فتنة» . وصاحب اليمامة هو مسيلمة. قال: وقال أصحابي: قال: هم قريب من ثلاثين كذابا. وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون، دجالون كذابون، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يفيض المال، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج. قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل القتل» . وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر قال: «ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمارا، وأردفني خلفه، ثم قال: يا أبا ذر، أين أنت إن أصاب الناس جوع شديد حتى لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع؟ فقال: الله ورسوله أعلم، قال: تعفف. قال: يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس موت شديد حتى يكون البيت بالعبد كيف تصنع؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: اصبر. يا أبا ذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك. فقال: أرأيت إن لم أترك؟ قال: فأت من أنت منه، فكن فيهم. قال: فآخذ سلاحي؟ قال: إذا تشاركهم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فأطلق طرف ردائك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه» . وفيه عن ابن مسعود قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في قبة من أدم، فيها أربعون رجلا، فقال: إنكم مفتوحون، ومنصورون، فمن أدرك ذلك الزمان منكم فليتق الله، وليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» . وأما الفتوح التي فتحت عليهم، والنصرة التي نصروا فقد أخبر به في أوائل مبعثه كما تقدم ذكره، ووقع ما أخبر به. وروى أبو حاتم في صحيحه، عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فأتته قريش، وأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل فقعد فيه، فشكوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا. قال: ما شأن قومك يشكونك يا ابن أخي؟ قال: يا عم، إنما أردتهم على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية. فقال: وما هي؟ قال: لا إله إلا الله. فقاموا، فقالوا: {أجعل الآلهة إلها واحدا} [ص: 5] ؟ قال: ونزلت: {ص والقرآن ذي الذكر} [ص: 1] إلى قوله: {إن هذا لشيء عجاب} [ص: 5] . وفي صحيح ابن حبان، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: لما أقبلت عائشة قربت ببعض مياه بني عامر طرقتهم ليلا فسمعت نباح الكلاب، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب، قالت: ما أظنني إلا راجعة. قالوا: مهلا - يرحمك الله - تقدمين فيراك المسلمون، فيصلح الله بك. قالت: ما أظنني إلا راجعة، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كيف بإحداكن ينبح عليها كلاب الحوأب؟» وفيه أيضا عن ابن أبي طالب قال: «قال لي عبد الله بن سلام، وقد وضعت رجلي في الغرز، وأنا أريد العراق: لا تأت العراق فإنك إن تأتهم أصابك ذنب السيف. قال علي: وايم الله لقد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أبو الأسود: فقلت في نفسي: ما رأيت كاليوم رجلا محاربا يحدث الناس بمثل هذا» . وهذا وأمثاله مما أخبر به صلى الله عليه وسلم من المستقبلات فوقع بعده كما أخبر، ورأى الناس ذلك. وأما ما أخبر به مما لم يقع إلى الآن فكثير، وقد أخبر بأشياء من المغيبات، ووقعت في زمانه، ووجدت كما أخبر، كما في الصحيحين عن سهل بن سعد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال يوم

خيبر: لأعطين هذه الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه» فكان كذلك. وفي الصحيحين، عن أبي هريرة قال: «شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا، فقال - لرجل ممن يدعي الإسلام -: هذا من أهل النار. فلما حضرنا القتال، قاتل الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الرجل الذي قلت له آنفا: إنه من أهل النار، فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا، وقد مات، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إلى النار. فكاد بعض المسلمين أن يرتاب، فبينا هم على ذلك إذ قيل: فإنه لم يمت، ولكن به جرحا شديدا، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله. ثم أمر بلالا فنادى في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» . ورواه سهل بن سعد. وفي الصحيحين، عن علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبا مرثد الغنوي، والزبير بن العوام، والمقداد، وكلنا فارس، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة معها كتاب من حاطب إلى المشركين. فأدركناها تسير على بعير لها خبب فقلنا لها: أين الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. قال: فأنخنا بها، فالتمسنا الكتاب في رحلها، فلم نر كتابا، قال: قلنا: ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. قال: فلما رأت أني أهويت إلى حجزتها، وهي محتجزة بكساء، أخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حاطب، ما هذا؟ قال: لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا، ولا ارتدادا عن ديني، ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه قد صدقكم. فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: إنه قد شهد بدرا، وما يدريك؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر. فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» . فكان في هذا الكتاب إخبار المشركين بأن النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يغزوهم، فأعلمه الله بذلك. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: «نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، فخرج إلى المصلى وكبر أربع تكبيرات» ، وفي رواية عن جابر، قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على أصحمة النجاشي» ، وفي لفظ من رواية أبي هريرة، قال: «قد مات اليوم عبد الله

صالح أصحمة. فأمنا، وصلى عليه» . وفي رواية عمران بن حصين قال: «إن أخاكم قد مات فصلوا عليه» . يعني النجاشي. وروى موسى بن عقبة، عن ابن شهاب، ورواها عروة بن الزبير، ومحمد بن إسحاق بمعناه، قال: ثم «إن المشركين اشتدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كأشد ما كانوا، حتى بلغ بالمسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، وأجمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله

إيمانا ويقينا. فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا الرسول صلى الله عليه وسلم، واجتمعوا على ذلك، اجتمع المشركون من قريش، فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودا ومواثيق، لا يقبلوا من بني هاشم أبدا صلحا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل. فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق فلم يتركوا طعاما يقدم مكة ولا بيعا إلا بادروهم إليه فاشتروه؛ يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله عليه وسلم. زاد ابن إسحاق في روايته قال: حتى كان يسمع صوت صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، وعدوا على من أسلم، فأوثقوهم، وآذوهم، واشتد البلاء عليهم، وعظمت الفتنة، وزلزلوا زلزالا شديدا. قال موسى بن عقبة في تمام حديثه: وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكرا به واغتياله، فإذا نوم الناس أمر أحد بنيه أو إخوته، أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه. فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف، ومن بني قصي، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء بني هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم، واستخفوا بالحق، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر، والبراءة منه، وبعث الله عز وجل على صحيفتهم التي فيها المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق، ويقال: كانت معلقة في سقف البيت فلم تترك اسما لله عز وجل فيها إلا لحسته، وبقي ما فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم، وأطلع الله رسوله على الذي صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب فقال أبو طالب: لا والثواقب ما كذبني فانطلق يمشي بعصابة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من

قريش، فلما رأوهم عامدين بجماعتهم أنكروا ذلك، وظنوا أنهم أخرجوا من شدة البلاء، فأتوهم ليعطوهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلم أبو طالب، فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم، فائتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها، فلعله أن يكون بينكم وبيننا صلح، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في صحيفتهم قبل أن يأتوا بها، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها، لا يشكون أن الرسول مدفوع إليهم، فوضعوها بينهم، وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطرا لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم. فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمرا فيه نصف، فإن ابن أخي أخبرني، ولم يكذبني أن الله عز وجل بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، ومحا كل اسم هو له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا، وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا فوالله لا نسلمه أبدا حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي قال باطلا دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه. قالوا: قد رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قد أخبر خبرها، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا: والله إن كان هذا إلا سحر من صاحبكم، فارتكسوا وعادوا لشر ما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وعلى رهطه والقيام بما تعاهدوا عليه. فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب: إن أولى بالسحر والكذب غيرنا، فكيف ترون؟ فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم، وهي في أيديكم طمس الله ما كان فيها من اسم، وما كان فيها من بغي تركه. أفنحن السحرة أم أنتم؟ فقال عند ذلك النفر من بني عبد مناف، وبني قصي ورجال من قريش ولدتهم نساء بني هاشم منهم أبو البختري، والمطعم بن عدي، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة، وزمعة بن الأسود، وهشام بن عمرو، وكانت الصحيفة عنده، وهو من بني عامر بن لؤي في رجال من أشرافهم، ووجوههم، نحن براء مما في هذه الصحيفة، فقال أبو جهل: هذا أمر قد قضي بليل. وأنشأ أبو طالب يقول في ذلك الشعر، في شأن صحيفتهم، ويمتدح النفر الذين تبرءوا منها، ونقضوا ما كان فيها من عهد، ويمتدح النجاشي. قال موسى بن عقبة: فلما أفسد الله صحيفة مكرهم، خرج

النبي صلى الله عليه وسلم فعاشوا وخالطوا الناس» . وفي صحيح البخاري، عن عبد الله بن مسعود، قال: «انطلق سعد بن معاذ معتمرا، فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية بن خلف إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد بن معاذ فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت. قال: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت، فطفت، قال: فخرج به قريبا من نصف النهار فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ قال: هذا سعد. فقال أبو جهل: ألا أراك تطوف

بالبيت آمنا، وقد أويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما، فقال له سعد وقد رفع صوته عليه: لئن منعتني من هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة. قال: فقال له أمية: لا ترفع صوتك على أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا منك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنه قاتلك. قال: بمكة؟ قال: لا أدري. ففزع لذلك أمية فزعا شديدا، وقال: والله ما يكذب محمد فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان ألم تري إلى ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدا أخبرهم أنه قاتلي، فقلت له: بمكة؟ فقال: لا أدري، فقالت: والله ما يكذب محمد فقال أمية: والله لا أخرج من مكة. فلما كان يوم بدر استنصر أبو جهل الناس، فقال: أدركوا عيركم. قال: فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، إنك متى يراك الناس قد تخلفت، وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل أبو جهل حتى قال: إذ غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة قال: يا أم صفوان جهزيني. فقالت له: يا أبا صفوان قد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي. قال: لا، وما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا. قال: فلما خرج أمية جعل لا ينزل منزلا إلا عقل بعيره فلم يزل كذلك حتى قتله الله ببدر» . وعن كعب بن مالك قال: «كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما بلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم حلفته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أنا أقتله - إن شاء الله عز وجل -. فأقبل أبي مقنعا في الحديد، وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير من بني عبد الدار يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر النبي صلى الله عليه وسلم ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه فيها بحربته، فوقع أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم فأتاه أصحابه، فاحتملوه، وهو يخور خوار الثور، فقالوا: ما أجزعك! إنما هو خدش، فذكر لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أقتل أبيا، ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، فمات إلى النار» . ورواه موسى بن عقبة، عن ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب، وذكره الواقدي بإسناده، وهذا لفظه، وهو مما ذكره عروة بن الزبير في مغازيه، وابن إسحاق، وغيره. وذكر موسى بن عقبة في مغازيه «أن عمير بن وهب الجمحي لما رجع فل المشركين إلى مكة، وقد قتل الله من قتل منهم، أقبل عمير حتى

جلس إلى صفوان بن أمية في الحجر، فقال صفوان: قبح الله العيش بعد قتلى بدر. قال: أجل، والله ما في العيش خير بعدهم، ولولا دين علي لا أجد له قضاء، وعيال لا أدع لهم شيئا لرحلت إلى محمد فقتلته إن ملأت عيني منه، فإن لي عنده علة أعتل بها، أقول قدمت على ابني أفدي هذا الأسير، ففرح صفوان بقوله، وقال له: علي دينك، وعيالك أسوة عيالي في النفقة، فحمله صفوان وجهزه، وأمر بسيف عمير فصقل وسم، فأقبل عمير حتى قدم المدينة فنزل بباب المسجد، وعقل راحلته، وأخذ السيف فعمد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر عمر بن الخطاب إليه، وهو في نفر من الأنصار يتحدثون، فقال عمر: عندكم الكلب، هذا عدو الله الذي حرش بيننا

يوم بدر، وحزرنا للقوم. ثم قام عمر حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أقدمك؟ قال: أسيري عندكم، ففادونا في أسرائنا فإنكم العشيرة والأهل، قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال عمير: قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا شيئا؟ إنما نسيته في عنقي حين نزلت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اصدقني ما أقدمك؟ قال: ما قدمت إلا في أسيري. قال: فماذا شرطت لصفوان بن أمية في الحجر؟ ففزع عمير وقال: ماذا شرطت؟ ! قال: تحملت له بقتلي على أن يعول بيتك، ويقضي دينك، والله حائل بينك وبين ذلك. فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، وأن لا إله إلا الله، كنا نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وهذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر لم يطلع عليه أحد غيري وغيره، فأخبرك الله به» . وذكر بقية الحديث.

وفي صحيح البخاري، عن أنس قال: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أقواما من بني سليم إلى بني عامر في سبعين، فلما قدموا قال لهم خالي: أتقدمكم فإن أمنوني حتى أبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلا كنتم مني قريبا، فأمنوه، فبينما هو يحدثهم عن النبي صلى الله عليه وسلم إذ أومئوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه، قال: فزت ورب الكعبة، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلا أعرج صعد الجبل وآخر معه، فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد لقوا ربهم فرضي الله عنهم وأرضاهم. فكنا نقرأ أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، ثم نسخ فدعا عليهم أربعين صباحا على رعل، وذكوان وبني لحيان، وعصية الذين عصوا الله ورسوله، وكان في هؤلاء عامر بن فهيرة قال عنه عامر بن الطفيل: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض» . وفي الصحيحين من حديث أبي حميد الساعدي قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فأتينا وادي القرى على حديقة لامرأة، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: أخرصوها، فخرصناها، وخرصها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أوسق، قال: أحصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله تعالى، فانطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقم فيها أحد فمن كان له بعير فليشد عقاله فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيئ. وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس قال: كان الذي أسر العباس بن عبد المطلب أبو اليسر بن عمرو وهو كعب بن عمرو أحد بني سلمة. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أسرته يا أبا اليسر؟ فقال: لقد أعانني عليه رجل ما رأيته بعد، ولا قبل، هيئته كذا وكذا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أعانك عليه ملك كريم. وقال للعباس: يا عباس، افد نفسك، وابن أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن جحدم أخو بني الحارث بن فهر. قال: فإني قد كنت مسلما قبل ذلك وإنما استكرهوني. قال: الله أعلم بشأنك، إن يك ما تدعي حقا فالله يجزيك بذلك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ منه عشرين أوقية ذهبا. فقال: يا رسول الله، احسبها لي من فداي. قال: لا، ذلك شيء أعطانا الله منك. قال: فإنه ليس لي مال. قال: فأين المال الذي وضعته بمكة حين خرجت عند أم الفضل وليس معك أحد غيركما؟ فقلت: إن أصبت في سفري هذا فللفضل كذا، ولقثم كذا، ولعبد الله كذا. قال فوالذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من الناس غيري وغيرها وإني أعلم أنك لرسول الله» .

وفي صحيح البخاري «لما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم الجيش في غزوة مؤتة، وأمر عليهم زيد بن حارثة، وقال إن قتل فجعفر فإن قتل فعبد الله بن رواحة. فروى البخاري، عن أنس بن مالك قال: نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا، وجعفرا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، وإن عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم لتذرفان، ثم أخذها خالد بن الوليد سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم» .

[فصل: آياته صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير]

[انشقاق القمر وحراسة السماء بالشهب من دلائل النبوة]

وآياته صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع، الأول منها: ما هو في العالم العلوي كانشقاق القمر، وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة لما بعث، كمعراجه إلى السماء، فقد ذكر الله انشقاق القمر، وبين أن الله فعله، وأخبر به لحكمتين عظيمتين:

أحدهما: كونه من آيات النبوة، لما سأله المشركون آية، فأراهم انشقاق القمر.

والثانية: أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك، وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السماوات، ولهذا قال تعالى:

{اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: 1] (1) {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} [القمر: 2] (2) {وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر} [القمر: 3] (3) {ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر} [القمر: 4] (4) {حكمة بالغة فما تغن النذر} [القمر: 5] (5) {فتول عنهم يوم يدعو الداعي إلى شيء نكر} [القمر: 6] (6) {خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر} [القمر: 7] (7) . فذكر اقتراب الساعة، وانشقاق القمر، وجعل الآية في انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب؛ لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك؛ إذ هو الجسم المستنير الذي يظهر فيه الانشقاق لكل من يراه ظهورا لا يتمارى فيه، وأنه - نفسه - إذا قبل الانشاق فقبول محله أولى بذلك، وقد عاينه الناس وشاهدوه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار مثل: صلاة الجمعة، والعيدين ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة، ودلائلها، والاعتبار بما فيها. وكل الناس يقر بذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوما عند الناس عامة. وفي صحيح مسلم «أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأضحى، والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما ب {ق والقرآن المجيد} [ق: 1] ، و {اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: 1] » . ومعلوم بالضرورة في مطرد العادة، أنه لو لم يكن انشق لأسرع المؤمنون به إلى تكذيب ذلك، فضلا عن أعدائه الكفار، والمنافقين، ومعلوم أنه كان من أحرص الناس على تصديق الخلق له، واتباعهم إياه، فلو لم يكن انشق لما كان يخبر به ويقرؤه على جميع الناس، ويستدل به، ويجعله آية له. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «إن أهل مكة سألوا نبي الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين» .

وعنه قال: «إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فانشق القمر فرقتين» . ورواه الترمذي، وزاد فيه فنزلت: {اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: 1] . إلى قوله تعالى: {سحر مستمر} [القمر: 2] . يقول: ذاهب. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقتين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا»

«وعن ابن مسعود أيضا قال: رأيت القمر منشقا شقتين بمكة قبل مخرج النبي صلى الله عليه وسلم، شقة على جبل أبي قبيس، وشقة على السويداء فقال كفار قريش - أهل مكة -: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار فإن كانوا رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، وإن لم يكونوا رأوا مثل ما رأيتم فهو سحر. قال: فسئل السفار، وقدموا من كل وجه، فقالوا: رأينا» . رواه البخاري، ومسلم.

وروى البخاري، عن ابن عباس أنه قال: انشق القمر على زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى مسلم، «عن ابن عمر في قوله تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: 1] . قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشق القمر فلقتين، فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اشهد» . وعن جبير بن مطعم قال: انشق القمر ونحن بمكة حتى صار فرقتين على هذا الجبل، وعلى هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد! قال رجل: إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم. رواه الترمذي. وكذلك صعوده ليلة المعراج إلى ما فوق السماوات، وهذا مما تواترت به الأحاديث، وأخبر به القرآن، أخبر بمسراه ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس، وفي موضع آخر بصعوده إلى السماوات، فقال تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير} [الإسراء: 1] . فأخبر هنا بمسراه ليلا بين المسجدين، وأخبر أنه فعل ذلك ليريه من آياته. ومعلوم أن الأرض قد رأى سائر الناس ما فيها من الآيات، فعلم أن ذلك ليريه آيات لم يرها عموم الناس، كما قال في السورة الأخرى: {أفتمارونه على ما يرى} [النجم: 12] (12) {ولقد رآه نزلة أخرى} [النجم: 13] (13) {عند سدرة المنتهى} [النجم: 14] (14) {عندها جنة المأوى} [النجم: 15] (15) {إذ يغشى السدرة ما يغشى} [النجم: 16] (16) {ما زاغ البصر وما

طغى} [النجم: 17] (17) {لقد رأى من آيات ربه الكبرى} [النجم: 18] . وفي الصحيحين «عن ابن عباس في قوله تعالى: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} [الإسراء: 60] . قال: هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به» . فكان في إخباره بالمسرى - لنريه من آياتنا - بيان أنه رأى من آياته ما لم يره الناس، وقد بين ذلك في السورة الأخرى فإنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى: {عندها جنة المأوى} [النجم: 15] (15) {إذ يغشى السدرة ما يغشى} [النجم: 16] .

وأنه رأى بالبصر آيات ربه الكبرى، وذكر في تلك السورة المسرى؛ لأنه أمكنه أن يقيم عليه برهانا. فإنه لما أخبرهم به فكذبه من كذبه، وتعجبوا من ذلك، سألوه عن نعته وصفته، فنعته لهم لم يخرم من النعت شيئا، وأخبر خبر عيرهم التي كانت في الطريق، فظهر لهم صدقه، وكان صدقه في هذا آية على صدقه فيما غاب عنهم، وكان قطع المسافة البعيدة في الزمان اليسير لأجل ما أراه من الآيات التي تختص برؤيتها الأنبياء. وبهذا تميز عمن يقطع المسافة كرامة لولي أو بتسخير الجن، كما في قصة بلقيس حيث: {قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين} [النمل: 39] (39) {قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك} [النمل: 40] فإن قطع الجسم للمسافة البعيدة إنما كان لما أوتيه سليمان من الملك، كما كانت الريح: {تجري بأمره رخاء حيث أصاب} [ص: 36] (36) {والشياطين كل بناء وغواص} [ص: 37] (37) {وآخرين مقرنين في الأصفاد} [ص: 38] (38) . وهذا تسخير ملكي. وقطع محمد صلى الله عليه وسلم كان لما أراه الله من الآيات التي ميزه بها على سائر النبيين، وكان ذلك فتنة: أي محنة وابتلاء للناس، ليتبين من يؤمن به ممن يكذبه. وأحاديث المعراج وصعوده إلى ما فوق السماوات، وفرض الرب عليه الصلوات الخمس حينئذ، ورؤيته لما رآه من الآيات، والجنة والنار، والملائكة والأنبياء، في السماوات والبيت المعمور، وسدرة المنتهى، وغير ذلك، معروف متواتر في الأحاديث، وهذا النوع لم يكن لغيره من الأنبياء مثله، يظهر به تحقيق قوله تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} [البقرة: 253] . فالدرجات التي رفعها محمد ليلة المعراج، وسيرفعها في الآخرة في المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، الذي ليس لغيره مثله ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، وأبي ذر، ومن رواية ابن عباس، وأبي حبة الأنصاري، وغيرهم.

«فروى أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى بصره، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس. قال: فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. قال: ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وبعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. قال: ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى، ويحيى بن زكريا عليهما السلام، فرحبا بي، ودعوا لي بخير، ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن قال: فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس صلى الله عليه وسلم فرحب ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: {ورفعناه مكانا عليا} [مريم: 57] ، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون صلى الله عليه وسلم، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل أوقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى عليه السلام، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: رب، خفف عن أمتي، فحط عني خمسا، فرجعت إلى موسى عليه السلام، فقلت: حط عني خمس، قال: فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك

وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال لي: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام، فأخبرته، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه» . وفي رواية قال: «فأتيت فانطلق بي إلى زمزم فشرح عن صدري، ثم غسل بماء زمزم، ثم أنزلت طست من ذهب مملوءة حكما وإيمانا، فحشي بها صدري. وفي رواية: فشق من النحر إلى مراق البطن» . وقال عن البيت المعمور: «فقلت: ما هذا؟ قال: بناء بناه الله لملائكته يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك يقدسون الله ويسبحونه، لا يعودون إليه» . وفي حديث أبي ذر: «فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن سماء الدنيا: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد صلى الله عليه وسلم. فلما علونا السماء فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، قال: فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، قال: مرحبا بالابن الصالح، والنبي الصالح. قال: قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه، وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار» . قال الزهري: وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس، وأبا حبة الأنصاري يقولان: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع منه صريف الأقلام» . وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن مسعود قال: «لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها، قال: {إذ يغشى السدرة ما يغشى} [النجم: 16] قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله شيئا من أمته المقحمات» . وعنه «في قوله عز وجل: {فكان قاب قوسين أو أدنى} [النجم: 9] . قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح» . وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه» . وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط، قال: فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به» . وصعود الآدمي ببدنه إلى السماء قد ثبت في أمر المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فإنه صعد إلى السماء، وسوف ينزل إلى الأرض، وهذا مما يوافق النصارى عليه المسلمين، فإنهم يقولون: إن المسيح صعد إلى السماء ببدنه وروحه كما يقوله المسلمون، ويقولون: إنه سوف ينزل إلى الأرض أيضا كما يقوله المسلمون، وكما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة، لكن كثيرا من النصارى يقولون: إنه صعد بعد أن صلب، وأنه قام من القبر، وكثير من اليهود يقولون: إنه صلب ولم يصعد، ولم يقم من قبره. وأما المسلمون وكثير من النصارى فيقولون: إنه لم يصلب ولكن صعد إلى السماء بلا صلب. والمسلمون، ومن وافقهم من النصارى يقولون: إنه ينزل إلى الأرض قبل القيامة، وأن نزوله من أشراط الساعة كما دل على ذلك الكتاب والسنة. وكثير من النصارى يقولون: إن نزوله هو يوم القيامة، وإنه هو الله الذي يحاسب الخلق، وكذلك إدريس صعد إلى السماء ببدنه، وكذلك عند أهل الكتاب أن إلياس صعد إلى السماء ببدنه. ومن أنكر صعود بدن إلى السماء من المتفلسفة فعمدته شيئان:

أحدهما: أن الجسم الثقيل لا يصعد، وهذا في غاية الضعف، فإن صعود الأجسام الثقيلة إلى الهواء مما تواترت به الأخبار في أمور متعددة، مثل عرش بلقيس الذي حمل من اليمن إلى الشام في لحظة، ولما قال سليمان: {يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين - قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين - قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم - قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون} [النمل: 38 - 41] . ومثل حمل الريح لسليمان عليه السلام وعسكره لما كان يحمل البساط في الهواء، وهو جالس عليه بأصحابه، ومثل حمل قرى قوم لوط، ثم إلقائها في الهواء، ومثل المسرى إلى بيت المقدس الذي ظهر صدق الرسول بخبره. وبهذا يظهر جوابهم عن إنكارهم انشقاق القمر، فإن عمدتهم فيه أن الفلك لا يقبل الانشقاق، وقد عرف فساد ذلك عقلا وسمعا، وتواتر عن الأنبياء أنهم أخبروا بانشقاق السماوات، وإيضاح الرد على هؤلاء أن ما يثبتونه من أن الحركة لا بد لها من جهة ومحدد يحدد الجهات، إنما يدل على الافتقار إلى جنس المحدد، لا يدل على الاحتياج إلى محدد معين. فإذا قدر أنه خلق وراء المحدد محددا آخر، وخرق الأول حصل به المقصود، وهكذا عامة أدلتهم، إنما تدل على شيء مطلق، لكن يعينونه بلا حجة فيغلطون في التعيين، كدليلهم على دوام الفاعلية أو الحركة، أو زمانها، فإن ذلك لا يدل على الحركة الفلكية، وأن الزمان هو مقدار الحركة،

بل إذا كان الله قد خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كما أخبرت به الرسل، لم تكن تلك الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض هي مقدار حركة الشمس التي هي مما خلق في تلك الأيام. بل وقد أخبر الله تعالى أنه كان عرشه على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، وأخبر أنه خلق السماوات من دخان، وهو بخار الماء. فإذا كان قبل هذه الحركات المشهودة حركات أخر لأجسام غير هذه الأجسام المشهودة، لم يكن هذا مناقضا لما دل عليه العقل.

ورجال كثير في زماننا وغير زماننا يحملون من مكان إلى مكان في الهواء، وهذا مما تواتر عندنا وعند من يعرف ذلك.
وأيضا فمعلوم أن النار والهواء الخفيف تحرك حركة قسرية فيهبط، والتراب والماء الثقيلان يحركان حركة قسرية فيصعد، وهذا مما جرت به العادة.

والشبهة الثانية: ظن بعض المتفلسفة كأرسطو وشيعته، أن الأفلاك لا تقبل الانشقاق، وحجتهم على ذلك في غاية الضعف، فإنهم قالوا: لو كانت تقبل الانشقاق لكان المحدد للأفلاك المحرك لها يتحرك حركة مستقيمة، والحركة المستقيمة تحتاج إلى خلاء خارج العالم، ولا خلاء هناك. وهذه الحجة فاسدة من وجوه: منها: أنها تدل على ذلك في الفلك الأعلى، لا فيما دونه، كفلك القمر وغيره، وهذا مما أجابهم به الرازي وغيره. ومنها: أن وجود أجسام خارج الفلك كوجود الفلك في حيزه يحتاج إلى خلاء. وقوله بنفي الخلاء خارجه كقوله بنفي الخلاء عن حيزه، فإن كان الخلاء عدما محضا فهو منتف في الجانبين. وإن قيل: إنه أمر وجودي لزم أن يحتاج إليه في الموضعين، وحينئذ فيبطل القول بنفيه. وكذلك ما يذكرونه في قدم العالم، فليس مع القوم دليل واحد عقلي صحيح يناقض ما أخبرت به الرسل، ولكن قد تناقض ما يظنه بعض أهل الكلام من دين الرسل كما قد بسط في غير هذا الموضع.

[من آيات النبوة استسقاؤه صلى الله عليه وسلم ونزول المطر بدعائه]

والنوع الثاني: آيات الجو، كاستسقائه صلى الله عليه وسلم، واستصحائه، وطاعة السحاب له، ونزول المطر بدعائه صلى الله عليه وسلم. ففي الصحيحين «عن أنس بن مالك أن رجلا دخل المسجد في يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يخطب، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما، ثم قال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، ثم قال: اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا. قال أنس: فلا والله ما نرى في السماء من سحاب، ولا من قزعة، وأن السماء لمثل الزجاجة، وما بيننا وبين سلع من دار فوالذي نفسي بيده ما وضع يديه حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر عن لحيته. وفي رواية أخرى: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال: فلا والله ما رأينا الشمس سبتا، قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يخطب، فاستقبله قائما فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام، والظراب، وبطون الأودية، ومنابت الشجر. قال: فما يشير بيده إلى ناحية إلا تفرجت حتى رأيت المدينة في مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهرا، ولم يجئ أحد من ناحية إلا أخبر بجود» . ومن هذا الباب: نصر الله بالريح التي قال الله فيها: {ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا} [الأحزاب: 9] قال مجاهد: يعني ريح الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى كفأت قدورهم على أفواهها، ونزعت فساطيطهم. وجنودا لم تروها: يعني الملائكة. وفي صحيح مسلم، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور» . وفي المغازي والسير قصة الأحزاب، وكيف أرسلت عليهم الريح والملائكة، وانهزموا بغير قتال معروف.

[تصرفه عليه السلام في الحيوان من آيات النبوة]

والنوع الثالث: تصرفه في الحيوان: الإنس، والجن، والبهائم فروي عن عبد الله بن جعفر قال: «أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأسر إلي حديثا لا أحدث به أحدا من الناس، قال: وكان أحب ما استتر به هدف أو حائش نخل، فدخل حائط رجل من الأنصار، فإذا جمل فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح رأسه، وذفراه فسكن، قال: لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إلي أنك تجيعه، وتدئبه» .

روى مسلم بعضه وبعضه على شرطه، ورواه أبو داود وغيره. وروى أحمد، والدارمي، وغيرهما عن جابر قال: «أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا

شد عليه، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فجاء حتى أتى الحائط فدعا البعير، فجاء واضعا مشفره إلى الأرض، حتى برك بين يديه، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هاتوا خطاما. فخطمه ودفعه إلى صاحبه. قال: ثم التفت إلى الناس فقال: إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس» . وروى الطبراني، عن جابر قال: «خرجنا في غزوة ذات الرقاع حتى إذا كنا بحرة واقم، عرضت امرأة بدوية بابن لها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان، قال: فأدنيه مني، فأدنته، فقال: افتحي فمه، فبصق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقال: اخسأ عدو الله، وأنا رسول الله، ثلاث مرات ثم قال: شأنك بابنك، ليس عليه بأس فلن يعود إليه شيء مما كان يصيبه» وذكر قصة الشجرتين إلى أن قال: «فنزلنا في واد من أودية بني محارب فعرض له رجل من بني محارب يقال له: غورث بن الحارث، والنبي صلى الله عليه وسلم متقلد سيفه، فقال: يا محمد، أعطني سيفك هذا، فسله فناوله إياه، ونظر إليه ساعة، ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فارتعدت يده حتى سقط السيف من يده، فتناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا غورث، من يمنعك مني؟ قال: لا أحد، قال: ثم أقبلنا راجعين، فجاء رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعش طير يحمله، وفيه فراخ، وأبواه يتبعانه، ويقعان على يد الرجل، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على من كان معه، فقال: أتعجبون بفعل هذا الطير، وبفراخهما؟ زاد في رواية: فربكم أرحم بكم من هذا الطير بفراخه، ثم أقبلنا راجعين حتى إذا كنا بحرة واقم عرضت لنا المرأة التي جاءت بابنها بوطب من لبن وشاة، فأهدته له، فقال: ما فعل ابنك؟ هل أصابه شيء مما كان يصيبه؟ قالت: لا، والذي بعثك بالحق ما أصابه شيء مما كان يصيبه، وقبل هديتها، ثم أقبلنا راجعين حتى إذا كنا بمهبط من الحرة، أقبل جمل يرقل، فقال: أتدرون ما قال هذا الجمل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا جمل جاءني يستعدي على سيده،

يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين، حتى إذا أجربه، وأعجفه، وكبر سنه أراد نحره، اذهب معه يا جابر إلى صاحبه فائت به. فقلت: ما أعرف صاحبه يا رسول الله. قال: إنه سيدلك عليه. قال: فخرج بين يدي معنقا حتى وقف بي في مجلس بني خطمة فقلت: أين رب هذا الجمل؟ قالوا: فلان، فجئته، فقلت: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فخرج معي حتى جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن جملك هذا يستعدي عليك، يزعم أنك حرثت عليه زمانا حتى أجربته، وأعجفته، وكبر سنه، ثم أردت نحره. قال: والذي بعثك بالحق إن ذلك كذلك. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعنيه. قال: نعم يا رسول الله، فابتاعه منه ثم سيبه في الشجر حتى نصب سناما، فكان إذا اعتل على بعض المهاجرين والأنصار من نواضحهم شيء أعطاه أياه فمكث بذلك زمانا» . وهذا الحديث له شواهد، أخرج أهل الصحيح منه قصة الشجرتين، وقصة الذي شهر السيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقصة الطير رواها أبو داود الطيالسي، وقصة الصبي ذكرها غير واحد. وروى الإمام أحمد في مسنده عن يعلى بن مرة الثقفي قال: «ثلاثة أشياء رأيتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، بينا نحن نسير معه إذ مررنا ببعير يسنى عليه، فلما رآه البعير جرجر ووضع جرانه بالأرض، فوقف عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أين صاحب هذا البعير؟ فجاء، فقال: بعنيه. فقال: بل نهبه لك، وهو لأهل بيت، ما لهم معيشة غيره. قال: أما إذ ذكرت هذا من أمره، فإنه شكا كثرة العمل وقلة العلف، فأحسنوا إليه. وفي رواية: أنهم أرادوا نحره. ثم سرنا فنزلنا منزلا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: انطلق إلى هاتين الشجرتين، فقل لهما: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لكما: أن تجتمعا. فانطلقت، فقلت لهما ذلك، فانتزعت كل واحدة منهما من أصلها، فنزلت كل واحدة إلى صاحبتها فالتفتا جميعا، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته من ورائهما، ثم لما فرغ عادت كل واحدة منهما مكانها بأمره. وأتته امرأة بصبي لها به لمم، فقالت: يا رسول الله، إن ابني هذا به لمم منذ سبع سنين، يأخذه في كل يوم مرتين فتفل النبي صلى الله عليه وسلم في فيه، وقال: اخرج عدو الله أنا رسول الله. فبرئ، فلما رجعنا جاءت أم الغلام بكبشين وشيء من أقط، قالت: والذي بعثك بالحق ما رأينا منه ريبا بعدك، فأخذ أحد الكبشين، والأقط، ورد الكبش الآخر» .

وروى هذه القصة أبو يعلى الموصلي، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، ورواه الحاكم في صحيحه قال: سافرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيت منه عجبا، وذكر الحديث. وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: للمرأة لما أخرج الشيطان من ابنها إذا رجعنا فأعلمينا ما صنع. ورواه الدارمي أيضا. وروى الدارمي، عن ابن عباس «أن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إن ابني به جنون، وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا، فيخبث علينا، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره، ودعا فثغ ثغة، خرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفي» . وروى أبو داود الطيالسي، عن ابن مسعود قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فدخل رجل غيضة، فأخرج منها بيضة حمرة، فجاءت الحمرة ترف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، فقال: أيكم فجع هذه؟ فقال رجل من القوم:

أنا أخذت بيضتها. فقال: رده رحمة لها» . وروى الحاكم في صحيحه عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ركبنا البحر في سفينة، فانكسرت السفينة، فركبت لوحا من ألواحها، فطرحني في أجمة فيها أسد فلم يرعني إلا به.

فقلت: يا أبا الحارث، أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطأطأ رأسه، وغمز بمنكبه شقي فما زال يغمزني ويهديني الطريق حتى وضعني على الطريق، فلما وضعني على الطريق همهم فظننت أنه يودعني. وروى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة قالت: «كان لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحش، إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتد ولعب وأقبل وأدبر، فإذا أحس برسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل، ربض، فلم يترمرم كراهية أن يؤذيه» . ورواه أبو نعيم.

وروى عنها أحمد أيضا «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في نفر من المهاجرين والأنصار، فجاء بعير فسجد له، فقال أصحابه: يا رسول الله، تسجد لك البهائم والشجر، فنحن أحق أن نسجد لك، فقال: لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولو أمرها أن تنقل من جبل أصفر إلى جبل أسود ومن جبل أسود إلى جبل أبيض كان ينبغي لها أن تفعله» . رواه أحمد، عن عفان، وابن ماجه، عن ابن أبي شيبة، عن عفان، قال: ثنا حماد بن سلمة، ثنا أبي، ثنا علي بن زيد، ثنا سعيد، عن عائشة. وقصة هذا الجمل رواها جماعة. وروى الإمام أحمد في مسنده، عن أبي سعيد الخدري قال: «عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه، فقال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إلي؟ فقال: يا عجبا، ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟ فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد صلى الله عليه وسلم بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنودي: الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للأعرابي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدق والذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده» . وروى الترمذي آخره، وصححه، قال البيهقي: إسناده صحيح، وله شاهد من وجه آخر. ورواه أحمد، عن أبي هريرة قال: «وكان الراعي يهوديا، فأسلم. وقال فيه: أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى، وما هو كائن بعدكم» . وفي الصحيحين عن أنس قال: «كان بالمدينة فزع فاستعار النبي صلى الله عليه وسلم فرسا لأبي طلحة، وكان يقطف، فلما رجع قال: وجدنا فرسكم هذا بحرا، وكان بعد ذلك لا يجارى» . وفي الصحيحين عن سلمة بن الأكوع، وسهل بن سعد، «عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر أنه أرسل إلى علي وهو أرمد العين، فقال: لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، فبصق في عينيه فبرأ كأن لم يكن به وجع قط، وأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم» . وعن عاصم بن عمر بن قتادة، «عن أبيه قتادة بن النعمان أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لا، ودعاه، وغمز حدقته براحته، فكان لا يدري أي عينيه أصيبت، فكانت أحسن عينيه وأحدهما. وفي رواية: فرفع حدقته حتى وضعها موضعها، ثم غمزها براحته، وقال: اللهم اكسبه جمالا. فمات وما يدري من لقيه أي عينيه أصيبت» . رواه عنه أهل المغازي.

وأنشد ولده بحضرة عمر بن عبد العزيز، وهو خليفة، أقره من حضر ولم ينكروه أنا ابن الذي سالت على الخد عينه ... 69 وردت بكف المصطفى أيما رد فلولا أنه كان معروفا عند التابعين لم يقروه، وهم إنما تلقوا هذا عن الصحابة. وفي صحيح البخاري، عن البراء بن عازب قال: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي رافع اليهودي رجالا من الأنصار وأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أدخل. قال: وأقبل حتى دنا من الباب، وذكر قصة قتله إلى أن قال ثم وضعت السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعلمت أنني قد قتلته فجعلت أفتح الأبواب بابا فبابا حتى انتهيت إلى درجة فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامتي، ثم انطلقت حتى جلست عند الباب فقلت: لا أبرح حتى أعلم أقتلته أم لا، فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع. قال: فانطلقت إلى أصحابي، فقلت: النجاة النجا، قد قتل الله أبا رافع قال: فانتهينا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وحدثناه فقال: ابسط رجلك، فبسطها فمسحها فكأنما لم أشتكها قط» .

وفي البخاري، «عن يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت في ساق سلمة بن الأكوع أثر ضربة، فقلت: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ قال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة قال: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشتكيت منها حتى الساعة» . وفي الترمذي، وغيره، «عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى رسول الله صلى الله

عليه وسلم، فقال: ادع الله تعالى أن يعافيني. قال: إن شئت صبرت فهو خير لك، وإن شئت دعوت الله. قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ، فيحسن الوضوء، فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى

ربي في حاجتي هذه فتقضيها لي، اللهم فشفعه في» . وفي رواية قال: يا رسول الله، ليس لي قائد، وقد شق علي. وذكر الحديث. فقال عثمان: والله ما تفرقنا، ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط. قال الترمذي: حديث صحيح.

[التأثير في الأشجار والخشب من آيات نبوته عليه السلام]

النوع الثالث: آثاره في الأشجار والخشب ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: «كان المسجد مسقوفا على جذوع النخل، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع المنبر فكان عليه سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت. وفي رواية فصاحت النخلة صياح الصبي» . وفي الصحيح عن جابر: «أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه، فإن لي غلاما نجارا، قال: إن شئت. فعملت له المنبر. فلما كان يوم الجمعة قعد النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر الذي صنع له، فصاحت النخلة التي كان يخطب عليها حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت» .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: «سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا واديا أفيح، فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ير شيئا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما فأخذ بغصنين من أغصانها، فقال: انقادي علي بإذن الله. فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: انقادي علي بإذن الله، فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف فيما بينهما فلأم بينهما، حتى جمع بينهما، فقال: التئما علي - بإذن الله تعالى - فالتأمتا عليه. فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله صلى الله عليه وسلم بقربي فيتباعد، فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق» ، وذكر الحديث.

وعن ابن عباس قال: «جاء رجل من بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أرني الخاتم الذي بين كتفيك، فإنني من أطب الناس، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أريك آية؟ قال: بلى. قال: فنظر إلى نخلة. فقال: ادع ذلك العذق. فجاءه ينقز حتى قام بين يديه، فقال له: ارجع. فرجع» .

وفي رواية الترمذي: «جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بم أعرف أنك نبي؟ قال: إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة تشهد أني رسول الله. قال: نعم. فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ارجع. فعاد، فأسلم الأعرابي» . وروى الدارمي، عن عبد الله بن عمر قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فأقبل أعرابي فلما دنا منه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: أين تريد؟ قال: إلى أهلي. قال: هل لك في خير؟ قال: ما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. فقال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: هذه السلمة. فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخد الأرض، حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثا، فشهدت ثلاثا أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إليه، فقال: إن اتبعوني أتيتك بهم، وإلا رجعت فكنت معك» . ورواه الدارمي أيضا قال فيه: فجاءت النخلة تنقز بين يديه، ثم قال لها: ارجعي فعادت إلى مكانها. وفي الصحيحين، عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: سألت مسروقا من آذن النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني ابن مسعود - أنه قال: آذنته بهم شجرة. وفي الترمذي، عن علي قال: «كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله» . رواه الحاكم في صحيحه. وروى الإمام أحمد، عن أنس بن مالك قال: «جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم، وهو جالس حزين قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة فقال له: ما لك؟ قال: فقال: فعل هؤلاء وفعلوا. فقال له جبريل: أتحب أني أريك آية؟ فقال: نعم. فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع تلك الشجرة. فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه.

فقال: مرها فلترجع إلى مكانها. فقال لها: ارجعي. فرجعت حتى عادت إلى مكانها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: حسبي» . ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده.

[فصل: تكثير الماء والطعام والثمار من آيات النبوة]

والنوع الرابع: الماء والطعام والثمار، الذي كان يكثر ببركته فوق العادة، وهذا باب واسع نذكر منه ما تيسر: أما الماء: ففي الصحيحين عن أنس «أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بماء فأتي بقدح رحراح فجعل القوم يتوضئون، قال: فحزرت ما بين السبعين إلى الثمانين» . وفي رواية عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم «خرج في بعض مخارجه ومعه أناس من أصحابه، فانطلقوا يسيرون، فحضرت الصلاة فلم يجدوا ما يتوضئون به، فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح فيه ماء يسير، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ ثم مد أصابعه الأربع على القدح ثم قال: قوموا فتوضئوا، وكانوا سبعين أو نحوه» . وفيهما عن أنس أيضا أن «النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالزوراء، - والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد ثمه - دعا بقدح فيه ماء فوضع فيه كفه فجعل ينبع بين أصابعه فتوضأ جميع أصحابه» . وفي الصحيحين عنه قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء، فوضع في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضئوا منه. قال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، حتى توضئوا من عند آخرهم» .

وفي الصحيحين عن جابر قال: «قد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حضرت صلاة العصر، وليس معنا ماء غير فضلة، فجعل في إناء فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأدخل يده فيه، وفرج أصابعه، وقال: حي على الوضوء، والبركة من الله. فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه، فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جعلت في بطني منه، فعلمت أنه بركة، قلت: لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: ألفا وأربعمائة» . وفي صحيح البخاري، عن جابر أيضا قال: «عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة، فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك. فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة» .

وفي البخاري، عن البراء بن عازب قال: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا، وكنا ألفا وأربعمائة، أو أكثر من ذلك» . وفي صحيح مسلم، عن سلمة بن الأكوع قال: «قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن أربع عشرة مائة، أو أكثر من ذلك، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبا الركية، فإما دعا وإما بصق فيها، قال: فجاشت فسقينا واستقينا» .

وعن ابن عباس قال: «ودعا النبي صلى الله عليه وسلم بلالا فطلب بلال الماء، ثم جاء، فقال: لا والله ما وجدت الماء. فقال: النبي صلى الله عليه وسلم: فهل من شن؟ فأتاه بشن فبسط كفيه فيها فانبعثت من يده عين. قال: فكان ابن مسعود يشرب وغيره يتوضأ» . وعن جابر بن عبد الله قال: «غزونا أو سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن يومئذ بضعة عشر ومائتين، فحضرت الصلاة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل في القوم من طهور؟ فجاء رجل يسعى بإداوة فيها شيء من ماء، وليس في القوم ماء غيره، فصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قدح، ثم توضأ فأحسن الوضوء، ثم انصرف وترك القدح، فركب الناس ذلك القدح وقالوا: تمسحوا تمسحوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: على رسلكم. حين سمعهم يقولون ذلك، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم كفه في الماء والقدح، فقال: بسم الله.

ثم قال: أسبغوا الطهور. فوالذي هو ابتلاني ببصري لقد رأيت العيون - عيون الماء - تخرج من بين أصابعه، فلم يرفعها حتى توضئوا أجمعون» . رواهما الدارمي في مسنده. وفي صحيح البخاري، عن عبد الله بن مسعود قال: «كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفا، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء، فقال: اطلبوا فضلة من ماء. فجاءونا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: حي على الوضوء المبارك، والبركة من الله. فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» . وروى مسلم في صحيحه عن معاذ بن جبل قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك فكان يجمع الصلاة، فصلى الظهر والعصر جميعا، والمغرب والعشاء جميعا، حتى إذا كان يوم أخر الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعا، ثم دخل ثم خرج بعد ذلك، فصلى المغرب والعشاء جميعا، ثم قال: إنكم ستأتون غدا - إن شاء الله - عين تبوك،، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس

من مائها شيئا، حتى آتي. فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل مسيتما من مائها شيئا؟ قالا: نعم. فسبهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا، حتى اجتمع شيء، قال: وغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر، أو قال: غزير، فسقى الناس، ثم قال: يوشك - يا معاذ إن طالت بك حياة - أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنانا» .

وفي صحيح مسلم حديث جابر الذي رواه عبادة بن الوليد، وقد تقدم أوله في قصة الشجرتين، وانقيادهما، ثم افتراقهما، ووضع الغصن على القبرين، وقال في آخره: «فأتينا العسكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا جابر، ناد بوضوء. فقال: ألا وضوء، ألا وضوء. قال: قلت: يا رسول الله، ما وجدت في الركب من قطرة، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله صلى الله عليه وسلم الماء في أشجاب له، فقال لي: انطلق إلى فلان فانظر هل في أشجابه من شيء؟ قال: فانطلقت إليه، فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب، منها لو أني أفرغه لشربه يابسه.

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، إني لم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب، منها لو أني أفرغه لشربه يابسه. قال: اذهب، فأتني به. فأتيته به فأخذه بيده، فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو، ويغمزه بيده، ثم أعطانيه، ثم فقال: يا جابر، ناد بجفنة الركب. فقلت: يا جفنة الركب. فأتيت بها تحمل، فوضعتها بين يديه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده في الجفنة، فقال: خذ يا جابر، فصب علي وقل: باسم الله. فصببت عليه، وقلت: باسم الله. فرأيت الماء يفور من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم، ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت، فقال: يا جابر، ناد من كانت له حاجة بماء. قال: فأتى الناس، فاستقوا حتى رووا. قال: فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الجفنة وهي ملأى» . وفي الصحيحين، عن عمران بن حصين، قال: «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسير له فأدلجنا ليلتنا، حتى إذا كان وجه الصبح عرسنا، فغلبتنا أعيننا، حتى بزغت الشمس، فكان أول من استيقظ منا أبو بكر الصديق، وكنا لا نوقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من منامه، حتى يكون هو الذي يستيقظ؛ لأنا لا ندري ماذا يحدث له في نومه، ثم استيقظ عمر فجعل يكبر حتى استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت. قال: ارتحلوا. فسار بنا حتى إذا ابيضت الشمس، نزل فصلى بنا الغداة، فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا، فلما انصرف قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا فلان، ما منعك أن تصلي معنا؟ قال: أصابتني جنابة ولا ماء. فقال له: عليك بالصعيد، فإنه يكفيك. فتيمم بالصعيد فصلى، ثم عجلني في ركب بين يديه يطلب الماء، وقد عطشنا عطشا شديدا. فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين، فقلنا لها: أين الماء؟ فقالت: إيهاه إيهاه لا ماء لكم. فقلت: كم بين أهلك وبين الماء؟ قالت: مسيرة يوم وليلة. قلنا: انطلقي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: وما رسول الله؟ فلم نملكها من أمرها شيئا، حتى انطلقنا بها، واستقبلنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها، فأخبرته مثل الذي أخبرتنا، وأخبرته أنها موتمة لها صبيان أيتام. فأمر براويتها فأنيخت، فمج في العزلاوين العلياوين، ثم بعث براويتها فشربنا ونحن أربعون رجلا عطاشا، حتى روينا، وملأنا كل راوية، وملأنا كل قربة معنا وإداوة، وغسلنا صاحبنا غير أنا لم نسق بعيرا، وهي تكاد تتضرج من الماء - يعني المزادتين - ثم قال: هاتوا ما كان عندكم. فجمعنا لها من كسر، وتمر، وصر لها صرة، فقال لها: اذهبي فأطعمي هذا عيالك، واعلمي أنا لم نرزأ من مائك شيئا. فلما أتت أهلها قالت: لقد لقيت أسحر البشر، أو إنه لنبي كما زعم، كان من أمره ذيت وذيت. فهدى الله عز وجل ذلك القوم بتلك المرأة فأسلمت وأسلموا» .

وفي الصحيحين، عن أبي قتادة قال: «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم، وتأتون الماء غدا - إن شاء الله - فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد، وذكر حديث النوم في الوادي، فقال: ثم دعا بميضأة كانت معي فيها شيء من ماء، فتوضأ منها وضوءا دون وضوء، وبقي فيها شيء من ماء، ثم قال: لأبي قتادة: احفظ علينا ميضأتك؛ فسيكون لها نبأ. ثم قال: أصبح الناس فقدوا نبيهم. فقال: أبو بكر، وعمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدكم لم يكن ليخلفكم. وقال الناس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أيديكم فإن تطيعوا أبا بكر، وعمر ترشدوا. قال: فانتهينا إلى الناس حين امتد النهار، وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله، هلكنا عطشا. فقال: لا هلك عليكم. ثم قال: أطلقوا لي غمري. قال: ودعا بالميضأة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصب وأبو قتادة يسقيهم، فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضأة، تكابوا عليها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحسنوا الملأ كلكم سيروى. قال: ففعلوا، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصب، وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صب، فقال لي: اشرب. فقلت: لا أشرب حتى يشرب رسول الله، قال: إن ساقي القوم آخرهم شربا. فشربت وشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فأتى الناس الماء جامين رواء» . قال: عبد الله بن رباح: إني لأحدث بهذا الحديث في مسجد الجامع إذ قال لي عمران بن حصين انظر كيف تحدث، فأنا

أحد الركب تلك الليلة. فقلت: أنت أعلم. فقال: ممن أنت؟ قلت: من الأنصار. قال: أنتم أعلم بحديثكم. قال: عمران: لقد شهدت تلك الليلة وما شعرت أن أحدا حفظه كما حفظته. وفي مسند الإمام أحمد، ورواه أبو يعلى الموصلي، عن البراء بن عازب قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتينا على ركي ذمة، قال: فنزل ستة أنا سابعهم، أو سبعة أنا ثامنهم. قال: فأدليت إلي دلو، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على شفة الركي، فجعلنا فيها نصفها، أو قريب ثلثيها، فرفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فكدت بإنائي أجد سقيا أجعله في حلقي فما وجدت، قال: فغمس رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فيها، وقال ما شاء الله أن يقول فأعيدت إلينا الدلو وما فيها، قال: فرأيت آخرنا أخرج بثوب مخافة الغرق قال: وساحت» . وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه طرف منه عن زياد بن الحارث الصداي قال في آخره: «ثم قلنا: يا نبي الله، إن لنا بئرا إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها، واجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قل ماؤها، فتفرقنا على مياه حولنا، وقد أسلمنا، وكل من حولنا عدو، فادع الله في بئرنا أن يسعنا ماؤها، فنجتمع عليها ولا نتفرق، فدعا بسبع حصيات فعركهن في يده، ودعا فيهن، ثم قال: اذهبوا بهذه الحصيات فإذا أتيتم البئر، فألقوا واحدة واحدة، واذكروا اسم الله عز وجل. قال الصداي: ففعلنا ما قال لنا، فما استطعنا بعد أن ننظر إلى قعرها» .

وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس قال: «أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وليس في العسكر ماء، فأتاه رجل، فقال: يا رسول الله، ليس في العسكر ماء، قال: هل عندك شيء؟ قال: نعم. قال: فأتني به. قال: فأتاه بإناء فيه شيء من ماء قليل، قال: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه في فم الإناء، وفتح أصابعه، قال: فانفجرت من بين أصابعه عيون، وأمر بلالا، فقال: ناد في الناس الوضوء المبارك» .

[فصل: قصص تكثير الطعام من آيات نبوته عليه السلام]

وأما تكثير الطعام ففي الصحيحين «عن جابر قال: لما حفر الخندق رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت لها: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا. فأخرجت لي جرابا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن، قال: فذبحت وطحنت ففرغت إلي فراغي، فقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه. قال: فجئت فساررته، فقلت: يا رسول الله، إنا ذبحنا بهيمة لنا، وطحنت صاعا من شعير عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع لكم سورا، فحي هلا بكم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تنزلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء فجئت، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس، حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك. قال: قد فعلت الذي قلت لي. فأخرجت له عجينا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها، وبارك ثم قال: ادع لي خابزة فلتخبز معي، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها. وهم ألف فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه، وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو» .

وفي رواية «قال جابر: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذه كدية عرضت. فقال: أنا نازل. فقام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثا لا نذوق ذواقا، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فعاد كثيبا أهيل، فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ما في ذلك صبر، قالت: عندي شعير، وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج. فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله، ورجل أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له، قال: كثير طيب. قال: قل لها: لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنور حتى آتي. قال: قوموا. فقام المهاجرون، والأنصار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار، ومن معهم إلى أن قال: فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية، قال: كل هذا، وأهد، فإن الناس أصابتهم مجاعة» . وفي الصحيحين، «عن أنس بن مالك، قال: قال أبو طلحة لأم سليم: قد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ فقالت: نعم، فأخرجت أقراصا من شعير، ثم أخذت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت ثوبي، وردتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فذهبت به فوجدته جالسا في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسلك أبو طلحة؟ فقلت: نعم. فقال: بالطعام؟ فقلت: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه: قوموا. قال: فانطلق، وانطلقت معهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم، قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم. فقالت: الله ورسوله أعلم. قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه حتى دخل، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: هلمي يا أم سليم ما عندك. فأتت بذلك الخبز ففت، وعصرت عليه أم سليم عكة لها فأدمته، ثم قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقول، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا ثم قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم حتى أكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون رجلا أو ثمانون» . وفي طريق البخاري ثمانون، وقال في رواية: ثم أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طلحة، وأم سليم، وأنس، وفضل فضلة فأهديناها لجيراننا. وفي صحيح مسلم، عن سلمة قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر فأمرنا أن نجمع ما في أزوادنا - يعني من التمر - فبسط نطعا فنثرنا عليه أزوادنا، قال: فتمطيت، وتطاولت فنظرت، فحزرته كربضة شاة، ونحن أربع عشرة مائة، قال: فأكلنا ثم، تطاولت فنظرته فحزرته كربضة الشاة» . وفي الصحيحين عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وسلمة بن الأكوع، واللفظ لمسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير قال: فنفدت أزواد القوم حتى هموا بنحر بعض حمائلهم، قال: فقال عمر: يا رسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوت الله عليها. قال: ففعل، فجاء ذو البر ببره، وذو التمر بتمره، وذو النوى بنواه، قيل: وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال: يمصونه، ويشربون عليه الماء. قال: فدعا عليها حتى ملأ القوم أزوادهم، قال: فقال عند ذلك: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة» . وفي لفظ آخر قال: «لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا، وادهنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افعلوا. قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله، إن فعلت قل الظهر. وفي رواية: ما بقاؤهم بعد إبلهم، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم. فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم. قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، وجعل الآخر يجيء بكف تمر، وجعل يجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم. قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة» الحديث. وروى البخاري من حديث سلمة بن الأكوع قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة، فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمرنا نبي الله صلى الله عليه وسلم فجمعنا مزاودنا فبسطنا له نطعا، فاجتمع زاد القوم على النطع، قال: فتطاولت لأحزره كم هو، فحزرته كربضة العنز، ونحن أربع عشرة مائة، قال: فأكلنا حتى شبعنا جميعا، ثم حشونا جربنا، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: هل من وضوء؟ قال: فجاء رجل بإدواة فيها نطفة، فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة. ثم جاء بعد ذلك ثمانية، فقالوا: هل من طهور؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فرغ الوضوء» . وفي صحيح مسلم، عن جابر «أن أم مالك كانت تهدي للنبي صلى الله عليه وسلم في عكة لها سمنا، فيأتيها بنوها فيسألون الأدم، وليس عندهم شيء فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه للنبي صلى الله عليه وسلم فتجد فيها سمنا، قال: فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: عصرتيها؟ فقالت: نعم. قال: لو تركتيها ما زال قائما» . وروى مسلم في صحيحه عن جابر أيضا قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستطعمه، فأطعمه شطر وسق شعير، فما زال الرجل يأكل منه وامرأته وضيفهما، حتى كاله فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لو لم تكله لأكلتم منه، ولقام لكم» . وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب فدخل بأهله قال: فصنعت أمي أم سليم حيسا، فجعلته في تور من حجارة، فقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقل: بعثت بهذا أمي إليك وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله. قال: فذهبت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل. فقال: ضعه، ثم قال: اذهب فادع فلانا، وفلانا، وفلانا، ومن لقيت. وسمى رجالا، قال: فدعوت من سمى، ومن لقيت، قال الجعد - وهو الراوي عن أنس - عدد كم كانوا؟ قال: كانوا زهاء ثلاثمائة، وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنس، هات التور. قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة، والحجرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه. قال: فأكلوا حتى شبعوا. قال: فخرجت طائفة، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم، فقال: يا أنس، ارفع، فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون. وذكر نزول آية الحجاب» .

وروى البخاري، «عن أنس أيضا: أن أم سليم عمدت إلى مد من شعير جشته، وجعلت منه خطيفة، وعصرت عكة عندها، ثم بعثتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته وهو في أصحابه فدعوته، قال: ومن معي؟ فجئت، فقلت: إنه يقول: ومن معي. فخرج إليه أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إنما هو شيء صنعته أم سليم فدخل فجيء به، وقال: أدخل عشرة. حتى عد أربعين، ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قام فجعلت أنظر هل نقص منها شيء؟» وعن سمرة بن جندب قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نتداول قصعة من غدوة إلى الليل، يقوم عشرة ويقعد عشرة، فقلنا: ما كان يمد؟ قال: فمن أي شيء تعجب؟ ما كانت تمد إلا من ههنا، وأشار بيده إلى السماء» . رواه النسائي، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الدارمي، والحاكم في صحيحه. وفي البخاري، عن أبي هريرة أنه كان يقول: «والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد

على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعني فلم يفعل، ثم مر عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعني فمر فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رآني، وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال: أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق، ومضى فاتبعته، فدخل فاستأذن، فأذن لي، فدخلت فوجد لبنا في قدح، فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: هداه لك فلان، أو فلانة. قال: أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق أهل الصفة فادعهم لي. قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا إلى مال، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ ! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاءوا أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد، فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، فقال: يا أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله. قال: خذ فأعطهم. فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم، فقال: أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت. قلت: صدقت يا رسول الله، قال: اقعد، فاشرب، فقعدت، فشربت، فقال: اشرب. فشربت، فما زال يقول: اشرب، حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا. قال: فأرني. فأعطيته القدح، فحمد الله، وسمى، وشرب الفضلة» . وفي الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هل مع أحد منكم طعام؟ فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعجن، ثم جاء رجل مشعان طويل بغنم يسوقها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أبيعا؟ أم عطية؟ أو قال: هبة؟ قال: بل بيع، فاشترى منه شاة فصنعت، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بسواد البطن أن يشوى، وايم الله ما في الثلاثين ومائة إلا من قد حز له النبي صلى الله عليه وسلم حزة من سواد بطنها، إن كان شاهدا أعطاه، وإن كان غائبا خبأ له، فجعل منها قصعة، فأكلوا أجمعون، وشبعنا، ففضلت القصعتان فحملناها على البعير» أو كما قال.

[فصل: من آيات النبوة تكثير الثمار]

وأما تكثير الثمار ففي صحيح البخاري، «عن جابر بن عبد الله أن أباه استشهد، وترك دينا، وترك ست بنات، فلما حضر جداد النخل قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: قد علمت أن والدي قد استشهد يوم أحد وترك دينا كثيرا، وإني أحب أن يراك الغرماء. قال: اذهب فبيدر كل تمر على ناحية. ففعلت، ثم دعوته، فلما نظروا إليه كأنهم أغروا بي تلك الساعة، فلما رأى ما يصنعون أطاف حول أعظمها بيدرا ثلاث مرات، ثم جلس عليه، ثم قال لي: ادع لي أصحابك. فما زال يكيل لهم حتى أدى الله عن والدي أمانته، وأنا أرضى أن يؤدي الله عن والدي أمانته، ولا أرجع إلى أخواتي بتمرة، فسلم الله البيادر كلها، حتى إني لأنظر إلى البيدر الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم كأنها لم تنقص تمرة واحدة» . وفي رواية: «أن أباه ترك عليه ثلاثين وسقا لرجل من اليهود، فاستنظره جابر، فأبى أن ينظره، فكلم جابر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشفع إليه، فجاءه، وكلم اليهودي ليأخذ تمر نخله بالذي له، فأبى، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل فمشى فيها، ثم قال لجابر جد له فأوف له. فجد له بعد ما راح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين وسقا، وفضل له سبعة عشر وسقا، فجاء جابر ليخبره بالذي كان، فوجده يصلي العصر، فلما انصرف أخبره بالفضل، فقال: أخبر بذلك ابن الخطاب. فذهب جابر إلى عمر، فأخبره، فقال عمر: لقد علمت حين مشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليباركن فيها» . وروى الإمام أحمد، والترمذي، وغيرهما حديث مزود أبي

هريرة قال أحمد، ثنا يونس، ثنا حماد بن زيد، عن المهاجر، عن أبي العالية، عن أبي هريرة قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بتمرات، وقلت: ادع الله لي فيهن بالبركة. قال: فصفهن بين يديه، قال: ثم دعا، فقال لي: اجعلهن في مزودك، فأدخل يدك ولا تنثره. قال: فجعلت منه كذا وكذا وسقا في سبيل الله، ونأكل ونطعم، وكان لا يفارق حقوي، فلما قتل عثمان انقطع من حقوي فسقط» . رواه الترمذي، عن عمران بن موسى القزاز، عن حماد بنحوه، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه. ورواه الحافظ عبد الغني وغيره من طريق أخرى، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة، فأصابهم عوز من الطعام فقال يا: أبا هريرة، عندك شيء؟ قلت: شيء من التمر في مزود لي قال: جئ به. فجئت بالمزود، وقال: هات نطعا. فجئت بالنطع فبسطه، فأدخل يده فقبض على التمر، فإذا هو إحدى وعشرين تمرة، قال: ثم قال: بسم الله. فجعل يضع كل تمرة، ويسمي حتى أتى على التمر، فقال به هكذا، فجمعه، فقال: ادع فلانا، وأصحابه، فأكلوا، وشبعوا، وخرجوا، ثم قال: ادع فلانا، وأصحابه، فأكلوا وشبعوا، وخرجوا، قال: وفضل تمر، قال: فقال لي: اقعد. فقعدت فأكل،

وأكلت، قال، وفضل تمر فأخذه، فأدخله في المزود، فقال: يا أبا هريرة، إذا أردت شيئا فأدخل يدك ولا تكفأ فيكفأ عليك. قال: فما كنت أريد تمرا إلا أدخلت يدي فأخذت منه خمسين وسقا في سبيل الله عز وجل، وكان معلقا خلف ظهري، فوقع زمان عثمان فذهب» . ورواه من طريق يزيد بن أبي منصور، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: «أصبت بثلاث: بموت النبي صلى الله عليه وسلم، وكنت صويحبه، وخويدمه، وبقتل عثمان، والمزود، وما المزود، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصاب الناس مخمصة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل من شيء يا أبا هريرة؟ فقلت: نعم، شيء من تمر في مزود. قال: فائتني به. فأتيته به، فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها، ثم قال: ادع لي عشرة. فأكلوا حتى شبعوا، ثم أدخل يده فأخرج قبضة فبسطها، ثم قال: ادع لي عشرة. فما زال يصنع كذلك حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا، ثم قال: خذ ما جئت به، وأدخل يدك واقبض، ولا

تكفه. قال: أبو هريرة: فقبضت على أكثر مما جئت به، ثم قال أبو هريرة: ألا أحدثكم عما أكلت منه، أكلت حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأطعمت، وحياة أبي بكر وأطعمت، وحياة عمر وأطعمت، وحياة عثمان وأطعمت، فلما قتل عثمان انتهب بيتي وذهب المزود» . وروى الإمام أحمد في مسنده، ثنا يعلى بن عبيد، ثنا إسماعيل، عن قيس، عن دكين بن سعيد المزني قال: «أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين وأربعمائة نسأله الطعام، فقال لعمر: اذهب فأطعمهم. فقال: يا رسول الله، ما بقي إلا

آصع من تمر ما أراه يقيظني. قال: قال: فأطعمهم. قال: سمع وطاعة. قال: فأخرج عمر المفتاح من حجزته، ففتح الباب، فإذا شبه الفصيل الرابض من تمر، فقال لنا: خذوا. فأخذ كل رجل منا ما أحب، ثم التفت، وكنت من آخر القوم، وكأنا لم نرزأ تمرة» . ورواه أبو داود، عن عبد الرحيم بن مطرف، عن عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن دكين، قال: أبو عبد الله المقدسي: وإسناده على شرط الصحيح.

[فصل: تسخير الأحجار له عليه السلام من أعلام نبوته]

وأما النوع الخامس: تأثيره في الأحجار، وتصرفه فيها، وتسخيرها له ففي صحيح البخاري، عن أنس قال: «صعد النبي صلى الله عليه وسلم أحدا ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم الجبل، فقال: اسكن - وضربه برجله - فليس عليك إلا نبي، وصديق، وشهيدان» . وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن» . وفي الترمذي، عن علي، قال: «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر، ولا جبل إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله» . ورواه الحاكم في صحيحه.

وفي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع قال: «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا، فلما واجهنا العدو تقدمته، فأعلو ثنية، فاستقبلني رجل من العدو فأرميه بسهم فتوارى عني، فما دريت ما صنع، ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى، فالتقوا هم وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فولى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأرجع منهزما، وعلي بردتان متزرا بإحداهما مرتديا بالأخرى، فاستطلق إزاري فجمعتهما جميعا ومررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهزما وهو على بغلته الشهباء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد رأى ابن الأكوع فزعا. فلما غشوا النبي صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من الأرض، واستقبل به وجوههم، فقال: شاهت الوجوه. فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله» . وفي صحيح مسلم، عن العباس بن عبد المطلب قال: «شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم نفارقه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي فلما التقى المسلمون، والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إرادة أن لا تسرع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي عباس، ناد أصحاب الشجرة. فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها. يا لبيك يا لبيك. قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج. فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا حين حمي الوطيس. ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا ورب الكعبة. قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلا، وأمرهم مدبرا حتى هزمهم الله، وقد قال الله تعالى: عن يوم بدر: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} [الأنفال: 17] »

وروى ابن إسحاق، عن جماعة منهم عروة، والزهري، وعاصم بن عمر، وغيرهم قالوا: «فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش هو، وأبو بكر ما معهما غيرهما، وقد تدانى القوم بعضهم من بعض، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من نصره ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد. وأبو بكر يقول: بعد مناشدتك ربك يا رسول الله فإن الله سينجز لك ما وعدك من نصره. وخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة، ثم هب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله عز وجل، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع - يقول: الغبار - ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فعبأ أصحابه وهيأهم، وقال: لا يعجلن رجل منكم بقتال حتى نؤذنه، فإذا أكثبكم القوم - يقول: قربوا منكم - فانضحوهم عنكم بالنبل، ثم تزاحم الناس فلما تدانى بعضهم من بعض خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ حفنة من حصباء ثم استقبل بها قريشا، فنفخ بها وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: احملوا عليهم يا معشر المسلمين. فحمل المسلمون وهزم الله قريشا، وقتل من قتل من أشرافهم، وأسر من أسر منهم. وفي حديث ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، فقال له جبريل: خذ قبضة من تراب. فأخذ قبضة من تراب، ورمى بها وجوههم، فما في المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه، ومنخريه، وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين» .

[فصل: من آياته صلى الله عليه وسلم تأييد الله له بملائكته]

النوع السادس: من آياته صلى الله عليه وسلم تأييد الله له بملائكته قال الله تعالى: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} [الأنفال: 9] الآية. وقال تعالى: {إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين} [آل عمران: 124] ، وقال تعالى: في الخندق: {إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا} [الأحزاب: 9] . وقال تعالى في حنين: {ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين} [التوبة: 26] . وقال تعالى في الهجرة: {ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا} [التوبة: 40] . وقال تعالى في بدر: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب} [الأنفال: 12] .
وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه، وجعل يهتف بربه: " اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى أسقط رداءه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} [الأنفال: 9]

فأمده الله بالملائكة.

قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة

سوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا فنظر إليه فإذا قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة بالسوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " صدقت. ذلك من مدد السماء الثالثة " فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين» ، وذكر الحديث.

وذكر البخاري في هذا الحديث «فخرج يعني النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يقول {سيهزم الجمع ويولون الدبر} [القمر: 45] » وقال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن بعض بني ساعدة قال: «سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول: لو كنت معكم ببدر الآن ومعي بصري لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى. فلما نزلت الملائكة، ورآها إبليس، وأوحى الله إليهم {أني معكم فثبتوا الذين آمنوا} [الأنفال: 12]

وتثبيتهم أن الملائكة تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه وتقول له: أبشروا فإنهم ليسوا بشيء، والله معكم، كروا عليهم، فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه، وقال: {إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون} [الأنفال: 48] .

وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم فإنه على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه في الحبال فلا تقتلوهم، وخذوهم أخذا» .

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: «رأيت يوم أحد عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم، وعن يساره رجلين عليهم ثياب بيض يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم، ولا بعده، ويعني جبرائيل وميكائيل عليهما السلام»

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: «أصيب سعد يوم الخندق رماه رجل من قريش (ابن العرقة) رماه في الأكحل فضرب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد يعوده من قريب فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق، وضع السلاح فاغتسل فأتاه جبريل عليه السلام، وهو ينفض عن رأسه الغبار فقال " وضعت السلاح، والله ما وضعناه، اخرج إليهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين؟ فأشار إلى بني قريظة فقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إلى سعد، قال: إني أحكم فيهم أن يقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية، والنساء، وتقسم أموالهم» ، وفي بعض طرق البخاري فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار

وروى البخاري عن أنس قال: «كأني أنظر إلى الغبار ساطعا في زقاق بني غنم موكب جبريل صلوات الله عليه حين سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة وفي المغازي من غير طريق أن الصحابة رأوا جبريل في صورة دحية الكلبي، وأنه معتم بعمامة أرخى طرفها بين كتفيه، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " بعثه الله إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويلقي الرعب في قلوبهم»

وروى البخاري عن ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: " هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»

وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال، وسلم علي ثم قال: يا محمد: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني إليك ربك لتأمرني بأمرك ما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بل أرجو أن

يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئا» .

[فصل: حفظ الله لنبيه من أعلام نبوته]

النوع السابع في كفاية الله له أعداءه، وعصمته له من الناس، وهذا فيه آية لنبوته من وجوه:

منها: أن ذلك تصديق لقوله تعالى: {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون} [الحجر: 94]

فهذا إخبار الله بأنه يكفيه المشركين المستهزئين، وأخبر أنه يكفيه أهل الكتاب بقوله {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} [البقرة: 136]

فأخبره الله أنه يكفيه هؤلاء الشاقين له من أهل الكتاب، وأخبره أنه يعصمه من جميع الناس بقوله تعالى: {يأأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس} [المائدة: 67] فهذا خبر عام بأن الله يعصمه من جميع الناس.

فكل من هذه الأخبار الثلاثة العامة قد وقع كما أخبر، وفي هذا عدة آيات منها: أنه كفاه أعداءه بأنواع عجيبة خارجة عن العادة المعروفة ومنها أنه نصره مع كثرة أعدائه، وقوتهم، وغلبتهم، وأنه كان وحده جاهرا بمعاداتهم، وسب آبائهم، وشتم آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، والطعن في دينهم، وهذا من الأمور الخارقة للعادة، والمستهزئون كانوا من أعظم سادات قريش، وعظماء العرب، وكان أهل مكة أهل الحرم أعز الناس، وأشرفهم يعظمهم جميع الأمم أما العرب فكانوا يدينون لهم، وأما غيرهم من الأمم فكانوا يعظمونهم به لا سيما من حين ما جرى لأهل الفيل ما جرى كما كانت الأمم تعظم بني إسرائيل لما ظهر فيهم من

الآيات ما ظهر وهؤلاء بنو إسرائيل ابن خليل الله، وهؤلاء بنو إسحاق ابن خليل الله، وكلاهما ممن وعد الله إبراهيم في التوراة فيهم بما وعده من إنعام الله عليه النعمة التي لم ينعم الله بها على غيرهم فكان أهل مكة معظمين لأنهم جيران البيت، ولأنهم أشرف بني إسماعيل فإن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى هاشما من قريش، واصطفى محمدا من بني هاشم، وكان قد عاداه أشراف هؤلاء كما عادى المسيح أشراف بني إسرائيل وبدل هؤلاء وهؤلاء نعمة الله كفرا، وأحلوا قومهم دار البوار، وكفى الله رسوله المسيح من عاداه منهم، ولم ينفعهم نسبهم، ولا فضل مدينتهم، وكذلك كفى الله محمدا من عاداه، وانتقم منهم، ولم ينفعهم أنسابهم، ولا فضل مدينتهم فإن الله إنما يثبت بالإيمان والتقوى لا بالبلد والنسب، وقال تعالى:

{وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل} [الأنعام: 66] (66) {لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون} [الأنعام: 67]

وقال: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم} [محمد: 13]

وقال: {وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون} [النحل: 112] (112) {ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون} [النحل: 113] وقد سمى أهل العلم بعض من كفاه الله إياه من المستهزئين، وكانوا معروفين مشهورين عند الصحابة بالرياسة والعظمة في الدنيا فذكروهم ليعرف هذا الأمر العظيم الذي أكرم الله نبيه به.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: «قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قيل: نعم. قال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته. فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له ما لك؟ قال: إن بيني، وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا» وأنزل الله تعالى:{أرأيت الذي ينهى} [العلق: 9] (9) {عبدا إذا صلى} [العلق: 10] (10) {أرأيت إن كان على الهدى} [العلق: 11] (11) {أو أمر بالتقوى} [العلق: 12] (12) {أرأيت إن كذب وتولى} [العلق: 13] (13) {ألم يعلم بأن الله يرى} [العلق: 14] (14) {كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية} [العلق: 15] (15) {ناصية كاذبة خاطئة} [العلق: 16] (16) {فليدع ناديه} [العلق: 17] (17) {سندع الزبانية} [العلق: 18] (18) {كلا لا تطعه واسجد واقترب} [العلق: 19]

وفي الصحيحين من حديث البراء بن عازب حديث «هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر من مكة إلى المدينة قال فيه: واتبعنا سراقة بن مالك بن جعشم، ونحن في جدد من الأرض فقلت: يا رسول الله، أتينا. فقال: لا تحزن إن الله معنا. فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتطمت فرسه إلى بطنها فقال: إني قد علمت أنكما دعوتما علي فادعوا لي، والله لكما أن أرد عنكما الطلب. فدعا الله فنجا فرجع لا يلقى أحدا إلا قال: قد كفيتم ما هاهنا، فلا يلقى أحدا إلا رده.

وفي لفظ: " فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه، ووثب عنه فقال: يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، ولك علي لأعمين على من ورائي»

وفي الصحيحين عن ابن شهاب من «رواية سراقة نفسه قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة إني رأيت آنفا أسودة بالساحل أراهما محمدا وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم فقلت: ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا، ثم لبثت ساعة ثم قمت فدخلت بيتي فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، وعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت بيدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام

فاستقسمت بها فخرج الذي أكره فركبت وعصيت الأزلام، فقربت بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. . .» وذكر تمام الحديث.

وفي الصحيحين عن جابر قال: «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزاة قبل نجد، فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في القائلة، في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن رجلا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، والسيف صلتا في يده. فقال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فشام السيف، فها هو ذا جالس " ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ملك قومه فانصرف حين عفا عنه فقال: لا أكون في قوم هم حرب لك» .

وفي صحيح الحاكم عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال: «كان فلان يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإذا تكلم النبي صلى الله عليه وسلم اختلج بوجهه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " كن كذلك " فلم يزل يختلج حتى مات» .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «كان رجل نصراني فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فعاد نصرانيا فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم اجعله آية " فأماته الله فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه. فحفروا له فأعمقوا ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا مثل الأول، فحفروا له وأعمقوا فلفظته الثالثة فعلموا أنه ليس من فعل الناس فتركوه منبوذا»

وروى الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق قال: حدثني يحيى بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشا أصابت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع

أشرافهم يوما في الحجر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، قد سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعاتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم. أو كما قالوا. فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول. قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى فلما مر الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال: " تسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح " فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى أن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى أنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدا، فوالله ما كنت جهولا. فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم. قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نعم أنا الذي أقول ذلك ". قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه، وقام أبو بكر دونه يقول وهو يبكي {أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله} [غافر: 28]

ثم انصرفوا عنه» وذكر البخاري بعد حديث عروة عن عبد الله بن عمرو قال: وقال عبدة: عن هشام عن أبيه قيل لعمرو بن العاص، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: {إنا كفيناك المستهزئين} [الحجر: 95]

قال: والمستهزئون الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب أبو زمعة من بني أسد بن

عبد العزى، والحارث بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل فأومأ جبريل إلى أكحل الوليد بن المغيرة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما صنعت؟ قال: كفيته، وأومأ إلى الأسود بن المطلب إلى عينيه فقال: ما صنعت؟ فقال: كفيته، وأومأ إلى رأس الأسود بن عبد يغوث فقال: ما صنعت؟ قال: كفيته، وأومأ إلى الحارث السهمي إلى بطنه فقال، وما صنعت؟ قال: كفيته، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل فقال: ما صنعت؟ قال: كفيته. فأما الوليد فمر برجل من خزاعة، وهو يريش نبله فأصاب أكحله

فقطعها، وأما الأسود بن المطلب فعمي فمنهم من يقول عمي هكذا، ومنهم من يقول: نزل تحت سمرة فجعل يقول: يا بني ألا تدفعون عني، ويقولون: ما نرى شيئا، فجعل يقول: هلكت ها هو ذا أطعن في عيني بالشوك. فجعلوا يقولون: ما نرى شيئا، فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه. وأما الأسود فخرج في رأسه قروح فمات منها. وأما الحارث بن عيطل فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات. وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف على حمار فربض به في شبرقة يعني شوكة فدخلت في أخمص قدمه فمات. وقيل: دخلت في رأسه شبرقة فمات.

رواه ابن أبي حاتم في تفسيره. قال: ثنا يونس بن حبيب ثنا أبو داود ثنا أبو عوانة ثنا أبو بشر عن سعيد، وروى بإسناده عن الربيع بن أنس قال: «أراد صاحب اليمن أن يؤي النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه الوليد فزعم أن محمدا ساحر، وأتاه العاص بن وائل فأخبره أن محمدا تعلم أساطير الأولين، وأتاه آخر فزعم أنه كاهن، وآخر زعم أنه شاعر، وآخر قال: إنه مجنون. فأهلكهم الله، كل منهم أصابه عذاب سوى عذاب صاحبه، وذكر تفصيل عذابهم» ، وروى مثله عن عكرمة وقال محمد بن إسحاق ثنا يزيد بن رومان عن عروة، وغيره من العلماء «أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم، وهم يطوفون بالبيت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جانبه فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى فمات منها، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعبه كان أصابه لما مر برجل يريش نبله فخدش رجله، وليس بشيء فانتقض فمات. ومر به العاص بن وائل فأشار إلى إخمص قدمه» فذكر مثل ما تقدم من رواية ابن عباس، ورواه أبو زرعة من طرق كثيرة عن جماعة من التابعين، ومن المشهور عند أصحاب السير وغيرهم دعوته على عتيبة بن أبي لهب، «وكان أبو لهب لما عادى النبي صلى الله عليه وسلم أمر ابنيه أن يطلقا ابنتي النبي صلى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم قبل الدخول، وقال عتيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كفرت بدينك، وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك، ثم تسلط عليه بالأذى، وشق قميصه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم سلط عليه كلبا من كلابك " فخرج في نفر من قريش حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ليلا فأطاف بهم الأسد تلك الليلة فجعل عتيبة يقول: يا ويل أخي، هو والله آكلي كما دعا محمد علي.

قتلني وهو بمكة وأنا بالشام فعدا عليه الأسد من بين القوم، وأخذ برأسه فذبحه، وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه قال: لما طاف الأسد بهم تلك الليلة، وانصرف عنهم قاموا وجعلوا عتيبة في وسطهم، فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه» .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلى جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم، وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما رفع رأسه حتى انطلق إنسان إلى فاطمة فجاءت، وهي جويرية فطرحته ثم أقبلت عليهم تسبهم فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثا، وإذا سأل سأل ثلاثا، ثم قال: " اللهم عليك بقريش " ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وذكر السابع لم أحفظه، فوالذي بعث محمدا بالحق لقد رأيت الذي سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر» .

وعنه قال: استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ودعا على ستة نفر فذكره، وفي رواية: غير أن أمية بن خلف كان رجلا ضخما فقطعت أوصاله فلم يلق في البئر. وقال: غيرتهم الشمس، وكان يوما حارا.

ويدخل في هذا الباب ما لم يزل الناس يرونه، ويسمعونه من انتقام الله ممن يسبه، ويذم دينه بأنواع من العقوبات، وفي ذلك من القصص الكثيرة ما يضيق هذا الموضع عن بسطه، وقد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه من انتقام الله ممن يؤذيه بأنواع من العقوبات العجيبة التي تبين كلاءة الله لعرضه، وقيامه بنصره، وتعظيمه لقدره ورفعه لذكره، وما من طائفة من الناس إلا وعندهم من هذا الباب ما فيه عبرة لأولي الألباب، ومن المعروف المشهور المجرب عند عساكر المسلمين بالشام إذا حاصروا بعض حصون أهل الكتاب أنه يتعسر عليهم فتح الحصن، ويطول الحصار إلى أن يسب العدو الرسول صلى الله عليه وسلم فحينئذ يستبشر المسلمون بفتح الحصن، وانتقام الله من العدو فإنه يكون ذلك قريبا كما قد جربه المسلمون غير مرة تحقيقا لقوله تعالى: {إن شانئك هو الأبتر} [الكوثر: 3] ولما مزق كسرى كتابه مزق الله ملك الأكاسرة كل ممزق، ولما أكرم هرقل والمقوقس كتابه بقي لهم ملكهم.

[إجابة دعواته عليه السلام من أعلام نبوته]

النوع الثامن في إجابة دعوته، وإجابة الدعاء منه ما تكون إجابته معتادة لكثير من عباد الله كالإغناء، والعافية، ونحو ذلك، ومنه ما يكون المدعو به من خوارق العادات كتكثير الطعام والشراب كثرة خارجة عن العادة، وإطعام النخل في العام مرتين مع أن العادة في مثله مرة، ورد بصر الذي عمي، ونحو ذلك مما يأتي، وما تقدم من أدعيته.

ومعلوم أن من عوده الله إجابة دعائه لا يكون إلا مع صلاحه ودينه، ومن ادعى النبوة لا يكون إلا من أبر الناس إن كان صادقا أو من أفجرهم إن كان كاذبا، وإذا عوده الله إجابة دعائه لم يكن فاجرا بل برا، وإذا لم يكن مع دعوى النبوة إلا برا تعين أن يكون نبيا صادقا، فإن هذا يمتنع أن يتعمد الكذب، ويمتنع أن يكون ضالا يظن أنه نبي، وأن الذي يأتيه ملك، ويكون ضالا في ذلك، والذي يأتيه الشيطان فإن هذا حال من هو جاهل بحال نفسه، وحال من يأتيه، ومثل هذا لا يكون أضل منه، ولا أجهل منه، لأن الله تعالى جعل بين الملائكة والشياطين، وبين الأنبياء الصادقين، وبين المتشبهين بهم من الكذابين من الفرق ما لا يحصيه غيره من الفروق، بل جعل بين الأبرار والفجار من الفروق أعظم مما بين الليل والنهار، ولأن ما يأتي به الأنبياء من الأخبار والأوامر مخالف من كل وجه لما يأتي به الشيطان، ومن استقرأ أحوال الرسل وأتباعهم، وحال الكهان والسحرة تبين له ما يحقق ذلك

والشيطان الذي يقول لمن ليس بنبي: إنك نبي صادق، والله أرسلني إليك، يكون من أعظم الناس كذبا، والكذب يستلزم الفجور فلا بد أن يأمره بما ليس برا بل إثما، ويخبره بما ليس صدقا بل كذبا كما هو الواقع ممن تضله الشياطين من جهلة العباد، وممن يزين له أنه نبي أو أنه المهدي أو خاتم الأولياء، وكل هؤلاء لا بد أن تأمره الشياطين بإثم، ولا بد أن يكذب في بعض ما تخبره به تحقيقا لقوله تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين} [الشعراء: 221] (221) {تنزل على كل أفاك أثيم} [الشعراء: 222]

وحينئذ فمثل هذا لا يكون مع دعوى النبوة من الأبرار الذين عودهم الله إجابة دعائهم إجابة خارجة عن العادات، بل لا يكون مع دعوى النبوة إلا من الأفاكين الفجار، وإذا كان صادقا في دعوى النبوة عالما بأنه صادق ثبت أنه نبي.

والأنبياء معصومون من الإقرار على الخطأ فيما يبلغونه عن الله باتفاق الناس، وحينئذ فكل ما يبلغه عن الله فهو حق، وهو

المطلوب، ومن كان يأتيه صادق وكاذب مثل ابن صياد، ومثل كثير من العباد الذين لهم إلهام من الملك، ووسواس من الشيطان بأنه نبي، ويقول: أنا أرسلني الله فلا بد أن يتبين كذبه، ولو ببعض الوجوه، مثل أن يخبره بكذب، فإن مثل هذا الشيطان الذي قال له: أنه نبي لا بد أن يكذب فيما يخبره به.

ومثل إخبار الصادق له بأن هذا كذب، فإذا أتاه الشيطان بالكذب لا بد أن يخبره الصادق الذي يأتيه بما يخالف ذلك بخلاف الإخبار بأمور جزئية، إذ إخباره بأنه نبي صادق مع أنه ليس كذلك يهلكه هلاكا عظيما، ويفسد على الصادق جميع ما يأتيه به لأن ذلك يستلزم أن يصدق ذلك الكاذب في كل ما يخبره به، إذ قد اعتقد أنه نبي، وحينئذ فلا يكون عنده كاذبا، ولا يعرف أنه كاذب فلا يكون مثل ابن صياد ونحوه، ممن يعرف أنه يأتيه صادق وكاذب، بل أضل من هؤلاء: يظن أن كل ما يأتيه فهو صادق، ولهذا كل من كان يأتيه إخبار ملكي صادق، وإخبار شيطاني كاذب فلا بد أن يعرف أنه يأتيه كاذب لأنه تبين له الكذب فيما يخبره به الشيطان الكاذب كما هو الواقع ولهذا يوجد الكهان الذين يعرفون كذب من يخبرهم كثيرا، وكذلك العباد الذين لهم خطابات ومكاشفات بعضها شيطاني وبعضها ملكي، يتبين لهم الكذب فيما يأتيهم به الشيطان، كما هو الواقع، فلا يوجد شيخ عابد له حال شيطاني إلا ولا بد أن يخبره بكذب يظهر له أنه كذب، وحينئذ فإذا صدق هذا الكاذب في إخباره النبوة كان مصدقا للكاذب، ولأن الصادق الذي يأتيه مخبرا له بالصدق ناصحا له لا بد أن يبين له ذلك فلا يصر على اعتقاد أن من يأتيه صادق، وهو في نفس الأمر كاذب، ولا يعلم أنه كاذب إلا من هو أفاك أثيم، والله تعالى يقول: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين} [الشعراء: 221] (221) {تنزل على كل أفاك أثيم} [الشعراء: 222] فتنزلها على الأفاك الأثيم، وأما نزول الشيطان مرة أو مرتين فقد يكون على من ليس بأفاك أثيم، فإن من لم يكن مدعيا للنبوة لم يكن من هذا الباب، وإن كان مدعيا للنبوة، فيمتنع أن يقره الصادق الذي يأتيه على ذلك، بل لا بد أن يبين له هذا إن جوز ذلك.

فإن الناس تنازعوا: هل يجوز أن يلقي الشيطان على لسان النبي ما ينسخه الله ويمحوه، أم لا يجوز ذلك؟ وعلى كل حال يمتنع أن يقر على خطأ.

والمقصود هنا ذكر بعض أدعية النبي صلى الله عليه وسلم التي شوهد إجابتها، وقد تقدم ذكر بعض أدعيته مثل دعائه على الملأ من قريش فقتلوا يوم بدر، وألقوا في القليب، ومثل دعائه على عتيبة بن أبي لهب، ومثل دعائه على الذي كذب عليه بأن

يجعله آية، ومثل دعائه لما قل الزاد وجمعوه على نطع، فكثره الله ببركة دعوته حتى كفى الجيش العظيم في غزوة تبوك، ومثل دعائه في غزوة الخندق فكفى الطعام، وهو صاع من شعير لألف نفر، وكذلك دعاؤه لما نزحت بئر الحديبية فكثر ماؤها حتى كفى الركب، وهم ألف وخمسمائة وركابهم.

وقد تقدم دعاؤه للذي ذهب بصره فأبصر، ودعاؤه في الاستسقاء فما رد يديه إلا والسماء قد أمطرت، ودعاؤه في الاستصحاء، وإشارته إلى السحاب فتقطع من ساعته، ودعوته على سراقة بن جعشم لما تبعهم في الهجرة فغاصت فرسه في الأرض، ودعاؤه يوم بدر، ويوم حنين، وقال الله له يوم بدر {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} [الأنفال: 9]

وأمثال ذلك، وفي الصحيحين عن جابر قال: «لما نزل: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم} [الأنعام: 65]

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أعوذ بوجهك " {أو من تحت أرجلكم} [الأنعام: 65]

قال: " أعوذ بوجهك " {أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض} [الأنعام: 65]

قال: " هاتان أهون أو أيسر» .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال: «سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة، فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم، فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها، فلن يزال الهرج إلى يوم القيامة» .

وفي صحيح مسلم من «حديث سلمة بن الأكوع قال: جعل عمي يرتجز ويقول:

تالله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

ونحن من فضلك ما استغنينا ... فثبت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينة علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من هذا؟ " قالوا: عامر قال: " غفر لك ربك ". قال: وما استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان يخصه إلا استشهد. قال: فنادى عمر بن الخطاب، وهو على جمل له: يا نبي الله لولا متعتنا بعامر. قال: فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

قال: وبرز له عمي عامر فقال:

قد علمت خيبر أني عامر ... شاكي السلاح بطل مغامر

قال: فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يسل سيفه فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله، وكانت فيها نفسه. قال سلمة: فخرجت في نفر من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون: بطل عمل عامر، قتل نفسه. قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، وأنا أبكي فقلت: يا رسول الله، بطل عمل عامر؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: " من قال ذلك؟ " قلت: ناس من أصحابك. قال: كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين» .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «قالت أم سليم: يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له. فقال: " اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته»

وروى البخاري قال: «دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على أم سليم فأتته بتمر وسمن فقال: " أعيدوا سمنكم في سقائه، وتمركم في وعائه " ثم قام إلى ناحية البيت فصلى غير مكتوبة، فدعا لأم سليم وأهل بيتها. فقالت أم سليم: يا رسول الله، إن

لي خويصة. فقال: " ما هي؟ " قالت: خادمك أنس قال: فما ترك آخرة ولا دنيا إلا دعا به " اللهم ارزقه مالا وولدا، وبارك له فيه " فإني أكثر الأنصار مالا، وحدثتني ابنتي أمينة أنه دفن لصلبي إلى مقدم الحجاج البصرة بضع وعشرون ومائة» . وفي رواية لمسلم: «دعا لي بثلاث دعوات قد رأيت منها اثنتين، وأنا أرجو الثالثة في الآخرة» .

وفي الترمذي، وحسنه عن أبي خلدة قال: قلت لأبي العالية: «سمع أنس من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: خدمه عشر سنين، ودعا له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان له بستان يحمل في السنة الفاكهة مرتين، وكان فيها ريحان يجيء منه ريح المسك» .

وفي صحيح مسلم «عن أبي هريرة قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام، وهي مشركة فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام وتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم اهد أم أبي هريرة " فخرجت مستبشرا بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء فاغتسلت، ولبست درعها، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب فقالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. فأتيته وأنا أبكي من الفرح فقلت: يا رسول الله أبشر فقد استجاب الله دعوتك، وهدى أم أبي هريرة فحمد الله وقال خيرا، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم حبب عبدك هذا، يعني أبا هريرة، وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهما المؤمنين " فما خلق الله مؤمنا يسمع بي ولا يراني إلا أحبني» .

وفي الصحيحين «عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة فقال: " ما هذا؟ " قال: يا رسول الله إني تزوجت امرأة. قال: " كم سقت إليها؟ " قال: وزن نواة من ذهب. قال: " فبارك الله لك، أولم ولو بشاة»

وفي الصحيحين «أنه لما قدم آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري فعرض عليه سعد أن يناصفه أهله وماله، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك. دلني على السوق» فظهرت بركة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغ من مال عبد الرحمن ما قاله الزهري أنه تصدق بأربعمائة ألف دينار، وحمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، وخمسمائة بعير في سبيل الله. قال: وكان عامة ماله من التجارة. وقال محمد بن سيرين: اقتسم نساء عبد الرحمن بن عوف ثمنهن فكان ثلاثمائة وعشرين ألفا.

وقال الزهري: أوصى عبد الرحمن لمن شهد بدرا، فوجدوا مائة، لكل رجل منهم أربعمائة دينار.

وقال عبد الله بن جعفر:

حدثتني أم بكر بنت المسور أن عبد الرحمن باع أرضا بأربعين ألف دينار فقسمها في فقراء بني زهرة وفي المهاجرين وأمهات المؤمنين.

وقال محمد بن عمرو: عن أبي سلمة أن عبد الرحمن أوصى لأمهات المؤمنين بحديقة فقومت مائة ألف. وفي الترمذي

وصححه، ورواه ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام " فكان عمر بن الخطاب أحبهما إلى الله فأسلم عمر،» وروي أن الدعوة كانت في يوم الأربعاء فأسلم يوم الخميس، وأعز الله به الإسلام قال: عبد الله بن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر رواه البخاري. وظهر من عز الإسلام في إمارته شرقا وغربا، وفتح الشام والعراق، ومصر، وكسر عساكر كسرى وقيصر ما تحقق به إجابة الدعوة.

«وفي الصحيحين أن ابن عباس وضع للنبي صلى الله عليه وسلم لما أتى الخلاء وضوءا فقال لما خرج: " من وضع هذا؟ " فقيل: ابن عباس فقال: " اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل» وفي رواية قال: «ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره، وقال: " اللهم علمه الكتاب "، وفي رواية " الحكمة» " وظهرت إجابة دعوته حتى كان يسمى: البحر.

وقال فيه ابن مسعود: لو أدرك ابن عباس أسناننا لما عشره منا أحد. وكان عمر يقدمه ويدخله مع كبراء الصحابة، وعلم ابن عباس مشهور في الأمة.

وفي الصحيحين «عن جابر قال: كنت أسير على جمل قد أعيا، وأردت أن أسيبه. قال: فلحقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربه ودعا له فسار سيرا لم يسر مثله. وفي رواية: فقال لي: " ما لبعيرك؟ " فقلت: عليل. قال: فتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فزجره فدعا له، فما زال يسير بين يدي الإبل قدامها، فقال: " كيف ترى بعيرك؟ " قلت: بخير، قد أصابته بركتك. قال: " فتبعنيه. . . .» وذكر الحديث.

وفي الترمذي وغيره: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك " وفي لفظ: " اللهم أجب دعوته، وسدد رميته " فكان سعد لا يرمي إلا يصيب، ولا يدعو إلا أجيب» .

وروى الحاكم في صحيحه «عن علي رضي الله عنه قال: مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أقول: اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني، وإن كان متأخرا فارفعني، وإن كان بلاء فصبرني. فقال: " اللهم اشفه، اللهم عافه " ثم قال لي: " قم " فقمت، فما عاد إلي ذلك الوجع بعد» .

وفي الصحيحين عن أم خالد قالت: «أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فقال: " من ترون نكسوه هذه الخميصة؟ " فسكت القوم فقال: " ائتوني بأم خالد " فأتي بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فألبسنيها فقال: " أبلي وأخلقي " مرتين فجعل ينظر إلى علم الخميصة ويشير بيده إلي ويقول: " يا أم خالد هذا سنا " والسنا بلسان الحبشة الحسن، فبقيت حتى دكن» ، «وعن أبي يزيد عمرو بن أخطب الأنصاري قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ادن مني " فمسح بيده على رأسي ولحيتي ثم قال: " اللهم جمله، وأدم جماله "

قال الراوي عنه: فبلغ بضعا وثمانين سنة، وما في لحيته بياض إلا نزر يسير، ولقد كان منبسط الوجه، ولم يتقبض وجهه حتى مات» رواه الإمام أحمد، وقال البيهقي: إسناده صحيح، ورواه الترمذي، وقال: «مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجهي فدعا لي» . «قال: عزرة: إنه عاش مائة وعشرين سنة، وليس في رأسه إلا شعرات بيض» . وقال: حديث حسن.

وقال البخاري في تاريخه: ثنا يعقوب بن إسحاق «عن حنظلة بن حنيفة بن حذيم قال حذيم: يا رسول الله إني رجل ذوسن، وهذا أصغر بني، فسمت عليه. قال: " تعال يا غلام " فأخذ بيدي، ومسح برأسي، وقال: " بارك الله فيك " أو " بورك فيك " فرأيت حنظلة يؤتى بالإنسان الوارم فيمسح بيده، ويقول: بسم الله، فيذهب الورم، وفي رواية: والشاة، والبعير» .

ويذكر «عن أبي سفيان، واسمه مدلوك أنه ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم، ومسح رأسه بيده، ودعا له بالبركة. فكان مقدم رأسه موضع يد النبي صلى الله عليه وسلم، أسود، وسائره أبيض» ذكره أيضا البخاري في تاريخه وروى أحمد في مسنده بإسناده عن أبي العلا قال: «كنت عند قتادة بن ملحان في مرضه الذي مات فيه فمر رجل في مؤخر الدار فرأيته في وجه قتادة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح وجهه. قال: وكنت قبل ما رأيته إلا ورأيته كأن على وجهه الدهان» .

وفي مسند الإمام أحمد «عن عروة بن أبي الجعد قال: عرض للنبي صلى الله عليه وسلم جلب فأعطاني دينارا، وقال: " أي عروة ائت الجلب فاشتر شاة " فأتيت الجلب فساومت صاحبه فاشتريت منه شاتين بدينار، فجئت أسوقهما فلقيني رجل فساومني فأبيعه شاة بدينار، فجئت بالدينار وجئت بالشاة فقلت: يا رسول الله هذا ديناركم، وهذه شاتكم. قال: " وصنعت كيف؟ " فحدثته الحديث فقال: " اللهم بارك له في صفقة يمينه " فلقد رأيتني أقف بكناسة الكوفة فأربح أربعين ألفا قبل أن أصل إلى أهلي» . ورواه الإمام أحمد، وفي لفظ: «فكان لو اشترى التراب لربح فيه» . رواه البخاري عن أهل داره عنه.

وفي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع «أن رجلا أكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله فقال له: " كل بيمينك " قال: لا أستطيع. قال: " لا استطعت " ما منعه إلا الكبر. قال: فما رفعها إلى فيه» .

وروى مالك في موطئه عن زيد بن أسلم «عن جابر بن عبد الله السلمي قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني أنمار قال جابر: فبينما أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: هلم يا رسول الله إلى الظل. قال: فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال جابر: فقمت إلى غرارة لنا فالتمست فيها فوجدت فيها جرو قثا، فكسرته ثم قربته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " من أين لكم هذا؟ " قلنا: خرجنا به من المدينة قال: وعندنا صاحب لنا نجهزه يذهب يرعى ظهرنا. قال: فجهزته ثم أدبر يذهب إلى الظهر، وعليه ثوبان له قد خلقا، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " أما له ثوبان غير هذين؟ " فقلت: بلى يا رسول الله، ثوبان في العيبة كسوته إياهما. قال: " ادعه فليلبسهما " ثم ولى يذهب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما له ضرب الله عنقه، أليس هذا خيرا له " فسمعه الرجل فقال: يا رسول الله،

في سبيل الله؟ فقال: " في سبيل الله " فقتل الرجل في سبيل الله» . ورواه أبو زرعة عن سعيد بن سليمان عن الليث عن هشام بن سعيد.

عن زيد بن أسلم عن عطاء عن جابر.

[فصل: ست طرق كبرى للقطع بنبوة محمد عليه السلام]

في الطرق التي تبين بها أن هذه الأخبار تفيد العلم.

وهذه الأخبار منها ما هو في القرآن، ومنها ما هو متواتر يعلمه العامة والخاصة، كنبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام، وحنين الجذع، ونحو ذلك، فإن كلا من ذلك تواترت به الأخبار واستفاضت، ونقلته الأمة جيلا بعد جيل، وخلفا عن سلف، فما من طبقة من طبقات الأمة إلا وهذه الآيات منقولة مشهورة مستفيضة فيها، ينقلها أكثر ممن ينقل كثيرا من القرآن، وقد نقلها وسمعها من الأمة أكثر ممن سمع ونقل كثيرا من آيات القرآن، وأكثر ممن سمع ونقل أنه كان يسجد في الصلاة سجدتي السهو، وممن سمع ونقل نصب الزكاة وفرائضها، بل مواقيت الصلاة وأعدادها، إنما شاع نقلها للعمل الدائم بها وأما هذه الآيات فنقلها أكثر ممن نقل مواقيت الصلاة من جهة الأخبار المعينة، وذلك أن آيات الرسول كان كثيرا منها يكون بمشهد من الخلق العظيم فيشاهدون تلك الآيات كما شاهد أهل الحديبية، وهم ألف وخمسمائة، نبع الماء من بين أصابعه، وظهور الماء الكثير من بئر الحديبية لما نزحوها، ولم يتركوا فيها قطرة فكثر حتى روى العسكر، وكما شاهد العسكر في غزوة ذات الرقاع الماء اليسير لما صبه جابر في الجفنة وامتلأت، وملأ منها جميع العسكر، وكما شاهد الجيش في رجوعهم من غزوة خيبر المزادتين مع المرأة، وقد ملأوا كل وعاء معهم وشربوا، وهي ملأى كما هي.

وكما شاهد أهل خيبر، وهم ألف وخمسمائة الطعام الذي كان كربضة الشاة فأشبع الجيش كلهم، وكما شاهد الجيش العظيم، وهم نحو ثلاثين ألفا في تبوك العين لما كانت قليلة الماء فكثر ماؤها حتى كفاهم، وشاهدوا الطعام الذي جمعوه على نطع فأخذوا منه حتى كفاهم، وكما شاهد أهل الخندق، وهم أكثر من ألف كثرة الطعام في بيت جابر بعد أن كان صاعا من شعير وعناقا، فأكلوا كلهم بعد الجوع حتى شبعوا، وفضلت فضلة وكما شاهد الثمانون نفسا كثرة الطعام لما أكلوا في بيت أبي طلحة، وكما شاهد الثلاثمائة كثرة الماء لما توضأوا من قدح، والماء ينبع من بين أصابعه، حتى كفاهم للوضوء، وكذلك وليمة زينب كانوا ثلاثمائة فأكلوا من طعام في تور من حجارة، وهو باق فظن أنس أنه أزيد مما كان، وكانوا يتداولون قصعة من غدوة إلى الليل، يقوم عشرة ويقعد عشرة، كما في حديث سمرة بن جندب، وأهل الصفة لما شربوا كلهم من اللبن القليل وكفاهم وفضل، وكانوا ينقلون ذلك بينهم، وهو مشهور ينقله بعض من شاهده إلى من غاب عنه، فكان استفاضة آياته وشهرتها وتواترها في الأمة أعظم من تواتر سجود السهو في الصلاة، فإن هذا إنما كان مرات قليلة، ولم يحضره إلا المصلون خلفه لتلك الصلاة، وكذلك نقلهم لنصب الزكاة وفرائضها، فإن هذا إنما سمعه منه طائفة قليلة، ونقلوه.

وكذلك حكمه بالشفعة فيما لا يقسم، وقضاؤه بأن دية الخطأ على العاقلة، وقضاؤه بأن الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ونهيه عن نكاح الشغار، وتحريمه لطلاق الحائض وطلاق الموطوءة قبل أن يتبين حملها، وأن المعتقة تحت عبد يثبت لها الخيار، وتوريث

الجدة السدس، ونهيه أن تنكح المرأة على عمتها وخالتها، وقوله " فيما سقت السماء العشر، وما سقي بالدوالي والنواضح نصف العشر " وأمثال ذلك إنما سمعها طائفة من الأمة هم أقل بكثير ممن شاهدوا آياته، ثم إن الأمة متفقة على نقل ذلك، وهذه الأحكام متواترة عنه معلومة بالاضطرار من دينه.

فإذا كان مثل هذه الأمور تواتر في الأمة، واتفقت على نقله، فكيف بما كان أشهر وأظهر عند من عاينه، وكان علم الذين رأوه به أظهر من علمهم بهذه الأحكام، وقد نقلوا ذلك إلى من غاب عنهم، فإنه قطعا يجب أن يكون تواتر هذه الآيات في الأمة أعظم وأظهر، ولهذا لا يكاد يوجد مسلم إلا وقد عرف كثيرا من هذه الآيات وسمعها ونقلها إلى غيره، بخلاف كثير من الأحكام المتواترة عنه المتفق على نقلها عند العلماء، فإن كثيرا من الناس لا يعرفها، ولا سمعها.

وإذا قال القائل: هذه مما تتوفر الهمم والدواعي على نقلها، فلو كانت موجودة لتوفرت الهمم والدواعي على نقلها، ولو كان كذلك لتواترت. قلنا: وكذلك هو ولله الحمد، توفرت الهمم والدواع على نقلها أكثر مما توفرت الهمم والدواعي على نقل أكثر آيات الأنبياء قبله، وأكثر مما توفرت الهمم والدواعي على نقل الأخبار العجيبة من سير الملوك والخلفاء، فإن من تدبر نقل هذه

الآيات وجد شهرتها في كل زمان، وظهور الأخبار بها أعظم من شهرة ما نقل من أخبار الأنبياء وسير الملوك والدول التي جرت العادة بتوفر الهمم والدواعي على نقلها، فإن مثل هذا لا يجب في كونه متواترا أن يتواتر عند كل أحد من الناس.

فإن أكثر ما تواتر عند كل أمة من أحوال متقدميها قد لا يسمعه كثير من الأمم من غيرهم فضلا عن تواتره عندهم حتى إن كثيرا من الأمم الذين لا يعرفون الأنبياء قد لا يكونوا قد سمعوا بأسماء الأنبياء ولا بأخبارهم فضلا عن تواترها عندهم، وأكثر أتباع الأنبياء لم يتواتر عندهم من أخبار الملوك وسيرهم ما تواتر عند غيرهم حتى إن أكثر المسلمين لم يسمعوا بأسماء خلفاء بني أمية، وبني العباس، وأسماء وزرائهم ونوابهم وقوادهم.

وبالحروب التي جرت بينهم، ولا يعرفون الوقائع العظيمة من الحروب التي كانت بين المسلمين وأعدائهم مثل يوم أجنادين، ويوم مرج الصفر، ويوم فحل، ومثل يوم الحرة، ويوم مرج راهط، وفتنة ابن المهلب، وفتنة ابن الأشعث والقراء مع الحجاج، وحرب مصعب بن الزبير مع المختار بن أبي عبيد، وفتنة المنصور مع محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بالمدينة، ومع أخيه إبراهيم بالبصرة، ومثل جسر أبي عبيد، ويوم اليرموك، ويوم القادسية، ولا يعرفون أن المسلمين فتحوا قبرص، ولا غزوا القسطنطينية مرتين، مرة في زمن معاوية، ومرة في زمن بني مروان.

وكذلك الفتن التي كانت بين المسلمين. لا بل أكثر العامة لم يسمعوا بأبي مسلم صاحب الدعوة، وبعبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، وما جرى لهما من الحروب مع عساكر مروان آخر خلفاء بني أمية، ولم يسمعوا أيضا بدخول عبد الرحمن بن هشام إلى الأندلس، وما جرى له فيها، ولا بالفتنة التي بين ابني الرشيد الأمين والمأمون مع أن هذه الأمور هي متواترة عند أهل العلم بالسير وأخبار الناس والتواريخ، وظهور هذه الآيات التي هي دلائل النبوة وأعلامها مشهورة بين الأمة عامتها وخاصتها في كل زمان أعظم من ظهور هذه الأخبار المتواترة فهي أحق أن تجعل متواترة من هذه، ونقلة هذه الآيات من الخاصة: أهل العلم، وكتب الحديث والتفسير والمغازي والسير وكتب الأصول والفقه التي توجد فيها هذه الأخبار أصح نقلا باتفاق أهل العقل والعلم من كتب التواريخ المرسلة، فإن تلك كثير من أخبارها منقطع الإسناد، وفيها من الأكاذيب ما لا يحصيه إلا الله، وإن كان أصل القصة قد يكون متواترا، وهذه الآيات المشهورة في الأمة كثير من أجناسها متواتر عند أهل العلم، وكثير من آحادها متواتر عند الخاصة.

بل وكثير من الفقهاء والمتكلمين أو أكثرهم لا يعرفون عدد مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قاتل فيها أعداءه، وهي وقائع مشهورة كل منها متواتر تواترا ظاهرا عند أهل العلم مثل يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الخندق، وغزوة بني المصطلق، وغزوة خيبر، وفتح مكة، ويوم حنين، وحصار الطائف.

فكثير من أهل العلم فضلا عن العامة، وإن كانوا سمعوا بهذه الأسماء أو بعضها فلا يعرفون أيها كان قبل الآخر، ولا يعرفون بأي بقعة كانت تلك الغزاة، بل ولا يعرفون من كان العدو فيها، ولا كيف كانت، بل أكثر العامة لا يميزون بين بدر وحنين بل يقول قائلهم: يوم بدر وحنين، ويظنون أن ذلك يوم واحد، وأنها غزاة واحدة، ولا يعرفون أنهما غزاتان بينهما نحو ست سنين. كانت بدر في السنة الثانية من الهجرة، وكانت حنين في السنة الثامنة بعد فتح مكة، وأن بدرا مكان بين مكة، والمدينة شامي مكة، ويماني المدينة، وحنين، واد قريب من الطائف شرقي مكة، وإنما قرن بينهما في الاسم لأن الله أنزل فيهما الملائكة، وأيد بها نبيه والمؤمنين حتى غلبوا عدوهم مع قوة العدو في بدر، ومع هزيمة أكثر المسلمين أولا بحنين، وامتن الله بذلك في كتابه في قوله: {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون} [آل عمران: 123]

وفي قوله: {ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين} [التوبة: 25] (25) {ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها} [التوبة: 26] . . .

حتى بعض أكابر أئمة الفتيا المشهورين قال له صاحبه لما أنكر عليه طلب السير: تسكت وإلا سألتك قدام الناس: أيهما كانت قبل، بدر أو أحد فإني أعلم أنك لا تعلمه. مع أنه من المتواتر الذي لا يستريب فيه من له أدنى معرفة بالأخبار أن أحدا كانت بعد بدر، وفي بدر انتصر المسلمون على الكفار، ويوم أحد استظهر الكفار. بل وكثير من علماء المسلمين الأكابر لا يعلمون ما هو متواتر عند أهل الكتاب، بل وعند غيرهم من علماء المسلمين مثل خراب بيت المقدس مرتين، ومجيء بخت نصر إلى بيت المقدس، والله سبحانه قد ذكر في القرآن المرتين فقال: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا} [الإسراء: 4] (4) {فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا} [الإسراء: 5] (5) {ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا} [الإسراء: 6] (6) {إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما

علوا تتبيرا} [الإسراء: 7] وكانت الأولى بعد سليمان، وكانت الثانية بعد زكريا ويحيى والمسيح لما قتلوا يحيى بن زكريا الذي يسميه أهل الكتاب يوحنا المعمداني.

وكثير من المذكورين بالعلم يظن أن (بخت نصر) هو الذي قدم الشام لما قتل يحيى بن زكريا، وهذا عند أهل العلم من أهل الكتاب، وعند من له خبرة من علماء المسلمين باطل، والمتواتر أن (بخت نصر) هو الذي قدم في المرة الأولى، وكذلك كون شعيب النبي كان حمو موسى عليه السلام كما تقوله طائفة من الجهال، والمتواتر عند أهل الكتاب، وعند المسلمين من الصحابة والتابعين وغيرهم خلاف ذلك، وعند النصارى من أخبارهم وأخبار علمائهم وملوكهم المتواترة ما لا يعرفه المسلمون واليهود، وعند المسلمين من أخبار علمائهم وملوكهم المتواترة ما لا يعرفه أكثر الأمم.

بل عند كل طائفة من المسلمين من أخبار شيوخهم وأمرائهم وبلادهم المتواترة ما لم تسمع من غيرهم، وليس هذا بمنزلة من ادعى خبرا لم يكن يعرف في الذين شاهدوا تلك القضية، كما لو ادعى مدع أن النبي صلى الله عليه وسلم حج بعد الهجرة أكثر من حجة، وأنه كان يصوم شهر رمضان بمكة، وأنه كان بمكة أذان أو أنه كان في عساكره، وعساكر خلفائه دبادب وبوقات، أو أنه كان يؤذن للعيدين أو كان يخطب للعيدين قبل الصلاة، أو أنه كان يصلي بالمدينة أكثر من عيد أو أنه كان يصلي في السفر أربعا، أو أنه صلى بمنى صلاة عيد النحر، أو أنه نص على علي بن أبي طالب رضي الله عنه أو غيره بالخلافة نصا ظاهرا مشهورا، أو أنه عزل أبا بكر عن الإمارة في الحجة وولى عليا، أو أنه صلى في مرض موته غير أبي بكر، ونحو ذلك من الأخبار التي يعرف أنها كذب باطل لتواتر نقيضها، ولأنها لو كانت صحيحة لكانت مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله واشتهاره، ومع أنه لم يكن له ذكر في الزمن المتقدم.

وكذلك ما ينقله كثير من أهل الجهل مثل ما يجعلونه من معجزات الرسول أو غيره، ولا يوجد منقولا عند أهل العلم بأحواله، بل يكذبون ناقله مثل قول كثير من العامة: إن الغمام كان يظله دائما، فهذا لا يوجد في شيء من كتب المسلمين المعروفة عند علمائهم، ولا نقله عالم من علمائهم، بل هو كذب عندهم، وإن كان كثير من الناس ينقله، وإنما نقل أن الغمامة أظلته لما كان صغيرا فقدم مع عمه إلى الشام تاجرا، ورآه بحيرا الراهب، ومع هذا فهذا لا يجزم بصحته، وكذلك ما ينقله بعضهم من أنه كان إذا وطئ أثر قدمه في الحجر وفي الرمل لم يكن يؤثر، فهذا لم ينقله أهل العلم بأحواله، ولا واحد منهم بل هو كذب عليه.

وكذلك ما ينقله طائفة من الناس من كثرة القتل بحروبه، أو المغازي الكثيرة الذي يذكر مثلها صاحب الكتاب الذي سماه

بـ " نقلات الأنوار " ويقال له البكري، فهذه لما كان أكثرها لا يوجد في كتب المسلمين المعروفة، ولا نقلها علماؤهم، بل قد تواتر ما يخالفها كانت كذبا ظاهرا عند أهل العلم بأحواله، وإن كان كثير من الناس الجهال بأحواله قد يصدق بها.

ومثل ما ينقله طائفة أنه كان في غزوة خيبر نصب علي بن أبي طالب يده ليمر الجيش عليها، وأن البغلة مرت عليها فقال: قطع الله نسلك، فانقطع نسلها، فهذا ليس في شيء من كتب أهل العلم بأحواله، ولا نقل ذلك واحد منهم، وإنما ينقل ذلك من هو معروف بالكذب أو جاهل، ولهذا كان هذا من الكذب الذي يقطع بكذبه علماء المسلمين، ويعلمون أنه تواتر نقيضه، وأنه لم يكن في غزوة خيبر بغلة واحدة، ولم يكن بالمدينة ولا بمكة بغلة إلا بغلته التي أهداها له المقوقس النصراني ملك مصر والإسكندرية، وإنما أهداها له بعد فتح خيبر لما كتب النبي صلى الله عليه وسلم إل ملوك الطوائف يدعوهم إلى الإسلام، وهو إنما أرسل إلى ملوك الطوائف بعد الحديبية وخيبر لما رجع من خيبر، ويعلمون أن البغلة لم تزل مقطوعة النسل لم يكن لها نسل قط.

وكذلك ما ينقله بعض الكذابين من أن طائفة من أهل البيت سبوا فأركبوا جمالا فنبت لها سنامان، وأنها البخاتي، فهذا مما اتفق أهل المعرفة بالأخبار على أنه كذب، لم يسب المسلمون قط في وقت من الأوقات أحدا من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لا في خلافة بني أمية، ولا في خلافة بني العباس، والجمال البخاتي ما زالت هكذا لم يتجدد لها السنام في الإسلام، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر ما يحدث النساء بعده، قال: " «على رءوسهن كأسنمة البخت» "

وكذلك ما نقله طائفة من أهل العلم من أن الشمس ردت لما فاتت عليا صلاة العصر لكون النبي صلى الله عليه وسلم نام في حجره، وجعل بعضهم هذا من المعجزات، وليس هذا الحديث في شيء من كتب المسلمين التي يعتمدون على ما فيها من المنقولات، لا الصحاح، ولا المساند، ولا المغازي والسير، ولا غير ذلك، بل بين أهل العلم بالحديث أن هذا كذب، وليس له إسناد واحد صحيح متصل، بل غايته أن يروى عمن لا يعرف صدقه، ولم يروه إلا هو مع توفر الهمم والدواعي على نقله، فعلموا أنه كذب، وهذا باب واسع يبين أن علماء المسلمين يميزون المنقولات بين الصدق والكذب، فيردون الكذب وإن كان فيه

من فضائل نبيهم وأعلامه وفضائل أصحابه وأمته ما هو عظيم، ويقبلون الصدق وإن كان فيه شبهة إشكال، وقد يحتج به المنازعون لهم.

وكان عبد الرحمن بن مهدي يقول: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم. ومن ذلك مغازي حمزة الشائعة بين كثير من جهال الترك وغيرهم، لا يوجد في شيء من كتب العلم، بل قد تواتر عند أهل العلم أن حمزة لم يشهد غزوة إلا غزوة بدر ثم غزوة أحد، وقتل يوم أحد شهيدا، قتله وحشي بن حرب، وهذا متواتر عند أهل العلم، وما كان من هذه الآيات في الصحاح بل وكثير مما لم يخرجه البخاري ومسلم، فهذه عامتها مما يقطع أهل العلم بالحديث بصحتها، ويتيقنون ذلك، وهذا عندهم مستفيض متواتر، وإن كان بعض ذلك قد لا يتواتر ويستفيض عند غيرهم، فإن الأخبار قد تتواتر وتستفيض عند قوم دون قوم بحسب عنايتهم بها وطلبهم لها، وعلمهم بمن أخبر بها، وصفاتهم، ومقاديرهم، وما دل من الدلائل على صدقهم، وأهل العلم بحديث النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وسيرته وأسباب نزول القرآن ومعانيه وغير ذلك، لهم بهذا من العلم وعندهم به من اليقين ما لا يوجد مثله لغيرهم، كما أن أصحاب مالك والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي حنيفة، وداود وغيرهم عند كل طائفة من أقوال متبوعهم ونصوصه وأخباره ما يقطعون به، وإن كان غيرهم لا يعلم ذلك، والأطباء عندهم من كلام أبقراط وجالينوس ومحمد بن زكريا وأمثالهم ما يقطعون به، وغيرهم لا يعلم ذلك، وأهل الهيئة عندهم من كلام بطليموس، والرصد الممتحن المأموني، وثابت بن قرة، وأبي الحسين الصوفي ما يعلمونه هم، وغيرهم لا يعلم ذلك بحيث يجزم هؤلاء وهؤلاء بكثير من مذاهب أهل الطب والحساب وتجارب الأطباء وأرصاد أهل الحساب، وغيرهم لا يعلم ذلك.

وعند أهل الكتاب كاليهود من أخبار هلال، وسمابي، وغيرهما من شيوخهم ما لا يعلمه غيرهم، وعند النصارى من أخبار الحواريين، ومن أخبار قسطنطين، والمجمع الأول بنيقية، والمجمع الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، وغير ذلك من مجامعهم، وأخبارهم ما يقطع به علماؤهم، وإن كان غيرهم لا يعلمون ذلك.

وأهل العلم بأيام الإسلام يعلمون من سيرة أبي بكر، وعمر، وعثمان، ومغازيهم كوقعة أجنادين، ومرج الصفر، وغيرهما في خلافة أبي بكر، وكوقعة اليرموك، وخبر أبي عبيدة وهزيمة الفرس، وفتح مصر، وغير ذلك مما كان في زمن عمر بن الخطاب ما يقطعون به، وإن كان غيرهم لا يعرفون ذلك.

وكذلك ما كان بعد هؤلاء من سير الملوك وحوادث الوجود، بل أهل العلم بالرجال يعلمون من حال آحاد الصحابة والتابعين ومن بعدهم كعبد الله بن عمر، وابن عباس، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعلقمة، والأسود، وغير هؤلاء ما لا يعلمه غيرهم.

وأهل العلم بالنحو يعلمون من حال سيبويه، والأخفش، والمبرد، والزجاج، والفراء والكسائي ما لا يعلمه غيرهم.

والقراء يعلمون من قراءة أبي عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، ويعقوب بن إسحاق، والأعمش وخلف بن هشام، وأبي جعفر ما لا يعلمه غيرهم.

فإذا كان آحاد أهل العلم من أهل الفقه أو الطب أو الحساب أو النحو أو القراءات، بل وآحاد الملوك يعلم الخاصة من أمورهم ما لا يعلمه غيرهم ويقطعون بذلك، فكيف بمن هو عند أتباعه أعلى قدرا من كل عالم، وأرفع منزلة من كل ملك، وهم أرغب الخلق في معرفة أحواله، وأعظم تحريا للصدق فيها، ولرد الكذب منها حتى قد صنفوا الكتب الكثيرة في أخبار جميع من روى شيئا من أخباره، وذكروا فيها أحوال نقلة حديثه، وما يتصل بذلك من جرح وتعديل، ودققوا في ذلك، وبالغوا مبالغة لا يوجد مثلها لأحد من الأمم، ولا لأحد من هذه الأمة إلا لأهل الحديث، فهذا يعطي أنهم أعلم بحال نبيهم من كل أحد بحال متبوعهم، وأنهم أعلم بصدق الناقل وكذبه من كل أحد بصدق من نقل عن متبوعهم وكذبه فإذا كان أولئك فيما ينقلونه عن متبوعهم متفقين عليه جازمين بتصديقه لا يكون إلا صدقا، فهؤلاء مع جزمهم بالصدق، واتفاقهم على التصديق أولى أن لا يكون ما جزموا بصدقه إلا صدقا.

وعامة أخبار الصحيحين مما اتفق علماء الحديث على التصديق بها، وجزموا بذلك، وإنما تنازعوا في أحاديث قليلة منها، وعامة ما ذكرناه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم التي في الصحاح هي من موارد إجماعهم المستفيضة عندهم التي يجزمون بصدقها، ليست من موارد نزاعهم، فهذا طريق يسلكه من عرفه من العلماء، ويعلم خيرة أهله من كان خبيرا بهم، فهذه طريقان في تصديق هذه الآيات: التواتر العام، والتواتر الخاص.

الطريق الثالث: التواتر المعنوي، وهذا مما اتفق على معرفته عامة الطوائف، فإن الناس قد يسمعون أخبارا متفرقة بحكايات يشترك مجموعها في أمر واحد، كما سمعوا أخبارا متفرقة تتضمن شجاعة عنترة، وخالد بن الوليد، وأمثالهما، وتتضمن سخاء حاتم ومعن بن زائدة، وأمثالهما، وتتضمن حلم الأحنف بن قيس، ومعاوية بن أبي سفيان، وأمثالهما، وتتضمن شعر امرئ القيس والنابغة ولبيد وأمثالهم من المتقدمين، وشعر الفرزدق وجرير وعمر بن أبي ربيعة، وأمثالهم من المولدين، وشعر أبي نواس والمتنبي وأبي تمام، وأمثالهم من المحدثين، بل وسمعوا أقوالا وفتاوي متفرقة تتضمن فقه مالك، والثوري، والليث بن سعد، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من العلماء، وأخبارا متفرقة تتضمن العدل وحسن السيرة من عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهما من ولاة الأمور، وسمعوا أخبارا متفرقة تتضمن الزهد عن مثل الحسن البصري، والفضيل بن عياض، ومالك بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، وغيرهم من الزهاد، وسمعوا أخبارا متفرقة تتضمن معرفة أبقراط وجالينوس ونحوهما بالطب، فيحصل بمجموع الأخبار علم ضروري بأن الشخص موصوف بذلك النعت، وإن كان كل من الأخبار لو تجرد وحده لم يفد العلم، وإن كان كل من الحكايات ليست وحدها منقولة بالتواتر.

ومن هذا الباب العلم القطعي بالإيمان والموت، ونحو ذلك مما يحصل به استقامة موجب العلم القطعي كعلم الناس بأن خديجة وعائشة ونحوهما من أمهات المؤمنين، وأن فاطمة وزينب من بنات النبي صلى الله عليه وسلم، وأن عائشة بنت أبي بكر، وأن أبا بكر وعمر وعثمان تولوا الخلافة بعده، وأن أبا بكر وعمر دفنا في حجرته، وإذا عرف هذا فهذه الأحاديث وأضعاف أضعافها هي أضعاف أضعاف ما ينقل عن الواحد من هؤلاء، ونقلتها أجل وأكثر وأفضل من نقلة أخبار هؤلاء، وهي كاملة تتضمن أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كان يجري على يديه من الآيات الخارقة للعادة والعجائب العظيمة ما لا يعرف نظيره عن أحد من الناس، وعلم المسلمين بهذا أعظم من علم أهل الكتاب بما ينقلونه من آيات موسى وعيسى وغيرهما، فإن نقلة آيات محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن أضعاف أضعاف نقلة التوراة والإنجيل فضلا عن غيرهما من أخبار الأنبياء، فإن التوراة لم تكن جميعها محفوظة لعموم بني إسرائيل كما يحفظ القرآن عامة المسلمين، وعند خراب بيت المقدس قل من يحفظها جدا حتى تنازع الناس في تواتر نقلها وكذلك الإنجيل نقلته أقل بكثير من نقلة آيات محمد صلى الله عليه وسلم، وإذا قال النصارى هؤلاء كانوا صالحين، وكان لهم آيات، كما يذكرونه من آيات الحواريين فأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وتابعوهم صالحون، ولهم من الآيات أعظم مما للحواريين وغيرهم من الأمم، وفيهم من كان يحمل العسكر على الماء، ومن كان يشرب السموم القاتلة، ومن يحيي الله الموتى بدعوته، ومن يكثر الطعام والشراب، وكتب كرامات الأولياء فيها من ذلك أعظم مما عند أهل الكتاب، وهم ينقلون أخبار الأنبياء والصالحين من كتب عندهم، مثل كتاب أخبار الحواريين، وكتاب سفر الملوك، ونحو ذلك، وما يذكرون من حجة في صحة نقلها إلا وحجة المسلمين فيما ينقلونه عن نبيهم وأصحابه والتابعين أظهر وأقوى.

الطريق الرابع: أن يقال: هذه الآيات التي ذكرنا بعضها كانت تكون بمحضر من الخلق الكثير كتكثير الطعام يوم الخندق فإنه كان أهل الخندق رجالهم ونساؤهم ألوفا.

وكذلك نبع الماء من بين أصابعه، وفيضان البئر بالماء يوم الحديبية، وكانوا يومئذ ألفا وخمسمائة، وكلهم صالحون من أهل

الجنة، لا يعرف فيهم من تعمد كذبة واحدة على النبي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك تكثير الماء والطعام في غزوة خيبر كانوا ألفا وخمسمائة، وفي تبوك كانوا ألوفا مؤلفة، وكان بعض من حضر هذه المشاهد نقل هذه الآيات قدام آخرين ممن حضرها، وينقلها لأقوام فيذهب أولئك فيخبرون بها أولئك، ويصدق بعضهم بعضا، ويحكي هذا مثل ما حكى هذا من غير تواطئ وتشاعر، وأدنى أحواله أن يقره ولا ينكر عليه روايتها، ونحن نعلم بموجب العادة الفطرية التي جبل الله عليها عباده، وبموجب ما كان عليه سلف الأمة من اعتقاد الصدق وتحريه، واعتقادهم أن ذلك واجب، ومن شدة توقيهم الكذب على نبيهم، وتعظيمهم ذلك، إذ قد تواتر عندهم عنه أنه قال: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»

فنحن نعلم أنهم لم يكونوا يقرون من يعلمون أنه يكذب عليه، ومن أخبر عنه بما كانوا مشاهدين له، وكذب عليه فقد علموا أنه كذب عليه، فلما اتفقوا على الإقرار على ذلك، وعلى تناقله بينهم من غير إنكار أحد منهم لذلك علم قطعا أن القوم كانوا متفقين على نقل ذلك كما هم متفقون على نقل القرآن والشريعة المتواترة، وإن كان جمهورهم ليس منتصبا لتلقين القرآن، بل هذا يلقنه وهذا يسمعه من هذا المتلقن، لا ينكر بعضهم على بعض القراءة، وهذا يعلم هذا الصلاة: أن الظهر في الحضر أربع ركعات،

والمغرب ثلاثا، والفجر ركعتان، وهذا يقر هذا، فلما كان بعضهم يقر بعضا على نقل ذلك علم اتفاقهم على نقل ذلك، وهذا غاية التواتر.

وكذلك ما نقلوه من شرائعه ومن آياته وبراهينه، يبين ذلك أن ما أنكره بعضهم رده على الآخر ولم يوافقه، وإن كانوا متأخرين عن زمن الصحابة فكيف بالمتقدمين، كتنازعهم هل كان يجهر بالبسملة أم لا يجهر بها؟ وهل كان يداوم على القنوت في الفجر أم كان يقنت أحيانا للنوازل، أم قنت مرة ثم تركه، فهذا من أهون الأمور وأيسرها، إذ كلهم متفقون على صحة صلاة من قنت، وعلى صحة صلاة من لم يقنت، ومن جهر، ومن خافت، ولكن لما تنازعوا فيما فعله الرسول تنازعوا في الحكم، فعلم بذلك أن ما كان مشهورا في الأمة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم ينكره أحد من علمائها كانت الأمة متفقة على نقله كنقلهم للقرآن، وللشرائع الظاهرة المشهورة، وإن نقل ذلك أعظم من نقل سائر أخبار الأنبياء والعلماء والملوك والزهاد وكذلك حجه، فإنهم كلهم متفقون على ما تواتر عنه من أنه لم يحج بعد الهجرة إلا حجة واحدة، وهي التي تسمى حجة الوداع، وإنما عاش بعدها نحوا من ثلاثة أشهر، وأنه لما حج أمر أصحابه كلهم إلا من ساق الهدي منهم إذا طاف بالبيت وبين الصفا والمروة أن يحل من عمرته، وأنه لم يعتمر هو ولا أحد من أصحابه الذين حجوا معه بعد الحج إلا عائشة وحدها، وأنه هو نفسه لم يحل من حجته، ولا أحد ممن ساق الهدي معه، وإنما اشتبه على بعضهم بعض ألفاظه أو بعض الأمور التي تخفى على أكثر الناس، وكان الصحابة ينقلون تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومرادهم بالتمتع أنه قرن بين العمرة والحج، فظن بعض الناس أنهم أرادوا أنه أخر الإحرام بالحج إلى أن قضى العمرة، وقال بعض الصحابة: إنه أفرد بالحج، فظن بعض الناس أنه حج، واعتمر بعد الحج، وهذا لم ينقله أحد من العلماء، بل اتفقوا على أنه لم يعتمر بعد الحج، وروى بعض الصحابة أنه قرن، فظن بعض الناس أنه طاف طوافين، وسعى سعيين، وهذا لم ينقله أحد عنه، وكان من أسباب غلط كثير من الناس أنهم كانوا يستعملون تلك الألفاظ في معان غير ما استعملته فيها الصحابة، فغلط بعض الناس على بعض الصحابة، وأما ما فعله في الحج مشهورا فهو

متواتر لم يختلف فيه النقل، ولا علماء النقل، ومن تدبر هذه الطريق أفادته علما يقينيا قطعيا بصحة هذه الآيات عن محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك الطرق المتقدمة فإنا قد ذكرنا أن ما كان الناس أحوج إلى معرفته يسر الله دلائله للناس أعظم من تيسير غيره، وحاجة الخلق إلى تصديق الرسول أشد من حاجتهم إلى جميع الأشياء، إذ بذلك تحصل سعادتهم في الآخرة، ونجاتهم من العذاب، وبه يحصل صلاح العباد في المعاد والمعاش.

الطريق الخامس: أن ما من صنف من أصناف العلماء إلا وقد تواتر عندهم من الآيات ما فيه كفاية، فكتب التفسير مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها، وكتب الحديث مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها، وكتب السير والمغازي والتواريخ مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها، وكتب الفقه مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها، وإن لم يكن هذا مقصودا منها، وإنما المقصود الأحكام لكنهم في ضمن ما يروونه من الأحكام يروون فيها من الآيات ما هو متواتر عندهم، وكتب الأصول والكلام مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها، ونقل كل طائفة من هذه الطوائف يفيد العلم اليقيني، فكيف بما ينقله كل طائفة من هذه الطوائف، وهذه الطريق وغيرها مثل طريق الإقرار والتصديق، وطريق التواتر المعنوي، وطريق تصديق أهل العلم بالحديث بها، وغير ذلك، يستدل بها تارة على تواتر الجنس العام للآيات الخارقة للعادة، وهذا أقل ما يكون، ويستدل بها على تواتر جنس جنس منها، كتواتر تكثير الطعام، وتواتر تكثير الطهور والشراب، وعلى تواتر نوع نوع منها، كتواتر نبع الماء من بين أصابعه، وتواتر إشباع الخلق العظيم من الطعام القليل، وتواتر شخص شخص منها، كتواتر حنين الجذع إليه، وأمثال ذلك، وكلما أمعن الإنسان في ذلك النظر، واعتبر ذلك بأمثاله، واعتبر وأعطاه حقه من النظر والاستدلال ازداد بذلك علما ويقينا، وتبين له أن العلم بذلك أظهر من جميع ما يطلب من العلم بالأخبار المتواترة، فليس في الدنيا علم مطلوب بالأخبار المتواترة إلا والعلم بآيات الرسول وشرائع دينه أظهر من ذلك، وما من حال أحد من الأنبياء والملوك والعلماء والمشايخ المتقدمين وأقواله وأفعاله وسيرته إلا والعلم بأحوال محمد صلى الله عليه وسلم أظهر من العلم به، وما من علم يعلم بالتواتر مما هو موجود الآن كالعلم بالبلاد البعيدة كعلم أهل الشام بالعراق وخراسان والهند والصين والأندلس، وعلم أهل المغرب بالشام والعراق وخراسان والهند، وعلم أهل خراسان بالشام والعراق ومصر، وعلم أهل الهند بالعراق والشام، وأمثال ذلك من علم أهل البلاد بعضهم بحال بعض إلا وعلم الإنسان بحال المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، وما هم عليه من الدين، وما ينقلونه عن نبيهم من آياته وشرائعه أظهر من علمه بهذا كله.

وهذا مما يبين أنه ليس في الوجود أمر يعلم بالنقول المتواترة إلا وآيات الرسول وشرائعه تعلم بالنقول المتواترة أعظم مما يعلم ذلك الأمر تحقيقا لقوله تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا} [الفتح: 28]

وظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان إنما هو بما يظهره من آياته وبراهينه، وذلك إنما يتم بالعلم بما ينقل عن محمد من آياته التي هي الأدلة، وشرائعه التي هي المدلول المقصود بالأدلة، فهذا قد أظهره الله علما وحجة وبيانا على كل دين، كما أظهره قوة ونصرا وتأييدا على كل دين، والحمد لله رب العالمين.

كما أنه ما من دليل يستدل به على مدلول إلا والأدلة على آيات الرب أكبر وأكثر.

الطريق السادس: أن العلماء قد صنفوا مصنفات كثيرة في ذكر آياته وبراهينه المنقولة في الأخبار، وجردوا لذلك كتبا مثل كتاب دلائل النبوة للفقيه الحافظ أبي بكر البيهقي، وقبله دلائل النبوة للشيخ أبي نعيم الأصبهاني، وقبله دلائل النبوة لأبي الشيخ الأصبهاني، ولأبي القاسم الطبراني، وقبلهما دلائل النبوة للإمام الحافظ أبي زرعة الرازي، والشيخ المصنف أبي بكر عبد الله بن أبي الدنيا، وللمصنف الحافظ الإمام أبي إسحاق إبراهيم الحربي، وأبي بكر جعفر الفريابي، وما صنفه الشيخ العالم أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه المسمى بالوفا في فضائل المصطفى، وما صنفه الحافظ أبو عبد الله المقدسي من دلائل النبوة، وهؤلاء وغيرهم يذكرون ما يذكرون من الأسانيد المعروفة، والطرق المتعددة الكثيرة المتواترة.

وهؤلاء منهم من يميز ما يذكره من الأحاديث بين ما في صحيحي البخاري، ومسلم، وما في غيرهما، وإن كان صحيحا

أيضا كالبيهقي، وابن الجوزي، والمقدسي، ومنهم من يذكر ذلك جميعه بأسانيده، وقد يتكلم على الأسانيد والطرق ويذكر تعددها من غير احتياج منه أن يذكر ما رواه البخاري، ومسلم كأبي زرعة شيخ مسلم، وأبي الشيخ، وأبي نعيم، وغيرهم، وآخرون يذكرونه معزوا مسندا إلى من رواه، وإن لم يذكروا إسناده كما يفعله القاضي عياض السبتي في كتابه المسمى بالشفا بتعريف حقوق المصطفى، ومنهم من يقرر ذلك بشهرة ذلك وطرق أخرى من صحته كما يفعله كثير من النظار كالقاضي عبد الجبار

والجاحظ، والماوردي القاضي، وسليم الرازي الفقيه، وغيرهم، وهذه الكتب فيها من الأحاديث المتضمنة لآيات نبوته وبراهين رسالته أضعاف أضعاف الأحاديث المأثورة فيما هو متواتر عنه مثل حجة الوداع، وعمرة الحديبية، وصد المشركين له، ومصالحته إياهم، وحله هو وأصحابه بالحديبية، ورجوعهم ذلك العام، وفتح خيبر، وعمرة القضية، وعمرة الجعرانة.

ومثل حصاره لأهل الطائف، وفتح مكة قبل ذلك، ومثل غزوه النصارى عام تبوك، وإرساله جيشا لغزوهم بمؤتة من مشارف الشام قريبا من الحصن المسمى بالكرك، ومثل غزوه لليهود بخيبر، وغزوه لليهود قبل ذلك لمن كان عند المدينة مثل بني قينقاع، والنضير، وقريظة، ومثل إرساله أبا بكر أميرا على الحج سنة تسع، ونبذه العهود، ومناداته أن «لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان» ، ومثل هجرته مع أبي بكر وعامر بن فهيرة ورجل ثالث كان دليلا لهم.

ومثل ما تواتر عنه أنه كان يصلي بالمسلمين في العيدين بالمصلى خارج المدينة لم يكن يصلي العيد في مسجده إلا مرة نقل أنه صلى في المسجد لأجل المطر، ولم يكن على عهده يصلي أحد بالمدينة صلاة العيد إلا خلفه لم يكن يصلي صلاتي عيد على عهده وعهد أبي بكر وعمر وعثمان، وأول من فعل ذلك علي بن أبي طالب لما كثر الناس وضعف أقوام عن الخروج إلى الصحراء استخلف من يصلي بهم في المسجد.

وكما تواتر عنه أنه كان يصلي الجمعة بأذان وإقامة لا يؤذن لها إلا إذا قعد على المنبر، وكذلك كان الأمر على عهد أبي بكر وعمر فلما كان في أثناء خلافة عثمان كثر الناس فأمر بالنداء الثالث على دار قريبة من المسجد من جهة المشرق يقال لها الزوراء، وكما تواتر أن مسجده كان باللبن، وسقفه كان من جذوع النخل، وكانت حجر أزواجه قبلي المسجد وشرقيه فلما كثر الناس زاد فيه عمر ثم زاد فيه عثمان، وبناه بالقصة والحجارة، ثم في إمارة الوليد أمر نائبه عمر بن عبد العزيز أن يشتري الحجر ويزيدها في المسجد، فدخلت حجرة عائشة التي دفن فيها هو وأبو بكر وعمر في المسجد من حينئذ، وإنما كانت في حياته خارجة عن المسجد إلى سنة إحدى وتسعين، وقال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا. قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجدا» .

وكما تواتر عنه أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس، ووقت غروبها، وتواتر عنه أنه كان يضحي في عيد الأضحى، بل تواتر عند أهل العلم بأحواله تروكه المشهورة كما تواترت أفعاله المشهورة، فتواتر عنه أنه لم يكن يؤذن للعيدين، ولا الكسوف، ولا الاستسقاء، وأنه صلى الكسوف بركوعين في كل ركعة صلاة طويلة، وتواتر عنه كان يطوف بالبيت سبعا، ويصلي ركعتين بعد الطواف، ولم يكن يصلي بعد السعي بالصفا والمروة ركعتين، وتواتر أنه كان يواصل، ونهى أصحابه عن الوصال، ويقول: «إني لست كهيأتكم، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» وأنه لم يفرض صوما إلا صوم شهر رمضان،

ولم يفرض الحج على المستطيع إلا مرة، وأنه فرض الصلوات الخمس على كل بالغ عاقل إلا الحائض والنفساء، وأنه منع الحائض والنفساء من الصوم والصلاة، وكان الحيض يؤمرن بقضاء الصوم، ولا يؤمرن بقضاء الصلاة.

وأنه أمر بالاغتسال من الجنابة للصلاة، وأمر بالوضوء عند الصلاة لمن بال أو تغوط أو خرج منه ريح أو مذي، وأنه رخص في الاستجمار بثلاثة أحجار، ونهى عن الاستنجاء باليمين، ونهى عن الاستجمار بالعظم والبعر، وقال: " «إنها زاد إخوانكم من الجن» " وأنه لم يكن يجمع المسلمين على سماع كف، ولا دف، ولا رقص ولا صعق، لا هو ولا أصحابه عند سماع القرآن، بل كانوا توجل قلوبهم، وتقشعر جلودهم، وتدمع عيونهم، وأنه لم يكن على عهده وعهد خلفائه تعاد امرأة مطلقة إلى زوجها بنكاح يقصد به التحليل، بل لعن المحلل والمحلل له لأن ذلك ربما فعل سرا.

وأنه أمر بعيادة المريض، وتشييع الجنازة، وإفشاء السلام، وإجابة الدعوة، وأنه كان يصلي على الميت ويكبر أربع تكبيرات، وقد كان أحيانا يكبر خمسا وسبعا، وأمر بتغسيل الميت وتكفينه، والصلاة عليه ودفنه، وأنه حرم كل مسكر، وحرم بيع الدرهم بالدرهمين، والدينار بالدينارين، والصاع بالصاعين من الحنطة والشعير والتمر والزبيب، وأنه أمر بصدقة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير لما كان أهل المدينة يقتاتون التمر والشعير، وأنه أباح الدواء وقال: " «تداووا عباد الله فإنه لم ينزل داء إلا أنزل له دواء إلا السام» " والسام الموت، وأنه كان يتداوى بالحجامة وغيرها وكذلك ما تواتر عنه من أحاديث سوى ما في القرآن من صفة الجنة والنار، وذكر العرش والملائكة، والجن، وإرساله إلى الثقلين، وما ذكره من أسماء الله، وصفاته، وما أخبر به من فتنة الإنسان في قبره، ومن عذاب القبر ونعيمه، ومن دخول من يدخل النار من أهل الكبائر من أمته، وخروجهم من النار بشفاعته، وشفاعة غيره، ومن ذكر حوضه، وما أخبر به من رؤية الله يوم القيامة، ومحاسبة الله للعباد، وغير ذلك.

وما تواتر عنه من أنه كان يرسل رسلا إلى الملوك يدعوهم إلى الإيمان بالله وبما جاء به، كما أرسل إلى ملوك اليمن، وإلى ملوك الشام ومصر والعراق، وإلى ملوك المشركين واليهود والنصارى والمجوس بعد ما حارب اليهود مرة بعد مرة، وما تواتر عنه أنه كان يركب الخيل والإبل والبغال والحمير، وأنه رجم الزاني المحصن مرة بعد مرة، وقطع يد السارق، وجلد شارب الخمر، وأنه كان يصلي في السفر الرباعية ركعتين ركعتين، وأنه جمع بين الصلاتين الظهر والعصر بعرفة، وفي مزدلفة جمع بين المغرب والعشاء، وأنه كان يصلي بمنى ركعتين ركعتين، وأمر المسلمين في حجة الوداع أن يحلوا من إحرامهم، ويجعلوها عمرة إلا من ساق الهدي فإنه أمره أن يبقى على إحرامه، وأنه هو لم يحل من إحرامه، ولا اعتمر بعد الحج لا هو ولا أحد ممن حج معه إلا عائشة لكونها كانت حائضا، وأن شهر رمضان فرض في السنة الثانية من الهجرة فصام تسع رمضانات.

وأنه كان له أربع بنات وثلاثة بنين، وكان يكنى بأكبر أولاده القاسم فيدعى أبا القاسم، وأنه تزوج بنتي أبي بكر وعمر، وزوج عثمان ابنتيه، وزوج عليا بنتا، وأنه آمن به من أعمامه حمزة والعباس، ولم يؤمن أبو لهب ولا أبو طالب مع أن أبا طالب كان يحوطه، ويذب عنه، وأنه استخلف أبا بكر ليصلي بالناس لما مرض وثقل عن الصلاة لم يصل أحد بإذنه مع حضوره غير أبي بكر في مرضه، ولما ذهب ليصلح بين بني عمرو بن عوف، وأنه كان من خواص أصحابه العشرة أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وغير هؤلاء كعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأبي طلحة، وأبي أيوب، وأسيد بن حضير، وأضعاف هؤلاء، وأنه بايعه تحت الشجرة ألف وأربعمائة، وهم الذين أنزل الله فيهم: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة} [الفتح: 18]

وأنه لما قدم المدينة بنى مسجده، وكان في شماليه صفة ينزلها العزباء، وأن المهاجرين والأنصار كلهم أسلموا طوعا بلا رغبة ولا رهبة، وأن المهاجرين آذاهم الكفار إيذاء عظيما حتى هاجر منهم طائفة إلى الحبشة عند النجاشي، وأن النجاشي آمن به، وأنه لما مات أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بموته يوم مات، وأنه صلى عليه بأصحابه في المصلى كما يصلي على الميت الحاضر

وأنه كان يخطب يوم الجمعة قبل الصلاة، ويخطب في العيد بعد الصلاة، وكان يؤذن للجمعة وللصلوات الخمس، ولا يؤذن للعيدين، ولا غير الصلوات الخمس، وأن بلالا كان يؤذن له بالمدينة هو وابن أم مكتوم الأعمى، وكان سعد القرظ يؤذن لأهل قباء، وأبو محذورة يؤذن لأهل مكة، وكما تواتر عنه وعن خلفائه أنهم لم يكونوا بمنى يصلون صلاة عيد بل يرمون جمرة العقبة، وينحرون كما أمر أهل الأمصار أن يصلوا ثم ينحروا، إلى أمثال هذه الأمور مما هو متواتر عند كل من كان عالما بأحواله، ومنها ما هو متواتر عند جميع الأمة.

ومنها ما هو متواتر عند جمهورها، وليس منها شيء إلا وتواترت آياته وبراهينه صلى الله عليه وسلم التي لم تذكر في القرآن أعظم من تواتر هذه الأمور، والكتب المصنفة في آياته وبراهينه الخارجة عن القرآن فيها من الأحاديث أضعاف أضعاف ما يوجد من الأحاديث في مثل هذه الأمور، بل في كل صنف من أصناف آياته من الأحاديث أضعاف ما يوجد في مثل ذلك كتواتر إخباره بالغيوب المستقبلة، وتواتر تكثيره للطعام والشراب مرات متعددة، وتكثيره الطهور إما بنبع الماء بين أصابعه، وإما بفيضان الينبوع الذي يضع فيه بعض آثاره، وإم بفيضان الماء من الوعاء الذي برك فيه، والماء باق بحاله لم ينقص.

فالأحاديث المتواترة في مثل هذه الأنواع أكثر من الأحاديث المتواترة في مثل تلك الأمور التي هي متواترة، ولهذا كان شهرة هذه الأمور في الأمة وفي أهل العلم بأحواله أعظم من شهرة كثير من تلك الأمور، والمقصود هنا أن تواتر آياته المستفيضة في الأحاديث أعظم من تواتر أمور كثيرة هي متواترة عند الأمة أو عند علمائها وعلماء أهل الحديث، وهذا غير الآيات والبراهين المستفادة بالقرآن فإن تلك قد تجرد لها طوائف من المسلمين ذكروا من أنواعها وصفاتها ما هو مبسوط في غير هذا الموضع حتى بينوا أن ما في القرآن من الآيات يزيد على عشرات ألوف من الآيات، وهذا غير ما في كتب أهل الكتاب من الإخبار به

وهذه الأجناس الثلاثة غير ما في شريعته التي بعث بها، وغير صفات أمته، وغير ما يدل من المعرفة بسيرته وأخلاقه وصفاته وأحواله، وهذا كله غير نصر الله وإكرامه لمن آمن به، وعقوبته وانتقامه ممن كفر به كما فعل بالأنبياء المتقدمين فإن تعداد أعيان دلائل النبوة مما لا يمكن بشرا الإحاطة به إذ كان الإيمان به واجبا على كل أحد.

فيبين الله لكل قوم بل لكل شخص من الآيات والبراهين ما لا يبين لقوم آخرين كما أن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول، ولكل قوم بل ولكل إنسان من الدلائل المعينة التي يريه الله إياها في نفسه وفي الآفاق ما لا يعرف أعيانها قوم آخرون. قال تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} [فصلت: 53]

والضمير في ذلك عائد إلى القرآن عند المفسرين والسلف وعامة العلماء كما يدل على ذلك القرآن بقوله: {قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد} [فصلت: 52] (52) {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} [فصلت: 53] . . .

وقد قيل: إن الضمير عائد إلى الله، والصواب الأول كما قال: {قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به} [فصلت: 52]

وهذا هو القرآن. ثم قال بعد ذلك: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} [فصلت: 53]

ثم قال: {أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد} [فصلت: 53]

فأخبر أنه سيري الناس في أنفسهم وفي الآفاق من الآيات العيانية المشهورة المعقولة ما يبين أن الآيات القرآنية المسموعة المتلوة حق فيتطابق العقل والسمع، ويتفق العيان والقرآن، وتصدق المعاينة للخبر.

وإذا كان القرآن حقا لزم كون الرسول الذي جاء به صادقا، وأن الله تعالى أنزله، وأنه يجب التصديق بما أخبر به، والطاعة لما أوجبه وأمر به، وذلك يتضمن إثبات الصانع وتوحيده وأسماءه وصفاته، وإثبات النبوات، وإثبات المعاد، وهذه هي أصول العلم والإيمان التي علقت بها السعادة والنجاة.

[فصل: أدلة قرآنية على مجيء الرسل بالآيات]

وآيات النبوة وبراهينها تكون في حياة الرسول وقبيل مولده، وبعد مماته لا تختص بحياته فضلا عن أن تختص بحال دعوى النبوة أو حال التحدي كما ظنه بعض أهل الكلام، بل لا بد من آيات في حياته تدل على صدقه تقوم بها الحجة، وتظهر بها المحجة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» وقد قال تعالى في سورة إبراهيم: {الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد} [إبراهيم: 1]

إلى قوله: {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} [إبراهيم: 5]

إلى قوله: {ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب} [إبراهيم: 9] (9) {قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى} [إبراهيم: 10] الآيات

فأخبر سبحانه أن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أتتهم رسلهم بالبينات فعلم أنهم جاءوا بالبينات

وقال: {فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير} [آل عمران: 184]

وقال تعالى: {وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما} [الفرقان: 37] (37) {وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا} [الفرقان: 38] (38) {وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا} [الفرقان: 39]

فأخبر أنه سبحانه ضرب الأمثال لجميع هؤلاء الذين أرسل إليهم وأهلكهم فلم يعاقبهم إلا بعد أن أقام عليهم الحجة، وقال تعالى:

{وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [النحل: 43] (43) {بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون} [النحل: 44]

فأخبر أنه لم يرسل إلا رجالا يوحى إليهم لم يرسل إليهم ملائكة ولا نساء، وأنه أرسلهم بالبينات، والزبر، والزبر جمع زبور وهي الكتب، فإن منهم من أنزل عليه كتاب، ومنهم من أرسل بتجديد الكتاب الذي قبله .

وقال تعالى: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} [فاطر: 24] (24) {وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير} [فاطر: 25] (25) {ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير} [فاطر: 26]

أخبر أنه ليس أمة من الأمم إلا خلا فيها نذير كما قال: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} [النحل: 36]

ثم أخبر أن الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر والكتاب المنير، وهذا من عطف الخاص على العام لاختصاصه بوصف يختص به كقوله: {وملائكته ورسله وجبريل وميكال} [البقرة: 98] . . . فإن الزبر من البينات، والكتاب المنير من الزبر، وهو كقوله: {ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير} [الحج: 8]

فإن الهدى من العلم، والكتاب المنير من الهدى.

وبين أنه أخذ الذين كفروا بهم، وهذا أنزله ليبين عاقبة المكذبين،ولهذا بنى الفعل للفاعل فقال: {فقد كذب الذين من قبلهم}فاطر 25 وهذه السورة مكية. ثم أنزل في آل عمران وهي مدنية في سياق الآيات التي فيها تسلية الرسول والمؤمنين به وتثبيتهم وتعزيتهم لما أصابهم من المكذبين يوم أحد وغيره فقال: {الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم} [آل عمران: 172] (172) {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} [آل عمران: 173] (173) {فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم} [آل عمران: 174] (174) {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: 175] أي يخوفكم أولياءه كما قاله جمهور العلماء ثم قال: {ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا} [آل عمران: 176] وسياق الكلام في بيان أن الكفار لا يضرون الله ولا عباده المؤمنين بل ضررهم على أنفسهم وأن ما حصل لهم من نعمة إنما هو استدراج وإملاء إلى أن قال: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق} [آل عمران: 181] (181) {ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد} [آل عمران: 182] (182) {الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين} [آل عمران: 183] بين سبحانه أن هذا القول منهم مع أنه كذب فلم يقولوه إلا دفعا للحق لا ليؤمنوا بمن جاءهم بذلك إذ قد جاءهم رسل من قبله بالآيات البينات والقربان الذي تأكله النار، ومع هذا قتلوهم، والكلام في مثل هذا الجنس الذي يوالي بعضهم بعضا، ويتبع بعضهم بعضا كاليهود الذين هم على دين سلفهم الذين

فعلوا ذلك، ولهذا يذمهم بصيغة الخطاب كقوله: {وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون} [البقرة: 50]

إلى قوله: {وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة} [البقرة: 55] فالخطاب لجنس بني إسرائيل، وإن كان الذين عاينوا ذلك ماتوا ثم قال: {فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير} [آل عمران: 184]

فحذف هنا الفاعل، وبنى الفعل للمفعول إذ المقصود هنا تسلية الرسول وتعزيته لا ذكر عقوبة المكذبين فلهذا كانت هذه أخص من تلك.

[فصل: من آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين بهم]

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم، ونصره للمؤمنين بهم، فهذا من أعلام نبوتهم، ودلائل صدقهم، كإغراق الله قوم نوح لما كذبوه، وكإهلاكه قوم عاد بالريح الصرصر، وإهلاك قوم صالح بالصيحة، وإهلاك قوم شعيب بالظلة، وإهلاك قوم لوط بإقلاب مداينهم، ورجمهم بالحجارة، وكإهلاك قوم فرعون بالغرق، وقد ذكر الله القصص في القرآن في غير موضع، وبين أنها من آيات الأنبياء الدالة على صدقهم كما يذكره في سورة الشعراء لما ذكر قصة موسى قال: {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} [الشعراء: 8] ثم ذكر قصة إبراهيم، وقال في آخرها: إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} [الشعراء: 103]

وكذلك ذكر مثل ذلك في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم، ومن لسان الصدق والثناء والدعاء لهم ولمن آمن بهم، كما قال تعالى في قصة نوح: {وتركنا عليه في الآخرين} [الصافات: 78] (78) {سلام على نوح في العالمين} [الصافات: 79] ، وكذلك في قصة إبراهيم: {وتركنا عليه في الآخرين} [الصافات: 108] (108) {سلام على إبراهيم} [الصافات: 109] أي تركنا هذا القول الذي يقوله المتأخرون، وكذلك في قصة موسى، وهارون: {وتركنا عليه في الآخرين - سلام على موسى وهارون} [الصافات: 108 - 120] و {سلام على إل ياسين} [الصافات: 130]

وكذلك في قصة إبراهيم قال تعالى: {فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا} [مريم: 49] (49) {ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا} [مريم: 50] وقال في قصة فرعون: {واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون} [القصص: 39] (39) {فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} [القصص: 40] (40) {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون} [القصص: 41] (41) {وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين} [القصص: 42] ولهذا قال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} [يوسف: 111] وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: {فاصبر إن العاقبة للمتقين} [هود: 49] فأخبر أن العاقبة للمتقين، ثم إنه ما وقع لهؤلاء وهؤلاء يعلم بالسمع والنقل تارة، ويعلم بالعقل والاعتبار بآثارهم تارة، كما قال عن أهل النار: {لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} [الملك: 10] كما ذكر الله الطريقين في قوله: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز} [الحج: 40] (40) {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور} [الحج: 41] (41)

ثم قال: {وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود} [الحج: 42] (42) {وقوم إبراهيم وقوم لوط} [الحج: 43] (43) {وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير} [الحج: 44] (44) {فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد} [الحج: 45] (45)

ثم قال: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} [الحج: 46]

وقال تعالى:{وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص} [ق: 36] (36) {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} [ق: 37]

وقال تعالى: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} [الروم: 9] (9) {ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون} [الروم: 10]

وقال تعالى: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق} [غافر: 21] (21) {ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب} [غافر: 22]

وقال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون} [غافر: 82] (82) {فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون} [غافر: 83] (83) {فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين} [غافر: 84] (84) {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون} [غافر: 85]

وقال لما قص قصص نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى في سورة هود: {ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد} [هود: 100] (100) {وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب} [هود: 101] (101) {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} [هود: 102]

ولما ذكر قصة لوط في سورة الصافات قال: {وإنكم لتمرون عليهم مصبحين} [الصافات: 137] (137) {وبالليل أفلا تعقلون} [الصافات: 138]

وفي سورة الحجر: {إن في ذلك لآيات للمتوسمين} [الحجر: 75] (75) {وإنها لبسبيل مقيم} [الحجر: 76] (76) {إن في ذلك لآية للمؤمنين} [الحجر: 77] (77) {وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين} [الحجر: 78] (78) {فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين} [الحجر: 79] (79)

والإمام المبين هو الطريق المستبين الواضح. بين سبحانه أن هذه وهذه كلاهما بسبيل للناس يرونها بأبصارهم فيعلمون بذلك ما فعل الله بمن كذب رسله وعصاهم، ودلالة نصر الله المؤمنين، وانتقامه من الكافرين على صدق الأنبياء من جنس دلالة الآيات والمعجزات على صدقهم، فكون هذا فعل لأجل هذا، وكون ذاك سبب هذا هو مما يعلم بالإضرار عند تصور الأمر على ما هو عليه، كانقلاب العصا حية عقب سؤال فرعون الآية، وانشقاق القمر عند سؤال مشركي مكة آية، وأمثال ذلك.

والسؤال المشهور الذي يورد في هذا الموضع على قول من ينفي التعليل في أفعال الله، ويجوز على الله كل فعل، حيث قيل لهم: على أصلكم: لا يفعل الله شيئا لأجل شيء، وحينئذ فلم يأت بالآيات الخارقة للعادة لأجل تصديق الرسول، ولا عاقب هؤلاء لتكذيبهم له، ولا أنجى هؤلاء ونصرهم لإيمانهم به، إذا كان لا يفعل شيئا لشيء عندكم، وقالوا لهم أيضا: إذا جوزتم على الرب كل فعل جاز أن يظهر الخوارق على يد الكاذب، ويقال لهم أيضا: أنتم لا تعلمون ما يفعل الرب إلا بعادة أو خبر الأنبياء، فقبل العلم بصدق النبي لا يعلم شيء بخبره، والعادة إنما تكون فيما تكرر كطلوع الشمس، ونزول المطر، ونحو ذلك، والإتيان بالخارق للتصديق ليس معتادا.

فيقال: هذا السؤال إن كان متوجها فإنما يقدح في قول هؤلاء الذين يقولون: يفعل شيئا لأجل شيء، ويجوزون عليه فعل كل شيء ممكن، لا ينزهونه عن فعل سيئ الأفعال، وليس عندهم قبيحا وظلما إلا ما كان ممتنعا مثل جعل الشيء موجودا معدوما، وجعل

الجسم في مكانين، ولهذا ذكر ذلك مخالفوهم حجة في إبطال مذهبهم، وقالوا: قولهم يقدح في العلوم الضرورية، ويسد باب العلم بصدق الرسل. قالوا: إذا جوزتم أن يفعل كل شيء فجوزوا أن يكون الجبال انقلبت ياقوتا، والبحار لبنا، ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة بطلانه، وجوزوا أن يخلق المعجزات على يدي الكذابين، وليس المقصود هنا الجواب عن هؤلاء، ولا بيان فساد قولهم، ولكن المقصود أن هذا السؤال إن كان متوجها فإنما يقدح في قوله هؤلاء لا يقدح فيما علم بالاضطرار من دلالات الآيات المذكورة على حال هؤلاء وهؤلاء، وأن الله سبحانه وتعالى نجى موسى ونصره لصدقه ونبوته وإيمانه، وأهلك فرعون لتكذيبه، وكذلك نصر محمدا ومن اتبعه على من كذبه من قومه، ونصر نوحا على من كفر به، ونصر المسيح على من كذبه، ونصر سائر الرسل وأتباعهم المؤمنين كما قال تعالى: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [غافر: 51] (51)

وقال: {سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} [الصافات: 171] (171) {إنهم لهم المنصورون} [الصافات: 172] (172) {وإن جندنا لهم الغالبون} [الصافات: 173]

كما لا يقدح ما علم بالاضطرار من أن الله ينزل المطر في إبانه لسقي المزارع، وأنه يسوق النيل لسقي أرض مصر، وأنه جعل أعضاء الإنسان لما فيها من المنافع كالبطش باليدين، والمشي بالرجلين، والنظر بالعينين، والسمع بالأذنين، والنطق باللسان، وجعل ماء العين ملحا لكونها شحمة، والملوحة تمنعها أن تذوب، وماء الأذن مرا ليمنع الذباب من الولوج في الدماغ، وماء الفم عذبا ليطيب الطعام والشراب، وجعل ماء البحر مالحا لبقاء الأنام فإنه لو كان عذبا فيموت فيه من الحيوان العظيم فيفسد الريح فيموت الآدميون والبهائم بهذه الريح، إلى ما لا يحصى من حكمة الله المشهودة في خلقه.

ونفاة التعليل يقولون: نحن نعلم أن هذا مقارن لهذا بحكم العادة التي أجراها الله، وإن لم يخلق شيئا لشيء، وكذلك من نفى

الأسباب مع نفي التعليل أيضا يقولون: نحن نعلم أنه يخلق هذا عند هذا لا به، فاقتران المعجز بالتصديق من هذا الباب عندهم، لكن يبقى عليهم أن هذا لا يعلم إلا بالعادة، ولا عادة. فلا جرم رجعوا إلى فطرته من أن هذا أمر معلوم بالاضطرار، وإن كان مناقضا لأصلهم الفاسد، وضربوا لذلك مثلا بالملك الذي أظهر ما يناقض عادته لتصديق رسوله.

لكن يقال لهم: الملك يفعل فعلا لمقصود، فأمكن أن يقال: إنه قام ليصدق رسوله، وأنتم عندكم أن الله لا يفعل شيئا لشيء، فلم يبق المثل مطابقا، ولهذا صاروا مضطربين في هذا الموضع، تارة يقولون: المعجزات دليلا على الصدق لئلا يفضي إلى تعجيز الرب فإنه لا دليل على الصدق إلا خلق العجز فلو لم يكن دليلا لزم أن يكون الرب غير قادر على تصديق الرسول الصادق، وهذه طريقة الأشعري في أكثر كتبه، وأحد قوليه، وسلكها القاضي أبو بكر، وأبو إسحاق الإسفرائيني، وأبو بكر بن فورك، وأبو محمد بن اللبان، وأبو علي بن شاذان، والقاضي أبو يعلى، وغيرهم .

والثاني قالوا: نحن نعلم بالاضطرار أنه فعل هذا لأجل التصديق كالمثل المضروب، وهذا هو القول الآخر، وهي طريقة أبي الحسن الأشعري في أماليه، وهي طريقة أبي المعالي، وأتباعه كالرازي، وغيره، وتنازعوا: هل يمكن خلق ذلك على يد كذاب؟ فقيل: لا يمكن لأنه لو أمكن لجاز وقوعه، وقيل: بل هو مقدور لكن نعلم أنه لا يفعله كما نعلم أنه لا يفعل كثيرا من الخوارق المقدورات كقلب الجبل ياقوتا، والبحر زيتا.

قالوا: فنحن نعلم بالضرورة أنه لا يفعلها فلا يلزم من كونها مقدورة ممكنة أن لا يعلم انتفاء وقوعها، بل قد يعلم عدم وقوعها بالاضطرار، وإن كنا نقول إنها ممكنة مقدورة، وظهور المعجزات على يد الكذاب في دعوى النبوة من هذا الباب عندنا.

وقالوا: المعجز علم على صدق الأنبياء فيمتنع أن يكون الدليل غير مستلزم للمدلول عليه، وهذا القول حق لكن منازعوهم يقولون: هو يستلزم نقيض ما نفوه من كون الله يخلق شيئا لشيء، ويخلق شيئا بشيء، وما قالوا من كونه يجوز عليه فعل كل شيء، وكان ما ذكروه من الحق دليلا على أن الخلق يعلمون ما يعلمونه من حكمة الرب ومراده بما يخلقه لأمر آخر، وأنه سبحانه منزه عن أن يفعل أشياء لا يجوز منه فعل كل شيء، وهم يقولون هنا: قد يكون الشيء ممكنا جائزا مع العلم بأنه غير واقع كانقلاب الجبال ياقوتا، والبحر زئبقا، وموت أهل البلد كلهم في لحظة، ومصير الأطفال علماء حكماء في لحظة واحدة.

وعلى هذا الجواب يعتمدون كثيرا، كما يذكره القاضي أبو بكر، والقاضي أبو يعلى، وأبو المعالي، والرازي، وغيرهم، ثم إنهم يقولون في العقل أنه علوم ضرورية كالعلم بوجوب الواجبات، وامتناع الممتنعات، وجواز الجائزات، فالممتنعات كانقلاب دجلة دما، وأمثال ذلك في الأمور العادية، فيجعلون العادات واجبة تارة، وممتنعة أخرى، مع أنه لا سبب يوجب لا هذا ولا هذا.

ويقولون: نعلم أن هذا جائز ممكن لا يتوقف على سبب، ولا له مانع كالآخر، ثم نعلم أن هذا واقع، وهذا غير واقع لمجرد العادة، مع أن خرق العادة ليس له عندهم ضابط، بل كل ما يجري من العادات معجزات للأنبياء، فيجوز أن يكون عندهم للولي وللساحر، والفرق بينهما عندهم التحدي أو عدم المعارضة، وكذلك المتفلسفة الملاحدة الذين يقولون: أسباب الآيات القوى الفلكية، والقوى النفسانية والطبيعية، وهذه كلها مشتركة عندهم بين الأنبياء والسحرة لكن النبي يقصد الخير والعدل، والساحر يقصد الشر والظلم.

وكذلك أولئك الذين وافقوا جهما على أصله في القدر، لا فرق عندهم بين كرامات الأولياء وخوارق السحرة، لكن الولي مطيع لله، والساحر غير مطيع لله، هذا عمدة هؤلاء النفاة للحكمة والأسباب في أفعال الله تعالى.

وجمهور الناس يخالفونهم، ويقولون: هذا القول فاسد بل نفس تصوره كاف في العلم بفساده، فإنه إذا تماثل هذا وهذا من كل وجه فمن أين يعلم وجود هذا أو وجوبه، وعدم هذا أو امتناعه، وإذا قيل: مستندي العادة. قيل له: منازعوك يقولون: هذا باطل من وجهين:

أحدهما: أنك أنت تجوز انتقاض العادة، وليس لانتقاضها عندك سبب تختص به، ولا حكمة انتقضت لأجلها، بل لا فرق عندك بين انتقاضها للأنبياء، والأولياء، والسحرة، وغير ذلك، ولهذا قلتم: ليس بين معجزات الأنبياء وبين كرامات الأولياء والسحرة فرق إلا مجرد اقتران دعوى النبوة والتحدي بالمعارضة مع عدم المعارضة، مع أن التحدي بالمعارضة قد يقع من المشرك بل ومن الساحر، فلم يثبتوا فرقا يعود إلى جنس الخوارق المفعولة، ولا إلى قصد الفاعل والخالق، ولا قدرته، ولا حكمته.

والثاني: أن العادة لا بد لها من أسباب وموانع يعلم بها اطرادها تارة، وانتفاضها أخرى، وبهذا يظهر الجواب عما قالوه من أن انقلاب الجبل ذهبا، والبحر زئبقا، والأناسي قرودا، ونحو ذلك ممكن معلوم الجواز مع العلم بأنه لم يقع، فإنهم يقال لهم: جمهور الناس لا يعلمون لكم أن هذا ممكن إلا مع لوازمه، وانتفاء أضداده، وحينئذ يقال: لم قلتم أن هذا لا يستلزم أسبابا تكون قبله؟ وموانع ترتفع كسائر ما يحدثه الله من الأمور الخارقة للعادة، فإنه لا يحدث شيئا إلا بإحداث أسباب ودفع موانع، مثال ذلك غرق قوم نوح لم يكن ماء وجد بلا سبب، بل أنزل الله ماء السماء، وأنبع ماء الأرض كما قال تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} [القمر: 9] (9) {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} [القمر: 10] (10) {ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر} [القمر: 11] (11) {وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر} [القمر: 12] (12) {وحملناه على ذات ألواح ودسر} [القمر: 13]

وكذلك عاد لما أهلكهم أرسل الريح الصرصر سبع ليال وثمانية أيام حسوما، كما قال تعالى:{فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية} [الحاقة: 7] (7) فهل {ترى لهم من باقية} [الحاقة: 8]

وكذلك ثمود قال لهم صالح: {ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب} [هود: 64] (64) {فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب} [هود: 65] (65) {فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز} [هود: 66] (66) {وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين} [هود: 67] (67) {كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود} [هود: 68]

وكل ما وجد في العالم من خوارق العادات: آيات الأنبياء، وغيرها لم يأت منها شيء إلا بأسباب تقدمته، كآيات موسى من مثل مصير العصا حية، كانت بعد أن ألقاها إما عند أمر الله بذلك لما ناداه من الشجرة، ورأى النار الخارقة للعادة، وإما عند مطالبة فرعون له بالآية، وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم، وعصيهم، وكذلك سائر آياته، حتى إغراق فرعون كان بعد مسير الجيش، وضربه البحر بالعصا، وكذلك تفجر الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه، واستسقاء قومه إياه، وهم في برية لا ماء عندهم.

وكذلك آيات نبينا صلى الله عليه وسلم، مثل تكثير الماء، كان بوضع يده فيه حتى نبع الماء من بين الأصابع، أي تفجر الماء من بين الأصابع لم يخرج من نفس الأصابع، وكذلك البئر كان ماؤها يكثر إما بإلقائه سهما من كنانته فيها، وإما بصبه الماء الذي بصق فيه فيها، وكذلك المسيح كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، إلى أمثال ذلك.

فأما جبل ينقلب ياقوتا بلا أسباب تقدمت ذلك فهذا لا كان، ولا يكون، وكذلك نهر يطرد يصبح لبنا بلا أسباب تقتضي ذلك يخلقها الله فهذا لا كان، ولا يكون، ومن قال: إن الشيء ممكن فهذا يعنى به شيئان: يعنى به الإمكان الذهني، والإمكان الخارجي.

فالإمكان الذهني هو عدم العلم بالامتناع، وهذا ليس فيه إلا عدم العلم بالامتناع، وعدم العلم بالامتناع غير العلم بالإمكان، فكل من لم يعلم امتناع شيء كان عنده ممكنا بهذا الاعتبار، لكن هذا ليس بعلم بإمكانه، ومن استدل على إمكان الشيء بأنه لو قدر لم يلزم منه محال من غير بيان انتفاء لزوم كل محال، كما يفعله طائفة من أهل الكلام كالآمدي ونحوه لم يكن فيما ذكره إلا مجرد الدعوى.

وأما الثاني: وهو العلم بإمكان الشيء في الخارج، فهذا يعلم بأن يعلم وجوده، أو وجود نظيره، أو وجود ما هو أقرب إلى الامتناع منه، فإذا كان حمل البعير للقنطار ممكنا كان حمله لتسعين رطلا أولى بالإمكان، وبهذه الطريقة يبين الله في القرآن

إمكان ما يريد بيان إمكانه كإحياء الموتى والمعاد، فإنه يبين ذلك تارة ببيان وقوعه، كما أخبر أن قوم موسى قالوا: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة} [البقرة: 55] . . .

{فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون} [الذاريات: 44] ، ثم بعثهم الله من بعد موتهم لعلهم يشكرون.

وكما أخبر عن المقتول الذي ضربوه بالبقرة فأحياه الله كما قال:{وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون} [البقرة: 72] (72) {فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون} [البقرة: 73] .

وكما أخبر عن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، وكما أخبر عن الذي: {. . . مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير} [البقرة: 259]

وأخبر سبحانه بنظير ذلك في قصة إبراهيم حيث قال: {. . . رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم} [البقرة: 260] .

واستدل سبحانه بما هو أعظم من ذلك وهو النشأة الأولى، وخلق السماوات والأرض كقوله:{أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم} [يس: 81]

وقال: {إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم} [الحج: 5] . . .

إلى قوله: {وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} [الحج: 5]

فاستدل سبحانه على إمكان الإحياء بابتداء خلق الحيوان، وبخلق النبات، وذكر ذلك في القرآن في غير موضع، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود أن قول القائل: هذا ممكن لا يحتاج إلى دليل لا يكفي في العلم بإمكانه عدم العلم بامتناعه، والله سبحانه على كل شيء قدير، والممتنع ليس بشيء باتفاق العقلاء، وكل ما خلقه الله فلا بد أن يخلق لوازمه، ويمتنع أضداده، وإلا فيمتنع وجود الملزوم

دون اللازم، ويمتنع اجتماع الضدين، وليس للعباد اطلاع على لوازم كل مخلوق ولا أضداده المنافية لوجوده.

فالجزم بإمكان وجوده بدون العلم بلوازمه وإمكانها وأضدادها وانتفائها جهل، والله سبحانه قادر على تغيير ما شاءه من العالم، وهو يشق السماوات، ويسير الجبال، ويبسها بسا فيجعلها هباء منبثا، إلى أمثال ذلك مما أخبر الله به كما يخلق سائر ما يخلقه بما ييسره من الأسباب، وهذا مبسوط في موضع آخر.

والمقصود هنا أن آيات الأنبياء، ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث وحين المبعث، في حياتهم، وبعد موتهم، فقبل المبعث مثل إخبار من تقدم من الأنبياء به، ومثل الإرهاصات الدالة عليه، وأما حين المبعث فظاهر، وأما في حياته فمثل نصره، وإنجائه، وإهلاك أعدائه، وأما بعد موته فمثل نصر أتباعه، وإهلاك أعدائه كما قال تعالى:{إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [غافر: 51]

وقال تعالى: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} [الصافات: 171] (171) {إنهم لهم المنصورون} [الصافات: 172] (172) {وإن جندنا لهم الغالبون} [الصافات: 173]

وقال للمسيح: {إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة} [آل عمران: 55] . . .

وقال: {يأأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين} [الصف: 14]

ومحمد صلى الله عليه وسلم جعلت له الآيات البينات قبل مبعثه، وحين مبعثه، وفي حياته، وبعد موته إلى الساعة، وإلى قيام الساعة، فإن ذكره، وذكر كتابه، والبشارة بذلك موجود في الكتب المتقدمة كما قد بسط في موضعه.

والخليل دعا به فقال في دعائه لذريته: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم} [البقرة: 129]

ولما ولد اقترن بمولده من الآيات ما هو معروف، وجرى ذلك العام قصة أصحاب الفيل المشهورة، وكان يحصل له في مدة نشأته من الآيات والدلائل أمور كثيرة قد ذكر طرف منها في كتب دلائل النبوة والسيرة وغيرها، مثل الآيات التي حصلت لمرضعته لما صار عندها، ومثل ما شوهد من أحواله في صغره، وأما انتصار الله له ولأتباعه، وإعلاء ذكره، ونشر لسان الصدق له، وإهلاك أعدائه، وإذلال من يحاده، ويشاقه، وإظهار دينه على كل دين باليد واللسان والدليل والبرهان، فهذا مما يطول وصف تفصيله. قال تعالى: {قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} [آل عمران: 13]

وقال تعالى: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يأأولي الأبصار} [الحشر: 2]

والأنبياء صلوات الله عليهم، وأتباعهم المؤمنون، وإن كانوا يبتلون في أول الأمر فالعاقبة لهم كما قال تعالى لما قص قصة نوح {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين} [هود: 49] .

وفي الحديث المتفق على صحته لما «أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسولا إلى ملك الروم فطلب من يخبره بسيرته، وكان المسئولون حينئذ أعداءه لم يكونوا آمنوا به فقال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قالوا: الحرب بيننا وبينه سجال يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى.

فقال: كذلك الرسل تبتلى، وتكون لها العاقبة.

فإنه كان يوم بدر نصر الله المؤمنين، ثم يوم أحد ابتلى المؤمنين ثم لم ينصر الكفار بعدها حتى أظهر الله الإسلام»

فإن قيل: ففي الأنبياء من قد قتل كما أخبر الله أن بني إسرائيل يقتلون النبيين بغير حق، وفي أهل الفجور من يؤتيه الله ملكا وسلطانا، ويسلطه على مذنبين كما سلط (بخت نصر) على بني إسرائيل، وكما يسلط كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانا على المسلمين. قيل: أما من قتل من الأنبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين في الجهاد شهيدا. قال تعالى: {وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين} [آل عمران: 146] (146) {وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين} [آل عمران: 147] (147) {فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين} [آل عمران: 148]

ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيدا في القتال كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه قال تعالى: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون} [آل عمران: 169]

ولهذا قال تعالى: {قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين} [التوبة: 52]

أي إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة، ثم الدين الذي قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر، فيكون لطائفته السعادة في الدنيا والآخرة، من قتل منهم كان شهيدا، ومن عاش منهم كان منصورا سعيدا، وهذا غاية ما يكون من النصر، إذ كان الموت لا بد منه فالموت على الوجه الذي يحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل بخلاف من يهلك هو وطائفته فلا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم، وفعلوا الأسباب التي بها قتلوا، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم اختاروا هذا الموت إما أنهم قصدوا الشهادة، وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء عالمين بأن لهم السعادة في الآخرة، وفي الدنيا بانتصار طائفتهم، وببقاء لسان الصدق لهم ثناء ودعاء بخلاف من هلك من الكفار فإنهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكا لا يرجون معه سعادة الآخرة، ولم يحصل لهم ولا لطائفتهم شيء من سعادة الدنيا بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين، وقيل فيهم:{كم تركوا من جنات وعيون} [الدخان: 25] (25) {وزروع ومقام كريم} [الدخان: 26] (26) {ونعمة كانوا فيها فاكهين} [الدخان: 27] (27) {كذلك وأورثناها قوما آخرين} [الدخان: 28] (28) {فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين} [الدخان: 29]

وقد أخبر سبحانه أن كثيرا من الأنبياء قتل معه ربيون كثير أي ألوف كثيرة، وأنهم ما ضعفوا، ولا استكانوا لذلك، بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العدو، وأن الله آتاهم ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، فإذا كان هذا قتلى المؤمنين فما الظن بقتلى الأنبياء، ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح.

وظهور الكفار على المؤمنين أحيانا هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد، فإن تابوا انتصروا على الكفار، وكانت العاقبة لهم كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها، فإن النبي إذا قاموا بعهوده، ووصاياه نصرهم الله، وأظهرهم على المخالفين له، فإذا ضيعوا عهوده ظهر أولئك عليهم، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يزاحم ذلك، ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر موجب للعلم بأن المدار علة للدائر.

وقولنا: (من غير مزاحمة وصف آخر) : يزيل النقوض الواردة، فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو بسبب اتباع النبي، وأنه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفه، وأن يجعل لهم السعادة، ولمن خالفهم الشقاء، وهذا يوجب العلم بنبوته، وأن من اتبعه كان سعيدا، ومن خالفه كان شقيا، ومن هذا ظهور بخت نصر على بني إسرائيل فإنه من دلائل نبوة موسى إذ كان ظهور بخت نصر إنما كان لما غيروا عهود موسى، وتركوا اتباعه، فعوقبوا بذلك، وكانوا إذ كانوا متبعين لعهود موسى منصورين مؤيدين كما كانوا في زمن داود وسليمان وغيرهما. قال تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا} [الإسراء: 4] (4) {فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا} [الإسراء: 5] (5) {ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا} [الإسراء: 6] (6) {إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا} [الإسراء: 7] (7) {عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا} [الإسراء: 8]

فكان ظهور بني إسرائيل على عدوهم تارة، وظهور عدوهم تارة من دلائل نبوة موسى صلى الله عليه وسلم، وكذلك ظهور أمة محمد صلى الله عليه وسلم على عدوهم تارة، وظهور عدوهم عليهم تارة هو من دلائل رسالة محمد وأعلام نبوته، وكان نصر الله لموسى وقومه على عدوهم في حياته وبعد موته، كما جرى لهم مع يوشع وغيره من دلائل نبوة موسى، وكذلك انتصار المؤمنين مع محمد صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته مع خلفائه من أعلام نبوته ودلائلها، وهذا بخلاف الكفار الذين ينتصرون على أهل الكتاب أحيانا، فإن أولئك لا يقول مطاعهم: إني نبي، ولا يقاتلون أتباع الأنبياء على دين، ولا يطلبون من أولئك أن يتبعوهم على دينهم، بل قد يصرحون بأنا إنما نصرنا عليكم بذنوبكم، وأن لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم، وأيضا فلا عاقبة لهم، بل الله يهلك الظالم بالظالم ثم يهلك الظالمين جميعا، ولا قتيلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت، ولا يختارون القتل ليسعدوا بعد الموت، فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق بين انتصار الأنبياء وأتباعهم، وبين ظهور بعض الكفار على المؤمنين أو ظهور بعضهم على بعض.

وبين أن ظهور محمد وأمته على أهل الكتاب اليهود والنصارى هو من جنس ظهورهم على المشركين عباد الأوثان، وذلك من أعلام نبوته ودلائل رسالته، ليس هو كظهور بخت نصر على بني إسرائيل، وظهور الكفار على المسلمين، وهذه الآية مما أخبر بها موسى وبين أن الكذاب المدعي للنبوة لا يتم أمره، وإنما يتم أمر الصادق، فإن من أهل الكتاب من يقول: محمد وأمته سلطوا علينا بذنوبنا مع صحة ديننا الذي نحن عليه كما سلط بخت نصر وغيره من الملوك، وهذا قياس فاسد، فإن بخت نصر لم يدع نبوة، ولا قاتل على دين، ولا طلب من بني إسرائيل أن ينتقلوا عن شريعة موسى إلى شريعته، فلم يكن في ظهوره إتماما لما ادعاه من النبوة ودعا إليه من الدين، بل كان بمنزلة المحاربين قطاع الطريق إذا ظهروا على القوافل، بخلاف من

ادعى نبوة ودينا دعا إليه، ووعد أهله بسعادة الدنيا والآخرة، وتوعد مخالفيه بشقاوة الدنيا والآخرة، ثم نصره الله، وأظهره، وأتم دينه، وأعلى كلمته، وجعل له العاقبة، وأذل مخالفيه، فإن هذا من جنس خرق العادات المقترن بدعوى النبوة فإنه دليل عليها، وذلك من جنس خرق العادات التي لم تقترن بدعوى النبوة، فإنه ليس دليلا عليها.

وقد يغرق في البحر أمم كثيرة فلا يكون ذلك دليلا على نبوة نبي بخلاف غرق فرعون وقومه، فإنه كان آية بينة لموسى، وهذا موافق لما أخبر به موسى عليه الصلاة والسلام من أن الكذاب لا يتم أمره، وذلك أن الله حكيم لا يليق به تأييد الكذاب على

كذبه من غير أن يتبين كذبه، ولهذا أعظم الفتن فتنة الدجال الكذاب لما اقترن بدعواه الإلهية بعض الخوارق كان معها ما يدل على كذبه من وجوه:

منها: دعواه الإلهية وهو أعور، والله ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ، والله تعالى لا يراه أحد حتى يموت، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم هذه العلامات الثلاث في الأحاديث الصحيحة، فأما تأييد الكذاب، ونصره، وإظهار دعوته دائما فهذا لم يقع قط، فمن يستدل على ما يفعله الرب سبحانه بالعادة والسنة فهذا هو الواقع، ومن يستدل على ذلك بالحكمة فحكمته تناقض أن يفعل ذلك إذ الحكيم لا يفعل هذا، وقد قال تعالى: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا} [الفتح: 22] (22) {سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} [الفتح: 23]

فأخبر أن سنة الله التي لا تبديل لها نصر المؤمنين على الكافرين.

والإيمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله فإذا نقض الإيمان بالمعاصي كان الأمر بحسبه كما جرى يوم أحد، وقال تعالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا} [فاطر: 42] (42) {استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا، ولن تجد لسنت الله تحويلا} [فاطر: 43]

فأخبر أن الكفار لا ينظرون إلا سنة الأولين، ولا يوجد لسنة الله تبديل تستبدل بغيرها ولا تتحول، فكيف النصر للكفار على المؤمنين الذين يستحقون هذا الاسم، وكذلك قال في المنافقين، - وهم الكفار في الباطن دون الظاهر -، ومن فيه شعبة نفاق:

{لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا} [الأحزاب: 60] (60) {ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا} [الأحزاب: 61] (61) {سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} [الأحزاب: 62]

والسنة هي العادة، فهذه عادة الله المعلومة، فإذا نصر من ادعى النبوة وأتباعه على من خالفه، وإما ظاهرا وباطنا، وإما باطنا نصرا مستقرا كان ذلك دليلا على أنه نبي صادق إذ كانت سنة الله وعادته نصر المؤمنين بالأنبياء الصادقين على الكافرين والمنافقين، كما أن سنته تأييدهم بالآيات البينات، وهذه منها ومن ادعى النبوة وهو كاذب فهو من أكفر الكفار، وأظلم الظالمين قال تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله} [الأنعام: 93]

وقال تعالى: {فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه} [الزمر: 32]

وقال تعالى: {فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين} [الأنعام: 144]

ومن كان كذلك كان الله يمقته، ويبغضه، ويعاقبه، ولا يدوم أمره، بل هو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: " «إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته " ثم قرأ: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} [هود: 102] »

وقال أيضا في الحديث الصحيح عن أبي موسى أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتميلها أخرى، ومثل المنافق مثل شجرة الأرز، لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة» ". فالكاذب الفاجر وإن أعطي دولة فلا بد من زوالها بالكلية، وبقاء ذمه، ولسان السوء له في العالم، وهو يظهر سريعا ويزول سريعا كدولة الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي، ونحوهم.

وأما الأنبياء فإنهم يبتلون كثيرا ليمحصوا بالبلاء، فإن الله إنما يمكن العبد إذا ابتلاه، ويظهر أمرهم شيئا فشيئا كالزرع، قال تعالى: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} [الفتح: 29]

ولهذا كان أول ما يتبعهم ضعفاء الناس، فاعتبار هذه الأمور، وسنة الله في أوليائه وأنبيائه الصادقين، وفي أعداء الله والمتنبئين الكذابين، مما يوجب الفرق بين النوعين، وبين دلائل النبي الصادق، ودلائل المتنبئ الكذاب.

وقد ذكر ابتلاء النبي والمؤمنين، ثم كون العاقبة لهم في غير موضع، كقوله تعالى: {ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين} [الأنعام: 34]

وقال تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب} [البقرة: 214]

وقال تعالى:{وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون} [يوسف: 109] (109) {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين} [يوسف: 110] (110) {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} [يوسف: 111]

[فصل: دلائل النبوة أخبار تحمل الترغيب والترهيب]

ومما ينبغي أن يعرف أن الأدلة نوعان:

نوع يدل على مجرد العلم بالمدلول عليه، ونوع يحض مع ذلك على الرغبة فيه أو الرهبة منه

فالأول: من جنس الخير المجرد

والثاني: من جنس الحث والطلب والإرادة والأمر بالشيء والنهي عنه، وذلك كمن علم أن في المكان الفلاني جمادات أو حيوانات أو نبات ليس له فيها غرض لا حب ولا بغض، فليس هو بمنزلة من علم أن في المكان الفلاني صديقه، وولده، ومحبوبه، وماله، وأهله، وأهل دينه، وفي المكان الفلاني عدوه، ومبغضه، ومن يقطع عليه الطريق، ويقتله، ويأخذ ماله، فكذلك دلائل النبوة هي كلها تدل على صدق النبي، ثم يعلم ما يخبر به النبي من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، لأنه أخبر عن الله بذلك، وهو صادق فيما يخبر به، فهذا طريق صحيح عام.

وأما إثبات نبوة الأنبياء بما فعله بهم، وبأتباعهم من النجاة، والسعادة، والنصرة، وحسن العاقبة، وما جعله لهم من لسان الصدق، وما فعله بمكذبيه ومخالفيه من الهلاك والعذاب وسوء العاقبة، وإتباعهم اللعنة في الدنيا مع عذاب الآخرة فهذا يدل مع صدق الأنبياء على الرغبة في اتباعهم، والرهبة من مخالفتهم ففيه العلم بصدقهم، والموعظة، والوعظ هو أمر ونهي بترغيب وترهيب. قال تعالى: {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به} [النساء: 66] . . . أي يؤمرون به، وقال {يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين} [النور: 17]

أي ينهاكم الله أن تعودوا لمثله، وهذه الطريق أكمل وأبلغ في حصول المقصود، فإنها تفيد العلم بصدقهم، والرغبة في اتباعهم، والرهبة من خلافهم، وتفيد صحة الدين الذي دعوا إليه، وسعادة أهله، وفساد الدين المخالف لدينهم، وشقاوة أهله.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة العيد بـ (قاف) و (اقتربت الساعة) لما فيهما من بيان ذلك، وسورة (قاف) كان يقرأ بها في الجمعة، فإنها جامعة لإثبات النبوات، والمعاد، وبيان حال متبعي الأنبياء ومخالفيهم في الدنيا كما قال تعالى فيها {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود} [ق: 12] (12) {وعاد وفرعون وإخوان لوط} [ق: 13] (13) {وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} [ق: 14]

[فصل: من طلب آية ثانية وثالثة والحكمة من تتابع الآيات الدالة على النبوة]

ومما ينبغي أن يعلم أن الله إذا أرسل نبيا وأتى بآية دالة على صدقه قامت بها الحجة، وظهرت بها المحجة، فمن طالبهم بآية ثانية لم تجب إجابته إلى ذلك، بل وقد لا ينبغي ذلك، لأنه إذا جاء بآية ثانية طولب بثالثة، وإذا جاء بثالثة طولب برابعة، وطلب المتعنتين لا أمد له، ومعلوم أنه قامت عليه حجة في مسألة علم أو حق من حقوق العباد التي يتخاصمون فيها، وقال: أنا لا أقبل حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثة كان ظالما متعديا، ولم يجب إجابته إلى ذلك، ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك، بل إذا قامت البينة بحق المدعي حكم له بذلك، ولو قال المطلوب: أريد بينة ثانية، وثالثة، ورابعة، لم يجب إلى ذلك، فحق الله الذي أوجبه على عباده من توحيده، والإيمان به، وبرسله أولى إذا أقام بينة أوجبت على الخلق الإيمان برسله أن لا يجب إجابة الطالب إلى ثانية وثالثة.

ثم قد يكون في تتابع الآيات حكمة، فيتابع تعالى بين الآيات، كما أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بآيات متعددة لعموم دعوته وشمولها، فإن الأدلة كلما كثرت، وتواردت على مدلول واحد كان أوكد وأظهر وأيسر لمعرفة الحق فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لا يعرف الآخر، وقد يبلغ هذا ما لم يبلغ هذا، وقد يرسل الأنبياء بآيات متتابعة، وتقسى قلوب الكفار عن الإيمان لتتابع الآيات آية بعد آية لينتشر ذلك، ويظهر، ويبلغ ذلك قوما آخرين فيكون ذلك سببا لإيمانهم، كما فعل بآيات موسى، وآيات محمد، كما ذكر في التوراة أنه يقسي قلب فرعون لتظهر عجائبه وآياته، وكما صد المكذبين عن الإيمان بمحمد حتى يمانعوه، ويسعوا في معارضته، والقدح في آياته فيظهر بذلك عجزهم عن معارضة القرآن، وغيره من آياته فيكون ذلك من تمام ظهور آياته، وبراهينه، بخلاف ما لو اتبع ابتداء بدون ذلك فإنه قد كان يظن أنهم قادرون على معارضته، وكذلك أيضا يكون في ذلك على يقينه، وصبره، وجهاده، ويقين من آمن به، وصبرهم، وجهادهم ما ينالون به عظيم الدرجات في الدنيا والآخرة.

وقد تقتضي الحكمة أن لا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستئصال كما ذكره الله في كتابه من أن الكفار كانوا يقترحون على الأنبياء آيات غير الآيات التي جاءوا، بها فتارة يجيبهم الله إلى ذلك لما فيه من الحكمة والمصلحة، وتارة لا يجيبهم لما فيه في ذلك من المضرة والمفسدة عند جمهور أهل الملل من المسلمين وغيرهم الذين يقولون: إنه يفعل للحكمة، ومن لم يعلل أفعاله يرد ذلك إلى محض المشيئة، ويقول: اقترن بالمراد والمفسدة عادة، وسنة من الله، وإن لم يفعل هذا لهذا.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ربما طلب تلك الآيات رغبة منه في إيمانهم بها، فيجاب بأن الآيات لا تستلزم الهدى، بل تستلزم إقامة الحجة، وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها، والله تعالى قد يظهر الآيات الكثيرة مع طبعه على قلب الكافر، كما فعل بفرعون، وأبي لهب، وغيرهما لما في ذلك من الحكمة العظيمة كما دل على ذلك القرآن، والتوراة، وغيرهما، وقد بين أنه لا يظهرها لانتفاء الحكمة فيها أو لوجود المفسدة. قال تعالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون} [الأنعام: 109] (109) {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون} [الأنعام: 110] (110) {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون} [الأنعام: 111]

وقال تعالى: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا} [الإسراء: 59]

بين سبحانه أن ما منعه أن يرسل بالآيات إلا تكذيب الأولين بها الذي استحقوا بها الهلاك، فإذا كذب بها هؤلاء استحقوا ما استحقه أولئك من عذاب الاستئصال، وهذا المعنى مذكور في عامة كتب التفسير والحديث، وغيرها من كتب المسلمين، وهو معروف بالأسانيد الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فقد ذكر المفسرون ما رواه أهل التفسير والحديث والمسند وغيرهم من حديث الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحي عنهم الجبال حتى يزرعوا. قال: فقيل له: إن شئت تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم. قال: لا بل أستأني بهم» . فأنزل الله هذه الآية: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون} [الإسراء: 59]

وروى ابن أبي حاتم وغيره عن مالك بن دينار قال: سمعت الحسن البصري في قوله: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون} [الإسراء: 59]

قال: رحمة لكم أيتها الأمة، أنا لو أرسلنا بالآيات فكذبتم بها أصابكم ما أصاب من قبلكم.

وفي الإنجيل: أن اليهود طلبوا من المسيح آية من السماء فقال لهم المسيح: الأمة الفاجرة تطلب آية، ولا تعطى إلا مثل آية نونان

وقد كانت الآيات يأتي بها محمد صلى الله عليه وسلم آية بعد آية فلا يؤمنون بها. قال تعالى: {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين} [الأنعام: 4] (4) {فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون} [الأنعام: 5] (5) {ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين} [الأنعام: 6] (6) {ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين} [الأنعام: 7] (7) {وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون} [الأنعام: 8] (8) {ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون} [الأنعام: 9] (9) {ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون} [الأنعام: 10] (10) {قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين} [الأنعام: 11] أخبر سبحانه بأن الآيات تأتيهم، وما تأتيهم من آية إلا أعرضوا عنها، وأنهم بتكذيبهم الحق سوف يرون صدق ما جاء به الرسول، كما أهلك من قبلهم بذنوبهم التي هي تكذيب الرسول، فإن الله يقول:

{وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون} [القصص: 59] وأخبر بشدة كفرهم بأنه لو أنزل عليهم كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين، وبين سبحانه أنه لو جعل الرسول ملكا لجعله على صورة الرجل إذ كانوا لا يطيقون أن يروا الملائكة في صورهم، وحينئذ فكان اللبس يقع لظنهم أن الرسول بشر لا ملك، وقال تعالى: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا} [الإسراء: 90] (90) {أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا} [الإسراء: 91] (91) {أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا} [الإسراء: 92] (92) {أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا} [الإسراء: 93] (93) {وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا} [الإسراء: 94] (94) {قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا} [الإسراء: 95] (95) وهذه الآيات التي اقترحوها لو أجيبوا بها، ولم يؤمنوا أتاهم عذاب الاستئصال كما تقدم، وأيضا فهي مما لا يصلح الإتيان بها، فإن قولهم " حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا " يقتضي تفجير الينبوع بأرض مكة فيصير واديا ذا زرع، والله من حكمته جعل بيته بواد غير ذي زرع لئلا يكون عنده ما ترغب النفوس فيه من الدنيا فيكون حجهم للدنيا لا لله، وإذا كان له جنة من نخيل وأعناب يفجر الأنهار خلالها تفجيرا كان في هذا من التوسع في الدنيا ما يقتضي نقص درجته، وانخفاض منزلته، وكذلك إذا كان له بيت من زخرف، والزخرف الذهب، وأما إسقاط السماء كسفا فهذا لا يكون إلى يوم القيامة وهو لم يخبرهم أن هذا لا يكون إلا يوم القيامة، فقولهم " كما زعمت " كذب عليه إلا أن يريدوا التمثيل فيكون القياس فاسدا، وأما الإتيان بالله والملائكة قبيلا فهذا لما سأل قوم موسى ما هو دونه أخذتهم الصاعقة. قال تعالى: {وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون} [البقرة: 55] (55) {ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون} [البقرة: 56] وأما إنزال الكتاب فقد قال تعالى:

{يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا} [النساء: 153] (153) {ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا} [النساء: 154] (154) {فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا} [النساء: 155] (155) {وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما} [النساء: 156] (156) {وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا} [النساء: 157] (157) {بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: 158] (158) {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا} [النساء: 159] (159) {فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا} [النساء: 160] (160) {وأخذهم الربا وقد نهوا عنه} [النساء: 161] . . . .

بين سبحانه أن المشركين سألوه إنزال كتاب، وأن أهل الكتاب سألوه ذلك، وبين سبحانه أن الطائفتين لا تؤمن إذا جاءهم ذلك، وإنما سألوه تعنتا فقال عن المشركين: {ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين} [الأنعام: 7]

وذكر عن أهل الكتاب أنهم سألوا موسى أكبر من ذلك، وهو رؤية الله جهرة فقال: {يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا} [النساء: 153] (153) {ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا} [النساء: 154] فهم مع هذا نقضوا الميثاق، وكفروا بآيات الله، وقتلوا النبيين بغير حق إلى أمثال ذلك، وأنه بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله حرم عليهم طيبات أحلت لهم فكان في هذا من الاعتبار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن هذه الأمة المكذبة بك الذين لا يهتدون إذا جاءتهم الآيات المقترحة التي اقترحوها لم يك في مجيئها منفعة لهم بل فيها ما يوجب استحقاقهم عقوبة الاستئصال إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها، وتغليظ الأمر عليهم، فكان أن لا ينزل مثل هذه الآيات الموجبة لعذاب الاستئصال أعظم رحمة وحكمة.

وقد عرض الله على محمد صلى الله عليه وسلم أن يهلك قومه لما كذبوه فقال: بل أستأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا، كما في الصحيحين عن عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت على وجهي، وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم علي، وقال: إن الله قد سمع قول قومك، وما ردوا عليك، وقد بعثني إليك لتأمرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا» أخرجاه.

ولما طلب من المسيح المائدة كانت من الآيات الموجبة لمن كفر بها عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين. قال تعالى: {إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين} [المائدة: 112] (112) {قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين} [المائدة: 113] (113) {قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين} [المائدة: 114] (114) {قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين} [المائدة: 115] وكان قبل نزول التوراة يهلك الله المكذبين للرسل بعذاب الاستئصال عذابا عاجلا يهلك الله به جميع المكذبين كما أهلك قوم نوح، وكما أهلك عادا، وثمود، وأهل مدين، وقوم لوط، وكما أهلك قوم فرعون، وأظهر آيات كثيرة لما أرسل موسى ليبقى ذكرها وخبرها في الأرض، إذ كان بعد نزول التوراة لم يهلك أمة بعذاب الاستئصال، بل قال تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى} [القصص: 43]

بل كان بنو إسرائيل لما يفعلون ما يفعلون من الكفر والمعاصي يعذب بعضهم ويبقى بعضهم، إذ كانوا لم يتفقوا على الكفر، ولهذا لم يزل في الأرض أمة من بني إسرائيل باقية. قال تعالى لما ذكر بني إسرائيل:

{وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون} [الأعراف: 168]

وقد قال - تعالى -: {من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون} [آل عمران: 113] (113) {يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين} [آل عمران: 114]

وكان من حكمته ورحمته سبحانه وتعالى لما أرسل محمدا أن يهلك قومه بعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم، بل عذب بعضهم بأنواع العذاب كما عذب طوائف ممن كذبه بأنواع من العذاب كالمستهزئين الذين قال الله فيهم:

{إنا كفيناك المستهزئين} [الحجر: 95] (95) {الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون} [الحجر: 96] فعذب الله كل واحد بعذاب معروف، وكالذي دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلط عليه كلبا من كلابه، فكان يحترس بقومه فجاءه الأسد وأخذه من بينهم فقتله، وأمثال ذلك، وقد تقدم ذلك، وقال تعالى: {قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا} [التوبة: 52]

فأخبر أنه يعذب الكفار تارة بأيدي عباده المؤمنين بالجهاد، وإقامة الحدود، وتارة بعذاب غير ذلك، فكان يعذبهم بمثل هذه الأسباب مما يوجب إيمان أكثرهم كما جرى لقريش وغيرهم، فإنهم لما كذبوه لو أهلكهم كما أهلك قوم فرعون ومن قبلهم لبادتنا وانقطعت المنفعة به عنهم، ولم يبق لهم ذرية تؤمن به بخلاف ما إذا عذب بعضهم بأنواع من العذاب، ولو بالهزيمة والأسر وقتل بعضهم كما عذبوا يوم بدر فإن في هذا من إذلالهم وقهرهم ما يوجب عجزهم مع بقائهم، والنفوس إذا كانت قادرة على كمال أغراضها فلا تكاد تنصرف عنها، بخلاف ما إذا عجزت عن كمال أغراضها فإن ذلك مما يدعوها إلى التوبة، كما يقال: من العصمة أن لا تقدر. فكان ما وقع بهم تعجيزا وزاجرا وداعيا إلى التوبة، ولهذا آمن عامتهم بعد ذلك، لم يقتل منهم إلا قليل، وهم صناديد الكفر الذين كان أحدهم في هذه الأمة كفرعون في تلك الأمة، كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «عن أبي جهل: " هذا فرعون هذه الأمة» وقد ذكر الله لموسى في التوراة: إني أقسي قلب فرعون فلا يؤمن بك لتظهر آياتي وعجائبي

بين أن في ذلك من الحكمة انتشار آياته الدالة على صدق أنبيائه في الأرض، إذ كان موسى قد أخبر بتكليم الله له، وبكتابة التوراة له، فأظهر الله من الآيات ما يبقي ذكرها في الأرض، وكان في ضمن ذلك من تقسيته قلب فرعون ما أوجب أن أهلكه وقومه أجمعين، وفرعون كان جاحدا للصانع منكرا لربوبيته لا يقر به، فلذلك أتى من الآيات بما يناسب حاله، وأما بنو إسرائيل مع المسيح فكانوا مقرين بالكتاب الأول فلم يحتاجوا إلى مثل ما احتاج إليه موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، لم يكن محتاجا إلى تقرير جنس النبوة إذ كانت الرسل قبله جاءت بما ثبت ذلك، وقومه كانوا مقرين بالصانع، وإنما كانت الحاجة داعية إلى تثبيت نبوته، ومع هذا فأظهر الله على يديه من الآيات مثل آيات من قبله وأعظم، ومع هذا فلم يأت بآيات الاستئصال التي يستحق مكذبها العذاب العام العاجل كما استحقه قوم فرعون وهود، وصالح وشعيب وغيرهم، فلهذا يبين الله في القرآن أن هذه الآيات إذا جاءت لا تنفعهم إذ كانوا يؤمنون بها، ولكن تضرهم إذ كانوا يستحقون عذاب الاستئصال إذا كذبوا حينئذ، ومع وجود المانع وعدم المقتضي لا يصلح الفعل على قول الجمهور القائلين بالحكمة، ومن لم يعلل فلا يطلب سببا ولا حكمة، بل يرد الأمر إلى محض المشيئة. قال تعالى: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون} [الإسراء: 59] وهو يعلم أن قلوب هؤلاء كقلوب أولئك الأولين فيكذبون بها فيستحقون بها ما استحقه أولئك كقوم نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وغيرهم. قال - تعالى -: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} [الذاريات: 52] (52) {أتواصوا به بل هم قوم طاغون} [الذاريات: 53] (53) {فتول عنهم فما أنت بملوم} [الذاريات: 54] (54) {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين} [الذاريات: 55] وقال تعالى: {قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم} [البقرة: 118]

وقال تعالى عن أهل الكتاب: {يضاهئون قول الذين كفروا من قبل} [التوبة: 30] وقال تعالى: {أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر} [القمر: 43] (43) {أم يقولون نحن جميع منتصر} [القمر: 44] (44) {سيهزم الجمع ويولون الدبر} [القمر: 45] (45) {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} [القمر: 46]

ذكر هذا في سورة (اقتربت) التي ذكر فيها انشقاق القمر، وإعراضهم عن الآيات، وقولهم: هذا سحر مستمر، وتكذيبهم، واتباعهم أهواءهم، فقال تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: 1] (1) {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} [القمر: 2] (2) {وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر} [القمر: 3] (3) ثم قال: {ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر} [القمر: 4]

أي من أنباء الغيب، وما أخبر به ما فيه مزدجر أي ما يزجرهم عن الكفر، إذ كان في تلك الإنباءات بيان صدق الرسول، والإنذار لمن كذبه بالعذاب كما عذب المتقدمون، ولهذا يقول عقيب القصة: {فكيف كان عذابي ونذر} [القمر: 16]

أي كيف كان عذابي لمن كذب رسلي وإنذاري بذلك قبل مجيئه يبين صدق قوله الذي أخبرت به الرسل، وعقوبته لمن كذبهم، ثم ذكر قصة المكذبين كنوح، وهود، وصالح، ولوط إلى قوله: {ولقد جاء آل فرعون النذر} [القمر: 41] (41) {كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر} [القمر: 42]

فإن قوم فرعون كذبوا بجميع آيات موسى، وجميع آيات الأنبياء قبله، وكذبوا بالآيات الدالة على وجود الرب وقدرته ومشيئته، إذ كانوا جاحدين للخالق منكرين له فكذبوا بآياته كلها، ثم قال: (أكفاركم) أيتها الأمة التي أرسل محمد إليها {خير من أولئكم} [القمر: 43] الذين كذبوا نوحا، وهودا، وصالحا، ولوطا، وموسى {أم لكم براءة في الزبر} [القمر: 43] (43) {أم يقولون نحن جميع منتصر} [القمر: 44]

وذلك أن كونكم لا تعذبون مثل ما عذبوا إذا كذبتم إما أن يكون لكونكم خيرا منهم فلا تستحقون مثل ما استحقوا أو لكون الله أخبر أنه لا يعذبكم فتكون لكم براءة في الزبر فتعلمون ذلك بخبره، فإن ما يفعله الله تارة يعلم بخبره، وتارة يعلم بسنته وحكمته وعدله فإما أن تكونوا علمتم هذا من هذا الوجه أو من هذا الوجه، هذا إن نظر إلى ما فعل الله الذي لا طاقة للبشر به، وإن نظر إلى قوة الرسول وأتباعه فيقولون: {نحن جميع منتصر} [القمر: 44] فإنهم أكثر وأقوى كما قال تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا} [مريم: 73] (73) {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا} [مريم: 74] أي أموالا ومنظرا، فقال تعالى: {سيهزم الجمع ويولون الدبر} [القمر: 45]

أخبر بهزيمتهم، وهو بمكة في قلة من الأتباع، وضعف منهم، ولا يظن أحد بالعادة المعروفة أن أمره يظهر ويعلو قبل أن يهاجر إلى المدينة، وقبل أن يقاتلهم، وكان كما أخبر فإنهم يوم بدر وغيرها هزم جمعهم، وولوا الأدبار، وتلك سنة الله في المؤمنين والكافرين. قال تعالى: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا} [الفتح: 22] (22) {سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} [الفتح: 23] وحيث ظهر الكفار فإنما ذاك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله، كما قال تعالى: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: 139]

وقال: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم} [آل عمران: 165]

فإذا كان من تمام الحكمة والرحمة أن لا يهلكهم هلاك استئصال كما أهلك المكذبين، وكانت الآيات التي اقترحوها موجبة لعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم كما قال: {أكفاركم خير من أولئكم} [القمر: 43] كان أن لا يأتي بموجب عذاب الاستئصال مع إتيانه سبحانه بما يقيم الحجة ويوضح المحجة أكمل في الحكمة والرحمة، إذ كان ما أتى به من الآيات حصل به كمال الخير، والمنفعة، والهدى، والبيان، والحجة على من كفر، وما امتنع منه دفع من عذاب الاستئصال، والهلاك، والعذاب العام ما أوجب بقاء جمهور الأمة حتى يتوبوا، ويؤمنوا، ويهتدوا، وكان في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الرسل من الحكمة البالغة والمنن السابغة ما لم يكن في رسالة رسول غيره، صلوات الله عليهم أجمعين.

[فصل: كل ما يقال في إثبات النبوة متصل بطبيعة الخبر]

جماع الكلام في النبوة متصل بالكلام في جنس الخبر فإن قول القائل: إني رسول الله إليكم، خبر من الأخبار، وكذلك وصول كلامه وأفعاله وآياته إلينا هو بالأخبار، والخبر تارة يكون مطابقا لمخبره كالصدق المعلوم أنه صدق، وتارة لا يكون مطابقا لمخبره كالكذب المعلوم أنه كذب، وغير المطابق مع التعمد كذب، ومع اعتقاد أنه صدق: إن لم يكن معذورا، كالمفتي بلا اجتهاد يسوغ، والمحدث بلا علم يسمى كاذبا أيضا، كقوله صلى الله عليه وسلم: " كذب أبو السنابل بن بعكك "، وقوله لمن قال: بطل عمل عامر بن الأكوع لما قتل نفسه خطأ: " كذب من قال ذلك، إنه لجاهد مجاهد ".

وقد تكون المطابقة في عناية المتكلم، وقد يكون في إفهام المخاطب إذا كان اللفظ مطابقا لما عناه المتكلم، ولم يطابق إفهام المخاطب، فهذا أيضا قد يسمى كذبا، وقد لا يسمى، ومنه المعاريض، لكن يباح للحاجة وإن لم يحصل به المقصود، بل يكون مأمورا بالسكوت عنه إلا مع البينة، فقد يسمى كاذبا لقوله تعالى: {لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} [النور: 13] ، والمقصود هنا أن الخبر قد يعلم أنه صدق، وقد يعلم أنه كذب، وقد لا يعلم واحد منهما، والعلم بأنه صدق له معنيان:

أحدهما: أن يعلم أنه مطابق لمخبره من غير جهة المخبر كمن أخبرنا بأمور يعلم أنها حق بدون خبره

والثاني: أن يعلم أن المخبر به صادق فيه، وقد يجتمع الأمران بأن يعلم ثبوت ما أخبر به، ويعلم أنه صادق فيه، وقول محمد (إني رسول الله) هو من هذا الباب كما سنبينه إن شاء الله، وكذلك كونه كذبا قد يراد به أنه على خلاف مخبره، وإن كان صاحبه لم يتعمد الكذب.

وقد يعنى به أن قائله يتعمد الكذب، ولهذا كانت الأحاديث المعلوم بطلانها على نوعين: تارة يعلم أن صاحبها تعمد الكذب، وتارة يكون قد غلط، والصحابة لم يعرف فيهم من يتعمد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك جمهور التابعين لم يعرف فيهم من يتعمد الكذب، ولكن طائفة قليلة من الشيعة عرف أنه كان فيها من يتعمد الكذب بخلاف غيرهم من أهل الأهواء كالخوارج، فإنه لم يكن فيهم من يعرف بالكذب، بل يقال: هم من أصدق الناس حديثا، والرجل الفاسق المعروف أنه يكذب لا بد

أن يصدق في بعض الأخبار فلا يكون في الناس من لا يخبر إلا بكذب، ولهذا قال تعالى: {إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا} [الحجرات: 6] وفي القراءة الأخرى: فتثبتوا فأمر بالتبين والتثبت إذا أخبر الفاسق بخبر، ولم يأمر بتكذيبه بمجرد إخباره لأنه قد يصدق أحيانا، فلما أمر سبحانه بالتبين والتثبت في خبر الفاسق دل ذلك على أنه لا يجوز تصديقه بمجرد إخباره، إذ كان فاسقا قد يكذب، ولا يجوز أيضا تكذيبه قبل أن يعرف أنه قد كذب، وإن كان فاسقا، لأن الفاسق قد يصدق، وهذا كما قال تعالى: {يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا} [النساء: 94] وفي القراءة الأخرى (فتثبتوا) {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا} [النساء: 94]

فأمرهم بالتبين والتثبت في الجهاد، وأن لا يقولوا للمجهول حاله: لست مؤمنا، يبتغون عرض الحياة الدنيا، فيكون إخبارهم عن كونه ليس مؤمنا خبرا بلا دليل بل لهوى أنفسهم ليأخذوا ماله، وإن كان ذلك في دار الحرب إذا ألقى السلم، وفي القراءة الأخرى (السلام) فقد يكون مؤمنا يكتم إيمانه كما كنتم أنتم من قبل مؤمنين تكتمون إيمانكم، فإذا ألقى المسلم السلام فذكر أنه مسالم لكم لا محارب فتثبتوا وتبينوا، لا تقتلوه ولا تأخذوا ماله حتى تكشفوا أمره، هل هو صادق أو كاذب؟ .

وهذا خبر يتضمن دعوى له، فإن المدعي مخبر، والمنكر مخبر، والشاهد مخبر، والمقر مخبر، وكما نهاهم عن تكذيب المدعي بلا علم نهاهم عن تصديق المنكر المتهم، ورمي البريء بلا حجة، وتبرئته وتزكيته بلا علم، فقال تعالى:

{إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما} [النساء: 105] (105) {واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما} [النساء: 106] (106) {ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما} [النساء: 107] (107) {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا} [النساء: 108] (108) {ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا} [النساء: 109] (109) {ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما} [النساء: 110] (110) {ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما} [النساء: 111] (111) ومن {يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا} [النساء: 112] (112) {ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما} [النساء: 113] وكذلك نهاهم عن تصديق القاذف الرامي لمن عرف منه الخير فقال: {لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين} [النور: 12]

إلى قوله: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم} [النور: 14] (14) {إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم} [النور: 15] (15) {ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم} [النور: 16] وقد قال تعالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم} [الإسراء: 36]

وهذا نهي عن التكلم بلا علم، وهو عام في جميع أنواع الأخبار، وقد يتناول ما أخبر به الإنسان، وما قد يعتقده بغير الأخبار من الدلائل، والآيات، والعلامات ليس له أن يتكلم بلا علم فلا ينفي شيئا إلا بعلم، ولا يثبته إلا بعلم، ولهذا كان عامة العلماء على أن

النافي للشيء عليه الدليل على ما ينفيه كما أن المثبت للشيء عليه الدليل على ثبوته، وحكي عن بعض الناس أنه قال: النافي ليس عليه دليل، وفرق بعضهم بين العقليات والشرعيات، فأوجبه في العقليات دون الشرعيات، وهؤلاء اشتبه عليهم النافي بالمانع المطالب، فإن من أثبت شيئا فقال له آخر: أنا لا أعلم هذا، ولا أوافقك عليه، ولا أسلمه لك حتى تأتي بالدليل، كان هذا مصيبا، ولم يكن على هذا المانع المطالب بالدليل دليل، وإنما الدليل على المثبت بخلاف من نفى ما أثبته غيره فقال له: قولك خطأ، والصواب في نقيض قولك، ولم يكن هذا كذا، فإن هذا عليه الدليل على نفيه كما على ذلك المثبت الدليل على إثباته، وإذا لم يأت واحد منهما بدليل كان كلاهما بلا حجة.

ولهذا كان من أثبت شيئا أو نفاه، وطلب منه الحجة فلم يأت بها كان منقطعا في المناظرة، وإذا اعترض المعترض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها انقطع المعترض عليه، وثبت قول الأول، وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذ كان الدليل الذي يجب اتباعه هو الدليل السالم عن المعارض المقاوم، ولو أقام دليلا قطعيا فعورض بما لا يفيد القطع كان له أن يقول: ما ذكرته يفيد العلم، والعلم لا يعارضه الظن، والبينات لا تعارض بالشبهات التي هي من جنس كلام السوفسطائية، فهو سبحانه

نهى عن الكلام بلا علم مطلقا، وخص الكلام على الله بقوله تعالى: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: 33]

ونهى عن اتباع خطوات الشيطان، وأخبر أنه يأمر بالقول على الله بلا علم فقال: {يأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين} [البقرة: 168] (168) {إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [البقرة: 169] (169) {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون} [البقرة: 170]

وكذلك ذم من يجادل ويحاج بلا علم بقوله تعالى: {ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير} [الحج: 8]

وقال: {ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد} [الحج: 3] (3) {كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير} [الحج: 4] وقال تعالى: {ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون} [آل عمران: 66]

وقوله تعالى: {إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا} [الحجرات: 6]

يتناول خبر كل فاسق، وإن كان كافرا لا يجوز تكذيبه إلا ببينة كما لا يجوز تصديقه إلا ببينة، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرئون التوراة بالعبرية، ويفسرونها بالعربية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه، وقولوا: {آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون} [العنكبوت: 46] »

وهذا الذي دل عليه الكتاب والسنة من إمساك الإنسان عما لا يعلم انتفاؤه وثبوته هو مأثور عن غيره من الأنبياء، كما جاء عن المسيح عليه السلام أنه قال: الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه.

وعامة عقلاء بني آدم على هذا، ولهذا لا يجوز أن يصدق بخبر منقول عن الرسول أو غيره إلا بدلالة تدل على صدقه، ولا يجوز أن يكذبه إلا بدلالة تدل على كذبه، وعلى هذا العلم والدين، وقد تكلم العلماء وصنفوا كتبا كثيرة في الجرح والتعديل في الرجال والأحاديث، فمن الناس من يعرف بالصدق والضبط، فهذا هو العدل المقبول خبره، ومنهم من يكون صدوقا لكنه قد لا يحفظ ولا يضبط فيقولون في مثل هذا: هو صدوق تكلم فيه من قبل حفظه، ومنهم من عرف بالكذب، وإذا روى الحديث من هو سيئ الحفظ أو من قد يكذب لم يحكموا بذلك الحديث، ولم يثبتوه.

ثم تارة يقوم الدليل على كذبه، وتارة يتوقفون فيه لا يعلمون أصدق هو أم كذب، ومثل هذا لا يعتقد ولا يثبت، ولا يحتج به، كالشاهد الذي شهد للمدعي، وليس بعدل مرضي، أو هو خصم أو متهم ظنين، فهذا إذا ردت شهادته ولم تقبل لم يكن معنى ذلك الحكم بكذبه أو خطئه، بل معنى ذلك أنه لا تقوم به حجة، ولا يحكم به لعدم العلم بصدقه، لا للعلم بكذبه.

والمدعى عليه إذا كان صاحب يد أو ذمته بريئة فهو حجة ترجح جانبه، وقد ضم إليها الشارع اليمين كما في صحيح

البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال دماء قوم وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه» فإذا لم يكن مع المدعي إلا مجرد دعواه فجانب المنكر أقوى من جانبه لأن معه: أن الأصل في الأيدي أنها محقة، والأصل براءة الذمة، ولكن قد يكون المدعي صادقا، ولا يكون له حجة، وهذا كثير جدا، فلا يدفع بمجرد الأصل، بل يحلف المنكر فيكون يمينه مع الأصل بحجة، فيكون إنكار هذا مقابلا لدعوى هذا، كلاهما خبر لم يعلم صدقه فتعارضا، وترجح المنكر بالأصل، فيبقى على ما كان لا يسلم بحجة للمدعي ما ادعاه بمجرد دعواه، ولا تنقطع مطالبته للمدعى عليه لأنه لم يأت بحجة تدفعه، فإذا حلف المنكر كانت يمينه حجة فصلت الخصومة، وقطعت الدعوى.

وإذا لم يأت المنكر باليمين بل نكل عنها، ولا أتى المدعي بحجة، وقف للأمر عند أكثر العلماء، وعند بعضهم: يقضي على المنكر بالنكول فيجعل نكوله إما بدلا لما طلب، وإما إقرارا به، والأكثرون يقولون: بل ترد اليمين على المدعي الطالب الذي يقول: إنه يعلم صدق نفسه فيما ادعاه، وأنه عالم بما ادعاه، فيقال له: احلف وخذ، فإن حلف أخذ، وإلا دفعا. ثم من العلماء من

يرد اليمين في عامة الدعاوي، ومنهم من يحكم بالنكول، وإن كان المنكر يقول: لا أعلم ما ادعى به، وكل من الطائفتين يذكر آثارا عن الصحابة.

والمنقول عن الصحابة يدل على التفصيل، وهو أظهر الأقاويل، وهو أنه: إن كان المنكر هو العالم دون المدعي، كما إذا ظهر في المبيع عيب، وقد بيع بالبراءة، فقال المشتري: أنا لم أعلم به، فإنه هنا يقال له كما قال عثمان بن عفان لابن عمر رضي الله عنهما: احلف أنك بعته وما به داء تعلمه. فإن حلف، وإلا قضي عليه بالنكول كما قضى عثمان على ابن عمر بالنكولوإن كان المدعي يقول إنه يعلم ما ادعى به، كمن ادعى على آخر دينا أو عينا فقال: أنا لا أعلم ما ادعيته، احلف وخذ، فإن لم يحلف لم يعط شيئا.

والبينة في الدعاوي عند أكثر العلماء هي ما يبين الحق، ويظهره، ويوضحه، كالدليل والآية والعلامة، فمتى ترجح جانب أحدهما حلف مثل أن يقيم المدعي شاهدا فإنه يحلف مع شاهده، ويقضي به بشاهد ويمين كما مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا قول أكثر العلماء، ومنهم من يقول: اليمين دائما في جانب المدعى عليه، وكذلك لو كان في دعوى القتل لوث، ولطخ، وشبهة، وهو علامات ترجح جانب المدعي فإن أولياء المقتول يحلفون خمسين يمينا، ويقضى لهم بذلك عند أكثر العلماء كما مضت بذلك السنة.

وكذلك في اللعان إذا حلف الزوج وشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، ووكدها بالخامسة فقد أقام بينة على دعواه، فإن التعنت المرأة، وشهدت أربع شهادات مؤكدة بالخامسة أنه كاذب تعارضت البينتان والشهادتان، فلم يحكم بقول واحد منهما، لا يحكم بأنه قاذف، ولا يحكم بأنها زانية، وإن نكلت فلم تحلف فأكثر العلماء يقولون: يحكم بأنها زانية، وتعذب على ذلك كما دل عليه القرآن، لأنه اجتمع شهادة الزوج، ونكولها عن المعارضة، كما اجتمع في القسامة العلامة والأيمان، وكما اجتمع الشاهد واليمين، وكما اجتمع في جانب المنكر الأصل واليمين.

فهذا ونحوه مما جاءت به الشريعة، وبسطه له موضع آخر.

والمقصود هنا أن الخبر إن قام دليل على صدقه أو كذبه، وإلا بقي مما لم يصدقه، ولم يكذبه، وأهل العلم بالحديث إذا قالوا: هذا الحديث رواه فلان، وهو مجروح، أو ضعيف، أو سيئ الحفظ، أو ممن لم تقبل روايته، ونحو ذلك فهو كقول القائل: هذا الشاهد مجروح أو سيئ الحفظ أو ممن لا تقبل شهادته، وهذا يفيد أنه لا يحكم به، لا يفيد الحكم بأنه كاذب، بل قد يمكن أنه صادق، فلا يقال إنه كاذب إلا بحجة.

وإن قالوا عن الحديث: إنه ضعيف، فهذا مرادهم أي أنه لم يثبت، ولا يحتج به، ولا يجوز الحكم بصدقه، ليس مرادهم أنه بمجرد ذلك يحكم بكذب الناقل، وينفي ما نقله، ويقول: إن هذا لم يكن من غير علم منا بهذا النفي، بل إن قام دليل على انتفاء ما أخبر به حكمنا بذلك، وإلا سكتنا، لم ننفه، ولم نثبته، فهذا أصل يجب معرفته، فإن كثيرا من الناس لا يميز بين ما ينفيه لقيام الدليل على نفيه، وبين ما لم يثبته لعدم دليل إثباته، بل تراهم ما لم يعلموا إثباته فيكونون قد قفوا ما ليس لهم به علم، وقالوا بأفواههم ما ليس لهم به علم، وهذا كثير من أهل الاستدلال والنظر وأهل الإسناد والخبر، فمن الأولين طوائف يطلبون الدليل على ثبوت الشيء، فإذا لم يجدوه نفوه، ومعلوم أن عدم العلم ليس علما بالعدم، وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود إلا إذا كان الطالب ممن يمكنه ذلك، إما بعلم أو ظن غالب، فمن هؤلاء من يقول في صفات الله ما لم يقم دليل قطعي على إثباته، وإلا وجب القطع بنفيه، لأن صفات الله لا تثبت إلا بالقطع، وخالفهم في ذلك جمهور الناس، وقالوا: كما لا يجوز القطع في الإثبات إلا بدليل قطعي، فلا يجوز القطع في النفي إلا بدليل قطعي على النفي فلما لم يجز أن نثبت إلا بعلم فلا ننفي إلا بعلم.

والنافي عليه الدليل كما على المثبت الدليل. قال هؤلاء: هذه المسائل مبناها على القطع، فإنه لا يجوز لنا التكلم فيها بالظن، فإذا لم يقم القاطع قطعنا بالنفي. فقيل لهم: هذا حجة عليكم، فإنكم إذا نفيتم ما لم تعلموا نفيه تكلمتم بالظن، وإذا قطعتم من غير قاطع كنتم قد تكلمتم في القطعيات بلا قاطع، نفيا كان الكلام أو إثباتا، وليس يعلم في الأدلة الشرعية أو العقلية أن كل ما لم يقم دليل سمعي أو عقلي على إثباته فإنه يجب عليكم نفيه، والقطع بنفيه، بل تكلمكم بهذا تكلم بلا علم.

ومن هنا أخطأ كثير من النظار في نفي كثير من صفات الرب، وأحكامه، وأفعاله، حيث لم يعلموا دليلا قطعيا يثبتها فنفوها، وكانت ثابتة في نفس الأمر، وقد يكون عند غيرهم دليل قطعي يثبتها، ولو قدر عدم علم الناس كلهم بها فلله علم لم يعلمه العباد، ولله أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده لم يعلمها الناس، وليس إذا لم يعلم ثبوت الصفة يجب أن يعلم انتفاؤها، بل قد يظن ثبوتها أو انتفاؤها، وقد يشك في ذلك فلا يعلم ولا يظن واحد منهما، والواجب على الإنسان أن يقول لما يعلمه: أعلمه،

ولما يظنه: أظنه، ولما يشك فيه: أشك فيه، والله تعالى لم يوجب على الإنسان أن يقطع بانتفاء شيء إن لم يعلم أنه منتف، فمن قال: وجب علينا القطع بانتفاء فقد غلط.

وهذا بخلاف ما يناقض صفات الإثبات، فإن هذا يجب نفيه عن الله، فقد علم بالأدلة القطعية أن الله موصوف بصفات الكمال المناقضة للنقص، مثل: إنه حي قيوم بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء، وربه، ومليكه، وأنه غني عن كل ما سواه بكل وجه، فكل من قال قولا يناقض هذا علم أنه باطل، كالذين قالوا: إن له شريكا أو ولدا، أو أنه يشفع عنده الشفعاء بغير إذنه، ونحو ذلك مما يناقض الكمال المعلوم له.

وما كان من الأمور مستلزما لوازم لو كان موجودا، فإنه يستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم، كالأمور التي لو كانت موجودة لوجب أن تنقل نقلا متواترا شائعا، فإنه يستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم، كما لو قال قائل: إنه بني بين العراق والشام أو بين الحجاز والشام مدينة أعظم من بغداد والموصل وأصبهان ومصر دورها ثلاثة أيام، ونحو ذلك، فإنه يعلم كذبه، فإن هذا مما تتوفر همم الناس على نقله لو كان موجودا، فإذا لم يستفض هذا وينتشر علم أن المخبر به كاذب.

وكذا لو ادعى مدع أنه يوم الجمعة أو العيد قتل الخطيب، ولم يصل الناس يوم الجمعة، ولم يستفض هذا وينتشر، أو ادعى أنه قتل بعض ملوك الناس، ولم يستفض هذا، ولم ينتشر، أو ادعى أنه بعث نبي بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم أو بعد محمد جاء بكتاب مثل القرآن أو الإنجيل، واتبعه خلق كثير، وكذبه خلق كثير فإنه يعلم كذب هذا، إذ مثل هذا لا بد أن يستفيض وينتشر.

، وكذلك لو ادعى أن قريشا أو غيرهم عارضوا القرآن، وجاءوا بكتاب يماثل القرآن، وأنهم أظهروا ذلك، وأبطلوا به حجة محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا مما يقطع بكذبه، لأن مثل ذلك لو وقع لكان مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، وكذلك لو ادعى

أن محمدا أمر بحج بيت غير البيت العتيق أو أوجب صوم شهر غير شهر رمضان أو أوجب صلاة سادسة وقت الضحى، أو أمر بالأذان والإقامة لغير الصلوات الخمس، أو أنه قال علانية بين الناس لأبي بكر أو العباس أو علي أو غيرهم: هذا هو الخليفة من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا، أو أن عليا دعا إلى نفسه في خلافة الثلاثة، وأمثال هذه الأمور التي لو وقعت لكان لها لوازم، يستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزم، ثم هذه اللوازم منها جلي، ومنها خفي يعرفه الخاصة.

فلهذا كان أهل العلم بأحوال الرسول يقطعون بكذب أحاديث لا يقطع غيرهم بكذبها لعلمهم بلوازم تلك الأحاديث وانتفاء لوازمها، كما يقطع من يعلم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يقاتل في غزوة تبوك، وأن غزوات القتال إنما كانت تسعة مغازي، وأنه لم يغز بنفسه إلى اليمن، ولا العراق، ولا جاوز تبوك بعد النبوة، وأنه لم يحج بعد الهجرة إلا حجة الوداع، ولم يصم إلا تسع رمضانات.

وهكذا يعلمون أن فلانا أخطأ في هذا الحديث على فلان لأنهم قد علموا من وجوه ثابتة أن ذلك الحديث إنما رواه على صورة معينة، فإذا روى غير الثقة ما يناقض ذلك علموا بطلان ذلك، وأنه أخطأ أو تعمد الكذب، مثل ما يعلمون كذب من زاد في قول النبي - صلى الله عليه وسلم: " «لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل» " فزاد بعض الناس فيه: " أو جناح " لما رأى بعض الأمراء عنده حمام، فعلموا أنه كذب تقربا إلى ذلك الأمير.

وكما يعلمون كذب من روى أن مسيلمة وقومه كانوا مؤمنين بالله ورسوله، وإنما قاتلهم الصديق لكونهم لم يعطوا الزكاة، فإنهم قد علموا بالتواتر أن مسيلمة ادعى النبوة، واتبعه قومه على ذلك، وأنه كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حياته يقول: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. فكتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم: " من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب " ويعلمون أنه كان له مخاريق، وأنه ظهر كذبه من وجوه متعددة، وأن أبا بكر الصديق والصحابة قاتلوه على كذبه في دعوى النبوة، وقاتلوا قومه على ردتهم عن الإسلام، واتباعهم نبيا كاذبا لم يقاتلوهم على كونهم لم يؤدوا الزكاة لأبي بكر.

وكذلك الأسود العنسي الذي ادعى النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل في حياته، كل منهما عرف كذبه بتكذيب النبي الصادق والمصدوق لهما، ومما ظهر من دلائل كذبهما، مثل الأخبار الكاذبة التي تناقض النبوة، ومثل الإتيان بقرآن مختلق يعلم من سمعه أنه لم يتكلم الله به، وإنما هو تصنيف الآدميين كما قال أبو بكر الصديق لهم لما تابوا من الردة، وعادوا إلى الإسلام: " أسمعوني قرآن مسيلمة فلما أسمعوه إياه قال: ويحكم أين يذهب بعقولكم، إن هذا كلام لم يخرج من إل " أي لم يخرج من رب، ومثل ما كان يفعله ويأمر به من الفجور والكذب، ومثل اطلاع أخص الناس به على أنه كان يكذب، ويستعين

بمن يختلق له الكذب، ومثل أنه كان يعدهم بأن جبريل أخبره أنه سينصر، فلما حقت الحقائق قال لهم: إنه لا جبريل لكم فقاتلوا عن أحسابكم. إلى أمثال هذه الأمور التي تدل على كذب الكاذب.

فالصدق له دلائل مستلزمة له تدل على الصدق، والكذب له دلائل مستلزمة تدل على الكذب، ولا يجوز الحكم بصدق مخبر، ولا بكذب مخبر إلا بدليل، وما لم يعلم صدقه ولا كذبه، ولا ثبوته ولا انتفاؤه فإنه يجب الإمساك عنه، ويقول القائل: هذا لم أعلمه، ولم يثبت عندي، ولا أجزم به، ولا أحكم به، ولا أستدل به، ولا أحتج به، ولا أبني عليه مذهبي واعتقادي وعملي، ونحو ذلك. لا يقول: هذا أقطع بكذبه وانتفائه، وإن كنت أقطع أن من أثبته تكلم بلا علم، فالقطع بجهل مثبته المعتقد له غير القطع بانتفائه، فمن قطع فيه بلا دليل يوجب القطع قطعنا بجهله وضلاله وخطأه، وإن لم يقطع بانتفاء ما أثبته في نفس الأمر كمن حكم بشهادة مجروح فاسق أمر الله بالتثبت في خبره، فمن حكم وقطع بخبره من غير دليل يدل على صدقه حكمنا بأن هذا متكلم حاكم بلا علم، وإن لم يحكم بكذب الشاهد المخبر، لكن لا يجوز للإنسان أن ينفي علم غيره، وقطع غيره، من غير علم منه بالأسباب التي بها يعلم ويخبر، فإنه كثيرا ما يكون للإنسان دلائل كثيرة تدل على صدق شخص معين، وثبوت أمر معين، وإن كان غيره لا يعرف شيئا من تلك الدلائل.

وهذا أيضا مما يغلط فيه كثير من الناس ينظرون في أنفسهم، ومبلغ علمهم، فإذا لم يجدوا عندهم ما يوجب العلم بذلك الأمر جعلوا غيرهم كذلك من غير علم منهم بانتفاء أسباب العلم عند ذلك الغير، وقد يقيمون حججا ضعيفة على أنه غيرهم لا يعلم ذلك، مثل ما يفعله كثير من الناس بالنظر والاستدلال والاعتبار، ومن لم يساووهم في نظرهم وأدلتهم وقوة أذهانهم لا يعلم ما علموه، وكثير من الناس يعلم بالأخبار والنقل والاستدلال بذلك أمورا كثيرة، ومن لم يشاركهم فيما سمعوه، وفيما عرفوه من أحوال المخبرين والمخبر وكمال معرفتهم بذلك لا يعلم ما علموه.

فلهذا كان لأهل النظر العقلي طرق لا يعرفها أهل الأخبار، ولأهل الأخبار السمعية طرق لا تعرف بمجرد العقول، ولهذا كان لهؤلاء من الطرق الدالة على صدق الرسول، ونبوته، والاستدلال على ذلك، أمور كثيرة لا يعرفها أهل الحديث والأخبار، وعند هؤلاء من الأحاديث المتواترة عندهم، والآيات المستفيضة عندهم ما يعلمون بها صدق الرسول، وإن كان أولئك لا يعرفونها، بل طرق معرفة الصانع وتصديق رسوله قد يكون لكل قوم منها طريق أو طرق لا يعلمها آخرون، وهم مشتركون في الإقرار بالله وبرسوله، ولكل قوم طرق وأدلة غير طرق الآخرين وأدلتهم بل ما تواتر عندهم من أحوال الرسول قد يكون المخبرون

لهؤلاء الذين تواتر عندهم ما أخبروهم به من آياته وشرائعه غير المخبرين لأولئك، كما كان الصحابة المخبرون لأهل الشام بآيات الرسول، وبالقرآن، وشرائع الإسلام غير الصحابة المخبرين لأهل العراق، ولكن خبر هؤلاء يصدق خبر هؤلاء، وإن كان كل من الطائفتين لا يعلم أعيان أولئك الذين أخبروا أولئك

وهكذا سائر العلوم، قد يكون الذي علم هؤلاء الفقه أو النظر أو النحو أو الطب غير الذي علم هؤلاء، وإن اشترك الجميع في جنس الفقه، والنظر، والنحو، والطب، وعلم ما علمه هؤلاء من الأعيان والأنواع، مع أن طريق هؤلاء ليس طريق أولئك، وإن اشتركوا في النوع.

وعامة ما يعلمه الناس بالحس هو من هذا الباب، فإن الإنسان يحس بأحوال نفسه من جوعه، وعطشه، وشبعه، وريه، وحبه، وبغضه، وشهوته، ونفرته، وألمه، ولذته، بل يحس بأعضائه كبطنه، وفرجه، ولا يحس بأحوال غيره، ولكن يشتركان في الجنس العام، فيشتركون في جنس الإحساس بجوعهم، وشبعهم، وقد يشتركون في غير ما يحسونه، كاشتراكهم في رؤية الشمس، والقمر، والهلال، والكواكب.

وقد غلط في مثل هذا طائفة من المتكلمين في المنطق اليوناني، فزعموا أن العلوم التجريبية، والتواترية، والحدسية، إن جعلوها قسما غير التجريبية فإن فيهم من يجعل الحدسية نوعا من التجريبية، ومنهم من يجعلها جنسا آخر، فزعم هؤلاء أن هذه العلوم مختصة لا تقوم بها الحجة على من لم يعلمها دون الحسيات، والوجديات، والعقليات، وليس كذلك، بل كما أن هذه تكون مشتركة تارة، ومختصة أخرى، فكذلك الحسيات فإن كل أهل زمان ومكان يعلمون بالحس من أحوال ذلك المكان والزمان وأحوال أهله ما لا يشركهم فيه غيرهم، وكذلك الوجديات، فإن من ابتلي بالغرائب في الأمور السياسية والبدنية يعلم منها ما لا يشركه فيه غيره.

وكذلك العقليات، فإن من الناس من يكون له أصل يقيس به الفرع فيعلم القدر المشترك الذي هو الحد الأوسط، ويعلم من تعلق الحكم به ما لم يعلمه غيره.

فأجناس العلوم وطرقها منها ما هو مختص، ومنها ما هو مشترك، والمشترك منه ما يشترك فيه جنس بني آدم، ومنه ما يشترك فيه نوع منهم وطائفة، فهذا أصل جامع ينبغي معرفته لمن تكلم في هذا الباب.

[فصل: أحوال وشواهد صدق المخبر وكذبه]

وإذا كان جنس من يخبر قد يكون كاذبا، وقد يكون صادقا، فقد علم أنه ليس كل واحد أخبر بخبر يصدق مطلقا، ولا يكذب مطلقا، فلم يقل أحد من العقلاء أن كل خبر واحد أو خبر كل واحد يكون صدقا أو يفيد العلم، ولا أنه يكون كذبا، بل الناس يعلمون أن خبر الواحد قد يقوم دليل على صدقه فيعلم أنه صدق وإن كان خبر واحد، وقد يقوم الدليل على كذبه فيعلم أنه كذب، وإن أخبر به ألوف إذا كان خبرهم على غير علم منهم بما أخبروا به، أو عن تواطئ منهم على الكذب، مثل إخبار أهل الاعتقادات الباطلة بالباطل الذي يعتقدونه، وأما إذا أخبروا عن علم منهم بما أخبروا به فهؤلاء صادقون في نفس الأمر، ويعلم صدقهم تارة بتوافق أخبارهم من غير مواطأة، ولو كانا اثنين، فإن الاثنين إذا أخبرا بخبر طويل أسنداه إلى علم، وقد علم أنهما لم يتواطأا عليه، ولا هو مما قد يتفق في العادة تماثلهما فيه في الكذب أو الغلط علم أنه صدق.

وقد يعلم صدق الخبر الواحد بأنواع من الدلائل تدل على صدقه، ويعلم صدق خبر الواحد بقرائن تقترن بخبره يعلم بها صدقه، وتلك الدلائل والقرائن قد تكون صفات في المخبر، من علمه، ودينه، وتحريه الصدق، بحيث يعلم قطعا أنه لا يتعمد الكذب، كما يعلم علماء أهل الحديث قطعا أن ابن عمر، وعائشة، وأبا سعيد، وجابر بن عبد الله، وأمثالهم، لم يكونوا يتعمدون الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلا عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأمثالهم، بل يعلمون علما يقينيا أن الثوري، ومالكا، وشعبة، ويحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، والبخاري، وأبا زرعة، وأبا داود، وأمثالهم، لا يتعمدون الكذب في الحديث.

وقد تكون الدلائل صفات في المخبر به مختصة بذلك الخبر أو بنوعه يعلم بها أن ذلك المخبر لا يكذب مثل ذلك الخبر، كحاجب

الأمير إذا قال بحضرته لعسكره: إن الأمير قد أذن لكم في الانصراف، أو أمركم أن تركبوا غدا، أو أمر عليكم فلانا، ونحو ذلك، فإنهم يعلمون أنه لا يتعمد الكذب في مثل هذا وإن لم يكن بحضرته، فكيف إذا كان بحضرته، وإن كانوا قد يكذبونه في غير هذا.

وقد تكون الدلائل سماع من شاركه في العلم بذلك الخبر، وإقراره عليه، فإن العادة كما قد تمنع التواطؤ على الكذب فإنها قد تمنع التواطؤ على الكتمان وإقرار الكذب والسكوت، وعن إنكاره، فما توافرت الهمم والدواعي على ذكره والخبر به يمتنع أن يتواطأ أهل التواتر على كتمانه، كما يمتنع في العادة أن تحدث حادثة عظيمة تتوفر الهمم والدواعي على نقلها في الحج أو الجامع أو العسكر، وحيث توجب العادة نقل الحاضرين لما عاينوه ثم لا ينقل ذلك أحد.

وإقرار الكذب، والسكوت على رده أعظم امتناعا في العادة من الكتمان فإن الإنسان في العادة قد تدعوه نفسه إلى أن يسكت على ما رآه وسمعه فلا يخبر به، ولا تدعوه نفسه إلى أن يكذب عليه، ويخبر عنه بما يعلم أنه كذب عليه فيقره ولا ينكره إذ كانت عادة الناس إلى تكذيب مثل هذا أبلغ من عادتهم بالإخبار به، وكذلك إذا كذب في قصة، وبلغ ذلك من شاهدها، فتوفر الهمم على تكذيب هذا أعظم من توفرها على إخبارهم بما وقع ابتداء، فإذا كانت من القضايا التي يمتنع السكوت عن إظهارها، فالسكوت عن تكذيب الكاذب فيها أشد امتناعا، وقد تكون الدلائل صفات فيه تقترن بخبره، فإن الإنسان قد يرى حمرة وجهه فيميز بين حمرته من الخجل والحياء وبين حمرته من الحمى وزيادة الدم، وبين حمرته من الحمام، وبين حمرته من الغضب، وكذلك يميز بين صفرته من الفزع، والوجل، وبين صفرته من الحزن، والخوف، وبين صفرته من المرض، فكما أن سحنته، ووجهه يعرف بها أحوال بدنه الطبيعية من أمراضه المختلفة حتى إن الأطباء الحذاق يعلمون حال المريض من سحنته فلا يحتاجون مع ذلك إلى نبض وقارورة، وكذلك تعرف أحواله النفسانية هل هو فرح مسرور أو محزون مكروب؟ ويعلم هل هو محب صديق مريد للخير

أو هو مبغض عدو مريد للشر؟ كما قيل:

تحدثني العينان ما القلب كاتم ... والعين تعرف من عيني محدثها

إن كان من حزبها أو من أعاديها ، وكما قيل: ولا خير في الشحناء والنظر الشزر ثم إذا تكلم مع ذلك دل كلامه على أبلغ مما يدل عليه سيما وجهه، كما قال تعالى عن المنافقين: {ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول} [محمد: 30] فأخبر أنه لا بد أن يعرف المنافقين في لحن القول، وأن معرفتهم بالسيما معلقة بالمشيئة، والمنافق الكاذب يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فبين أنه في لحن قوله يعلم أنه كاذب، وقال في حق المؤمنين: {سيماهم في وجوههم من أثر السجود} [الفتح: 29]

وقال في حق الكافر: {عتل بعد ذلك زنيم} [القلم: 13] أي له زنمة من الشر أي علامة يعرف بها.

وقد روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه " ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه "

وقد بسطنا الكلام على هذه في مسألة الإيمان، وبينا أن ما يقوم بالقلب من تصديق، وحب الله ورسوله، وتعظيم، لا بد أن يظهر على الجوارح، وكذلك بالعكس، ولهذا يستدل بانتفاء اللازم الظاهر على انتفاء الملزوم الباطن، كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب» . وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن رآه يعبث في الصلاة: " لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ". ومن هذا الباب قوله تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله} [المجادلة: 22]

وقوله: {ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء} [المائدة: 81] وقوله: {ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة} [التوبة: 46]

فإن الإرادة التي في القلب مع القدرة توجب فعل المراد، والسفر في غزوة بعيدة لا يكون إلا بعدة، ومن هذا الباب أن عثمان قال لعمر لما شاوره في المرأة التي أقرت بالزنا: " إني أراها تستهل به استهلال من لا يعرف أنه حرام " فإنه لما رآها تجهر بما فعلته، وتحكيه من غير اكتراث، تبين له أنها لم تعتقد تحريمه، وأنه يذم، وتعاقب عليه، ووافقه عمر وعلي وغيرهما على ذلك.

والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه، وبهجة وجهه سيما يعرف بها، وكذلك الكاذب الفاجر، وكلما طال عمر الإنسان ظهر هذا الأثر فيه، حتى إن الرجل يكون في صغره جميل الوجه، فإذا كان من أهل الفجور مصرا على ذلك يظهر عليه في آخر عمره من قبح الوجه ما أثره باطنه، وبالعكس.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: إن للحسنة لنورا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسوادا في الوجه، ووهنا في البدن، وبغضة في قلوب الخلق.

وقد يكون الرجل ممن لا يتعمد الكذب لكن يعتقد اعتقادات باطلة كاذبة في الله أو في رسله أو في دينه أو عباده الصالحين، وتكون له زهادة، وعبادة، واجتهاد في ذلك فيؤثر ذلك الكذب الذي ظنه صدقا وتوابعه في باطنه، ويظهر ذلك على وجهه فيعلوه من القترة والسواد ما يناسب حاله، كما قال بعض السلف: لو ادهن صاحب البدعة كل يوم بدهان، إن سواد البدعة لفي وجهه "

وهذه الأمور تظهر يوم القيامة ظهورا تاما. قال تعالى: ويوم القيامة ترى {الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين} [الزمر: 60] (60) {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} [الزمر: 61]

وقال تعالى: {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} [آل عمران: 106] (106) {وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون} [آل عمران: 107] .

قال ابن عباس وغيره: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة.

والمقصود أن ما في القلوب من قصد الصدق والمحبة والبر ونحو ذلك قد يظهر على الوجه حتى يعلم ذلك علما ضروريا من أبلغ العلوم الضرورية، وكذلك ما فيها من قصد الكذب والبغض والفجور وغير ذلك، والإنسان يرافق في سفره من لم يره قط إلا تلك الساعة فلا يلبث إذا رآه مدة، وسمع كلامه أن يعرف هل هو مأمون يطمئن إليه؟ أو ليس كذلك؟ وقد يشتبه عليه في أول الأمر، وربما غلط، لكن العادة الغالبة أنه يتبين ذلك بعد لعامة الناس.

وكذلك الجار يعرف جاره، والمعامل يعرف معامله، ولهذا لما شهد عند عمر بن الخطاب رجل فزكاه آخر قال: هل أنت جاره الأدنى تعرف مساءه وصباحه؟ قال: لا. قال: هل عاملته في الدرهم والدينار الذين تمتحن بهما أمانات الناس؟ قال: لا. قال: هل رافقته في السفر الذي ينكشف فيه أخلاق الناس؟ قال: لا. قال: فلست تعرفه وروي أنه قال: لعلك رأيته يركع ركعات في المسجد. وذلك أن المنافق قد يظهر الصلاة فمن لم يخبره لا يعرف باطن أمره كما قيل:

ذئب تراه مصليا ... فإذا مررت به ركع

يدعو وجل دعائه ما للفريسة لا تقع ... وإذا الفريسة خيلت ذهب التنسك والورع

فإذا كان كذلك فمن نبأه الله واصطفاه للرسالة كان قلبه من أفضل القلوب صدقا وبرا، ومن افترى على الله الكذب كان قلبه من شر القلوب كذبا وفجورا كما قال عبد الله بن مسعود: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لرسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاتخذهم لصحبة نبيه، وإقامة دينه فما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون سيئا فهو عند الله سيئ، وقال عبد الله بن مسعود: من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

وإذا كان من أعظم بل أعظم أهل زمانه صدقا وبرا فإنه لا بد أن يظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه ما يناسب ذلك، كما أن الكاذب الكافر لا بد أن يظهر على وجهه وفلتات لسانه ما يناسب ذلك، وهذا يكون تارة حين إخباره بما يخبر به، وتارة موجودا في غير تلك الحال، فإن الرجل إذا جاء، وقال: إن السلطان أو الأمير أو الحاكم أو الشيخ أو فلانا أرسلني إليكم بكذا، فإنه قد يقترن بنفس إخباره من كيفيته وحاله ما يعلم به أنه صادق أو كاذب، وإن كان معروفا قبل ذلك بالصدق أو الكذب كان ذلك دلالة أخرى، وقد يكون ممن يكذب، ولكن يعرف أنه صادق في ذلك الخبر، دع من يستمر على خبر واحد بضعا وعشرين سنة مع أصناف الناس، واختلاف أحوالهم.

ومما ينبغي أن يعلم أن الناس تختلف أحوالهم في المعرفة، والخبرة، والنظر، والاستدلال في جميع المعارف، فقد يتفطن الإنسان لدلالة لا يتفطن لها غيره، وقد يتبين له ما يخفى على غيره، حتى الأنبياء يتفاضلون كما قال تعالى: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين - ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما} [الأنبياء: 78 - 79] والمقصود أن العلم بصدق الصادق، وكذب الكاذب كغيرهما من المعلومات قد يكون ضروريا، وقد يكون نظريا، وهو ليس من الضروريات الكلية الأولية، كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين، بل من العلم بالأمور المعينة كالعلم بحمرة الخجل، وصفرة الوجل، وعدل العادل، وظلم الظالم، ونحو ذلك مما يعرفه الخبير بذلك علما ضروريا، وإذا كان استدلاليا فالمعرفة بالعلم لا تحصل بمجرد وجود الدليل في نفسه، بل لا بد من معرفة القلب به، والناس متفاوتون في ذلك، والدليل أبدا هو ما استلزم المدلول، فكل ما كان مستلزما للشيء كان دليلا عليه، لكن لا بد من معرفته، ومعرفة أنه مستلزم ثم إذا حصل العلم صار ضروريا، وقد يكون ضروريا بلا واسطة دليل معين، وليس العلم بالمعينات كالعلم بصدق هذا وكذب هذا، مما يحتاج فيه إلى القياس الشمولي، فإن ذلك إنما يفيد بتوسط قضية كلية، والمعينات قد لا يحتاج فيها إلى ذلك، وإن كان لا بد فيها من خبرة بحال ذلك المعين.

وإذا كان القائل: إني رسول الله، إما أن يكون من خيار الناس، وأصدقهم، وأبرهم، وأفضلهم، وإما أن يكون من شرار الناس، وأكذبهم، وأفجرهم، والفرق بين هذين يكون من وجوه كثيرة لا تكاد تنضبط، كل منها يعرف به صدق هذا وكذب هذا، وكانت المعرفة بذلك قد تحصل عند سماع خبر هذا وخبر هذا، ورؤية وجهه، وسماع كلامه، وما يلزم ذلك ويقترن به من بهجة الصدق ونوره، ومن ظلمة الكذب وسواده وقبحه.

يتبين بذلك أن كثيرا من الناس يحصل لهم علم ضروري بأن هذا النبي صادق، وهذا المتنبي كاذب بمثل ذلك، من قبل أن يروا خارقا للعادة.

وقول بعض المتكلمين: ما لم يكن خارقا للعادة، لا اختصاص للنبي به، فلا يدل. فيقال له: لفظ خرق العادة لفظ مجمل، وإن تعين دعوى النبوة صدقا وكذبا ليس هو أمرا معتادا، ولم يقع هذا إلا في أفراد من العالم، وهو أقل بكثير من الإخبار بالمغيبات، فإن هذا أكثر في الوجود من دعوى النبوة، إذ كل نبي يخبر بالمغيبات، وليس كل من أخبر بها كان نبيا، وهؤلاء الذين يقولون هذا يقول أكثرهم أو كثير منهم: إن دعوى النبوة والتحدي والمعجز مجموعها هو المختص بالنبي، وإلا فهم يقولون: إن ما كان

معجزة لنبي جاز أن يظهر على يدي ولي أو ساحر، وإنما يفرق بينهما التحدي وعدم المعارضة. ومنهم من ينكر خرق العادة أن يظهر على يد غير نبي، ومنهم من لا يفرق بين الولي والساحر إلا ببر هذا وفجور هذا، ومنهم من يطرد ذلك في النبي لا سيما متفلسفة اليونان، فإنهم من أجهل الناس بأمر النبوة، إذ كانوا لم يأخذوها من العلم بصدق الأنبياء، وبما جاءوا به من الآيات والبراهين والعلم بصفاتهم، وإنما أخذوها من القياس على المنامات، فجوزوا فيها مثل ما يجوز على النائم من الأحلام والتخيل، وما يصيب أهل المرة السوداء مما يشبه ذلك.

وهذا هو الموجود في عامة أتباع أرسطو، ولكن متأخروهم كابن سينا ضم إلى ذلك تصرفه في هيولي العالم لما بلغه من خوارقهم الفعلية التي لم يكن يعرفها أولئك، إذ كان علم أرسطو هو ما كان يعلمه قومه من اليونان، وهم أمة أولاد يافث لم يكن

فيهم ما في أولاد سام كهود، وصالح، وغيرهما، ثم أولاد إبراهيم الخليل الذي وعده الله أن يجعل في ذريته النبوة والكتاب حتى يكون علم النبوة مشهورا فيهم، وقد جعل الله تعالى من زمن الخليل في ذريته النبوة والكتاب، كما أخبر بذلك في القرآن، وهم لم يكونوا من ذريته، ولا كانوا خبيرين بأحوال ذريته، وقد ذكر طائفة منهم كمحمد بن يوسف العامري، وصاعد بن صاعد الأندلسي أن أساطينهم خمسة ثم أربعة ابندقلس ثم فيثاغورس ثم سقراط ثم أفلاطن قدموا الشام، واستفادوا من بني إسرائيل، ولهذا لم يكن من هؤلاء من قال بقدم العالم بخلاف أرسطو قالوا: فإنه لم يقدم الشام، وذكر هؤلاء كمحمد بن يوسف العامري، وغيره أن أول من لقب بالحكمة لقمان، وأن ابندقلس استفاد منه، ومن أتباع داود عليه السلام - فإنه كان في زمن داود، وإذا كان هذا قول هؤلاء النظار، وأهل الكلام والفلسفة، فمجرد خرق العادة عندهم ليس وحده مستلزما للنبوة حتى يكون وحده دليلا بل لا بد أن ينضم إلى ذلك التحدي وعدم المعارضة.

ولهذا لما اختلف قول طائفة منهم كأبي الحسن وأتباعه: هل يجوز ظهور الخارق على يد الكاذب؟ فقيل: لا يجوز لأنه علم النبوة، فيمتنع أن يتخلف عنه مدلوله كسائر الأدلة، وقيل: بل يجوز، ولكن الله لا يفعله. ثم قيل: لأنه يستلزم عجزه عن تصديق الرسول إذ لا طريق إليه إلا المعجز عندهم، وقيل: بل هو مقدور ممكن، ولكن نحن نعلم اضطرارا أنه لا يفعله مثل كثير مما يمكن في العادة، ونعلم أن الله لا يفعله، وجميع من جمع بين القولين، وقال: مجموع ما يدل على النبوة، وهو الخارق السالم عن المعارض يمتنع أن يكون لغير نبي بخلاف جنس الخارق، فقيل له: هذا الامتناع إما أن يكون عاديا، وإما أن يكون لاستلزامه العجز عن تصديق النبي، وذلك ممتنع فإذا كان ممتنعا لاستلزامه العجز عن تصديق النبي، وذلك ممتنع فإذا كان ممتنعا لاستلزامه أمرا ممتنعا، وإذا كان انفلات العادة ليس عندك ممتنعا فلا بد لك من ذلك الجواب، وهو القول بأنا نعلم ضرورة أن ذلك لم يكن، ثم إذا علمت أن هذا علم ضروري، وأن العلم بدلالتها على الصدق أمر ضروري كالمثل الذي ضربته في إرسال الملك رسولا، وقول رسوله: إن كنت صادقا فغير عادتك بقيامك ثم قعودك، ففعل ذلك عقب سؤال الرسول، فإن ذلك يوجب العلم الضروري بصدق الرسول.

وقيل لك: الملك تعلم عادته، ويعلم أنه فعل ذلك للتصديق، والرب عندك لم يخلق شيئا لشيء. فقلت: بل يخلق شيئا مقارنا لشيء كالعاديات، وهذا منها. فقيل لك: العادات قد تكررت. فقلت: قد نعلم ذلك بلا تكرر، وجعلت ذلك من باب الدلالة الوضعية كدلالة اللفظ على قصد المتكلم، وقلت: قد نعلم قصده اضطرارا من غير سبق مواضعة، وهذه العلوم الضرورية التي ذكرت أنه يعلم بها صدق الرسول، وإن كانت حقا فجمهور الناس يقولون: إنك لم تقر بلوازمها من كونه يفعل لأجل كذا، ويقولون: القول بأنه خلق المعجزة لقصد التصديق مع القول بأنه لا يخلق شيئا لأجل شيء تناقضا. فقلت: لا يشترط في العلم الضروري العلم بأنه يفعل كذا لأجل كذا. فقيل لك: هب أنه كذلك لكن لا يحصل العلم الضروري مع العلم بما يناقضه.

والمقصود أن ما يذكره هؤلاء وأمثالهم من النظار، بل وعامة الناس هم فيما يثبتونه من العلم والحقائق المعلومة أسد منهم وأصوب فيما ينفونه، فإن الإنسان لما يثبته أعلم منه بما ينفيه، وشهادته على الإثبات أقوى من شهادته على النفي، وإن كان النفي قد يكون معلوما لكن غلط الناس فيما ينفونه ويكذبون به أكثر من غلطهم فيما يثبتونه ويصدقون به، ولهذا قال تعالى: {بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله} [يونس: 39]

ولهذا تجد من سلك طريقا من الطرق إما في إثبات العلم بالصانع، وإما في العلم بالنبوة أو العلم بالمعاد أو غير ذلك، واحد يقول: لا طريق إلا هذا الطريق، يخطئ في النفي أكثر من خطئه في الإثبات، ومنهم هؤلاء فإنهم قد ينفون من العلم والطرق ما يعلمه غيرهم بالاضطرار، ويثبتون ما يقولون إنه معلوم بالاضطرار، وقد يكون غيرهم أصوب فيما يثبته منهم فيما ينفونه، بل وفيما يثبتونه.

ولهذا الذين اتفقوا على أنه لا طريق إلا المعجزات تنوعوا في وجه دلالتها فيثبت هؤلاء وجها يستدلون به، وينفون طريق غيرهم، وبالعكس، فإذا قالوا ما سوى الخارق للعادة ليس يختص بالنبي فلا يدل على نبوته. قيل لهم: الدليل هو الذي يكون مستلزما للمدلول يلزم من تحققه تحقق المدلول، ولفظ الخارق للعادة فيه إجمال كما تقدم، وحينئذ فنفس إنباء الله للنبي، واصطفائه لرسالته، وإقداره على التلقي من الملك هو من خوارق العادات، وذلك من المعجزات التي أعجز الله الخلق أن يفعلوه، وهو مختص بالأنبياء، وهذا الوصف أجل وأعظم قدرا من غيره من الخوارق، والمستلزم لهذا الخارق لا يكون إلا خارقا، وهو الدليل، إذ يلزم من ثبوت الملزوم ثبوت اللازم، ومن انتفاء اللازم انتفاء الملزوم، والمعتاد الذي يوجد بدون النبوة لا يكون دليلا.

وأما ما لا يوجد إلا وجدت النبوة فهو دليل، فقد تبين أن كل ما يدل على صدق الرسول، وهو خارق للعادة يكون آية ونبوة على صدقه، وأما ما كان خارقا للعادة، ولا يستلزم النبوة فليس يكون دليلا، وقد يكون الشيء معتادا بدون النبوة، ومع النبوة يكون خرقا للعادة بحيث يكون وجوده مع النبوة خرق للعادة بخلاف وجوده مجردا عنها لأن النبوة خرق للعادة، فلا يكون مستلزما لها إلا خارق للعادة.

فقول القائل: لا يعلم صدقه إلا بالمعجزة، وهو الخارق للعادة، إن أراد به المعنى العام، وهو ما يستلزم صدقه بطل تخصيصه ذلك بما يخلقه منفصلا عنه من الآيات، وإن أراد بذلك نوعا مخصوصا مع اشتراك الجميع في الدلالة ظهر بطلان نفيه.

وأما ما يوجد بدونها كما يوجد معها كالأمور التي تكون للصادق في دعوى النبوة، والكاذب في دعوى النبوة، فهذه لا تدل، وما يظهره الله على يد النبي من الأنواع التي بها يعرف صدقه، ليس فيها شيء يكون للكاذب.

بل الكاذب لا يكون له من الأدلة إلا ما يستلزم كذبه فكل ما يدل على كذب الكاذب لا يدل على صدق الصادق، وبالعكس، فإن دليل الكذب مستلزم له، ودليل الصدق مستلزم له، وهما ضدان يمتنع أن يكون مدعي النبوة نبيا صادقا، ومتنبئا كاذبا، والضدان لا يجتمعان، فيمتنع أن يكون شيء واحد يدل على الضدين، وهذه القاعدة ينتفع بها في مواضع:

منها: أن كثيرا من الناس إذا رأوا الكاذب، وسمعوا كلامه، تبين لهم كذبه تارة بعلم ضروري، وتارة بعلم استدلالي، وتارة بظن قوي، وكذلك النبي الصادق إذا رأوه وسمعوا كلامه فقد تبين لهم صدقه بعلم ضروري أو نظري، وقد يكون أولا بظن قوي ثم يقوى الظن حتى يصير يقينيا كما في العلوم بالأخبار المتواترة والتجارب، فإن خبر الأول يفيد نوعا من الظن، ثم يقوى بخبر الثاني والثالث حتى يصير يقينا.

وهذا الطريق سلكها طوائف من الناس، وممن نبه على ذلك القاضي عياض قال القاضي عياض: إذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمنا من جميل أثره، وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله، وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله، لم يمتر في صحة نبوته، وصدق دعوته قال: " وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه، والإيمان به. فروينا عن الترمذي، وابن قانع، وغيرهما بأسانيدهم أن عبد الله بن سلام قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. رواه غير واحد كعبد الوهاب الثقفي، ومحمد بن جعفر، وابن أبي عدي، ويحيى بن سعيد عن عوف بن أبي جميلة الأعرابي عن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام. وعن أبي رمثة البلوي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ومعي لي ابن لي فأريته فلما رأيته قلت: هذا نبي الله.

وروى مسلم في صحيحه، وغيره عن ابن عباس أن ضمادا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقى من هذا الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي. قال: فلقيه فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء الله، فهل لك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد. فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات. قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت بمثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر. هات يدك أبايعك على الإسلام. فبايعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعلى قومك. قال: وعلى قومي. . . . .» الحديث.

وقال جامع بن شداد: كان منا رجل يقال له طارق فأخبر أنه «رأى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقال: هل معكم شيء تبيعونه؟ قلنا: هذا البعير، قال: بكم؟ قلنا: بكذا وكذا وسقا من تمر. فأخذ بخطامه وسار إلى المدينة فقلنا: بعنا رجلا لا ندري من

هو، ومعنا ظعينة فقالت: أنا ضامنة لثمن البعير، رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر، لا يخيس بكم. فأصبحنا فجاء رجل بتمر فقال: أنا رسول رسول الله إليكم يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر وتكتالوا حتى تستوفوا، ففعلنا» .

وفي خبر الجلندي ملك غسان لما بلغه رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام فقال الجلندي: والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يضجر، ويفي بالعهد، وينجز بالموعود، وأشهد أنه نبي.

وقال نفطويه في قوله تعالى:{يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار} [النور: 35]

هو مثل ضربه الله لنبيه، يقول: يكاد منظره يدل على نبوته، وإن لم يتل قرآنا، كما قال ابن رواحة:

لو لم يكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تنبيك بالخبر

قلت: وإيمان خديجة، وأبو بكر، وغيرهما من السابقين الأولين كان قبل انشقاق القمر، وقبل إخباره بالغيوب، وقبل تحديه بالقرآن، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذي هو نفسه آية مستلزمة لصدقه، ونفس كلامه وإخباره بأني رسول الله مع ما يعرف من أحواله مستلزم لصدقه إلى غير ذلك من آيات الصدق، وبراهينه.

بل خديجة قالت له: كلا، والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف،وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق فكانت عارفة بأحواله التي تستلزم نفي كذبه وفجوره وتلاعب الشيطان به.

وأبو بكر كان من أعقل الناس، وأخيرهم، وكان معظما في قريش لعلمه، وإحسانه، وعقله، فلما تبين له حاله علم علما ضروريا أنه نبي صادق، وكان أكمل أهل الأرض يقينا وعلما، وحالا وكذلك هرقل ملك النصارى لما أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام سأل عن عشرة خصال كما في الصحيحين عن ابن عباس قال: حدثني أبو سفيان بن حرب من فيه إلى في، قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل قال: وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقال هرقل: هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم

قال: فدعيت في نفر من قريش فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه

فقال: أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

قال أبو سفيان: فقلت: أنا. فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي فدعا بترجمانه فقال:

قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه.

قال: فقال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب لكذبت عليه.

ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟

قال: قلت: هو فينا ذو حسب.

قال: فهل كان من آبائه ملك؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: ومن اتبعه؟ أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قلت: لا بل يزيدون

قال: فهل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه، سخطة له؟

قال: قلت: لا

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قال: قلت: يكون الحرب بيننا وبينه سجالا، يصيب منا، ونصيب منه.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه على مدة ما ندري ما هو صانع فيها. قال: فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟

قال: قلت: لا

قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذا الرسل تبعث في أحساب قومها، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك عن أتباعه: أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ويكذب على الله، وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه فيكون الحرب بينكم وبينه سجالا، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة، وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله قلت: رجل ائتم بقول قيل قبله.

ثم قال: بم يأمركم؟

قلت: يأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصلة، والعفاف.

قال: إن يكن ما تقول فيه حقا إنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي. ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه فإذا فيه:

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و:

{قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: 64]

وفي رواية: فماذا يأمركم به؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وقال: فهذه صفة نبي.

وما استدل به ملك النصارى هرقل من العلم بصفاته هو استدلال على عينه فإن الناس في النبوة على درجات: منهم من يحتاج إلى أن يعلم جنس النبوة فيصدق بجنس الرسل من البشر لا يكذب بالجنس كما كذب بذلك من كذب من قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، ولهذا يقول تعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين} [الشعراء: 105] {كذبت عاد المرسلين} [الشعراء: 123] {كذبت ثمود المرسلين} [الشعراء: 141]

لأن تكذيبهم لم يكن لشخص واحد بل كانوا مكذبين لجنس الرسل، وهؤلاء يخاطبهم الله في السور المكية كقوله تعالى:

{وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس} [الأنعام: 91]

فاحتج بإنزال كتاب موسى لما تواتر في خبره من الآيات الباهرات الدالة على صدقه، والإنجيل تبع للتوراة، ثم قال:

{وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه} [الأنعام: 92] لما قام من الآيات الدالة على نزوله، ولهذا يذكر سبحانه في السور المكية من تثبيت أمر الرسل، وآياتهم، وبراهينهم، وحسن عاقبتهم، ومن ضلال مخالفيهم، وجهلهم، وغيهم، وخذلانهم، وسوء عاقبتهم ما فيه عبرة.

ومن الناس من يقر بالرسل في الجملة لكن لا يؤمن بما يجب من حقيقة إرسالهم كالملاحدة وأهل البدع الذين يعظمون الأنبياء مع اعتقادهم في الباطن ما يناقض بعض ما جاءوا به لشبهات انعقدت في قلوبهم ظنوها علوما عقلية، وهي مناقضة لما أخبرت به الرسل فيحتاجون إلى أن يوفقوا بينهما، وهؤلاء يشبهون الذين قال الله فيهم:

{ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا} [النساء: 60] (60) {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا} [النساء: 61] (61) {فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا} [النساء: 62] (62) {أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا} [النساء: 63] وقد أخبر الله أنه جعل للأنبياء من يعاديهم من الإنس والجن فقال تعالى:{وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون} [الأنعام: 112] (112) {ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون} [الأنعام: 113] (113) {أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين} [الأنعام: 114] (114) {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم} [الأنعام: 115] وقال تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا} [الفرقان: 31]

وهؤلاء الذين عندهم ما يناقض بعض ما أخبرت به الرسل هم ثلاثة أصناف:

أهل التخييل من الملاحدة المتفلسفة والباطنية الذين يقولون: إن الرسل أخبروا من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر بما يخالف الحق في نفس الأمر ليخيلوا إلى الجمهور ما ينتفعون به، ويعدون هذا من فضائل الرسل، وقد بسط الرد على هؤلاء في غير موضع.

وأهل التحريف والتأويل: الذين يؤولون كلامهم على ما يخالف مرادهم، ويزعمون أنهم أرادوا ذلك المعنى مع أنه ليس في كلامهم ما يدل على إرادة ذلك المعنى، بل كلامهم يدل على إرادة خلافه.

وأهل التجهيل: الذين يقولون ذلك الكلام ليس له معنى يعلمه الرسول، ولا غيره، وإنما يعلمه الله وحده، وهذان القولان يقول بكل منها طوائف معظمين للرسل، وقد تبين فسادهما في غير هذا الموضع.

وأما من قال: إن الرسل وغيرهم يعلمون المعنى الذي بينه الله لهم بكلامه، ولكن استأثر الله بعلم أمر آخر لا يعلمونه كما استأثر بعلم غيب الساعة، فهذا قول السلف والأئمة، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن الكلام في النبوات تارة في جنسها، وتارة في شخص النبي المعين، وهرقل ملك الروم لم يكن محتاجا إلى الإيمان بجنس النبوات فإنه كان من أهل الكتاب، وأهل الكتاب يقرون بجنس النبوة فإنهم يقرون نبوة نوح، والخليل، وموسى، وأنبياء بني إسرائيل، والنصارى تقر مع ذلك بالمسيح، والإنجيل.

والذين يحتاجون إلى معرفة النبي المعين نوعان:

نوع عرفوا أنه يبعث نبي، وقد يعرفون بعض نعوته فيحتاجون أن يعرفوا عينه، وهرقل وأمثاله من أهل الكتاب كانوا من هذا النوع، وكانوا يعلمون أن نبيا سيبعث، وإنما كانت حاجتهم أن يعرفوا هل هو هذا النبي المذكور أم غيره، فيكون ما يحتاجون إليه من دلائل صدقه أيسر ما يحتاج إليه من لا يؤمن بالرسل أو لا يعرف أن نبيا سيبعث، ومن كان يعلم جنس الرسل، ولا يدري هل يبعث نبي أم لا يحتاج إلى تعلم أن هذا المعين هل هو من جنس الأنبياء الصادقين أو من جنس المتنبئين الكاذبين،

وهذا يعرف بما يخصه من آيات صدقه، وباعتبار ما جاء به الأنبياء قبله، فإن أصول ذلك مما لا يمكن اختلاف الأنبياء فيه، وهي الأمور التي لا تقبل النسخ كالإخبار عن الله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فهذا مما لا يمكن اختلاف الأنبياء فيه، إذ كان كل ما يخبر به النبي فهو صدق، والأخبار الصادقة لا تتناقض ولا تقبل النسخ، ولكن قد يكون بعض الأنبياء أعلم ببعض ذلك من بعض، وفي كلام بعضهم من الأخبار ببعض ذلك ما ليس في كلام بعض.

وما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم هو أكمل وأكثر مما أخبر به موسى، والمسيح صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد يظن بعض الغالطين تناقض بعض أخبار الأنبياء كما يظن بعض الغالطين معارضة العقل لما أخبروا به، وهذا ممتنع، بل لا بد أن يكون المعارض العقلي خطأ، ليس بمعقول صحيح، أو السمعي لم يثبت عنهم لفظه أو دلالته، وكذلك الأخبار لا بد أن يكون أحد الخبرين كذبا أو غير دال على مناقضة الخبر الآخر، وأما الأصول الجامعة كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبر الوالدين، والصدق، والعدل، وتحريم الأجناس الأربعة، وهي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق، والإشراك بالله وأن يقال عليه غير الحق، وذلك مثل ما ذكره في سورة الأنعام والأعراف وبني إسرائيل.

وقد تنازع الناس في مثل هذا: هل يمكن نسخه وتنوع الشرائع به؟ على قولين: فمن جوز أن يأمر الله بكل شيء وينهى عن كل شيء رد ذلك إلى محض المشيئة لا إلى صفات تقتضي الأمر بهذا دون هذا، فإنهم جوزوا دخول النسخ في هذا، وتنوع الشرائع فيه، كما يقوله جهم بن صفوان، والأشعري، ومن وافقه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد، وإن كانوا يقولون إنه لم يقع فيه نسخ.

وأما جمهور الناس من السلف والخلف فإنهم لا يجوزون دخول النسخ في هذا، ولا تنوع الشرائع فيه، ولهذا كان دين الأنبياء واحدا كما قال تعالى: {يأأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم} [المؤمنون: 51] (51) {وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} [المؤمنون: 52]

قال تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه} [الشورى: 13]

وقال تعالى: {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون} [الروم: 30]

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد» .

وهذا مبسوط في موضع آخر.

نهاية المجلد الثالث

الفهرس العام للكتب

الكتاب الصفحة

نبذةعن حياة ابن تيمية.................................2- 3

باب السيرة والصحابة:

قاعدة تتضمن ذكر ملابس (النبي صلى الله عليه)

وسلم وسلاحه ودوابه – القرمانية..................4- 26

حقوق آل البيت..27- 51

الصارم المسلول على شاتم الرسول..................52- 235

فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه................236- 250

رسالة في فضل الخلفاء الراشدين......................251- 254

رأس الحسين.. .255- 272

قاعدة مختصرة في وجوب طاعة الله ورسوله

وولاة الأمور..273- 280

باب النبوات والمتنوعات

النبوات.(المجلد الأول والثاني).......................281- 767

تحقيق القول في مسألةعيسى كلمة الله

والقرآن كلام الله..768- 774

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

(المجلد الأول)..775- 1022

المجلد الثاني..1023- 1208

المجلد الثالث..1209- 1334